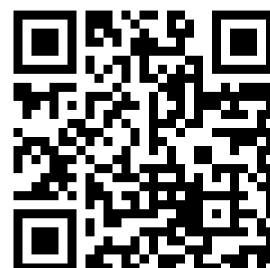






مروج الأخيار

في

تراجم الابرار

تأليف

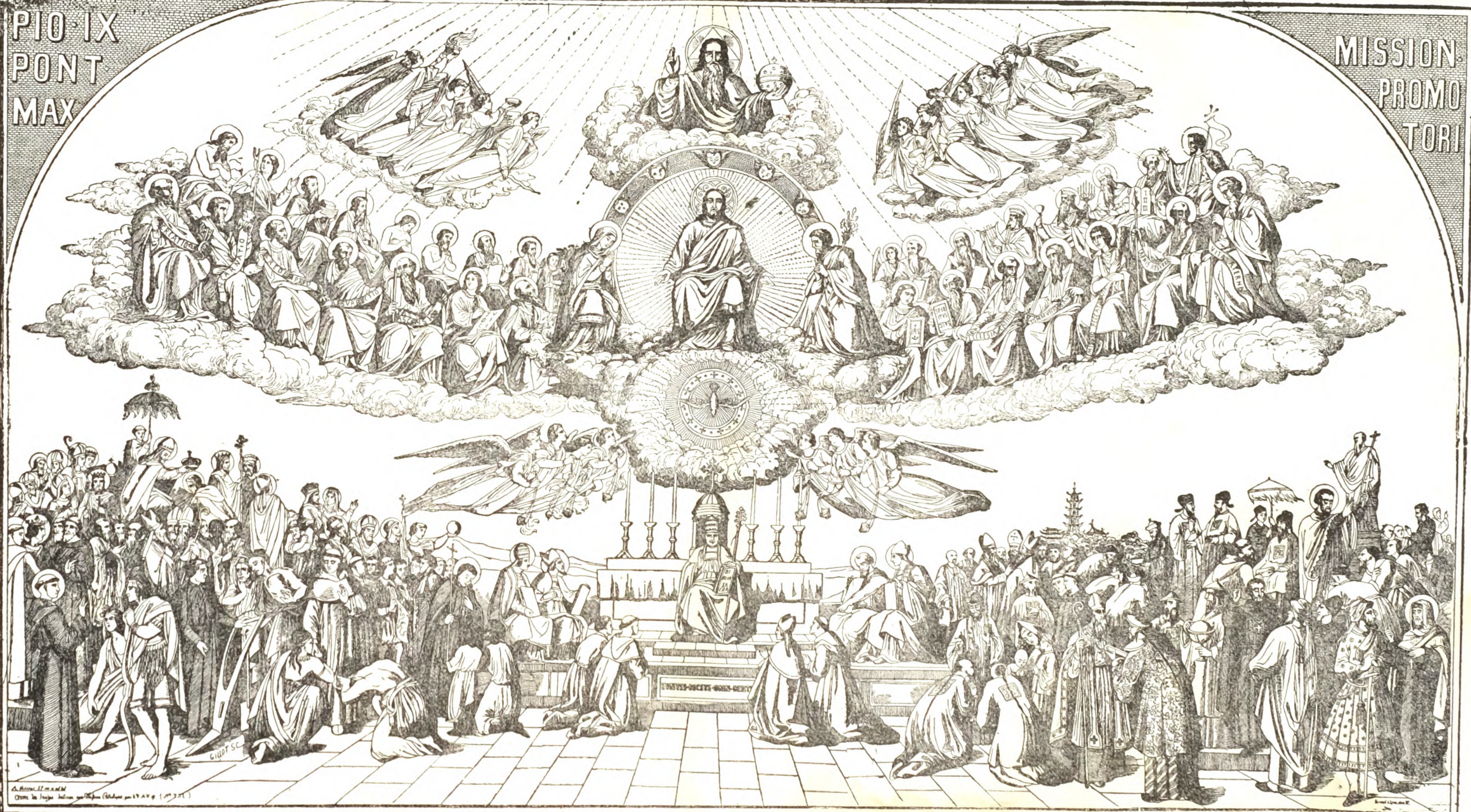
الاب الجليل بطرس فرماج اليسوعي

قد ضبط روايتهُ وتمَّمهُ احد الآباء اليسوعيين مقابلاً على كتاب البُلَّانديستيين



طبعة ثانية مع ملحق يحتوي تراجم بعض القديسين

بمطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين في بيروت
سنة ١٨٨٠


PIO·IX
PONT
MAX
MISSION·
PROMO
TORI

خطبة المترجم

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد

الحمد لله الذي أفاد بأوليائهِ العالمين . وجعلهم قدوةً للمتّقين . فهامَ الناس بان يقتفوا آثارهم من سالف الامد . لما يروى عنهم من الرغبة عن زخارف الدنيا وكراهة العيش الرغد . ولا نكير فان كثيرين منهم قد اراقوا الدماء في سبيل الله وفازوا بنعيم الابد . وتكللوا باكليل المجد السرمد . حمدًا يُؤَهلنا لنيل شفاعتهم لدى باري الانام . وينظمنا في سلك عِقدهم بعد انفصالنا من هذه الاجسام . باستحقاق من فاح عرف طهرها اطيب من نفحات الخزام . مريم العذراء البرية من كل وصمة اصلية وفعلية عليها السلام

اما بعد فيقول الفقير اليهِ تعالى الاب بطرس فرماج الراهب اليسوعي انني لما كنت عالمًا بان تلاوة قصص الآباء القديسين . وأخبار الشهداء والمعترفين . قد فعلت منذ القديم في نفوس الانام افعالاً عجيبة فائقة . وصيَّرتهم يأْتون ببواهر الاعمال لما سلكوا من المناهج الغريبة الرائقة . وقد اجتذبت نفوسًا كثيرة عن طرق الرذيلة والضلال ومالت بهم الى السلوك في محجة الكمال . وهي من اعظم المهاميز التي تسوق المرء الى منهج الحياة الروحية . والتمسك بالسيرة القشفة والطرق النسكية . على ان الانسان بالاطلاع عليها يتاكد ان الذين يساوونهُ في ضعف الجبلّة البشرية قد استطاع بعضهم ان يحتمل أعذبةً مبرِّحةً وآلامًا ناكية على اختلافهم في الجنس والعمر والمراتب دنية اوعالية واخرون عذَّبوا نفوسهم وحرَّموا عليها كل لذة ولو محللة عند الله رغبةً في رضا الباري تعالى ونيل السعادة السرمدية فلا يبقى عند ذلك لتقاعدهِ عن نهج طريقة الفضيلة اعتذار . ولا لعار تكاسلهِ في سلوكها استتار . حركتني يد الغيرة الابوية . والمحبة الكاملة المسيحية . الى ان أُترجم من اللغة الفرنسوية الى اللغة العربية كتابًا جليلاً يحتوي على اخبار الشهداء والقديسين على مدار السنة الذين اتفقوا على عبادة الله وجادوا بنفوسهم على اختلافهم في الاماكن والالسنة . لعلمي بان هذا الكتاب قد تعب بجمعهِ ودقّق في رواية اخبارهِ الابوان الباران بطرس ريبادينيرا ويوحنا كروزي سليلا الرهبانية اليسوعية المتلالئة بسنا العلم والعمل في سماء بيعة الله الكاثوليكية وقد سمَّيتهُ مُروج الاخيار في تراجم الابرار لانهُ روضة تطيب بنفحاتها النفوس . فجاء والحمد لله اسمًا على مسمى فعليك ان تداب مطالعتهُ وتعكف على تدبُّرهِ فانهُ كالمرآة يريك ما انت عليهِ من الغفلة عما يجب لرب البريّة من المفروض مع الهيام بحضرتهِ الالهية . فان فيهِ لبلسمًا يشفي جراح الخطية . وكان الفراغ من ترجمتهِ في مدينة حلب المحمية سنة تسع وثلثين وسبعمائة والف مسيحية . نسالهُ تعالى ان يمنّ على مطالعيهِ باجلّ النعم بشفاعة من رُويت اخبارهم فيهِ . انهُ خير مأمول واكرم مسؤول



المقدمة

ما احلى كلام المرتّل حيث يقول عن الله عزّ وجلّ عجيب هو الله في قديسيهِ (مزمور ٦٧ : ٣٦) فانهُ ولئن كان تعالى عجيبًا حقًّا في الاشياء الارضية وفي جميع اعمال يديهِ (مزمور ٨ : ١ الى ١٠) فقدرتهُ وحكمتهُ وعنايته وجودته تتلألأُ بزيادة في نفوس القديسين وفضائلهم. فحقًّا ان الله عجيب في النحل ودود القز والفراش وغير ذلك من المخلوقات الدنية التي فيها من عظمتهِ وحكمتهِ ما لا يتناهى لكنَّ هذا كلا شيء بالنسبة الى ما يظهرهُ من كنوزهِ في كرة الارض المنتظمة انتظامًا عجيبًا المركبة من اشياء كثيرة مختلفة تبهر العقل كثرة واتقانًا وبهاء بل كل ذلك في حكم المعدوم امام عزة الله الذي صنع هذا العمل العجيب ليحرّك قلوبنا بمشاهدة هذه الاشياء المنظورة ويرقّينا الى تأمل الاشياء الغير المنظورة والكمالات الالهية. على انهُ من المحقق ان جودة الله سبحانهُ لا تظهر في شيء من هذه الاشياء كلها ولا فيها بجملتها بمقدار ما تظهر في واحدةٍ من نفوس القديسين. وذلك لا لأنهُ لا يوجد في اعمال الطبيعة ما يشبه اعمال النعمة الفائقة الطبيعة فقط. بل لان الاعمال الطبيعية انما هي شبيهة بآثر الله وظلهِ. اما الانسان القديس فانهُ هو صورتهُ ومثالهُ تعالى وهيكلهُ وصديقهُ وابنهُ الذي يسرّ بهِ ويتنعّم معهُ. غير ان طهارة الانسان ليست هي شيئًا قد اتخذهُ من ذاتهِ او اكتسبهُ بتعبهِ بل قد امتلكهُ بالدم الاقدس الذي هراقهُ سيدنا يسوع المسيح ليصيّرهُ قديسًا. ومن ثم لا البرّ المشحون زهورًا واثمارًا وحيوانات ولا الابحار المالوّة حيتانًا واسماكًا ولا سماء الجو المتزينة بطيورها المختلفة ولا النار مع رعودها وبروقها وصواعقها ولا السماء المتلألئة بالشمس والقمر والكواكب والنجوم تستطيع ان تخبرنا عن مجد الله وعَظَمتهِ بمقدار ما تخبرنا عن ذلك نفس قديس واحد قد جعلها الله تعالى عرشًا لمزتهِ. وعانقها كعروس عزيزة. انهُ لا يقدر لسان بشري ان يصف ولا يستطيع عقل مَلَك ان يفهم افراط محبة ابن الله لبارّ يحيا جسدهُ على الارض وتستوطن روحهُ السماء ولا نكير فنفس ذلك المرء تمجد الله افضل مما تمجدهُ الخلائق الهيوليّة كلها واقول اخيرًا ان هذه النفس تقبل كنوزهُ تعالى. وهي صورة جودتهِ وبقية كمالاتهِ

فان كان الله عجيبًا الى الغاية في كلٍّ من قديسيهِ فكيف لا يكون عجيبًا فيهم بجملتهم. وكم ترى يكون مقدار المجد الواصل لاسمهِ القدوس من جميع القديسين الذين زهوا في كنيستهِ من انشاء العالم الى الان. وما هو المجد الذي يتخذهُ من قبل مقدّس القديسين سيدنا يسوع المسيح الاله التام والانسان التام. ومن قبل ملكة الملئكة والبشر والدتهِ الكلية الطوبى ومن القديس يوحنا المعمدان سابقهِ ومن جماعة الرسل الذين بتعليم انجيلهِ والتبشير بهِ انتصروا على العالم كلهِ ومن جيش الشهداء المقتدر المظفَّر. ومن زمرة الآباء المعلمين الجزيلي الحكمة. والمعترفين الفضلاء والمتوحدين والرهبان الذين عاشوا في اجسادٍ بالية كملئكة في السماء وعذارى لا يُحصى عددهنَّ حنينَ رؤسهنَّ للسيوف الصوارم حفظًا للطهارة. ومن قبل الوف من المتزوجين الذين راعوا في سيرتهم شريعة الله واتخذوها قياسًا مطردًا. واما عدد القديسين فيكاد ان يكون زهاء عدد نجوم السماء وقطار الامطار وحبات الرمل الذي على شاطئ البحر. فما هم الا الله رب بيت هذا العالم وما هم الا رعية هذا الراعي الصالح وشعب هذا الملك المطلق وما هم الا الجيش المظفر الذي لا نقدر ان نقوى عليهِ ابواب الجحيم وقواتهُ. فهم مدرسة الحكمة الحقيقية الالهية وزينة السماء وفخر الارض وعون الابرار وقدوة الخطاة

كما ان نور الشمس يخفي ضوء كل شارق كذلك يضمحل بهاء الخلائق الهيولية كلها تجاه بهاء نفوس القديسين فهم يمجدون السيد المسيح اكثر من سائر الخلق

ولما كان ذلك وجب ان تروى وتكتب اخبار القديسين لاجل ما يحصل من المجد لمن صيرهم قديسين وزينهم بمواهبهِ واغناهم بنعمهِ. وذلك فضلاً عما يحصل من الخير للكنيسة المنتصرة والمحاربة

على انهُ اولاً يقتضي الصواب ان نكرم ونعبد الذين اكرموا ربنا وعبدوهُ ونرغب في تمجيد الذين اجتهدوا دائمًا في تمجيد الهنا. ومن حيث ان الله سبحانهُ يكرم الذين يكرمونهُ كما قال السيد المسيح (يوحنا ١٢ : ٢٦) يجب اذن ان نكرم من يرغب الله في تكريمهِ. ومن ثم قال المرتل ان نفسي يا رب تكرم

اصفيائك بكل قوتها (مزمور ١٣٨ : ١٧) وفي مزمور اخر يحثنا على اكرامهم بقولهِ سبحوا الله في قديسيهِ . ثانياً ما يجب علينا ويفيدنا جدًّا ان نطلب عونًا من اخوتنا الذين قد فازوا بالظفر ونالوا اكليل الانتصار لنستطيع بصلواتهم وشفاعتهم ان نصل الى مينا الخلاص ونشترك في سعادتهم ومجدهم . ثالثًا الكنيسة الكاثوليكية تجتني مجدًا عظيمًا من اذاعة انتصارات بنيها . لانهُ ان كان شخص واحد لهُ استطاعة ان يشرّف نسلهُ فماذا ترى ان يكون الشرف الواصل لام المؤمنين من قبل بنيها المظفرين الذين لا يحصى عددهم . رابعًا ثم ان هذا هو ترس منيع قدام الامم والاراطقة الذين يضطهدوننا لان الدليل على اثبات ضلالهم هو ايراد امثلة القديسين بحيث انَّ التعليم الذي يصير بالمثال اقوى واشد تاثيرًا من الذي يصير بالكلام . والحال ان اعمال القديسين تضاد تعليم الارطقة . ونجد في اعمالهم من النموذجات ما يقنع الضالين ويوضح اصعب مشكلات الكتاب المقدس . ولهذا قال القديس ايرونيموس ان سير القديسين هي تفسير الكتب المقدسة . وقال القديس اغُستينوس ان الكتاب المقدس لا يقتصر على ايراد وصايا الله بل يصف سير القديسين ايضاً حتى اذا ما شككنا في معانيها نفهمها مما فعل القديسون

فلنستعمل اذن اخبارهم كمثال او مرآة موضوعة امام اعيننا لنرى فيها رذائلنا وادراننا فننزعها . ونتامل فضائل القديسين لننتبه من غفلتنا ونجتهد في الاقتداء بهم . فمن اجل هذه الاسباب كلها اجتهدت الكنيسة منذ انتشائها في ان تعيد لذكر القديسين بتقوى جزيلة ورغبت في كتابة اخبارهم واخص افعالهم مع ذكر مولدهم ووفاتهم . ويثبت ذلك ما ذكر القديس دَمَسوس في سيرة القديس اكليمنضوس تلميذ هامة الرسل . وهو ان هذا البابا اقام في رومية سبعة كتبة ليحرروا افعال الشهداء . وما يذكرهُ ايضًا من ان القديس الشهيد فَبْيانوس الحبر الروماني زاد على السبعة الكتبة المتقدم ذكرهم سبعة دياكونيين وسبعة ابودياكونيين لكي يُحرّر كل شيء باوفر تدقيق وامانة . وقد كانوا يقدمون للبابا كل ما يكتبونهُ وهو كان يفحص عنهُ ويثبتهُ ثم يُحفظ في خزانة تواريخ الكنيسة الرومانية . وكذلك كان يفعل القديس انتيروس الحبر الروماني الشهيد . وما كان هذا الاهتمام مقصورًا على الكنيسة الرومانية التي هي ام الكنائس كلها بل كان لغيرها

من الكنائس التي اقتدت بها ككنيسة ازمير في اسيا وكنيسة ليون وفيانًا في فرنسا التي حررت اخبار القديسين الذين ماتوا في اقاليمها شهادة للانجيل المقدس . وهذه العادة الحميدة يشهد بها القديس كبريانوس والقديس ديونيسيوس الاسكندري . لذلك كانت تُقرأ اخبار الشهداء في بعض الكنائس . وقد لاحظ هذا الامر الكردينال بارونيوس واثبتهُ بما ذكر في المجمع القرطاجني في الفصل الثالث عشر وبرسالة البابا ادريانوس الى الملك كارلوس الكبير وايضًا بما ذكرهُ القديس غريغوريوس مطران طور بفرنسا . واذا انعمنا النظر جيدًا فاننا نجد الذين حرروا اخبار القديسين هم ابرُّ الآباء وانفعهم قدوةً الا ترى ان الذين دونوها في الكنيسة الشرقية هم القديسون اثناسيوس وباسيليوس واخوهُ غريغوريوس نيصص وغريغوريوس النزينزي والذهبي الفم والدمشقي وتاودوريتوس وميتَفْرَسْتُس . وفي الكنيسة الغربية القديسون امبروسيوس وايرونيموس واغُستينوس وغريغوريوس الكبير وبولينوس وسُلبيسيوس وغريغوريوس مطران طور وبيدا وبرنردوس وبوناونتورا وكثيرون غيرهم

ولذلك قد احمدت الكنيسة الكاثوليكية كتابة اخبار القديسين لما في قراءتها من الفوائد الجمة . ومن اجل الصعوبة الموجودة في هذا التاليف . وكثيرًا ما اعتبرت كَتَبتها لان في تلك الاخبار مشكلات لا بدَّ من ايضاحها . واشياء للريب فيها محلٌّ لا مناص من ايراد براهين تدل على صحتها ذلك فضلاً عمَّا فيها من القضايا المتناقضة التي لا بد من توفيقها والا كان الكلام مختلاً مفضيًا الى الاذى . على انهُ قد يوجد فيها من الاشياء ما لا اصل لهُ وقد قبلهُ الجمهور على ذلك كل القبول حتى انهُ لا يمكن رفضهُ من غير غيظ الناس وشكهم وسخطهم كما يتعذَّر اثباتهُ بدون انثلام الحق فان المؤرخين لم يقفوا على حقيقة تلك الامور لانهُ قد تقادم عهدها ومحت الاضطهادات القاسية ذكرها وخصوصًا أَن الاراطقة قد اضافوا الى اخبار القديسين كثيرًا من القصص الكاذبة على ان بعض الكاثوليكيين قد فعلوا مثل ذلك اما لاغراض عنَّت لهم او لعبادة غير قانونية . ومن ثم اضطرَّ الباباوات الى ان يحذفوا اشياء من اخبار القديسين كما فعل البابا جلاسيوس في المجمع الروماني

وماذا اقول في صعوبة اختيار هذه الاخبار وايرادها

بكلام وجيز يليق بها وفي الصدق والتعبد الذي يحتاج اليه كاتب هذه الاخبار لتميل بمن يقراها الى التقوى وتحركهُ الى محبة الله والاقتداء باثار القديسين وزد على ذلك ان من اخبارهم ما يكون طويلاً بحيث لو ذكرت كلها لأفضت الى الملل وان اراد المؤرخ ان يلخصها اوشك ان يغفل ايراد العجائب وما يدهش العقل على ذكر الفضائل وما يعمر النفس

وان هناك محذورًا يجب على المؤلف ان يحترس منهُ وهو التعب الذي يحملهُ على نقل ما يعثر عليهِ في الكتب من غير بحث ولا تنقيب . واقول اخيرًا انهُ قد يتفق ان ذلك المؤلف يدخل في اثناء كلامهِ ما ليس في شيء من هذا المضمون المقدس ولعمري ان لم يُنر الله عقل المؤرخ بنورهِ ويضرم قلبهُ بحرارة تقواهُ ويرشد قلمهُ بروحهِ ليكوننَّ التاليف مستهجنًا ويجدنَّ المؤمن بعد تلاوتهِ ذلك الخبر قلبهُ باردًا خاويًا من كل فائدة حتى كانهُ لم يقرأْ خبر قديس بل خبر ملك عالمي او فيلسوف وثني

ومن ذلك يتبين ما في تاليف اخبار القديسين من مزيد الصعوبة . وانهُ ليس بعجب ان لم يكن هذا العمل بالغًا كمالهُ . اما انا وان كنت عاجزًا عن بلوغ هذا الكمال فاني ابتدئ بما يفوق طاقتي . وذلك لاجل السبب الاتي ذكرهُ . وهو اني لما رايت اني قد شختُ وطعنت في سني ووَهت قواي عزمت حينئذٍ على ترك القلم وعلى التصنيف لكي امارس رياضات الخلوة واستعد للموت ولرد حساب حياتي للديان المرهوب الذي سوف يدين الجميع بمُقتضى العدل . ولما كنت راهبًا الجأتني الطاعة الى مخالفة ما اهوى . على ان روسائي اوردوا لي من الادلة ما يشير الى اني اغنم من الله بكتابة ما ينفع لخلاص الناس اتم الرضوان . ومن ثم امروني بتحرير اخبار القديسين فانني وائن كنت اعتذرت بشيخوختي وضعف قوتي فلم يقبلوا اعتذاري وهكذا اضطررتُ الى ان اضع عنقي تحت نير الطاعة وقد اكتسبت قوةً من هذه الطاعة لاني حسبتها كعربون العون الالهي . وسألت الله الذي وضع على منكبي مثل هذا الوقر الفائق قوتي ان يقويني بنعمتهِ على احتمالهِ

ذلك وان كثيرين من انقياء الرهبان والعالمين طلبوا مني هذا الكتاب بمزيد الالحاح لرجاء نفع ما روحي لكنما اقوى حجة جذبت قلبي وحركتني هي ان القديس اغناطيوس منشئ رهبانيتنا قد تاب الى الله تعالى وزهد في العالم بواسطة قراءة اخبار القديسين . كما ان كثيرين من اعيان رومية رجالاً ونساء حسبما ذكر ماري ايرونيموس لما قرأُوا ترجمة القديس انطونيوس التي كتبها القديس اثناسيوس هجروا العالم ورغبوا عن اباطيلهِ وحَملوا صليب سيدنا يسوع المسيح في الرهبانية . وكذلك القديس يوحنا كولومبين منشئ رهبانية في بلاد ايطاليا تعبد لله تعبدًا كليًا لاطلاعهِ على سيرة القديسة مريم المصرية . فهذه كلها كمهاميز روحية ساقت عزيمتي ونشطت فتوري وحركت سكوني . وانا ارجو من الله ان يبارك على من يتلو كتابي هذا ويهديهِ طريق الخلاص . ولا ريب اني ساجني نفعًا وافرًا من طاعتي لصوت الله . وتاليف هذا الكتاب لمجرَّد مجدهِ عزَّ وجل واكرام القديسين وشرف الكنيسة الكاثوليكية ونفع المؤمنين واخزاء الاراطقة وترويض نفسي حتى اذا ادركني الموت اكون مارسًا عملاً صالحًا . وارجو من القديسين ان يسعفوني بالشفاعة لكي تُغفر آثامي . واذ فرغنا من الكلام عن دواعي هذا التاليف وفوائدهِ وجب الشروع في المقصود واننا نَكِل لرحمة الله التوفيق الى سواء السبيل بشفاعتهم فيما نسأل سيدنا يسوع المسيح ان يجعلهُ موجبًا للفوز بجنات النعيم



القديس يوحنا القديس متى



القديس مرقس القديس لوفا

سيدنا يسوع المسيح

مقالة

في حياة سيدنا يسوع المسيح وآلامهِ وموتهِ وصعودهِ الى السماء وتشتمل على تسعة عشر فصلاً

الفصل الاول

في تجسد سيدنا يسوع المسيح

انهُ لما حان الوقت السعيد الذي سماهُ الرسول ملء الزمن (غلاطية ٤ : ٤) وهو ما سبقت ارادتهُ تعالى ان يتجسد فيهِ ليفي عن خطايا الانسان رام من فرط محبتهِ ان يهب الانسان ذاتهُ الجليلة فوق ما اولاهُ من الاشياء المخلوقة. فاصطفى لتتميم هذا السر الذي لا تدركهُ الالباب مريم بنت يواكيم وحنة عذراء عبرانية من سبط يهوذا لكي تحبل بهِ تعالى بقوة الروح القدس. فتلد الكلمة الازلي بغير انثلام عذريتها. ولذلك تكون والدة الله الحقيقية. وهو عز وجل يكون ابنها الحقيقي. وقد انتخبها الله لانها كانت اطهر واقدس من جميع النساء اللواتي كنَّ في ذلك الزمان واللاءي كنَّ قبلاً وسوف يكنَّ بعدًا. وقد زينها بكل الفضائل والمناقب التي وجب ولاق ان تكون متصفة بها والدة الله. وانما رام تقدس اسمهُ ان تكون من ذُرية داود ونسل ابرهيم. لاجل وعدهِ لها انهُ منها يتلد المسيح مخلص العالم. ثم انهُ تعالى اراد ان تكون من ذرية الآباء القديسين الاقدمين والانبياء والملوك والقضاة ومدبري الشعب الاسرائيلي. ليجتمع فيها دم الملوك والكهنة لانها كانت معدَّة لولادة الحبر الاعظم وملك السماء والارض وقد احب الله ايضًا ان تكون قبل حبلها متزوجة برجل قديس اسمهُ يوسف من سبطها. ليكون لها من يخدمها ويرافقها في سفرها. ولئلا يشك الناس في طهارتها عندما ينظرون بتولاً حبلى. ويكون ذلك حجة اليهود لان يطردوا ابنها لو خيل لهم انهُ نغلٌ وقد راعى في ذلك كرامة والدتهِ لانهُ وان كان قد حُبل بهِ تعالى بقوة الروح القدس فمع ذلك قد ارتضى بان يُدعى ابن يوسف حذرًا من ان يُشان شان امهِ المباركة

وانهُ جلَّت حكمتهُ كان آتيًا ليعلمنا الاتضاع واحتقار العالم وكم يكون الفقر اكثر اعتبارًا في السماء من الغنى. فاراد ان امهُ الحقيقية ويوسف المحسوب اباهُ يكونان فقيرين لكيلا يضجر احد من كونهِ فقيرًا ولكي يعرف العالم انهُ اتى لاجل خلاص الخطاة. ولئلا يفتخر احد بشرف نسلهِ سمح ان يكون من اجدادهِ وجداتهِ خطاة وخاطئات

ولكي يكمل هذا الامر العظيم ارسل الله تعالى الى العذرا المجيدة الملَك جبرائيل ليخبرها بهذا السر وانهُ يتم فيها بدون فقد زنبق بكارتها كما سنوضح ذلك في عيد البشارة

وقد تم ما قالهُ الملَك للعذراء المغبوطة. اي انها حبلت بابن الله بقوة الروح الكلي قدسهُ الذي ظللها لكي تستطيع ان تحتمل اشعة شمس العدل والنار الالهية الآتية لاضرام العالم

الفصل الثاني

في زمان ميلاد سيدنا يسوع المسيح

فمن بعدما ان تجسد ابن الله في احشاء مريم العذراء الطاهرة وحملتهُ تعالى تسعة اشهر. وزارت نسيبتها القديسة اليصابات. وقدست بسلامها ابنها القديس يوحنا المعمدان. اتفق حينئذٍ ان اوغسطس قيصر ارسل امرًا قيصريًا مضمونهُ ان كلاًّ يكتتب في مدينتهِ او قريتهِ ولان يوسف خطيب العذراء كان مولودًا في بيت لحم. التزم بان يمضي من الناصرة الى بيت لحم مع خطيبتهِ. ولا جرمَ ان يسوع الصالح الذي كان آتيًا ليصلح العالم الذي قد هلك بالمخالفة

ابتدأ ان يطيع من حشى والدتهِ. واراد ان ابويهِ يخضعان لامر ملك ارضيّ. اما بيت لحم فكانت قرية قريبة من اورشليم شريفة من اجل ان الملك داود الذي هو رمز المسيح كان قد وُلد هناك الا انها ازدادت شرفًا بولادة ابن الله تعالى فيها. وانما آثر السيد المسيح لميلادهِ هذهِ القرية الحقيرة حسب نبوة ميخا ليكون لنا تعالى مثال الانضاع والازدراء بما يعتبرهُ بنو آدم من اباطيل هذا العالم

وقد اتى عز وجل في الزمن الانسب لقصد حكمتهِ. لان السبب الذي رام من اجلهِ ان تمرّ دهور كثيرة منذ سقوط آدم في الخطية هو ان يتحقق البشر ضرورة الدواء. وان الداء قد اعضل القوة الطبيعية فيطلبوا بالحاح هذا الطبيب الالهي. وقد اخّر ابن الله مجيئهُ لاجل سبب آخر. وهو ان وعدهُ بمجيئهِ ومناداة الانبياء بهِ وكرور هذا الزمن المديد واظهار رموزهِ تعالى في اشخاص الآباء الاقدمين وانتظار الامم اياهُ زمانًا طويلاً تصيّر ذلك المجيء اكثر قبولاً واشهى منالاً

ولانهُ ايضًا كان آتيًا ليصالح البشر والله بحسب كونهِ ملكًا حليمًا ووسيطًا بين الفريقين اراد ان يكون ذلك والسلام سائد في كل الارض بحيث ان المملكة الرومانية على مزيد اتساعها كانت وقتئذٍ بيد ملك واحد اوغسطس الذي بعد ان ظفر باعدائهِ كافة فاز بالسلام والراحة العمومية فاغلق ابواب هيكل يانُس وان ذلك كان علامةً عند الرومانيين على انهُ لا حرب ولا اضطراب ولا بلبلة في المملكة كلها وانما السيد لهُ المجد فعل ذلك لكي يسهل في مدة ذلك السلم التبشير بالانجيل وتنتشر كلمة الله العليا وتمتد في كل اقاليم المسكونة

وقد كان يجب ان يظهر الله تعالى عند مجيئهِ جلال عزتهِ بالمعجزات لكي ينتبه الناس بها ويعرفوا مجيء الههم ومخلصهم ويستعدّوا لقبولهِ والايمان بهِ. ومن ثم قد ذكر شيشرون الوثني ونيكيفوروس وسويداس المؤرخان المسيحيان عن صنم افولّو الشائع خبرهُ في المسكونة كلها الذي بهِ كان الشيطان يُضل الناس باجوبتهِ. انهُ كان قبل مجيء المخلص سُدّ ثمهُ ولم يكن يُجيب احدًا بكلمة. ولكي يعلم الناس سبب صمتهِ أذن لهُ الله في ان يجيب اوغُسطس الملك بعد ان بنى لهُ هيكلاً وقدّم لهُ ذبيحةً. لانهُ لما سالهُ الملك اجابهُ الصنم قائلاً انني لا اقدر ان اجيبك لان طفلاً عبرانيًا هو اله امرني بالسكوت والرجوع الى جهنم. وهكذا افحم ابن الله بقية الاصنام المحسوبين الهة في ذلك الزمان. وقد صنف بلوتركس الفيلسوف الوثني كتابًا يفحص فيهِ عن سبب صمت الآلهة

واوغسطس نفسهُ مع انهُ كان متسلطًا على مملكة عظيمة لم يرد ان يدعى ملكًا وقد ذكر نيكيفوروس وسويداس انهُ اي اوغسطس لما رجع الى رومية بعد انتصاراتهِ بنى هناك مذبحًا وسماهُ مذبح ابن الله وهو المكان الذي (كما ذكر بارونيوس المؤرخ) بنى فيهِ فيما بعد قسطنطين الكبير هيكلاً لوالدة الله يدعى الان مذبح السماء

فعند ظهور هذهِ العجائب وكثير غيرها لم نذكرهُ حذرَ الاطالة. وفي زمان هذا الصلح العجيب ظهر مخلص العالم ومعلمهُ الالهي. فعلّم البشر بمثالهِ رفض اللذات الارضية. والرغبة في اماتة الجسد. على انهُ تعالى اختار لولادتهِ أوان البرد والشتاء وقد قلت انهُ انتخب هذا الاوان الموءلم لانهُ كان رب كل الازمنة. ومن حين الحبل بهِ كان متصفًا بكل الحكمة والقدرة اللتين يمتلكهما الان في السماء. فاختار اذًا شهر كانون الاول الذي هو زمن البرد الشديد فاتت والدتهُ مع خطيبها العفيف بتعب جزيل وفقر كلي الى بيت لحم ولم يجدا فيها منزلاً ولا احدًا يقبلهما. لان القرية كانت صغيرة مملوة من الناس الذين اتوا الى هناك ليكتتبوا بحسب امر اوغُسطس الملك فاضطرّا للخروج منها فدخلا مغارة قريبة من القرية وهي البلاط الذي دخلت اليهِ ملكة السماء. وما تلك الا مغارة البهائم رام ان يولد فيها من يحمل بثلث اصابع كرة الارض كلها. ويستقرّ فيها من لا تسعهُ البسيطة والسماء. وانما رتب الامر هكذا لكي يتضع الانسان ويعلم متيقنًا انهُ غريب ومنفي في هذا الوادي وادي الدموع. وان ابهى منازل الارض وافخرها ليس بالنسبة الى المنازل الابدية التي خُلق لاجلها الا منزلاً حقيرًا ومُراحًا للحيوانات

الفصل الثالث

في ميلاد سيدنا يسوع المسيح

لما انتصف الليل وكانت البرايا كلها ساكنة (حكمة ١٨ : ١٤) والجميع ينتظرون المشتهى من الامم. شعرت حينئذٍ البتول النقية بانهُ قد قربت ساعة ولادتها الكلية الطهر. فخاضت في تامل هذا السر العظيم والتهب قلبها بمحبة ابنها راغبة بشوق

لابوصف في ان تشاهد حبيب نفسها. ثم خرّت ساجدة للآب الازلي وطلبت منهُ هذا الامر وهو انهُ من حيث قد نظر الى مذلتها واحب ان تكون والدة ابنهِ الوحيد لينعم عليها ايضاً بان تلدهُ وتقدمهُ للعالم. وحينما كان عقلها وقلبها مختطفين بهذه العواطف المقدسة ولدت من دون مخاض وما انثلمت طهارتها فرأت امام عينيها ابنها الحبيب ابهى من الشمس واما ما حصل لها عليها السلام من الفرح والدهشة عند ما رأت على هذه الحال الحقيرة من كانت توقن انهُ رب السماء فيعجز اللسان عن ايرادهِ والعقل عن فهمهِ. فمن بعد ان سجدت لهُ كأنهُ الهها واكرمتهُ كأنهُ ربها وعانقتهُ وضمتهُ الى صدرها كأنهُ ابنها. اخذت وقتئذٍ تدرجهُ بلفائف فقرية. لانهُ كان زمن الشتاء ونصف الليل ومن ثم كان البرد شديداً. فوضعت الطفل الالهي في مذود هناك ولئلا يضرهُ البرد القارس اضجعتهُ على قليل من تبن وجدتهُ في المغارة وادنت ابنها من انفاس ثور وحمار كانا في تلك المغارة. وذلك ليتمّ ما نطق بهِ اشعيا النبي قائلاً عرف الثور قانيهُ والحمار مذود مولاه (اشعيا ١ : ٣) فليخجلن اولاً الانسان لكونهِ لا يعرف ولا يخدم من قد تعرفهُ البهائم وتخدمهُ

وقد ولد سيدنا يسوع المسيح على حسبما سطر في سنكسار الكنيسة الرومانية في سنة تسع وتسعين وخمسة الاف بعد تكوين العالم. وسبع وخمسين وتسعمائة والفين بعد الطوفان. وخمس عشرة سنة والفين بعد مولد ابرهيم. وعشر سنين وخمسمائة والف بعد خروج بني اسرائيل من مصر. ففي تلك الساعة السعيدة التي وُلد فيها ابن الله تهللت سكان السماء. فخرج الملئكة وسجدوا لهُ معترفين انهُ ربهم وسوف يملأُ الكراسي التي سقطت منها الارواح الخبيثة. وعند ذلك تراءى ملك للرعاة الذين كانوا يسهرون ليحرسوا مراعيهم وبشرهم بميلاد مخلص العالم. ودلهم على المكان الذي وُلد فيهِ بعلامات يعرفونهُ بها فقام الرعاة حالاً ومضوا مسرعين وفرحين الى الاصطبل حيث وُلد السيد. فوجدوهُ تعالى وسجدوا لهُ ثم انطلقوا واخبروا الناس عما وجدوا ورأوا

ثم انهُ في ذلك الزمان لاحت ايضاً نجمة في المشرق تشير الى ان نجمة يعقوب التي كان تنبأ عنها بلعام قد اشرقت. (عدد ٢٤ : ١٧) وذلك لتهدي المجوس بالنجمة المنظورة الرمزية الى طلب النجمة الاخرى المرموز اليها كما سنقرر ذلك فيما بعد اي في عيد المجوس. وقد دبر الله الامر هكذا حتى ان الذي شاء ان يولد من اجل الجميع يظهر وتعرفهُ الناس كافةً. اليهود والامم والسوقة والملوك والفقراء والاغنياء الاقارب والاباعد. وهكذا يقرن الحجر بالزاوية ويصل الحائطين المنفصلين

وقد ذكر الانجيل المقدس انهُ قد ظهر مع الملك المذكور ملئكة اخرون كثيرون يسبحون الله ويقولون المجد لله في العلاء وعلى الارض السلام للناس ذوي الارادة الصالحة مشيرين بذلك الى جزيل ما يتمجد الله بتجسد ابنهِ الوحيد. والى السلام وحسن السعادة المعدة للناس الذين يخضعون لهذا الملك السليم ويحاربون معهُ الجسد والخطية والشيطان. فعلى هذا النسق تشرفت الارض والسماء يوم ميلاد سيدنا يسوع المسيح. وقد كان يجب ان تتهلل جميع الخلائق عند مجيء خالقها

اما من جهة اليوم الذي ولد فيهِ ابن الله. فقد ذكر في الفصل الثامن من المجمع المسكوني السادس انهُ ولد في الاحد الواقع في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الاول نصف الليل. ومن ثم فالكنيسة اللاتينية تقدم الذبيحة الالهية في نصف ليلة ذلك اليوم

الفصل الرابع

في ختان السيد وتسميتهِ يسوع

ان السيد المسيح لم يكتفِ بان يقدم لنا مثال الاتضاع في ميلادهِ فقط. لكنهُ لما رأى جزيل تكبرنا رام ان يقدم لنا في ختانتهِ ايضاً مثال هذه الفضيلة بنوع اعظم من الاول ليخجلنا معاشر الصلفين بتواضعهِ العجيب وبهِ ينتصر على كبريائنا. على ان رب المجد قد ظهر في مولدهِ بصورة انسان فقير حقير. اما في ختانتهِ فظهر بصورة انسان خاطيء لان الختانة كانت قد رُسمت لغفران الخطية. ومن ثم كان الذي يتناول هذا الدواء كمن يعترف بلسان الحال انهُ مبتلًى بمرض الخطية

وبحيث ان ابن الله كان قد اتى ليفي ديوننا وينقي بدمهِ الاقدس ادران خطايانا. لم يدعهُ كلفهُ بنا وغيرتهُ على خلاصنا ان ينتظر الزمن المزمع ان يبذل فيهِ نفسهُ عنا لانهُ وجد هذه المهلة طويلة جداً. فمن ثم احب ان يسبق ويهريق جزءًا من دمهِ ويهبهُ لنا كعلامة المحبة وعربون الوفاء التام الذي كان مستعداً ان يفيهُ اخر حياتهِ

وقد اراد ذلك لاجل سبب اخر. وهو ان يُعرف انهُ ابن

ابرهيم وان الختان كان شيئاً حسناً مقبولاً عند الله
غير انهُ لكي يُعرف من هو ذلك الطفل الظاهر بزي الخاطئ وُضع لهُ اسم يسوع الذي تاويلهُ مخلص ولم يضعهُ بشر او ملك بل انما وضعهُ الآب الازلي وبشر بهِ الملَك قبل الحبل بهِ جلت قدرتهُ

الفصل الخامس

في تقدمة المجوس هدايا لسيدنا يسوع المسيح

اعلم ايها المؤمن انهُ في اليوم الثالث عشر بعد ميلاد السيد المسيح وافى المجوس من المشرق الى بيت لحم. وقد حرضتهم على ذلك النجمة المذكورة التي لاحت في وطنهم حينما ولد المخلص. بحيث لما رأوها ملتحفةً بنور عجيب اضاء لهم باطناً نور اخر الهي. وبهِ فهموا انهُ وُلد في اليهودية ملك جديد مخلص العالم. وبوحي الروح القدس هجروا بلدتهم ورغبوا عن النعم ولذة العيش وسافروا يطلبونهُ بارشاد ذلك الكوكب. فلما غاب عنهم دخلوا اورشليم واستخبروا جهاراً قالوا ابن المولود ملك اليهود. ولما وصفوا لهيرودس ما رأوهُ في بلدتهم اضطرب هذا الملك وجمع الكتبة ومعلمي الناموس. فقالوا لهُ ان المسيح الملك العظيم يولد في بيت لحم. اما هيرودس الخبيث فاشار على المجوس ان يمضوا ويطلبوا الطفل باجتهاد واذا ما وجدوهُ فليعودوا اليهِ ويخبروهُ ليمضي هو ايضاً ويسجد لهُ فحينئذٍ اسرع المجوس وخرجوا من اورشليم فظهر لهم النجم ثانيةً ولم يزل سائراً امامهم الى ان وصلوا الى المنزل الحقير حيث كان قد وُلد ابن الله. فوجدوهُ في حال فقرٍ مدقعٍ ومع ذلك لم يشكّوا بهِ. لانهم عرفوا بنور ساوي ان هذا الطفل هو ابن الله حقاً. فخرّوا لهُ ساجدين وقدموا لهُ هدايا ثمينة ذهباً وبخوراً ومرّاً ثم رجعوا الى وطنهم في طريق اخر كما امرهم الملَك. واما قلوبهم فقد ابقاها خالص الحب في اصطبل يسوع

الفصل السادس

في تقدمة العذراء ابنها في الهيكل

اما الطفل الالهي فاقام بعد ميلادهِ في ذلك المنزل الحقير اربعين يوماً لان الشريعة كانت تأمر النفساء ان تتربّص في بيتها الى زمن تطهيرها في الهيكل. (احبار ١٢ : ٢ و٤ و٥) وهذا الزمان كان اربعين يوماً للتي ولدت ذكراً وثمانين للتي ولدت انثى. فلما انقضى اربعون يوماً حملت العذراء ابنها ومضت بهِ الى الهيكل وقدمتهُ هناك. وذلك لاجل ان الشريعة كانت تأمر بان كل بكور بني اسرائيل يقدمون للرب. وان الذين لم يكونوا من سبط لاوي يُفتدَون بخمسة مثاقيل. (عدد ٣ : ١٢ و٤٦ و٤٧) لكي يتذكر العبرانيون ما احسن الله بهِ اليهم حينما اخرجهم من اسر مصر بيد قوية وقتل كل بكور المصريين فحقاً ان السيد المسيح لم يكن ملتزماً بحفظ هذه السنّة لانهُ هو المشترع. الا انهُ جرى على مقتضاها ليكون لنا في كل شيءٍ قدوة الطاعة. وقد شاء ايضاً ان يوخذ الى الهيكل لكي يعزي سمعان الشيخ القديس وارملة تقية يقال لها حنة. وان يشتهر مجيئهُ تعالى بشهادة هذين الشخصين وقد اختصرنا الشرح فيما ذكرناهُ الى الان. لاننا سنتكلم عليهِ في الاعياد المختصة بذكر الاسرار المشار اليها. وهناك نُسهب الكلام في الايضاح

الفصل السابع

في هرب سيدنا يسوع المسيح الى مصر.

ان البشير لوقا قد ذكر ان يسوع بعد ان قدمتهُ والدتهُ لله في الهيكل على موجب الشريعة رجع مع امهِ والقديس يوسف الى مدينتهم الناصرة. اما هيرودس فلما عرف هرب المجوس وما قالهُ الشيخ سمعان وحنة الارملة عن يسوع الطفل من انهُ هو المسيح ملك اسرائيل خاف من ان يخلعهُ عن ملكهِ وينزع عنهُ ثوب نعمتهِ فعزم على قتلهِ ولما كان لا يعرف اين هو وخشي ان ينجو من سيفهِ قصد ان يقتل أترابهُ من الاطفال الذين ولدوا تقريباً في مولدهِ. وقد أتمّ قصدهُ هذا الخبيث بشدة القساوة الا انهُ اذ لم يرد سيد العالم ان يموت الاّ في الزمن المرسوم منهُ لم يشا ان يفعل عجائب في طفوليتهِ وان يستعمل قدرتهُ الضابطة الكل لكنهُ احب ان يكون تحت تدبير البشر فاخبر القديس يوسف بالخطر المقبل بواسطة ملَك امرهُ بالهرب الى مصر والمكث هناك الى ان يامرهُ بالخروج. فحينئذٍ نهض القديس حالاً متمماً الامر الالهي واخذ الطفل وامهُ وسرى ليلاً. ألا اعجبوا قد هرب الملك الحقيقي من بين يدي ملك دخيل مغتصب والله من امام وجه الانسان. وذلك كي يعطي عِبادهُ قدوةً فيهربوا ويختفوا في زمن الاضطهاد ثم ان البشير يقول ان الله امر ابنهُ بهذا الهرب ليتم كلام النبي الذي كان قد نطق تعالى بهِ بفم هوشع قائلاً اني من

مصر دعوت ابني (هوشع 11 : 1) وقد ذكر سوزومينوس ونيكيفورس انهُ لما وصلت العذراء المجيدة الى ارمُبوليس مدينة بالصعيد وجدت على باب هذه المدينة شجرة حيث كانت الامم تسجد للشيطان. فحنت الشجرة اغصانها كأنها متذللة اكرامًا للسيد المسيح ومنذ ذلك الحين صارت ثمرة هذه الشجرة واوراقها وقشرها تشفي جميع الامراض . اما الشياطين الذين كانوا تسلطوا على هذه البلدة فارتعدوا هلعين عند دخول الذي أتى ليخرجهم من مصر وتساقطت الاوثان وانسحقت امام يسوع طفلاً . هذا ما ذكرهُ اوريجانوس وبالاديوس والقديس ابيفانيوس . وهذه الارض التي كانت فيما سلف ممتلئة شرورًا ومتعبدة للشياطين تحولت فردوسًا ارضيًا روحيًا . حيث زهت الديانة والطهارة بتبشير القديس مرقس الانجيلي وبموذجات القديس انطونيوس وسيرة السياح القديسين . فمكث السيد المسيح في مصر الى حين وفاة هيرودس الملك نحو سبع سنين(1). وحينئذٍ ظهر ملاك الرب للقديس يوسف وامره ان يعود بالعذراء وابنها الى اليهودية . ففعل القديس كما امر . غير انهُ لما قرب منها وعرف ان اركيلاوس قد تملك عليها عوض هيرودس ابيهِ . اوحي اليهِ ان يعود الى الجليل فرجع الى الناصرة وسكن هناك مع خطيبتهِ وابنها يسوع

الفصل الثامن

في تخلف يسوع عن والدتهِ المجيدة والقديس يوسف وفي كيفية لقائهما اياهُ في الهيكل

لما بلغ سيدنا يسوع المسيح اثنتي عشرة سنة رام ان يظهر للعالم بعض اشعة من نور حكمتهِ. فمضى مع والدتهِ ومار يوسف الى اورشليم وزار الهيكل المقدس ولما خرجت امهُ مع القديس يوسف تخلَّف هو تعالى عنهما ومكث في الهيكل . واذ علما بتخلفهِ عنهما رجعا ينشدانهِ بحزن ويسألان عنهُ عند اقربائهم واصدقائهم في الطريق وفي اورشليم . وبعد ثلثة ايام وجداهُ في الهيكل بين المعلمين يسمعهم ويسألهم ويحل لهم المشكلات . وكان الجميع مندهشين من سعة علمهِ ومزيد حكمتهِ وكثرة احتشامهِ. فتقدمت اليهِ والدتهُ وقالت لهُ بوجه الشكوى وامارات المحبة الكلية يا ابني ما هذا الذي صنعت بنا هكذا ها ابوك وانا كنا نطلبك معذبين (لوقا 2 : 48) فاجابهما انهُ انما فعل هكذا ليعتني بما لابيهِ. ورجع معهما الى الناصرة حيث كان يخضع لهما بطاعة كلية . وهكذا كما قال القديس برنردوس خضع ملك السماء لنراب الارض والخالق لخلائقهِ ليتعلم الانسان ان يخضع لرؤسائهِ . وبحيث ان القديس يوسف كان نجارًا كان ابن الله يطيعهُ ويخدمهُ في اتعاب صناعتهِ . وقد زعم البعض من العلماء انهُ تعالى بعد موت هذا القديس الذي حدث في حياة المسيح في بيت والدتهِ باشر صناعة النجارة ايضًا . (متى 13 : 55) لانهُ لم يدعهُ الناس ابن نجار فقط بل دعوهُ نجارًا ايضًا (مرقس 6 : 3) وقد أحبَّ ابن الله حبًا بنا ان يخفى ضياء كنوز حكمتهِ في ظلام صناعة حقيرة لكي نحبهُ نحن لاجل هذا. ولم يرضَ بان يظهر في العالم بالتبشير الا بعد ان بلغ ثلثين سنة

الفصل التاسع

في اعتماد سيدنا يسوع المسيح

انهُ لما آن الاوان الذي حدَّدهُ الله تحديدًا ازليًا اتى السيد المسيح من الجليل الى نهر الاردن ليعتمد من يوحنا المعمدان. ودخل مقدّس القديسين بين الخطأة وطلب معهم المعمودية من القديس يوحنا. وذلك اولاً ليكون لنا قدوة التواضع وثانيًا لكي يهب معمِّدهُ مواهب جديدة وثالثًا ليثبت معمودية يوحنا . لانها كانت تعد الناس لقبول معموديتهِ تعالى ورابعًا لكي يقدّس الماء بنزولهِ في نهر الاردن لانهُ بالماء كان الناس مزمعين ان يتطهروا من خطاياهم وخامسًا ليعلم بهذا الواعظين ان يجتهدوا في تنقية سيرتهم قبل ان يباشروا اعمال التبشير . وسادسًا لكي نعلم بما حدث في معموديتهِ ما يتم فينا بالمعمودية . وهو ان يُفتح لنا باب السماء ويحل علينا الروح القدس ويجعلنا الله ابناءهُ الاحباء وورثة ملكه السماوي . لانهُ لما اعتمد سيدنا يسوع المسيح انفتحت لهُ السماوات وحل عليهِ الروح القدس بشكل حمامة . وسُمع صوت من السماء من قبل الآب الازلي قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سررت ومن اجلهِ غفرت للعالم واوثقت رباط مصالحة البشر فاسمعوا لهُ . وبقولهِ هذا قد شهد ان السيد المسيح هو ابنهُ بالطبع ومساوٍ لهُ في الجوهر وانهُ اقامهُ ربًا ومعلمًا للعالم

(1) ارتأى كثيرٌ من العلماء ان اقامة يسوع بمصر كانت سنتين تقريبًا لان تجسد المسيح وقع سنة 747 بعد بناء رومة وكانت ختانتهُ سنة 748 وموت هيرودس سنة 750 واما اركيلاوس فلم يملك سوى بضعة اشهر ثم صار رئيس رُبع في اليهودية. كذا الاب باطريتزي في الاناجيل ك 3 بحث 36

الفصل العاشر

في كيفية ذهابهِ لهُ المجد الى البرية وصيامهِ هناك اربعين يومًا

ان السيد المسيح دخل البرية كجندي في ميدان الحرب ليحارب هناك أركون الشياطين ويظفر بهِ مشيرًا بذلك الى ان المؤمن عند قبولهِ المعمودية يجب ان يتسلح للحرب الروحية مع اعداء الخلاص . وانهُ لا ينجو احد من التجربة ولو كان قديسًا . فلا نضجرن اذًا آيسين حين ترد التجربة علينا اذ قد تجرب المسيح نفسهُ وغلب المجرب . واذلّهُ كثيرًا حتى انهُ أخزاهُ الله لا يقدر على ان ينتصر علينا الا برضانا

اما البرية التي ذهب المسيح اليها فهي بين اورشليم واريحا وبقرب هذه البرية يوجد الجبل الذي من قمتهِ أرى ابليس المسيح ممالك العالم وَوعدهُ بها اذا ما سجد لهُ ففي هذه الفيافي صام سيدنا يسوع المسيح اربعين يومًا لم ياكل ولم يشرب شيئًا كما فعل موسى وايليا النبيان . وبصومهِ هذا قدّس الصوم الذي يمارسهُ المسيحيون الى هذا العهد . ومن بعد ان صام اربعين يومًا حصل لهُ الجوع اثباتًا لحقيقة ناسوتهِ . ولكي يتخذ ابليس من ذلك سببًا لتجربتهِ لان الشرير اشار عليهِ تعالى ان يحول الحجارة خبزًا . ثم اغراهُ بان يطرح ذاتهُ من علو الهيكل الى اسفل لكي يراهُ الناس في الجو متطايرًا فيؤمنوا بانهُ ابن الله . اخيرًا طلب المحال من اله المجد ان يجثو أمامهُ ويسجد لهُ ووعدهُ اذا ما فعل هذا بان يمنحهُ كل مجد ملوك الارض . غير ان السيد المسيح اخزى اللعين وطردهُ مغلوبًا . وحينئذٍ اتت الملئكة وخدمتهُ وقدمت لهُ ماكلاً

الفصل الحادي عشر

في انتخاب المسيح اثني عشر رسولاً

من بعد انهُ جلت قدرتهُ ظفر بالشيطان اخذ يمارس واجبات المرتبة التي عيَّنها لهُ ابوهُ الازلي . فدعا رسلاً ليخدموهُ في هذا المنصب . وعلمهم تعليمهُ السماوي وبهم بدد ظلام العالم اما رسلهُ فهم بطرس واندراوس اخوهُ . ويعقوب ويوحنا ابنا زبدى . وفيلبس وبرتولوماوس ومتى وتوما ويعقوب بن حلفى وسمعان القانوي ويهوذا الملقب تداوس ويهوذا الاسخريوطي

الفصل الثاني عشر

في طهارة سيرة سيدنا يسوع المسيح وفي تعليمهِ وعظاتهِ المقدسة

ان سيرتهُ لهُ المجد كانت متصفة من الطهر بما يليق بمن هو مقدس القديسين وينبوع القدس . لانهُ ولئن كان عزَّ وجل لبس طبيعة ادم الا انهُ لم يتخذ منهُ اثمهُ وفساد طبيعتهِ المخدوشة بالخطيئة . ولكنهُ من حيث انهُ اتى لكي يشفي امراضنا اضطرَّ الى ان يعاشر المرضى ويتنازل الى ضعفهم . ومن اجل ذلك تمسك بمذهب مشترك اعتيادي ذي لياقة فكان يلبس من الاثواب ما يكتسي بهِ اولوا حال متوسط كالغزل والكتان . و ياكل لحمًا ويشرب خمرًا . ويجانب ظاهر العيش القشف لكيلا يخيف بشدَّة تقشف السيرة الذين كان يعاشرهم رغبةً ان ينفعهم بتعليمهِ . على انهُ لم يكن بريًّا من كل ذنب فقط . لان الشهوة اللحمية المتمردة فينا كانت في السيد المسيح منتظمة خاضعة للروح دائمًا وللارادة الالهية . ولكونهِ جلت الاؤهُ انما اتى ليكون قدوة للجميع . اختار مذهبًا كان من احدى الجهات ساميًا كاملاً جدًّا بالمحبة والاتضاع والصبر والوداعة وبقية الفضائل التي بها يقوم الكمال الانجيلي . حتى انهُ لم يُرَ قط ولم يتصور في العقل شيءٌ يشبههُ . ومن جهة اخرى كان مذهبهُ اعتياديًّا مشتركًا بهذا المقدار حتى انهُ كان ممكنًا للجميع ان يتمسكوا بهِ . على ان شَظَف العيش وشدة التقشفات ليسا هما غاية الكمال المسيحي بل انما هما واسطة لبلوغهِ

الا ان السيد المسيح لمعرفتهِ ان هذه الواسطة ضرورية لنا لاجل تمرد لحمنا في هذه السيرة المشتركة . شاء ان يمارس افعالاً مُتعبة كما سنورد ذلك بعد . ثم ان هذه الفضائل العظمى كانت في المسيح مقترنة بتعليم سماوي لم يسمع بمثلهِ . على ان تعليمهُ كان يسمو شرفًا وكمالاً على تعاليم جميع الانبياء الذين كانوا قد اتخذوا تعليمهم منهُ . ولهذا قال في سفر اشعيا النبي ها انا ذا حاضر انا الذي كنت اتكلم اي كنت اكلمكم سابقًا بواسطة انبيائي . اما الان فقد اتيتكم وظهرت لكم لأُعلّمكم انا بنفسي

اما المعلم الفاضل الكامل فيحتاج الى ثلثة اشياء . السيرة الصالحة والتعليم الجيّد وجودة ايرادهِ . والحال ان السيد المسيح كان في جميع افعالهِ واقوالهِ نموذج الطهارة . فساغ لهُ ان

يهتف قائلاً من ذا يوبخني على خطيةٍ وان يردف ذلك بقولهِ فان كنت اقول لكم الحق فلماذا لا تؤمنون بي يوحنا (٨: ٤٦) لان برَّ سيرتهِ الجزيل كان يوكد ويؤيّد تعليمهُ ويُصيرهُ اهلاً للتصديق. ومن ثم يُضحي الذين لم يقبلوا تعليمهُ مُدانين لان حكمة السيد المسيح نظرًا الى لاهوتهِ كانت الهية غير قابلة الغلط ومولدة من الله بطريق الفهم. وهو نظرًا الى ناسوتهِ قد كان متصفًا بعلم سامٍ جدًا لاجل اتحادهِ بالكلمة الالهي ولهذا قال صابغهُ البار ان الذي اتى من السماء هو فوق الجميع وبما عاين وسمع يشهد (يوحنا ٣: ٣١ و٣٢) فمن هذا الينبوع السماوي خرج هذا التعليم الانجيلي الذي نادى بهِ سيدنا يسوع المسيح وكتبهُ في قلوب البشر وقد نزع عنهُ نقائص الشريعة العتيقة وقدّم فيهِ لا الوصايا الضرورية لنيل الخلاص فقط بل المشورات الرافعة الى اعلى درجات الطهر ايضًا

وقد كان يورد تعليمهُ على نوع عجيب. لانهُ كان يعلم ليس كبقية المعلمين الذين مع انهم يوضحون تعاليمهم ايضاحًا جليًّا لا يقدرون على ان ينيروا عقول سامعيهم. بل ان سيدنا يسوع المسيح لكونه الهًا كان ينير العقل ويستميل الارادة. ولهذا قال لهُ بطرس رسولهُ المغبوط الى اين نذهب ان لك كلام حياة الابد (يوحنا ٦: ٦٩) وقال عنهُ ايضًا مرقس الانجيلي انهُ كان يعلّم كمن لهُ سلطان (مرقس ١: ٢٢) وهو الذي من اجلهِ ترك الرسل كل شيءٍ وتبعوهُ لكلمة واحدة سمعوها منهُ. واقول على الاطلاق ان تعليم سيدنا يسوع المسيح هو مختصر جميع الكتب الالهية ومفتاح اسرار فدائنا وشمس تمزّق بضوئها كل ظلام العهد القديم وبحر حكمة الله وكنز الكنيسة العظيم وخبز السماء وينبوع الماء الحي. ثم اقول اخيرًا انهُ نور لألبابنا وشفاء لامراضنا وخلاص لنفوسنا

الفصل الثالث عشر

في عجائب سيدنا يسوع المسيح

انهُ ولئن كان تعليم السيد المسيح اهلاً بنفسهِ للتصديق لعلو شرف اسرارهِ ولبهاء طهارتهِ. الا انهُ تعالى قد شاء ان يزيدهُ توكيدًا فاثبتهُ بآيات عجيبة مذهلة متعددة لكيلا يكون لاحد حجة واعتذار للاستعفاء من التصديق اذا رأى الله يثبّت هذا التعليم بشهادتهِ اي بالمعجز الذي هو صوت الحق. فصنع السيد المسيح عجائب في كل العناصر. ففي الشياطين باخراجهِ اياهم من اجساد الناس. ثم صنع في الاحياء والموتى والمرضى عجائب لا يقدر اللسان على ان يعدها ولا العقل على ان يدركها. وكان يصنع تلك العجائب امام كثيرين من علماء وساذجين واصدقاء واعداء. وذلك في كل زمان ومكان داخل الهيكل وخارجهُ في المدن والقرى وفي البراري والطرق وفي البر والبحر. وكان يفعلها تارة بمجرد كلامهِ وامرهِ واحيانًا باللمس وطورًا بوضع يديهِ واوقاتًا اخر بالصلاة ورفع عينيهِ الى السماء. وبعض مرات كان يستعمل اشياء مضادة الشفاء كما فعل لما فتح عينَي الاعمى منذ مولدهِ بوضع طين عليهما

وهذه الايات لم يصنعها بروح المجد والكبرياء او برغبة اكتساب محبة الناس او لاجل ربحٍ ما عالمي. بل انهُ كان يفعلها لاجل مجد ابيهِ الازلي ونفع البشر وتعزية المحزونين ومساعدة المساكين. وكان يفعلها كما مرَّ لكي يثبت بها تعليمهُ ويجتذب الناس الى محبة الله ويعرفوا من هو. وان تعليمه ليس هو فلسفة بشرية بل انهُ تعليم سماوي جزيل الحكمة. وتعليم يليق بمعلم هو في الحق انسان واله

الفصل الرابع عشر

في بغضة الفريسيين لسيدنا يسوع المسيح

انهُ على ما كان صيت السيد المسيح يزيد شرفًا كان غضب الكتبة والفريسيين عليهِ تعالى يزداد التهابًا. على ان طهارة حياة مخلصنا كانت تضاد رداءة سيرتهم. واشعة تعليمهِ القويم كانت تمزّق ظلام تعاليهم الملتوية وتبين ما فيهِ من الضلال الموبق. ومع هذا كان يوبخهم توبيخًا مرًّا على ريائهم وخبثهم وتكبرهم وسائر رذائلهم. وهم كأنهم مرضى مجانين كانوا يحنقون برجز على طبيبهم المجتهد في مداواتهم وشفائهم واعينهم الضعيفة الكليلة لم تطق هذا النور العظيم. ولان كل الشعب كان يتعجب من طهارة سيدنا يسوع المسيح ويحبون تعليمهُ ومخاطبتهُ ويشهرون عجائبهُ. فكان هولاء اعني الكتبة والفريسيين يبغضون المسيح بغضًا لا يوصف. ولم يألوا جهدًا في العمل على قتلهِ فابتدأوا يقذفونهُ ويشنعون عليهِ بقولهم انهُ خاطئ ومحب للخطاة ولا يحفظ السبوت ولا شريعة موسى. ويحب الخمر ولا يصوم هو ولا تلاميذهُ. وبالجملة فانهُ رجل سامري اراتيكي محروم وان فيهِ شيطانًا. واما من جهة عجائبهِ فقالوا انهُ يفعلها بقوة بعلزبول. غير انهم لما رأوا انهم لم يتنفعوا

شيئًا بما نفثت السنتهم من سموم الغيبة عزموا على قتلهِ . وقد حركهم بالزيادة على تتميم غرضهم امر غريب عجيب قد صار امامهم وامام الجمهور في شخص ذي حسب ونسب بقرب اورشليم . وذلك هو لعازر الذي اقامهُ سيدنا يسوع المسيح من الموت وقد كان لهُ في القبر اربعة ايام . وان كثيرين لاجل هذه الاية المذهلة آمنوا بالسيد المسيح فاجتمع حينئذٍ الكهنة والكتبة والفريسيون وتشاوروا عليهِ تعالى فحكموا وحبرهم العظيم أن يموت واحد عن الشعب اعني يسوع خيرٌ من ان تهلك الامة كلها . فحقًّا انهم لم يفهموا ما نطق بهِ الروح القدس بلسان هذا الحبر الشقي . وهو ان الله قد حتم ازليًّا ان يموت ابنهُ على الصليب لخلاص البشر . فلما حان الوقت المعيَّن استخدم رداءة قلوبهم لتتميم قصدهِ الالهي . فمن بعد ان وعظ هذا الشعب ثلث سنين واشرق نور تعليمهِ على الجميع ونشد الخراف الضالَّة بعناء جسيم محتملاً الجوع والعطش والحر والبرد . واعظًا ومنذرًا في النهار ومصليًا في الليل مباشرًا على الدوام امر خلاصنا انفاذًا لما امرهُ بهِ ابوهُ السماوي وما كان هو نفسهُ يشتهيهِ من كل قلبهِ . اسلم نفسهُ لايدي الخطأة . فاتي بهِ الى المكان الذي كان اختارهُ ليقدم فيهِ نفسهُ ذبيحة لله من اجلنا اي مدينة اورشليم حيث دخل راكبًا على جحش باحتفال عظيم وكرامة جزيلة . لان الجموع اتوا للنائهِ ففرشوا اثوابهم على الطريق واغصان الاشجار وكانوا يصرخون قائلين اوصنًا لابن داود مبارك الآتي باسم الرب ملك اسرائيل . وقد احب يسوع ان يدخل هكذا في اورشليم ليظهر عظم الفرح المشتمل على قلبهِ الاقدس باقبال الموت اليهِ . ثم انهُ تعالى أراد بهذا ان يُرينا جزيل عدم ثبوت الانسان وسرعة انقلابهِ . وانهُ لا يجب ان نتكل على البشر الذي يقبل اليوم يسوع ملكًا وفي الغد يطلب موتهُ ويعدُّهُ شر اللصوص . بل انهُ في ذلك النهار عينهِ الذي قُبل في اورشليم بمثل هذه الكرامة ودخل في الهيكل ومكث هناك الى المساء كما روى مرقس البشير لم يدعُهُ احد الى بيتهِ لياكل ويستريح فالتزم ان يمضي صائمًا الى لعازر واختيهِ في بيت عنيا . وعاد في الغد الى اورشليم مهتمًّا في خلاصها الى آخر يوم من حياتهِ

فلما جاء اليوم المعيَّن من الله لاكل خروف الفصح رام عزَّ اسمهُ ان يحفظ هذا الطقس الموسوي لينتهي الظل والرمز وذلك بتقدمتهِ تعالى نفسهُ للموت كخروف حامل خطايا العالم في الزمان والمكان المعيَّنين لذبح الخروف الرمزي حتى انهُ بعدما اكمل العشا حسب الطقس فمع علمهِ كما قال التلميذ الحبيب ان اباهُ قد جعل كل شيء بين يديهِ وانهُ من الله اتى واليهِ يمضي قام عن العشاء وترك ثيابهُ واخذ منديلاً شدَّ بهِ حقْوَيهِ ثم صب ماء في مطهرة وبدا يغسل اقدام تلاميذهِ وينشفها بالمنديل الذي كان متَّزرًا بهِ . لانهُ قد شاء ان يظهر لنا في اخر حياتهِ على وجه اخص وفرط حبّهِ . ويحرضنا بمثالهِ اشد تحريض على الاتضاع لكونهِ اس جميع الفضائل ومن اجل هذا تغاضى رب المجد عن عزتهِ فجثا على اقدام اولئك الصيادين وبالايدي التي بها خلق السماء والارض اخذ يغسل اقدامهم وخصوصًا قدمي التلميذ الذي كان قصد ان يسلمهُ لاعدائهِ

ولان سيدنا يسوع المسيح يحب الكنيسة عروسهُ محبَّةً لا تُوصف ولا تُدرك اخترعت محبته حينما اضطرَّ الى مفارقتها واسطةً ليثبت معها الى انتهاء العالم فرسم سر القربان المقدس ليكون قوتنا وحياتنا وتذكرة لما فعل واحتمل من اجلنا كما سنقررهُ ان شاء الله . والامر العجيب هنا هو انهُ في ليلة الآمهِ والناس يعدون لهُ افظع الاهانات واشد العقوبات كان جلَّت رحمتهُ يعد لهم اشرف الولائم والذها . فلم يهلع قلبهُ من اقتراب الموت ولم تقدر بغضاء الناس لهُ على ان تبرِّد حرارة محبتهِ لهم اصلاً

الفصل الخامس عشر

في صلاة سيدنا يسوع المسيح في بستان الزيتون

انهُ تعالى من بعدما رسم سر الاوخارستيا واكمل عظتهُ المستطيلة وشكر اباهُ الازلي اتى الى بستان يُدعى جسمانية ومعهُ بطرس ويعقوب ويوحنا وبدا يحزن ويكتئب وقال لهم ان نفسي حزينة حتى الموت (متى ٢٦ : ٣٨) ثم تركهم وابتعد منهم قليلاً وخرَّ على وجههِ وصلى قائلاً . يا ابتاه ان كان يستطاع فلتعبر عني هذه الكاس ولكن ليس كارادتي بل كارادتك . وقد علمنا بذلك ما يجب علينا فعلهُ حينما تشعر طبيعتنا الضعيفة باتعابها وتشتهي التخلص منها . وهو ان نسلم كل شيء لله ولا نطلب منهُ الا ان تتم ارادتهُ ويصنع بنا كما يشاء لان كل ما يأتينا من هذا الاب السماوي هو بلا ريب الا نفع لمجدهِ ولخيرنا

وقد صلى يسوع هذه الصلاة ثلث مرات فاشتد الحزن

عليهِ حينئذٍ وقد ضاق صدرًا وصار عرقهُ كقطرات دمٍ نازلة على الارض . وهذا دليلٌ جليٌّ يرينا فرط ما قاساهُ ابن الله لاجلنا من الاوجاع . لكون مجرد تصورهِ اياها سبَّب لهُ آلامًا مميتةً . غير ان محبتهُ لنا لم تنغلب لهذه التجربة لانهُ تعالى اذ كان يشتهي مجد الله وخلاص الانسان اشتهاءً بليغًا وقد كان يعرف انهُ بمقدار ازدياد اوجاعه يزداد الوفاء للعدل الالهي ويحسن فداء البشر . فاحب ان تكون الامهُ ممضَّة جدًّا ليكون فداؤنا وافرًا . ولهذا اغلق كل الابواب التي كان يمكن ان تأتيهُ منها تعزية لناسوتهِ . وسلم نفسهُ لهيجان بحر الاحزان والاوجاع . فحزن من قبل خطايا البشر التي كانت منذ انشاء العالم الى انتهائهِ . ومشاهدتهِ اياها كلها فردًا فردًا وتاملهِ كثرتها وعظمتها فكان هذا يمزّق قلبهُ الاقدس وجعًا . ثم انهُ حزن على خبث اليهود الذين كافأوا حسناته الجزيلة بالبغضة والخيانة ولما كان يعلم ان الاكثرين لا ينتفعون من الامهِ وموتهِ وان هذا الاحسان العظيم يزيد عذابهم كان ذلك يزيدهُ كآبةً وماذا عسى ان نقول عن شدة الحزن الذي استحوذ عليهِ من قبَل غمّ والدتهِ العزيزة وهلاك تلميذهِ يهوذا وسقوط بطرس رسولهِ وهرب بقية رسلهِ ثم ان الموت الموضوع تجاه عينيهِ كان يحزنهُ جدًّا على أنّ الخوف من الموت كان فيهِ تعالى امرًا طبيعيًا لحبه لحياتهِ التي كانت تستحق ان تحب أشد من حياة الناس كافة . وزد على ذلك نوع موتهِ المقبل اي موت الصليب الذي فيهِ اعظم الاوجاع والاهانات . انهُ ليس بامر عجيب ان سمح السيد المسيح بان تصورهُ الالام يكسف قليلاً من بهاء شمس جمالهِ ويبرقع وجههُ الالهي بحجاب الحزن اذ اراد تعالى ان نفسهُ الطاهرة المتمتعة بمعاينة الله و بالغبطة السماوية تشرب كأس هذه المرائر لتحقق ناسوتهُ وانهُ قبل ضعف طبيعتنا ليمنحنا قوتهُ الالهية

فلم يستجب الاب الازلي لابنهِ الوحيد بما طلبهُ عن هوى الجزء الادنى من طبيعتهِ الا انهُ استجاب لهُ بما طلبهُ برغبة الجزء الأعلى اي ان تكمل مشيئة ابيهِ لكي نعلم ان الله يحسن الينا احسانًا جزيلاً اذا لم يستجب لنا بما نطلبهُ بهوى طبيعتنا الضعيفة اكثر مما كان يحسن الينا لو يقبل طلبتنا هذه . وانهُ ينبغي ان تكون كل طلباتنا خاضعة لارادتهِ تعالى ومتعلقة بها

الفصل السادس عشر

في كيفية امساك اليهود سيدنا يسوع المسيح ومُضيِّهم بهِ الى حانان وقيافا

فقام يسوع من صلاتهِ المستطيلة بقلب مرتاح ومستعدٍ للموت واقبل الى تلاميذهِ وقال لهم ها قد اقتربت الساعة وابن الانسان يُسلَّم الى ايدي الخطأة (متى ٢٦ : ٤٥) ثم جاء يهوذا ومعهُ جمع غفير بسيوف وعِصيٍّ ليسلّم رب المجد الى ايديهم . اما يسوع فكالراعي الصالح المعتني بحفظ رعيتهِ اتى للقائهم وسألهم قائلاً من تطلبون فاجابوا يسوع الناصري فقال لهم يسوع انا هو (يوحنا ١٨ : ٥) فلما قال هذا ارتدوا الى الوراء وسقطوا على الارض وما كانوا ليقوموا او لم يأذن لهم في النهوض مَن كان اسقطهم بكلمة واحدة . غير انهُ تعالى بعد ما اظهر قدرتهُ أراد ان يظهر نقواهُ وارتضاءهُ بالموت لانهُ سألهم ثانيةً حين قاموا من الذي تطلبونهُ فاجابوهُ الجواب الاوّل فامرهم رب المجد بالا يمسكوا احدًا من تلاميذهِ وحينئذٍ اقبل يهوذا الى يسوع وقال السلام عليك يامعلم وقبَّلهُ فقبلهُ عزّت حكمته مع علمهِ بنيّتهِ قبول صديقٍ لانهُ قال لهُ ببشاشة وجهٍ وعذوبة صوتٍ يا صاحب لماذا جئت . اما بطرس فلما رأى الجمع يُريد ان يمسك المسيح استل سيفهُ وضرب ملكس عبد رئيس الكهنة فقطع أُذنهُ.فقال يسوع لبطرس رد سيفك الى مكانهِ الكاس التي اعطاني الاب الا تريد ان اشربها (يوحنا ١٨ : ١١) انظن اني لا استطيع ان اسأل ابي فيقيم لي الان اكثر من اثني عشر جوقًا من الملئكة (متى ٢٦ : ٥٣) وبعد ان وبخ تلميذهُ هكذا مسَّ اذن العبد وشفاها. ثم التفت الى روساء الكهنة ومدبري الهيكل والمشايخ الذين اتوا ليمسكوهُ وقال لهم كأنما الى لص خرجتم بسيوف وعصي وفي كل يوم كنت معكم في الهيكل ولم تمدوا اليَّ ايديكم ولكن هذه هي ساعتكم وسلطان الظلمة (لوقا ٢٢ : ٥٣) لانهُ في تلك الساعة سُلّم هذا الحَمَل النقي الوديع الى الذئاب الخاطفة والى كنة الظلام اي الشياطين وقد سلّم اليهم لكن لا كايوب الذي لما سلمهُ الله الى الشيطان امرهُ بانهُ يحفظ حياتهُ . بل انهُ تعالى سلّم اليهم ابنهُ الوحيد ليعاملوهُ بشرٍّ قساوةٍ ويميتوهُ باشد عذاب . وحينئذٍ وثب عليهِ الجند فأمسكوهُ وأوثقوهُ ومضوا بهِ هكذا الى اورشليم صارخين ومتهللين كجنود حاملين غنائم الانتصار

فادخلوهُ الى بيت حنان حمي قيافا الذي كان عظيم الكهنة في تلك السنة اما هذا فسأل يسوع عن تلاميذهِ وتعليمهِ فاجابهُ يسوع انا كلمت العالم علانية انا علمت في كل وقت في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع كل اليهود ولم اتكلم بشيءٍ خفيًّا فاسأَل اولئك الذين سمعوا ما كلمتكم بهِ فهاهم يعرفون ما قلتهُ انا (يوحنا ١٨: ٢٠ و٢١) فوثب واحد من الشُرَط ولطم يسوع وقال اهكذا تجاوب عظيم الكهنة. فقال لهُ يسوع ان كنت تكلمت برديءٍ فاشهد بهِ وان كان جيدًا فلماذا تضربني. فما العذوبة لسانك يا يسوع الحلو ما الطف ما تكلمت بهِ مع من يضربك ظلمًا. حقًّا انهُ لو مسَّت الحاجة لكنت حوَّلت حالاً خدك الاخر للضرب. فمن بعد ان اهانوا يسوع هكذا ذهبوا بهِ الى بيت قيافا رئيس الكهنة حيث كان اجتمع المعلمون والرؤساء وشرعوا يطلبون عليهِ شهادة زورٍ ليحكموا عليهِ بالموت فلم يجدوا. فقام رئيس الكهنة وأَقسم عليهِ بالله ان يقول ان كان هو المسيح ابن الله. فاجابهم يسوع بالحق موجبًا اما هم فقالوا انهُ تكلم بالتجديف وانهُ يستوجب الموت. حينئذٍ تفلوا في وجههِ ولطموهُ وضربوهُ على خدهِ بالاكف قائلين تنبأ لنا ايها المسيح من الذي ضربك. فليس في الامكان ان يُوصف ما قاساهُ رب المجد من الاهانات في تلك الليلة. قال القديس ايرونيموس ان هذا لا يُعرَف الا يوم الدينونة. اما يسوع فكان يحتمل ذلك بصبر جميل واحتشام جزيل ووداعة ومحبة ليس لها من مثيل مستصعبًا خطية معذبيهِ اكثر مما كان يستصعب تعذيبهم اياهُ

غير ان الذي استصعبهُ السيد المسيح تلك الليلة اشد استصعاب هو خطيئة بطرس رسوله الذي من بعد ان هرب مع بقية التلاميذ عاد ليرى انتهاء الامر فدخل في بيت رئيس الكهنة وجحد هناك ربهُ ثلاثًا حرم وحلف كذبًا انهُ لا يعرفهُ جلَّ ذكرهُ. هذا ما فعلهُ التلميذ العزيز الذي كان اضاء لهُ نور من السماء واعترف ان يسوع هو المسيح ابن الله الحي. وقال عن نفسهِ انهُ لمستعد ان يمضي معهُ الى الموت محض حبٍ. وها انهُ لما سألتهُ جارية بوَّابة استولى عليهِ الخوف والانزعاج وكفر بهِ تعالى ولعن نفسهُ وحلف انهُ لا يعرفهُ. فلنعتبر ضعف بطرس وعظم زلتهِ متأملين كم يكون الانسان المتجاسر المتكل على ذاتهِ قريبًا من السقوط. وانهُ لا قوة على الارض ولا فضيلة الا لمن ييأس من نفسهِ ويعتمد على جودة الله ورحمتهِ فقط. على ان يسوع لم يهمل رسولهُ بل انهُ نظر اليهِ وبنظرهِ الالهي نبَّههُ على زلتهِ وغيَّرهُ بالكلية. فخرج حالاً من ذلك المكان التعيس حيث كان انكر معلمهُ وانفرد في حجرةٍ وهناك بكى بكاءً مرًّا

الفصل السابع عشر

في كيفية أَخذ سيدنا يسوع المسيح الى بيلاطس وهيرودس

من بعد ان انقضت تلك الليلة الليلاء بَكَرَ يسوع الى بيلاطس حاكم اليهودية من قبل الرومانيين. وبدأ اليهود يفترفون عليهِ ويقولون انهُ يفتن الشعب بتعليم ملتوٍ ويمنع الناس عن اعطاء الجزية لقيصر ويجعل نفسهُ المسيح وملك اسرائيل. فسالهُ بيلاطس هل هو ملك اليهود حقًّا. فاجابهُ يسوع نعم فاكثر رؤساء الكهنة التشكي عليهِ موردين ضدهُ اشياء كثيرة كاذبة. فكان يسوع يسمع هذه كلها بهدءٍ عجيب ولا يجيبهم بكلمة. وذلك لفرط ما كان يشتهي ان يموت لاجل خلاصنا

وفي غضون ذلك ارسل بيلاطس يسوع الى هيرودس لانهُ عرف ان المسيح هو جليلي وكان الجليل تحت سلطان هيرودس فرفع هذه الدعوى الى هيرودس ليحكم فيها قصدًا بذلك ان يصالحهُ لانهُ كانت بينهما عداوة من ذي قبل وان هيرودس لما رأى يسوع فرح جدًا لانهُ كان قد سمع عنهُ امورًا عجيبة وظن انهُ يرى منهُ آية يعملها الا انهُ خاب املهُ. لان يسوع لم يرتضِ بان يعمل آية قدامهُ ولا ان يقول كلمة. فاحتقرهُ هيرودس وجندهُ واستهزأ بهِ والبسهُ ثوبًا ابيض وارجعهُ هكذا الى بيلاطس. فلم يكتفِ الهنا بان يُدعى ويحسب رجلاً شريرًا مفتنًا مجدفًا محبًّا للخمر والشراهة وساحرًا مشتركًا مع الشيطان لكنهُ ارتضى ايضًا بان يدعى ويحسب رجلاً ساهيًا فاقد العقل ليكون لنا قدوة الصبر فنزدري بما يظنهُ العالم فينا باطلاً

اما بيلاطس فلمعرفتهِ خبث اليهود وانهم اشتكوا على يسوع حسدًا وبغضًا عزم على انقاذهِ من الموت. ولما كان من العادة ان يطلق لهم كل سنة في عيد الفصح واحدًا من المسجونين لاجل اثامهم سألهم من يريدون ان يطلق لهم أيسوع ام برأبّا الذي كان رجلاً اثيمًا مفتنًا سفَّاحًا ومن حيث ان الجميع كانوا يمقتونهُ ظن بيلاطس انهم يطلبون اطلاق يسوع

الذي كان احسن عند الجميع . الَّا ان الجميع طلبوا بصوت واحد ان يحيا القاتل ويقتل مصدر الحياة . فهل بعد ذلك تشمئز ايها الانسان حينما ترى من هو نظيرك يُفضَّل عليك وها انك قد رأيت برأبّا فُضّل على الله سبحانهُ

الفصل الثامن عشر

في جلد سيدنا يسوع المسيح وتكليله بالشوك

اما بيلاطس فلم يزل مجتهدًا في تخليص يسوع ولذلك لما رأى الشعب طالبًا موتهُ بضوضاء وسجس عظيم اخترع واسطة شديدة القساوة ليهدئ بها غضب اليهود . فامر بان يُجلد يسوع لعل هذا العذاب المريع يسكّن هيجان الشعب ويميل بهم الى الشفقة . فوثب الشُرَط كوحوش ضارية وامسكوا رب السماء والارض وعروا جسدهُ النقي المجبول من الروح القدس في حشا ام بتول وربطوا يديهِ على عمود وشرعوا يضربونهُ بكل قواهم اولاً بسياط من شوك ثانيًا بحبال ذات اشواك من حديد ثالثًا بسلاسل حديدية. وقد جَلَدوهُ اكثر من خمسة الاف جلدة وكل ذلك النكال لم يشبع قساوة الجند ولا محبة يسوع لانهم التأموا حولهُ تعالى والبسوهُ ثوبًا قرمزيًّا وضفروا اكليلاً من شوك ووضعوهُ على راسهِ وقصبةً في يمينهِ . وكانوا يركعون على ركبهم قدامهُ ويستهزئُون بهِ ويقولون سلام ياملك اليهود وكانوا يتفلون عليهِ ويأخذون القصبة ويضربون بها راسهُ . اما هو فكان صامتًا ولم يشكُ منهم بكلمة ولم ينقص من صبرهِ ودعتهِ شيء وكان يشتهي اكثر من ذلك من اجل خلاصنا

اما بيلاطس فلما رأى جسد يسوع ممزقًا بالضربات وقد كادت الجروح تتصل ببعضها ظن ان اليهود والحالة هذه يتوجعون لهُ حتى بعثهم الرحمة على اطلاقهِ فخرج اليهم ثانيةً وقال لهم ها هوذا الانسان الذي سلَّمتموهُ اليَّ واني لم اجد عليهِ حُجة واحدة . على ان ذلك المنظر الفظيع لم يليّن قلوبهم لكنهم ازدادوا قساوة فصرخوا اصلبهُ اصلبهُ . واما الآب الازلي فلما رأى ابنهُ في هذه الحال التي حصل عليها لاجل طاعتهِ لهُ وحبهِ لنا أهدأ ثائر غضبه على البشر وغفر لنا خطايانا من اجلهِ . وانهُ ليفيدنا كثيرًا ان نتأمل ابن الله في هذه الحال ونقدم صورتهُ ومنظرهُ للآب الازلي قائلين هوذا الانسان الذي وهبتناهُ الانسان الذي لا نظير لهُ في الطهر والاوجاع ألا انظر اليهِ وحبًّا بهِ انظر الينا نحن ايضًا . واجعلنا ان ننظر اليهِ كما يجب فنقتدي بفضائلهِ

فلما سمع بيلاطس صراخ اليهود اصلبهُ اصلبهُ قال لهم خذوهُ انتم واصلبوهُ فاني لست اجد عليهِ علة توجب الموت فقال اليهود ان لنا شريعة وعلى ما فيها هو مستوجب للموت لانهُ جعل نفسهُ ابن الله . فلما سمع بيلاطس هذا الكلام ازداد خوفًا فدخل الايوان وقال ليسوع من اين انت . اما يسوع فلم يرد عليهِ جوابًا . حينئذٍ قال لهُ بيلاطس لِمَ لا تجيبني الا تعلم ان لي سلطانًا ان اصلبك وسلطانًا ان اطلقك . فلما رأى يسوع ان بيلاطس يفتخر بالسلطان المعطى لهُ من الله نصحهُ وعلمهُ ان كل سلطان على الارض قد أُعطي من الله . وانهُ سيحاسب عليهِ يوم الدين . اما بيلاطس فلما سمع ذلك أراد ان يطلق يسوع لكنهُ لما رأى اليهود يزيدون صياحًا قائلين ان انت اطلقتهُ فلست محبًّا لقيصر امتلأَ قلبهُ فزعًا . فلخوفهِ من ان يغيظ ملكًا ارضيًّا عزم على تسليم البارّ بل البرّ نفسه الموت . فلما جلس على المنبر ارسلت امرأتهُ قائلة احذر من ان تحكم بالعذاب على هذا الصديق فاني تألمت كثيرًا اليوم من اجلهِ . الَّا ان هذا الكلام لم يؤثّر في قلب كان قد انغلب للخوف العالمي . فغسل يديهِ قدام الجمع ليرى بذلك انهُ بري من الذنب واطلق لهم برأبّا وسلَّم يسوع ليُصلب

الفصل التاسع عشر

في صلب سيدنا يسوع المسيح

حينئذٍ وضعوا على ظهرهِ الممزق بالسياط صليبًا ثقيلاً جدًّا . فمضى بهِ كاسحق حاملاً الحطب الى موضع الذبيحة فكان يسوع حاملاً خشبة الصليب وجسد الذبيحة الذي آن ان يذبح . اما الاب الازلي فكان حاملاً نار المحبة وسيف العدل الالهي ليذبحهُ . غير ان اليهود خافوا من ان يموت في الطريق قبل ان يُصلب . فسخَّروا انسانًا كان اسمهُ سمعان ليحمل صليبهُ وكان يتبعهُ جمع كثير من الشعب والنساء يندبنهُ ويحزنَّ عليهِ فقال لهنَّ يسوع لا تبكينَ عليَّ لكن ابكينَ عليكنَّ وعلى اولادكنَّ

فلما وصل الى جبل الجلجلة حيث دُفن ابونا آدم وحيث رام ابرهيم ان يقدم ابنهُ ذبيحة لله كما ذهب كثيرون من الاباء القديسين عروهُ تعالى ثانية. وبحيث ان قميصهُ كان قد التصق بجراحاتهِ لما جرَّدوهُ من ثيابهِ جددوها وزادوها اتساعًا . اما

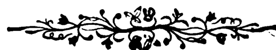
الحمل الانيس فلم يفتح فمه بشكوى ولا تبكيت. ثم سمروا يديهِ ورجليهِ ورفعوهُ هكذا معلقًا على صليب. واما بيلاطس فعلق فوق هامتهِ لوحًا مكتوبًا عليهِ باللغات العبرانية واللاتينية واليونانية باخص لغات العالم واشرفها يسوع الناصري ملك اليهود. وقد اراد الله بهذا العنوان المجيد ان يشرف موت المسيح على الصليب وان يعرف الجميع ان الذي يموت هو الملك العظيم ملك الملئكة والبشر واليهود وباقي الامم. وانهُ يملك على الارض كلها وانهُ ينبغي لجميع الملوك والشعب ان يخضعوا لهُ

حينئذٍ بدا روساء الكهنة والكتبة والشيوخ يستهزئون بهِ ويقولون خلص اخرين ولم يقدر ان يخلص نفسهُ. ومثلهم كان يعيرهُ احد اللصين اللذين صلبا معهُ. غير ان كثرة مياه اهانات يسوع واوجاعهِ لم تطفئ نار محبتهِ لكنها ازدادت اضطرامًا فطفق يضرع الى ابيهِ السماوي من اجل صالبيهِ ومبغضيهِ بقلب وفم الطهارة قائلاً. يا ابتاه اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يفعلون. فتعجب احد اللصين من هذا الصبر العجيب وآمن بهِ فهتف وقد ندم على خطاياهُ متكلاً على رحمة سيدهِ قائلاً اذكرني يا رب في ملكوتك. فقال لهُ يسوع الحق اقول لك انك اليوم تكون معي في الفردوس

اما العذراء الكلية الطهر فكانت ترى اوجاع ابنها واهاناتهِ وهي واقفة تحت الصليب شاخصة بصرها اليهِ وقلبها مصلوب معهُ. ومن ثم سيف الوجع الذي جاز في قلب الابن جاز في قلب الام ايضًا. الا ان جزيل صبرها كان يوازي عظمة الامها فلم تمرمر ولم تشكُ من احد. فمن ذا الذي يقدر ان يصف حال قلب يسوع وقلب امهِ حينما كانت اعينهما يقابل بعضها بعضًا ولا سيما حين خاطبها يسوع من على الصليب قائلاً يا امراة هذا ابنكِ ولم يسمها والدتهُ لئلا تزيدها هذه الكلمة المتلئة عذوبة حزنًا وأسى

ومن بعد ان اكمل سبحانهُ واجبات الرحمة والمحبة هكذا وجه افكارهُ الى ابيهِ فقال الهي الهي لماذا تركتني. لانهُ اذ شاء ان يفي عنا للعدل الالهي وفاء وافرًا رام ان يكابد اشد الاوجاع بلا ادنى تعزية وكان ذلك في ان تركهُ ابوهُ مصدر كل تعزية وقد قوّى بها الشهداء الذين احتملوا العذاب بفرح ومضوا الى الموت بتهلل. ولما اكمل يسوع كل شيء امرهُ بهِ ابوهُ الازلي قال انهُ قد كمل. ثم صرخ بصوت عالٍ يا ابتاه بين يديك استودع روحي. قال هذا وحنى راسهُ وسلّم نفسهُ ومات.

فهذا مختصر الام السيد المسيح التي يجب ان نكتبها في الواح قلوبنا ونتأملها الليل والنهار متذكرين اننا سببناها لهُ بخطايانا. وانهُ احتمل كل هذه الاهانات والاوجاع حبًّا بنا ولاجل خلاصنا فمن الضرورة والصواب اذن ينبغي لنا ان نحبهُ بل ان نتعبد لهُ لانهُ افتدانا بدمٍ كريم. ومن ذلك استنتج شدة عذاب الخطية اذ انهُ لكي يخلصنا ابن الله من عذابها الجائت الضرورة الى ان يموت على الصليب ولذلك ينبغي ان يكون هذا الصليب وتلك الالام خبزنا اليومي ودواءنا في الامراض وتعزيتنا في الاتعاب والكوارث ومرسى رجائنا وعربون ثوابنا. اعتبر انهُ لما مات رب المجد والحياة والموت تزلزلت الارض وتشققت الصخور واظلمت الشمس. وبهذه كلها اظهرت الارضون والسماوات حزنها على خالقها. وعند ذلك انشق ستر الهيكل دلالةً على ان العهد القديم قد بطل بموت الحمل النقي. وانهُ قد انفتح باب السماء وارتفع حجاب اسرار العهد الجديد التي يشتمل عليها العهد العتيق. ويذكر القديس افرام انهُ لما انشق ستر الهيكل طارت حمامة منهُ حالاً وخرجت اشارة الى ان الروح القدس فارق هذا الهيكل. وقد ذكر القديس ايرونيموس انهُ في ذلك الحين سُمع صوت ملئكة يقولون لنخرجنّ من هنا. ولنكتفِ الى هنا بنهاية الكلام في ما يتعلق بحياة السيد لهُ المجد ولنأخذ في كتابة اخبار القديسين الذين اقتدوا بسيرتهِ. غير اننا سنذكر بالتفصيل ما يخص قيامة السيد المسيح وصعوده الى السماء وحلول روحهِ الكلي قدسهُ على التلاميذ وسرّ الثالوث الاقدس وذلك في الايام التي تعيّن التعبيد فيها لهذه الاسرار






شهر كانون الثاني

اليوم الاول

وفيهِ عيد ختانة سيدنا يسوع المسيح

اعلم ان اعظم سرّ رسمهُ الله تعالى في العهد القديم على الشعب العبراني هو سر الختانة الذي الزم بهِ ابرهيم وذريتهُ فقط. وقد امرهم بذلك قبل ان يضع عليهم الشريعة في طورسينا باربعمائة سنة واكثر. وفي سر الختانة هذا كانت تمحى الخطية الاصلية وتُغفر الخطايا الفعلية وتُعطى النعمة لمن كان يتناولهُ باستحقاق. الا ان هذا لم يكن يتم بقوة الختانة وفاعليتها بل بايمان المختون حين الختان

وقد رسم الله هذا السر لاغراض منها الاشارة الى ما عاهد بهِ شعبهُ من ان يكثرهم كنجوم السماء ويملكهم ارض كنعان وان المسيح يولد من ذرية ابرهيم وبهِ تتبارك جميع الامم ومنها التذكرة بايمان ابرهيم الذي بهِ هجر وطنهُ واقاربهُ واعتقد يقينًا بكل ما كان وعدهُ الله بهِ. ومع ذلك عزم عزمًا متينًا على تقدمة ابنهِ لله ذبيحة ومحرقة. وقد قصد تعالى بهذهِ ان يتأمل الشعب العبراني قدس ابرهيم ابيهم فيقتدوا بهِ

ومنها تمييز الشعب الاسرائيلي من بقية القبائل حتى كان اليهود يقولون هذا رجل اغلف اذا كان غير يهودي كما كان اليونانيون يسمون من ليس منهم بربريًّا

فاعتبر انهُ كما ان الختانة كانت اشارة الى الايمان وعلامة البر المقبول وبها كان المختون يُعد من جماعة المؤمنين ويصير قابلاً لان يتناول بقية اسرار العهد القديم. كذلك سر المعمودية فانهُ بالحق والصواب يُدعى سر الايمان وباب بقية الاسرار لانهُ بهِ يُحسب المرءُ من ابناء الكنيسة. وكما ان الختانة كانت وسم العهد القديم والعلامة التي بها كان الشعب المؤمن يتميز من الشعب الغير المؤمن. والمختون كان يخضع لسلطان كنيسة اليهود كذلك المعمودية في العهد الجديد فانهُ بها يتميز المسيحي من الغير المسيحي ويخضع لسلطان الكنيسة المقدسة. لكنهُ اعظم جدًّا من الختانة من جهات كثيرة. لانهُ سرٌّ لا يؤلم ولا يجري دمًا كالختانة ولا يحتاج الى ان يؤخر الى مدة ثمانية ايام كما كان ينبغي لقبول الختانة. لان المعمودية هي سر يعمُّ الرجال والنساء كلهم وتلتزم بقبولهِ الشعوب كلها من الان الى انقضاء الايام واما الختانة فكانت مختصة بالذكور الاسرائيليين. اخيرًا سر المعمودية هو افضل فاعلية وكمالاً من الختانة لانهُ لا يشير الى النعمة فقط كالختانة بل يُصدِر النعمة ايضًا ويفيضها فيرسم في النفس وسمًا غير قابل المحو الى الابد وينقيها من كل درن الخطية ومن كل عذاب يتعلق بها ويفتح لها باب السماء ويصيرها وارثة السعادة الابدية

فاذ قد اوضحنا سبب وضع سر الختانة ومفعولاتهِ وما بهِ يتميز من سر المعمودية. فلنوردنَّ على وجه الاختصار السبب الذي من اجلهِ شاء السيد المسيح ان يختتن مع كونهِ هو المشترع وغير ملتزم بحفظ الشريعة ذلك فضلاً عن انهُ كان بريًّا من الخطية وحُبل بهِ تعالى بلا دنس قد ارتضى ان يختتن ويخضع لهذا العهد المؤلم جدًّا ذلك مع ما في قبولهِ من الاهانة لهُ عزَّ وجل بحيث يظهر بالختانة انهُ خاطئ كباقي الانام تنزَّه الله عن ذلك والحاصل انهُ ينبغي لنا الاَّ نعتبر ختانة السيد المسيح كصنيع طفل وُلد منذ ثمانية ايام لا يدري ما يفعل. فانهُ وان كان هو طفلاً فذلك الطفل كان ابن الله متصفًا بتلك الحكمة الالهية. ومن ثم ينبغي لنا ان نتأمل بحسن الاحترام والعبادة اسباب ختانتهِ العجيبة لكي نعقل جيدًا وفر جودتهِ. ونشكرهُ على جزيل احسانهِ ونقتدي بمثالهِ على اكمل نوع نقدر عليهِ

فاعتبر انهُ عز اسمهُ اراد ان يخضع للختانة اولاً ليعلمنا بهذا انهُ بشرٌ حقًّا وان جسدهُ كان نظير اجسادنا يقبل الالام والموت . ولكي يخزي الاراطنة الزاعمين ان جسدهُ تعالى لم يكن جسدًا حقيقيًّا بل خياليًّا وثانيًا لكي يزيل عن اليهود كل ما يمكن ان يحتجّوا بهِ ليطردوهُ لانهُ تعالى لو لم يختتن لكان اليهود يقولون انهُ ليس من ذرية ابرهيم الذي قد كان الانبياء اخبروا انهُ من نسلهِ يولد المسيح وثالثًا لانهُ رام ان يبتدئ منذ طفوليتهِ بامر خلاصنا . ولانهُ كان يستعد الى الثلث والثلثين سنةً التي سيسفك كل دمهِ بعد انقضائها على الصليب بَدَلاً عنا . فاراد ان يقدم عربون الوفاء الذي يقدمهُ فهراق في الختانة جزءًا من دمهِ الالهي ليظهر لنا بهذا محبته ويضرم فينا لواعج الشوق اليهِ فننذهل عند تأملنا ختانتهُ ونهتف قائلين ان كنت يا رب تظهر لنا منذ طفوليتك مثل هذه المحبة فماذا عسى ان تظهرهُ لنا وتفعلهُ من اجلنا وحبًّا بنا فيما بعد

الا ان الشيء الذي بهِ اظهر لنا يسوع شدة محبتهِ في سر الختانة على وجهٍ خاص . هو انهُ جلت طهارتهُ ارتضى في ذلك الحين بقبول وسم الخطية لان الختانة كما مرَّ قد شُرِعت لمحو الخطية الاصلية وبالنتيجة ان المختون كان يقدِم للناس سببًا لان يظنوا انهُ مصاب بالداء الذي عين الله لهُ في شريعتهِ دواءً شافيًا والحاصل انهُ تعالى قد ظهر في تجسدهِ الالهي الهًا وانسانًا . وفي ميلادهِ تراءى طفلاً حقيرًا فقيرًا . واما في ختانتهِ فانهُ استبان اسيرًا خاطئًا وفي الحق انهُ امر تحير فيهِ العقول ان يكون شخص الهًا وانسانًا . وان يكون ايضًا مخلدًا وميتًا الا انهُ قد يوجد شيء اغرب من ذلك جدًّا وهو الله والخطية . على ان اللحم لا يضاد الروح ولا ينافيهِ . ولذلك لا يضاد الموت الحياة بمقدار ما تضاد الخطية الطهارة الالهية . ولهذا وان كانت الحكمة الالهية وجدت واسطة بها اقترن الموت بمن هو عنصر الحياة يستحيل ان توجد واسطة بها تقترن الخطية بالله . واما ختانة السيد المسيح فليست من اقتران الخطية في شيء بل فيها علامة الخطية . فالخروف النقي البري من كل دنس والمنقي ادران خطايا البشر ظهر بصورة خاطئ لكي يظهر لنا بذلك افراط المحبة في قلبهِ الاقدس ويضرمها في قلوبنا ويلبسنا ثوب الخجل نحن المتدنسين الذين من الكبرياء لا نريد ان نظهر خطأة

لا جرم ان السيد المسيح في ختانتهِ اظهر اعظم طاعة للشريعة وقد ترك بذلك نموذجًا يحرضنا على اتمام الناموس الالهي . فان كان تعالى حبًّا بنا خضع لشريعة لم يكن ملتزمًا بها . فانما يجب علينا ان نخضع حبًّا بهِ عز وجل للناموس الذي يلزمنا الزامًا كليًّا ونحفظ الوصايا التي امرنا الله بحفظها امرًا مشدَّدًا (مزمور ١١٨ : ٤) . ان الفريسيين معلمي الشعب اليهودي كانوا يضعون على مناكب الناس احمالاً ثقالاً غير محتملة وما كانوا ليحركوها باحد اصابعهم . اما معلمنا الالهي الصالح فانهُ بخلاف ذلك لانهُ يحمل وقر خطايانا الثقيل . ويكابد الالام لكي يهبنا استحقاقاتهِ ألا ترى انهُ خُتن ليخلصنا منها لان المدية التي قطعت لحمهُ انثلمت نظرًا الينا

لان تلك الختانة اللحمية المؤلمة نُسخت بختانة المسيح وبُدِلت بالختانة الروحية فالختانة القديمة قد رُسمت لاجل اليهود اللحميين واما الختانة الجديدة فتخص المسيحيين ابناء ابرهيم الروحيين بحسب الايمان والطاعة . ولهذا قال الرسول للمسيحيين انكم خُتنتم ختانة ليست مصنوعة بيد بخلع جرم الجسد بل بختان المسيح (كولسي ٢ : ١١) وبمدية هذا الحجر الحي الروحي الذي هو سيدنا يسوع المسيح . ومعهُ قد دُفنتم بالمعمودية وهذا فحوى ما اشار اليهِ ارميا النبي بقولهِ اختتنوا للرب وانزعوا غلف قلوبكم (ارميا ٤ : ٤) فكانهُ يقول قدموا لله قلبًا نقيًّا خاليًا من الافكار الباطلة والشهوات المحرَّمة والهموم الارضية المتزايدة فليحيَ القلب حياةً روحية بها تشتدُّ قوانا وتقوى حواسنا فان القلب هو الجزء الذي يحيا في الانسان قبل ما سواهُ ومنهُ تستمد بقية الاعضاء الحياة ولتكن ابصارنا مغضوضةً والسنتنا عفيفةً وآذاننا متبرئةً من سماع الاحاديث المستقبحة الغريبة عن روح المسيح فتلك لعمري هي الختان الذي ارادهُ يسوع في ختانتهِ

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس اوديلون

ان القديس اوديلون الذي اضاء في دهرهِ ورهبانيتهِ ككوكب منير وُلد في فرنسا من اصل شريف في السنة الثانية والستين من القرن العاشر وكان ابوهُ يسمى بيرَ لدوس الملقب بالعظيم لاجل بسالتهِ في الحروب وشجاعتهِ . وهذه الصفة الجليلة كانت مقترنة بفضائل كثيرة . لانهُ كان تقيًّا انيسًا سخيًّا للفقراء وفي كل افعالهِ مسيحيًّا . وكانت امرأتهُ نظيرهُ في الفضيلة مرآة ومثالاً للنساء المسيحيات . فمن هذا يتضح حسن

اهتمامها بتربية اوديلون ابنها الذي كان متصفًا بكثير من الصفات الحميدة منذ مولدهِ . ولم يكن يعاين في منزلهِ الاّ امثلة البرّ . وكان ينشأ في التقوى بمقدار ما كان ينشأ في القامة واحب الفضيلة واستعذبها من قبل ان يعرف ثمنها . ولم يكن فيهِ من الصبي سوى الصورة وصغر العمر . اما عبادتهُ لوالدة الله منذ طفوليتهِ فكانت عجيبة حتى انهُ لما كان مبتلًى بمرض منذ مولدهِ وهو كونهُ مقعدًا . حملوهُ ذات يوم الى الكنيسة وتركوهُ على الباب . اما الصبي المبارك فسحب نفسهُ جاهدًا الى داخل الكنيسة حتى وصل الى امام مذبح كانت فيهِ صورة العذراء . ثم رفع نظرهُ الى الصورة وقال نحوها بطمانينة كابن يخاطب امهُ . يا امي العزيزة والحبيبة اسالكِ ان تشفيني وتؤهليني لان اخطو متقومًا فللحال انحل رباط اعضائهِ وقام متهللاً راكضًا نحو من كان بحملهُ

وقد توفي والدهُ قرب ذلك الزمان اما اوديلون فنما ونشا ولما بلغ الحداثة وكان قد درس العلوم المناسبة له تركتهُ والدتهُ وترهبت وانهت حياتها بميتة صالحة . فاتفق انهُ مرّ القديس مايول رئيس دير كلوني باوديلون ابنها . فلما اخبرهُ الانبا المذكور بصلاح سيرة رهبان ديرهِ راحت نفسه لهذه الدعوة المقدسة وطلب من الرئيس ان يقبلهُ في ديرهِ فقبلهُ الانبا القديس . فحينئذٍ هجر اوديلون العالم ودخل دير كلوني . ولما رأى نفسهُ فيما بين اولئك القديسين سار في اثارهم بكل رغبة قلبية . ولفرط ما كان نشيطًا في العبادة لم يكن يستثقل اشد التقشفات الرهبانية لكنهُ كان يزيد عليها وحبهُ للاتضاع واحتقارهُ لنفسهِ كانا يميلان بهِ ويرغبانهِ في احقر خدمة في الدير واكرهها اما الصمت فكان يحفظهُ بالتدقيق ولم يكن يفتح فاه الا للتلاوة وقراءة الفرض الكنائسي وكان جاعلاً كل سرورهِ وترفهاتهِ في الصلاة والتامل في الله . فكان الاقدمون من الرهبان يتعجبون من نشاطهِ العجيب

وقد استمر اوديلون سائرًا على هذا الحال في منهج الفضيلة متقدمًا كل يوم فيها حتى ارتسم كاهنًا . وبحيث ان كل اشواق قلبهِ كانت متجهة الى سر القربان المقدس كان في كل قداس يظهر بدموعهِ نار المحبة الالهية الملتهبة في قلبهِ وما كان لشيءٍ ان يعوقه عن التقديس فلم يمنعهُ شغل ولا سفر ولا مرض وفي مدة الست والخمسين سنة التي عاش فيها كاهنًا لم يمتنع عن تقدمة القداس يومًا واحدًا . ولم يكن يستصعب في القداس الاّ انتهاءهُ ومفارقة المذبح

وحينما كان قد بلغ القديس اوديلون من العمر احدى وثلاثين سنة مرض القديس مايول رئيس ذلك الدير فاشار على الرهبان وهو على فراش الموت ان يقيموا اوديلون رئيسًا على الدير المشار اليهِ فقبل الجميع مشورتهُ وانتخبوا اوديلون رئيسًا . فلما رأى ذلك شرع يعتذر قال انهُ حدث السن وغير خبير بالتدبير ولا اهلية فيهِ لهذا المقام . فلم يعتبر احد اعتذارهُ هذا لانهم ظنوا ان في الفضيلة غنى عن ذلك فانها تكمل نقص العمر وقد لاح لهم سريعًا ان الله دبر هذا الامر . لانهُ لما تامل واجبات رتبتهِ تحقق يقينًا انهُ ينبغي لهُ ان يكون في رهبانيتهِ قدوة النسك والفضيلة ومن اجل ذلك كان يسبق الجميع في كل رياضات الرهبانية . ولم يكن يحلل لنفسهُ شيئًا مما كان الرهبان ملتزمين بهِ وكونه رئيسًا صيّرهُ ابًا حليمًا للمرؤسين وحاكمًا متقشفًا على نفسهِ . وقد قال ذات يوم انهُ يجب على الرئيس ان يسوس بتسامي فضائلهِ اكثر مما يرأس بعظمة رتبتهِ

وماذا عسى ان نقول عن عبادتهِ للطوبوية مريم البكر لانهُ كان كل مرة يسمع اسم مريم يسر قلبهُ متهللاً وكان قبل ترهبهِ قد اقترب من مذبحها واضعًا حبلاً على عنقهِ مقدمًا لها نفسهُ اسيرًا كل ايام عمرهِ . وبعد ذلك كان كلما يعاين صورتها او ينطق احد باسمها يحني راسهُ حالاً احترامًا لها . وعندما يذكر الخوروس في التراتيل الكنائسية تجسد ابن الله في مستودعها النقي كان يجثو ايضًا بتهيّب اجلالاً لتلك الام الالهية . ولفرط ما كان يكرّم سلطانة الملائكة اشتهى ان الجميع يكرمونها فبنى لها في كل كنيسة من كنائس رهبانيتهِ مذبحًا

اما عبادتهُ للنفوس المسجونة في المطهر وغيرته في اسعافها فكانتا عجيبتين لانهُ كل يوم كان يقدم لله من اجلها ذبيحة القداس ويمارس تقشفات مختلفة ويصلي صلوات مستطيلة ويحث اخوتهُ الرهبان كثيرًا على هذه العبادة وقد اظهر الله تعالى جزيل سرورهِ بها . لانهُ اتفق ان راهبًا فرنسويًا بعد ان زار الاماكن المقدسة في ارض اورشليم اذ كان راجعًا الى بلدتهِ في البحر ساقتهُ الامواج الى جزيرة صغيرة قريبة من صقلية فوجد هناك سائحًا من القديسين فهذا سأل الراهب الفرنسوي هل يعرف اوديلون رئيس دير كلوني اجابهُ انني اعرفهُ فامرهُ السائح ان يذهب اليهِ بعد وصولهِ الى فرنسا ويخبرهُ

عن لسانهِ ان لا يبرح هو ورهبانهُ مصلين من اجل النفوس التي في المطهر لانها تستفيد كثيرًا من صلواتهم فاكثر الايام يخرج بعض النفوس من العذاب بسبب صلواتهم. فلما عاد الراهب اخبر الرئيس بما كان فازداد الرئيس القديس غيرة على مساعدة النفوس التي في المطهر. فامر بان يجرى في كل اديرة رهبانيتهِ كل سنة بعد عيد جميع القديسين تذكار للموتى الذين في المطهر وان يوزعوا من اجل هذه الغاية فضلاً عن تقدمة القداس واقامة الصلوات من اجل اولئك الاموات على الفقراء صدقة غير اعتيادية وان يزيد كل راهب على ذلك تقشفًا ما. وصورة هذا الامر توجد في دير كلوني على الصورة الآتية ان ابانا ورئيسنا امر وارتضى الرهبان كلهم بانهُ كما ان المؤمنين يحتفلون في الكنائس كلها بعيد جميع القديسين كذلك نعيّد في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني في اديرتنا كلها تذكارًا لجميع المؤمنين على هذا النمط اي ان اقدم الرهبان يوزّع مع راهب آخر خبزًا وخمرًا على كل من يأتي الدير وتُرتَّل الصلوات الكنائسية المختصة بالموتى. ويقدّس كل كاهن من اجلهم ويطعم اثني عشر فقيرًا. فنريد ان تبقى هذه الرسوم محفوظةً الى انقضاء الايام انتهى. وقد حفظت وانتشرت حتى جرت الكنيسة فيما بعد على هذه العادة الحميدة واما ذلك اليوم فيُلقَّب بيوم تذكار الموتى

وكما كان القديس اوديلون رؤوفًا بالاموات المحتاجين كان يتوجع لشقاء الاحياء البائسين ايضًا. حتى كان يشتهي ان يكون في كل دير أهراء مختصة بالفقراء. واذ كان دير كلوني يطعم كثيرًا من المساكين قال وكيل الدير للرئيس انك مفرط بالصدقة فاجاب ان من اشتهى ان يُدان بشفقة من الديان العادل فلا يخاف من الافراط بالرحمة للفقراء فلا ابالي بمن يظن اني اتجاوز الحد في الصدقات لكني اخاف أن ارد فقيرًا خائبًا ومن اجل ذلك كان يكفي ابا المحتاجين وقد اصاب البلاد في ايامهِ قحط فاجدبت فكان غلاء وضيق شديد ففتح اهراءهُ وصناديقهُ كلها حتى اذا نفد ما كان فيها من الدراهم باع الآنية المقدسة لكي يغيث باثمانها المساكين. ثم باع الاكليل الملكي الجزيل الثمن الذي كان الحبر الاعظم قد توّج بهِ القديس هنريكوس ملك النمسا لان الملك المذكور كان قد أهداهُ ذلك التاج وقد انفق القديس ثمنهُ ايضًا في اغاثة المحتاجين حتى انهُ كثيرًا ما

كان ينزع ثيابهُ ويدفعها للفقراء وقد بعثتهُ الرأفة اخيرًا الى ان يستعطي كاحد الصعاليك لكي يسد بذلك حاجتهم

واما فضل قدسهِ فقد عجز الامكان عن طيهِ واخفائهِ بحيث ان عرف طهرهِ الزكي قد فاح وانتشر في النواحي كلها ففي كل مملكة كانوا يمدحون هذا الانبا القديس حتى ان البابوات والملوك كانوا يلتجئون اليهِ ويقبلون مشوراتهِ كانها آيات من عند الله. وقد ذكر ان كازيميروس ملك لاه لما طُرِد من مملكتهِ اتى دير كلوني ليزور الانبا اوديلون. فلما راهُ وسمع حديثهُ كرهت نفسهُ الدنيا فترهب في ذلك الدير

ولما مات بوكَردوس مطران ليون في السنة الحادية والاربعين بعد الالف اتفق الاكليريكيون والشعب وانتخبوا الانبا اوديلون اسقفًا لهم. واثبت الحبر الروماني ذلك الانتخاب غير ان الانبا لم يرضَ بذلك لاتضاعهِ فكتب اليهِ الحبر الاعظم ما معناهُ. اننا قد عرفنا ما افتريت بهِ على كنيسة ليون التي طلبت ان تكون لها عروسًا وقد رفضت ان تتولى تدبيرها. افلا تخاف من ان يحاسبك الله ويطالبك بنفوس كثيرة كانت تتعلم منك وتقتفي اثارك فتنتفع بك علمًا وعملاً. اهكذا تحتقر اولئك الاساقفة الاجلاء الذين طلبوا اليك متواترًا ان تقبل الارتقاء الى درجة الاسقفية وهل ترفض طلبنا نحن ايضًا. على ان كل ذلك لم يحول عزم الانبا اوديلون ولم يغلب على تواضعهِ فبقي مصرًّا على رأيهِ ولم يقبل الاسقفيَّة

وقد شرَّف الله ذلك القديس بعجائب كثيرة نقتصر منها على ما ياتي فنقول ان الملك هَنْريكوس زار القديس اوديلون في مدينة بافي يوم عيد الميلاد واتّفق ان احد اللصوص تخلَّل القوم والقى نظرهُ على طنفسة فوق الطاولة فأخذ يفكّر في انهُ اذا سرقها يحصل على مالٍ كثير واذ حصلت لهُ فرصة سرقها وعقيب ايام عرضها للبيع بين بضائع اخرى مرَّتين فلم يشترِها احد ثم عرضها ثالثةً فساومهُ عليها تاجرٌ فوقع بينهما اختلاف على مقدار الثمن بعناية الله حتى انها اخيرًا سببت لهُ عقوبةً فاعتراهُ وجع لا يكاد يطاق فشلت يداهُ ورجلاهُ لانهُ باشر بها هذه الفعلة القبيحة وبقي ذلك الشلل الى ما بعد الرد ومذ اشعر ذلك التعيس بساجة اثمهِ اعطاهُ الله الذي لا يشاء موت الخاطي بل انهُ يتوب نعمةً عرف بها زلّتهُ وان مرضهُ ما كان الاّ قصاصًا عادلاً حتى ان وخز الضمير جعلهُ يذهب بالسجادة الى كنيسة القديس مايول حيثما اعترف بزلتهِ وطلب

عنها المغفرة وقد نال الشفاء على سبيل الاعجوبة بدعاء هذا القديس المشفّع. وقد حدث مثل هذا الشيء مرة اخرى عندما كان الاب الفاضل في المدينة عينها وذلك ان احد اللصوص دخل الاصطبل حيثما كان فرسهُ وقادهُ بألطف حيلةٍ بحيث لم يَرَهُ احد فجد بالهرب بما سرق الى مدينة لوديا حيث استطاع ان يقيم بلاخوف ولما رأى ذلك التعيس انهُ في مكان لا معرفة لأحد بهِ ولا بالفرس عرضهُ للبيع وعمل ما امكنهُ لترويجهِ ولكن الامر تعذَّر عليهِ والحاصل انهُ تحيَّر اخيرًا لانهُ لم يحضر احد ليشتريهُ ولما رأى امور التجار ناجحة عرف ان الله لا يشاء توفيقهُ في ما لا يملكهُ فتاب افضل توبة فقاد الفرس الى الموضع الذي كان قد اخذهُ منهُ واعترف بزلتهِ وبكل ما كان قد حدث لهُ وشكر القادر سبحانهُ قال هوذا الذي تعدّى على خدام الله وعلى ما اوصانا ان نحترمهُ من الاشياء كالاشخاص المخصَّصة بالله لان لله مزيد عنايةٍ بما يختص بهم

ولما كانت قد اقتربت ساعة وفاة القديس اوديلون تناول القربان المقدس وتزود بهِ ونعم الزاد ثم خاض في تامل المراحم الالهية بعذوبة العبادة وبينما هو على هذه الحال اذ اقبل الشيطان لكي يكدّرهُ ويبدل السلام بالتشويش فصلَّب القديس ونطق باسم يسوع ومريم فللحال فرّ اللعين بالخزي هاربًا ورجع القديس الى سكينتهِ الاولى حتى تُوفي بسلام في اليوم الاول من شهر كانون الثاني من السنة التاسعة والاربعين بعد الالف وكانت جملة حياتهِ سبعًا وثمانين سنةً وقد اظهر الله طهارتهُ بعد موتهِ بعجائب مختلفة

اليوم الثاني

وفيهِ ترجمة القديس مكاريوس الاسكندري

ان كثيرين من الاباء السياح كانوا يُدعون باسم مكاريوس ولا نروي هنا الأخبر اشهرهم طهرًا وهو الملقب بالاسكندري لانهُ وُلد في اسكندرية مصر في ابتداء الدهر الرابع. وكانت عائلتهُ دنيئة وابواهُ فقيرين ولاجل ذلك خدم خبّازًا بضع سنين. ثم اخذ يعمل الفطائر ويبيعها لاجل ضرورة معيشتهِ. الا ان الله الذي من عادتهِ ان يختار الضعفاء والادنياء في العالم ليُخزي الشرفاء والاقوياء. نظر الى مكاريوس ليصيرهُ اناءً مختارًا وبهِ اذلّنا وحقر تكبرنا وذلك باتضاعهِ وشدَّة تقشفهِ فاقام بين الموعوظين الغير المعمد بن ثلثين سنة. الا انهُ بعد ما اعتمد وتقوّى بنعمة السر اتجهت حينئذٍ كل افكاره واشواقه الى اكتساب الكمال المسيحي. وكان يطيب نفسًا حينما يسمع ما كان يُذكر عن الاباء السياح العائشين في الفيافي عيشة الملئكة وعزم على الاقتداء بهم وقد قال ان ثمن نفسي يوازي ثمن نفوس اولئك القديسين فلماذا لا اقتفي آثارهم وابذل جهدي بنعمة سيدي المخلص ثم خرج من الاسكندرية وابتعد منها واستتر في برية مدلهمة مخوفة وكانت عيشتهُ هناك بغاية القَشَف فانهُ مدة سبع سنين كان لا ياكل سوى الحشيش والبقول والعروق النيئة المرة. وفي الثلث السنين التالية اقتصر على اكل اوقيتين من الخبز في كل يوم. وقد وصل اخيرًا الى حد غاية الامساك حتى انهُ كان لا ياكل الا مرة واحدة في كل اسبوع. لانهُ كان يعد جسدهُ عدوهُ الاعظم. ويقول عنهُ ان هذا متفق مع المجرّب على الاضرار بي لكني اضعفهُ بالتقشفات المُعيية حتى يعود عاجزًا عن التمرد والمحاربة. فكان هذا القديس يصرف اكثر الليل مرتلاً التسابيح او متأملاً. ولانهُ مرة ما استحوذ عليهِ الرقاد فسها عن الصلاة عذَّب نفسهُ اشد العذاب بحيث بقي اياماً وليالي كثيرة واقفًا بدون ان ينام. ومنذ ذلك الزمان الزم نفسهُ بان لا ينام في كل ليل اكثر من ساعتين. وقد مشى على هذه الطريقة بقية ايام حياتهِ

اما في الصوم الاربعيني فكان يزيد تقشفًا على المألوف وقد قضّى مرة واحدة هذا الصوم منتصبًا على قدميهِ لم يرقد ولم ينم بل كان مواظبًا على الصلاة قائمًا او جاثمًا. ولم ياكل ويشرب الا في الآحاد. وقد اتفق يومًا انهُ بحركة طبيعية غير اختيارية قتل زُنبُورةً كانت تلسعهُ لكنهُ عندما انتبه الى ذلك احتدم غيظًا وندم على ما فعل. ثم مضى ودخل في برية مفعمة من الزنابير لا تقدر الحيوانات ان تسكن هناك مخافة لسعها الاليم. واما هو فقد مكث في تلك البرية ستة اشهر. فهذي كانت الاسلحة التي بها كان يقاوم شيطان الزناء ويظفر بهِ. لانهُ لما حاربهُ العدو النجس اقام ستة اشهر في أجمة مملوة زنابير سامَّة كانت اذا لسعت تنفذ حُمتها جلد الخنزير. ولما خرج من هناك كانت صورتهُ قد تغيرت كثيرًا حتى لم يكن احد يعرفهُ الا بصوتهِ لا من هيئتهِ. اما ابليس فلم يجسر بعد ذلك على ان يجربهُ بالزناء

ومن العجيب امعانهُ في التقشف ولم يكن يظن انهُ فعل شيئًا ما يؤّهلهُ لدار النعيم . ولا كان يتخيل لهُ انهُ يعرف طريق الفضيلة ومن ثم رام ان يمضي الى بقية السياح ليسألهم عنها ويتعلمها . فقام وذهب الى برية الصعيد لينتفع باقتفاء اثار الرهبان القديسين الذين عبقت اخبار طهرهم في كل مكان . ولئلا يعرفهُ احد تنكّر ولبس اثواب خادم لكي يتوغل في التنكر . واما القديس بخوميوس فقد عرفهُ بنور سماوي فاستقبلهُ وسائر آباء البرية بجزيل الاكرام والمحبة . فشق هذا الامر على القديس مكاريوس جدًّا فخرج من تلك البرية وطلب ملجأً لاتضاعهِ فوق جبال نيتريا على انهُ لم يختفِ امرهُ هناك زمنًا مديدًا لكون البطريرك الاسكندري لما عرف خبرهُ ارسل اليهِ اناسًا اتوا بهِ ورسمهُ كاهنًا . اما القديس فلما رأى انهُ قد ارتقى الى هذه الدرجة المقدسة ازداد شوقًا الى التقشف واكتساب الكمال فتباعد عن كل البراري المعروفة . وانفرد في أخوف براري ليبيا التي سميت فيما بعد برية القلالي من اجل كثرة القلالي التي بناها هناك الذين اتوا ذلك المكان ليتتلمذوا لهذا القديس

فالتزم وقتئذٍ ان يرشد التلاميذ الملتجئين اليهِ الى طريقة الكمال . وكانت درجتهُ الكهنوتية تحركهُ الى مساعدة الناس الا ان رغبتهُ في خلاص الغير لم تنقص شيئًا من اهتمامهِ في اكتساب الكمال . ومن ثم لم ينقص شيءٌ من تقشفاتهِ بحيث كان لم يزل يصلي في النهار مئة مرة ويحيي اكثر الليل في الصلاة المتوالية . وقد روى انهُ مرة واحدة بقي في الصلاة يومين كاملين من غير ان يشرد عقلهُ دقيقة واحدة كل هذا الزمان . واما موضوع تأملاتهِ الاعتيادية فما كان الا يسوع المصلوب . وقد ساغ لهُ ان يقول مع الرسول اني مصلوب مع المسيح وانا حي لكنني لست حيًّا بل ان المسيح هو الذي يحيا فيَّ (غلاطية ٢ : ٢٠)

ان محبتهُ للمسيح كانت تصيرهُ يتامل في الآمهِ غالبًا . وكذا عبادتهُ للجليلة مريم البتول فكانت تجعلهُ يتامل فيها اكثر اوقاتهِ تحت صليب ابنها . وكان يلتجئ اليها على الدوام وكثيرًا ما كان يوصي تلامذتهُ باكرامها والتعبد لها والالتجاء اليها عند كل مصيبة

وكان الله قد وهبهُ سلطانًا عظيمًا على الشياطين ولا سيما نور سماوي كان يعرف بهِ حيل ابليس ثم يظهرها للناس وفي هذا الشان قد ذكر الانبا بالاديوس عن نفسهِ انهُ كشف ضميرهُ لهذا القديس وبيَّن لهُ ميلهُ الى ترك رياضات الصلاة لكثرة الافكار الباطلة التي كانت تتفاقم عليهِ في ذلك الموضع فقال لهُ القديس ايّاك ان تُغلب بهذه التجربة الشديدة الخطر واني اشير عليك بان تطيل الصلاة قليلاً كل ما تبلبلت بتلك الهواجس واياك ان تنقص منها شيئًا البتة وقل للعدو ان كنت لا اقدر ان اصلي كما يجب فاني استمر في مخدع الصلاة حبًّا بالمسيح وقد استفاد بالاديوس جدًّا من هذه النصيحة ولما كان مسافرًا في النيل مع اثنين من قواد جيش الملك دنا منهُ احدهما وقال لهُ طوبى لكم انتم الذين تستهزئون بالعالم فاجابهُ الانبا مكاريوس ما اصح ما قلت . فما ظنك انت بسوء حظكم انتم الذين لا تدرون ان العالم يستهزئ بكم فاثر هذا التعليم في قلب القائد فهجر العالم وترهب . اما الشيطان فكان لا يخاف من القديس مكاريوس فقط بل من ذكر اسمهِ ايضًا . لانهُ اخرج الشياطين مرات كثيرة من اجساد الناس بمجرد اشارة الصليب . وقد اتى اليهِ كاهن ما معترًى بآكلة مربعة وخر قدامهُ طالبًا عونهُ فتحنن عليهِ القديس وشفاهُ ثم قال لهُ انما اصابك هذا المرض لانك تجاسرت على ان تقدم ذبيحة القداس الالهي في حال الخطية المميتة . ثم امرهُ ان لا يقدس قبل ان يفي عن نفاقهِ بتوبة نصوح

اما الملك والَنس الاريوسي فقد نفى القديس مكاريوس الى جزيرة كان جميع قطانها وثنيين فتنصروا كلهم على يدهِ ومن اجل ذلك اخرجهُ الاريوسيون من تلك الجزيرة وردوهُ الى بريتهِ الاولى ثم مات هناك في اواخر القرن الرابع . وكان عمرهُ تسعًا وثمانين سنة . وقد ذكر بالاديوس الذي عاصر القديس زمانًا مديدًا انهُ كان قصير القامة وضعيف المزاج

اليوم الثالث

وفيهِ ترجمة القديسة جينوفيفا

ان الله قد اقام القديسة جينوفيفا صورة حية للعفاف ومرآة للعذارى . وقد اعزَّ بها مملكة فرنسا اذ جعلها عاضدة لباريس مدينة السلطنة . وكانت ولادتها بنَنتير قرية قرب باريس نحو سنة اربعمائة واثنتين وعشرين . واما ابواها فقد كانا فقيرين في الدنيا غنيين في الفضائل لانهما كانا قد تنصَّرا

حينما كان الوثنيون يفسدون في بلد فرنسا. فلما بلغت البتول السنة السادسة من عمرها اظهر الله ما كان قد وضعهُ في قلبها من الفضائل . وفي ذلك العهد مرَّ من هناك القديس جرمانوس مطران مدينة اوسر وهو منطلق الى بلد الانكليز ليقاوم بدعة بيلاجيوس . فلما رأى تلك العذراء عرف بوحي الهي بهاء روحها الطاهرة فاستدعى ابويها وقال لهما ان السماء قد فرحت جدًّا بميلاد ابنتكما السعيدة لانها ستكون لخلاص كثيرين . اما الصبية المباركة فاظهرت للقديس عزمها على حفظ البكورية . وحينئذٍ اتحفها المطران بايقونة نحاس عليها صورة الصليب كعربون نذرها العفاف لسيدنا يسوع المسيح عروسها الالهي . وكانت تلك الايقونة دائمًا معلقة بعنقها . ثم اوصاها القديس بان تكون محتشمة في ملابسها وحركاتها بحيث ترغب عن الزينة التي من شانها ان تضر البنات ضررًا عظيمًا

فمنذ ذلك اليوم عزمت جينوفيفا على اتقان احتشامها في كل شيء حتى في مشيها وخطراتها وكثيرًا ما كانت تحجب الاخلاء بحيث كانت تتجنب مخالطة الناس ومخاطبتهم لكي تبقى مائلة بعواطف الشوق الى عروسها السماوي ولما امرها ابوها بان ترعى غنمهُ في البرية فرحت حتى اخذ السرور منها كل مأخذ . لانها كانت تصرف اكثر نهارها في الصلاة متحدة مع يسوع حبيبها برياضات المحبة . اما والدتها فلانها كانت تستغرب عبادة ابنتها وتستنكرها . امرتها يوم عيدٍ ان تمكث في البيت ولا تزور الكنيسة . فطلبت اليها الفتاة بحشمة ولجاجة وميل شديد الّا تمنعها عن زيارة عروسها السماوي . فاحتدمت والدتها غيظًا وبحركة الغضب لطمتها ولم تدعها تمضي معها الى الكنيسة وللحال انتقم الله منها بالعمى وبقيت عمياء مدة سنتين . ثم اخذت قليلاً من الماء وطلبت من ابنتها ان تصلي عليهِ فصلَّت ثم غسلت عينيها بذلك الماء فابصرت كعادتها .

فلما بلغت جينوفيفا العمر الواجب نذرت عفتها نذرًا مشتهرًا . وبحسب العادة التي كانت جارية بين عذارى ذلك الزمان شرعت تقتصر على اكل الاعشاب وشرب الماء وتلبس المسح كل حين وترقد على أديم الارض بغير فراش وتسهر بالصلاة كل ليلة احد وخميس وليلة كل يوم كانت مستعدة ان تتناول فيهِ القربان المقدس . وبعد موت والديها اتت الى باريس وسكنت في بيت اشبينتها وهناك كانت تعيش في الخلوة عيشة قشفة وتواظب على الصلاة فاصابها وقتئذٍ مرض عضال وقد اوشكت ان تموت لانها مكثت ثلثة ايام عادمة الحس . غير ان الله شرَّفها برؤيا عجيبة لانها رأت سعادة القديسين في السماء وشقاء الهالكين في جهنم. ثم انطلقت بالروح الى جبل المجلجلة ورأت المسيح مصلوبًا وصورة هذه الرؤيا نُقشت في مخيّلتها نقشًا لا يمحى. وما حازتهُ بهذه الرؤيا نعمة تمييز الارواح . وبهذه الموهبة كانت تطلع بسهولة على حيل الشياطين واسرار قلوب الناس . وكانت تستعمل هذه الموهبة لنفع النفوس اي انها كانت تنهى الناس عن خطاياهم الخفية وتحثهم على التوبة كما فعلت مع بنت كانت قد سقطت بعد ان نذرت العفاف في خطية الزناء فنصحتها القديسة على انفراد وعينت لها المكان واليوم والساعة التي اخطأت فيهنَّ فجذبها ذلك الى التوبة

وقد كانت هذه البتول جزيلة القنوت والامساك فيما سوى ما ذكرناهُ من تقشفاتها لانها كانت تمتنع عن الاكل بالكلية في خمسة ايام من الاسبوع وما كانت تاكل الا يومي الاحد والخميس وفي هذين اليومين ما كانت تاكل الا قليلاً من خبز شعير وفول مسلوق وقد مشت على هذه الطريقة منذ كان عمرها خمس عشرة سنة الى ان بلغت حد الخمسين وحينئذٍ امرها بعض الاساقفة ان تاكل السمك وتشرب اللبن

وقد امتحنها الله بتجارب مختلفة فمن ذلك انهُ ضربها بالبرص فتركها الجميع . غير ان عروسها الالهي لم ينفصل عنها بل كان يعزيها ثم شفاها واقامها اخيرًا مرشدة للعذارى والارامل اللواتي كنَّ في باريس . ولانها كانت هائمة بعبادة القديس ديونيسيوس الشهيد رامت ان تبني لهُ كنيسة فاخبرت بمقصدها بعض الكهنة الانقياء ولما رأى اولئك ان ذلك مستحيل اذ لا مادّة للبناء قالت لهم سترون غدًا بحول الله اناسًا يدلونكم على المادة التي يحتاج اليها البناء . وفيما كانوا في الغد سائرين في مدينة باريس سمعوا فلاحين يقول احدهما للاخر قد وجدت في غابة قريبة كثيرًا من الكلس والحجارة وباقي لوازم البناء . فاندهل الكهنة من نبوة البتول فشرعوا يبنون ذلك المعبد . ولما رأت القديسة ان خمر البنّائين كادت تفرغ صلّت فامتلأت الدنان حالاً خمرًا جيدة ولم تنفد حتى انهت

السنة وفي هذه الكنيسة اخرجت الشيطان من اثني عشر مجنونًا

وكانت هاتيك العذراء قد الفت الوحدة واعتادت ان تختلي وتستمر منفردةً منذ عيد المجوس الى يوم الخميس من الاسبوع العظيم . وهي ممارسة للصلاة والتقشفات في غرفتها . وقد كرَّم الله تلك الغرفة بالمعجزات المختلفة . فمرة اقامت هناك من الموت طفلاً كان قد توفي وما تطهَّر بحميم المعمودية . ومرَّةً اختنقت امرأة في حجرة البتول لكي ترى ما تفعل هناك فابتُليت بالعمى ولبثت على تلك الحالة اربعين يومًا . ثم صلَّت القديسة فوقها ففتحت عينيها

وقد اراد الله سبحانهُ ان يظهر طهارة هذه البتول بالتجارب بحيث شاع انها كاذبة مرائية فرماها الجمهور بالملامة وشنعوا على طريقتها وعجائبها بأكاذيب مموَّهة . وما اقتصروا على ذلك بل قالوا انها منهمكة في اللذات النجسة . وقد بقيت هذه التجربة الى ان عاد القديس جرمانوس من بلاد الانكليز وبرَّأها . ولكنها لم تستمر زمانًا طويلاً بالطمانينة والسلام لان الشيطان قد اصطادها . وقد تم الامر على هذا النسق وهو . ان اتيلا الملك الوثني بعد انتصاره على مملكة النمسا دخل بلاد فرنسا بخمسمائة الف جندي حتى دنا من باريس . فرام اهل المدينة ان يهربوا الى المدن القريبة الحصينة . واما القديسة جينوفيفا فكانت تنهاهم عن الخروج من باريس والهرب الى تلك المدن اذ تنبأَت انهُ لا ينزل بباريس ضرر البتة من قبل هذا الملك لكنهُ يفتك باهل تلك المدن الحصينة فاقنعت النساء وهن اقنعنَ رجالهن . غير ان كثيرين نسبوا هذه الى قوة شيطانية حتى حسبوها ساحرة قاصدة اهلاك اهل باريس واجمعوا فائتمروا على ان يحرقوها . ولما كانوا مستعدين لحريقها كان القديس جرمانوس في بلاد ايطاليا عند الملك فالنتينيانوس . لكنهُ عرف بوحي سماوي فبعث المطران بوكيلهِ وهو كاهن جليل القدر . فقال للشعب ان القديس جرمانوس يحترم هذه القديسة ويرغب كثيرًا في ان تساعدهُ عند موتهِ . ثم اثبت طهارتها السامية وعجائبها الباهرة وانهُ من المستحيل ان تكون مثل هذه ساحرة . فسكن وقتئذٍ رجز اهل باريس وهدأ غضبهم على جينوفيفا ومنذ ذلك الوقت شرعوا يحترمونها ولا سيما وقتما تمت نبوَّتها بحيث ان الملك اتيلا تجاوز مدينتهم ونهب المدن التي كانوا قد قصدوا الفرار اليها ثم بعد ان خرج اتيلا من فرنسا ومضى الى ايطاليا اتى ملك اخر وثني اسمهُ مرواج وحاصر مدينة باريس . فحدث غلاء شديد جدًّا حتى ان الفقراء كانوا يموتون في الشوارع من شدة الجوع . فتوجعت جينوفيفا للمساكين وخرجت من المدينة وطافت المدن والقرى تسأل الناس قمحًا لمساعدة الفقراء . ثم رجعت الى باريس باحدى عشرة سفينة مشحونة قمحًا

فبهذه العجائب شرَّف الله اسم هذه البتول واذاع خبر تورُّعها في مملكة فرنسا وفي الممالك البعيدة ايضًا حتى ان القديس سمعان العمودي الذي كان بينهُ وبينها مسافة من الارض لما رأى تجارًا فرنسويين طلب اليهم ان يبلغوا القديسة جينوفيفا السلام من قبلهِ ويسألوها ان تصلي من اجلهِ . وقد رُوي انها خاطبت في شان التبتُّل فتاة من بنات الاشراف اسمها سيلينيا وابانت لها كيف البتولات يعشن على الارض كالملئكة في السماء فالهبت هذه المذاكرة الروحية قلب سيلينيا واضرمت بهِ من لواعج الشوق الى حفظ العفة ما لا يكاد يوصف حتى انها فسخت عقد خطبتها مع رجل كثير الغنى . اما ذاك الغني فقد احتدم غضبًا حين علم بهذا ومضى ليقتل الاثنتين . الا انهما هربتا الى كنيسة كانت ابوابها مغلقة فانفتحت لهما ولما دخلتا أُغلقت من ذاتها وهكذا خلصتا كلتاهما من الموت وقد زهت سيلينيا بالتقوى وحُرر اسمها في سفر القديسات . حقًّا اننا لو ذكرنا عجائب القديسة جينوفيفا واحدة فواحدة لطال بنا الشرح وما اوردناهُ فهو قليل من كثير وفي الجملة فانها ما زالت تنمو بالورع والعجائب كل ايامها وماتت اخيرًا موتًا سعيدًا في باريس سنة خمسمائة واثنتي عشرة في اليوم الثالث من شهر كانون الثاني وكان عمرها تسعًا وثمانين سنةً

اليوم الرابع

وفيهِ ترجمة القديس غوريانوس الشهيد

ان القديس باسيليوس قد كتب ترجمة هذا الشهيد في المقالة التاسعة عشرة حيث يقول ان القديسين لا يحتاجون الى ان نجري لهم ذكرًا ونوجّه اليهم مديحًا لكننا نحن محتاجون جدًّا الى رواية اخبارهم لكي يتهيأ لنا الاقتداء بهم . لانهُ كما يخرج النور من النار والنفحة الطيبة من العطر الزكي كذلك من ذكر افعال القديسين نرى نور الهدى ونستنشق عرف التقى . فهذا القديس الذي نورد الان خبرهُ قد ولد في قيسارية

حيث كان القديس باسيليوس اسقفًا . ثم انتظم في سلك الجندية وصار قائد مئة وفي ذلك العهد نادى الملك المغتصب في كل شوارع المدينة بألّا يسجد احد ليسوع المسيح وان من يتعبد له يموت موتًا. ثم ارسل اناسًا حاملين على ايديهم اصنامًا من حجر وخشب ليلزموا الجميع بالسجود لها وان ابى احد اقتصّ منهُ بالموت . فاضطربت المدينة كلها لان جنود الملك كانوا ينهبون بيوت المسيحيين ويهدمونها ويمزّقون بالضرب اجسادهم وما كانت تأخذهم رأفة بولد صغير ولا شيخ كبير فكانت السجون ممتلئةً والبيوت خالية خاوية والبراري مشحونة من اناس مطرودين لاجل العدل حتى كان الاب يضطهد ابنهُ والابن اباهُ والعبد ينهض على سيدهِ والصديق على صديقهِ ثم خرّبوا الكنائس واخرجوا الكهنة ودمّروا المذابح المقدسة ابتغاء ان يبيدوا الذبيحة الالهية والعبادة . فلما رأى ذلك هذا القائد القديس ترك منصبهُ وباين بيتهُ ورفض الوجاهة ومقت الغنى وكره رفاهية العيش ففر هاربًا وسكن البراري غير معروف من البشر مفضلاً مجاورة الوحوش الضارية على السكن مع عبدة الاصنام مقتديًا بايليا النبي الذي لما رأى ان نفاق إزابل وتبعتها يزداد يومًا فيومًا هرب واختفى في مغارة جبل خوريب لئلا يرى المنافقين . واما غوريانوس فبعد ان وصل الى المكان المقصود شرع يروّض نفسهُ بالسهر والصوم والصلاة وتلاوة الكتب المقدسة وحينما رأى ان نفسهُ متدججة بسلاح الورَع ومتأهبة للحرب الروحية عزم بالهام الله على ان يدخل ميدان الوغى. فاختار يومًا قد اجتمع فيهِ شعب قيسارية ليروا بعض الفوارس يتنزهون بالمراهنة اكرامًا لصنم يُدعى اله الحرب . فلما جلس الجميع ليبصروا هذا المنظر حضر القديس بغتةً ودخل في وسط الميدان وصرخ من مكان مرتفع نحو الوثنيين بصوت عالٍ قائلاً مع النبي هانذا قد وجدت بين الذين لم يطلبوني وظهرت علانيةً امام الذين لم يسألوا عني (اشعيا ٦٥ : ١) اني جئت الى ههنا باختياري وتقدمت الى الحرب من تلقاء نفسي. فلما قال هذا التفت اليهِ الجميع ولما عرفوهُ صرخوا فليمت . فتقدم الى مدبّر المدينة واعلمهُ باسمهِ وبما كان عليهِ وكاشفهُ بعلة هربهِ فسألهُ حينئذٍ المغتصب ما بالك قد رجعت الى ههنا بعد الفرار فاجاب ذلك الباسل اني قد أبيت قصدَ ان اعلمك وهذا الجمهور اني ازدري بك واعصي اوامرك الا اني عابد الهي يسوع المسيح الذي هو رجائي وقوّتي ولذلك اذ قد سمعت انك اشرس الناس خلقًا واقساهم قد جئتك امام هذا الجمع الغفير

اما المغتصب فقد تلهّب غيظًا من ذلك الكلام وصرخ نحو خدام غضبهِ هلمّ فاعدوا الآت اقسى العذاب واشنع الميتات بل اخترعوا عقوبات اشد من الاولى أطلقوا عليهِ الوحوش المفترسة وأوقدوا نارًا ليحرق بها ويموت . اجابهُ الجندي بشجاعة عجيبة من لي بان ينعم الله عليّ بذلك واتعذب بجميع ادوات رجزك واموت حبًّا بالمسيح تبارك اسمهُ . ثم طفق يرتّل آية النبي اني على الله توكلت فلا افزع مما يصنعهُ بي ذو جسد لا اخشى الشر لانك معي (مزمور ٥٥ : ٥) ثم التفت الى الناس المستعدين لتعذيبهِ وحرّضهم بقولهِ لماذا تبطئون خذوا جسدي واقطعوهُ اربًا اربًا افعلوا بي كل ما تريدونهُ اضربوني بغير شفقة زيدوني عذابًا وضربًا فازيد ثوابًا واجرًا

لكنما المغتصب اذ رأى انهُ لم يستفد من الوعيد شيئًا اخذ يحتال عليهِ فوعدهُ برتبة شريفة في الجندية الا انهُ لم يعبأ بكل ذلك واحتقرهُ كالزبل فوغر صدر المغتصب من تلك الجراءة واظهر غضبًا لا يوصف . ولان هذا الخبر كان قد شاع في كل المدينة اسرع من كان باقيًا فيها ليروا هذا المنظر العجيب فدنا منهُ اقرباؤهُ واصحابهُ وعانقوهُ بمحبة وطلبوا اليهِ بدموع سخينة ان ينجي نفسهُ من النار المعدّة لهُ ولا يموت في عنفوان عمرهِ . وقال لهُ قومٌ انهُ حيث انك تريد ان تكون مسيحيًّا احفظ ايمانك بالمسيح في قلبك واجحدهُ بفمك فقط لانهُ لا يغتاظ الله تعالى من كلام اللسان بل من نوايا الجَنان . غير ان ذلك لم يثنهِ عن عزمهِ ولا حوّلهُ عن هواهُ فقال لهم بغيظ مقدس اغربوا عني ايها الذين يغرونني بان اخون ربي . انهُ لمن المحال ان لساني الذي وهبني اياهُ سيدي يسوع يكفر بهِ . لانهُ لا يكفي للتبرير ان يؤمن القلب فقط بل ان الخلاص يقتضي كما قال الرسول ان يعترف الفم بهِ ايضًا (رومية ١٠ : ١٠) فباطلاً اذًا تكلموني بهذه البراهين الملتوية لاني مستعد ان اموت لا مرة لكن الف مرة من اجل سيدنا يسوع المسيح فكيف لا اقتفي اثار قائد المئة الذي حضر موت المسيح . واذ تحقق الوهيّتهُ بالعجائب لم يستحي من ان يعترف بهِ تعالى علانيةً امام صالبيهِ . فقد اعترف فمهُ بما كان في قلبهِ . واني لا اتذكر رجلاً اخر قائد مئة قد اعترف بالسيد المسيح وقال بحقهِ رب المجد انهُ لم يرَ مثل ايمانهِ في اسرائيل ولقد اردت ان اكون نظيرها

فكيف اجحد ابن الله الذي وهبني كل ما لي . فلو كفرت بهِ لوجب ان تنخسف الشمس بالظلام لئلا تبصر خيانتي وتنفتح الارض فاها لتبتلعني وتحدرني الى جهنم فلا تضلوا ان الله لا يُهزأ بهِ وسيدينا على ما تنطق بهِ افواهنا . اما قرأتم قولهُ هذا العزيز من ينكرني قدام الناس انكرهُ قدام ابي الذي في السموات (لوقا ١٢ : ٩) . ولماذا تريدون ان احتال في ما يخص ايماني أَلكي تطول حياتي وتتأخر وفاتي فاني اذا تبعت مشورتكم خسرت الحياة السماوية التي لا نهاية لها . ام لانكم تقصدون ان انجو بذلك من عقوبات المغتصب . على اني اذا فعلت ما تحثوني عليهِ فلا احظى بسعادة الابرار . ومن ثمَّ احسب مشورتكم ضربًا من الغباوة دعوا عنكم كل مكر وحيلة واعترفوا معي علانيةً ان سيدنا يسوع المسيح هو في مجد الاب وانهُ ينبغي ان تجثو لهُ ساجدةً كل ركبة في السماء وعلى الارض وتحت الثرى . اربحوا حياة الابد بموت زمني ولانهُ ينبغي لكم ان تموتوا مرةً واحدةً اقبلوا اذًا الموت برضا وسرور حبًّا بالرب يسوع . ثم عمل على وجههِ اشارة الصليب المقدس وهجم على عذاب الموت طليق الوجه وسلَّم نفسهُ الى السياف كانهُ يسلمها بيد الملئكة فرفع وقتئذٍ السياف سيفهُ وقطع راس القديس . وكان ذلك في السنة الرابعة من القرن الرابع

اليوم الخامس

وفيهِ ترجمة القديس سمعان العمودي

قال العلامة تاودوريتوس راويًا ترجمة هذا القديس انهُ لقد عرف جميع الخاضعين لسلطان رومية اليونانيون والحبشيون والهنود والعجم فضل قدس سمعان العمودي الذي عاشرتهُ حتى عرفت من فضائلهِ فوق ما عرفوا . غير ان ما نرويهِ من اخبارهِ هو مما لا يكاد الاكثرون يصدقونهُ بما انهُ على حد الغرابة وما هم الاَّ متوانون يقيسون الناس على انفسهم حتى انهم يعدُّون من المستحيل ما فوق قوتهم ولما كان ذلك دأب القوم العاجزين فقط وهو بالمكان البعيد عن الذين يلاحظون قوة النعمة الالهية من اجلهم عوَّلت ان اورد هنا ما قد شاهدتهُ انا واخبرهُ معي اناس لا يحصى عددهم . هذا ما قالهُ تاودوريتوس في اوَّل هذه الترجمة

اعلم ان القديس سمعان العمودي ولد في سيسان ضيعة بنواحي سورية سنة ثلثمائة واثنتين وتسعين . وكان ابوهُ راعي غنم فمن اجل ذلك رعى الغنم في صباهُ فاتفق ذات يوم انهُ لكثرة الثلج لم يقدر ان يخرج الاغنام الى المراعي فمضى الى الكنيسة ليحضر القداس وكان عمرهُ ثلث عشرة سنة فسمع هذه الآية الانجيلية طوبى للنائحين فسأل شيخًا عن معنى هذه الاية السيدية فاوضح لهُ الشيخ الصالح حسن سعادة الذين يهجرون العالم ويمارسون افعال التقشف متاملين كل حين سيدنا يسوع المسيح على الصليب . فاحب سمعان ان ينهج هذا المنهج السماوي فانطلق حالاً الى برية ومكث هناك سبعة ايام وسبع ليال صائمًا لا ياكل ولا يشرب واستمر جاثيًا على الارض مصليًا ووجههُ معفَّر بالتراب وعيناهُ تذرفان الدموع . ثم قام وذهب الى رجل من فضلاء العبَّاد اسمهُ اليودوروس كان رئيس دير في تلك النواحي ومكث تحت تدبيرهِ عشر سنين وقد تقدم جميع الرهبان في التقشف مع ان منهم من كانوا ياكلون مرةً في النهار ومنهم من كانوا يطوون يومين لا ياكلون شيئًا . اما القديس سمعان فكان يطوي ستة ايام بلا اكل ولا شرب وكان يصطنع الى الفقراء بحصتهِ . ولم يكتفِ بهذا لكنهُ لفرط ما كان قلبهُ يراح للتقشف حبًّا بسيدنا يسوع المسيح المصلوب اخترع تقشفات مؤلمة جدًّا واستعملها . ومنها انهُ شد وسطهُ بحبل من الخوص شدًّا عنيفًا حتى انهُ بعد عشرة ايام غرز ذلك الحبل بلحمهِ . فسال من جراحتهِ دم وانبعثت رائحة النتانة ومن ذلك عرف الاخوة ولم يمكن ان تنزع تلك الحبلة الا بألم شديد . ولما ارادوا ان يداووهُ ابى سمعان العلاج لانهُ لم يحتمل ان يكون بلا تألم عظيم . فتحير الاخوة من طريقتهِ هذه وطلبوا من الرئيس ان يخرجهُ من الدير لئلا يصير شكًّا للضعفاء فيقتدوا بهِ . فخرج سمعان ودخل برية قريبة من هناك فوجد فيها بئرًا ناشفة فسكنها مرتلاً التسابيح الالهية ليلاً ونهارًا . الا انهُ لم يمكث هناك الا خمسة ايام فقط لانهُ بعد خروجهِ من الدير رأى الرئيس في الحلم اناسًا لابسين ثيابًا بيضاء يطلبون منهُ بتوعد سمعان الرجل القديس الذي طُرِد من الدير باهانة . فلما انتبه ارسل حالاً الاخوة ليطلبوا القديس في البراري القريبة وامرهم بردهِ الى الدير . فوجدوهُ في البئر المذكورة وبالكد الكلي اخرجوهُ من هناك لانهُ لم يرد ان يرجع مخافة ان يصدُّوهُ عن التقشفات . فعاد الى الدير واقام فيهِ ثلث سنين فقط لانهُ أَنِفَ من احترام الرهبان لهُ . فخرج من هناك باذن الرئيس واختار لسكناه مكانًا خربًا لبث

فيهِ ثلث سنين . ثم عزم على ان يقتدي بالسيد المسيح ويصوم مثله اربعين يومًا . فطلب من كاهن يقال لهُ باسوس ان يسد عليهِ باب مسكنهِ سدًّا محكمًا ويتركهُ اربعين يومًا بلا اكل ولا شرب . فقال لهُ الكاهن ان هذا فعل من يجرب الله فاخذ حينئذٍ خبزًا وجرة ماء فلما انتهى الاربعون يومًا عاد اليهِ باسوس فوجد الماء والخبز كما كانا غير انهُ الفى سمعان مشرفًا على الموت عديم الحركة فناولهُ القربان المقدس . وهذا القوت الالهي اعاد اليهِ قوتهُ الأولى ومن اجل ذلك عزم على ان يصوم كل سنة صوم الاربعين على هذه الكيفية . وقد ذكر تاودوريتوس انهُ حينما كان يكتب ذلك كان هذا القديس قد صام هكذا صوم الاربعين ثماني وعشرين سنة

فهذه التقشفات كلها وان كانت عظيمة متزايدة الّا ان هذا القديس كان يستخفُّ بها ويستحقرها عند نظرهِ يسوع مصلوبًا فمن ثم صعد الى قمة جبل واوثق هناك رجليهِ بسلسلتين من حديد طولها عشرون ذراعًا وعلقهما على صخرة لكيلا ينتقل من هناك ولو اراد ذلك . وهناك كانت عيناهُ تبصران السماء دائمًا وقلبهُ لم يزل متنهدًا من فرط ما كان يراع لسيدنا يسوع المسيح . ولما زارهُ ملاتيوس اسقف انطاكية الجزيل البر رآهُ موثقًا بالقيود فسألهُ عن سبب ذلك فاجابهُ سمعان انني قصدت بهذا ان أقيد نفسي . اما الاسقف القديس فانكر عليهِ ذلك وقال لهُ هذا انما يخص الحيوانات لا الانسان الذي يتدرَّب بالعقل وليس لهُ الا رباط محبة المسيح . وقد تبيَّن حينئذٍ ان الفضيلة الحقيقية تكون بعيدة من كل عناد لانهُ لما سمع كلام هذا الاسقف اللبيب نجع فيهِ النصح وطلب من الحداد ان يقطع قيوده . وقد ذكر القديس ملاتيوس انهُ لما انقطعت الحديدة التي على رجلي القديس وكان عليها من داخل قطعة من الجلد وأخرى من الصوف حتى لا تجرح رجله ابصر في الجلد عشرين بقة منتنة كان القديس يحتمل قرصها ليستعد ويعتاد على اشد الالم

فانتشر خبر سيرته العجيبة في كل مكان فكان الناس اتون اليهِ من كل ناحية قوم شفاء لامراضهم وقوم تنقيًا من خطاياهم وكلٌّ كان ينال مطلوبهُ . وكانوا يشهرون عند رجوعهم الى اوطانهم ما يصنع الله من العجائب على يد عبدهِ . فبدأ الناس ينقاطرون اليهِ من فرنسا ومن اسبانيا وبلاد الانكليز وكثيرًا ما كان خبرهُ شائعًا في ايطاليا حتى ان اكثر الناس كما ذكر تاودوريتوس كانوا يصوّرون صورتهُ ويضعونها في بيوتهم . فلما رأى القديس ان جموع الناس الآتين اليهِ ليقبلوا يديهِ او ثيابهُ ويلتمسوا بركتهُ قد كثروا جدًّا افتكر في كيفية التخلص من هذه الكرامة ليمارس الصلاة باوفر سكينة . فصعد فوق عمود كان علوهُ اولاً ست اذرع ثم زادهُ ستًّا اخرى وبعد قليل زادهُ ايضًا ثماني ثم اعلاهُ حتى صار ثلاثين ذراعًا . واما العمود فكانت دائرة قمتهِ زهاء ستة اشبار وحولها مسند علوهُ نصف قامة انسان . وقال المعلم تاودوريتوس الذي شاهد ذلك عيانًا ان الله بتدبير عنايتهِ الخصوصية حرَّك القديس على هذا العمل العجيب تنشيطًا للمؤمنين الفاترين وتخجيلاً لهم بحيث يلبسون شعار الخزي عندما ينظرون ايضًا سيرة هذا القديس الجزيل التقشف وانارة للوثنيين حتى اذا طلعت عليهم شمس الهدى يعترفون بان سيدنا يسوع المسيح هو مخلص العالم والهه. وبالتالي فقد اقامهُ الله تعزية للكاثوليكيين وتوطيدًا لهم في الايمان المستقيم تجاه الاراطقة الذين كانوا يتجسّسون الكنيسة الشرقية في ذلك الزمان كما سيأتي . واما ما يستغرب سماعهُ ويبعد تصديقهُ فهو كثرة عدد الناس المؤمنين وغير المؤمنين المقبلين عليهِ من كل فجّ وصقع ليبصروهُ ويسمعوا كلامهُ ويتبركوا منهُ وينالوا بواسطتهِ حسنات اخر روحية وزمنية . وقد كان هو يعظ الجميع ويحثهم على خلاص النفس . فمن ثم تنصّر كثيرٌ من الوثنيين وخرج كثير من المؤمنين من حمأة الخطايا ومرضى كثيرون نالوا بهِ الشفاء ذلك وانّا نضرب هنا عن ذكر آيات كثيرة كان يجريها الله على يدهِ بروح النبوة

ويا ما اشدَّ ما اندهش المعلم تاودوريتوس من صبر هذا القديس وثباتهِ لانهُ كان يصلي ليلاً ونهارًا تارةً واقفًا وطورًا جاثيًا . وحينما كان يصلي واقفًا كان يكثر من الركوع وقد رام خادم تاودوريتوس ان يعرف عددها فلما كان يومًا قد عد منها زهاء اربعين ومئتين والف ركعة ضجر وامسك عن العدد . وكانت جبهتهُ تمس قدميهِ عند الركوع ولم يكن يأكل الامرة واحدة في كل اسبوع وكان باحدى رجليهِ جراحة عظيمة يسيل منها كثير من القيح ومع هذا كلهِ كان كانما الالم المٌّ بغيرهِ

وفي ذلك الزمان زارهُ رجل شريف جدًّا وبعد ان تأمل هذه الشؤون كلها استحوذ عليهِ العجب فصرخ نحو

القديس قائلاً ناشدتك الله الذي تجسد من اجلنا ان تقول لنا أأنت انسان حقًّا ام خليقة اخرى تتراءى كانسان. فطلب القديس من الحاضرين ان يأتوا بسلم ثم كلف الرجل الشريف ان يصعد عليها الى قمة العود. فلما صعد أذن له القديس ان يلمسهُ من فوق مسحه المغطي كل جسده ويمس رجليهِ ايضًا فابصر وقتئذٍ الجراحة المذكورة ونزل متعجبًا معتقدًا حقيقة ناسوت القديس. وقد كانت لهُ عادة اخرى وهي انهُ قبل كل عيد شريف كان يستمر واقفًا على عمودهِ رافعًا يديهِ من افول الشمس الى طلوعها في اليوم الثاني

ولقد كان هذا القديس الشديد القساوة على نفسهِ يظهر للجميع كمال الانس والرفق والحنو والبشاشة محببًا الجميع بكل لطافة ومحبة اغنياء كانوا ام فقراء علماء ام جهلاء. وكان يعظ كل يوم مرتين محثًّا الجميع على احتقار الارضيات وطلب السمويات وذكر الاشياء المستقبلة. وكان قد وزَّع اعمالهُ على ساعات النهار بترتيب فكان يصلي صباحًا ثم يعظ ثم يرد جوابًا للذين يسألونهُ ويصالح الخصوم والاعداء ثم يعود الى صلاتهِ

اما اهتمامهُ في ضرورات الكنيسة مع اشتغالهِ بالنسك فكان امرًا عجيبًا على ان لم يكن يبرح متضرعًا الى الله ليحفظها ويدبرها مفتكرًا في ما يفيدها مكاتبًا الاساقفة والملوك بما يجب عليهم. مفحمًا الوثنيين واليهود والاراطقة بالادلة اللامعة وبراهينهِ الساطعة القاطعة. واقول على الاطلاق انهُ كان للجميع ملجأً مصلحًا ونورًا مرشدًا ومعلمًا. ومن جملة الملوك الذين نصحهم هذا القديس تاودوسيوس الصغير ولاون. وهما كانا يكاتبانهِ ايضًا ويطلبان صلواتهِ من اجلهما ومن اجل الكنيسة وقد انتصر تاودوسيوس على العجم انتصارًا عظيمًا بصلوات هذا القديس. وبنصائحهِ رجعت افدوكسيا الملكة عن الارطقة التي كان أوقعها بها راهب ارطوقي. ولما عرف القديس ان الملك تاودوسيوس ابرز امرًا بان يرد الى اليهود في مدينة انطاكية بعض هياكل كان المسيحيون قد امتلكوها منهم كتب اليهِ حالاً ووبَّخهُ على ذلك جدًّا وحثهُ كل الحث على ابطال ذلك الامر والتوبة عنهُ. فقبل الملك توبيخ القديس باحترام ورجع في الامر المذكور وارسل اليهِ يطلب الامداد بالدعاء

اما السياح القديسون فخالج قلوب بعضٍ منهم ان سمعان جرى على هذه الطريقة المستغربة بروح العجرفة فاجتمعوا ليفحصوا عن هذا الامر. وبعد الفحص الدقيق مضى اثنان منهم اليهِ باتفاق الاكثرين. ولما وصلا الى عمودهِ قالا لهُ قد اتيناك من قبل رؤساء السياح المكرمين فهم يقولون لك اننا لمتعجبون من انك قد حدت عن منهج الفضيلة الذي نهجهُ وسلكهُ القديسون. ونهجت طريقة لم يسلكها سالك ولم يعرفها ناسك قبلاً. ولهذا نامرك بان تنزل حالاً عن عمودك. فحالاً طلب القديس سلمًا لينزل. وحينئذٍ قال لهُ الرسولان هذا يكفي يا ابانا فقد تحققنا من طاعتك ان الله معك وان روحه يهديك في هذا الطريق الفريد فاستمر حيث انت ولا تنزل لانهُ بهذا اوصانا الذين ارسلونا اليك

ألا اعتبر ايها اللبيب ما لحظهُ هنا الكردينال بارونيوس وهو ان القديس سمعان عاش على عمودهِ اقل ما يكون ثمانين سنة. ولاثبات ذلك يقول اما صعودهُ الى عمودهِ فقد كان في عهد القديس ملاتيوس اسقف انطاكية الذي توفي سنة ثلثمائة واحدى وثمانين. اما وفاتهُ فكانت في اليوم الخامس من شهر كانون الثاني في السنة الرابعة من ملك لاون الاول اعني في سنة ستين واربعمائة للتجسد الالهي. فيتحصَّل من ذلك ان القديس عاش اكثر من مئة سنة. ولعمري ان هذا امر عجيب جدًّا في من عاش مثل هذه العيشة القشنة فياليت شعري من ذا الذي لا يتعجب من ان انسانًا كبقية الناس استطاع ان يستمر اكثر من ثمانين عامًا على ذلك العمود عرضةً لحر الصيف وبرد الشتاء وعصف الرياح واختلاف الفصول. وكان لا يتخذ من الاكل والنوم والراحة ما تقتضيهِ ضرورة الطبيعة بل كان مذللاً جسدهُ بتقشفات فوق طاقة الانسان ومواظبًا على الصلاة اكثر النهار والليل. بل ليت شعري من ذا الذي لا يمجد الله على انهُ اظهر ما يقدر عليهِ ضعفنا المُعان بيدهِ القادرة. او من ذا الذي يفشل قلبهُ في طريق الفضيلة مهما تعاظمت الخطوب بعد نظرهِ الى تلك الطريقة التي استمر عليها ماشيًا هذا القديس سنين عديدة. ولعمري ان سيرتهُ من اكبر دواعي الاستغراب وليس في وسعنا ان نسير مثلها غير انهُ لنا ان نقول ان الله اقامهُ في كنيستهِ قدوة الفضل لكي نسبح بمجد الله الذي منحهُ هذه القوة. ولا نفشل متضجرين يائسين متقهقرين في سبيل الفضيلة بل نبني على الله اتكالنا راجين منهُ العون لنكمل سيرنا ونصل الى الوطن السعيد السماوي

فلما شعر هذا القديس ان وفاتهُ قد دنت ازداد في صلواتهِ وتقشفاتهِ حرارةً حتى حضرتهُ المنية حينما كان يصلي راكعًا ولم

يشعر تلميذه انطونيوس بموتهِ الا بعد ثلثة ايام لانهُ كان يظن ان معلمهُ متأمل كعادتهِ ولما انتشر خبر موته حضر بطريرك انطاكية مع ستة اساقفة وقوم من اشرف قواد جيش الملك. ومن جنود الجيش ستة الاف ونقلوا جسدهُ الى انطاكية باحتفال وشرف عظيم وفيما كانوا آتين بهِ في الطريق صنع كثيرًا من العجائب

تنبيه

اعلم ان سمعان العمودي ثلثة من القديسين فالاول هو الذي اوردنا هنا ترجمته وقد يسمى سمعان العمودي الكبير. والثاني كان اسمهُ سمعان العمودي الصغير وهذا كان عائشًا في اواخر الجيل الخامس وقد ذكرهُ القديس يوحنا الدمشقي في عظتهِ الثالثة على الايقونات. اما سمعان العمودي الثالث فعاش في بلاد كيليكيا ومات بصاعقة انقضّت عليهِ وهو الذي ذكرهُ صفرونيوس في الفصل السابع والخمسين من كتاب المرج الروحي

اليوم السادس

وفيهِ عيد المجوس

اعلم ان هذا العيد الشريف يسمى باللغة اليونانية ابيفانيا اي ظهور السيد المسيح في العالم. وان الكنيسة تعيّد تذكارًا لثلثة اسرار تمت في هذا اليوم عينه غير ان وقوعها كان في سنين مختلفة فهي مختلفة الاعوام الا انها متفقة الايام. فهذا ما تسلمتهُ الكنيسة من التقليد القديم. واما تلك الاسرار فهي سجود المجوس واعتماد المسيح واعجوبته الأولى. فبالسر الاول ظهر سيدنا يسوع المسيح للمجوس الذين اتوا وسجدوا له واعترفوا انهُ مولاهم والههم ومخلص العالم. اما في السر الثاني فسُمع صوت من السماء ينادي بانهُ هو المسيح. وباعجوبتهِ الاولى أظهر تعالى قدرته الضابطة الكل. فلنتكلمن عن هذه الاسرار فردًا فردًا

نقول اولاً ان الكنيسة تعيّد ذلك اليوم السعيد الذي ظهر فيهِ للمجوس ابن الله المتقمّص شعار الناسوت لانهُ اذ كان هذا الرب ملك العالم قد اتى لاجل خلاص البشر احب ان يعرفهُ البعيدون منهُ والقريبون اليهِ من الرعاة والملوك من الجهلاء والعلماء من الفقراء والاغنياء من العبرانيين والامم لكي تجمع معرفة الله الناس طرًّا. وكان الكتاب قد تنبأ عن ذلك لانهُ قال بلعام النبي انهُ سيخرج كوكب من يعقوب ويقوم عصًا من اسرائيل وتضرب قوّاد مواب وتبيد جميع بني شيت ويكون ادوم ميراثهُ (عدد ٢٤ : ١٧) مشيرًا بذلك الى ان كل هذه الشعوب وجميع اولئك الامم يخضعون لعصا سيدنا يسوع المسيح وقضيب ملكهِ. وقد تم ذلك بتنصّر الامم. ثم ان داود النبي والملك قال ايضًا بروح النبوة: ملوك ترسيس والجزائر يقدمون له هدايا وملوك العرب وسبا يقربون اليهِ العطايا ويسجد لهُ جميع ملوك الارض وكل الامم تتعبّد لهُ (مزمور ٧١ : ١٠) وكذلك قال اشعيا النبي وبقية الانبياء (اشعيا ٦٠ : ٣). فاذًا كما ان ابن الله عند مولدهِ الزمني ارسل مَلَكًا ليُبشّر الرعاة بانهُ ولد مخلص العالم ولذلك اتوا كانهم مقدموا جماعة اليهود فسجدوا لهُ تعالى اراد ان يلوح في ذلك الحين نجم في المشرق يضيءُ للمجوس ويجذبهم بنورهِ الساطع الى ان يتبعوا سيره. فهداهم الى بيت لحم حيث خرّوا لهُ ساجدين معترفين انهُ ربهم والههم

اما هولاء المجوس فكانوا اناسًا بارعين في العلوم لذلك دُعوا مجوسًا لان علماء العجم كانوا يُدعون مجوسًا واليهود كَتَبةً واليونانيين فلاسفةً والمصريين انبياءَ واللاتينيين حكماءَ. وقد كان اولئك اوفر علمًا من سائر الناس ولاسيما بمعرفة الاجرام الفلكية. وقد عرفنا من التقليد الكنائسي انهم كانوا ملوكًا ايضًا. ويشهد بذلك القديسون كبريانوس وامبروسيوس وايرونيموس واغسطينوس وفم الذهب وترتوليانوس وثاوفيلكتوس ومن المحقق ان الشرقيين كانوا ينتخبون اناسًا علماء ليقيموهم ملوكًا. ولما كانت الخلافة بالارث كان ولي العهد يجهد نفسهُ في تحصيل العلوم التي تصيّر الانسان حكيمًا كما ذكر افلاطون في كتاب صنّفهُ في تربية ملوك العجم. وانما الغى الانجيل المقدس ذكر هذا اشارةً الى انهُ لا يجوز لاحد ان يُدعى ملكًا تجاه سيدنا يسوع المسيح ملك الملوك ورب الارباب. وكانوا كهنةً ايضًا بحسب عادة العجم الذين ارادوا ان يكون مفسر الاشياء الدينية ومقدم ذبائح الناس وصلواتهم ملكًا لكي يكون الكاهن في الشعب افضل احترامًا واكثر هيبة. وقد جرت تلك العادة وقتًا عند اليهود فان العهد القديم يخبرنا ان ملكيصاداق كان ملكًا وكاهنًا معًا. وكذا عالي وصموئيل كانا على الشعب كاهنين وقاضيين. وكان المكابيون من نسل الكهنوت فالثلثة المجوس المدعوّون

كسبار وبخنصار وملكون رأوا نجماً في الشرق كما قالوا هم . غير انهم لم يروهُ في الشرق الحقيقي بل في العربية الملقبة باليمن او في بلدة اخرى قريبة منها بالنسبة الى بلد فلسطين كانت شرقية . اما النجم الذي ابصروهُ فلم يكن نجماً حقيقيّاً بل كان جرماً مركباً شبه نجم . فكان يضيء في الجو ضوءاً غير مألوف . فهذا النجم مختلف جدّاً عن بقية النجوم لان تلك خُلقت لتمييز النهار من الليل واما هذا فقد خُلق ليشير لنا الى ان النور الازلي قد اشرق على العالم . لان بقية النجوم ثابتة ما دامت السماء اما ذلك النجم فمن بعد ان اضاء للمجوس واراهم المذود حيث كان ابن الله موضوعاً اضمحل حالاً وعاد الى المادة التي خلق منها . ولان تلك النجوم ايضاً لا تُرى الاَّ في الليل اما هذا فلاجل ضوئهِ العجيب كان يُرى في النهار ولان تلك معلقة بالاطلاس والسماء التامة . اما هذا فكان سيرهُ في وسط الجوّ قريباً من الارض ليبصرهُ المجوس ويتبعوهُ

فلما شاهد المجوس هذا النجم العجيب فهموا حالاً ما يشير اليهِ وكان لديهم كلسان سماوي يكلمهم . لانهم من جهة كونهم من بلاد بلعام ومتتلمذين لتعليمهِ عقلوا وقتئذٍ انهُ هو النجم الذي تنبأ عنهُ حينما قال سيخرج نجم من يعقوب اعني بهِ سيدنا يسوع المسيح الذي خرج من اصل يعقوب وظهر في العالم كنجم ليضيء للناس ويجذبهم الى معرفتهِ ومحبتهِ . فبهذه النبوة المشهورة في بلدتهم عرفوا ميلاد مخلص العالم وقد اضاء في باطنهم نور آخر روحي الهي فالتهبت قلوبهم بالنار نار الارتياح الى مشاهدة ذلك الرب الذي كان يدعوهم اليهِ دعوة خارجة وباطنة . فعزموا على طلب الملك الجديد المرموز اليهِ بالنجم وتركوا ارضهم وآل بلاطهم وترفهات عيشتهم مزدرين بكرامات مملكتهم وتنعمها واموالها وسافروا طالبين يسوع سفرًا شاسعاً مستصعباً خطرًا . وقد ساروا نحو اثني عشر يوماً وكان النجم يسير معهم ويهديهم كما كانت السحابة المضيئة تهدي بني اسرائيل في سفرهم الى ارض الميعاد . ولما اقتربوا من اورشليم غاب النجم عن نظرهم . وقد دبر الله الامر هكذا لكي تدخل الملوك هذه المدينة لظنهم ان ملك اليهود قد يولد في عاصمة مملكتهِ فيشتهر خبر مولد المسيح في اورشليم ونواحيها فلما دخلوا اورشليم طفقوا يسألون قائلين اين هو المولود ملك اليهود . فاضطرب هيرودس جدّاً وذلك لانهُ كان ملكاً دخيلاً مغتصباً ادومياً لا يهوديّاً . فقد اختطف الملك وقتل الذين كانوا من اصل داود والمكابيين وايضاً لانهُ كان يعلم ان اليهود يشتهون ان يكون لهم ملك منهم وينتظرون ذاك الذي كان الله وعدهم بهِ . فخاف ان الذي تطلبهُ المجوس يعزلهُ عن كرسيهِ الا انهُ اي هيرودس الذي اخذت منهُ الخباثة كل مأخذ اخفى ذلك الاضطراب في قلبهِ فدعا المجوس سرًّا وسألهم بتدقيق عن كل شيء كان لا سيما عن النجم . وبما انهُ كان ذا عقل ثاقب عرف ان الملك الذي تخبر السماء بولدهِ ليس هو الا المسيح . ولهذا لما جمع علماء اليهود الكهنة والكتبة سألهم عن مَولِد المسيح لا سوى فاجابوا بصوت واحد قائلين انهُ يولد في بيت لحم يهوذا حسب نبوة ميخا النبي (ميخا ٥ : ٢) حينئذٍ احتال هيرودس على المجوس فقال لهم سرًّا امضوا الى بيت لحم وفتشوا عن الصبي باجتهاد فاذا وجدتموهُ فاخبروني لآتي انا ايضاً واسجد لهُ . وما كان ذلك منهُ الاَّ مكيدة للهلاك . فخرج الملوك من اورشليم وفي حين خروجهم من هناك لاح لهم النجم ايضاً وكان يتقدمهم ففرحوا فرحاً عظيماً . ولما وصلوا الى بيت لحم وقف النجم فوق حيث كان كنز العالم وكان يرشق شهاب اشعتهِ نحو ذلك المنزل كانهُ يقول لهم بلسان الحال هنا تجدون من تطلبونهُ ومن ظهرتُ لكم من اجلهِ . فدخل المجوس ذلك المنزل الحقير ووجدوا طفلاً صغيرًا بين يدي امهِ وحينئذٍ ضاء لهم نور سماوي اراهم العزة الالهية المتجسدة في هذا الطفل وعرفوا انهُ ملك الملوك وابن الله . فخرُّوا لهُ ساجدين معترفين بوجود اللاهوت في الجسد والحكمة الغير المتناهية في الطفولية والعزة الالهية والقوة الضابطة الجميع في ذل البشر وضعفهِ . فيالبهاء نور النعمة الالهية وفاعليتها العجيبة التي ترقي العقل من الارض الى السماء وتغض النظر عن كل ما يُرى وتفتحهُ لما لا يُرى . حقّاً ان النجم الذي ضاء لهم باطناً قد كان اكثر لمعاً جدّاً من ذلك الذي ضاء لهم خارجاً . ثم ان المجوس فتحوا كنوزهم وقدموا لهُ ذهباً ولُباناً ومرًّا غير ان البشير لم يذكر ما تردّد في قلوبهم من العواطف وما خاطبوا بهِ الطفل الالهي ووالدتهُ المجيدة ولا ما حازتهُ من السرور والابتهاج لما عاينت ابنها يمجدهُ الله ابوهُ على هذا المنوال . وان الامم قد ابتدأوا يؤمنون بهِ . وماذا كانت افكار هذا الطفل الالهي المتجسد لاجل خلاص البشر لما رأى انهُ في هذه الثلثة الملوك قد ابتدأ خلاص العالم والانتصار على الشيطان والخطيئة . وانما اعرض البشير عن

ذكر هذه كلها اما لانها غير موصوفة وفائقة ادراك عقولنا الضعيفة واما لكي يتأملها المؤمن ويطلب من الله ان يناجيهُ باطنًا بما صمت عنهُ البشير

اما المجوس القديسون فاوحى اليهم الله الا يرجعوا الى اورشليم فرجعوا الى اوطانهم من طريق آخر وقد ذكر كيرلس الراهب في سيرة الانبا تاودوسيوس انهم فيما بعد بشروا الناس بمجيء المسيح وماتوا شهداء

اقول ثانيًا ان الكنيسة تعيّد في هذا اليوم لسرّ آخر وهو اعتماد سيدنا يسوع المسيح. فاعلم انهُ في السنة الخامسة عشرة من سلطة طيباريوس قيصر حين كان بيلاطس البنطي متوليًا على اليهودية من قبل الرومانيين وهيرودس انتيباس ابن هيرودس الذي قتل الاطفال كان رئيسًا رباعيًا على الجليل وفيلبّس اخوهُ على ايطورية وتراكونيتس. خرج القديس يوحنا بن زكريا من البرية لينذر الناس بالتوبة ويعدّ طريق الرب فاتى الى البلاد المحيطة بالاردن حيث كان يعمد. وفي ذلك الزمان خرج يسوع من الناصرة حيث مكث مجهولاً منذ رجوعهِ من مصر. وكان حينئذٍ قد بلغ الثلاثين سنةً من عمرهِ ورام ان يعتمد كبقية الناس لكي يبدأ حياتهُ المشتهرة بهذا الفعل المنبئ بعجيب التواضع ويقدس ماء معمودية المسيحيين التي لم تكن معمودية يوحنا سوى رمزها وظلها

فلما تقدم يسوع الى الاردن عرف يوحنا بالنور الالهي انهُ هو المسيح وان الروح القدس سيحلّ عليهِ امام الجموع. ومن ثم لما رآهُ تعالى يطلب منهُ المعمودية كسائر الخطأة اندهش عقلهُ متحيرًا من اتضاع ابن الله وصرخ قائلاً ما هذا يارب كيف تطلب ان تعتمد مني وانا المحتاج الى ان اعتمد منك. غير ان السيد افحمهُ بقولهِ لهُ ان فعلهُ هذا هو سر ينبغي ان يكمل. لانهُ كان يريد ان يبدأ حياتهُ المشهورة بفعل تواضع يخزي بهِ كبرياء العالم فمن بعد ان اعتمد يسوع وخرج من الاردن واخذ يصلي على شط النهر انفتحت لهُ السموات ونزل عليهِ الروح القدس بشكل حمامة واذا بصوت من السموات يقول هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سررت. فهذه هي الشهادة الالهية لالوهية سيدنا يسوع المسيح التي من اجلها تعيّد الكنيسة هذا العيد الشريف. وقد سمي قديمًا تاوفانيا الذي تأويلهُ ظهور الله او ظهور لاهوت المسيح

اقول ثالثًا ان الكنيسة تعيّد ايضًا في هذا اليوم لسرّ آخر وهو الآية الاولى التي صنعها يسوع لاظهار لاهوتهِ. اعلم ان السيد المسيح بعد ان صام اربعين يومًا وبدأ بحياتهِ المشهورة استدعوهُ الى عرس في قانا الجليل فحضرهُ مع والدتهِ وتلاميذهِ الذين لم يكونوا حينئذٍ الا اربعة اشخاص او خمسة ولما رأت مريم عليها السلام ان الخمرة قد نفدت اخبرت ابنها عن ذلك. ثم اوصت الخدام بان يفعلوا كل ما يأمرهم بهِ. فكان هناك ست اجاجين من حجارة تسع كل واحدة مترين او ثلثة. فقال يسوع للخدام املأوا الاجاجين ماء فملأوها الى اصبارها حينئذٍ قال لهم الرب استقوا الان وناولوا رئيس المتكئين وكان ذلك يهم دائمًا في ان يتم كل شيء بحسب النظام والاحتشام. فلما ذاق ذلك الماء المتحول خمرًا ولم يعرف ما كان استدعى العروس الذي بحسب العادة كان يطوف على الضيوف ويعتني بأن لا ينقصهم شيء. فقال ما هذا الذي فعلت لماذا ابقيت الخمر الجيدة الى الان. فلما شرب منها الحاضرون ورأوها طيبة جدًا سألوا الخدام من ابن هي فاجابوهم انهم ملأوا الاجاجين ماء ثم حوّلهُ يسوع خمرًا فتعجب الجميع وهكذا اظهر يسوع مجدهُ بآيتهِ الاولى وثبت بها تلاميذهُ في الايمان

اعتبر الان ايها المؤمن كم يكون ذلك العرس الذي يحضرهُ يسوع مباركًا وسعيدًا وقل كذا عن كل وليمة وان الذين يجعلون عليهِ اتكالهم يجدون عونًا في ضيقهم دائمًا. ولاحظ هنا ايضًا ان السيد المسيح صنع العجيبة المذكورة لاجل توسل والدته الجليلة. فالطوبى ثم الطوبى للذين اصطفوها سيدة عليهم وشفيعة عند ابنها. الا انها توصي عبيدها وتأمرهم بما قالتهُ لخدام العرس وهو ان يفعلوا كل ما يأمرهم بهِ ابنها. لاننا باطلاً نرجو شفاعات الامّ اذا خالفنا اوامر الابن

اليوم السابع

وفيهِ ترجمة القديس لوسيانوس الشهيد

ان مولدهُ ساموسات بلدة بسورية واما ابواهُ فكانا من اعيان النصارى واتقيائهم. وقد درّباهُ منذ نعومة اظفاره في العبادة والخلاص الا انهما توفيا ولم يكن قد بلغ من العمر سوى اثنتي عشرة سنة. فلما رأى انهُ لا مسند لهُ في العالم بعد والديهِ التجأ الى الله وجعل عليهِ اتكالهُ. وفرّق كل ما لهُ على المساكين وتتلمذ لرجل من العلماء اسمهُ مكاريوس كان يفسر

الكتب المقدسة في مدينة أُرفا . فمن بعد ان تمهّر في العلوم تمسك بالطريقة الرهبانيّة . وكان يمتنع عن شرب الخمر واكل كل شيء مطبوخ . ولا يتناول الغذاء الاّ مرة واحدة كل يوم عند غروب الشمس . واحيانًا كان يصوم سبعة ايام متوالية لاياكل ولا يشرب حتى لفرط غرامهِ وهيامهِ بحب الله عزَّ وجل كان يلازم الاختلاء والصمت . ويفر عن الضحك والجولان الذي ينزع محبة العبادة . وكانت مخاطباتهُ غالبًا عن الكتب المقدسة وقد صرف في هذه الطريقة ايام الصبا وحينئذٍ اتى انطاكية سورية ليخدم الكنيسة هناك . ولما ارتسم كاهنًا أنشأ مدرسة ليعلم الكتب المقدسة مجانًا . فكانوا يجتمعون عندهُ من كل مكان ليتعلموا هذا العلم المقدس واما معيشتهُ فكانت بقلمهِ . لانهُ كان حسن الخط وسريع الكتابة وما يزيد على قوتهِ فكان يمنحهُ للمحتاجين . وما اقتصر على ذلك بل كان لايستمري اكلة بدون ان ياكلها والفقراء . ولانهُ رأى الكتبة قد افسدوا الكتب المقدسة في مواضع كثيرة قابلها بالنسخ القديمة واللغة العبرانية واصلحها . وكان المسيحيون على راحةٍ من اجل ان القياصرة وقتئذٍ ابطلوا الاوامر التي صدرت قبلاً ضد المسيحيين . واذنوا لهم ان يبنوا الكنائس ويجتمعوا فيها للصلاة والتعليم

غير انهُ لما جلس مكسيمينوس قيصر على كرسي المملكة ارسل الى انطاكية تاوتيكنس رجلاً خبيثًا قاسيًا . شديد البغضة للديانة المسيحية . فهيّج الناس في هذه المدينة وجوارها فامر الملك عند ذلك جميع المسيحيين ان يسجدوا للاصنام ومن يأبَ يُعذب ثم يُقتل . فامتلأت المدينة اضطرابًا ودماءً . ولأن القديس لوسيانوس كان كعمود للمؤمنين مكرمًا منهم ومن الوثنيين ايضًا . قصد الملك ان يسقطهُ لتسقط معهُ الديانة المسيحية في انطاكية واصدر الامر بان يقبضوا عليهِ ويأتوا بهِ الى نيقوميدية عاصمة مملكتهِ . ولا بُدَّ ان نذكر هنا شراسة هذا الملك المغتصب وقساوتهُ على المسيحيين . فانهُ احرق القديس انثيموس اسقف نيقوميدية . وقتل اناسًا كثيرين من اعيان المؤمنين . حتى ان هذا الوحش العادم كل أُنس طبيعي كان يهجم على الصبيان والاطفال ويفترسهم . والامر العجيب هو ان هولاء الصغار كانوا يتقدمون الى الموت لاجل السيد المسيح بشجاعة عظيمة كانت تشجع الرجال الذين لولم تحثهم الصغار على سفك دمائهم لاجل الايمان لكانوا انكروا الانجيل فمنهم اثنان اخوان لم يكونا بعد جازا سنيّ الطفولية قدم لهما المغتصب لحمًا كان قد قدم للاوثان وأبيا اكلهُ واستنكراهُ . وفي الحين جلدوهما بقساوة شديدة فلما لم ينتصر عليهما بهذا التعذيب امر بان يُلقيا في قدر حماة . فلما أُلقيا فيها مات اصغرها حالاً . واذ رأى الاخر ذلك صرخ بصوت التهليل واعتنق اخاهُ الميت وقال لهُ طوبى لك يا اخي لقد فزت بالظفر ثم درّج في طريق اخيهِ

فلما وصل القديس لوسيانوس من انطاكية الى نيقوميدية وعرف المغتصب انهُ رجل معتبر كثيرًا وذو صورة مهيبة وانهُ اذا خاطبهُ وجاهًا وشفاهًا يوشك ان يظفر بهِ القديس ويجتذبهُ الى الديانة المسيحية . وضع مكسيمينوس على وجههِ منديلاً حينما احضروهُ اليهِ ولم يخاطبهُ الاّ عن بعد بواسطة ترجمان لئلا يسمع صوتهُ فتملقهُ بدء الامر ووعدهُ بانهُ يشركهُ في الحكم وتدبير البلاد ويعتبرهُ كابيهِ اذا ما قبل الديانة القديمة اي عبادة الالهة والاوثان . فاجابهُ القديس ان ما وعدتني بهِ وكل ما هو اعظم منهُ ولو امتلاك ما في العالم من مجد وفخر لايوازي سعادة التعبد للسيد المسيح لانهُ باطلاً يربح الانسان العالم كلهُ اذا خسر الايمان بهِ تعالى لانهُ بدون هذا الايمان يخسر نفسهُ ويهلكها الى الابد . فلما رأى مكسيمينوس انهُ لاسبيل الى ان يملك اربهُ بالملاطفة امر الشُرَط بان يذيقوا القديس الموما اليهِ عذابًا شديدًا . فضربوهُ بالسياط والعصي بقساوةٍ وحشية ووخزوهُ بأسنّة محماة ولما كان المغتصب لا يُريد ان يقتُل القديس الاّ رويدًا رويدًا امر بردّهِ الى السجن فالقوهُ عريانًا على ارض مفروشة كسرًا من حجارة محدَّدة وما شاكل ذلك مما يخز ويجرح ولئلا يتقلب فيخف وجعهُ اوثقوا عنقهُ وساقيهِ بقيود حديدية وتركوهُ هكذا بغير اكل ولا شرب مدة اربعة عشر يومًا . وقولنا بلا اكل لان الشُرَط ما كانوا يقدمون لهُ الاّ ما ذبح للاوثان ففضّل ان يموت جوعًا على بقائهِ حيًّا ويأكل شيئًا محرمًا فجعلت قوتهُ تخور شيئًا فشيئًا الاّ ان نفسهُ كانت تتقوى من حينٍ الى حينٍ ولما قرب عيد الظهور الالهي اجتمع حولهُ كثيرون من تلاميذهِ اتوا من انطاكية ليزوروهُ في السجن ويتبركوا بهِ . فلما رآهم باكين من حيث كانوا يظنون انهم لايتناولون القربان المقدس الاّ من يدهِ في هذا العيد الشريف لخوفهم من ان يُعاجل بالموت . اخذ يعزيهم كراعٍ صالح واب رؤوف

ثم قال لهم اني لا كوننّ معكم في هذا العيد ثمّ انطلق من هذا العالم. فلما اصبح يوم العيد اخذت التلاميذ اذنًا من الحراس واتوا بحلة الكهنوت غير انهم لم يجدوا مائدة ولا صمدة للتقديس فاحتاروا ولم يدروا ما يصنعون. فقال لهم القديس حينئذٍ لا تنزعجوا فاني اقدس بدلاً عن المائدة والتبليط على صدري وارجو من سيدي والهي بان يرتضي ويُسرّ بذلك. فجلس التلاميذ ركوعًا فطلب منهم ان يرفعوا راسهُ قليلاً وابتدا يقدّس هكذا على صدرهِ وبعد تقديس الاسرار الالهية وعظهم موردًا لهم الادلة القاطعة على وجود ابن الله في القربان المقدس بلاهوتهِ وناسوتهِ. ثم ناولهم خبز الحياة وبعد ذلك استودعهم الله تعالى واطلقهم متعزين. واما الملك الكافر فانهُ ارسل اناسًا في الغد الى السجن ليروا هل هو حيٌّ بعد. فلما دنوا منهُ قال لهم انا مسيحي وكرّر هذه الكلمة ثلث مرّات ثم اسلم روحهُ بيد الله. وقد ذكر نيكيفوروس ان القديسة هيلانة ابتنت لهذا القديس عليهما السلام كنيسة معظمة في مدينة نيقوميدية

اليوم الثامن
وفيهِ عيد اسم يسوع الاقدس

اعلم ايها المؤمن ان الكنيسة المقدسة خصصت يومًا من ايام كانون الثاني لاكرام اسم يسوع الاقدس الذي اتخذهُ تعالى يوم الختان ومن ثم نتكلم هنا على اختتانهِ تعالى وعلى اسم يسوع الذي وُضع لهُ في ذلك الحين

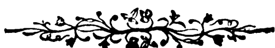
رَوَى لوقا البشير انهُ لما خُتن كلمة الاب الازلي المولود من مريم دُعي اسمهُ يسوع كما دعاهُ الملاك قبل ان يُحبل بهِ (لوقا ٢ : ٢١) لاجرم ان اقتران اسم يسوع بالختانة امر عجيب غير انهُ تعالى اشار بذلك اي بوضع اسم يسوع في حين الختانة الى ان الذي كان يُختن كامرئٍ متدنس بالخطية الاصلية هو حقًّا بريءٌ منها بل مخلص البشر من الخطية على ان هذا هو معنى اسم يسوع وهكذا ازال الآب الازلي اهانة هذه الطريقة الموسوية بمجد اسم يسوع وعزتهِ كما انهُ تعالى لما رأى ابنهُ مصلوبًا ازال ايضًا اهانة صليبهِ بهذه الكتابة المجيدة الموضوعة فوق رأسهِ اي يسوع الناصري ملك اليهود. فاذا لاحظنا الامر جيدًا فنرى ان الحكمة الالهية قد قرنت دائمًا في اسرار خلاصنا المجد بالاهانة وما هو الهي بما هو بشري ألا ترى ان المسيح وُلد من ام ارضية لكنها ام بتول. وانهُ وُضع في اصطبل لكنما هناك اعترفت بهِ الرعاة وسجدت لهُ الملوك ومدحتهُ الملئكة وبشّرت بهِ في العالم كلهِ. فمن اجل هذا السبب عينهِ اختتن المسيح ودُعي يسوع. وقد ذكر القديس لوقا ان هذا الاسم وُضع لهُ من قبل الاب الازلي على انهُ لم يكن آخر غيره يستطيع ان يسميه باسمٍ مناسب لهُ من حيث انهُ وحدهُ كان عارفًا بعظمة المسيح وجلال عزتهِ ولهذا قال عزّ وجل لا يعرف الابن احد سوى الاب (متى ١١ : ٢٧)

فاذن الطفل الالهي دُعي يسوع اي مخلصًا لانهُ كان مزمعًا ان يخلص شعبهُ من خطاياهم كما قال الملاك للقديس يوسف (متى ١ : ٢١) نعم ان كثيرين في العهد القديم دُعوا بذلك الاسم الشريف الا انهُ لم يقم احد بمعناهُ بالكلية. لان ابن نون الذي ادخل الشعب العبراني الى ارض الميعاد. وابن سيراخ الجزيلة حكمتهُ الذي ألّف سفر الحكمة ويوصاداق الكاهن العظيم الجزيل الطهارة. كلهم دُعوا باسم يسوع الا انهم لم يكونوا سوى ظل يسوع مسيحنا ورمزٍ الذي ملكنا ارض الميعاد الحقيقي كقائد جيش مظفّر انتصر على جميع اعدائنا وهدانا طريق السماء كاحكم دليل وقدم نفسهُ ذبيحةً لاجل خطايانا مثل كاهن الهي. ثم ان يوسف الحسن وجدعون وشمشون ويفتاح وآخرين دُعوا ايضًا باسم مخلصي الشعب الذي كانوا يدبرونهُ او يحاربون عنهُ الا ان الخلاص الذي اعطوهُ ليس هو شيئًا بالنسبة الى الخلاص الذي عملهُ لنا يسوعنا. لاجرم ان اولئك انقذوا الشعب من ظلم واسر زمنيين وحفظوا كرومهم وحقولهم ومنازلهم بحيث كفوا عنها الذين كانوا يريدون هدمها او اتلافها. ولم يحافظوا على حياة الشعب الزمنية الا بقتل اعدائهم. اما يسوعنا الصالح فقد خلص الجميع من خطاياهم لا بسفك دم الغير بل بسفك دمهِ الكريم حتى آخر نقطة. ولذلك كان من المحال ان يفهم عظم عزة اسم يسوع الكلي العذوبة الا من قد عقل جيدًا عظم تفاقم الشر الواصل الى النفس من قبل الخطية المميتة. فمن الايمان ان اعظم شقاء هذه الحياة لا يوازي شقاء انسان ملتطخ بالخطية المميتة. فا الفقر والجوع والعطش والاهانة والوباء والعذاب والموت نفسهُ الا دون ذلك الشقاء. واقول على الاطلاق ان حال اشقى العالم ليست بشيءٍ بالاضافة الى حال انسان متلوث بواحدة من الخطايا المميتة بل جهنم نفسها ونيرانها المؤبّدة الحامية وصرير الاسنان ومخالطة الشياطين كل ذلك

اقل بكثيرٍ من شقاء الخطية المميتة التي هي كسيف ذي حدين يفصل نفسنا عن الله الذي هو نفس انفسنا وحياة حياتنا . وحين انفصالها من الله تصير خاويةً من كل خير وممتلئة من كل شر تحت حكم الشيطان والعقاب السرمدي وفي غاية الضعف حتى انها لا تستطيع بذاتها على القيام بعد سقطتها . لانهُ من المستحيل ان نقوم ابدًا ان لم يمد الله لها يدهُ ويُقيمها لانهُ كما ان الذي يُلقي بنفسهِ عمدًا في بئرٍ عميقة لا يقدر على الخروج منها ولو اشتهى ذلك بل يحتاج الى من يسعفهُ . كذلك الانسان الذي يسقط في وهدة الخطيئة باختيارهِ فانهُ لا يقدر على القيام والخروج منها دون عون الله ونعمتهِ التي تُعطى باستحقاقات سيدنا يسوع المسيح المخلص الرؤوف الذي بدون دمهِ الزكي لا يمكن ان يُعالج جرح الخطيئة ويشفى . ولهذا الجأت الضرورة ان يصير الله انسانًا ويُدعى يسوع ليفدينا ويفي عنا بقدرتهِ الالهية واتعابهِ البشرية . ولعمري انهُ ليس في السماء والارض وما بينهما وما تحت الثرى ما يرينا شرَّ الخطية وشدة بغض الله لها ويوضح لنا معنى اسم يسوع مثل ان نرى بعين الايمان الهًا يبذل نفسهُ على الصليب لكي يميت الخطية

وانما سُمي مخلصًا لان تجسدهُ قد اقتضى ذلك ألا ترى انهُ هو الذي كفَّر عن ذنوب الانام وما من احد استطاع منذ انشاء العالم ولن يستطيع ان يتطهر من ادران الخطية الا بدم هذا المخلص فهو الذي محا آثامنا وشفى امراضنا وكسَّر اغلالنا واخمد شهواتنا وانقذنا من اسر الشيطان وردَّنا الى الحرية الحقيقية وجمَّل نفسنا وصيَّرها بنتًا وعروسًا وهيكلاً لله وهو الذي ينوّر عقولنا ويوجّه الى الخير ارادتنا ويقوي ضعفنا وينصرنا على اعدائنا . وبهِ تعالى ننتصر على الخطية والموت والشيطان وجهنم لانهُ هو مخلصنا من الخطية وكل ذلك يتضمن اسم يسوع . فاذن لا يقل احد ان طريق الخلاص ضيّق عسر اذ قد صار لهُ يسوع رفيقًا وهاديًا . ولا يشكُ احد من الفقر والتعب من بعد ان صار يسوع غنانا وراحتنا ومنحنا اجنحة لنطير بها بحيث بهِ نقدر ان نكون اعفّاء متضعين صابرين وان نقاوم كل الرذائل اذ قد صار يسوع قائدنا الذي يامرنا بما يجب علينا فعلهُ ويعيننا على فعل ما نعجز عنهُ ولا غرو فهو الذي يخلصنا من الخطية

ان السيد المسيح قد دُعي في الاسفار المقدسة باسماء اخر كثيرة شريفة مثل العجيب والمشير والاله القوي وابي الدهر والمنتظَر وملك السلام وملك العهد وغير ذلك . الا انهُ ليس اسم يجتذب قلوبنا ويغرس فيها شجر المحبة كاسم يسوع . لان هذا الاسم هو أدلُّ من باقي اسمائهِ على تخليصنا . فيجب علينا اذًا كلما ننطق باسم يسوع ان نمثّل امامنا الذي من اجلنا رقد على المذود واختتن وبكى وجاع وعطش وأُهين وجُلد وكُلّل بالشوك ثم صُلب ثم مات لان في اسمهِ اشعارًا بذلك كلهِ فهو الاسم الذي تجثو لهُ كل ركبة ما في السماء وعلى الارض وما تحت الارض . هذا هو الاسم العظيم الذي كما قال الرسول لا يقدر احد ان ينطق بهِ بالتهيب الواجب الا ان يُعطى لهُ من الله هذا هو الاسم الذي بهِ وحدهُ يمكننا ان نخلص (اعمال الرسل ٤ : ١٢) . هذا هو الاسم الحلو الذي كان الرسول ينطق بهِ كل وقت . هذا هو الاسم الذي احبهُ القديس اغناطيوس اية محبة حتى انهُ وُجد بعد موتهِ محررًا على قلبهِ كما ذكر القديسان توما اللاهوتي وانطونينوس . قال القديس اغستينوس في مناجاتهِ ما معنى اسم يسوع الا المخلص فاذن يا يسوع من اجل ذاتك عاملني بحسب معنى اسمك الحلو المحبوب المعزّي الخاطي فيا ايها الرب الصالح ان عملت انا ما يستوجب الهلاك فقد يوجد عندك ما نقدر ان تخلصني بهِ . وقال القديس غريغوريوس النيصي ان اسم يسوع يتضمن عربون الرحمة اما الذهبي فمهُ فقد زاد على ذلك قال ان هذا الاسم يحتوي كل خير . وقال القديس بطرس الدريّ العبارة ان كنت تخاف من الموت فان يسوع هو الحياة وان طلبت الوصول الى السماء فهو الطريق وان كنت مريضًا فهو الشفاء وان كنت جائعًا فهو القوت وان كنت تعبًا ففيهِ تجد الراحة وان كنت محاربًا فهو اكليل الانتصار . وقال ايضًا القديس برنردوس في تفسيرهِ اسم يسوع انهُ بصواب قد دُعي اسم يسوع زيتًا لانهُ يضيء اذا أُوقدتهُ المحبة ويقوت حينما يستعذبهُ القلب ويشفي اذا افاضتهُ العبادة اني لا اقبل طعامًا الا ان يكون ممتزجًا بهذا الزيت ولا استحسن تأليفًا اذ لم اجد فيهِ اسم يسوع واضجر من المذاكرة اذا لم يكرر فيها اسم يسوع مرات كثيرة ان هذا الاسم يقوّي في الحرب وينوّر في ظلام الخاطر ويعزّي في كوارث الحياة وفي ساعة الموت يخلص كل من يدعوهُ كما يجب



اليوم التاسع

وفيهِ ترجمة القديس جوليانوس الشهيد والقديسة باسيليسا الشهيدة

إنَّ من جملة الملوك الذين اضطهدوا المسيحيين اشد اضطهاد ديوكليسيانوس ومكسيميانوس اللذين ناديا بالحرب عليهم في ابتداء الدهر الرابع وقد روت التواريخ انهما في بلاد مصر ما عدا بقية المواضع قتلا لاجل دين المسيح في اقل من سنة واحدة اكثر من اربعة واربعين الفًا ومئة الف رجل. ونفيا لاجل هذا السبب سبعمائة الف. ففي ذلك الزمان كان في انطاكية مدينةٍ بمصر شاب غني شريف وحيد لابويهِ يقال لهُ جوليانوس مفطورًا على العبادة لانهُ منذ ابتداء حياتهِ كان يشمئز من التنزهات الباطلة ويميل الى الافعال التقوية وهذا الامر كان يصيّرهُ كريمًا لدى والديهِ. واما احتشامهُ وعفتهُ المتسم بهاوجههُ فكانا يجعلانهِ مكرمًا محبوبًا عند الجميع وقد كان تمهر في العلوم البشرية الا انهُ كان يرتاح بكل قلبهِ الى اكتساب علم القديسين ولهذا احب تلاوة الكتب الروحية وبقية رياضات التقوى. وكان يصرف فيها اكثر اوقاتهِ وهو يعدُّ اشرف ما في العالم ولذّهُ اباطيل مهلكة غير ان الذي اثر في قلبهِ اوفر تاثير هو ما هتف بهِ الرسول قائلاً ليكن الذين يتمتعون بهذه الدنيا كانهم لا يتمتعون لان صورة هذا العالم تزول (١ كورنتس ٧ : ٣١) فلهذا مع انهُ لم يكن بلغ من العمر الا سبع عشرة سنة وكان يرى في بيتهِ قنية كثيرة الثمن عزم على ان ينزّه نفسهُ عن محبة كل زائل. فنذر لله عفتهُ طول عمرهِ ليكون متعبدًا لهُ تعالى بروحهِ وجسدهِ. فمنذ ذلك الوقت اشتدت حرارتهُ في العبادة وكان الله سبحانهُ يسهّل لهُ رياضاتها بتعزيات روحية وافرة. اما والداهُ فكانا يفتكران في تزويجهِ ولما خاطباهُ في ذلك احتار في امرهِ فاعتذر لهما انهُ حدث السن وان سرورهُ في مساكنتهِ بينهما لا يدعهُ ينفصل عنهما ويباين منزلها قبل الوقت الملائم والامر الداعي لذلك الا ان والديهِ لم يقبلا اعتذارهُ هذا بل حققا لهُ انهما يشتهيان ان يبصراهُ متزوجًا وان الصواب بل الواجب يقتضي انهُ يطيعهما في ذلك كونهما لا يطلبان منهُ امرًا ينافي ارادة الله لانهُ تعالى هو الذي رسم سر الزواج وقدسهُ. اما جوليانوس فبما انهُ لم يكن خالف ابويهِ قط شعر باطنًا بحرب شديدة بين نذرهِ لله والطاعة لوالديهِ. فطلب منهما ان يمهلا عليهِ سبعة ايام ليستشير الله تعالى في امر باهظ مثل هذا فرضي والداهُ بذلك فشرع جوليانوس يصرف هذا الزمان كلهُ في الصلاة ملتمسًا من الله نورًا وعونًا وقال الهي ومخلصي انت عارف اني منذ اليوم الذي عرفتك فيهِ لم ازل احبك وان قلبي لا يطيق الانفصال عنك فانت الذي اضرم في قلبي نار محبة العفة فلا تسمح يا رب ان انقض عهدي وانكث بنذري ووعدي وقد امرتني بالطاعة لوالدي فعرّفني اذًا كيف اجمع بين هذين الامرين المتضادين وانعم عليَّ بهذا ان احفظ نذري واطيعهما. فكان جوليانوس يصرف نهارهُ وليلهُ في مثل هذه الطلبات. وفي ذات ليلة استحوذ عليهِ النعاس فرأى في نومهِ رؤيا سماوية عزت نفسهُ ونجتها من كل شك وتجس لانهُ ظهر لهُ سيدنا يسوع المسيح وقال لهُ أطع والديك يا ابني ولا تخشَ فاني اخترت لك قرينة تسعفك في حفظ العفاف وارتباطك بالزواج لا يحل عقد نذرك العفة. وسأملك على قلبيكما واضرم فيهما نار محبتي. وهذه النار تحفظكما من كل دنس وساجعلك معلمًا لتلاميذ كثيرين ترشدهم في طريق العفة واعلم انك ستموت عفيفًا شهيدًا وقرينتك ستنال اكليل العذارى فتشجعنَّ اذن ولا تخف

فانتبه الشاب العفيف ووجد نفسهُ مُنطقة بقوة وشجاعة لم يشعر بها قبلاً. فشكر الله على احسانهِ ثم اقبل الى والديهِ وقال لهما بوجه باش اني مستعد لتكميل ما تأمران بهِ. ولان الزوجة لا تمنعني عن ان اكون قديسًا ارجو بان التي تريدان ان تزوّجاني بها تزيد بيتكما البرارة ففرح ابواهُ جدًّا وشرعا يطلبان بنتًا مناسبة لهذا الشاب الفاضل. فاختارا لهُ بنتًا اسمها باسيليسا متصفة بكل ما يصير الزواج سعيدًا. لانهُ ما عدا انها نظيرهُ في الشرف والغنى والفضيلة كان الله قد زينها بجمال بارع نادر الوجود وقد سر وارتضى باتحادها اقارب الفريقين كليهما فصنعوا العُرس بابتهاج واحتشام. ولما كان المساء انفرد جوليانوس بباسيليسا عروسهِ في المنزل المهيأ لهما وشرع اثناها بصليان وكان جوليانوس يطلب من الله في قلبهِ ان يتمم وعدهُ وان يميل بقلب باسيليسا الى محبة العفة. واذا بعرْف لذيذ مخدر من السماء ملأ المكان وصيرهُ كفردوس يحوي زهورًا ذكية النشر مع انهُ لم يكن حينئذٍ وقت الزهور. فتعجبت باسيليسا من ذلك وقالت لزوجها ما هذا العَرف

الطيّب فاجابها انهُ عرف العفة التي بها يلاطف ابن الله كل من يحب هذه الفضيلة لانهُ يوءثر جدًّا كل الذين يحفظون عفتهم حبًّا بهِ سبحانهُ. ثم أردف ذلك بقولهِ وانا اعترف لكِ اني منذ صباي احببت هذه الفضيلة وفضلتها على كل لذات العالم فقالت باسيليسا وانا حقًّا احب هذه الفضيلة ايضًا جدًّا وغاية اربي ان انذر لله العفاف ان اذنت لي في ذلك. فاجابها انهُ لا يمكن ان تقدمي ذبيحة اكثر قبولاً من هذه اما انا فقد نذرت عفتي لله منذ زمان مديد فان شئتِ انتِ فافعلي كذلك. فنذرت باسيليسا بكوريتها طوعًا بسرور لا يوصف. فظهر حينئذٍ في المنزل نور سماوي ثم تراآى لهما سيدنا يسوع المسيح مع والدتهِ المجيدة وزمرة من القديسين والقديسات فهنَّأوهما بنذرها العفة وقالوا لهما افرحا وتهللا لانهُ قد حُرّر اسماكما في سفر الحياة وستكونان في جنات النعيم من جملة الابكار الذين يحفظ طهارتهم يرافقون الحَمَل الالهي حيثما سار. ثم غابت عنهما الروءيا وشكرا الله على هذا الاحسان العظيم

وعن زمان يسير مات ابو جوليانوس ووالدا قرينتهِ وورثا منهم اموالاً وافرة. الا انهما اصطنعا بالاموال كلها الى الفقراء ولما تعريا من خير الارض اجتهدا في خير السماء. وافترق احدهما عن الاخر ولانهُ كان قد فاح نشر برارة جوليانوس في كل قُطر وفج اتى اليهِ شبّان كثيرون عاجزون عن السكنى في البراري يسترشدونهُ وكانوا يعيشون عندهُ عيش الرهبان. وليس هذا فقط بل انهُ كان يأتي اليهِ اناس من كل رتبة ودعوة ليستشيروهُ كيف يجب ان يتدرّبوا. وكان عدد الذين تحت ارشادهِ يعيشون في منازلهم بمزيد الورَع زُهاء عشرة الآف. ونظير ذلك كانت تفعل باسيليسا مع النساء

غير انهُ في السنة الرابعة بعد الثلثمائة ارتفع الى عرش الملك مكسيمينوس فاليريوس الذي تسلط على الشرق وساوروس الذي استولى على الغرب. وقد عامل هناك المسيحيين باشد قساوة. فشرع جوليانوس وباسيليسا يقوّيان الموءمنين المتتلمذين لهما ويشجعانهم بوعد الاكليل الابدي المهيأ للظفرين. واتفق يومًا ان باسيليسا رأت في صلاتها روءيا اخبرها الله فيها ان زوجها سيقاسي أعذبة هائلة لاجل مجد الله القدوس وينال اكليل الاستشهاد. وانها هي ايضًا تنال اجر الشهيدات ولو لم تمت شهيدة وانما ستموت عن قريب ولكن بعد ان تموت تلميذاتها وينلنَ في السماء ثواب العفاف. فامتلأت باسيليسا سرورًا واخبرت القديس جوليانوس وجميع تلميذاتها بالروءيا. وقد صار كما قيل لها لان تلميذاتها الكثيرات العدد متنَ جميعهنَّ موتًا سعيدًا في اقل من سنة اشهر وماتت هي ايضًا بعدهنَّ بسلام وحينئذٍ استعد جوليانوس للاستشهاد

وفي ذلك الزمان أُرسل من رومية الى انطاكية مرسيانوس احد اعداء المسيحيين ففي حين وصولهِ الى انطاكية امر المسيحيين بالاَّ يشتروا ولا يبيعوا ولا يستقوا ماء ولا يطحنوا حنطة قبل ان يبخروا الاصنام التي كان قد نصبها في كل الشوارع. ولما عرف ان جوليانوس هو من اشراف المسيحيين وانهُ يثبتهم في هذه الديانة ارسل شُرَطًا ليمسكوهُ ويحضروهُ لديهِ. فتقدم جوليانوس الى مرسيانوس واعترف حالاً بانهُ مسيحي وانهُ مستعد للموت من اجل السيد المسيح وقد قال هذا باشد جراءة واوفر طمأنينة. فامتلأ مرسيانوس حالاً غيظًا ورجزًا وامر بان يحرقوا البيت الذي كان تلاميذ جوليانوس مجتمعين فيهِ. فانفذ الامر اعوانهُ واحترق اولئك التلاميذ كافةً لاجل دين المسيح ولما أُخبر جوليانوس بذلك تهلل بالروح وقُدِم ثانيةً الى المغتصب. فوضعوا امامهُ الالات المرهبة المعدَّة لتعذيبهِ ولما كان عزيزًا في المدينة حضر الناس جميعًا ليشاهدوا كيف تكون الحرب بينهُ وبين الشيطان اي مرسيانوس الذي كانوا يلقبونهُ بهذا اللقب. اما القديس الشهيد فلما رأى هذه الالات ازداد شجاعةً وازداد مرسيانوس غضبًا وامر الشرط فضربوا جوليانوس بسياط وعصيّ ومزّقوا لحمهُ. وفيما يضربونهُ هكذا بشراسة وحشية اصاب على غفلة احد الضار بين رجلاً شريفًا من الوثنيين الحاضرين فقلع احدى عينيهِ وقد سمح الله بذلك لتمجيد اسمهِ ولتعزية الموءمنين لان القديس جوليانوس لما رأى ذلك رفع صوتهُ وقال لمرسيانوس اجمع الان كهنة الهتك جميعهم وليصلوا او يذبحوا لاوثانهم وليطلبوا منهم ان يوجّهوا النظر الى هذا واذا عجز واعنهُ وتمَّ باسم يسوع فليعترف الجميع بان اله المسيحيين هو الاله الحي خالق البرايا كلها. فقبل مرسيانوس كلامهُ فاتى الكهنة الوثنيون طرًّا باصنامهم وشرعوا يصرخون طالبين شفاء الرجل المذكور. فاجابهم الشياطين صارخين من بطون الاوثان عونًا لانهُ قد حكم علينا بالخلود في نار جهنم ولم يزل

عذابنا يزيد اشتدادًا من حينما امسكتم جوليانوس فكيف نطلبون من اهل الظلمة ان يمحوا نظرًا للناس . فصلى حينئذٍ القديس وفي الحين تساقط خمسون صنمًا من فضة وذهب ومعادن اخر ثمينة وانسحقت وصارت كالرماد . ثم استغاث باسم سيدنا يسوع المسيح واومأ باشارة الصليب المقدس الى الرجل المقلوع العين فارتد اليهِ بصرهُ . ولم يتنوَّر بالجسد فقط بل بالنفس ايضًا لانهُ لفرط ما اندهش من عَظَمة هذه الاعجوبة وحقيقتها هتف امام الجمهور وقال حقًّا ان يسوع المسيح هو الاله الحقيقي المستحق وحدهُ ان يُسجد لهُ . فغضب عليهِ مرسيانوس وامر حالاً بقتلهِ فقُتل واعتمد بدمهِ المسفوك لاجل الايمان بالمسيح وفاز بجنة الخلد

اما مرسيانوس فلما رأَى انتصار جوليانوس على الشياطين امر بانهُ يُساق في شوارع المدينة مغلالاً بسلاسل حديدية ثقيلة ويُجلد في كل مكان امام الجميع وان برافقهُ رجل ينادي قائلاً هكذا يتعذب الذين يحتقرون الآلهة ولا يطيعون الملك. فكان الشبان والصبيان يتراكضون ليشهدوا هذا المشهد وكان بين اولئك الصبيان سلسوس بن مرسيانوس المغتصب فهذا ابصر حول القديس ملئكة متلألئين بنور عجيب حاملين بايديهم اكاليل وفي انتهاء كل عقاب يضعون منها واحدًا على راس القديس . فبالقدرة ابن الله المصلوب لان سلسوس ولج في وسط غابة الجموع المزدحمة ووقف امام القديس جوليانوس واعترف بصوت عالٍ قائلاً لا اله الا الذي يسجد لهُ المسيحيون . ثم جثا امام القديس وطلب منهُ بالجاجةٍ ان يقبلهُ بين تلاميذهِ . فاراد الحاضرون ان يفرقوا بينهما فما قدروا لان الصبي كان يعتنق القديس بعزم يُربي على صغر سنهِ . واما الذين مدوا ايديهم لكي يميلوهُ عنهُ فيبست ايديهم وجرت منها الدماء فأُخذ سلسوس الصبي المسيحي الجديد وقُدّم لابيهِ مع جوليانوس. فلما عرف المغتصب ما كان مزّق ثيابهُ وضرب نفسهُ من شدة غيظهِ وامر ان يُلقى الاثنان في سجن مظلم مؤلم . ففي ساعة دخولها ذلك السجن ضاء هناك نور ابهى من نور الشمس وهذه الاعجوبة اجتذبت عشرين شخصًا من حراسها وجوليانوس وسلسوس عمّداهم كلهم تلك الليلة فلما سمع الملك بهذه كلها امر مرسيانوس بقتل جميع اولئك المسيحيين حتى ابنهِ سلسوس ايضًا اذا لم يعد الى عبادة الاوثان نادمًا . فتوجع مرسيانوس لابنهِ لكنهُ ظن انهُ اذا ما تعذبت الشهداء امام ابنهِ عذابًا شديدًا يردهُ خوف العقاب عن دين المسيح . فامر بان تحضر الشهداء وان يُلقَوا مع سلسوس ابنهِ في قدور مملوّة زيتًا مغليًا . وفيما كان الشُرَط يقدون النار تحت القدور اذ مرّ بهم وثنيون حاملون انسانًا ميتًا فأمر مرسيانوس الحاملين بان ينزلوا الميت . ثم اشار الى جوليانوس ان يقيمهُ قصدًا منهُ انهُ اذا ما عجز جوليانوس عن ذلك يجحد ابنهُ دين المسيح . اما جوليانوس فصلّب حالاً باليد مشيرًا الى الميت وامرهُ باسم سيدنا يسوع المسيح ان يقوم قال هذا وللحال نهض الميت حيًّا وشرع يصرخ ليس اله حقيقي الاّ الذي يعبدهُ المسيحيون وان آلهة الوثنيين آلهة كذبة ثم خرَّ امام القديس وطلب منهُ ان يقبلهُ في جماعة المسيحيين ومع ذلك لم يذعن مرسيانوس للحق الواضح بل ازداد قلبهُ صلابة وامر بان يُحبس الميت المقام من الموت بآية مزهلة العقول ويعتقل مع بقية المسيحيين ليموت معهم ثانيةً . الا ان كثيرين من الوثنيين الذين شاهدوا هذه الاعجوبة آمنوا بالمسيح . فلما رأَى المغتصب ان ابنهُ سلسوس قد استعد للموت ولم يؤثر فيهِ الوعد ولا الوعيد امر ان ترجع الشهداء الى السجن وارسل امرأتهُ الى سلسوس ابنها لتتملقهُ لعل قلبهُ يلين بدموع والدتهِ . فلما دخلت السجن مرسيولينا امهُ شرع الشهداء كلهم يصلون ويطلبون من الله ان ينير عقلها ويجذبها للديانة المسيحية . فحالاً ضاء في السجن نور عجيب وسُمعت اصوات سماوية فبهذه العجائب وبما سمعت من ابنها والشهداء المحبوسين هناك آمنت فعمّدها انطونيوس كاهن من هولاء الشهداء وآمن ايضًا عشرون جنديًا فاعتمدوا

فأوغر ذلك صدر مرسيانوس واعمى بصيرتهُ بحيث امر في الحال ان تُقطع رؤوس العشرين جنديًا المذكورين واحرق سبعة من الشرفاء الذين اتوا باختيارهم مع انطونيوس الكاهن ليسجنوا. اما هذا الكاهن وجوليانوس والميت الذي احياهُ وامرأتهُ وابنهُ فأخَّر الحكم عليهم ثم خاطب جوليانوس وقال لهُ اريد منك ان تحضر معي هذا اليوم ونقدم ذبيحة لآلهتنا في هيكلها العظيم . فاجابهُ جوليانوس مُر اذن ان يجتمع كهنتك كلهم في هذا الهيكل ويشهدوا ذبيحتي. فظن مرسيانوس ان جوليانوس قد ارتد عن ديانتهِ خوفًا من الموت فامر بفك قيودهِ وجمع من الكهنة نحو الف ومضى بهِ وببقية الشهداء باحتفال عظيم فلما وصل جوليانوس الى باب ذلك الهيكل جثا على ركبتيهِ وصلى ثم

صلب وللحال سقطت جدران الهيكل وصار دكًّا دكًّا وقتل جميع الكهنة المجتمعين هناك . وقد ذكر ميتافراتوس انهُ في عصرهِ كانت النار لم تزل تخرج من ذلك المكان . فرجع الشهداء الى السجن وطفقوا يرتلون مدائح ونسابيح وحينئذٍ ظهر لهم في ناحيةٍ العشرون جنديًّا وستة الشرفاء الذين قُتلوا قبلاً ومعهم كثيرون من القديسين الشهداء . ومن ناحيةٍ اخرى ظهرت القديسة باسيليسا مع جمٍ غفيرٍ من العذارى وقالت لجوليانوس انهُ قد قرب انتهاء حروبك وقد انفتح لك باب الجنة وان القديسين ينتظرونهُ هو ورفقتهُ القديسين وفي الغد أُحضروا لدى المغتصب فامر بان تُربط اصابع ايديهم وارجلهم بحبالٍ مدهونة بالزيت فربطوها كما امر ثم أوقدوها . الا ان اللهيب الذي احرق الاحبال لم يمس لحم الشهداء . ثم سلخوا رأس جوليانوس وسلسوس والكاهن انطونيوس واوستاسيوس وهو الذي قام من الموت وقلعوا اعينهم بالحديد ولما تقدم الشُرَط الى امرأة مرسيانوس ليعذبوها هكذا عموا حالاً . ثم اخذوهم الى ميدان الوحوش لتفترسهم فاقبلت عليهم بالمؤانسة والملاطفة . فامر اخيرًا مرسيانوس بقطع رؤوسهم وهكذا ماتوا وبموتهم نالوا حياة الابد . الا انهُ بعد زمن يسير مات مرسيانوس ميتة شقية بحيث ان جسمهُ تقرّح حتى صار مرتع الديدان . اما مكسيمينوس الملك فانتصر عليهِ ليسينوس وفي اثناء ذلك شعر باطنًا بنار آكلة ثم عمي وعاد كجثة ليس لها سوى الجلد والعظام وهكذا مات في ترسوس نحو السنة الثالثة عشرة بعد الثلثمائة . واما استشهاد القديس جوليانوس فكان في اليوم التاسع من شهر كانون الاول في السنة التاسعة بعد الثلثمائة

اليوم العاشر

وفيهِ ترجمة القديس بولا اول السيّاح

اعلم ان كاتب ترجمتهِ القديس ايرونيموس عليهما السلام وعنهُ نروي ما نثبتهُ هنا فنقول رَوى القديس ايرونيموس انهُ لما كان القديس انطونيوس يعيش في البراري كالملئكة وكان قد ناهز تسعين سنة خالجهُ فكر من العجرفة والكبرياء ولم يدرِ هل يوجد انسان مثلهُ اقام في الفيافي سالكًا سبيل النسك والفضيلة وقد سمح الله ان يضغطهُ هذا الفكر لاجل الخير الذي صدر عنهُ لانهُ ليلة ذلك النهار بعينهِ اظهر الله لهُ في الحلم ان في هذه البرية رجلاً ما افضل منهُ وامرهُ بالذهاب اليهِ حتى انهُ حينما انتبه عزَم على الاستعلام عمن يجهلهُ . فاخذ عكازهُ وخرج من الدير ومضى الى حيث يهديهِ روح الله وظل سائرًا حتى الظهر وكان الحر شديدًا فشرع يحدث نفسهُ قائلاً اني لمتكل على الله وارجو ان يبلغني الى منزل عبدهِ حسب وعدهِ الالهي . وبعد قولهِ هذا رأى وحشًا كان نصفهُ شكل انسان ونصفهُ الاخر شبه فرس . فرسم القديس على جبهتهِ علامة الصليب وسألهُ اين هو عبد الله الذي اطلبهُ فأراهُ الوحشُ المكان مشيرًا اليهِ باصبعهِ وهرب راكضًا الى الغاب . اما القديس فذهب على وجههِ ولما وصل الى وادٍ رأى وحشًا آخر كانسان قصير القامة لهُ ساقان وقرنان كقرنَي التيس . فسألهُ من انت فاجابهُ انني احد سكان البراري الذين يعبدهم الوثنيون كانهم آلهة وقد ارسلتني طائفتي لاطلب منك نيابةً عنهم ان تتضرع لاجلنا الى المسيح الهنا الذي قد عرفنا انهُ اتى لاجل خلاص العالم ثم دخل الانبا في البرية ولم يبصر سبيلاً ولا اثرًا ولم يجد الا وحوشًا لا نقدر ان نعلمهُ بشيءٍ فصرف يومين وليلتين في الصلاة راجيًا من الله الا يهملهُ . وفي اليوم الثالث ابصر ذئبة صاعدة الى جبل فتبعها طالما كان يراها . ولما غابت عن نظرهِ دنا من مغارة كانت هناك ولم يميز شيئًا مما فيها لان الظلام الحالك كان قد خيَّم عليها

غير ان المحبة الكاملة التي كما قال الرسول (يوحنا اولى ٤ : ١٨) تنفي الخوف ادخلتهُ المغارة ناصتًا ممعن النظر وفيما هو ماشٍ في الظلام لاح لهُ ضوء سراجٍ عن بعدٍ فاسرع في سيرهِ لفرط سرورهِ فعثرت رجلهُ بحجرٍ ولما احسَّ بهِ القديس بولا اغلق بابهُ حالاً . فوصل اليهِ القديس انطونيوس وجثا على الارض امام ذلك الباب ومكث هناك اكثر من نصف يوم طالبًا من القديس بولا ان يفتح لهُ وكان يخاطبهُ من خارج بما نصهُ . اني لواثق بانك تعلم من انا ومن اين ولماذا اتيت ولا يخفى عنك اني لا اخرج من ههنا او ابصرك . فهل يمكنك ياذا الذي يقبل الحيوانات ان تطرد الانسان . اني طلبتك وقد وجدتك وقرعت بابك لتفتح لي فان لم تقبل طلبتي فاني اموت ههنا فاقل ما يكون انك تُلحدني بعد موتي . وقد كان يقول هذا اسيفًا باكيًا . فاجابهُ القديس بولا من داخل قائلاً ما من احد يطلب احسانًا بانتهار ولا يفتري باكيًا متنهدًا فان كنت اتيت اليَّ لكي تموت فلماذا تتعجب من اني لا اقبلك

قال هذا وفتح لهُ الباب متبسمًا وتعانقا بجزيل المحبة مسلمًا احدهما على الاخر باسمهِ كانهُ قد سبقت بينهما معاشرة ومخالطة ثم شكرا الله على احسانهِ اليهما وجلسا للمخاطبة فقال القديس بولا للقديس انطونيوس ابصر الان من فتشت عنهُ بعناء عظيم فترى اعضاءي قد وهت من الشيخوخة وقد ابيضت لحيتي كلها وجفّ جلدي وتنظر انسانًا يرتد الى الرماد سريعًا فلان المحبة تحتمل كل شيء كقول الرسول وقد تعبت كثيرًا في الاستقصاء عني اخبرني عن حال العالم من يدبرهُ . وهل يوجد بعدُ من يسجد للاصنام ويعبد الشيطان . فاجابهُ القديس انطونيوس مجملاً ومفصلاً واسهب ثم اخذ يسأل القديس بولا عن السبب الذي اتى من اجلهِ الى البرية وكم عام اتى عليهِ فيها وكم سنة حياتهُ . وماذا اكل وكيف عاش هناك فاجابهُ القديس بولا قائلاً انهُ حينما كان داسيوس وفاليريانوس القيصران يضطهدان الكنيسة في نواحي مصر والصعيد حيث وُلدت انا مات والداي وكان عمري اثنتي عشرة سنة . وكنت مهرتُ في العلوم اليونانية والمصرية وكان لي اخت متزوجة . فلما رأيت الاضطهاد قد اشتد في المدن انفردت في منزل كان لي بين مزارعي وعرض لي هناك خطر عظيم لان زوج اختي رام ان يختلس اموالي ولكي يبلغ اربهُ هذا اراد ان يشتكيني الى المغتصب الوثني ويخبرهُ باني مسيحي ولما تحققت ذلك وقد كنت علمت ان الحاكم المغتصب ارسل الى كل مكان اناسًا يفحصون عن المسيحيين ليعذبهم باشد القساوة . عزمت على الفرار من خبث صهري وقساوة المغتصب . فهربت لأختبئ الى ان ينتهي الاضطهاد فجعلت الضرورة فضيلة وانطلقت الى البرية فوصلت الى هذا الجبل ووجدت فيهِ هذهِ المغارة وعشت هنا حتى الان منفردًا كل الانفراد بثياب منسوجة من الخوص اي ورق النخل كما تراني وبينما هما يتخاطبان اذ طار اليهما غراب ووقع على شجرة قريبة من المغارة وبعد قليل نزل من الشجرة حاملاً في منقارهِ رغيفًا ووضعهُ بين يدي هذين القديسين وطار . فقال حينئذٍ القديس بولا لضيفهِ مبارك الرب الذي ارسل لنا مأكلاً . فاعلم يا اخي انطونيوس انهُ منذ ستين سنة يأتيني هذا الغراب كل يوم بنصف رغيف واليوم من اجلك اتى برغيف كامل فشكرا الله الذي يهتم هكذا فينا بمحبة ابوية . ثم صرفا الليل كلهُ في الصلاة وفي الغد باكرًا استدعى القديس بولا ضيفهُ وقال لهُ اني قد عرفت منذ زمان مديد يا اخي انطونيوس انك مستوطن هذهِ البراري . وكان الله وعدني بانك تزورني فاذ قد اقبل الزمان الذي اشتهيتهُ كثيرًا وفيهِ ينبغي ان انفصل عن هذا الجسد البالي لانتقل الى سيدي يسوع المسيح فلهذا ارسلك الله اليَّ لكي تدفن هذا الجسد الشقي وترد التراب الى التراب . فشرع القديس انطونيوس يتأسف ويذرف الدموع وطلب اليهِ الا يفارقهُ بل يأخذهُ معهُ الى ذلك الوطن السعيد . فاجابهُ الشيخ القديس لا تطلبن ما يجديك راحة بل اسأل ما يجدي اخوتك نفعًا . ان نفسك تتوق الى ترك هذا الجسد الذي تستثقل حملهُ الا ان خير اخوتك يقتضي ان تمكث معهم . والان اطلب اليك ان تعود حالاً الى ديرك وتجيء بالرداء الذي وهبك اياهُ اثناسيوس لتكفنني بهِ وتدفنني . وانما قال هذا لكي يظهر اتحادهُ بالكنيسة الكاثوليكية التي كان يدافع عنها بمزيد الشجاعة القديس اثناسيوس وقتما اضطهدها الاريوسيون

فكان القديس انطونيوس يسمع هذا باندهاش واستدل من ذلك على ان الله كان كشف للقديس بولا عن اشياء كثيرة لا يمكن ان يعرفها من دون الهامهِ تعالى وشكر الرب باطنًا ثم دنا من القديس صامتًا وقبَّل يديهِ ورجع الى ديرهِ عاجلاً . ووصل اليهِ بعد يومين فصادفهُ في الطريق اثنان من رهبانهِ وقالا لهُ اين كنت يا ابتاه ولماذا طال غيابك علينا فاجابهما القديس متنهدًا وقال وهو يضرب صدرهُ ويلي انا الخاطئ لاني غير مستحق ان ادعى راهبًا اني رأيت ايليا ويوحنا المعمدان في البرية ورأيت بولس في السماء . فسألهُ التلميذان ما معنى هذا الكلام اما هو فقال للصمت وقت وللكلام وقت (جامعة ٣ : ٧) ودخل في قلايتهِ واخذ رداء القديس اثناسيوس وخرج ليرجع الى القديس بولا . وكان يسير في الطريق عاجلاً خوفًا من ان يموت الشيخ القديس قبل ان يصل اليهِ . وقد كان هكذا لانهُ في اليوم الثاني وهو راجع حينما لم يبقَ لهُ الا مسافة ثلث ساعات ابصر فيما بين الملائكة والانبياء والرسل نفس القديس بولا صاعدة الى السماء فجثا على الارض واضعًا التراب على راسهِ وقال بقلب اسيف لماذا تفارقني يا بولا لماذا تنطلق قبل ان تودعني اهكذا تباينني سريعًا . فلما دخل المغارة وجد جسد الشيخ الميت واقفًا جاثيًا على ركبتيهِ ورأسهُ مستقيمًا ويديهِ مرتفعتين . فظن انهُ حيٌّ بعدُ فجثا يصلي بقربهِ . غير

انهُ لما رأى الشيخ لا يتنهد كعادتهِ في الصلاة تفرَّس فيهِ جيدًا فتحقق انهُ قد تُوفي. فوثب حينئذٍ على جسدهِ ذارفًا الدموع ومقبلاً وجههُ ويديهِ. ثم كفنهُ في رداء القديس اثناسيوس واخرجهُ خارج المغارة ليدفنهُ غير انهُ لم يكن معهُ آلة ليحفر بها الارض. وفيما هو يفكر في امرهِ متحيرًا رأى اسدين مقبلَين عليهِ ولما وصلا انطرحا لدى جثة القديس بولا مظهرَين اكرامها لهُ بلسان الحال. ثم حفرا بمخالبهما في الارض قبرًا كاملاً وبعدما فرغا من العمل ركعا امام القديس انطونيوس كمن يطلب منهُ بركة فبارك عليهما قائلاً الهي يا من بدون عناية حكمتهِ لا يسقط عصفور على الارض ولا ورقة واحدة امنح هذين الاسدين ما يناسبهما ثم اطلقهما باشارة يدهِ. وحينئذٍ الحد القديس بولا بعد تلاوة الصلوات الكنائسية من اجل الاموات واخذ ثوبهُ المنسوج من الخُوص ورجع الى ديرهِ حاملاً هذا الكنز الثمين. وكان يلبس هذا الثوب يومين في كل سنة وهما عيد الفصح وعيد العنصرة. فهذا ما اخبر عنهُ القديس انطونيوس المعظم وقد اثبتت الكنيسة الجامعة كلامهُ. واما وفاة القديس بولا فكانت في اليوم العاشر من كانون الثاني في سنة ثلثمائة وثلث واربعين. غير ان الكنيسة نقلت عيدهُ الى اليوم الخامس عشر من الشهر المذكور

ثم ان القديس ايرونيموس يختم هذا الخبر هكذا اني اسأل الان الاغنياء الذين لا يعرفون كمية ثروتهم لزيادتها والذين يسكنون المنازل الفسيحة المزينة بالزخارف والنقوش ما الذي اعوز هذا الشيخ القديس المتعري من كل غنى. فانتم تشربون في كؤوس من فضة وذهب وهذا بولا يطفئ عطشهُ بكف يدهِ. انتم تلبسون البرفير وهذا كان متردبًا بثوب من نخل. غير انهُ لا يكون الامر هكذا دائمًا وهذه الحال ستنقلب الى حال اخرى. فها ان السموات انفتحت لبولا المسكين وانتم ستهبطون الى جهنم مع جميع كنوزكم. وهو قُبر في لحدٍ ليقوم للمجد وانتم تُدفنون في قبور من الرخام والمرمر لتحترقوا الى الابد. ثم اني اطلب الى من يتلو هذا ان يذكر في صلاتهِ ايرونيموس الخاطي الذي لو فوَّض الله تعالى الامر اليهِ لكان يفضل ثوب بولا الخشن مع استحقاقاتهِ على برفير الملوك وعذابهم



اليوم الحادي عشر

وفيهِ ترجمة القديس تاودوسيوس الكنوبيني

انما لُقب بالكنوبيني الذي معناهُ رئيس رهبان قانونيين لانهُ جمع في دير واحد عددًا جزيلاً من الرهبان كانوا يعيشون تحت تدبيرهِ عيشًا مشتركًا. اما مولدهُ فكان في قرية بكبادوكيا نحو السنة الثالثة والعشرين بعد الاربعمائة. ولان والديهِ كانا اصيلين في التقوى والعبادة اهتمَّا كثيرًا في تربيتهِ وتعزيا بهِ جدًا لانهُ نما في الفضيلة وعلم القديسين قبل ان يكون قابلاً لاكتساب العلوم البشرية. وكانت حرارة رغبتهِ في تلاوة الكتب الروحية لاسيما الكتب المقدسة قوية. فصار عالمًا ماهرًا في العلوم الدينية فلما اطلع جيدًا ما في العالم من الاباطيل رغب عنهُ وقبل الدعوة الاكليريكية وبمدة يسيرة من الزمان صار مرشدًا لأناس كثيرين في طريق الفضيلة حتى لوالديهِ ايضًا الا ان نفسهُ المرتاحة الى الكمال لم تكتفِ بكمال هذه الدعوة المقدسة. فمن ثم عزم على ترك العالم مطلقًا ثم خرج ليقضي حياتهُ في البرية. ولكي يعرف ارادة الله في ذلك انطلق الى الاماكن المقدسة ليستشير القديسين المقيمين في براري تلك النواحي على ممارسة الفضائل. ومثل ابرهيم هجر وطنهُ وبيتهُ واقرباءهُ ولما مر بانطاكية مدينة بسورية حاد عن طريقهِ حتى يزور القديس سمعان العمودي ويطلب مشورتهُ وصلاتهُ ويتبرَّك بهِ. فلما قرب من العمود ألهم الله القديس سمعان ان اهتف بهِ فقال لهُ اهلاً ومرحبًا يا تاودوسيوس عبد الله. فتعجب تاودوسيوس ولم يجاوبهُ ولكنهُ ركع متواضعًا وعفَّر وجههُ في التراب. فامرهُ القديس بالقيام وكلفهُ بالصعود اليهِ ولما وصل الى قمة العمود اعتنقهُ القديس بمحبة عظيمة واخبرهُ بما ارادهُ الله فيهِ وحرَّضهُ على تتميمهِ بامانة ثم اطلقهُ ليمضي

ومن بعد ان زار تاودوسيوس الاماكن المقدسة افتكر كثيرًا هل يختار مذهب الاباء السياح العائشين بالانفراد مفترقين بعضهم عن بعض. ام يتبع مذهب الرهبان القانونيين العائشين معًا عيشًا مشتركًا. الا انهُ فضل المذهب الثاني لانهُ وجدهُ اكثر امنًا واوفر كمالاً. من اجل ان الراهب القانوني يلتزم بامانة نفسهِ على الدوام. واحتمال نقائص اخوتهِ بروح الصبر والمحبة. فتتلمذ في اول الامر لراهب شيخ يُدعى لونجينوس وكان معلمًا ماهرًا في الحياة الروحية يمارس

رياضات الفضائل في برج داود النبي. وقد فرح به لونجينوس لكثرة فضائلهِ وكان يتعزى جدًّا بالعيشة معهُ. ففيما كانا على هذه الحال اذا بامرأَة فاضلة اتت الى الشيخ وطلبت منهُ تاودوسيوس ليخدم كنيسة قد كانت ابتنتها اكرامًا للعذراء والدة الله. فاضطر حينئذٍ الرئيس الى مفارقة تلميذهِ الحبيب فارسلهُ ليخدم تلك الكنيسة. فذهب بروح الطاعة لكي يخدم ذلك الهيكل المقدس. غير انهُ لم يبقَ هناك زمانًا طويلاً لان خبر قدسهِ اشتهر سريعًا. ولما رأى كثيرين يزورونهُ و يستشيرونهُ فرَّ هاربًا من هناك وطلب مكانًا يختفي فيهِ فيكون مجهولاً لا يُعرف فصادف مغارة ملائمة لقصدهِ وهي التي فيها نام المجوس عند ما رجعوا من بيت لحم. فابتدأ هنا يمارس رياضات الصلاة والتقشفات بنشاط بليغ لانهُ كان يصرف اكثر النهار والليل مستسقيًا غيث التعزيات الروحية الوافرة. اما صومهُ فكان متصلاً قاسيًا لانهُ لم يكن ياكل الأحشائش برية او بقولاً منقوعة في الماء. واقام على هذه العادة اكثر من ثلثين عامًا وذلك بقية ايام حياتهِ. وقد قال يومًا ان تناول الغذاء كان لديهِ تقشفًا صعبًا

فعلى هذا النمط كان يعيش في مغارة لقصدهِ ان يتجافى متجنبًا معاشرة الناس ومعرفتهم. غير ان الله تعالى الذي رام ان يجعل برارتهُ مفيدة لكثيرين شهرها للجميع القريبين والبعيدين فاتى اليهِ اناس كثيرون ليتتلمذوا لهُ فقبل منهم ستة او سبعة فقط فالشيء الذي اوردهُ لهم اولاً واراد ان يمارسوهُ دائمًا هو ان يجعلوا الموت نصب عيونهم لانهُ كان يعتقد ان انفع الوسائط للنمو في الفضيلة ومقاومة الشهوات هو ذكر الموت المتواصل. ثم امرهم بان يحفروا في الارض ويبنوا مقبرة لدفن موتاهم. فلما تمَّ العمل وكمل البناء جمع رهبانهُ وكلمهم بوداعة مبهجة لان هذه هي فضيلتهُ الخصوصية التي صيرت شدة تقشفات سيرتهِ محبوبة فقال انهُ لقد تهيأ القبر فمن منكم ينزل اليهِ قبل غيرهِ. فكان احد الحاضرين كاهنًا اسمهُ باسيليوس يشتاق بكلية قلبهِ الى مفارقة العالم ليشاهد الله. فجثا امام الرئيس وقال لهُ ان شئت يا ابي فانا اموت قبل الجميع وأُدفن. اما القديس تاودوسيوس الذي كان الله يكشف لهُ الاشياء المستقبلة فعرف انهُ تعالى استجاب لصلاة باسيليوس فاذن لهُ ان ينزل الى القبر وامر الرهبان بان يصلّوا بحسب عادة الكنيسة القديمة في ما يتعلق بالاموات وذلك يوم موت المؤمن والثالث والتاسع

والاربعين من بعد وفاتهِ. فبعد هذه الصلوات الكنائسية توفي باسيليوس بلا حمى ولا مرض. وهذه الاعجوبة تلتها اعجوبة اخرى وهي ان باسيليوس بعد موتهِ المتقدم ذكرهُ كان يحضر مع اخوتهِ الرهبان و يرتل في الخوروس. ولم يكن يشاهدهُ ويسمع صوتهُ الا الرئيس واكيوس الراهب الذي كان يسمع صوت باسيليوس من دون ان يبصرهُ. فصلى الرئيس من اجلهِ فابصرهُ وحالاً ركض ليعتنقهُ فلم يستطع لانهُ غاب عن نظرهِ قائلاً كونوا مع الله يا اباءي واخوتي فانكم فيما بعد لا تروني هنا

وقد ذكر ايضًا انهُ في بارامون عيد الفصح كانت مؤنة الدير قد فرغت ولم يبقَ رغيف واحد لتقديس القربان المقدس فتذمر الرهبان على تغاضي الرئيس عن ضروريات الدير اما هو فقال لهم اهتموا يا اخوتي بان تكونوا غدًا حسني الاستعداد لحضور القداس ولتناول الاسرار الالهية. لان السيد المسيح يهتم بما ينقصنا من ضروريات المعيشة. وقد صار كما قال لانهُ في الغد باكرًا جدًّا حضر الى باب الدير حماران حاملان مآكل وافرة للرهبان وفي يوم آخر اخبرهُ رهبانهُ ان رجلاً غنيًّا فاضلاً دفع اشياء كثيرة لتتوزع على ديرهم واديرة اخرى. واذ المتوكل على توزيعها باتفاق لا يُعرف لهُ سببٌ سها عن ان يُحسن الى ديرهم اخذوا يشيرون على الرئيس ان يذكّر الوكيل بذلك فلم يرتضِ الانبا بهذا بل احتسب ذلك نقص اتكال على الله. وقد جازى الله فرط اتكالهِ على عنايتهِ الابوية. لانهُ في ذلك الحين جاز امرءٌ قرب الدير بدابَّة حاملة صدقات للاديرة ولم يكن لذلك نية ان يمنح شيئًا لهذا الدير. الا ان الدابة حينما قابلت الدير وقفت وما امكن صاحبها ان يسوقها مع انهُ كان يضربها ضربًا شديدًا فاستنتج من ذلك ان الله يريد ان يدخلهُ فدخل. ولما تحقق حال فقر الرهبان اعطاهم اكثر مما كانوا يرجونهُ من الوكيل الذي نسيهم

فهذه العجائب وغيرها شهرت دير الانبا تاودوسيوس ومن اجلها تكاثر تلاميذه جدًّا. ولما ضاق بهم الدير افتكر في توسيعهِ وحينما كان متأملاً في اي مكان يبني التجأ الى الله بالصلاة وفي انتهائها اخذ مجمرة ليمضي بها الى كنيسة الدير وقد كانت هذه الكنيسة بعيدة عن قلايتهِ. وفيما هو سائر رأى نارًا نازلة من السماء وللحال اوقدت الفحم الذي في المجمرة فاتخذ

هذا دليلاً على ان الله يريد انهُ يبني هناك الدير الجديد . فمنذ ذلك الوقت جعل يقبل في الدير كل الذين كانوا يأتون اليهِ ليتركوا العالم ويتعبدوا لله تحت ارشادهِ . وقد تكاثرت الرهبان على نوع عجيب وكثير منهم كانوا في العالم قوادًا لجيوش وقضاةً وامراء واغنياء وعلماء . والامر الاعجب هو ان اولئك الرهبان مع كون عددهم زاد على الالف وهم مختلفو الجنس واللغة والملة والدعوة كانوا عائشين معًا في دير واحد بأتم الفة وانتظام . ولفرط ما كانوا محافظين على الصمت كان يتخيل للناظر ان الدير خالٍ ما فيهِ احد

اما الانبا القديس فلما رأى في ديرهِ اناسًا كثيرين مختلفي اللغة ابتنى اربع كنائس في دار الدير احداهن من اجل الذين كانوا يتكلمون باليونانية . والثانية من اجل الارمن والعرب والعجم . والثالثة للذين كانوا يأتون من الغرب . والرابعة من اجل الذين كانت الشياطين تتسلط عليهم اعني بهم المجانين الذين كانوا قد تكاثروا جدًا في ذلك الزمان . وقد كانوا يصلون ويرتلون التسابيح في تلك الكنائس الاربع الا ان القداس لم يكن يقام الا في كنيسة اليونانيين ولا يتناولون الاسرار المقدسة الاَّ بها . غير انهم كانوا يرتلون المزامير في كل كنيسة كل يوم سبع مرات

ولما كان الفراغ اصل الرذائل عكفت الرهبان على الشغل كل الزمن الذي لا صلاة فيهِ . ولان الرئيس كان يدبر بحكمة مقترنة بوداعة وتقوى وكان هو للكل في كل شيء مثال الكمال كان الجميع ينمون كل يوم بالفضيلة . وكان فضلاً عن اهتمامهِ بتلاميذهِ امدّنا الله بشفاعتهِ يقبل في ديرهِ كل الغرباء والفقراء والمرضى ومن اجلهم كان ابتنى كثيرًا من المنازل الواسعة . ومرات كثيرة الجأت الضرورة تلاميذهُ ان يوزعوا جماهير الغرباء على مئة مائدة . ولم يفتكر قط كيف يقوم بهذه الاشياء ومن اين يقدّم كل هذه المصاريف وقد اتضح ولاح في هذا القديس ان محبتهُ الكاملة المقترنة بايمانهِ الوثيق لا يعوزها شيء اذ انهُ لما حدث غلاء شديد في الشرق كلهِ التجأت حينئذٍ المساكين الى الدير فتكاثروا جدًا حتى ان الرهبان اغلقوا ابواب الدير ليمنعوهم . اما الانبا القديس ففتحها وامر بان يُعطى كل واحد ما يحتاج اليهِ فشبع ذلك الجمع العظيم كلهُ من غير ان تنقص مؤونة الدير شيئًا اصلاً وهذه العجيبة الباهرة رآها وتحققها الجميع

وقد كان بين القديس تاودوسيوس والقديس سابا محبة عظيمة وكانا يُدعيان رسولَيّ بلاد فلسطين وذلك لاجل غيرتهما في محاربة الاراطقة الاوطاخيين الناكرين وجود طبيعتين ومشيئتين في سيدنا يسوع المسيح . والرافضين الجمع الرابع الخلكيدوني المقدس الذي ثبت وحكم بوجود كلتا الطبيعتين والمشيئتين في المسيح . ولما كان عرف فضائلهما منتشرًا في كل الشرق افرغ اولئك الاراطقة الاوطاخيون جهدهم في ان يجتذبوهما الى بدعتهم لا سيما الملك انسطاسيوس الاَّ ان هذين الرسولين ناصباهُ على الدوام ولم يباليا بوعدهِ ولا بوعيدهِ . اما الملك الخبيث فظن انهُ ينتصر على تاودوسيوس بالملاطفة والتبجيل ولانهُ كان يعرف رحمة القديس للفقراء وكثرة ابتهاجهِ في مساعدتهم ارسل اليهِ مقدارًا عظيمًا من الذهب ليوزعهُ على المحتاجين . فشعر الانبا بحيلة الملك وخبثهِ فقبل تلك الاموال وفرقها على الفقراء . ولما قدموا لهُ بعد ذلك من قبل الملك صورة ايمان اوطاخي ليقبلهُ ويختمهُ فجمع حينئذٍ القديس كل رهبانهِ وشجعهم على مناصبة الاراطقة ومعاضدة الحق حتى سفك دمهم . ثم كتب الى الملك بغيرة رسول مستعد للموت لاجل الايمان الكاثوليكي موردًا لهُ ان جميع رهبانهِ يؤثرون ان يكابدوا اشد العقوبات ويقبلوا الموت على الزيغ عن ايمان الكنيسة في قضية واحدة . فلما قرأ الملك هذه الرسالة اشتعل غضبًا الاَّ انهُ اخفى في قلبهِ الحقد . وكتب الى القديس ثانية بملاطفة واحترام ثم انهُ ابرز فيما بعد اوامر جديدة ضد الكاثوليكيين . فلما أُخبر بذلك القديس تاودوسيوس مضى مسرعًا الى اورشليم مع انهُ لم يكن خرج من بريتهِ منذ خمسين عامًا ليثبت المتقلقلين في الايمان المستقيم وفيما كان الشعب كلهُ مجتمعًا يومًا في الكنيسة صعد الانبا الى المنبر باذن الاسقف ونادى بصوت عالٍ قائلاً من لا يقبل المجامع الاربعة المقدسة كقبولهِ الاناجيل الاربعة فليكن محرومًا وملعونًا . فهذا الكلام البارز من فم شيخ بلغ اثنتين وتسعين سنة أثّر في قلوب الحاضرين تاثيرًا عظيمًا . وقد احب الله ان يثبتهُ باعجوبة لانهُ عند خروجهِ من الكنيسة لمستهُ امرأة دبت بجسدها آكلة مميتة فشفيت لساعتها . وقد طاف القديس مدنًا اخر كثيرة في بلاد فلسطين يزأر في كل مكان على الاوطاخيين كالاسد مُبطلاً ومفندًا امر الملك الاراتيكي ولذلك اظهر الملك حينئذٍ ما كان يخفيهِ من البغضة والحقد

على القديس فنفاهُ . وهذا نفسهُ ملأ قلب الانبا سرورًا فقال انهُ لم يشعر قبلاً بمثل هذا الفرح غير انهُ بعد ذلك بزمن قليل انزل الله على الملك الطاغي صاعقةً قتلتهُ . وحينئذٍ رجع تاودوسيبوس الى ديرهِ وكان عمرهُ خمسًا وتسعين سنةً . وعاش بعد ذلك احدى عشرة سنةً ايضًا بغيران يضعف عقلهُ او نشاطهُ في العبادة بل انهُ كان يزيد على تقشفاتهِ وخصوصًا عندما ناهز المائة واذ انتهى الى خمسة اعوام بعد المائة اصابهُ داء عضال وازمن فاحتملهُ بفرط الصبر ولما رأى ان الموت قد اوشك ان ينشب اظفارهُ تناول الاسرار الاخيرة واوصى رهبانهُ محثًا اياهم على ممارسة السيرة القشفة وحفظ قوانين الرهبانية وسلّم روحهُ بهدء بيد الله سبحانهُ في سنة خمسمائة وتسع وعشرين . وكان عمرهُ مائة وخمس سنين

اليوم الثاني عشر

وفيهِ ترجمة القديس مبارك بيسكوب

انهُ من شرفاء الشعب الانكليزي وقد صرف جانبًا كبيرًا من ايام الشباب في خدمة ملكهِ وقد كان قادرًا حينئذٍ ان يجلب لنفسهِ ثروةً . وذلك ما اعتاد ان يفعلهُ اكثر الذين تستخدمهم الملوك في تدبير امورهم لكنهُ اذ تأمل انهُ صعب جدًّا على المرء ان يخلص نفسهُ وهو يعيش في سعةٍ بهذه الدنيا وانهُ عظيم جزاء الذين حبًّا بيسوع المسيح تبارك اسمهُ يرغبون عن اللذات الحسية أقلع عن كل امالهِ التي يقدر بها ان يطلب خدمة ملوك الارض رغبةً ان لا يكون تلميذًا ولا خادمًا الاَّ لملك الملوك الذي لا يموت . واما الديانة المسيحية فكانت وقتئذٍ حديثة العهد في انكلترا واسرار ايماننا كانت لم تزل غير واضحة وبحيث اشتهى ان يستجليها ذهب الى رومية حتى يزور قبري الرسولين المجيدين بطرس وبولس ويتعلم هنالك ان يحيا بالكمال المسيحي . فبعد ان صرف زمانًا في زيارة ذخائر الشهداء واحاط علمًا بتفاسير قضايا الدين كلها دخل ديرًا ولبس فيهِ ثوب الرهبانية وفيما كان مسلوب اللذات والشهوات بالكلية وكان قد نذر قلبهُ واهواءهُ وكل حياتهِ لخدمة الله عزَّ وجلَّ ظن انهُ ينبغي لهُ ان يعيش باقي عمرهِ هناك . لكنما البابا اغاثون الذي اكثر من الاستفهام عن خلائقهِ الرضية وفضائلهِ اخرجهُ من ذلك المكان وامرهُ ان يعود الى بلادهِ لكي يفلح كرم الرب الذي كان لم يزل غير مفلوح جيدًا على انهُ عمل عَمَل ابن حقيقي للكنيسة وما لبث ان عرفتهُ الناس فاخص شان الفضيلة ان ترفع وتشهر اولئك الذين يمارسونها بحسبما يتنازلون وينسحبون معتزلين معاشرة الناس . فاقول انهُ لا يمر زمان طويل حتى ان ضياء فضائلهِ الساطع يشرق على الافهام الذكية التي علمت بحبهِ لتقدم البرارة والكمال المسيحي وهذا نفس ما عرفهُ الملك الذي حكم ان رجلاً مثلهُ كان ضروريًا للتعليم واعطاء القدوة الصالحة في انكلترا ولاتساع المعرفة باسرارنا فاعطاهُ مكانًا طيبًا لكي يعمر ديرًا وكذلك وظائف سنويةً لكي يقوم بمعيشة رهبانهِ وذلك الدير دُعي باسم القديسين بطرس وبولس

لا اتردّد في ان ذلك قد سبب لهُ سرورًا كثيرًا لان قلبهُ كان ملتهبًا بحرارة محبة الله وكان ذلك وسيلةً حقيقية لكي يعلم الناس شيئًا ما حصلهُ برومية من التعاليم الجيدة والمقدسة على ما تقتضيهِ المحبة المسيحية ومن اجل ذلك بدا يرتب ديرهُ جيدًا داخلاً وخارجًا حسب القانون الراهن بفضيلةٍ سامية واضعًا القوانين المناسبة لاستعمال الاديرة القديمة

ان بيدا المكرم الذي تلمذ لهُ واقتدى بفضائلهِ ايَّ اقتداء اذ كان يصف باحدى مواعظهِ اعمالهُ الجيدة قال . يا اخوتي لا ينبغي لكم ان تتحيروا كثيرًا حينما تسمعوني اخبركم بما تعلمونهُ بمقدار ما تفرحون لاني لا اقول شيئًا لا يكون محققًا حينما أُورد قصة اعمال الطوباوي المقدسة والفاضلة الذي الله تعالى باعجوبةٍ ظاهرةٍ انجز كل ما كان قد وعد بهِ خدامهُ الامناء قائلاً كلُّ من يترك بيتهُ او اخوتهُ او اخواتهِ او أباهُ او امهُ او امرأتهُ او اولادهُ او ثروتهُ حبًّا بي يأخذ مئة ضعفٍ في هذا العالم وفي الاخرة الحياة الابدية . وفي الحقيقة بعد ان ترك اقاربهُ واصحابهُ ووطنهُ قد اصبح محترمًا ومكرمًا ليس في هذا البلد فقط نظرًا الى استحقاق فضائلهِ لكن كذلك اولئك الذين يعرفونهُ في فرنسا وايطاليا ورومية وعلى البحر كلهم كانوا مولعين بهِ كثيرًا حتى ان البابا اغاثون اذ كان جذلان جدًّا من حيث انهُ كان قد انشأ من عهد قريب ديرًا واذ كان للبابا المشار اليهِ اعتناء خصوصي بتقدمهِ ارسل اليهِ مرتل كنيسة رومية لكي يدخل في ديرهِ وكل انكلترة النوع القانوني من الترتيل وخدمة الكنيسة حسب عادة الكنيسة الرومانية الرسولية ترك بيتهُ حتى يلحق بيسوع

المسيح في الرجاء بفرح فجزاه الفردوس والسكنى السموية فاحتقر الاقتران الغير المنفك بامرأة يمكن ان تحصل على اولاد محبًا اكثر ان ينضمّ الى هولا المائة والاربعة والاربعين الفًا الذين يتغنون بترتيل جديد امام عرش الله والخروف. فما من احد يستطيع ان يرتل الّا اولئك الذين قال عنهم الكتاب المقدس هم اولئك الذين لم يتدنسوا قط بالنساء يتبعون الحمل الى حيث يمضي. وفي الحق انهُ بدل الغنى الذي تركهُ لم يكن مكان الّا وقد جرى فيهِ ذكر مناقبهِ ولا كان شخص لا يشتهي ان يخدمهُ ويمدّهُ بالاحسان وحقًا انهُ وجد عدد غفير من الانقياء لم يكونوا اقل غرامًا بهِ كانوا يسعفونهُ بمحبةٍ كما يسعفون نساءهم واولادهم وكان في وسعهِ ان يحصل على اولاد جسديين من امرأة لكن عوضًا عن ذلك حصل على عددٍ كثيرٍ من الاولاد الروحيين اي علينا كلنا نحن العائشين تحت ترتيبهِ. فهذا هو الخطاب الذي تلاه بيدا المكرم على اخوانهِ لكي يرفع شان فضيلة القديس المومأ اليهِ. اما اعتناء هذا الرئيس الفاضل عندما كانت صحة جسمهِ تأذن لهُ في ذلك فكان لتوسيع الكنيسة المقدسة الكاثوليكية وخصوصًا ان يوطد في ديرهِ السلام والراحة بحيث انهُ كلما سافر في البحر ورجع جلب بعض اشياء لاجل سعة وزينة ديرهِ مرةً صُورًا تقويةً وتارةً ذخائر الشهداء القديسين وكان يأتي احيانًا باحذق المهندسين والفعلة الذين يقدر ان يصادفهم لكي يستخدمهم في بناء ديرهِ ووقتًا الزجاجين لكي يزين الشبابيك بالزجاج الجميل وحينًا بالعزافين وباشخاص اخرين نظيرهم ضروريين لتزيين الفرض الالهي وطورًا كان يجلب براآت من الاب الاقدس لاجل امتيازات وحماية رهبانهِ ومرارًا كان يجلب صورًا جميلة تقوية تتضمن اخبارًا مقدسة ومباركة وكثيرًا ما استخدمها لتزيين الكنيسة وتربية اولئك الذين كانوا ينظرون اليها. حتى ان الذين كانوا غير قادرين على قراءة الكتب المقدسة عرفوا اعمال الخالق بواسطة النظر الى هذه الصُوَر ألا انظر كيف كان يشتغل ويربي لوازم ديرهِ كما ينظر احتياجات رهبانهِ ولئلا تكون افكارهم تتشتت مطلقًا في الخدمة الالهية وفي اعمالهم الروحية

والقديس مبارك اصيب في نهاية عمرهِ بمرضٍ عضال وفي برهة ذلك كان يشكر متواصلاً نِعَم مخلصنا على القوانين المقدسة التي كانت موطدة في ديرهِ واما اكبر لذة كان يمكنهم يصنعوها لهُ فهي ان يخاطبوهُ بالنظامات الكنائسية التي كان قد نبَّه عليها في كل مدينة كان توجه خصوصًا رومية وكذلك ما يتعلق بالاماكن المقدسة التي كان قد زارها في شبابهِ. حتى انهُ بعد ان حصل على انضناء متواصل مدة سنة بسقمٍ مضجر جدًا وبعد ان قدَّم نفسهُ الى الله واعطى بركتهُ رهبانهُ المحيطين بهِ حزانى ومغمومين اسلم روحهُ بيد الله لكي يمضي فرحًا الى سماء مجد الطوباويين التي كان يشتهي من زمان طويل

ان بيدا المكرَّم تلميذهُ الذي كان موضوعًا تحت قانونهِ منذ كان عمرهُ سبع سنين في ديرهِ (كذا قال في خاتمة تاريخهِ المختصر) حكى عن حياتهِ في تاريخ انكلترة (وكذا يذكرهُ السنكسار الروماني وساوريوس كذلك كتب سيرتهُ بعد بيدا)

اليوم الثالث عشر

وفيهِ ترجمة القديس ايلاريوس

ان الله قد اظهر جزيل اهتمامهِ بكنيستهِ لما اقام القديس ايلاريوس محاربًا عنها ضد الاريوسيين وقد سماهُ القديس ايرونيموس نهر الفصاحة اللاتينية وبوق الحرب والانتصار على الاريوسيين والقديس اغسطينوس يدعوهُ ترس الايمان المنيع مقابل الاراطقة ومعلم الكنائس الجزيل الاحترام وهو من شرفاء الفرنسويين وقد وُلد في اواخر الدهر الثالث غير ان والديهِ كانا وثنيين ولما دخل المدارس تعلم الفلسفة وبقية العلوم البشرية وقد وصل فيها الى غاية بعيدة حتى انهُ غدا اعجوبة دهرهِ. فحصل بتدبير الله على الكتب المقدسة وحينئذٍ اضاء لهُ نور الحق فقبلهُ. وقد اخبر عن نفسهِ انهُ لما اعتمد حصل على فرح لا يوصف والنعمة التي وُهبها في هذا السر لم تصيرهُ انسانًا جديدًا فقط لكنها رقتهُ الى درجة كمال سامية. فاضحى في معرفة الكتب المقدسة واسرار الايمان كمعلم عظيم من معلمي الكنيسة واب من آبائها. ومع انهُ كان رجلاً عالميًا ومتزوجًا كان يظهر متصفًا بروح الكهنوت والغيرة على كنيسة الله محثًا المؤمنين على الهرب من الاراطقة وتلاوة تصانيفهم ومخاطباتهم كتجنبهم من اعداء الله. فهذا القديس وَلَدت لهُ امرأتهُ الفاضلة بنتًا تُدعى ابرا وقد كُتب اسمها اخيرًا في دفتر القديسين. ولما كان ينمو كل يوم في الفضيلة اتفق مع امرأتهِ

على انهما يعيشان معًا كأخ واخت . فشاع خبر برارتهِ في كل الاقاليم والجميع كانوا متعجبين من احتشامهِ وعبادتهِ وغيرتهِ . فلما توفي اسقف مدينة بويتيير عمَد المؤمنون الى ايلاريوس وبرأْيٍ واحد اختاروهُ اسقفًا لهم ومعلمًا بل الجأوهُ الى ذلك . فافترق حينئذٍ عن امرأتهِ بارتضائها وارتسم اسقفًا

ولانهُ كان متفقهًا بما يلتزم بهِ الاسقف فمن بعد طلبهِ العون الالهي وتأسيس اتكالهِ عليهِ تعالى جعل كل اهتمامهِ في حفظ وديعة الايمان المسلَّمة اليهِ ومقاومة الاراطقة بكل قوتهِ . وقد كانت ارطقة الاريوسيين افسدت الشرق ودخلت ايضًا في مملكة فرنسا وكان يعضد هذه البدعة الملك قُسطَنسيوس ابن قسطنطين الكبير ويضطهد الكاثوليكيين بقساوةٍ شديدة . ومن المستحيل ان توصف امواج هذا البحر الهائج التي كانت تضرب سفينة الكنيسة الكاثوليكية . وقد اتصل الامر الى هذا الحال حتى ان الاراطقة كانوا يختلسون اموال الكاثوليكيين ويغشون نساءهم وبناتهم ويهدمون الاديرة وكل هذا باذن الملك ومن شدة الاضطهاد نفى كثيرون انفسهم وهربوا الى الصحاري واختفوا في الصخور والمغاير حفظًا للايمان وكانت السجون مشحونة من اكليريكيين ورهبان وعوام لم يستطيعوا الهرب . هذا ما ذكرهُ المعلم الجزيل اعتبارهُ في كنيسة الله فيسنسيوس الليريني . ولفرط شدة هذا الاضطهاد ظن بهِ القديس باسيليوس انهُ هو الذي اشار اليهِ الرسول في رسالتهِ الى اهل تسالونيكي . ففي هذه الايام السوداء وفي حين هذه الاضطهادات الشديدة التي صدمت الكنيسة اقام الله القديس ايلاريوس ونطَّقهُ بروحهِ وحكمتهِ لتعزية الكاثوليكيين وخزي الاراطقة . ليعلم الجميع ان لا قدرة على الارض تستطيع ان تضادَّ الله وتنتصر على الحق . فلما عرف ايلاريوس ان ساترنينوس اسقف مدينة ارلي في فرنسا الذي كان مفسود الايمان والسيرة عقد مجمعًا ضد الكاثوليكيين . حينئذٍ صنف القديس كتابًا اوضح فيهِ بالبراهين الصادقة لاهوت سيدنا يسوع المسيح ومساواته الاب والروح القدس في جوهرها وارسلهُ الى هذا المجمع الخبيث . اما الاراطقة فلعلمهم بان عدوهم الاكبر والاقوى في الغرب هو القديس ايلاريوس طلبوا من الملك نفيهُ فنفاهُ مع بعض اساقفة . اما هو فقبل امر الملك بابتهاج وشكر الله تعالى الذي اهَّلهُ لان يُضطهد مع الرسل لاجل ابنهِ الازلي . فلما رأَى ساترنينوس ان من كان في فرنسا عمود الدين الكاثوليكي قد نُفي ظن انهُ يجتذب الى ارطقتهِ بقية اساقفة فرنسا . الا انهُ خاب املهُ لانهُ ما من احد منهم ارتضى بان يشاركهُ لكنهم استمرُّوا ثابتين في ايمان ايلاريوس وشركتهِ . ولم يتغاضَ القديس في سفرهِ عمَّا توجبهُ عليهِ الاسقفية لانهُ كتب اولاً الى الملك باحترام مبرِّرًا نفسهُ مِمَّا كانت اعداؤهُ تثلبهُ بهِ كذبًا وحقدًا . وكتب ايضًا الى اساقفة فرنسا ولم يزل وهو في المنفى يكاتبهم كاشفًا لهم حيل الاراطقة وسم تعاليمهم . الا انهُ لما وصل الى مكان منفاهُ حصل على حزن شديد عندما نظر حال كنائس اسيا لانهُ في كنائس افريجيا حيث كان منفيًا وفي كنائس الاقاليم المحيطة بها لم يكن الاَّ ظل كنائس السيد المسيح . ولم يرَ فيها الا شكوكًا وشقاقًا وضلالاً وارطقةً . وقد شهد هذا القديس بانهُ لم يجد هناك من الاساقفة سوى ثلثة لم يكونوا اريوسيين . فلذلك اظهر هناك على الخصوص حكمتهُ وفطنتهُ وغيرتهُ حتى كانهُ نسي انهُ منفي بحكم الاريوسيين . وكافح عن الايمان عند الجميع وامام الجميع . وصنف اثني عشر كتابًا مثبتًا حقيقة الثالوث الاقدس ومبرهنًا بالادلة الراهنة على الوهية سيدنا يسوع المسيح وقد تبيَّن ان الله سمح بنفيهِ الى بلاد اسيا ليعمر الايمان المتهدم هناك

ولما التأم مجمع الاريوسيين في سيلوكيا بلدة ايزوريا دُعي اليهِ القديس بتدبير الله بخلاف قصد الاساقفة الاراطقة . على ان الملك امر بان يحضر هذا المجمع كل الاساقفة الذين في الشرق ولذا خرج القديس من منفاهُ . وفيما كان ذاهبًا في الطريق تقدمت اليهِ بنت ما وثنية اسمها فلورنسيا قد كانت مرتاحة الى مشاهدتهِ وطلبت منهُ المعمودية . فعمَّدها القديس هي ووالديها بعد ان علمهم واجبات الايمان . فلما وصل الى سيلوكيا برَّر اولاً اساقفة فرنسا مما اتهمهم بهِ الاريوسيون الذين ارجفوا بانهم تابعوا بدعة ساباليوس . ثم نهض على الاريوسيين الناكرين بنفاق شيطاني لاهوت السيد المسيح فاسودَّت وجوههم هوانًا وخزيًا . فخاف الاراطقة من حكمة ايلاريوس وغيرتهِ المنتصرة وحصل بلبلة عظيمة بين الاريوسيين والسمياريوسيين . وقام بعضهم على بعض بشراسة الخلاق ومضوا الى القسطنطينية ليخبروا بما جرى . فتبعهم القديس ايلاريوس فوجد هناك قصاد مجمع ريميني اتوا فاتحدوا مع الاراطقة الانوميين . فلما رأَى ان الاراطقة لابد

ان يقووا على الكاثوليكيين نقدم الى الملك بشجاعة مقرونة باحترام وطلب منهُ ان يأذن لهُ في ان يُجادل الاراطقة امام عزتهِ والجمهور لكي يتضح الحق . اما هم فاذ كانوا على ثقة بانهم يعجزون عن مناصبتهِ خشوا ان تمثل للناس خباثتهم وتظهر شناعة بدعتهم . فارسلوا من قبلهم الى الملك والنس وارساسيوس وهما اشارا عليهِ ان يردهُ الى فرنسا حيث كان كرسيهُ لانهُ بحضورهِ ينجّس الشرق . ففعل حسب مرامهم

فلما رجع القديس ايلاريوس الى فرنسا تلقّاهُ الكاثوليكيون كما قال القديس ايرونيموس كقائد منتصر باكرام جزيل وفرح عظيم . وقد اراد الله ان يشرفهُ بالعجائب قبل ان يصل الى وطنهِ فاقام من الموت طفلاً كان مات قبل ان يعتمد . ثم انهُ بالهام الله قد عرف حينما كان منفيًّا ان شابًّا ما شريف النسب يطلب ان يتزوج ابنتهُ ابرا . اما القديس فكان يشتهي انها تعيش وتموت بتولاً . فكتب اليها انهُ قد وجد لها عريسًا اشرف واغنى واكمل فيقتضي ان تتمهل قليلاً الى ان يجيء هو ويقدم لها ذلك العريس . فصبرت البنت غير انها كانت ترى تمادي ابيها في منفاهُ طويلاً جدًّا لفرط ما كانت ترتاح لمشاهدة العريس الموعودة بهِ . فلما رجع القديس شرع يخاطبها موردًا لها بفصاحة سموية ان العريس الذي يريد ان تكون لهُ عروسًا هو غير قابل الموت ومتصف ببهاءٍ وغنى وكمال غير متناهٍ هو سيدنا يسوع المسيح الراغب في ان يكون عروسها . فاثر هذا الكلام في قلب ابرا وفضلت على الزواج ان تكون بتولاً الى المات . وبعد زمن يسير من نقدمتها بتوليتها لله ماتت بالسلام وكان القديس قد طلب ذلك من الرب لكي لا تخسر ابنتهُ كنز البتولية . وبعد سنين قليلة من وفاتها اكمل القديس سعيه المجيد بموت مقدس في اليوم الثالث عشر من شهر كانون الثاني في سنة ثلثمائة وتسع وستين

فهذا هو القديس الذي اقامهُ الله قدوةً للاكليريكيين والعالميين ليتعلموا منهُ انهُ ينبغي لهم ان يجتنبوا الاشتراك مع الاراطقة ومداراتهم . وباية شجاعة وغيرة يجب ان يناصبوهم ويحاربوهم . وكم يجب عليهم ان يحترزوا من حيلهم . وانهُ في هذه الحرب ينبغي لكل كاثوليكي ان يزدري بالمخاطر والاتعاب والعذاب حتى الموت نفسهِ . ألا اعتبر مزيد شجاعة القديس في مخاطبتهِ قُسطَنْسيوس الملك الاراتيكي فقد قال في تأليف انهُ لقد مضى زمن الصمت وآن اوان التكلم لننتظر المسيح الاله لانهُ قد ظهر المسيح الدجال ولنستل اسلحتنا لحفظ الخراف لانهُ قد دخل اللصوص الخطيرة واحاط بها الاسد المفترس . فلننهض الى حيث يدعونا صوت الحرب ولنعد انفسنا للموت من اجل الايمان . فياليتني اعترف بالايمان امام نيرون او داسيوس اللذين حاربا الكنيسة ظاهرًا باشد القساوة الاّ اننا نحارب الان ملكًا يحارب الكنيسة بمكر . عدوًّا يملق ويداري ويلاطف بخباثة اعني بهِ قُسطَنْسيوس المسيح الدجال الذي لا يقطع الراس بل يفسد القلب بالذهب . لا يثقل الارجل بالاغلال بل يملأ الايدي هدايا . لا يتوعدنا بحريق النار الزمنية بل يوقد سرًّا النار المؤبدة . يعترف بالسيد المسيح لكي يجحدهُ باوفر سهولة . يصلح خارج الكنائس ويهدم داخلها . اني اخاطبك ايها الملك فأصغِ لكلامي انك تجعل نفسك مسيحيًّا وها انك عدو المسيح . تظهر لنا في شخصك المسيح الدجال قبل زمانهِ فتتقدمهُ وتفعل ما يفعلهُ . انك تصنف قوانين الايمان مع كونك عادم الايمان . تقيم خدامك اساقفة وتسلم الكنائس للاشرار لا الاخيار . تلقي الكهنة في السجون وتجعل شُرَطك ان يرهبوا الاكليريكيين . تأمر بالقيام الجامع لكي تورط المؤمنين في هاوية النفاق . وقد صيّرت الكهنة أسرى في المدن وترعبهم بوعيدك وتضعفهم بالجوع . وتفرغ كل حيلك لتطغيهم وهكذا تتظاهر بلباس الحملان وانت ذئب خاطف باطنًا . فبهذه الكلمات ومثلها كان القديس ايلاريوس يخاطب القياصرة والملوك المعظمين مكافحًا عن الايمان بحرية كلية ملقيًا نفسهُ في خطر الموت لاجل حفظ الايمان كما يجب ان يفعل الاكليريكيون والاساقفة

اليوم الرابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس فيليكوس الكاهن

لقد حرر خبر هذا القديس بولينوس فقال انهُ قد ولد بنولا مدينة ببلاد ايطاليا من رجل سرياني الاصل يُسمى ارمياس قائد من قواد جيش القياصرة . فلما مات ابواهُ قصد ان يخدم الله وحدهُ فتجرد من امواله وفرقها على الفقراء . فصار عند المؤمنين عزيزًا مكرمًا لاجل طهارة سيرتهِ ورصانة عقلهِ . فاختارهُ لِيخدم في الكنيسة وكان اسقف تلك المدينة القديس مكسيموس الذي لما رأى هذا الاكليريكي الحديث ورأى ما كان ادَّخرهُ الله من كنز نعمهِ في نفس فيليكوس

جعلهُ في الكنيسة قارئًا ومقسمًا على الشيطان . وحينئذٍ اشتدت حرارتهُ في خدمة الكنيسة وكانت الشياطين تفزع من هذا الاكليريكي الفاضل ولا تطيق الوقوف امامهُ وكان بالتقسيم الكنائسي يخرجهم حالاً من اجساد المجانين فلما اخبرَ الاسقف قدس فيليكوس رسمهُ كاهنًا ليسعفهُ في زمن شيخوخته في خدمة النفوس . فمن ذلك اليوم لم يزل مهتمًا في خلاص الشعب ومساعدتهم في ضروريانهم فكان يعلمهم ويزور الفقراء ويخدم المرضى ويعزي الحزانى

وفي ذلك الزمن نادى الملك داسيوس بالحرب على المسيحيين وقد كتب ديونيسيوس اسقف انطاكية عن هذا الاضطهاد الشديد ان المؤمنين قد توهموا انهُ حان الزمن الذي قال عنهُ السيد المسيح ان التجربة تكون حينئذٍ شديدة جدًا حتى انهُ لو امكن لضلَّ المختارون انفسهم . فلما رأى الاسقف القديس وقد حضرت الذئاب الخاطفة تطلب قتلهُ لكي يسهل عليها افتراس خراف رعيتهِ اخذ يتأمل ما يسوغ لهُ فعلهُ هل يقدم نفسهُ للموت لاجل السيد المسيح ام يؤخر ذلك الى زمن اخر لئلا تتلف الرعية بزوال راعيها . فكان يقول ان الحياة تحت اخطار الموت ليست حياة بل انها موت متوالٍ والعذاب الذي يعبر سريعًا يحتمل بسهولة . واذا تقدمت الى المغتصب المنافق يقتلونني عاجلاً ويفتحون لي باب السماء ويخولونني الحياة الحقيقية . واذا اختفيت فلا بد لي من الهرب الى الفيافي حيث لا اجد راحة لاني اسكن حينئذٍ بين الوحوش الضارية . وفي شيخوختي لا اجد هناك من يسعفني فخير لي الموت واسفك دمي لاجل يسوع ربي . غير انهُ قد يمكن ان انفع رعيتي في غربتي . فلماذا افضّل نفعي على نفع رعيتي . انهُ لقد قال سيدي لرسله اذا اضطهدوكم في مدينة فاهربوا الى اخرى . وبناءً عليهِ يجوز لي الفرار غير اني ارى بسبب الامور الجارية انهُ لا انفع لرعيتي ان اتغرب واختفي . فيجب عليَّ اذن ان اتغاضى عما يفيدني لكي اهتم بما ينفع رعيتي وان كنت اشتهي الموت حبًا بالمسيح فلتطل حياتنا قليلاً اكرامًا لله الذي سيؤهلنا لان نموت في زمن اخر لاجلهِ . قال هذا ثم استدعى فيليكوس واستودعهُ رعيتهُ وانطلق الى الجبال واختفى هناك

فمن ثم اخذ فيليكوس يزور المؤمنين ليقويهم ويعدّهم للاستشهاد . اما المغتصب فلما عرف ان الاسقف القديس قد هرب وانهُ اقام لحفظ رعيتهِ القديس فيليكوس ارسل الشُرَط ليمسكوهُ . فاشار عليهِ المؤمنون بل طلبوا منهُ بلجاجة ودموع ان يهرب او يختفي فلم يرضَ بذلك الكاهن الغيور الباسل ومن ثم وجدهُ الجنود سريعًا واتوا بهِ الى الحاكم . وكان هذا الحاكم يبغض الديانة المسيحية اكثر من بغضهِ للمسيحيين ولهذا طفق يكلم فيليكوس بملاطفة قائلاً لهُ اني عرفت انك ممدوح عند الناس ومحبوب منهم وانك اهل لهذا الاكرام والمحبة لاجل ما تزيّنت بهِ من المناقب الحميدة . وقد عزمت ان اكتب الى الملك اخبرهُ عنك واعاهدك انك تكون عزيزًا عندهُ ومكرمًا ان أطعت امرهُ وجحدت مذهب المسيحيين الذي يستنكرهُ . وان رفضت مشورتي هذه وابيت الطاعة للملك متمردًا فاعلم ان الملك قد اوصاني بان اميتك باشد العقوبات وان أبيد بالنار والسيف جميع المسيحيين الذين في هذه المدينة . فشكر القديس فيليكوس الحاكم على ما وعدهُ بهِ من الشرف والعزة وقال لهُ اني لمستعد لان اطيع الملك في كل ما لا يضادُّ دیانتي . اما اني اجحد الهي واكفر بمخلصي فهذا ما لا يمكن ان افعلهُ ولو امرني بهِ جميع ملوك الارض . وانت قادر ان تفصل نفسي عن جسدي وما انت بقادر ان تفصلها عن محبة سيدي يسوع المسيح فذلك مطمع ما اليهِ سبيل . وهذا الجواب ارغر صدر المغتصب فتلهبت بقلبهِ نار البغضاء ولذلك امر الشُرَط بضرب القديس فعروهُ ومزقوا جسدهُ الطاهر بالضربات وبعد ذلك القوهُ هكذا في السجن ومدوهُ على كسر حجارة حادة وربطوهُ باغلال لئلا يتحرك فيخفف وجعهُ وكان عليهِ السلام يحتمل الضربات بوجه باش وفرح . فيالهُ من فرح كان يخجل الكفار ويعزّي المؤمنين ويقويهم

اما الاسقف مكسيموس فكان في البرية على خطر الموت لفرط جوعهِ وبردهِ . لانهُ كان وحدهُ في الجبل في زمن الشتاء والثلج يتناثر عليهِ وفيما كان فيليكوس يصلي لاجلهِ ولاجل حفظ رعيتهِ اذ ظهر لهُ في جوف الليل مَلَك امرهُ بالذهاب الى مساعدة اسقفهِ . وفي الحين انفكّت القيود والاغلال والتأمت جراحه قد برئت وانفتحت لهُ ابواب السجن . غير ان القديس كان يعد ذلك حلمًا ورؤيا كما ظن بطرس الرسول وقتًا ما . ثم خرج من السجن وحينئذٍ هداهُ المَلَك الى حيث كان القديس مكسيموس ثم غاب عن نظرهِ . اما فيليكوس فوجد الاسقف مشرفًا على الموت لانهُ لم يتكلم ولم يتحرك . فتوجع قلبهُ وبكى وزاد

حزنًا عندما رأى معلمهُ على هذه الحال ولم يكن معهُ طعام يقويه بهِ . فالتجأ الى الله وطلب منهُ قائلاً يا الهي اذ قد امرتني بالمجيء الى ههنا لاسعاف معلمي فأقدرني على تتميم امرك . فلما اتم صلاتهُ هذه النصيرة رأى عناقيد عنب معلقةً على عليقة فعصر عنقودًا في كفهِ وافرغهُ في فم الشيخ القديس شيئًا فشيئًا . فهذا الخمر المرسل من الله سخن جسدهُ وروَّح روحهُ وفتح عينيهِ فبَرِئَ وشرع يتكلم . ثم اتفق الاثنان على الرجوع الى المدينة في الليل لكنهُ لم يوجد مركوب يركبهُ الشيخ . غير ان المحبة التي تحكم الانسان وتقويه الهمت فيليكوس في هذه الضرورة فحمل الاسقف على منكبيهِ واتى بهِ الى المدينة وسلمهُ لامرأةٍ فاضلة قد طعنت في سنها لتهتم بهِ ثم مضى واختفى منفردًا مواظبًا على الصلاة . ولما رأى نار الاضطهاد قد خمدت قليلاً خرج حالاً من خلوتهِ وقدِمَ المدينة ليشجع المؤمنين ويقوّي الضعفاء ولان الجميع خبروا وتحققوا طهارتهُ وحرارة ايمانهِ كان لكلامهِ في القلوب وقع كبير حتى ان الكفار اطلعوا على ذلك . ولما رأوا حرارة المسيحيين تنمو كل يوم وتزيد في الديانة وعرفوا ان فيليكوس هو المضرمها استأمروا عليهِ ومضوا باسلحتهم ليمسكوهُ في بيتهِ . ولما عرفوا انهُ في الشوارع يعلم جمًّا غفيرًا من المسيحيين ذهبوا في طلبهِ متراكضين فوجدوهُ في الطريق . ولانهم لم يعرفوهُ سألوهُ هل تعرف فيليكوس فاجاب انني لا اعرفهُ بالوجه . على انهُ لم يكن ابصر وجههُ قط فتركوهُ ومضوا . اما هو فهرب واختفى عنهم في مكان خربٍ قريب من هناك . وبعد زمن يسير عرف الوثنيون الموضع الذي اختفى فيهِ فدخلوا اليهِ وهو في الزاوية ولم يروهُ لان الله امر العنكبوت فنسجت عليهِ ولذلك قال كاتب هذا الخبر القديس بولينوس من يكن الله لهُ حافظًا يكن لهُ نسيج العنكبوت كسور منيع . وبعكس ذلك من يهملهُ الله تعالى يكون لهُ السور الحصين كنسيج العنكبوت . فلما خرج الكفرة خجلين طفق القديس يرتل قائلاً ان سكنت في وسط ظلال الموت لا اخشى الشر لان الرب معي (مزمور ٢٢ : ٤) فلما كان الليل انتقل واختفى في بئر خربة ومكث هناك نحو ستة اشهر لم يتكلم ولم يرَ احدًا لكنهُ كان يتأمل في الله بفرح قلب فلم يهملهُ الله في ضيقتهِ لانهُ الهم امرأة ساكنة بقرب تلك البئر ان تضع كل يوم على فم البئر ما يكفي من القوت انسانًا. ولم تعرف سبب ما تفعلهُ ولمن تقدم هذا الطعام .

وقد انتهى هذا الاضطهاد بموت داسيوس المغتصب وحينئذٍ خرج القديس فيليكوس من مقبرة بئرهِ وخدم الكنيسة بحرارة جديدة ومات حينئذٍ الاسقف مكسيموس . فاجتمع الشعب لينتخبوا لهم اسقفًا فاجمعوا على طلبهِ لكنهُ لاتضاعهِ قدَّم لهم كينتوس كاهنًا فاضلاً كان قد ارتسم قبله بسبعة ايام وطلب من الشعب ان يقبلوهُ اسقفًا لانهُ كان اقدم منهُ في الدرجة وافضل في العبادة . فرضي الشعب احترامًا لرأيهِ فارتسم كينتوس اسقفًا واستمر فيليكوس طائعًا لهُ كطاعتهِ القديس مكسيموس خادمًا الكنيسة بنشاط . اننا قد ذكرنا في ابتداء هذا الخبر ان القديس المشار اليهِ كان قد فرّق على الفقراء اموالهُ الغزيرة ولم يستبقِ منها الاّ منزلهُ وبعض حقول لهُ . وفي زمن الاضطهاد غُصِب بيتهُ وحقولهُ . فلما استراحت الكنيسة اشار اليهِ المؤمنون ان يطلب مالهُ في محكمة الشرع العرفي كما كان يفعل المؤمنون. اما هو فقال حاشا لي ان التمس خيورًا ارضية قد خسرتها لاجل سيدنا يسوع المسيح وان ابتغي اموالاً زائلة قد تركتها لامتلك خيورًا باقية . اما معيشة هذا القديس فكانت من بستان لهُ صغير ومن حقل ما كان يفلحهُ ورجلاً آخر وما كان يزيد على معيشتهِ الضرورية فكان يهبهُ للمساكين . ولما ارادت اركيلايدا سيدة كثيرة الغنى ان تهبهُ مقدارًا وافرًا من الدراهم أبى ذلك . وتوفي في اليوم الرابع عشر من شهر كانون الاول في اواخر الدهر الثالث قبل ان يملك ديوكليسيانوس قيصر . وقد ذكر القديس بولينوس ان الله شرَّف هذا القديس بعد موتهِ بعجائب كثيرة منها ان كل من كان يؤخذ الى قبرهِ ليثبت الحق بالقسم ان حلف كاذبًا عاجلهُ الله بالانتقام كما روى ذلك ايضًا القديس اغستينوس في رسالتهِ السابعة والثلثين بعد المائة

اليوم الخامس عشر

وفيهِ ترجمة القديس موروس

ان القديس باناديكتوس الاعجوبة عصرهِ ونتيجة دهرهِ الذي اصلح السيرة الرهبانية في الغرب كان قد ابتنى اثني عشر ديرًا في برية سوبلاك حينما رأى اقبال اشارف الدولة الرومانية على استرشادهِ وطلب صلواتهِ وكان من اولئك الاشراف هواكيسيوس ابو القديس موروس . فهذا اتى بابنهِ الى القديس باناديكتوس وقدمهُ لهُ ليحسن تربيتهُ ولم يكن قد

بلغ من العمر الاّ اثنتي عشرة سنة . وهذا كان اقصى مراد والدتهِ جوليا . فقبلهُ نحو سنة اثنتي عشرة وخمسمائة . اما موروس فكان يشتهي هذا جدًّا ولهذا في زمان يسير ارتفع بالفضيلة الى اوج الكمال . ومن ثم كان الرئيس يقدمهُ مثالاً لجميع الرهبان بل انهُ اعني رئيسهُ ومدبرهُ كان يحترمهُ كثيرًا لانهُ كان يراهُ متصفًا بكل الفضائل ولا سيما الاتضاع والطاعة . وقد ذكر القديس غريغوريوس الكبير ان القديس بلاسيوس احد رهبان القديس المذكور مضى يومًا يستقي ماء من بُحيرة بقرب الدير ولما انزل جرتهُ في الماء سقطت من يدهِ فاتبعها لينشلها فغرق في البحيرة وابعدتهُ الامواج عن الشط . وفي ذلك الحين نفسهِ عرف القديس باناديكتوس بالهام الله بما كان فاستدعى موروس وقال لهُ امضِ مسرعًا الى البحيرة لان الاخ بلاسيوس وقع فيها وهو على خطر مبين . فمضى الابن المطيع حالاً ولما كان عقلهُ متوجهًا الى اتمام امر رئيسهِ مشى على وجه البحيرة وهو يظن انها ارض . ولم يدرِ انها ماء وامسك بلاسيوس بشعر راسهِ واخرجهُ من البحيرة ولم يتنبَّه الى الاعجوبة الاّ بعد انتهائها . فلما عاد الى رئيسهِ اخبرهُ بها كأنها صادرة من امرهِ اياهُ . اما القديس باناديكتوس فنسبها الى طاعة تلميذهِ النشيط الذي كان يلبس المسح ليلاً ونهارًا وينام على حضيض الارض ويصوم كل يوم ويستمر احيانًا يومين او ثلثة بلا اكل ولم يكن ياكل في الصوم الكبير سوى الخبز ولا يشرب سوى الماء . وكان يمارس تقشفات اخر كثيرة . اما حواسهُ فقد اماتها ايَّ اماتة وكان يجتذب الناس الى العبادة والتقوى بمجرد احتشامهِ وفضائلهِ المتلالئة في جميع حركاتهِ واقوالهِ . ولم يكن الرئيس وحدهُ يعتبر جدًّا طهارة موروس بل جميع الرهبان وكان العوام ايضًا يعتبرونهُ كاعتبارهم القديس باناديكتوس نفسهُ . ولما كان الناس يحتاجون الى فعل اعجوبة ولم يجدوا هذا القديس كانوا يلتجئون الى موروس ويلتمسون منهُ الصلاة . روى ثقة انهُ في غياب الرئيس طُلب منهُ ان يشفي صبيًّا اصم واعرج . اما هو فوبخهم بغيظ مقدس قائلاً لهم ما بالكم تطلبون من انسان خاطئ ان يشفي المرضى ان هذا فعل يخص القديسين فقط . غير ان اخوتهُ الرهبان سألوهُ انهُ اقل ما يكون يصلي ويضع يديهِ على الصبي . فركع حينئذٍ موروس ووضع طرف البطرشيل الممنوح لهُ من القديس باناديكتوس على راس الصبي فشفي للحين . الا انهُ كان ينسب هذا الى قدس رئيسهِ

فلما كان خبر برارة القديس باناديكتوس ورهبانهِ شائعًا في الممالك البعيدة واتى من فرنسا نحو سنة خمسمائة واثنتين وار بعين اردبراد رئيس الشمامسة وطلب من قبل مطران ابرشية مان ان يرسل القديس المذكور بعضًا من رهبانهِ ليبنوا ديرًا لرهبانيتهِ اما هو فقبل هذه الطلبة وانتخب موروس لتأسيس هذا الدير الجديد وتدبيرهِ . واما الاخوة فوقتما علموا بذهابهِ حزنوا جدًّا وبكوا بكاء مرًّا لانهم كانوا حسبوا ان سيكون خليفة رئيسهم . فاخذ القديس باناديكتوس يسليهم وخاطبهم قائلًا انهُ لو لاق بامرئٍ ان يحزن على ذهاب موروس وتغرُّبهِ لكان ذلك اليق بي واولى لما كان يحصل لي من العون منهُ والمساعدة في اتعابي . الاّ ان صاحب المحبة يتغاضى عما يخصهُ ويطلب عون الغير وتسليتهُ . ومن ثم لا يسوغ لنا ان نكتئب ما يجدي الناس نفعًا لان مثل هذا الحزن هو تجربة شيطانية . ولا تظنوا انكم بغيابهِ رعاةُ الله تخسرون من الخير شيئًا لان الله قادر ان يقيم لكم رئيسًا افضل منهُ ومني ويتمم في غيابنا ما قد ابتدأهُ . فيكم من الخير وارجو من جودهِ تعالى ان لا تفتر حرارة المحبة التي أضرمها في قلوبنا اذا بعدنا عن بعضنا . لاننا مع كوننا متبعدين نشاهد دائمًا بعضنا بعضًا بعين المودة . ثم التفت الى القديس موروس ورفقائهِ الاربعة سمپليسيانوس وانطونيوس وقسطنطينيانوس وفُستوس وقال لهم . اما انتم يا ابنائي الاحباء فمن حيث ان الله تعالى اصطفاكم لكي تغرسوا في فرنسا هذه الرهبانية الجديدة فتقووا وتشجعوا بالرب واعلموا يقينًا انكم بمقدار ما تتعبون في برية العالم لاجل خلاص البشر بمقدار ذلك يزداد اجركم في ملكوت السماء . واذا سمعتم ان نفسي قد انفصلت من هذا الجسد البالي فلا تظنوا اني اهملكم لاني ساكون معكم حاضرًا بروحي دائمًا وافيدكم حينئذٍ اكثر مما انفعكم الان

ومن بعد ان كلمهم بذلك سلَّم موروس كتاب قوانينهِ الذي كان قد كتبهُ بيدهِ وبارك لهُ ولرفقائهِ واطلقهم . ثم انهُ ارسل اليهِ رسولاً فلحقهُ الرسول مع رفقتهِ بعد ان قطعوا مرحلة واحدة وقدم لهُ علبة فيها ذخيرة من عود الصليب المقدس مع بعض ذخائر القديسين وايضًا رسالة أراد القديس موروس ان تُدفن معهُ فانها كانت مشتملة على ما نصهُ . اقبل يا ابني هديتي الاخيرة كعربون محبتنا الثابتة المترددة بيننا وكترس منيع تجاه كل اتعابك المستقبلة . واعلم ان الله عرَّفني بانك

سوف تحظى بهِ عزَّ وجل ولكن بعد ان تكون قد لبست ثوب رهبانيتنا ستين عامًا . واني اسبق واخبرك بانك تتعب كثيرًا قبل ان ينتهي العمل المقصود . وان عدو البشر يمانعك على مقدار طاقتهِ الا ان الله سوف يعينك وتنال اربك بعد التجربة وليكن الله معكم ويجعل سفركم سعيدًا .

وقد استجاب الله دعاء هذا القديس وافاض عليهم البركات وضاعفها في هذا السفر المتعب . اما موروس ورفقتهُ فلم يبالوا بالتعب . حتى انهم في هذا الطريق الشاسع لم يغيروا شيئًا من عادتهم الرهبانية بل كانوا يرتلون تسابيحهم بخوروسين في الازمنة المعينة في اديرتهم ويحافظون على الصوم والصلاة والقراءة والصمت كانهم مختلون في دير . وهكذا كان يفوح في كل مكان عرف قدسهم . وقد شرَّف الله موروس بعجائب كثيرة في هذا السفر لانهُ مرةً شفى رجلاً يقال لهُ ارديلاردوس كان قد سقط من قلعة عالية فتطحن جسدهُ ونظير ذلك فعل بآخر اسمهُ سرجيوس كان قد تهشم ساقهُ وفتح عينَي اعمى يقال لهُ لينوس بادر وخرَّ على قدميهِ امام الكنيسة وسألهُ باسم معلمه ورئيسه القديس باناديكتوس ان يفتح عينيهِ فرسم موروس عليهِ اشارة الصليب فابصر . وقد أبرأ شابًا من مرض النفس والجسد وبعد نيل الشفاء ترهب ثم قضى نحبهُ بطهارة

وفيما كان موروس في الطريق أُخبر عن القديس رومانوس الراهب الذي كما روى القديس غريغوريوس كان قد اسعف جدًّا القديس باناديكتوس في ابتداء رهبانيتهِ بانهُ قد اتى بوحي الهي الى فرنسا ليبني ديرًا بقرب مدينة اوسار وكان عيد الفصح قد دنا فرام موروس ان يفتقد القديس رومانوس فوصل الى الدير يوم الجمعة من الاسبوع العظيم وفيما هو يجول في المذاكرة مع القديس رومانوس قال لهُ موروس بروح النبوة ان القديس باناديكتوس يموت غدًا وقد تمت نبوَّتهُ . وبعد ذلك بيومين اي يوم السبت أُختطف موروس بالروح ورأى نفسهُ في دير القديس باناديكتوس وهناك ابصر منهجًا في السماء مزينًا باراثك جليلة ثمينة مضيئًا بمصابيح متقدة متصلاً من قلاية القديس الى السماء . وروى ايضًا القديس غريغوريوس انهُ تراءى حينئذٍ لموروس رجل عظيم القامة كثير المهابة فسألهُ هل يعرف ما هذا المنهج فاجابهُ موروس لا فقيل لهُ هذا هو الطريق الذي بهِ يصعد القديس باناديكتوس خليل سيدنا يسوع المسيح الى السماء

فانطلق موروس من هناك ومضى الى مدينة اورليان فأُخبر بان مطران ابرشية مان الذي ارسل يطلبهم قد توفي . وان الذي جلس على كرسيهِ لا يريد ان يبتني لهم ديرًا فاغتم رفقاؤهُ كثيرًا وحصلوا على حصر شديد . الَّا انهُ عزَّاهم سريعًا بقولهِ لهم ان الله من عادتهِ ان يمتحن عبيدهُ ثم يفرج عنهم ولانهُ لا يهمل المتكلين عليهِ ابدًا وقد صار كما قال . لان ارديبراد الذي مرَّ الكلام عليهِ حينما رأى ضيق اولئك الرهبان كتب لاحد اقربائهِ يقال لهُ فلوروس وكان غنيًّا مكرمًا لدى تاوديبرتوس ملك فرنسا واخبرهُ بوصول موروس . وان المطران الذي كان قد طلبهُ توفي وان الذي جلس مكانهُ لم يقبل القديس في ابرشيتهِ ولا يريد ان يبني لرهبانهِ ديرًا . فلما عرف فلوروس هذا الامر وعلم بقدس اولئك الرهبان اخبر الملك بذلك . ولان الملك كان قد سمع ببرارة القديس باناديكتوس ورهبانيتهِ امر فلوروس ان يزورهم من قبلهِ ويطلب صلواتهم من اجلهِ . فذهب ولما رأى القديس موروس ورهبانهِ انذهل من فضيلة القديس فجثا امامهُ وطلب بركتهُ ووهبهُ كل ما كان لهُ من الارضين والثمار في اقليم انجو . ولم يكتفِ بذلك بل انهُ سلمهُ ابنهُ بيرتولوس ليربيهُ وعمرهُ ثماني سنين فقط

فشرع فلوروس يبني ديرًا فكمل البناء سريعًا بنفقتهِ وجزيل اهتمامهِ . وكان قد اقام لتدبير البناء رجلاً اكليريكيًّا معلمًا ماهرًا في هذه الصناعة فهذا صعد يومًا الى اعلى البناء لكي يرى اعمال البنائين فسقط وانكسرت هامتهُ وتطحن جسدهُ كلهُ ومات . فحزن القديس موروس على هذا الرجل المحسن اليهم وقد مات في سبيل خدمتهم . فامر ان يحمل الى باب الكنيسة التي بُنيت وكملت فصلى في قلبهِ صلاة وجيزة حارة . ثم صلَّب على الميت فقام حالاً امام الجمهور حيًّا متعافيًا . وفي وقتهِ ارسلهُ القديس ليدبّر امر البناء . وجرت هذه الاعجوبة بحضرة فلوروس فاخذهُ اعجب العجاب حتى انهُ جثا على الارض ولم يجسر فيما بعد ان يدنو من القديس ولا ان يرفع الحاظهُ اليهِ . غير انهُ قد لاح حينئذٍ وتحقق انهُ لا استقامة السيرة ولا العجائب الكثيرة تقنع الاشرار وتصدُّهم عن مثالب الابرار بل يعمون احيانًا بالنور الذي يضيء لهم . لان بعضًا من البنائين الذين كانوا معاشري القديس اذ شاهدوا

الاعجوبة المذكورة طفقوا يقولون للناس عنهُ انهُ رجل مراءٍ ساحر متكبر بخيل . وانهُ خرج من ايطاليا ليتمول بواسطة سحرهِ وريائهِ . وهذه هي التجربة التي ادركت جميع القديسين اي ان تلام افعالهم ونيتهم . هذا هو الطريق الذي نهجهُ لهم الرب عزَّ وجل بمثالهِ الالهي . غير انهُ تعالى بعد امتحانهِ اياهم بهذه التجربة برَّرهم ورفع شأنهم كما فعل بالقديس موروس لانهُ سبحانهُ عذَّب ثلثة من الذين كانوا يقرفونهُ احدهم اسمهُ فلوديجيس مات موت الفجأة والاثنان الاخران دخل الشيطان في اجسادهما فكانا يضربان ويمزقان بعضهما بعضًا على نوع مريع . فحزن القديس على تعذيبهما حزنًا شديدًا ولما كان من شأن القديسين ان يصلُّوا من اجل مبغضيهم ومضطهديهم طلب من الله بحرارة شوق ان يقيم الاول من الموت وينجي الاثنين الاخرين من الشيطان فاستجاب الله صلاتهُ . اما القديس المتضع حقًّا فلخوفهِ من ان يُذاع ذكر هذه الاعجوبة ويستمر بتوالي ترداد الرجل الذي اقامهُ من الموت فتحترمهُ الناس وتوقرهُ لذلك امرهُ بان يتغرب ولا يعود الى ناحية ديرهِ ابدًا

ففي غضون ذلك عزم فلوروس على لبس الاسكيم الرهباني في هذا الدير . وطلب اذنًا من الملك تاوديبرتوس فارتضى الملك ثم جاء الى الدير لكي يحضر رهبانيتهُ وكان معهُ اشراف بلاطهِ . ولما رأى الملك القديس موروس ركع لهُ باحترام وطلب بركتهُ وان يشفع عند الله في اولادهِ ومملكتهِ والعبرات تسيل من عينيهِ . ثم دخل الكنيسة وبعد ان جلس على الكرسي تقدم فلوروس الى القديس موروس باثواب مرتبتهِ العالمية المفخمة وطلب منهُ ان يقبلهُ في رهبانيتهِ ويلبسهُ الاسكيم . ثم التفت الى الملك وطلب منهُ ان يقص شعر راسهِ ففعل . غير انهُ كان هو واهل بلاطهِ يبكون جميعًا عند مشاهدتهم فلوروس ينتصر هكذا على العالم مزدريًا بمجدهِ ونعيمهِ رغبةً في الاتضاع والفقر الانجيليين ويجعل راحتهُ في التعب ومجدهُ في الهوان وغناهُ في المسكنة وحياتهُ في الاماتة . فمن بعد ان ترهب فلوروس استدعاهُ الملك وطلب اليهِ باكيًا ان لا ينساهُ من صالح دعواتهِ في الرهبانية كما فعل بشجاعتهِ في العالم حافظًا ملكه بشفاعاتهِ كما كان يحافظ عليهِ قبلاً بأسلحتهِ . ثم ان الملك طلب من القديس موروس البركة وعاد راجعًا الى بلاطهِ

وقد اقتدى كثيرون من عظماء الملك بمثال فلوروس واقتفوا اثرهُ . لان قومًا منهم ترهبوا مثلهُ وقومًا قدموا ابناءهم ليترهبوا في الدير . فعاش فلوروس في الرهبانية اثنتي عشرة سنة بكمال النشاط وتوفي هناك وفاة القديسين . اما موروس فمن بعد ان دبر هذا الدير ثماني وثلثين سنةً وبنى مئة وعشرين ديرًا في اماكن متعددة في مملكة فرنسا تذكر نبوة القديس باناديكتوس وعلمًا بان ساعة وفاتهِ قد دنت اقام موضعهُ رئيسًا هوبيرتولوس بن فلوروس . ثم اختلى منفردًا مع الراهبين في منزل ضيق ليمارس هناك باوفر نشاط رياضات العبادة ومكث على هذه الحال سنتين ونصفًا كانسان كانت روحهُ في السماء وجسدهُ فقط على الارض . وهناك اراد الله ان يزيد نفسهُ نقاوةً واستحقاقًا . لانهُ سمح للشيطان ان يجرب القديس بتجربة الاحزان المذيبة المميتة . ولما اراد ذات يومٍ ان يدخل الكنيسة وجد على الباب لاجأُون من الشياطين يمنعونهُ عن الدخول وطفقوا يخيفونهُ بمناظر مرعبة واصوات مريعة . ثم دنا منهُ قائد هذا الجيش الجهنمي بوجه عبوس مكفهرّ وقال بزجر انك لمجتهد منذ زمان طويل على هدم سلطنتنا وبمثالك ومثال رهبانك تخيب آمالنا وقد اختلست من ايدينا كثيرين من بلاط الملك ومملكتهِ كانوا ارقَّاءنا . الَّا انهُ سيتضح أيُّنا يكون الاقوى فاعلم اننا عن قريب سنهدم ديرك هذا الذي تعتبرهُ مدينة حصينة ونسبب فيهِ امراضًا تميت من رهبانك عددًا وافرًا حتى يعود مقبرةً . فاجابهُ القديس بطمأنينة قائلاً اليك عني يا رئيس الملاعين . انك لكذاب وابو الكذب وباطلاً تجتهد في ان تخيفني . انهُ لا استطاعة لك ان تفعل سوى ما يسمح بهِ الله وانا اتوكل عليهِ واعتقد يقينًا انهُ يهتم في عبيدهِ ويحفظهم من شراكك . ثم صلَّب فهرب ابليس باحزابهِ غير ان القديس خاف من ان تفتر عبادة رهبانهِ بعد موتهِ . فطلب من الله بنشاط متزايد الا يسمح ان يصير ذلك . فقبل الله طلبتهُ وظهر لهُ ملَك في صلاتهِ وقال لهُ ان الله ليخزي الشيطان عنكم . وذلك لانهُ تعالى لاجل صلاة هذا القديس سرَّ بان يجازي بالسعادة الابدية اكثر رهبانهِ قبل موتهِ وانهم سيموتون بعد ايام قليلة موتًا سعيدًا

فامتلأ القديس سرورًا وجمع حالاً رهبانهُ وخاطبهم قائلاً اني اسألكم يا اخوتي قائلاً اذا اكتأب العبيد مما يريدهُ سيدهم افلا يكون حزنهم دليلاً على انهُ لو استطاعوا لخالفوا

ارادتهُ فانتم تعرفون ان ايام حياتنا محدودة عند عالِم الغيب والشهادة وانهُ لا فرار لنا من الموت فان الله انبأنا بساعة الموت المجهولة انما يكون تعالى قد احسن الينا احساناً عظيماً . فهذا ما يفعلهُ الان معكم يا اخوتي لانهُ جلّت رحمتهُ اخبرني بانكم ما خلا قليلين تموتون بعد زمن يسير . فلتشتد اذاً حرارة عبادتكم ونزّهوا انفسكم الأعن فكر الموت واستعدُّوا للوقوف امام الديان العادل

فلما سمع الرهبان هذا الخبر قبلوهُ مستبشرين شاكرين الله تعالى الذي سبق وعرَّفهم بزمان موتهم . ولما كانوا يعدُّون كل يوم يمرُّ اليوم الاخير من حياتهم مارسوا رياضات العبادة بنشاط وافر حتى كانهم قد ماتوا عن كل البرايا . فكانت اشواقهم كلها متجهة الى هذه الساعة الاخيرة التي ستكون لديهم ابتداء السعادة الابدية . فبعد زمن يسير تمت النبوة لانهُ بمدة خمسة اشهر توفي من رهبان ذلك الدير مئة وستة عشر راهباً ولم يبقَ منهم سوى اربعة وعشرين

اما القديس موروس فتبعهم سريعاً لانهُ بعد ما صرف في خلوتهِ اكثر من سنتين مواظباً على اشد التقشف شعر وقتئذٍ بوجع اليم في احد جانبيهِ وعرف ان ساعة وفاته قد اقبلت طلب ان يحملوهُ الى الكنيسة وهناك اخذ الزاد الاخير ثم امتد راقداً على الارض لابساً المسح وسلم روحه بسلام في اليوم الخامس عشر من شهر كانون الثاني في السنة الرابعة والثمانين بعد الخمسمائة وعمرهُ اثنتان وسبعون سنةً وكان قد دبّر رهبانيتهُ في فرنسا اربعين سنة

اليوم السادس عشر

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا الكوخي

اعلم ان هذا القديس وُلد بمدينة قسطنطينية نحو السنة السادسة والستين بعد الاربعمائة وكان ابوهُ اوتروبيوس رجلاً فاضلاً حسيباً مشرَّفاً عند الملك وامهُ تاودورة كانت كذلك شريفة الاصل نقية جدّاً . وقد كان لهما ثلثة بنين اثنان منهم ارتفعا الى اشرف مناصب المملكة اما الاصغر وهو يوحنا الذي نروي خبرهُ هنا فكان جميل المنظر محبوب الطباع ليّن العريكة وحاذق العقل ولهذا كان عزيزاً على ابوَيهِ وبالاخص على امهِ اكثر من اخويهِ

فاتفق ان راهباً جاز بالقسطنطينية ليمضي في البحر الى بلد فلسطين لكي يزور الاماكن المقدسة . فاتى منزل والدي هذا القديس اللذين كانا يأويان في بيتهما جميع الرهبان الغرباء ويقبلانهم بكل احترام ومحبة . وقد كان ذلك الراهب من دير اسمهُ القديس اسكندر وسمي دير الرهبان الساهرين على الدوام . لان هذا اسكندر بعد ان ترك بلاط تاودوسيوس الكبير ومرتبته الشريفة عند الملك فرّق كل اموالهِ على الفقراء ودخل البرية ولبث فيها سبع سنين تحت ارشاد راهب فاضل يقال لهُ ايليا . ثم خرج من هذا الدير بالهام الهي ليؤسس ديراً لرهبانيةٍ جديدة ترتل رهبانها التسابيح الالهية دائماً بغير انقطاع فبنى ديراً على شاطي نهر الفرات وترهب فيهِ أناس كثيرون حتى صار عددهم اربعمائة راهب فقسمهم الى اقسام مختلفة . وحينما كانت تنتهي صلاة فريقٍ منهم كان يحضر حالاً فريق آخر من الرهبان يبتدئون التراتيل ويداومونها هكذا ليلاً ونهاراً ومن ثم لقبت صلاتهم الصلاة الدائمة والرهبان دعوا أكيميتيوس اي الذين لا ينامون ابداً فمن هذه الرهبانية المقدسة كان ذلك الراهب الفاضل الذي مرَّ بقسطنطينية

اما يوحنا فكان عمرهُ وقتئذٍ اثنتي عشرة سنةً غير انهُ لما رأى الراهب المشار اليهِ خاض معهُ في المذاكرة الروحية وسألهُ كثيراً عن ديرهِ وطريقة رهبانيتهِ فاخبرهُ الراهب بكل ما كان . فشرع قلب يوحنا يرتاح الى هذه السيرة المقدسة . وبعد ايام انفرد بالراهب سرّاً وكشف لهُ عزمهُ وهو انهُ يريد ان يمضي معهُ الى الدير ويترهب هناك . فاستغرب الراهب قصدهُ وطفق يوضح لهُ عدم امكان الامر من حداثتهِ وضعف مزاجهِ وفرط حب والديهِ لهُ اللذين كان ارتضاؤهما بذلك ضرباً من المستحيل . فاجابهُ الشاب الوَرِع اعلم ايها الاب المكرم ان الله الذي غرس في قلبي هذا القصد الصالح قادر ان يغني عما ينقصني من قبل صغر السن وضعف المزاج لان اناساً كثيرين مثلي لم يكونوا بلغوا من العمر الاثنتي عشرة سنةً تقدموا مسرعين فسفكوا دماءهم لاجل السيد المسيح أفلعل الذي قوّى اولئك واقدرهم على الشهادة لا يعطيني قوة على ان اعيش في دير بين القديسين واقوى على النسك والزهادة حقّاً يا ابي اني لا افارقك او تعدني بامرين اولهما الا تبيح بسرّي لاحد . وثانيهما ان تثبت وعدك لي بقسم انك تعود اليَّ بعد زيارة القدس وتأخذني الى ديرك المبارك وان ضاددتَ عزمي فانك تضادُّ ارادة الله . فبهذه الاقوال ليّن قلب الراهب

وتحقق ان مثل هذا من العبادة والشجاعة يفوق الطبيعة فاقسم لهُ عند ذلك انهُ بعد ان يزور الاماكن المقدسة يعود الى القسطنطينية

فلما سافر الراهب اخذ يوحنا يفكر في امرهِ واذ عرف ان احدى رياضات هذا الدير كانت تلاوة الانجيل المقدس كل يوم طلب من والديهِ هذا الكتاب الالهي ففرحا من طلبتهِ حتى ان والدتهُ ارادت ان يكون الكتاب حسن الكتابة مزخرفًا مزينًا بالالوان المختلفة وملبَّسًا بالفضة والحجارة الثمينة فقبل يوحنا هذهِ الهدية بفرح معتبرًا الفقر المشار اليهِ في هذا الكتاب اكثر جدًّا مما اعتبر الفضة والحجارة الكريمة الموضوعة عليهِ وكان يقرأ فيهِ اكثر اوقاتهِ

فعاد الراهب من القدس والفاهُ اشدَّ عزمًا مما كان فاشار عليهِ ان يطلب رضى ابويهِ في ذلك فقال لهُ الشاب القديس لا لا يا أبتِ المكرم لا تشر عليَّ بذلك لاني عارف فرط محبة والدتي لي فاذا عَلِمت بما قصدتهُ تفرغ كنانة جهدها لكي تصدني عن الترهب . وانما اسألك ان تكتم امري ولا تبح بسرّي كما وعدت ولا تدع احدًا يشعر بذهابي . فارتضى الراهب وتهيأ الاثنان للذهاب في مركب مستعد للسفر . ولما آن اوان السفر خرج يوحنا بفرح عظيم ولم يحمل معهُ من بيت ابيهِ سوى كتاب الانجيل الممنوح لهُ من والديهِ . فلما وصل الى الدير ازداد قلبهُ سرورًا . واما الراهب فاخبر الرئيس باحوال يوحنا مفصلًا . فجثا الشاب القديس حينئذ عند رجلي الرئيس وطلب منهُ بعين باكية ان يقبلهُ راهبًا في ديرهِ . اما ذلك الرئيس الوافر الفطنة فمع ان قلبهُ كان مائلًا الى قبولهِ في الدير قد اخذ يعتذر لهُ قائلًا اني لاشكر الله يا ابني على نشاطك واثني على قصدك الحميد الا ان حداثتك وضعف مزاجك اللطيف المعتاد على التنعم والترفه لا يدعانك تحتمل ضنك التقشف . فالخليق بك ان تجرّب نفسك زمانًا ومن بعد ان تكون قد اختبرت ماهية طريقتنا فان ثبتَّ في قصدك ادخلتك بين الاخوة . فلما سمع الشاب القديس هذا الكلام حزن حتى سحَّت دموعهُ ولم يزل يلحُّ في الطلب ويحنج على الرئيس قائلًا يا ابتاه اني اخاف ان يشعر بي والدي قبل ان اكون خصصت نفسي لله في الرهبانية فيصدني عن الترهب ويحرمني اكليلي . فارتضى اخيرًا الرئيس وقبل يوحنا في جماعة الاخوة

اما والداهُ فكانا يفتشان عنهُ وارسلا الى نواحي كثيرة يفحصان عنهُ فلم يجداهُ ولم يقفا لهُ على خبر ولا اثر . فاستراح الشاب غير ان والديهِ حصلا على حزن لا يكاد يوصف ولا سيما امه التي كانت تحبهُ محبة عظيمة فكادت ان تموت من شدة حزنها . وفيما كانا على هذهِ الحال المحزنة كان ابنهما حاصلًا على التسليات الروحية التي صيرتهُ ان ينسى اتمَّ النسيان ما تركهُ في العالم من الاموال واللذات والكرامات . ولفرط ما كان يستعذب ترتيل التسابيح الالهية مع اخوتهِ الرهبان في الكنيسة كان يستصعب الخروج منها . وقد كانت عبادتهُ تنمو مع عمرهِ حتى دعاهُ الرهبان مَلَك الدير . وكان اقدمهم عمرًا واكثرهم برًّا يجلهُ ويتخذهُ مثال القداسة . ولوفور ما كان الله يمن على هذه النفس النقية بتعزياتهِ كان يجد اشد التقشفات سهلًا . ولو لم تلجمهُ الطاعة وتضبط نشاطهُ لكان قد عاجلهُ الموت لشدة تقشفاتهِ . واما عبادتهُ فكانت متجهة على الخصوص الى محبة يسوع في القربان المقدس وكان يتناول هذا السر الالهي بتكاثر . وفي اليوم الذي كان يتناولهُ لم يكن ياكل من الاطعمة الا شيئًا يسيرًا . ولان محبة الام تقترن دائمًا بمحبة ابنها الالهي كان يكرّم مريم العذراء بعبادة خصوصية كعبادة القديس الذي كان تسمى اسمهُ في المعمودية

غير ان ابليس أخزاهُ الله لما رأى ان يوحنا لم يزل ناميًا في الكمال منذ بلغ ست سنين اخذ يجربهُ مستحضرًا في ذاكرتهِ شرف نسبهِ وغنى اهلهِ وبيتهِ وما فاتهُ من الترفهات بترك العالم الا انهُ ناصب المجرّب وظفر بهِ ومع ذلك لم ييأس اللعين لكنهُ اخذ يصوّر في عقل القديس حزن والديهِ المميت ودموعهما المتواصلة لاجل مفارقتهِ اياهما من دون ارتضائهما وعلمهما بذلك . وتوبيخهما اياهُ على قساوة قلبهِ على اللذين كانا يحبانهِ اكثر من انفسهما . فهذه الافكار وان كانت في الابتداء اثرت قليلًا في يوحنا الا ان تواترها واشتدادها كانا يتعبانهِ كثيرًا فتوعَّك مزاجهُ من قبل هذه التجربة واضرّت بهِ جدًّا لانها لم تكن تدعهُ يستريح ولا يرقد . لانهُ كان يرى دائمًا في مخيلتهِ والديهِ حزينين يذرفان الدموع وما كان ابكاهُ على حزنهما وبكائهما . فلما رأى الرئيس ان قد تغيرت سحنة تلميذهِ تمامًا ظن ان ذلك من التقشف وضيق المعيشة . ومخافة ان يمرض لذلك ويموت استدعاهُ سرًّا وخاطبهُ بما نصهُ اني ارى جسمك نحيلًا ووجهك اصفر وعندي ان ذلك الشحوب من

السهر الطويل والقشف الشديد فقد تجاوزت الحدود فانا آمرك ان تكف عن هذه كلها الى زمان . فجثا يوحنا امام الرئيس وقال لهُ لا يا ابي ليس الامر كذا لان التقشف لم يضر بعافيتي وما مرضت الا شوقًا الى مشاهدة والديَّ فأْذن لي حفظك الله ان اذهب واشاهدها وانا اسألهُ تعالى ان يقويني بنعمتهِ فانتصر على المجرّب . لاني اراهُ جلت قدرتهُ يشاء ان اتم بقية حياتي تحت نظر والديَّ مجهولاً فقيرًا مهانًا من غير ان اعرفها بنفسي ويتبين مما يأتي ان قصدهُ هذا كان بالهام الله

فتعجب الرئيس من هذا المقال وطفق يورد لتلميذهِ براهين كثيرة ردًّا لهُ عن هذا الغرض الغريب فلم تؤثر في قلبهِ اصلاً فجمع وقتئذٍ الرهبان واخبرهم بمقصودهِ وامرهم ان يصلوا من اجلهِ لئلا ينغلب للتجربة . فبعد ان صلوا لنيل هذه البغية اياماً كثيرة أطبقوا على ان الله يريد بيوحنا ان ينتصر على الشيطان انتصارًا نادر الوجود . وهكذا ارتأى الرئيس . فبارك عليهِ حينئذٍ واطلقهُ بسلام . فعانق يوحنا جميع الرهبان طالبًا منهم الدعاء وخرج من الدير ومعهُ كتاب الانجيل المقدس الموهوب لهُ من والديهِ فصادف في الطريق صعلوكًا بثياب رثة بالية فطلبها منهُ واعطاهُ ثيابهُ بدلاً عنها . فلبس يوحنا هذه الثياب ليكون بها مجهولاً متنكرًا . ومضى على هذه الحال الى بيت ابيهِ ولما وصل قبالة ذلك المنزل الشريف جثا على الارض ورفع عينيهِ الى السماء وقال في مناجاتهِ الله عزَّ وجل قوّني يا رب بنعمتك المنتصرة ولا تهملني في هذا الخطر . انك عالم بسريرتي اني لم اخرج من الدير ولا رجعت الى بيت ابي لاترك عبادتك ولكوني قد هجرت اهلي حبًّا بك لا اريد ان اخون عهدك وانكث بوعدك وما اقترب منهم الا لتنعم عيناي برآهم الموموق

قال هذا مساء امام بيت ابيهِ ولما كان وقت المساء والباب مغلق صرف تلك الليلة راقدًا على حجر بقرب بيت ابيهِ فلما سفر الصبح خرج خدام ابيهِ ورأوهُ نائمًا على حجر فرقَّت لهُ قلوبهم وسألوهُ من انت ولماذا نمت هكذا على الباب . فاجابهم قائلاً انا صعلوك عابد سيدنا يسوع المسيح ولقد عرفت ان سيدكم رفيق بالفقراء فاسألهُ رحمةً ويسمح لي ان اعمل في فناء دارهِ كوخًا صغيرًا لاقيم بهِ . فاخبرت الخدام اباهُ بهذا الامر فرضي بذلك فبنى يوحنا في منزل ابيهِ اصطبلاً حقيرًا ومنهُ كان يرى اباهُ وامهُ يمران بهِ كل يوم مرات عديدة ولم يعرفا من هو لان الصوم والتقشف وثيابهُ الرثة كانت قد غيَّرت هيئتهُ الخارجة تامًّا . وهيهات ان يوصف ما احس بهِ يوحنا لما رأى والديهِ المرة الاولى بعد رجوعهِ . لانهُ لفرط ما لان قلبهُ وتوجعت احشاؤهُ بكى بكاءً مستطيلاً الاَّ انهُ اختفى ملتجئًا الى الله في ال[illegible] هتف بصوتٍ اسيفٍ وتنهد قائلاً نطّقني يا رب بنعمتك وثبتني في خدمتك وانصرني بقوتك على هذه الالام الطبيعية الى حين وفاتي واقدم اماتة نفسي هذه ذبيحة دائمة لعزتك . اما ابوهُ فاحبهُ حالما رآهُ ولهذا كان اكثر الايام يرسل لهُ من طعام مائدتهِ . واما والدتهُ التي ما زالت حزينة على فقدهِ فكانت تشمئز منهُ وتكره ان تنظر اليهِ ولولا عبادتها ورحمتها للمساكين لكانت اخرجتهُ من بينها

فاستمر القديس ثلث سنين على هذه الحال مجهولاً من والديهِ مهانًا من خدامها لانهم كانوا مرات كثيرة يستهزئون بهِ اما هو فكان مواظبًا على الصلاة في كوخهِ او في الكنيسة مجربًا من طرفين اعني من قبل محبة الله الذي من اجلهِ كان قد اختار حال الفقر والهوان . ومن قبل المحبة الطبيعية التي كانت تحركهُ غالب الاوقات الى ان يظهر نفسهُ لوالديهِ لا سيما امهُ لانهُ كان يرى ان حزنها يتفاقم كل يوم بحيث لم يكن لها تعزية ولا سلوى عنهُ . فبعد ثلث سنين اعلمهُ الله ان موتهُ قد دنا وبعد ثلثة ايام يكلَّل صبرهُ في دار النعيم . فازداد حينئذٍ نشاطًا وصرف كل هذا الزمان في الصلاة ولما اصبح يوم وفاتهِ استدعى احد خدام بيت ابيهِ وطلب منهُ ان يقول لسيدتهم ربَّة البيت انهُ يريد ان يخاطبها قليلاً . اما هي فلما سمعت هذا تعجبت ولم تكن ترتضي بالنزول اليهِ الا ان زوجها حثها على ذلك . فنزلت الى كوخ القديس فوجدتهُ مشرفًا على الموت وسألتهُ ما مرادك مني . فاجابها باحتشام بما انهُ قد اقتربت ساعة وفاتي اسأل الرب يأجرك وسيدي رب هذا البيت على ما احسنتما بهِ اليَّ في هذه الثلث سنين واما الان فاني اطلب منكما احسانًا آخر وهو ان تدفنوني بعد موتي في هذا الكوخ في ثيابي هذه الرثة . ثم قدم لها كتاب الانجيل الذي كان قد اتهبهُ من امهِ قائلاً اقبلي مني هذه الهدية كعربون شكري لاحسانكم . اما والدتهُ فكانت تسمع هذا الكلام بحزن وبكاء ولم تعرف سببهُ . فقبلت منهُ الكتاب وقبّلتهُ الا انها

تعجبت كيف هذا الكتاب الحسن الكثير القيمة المصفح بالفضة والحجارة الكريمة يكون لحقير من الصعاليك . فلما نظرت الى الكتاب جيدًا صرخت متأوهة واحرقتاه ان هذا الكتاب ليشبه الكتاب الذي وهبناهُ منذ عشر سنين ابننا يوحنا . فتجدد حزنها على فقد ابنها وانفردت تبكي وتتأسف وبعد هنيهة اخبرت زوجها بما قال الفقير وأرتهُ كتاب ابنها فلما رأى الاب الكتاب وتحقق يقينًا ان هذا الذي وهباهُ ابنهما منذ اعوام نزل حالاً بامرأتهِ الى كوخ الفقير ابتغاء ان يخبرهما عن ابنهما فقال لهُ ابوهُ ناشدتك الله ان تصدقنا من اين لك هذا الكتاب وكيف انتهى اليك ومن انت فانك عما قليل ستحضر امام منبر الله فاجبنا بالحق بغير التباس . فافتكر القديس قليلاً ولما رأى انهُ اوشك ان يموت التفت الى والديهِ متنهدًا وقال كارهًا انا هو ذلك الابن الذي تحزنان عليهِ منذ عشر سنين وهذا هو كتاب الانجيل الذي وهبتمانيهِ فضلاً منكما اما والدهُ ووالدتهُ فلما سمعا ذلك تفرّسا فيهِ وعرفا انهُ ابنهما من بعض سمات وعلامات فاضطرب حينئذٍ قلبهما وتنازعهُ انفعالان متضادان الفرح والحزن اما الاول فلانهما وجدا ولدهما . واما الثاني فلانهُ اشرف على المنون فقالت لهُ والدتهُ وهي تبكي يا ابني العزيز كيف اقمت تجاه نظري مدة ثلث سنين وانا لم اعرفك الا حين وفاتك التي ستتبعها وفاتي سريعًا . اما الاب فمن فرط حزنهِ لم يقدر ان ينطق بكلمة . ولما عرف الخدام هذا الخبر حزنوا واجهشوا بالبكاء جميعًا وحينئذٍ سلَّم يوحنا روحهُ ومات في منتصف الجيل الخامس

فللحال شاع هذا الخبر في القسطنطينية كلها واتوا من كل جهة ليروا هذا المنظر العجيب فتعجب الجميع من هذا القديس وقوة النعمة التي فعلت فيهِ هذه العجائب . اما والدتهُ فنسيت ما كانت عاهدتهُ بهِ ونزعت عنهُ ثيابهُ الحقيرة والبستهُ اثوابًا جليلة ولكن بعد فعلها هذا اعتراها البرص فنبهها زوجها على ذلك . ولما البست ابنها الاخلاق برئت من البرص حالاً ثم الحدوهُ في كوخهِ كما طلب وبعد ذلك ابتنى ابواهُ هناك كنيسة . وتشرّف سريعًا ذكر هذا القديس في بيعة الله كلها ونقلوا جزءًا من ذخائرهِ الى رومية حيث بنيت كنيسة على اسمهِ . وبعد ان فتح الفرنسويون مدينة القسطنطينية قدّم رأسهُ هدية لامير فرنسوي اما هو فوهبهُ كنيسة القديس اسطفانوس في مدينة بيزنسون ولان هذه الكنيسة قد هُدِمت نقلوا تلك الذخيرة الى حيث هي اليوم كنيسة اخرى هناك على اسم مار يوحنا وخطٌ تحتها بالحرف العتيق ما نصهُ هامة القديس يوحنا الكوخي

اليوم السابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس انطونيوس الكبير

ان القديس انطونيوس ابا الرهبان هو الذي صيّر براري مصر والصعيد المملوءة شوكًا وقرطبًا فردوسًا روحيًا ممتلئًا من زهور الفضائل . وبهِ تكاثر القديسون حيث لم يُرَ قبلاً الا حيَّات سامَّة ووحوش ضارية . واما الذي كتب سيرتهُ فهو القديس اثناسيوس بطريرك الاسكندرية كوكب الشرق ومطرقة الاراطقة الاريوسيين وهو يفتخر بكونهِ عرف القديس انطونيوس منذ حداثته وانهُ استقى لهُ الماء مرارًا كثيرة وقد ذكر القديس ايرونيموس انهُ لما هرب هذا البطريرك الى رومية اخذ معهُ خبر سيرة القديس انطونيوس الذي هو أَلَّفهُ وان اناسًا كثيرين بعد ان قرأُوا ذلك الخبر هجروا العالم وترهبوا . وكان القديس اثناسيوس قد كتبهُ باللغة اليونانية وترجمهُ القديس ايرونيموس الى اللغة اللاتينية

اعلم ان القديس انطونيوس من اغنياء كوما قرية بمصر وُلد سنة مائتين وخمسين الميلاد ولان والديهِ كانا يخافان الله اهتمّا جدًا بحفظ ابنهما من شر العالم بحيث لم يتركاهُ يعاشر غير اهل بيتهِ . فكان من صبائهِ محتشمًا هاديًا مبغضًا للّعب والتنزُّه محبًّا زيارة الكنائس راغبًا في التعاليم الخلاصية والمذاكرات الروحية أَليف القنوت كثير القناعة في المآكل والمشارب . فمات ابواه وما أَربت على العشرين سنَّهُ وكانت لهُ اخت صغيرة فاجتهد في تربيتها . غير انهُ بعد موت والديهِ شرع يفتكر يومًا كيف كان المسيحيون الاولون يبيعون ارزاقهم ويضعونها عند ارجل الرسل ليتبعوا سيدنا يسوع المسيح في طريق الكمال . فدخل الكنيسة وهو غائص في هذا التأمل ليحضر القداس الالهي . فسمع من الانجيل يومئذٍ ما قالهُ السيد المسيح للشاب الراغب في الكمال ان كنت تريد ان تكون كاملاً فاذهب وبع مالك واعطهِ للمساكين ويكون لك كنز في السماء (متى ١٩ : ٢١) وحينئذٍ خصَّص بنفسهِ هذه المشورة الانجيلية . فلما عاد الى منزلهِ قسم ميراث ابيهِ واعطى اختهُ النصف وفوَّض تربيتها الى نساء متورعات

واصطنع بمالهِ الى الفقراء وطفق يعيش عيشًا قشفًا

انهُ في ذلك الزمن لم تكن الاديرة قد تكاثرت بعد . ولم يكن يوجد في البراري من الرهبان الا قليلون متفرقين بعضهم من بعض . وكان بينهم شيخ ما فاضل يرشدهم فعزم القديس انطونيوس على مماثلتهِ . غير انهُ كان يزور الرهبان كلهم وهو يقفّي على اثار النحلة الحكيمة بحيث كان يجمع من زهور مختلفة مادة عسل العبادة . فكان يتعلم من هذا الصبر ومن ذاك الطاعة ومن غيرهِ الصمت ومن سواهُ الاتضاع والوداعة وقس على مثل ذلك . وهكذا كان يجمع في نفسهِ كل الفضائل المتفرّقة في الاخرين حتى انهُ عما قليل ارتقى في الفضيلة جدًّا واشتهر حميد صيتهِ . وكان الرهبان الذين هناك يحبونهُ ويزورونهُ فكان بعضهم يزورهُ كابنه العزيز وبعض كابن يحترم اباهُ

فخاف الشيطان أخزاهُ الله من هذا المبتدئ النشيط وعزم على محاربتهِ . فوسوس لهُ يومًا قال مالك والانفراد ههنا تعل قشفًا وحصرًا لتحصّل لك يسيرًا من الخبز الضروري لقيام حياتك . أما كان أبقى بك ان تحفظ ما اعطيتهُ من الله وورثتهُ من والديك وتعيش مع اعيان بلدتك من ان تسكن هنا في مغارة منتنة على خطر فقدان العافية والحياة هل تظن انك قد عملت حسنًا اذ تركت اختك اليتيمة بين ايدي اناس لا تعرفهم . فاعلم ان الله يحاسبك على ما يصيبها من الضرر الروحي والجسدي فلا شك ان دموعها تقطر عليك من غضب السماء . فعد اذن اليها والعود أحمد اذ ان الشريعتين الالهية والبشرية توجبان عليك الاياب ذلك فضلاً عن ان مزاجك اللطيف لا يطيق مثل هذه العيشة القشفة ولاجرم انك ستقع تحت هذا الحمل الذي لا قبلَ لك بهِ وتعود للناس سخرية واضحوكة . اما الشاب النشيط فهبَّ الى الصلاة ملتجئًا الى الله سبحانهُ وبها ارتدعت كل سهام العدو كأنها ترس منيع فلما رأى ابليس من شهامتهِ ما رأى عرف ان تلك الواسطة هي اضعف من ان تبلغهُ الغاية فاخذ يحارب القديس بافكار خبيثة وحركات زنائية . وألهب في لحمهِ نارًا شهوانية لا يمكن اطفاؤها الا بندى السماء وقد أضيفت الى هذه التجربة تجربة اخرى لان الشيطان كان يتجسم في الليل باصوات وكلمات مرهبة مازجًا الخوف والهول باللذة الدنسة . وتنعم الجسد بتعذيب الروح . فكان انطونيوس راسخًا كالصخرة في عزمهِ المقدس وكان يزداد نشاطه بمقدار زيادة التجارب . واذ كان ذلك الرجيم يلقي في عقلهِ افكارًا نجسة ويضرم في لحمهِ نار الشهوة . كان حينئذٍ القديس يتسلح بالايمان مرددًا في عقلهِ عذاب جهنم والنار الآكلة وصرير الاسنان الابدي . وبهذه الاسلحة كان يناصب الشيطان ويظفر بهِ حتى ظهر لهُ أخزاهُ الله بشكل بشر اسود شنيع المنظر وركع امامهُ وصرخ قائلاً اني طغيت اناسًا كثيرين واسقطت في الخطية من النساك كرامًا لا يحصى عددهم . الا اني اعترف انك قويت عليَّ وغلبتني وانما قال ذلك ليصطادهُ بالميل الى الكبرياء . لانهُ رأى عجزهُ عن الظفر بهِ بواسطة الخوف واللذة

غير ان القديس لم يبنِ اتكالهُ على رمل قوتهِ الذاتية بل على الصخرة الصلدة وهي نعمة سيدنا يسوع المسيح فقال للشيطان انهُ قد اتضح الان لي فرط ضعفك وعجزك اذ قد انتصر عليك شابٌّ ضعيف مثلي فاعلم اني لا اخاف منك فافعل بي ما شئت لان سيدي الذي عضدني حتى الان سيقويني عليك دائمًا . فلم يرتخِ القديس في الحرب الروحية بل كان يزداد احتراسًا على نفسهِ لمعرفتهِ انهُ دائمًا على خطر السقوط ولهذا زاد على تقشفاتهِ حتى صار لا يأكل ولا يشرب الا مرة واحدة في النهار وذلك بعد غياب الشمس واكلهُ كان شيئًا نزرًا من الخبز ملتوتًا بملح عوضًا عما يُؤتدم بهِ . واحيانًا كان يصرف ثلثة ايام بلا اكل وما كان ينام الا حينما كانت تلزمهُ الضرورة . وكان يلبس المسح ويرقد على الارض او على حصير . وكان يصرف اكثر الزمان في الصلاة . ثم حبس نفسهُ في مغارة قريبة من احدى المقابر . وهناك كان احد اصدقائهِ يجيئهُ بما يحتاج اليهِ من المآكل والمشرب

فخاف ابليس من ان تمتلئ هذه الفيافي ملئكة متجسدين . فاستدعى احزابهُ الجهنميين وضربوا القديس بقساوة لا مزيد عليها حتى غُشي عليهِ فغدا ولا حراك بهِ . وقال القديس يومًا عن هذه الضربات ان ألمها هو اشد من الم كل عذاب في هذه الدنيا الا انهُ لم يهرب من الميدان ولم يباين مغارته . على ان صديقهُ لما وجدهُ في هذه الحال حملهُ الى ضيعة قريبة من هناك ليشفى ولما انتبه طلب من صديقهِ ان يردهُ الى مكانهِ فردَّهُ اليهِ وكل جسدهِ مثخن بالجراح بحيث كان عاجزًا عن الحركة فكان يدعو الشياطين الى المعركة قائلاً لهم هنذا انطونيوس لا اهرب ولا اختفي فافعلوا كل ما تقدرون عليهِ فانتم اضعف

من ان تفصلوني عن محبة سيدي يسوع المسيح. وشرع يرتل كلام النبي ولو اصطف عسكر عليَّ لا يخاف قلبي. فلما سمع هذا التنين الجهنمي ارتجف خجلاً وقال لرفقتهِ أرأيتم كيف انتصر على روح الزناء وكيف يزدري بضرباتنا ويستهزئ بنا ويدعونا الى الحرب كانسان منتصر على قوات الجحيم. هلموا لنشتد بالرجز عليهِ ليعلم هذا الغبي مع من يطلب المعاركة وحينئذٍ تزعزعت المغارة وانشقت الصخرة وظهرت لهُ الشياطين باشكال شتى مريعة من ذئاب وثيران وأُسد وانمار وضباب وحيات ووحوش اخر هائلة ابتغاء ان يتوهُ خوفًا وارهابًا. ومن بعد ان اخذوا يرعبونهُ بالاصوات المخيفة والنظر اليهِ شزرًا وثبوا عليهِ وجرحوا كل جسدهِ بانيابهم ومخالبهم وقرونهم. اما انطونيوس فلم يضطرب بل كان يستهزئ بهم ويقول انهُ قد ظهر مزيد ضعفكم اذ جئتم اليَّ عسكرًا أليس فيكم من يقدر وحدهُ على منازلة انسان. فياليت شعري كيف استحلتم وحوشًا قبيحة الصور ابن منظركم البهي القديم الملكي ولماذا انتم واقفون حاربوني بكل قوتكم وان قدرتم فابتلعوني. وعند ذلك اضاء نور سماوي بغتةً في المغارة فتمزَّق العسكر الجهنمي كل ممزَّق وشعر القديس بشفاء كل جراحاتهِ وحينئذٍ رفع طرفهُ الى السماء وقال اين كنت يا يسوع الصالح ولماذا لم تأتِ قبلاً لتقويني في الحرب. فاجابهُ السيد المسيح وقال لهُ اني كنت هنا يا انطونيوس وقد حضرت الحرب وسمحت بانك تجرح لاشفيك. وقد زاد هذا الكلام في قوة الجندي الباسل المظفر باتكالهِ على الله جلَّت قدرتهُ

وكان قد بلغ من العمر حينئذٍ خمسًا وثلثين سنةً. ولما كان الله قد اختارهُ ليصيرهُ في البراري مرشدًا ومعلمًا لرهبان كثيرين الهمهُ وحركهُ الى السكنى في البرية ليجتذب الناس الى الاقتداء بهِ. فقام القديس ومضى اجابةً للدعوة الالهية. الا ان الشيطان سافر ايضًا معهُ ونصب لهُ فخًا في الطريق لانهُ القى في سبيلهِ دراهم كثيرة على انهُ لما رآها علم انها من عمل الخنّاس فقال لهُ لتكن فضتك معك للهلاك ياعدوي الجهنمي. وفي الحين استحالت الفضة الى دخان ثم تلاشى. فلما وصل الى جبلٍ ما وجد هناك قلعة غير آهلة الا بالحيات والوحوش الكثيرة الضارية فسكن في ذلك الجبل وسكن معهُ الله وملئكتهُ واستمر عشرين سنةً في مغارة هناك ولم يرَ كل ذلك الزمن الأ شخصًا كان يجيء اليهِ مرتين في كل سنة بمأكلهِ ومشربهِ وكلاهما يسيرٌ من الخبز والماء كان يُدلي الغذاء لهُ بحبل وفي تمادي الزمان انطلقت اليهِ الناس منهم لاجل ما انتشر من امر طهارتهِ ومنهم ليستشيروهُ ومنهم ليشفوا من امراضهم. الا انهُ لم يكن يفتح باب المغارة لاحد ولم يدع احدًا يبصرهُ. ولما مضى عليهِ عشرون عامًا تزاحمت الناس عليهِ وطلبوا منهُ ان يخرج فاضطرتهُ لحاجتهم المقدسة الى الخروج ولما خرج خالوا انهُ كان قاطنًا في الفردوس لان وجههُ كان باشًا وجسمهُ قويًا متعافيًا مع انهُ كان محبوسًا في مغارة مظلمة منذ عشرين سنةً وعائشًا هناك عيشةً قشفةً جدًا. فتحقق الجميع ان ذلك عمل قدرة الله الذي قوَّى جسد القديس وروحهُ

فشاع خبرهُ في العالم كلهِ واتى اليهِ من ايطاليا وفرنسا واسبانيا وافريقيا واماكن اخر اناس كثيرون كرهوا العالم ليعيشوا معهُ وتحت تدبيرهِ. فابتنى القديس لاجلهم اديرة كثيرة في البراري. ولكثرة الاديرة والرهبان الذين انقطعوا فيها الى الله تعالى غصَّت البوادي بالناسكين حتى صارت كقصبات البلدان. وكان عليهِ السلام يُدبّر كل هذه الاديرة ويرشد كل رهبانها ومما كان يعلمهم اياهُ مكرِّرًا هذا وهو لا بدَّ في الحياة الروحية ان يعتقد المرءُ موقنًا انهُ في كل يوم يبتدئ جديدًا. وانهُ قادر على ان يجد في كل مكان فردوسًا اذا بقي قلبهُ بالله متعلقًا. وان الشياطين يفزعون جدًا من الصلاة والصوم والسهر والتقشفات لا سيما من الفقر الاختياري واحتقار العالم وكسر حدَّة الغضب وان هذه الفضائل تسحق رأس الحية وان الاسلحة التي ينبغي لنا ان نقاوم الشيطان بها هي الايمان الحي والسيرة النقية وان الذي تعبد لله وهجر العالم ولو انهُ ترك كل مجد الملوك وكنوزهم ينبغي لهُ ان يعد ذلك كالعدم من اجل ان الارض كلها بالنسبة الى السماء ليست شيئًا. ولان الذي تركهُ كان لا بُدَّ لهُ من تركهِ عما قليل فما حيٌّ على الزمان بباقٍ فما تَرْك الانسان قبل موتهِ ما لا يقدر ان يأخذهُ معهُ بعد الموت امرًا كبيرًا وانهُ كما ان العبد الامين اذا امرهُ سيدهُ بشيء لا يستعفي من عملهِ لاجل خدمتهِ الماضية كذلك الرجل المتعبد لله لا ينظر ما قد فعلهُ انما يلتفت الى ما بقي مما يجب عليهِ لربهِ وانهُ لا يجازى ولا ينال الاكليل من قد ابتدأ بل من انتهى امرهُ حسنًا. وان اكتساب الفضيلة ليس صعبًا كما يتصورهُ الناس وان الشياطين يبغضون المسيحيين بغضةً شديدةً ولا سيما الرهبان والراهبات. وانهُ لكيلا يُؤخذ الانسان باوهاق

ابليس ينبغي لهُ ان ييأس من نفسهِ ويحسن اتكالهُ على سيدنا يسوع المسيح الذي اخذ اسلحتهُ واضعفهُ بموتهِ المقدس . وان الشيطان لا يقدر ان يضرنا بشيءٍ اذا لم نسلم انفسنا ليدهِ . ولايضاح ذلك واثباته اورد القديس خبرًا قال ان الشيطان قرع يومًا باب دير من اديرتهِ فخرج القديس وفتح الباب ورأى صورة انسان كانت هامتهُ تتصل الى السحاب فسألهُ من انت وماذا تريد . فقال لهُ انا هو الشيطان ومرادي ان اعرف لايما سببٍ تلعنني الرهبان والمسيحيون جميعًا . اجابهُ القديس انك لمستحق لعنتهم لانك تنصب لهم الفخاخ على الدوام وتحاول ان تصطادهم بشصّ الخطية . فقال ابليس اقول الحق اني لست انا الذي يجربهم بل انهم يجربون بعضهم بعضًا ويطلبون اسباب الخطية لاني منذ التجسد عدمت كل قوة وفقدت كل سلاح وأُخرجت من البراري لاجل سكنى الرهبان هناك والحاصل انهُ لا سبيل للناس الى ان يشكوا مني . وحينما سمع عليهِ السلام ذلك الكلام شكر سيدنا يسوع المسيح الذي انتصر على الشيطان حتى اضطر ابو الكذب الى ان يصرّح بذلك . وحالما سمع ابليس اسم يسوع هرب وغاب عن النظر

ثم ان القديس كان يقول لرهبانهِ في اوقات كثيرة ان السلوك في سبيل الفضيلة هو افضل من فعل العجائب . ولذلك ليس لمن أُعطي ان يصنع معجزات ان يتعظم بنفسهِ لاجلها ولا يحتقر من لا يفعلها لان فعل العجائب انما هو موهبة من الله لا تجعل الانسان قديسًا . وان الانسان ينتصر على الشيطان بسهولة اذا اخلص العبادة لله بسرور باطن روحي مستحضرًا دائمًا الله جل جلالهُ لان هذا النور يمزّق الظلام ويُزيل تجارب الشيطان سريعًا . ومما يفيدنا جدًّا ان ننظر الى سير القديسين فان فيها تحريضًا لنا على الاقتداء بهم . فبمثل هذا التعليم كان القديس انطونيوس يرشد تلاميذهُ في طريقة الكمال الرهباني . فغصّت البراري بالقديسين من الرهبان وبرياضاتهم المقدسة ونشاطهم في العبادة صيروا القفر سماء لانهم كانوا متحدين برباط المحبة متغاضين عن الارضيات متأملين السمويات ولا انعطاف لهم الا اليها

اما القديس انطونيوس فكان عائشًا بينهم كملك ارضي ومع انهُ كان ابًا لكل هولاء الرهبان الفضلاء وامامهم في الطهارة لم يعدّ هذا كله شيئًا اذ لم يبذل حياته لاجل محبة سيدنا يسوع المسيح . ولما عرف حينئذٍ ان مكسيمينوس قيصر يضطهد المسيحيين في الاسكندرية وانهُ قد قتل منهم كثيرين قام ومضى ليُقتل معهم . ولرغبته في نيل اكاليل الاستشهاد دخل السجون حيث كان الشهداء محبوسين وكان يخدمهم ويرافقهم حينما كانوا يُقدَّمون للمغتصب ويشجعهم عند تعذيبهم ويمضي معهم الى منقع الدم . ويفرح لاجل انتصارهم مظهرًا بهذا مزيد رواحهِ لان يشاركهم في الجد . فامر المغتصب بان يخرج جميع الرهبان من المدينة فاختفى الاكثرون منهم . اما انطونيوس فلم يختفِ بل انهُ لبس ثوبًا نظيفًا ابيض ناصعًا ليظهر بذلك نفسهُ أتم الاظهار فخرج هكذا ووقف في اعلى واوسع مكان من الشوارع طالبًا في قلبهِ من الله بحرارة ان يؤهلهُ لان يموت شهيدًا ويسفك دمهُ حبًّا بهِ تعالى . غير ان الله شاء ان يبقى هذا القديس لاجل خلاص كثيرين . فلما هدأ هيجان بحر هذا الاضطهاد عاد الى ديرهِ واخذ بكل جد في ان يصوم ويصلي ويسهر لابسًا المسح دائمًا كانهُ دخل الرهبانية حديثًا ليعوض بالتقشف والجهاد عما لم يقدر ان يكسبهُ بالاستشهاد

وقد اراد الله ان يشرّف عبدهُ بفعل عجائب منها شفاء جميع الامراض . واعجب آياتهِ السلطان الذي أُعطيهُ على اخراج الشيطان من اجساد المجانين . اما هو عليهِ السلام فعلى مقدار ما كان الله يشرفهُ كان يتضع في نفسهِ ويرغب في ان يكون نكرةً عند الناس . وبناءً عليهِ ازمع على الهرب الى اقصى نواحي الصعيد فاخذ معهُ قليلاً من الخبز وسافر ولما وصل الى شط نهر وقف هناك منتظرًا الزورَق لكيما يقطع النهر فسمع كلامًا نصهُ : يا انطونيوس الى اين انت ماضٍ ولماذا تنطلق فاجاب اني منطلق الى اقصى نواحي الصعيد لان الناس هنا يسببون لي قلقًا ويطلبون مني ما يفوق قدرتي . فاشار عليهِ ذلك الكلام ان يمضي الى مكان ما عيَّنهُ لهُ . فسار القديس ثلاثة ايام ثم وصل الى المكان المعيَّن وسكن هناك . فعرف تلاميذهُ المكان وكانوا يجيئون لهُ بمؤنة . فلما رأى القديس تعب تلاميذهِ في ذلك اخذ يزرع حنطةً لضرورة معيشتهِ وانما فعل بنفسهِ ليوفر التعب على رهبانهِ . ولكون الناس ابتدأوا يزورونهُ زرع ايضًا من اجلهم حشائش وبقولاً . فلما نمت الحشائش والبقول دخلت بستانهُ وحوش الغاب فاتلفتهُ . فامسك واحدًا منها وقال للاخر لماذا تضرين بي انا الذي لم اضرّ بكِ في شيءٍ اخرجي من ههنا ولا تعودي ولا تنسي امري هذا . فامتثلت امرهُ الوحوش كأن الله امرهنَّ فلم ترجع

الى البستان ايضاً

وانما كان القديس انطونيوس يحب الاختلاء لكي يتأمل بهاء وعظمة الحضرة الالهية ويواظب على الصلاة فانهُ كثيراً ما كان يصرف بها الليل كلهُ راكعاً غير متحرك فعند ابتداء صلاتهِ كانت الشمس تغرب من ورائهِ ولما كانت تشرق صباحاً امامهُ كان يشكو منها قائلاً . يا ايتها الشمس لماذا تعدمينني بنوركِ اشعة النور الازلي . اما تقشفاتهُ فكانت فوق طور البشر وقد كان صارماً قاسياً على نفسهِ حتى كأن جسده غير مركب من لحم وعظام . وكان مع ذلك انيساً حليماً سليماً وكان كلامهُ ووجههُ يبديان الهشاشة والبشاشة ولم تتغير حالة هذه بتغيير الامور الزمنية . وماذا نقول عن اجتنابهِ للاراطقة وقد كان يقول انهُ يجب على كل كاثوليكي ان يهرب منهم كهربهِ من الحيات والعقارب . وقد كتب لرجل آريوسي كان يضطهد الكاثوليكيين بقساوة عظيمة ما نصهُ . ان الله قد وضع في قوس عدلهِ سهام غضبه عليك وانهُ سيرشقها على هامتك اذا لم تتب سريعاً . اما الارطوقي فلما قرأ رسالة القديس ضحك منها مستهزئاً والقاها على الارض وتفل عليها وتوطأها برجليهِ وبعد ثلثة ايام من ذلك مات موتاً شقياً وفي ذات يوم اظهر الله لهُ رؤيا ما كان قد ازمع الاريوسيون على ان يوقعوهُ بهِ من الشرور في الاسكندرية . فجثا القديس والصق وجههُ في الارض وطلب من سيدنا يسوع المسيح بعبرات هامية ان يبادر الى تخليص المؤمنين من هذا الشقاء فعزَّاهُ الله بحيث اراهُ كيف تنتصر الكنيسة عليهم . وقد اورد عليهِ السلام هذه كلها لتلاميذه فلما ابتدأ اضطهاد الاريوسيين في المدينة المذكورة طلب القديس اثناسيوس من القديس انطونيوس ان يأتي ويناصب معهُ الاريوسيين ويقوي الكاثوليكيين على ضيقة عظيمة . فخرج القديس من خلوتهِ واتى الاسكندرية ونفع هذه الكنيسة جداً بكلامهِ وسيرتهِ . على انهُ لم يكن قد درس العلوم فان السيد المسيح وهبهُ من العلم والحكمة ما لا تتصل اليهِ افهام الفلاسفة الوثنيين والعلماء الاريوسيين فلذلك كان ينتصر عليهم بالبراهين السديدة حتى يرجعوا عن الجدال مفحمين . وقد ذكر القديس ايرونيموس انهُ في ذلك الزمان اتى الى القديس انطونيوس ديديموس الاعمى الذي كان اعجوبة دهرهِ ونتيجة عصرهِ لانهُ مع كونهِ قد وُلد اعمى كان متعمقاً في العلوم والحكمة اكثر من الجميع . فشرع الاثنان يتخاطبان عن الكتب المقدسة فسألهُ القديس في طي مذاكراتهِ ألعلك لا تحزن على كونك كفيف النظر . فقال لهُ ديديموس ان ذلك ليحزنني جداً . فقال القديس اني لمتعجب من حزنك على عدم ما تشترك فيهِ معك احقر الحيوانات ولا تفرح متعزياً ان الله خوَّلك نظراً آخر لا يهبهُ تقدس اسمهُ الاَّ لأحبائهِ . فتسلى ديديموس بهذا القول . فهكذا كان علماء العالم يكرمون القديس انطونيوس ويتضعون بين يديهِ . بل ان الملوك واعظمهم قسطنطين الكبير واولادهُ كانوا يكرمونهُ جداً ويكاتبونهُ طالبين صلواتهِ ورسائلهُ . وقد حدث يوماً انهُ جمع رهبانه كلهم وكلمهم هكذا ان ملوك الارض كتبوا الينا وهذا شيء لا يجب على المسيحي ان يستعظمهُ ويتعجب منهُ . اما الامر العجيب والمذهل العقول فهو ان الله كتب شريعتهُ من اجل البشر . وقد ردَّ جواباً للملك بالكتابة ومضمون رسالته كان هذا . اني لابتهج جداً من انك صرت مسيحياً فلا تتعظم بالمقام الملوكي ولا تفتخر باقتدارك الان بل الاجدر بك ان تخاف لانك مزمع ان ترد حساب وكالتك لملك الملوك . فكن في تدبيرك عادلاً ولشعبك راحماً وعلى الفقراء والمحتاجين سخياً . وقد قبل قسطنطين الملك هذه الرسالة باحترام وحَرِص عليها ككنز عظيم . ولم تكن الملوك فقط تكرم القديس انطونيوس بل ان الكنيسة كرَّمتهُ على نوع لا مثيل لهُ لانها لاجل مجرد شهادتهِ حررت اسم القديس بولا اول السياح في مدرج القديسين

فبعدما امتلأ العالم كلهُ من عرف طهارتهِ وعجائبهِ اوحى اليهِ الله ان موتهُ قد اقترب فجمع تلاميذهُ واخبرهم بذلك مبتهجاً واوصاهم بالاستمرار على ممارسة الفضيلة ولاسيما على اجتناب الاراطقة كما كان هو يجتنبهم دائماً لكونهم اعداء سيدنا يسوع المسيح ومحاربي كنيستهِ . ثم امرهم ان يقبروهُ بموضع مجهول حتى لا تدري بهِ الناس . ثم وهب القديس اثناسيوس ثوباً ورداء فقبلها منهُ قبول ثمن موروث . وترك ثوباً آخر للقديس سرابيون الاسقف ووهب مسحه لاثنين من رهبانهِ . ثم قال لتلاميذه كونوا مع الله يا ابنائي فها هوذا انطونيوس ماضٍ ولا يكون معكم في هذه الحياة . فامتدَّ على سريرهِ منتظراً الموت بسرور وما كان نظرهُ قد شخ بعدُ ولا سقط سن من اسنانهِ ثم تُوفي في اليوم السابع عشر من شهر كانون الثاني في سنة ثلثمائة وست وخمسين وكان قد عاش جيلاً وخمسة اعوام

اخبر القديس اغسطينوس ان رجلاً شريفًا كان خليلاً لهُ اسمهُ بونيسيانوس رفيع المنزلة عند الملك . خرج ذات يوم من المدينة متنزهًا مع صديق لهُ فوجد احدها منزلاً حقيرًا فيهِ كتاب ترجمة القديس انطونيوس فجلس يقرأ وعند قراءتهِ هذه الترجمة العجيبة اضرم الله في قلبهِ شوقًا عظيمًا الى مماثلتهِ فزهد في العالم ليتعبد لله من صميم قلبهِ ولما جاء رفيقهُ قدم لهُ هذا الكتاب فقرأهُ فلما رأى بونيسيانوس رفيقهُ متعجبًا ما يقرأهُ قال لهُ ما قصدنا يا اخي ونحن في بلاط الملك غير ان نكون مكرمين لديهِ فهذا قصوى اربنا وغاية تعبنا الباطل مع انَّا لو شئنا لصرنا اجلاء مكرمين عند الله ملك الملوك فاني منذ الان اعاهد الله الا اخدم احدًا سواهُ عز وجل وههنا انعبد لهُ ولا اعود الى العالم . فتبعهُ رفيقهُ في قصدهِ الحميد واستمر الاثنان في عبادة الله وقد كانا خطيبين ولما عرفت خطيبتاهما انهما زهدا في الدنيا نذرتا لله العفة. افادنا الله بقراءة اخبارهِ كما افاد من ذُكروا. انهُ على كل شيءٍ قدير

اليوم الثامن عشر

وفيهِ تنصيب القديس بطرس الرسول كرسيهُ في رومية

اعلم ان الكنيسة المقدسة تعيّد في هذا اليوم اي الثامن عشر من كانون الثاني تذكارًا لليوم الشريف الذي فيهِ دخل القديس بطرس الرسول مدينة رومية ونصَّب فيها كرسيهُ بعد انتقالهِ من مدينة انطاكية حيث مكث سبع سنين وقد اختار الله رومية لهذا الغرض لانها كانت رئيسة كل مدن العالم وارادتها تخضع طائعة لمن اقامهُ نائبًا عنهُ وراعيًا لجميع المؤمنين بهِ . ثم ان الكنيسة تذكر ايضًا في هذا اليوم ما احسن بهِ سيدنا يسوع المسيح الى القديس بطرس حينما اضاء لهُ نور الهي فاعترف بالوهية ابن الله . ومن اجل اعترافهِ هذا قال السيد المسيح انت صخرة وعلى هذه الصخرة ابني بيعتي وابواب الجحيم لا تقوى عليها واعطيك مفاتيح ملكوت السموات وكل ما ربطتهُ على الارض يكون مربوطًا في السموات وكل ما حللتهُ على الارض يكون محلولاً ايضًا في السموات (متى ١٦ : ١٨) فبهذا الكلام اقامهُ المسيح نائبًا عنهُ في الارض وجعلهُ في بيعتهِ رأس الزاوية لكي يعلم كل مؤمن يريد ان يُبنى كحجر في كنيسة المسيح انهُ ينبغي لهُ ان يكون متحدًا بهذه الصخرة البطرسية ومتمسكًا بتعليم الكنيسة الرومانية . وكما ان العضو ينبغي ان يكون متحدًا برأسهِ والغصن بشجرتهِ والجدول بينبوعهِ كذلك يجب على كل مؤمن ان يكون متحدًا بكرسي بطرس الرسول خاضعًا لهُ ولخلفائهِ . لان كلاً من بطرس وخلفائهِ هو بعد السيد المسيح راس الكنيسة كلها التي لا حياة ولا روح ولا نعمة الاَّ فيها . فهذا هو الاحسان الذي تذكرهُ اليوم الكنيسة المقدسة لتنصيب كرسي القديس بطرس في رومية ونريد ان نتذكر ان السيد المسيح الذي لما اراد ان يتغرب عنا ويصعد الى السماء اقامهُ على الارض رأسًا منظورًا لكنيستهِ ليدبرها تدبيرًا خارجًا بما منحهُ رأسها غير المنظور من نور الحكمة . فاراد مخلصنا ان يكون هو ونائبهُ واحدًا لانهُ كما ان ايمان الكنيسة واحد كذلك وجب ان الحاكم المطلق على امور الايمان يكون واحدًا لئلا يصير انشقاق . وكما انهُ في كل بيت وسفينة ورعية وجيش ومملكة يجب ان يكون المدبر المطلق واحدًا ولو كان اكثر من واحد لحصلت الاشجاس دائمة بغير انقطاع . كذلك الكنيسة الملقبة في الكتب الالهية بيتًا ورعية وسفينة وجيشًا ومملكة وجب ان يكون فيها رب البيت والراعي والمدبر والرئيس المطلق واحدًا

ويجب ايضًا ان يكون هذا الرئيس المطلق العام الواحد دائمًا . وان يستمر بطريق الخلافة الى انقضاء الايام . لان الكنيسة تبقى الى ذلك العهد وفيها سيكون دائمًا خراف تحتاج الى راعٍ مطلق يحفظها . والحال انهُ لو تكون الكنيسة مؤسسة على شخص بطرس الرسول فقط لا على خلفائهِ ايضًا لكان اسسها على انسان واحد قابل الموت . ومن ثم كان يظهر ان عنايتهُ ناقصة . فالمسيح اذن لما قال لبطرس اعطيك مفاتيح ملكوت السموات لم يعد بها بطرس رسولهُ فقط بل وعد بها كل خلفائهِ كما انهُ تعالى لما قال لآدم انك تراب والى التراب تعود لم يعنِ بهذا فقط ان آدم تراب وانهُ يرتد وحدهُ الى تراب بل انهُ تعالى جمع تحت هذا الحكم كل نسل آدم . وكذلك قولهُ لابرهيم انا اعطيك هذه الارض فانهُ اراد ان يعطيها ابرهيم وذريتهُ ايضًا . ولا ريب ان الاحتياج الى ذلك بعد موت بطرس عليهِ السلام هو اشد منهُ في حياتهِ . لان المؤمنين لم يكونوا قد تكاثروا كما تكاثروا فيما بعد . ولم تكن الكنيسة قد امتدت في كل الممالك والاقاليم . على ان المؤمنين في ايام بطرس كانت فيهم كما قال الرسول (رومية ٨ : ٢٣) بداية

الروح وكانوا يستسقون الماء من ينبوع الرسل فضلاً عن انهم كانوا في الايمان والعبادة اكثر كمالاً وثباتاً والشريعة كانت محررة في قلوبهم . ومن ثم لم يحتاجوا كثيرًا الى معلم يفسرها لهم ويُحرّزهم من تعليم الاراطقة الذين تكاثروا بعد ذلك ويجتهد في استئصال الرذائل التي تنبت وتتكاثر في كل ناحية

وذلك الراعي العام الدائم هو اسقف رومية حيث القديس بطرس نصب كرسيه بالهام الله هناك سنة ثلاث واربعين للمسيح واقام ثمَّ خمساً وعشرين سنةً . وكانت قد تنبأت عن ذلك السبيلا اريتريا قالت عن سيدنا يسوع المسيح انهُ سينتخب اثني عشر صيادًا اولئك يكون احدهم شيطاناً (وهو يهوذا مسلمهُ) وسينتصر على مدينة رومية بغير سيف واسلحة بل بواسطة صنارة صياد . وفي هذا قال القديس لاون المعظم انهُ كان ينبغي للمدينة التي كانت رئيسة العالم ان تصير مركز الديانة ليشرق منها نور الايمان باوفر سهولة على جميع البلدان والتي كانت رأس عبادة الاوثان الكاذبة تصير رأس ديانة المسيح الحقيقية

وقد اعطى سيدنا يسوع المسيح بطرس مفتاح ملكوت السموات اي مفتاح العلم والسلطان . لانهُ كان يحتاج الى ذلك لحسن تدبير الكنيسة فكان مفتقرًا الى العلم للتعليم وللارشاد ومحتاجاً الى السلطان للتدبير والتأديب فاعطاهُ سلطاناً كما قال الاباء القديسون ليعقد مجامع ويكون فيها الرئيس المقدَّم ويثبت تحديداتها وان يقيم رهبانيات جديدة ويثبت قوانينها ويقدمها للمؤمنين كطرائق امينة لبلوغ الخلاص والكمال . ولان يفحص عن سير القديسين وعجائبهم واستحقاقاتهم وان يحكم عليهم انهم قديسون . وقد أُعطي ايضاً سلطاناً على ان يضع قوانين يلزم جميع المؤمنين ويفسر الكتب المقدسة . ثم ان السيد المسيح اعطاهُ سلطاناً على جميع الاساقفة والبطاركة وعلى جميع الملوك المسيحيين نظرًا الى ما يخص خلاصهم وخلاص شعبهم . واخيرًا منحهُ سلطاناً لان يوزّع الغفرانات على المؤمنين. فمن اجل هذا السلطان العظيم الذي لا نظير لهُ يُدعى اسقف رومية بابا اي أبا الاباء وحبر المؤمنين ورئيس الكهنة ونائب سيدنا يسوع المسيح ورأس جسد الكنيسة واسّ البناء الكنائسي وراعي رعية ابن الله ومعلم جميع المؤمنين ومدبر بيت الرب وحارس كرمهِ وختن الكنيسة واسقف الكرسي الرسولي . هكذا وبمثل هذه الالقاب والصفات قد لُقِّب ووصف الاباء القديسون والمجامع المقدسة مَن انتصب على كرسي القديس بطرس لانهم قد دعوهُ ايضاً ابا جميع الرهبانيات ورئيس كل الكنائس والحاكم المعصوم عن الغلط في قضايا الدين والاداب وقياس العبادة القويم ونور السماء وتعزية الابرار ومرشد الكاثوليكيين ومطرقة الاراطقة وملجأ المضطهدين من اجل البرّ كالقديسَين اثناسيوس وفم الذهب فهذا هو الاحسان الذي تذكرهُ اليوم الكنيسة لكي نشكر الله عليهِ وهذا هو العيد الذي عيّنهُ البابا بولس الرابع في اليوم الثامن عشر من شهر كانون الثاني

اليوم التاسع عشر

وفيهِ ترجمة القديس أنوراتوس

اعلم ان القديس ايلاريوس الذي جلس على كرسي القديس انوراتوس بعد موتهِ في مدينة ارلي هو الذي كتب ترجمتهُ قال انهُ امرءٌ وثني حسيب وُلد في مملكة فرنسا وكان عقلهُ ثاقباً وعريكتهُ ليّنة وقلبهُ مائلاً الى الفضيلة . ومن ثم لما ادرك سن التمييز عرف الحق من الباطل وتحقق انهُ ما من خير ثابت الاَّ خير الابدية ولا ديانة حقيقية الاَّ الامانة المسيحية وبعد ان تمهر في العلوم البشرية اطلع على العلوم الالهية . فبهذه اضطرم قلبهُ شوقاً الى علم تخليص النفس . فتقدم ليكون بين الموعوظين اي الذين يحضرون الوعظ لكي يتعلموا التعليم المسيحي ثم يعتمدوا ومع ان والديهِ كانا يستصعبان ميلهُ الى دين المسيح كانا يداريانهِ لاجل دماثة اخلاقهِ وحميد سيرتهِ فطفق من ذلك العهد يصطنع الى الفقراء بالمال الذي كان يُعطاهُ لاجل التنزه ولم يكن يجد سرورًا الاَّ في الصلاة والقراءة الروحية . فاعتمد اخيرًا وازداد نشاطاً في العبادة

اما ابوهُ فلما رآهُ صار مسيحياً اجتهد في ان يميلهُ الى حب العالم واباطيله . ولانهُ كان غير قادر على الزواج لحداثته قدم لهُ والدهُ اشهى ما في العالم ليرخي عزمهُ ويميلهُ الى لذاتهِ لانهُ البسهُ ثياباً ثمينة وطفق يذهب بهِ الى الملاهي والتنزهات والولائم لعلها تشغلهُ عن ذلك الميل لكنهُ اذ شعر بالفخ المنصوب لهُ جعل يحذر منهُ . رفض كل هذا التنعم الباطل الذي من شانهِ ان يرخي ويخدع . فاخذ يضيق على جسدهِ ويقمعه بالصوم والتقشف ويصرف نهارهُ في الاختلاء واكثر ليلهِ في الصلاة

وبقدوتهِ اجتذب اخاهُ القديس فينَنسيوس الى الفضيلة . فانفرد الاثنان في منزل لهما خارج المدينة واقاما هناك زمانًا مواظبين على رياضات العبادة وكان والداهما قد ماتا وثنيين الا انهما لما رأيا الناس يتعجبون من سيرتهما ويمدحونهما عزما على توزيع اموالهما على المساكين والانفراد في البرية . لانهما لم يقصدا الآن بقيا بمكان منفرد حتى لا يدري بهما احد فاستشارا كابرازيوس شيخًا كانا يحترمانهِ احترام اب فاستحسن مقصدهما بل رام ان ينفرد معهما . ومن بعد ان وزعا اموالهما على المحتاجين سافرا والشيخ فوصلوا الى مرسيليا ليركبوا قاربًا ويذهبوا الى ارض بعيدة . وقد ذكر القديس ايلاريوس ان كل الاماكن التي وطئتها اقدامهم عبق بها شذا طهارتهم . لاسيما انوراتوس فان احتشامهُ وعبادتهُ كانا يشهران فضائلهُ . وقد اجتذب اناسًا كثيرين الى العبادة بمذاكراتهِ وافعالهِ

ففي غضون ذلك توفي اخوهُ فينَنسيوس بميطون مدينة ببلاد الشرق من اعمال مورا وقد كُتب اسمهُ في سفر القديسين ومن بعد موتهِ رجع انوراتوس بالهام الله الى فرنسا ومعهُ بعض من اصحابهِ ولما وصلوا الى نواحي مرسيليا طلبوا من الله ان يُريهم مكانًا فيهِ يخدمونهُ حياتهم كلها . وبعد ما انتهت هذه الصلاة دخلوا مدينة فريجو واسقفها في ذلك العهد القديس لاونسيوس . فلما علم بوصولهم استدعى انوراتوس وخاطبهُ فرام ان يمسكهُ في ابرشيتهِ فارتضى انوراتوس ان يقيم بهاتيك الابرشية لان قلبهُ هام بذلك السيد الجليل وطلب منهُ مكانًا ليختلي فيهِ فاعطاهُ مكانًا قفرًا على ساحل البحر فيهِ مغارة . فسكن عليهِ السلام في ذلك المكان على انهُ عما قليل استفاض خبر طهارتهِ كثيرًا وانتشر حتى رحل اليهِ الناس من كل جانب يطلبون صلاتهُ وبركتهُ . فعزم على ان يغادر ذلك المكان فرارًا من الناس . اما لاونسيوس الاسقف فمخافة ان يهجر انوراتوس ابرشيتهُ اعطاهُ ليرين الجزيرة التي لم يتجاسر قبلاً ان يأذن لهُ في سكناها لانها كانت خالية لكثرة ما فيها من الافاعي وكانت الناس تحسبها ارضًا ملعونة . فهذا المكان اعجب القديس جدًّا لكونهِ بعيدًا عن البر وليس بهِ انيس . فدخل القديس الجزيرة باتكال وطيد على السيد المسيح الذي وعد عبيدهُ ان يحفظهم من الحيات والعقارب وكل اذًى ففور وصولهِ اليها خرج منها حيات كثيرة حتى لم يبقَ منها الا قليل لا يضر سمها . فهذا المكان المشحون حيات وعقارب امتلأ ملئكة متجسدين . لانهُ لما شاع خبر برارة انوراتوس وعجائبهِ التي بها خلص هذه الجزيرة من الآفات والحيات تكاثرت تلاميذهُ جدًّا ثم ارتسم كاهنًا بامر القديس لاونسيوس

فابتدأ القديس يبني كنيسة وديرًا لرهبانهِ وقد اظهر الله كامل ارتضائهِ بهذا البناء لانهُ اخرج نبع عين ماء لم يكن قبلاً فامتلأت تلك الجزيرة في زمان قليل رهبانًا فضلاء . ومن ذلك الدير المكرَّم خرج كثير من القديسين وقد كان الانبا انوراتوس يدبر رهبانهُ بحسن وداد ولطافة مقدسة يجتذب بها قلوبهم وهكذا كان يصيّر كل نصائحه مؤثرة وتوبيخاته مقبولة فعّالة . ولا غرابة في الامر لان الجميع كانوا يقتدون بهِ في كل فضيلة وقد كان كلاًّ للكل بحيث كان يرغب في ان يحمل ثقل النير كله ليخفف على الاخرين وقاسيًا على نفسهِ مع انهُ رفيقًا برهبانهِ . بل كان يهتم في ألاَّ تكون تقشفاتهم زائدة

فمات في ذلك الزمن اسقف مدينة ارلي في فرنسا وكان هذا المذكور يشكك الشعب بسيرته . فاتفق اساقفة الاقليم والاكليريكيون طرًّا على ان يقيموا موضعهُ القديس انوراتوس والزموهُ بذلك . فسر هذا الامر المؤمنين واحزن رهبان دير ليرين الذي كان تحت تدبيره منذ خمس وثلثين سنة . فاخذ معهُ من الدير تلميذه القديس ايلاريوس ومضى فارتسم اسقفًا في السنة السادسة والعشرين بعد الاربعمائة . وشرع حالاً يهتم فيما يؤول الى خير الشعب وخلاصه فجعل مكانهُ منزلاً للمساكين وكان يزورهم جميعهم ويسعى في مساعدتهم ثم طاف بكل ابرشيتهِ وبتعليمهِ ونموذج سيرتهِ احيا روح العبادة في الجميع ولاسيما الاكليريكيين . فلما شعر اقرباؤهُ انهُ صار اسقفًا وافوا ليهنئوهُ اما هو فعاملهم كانهم غرباء عنهُ . وكان يقول ان احسان الاسقف الى اقربائهِ بميل الجسد هو سرقة مفعولة في حق الكنيسة والفقراء . ثم انهُ بعد ان صار اسقفًا لم ينقص شيئًا من تقشفاتهِ بل كان يعيش في مدينة ارلي كعيشتهِ في دير ليرين . ولانهُ كان يتقدم الجميع في حضور الصلوات الكنائسية ما كان احد من الاكليريكيين ليتجرَّأ ان يغيب عنها وقد شاء الله ان يكلل في السماء العبد الامين . فمرض مرضًا اليمًا جدًّا وكان كما ذكر القديس ايلاريوس كمن لا يشعر بوجع فعادهُ اعيان المدينة ونواحيها فقبلهم وكلهم مبديًا لهم البشاشة ثم ودَّعهم بكل محبة قائلاً لهم اترون يا ابنائي الاحباء ان حياتنا هذه ليست الاَّ غربة تبتدئ بمولدنا وتنتهي بموتنا .



استشهاد القديس سيباستيانوس

فالطوبى للذين يعدّون الان نفوسهم انهم غرباء ويُعدّونها للموت الذي يحسبون انهُ منتهى منفاهم فلا يبهركم لميع الكرامات الباطل ولا تخدعكم لذة الارض الكاذبة لان الموت الذي يسلب حياتنا ينزع عنا كل ما في العالم من الثروة واللذة . فلا تدعوا قلوبكم تتعلق بما يؤخذ منكم كرهًا . ان الله تعالى هو كل كنزنا واليهِ يجب ان نوجه كل محبتنا . ومن بعد ان تناول الاسرار الاخيرة خاض بحر تأمل المراحم الالهية ومات على تلك الحال نصف شهر كانون الثاني في السنة التاسعة والعشرين بعد الاربعمائة . وقد ذكر القديس ايلاريوس ان كثيرين ابصروهُ بعد موتهِ في بهاء مجد القديسين .

اليوم العشرون

وفيهِ ترجمة القديس سيباستيانوس

ان هذا القديس يُلقّب بعاضد الكنيسة لفرط ما عمل من المعجزات ولكثرة ما كافح عن الايمان وجاهد في سبيل الله اما مولدهُ فهو نربونا مدينة بفرنسا وابواهُ فايطاليانيان كانا قد رحلا الى فرنسا على ان المؤرخين لم يذكروا شيئًا من احوال طفوليتهِ وصباهُ . غير ان القديس امبروسيوس روى انهُ كان متصفًا بمناقب حميدة صيرتهُ كريمًا في بلاط القياصرة . والملك ديوكليسيانوس كان يحبهُ جدًّا حتى اقامهُ قائدًا لاول كتيبة من جنودهِ فقبل القديس سيباستيانوس هذه الوظيفة ابتغاء ان يسعف المؤمنين المضطهدين . فكان يفتقدهم في السجون ويقويهم بالكلام ويعينهم في ايام الضيق باموالهِ . وقد ثبّت كثيرين من المؤمنين الذين صغرت نفوسهم وفشلت عزائمهم في الايمان وماتوا لاجلهِ . ففي ذلك الزمن امسك كروماسيوس حاكم المدينة أخوين من اشرف اهل رومية يقال لهما مرقس ومارسيليانوس واذ لم ينتصر عليهما بشدة التعذيب حتم عليهما بالموت فأخذا ليقتلا . الا ان ابويهما ترانكيلينوس ومرسيا كانا وثنيين اتيا الى الحاكم بنساء ابنيهما واولادهما وطلبا منهُ ان يؤخر القضاء عليهما . فلما رأى كروماسيوس حزنهما ودموعهما قبل طلبتهم واخّر الامر الى ثلثين يومًا . ففي هذه المدة افرغ الجميع كنانة الجهد ليجذبوا هذين الاخوين الى عبادة الاصنام . فاصحابهما من وجوه الدولة كانوا يذكرون لهما غزارة الاموال وعظمة الكرامة المعدّتين لهما اذا ارضيا الملك . اما مرسيا والدتهما ونساؤهما فكنّ يملأن السجن من الولاول والبكاء وكان ابوهما كذلك يفعل . وما برحوا يفعلون ذلك كل يوم حتى اوشكوا ان يميلوا بهم الى ما يريدون فلما عرف القديس سيباستيانوس الذي غيّر ثيابهُ ودخل السجن متنكرًا الخطر المبين الذي كان عليهِ الاخوان انقدت غيرتهُ كالنار واظهر ما في نفسهِ من المحبة لسيدنا يسوع المسيح فاقترب من ذينك الاخوين وقال لهما تذكرا يامرقس ومرسيليانوس انكما تجندتما للسيد المسيح ابن الله فلا تفرقكما عن خدمتهِ محبة اللحم والدم فأظهرا لوالديكما وللجميع ان جندي السيد المسيح يناصب وينتصر بسهولة بترس الايمان والمحبة على كل الذين يريدون ان يفصلوهُ عن الايمان بهِ تعالى ومحبتهِ . وانهُ لا اللذة ولا العقاب ولا الموت تقدر ان تظفر بهِ . من ذا الذي ثبتكما حتى الان في الايمان بالمسيح . من ذا الذي من اجلهِ دخلتما السجون واحتملتما الاغلال والاعذبة . اما صبرتما على هذه كلها حبًّا بهِ عزّ وجل فهل تنتصر الدموع على الذين عجز عنهم اشد عذاب . اما كنتما تعرفان قبلاً ان موتكما يحزن والديكما واهل بيتكما . ان الذين يبكون قدامكما لو انهم يدرون بما تدريان من السعادة الابدية المعدّة للابرار وشديد العذاب المؤبد الذي اعدّهُ الله للاشرار لما كانوا يبكون بل كانوا يهنئونكما ويحثونكما على الموت في سبيل الله ويشتهون ان يشتركوا معكما في هذا الاستشهاد السعيد . ولكنهم اذ لا يعلمون شيئًا من ذلك لا يحبون الا هذه الحياة الزائلة ولا رجاء لهم في الحياة الباقية . وفيما كان سيباستيانوس يتكلم هكذا اضاء في المنزل بغتة نور سماوي وظهرت سبعة ملئكة وكان معهم ربهم رب المجد سيدنا يسوع المسيح فسجدت لهُ الارواح السموية ثم دنا يسوع من سيباستيانوس وسلّم عليهِ وعانقهُ وقال لهُ كما ذكر القديس امبروسيوس انك ستكون معي على الدوام . وكان كل ذلك في بيت نيكوستراتوس احد قواد كروماسيوس المغتصب لانهُ الى هناك أُخذ الاخوان . اما زوي امرأة نيكوستراتوس التي كانت صماء منذ سنين كثيرة فلما درت بما قالهُ سيباستيانوس ورأت الرؤيا المذكورة جثت على قدمي القديس طالبةً منهُ بالايماء المعهودية . فقال عليهِ السلام ان كنت انا عبد السيد المسيح وان كان الذي قلتهُ حقًّا فليشفكِ سيدي يسوع وليحل ربقة لسانكِ ويجعلكِ ان تنطقي حسنًا قال هذا وصلّب على فمها فحالاً بدأت زوي تتكلم وتشكر سيدنا يسوع المسيح والقديس ايضًا على ما اصطنع اليها فلما رأى نيكوستراتوس هذه الاعجوبة آمن في الحال فخرّ على

اقدام ذينك الاخوَين ملتمسًا منهما المسامحة . ثم طلب منهما ان يمضيا الى حيث يريدان بحيث لو حُبس وعُذّب وأُميت من اجل اطلاقهما لا يسوءهُ ذلك بل يطيب لهُ . وقد آمن ترانكيلينوس ومرسيا والدا ذينك الاخوَين ونساؤُهما ايضًا . فقام مرقس احد الاخوين وقال للحاضرين اعلموا الآن وتحققوا ما سمعتموهُ ورأيتموهُ ان تفضيل الانسان حياتهُ على الحياة في السعادة الابدية هو جهلٌ عظيم مهلك . فلندع الجسد يموت لتحيا النفس ولنجُد بنفوسنا حبًّا بسيدنا يسوع المسيح الذي هراق دمهُ حبًّا بنا

حينئذٍ تقدم نيكوستراتوس بامرأتهِ زوي الى القديس سيباستيانوس وطلبا المعمودية . اما هو فامرهُ بان يحضر كل الذين كانوا طُرِحوا في السجن لاجل جرائمهم لكي يسمعوا تعليم الخلاص . فارسل نيكوستراتوس كلاوديوس كاتب المحكمة ليأتي بهم فلما حضروا اخذ القديس سيباستيانوس يوضح لهم اسرار دين المسيح فآمنوا بهِ تعالى وعند ذلك تنصَّر اربعة وستون شخصًا . فصرفوا ذلك النهار والليل بالصلاة . وعمَّدهم الكاهن بوليكربوس فشُفي من كان منهم مريضًا وكان من تلك الجماعة ترانكيلينوس واثنان من اولاد كلاوديوس

فلما انقضت الثلثون يومًا المعينة من كروماسيوس المغتصب ارسل واستدعى ترانكيلينوس واذ حضر قال لهُ الحاكم كيف انتهى الامر مع ابنيك هل اجتذبتهما الى طاعة الملك وعبادة آلهتنا . فاجابهُ حاشا لهما ان يجحدا الايمان بالمسيح وانني لأحمد الله الذي عرَّفني حقيقة الديانة المسيحية . فقال لهُ كروماسيوس ألعلك انت ايضًا قد جُنِنت مع ابنيك في حين شيخوختك . اجابهُ ترانكيلينوس ليس الجاهل الاَّ الذي يسعى في سبيل الموت ولا ينطلق في طريق الحياة لقد كنت جاهلاً الى هذا العهد وما صرتُ حكيمًا حتى تنصَّرتُ . فقال الحاكم . ما هذه الحياة وما هذا الموت اللذان نتكلم عنهما . اجاب ترانكيلينوس ان اردت يا سيدي ان تسمع ما نكلمك عنهُ انا وسيباستيانوس في شأن الديانة المسيحية فستحلُّ عليك وعلى بيتك البركة السموية . فرضي الحاكم وابتدأ سيباستيانوس يبرهن للحاضرين على حقيقة دين المسيح ويُنوّر دعواهُ ببيّنات راهنة وتكلم عن ذلك ايضًا ترانكيلينوس فآمن كروماسيوس بسيدنا يسوع المسيح وآمن مثلهُ من بيتهِ الف واربعمائة اسير . وبعد ان اعتمدوا اطلقهم كلهم وقال لهم ان الذي صار الله ابًا لهُ لا يليق ان يكون اسيرًا للانسان

فزاد الاضطهاد اشتدادًا لانهُ صدر امر من الملك بان المسيحيين لا يبيعون ولا يشترون شيئًا قبل ان يعبدوا الاوثان فلما رأى هذا البابا كايوس أوصى كروماسيوس بان يخرج من المدينة مع اناس كثيرين ليطعمهم ويحرسهم في املاكٍ لهُ خارج المدينة . واشار ايضًا الحبر الاعظم على سيباستيانوس بالهرب من رومية الى ان تخمد نار الاضطهاد . اما سيباستيانوس فطلب كثيرًا ان يقيم بالمدينة ليسعف المؤمنين في زمن الاضطهاد فلبث في المدينة مع مرقس ومارسيليانوس واما كروماسيوس الذي آمن بالمسيح فعُزِل عن منصبهِ وتولَّى مكانهُ فابيانوس فهذا قبض على كثير من المسيحيين وقتلهم وكان ممَّن قُبض عليهِ زوي وترانكيلينوس ونيكوستراتوس وكاستور اخوهُ وكلاوديوس الكاتب وسيمفوريانوس ابنهُ وفيكتورينوس اخوهُ وتيبورسيوس ابن كروماسيوس وكاستولوس احد قواد الجيوش ومرقس ومارسيلينوس المار ذكرهما

ولما عرف فابيانوس من رجل مسيحي كان قد ارتدَّ والعياذ بالله عن النصرانية ان سيباستيانوس هو الذي يشجّع المسيحيين ويزرع في قلوبهم بغضة الآلهة سعى بهِ الى الملك ديوكليسيانوس فارسل الملك وامسكهُ ولما وقف امامهُ قال لهُ غضبًا عليهِ اني قد أقمتك قائدًا على اشرف فرقة من جيوشي فكيف من بعد ان شرَّفتك هكذا تجتهد في هدم مملكتي بمحاربتك عبادة الآلهة الذين اسسوها ويحفظونها . اجاب القديس سيباستيانوس ان لي دائمًا غيرةً على عزتك والمملكة ايضًا ولاجل ذلك اصلي كل يوم للاله الحق خالق السماء والارض واعدّ السجود واقامة الصلوات لحجارة لا تتحرك ضربًا من الجهل والغباوة . فامر الملك بانهُ يُخرج ويُساق ويوضع على صدرهِ لوحٌ يكتب عليهِ هذا هو رجل مسيحي ثم يُعرَّى ويُربط على خشبةٍ ويرشقهُ الجنود بالسهام حتى يموت . ففعلوا ولما صيَّروهُ كقنفذةٍ بسبب ما غرس في جثمانهِ من السهام حسبوهُ ميتًا فتركوهُ مربوطًا على الخشبة ومضوا . ولما اظلم الليل أتت سرًا امرأة ارملة وهي ايريني زوجة القديس كاستولوس الشهيد المذكور وانما كان ذلك لتدفنهُ على انها وجدتهُ حيًّا ففكت الرُبُط واخذتهُ الى بيتها وداوتهُ وبعد قليل أفاق صحيحًا معافى . فلما عرف هذا المؤمنون طلبوا اليهِ ان يهرب او يختفي لئلا يقع ثانيةً بين ايدي المغتصب . فلم يرتضِ بذلك الجندي المسيحي الباسل

بل انهُ لفرط شوقهِ الى سفك دمهِ لاجل سيدنا يسوع المسيح خرج لياتي في طريق الملك ديوكليسيانوس فوقف امامهُ وقال لهُ انهُ باطلاً وكذبًا تقول كهنة آلهتكم ان المسيحيين هم اعداء المملكة . فانهُ مما لا ريب فيهِ هو انهم يصلون كل يوم لاجل حفظها . فحار الملك فيهِ لانهُ كان يظن ان القديس سيباستيانوس قد مات . فسألهُ قائلاً هل انت سيباستيانوس الذي قد حكمت عليهِ بالموت وهل انت حي الى الان . اجابهُ القديس ان السيد المسيح هو الذي يرعاني وقد حفظني الى هذا العهد لكي اشهد اليوم امام هذا الشعب الكثير لحقيقة ديانتهِ ولنفاق الذين يضطهدون المؤمنين بهِ تعالى ظلمًا . فامر الملك جنوده بان يضربوا القديس بالعصي او يموت . فاستأثرت رحمة المولى بهذا الشهيد المجيد في اليوم العشرين من كانون الثاني سنة مائتين وثماني وثمانين والقوا جسدهُ في بلوعة وهي نوع من الآبار . الاَّ ان امرأة فاضلة يقال لها لوسينا عرفت بالهام الله اين جسد القديس فمضت لتتخذهُ فما وجدتهُ في اسفل البالوعة بل معلقًا على خشبة فدفنتهُ بامر الله بقرب الرسولين بطرس وبولس واقامت هناك ثلاثين يومًا تتضرع على قبرهِ عليهِ اطيب السلام واتم الرضوان . وقد اعتادت الكنيسة الرومانية ان تلتجئ الى هذا القديس والى القديسين موريسيوس وجاورجيوس وتستنصرهم على اعداء الايمان

اليوم الحادي والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة اغنس الشهيدة

انهُ مما لا ريب فيهِ ان الله جل شانهُ يظهر جودهُ وفضل الديانة المسيحية في سير القديسين كافةً . لكن ذلك قد يكون ببعضهم على وجهٍ اخص كالقديسة اغنس التي نرى في ترجمتها فضائل عظيمة عجيبة . ولهذا قد قال القديس امبروسيوس ان جميع الذين يسمعون خبرها رجالاً كانوا او نساء كبارًا او صغارًا يمدحونها ويتعجبون منها . لانهم يرون في هذه القديسة الغنى الوافر مقترنًا بالفقر الاختياري وشرف الحسب بالاتضاع وصغر العمر وقصر القامة بشجاعة قلب وذكاء عقل والضعف منتصرًا على اقوى ما في العالم . وبتولاً مكللة بتاج العفة في كل موضع حتى في مكان العهارة والشر . فهذه التي قد خبرت العالمين كما قال القديس ايرونيموس قد وُلدت في رومية آخر الدهر الثالث وهي سليلة شرفاء اغنياء . ولان والديها كانا يتقيان الله علّماها من صغرها ما يخص العبادة . وقد قال فيها القديس امبروسيوس انها احبت الله حالما ادركت سن التمييز وما بلغت من العمر عشر سنين الاّ تبيّن انها قد بلغت كمال الفضائل ومن جملتها كانت محبة قلبها النقي لسيدنا يسوع المسيح . فلم تكن تجد سرورًا الا في ذكرهِ ولا تنعمًا الا في التأمل فيهِ . وكانت قد جعلت لنفسها منزلاً روحيًا في جراحاتهِ وهيكلاً في قلبهِ الاقدس . فالروح القدس الذي ألهب في قلبها لواعج الشوق ألهمها وحرّكها الى ان تنذر عفتها للسيد المسيح لتكون عروسًا لابن الله

فشاع في رومية كلها انها فتاة بارعة الجمال كما نمّ عرف مناقبها الحميدة . وقد اتفق يومًا انهُ ابصرها بروكوبيوس بن سيمبرونيوس مدبر مدينة رومية فكلِفَ بها . فعزم على ان يتزوج بها وقد ارتضى ابوهُ بذلك . فطلب البنت زوجة لابنهِ ومن حيث ان ابويها تأخرا عن رد الجواب حتى عيل صبر ذلك الشاب . انتهز الفرصة ليكلم اغنس عن حبهِ لها وشوقهِ اليها . فوجدها في الطريق فحياها بالسلام ثم تملقها بالكلام وقدم لها هدايا كثيرة الثمن . اما هي فارتدت ناكصة الى ورائها قليلاً حتى كانها صادفت حية واخافها فجبهها وقالت لهُ اغرب عني يا جمرة جهنم ومخز الخطية وحجر العثرة وطعام الموت . انهُ لا يمكن ان انكث بعهدي واخون عروسي الالهي الذي لا احيا الا من حبي لهُ . لانهُ لا مناسبة بينهُ وبينك ومن المحال ان يوجد العروس يضاهيه في الشرف والبهاء والحكمة والغنى والجود والاقتدار فهو من حيث الاصل والنسب شريف كريم لان اباهُ هو الله الذي ولدهُ بغير واسطة امرأة . وامهُ التي ولدتهُ استمرت بتولاً عانقًا ويفوق جماله بهاء الشمس والقمر والنجوم . ولو كانت ممن يعقل لبهتت من بهائهِ واعترفت بانها بالنسبة اليهِ ليست الاَّ ظلامًا حالكًا . انهُ بحكمتهِ جعلني اسيرة حبهِ لا استطيع ان افتكر في غيرهِ . وامتلأ قلبي سرورًا الان لتكلمي معك عنهُ عز وجل ولو اني ابغضك اشد من بغضي للموت . وماذا عساني ان اقول عن غناهُ الذي يُربي ويزيد على غنى مملكة رومية بما لا يدرك فما لقدرتهِ وجودهِ في الارضين من مثيل لانهُ بامرهِ يشفي المرضى ويقيم الموتى . ولهذا فانا لهُ بكليتي واحبهُ اكثر من نفسي وحياتي . وحبي لهُ يزيد فيَّ عفةً وطهارة . انظر الان هل يمكن ان ابا بن هذا العروس لاجل رجاء خيرٍ ما او لاجل خوف من شر ما . قالت هذا البنت ورفضت

هدايا بروكوبيوس. وفي هذا الصدد قال القديس مكسيموس ناصحًا للبنات على رفض كل هدية يقدمها لهنّ الرجال والشبان وإن كانت مقدمة بوجه العبادة. من يهبكنّ ما لا يزيدكنّ حبًّا بالله تعالى فلا تقبلنّ منهُ ما يميل بكنّ الى الدنيا اشد الميل

فظن الشاب الشريف انها تهوى شابًّا اخر وانها تعلّقتهُ حتى دعتهُ الهها وحياتها. ولذلك جرَّ اليهِ الحسد من الاذى ما جعلهُ مريضًا. فلما عرف ابوهُ سبب مرضهِ استدعى اغنس وقال لها اني دعوتكِ لاخبركِ بما يسرّكِ ويبهجكِ. فاعلمي اني اخترتكِ لتكوني عروسًا لابني فلا شك انكِ ترتضين بذلك بشكر وسرور. حينئذٍ قالت البنت المباركة باحتشامٍ ان لي عروسًا افضل من ابنك في الشرف والغنى بما لا قياس لهُ فلا ابدلهُ بآخر ولو أُعطيت العالم باسرهِ وهذا العروس الالهي الذي اتخذني عروسةً لنفسهِ عاهدني على ان اكون عذراء ما حييتُ. لكنما مدبر المدينة لم يفهم معنى كلام اغنس وكان يشتهي ان يعرف من هو هذا الذي قد دعتهُ عروسها الالهي. فقال لهُ احد الحاضرين لتعلم عزتك ان هذه البنت مسيحية متعلمة من صغر سنها تعليم هذه الديانة. فالعروس الذي تكلمت عنهُ هو اله المسيحيين. حينئذٍ قال لها الحاكم دعي عنكِ هذه الحيل واتركي هذه الديانة الباطلة. فاما انكِ تكونين عروسًا لابني وتعبدين آلهتنا واما انكِ تُعذَّبين حتى الموت. فاختاري ما تريدينهُ من الاثنين وردي عليَّ جوابًا غدًا باكرًا. اجابت اغنس انهُ لا يحتاج الى طول هذا الزمن لاني الان قد اخترت ما اريدهُ فليكن محققًا عندك اني لا اقبل عروسًا غير سيدي يسوع المسيح كما اني لا اقبل الهًا الَّا الذي خلق السماء والارض. وكيف تطلب مني ان اعبد آلهة من حجر وخشب. واما الوعيد فهو اضعف من ان يلقي في قلبي خوفًا. وحينئذٍ امر سيمبرونيوس الحاكم ان تُقيَّد بالاغلال. فنهض الاعوان واوثقوها بالسلاسل وسحبوها الى هيكل الاصنام لتسجد لها. اما هي فصلّبت جهارًا ولم ترد ان تبصر ما هنالك من الاصنام

فافتكر المغتصب فيما رأى انهُ يخيف هذه الفتاة اعظم خوف ثم قال لها ان لم ترتضِ ان تتزوجي بابني فاني ارسلكِ الى الماخور لتكوني هناك بيد الزناة. فاجابت عليها السلام قالت لا اخاف في بيت الريبة فان معي ملاكًا وهو واحد من خدام عروسي فيحفظني من كل سوء. فشرع الشُرط يعرّونها ليدخلوها ذلك الماخور لكنما شعرها الذي كان كليلٍ حالك غطى كل جسدها حتى حارت في ذلك الالباب. ولما ادخلوها بيت الريبة لمع حالًا نور من السماء. فجثت حينئذٍ القديسة على الارض شاكرة عروسها الالهي على عنايتهِ بها. اما اولئك الذين اتوا ليفعلوا المنكر فلما رأوا المنزل مضيئًا بنور لا نظير لهُ على الارض وقفوا متعجبين وارتجعوا اعفّاء شاكرين اله المسيحيين. غير ان بروكوبيوس ابن الوالي تجاسر على ان يدخل المنزل ليفسد اغنس النقية. وحينما اقترب منها ضربهُ ملَك الرب فخرَّ قتيلًا. ولما رأى ذلك الحاضرون هربوا واخبروا في رومية بما جرى واما سيمبرونيوس والدهُ فحالما درى بذلك اسرع الى المكان. واذ ابصر ابنهُ ملقى على الارض ميتًا سخط سخطًا وصرخ لاغنس يا شريرة يا ذئبة جهنمية لماذا قتلتِ من كان عندي اعز من حياتي. فاجابتهُ الابنة قائلةً اني لست انا سبب موت ابنك بل ان جسارتهُ النجسة هي التي قتلتهُ لان كثيرين اتوا مثلهُ الى ههنا ولما رأوا النور السماوي يضيء في هذا الماخور كفّوا فلم يتضرَّر منهم احد. اما ابنك فلانهُ لم يحترم الهي وقصد ان يُذبل زنبق عفافي قتلهُ الملَك الحافظ لطهارتي. فتحوَّل وقتئذٍ سخط الحاكم رضًا وعُنفهُ لطفًا وطلب منها بقلب اسيف وعين تذرف الدموع ان تقيم ابنهُ من الموت فاجابتهُ تلك العذراء قائلةً انهُ وان كان عوَج مذهبك وشرّ عبادتك للاصنام لا يستحقان من الهي ان يقيم ابنك من الموت فانني اتضرع اليهِ في ذلك لكي يشتهر مجدهُ في رومية ويُعرف فرط سعادة عبادهِ الامناء. فارجوك ان تخرج من ههنا مع عبيدك لأُصلي. فلما خرج الوثنيون خرَّت القديسة اغنس ساجدةً لعروسها الالهي طالبة منهُ ان يقيم من الموت ابن الحاكم. فقام الميت حالًا وخرج من المكان وصرخ قائلًا ليس الاله الحق الَّا الذي يعبدهُ المسيحيون ولهُ وحدهُ يحق السجود وجميع الاوثان هم شياطين يخدعونكم لتهبطوا معهم الى جهنم. فيالقدرة المصلوب الذي يجعل الجداء حملانًا ويقيم من الحجارة اولادًا لابرهيم. ثم شاع خبر هذه الاعجوبة في رومية كلها بدقيقة من الزمان. فشرع كهنة الاوثان يطوفون بالمدينة هاتفين. لتمت اغنس الساحرة التي تغير عقول الناس وتحوّلهم حيوانات. اما الحاكم ابو الميت فلما سمع هذا الصراخ في المدينة غلبهُ الخوف بعد ان صمّم على تخليصها لانهُ رأى الآية التي عملتها فولّى مكانهُ وكيلهُ اسباسيوس رجلًا وثنيًا ثم مضى هو على عادة اولئك

الجزع بين الاشقياء الذين يصدهم الخوف عن الانتصار لما يعلمون من الحق

فجلس اسباسيوس على كرسي الحكم وامر ان تستحضر اغنس ثم اوعز الى الشرط في ان يقدوا نارًا عظيمة ويلقوها في وسطها ففعلوا . ولكن الله تعالى الذي كان حفظها من نار الشهوة الزنائية لم يدع النار الهيولية تمسها فنأت عنها لهيبها واقترب من بعض الشُرَط فاحرقهم . اما البنت النقية فكانت منتصبة في وسط النار رافعة يديها وطَرْفها نحو السماء قائلةً . اللهمَّ يا ضابط العالمين انني اشكرك لانك اهلتني بقوة ابنك الوحيد سيدنا يسوع المسيح للانتصار على قوة المغتصبين واجوز منهج الفساد ناجيةً من كل عيب . وايضًا لانك بندًى سماوي اخمدت حرارة هذه النار المحيطة بي حتى صارت لديَّ كنسمات السحر . ليكن اسمك القدوس مباركًا . فها انا ذا ماضية اليك ايها الاله الازلي الذي يملك مع ابنهِ الوحيد سيدي يسوع المسيح الى دهر الداهرين . فلما فرغت من هذه الصلاة انطفأت النار حتى لم يبقَ لها اثر . فامر حينئذٍ اسباسيوس الحاكم بان تُقتل بالسيف . فانتضى احد الجنود سيفهُ ودنا منها فهلع حتى لم يجاسر ان يضربها . فشجعتهُ تلك الفتاة الباسلة قالت لهُ هلمَّ من غير جزع واقتل هذا الجسد الذي اعجب غير عبني عروسي الالهي الذي ملك حبة قلبي . ألا تميتني فألبس ثوب حياة مؤبدة . ثم رفعت طَرْفها الى السماء وقالت يا رب اقبل نفسي التي فديتها بدمٍ كريم . وفي غضون هذه الصلاة ضرب الجندي بالسيف صدرها فوقعت ميتة . ثم نُقلت جثتها الى حقل لوالديها حيث كفنوها واودعوها التراب بلا بكاء وعويل بل بفرح وتهليل . اما والداها فاقاما على جوانب القبر ولم يفارقاهُ . واذا بها قد تراءت لهما ذات ليلةٍ مع زمرة من البنات وعليها ابهى الملابس ومعها ايضًا خروفٌ اشد بياضًا من الثلج فخاطبت والديها قالت ألا كفًا عن الحزن لموتي وافرحا لاني اكتسبت اكليل المجد الابدي . وقد حظيت بمن كنت قد كَلِفت بهِ على الارض . وكانت هذه الرؤيا في اليوم الثامن من وفاتها نفعنا الله بشفاعتها . وقد خصصت الكنيسة المقدسة يومًا في كل سنة لتذكار هذه الاعجوبة . ثم ما انقضى الاَّ قليل من الاعوام حتى مرضت قُسْطَنْسيا بنت الملك قسطنطين الكبير مرضًا اثخنها اكثر في جسمها الجراحات . وقد كانت هذه الابنة مؤمنة بالمسيح الا انها لم تكن قد اعتمدت بعدُ . فلما سمعت خبر هذه الآية من الذين كانوا رأوها عزمت على زيارة قبر تلك القديسة راجيةً الشفاء بشفاعتها . فلما وصلت الى القبر جعلت تصلي طالبة الشفاء من ذلك الداء وفيما كانت تصلي بتواتر استحوذ عليها النعاس فرقدت ورأت في الحلم القديسة اغنس تقول لها تشبَّثي بالايمان بالسيد المسيح الذي يشفيكِ الان شفاء تامًا واشكري المحسن اليكِ . حينئذٍ انتبهت قُسْطَنْسيا متعافية كانها لم تمرض . وذكرًا لهذه الآية وشكرًا لهذا الاحسان ابتنت هناك كنيسة عظيمة ونسبتها الى القديسة اغنس عليها السلام . ثم ان قُسْطَنْسيا اعتمدت واستمرت بتولاً وبسيرتها الحسنة اجتذبت كثيرًا من البنات الى ان ينهجنَ معها طريق الفضيلة السموية وقد ماتت القديسة اغنس في اليوم الحادي والعشرين من كانون الثاني سنة ٣٠٤ للميلاد ولم تزد سنها على ثلث عشرة سنةً

اليوم الثاني والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس فينسنسيوس الشهيد

ان هذا القديس قد وُلد في ساراغوسا مدينة باسبانيا وصرف ايام صبائهِ وشبابهِ في رياضات العبادة ودرس العلوم ثم رسمهُ القديس فاليريوس شماسًا انجيليًا . وبحيث ان لسانهُ لم يكن ذربًا طليقًا وكان قد طعن في ايامهِ قلَّد فينسنسيوس منصب التعليم والوعظ . وفي ذلك الزمن اشتد الاضطهاد على المسيحيين جدًا . لان الملك ديوكليسيانوس ارسل من قبلهِ داسيانوس واليًا على هذه البلاد . وكان اشرس المغتصبين واكثرهم توحشًا واقسى أعداء المسيحيين ولذلك حين وصل الى ساراغوسا قتل منهم كثيرين . ولان القديس فاليريوس والقديس فينسنسيوس كثيرًا ما كان يحترمها المسيحيون قبض عليهما وقيدهما بالاغلال وارسلهما في هذه الحال الى مدينة فالنسيا . وقد ضيَّق عليهما الجنود كثيرًا في الطريق . ولما وصلا الى المدينة أُلقيا في سجن مظلم منتن وتُركا على هذه الحال اياما كثيرة بلا اكل ولا شرب . لان الحاكم ظن انهُ اذا اطال مدة عذابهما يظفر بهما بسهولة . ولكنهُ خاب ظنهُ لانهُ بذلك ازدادت شجاعتهما . حتى ان اجسادهما كانت ايضًا تكتسب قوة وعافية . فلما احضرهما داسيانوس ورآهما صحيحين قويين تحير . ولظنه ان الجنود عاملوهما برحمة وشفقة احتدم غيظًا وقال لهم اهكذا تتممون ما اوصيتكم بهِ . ثم التفت الى الاسقف

فقال لهُ ما قصدك الان اما تطيع امر الملك وتعبد آلهتهُ . فاجابهُ القديس بصوت منخفض وكلام مبهم . فالتفت اليهِ فينسنسيوس بحرارة وقال لهُ ما هذا يا ابانا لماذا تجيب بصوت منخفض كانك خائف من هذا الكلب انطق بصوت عالٍ وعبارة جلية واسحق رأس هذه الحية الجهنمية . وان كنت عاجزًا الان عن ذلك لاجل هرمك فدعني أُجيب عنك . فاذن لهُ الاسقف في ذلك . فالتفت حينئذٍ فينسنسيوس وخاطب داسيانوس المغتصب قال لهُ لتكن آلهتك لك واذبح لهم حيوانات واعبدهم كحارسي المملكة . اما نحن المسيحيين الذين عرفنا انهم اعمال ايدي الناس وانهم عديمو الحس والحركة . وانهم لا يسمعون صلواتكم فلا نعبد الاّ الله الذي بمجرد ارادتهِ اخرج من العدم كل البرايا ويدبر كل شيء بحكمة عنايتهِ . فهذا هو الاله الواحد الذي نؤمن بهِ وهكذا نؤمن بابنهِ الازلي الوحيد . فلهُ نسجد واياهُ نعبد واننا نعتقد انهُ تجسد لاجلنا وانهُ من اجل خلاصنا صُلب ومات . فاشعارًا بتلك النعم الجسام نشتهي ان تحل علينا حتى عقوبة الموت

وهذا الخطاب سمعهُ كثيرون من المسيحيين فتعزَّوا جدًّا وتقووا في الايمان . غير ان داسيانوس بعد ان نفى فاليريوس الاسقف وجَّه كل غضبهِ نحو فينسنسيوس شماسهِ وامر بان يعذبوهُ باشد القساوة . فتقدم الشُرَط وعرَّوا القديس وعلقوهُ على خشبة عالية وربطوا رجليهِ بحبالٍ وطفقوا يسحبونها بكل قواهم . فقال لهُ داسيانوس اما ترى ان عظامك كلها قد تخلعت وتهشمت . اما القديس فاجابهُ ببشاشة وجهٍ وشجاعة قلبٍ . هذا هو الذي كانت تتوق اليهِ نفسي بكل رغبتها فاعتقد انك تفضلت عليَّ باحسان عظيم وانا شاكر لك عليهِ . انك لتعذب اكثر مني من اجل انك لا تقدر ان تظفر بي بهذا العقاب . فاسألك ألاّ يهدأ غضبك عليَّ بل زد عليَّ العذاب ليحسن اكليلي ويزداد سروري فاموت حبًّا بمن مات من اجلي مصلوبًا . وكان الحاكم عند ذلك ينظر شزرًا غضبًا متسخطًا واخذ يضرب الشُرَط ويوبخهم يقول لهم ايها الانذال . اما الشهيد فاستهزأ بداسيانوس وقال لهُ . انك بتعذيبك معذبيَّ قد صرت لي صديقًا وعاضدًا وبقولهِ هذا الذي كان كزيت مسكوب على نار ازداد داسيانوس حنقًا عليهِ فامر اعوانهُ ان يمزّقوا جسدهُ باظفار من حديد غير انهُ كان يهزأ بالشرط كانهم كانوا يمزقون جسد اخر لا جسدهُ وذلك بقولهِ لهم ما هذه الايدي الضعيفة العاجزة قد كنت أعدُّكم رجالاً شجعانًا اشداء البأس . فعجز حينئذٍ الاشرار عن الضرب ولم يعجز القديس عن احتمالهِ . ومما لا بد لنا منهُ في هذا المقام هو ان نتامل كما قال القديس اغسطينوس فضل صبر الانسان وقوة الله تعالى . لاننا اذا اعتبرنا صبر الانسان فلا نرى ذلك الا حديث خرافة . واما اذا اعتبرنا قوة الله سبحانهُ فلا نرى في الامر من عجبٍ . وكان الحق سبحانهُ يُنطقهُ بقوة صيَّرت لديهِ العذاب نعمًا والاشواك زهورًا والنار ندًى والموت حياة . على ان المغتصب ما كان ليقدر ان يعذبهُ باشد مما اخترع من العقوبات الشديدة

حينئذٍ امر داسيانوس ان يُلقى القديس على سرير حديد محميّ تتقد تحتهُ نار عظيمة ففعلوا ولقد ارتجف الحاضرون خوفًا وجزعًا لما رأوا جسدهُ المسلوخ الجاري دمًا من كل ناحية مغللاً بقيود على هذا السرير الجهنمي ثم وضعوا ايضًا على لحمهِ من فوق الواحًا حديدية محماة . وكان هذا لم يكن كافيًا لتعذيبهِ فاخذوا ايضًا يرشون ملحًا على جسدهِ . اما فينسنسيوس فكان كانهُ مضطجع على سرير من الازهار الغضة يشكر الله ويباركهُ بابتهاج مزدريًا بالعذاب والمعذِّبين . ولما كان الجميع ينسبون هذا الصبر العجيب للقوة الالهية امر داسيانوس بان يؤخذ القديس من امام الناس ويُطرح في سجن مدلهم ويُلقى على قطع خزفية . فحالما اقام هناك اضاء في السجن نور من السماء وبعد دقيقة من الزمان رجع القديس الى ما كان عليهِ من العافية . وحضرت الملائكة هناك ورتلت معهُ التسابيح الالهية فتعجب الحراس من هذه الايات الكثيرة الا انهُ قد زاد تعجبهم عندما رأوهُ صحيحًا معافى . وتلك القطع الخزفية تحوَّلت زهورًا طيبة الرائحة فلذلك آمنوا بالسيد المسيح جميعهم . اما المغتصب فلما رآهُ قد برئَ كل البرء حتى كانهُ لم يتعذب اصلاً امر ان يضعوهُ على فراش ليّن ناعم ويقدموا لهُ الذ الاطعمة ويلاطفوهُ كل الملاطفة . فلما عرف المؤمنون هذا الامر حضر منهم كثيرون ورفعوهُ على هذا الفراش رفع المنتصر الظافر . غير ان فينسنسيوس حالما استراح عليهِ سلَّم روحهُ وصعدت نفسهُ السعيدة الى السماء . وكان ذلك في اليوم الثاني والعشرين من كانون الثاني في السنة الرابعة او الخامسة بعد الثلثمائة للمسيح

اما داسيانوس فرام ان ينتقم من القديس بعد موتهِ لانهُ

لم يقدر على ان يغلبهُ في زمان حياتهِ. ولهذا امر ان يُلقى جسدهُ في خارج المدينة طعامًا للكلاب والوحوش الضاربة. الا ان الله تعالى الذي حفظ القديس في زمن حياتهِ صانهُ ايضًا بعد وفاتهِ. لكونه جلت قدرتهُ ارسل غرابًا لحرس جسدهُ من الوحوش لانهُ لما اتى ذئب ليفترسهُ وقع الغراب على رأسهِ وجعل يضربهُ بمنقارهِ حتى فرَّ هاربًا. فلما عرف هذا داسيانوس قال أهكذا تريد يافينسنسيوس ان تنتصر عليَّ بعد موتك ايضًا. حتى ان اعضاءك العادمة الحركة تحاربني ايضًا لا يكن هكذا. فامر وقتئذٍ بان يُلقى جسد القديس في البحر لكي تأكلهُ الحيتان. الا ان رب البحر والبر صانهُ في البحر كما صانهُ في البر. لانهُ اوحى الى امرأة فاضلة فذهبت الى شط البحر فوجدت جسد القديس ودفنتهُ وهناك اقام المسيحيون فيما بعدُ كنيسة ونسبوها لهذا القديس المعظم

اليوم الثالث والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس اكليمنضوس الشهيد

قال نيكوفوروس المؤرخ في هذا القديس انهُ لا نظير لهُ بين الشهداء. فقد وُلد في انكيرا مدينة بغلاطية وابوهُ من شرفاء الوثنيين وامهُ امرأة مسيحية فاضلة يقال لها صوفيا. وقد مات ابوهُ في ظلام عبادة الاصنام وهو يومئذٍ طفل رضيع. فلما ادرك اثنتي عشرة سنةً مرضت والدتهُ ودنت من الموت فاستدعت ابنها وخاطبتهُ قالت يا ابني الحبيب انك قد اتخذت مني جسدك الا ان سيدنا يسوع المسيح ولدك بروحهِ فليكن لك ابًا ولتكن لهُ ابنًا فلهُ وحدهُ اعبد وعليهِ ابنِ اتكالك. لانهُ هو خلاصنا وحياتنا الابدية وهو الذي انحدر من السماء حبًّا بنا وتبنانا وجعلنا ورثة الملكوت. فمن يخضع لهذا الرب المقتدر يظفر بقوات الارض والجحيم. قالت هذا واخذت لأَلي دموعها تترقرق على محيَّاها. ثم قالت لابنها بروح النبوة اعلم يا ابني انهُ بعد قليل تلتهب نار اضطهاد شديد على المسيحيين وانني لارجو ان سيدنا يسوع المسيح بل اني واثقة انهُ يكللك باكليل الاستشهاد. فابتدئ من الان ان تستعد للحرب جيدًا. ان اعداءنا هم اقوياء ويريدون ان يعدمونا حياة الابد ويزجُّونا في هاوية الهلاك الابدي. فها اننا نرى اناسًا كثيرين يسفكون دماءهم في الحروب اكرامًا لملوك الارض مع انهم بعد موتهم لا يترجون اجرًا ما من اولئك الملوك. فلمَ لا تحسب اذن الموت في سبيل ملك السماء شرفًا وسعادةً وهو الذي يمنحك حياة مؤبدة. ان الموت لاجل السيد المسيح لا يعدُّ موتًا وانما هو انتقال من ميدان الحرب الى المجد السموي اذكر يا ابني ان رب المجد تقمَّص شعار الناسوت ومات موت الصليب لينقذنا من اسر الخطية والعذاب السرمد اما يجب عليك اذن ان تتوق الى ان تجود بنفسك لاجلهِ. فحرّر هذا التعليم في قلبك وتسلح بترس محبة الله وارتبط بهِ تعالى ارتباطًا شديدًا حتى لا يقدر ان يفصلك عنهُ خوف ولا عذاب ولا موت وليكن قلبك معلقًا على الدوام بما اعدَّ الله للشهداء من الخيور الابدية وبحيث انهُ قد حان ارتحالي بورود الفناء اطلب منك يا نور عيني وروحي وقلبي وحياتي ان تنهج صراط التعليم الخلاصي وتتدرَّب عليهِ. ومما يروى ان امرأة عبرانية ولدت سبعة شهداء فليجعلني الله تعالى اكون ام شهيد واحد. ثم لثمت وجه ابنها قائلةً لهُ يا لمزيد سعادتي انا التي تقبِّل من هو مزمع ان يموت شهيدًا

اما اكليمنضوس الغلام فبعد وفاة والدتهِ ربا في حجر امرأة تقية تُدعى ايضًا صوفيا وقد اتفق في ذلك الزمن ان حصل غلاء عظيم في غلاطية فكان اكليمنضوس يجمع في بيتهِ اولاد المساكين كلهم ويعولهم ويكسوهم ويعلمهم ولذلك استشهد منهم كثيرون بعد ذلك. اما هو فما كان يأكل الاَّ من احرار البقول. فعلى هذا الحال نما في العمر والفضائل ثم ارتسم كاهنًا وعقب سنتين من ارتسامهِ اذ كان بلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة فقط اقاموهُ اسقفًا

وفي ذلك الزمن أُرسل دوميسيانوس من قبل ديوكليسيانوس الملك ليضطهد المسيحيين في بلاد غلاطية. فقبض على القديس اكليمنضوس ولم يألُ جهدًا في ان يجتذبهُ الى عبادة الاوثان. وبحيث ان الكلام لم ينجع بهِ علَّقهُ على عمود من خشب وامر الشُرَط بان يمزّقوا لحمه بمخالب حديد. وقد فعلوا هذا بقساوة يعجز عن وصفها القلم حتى توجَّع لهُ كل من رآهُ. اما هو فلم يكن يظهر ولا ادنى اشارة الى انهُ متألم. بل كان يشكر الله تعالى ويحمدهُ بقلب مطمئن. فعجز الجنود الاولون وتقدم غيرهم وعذبوهُ جديدًا ولم يزالوا يمزّقون جسدهُ بالمخاليب الحديدية الى ان خارت قواهم. ومع ذلك كان والله يعطي الجَلَد بنتظر شُرَطًا آخرين يزيدون وجعًا على وجعهِ. وآخر الامر تحيَّر المغتصب واكتسى ثوب الخجل وامر بفك الحبال

ثم عاد يلاطفهُ بكل ما امكنهُ من الفصاحة والخباثة ولما رأى ان ذلك ذهب على غير طائل بَرَق ورعد وتوعدهُ بعذابٍ اشد من الاول فاجابهُ الاسقف قائلاً . اخبر فيَّ كل ما عندك من الآلات التعذيبية فما كنتُ لأُبالي بها . فامر حالاً دوميسيانوس ان يرشقوهُ بحجارة على خدَّيهِ وفمهِ ففعلوا وهو قبل ذلك بسرور ثم اعادوهُ الى السجن . وبعد ايام ارسلهُ الى رومية ليُقدَّم الى الملك ديوكليسيانوس فلما وصل الى رومية ومُثِّلَ امام الملك وكان الملك قد احضر ارهب آلات العذاب المُرهِبة وفضة وذهبًا وكثيرًا من اشياء اخر ثمينة وقال لهُ ان اطعت امري وعبدت آلهتي فاني اهبك كل ما ترى من الاشياء . وان عصيت امري فانك تتعذب بكل الالات . فقال لهُ القديس اخزاك الله وآلهتك فان كنت تستعظم كل الاستعظام هذه التحف وذاك العذاب فياليت شعري ماذا يكون من العطايا والتعاذيب التي اعدَّها الله تعالى في الديار الاخرة . وما فرغ من الجواب حتى وضعوهُ على دولاب وشرعوا يديرونهُ هكذا بعزم شديد . فلما كان الدولاب ينزل بهِ الى اسفل كانت عظامهُ تتهشم ولحمهُ يتمزَّق ولما كان القديس يتعذب هكذا استغاث بالله سبحانهُ وطلب منهُ عز وجل ان يقوّيهُ تمجيدًا لاسمهِ الكريم واخزاءً لاعدائهِ . وان يؤهلهُ لان يحتمل حبًّا بهِ اوجاعًا اشد من هذه . فحالاً وقف الدولاب وانفكت الحبال وظهر جسد القديس صحيحًا سالمًا كانهُ لم يتعذب . فلما رأى الحاضرون من الرومانيين هذه الاعجوبة آمن منهم كثيرون بسيدنا يسوع المسيح . اما القديس فشكر الله تعالى وتنبأ قائلاً انهُ قد قرب زوال عبادة الاوثان وبعد زمن قليل سيأتي الملوك ويكرمون شهداء النصرانية

فلما سمع ديوكليسيانوس هذا الكلام امر الشُرَط بان يعذبوهُ في فمهِ فضربوهُ على اسنانهِ فتكسرت . ونخروا بالحديد ما يلاصقها من لحم اللثة على انهُ لم يزل يتكلم بلا خوف بصوت عالٍ مع ان معذبيهِ كانوا يأمرونهُ بالصمت . ثم اعادوهُ الى السجن حيثما زارهُ كل الذين آمنوا عندما رأوا اعجوبة الدولاب من رجالٍ ونساء . وجثوا على قدميهِ وطلبوا منهُ المعمودية فعمَّدهم . واذا بنور سماوي ظهر بغتةً في السجن وفي وسط النور ترآى انسان بوجهٍ باشٍ لابس ثوبًا بهيًا لامعًا ودنا من القديس اكليمنضوس وقدم لهُ رغيفًا وكاسًا ثم غاب عن العيون . فانذهل الحاضرون من ذلك المرأى اما هو فقدَّس الخبز والخمر وناولهم القربان المقدس . ومن ذلك اليوم صار السجن بمنزلة كنيسة وفيهِ كان يجتمع اناس كثيرون جدًا فلما شعر الملك بذلك قبض عليهم وقتلهم ما خلا اغاثانجلوس الذي قد رافق القديس اكليمنضوس حتى شركهُ في الاستشهاد كما سيُذكر . ثم امر بان يعذبوا اكليمنضوس عذابًا اليمًا . فربطوا وقتئذٍ اطرافهُ بالحبال وشرع اناس كثيرون يجرُّونهُ باشد العزم من كل طرفٍ فيما كان آخرون يضربونهُ بكل قواهم ويمزّقون لحمهُ بمخالب حديدية وفي انتهاء هذا العذاب العظيم لما راوا ان عظامهُ قد تعرَّت من لحمهِ خاطب الملك قائلاً لهُ ان الجسد الذي هدمتهُ قد اتخذتهُ من سيدي يسوع المسيح وهو سيبنيه ثانيةً ويعطيني جسدًا جديدًا . فوغر صدر الملك فامر بان يحرّقوهُ فالقوهُ بالمواقد المضطرمة ولكنها لم تؤذهِ شيئًا فان لهيب النار كان كنور ساطع يضيء ولا يحرق . فلما رأى ديوكليسيانوس ذلك ارسلهُ الى مكسيميانوس شريكه بتدبير المملكة . فأُخذ عليهِ السلام الى مدينة نيقوميدية حيث كان ذلك الملك . وقبل ان يركب السفينة اتى اليهِ كثيرٌ من المؤمنين ليقبّلوا جراحاتهِ ويمسحوا دمهُ بمناديلهم لكي يتبرَّكوا منهُ . وعند ذلك دخل اغاثانجلوس وهو واحد منهم السفينة خفيةً واختبأ هناك . وبعد ما اقلعت السفينة وساروا ظهر هو وخرَّ على رجلي القديس وعرَّفهُ باسمهِ واخبرهُ بانهُ يروم ان يرافقهُ ويموت معهُ في سبيل محبة سيدنا يسوع المسيح . حينئذٍ تهلل وجههُ وشكر الله تعالى وطلب منهُ سبحانهُ ان يشدّد عزيمة رفيقهِ . وبعد ان صلّيا طويلاً قدَّم لهما الجنود طعامًا فلم يقبلاهُ وقالا لهم اننا ننتظر الطعام من السماء واذا بالملئكة طرقوا اليهما وقدموا لهما غذاء . فلما وصلا الى جزيرة رُودُس زارها فوتينوس اسقف المدينة ومعهُ كثيرٌ من المؤمنين وطلبوا اليهِ ان يقدّس . فعند تقديسهِ السر الالهي ابصر الحاضرون على المذبح نارًا ملتهبة ولما شاع خبر هذه الاعجوبة اتى الى القديس كثيرون من الوثنيين باولادهم ومرضاهم فوضع يدهُ عليهم وشفى مرضاهم فتنصَّر منهم كثيرٌ ثم سافرت السفينة ووصلت الى نيقوميدية حيث كان الملك مكسيميانوس الذي قرأ رسالة ديوكليسيانوس الملك ثم فوَّض امر القديس الى الحاكم اغريبينوس فلما مَثَل امام الوالي المشار اليهِ سألهُ قائلاً لهُ من انت . فاجابهُ انا اكليمنضوس عبد السيد المسيح . فقال لهُ اغريبينوس لا تقل انك عبد المسيح بل انك

عبد الملك . وسأل ايضاً اغاتانجلوس عن اسمهِ لان الملك ديوكليسيانوس لم يذكر لهُ اسماً بالرسالة. فاجابهُ انا مسيحي بنعمة الله تعالى وقد نلت هذا الاحسان العظيم بواسطة آكليمنضوس عبد سيدنا يسوع المسيح . فامر المغتصب بتعذيبهما فضربوا اغاتانجلوس بالعصي وقطعوا لحم آكليمنضوس بالسكاكين ثم اعادوهما الى السجن. وفيما كانا يصلّيان ظهر لهما ملئكة يعزُّونهما ويشجعونهما . فاذ رأى ذلك الوثنيون المحبوسون هناك طلبوا منهما ان يعلّماهم الدين المسيحي لكي يموتوا معهما في سبيل دين المسيح فعلّماهم الى نصف الليل . ولما وجداهم متعلمين مؤمنين ومستعدين عمّداهم ثم صلى آكليمنضوس فانفتح باب السجن واطلقهم فلم يبقَ في محبَس السجّان الاهو واغاتانجلوس . وفي غد ذلك اليوم انزلوهما الى ميدان الوحوش قصد ان تفترسهما فأنست ووقفت بازائهما ككلاب انيسة لكنما الحاكم الذي يربي على الوحوش شراسةً وقساوةً لم يلين قلبهُ القاسي الذي يشبه الصخر بل امر ان يدخلوا إبرًا حديدية محماة من تحت اظافرهما الى ما فوق الكف ومن تحت آباطهما الى ما فوق المنكبين . حتى اذ رأى الشعب من قساوة الحاكم وجميل صبر الشهيدَين ما رأوا تعصّبوا عليهِ واخذوا الحجارة ليرجموهُ . وكانوا يصرخون قائلين ما اعظم اله المسيحيين . ففرَّ حينئذٍ الحاكم وانطلق القديسان الى جبل بقرب المدينة . فقبض عليهما اغريبينوس ومدّهما على بلاط وامر ان يهشموا عظامهما ففعلوا. ثم وضعوهما في كيسين واحكموا سدها وعلقوا حجرًا ثقيلاً على فم كلٍ من الكيسين ثم القوهما والحالة هذه في البحر. فلبثا طويلاً في عمق ذلك اليمّ حتى عاما على وجه الماء . فاخرجوهما ووجدوهما على اتمّ العافية ثم دخلا المدينة . فقبض عليهما ايضاً مكسيميانوس وارسلهما الى انكيرا مركز الحاكم كيرياكوس ليعذبهما . وهذا اولاً ادخل تحت ابطهما مُدية محماة كانت تنفذ جسدها من طرف الى آخر. ثم علّق ايديهما الى ما فوق ورجليهما الى ما تحت وشرع الشرَط يضربونهما من كل ناحية بقساوة وحشية . ولم يكتفِ المغتصب بذلك بل امر ان توضع على رأس آكليمنضوس خوذةٌ محماةٌ وحينما وضعوها على هامتهِ احترقت كما يحترق اللحم على المشواة وصعد الدخان فصلى القديس فبردت الخوذة والذين كانوا يضربون اغاتانجلوس ذهبت قوتهم حتى عجزوا عن الضرب فانذهل الحاكم وقد رأى هذه الآيات وامر ان يرجعا الى السجن

والى هناك اتت صوفيا امرأة فاضلة كانت قد عُنيت بتربية القديس آكليمنضوس بعد وفاة والدتهِ. وقبّلت مسرورة جراحاتهِ فمسحتهما ثم قدّمت لهُ مأكلاً . اما مكسيميانوس فلما بلغهُ ما جرى امر كيرياكوس ان يرسل الشهيدَين الى دوميسيوس والي مدينة اميسًا على شاطئ البحر الاسود . فمضى الشهيدان ومعهما صوفيا وقوم كانوا قد آمنوا واعتمدوا على يد القديس آكليمنضوس . فامرهم مكسيميانوس بان يفارقوهُ وتوعّدهم بالقتل ومع ذلك لم يستطع الجنود ان يلزموهم بمفارقتهِ فقتلوهم عن آخرهم ودفنتهم جميعهم صوفيا البارّة . وحينئذٍ امر دوميسيوس الحاكم بان يفرّق بين اغاتانجلوس وآكليمنضوس حتى لا يتعاونا ولا يشجّع احدهما الآخر. ثم القى الاثنين في بئر مملوة كلسًا محرقًا فبقيا فيها جلاء يوم الجمعة من اسبوع الآلام ولم يمسهما ضرر البتة . وفي الليل رأى الحراس نورًا فوق رؤوس القديسَين فآمنوا بسيدنا يسوع المسيح والقوا نفوسهم في بئر الكلس ليشتركوا في موتهما . فلما أُشعر الحاكم ذلك امر بان يصلبوا الحرّاس فماتوا مصلوبين . اما الشهيدان فبعد ان ضربوهما بالعصي القوهما على سرير حديد متّقدٍ وسكبوا عليهما زيتًا مغلّى ومُذاب قِيرٍ ممتزج بالكبريت . فظن الحاكم انهما قد ماتا فالقوهما في النار غير انهما اذ كانا مطروحين اخذتهما سنة الكرى وفي الحلم ترآى لهما السيد المسيح مع ملئكةٍ وقال لهما لا تخافا لاني انا معكما

وفي غضون ذلك شاع الخبر ان الملك ديوكليسيانوس وصل الى مدينة انكيرا فأُرسل اليهِ القديسان مع جنودٍ وتبعهما كثيرٌ من المؤمنين . ولما كانت المرحلة بلقعاً مقفرًا لا ماء فيهِ حتى اوشكوا ان يموتوا ظمأً صلّى القديس آكليمنضوس وبعد صلاتهِ نبط بقدرة الله ينبوع في تلك الفيفاء فشربوا منهُ . ولما استفاض خبر هذه الآية في تلك النواحي اتوا اليهِ بمرضى كثيرين فشفاهم كلهم . وبحيث كان كمن لم يذق شيئًا من العذاب في سبيل محبة السيد المسيح سأل الله بلاعج الشوق ان ينعم عليهِ بهذا ان يتألم ويتعذب لاجل مجدهِ في كل يوم فاستجاب لهُ الله تعالى وقال لهُ قد قُبلت صلاتك فاستعد كل الاستعداد فان كؤوس العذاب مترعةٌ ولا بُدَّ ان تقيم على الآلام ثماني عشرة سنةً . فلما وصل الشرَط بهما الى انكيرا سمعوا ان الملك كان في طرسوس فذهبوا بهما الى هناك . فلما مَثَلا بين يدي الملك امر ان يُطرحا في وسط نار حامية

فألقوها في النار ولم يمسها اللهيب . ثم اخرجوها الى الشوارع وامر الملك اعوانهُ ان يضربوها امام الجمهور او يموتا فنعلوا ومع ذلك لم يقدروا على ان يميتوها فاذ رأى الوثنيون هذه الاعجوبة وصبرها تنصَّر كثيرٌ منهم . فاخذها الجنود حينئذٍ ووضعوها في السجن حيث بقيا اربع سنين . وبعد ذلك سلَّمها مكسيميانوس الى إمام وثني فامر ان يُضربا شديدًا فجلدها الجنود بالسياط ولما رجعا الى السجن كان يتساقط من لحمها بعض قطع فلقطها المؤمنون الذين رافقوها في الطريق وحفظوها عندهم وكانت لديهم بمنزلة كنز ثمين . ثم تقدَّم الى الملك رجل من الشرفاء واستأذنهُ في ان يعذب القديسَين المشار اليها فسلَّمهُ اياها فاحضر ذاك سريرًا حديديًا ذا مسامير بارزة طول كل منها شبران . فالقى على ذلك السرير القديس اكليمنضوس وامر حينئذٍ الشُرَط بان يضربوهُ بعصي جافية لكي تنغرس المسامير في ذلك الجسد الطاهر . اما اغاثانجلوس فصبُّوا على رأسهِ رصاصًا مذابًا . على ان الله تعالى حفظ كليهما من العذاب . ثم تسلَّمها ايضًا مغتصب آخر يُدعى افروديس وهذا علَّق في عنق كلٍ منهما حجر رحى وامرها ان يسيرا على هذه الحال في الشوارع لكي يهزأ بهما الشعب ويرجموها . غير ان الله سبحانهُ جعل هذا داعيًا لتمجيدهِ وانقاذ عبادهِ حتى ان الشعب لما رأوا هذه الآية طفقوا يمجدون الله تعالى . ثم طُرِح الشهيدان في السجن ومكثا فيهِ زمانًا طويلاً

ولما انتهى زمان عذابهما الشديد الذي كان انبأهما بهِ الرب ارسلهما مكسيميانوس الى حاكم مدينة انكيرا . فعذَّب اغاثانجلوس احرق خاصرتيهِ على مواقد مضطرمة ثم قطع رأسهُ في اليوم الخامس من تشرين الثاني . ثم احضر القديس اكليمنضوس وامر الشرط فضربوهُ على وجههِ مائة وخمسين ضربة حتى تلطَّخ كل جسدهِ بالدم ثم ارجعوهُ الى السجن . فلما خيَّم الليل جاءَت صوفيا تزورهُ ومعها خدمها واناس اختارتهم لاتمام مقصدها . فالبست القديس ثوبًا ابيض واخرجتهُ من السجن وقدمت لهُ كتاب الانجيل المقدس وادخلتهُ الكنيسة على هذه الحال . فصلَّى هناك وقدَّس وناول الحاضرين الاسرار الالهية وعزَّاهم قائلاً لهم بروح النبوة ان نار هذا الاضطهاد ستنطفئ بعد زمن يسير . وفي اول احدٍ بعد ذلك الكلام حينما كان يقدس دخل الحاكم الكنيسة مع جنودهِ فقطعوا بالسيف راسهُ

وقتلوا ايضًا شماسين انجيليين

اليوم الرابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا بطريرك الاسكندرية الملقَّب بالرحيم

اعلم ان لاونسيوس اسقف نابولي مدينة بجزيرة قبرس لما حرَّر ترجمة هذا القديس المعظم ذكر حادثة عجيبة بها حصل على معرفة سيرة هذا البطريرك وعزم على تسطيرها . فقال الاسقف المذكور

اني بعد ما قدمتُ الاسكندرية رغبةً في ان اكرم ذخائر القديسين . زارني قوم من عبيد الرب وفيما كنا نتخاطب في اشياء مختلفة مما يلائم العبادة . اقترب الينا رجل فقير قائلاً عن نفسهِ انهُ نجا قريبًا من اسرا العجم وطلب منا صدقة . فلم يكن مع احد منا دراهم فنواسيهُ فذهب المسكين عنا . غير اني رأيت خادم احد الجالسين هنا لحق ذلك الغريب ووهبهُ صليبًا صغيرًا من فضة كان بحملهُ على صدرهِ واظهر لهُ ما بقلبهِ من التوجع عليهِ لانهُ لم يقدر على ان يصطنع اليهِ باكثر من ذلك . فلما رأيت ذلك اخذني التعجب والتفتُّ الى كاهن بار يقال لهُ ميناس وابنت لهُ كم ادهش هذا الفعل عقلي واثر في نفسي . فقال لي لا تتعجبنَّ من ذلك لان هذا كان تلميذًا للقديس يوحنا بطريركنا وخادمًا لهُ وكثيرًا ما كان يقول لهُ القديس يا ابني زكريا (لانهُ بهذا الاسم كان يدعو ذلك الخادم) كن رحيمًا وتصدَّق فلا يُعوِزك شيءٌ . وقد رجَّع فيهِ هذا التعليم وافادهُ كثيرًا حتى انفق كل مالهِ على المساكين فيعطيهم كل شيءٍ لهُ ولا ينقصهُ شيءٌ . والله يبعث لهُ اموالاً وافرة ولا يذخر شيئًا لنفسهِ . وبمقدار ما كان يفرط بالصدقة كان يزيد الله عليهِ الرزق . وكثيرًا ما سمعناهُ يناجي الحق يقول لهُ لننظر يارب من ذا الذي يغلب في هذه الحرب الروحية . أأنت بفرط حسناتك ام انا بتوزيعها كلها على العالة والفقراء . وقد اتَّفق يومًا ان جاءَهُ رجل فقير وسأَلهُ صدقةً ولانهُ لم يكن معهُ حينئذٍ شيءٌ فيعطيهُ استحوذ عليهِ حزن عظيم وفي تلك الساعة مضى الى تاجر ما وقال لهُ باكيًا اني لمحتاج الان الى قليل من الدراهم فارغب اليك ان تعطيني ذلك وانا اخدمك مدة شهر او شهرين في اي شيءٍ تريد . وبعد ان قبض الدراهم سلَّمها الى الفقير واوصاهُ بان يكتم السر

قال كل ذلك القس الفاضل . ولانهُ وجدَني متعجبًا ممَّا خاطبني بهِ اردف كلامهُ قال : ان كنت تتعجب مما اوردتهُ لك الان فليت شعري اي اندهال كان يعتريك لو ترى ما فعل بطريركنا من عجائب محبة القريب . فاجبتهُ هل تستطيع ان تذكر لي شيئًا اعجب من ذلك . فقال لي انك ستسمع اعظم من ذلك ما صنعهُ اسقفنا الجليل وبما انهُ هو الذي رسمني كاهنًا واقامني على هذه الكنيسة وكيلاً اذكر لك من ذلك ما لم ترهُ . فنهضت حالاً وامسكت يدهُ وقلت لهُ ألا تذهب بي الى منزلك حيث لا احد وهناك استطيع ان اكتب ما تخبرني بهِ . انتهى كلام لاونسيوس الاسقف الجليل وعنهُ اخذنا ما سيأتي

اعلم ان القديس يوحنا الملقَّب بالرحيم من قبيلة شريفة غنية في اماتونتا مدينة بجزيرة قبرس . وقد قيل عن ابيهِ ابيفانيوس انهُ كان مدبر الجزيرة في الدهر السادس . وامهُ عاقلة كانت امرأة تقية متورعة ربَّت ابنها هذا تربية مقدسة ومن صغر سنهِ مالت نفسهُ الى فضيلة الصدقة وقد درس العلوم ومهرَ فيها . وحينئذٍ رام ابواهُ ان يزوّجاهُ لانهُ كان وحيدًا فعمل كما ارادا . ولكن بعد سنين قليلة توفيت امرأتهُ ثم اولادهُ ايضًا . فعزم وقتئذٍ على ان لا يتزوج ثانيةً

فلما رأى ان لا شريك لهُ في ميراث ابويهِ تبنَّى الفقراء وجعل بيتهُ منزلاً لابناء السبيل . واموالهُ الغزيرة رزقًا للمساكين وعندما كان يوزّع الصدقة بيديهِ كلتيهما كان يقول من يقدر على ان يُنفق كنوز غنى الله الغير المحدودة . انهُ تعالى قد تبنَّى المساكين وهذه امواله وانما اقامني عليها وكيلاً فما أَصنعُ الى المحتاجين الاَّ من مالهِ. فهل يمكنني اذن الاَّ اتصرَّف بهِ افضل تصرُّف . فشاع خبر رحمتهِ في الشرق كلهِ . وفي السنة السادسة من القرن السابع استأثرت رحمة المولى بارلوجيوس بطريرك الاسكندرية الملقب بثاودوروس الكاتب وهذا بعد نحو عامين قتلهُ الاراطقة. فأطبق الاكليروس على ان ينتخبوا القديس يوحنا بطريركًا وان كان بعدُ عالميًا ورغبوا الى اراكليوس الملك ان يلزمهُ بقبول هذه المرتبة . ولما تبيَّن لهُ بالهام الله ان ذلك دعوة الهية انضمَّ الى جماعة الاكليريكيين مدَّةً ما ليتأهب لان يرتسم كاهنًا ثم اسقفًا

فلما انتصب على كرسي الاسقفية افتكر بادئ الامر في ان يعرف شفاء رعيتهِ فزار البيمارستانات وعمل دفترًا كتب فيهِ اسماء مساكين المدينة وقد وصل عددهم الى سبعة آلاف وخمسمائة فقير فكان يدعوهم تارةً بنيهِ وطورًا سادتهُ . ويقدّم لهم كل يوم مأكلاً كافيًا . وفي السنة الخامسة عشرة من الجيل السابع نهض كسرى الملك لمحاربة اراكليوس . ففتح اورشليم عنوةً وقتل هناك أُناسًا يكاد لا يحصى لهم عدد من العالميين والاكليريكيين والرهبان والراهبات ونهب الكنائس واخذ عود الصليب المقدس . ومن ثمَّ هرب كثيرون من الرهبان الى الاسكندرية مع كثيرين من الاساقفة والاكليريكيين والعالميين . فرحَّب بهم القديس المذكور واكرم مثواهم فقدَّم لكلٍّ ما يليق بشأنهِ وشرف مرتبتهِ وقد اظهر في ذلك من السخاء ما حمل قهرمانهُ على ان ينسب ذلك الى الجهل والتبذير . فقال لهُ من المحال ان اقوم بهذه النفقة التي تقتضي خزائن ملك . فقال لهُ ايها الانسان القليل الايمان أَما تعلم ان خزائن رحمة ابي لا تفنى ان الذي بخمس خبزات اشبع خمسة آلاف من الناس لقادر ان يُطعِم من دَخلي مائة الف . ولم تكتفِ رحمة هذا القديس بان يُطعم ويكسو كل اولئك الغرباء مع مساكين المدينة لكنهُ ارسل الى اورشليم كريسيبوس رجلاً ورِعًا واعطاهُ مقدارًا عظيمًا من المال والحنطة والثياب ليُرفد بذلك الذين بقوا في اورشليم

وقد اقام علاوة على ذلك رجلاً على باب قلايتهِ لكي يوزّع الصدقة كل ساعة من النهار على كل عافٍ . ولما كان في من يطلبون الصدقة نساء لابسات اثوابًا ثمينة ومتزينات بحلي ذهبية تشكى منهنَّ الوكيل عند البطريرك الرحيم فاجابهُ قائلاً . اعلم يا ولدي ان السيد المسيح الذي انت وكيلهُ في تفريق الصدقة لا يسر بخدَّام من اهل البحث والتفتيش . ألا اذكر انهُ تعالى قد امر ان يُعطى كل طالب ولم يأمر بالفحص عن المستحقين . ان الذي توزعهُ ليس هو مالك ولا مالي بل هو مالهُ جل كرمهُ . ويريد ان تعطيهُ بزبد الكرم كل الذين يطلبونهُ منك

وكانت كنيسة الاسكندرية ذلك العهد مُكثِرةً ويؤكد ذلك انها في يوم واحد عدمت ثلث عشرة سفينة كان في كل واحدة منها عشرة آلاف كيل حنطة . وان القديس لما جلس على الكرسي وجد في صندوق القلاية زهاء ثمانين رطلاً ذهبًا وعقب ما تصدَّق بكل تلك الكمية اقترض نحو عشرين رطل ذهب . وبعد ان وزَّع ذلك كلهُ اعطاهُ احد التجار مائتي

كيل حنطة وثلثين رطل ذهب وطلب ان يضمهُ الى الاكليريكيين مع انهُ كان قد تزوج مرتين فاجابهُ القديس قائلاً . حاشا لي ان اخالف قوانين الكنيسة المقدسة . ان الله تعالى سيطعم اخوتي الفقراء على الدوام ان كنا نحفظ دائمًا وصاياهُ . وانهُ لقادر على ان يكثّر العشرة الاكيال من الحنطة الباقية عندي كما انهُ كثّر خمسة الارغفة . ولي من عنايتهِ كنز لا ينفد . ففي ذلك اليوم نفسهِ وصل من صقلية مركبان موسوقان حنطةً وحينئذٍ جثا القديس على الارض وقال مبارك الرب الذي ابعدني عن فخٍ نُصِب لي لم يسمح باني ابيع نعمتهُ بمالٍ

ولما بلغهُ ان مودستوس الذي كان رئيس رهبانية ووكيل كنيسة اورشليم في غياب زكريا البطريرك الذي أسرهُ ملك العجم عاجز عن ترميم الاماكن المقدسة التي هدمها كسرى وانهُ على فاقةٍ لا غاية بعدها . ارسل اليهِ الف دينار وخمسة آلاف كيل حنطة وكذلك من بقية الحبوب . والف قنطار خمر ومئَة قنطار حديد . ومقدارًا عظيمًا من السمك المقدَّد . والف بنّاء وبعث مكتوبًا يقول فيهِ اغفر لي ان كنت لم ارسل اليك شيئًا يليق ان يُقدَّم الى هياكل السيد المسيح . ولقد كنت ارغب في ان اكون واحدًا من فَعَلة هذا البناء المقدس . انتهى . ان كثرة صدقاتهِ ما يكاد لا يصدّقهُ العقل . كيف لا وقد كان وحدهُ يتصدَّق بما لا يستطيع عليهِ اعظم الملوك . لكونه لم يكتفِ باعالة الوف الوف من الفقراء لكنهُ ارسل بعضًا من الاساقفة ورؤساء الاديرة بمالٍ كثير ليفتقدوا المؤمنين المأسورين . غير ان الله تعالى كان يسعى معهُ على نوع عجيب لانهُ جلت مراحمهُ كان يرسل اليهِ من كل النواحي ما يمنحهُ للمساكين حتى انهُ كل يوم بل كل ساعة من النهار كان يقدم اليهِ ما يتصدق بهِ . لان الجميع كانوا يريدون ان يشتركوا معهُ في رحمتهِ

ومع انهُ كان مُكثرًا ذا مالٍ وافر لم يكن في المدينة افقر منهُ نظرًا الى مآكلهِ وملابسهِ وظَهَر بيتهِ . وقد شعَر احد وجوه الدولة بان لحاف القديس قد تمزّق لتقادم عهدهِ فاشترى لحافًا ثمينًا وقدمهُ اليهِ وطلب منهُ ان يستعملهُ حبًا بهِ فقبلهُ منهُ البطريرك وبعد نحو دقيقة ارسل فباعهُ وتصدَّق بثمنهِ على بني غبراء . فشعر بهذا الامر ذلك الرجل الشريف صاحبهُ فاشتراهُ ثانيةً وقدمهُ اليهِ فقبلهُ القديس ثم باعهُ ايضًا فاشتراهُ ذلك ثالثةً وارسلهُ الى البطريرك فقبلهُ منهُ وبعث ايضًا فباعهُ قائلاً لننظر أيُّنا ينثني عن قصدهِ الحميد أأنا عن بيع اللحاف للتصدق بثمنهِ على الفقراء او هو عن ابتياعهِ قصد ان يقدمهُ اليَّ

وقد التجأ اليهِ ذات مرة تاجرٌ من الاغنياء كان انكسر لهُ سفينة في البحر وخسر مالهُ كلهُ . فارفدهُ القديس بصدقة جزيلة مرَّتين ولم يحسن بها حالهُ . فقصد القديس مرةً ثالثة واخبرهُ بما اصابهُ . فقال لهُ البطريرك اياك وان تخلط مال الظلم بما نالك من مال الكنيسة فذلك مجلبة لخسران هذا وذاك معًا . ثم تصدَّق عليهِ بسفينةٍ مُوسقةٍ خمسمائة غرارة من الحنطة . فسافر بها التاجر من الاسكندرية بريح مناسبة سارت بهِ عشرين يومًا ولم يكن يعلم الى اين هو ماضٍ . غير انهُ تراءى لهُ مَلَك بصورة البطريرك يوحنا وكان يدبر دفَّة السفينة فوصل الى بلاد الانكليز وكان في تلك البلاد غلاء شديد . فباع ذاك التاجر حنطتهُ بما شاء من الثمن . ولكن اعطوهُ نصفهُ دراهم ونصفهُ قَصديرًا . واحال الباري تعالى ذلك القصدير بعد ان تسلمهُ التاجر الى فضة خالصة

ومرةً اخرى جاءهُ رجل شريف سلبت اللصوص كل مالهِ يسترفدهُ ويطلب منهُ صدقةً . فامر البطريرك ان يُعطى خمسة عشر دينارًا . اما وكيل البطريرك فنقص من ذلك المبلغ الثلثين لانهُ وجد تلك الصدقة كثيرة . فما مضى قليل من الزمن الاَّ وقد اتت امرأة غنية ودفعت للقديس وثيقة ليتسلم خمسمائة دينار ويتصدق بها على الفقراء . فلما قرأ القديس التمسُّك استدعى الرجل الشريف وسألهُ عن مقدار المال الذي اتخذهُ من وكيلهِ . فقال لهُ خمسة دنانير فحينئذٍ وبّخ القديس وكيلهُ قائلاً لهُ ان الله تعالى سيحاسبك عما خسرتهُ الفقراء بذنبك . ولكي تُحقق كلامي استدعِ المرأة التي سلمتني هذا التمسك . فلما حضرت سألها القديس ما الذي قصدتِ ان تتصدقي بهِ بتلك الوثيقة . فقالت المرأة اني الان قد علمت ان الله كشف لك سرًّا لا افهمهُ انا . فاعتقد ياسيدنا اني كنت كتبت بيدي في التمسك الف وخمسمائة مع ان التمسك لم يمسكهُ احد ومن هذا ثبت عندي على سبيل النتيجة ان الله سبحانهُ لا يريد ان اصطنع باكثر من ذلك

وقد سمح الله تعالى ان يُضطهَد عبدهُ الرحيم من اجل صدقاتهِ . لانهُ لما دنا منهُ فيكتياس رجل مقرَّب عند الملك

واورد لهُ ان الملك محتاج الى مبلغ من المال . فخبر لهُ ان يسلم الى الملك ما يتصدّق بهِ لكي يقدمهُ للجيش . فقال لهُ البطريرك انهُ لا يسوغ ان ما قد خُصّص بملك السماء يُعطى لملوك الارض فان كان الملك يروم ان يتسلم ما للكنيسة فليفعل ما يشاء فانا لست اقاومهُ في ذلك وإن كنت لا ارضى بفعلهِ . فسلب وقتئذٍ نيكيتاس اكثر ما وجدهُ في الكنيسة من ذهب وفضة . ولما خرج من هناك اي من البيعة مبتهجًا بغنيمتهِ صادف في الطريق اناسًا آتين الى القديس بهدايا وكانت تلك الهدايا اوعية ممتلئة عسلاً . فطلب نيكيتاس من القديس وعاءً واحدًا ولما ازاح الصمام وجدهُ مملوًا ذهبًا . وهكذا كانت بقية تلك الآنية فلما رأى نيكيتاس هذه الاعجوبة عاد الى البطريرك نادمًا وردَّ لهُ الوعاء الملآن ذهبًا وكل ما كان استلبهُ من الكنيسة ظلمًا

وما كان ليكتفي بان يمارس وحدهُ افعال الرحمة بل كان لا يألو جهدًا في ان يُصيّر الآخرين يترفقون بالمساكين فكلّف تروبلوس احد الاساقفة بان يرافقهُ في زيارة منازل الفقراء وكان ذلك الاسقف كزَّ اليدين شحيحًا وعند دخولها ذلك المكان قال لهُ القديس انهُ يخصك اليوم يا اخي ان تسعى في مساعدة المساكين . فاعطى ذلك الاسقف ثلاثين دينارًا لا لمجرَّد الرحمة بل خوفًا ايضًا وحياءً من البطريرك . فلما آب الى دارهِ أسِف على فقد ذلك المال فاعترتهُ حُمّى محرقة . فلما رآهُ القديس على هذه الحال قال لهُ متبسمًا اني قد كلفتك اليوم بدفع تلك الدراهم للفقراء لانهُ لم يكن معي حينئذٍ ما اصرفهُ عليهم فخذ الان ما دفعتهُ عني . فاخذ الاسقف الدراهم فنال الشفاء . غير ان البطريرك طلب منهُ تمسكًا مشتملاً على الاقرار بانهُ قبض الثلاثين دينارًا وانهُ يرتد عن كل ما كان الله مزمعًا ان يأجرهُ عليهِ من اجل تلك الصدقة فاعطى تروبلوس هذا التمسك . ولكنهُ بعد ذلك رأى في الحلم بلاطًا ملكيًا وكان مكتوبًا عليهِ ما نصهُ: هذا هو المنزل المعدّ للاسقف تروبلوس وفيما كان يقرأُ هذا مبتهجًا ظهر رجل مقتدر فامر بان تُمحى هذه الكتابة ويُكتب هذا هو المنزل المُعَدّ ليوحنا بطريرك الاسكندرية وقد اشتراهُ من تروبلوس بثلاثين دينارًا . فلما انتبه الاسقف قصَّ الرؤيا على القديس فصار للحال رحيمًا رؤوفًا بالمساكين بمقدار ما كان عليهم شحيحًا بخيلاً

ثم انهُ لكي يُحرّض رعيتهُ على الصدقة كان يورد لهم امثال اناس زهوا بهذه الفضيلة وقد روى لهم اخبارًا منها هذا وهو انهُ كان في بلاد افريقية رجل غني يُدعى بطرس تلوناريوس فكان بخيلاً جدًا على المساكين . فاتفق في زمان الشتاء ان قرع باب منزلهِ رجل فقير وكان يخرج في ذلك الوقت الخبز من الفرن . فسألهُ رغيفًا بالحاجة ولكثرة ما لجَّ تصدّق عليهِ برغيف واعطاهُ اياهُ كانهُ يرمي العدوّ . وبعد يومين من ذلك مرض بطرس حتى غاب عن الحس . فابصر نفسهُ في الرؤيا ميتًا فانتصب امام الديّان المخوف وشرع الشياطين يشتكون عليهِ يوردون سيئاتهِ ويضعونها في كِفّة ميزان . واذا بملَك وضع في السنجة الاخرى الرغيف المذكور وخاطب بطرس قال لهُ ليس لنا يا بطرس الاّ هذا الرغيف الذي نضعهُ في كفة الميزان لكنما لاجل هذا الرغيف اخَّر الله تعالى موتك ودينونتك ومن الان فصاعدًا تُب ومارس الافعال الصالحة تفي بها ما في ذمّتك للعدل الالهي . فلما انتبه غيّر سيرتهُ أتمّ التغيير لانهُ انفق على الفقراء امواله كلها ثم اتفق مع خادمهِ على ان يمضيا الى اورشليم ويبيعهُ الخادم هناك كانهُ اسيرٌ فيوزّع ثمنهُ على الفقراء . وقد تم الامر هكذا فاقام بطرس اسيرًا عند رجل صائغ مدّة طويلة لكنهُ اخيرًا عُرف قصتهُ . فلما شعر بطرس ان امرهُ قد ظهر هرب فرارًا من المديح ولم يُعرف بعد ذلك شيءٌ من امرهِ

ثم ان هذا البطريرك القديس مع انهُ كان يهتم على الدوام في مساعدة المساكين . لم يكن يتغاضى عن الاهتمام الواجب في خلاص النفوس لانهُ كان كل عام يزور ابرشيتهُ كلها . ولفرط ما كان يتجنب الارطقة والانشقاق لم يكن يُدخِل في الاكليريكية الاّ من كان الجميع يعرفونهُ كاثوليكيًا . وعرف برؤيا ان وفاتهُ قد اقتربت فعزم على ان ينفرد في قبرس وطنهِ . وبعد ان رتب كل شيءٍ في كنيستهِ سافر مع نيكيتاس المذكور انفًا وهذا نيكيتاس كان اخبرهُ بان الملك يريد ان يبصرهُ ويخاطبهُ فذهبا معًا الى رودس . واذ كان هناك تراءى لهُ ملَك ملتحف بنور ساطع وفي يدهِ قضيب ذهب فخاطبهُ قال هلمَّ لان ملك الملوك يريدك . فنهض القديس وعاد حالاً الى قبرس ووصل الى مدينة اماتونتا حيث كان قد وُلد وكتب وصيتهُ الاخيرة هكذا . انا يوحنا الذي اطلقني السيد المسيح من اسر الخطية . اشكرك يا رب لانك استجبت صلاتي ولم تسمح بان يبقى لي شيءٌ عند موتي الاّ ثلث دينار . بل اهلتني لان اقدم اليك كل ما نلتهُ من كرمك . وذلك أهبهُ ايضًا للفقراء وبعد نقدمة

كل ما لي أُحكِّمك بنفسي فاقبلني يا رب برحمة واغفر لي انا الخاطي

فاستأثرت بهِ رحمة المولى في السنة السادسة عشرة من القرن السابع وكان عمرهُ يومئذٍ زهاء اربع وستين سنة . ولما انزلوهُ في قبر كان قد دُفن فيهِ اثنان من القديسين فتأخر كل منهما الى ناحية احترامًا لهُ ليكون هو فيما بينهما . وهذه الاعجوبة رآها اناس كثيرون . وقد نقلوهُ فيما بعد من قبرس الى القسطنطينية ومن هناك نُقل الى مدينة بود عاصمة قديمة لمملكة المجر . وقد أُلفي جسدهُ صحيحًا ناجيًا من كل فساد وذلك بعد موتهِ بما يزيد على تسعمائة سنة

اليوم الخامس والعشرون

وفيهِ تذكار توبة القديس بولس الرسول

قال القديس غريغوريوس المعظم في كتاب محاوراتهِ ان احياء الله نفسًا اماتتها الخطية لأعجب من ان يُحيي جسد ميتٍ . لانهُ بالآية الثانية يقيم من الموت جسدًا مزمعًا ان يموت موتًا آخر . واما بالآية الاولى فيحيي نفسًا لا بدَّ ان تحيا الى الابد . ثم انهُ بصوابٍ يأخذ من ذلك المبدإ هذه النتيجة وهي ان السيد المسيح بردّهِ بولس الرسول عن الخطية صنع اعجوبةً اعظم جدًّا من تلك التي صنعها لما اقام لعازر من القبر. ففي الحق ان ذلك امر عظيم يخص قدرة الله وهو ان يرجع بالاثيم عن طريق الاثم ويجعلهُ كالحمامة والخروف بعد ان كان كالذئب وابن الله ووريث ملكهِ السماوي بعد ان كان اسير الشيطان مقيَّدًا بسلاسل خطاياهُ . فقد ثبت واضحًا انهُ في توبة كل خاطئ يظهر الله تعالى قدرتهُ وجودتهُ الغير المتناهيتين . الا ان هاتين القدرة والجودة تتلألآن على الخصوص عندما يتوب الى الله بعض الخطأة كالقديس بولس الرسول الذي عينت الكنيسة يومًا تعيّد فيهِ تذكارًا لتوبتهِ التي جنت الكنيسة منها الفوائد الآتية

اعتبر ان الكنيسة المحاربة والكنيسة المنتصرة هما اختان تحب احداهما الاخرى محبة عظيمة ولو كانت احداهما في السماء والاخرى في الارض تسبح في بحر هذا العالم العجاج . فلئن كانت تلك قد فازت بالظفر والراحة في جنة الخلد وهذه تجاهد بعد في ميدان المعركة والحرب لتساعدنَّ احداهما الاخرى . وان كانت الكنيسة المنتصرة لا تحتاج الى شيء نظرًا الى نفسها فان اعضاءها الموجودين على الارض هم على ضرورةٍ واما الكنيسة المحاربة فلا تنطفي نار حربها . ولخوفها من ان تتغلب تستغيث باختها وتلتمس عونها وتجتهد في الاقتداء بها . ولعلها بان القديسين يعيدون في السماء لتوبة بولس الرسول ترغب في ان تماثل اختها وتقرن فرح الارض بفرح السماء . على انهُ يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب اكثر من تسعة وتسعين صدّيقًا لا يحتاجون الى توبة (لوقا ١٥ : ٧) فليت شعري ماذا يكون فرح الارواح السموية بتوبة خاطئ مثل بولس . ان الفرح يتولّد من المحبة فحيثما تكون المحبة عظيمةً فهنالك يكون الفرح عظيمًا اذا ملك المحب اربهُ وحيثما تكون المحبة قليلة فلا يمكن ان يكون هناك الفرح عظيمًا . والحال ان سيدنا يسوع المسيح قد احب بولس محبة مفرطة كما سنوضح ذلك فيما بعد . فلا عجب ان عيَّنت الكنيسة يومًا تعيّد فيهِ لتوبتهِ

ثم ان السبب الثاني الذي من اجلهِ تعيّد الكنيسة تذكارًا لتوبة القديس بولس الرسول هو ما حارت فيهِ البرية الاسلوب الغريب الذي اجتذبهُ الله بهِ الى التوبة . فاعلم ان القديس بولس كان رجلاً عبرانيًا من سبط بنيامين . فريسيًّا تلميذ غمالائيل اعظم معلمي الناموس . وقد نشأ على حفظ الطرائق الموسوية ودافع عنها بغيرة لا تكاد توصف ولما انهُ كان يعتقد ان يسوع لهُ المجد يضاد تلك الشريعة وما هو بالمسيح الحقيقي تلهَّب غضبًا وبعثتهُ الغيرة الكاذبة على ان يحارب يسوع في اشخاص المسيحيين بكل ما وصلت اليهِ يدهُ من الجلد والتعذيب ولذلك اغرى اليهود بان يقتلوا القديس استفانوس . ولم يكتفِ بانهُ اضطهد المؤمنين في اورشليم بل تقدم الى رئيس الكهنة وطلب منهُ رسائل ليضطهدهم ايضًا في دمشق الشام. فخرج من هناك ومعهُ رسائل رئيس الكهنة وحينما كان ذاهبًا في الطريق وهو يفتكر في سفك دماء المسيحيين وقلبهُ يتلهب غضبًا عليهم ارعوى حينئذٍ وتاب توبةً نصوحًا . وذلك لانهُ لما اقترب من دمشق وقد كان هيأ سنانهُ سيف الانتقام تقدَّم اليهِ حينئذٍ السيد المسيح ليحاربهُ ويغلبهُ. فاحاط بهِ بغتةً نورٌ من السماء مبرقًا عليهِ فاسقطهُ على الارض وسمع صوتًا كصوت الرعد يقول لهُ شاول شاول لماذا تضطهدني (اعمال ٩ : ٤) فاجاب شاول بعقل مندهش من الاعجوبة وبقلب مرتجف من التهيُّب قائلاً من انت يارب. فاجابهُ رب المجد انا

هو يسوع الذي تضطهدهُ انهُ لصعب عليك ان ترفس المهاز. فقال شاول وهو مرتعد متحير يارب ماذا تريد ان افعل . فاوعز اليهِ السيد المسيح بان يقوم ويدخل المدينة وهناك يقال لهُ ما ينبغي ان يصنعهُ . فعلى هذه الصورة ردَّ الله تعالى شاول الى التوبة

انهُ لقد ذكر في الكتاب المقدس ان الله ارسل يونان النبي ليجتذب اهل نينوى الى التوبة. ولكي يتوب الاسرائيليون ارسل موسى والانبياء . ثم انهُ تعالى لكي يرد العالم الى التوبة ارسل رسلاً مُهانين . اما في توبة بولس فابن الله نفسهُ انحدر من عن يمين الآب الى الارض ونقدَّم بمجدٍ عظيم وبنور باهر وبهِ شمل بولس ونفذ قلبهُ ونوَّرهُ وليَّنهُ . وحينئذٍ رأى بولس واضحًا وتحقق غاية التحقق ان كل رموز العهد القديم وجميع الخلائق ليست هي بشيءٍ من دون سيدنا يسوع المسيح . وانهُ جل ذكرهُ هو وحدهُ الحق الازلي بهِ كان كل شيءٍ . وعنهُ عبَّرت كل رموز العهد القديم

انهُ لامرٌ عجيب هو ان السيد المسيح الذي قد كان مُبغَضًا ومُضطهدًا مدة اقامتهِ بالارض وفي حين آلامهِ تُفِل عليهِ وجُلد وكُلل بالشوك وسُمِّر على خشبة . ومع ذلك جميعهِ لم يوجد في فمهِ تبكيت ولم يشكُ متألمًا . وها هو ذا الان يصرخ بصوت جَهِر مرعب شاول شاول لماذا تضطهدني . ما هذا يا الهي كيف استطاع شاول على ان يضطهدك يا رب القوات وعرش عزّك في السماء وشاول على الارض . ذلك حقٌ ولكن شاول كان يضطهد اعضاء مخلصنا الموجودة على الارض . ولهذا كان رأسنا الالهي يعدُّ إهانة اعضائهِ إهانتهُ . فالذي لم يتشكَّ مما أُفتري بهِ على اقنومهِ الالهي يشكو الان من شاول لانهُ يفتري على جسدهِ السرّي . ولم يقل لهُ لماذا تضطهد عبيدي بل خاطبهُ قائلاً لماذا تضطهدني . وقد اظهر يسوع بهذا الامر فرط محبتهِ لنا . وبهِ يغرينا بحبهِ ويعلمنا كيف يجب علينا ان نخاف من ان نسيءَ الى احد عبيدهِ

ثم ان الكنيسة تعيّد بوم توبة القديس بولس الرسول لاجل سبب آخر ثالث . وهو لاجل الكمال السامي وعظمة الفضائل التي منحها الله تعالى لبولس في حين توبتهِ . لان بقية الخطأة عند توبتهم يسيرون قليلاً قليلاً ويتعبون كثيرًا في استئصال ملكاتهم الردية . اما الرسول فلقد يتبين ان الله جلت مكارمهُ وهبهُ في حين توبتهِ مفتاح كنوزهِ ومواهبهِ . لان النعمة المنتصرة صيَّرتهُ في الحال انسانًا جديدًا مختلفًا بالكلية عن الانسان العتيق . فبطرفة عين عاد الاسد حَمَلاً والذئب راعيًا . ومن كان يطلب قتل المؤمنين بالمسيح يشتاق الى ان يُهريق دمهُ حبًّا بهِ تعالى وان يكون مصلوبًا مثلهُ . ولفرط ما كان يحب يسوع لم يكن يشاء ان يحيا الاَّ معهُ ويحسب كل ما دونهُ زبلاً وكل ربح سواهُ خسارةً . وفي الحق ان اللسان لا يستطيع ان يصف شرف فضائل هذا القديس والمواهب السامية التي منحهُ اياها الله على حين توبتهِ . فالذي يتأمل جيدًا ايمانهُ الحي ورجاءَهُ المتين ومحبتهُ المضطرمة واتضاعهُ العميق وغيرتهُ المتقدة على خلاص النفوس وما اشبه ذلك . فان عقلهُ يندهش متحيرًا ولسانهُ يرتبط صامتًا . ولما دخل دمشق واعتمد ما ابطأ ان دخل مجامع اليهود ونادى بيسوع المسيح . مثبتًا انهُ هو ابن الله ومفحمًا اليهود بقوة ادلَّتهِ . وذلك بغيرة قوية حتى ان اليهود عزموا على قتلهِ

فلنفحص الان عن السبب الرابع الذي من اجلهِ تعيّد الكنيسة بوم توبتهِ عليهِ السلام . فنقول ان ذلك هو وفور الاثمار التي حصلت عليها بواسطة توبتهِ . وذلك لا من اجل انهُ هو مثال كل الفضائل واكمل القديسين التائبين فقط بل مما كابد من الاتعاب لاجل الكنيسة ومن اجل تعليمهِ الالهي الذي تسلَّمتهُ منهُ . على ان الذي يقرأ رسائلهُ يجد فيها ولاشبهة تعليمًا لم يكن ممكنًا ان ينطق بهِ الاَّ مَلَكٌ او بشر متنوّر بنور الهي . ففي تلك الرسائل يُرينا وَفر جودة الآب الازلي الذي بتجسد ابنهِ الوحيد انقذنا من الموت الابدي اي الهلاك . وذلك لا من اجل برّنا واستحقاقنا لكن من اجل مجرَّد رحمتهِ وتودُّدهِ لكونهِ اراد ان يخلصنا . وفيهِ يبيّن لنا ايضًا جزيل تودُّد سيدنا يسوع المسيح الذي بذل نفسهُ من اجل الخطأة اعدائهِ وصيَّرنا ان نرجو كل خير . وان الذي وهبنا ابنهُ هو سيعطينا كل شيءٍ لاجلهِ تعالى ذاك الذي صار لنا شفيع الفداء وفيها يذكر لنا كيف صلَبنا ابن الله . وان الذين يُخطئون الان يصلبونهُ جديدًا وهكذا يحثنا هذا الرسول الالهي على ان نشنأ ونبغض الخطية اشد البغض ونذلل اجسادنا ونميت شهواتنا . هناك يُعلِّمُ ما يجب على رؤساء وخدَّام البيعة ان يفعلوهُ . ويذكر ايضًا ما يجب على الملوك والحكام والسُّوقة . وعلى ارباب البيوت وخدامهم . وعلى الوالدين والبنين . وعلى الارامل والعذارى . وعلى الاغنياء والفقراء . والشيوخ والاحداث

ومن ثم اعتادت الكنيسة ان تشكر الله تعالى في القداس المرسوم ليوم توبة هذا القديس الجليل على كونهِ علّم العالم كلهُ بواسطة هذا الرسول . وقد صارت هذه الاعجوبة توبة هذا الرسول المعظم في اليوم الخامس والعشرين من كانون الثاني في السنة الثانية بعد صعود السيد المسيح الى السماء . قال القديس غريغوريوس انهُ بعد توبة بولس لا يسوغ لخاطىء ان ييأس قاطعًا رجاءهُ مهما كانت خطاياهُ كثيرة وكبيرة

اليوم السادس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس بوليكاربوس الشهيد

اعلم ان القديس بوليكاربوس تلميذ القديس يوحنا الانجيلي واسقف مدينة ازمير . كان مولدهُ نحو السنة السبعين للمسيح وقد تنصَّر منذ الصبا على عهد تيطس قيصر . وقد قال فيهِ القديس ايريناوس الشهيد اسقف ليون . انهُ تعلم الايمان المقدس من الرسل وعاشر كثيرين من الذين كانوا شاهدوا سيدنا يسوع المسيح وقد اقامهُ الرسل اسقفًا في ازمير وانا عاينتهُ في شبيبتي . انتهى . والذي رسم القديس بوليكاربوس اسقفًا هو صاحب الرؤيا وذلك قبل ان يُنفَى الى جزيرة بطمس . وقد ذهب المعلمون الى ان قول الانجيلي في سفر الرؤيا (رؤيا ٢ : ٨) اكتب لملاك ازمير اراد بهِ اسقف تلك المدينة الذي وجدهُ وحدهُ سيدنا يسوع المسيح بارًّا بريًّا من كل لوم وخاطبهُ بما منطوقهُ . انني اعرف ضيقتك ومسكنتك ولكن انت غنيٌّ ويجدّف عليك الذين يقولون انهم يهودٌ وما هم يهودًا الّا انهم هم جماعة شياطين فلا تخف شيئًا مما انت مزمع ان تحتملهُ . هوذا الشيطان سوف يُلقي قومًا منكم في السجن لتُمتحنوا سوف يُضيَّق عليكم عشرة ايام فكن امينًا الى الموت وانا اعطيك اكليل الحياة . وقد اضطهد هذا القديس اشد الاضطهاد الوثنيون والاراطقة والاخوة الكذَبة ايضًا

غير انهُ تعزَّى حينما وصل الى ازمير القديس اغناطيوس اسقف انطاكية الذي كان قد حكم عليهِ بالموت الملك تراجانوس لما كان مترددًا في بلاد سورية . وارسلهُ الى رومية ليطرحوهُ فريسةً للوحوش الضارية . وقد فرح ايضًا جدًّا القديس اغناطيوس لما رأى مؤمني كنيسة ازمير وشكر الله علانيةً على كونهِ سبحانهُ اقام عليها راعيًا قديسًا . وقد كان كلاهما تلميذَي القديس يوحنا الانجيلي . ومن ذلك الوقت اعتصما بحبل المحبة المتين . غير ان القديس اغناطيوس كان اكبر سنًّا من القديس بوليكاربوس كثيرًا . ومن ثم لما كتب اليهِ رسالةً من رومية لم يخاطبهُ كما يخاطب الصديق صديقهُ بل كما يخاطب المعلم تلميذهُ وفي الرسالة المذكورة يقول لهُ افرغ قوة جسمك وعقلك كلها في تتميم ما انت ملتزم بهِ من قبل وظيفتك . ليحتمل بعضكم بعضًا كما ان الرب يحتملكم . واحتملوا الجميع بكل محبةٍ . واظب على الصلاة اطلب من الله حكمة وافرة . خاطب كل واحد فردًا فردًا حسبما يُقدِرك الله عليهِ . واحتمل ضعف الجميع . فحيثما تجد اشقَّ تعبٍ فهناك يكون لك افضل اجرٍ . فان كنت تحب التلاميذ الاخيار فليس لك اجر على ذلك فالاجدر بك ان تصطاد الاشرار بشصّ الوداعة . واعلم ان كل جرح لا يعالج ولا يشفى بدواءٍ واحد . انتهى

واذ كان القديس بوليكاربوس قد ناهز ثمانين سنة مضى الى رومية لكي يستشير القديس اناكليتوس الحبر الروماني في بعض مشكلات وقد افاد هناك المؤمنين كثيرًا . لانهُ في ذلك الزمن كان والنتينوس ومركيون يزرعان زوان ارطقتهما الشيطانية . فاخذ القديس يعظ المؤمنين ويأمرهم ان يهربوا منهما كما يهربون من الحيات . ولكي يعرفوا كم يجب على الكاثوليكيين ان يتجنبوا الاراطقة . اخبرهم قال : انهُ ذات يومٍ دخل معلمهُ القديس يوحنا الانجيلي الحمام ببعض من تلاميذهِ فلما رأى هناك كيرينتوس الارطوقي التفت حالاً الى تلاميذهِ وقال لهم لنخرجنَّ من ههنا مسرعين لئلا يتهدم الحمام على رؤوسنا لكون كيرينتوس عدو الحق يستحمُّ هنا . وقد اتفق مرة اخرى ان القديس بوليكاربوس صادف في شوارع رومية مركيون المذكور فحوَّل القديس نظرهُ عنهُ . فدنا منهُ مركيون بوقاحةٍ وقال لهُ اما تعرفني يا بوليكاربوس فاجابهُ القديس : اي نعم اني قد عرفتك وعرفت انك ابن الشيطان البكر

ثم عاد القديس الى ازمير ليهتم برعيتهِ لان المؤمنين كانوا حينئذٍ على ضيق شديد باضطهاد الوثنيين لهم . فشرع يثبتهم بالقول والعمل . فشعر المغتصب بما يفعلهُ الاسقف وانهُ هو في بلاد اسيا عمود الديانة المسيحية . فعزم على امساكهِ . اما القديس فلم يضطرب من ذلك بل باشر واجبات مقامهِ بحسب عادتهِ . الّا ان المؤمنين طلبوا منهُ ان يختفي الى زمنٍ ما

ولفرط ما لجأوا عليهِ ارتضى بما طلبوا فاختفى بضعة ايام في منزل خارج المدينة مواظبًا على الصلاة من اجل رعيتهِ. ولكن قبل امساكهِ بثلثة ايام انباهُ الله تعالى في الحلم بكيفية موتهِ. فرأى الوسادة التي كان راقدًا عليها ملتهبة بالنار. فانتبه من رقاده وفهم ما كانت تدل عليهِ الروءيا. فجمع اصدقاءهُ وقال لهم بوجهٍ مبتهج باش. اعتقدوا يا اخوتي اني عما قليل احترق حيًّا من اجل سيدنا يسوع المسيح. فليكن مخلصي الجزيل العذوبة مباركًا وممجدًا فقد اهّلني لان اموت شهيدًا. وقد تم الامر كما قال. لانهُ بعد ثلثة ايام من ذلك دخل الشُرَط ذلك المنزل حيث كان القديس مختفيًا ومع انهُ كان قادرًا على ان يهرب لم يرتضِ بذلك. لكنهُ رفع يديهِ وعينيهِ نحو السماء وهتف قائلاً لتتم مشيئتك يارب تمامًا في كل شيءٍ. ثم نزل وقدَّم نفسهُ للشُرَط واعدَّ لهم غداء وكلفهم بالاكل. ورغب اليهم ان يتركوهُ يصلي ساعة واحدة. فلما رأى الشرط هذا القديس تعجبوا من هيبة خلقتهِ ومزيد وداعتهِ وبشاشة وجههِ ولطافة كلامهِ وقال بعضهم لبعض لماذا هذا الاجتهاد البليغ في طلب موت هذا الشيخ المحترم. ثم كلفوهُ الى الذهاب بركوب خيل واتوا بهِ الى المدينة. ولما كانوا في الطريق وجدهم واحد من مدبري المدينة يُدعى هيرودس كان جالسًا في مركبة مع ابيهِ نيكيتاس فقبل القديس في المركبة وشرع الاثنان يقولان لهُ انك قد شخت ولا قدرة لك على احتمال العذاب فطع الملوك وعِش بسلام فهذهِ مشورة صديق لصديقهِ. اما القديس فكان كرجل اصم لم يجبهما بكلمة. الا انهُ لما رآهما قد كرَّرا عليهِ هذهِ المشورة قال لهما انكما لا تقدران ان تميلا بي الى رأيكما لاني لا افعل ابدًا ما تريدانهِ. فاغتاظا وقتئذٍ وطرحاهُ من المركبة بشتمٍ وضرب. فانجرح القديس في ساقهِ جرحًا كبيرًا على انهُ لم يبالِ بهِ وسار بشجاعة مزدريًا بالوجع والاهانة الى ان اوصلوهُ امام المغتصب الذي كان ينتظرهُ في احد شوارع المدينة حيث كان اجتماع الشعب. وحينئذٍ سمع القديس صوتًا من السماء قائلاً. لِيتشدَّد قلبك يا بوليكاربوس وباشر امر الله بشجاعةٍ وهذا الصوت سمعهُ كثيرون من المسيحيين الحاضرين هناك. اما الشعب الوثني فشرع يطلب موت القديس بصراخ هائل. ثم ان الحاكم سألهُ قائلاً هل انت بوليكاربوس الاسقف. ولما عرف من جوابهِ انهُ هو بعينهِ امرهُ ان ينكر السيد المسيح ويشتمهُ. فقال لهُ الشيخ القديس بسلطان وسكينة اني منذ ٨٦ سنة اخدم المسيح جلَّ ذكرهُ وفي كل هذه المدة لم ينلني منهُ ادنى ضرر لكنهُ احسن اليَّ باشياء شتى. فلماذا تأمرني ان اشتم مثل هذا المحسن واكفر بمثل هذا الاله. فقال لهُ المغتصب اعلم انك ان لم تطع امري فستحرق حيًّا او تُطرَح فريسة للوحوش. فاجابهُ القديس اني لست اخاف النار التي يصلى بها الجسد. بل انما اخاف تلك النار الدائمة التي تحرق النفس. واما ما توعَّدتني بهِ من انك تطرحني للوحوش المفترسة فهذا ايضًا لا اباني بهِ. أَحضِر الوحوش واضرم النار فها انا ذا مستعد للحريق والافتراس. وقد كان القديس يقول ذلك بهدءٍ واحتشام وشجاعة قد ادهشت المغتصب. الّا انهُ مع ذلك امر المنادي ان يقول للجمهور بصوت جهري عالٍ ان بوليكاربوس اعترف بانهُ مسيحي. فما تمَّم المنادي امر المغتصب الّا وقد صرخ الشعب قائلاً هذا هو عدو الآلهة ومعلم السحرة فليحرق حيًّا ويمت. وللحال شرع الشعب يأتون بالحطب. ولما تهيّأ كل شيءٍ سبق القديس فخلع ثوبهُ وحذاءهُ ودخل بين ذلك الحطب. وكان وسطهُ خشبة بمنزلة عمود فرام الشُرَط ان يعلقوهُ عليها. فقال لهم لا حاجة الى ذلك لاني بنعمة سيدي سأُمسي حريق النار بدون ادنى حركة. فتركهُ حينئذٍ الشُرَط فقدم القديس ذاتهُ محرقةً لسيدنا يسوع المسيح قائلاً. ايها الاب الازلي اقبل ما اعطيتني من الحياة ذبيحةً لعزتك. انت رب العالمين واب لسيدي يسوع المسيح الذي بهِ عرفناك لانهُ احبنا حتى الموت موت الصليب. وبهِ اقدم لك نفسي معترفًا بايمانهِ تمجيدًا لاسمك الكريم. واشكرك من كل قلبي على انك احصيتني في الشهداء القديسين وشركتني في شرب كأس آلام ابنك الوحيد. فاحمدك وامجدك واباركك وذلك الابن الازلي الذي يحيا ويملك معك ومع الروح القدس الى دهر الداهرين امين

فلما فرغ من صلاتهِ وقال امين تقدم الجنود واوقدوا النار من كل ناحية. فصعد اللهيب واحاط بهِ ولكنهُ لم يمسهُ بل كان حولهُ وفوقهُ كانهُ خيمة او كقلوع نفختها الرياح. وكانت النار تبعث رائحة ذكية كرائحة البخور اللذيذ. فلما عاين المنافقون ان النار لا تميتهُ تقدم احدهم وضربهُ بسيف فخرج دمه فاطفأ النار. وعلى هذا الحال انتقل عليهِ السلام الى دار النعيم وكان ذلك في اليوم السادس والعشرين من كانون الثاني او ٢ نيسان السنة ٦٩ من القرن الثاني للمسيح

اليوم السابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا فم الذهب

انما لُقّب بفم الذهب لانهُ كان مصقعًا بليغًا فقد وُلد في انطاكية في السنة الرابعة والاربعين من القرن الرابع وكان والدهُ سيكوندوس شريفًا مُكثرًا وكذلك والدتهُ انتوزا وكانا وثنيين الا انهما فيما بعد تنصّرا فاعتمدا. فسلّما ابنهما لليبانيوس الذي كان اعظم علماء عصرهِ. فقرأ عليهِ المنطق والفلسفة على اندراغاتوس وتضلّع في كلا العلمين. وبعد قليل سما في الفصاحة على معلميهِ. وكان والدهُ قد تُوفّي ولم ترد والدتهُ ان تتزوّج ثانيةً مع انها كانت حينئذٍ حدثة السن لكي تتفرّغ للاهتمام بتربية ابنها

اما يوحنا فبعد ان صرف سنة او سنتين يرفع الى القاضي دعاوي الفقراء والمظلومين ويلخّصها بفصاحة غريبة ترك هذه الدعاوي ليهتم بالابدية. وبمخالطتهِ للقديس ملاتيوس اسقف انطاكية والقديس باسيليوس الانطاكي صديقه زاد حبًّا بالسماويات فمكث بعض سنين في بيت امهِ سالكًا سلوك النساك حتى صار قلبهُ كثيرًا ما يميل الى ترك العالم والزهد في اباطيلهِ. ولذلك ذهب الى دير كان رهبانهُ ينشطون لاعمال البرّ. ولما رأى نفسهُ في مدرسة الكمال زاد نشاطًا في ممارسة رياضات الصلاة والتقشف ولذلك كان يصرف فيها وقتًا طويلاً. وما يتبقى لهُ بعد ذلك من الزمن فكان يصرفهُ كلهُ في الدرس والتأليف. فألّف في الاربع السنين التي صرفها في هذا الدير اربعة كتب في الكهنوت وكتابًا آخر في العنة وبعض مقالات وكتابًا في الندامة. وقد كان متعزيًا هناك ومسرورًا لظنهِ ان الدنيا نسيتهُ كما قد كان نسيها. وانهُ يستمرّ هكذا خاملاً ولم يعلم انهُ من المحال ان تختفي الشمس زمانًا مديدًا. واذ كان على هذه الحال اراد الله تعالى ان ينشر فضائلهُ في هذا الدير بواسطة راهب فاضل ازيكيوس كان يعترف لهُ القديس المذكور. لان ازيكيوس رأى على حين كان يصلي رجلين وعلى كلّ منهما حلّةٌ بيضاء. فاقتربا من يوحنا وهو يصلي وامسكا يدهُ وقالا لهُ ان سيدنا يسوع المسيح ارسلنا اليك. ثم اتحفهُ احدهما بكتاب وقال لهُ خذ هذه الهدية المرسَلة اليك من الله. واعلم اني انا يوحنا البشير الذي استراح على صدر سيدنا يسوع المسيح وستفهم بواسطة هذا المؤلّف الكتاب المقدس وانا اساعدك. اما القديس الاخر فكان بطرس الرسول فاعطى ايضًا يوحنا مفاتيح وقال لهُ انا هو الذي اعترف ان السيد المسيح هو ابن الله الحي وقد اعطيتك هذه المفاتيح دليلاً على السلطان المعطى لك. ولما كان الرسولان يخاطبان يوحنا هكذا كان هو جاثيًا ووجههُ ملتصق بالارض. فاجابهما قائلاً انني لست باهل لذلك. فعانقهُ القديسان وغابا عن النظر. انتهى. وقد اظهر الله سبحانهُ في ذلك الحين عجائب كثيرة على يد القديس نقتصر هنا على واحدة منها. وهي انهُ تسلط على اهل تلك النواحي اسد ضارٍ فافترس من الناس كثيرًا فلما شعر القديس بذلك اقام هناك صليبًا فنظروا في الغد واذا بالاسد ميتٌ تحت الصليب •

اما هو فلما رأى الناس يزورونهُ في هذا الدير ويُكرمونهُ افتكر حينئذٍ في وسيلة ليختفي عنهم وينقطع الى عبادة الله في مكان قفرٍ من دون ان يعيقهُ احد عن التأمل في الله وحدهُ فغادر الدير ودخل البرية واقام هناك سنتين بلا فراش وسراج. وما برح يعيش بقليل من الخبز الى ان مرض فاضطر الى الرجوع الى انطاكية لمداواة مرضهِ. فرسمهُ القديس ملاتيوس اسقف انطاكية شماسًا فخدم الكنيسة في هذه الدرجة خمس سنين وبعد ذلك انفرد في البرية الا انهُ لم يَبقَ هناك طويلاً. لانهُ بعد موت القديس ملاتيوس جلس القديس فلابيانوس على الكرسي الانطاكي وهذا القديس رأى يومًا مَلَكًا فامرهُ بان يمضي الى الدير الذي فيهِ يوحنا ويأتي بهِ ويرسمهُ كاهنًا لانهُ مزمعٌ ان يكون كبولس الرسول اناءً مُصطفًى. فذهب فلابيانوس الى الدير ولما ابصر يوحنا قبّلهُ وقصّ عليهِ الرؤيا وطلب منهُ ان لا يضادّ ارادة الله. فقبل القديس الدعوة الالهية وعاد الى انطاكية وهناك ارتسم كاهنًا سنة ٣٨٦ للميلاد وفي حين ارتسامهِ وقعت على هامتهِ حمامة دلالةً على ان الروح القدس حالٌّ فيهِ. فابتدأ يعظ بفصاحة لم يُسمع بمثلها. ومن ثمّ كان الجميع يسمعون عظاتهِ فتأخذ بمجامع قلوبهم. فلقبوهُ بفم الذهب وفم الله وفم السيد المسيح. وقد باشر الوعظ في انطاكية اثنتي عشرة سنةً

وفي السنة السابعة والتسعين من القرن الرابع تُوفي نكتاريوس بطريرك القسطنطينية. ولأن فم الذهب كان في الشرق نظير الشمس التي بنورها تخفي انوار النجوم طرًّا انتخبهُ

الملك اركاديوس والاكليريكيون والشعب القسطنطيني بطريركًا بدل نكتاريوس. ثم كتب الملك رسائل الى الاسقف فلابيانوس بها يسأله ان يُلزم فم الذهب بقبول هذه الدرجة. على ان اجتهاد الاسقف كلهُ ذهب باطلاً. لانهُ رأى انهُ غير اهل لتلك المرتبة السامية فلم يرضَ بقبولها. واما اهل انطاكية فقد غضبوا من الملك لانهُ اراد ان يخرج من مدينتهم من كان مجدها وفخرها وابًا لهم ومعلمًا. فعزموا على ان يناصبوهُ في ذلك المقصد حتى الموت. فلما عرف الملك ذلك كتب الى استيريوس حاكم انطاكية واوصاهُ بان يُرسل يوحنا خارج المدينة على اي نوعٍ كان ويسلمهُ الى اناس مرسلين منهُ ليأتوا بهِ الى القسطنطينية وقد صار كذلك ولم يتنبَّه الى الحيلة القديس ولا اهل انطاكية. فلما قرب من المدينة العظمى خرج للقائهِ الاكليريكيون وقضاة الحكمة جميعًا واشراف الدولة وجمٌ غفير من الشعب وقابلوهُ بفرح عظيم. ثم ارتسم اسقفًا بطريركيًا في اليوم السادس والعشرين من شهر شباط في السنة الثامنة والتسعين بعد الثلثمائة. وعقب يوم من ارتسامهِ زارهُ الملك وطلب منهُ البركة فباركهُ ثم قال لهُ انني لما ارى النير الثقيل الذي وُضع عليَّ واتأمل ان هذه الدرجة السامية غير ملائمة لي نظرًا الى ضعفي وحقارتي وان الرتب العالية تقتضي استحقاقات عالية. كما ان الاحمال الثقيلة تستلزم اكتافًا قوية. تضطرب عند ذلك نفسي وترتعد جدًّا ولكن من حيث ان ملك العالمين ورب الارباب الذي لا تدرك احكامهُ قد شاء ان يقيمني راعيًا على هذه الرعية العظيمة. فمن ثم اطلب من سعادتك ايها الملك العظيم ان تسمع لصوتي صوت من اقامهُ الله راعيًا لك ولشعبك. على انهُ كما ان الضرورة تلزمني بان اورد لكم ارادة الله ينبغي لكم ان تصغوا لكلامهِ تعالى باحترام وطاعة. ولكون سيدنا يسوع المسيح قد اجلسني على هذا الكرسي. لذلك ابتدئ كرزي وتعليمي بقولي للجميع ما قالهُ يوحنا المعمدان للجميع توبوا. لاني في عظاتي لا اداري احدًا بل اتكلم بتامّ الحرية. وسأورد لكم كل ما تلزمني رتبتي بايرادهِ. فان قبلتم نصائحي فبلا شك تسرونني وتبهجون الروح القدس ايضًا وتجتنوا ثمرة الخلاص وان لم تقبلوا فسيمسكم انتم ضرر جسيم وسيكون حظي انا الحزن والبكاء على ضرركم

فابتهج الملك ايَّ ابتهاج من حرية كلام القديس. وفرح ايضًا الحاضرون وشكروا الله تعالى على انهُ ارسل لهم مثل هذا الراعي الصالح. وسر الله ايضًا بغيرة عبدهِ وللحال شرَّفها بالاعجوبة. لانهُ وجد حينئذٍ في الكنيسة رجل مجنون معذب من الشيطان فشفاهُ القديس باشارة الصليب واوصاهُ بان يحسن سلوكهُ ويواظب على تناول الاسرار المقدسة. وبعد ان تبوَّأ يوحنا المرتبة البطريركية شرع يباشر واجباتها بمزيد الاهتمام. كبستاني حكيم يقلع ويستأصل ما وجدهُ من النباتات والحشائش الردية المضرة. ليزرع بعد ذلك وينصب ما يخصب حقل الرب ويزينهُ فوعظ ضد خطية الزنا ونهى الاكليريكيين عن وضع نساء او بنات عندهم بحجة القرابة. ونهض بالتوبيخ على البخلاء واصحاب الحَلِف والذين يُبذِّرون اموالهم في الولائم والملاهي. وبعد ان استأصل بعظاتهِ الرذائل من المدينة اخذ يغرس في القلوب محبة الفضائل فكان يذكر لهم ما للصدقة من العوائد الصالحة والفوائد الجمة ويكشف لهم عن وجه العفاف الوضي ويبين ضرورة الاتضاع وقد كانت غيرتهُ كنار متقدة تضرم كل ما حولها. ولا بد ان نذكر هنا ما اوردهُ يومًا في هذا الصدد قال في عظةٍ لهُ القاها على جماعة المؤمنين. اني لاشتهي ان تعاينوا فرط محبتي لكم فاعلموا ان قلبي لا يهوى شيئًا كما يهواكم. فاني لأحبكم اكثر من عينيَّ. ولو كان لي ان اعطيكم بذهاب نظري نورًا لآثرت لاجلكم العمى. فلا يسمح الله تعالى ان يرتكب احدكم خطيةً. على انهُ اذا زلَّ اظهرت لهُ وفور محبتي بغزارة دموعي. وقد أيستُ من خلاصي على نوع ما وذلك من قبل هذه المحبة. لان كثرة الدموع التي اذرفها من اجلكم لا تدعني ابكي على نفسي. ولما اراكم سائرين في الفضيلة ونامين فيها يشغلني الفرح بذلك عن تأمل آثامي. وان فرحي ليتحوَّل الى حزنٍ حينما اراكم على خطية فواحسرتي انني اسأل الله بشوق ما عليهِ مزيد خلاصكم بعد ان اطلب خلاص نفسي. لاني احتسب ان خيري كلهُ قائم في خيركم فليتني استطيع ان افتح لكم صدري وتعاينوا ما داخلهُ فلعمر الله كنتم ترون صوركم وصور بنيكم مرسومةً على لوح القلب وقد تسعكم جميعكم هذه المحبة التي هي اوسع من السموات. انتهى كلام فم الذهب. انما ذكرنا هذا لنظهر كيف كان مستعرًا بلاعج الحب الالهي الذي صيَّر خطابهُ كنار تُلهب القلوب. ولكي يعرف رؤساء الكنيسة واجبات مراتبهم

ولفرط ما كانت محبة القديس يوحنا عجيبة لم تقف عند حدود مدينة القسطنطينية ولا عند تخوم ابرشيته. لكنها امتدت حتى الاقاليم الشاسعة فارسل وهدم هياكل الاصنام في فينيقية وبنى عوضًا عنها كنائس وبعث بقوم فضلاء فهدوا سكانها سواء السبيل وكذلك فعل في اقاليم كثيرة. واما اموال الكنيسة فوكّل كهنة امناء في توزيعها على المحتاجين. وقد كان يوصي الارامل الحدثات اما ان يتزوجن ثانيةً واما ان يعشنَ بالاحتشام لئلا يسقطنَ او يصرنَ بالاقل علة للسقوط. اما المؤمنون فكان يحثهم على الاكثار من تناول القربان المقدس. وكان لا يدعو احدًا للاكل على مائدته لكيلا يضطرهُ الحال الى ان يأكل في غير داره وكان يشرب الماء صرفًا. هذه طريقة معيشته واما عن طريقة عبادته فنقول انهُ كان يقدّس كل يوم وفي كل قداس يُريهِ الله سبحانهُ باية منظورة كيف ينزل روحه القدس الى القربان. ويمارس الصلاة والوعظ والمطالعة والتاليف والارشاد. ومن اعجب الامور ان انسانًا واحدًا ضعيف المزاج استطاع ان يصنف كل هذه الكتب الممتلئة علمًا وفصاحةً. ويدبر مع ذلك بحسن الاهتمام والحكمة ثمانيةً وعشرين اقليمًا كنائسيًّا مع انهُ كان يعظ أكثر الايام

ولا بد لنا ان نذكر هنا هذا الامر وهو ان فم الذهب كان كَلِفًا بقراءة رسائل بولس الرسول حتى كان يشقُّ عليهِ ان يتركها. وبناء على ذلك رغب في ان يضع لها تفسيرًا فأخّرهُ عن تلك البغية ما هنالك من المصاعب على انهُ توسّل الى صاحبها عليهِ السلام فكشف لهُ عن غوامضها. وعند ذلك شرع يفسرها. وفيما كان يوضحها بالكتابة اتفق ان واحدًا من الشرفاء سعى بهِ الى الملك فعزلهُ عن منصبهِ. فالتجأ حينئذٍ الى القديس وطلب منهُ برسالة ان يستمع دعواهُ. فرضي بذلك. ولكن بشرط ان يأتيهُ في الليل سرًّا. فاتى ذاك في ليلتين متواليتين في الساعة المعينة لهُ وكان القديس في ذلك الوقت يكتب تفسير رسائل القديس بولس. فدخل بروكلوس خادم القلاية ليخبر البطريرك بمجيء الرجل الشريف فرآهُ يسارُّ رجلاً مهيبًا من الوجوه. فخرج واخبر الرجل بما قد رآهُ ثم وعدهُ بانهُ في الليلة الثالثة لا يدع احدًا يدخل على القديس. فمضى ولما اتى ثالث مرة قال لهُ بروكلوس اني من اجلك قد اغلقت باب القلاية لئلا يعوقك احد عن مخاطبته فادخل الان واقضِ شغلك معهُ فليس عندهُ من احدٍ. ففتح لهُ الباب ليدخل واذا بذلك الرجل يسارُّهُ فتعجب بروكلوس وقال للرجل الشريف ارجع الى بيتك ولا تأتِ حتى ادعوك فخرج كئيبًا كاسف البال. لكنما الله تعالى الذي لا يهمل عبادهُ عند الشدائد نبّه القديس على امر الرجل المذكور. فسأل بروكلوس هل اتى اليهِ ذاك. فاجابهُ الخادم قائلاً انهُ اتى ثلث مرّات ولم يستطع ان يخاطبك لانني كنت أُعاين رجلاً جزيل الاعتبار يكلمك سرًّا في اذنك. وصورتهُ كانت كصورة ايقونة القديس بولس المعلقة في قلايتك. فعرف القديس بهذا احسان الله اليهِ وشكرهُ على ذلك ثم ارسل دعا الرجل الشريف. ولما عرف دعواهُ خاطب الملك في شانهِ وتشفع فيهِ. فعاد الى منصبهِ وكرامتهِ الاولى

وماذا نقول في غيرة القديس على مضادة الاراطقة. فمن ذلك انهُ لما رأى ان اظهار الحق لهم بقوة البرهان لا يفيدهم شيئًا لانهم يهربون من النور وان السلطان الكنائسي لا يكفي لقطع هذا الشر. التجأ حينئذٍ الى السلطان العالمي. لانهُ في عيد الظهور الالهي لما اتى الملك الكنيسة بالاحتفال استقبلهُ القديس في باب الكنيسة وقال لهُ ما معناهُ: ان اراد احد ايها الملك ان ينتزع عن اكليلك هذا حجارة كريمة ليضع بدلاً منها حجارة دنية وقطع زجاج مهشمة فهل كانت سعادتك ترتضي بذلك. فاجاب الملك كلا. فقال لهُ البطريرك فكيف اذن ندع الاراطقة يختلطون بالكاثوليكيين والجواهر الحقيقية بالجواهر الخيالية في هذه المدينة والكنيسة التي هي كاكليل كريم لسيدنا يسوع المسيح فمر اذن اما ان يخرج الاراطقة من المدينة واما ان يرتدّوا عن ارطقتهم. ففعل الملك ذلك لانهُ اخرجهم من المدينة وحصّنهم عن اموالهم واحلّها لنفسهِ. ثم ان القديس اظهر شجاعتهُ في محاربتهِ الاراطقة في محل آخر. فانهُ لما عرف ان غاينا جنديًّا اريوسيًّا كان بانتصاراتهِ صار قائدًا للجيش. قد تجاسر على ان يطلب من الملك كنيسة من كنائس القسطنطينية ليصلي هو فيها مع حزبهِ الاريوسيين وكان الملك قد رضي بذلك. فمضى حالاً القديس الى بلاط الملك وطلب منهُ ان يُحضر لديهِ غاينا. فلما حضر نهض البطريرك وفتح فمهُ العسجديَّ وقال لهُ اعلم ياغاينا ان لا سلطان للملك ان يتصرّف بالكنائس ولا بما للكنائس ما لم يخرج عن كونهِ ملكًا كاثوليكيًّا ورعًا. فان هذا الامر لا يختص الاَّ بي فينبغي لك ان تلتجئ اليَّ في هذا الشان دون

غيري فان اردت كنيسة لكي تصلي فيها فها هوذا كل كنائس المدينة مفتوحة لابناء الكنيسة. ولكنك تطلب ان تُخصّ بك وبجماعتك الاريوسيين واحدة منهنّ وعندك ان هذا قليل بالنسبة الى التعب الذي احتملتهُ والدم الذي سفكتهُ في خدمة الملك. اما انا فاقول لك انك ان كنت خدمت الملك في اشياء جليلة فقد جازاك عنها خير الجزاء فانت من الرعاع والملك قد رفعك الى منصب عالٍ. فاعلم ان طلبك يُغيظ الله تعالى ولا يجوز للملك ان يفعلهُ وان رضي فانهُ يجلب عليهِ غضب الله سبحانهُ ونقمه. فوجم غاينا ولسان الحال يقول ان لسان ذلك البطريرك الغيور كان احدَّ من سيفٍ غدوم الانتصار

فسخط غاينا على الملك والبطريرك فارسل من الجنود ليلاً مرتين ليحرقوا بلاط الملك الّا ان الجنود لما مضوا وعاينوا ملئكة يحرسون البلاط عادوا واخبروا القائد بما كان. واذ تحقق هو نفسهُ الامر وذلك بنظرهِ الحسي خرج من المدينة وفتك باقليم تراسيا. واذ لم يجسر احد ان يمضي اليهِ ليخاطبهُ ويمنعهُ عن هذه الشرور تقدم البطريرك المشار اليهِ لاتمام هذا الامر ومضى اليهِ. فلما اخبروا غاينا بقدومهِ حار عقلهُ في هذه الشجاعة المقدسة. فخرج للقائهِ وجثا امامهُ وقبض على يدهِ ووضعها على رأسهِ وامر اولادهُ ان يفعلوا مثلهُ ففعلوا. قلتُ وهكذا كان الله عزَّ وجل ينصرهُ في حروبهِ مع الاراطقة

ويُروى في هذا الشان ان رجلاً كان قد رجع عن ارطقة مكدونيوس بارشاد القديس ولكون امرأتهِ لم ترجع معهُ عن الارطقة توعَّدها بانهُ يباينها و يتغرب. فوعدتهُ وقتئذٍ بانها تصير كاثوليكية ايضًا وانما كان ذلك منها رياءً. فاتفقت مع جاريتها واخذت قربانة الاراطقة. ثم ذهبت بزوجها الى كنيسة الكاثوليكيين لتتناول القربان المقدس وتظهر بهذا انها كاثوليكية. وبعد ان تناولت الجوهرة حنت رأسها كانها تريد ان تصلي بتقوى. وحينئذٍ اخرجتها من فها ودفعتها للجارية ثم تناولت قربانة الاراطقة وعلى الفور تحولت القربانة في فها حجرًا فارتعدت المرأة من الاعجوبة واخبرت بها القديس يوحنا وقبلت الايمان الكاثوليكي. فبهذه الافعال وما ضاهاها شاع خبر فضائل يوحنا حتى انتهى الى اقصى اقاليم المملكة. بيدَ ان الحسد عدو الفضيلة المميت اضرم البغضاء في قلوب كثيرين فكثر وقتئذٍ اعداء القديس للاسباب التي نذكرها.

لانهُ اولاً اذ رأى هذا القديس ان كثيرين من الاغنياء والولاة والقضاة يظلمون الشعب. وان افدوكسيا الملكة صارت لهم قدوةً في ذلك اخذ يذم البخل بمواعظهِ ويشنع باهلهِ وهو كأنما يتلهَّب غيظًا. ومع انهُ لم يذكر اسم احد في عظاتهِ احتسب اولئك قولهُ توبيخًا لهم وافتراء عليهم فاشمأزُّوا منهُ وحنقوا عليهِ ثم ان انترويبوس خازن المملكة اشار على الملك بان ينسخ القانون الذي كان موضوعًا لشرف الكنيسة. وهو ان كل مذنب يلج الكنيسة ملتجئًا اليها ليس لاحد ان يسوءهُ ولا ان يقبض عليهِ ما بقي فيها. فابطل الملك هذا القانون حسب طلب انترويبوس الا انهُ بعد قليل من المناداة بالغائهِ انتقم الله من انترويبوس بان سقط من عين الملك لذنب اقترفهُ فاراد ان يقبض عليهِ فهرب ودخل الكنيسة ملتجئًا فيها راجيًا من القديس ان يحميهُ. فرام الشعب ان يخرجوهُ ويقطعوهُ اربًا اربًا لانهم كانوا يكرهونهُ لما كان عليهِ سابقًا من الكبرياء والعجرفة اما القديس فخاطب الشعب وبيَّن لهم في سقوط انترويبوس هذا اباطيل العالم ببلاغة فهدأ غضب الشعب فلم يسلمهُ اليهم حتى اقسم الملك بانهُ لا يقتلهُ ولا يسلمهُ الى غاينا الطالب قتلهُ. وقد حدث امر آخر صار سببًا لان تبغض الناس القديس. وهو ان والي الاسكندرية رجلاً شريفًا يقال لهُ بولاسيوس ظلم كاليتروبيا امرأة ارملة واختلس منها خمسمائة دينار. فلما انعزل عن منصبهِ اتت الامرأة الى القسطنطينية لتشكوهُ الى المحكمة. غير ان الحكام لم يسمعوا دعواها. فالتجأت الى الملكة فلبَّت دعوتها والزمت بولاسيوس بردّ الدراهم فردَّ المبلغ حالاً ودفعهُ الملكة اما هي فاعطت منهُ للارملة ستة وثلاثين دينارًا فقط واختلست ما بقي فوقتئذٍ كاليتروبيا استغاثت بهِ واوضحت لهُ دعواها. فلما حضر بولاسيوس الكنيسة قبض عليهِ القديس وطالبهُ بدراهم الارملة. فارسلت الملكة وكفلتهُ وطلبت اليهِ ان يطلقهُ. فلم يرضَ بذلك قبل ان يدفع بولاسيوس الدراهم كلها للارملة. فاحتدمت افدوكسيا غضبًا وارسلت جنودًا ليخرجوا بولاسيوس من الكنيسة قسرًا. فذهب الجنود الى ان انتهوا الى باب الكنيسة فرأوا ملاكًا مرهبًا حاملاً بيدهِ حربة فعادوا راجعين الى الملكة واخبروها بما رأوا وحينئذٍ دفعت للارملة كل مالها

واتفق ايضًا ان افدوكسيا الملكة اختلست ظلمًا من

ارملة اخرى حتلاً بحجة باطلة . فانت الارملة اليهِ طالبة منهُ ان يرحمها ويخلص لها حقلها من يد الملكة . فكتب الى افدوكسيا في هذا الشان فلم تجبهُ بكلمة . ثم ارسل اليها اناساً خاطبوها في هذه القضية فزادت قساوةً . اما هو فاذ كان لا يصدهُ خوف عما كان ملتزماً بهِ . فلما عرف بوم عيد الصليب ان الملكة آتية الى الكنيسة لتحضر القداس وقف على الباب الى ان وصلت فمنعها من الدخول . فسل وقتئذٍ احد قوّاد الجنود سيفهُ لينهج الطريق للملكة اغتصاباً فحالاً يبست يدهُ . اما الملكة الملتهب قلبها بنار البغضاء فارتعدت مرتاعة عند مشاهدتها الاعجوبة . وقد ازدادت تحيراً لما رأت اعجوبة اخرى وهي ان الجندي الذي يبست يدهُ تقدَّم الى القديس معترفاً بخطيئتهِ ومستغفراً منهُ فنضح يدهُ بماء مقدس فبرئت

فمن اجل هذه الاسباب وكثير غيرها مما لا نذكرهُ حذراً من اطالة الكلام كانت افدوكسيا تربي في قلبها بغضاء القديس يوحنا . وهكذا كان يبغضهُ تاوفيلوس بطريرك الاسكندرية الرجل المتكبر . وذلك من حيث ان الرهبان القديسين الذين في نيتريا المدعوين الاخوة المعظمين كانوا اشتكوا عليهِ الى القديس . وكذلك كان يبغضهُ قوم من اكليريكي القسطنطينية الذين كانوا يستصعبون السير الحسن بدعوتهم المقدسة كما كان يُلح عليهم فم الذهب . ومثلهم في بغضائهِ كان بعض اساقفة . ومن ثم اتفقوا جميعاً بسهولة جزيلة على اضطهادهِ لاسيما حينما رأوا الملكة تبغضهُ ايضاً . فلما رأى تاوفيلوس الوقت ملائماً لقضاء غرضهِ الخبيث انتهز الفرصة فرشا عظماء بلاط الملك واتخذ اذناً وعقد مجمعاً التأم فيهِ ستة وثلثون اسقفاً من ذوي الغرض وكان اجتماعهم بسنديان قرية بجوار خلكيدونية . وكان كيرينوس اسقفها عدواً لفم الذهب . وهناك اوردوا عليهِ شكايات باطلة واتهموهُ تهماً كاذبة فحكموا عليهِ ظلماً بمقتضى الشريعة الكنائسية وعزلوهُ عن كرسيهِ . فأُخرج ليلاً خوفاً من الشعب . غير انهُ حالما ركب السفينة ليمضي الى المنفى حدث في القسطنطينية زلزلة عظيمة وحصل الملك والملكة على خطر عظيم من قبلها وكان الشعب يصرخ قائلاً ان الله قد اظهر غضبهُ على الذين عزلوا القديس من كرسيهِ ونفوهُ فكاد الشعب يقتل تاوفيلوس بطريرك الاسكندرية . فخافت الملكة وقد نظرت علامات غضب الله عليها . وخشي الملك ايضاً من هيجان الشعب . فكتب وقتئذٍ اليهِ يستغفرهُ ويطلب منهُ ان يعود الى القسطنطينية سريعاً وكتبت اليهِ ايضاً الملكة ما نصهُ : ايها الراعي الجليل اعتقد باني لم اشعر بما صار ضدك فاني لبرية من دمك والذين تعصبوا عليك هم اناس اشرار اردياء والرب شاهد على الدموع التي اذرفها ذبيحة لعزتهِ وانا ذاكرة ان اولادي اعتمدوا بيدك . فرجع القديس الى المدينة بعد خروجهِ منها بيوم واحد . وقد استقبلهُ الشعب كملاك السماء بفرح وتهليل عظيم وشرع يباشر واجبات منصبهِ كعادتهِ اي انهُ كان عائشاً كقديس ومنذراً كرسول وساهراً على رعيتهِ كراعٍ صالح جزيل الاهتمام

ولكن بعد شهرين من رجوعهِ هاجت عليهِ ريح الاضطهاد ثانيةً . وكان ذلك لان تمثال الملكة افدوكسيا كان منصوباً بازاء باب كنيسة اجيا صوفيا وامامهُ كان يجتمع الشعب ويلعب ملاعب تضاد الاحتشام نظير ملاعب الوثنيين القديمة (وقد ابطلها تاودوسيوس الصغير بعد اثنين وعشرين عاماً من ذلك العهد) فنهى فم الذهب عنها الناس بمواعظهِ ثم حرَّمها فاوغر ذلك صدر افدوكسيا فاخرجها عليهِ وبواسطة تاوفيلوس البطريرك واحزابهِ حُكم عليهِ ظلماً ثانيةً بالنفي ومن جملة الذين حزنوا جداً على ذلك تلميذتهُ القديسة اوليمبيا التي اقامت مع زوجها سنة وثمانية اشهر حافظة العفة ثم ترملت ولما اراد الملك ان يزوجها باحد اقربائهِ لم ترضَ بذلك واستمرت بتولاً . وقد نُفيت فيما بعد لاجل دعوى القديس . فعزَّاها وثبتها في العبادة . اما الشعب القسطنطيني فاجتمعوا متعصبين حول قلاية البطريرك لكي يحموهُ ولكن أُرسل الى الكنيسة قائد ما اسمهُ لوسيوس كان لهُ صيت رجل وثني فدخل الكنيسة بخمسمائة جندي والقوا اضطراباً وشغباً ولما عاين ذلك الراعي الصالح خاف من ان يتضرَّر الشعب ببقائهِ في المدينة فخرج بالخفاء وسلَّم نفسهُ الى الجنود وركب السفينة . فنفوهُ الى كوكوزا مدينة باقصى بلاد ارمينية حيث كان البرابرة يسكنون

لكنما الله تعالى انتقم من القضاة الذين حكموا ظلماً وجوراً على ذلك البار . لانهُ تحت الكرسي الذي كان يجلس عليهِ في محل الوعظ خرجت نار في الكنيسة ومن الكنيسة خرج اللهيب ولم يمس المنازل القريبة فاطارتهُ الريح حتى وصل الى المحكمة مع انها بعيدة جداً فاحترقت بهِ . اما فم الذهب فكان

يشكر الله تعالى في سفرهِ من حيث انهُ اهّلهُ لان يُضطهد من اجل العدل . ومع ان الجنود كانوا قساةً عليهِ كان لا يتشكى منهم مشمئزًا . واهتمامهُ بالكنائس وخلاص النفوس كان متصلاً كما يتضح في رسالتهِ الى كونستنسيوس قسيسهِ التي فيها يقول لهُ اني اكاتبك الان لكي احثك على اتمام ما نصحت لك بهِ . وان رأيت بحر هذا الاضطهاد قد هاج وتعالت امواجهُ الى السحاب والسماء فلا تهمل شيئًا واحدًا مما انت ملتزم بهِ . اهدم نفاق الوثنيين . شيّد كنائس واهتم بخلاص النفوس فان رئيس المركب لا يترك الدفة لاجل مصادمة الامواج . ولا الطبيب يهمل المريض لاجل خطر مرضهِ . فلا تضطرب اذن من الشرور الآتية لان الله سبحانهُ لا يحاسبنا على ما يمسنا من الشرّ بل انهُ عزّ وجل يجازينا من اجلهِ اذا احتملناهُ بصبر واذا ما تغاضينا عن خدمتهِ تعالى واهملنا ما يتعلق بعبادتهِ وخدمة كنيستهِ . فلا يمكننا ان نعتذر لديهِ بنحس الزمن او بشدة الاضطهاد لان بولس الرسول موثقًا ويونان في بطن الحوت والثلثة الفتية في اتون بابل كانوا يقومون بما يجب عليهم . فاقتدينّ بهم مهتمًا بخير الكنائس واكتب لي كم بيعة بنيت في هذه السنة ومن هم الذين مضوا الى بلاد فينيقية ليخدموا هذا الكرم الجديد وماذا يرجّون هناك من الخير . هذا ما كتبهُ فم الذهب وهو ماضٍ الى المنفى وانما ذكرنا ذلك لتبدو طاهرًا نية هذه النفس النقية وكم كانت مضطرمة بنار محبة الله التي صيرتهُ يتغافل عن ذاتهِ واتعابهِ ليهتم بما لله ولنفسهِ . غير انهُ في رسالة بعث بها الى احد اصدقائهِ يقول عما قاساهُ من التعب في هذا السفر الطويل ما نصهُ . اما من جهتي فقد قاسينا انواعًا كثيرة من الموت والذين سعوا في مساعدتنا هم شاهدوا ذلك ويخبرونك عنهُ . فلم يدعني الجنود حراسي اخاطبهم مع اني كنت متضايقًا جدًّا من الحمى . بل انهم اضطروني الى المسير على حين اشتداد الحمى . في النهار الزموني بالسفر في وقت الحر الشديد . وفي الليل لم يسمحوا لي بان ارقد ولا استريح . ومن جهة الاشياء الضرورية لقيام حياتي فكنت على ضيقة عظيمة . ولما وصلنا الى قيسارية احتسبت انهم صنعوا لي وليمة لذيذة بتقدمتهم لي قليلاً من ماء نقي وخبز غير عفنٍ ولا منتن . انتهى

ولما وصل الى مدينة كوكوزا قابلهُ اسقفها الرجل القديس المدعو فيلادلفي لان الله كان قد اوحى اليهِ بان يقابل البطريرك بما يمكن من الاكرام . واما افدوكسيا الملكة فقد كانت نفت القديس الى هناك لان اكثر سكان تلك البلاد كانوا من الوثنيين البرابرة وحولهم اعراب لا يأتلفون بالناس . فظنت الملكة انهم يقتلون يوحنا لكنهم أنسوا بهِ لما رأوا من فضائلهِ واطف تعليمهِ . ولكثرة الذين تنصّروا اضطُر الى ان يرسم هناك سبعة اساقفة ويُعين اكليريكيين كثيرين ليدبروا الرعية الجديدة . اما اعداء القديس فلم يكتفوا بما انزلوا بهِ من الويل فنقلوهُ من كوكوزا الى بيسيوندا مدينة باقصى تخوم المملكة وراء البحر الاسود . وقد ضايق الجنود القديس في هذا السفر اكثر مما ضايقوهُ في الاول . ومن فرط ما تعب اعترتهُ حمّى شديدة ووجع أليم في صدرهِ . ومع ذلك لم يدعهُ الجنود يستريح . الا انهم لما رأوهُ قد وهت قوتهُ نزلوا في كنيسة كان دفن داخلها القديس باسيليسكوس الاسقف الشهيد . وهذا قد ظهر للقديس يوحنا وقال لهُ تشدّد متقوّيًا يا اخي يوحنا وافرح لاننا غدًا نكون في مكان واحد . وكان قبل ذلك بيوم واحد قد ظهر للواهف خادم الكنيسة وقال لهُ اعدّ كل شيء جيّدًا لاخي يوحنا . فطلب القديس يوحنا من الجنود في غد ذلك اليوم ان يلبثوا معهُ هناك الى الظهيرة فلم يرتضوا فالزموهُ بالسفر . ولكنهم بعد ما ساروا مسافة نحو ساعة ونصف ورأوا البطريرك قد اشرف على الموت رجعوا بهِ الى الكنيسة المذكورة . فلما دخلها لبس ثوبًا ابيض وتناول القربان المقدس ثم تلا صلاتهُ الاخيرة وختمها بما كان ينطق بهِ غالبًا ونصهُ ليكن الله مباركًا في كل شيء امين . قال هذا وسُدَّ ذلك الفم الذهبي وسلّم روحهُ بيد الله تعالى وكان ذلك في اليوم الرابع عشر من شهر ايلول في السنة السابعة من الجيل الخامس

ثم بعد موتهِ امطر الله على مدينة القسطنطينية حجارة كادت تهدمها . وبعد اربعة ايام من ذلك توفيت افدوكسيا القبيحة الخصال . ولما عرف القديس اينوشنسيوس الاول ما فعل اركاديوس الملك وافدوكسيا الملكة بفم الذهب وانهُ قد توفّي حرمها قال : ان دم اخي يوحنا يصرخ الى الله عليك ايها الملك كما كان دم هابيل يصرخ ضد قايين . فانت هو الذي قتلهُ وفي زمن الصلح اضطهد ونزّل الكنيسة واسقط علامة الدنيا عن كرسيهِ . وبشخصهِ اضطهدت سيدنا يسوع المسيح . فاني وان احتسبت موتهُ خسارة عظيمة . الا ان هذا

الموت الذي اوصلهُ الى الرسل الابرار لا يحزنني بمقدار ما احزن على الضرر الواصل منهُ الى نفوسكم والى الذين كانوا يغتذون بتعليمهِ الالهي. لان مدينة القسطنطينية عدمت فمًا كلامهُ احلى من العسل. ما لي اقول هذا وقد أيتمت وفاتهُ الارض كلها. ولهذا انا ولئن كنت خاطئًا واحقر الجميع فبما أعطيتهُ من السلطان للخلافة البطرسية افرزك وافرز افدوكسيا امرأتك وافصلكما من الاشتراك في اسرار سيدنا يسوع المسيح المقدسة. واحطُّ عن درجة الاسقفية او الاكليريكية كل من يتجرأ ان يناولكما اياها. فهذا ما كتبهُ الحبر الاعظم الى الملك اركاديوس فتاب واستغفر عما جناهُ

فغب احدى وثلاثين سنةً من وفاتهِ عليهِ السلام ارسل الملك تاودوسيوس الصغير بن اركاديوس اناسًا لينقلوا جسدهُ الى القسطنطينية. ولما رجعوا الى خلكيدونية خرج الشعب القسطنطيني مع الملك وعظماء المملكة للقائهِ. واتوا بشرف وابتهاج عظيم الى كنيسة الرسل. وحينئذٍ خرَّ الملك امامهُ باتضاع وطلب منهُ الغفران من اجل نفوس والديهِ. فهذا ما حدث في اليوم السابع والعشرين من شهر كانون الثاني ثم نقلوا جسدهُ الطاهر الى رومية ووضعوهُ في كنيسة القديس بطرس الرسول عليها افضل الصلاة واذكى التحية. اما ترجمة القديس فقد كتبها البُلاَّندسنيون في اليوم الرابع عشر من شهر ايلول الذي هو يوم موتهِ

اليوم الثامن والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس كيرلُّس البطريرك الاسكندري

قبل الشروع في تفاصيل ترجمتهِ نقول انهُ هو احد كواكب الشرق الاوفر لمعًا ومعلمي الكنيسة الاسمى علمًا وطهارة فقد لقَّبهُ المجمع الخلكيدوني المقدس بعاضد الايمان المستقيم. ولقبتهُ الكنيسة في تراجم القديسين بعضد الوهية سيدنا يسوع المسيح والامومة الالهية للعذراء المجيدة بازاء اشهر الاراطقة وامكرهم. فاعلم انهُ وُلد في الاسكندرية في اواخر الدهر الرابع من الشرفاء وقد سلك منذ صباهُ طريق العبادة. وبما انهُ كان ذا عقل حاذق وفكر ثاقب تمهَّر من الصغر في ادقّ العلوم واسماها. ولا سيما المختص منها بامور الدين. فاضحى فيها معلمًا منذ حداثتهِ. ومذ عرف ان الدنيا متاع الغرور رغب عنها ومالت بهِ عواطف الورع الى عبادة الله واكتساب الفضيلة. فانضمَّ الى الاكليريكيين فتلألأ بسني المحامد وكان لوفرة علمهِ كالسراج الوهَّاج. ولما مات عمهُ تاوفيلوس بطريرك الاسكندرية انتخبهُ الاكليريكيون والشعب بصوت واحد. فجلس على كرسي القديس مرقس الانجيلي في السنة الثانية عشرة من الجيل الخامس

وكان في المدينة حينئذٍ كثيرٌ من الاراطقة واليهود على عزَّةٍ وشوكةٍ. فاولئك الاراطقة النوفاسيون تقوَّوا بالتظاهر بعبادة ذات مشاقّ وهولاء اليهود جعلت لهم الرشوة مكانةً عند الولاة والقضاة. فناصب النوفاسيين الذين كانوا يأبون ان يحلوا الخطأة من خطاياهم وبيَّن شناعة هذه الارطقة التي تجعل الله جلت رأفتهُ عديم الرحمة وبعد ان ابان عظم شر تعليمهم واثبتهُ الزمهم اما بان يرعَووا ويرجعوا عن ضلالهم واما بان يخرجوا من المدينة. فلما لم ينكفئوا تائبين أُخذت منهم كل كنائسهم وهرب اسقفهم تاوبمتوس فنجت من هذا الوباء الابرشية كلها لا الاسكندرية فقط. واما اليهود فمع انهم افرغوا كنانة جهدهم حتى يفسدوا عقول الحكام والقضاة بالهدايا انتصر عليهم القديس بغيرتهِ فاخرجوا جميعهم من المدينة وهُدِمت كل مجامعهم. وكان ذلك في اوائل انتصابهِ على الكرسي البطريركي

ثم من بعد انتصارهِ هذا على اعداء الكنيسة المنظورين انتصر ايضًا على اعدائها غير المنظورين اي الابالسة بحيث انهُ لما عرف ان الشياطين كثيرًا ما يحبسون مانورتا قريةً بجوار الاسكندرية وذلك منذ يوم هدم المسيحيون هيكلاً وثنيًّا. تضرع الى الله تعالى وطلب منهُ ان يعلمهُ ما الذي ينبغي لهُ ان يفعل لكي تنجو هذه القرية من هذا السجس الجهنمي. فتراءى لهُ مَلَك الرب وامرهُ بان يضع في ذلك المكان ذخائر القديسَين مرقس البشير وكوروس فلا يتجرأ الشياطين ان يُقلقوا القرية ففعل فكان ما قالهُ الملك

واخبث عدوٍّ ظفر بهِ البطريرك كيرلس هو نسطور المنافق فكان داهيةً شريرًا يتظاهر بلباس التقوى وقد وُلد في جرمانيكية المعروفة الان بمرعش وترهَّب في دير القديس اوبروبيوس. وقد كان المعيًّا فصيحًا فمن اجل هذه المناقب الشريفة وحسن المسموع عنهُ رسمهُ البطريرك الانطاكي كاهنًا ثم في السنة الثامنة والعشرين بعد الاربعمائة انتخبهُ تاودوسيوس الصغير بطريركًا على الكرسي القسطنطيني بعد ان استأثرت

رحمة المولى بسينيوس وقد اجتذب قلوب الشعب والاكليريكيين بما اظهرهُ من الاكرام للقديس يوحنا فم الذهب والغيرة في محاربة الاراطقة. واذ كان يومًا يعظ خاطب الملك قال: استأصل ايها الملك معي الاراطقة وانا استأصل معك جنود الفرس واملكك فوق ذلك جنة الخلد. فما لبث ان اظهر ما كان قد اضمرهُ في قلبهِ من شر الارطقة بحيث خاطب الشعب قائلاً. اني اعترف موقنًا ان كلمة الله هو قبل كل الدهور الا اني انكر على القائل بان مريم والدة الله فذلك عين البطلان لانها كانت امرأة والحال انهُ من المستحيل ان يولد الله من امرأة. ولا انكر انها ام السيد المسيح الا ان الامومة من حيث الناسوت. فنعوذ بالله من هذا الكلام فانهُ انكار للتجسد الذي اثبتهُ الوحي واعتقدت بهِ الكنيسة الكاثوليكية قائلة ان الله صار انسانًا وان الطبيعة الالهية اتحدت مع الطبيعة الانسانية في مستودَع العذراء المجيدة. وانهُ مع استمرار الطبيعتين متميزتين غير مختلطتين لا يوجد في سيدنا يسوع المسيح الا اقنوم واحد. وذلك الاقنوم الذي هو اله وانسان هو ابن طبيعي لمريم الكلية الطوبى. فانها هي والدة الله حقًّا. وينبغي ان تدعى بذلك. فبعد ان نطق نسطور بالتجديف المذكور صعد صديقهُ انسطاس الذي كان كاهنًا انطاكيًا وصرخ صوتًا جهنميًا قائلاً. من يقل ان مريم والدة الله فليكن محرومًا. فلما رأى نسطور ان الحاضرين لا يطيقون استماع هذا الكلام اخذ يؤيد قول انسطاس. وحينئذٍ خرج الشعب كلهم من الكنيسة وعندهم ان البطريرك رجل ارطوقي محروم

واما الملك فكان يحامي عنهُ لظنهِ انهُ رجل فاضل عالم. وكذلك بعض اساقفة من ذوي الجهل والتعصب. فلما شعر بذلك القديس كيرلس ورأى ان هذه الارطقة قد دبّت كالاكلة وان كثيرًا من الكهنة والرهبان أُصيبوا بهذا الوباء الذي فشا حتى وصل الى الذين ببادية مصر كتب اليهم ما مضمونهُ: اني لا اتعجب ممن يشك في حقيقة هذا القول وهو وجوب تلقيب مريم العذراء بوالدة الله. لانهُ ان كان سيدنا يسوع المسيح الهًا حقًّا فكيف اذًا لا تكون والدتهُ امًّا لله. فهذا هو ايمان الرسل والكنيسة كلها. ثم ان القديس كتب ايضًا الى نسطور باحتشام وملاطفة مبيّنًا لهُ بأدلة ساطعة فساد ما ذهب اليهِ من هذا الوجه فكأن ذلك كان اغراء لان نسطور زاد شرًّا واصرّ على رأيهِ وكتب جوابًا الى القديس بتكبرٍ ووقاحة محتقرًا اياهُ ومزدريًا رأيهُ. غير ان الشعب القسطنطيني تعزّى جدًّا بتلاوتهِ رسالة القديس كيرلس الى رهبان بادية مصر. وبواسطتها تمكن في الايمان المستقيم. فلما رأى البطريرك الاسكندري ان الشر يزداد وان هذه الارطقة ما برحت تمتد ولا سيما بين الرهبان الاغبياء والاكليريكيين القبيحي السيرة كتب الى البابا سلاستينوس رسالة يقول فيها. اني كنت قد عزمت ان اقاطع بحيث لا تبقى بيننا علاقةٌ مع نسطور الا اني لما تأملت انهُ اذا سقط احد الاخوة يجب ان نمد اليهِ يدًا لينهض كتبت اليهِ ونصحت لهُ كما ينصح الاخ اخاهُ بمحبة. غير انهُ لم يرتدّ عن ضلالهِ وما فتئ مصرًّا على العناد وازدراء الجميع. ظانًا بنفسهِ انهُ هو الذي يفهم الكتب المقدسة دون غيرهِ ويعلم سر التجسد الالهي. فالضرورة اذًا تدعو الى قطع هذا الطاعون سريعًا لكيلا يزيد وقد اخبرت قدسكم بهذا كما تأمرني بهِ عادة الكنائس. على ان هذا الامر يتعلق بمجد سيدنا يسوع المسيح والسكوت عنهُ هو خطيئة عظيمة. انتهى

وقد كان الشعب القسطنطيني يزدادون اشمئزازًا من هذه الجهة ويقولون انهُ لنا مَلِك لا بطريرك. فلما رأى نسطور هذا كتب الى البابا موردًا لهُ رأيهُ بكلام ملتبس ومظهرًا مع ذلك طاعتهُ للكرسي الرسولي. لكنما الحبر الاعظم لم يخدع ولا انغشّ. ولما عرف من القديس كيرلس برسالة ثانية انفذها اليهِ ان الشر يزداد عقد مجمعًا في رومية وفحصت الاباء عن هذه القضية فحصًا مدققًا بعد ان قرئت رسائل القديس كيرلس ونسطور. ثم حكموا بان راي نسطور هو خطأ وفيهِ ما فيهِ من التجديف. مع ذلك كتب اليهِ البابا بمحبة ابوية الا انهُ في آخر رسالتهِ يقول لهُ ان لم ترفض واضحًا وبنيةٍ مستقيمة هذا التعليم المضلّ ولا تعتقد بسيدنا يسوع المسيح كل ما تعتقدهُ الكنيسة الكاثوليكية. فانا افصلك من جماعة الرعاة ومن رعية المؤمنين ايضًا. فلما وصل هذا الحكم الى القديس كيرلس جمع حالاً في الاسكندرية اساقفة ابرشيتهِ وتلا عليهم الرسالة البابوية فسمع الجميع لصوت خليفة القديس بطرس وارسلوا اناسًا يخبرون بهِ نسطور. وكتبوا اليهِ ما نصهُ: اننا نقر ونعتقد بموت ابن الله الوحيد وقيامتهِ من الموت وصعودهِ الى السماء ونقدّم لله في الكنيسة تقدمة غير دموية ونستعمل التبريكات السرّية. وهكذا نتقدس باشتراكنا في جسد سيدنا

يسوع المسيح ودمهِ الاقدسين. فحاشا لنا ان نتناول هذا الجسد كجسد اعتيادي او كجسد انسان ما مقدس مشترك في الكلمة بتساوي الشرف فقط. او كجسد انسان مكتسب سكنى ما الهية بل اننا نتناولهُ كجسد مختص بالكلمة حقًّا اي جسدهُ المحيي حقًّا. ثم ان القديس كيرلُّس زاد على هذهِ الرسالة اثني عشر حرمًا على اثنتي عشرة قاعدة وختمها بحرم لمن لا يقبلها. مثلاً يقول هكذا في الحرم الاول من لا يعترف ان عمانوئيل هو الاله الحق وان القديسة مريم العذراء هي بالنتيجة والدة الله لانها ولدت كلمة الله نظرًا الى جسدهِ فليكن محرومًا. فهذه الحرومات مع حكم المجمع ورسالة البابا سُلمت الى نسطور على يد بعض اساقفة مرسَلين من المجمع الاسكندري وطلبوا منهُ باحترام ومحبة ان لا يعتمد على رأيهِ معاندًا والّا يرفض اعتقاد الكنيسة الجامعة. فلم يؤثر ذلك في من كانت الكبرياء قد اعمت بصيرتهُ وقسَّت قلبهُ. ولما كانت لهُ مكانة سعى بكيرلُّس الى الملك وجعلهُ ارطوقيًّا ابولّيناريًّا. ولم تزل الامور مستمرةً على حال السجس الى ان اطّلع تاودوسيوس الملك على تصانيف القديس كيرلُّس ورأى الاضطراب يزداد لان يوحنا بطريرك انطاكية كان يكافح لتعليم نسطور. فرضي حينئذٍ بامر البابا اي بانهُ ينعقد مجمع مسكوني في مدينة افسس. وقد كان القديس كيرلُّس متقدمًا فيهِ بالنيابة عن البابا. وهذا المجمع الذي اجتمع فيهِ مئتا اسقف هو احد الاربعة المجامع التي كان القديس غريغوريوس الكبير يعتبرها اعتبار الاربعة الاناجيل المقدسة. وكان انعقادهُ في السنة الحادية والثلثين بعد الاربع مئة فحكم هذا المجمع المقدس برأيٍ واحد على نُسطور وتعليمهِ المضل وهذه صورة الحكم وصورة رسالة المجمع الى نسطور. السينودوس المقدس الملتئم في كنيسة افسس الى نسطور يهوذا الجديد اعلم انك لاجل عظاتك النفاقية ومخالفتك للقوانين قد سقطت عن كل رتبة كنائسية بحسب الرسوم البيعية. كُتب في اليوم الثاني والعشرين من شهر حزيران. ثم ان هذا المجمع المقدس في تحديدهِ اعلن بحسب تعليم القديس كيرلُّس والتعليم المحفوظ على الدوام في الكنيسة من عهد الرسل ان سر تجسد ابن الله هو قائم في اتحاد الطبيعتين الالهية والانسانية في اقنوم الكلمة الازلي وان في سيدنا يسوع المسيح طبيعتين واقنومًا واحدًا. وان سيدنا يسوع المسيح هو في الحق اله وانسان معًا. ومريم العذراء هي والدة الله. هذا ما تم في الجلسة الاولى التي استمرت من الصبح الى العشيّ. اما الشعب الافسسي الجزيلة عبادتهُ لمريم العذراء فمكث النهار كلهُ منتظرًا حكم المجمع. ولما عرفوا ان الآباء حرموا نسطور وتعليمه الاراتيكي حصل في المدينة كلها فرح لا يوصف ومدحوا هذا المجمع بمدائح لا تكاد تُعدُّ وشكروا الله تعالى لانهُ اخزى عدو الايمان. وهنّأوا سيدتنا العذراء متهللين لانها سحقت رأس الحية وانتصرت على كل قوات الجحيم. ثم صرخوا قائلين ليحيَ كيرلُّس الاسقف القديس عاضد الايمان. وليحيَ هؤلاء الاساقفة الشرفاء المحامون عن لاهوت سيدنا يسوع المسيح والأمومة الالهية لمريم البتول. ثم ان الشعب اوقدوا شموعًا ورافقوا الآباء على هذه الحال الى منازلهم. وكانت النساء تُوقِد البخور في الشوارع واقام الشعب يُسبّحون الليل كلهُ

فوصل حينئذٍ نوّاب البابا الى افسس ومعهم رسالةٌ من قدسهِ قدموها للمجمع. فلما قرئت هتف الآباء كلهم انهُ بالعدل قد حُكِم والسينودوس يشكر سلاستينوس بطرس الجديد وكيرلس بولس الجديد حافظ الايمان. فمع هذا كلهِ لم يرعوِ نسطور عن غيهِ وقد بقي على عنادهِ بل انهُ قصد ان يشين شان القديس المشار اليهِ ويعزلهُ عن كرسيهِ بواسطة كانديديانوس الامير الذي كان ارسلهُ الملك الى افسس ليرى كيف ينتضي الامر فيخبرهُ عنهُ. فهذا المذكور سبق وكتب رسالة الى الملك مع نسطور وبعض اساقفة اراطقة واخبروهُ في رسالتهم بان البطريرك كيرلُّس عُزل عن كرسيهِ وبما ان الملك كان مستقيم النية وسريع التصديق امر بامساك القديس فلما قبضوا عليهِ حزن الشعب كلهم وكان وحدهُ مسرورًا. الّا انهُ بعد قليل من ذلك العهد اطلع الملك على كذب نسطور وخباثة حزبهِ فاطلق القديس كيرلُّس واعادهُ الى كرسيهِ. ونفى نسطور الشقي الى واسيس مدينة بمصر وحرق كل مؤلفاتهِ. وقد انتقم الله تعالى منهُ قبل موتهِ لان الدود اكل لسانهُ النجس الذي تحرَّك بالتجديف على العذراء الجليلة. وقال تاودوروس المؤرخ ان جسدهُ كلهُ فسَدَ وتمزَّق. وزاد على ذلك نيكيفوروس ان الارض فتحت فاها وابتلعتهُ فانحدر الى جهنم حيًّا

وقد كافأت العذراء ذلك القديس عما فعل اجلالاً لها فانهُ بعد ان كان على رأي عمهِ تأوفيلوس البطريرك من جهة

فم الذهب لا عن خبثٍ منهُ بل عن اعتقاد ان عمهُ بالعدل حكم ولذلك لم يذكر اسم يوحنا في صلوات الذبيحة الالهية. وكتب اليهِ اتيكوس بطريرك القسطنطينية وطلب اليهِ ان يذكرهُ كحسب عادة الكنيسة نظرًا الى البطاركة المتوفَّين فلم يرضَ بذلك. فاتفق يومًا انهُ رأى في الحلم القديس يوحنا فم الذهب في الكنيسة مع زمرة من الملئكة متسلحين وهم يخرجونهُ خارجًا. وبينما هو على هذه الحال اذا بملكة الملئكة قد حضرت وتشفعت فيهِ عند القديس يوحنا لاجل عبادتهِ لها. فاطلقهُ القديس وتركهُ في كرسيهِ فتنبه حينئذٍ كيرلس لضلالهِ وعلى النور اخذ يكرم القديس يوحنا وامر الرعية كلها باكرامهِ. وبعد ان انتصب هذا القديس المعظم على كرسيهِ اثنتين وثلثين سنةً رقد بسلام في مدينة الاسكندرية في السنة الرابعة والاربعين من الجيل الخامس وكانت مدة حياتهِ كلها زهاء خمس وستين سنةً

اليوم التاسع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس فرنسيس سالاسيوس

اعلم ان هذا القديس الجليل هو من الشرفاء وقد وُلد في بلد سافويا في السنة السابعة والستين من القرن السادس عشر في اليوم الحادي والعشرين من شهر آب. اما والدتهُ الاميرة التقية فقد روَّضت اخلاقهُ وهو ترف البنان وعوَّدتهُ العبادة وقد وجدت فيهِ استعدادًا قويًا لتناول تعليمها المقدس وكان طبعهُ رؤوفًا نحو المحتاجين فكان يصطنع اليهم بكل ما تعطيهِ والدتهُ لنفقة التنزه وان لم تعطهِ شيئًا من ذلك كان يشركهم في طعامهِ. وكان طليق اللسان ذكي الجنان قويَّ الذاكرة مائلاً طبعًا الى الرقة واللطافة. فلما ترعرع ارسلهُ والدهُ الى باريز لكي يتعلم العلوم في مدرسة الرهبان اليسوعيين فقرأَ هناك الفلسفة واللاهوت على مالدوناتوس المعلم الجليل وقرأَ قواعد اللغتين العبرانية واليونانية على جينيبرادوس العالم الشهير. وقد كانت تميل بهِ عواطف الشوق الى اكتساب الفضيلة وان كانت لهُ رغبة شديدة في اكتساب العلوم. فكان كل اسبوع يتناول القربان المقدس مرة واحدة ويلبس المِسح ثلثة ايام. ولكي يكون مخصصًا لله ومتعبدًا لهُ على نوع اكمل نذر العفة امام ايقونة سيدتنا مريم العذراء

فلما رآهُ عدو البشر على هذه الحال الحميدة اجتهد في ان يصدَّهُ عن السلوك في طريق العبادة. فاخذ يوسوس اليهِ خيَّل لهُ انهُ مهما عمل من الصالحات فلا بد انهُ يهلك الى الابد فهذا التصور الشيطاني اعني بهِ انهُ هالك ومحكوم عليهِ بالخلود في النيران الابدية حيث هو مزمع ان يبغض الله ويُبغضهُ الله الى الابد القاهُ في خوف شديد وحزن لا يدرك وارتباك لا يوصف. وحينما كان لا يفكر الاَّ في هذا الامر وهو على خطر اليأس. رفع عينيهِ نحو ايقونة مريم العذراء وتفرَّس فيها فتشدَّد قلبهُ بالقوة وهتف بشجاعة عظيمة قائلاً إن كان حظي الآتي هو حال من يبغض الله بعد موتهِ فاني اريد ان احبهُ من كل قلبي ما حييتُ. وهذه الصلاة الصادرة من امرىءٍ انقطع قلبهُ الى الله ابعدت الشيطان الرجيم واعادت الى روحهِ الطمأنينة. وبعد ان فرغ من درس العلوم المذكورة في باريز انطلق بامر الله الى بادوا مدينة بايطاليا ليتعلم الشرائع والقوانين وهناك كان يعترف لاحد الرهبان اليسوعيين واسمهُ بوسفينوس وكان هذا الاب الروحي يجتهد كثيرًا في ارشاد هذه النفس النقية لانهُ وجدها مستعدة للنمو في اعلى الفضائل. الاَّ ان الشيطان كان يجتهد ايضًا في ان يسقطهُ في اقبح الرذائل. لانهُ اتفق ذات يوم ان ادخلهُ رفقاؤهُ الى مكان ما فيهِ امرأة زانية متظاهرة بثوب العبادة. فخاضت بالمذاكرة معهم في الامور الروحية كما علمها اولئك الشبان الاشرار. ثم ابتدأوا يخرجون واحدًا فواحدًا الى ان تركوا القديس وحدهُ مع تلك المرأة وحينئذٍ شرعت تستعمل كل الحيل الدنسة لتصطاد ذلك الشاب الطاهر بأوهاق الخطية. اما هو فلما انتبه على وقاحتها بصق بوجهها وفرَّ هاربًا. ولكنهُ بعد ان انتصر هكذا على شيطان الزناء احسن الحذر من تلك المخاطر فباين معاشرة الشبان وزاد تقشفًا على تقشفاتهِ

فلما اتقن علم الشرائع والتزم بالرجوع الى بيت ابيهِ زار كنيسة لوريتا وهي ذلك المنزل السعيد الذي كانت العذراء ساكنةً فيهِ حين حبلها بابن الله. وقد نقلتهُ الملئكة من الناصرة الى ايطاليا وهناك جدَّد نذر العفة الدائمة بين يدي الام الطاهرة ونال منها جلائل النعم الروحية بحيث انهُ لما عاد الى بلدتهِ رسمهُ الاسقف كاهنًا واقامهُ واعظًا. وبعظتهِ الاولى تاب ثلثة اشخاص من الخطاة المشهورين. وكان يقال فيهِ انهُ من المستبعد ان شابًا يرى فرنسيس سالاسيوس على المذبح قدسًا

او على المنبر واعظًا ولا يميل قلبهُ الى التوبة والعبادة مهما كان قاسيًا . ولم يكن هذا الكاهن القديس يكفُّ عن التجوُّل في القرى ليعلم هذا الجزء من الرعية المسيحية الذي في الغالب لا يُلتفت اليهِ . فلما رأى الاسقف غيرتهُ المتقدة وكم كان الله سبحانهُ يبارك على اتعابهِ اقامهُ مرسلاً على اقليم شابلي المتليء اراطقة كلفينيين . فحالاً انطلق القديس ودخل في وسط امة شرسة تسفك دماء الكاثوليكيين غير مبالٍ بالصعوبات والمخاطر . واذ شاهد في تلك البلاد كنائس الكاثوليكيين مهدومةً والاديرة مقوَّضةً والصلبان مكسرة ومطروحة زادت غيرتهُ التهابًا فدخل مدينة تونون بشجاعة رسولية . اما اهل هذه المدينة فشرعوا يضحكون عليهِ ويعيرونهُ ويعاملونهُ بالسخرية ونظرًا اليهِ لم يدفعهم عنهُ الا بترس صبرهِ واحتشامهِ ووداعتهِ وبذلك استمال اليهِ قلوبهم . فطفقوا يحضرون عظاتهِ ويحبون مخاطباتهِ . حتى ان كثيرين منهم ارتدوا عن البدعة الكلفينية . فلما شعر بذلك معلمو كنائسهم الاراتيكية عزموا على قتلهِ وارسلوا اناسًا لهذا الغرض فتلبَّث القديس ولم يفر هاربًا . ولما وصل اليهِ القتلة وابصروهُ لانت قلوبهم فاغمدوا سيوفهم . فاذ خاب امل اعدائهِ من ذلك شرعوا يغتابونهُ ويشنّعون عليهِ تسويدًا لصيتهِ فاتهموهُ بالسحر اما هو فغلب قوات الجحيم بالصبر والاتكال على الله عزَّ وجلَّ . فاذ عرف احد الامراء الكاثوليكيين بان القديس على خطر الموت ارسل اليهِ جنودًا ليحرسوهُ في ذلك الاقليم الغاصّ بالاراطقة . فلم يرتضِ بذلك بل بلَّغ الامير ما مآلهُ : انني دخلت بلاد شابلي كرسول وكرسول اتصرف ما بقيت فيها

ويعسر علينا ان نتكلم عن كثرة ما قاسى من العناء ونصف شدة الاخطار التي نجا منها وفرط غيرتهِ على خلاص النفوس وعدد الناس الذين اخرجهم من ظلام الاراطقة . لان اهل اقليم شابلي كلهُ واقليمين آخرين كلهم قبلوا الايمان الكاثوليكي وانتصر عليهم بقوة تعليمهِ ومثال سيرتهِ . وفي غضون ذلك طلبهُ اسقف جنيوا وصيَّرهُ شريكهُ في تدبير الابرشية . فالتزم حينئذٍ القديس بالمضي الى رومية ولما وصل الى هناك قبلهُ البابا اكليمنضوس الثامن بجزيل الاكرام والمحبة وقبَّلهُ امام الكرادلة وقال لهُ اشرب يا ابني ماء من جبّك ومن آبار ينبوعك ولتنسكب ينابيعك خارجًا واقسم مياهها في الشوارع (امثال ٥ : ١٥ و١٦) فرجع القديس الى بلدتهِ وبعد زمان قليل من ذلك تُوفي اسقف جنيوا فأُقيم اسقفًا عليها . ولكي يعرف حال رعيتهِ ويكون على بصيرةٍ في امرها زار ما بها من مدن وقرى ومزارع حتى لم يبقَ فيها موضع لم يزرهُ ورتب كل شيء في كل مكان

فبعد ان اخرج الاراطقة من البلاد شرع يغرس في الناس عواطف العبادة . فألَّف ذلك الكتاب الشريف الذي مدحهُ الاحبار المعظمون والعلماء الروحيون . وهو كتاب مدخل العبادة الذي يُستغنَى بهِ عن بقية الكتب الروحية . ومع كل ذلك كان احد العلماء يذم هذا المؤلف وهو على منبر الوعظ وتجرَّأ حتى احرقهُ كتصنيف رديء مهلك . ولما اخبروا القديس بذلك اجاب قائلاً . باليت قلب هذا الواعظ يضطرم بنار محبة الله كما انهُ احرق كتابي بالنار . واجلُّ ما فعلهُ لمنفعة النفوس وتقديسها ولشرف الكنيسة ومجدها هو انشاؤهُ الرهبانية المساة رهبانية زيارة العذراء عليها السلام وكان ابتداؤهُ هذا العمل في السنة العاشرة من الجيل السابع عشر . وقد انتهى عدد هولاء الراهبات الى زهاء ستة الآف وستمائة راهبة . وقد تعطرت الكنيسة بعرف فضائلهنَّ الطيب . وبعد قليل من ذلك العهد صنف القديس كتابًا آخر في محبة الله فسماهُ البابا اسكندر السابع كتابًا ذهبيًا . وقال احد الاساقفة العلماء ان القديس فرنسيس سالاسيوس في كتاب مدخل العبادة هو ملَك سماوي يرشد طوبيا وجملة الاحداث ويهديهم في سفر هذه الحياة . وفي كتابهِ الاخر المتضمن محبة الله فهو سرافيم ملتهب يضرم نار المديح السري في قلوب الكاملين . فذاك يعلم من يتتلمذ لهُ ان يسير سيرًا بسيطًا في مناهج الانجيل وهذا يعلمهُ ان يحلّق في سماء التأملات ويحوم حول معانٍ لطيفة يمدح بها الحضرة الالهية . ذاك يقدم لبنًا للاطفال في العبادة وهذا يقدم خبز الاقوياء للنفوس القوية . وقال البابا اسكندر السابع في المنشور الذي بهِ كتب هذا القديس في دفتر القديسين ان تصانيف القديس سالاسيوس هي كمصابيح متقدة تتخذ منها الكنيسة كلها نورًا ونارًا

ولا بد لنا ان نذكر هنا كم كان هذا القديس عابدًا لقلب يسوع الاقدس وما الذي قالهُ في هذه العبادة . فانهُ في مواضع شتى من كتبهِ يقول . لنسلمن نفوسنا لقلب يسوع ليعاملنا بحسب مشيئتهِ . هذا هو القلب الذي فيهِ وبهِ ومن اجلهِ نريد ان نحيا ونموت ايَّان يشاء وكيف يشاء . اني تعبدت لقلب

يسوع الاقدس وقدمت لهُ ذاتي بالكلية في يوم الخميس من الاسبوع العظيم في السنة السادسة عشرة بعد الالف والستمائة. وقال في موضع آخر يا ابنها المحبة العظمى محبة قلب يسوع الاقدس من هو الذي يباركك بعبادة كما يجب. ان قلبهُ الالهي منذ كان في مستودع امهِ كان يسبق ويعلم ويعد ويستحق وينال من اجل جميعنا كل ما ننال من نعم الله لكنما نحن لا نعتبرها كثيرًا ان لم ننظر احيانًا الى قلب يسوع الذي استحقّها لنا باتعاب جزيلة لا سيما بآلامهِ وموتهِ. وقد كتب في احدى رسائلهِ الى راهبة من رهبانيتهِ ما نصهُ: ان تغرّستِ في قلب يسوع الحبيب فمن المستحيل الاَّ يعجبكِ انظري انتِ هل قلبكِ يعجبهُ فيا ما أحبَّ هذا القلب. انهُ هو قلب ممتلئٌ رحمةً وحلمًا لدينا نحن الخلائق الحقيرين اذا ما عرفنا شقاءنا واعترفنا بهِ لدي الخطاة التائبين. فمن ذا الذي لا يحب بعد ذلك هذا القلب الاقدس الذي يحبنا محبة والدية ويهتمّ بنا اهتمام أبٍ. وفي رسالة اخرى يقول لها. لينزع السيد المسيح عنكِ قلبكِ كما فعل بالقديسة كاترينا السيانية وليمنحكِ قلبهُ الالهي لكي تحيي على محبتهِ المقدسة. فيا ما أسعد حظي لو كان الله يمنُّ عليَّ بعد تناول القربان المقدس بان يخرج قلبي من صدري ويضع مكانهُ ذلك القلب الكريم قلب الهي. انهُ لا يجوز لنا ان نطلب مثل هذه النعم العجيبة غير اني اشتهي ان قلوبنا لا تحيا منذ الان فصاعدًا الا على طاعة قلب يسوع الاقدس بحيث لا تفعل الاَّ ما يشاء. وقال في رسالة اخرى الى راهبة اخرى من رهبانيتهِ ليكن قلبكِ منذ الان فصاعدًا في قلب يسوع الاقدس دائمًا وليتحد بملك القلوب الجالس على كرسيهِ لتسجد وتخضع لهُ قلوب العالمين. فها هوذا الباب مفتوح ليستطيع كل احد ان يدنو منهُ ويكلمهُ. فاذا خاطبهُ قلبكِ فليخاطبهُ عني ايضًا ليصير قلبي طائعًا امينًا. آه متى تنتصر محبة يسوع على كل عواطفنا وافكارنا وتوطّدنا بهذا القلب الالهي الذي نتوق اليهِ على الدوام

وقد كانت هذه العبادة متأصلة في قلب هذا القديس كل التأصل حتى انهُ لم يزل يحثُّ عليها جميع راهباتهِ. وقد كتب في رسالةٍ بعث بها الى اوّل رئيسة على هذه الرهبانية ما نصهُ: انهُ يجب ان تكون راهباتنا جميعًا بنات قلب يسوع وهناك ينبغي لهنَّ ان يسكنَّ دائمًا. وهذه هي العبادة التي سلمها هذا القديس الى راهباتهِ وخلَّفها لهنَّ وهي ميراثٌ ثمين وقد نشرتها في الكنيسة راهبة من رهبانيتهِ وهي مرغريتا الاكوك التي سنورد ترجمتها في اليوم الرابع والعشرين من تشرين الاول

ولما كان شان هذه المحبة الالهية ان ترغّب المرءَ في الحصول على مشاهدة الله ونوال الحظوة لديهِ تعالى كان القديس يشتاق الى الموت لكي يمتلك هذه السعادة فمات على هذا الاشتياق المقدس في مدينة ليون في اليوم الثامن والعشرين من شهر كانون الاول في السنة ١٦٢٢ فنظمهُ البابا اسكندر السابع سنة ١٦٦٥ في سلك القديسين وسماهُ بيوس التاسع معلم الكنيسة

اليوم الثلثون

وفيهِ ترجمة القديسة مرتينا الشهيدة

اعلم ان القديسة مرتينا رومانية وقد وُلدت في ابتداء القرن الثاني. ولان والديها كانا مسيحيين اهتمَّا بها وربَّياها على العبادة وفي زمان يسير نمت فيها نموًّا لا يكاد يوصف حتى انها غدت قدوة للمؤمنين في كل فضيلة. فلما شاع خبر كونها مسيحية ارسل الحاكم الكافر فحضرت لديهِ ثم وقفت امام القضاة باحتشام على اتم ما يكون من الادب والطمأنينة والشجاعة. فاندهش المحفل الوثني من هذه المناقب الحميدة التي يعزُّ وجودها في فتاة جميلة. فسألها الحاكم قال لها أأنتِ نصرانية حقًّا. فاجابتهُ قائلةً ان الله اولاني هذه النعمة واني لراثية للذين لسوء حظهم لم يظفروا بعد بهذه النعمة. فقال لها احد القضاة الحاضرين كيف امكن لفتاةٍ مثلكِ ذات عقل وشرف وثروة وبهاء ان تمسكت بمذهب الحمقى اهل الهوان الذين يؤمنون بان انسانًا مصلوبًا هو اله ألا ارجعي اذًا عن هذا الضلال وامضي الى هيكلنا وهناك قدّمي لأفلو الاله الاكرام الواجب لعزّتهِ وستنالين من كرمهِ الوف الوف من البركات. فاجابتهُ مرتينا قائلةً انهُ لا اله سوى الذي انا اعبدهُ ولهُ وحدهُ اقدّم الاكرام المختص بالله. ولا احسب ان لي شرفًا ولا الفخر الاَّ بكوني مسيحية فان سفكت دمي كلهُ حبًّا بالله خالقي فذلك اعظم سعادتي. ولعمري انهُ امر في غاية الغرابة ان اناسًا عقلاء يعبدون تمثالاً من حجر او نحاس او خشب قد عملتهُ ايديهم ثم جعلوهُ الهًا وهم افضل منهُ كثيرًا. ولكي تعرفوا بطلان عبادتكم وكذب اعتقادكم دعوني امضي الى هيكل افلو وانا اسحق الهكم هذا والاشيهِ. فغضب عليها الحاكم وامر بان تقاد الى هيكل افلو لتقدم لهُ ذبيحة وان أبت

هي ذلك فلتمت باشد عذاب . فمضوا بها الى الهيكل المذكور ولما ابصرتهُ القديسة من بعيد رفعت عينيها الى السماء وقالت الهي ومخلصي يا من اخرج من العدم جميع الخلائق و يردها الى العدم متى شاء . استجب لصلاة احقر إمائك واظهر لهذا الشعب انك وحدك تستحق سجودنا وعبادتنا وان كل الاصنام التي هي اعمال ايديهم لا تستحق ادنى اكرام . فلما قالت القديسة ذلك تزلزلت الارض حالاً وهدم جزء من الهيكل وتحطّم صنم افلو حتى غدا إربًا إربًا . فهتف الشيطان الساكن فيهِ قائلاً انكِ يامرتينا أَمة الاله العلي قد اخرجتِني من مسكني القديم وقوي عليَّ الهكِ الضابط الجميع المزمع ان يهدم هذه المملكة

فامر الوالي الشُرَط ان يضربوا الفتاة العذراء بقساوةٍ فاخذوا عصيًّا فضربوها ضربًا اليمًا . ثم مزّقوا وجهها بمخالب حديدية . اما القديسة مرتينا فكانت تشكر الله تعالى في حال العذاب وتباركهُ لانهُ اهّلها لان تتألم لاجل اسمهِ القدوس وقد عزّاها الله سبحانهُ وشجعها بحيث اضاء لها بغتةً نورٌ من السماء وسمعت صوتًا من العلاء يخبرها بانها ستنتصر على كل العقوبات . فلما رأى الشُرَط هذه العجائب آمنوا بالسيد المسيح وجثوا امامها قائلين انهم مسيحيون وطلبوا من القديسة ان تتشفع فيهم لكي يموتوا لاجل الايمان بالسيد المسيح . فاستجاب الله طلبتهم لانهم جميعهم قُتلوا امام القديسة حالاً . ثم التفت الحاكم اليها وخاطبها قائلاً انني سافعل بكِ هكذا ان كنتِ لا تعبدين آلهتنا . فاجابتهُ الشهيدة قائلة اني اشكرك على انك تتهددني بما يتوق اليهِ قلبي كل التوقان . فتقدّم الشُرَط وقتئذٍ وبامر الحاكم مزّقوا جسدها كله بمخالب من حديد . ثم امرهم ان يسحبوها الى هيكل آخر من هياكل الالهة على حين كان الوثنيون يقدمون للآلهة ذبيحة فلما ادخلوها الهيكل خرج منهُ الشيطان بضوضاء عظيمة مريعة . ثم انقضّت صاعقة فسحقت الصنم . اما المغتصب فازداد غيظًا وقساوة فعذبها جديدًا باشد العقوبات واستعمل في عذابها الحديد والنار فلم تبرح مرتينا الشهيدة شاكرة الله وممجدة اسمهُ القدوس . حينئذٍ امر المغتصب بقطع رأسها وهكذا كللها باكليل الشهادة جزاء لقوة ايمانها وحفظ عفتها

اليوم الحادي والثلثون

وفيهِ ترجمة القديسة مرسلّا

كانت القديسة مرسلّا من مدينة رومية ومن اشرافٍ كانوا يتولّون امر المدينة. غير انها اصبحت اكثر شرفًا باحتقارها شرف الدنيا وتمسكها بخدمة يسوع المسيح على غاية التواضع والفقر الروحي فكان وقتئذٍ سيريال قنصلاً رومانيًّا في رومية وهو كثير الغنى وقويُّ الشوكة فطلب بالحاح ان يتزوَّج بالفتاة المشار اليها قائلاً انهُ لم يقصد بذلك الَّا ان تكون وارثةً لهُ لانهُ كان قد طعن في السن وأَلبينا والدتها كانت قد اتفقت معهُ على ذلك فاخذت تحثُّ ابنتها على الارتضاء بامرٍ تنشأ عنهُ مساعدة عظيمة من قبل القنصل . لكنها ابنتها ابت كل الاباء وقالت انها عزمت على ان تخصص نفسها وهي ارملة بالله تعالى ولا تقترن برجل ابدًا

فكانت تنهج سبل الآداب والحشمة حتى انهُ لم يُفترض عرضها بحيث لو فعل ذلك احد لما كان من يصدّقهُ . وكانت تعلم كل الارامل المسيحيات الادب والحشمة والابتعاد عن المعاشرات الردية وبالنتيجة فقد كانت قدوةً لكلهنَّ

ولم تبرح مواظبة على قراءة الكتب المقدسة وتأملها وحلّ مشاكلها لانها كانت تشتهي اشتهاءً لا يوصف ان تدرك ما اوحى الروح القدس الى البشر واعتبرت من اراد ان يتمّم بتدقيق ما امرنا بهِ الله تعالى اهلاً لان يعرف ارادتهُ الالهية . ولما اتى رومية القديس ايرونيموس مع القديسين ابيفانيوس وبولينوس سألتهُ تفسير آياتٍ من الكتاب المقدس ومع انهُ كان يتجنب كل التجنب معاشرة سيدات البلاط ارتضى وفسَّر لها آيات كثيرة وبعد ان سافر من رومية الى القدس الشريف واختلى في ذلك البلد اخذ كل محب لقراءة الكتب المقدسة يطلب منها ان تفسر لهُ بعض آيات ويستعلم منها عن المشاكل التي حلها لها القديس ايرونيموس فكانت تذكر لهم كل ما سمعت منهُ وتعلمت من غيرهِ ولا تنسب شيئًا من ذلك لذكاء لبّها لانها عرفت معرفةً جلية ما قال القديس بولس في النساء وهو ان من خواصهنَّ التعلم لا التعليم

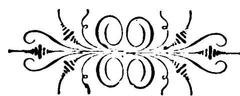
اخبر القديس ايرونيموس ان صيام القديسة مرسلّا كان على اتم النظام فلم تكن تاكل لحمًا وانما كانت تشرب الخمر لتقوية معدتها وقد كانت تمزجها بكثيرٍ من الماء ولا تفارق

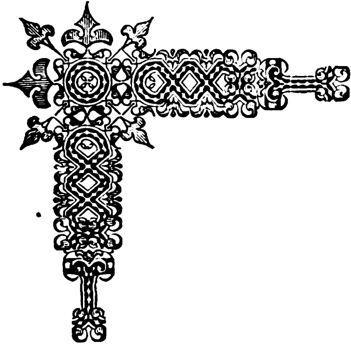
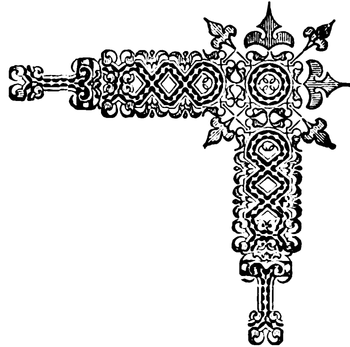
بيتها الاَّ نادرًا جدًّا ولا تعاشر السيدات الرومانيات لكيلا ترى فيهنَّ ما كانت تحتقرهُ في ذاتها فكانت تزور كنائس الرسل والشهداء سرًّا في كل حين لا ترى فيهِ احدًا ولكثرة ما تحبُّ الخلوة غادرت رومية ونواحيها. ولم يكن للسيدات الرومانيات حينئذٍ اعتبار لحال الراهبات بل كان الشرفاء كلهم يحتقرون طريقتهنَّ الاَّ ان القديسة عند اطّلاعها على ما كتبهُ القديس اثناسيوس من سيرة الأيامى الساكنات قفار مصر العليا تحت تدبير القديس بوخوميوس اشتعل فؤادها حبًّا لهذه الطريقة وسيرة تلك العذارى فلبست الثوب الرهباني وهي اول امرأة من نساء رومية تمسكت بما يقبلهُ السيد المسيح ويرفضهُ اهل العالم. هذا وكثيرات من سيدات الرومانيين اقتفينَ اثرها فترهبنَ وانشأنَ اديرة كثيرة عاشت فيها عذارى وراهبات كثيرات أضحينَ قدوةً لاهل رومية. وجعلت الطريقة الرهبانية معتبرة وممجدة لدى جميع سكان رومية ولم يكن هذا كلهُ الاَّ من ظهور فضائل القديسة مرسلّا ومثلها الصالح. لانها سنَّت للسيدات الرومانيات هذه الطريقة طريقة الكمال الرهباني وحثتهنَّ على التقدم فيها بافعالها وعلمتهنَّ بتدبيرها وارشاداتها

وماذا عسى ان اقول عما اظهرت من الصبر الجميل والثبات الوطيد والعزم الشديد في خراب مدينة رومية حينما الرب لهُ المجد انتقامًا من سكانها الاشرار سلمها الى أيدي اعدائها ففدت اسيرةً من بعد ما كانت متسلطة على العالم كلهِ. ان ملك الغوثيين ضربها بالنار والسيف وملأها دمًا ورمادًا فدخل الجنود البرابرة بيت القديسة مرسلّا لينهبوا ما عندها فسألوها اين خبأتها. اما هي فاجابتهم بلا خوف انهُ ليس لي اموال بل قد اخترت الفقر حبًّا بيسوع المسيح. فلم يصدّقوها واذ كان البخل قد اعمى بصائرهم ضربوها ضربات شديدة ولكن لم تضرّها ولا شعرت بها فخرّت على اقدام اولئك البرابرة متوسلةً ان يتركوا لها بنتًا اسمها برينشيبيا وهي التي ارسل اليها القديس ايرونيموس سيرة القديسة لئلا يعاملوها شر معاملة

فليّن الرب لهُ المجد قلوب اولئك البرابرة فوجدت الرأفة بين السيوف المخضّبة بالدم فاتى الجنود بالقديسة مرسلّا وبرفيقتها الى كنيسة القديس بولس الرسول وحبسوها هناك ففرحت القديسة فرحًا عظيمًا وشكرت الله على انهُ حفظ رفيقتها وانقذها من ايدي البرابرة. ولما كانت على غاية الفقر ولا قوت عندها شبعت بحب يسوع المضطرم كل الاضطرام حتى انها لم تشعر بعذاب الجوع فاستطاعت ان تقول مع ايوب البار قد خرجتُ عُريانةً من بطن امي وعُريانةً اعود الى هناك الرب اعطى والرب اخذ كما حسن عند الرب كذلك كان فليكن اسمهُ مباركًا (ايوب ١ : ٢١)

وبعد ايام انتقلت الى رحمة الله وكان ذلك في سنة ٤١٠ للمسيح ولم يسبق موتها مرض ولا ضعف وقد كانت تبتسم وهي محتضرة لكي تؤكد لرفيقتها انها ستفوز بدار النعيم



شهر شباط

اليوم الاول

وفيهِ ترجمة القديس اغناطيوس اسقف انطاكية الشهيد

لا يخفى ان ما اقترب من ماء النهر الى الينبوع يكون انقى مما ابتعد عنهُ وبناء عليهِ فاقرب القديسين الى عهد منبع الطهارة تبارك اسمهُ هم اشدُّ غرامًا وأكثر ولوعًا بمحبتهِ كما يتضح في الرسل الاطهار والسبعين تلميذًا وبقية القديسين الاولين. ومن جملة هؤلاء كان القديس اغناطيوس المعظم لانهُ تلميذ القديس يوحنا الانجيلي. وقد لُقّب بثاوفوروس اي حامل الله لفرط حبهِ لسيدنا يسوع المسيح. وكانهُ كان بجلالهِ تعالى محررًا في قلبهِ. وليس هذا عجيبًا في من كان قرأ في مدرسة المحبة على التلميذ الحبيب. واما منشاهُ فقيل سورية. واما نيكوفوروس المؤرخ فيذكر انهُ كان يهوديًا وانهُ هو ذاك الصبي الصغير الذي قدمهُ السيد المسيح لرسلهِ مثالاً للبر والاتضاع كما جاء في الفصل الثامن عشر من بشارة القديس متى. واما فم الذهب فيقول ان القديس اغناطيوس لم يبصر سيدنا يسوع المسيح على الارض اصلاً

واجلى دليل على فضل طهرهِ هو ان الرسل اقاموهُ اسقفًا على كنيسة انطاكية التي اسسها هامة الرسل. وكانت قد زهت الفضيلة فيها كل زهوٍ حتى ان المؤمنين بالمسيح الاولين قد دُعوا فيها مسيحيين. وقد ذكر القديس اناكليتوس البابا والمعلم ثاودوريتوس وفم الذهب ان بطرس الرسول هو الذي رسم القديس اغناتيوس اسقفًا. ولما وضع يدهُ عليهِ غرست فيهِ كل الفضائل التي تقتضيها درجة الاسقفية. ولكنهُ لم يجلس على كرسي انطاكية الا بعد ان انتقل القديس افوديوس الى رحمة الله وكانت وفاتهُ في السنة التاسعة والسبعين للمسيح. وقد دبر تلك الكنيسة بالطف حكمة واوفر غيرة. وكانت كل كنائس سورية تلتجئ اليهِ وتستشيرهُ كالمرشد المستنير من الله. وقد جاهد في الله حق جهادهِ وقتما اضطهد دوميسيانوس الملك المسيحيين بحيث انهُ وقد كان الخطر محدقًا بهِ لم يفارق رعيتهُ قط والاستشهاد اجلُّ ما كان يهواهُ حتى انهُ كثيرًا ما كان يقول لا اعتقد انني احب سيدنا يسوع المسيح من دون ان يُهراق لاجلهِ دمي كلهُ

وقد اقام الله تعالى في بيعتهِ هذا القديس مثالاً للرؤساء الكنائسيين ليعلموا انهم ملتزمون بان يحاربوا الاراطقة بكل قوتهم ويحذروا الشعب من حِيَلهم. وقد كتب عن الاراطقة في رسالة لهُ ما نصهُ: انهُ قد يوجد اناس ضالُّون مُضلُّون فاهربوا منهم كما تهربون من الوحوش الضارية. انهم كلاب كلبة يعضُّون في الخفاء فاياكم ثم اياكم ان تخالطوهم واعلموا ان داءهم عضال. وقد بلغني انهُ اتاكم بعض منهم فصممتم آذانكم لئلا تسمعوا تعليمهم الردي. فشكرت الله تعالى على ذلك. وفي رسالتهِ الى اهل ازمير يقول. اني انصحكم يا اخوتي الاحباء فاحذروا هؤلاء الوحوش المتظاهرين بصورة بشرية فليس بكافٍ ان لا تأووهم في بيوتكم ومنازلكم فقط بل يجب عليكم ان تحترسوا من مواجهتهم ايضًا فتوسلوا الى الله من اجلهم لكي يتوبوا وفي هذا كفاية. اني لم ادوّن لكم هنا اسماءهم بل حاشا لي ان اذكرهم قبل ان يتوبوا ولذلك لا بدَّ ان هؤلاء يُمنعون عن تناول القربان المقدس لانهم لا يعتقدون بانهُ هو جسد المسيح الذي تألم لاجل خطايانا ومات ثم اقامهُ الله الآب. فينبغي لكم اذًا ان تجتنبوهم ولا تخاطبوهم لا سرًّا ولا علانية

ثم يذكر اوسابيوس اسقف قيسارية وسقراط وبارونيوس ان القديس اغناطيوس سمع يومًا الملائكة يرتلون تسابيح لتمجيد الثالوث الاقدس بخوروسين فمن ذلك اليوم أمر المؤمنين

بان يرتلوا على هذا النسق اي بخوروسَين وعنهُ اخذت هذه العادة الكنائس كلها. وفي ذلك الزمن اي في السنة السادسة بعد المائة اتى تراجانوس الملك من رومية الى الشرق ليحارب الارمن. فلما اقبل الى انطاكية وبلغتهُ اخبار غيرة هذا القديس على انتشار النصرانية امر بالقبض عليهِ ولما مَثُلَ امامهُ قال لهُ تراجانوس أأنت هو اغناطيوس الملقب بثاوفوروس الذي يخالف امري ولا يعبد آلهتي. فاجابهُ القديس قائلاً اي نعم انا اغناطيوس صاحب ذلك اللقب. فقال الملك وما معنى هذا اللقب اجابهُ القديس معناهُ حامل الله فما انا الاّ انسانٌ قد كُتب في قلبهِ السيد المسيح الاله. قال لهُ الملك انظن اننا لا نحمل هكذا آلهتنا الذين يعضدوننا في الحروب وينصروننا على اعدائنا. فقال القديس ألا ليت شعري كيف يمكن ان تكون آلهةً تلك التماثيل العديمة الحسّ فاعلم انهُ لا اله الاّ الله الذي خلق السماء والارض والبحر وكل ما فيها. وابنهُ الوحيد يسوع المسيح الذي تجسد وصار انسانًا لكي يخلص البشر. فلو كنت تعرفهُ ايها الملك وتؤمن بهِ عزَّ شانهُ لقد كنت في هذا المُلك على اسعد حال. فقال لهُ تراجانوس دع الان هذا الكلام وافعل ما يسرني ويفيدك قدّم ذبيحةً لآلهتي فتظفر مني بالالتفات وتكون لك عندي مكانةٌ وانا اجعلك اعظم احبار هذه الآلهة. اجابهُ القديس قائلاً زادك الله غنى تكرّم بهذه المنح على من يعتبرونها ويرغبون فيها فانا كاهن سيدي يسوع المسيح ولهُ اقدم الذبيحة في كل يوم. وارغب في ان اقدم لهُ حياتي ذبيحة كما انهُ قدّم حياته ذبيحةً حبًّا بي حينئذٍ حكم عليهِ قائلاً الملك يأمر بان اغناطيوس الذي يقول عن نفسهِ انهُ حاملٌ في قلبهِ المصلوب يقيَّد ويُقاد الى رومية العظمى ليُقدَّم هناك طعامًا للوحوش الضارية

اما القديس فقبل هذا الحكم بمزيد الابتهاج. ولما تقدَّم الشُرَط ليقيّدوهُ جثا امام القيود وقبَّلها شاكرًا الله واستودع بين يديهِ تعالى رعيتهُ التي كان قد دبَّرها مدة اربعين سنةً. فلما سمع المسيحيون هذا الامر حضروا لدى القديس باكين ملتمسين منهُ البركة. فاذ عاينهم الجنود شرعوا يهينون القديس امامهم ويعاملونهُ باشد القساوة قاصدين بهذا ان يحركوا المسيحيين ليفجوا راعيهم بالمال من قساوتهم. وهكذا خرجت بهِ الشُرَط من انطاكية وتبعهُ اثنان من اكليريكيي كنيستهِ وهما فيلون واغاتوبوس ولم ينفصلا عنهُ الى حين وفاته. فلما وصل الى ازمير رأى هناك القديس بوليكاربوس الذي كان نظيرهُ في كونهِ تلميذًا للقديس يوحنا الانجيلي. وكانوا قد بعثوا اليهِ من قبل كنائس تلك الابرشية كلها نوَّابًا يلتمسون منهُ البركة والدعاء من اجلهم. ولكن اونسيموس اسقف افسس ودامَسوس اسقف ماغنيسيا وبوليبوس اسقف ترالُّوس حضروا هم انفسهم ليطلبوا من اجلهم ومن اجل رعاياهم البركة فكتب القديس من ازمير الى هذه الكنائس الثلاث رسائل. وبها يعظ المؤمنين قائلاً: لتكن امثال سيرتكم الصالحة تعليمًا للمنافقين والاشرار فضادوا بالمحبة والعدل بغضهم وظلمهم. وبالصبر والصلاة افتراءهم وبالثبات على الايمان ضلالهم. ارغبوا في ان تحتملوا من اجل السيد المسيح الظلم والخسارة والاهانة. اني لاجلهِ جل ذكرهُ لا ابالي بالقيود وانني لأُفضلها على كنوز الارض. اذكروني في صلواتكم لكي اصل الى الله. ولا تنسوا كنيسة سورية التي لا استحق ان اكون فيها. اني حقًّا احب ان اتألم الاّ اني لا اعلم هل اكون اهلاً لهذه النعمة ام لا. فاضرعوا من اجلي لكي انال الراحة في دار النعيم ولا اكون من الهالكين. ثم انهُ عليهِ السلام كتب رسالةً في ازمير وبعث بها الى اهل رومية مع نصارى افسسيين كانوا يتقدمونهُ بالذهاب الى هناك. وفيها يقول لهم اني اخاف من ان حبكم يسبب لي ضررًا ويصدني عن نيل المنى فدعوا الوحوش تفترسني لاني حنطة سيدي يسوع وينبغي لانيابها ان تطحنني لكي اصير خبزًا يُقدَّم لله. فالاجدر بكم اذًا ان تهيجوا عليَّ الوحوش فأُدفن في بطونها. فاسألوا سيدنا يسوع المسيح ان يؤهلني لان اصير لهُ هكذا ذبيحةً نقيةً. اني اشتهي على الله ان ارى الوحوش الضارية محيطة بي ولا يسمح عزَّ اسمهُ ان تعاملني كما عاملت غيري من الشهداء الذين لم تتجاسر على ان تمسّهم البتة. على اني اذا رأيتها انيسةً لا تهجم عليَّ فاني احرّضها على افتراسي. فلا تستغربوا كلامي هذا لاني عارفٌ كم ينفعني ذلك فها انا قد ابتدأتُ ان اكون تلميذًا ليسوع لان نفسي لا تشتهي شيئًا مما يرى. واني لأحسب كل شيء زبلاً لاربح المسيح. فلتأتني النار والصليب ولتهشم الوحوش عظامي وتسحقها. وليوافني الموت نفسهُ ولتنزل بي تعاذيب الشياطين لكي اصل الى سيدي يسوع المسيح واحظى بهِ تعالى. ان الموت فيهِ ومن اجلهِ خيرٌ لي من التمتع بكل ممالك العالم وان نفسي لتراح لسيدنا يسوع المسيح ابن الله الوحيد ولابيهِ الازلي ولذلك

اتوق الى ان اكون مع من مات وقام لاجلنا . فلا تصدُّوني عن بلوغ الحياة لان يسوع هو حياة المسيحيين فدعوني اموت فما الحياة بدون المسيح الاَّ موت

فلما وصل الى رومية زاره كثيرون من المؤمنين فجثا على الارض وقدَّم ذاته ذبيحةً لله تعالى وصلى من اجل الكنيسة ثم دخل ميدان الوحوش وكان الشعب قد حضر ليعاين استشهاد القديس . فلما انتصب في الميدان واُطلقت عليهِ الوحوش افترستهُ حالاً كما كان قد طلب . ولم يزل ينطق باسم يسوع الى حين وفاتهِ وقد كانت في السنة الثامنة بعد المائة

اليوم الثاني

وفيهِ عيد دخول السيد الى الهيكل

اعلم ان هذا العيد يتضمن سرَّين عظيمين احدهما تطهير العذراء البرية من كل دنس وثانيهما تقدمتها ابنها الالهي وتقدمتهُ هو تعالى نفسهُ لله . فيا للعجب كيف ان اطهر العذارى واقدسهنَّ تخضع لناموس التطهير الموسوي . ومقدّس القديسين حبر العهد الجديد يقدّم ذاتهُ لله ذبيحةً . هاهوذا مريم والدة الله والبرية من كل خطيئة تقدم ذبيحة الوفاء عن الخطيئة وابن الله الازلي فادي الجميع يُفتدى ليقدم نفسهُ من اجلنا ذبيحة على جبل الجلجلة . لعمري ان العذراء الجليلة تقدم بذلك اليوم لاجل خلاص البشر اعزَّ ما يوجد عندها نظرًا الى كونها والدةً وهو ابنها الحبيب . وبتطهيرها الناموسي تقدم اثمن ما يوجد لديها نظرًا الى كونها بتولاً وهو الشرف المتعلق ببكوريتها فهذه الاشياء كلها تظهر فرط محبة الباري تعالى للبشر . وحنو والدة الله ورحمتها للخطأة

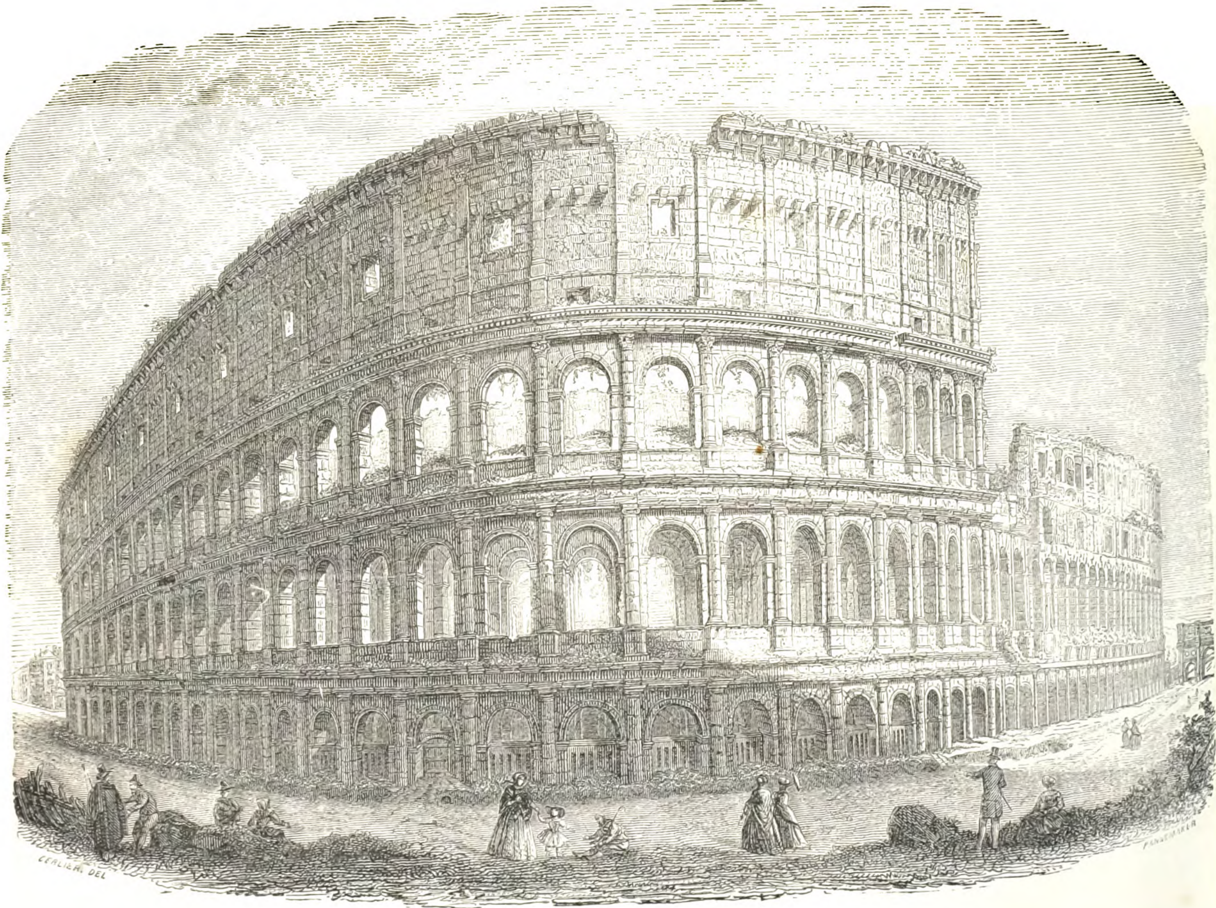
اعتبر اولاً ان الله تعالى لما وضع شريعةً على الشعب الاسرائيلي أَمر النساء بان يُقمنَ في منازلهنَّ بعد الولادة زمانًا معيَّنًا ولا تمسّ احداهنَّ شيئًا مقدسًا ولا تدخل الهيكل (احبار ١٢ : ٤ الى ٦) . فمن ولدت ذكرًا تتربَّص اربعين يومًا ومن ولدت انثى فثمانين يومًا . حتى اذا انقضى الزمان فلتمضِ الام الى الهيكل وتقدّم خروفًا محرقةً شكرًا لله من اجل ولادتها السعيدة . وحمامةً او يمامةً تطهُّرًا من دنسٍ ناموسيٍّ واذا كانت المرأة فقيرة فلتقدم حمامةً او يمامةً بدلاً عن الخروف وكان الكاهن يُقدم هذا للرب . وبهذه التقدمة كانت المرأة تطهر من الدنس الناموسي

وقد وضع الله شريعةً اخرى تخصّ الابن البكر ونصّها كل بكر انسان تفتديهِ بثمنٍ (خروج ١٣ : ١٣) فمن المحقق ان العذراء الجليلة لم تكن ملتزمة بشريعة التطهير . لان التي حبلت بقوة الروح القدس وصارت والدةً وهي عذراء لم تكن محتاجة الى تطهير البتة . لان ولادتها لابن الله زادتها طهارةً . ولهذا قال القديس اغسطينوس انَّما دنس في امٍّ بتول . ثم تكلم عن لسان السيد المسيح قال اني دخلت مستودَعها كما ادخل مقدسي فوجدتها نقيةً ولم انقص شيئًا من طهارتها . فلا تتعجبنَّ من هذه الاعجوبة لانها والدتي وانا جبلتها بيدي وصيَّرتها كما هي . انتهى . اما والدة الله فمع كونها بتولاً تخضع عن رضًا لشريعة موضوعة لولادة النساء الاعتيادية . ومن حبها للبتولية تعلم عظمة الذبيحة التي قدمتها اليوم بتقدمتها جهارًا شرف البكارة ذبيحة لله . وقد احبت ان تقدم هذه الذبيحة لكي تمارس بها فعل التقوى والاتضاع لانها بعدان رات ابنها قد خضع لشريعة الختان مع انهُ عزَّ وجل غير ملتزم بذلك . لم تلتفت الى ما يجعلها غير ملتزمة بالتطهير فقامت ومضت الى الهيكل . وبالروح الذي حرَّك ابنها قدَّمت من اجلها ومن اجلهِ تعالى حمامتين بحسب شريعة المساكين . لكنها اذ قدمت الخروف النقي المزمع ان يطهّر العالم كلهُ لم تكن مضطرة الى ان تقدم الخروف الناموسي الذي كان رمزًا الى الخروف الالهي

اعتبر ثانيًا ان العذراء في هذا اليوم ما قدمت لله ذبيحة عظيمة بالتطهير الناموسي وحدهُ بل بتقدمتها ابنها ايضًا . لانها تقدمهُ في هذا اليوم للآب الازلي ليكون فيما بعد ذبيحة من اجل خلاص البشر على جبل الجلجلة . والان تفتديهِ كانها تفتدي خروفًا لتعولهُ الى ان ياتي زمن تقدمتهِ وذبحهِ . وقد ذهب جمهور الاباء الى انها عليها السلام قدمتهُ تعالى بالرضا ولهذا يدعوها مخلصة العالم . وقد خصص بها القديس بوناونتورا ما قالهُ الرسول في الله فقال . هكذا احبت مريم العالم حتى بذلت عنهُ ابنها الوحيد . فاعتبر ما اشد ما تالمت عندما قدمت هذا الابن العزيز للموت لانها عرفت منذ ذلك الوقت انهُ كان مزمعًا ان يفتدينا بموتهِ كما عرفت حسبما قال الانبا روبير كل اعراض آلامهِ وموتهِ . ولذلك لا عجب انها بقيت صامتة في وقت الامهِ بحيث كانت قد ارتضت بهذا



ميدان الوحوش برومية (جهة الجنوب)



ميدان الوحوش برومية (جهة الشمال)

فلما دخلت الهيكل عليها السلام كان هناك سمعان شيخٌ بارٌّ من اولياء الله وهو منذ زمن مديد كان ينتظر مجيء المخلص من اجل انهُ كان قد أُوحي اليهِ انهُ لا يموت قبل ان يرى مسيح الرب . ثم اخبرهُ حينئذٍ بان هذه المرأة هي والدة الله وابنها هو المسيح المنتظر . فمالت بهِ عواطف المحبة والسرور والشكر فحمل يسوع الطفل الالهي على ذراعيهِ وهتف قائلاً : اطلق الان عبدك يا الهي ودعني اموت بسلام كما وعدتني فها انذا اموت الان بمزيد الرضا لاني لست اريد ان ابصر شيئًا ما على الارض بعد ان ابصرت من بعثتهُ ليخلص العالم ويعلّم الشعوب ويمزّق ظلام الضلال ويُعزّي اسرائيل . ثم التفت الشيخ البارّ الى الجليلة مريم وقال لها مع تسليمهِ اليها ابنها الالهي : اني اعلم ان ابنكِ هذا العزيز يكون سببًا لسقوط كثيرين لانهم لا يريدون ان ينتفعوا من موتهِ . وان كان قد اتى ليخلص الجميع وان الشعب الاسرائيلي الذي كان يشتهي مجيئهُ سيكون لهُ عدوًّا خصيمًا . فهوذا ابنكِ قد جاد بنفسهِ وانتِ قد ارتضيتِ بذلك . فاعلمي اذًا ان سيف الحزن سيجوز في قلبكِ حينما تحضرين هذه الذبيحة الدموية . وفيما كان الشيخ القديس يقول ذلك اقبلت ارملةٌ قديسة اسمها حنة كانت قد طعنت في سنّها وبلغت حدَّ الثمانين سنةً فلما رأت الطفل يسوع امتلأت من الروح القدس وتهللت وسبحت الله واخبرت الحاضرين بما هو مزمع ان يفعلهُ لاجل خلاص اسرائيل

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس افرام السرياني

انهُ قد وُلد عليهِ السلام في نصيبين او في أُورفا مدينتين بما بين النهرين في ابتداء الجيل الرابع وكان ابواهُ غنيين فاضلين . وانما سمياهُ افرام اي ناميًا مثمرًا لانهما نظرا في الرؤيا كرمةً ذات ثمر وافر بارزة من فيهِ وكانت اغصانها تمتد الى اقاصي الارض وطيور السماء تغتذي بعنبها . وقد مال قلب هذا البار من الصغر الى الفضائل خصوصًا العفة ثم الى درس العلوم . الاَّ انهُ كان يلوم نفسهُ على زلاتٍ فعلها في ايام حداثتهِ . ذكر انهُ صادف يومًا في الغابة بقرةً لرجل فقير فشرع يرشقها بالحجارة فجدَّت بالهرب . فسقطت في هوَّة وهناك افترستها الذئاب . وقد ندم على هذه الزلَّة باكيًا كل ايام عمرهِ . وفي غضون ذلك اضطر لان يذهب الى احدى مزارعهِ فثنى العنان اليها وما زال يطوي الفيافي حتى ادركهُ الظلام فالتزم بان يبيت مع رعاة في حظيرة الغنم . وفيما كانوا مستغرقين في النوم وثبت الذئاب على الغنم فخطفت بعضًا من الخراف وتشتت البقية . فلما انتبه الرعاة ورأوا ما كان ظنوا ان اللصوص قد اتوا فاختلسوا اغنامهم وان افرام الشاب الذي أُووهُ في منزلهم هو الذي ادخلهم . فقبضوا عليهِ ثم سلموهُ الى الحاكم . فالقي في السجن وبقي فيهِ اربعين يومًا يُرثى لسوء حالهِ . وفيما هو على هذه الحال اذ بملَك ظهر لهُ وسألهُ ما سبب حزنهِ وبكائهِ . فاجابهُ افرام كئيبًا كاسف البال اني أُلقيت في هذا السجن جورًا وظلمًا . فقال لهُ الملَك نعم انك بريءٌ من هذه الجريرة لكنك مذنب في غيرها لانك صرت سببًا لموت بقرة رجل فقير . واعلم ان الله تعالى يسمح احيانًا بان يُتَّهم انسان من اجل خطية ما خفية سرية . وتحقيقًا لكلامي هذا سل الشخصين المحبوسَين معك فتجدهما بريئين مما اتهما بهِ الان . غير انهما مع ذلك مذنبان حقًّا . فسألهما افرام ما سبب الشكوى عليهما . فاجاب احدهما وقال لهُ اني اتُّهمت بالزناء ورفيقي بالقتل . وكلانا بريء مما اتهم بهِ غير ان الله عزَّ وجل اقتصَّ مني لاني قذفتُ محصنَةً . وقال الاخر اما انا فاني اتذكر ما جرى مني سابقًا وهو اني وجدت انسانًا مشرفًا على الغرق وقد كنت استطيع ان انقذهُ ومع ذلك لم امدّ لهُ يدي . قالا هذا ثم سألا افرام لمَ قُبض عليهِ وحُبس . فاورد لهما ما جرى لهُ مع الرعاة المذكورين . ثم اردف ذلك بقولهِ غير اني انا المتَّهم الان باطلاً اقرُّ باني قديمًا قد كنت سببًا لان تتهوّر بقرة القريب في هاوية حيث ماتت فاكلتها الذئاب

وفيما كان يتأمل افرام حالة هذه عزم على ان يصرف بقية حياتهِ في اعمال التوبة النصوح اذا انقذهُ الله من هذه البلية . واما ذانك الرجلان فعذبهما الحاكم لكي يقرَّا بالذنب المنسوب اليهما حتى اذا لم يقرَّا بشيء أُطلقا مبرَّئين . فبقي افرام وحدهُ في السجن حزينًا مكتئبًا خائفًا من ان يحكم عليهِ بالعذاب ولكنهُ آخر الامر أُطلق من السجن سالمًا مبرَّأً ولم يُعذَّب البتة . وبعد خروجهِ ذهب الى البرية وتتلمذ لشيخ من الابرار . وطفق يسلك طريق النسك والفضيلة بمزيد النشاط ولذلك كان يعتني بان يتنقى من وضر الاثام فاخذ يقهر جسدهُ بالصوم والسهر والتقشفات الزائدة ويحارب نفسهُ بواسطة الاختلاء والصلاة . ومن جهة حواسهِ فكان قد عاهد عينيهِ منذ صباتهِ بالاَّ يسببّا لهُ فكرًا ما سمجًا بنظر منحرف . ولما كان الله سبحانهُ

يحب كل نقي القلب طيّب السريرة سكب على عبدهِ التقي النقي غدَق نعمائهِ فعما قليل صار معلمًا ماهرًا في احوال السيرة الروحية . وفي هذا المقام نقريظ القديس غريغوريوس نيصص لهذا القديس ونصهُ: باية عبارة امدح هذا القديس الجليل وباي الالفاظ اصف فضائلهُ فها انا اقول مطلقًا انهُ قد كان في اعمالهِ وصلواتهِ يمارس فضائل متعددة . وماذا انطق مخبرًا عن رغبتهِ في تلاوة الكتب المقدسة وعن نقاوة نفسهِ وطهارة جسدهِ ودموعهِ السيَّالة وحبهِ الانفراد وفرارهِ من ادنى هفوة ومواظبتهِ على الصلاة ورياضة العبادة وشدة نقشفاتهِ الفائقة التصديق وعن رغبتهِ في الفقر والاتضاع . انتهى . وبمثل هذا مدحهُ ايضًا القديس باسيليوس صديقهُ الصدوق . واما نظرًا الى اتضاعهِ فقد ذُكر انهُ لما اختير اسقفًا اتاهُ بعض اشخاص ليلزموهُ بان يقبل الارتقاء الى هذه الدرجة الشريفة . فلما رآهم تظاهر بانهُ مدخولٌ عليهِ فكان يركض ويأكل في الشوارع امام الجميع كما يفعل المجانين. فاحتسبهُ المرسلون مجنونًا فتركوهُ فهرب القديس وقتئذٍ واستمر مختفيًا الى ان ارتسم آخر اسقفًا

وقد جعلهُ فرط الاتضاع يظن بنفسهِ انهُ اقل الناس علمًا وفضيلةً ذلك والله تعالى كان قد وهبهُ عقلاً ثاقبًا وانارهُ بعلم من لدنهُ . فافتقد كل سيَّاح البرية كتلميذ راغب في ان يتعلم من الاباء المتنوّرين . ثم ذهب الى القديس يعقوب اسقف نصيبين وهذا اشار عليهِ بان يقطن أُورفا ويعتني بخلاص النفوس . فارتضى بمشورتهِ على انهُ لم يترك هناك سيرتهُ القديمة وفيما كان يومًا يقرأ كتابًا في مكان منفرد رأتهُ امرأة شلاَّفة كانت قد اخذت كثيرًا من الناس بشِراك الدنس فهتفت نحوهُ من كوَّة منزلها وطلبت اليهِ ان يباركها ابتغاء ان تجتذبهُ بالمخاطبة الى فخها . ولان القديس لم يجبها بكلمة ولم يرفع نظرهُ عن كتابهِ . سألتهُ بصوت اسيف مظهرة العبادة وقالت لهُ اما تحتاج الى شيء . فاجابها القديس قائلاً اي نعم اني افتقر الى قليل من الطين والحجارة لأسدّ هذه الكوَّة التي منها تنظرين اليَّ . فقالت لهُ البغيّ بصفاقة وجهٍ ابمثل هذه القساوة نرد الجواب لمن اضطرمت في قلبها لواعج حبك فاشتهت ان تظهرهُ لك بالفعل . اما القديس فصرَف نظرهُ عنها وقال فليكن ذلك في وسط شوارع المدينة فما رأيكِ في ذلك . فقالت لهُ اما تستحي من مثل هذا الفعل امام الجمهور. فقال لها القديس وكيف اذًا لا تستحيين من ان ترتكبي هذا الفعل القبيح امام الله الحاضر في كل مكان والناظر الى كل شيء . فان كان نظر الناس يصدُّكِ عن الخطيئة فكيف اذًا لا يمنعكِ عنها نظر الله الديان والمنتقم المرهوب . فهذا الكلام الذي هو كبرق وصاعقة أَراها سوء حالها وليَّن قلبها بخوف مقدس . فخرَّت امامهُ باكية متأسفة قائلة يا ايها الاب القديس ارحمني انا الجمرة الجهنمية المتقدة واهدِني في طريق الخلاص لكي امحو مآثمي بافعال التوبة . فقدم القديس في ذلك الوقت الشكر لله الكثير الرحمة واثبت المرأة في توبتها بنصائحهِ وادخلها ديرًا حيث قضت اجلها بسيرة صالحة

فشاع حينئذٍ خبر تقوى افرام ورام الاسقف ان يرسمهُ كاهنًا فلم يرتضِ بذلك ولكنهُ قبل ان يرتسم شماسًا انجيليًا اخذ في ذلك الوقت يعلم في البيوت ويعظ في الكنيسة . فجاء كلامهُ وفضائلهُ باثمار محامد كثيرة في قلوب الناس حتى انهُ كان في مدينة أُورفا ونواحيها كرسول قد بعثهُ الله لردّ الخطأة عن الآثام بل لردّ الامم عن الضلال ايضًا ولمناصبة الاراطقة . وقد ذكر القديس ابرونيموس ان مصنفات هذا القديس كانت تُقرأ في كنائس الشرق بعد الانجيل المقدس . وان ارمونيوس رجلاً اراتيكيًا نظم في عصرهِ نشائد مبنية على اراء الهرطقة فتمسك بها الاكثرون وكانوا يترنمون بها في مدينة اورفا . ولكي يداوي القديس الذين شربوا ذلك السم نظم قصائد برهَن بها على صحة الايمان القويم فاستحلى الشعب نشيدها واستعذبوها فكانت الترياق الشافي من الارطقة .

وافادنا القديس غريغوريوس النيصي انهُ لما درى مرةً اخرى ان ابوليناريوس اللاذقي قد صنف كتابًا فيهِ فنَّد الاعتقاد بان الطبيعتين الالهية والانسانية في اقنوم السيد المسيح واودع الكتاب عند امرأة استعارهُ القديس منها سرًّا والصق اوراقهُ بعضها ببعض بغراء جيّد فصار كلهُ كقطعة خشبٍ وانما فعل ذلك لعلمهِ ان علم ابوليناريوس كان في تأليفهِ لا في صدرهِ وبعد مدة من الزمان جرى بينهُ وبين القديس مجادلة بمحضر جمٍّ غفير فطلب الكتاب من هاتيك المرأة لكي يستند عليهِ في مجاوبتهِ فاحضرتهُ واذا بهِ لا ينفتح . والحاصل ان القديس افحم ابوليناريوس امام كل الحاضرين فخجل ووقع في اضطراب كان سببًا لموتهِ

وحدث في ذلك الزمن جَدب عظيم في مدينة اورفا

فاضحى الفقراءِ من شدة الغلاءِ على اشد الضيقة ولا سيما ان الاغنياءَ قد بخلوا عليهم . فلما رأى القديس ما رأى من امر الفقراءِ وبّخ المكثرين على قساوتهم بل على غباوتهم لانهم فوّتوا فرصةً يزكّون فيها اموالهم . فاعتذر لديهِ الاغنياءُ قائلين انهم لا يجدون انسانًا امينًا يوزّع صدقاتهم على المحتاجين . فاخذ القديس عند ذلك ما تصدّقوا بهِ وجعل يوزعهُ على الفقراءِ بنفسهِ فخدم المساكين مدة القحط كلها ولم يدعهم يحتاجون شيئًا ثم انفرد للتأهب للموت ثم انتقل الى جوار ربهِ في السنة الثامنة والسبعين بعد الثلثمائة للمسيح . ويذكر السنكسار اللاتيني هذا القديس في اليوم الاول من شهر شباط اما السنكسار اليوناني فيذكرهُ في اليوم الثامن من شهر كانون الثاني

اليوم الثالث

وفيهِ ترجمة القديس بلاسيوس الشهيد

اعلم ان هذا القديس المشهورة عجائبهُ في المسكونة كلها وُلد بسبسطية مدينة من أعمال ارمينية . وكان الناس يعتبرونهُ لاجل حسن اخلاقهِ ولين عريكتهِ ولحكمتهِ ولا سيما لاجل طهارتهِ . وبناءً على ذلك لمّا مات أُسقف المدينة اقاموهُ أُسقفًا عليها . لكنهُ بالهام الله انطلق بعد ذلك الى البرية واختار لسكناهُ مغارةً في جبل يُدعى ارجي فتنسّك هناك بحيث لم يكن يبصر سوى وحوش الغاب وقد كانت تلك الوحوش تزورهُ وتطلب منهُ شفاءَ أمراضها وبركتهُ . وكانت تتحاشى أن تسبب لهُ كدرًا حتى انها اذا رأتهُ مصليًا تنتظر بهدءٍ الى ان يفرغ من صلاتهِ . وحينئذٍ كانت تتقدم اليهِ طالبةً بركتهُ بلسان الحال ولم تكن تفارقهُ قبل أن يباركها . وانما أخضع الله تعالى الوحوش لهذا القديس لكي نعلم كم يكرم سبحانهُ أبرارهُ وكم كانت حال الانسان سعيدةً قبل زلّة آدم

وفي نحو السنة الخامسة عشرة بعد الثلثمائة للمسيح أرسل الملك الروماني الى سبسطية واليًا قاسي القلب يقال لهُ اغريكولاوس وكان للمسيحيين عدوًّا خصيمًا فوثب هذا الوالي القاسي القلب على رعية المسيح كذئب خاطف او اسدٍ مُفترسٍ . ولكي يُبيد قطيع الرب باشد قساوةٍ واكثر سرعة رام ان يجمعهم كلهم في مكانٍ واحدٍ ويطلق عليهم الوحوش الضارية لتفترسهم كافّةً . فارسل جنودهُ ليصطادوا وحوش جبل ارجي ويأتوهُ بها . فذهب الجنود ودخلوا الغابة واستقصوا كل الاستقصاء . فلما وصلوا الى حيثُ كان القديس بلاسيوس وجدوا هناك ذئابًا وأُسودًا ونمورةً وضباعًا رابضةً تجاه المغارة . فدخلوها فوجدوا القديس ممارسًا للصلاة فتعجبوا من ذلك وعادوا الى المدينة وأخبروا اغريكولاوس بما رأوهُ . فظنّ الحاكم ان المسيحيين مختفون بهذا الجبل فارسل جزءًا من عسكرهِ ليفتشوا في ذلك المكان عن المسيحيين . ففحصوا كثيرًا لكنهم لم يجدوا الاّ القديس بلاسيوس وقد كان وقتئذٍ مصليًا في مغارتهِ فقالوا لهُ هلمّ معنا لأنّ الحاكم يطلبُك . فاجابهم القديس وسمات الفرح على وجههِ اهلاً وسهلاً ومرحبًا . انني انتظركم منذ زمانٍ طويلٍ فامضوا بنا لكي اسفك دمي لأجل سيدي يسوع المسيح . لانهُ قد تراءى لي اليوم الهي ثلث مرات وارتضى بان أُقدّم لهُ نفسي ذبيحةً . فذهبوا بهِ وفيما كانوا ذاهبين وكان قد انتشر في الطريق خبر القبض على القديس في نواحي ذلك الجبل غصّت الطرق بالمسيحيين والوثنيين الذين جاؤوا يلتمسون بركتهُ وشفاءَ امراضهم . وكانت بينهم امرأة لها ابنٌ نشب في حلقهِ عظم سمكةٍ فقدّمتهُ اليهِ راجيةً منهُ عونًا . فلما رآها القديس تذرف الدموع بحزنٍ شديد جثا على الارض ورفع يديهِ الى السماءِ وصلى قائلاً . استجب يارب لصلاة عبدك واشفِ هذا الطفل لكي يعلم الجميع ان الموت والحياة يخضعان لسلطانك . ثم اسالك ايها الاب الصالح الرحيم ان تستجيب لكل من يلتجئ اليَّ بعد هذا الوقت ويسألني ان استمنح لهُ الشفاء من كرمك وتبلغهُ مرادهُ . فما فرغ من صلاتهِ الاّ وقد برئ الطفل ومن ذلك العهد اعتاد المسيحيون ان يلتجئوا الى هذا القديس للشفاء من أمراض الحلق . حتى ان الطبيب الماهر ايسيوس الذي كان في بلاد الشرق منذ عهدٍ طويل قد جعل مداواة مرض الحلق الالتجاء الى القديس بلاسيوس . وهو يقول في شأن ذلك انهُ ينبغي أن يُمسك بحلقوم المريض ويُقال ايها الشهيد الجليل بلاسيوس عبد سيدنا يسوع المسيح مُر الشوكة ان تخرج من فمهِ او تنزل من بطنهِ

ولما كان عليهِ السلام جائزًا في الطريق كان يعظ الجميع ويؤيّد تعليمهُ بالمعجزات . فآمن بسبب انذارهِ كثيرون منهم . ولما وصل الى المدينة استقبلهُ الحاكم باكرام وحيّاهُ بالسلام ثمّ قال لهُ اهلاً يا بلاسيوس خليلي لتكن

مباركًا من آلهتي . فاجابهُ عليهِ السلام لتكن انت مباركًا من الله تعالى . فان فعلت ما قلت تنل البركة فلذلك احذر من انك تدعو الشياطين آلهةً . فغضب الحاكم عليهِ فامر بان يُضرب فشرع الجنود حالاً يضربونهُ بالعصي بقساوةٍ شديدةٍ وقد استمرُّوا يضربونهُ نحوًا من ثلاث ساعات وكان بلاسيوس يحتمل ذلك العذاب الاليم بصبرٍ وسرور ثم التفت نحو المغتصب وقال لهُ أَنقول ايها الحاكم الضالّ والمضلّ انك بشدة هذا العذاب الاليم تقدِر ان تفصلني عن الهي . افعل بي كل ما تشأ لان الهي معي يقوّيني فاظفر بك . وعقب ايام قليلة من ذلك العهد ربطوا القديس على عمود خشب وضربوهُ بالسياط بقساوةٍ شديدةٍ . ثُمَّ اعادوهُ الى السجن . وفيما كانوا راجعين بهِ كانت سبع نساء يتبعنهُ ويمصصنَ الدم السائِل من جراحاتهِ . فقبض عليهنَّ الجنود وقدموهنَّ للحاكم فلما مثلنَ امامهُ أَمرهنَّ بالسجود للآلهة . فحينما قدَّموا لهنَّ الاصنام استأْذنَّ في الذهاب الى النهر قبل السجود لكي يغسلنها فأَذِن لهنَّ الحاكم فذهبنَ هناك بالاصنام الى النهر وحينما وصلنَ اليهِ القينَ تلك الاوثان في وسطهِ ولما درى الحاكم المشار اليهِ بما فعلت النساء بالآلهة تلهَّب قلبهُ غيظًا فامر بان توقد نارٌ عظيمة وقال لأُولئك النساء ان لم تسجدنَ لآلهتنا فلا بد ان تُصلين بهذه النار الحامية فاخترنَ لانفسكنَّ من الامرين ما يحلو . فركضت واحدة منهنَّ لتدخل النار وكان معها اثنان من اولادها الصغار فصرخ الصبيان قائلين لماذا لا تأْخذيننا معكِ اننا بكِ رأَينا نور الارض فلنرَ معكِ نور السماء ايضًا . فلما سمع الحاكم ذلك الكلام ورأَى دموع الصبيين اندهش وقال أَهكذا تستهزئْنَ بنا النساء والاطفال . فامر حينئذٍ بان يربطوهنَّ على خشباتٍ وتُمتشط بالحديد أَجسادهنَّ كافّةً ففعلوا فسال من جراحاتهنَّ لبنٌ عوض الدم . ثم تراءت الملئكة علانيةً وشفوهنَّ وعزّوهنَّ قائلين لاتخفنَ ولتزدد شجاعتكنَّ فستفزنَ بالظفر . ان العذاب ولا ريب ينتهي سريعًا واما اجركنَّ فلن ينتهي . فامر المغتصب ذلك الوقت بان يُلقوهنَّ في النار فلم يمسهنَّ اللهيب . فامر اغريكولاوس بان تُقطع رقابهنَّ فقُطعت وهكذا كان

وبعد وفاتهنَّ امر الحاكم بان يُطرح القديس بلاسيوس في النهر حيث غرّقت أُولئك النسوة اصنامهُ فالقوهُ . اما القديس فاخذ يسير على وجه الماء ثم جلس في وسط الماء وخاطب الوثنيين . قال ا فعلوا مثلي انتم وانظروا هل آلهتكم تُقدركم على ذلك . فدخل منهم في النهر خمسة وستون شخصًا فغرقوا حالاً امام الجميع . وحينئذٍ سُمع صوتٌ من السماء يقول اخرج من النهر يا خليل الله وتكلل باكليل المجد الأبديّ . فاقبل القديس الى البرّ وكان ملتحفًا بنورٍ اخاف الوثنيين وعزّى المسيحيين . فامر المغتصب وقتئذٍ بان يُقطع عنقهُ وهكذا تم القديس بلاسيوس استشهادهُ وكان ذلك في اليوم الثالث من شهر شباط في السنة السادسة عشرة من القرن الرابع وقد قتلوا ايضًا معهُ الصبيَّين المذكورين

اليوم الرابع

وفيهِ ترجمة القديس اندراوس كورسين

ان هذا القديس عليهِ السلام من اشراف فيورنزا مدينةٍ بايطاليا وقد وُلد بها في السنة الثانية على راس القرن الرابع عشر . ولما كان ابواهُ شديدي الوَرَع وقد صليا طويلاً ليبارك الله زواجهما ويمنحهما ثمرةً صالحةً رُزقا هذا الولد وكان هبةً من الله فسمياهُ اندراوس . ومنذ مولدهِ نذراهُ لوالدة الله وقد اخبرت امهُ انها قبل ان تضع بيوم واحد رأت في الحلم انها ولدت ذئبًا صغيرًا . وانهُ هرب حالاً ودخل كنيسة الرهبان الكرمليين فصار للحال خروفًا . فبسبب هذه الرؤيا ولمعرفتها كم يُفيد المرء ان يحمل نير الشريعة الالهية منذ الصبا افرغت كنانة الجهد لكي تجعلهُ من عهد الصغر يسلك طريق البرّ وتزرع في قلبهِ مخافة الله وبغضة الخطيئة . غير ان اندراوس كان منصبًّا على الملاهي كلَّ الانصباب . وتمَّ فيهِ ما رأتهُ والدتهُ في الحلم لانهُ شرع يعاشر احداثًا نظيرهُ وسلك معهم منهج الرذيلة . بحيث ذهب اجتهاد ابوَيهِ في حسن تربيتهِ باطلاً في حمأة الفواحش . وقد كانت والدتهُ التقية تنصحهُ وتؤَنبهُ على ذلك فلم ينجع فيهِ النصح . لان هذه الرذيلة الدنسة تُعمي العقل وتقسّي القلب على انها مع كل ذلك لم تزل تضرع من اجلهِ ملتجئة الى العذراء معزّية الحزناء وتطلب منها ان تردّ الى التوبة من قد نذرتهُ لها منذ مولدهِ . فلم يخيّب الله لها املاً في ذلك بحيث ان اندراوس فيما كان ذاهبًا من منزلهِ ابتغاء ان يفعل الفحشاء رأَى امهُ تذرف الدموع السخينة قال لها لِمَ تبكين قالت انني ابكي يا بُنيَّ العزيز لانهُ

صحّ الجزء الاول من الحلم الذي رأيتهُ قبل ميلادك بيوم واحد لانني حلمت اني ولدت ذئبًا صغيرًا ولكنهُ ما لبث ان تحوّل خروفًا وذلك حينما دخل كنيسة الرهبان الكرمليين. فظننت اني بواسطة تخصيصي اياك لخدمة والدة الله ابطل ما يشير اليهِ ذلك الحلم. لكنما خاب ظني وذهب اجتهادي على غير طائل لان سيرتك هذه الردية تثبت حقيقة الرؤيا. فياليتني ارى قبل موتي هذا الذئب قد تحوّل خروفًا. فلما سمع الشاب الجاهل هذا الخبر من فم تلك الأمّ الفاضلة وهي تبكي بصوت اسيف أثّر في قلبهِ. ثم اكملت النعمة ما قد ابتدأتهُ الطبيعة. فاجابها قائلاً ثقي يا امتا وأيقني بانكِ لا تموتين قبل ان تُبصري هذا الذئب قد صار خروفًا. وها انا منذ الان اتم الجزء الثاني من رؤياكِ. ولكونكِ بنذركِ قد خصصتني لخدمة والدة الله فيجب عليّ ان اكون عبدًا لها. فليتعزّ قلبكِ لاني لست ادع صلواتكِ المقرونة بالبكاء من اجلي تذهب باطلةً. اغفري لي ما قد اسات بهِ اليكِ وصلي طالبةً من الله تعالى ان يغفر لي مآثمي. ثم توجَّه من البيت نحو الرهبان الكرمليين. فدخل الكنيسة وجثا امام ايقونة مريم العذراء باكيًا تائبًا ونذر نفسهُ لله تعالى ولوالدتهِ المجيدة نذرًا مؤبّدًا ولم يتحول عن مكانهِ الاَّ وقد تغيّر بالكلية ثم ترهب في هذه الرهبانية المقدسة

ولما شرع ينهج طريق الفضيلة سار فيهِ بوافر النشاط حتى كان يتعجب منهُ اقدم الرهبان. ولكن كثيرًا ما شقّ عليهِ بادئ بدء المسير في سبيل البر والكمال بحيث اشتدت عليهِ الحرب من قبل شهواتهِ كثيرًا. الا انهُ قاومها بممارستهِ التقشفات والصمت والصلاة اشد المقاومة حتى انتصر عليها في اقلّ من سنةٍ انتصارًا تامًّا

روى احد الثقات ان الشيطان لما رأى اندراوس ناميًا في الفضائل تراءى لهُ بصورة احد اقربائهِ واشار عليهِ بالخروج من الرهبانية والرجوع الى ما بين العالميين. اما هو فاذ كان مبتدئًا نشيطًا في اتمام واجبات الرهبانية. قال لهُ اليك عني ايها الرجيم فلا اذن لي من رئيسي ان اخاطب احدًا. فذهب ابليس حالاً فظهر بواسطة ذلك خبثهُ وبدا خجلهُ. ثم نذر بعد ذلك النذور الرهبانية وبقي على ما كان عليهِ بحيث لم تزل فضائله زاهيةً. ومن ذلك الوقت ظهرت فيهِ القوَّة التي اعطاهُ الله اياها لردّ الخطأة عن طريق الرذيلة. وقد اتفق ان احد اقربائهِ أُصيب بحمّى الدِقّ فجعل بيتهُ ملعبًا لاهل اللهو والطرب قاصدًا بهذا التنزه ان يدفع عن نفسهِ ما يورثهُ المرض من الملل والضجر. واذ أُخبر القديس ان واحدًا من ذوي قرابتهِ مريض ذهب يعودهُ ولما وصل اليهِ جعل يبين لهُ سماجة هذه الملاهي المضادَّة للمشرب المسيحي. وامرهُ ان يصلي بعض صلوات اكرامًا للعذراء. فنجع النصح بالمريض وللحال ابطل تلك الملاهي العالمية من منزلهِ وقد بارك الله على خضوع المريض لنصيحة القديس. لانهُ من ذلك اليوم الذي شرع فيهِ يصلي لمريم العذراء كما اوصاهُ القديس زال عنهُ مرضهُ المزمن الذي كانت العقاقير الطبية قد عجزت عن شفائهِ

اما عبادتهُ عند تقديس الاسرار الالهية فكانت عجيبةً وقد كان يظهر عند ذلك كملاك ملتهب بنار محبة الله. وقد اتفق مرة ان تراءت لهُ والدة الله حينما كان يقدس وقالت لهُ انك عبدي حقًّا وبك امجد اسمي. وفي الحق ان عبادتهُ لها عليها السلام كانت عجيبةً وقد غالى في ذلك حتى انهُ لم يكن يدعو نفسهُ الا باسم عبد مريم. فاراد الله تعالى ان يُقيم هذا القديس اسقفًا لمنفعة شعبهِ فحرَّك اهل مدينة فيزولي فاختاروهُ راعيًا لهم. فلما شعر الراهب المتضع بذلك هرب واختفى في دير الرهبان الكارتوسيين. ولان الشعب لم يجدهُ بعد التفتيش البليغ عزموا على ان ينتخبوا غيرهُ للاسقفية وبينما هم مهتمون بهذا اذا بطفل صغير عمرهُ ثلث سنين صرخ قائلاً: ان اندراوس الذي اختارهُ الله راعيًا لنا هو في دير الكارتوسيين مواظبًا على الصلاة. فلما تحقق القديس بهذه الأعجوبة ان الله سبحانهُ قد دعاهُ الى درجة الاسقفية فهم من ذلك على سبيل النتيجة انهُ ملتزم بان ينشط بزيادة في ممارسة الفضائل. فارتسم اسقفًا ولكنهُ لم يترك شيئًا من طرائق رهبانيتهِ. بل زاد تقشفات على تقشفاتهِ الاعتيادية وابتدأ يستعمل زنارًا حديديًا ولبس المسح على جسدهِ. وكذلك زاد على صلواتهِ قراءة سبعة مزامير التوبة. وما كان يرقد على فراش وكان يصوم غالب الايام ويصرف اكثر ليلهِ في الصلاة. وقد كان يتحرّى الاَّ يخاطب النساء واذا اضطر فعل ذلك ونظرهُ لايقع عليهنَّ. فلم يكن يسمح لهنَّ بان يدخلنَ منزلهُ فبهذه السيرة الصالحة بدت اثمار التقوى والآداب في الرعية واهتدت جميع الخراف الضالَّة. وتُوفي وفاة اولياء الله

القديسين في اليوم السادس من شهر كانون الثاني في السنة الثالثة والسبعين من القرن الرابع عشر الا ان الحبر الاعظم عيّن لعيدهِ اليوم الرابع من شهر شباط

اليوم الخامس

وفيهِ ترجمة الشهداء اليسوعيين بولس ميكي ويعقوب كيزاي ويوحنا غوتو

اعلم ان القديس فرنسيس كسافاريوس رسول الهند دخل بلاد اليابون في السنة التاسعة والاربعين من الجيل السادس عشر. وبغيرتهِ المتقدة كالنار وبعجائبهِ الكثيرة المذهلة التي حارت فيها ذوو الالباب. وبغيرة اخوتهِ اليسوعيين الذين خلفوهُ في القيام على كرم الله اصبحت الكنيسة في تلك البلاد المذكورة على ما كانت عليهِ من الكمال في زمان مهدها لانهُ عن امدٍ يسير من القاء الرسول المذكور بذور الايمان المسيحي اي بعد ثمان وثلاثين سنةً بلغ عدد المؤمنين الى زهاء كرّتين وكان فيهم كثير من الامراء ونبلاء الدولة. فاضطربت ابواب الجحيم من انتصار الصليب المقدس ونهضت قوّاتهُ فحركت الكفار على اضطهاد الكنيسة وما برحوا الى هذا اليوم يضطهدونها وكان اقسى اولئك المضطهدين تايكوزاما الملك ومعنى اسمهِ اسمى الملوك ومولاهم وقد عزم على ان يستأصل من مملكتهِ الديانة المسيحية بحيث لا يبقى في كل تلك المملكة نصراني ولذلك امر باخراج المرسلين من بلدتهِ. اما اليسوعيون وبعض من رهبان آخرين ففضّلوا البقاء على خطرٍ وآثروهُ على ان يتركوا الرعية المسيحية في هذا الاضطهاد فجالوا ونار الاضطهاد مضطرمة في كل المدن والقرى ليثبتوا المسيحيين في الايمان ويعدّوهم للاستشهاد. فزاد عدد المسيحيين وزهوا بالفضائل حتى كان نار الاضطهاد غدق تُسقى بهِ رياض الفضائل والحاصل انهُ في نحو سنتين عمّدوا ما يزيد على ستين الف شخص

وفي انتهاء السنة السادسة والتسعين بعد الالف والخمس مائة وجّه الملك الى حاكم مدينة اوزاكا رسالةً يأمرهُ بها ان يقبض على الرهبان الفرنسيسكانيين واليسوعيين جميعًا فلم يجد منهم الاّ تسعة ستة من الفرنسيسكانيين وثلثة من اليسوعيين. لان بقيتهم كانوا متفرقين في القرى لاجل تعليم الشعب وارشادهم فكان احد اليسوعيين بولس ميكي والاثنان الاخران يوحنا غوتو ويعقوب كيزاي. لكنما الاخيران كانا بعدُ مبتدئين في الرهبانية وثلثتهم كانوا وُلدوا في مملكة اليابون. اما بولس فكان ابنًا لقائد معتبر في جيش احد الامراء. وهذا القائد تنصّر هو واولادهُ وتعمّدوا في السنة الثامنة والستين بعد الالف والخمسمائة وكان بولس في ذلك الوقت ابن خمسة اعوام فقط. وقد احبهُ والدهُ محبة خصوصية لاجل انصبابهِ على العبادة وذكاء عقلهِ. فارسلهُ الى مدرسة اليسوعيين فما لبث ان مهر هناك بالعلوم البشرية وبعلم القديسين ايضًا. ثم دخل رهبانيتهم وبعد ما انقضت مدة التجربة اقامهُ الرئيس واعظًا لانهُ اذ كانت لهُ موهبة التعليم من لدن الله كانت فصاحتهُ العجيبة مقترنة بفضائل باهرة منها الاتضاع والتورّع والتقشف والاحتشام واللطف الذي بهِ كان يجذب القلوب الى الفضيلة ومن اجل ذلك كانت فصاحتهُ تأخذ بمجامع القلوب وتبدو ثمرتها في الوثنيين. كما تبدو في الخطاة المؤمنين بدون تفاوت ومن اجل غيرتهِ على خلاص النفوس وكثرة الذين تنصّروا بوعظهِ وفرق الذين ارعووا وتابوا عن آثامهم دُعي رسولاً. فبعثهُ رئيسهُ الى مدينة اوزاكا حيث اثمرت غيرتهُ وفصاحتهُ نظير ما اثمرتا من ذي قبل. فتآمر عليهِ علماء الوثنيين وكهنتهم ولكنهُ ما برح يقاومهم بالكلام والكتابة

اما يوحنا غوتو فكان مولدهُ في السنة الثامنة والسبعين من القرن السادس عشر وكان ابواهُ مسيحيين يتقيان الله فربياهُ بمزيد الاهتمام ولذلك كان منذ ايام الصبا حريًّا بان يقال عنهُ انهُ ملَك كريم. فحدث في ذلك العصر اضطراب عظيم في تلك البلدة من قبل الحروب فرحل ابواهُ الى بلدة اخرى وخشيةَ ان يتخلّق ابنهما باخلاق الغرباء والاجنبيين ارسلاهُ الى مدرسة اليسوعيين. فعنب ما برع في العلم ونما في الفضيلة بعثهُ رئيس المدرسة الى اوزاكا ليوازر واحدًا من مرسلي هذه الرهبانية في تعليم الموعوظين. فقام على هذه الوظيفة حق القيام مظهرًا اشتياقهُ الى ان يسفك دمهُ حبًّا بسيدنا يسوع المسيح. وبقي طويلاً يطلب ان يترهب في رهبانية اليسوعيين واذ كان مبتدئًا حديثًا في هذه الرهبانية صدر امر الملك تايكوزاما وقبض الجنود على المرسلين الذين في مدينة اوزاكا. ولقد كان يمكنهُ ان يفر هاربًا الاّ انهُ احتسب ذلك اهانة للايمان وخسارة لنفسهِ

اما اليسوعي الثالث الذي قُبض عليهِ باوزاكا مع

الراهبين المذكورين فهو يعقوب كيزاي . وهذا كان محترفًا من رعاع الناس . ولكن سيرتهُ الحسنة صيَّرتهُ كبيرًا في عيون المؤمنين . اما امرأتهُ فلم تكن كذلك فانها ارتدَّت اخيرًا والعياذ بالله عن النصرانية . فلما رآها فعلت ذلك استودع ابنهُ اناسًا من اهل التقوى واتى مدينة اوزاكا وقدم نفسهُ لخدمة الرهبان اليسوعيين فقبلوهُ وجعلوهُ بوَّابًا في الدير . وقد كان يساعد يوحنا غوتو في تعليم الموعوظين ولما كان ليّن الجانب موطَّأ الاكناف حسن العبادة لسيدنا يسوع المسيح اضحى محبوبًا عند الجميع . فقد كان مواظبًا على التأمل في آلامهِ المقدسة فلذلك كان يمارس اعظم التقشفات . ولما قبض عليهِ الكفرة واسروهُ من اجل المسيح كان وقتئذٍ مبتدئًا في الرهبانية اليسوعية . وطفق ورفيقيهِ يشكرون الله تعالى الذي أهَّلهم لان يُهانوا معهُ ويتألموا ويموتوا من اجلهِ عزَّ وجلَّ فبعد ان قبض الجنود على هولاء اليسوعيين الثلثة المتقدم ذكرهم وعلى ستة من رهبانية القديس فرنسيس ذهبوا بهم جميعًا الى مدينة مياكو وطرحوهم في السجن . فوجدوا في ذلك السجن خمسة عشر شخصًا من المسيحيين اكثرهم كانوا يخدمون رهبان القديس فرنسيس . وقد اندهل الوثنيون من شجاعة ثلثة فتية منهم لويس وانطونيوس وتوما . وكان عمراوهم اثني عشرة سنة . والامرا العجيب هو ان لويس لم يكن اسمهُ مكتوبًا في دفتر المحكوم عليهم بالموت . لكنهُ اذ شعر بذلك فلفرط ما بكى وولول نادبًا دوَّنوا اسمهُ مع الاخرين . ولما كان مسجونًا اتاهُ قائد من قواد الجيش وقال لهُ انني قد وجدت لك سبيلاً الى الهرب . فاجابهُ الغلام المبارك لا تشغل فطنتك في ان تجد لي مهربًا بل اهتم بان نتنصَّر و تُصبَغ بماء المعمودية لانك بدون ذلك تهلك الى الابد

فلما أتى اليوم السعيد الذي كان يشوق هولاء الشهداء الذين كانوا مزمعين ان يُهانوا فيهِ ويتألموا من اجل ابن الله اخرجهم الشُرَط من السجن مكتوفين وساقوهم هكذا الى ساحة متسعة بمدينة مياكو حيث قطع لكل منهم جزء من اذنهِ اليسرى ثم وضعوا كل ثلثة في مركبة وساقوهم على هذه الحال في كل شوارع المدينة . فلما رأى بولس ميكي جمهور الناس يتبعونهُ صيَّر المركبة مِنبرًا للوعظ فشرع حالاً يعظ المسيحيين وشجعهم على الثبات في الايمان المقدس والموت في سبيل السيد له المجد . واوضح للوثنيين انهُ بدون الايمان بهِ تعالى باطلاً يرجون الخلاص . وفي غد ذلك اليوم ذهبوا بهم الى مدينة نانغازاكي حيث طاف بهم الجنود بكل شوارع المدينة كما فعلوا من قبل . وقد وعظ بولس ايضًا كما فعل بمدينة مياكو . وكان الوثنيون يتعجبون من البهجة التي كانت تبدو على وجوه اولئك الشهداء وتظهر من حديثهم . اما حاكم المدينة فلما رأى بولس ميكي في هذه الحال جرت عبراتهُ كالانهار وذلك لسبب المحبة العظيمة التي كانت بينهما منذ عهدٍ طويل فعزاهُ بولس قال لهُ لا تحزن على سعادتي ولكني اطلب اليك شيئًا ان تتَّئد وتمهل علينا قليلاً لكي نتناول القربان المقدس وان اردت فامِتنا يوم جمعة . فرضي حاكم المدينة بذلك وحينئذٍ طاب بولس نفسًا وقال . اشكرك اللهمَّ لانك اهَّلتني لان اموت كابنك الوحيد فان عمري بقدر عمرهِ وقد حكم عليَّ بان اعلق على الصليب يوم الجمعة . ولما كان ذلك اليوم وهم ذاهبون في الطريق دخلوا باذن الحاكم كنيسةً ما وهناك وجدوا مرسلاً يسوعيًّا فسمع اعترافاتهم وناولهم القربان المقدس . وقبل نذور يوحنا غوتو ويعقوب كيزاي ثم اتاهم رسول وقال لهم ان الحاكم ينتظرهم على الجبل فخرجوا حالاً وذهبوا مسرعين فرحين الى الجبل حيث كان التأم جم غفير من الشعب . فلما وصل الشهداء الى المكان ورأوا الصلبان جثا كلٌّ منهم امام الصليب المعدّ لهُ وقبَّلهُ بعبادة وسرور لا يكاد الفصيح يفي بنعتهما . وكان المؤمنون يبكون والوثنيون يتحيرون . فامتدَّ الشهداء على صلبانهم وحينئذٍ اوثقهم الجنود على الخشب بالحبال وطوَّقوا اعناقهم بالحديد . ثم رفعوهم وانزلوا الصلبان في صخرة كانت مهيَّأة لهذا الغرض

واما الجنود فكانوا قد قبضوا على حِرابهم وتهيَّأوا لطعن الشهداء . وفي ذلك الوقت حضر ابو يوحنا غوتو فلما رآهُ ابنهُ قال لهُ . اشكر الله يا ابي واحمدهُ لانهُ أهَّلني لان اموت من اجل النصرانية . فلا جرم انهُ ينبغي لنا يا ابتاهُ ان نفضل خلاصنا على كل شيء . فاجابهُ ابوهُ قائلاً حسنًا قلت يا ابني فانا شاكر الرب على ما انعم بهِ عليك . واطلب منهُ تعالى ان يحفظ نفسك في حال هذا الاستعداد الخلاصي . وايقن انني انا ووالدتك مستعدان ايضًا بنعمة الله لان نسفك دمنا لاجل الايمان المقدس . واذ كان ابوهُ واقفًا تحت صليبهِ طعن الجنود قلب الابن بحربتين وكان دمهُ ينصبُّ على ثيابهِ وهو يشكر الله بكل قلبهِ . اما بولس ميكي فكان من على صليبهِ

يعظ الحاضرين بفصاحة الهية وختم عظتهُ بصلاة لاجل قاتليهِ. واما الشيخ يعقوب كيزاي الذي كان قد ناهز الرابعة والستين من عمرهِ. فكان غائصًا بحر التأمل في آلام ابن الله منهللاً فرحًا لما بين موتهِ وموت السيّد من المشابهة. فلما رفع الجنود حرابهم ليطعنوهم. عند ذلك رفع الشهداء الحاظهم نحو السماء مقدمين حياتهم ذبيحة لله. وحينما نطقوا كلهم بصوت واحد باسم يسوع طعنت الجنود قلوبهم بالحراب وهكذا تمت شهادتهم. وقد ذكر عن لويس انهُ لم يكن يكف عن تلاوة الصلاة الربية وبشارة الملاك لمريم البتول مدة استمرارهِ على الصليب كلها. اما انطونيوس فكان يُرنم مع النبي قائلاً سبحوا الرب ايها الاطفال الخ. وكان الحاضرون كلهم يذرفون الدموع. وقد استُشهد هولاء القديسون في اليوم الخامس من شهر شباط في السنة السابعة والتسعين بعد الالف والخمسمائة

اليوم السادس

وفيهِ ترجمة القديسة اغاثا الشهيدة

قد وُلدت القديسة المشار اليها بكاتَنا مدينة بجزيرة صقلية في السنة الثلاثين من القرن الثالث للمسيح وقيل انها ولدت بمدينة بالرما. على انهُ من المحقق انها كانت ساكنة في بالرما زمن الاضطهاد الذي يأتي ذكرهُ. وانها استُشهدت في مدينة كاتَنا. وقد كانت من شرفاء المسيحيين فنشأت في حِجر والديها على حسن العبادة. فنمت في الفضيلة ومنذ حداثتها نذرت لله عفتها. غير ان عدوّ كل خير وفضيلة اخزاهُ الله قصد ان يقلع ما قد كان الروح القدس غرسهُ فيها من الصلاح فاستعمل لبلوغ اربهِ الخبيث فضائل هذه الفتاة ومناقبها الطبيعية. ولما كانت ذكيّة العقل وبارعة في الجمال وغنيّة جدًّا هيَّج الشيطان لعنهُ الله اشخاصًا فاخبروا حاكم الجزيرة المدعو كينسيانوس بها وبصفاتها المذكورة وكان هذا الرجل وثنيًا فعزم حالاً على ان يتزوج بها فارسل اناسًا ليحضروها فلما وصلوا الى مدينة بالبرما حيث كانت وبلغوا البنت البتول امر الحاكم دخلت مُخدَعها وجثت امام ايقونة سيدنا يسوع المسيح وهناك طفقت تظهر كل عواطف ذلك القلب النقي وما في نفسها من المنى الصالحة قائلة ربّي انك انت فاحص قلبي وعالم بسريرتي فلا تسمح الهي ان قلبًا انقطع

الى عبادتك يميل الى سواك. فاحفظني انا نعجتك من شرّ هذا المغتصب. ونجّني من انياب الذئب الجهنمي. واهلني لان أُذبح واموت من اجلك. فعقب ان فرغت من هذه الصلاة التي ختمتها بطلب الاستشهاد سافرت الى مدينة كاتَنا وهي مبتهجة ومستعدة لان تسفك دمها

وفي ذلك العصر كان داسيوس قيصر قد امر كل ولاة المملكة بان يضطهدوا المسيحيين ويُذيقوهم اشد العذاب ويُميتوهم اشنع الميتات. فرأى كينسيانوس ان الزمن مساعدٌ على نيل مأربهِ فقصد ان يُكرِه البتول على جحد الايمان المسيحي. فلما مثلت امامهُ ورأى جمالها الرائع كَلِف بها والتهبت في قلبهِ نار العشق اخمدها الله من كل قلبٍ فلم يدعهُ الغرام يخاطبها بقساوة وتحكُّم فأُخذت بامرهِ الى افروديسيا امرأة كانت قد جعلت منزلها ماخور الزناء وكانت ايضًا تربّي فيهِ كثيرًا من البنات لهذا الغرض الخبيث. وقد احتسبت اغاثا الدخول في هذا المنزل اشدّ من كل عذاب. ولذلك هيهات ان نصف ما قاست من التألُّم في هذا المكان الفظيع مدة شهر واحد من قبل تلك البغيّ التي كانت تجتهد واولئك البنات في اجتذابها الى سيرتهنَّ القبيحة. واما هي فكانت تذرف الدموع ليلاً ونهارًا ضارعة الى الله تعالى في شانها. وفي ذات يوم قالت لافروديسيا اني قد تحققت انكِ تريدين ان اكفر بدين السيد المسيح وابيع بكوريتي فلا تظني انكِ تبلغين هذا الارب وتقنعيني ببراهينكِ الباطلة لكوني انا احتسب لسانكِ لسان الشيطان الساكن في قلبكِ لا لسان امرأة وبما ان النصرانية تلزمني بمحبة القريب انصحكِ بمودة واسألكِ ان تتركي القيادة اي الوظيفة الزنائية التي بها تعلمين الفتيات الغافلات شرورًا لا يعرفنها بحيث تنصبين فخاخ الدنس وتمهدين لهنَّ منهج الهلاك الابدي واعلمي انكِ بسيرتكِ وسيرة اولئك البنات المتعلمات منكِ القبائح تضرّين هذه المدينة اعظم مما لو احرقتِها كلها بالنار. فلئن تغاضى الحاكم الآن عن شركِ فلن يُغضي الله سبحانهُ عنهُ سوف ينتقم منكِ من دون ريبٍ. اما نظرًا الى ما تُريدين مني فان كنتِ لا تريدين ان ترجعي عنهُ خوفًا من الله فدعيهِ اقل ما يكون خوفًا من ان يذهب تعبكِ على غير طائلٍ. فان محبتي لسيدي يسوع ولزنبق العفاف الزاهي قد تأصّلت في قلبي كل التأصّل حتى اني ارجو مع عون ربي ان الشمس تفقد نورها. والنار حرارتها والثلج بياضهُ قبل ان

يخلّ عزمي. فليتخذ كينسيانوس سكاكينهُ وسيوفهُ وليجمع جميع الاسود والنمورة والضباع . وليعدّ لتعذيبي كل آلات غضبهِ وقساوتهِ وان استطاع فليفتح ابواب الجحيم كلها ويطلق عليَّ جميع الشياطين فاني بحول الله لا اموت الاَّ عذراء مسيحية . ومن حيث ان الله سبحانهُ قد وعدني بانهُ يحفظ نفسي وعفتي فلاجل ذلك لا ابالي بكل أعذبة هذا المغتصب

واما افروديسيا الشريرة فلما سمعت هذا الخطاب الملكي مضت الى الوالي وقالت لهُ اعلم يا صاحب السعادة اني لم آلُ جهدًا في ان استميل اغاثا الى ما تروم فرأيت ان ذلك مأرب لا مطمع في بلوغهِ بحيث انهُ لأَيسر ان يلين الحديد والفولاذ من ان تُنكر النصرانية وتنكث بنذر العفة . فأَمر حينئذٍ كينسيانوس بان تحضر تلك الفتاة امامهُ واذ مثلت امام عرشهِ قال لها : اغاثا لماذا تستمرين في ديانة الفقراء المهانين من جميع القبائل وانتِ شريفة الاصل . فاجابتهُ البتول قائلةً اي نعم اني من قوم شرفاء عند اهل الارض فهو مما لا يستحق اعتبارًا وانما الشرف الذي يفتخر بهِ هو التعبد لسيدنا يسوع المسيح فقال لها الحاكم فنحن اذًا الذين نحتقر مصلوبكِ خالون من كل شرف . اجابت اغاثا نعم ان الذين تعبّدوا للشيطان بسجودهم للاصنام لا شرف لهم البتة . فاحتدم المغتصب غضبًا وامر بان تُلطَم على وجهها ثم أُخذت الى السجن فدخلتهُ مسرورة واستمرَّت هناك الليل كلهُ مصلّيةً وطالبةً من الله ان يؤَهلها لان تموت من اجلهِ. وفي الغد احضروها امام كينسيانوس فاخذ يلاطفها برقة الكلام ويعدها بانهُ ينيلها الكرامات والخيرات الدنيوية ان ارتدَّت عن النصرانية . فلما رأتهُ اسهب الخطاب في هذا المعنى قطعت كلامهُ وقالت : باطلاً تعدني بان تحفظ حياتي كما تتوعدني باطلاً بالعذاب الاليم لان حياتي انما هي في يسوع بل هو حياتي عينها فلا تظن اني اخاف مما تهددني بهِ من العقوبات لاني اشتاق اليها فوق ما يشتاق الايّل الى ينابيع المياه وقد احرقهُ الظماء . واني لأُحب العذاب والموت اللذين يبلغان بي الى سيدي وحبيب قلبي يسوع . كما ان الحنطة لا تدخل الاهراء قبل ان تنفصل من السنابل كذلك النفس لا تلج السماء قبل انفصالها من الجسد . فان اردت اذًا ان تستعمل ضد حياتي السيف فهآنذا مستعدة لتقدمة عنقي . وان شئت ان تضربني بالسياط او تحرقني بالنار فها هوذا جسدي مستعدّ . وان رمت ان تطرحني طعامًا للوحوش فهآنذا اقدم لك جميع اعضاءي فاربطها واضربها بل اسحقها واسلخها واحرقها ولاشِها . فان كنت عليَّ قاسيًا تكن اليَّ محسنًا على ان شدة تعذيبك اياي تزيدني خيرًا وتصيّرني لدى يسوع عروسي اكثر قبولاً . فانهض اذًا وافعل ما تشاء . الى متى تقعد عن عذابي

فتلهب كينسيانوس غيظًا وازداد رجزًا وامر بان يضغطوا ثدييها بآلةٍ من حديد حتى يتمزّقا . واما هاتيك العفيفة الباسلة فقالت للمغتصب في محل العذاب : كيف لا تستحي من ان تقطع ثدّيي فتاة من بعد ان تغذيت ايام الطفولية من ثدي امك . وبعد ان مزّقوا ثدييها كل ممزّق اعادوها الى السجن وامر الوالي بان تُترك هناك بلا طبيب ولا علاج . غير ان الله تعالى ارسل اليها القديس بطرس الرسول فشفاها . ثم تلألأ في السجن نور سماوي فخشي منهُ الحراس وفرّوا هاربين . فاوعز الناس الى القديسة بان تنتهز الفرصة فتهرب . فقالت لهم حاشا لي ان اخرج من الميدان قبل انتهاء الحرب والفوز بالظفر . فاقامت هناك اربعة ايام ثم استدعاها الوالي فلما رآها قد نالت الشفاء شرع يعذبها على اسلوب آخر امر بان تُلقى عريانةً وتُقلَّب في نار حامية لكي تحترق من كل جهة . ولما اذاقوها ذلك العذاب الاليم حدث زلزال عظيم في المدينة كلها وقُتل بهِ شخصان كانا يحرّكان الحاكم على تعذيب القديسة وهما سيلفينوس وفالكونيوس فتعصّب حينئذٍ الشعب على الحاكم فلما رأى ذلك أَمر بترجيع اغاثا الى السجن واختبأ . فلما دخلت السجن رفعت يديها الى السماء الى حيث كان قلبها وقالت ايها الرب الهي الازلي يا من شددني بقوّتهِ لكي اقاوم المغتصب وانتصر عليهِ لتمجيد ايمانهِ واقدرني على احتمال تعاذيبهِ امدد اليَّ يد الرحمة وخذ نفسي التي تشوق اليك شوق الغريب الى الوطن . فلما اكملت هذه الصلاة انتقلت الى رحمة الله حيث تحيا حياة سعيدة في جنان الخُلد . وكانت وفاتها في اليوم الخامس من شهر شباط في السنة الحادية والخمسين من الجيل الثالث

فلما شعر كينسيانوس بموت القديسة اغاثا رحل حالاً بجنودهِ الى مدينة باليرما ليختلس ميراثها . وحينما كان ذاهبًا في الطريق نهشتهُ دابة في وجههِ وفيما هو يخوض في نهر رفستهُ دابة اخرى وطرحتهُ في الماء وهناك غرق وفتش اتباعهُ عن جثتهِ فلم يجدوها . وهذا الامر الذي بهِ اظهر الله تعالى عدلهُ

زاد القديسة اغاثا مجدًا . ثم انهُ سبحانهُ شرَّفها بعجائب كثيرة منها ما جرى في كاتانا وهي مدينة بقرب جبل شامخ لا يزال الثلج على قمتهِ مدى السنة. وذلك الجبل لا يزال ملتهبًا بالنار ومبرزًا لهيبًا على الدوام . فغب عام من مماتها في مثل اليوم الذي استُشهدت فيهِ خرجت من جوف ذلك الجبل اصوات مرهبة ثم انبعثت منهُ نار عظيمة فخيّل للناس انها نهرٌ من نار . ولما كانت تلك المدينة على مسافة ساعة من الجبل المشار اليهِ واللهيب متجهًا نحوها فزع الوثنيون سكانها ولجأوا الى قبر القديسة اغاثا واتخذوا إزارها ومضوا بهِ تجاه تلك النار المقبلة الى مدينتهم فوقفت النار حالاً ثم انطفأت وقد كرَّر الله هذه الآية مرارًا

اليوم السابع

وفيهِ ترجمة القديسة دوروتاها البتول الشهيدة

اعلم ان والدي هذه القديسة كانا من اشرف سكان رومية لان والدها كان احد قضاة تلك المدينة وكان اسمهُ تاودوروس واسم والدتها تانا ودورا . فلما رأى والدها انهُ قد اشتد الاضطهاد على المسيحيين جدًّا اتفق مع قرينتهِ التقية وفرَّا هاربين الى مملكة كبادوكيا واستوطنا مدينة قيسارية . وهناك رُزقا هذه الابنة المباركة دوروتاها وقد تعزيا جدًّا بها لان الروح القدس مرشدها الالهي افاض مواهبهُ عليها منذ الصغر . فنمت على العبادة وتسامت في الفضائل لاسيما الاتضاع والوداعة والعفة . ثم ان الله تعالى زيَّن تلك الفتاة النقية بعقل ثاقب حتى صارت الفريدة بين بنات عصرها . وكان لها فوق ذلك من البهاء ما يعزُّ وجود مثلهِ . ولذلك طلب كثيرون ان يخطبوها فما ارتضت بذلك ولاغرو فان قلبها كان مغرمًا ومتيمًا بعشق الحضرة الالهية فكيف لا واذ نذرت العفة عاهدت يسوع بانها لا تهوى سواهُ تعالى . وقد اشتهر عزمها على حفظ البتولية في تلك المدينة كنار فوق قمة شامخ حتى ان الناس طرًّا دعوها عروس السيد المسيح . غير ان الشيطان الرجيم اخزاهُ الله قصد ان يصيِّر دوروتاها عروسهُ فحرَّك بعضًا من الكفرة فاخبروا الحاكم سابريسيوس بجمالها البارع وعقلها الثاقب وقالوا لهُ انها وحدها تصدُّ المسيحيين عن عبادة آلهة الملك . فارسل سابريسيوس اناسًا ليأتوهُ بها . فلما حضرت بين يديهِ سألها عن اسمها فاجابتهُ قائلةً ان اسمي دوروتاها . وقد نطقت هذه الكلمة بابلغ لطفٍ فصار المحفل كلهُ يحترمها . فسألها الحاكم ثانيةً قائلاً لماذا لا تعبدين الالهة كما امر الملك . اجابتهُ الفتاة اني لست اعرف آلهة الملك بل انني اعبد الهًا واحدًا وهو خالق السماء والارض بقوة كلمتهِ ولا اعبد الاصنام التي هي من عمل البشر . فتحير سابريسيوس من حكمة جوابها غير انهُ ذكَّرها ما حلَّ بوالديها من العذاب الاليم لانهما لم يسجدا للآلهة وتوعدها قائلاً ان حظكِ سيكون نظير حظهما ان كنتِ لا تطيعين امر قيصر . فاجابتهُ الابنة التقية ما كنت لأخاف العذاب ولا الموت بل انما قلبي يرغب في ان اجود بنفسي حبًّا بمن هراق دمهُ الكريم لاجلي . فقال لها الحاكم ومن ذا الذي ترغبين في ان تموتي حبًّا بهِ . فقالت ان ذلك هو مخلصي يسوع تقدس اسمهُ . فقال لها واين هو سيدكِ يسوع . قالت اما لاهوتهُ ففي كل موضع واما ناسوتهُ ففي السماء من عن يمين الله ابيهِ حيث ارجو ان احظى بهِ الى الابد بعد موتي فهنالك النعيم الذي لا يزول فكم اشتهي ان تفوز معنا بتلك الجنان ولكن لا سبيل الى ذلك الا بان تتنصَّر . اما سابريسيوس فقال لها اقبلي مشورتي واعبدي آلهتنا وارتضي بالزواج والاَّ فانكِ تُعانين باشدّ العذاب . فقالت حاشا لي ان اعبد الشياطين او ان اتزوَّج بعد ان صرت عروسًا للسيد المسيح . فما تمالك الحاكم ان يسمع كل كلامها فقطع حديثها وقال ان النصارى قد أسبلوا دون ذكائكِ حجاب الخرافات والخزعبلات التي في ديانتهم الباطلة فآه منكِ قد خُلقتِ باذكى عقل ولكن لا تستعملينهُ الاَّ لسوء حظكِ وهلاككِ . فقالت دوروتاها أَلا ايها الحاكم اللبيب لأَية علة تحسب سعادة الانسان في ما يزول والموت الذي بهِ نصل الى السعادة الحقيقية تدعوهُ شقاء

فتعجب سابريسيوس الوالي والحاضرون من قوة خطاب دوروتاها واحتشامها المقترن بالشجاعة المقدسة ولكنهُ اذ رأى انهُ قد ضاق ذرعًا وعجز عن ان يقنعها بكلامهِ عزم على ان يستعمل معها حيلة سوَّلت لهُ نفسهُ انهُ بها يبلغ اربهُ . فبعد ان اعاد القديسة الى السجن استدعى اختين وجدهما ملائمتين لغرضهِ وقد كانتا ثاقبتَي الفكر لطيفتَي الكلام ومن قبل الضعف البشري جحدتا الايمان المسيحي فلما حضرتا لديهِ قال لهما لقد عرفتما فرط سخائي عليكما لانكما قد ارتددتما عن النصرانية اكرامًا لي فاريد منكما ان تفرغا كنانة الجهد في ان تجعلا

دوروتاها نقفي على آثاركما حتى اذا اتممتما ذلك جوزيتم مني ومن جلالة الملك خير الجزاء. فسرّت لذلك تانك الاختان وعاهدتاهُ بانهما تنفذان امرهُ. وكان اسم احداهما كريستينا والاخرى كاليستينا فامر سابريسيوس بان تُقاد دوروتاها الى بيت هاتين الاختين وتُسلَّم اليهما. فمذ وصلت الى منزلهما شرعتا تُغريانها بان تنكر السيد المسيح. ولكنما هي عليها السلام طفقت تبين لهما سماجة هذه الخطية الكبيرة وشدة العذاب الجهنمي الذي اعدَّهُ لها جحود ابن الله. فافحمتهما وارهبتهما بذلك الكلام البليغ الاّ ان اليأس من رحمة الله كان اشتملهما لاجل جسامة اثمهما. فقالتا لها كيف نتجاسر على الرجوع الى يسوع ابن الله بعد ان كفرنا بهِ تعالى. فقالت البتول لماذا تتكلمان بهذا اما تعلمان ان اليأس من رحمة الله هو اشنع من الكفر بايمانهِ تذكَّرا انهُ تعالى انحدر من السماء ليشفي البشر من كل امراضهم وانهُ لا يوجد اثم ولا جرح نفس ولو مهما كان عظيمًا يعسر شفاؤهُ على طبيبنا الالهي. انهُ جلت رحمتهُ اتخذ اسم مخلص البشر ليعلم كل ذي جسد انهُ اذا التجأ اليهِ سبحانهُ بتوبة فانهُ يجد الخلاص بلا شك. فتوبا توبةً نصوحًا فانهُ يغفر لكما. وفيما كانت تورد لهما هذه الحقائق خرَّت كريستينا وكاليستينا على قدميها وطلبتا اليها بأسف شديد ودموع غزيرة ان تضرع من اجلهما لكي يغفر الله خطيئتهما ففعلت ثم حضر رسول من قبل الحاكم يأمر الاختين بالاتيان اليهِ مع دوروتاها فلما وصلنَ الى الحاكم قالت لهُ كريستينا وكاليستينا اننا نعترف امامك وامام هذا المحفل الغفير باننا قد اجترمنا جرمًا عظيمًا جدًّا حينما جحدنا الايمان بسيدنا يسوع المسيح وسجدنا للاوثان خوفًا من العذاب والموت الزمنيين. فلما سمع الحاكم هذا الكلام تلهَّب قلبهُ غضبًا ومزَّق ثيابهُ وامر بان تُوثق الاختان ظهرًا لظهرٍ وتُلقيا في خلقين مملوة زيتًا مغلي. فشرعت الاختان تشكران الله وطلبتا منهُ تعالى ان يقبل موتهما وفاءً عن نفاقهما فطرحها الجنود في الخلقين وحينئذٍ خاطبتهما دوروتاها بتهليل قائلةً تقدَّماني يا اختيَّ وتيقَّنا ان خطيئتكما خطيئة النفاق قد غُفِرت لكما. اما سابريسيوس الوالي فغضب على هاتيك البتول وقال لها الى متى تتنزين على آلهتنا وملكنا. ثم امر بعد وفاة الاختين بان تلقى ايضًا في الخلقين. غير ان الله تعالى حفظها سالمة. فمن اجل هذه الاعجوبة آمن كثيرون بالسيد المسيح. فامر وقتئذٍ سابريسيوس بان تُعذَّب اشد من ذلك العذاب فربطوا رجليها وعلَّقوها على عمود ثم ضربوا جسدها الطاهر بسياط وحبال ثم مزَّقوهُ بمخالب حديدية ووضعوا على ثدييها شموعًا متقدة. فكانت البتول تحتمل هذا بسرور وابتهاج. فسألها الوالي عن سبب ذلك فاجابتهُ قائلة اني لافرح من اجل ان السيد المسيح بواسطتي خلص كريستينا وكاليستينا اللتين كان الشيطان اسرهما بواسطتك. فامر حينئذٍ سابريسيوس بان يُقطع عنقها فهتفت دوروتاها قائلة اشكرك يا محب النفوس ومخلصها لانك تدعوني الى فردوسك السماوي وخرجت من المحفل. فدنا منها تاوفيلوس شاب من الشرفاء وقال لها مزدريًا بها. الى اين تمضين يا دوروتاها فاجابتهُ الشهيدة اني ماضية بسرور الى بستان عروسي. فقال لها ايضًا تاوفيلوس متهكمًا عليها اسألك يا عروس المسيح ان ترسلي اليَّ قليلاً من فواكه وورد بستان عروسكِ. فقالت لهُ تلك الفتاة الطاهرة وما احلى كلامها: اعلم يقينًا انهُ سيتم الامر كما طلبت. فلما وصلت الى المشهد تقدم اليها طفل جميل المنظر وقدَّم لها في صحفة ثلث ثمرات وثلثة ازرار وردٍ باوراقها الخضراء مع ان الزمن كان شتاء اما دوروتاها فقالت لهُ أهدِ هذا من قبلي الى تاوفيلوس وقل لهُ ان هذه الفواكه وتلك الزهور من بستان عروسي يسوع. فبعد ذلك ذهب الطفل. ثم قدمت هي رأسها فقطعهُ السيَّاف وانتقلت نفسها الى السماء لتحظى بعروسها الالهي لهُ المجد الى دهر الداهرين. وكان موتها السعيد في اليوم السابع من شهر شباط في السنة الثامنة من القرن الرابع

اما تاوفيلوس المذكور فبينما كان في منزلهِ هو وجملة اناس يذكر لهم ما فعل من الاحتقار بالقديسة دوروتاها. اذا بالطفل المذكور دخل عليهِ وقدم لهُ الفواكه والزهور التي ذكرناها وقال لهُ هذه هدية لك من اختي دوروتاها أُجتنيت من بستان عروسها قال هذا وغاب عن النظر. فجثا حينئذٍ تاوفيلوس على الارض مندهشًا شاكرًا الله تعالى على ما احسن بهِ اليهِ معترفًا امام الحاضرين بان السيد المسيح هو اله ومخلص العالم. ثم هتف قائلاً لتكن مباركًا يا يسوع الهي عروس العذراء دوروتاها فالطوبى للذين يؤمنون بك يا يسوع الاله ويموتون من اجل ايمانك. فخرج احد الحاضرين واخبر الحاكم بما كان فلم يصدق حتى مثل امامهُ تاوفيلوس واقر معترفًا بايمانهِ بسيدنا يسوع المسيح فحكم عليهِ المغتصب بان يتعذب كما

تعذبت دوروتاها فعلّقوهُ برجلَيهِ على خشبٍ وضربوهُ بغاية القساوة ومزّقوا جسدهُ بمخالب حديدية وكووهُ بشموع متقدة . اما هو فكان يكابد كل هذه الاعذبة ويحتملها بوجه باشّ ولا يتكلم بما يدل على الغم والكآبة بل كان يقول يا ايها الرب يسوع ابن الله الحي اني اعترف باسمك القدوس فاقبلني ما بين عبيدك . ثم امر سابريسيوس بقطع رأسهِ وهكذا نال اكليل الاستشهاد مثبتًا الايمان بدمهِ الزكي

اليوم الثامن

وفيهِ ترجمة القديس تاودوروس الشهيد الكبير

وُلد هذا الشهيد المشهور باوكاييت مدينة بقرب اماسيا وكان معتدل القوام ذكي الجنان شديد البأس كريم الاخلاق باهر الفضائل ويبين ذلك من هجومهِ على تنين على ما يأتي

فيما كان تاودوروس مدججًا بسلاحهِ أُخبر ان تنينًا هائل المنظر مأواهُ بقرب وطنهِ حيث يخرب ويهدم كل البلاد بحيث اذا خرج من مغارتهِ افترس كل من صادفهُ من انسان وبهيم فلذلك خرج بالهام الله من العسكر يطلب ذلك التنين . على انهُ لم يكاشف اصحابهُ ولا جنودهُ بشيءٍ من ذلك ولا جرم ان محاربتهُ بقوة الله جعلت لهُ املاً في ان يُنقذ الوطن منهُ . ولما كان بعدُ لا يعرف ابن مقر التنين المشار اليهِ استراح على حزَمٍ من عشب يابس باحد المروج وحينئذٍ رأى عن بعدٍ امرأة مسيحية فاضلة ركضت اليهِ وفرائصها مرتعدة وامسكت يدهُ وايقظتهُ قائلة انهض يا بُنيَّ وجدَّ في الهرب لانك لا تدري على اي خطرٍ انت واخبرتهُ بان في المكان القريب منهُ تنينًا كان يحزن كل هذه الناحية

فنهض جندي يسوع المسيح لا خائفًا ولا مضطربًا وقال للمرأة تنحي جانبًا وانظري اعمال يد الله عزَّ وجل فهربت المرأة واذ رأت انها قد ابعدت عن الخطر جعلت تتضرَّع الى الله تعالى لكي يقوّي تاودوروس فصلّت وضربت صدرها ورفعت عينيها الى السماء وسألت الله النصر والأيد فنصرهُ على ذلك الوحش الضائر كما أيدهُ على اعدائهِ مرارًا كثيرة

فالشهيد القديس امر حينئذٍ التنين باسم يسوع المسيح ان يخرج من موضعهِ ويحضر ساحة القتال . واذ أتى مادت الارض وتكسَّرت الحجارة حيث مرَّ . واما تاودوروس فحالما رآهُ علا جوادهُ وضربهُ بالمهاز فرمى الفرس بنفسهِ على التنين والحاصل ان فارس يسوع المسيح شكر الله من بعدما قتل التنين بضرب السيف لانهُ نصرهُ على هذا الحيوان الهائل المنظر . فكثير من الوثنيين تنصَّروا اذ عرفوا بهذه الآية فصار تاودوروس معتبرًا عند كل احدٍ

لكنما الامبراطور ليسينيوس شدَّد الظلم وأصرَّ على اهراق دماء المسيحيين ووقتما عرف انهُ لا يقدر ان يضعفهم وانهُ كلما اراد إبادتهم نموا وكثروا عزم على ان يصبَّ كاس غضبهِ على وجوه النصارى وان يُبيد كل من لهُ اعتبار قليلاً كان او كثيرًا . وبما انهُ علم ان تاودوروس من الوجوه ومشهور بسجاياهُ الحميدة ارسل جنودًا من نيكوميدية الى هيراكليا حيث كان تاودوروس حاكم الاقليم

فعامل القديس بالحسنى والاجلال مدة ثلاثة ايام العساكر الذين كانوا قد طلبوهُ وقال لهم كلامًا لطيفًا وكتب الى الملك وذكر لهُ اسبابًا تحملهُ على الحضور مع كل آلهتهِ . فجاء ليسينيوس بنفسهِ الى هيراكليا ومعهُ كل حاشيتهِ لكي يقابل تاودوروس معتقدًا يقينًا بان يقنعهُ بعبادة آلهتهِ الكاذبة وان بقية الكاثوليكيين يقتدون بهِ . ولذلك من بعدما وصل الامبراطور لاطف كثيرًا وابدى فضلاً لتاودوروس فطلب من الملك ان يعطيهُ الآلهة التي عندهُ لكي يبخرها في بيتهِ قبل ان يسجد لها علانيةً . اما الملك فارسلها اليهِ بكل رضًا وكانت من ذهب وفضة ومغشَّاة باقمشة ثمينة فكسَّرها القديس تكسيرًا ووزَّعها على الفقراء

واذ عرف ليسينيوس ان تاودوروس هزأ بهِ وبآلهتهِ حصل لهُ من الغيظ والغضب ما لا يُصدَّق وهيَّأ كل آلات العذاب التي عذَّب بها غيرهُ من فوارس السيد لهُ المجد . فسلَّح الله تاودوروس بروحهِ قبل ان قاتل ليسينيوس لانهُ سمع هاتف الغيب يقول لهُ تشجَّع يا تاودوروس واتكل عليَّ لاني معك . فبالنعمة التي نالها والصلاة الحارَّة التي قدمها متهيأً للقتال حيث قدم نفسهُ ذبيحةً احتمل بثبات كل الاعذبة والعقوبات التي عذبهُ بها المغتصب . فمدَّهُ اولاً بواسطة اربعة جلَّادين اقوياء ضربوا منكبيهِ خمسمائة ضربة باعصاب البقر وخمسين ضربة على بطنهِ وكسروا كل جسدهِ بحبال على اطرافها رصاص وسلخوا جلدهُ بمخالب من فولاذ ثم حرق جراحهُ بمشاعل ومسح دمهُ الجامد باطراف القدور المكسرة . ثم ارسل الى السجن وبقي هناك خمسة ايام لا آكلاً ولا شربًا . ثم

صلبهُ وكان قد جرحهُ بسكين في وسط جسمهِ وهيّج الغلمان فرشقوهُ بالحجارة والشعب فعذبوهُ

وفيما هو تحت هذه البلايا كان يتوسل الى الله لكي يُنجدهُ على احتمالها بصبر قائلاً بشكوى حبية قلت لي يا سيدي انك كنت مع عبدك لكنني الان بعيد عنك بحيث تركتني بايدي اعدائك الذين يمزّقونني كالوحوش الضارية فلم يبقَ لي الا ان ابتهل اليك لتتسلم روحي قال هذا وسكت. وتركهُ ليسينيوس على الصليب وقد ظنّ انهُ مات لكنما في اول الليل نزل ملك وانزلهُ عن الصليب وشفاهُ شفاءً تامًا وقال لهُ افرح يا تاودوروس وتقوَّ بالله فانهُ معك ولا تقل انهُ بعيد . كُلّل بشجاعة القتال الذي باشرتهُ واغلب لتظفر باكليل الخلود . وحينئذٍ توارى عنهُ الملك وحمد القديس الله وشكرهُ على انهُ اثبت قدسهُ ونصرهُ بقدرتهِ

كان ليسينيوس قد امر اثنين من قوادهِ انطيوخوس وبتريسيوس ان يجلبا ليلاً جسد القديس تاودوروس الذي كان قد تُرك ميتًا لكي يضعهُ في سَفَطٍ ويطرحهُ في البحر خشية ان يكرّمهُ النصارى . فاتى القائدان مكان العذاب فوجدا العود الذي كان القديس مصلوبًا عليهِ وما كان تاودوروس حينئذٍ معلقًا عليهِ بل وجداهُ سالمًا صحيحًا يشكر الله فاخذهما العجب كل مأخذ حتى كادا يغيبان عن الحس وخصوصًا ان نورًا من السماء كان محيطًا بهِ فخرّا على قدميهِ واقسما انهما يريدان ان يتنصّرا وللحال آمنا هما وثمانون جنديًا

واذ بلغ ذلك ليسينيوس ارسل ساكستوس الوالي وثلاثمائة جندي ليذبحوا بحد السيف الذين تنصّروا . فاتوا المكان لانفاذ امر الامبراطور على انهم اذ عرفوا ما فعل ملك السماء من العجائب بواسطة جنديهِ القديس تاودوروس قبلوا الايمان المقدس كالاخرين وكذلك قوم لا يكادون يحصون هتفوا حيٌّ هو اله المسيحيين . هو وحدهُ الاله الحق . لا معبود سواهُ . ومنذ ذلك الوقت اوشك الشعب ان يتمرّدوا على ليسينيوس بسبب قساوتهِ وظلمهِ . لكنما القديس أهدأهم مخبرًا اياهم ان يسوع المسيح صُلب لاجلنا ولم يأذن للملائكة خدامهِ ولا لجنودهِ ان ينتقموا لهُ عن موتهِ فالامناء يقتفون آثارهُ . ولما مرَّ امام السجن صرخ المحبوسون كلهم بصوتٍ عالٍ يا عبد الله تاودوروس ارحمنا نفك كل المقيدين بكلمة ولم يمس القيود بيدهِ وقال لهم اذهبوا بسلام وتذكروني ان جماعةً من الوثنيين الذين رأوا هذه الاية آمنوا بالسيد المسيح وكثيرًا من المعترين الذين بسط يديهِ عليهم او مسوا اهداب ثوبهِ نجوا ومن بعد ما عرف ليسينوس ذلك خاف حدوث ثورة عمومية فامر ان يُقطع رأسهُ . فصلّب تاودوروس وامر ان يُنقل الى مدينة اوكايبت وطنهِ . فصلى ثم مدَّ عنقهُ الى السيّاف فقطع خيط حياتهِ في اليوم السابع من شهر شباط في الساعة الثالثة بعد الظهر . ثم نُقل جسدهُ الى اوكايبت باحتفال عظيم ودُفن هناك حيث صنع السيد لهُ المجد آيات كثيرة بذخائرهِ المقدسة التي كانوا يلتجئون اليها لينالوا الرحمة من الله . وكتب قصة استشهادهِ مؤلف اسمهُ اوكار كان حاضرًا هناك والقديس نفسهُ رغب اليهِ ان يكتبها وينقل عظامهُ الى اوكايبت ويدفنها في ميراث آبائهِ . ومات اوكار ودفن الى شمال القديس وهذه الترجمة وضعها سيريوس في كتابهِ الاول . فالسنكسار الروماني يصنع تذكار هذا الشهيد عليهِ السلام في اليوم السابع من شهر شباط وكذا اليونانيون في سنكسارهم ونيكيفوروس وكاليست في الكتاب السابع من تاريخهِ في الفصل الرابع والاربعين والكردينال بارونيوس في المجلد الثالث من تاريخهِ

تنبيه . مع البولانديستيين فرقنا بين القديس تاودوروس الكبير الذي استشهد في مدينة اوكايبت من اعمال اماسيا على عهد ليسينيوس الملك وبين القديس تاودوروس الذي كان قائد مائة فمات شهيدًا في اماسيا في ايام مكسيمينوس غاليروس وقد اثنى عليهِ القديس غريغوريوس النيصي فتعيد الكنيسة اللاتينية لاستشهادهِ في ٩ ت ٢ اما الكنيسة اليونانية فتعيدهُ في ١٧ شباط

اليوم التاسع

وفيهِ ترجمة القديس مارون الناسك أبي الطائفة المارونية

كانت ولادة القديس مارون بجوار مدينة كيروس التي يسميها السريان كوروس وهي مدينة أسقفية تابعة لرئيس اساقفة هيرابوليس وكانت كيروس قصبة ولاية سيريستيك من مملكة كوماجان القديمة المعروفة اليوم بولاية حلب . اما مولد القديس المذكور ومماتهُ فلا يُعرف تاريخ مضبوط لهما واذ اختلف العلماء رأيًا في هذه المسألة نضرب صفحًا

عنها (١) ونكتفي بايراد ما كتبهُ تاودوريطوس اسقف كيروس في ترجمة القديس مارون

ان تاودوريطوس الاسقف الذي جلس على كرسي اسقفية كيروس سنة ٤٢٣ لم يكن قد عرف القديس مارون لكن كان اخص اصدقاء تلميذيهِ القديسين يعقوب السرياني وتالاسيوس العائشين في ابرشيتهِ وكلاهما يعرفان فضائل معلمهما القديس وعجائبهُ وبالنتيجة ان هذه الرواية صادقة لا ريب فيها لانهُ ذكرها مؤرخ كبيرٌ عن كلام ذينك القديسين وهذا ما كتبهُ في الفصل ٦ من تاريخهِ الرهباني وقد ترجمناهُ بأمانةٍ من اللغة اليونانية قال

بعد الراهبين القديسين اللذين تكلمنا عليهما سأضع تذكار القديس مارون الذي كان زينة طغمة القديسين ولما كرَّس نفسهُ ليعيش تحت جوّ السماء صعد قمة جبل كان مكرَّمًا عند الوثنيين وبنوا عليهِ هيكلاً للابالسة فكرَّسهُ لله تعالى واتخذ فيهِ خيمةً صغيرةً غير انهُ لم يكن يستظل بها الاَّ نادرًا . قال المؤرخ المذكور في الفصل ٢١ كانت تلك الخيمة مسنودةً الى جدار هيكل الوثنية القديم وكانت من جلودٍ لم يزل الشعر عليها وكان القديس مارون يستظل بها أحيانًا من الامطار والثلوج . هذا ثمَّ يقول : لم يقتصر القديس مارون على الاعمال النسكية المعتادة لكنهُ اخترع أعمالاً اعظم لكي يجمع غنى الحكمة الكاملة فان جزاء المحارب يكون على قياس عملهِ . وبما ان الله غني كثير الاحسان الى قديسيهِ منحهُ موهبة الشفاء فذاع صيتهُ في الافاق كلها فتقاطر اليهِ الناس افواجًا من كل جانب وكانوا جميعهم قد علموا بالاختبار ان ما اشتهر عنهُ من الفضائل والعجائب صحيح وفي الحق كانت الحمى قد خمدت من ندى بركتهِ والابالسة قد اخذوا في الهرب والمرضى كلهم برئوا بدواءٍ واحدٍ وهو صلاة القديس لان الاطباء جعلوا لكل داءٍ دواءً غير ان صلاة الاولياء هي دواءٌ نافع من جميع الأمراض . لكن القديس مارون لم يقتصر على شفاء امراض الجسد بل كان يبرئ ايضًا امراض النفس فكان يشفي انسانًا من البخل وآخر من الغضب ويعلّم رجلاً الاقتصاد ويعلّم غيرهُ قانون العدل وينهي واحدًا عن استباحة المحرَّمات ويوقظ آخر من غفلة التواني والحاصل ان القديس انمى بالتهذيب جملة نباتات للحكمة السماوية وغرس لله هذا البستان فأزهر في كل نواحي كيروس واحسن نبات هذا البستان والجملة يعقوب الكبير الذي يصدق بهِ كلام النبي داود : الصديق مثل النخل يزهر ومثل أرز لبنان ينمي (المزمور ٩١ : ١٢) (٢)

غير ان المعلّم القديس الذي كان قد فلح هذه الفلاحة الروحية وابرأ النفوس والاجسام أصابهُ مرضٌ حادٌّ فأظهر ضعف طبيعتهِ وقوَّة فضيلتهِ فمات . وللحال وقع على جسدهِ نزاع شديدٌ بين سكان النواحي المجاورة لمنسكهِ لكن أهل اكبر قرية هناك تبادروا كلهم جملةً وطردوا الآخرين وخطفوا هذا الكنز الثمين واقاموا على قبرهِ كنيسةً واسعةً وجنوا أثمارًا كثيرًا من عبادتهِ واقام الشعب على نفقتهم احتفالاً لتكريم هذا المنتصر . واما نحن فاننا نتمتع ببركتهِ ولو كان غائبًا عنا فان ذكرهُ لنا عوض قبرهِ . انتهت رواية تاودوريطوس الاسقف

لكن بعد قليلٍ لموت القديس مارون ابتنى رهبان نهر العاصي ديرًا بقرب مدينة أباميا (فامية) وسموهُ باسم القديس مارون لانهم على ما قيل كانوا قد فازوا بذخيرة هي راس القديس مارون واشتهر ذلك الدير وكثرت فيهِ الرهبان جدًّا غير ان بعضهم بارحوهُ عند غزوة العرب والتجأوا ومعهم الذخيرة الكريمة الى قريةٍ بلبنان يقال لها كفرحيّ فوق بلاد البترون وبنوا هناك لاجل هذه الذخيرة كنيسةً وديرًا للقديس مارون . الاَّ انهُ في سنة ١٢٠٠ للمسيح ايام الحرب الصليبية أخذ كاهن سائح مشهورٌ هذه الذخيرة الثمينة الى ايطاليا وأودعها كنيسةً في مدينة فوليغنو ولم تزل تُكرَّم فيها الى يومنا هذا على ما قيل

(١) حاشية . ذهب البُلانديستيّون (في ١٤ شباط وجه ٧٦٧ وفي ١٤ ايلول وجه ٦٢٨) الى ان وفاة القديس مارون كانت نحو السنة ٣٧٠ وارتأى غيرهم من العلماء انها كانت بعد السنة ٤٠٦

(٢) في الفصل ٢١ من التاريخ الرهباني كتب تاودوريطوس ترجمةً طويلةً للقديس يعقوب السرياني الذي كان تلميذًا للقديس مارون حقيقةً وعاش معهُ وتأدَّب بآدابهِ وزاد على تقشفات معلمهِ وقضى عمرهُ تحت جوّ السماء معرَّضًا لبرد الشتاء وحرّ الصيف فوق قمة جبلٍ على ساعةٍ من مدينة كيروس . واما التلميذ الآخر الذي عاش مع القديس مارون فهو تالاسيوس فهذا كان تلميذًا للقديس مارون الكبير كما قال المؤرخ نفسهُ في الفصل ٢٢ في نفس الوقت الذي كان فيهِ يعقوب متتلمذًا لهُ . واذ قطف تالاسيوس ثمرةً عظيمةً من هذه المعاشرة اصبح راغبًا في العيشة تحت جوّ السماء فصعد على قمة جبل آخر فوق قرية تاركا لان

ان السنكسار اليوناني يورد ترجمة القديس مارون في ١٤ شباط لكن الموارنة كانوا يعيّدون لهُ في ٥ كانون ٢ وهو اليوم الذي فيهِ تكرّست الكنيسة التي أُقيمت لهُ بقرية كفرحي كما ذكر ثم ان هذا العيد نُقل في القرن السابع عشر الى اليوم التاسع من شباط ولم يزل يُحتفل بهِ في اليوم المذكور . وقد منح الحبر الاعظم مبارك الرابع عشر سنة ١٧٤٤ غفرانًا كاملاً من اجل عيد القديس مارون لكل كنائس الموارنة

اليوم العاشر

وفيهِ ترجمة القديس غوليلموس الناسك

ان الله الذي يُخرج النور من الظلمة هو نفسهُ قد اخرج هذا الامير من ظلام الشِقاق والخطيئة : (٢ كورنتس ٤ : ٦) وصيرهُ كنور يُضيء لاهل الضلال ويُري المشاقين والخطاة طريق الحق والخلاص . فاعلم ان هذا القديس غوليلموس من جرَّاء تهاون والديهِ بتربيتهِ سلك منذ الصغر طريق الرذيلة. وبعد موتهما تولّى امر الجندية في اكيتانيا من اعمال فرنسا فاستباح اكبر المحرَّمات واطلق العنان لشهواتهِ النجسة

اما بعد فحصل على نور من ربهِ . فاخذ يتأمل عواقب الانسان الاخيرة وحينئذٍ نما في قلبهِ الزرع الجيد . فاستحوذ عليهِ الحزن والاضطراب والرعبة وكان يهتف نهارًا وليلاً مرارًا كثيرة قائلاً لا تدخل يارب في المحاكمة مع عبدك فانهُ لن يتزكى قدامك كل حي (مزمور ١٤٢ : ٢) ثم قام ومضى الى رجل ما فاضل كان يعيش متوحدًا في نواحي مدينة بواتير . فلما ابصرهُ السائح ولم يكن قد عرف بتوبتهِ ظن انهُ فرغ من محاربتهِ الكنيسة في المدن والقرى فاتى البادية ليضطهد ما بها من السياح. على انهُ لما راٰهُ ذارفًا الدموع وضاربًا صدرهُ ويعدهُ بالتوبة النصوح فتح لهُ باب منزله ثم خاطبهُ في لزوم التوبة . فطلب منهُ الجندي ان يرشدهُ في هذه الطريق. اما السائح فلانهُ لم يكن ماهرًا في ارشاد مثل هذه النفوس دلَّهُ على سائح آخر متفقه في ذلك . فلما وصل الامير اليهِ قابلهُ بأنس ومحبة وفرح بهِ مع الملئكة . وهنَّأَهُ على توبتهِ ووعدهُ بغفران خطاياهُ من رحمة الله . ثم اشار عليهِ بان يهجر العالم ولا يكترث بخيور الارض ليفوز بجنات النعيم ويتجنَّد تحت راية الصليب المقدس

فقبل غوليلموس هذه المشورة الصالحة وعزم على اتمام قصدهِ ولم يدع احدًا يشعر بنيتهِ لئلا يعوقهُ عن ذلك اقرباؤهُ وخدامهُ . فبعد ان دبَّر امور بيتهِ وولايتهِ ووزع اموالهُ على الفقراء اتخذ معهُ ما كان في بيتهِ من الجواهر والحجارة الكريمة وعاد الى السائح مرشدهِ فلما دخل قلايتهُ قال لهُ السائح انهُ لا تخفى عليك كثرة الخطايا التي فعلتها ولا جسامتها . نعم ان الله الرحيم الرأُوف يدعو الخطأَة الى التوبة ويقبلهم طرًّا اذا رجعوا اليهِ بتوبة نصوح . على انهُ ينبغي لهم ان يفعلوا افعالاً تليق بالتوبة ويفوا للعدل الالهي ما عليهم بتقشفات تلائم كثرة مآثمهم وعظمتها بحسبما يستطيعون . فلا جرم انهُ من اغرب الامور ان الله سبحانهُ يهب نعمتهُ للذين اساؤُوا اليهِ بافظع الكبائر . فلا تستصعب اذًا القانون الذي اضعهُ عليك فانهُ دون ما تستوجب جرائمك فلا بد لك للوفاء عن مآثمك الدنسة ان تلبس المِسح بقية ايام حياتك وتلازم الصوم على الدوام. وانما لاجل ما اختطفتهُ ظلمًا انت وجنودك فيجب فوق ما وزعتهُ على الفقراء من اموالك ان تبيع كل ما عندك من الجواهر والحجارة الكريمة وتعطي المساكين ثمنهُ من دون ان تبقي لنفسك الاّ العناية الالهية . وانما من اجل الدم الذي سفكتهُ فالبس فوق المِسح ما كنت تلبسهُ في حروبك من نحو الدرع والخوذة. اما غوليلموس فبما انهُ كان تائبًا حقًّا ومستعظمًا كثرة آثامهِ وجسامتها لم يستثقل هذا القانون بل استخفَّهُ ولذلك حالاً خلع ثيابهُ الناعمة ولبس تحت ثيابهِ اسلحتهُ الحديدية والنحاسية بعد ان لبس مِسحًا طويلاً وشدَّ وسطهُ بعشر سلاسل حديدية قدمها لهُ ذلك السائح . ثم امرهُ بان يمضي الى البابا اوجانيوس الثالث لكي يحلَّهُ من خطاياهُ ومن الحرومات البيعية . فقام وذهب الى مدينة ريمس حيث كان البابا . وعلى حين رأى بها الحبر الاعظم خرَّ امامهُ على وجههِ وطلب منهُ الحل اما الحبر المذكور فلما راٰهُ على هذه الحال ظن انهُ هو رجل غاش يحتال عليهِ ليكتسب صدقة فزجرهُ وطردهُ . وقد سمح الله بذلك ليجرّب عبدهُ . فرجع غوليلموس الى الوراء قليلاً وشرع يعترف بكل خطاياهُ جهارًا مفصلاً بصوت جهير وانتحاب عظيم ودموع سخينة حتى ان الحاضرين كلهم تأسفوا عليهِ حزنًا ثم تقدم الى البابا ثانيةً . فوقف الحبر الاعظم على جلية حالهِ واعطاهُ مرسومًا لبطريرك اورشليم ليحلَّهُ من حروماتهِ وخطاياهُ . فلما حصل على ذلك المرسوم سُرَّ وابتهج حتى كانهُ ظفر باكاليل العالم وسافر حالاً . وعن زمن يسير وصل الى المدينة المقدسة . فجثا امام البطريرك وقدم لهُ رسالة البابا

وطلب منهُ وهو يبكي ان يحلهُ . فلما قرأ البطريرك الرسالة ورأى انسكاب دموعهِ وتأمل ما احتملهُ من التعب وما ترك في العالم من اللذات والكرامات حلهُ من ربقة الآثام والحرومات. ثم اراد البطريرك ان يبقيهُ في منزلهِ فلم يرتضِ بذلك بل اختار لسكناهُ مكاناً خرباً وهناك استمر ثمان سنين وكان مأكلهُ خبزاً اسود ومشربهُ الماء وثيابهُ درعاً حديدياً ومسحاً شعرياً وسريرهُ الارض . وقد تجرَّح لذلك كل جسدهِ ولكنهُ ما كان ليبالي بهِ بل كان يحتمل ذلك كانهُ لا يشعر بهِ . ولما كان الناس يحزنون عليهِ ويتعجبون من فرط تقشفاتهِ كان يقول لهم لا تتعجبوا من ذلك بل تعجبوا من كون رحمة الله احتملتني انا الذي منذ انشاء العالم حتى الان لم تعاين الشمس خاطئاً مثلي . ولقد صار بمثالهِ سبباً لان يتوب كثيرون ويمارسوا افعالاً تليق بالتوبة

ومن بعد انقضاء تلك المدة درى اهل بيتهِ بانهُ في القدس فأتوا اليهِ ولما رأوهُ قاطناً هذه الخرابة ممارساً لاشد التقشفات اخذهم التحير والانذهال ولم يستطيعوا ان يقولوا لهُ ولا كلمة . لكنهم فيما بعد طلبوا منهُ بمزيد الالحاح ان يرجع الى بلادهِ . اما هو فكان يحتسب مشورتهم حيلة شيطانية . ومن ثم هرب منهم وعاذ بالقفر على انهُ بعد ذلك عاد راجعاً الى بلاد ايطاليا ودخل احدى البراري وهناك زاد على تقشفاتهِ السالفة فهجم الشيطان عليهِ يوماً وضربهُ باشد القساوة حتى ان دمهُ كان يجري من كل ناحية ولم يكن لهُ من يسعفهُ . فظهرت لهُ وقتئذٍ عليها السلام مريم العذراء وشفتهُ وعزَّتهُ وشجعتهُ لكي يواظب على التقشفات

وتتلمذ لهُ كثير من الناس وساروا سيرة السياح في اقاليم كثيرة وكان يحثهم جميعهم على العيشة القشفة يقول لهم اعتقدوا يا اخوتي ان اناساً كثيرين يحترقون الان في جهنم وهم يشتاقون الى مسح القديس ايرونيموس . ودموع القديس ارسانيوس . وسربر القديس اولالبوس . وغُربِ بولس الرسول واعظم تقشفات القديسين . الاَّ ان اشتياقهم هذا لا ينفعهم شيئاً وذلك لانهم لم يمارسوا هذه الافعال في حياتهم . فانطلق القديس غوليلموس من بريتهِ هذه بالهام الله وفي طريقهِ شفى امرأة كانت مشرفة على الموت وسكن بجوار مدينة سيانا بين الوحوش الضارية . فصارت تلك الوحوش تلاطفهُ وتكرمهُ وصرف هناك كل عمرهِ وانتقل الى جوار ربهِ في اليوم العاشر من شهر شباط في السنة السابعة والخمسين من القرن الثاني عشر

(تنبيه) ان بعض المتأخرين لم يفرقوا بين القديس غوليلموس الناسك وغوليلموس دوكا آكيتانيا التاسع فنسبوا الى الناسك شيئاً مما يتعلق بالدوكا المذكور كانقيادهِ لبطرس لاون البابا الكاذب ورجوعهِ عن البدعة . وقد مات الثاني باسبانيا بجانب قبر القديس يعقوب سنة ١١٣٦ والاول بتوسكانا اقليم ايطاليا سنة ١١٥٧

اليوم الحادي عشر

وفيهِ ترجمة القديس ساتورنينوس ورفقائهِ الشهداء

اعلم انهُ في عهد ديوكليسيانوس الملك حدث اضطهاد شديد على المسيحيين . ومن ذلك طلب الى المؤمنين ان يسلموا اليهِ نسخ الكتاب المقدس ليحرقها بالنار . اما المؤمنون فاختاروا ان يحترقوا هم وما ارادوا ان يُلقى الانجيل المقدس في النار . والذين سلموهُ اياهُ خوفاً من الموت احتسبهم المؤمنون مُلحدين ومحرومين وابوا ان يشتركوا معهم في الصلاة وكان من جملة الذين ابوا تسليم السفر الالهي الى ايدي الكفرة ليحترق القديس ساتورنينوس الكاهن واولادهُ الاربعة وخمسة واربعون شخصاً . لان القديس المومأ اليهِ كان متزوجاً وانما ارتسم كاهناً بعد موت امرأتهِ . وقد قبض عليهم الجنود حينما كانوا مجتمعين لتناول القربان المقدس . وذهبوا بهم الى مدينة قرطاجنة حيث قدموهم الى انولينوس الوالي . فلما مثلوا بين يديهِ التفت الى ذاتيفوس احد اولئك الشهداء وسألهُ قائلاً من انت وهل حضرت مجامع المسيحيين بخلاف امر الملك . فاجاب الشهيد انني مسيحي وقد حضرت مجامع المسيحيين. فللحال علَّقهُ الجنود بامر المغتصب على عمود من خشب ومزَّقوا جسدهُ بمخالب حديدية وجرَّدوهُ حتى العظام . فلما رأى ذلك تيليكا احد الشهداء المقبوض عليهم دخل فيما بين الجنود المعذبين والتفت الى انولينوس الحاكم وقال لهُ بصوت جهير اننا جميعنا مسيحيون وكلنا حضرنا المجامع التي ينهى عنها الملك . فامر الوالي بتعذيبهِ بحسبما تعذَّب ذاتيفوس . وقد احتمل الاثنان هذا العذاب بصبر عظيم شاكرين الله على حظها السعيد . وفيما كان الجنود يمزقون لحم تيليكا بالمخالب الحديدية . سألهُ الحاكم من ذا الذي عمل الجمعية . فاجاب الشهيد قائلاً ان

ساتورنينوس ونحن جميعنا معهُ عملنا الجمعية . فبعد قليل من زمان ذلك التعذيب تُوفي تيليكا في السجن . ثم امر الحاكم بتعذيب ذاتيفوس المذكور ثانيةً لانهُ كان يصرخ بلا انقطاع انهُ مسيحي وانهُ هو الذي عمل الجمعية . وفيما كان الشرط يمزقون جسدهُ بالمخالب المذكورة تقدم رجل شريف وثني وهو اخو القديسة ناصرة التي أُخذت مع بقية الشهداء . فقال للحاكم ان ذاتيفوس هو الذي صير اختهُ مسيحية وجذبها الى جمعيتهم . فانكرت ذلك القديسة المذكورة قالت كلاَّ . بل انا باختياري صرت مسيحية ولم يجذبني احد الى الجمعية بل حضرتها باختياري مع اخوتي المسيحيين لكي اتناول الاسرار الالهية . فحينئذٍ امر انولينوس بتشديد عذاب ذاتيفوس . واما هو فلم يزل يهتف قائلاً . اني مسيحي حضرت الجمعية وفيها تناولت السر الالهي . فالحمد لله تعالى على ما احتملهُ من اجل ايمانهِ . واسالهُ عزَّ شأنهُ ان يحفظني ثابتًا فيهِ الى انتهاء حياتي

ثم قدموا الى الوالي ساتورنينوس الكاهن فقال لهُ . لماذا خالفت امر الملك . فجمعت النصارى للصلاة . قال القديس انما فعلت ذلك بالهام الله وأمرهِ . فعلقوهُ للحال على خشبة وشرعوا يمزقون لحمهُ بالالات الحديدية المذكورة . وفيما كان الجنود يعذبونهُ بغاية القساوة قال اميريتوس واحد من الشهداء اني انا هو الذي قدَّمت بيتي للمجمع . فلما رأَى المغتصب من شجاعة أُولئك الشهداء ما رأَى بحيث كلهم كانوا مستعدين للموت احتدم غيظًا على قسّهم القديس ساتورنينوس . وامر الشُرَط بان يُعذّبوهُ باقصى القساوة ففعلوا كما امرهم . وبعد ان مزّق الجند جسد ذلك الشيخ المحترم بحيث كلهُ قد صار مجرَّحًا قطعوا هامتهُ بامر المغتصب

وفي غضون ذلك قال انولينوس الحاكم لاميريتوس الشماس . لماذا ادخلت في بيتك كل هولاء بعد ان نهى الملك عن ذلك . قال لانهم جميعهم اخوتي وقد امرني بذلك لا ملك ارضي نظير قيصر . بل ملك العالمين رب السماء . فعذبوهُ بالمخالب ايضًا . ثم سالهُ المغتصب هل عندك كتاب الانجيل . قال لهُ اي نعم وقد كتبتهُ كلهُ في لوح قلبي . فأمر الحاكم بان يُلقى في السجن مع بقية الشهداء الذين عُذّبوا قبلاً ثم قال للآخرين . اعتبروا برفقائكم الجهلاء وانجوا بطاعتكم للملك من العذاب والموت . وعند ذلك هتفوا كلهم قائلين اننا مسيحيون ومن اجل الايمان بسيدنا يسوع المسيح تبارك اسمهُ كلنا يشتهي ان يسفك دمهُ . حينئذٍ قال انولينوس الى احد الشهداء اني لا اسالكم هل انتم مسيحيون . وانما اسالكم هل عقدتم جمعيات وهل عندكم نُسخ الانجيل . قال فيليكوس نعم اننا عقدنا جمعيةً وقرأنا من الانجيل المقدَّس . فتقدَّم الشُرَط بامر المغتصب وضربوا الشهيد بالعصي حتى نال اكليل الشهادة بذلك العذاب . واماتوا خمسة غيرهُ بأعذبة مختلفة واما بقية الشهداء فأُخذوا الى السجن

فذهبوا الى السجن بفرحٍ حتى كانهم جنود خفقت فوق رؤوسهم رايات النصر والغلبة . وهناك صرفوا الليل كلهُ في الصلاة يشكرون الله تعالى ويحرّضون بعضهم بعضًا على الاستشهاد . ولا بدَّ لنا ان نذكر هنا شيئًا وجيزًا عن ناصرة الفتاة وايلاريون الغلام نجل ساتورنينوس الشهيد المذكور . فاما ناصرة فاعترفت بانها مسيحية بحضرة الحاكم لانها رأَت ان اخاها الوثني يُريد ان يُنقذها من الموت من قولهِ للحاكم انها مجنونة لا عقل لها اما هي فقالت عن نفسها انها صحيحة العقل كما كانت . وانها لا تعرف لها اخًا من لا يحفظ وصايا الله تعالى . ثم اعترفت انها حضرت الجمعية المسيحية وقرأَت فيها الانجيل المقدس . فلما سمع الحاكم كلامها هذا أَمر بان تُلقى في السجن حيث بقية الشهداء لتموت معهم . وكذلك قال ايلاريون الغلام اي فانهُ قال حضرت الجمعية المذكورة باتم الرضا وما لي الآ مذهب المسيح المذهب الحق . ولما انتهرهُ المغتصب واوعدهُ بان يصلم اذنيهِ وانفهُ ويقطع عنقهُ قال لهُ الصبيُّ افعل بي ما تشاء لانني لا أُبالي بهِ لكوني مسيحيًا . فالقاهُ في الخميس مع الاخرين . وانما أَخَّر المغتصب تعذيب أُولئك الشهداء الى زمن لانهُ شُغل بأُمورٍ أُخر . وكان المسيحيون يتعهدونهم في السجن ويأخذون لهم طعامًا كافيًا لقوام الحياة . لكنما مينسوريوس الاسقف وسيشيليانوس شماسهُ الانجيلي اذ كانا قد سلما الى الحاكم الكتب الالهية اغراها الشيطان بمقاومة الشهداء فوضعا جنودًا على باب السجن فجعل أُولئك الجفر يضربون كل من يأتي الشهداء بطعام لذلك مات اولئك الشهداء عليهم السلام جوعًا

اليوم الثاني عشر

وفيهِ ترجمة القديس ملاتيوس الاسقف

قد وُلد القديس المذكور عليهِ السلام بميليتينا مدينة

ببلاد الارمن على رأس الجيل الرابع وهو من شرفاء بلدهِ. وكان يجنح الى محض الصلاح حتى كانهُ قد فُطر على الفضيلة ولذلك لم يكن احد يجد في كلامهِ وافعالهِ وحركاتهِ شيئًا ما ناقصًا. وقد كان مع كل ذلك بهي المنظر ثاقب الفكر. ولا جرم ان تلك المناقب الحميدة كانت تجذب الجميع الى ان يحبوهُ ويحترموهُ. فللّه درُّ تلك الشمائل الغرّاء التي حرّكت اثنين من افاضل القديسين يوحنا فم الذهب وغريغوريوس نيصص ليثنيا عليهِ. واما بيعة الله فقد كانت في عصرهِ مضطربة بسبب الاراطقة الاريوسيين. فلما مات اسقف سبسطية التي هي من اعمال ارمينيا اتفق الجميع على ان ينتخبوا ملاتيوس اسقفًا. والامر العجيب هو ان الاريوسيين انفسهم ارتضوا بذلك. وهذا الامر قد صيّر الكاثوليكيين يشكون زمانًا في صحة ايمانهِ. ولكنهُ ما لبث ان ازال عنهُ الشكّ بحيث شرع يجتهد في رد الخراف الضالّة. ولما رأى ان اجتهادهُ البليغ يذهب باطلاً غادر اسقفيتهُ وذهب الى الفيافي والقفار واقام هنالك حتى اشتهر. وحينئذٍ هرب من تلك الفيافي من السجس واتى حلب مدينة بسورية ظانًّا انهُ اذا وجد في بلدة غريبة يكون مجهولاً. غير ان الله سبحانهُ وضع ذلك السراج على المنارة ولم يدعهُ تحت المكيال

على انهُ بعد قليل من دخولهِ المدينة المذكورة انعزل من الكرسي الانطاكي اودُكسيوس الاريوسي البطريرك الدخيل. وكان كل فريق من الكاثوليكيين والاراطقة يفرغ كل جهدهِ في انتخاب اسقف يكون على ايمانهِ. فتحنن الله على هذه الكنيسة التي كانت منذ ثلاثين سنة تحت نير الاريوسيين وحرّك هولاء واولئك اي الكاثوليكيين والاراطقة الى ان اجمعوا على انتخاب ملاتيوس بطريركًا. لان الكاثوليكيين كانوا عارفين باستقامة ايمانهِ والاريوسيين لم يشكّوا في انهُ يرى رايهم لانهُ انتُخِب اسقفًا في سبسطية برضا حزبهم. وكثيرًا ما كان يحترمهُ ويحبهُ كلٌّ من الفريقين وذلك لاجل استقامة سيرتهِ وفصاحة لسانهِ ولطافة اخلاقهِ. فترجوا ان كنيسة انطاكية تحصل على حال الهدء والسلام بتدبيرهِ. وقد كان كسطانس الملك الاريوسي في مدينة انطاكية فذهب اليهِ الاريوسيون وطلبوا منهُ ان يقيم ملاتيوس بطريركًا على كرسي انطاكية ورضي بذلك الكاثوليكيون بكل قلوبهم

ولئن كان الكاثوليكيون قد فرحوا مسرورين ان القديس حزن حزنًا عظيمًا وعزم على الفرار والهرب غير ان المرسلين منعوهُ عن ذلك واتوا بهِ الى انطاكية. فخرج لاستقبالهِ ما هناك من الاساقفة والاكليريكيين حتى اليهود والوثنيين ايضًا. فدخل المدينة كدخول السيد المسيح اورشليم اي على فرح الشعب كلهِ مع انهُ كان مزمعًا ان يخرج منها سريعًا

فبعد ان جلس على كرسي البطريركية رأى الجميع ينتظرون بشوق وافر اظهار ما في قلبهِ من جهة الايمان. اما هو فبما انهُ حكيم اخذ اولاً يستميل القلوب ليسهل عليهِ بواسطة ذلك رد القوم الى وحدة الايمان. وبناء عليهِ لم يكن وعظهُ الاّ فيما يخص اصلاح السيرة والنمو في الفضيلة. ولاجرم ان اقوالهُ كانت مؤيدة بافعالهِ فكان لكلامهِ وقع في القلوب. غير ان الاريوسيين ارادوا ان يعلموا هل البطريرك اريوسي اولا وقد بعثهم الميل الى معرفة هذا الامر على ان طلبوا من الملك ان يسأله عن ذلك. فاستدعاهُ الملك واستدعى معهُ اسقفين آخرين وطلب منهم ان يفسروا امام جمهور غفير هذه الآية الرب خلقني في ابتداء طرقهِ (امثال ٨: ٢٢) فابتدأ اولاً جاورجيوس اسقف اللاذقية وفسر هذه الآية على معنى اريوسي. وكذلك اكاسيوس اسقف قيسارية. ثم نهض ملاتيوس وفسّرها بحسب المعنى الارثوذكسي بحذق وفصاحة لاغاية بعدها. وبرهن على مساواة الكلمة للاب الازلي بدلائل جلية مقنعة. وانهى خطابهُ بتفنيد ظاهر لمذهب الاريوسيين اما الاريوسيون فحنقوا اذ سمعوا ذلك الكلام ووغرت صدورهم حتى ان احد شمامستهم تجاسر على ان سد بيدهِ فم البطريرك لكنما البطريرك لم يضطرب من ذلك بل ازداد شجاعة وجعل يفسّر امام الشعب والاكليريكيين تساوي الثلثة الاقانيم الالهية في وحدة الجوهر بابلغ كلام حتى ظن الحاضرون ان ملاكًا كريمًا كان ينطق بفمهِ عليهِ السلام

والحاصل انهُ لما ابان البطريرك ايمانهُ المستقيم على هذا النسق اضحى عزيزًا عند الكاثوليكيين جدًّا حتى انهم انتسبوا اليهِ فدُعوا ملاتيوسيين. اما الاراطقة فاضطرمت في قلوبهم نار البغضاء وطلبوا بالحاج من الملك الاريوسي ان ينفي القديس فنفاهُ الى بلاد ارمينية. فلما عاين ذلك القديس اوسابيوس اسقف سامُس خرج من مجمع الاساقفة الذين كانوا انتخبوا ملاتيوس بطريركًا. واخذ معهُ صك انتخابهِ المختوم بخواتم الاساقفة فبعث اليهِ الاريوسيون من قِبَل الملك

رسولاً وطلبوهُ منهُ فابى ان يسلمهم اياهُ . فارسلوا اليهِ رسولاً آخر طلبهُ منهُ ايضاً من قِبَل الملك . وكان الملك قد كتب امرًا بان تُقطع يمين الاسقف اذا ابى ان يسلم الصك المشار اليهِ . واما القديس اوسابيوس فحينما قرأَ امر الملك قدم حالاً للجندي يديهِ الاثنتين ليقطعهما . فبلغ ذلك الملك فتعجب من شجاعة الاسقف ومدحها امام الجميع

ثم مات وبموتهِ بقي يوليانوس الملحد ملكاً وحدهُ فاعاد بامرهِ كل المنفيين من المنفى . وبقوة هذا الامر رجع القديس ملاتيوس الى الكرسي الانطاكي وكان ذلك في السنة الثانية والستين من القرن الرابع وقد امتلأَ قلبهُ حزناً لما رأى ما رأى من الاضطراب بين الكاثوليكيين . وازداد حزنهُ جدًّا لما عرف ان يوليانوس الملك اكبر اعداء المسيحيين اختار لسكناهُ مدينة انطاكية . فصار القديس محاربًا من قبل الاريوسيين والوثنيين وتعبًا جدًّا من قبل الكاثوليكيين . ومع هذا لم ترتخِ غيرتهُ ولم تفتر عبادتهُ بل كان يناضل عن الحق جهارًا غير مبالٍ بالاراطقة والكفرة فنفاهُ حينئذٍ الملك الملحد . فالمرة الثانية لنفي القديس والمرة الاولى كانتا في اقل من ثلاث سنين ثم مات يوليانوس في السنة الثالثة والستين من القرن الرابع وانتصب على كرسي المُلك جوفيانوس الملك وكان يتقي الله تعالى

وقد استبان حينئذٍ امر الاراطقة وظهر انهم انما يجرون بمقتضى الكبرياء والعجرفة والخُيلاء . وانهُ لا ايمان لهم الاَّ ذلك الذي يجدونهُ مكرَّمًا عند الملك والعظماء . على ان اكاسيوس هامة الاريوسيين لما رأى الملك متمسكاً بايمان المجمع النيقوي المقدس حضر السينودوس الذي كان عقدهُ القديس ملاتيوس وختم صورة الايمان الارثوذكسي. غير ان هذا الملك الفاضل لم يبقَ زمانًا مديدًا في الملك لانهُ توفي بعد ثمانية اشهر من جلوسهِ على سرير الملك وخلفهُ والنس الملك الاريوسي . اما القديس ملاتيوس فاستمر مباشرًا لواجبات منصبهِ بكل اجتهاد وغيرة . وكان حينئذٍ تحت ارشادهِ القديس المعظم يوحنا فم الذهب . فاتى الملك والنس الى انطاكية في السنة الحادية والسبعين بعد الثلثمائة فافرغ كنانة جهدهِ ليجتذب البطريرك الى بدعتهِ . على انهُ لم يقدر ان يزعزع هذا العمود الراسخ ولذلك نفاهُ ايضاً . فاذ كان ماضياً بهِ قائد الجنود نحو المنفى تعصب الشعب ووقفوا في الطريق وراموا ان يفتكوا بذلك القائد لكنما القديس وقف بازائهِ لئلا يرجمهُ الشعب بالحجارة ويقتلوهُ . وهكذا انقذهُ من الموت ومضى معهُ الى المكان المعين لنفيهِ . ثم مات والنس اشنع ميتة وخلفهُ غراسيانوس وكان كاثوليكيًّا . فعاد وقتئذٍ القديس ملاتيوس من المنفى وهو في سنّ الشيخوخة ومع ذلك اراد ان يفتقد ابرشيتهُ كلها وبافتقادهِ هذا رد الى الايمان الكاثوليكي اناساً لا يكاد يُحصى لهم عدد . ثم عقد في انطاكية مجمعًا وثبَّت فيهِ الايمان النيقوي

وفي غضون ذلك كان تاودوسيوس الكبير قائد جيش الملك . فرأى في الحلم شيخًا ذا هيبة ووقار لابساً الحلَّة الحبرية يضع على ظهرهِ رداء ملوكيًّا . وبعد قليل من زمان هذه الرؤيا شركهُ غراسيانوس في سلطتهِ الملوكية واسلم اليهِ كل بلاد الشرق . فلما صار تاودوسيوس ملكاً اراد ان يُعيد الكنيسة الى حال السلام . فعقد في القسطنطينية مجمعًا التأم فيهِ اكثر من مائة وخمسين اسقفاً كاثوليكيًّا . وكان القديس ملاتيوس هو المتقدم في هذا المجمع . فلما ابصرهُ الملك قال هذا هو الذي وضع عليَّ في الحلم الرداء الملوكي . فاقبل نحوهُ وعانقهُ واكرمهُ كل الاكرام . وقد اظهر البطريرك في هذا المجمع سعة علمهِ وفضل بلاغتهِ ومزيد طهارتهِ . ثم توفي في هذا المجمع وكان ذلك في اليوم الثاني عشر من شهر شباط في السنة الحادية والثمانين بعد الثلثمائة فدفنهُ الآباء باكرام جزيل وحضر الملك جنازتهُ وقد أبَّنهُ القديس امفيلوكيوس اسقف مدينة ايقونية . وكذلك فعل القديس غريغوريوس نيصص وقد اثبت الله تعالى قدس هذا البطريرك بالعجائب الوافرة

اليوم الثالث عشر

وفيهِ ترجمة القديس مرتينيانوس السائح

قبل الشروع في ترجمتهِ نقول ان المؤمن يتاكد من استقراء اخبارهِ حقيقة ما قالهُ ايوب البار وهوان حياة الانسان على الارض هي تجربة دائمة (ايوب ٧ : ١) وانهُ لا يجوز لهُ ان يعتمد على فضيلتهِ ولو كانت عظيمة جدًّا . وان البر لا يُحفظ الاَّ بالفرار من اسباب الخطية . فاعلم ان هذا القديس نشأ بقيسارية مدينةٍ ببلاد فلسطين وقد وُلد في منتصف الدهر الرابع . ولانهُ كان كثير الغنى وبهي المنظر وجليل القدر شرعت الدنيا ترمي اليهِ حبائل حبها . وقد كان قلبهُ بدأَ يميل نحوها حينما اظهر لهُ الله تعالى مخاطر العالم . وبيَّن لهُ

ان العالم هو موضوع بكليتهِ في الشر كما قال الانجيل (يوحنا اولى ٥ : ١٩) . فتحقق حينئذٍ الشاب الفطن ان لاسبيل الى خلاص نفسهِ الاَّ في الخلوة والانفراد فزهد في الدنيا فذهب الى البرّية وهو ابن ثماني عشرة سنة لا اكثر . وقد كانت براري بلاد فلسطين في ذالك العصر اي عصر تاودوسيوس الملك غاصةً بالسيّاح الزاهدين بالفضائل ولاسيما الجبل القريب من قيسارية المدعو مكان التابوت . فانفرد مرتينيانوس في هذه البرية وهناك سلك راكضًا كالاسد في سبيل الله حتى ادرك نهاية كل فضيلة فاشتهر اسمهُ واستفاض خبر طهرهِ في بلاد فلسطين كلها . فتعجب منهُ مشائخ السياح . ثم ان الله سبحانهُ شرفهُ بفعل العجائب حتى ان المرضى كانوا ينالون الشفاء بلمس ثوبهِ . والشيطان يخرج بمجرَّد ذكر اسمهِ

لذلك طفق ابليس يقلقهُ نهارًا وليلاً باشد التجارب وارعب الاشباح . وكلما كانت تزيد القديس نشاطًا واتضاعًا . وقد اتفق ان تراءى لهُ الشيطان يومًا وهو يصلي بصورة تنين مخيف جدًّا . واخذ يحفر اساسات قلايتهِ ليقلبها عليهِ . الاَّ ان مرتينيانوس العارف بحيل ابليس لم يكفَّ عن الصلاة . ولكنهُ لما فرغ منها فتح شباك قلايتهِ وقال للشيطان بقلب مطمئن . ما احسن ما تدب الان على الارض يامن كان يريد قبلاً ان يرتفع فوق الكواكب ويجلس من عن يمين العلي . فاذكر ان والدة الله مخلصنا سحقت راسك ومن ثم لا نقدر ان تضرني ولا ان تخيفني ما دام يسوع يقوّيني ويعضدني . فاستحال الشيطان حالاً الى صورة شابّ واخذ يتوعدهُ وهو مقطّب وجههُ ويقول لهُ بصوت مخيف . انتظر قليلاً يا مرتينيانوس يا سائحًا مرائيًا سياتي عن قريب اليوم الذي فيهِ انتصر عليك واخذلك واخرجك خزيان من هذه القلاية التي تعتبرها كحصن حصين لا نقدر عليهِ قوات الجحيم . اني بنفسي ازعزعك واُصيّرك كورقة انتثرت من الشجرة وقد عبث بغصونها الريح ثم ذهب . اما القديس فقد استخفّ بمقالة الرجيم لعنهُ الله واشتدَّ على الله اتكالاً

وكان قد اتى على القديس خمس وعشرون سنةً في البريّة وهو يمارس رياضات النسك والفضيلة بكمال النشاط عندما نصب الشيطان لهُ هذا الفخ الذي لم يحترس منهُ احتراسًا واجبًا . وقد تم على هذا النسق وهو انهُ اتفق يومًا ان التأم بعض اشخاص في مدينة قيسارية وشرعوا يتكلمون في كثرة السيّاح القديسين العائشين في الجبل المذكور وكانوا يمدحون فضائل مرتينيانوس ويفضّلونهُ على بقية السيّاح . فدنت منهم البغيُّ زوي وقالت لهم . ان فضيلة مرتينيانوس ليست الاَّ قليلاً من التبن الذي لا يبقى على حالهِ الاَّ وهو بعيدٌ عن النار . ولكن اذا اقتربت النار اليهِ فلا جرم انهُ يفنى سريعًا . فليس بعجب ان يكون المتوحد بارًّا نظير مرتينيانوس الذي اختلى في قلاَّيتهِ كالدبّ في مغارتهِ بحيث لا يجد شيئًا يؤثر في حواسهِ ويُحرّك شهواتهِ . وانما العجب ان تنزل بهِ ملمَّة ولا يرتكب الاثم بسببها فاعطوني كذا وكذا من الدراهم وانا الضمينة بانهُ يزلّ . فرضي بذلك الحاضرون واتفقوا على ان يدفعوا لها من الدراهم ما طلبت فمضت حينئذٍ هاتيك البغيُّ لتنصب للبار فخ الخطيئة . فلبست اثوابًا رثّة كامرأةٍ فقيرة ووضعت ثيابها المزخرفة في هميان وحملتهُ على منكبيها وخرجت هكذا من المدينة عند المساء وكان ذالك في فصل الشتاء . فلما وصلت الى قلاية القديس جلست على الباب وقالت لهُ بصوتٍ يُترجم عن فرط الحزن والاسف . ايها الاب المكرم اسألك باسم سيدنا يسوع المسيح ان ترحم امرأة غريبة مسكينة قد ضلّت في هذا القفر وكادت ان تموت من برد الشتاء . فلا تدعني اصرف الليل بين الوحوش الضائرة بل اسمح لي بان اصرف ما بقي منهُ في قلايتك . فرقَّ قلب مرتينيانوس لتلك المرأة وقال في نفسهِ لعلّها تموت في البرية اذا طردتها فاكون قد اسأت واخطأت ضد محبة القريب . غير انهُ تأمل الامر متأنيًا حذرًا من حِيَل الشيطان . وآخر الامر انتصرت المحبة على الخوف وفتح لها باب قلايتهِ . فاوقد لها نارًا وقدَّم لها ماكلاً وخرج من تلك القلاية وهو يأمرها بان ترحل باكرًا جدًّا وانتقل الى قلاية اخرى . وهُناك احيا اكثر الليل ساهرًا يُصلي حسب عادتهِ

اما المرأة فنهضت باكرًا ولبست اثوابها المزخرفة وزينت صورتها ومكثت تنتظر القديس فاتى وهو يظنُّ انها قد انطلقت . فلما دخل القلاية ورأى المرأة بُهت متحيرًا لانهُ ظنَّ انها ليست هي المراة التي رآها الليلة البارحة بل انها شيطان متخذ جسم امرأة فسألها من انت . وحينئذٍ شرعت الخبيثة تخاطبهُ بكل ما يمكن من اللطافة ذاكرةً لهُ انها هي حقًّا المرأة التي اتتهُ في الليلة الماضية بحركة المحبة لتخدمهُ

وتعيش معهُ وتحت طاعتهِ فاخذت ان تخاطبهُ بشان الزيجة قائلة انهُ مقبول لدى الله وان الاباء والانبياء قد تزوَّجوا وتمتعوا بفوائد الزواج وذكرت لهُ في هذا الصدد مثال داود وسليمان وغيرهما. اما مرتينيانوس فمع اطلاعهِ على الخطر لم يهرب حالاً وسمع لقولها فسقط في الفخّ. فان لواعج الشهوة قد تاججت في فؤَادهِ. ثم صعد الى سطح القلاية ليرى هل احد في تلك النواحي. وحينئذٍ اضاء لهُ بغتةً نور من السماء فرأى عظم زلتهِ وجزيل قبحها فكاد قلبهُ يتمزق من فرط الندامة. فانحدر حالاً الى القلاية واوقد نارًا عظيمة والقى ذاتهُ في وسطها ليطفيء بها نار الشهوة. ثم اخذ يخاطب نفسهُ امام تلك البغيّ قائلاً. جرّب يا مرتينيانوس جرّب ايها الشقي هل تستطيع ان تحتمل النار الاكلة المؤبدة. ثم خرج اخيرًا من النار ولم يقدر ان يقف على رجليهِ. فجثا على الارض وهتف بقلبٍ متندم اللهمّ يا ابا الجود والرحمة ارحمني انا الخاطيء المسكين واغفر لي خطيئتي التي بها ارتضيت بفكر شهواني. وتمهل عليّ لكي امارس من اجلها اصعب افعال التوبة. واما المرأة فلما رأت هذه الاعجوبة تابت هي ايضًا. وبمشورة القديس مضت الى دير ببيت لحم كانت ابتنتهُ القديسة بولا وهناك قضت باقي عمرها في الصلاح

ونظرًا الى القديس فانهُ بقي سبعة اشهر يتألم من حريق النار. ولما ابتدأ يقف على قدميهِ عزم على الانتقال الى برية أُخرى آمن من هذه بحيث ما من امراة تقدر ان تأتي اليهِ. فنزل الى ساحل البحر وسأل الملاَّحين هل في البحر مكان غير مسكون. فاجابوهُ قائلين انهُ يوجد جزيرة فيها صخرة عالية جدًّا. غير ان الموضع مخيف محزن ومرهوب ولا يمكن ان يسكن فيهِ احد. فاجاب القديس اني اشتهي ان اجعل مثل هذا المكان مسكنًا لي. فارجوكم ان توصلوني الى هذا المحل السعيد لانكم بذلك تحسنون اليَّ باعظم الحسنات. فاخذهُ احد اولئك الملاحين. ولما وصل بهِ الى الجزيرة اتفق معهُ على ان يفتقدهُ في كل عام ثلث مرات. ويجلب لهُ خبزًا وماء وسعوف نخل ليشتغل بها. ووعدهُ بانهُ يصلي من اجلهِ ويهبهُ كل ما يصنع من القُفف. فارتضى البحري وسافر. وكان القديس يعيش هناك باتم السرور شاكرًا الله على انهُ ناجٍ من اسباب التجارب كلها غير منكر انهُ لا يوجد مكان خاليًا منها. وما برح على هذه الحال ستّ سنين ممارسًا لرياضات النسك على صخرة هناك من دون ان يكون فوقهُ شيء يقيهِ حرّ الصيف وبرد الشتاء

ثم اتفق ان سفينة ما انكسرت بقرب هذه الصخرة فغرق كل من كان فيها خلا بنتًا مليحةً عذراء تعلقت بدفة ووصلت الى صخرة القديس. ولما رأتهُ صرخت قائلةً نجني يا ابانا من الغرق. اما القديس فتذكر ما حلَّ بهِ عند التجربة الاولى فانتبه على حيلة الشيطان فصلى. ولما رأى انهُ ملتزم بمساعدة المرأة نزل من الصخرة وانقذها ثم سلم اليها مؤنتهُ وثوبًا وقال لها ايتها الفتاة لا يحسن اقتراب النار من التبن. فكلي خبزي واشربي مائي الى ان يأتي البحري الذي يفتقدني فهو بعد شهرين ياتي وياخذكِ الى مدينتكِ. ثم رسم اشارة الصليب المقدس على جبهتهِ ورفع عينيهِ الى السماء وهتف نحو سيدنا يسوع المسيح قائلاً يارب انني القي نفسي في البحر لاني افضّل ان أُخاطر بحياتي على المخاطرة بعفتي ثم زج بنفسهِ في البحر فحملهُ دلفينان واتيا بهِ الى الشط فوصل سالمًا. اما الشيطان فلم يزل يمشي وراءهُ مجرّبًا ولم يزل القديس يهرب من فخاخهِ محترسًا. ولكنهُ نفعنا الله بقدوتهِ اذ لم يجد مكانًا امينًا جعل ينتقل من برية الى برية. ومن بلد الى بلد حتى طاف على هذه الحال بمدة سنتين باشد تعب مائة واربعة وستين بلدًا وانما كان ذلك لان ابليس الرجيم لعنهُ الله ما ترك موضعًا الاَّ وقد نصب لهُ فيهِ فخّ البغاء والدنس وبعد ذلك وصل الى مدينة اثينا وهناك مرض مرض الموت. فدخل الكنيسة وامتدَّ على بنكٍ وطلب من رجل اكليريكي ان يستدعي لهُ الاسقف. فظن الاكليريكي انهُ ساهي العقل ولكنهُ مع ذلك اخبر الاسقف بما كان. اما الاسقف فكان الله قد عرَّفهُ بطهارة مرتينيانوس وانهُ سيراهُ عن قريب. فاقبل حالاً الى الكنيسة واذ عرَّفهُ المريض بنفسهِ قال لهُ ان الله تعالى قد اعلمني بانك مقبول لديهِ جدًّا. فاسالك ان تذكرني في جنة الخلد. فطلب اليهِ القديس ان يناولهُ القربانة الاخيرة ويباركهُ. فتناولها ثم اغمض عينيهِ قائلاً ربِّ إيَّاك استودع روحي ثم انطلق في سبيل اهل الارض كلهم

اما البنت المذكورة فبعد شهرين من وصولها الى الصخرة اتى ذلك النوتي ليفتقد القديس مرتينيانوس كعادتهِ فرآها ولم يرَ السائح القديس فاستولى عليهِ خوف عظيم ورام ان يفرّ هاربًا. فصرخت هاتيك الفتاة كاشفةً لهُ ما كان من

امرها وذاكرةً انها مسيحية . فتقدم وقتئذٍ اليها وقدّم لها المؤنة الاعتيادية . فقبلتها منهُ الفتاة وقالت لهُ اطلب اليك باسم سيدنا يسوع المسيح ان تعاملني كما عاملت السائح الصالح . اي ان تأتيني في كل اربعة اشهر بخبز وماء لاني اريد ان اقضي حياتي هنا في العبادة . ثم اسالك ايضًا ان تاتيني بثوب السيّاح ولا تفتقدني الاّ ومعك امرأتك او خادمتك . وأتني بصوف فاغزلهُ لك جزاء لاحسانك . فاجابها الملاّح الى ما سألت واقامت هناك ست سنين . ولما انقضت تلك المدة افتقدها النوتي ومعهُ امرأتهُ فوجداها ميتة فاخذا جسدها حينئذٍ الى مدينة قيسارية حيث دُفن بوافر الاكرام

اليوم الرابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس ملخوس السائح الاسير

اعلم ان هذا الخبر مسنَد الى القديس ايرونيموس . ومنهُ اي من هذا الخبر يتعلم المؤمن المدعوّ من الله الى الرهبانية كم يجب عليهِ ان لا يبالي برفاهية جسدهِ وبكل ما يردهُ عن قبول هذه الدعوة المقدسة . ويعلم ايضًا كم يجب عليهِ بعد الترهب من الامانة في وفاء ما وعد الله بهِ من نحو الزهد في الدنيا والرغبة عن زخارفها . وقد كان القديس ملخوس سريانيّ الاصل ووحيد ابٍ ذي مال كثير وُلد بالقرب من مدينة نيسيبيس نحو السنة السابعة عشرة من القرن الرابع واراد أبوا هذا الطاهر ان يزوّجاهُ فأبى كلّ الاباء . لانهُ كان منذ صبائهِ قد احب العفة وابغض كل ما يثلمها ولما رأى ان والديهِ قد قصدا ان يضطرّاهُ الى التزوُّج هرب سرًّا وكان هربهُ سنة ٣٣٧ الى برية بسوريةٍ قريبة من بلاد الغرب حيث رأى جماعةً من السياح فطلب من رئيسهم ان يقبلهُ في ما بين تلاميذهِ فقبلهُ الرئيس فما لبث ان اضحى في الدير نموذج النشاط ثم بعد اعوام اخبرهُ ذاك الرئيس بوفاة والدهِ فعزم حينئذٍ على المضي الى بيتهِ ليعزي والدتهُ ويوزع بعض ميراثهِ من تركة ابيهِ رحمةً الله على الفقراء ويبني ببعضهِ ديرًا يعيش فيهِ مع رهبان على افضل طرائق العبادة ولذلك كاشف بامرهِ هذا الرئيس . فقال لهُ الرئيس لاجرم ان هذا الفكر المتلبس بنية العبادة هو وسوسة شيطانية . وانهُ ينبغي لك ان تبعدهُ عن عقلك كما تبتعد عن كل تهلكة . والحاصل ان ملخوس لم يسمع لرئيسهِ فما نجعت بهِ كل تلك النصائح مع انهُ خرّ على قدميهِ وطلب منهُ باكيًا الاّ يلقي نفسهُ في خطر الهلاك . فخرج من الدير كخروف ضال تاركًا الرعية والراعي وماضيًا للقاء الذئاب . فبعد قليل من خروجهِ من الدير صادف في الطريق جماعة رجال ونساء ماضين الى أُرفا . وكان عددهم زُهاء سبعين شخصًا ففرح ملخوس لرجائهِ انهُ يتم سفرهُ معهم بامان . الاّ انهم لما قربوا من نهر الفرات وثب عليهم السراكسة واسروهم جميعًا . فغدا ملخوس اسيرًا لاحد اولئك البرابرة الذي جعلهُ راعيًا لغنمهِ

فتحقق ملخوس ذلك الوقت انهُ قد ضلّ عن الطريق المستقيم وشرع يحزن ويذرف الدموع ولم يجد لنفسهِ تعزية في اسرهِ سوى الانفراد . وانهُ نظير يعقوب البار وموسى الكليم اللذين كانا يرعيان الغنم في البرية . وكان يعيش وهو في الفيافي من اللبن مرتلاً المزامير التي كان قد تعلمها في الدير . شاكرًا الله تعالى الذي ادّبهُ برحمتهِ وردهُ الى حال الانفراد التي كان باينها بمباينتهِ الدير . غير انهُ لم يبقَ زمانًا مديدًا على حال هذه التسلية . لان سيدهُ لما رأى فرط امانتهِ وحسن خدمتهِ وان الرعية تكثر جدًّا باهتمامهِ بها . رام ان يزوجهُ بأَمة لهُ وتلك كانت امرأة رجل أُسرهُ السراكسة ايضًا لكنهُ كان عبدًا لمولى اخر وانما قصد ذلك ابتغاء ان يثبت اسيرهُ في بيتهِ وخدمتهِ . فاستدعى ملخوس والمرأة وامرهُ بالاقتران بها . فخاف وقتئذٍ القديس من ذلك وقال لمولاهُ . انني انا مسيحي وان هذه المرأة متزوجة برجل وهو حيّ بعد . وانهُ لا يجوز في النصرانية الاقتران بمثل هذه المرأة . فنظر اليهِ سيدهُ البربري بعين الغضب وسل سيفهُ ونهض ليقتلهُ . فتقدم ملخوس الى المرأة وقبض على يدها فهدأ حينئذٍ رجز سيده لظنهِ انهُ قد ارتضى بان يتزوج بتلك المرأة باسان الحال اي بامساكهِ يدها . فلما صار المساء انفرد بالمرأة في مكان معين لها . وطفق يبكي منتحبًا متندمًا بحزن مميت على مفارقتهِ ديرهُ . ثم التفت الى المرأة وقال لها تحققي اني ارتضي بالموت الف مرة ولا بان اصير رجلكِ وافقد عفتي . اما المرأة فكانت تشكر الله تعالى في قلبها على نية ملخوس . ثم اجابتهُ قائلة ما بالك تحزن هذا الحزن اعلم اني واياك على نيَّة واحدة فاريد الموت ولا أُريد الزواج . فدع سيدنا يظن بنا اننا متزوجان ولنعش جملة كاخٍ مع اختهِ . فتعزى وقتئذٍ ملخوس بكلام المرأة تعزية لا توصف . ونقوى اتكالهُ على الله ونشاطهُ في عبادتهِ تعالى . فلما رآها مولاها متحدين هكذا اطمأن قلبهُ نظرًا اليهما . وتركها

بخدمانهِ بسلام. وكان ملخوس يذهب بالرعية الى امكنة بعيدة جدًّا ويغيب احيانًا عن المنزل شهرًا بدون ان يشكّ فيهِ سيدهُ اصلاً

واذكان منفردًا في القفر تذكر ذات يوم ما مرَّ لهُ من ايام الصفو واوقات السرور مع أُولئك السيّاح الابرار في ذلك الدير كما تذكّر ايضًا مزيد انعطاف الرئيس اليهِ وقبولهُ اياهُ في رهبانيتهِ بفرط المحبة واهتمامهُ بتعليمهِ طرائق العبادة فاساءهُ ذلك كثيرًا ولاسيما عند ما تصوَّر رئيسهُ جاثيًا على قدميهِ وهو يبكي بالدموع السخينة ويطلب اليهِ ان لا يغادر الدير ولا يطوّح بنفسهِ في الهلاك فكاد يتمزق اسفًا على ما فات. فلما عاد الى البيت وابصرتهُ تلك المرأة اسيفًا سأَلتهُ عن سبب حزنهِ واورد لها اياهُ. فقالت لهُ المرأة ان الدواء لهذا الداء هو في يدك لماذا لا تهرب. غير اني اطلب منك باستحقاق الام سيدنا يسوع المسيح ان تسمح لي بان ارافقك في هربك. واني لارجو من الله الذي لم يهملنا في اسرنا انهُ يعيننا في هربنا. فقبل القديس هذه المشورة وهيَّأَ كل شيء لهربهما الذي تم سنة ٣٥٩

فذبح عنزَين وملَّح لحمهما زادًا للسفر. وصيَّر الجلدين ظرفين ونفخهما ليقطعا بهما نهرًا كان في اول طريقهِ والحاصل انهُ بعد ان اعدَّا كل شيء واستودعا انفسهما الله بصلاة مستطيلة سافرا مساء ووصلا صباحًا الى شط النهر. فتعلقا بالظرفين وقطعا النهر ومشيا يومين بسلام لم يكدّرهما احد لكنهما في اليوم الثالث ابصرا رجلين راكبين جملين مسرعين اليهما فاستحوذ عليهما خوف عظيم ودخلا مغارة كانت على يمينهما. الَّا انهما خافا من ان يجدا هناك حيات او وحوشًا مفترسة فاختفيا في حفرة وجداها في مدخل المغارة. واذا بسيدهما ومعهُ اسير جبار نزلا مقابل المغارة. فلما سمع ملخوس صوت سيدهِ جمد دمهُ في عروقهِ من شدة خوفهِ. لان ذلك السيد كان يقول لهما اني اليوم اقتلكما معًا بسيفي ثم امر اسيرهُ الجبار بان يدخل المغارة ويخرجهما منها. فدخل الاسير المغارة المدلهمة فلم يرَ ملخوس ولا المرأة اللذين كانا قد اختفيا في حفرة بقرب مدخل المغارة كما قلنا سابقًا. فطفق يلعنهما ويشتمهما ويأمرهما بصوت جهير بالخروج من هناك. فسمعت صراخهُ لبوة كانت رابضة في اقصى المغارة فوثبت عليهِ وخنقتهُ وسحبتهُ الى ما داخل المغارة. اما مولاهُ فلما رآهُ قد ابطأَ ظن انهُ لا يقدر وحدهُ على ان يُخرج ملخوس والمرأة. فدخل هو ايضًا المغارة وصرخ بصوت اعلى من صوت اسيرهِ فاستقبلتهُ اللبوة وخنقتهُ ايضًا

اما ملخوس والمرأة فلم يجسرا على ان يتحركا لخوفهما من ان تشعر بهما اللبوة فتفترسهما. فصبرا قليلاً واذا باللبوة خرجت مع جروها وهما ينظرانها. فمكثا ساعتين من بعد ذلك ثم خرجا ايضًا فوجدا الجملين يرتعيان. فركباهما يشكران الله على جزيل عنايتهِ بهما فوصلا الى بلاد ما بين النهرين سالمين حيث قضت المرأة حياتها في بيت بعض عذارى ناسكات. اما ملخوس فعاد الى ديرهِ وكان ذلك الرئيس قد تُوفّي فقبلهُ الاخوة بفرح عظيم جدًّا. وقضى هناك حياتهُ بالصلاح والورَع وكان ذلك في اواخر القرن الرابع واما يوم موتهِ رحمنا الله بشفاعتهِ فغير معروف

قد ادرج البولانديستيون ترجمتهُ في اليوم الحادي والعشرين من شهر تشرين الاول طبقًا للسنكسار الروماني القائل انهُ في ذلك اليوم في مرونية تذكار القديس ملخوس السائح. ومرونية بلدة ببرية سورية رأَى فيها القديس ايرونيموس القديس ملخوس المذكور

اليوم الخامس عشر

وفيهِ ترجمة القديسَين الشهيدَين فوستينوس وجوفيتس

ان هذين القديسين وُلدا ببراشيا مدينة بايطاليا وكانا اخوين معتصمين بحبل المحبتين الطبيعية والنائتة الطبيعة وقد كان كل ميلهما متوجهًا الى رياضات التقوى والعبادة. فكانا يفتقدان المؤمنين المختفين من قبل اضطهاد ادريانوس الملك ليعزياهم ويثبتاهم ويحسنا اليهم. فلما وصل خبر غيرتهما وطهارتهما الى ابولونيوس اسقف المدينة الذي كان مختفيًا ومتبتلاً في برية قريبة من المدينة ازدرى فضيلتهما وانما اراد ان يشاهدهما ولما اختبر حقيقة الامر رسم فوستينوس كاهنًا واخاهُ شماسًا انجيليًّا. وقد ارتقيا هذه المرتبة بعد استعداد تقويّ وخرجا من البرية كخروج الرسل من العلية الصهيونية اي ممتلئين من الروح القدس. وكانا يناديان علانيةً بالايمان المقدس ويشجعان المؤمنين بشجاعتهما فتعجب الوثنيون من غيرتهما. ولذلك تنصَّر منهم كثيرون حتى ان وثني نواحي تلك المدينة كانوا يأتون مدينة براشيا ليعاينوا هذين الرسولين وبعد

استماع تعليمها كانوا يكسرون بالمدينة ونواحيها اوثانهم. وقد كثر المسيحيون في المدينة جدًّا حتى تنصَّر سكانها الّا القليل. فلما رأى ذلك يتاليكوس احد اشراف المدينة مضى الى الملك ادريانوس الذي كان حينئذٍ في مدينةٍ بجوار براشيا . وخرَّ على قدميهِ وقال لهُ لقد وقعت ايها الملك ومملكتك في خطر عظيم من قبل شخصين مسيحيين هما شرّ الانام وهما مزمعان ان يبيدا من البلاد ذكر الآلهة المعظمين. فاضطرب ادريانوس الملك وسأل قائلاً من هذان الشخصان وباية واسطة يسحران المدينة . فقال يتاليكوس انهما اثنان من مدينة براشيا يقال لهما فوستينوس وجوفيتس وبحيل سحرهما الشيطاني يفسدان الشعب كلهُ وبمجرد قوة كلامهما يردّان الجميع عن ديانتنا ويصيرانهم يستهزئون بها ويسحقون تماثيل آلهتنا . فانهض اذًا ايها الملك لمعاضدة الآلهة وحفظ عبادتهم لكونك منهم اتخذت الحياة والملكة. وافرغ الجهد في استئصال ديانة المسيحيين المجتهدين في هدم ديانتك ومملكتك . فقال لهُ الملك اني قد اخترتك لتدبير هذا الامر ومنحتك سلطاني لتحارب عن آلهتي في مدينة براشيا وتُبيد منها ذكر المسيحيين . فلما بلغ يتاليكوس اربهُ الرديء عاد مسرعًا الى براشيا وقبض حالاً على فوستينوس وجوفيتس وامرهما ان يسجدا للاوثان. ولانهما استقبحا هذا الفعل القاهما في السجن واخَّر تعذيبهما الى ان اتى ادريانوس قيصر

فلما حضر الملك امر بان يذهب الاخوان معهُ الى هيكل الشمس ليحضرا الذبيحة الوثنية فادخلوهما الهيكل . واذ وقفا امام الصنم الذهبي صار للحال اسود كالفحم فاندهش الملك من هذه الاعجوبة وامر بغسل الصنم . فلما شرعوا يغسلونهُ انسحق الصنم وعاد رمادًا محضًا . فنسب الملك هذه الاعجوبة الى قوة سحر الاخوين فامر بان يُطرحا طعامًا للوحوش الضارية . فلما ادخلوهما الميدان امام شعب غفير واطلقوا عليهما اربعة آساد لتفترسهما . دنت الوحوش منهما وربضت عند اقدامهما واخذت تحرّك اذنابها وتلحسهما بالسنتها اشارةً الى انها أَنست بهما . فرام يتاليكوس وقوم من اعيان الشعب ان يهيجوا الوحوش على الشهيدين لكنها نهضت حينئذٍ عليهم وافترستهم . واعجب من ذلك انهُ وقتئذٍ وقع شقاقٌ بين الشعب وجنود الملك فانفتح باب الميدان وخرجت الوحوش من الميدان. واذ شعر الاخوان ان اهل المدينة على خطر عظيم امرا الوحوش حينئذٍ باسم السيد المسيح ان تخرج من المدينة وتذهب الى البرية فامتثلت . فآمن كثيرون بالسيد المسيح منهم كالوسيروس احد عظماء بلاط الملك . فلما رآهُ الملك آمن امر بان يقبض عليهِ وارسلهُ مع الاخوين الى مدينة ميلان . وهناك تعذب الشهداء اعذبةً اليمةً . لانهم سكبوا في افواههم رصاصًا مذابًا وكسروا كل عظامهم واحرقوهم بشموع متقدة . وحينئذٍ صرخ كالوسيروس نحو الاخوين الشهيدين تضرعا من اجلي لكي احتمل عذاب النار الى الانهاء . فصلى الاخوان من اجلهِ وحالاً زال عنهُ الوجع ولم يشعر بهِ اصلاً . وبعد ايام قليلة من ذلك فاز بالظفر ومات بالله شهيدًا

اما ادريانوس فلانهُ كان قد عزم على المضي الى نابولي ورومية اخذ معهُ الاخوين وانما كان ذلك عنايةً من الله باعزاز النصرانية . لانهما في هاتين المدينتين كابدا عذابًا اليمًا وبصبرهما عليهِ وبالآيات التي جرت على ايديهما كثر المؤمنون جدًّا . واما بعد كل هذه الامور فارجعوهما الى براشيا مدينتهما وهناك قُطعت هامتاهما وذلك في السنة العشرين من القرن الثاني

اليوم السادس عشر

وفيهِ ترجمة القديسة يوليانا البتول الشهيدة

اعلم ان ابوي هذه القديسة كانا من اشرف اهل مدينة نيكوميديا . وكان ابوها وثنيًّا وامها لم تكن مسيحية وان كانت تحتقر عبادة الاوثان . وقد اطَّلعت يوليانا في السر على حقائق النصرانية ثم تنصرت وعزمت ايضًا على حفظ العفاف . فعند انتهاء القرن الثالث طلبها الوزيبوس احد قضاة المدينة ليتزوج بها فرضي والداها . فاذ علم برضاها اقبل ليسلم على خطيبتهِ فتفكرت يوليانا كيف تقطع هذا الرباط . فلما شرع يخاطبها وذكر لها شوق قلبهِ. احتالت اليهِ البتول قائلة لهُ : انهُ لمن المستحيل انها ترضى بان تُزفّ عليهِ ان لم يصر حاكمًا للمدينة وقاضي القضاة . وانما قالت هذا لظنها انهُ لايمكن ان يحصل على هذا المقام السامي . غير ان الشاب بعد مشاهدتهِ اياها زاد شوقًا الى الاقتران بها فصرف مبلغًا من المال وافرًا فوصل الى المرتبة التي عينتها لهُ يوليانا . وحينئذٍ ارسل يخبرها بذلك . فاجابتهُ البتول وقتئذٍ انها مسيحية فلا يمكن ان تتزوج بمن لايكون مسيحيًّا حقًّا

فحار الوزيبوس في امرهِ واخبر اباها بجوابها فتلهب غضبًا على ابنتهِ وقال لهُ اعتقد مصدقًا انهُ ان كان الامر كما قلت فساكون انا خصمًا لبنتي واسلها الى المحكمة. وفي الحين عاد مسرعًا الى منزلهِ . ولما تحقق ان ابنتهُ هي مسيحية وانها تأبى ان تُزفّ الى حاكم المدينة قال لها بغضبٍ شديد . اعلمي اني سأسلمكِ الى الوحوش الضارية ان لم تجحدي هذا الدين الجديد . فاجابتهُ العذراء قائلةً . اعلم يا ابي ان احترامي اياك وحبي لك لا يصيرانني ابدًا اكفر بالهي فالقني طعامًا للاسود والنمورة والذئاب او للنار لكوني انا مسيحية فلا اريد الآن احيا بالمسيح واموت من اجلهِ . فنهض ابوها عليها بالعصا وضربها بقساوة لا نظير لها حتى انهُ لو لم يُنقذها اناس من يدهِ لكان اماتها بالضرب . ثم ارسلها الى الحاكم الوزيبوس

فلما رآها الحاكم على هذه الحال المرثي لها ازداد حبهُ اياها اضطرامًا وشرع يخاطبها بلطافة ذات محبة قائلاً ما الذي سحركِ وصيّركِ مسيحية وكيف نسيتِ ما الزمتني بهِ من كلفة المال لكي اتزوَّج بكِ فما هو الذي صدر مني لتبغضيني . فاجابتهُ بوليانا قائلة اني بالتمادي الذي طلبتهُ لم اقصد الاَّ ان يريك الله تعالى ضلال عبادتك للآلهة لاني انا عالمة برفعة شأنك وانك بصفاتك الطبيعية الحميدة تستحق اسمى المراتب غير اني اطلب منك شيئًا واحدًا وهو ان تنكر عبادة الاوثان التي هي آية الجهل والحماقة وبرهان النفاق وتعبد الاله الحقيقي . فاجابها الحاكم قائلاً الا تدرين باني اذا صرت مسيحيًا اخسر اموالي وانزل عن منصبي وافقد حياتي . فاجابتهُ البتول قائلةً ان كنت تخاف من ملك ارضي قابل الموت فكيف انا لا اخاف من ان اغيظ باعظم الآثام الملك السماوي الغير القابل الموت . اعلم اني انا مسيحية الآن وساكون مسيحية على الدوام

فلما سمع الحاكم هذا الكلام تغير وجههُ وقال للشهيدة اني حتى الآن لم اخاطبكِ الاَّ كمحب اما فيما بعد فسأُعاملكِ بكل ما تقتضيهِ مرتبتي من القساوة . ثم امر حالاً بتعذيبها فتقدم ستة اشخاص من اشرس الشُرَط فجلدوها بالسياط جلدًا عنيفًا ستَّ ساعات حتى خارت قوَّتهم من الضرب ثم علقوها بشعر رأسها . اما البتول فلم يكن يخرج من فيها الاَّ هذا الكلام ونصهُ أَعنّي يا سيدي يسوع المسيح ابن الله وفي انتهاء هذا العذاب قال لها الحاكم اني ساشفي جراحاتكِ ان عبدتِ آلهتنا . قالت بوليانا اني لست احتاج الى ادويتك لاني قد جعلت اتكالي على سيدنا يسوع المسيح الذي يُقدرني على احتمال تعاذيبك وتعاذيب الشياطين . فازداد الوزيبوس غضبًا وامر بان يسكبوا على جسدها كلهِ نحاسًا مذابًا وان يحرقوهُ بشموع ملتهبة ففعلوا . ولما علم ان املهُ خاب ارسلها الى السجن فتوسَّلت الى الله قائلة ربّي لا تهملني فيما احتملهُ لتمجيد اسمك . فانت هو الذي حفظ الفتية الثلاثة في أَتون النار ودانيال فيما بين الأسد اني عليك اتكل فلا اخزى . فلما رأى الشيطان انهُ لم يقدر ان ينتصر على بنت حديثة السن بشدة التعذيب (لان بوليانا لم يكن عمرها وقتئذٍ اكثر من ثماني عشرة سنة) تراءى لها بشكل ملك ليخدعها بمشوراتهِ المهلكة لكنما البتول التي انار الله عقلها اطلعت على حيلهِ فاخزتهُ حالاً

ثم احضروا بوليانا بعد ايام امام الحاكم فلما رآها على حال الصحة كما كانت انفًا انذهل عقلهُ من ذلك الاَّ انهُ نسب هذا الامر لقوة سحرها فامرها ان تسجد للاوثان فما فعلت فمزَّقوا لحمها بمخالب حديدية ثم القوها في تنُّور حامٍ وفي خلقين مملو ماء مغلى . فلم تمسها النار ولم تشعر بألم ما اصلاً ومن اجل هذه الاعجوبة آمن كثيرون من الوثنيين . فامر حينئذٍ المغتصب بان تُقطع رؤُوسهم بالسيف مع بوليانا وهكذا نالوا اكليل الشهادة جميعًا في اليوم السادس عشر من شهر شباط في اوائل الجيل الرابع

اليوم السابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس سيلفينوس الاسقف

قد وُلد هذا القديس بتولوزا مدينة بفرنسا بعد انتصاف القرن السابع . ولانهُ كان شريف الاصل التزم بان يصرف ايام الشباب في بلاط الملك . ومن الغريب ان قلبهُ وهو في اسمى منازل الفخر على فرط التنعم لم يتعلق بالدنيا بل كان مائلاً الى الفضيلة فيما بين الرذائل . ومن ثم كان عزيزًا عند الملك ومكرمًا عند الجميع . فعزم ابواهُ على تزويجهِ واختارا لهُ بنتًا نبيلة بارعةً في الجمال وقدَّماها لهُ ليخطبها . فاظهر لوالديهِ أَمارة الاشمئزاز والنفور ولكنهُ اذ رأى ان الامر قد شقَّ عليهما جدًّا ارتضى بمشيئتهما ملتمسًا من الله تعالى ان يدبر هذا الامر بحسن عنايتهِ . فخطب البنت وشرع والداهُ يُعدَّان كل شيء للعرس . اما سيلفينوس فاخذ يجتهد في ان يفكَّ رباط خطبتهِ

فالتجأ الى اسقف المدينة وما زال يخاطبهُ في هذا الشان حتى استمالهُ الى مرغوبهِ وبرضا خطيبتهِ صار اكليريكيًا

فبعد ان حُلّ بنعمة الله رباط خطبتهِ شكر الله قائلاً انك يارب قد قطعت قيودي فلك اذبح ذبيحة التسبيح وباسمك ادعو (مزمور ١١٥ : ١٧) ومن ذلك اليوم خصَّص نفسهُ لعبادة الله ولم يعد يلتفت الى ما في الدنيا واخذ يمارس رياضات الصلاة بمزيد النشاط . ولان الانقياء القلوب يعاينون الله ويجدون التأمل في الله عذبًا كان سيلفينوس النقي القلب يجد في رياضاتهِ الروحية اكبر تسلية وقد كان يرغب في التقشفات ولا جرم ان مثل تلك الحال تميل بالمرء الى الامانة . الَّا ان التقشف لم يصيرهُ شرسًا بل زادهُ حلمًا وانسًا . فهذا الامر واحتشامهُ العجيب كانا يجعلان بقية فضائلهِ محبوبة . وبعد هذا الاستعداد تقدم لخدمة النفوس فارتسم كاهنًا ومن ذلك الوقت لم يزل يقدّس كل يوم وعبادتهُ التي كان يظهرها في حين تقديس الاسرار بها كان يستميل قلوب الحاضرين الى العبادة

ثم مضى زائرًا الاماكن المقدسة في بلاد فلسطين قاصدًا بذلك ان يرسخ في عقلهِ وقلبهِ ذكر آلام ابن الله وحبهُ . ثم انطلق الى رومية حيث اختبر الحبر الاعظم ما كان عليهِ من طيب السريرة فرسمهُ اسقفًا رسوليًا لا لابرشية . وبعد ان تبوَّأ مقام الاسقفية ليرعى القوم في كل مكان خرج من ايطاليا وعاد راجعًا الى فرنسا واقام اعوامًا كثيرة في اقليم اكيتانيا لانهُ وجدهُ كحقل مملوء حسكًا وقرطبًا . فخدم القديس هذا الحقل الانجيلي بكل غيرة ونشاط . ولما رأى الديانة والعبادة قد زهتا هناك كالروضة الغنَّاء ذهب الى فياندرا التي هي بلدة الفلامنغ واختار ابرشية مدينة تروانا لانهُ رأى فيها كثيرًا من الوثنيين الذين يفسدون ايمان المسيحيين بسيرتهم

فظهر هناك القديس سيلفينوس ككوكب منير واتجهت نحوهُ ابصار الجميع . وبعرف فضائلهِ استمال الناس الى الايمان والتقوى . لانهُ في مدة تلك الاربعين سنة التي صرفها في خدمة هذه الابرشية لم يكن يأكل الَّا الحشائش ويلبس على جسمهِ مِسحًا من شعر ويشدُّ حقويهِ بزنار حديدي . وكان سريرهُ الحضيض او قطعة من الخشب وقد حسب هذه العيشة عيشة تنعم وسعة . واعجب من ذلك انهُ كان للخطأة حليمًا وديعًا وكان قد جعل بيتهُ منزلاً للفقراء وعقاراتهِ للمحتاجين . ثم انهُ في كل يوم كان يعظ مرات كثيرة . واما باقي النهار فكان يصرفهُ في سماع الاعترافات وعيادة المرضى . اما احترامهُ بيت الرب اعني الكنيسة فنهاية العجب . وباكرامهِ اياها صيَّر الشعب يقيمون الصلاة ويتناولون الاسرار المقدسة فيها باحترام وافر . وكان يريد ان يُرتّل الفرض الكنائسي بتأنٍّ وحسن عبادة وان تكون كل آنية المذبح المقدس كريمة نظيفة فلما خارت قوتهُ في خدمة كرم السيد المسيح لم يبرح يحضر القداس كل يوم ويتناول فيهِ القربان المقدس . ولما دنت ساعة وفاتهِ عاين الملئكة يدعونهُ الى السماء وفي ذلك الحين السعيد اسلم روحهُ وكان ذلك في اليوم الخامس عشر من شهر شباط في سنة سبعمائة وعشرين

اليوم الثامن عشر

وفيهِ ترجمة القديس سمعان اسقف اورشليم

هو ابن كلاوبا اخي القديس يوسف خطيب العذراء المباركة عليهم اشرف السلام واما والدتهُ فهي مريم التي حضرت آلام سيدنا يسوع المسيح وموتهُ (يوحنا ١٩ : ٢٥) . وقد اختارهُ رب المجد تلميذًا لهُ وربَّاهُ في مدرستهِ الالهية وشاهد اكثر عجائبهِ وحضر صعودهُ الى السماء وحل عليهِ الروح القدس حين حلولهِ على الرسل الاطهار في الغرفة الصهيونية . فلما افترق الرسل وانطلقوا ليبشروا العالم كلهُ بالانجيل المقدس . استمر القديس سمعان في اليهودية ورام الله منهُ ان يهتم بخلاص اهل بلدتهِ فبقي زمانًا مديدًا في مدينة الله اورشليم مع القديس يعقوب الرسول اسقف تلك المدينة . وقد بارك الله غيرتهما وبها كثر المؤمنون جدًّا في اورشليم

وفي السنة الثانية والستين للمسيح اماتت اليهود القديس يعقوب الرسول . فاجتمع المؤمنون واجمعوا على انتخاب القديس سمعان اسقفًا لاورشليم . ولانهُ كان معتبرًا عند الجميع لاجل سيرتهِ الحسنة حصل لتعليمهِ افضل ثمرة في قلوب المسيحيين . فلما حان اوان خراب اورشليم المذكور في الانجيل المقدس تعصَّب اليهود على قيصر . فوقتئذٍ ذكر الاسقف القديس نبوة سيدنا يسوع المسيح . وبما انهُ راعٍ صالح اهتم بانقاذ الرعية المستودعة بيدهِ . فاشار على المؤمنين بان يهربوا من اورشليم واراضيها . فخرج المسيحيون من اورشليم مع اسقفهم كخروج لوط الصديق من سدوم بمشورة الملك وسكنوا عبر

الأردن وذلك في السنة التاسعة والستين . وبعد ان هُدمت اورشليم في السنة السبعين رجع المؤمنون الى حيث كانت اورشليم . لانها كانت قد خربت اسًّا على اسٍّ ولم يبقَ فيها حجر على حجر اصلاً . ففي هذا الخراب عمروا مدينة جديدة افضل من الاولى . لان المؤمنين بتدبير اسقفهم القديس صيّروها مدينة مقدسة

ثم امر الملك تراجانوس بان يُفتش باجتهاد عمّا بقي في اليهودية من ذرية داود الملك النبي . فأُخبر الحاكم بان القديس سمعان هو من اقرباء المسيح ومن بيت داود فارسل اعوانًا وقبضوا عليهِ . وكان القديس قد بلغ من العمر في ذلك الحين مائة وعشرين سنةً . فلما ابصرهُ اتيكوس حاكم بلاد سورية رقَّ لشيخوختهِ المحترمة وطلب منهُ ان يعبد الالهة ليطلقهُ اما القديس فشرع وقتئذٍ يوضح لهُ ان الله تعالى هو واحد . وانهُ من المستحيل ان يكون اكثر من ذلك وان سيدنا يسوع المسيح هو هذا الاله الواحد . وان الذين يعبدهم الوثنيون ويدعونهم آلهة كانوا اناسًا أَثمة غير مستحقين اسم بشر . فحينئذٍ امر اتيكوس فجلدوا القديس بالسياط وعذبوهُ اياما كثيرة باعذبة قاسية شديدة . وكان يحتمل ذلك بصبر اذهل عقول الحاضرين . ولان كثيرين آمنوا بالسيد المسيح عند مشاهدتهم هذه الاعجوبة امر المغتصب بان يُصلب . وقد قبل الموت بسرور شاكرًا الله تعالى الذي اهّلهُ لان يكون في موتهِ شبيهًا بالسيد المسيح . وقد كانت وفاتهُ في السنة السابعة بعد المائة للمسيح وكانت مدة جلوسهِ على الكرسي زُهاء خمس واربعين سنة

اليوم التاسع عشر

وفيهِ ترجمة القديس دوسيثاوس

ان الله لفرط اهتمامهِ بتعليمنا وتقديسنا قدّم لنا امثلة الطهارة في كل سنّ ودعوة . وبهذا اظهر بطلان براهين الذين يعتذرون عن اكتساب الفضيلة محتجين بحداثة العمر او بموانع دعوتهم . ولا جرم ان الله بيّن تراخينا بما قدمهُ لنا من طهارة اناس اصغر منا سنًّا واضعف قوةً واقل علمًا . وقد تساموا جدًّا في الفضيلة مع انهم لم يمارسوا الاَّ افعالاً اعتيادية ولم يباشروا وظائف دنية . وهذا هو الذي نراهُ في ترجمة القديس دوسيثاوس

وكان ابنًا لقائدٍ ما معتبر في الجيش وقد كلف بهِ ابوهُ حتى انهُ تركهُ يعيش على هواهُ فلم يكن يصدهُ عن شيءٍ ولا يمسك عليهِ شيئًا . ثم انهُ لخوفهِ من ان درس العلوم يضعف مزاجهُ لم يعلمهُ شيئًا من العلوم حتى ولا ما يتعلق بامر الدين والخلاص . بحيث لو لم يكن ذا نفس مباركة طبعًا لكان قد القاهُ الجهل في وهدة الشر منذ حداثتهِ . والاجدر ان نقول لو لم يحفظهُ الله بنعمة خصوصية لانهُ كان محبوبًا لجمالهِ ولطافة طباعهِ وادبهِ في كل حركاتهِ وكل هذه كانت مقرونة ببرّ يندر ان يكون لهُ مثيل

ففيما كان دوسيثاوس على هذه الحال أُخبر ان أُناسًا قد عزموا على المضي الى اورشليم ليزوروا الاماكن المقدسة . فاضرم الله ساعتئذٍ في قلبهِ شوقًا عظيمًا الى هذا السفر بما انهُ سبحانهُ كان مهتمًّا بهِ اهتمامًا ابويًّا . ولان ابويهِ كانا يلاطفانهِ جدًّا ولا يريدان ان يصدّاهُ عما يشتهيهِ رضيا بذلك وسلماهُ الى قوم اجلاء ليزور معهم اورشليم فلما وصل الى تلك المدينة وعاين الاماكن المقدسة لم يكن يملُّ من مشاهدتها ولا من استماع تفسير اسرار ايماننا التي تمّت فيها . ثم انهُ بتدبير العناية الالهية دخل يومًا كنيسة قريبة من الموضع المسمى في الانجيل المقدس جسمانية (متى ٢٦ : ٣٦) وهو وادٍ باسفل جبل الزيتون بعيد عن اورشليم نحو مائة خطوة فرأى في تلك الكنيسة ايقونة عليها صور تعاذيب الهالكين في جهنم فتعلق نظرهُ فيها . فاما دوسيثاوس فاذ كان لا يعرف بعدُ ما هي جهنم ولا لمن تعدُّ تعاذيبها . تفرّس في تلك الصورة مدة طويلة وهو مندهشٌ وعند ذلك اقتربت منهُ مريم العذراء عليها السلام بهيئة امرأة لابسة البرفير وذات هيبة سماوية . فبينت لهُ معنى الصورة والاسرار المصورة فيها . وكان يسمع ذلك كلهُ صامتًا مبهوتًا متحيرًا . ثم سأل العذراء الطوباوية ولم يكن يعرف انها هي وقال لها ما الذي يجب عليَّ ان افعلهُ لأنجو من هذه التعاذيب السرمدية المريعة ولا اهلك . فاجابتهُ ان كنت تريد يا ابني ان تنجو من عقاب جهنم ولا تكون واحدًا من اولئك الهالكين فلازم الصوم وامتنع عن اكل اللحم وكن على الصلاة مواظبًا

فرجع دوسيثاوس الى المنزل الذي كان نزل فيهِ مع رفقتهِ الزوّار وشرع يفعل بمقتضى المشورة الالهية . فلما رأوهُ ملازمًا الصوم مواظبًا على الصلاة مختليًا اجتهدوا في صدّهِ عن ذلك قائلين لهُ ان هذه السيرة لا تليق برجل عالي وانما

تليق براهبٍ في دير . اما دوسيتاوس فبما انهُ لم يكن قد عرف الطريقة الرهبانية سأل ما هو الدير . فقالوا لهُ ان الدير هو بيتٌ مقدس فيهِ ينفرد اولئك الذين لايحيون الّا لاكتساب السماء تحت طاعة رئيس يدبرهم ممارسين رياضات الصلاة والتقشفات مبتعدين عن معاشرة العالميين . فاعجبتهُ هذه جدًّا وطلب كثيرًا ان يرى ديرًا من الاديرة . فاخذوهُ الى دير ما وكان القديس سيريدوس رئيسًا عليهِ حينئذٍ . فلما رأى الانبا المذكور احتشام دوسيتاوس وصفاتهِ الحميدة تعجب منهُ جدًّا . ثم سألهُ عن قصدهِ ورغبتهِ فقال لهُ الشاب ان قصدي هو ان اخلص نفسي . فحينئذٍ استدعى الرئيس احد رهبانهِ وهو القديس دوروتاوس الذي كان قد منحهُ الله موهبة تمييز الارواح . فسلمهُ الشاب لكي يسألهُ ويفحص عن دعوتهِ وعن سبب مجيئهِ . وبعد الفحص البليغ قال القديس دوروتاوس للرئيس ان الذي استبان لي في دوسيتاوس هو ان الله بلا شك يدعوهُ الى الرهبانية . فقبلهُ الرئيس ووضعهُ تحت تدبير القديس دوروتاوس الذي كان متوكلًا في ذلك الوقت على خدمة المرضى

فهذا المرشد المتنوّر من الله لما رأى ان تلميذهُ حدث السن ضعيف المزاج معتاد على النعم لم يلزمهُ في الابتداء بجميع تقشفات السيرة الرهبانية بل مرّنهُ على ممارسة الطاعة بتدقيق وسرور واماتة ارادتهِ وتجريد ذاتهِ حتى عن ادنى الاشياء . وحثّهُ على اكتساب فضيلة التواضع بحب الاهانات وصيّرهُ يعتاد رويدًا رويدًا على القنوع . فامرهُ في الابتداء بان يأكل من الخبز بمقدار احتياجهِ وعلى مقدار قابليتهِ . الا انهُ الزمهُ بان يخبرهُ بعد الاكل بالمقدار الذي اكلهُ . ثم اشار اليهِ ان ينقص من هذا المقدار قليلًا ليجرب هل يحصل لهُ ضرر من ذلك ام لا . فجرّب المبتدىء النشيط ثم اخبرهُ بانهُ لم يتضرّر من ذلك . حينئذٍ قال مرشدهُ جرّب يا ابني هل تتضرّر اذا نقصت من آكالك في كل اسبوعين درهمين فبارك الله على فطنة المرشد وطاعة التلميذ لان دوسيتاوس الذي لم يكن يكتفي في الابتداء برطل من الخبز كل يوم قنع حتى صار يكفيهِ اخيرًا اقل من اوقيتين من غير ان تتضرر عافيتهُ من ذلك

فمات القديس سيريدوس رئيس الدير فخلفهُ في الرئاسة القديس دوروتاوس . فهذا المرشد الخبير لعلمهِ بضعف مزاج دوسيتاوس كان يقيس اتعابهُ وتقشفاتهِ على قلة قوتهِ . ولما رأى نشاطهُ يسوقهُ الى ما يفوق طاقتهُ اقامهُ وكيلًا على بيت المرضى وامرهُ بتنظيف المكان وحسن الاهتمام بخدمة ما بهِ من المرضى ثم نصحهُ لكي يستحضر الله امامهُ محترسًا من ادنى هفوة مستعظمًا اخفّ الزلات مقاومًا ارادتهُ في كل شيءٍ مجردًا نفسهُ عن كل تعلق عالمي ممارسًا لجميع الافعال الاعتيادية بحركة محبة الله ومفضلًا رضاهُ تعالى على كل ما سواهُ . فكان دوسيتاوس يجري بحسب هذه الرسوم بالتدقيق وبواسطة حفظ تلك الرسوم ارتقى في اقل من خمس سنين الى مقام برارةٍ سامٍ جدًّا مع انهُ لم يكن يمارس الّا الافعال الاعتيادية وكان في كل عمل وحال وديعًا متأدبًا متضعًا مقدمًا ذاتهُ لخدمة الجميع في كل شيءٍ ببشاشة وهشاشة . وكان يعزّي المرضى بطلاقة وجههِ . واذا اتفق لهُ ان يرفع صوتهُ قليلًا عن غضب او ينطق بكلمة تخل بكمال الوداعة والمحبة كان عند انتباههِ يندم على ذلك كل الندم . فلذلك اذ خاطب احد الاخوة يومًا باحتدادٍ اختلى حالًا في قلايتهِ حيث جثا على الارض وسلّم نفسهُ الى الحزن والبكاء . فاطّلع احد الرهبان على ذلك فاخبر الرئيس بما كان . فاتى القديس دوروتاوس فرأى تلميذهُ كئيبًا باكيًا فقال لهُ بُنيَّ ما هذا وما سبب حزنك وبكائك . فقال دوسيتاوس بصوت الاسف اني يا ابي اسأت الى الله فيا ويلي وخاطبت اخي محتدًّا عليهِ . فقال لهُ الانبا حينئذٍ قم الان وارجع الى خدمتك فان الله قد غفر لك ذنبك فعاد الى خدمتهِ مطيعًا بابتهاج ونشاط

ولا بد لنا ان نذكر اجتهاد الرئيس ودرايتهُ في استئصال كل هوًى دنيوي من قلب تلميذهِ فالانبا المذكور اعطى دوسيتاوس صوفًا ليصنع منهُ ثوبًا لهُ . فتعب فيهِ التلميذ اياماً كثيرة واظهر فيهِ كل حذقهِ . فلما انتهى العمل امرهُ بان يعطيهُ لاحد الاخوة . وخيّط ايضًا ثوبين آخرين لنفسهِ ثم سلمهما الرئيس الى اخوتهِ . وما كان يفعل ذلك بكدر بل كان فؤادهُ مملوءًا سرورًا وابتهاجًا . وقد ذكر ايضًا ان وكيل الدير وهب دوسيتاوس سكينًا ظريفًا مناسبًا لوظيفتهِ في خدمة المرضى . فمضى حالًا الى الرئيس واستأذنهُ في ان يحفظ تلك السكين من اجل خدمة المرضى . فلما رأى المرشد المستنير ان في تلميذهِ ميلًا ما منحرفًا الى السكين المشار اليهِ قال لهُ أتريد يادوسيتاوس ان تكون اسيرًا لسكين وتدنس نفسك بتعلق بشري منحرف . اتسمح لآلةٍ حقيرة ان تأسر قلبك الذي قد

خلق ليمتلكهُ الله بكليتهِ . فليكن السكين لخدمة المرضى غير اني آمرك بالاَّ تستعملهُ ولا تمسهُ اصلاً . وقد فعل كما امرُ في مدة اربع سنين ولم يستعمل ذلك السكين ولم يمسهُ ولا مرةً واحدة لا عمدًا ولا خطأً . ولا جرم ان طاعتهُ كانت كلية فكان يحترز من ان يفعل شيئًا موافقًا لارادتهِ . ولم يكن هذا منهُ عن نقص تمييز او قلة عقل لانهُ كان متصفًا بعقل ثاقب بل ان هذا كان شيئًا صادرًا من طاعة نادرة الوجود

ولكون الله تعالى يحب ان تراءى لذوي النفوس الطاهرة كان دوسيتاوس يتكلم في اسمى اسرار الايمان المقدس واعمقها على نوع عجيب مع انهُ لم يكن قد درس العلوم قط . غير ان مرشدهُ ورئيسهُ القديس دوروتاوس اتخذ ذلك سببًا ليربّي تلميذهُ على التواضع . فكان يسكتهُ ويظهر جهلهُ كلما فتح الخطاب في مشكلات سامية تتعلق بالايمان . اما هو فكان يعدُّ ذلك إن كان من قبل رئيسهِ او غيرهِ كاحسان عظيم يبهج قلبهُ . وقد استمر القديس دوسيتاوس سائرًا بنشاط في طريق النسك الى ان ابتُلي بمرض مزمن وهو نفث الدم . فاحتملهُ ولم يظهر شيئًا ما يدل على الجزع بل انهُ كان يزداد صبرًا كلما ازداد وجعًا . فلما خارت قوّتهُ بالكلية و لم يعد يقدر ان يتحرَّك سألهُ القديس دوروتاوس قائلاً هل تمارس يا ابني صلاتك العقلية . فاجابهُ التلميذ القديس وقال لهُ انني لا استطيع الان يا ابي ان امارس رياضة اخرى سوى هذه . فلما شعر بفناء قوّتهِ كليًّا قال لمرشدهِ ائذن لي يا ابي ان اموت . فاجابهُ رئيسهُ اصطبر قليلاً يا ابني لقد اقتربت رحمة الله فصرف بعض ساعات متأملاً في ذات الله ثم قال عند المساء لرئيسهِ اسمح لي بان اخرج من منفاي . فقال لهُ القديس دوروتاوس وهو يذرف الدموع . امضِ بالسلام يا ابني انطلق الى الله بطمأنينة واضرع من اجلنا في السماء . فما فرغ الرئيس من كلامهِ الاَّ وقد انتقل دوسيتاوس الى جوار ربهِ فكانهُ لم يرد ان يموت الاَّ بامر الطاعة

انهُ لقد تعجب قوم من الرهبان الاقدمين من كون القديس دوروتاوس كان يستعظم جدًّا برارة دوسيتاوس . مع انهُ لم يصم ولم يمارس اصعب ما في المذهب الرهباني فابان الله لهم انهُ بالطاعة يرتقي الراهب الى اسمى برارةٍ . لانهُ بعد ما انتقل القديس دوسيتاوس الى جوار ربّهِ عرف حالاً القديس دوروتاوس بالرؤيا ان تلميذهُ قد ارتقى في السماء الى مقامٍ سامٍ جدًّا . وفي يوم آخر طلب راهب ما جزيل الورَع من الله ان يريهُ مَن من الرهبان المتوفَّين في هذا الدير قد نال بعد موتهِ اعظم مجدٍ . فرأى زمرة من القديسين المعظمين وبينهم القديس دوسيتاوس متلألئًا ببهاء المجد اكثر منهم كثيرًا

ان تذكار هذا القديس لا يوجد في السنكسار الروماني اما ترجمتهُ فادرجها البولاندستيون في اليوم الثالث والعشرين من شهر شباط

اليوم العشرون

وفيهِ ترجمة القديس الوتاريوس

لقد ذكر ثقات الراوين ان الله كان قد خوَّلهُ نفسًا ميَّالةً الى الصلاح وجسدًا حسنًا جميلاً . وكان ابوهُ سيرنيوس وامهُ بلاندا مسيحيين فاضلين . وفي ذلك الزمن حصل اضطهاد عظيم على المسيحيين من قبل الوثنيين لانهُ صدر امر من الحاكم بان يخرج المسيحيون من المدن وتؤخذ اموالهم . فخرج سيرنيوس من مدينة تورني بفياندرا مع اهل منزلهِ وخرج معهُ بقية المؤمنين وسكنوا مزارع قريبة من المدينة . وعمروا هناك كنيسة واختاروا لهم اسقفًا تاودوروس احد الاكليريكيين وقد دبر هذه الكنيسة جيدًا . وبعد وفاتهِ انتخبوا عوضهُ القديس الوتاريوس في السنة السابعة والثمانين بعد الاربعمائة . فلما جلس على الكرسي وبدأ يزور المؤمنين لتعليمهم وارشادهم . اضرم الشيطان في قلب بنت حاكم مدينة تورني نارهوًى نجس لهذا القديس فزارتهُ هي نفسها . وبوجه ان تكشف لهُ ضميرها طلبت ان تخاطبهُ سرًّا . وحينئذٍ اي اذ انفردت بهِ اظهرت لهُ حبها الدنس . اما هو فقال لها اغربي عني ياشيطانة ونهض ليهرب . فتعلقت بثوبهِ فتركهُ القديس في يدها وهرب لا من البيت فقط بل من المدينة ايضًا . غير ان الله انتقم من البنت الشقية في ذلك اليوم بمرض مريع بهِ انتهت حياتها التعيسة . وحينئذٍ رجع القديس الى المدينة ومضى الى الحاكم ابي البنت المتقدم ذكرها وقال لهُ ان ابنتك تقوم من الموت ان آمنت بسيدنا يسوع المسيح فوعدهُ الحاكم بذلك وحينئذٍ اتى القديس والاكليريكيون ووالدا الابنة الى قبرها وصلى صلاة مستطيلة . ثم امر برفع الحجر من على القبر وقال نحو البنت الميتة ايتها الابنة انهضي امام ابيكِ . فقامت وندمت على سيرتها السابقة وصامت ستة ايام وفي اليوم

السابع لقيامتها تعمّدت هي وابوها وعاشت فيما بعد بالعفاف وماتت موت الصالحين

غير ان اباها رجع والعياذ بالله الى عبادة الاصنام كالكلب الى قيئهِ ولما رأى ان المسيحيين كثروا جدًّا بالمدينة وان سبب ذلك هو القديس الوتاريوس عزم على تعذيبهِ وقد حرَّكهُ الى ذلك بعض اشخاص من الوثنيين . فقبض على القديس وبامرهِ ضُرب بالسياط حتى تمزّق كل جسدهِ ثم القاهُ في السجن مغللاً بقيود من حديد . غير ان الله تعالى ارسل ملكًا فعزّاهُ وشفى جراحاتهِ وقطع قيودهُ وفتح لهُ باب السجن وامرهُ بالخروج منهُ وبالمضي الى مكان قريب من المدينة حيث كانت جماعة المسيحيين اجتمعت . فقدَّم هناك ذبيحة القداس من اجل اعدائهِ ومعذبيهِ وفي حين صلاتهِ من اجلهم اخبرهُ ملاك بان الحاكم وحزبهُ سيتنصَّرون . فبعد ايام قليلة من ذلك حدث في مدينة تورني وباء عظيم مات بهِ كثير من الوثنيين . فتعصب الشعب على الحاكم والزموهُ بترجيع القديس الوتاريوس الى المدينة مع بقية المسيحيين . فخرج الحاكم من المدينة مع اشراف الدولة واتى الى القديس وطلب اليهِ ان يرجع الى تورني ووعدهُ بكرامة وثروة . فقال لهم الاسقف انهُ لا يرجع الى المدينة ان لم يعدوهُ انهم يتنصَّرون فوعدوهُ بذلك . فوقتئذٍ عاد القديس الى المدينة وشرع يكرز ويعلم . وفي ذات يوم قُدّم اليهِ رجل اعمى لكي يُبرئهُ فقال لهُ الاسقف آمن بابن الله فتبصر فآمن وابصر حالاً . وفي يوم اخر تقدم اليهِ رجل ابرص وطلب منهُ المعمودية فعمَّدهُ وفي الحين تطهَّر من برصهِ

وكان كلوفيس اول ملوك فرنسا المسيحيين يعتبر كثيرًا القديس الوتاريوس فاتى الى مدينة تورني ليعاينهُ ويستمع وعظهُ . فنبهُ القديس على خطيئة باهظة كان قد فعلها وقال لهُ ان لم تندم عليها سريعًا فانهُ يدركك الانتقام الالهي . فطلب الملك منهُ ان يقدس من اجلهِ فقدس وحين كان يصلي من اجل الملك ظهر فوق رأس الاسقف نور كان يبهر النظر . اما غيرتهُ المتقدة في محاربة الاراطقة الناكرين لحقيقة تجسد ابن الله فكانت عجيبة لانهُ لم يكن يقاومهم بالكلام والكتابة فقط بل انهُ عقد مجمعًا وحرمهم فيهِ . فعزم الاراطقة على قتلهِ وهجموا يومًا عليهِ حين كان ماضيًا الى الكنيسة وما زالوا يضربونهُ الى ان سقط على الارض فظنُّوهُ ميتًا ولكنهُ لم يكن مات . فلما استفاق وعرف ان الحاكم قبض على اولئك الذين راموا قتلهُ وحكم عليهم بالشنق تشفع فيهم وخلصهم من الموت . وقد مات اخيرًا من جرى ضرباتهم وعند موتهِ ظهر لهُ الشيطان بصورة مخيفة جدًّا . فامسك القديس بيدهِ الصليب المقدس وقال نحوهُ أخزاهُ الله انك باطلاً تجتهد في ضرّي لانهُ لا قدرة لك على من يجعل اتكالهُ على سيدنا يسوع المسيح فهرب اللعين خجلاً . وقد تُوفّي القديس في سنة خمسمائة واحدى وثلاثين للمسيح

اليوم الحادي والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة مرغريتا الكورتونية

قد اراد الله سبحانهُ ان يظهر في هذه القديسة جلائل رحمتهِ الغير المتناهية . لانهُ حيث تتفاقم السيئات فهناك تزداد الحسنات . اما مولدها فكان بتوسكانا اقليم بايطاليا في السنة التاسعة والاربعين من الجيل الثالث عشر . وانما لقّبت كورتونية لانها مارست افعال التوبة في مدينة كورتونا حيث دُفنت . ومذ كانت ابنة ثماني سنين ماتت والدتها فتزوج ابوها ثانيةً واهمل تربية ابنتهِ هذه بالكلية . ولما كانت ميَّالةً الى الشر طبعًا ومولعةً باللذات الدنسة تورَّطت فيها بوقاحة لا تكاد توصف بحيث لم تؤثر فيها مخافة الله ولا نصائح ابيها ولا شناعة صيتها . وكانت عاشقة لرجل من الشرفاء تمرغت معهُ في حمأة الدنس تسع سنين حتى اتفق انهُ خرج ذات يوم من منزلها وقُتل في الطريق ولم يُعرف كيف جرى الامر . غير ان كلبة ما صغيرة محبوبة من مرغريتا كانت قد تبعتهُ بعد خروجهِ . فعادت الى بيت سيدتها بعد يومين وشرعت تعوي وتمسك بذيلها لكي تخرج معها . فخرجت وبعد قليل وجدت جثة معشوقها ملقاة في بلُّوعة تنبعث منها رائحة نتانة لا تحتمل

فارتاعت الابنة وجعل الله خوفها مفيدًا لخلاصها . لانها اخذت تستقبح سيرتها وتندم عليها وتجتهد في اصلاحها . فعادت الى ابيها تذرف الدموع وجثت عند قدميهِ طالبةً منهُ بالحاح ان يقبلها في بيتهِ لكي تمارس افعال التوبة بعيدة عن اسباب الخطيئة . ففرح ابوها وقبلها في منزلهِ الّا انها لم تمكث هناك طويلاً لان امرأة ابيها استثقلت ظلها فاخرجتها ولذلك دخلت مرغريتا بستانًا مجاورًا لبيت ابيها

وجلست تحت شجرة تين متأملة عظم الخطر الذي هي فيهِ لانها كانت فتاةً غضةً حسنة المنظر يهواها كثير من الادنياء. واذا خرجت من بيت ابيها فتجد الخطر محدقًا بها من كل ناحية ولذلك فضّلت الموت جوعًا وعطشًا على الرجوع الى سيرتها الردية. ثم استحوذت عليها الكآبة فبكت قائلة اللهمَّ يامخلص العالم يامن يُصعد كل يوم نفوسًا كثيرة من هاوية الخطيئة والهلاك ايمكن ان تقسو على نفسي وتدعها تهلك. فتذكر يارب انك كُلّفت في فداء نفسي ما قد كلّفتهُ في فداء نفس المجدلية وتيسا التائبة. فيامن خلصني بثمن دمهِ الكريم لا تهملني في ضيقتي هذه بل ارحمني. ثم نهضت حالاً بحركةٍ سماوية قوّت نفسها ومضت الى كورتونا وطلبت من احد رهبان القديس فرنسيس ان يسمع اعترافها فاستمرّت بعد ذلك تسير على طريق الفضيلة ممارسة لاتعب افعال التوبة ومحتملة اكبر الاهانات

وكان ذلك بان حبست نفسها في موضع كقلاية الراهب لا تخاطب احدًا ولا تخرج منهُ الاَّ باذن مرشدها. وقد زهدت في جمالها وتحوّل كلفها بهِ بغضًا وقد صيّرتهُ قبحًا بما فعلت من التقشفات والصوم المتواصل. لانها كانت تضرب وجهها بالحجارة وتمزقهُ حتى يسيل منهُ الدم وترشّ على تلك الجراحات نُحاتة الحجارة. وما مرَّ زمن يسير حتى تغيرت بالكلية بحيث لم يعد احد يعرفها. اما من جهة المأكل فلم تكن تأكل في كل يوم سوى قليل من الخبز ولم تكن تشرب سوى بعض نقط من الماء. وكان فراشها الحضيض ووسادتها حجرًا. ثم انها كانت تجلد جسدها مرات كثيرة كل يوم بقساوة حتى يجري الدم منهُ وكانت تصرف اكثر ليلها في الصلاة. اما قلبها فلم يكن يبرح نادمًا على ما ارتكبت من الذنوب. وقد كادت مرات كثيرة ان تموت من ذلك ولا سيما حينما كانت تتذكر آلامها امام ايقونة سيدنا يسوع المسيح المصلوب او امام المذبح المقدس

غير ان عدوَّ البشر اجتهد في ان يغرّها ويخدعها بوساوسهِ فاخذ يصوّر لها ان سيرتها هذه القشفة ليست الاَّ سيرة ناشئة عن جهلٍ لا ترضي الله لكنها تقتل بذلك نفسها. وان ما فعلت من التقشفات كفاية ومن ثم ينبغي لها ان تكف عنها وعلى الاقل ان تخففها. لاسيما بعد ان اخبرها الله بان خطاياها قد غُفرت لها. اما مرغريتا فعرفت الى اي حدّ يصل بغض الشيطان لعنهُ الله لتقشفات العبادة. ولهذا ضاعفت تقشفاتها واماتاتها. الا ان الله جلت رحمتهُ عزّاها جدًّا عندما اشتدت عليها تجارب ابليس. لانها لفرط ما كانت يومًا متضايقة من كثرة تجاربها وشدتها التجأت الى يسوع المصلوب وجثت امام ايقونتهِ فقال لها رب المجد والتعزية ثقي يا ابنتي وتقوّي انا معكِ في وقت اشد تجاربك وستظفرين بها على الدوام. ابتغي مشورة مرشدكِ في كل شيء احسني اتكالكِ وايَسّي من قوتكِ فتنتصري بنعمتي على العدو دائمًا

وكانت تكره ذاتها مع انها ذات فضائل سامية ومناقب حميدة. ونتعجب من اهل كورتونا كيف يحتملون سكناها في مدينتهم واما بغضها لذاتها فقد جعلها تحب الاهانات وتشتهيها ولم تكن تشعر بفرح الاَّ حينما تُلمّ بها اهانة. بحيث انهُ لولا إطاعتها لمرشدها لكانت طلبت من الحاكم ان يسجنها مع الزانيات وليس من العجب في شيء ان الله سُرَّ بقلبها المتضع الخاشع. لانهُ قد تفضل عليها باعظم المواهب كروح النبوة ومشاهدة الملئكة والقديسين. فضلاً عن انهُ كان يخاطبها هو بنفسهِ وقت الصلاة. واني اعدل هنا عن ذكر عجائب اخر كثيرة فعلتها طلبًا للاختصار. اما موضوع تأملاتها فكان آلام سيدنا يسوع المسيح لان افكارها كانت متجهة غالبًا الى هذا الموضوع. وهذا كان يزيدها حبًا نحوهُ تعالى وندامة على خطاياها ورغبة في التألم والاهانة حبًا لهُ عز وجل. وكانت تعترف وتتناول القربان المقدس كل يوم

وبعد ان سارت هذه السيرة المقدسة نحو ثلث وعشرين سنة اوحى الله اليها ان قد اقترب موتها وانهُ في هذا الوقت الاخير ستسعفها النفوس التي خلصت من المطهر بصلواتها. فاشتغل قلبها وعقلها حينئذٍ بذكر مراحم الله والارتياح الى التمتع بهِ فقط ثم تناولت القربان المقدس وانتقلت الى جنان الخلد في اليوم الثاني والعشرين من شهر شباط في السنة السابعة والتسعين بعد الالف والمائتين. وقد شرّف الله ضريحها بعجائب كثيرة وجسدها باقٍ الى اليوم صحيحًا غير بالٍ

اليوم الثاني والعشرون

وفيهِ تذكار تنصيب كرسي هامة الرسل في انطاكية

اعلم ان الكنيسة المقدسة تعيّد في اليوم الثاني والعشرين

من شهر شباط تذكارًا لنصب كرسي هامة الرسل في مدينة انطاكية وشكرًا لله تعالى على ما احسن بهِ الى العالم كلهِ حينما اقام الكرسي الرسولي ومنح بطرس سلطانًا مطلقًا وجعلهُ نائبهُ في الارض كلها واسَّ بيعتهِ كما قلنا في اليوم الثامن عشر من شهر كانون الثاني عن تنصيب كرسي هذا الرسول في رومية

فلا جرم ان المغبوط بطرس شرع يباشر بعد صعود سيدنا يسوع المسيح الى السماء واجبات منصبهِ السامي اي منصب الرئاسة على الكنيسة كلها. مبتدئًا بذلك في اورشليم وفي كل اليهودية فترأس على المجامع كما جرى في المجمع الاورشليمي. حيث نصح الرسل والتلاميذ وحثهم على انتخاب رسول اخر عوض يهوذا وتكلم كانهُ لسان الجميع. ثم وعظ الشعب اليهودي واثبت تعليمهُ بالعجائب فاستمال كثيرين الى الايمان وبعد ان اسس الكنيسة هكذا في بلاد فلسطين انطلق الى بلاد سورية ودخل مدينة انطاكية وكانت في ذلك الزمان قصبة الشرق وهناك نصب هذا الرسول كرسيهُ واليهِ كان يأتي المؤمنون لاجل تدبير بقية الكنائس. قال فم الذهب ان الصواب يقتضي ان تكون انطاكية اشرف مدن المشرق لانهُ فيها دُعي اولاً المؤمنون مسيحيين فيكون معلمها وراعيها اول الرسل. ويقتضي ايضًا ان يوضع بها اولاً كرسي رأس الكنيسة كلها المنظور لان مؤمنيها كانوا اكثر عددًا واشد نشاطًا

وقد مكث القديس بطرس سبع سنين في انطاكية. ثم بالهام الله نقل كرسيهُ من هناك الى رومية عاصمة كل الممالك ومعلمة الاضاليل فكان يُعبد بها من الالهة ما يُعبد بكل اقطار المسكونة. وانما كان ذلك كما قال القديس لاون المعظم لكي تظهر قوة النور السماوي الذي مزَّق ظلام الغياهب وليسهل الانتصار على بقية العالم بعد انتصار بطرس على اول مدائن الملك الروماني. لان السيد المسيح الذي كان هو الله وكتب في راية صليبهِ المجيدة انهُ ملك اليهود واليونانيين واللاتينيين اراد ان يملك القديس بطرس الرسول نائبهُ في الارض بسلطان روحي على هولاء الشعوب الثلثة وبهم على بقية قبائل الارض. وانهُ يعلّم اولاً اليهود في اورشليم وثانيًا اليونانيين في انطاكية واخيرًا اللاتينيين في رومية ليعلم الناس طرًّا انهُ راعي الجميع وان خلفاءهُ يكونون كذلك. وقد ذكر القديس اغناطيوس في رسالتهِ الى اهل ماغنازيا عيد تنصيب الكرسي البطرسي في انطاكية وذكرهُ ايضًا القديس اكليمنضوس

واعلم انهُ قد جرت العادة ايضًا ان يُعيد فضلاً عن ذلك الاحبار الرومانيون اليوم الذي فيهِ يرتقون الى منصب الخلافة الرسولية. وقد تسلمنا من القديس لاون ثلث عظات في معنى ما نحن بصددهِ. يقول في الاولى ان الله جلَّت رحمتهُ الذي رفعني انا الغير المستحق الى هذا الشرف السامي واحب بهذا ان يظهر غزير سخائهِ قد صيَّر لي هذا اليوم شريفًا جدًّا. ويقول في الثانية ان القديس بطرس الرسول هو الذي يدبر الان ايضًا كنيسة رومية ويسعف بمساعدة خصوصية الاحبار الجالسين على كرسيهِ. وهو الذي يُكرَّم في تعييد الباباوات يوم ارتقائهم الى منصبهِ الاسمى

وقد جرت العادة ايضًا في كنيسة الله ان يعيد الاساقفة في كل سنة يوم ارتقائهم الى درجة الاسقفية. وفي هذا الصدد قال القديس اغستينوس نعم انهُ يجب على المطران ان يتأمل على الدوام واجبات الاسقفية الاَّ انهُ ينبغي لهُ ان يتأملها على نوع خاصّ في كل عيد لارتسامهِ اسقفًا لكي يتذكر ما يجب ان يفعلهُ ويفحص عما فعل ويُصلح ما اخلَّ بهِ ويوطّد ما احسنهُ. ويبارك الله ويثني عليهِ شاكرًا لما اولاهُ من النعم. ولكي يتّضع ويلوم نفسهُ على ما صنع من الشر وترك ما كان يجب عليهِ من عمل الخير. ولكي يندم على زلاتهِ الماضية ندامة صادقة ويعترف اعترافًا نقيًا كاملاً وينتطّق بقوة جديدة. ولما كان لهذه العادة فائدة كبيرة امر القديس كارلوس بورّوماوس مطران ميلان في مجمعهِ الاقليمي الثالث بتجديد امر البابا فيليكوس الرابع الذي بهِ يحتم على الاساقفة بان يعيدوا في كل سنة يوم ارتسامهم وقد امر هذا المجمع بذلك الكهنة ايضًا حسبما روينا آنفًا عن القديس اغستينوس

والحاصل انهُ قد جرت العادة ايضًا في الاجيال الاولى للكنيسة ان يعيد المؤمنون في كل سنة يوم اعتمادهم. وذلك اليوم كان يُسمى في بلاد الشرق عيد الميلاد الثاني بالسيد المسيح. ولعمري انهُ ليجب علينا ان نعيد في كل سنة ذلك اليوم السعيد الذي تندسنا فيهِ شكرًا لهذا الاحسان العظيم وتجديدًا وتمكينًا لما وعدنا الله تعالى بهِ في حين اعتمادنا. فكيف لا والقديس غريغوريوس النزينزي يقول ان المؤمنين قد اعتادوا ان يعيدوا ذلك اليوم بغاية الورَع

اليوم الثالث والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس بطرس داميانوس الكردينال واسقف مدينة اوسنيا

وُلد هذا العلامة القديس برافنَّا مدينة بايطاليا في السنة الثامنة والثمانين من القرن العاشر للمسيح من والدين فقيرَي الحال . ويُروى ان والدتهُ لكثرة ما وَلدت من البنين ضجرت نفسها ولذلك لما ولدت داميانوس نبذتهُ عنها ولم ترد ان ترضعهُ فاخذتهُ امرأة غريبة وجعلت ترضعهُ بلبانها غير ان والدتهُ خجلت من قساوة قلبها على ابنها فارجعتهُ الى بيتها وربَّتهُ . ثم ماتت بعد اعوام قليلة من ذلك العهد فبقي الصبي في يد احد اخوتهِ . فعاملهُ ايضًا بقساوة لانهُ جعلهُ راعيًا لاحقر الحيوانات ولم يلبسهُ الاَّ ما تلبس الصعاليك . وكان يضربهُ كثيرًا . الاَّ ان الذي تركهُ ابوهُ وامهُ واخوتهُ قبلهُ الرب واهتم بهِ اهتمامًا ابويًا . لانهُ مع كونهِ على هذه الحال كان لا يزال صابرًا وديعًا محتشمًا نقيًّا

روى تلميذهُ القديس يوحنا لودي انهُ حينما كان صبيًا لقي قرشًا واحدًا فطاب نفسًا لانهُ وجد ما يسعفهُ في مسكنتهِ . ولكنهُ درى حالاً ان هذه لذة ناشئة عن المحبة الذاتية فرفضها بكل قلبهِ وقال حاشا لي ان استفيد مما لقيتهُ . فذهب الى كاهن ودفع لهُ القرش وطلب منهُ ان يقدس لاجل والديهِ المتوفَّيين

وفي غضون ذلك قبلهُ اخوهُ البكر في بيتهِ وصار يرسلهُ ليتعلم القراءة . وكان يتعلم في شهر واحد بسهولة ما لا يتعلمهُ الاخرون في سنة . ثم ادخلهُ اخوهُ الرؤوف مدارس العلوم فمهر في قليلٍ من السنين وفاز بالاعتبار عند الجمهور حتى ان رفقاءهُ الطلبة اختاروهُ معلمًا لهم . فخاف داميانوس من هذه التجربة فقاوم سرور الروح الطبيعي بتقشفات الجسد . وكان يُجرَى عليهِ لاجل التعليم وظائف يعيش بها بكل تنعم فمع ذلك الزم نفسهُ بالصوم الدائم ولبس المسح . وقسم زمانهُ قسمين احدهما للصلاة والاخر للدرس والتعليم . اما من جهة صلاتهِ فكان قبل استماعهِ القداس يتلو الزبور كلهُ وبعد حضورهِ القداس يفتقد الفقراء في المستشفيات ويُحسن اليهم حتى انهُ ما كان يجلس على الطعام الاَّ وعلى مائدتهِ بعض من الفقراء واطفاءً لنار الشهوة اللحمية اقتدى بالقديس ايرونيموس وغيرهِ من القديسين والقى نفسهُ مرَّات كثيرة في بحيرة جمد ماؤها

فازداد صيتهُ شرفًا وامتلأَت مدرستهُ من الناس الذين يحبُّون تفسيرهُ للكتب المقدسة . فلذلك ضجر من ضوضاء العالم وتجسسهِ فهجر بلدتهُ ودخل ديرًا من رهبانية القديس باناديكتوس يقال لهُ دير الصليب المقدس في اقليم اومبريا وترهب هناك . وكان رهبان هذا الدير يتقشفون لانهم كانوا يصومون في كل اسبوع اربعة ايام بالخبز والماء فقط ويمشون حافين دائمًا ويطيلون الصلاة ويلازمون الاختلاء ويناموت قليلاً . فزاد بطرس على كل هذه التقشفات تقشفات أُخر مع درسهِ الكتب المقدسة . غير ان الله سبحانهُ لم يدع تحت المكيال هذا النور المتوقد منهُ تعالى لتنوير العالم كلهِ . لانهُ عقب ثلث سنين من ترهبهِ أُمِرَ رئيسهُ بان يعظ الاخوة فباشر الوعظ احسن مباشرة . ولذلك طلب رهبان اديرة اخرى ان يسمعوا عظات المعلم الماهر في السيرة الروحية . وهكذا طلب العالميون ان يعلمهم ايضًا . فاثمر كلامهُ كثيرًا عند الرهبان والعالميين وشيد ديورة كثيرة في بريتهِ . فامتلأَت من اناس تابوا بكلامهِ وترهبوا زهدًا في الدنيا . وفي تدبيرهِ لهذه الاديرة اظهر كنز علمهِ وابان سمو معرفتهِ بحقائق النصرانية وتمييز الارواح . واعطى انوارًا اخرى اضحى بها اعظم علماء عصرهِ . وقد كتبت اسماء كثيرين من تلاميذهِ في سفر القديسين

فمات رئيس دير الصليب المقدس ثم اختار الرهبان القديس داميانوس رئيسًا عليهم والزموهُ بذلك . فشاع خبر برهِ وعلمهِ جدًّا . وكان الناس يستشيرونهُ من كل اقليم وبلاد كمعلم عام . وقد احترمهُ كثيرٌ من خلفاء بطرس منهم غريغوريوس السادس واكليمنضوس الثاني ولاون التاسع وفيكتور الثاني واستفانس التاسع . وطلبوا مشورتهُ في تدبير الكنيسة . والبابا استفانس المتقدم ذكرهُ هو الذي اخرجهُ من خلوة الدير وصيَّرهُ اسقفًا وكردينالاً . وقد اظهر اشد غيرة وافضل شجاعة وفطنة وطهارة في تدبير اسقفيتهِ وفي امور اخر تخص الكرسي الرسولي . وفيما كان يباشر على هذا النسق اعظم الامور الكنائسية استأثرت بهِ رحمة المولى في ٢٢ شهر شباط في السنة الثانية والسبعين من القرن الحادي عشر بعد ان أَجازلهُ البابا اسكندر الثاني ان يترك اسقفيتهُ غير انهُ لم يزل يستخدمهُ في اعمال الكنيسة حتى وفاتهِ

اليوم الرابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس متيَّا الرسول

من بعد ما انحدر ابن الله من السماء ليفتدي العالم وينتصر على قلوب البشر اتخذ اثني عشر رسولاً ليحاربوا معهُ الخطيئة والشيطان وجهنم . وقد اراد ان يكونوا اثني عشر لا أكثر ولا اقل موافقة لما في العهد القديم من الاشارة الى ذلك اي الاثني عشر آباء الشعب الاسرائيلي (تكوين ٣٥ : ٢٢) والاثني عشر رئيسًا (عدد ١ : ٤) والاثني عشر نبعًا (خروج ١٥ : ٢٧) والاثني عشر حجرًا المأخوذة من الاردن (يشوع ٤ : ٣) والاثني عشر اسدًا التي حول سدة سليمان الحكيم (ملوك ١٠ : ٢٠) والاثني عشر نجمًا التي في اكليل المرأة المتحفة بالشمس (رؤيا ١٢ : ١) والاثني عشر اسًّا (رؤيا ٢١ : ١٤) والاثني عشر بابًا للمدينة السماوية (رؤيا ٢١ : ١٢) . فبين الرسل الاثني عشر كان يهوذا الاسخريوطي . فهذا من بعد ارتقائهِ الى ارفع الدرجات بحيث تلمذ لابن الله الذي قبلهُ في مدرستهِ الالهية وكاشفهُ باسرار تعليمهِ السماوي وبعثهُ ليبشر بالانجيل ويثبت حقائقهُ بالعجائب غلبهُ البخل وباع معلمهُ الجليل بثلثين من الفضة وسلمهُ الى ايدي اعدائهِ . ثم لما رأى انهُ قد حكم على معلمهِ بالموت انتبه الى خطيئتهِ واستعظمها كثيرًا حتى يئس من رحمة ربهِ الغير المتناهية فشنق ذاتهُ وسلم نفسهُ الى الشيطان

فمن ذا الذي لا يتعجب ولا يفرق مرتعدًا عند تأملهِ سقطة هذا الرسول وضعف البشر . فلا يفتخرنَّ اذًا من يظن انهُ قائم بل فليشكرنَّ الله الذي حفظهُ وليطلبنَّ منهُ الأَّ يهملهُ لئلا تعثر رجلهُ فيسقط . وليعتقدنَّ كل منا انهُ لا يكفي الانسان ليكون صالحًا ان يقتصر على السكنى مع جماعة الصالحين بل ينبغي لهُ ان يقتفي آثارهم في السيرة الصالحة . فما بالارض من مكان أمين ولو مقدسًا غاية التقديس ان لم يعش الانسان هناك بفرط الحذر والاحتراس . لانهُ قد سقط ملك من السماء واخطأ آدم في الفردوس وهلك يهوذا في جماعة يسوع . ولا بد ان نقول هنا ان من اتخذ من الله مواهب جليلة وقد كان ينبغي ان يحسن من اجلها خدمتهُ تعالى . فان سقط فلا تكون سقطتهُ اعتيادية لكنهُ يتورَّط في هاوية الرذائل ويغرق بين اعظم لجج الشرور . واكبر دليل على ذلك ما فعل يهوذا الذي قاد الائمة الى يسوع معلمهِ ثم سلمهم اياهُ

فبعد ان سقط يهوذا هذه السقطة المهلكة من قمة الرسولية قال لوقا البشير ان الرسل اجتمعوا مع التلاميذ بعد صعود السيد المسيح الى السماء ثم قام القديس بطرس بطرس لانهُ زعيم الرسل وافتتح الخطاب وذكر ما كان من امر يهوذا وهلاكهِ ثم قال انهُ ينبغي ان يُستخلف بواحدٍ من الذين معنا الان التابعين السيد المسيح منذ صبغة يوحنا الى هذا اليوم (اعمال ١ : ١٥ الى ٢١) فرضي بذلك الحاضرون فاقاموا اثنين وهما يوسف المدعو برسبا الذي لُقب يوستوس اي بارًّا وقدموا معهُ متيَّا وكان اثناهما من الاثنين والسبعين تلميذًا . ثم صلوا قائلين انت ايها الرب العارف قلوب الجميع اظهر من تختارهُ من هذين الاثنين ليقبل حظ هذه الخدمة والرسالة . فاظهر الله ارادتهُ واختيارهُ بعلامة حسية وهي كما ذكر القديس ديونيسيوس الاريوباجي أشعَّة نور سماوي وقعت على القديس متيَّا فانضم الى الاحد عشر رسولاً

وكان عليهِ السلام من سبط يهوذا وولد ببيت لحم وقد سلك منذ صبائهِ طريق البر وتتلمذ لسيدنا يسوع المسيح منذ ابتداء ظهورهِ في العالم . وامتلأ مع الرسل من الروح القدس يوم عيد العنصرة . ولانهُ كان معتبرًا عند قومهِ لاستقامة سيرتهِ تنصَّر بسبب وعظهِ كثيرون من اليهودية . وقد ذكر القديس اكليمنضوس ما وصل اليهِ بالتقليد عن هذا الرسول من ان موضوع عظاتهِ الاعتيادي كان الامانة وكان يخاطب المؤمنين دائمًا بما تعلمهُ من السيد المسيح وهو انهُ ينبغي للانسان ان يميت نفسهُ على الدوام بقمع الجسد وذلك بسبب صعوبة اعمال التوبة وبمقاومة اهواء النفس الخبيثة وبحمل الصليب كل يوم . غير ان الرسول كان يقول ان الامانة الخارجة لا تكفي بل لا بد ان نقترن بايمان حي غير مشوب بادنى ريب وبرجاء وطيد ومحبة مضطرمة

وبما ان كثيرين من اليهود تنصَّروا بتعليم هذا الرسول ارسل حنانيا عظيم احبار اليهود أناسًا فقبضوا على هذا القديس وحينما حضر مجمع اليهود اقر معترفًا بسيدنا يسوع المسيح واثبت حقيقة لاهوتهِ ببراهين ساطعة وشهادات جمة من العهد العتيق وبيَّن لهم انهُ هو المسيح المنتظر حقًّا . فحكم حنانيا عليهِ بالرجم . فلما وصلوا الى المكان المعين لرجمهِ جثا على الارض وشكر الله من حيث اهَّلهُ لان يموت من اجلهِ ومن

اجل ايمانهِ. ثم صلّى من اجل راجميهِ وجميع اليهود و بعد ذلك رجموهُ فمات وكان ذلك في اليوم الرابع والعشرين من شهر شباط في السنة الستين للمسيح

اليوم الخامس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس تاراسيوس بطريرك القسطنطينية

كان من شرفاء القسطنطينية ووُلد بها في نصف القرن الثامن. وكان ابوهُ جاورجيوس وامهُ انكراسيا. كلاهما يتقيان الله لا سيما امهُ التي احسنت تربيتهُ بحيث غرست في قلبهِ منذ صباهُ احترامًا جزيلاً لكل ما يخص الديانة والعبادة. ولما كانت تعلمهُ علم الخلاص استدعت ايضًا علماء بارعين ليعلموهُ العلوم الالهية والبشرية. ولما كان تاراسيوس ثاقب الفكر مهذَّب الاخلاق نبغ في كل تلك العلوم حتى فاق جميع علماء عصرهِ. ومن اجل ذلك استوزرهُ الملك قسطنطين فقام بواجبات الوزارة حق القيام ومن ثم كثر القول بانهُ احكم وزراء المملكة ولهُ فضائل احكم الاساقفة واسماهم برًّا. وانما تكرّم الله عليهِ بجميع هذه المناقب لانهُ عزَّ اسمهُ اراد ان يكون قدوةً لعظماء العالم ولرؤساء الكنيسة

على انهُ في ذلك الزمن كان البطريرك بولس غادر الكرسي القسطنطيني وانفرد في دير وترهب هناك ليندم على ما فرّط في جنب الله. اذ انهُ لما استولى عليهِ الضعف البشري ارتضى بان يصحح رأي المبتدعين المبغضي الايقونات المقدسة فصار بذلك لرعيتهِ سبب شكّ وعثرة. فافتقدهُ الملك وامهُ ايريني في الدير فوجداهُ مريضًا وطلبامنهُ ان يعود الى كرسيهِ اما بولس فقال: من بعد ان صرت سببًا لاضلال رعيتي فلا يجوز ان أكون لها راعيًا. وخيرٌ لي ان أُدفن في القبر حيًّا من ان يسقط على هامتي حرم الكرسي الروماني المقدس. لاني موقن انهُ ان لم اقدم لله افعال توبة واجبة لاجل خطيئتي يحكم الله عليَّ بالخلود في نار جهنم كما حكم على الملئكة التي تمردت قديمًا. ثم قال للملك اذا حسن لعزّتكم فتتبصرون بتنصيب بطريرك عوضي على الكرسي القسطنطيني يكون اهلاً لذلك المنصب العالي ونظرًا اليَّ فلا ارى احدًا انسب لهذا الشرف من تاراسيوس. فاستصوب الجميع هذه المشورة ما عدا تاراسيوس الذي ابى الارتقاء الى هذه الدرجة. غير انهُ لما رأى ان الملك ولا سيما والدتهِ والاكليريكيين جميعهم والشعب كلهُ يطلبونهُ بالحاح قال للملك والملكة ان حال الشقاء الذي عليهِ الكنيسة القسطنطينية يقتضي ضرورةً مجمعًا عامًّا يرد المؤمنين الى الايمان المستقيم وانهُ لا يمكن ان يقبل الانتصاب على الكرسي القسطنطيني بدون ذلك. فارتضى بذلك الملك والملكة فارتسم بطريركًا يوم عيد ميلاد السيد المسيح في السنة الرابعة والثمانين من الجيل الثامن

ومن بعد ان جلس على الكرسي كتب حالاً رسائل الى البابا ادريانوس الاول والى الثلثة البطاركة. وكانت تلك الرسائل تتضمن صورة ايمانهِ ووفور شوقهِ الى اصلاح حال كنيسة الشرق. غير ان اهتمامهُ هذا بتدبير الكنيسة لم يشغلهُ عن الاهتمام بتقديس نفسهِ. لانهُ تأمل ما ذكرهُ الاناء المصطفى من اوصاف الاسقف الصالح وجعل ذلك قاعدة سلوكهِ. ثم رأى ان ارتفاع مقامهِ سببًا يضطرهُ الى الاجتهاد في اكتساب اسمى فضائل الاكليريكيين وحجةً للتحلّي باخص فضائل الرهبان ايضًا. وقد ذكر المؤرخون انهُ كان كاملاً في كل هاتيك المزايا. وقد زاد اعتبارهُ باحتشامهِ واتضاعهِ وسخائهِ على الفقراء وحبهِ اياهم. لانهُ كان يطعم عددًا معينًا منهم كل يوم في منزلهِ ويخدمهم على المائدة هو بنفسهِ وكان يعدُّ هذا من المحبة امرًا لازمًا لهُ. والحاصل انهُ بمثل هذه الافعال سهل عليهِ اصلاح ما وجدهُ مختلاً في الشعب والعظماء والاكليريكيين

لكنهُ لم يزل حزينًا من جرى ارطقة مبغضي الايقونات المقدسة. فوصلت رسائل البابا ادريانوس الى الملك والبطريرك وفيها دحض الحبر الاعظم لضلال الذين يرفضون اكرام الايقونات المقدسة وتحريض منهُ للملك على محاربة اولئك الاراطقة واعزاز الايمان الكاثوليكي في بلاد الشرق. وامرهُ الشريف بان يُعقد مجمع عمومي وبناء عليهِ ارسل كاهنين لينوبا عنهُ في المجمع. فالتأم هذا المجمع العمومي السابع في نيقية في السنة السابعة والثمانين من القرن الثامن وحضرهُ ثلاثمائة وخمسون اسقفًا. وقد افتتح تاراسيوس المجمع بوعظ مملو علمًا وغيرةً وتقوى. واطبق الاباء على اكرام الايقونات المقدسة وتحرم مذهب الاراطقة في رفضهِ لانهُ ضلال مبين. فبعد اتمام هذا الامر الباهظ اخذ يبذل الجهد في ردّ الضالين. فاستعمل لتلك الغاية كل وسائط الفطنة والمحبة المسيحية. وفي زمن يسير تطهرت القسطنطينية من رجس الارطقة. واما البطريرك فمن بعد ان ارجع الخراف الى

الخطيرة شرع يعالج ما وجد في الرعية من الامراض . اي الشرور المسببة عن الارطقة وافساد السيرة والسيمونيا . وقد سعى في هذا الامر بغيرة ووداعة وشجاعة.هذا وان كان كثيرون هاجوا عليهِ واتهموهُ بانهُ يتساهل مع الخطأة لانهُ كان يقبلهم بأنس وبشاشة وقد تجاسروا على ان يدعوهُ سيمونيًّا ايضًا . فمع ذلك لم ترتخِ غيرتهُ في قلع الزوان . وقد بارك الله على صبرهِ وشجاعتهِ وزاد صيتهُ شرفًا باظهار كذب اعدائهِ في ما اتهموهُ بهِ وشنَّعوا عليهِ ٭

وكان تاراسيوس اكثر الناس صبرًا واوفرهم حلمًا . الاَّ انهُ كان كعمود من نحاس وصخرة غير متزعزعة نظرًا الى ما يختص بمجد الله تعالى وشرف الكنيسة . ولذلك اذ هرب من بلاط ايريني الملكة رجل اسمهُ يوحنا والتجأ الى الكنيسة البطريركية أبى ان يُخرج يوحنا رغمًا من تلك الكنيسة لان ذلك يخلّ بحرمة المعبد . وبعد ست سنين من ذلك الوقت اتفق ان الملك قسطنطين عزم على طلاق امرأتهِ مريم لكي يتزوَّج بتاوذوتا احدى البنات التي كنَّ في خدمة الملك محتجًّا بقولهِ انها رامت ان تسقيهُ سمًّا ناقعًا فألحَّ على البطريرك بطلب الاذن في ذلك .فقال البطريرك للملك وهو موقن ببطلان التهمة انني لا احتمل هذا الشك المنظور ولو نزل بي اشد التعاذيب بل الموت نفسهُ . قال ذلك بغيرة واحترام ومحبة منذرًا اياهُ انهُ بهذا الفعل القبيح يجلب على نفسهِ الانتقام الالهي . غير ان الشهوة النجسة كانت قد اعمت الملك قسطنطين فطلق مريم امرأتهُ والزمها بالدخول في دير الراهبات واجلس تاودوتا على كرسيها . ولان القديس لم يكن يكفّ عن التكلم علانيةً بفساد هذا الطلاق اضطهدهُ عظماء البلاط والاراطقة ومع ذلك لم يرتخِ عزمهُ ولم يزل مبكتًا الملك على فعلهِ القبيح . لكنهُ لم يحرمهُ جهارًا خشية ان هذا التشديد يُدهور الملك في الارطقة. بل اكتفى بمنعهِ عن دخول الدار البطريركية . وقد استغرب ذلك القديس افلاتو والانبا تاودوروس على انهما مدحاهُ اخيرًا جدًّا وشكرا الله على جميل صبرهِ وسمو حكمتهِ

فمات الملك بعد قليل من ذلك العهد . وحينئذٍ نهض القديس تاراسيوس واخرج من الكنيسة القس يوحنا الذي بارك ذلك الزواج المحرَّم وفصلهُ من شركة المؤمنين . ولان الملكة ايريني رجعت الى عرش الملك ورأى البطريرك كل شيءٍ في امان . اخذ يمارس رياضات العبادة اكثر من ذي قبل ويقرنها بالاهتمام بر ياضات الغيرة. فكان يختلي كثيرًا في دير ما ويصرف هناك في الصلاة ما كان بتهيأ لهُ من الزمان بعد تكميل واجبات وظيفتهِ . وبعد ان دبَّر كنيسة القسطنطينية اثنتين وعشرين سنةً تدبيرًا مقدسًا انتقل الى دار النعيم في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط في السنة السادسة من القرن التاسع . وقد شرَّف الله قبرهُ بعجائب كثيرة

اليوم السادس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس بورفيريوس اسقف غزَّة التي ببلاد فلسطين

وُلد بورفيريوس بتسالونيكي في السنة الثالثة والخمسين من الجيل الرابع . وكان من الاغنياء الشرفاء سلك منذ صبائهِ سبيل الفضيلة . ولما بلغ السنة الخامسة والعشرين من عمرهِ ذهب الى مصر وترهب هناك واستمر خمس سنين يمارس رياضات النسك بكمال النشاط . ثم انهُ باذن الرئيس زار الاماكن المقدسة وانفرد في مغارة قريبة من نهر الأردن . لكنما رطوبة المكان اضرَّت بعافيتهِ جدًّا فبارحها بعد خمس سنين وذهب الى اورشليم . فكان لهُ تلميذ اسمهُ مرقس يخدمهُ في مرضهِ فبعث بهِ الى تسالونيكي لكي يجلب لهُ ما يصيبهُ من تركة ابوَيهِ . فذهب التلميذ وقضى الامر ورجع الى معلمهِ القديس فوجدهُ قد برئ من ذلك الداء المزمن العضال . ففرح مرقس جدًّا وسأل معلمهُ القديس كيف شفي . فقال لهُ الانبا اني منذ ايام قليلة حين اشتداد اوجاعي جررت نفسي بعناءٍ جزيل الى جبل الجلجلة حيث مات مخلصي . فوقفت هنالك مغشيًّا عليَّ وحينئذٍ رأيت يسوع مصلوبًا فامر اللص التائب ان يقيمني . فمدَّ اليَّ يدهُ وانهضني وامرني بان اشكر مخلصي وحالاً شفيت . فتقدمت بسرعةٍ الى يسوع وكان قد نزل عن الصليب فقدَّم لي صليبهُ المقدس قائلاً : احفظ صليبي ولما انتهت الرؤيا رأيت نفسي معافى بالكلية

اما ميراثهُ الذي جاء بهِ تلميذهُ فوزَّعهُ كلهُ على المساكين مع انهُ كان من الفقر على انقى من الراحة . والتزم لاجل ضرورة العيش ان يشتغل بصناعة الدباغة واستمر على هذا الحال الى ان اطَّلع البطريرك الاورشليمي على كمال برهِ وسعة

علمهِ فرسمهُ كاهنًا واقامهُ حارسًا على الصليب المقدس . وهكذا تمَّ ما قيل للقديس في روءياهُ المذكورة على انهُ بعد ما ارتسم كاهنًا بقي مواظبًا على تقشف السيرة فما كان يأكل الاَّ بعد الغروب وما كان اكلهُ الاَّ الخبز والبقول . وشرع يعظ الوثنيين لان هذا القديس كان ماهرًا في العلوم البشرية والالهية . وبما ان علمهُ كان مقرونًا بالاتضاع ورياضة الاخلاق كان لكلامهِ في القلوب احسن موقع بحيث ان كثيرين من الكفرة تنصَّروا بواسطة تعليمهِ . ولما مات ايناس اسقف غزة كان قد اشتهر اسم بورفيريوس وابتعد صيتهُ فانتُخب للحال اسقفًا واضطُر الى قبول ذلك . فاغتاظ من هذا الامر الوثنيون الذين كانوا في تلك المدينة . فافرغوا كنانة جهدهم ليقتلوهُ قبل ان يدخل المدينة

لكنهُ انتصر عليهم بصبرهِ واستمال قلوبهم اليهِ باتضاعهِ ووداعتهِ . فحدث في غزة غلاء لاجل عدم المطر فقدَّم الوثنيون ذبائح لاوثانهم فلم يغاثوا بنقطة ماء . فعمل الاسقف زياحًا مقدسًا حول الكنيسة فحالاً هطل مطر غزير على الارض اليابسة . ومن اجل هذه الاية آمن كثيرون من الوثنيين ومن ذلك اليوم ازداد المسيحيون عددًا فتعصَّب الكفَّار عليهم وعزموا على قتلهم اجمعين . فالتجأُوا الى الملك وبواسطة القديس يوحنا فم الذهب اخرج امرًا بقفل كل هياكل الوثنيين وسحق اوثانهم ولكنهُ لم يتم الامر الملوكي بسبب بخل حاملهِ وبعد ذلك ذهب القديس بورفيروس مع يوحنا اسقف قيسارية ليسألا الملك امرًا في هدم هياكل الاوثان . فقابلها بالاكرام وارتضى بنسخ العبادة الوثنية ثم رجع عن قصدهِ خوفًا ما لعلهُ يحدث اذا هُدمت هياكل الاوثان . فالتجأ وقتئذٍ الاسقفان الى الملكة افدوكسيا فوعدتهما بانها تقضي غرضهما عند الملك . حينئذٍ قال لها القديس بورفيريوس ان الله تعالى من اجل خدمتكِ هذه للكنيسة سيمنحكِ ابنًا وانهُ ليجلس على كرسي ابيهِ بعد وفاتهِ . فلما تمت النبوة انجزت وعدها فاعلمت احد عظماء بلاطهِ بما كان . فكتب في ورقة طلبة الاسقفين وفي عماد ابن الملك قدمت هذه الورقة لذاك الرجل الشريف الذي كان حاملاً على يديهِ الطفل . فقرأ قليلاً مما سطِّر في الورقة ووضعها على فم الطفل ليقبلها ثم ادخلها في عُب الطفل وقال امام الملك للحاضرين بصوت عالٍ انهُ لقد امر عزة الملك بتتميم مضمون هذه الوثيقة فتبسم الملك وقال لا استطيع ان ارفض اول طلب من ابني

ثم رجع الاسقفان بفرح يشكران الله تعالى على قضاء غرضهما الحميد . ولما ركبا السفينة اذا بهيجان عظيم حدث في البحر فاوشكت السفينة ان تغرق . فصلَّى القديس بورفيريوس فسكن البحر المزبد حالاً . ولما رأَى رئيس السفينة الاريوسي هذه الاعجوبة ما لبث ان قبل الايمان الكاثوليكي . واذ قرب القديس من مدينة غزة خرج المسيحيون للقائهِ حاملين الصليب المقدس ومرتلين تسابيح شكرية وكان في الطريق صنم من رخام يكرّمهُ الوثنيون كثيرًا فسقط امام الصليب المقدس وبسقوطهِ قتل رجلين وثنيين كانا يستهزئان بالموءمنين . ومن جرى هذه الاية ارتدَّ وثنيون كثيرون عن عبادة الاصنام وآمنوا بسيدنا يسوع المسيح . ونفذ امر الملك الذي من اجلهِ كان قد مضى القديس الى القسطنطينية . فهدموا جميع هياكل الاوثان وسحقوا كل ما كان بغزة ونواحيها من تماثيل الاصنام

اما القديس فما كان ليكف عن الاجتهاد في تحسين سيرة الموءمنين . وارجاع الكفَّار عن ضلالهم ومقاومة الاراطقة . ولا جرم ان يد الله كانت معهُ فاذ تجاسرت امرأَة ذات يوم على ان تجادلهُ ضربها الله بالصَمَم . واتفق انهُ حين كان الموءمنون مجتمعين في زياح كنائسي سقط ثلثة صبيان في بئر فصلى القديس من اجلهم . ولما نزل اناس في البئر وجدوا الثلثة الفتية سالمين جالسين على حجر . فبهذه العجائب وبرارة السيرة اباد القديس عبادة الاصنام في مدينة غزة . ثم انتقل الى رحمة الله في اليوم السادس والعشرين من شهر شباط في السنة العشرين من الجيل الخامس وعمرهُ سبعٌ وستون سنةً وساس اسقفيتهُ اربعًا وعشرين سنةً

اليوم السابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس اندرونيكوس وقرينتهِ القديسة انسطاسيا

انهُ في عهد تاودوسيوس الكبير كان في مدينة انطاكية رجل صائغ متزوج بانسطاسيا ابنة صائغ . وكان الاثنان سالكين طريق البر ويقسمان ربحهما ثلثة اقسام . فالقسم الاول كان للفقراء والثاني للرهبان والثالث لمعيشتهما . وقد كان الجميع لاستقامة سيرتهما ودماثة اخلاقهما واحتشامهما يعتبرونهما ويحبونهما جدًّا . فبارك الله عليهما ورزقهما ابنًا وبنتًا . وبعد ذلك

عاش اندرونيكوس مع امرأتهِ كأخٍ مع اختهِ . وكان هو يعود من مرض من الرجال وهي من مرض من النساء ويخدمانهم اربع مرات في كل اسبوع . فاستمرا على هذه الحال نحو اثنتي عشرة سنة . واتفق ان خرجا يوماً من البيت باكرًا ثم رجعا واذا بولدَيهما منطرحان على الفراش من شدة المرض. فحزنت انسطاسيا حزنًا مفرطًا اما اندرونيكوس وان يكن قلبهُ توجع ايضًا فانهُ بارك الله قائلاً لتكن مشيئة الرب ومضى حالاً الى كنيسة مبنية على اسم القديس جوليانوس وهناك صلّى متواترًا لاجل شفاء ولدَيهِ . ثم عاد الى منزلهِ فوجد فيهِ اناسًا كثيرين يبكون ويولولون على موت ابنيهِ . فرفع وقتئذٍ عينيهِ الى السماء وهتف مع ايوب الصديق قائلاً : عريانًا خرجت من بطن امي وعريانًا اعود الى هنالك الرب اعطى والرب اخذ كما حسن عند الرب كذلك كان فليكن اسم الرب مباركًا (ايوب ١ : ٢١) اما انسطاسيا امرأتهُ فلم تتعزَّ بل كانت تقول اني لاموتنَّ مع ولديَّ . فمكثت على جوانب قبرها الليل كلهُ . وفيما كانت هناك حزينة ظهر لها القديس جوليانوس ووبّخها على فرط حزنها ثم عزّاها بقولهِ لها ان ولديكِ فازا بجنان النعيم

فرجعت انسطاسيا الى منزلها متعزية واخبرت رجلها بما كان . ثم قالت لهُ انني قبل موت ولديّ كنت اشتهي الترهب والان فان نفسي ترتاح الى هذه الدعوة المقدسة غاية الارتياح فارغب اليك ان ترتضي بذلك . فقال لها اندرونيكوس جرّبي قبلاً هذه السيرة واخبريها مدة ثمانية ايام فجرّبت المرأة نفسها في دير راهبات ثم عادت الى زوجها ثابتةً على قصدها الحميد . ففرح اندرونيكوس وشكر الله تعالى وعزم على زيارة الاماكن المقدسة في اورشليم مع امرأتهِ فلما خرجا من انطاكية التفتت انسطاسيا الى منزلها من بعيد وقالت ايها الرب الاله يا من قال لابرهيم وسارة اخرجا من ارضكما وامضيا الى الارض التي اريكما اياها . اهدِنا في طريقنا سالمين لاننا لم نبارِن بيتنا وارضنا الاّ حبًّا بك فلا تغلق دوننا يا رب باب ملكوتك . فوصلا الى اورشليم بسلام وزارا الاماكن المقدسة واستشارا كثيرين من الاباء القديسين ثم سافرا واتيا مدينة الاسكندرية حيث كان القديس ميناس رئيسًا على دير راهبات . وهناك ترك اندرونيكوس امرأتهُ ومضى الى دير سيتيا . وبعد ان تكلم مع الاباء السياح ذهب الى الانبا دانيال وكاشفهُ بنيتهِ ونية زوجتهِ فارسل الانبا الى المرأة فاتت ومن بعد ان ثبتهما في قصدها وفهمها السيرة الرهبانية ارسلها الى دير راهبات في الصعيد . وهناك ترك اندرونيكوس امرأتهُ ثم عاد الى الشيخ دانيال وترهب في ديرهِ وعاش هناك اثنتي عشرة سنة . ثم باذن رئيسهِ خرج ليزور اورشليم . فاتفق انهُ في اثناء سفرهِ جلس الى ظلّ شجرة لكي يستريح واذا بامرأتهِ التي بوحي الله كانت قد خرجت من ديرها لتزور اورشليم ايضًا وجدت زوجها تحت الشجرة فعرفتهُ . اما اندرونيكوس فلم يعرف انها انسطاسيا امرأتهُ وذلك لانها اولاً كانت لابسة ثياب راهب وثانيًا لانهُ قد تشوَّه محياها البهي فعاد بياض وجهها سوادًا . فسلما على بعضهما وترافقا في الطريق وزارا معًا الاماكن المقدسة ثم رجعا الى الاسكندرية . وباذن الرئيس سكن اثناهما في قلاّية واحدة واستمرًا على هذه الحال اثنتي عشرة سنةً وكان الانبا دانيال يفتقدهما ويرشدهما

فمرضت انسطاسيا وفي الحال ذهب اندرونيكوس الى الانبا دانيال واخبرهُ بمرض رفيقهِ ورجّاهُ ان يعودهُ . ثم مضى ايضًا الى الانبا ميناس فلما وصل الانبا دانيال الى قلاية انسطاسيا وجدها مشرفة على الموت . فقالت لهُ القديسة اسالك يا ابي ان تقرأ بعد وفاتي هذه الورقة التي كتبتها بيدي وتسلمها الى الاب اندرونيكوس . ثم تناولت الاسرار المقدسة واسلمت الروح . فقرأ الانبا دانيال الورقة المذكورة وتعجب من هذا الامر الغريب . فارسل وجمع كل مشائخ السيّاح ولما كفنوا انسطاسيا واتضح انها امرأة اندهلت عقول الجميع وشكروا الله الذي اعطى امرأة مثل هذه الشجاعة والقوة وكان اندرونيكوس حاضرًا . فمكث هناك الانبا دانيال سبعة ايام مع اندرونيكوس ثم مضى ليفتقد القديس ميناس . واذ كان ماضيًا عرف في الطريق ان اندرونيكوس قد مرض فعاد اليهِ فرآهُ مشرفًا على الموت فناولهُ الاسرار الالهية وبعد ان استودع الله نفسهُ بارك على الحاضرين واسلم الروح

ان سيريوس وغيرهُ من المؤرخين ذكروا هذين القديسين في اليوم السابع والعشرين من شهر شباط اما السنكسار الروماني فذكرهما في اليوم التاسع من شهر تشرين الاول

اليوم الثامن والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس رومانوس مؤسس الاديرة
التي في جورا بمملكة فرنسا

وُلد هذا القديس في بورغُنديا ايالة بفرنسا في السنة التسعين من القرن الرابع . وقد صرف ايام صبائهِ وحداثتهِ بالتقوى . ولما تأمل اباطيل العالم واخطارهُ عزم على الفرار منهُ . ولانهُ لم يعقل جيدًا السيرة الرهبانية ذهب الى الانبا سابينوس من مدينة ليون ليتعلم منهُ علم الخلاص ويستدلّ على الطريق الموصّل الى الكمال الانجيلي . فمكث عندهُ زمانًا ما ثم اخذ كتاب تراجم الاباء السياح القديسين وكتاب رسوم رؤساء الاديرة وانطلق الى جبل جورا في ابرشية ليون . فوجد هناك سروةً وبقربها عين ماء وبعض اشجار مثمرة اثمارًا امرةً . فجعل مسكنهُ تحت تلك السروة وعاش هناك بعض سنين باختلاء كليّ ناسيًا العالم ومنسيًا منهُ . وكان في خلوتهِ يصرف اكثر النهار والليل متأملاً المراحم الالهية والحقائق الخلاصية . ومرتلاً المزامير الداودية . واما باقي الزمان فكان يصرفهُ في الاشتغال بحقل صغير . وبتلاوة تراجم الاباء السيّاح وكتاب رسوم رؤساء الاديرة . وكان رقادهُ قليلاً وسهرهُ طويلاً

وفي احدى الليالي تراءى القديس رومانوس لاخيهِ الاصغر المدعو لوبيسينوس . وحثهُ على الزُهد في الدنيا والاتيان اليهِ لكي يذوق تنعم الذين يعبدون الله في الانفراد . فاثرت الرؤيا في قلب لوبيسينوس فترك أُمهُ وأُختهُ واتى اخاهُ وتتلمذ لهُ . فلما رأى الشيطان الأخوين عائشين معًا كملائكة الله اخذ يقلقهما بكل نوعٍ من التجارب . وكان يُمطر عليهما في المصلّى بردًا من حجارة وهكذا انتصر عليهما المحتال . فانهما انطلقا من ذلك الخلاء البلقع يطلبان مكانًا خاليًا هادئًا . وفيما كانا ذاهبين الجأتهما الضرورة الى المبيت عند امرأة ما . وهذه لما عرفت منهما سبب مغادرتهما لخلوتهما وبّختهما على قلة شجاعتهما في مقاومة ابليس فرجع الأخوان حالاً الى تلك الخلوة وبتمادي الزمان اشتهر خبر سيرتهما المقدسة فتتلمذ لهما كثير من الناس . فابتنيا حينئذٍ ديرين وهناك ترهّب القديس اونيدوس والقديس كلاوديوس اسقف بيسانسون مدينة بايالة بورغُنديا . فكان القديس رُومانوس رئيسًا على دير كوندات والقديس لوبيسينوس رئيسًا على دير لوكون

اما القديس لوبيسينوس فكان على نفسهِ والرهبان قاسيًا جدًّا . واما القديس رومانوس فكان جائرًا على نفسهِ حليمًا على الاخرين وساترًا لعيوبهم . ومع ذلك كان الاثنان يُدبران الديرَين ويمشيان الرهبان على رسوم واحدة . ولعمري ان الرهبان هناك كانوا يسيرون في طريق الكمال بنشاط عجيب حتى فاحت نفحات فضائلهم في مملكة فرنسا كلها . غير ان الشيطان اوشك ان يهدم هذا البناء الروحي . وذلك انهُ في احدى السنين اخصبت ارضهم فزادت مؤنة الدير . فأخذ بعض الرهبان المائلين الى التنعم يسألون ان تزاد المآكل في موائد الاخوة . فالقوا البلابل بدير كوندات . فخاف القديس لوبيسينوس من ان اخاهُ لا يعرف ان يعالج هذا الداء لاجل جزيل حلمهِ ورفقهِ . فطلب منهُ ان يفوض اليهِ تدبير الدير المشار اليهِ بعض اشهر وينطلق هو الى دير لوكون ليدبرهُ فرضي القديس رومانوس بطلبة اخيهِ وترك ديرهُ تحت يدهِ ومضى . فطفق القديس لوبيسينوس يعامل الرهبان المتذمرين بالقساوة والجفاء . ووضع عليهم قوانين ثقيلة . فمن ثم خرج من الدير في ليلة واحدة كثيرون من الرهبان فحظي الدير بالسلام والسكون بواسطة فرارهم . ولكنما القديس رومانوس حزن عليهم حزنًا عظيمًا ولم يكن يبرح مصلّيًا من اجلهم بقلب اسيفٍ . فاستجاب الله صلاتهُ فعاد الرهبان جميعهم الى الدير تائبين وازالوا ما كان قد نشأ من الشك بسببهم واصلحوهُ بزيادة نشاطهم في ممارسة اصعب التقشفات

وفي ذلك الزمان اتى مدينة بيزانسون القديس ايلاريوس اسقف ارلي فاخبروهُ بفضائل القديس رومانوس فتاق الى مشاهدتهِ فارسل وطلب حضورهُ . فحضر لديهِ القديس وخاطبهُ الأسقف كثيرًا وتحقق محض قدسهِ فرسمهُ كاهنًا وارجعهُ الى ديرهِ . الاّ ان شرف هذه الدرجة لم ينقص شيئًا من اتضاعهِ لكنهُ ضاعفهُ . ولم يكن يعرف انهُ كاهن الاّ حينما كان يقدّس الاسرار الالهية

وطلب بنات كثيرات ان يترهبنَ في دير يكون تحت ارشادهِ وتدبيرهِ فبنى لهنَّ ديرًا فنما حتى كان عدد راهباتهِ عند وفاة القديس المذكور اكثر من مائة راهبة .

وكانت رئيستهنَّ اخت القديس رومانوس . ويُروى انهُ ذهب يومًا مع واحدٍ من الرهبان ليزور ضريح القديس موريسيوس . فادركهما الليل وهما في الطريق فدخلا مغارة هناك يسكنها رجلان ابرصان . وكانا وقتئذٍ قد خرجا ليحتطبا . فلما رجعا الى مغارتهما احتضنهما القديس رومانوس وقبلهما بمحبة وبشاشة وبات معهما واحيا اكثر الليل بالصلاة كعادتهِ . ولما طلع الفجر سافر . اما الابرصان فوجدا انفسهما قد تطهّرا من البرص . ولانهما كانا قد عرفا من القديس انهُ ماضٍ الى مدينة جينيفا سبقاهُ واخبرا اهل المدينة كلها بهذه الاعجوبة (وقد كان اهل هذه المدينة يعرفون جيدًا انهما كانا ابرصين) فخرج أُسقف المدينة مع سكانها لاستقبال القديس رومانوس وادخلوهُ المدينة على اوفر الاكرام . فجّل الانبا المتضع وعاد سريعًا الى خلوة ديرهِ ثم انتقل الى جوار ربهِ في اليوم الثامن والعشرين من شهر شباط في السنة الستين من القرن الخامس . وكانت مدة حياته زُهاء ستين سنةً رحمنا الله بشفاعتهِ

اليوم التاسع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس اسكندر بطريرك الاسكندرية

ان الله الذي خلق القديس اسكندر ليكافح عن الكنيسة زينهُ بالمناقب الحميدة وافاض عليهِ من غدير نِعمِهِ فصيَّرتهُ تلك الشمائل الغرّاء عزيزًا عند الاكليريكيين والشعب والعلماء والعظماء . اما والداهُ فما يُعرف عنهما شيء كما لا يُعرف شيء ما فعل في حداثتهِ . غير انهُ ولد بالاسكندرية وكان سليم القلب وديع الطبع لطيف المعشر . وبعد ما ارتسم كاهنًا ظهر في الكنيسة ككوكب لامع نظرًا لحسن سيرتهِ وسعة علمهِ . ولهذا من بعد ان استُشهد القديس بطرس بطريرك الاسكندرية في السنة الحادية عشرة من القرن الرابع ومن بعد وفاة خليفتهِ القديس اكيلاس الذي جلس على الكرسي الاسكندري خمسة اشهر فقط طلب الاكليريكيون والشعب بالاجماع عن اتفاقٍ كلي ان يكون القديس اسكندر بطريركًا . وذلك كما قال المعلم تاودوروس لانهُ لم يكن يفعل الاّ ما يُحمد عليهِ وتعليمهُ كلهُ كان رسوليًا ولذلك كان الجمهور يلقبهُ بالبطريرك القديس . اما الفقراء فكانوا يدعونهُ ابا المساكين من اجل عظم محبتهِ لهم وسخائهِ في صدقاتهِ عليهم . ولكنما اعجب

ما ظهر فيهِ هو غيرتهُ على حفظ الايمان المستقيم . ومحاربتهُ الاراطقة ولا سيما الذين نكروا لاهوت سيدنا يسوع المسيح اي الاريوسيين

اعلم ان القديس بطرس البطريرك الاسكندري حرم في مجمع عظيم ملاتيوس اسقف ليكوبولي في الصعيد وعزلهُ عن كرسيهِ من اجل انهُ سجد للاوثان في زمان الاضطهاد ومن اجل كبائر أُخر . فعوضًا عن ان يتنبَّه على سقطتهِ وكفرهِ ويظهر الندامة والتوبة تمرد جهرًا وجذب الى غيّهِ بعضًا من امثالهِ الاساقفة فتقوى وسبَّب شقاقًا اقلق بهِ كنيسة الشرق سنين كثيرة . وقد كان القديس اسكندر قبل ارتسامهِ بطريركًا يقاوم اولئك المشاقّين بغاية الاجتهاد . ولهذا بعد موت القديس اكيلاس اجتهد أُولئك في ان لا يصير القديس اسكندر بطريركًا . وكانوا يقدّمون آريوس المنافق اما آريوس فكان من بلاد افريقية وذا عقل ثاقب . غير انهُ كان معجبًا بنفسهِ متجرقًا مستصوبًا رأيهُ ولذلك اذ لم يجد في وطنهِ ما يشبع كبرياءهُ بارحهُ واتى الاسكندرية . وعند وصولهِ اليها تبع بدعة ملاتيوس ثم رجع الى الكنيسة وابتدأ يتظاهر بالعبادة والسجايا الحميدة فخدع بذلك الجمهور وما كان الاّ ذئبًا في جلد حملٍ . فرسمهُ القديس بطرس المذكور شماسًا انجيليًا والقديس اكيلاس رسمهُ كاهنًا . وغدا برأيهِ الشيطاني رجلاً معتبرًا . واقامهُ البطريرك خوريًا على احدى كنائس الاسكندرية فرام الشرير ان ينتصب على الكرسي الاسكندري . ولما رأى ان القديس اسكندر قد فُضّل عليهِ اضطرم قلبهُ بنار الحسد . ولكونهِ لم يجدهُ ملومًا في سيرتهِ اجتهد في دحض تعليمهِ

وكانت الكنيسة حينئذٍ على سلام من قبل الوثنيين بحيث كان القديس اسكندر يجمع الاكليريكيين ويعلمهم جهارًا . فشرع يومًا يكشف لهم اعظم اسرار الديانة المسيحية واعمقها اعني بهِ سر الثالوث الاقدس ذاكرًا لهم ان الابن هو مساوٍ للآب في كل شيء اي في ازليتهِ وقدرتهِ وبقية كمالات جوهرهِ . وان الاقانيم الثلثة الالهية متميزة بعضها عن بعض . غير ان جوهرهم جوهر واحد ولاهوتهم لاهوت واحد . اما آريوس المنافق فكان يقول ان ابن الله هو خليقة كباقي الخلائق وان الكلمة الازلي لم يكن منذ البدء . غير انهُ كان يعلم هذا سرًا لان هذا الأفعوان الجهنمي لم يكن يجسر بعد ان

يرفع رأسهُ بل كان يلدغ سرًّا (جامعة ١٠ : ١١) . فلما اطلع على ذلك البطريرك القديس اجتهد في ردّ اريوس عن ضلالهِ بواسطة النصائح واظهار الوداعة والمحبة . الّا ان هذه الملاطفة زادتهُ تكبرًا ومجاسرة لانهُ اخذ يعلم ارطقتهُ جهارًا وفي الابتداء كان يقول انهُ بتعليمهِ هذا لا يدحض سوى ارطقة سابابليوس وبهذه الحيلة التي يستعملها المبتدعون غالبًا خدع اناسًا كثيرين من الاكليريكيين ولا سيما الاردياء السيرة . بل انهُ بتظاهرهِ الخبيث اي باظهارهِ روح العبادة خدع ايضًا عابدات كثيرات من النساء والبنات والراهبات . فلما رأى القديس ان الملاطفة لم تفدهُ شيئًا بل ان الشرّ يزداد انقادًا عقد حينئذٍ في الاسكندرية مجمعًا التأم فيهِ اكثر من مائة اسقف . ودُعي المنافق ليوضح هو اعتقادهُ . فدخل وتجاسر على ان يصرّح امام المجمع باراتهِ الشيطانية. فنفرت منها مسامع جميع اولئك الاباء فحرموهُ ومنعوهُ ممارسة اعمال الكهنوت . واُخرج من الكنيسة والمدينة مع اسقفين وشماسين آريوسيين . وقد تمّ حينئذٍ ما هتف بهِ الحكيم قائلاً انهُ من المستحيل ان يُردّ من قد اهلهُ الله (جامعة ٧ : ١٤) لان اريوس بعد ان حُرم افرغ كنانة جهدهِ في ان يزرع زوان ارطقتهِ فنبت في قلوب كثيرين في بلاد ليبيا ومصر والصعيد من اساقفة وكهنة وعالميين . ثم انتقل آريوس الى بلاد فلسطين واخذ يغتاب القديس اسكندر ويُشنّع عليهِ مظهرًا نفسهُ بين الكاثوليكيين كاثوليكيًا ولذلك كان عند البعض رجلاً بارًّا مُضطهدًا ظلمًا كما ذكر احد مؤرخي ذلك العصر. فقبلهُ اوسابيوس اسقف نيقوميديا واوسابيوس اسقف قيسارية . وكذلك فعل اساقفة آخرون وكهنة في الاسكندرية. وفي زمن يسير امتلأت بلاد الشرق مؤلفات مشحونة تهمات فظيعة على القديس المذكور . وذلك من قبل ان يستطيع القديس اسكندر ان يعرّف اهل كنيسة الشرق بنفاق آريوس وتجاديفهِ على ابن الله . فثار اضطهاد شديد بسبب ذلك على البطريرك اسكندر فاورثهُ تعبًا لا يكاد يُصدَّق كما قال القديس اثناسيوس

ان اوسابيوس اسقف نيقوميديا المقدم ذكرهُ كانت لهُ كرامة على كونسطاسيا اخت الملك قسطنطين الكبير الذي كان ساكنًا حينئذٍ في نيقوميديا . هذا كتب الى البطريرك اسكندر مشيرًا عليهِ ان يدع هذا الجدال الذي اوقع البلبلة في الكنيسة على غير طائل وان يكفَّ عن اضطهادٍ اثارهُ ظلمًا على آريوس الكاهن البارّ انما كتب ذلك الى البطريرك المشار اليهِ ليلهو عن مقاومة الارطقة . ثم كتب الى جميع اساقفة الشرق مشنعًا على القديس وتعليمهِ ومظهرًا لهم ان آريوس كاهن مستقيم الراي ومكافح عن حقيقة الايمان . فلما رأى اوسابيوس ان البطريرك لم يعتبر نصائحهُ اضطرم غيظًا. ولانهُ كان مكرمًا في بلاط الملك عقد مجمعين كاذبين احدهما في اقليم بيثينيا حيث كان هو حاضرًا والاخر في بلاد فلسطين بواسطة احزابهِ وهذان المجمعان برّأا آريوس الملحد بحيث جعلا ضلالهُ هدًى

اما القديس اسكندر فلم يضطرب من قبل هذه كلها بل قاوم آريوس بكل قوتهِ . وكتب الى نواحي بلاد الشرق والى الحبر الروماني في شرور آريوس وبدعهِ . واما نظرًا الى آريوس فقد اظهر شديد ميلهِ اليهِ قائلاً اذا رجع عن ضلالهِ قبلتهُ بالرفق والمحبة . غير ان آريوس لما رأى حزبهُ انهم يزدادون كل يوم عددًا ازداد هو تجبرًا وقحةً ولاسيما لما اتحد معهُ اوسابيوس اسقف قيسارية . وكان ذلك الاسقف واحد عصرهِ من حيث العقل والكبرياء . وكان في زمن اضطهادات الوثنيين قد كفر بالايمان المسيحي حفظًا لحياتهِ التي صرفها فيما بعد في جحود الوهية السيد المسيح بين المسيحيين . فعلى هذين العمودين اعني بهما اوسابيوس النيقوميدي واوسابيوس القيسري الفلسطيني كان معتمدًا آريوس عدوّ ابن الله وعدو القديس اسكندر

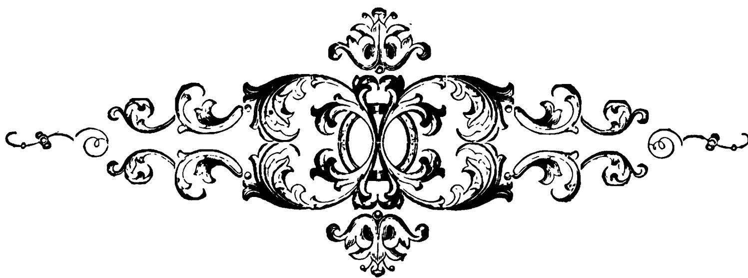
فلما رأى قسطنطين الملك الكبير ان قد نُجّست الكنيسة هكذا حزن في قلبهِ . ولانهُ كان قد خُدع من اوسابيوس النيقوميدي كتب الى القديس اسكندر وحثهُ كثيرًا على الاتحاد مع بقية الاساقفة . وبما ان الملك الوطيد الايمان كان قد اختبر اوسيوس اسقف كوردوا المعظم وعرف سعة علمهِ ومزيد اطّلاعهِ كتب اليهِ وطلب ان يذهب الى الاسكندرية . فذهب اوسيوس الى هناك وعقد مجمعًا مع اساقفة بلاد مصر فظفر المجمع بالميلاسيوسيين المشاقين . اما الاريوسيون فلانهم كانوا قد كثروا واعتزّوا لم يقدر عليهم هذا المجمع الاقليمي . فكتب وقتئذٍ القديس اسكندر الى الملك طالبًا مجمعًا مسكونيًا. وذهب اوسيوس الى نيقوميديا وطلب هذا ايضًا من الملك فارتضى قسطنطين . فارسل وقتئذٍ القديس سيلفستروس البابا الروماني نوّابهُ والتأم المجمع في نيقية في اليوم التاسع عشر من شهر ايار في السنة الخامسة

والعشرين من القرن الرابع . وكان في هذا المجمع ثلثمائة وثمانية عشر اسقفًا من كل اقاليم العالم المسيحي ما خلا القليل والاكثرون منهم كانوا قد اعترفوا بالوهية سيدنا يسوع المسيح وتعذبوا لاجل ذلك في زمن اضطهادات الوثنيين

وكان هناك القديس اسكندر ومعهُ احد شامسة كنيستهِ وهو القديس اثناسيوس المعظَّم مطرقة الاريوسيين . اما المتقدمون في المجمع فكانوا نواب الحبر الروماني ثم البطريرك الاسكندري . لان هذا الكرسي كان في ذلك الزمن اول كراسي كنيسة الشرق . انما رام الملك قسطنطين ان يحضر المجمع لكي يزيد المجمع شرفًا وهيبةً . لانهُ قال للاباء ان الحكم على قضايا الايمان لا يخص سلطتهُ بل انما خصَّهُ السيد المسيح بالاساقفة فقط . ثم ان الآباء مدحوا القديس اسكندر على غيرتهِ الجليلة . وبعد ذلك دخل آريوس واستمع لهُ الاباء كل ما رام ان يقولهُ لتبرئة نفسهِ . وهذا الاذن المعطى لهُ لإيراد رأيهِ واثباتهِ حقق جهارًا انهُ بالصواب حُرم من القديس اسكندر . لانهُ لما فتح آريوس الشقي فاهُ وافترى بقوله عن السيد المسيح ان ابن الله لم يكن منذ الازل بل انهُ خليقة بسيطة اخرجها الله من العدم لكي يخلق بهِ بقية الخلائق نهض اكثر من ثلثمائة اسقف وصمُّوا آذانهم ليظهروا بلسان الحال اشمئزازهم من هذه الاقوال الاراتيكية ورذلوا اخيرًا هذه الارطقة برأيٍ واحد واثبتوا كل ما فعلهُ البطريرك القديس ثم ان المجمع كتب رسالة الى كنيسة الاسكندرية واثنى فيها كثيرًا على قدس بطريركها

فرجع القديس الى كرسيهِ وقبلهُ الاكليريكيون والشعب باحترام وسرور لا يوصفان . والاكثرون من الذين كانوا انخدعوا رجعوا الى الايمان المستقيم . وبعد قليل من عودتهِ اي بعد خمسة او ستة اشهر من انتهاء المجمع النيقاوي مرض المرض الاخير وحينئذٍ اشار على الاكليريكيين والشعب الاسكندري ان يختاروا بعد وفاتهِ القديس اثناسيوس بطريركًا . وفي ساعة موتهِ قال كمن يتنبه من رؤيا باطلاً يهرب اثناسيوس انهُ لا يملك اربهُ بالهرب ففتش الناس عنهُ فوجدوا انهُ قد هرب حقًّا . الَّا انهم مع ذلك اختاروهُ بطريركًا في غيابهِ بعد وفاة القديس اسكندر التي كانت في اواخر شهر شباط

وقد ذكر السنكسار الروماني وفاتهُ في اليوم السادس والعشرين من شباط



شهر اذار

اليوم الاول

وفيهِ ترجمة القديسة افدوكيا السامرية الشهيدة

وُلدت القديسة المذكورة في ابتداء الجيل الثاني على عهد تراجانوس الملك في بلاد سامرة . الّا انها اتت مدينة اليوبوليس (بعلبك) وكانت متمرّغة في حمأة الدنس كالمرأة السامرية المذكورة في الانجيل بل انها كانت اقبح سيرة واكثر وقاحة منها وكادت تفسد اهل المدينة وتستأسرهم بسحر بهائها المهلك . غير ان الله الذي لا يزال يدعو الخطأة الى التوبة باظهار رحمتهِ الغزيرة للبعض منهم . سعى بنعمتهِ في طلب هذه النعجة الضالّة كما فعل في السامرية الاولى واراها نبع الماء الحي وخلصها من الذئب الجهنمي وقد جرى الامر على هذا الاسلوب

انهُ بتدبير العناية الالهية مرَّ بمدينة اليوبوليس راهب فاضل يقال لهُ جرمانوس . فنزل عند مسيحي صديق لهُ وكان بيتهُ ملاصقًا لبيت افدوكيا . فهذا الراهب بحسب عادتهِ قام في جوف الليل وشرع يرتل بعض المزامير . وبعد ما فرغ من ترتيلها فتح كتابًا روحيًا وشرع يتلوهُ بصوت عالٍ قاصدًا بذلك ان يبعد عنهُ الرقاد . وكان موضوع تلاوتهِ شدة العذاب السرمد الذي يكابدهُ الخطأة في جهنم وعظم السعادة الابدية التي يتمتع بها الابرار في جنان الخلد . اما افدوكيا فكانت تُصغي لتراتيل الراهب وقراءتهِ . فخاضت في تأمل النيران الآكلة التي لا تطفأ وبقية الاعذبة السرمدية المعدَّة للخطأة . ثم شرعت تتذكر خطاياها وتتأمل كثرتها وعظمتها وهذا التصوُّر المرعب ملأ قلبها يحسًا واضطرابًا . فلما اصبح الصباح استدعت الراهب وسألتهُ عن دينهِ ودعوتهِ وسبب تغرُّبهِ . فاجابها قائلاً اني راهب من عباد سيدنا يسوع المسيح وقد خرجت من ديري باذن رئيسي لقضاء امرٍ يخص خدمة الله . والان اعود الى ديري لاقضي هناك حياتي في ممارسة رياضات التوبة . فقالت لهُ افدوكيا وما الذي كنت تتلوهُ في الليل اني لم اسمع قط شيئًا مثل هذا ونفسي الى الان منهُ على اضطراب عظيم . فارغب اليك ان تذكر لي ما قرأتهُ عن هذه النار المؤبدة . فاخذ الراهب القديس يوضح لها هذه الحقيقة المرهبة واسهب الكلام في شرح تلك التعاذيب الخالدة . فمن فرط الخوف الذي استحوذ على افدوكيا هتفت قائلةً آهًا فقد هلكت نفسي الشقية مؤبدًا

لما الراهب جرمانوس فلما سمع كلامها هذا شرع يسألها من هي وما ديانتها . ثم قال لها وماذا تريدين بقولكِ انكِ لم تسمعي شيئًا قط عن وجود النار الجهنمية المؤبدة فما مذهبك وما اعتقادكِ . فقالت افدوكيا اني انا سامرية وديانتي هي ديانة السامرة والاولى بي ان اقول انهُ لا ديانة لي ولا مذهب ولذلك قد ارتكبت كل اثم فماذا يكون جزائي بعد الموت الّا الخلود في النار الابدية . فقال لها الراهب لا تخشي فلا يجري عليكِ ذلك العقاب فدعي عنكِ هذا الفكر الشيطاني واعتقدي انكِ تخلصين من هذا العقاب الابدي ان تبتِ عن آثامكِ توبةً نصوحًا . لان سيدنا يسوع المسيح لا يردُّ ابدًا من يعود اليهِ نادمًا . فقالت لهُ افدوكيا وما الذي يجب على خاطئةٍ مثلي ان تفعلهُ . فاجابها جرمانوس قائلاً اياكِ ان ترجعي الى الخطيئة واستدعي كاهنًا يعلمكِ قواعد النصرانية ويعمّدكِ . فسمعت لهُ واستحضرت كاهنًا غير انهُ اذ دخل عليها اضطربت نفسهُ فرَقًا لانهُ كان يعرف خبر سيرتها الردية ولم يكن قد بلغهُ خبر توبتها . على انهُ لما رآها باكيةً جاثيةً على الارض سألها قائلاً لماذا دعوتني . فاجابتهُ السامرية قائلةً اني على حال شقاء لا نظير لهُ لاني غريقة في لجة الشرور وخطاياي ليس لها نظير . الّا اني قد سمعت ان رحمة الله هي اعظم من مآثمي . فاطلب منك ان تعمّدني وتفرض عليَّ ما تريد ان افعلهُ فيما بعد فاني لا اتجاوز رسومك ما حييت

فشكر ذلك الكاهن الله وعزّى الخاطئة التائبة وأمرها ان تترك كل اثوابها المزخرفة وتخلي سبعة ايام صائمةً مصليةً. ثم خرج من بيتها والراهب. وقد وعدتهما افدوكيا بانها تتمم الامر بالتدقيق وطلبت من الراهب جرمانوس ان يعود اليها بعد اختلائها تلك المدة المعيَّنة

فانفردت السامرية التائبة في منزلها وتممت كل ما فُرض عليها. وبعد انقضاء السبعة الايام عاد الانبا جرمانوس اليها ولما رآها لم يعرفها لان هيئة وجهها تغيرت كثيرًا من شدة ندامتها. فقالت لهُ افدوكيا ليكن الله مباركًا على ما احسن اليَّ برحمتهِ في هذه الايام القليلة. فاعلم يا ابانا انني بعدما صرفت ستة ايام في افعال التوبة على النوع المرسوم عليَّ. اشرق عليَّ في اليوم السابع بغتةً نورٌ باهر وانا جاثيةٌ اصلي ووجهي ملتصق بالارض. ورأيت شابًا لابسًا اثوابًا بيضاء فطار بي بدقيقة من الزمن الى السماء وهناك رأيت الوف الوف لابسين نظيرهُ يفرحون بي ويهنئونني. وبينا كنت متأملة في هذه الرؤيا بتعجب وفرح اذ رأيت امامي شخصًا قبيح المنظر هائل الصورة يتذمر على الله لانهُ خطف ما كان لهُ فسمع في اثناء ذلك كلام من السماء ونصهُ احبَّ الله ان يرحم الخطأة التائبين ثم وعدني ذاك الشخص بانهُ سيهتمُّ بي على الدوام اهتمامًا خصوصيًا وانبأني بان مرشدي السماوي هو القديس ميخائيل وامرهُ ان يردّني الى حيث انا الان هذا ماجرى لي. أبتِ اعلمني الآن بما ينبغي لي ان افعلهُ لكي اكافئ الله على ما احسن بهِ اليَّ فاخذ الراهب يعلمها وفي انتهاء التعليم امرها بان تعتمد سريعًا ثم ودَّعها قائلاً لها انا ماضٍ الى ديري وارجو من الله اني عما قليل اعود اليكِ واعلمكِ ما يريد الله بكِ. فقالت لهُ التلميذة اني لمتعجبة من كون الصالحين يبتعدون عن العالم ويهربون من معاشرتهِ والحال ان العالم كثيرًا ما ينتفع بامثلة فضائلهم فلماذا تتكبون عن العالم. فاجاب مرشدها قائلاً اعلمي ان العالم هو بحرٌ ممتلئ صخورًا يبتعد عنها كل نوتي فطن اما الدعوة الرهبانية فتشبه حال القديسين الذين في السماء من حيث ان الراهب يرى الله دائمًا بواسطة التأمل والصلاة. فهناك الراهب يميت من عواطف قلبهِ كل ما يميل بهِ الى حب شيءٍ دنيوي. وهناك يضعف جسمهُ بالتقشفات لكي يتقوَّى بالروح وفي هذا يجد سرورًا باطنًا لا يعادلهُ في الارض سرورٌ وطريقًا سهلاً امينًا لحفظ البر ولاكتساب الفضائل بواسطة رياضاتهِ المقدسة وقدوة اخوتهِ القديسين. فقالت لهُ افدوكيا أبتِ اخاف من ان سعادة دعوتك تصدُّك عن المعاد اليَّ واخشى ان معاشرتك للرهبان القديسين تمحو من ذهنك اسم افدوكيا الخاطئة. فاسألك اذًا الا تنسى التي قصد الوحش الجهني الذي رأيتهُ ان يبتلعها. فلا جرم ان الله سبحانهُ قد اراد ان يردَّني عن الاثم بواسطتك فاهدني اذًا الى ان اصل الى مينا الخلاص. فقال القديس ثقي ولا تخافي لانني انا منطلق الى الدير بامر الطاعة. واما سفري الى هناك فانهُ يفيدكِ جدًا لكوني ساطلب من اجلكِ صلوات الرهبان وبعد زمن يسير اعود اليكِ. فجثت افدوكيا على الارض فباركها وسار

اما تاودوتوس اسقف اليوبوليس فكان قد عرف توبة السامرية ومن ثم كان ينتظر نتيجة الخبر. ولما كان على هذه الحال اذا بشماس قلايتهِ اخبرهُ بانها تُريد ان تخاطبهُ وهي لابسة ثياب التوبة. فدخلت افدوكيا وجثت امام الاسقف باكية وطلبت منهُ بالحاحٍ ان يعمّدها. فلما تحقق الاسقف توبتها ووجدها عارفة قواعد النصرانية ومتشوقة الى سرّ المعمودية عمدها ثم قدّمت للاسقف جميع اموالها الغزيرة وسألتهُ ان يوزعها على الفقراء. ومن ذلك اليوم صارت افدوكيا في مدينة اليوبوليس قدوة العفاف. وبعد زمن رجع الراهب جرمانوس فرآها ثابتة على التوبة وراغبة في اكتساب الفضيلة فاشار عليها بان تذهب الى احد الاديرة وتمارس هنالك افعال التوبة حتى يتوفاها الله فحسنت عندها تلك المشورة ولذلك انطلقت الى دير راهبات كان قريبًا من دير مرشدها. فترهبت فيهِ وسلكت طريق الكمال باتم النشاط. فتعلمت المزامير كلهُ في اقل من شهرين ومع انها كانت قد تطهرت من ادران خطاياها ووفت عنها بتناول هذا السر المقدس لم تكن تدع حواسها تتمتع بشيءٍ من اللذة والراحة بل كانت تميتها عن كل شيءٍ وكانت تعدُّ نفسها غير مستحقة ان تعيش مع راهبات قديسات. ومن ثم ارادت ان تكون فيما بينهنَّ كأمةٍ تخدمهنَّ في ادنى الوظائف والخدم. اما الراهبات فكنَّ يعتبرنها كمرآة لجميع الفضائل. ولهذا بعدما انتقلت رئيسة الدير الى رحمة الله رأسنها على الدير فقبلت ذلك ولكن اضطرارًا

واما ابليس لعنهُ الله فقصد حينئذٍ ان يعيدها الى حمأة الدنس فوسوس الى شابٍ شرير قال اختطفها وتزوَّج بها

فابتغاء ذلك ذهب الى الانبا جرمانوس لابسًا ثياب راهبٍ وطلب ان يقبلهُ في ديرهِ. فقال لهُ الراهب اللبيب انك لحديث السن بعدُ وضعيف المزاج. فما انت بقادرٍ على ان تحتمل التقشفات الرهبانية. قال الشابُّ الخبيث اي نعم يا ابي المكرَّم اني حدِثٌ وضعيف بعدُ. لكنما توبة افدوكيا وطهارة سيرتها تحرّضانني على ان اقتفي اثرها. فأْذن لي ان أُخاطبها قليلاً لان لي رجاء ان كلامها يزيدني نشاطًا ويصيّر لديَّ اصعب التقشفات سهلةً. فاجابهُ الانبا الى ذلك وامر افدوكيا ان تخاطبهُ. فوقف الرديُّ امام القديسة عليها السلام وبدأَ يخاطبها بكلام دنِس تنفر منهُ آذان الادباء فضلاً عن الانقياء. اما هي فحالما سمعت تلك الاقاويل القبيحة ابكمتهُ بالفاظ مخيفة فخرَّ ميتًا على الارض. غير انها بعد ذلك صلَّت من اجلهِ فاقامهُ الله من الموت فاطلقتهُ قائلةً لهُ امضِ وتُب

واما ابليس فلم يبرح مجتهدًا في تجربة افدوكيا فحرَّك اوريليانوس والي المدينة الذي لما عرف انها تنصَّرت وترهَّبت ظنَّ انها اخذت معها اموالها الوافرة كلها. فارسل ثلثمائة جندي ليأْتوهُ بكل مالها. فكاشفها الله بهذه التجربة ووعدها بانهُ يهتمُّ بها وبديرها. فلما قربت الجنود من الدير وثب عليهم تنين وقتلهم ما خلا ثلثةً رجعوا الى اوريليانوس واخبروهُ بما جرى. فنهض ابنهُ وقتئذٍ واخذ معهُ كثيرًا من اعوانهِ وسافر الى الدير غازيًا وفي مساء اليوم الاول من سفرهِ اصابتهُ رفسة فرسٍ فوقع قتيلاً. فلما عرف هذا ابوهُ قام ليمضي هو ايضًا ويفتك بافدوكيا لكنما فيلوستراتوس واحدًا من اصحابهِ أَمسكهُ واشار عليهِ بان يلتجي اليها ويطلب منها ان تُقيم ابنهُ من الموت. فكتب لها اوريليانوس والتمس صلواتها من اجل ابنهِ. فردَّت لهُ جوابًا برسالةٍ رسمت في آخرها عوضًا عن الختم ثلثة صُلبان. فأَخذوا رسالتها ووضعوها على جسد الميت فنهض حالاً من الموت. فآمن حينئذٍ اوريليانوس بالسيد المسيح هو وكل اهل منزلهِ وبعد زمان قليل انتقل الى رحمة الله

فخلفهُ يوجينس وكان المسيحيُّون ابغض العالمين اليهِ فعزم على استئصالهم اجمعين. وكان هذا الوالي يهوى جلاسيا اخت اوريليانوس المتقدّم ذكرهُ ورام ان يتزوج بها على انهُ لم يكن قد درى انها تنصَّرت ففرَّت جلاسيا عند ذلك واختبأَت في دير افدوكيا. فحدثتهُ نفسهُ حالاً بانها ذهبت الى افدوكيا. فارسل خمسين جنديًا ليمسكوها ويأتوهُ بها فتراءى الله لافدوكيا واعلمها بما هي مزمعة ان تكابدهُ من اجل اسمهِ القدوس ووعدها بانَّ يدهُ تنصرها. فانتهى الجنود الى الدير وبلَّغوها امر الحاكم فطلبت منهم ان يتمهَّلوا قليلاً ودخلت الكنيسة واستودعت نفسها الله عزَّ اسمهُ وتناولت القربان المقدَّس ثم مضت مع الجنود. فلما مثلت امام المغتصب سألها عن اسمها وديانتها. فاجابت القديسة اما اسمي فافدوكيا واما ديانتي فهي النصرانية فتوعَّدها وقتئذٍ المغتصب بالعذاب والموت ان كانت لا تجحد دينها وتعبد الاصنام. فاجابتهُ افعل بي ما تريد فانا لا اعبد الهتك ولا اخاف تعاذيبك. فامر الحاكم بتعذيبها فربطها الجنود ليمزّقوا جسدها بالضربات. واذا بزوبعة ناريَّة انحدرت على المغتصب واكابر حاشيتهِ. فولولوا وصرخوا صراخًا مريعًا وهلكوا في وسط اللهيب. فلما رأَى هذه الأعجوبة احد الجند خرَّ على قدمَي افدوكيا قائلاً انهُ لا اله الاَّ الذي تعبدينهُ. فامرتهُ القديسة بالذهاب الى الاسقف لكي يُعلّمهُ ويُعمدهُ. فقام الجنديُّ وحلَّ رُبُط الشهيدة ثم طلب منها ان ترحم اولئك القتلى الاشقياء. فجثت افدوكيا على الارض وتوسَّلت الى الله ثم قامت وشرعت تمسك كل واحد منهم بيدهِ وهي تقول بحق سيدي وربي يسوع المسيح الذي قام بمجرَّد قدرتهِ من الموت انهضوا واحيوا. فقام الجميع احياء فتنصَّروا

وفي غضون ذلك اتى مرسلون فاخبروا قائد الجنود بان فيرمينا امرأَتهُ قد ماتت في الحمَّام. فطلب الحاضرون من القديسة ان تقيم هذه ايضًا من الموت. فاحضروا امامها الجثة فصلَّت من اجلها وأَمرتها باسم يسوع ابن الله بان تنهض من الموت فقامت حالاً فيرمينا حيةً. فهتف الجميع قائلين لا اله الاَّ اله افدوكيا. ثم عادت القديسة الى ديرها غير انهُ عما قليل اتى اليوبوليس حاكم جديد من قبل تراجانوس الملك. وكان اسمهُ فيسنسيوس فعزم على قتل افدوكيا سرًّا مخافة ان يصير شغب اذا قتلها جهارًا. فارسل جنودًا وقطعوا رأسها في اليوم الاول من شهر اذار في السنة الرابعة عشرة من الجيل الثاني للمسيح

اليوم الثاني

وفيهِ ترجمة القديس سيمبليسيوس البابا

نشأ في ايطاليا وكانت التقوى في بيت والديهِ كميراث يأخذها الواحد عن الآخر. وقد ربّاهُ والدهُ كاستينوس على تقوى الله ووضعهُ في المدارس فنبغ في العلوم ونما في الفضائل حتى اضحى فيما بعد شرف الاكليريكيين وفخر الكنيسة الرومانية. ولانهُ كان واحد عصرهِ لما تُوفي القديس ايلاريوس البابا اختير خليفة لهُ باجماع الجمهور. فجلس على الكرسي البطرسي في اليوم الخامس من شهر اذار في السنة السابعة والستين من القرن الخامس. وكانت الكنيسة في ذلك العهد محتاجة الى مثلهِ راعيًا بارًّا علاّمةً شجاعًا لكي يقاوم المبتدعين الذين كانوا يحاربونها من كل ناحية. ولم يكن بين سلاطين المسيحيين ملك كاثوليكي. لان اودواكروس الاريوسي كان متسلطًا على ايطاليا. والفانداليون الاريوسيون على افريقية والغوتيون الاريوسيون ايضًا على اسبانيا وفرنسا. اما الانكليز فكانوا وثنيين وقتئذٍ. وملوك الشرق كانوا يعضدون الاراطقة جهارًا. فهذه كانت حالة الكنيسة حينما استولى القديس سيمبليسيوس على عرش الخلافة البطرسية

فطفق هذا القديس يقاوم بنشاط اولئك الاشرار الاريوسيين والمكدونيين والنساطرة والاوطيخيين والبيلاجيين والاكيفاليين (أعني بهم العديمي الرأس. لانهم كانوا قد انفصلوا عن بطريركهم الاسكندري لظنهم انهُ يعترف بصحة المجمع الخلكيدوني) ولما رأى الملك اوليبريوس قد اتخذ كنيسة في رومية وسلمها للاريوسيين وقصد ان يصيّر كل ايطاليا اريوسية ولم تستطع الوسائط البشرية ان تصدهُ عن شرهِ. التجأ وقتئذٍ هذا الحبر القديس الى الوسائط الالهية وامر كاثوليكيي المدينة بتقدمة الصلاة لله تعالى واستعاذ بهِ. وهو صلّى متواترًا ليلاً ونهارًا. فاستجاب الله صلاتهُ ومات الملك سريعًا لانهُ لم يقم على عرش الملك الاّ اربعين يومًا

على انهُ بعد قليل تسلط على ايطاليا اودواكروس الملك الاريوسي. وكان هو وملوك الغرب الاريوسيين يدًا واحدة وكانوا يعضدونهُ في محاربتهِ الكاثوليكيين. ومع ان امواج الاضطهاد كانت تلطم الكنيسة من كل ناحية لم يهلع القديس بل انهُ دبّر السفينة البطرسية بجزيل الحكمة والشجاعة فبقيت سالمةً

وفي هذا العصر اراد اكاسيوس بطريرك القسطنطينية ان يرفع كرسيهُ على بطريركية انطاكية. وكان الملك زانون يساعدهُ على ذلك. ولكن القديس سيمبليسيوس ضادّ كبرياء اكاسيوس ولم يسمح بان تُخالف القوانين القديمة

ثم انهُ في ذلك الزمن صار شغب عظيم في الاسكندرية لانهُ بعد ما عزل الاساقفة الكاثوليكيون البطريرك ديسقوروس من اجل ارطقتهِ وسيرتهِ الرديئة ونصّبوا في مقامهِ القديس بروتاروس خرج تيموتاوس الوروس من برية الصعيد ورسمهُ اراطقة نظيرهُ اسقفًا فدخل الاسكندرية قاصدًا ان يعزل القديس بروتاروس. على ان هذا الحبر الروماني قام بازائهِ كعمود من نحاس ولم يزل يقاوم الاسقف الاوطاخي حتى نُفي

وقد ظهر ايضًا في زمن هذا البابا بطرس الملقب بالدقّاق وهو مبتدع اوطاخي ولان البدعة تزجّ غالبًا في خطيئة الفسق تمرّغ ذلك الشرير في حمأة الدنس وجلس على الكرسي الانطاكي ظلمًا. وحينئذٍ زاد على التسبحة الكنائسية المختصة بالثالوث الاقدس هذه الكلمات (الذي صُلب من اجلنا). وبذلك خصّص الآلام والصلب باللاهوت نعوذ بالله من هذا الكفر الشنيع. فقاومهُ ايضًا القديس سيمبليسيوس بشجاعة رسولية

وقد ناصب كذلك بطريركًا اخر مبتدعًا وهو بطرس الملقب بمونغوس اي الالكن. فانهُ قد عزل ظلمًا يوحنا البطريرك الاسكندري. ولما عرف ايضًا هذا القديس ان كثيرين من اساقفة الشرق يسعفون بدعة اوطيخا عقد مجمعًا في رومية وحرم فيهِ اوطيخا وديسقوروس وتيموتاوس الوروس. والزم الملك زانون بان يبطل كل اوامر باسيليسكوس الملك الدخيل التي تضاد المجمع الخلكيدوني المقدس

ومع ان هذا القديس كان مشتغلاً بكل هذه الامور الكنائسية الكثيرة الباهظة كان يمارس اصعب التقشفات الرهبانية. وقد استأثرت بهِ رحمة المولى في اليوم العاشر من شهر شباط في السنة الثالثة والثمانين من القرن الخامس

ولكن السنكسار الروماني يذكر عيد هذا القديس في اليوم الثاني من شهر اذار لانهُ دُفن في ذلك اليوم

اليوم الثالث

وفيهِ ترجمة القديسة كونيغوندا الملكة

هي ابنة سيجيفريد الامير وُلدت ببلاد النمسا بعد مُنتصف القرن العاشر ومنذ الصباء مال قلبها الى عبادة الله. وكانت فضائلها مزينةً ببهاء الجمال وثقوب العقل وتزوَّج بها القديس هنريكوس امير بافاريا الذي اقيم ملكًا على مملكة النمسا في السنة الثانية بعد الالف. وفي اول يوم لزواجهما اتفق اثناهما على ان يعيشا معًا بالعفاف فنذرا العفَّة واقدرهما الله سبحانهُ عليها. وهذه فضيلة عزيز وجودها وفعل عجيب صادر من النعمة الالهية. ومثال يقوّي طبيعتنا الضعيفة ويرقي قلوبنا الى محبة السماويات فكيف لا واننا نُعاين شابًا وفتاةً ينتصران على الشهوات اللحمية في غُلواء الشباب بحيث لا يمسُّهما اللهيب المحيط بهما

فبعد ما غلباهوى الطبيعة لم تكن بينهما الاَّ محبة تسوقهما نحو محبة الله وطاعتهِ وكانت كونيغوندا امًّا للمحتاجين. ولانها كانت قد ازدرت ما في الدنيا من لهوٍ وترفُّهٍ. واظبت على ممارسة رياضات العبادة ومن فرط تقواها كانت تصرف زمانها كلهُ فيها. وقد استمرت على هذه الحال اعوامًا كثيرةً مع زوجها القديس هنريكوس بحثُّ بعضهما بعضًا على الكمال بحسن نموذج سيرتهما النقية غير ان عدوَّ البشر لعنهُ الله لما راى هذين الشخصين يتلالآن في مملكة النمسا ككوكبين وبذلك يجذبان الناس الى الفضيلة. أفرغ ما لديهِ من ضروب الحيل والخديعة لعلهُ يحولهما عن طريق الله ويمنع الناس الاخرين عن الاقتداء بهما فأخذ يسوّد عِرض كونيغوندا وحرك اخزاهُ الله نفرًا من النمّامين فشانوا عرض الملكة عند الملك قائلين انها تهوى شخصًا وقد سمح الله تعالى بان يشك الملك القديس فيها. اما كونيغوندا فصمتت، ولم تقل كلمة لتبرئة ذاتها. بل كانت تشكر الله باطنًا على انهُ سبحانهُ اهَّلها لان تشترك معهُ في اهاناتهِ. فزاد صمتها الناس شكًا ومن ثم اشار عليها بعض الفضلاء بان تزيل هذا الشكَّ بتبرئة ذاتها. فتقدَّمت كونيغوندا وعلى حسب عادة ذلك الزمان طلبت ان تظهر حقيقة بتوليتها بالنار. فوضعوا قدميها في حديد محمّى وناجت الله قائلةً. يا ايها الربُّ الالهُ العارف بطهارة قلبي وجسدي انقذني من شرّ هذه التهمة الباطلة. ثم مشت حافيةً على الحديد الملتهب خمس عشرة خُطوةً ولم تمسها النار

فزال بتلك الاعجوبة الشك من قلب الملك وقلوب الجميع ولكن الملك القديس أسف على ما خامرهُ من الريب والشك في بتوليتها. ومن ثمَّ كان يظهر مزيد اعتبارهِ لطهارتها على الدوام. اما الملكة النقية فكانت تنسب شك الملك فيها لجزيل حبهِ للعفة وبغضهِ للدنس. وهكذا استفاد الاثنان من هذه التجربة ومنها انخذاجة لعبادة الله بازيد حرارة. فشرع الاثنان يشيدان كنائس واديرة ويسعيان في مساعدة المساكين. وفي حين ممارستهما هذه الافعال توفي القديس هنريكوس وكان ذلك في السنة الرابعة والعشرين من القرن الحادي عشر. وحينئذٍ ترهبت القديسة كونيغوندا وعاشت كأمة لدى الراهبات ترغب في احقر وظائف الدير. وكانت تجد فيها الذ التسليات الروحية وقد انتقلت الى رحمة الله في السنة الاربعين بعد الالف

اليوم الرابع

وفيهِ ترجمة القديس كازيميروس ابن ملك اللاه

كان ابنًا لكازيميروس الثالث ملك اللاه واليصابات بنت البرتوس ملك اونغاريا وبوهيميا. ووُلد بكراكوفيا في السنة الثامنة والخمسين من القرن الخامس عشر. وقد مرَّنتهُ والدتهُ الناضلة منذ الصباء على محبة الله وتقواهُ وقضى ايامهُ كلها معتصمًا بحبل الله غير مكترث بحطام الدنيا. ومن جملة فضائلهِ انهُ كان اكثر اوقاتهِ يتأمل آلام سيدنا يسوع المسيح. ولذلك كان يذوب هيامًا ويذرف الدموع السخينة حتى يُغشى عليهِ من فرط حبهِ لهُ تعالى. وكان ذلك الوجد يبعثهُ على ان يزور القربان المقدس مرات كثيرة ويمكث في الكنيسة زمانًا مستطيلاً امام حبيب قلبهِ. واذ انهُ ما من احد يحب المسيح ولا يحب والدتهُ مريم العذراء عليها السلام كان القديس كازيميروس المذكور يكرّمها تكريمًا بحيث لم يكن يدعوها الاَّ امهُ العزيزة وكثيرًا ما كان يلهج بها حتى نظم في مدحها قصيدة غرّاء يحث بها الجميع على اكرام هذه البتول وحبها. وكان ينشد القصيدة كل يوم وأمر ان توضع تحت رأسهِ في القبر

اما غيرتهُ على الكنيسة الكاثوليكية فقد كانت عجيبة لانهُ

بمشورتهِ انقذ والدهُ جميع الكنائس من ايدي المبتدعين وكان فضلاً عن ذلك يحب معاشرة الفقراء . فاستغرب الناس ذلك منهُ فقال لبعض اولئك المستغربين ليت العظماء والملوك يعلمون كم ينبغي لهم ان يكرموا السيد المسيح في اشخاص المساكين . فهانذا ارى اعظم مجدي في خدمتي لاحقر المساكين . وكان عليهِ السلام يعيش في بلاط ابيهِ عيشة مُتقشّف يلبس المسح ويواظب على الصوم ويرقد على اديم الارض ويسهر اكثر الليل مصلّياً . وكان قد نذر لله بتوليتهُ فعاش عفيفاً طاهر الذيل الى منتهى أجلهِ . ولما مرض اشار عليهِ الاطباء بالزواج بحيث رأوها دواء ضروريًّا لحفظ حياتهِ . فاختار الموت في طهارة العفاف على الحياة المقرونة بالبغاء . وكانت وفاتهُ في اليوم الرابع من شهر اذار في السنة الرابعة والثمانين من الجيل الخامس عشر . ولما اخرجوا جسدهُ من القبر في السنة الرابعة من الجيل الثامن عشر وجدوهُ صحيحاً . وكانت التسبحة المذكورة تحت هامتهِ . وقد اعتاد المؤمنون ان يلتجئوا الى هذا القديس من اجل حفظ العفة والنجاة من الطاعون

وفيهِ ايضاً ترجمة القديس ادريانوس الشهيد

انهُ لما اتى مكسيميانوس الملك مدينة نيقوميديا ليضطهد المسيحيين توعّد بالموت كل من لا يخبرهُ بالذين تنصّروا . فحصل المؤمنون على اتعس حال . لكون الخوف من العذاب ورجاء الثواب صيّرا الاكثرين يسلمون المسيحيين . فكنت ترى الجار يشتكي على جارهِ والصديق على صديقهِ وهكذا الاقرباء على اقربائهم . فمن ثم فرّ كثيرون وهربوا الى الفيافي واختبأوا في مغاور الوحوش الضارية . فقبض الجنود على قوم منهم وقادوهم الى المغتصب فاذاقهم تعاذيب شديدة ولكنهم صبروا عليها شاكرين فرحين . فتعجب من ذلك ادريانوس احد الحاضرين وكان من اقسى اعداء المسيحيين فاستحلفهم قائلاً ناشدتكم الحكم الذي من اجلهِ تقاسون هذه الاعذبة ان تقولوا لي ما الذي ترجونهُ منهُ جزاء اصطباركم الجميل على هذه الآلام الغليظة . فاجابهُ ثلثة وعشرون شهيداً معاً اننا نرجو خيراً لا يوصف بحيث لم ترَ مثلهُ عين ولا درى قدرهُ عقل بشرٍ فهذا هو الذي اعدّهُ الهنا لمن يحبهُ من عبادهِ . فلما سمع ادريانوس هذا الكلام خرج من المحفل ومضى الى من كان يكتب في دفترٍ اسماء المسيحيين المطلوب سفك دمهم وقال لهُ اكتب اسمي مع اولئك الشهداء القديسين لاني انا الآن قد تنصّرت . فلما عرف بذلك مكسيميانوس استدعى ادريانوس وقال لهُ أَصحيح انك جُننتَ كالمسيحيين حتى اردت ان تموت تحت العذاب الاليم . فاجابهُ ادريانوس ما انا بمجنون غير اني كنت على جهلٍ وغباوةٍ اعبد الاوثان واليوم قد انكشف عن عينيَّ حجاب الجهل فاستنرت بضياء الحكمة فعبدت المسيح الاله الحق . فامر الملك بان يُسجن ادريانوس مع بقية الشهداء وكان عليهِ السلام حينئذٍ ابن ثماني وعشرين سنةً ومن اخصّ المقرَّبين الى الملك

اما امرأتهُ القديسة ناتاليا فلما علمت هذا فرحت فرحاً عظيماً وذهبت الى السجن مسرعةً . ولما ابصرت بعلها مُغللاً بالقيود مع الشهداء القديسين خرّت على قدميهِ وقبّلت تلك القيود . واخذت تقول انك لسعيد حقاً اذ قد ربحت سيّدنا يسوع المسيح وربحت بهِ كلَّ خير وبما انك قدّمت لله كل مالك من الخيور الارضية فاياك وان يتغيّر عزمك المقدّس فتخسر المواعيد الالهية . ثم التفتت نحو بقية الشهداء وطلبت منهم ان يسعفوا زوجها بصلواتهم ونصائحهم . فقال لها ادريانوس اذهبي يا أُختي الى بيتكِ وصلي من اجلي الى ان يستحضرني المغتصب فاستدعيكِ لكي ترَي كيف ينتهي أمري . فعادت ناتاليا الى بيتها وما انقضت ايام قليلة حتى ولج الجنود السجن ليذهبوا بالشهداء الى الحاكم . فحينئذٍ اعطاهم القديس ادريانوس مالاً ليأذنوا لهُ في ان يمضي الى منزلهِ ليخاطب قرينتهُ قليلاً ثم يرجع الى السجن حالاً فاطلقوهُ بكفالة واحدٍ من الشُرَط . وفيما كان سائراً في الطريق رآهُ احد اصدقائهِ فسبقهُ واخبر ناتاليا بخروجهِ من السجن . فلم تصدّق هذا الخبر بل قالت حاشا لادريانوس ان يكون قد خرج من السجن وفارق الشهداء القديسين . ولكن لما اتاها احد خدامها واثبت لها الأمر ظنّتهُ انهُ قد ارتدّ والعياذ بالله عن النصرانية فبكت بكاءً مرًّا ولذلك اذ عاينتهُ آتياً من بعيد اغلقت دونهُ الباب وقالت بصوت عالٍ اني لا ادع من كفر بربهِ يسكن معي ولا احتمل خطاب من نطق كفراً . وكان قد وصل ادريانوس الى بيتهِ على حين كانت قرينتهُ تقول ذلك . فقال لها افتحي الباب يا أُختي ناتاليا فما انا بهارب من الاستشهاد كما تظنين . وانما اتيتكِ لكي اذهب بكِ الى موضع التعذيب انجازاً للوعد فتودّعيني مائتاً بالعذاب الشديد . فلم تصدّقهُ

ناتاليا بل قالت لهُ اغرب عني يا يهوذا يا ايها الخائن الكافر لا تظن اني أُطيق ان اساكن جاحدًا مثلك

فامتلأَ قلب ادريانوس من ذلك سرورًا وشكر الله تعالى على حرارة ايمان ناتاليا وزاد بواسطتها ثباتًا فيهِ . ولكن لما تاكدت اخيرًا حقيقة كلام بعلها فتحت لهُ باب المنزل وجثت وهنَّأتهُ على حسن حظهِ . ثم مضت معهُ ليعترفا معًا امام مكسيميانوس الملك بايمانهما بالسيد المسيح . وفيما كانا ماضيَين في الطريق سأَل القديس قرينتهُ قال لها ماذا فعلتِ يا اختي باموالنا . اجابتهُ ناتاليا اسأَلك الاَّ تدع عقلك يفتكر بخيرٍ دُنيويٍ فلعل ذلك يصرفك عن مقصدك الحميد . بل وجّه كل افكارك نحو الخير الابدي المعدّ لك في جنات النعيم

فلما حضر القديس ادريانوس امام الملك هو وبقية الشهداء قال لهُ الملك أَلعلك الى الان مصرّ على ضلالك جهلاً وغباوةً . اجاب القديس قائلاً اني لَلائق ان تنتهي حياتي على هذا الجهل وهذه الغباوة فبامر المغتصب ضربهُ الشُرَط بالسياط فتعذب عذابًا غليظًا فصارت احشاؤُهُ ظاهرةً للعيان . اما امرأَتهُ الباسلة فكانت تهنئهُ قائلةً بالسعادة الذين يموتون حبًا بالسيد المسيح الذي مات حبًا بهم . ثم ارجعوا القديس الى السجن ثم أُحضر ايضًا الى الملك مع الشهداء الاخرين الذين كانوا قد جُلدوا بالسياط مثلهُ . فامر المغتصب بقطع اطرافهم فخافت ناتاليا من ان يفشل قلب بعلها اذا رأَى تعذيب الشهداء فترجَّت اعوان الحاكم كثيرًا ان يبتدئوا عليهم بزوجها فقبلوا وحينئذٍ تقدمت ناتاليا وبشجاعة لامثيل لها أَمسكت رجلَي بعلها وقدمتهما للجندي ليقطعهما و بعد قطع رجليهِ قالت لهُ ارغب اليك يا رجلي العزيز ان تمدّ يديك لكي يقطعوهما ايضًا . فمدّهما وقدمتهما ناتاليا للجندي لكي يقطعهما ولذلك ما لبث ان انتقل الى رحمة الله . وهكذا تعذب بقية الشهداء ثم امر مكسيميانوس بان تحرق اجسادهم حذرًا من ان المسيحيين يكرمون ذخائرهم غير ان السماء رعدت بغتةً والارض تزلزلت فهرب الجحفل ما عدا ناتاليا وبعض نسوة فاضلات . حتى اذا سكنت الزلزلة وجدت اجساد الشهداء على صحتها لم تمسّها النار اصلاً . فتقدم حينئذٍ ملاَّحون مسيحيون وطلبوا اجساد القديسين لينقلوها الى القسطنطينية فارتضت النسوة بذلك . غير ان ناتاليا ابقت لنفسها يد بعلها وحفظتها كجوهرة كريمة . اما بعد فنقلوا جسد القديس ادريانوس الى رومية في اليوم الثامن من ايلول الذي ذكر فيهِ السنكسار الروماني استشهاد القديس ادريانوس فادرج البولنديستيون ترجمتهُ في اليوم نفسهِ . واما قرينتهُ القديسة ناتاليا فبعد ان نقلوا جثة زوجها الى القسطنطينية خرجت من نيقوميديا ومضت الى القسطنطينية . واستمرت هناك الى ان توفيت ودُفنت بجانب قبر زوجها القديس عليهما السلام

وقد ذكر السنكسار الروماني تذكارها وفضلها في اليوم الاول من كانون الثاني

اليوم الخامس

وفيهِ ترجمة القديس جراسيموس

فلنكتبنَّ الان ترجمة هذا الوليّ الذي شرّف الكنيسة الشرقية ببرارة ذيلهِ ومزيد علمهِ بالمذاهب الروحية وشدة تقشفاتهِ وفرط غيرتهِ على نمو الكمال الرهباني . وقد وُلد بليسيا مدينة باسيا في ابتداء الجيل الخامس ولم يُوصل الينا المؤرخون شيئًا لاما يتعلق بوالديهِ ولاما يختص بايام صبائهِ . ولكن رُوي انهُ حال ما استطاع ان يعرف ما هي الطريقة الرهبانية ترهَّب في وطنهِ . ثم أُخبر بعظمة فضائل رهبان فلسطين . فاشتهى المضي الى هناك من حيث كان ظامئًا الى البر والكمال فطلب اذنًا وبركةً من رئيسهِ وذهب الى برية فلسطين . ولما دخل مدرسة البرارة افتقد السياح وتعلّم منهم كثيرًا من طرائق العبادة التي تؤدي الى الكمال . ثم انفرد في البرية التي نحو الاردن وشرع يسعى في طريق النسك بنشاط جديد . ولذلك ذلَّل كل حاسَّةٍ بمنعها عن نيل ما تهواهُ فكان يصوم كل يوم ويصرف اكثر النهار والليل في الصلاة . وبصلاتهِ هذه حصل في قلبهِ نورٌ صيَّرهُ علاَّمة في الامور الروحية والادبية

ولكن الضلال اهبطهُ في بدعة اوطيخا الذي كان رئيس دير معتبر بالقسطنطينية فهذا لما اراد ان يرد على نسطور المبتدع الذي علَّم ان في المسيح اقنومين مع طبيعتين اخترع بدعةً اخرى بقولهِ ان الطبيعة الالهية في السيد المسيح ابتلعت الطبيعة الانسانية ولاشتها . وبحيث ان المسيح لم يكن مساويًا لنا في جوهر اللحم . وانما جسدهُ كان جسدًا سماويًا جاز في مستودع العذراء كما يجوز الماء في القنا . وان ليس في المسيح الاَّ

طبيعة واحدة . وقد رُفضت هذه البدعة اولاً في مجمع عقدهُ القديس فلابيانوس في القسطنطينية ثم رُفضت ايضًا بعد ثلثين سنةً في المجمع الخلكيدوني في السنة الحادية والخمسين بعد الاربعمائة . وهناك حرم الاباء اوطيخا وديوسقوروس . ونشر هذه البدعة بعض من الرهبان في اديرة البراري وخدعوا بسهولة القديس جراسيموس لانهُ لفرط اتضاعهِ كان يعتبر كل راهب معلمًا لهُ ونظرًا الى نفسهِ فكان يرى انهُ جاهل غبي لا يعلم شيئًا وفضلاً عن ذلك كان يحسب اولئك الرهبان قديسين

ولما كان اتّباعهُ سبيل الضالين واقتناءهُ آثار الغاوين لاعن معرفة لم يسمح الله تعالى بان يبقى تحت غياهب الضلال زمانًا مديدًا . ولما كان في ذلك العصر القديس افتيميوس الملقب بالمعظم يدبر في فلسطين اديرة كثيرة وقد نمت رائحة فضلهِ واشتهرت خبرتهُ بالامور الروحية في البلاد انطلق اليهِ الانبا جراسيموس فابدى لهُ القديس افتيميوس بشاشة تترجم عن سرور عظيم وتخاطبا اياماً كثيرة في ما يخص الفضيلة والايمان. وكان الانبا جراسيموس يتعجب من سموّ علم القديس افتيميوس وفضائلهِ فافاق حينئذٍ على ضلالهِ فخرَّ على قدَمي القديس افتيميوس واعترف بارطقتهِ وجحدها بين يديهِ . ومن ذلك العهد شرع يحث الرهبان على ان يتجنبوا خطاب كل مبتدعٍ ومشاقٍّ

ولما رأى جراسيموس تلاميذهُ قد تكاثروا وان كثيرين قد تتلمذوا لهُ ابتنى ديرًا بجوار الاردن واقام حولهُ سبعين كوخًا فوضع المبتدئين في الدير ليتعلموا سيرة السياح . والذين كان يجدهم قد تأصّلوا في طرائق العبادة ورسوم التقوى كان يرسلهم الى الاكواخ حيث كانوا يمكثون خمسة ايام صامتين ولا يعاشرون احدًا ولا يأكلون الاّ الخبز والتين ويصرفون اكثر زمانهم في الصلاة . وفي يومي السبت والاحد كانوا يأتون الدير لكي يقيموا الصلاة ويتناولوا القربان المقدس وفي هذين اليومين كانوا يأكلون بقولاً وحشائش وكان القديس جراسيموس يبيّن لهم بوعظهِ واجبات الراهب السائح وما يبلغهُ بالاعمال من الكمال . وكانوا بعد ذلك يعودون الى خلوتهم ومعهم ما يكفيهم خمسة ايام من خبز وتين وماء . وكانوا يأخذون ايضًا خوصًا لينسجوهُ حصائر وقُففًا في الوقت المعين لهم لعمل الايدي . وفي يوم السبت كانوا يأتون بما صنعوا الى الدير . وما كانوا يوقدون نارًا البتة وما كان في قلاية كل منهم الاّ حصيرة وجرة ماء وكلٌّ كان يلبس ثوبًا واحدًا فقط واذا خرجوا من الغُرف خلوا ابوابها مفتوحةً . وقد اتفق يومًا ان بعض السياح استأذنوا القديس جراسيموس ليوقدوا سراجًا ويسخنوا الماء للشرب . فقال لأن تعودوا الى دير المبتدئين خيرٌ لكم . وكان قدوةً لهم في التقشفات لانهُ كان كل صوم الاربعين يُمسك عن الاكل والشرب كليًا لا يتناول شيئًا الاّ القربان المقدس . ومع كل هذه التقشفات الشديدة لم يكن يُهمل مضنوكًا . غير انهُ ما كان يترك عند تلاميذهِ شيئًا يسبب لهم الارتخاء . وحكمتهُ وخبرتهُ المقدسة بارشاد النفوس الى الكمال صيّرتاهُ معتبرًا في كل البرية .حتى ان القديس افتيميوس المعظم كان اذا رأى راهبًا مشتاقًا الى معرفة طرائق الكمال ارسلهُ الى الانبا جراسيموس

وروى المؤرخون عنهُ قالوا انهُ بينما كان جالسًا ذات يومٍ على شاطئ الاردن اذا باسد في رجلهِ شوكة اقترب منهُ وأراهُ رجلهُ الوجعة فامسكها وبطَّ الدمَّل واخرج الشوكة والقيح ولف الرجل بقطعة من الكتان فرأى الاسد ذلك احسانًا كبيرًا فتبعهُ الى الدير ككلب انيس أمين . فكان الانبا يطعمهُ فلبث عندهُ وهو يجلس امامهُ نهارًا ويسهر ليلاً على باب قلايتهِ . وكان في الدير حمارٌ يستخدمهُ الاباء لنقل الماء من نهر الاردن ولاحضار الحطب . فامر القديس جراسيموس الاسد المشار اليهِ ان يحتفظ بالحمار. فحفظهُ بامانة زمنًا مديدًا . ولكن اتفق ان الاسد فارقهُ ذات يومٍ وقد كان يرعى في البادية فمرّ تجار واخذوا الحمار. فلما عاد الاسد لم يجد الحمار فحزن وخجل ورجع الى الدير مظهرًا حزنهُ وخجلهُ . فقال لهُ الانبا ابن الحمار لاشك في انك افترستهُ لكن الله مباركًا . غير انهُ منذ الان فصاعدًا ينبغي لك ان تفعل كل ما كان يفعلهُ الحمار. ففعل الاسد بحسب امر الانبا مدة خمس سنين . وبعد هذه المدة انتقل القديس الى رحمة الله والاسد غائب فلما رجع لم يجد سيدهُ فاخذ يزأر حزينًا فدلَّهُ رئيس الدير على مقبرة القديس فاقام هناك حزينًا زائرًا لا يأكل ولا يشرب الى ان مات من شدة غمهِ وجوعهِ. وكانت وفاة القديس جراسيموس في اليوم الخامس من شهر اذار في السنة الخامسة والسبعين من الجيل الخامس

اليوم السادس

وفيهِ ترجمة القديسة دائمة والقديسة سُعدى الشهيدتين

كرّر القديس اغسطينوس ذكر وفاة هاتين القديستين ليُخجل بذلك المؤمنين المتوانين ويحرّضهم على ممارسة الفضائل. ولما برز امر الملك ساوروس بقتل كل المسيحيين كان متوليًا على افريقية مينوسيوس تيمينيانوس فقبض على خمسة من المؤمنين في مدينة قرطاجنة كانوا بعد فيما بين الموعوظين وهم ريفوكاتوس وساتورنينوس وسيكوندولوس وامرأتان حديثتا السنّ وهما دائمة وسعدى. اما دائمة فكانت حينئذٍ ابنة اثنين وعشرين عامًا جليلة القدر سريعة الفهم واما ابوها فكان حيًّا وكذلك امها وعمها واخوان لها كان احدها ايضًا بين المؤمنين الموعوظين. وقال بعض المؤرخين ان زوجها كان مسيحيًّا وانهُ كان قد اختبأ من جرّاء الاضطهاد. اما القديسة سعدى فهي اصغر منها سنًّا ولكن كانت متزوجة وحبلى منذ ثمانية اشهر. فلما قبض الجند على هولاء الشهداء وضعوهم في احد بيوت المدينة بعض ايام وفيما كانوا هنا لك مضى اليهم ابو القديسة دائمة ولانهُ كان رجلاً وثنيًّا افرغ كل جهدهِ في ان يردها الى عبادة الاصنام. على ان ذلك لم يكن بايراد البراهين وانما كان باظهار الحزن وسكب الدموع وقد كتبت هذه القديسة ما جرى لها قبل وفاتها بيوم وهذا كلامها

اننا لما كنا بعدُ بايدي مضطهدينا لم يألُ ابي جهدًا في ان يظهر لي محبتهُ لكي اجحد الايمان. ولانهُ خاطبني كثيرًا في هذا الصدد اجبتهُ قائلةً أبتِ انظر هذا الاناء الموضوع على الارض قال نعم. قلت ايمكن ان يُدعى بغير اسمهِ قال لا. فقلت حينئذٍ ولا يمكن ان ادعى الاَّ باسمي اي مسيحية. فلما سمع هذا الكلام وثب عليَّ بغضب شديد وضربني وشتمني كثيرًا وتركني وذهب مغلوبًا مع الشيطان الذي كان قد قصد ان يظفر بي بواسطتهِ. فمضى بعض ايام ولم يزرني فشكرت الله تعالى على ذلك واستراحت نفسي. وفي هذه المدة اعتمدنا كلنا وبعد المعمودية لم اسأل الله الاَّ الصبر على ما هيأوا لي من التعاذيب

وعقب ايام قليلة من ذلك العهد ادخلونا سجنًا راعني هول منظرهِ ولا غرو فكان مخيمًا عليهِ ظلامٌ لم أرَ لهُ مثالاً منذ وُلدت حتى ذلك العهد. فيا اكرب يومًا مرَّ لنا بهِ حيث لذعتنا الحرارة من كثرة المحابيس وفاحت علينا رائحة نتانة لا تكاد تطاق. ذلك فضلاً عن قساوة الجنود وتشتت البال. فكنت أُفكّر في امر ابني لاني لم اكن اعرف ماذا عسى ان يكون قد جرى لهُ. والحاصل ان كل ذلك كان لي عذابًا غليظًا. غير ان الشماسين الانجيليين اسعفانا في ضيقتنا لانهما دفعا دراهم للجند ليسمحوا لنا كل يوم ان نخرج قليلاً من هذا المكان فنستريح. وآخر الامر وجدت ابني وهو مشرف على المنون من فرط جوعهِ وشدّة سَغَبهِ فرضّعتهُ واستودعتهُ امي واخذت اشجّع اخي وما اشد ما حزنت لحزنهما. وفي الجملة فقد قضيت ايامًا كثيرة على هذه الحال على انني تعزّيت يوم ارتضى المغتصب ان ابني يتيم معي في السجن ونلت قوةً جديدةً من الله سبحانهُ فحلي بعيني السجن جدًّا وطابت لي بهِ الاقامة حتى صرت افضّلهُ على كل موضع

ثم افتقدني اخي وقال لي اني قد عرفت يا اختي كم تكونين عزيزة عند الله فاسألي الله تعالى ان يُريكِ بروءيا هل هذا الامر ينتهي بالاستشهاد. ولان الهي كان ينعم عليَّ من مدة زمنية باعظم نعمهِ ويأذن لي ان اخاطبهُ بسذاجة واتكال. فاجبت اخي قائلة لهُ بطمأنينة اني ساخبرك بهذا في الغد. فطلبت من الله تقدس اسمهُ مرغوب اخي فاراني الرب سلّمًا من ذهب تتصل من الارض الى السماء وكانت ضيّقة بحيث لا يقدر ان يصعد عليها اثنان معًا. وكان معلّقًا بجانبها من اسفل الى اعلى سكاكين وسيوف ومخالب وآلات أُخر حديدية وكل من صعد بها بدون ان يحترس ولا يرفع طرفهُ الى العلاء كان يجرح من كل جهة. وكان عند رجلي السلّم تنين هائل المنظر مستعد ليفترس كل من يريد ان يصعد عليها واوّل من صعد عليها ساتوروس الذي لم يكن قبض عليهِ اولاً لكنهُ سلم ذاتهُ في ما بعد ليكون معنا فلما وصل الى قمة السلّم التفت اليَّ وقال لي اني منتظركِ يادائمة فبادري واحذري من ان ينهشكِ التنين فاجبتهُ انهُ باسم سيدنا يسوع المسيح لا يضرّني. ثم تقدمت الى السلّم فرفع التنين رأسهُ قليلاً كانهُ خائف مني. فوضعت قدميَّ على اول درجة ووطئت رأس التنين ايضًا ثم صعدت وابصرت بستانًا لا حدَّ لاتساعهِ وفي وسطهِ انسان عظيم القامة جدًّا لابس ثوبًا راعٍ يحلب غنمهُ وحولهُ من الناس الوف الوف وكلهم لابسون ثياب بيضاء. فرفع الراعي هامتهُ ونظر اليَّ وقال لي اهلاً وسهلاً يا بنتي ثم ناولني جزءًا من

جبن تجبَّن من حليب حلبهُ فتناولتهُ منهُ باتمّ الاحترام . ثم قال كل الذين حول الراعي آمين . وحينئذٍ استيقظت فوجدت في فمي شيئًا حلوًا كنت امضغهُ . فقصصت حينئذٍ على اخي الرؤيا ومنها أنتج معي اننا سنموت شهداء وان اللقمة الحلوة المتقدم ذكرها تدل على القربان المقدس الذي يُعطى عادةً للشهداء استعدادًا للحرب . وبناءً عليهِ عُددنا من ذلك العهد كاناس خارجين عن هذه الدنيا

وبعد ايام قليلة شاع خبر باننا سنمثل امام الحاكم ليسألنا فاتى ابي من المدينة الى السجن وهو يذرف الدموع بحزن عظيم . فقال يا ابنتي ألا ترقّين وألا ترحمين والدكِ الذي احبَّكِ اكثر مما أحبَّ اخوتكِ . فلا تُصيريني اليوم عارًا بين الناس وسخريةً ارحمي امكِ وعمتكِ واخوتكِ . ارحمي اقل ما يكون ابنكِ الذي لا يقدر ان يحيا بدونكِ . خلّي عنكِ العناد والتكبر اللذين يصيرانكِ تستخفين بالموت وعند ما كان يقول هذا كان يبتدئ في محبة عظيمة ويقبّل يديَّ ويخرُّ على قدميَّ ويبكي بكاءً مرًّا ويدعوني سيدتهُ . فتوجَّع لهُ قلبي وخصوصًا لانهُ يكون هو وحدهُ المحزون عليَّ فقلت لهُ اني ماضية الى المشهد ولا يكون الاَّ ما يريدهُ الله بي

وعقيب يوم واحد أُخذنا الى دار الحاكم حيث اجتمع جم غفير . فصعدنا الى منبر عالٍ ولما سئل الشهداء اجابوا جميعهم بشجاعة انهم مسيحيون وكان الحاكم وقتئذٍ ايلاريون لان تيميذيانوس كان قد مات . ثم دُعيت انا قبل الجميع لأردَّ جوابًا عن ايماني واذ تقدَّمت وجدت ابي امامي حاملاً ابني بين يديهِ فقال لي ان كنتِ لا ترحمينني انا اباكِ فرقّي اقل ما يكون لابنكِ . ثم قال لي الحاكم يا دائمة دعي قلبكِ يرثي لشيخوخة ابيكِ ولطفولية ابنكِ قدّمي ذبيحةً لآلهتنا من اجل نجاح الملك ولا تُهلكي نفسكِ واهل بيتكِ . فاجبتهُ قائلةً لا افعل هذا ابدًا . فقال لي الحاكم هل انتِ مسيحية قلت نعم انا مسيحية ولما كان ابي لا يفارقني مخافةَ ان اردَّ جوابًا عن مذهبي امر ايلاريون الحاكم بان يُطرد من هناك . فضربوهُ بقضيب واخرجوهُ فتألمت حينئذٍ كاني انا ضُربت ولا سيما لانهُ ضُرب من اجلي . فلما رأى ايلاريون اننا جميعنا ثابتون على النصرانية سجَّل علينا قضية الموت وحكم بان نُلقى طعامًا للوحوش الضارية . ولا جرم انهُ يصعب ان يوصف ما شملنا من الفرح لما حكم علينا بالموت

فارجعونا الى السجن وبعد قليل حينما كنا نصلي معًا نطقت بغتةً باسم اخي دينوكراتوس المتوفَّى سابقًا ولهُ من العمر سبع سنين فتعجبت من ذلك وعرفت حالاً انهُ يريد ان اصلي من اجلهِ فصلَّيت من اجلهِ بنشاط . وفي تلك الليلة شرَّفني الله تعالى من حيث اراني اخي دينوكراتوس خارجًا من مكان مدلهم وفيهِ كثيرٌ من الناس وكان محترقًا من شدة الظماء وقوة الحمى . وكان وجههُ مدنَّسًا ولونهُ لون امرءٍ اشفى على الموت . وكان امامهُ اناء مملوٌّ ماء فبذل المجهود ليشرب منهُ فما قدر فكاد فؤادي يتفتَّت حزنًا عليهِ . ثم انتبهت من الرقاد وتحققت ان اخي في عذاب وانهُ يحتاج الى الصلاة فرجوت من الله ان يستمع صلاتي فينجي اخي . وما زلت اتوسل اليهِ في ذلك باكيةً آناء الليل واطراف النهار حتى أُخذنا الى سجن الميدان حيث كنا مزمعين ان نُقدم طعامًا للوحوش . فهناك رأيت في الحلم اخي في ذلك المكان الذي كنت ابصرتهُ فيهِ . غير انهُ تراءى لي بجسد نقي لابسًا ثوبًا حسنًا بهيَّ الوجه بشّاش المحيًا فاستفقت من الرقاد وعرفت انهُ قد نجا من العذاب . وعقيب ايام قليلة من ذلك العهد تعجب من احوالنا بودنسيوس حارس سجننا فتوجع لنا فاذن للجميع ان يفتقدونا ولما كان قد دنا اليوم المعين لازهاق ارواحنا بانياب الوحوش الضارية افتقدني ابي اسيفًا كاسف البال . فلما رآني اخذ ينتف لحيتهُ وشعر رأسهِ ويعفّر وجههُ على الارض ويلعن سني حياتهِ وكثيرًا ما تألمت لحزنهِ غير ان شجاعتي بنعمة الله لم تنقص . الى هنا انتهى كلام القديسة دائمة

اما القديسة سعدى فلما رأت يوم انتصار الشهداء قد دنا ولم تلد حزنت وحزن معها بقية الشهداء . لان الشريعة كانت تمنع قتل الحبلى قبل ان تلد . ولم يكن لهذه القديسة من مدة الحَبَل الاَّ ثمانية اشهر فطلبوا من الله ان يعجّل ولادتها لكي تنال معهم اكليل الشهادة . ففي ذلك اليوم نفسهِ ولدت بنتًا في السجن واخذتها امرأةٌ مسيحية لتربيها . ولان القديسة في حين المخاض كانت تصرخ من شدة المها قال لها احد الحراس انهُ لا قِبلَ لكِ بهذا الالم فكيف اذًا تحتملين انياب الوحوش ومخالبها . فقالت لهُ سعدى اما الان فانا اتألم واما غدًا فيتألم فيَّ سيدنا يسوع المسيح . اليوم القوة الطبيعية تقاوم الطبيعة اما في الغد فتنتصر فيَّ النعمة الالهية على اشد ما اعددتم لي من التعاذيب

ولما كان اليوم السعيد الذي كانت تتوق اليهِ قلوب الشهداء خرجوا من السجن وبرزوا الى الميدان بسرور اذهل عقول الحاضرين وكان هذا الفرح الالهي يتلألأ على الخصوص على وجهِ القديستين دائمة وسعدى . وكانت القديسة دائمة ترنّم ترنيم من فاز بالغلبة والانتصار . اما القديسون ريفوكاتوس وساتورنينوس وساتوروس فكانوا يعظون الشعب. والحاصل ان اولئك الشهداء طرًّا ضُربوا بالسياط ثم أُطلقت عليهم الوحوش . وكان الجنود قد جعلوا القديستين دائمة وسعدى في شبكة واطلقوا عليهما بقرة بريّة مفترسة فنطحت البقرة القديسة دائمة ورفعتها بقرنيها نحو العلاء فوقعت الشهيدة على ظهرها ثم جلست . ولأن ثوبها كان قد تمزق من جهة جنبها رتبتهُ لئلا يبين جسدها . ثم رتّبت شعر رأسها حتى لا يظنّ احد انها كئيبة . ثم هجمت البقرة على سعدى ونطحتها ورفعتها الى العلاء بعزم اشدّ من الاول . فنهضت دائمة على حالها ولما رأت رفيقتها القديسة سعدى على اسوأ حال مدّت اليها يدها واقامتها . فرقّ لهما كل من كان حاضرًا ثم أُخذت من الميدان لتقتل بالسيف . وحينئذٍ أفاقت القديسة سعدى كانها كانت مستغرقةً في النوم . لان نفسها أُختطفت برؤيا سماوية ولم تعرف ما جرى في الميدان . ثم دخل الشهداء ثانيةً الى الميدان ليُقتلوا بحدّ السيف فضربهم الجنود في حناجرهم . وهكذا نالوا اكليل المجد الذي لا يفنى وكان انتقالهم الى دار النعيم في اليوم السابع من شهر اذار في السنة الثالثة بعد المائتين

اليوم السابع

وفيهِ ترجمة القديس توما اللاهوتي

ان العلم حقًّا ينفع ويضرّ كثيرًا . اما ضررهُ ففيما اذا كان غير مقرون بالتقوى . واما نفعهُ ففيما اذا كان مقرونًا بها وقد اتضح ذلك في القديس توما اللاهوتي الذي من اجل علمهِ السامي وسيرتهِ الملئكية لُقّب بالمعلم الملئكي . وهو من شرفاء مملكة نابولي . وكان مولدهُ بها في السنة الخامسة والعشرين من القرن الثالث عشر . روى بعض الثقات انهُ لما كان في مستودع والدتهِ تاودورا اتاها سائح فاضل وفي عنقهِ ايقونة ملكة الملئكة والقديس دومينيكوس قال لها . انكِ تلدين ابنًا بهِ يتشرف بيتكِ ويستنير العالم كله وانهُ ينضوي تحت اسكيم القديس دومينيكوس . فقالت لهُ تاودورا لتكن مشيئة الله . فقبلهُ ابوهُ كموهبة سماوية وعقب سنة من ولادتهِ وجدت مرضعتهُ في يدهِ قُصاصة ورق فرامت ان تاخذها منهُ . ولكن الطفل طبّق يدهُ تطبيقًا محكمًا وصرخ حتى تركتهُ المرضعة . فلما فتح يدهُ اخذتها ورأت فيها ما نصهُ السلام عليكِ يا مريم . ولانهُ لم يزل صارخًا باكيًا اعطتهُ أُمهُ تلك القصاصة وللحال وضعها في فيهِ ومضغها ثم ابتلعها . مشيرًا بهذا الى ما يكون بهِ من الكلف بوالدة الله . وكان تسليمهُ كتابًا اكبر واسطةٍ لتسكيتهِ في ايام الطفولية

فلما صار ابن خمس سنين سلمهُ ابواهُ الى رهبان القديس باناديكتوس . لانهُ عليهِ السلام كثيرًا ما كان يعتني بديرهِ بتربية اولاد الاعيان والعظماء بحيث كان يعتبر ان ذلك من افيد الاشياء للناس وعنهُ اخذ رهبانهُ هذه العادة الحميدة فاقام هناك بمدرسة الفضائل خمس سنين . ثم انطلق الى مدينة نابولي ليدرس العلوم . على ان الدرس لم يلههِ عن العبادة . وكان يعاشر رهبان القديس دومينيكوس من اجل صلاح سيرتهم . وقد ابصر احدهم اشعةً ساطعةً طالعةً من وجه القديس توما . ثم ترهب في تلك الرهبانية ولم يكن عمرهُ اكثر من سبع عشرة سنةً . ومخافة ان اهلهُ يقلقونهُ في مدينتهِ بعث بهِ القديس الى رومية . ولما درت والدتهُ بسفرهِ ذهبت الى رومية قاصدةً ان تمنعهُ عن الترهب او كما ظن البعض ان تجرب هل كانت دعواهُ من الله والنبوة التي قد سمعت عنهُ صحيحة وعند وصولها الى رومية أُرسل ابنها الى توسكانا ليمضي من هناك الى باريز . اما والدتهُ فلما عرفت ذلك ايضًا كتبت حالًا الى اثنين من اولادها لاندولفوس ورينالدوس وكانا في تلك الايالة من جنود ملك النمسا . وامرتهما بان يقبضا على اخيهما في الطريق ويرسلاهُ اليها مع جنود امناء . فوجداهُ في الطريق وقبضا عليهِ وارسلاهُ الى والدتهِ

ولا جرم ان تاودورا فرحت فرحًا عظيمًا لا يكاد يوصف لما رأت ابنها في منزلها لرجائها بانها تنتصر عليهِ بسهولة . فافرغت كل جهدها في ان تغيّر عزمهُ ليترك الرهبانية . الا ان كل ما اخترعتهُ من الوسائط وما تهددتهُ بهِ من الوعيد ذهب باطلًا لان كلام امهِ لم يوثر في قلبهِ ولم تلينهُ دموعها ولم يرهبهُ توعدها . بل قاومها باحترام وشجاعة مبينًا لها التزامهُ بقبول الدعوة الالهية . وكان لهذا القديس اختان فارسلتهما تاودورا ليصدّا اخاهما عن الترهب قائلةً لعلهُ ينغلب لمحبتهما

ولعمري انهما فعلتا كل ما كان في طاقتهما ليُرخيا عزم اخيهما على انهُ كان دائمًا كصخرة صماء او كعمود من نحاس . بل انهُ انتصر عليهما وجذبهما الى اعمال التقوى بل احداهما ترهبت نظيرهُ ثم صارت رئيسة الدير وماتت موتًا مقدسًا

اما لاندولفوس ورينالدوس اخواهُ فلما عادا من توسكانا الى نابولي والفيا تاودورا امهما على حزن عظيم عاملا اولاً اخاهما بالقساوة فحبساهُ في قلعة لهما بناحية نابولي . ولما نظرا انهما لا يربحان شيئًا بواسطة القساوة اخترعا واسطة شيطانية ليليّنا بها قلبهُ . فاستدعيا بنتًا جميلة المنظر ووعداها بدراهم وافرة اذا اسقطت اخاهما في خطيئة الدنس . فدخلت تلك الفتاة الى حيث كان الشاب القديس وحدهُ واستعملت كل حيلها لكي تصطاد ذلك العفيف بشَرَك الدنس ونظرًا الى ذلك الشاب الباسل الفطن فاخذ عودًا ملتهبًا والتفت الى هاتيك البنت الشريرة كانهُ يريد ان يحرق وجهها . فارتاعت الرديئة وهربت خجلة واخبرت مرسليها بما كان . واما الشاب الطاهر فبعد ان ظفر بشيطان الدنس استحوذ عليهِ الخوف من نفسهِ . لكون الانفس النقية تحسب خسران العفة اعظم الخسائر . ولان هذه الفضيلة هي من اعظم هبات الله رسم على الحائط علامة الصليب المقدس بالعود الموقد الذي كان بيدهِ وجثا امام ذلك الرسم الالهي وتضرع الى الله باكيًا طالبًا منهُ تعالى ان يحفظهُ من الباشق الجهنمي الذي يحوم حولهُ ليختطف كنزهُ الملكي . ثم نذر العفة الدائمة لله وطلب العون من العذراء ام الطهارة . وفيما كان يُصلي هكذا متواترًا جاثيًا على الارض استحوذ عليهِ الرقاد . وفي هذا السبات المقدس ظهر لهُ ملكان من السماء هنأَاهُ على انتصارهِ واخبراهُ بان الله سبحانهُ استجاب صلاتهُ وارسل لهُ زنار العفة الدائمة وحينئذٍ شدًا حقويهِ بعزم شديد فاستيقظ القديس وهو يصرخ من شدة الالم . فاسرع اليهِ حراس القلعة ليروا ما حل بهِ وسألوهُ عن سبب ذلك فلم يخبرهم بشيء ولم يظهر هذه الاعجوبة الا لمعرّفهِ . ومع انهُ كان أُعطي من الله موهبة العفة كان لا يزال محترسًا على نفسهِ حذرًا من ان يضيع هذه الجوهرة الكريمة

والحاصل انهُ لما رأتهُ والدتهُ مصممًا على قصدهِ الحميد . ارتضت وقتئذٍ بأن يخرج من القلعة سرًّا ويذهب الى الدير . وبارادتها دخلت أختا القديس القلعة ودلّتا اخاها من كوّة بحبل . وكانتا قد اخبرتا رهبانهُ ليأتوا الى هناك . فقبلوهُ كملك نازل من السماء ومضوا بهِ . ونذر النذور الرهبانية الطاعة والعفة والفقر الاختياري . ثم أُرسل الى باريس ومنها الى كولونيا حيث كان البرتوس المعلم الملقب بالمعظم . وهناك درس القديس توما علم اللاهوت كلهُ وكان في كل افعالهِ متواضعًا طائعًا عابدًا محتشمًا هاديًا متجنبًا المخاطبة الباطلة والغير الضرورية . يصرف ما كان يبقى لهُ من الزمان بعد تتميم الرياضات الروحية في القراءة والدرس . ومن حيث انهُ كان عبل الجسم يصمت في اغلب الاحيان . لقبهُ بعض من اخوتهِ الثور الصامت ونسبوا صمتهُ لِغلظ عقلهِ . اما البرتوس معلمهُ الذي كان عارفًا بانقاد فكرتهِ وثقوب فطنتهِ فقال لهم . اعلموا ان هذا الثور اذا عاش فسيسمع خُوارهُ في المسكونة كلها

فبعد ما فرغ من تعلم اللاهوت بعث بهِ الى باريس ليعلم هناك هذا العلم الشريف . فشرع يبين اغمض القضايا ويحلّ اصعب المشكلات بابلغ عبارة فكان خاتم اللاهوتيين بحيث لم يقم بعدهُ معلم يشبههُ في ذلك اصلاً . فرام رؤساؤهُ ان يكتب اسمهُ ما بين اللاهوتيين وأمروهُ بان يستعد للارتقاء الى هذه المرتبة . فاستولى عليهِ من ذلك حزن عظيم فصلى لله فظهر لهُ وهو نائم شيخ جليل القدر طلق الوجه وقال لهُ لماذا تحزن وتبكي فاجابهُ القديس لان رئيسي امرني ان اقبل شرف تدريس اللاهوت فما انا باهلٍ لهذه المرتبة . فقال لهُ الشيخ فان كنت لا تطلب هذا الشرف عن الكبرياء بل ان الله يامرك بقبولهِ على لسان رئيسك فلماذا تضطرب ولماذا لا تحسن اتكالك على عناية الله . ان الراهب ليس لهُ واسطة انفع لنيل المواهب الالهية من ان يطيع رئيسهُ في كل امرٍ . ثم ان الشيخ اوصى القديس بان يفتتح خطابتهُ في محفل الشيوخ بهذه الآية الداودية انهُ سيسقي الجبال من علاليهِ ومن ثمرة اعمالك تشبع الارض (مزمور ١٠٣ : ١٣) فتعزى القديس جدًّا بهذه الرؤيا . وحينا دخل محفل المدرّسين وتكلم اندهش الجميع من كنوز حكمتهِ وعلمهِ

وقد علّم هذا القديس علم اللاهوت بباريس وبولونيا ورومية ونابولي . وبواسطة كلامهِ ومؤلفاتهِ اشرقت في العالم كلهِ انوار علمهِ . فأخفى نور علماء عصرهِ كافةً كما تخفي اشعة الشمس ضياء النجوم . على انهُ ذلّل صعاب اللاهوت والفلسفة فصارت قريبة التناول سهلة الفهم بحيث علّق على كل مبهم

شرحاً مختصراً جليّاً . واخفى ما يوجد في هذين العلمين اخرجهُ من عمق الظلام واوضحهُ بتفسيرٍ جلي وجيز بهذا المقدار حتى قيل انهُ بالفاظ قليلة كان يضمّن ما لا يقدر بقية العلماء ان يذكروهُ الاَّ باسهاب الكلام واطالة الشرح . وبجراءة اقول ان مضامين تصانيفهِ توازي عدد الكلمات . وكل تعليمهِ ثابت مؤيَّد بالبراهين الساطعة ايَّ تأييد بل انهُ هو الترياق الشافي من سمّ كل البدع بحيث عقد في تصانيفهِ النفيسة فصولاً في دحضها وتفنيدها ولذلك ترى من جاؤوا بعدهُ من المبتدعين يكرهون كتبهُ . لانهُ بضياء براهينهِ مزَّق غياهب ضلالهم . واما الآباء القديسون والعلماء الكاثوليكيون طرًّا بخلاف ذلك فقد اطالوا الثناء عليهِ وقرظوا كتبهُ باعظم المدائح فما قالوا بمدحهِ انهُ صخر تعليم الكنيسة الراسخ . وعمودهُ الغير المتزعزع . وترس الايمان الكاثوليكي . ونور المدارس . ومطرقة المبتدعين . والمعلم الملكي الشارب العلم من نبع اللاهوت . والعلامة بين القديسين . والقديس الجليل بين المعلمين . واجمع العلماء على ان الالتذاذ بقراءة كتب هذا القديس هو دليل يقيني على سعة المعرفة والنمو بالعلوم . ولا بدَّ ان نذكر هنا ما قالهُ عنهُ الاحبار الرومانيون لنشر فضلهِ واعلان اعتبارهِ فقال اينوشنسيوس السادس في مدح هذا القديس من يتبع هذا المعلم المتسامي على المعلمين فلا يسير الاَّ في الطريق المستقيم . ومن لا يقتفي اثرهُ يُعتبر كضالٍّ بحيث ان اعتقادهُ يكون مشكوكاً فيهِ . وأمر البابا اوربانوس الخامس المؤمنين قائلاً اتبعوا تعليم القديس توما لكونهِ تعليماً حقيقيًّا كاثوليكيًّا . والبابا يوحنا الثاني والعشرون الذي كتب اسمهُ في سفر القديسين قال . انهُ لا يحتاج الى عجائب لكي يُحصى فيما بين القديسين . من حيث انهُ صنع من العجائب بمقدار ما بيَّن من المسائل المعضلة

وقد نبغ في هذه العلوم اللاهوتية لفضل حذقهِ وقوة ذاكرتهِ فكان يفهم اعضل المسائل ولا ينسى شيئاً ما تعلمهُ . غير ان السبب الاخصّ لذلك انما هو نور من الله كشف عن بصيرتهِ فانكشفت لهُ غوامض تلك العلوم . ولا جرم ان الاكثار من الصلاة قد اوصلهُ الى ذلك كما قال لاحد اصدقائهِ عليهِ السلام اني تعلمت بالصلاة اكثر مما تعلمت بالدرس . وكان يظهر عليهِ ان حياتهُ متوقفة على الصلاة . وكان في درسهِ كالمصلي ولم يكن يكتب ولا يقرأ ولا يجادل الاَّ بعد الصلاة وقد اتفق لهُ بعض الاوقات ان املى على ثلثة او اربعة اشخاص في وقت واحدٍ اشياء دقيقة عسرة الفهم جدًّا . ومرات كثيرة في حين تاليف كتبهِ او حل مشكلات للناس او تناولهِ الاكل كان يلتهي عقلهُ ويستغرق في الصلاة . ورُوي عنهُ انهُ كان يُقدّس كلَّ يوم الاَّ اذا كان مريضاً . وبعد القداس كان يحضر قداساً آخر . وفي تقدمتهِ او حضورهِ هذه الذبيحة الالهية كان يذوب قلبهُ بالمحبة واما نفسهُ فكانت تمتلئ تعزية وسلواناً . وعند تأملهِ الاسرار العجيبة التي يتضمنها القربان المقدس كانت تسيل دموعهُ وقد ذكر انهُ في محفل علماء باريس جرى البحث في اعراض الخبز والخمر التي تبقى في هذا السرّ منظورة بعد استحالة جوهريهما الى جسد سيدنا يسوع المسيح ودمهِ الاقدسين وطال الكلام في ذلك كثيراً ولم يتبيَّن لهم وجه الصواب فسألوا القديس توما تبيين ذلك . فكتب القديس حلَّ المشكل ثم وضع الورقة على المذبح . وجثا امام ايقونة يسوع المصلوب وطلب منهُ بعبادة حارَّة ان ينير عقلهُ لكي يقرر ايضاح هذه الحقيقة . فتراءى لهُ ابن الله على المذبح وقال لهُ . ان ما كتبتهُ هو الصواب . فاستمر القديس جاثياً ضارعاً ثم ارتفع جسدهُ من على الارض وبقيَ في الجوّ زماناً معتبراً امام كثيرين من اخوتهِ الرهبان . وشرَّفهُ الله بمثل هذه الرؤيا مرة اخرى في مدينة نابولي . غير انهُ نقدس اسمهُ بعد قولهِ عن كتاب هذا القديس الذي صنفهُ في الامور اللاهوتية . ان الذي كتبتهُ لحسناً كتبتهُ . قال لهُ وما هو الاجر الذي تريدهُ مني . فاجاب القديس هاتفاً اني لست اريد اجراً سواك يارب . ولعمري ان ذلك الجواب في غاية الصواب لان كل شيءٍ ما خلا الله باطل وقد ربح كل خير من فيض نعمة الله

ومن جهة عبادتهِ فقد قال الراوون انهُ كان يُكرم كثيراً عظام القديسين ويحمل على الدوام ذخيرة القديسة اغنس وبها شفى رفيقهُ رجينالدوس الراهب من حمَّى شديدة . وكان يحترم مريم العذراء احتراماً بليغاً ويستشفع بها في طلباتهِ كافةً وقال قبل موتهِ بزمن يسير انهُ نال كل ما طلبهُ بشفاعتها . وماذا عسى ان نقول في اتضاع هذا العلاَّمة الجليل وقد صرَّح في حياتهِ كلها انهُ لم يدنسهُ قط فكر ما من افكار العجرفة والكبرياء لانهُ بالنور المعطى لهُ كان يرى ما بالله سبحانهُ من الكمالات وما بنفسهِ من النقائص فكان يتغطى باثواب الخجل من نفسهِ

ويتواضع دائمًا ولا سيما حينما كان الناس يمدحونهُ ويحترمونهُ وحينما كان قد بلغ من العمر خمسين سنة استدعاهُ البابا غريغوريوس العاشر الى مجمع ليون فسافر. ولما وصل الى دير من اديرة القديس برنردوس تنبأ قائلاً هنا راحتي الى انقضاء الدهر. فطلب اليهِ الرهبان ان يفسر لهم سفر الانشاد كما كان فسرهُ القديس برنردوس. فاجابهم القديس توما قائلاً امنحوني عقل هذا القديس وانا افسر لكم ذلك السفر. فالحّ عليهِ الرهبان فاجابهم الى ما طلبوا. ولما وصل الى تفسير الفصل السادس ثقل عليهِ المرض وتحقق ان ساعة وفاتهِ قد اتت. فاعترف وتزوّد القربان المقدس منتقلاً الى جنات النعيم. وكان ذلك في اليوم السابع من شهر اذار في السنة الرابعة والسبعين من الجيل الثالث عشر. وفي هذا اليوم عينهِ كان معلمهُ البرتوس المعظم بمدينة كولونيا فأُوحي اليهِ ان توما قد انتقل الى رحمة الله فصرخ عن اسفٍ شديد قائلاً آهًا قد مات اليوم ابني توما فانطفأت منارة الكنيسة. واغرب ما حدث يوم وفاتهِ هو ان البغل الذي كان يركبهُ عليهِ السلام قطع رسنهُ في ذلك الوقت واتى الى حيث كان جسدهُ الطاهر فلما رآهُ ميتًا وقع للحال ميتًا

اليوم الثامن

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا الملقّب بعبد الله

وُلد بمملكة بورتوغاليا في اليوم الثامن من شهر اذار في السنة الخامسة والتسعين من القرن الخامس عشر. وكان ابواهُ من ذوي الفاقة يعيشان من صنعتهما. غير انهما بعاطفة المحبة المسيحية كانا يأويان الغرباء. فاتفق انهُ نزل عندهما ذات يوم كاهن غريب فقابلاهُ باكرام. وكان يوحنا وقتئذٍ ابن تسع سنين لاغير. فهرب سرًّا من منزل ابيهِ وتبع الكاهن قاصدًا ان يستمرَّ في خدمتهِ فسافرا معًا. الّا ان الكاهن بعد ايام قليلة ضجر من الصبي فاطلقهُ. فلما رأى يوحنا انهُ متروك لا يأويهِ احد مضى الى مزرعة فوجد هناك انسانًا يرعى الغنم فقدَّم لهُ نفسهُ لخدمةٍ. اما الراعي فلما عرف ما جرى بيوحنا رقَّ لهُ قلبهُ وقبلهُ في خدمتهِ. وكان يباشر هذه الوظيفة حسنًا وصار محبوبًا من الجميع لاجل حسن خدمتهِ ونقاوة سيرتهِ. غير انهُ سئم عيشة البادية فتجنّد في عسكر ملك اسبانيا فتمرّغ في حمأة الفواحش وصار من عصابة الاشرار. واتفق يومًا ان ركض الفرس والقاهُ على صخرةٍ. فمكث هناك مغشيًا عليهِ يجري الدم من فمهِ وانفهِ مدة ساعتين فلما استفاق التجأ الى والدة الله مصليًا ولما فرغ من صلاتهِ رجع اليهِ قليل من القوة فعاد راجعًا الى العسكر ثم شفي. وعن امدٍ يسير اقاموهُ على حراسة غنيمة كانت قد أُخذت من عسكر الاعداء فلم يحسن القيام على حراستها فسُلبت تلك الغنيمة فحكم عليهِ بالشنق وحينما كان ماضيًا الى المشنقة مرَّ بهِ قائد الجيش فحزن عليهِ وتشفع فيهِ فاطلقوهُ. غير انهُ عقابًا على ذنبهِ طُرد من العسكر

فرجع يوحنا الى بلدتهِ فقيل لهُ ان والدتهُ قد ماتت من شدة حزنها لهربهِ من البيت وان اباهُ ترهّب بعد وفاتها ثم مات موتًا سعيدًا. فاقلق هذا الخبر فكرهُ وملأ قلبهُ حزنًا ومن اجل ذلك بكى بكاءً شديدًا. ثم اعترف اعترافًا عامًا بندامة عظيمة. ولفرط ما كان يرغب في خلاص نفسهِ سافر الى بلاد الكفار كي يموت هناك شهيدًا. ولما انتهى الى تلك البلاد اشار عليهِ معرّفهُ بان يعود الى وطنهِ فرجع الى اسبانيا وشرع يبيع صُوَرًا وكتبًا روحية لكي يحصّل ما يعيش بهِ. فتراءى لهُ رب المجد عزَّ وجل بصورة طفل صغير كان يمشي حافيًا فحلَّ يوحنا سيور حذائهِ ووهبهُ لهُ. فلم يقبلهُ الطفل لانهُ لم يكن مناسبًا لقدميهِ. فحينئذٍ حملهُ يوحنا على ظهرهِ وذهب بهِ عزَّ وجل فتعب يوحنا اخيرًا واستراح بقرب جدول ماءٍ وحينئذٍ اراهُ يسوع نفسهُ فظهر ممسكًا بيدهِ رمانة مفتوحة وبارزًا من وسطها صليب. وقال لهُ يا يوحنا عبد الله ستجد صليبك في مدينة غرناطة التي تأويلها رمانة قال هذا وغاب عن النظر. فامتلأ يوحنا من التسلية غير انهُ لم يكن يفهم السر بعد

وكان قد اقترب عيد القديس سباستيانوس فلعلمهِ بالاحتفال الذي يصير لتعييد هذا اليوم في مدينة غرناطة مضى الى هناك ليبيع صورهُ. فأُخبر انهُ في ذلك اليوم سيكرز الاب المحترم القس يوحنا افيلا الذي عبقت نفحة فضائلهِ في كل مملكة اسبانيا. فتاقت نفسهُ الى استماع عظتهِ فدخل الكنيسة والافضل ان نقول ان الله ادخلهُ فيها وكلمهُ على لسان الواعظ لانهُ ارعوى وقتئذٍ وندم اشد الندامة حتى انهُ لم يقدر ان يخفيها ضمن قلبهِ بل اظهرها في وسط الكنيسة بالتنهد والبكاء والصراخ وطفق يضرب صدرهُ بكل قوتهِ ويخدش وجههُ وينتف شعر هامتهِ ويضرب بها الحائط. ثم خرج من

الكنيسة وطاف كل المدينة راكضاً كرجل مجنون قائلاً بصوت جهير ارحمني ارحمني يارب ارحم . فظن بهِ الجميع انهُ قد جُنَّ فالتأم حولهُ رجال وصبيان وشرعوا يهزأُون بهِ بل ابتدأُوا يرمونهُ بالحجارة ايضاً وفي اثناء ذلك فرّق صورهُ واعطى كل مالهُ . ولما رأى نفسهُ مجرَّدة متعرّية من كل شيءٍ اخذ يطوف شوارع المدينة ثانيةً راكضاً كرجل عادم العقل . فقبضوا عليهِ ومضوا بهِ الى الأنبا افيلا . فلما عرف الأنبا المذكور السبب الذي حملهُ على هذه الافعال شكر الله وثبّتهُ في عزمهِ واطلقهُ

فخرج يوحنا متعزّياً وجعل يركض في المدينة كمجنون . فامسكوهُ ثانيةً وسجنوهُ في المستشفيات وهناك جلدوهُ بالسياط بلا رحمة اما هو فكان يفرح متهللاً . فلما عرف الانبا افيلا ما جرى بيوحنا انقذهُ من ايدي معذبيهِ وامرهُ بترك هذا المذهب فاطاعهُ يوحنا حالاً واضحى فيما بعد مؤدباً رزيناً في كل افعالهِ فعجب الجميع من هذا التغيير ومنهُ عرفوا سبب افعالهِ السالفة التي كان ظاهرها يدل على الجنون . فمكث في ذلك المستشفى على خدمة المرضى بمحبة خالصة . وهذا هو الذي زاد الناس تعجباً . وبعد زمن يسير بمشورة الانبا افيلا عاهد الله سبحانهُ على انهُ يصرف حياتهُ كلها في خدمة المرضى . فاستأجر منزلاً وجمع فيهِ كل ما وجد في الشوارع من السقماء والمساكين . وشرع يخدمهم خدمة جسدية وروحية بغيرة اذهل اضطرامها اهل مدينة غرناطة حتى ابتدأُوا يسعفونهُ بصدقاتهم . وعلى هذا المنوال ابتدأَت الرهبانية الجديدة المنشأة لخدمة المرضى والمساكين التي يقال لها رهبانية اخوة المحبة . وقد اثبتها القديس بيوس الخامس في السنة الثانية والسبعين من القرن السادس عشر . وكثر عدد الرهبان حتى امتدَّ الى اقاصي الارض

وعن أمد يسير عاد المستشفى الذي انشأهُ رفقاً بالفقراء افضل المستشفيات واحسنها . واما اتعاب القديس يوحنا في القيام بهذا العمل العظيم فما يعجز اللسان عن وصفهِ . لانهُ كان نهاراً وليلاً يهتم بخدمة المرضى . فلما افتقد مطران المدينة ذلك المستشفى ورأى هذه الاعجوبة اثنى على يوحنا وحثَّهُ على المواظبة على العمل ووعدهُ بالاسعاف . وقد بارك الله هذا العمل المقدس لان كثيرين تقدموا ليخدموا معهُ المرضى . وحينئذٍ اخذ يطوف المدينة ويسأل صدقةً من اجل المساكين . ولان البرارة كانت تتلألأُ في كل افعالهِ كان الجميع يقبلونهُ باحترام وكانت عادتهُ عند سؤال الصدقة من الناس ان يقول احبُّوا نفوسكم احسنوا الى ذواتكم

واعجب ما فعلهُ في سبيل محبة القريب فهو انهُ لما اشتعلت النار في مستشفاهُ وأوشكت ان تحرق كل ما كان بهِ من المرضى انقذهم هو وحدهُ حمل كلاً منهم الى موضع امين . ثم طفق يخرج فرش المستشفى وامتعتهُ غير انهُ فيما كان يجتهد في اطفاء النار احدقت بهِ من كل ناحية . فظلَّ ماشياً في وسطها مجتهداً في اطفائها مدة نصف ساعة حتى ظن الجميع انهُ قد احترق الا انهم رأَوهُ اخيراً خارجاً من المستشفى سالماً لم يحترق منهُ شيء الَّا حاجباهُ تأييداً للاعجوبة

فلم يكتفِ يوحنا بتعب هذه الخدمة بل كان يزيد على ذلك تقشفات اخر . لانهُ لم يكن يرقد الَّا على حصيرة وكان يصوم كل نهار جمعة ولا يأكل الَّا الخبز والماء . واما في بقية الايام فكان يأكل مع الخبز قليلاً من الحشائش ويمشي على الدوام حافياً مكشوف الرأس وكانت اثوابهُ احقر من اثواب مساكين المستشفى . واتفق يوماً ان احد الاساقفة سألهُ عن لقبهِ . فقال لهُ ان الطفل الذي ظهر لي في الطريق لقّبني بعبد الله . حينئذٍ قال لهُ الاسقف فليكن اذاً اسمك منذ الان فصاعداً يوحنا عبد الله . وبما ان الثوب الذي يدل على الادب والحشمة يصيّر الفضيلة محبوبةً ينبغي لك ان تخلع هذه الاثواب الرثة التي شأنها ان تجعل الناس يشمئزُّون منك . وهاانا قد هيَّأت لك ثوباً ملائماً فالبسهُ دائماً فقبَّلهُ القديس ولبسهُ باتضاع بعد ان باركهُ الاسقف . فصار زيّاً لجميع اخوة هذه الرهبانية الى هذا اليوم

ومع انهُ كان مشتغلاً على الدوام بالامور الدنيوية كانت لا تزال نفسهُ متعلقةً بالله ومعتصمةً بهِ . وقد خوَّلهُ الله سبحانهُ موهبة تأمل سامٍ جداً وروح النبوة . وقد تراءى لهُ سيدنا يسوع المسيح مراراً هو والعذراء المباركة التي أرتهُ ذات يومٍ اكليلاً من شوك قائلةً لهُ انهُ بالاشواك يايوحنا ينبغي لك ان تكتسب المجد الذي اعدَّهُ لك ابني الحبيب في جنان الخلد . فاخذهُ عند ذلك صداع أليم . ومع هذا قال اني ساجعل على الدوام تنعمي على الارض في الاتعاب والاوجاع ولست اقبل زهوراً غير اشواك الصليب . وقد اتفق لهُ ان وجد في الطريق فقيراً يبين انهُ مشرف على الموت فحملهُ على ظهرهِ الى المستشفى ووضعهُ على فراش ثم غسل قدميهِ كحسب عادتهِ وانحنى لكي

يقبلها فرأى انهما منقوبتان كرجلي السيد المسيح . فرفع عينيهِ لينظر المريض مَن هو فعرف وقتئذٍ انهُ رب المجد . فقال لهُ تعالى اعلم يا يوحنا ان كل ما فعلتهُ بالمساكين فبي فعلتهُ . وجراحاتهم هي جراحاتي وبغسلك ارجلهم تغسل رجليَّ وغابت الرؤيا . وبغتةً اضاء ليوحنا نور ساطع . فصرخ جميع مرضى المستشفى واستغاثوا خوفًا من تلك النار

واما هو فاخيرًا ضعفت قوتهُ ومرض مرض الموت . فاجتمع حولهُ كل المساكين باكين كما تجتمع الابناء لدى الاب الرؤوف . وبما انهُ كان لا يستريح لازدحام اولئك الفقراء استأذنت اميرةٌ اسقف المدينة في نقلهِ الى قصرها لكي تخدمهُ . فاذن لها المطران في ذلك وناولهُ هناك الزاد الاخير . ثم طلب يوحنا ان يخرج جميع من في المنزل . وبعد خروجهم نهض من سريرهِ وجثا على ركبتيهِ ممسكًا بيدهِ الصليب المقدس وعند تقبيلهِ اياهُ بحرارة المحبة اسلم روحهُ بين يدي خالقهِ قائلاً يا يسوع يا يسوع اياك استودع نفسي . فلما سمع الناس هذا الكلام دخلوا حالاً ثانيةً فوجدوهُ قد تُوفي . وبقي جسدهُ منتصبًا على ركبتيهِ نحو ست ساعات الى ان اخذوهُ في اليوم الثامن من شهر اذار في السنة الخمسين من القرن السادس عشر . وبعد عشرين عامًا من موتهِ وُجد جسدهُ صحيحًا ناجيًا من كل فساد

اليوم التاسع

وفيهِ ترجمة القديسة فرنسيسكا الارملة

وقبل الكلام في ترجمتها اقول ان العذارى والأيامى والمتزوجات يجدنَ في القديسة فرنسيسكا مثال الكمال والبرارة . وهي شريفة وُلدت برومية في السنة الرابعة والثمانين من القرن الرابع عشر . فرأى والداها بها منذ الصغر وداعةً وادبًا وصبرًا وحبًّا للعفاف فعرفا من تلك الصفات انها وُلدت للسماء . ولما بلغت السنة الثانية عشرة من عمرها تزوَّج بها لورنسيوس رجل غنيٌّ من الشرفاء متزيّن بالمناقب الحميدة

اما فرنسيسكا فلئن كانت تشتاق الى الترهب فمن بعد ما تزوَّجت اخذت تتأمل في واجبات الزواج وجعلت برارتها اولاً في ان تعرف جيدًا طبع بعلها لكي تجعل منزلها بعيدًا عن كل خصام ومنزّهًا عن كل كدر وتحافظ على محبة قرينها بطاعتها لهُ واحترامها اياهُ ولذلك كان منزلها في سلام بحيث انها عاشت مع زوجها اربعين عامًا ولم يحدث بينهما اقلّ خصام . بل استمرّا دائمًا على حال الصلح يظهر بعضهما لبعض الاكرام والمحبة . ومع ان هذه القديسة كانت تحب على الدوام رياضات العبادة لم يكن ذلك يصدها عن القيام برضاة زوجها . ومن ثمَّ لم تكن الصلاة تعوقها عن اجابة رجلها الى ما يريد . بل كانت اذا دعاها وهي تصلي تترك الصلاة وتذهب اليهِ . وقد اظهر الله تعالى فرط سرورهِ بما كانت تعملهُ عليها السلام من هذا القبيل لانها حينما كانت تتلو يومًا ما صلواتها اكرامًا لوالدة الله والتزمت اربع مرات ان تترك تلاوة آية واحدة من المزامير لكي تقضي اغراضًا طُلبت منها فلما عادت الى صلاتها رأت تلك الآية مكتوبةً بماء الذهب

وولدت فرنسيسكا بنين مباركين ربَّتهم على خوف الله وحفظ رسومهِ فصاروا بسبب ذلك من الصالحين . فاما ابنها البكر المدعو انجيليًا فكان كانهُ متقدّس من حشى امهِ . لانهُ سلك منذ الصغر سبيل عباد الله المتقين فوهبهُ الله على صغرهِ روح النبوة . لانهُ ذات يوم اخذ سكينًا وجعل حدَّها على خاصرة ابيهِ واخبرهُ قائلاً انك عن قريب تجرح هنا جرحًا مخطرًا ثم كان ذلك . ويومًا آخر رأى راهبًا مجتازًا بازاء منزلهِ فقال ان هذا الراهب بعد زمن يسير يلبس ثوبًا آخر اشرف وكان كما قال لان الراهب بعد حين ارتسم اسقفًا . وأُصيب ذلك القديس بالطاعون وعرف انهُ سيموت منهُ فطلب معرّفهُ بالحاح . ثم رأى القديس انطونيوس والقديس انوفريوس اللذين كان يكرّمهما اجلّ التكريم ومعهما جم غفير من الملئكة يدعونهُ الى الملكوت . فحصل من ذلك على فرح عظيم وعلى هذه الحال انتقل الى حياة الابد ولم يكن قد بلغ من العمر الأ تسع سنين . وفي حين وفاتهِ كانت ابنة جارهم معتقلة اللسان من قبل المرض فهتفت قائلة انني ابصر انجيليًا صاعدًا الى السماء مع زمر الملئكة . وبعد نحو سنة من وفاتهِ ظهر ايضًا لوالدتهِ وقال لها انني قد اتيت لاذهب باختي اغنس وكان عمرها خمس سنين فقط . فمرضت اغنس وقبل وفاتها عاينت والدتها على وسادة ابنتها حمامةً اشدّ بياضًا من الثلج وعند موتها صرخت قائلةً انني ارى اخي متلألئًا كالشمس يدعوني الى السماء

وبما انها كانت تعرف قول الرسول وهو ان من

لا يهتمُّ باهل بيتهِ فقد جحد الايمان وهو شرٌّ من رجل كافر. لذلك أحسنت اهتمامها بكل الذين كانوا يخدمون بيتها. فكانت تعاملهم جميعًا معاملة الابناء بحيث كانت تعينهم عند الضيق والشدة وتُعلمهم وترشدهم في طريق الخلاص. وكانت كل يوم تمارس العمل مع جواريها في ساعات معينةٍ وتقرأ لهنَّ كتابًا روحيًا وتصلي معهنَّ صلاة المساء. وبالجملة فاقول انها قد جعلت بيتها كدير منتظم

فاستحقت بواسطة تلك الافعال ان يمنَّ الله تعالى عليها بجلائل النعم التي من جملتها انها كانت تشاهد ملكها الحارس في كل آن. وكان ذلك المرشد السماوي يرافقها في كل مكان ويستمرُّ معها الليل والنهار بهيئة طفل جميل المنظر مظهرًا لها فخاخ الشيطان وحيلهُ ومعلمًا اياها منهج الفضيلة. على انهُ كان يتوارى عن نظرها اذا زلّت من قبل ضعف الطبيعة وبذلك كانت تنتبه على خطيئتها وتندم عليها فيتراءى لها ذلك الملَكُ الحارس. واما نظرًا الى رحمتها للفقراء فلا ادري ماذا اقول ولا عجب فقد روى كثير من الثقات انهُ ما سألها مسكين صدقةً وردَّتهُ خائبًا. وقد بارك الله سبحانهُ على تلك النفس الكريمة الرفيقة بالبائسين. ولذلك لما رأَت الفقراء يطلبون منها خمرًا سدًّا لاحتياجهم ولم يكن قد بقي عندها من الخمر الاَّ اجَّانة واحدة من خمرٍ جيّد لحميها أخذت تلك الإجَّانة ووزَّعتها على المحتاجين. وبعد طويلٍ درى بذلك حموها فمضى الى حيث كانت الاجانة ليرى كم بقي فيها من الخمر فوجدها مملوءةً ولم تنقص شيئًا البتة. ومرةً اخرى اصطنعت الى الفقراء بشيءٍ من الحنطة التي كانت باقية في الهُري فوجدت فيهِ بعد ذلك اربعين كيلاً من الحنطة الجيدة

وبما ان الورَع يميل بالمرء دائمًا الى تنزيه النفس عن الدنيا والعيش القشف كانت القديسة فرنسيسكا تضيّق على جسدها بانواع مختلفة لانها كانت تمتنع عن كل تنزُّهٍ ولهوٍ ومأكل شهي وعن شرب الخمر ايضًا وما كانت تأكل لحمًا الاَّ لضرورة كلية. وفي غياب زوجها كانت تجلس على سريرٍ ضيق جدًا بدون ان تمتدَّ عليهِ وما كانت تنام اكثر من ساعتين. ثم انها لم تكن تلبس قميصًا من كتان بل كانت تلبس صوفًا فقط وتشدُّ حقوَيها غالبًا بزنار موجع وكانت ايضًا تجلد جسدها حتى يسيل منهُ الدم وتعترف مرَّتين في كل اسبوع يومي الاربعاء والسبت

وقد اراد الله سبحانهُ ان يمتحن فضائلها ويزيدها رسوخًا في الورَع وتشبثًا بالتقوى وهي انهُ في السنة الثالثة عشرة من القرن الخامس عشر فتح لاديسلاوس ملك نابولي المشاقّ مدينة رومية فنهب بيت القديسة فرنسيسكا. ولان زوجها كان من اعيان الانام نفاهُ هو وابنهُ من المدينة. وقد احتملت هذه المِحنة بالصبر الجميل وقالت مع ايوب البار الرب اعطى والرب اخذ فليكن اسم الله مباركًا. والحاصل انها سلمت الامر الى الله حتى انها ندمت على بكائها يوم ارسلوا قرينها وابنها الى المنفى لانها اعتبرت ذلك زلَّةً. ولما خمد لهيب تلك الحرب عاد رجلها من المنفى وابنها وردَّ اليهِ كل ما كان قد أُخذ منهُ. وحينئذٍ اشارت القديسة على بعلها بان يعيشا كاخوَين لكي يُتمّا حياتهما في ممارسة افعال العبادة فراق ذلك بعين زوجها ومن ثمَّ ضيَّقت على نفسها بزيادة التقشفات بحيث لم تعد تأكل الاَّ اكلة واحدة كل يوم وكانت تلبس مِسحًا الى قدميها وتتنطَّق بمنطقة من حديد. وما برحت آلات تقشفاتها المذكورة محفوظةً في ديرها الى هذا العهد ويرتجف منها كل من يراها. وانها شربت الماء زمانًا مديدًا من جمجمة لكي تغلب هواها. ولم تكتفِ بهذه بل طلبت من سيدنا يسوع المسيح ان يمنحها ان تشعر بمرارة آلامهِ كلما تأملتها فظفرت بمطلوبها ولذلك كثيرًا ما صودفت مشرفة على الموت من اشتداد تألمها

وبحسن سيرها انتفع كثير من العذارى والارامل وكان قرينها قد اطلق لها العنان فجمعت تلميذاتها في ديرٍ في السنة الخامسة والعشرين من الجيل الخامس عشر وسنَّت لهنَّ رسومًا علاوةً على رسوم القديس باناديكتوس واثبتها البابا اوجانيوس الرابع. وبعد احد عشر عامًا من ذلك العهد تُوفّي زوجها. فدخلت القديسة فرنسيسكا ديرها وعاشت هناك كجاريةٍ لا كمؤسّسة الدير بحيث كانت تباشر احقر الاعمال. وشرَّف الله هذه النفس المتضعة بمعجزات كثيرة ككشف اخفى اسرار القلوب واختطاف روحها في حين صلاتها. ومنها انها باركت يومًا على قليلٍ من الخبز فزاد حتى كفى ثمانين راهبة وبقي منهُ ملءُ سلّةٍ. ثم انتقلت الى جنات النعيم في اليوم التاسع من شهر اذارٍ في السنة الاربعين من القرن الخامس عشر كما كانت قد تنبأَت

اليوم العاشر

وفيهِ قتل الاربعين شهيدًا

اعلم هداك الله انهُ لما تنصَّر قسطنطين الملك المظفَّر واشتهر ذلك في المسكونة كلها كان ليسينيوس ختنهُ يضطهد المسيحيين في الشرق. فحاربهُ قسطنطين وانتصر عليهِ في السنة الرابعة عشرة من القرن الرابع واخذ منهُ بلد يلِّيريا واليونان. فاوغر ذلك صدر ليسينيوس فزاد غضبهُ على المسيحيين اضطرامًا. على انهُ في اول الامر ستر مقصدهُ الخبيث تحت سجف علل كاذبة مثل قولهِ انهم يعملون على خراب مملكتهِ وثلّ عرشهِ ولكنهُ اظهر بعد ذلك ما كان بقلبهِ من البغضاء للمسيحيين واعلم الناس انهُ يريد ان يستأصل النصرانية من كل مملكتهِ. فاخذ يضطهدهم في كل موضع من مملكتهِ واخترع في تعذيبهم عقوبات جديدة مريعة. وابتدأ ذلك الاضطهاد العمومي الشرقي في السنة التاسعة عشرة من القرن الرابع لانهُ في ذلك الحين امر عمَّالهُ على المشرق بان يُكرهوا الجميع على عبادة الاوثان

وكان في ذلك العهد اغريكولاوس واليًا على كبادوكيا وارمينية الصغرى وقاطنًا بمدينة سبسطية فنادى بامر الملك وتهيأ لتعذيب من يخالفهُ. واذا باربعين جنديًّا كانوا من الكُماة الذين شهدت لهم الحروب بالبسالة اتوا اغريكولاوس معًا وقالوا اننا جميعًا مسيحيون مستعدون لان نسفك دماءنا لاجل النصرانية. فجعل المغتصب يلاطفهم ويقول لهم اني عارف بشجاعتكم في الحروب وانكم مزمعون ان ترتفعوا الى اعظم مناصب العسكر. فايَّاكم وان يغرَّكم الغرور فتخسرون ما تستحقهُ اتعابكم السالفة من المجد والغنى. ألا طيعوا الملك واحيوا بسلام وكرامة. فقال الجنود القديسون ان كنا قد حاربنا ببأس شديد اكرامًا لملك ارضي كما تقول انت فكيف لا نكون اشدَّاء في الحرب اكرامًا لملك سماوي فاعتقد اننا من اجل اسمهِ القدوس نهريق دمنا الى آخر نقطةٍ. فغضب لذلك المغتصب فالقاهم في السجن واخَّر تعذيبهم الى ان يجيء ليسياس قائدهم. فدخلوا السجن واخذوا يرتّلون المزمور التسعين قائلين الساكن في عون العالي في ستر اله السماء يسكن فيقول للرب انت ناصري (مزمور ٩٠ : ١) وما يتلوهُ. وصرفوا الليل كلهُ في التراتيل الالهية فتراءى لهم سيدنا يسوع المسيح وقال لهم انكم قد ابتدأتم جيدًا فاثبتوا لأن الاكليل لا يُعطى الاَّ لمن يثبت الى الانتهاء

فلما اتى قائدهم المدينة ارسل الى السجن جنودًا ليحضروا الاربعين شهيدًا. فقال كيريون واحد من اولئك الشهداء نهض علينا ثلثة اعداء الشيطان والحاكم وقائدنا والاجدر ان نقول ان لنا عدوًّا واحدًا يحاربنا الان بواسطة هذين الاثنين فهل ينتصر واحد على اربعين جنديًّا مسيحيًّا كلاَّ لا يكون ذلك. فلنتذكر يا اخوتي كم مرة القينا انفسنا في خطر الموت اكرامًا للملك فلنفعلن الان كذلك من اجل ملك الملوك الذي سيجزينا حياةً سعيدة خالدة لا يقدر ليسينيوس ان يمحنا اياها. كم من مرة ونحن في اخطار الحروب الدنيوية استعنا بالله فنجانا ايمكن ان يهملنا ونحن محاربون من اجل اسمهِ. فلنلتجئنَّ اليهِ تعالى ونستغيث بهِ مصلّين. انهُ هو الصادق دائمًا في كلامهِ والجوَّاد على عبادهِ وهو ملجأ للمتوكلين عليهِ ونعم الملجأ

فمثلوا لدى قائدهم ليسياس فجعل يُلطف لهم المقال ويُزين لهم جحود النصرانية والعياذ بالله فلم يحصل من كل ذلك على طائل بل كان كمن يرقم على الماء. فضربهم الحاكم بالسياط وعذبهم عذابًا أليمًا واحتملوا كل ذلك بشجاعة حتى تعجب الكفار من جميل صبرهم. ثم ارجعهم الى السجن حيث لبثوا سبعة ايام واذ كانوا يُرتلون هناك المزمور المائة والثاني والعشرين وكل منهم يهتف قائلاً اليك رفعت عينيَّ يا ساكن السماء الخ تراءى لهم السيد المسيح وقال لهم من آمن بي وان مات فانهُ سيحيا فتقوا وتقوَّوا ولا تخافوا من أعذبة تمر سريعًا تلك التي تكسبكم اكليل المجد الابدي. فامتلأت قلوبهم فرحًا وسهروا الليل كلهُ مصلّين. ومساء الغد أُحضروا لدى الوالي المشار اليهِ فرآهم ثابتين على النصرانية فقضى عليهم الموت على الاسلوب الآتي

انهُ كان بجوار مدينة سبسطية بحيرة وكان ماؤها وقتئذٍ باردًا لان الفصل كان فصل شتاء. فامر الحاكم بان يلقى فيها الاربعون شهيدًا عند مغيب الشمس ليقوم ماؤها جَمَدًا عليهم في الليل واوقد بقرب هذا المكان حمامًا لكي يدخلهُ من لا يحتمل ذلك العذاب ويرتدّ عن النصرانية. ثم اقام حراسًا لانفاذ امرهِ. فقبل الشهداء هذا الحكم بشكر وفرح ومضوا مسرعين نحو البحيرة. ولما وصلوا خلعوا ثيابهم وكان بعضهم يقول ان

الجند قد خلعوا ثياب السيد المسيح جل ذكرهُ وعرّوهُ ليهزأوا بهِ وهو قد احتمل ذلك وفاء عن آثامنا فعلينا اذًا ان نتعرّى حبًّا بهِ ونحتمل العذاب بصبر لنكفّر عما قدّمت ايدينا فان العذاب المهيَّأ لنا لشديد حقًّا لكننا بهِ نصل الى السماء فليضايق البرد اجسادنا ولنتعزّ انفسنا برجاء الثواب . لان العذاب سريع الزوال اما الأجر فهو دائم وليلتنا هذه سيعقبها نهار سعيد فكثيرون من رفقائنا الجنود جرحوا فماتوا في سبيل خدمة ملك ارضي . فكيف لا نفعل مثل ذلك نحن اكرامًا للملك الباسط يدهُ على ملوك الارض طرًّا . وبناء عليهِ فلنحمدنّ الله سبحانهُ لانهُ أهّلنا لان نقاسي مثل ذلك من اجل البرّ والدين الحقّ . ثم قالت جميع الشهداء ربّنا باسمك دخلنا الميدان اربعين رجلاً فلتعلُ اكاليل المجد هام الاربعين كلهم . ولا ينقص شيء من ذلك العدد الذي شرّفتهُ بصومك مدة اربعين يومًا . فقدم الجميع نفوسهم ذبيحة لله ثم انحدروا الى البحيرة عراة طالبين ألاّ يفوت احد منهم اكليل المجد

وحين انتصف الليل تلألأ على البحيرة بغتةً نور عظيم ساطع وهبط تسعة وثلاثون ملكًا من السماء وكل منهم حامل بيدهِ اكليلاً . وكان احد الحرّاس ينظر الاعجوبة فتحيّر وقال في نفسهِ لماذا لم تأتِ الملئكة الاّ بتسعة وثلاثين اكليلاً اذ قد نزل في البحيرة اربعون . وفيما هو يردّد هذا الفكر في عقلهِ صرخ واحد من الشهداء مغلوبًا من شدة البرد وطلب من الحارس ان ينقلهُ الى الحمام وكان ذلك دليلاً على جحودهِ الايمان فتقدم الحارس واخرجهُ من البحيرة وادخلهُ الحمام . غير ان ذلك الجاحد اعاذنا الله في حين دخولهِ مات حالاً وانحدرت نفسهُ الى النيران المؤبدة . ولكن الله سبحانهُ لم يدع صلاة الشهداء تذهب بلا طائل لكون الحارس استنار حينئذٍ بنور الايمان بواسطة هذه العجائب . فانهض بقية الحرّاس من النوم وقال لهم انني انا نصراني على دين المسيح . ثم خلع ثيابهُ والقى نفسهُ في وسط البحيرة طالبًا من الشهداء ان يضرعوا من اجلهِ لكي يموت تلميذًا لسيدنا يسوع المسيح . وبغتةً تقدم اليهِ ملَك الرب ووضع على رأسهِ اكليلاً . فباركت الشهداء احكام الله الغير المدركة الذي يسمح بسقوط من هو قائم ويقيم من كان ساقطًا ويستبدل المسيحي بالوثني كما جعل متيا بدلاً من يهوذا . فمن ذا الذي بعد ذلك لا ييأس من نفسهِ ولا يصنع عمل خلاصهِ بخوف ورعدة متكلاً على جود الله ورحمتهِ وقدرتهِ فقط

فبكّر اغريكولاوس الى البحيرة فلما عرف ما كان والقى الشهداء احياء بعدُ أمر بكسر سوقهم فكسرها الجند . وبعد الموت وضعوهم في مركبات ليحرقوهم معًا في مكان معين . اما الجنود فتركوا ميليتون امرءًا حدث السن كان لم يزل حيًّا لعلهُ يطيع امر الملك . فلما رأت ذلك والدتهُ المتورّعة الشجاعة حملتهُ على منكبيها وسارت وراء المركبة قائلةً لابنها ياما اسعد ما يكون حظك وحظي يا ابني يانور عينيّ ان ثبتّ على الايمان ومتّ من اجل السيد المسيح . انهُ لما كنت تحارب عن الملك فقد كنت انا احزن عليك وابكي لاجل عظم الخطر وقلّة جزائك . واما الان فانا مبتهجة كل الابتهاج لان عناء قليلاً في هذه الحرب يخوّلك مجدًا واجرًا لا نهاية لهما . وبناء على ذلك احتمل بُنيّ ما بقي من عقابك القليل لكي تكون شهيدًا وتملأ قلبي سرورًا . فلتبكينّ النساء على موت بنيهنّ اما انا فلست ابكي ولا احزن على موت ابني لانهُ يربح بموتهِ السعادة الخالدة . بل اني افرح واتهلل لانك تتقدمني الى جنان الخلد حيث تضرع من اجل خلاص نفسي . وفيما هي تخاطبهُ بذلك مات ميليتون بين يديها . اما هي فحالاً شكرت الله تعالى على موتهِ السعيد والقتهُ على المركبة ليحترق مع بقية الشهداء ولم تفارقهُ حتى رأت جسدهُ قد اضحى رمادًا وهو في النار . وكانت وفاتهم في اليوم العاشر من شهر اذار . واما اسماؤهم فهي هذه

كيريون . وكانديدوس . ودومنوس . وميليتون . ودوميسيانوس . واونويكوس . وسيسينوس . واراكليوس . واسكندر . ويوحنا . وكلاوديوس . واثناسيوس . ووالنس . واليانوس . واكديكوس . واكاسيوس . وفيبيانوس . والياس . وتاودولوس . وكيرلُّس . وفلافيوس . وسفريانوس . وفاليريوس وكودبون . وساكيردون . وبريسكوس . واوتيكوس . وسماراغدوس . وفيلوكتيمون . وايسيوس . ونيقولاوس . وليسيمكوس . وتاوفيلوس . وكسينتياس . وانجياس . ولاونسيوس . وايسيكيوس . وكايوس . وغرغونيوس

اليوم الحادي عشر

وفيهِ ترجمة القديس صفرونيوس بطريرك اورشليم

وُلد في السنة الثامنة والخمسين من الجيل السادس بدمشق وبها درس الفلسفة وعلوم النصرانية وتربّى على

الفضيلة والادب وحسن التعبُّد . وبعثهُ الشوق الى ارتقاء سلَّم الكمال المسيحي على زيارة الرهبان المقيمين بفيافي فلسطين اعتمادًا على ان مشاهدة الابرار تزيدهُ رغبةً في الفضائل وتجعلهُ يقفي على اثارهم . ولما انتهى الى هناك اتخذ يوحنا موسكوس مرشدًا لنفسهِ وكان مطيعًا لهُ ولم يلزم نفسهُ بالعيشة الرهبانية . ثم ذهب معهُ فيما بعد الى زيارة السيَّاح القاطنين بقفار مصر ولا سيما سياح تيبايس الذين كانوا لم يزالوا يضيّقون على انفسهم باشد التقشفات التي كان قد رآها البارّ كاسيانوس قبل بنحو مائتي سنة . فيوحنا وصفرونيوس المذكوران قد نظرا ذاك العدد العظيم من الرهبان والنساك والسياح متلألئين بالفضائل السامية من المحبة والاتضاع والحرارة في العبادة والطهارة الملكية وشدة الفقر والتقشف والصبر الجميل فاذهلهما ذلك الامر وحرَّكهما على انشاء تأليف جليل وهو المعروف الى يومنا هذا ببستان الرهبان . اذ دوَّنا فيهِ جميع تلك الاشياء التي شاهداها فيهم وعرفاها عنهم. ثم رجعا من هناك الى الاسكندرية حيث اضافهما بطريركها القديس يوحنا الرحيم واظهر نحوهما حبًا شديدًا . ولاجل خير رعيتهِ وارشاد الضالين الزمهما بالاقامة بكنيستهِ . وقد بارك الرب اثمار فلاحتهما الروحية . بحيث ان عددًا وافرًا من الضالين بواسطة ارشادهما نبذوا الاضاليل وتمسكوا بالايمان الحقيقي

غير ان هجوم عساكر الفرس على تلك الاصقاع وما حدث بها اضطر هذين البارَّين الى هجر المدينة المذكورة ولذلك سافرا بحرًا وذهبا الى مدينة رومية في خلافة البابا بونيفاسيوس الخامس وعرضا بين يديهِ كل ما نزل بالكنيسة الشرقية التي مزَّقتها بدَع مختلفة نشأت بالمشرق والتمسا منهُ ان يبذل العناية بعلاج تلك الامراض الردية . ولكن يوحنا بعد عامين انتقل الى رحمة الله فذهب بجسمهِ كل من كان معهُ من الرهبان والقديس صفرونيوس ايضًا الى فلسطين . حيث دفنوهُ في دير القديس ثاودوسيوس الذي مكث فيهِ القديس صفرونيوس بعد هذه الاسفار مثابرًا على افعال النسك بعيشة رهبانية . لانهُ كما يتبين كان قد تمسك بها وقتئذٍ بنذور احتفالية نظير الرهبان الآخرين لا كما كان في المدة السابقة . وبالحري انهُ جرى على ذلك مذ كان بالاسكندرية اتباعًا لمشورة القديس يوحنا الرحيم حسب الرأي الاوكد . وبلا شكَّ ان العناية الالهية هي التي لخير ارجعت القديس صفرونيوس سريعًا الى بلاد المشرق لكي تستخدمهُ في مقاومة الارطقة المنتشئة وقتئذٍ حديثًا وهي بدعة المونوتاليتيين اي تابعي الارادة الواحدة فقط في يسوع المسيح . اذ كان يعضد هذا الضلال كيروس البطريرك الاسكندري . فاي نعم ان هولاء الاراطقة كانوا يعتقدون كما تعتقد الكنيسة الجامعة في ان في المسيح طبيعتين الهية وانسانية . ولكن كانوا يعلمون بانهُ لاتحاد هاتين الطبيعتين باقنومهِ تعالى الالهي لم يكن فيهِ الاَّ مشيئة واحدة وفعل واحد بخلاف اعتقاد الكنيسة الجامعة بان في المسيح ارادتين الهية وانسانية وفعلين مثلهما لان كل واحدة من طبيعتيّ المسيح بقيت على خواصها

وفي سنة اربع وثلاثين من القرن السابع أُقيم صفرونيوس بطريركًا على مدينة الله اورشليم . واخذ يناصب اهل تلك البدعة بغيرة وشجاعة ولم يُخمد نار غيرتهِ امتدادها بالمشرق وتهوُّر البطاركة ورؤساء الاساقفة والاساقفة بها وانما ذلك زادهُ قوةً على استئصال الضلال بحيث انهُ كل ما امتدَّت البدعة ونقوَّى اهلها اشتدَّ عزمهُ. ولهذا عقد في اورشليم مجمعًا حضرهُ كل من كان تحت سلطانهِ من اساقفة الكاثوليكيين وبيَّن ضلال اولئك المبتدعين وحرم اتباع تلك البدعة . وكتب رسالةً للبابا اونوريوس في هذا الشان باعثًا عنها نسخًا عديدة الى كثيرين من الاساقفة الكاثوليكيين الذين تحت سلطتهِ . ثم الف كتابين جمع فيهما اقوال الكتاب الالهي وتعاليم اباء الكنيسة الموضحة وجود مشيئتين وفعلين في سيدنا يسوع المسيح متميز كلٌّ منهما عن الاخر . اي ان الارادة والفعل الالهيين والارادة والفعل البشريين توجد في شخص يسوع المسيح حافظة خواصها من دون امتزاج ولا اختلاط. ولم يكتفِ القديس صفرونيوس بهذا جميعهِ بل اخذ استفانس استقف دورة بيدهِ ومضى الى جبل الجلجلة وخاطبهُ قائلاً إن انت اهملت الايمان الكاثوليكي في الخطر المبين الذي هو عليهِ في هذه الازمنة . فافكر جيدًا بانك ستعطي جوابًا مدققًا عن ذلك يومًا ما لذاك الذي في هذا المكان المقدس عُلق على خشبة الصليب . فاصنع اذًا انت ما لا يمكنني ان افعلهُ انا بشخصي نظرًا الى وجود الشراكسة في هذه البلاد . الذين جلبوا علينا ثقل قصاص خطايانا . فاذهب حالاً انت من اقصى الارض هنا الى مدينة رومية وامثل امام العرش الرسولي حيث اساس التعاليم المقدسة . واخبر بهذا جميعهِ وبكل ما حدث في هذه

البلاد لاولئك الانام القديسين والاشخاص الاجلاَّء الكائنين هناك. ولا تترك من عنايتك جهدًا ولا من اهتمامك توسلاً ولا من مساعيك غيرةً الى ان تحصل على حكم شرعي وعلى رذل قانوني لتعاليم هذا الضلال الجديد. فاستفانس المذكور اذ اعترتهُ الخيفة من هذا الخطاب وتحركت فيهِ الغيرة من قبل توسلات الاساقفة والشعب الكاثوليكيين قد اخذ حالاً بالسفر نحو رومية وليس من دون عناية خصوصية من الله قد نجا من الاشراك التي نُصبت لهُ وبلغ بسلامٍ الى رأس مدن العالم الكاثوليكي. حيث رأى ان الحبر الاعظم اونوريوس كان قد توفي ولهذا باشر الاهتمام نحو خلفائهِ وسعى بعناية كلية الى ان نال ما كان يتوق اليهِ. وهو الحكم القانوني الذي ابرزهُ الحبر الاعظم القديس مرتينوس سنة تسع واربعين من القرن السابع في المجمع اللاتراني برفض هذه البدعة وبحرم المونوتاليتيين

ولكن قد اراد الله سبحانهُ ان القديس صفرونيوس ينتقل الى السعادة الابدية قبل ان يبرز الحكم الاحتفالي السابق ذكرهُ في حرم المبتدعين وتبَّاع المشيئة الواحدة. وقبل موتهِ كانت كنيسة اورشليم قد تكبدت اضرارًا عظيمة. لان الشراكسة كانوا قد استولوا عليها سنة سبع وثلاثين من القرن السابع واهانوا الديانة المسيحية واضطهدوا المؤمنين بقساوةٍ. فالقديس صفرونيوس فيما بين تلك الاهوال اظهر غيرةً فائقة الوصف وشجاعة اسد غشمشم. مهتمًّا بقدر ما امكنهُ من الجهد بعدم تبديد رعيتهِ معزيًّا اياهم باقوالهِ الفصيحة. مشجعًا ضعفهم على الصبر والاحتمال مسعفًا اياهم بمحبة ابوية. مخاطرًا بحياتهِ مرات كثيرة من اجلهم نظير الراعي الصالح الذي يبذل نفسهُ دون الغنم. ولم يهجع عن العناية والغيرة الى ان نال من عُمَر قائد الشراكسة الاذن خطًّا في ان نصارى فلسطين يمارسون فروض ديانتهم من دون مانع. بيدَ ان ذلك الاذن صار وبالاً على المسيحيين حتى كانهُ كان امرًا مشددًا باستئصال النصرانية. ومن ثم كان القديس صفرونيوس ينظر بعينيهِ يومًا بعد يوم دثار اتعابهِ الرسولية وفقد ثمرة اعراقهِ الجهادية تحت نير الغير المؤمنين. ولهذا قد استحوذت عليهِ الامراض واثقال الشيخوخة. وبها قد بارح شقاء هذا العالم وفاز بجنات النعيم في اليوم الحادي عشر من شهر اذار في سنة ثماني وثلاثين وستمائة للمسيح

اليوم الثاني عشر

وفيهِ ترجمة القديس غريغوريوس البابا الروماني المعظم

ان في الاباء الذين زهت الكنيسة بعلومهم وفضائلهم ولُقبوا نظرًا لاهليتهم بالمعظمين القديس المذكور. وكانت لهُ مع ذلك عظمة الشرف والغنى وفعل العجائب وسمو المقام. لكونهِ كان راهبًا ثم تشمَّس ثم صار كردينالاً ثم أُلقيت اليهِ مقاليد الخلافة البطرسية. والآن نأخذ بذكر ما فعلهُ في كل من احوالهِ المشار اليها فذلك قدوة للسالكين طريق الفضائل. فاعلم انهُ عليهِ السلام وُلد برومية قبل نصف الجيل السادس اما والدهُ غورديانوس فكان غنيًّا من الشرفاء وذا مقام عالٍ في تدبير تلك المدينة الكبرى وكانت والدتهُ القديسة سيلفيا. وكان برومية واحد العصر وغرةً في جبين الدهر لانهُ كان حميد المزايا ذكي العقل ثاقب الفكر مائلاً طبعًا الى الفضيلة والعلم ولذلك اقامهُ الملك جوستينوس الثاني مدبرًا على هذه المدينة. ولكن هذه العظمة العالمية لم تغيّر من طبعهِ ولم تغطِّ على بصيرتهِ لانهُ كان يراها بعين الادراك ولذلك لم يتمّ بهِ قولهم في المثل الكرامات تغير الصفات. والحاصل انهُ عرف ما ينشا عن تلك الكرامات الباطلة من عظيم الخطر موقنًا انهُ من الصعب ان يعيش المرء بالصلاح وهو يتمتع بكرامات الدنيا. ولذلك تاقت نفسهُ كل التوق الى رفض تلك الكرامات وقد مهَّد الله لهُ سبيلاً الى ذلك بعد موت والدهِ واعتزال والدتهِ عن الناس حيث انفردت بمكان اقامت بهِ على عبادة الحق سبحانهُ

ولانهُ كان قد ورث من ابيهِ اموالاً وافرة بنى اولاً بصقلية ستة اديرة. واقام برومية ديرًا آخر. ثم ترك وظيفة تدبير المدينة وباع كل مالهُ واعطى كل شيء للمساكين وزهد في الدنيا وترهب في دير لهُ اسمهُ دير القديس اندراوس. وعاش هناك سالكًا طريق الكمال. ولان جميع الرهبان كانوا يعتبرونهُ كمرآة البرارة اختاروهُ رئيسًا عليهم ليقوم بتدبير امورهم. وكان مولعًا بالتقشف والصوم فاضرَّت بمعدتهِ كثرة الصيام. وكان يصرف في الصلاة كل ما كان يبقى لهُ من الزمن. وفيما كان رئيسًا للدير مرض احد الرهبان وكان قد ذخر سرًّا ثلاثمائة قرش. فامر القديس ان لا يعودهُ الاخ واحد ابتغاء ان تنتصح بذلك الرهبان وينتبه الراهب على زلتهِ

ثم مات على تلك الحال فلم يشأ القديس ان ذلك الراهب يُدفن في مقبرة الرهبان بل اراد ان يُقبر في مزبلة عميقة منتنة . فالقيت جثتهُ هناك مع الثلثمائة قرشًا . وقال الرهبان للميت لتكن فضَّتك معك للهلاك . وبما انهُ كان قبل الموت قد تاب الى الله اذ رأى ان الجميع قد تركوهُ وعند ذلك اظهر الرهبان كل ما كانوا قد خبأوهُ عندهم وقدَّموهُ للرئيس وقدَّموا لهُ ايضًا ما لا تنهاهم الرسوم عن حفظهِ . وحاصل ما كان من امرهِ انهُ بعد ثلثين يومًا امر القديس بان يُقدَّس من اجل الراهب المتوفَّى ثلثين قداسًا . وفي انتهاء هذه الثلاثين يومًا ظهر الميت لاخيهِ وكان راهبًا نظيرهُ واخبرهُ بانهُ بقي في المطهر الى ذلك اليوم

واتفق انهُ رأى ذات يومٍ جماعةً من صبيان اسرى بارعين في الجمال يُباعون برومية . فسأَل القديس عن وطنهم ولما عرف انهم من بلاد انكلترة وان جميع سكان تلك البلاد هم وثنيون حزن عليهم وبكى وقال متنهدًا اهكذا يملك الشيطان على هولاء الملئكة المتجسدين . فذهب القديس حالاً الى البابا باناديكتوس الاول وطلب منهُ ان يرسل اناسًا ليبشروا الانكليز بالايمان المسيحي وقدم نفسهُ لاتمام ذلك الامر واخذ بعضًا من الفضلاء فسافروا عاجلاً . الاَّ ان الشعب الروماني لما شعروا بسفرهِ التأموا في كنيسة القديس بطرس وقالوا للحبر الاعظم . اعلم يقينًا ان القديس بطرس لمغتاظ عليك وانك أتلفت رومية بارسالك غريغوريوس . وكانوا يطلبون رجوعهُ بالحاحٍ حتى اضطر البابا الى ارجاع غريغوريوس الى رومية

فعاد القديس الى ديرهِ وجعل يمارس فيهِ الرياضات الرهبانية باتم نشاط واوفر سكينة . غير ان البابا بيلاجيوس الثاني الذي كان قد جلس على الكرسي الرسولي بعد البابا باناديكتوس اخرج القديس غريغوريوس من خلوتهِ الموموقة منهُ . لانهُ رسمهُ شماسًا وصيَّرهُ كردينالاً وارسلهُ الى مدينة القسطنطينية من اجل امور باهظة . اما القديس فلئن كان قد ترك الدير والرهبانية لم يترك الروح الرهباني بل حافظ على بقائهِ ونموهِ ولذلك اخذ معهُ في ذلك السفر رهبانًا لكي يمارس معهم رياضات الدير . فلما وصل الى القسطنطينية قبلهُ الملك طيباريوس ببشاشة واكرم مثواهُ وقضى معهُ عاجلاً الامور المعتبرة التي كان قد اتى من اجلها

وقد حدث هناك امام الملك جدال عظيم بين هذا القديس واوطيخس بطريرك القسطنطينية . لان اوطيخس وان كان رجلاً قديسًا وقد صنع عجائب ونُفي من اجل الايمان فمع ذلك سمح الله بانهُ يتكردس في هاوية الغي والضلالة بالانقياد لرأيٍ مبتدعٍ ضالٍ . وصنَّف ذلك البطريرك كتابًا في ابطال القول بالبعث والنشور . وكان يعلّم انهُ بعد القيامة لا تكون اجسادنا ملموسةً مركَّبةً من لحمٍ حقيقي بل انها تكون مركبةً من مادة اخرى الطف من الهواء . فدحض القديس ذلك القول الباطل بالبراهين القاطعة والادلة الساطعة واقنع بها الحاضرين والبطريرك ايضًا . ولذلك احرق البطريرك الموماً اليهِ كتابهُ في اثبات هذا الضلال . وعما قليل اعتراهُ مرض الموت فحينئذٍ امسك جسمهُ بيدهِ وقال اني اقرُّ معترفًا اننا كلنا نقوم من الموت بهذا الجسد . ثم عاد القديس غريغوريوس الى رومية فهشَّ الرومانيون لقدومهِ ولاقوهُ كملك هبط عليهم من السماء . فلما مات بيلاجيوس البابا مطعونًا طلب الاكليريكيون والعالميون طرًّا ان يخلفهُ القديس غريغوريوس فلم يرتضِ بذلك ولما عرف ان الملك موريسيوس يشتهي ذلك ايضًا ازمع على الهرب والاختفاء فتنكَّر وهرب من رومية سرًّا على ان تنكُّرهُ وفرارهُ لم يخفياهُ بحيث ان الله الذي يرفع المتضعين جعل عليهِ في هربهِ علامةً عرفهُ بها الذين كانوا يطلبونهُ . وهي انهُ كان يظهر فوق هامتهِ عمود منير منحدر من السماء وكان يتبعهُ حيث يمضي . فارجعوهُ الى رومية واجلسوهُ على عرش الخلافة البطرسية في اليوم الثالث من شهر ايلول في السنة التسعين من القرن السادس

فلما رأى القديس ان الله تعالى اقامهُ اسقفًا على رومية وراعيًا عامًّا على الكنيسة كلها اخذ يهتمّ بتتميم واجبات منصبهِ العالي فابتدأ بترتيب بلاطهِ فاخرج منهُ كل من كان فيهِ من العالميين بحيث لم يدع احدًا يخدمهُ او يسعفهُ . بل اختار لهذا الامر من الاكليريكيين الذين لهم شرف الفضيلة والعلم والفطنة لا الاكليريكيين الذين لهم شرف الحسب والنسب . واسكن ايضًا معهُ بعضًا من الرهبان لكي يمارس واياهم بحسب امكانهِ رياضات الرهبانية . ثم صرف عنايتهُ الى مساعدة الفقراء . ولا جرم ان مزيد اهتمامهِ كان على حد الغرابة فكيف لا وكان قد كتب اسماء الكنائس والاديرة والمستشفيات والبيوت التي على ضيق وفاقة بل كتب ايضًا اسماء جميع الفقراء الذين

برومية ونواحيها وكان يطعمهم كلهم . واتفق انهُ مات بقرية قريبة رجل فقير ولا مساعد لهُ واذ درى بذلك حزن كل الحزن حتى كانهُ قد مات بذنبهِ فترك التقديس بضعة ايام ليمارس فيها افعال التوبة . ولم تكن رحمتهُ للمحتاجين مقصورة على رومية وجوارها بل كانت ممتدة الى كل بلاد ايطاليا والى كل اقليم فيهِ دخلٌ وقيمٌ لكرسي الخلافة البطرسية اعزَّهُ الله وكان علاوةً على ذلك يُطعم برومية ثلثة آلاف راهبة . وعندهُ ان رومية نجت من ايدي الاعداء الذين حاربوها بصلوات اولئك الراهبات . ثم انهُ بنى في اورشليم وفي طورسينا مستشفيين وخصَّص لها اموالاً وافرة ولم يكتفِ بانهُ يطعم الفقراء بل كان كل يوم يؤاكل اثني عشر فقيرًا منهم . وقد اظهر الله تعالى فرط سرورهِ بهذه الافعال لانهُ في ذات يوم اراد بروح الاتضاع ان يسكب ماء لمسكين ليغسل يديهِ فلما اخذ بيديهِ الابريق والصحن لاتمام هذا العمل غاب الفقير حالاً عن النظر . وفي ليلة ذلك اليوم تراءى لهُ السيد المسيح وقال لهُ انك قبلتني آنفًا في اعضائي اما امس فقد قبلتني في اقنومي . وامر مرةً اخرى ان يأتوهُ باثني عشر فقيرًا ليتناول الطعام معهم فلما جلس على المائدة اذا بهم ثلثة عشر . فقال القديس للذي أدخل الفقراء لماذا ادخلت ثلثة عشر . قال ما ادخلت الاَّ اثني عشر وانني لا ارى اكثر من ذلك لانهُ حقًّا كان لا يبصر الاَّ اثني عشر . غير ان القديس كان يرى ثلثة عشر ولذلك شرع عليهِ السلام يتفرَّس في الثالث عشر فرأى لونهُ وشكلهُ يتغيَّران في كل وقت . فبعد الغداء اخذهُ الى ناحية وسألهُ عن اسمهِ ومن هو فقال لهُ ذاك لماذا تسألني عن اسمي الذي هو عجيب اني انا هو ذاك التاجر الذي وهبتهُ آنفًا اثني عشر قرشًا . واعلم ان الله اقامك لاجل تلك العطية على عرش الخلافة الرسولية . فقال لهُ القديس من اين تعرف هذا . قال لاني ملَك السماء وكان الله سبحانهُ ارسلني لأمتحنك فاضطرب القديس وجلاً فقال لهُ الملَك لا تخف يا غريغوريوس لان الرب الاله قد ارسلني لكي اعينك واحفظك الى الانتهاء وبي تنال كل ما تطلبهُ من كرمهِ . فخرَّ حينئذٍ القديس على الارض وقال بخوف وهيبة . انهُ من بعد ان جعلني الله من اجل صدقةٍ قليلةٍ راعي بيعتهِ . فلي اذًا ان ارجو من كرمهِ افضل من ذلك اذا احسنت القيام على خدمتهِ وانفقت على المساكين كل ما انالني من نعمهِ

ولم يكن اهتمامهُ بمواساة المؤمنين واسعافهِ اياهم في احتياجاتهم شيئًا بالنسبة الى عنايتهِ بهم من حيث الامور الروحية وخلاص النفوس ولاجرم فان قلبهُ كان مشغوفًا بحب الله وافرَ الشوق الى ان يضرم هذه النار في قلوب الجميع . ولما كان يعلم ان الانكليز لذلك العهد لم يستنيروا بنور الايمان اختار اغستينوس رئيس ديرهِ وبعث بهِ مع جماعة من الرهبان ليبشروا اهل هذه المملكة بالانجيل المقدس فبعد ان سافر المرسلون ضجر الاكثرون منهم من تعب الطريق وعزموا على الرجوع الى رومية . فعاد من قبلهم اغستينوس وذهب الى الحبر القديس وطلب منهُ لاجلهم اذنًا ليعودوا الى اديرتهم . فما اجابهم القديس الى ما طلبوا بل كتب اليهم ما نصهُ

من غريغوريوس عبد عباد الله الى عباد ربنا يسوع المسيح تبارك اسمهُ . انَّ ترك المرء خيرًا بدأ بهِ اردأ من عدم الابتداء بهِ فمن ثم ينبغي لكم يا اخوتي الاحباء ان تبذلوا الجهود متكلين على الله لكي تتمموا ما قد ابتدأتم بهِ من الخير . فلا يفشلكم تعب الطريق ولا يتسلط عليكم الخوف الباطل واظبوا بنشاط على العمل الذي قد ابتدأتموهُ بارادة الله . اعلموا يقينًا ان الله تعالى يجزي اكثر الصالحين تعبًا باعظم مجدٍ في ملكوتهِ . اطيعوا رئيسكم اغستينوس في كل شيء باتضاع واعلموا ان كل ما تفعلونهُ بمشورتهِ او امرهِ يكون مفيدًا لنفوسكم . فليحفظكم الله الضابط الجميع بيدهِ القوية وليمنحني اياها لأرى في السماء اثمار اتعابكم واشترك معكم في مواضعها على اني اشتهي بكل قلبي ان اشترك في اتعابكم . ولو جاز لي وكان ممكنًا لكنت ارافقكم في بعثتكم

فلما قرأ الرهبان هذه الرسالة تعزَّوا جدًّا وتشجعوا وذهبوا سائرين فوصلوا سالمين الى انكلترة . وبتعليمهم تنصَّر الملك وجمٌ غفير من المملكة . ثم اخبروا القديس غريغوريوس بما صار واعلموهُ ان الحصاد كثير والفعلة قليلون . اما ذلك الحبر الغيور فابتهج بالله قلبًا وارسل كثيرين لخدمة هذه الكرمة الجديدة وكان في من بعث اثنا عشر اسقفًا ما عدا اغستينوس الذي اقامهُ مطرانًا على مدينة كانتوربري وامرهُ بان يضع للنصرانية هنالك اساسًا راسخًا والاَّ يستاصل في اول الامر ما يمكن الصبر عليهِ من عادات لهم واوصاهُ ايضًا بالاَّ يدخل كل عادات الكنيسة الرومانية على تلك

الكنيسة الجديدة بل فليتخذ من كل كنيسة ما يراهُ انسب وانفع نظرًا الى اخلاق الانكليز واحتياجهم . لكون هذا القديس يقول لا يحسن بنا ان نحب شيئًا من اجل المكان الذي هو فيهِ وانما الخليق بنا ان نحب المكان من اجل ما فيهِ من الخير فبمثل هذه النصائح كان القديس غريغوريوس يدبر اغسطينوس ورفقاءَهُ . ومن اجل هذا دُعي رسول انكلترة ولان اغسطينوس كان يفعل هناك عجائب كثيرة كتب اليهِ ما نصهُ . انهُ بلغني ان الله ضابط الجميع قد صنع على يدك معجزات مذهلة بين هذا الشعب المختار ولهذا عليك ان تكون ملازمًا للاتضاع وخوف الله ولتطب نفسًا بحيث ان الله يكشف عن بصائر الانكليز بهذه الآيات ويجذبهم الى نعمة سيدنا يسوع المسيح . فاياك وان تشمخ بانفك لان هذه الآيات جرت على يدك فما عاقبة الكبرياء الَّا الشؤم والوبال

ومع انهُ عليهِ السلام كان مشتغلاً كثيرًا بتدبير كنيسة الانكليز لم يكن يتغافل عن بقية الكنائس ولا عن اساقفتها . ومما يُروى في هذا الشان انهُ كتب الى جانواريوس احد الاساقفة رسالةً وبخهُ بها على انهُ حرم رجلاً من رعيتهِ افترى عليهِ . وفي توبيخهِ هذا الاسقف يقول انهُ لا يليق بالاسقف ان يحرم احدًا من اجل ما يتعلق بشخصهِ ولا يجوز ان يستعمل التأديب الكنائسي انتقامًا مما اساءَ اليهِ . وانهُ وبَّخ ايضًا اسقفًا فرنسويًا توبيخًا مرًّا لانهُ كان يقرأ كتب الشعراء واعلمهُ ان قراءة دواوين الشعراء لا تليق بمقام الاسقفية . وانهُ ونَّب ايضًا اسقفًا آخر على توانيهِ في سياسة رعيتهِ واننائهِ دراهم وافرة في المآدب والولائم وكان ذلك الحبر الغيور لا يأذن لأُسقف في مفارقة ابرشيتهِ الَّا زمانًا يسيرًا او من اجل ضرورة داعية . واما من جهة الاكليريكيين فكان يريد ان يكون سلوكهم على الصراط المستقيم . وكثيرًا ما كان يعظ ولا يبالي بالتعب ولذلك كان اذا منعهُ عن الوعظ مرض او شاغل ضروري . ينشئ عظةً او خطبةً ويسلم ما انشأ لآخر ليخاطب بهِ الشعب نيابةً عنهُ. وفي الجملة اقول ان ما فعلهُ ذلك الحبر العظيم نظرًا لما يتعلق بكنيسة الله فهو غريب عجيب لا يكاد يُصدَّق ولذلك زهت البيعة على عهدهِ وامتدت في العالم . واستأصلت غيرتهُ بأيد الله بدعة الدوناتيين في افريقية والاريوسيين في اسبانيا وغيرها في غيرها

وكانت غيرتهُ مقرونة بالصبر والاتضاع والانس والحلم والشجاعة في مباشرة واجبات مرتبتهِ ولذلك عندما نادى الملك موريسيوس بنهي الجنود عن الترهب قاوم الحبر القديس هذا الامر بالملاطفة بحيث كتب الى الملك ما نصهُ ان من لا يسير مع الملك بكمال الامانة فقد اذنب امام الله. ولهذا فاني اعترف لعزتكم اني اخشى على نفسك من اجل هذا الامر الذي ابرزتهُ وبهِ تنهى الجنود عن الترهب . على انك اغلقت بذلك باب الملكوت في وجوه كثيرين . فما انا الَّا دودة الارض فكيف اخاطب ملكًا معظمًا . ولكنما سيدنا يسوع المسيح يخاطبك بفمي قائلاً اني من كونك كاتبًا صيَّرتك في الجيش قائدًا شريفًا ثم جعلتك قيصرًا وملكًا وابا ملك . فكيف اذًا بعد هذا تصدُّ جنودك عن خدمتي . ألا ايها الملك الجليل بماذا تجيب ملك المجد حينما يسألك عن ذلك يوم الدينونة . فان فتَّشت كتب التواريخ فتعلم حينئذٍ من الذي ابرز مثل هذا الامر وهل يجوز ابرازهُ (قد عرَّض القديس هنا يوليانوس عدو السيد المسيح وهو اول من ابرز مثل هذا الامر) فاغتاظ الملك موريسيوس جدًّا من رسالة القديس غريغوريوس وقد زاد غيظهُ يوحنا الصوَّام بطريرك القسطنطينية . اما يوحنا هذا فكان راهبًا يتظاهر بالادب والتقوى واستقامة السيرة ولذلك كان لهُ عند اهل الغفلة لقب قديس . وبواسطة ريائهِ جلس على عرش البطريركية القسطنطينية . فهذا الراهب الذي كان يقول قبل استوائهِ على ذلك العرش انهُ لا يستحق اسم بطريرك فانهُ بعد ذلك اي بعد ارتقائهِ الى ذلك المنصب السامي لم يكتف بما كان لهُ من الشرف . ولم يقتنع بان يُدعى بطريرك القسطنطينية بل رام ان يدعى بطريرك الكنيسة العامّ وعقد مجمعًا وبهِ امر ان يلقَّب ببطريرك الكنيسة العامّ . فبما ان القديس غريغوريوس لم يُمضِ رسائلهُ الَّا بهذه الالفاظ عبد عباد الله مع انهُ خليفة بطرس ونائب المسيح في الارض لذلك كتب القديس المذكور رسالة الى الملك موريسيوس واخرى الى الملكة كونستانسيا . وفي هاتين الرسالتين يقول لله ما هذا الحديث الذي لم يسمع بمثلهِ في كنيسة الله ان واحدًا من البطاركة مقيدًا سلطانهُ باقليم واحدٍ يجعل نفسهُ بطريركًا عامًا يتولَّى امر الكنيسة كلها . وبناء على ذلك يتحرَّز الملك والملكة من اتضاع جاء سترًا للكبرياء ووداعةٍ استُعملت سجافًا للمكر والخداع فلا تغضَّا طرفًا فيتقوَّى الباطل ويضعف الحق . وانما أُشير بهذا الكلام الى من يغيّر القوم بلين عريكتهِ

ولطف كلامهِ ويظهر الاحتشام في ملابسهِ وقلبهُ مفعم تكبرًا يتظاهر بالزهد وهو تائق الى الرئاسة على العالم كلهِ . يجعل نفسهُ احقر الجميع وهو الذي يريد ان يرتفع ويتعظم على الجميع . فهذه كلها لم تؤثر في قلب موريسيوس الملك بما انهُ كان مغتاظًا من ذي قبل وغضبان على القديس غريغوريوس . ولذلك انتصر ليوحنا الصوَّام

فقاتل الله سبحانهُ اعداء نائبهِ في ارضهِ على انهُ جلَّت رحمتهُ هزَّ لموريسيوس سيف انتقامهِ قبل ان يضربهُ بهِ وكان ذلك بان ظهر في القسطنطينية رجل لابس اثواب راهب وفي يدهِ سيف مجرَّد . فنادى علانيةً بصوتٍ جهيرٍ مخيف ان موريسيوس سيموت بهذا السيف . فانتبه الملك على اثمهِ وارسل الى الاديرة صدقات وافرة والتمس من الرهبان ان يصلُّوا الى الله تعالى ليرحمهُ فيؤدبهُ في هذه الدنيا ولا يؤخر ما يستحقُّ من العقاب الى الحياة المنتظرة وعن امدٍ يسير تمرَّد عليهِ فوكاس وامر بقتلهِ . فقال موريسيوس حينئذٍ انهُ لا يعد حكم الله عليهِ بذلك الاَّ مجرَّد انتقام منهُ لانهُ بغى على القديس غريغوريوس واضطهدهُ ظلمًا ومات يوحنا الصوَّام بعد ذلك موت الفجأة

ولله درُّ هذا القديس شجاعًا بحيث كان مضطهدًا مدة حبريتهِ كلها واللومبارديون يحاربونهُ والامراض متسلطة عليهِ فمع ذلك كلهِ لم تصغر نفسهُ اصلاً بل كانت كسفينة نوح مرتفعة على الدوام فوق امواج طوفان هذه البلايا . ومع هذه الاتعاب جميعها ما برح يكتب رسائل ويؤلف كتبًا . فانشأ من الكتب والرسائل ما شاء الله ولذلك قيل ان من قرأها يظن ان المؤلف صرف في تأليفها ثمانين سنةً منفردًا متأملاً واما امرهُ في تصنيف تلك المؤلفات الكبيرة فقد كشفهُ بالتوكيد شماس اسمهُ بطرس وهو القائل انهُ لما كان القديس غريغوريوس يؤلف هذه الكتب عاينت انا مرات كثيرة الروح القدس بهيئة حمامة جالسًا على هامتهِ . واستأثرت بهِ رحمة المولى في السنة الرابعة من القرن السابع في اليوم الثاني عشر من شهر اذار وكان عمرهُ ستين عامًا وتولَّى امر الكنيسة المقدسة ثلث عشرة سنةً وستة اشهر وعشرة ايام

اليوم الثالث عشر

وفيهِ ترجمة القديسة افراسيا البتول

وُلدت هذه العذراء عليها سلام الله بالقسطنطينية في عهد تاودوسيوس الكبير على انتهاء المائة الرابعة للمسيح . وكانت من ذوي قرابة الملك وكان والدها انتيغونوس متوليًا امر بلدة ليكيا وهو معتبرٌ جدًّا بسيرتهِ الحسنة ومناقبهِ الحميدة . وكان اسم والدتها افراسيا ايضًا . وكانت في المدينة نموذج التعبُّد وقدوة التقوى والادب . فبعد ان بارك الله تعالى عليهما ورزقهما هذه الثمرة قدماها لهُ عزَّ وجلَّ واتفقا على ان يحفظا العفة بقية ايام حياتهما لكي يمارسا افعال التقوى بلا شاغل ولا منازع . وبعد خمس سنين مات انتيغونوس فطلب الملك تاودوروس من افراسيا ان يخطب ابنتها لشابٍ من الاغنياء لهُ حظوة لدى الملك . فارتضت والدتها فخُطبت بنتها افراسيا ولم تكن قد بلغت اذ ذاك اكثر من خمس سنين

وكانت والدتها بارعة في الجمال وحداثة السن بحيث لم تكن الاَّ ابنة اثنتين وعشرين سنة لذلك طلب كثيرون ان يتزوجوا بها والملك نفسهُ كان يحثها على ذلك . اما افراسيا فلانها كانت قد نذرت العفة ورأت انها على خطر عزمت على الهرب من البلاط الملوكي . ولما كان لها دخل وافر في بلاد مصر احتجَّت بذلك فمضت بابنتها الى هناك . فلما وصلت الى مصر وانفقت على الاديرة والفقراء اموالاً كثيرة اقامت باحدى مدن القطر المصري . وكان هنالك دير فيهِ مائة وثلاثون راهبةً يعشنَ عيشةً قشفة الى الغاية . فما كانت تلك الراهبات تخرج من الدير اصلاً ولا يأكلنَ لحمًا ولا يشربنَ خمرًا . ومع ذلك كنَّ يواظبنَ على الصوم لا يأكلنَ الاَّ بعد غياب الشمس قليلاً من الخبز والبقول وكان بعضهنَّ يطوينَ يومين او ثلثة ايام . ثم انهنَّ كنَّ يلبسنَ المسح دائمًا ومع هذا يشتغلنَ كثيرًا وينمنَ على اديم الارض . ولما ارادت افراسيا ان تقدم لهنَّ مقدارًا من المال وافرًا رفضنَ هذا وقلنَ لها ان شغل ايدينا يكفي لمعيشتنا

ثم اتفق يومًا ان دخلت الديرَ هي وافراسيا ابنتها وكانت افراسيا يومئذٍ ابنة سبع سنين فقط . فتعجبت الرئيسة من حكمة الفتاة وعبادتها فسألتها قائلةً من الذي هو احبُّ اليكِ أراهبات هذا الدير ام خطيبكِ . فاجابت افراسيا قائلة اما خطيبي فما عرفتهُ ولا عرفني واما راهبات الدير فاني اعرفهنَّ واحبهنَّ جميعهنَّ ثم قالت الفتاة وانتِ أيّنا احب اليكِ أأنا ام خطيبي . فتبسمت الرئيسة من ذلك السؤال وقالت لها اننا نحبكِ ويحبكِ ايضًا سيدنا يسوع المسيح . فقالت افراسيا وانا

ايضًا احبكنّ واحب سيدنا يسوع المسيح أشد محبة . وكانت والدة افراسيا تستمع خطاب ابنتها بفرح لا يكاد يوصف . ومن شدة جذلها ومزيد ارتياحها الى سماع ذلك الحديث سالت عبرات الفرح على خديها . بيد انها كتمت عنها ما بقلبها من السرور ثم قالت لها لنذهب يا ابنتي لان المساء قد اقترب والضرورة تدعو الرئيسة الى عمل آخر . فاجابتها الابنة اذهبي يا امي ان شئتِ ودعيني امكث هٰهنا . فقالت والدتها انهُ ينبغي لكِ ان تخرجي من الدير لانهُ مسكن الزاهدات المنقطعات الى الله تعالى . فجثت حينئذٍ افراسيا امام ايقونة المصلوب وقالت نحوهُ تعالى . يايسوع الحلو انت هو ربي والهي وهاانذا اتعبد الك بكليتي فلا اخرج من هٰهنا لاني لست اريد عريسًا سواك . اما الرئيسة فقالت لها لا سبيل الى ان تقيمي عندنا الآن لانهُ لا قلاية في الدير الّا وفيها راهبة . قالت الفتاة ولمَ لا اسكن معكِ في قلايتكِ نفسها . فعند ذلك رضيت الرئيسة المشار اليها ان تسكن افراسيا الدير وظنت هي وامها ان الفتاة تضجر وتملّ عما قليل من سكنى الدير

فبعد ان اقامت هنالك اياماً اشارت عليها امها والرئيسة بالخروج . فما ارادت تلك الفتاة المباركة ان تفارق الدير . حينئذٍ قالت لها الرئيسة امام والدتها ان اردتِ ان تمكثي معنا فعليكِ ان تستظهري كتاب المزامير كلهُ وتحفظيهِ غيبًا وتصومي كل يوم وتمارسي بقية تقشفات الدير . فارتضت افراسيا بكل شيء بكل قلبها . فاحتضنتها وقتئذٍ والدتها بابتهاج لا يكاد يوصف ثم قبضت على يدها وتقدَّمت امام ايقونة الصليب المقدس وقدمت لسيدنا يسوع المسيح ابنتها ثم سلمتها الى الرئيسة ومضت . وبعد قليل لبست افراسيا اسكيم الرهبانية واخذت تنهج طريق النسك وسبيل الفضائل بنشاط تنشطت والدتها لاجلهِ في العبادة . وبعد مدة من الزمان اخبرت الرئيسة افراسيا بانها رأت في الحلم زوجها انتيغونوس متلألئًا بنور سماوي يدعو امرأتهُ الى الملكوت . فاستعدت افراسيا للموت وبعد قليل انتقلت الى رحمة الله ودفنوها في الدير وقد كتب اسمها واسم انتيغونوس زوجها في تراجم قديسي كنيسة المشرق

ثم أُخبر الملك بموتها . فاستدعى ذاك الشاب الشريف خطيب افراسيا واعلمهُ بترهبها ثم كتب لافراسيا ينبهها على خطبتها . فاجابتهُ بما مضمونهُ اتشير عليَّ ايها الملك ان افضل امرءًا مائتًا على سيدنا يسوع المسيح الذي اختارني عروسًا لعزّتهِ الالهية واعدَّ لي في جنان الخلد ثوابًا ابديًّا حاشاي ان يخالج أُمتكم مثل هذا الفكر الرديء . اني نذرت ذاتي ولا اهوى الان الّا ان الدنيا تنساني . ثم اسأل جلالتكم ان توزعوا على الفقراء واليتامى والكنائس كل ما خلفهُ لي والدي من الارزاق بالقسطنطينية ونواحيها وتطلقوا الاسرى الذين بمنزلنا جميعًا . فراق الملك مضمون تلك الرسالة ولذلك امر بقراءتها في محفل القضاة وفعل كل ما ترجَّتهُ بهِ صاحبة الرسالة

وكانت افراسيا تتقدم كل يوم في طريق الكمال . ولما بلغت السنة الثانية عشرة من عمرها عوَّدت نفسها على ان تأكل مرةً واحدةً كل يوم مساء وفيما بعد لم تكن تأكل في كل يومين الّا مرةً واحدة . وقد استمرت سنة واحدة ملازمة للوقوف على الدوام ولا تجلس الا بعض ساعات في الليل على حطب . ثم انها كانت ترغب في ممارسة احقر الوظائف . ومع انها كانت تنمو بالفضائل نموًا بليغًا لم تفتها التجارب لكون الشيطان اخزاهُ الله اخذ يصوّر في عقلها شرف الدنيا ولذاتها بألوان مهلكة مظهرًا لها عظمة الحال المهيَّأة لها في بلاط الملك . ويقابل تلك مع دناءة عيشتها وشدة تقشفاتها . وكان الرجيم يُبيّن لها انها بكل سهولة تسير سيرة اتقياء المسيحيين في بلاط ملك مسيحي تقي . فضلاً عن انها تنفع كثيرين بقدوة سيرتها الصالحة . فبذلك كان ابليس لعنهُ الله يبلبل فكر افراسيا الليل والنهار وزيادةً على ذلك صوَّر في مخيلتها اقبح الاشباح التي تفعل البغاء والفجور على انهُ يستحيل التوصل الى وصف ما المَّ بتلك النفس الطاهرة من الانزعاج لتلك التجربة . واتفق انها خرجت يومًا من قلايتها على حين كان الشيطان يحاربها بكل قوتهِ وهي تقاومهُ بشدة عزمها ودخلت بستان الدير حيث كان الصليب المقدس منصوبًا فجثت هناك على ركبتيها ورفعت يديها الى السماء ثم صرخت نحو سيدنا يسوع المسيح قائلة . استيقظ يارب وانقذني سريعًا انا أَمتك فها قد قام عليَّ اقوياء الجحيم لينصلوني عن محبتك فقم يارب وانصرني على اعدائك . واستمرَّت افراسيا الليل كلهُ على هذه الحال فوجدتها هناك احدى الاخوات فاخبرت الرئيسة بما كان من امر افراسيا . فتعجبت الرئيسة من شجاعة تلك الفتاة ثم امرت افراسيا بان تترك صلاتها وتعود الى قلايتها . فاطاعت افراسيا امر رئيستها وبطاعتها فازت بالظفر ونجت من

تجربتها. وما كانت تأكل يومئذٍ الا اكلةً واحدةً في كل اسبوع وكانت مع كل ذلك اشد قوةً من جميع اولئك الاخوات

وبناءً عليهِ كانت الرئيسة والراهبات يعتبرنَ افراسيا كل الاعتبار لانهنَّ رأينَ عليها ثمار الفضائل النضرة ولا سيما الوداعة والاتضاع. الا ان ذلك الاعتبار اضرم نار الحسد في قلب جرمينا راهبة من تلك الراهبات كانت في اول امرها من احدى الاماء ثمَّ قبلها الاخوات في الدير بعاطفة الرحمة. فشرعت تقول ان افراسيا لا تمارس هذه التقشفات ولا تباشر الاشغال الشاقة والوظائف الدنية الأ بروح الكبرياء والخباثة وانها تتخذ هذه الاشياء وسيلة للارتقاء الى الرئاسة. فخرَّت افراسيا على قدمَي جرمينا المذكورة واستغفرت منها كانها قد اساءت اليها وطلبت منها ان تصلي من اجلها. اما الرئيسة فاقتصَّت من هاتيك الراهبة الحسود واما الراهبات فرجونَ الرئيسة ان يكون ذلك القصاص دائمًا على تلك الحسود جزاءً بما اتَّهمت بهِ افراسيا. ولكن افراسيا تشفعت فيها لدى الرئيسة والاخوات ولم تزل تكرّر الشفاعة بالحاحٍ حتى رفعت عن جرمينا القصاص. لكن الحسد كان فيها داءً دفينًا فلم يبرأ بصبر افراسيا واتضاعها. ولذلك ادَّبها الله تعالى علانيةً ولم تنجُ من ذلك التأديب الأ باعجوبة فعلتها افراسيا حبًّا بالتي كانت تبغضها وتشنّع عليها. على انهُ في تلك الايام اتت جماعة الى الدير بامرأة فيها شيطان عنيد وطلبوا من الراهبات ان يقبلنَها في الدير الى ان تنجو بصلواتهنَّ من الروح الجهنمي. اما الرئيسة فلمعرفتها بالقوة المعطاة لافراسيا على اخراج الشياطين وبشدة محبتها للوظائف الدنية المستصعبة اقامتها على خدمة هذه المرأة التي لم يكن في الاخوات من تجرأ على الاقتراب منها. ولكن جرمينا رأت ذلك ايضًا بعين الحسد. فلذلك تذمَّرت وقالت لماذا افراسيا تمارس كل الوظائف كانها وحدها تقدر ان تمارسها ألا تستطيع اخرى ان تفعل ما تفعلهُ هي. فليسلّم اليَّ تدبير هذه المرأة المجنونة وحينئذٍ يظهر ان تفضيلها على بقية الاخوات ضربٌ من العبث فارتضت الرئيسة بذلك. ولما دخلت جرمينا قلاية المرأة المجنونة وثبت عليها كذئبةٍ وجعلت تجرُّها وتضربها بقساوة شيطانية ولو لم تدرِ بذلك احدى الراهبات وتستدعِ افراسيا لكانت بلا شكٍّ ماتت تحت الضرب الاليم. فلما حضرت افراسيا وعاينتها تلك المرأة تركت جرمينا وجلست عند قدميها كالحمَل الوديع. فلما رأت الرئيسة سلطان افراسيا على الشياطين امرتها بان تصلي من اجل المرأة فصلت ثم قالت نحوها ليشفِكِ سيدنا يسوع المسيح الذي خلقكِ وخلّصكِ بدمهِ الكريم. فصرخ الشيطان حالاً صراخًا هائلاً وخرج من جسد المرأة اما الراهبات فشكرنَ الله سبحانهُ الذي اسكن في ديرهنَّ مثل هذه القديسة

وشاء الله سبحانهُ ان يخرج افراسيا من حومة الوغى الى مقر السلام ويكللها باكليل المجد الابدي فكاشفها بذلك بالهامهِ وبناءً عليهِ استعدت للموت بازدياد النشاط في العبادة ثم مرضت وتناولت الزاد الاخير ولم تزل تنطق باسم يسوع ومريم وانتقلت على هذه الحال الى جوار ربها في اليوم الثالث عشر من شهر اذار في السنة العاشرة من القرن الخامس وكانت ابنة ثلاثين سنةً صرفت منها ثلثًا وعشرين سنةً في الدير ولما كانت القديسة افراسيا مشرفة على الموت انتها جوليا الراهبة التي كانت قد ارشدتها ومرَّنتها على الرياضات الرهبانية فطلبت منها ان تذكرها بعد وفاتها وتصلي من اجلها لكي تتبعها سريعًا بموت سعيد. ومثل ذلك طلبت منها الرئيسة. فبعدما استأثرت بافراسيا رحمة الله مكثت جوليا عند قبر افراسيا ثلثة ايام تصلي باكيةً وفي اليوم الرابع قالت للرئيسة ان سيدنا يسوع المسيح يدعوني اليهِ بشفاعة افراسيا. ثم ودَّعت كل الاخوات وملت في الغد بسلام وقبرت بجانب تلميذتها الفاضلة. وعقب شهر كامل جمعت الرئيسة كل الاخوات وقالت لهنَّ اني بصلوات الطوباوية افراسيا نلت من الله منيتي وبعد يومين اموت وامرتهنَّ بان يُرئسنَ عليهنَّ راهبة غيرها. فاستخلفنَ احدى الراهبات واما الرئيسة فماتت وهي تصلّي بحسب عادتها

اليوم الرابع عشر

وفيهِ ترجمة الشهيد لونجينوس قائد المائة

ان الشهيد لونجينوس قائد المائة هو الذي كان واقفًا عند صليب المسيح على جبل الجلجلة مع الجند من قبل بيلاطس البنطي لكي يُنفذ الحكم على فادينا بازهاق الروح. ولكنهُ قد تحرَّك من نعمة الله المجانية الباطنة ومن مشاهدتهِ العجائب التي جرت وقتئذٍ لان الشمس اظلمت والارض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت فآمن هو بالمسيح كما روى الانجيليون

الثلاثة . لان متى البشير قال في شأنهِ فاما قائد المائة والذين كانوا معهُ يحرسون يسوع اذ نظروا الزلزلة وما كان خافوا جدًّا وقالوا حقًّا ان هذا هو ابن الله (متى ٢٧ : ٥٤) ومرقس قال فلما رأى قائد المائة القائم مقابلهُ انهُ قد اسلم الروح هكذا قال في الحقيقة ان هذا الانسان هو ابن الله (مرقس ١٥ : ٣٩) وقد بيَّن ذلك لوقا البشير قال فلما رأى قائد المائة ما كان مجَّد الله قائلاً حقًّا ان هذا الانسان صديق (لوقا ٢٣ : ٤٧)

فقد فرق البولاندستيون بين قائد المائة ولونجينوس الجندي الذي طعن جنب الرب بحربتهِ وقد قال عنهُ الكتاب ان احد الجند طعن جنبهُ (يوحنا ١٩ : ٤) لان هذا الجندي كان من بلاد ايسوريا وعاش في قيسارية الكبادوك عيشة ناسك ثماني وعشرين سنةً من بعد قيامة المسيح واعترف بالنصرانية على عهد نيرون الملك او احد خلفائهِ بحضرة اوقتافيوس الحاكم وتنصَّر على يدهِ خلق كثير من عبدة الاوثان واستُشهد بعد ما الزم الشياطين ان يخرجوا من اصنام المدينة

اما قائد المائة فبعد موت المخلص ودفنهِ أُمر ان يذهب بعسكرهِ ويحرس القبر لينظروا هل يقوم يسوع من القبر كما كان قد قال لهم . فلما عاين لونجينوس قيامة الرب في اليوم الثالث من بين الاموات كما هو مكتوب في الانجيل اخذ الجند خوف عظيم . اما لونجينوس فكان طول تلك الليلة يتذكر صبر الرب يسوع وثباتهُ وتجلُّدهُ في احتمال العذاب بصمتٍ وحزن الخلائق على موتهِ اذ اظلمت الشمس واكتست ثوب الحداد وانشق حجاب الهيكل نصفين من فوق الى اسفل . وكانت هذه التصورات تزيدهُ ايمانًا . فلما كان الصباح انطلق واخبر رئيس الكهنة والكتبة والفريسيين بما كان وانهُ هو وجنودهُ عاينوا قيامة المسيح المجيدة فشق ذلك عليهم ولكي يكتم هولاء العميان مجد الرب اجتمعوا وتشاوروا واعطوا العسكر فضةً كثيرة قائلين قولوا ان تلاميذهُ اتوا ليلاً وسرقوهُ ونحن نيام واذا سُمع ذلك عند الوالي فنحن نستعطفهُ ونجعلكم مطمئنين . فاخذوا الفضة وفعلوا كما علموهم . اما لونجينوس قائدهم الذي كان قد تغيَّر قلبهُ وامتلأ نورًا الهيًّا فلم يشأ ان يأتي بكذب كذا فطيع بل ابى قبول الرشوة واذاع الحق واصبح شهيدًا امينًا لقيامة يسوع المسيح . فلما رأى اليهود ثباتهُ عزموا ان ينتقموا منهُ فاذ علم سوء نيتهم وما ائتمروا بهِ عليهِ ترك منصبهُ وهرب من اورشليم الى كبادوكيا ومعهُ اثنان من جنودهِ قد اقتديا بهِ وكان هناك ينذر بما رآهُ . فاهتدى باقوالهِ وباعمالهِ الصالحة اشخاص كثيرون الى ايمان المسيح . وبعث اعداؤهُ جنودًا ليهلكوهُ . فتضيَّفهُ بالهام الله هولاء الجنود ولم يعرفوهُ . اما هو فعرفهم وقبلهم باكرام وسألهم عن سبب مجيئهم فاجابوهُ قائلين اننا اتينا طالبين لونجينوس قائد المائة لنهلكهُ . فقال لهم امكثوا الان عندي وانا اريكموهُ . ثم دعا الجنديَّين اللذين اتيا معهُ من اورشليم لكي يشركهما في اكليل الاستشهاد فلما حضرا امامهُ رفع صوتهُ قائلاً انا هو لونجينوس اميتوني فتكونوا قد دفعتم لي اجرة خدمتي لكم في بيتي لانكم لا تقدرون ان تعطوني جزاء اثمن من الموت . فانذهل الجنود عند سماعهم ذلك منهُ وكفُّوا عن قتلهِ لانهُ بالغ في اكرامهم . اما هو فكان يحرّكهم على قتلهِ ثم لبس ثيابًا بيضًا متهيّئًا الى العرس السموي فبعد ان عانق الجنود وأراهم المكان الذي اراد ان يُدفن فيهِ قطعوا رأسهُ هو ورفيقيهِ . واخذ الجنود راس لونجينوس واتوا بهِ الى بيلاطس . فعلقهُ على باب المدينة لكي يزدري بهِ جميع المارّين ثم رماهُ اليهود في المزبلة . فصانهُ الله من الفساد واستمرَّ هناك الى ان ظهر القديس لونجينوس لامرأة فقيرة وكانت ارملة عمياء ولها ابن وحيد يعولها وكانت الناس تعيّرها وتحتقرها . فزارت اورشليم لكي يبرئها الله . ولما بلغت الى المدينة مات ابنها الوحيد وخلَّف لها حزنًا ابديًّا . فمن كثرة بكائها وحزنها عليهِ نعست ونامت وفيما هي نائمة ظهر لها القديس لونجينوس وعزَّاها وحدثها بكيفية ايمانهِ بالمسيح مخلص العالم وسفكهِ دمهُ حبًّا بهِ . ثم امرها ان تنطلق وتفتش عن رأسهِ المدفون في المزبلة وقال لها انها حالما تلمسهُ يُعاد عليها بصرها ووعدها بانهُ يريها ابنها لتتعزَّى بهِ . وعند ما استيقظت قامت حالاً وانطلقت بشجاعة الى المكان الذي دلَّها عليهِ لونجينوس فلما حفرت الزبل وجدت الراس المقدس فاخذتهُ وحالما لمستهُ رجع اليها بصرها . وظهر لها ايضًا القديس في الليلة الثانية ومعهُ ابنها موشحًا ببهاء سموي وقال لها لا تبكي على من تكلل بالمجد في ملكوت الله . فالان خذي رأسي وادفنيهِ مع جسد ابنكِ في قبر واحد وامدحي الله في تقديسهِ لانهُ هكذا يشاء فلما اصبحت اخذت تلك الهامة المقدسة وجسد ابنها وانطلقت بهما باكرام الى صنديال القرية التي بها وُلد لونجينوس ودفنتهما هناك

وكان استشهاد القديس لونجينوس في السنة الثانين للمسيح وذكر السنكسار الروماني ترجمتهُ في اليوم الخامس عشر من اذار

اليوم الخامس عشر

وفيهِ ترجمة القديس زكريا البابا

ان ناظر مكتبة الكنيسة الرومانية الذي كان في المائة التاسعة للمسيح الانبا انسطاس الجليل قد كتب ترجمة القديس زكريا فيقول بالاجمال انهُ كان رجلاً متضعًا وديعًا جدًّا قاسيًا على ذاتهِ انيسًا رفيقًا بالناس . وان البشاشة كانت تتلألأ دائمًا على وجههِ ولم يتغير باطنهُ ولا ظاهرهُ ابدًا . بل كان يستمر على حال الوداعة والادب وبهما يربح قلوب الجميع . وكان كانهُ قد خُلق بلا شعور الاَّ بآلام القريب وشقائهِ واحتياجهِ . وكان في الحكمة والفطنة فريد عصرهِ . هذا ما قالهُ بهِ انسطاس المؤرخ العلامة في اول ترجمة القديس زكريا

ثم يقول مفصلاً انهُ كان يوناني الجنس ابن بوليكرونيوس وما بلغ الثاني عشرة سنة من عمرهِ الاَّ وقد مهر في العلوم ونما بالفضيلة جدًّا . فسافر الى ايطاليا في الجيل الثامن . ولم يقم في رومية زمانًا طويلاً حتى شاع خبر برارتهِ ومناقبهِ الشريفة فانضم الى الاكليريكيين وانتظم في سلكهم وكانت بلاد ايطاليا في ذلك العهد على ضيق عظيم من اللومبارديين الذين كانوا قد تسلطوا على اكثر من نصفها . وكانت الحروب المتواصلة توقع خللاً في النظام الكنائسي . وفي السنة الحادية والاربعين بعد السبعمائة انتقل الى رحمة الله البابا غريغوريوس الثالث وكانت الكنيسة في ذلك العهد مفتقرة الى راعٍ حكيم من العلماء الابرار . فلما اجتمع الاكليريكيون والشعب الروماني لينتخبوا بابا جديدًا . اطبقوا على ان القس زكريا يتبوَّأُ عرش الخلافة الرسولية وكان ذلك في اليوم التاسع عشر من شهر تشرين الثاني في السنة المذكورة

وبعد ما جلس على عرش الخلافة البطرسية جعل يفكر في واسطة يرفع بها الحروب عن المدينة ولان قلوب الملوك في يد الله (امثال ٢١ : ١) اذلك اخذ يسكّن الغضب الالهي بالصلاة وافعال التوبة جاعلاً حياتهُ من اجل خلاص الرعية . ثم كتب الى لويتبراندوس ملك اللومبارديين رسالة مملوءَة احترامًا ومحبة . اما الملك فبما انهُ كان يعتبر جدًّا قدس البابا الحديث وحكمتهُ قرأَ رسالتهُ بفرح عظيم وقطع عهدًا لرسولهِ بانهُ يقبل بكل شروط الصلح التي يريد ان يشترطها ذلك الحبر الجليل . فلما رأى زكريا ان قلب الملك قد لان ذهب هو واعيان الاكليريكيين الى تارني مدينة باقليم اومبريا حيث كان الملك . فلما أُعلم الملك بوفد الحبر الروماني ارسل للقائهِ أَجلَّ اهل بلاطهِ واكابر جيشهِ وخرج هو ايضًا من المدينة لاستقبالهِ وقابلهُ بكل ما استطاع من الاكرام والاحترام . فتعجب الملك مما رآهُ في هذا الحبر العظيم لان كل افعالهِ واقوالهِ كانت ممتزجةً بالانس والقدس واللطف والدعة وذلك مالم يرَ الملك لهُ نظيرًا . وسأَل البابا ان يضع شروط الصلح فخنمها هو واطلق كل الذين كان قد اسرهم في الحرب وردّ كل المدن التي كان قد فتحها . ثم طلب بركة سيدنا البابا المشار اليهِ واقسم لهُ انهُ يحفظ كل شروط الصلح فعاد ذلك الحبر الى رومية وفرض على الرومانيين صلوات تقام جهارًا شكرًا لله من اجل هذا الاحسان العظيم

فبعد ان حصلت ايطاليا بمسعاهُ على السلام وجَّه كل افكارهِ الى استئصال ما كان قد دخل من الشرور فيما بين الاكليريكيين والقوم المؤمنين . فما لبث ان اصلح الحال وقلع الخصام وغرس الالفة فانتظمت امورهم في كل موضع وما كان ذلك الاَّ لان يد الله كانت معهُ . وقد تعجب الجميع من هذا التغيير . قلت ان للتقوى قوة تنتصر على اقسى القلوب واشرس الطباع بحيث تبدل ذلك باللين والحلم فكيف لا وقد رأَينا انهُ بها انتصر زكريا على ملك اللومبارديين . وها هوذا شيءٌ اغرب واعجب من ذلك وهو ان كارلومانوس الامير الفرنسوي المظفَّر بعد انتصاراتهِ الجليلة الوافرة لما سمع ما كان يقال في كل المسكونة عن قدس الحبر الروماني عزم على الزهد في الدنيا وان يسلك طريق الفضيلة تحت ارشاد هذا القديس . فلما ماتت امرأَتهُ سلم ابنهُ الى اخيهِ ملك فرنسا . ثم ذهب الى رومية وسلم نفسهُ الى القديس زكريا ليرشدهُ في طريق الخلاص والكمال . فقبلهُ الحبر الاعظم بمحبة ورسمهُ كاهنًا وادخلهُ رهبانية القديس باناديكتوس . وهناك قضى نحبهُ برائحة البرارة ولذلك كتب اسمهُ في سفر اولياء الله

اما راكيس ملك اللومبارديين فنكث يمينهُ وحاصر بيروزا مدينة بايطاليا . فانطلق القديس زكريا الى ذلك الملك وبما آتاهُ الله وقتئذٍ من الحكمة والبلاغة الزمهُ بان يرفع

الحصار بل اضرم في قلبهِ نار التقوى فانتبه على خطاياهُ فتاب الى الله تعالى ثم خلع نفسهُ من الملك زهدًا في زخارف الدنيا واقتدت بهِ الملكة وابنتهُ فذهب بهم القديس الى رومية حيث انتظم الملك في سلك الاكليريكيين ثم ترهب في رهبانية القديس باناديكتوس. وترهبت ايضًا امرأتهُ وابنتهُ في دير هذا القديس

واما ذلك الحبر المعظم فنقلهُ الله الى جنة الخلد في اليوم الرابع عشر من اذار في السنة الثانية والخمسين من المائة الثامنة للمسيح وقد ساس الكنيسة عشرة اعوام وثلثة اشهر واربعة عشر يومًا وانما عيِّدت لهُ بيعة الله في اليوم الخامس عشر من شهر اذار لانهُ دُفن فيهِ عليهِ السلام

اليوم السادس عشر

وفيهِ ترجمة القديس ابرهيم السائح

اعلم ان كل ما نذكرهُ هنا من ترجمة القديس المذكور انما هو منقول عما كتبهُ افرام المؤرخ الذي كان معاصرًا لهُ. وُلد ببلاد ما بين النهرين بجوار مدينة اورفا في ابتداء القرن الرابع وكان والداهُ من كبار الاغنياء وكانت نفسهُ صالحة منصبة طبعًا على العبادة. ولذلك اعتصم بحبل الله منذ صبائهِ وتمادت على تقواهُ الايام. اما ابواهُ فمع انهما كانا يفرحان بفضيلتهِ خافا من انهُ يباين العالم فلذلك خطبا لهُ ابنة كانت صغيرة السن ولما حضر الزمن المعيَّن للعرس الزما ابنهما بالزواج ولفرط ما الحّا عليهِ بذلك ارتضى ابرهيم فتزوَّج تلك الفتاة. غير انهُ بعد ذلك لما تأمل حال الزواج وما ذكر عنهُ الرسول من انهُ نقسم قلب الانسان ومحبتهُ بين محبة الله والمرأة (١ كورنتس ٧: ٣٣) عزم حالاً على ان يخصص نفسهُ لله وحدهُ ويخلص كل محبتهِ لعزتهِ تعالى. فهرب مساءً من بيتهِ وباين زوجتهُ سرًّا وخرج من المدينة واختبأ في مغارة قريبة منها قاصدًا ان يقضي هناك بقية عمرهِ. فلما درى والداهُ انهُ هرب ارسل للحال اناسًا يطلبونهُ وبعد سبعة عشر يومًا وجدوهُ في مغارة بعيدة من المدينة نحو ميلين. فاسرع اليهِ ابواهُ وزوجتهُ وبقية اقربائهِ وبذلوا كل جهدهم في ترجيعهِ الى البيت فما ظفروا بالمطلوب لان ابرهيم عليهِ السلام بعد ما غادر منزلهُ بالهام الله كابرهيم ابي الآباء اقسم بالله انهُ لا يأخذ ولا يعبأ بمشورة بشر وبناءً عليهِ انتصر عليهم كلهم. لانهُ بعد ما خاطبهم في شان اباطيل العالم وغرورهِ وفي سوء حظ الذين يركنون الى زخارف الدنيا ولذاتها وفي سعادة من يزهدون في الدنيا وينقطعون لعبادة الله في القفر استصوبوا رأيهُ ومدحوهُ على ثبات عزمهِ. فطلب القديس منهم شيئًا واحدًا ألاَّ يفتقدوهُ فيما بعد ولا يقلقوهُ في خلوتهِ فاجابوهُ الى ذلك ايضًا خوفًا من ان يهرب الى موضع بعيد فينقطع عنهم خبرهُ

وحينئذٍ سدَّ القديس باب مغارتهِ ببناءٍ متين ولم يدع فيهِ سوى كوَّة صغيرة منها كان يتناول مأكلهُ ومشربهُ في ايام معينة. وكان وقتئذٍ ابن عشرين سنةً. وقد اقام هنالك خمسين سنةً منقطعًا الى الله متواريًا عن الناس ملازمًا للصلاة وترتيل الزبور ليلاً ونهارًا ومواظبًا على الصوم جميع ايام حياتهِ لابسًا ثوبًا واحدًا من شعر المعزى ولم يقتنِ الاَّ اناءين خشبًا احدهما للشرب والاخر للمأكل وحصيرًا يرقد عليهِ. وبعد ما قضى اثنتي عشرة سنةً على تلك الحال انتقل ابواهُ الى رحمة الله وخلَّفا لهُ ميراثًا كبيرًا فطلب من احد اصدقائهِ ان يبيع كل ارزاقهِ ويوزع ثمنها على المساكين. وكان مع شدة ذلك التقشف انيسًا وديعًا تلوح على وجههِ علامات البشاشة دائمًا

غير ان الاسقف عزم على اخراج هذا القديس من خلوتهِ من اجل السبب الآتي وهو انهُ كان بنواحي ذلك المكان قرية كبيرة مفعمة وثنيين ولم يقدر الاسقف ان يردَّهم عن ضلالهم مع انهُ كان ارسل اليهم أناسًا كثيرين لاجل هذا الغرض. فاتفق يومًا ان الاسقف تأمل برارة ابرهيم السائح وخاطب الجمهور عنها ثم قال ان هذا القديس اذا أُرسل معلمًا الى هذه القرية فلا بد من ان يؤثر كلامهُ في سكانها فيهتدوا الى الايمان المسيحي. فأحمد الجميع رأي الاسقف ثم ذهب الى مغارة القديس ومعهُ جماعة من الاكليريكيين وابان لهُ غرضهُ وامرهُ بان يستعد لكي يرتسم كاهنًا. فارتعد القديس من امر الاسقف فذكر لسيادة المشار اليهِ كثيرًا من الاسباب الناشئة من استعظامهِ لتلك المرتبة السامية واحتقارهِ لنفسهِ. غير ان الاسقف لم يقبل استعفاءهُ بل رسمهُ كاهنًا ثم ارسلهُ الى قرية عبدة الاوثان

اما القديس فلما كان يعلم يقينًا ان تنصُّر اولئك الجهال القساة القلوب معلقًا على فعل رحمة الله وقدرتهِ ابتدأ يستعطف الله باطالة الصلاة والاكثار من التقشفات طالبًا من ابي الانوار ان ينير اجفان الشعب الجالسين في ظلام الموت. ثم

كتب الى صديقهِ ان يرسل اليهِ مبلغًا من المال الذي ورثهُ من ابيهِ وابتنى كنيسةً بجوار هاتيك القرية وفيها كان يصلي آناء الليل واطراف النهار من اجل خلاص اولئك الشعب . ثم خرج يومًا ودخل هيكل الوثنيين فهدم مذابحهم وسحق اصنامهم فلما شعر الشعب الوثني بما صنع القديس وثبوا عليهِ وضربوهُ بقساوةٍ وحشية وجرُّوهُ الى خارج القرية . فدخل القديس كنيستهُ وصرف هنالك الليل كلهُ مصليًا من اجلهم. فتعجب الوثنيون لما وجدوهُ في الكنيسة بحيث ظنوا انهُ فرَّ خوفًا منهم فجعل القديس يعظهم وقتئذٍ فاشتدّ غضبهم عليهِ وضربوهُ ضربًا أليمًا ولما رأوهُ قد اشرف على الموت ربطوا رجليهِ بحبل وجرُّوهُ الى خارج البلد حيث رجموهُ بالحجارة وتركوهُ . غير ان الله سبحانهُ انقذ وليَّهُ من يد الموت فلما استفاق القديس رجع الى الكنيسة ليصلي من اجلهم . وفي غد ذلك اليوم بكَّر الوثنيون الى الكنيسة فاذا بهِ منتصبٌ على قدميهِ يُرتل المزامير الداودية . فاخذ منهم الذهول كل مأخذ ولكن ما استضاءت اجفانهم ولا لانت قلوبهم فضربوهُ ثالث مرةٍ واخرجوهُ من الكنيسة والقرية ايضًا ولم يبرحوا يفعلون بهِ مثل ذلك الفعل القبيح مدة ثلث سنين

غير ان الله تعالى بارك اخيرًا على جميل صبرهِ وشديد غيرتهِ فنشأ عن ذلك ان اجتمع الشعب الوثنيون يومًا وطفقوا يتخاطبون في امر القديس ابرهيم متعجبين من صبرهِ ودعتهِ ومادحين سيرتهُ . ثم اتفقوا على ان يمضوا اليهِ ويسترشدونهُ . فدخلوا الكنيسة وكاشفوهُ بما عندهم من القصد والاستعداد . فشرع القديس يورد لهم اسرار النصرانية وفيما كان يذكر لهم قواعد التعليم المسيحي جثوا على قدميهِ باكين واستغفروهُ وطلبوا منهُ ان يطهّرهم بماء المعمودية . فعقب ان علمهم من قواعد النصرانية ما بهِ الكفاية للخلاص عمَّد منهم الفًا واقام معهم سنةً رابعةً واذ وثق انهم ثابتون على ما تعلموهُ رجع الى مغارتهِ . ولكنهُ خرج من تلك القرية تحت الظلام فما عرف احد. وعند خروجهِ منها رسم عليها علامة الصليب ثلث مرات مستودعًا الله هذه الرعية الجديدة . فافتقدهم الاسقف واقام لهم كهنة وشامسة شاكرًا الله على تنصرهم

فلما عاد الى خلوتهِ الاولى افرغ الشيطان جعبة الحيل وكنانة الجهد لكي يغرَّ القديس ويبلبل فكرهُ ويخرجهُ من هناك فذهب جهدهُ بلا طائل لان ابرهيم عليهِ السلام كان مستنيرًا من الله راسخًا في العبادة والوَرَع فلم يتزعزع ولم ينقص شيئًا من رياضاتهِ . غير ان الشيطان اخزاهُ الله حزنهُ بما يأتي

وكان لابرهيم اخ متزوج مات هو وامرأتهُ وخلَّفا ابنة اسمها مريم كان عمرها سبع سنين ولم يرد اقرباؤها ان يقبلوها فأتوا بها الى القديس فقبلها واسكنها في فلاية قريبة من مغارتهِ وجعل لتلك الفلاية كوَّةً صغيرة ليعلمها منها . ثم فرَّق على الفقراء كل ما ترك ابواها من الاموال الوافرة . فعلمها سفر المزامير كلهُ وكثيرًا من الصلوات فنمت بالفضيلة نموًّا معتبرًا حتى شابهت عمها الذي كان يربيها على الفضيلة كما روى القديس افرام . وبعد ان استمرَّت على هذه السيرة المقدسة عشرين سنةً نصب لها الشيطان لعنهُ الله فخ الدنس فاصطيدت بهِ . وذلك ان راهبًا خبيثًا كان قد كلِف بها كان يُكثر من زيارة عمها القديس ليشاهدها ويكلمها . فكاشف مريم بعشقهِ الشيطاني فطردتهُ . الاَّ انها ما برحت تواجههُ وتخاطبهُ كلما زار عمها ولاجل ذلك سقطت معهُ في خطيئة البغاء . فبعد ما انتبهت على سقطتها لم تبادر الى معرّفها كما كان واجبًا على مثلها بل فرَّت هاربة من شدة يأسها ودخلت مدينة قريبة من ذلك الموضع وهناك تمرَّغت بحمأة كل منكر

وفي ذلك اليوم عينهِ انبأ الله القديس ابرهيم بسقطة مريم لانهُ رأى في الحلم تنينًا يفترس حمامة بقرب مغارتهِ وبعد يومين حلم بذلك التنين منطرحًا على رجليهِ وانشق بطنهُ فخرجت الحمامة منهُ حيةً . واذ كان يتأمل معنى هذين الحلمين تذكَّر انهُ منذ يومين لم يسمع صوت مريم ترتل المزامير كعادتها . فاستدعاها ولم يجبهُ احد . ولما تحقق انها قد خرجت أنتج من ذلك انها هي الحمامة التي افترسها التنين ففرح بارعواء تلك النعجة الضالة وكان قد سكب من العبرات ومارس من التقشفات مدة عامين لاهتدائها ما لا يضبط لهُ مقدار

وبعد ما انقضت تلك المدة عرف القديس المكان الذي كانت تقطنهُ مريم . فخرج من مغارتهِ ولبس اثوابًا ثمينة مزخرفة وركب جوادًا واخذ معهُ اموالاً وسار يومين حتى انتهى الى المدينة حيث كانت مريم تتمرغ في حمأة الدنس . فمال الى منزلها . فاعطى دراهم لصاحب المنزل وطلب منهُ ان يحضر لهُ مريم فحضرت هي امام عمها القديس ولم تعرفهُ الاَّ آخر الامر كما سترى فلما جلست لتخاطبهُ قال لها ببشاشة وجه ورأفة ابٍ ألا تعرفيني يا ابنتي العزيزة ألا تعرفين من ربَّاكِ

بمحبة ابوية فما الذي جرى لكِ ومن ذا الذي نزع عنكِ ذلك الثوب الملكي . ابن تلك الحشمة واين هاتيك الطهارة اللتان من اجلها كانت الارواح السماوية تحترمكِ وابن تلك الدموع التي كانت تسيل من عينيكِ امام صورة السيد المسيح يوم كنتِ تذوقين طيب التعبُّد لله . ابن التقشفات المقدسة التي كنتِ ترتاحين اليها . فكيف سقطتِ من تلك الطهارة الى هاوية الدنس . فلو اخبرتِني بخطيئتكِ لمارست من اجلكِ وصديقي افرام افعال التوبة . فلماذا كتمتِ امركِ عليَّ انا الذي عاملتكِ على الدوام كما يعامل الاب ابنتهُ العزيزة . انني موقنٌ ان كل امرئ خاطئ . هل ظننتِ انني اقسّي قلبي عليكِ فياما اكثر الدموع التي اجريتها من عينيَّ وما اشد الحزن الذي ادركني من قِبلكِ فانظري الان كم تشتهي نفسي خلاص نفسكِ

اما الابنة فكانت تسمع كل ذلك صامتة مُطرقةً لا ترفع نظرها من على الارض بل انها من فرط الخجل وتبكيت ضميرها كانت كصنمٍ لا حراك بهِ . فقال لها حينئذٍ الشيخ القديس بعين دامعة لماذا لا تجيبيني يا ابنتي العزيزة أيمكن ان تأبي حبي الابوي لكِ . فعند ذلك خرَّت مريم على قدميهِ متنهدة باكية ولم تقدر ان تنطق بكلمة من شدة ندامتها . فقال لها عمها ذلك القديس العطوف اخبريني بكلمة يا ابنتي ما الذي الان يمزّق فؤادكِ بالحزن فهل تضطربين من قِبَل خطاياكِ . ولكن ثقي من هذه الجهة لاني احملها الان على ذاتي وسأُفي عنها للعدل الالهي . فاجابتهُ وقتئذٍ مريم وقالت لهُ ماذا اتكلم وماذا افعل بعد ان كثرت خطاياي وثقلت عليَّ كالجبال . أيمكن ان نفسي المتدنسة باقبح الخطايا تجد رحمةً عند الله ومسامحةً . فاجابها الشيخ القديس اني انا كفيلكِ واضمن لكِ الغفران من الله . واعلمي ان عدم الاتكال على الرحمة الالهية هو خطيئة اعظم من جميع خطاياكِ . صدّقي كلامي وارجعي معي الى قلايتكِ المقدسة وتوبي عن خطاياكِ توبةً نصوحًا . اني انا وصديقي افرام سنفي عنكِ للعدل الالهي . فاذ قد اخطأتِ نظير المجدلية فاتليها ايضًا في توبتها . اخزي الشيطان المنتصر عليكِ فرّحي الملئكة بندامتكِ وفرّحيني ايضًا عند شيخوختي . دعي عنكِ كل خوف لانكِ بنعمة الله تظفرين بكل قوات الجحيم . فقامت مريم وقالت عمي القديس الرحيم سِر امامي وانا اتبعك الى حيثما تمضي . ثم رفعت يديها الى السماء وقالت

ربي والهي ماذا اصنع جزاء عن رحمتك لي الغير المتناهية . ثم صرف اثناها الليل في الصلاة والمخاطبة في المراحم الالهية نحو الخطأة . ولما كان الصباح تركت الابنة كل ما كانت اكتسبتهُ من المال في طريق الاثم وخرجت من المنزل والمدينة فاركبها عمها جوادهُ وسار قدامها الى ان اوصلها الى قلايتها الاولى . وهناك اختفت بعد ان اعترفت وعاشت بعد توبتها خمس عشرة سنة ممارسة لأشد رياضات التوبة . وقد اظهر الله برارتها بالعجائب قبل موتها وبعدهُ

اما القديس ابرهيم فعاش بعد توبتها عشر سنين وتوفي في اليوم السادس عشر من اذار في السنة السادسة والسبعين من المائة الرابعة للمسيح ولهُ من العمر سبعون سنة

اليوم السابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس باتريسيوس رسول إرلاندا

وُلد هذا القديس في دونبريتون مدينة باكواسيا في السنة السابعة والسبعين من المائة الرابعة للمسيح . واسم ابيهِ كالفورنيوس وامهِ كونكيسا . وهي كانت من اقرباء القديس مرتينوس مطران طور مدينة بفرنسا . وقد نهجا لابنهما من صغر سنهِ سبيل التقوى ومن ثم كان منذ صبائهِ يستعذب الصلاة ويرتاح الى التامل في الحقائق الابدية وشرّفهُ الله بفعل المعجزات من عهد الطفولية كما قال فيهِ واحد من ثقات المؤرخين . غير ان الله مرّنهُ منذ الصبا على الاتعاب والمشاقّ لانهُ كان قد أعدَّهُ للرسالة ولذلك سمح بان يُستأسر وهو ابن ست عشرة سنة واستمرَّ اسيرًا في ارلاندا هو واختهُ ستة اعوام . وفي هذه المدة تعلم لغة تلك البلاد وعرف عادات سكانها واصطلاحاتهم اما سيدهُ فاقامهُ على رعاية الخنازير في الغاب وكان باتريسيوس يجري على طريقة النسّاك في ممارسة الرياضات واقامة الصلوات . بحيث كان يسجد وهو يصلي في النهار مائة مرة وكذلك كان يفعل في الليل . ولم يكن لهُ فراش سوى أديم الارض ولا مأكل الاَّ بقول البادية

وبعد ان استمر ممارسًا هذه الرياضات نحو ست سنين تراءى لهُ ملاك بهيئة شاب وامرهُ بان يحفر الارض فحفر فوجد مبلغًا من المال وبهِ انقذ نفسهُ من الاسر . فرجع الى مملكة اكوسيا وطنهِ واقام ببيت ابيهِ اربعة اشهر . وفي هذه المدة أراهُ الله احلامًا كثيرة فعرف بها ان الله قد اختارهُ معلمًا ورسولاً

البلد ارلاندا . ثم انتقل بأبويهِ الى بريتانيا التي هي اقليم من اقاليم مملكة فرنسا . وفي مسيرهم استأسرهُ ايضًا لصوص البحر وباعوهُ أُناسًا من بلدتهِ ومن ثم أُطلق من الاسر بسهولة . ثم أُستؤسر ثالث مرة وأُخذ الى بوردو مدينة بفرنسا . واما سيدهُ فلما رأى ما رأى من حسن سيرتهِ اطلقهُ ايضًا فعاد الى بلدتهِ . ولم يستمر هناك كثيرًا لانهُ لفرط ما كان يتوق الى ان يتعبد لله بالكلية رجع الى فرنسا وترهب في دير اسسهُ القديس مرتينوس حيث انتظم في سلك الاكليريكيين . وكان قدوة الكمال لكل الرهبان . ولم يمكث هناك الا ثلث سنين لان غيرتهُ على خلاص اهل ارلاندا كانت تلتهب في قلبهِ التهاب النار ولذلك غادر الدير واذ حالت دون المضي الى هناك موانع كثيرة انطلق الى ايطاليا في السنة الثانية بعد المائة الرابعة للمسيح وهناك رسمهُ كاهنًا القديس سينيور اسقف مدينة بيزا . فازدادت نار غيرتهِ على خلاص اهل ارلاندا التهابًا وبدون ان يستأذن احدًا دخل هذه البلاد لكي يعلم ولذلك لم يبارك الله على تعاليمهِ ولم يقبلهُ احد . فرجع الى فرنسا واستمر هناك ثلث سنين تحت ارشاد القديس اماتور . وثلث سنين أُخر تحت ارشاد القديس جرمانوس . وبارشادهما صار راعيًا فطنًا ورسولًا كاملًا . ولما تحقق القديس جرمانوس ان الله اختار باتريسيوس رسولًا الى مملكة ارلاندا بعث بهِ الى البابا سالستينوس الاول لكي يرسلهُ معلمًا الى تلك المملكة . فقبلهُ الحبر الروماني بجزيل المحبة ورسمهُ اسقفًا وارسلهُ الى مملكة ارلاندا

فوصل القديس باتريسيوس الى ارلاندا في السنة الثانية والثلثين من المائة الخامسة للمسيح وجعل يدعو الناس الى النصرانية فتنصَّر على يدهِ خلق كثير من اولئك البرابرة سكان تلك البلاد . ومن العجيب انهُ حيثما كان يذهب ويعلم كان الشعب الوثني بعد تعليمهِ يمضي ويهدم هياكل الاوثان ويسحق الاصنام . فلما رأى ذلك لاوغاروس احد الامراء المقتدرين الذين بتلك البلاد جمع جيشًا وتقدم لينتك بالمسيحيين حينما كان جمعهم الرسول في سهل متسع . ولكنما الله ارسل للحال من السماء رعودًا ونيرانًا فتبدَّدت بها كتائب ذلك الامير . ثم تنصَّر كونالُّوس بن لاغاروس المذكور هو واخناهُ ثم طاف القديس بالمملكة كلها وعلَّم وابتنى في كل مكان كنيسة . وأيَّدهُ الله بالآيات لتسكين الرياح والعواصف وشفاء الامراض المعضلة بمجرَّد كلمتهِ والنبوة واقامة الموتى فلما رأى ان المؤمنين قد كثروا جدًّا رجع الى رومية . وكان ذلك في السنة الرابعة والاربعين من المائة الخامسة للمسيح . واخبر القديس لاون المعظم بكل شيء فقابلهُ الحبر الروماني بأتم السرور واوفر الاكرام . ووضع معهُ كل ما كان يختص بهذه الكنيسة الجديدة من الترتيب والنظام . ثم عاد القديس باتريسيوس الى رعيتهِ المحبوبة . وتنصَّرت على يدهِ البلاد كلها كما قال المؤرخون ولذلك كثَّر فيها الكنائس والمدارس وغرس فيها الدين والتقوى والعلم . وما كان يقتصر على اتعاب الرسالة بل كان يضيف عليها تقشفات شديدة كالصوم كل يوم ولبس المسح الخشن وما كان يسافر الا راجلًا . وعلاوة على ما ذكرناهُ من السجدات في صلواتهِ ليلًا ونهارًا فكان يقسم الليل ثلثة اجزاء ففي الجزء الاول كان يركع مائتي ركعة . وفي الجزء الثاني كان يتلو خمسين مزمورًا وهو غائص في نهر بارد جدًّا الى عنقهِ وفي بقية الليل كان ينام راقدًا على حجارة . وقد استأثرت بهِ رحمة المولى في السنة الستين من المائة الخامسة للمسيح وهو ابن ثلث وثمانين عامًا

اليوم الثامن عشر

وفيهِ ترجمة القديس كيرلُّوس اسقف اورشليم

قد اجمع المؤرخون على القول بان هذا القديس كان علّامةً فطنًا كثير الورَع وارتقى الى الكرسي الاورشليمي بعد وفاة البطريرك مكسيموس في سنة خمس وخمسين من المائة الرابعة للمسيح حينما كان قسطنسيوس بن قسطنطين الكبير جالسًا على عرش ابيهِ وقد دبَّر كنيستهُ بالحكمة . ومن اخص فضائلهِ الرفق بالفقراء فانهُ لما رأى شعبهُ في احدى السنين على ضيقٍ ومجاعةٍ باع كل مالهِ وكل ما للكنيسة ايضًا حتى الاواني المقدسة واغاث باثمانها المساكين كما فعل القديس امبروسيوس والقديس اغسطينوس وكثيرون غيرهما من القديسين

وقد جرى على عهد هذا القديس امر عجيب وهو ما يأتي انهُ يوم عيد العنصرة في الساعة الثالثة بعد اشراق الشمس ظهر في الجوّ على جبل الجلجلة صليب أنور من الشمس وعاين ذلك الصليب كل سكان اورشليم . وبهِ استنار كثيرون

من اليهود وآمنوا بسيدنا يسوع المسيح. ثم كتب القديس كيرلوس الى الملك قسطنسيوس واخبرهُ بانهُ هو رأى هذه الآية بعينهِ وحثهُ على احترام راية ابن الله كما فعل والدهُ الملك وبواسطة هذه الاعجوبة اثمر كلام هذا القديس كثيرًا في المؤمنين فرسخوا في النصرانية . وحارب الاريوسيين الذين كانوا قد كثروا جدًّا من جرى حماية الملك قسطنسيوس . ولذلك عزموا على عزلهِ عن كرسيهِ ولهم رجاء قوي في انهُ اذا فقد الكاثوليكيون قائدهم هذا الباسل اصبحوا أذلاء فلا يلبثون ان يفترسوهم كما تفترس الذئاب الخاطفة الغنم . فاجتمع جماعة من الاساقفة وكان المتقدم بهم آكاسيوس الاريوسي وعزلوا القديس كيرلوس عن كرسيهِ بحجة انهُ قد باع لاجل مساعدة الفقراء اواني الكنيسة والاثواب الكهنوتية . وان رجلاً شريرًا ابتاع منها وظهر في الملعب لابسًا الحلَّة المقدسة ليعمل بها السخرية والهزء . ومن بعدما خلعوهُ عن الكرسي على الكيفية المذكورة اقاموا مكانهُ اراكايوس الاريوسي ومات هذا فاقاموا مكانهُ ايلاريوس رجلاً آريوسيًّا ثم اجتمع مجمع كاثوليكي في سلوكية ودُعي اليهِ آكاسيوس واحزابهُ ليردُّوا جوابًا عما فعلوهُ ضد القديس كيرلس الاورشليمي . فلم يتجرَّأ احد منهم على الحضور وارجع آباء المجمع المشار اليهِ القديس كيرلس الى كرسيهِ . وروى القديس ايرونيموس ان القديس كيرلس طُرد مرارًا من كرسيهِ ثم عاد اليهِ

اما الملك فمات وتبوَّأ عرش السلطنة يوليانوس الملحد . ولانهُ كان عدو المسيحيين امر اليهود ان يرمموا هيكل اورشليم المتهدم مبتغيًا ان يبطل بذلك قولهُ تعالى ولا يتركون فيكِ حجرًا على حجرٍ (لوقا ١٩ : ٤٤) وقد اجتهد اليهود بكل قوتهم في اتمام العمل . فلما رأى ذلك القديس كيرلوس قال انهُ لا يُترك من هذه العمارة حجر على حجر وكذلك كان . لانهُ في تلك الليلة نفسها تزلزلت الارض وقذفت من الاساس كل الحجارة التي وضعت لقيام تلك العمارة وبدَّدتها . وارعدت السماء وانحدرت نار فاحرقت كل آلات البناء . اما اليهود الذين اجتمعوا لكي يروا هذه الاعجوبة فعاينوا بغتةً واذا بصورة الصليب مرسومة على ثيابهم في كل ناحية وحاولوا محوها بالغسل فما قدروا فاسودَّ وجه ذلك الملك الكافر ووجوه اليهود ايضًا على ان ذلك كان وسيلة لتنصُّر كثير من اليهود ثم ملك في بلاد الشرق اوالنس الاريوسي . وفي عهدهِ تعب ايضًا القديس كيرلس جدًّا من قِبل المبتدعين وما برح على التعب والنصَب الى ان جلس تاودوسيوس الكبير الذي ردَّ الكنيسة الى حال السلام . فوقتئذٍ ساس القديس رعيتهُ بسكينةٍ وهدءٍ ثماني سنين وانتقل الى جوار ربهِ في اليوم الثامن عشر من شهر اذار في السنة التاسعة والثمانين من المائة الرابعة للمسيح

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس ادواردوس ملك الانكليز

لم يذكر لنا المؤرخون ان مملكة مسيحية رأت على عرش الملك من اولياء الله بقدر ما رأت مملكة الانكليز . فقد استوى على عرش هاتيك المملكة قديسون كثيرون ومن اولئك الصالحين ادواردوس الذي وُلد في السنة الثانية والستين من المائة العاشرة للمسيح وهو نجل الملك ادغار الملقَّب بالسليم والمظفَّر . وقد عمَّدهُ القديس دونستان اسقف مدينة كانتوربري واهتم بتربيتهِ اهتمامًا خصوصيًّا ومنذ صبائهِ احبهُ الانكليز جدًّا لانهُ كان ميَّالاً الى الفضيلة وكانت تصرفاتهُ حدثًا تدلُّ على اخلاق حميدة ملكية ولذلك كان الجميع يتعجبون منهُ ولاسيما والدتهِ اجيلفليد الفاضلة التي كانت قد ارضعتهُ لبن مخافة الله . ونهجت لهُ من زمن الصغر طريق العبادة وقد كان الصبي يحب والدتهُ جدًّا . فلما ماتت ولم يكن قد بلغ من العمر اكثر من ست سنين بكى بكاء شديدًا ولم يكف عن البكاء الى ان قيل لهُ ان فرط هذا الحزن يضاد التسليم لله

فتزوَّج ابوهُ ثانيةً بامرأة يقال لها الفريدة فولدت لهُ ابنًا سمَّاهُ اتالريد . فهذه الملكة على شدة اعتبارها ادواردوس لاجل حسن سيرتهِ لم تكن تحبهُ من اجل انهُ كان منتظرًا ان يملك بعد موت ابيهِ . اما ابوهُ فلما رأى في ابنهِ ادواردوس حكمة وافية مقترنة بسيرة مقدسة فلخوفهِ من ان يصير اضطراب بعد موتهِ اقامهُ ملكًا مكانهُ في حياتهِ . ففرحت الانكليز من هذا الامر جدًّا الا انهُ بعد موتهِ الذي كان في السنة الخامسة والسبعين من المائة العاشرة للمسيح ارادت الفريدة الملكة ان تُقيم اتالريد ابنها ملكًا واستمالت لنيل هذا المأرب كثيرين من العظماء . غير ان القديس دونستان اول مطارنة المملكة تخلَّل اولئك العظماء بجملة الاسقفية وقدَّم لهم ادواردوس ملكًا لانهُ كان بكر الملك ولاسيما ان اباهُ رحمة الله عليهِ استخلفهُ على

الملكة . ثم كرّسهُ السيد دونستان تكريساً كنائسيًا امام الجميع وكفل بحسن سياستهِ المملكة فارتضى بذلك الجميع احتراماً للمطران المشار اليهِ

نعم ان القديس ادواردوس لم يكن وقتئذٍ الاَّ ابن ثلث عشر عاماً . الاَّ ان كمال فضائلهِ كان يغني عن كمال عمرهِ وكان على حداثة سنهِ عزيزاً مهيباً . فلما صار في يدهِ عنان المملكة رام ان يملّك الدين والعدل معهُ بحيث جعل يدافع عن الصالحين ويتهدّد الاشرار . ويظهر المحبة والاحترام للاكليريكيين والرهبان والرحمة للمحتاجين . ولانهُ كان يرى فيهم سيدنا يسوع المسيح كان يطعمهم كل يوم في بلاطهِ ويخدمهم احياناً بنفسهِ . حتى انهُ كثيراً ما كان يقول ان اعظم مجد الملوك يتوقف على هذا الامر ان يبثوا السلام بين الشعوب ويوطدوا اسباب الثروة والسعادة ولاجرم ان سرورهُ كان متعلقاً على واجبات الديانة المسيحية والقيام باعباء السلطنة وكان يصرف ما يبقى لهُ من الوقت بعد تدبير امور السلطنة في القراءة الروحية والصلاة وكان علاوة على الاصوام الكنائسية يستعمل كثيراً من التقشفات المستصعبة ومن ثم دعاهُ الشعب الملك القديس

غير ان الفريدة المتكبرة لما رأت ان الجميع يمدحون ادواردوس ويحبونهُ وانها لم تقدر ان تعزلهُ بما انشأت من الاضطراب والتعصب عزمت على ان تغتالهُ لكي تقيم ابنها اتالريد ملكاً مكانهُ . فاتفق يوماً ان دخل الملك القديس وحدهُ بلاط الفريدة ليسلم عليها ويكلم اخاهُ اتالريد فحضر بغتةً جندي وتقدم الى الملك وبامر الفريدة الشريرة ضرب قلبهُ بسيف فقتلهُ ثم حمل جسدهُ بامرها ايضاً الى بيت قريب من البلاط ليخفي اثمها . ولكن لما ادخلوهُ ذلك المنزل كانت هناك امرأة عمياء من حين مولدها فابصرت بالحال . ثم حملوا جسد القديس من هناك والقوهُ في وادٍ بعيد من المدينة ولكنهُ بعد سنة وُجد بواسطة نور اشرق من السماء في ذلك المكان ولم يكن اعترى جسدهُ فسادٌ البتة . وقد شرّف الله قبرهُ بعجائب كثيرة منها ارتداد قاتليهِ . اما اخوهُ اتالريد فاكرمهُ شهيداً وابتنى كنيسة على اسمهِ لكنهُ تم فيهِ ما تنبأ بهِ القديس دونستان يوم ارتقى العرش الملوكي قائلاً ان الملك لا ينتقل الى ذريتهِ لان غزا كانوت ملك الدانيين اراضيه وتسلط على ملكهِ . اما والدتهُ الفريدة فصرفت بقية ايام حياتها بالتوبة على انها في دير ابتنتهُ حيث ماتت تائبةً

اليوم التاسع عشر

وفيهِ ترجمة القديس يوسف خطّيب مريم العذراء

انهُ لكي ندرك سامي شرف القديس يوسف ومزيد برارتهِ ينبغي لنا ان نعتبر السبب الذي لاجلهِ اختارهُ الله تعالى . ولا بد لنا من ان ننظر ايضاً الى اهمية الامر الذي اقامهُ الله عليهِ ولاجرم ان حكمة الله تهب كل امرىءٍ من النعم على قدر ما تقتضي حالهُ ولله درّ القديس توما اللاهوتي حيث يقول ان الله جلّت حكمتهُ يهب النعم على حسب المراتب والمقامات . وانت تدري ان الله تعالى اصطفى القديس يوسف خطيباً لوالدتهِ وعروساً لها مشاركاً اياها بحفظ البتولية ومن ثم اختارهُ تعالى ليكون على سيدة العالم رأساً ولابنهِ الازلي بمنزلة أبٍ . واقامهُ حارساً على هذا الهيكل الالهي مقر الروح القدس الحاوي الثالوث الاقدس . ورفيقاً للتي كانت تحمل في مستودعها الكلمة الالهي ومدبراً لمن كان يحوي في ذاتهِ كل كنوز حكمة الله . فخضع لهُ الانسان المتألّه كما يخضع الابن لابيهِ . وبناءً على ذلك فمن الذي يستطيع حسب قول القديس برنردوس ان يصف ما حازهُ القديس يوسف من النعم الجليلة المناسبة لسموّ كونهِ خطيب العذراء واعتبارهِ بمنزلة أب ليسوع

ان الله سبحانهُ اسبغ عليهِ جلائل آلائهِ رزقهُ خطيبةً لا نظير لها في البرّ اصلاً على ما تصفها الكنيسة في تراتيلها . وتلك لعمري اجلّ هبة وفي ذلك قال الكتاب المقدس البيت والغنى معطيان من الاباء . ومن قبل الرب المرأة الفطنة (امثال ١٩ : ١٤) ولا ريب ان اسعد الزواج ما بين صالحين متماثلين حالاً وطبعاً . ومن ذا الذي لا يعتقد ان الله الذي قرن مريم ويوسف الجليلين برباط الزواج المقدس جعل كلاً منهما نداً للاخر في الفضل والبرّ . ولا غرو فكل من كانت لهُ ابنة عزيزة عليهِ ان يطلب لها رجلاً من اجلّ الناس . وليس لله ندٌّ يفعل ما يشاء وهو على كل شيءٍ قدير . وليس في البرية فتاة يحبها ابوها كما يحب الله العذراء عليها السلام فكيف لا وقد طهّرها من كل وصمةٍ واصطفاها امًّا ليسوع دون كل نساء العالمين

ولنا حجة أُخرى لاثبات ما نحن في صددهِ . وهي كون القديس يوسف يُعتبر اباً ليسوع مقدّس القديسين وعنصر كل برّ . وهل في الكون شرف اعظم من ان ملكاً عظيماً يسلم وريث عهدهِ الى رجل ليحفظهُ ويربيهُ ويرافقهُ ويدبرهُ

كتدبير اب لابنهِ. فذلك هو عين ما فعلهُ الله مع القديس يوسف لانهُ اسلم اليهِ ابنهُ الوحيد وارث السماء والارض ضياء مجدهِ وصورة جوهرهِ. ذلك وفي الانجيل الشريف كلام يتعلق بيوسف لابد من ايرادهِ كما يقتضي سياق الكلام

فاعلم ان الانجيليين متى ولوقا المكرَّمين قد اثبتا ان القديس يوسف كان من ذُريَّة داود الملك بحيث قال الانبياء ان المسيح يكون ابن داود. فالقديس متى روى ان نسب يوسف بسليمان الحكيم وبقية ملوك يهوذا. اما البشير لوقا فيظهر تسلسلهُ من داود بناثان بن داود. ولكن اعتبر هنا ان القديس متى يجعل القديس يوسف ابن يعقوب ويجعلهُ لوقا ابن هالي وعلة ذلك كما ذهب الاقدمون من الاباء القديسين هي ان يعقوب وهالي كانا اخوين. ولكن هالي قد مات ولم يترك عقبًا ولذلك تزوَّج بامرأتهِ اخوهُ يعقوب ليقيم لهُ ذرية حسب الطريقة الموسوية فولد يعقوب القديس يوسف خطيب العذراء والقديس يواكيم اباها الطبيعي. وقد شهد جوليوس الافريقي الذي كان على اواخر المائة الثانية للمسيح ان هذا القول من المؤكَّد الذي لا ريب فيهِ قد انتهى اليهِ بالتقليد من بعض اشخاص من ذوي قرابة المسيح (راجع ترجمة القديس يوسف في كتاب البولاندستيين في ١٩ اذار وايضًا ترجمة القديس يواكيم في ٢٠ منهُ)

اعلم ان القديس يوسف كان قد نوى التبتُّل الى الله طول عمرهِ بحيث لو لم تكن الطوباوية مريم قد علمت يقينًا ان خطيبها عازم على حفظ العفاف وطهارة الذيل ما كانت رضيت ان تقترن بهِ اصلاً. ولذلك قال القديس اغستينوس ان يوسف قضى عمرهُ عفيفًا طاهر الذيل كالعذراء الجليلة وقال في ذلك بطرس داميانوس الكردينال القديس. ان الكنيسة تؤمن ان يوسف حفظ العفة حتى الموت كالبتول عليهما افضل الصلاة وازكى تحية. اما القديس توما اللاهوتي فيقول ان السيد المسيح لم يُرد ان يسلم والدتهُ الّا الى تلميذ بتول. ذلك وانهُ لا يليق بالله ان يخطب هاتيك العذراء رجل غير بتول. ولعمر الله ان الذين زعموا ان يوسف المذكور تزوَّج مرَّتين وان امرأتهُ الأُولى ولدت لهُ يعقوب وسمعان وغيرهما الذين يطلق عليهم الانجيل الشريف اسم اخوة سيدنا يسوع المسيح ما عقلوا ولا علموا ان والدة اولئك قد كانت حيةً بعدُ في زمن الالام. وانها كانت اخت العذراء مريم عليها السلام

انما سُمّي خطيب العذراء بيوسف لما بينهُ وبين يوسف الحسن من المشابهة فذلك اقامهُ الله رئيسًا على مملكة مصر وآتاهُ فطنةً وهذا انقذ اهل المدينة من الجوع. هكذا القديس يوسف حفظ للعالم كلهِ الخبز النازل من السماء وقدَّمهُ لنا لننجو بهِ من الجوع والهلاك الابدي. ذاك كان عفيفًا ولاجل طهارتهِ فضل السجن على التلطخ بحمأة الزناءِ وليس من ريب في ان يوسف الخطيب عليهِ السلام كان على الارض كملائكة السماء ولا عجب في ذلك لان النظر الى تلك البتول يكسب المرءَ ورعًا ويزيدهُ الى العفاف ميلاً

ومع ان القديس يوسف كان من ذرية ملوكية آثر الله سبحانهُ ان يكون رجلاً نجارًا. ليعلمنا بذلك ان الفقر ليس هو من الحقارة في شيءٍ عند الله تعالى كما يظنُّ بهِ اهل الارض ولذلك اراد يسوع ان تكون والدتهُ فقيرةً وكذلك يوسف الذي كان يُعتبر بمنزلة اب لهُ

وما كان القديس يوسف حينما خطب مريم شابًا ولا شيخًا. بل رجلاً كما قال البشير الذي دعاهُ ايضًا بارًّا اي كاملاً في البرّ والفضيلة. وقد ظهر انهُ عريق في الفضيلة حينما رأى خطيبتهُ الجليلة قد حبلت بدون ان يعرفها ولكونه بارًّا عزم على تخليتها سرًّا حتى لا تُؤثَّم. ولفرط وداعتهِ لم يُسمع البتول كلمةً تغيظها. ومن حيث انهُ كان فطنًا لم يسرع الى التصديق بل تمهَّل متانيًا ليفحص عن الامر ويسترشد الله في ما ينبغي لهُ ان يفعلهُ. ومن اجل انهُ تصرف عند هذه المحنة بكمال البرّ ارسل الله اليهِ ملاكًا عزَّاهُ قائلاً لهُ (متى ١: ٢٠) يا يوسف ابن داود لا تخف من ان تاخذ مريم خطيبتك لان الذي حُبل فيها هو من روح القدس وستلد ابنًا وتدعو اسمهُ يسوع لانهُ يخلّص شعبهُ من خطاياهم فآمن القديس واكمل كل ما أُمر بهِ

وقد ظهرت متانة ايمانهِ وفرط طاعتهِ حينما تراءى لهُ الملاك ثانيةً وامرهُ بان يذهب الى مصر بالطفل يسوع وانهُ من اجل ان هيرودس كان يطلب ان يقتل الطفل. على انهُ لم يضطرب ولم يحتج معتذرًا بقولهِ للملك انهُ لا يليق بمخلص العالم ان يهرب لاجل خلاص حياتهِ. ولم يستعفِ بفقرهِ وضعف الطفل ولطافة مزاج الام. وانهُ يكفي ان يختفوا في احد الامكنة القريبة. او اذا دعت الضرورة ان يهربوا

فالاجدر بهم ان يمضوا الى بلاد العرب حيث المجوس لا الى بلاد البرابرة . فمن هذه كلها لم يقل شيئًا بل اطاع المَلَك حالاً ورحل مسرعًا غير مبالٍ بتعب الطريق وخطر السفر . وبقي في مصر الى ان امرهُ المَلَك بالرجوع الى اليهودية .

ثم ان الكتاب المقدس يذكر ان القديس يوسف قطن بقية ايام حياتهِ في الناصرة مع يسوع ووالدتهِ . وان يسوع كان يطيعهُ ويخدمهُ . وبهذا اشار البشير الى عظمة الشرف الذي وصل الى هذا القديس بطاعة يسوع لهُ . ويتعذَّر على افضل الفصحاء ان يصف هاتين الآيتين خضوع يسوع لرجل نجار واعطاء ذلك النجار تسلُّطًا على يسوع . ولعمري ان هذا موضع يخوض فيهِ العقل الثاقب في تأملات اجلّ من ان يُعبَّر عنها القلم وليعتبر هنا المؤمن اللبيب كيف كانت نفس القديس يوسف عليهِ افضل السلام تتلألأ بانوار سماوية بحيث كان يرى دائمًا شمس الحكمة والرحمة وليتأمل ايضًا كم كان قلبهُ مضطرمًا بنار المحبة الالهية . وكم كان عقلهُ يندهش عند تاملهِ ان ذلك الطفل الذي أُقيم على خدمتهِ وتدبيرهِ هو اله ألا ليت شعري ماكان يلحقهُ من الخجل والمهابة امام عزة ربّ العالمين . عند ما كان يامرهُ شيئًا ويبادر الى طاعتهِ بسرور . وان كانت القديسة اليصابات تعجبت منذهلة من كون والدة ربها قد زارتها . والقديس يوحنا أخذهُ العجب العجاب عند ما اتاهُ يسوع وطلب منهُ المعمودية . فبالاولى ان القديس يوسف يذوب خجلاً اذ يرى يسوع طائعًا لهُ وخاضعًا لامرهِ كل ايام حياتهِ . وان كان بكلمات قليلةٍ نطقت بها مريم الجليلة قدّس يسوع نفس يوحنا المعمدان في مستودع امهِ . فمن اين لعقلك ان يحيط علمًا بالبرّ والنعم الروحية التي نالها القديس يوسف بمعاشرتهِ تلك الخطيبة الطاهرة ومخاطبتها الملكية

اما الزمان الذي رقد فيهِ هذا القديس فغير معروف . ولكن من الممكن ان يكون قد رقد في بداءة تبشير المسيح وتعليمهِ ومن القضايا الثابتة انهُ لم يكن حيًّا وقت آلام السيد لهُ المجد بحيث لوكان لذلك العهد حيًّا لما سلم يسوع والدتهُ المجيدة الى القديس يوحنا . فسقيًا لهُ اذ اسلم روحهُ بين يدي يسوع ومريم . وذهب خلق كثير من العلماء الى انهُ بُعث من القبر ودخل جنَّة الخلد بجسدهِ ونفسهِ يوم صعود السيد المسيح الى السماء لاننا نعلم يقينًا ان الله سبحانهُ فعل عجائب كثيرة لاظهار ذخائر قديسيهِ وتكريمها فلو كان جسدهُ قد بقي مدفونًا على الارض لكشف الله عنهُ وكرَّم الناس عظامهُ

ينبغي لنا ان نذكر هنا ما كتبتهُ القديسة ترازيا في اكرام هذا القديس ونصهُ . اني اتخذت القديس يوسف شفيعًا لي فاعانني وانالني ما لم اكن اتجرَّأ على طلبهِ من النعم التي تتعلق بخلاصي حتى اني ما طلبت منهُ شيئًا منذ استشفعتهُ الى اليوم ولم انلهُ . وقد عجبت من كثرة ما حزت من النعم بشفاعتهِ . ذلك ولا غرو اذ يظهر ان الله منح بقية القديسين ان يسعفونا في بعض الاحوال . اما هو فمنحهُ قوَّة على مساعدتنا في كل حال كما اختبرت ذلك بالتجربة فكان سيدنا يسوع يريد ان يعلمنا انهُ كان خاضعًا لهُ وهو على الارض ويجيبهُ الى ما يطلب وهو في السماء . وقد اختبر هذا الامر كثيرون من الذين حثثتهم انا على الالتجاء اليهِ ولذلك نرى الان كثيرين يقدمون لهُ التكريم وانا اختبر كل يوم حقيقة ما أسلفتهُ من امر اعانتهِ الانام في كل الاحوال ولذلك لم آل جهدًا في التعبيد لهُ باتم الاجلال واوفر التكريم وكثيرًا ما كنت اشتهي ان يميل اليهِ الجميع ويستشفعوهُ الى الله فانهُ هو الشفيع المشفّع . فكيف لا ولم ارَ احدًا اخلص لهُ الاكرام ولم يرتقِ الى معارج الكمال . وان كان احد ينكر ذلك فاسالهُ بالله ان يختبر ذلك بالتجربة . فانهم سيختبرون كم يفيد الالتجاء الى هذا القديس العظيم بالتكريم الخصوصي . وارى انهُ ينبغي لاهل العبادة الذين يصلون الصلاة العقلية ان يحسنوا التعبد لهُ . والذين ليس لهم من يرشدهم في ممارسة هذه الصلاة فليتخذوا هذا القديس العجيب مرشدًا لهم لئلا يضلوا . انتهى وفاح منهُ لهذه الترجمة مسك الختام

اليوم العشرون

وفيهِ ترجمة القديس يُواكيم أبي مريم البتول

ان اجل مقال وابلغ كلام نمدح بهِ القديس يواكيم هو قولنا انهُ ابو والدة الله مريم عليها السلام اذ لا يقدر القلم على ان يكتب ما هو ابلغ من ذلك كما لا يخفى ولكن لا باس في ان نورد في هذا المقام ما قالهُ العلماء الاجلاء والفضلاء الالباء اندراوس اسقف اورشليم والقديس يوحنا الدمشقي والقديس ايفانيوس لان في بسط الكلام لذَّة ولا سيما في مقام تبرُّك كهذا فاعلم ان القديس يواكيم كان متواضعًا وديعًا يتقي الله جاريًا

على رسومهِ ولذلك كان واحد عصرهِ . وقالت القديسة بريجيتا أُلهمت من عند الله ان قلب يواكيم وقلب امرأتهِ القديسة حنة لم يبرحا ملتهبين بمحبة الله وانهما كانا ككوكبين تتعجب من ضيائهما ملئكة السماء

وطعنا في ايامهما ولم يكن لهما عقبٌ . ذلك وان العقرية كانت عند اليهود يومئذٍ عارًا كبيرًا لرجائهم ان المسيح المنتظر يُولد منهم . فمن اجل هذا كان القديس يواكيم مُهانًا جدًّا . واتفق يومًا انهُ لما تقدم الى المذبح ليقرب تقدمتهُ طردهُ الكاهن كانهُ غير اهلٍ للاشتراك مع عباد الله الاحباء . فاحتمل ذلك بالصبر الجميل وزادهُ ذلك اتضاعًا . غير ان الله أوحى بعد ذلك الى يواكيم وحنة ان تكون لهما ابنة مباركة وافضل من جميع نساء الدنيا ومنها يولد مخلص اسرائيل . فلما آن اوان ظهور قضيب يسى واشراق نجمة الصبح المتقدم قليلاً اشراق الشمس الازلي ظهرت وقتئذٍ ابنة يواكيم وحنة تلك الفتاة المجيدة التي بميلادها تكلل والداها بالمجد وامتلأَت السماء والارض فرحًا وحبورًا

ولله درّ القديس يوحنا الدمشقي حيث يقول بماذا نكافئكما يا يواكيم وحنة وقد ولدتما والدة مخلص العالم . فطب نفسًا يا يواكيم لانك قد ولدتَ والدة المسيح المشتهى . لعمري اننا من ابنتكما نعرف مزيد برّكما . لان الشجرة انما تعرف من ثمرتها انتهى . فلما بلغت العذراء السنة الثالثة من عمرها قدمها ابواها لله وخصّصاها بخدمتهِ تعالى في الهيكل وتركاها هناك مع البنات المنذورات لله . ليت شعري ايّ حزنٍ ألمّ بقلبيهما يوم فارقا تلك الفتاة البهية

وآب يواكيم بعد ذلك راجعًا الى الناصرة حيث قضى بقية عمرهِ مصليًا ومتأمّلاً المراحم الالهية وعاش ثمانين عامًا ومات بين ايدي حنة ومريم . وفي كتاب صلوات الكنيسة الرومانية صلاة قديمة العهد اردنا ادراجها هنا ابتغاء ان يطلع عليها الذين يكرمون هذا القديس الجليل وهذه صورتها

تضرُّع الى القديس يواكيم ابي والدة الله

يا ايها القديس المعظم يواكيم يا ابًا لمن هي اعظم بنات العالم العذراء التي ولدت يسوع ولم تزل بتولاً . نسأَلك ضارعين ان تقدم لله تعالى طلباتنا وابتهالاتنا . وبما انك عارف بما نحن عليهِ من الاخطار في بحر هذا العالم المضطرب ومن قِبل حروب الشيطان والجسد . وقد فزت الان بمجد عظيم جدًّا في جنان الخلد وانك بشفاعتك عند الله قادر ان تعيننا في كل شيء . فحسبنا ان نريد التضرُّع من اجلنا . لانهُ لا يخطر ببال ان يسوع ابن بنتك لا يجيبك الى ما تطلب منهُ ويردّك خائبًا . فاطلب لنا اذًا من الله تعالى بشفاعتك غفران خطايانا وكل النعم والحسنات الضرورية لنا في هذه الحياة . ثم الاشتراك بعد موتنا مع الارواح السماوية لكي نرنم وراءهم في السماء تسابيح الهنا الى ابد الابدين

اليوم الحادي والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس باناديكتوس ابي الرهبان الغربيين

وُلد هذا القديس بايطاليا في السنة الثمانين من المائة الخامسة للمسيح . وقال كاتب ترجمتهِ القديس غريغوريوس الكبير ان كلمة باناديكتوس معناها مبارك ولا ارى انهُ سمي بذلك الاّ لسرّ يعلمهُ الله ولا ريب في ان الله سبحانهُ افاض عليهِ منذ الصغر جزيل بركاتهِ وجلائل نعمهِ . فلما بلغ السنة الخامسة عشرة من عمرهِ جعل يتأمل ما في هذه الدنيا من الشرور والاخطار فعزم على مجانبة البشر واعتمد ان يعيش في البادية فخرج من رومية بمرضعتهِ لانها لم تطق ان تفارقهُ لفرط محبتها لهُ . فلما وصلا الى قرية يقال لها افيلي استعارت مرضعتهُ من هناك اناء خزفٍ لتصلح فيهِ طعامًا فانكسر بين يديها فشرعت تبكي لانها لا تستطيع ان ترد الاناء ولا ان تعوّض صاحبتهُ عنهُ شيئًا فتوجّع لها ذلك الشاب القديس وجمع الكِسَر ووضع كل كسرةٍ في مكانها ثم سأل الله ان يعزّي تلك المرأة المسكينة . فانجبر الاناء على سبيل الاعجوبة وقد شاع ذلك في القرية . فاخذوا الاناء وعلّقوهُ على باب الكنيسة تذكرةً لتلك المعجزة

اما القديس المشار اليهِ فلاتّضاعهِ خرج سرًّا من القرية وترك مرضعته وذهب الى بادية تبعد عن رومية نحو اربعين ميلاً . فوجد هناك صخورًا عالية ومغاور عميقة وفيها كان يطلب مكانًا يلائم غرضهُ التقاهُ راهب اسمهُ رومانوس وسألهُ عن سبب مجيئهِ الى هناك . فاجابهُ باناديكتوس ان قصدي ان أدفن نفسي حيًّا في مكان خلوةٍ لاخدم الله وحدهُ ولا افتكر الاّ فيهِ . فطاب الراهب بذلك نفسًا فأراهُ مغارة

عميقة تشبه المقبرة في هيئتها وألبسهُ ثوب الرهبانية وجعل يأتيهِ في كل اسبوع بقليل من الخبز. واما سير هذا القديس في طريق النسك والتقشف فدون استيفاء الكلام عليهِ صعوبات قوية حتى يوشك ان يكون ذلك ضربًا من المستحيل ولا ريب فانهُ كان رجلاً كثير الصلوات يلبس مسحًا طويلاً خشنًا يعذبهُ عذابًا اليمًا وبقي يلبسهُ الى يوم استأثرت بهِ رحمة المولى واراد الله تعالى ان يُعلم الناس ببرّهِ وفضائلهِ فتراءى سبحانهُ في الحلم في بيرامون عيد الفصح لكاهن مقيم بتلك النواحي وقال لهُ. أهكذا تهيئ لك ماكلاً لذيذًا وافرًا وها هوذا عبدي باناديكتوس جالس في مغارة ميتًا من شدّة جوعهِ فانتبه الكاهن الفاضل ونهض واخذ ماكلاً ومضى ليطلب امرءًا لا يعرفهُ ولا يعرف اين هو. غير ان الله تعالى هداهُ في الطريق. فبعد ما اجتاز مسافةً طويلةً وجد الشاب القديس في مغارتهِ. فعانق احدهما الاخر بصفاء مودّة ثم صلّيا. وبعد الصلاة جلسا وخاضا في مخاطبات روحية. ثم قال الكاهن للقديس لناكلنَّ الان لان اليوم عيد الفصح المجيد فلا يليق ان تصوم فيهِ. وقد امرني الله سبحانهُ بان اتيك بهذا الطعام لكي تتناول منهُ فتناولا الطعام معًا ثم عاد الكاهن ولبث الشاب في مغارتهِ وقد اتفق مرة اخرى ان وجدهُ رعاة حينما ساقوا رعاياهم نحو مغارتهِ فاخذ وقتئذٍ يعلمهم تعليم الخلاص. وهكذا انتشرت رائحة فضائلهِ في تلك النواحي

اما الشيطان اخزاهُ الله فلما رأى برارة باناديكتوس وان نور فضائلهِ قد ضاء للناس ليخرجوا من ظلام الخطيئة جرّبهُ بتجربة صعبة جدًا بأن صوّر في مخيلتهِ امرأة حدثة السن كان قد رآها في رومية. وقد صوّرها لهُ بالوان بهية فاضطرمت بقلبهِ نار الشهوة اضطرامًا شديدًا بحيث اوشكت التجربة ان تغلبهُ ولكن الله تعالى اسرع الى اغاثتهِ فتسلح بسلاح الايمان ودخل حقلاً مملوءًا اشواكًا. وهناك تعرّى من ثيابهِ وشرع يمرّغ جسدهُ في تراب ذلك الحقل حتى انطفأت نار الشهوة الجهنمية. ومن ذلك اليوم لم يعد الشيطان يتجرّأ على ان ينصب لهُ شرك الزناء وبما ان عبير فضائلهِ فاح في اكثر الآفاق اقبل عليهِ كثيرون ليستنيروا بمصباح ارشادهِ ويجانبوا الناس زهدًا في الدنيا

وكان بالقرب منهُ دير فلما مات رئيسهُ اتّفق رهبان الدير المذكور على ان يقيموا القديس باناديكتوس رئيسًا عليهم. فارسلوا عقلاء يخاطبونهُ في ذلك فاعتذر ولكنهُ لما راهم يلحّون عليهِ كثيرًا قال لهم. اعتمدوا يا اخوتي انكم لا تحتملوني اذا ترأست عليكم لان سيرتكم لا توافق سيرتي اما هم فوعدوهُ بانهم يطيعونهُ في كل شيءٍ طاعة تامة فاجابهم الى ذلك وشرع ينهج لهم طريق الكمال بتعليمهِ وفضائلهِ فطفق يحثهم على ملازمة الصمت وعدم الخروج من حُجَر الدير وكره التذمر وعلى الفرار من الفراغ وعلى محبة الطاعة والصلاة والصوم والتقشفات فظهر عند ذلك ان سلوك طريق الكمال كان صعبًا جدًا على اولئك الرهبان الفاترين المتوانين ولذلك بعد قليل عزموا على ان يقتلوا رئيسهم المشار اليهِ فوضعوا لهُ سمًّا في كاس الشراب. على انهُ لما امسكها بيدهِ ليشرب عمل فوقها علامة الصليب بحسب عادتهِ فانكسرت الكاس حالاً واطلع القديس على خباثتهم. ثم قال للرهبان بهدوء ووقار ليغفر لكم الله يا اخوتي ألم اقل لكم انهُ غير ممكن ان نتفق سيرتكم مع سيرتي واني لست ممن يلائمكم ولا انتم تلائمونني. فاطلبوا الان لكم ابًا يدبّركم لاني لا اعاشركم من الان فصاعدًا

فعاد حينئذٍ الى خلوتهِ القديمة العزيزة على قلبهِ حيث كان يعيش كملائكة الله. وفي زمن يسير تتلمذ لهُ خلق كثير فابتنى لهم اثني عشر ديرًا ببرية سوبلاك حيث كانت مغارتهُ ووضع لهم رسومًا تسدّدهم الى ان يسلكوا سبيل الكمال. واقام للاعتناء بامر كل دير رئيسًا وهو كان على جميع الرهبان رئيسًا عامًّا. وكانت ثلثة من تلك الاديرة مبنية على صخر لا ماء فيهِ. فطلب الرهبان من القديس ان ينقلهم الى حيث الماء فصلى القديس ثم امر الرهبان بان يحفروا في الارض فحفروا فوجدوا للحال نبع ماء غزيرًا

وكان عظماء رومية يفتقدونهُ في باديتهِ ويسلّمون اليهِ اولادهم لكي يعلمهم منذ الصغر. وكان هو يقبلهم في اديرتهِ لعلمهِ بالخير العظيم الذي يفيض على الدنيا من احسان تربية الاحداث. وكان بين اولئك الاحداث بلاسيدوس ومورس اللذان تقدسا فيما بعد. ولاجرم ان تلك الفلاة كانت كجنة اقام بها اناس كملائكة الله من حيث البرّ والتقوى. غير ان الحسد هيّج كاهنًا مرائيًا شريرًا فثار على القديس المشار اليهِ لاجل هذه الفضيلة فشرع يغتابهُ ويشنّع عليهِ ويقول ان باناديكتوس رجل خبيث يتلبّس بثياب التقوى فما هو الا طالح في ثياب صالح ولكنهُ لم يستفد بذلك شيئًا بل تضرّر لان

اعتبار الناس لهذا القديس كان يزداد يوماً فيوماً فنوى ان يقتلهُ بواسطة السمّ فارسل اليهِ رغيفاً مسموماً على سبيل الصدقة . فقبلهُ الاب وشكر فضل المحسن اليهِ مع انهُ كان عارفاً بما كان . فتقدَّم حينئذٍ غراب يطلب كعادتهِ غذاءهُ من القديس فأتى اليهِ الانبا الرغيف المسموم وامرهُ باسم الله ان ينقلهُ الى حيث لا يجدهُ احد . اما الغراب فكان يدور حول الرغيف ويدنو منهُ فاتحاً منقادهُ ولا يمسهُ . وكانت حالهُ تنطق بان الاقتراب من ذلك الرغيف خطر . فقال لهُ القديس اني لا آمرك بان تاكل هذا الرغيف بل انما آمرك بان تنقلهُ الى موضع بعيد وفي هذا لاخطر عليك . فاخذهُ الغراب ونقلهُ ثم عاد وطلب من القديس طعامهُ الاعتياديّ

غير ان ذلك الكاهن المنافق اذ رأى انهُ خاب مسعًى وحبط عملاً نوى ان يميت نفسهُ ونفوس رهبانهِ ويهلكها . فادخل الى بستان دير الرهبان سبعاً من الفتيات العواهر البارعات في الجمال وطفقنَ يرقصنَ امام القلالي ويستصبينَ الرهبان ويملنَ بهم الى الفساد . فاحسَّ القديس ان ذلك الكاهن المرائي قد نصب شرك البغاء لرهبانهِ ولذلك خرج حالاً من الدير واخذ معهُ اثنين او ثلثة من الرهبان ومضى ليسكن جبل كاسين . فطاب ذلك الخبيث نفساً لما نال مأربهُ الرديء بان ابتعد عنهُ القديس على ان الله عاجلهُ بالانتقام بان تقوَّض بيتهُ وهبط السقف على هامتهِ . فلما عرف ذلك موروس تلميذ القديس وراهبهُ العزيز في الحال ارسل اليهِ كتاباً يعني لهُ بهِ موت عدوّهِ ويظهر شيئاً من السرور . ولكن الانبا المشار اليهِ تفجَّع على موت ذلك الكاهن وساءهُ سرور موروس بوفاتهِ فبكى بكاءً مرًّا . ووبَّخ تلميذهُ على ذلك توبيخاً عنيفاً واقتصَّ منهُ قصاصاً ثقيلاً

ولم يرجع الاب الى برية سوبلاك بل اقام بجبل كاسين وكان فيهِ هيكل للوثنيين . فاتقدت يوماً غيرتهُ فهدم الهيكل واحرق مذابح الاوثان وبنى هناك كنيستين وعلى هذا الاسلوب ابتدأ دير جبل كاسين الشهير في سنة ٥٢٩ للمسيح . ثم طاف قرى الجبل واعظاً ومعلماً وعلى يدهِ تنصَّر الوثنيون . فخلت ساعتئذٍ جهنم واقفلت ابوابها كما قال غريغوريوس لان الشياطين خرجوا منها طرًّا لمحاربة جندي الله البطل . فظهر لهُ يوماً الشيطان بصورة مريعة لان النار كانت تخرج من فمهِ ومن عينيهِ ويزأر عليهِ بصوت مخيف قائلاً يا باناديكتوس يا باناديكتوس فلم يعبأ القديس بهِ ولذلك لم يجبهُ بكلمة فقال لهُ اللعين . انك لست بباناديكتوس الذي معناهُ مبارك بل انك ملعون يا عدوّي ومضطهدي القاسي . وفيما كان الرهبان ذات يوم يبتنون حائطاً وقد اعلوهُ جدًّا اسرع الشيطان لمضرَّتهم . فرآهُ القديس من قلايتهِ حيث كان يصلي فهتف بالرهبان ان احذروا واذا بالشيطان هدم الجدار فتهشم بهِ احد الرهبان فمات . فأتى بهِ الاخوة الى القديس اما هو فاطلق الرهبان ثم صلى من اجل الميت وطلب من الله ان يقيمهُ من الموت . فاستجاب الله صلاتهُ فقام الميت حالاً وارسلهُ القديس ليشتغل مع الاخوة اخزاءً للشيطان الذي سرَّ بموتهِ

وقد صنع الله عجائب أُخر على يد هذا القديس المعظم لتعليم رهبانهِ وافادة المؤمنين واذهال الاشرار ولا سيما لتمجيدهِ تعالى الذي كان يمجدهُ ببرّهِ . ومن المفيد ان نذكر هنا الايات التي فعلها الرهبان . قال القديس غريغوريوس ان باناديكتوس ارسل يوماً تلميذهُ بلاسيدوس ليستقي ماءً من بحيرة فسقط التلميذ في الماء فعرف ذلك القديس باناديكتوس بالهام الله . فعلى الفور استدعى موروس وقال لهُ اذهب مسرعاً الى البحيرة وانقذ بلاسيدوس من الغرق . فاسرع التلميذ لمساعدة اخيهِ فمشى على وجه الماء وهو لا يدري وامسك بلاسيدوس بشعر راسهِ وسحبهُ الى البرّ . وحينئذٍ استفاق على الأعجوبة واخبر القديس باناديكتوس ناسباً اياها الى اهلية رئيسهِ اما القديس فكان يعزوها الى فضيلة تلميذهِ . ولا شك ان الله عمل عجائب كثيرة على ايدي عبادهِ الطائعين وذلك ليعلم ان الله يسرّ كثيراً بفضيلة الطاعة . وانها لازمة جدًّا في الاديرة . وكثيراً ما اظهر الله شدة غيظهِ من الرهبان العصاة كما سترى . انهُ حدث غلاء في تلك البلاد ففرق القديس كل مؤنة الدير على المساكين ثمَّ اتى الدير رجل فقير وطلب زيتاً . فامر القديس الراهب وكيل الدير ان يعطيهُ كل ما بقي في قلة الزيت . فاستغرب الراهب هذا الامر ولم يرد ان يعطيهُ كل الزيت كما أُمر لئلا تحتاجهُ الاخوة . فاغتاظ القديس من ذلك وامر بان ترمى قلة الزيت على حجارة حتى لا يبقى في الدير شيءٌ غير الطاعة . فوقعت ولم تتكسر فلم يسلْ شيءٌ من الزيت . فامر القديس ان يُعطى هذا الزيت كلهُ للفقراء . فجمع القديس الرهبان ووبخ الراهب المخالف على

تكبرهِ وعدم انكالهِ على الله. ثم صلى معهم وطلب من الله ان يمنحهم زيتاً. فامتلأَت القلَّة للحال زيتاً جيدًا جدًّا

ووقف امام القديس ذات يوم راهب كريم النسب ماسك بيدهِ شمعة متقدة في محل العشاء ليخدمهُ. فخالج فكر الكبرياء قلب ذلك الراهب فقال في نفسهِ من هذا حتى يخدمهُ مثلي. فعرف القديس فكرهُ وقال لهُ يا اخي ما هذا الفكر الذي تولَّد في قلبك اعمل على جبهتك علامة الصليب وضع الشمعة على المائدة واجلس. وقد ذكر ايضاً ان احد رهبانهِ عزم على مباينة الدير والرهبانية وخرج بهذه النية. فعرف القديس حقيقة امرهِ فصلى من اجلهِ واذا بالراهب عند خروجهِ من الدير ابصر تنيناً هائل المنظر واقبل عليهِ ليبتلعهُ فرجع حالاً الى الدير راكضاً مرتجفاً من فرط خوفهِ واستمرَّ في الرهبانية تائباً ثابتاً. لا يخفى ان الايات التي جرت على يد هذا القديس باناديكتوس كثيرة فلا سبيل الى الكلام على جميعها فالخليق بنا ان نختم ترجمتهُ بذكر اعجوبة تتضمن عجائب كثيرة. ان توتيلا ملك الغطط اراد ان يشاهدهُ عياناً ويختبر بالتجربة هل فيهِ حقاً روح النبوة فامر احد عظماء بلاطهِ ان يلبس اثوابهُ الملكية ويفتقد القديس ويقول لهُ انهُ هو الملك. فلما دخل ذاك الدير قال لهُ القديس اخلع يا ابني هذا الثوب المستعار الغير المناسب لك ولا تجعل نفسك ملكاً بالباطل. فلما تحقق توتيلا هذه الاعجوبة زار القديس وخرَّ على قدميهِ ولبث جاثياً الى ان اقامهُ عليهِ السلام. ثم وبَّخهُ على ما فعل من الشرور في ايطاليا وانبأهُ بما كان منتظرًا ان يحدث لهُ في مدة تسع سنين وحثهُ كثيرًا على التوبة ثم قال لهُ انك ستموت بعد عشر سنين فكان كما قال

ان الجميع كانوا يعدُّونهُ قديساً وما كان يعتبر نفسهُ الا من احقر الاخوة ولذلك لم يمارس الاَّ ادنى الاشغال. واما تصرُّفهُ مع الجميع فكان مقروناً باتضاع عظيم. وانتقل الى جوار ربهِ بعد ان تناول القربان المقدس زاد الابدية في اليوم الحادي والعشرين من شهر اذار في السنة الثالثة والاربعين من المائة السادسة للمسيح فتكون حياتهُ ثلثاً وستين سنةً وقد نمت رهبانيتهُ بالفضائل نموًّا عظيماً حتى كُتب في سفر اولياء الله القديسين من رهبانهِ اكثر من ثلثة الاف راهب وجلس منهم على عرش الخلافة البطرسية اربعون شخصاً

اليوم الثاني والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس فيكتوريانوس الشهيد

انهُ في المبتدعين الاريوسيين الذين اضطهدوا الكاثوليكيين هونريكس ملك افريقية الذي خلف اباهُ جنسريكوس لانهُ في السنة الرابعة والثمانين من المائة الخامسة للمسيح ابرز امرًا وبهِ الزم جميع الكاثوليكيين ان يعتمدوا ثانيةً ويذهبوا مذهب آريوس قاتلهُ الله. ثم نفى من الاساقفة الكاثوليكيين ثلثمائة اسقف ومن الاكليريكيين اربعة الاف وتسعمائة وستة وستين اكليريكيًا ووضع يدهُ على قسم كبير من كنائسهم. وعذَّب وقتل اكثر من اربع كرَّات من الشهداء ومن اولئك الشهداء القديس فيكتوريانوس والي مدينة قرطاجنة الرجل الجليل. لان الملك الاريوسي كتب اليهِ كتاباً يدل على الاكرام والمحبة وكان قصدهُ ان يستميلهُ الى بدعتهِ ولذلك نصح لهُ في رسالتهِ لكي ينفذ كل ما ذكرهُ الملك في براءتهِ المذكورة. فاجابهُ القديس فيكتوريانوس برسالةٍ مضمونها اني اشكر فضل عزَّتكم على ما قدمتموهُ لي من الاكرام والمحبة ثم ليعلم مولاي انهُ نظرًا الى ما يختص بخدمتكم لا تجدون احدًا يتفضل عليَّ من حيث الخضوع والامانة. ونظرًا الى ما يختص بعبادة الله فلا اجري الاَّ على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وقد قرأْت امركم ومنهُ علمت انكم اوصيتم الجميع بان يعتمدوا ثانيةً ويذهبوا الى ما ذهب اليهِ اريوس. والان اقول لعزتكم بكل احترام انكم قادرون على ان تعزلوني عن منصبي وتمتلكوا كل اموالي وتلقوني فريسة للوحوش الضارية او للنار الآكلة وان تعذبوني بكل ما تريدونهُ ويخطر لكم من انواع العذاب وما انتم بقادرين على ان تلزموني بالطاعة لأمركم هذا لاني لم اعتمد باطلاً في الكنيسة الكاثوليكية باسم الآب والابن والروح القدس فحاشا لي ان اجحد الوهية المسيح مخلصنا

فلما قرأ هونريكوس هذه الرسالة التهب قلبهُ غضباً فاحضر القديس وقتئذٍ وامر الشُرَط فعذبوهُ تعذيباً اليماً. والقوهُ في اناء مملوء زيتاً مغلًى ومزَّقوهُ بمخالب حديد. وفي الجملة فاقول انهم استعملوا لتعذيبهِ كل ما اخترعوهُ من العقوبات ولكنهُ احتمل كل ذلك بالصبر الجميل وبسرورٍ زاد الملك الاريوسي رجزًا والكاثوليكيين ثباتاً. وكان استشهادهُ في اليوم الثالث والعشرين من شهر اذار في السنة

الرابعة والثمانين من المائة الخامسة للمسيح

واستُشهد معهُ اربعة اشخاص وكان فيهم اخوان علقهما على خشب بحبال تحت آباطهما . ثم علقوا في ارجلهما حجارةً ثقيلة جدًّا وبقيا على هذه الحال ساعات كثيرة ثم طلب احدهما من الجنود ان يرفعوا عنهُ تلك الحجارة لكي يستريح قليلاً . فظنَّ اخوهُ انهُ عزم على رفض الايمان الكاثوليكي فالتفت اليهِ وقال لهُ . ما هذا يا اخي أنسيت ما حلفنا عليهِ امام القربان المقدس من اننا نموت ونسفك دماءنا ولا نجحد الوهية المسيح . فاياك وان تطلب علاجًا ونحن تحت هذا العذاب . فتشجع اخوهُ بذلك الكلام واشتدَّ عزمهُ ولذلك صرخ حالاً نحو الجنود قائلاً . لا تحلُّوا شيئًا من الاثقال المرتبطة برجلي . بل ان شئتم فزيدوها ثقلاً وعذبونا بكل ما يمكنكم ان تخترعوا من العقوبات الهائلة وحينئذٍ احرقوهما بحديد محمي ثم مزقوهما بمخالب حديد . وفي الجملة فاقول انهما عذّبا بكل نوع من العذاب باشدّ قساوة . واحتملا ذلك بشجاعة الجأت أُولئك المبتدعين الى ان تركوا آلات التعذيب . وقالوا علانيةً ان صبر هذين الاخوين وسرورهما يخفضان شأن المذهب الآريوسي ويرفعان شان الدين الكاثوليكي ويشجع الكاثوليكيين واعجب من ذلك ان الجنود بذلوا الجهد لكي يمزقوا لحم ذينيك الشهيدين بالمخالب ولكن ما قدروا ان يخدشوها اصلاً . ومن ثم كان الشعب يصرخون قائلين أُعجوبة أُعجوبة واخر الامر مات الاخوان وكذلك تمّ بالآخرين اللذين اسم كل منهما فرومانسيوس . وكان استشهاد الجميع في ٢٣ اذار سنة ٤٨٤

ورسخ الايمان في قلوب الكاثوليكيين كل الرسوخ بحيث اصبحوا يُنادون بهِ في كل مكان ولم يعبأُوا بوعيد الملك وان كان قد برق ورعد . وفي غضون ذلك كتب كيرولا بطريرك الاريوسيين الى الملك هونريكوس المذكور رسالة وبها اعلمهُ ان اهل ابرشيتهِ يشنأُونهُ ويبغضونهُ جدًّا حتى ان الكاثوليكيين كانوا يمدحون جهارًا لاهوت المسيح . فارسل هونريكوس للحال جنودهُ الى تيباز مدينة البطريرك المذكور . وبامرهِ قطعوا لسان كل من ثبت معتقدًا بالوهية المسيح . وكانوا يقطعون اللسان الى الحلقوم على ان الذين قُطعت السنتهم ما برحوا يتكلمون ويمدحون علانيةً مساواة السيد المسيح مع الاب في الجوهر وتلك آية حارت لها الالباب . واعجب من ذلك ان شابًّا وُلد أبكم ولم يكن قد نطق قط فقطعوا لسانهُ فنطق كبقية الشهداء ولئلا يشكَّ احد الاريوسيين في صحة الآية بقي جميع أُولئك الشهداء يتكلمون بدون ألسنة الى ان انتهت آجالهم ما عدا اثنين زنيا فخرسا

وقد شهدت المعمورة كلها بصدق هذه الأُعجوبة . لان الشهداء المشار اليهم تشتتوا في شرق البلاد وغربها . وفي هذا تكلم القديس فيكتور احد مطارنة بلاد افريقية الذي كتب هذه الأُعجوبة عقب ثلث سنين من وقوعها فقال . من يشك في حقيقة هذه المعجزة يمضِ الى القسطنطينية لانهُ هناك يرى كثيرًا من اولئك الشهداء والشماس ريباراتوس الذي هو واحد منهم فانهُ يتكلم بفصاحة ولذلك كانت لهُ مكانة ورُزق حظوةً عند الملك زينون والملكة ارديانة . وشهد جوستينوس الملك انهُ رأى هولاء الشهداء المعظمين الذين كانوا يتكلمون بفصاحة بدون السنة وروى المؤرخ الذي تولّى أمر القسطنطينية على عهد جوستينيانوس الملك انهُ كان في عصرهِ من أُولئك الشهداء اناس احياء ينطقون بسهولة . واقول اخيرًا ان انياس الغزّي احد فلاسفة المسيحيين اراد ان يختبر حقيقة هذه الآية . فشهد ان السنة الشهداء المشار اليهم كانت قد انقطعت الى أُصولها وانهم مع ذلك كانوا يُحسنون النطق بسهولة . فهكذا اخزى سيدنا يسوع المسيح جاحدي أُلوهيتهِ بأُعجوبة مذهلة شاهدها وشهد لها العالم كلهُ

اليوم الثالث والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس ليبراتوس الطبيب الشهيد ورُفقتهِ الشهداء القديسين

ان القديس ليبراتوس كان طبيبًا حاذقًا واقام بقرطاجنة مدينة بافريقية وكان يتقي الله ويصطنع الى الفقراء ولهُ غيرة على شرف الدين وبهذه المناقب الحميدة صار حبيبًا الى كل اهل المدينة ومكرمًا . وفي ذلك العهد امر هونريكوس الملك الاريوسي بان تختطف من الكاثوليكيين اولادهم فيتربوا عند المبتدعين فخطف الجنود اولاد ليبراتوس وسلموهم الى الاريوسيين ليسقوهم سم البدعة ثم نُفي هو وامرأتهُ . فحزن ليبراتوس على ما ادرك اولادهُ من سوء الحظ وكبر عليهِ ذلك الامر وخاف انهم يجحدون الدين الصحيح . فلما رأتهُ امرأتهُ باكيًا ومضطربًا من شدة حزنهِ قالت لهُ ما هذا يا ليبراتوس أيحل لك ان تهلك نفسك بحب ابنائك فسلم امرهم الى العناية

الالهية فان المسيح الذي من اجلهِ أُختطفوا منا سيهتمُّ بهم اهتمامًا ابويًا وينصرهم على ذلك الملك الطاغي فتعزَّ وفوِّض الامر لله فانني واثقة بان الله يكللهم باكليل الاستشهاد

فتعزّى ليبراتوس بذلك الكلام وتقوّى حتى انهُ لم يعد يفتكر الاَّ في التأهب للاستشهاد . اما الاريوسيون فبحيث انهم يعرفون شجاعة قرينتهِ لم يسجنوها معهُ بل وضعوها في سجن آخر واخذوا يحتالون على ان يستميلوها الى مذهبهم تارةً بالتملق وتارةً بالتهدد . وبحيث لم ينالوا مآربهم منها ذهبوا الى المرأة وقالوا لها كذبًا ان زوجها قد اطاع الملك وصار آريوسيًا فاحتالت عليهم المرأة بحكمةٍ قالت احضروا لي زوجي فافعل ما بقلبي . فأُخرجت من السجن ومثلت امام الحاكم لتقول ما ايمانها. فلما دخلت المحفل وجدت زوجها فاقتربت اليهِ وقالت لهُ كيف امكن ان تصل الى هذا الحد من النفاق وتكفر بالله . بل كيف زججت بنفسك في الهلاك الابدي رغبةً في حطام الدنيا الفانية. أتظن ان اموالك تنقذك من نار جهنم الدائمة فهي لعمر الله لا تغني عنك شيئًا فانظر ماذا تقدمهُ فداءً عن نفسك. والحاصل ان ليبراتوس لما اطلع على خباثة المبتدعين قال لامرأتهِ لماذا صدقتِ بما اتهمني بهِ الاريوسيون كذبًا واعتقدتِ اني كفرت بالايمان ثقي لاتخافي اني ثابت على الايمان الكاثوليكي ولا يفصلني عنهُ شيء لاني ارجو من الهي ان يقدرني بنعمتهِ على احتمال العذاب وقبول الموت من اجل اسمهِ القدوس . فحكم عليهما بان يُعذبا عذابًا اليمًا وتحت ذلك العذاب نالا اكليل المجد الابدي (اما ترجمتها فادرجها البولانديستيون في اليوم الثالث والعشرين من اذار)

انهُ قد اثبتت التواريخ ان المبتدعين اضطهدوا تلاميذ السيد المسيح اشد مما اضطهدهُ الوثنيون والكفَّار . وقد اختبر ذلك بالتجربة الشهيدان المذكوران. لان الاريوسيين عذبوهما بكل ما اخترعتهُ الارواح الجهنمية من اشد التعاذيب اما بقية الشهداء الذين أُخذوا معهما ومنهم كثيرون كانوا اكليريكيين فسُلّموا الى ايدي البرابرة لينقلوهم الى فيافٍ بعيدة ليموتوا هناك جوعًا وشقاءً . غير انهم قبل ان ينتهوا الى تلك الفيافي احتملوا اتعابًا وأَعذبةً امرَّ من الموت لان الذين ضعفت قواهم من الجوع وتعب الطريق كان البرابرة يسوقونهم بطعن الحراب والسهام يربطونهم بارجلهم ويجرُّونهم كالبهائم فيما بين الاشواك والحجارة ومن اجل ذلك تمزّقت اجسادهم وماتوا

اما الامر العجيب الذي بهِ تمجَّد الله وتشرَّفت الكنيسة الكاثوليكية فهو ان اولئك الشهداء كانوا يظهرون الابتهاج العظيم مرتّلين التسابيح الالهية ومعترفين في كل مكان وفي كل وقت بالثالوث الاقدس وشاكرين سيدنا يسوع المسيح على انهُ أهَّلهم لان يتألموا ويموتوا شهادةً لالوهيتهِ وكان الكاثوليكيون يأتون للقائهم ويرافقونهم في الطريق بشموع مشتعلة ويخاطبونهم بالأسف والبكاء قائلين يا ايها الشهداء السعداء لماذا تتركوننا هذا الترك فمن الذين عساهم ان يعمدوا اطفالنا ويصلوا على موتانا بحسب طريقة البيعة المقدسة ومن ذا عسى ان يناولنا الاسرار المقدسة ويحلنا من خطايانا ويصالحنا مع الله بسر التوبة . ومن الذي فيما بعد يقدم عندنا الذبيحة الالهية ومن يقدّس على مذابحنا. هذا ما كان يقولهُ المؤمنون بافريقية في السنة الرابعة والثمانين من المائة الخامسة للمسيح

وقد ذكر فيكتور المؤرخ الذي حضر هذا الاضطهاد وكتب عنهُ ان غلامًا مسيحيًا خُطف وهو ابن سبع سنين من يد امهِ وشرعوا يعذبونهُ وهو يقول على الدوام انا مسيحي كاثوليكي . وقد خبرنا ايضًا المؤرخ المشار اليهِ ان ثوشار رجلاً اريوسيًّا كان قبل جحودهِ الايمان الكاثوليكي يعلّم الترتيل في الكنيسة رأى بين الاكليريكيين المحكوم عليهم بالنفي اثني عشر صبيًّا كانوا يتعلمون منهُ الترتيل . فامسكهم وجعل يتملقهم تارةً ويتهددهم اخرى لعلهُ يميل بهم بتلك الواسطة الى الكفر بالوهية المسيح والعياذ بالله . فخاب املهُ وآمال المبتدعين بحيث عُذّبوا كثيرًا وما برحوا معتصمين بحبل الدين القويم حتى الموت

اليوم الرابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة كاترينا البتول ابنة القديسة بريجيتا

ان هذهِ القديسة وُلدت في السنة الثلثين من الجيل الرابع عشر للمسيح وهي ابنة أُلفون امير نيريكيا مدينة بمملكة سويكيا وامها القديسة بريجيتا على ما في عنوان هذهِ الترجمة ورضعت العبادة مع لبن امها . وبناء على ذلك مالت نفسها منذ الصغر الى الفضيلة وبعد ان فطمتها والدتها سلمتها الى رئيسة دير لكي تربيها فيما بين القديسات فتسير معهنَّ في طريق البرّ . ولما ترعرعت اراد والدها ان يزوجها . فاخبرتهُ انها قد

اختارت السيد المسيح عروسًا لها . غير ان والدها لم يرتضِ بذلك بل زوَّجها باغاردوس احد عظماء المملكة . فارتضت هي ايضًا بذلك راجية من يسوع ان تظفر بمنية قلبها النقي على نوع آخر

هذا وفي يوم عرسها انفسهِ ذكرت لخطيبها بفصاحة مقدسة غلاء ثمن العفة وان الله يحب هذه الفضيلة كثيرًا . فاثر كلامها في قلب اغاردوس وفي الحال نذر اثناها العفة الدائمة . ومن اجل هذا الفعل الناشيء عن برّ صريح افاض الله سبحانهُ عليهما نِعمًا وافرة ولذلك صارا يحبان السماويات ويجدان بر الله طيبًا ومن ذلك اليوم السعيد الذي فيهِ تعبّدا لله اتجهت كل محبتهما الى سيدنا يسوع المسيح بممارسة رياضات الصلاة والتقشفات المضنية وافعال الرحمة ولا سيما الاصطناع الى الفقراء . اما كاترينا فبعد يوم واحد من عرسها نزعت عنها كل زينة دنيوية واثوابها الثمينة المزخرفة

ثم استأثرت رحمة الله بأُلفون والدها الامير المذكور سابقًا وحينئذٍ عزمت والدتها القديسة بريجيتا على ان تزور الاماكن المقدسة برومية . فاستصعبت كاترينا جدًّا مفارقة امها الفاضلة فطلبت اذنًا من زوجها لان تمضي الى رومية مع والدتها . وبرضائهِ سافرت ووصلت بسلام الى رومية المدينة المكرَّمة وهنالك كانت هي ووالدتها تنموان بالفضيلة يومًا فيومًا ولم تكن كاترينا يومئذٍ الَّا ابنة ثماني عشرة سنة وكانت ذات جمال يندر ان يكون لهُ مثال . ومن اجل ذلك كانت والدتها تحثها على الاختلاء والابتعاد عن معاشرة الناس لانهُ في ذلك الزمان كان البابا خرج من رومية وانطلق الى فرنسا ولذلك كان الرومانيون على شر حال . وفي ذلك الزمان بعينهِ استفاض الخبر في اكثر الجهات بان زوج كاترينا قد مات فاحب كثيرون من عظماء ايطاليا الاقتران بها . واما هاتيك الارملة النقية فأبت ان تتزوَّج ثانيةً ولذلك عزم احد المغرمين بها على ان يخطفها

وفي غضون ذلك مرضت القديسة بريجيتا وارادت كاترينا ان تزور بعض اماكن مقدسة بظاهر المدينة . فذهبت برضا والدتها مع كثير من نساء ارباب الدولة ودرى بذهابها شابٌ من الامراء كان متعشقًا لبهاء جمالها فذهب واختبأ وجماعةً من الجنود في كرمة بقرب الطريق . فلما مرّت كاترينا بذلك المكان خرج عليها الامير بجنودهِ ليختطفها . غير انهُ بتدبير العناية الالهية المهتمة بحفظ البتول . ظهرت في الحين أيلة امام الجنود فشغلتهم عن غرضهم الخبيث بحيث جروا وراءها بسرعة واقتفوا اثرها ليقتلوها . فهربت وقتئذٍ كاترينا وهكذا نجت من فخ الدنس . اما القديسة بريجيتا فأُلهمت كل ذلك . فلما عادت ابنتها تقدمت والدتها وقالت لها لتكن مباركة تلك الايلة التي استخدمها الله لتخلصكِ من ايدي الاشرار . فلنشكرنهُ تعالى على ذلك شكرًا جزيلاً فدعي من الان فصاعدًا مثل هذه الزيارات واتركي رياضات العبادة الظاهرة وفضّلي عليها الاختلاء والعبادة الباطنة . فامتثلت كاترينا امرها فلم تعد تخرج من بيتها الَّا قليلاً . على انها ما كانت تخرج الَّا مع والدتها

فلما كان عيد القديس لورنسيوس الشهيد الذي يعيدهُ الرومانيون بالاحتفال والتكريم خرجت القديسة بريجيتا بابنتها لزيارة ذاك المكان المقدس . فكمن لها ايضًا ذلك الامير في بستان على الطريق وبقي هناك الليل كلهُ مع جنودهِ ينتظرون الفرصة . غير ان النعاس غلب عليهم فناموا نومًا ثقيلاً بحيث لم ينتبهوا الَّا بعد ان مرّت كاترينا مع والدتها ودخلت الكنيسة . فاخبر الجنود الامير بما كان فاخذ يسألهم هل الصبح بعيدٌ بعدُ . فقال لهُ الجنود ما هذا السؤال اما ترى الشمس قد اشرقت منذ ساعتين . حينئذٍ انتبه الامير على سوء نيتهِ وخبث مقصدهِ وعلم موقنًا ان الله تعالى انما ضربهُ بالعمى جزاءً بما قدمت يدهُ فطلب منهم ان يهدوهُ الى الكنيسة ولما وجد فيها القديسة كاترينا مع امها خرَّ باكيًا امامها وأقر بقصدهِ الرديء تائبًا توبةً نصوحًا وطلب منها ومن امها ان تتضرَّعا الى الله لعلهُ ينظر اليهِ ويلطف بهِ . فأسفتا عليهِ وصلّتا من اجلهِ فعاد اليهِ بصرهُ

فلما راى الشيطان انهُ قد خاب مسعًى وحبط عملاً بحيث نصب لها فخاخ البغاء والدنس ولم يقدر ان يصطادها اخذ يُلقي في قلبها الضجر وكاد ينتصر عليها . فملّت من السكنى في رومية مع والدتها . لاجل التزامها بملازمة الاختلاء في بيتها ولأنها كانت ممنوعة عن زيارة الكنائس المقدسة . حنّت نفسها الى وطنها فطلبت من والدتها ومعرّفها اذنًا لترجع الى سويكيا . فما رضيا بذلك فاستولى على كاترينا حزن شديد شوَّه جمالها وغيّر بهاء طلعتها كل التغيير . فاشارت عليها والدتها بان تلتجيء الى والدة الله وتطلب منها ان تكون


H. CATENACCI. INV. D.
MORICE. SC.

لها مرشدة في هذا الامر وتبين لها ما يريد الله تعالى منها . فانقادت كاترينا لمشورة والدتها وبارك الله عليها من اجل طاعتها ودليل ذلك ان ام الرحمة عليها السلام تجلت لها بوجهٍ عبوس وقالت لها . انني لا اتشفع عند الله في من نسيت ما وعدتهُ بهِ واشتهت مشاهدة بلدتها ومعاشرة اقربائها . فاثر هذا التوبيخ المريمي في كاترينا . ولما انتبهت انت والدتها وعاهدتها انها تطيعها وتنقاد لها في كل امر . ومن ذلك اليوم احسنت الاختلاء فزادت على اصوامها وتقشفاتها . وجعلت تصلي كل يوم اربع ساعات واما باقي الوقت فكانت تصرفهُ في قراءة الكتب الروحية وعمل اليد وافعال الرحمة

وهام قلبها بالله فاشمأزت من الدنيا حتى كرهت ذكرها وابغضت التحدث بامرها وبناء عليهِ لم يأتِ لاحوال الدنيا ذكر في كل ما جرى بينها وبين والدتها من المخاطبات . وانما كان خطابها مقصورًا على ذكر المسيح . وزارت هي وامها اورشليم ورأت كل ما هنالك من المواضع المقدسة ولا ريب ان زيارتها لتلك الاماكن المكرمة كانت مقرونة باتمّ العبادة . ثم عادتا الى رومية وبعد قليل من ايابهما الى رومية رقدت القديسة بريجيتا . وبعد شهر من موتها رجعت كاترينا الى سويكيا ومعها جسد والدتها القديسة بريجيتا . فوضعتهُ ذخيرة في دير من اديرة الراهبات وهناك ترهبت حالاً واكملت حياتها بالبر وماتت في بيرامون عيد البشارة سنة ١٣٨١ للمسيح . وكانت يومئذٍ ابنة احدى وخمسين سنة . ومن اجل برارتها وعجائبها كتبت الكنيسة اسمها في سفر القديسات في السنة الرابعة والسبعين بعد الالف والاربعمائة (فادرج البولاندستيون ترجمتها في يوم وفاتها اما السنكسار اللاتيني فيذكرها في اليوم الثاني والعشرين من شهر اذار)

اليوم الخامس والعشرون

وفيهِ عيد بشارة مريم العذراء والدة الله

اننا من حيث اردنا ان نتكلم الان في سر تجسد ابن الله في مستودَع مريم البتول . وجب علينا ان نلتفت في الكلام على ذلك السر الغريب الى الله الذي لا حدّ لحكمتهِ ولا قرار لبحر جودهِ فانهُ قد اخترع لفدائنا هذه الواسطة التي لا تدركها الالباب بل تحير فيها عقول العالمين . ولا جرم انها اعلى من ان يفهمها العقل ولذلك كفل بتأييدها كتاب الله . ولا ريب انهُ كان في امكان الله ان يُنجي البشر من خطاياهم بوسائط مختلفة ولكنهُ لم يستطع ان يختار وسيلةً غير هذه انسب لمجدهِ وانفع للبشر

قلت انهُ لم يقدر الله ان يختار واسطة انسب لمجدهِ من التجسد الالهي لكون عظمة الفعل تظهر عظمة الفاعل . ومن ثم كان ينبغي لله الفاعل العظيم ان يعمل عملاً يليق بعظمتهِ وحكمتهِ الغير المتناهيتين وليس لمخلوق كمال غير متناهٍ بل كمالهُ في حكم العدم بالنسبة الى كمال الخالق سبحانهُ ولذلك عمل الله عملاً اجلّ من كل اعمالهِ فكشف بهِ كنوز حكمتهِ وقدرتهِ الغير المتناهيتين بحيث ان ذلك الفعل يوازي عظمة صانعهِ في الجلال والكمال . فواعجبا كيف اتحدت الطبيعة الالهية مع الطبيعة البشرية والازلي بالزمني . والغير القابل الالام والموت بالذي هو قابل لها

اعلم انهُ بمقدار ما يكون المعطي اجل سخاء بمقدار ذلك يجب ان تكون عطيتهُ افضل ثمنًا واكثر قيمةً لانهُ يجب ان يُعطي الفقير كفقير . والغني كغني . والملك كملك . والله تعالى ككالهِ لكي تكون العطية مناسبة لحال المعطي . والحال ان الله سبحانهُ هو اعظم الملوك . وليس لعظمتهِ وسخائهِ حدّ ولا قياس . فمن ثم ما يمنحهُ ويعطيهِ من دون ان يمنح ذاتهُ فانهُ شيء جزءي بل كلا شيء بالنسبة الى ما في كنوز قدرتهِ ومخازن سخائهِ . وبالنتيجة لما اراد الله ان يخوّلنا خيرًا يناسب عظمة المعطي ويوازيها لم يقدر ان يعطينا الاّ ذاتهُ وهذا هو الذي قد تم في سر التجسد الالهي . على ان الله الذي كان قد وهب الانسان كل خيور الارض والسماء لما راى انهُ لا مناسبة بينها وبين عظمتهِ الغير المتناهية مطلقًا اراد ان يمنحنا ذاتهُ مشيرًا بذلك الى انهُ اعطانا اعظم العطايا بل منحنا كل خير وهذا فحوى ما تكلم بهِ الرسول قائلاً : الذي لم يشفق على ابنهِ عينهِ بل بذلهُ لاجلنا جميعًا فكيف لم يمنحنا كل شي ايضًا معهُ (رومية ٨ : ٣٢)

ان هذه الهبة التي لا يدرك لها ثمن كثيرًا ما يتمجد بها الله ويتنعم بسببها الانسان ولا جرم فان الله سبحانهُ اظهر في تجسد المسيح باسلوب عجيب جدًا اخص كمالاتهِ . فهي تميل بنا الى محبة الله ومخافتهِ ميلاً فاعليًا . لاننا نرى في هذا السر العجيب جود الله الغير المحدود الذي منهُ تتخذ الخليقة كل خير . ولا ريب فان الجود يقتضي التشريك وعلى هذه القاعدة اشترك

الانسان بالذات الالهية فا الخيور كلها بالنسبة الى الله كما قال الحكيم الا نقطة ندى (حكمة ١١ : ٢٢) وقال اشعيا النبي ان جميع الامم كلا شيء امام الله ويعدُّها الله كلا شي (اشعيا ٤٠ : ١٧) وبالنتيجة ان الشركة التي بها يشرك الله الانسان في كل هذه الاشياء التي عدَّها النبي كلا شيء ليست هي الشركة العظمى التي لاتوجد الا في تجسد المسيح الذي بهِ يشرك الله الانسان في ذاتهِ وذلك بجمع الطبيعة الانسانية بالطبيعة الالهية في اقنوم واحد من غير اختلاط ولا امتزاج

وماذا اقول عن القدرة الالهية الضابطة الجميع التي تظهر في هذا السر العظيم . لان الله سبحانهُ جمع فيهِ شيئَين بينهما اختلاف لا يوصف اللاهوتية والبشرية والولادة والبتولية وماذا اقول ايضًا عن الحكمة الالهية التي اكملت هذا السر . لا يخفى انهُ جاء في كتاب الله ان الخطيئة دخلت العالم ودخل بسببها الموت وما كان ذلك الا بانسان واحد فشاء سبحانهُ ان انسانًا آخر يقدم العلاج . ولاننا كنا قد هلكنا كلنا بتكبر انسان واحد فخلصنا بتواضع انسان آخر هو اله ايضًا . ثم ان الله تعالى اظهر في هذا السر عدلهُ ورحمتهُ . وهذان الكمالان تلاقيا فيهِ وتلاثما بحيث انهُ من احدى الجهات اتخذ العدل الالهي وفاء تامًّا . وبكل ما يقتضيهِ تدقيق العدل عما كان يحق لهُ لاجل جميع خطايا العالم في كل الازمنة وما كان ذلك الا بطاعة ابن الله الذي اتحد بالطبيعة الانسانية وبها اضحى قابلاً للآلام والاستحقاق . ولا ريب ان عظمة الاقنوم الالهي جعلت للاستحقاق وفاء غير متناهٍ وفي هذا قوام مجد الله الاعظم . وليس ذلك بعمل انسان اعتيادي بل عمل انسان هو اله حقًّا . وقد اظهر الله تعالى في هذا السر العظيم شدة عدلهِ لانهُ اراد ان يكون الوفاء عن خطايانا موت ابنهِ الحبيب بحيث كان من المستحيل ان واحدًا من البشر يفي هذا الدين العظيم وابان ايضًا وفور رحمتهِ . من اجل انهُ بمقدار ما عامل ابنهُ بقساوة شديدة عامل الانسان برحمة جزيلة . وذلك حينما احب ان يموت على الصليب ويحتمل العذاب الذي كان علينا ان نكابدهُ . وان ذلك يحثنا على تقدمة الشكر لله وحب جودهِ وعلى التعجب من عدلهِ ورحمتهِ وبقية كمالاتهِ التي تتلالا في هذا السر لانهُ من ذا الذي لا يحب هذا الجود الازلي الغير المحدود . الذي مع انهُ لم يحتج الينا اشترانا بهذا الثمن العظيم . فهل من قلب صلد قاس لا يلين بالمحبة ولا يذوب شوقًا تجاه هذه النار الالهية . ومن ذا الذي لا يحب من احبهُ حتى جاد بنفسهِ وفدى لهُ فان رب المجد سقط من السماء الى الارض ليصعدنا من الارض الى السماء . ثم انهُ ينبغي للمؤمن عندما يتأمل هذا السر ان يرتعد من احكام عدل الله بحيث ان الله من اجل الوفاء عن خطايانا اراد ان يموت ابنهُ . فليت شعري ايُّ عذاب يُذيقنا اذا اسأنا اليهِ بعد ذلك الاحسان العظيم فان كان لم يشفق على ابنهِ الحبيب البار بل البرّ بالذات فهل يُشفق على الاسير المارد الاثيم

ألا اعتبر الان ما حاز الانسان من المجد السامي والشرف الباذخ بواسطة تجسد ابن الله . والى ذلك اشار الرسول بقولهِ اننا ننطق بحكمة الله في سر تجسدهِ (ا كورنتس ٢ : ٧) حكمة مخفية قد نقدم الله انسانًا نظيرنا ونحن نصير اخوة الله . ومن ثم قد دعانا بهذه التسمية السيد المسيح وذلك بقولهِ اني ابشر باسمك اخوتي (عبرانيين ٢ : ١٢) اننا اعضاء السيد المسيح ومن لحمهِ وعظامهِ . وبهِ ارتفعت طبيعتنا الى ما فوق كل طغمات الملئكة . فلننظرنَّ الى شرف نسبنا الالهي ولنحذرنَّ ان نحقرهُ بسيرة لا تليق بالشرف السامي

وينبغي لنا ان ننظر في سرّ التجسد الالهي ايضًا الى عظم سموّ برّ البتول التي انتخبها الله منذ الازل ليتخذ من حشاها الطاهر ناسوتنا . فقد ارتقت الى اعلى مراتب العظمة التي يمكن للبشر الارتقاء اليها كما ارتفعت الى اسمى مقامات البرّ الذي تستطيع البشرية وصولاً اليهِ وانما ذلك لتكون العذراء متزيّنة من البرّ والفضل بحيث يليق ان تكون والدة الله . وقد اظهر الله في تلك البتول الجليلة قدرتهُ وحكمتهُ وجودتهُ بان زيّنها باسمى المواهب دون العالمين طرًّا . ولذلك فضلها القديسون اذ مدحوها على اجلّ اولياء الله وملئكتهِ المقرّبين . ولعمري ان مناقبها الحسنة لا يتعاظمها مديح بل كل مديح هو دون برها السامي . ولهذا قال القديس اغستينوس لتصمت كل خليقة مرتعدة تجاه هذه البتول الجليلة ولا تلاحظ علو مقامها الا بالخوف والمهابة

قال لوقا البشير ان الله ارسل الملك جبرائيل الى هذه البتول السعيدة . وانها كانت ساكنة في الناصرة مدينة في الجليل مخطوبة لرجل اسمهُ يوسف من ذرية الملك داود واسمها مريم فتأمل الان شرف هذه الرسالة . فالمرسِل هو الله نفسهُ والمُرسَل هو واحد من اجلّ روساء الملئكة . ولذلك

سمي جبرائيل ومعناهُ جبروت الله. والمرسَل اليهِ مريم البتول التي انخفض لمقام قدسها الملئكة المقرَّبون. وانما كانت ذات رجلٍ صونًا لصيتهـا وصيت ابنها ومن اجل مساعدتها ولتكون قدوةً للعذارى والمتزوِّجين. اما خطيبها يوسف فكان رجلاً عفيفًا واهلاً لمثل هذه الخطيبة. واما الغرض من ذلك فكان تجسد ابن الله في مستودع البتول واتخاذهُ الكنيسة المقدسة عروسًا لهُ تعالى. ولما كان الزواج لا يصحُّ ولا يتمُّ الاَّ بارتضاء الفريقين وجب ان يُرسل ملَك الى القديسة مريم لكي يطلب منها ان ترتضي هي وبفمها يرتضي جنس البشر الذي كانت تمثِّلهُ بشخصها. فانما قيل لها مريم لانها سيدة ومعنى لفظة مريم سيدة ومنيرة ونجمة البحر كما قال القديس ايرونيموس وهي سيدة الدنيا كلها لانها حية بعينها وسلطانة من في الارض والسماء والجحيم من الناس والملئكة. ولا جرم فانها عروس الآب ملك العالم كلهِ ووالدة رب السماء والارض وهيكل الروح القدس. وبناء عليهِ اراد الثالوث الاقدس ان تكون عروسهُ ووالدتهُ وهيكلهُ في حال الكرامة. فيالها من سيدة اتحفت بشمس العدل وبنورها مزَّقت ظلام الخطيئة. وبها ومن حشاها الطاهر اتانا نور الله الازلي الحقيقي الذي يضيء لكل انسان آتٍ الى العالم. ثم ان العذراء هي نجمة بحر هذا العالم الهائج وقطبهُ واليها ينبغي ان يوجه نظرهُ من يسافر في بحر هذه الدنيا ويريد ان يصل بسلام الى ميناء السعادة الابدية

وكانت تلك الفتاة الكلية الغبطة على ما قال بعض الاولياء منفردة في حجرتها مصلِّية ومتأملة سر التجسُّد الذي تحير فيهِ عقول العارفين. وكثيرًا ما كانت تتضرَّع الى الله بلواعج الشوق لينجز وعدهُ فيرسل المنتظر من كل القبائل. فحينما كانت خائضة في تأمل هذا السر العظيم تجلَّى لها ملَك بصورة شاب بهيّ المنظر وسلَّم عليها بأتم الاحترام قائلاً لها السلام عليكِ يا ممتلئة نعمةً الرب معكِ مباركة انت في النساء وانما زار الملَك العذراء وحيَّاها بما حيَّاها لانهُ كان مبعوثًا من قِبل الله وفعل الله ذلك لتعلم النساء العذارى كم يسرّ الله تعالى ان يفررنَ من لذات الدنيا وينكبَبنَ عن مخالطة الناس. ولم يدعُها الملَك يا ممتلئة نعمةً كما دُعي بعض القديسين ألا ترى انهُ يقال العين والبحيرة ممتلئان ولو كان امتلاؤها مختلفًا. فالسيد المسيح كان ممتلئًا من النعمة مثل النبع الصافي الذي منهُ كرأس تفيض النعم كلها على الاعضاء. ولا ريب ان العذراء كانت كنهر كبير واما بقية القديسين فكانوا جداول في كل من النعم حسب اتساعهِ وفي هذا الصدد قال القديس ايرونيموس ان الله عزَّ وجل اعطى القديسين جزءًا من النعمة اما مريم فانها قد أُعطيت كل النعمة لانهُ في حشاها الطاهر سكن مصدر النعمة وينبوعها

ثم قال الملك للعذراء الرب معكِ فكانهُ يقول لها انهُ من حين الحبل بكِ حلَّ الله في قلبكِ بنعمتهِ ولذلك انتِ مباركة في النساء لان بقية النساء لا يخلو اما ان يكنَّ عواقر او والدات بالمخاض واما انتِ فانما تحبلين بقوة الروح القدس وتحملين الجنين بالفرح وتلدين بلا تعبٍ وبدون ان تزول بكوريتكِ وانما اضطربت لانها كانت طاهرةً عفيفةً والملَك وقف بازائها بصورة شاب جميل المنظر وتجلت ايضًا بحيث كانت متضعةً والملك اخذ يمدحها بما لم يُمدح بهِ احد قط. ولهذا فكَّرت هل هذه المدائح من روح الصلاح ام من روح الشر. ولا غرو فان المتضع شأنهُ ان يحذر من كل مجدٍ يسلب كنز الاتضاع. فلما رآها الملَك في حال الاضطراب قال لها لا تخافي يا مريم لانكِ وجدتِ نعمةً عند الله. فكانهُ يقول لها ليخف الذين قد سقطوا من نعمة الله بالخطيئة اما انتِ التي لا نظير لها بين اعزَّاء الله واحبائهِ فلماذا تخافين. ثم اعتبر توقد فطنة العذراء التي كقول الانجيلي لا تؤمن بكل روح بل تجرِّب الارواح هل هي من الله (يوحنا اولى ٤ : ١)

وقال لها الملَك بعد ذلك ها انتِ تحبلين في البطن وتلدين ابنًا وتدعين اسمهُ يسوع هذا يكون عظيمًا وابن العلي يُدعى ويعطيهِ الرب الاله كرسي داود ابيهِ ويملك على بيت يعقوب الى الابد ولملكهِ لا يكون انتهاء (لوقا ١ : ٣١ و٣٢ و٣٣) فكانهُ يقول لمريم ان المسيح الرب الذي وعد الله بهِ واشتهت الاباء مشاهدتهُ وبشَّرت بهِ الانبياء واليهِ جاءت كل رموز العهد القديم وطلبتهُ الامم كافةً واشتاقت الى مرآهُ الشعوب هو الذي ستحبلين بهِ كحبل الام بابنها وتلدينهُ وتدعينهُ يسوع اي مخلصًا لانهُ سيخلص العالم وهو سيكون عظيمًا امام الله اكثر من يوحنا المعمدان بل سيكون كالله سبحانهُ في العظمة. لان يوحنا ما هو الاَّ انسان واما يسوع فهو اله عظيم وليس لملكهِ ابتداء ولا انتهاء بحيث انهُ مبدأ كل شي

وغايتهُ . فتحبلين بهِ وتلدينهُ واعلمي انهُ سيكون عظيماً في السماء والارض وتحت الثرى وان كل ركبةٍ تجثو لهُ في السماء والارض والجحيم

حينئذٍ اجابتهُ العذراء قائلةً كيف يكون هذا ولم اعرف رجلاً . وفي ذلك اشارة الى انها لا تريد لنفسها امومة المسيح ان كانت بكوريتها تزول بسبب تلك الامومة فكيف لا وهي التي قالت كيف يكون هذا ولم اعرف رجلاً . فكأنها تقول انما اتخذت يوسف لحفظ طهارتي والاّ فانا عذراء عفيفة . فكفى بالبتولية بهاء وحبذا هي منقبة فضّلتها سيدة العالم على مثل هذا الشرف الذي لا نظير لهُ . فقال لها الملاك ان روح القدس يحلّ عليكِ وقوة العلي تظللكِ لان المولود منكِ قدوس وابن الله يُدعى . لا تظني ان حبكِ للبتولية يُعدمكِ شرف الوالدية الالهية . او ان المنتظر منهُ ان يشير بالعفاف والتبتل يضرّ ببكوريتكِ . فلولا عفافكِ وتفضيلكِ التبتل على كل شيء لما اصطفاكِ والدةً للمسيح المخلص وبناء على ما مرّ اعلمي ان سر التجسد لا يتمّ بواسطةٍ طبيعية لانهُ يفوق الطبيعة . فلا تقولي كيف يتم ذلك مع كونكِ لا تعرفين رجلاً لانهُ يتمّ فيكِ من اجل هذا السبب عينهِ لانكِ لا تعرفين رجلاً . ولا ريب ان الابن المنتظر ان يولد منكِ انما هو ذلك الحجر الذي سينقطع بغير يد وبلا واسطة بشرية وهو العلّيقة المتقدة التي لا تفنى (دانيال ٢ : ٣٤) لان الروح القدس يحلّ عليك ويحيط بكِ قوة العلي لكي تستطيعي ان تحملي في مستودعكِ من هو نار آكلة وضياء مجد الآب (خروج ٣ : ٢)

والحاصل ان البتول عليها السلام لما سمعت هذه البشارة ذهبت الحيرة بفكرها كل مذهب فاجابت الملاك قائلةً هاأنذا أمة الرب فليكن لي كقولك . فهذه هي الالفاظ التي سرَّت السماء والارض واطلقت الاسرى وخلّصت جميع ابناء آدم . وفي الكلمات المذكورة اشارة الى فضائل كثيرة ولكنها على فضيلة الاتضاع أدلّ . وان ذلك عظيم جدًّا لان التواضع يعظم اذا كان المتضع جليل القدر عالي المقام وليس هو بعظيم ان كان من دنيء مخفوض المقام

فحالما نطقت البتول بتلك الكلمات جبل الروح القدس في مستودَعها جسدًا صغيرًا من اطهر دمها وفي تلك الدقيقة خلق نفسًا وافاضها في ذلك الجسد موحدًا الله هذا الناسوت المقدس والطبيعة الالهية في اقنوم ابنهِ الوحيد الذي بقوة اتحاده هذا هو اله وانسان معًا . ابن الله حقًّا وابن مريم العذراء حقًّا وهي والدة الله حقًّا بحسب كونها ولدت انسانًا هو اله ونظرًا الى ذلك فانهُ حاز من نِعَم الله ما لا يصل الى ادراكهِ عقل بشر بحيث انهُ علاوة على النعمة الاولى نعمة اتحادهِ باقنوم ابن الله جل شانهُ وارتفاعه على كل ما خُلق وما يُخلق . قد صار حينئذٍ رأسًا عامًّا للناس طرًّا لكي تفيض منهُ النعمة على ذرية آدم كلها . فليس برٌّ على الارض غير الذي يجري من هذا الينبوع المقدس وما بارٌّ من لم يأخذ البرّ منهُ . وقد أُفيض فوق ذلك على ناسوت المسيح كل النعم الممنوحة مجانًا كفعل العجائب واخراج الشياطين . ونال كل مواهب الروح القدس لان الله وضع كل كنوز حكمتهِ وعلمهِ في هذه النفس المقدسة لاجل شرف اتحادها باقنوم ابن الله . الى هنا انتهى الكلام على التجسد وهو اوضح دليل على شدة محبة الله للبشر

اليوم السادس والعشرون
وفيهِ ترجمة القديس اسحق الراهب

من القواعد المقررة في كنيسة الله تعالى ان الله سبحانهُ اذا سخط على مملكةٍ او بلدةٍ سلط عليهم ملوكًا وولاةً طغاة يستخدمهم لتأديب شعبهِ وتقويم عوجهِ . ولكنهُ بعد ذلك يبيدهم فانما مَثَلهم مَثَل عصًا استخدمها الاب لتربية ابنهِ ثم القاها في النار وقد حدث مثل ذلك للملك والنس الاريوسي الذي اضطهد الكنيسة الكاثوليكية اضطهادًا قويًّا حتى انهُ هدم الكنائس وأخرب المعابد واخرج الاساقفة وافرغ كنانة جهدهِ ليستأصل الايمان الكاثوليكي وما زال كذلك حتى رضي الله على عبادهِ وانتقم منهُ بان اثار عليهِ البرابرة فانتصروا عليهِ فاحرقوهُ بالنار في منزل حقير كما سيُذكر

ان الله عزَّ وجل نبَّه والنس الملك المذكور قبل ان يؤدبهُ ارسل اليهِ من اقاصي الشرق راهبًا قديسًا اسمهُ اسحق لكي يتوب على يدهِ وينبئهُ بالانتقام الالهي الذي سيدركهُ ان لم يرجع الى الصواب ويجرِ على الصراط المستقيم . وكان اسحق قبلاً يحزن في خلوتهِ على شقاء العالم ويسأل الله تعالى بدموع سخينة ان ينهض وينجي الكاثوليكيين من يد ذلك الملك المبتدع . فلما عرف ان والنس الملك قد خرج بجيش عظيم لمحاربة البرابرة الذين كانوا قد اقتربوا من القسطنطينية تقدّم اليهِ القديس اسحق وقال لهُ يا ايها الملك افتح كنائس

الكاثوليكيين التي اغلقتها فتنتصر على البرابرة . فلما سمع الملك ذلك عدَّ القديس مجنونًا فلم يجبهُ بكلمة بل تقدم على وجههِ . ثم في يوم آخر مثل القديس ايضًا لدى الملك وقال لهُ ثانيةً ايها الملك افتح بِيَع الكاثوليكيين فترجع الى عرشك ظافرًا منصورًا . فوقف الملك متأملاً وعزم على ان يفتح ابواب الكنائس المذكورة لا حبًّا بالقوم الكاثوليكيين بل املاً في الانتصار الذي وُعد بهِ ولكنما مستشاري الدولة صدُّوهُ عن ذلك فردَّ القديس خائبًا . على ان ذلك لم يُخمد من غيرتهِ عليهِ السلام بل ذهب وراء الملك مرةً ثالثةً في الطريق وامسك عنان جوادهِ ثم قال لهُ اعلم ايها الملك ان غضب الله سيحل عليك وينزل بك انتقامهُ عاجلاً لانك رفضت طلبتي ولم تفتح كنائس الكاثوليكيين . فغضب عليهِ والنس وامر بان يطرح في وهدة عميقة كانت على الطريق . ولكن بعد قليل اتى الملئكة واخرجوا اسحق من الوهدة سالمًا . فسار حالاً راكضًا ولحق بالملك ايضًا وقال لهُ انك لقد ظننت ايها الملك اني اموت في تلك الوهدة فها ان الله تعالى اخرجني منها سالمًا وارسلني لأقول لك من قِبلهِ انهُ هو الذي اثار البرابرة عليك من اجل انك تحارب الكاثوليكيين فمر ان تفتح الكنائس المقفلة فتظفر باعدائك . والحاصل ان النصح لم ينجع بهِ لانهُ كان قاسي القلب فامر ان يقبضوا عليهِ ويسلمهُ الى اثنين من ارباب المجلس الكبير فيكتور وساتورنينوس لكي يبقياهُ الى ان يعود من الحرب فيعذبهُ . حينئذٍ قال لهُ القديس ما قالهُ ميخا النبي لأخاب الملك المنافق ان رجعت من الحرب سالمًا فتحقق وقتئذٍ ان الله سبحانهُ لم يتكلم بفمي ولكنني أُنبئك من الان بانك تُغلَب وتقع بايدي البرابرة فيحرقونك حيًّا فافعل ما تشاء

اما الملك فلم يعبأْ بتلك النبوة ولا التفت الى كلام القديس مطلقًا بل مضى واضرم نار الحرب فتقوَّى عليهِ الاعداء وظفروا بهِ ظفرًا بليغًا. فهرب واختبأَ في منزل حقير وجدهُ في الطريق حيث ادركهُ البرابرة واحرقوهُ . اما القديس اسحق فغدا بعد ذلك مكرمًا جدًّا ولا سيما عند فيكتور وساتورنينوس فابتنيا كلاهما بيتًا لهُ اما القديس فاختار من البيتين الاحقر فصيرهُ ديرًا وهناك قضى اجلهُ براحة البرّ مع تلامذة الرهبان . وكانت وفاتهُ في اليوم السابع والعشرين من شهر اذار كما كتب سوربوس اما غيرهُ من المؤرخين فأثبتوا ان وفاتهُ كانت في اليوم السادس والعشرين من شهر ايار وعيدهُ عند الروم في اليوم الثلثين من الشهر المذكور وفيهِ ايضًا ذُكرت ترجمتهُ في كتاب البولاندستيين

اليوم السابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا المتوحد

ولد بليكوبولي مدينة بالصعيد في السنة الخامسة من المائة الرابعة للمسيح . وبما ان ابويهِ كانا من صف الفقراء تعلم حرفة النجارة ومارسها الى ان بلغ السنة الخامسة والعشرين من عمرهِ . وحينئذٍ تاقت نفسهُ الى التوحد توقًا عظيمًا . فترك حرفتهُ وزهد في الدنيا فذهب الى البرية وهنالك تلمذ لشيخ من الابرار فنظر ذلك الشيخ الى يوحنا فرآه على اتضاع يعزُّ ان يكون لهُ ضريب ويندر ان يكون لهُ مثيل فلذلك رقّاهُ عن امدٍ قريب الى اسنى مراتب الكمال . ومما يدل على تمام طاعتهِ وسهولة انقيادهِ ان معلمهُ وجد يومًا غصن شجرة انقطع وقد نخر فغرسهُ في الارض وامر يوحنا بان يسقيهُ كل يوم مرتين الى ان يتأصّل ويثمر . اما يوحنا فامتثل امر رئيسهِ ولم يعمل بمقتضى عقلهِ لانهُ يعرف ان من اطاع الرئيس اطاع الله الذي اقامهُ . مع ان الامر غير مقبول عقلاً وعادةً وقد كان مستصعبًا جدًّا لانهُ كان ملتزمًا ان يسير مقدار نصف ساعة من الزمان ليصل الى العين . ولم يكن تمام ذلك سهلاً عليهِ ومع ذلك باشر ذلك العمل بدون اشمئزاز ولا تضجر مدة سنة . ومما يدل على طاعتهِ ايضًا انهُ سمع لرئيسهِ وقد امرهُ بان يقلع صخرةً عظيمة يعجز كثيرون عن تحريكها فافرغ في ذلك العمل الباطل كل جهدهِ وتمام جدهِ ولم يعتذر بان ذلك مستحيل لا مطمع في بلوغهِ مخافة ان يكون ذلك مخلاً بالطاعة ولله در القديس كاسيانوس حيث يقول . ان هذا القديس بتلك الطاعة العمياء رقي عن امدٍ قريب الى درجة سامية من درجات التأمل والبر . ولما انتقل مرشدهُ القديس الى جوار ربهِ انطلق يوحنا ودخل اديرةً كثيرة ومكث في تلك الاديرة خمس سنين زاهيًا بالفضائل وبما ان الله سبحانهُ دعاهُ حينئذٍ الى كمال التوحد ذهب الى جبلٍ قريب من مدينة ليكوبولي ونقر لهُ هناك منزلاً صغيرًا في صخرةٍ عالية وانفرد بهِ حتى بلغ التسعين سنة واستمر فيهِ اربعين سنة ولم يبصرهُ احد قط الاَّ من كوَّة صغيرة لم يكن

يفتحها الاَّ نادرًا . والحاصل انهُ عاش في ذلك الموضع الشبيه بالقبر كملئكة الله وما كان يأكل الاَّ قليلاً من البقول وشيئًا من الماء ولم يكن الناسك المذكور عبوسًا بل كان يقابل الزائرين بالبشاشة واللطف غير انهُ كان لا يأذن للنساء ان يدنون من قلايتهِ

وقد شرف الله تعالى عبدهُ بروح النبوة وفي هذا الخبر الى الاقاليم البعيدة . فاتاهُ يومًا احد قواد العسكر وطلب اليهِ بالحاح ان يسمح لامرأتهِ بان تشاهدهُ وتستشيرهُ واوضح لهُ انها قد اتت من بلدة بعيدة لاجل هذا الغرض فقط . فاجابهُ القديس قائلاً انني قبل ان دخلت البراري حكمت على نفسي الاَّ اشاهد امرأةً اصلاً . ومن يوم دخولي هذه القلاية لم ادع امرأة تبصرني . فلم يرتد القائد عن غرضهِ بل قال للقديس هكذا اعتقد يا ابي ان امرأتي تموت من فرط الحزن وشدة الكآبة ان لم تأذن لها ان تبصرك . فتعجب القديس من متانة ايمان القائد وامرأتهِ ثم قال لهُ . امضِ واعتقد ان امرأتك تراني في هذه الليلة فلا حاجة الى ان توافيني . فانصرف القائد متحيرًا بحيث لم يعرف معنى كلام القديس . وفي تلك الليلة عينها تجلَّى القديس للمرأة في الحلم وقال لها اني اتيتكِ لاجل متانة ايمانكِ فهي التي جاءَت بي اليكِ . واني لأنصحكِ الاَّ تشتهي ان تبصري وجوه عبيد الله بل الخليق بكِ ان تنظري اليهم بالعقل وتتأملي سيرتهم وافعالهم . فاسأل الله ان يشفيكِ من جميع ادواء الجسم وامراضهِ لا لأني بارٌّ او نبيٌّ بل لمجرد قوة ايمانكِ فقط . ومن الان فصاعدًا تظفرين مع بعلكِ بالعافية التامة وسيكثر الله سبحانهُ على منزلكما بركاتهِ . فاياكما وان تنسيا هذا الاحسان وأحسنا خدمتكما لهُ تعالى . فانتبهت المرأة واخبرت زوجها بذلك كلهِ واعلمتهُ بشكل ثوب القديس وبصورتهِ ونغمتهِ واساليب كلامهِ . فانذهل القائد واخذهُ العجب العجاب وعاد الى القديس وقدَّم لهُ اوفر الشكر واتم الثناء

وجاءَهُ مرةً اخرى قائد آخر من اشراف الحبشة ليطلب منهُ عونًا لامرأتهِ التي كانت قد اشرفت على الولادة . فقال لهُ القديس لو علمت ان الله وهبك ابنًا لكنت تشكرهُ على ذلك بحسن عبادة . فاعلم ان الابن في صحة الآن والدتهُ على خطر عظيم . غير ان الله تعالى يعينها فتجدها متعافية فاسرع في الاياب الى بيتك . وسيكون وصولك الى منزلك في اليوم السابع بعد ان يولد ابنك فسمهِ يوحنا . واياك ولن تسلمهُ الى مرضع غريبة بل ربّهِ في منزلك حتى يصير ابن سبع سنين ولا تدعهُ يعاشر الكفار وبعد انقضاء السنين المذكورة سلمهُ الى احد السياح ليربيهُ على العبادة ويمرنهُ على الاختلاء والتوحد

وفي ذلك الزمن خرج البرابرة من الحبشة ودخلوا الصعيد فاتى قائد جيش المسيحيين واستشار القديس في ما ينبغي لهُ ان يفعلهُ في هذا المحل الخطر مع كونهِ غير قادر على مقاومة الاعداء لاجل قلة جنودهِ . فقال لهُ يوحنا لا تبالِ بضعف عسكرك بل احسن الاتكال على الله وامضِ فانك بأيد الله وقدرتهِ ستظفر بالاعداء وتفتك بهم فمضى وكان كما قال

وكذلك سألهُ تاودوسيوس الكبير عن كيفية انتهاء الحرب التي بينهُ وبين مكسيموس الذي كان قد قتل غراسيانوس الملك ليستولي على مملكتهِ . فتنبأ عليهِ القديس بان ينتصر عليهِ انتصارًا كليًا فتمَّت نبوَّتهُ . وعقب اربع سنين من ذلك اراد الملك المذكور ان ينتقم من اربوغاست الذي كان قد شنق الملك فالنتينيانوس الصغير ليُملّك اوجينيوس . فاشتهى الملك تاودوسيوس ان يبصر القديس يوحنا فارسل اليهِ اوتروبيوس احد اشراف بلاطهِ وطلب منهُ بالحاح ان يجيء الى بلاطهِ فلم يرتضِ يوحنا بالذهاب الى الملك غير انهُ تنبأ عليهِ بانهُ يغلب وينتصر ولكن بعد قليل يموت موتًا فتمَّ كل ما قال من هذا القبيل

ومن معاصري القديس يوحنا افاغريوس الذي كان القديس غريغوريوس نيصص قد رسمهُ شماسًا انجيليًا ثم تبع ضلال اوريجانوس وأعدَّ للبيلاجيين مادة البدعة قالهُ القديس ايرونيموس . فالغرض المقصود هنا هو ان افاغريوس الراهب وتلاميذهُ الخمسة الذين منهم بلاَّديوس سمعوا بفضل يوحنا وبرّهِ فتاقوا كلهم الى ان يزوروهُ وبحيث ان الطريق كان وعرًا ارسل تلميذهُ بالاديوس ليختبر حقيقة قدس يوحنا فسافر بالاديوس ولما انتهى الى قلاية القديس وجدها مغلقة على حسب العادة . ولما عرف ان القديس لا يفتح نافذة منزلهِ الاَّ يوم الاحد واحيانًا يوم السبت اضطرَّ ان ينتظر الوقت بالمنزل القريب من القلاية الذي اقامهُ القديس من اجل الغرباء . فلما كان يوم السبت وقف بازاء كوَّة القلاية المشار

اليها كثيرٌ من السيّاح وكان هو يخاطب الجميع من ذلك النافذة . فعرف ان بالاديوس كان من دير افاغريوس فبدأ بالخطاب معهُ وبعد قليل من الزمن وصل البيبوس حاكم بلاد الصعيد فاعرض القديس بوجههِ عن بالاديوس وطفق يكلم الوالي المذكور فتخالج في صدر بالاديوس ان القديس يميل بعض الميل الى شرف الدنيا ومجدها . فعرف القديس بالهام الله الريب الذي تولد في قلب بالاديوس ولذلك بعد ما فرغ من التكلم مع البيبوس المذكور استدعى بالاديوس ونصحهُ ولامهُ على سوء ظنهِ فيهِ وقال لهُ يا بنيَّ اعلم ان هذا الحاكم اتى ليستشيرني في امرٍ مهم جدًّا والحال تضطرهُ الى الرجوع الى مدينتهِ سريعًا . بحيث لو لم ابادر الى ان اخاطبهُ حالاً واقضي غرضهُ لم يكن في امكانهِ ان يصل الى مكانهِ في وقتهِ ولكان قد طرأ ضررٌ فيما يتعلق بعبادة الله وكنيستهِ . فاحذر اذًا يا بنيَّ من كل ظن باطل بل اغض عما تجدهُ رديًّا بحسب الظاهر . والحاصل انهُ بعد هذا التوبيخ اللطيف خاطبهُ بجزيل البشاشة والهشاشة وكشف لهُ اسرار قلبهِ اعني افكارهُ وتجاربهُ وقدَّم لهُ في ذلك مشورات مفيدة . ثم اشار عليهِ بان يترك عزمهُ على المضي الى وطنهِ ليفتقد اقرباءهُ . وبيَّن لهُ ان علل المحبة المسيحية التي تميلهُ الى هذا السفر انما هي تجربة من الشيطان الذي ينصب لهُ شركًا . ثم سألهُ وهو يتبسم هل يريد ان يكون اسقفًا فاجابهُ بالاديوس متبسمًا ايضًا وقال لست اريد ذلك لاني قد صرت اسقفًا . وانما قال ذلك على خلاف الظاهر معتبرًا بان لفظة الاسقف تُفسَّر بالرقيب في اللغة اليونانية . فقال لهُ القديس وما اسم المكان الذي اقمت عليهِ اسقفًا . فقال ديرنا الذي أُقمت فيهِ رقيبًا . حينئذٍ قال لهُ القديس دع المزاح واعلم موقنًا انك ستكون اسقفًا وان تعبك في اسقفيتك يكون عظيمًا وان اردت ان تنجو من هذا التعب فلا تهجر البرية . ان لي ههنا ثماني واربعين سنةً ولم اخرج من قلايتي ابدًا ولم اشاهد نساء ولا دراهم وما استولى عليَّ حزنٌ ولا اخذني ضجر . والحاصل ان تلك النبوات التي تنبأ بها على الاب بالاديوس تمَّت بالتدقيق حتى بظروفها وقد ذكر ذلك بالاديوس نفسهُ

فعاد بالاديوس الى ديرهِ واخبر رئيسهُ والاخوة بما اختبرهُ فما لبثوا ان ذهبوا ليعاينوا القديس ويستفيدوا من تعليمهِ وكانوا سبعة اشخاص فوصلوا وقابلهم القديس بالبشاشة الاعتيادية . ولما كان رهبان مصر ذلك العهد قد اعتادوا على ان يصلوا اوَّل ما يصل الزائر الى المزور . طلب الزوَّار الى القديس ان يبدأ بالصلاة ويباركهم . فاستعفى من ذلك ثم سألهم قائلاً أليس فيكم اكليركي فقال جميعهم لا . فعرف القديس بالهام الله ان اصغرهم سنًّا كان شماسًا انجيليًّا ولكن لم يكونوا يعرفون ذلك الاَّ واحدًا منهم كان الشماس المشار اليهِ قد اعلمهُ بباطن الامر وكشف لهُ السرَّ وألزمهُ بكتمهِ ابتغاء الاتضاع . ولاجل هذه الغاية كان لا يريد ان جماعة القديسين يعرفون انهُ قد رقي درجةً تصيّرهُ مكرمًا لديهم . اما القديس يوحنا فقبض على يدهِ وقبَّلها وقال لهُ لا تنكر النعمة التي وهبك الله اياها لئلا يسبب لك الكبر ضررًا ويلقيك الاتضاع في الكذب . ولا ريب ان الكذب حرام ولا يجوز على الاطلاق ولو كانت الغاية حميدة والنية صالحة . لانهُ من المحال ان يكون الكذب ناشئًا عن روح الله

وبعد الصلاة طلب احد الحاضرين من القديس ان يشفيهُ من مرضٍ قد اصابهُ فقال لهُ ان هذا الداء يفيدك ولا بدع فان الادواء والبلايا ايضًا تنقّي النفس وتحفظها من الفساد كما يحفظ الملح الطعام . واسهب الخطاب في هذا الصدد ثم بارك زيتًا فدهن بهِ المريض جسدهُ فشُفي حالاً . ثم سألهم عن سبب مجيئهم فاجابوهُ اننا انما اتينا من بلد بعيد لنرى باعيننا ما كانت تسمعهُ آذاننا من اخبار العجائب التي فعلها السيّاح . فتبسم الانبا وقال لهم اني لمتعجب من انكم تعبتم كل هذا التعب لتروا هنا ما تجدونهُ في بلدتكم وان قيل لا قلت ما الذي تنظرونهُ فينا ولا تجدونهُ في الانجيل المقدس . بحيث ان الفضائل التي يمارسها السيّاح قد سطرت في هذا الكتاب المقدس الذي يُقرأُ في الكنائس . فافعلوا ما في الانجيل وتكونوا كاملين . اعتقدوا يا ابنائي انهُ بهذه الاسفار الشاسعة المتعبة التي نشأت عن العبادة تمتزج مرَّات كثيرة نوايا غير صالحة كالخبث والعجرفة . فاحترسوا على انفسكم لئلا يعتريها الفساد . نعم ان الله سبحانهُ لا يدعو الجميع الى التوحد والانفراد بالبادية والقفر ولكنما الجميع يلتزمون بالابتعاد عن محبة الدنيا والفرار من الارتياح الى ملاذها . وقد يجد الانسان نفسهُ في البرية كما يجدها في المدينة لكون الحب الذاتي يرافقنا في كل مكان والشيطان لا يفارقنا ابدًا

فلما عزم الزوَّار على الرجوع الى ديرهم قال لهم القديس امضوا بالسلام . واعلموا انهُ قد نمى الى الاسكندرية خبر انتصار

الملك تاودوسيوس التقي على اوجانيوس . ولكنما هذا الملك المعظم سيموت بعد قليل من الزمن وقد صحَّ قولهُ هذا . وبعد عهدٍ قريب عرف القديس ان قد دنت وفاتهُ وأزف رحيلهُ من الدنيا فامر ان لا يطلبهُ احد مدة ثلثة ايام . وصرف ذلك الزمان كلهُ مصلّيًا ثم اسلم روحهُ بيد الله في السنة الرابعة والتسعين من المائة الرابعة للمسيح ووُجد بعد موتهِ منتصبًا على ركبتيهِ وكان يُدعى غالبًا نبي مصر

اليوم الثامن والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس سيستوس البابا الروماني

وُلد القديس المذكور برومية المكرَّمة على نهاية المائة الرابعة للمسيح . ونظرًا الى ما فعل في ايام الصبا فلا نعلم شيئًا بيدَ اننا نقول على سبيل النتيجة انهُ كان رجلاً من الصالحين بحيث انهُ لاجل سيرتهِ الحسنة وافعالهِ الحميدة ارتقى الى مرتبة الكهنوت وحملتهُ كثرة فضائلهِ وحركتهُ غيرتهُ المقرونة بالحكمة على مناصبة اهل الاهواء فقاومهم وفنَّد آراءهم

اعلم ان تباع بلاجيوس ارادوا ان يشرفوا حزبهم ويرفعوا شان جماعتهم فشاعوا بانهُ ينتصر لهم ويصحح آراءهم وهو كما تدري كذب تخلقوهُ ولا غرو فذلك دأب المبتدعين هداهم الله . فلما سمع القديس ذلك الكلام برَّأ نفسهُ مما اشاعوا ونسبوهُ اليو فحرم البلاجيين امام الجميع . ثم ألف في تفنيد ارائهم رسائل كثيرة ومع رسالة البابا زوسيموس التي هي ضد المبتدعين المذكورين أرسل رسالةً للقديس اغستينوس وبعث برسالةٍ غيرها الى اوزليوس . وبعد ان وصلت رسالتهُ الى القديس اغستينوس المذكور ورد اليهِ من القديس المشار اليهِ الوكتان تتضمنان الثناء الطويل على غيرتهِ التي اظهرها ضد البلاجيين وغبطهُ لاجل ذلك كثيرًا واما في الألوكة الاولى فصرَّح بما حصل لهُ من الفرح اذ عرف ما فعلهُ البابا المذكور من مقاومة الضالين المومأ اليهم ثم اخبرهُ وقال انني وقفت ايضًا على رسالتكم الى القديس اورليوس ولم اكتفِ بقراءتها بل نسختها ايضًا ونشرتها في الافاق البعيدة لكيما يعلم الجميع ان رايك مضاد للمبتدعين الذين يرومون ان يسلبوا النعمة الالهية التي يمنحها الكبار والصغار . واما في الثانية فيطريهِ على شجاعتهِ من حيث انهُ تقدم الجميع مع البابا زوسيموس في حرم البلاجيين وقوَّض بناء تعاليمهم المضل . وجلس على عرش الخلافة البطرسية بعدما استأثرت رحمة الله بالبابا سلستينوس وكان ذلك في اليوم السادس والعشرين من شهر نيسان في السنة الثانية والثلثين من المائة الخامسة للمسيح واما الفرح الذي ذاقهُ المسيحيون وانسباء الاكليريكيين في جلوس هذا الحبر فلم يُعهد لهُ نظير . وعقب ما تبوَّأ عرش الخلافة الرسولية شرع يجاهد في سبيل الله لكي يستأصل البدعة الجديدة التي كانت الكنيسة تضطرب منها كاضطراب السفينة لكثرة الامواج

وكان على عهدهِ نسطور اللعين الذي حرمهُ الحبر الاعظم سلستينوس في السنة الثلثين من المائة الخامسة للمسيح والمجمع المقدس الافسسي في السنة الحادية والثلثين بعد الاربع مائة . ولما كان البابا المذكور راعيًا صالحًا يرفق بالخروف اذا ضلَّ وبعد عن الرعية بعث الى نسطور المشار اليهِ برسالة الى دير القديس اتروبيوس بانطاكية حيث كان منفيًا والغرض من تلك الألوكة انهُ يرعوي عن غيهِ فيعود الى المذهب القويم ولكن ذلك ذهب ضياعًا بحيث ان نسطور واتباعهُ خرَّجوا ذلك على غير المراد وشاعوا بان البابا يؤيد رأيهم فبلغ الإفك الذي اختلقوهُ البابا المذكور ولذلك أرسل رسائل الى القديس كيرلوس والى يوحنا الانطاكي يقول لهما ان الخبر الذي سمعتماهُ عني هو كذب . ثم يأمر باظهار المحبة والبشاشة نحو الذين يميلون الى النصرانية . ويوصي بالتشديد على المصرّين على الضلال والمتشبثين بالبدعة واما نسطور فبقي مصرًّا على رأيهِ بحيث لم تنجع بهِ تلك الواسطة كما مرَّ فمات ولم يرعوِ ولا اظهر علامة التوبة وأكل الدود لسانهُ قبل ان يموت وانما عذبهُ الله بذلك لانهُ لم يرد قط ان يسمي سيدتنا مريم العذراء بوالدة الله

ولاجل ان القديس كان يضادُّ ويناصب اولئك المبتدعين جعلوا يندّدون بتعليمهِ كما مر ويغضّون من شرفهِ ورفعة شأنهِ . وان باسوس رجلاً منهم دنسًا لم يقف عند ذلك بل شنَّع على القديس وقذفهُ بامور قبيحة ففشا ذلك وتولَّد منهُ شكوك عظيمة حتى ان الملك والنتينوس اراد ان يعقد مجمعًا لاجل اصلاح شان القديس . فاجتمع ستة وخمسون اسقفًا واظهروا برَّ القديس وحرموا باسوس الكاذب . وكان ذلك الشرير غنيًّا من الشرفاء فضبط الملك والملكة مالهُ وجعلاهُ وقفًا على الكنيسة . ثم بعد ثلثة ايام اصاب باسوس مرض

ثقيل فزارهُ القديس سيستوس في مرضهِ وساعةً وحلَّهُ من الحرم وسمع اعترافهُ وناولهُ القربان المقدس ودفنهُ

وفرارًا من الاسهاب الذي يقتضيهِ ذكر ما فعلهُ من مقاومة المبتدعين واحياء العبادة وتجديد الترتيب الكنائسي نقول بالايجاز انهُ اقام على رافنّا القديس بطرس الذهبي العبارة الذي الهمهُ الله حسن سيرتهِ وطيب سريرتهِ كما أُلهم ان افعال واقوال جليانوس اسقف مدينة اكلانوس الذي كان يجتهد ان يعود الى كرسيهِ ولذلك كان يتظاهر بانهُ كاثوليكي هي كذب . وكان مع اشتغالهِ بامور الرعية يبني كنائس كثيرة برومية المكرَّمة . ومن فرط تعبدهِ لسيدتنا مريم العذراء جدَّد بناء كنيسة ليباريوس المنذورة لسلطانة الملئكة وسمَّاها ماريَّا ماجور وبنى داخلها هيكلاً كلهُ من الفضة . ذلك فضلاً عمَّا وضع فيهِ من الكؤوس والشماعدين والمباخر والتيجان الى غير ذلك من الأَواني الذهبية والفضية . وأَواني المعمودية صنعها ايضًا من الفضة والذهب ووظَّف لها مبلغًا وافرًا من المال يقدَّم لها كل عامٍ . وقدَّم الى كنيسة القديس بطرس حلَّةً كاملة منسوجةً من الفضة ثقلها نحو قنطار (الحلة الكاملة هي التي يلبسها الكاهن وخادماهُ اي الشماس الانجيلي والشماس الرسائلي وما يوضع على وجه المذبح حسب عادة اللاتينيين) وزيَّن كنيسة القديس لورنسيوس بأَعمدة من حجر سمَّاقي وبفضةٍ وصاغ لذلك القديس تمثالاً من فضةٍ . وبالنتيجة فاقول انهُ ما من كنيسة قديمة خالية من علامة شرف هذا القديس الذي بعد ثماني سنين من جلوسهِ على عرش الخلافة البطرسية استأثرت بهِ رحمة الله وكانت وفاتهُ في اليوم الثامن والعشرين من شهر اذار في السنة الاربعين من المائة الخامسة للمسيح . وقُبر في مغارة القديس لورنسيوس وخلفهُ في عرش الخلافة تلميذهُ القديس لاون

اليوم التاسع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس كيرلوس الشماس وبعض شهداء استشهدوا في سورية

انهُ حينما استوى يوليانوس العاصي على عرش المملكة الرومانية دسَّ الى الوثنيين فاثاروا الاضطهاد على المسيحيين ولاسيما في السنة الحادية والستين من المائة الرابعة للمسيح وكان اشدهم قساوةً وعدوانًا وثنيو فينيقية وفلسطين . فانتقموا من كيرلوس الشماس الانجيلي الذي كان بالبوبوليس (المدعوة اليوم بعلبك) وكسَّر اصنامها بأَمر الملك قسطنطين الكبير واهتدى على يدهِ خلق كثير من اولئك الضالين وأَذاقوا الشماس المذكور عذابًا اليمًا ثم ازهقوا روحهُ وفاز بجنات النعيم وحملتهم شدة البغضاء على ان فتحوا جوفهُ من بعد ما قتلوهُ وسحبوا كبدهُ واكلوها نيئَةً فأَفناهم الزمان من يد البشر ولكن ما افلتوا من يد الله الذي يجزي كل امرئ ما فعل بل انتقم منهم بأَن سقطت اسنانهم ودودت السنتهم وأَنتنت ضمن تلك الافواه الردية وضربهم ايضًا بالعمى فاضحوا عُمي البصيرة والبصر والحاصل ان الانتقام الذي انزلهُ الله بهم الجأهم الى ان يقروا بانهم اعتدوا على كيرلوس وذلك جزاء كل معتدٍ

انهُ كان بالبوبوليس هيكل لعبادة الزهرة الهة العشق واليهِ كان الناس يجتمعون ويفعلون الفحشاء ويرتكبون المنكرات ولتكريم الالهة المذكورة كان الاباء يعرّضون بناتهم للبغاء ويغشونهنَّ كما يغشاهنَّ غيرهم من الرجال الاباعد اجارنا الله من ذلك . وما برح الناس يدأبون ذلك الفعل القبيح حتى قوَّض قسطنطين الملك الهيكل المذكور ونهى عن مثل تلك الاجتماعات الدنسة وبنى في ذلك الموضع نفسهِ متعبَّدًا للنصارى . وبناء على ذلك ما كان قتل كيرلوس ليبرد لهم غليلاً وانتقامًا لالهة البغاء هجموا على دير عذارى تبتَّلن الى المسيح فجلوهنَّ واتوا بهنَّ الى اكبر ساحةٍ في المدينة حيث كان الناس هائجين مضطربين وهنالك نزعوا عنهنَّ كل لباس وأَهانوهنَّ بما لا يأذن الادب في النطق بهِ فضلاً عن تدوينهِ في مثل هذا الكتاب الكريم وبعد ما عذبوهنَّ عذابًا يدل على سخط لا غاية بعدهُ وقطعوا اعناقهنَّ وفتحوا احشاءهنَّ واخرجوا منها الامعاء وتلك القلوب الطاهرة وخلطوها بدقيق الشعير وبغيرهِ من الاشياء التي تحبها الخنازير وطرحوها غذاء لتلك الحيوانات النجسة وعلى هذه الطريقة جرى وثنيو غزة واسكالون مدينتين بفلسطين فانهم فعلوا كل ذلك بالعذارى المتبتلات الى الله تعالى وبالكهنة وغيرهم من بقية خدام الانجيل الشريف ايضًا . واما اسماء الذين استشهدوا على الاسلوب المشار اليهِ في المدينة المذكورة فلا نعرفها وانما هي مكتوبة في سفر الحياة الباقية

ولاجرم ان صدور مثل ذلك من اولئك الوثنيين المتمرغين في حمأة البغاء لا يخرج عن حكم الغرابة لان الزناء

يطفي نور العقل ويوقع صاحبهُ في افظع الكبائر واكبر الشرور نعوذ بالله منهُ

وفيهِ ايضاً ترجمة القديس مرقس

ان القديس مرقس بعد ان تربى في النصرانية على رأس المائة الرابعة للمسيح وزها بالفضائل والعلوم أُقيم اسقفاً على مدينة ارثوصيون (مدينة بسورية على شاطئ نهر العاصي) في عهد الملك قسطنطين الكبير الذي أيد الله النصرانية على يدهِ فهدم الاسقف المذكور هيكل الاصنام الذي بتلك المدينة وانشأ في محلهِ كنيسةً وما زال يتصرف في رعيتهِ كما يشاء حتى جلس على عرش المملكة الرومانية يوليانوس العاصي واطلق للوثنيين العنان حتى صاروا لايُسألون عما يفعلون ضد النصارى ولذلك ثاروا على الاسقف المذكور وربطوهُ وجعلوا يجرّونهُ في الازقة حتى تمزّق كل جثمانهِ وليتهم وقفوا عند ذلك الحدّ بل دهنوا جراحاتهِ بالخل والملح والعسل وعلّقوهُ بالحبال معرضاً للشمس في زمن القيظ امام خلايا النحل لكي تلسعهُ ثم انزلوهُ وضربوهُ ضرباً شديداً فلم يمت . والحاصل انهُ كابد ما كابد من العذاب وما انفك ثابتاً على النصرانية بحيث حار في امرهِ اولئك الوثنيون الذين اعتبروهُ بعد ذلك كأجلّ الفلاسفة ولقبوهُ بصانع المعجزات وندموا على اساءتهم اليهِ فاستغفروا منهُ ولذلك اخذ يرعى رعيتهُ على حريتهِ فظهر لاهتمامهِ فوائد كبيرة ثم انتقل الى جوار ربهِ في اواخر المائة الرابعة للمسيح

اليوم الثلثون

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا السلّمي

اعلم ان هذا القديس انما لقّب بالسلّمي لانهُ ألّف كتاباً وسماهُ سلم السماء او سلم الفضائل . وكان ميلادهُ بفلسطين على عهد الملك زينون في السنة الخامسة والعشرين من المائة السادسة للمسيح . ومنذ حداثتهِ برع في العلوم ولقب معلماً . فافاق حينئذٍ على بطلان العلوم البشرية وزوال مجد الدنيا فزهد في زخارفها وكره لذاتها فترهب في دير من ادبرة طورسينا وهو ابن ستّ عشرة سنة وعُني من ذلك الوقت باكتساب علم الخلاص والبر ومن اجل ذلك تتلمذ لمرتيريوس شيخ من الافاضل الأبرار ولم يمضِ عليهِ اربع سنين الّا وقد تأصل في البرّ وصارت لهُ عراقة في التقوى واضحى لذلك اماماً في معرفة الطريقة الروحية ولاجرم انهُ عقب ترهبهِ تنزّه عن كل ما في الدنيا حتى اضحت عندهُ نسياً منسياً . ولله درهُ متضعاً لا يستفزهُ الفخر ولا يغرهُ العزّ ولا الكبرياء فانهُ انتظم في سلك الرهبانية المقدسة وهو متحلٍ بحلية العلم ومزين بحميد السجايا الطبيعية ومع ذلك كان يري من نفسهِ انهُ اصغر الاخوة اما طاعتهُ وخضوعهُ فكانا عجيبين لانهُ كان بين ايدي الرؤساء كمن ليس لهُ ارادة ذاتية . ومن اول يوم لدخولهِ الدير كفّ حواسهُ وعصى هواهُ وتظاهر للاخوة كانسان كان قد بلغ الكمال قبل تتلمذهِ في الرهبانية

فاقام على هذه الحال مدة اربع سنين مكبّاً على اكتساب أسمى الفضائل تحت ارشاد رئيسهِ الفاضل . وبعد وفاتهِ عزم القديس يوحنا على ان يترهب ترهباً متوحداً . فقدم لله ذاتهُ محرقةً بخالص التعبد حتى ان الانبا ستراتيجيوس الذي شهد ترهبهُ هتف بالهام الله قائلاً . ان يوحنا سيكون للعالم نوراً عظيماً . وبعد ترهبهِ عزم على اتمام واجبات دعوتهِ باتم الكمال

اعلم انهُ في ذاك الزمن كان رئيس دير طور سينا يتولى امر جميع الرهبان المنتشرين في بلاد العرب فاعتزل يوحنا في قلاية بذيل جبل طورسينا فانفرد القديس يوحنا وسكن في قلاية بسفح طورسينا تبعد زهاء ستة اميال عن الكنيسة التي ابتناها هناك الملك يوستينيانوس على اسم والدة الله لكي يصلي بها الرهبان المنتشرون في تلك البادية . فعاش هناك القديس اربعين سنة مختلياً بالكلية ممارساً لأصعب التقشفات وافضل رياضات العبادة . ولم يكن الناس يدعونهُ الا ملَك البرية . ولكنما عدو البشر ذهب الى قلايتهِ وحاربهُ باشد التجارب واصعبها فاتّقى سهامهُ بدرع الاتكال على نعمة سيدنا يسوع المسيح وبباقي الاسلحة التي قدمها لنا الله لمقاومة الشيطان من نحو الصلاة والصوم والتقشفات ولاسيما الاكثار من تناول القربان المقدس وبأيد الله انتصر القديس المشار اليهِ على الشيطان لعنهُ الله وقد رقي الى مقام سامٍ من مقامات الكمال في وقتٍ قليل . ولا غرو فان كل افعالهِ كانت مقرونة بـارادة تمجيد الله بحيث أفضى بهِ الامر ان تكون صلاتهُ متواصلةً وانما الصلاة المذكورة فهي التي تكلم عليها في كتابهِ سلم الفضائل حيث يقول . ان هذه الصلاة تتوقف على ان يكون الله تعالى مقصودنا وميزاننا في جميع افكارنا واقوالنا وحركاتنا وكل افعالنا ولاجل هذه الصلاة كان يجد الاختلاء

عذبًا ولتأمله في الله كان يكره معاشرة الناس فيفرُّ منها وكثيرًا ما شاهدوهُ مرتفعًا فوق وجه الارض وهو يصلي

وبعد ان استمر هكذا اربعين سنةً اضطُرَّ الى الخروج من الخلوة بحيث صار رئيسًا عامًا في دير طورسينا يتولّى امر جميع اولئك الرهبان . ولا يخفى انهُ كان عند جميع الرهبان معتبرًا جدًّا من ذي قبل ولكن لما اجتمعوا بهِ وعاشروهُ كلِفوا بهِ وعجبوا منهُ كل العجب لانهُ بوداعتهِ واتضاعهِ كان يملك قلوب الجميع . وكان الله سبحانهُ يشرّفهُ بفعل المعجزات . ومن تلك الآيات ان اهل فلسطين طلبوا منهُ ان يصلي من اجلهم لكي يتحنن الله عليهم ويُمطر على ارضهم . فصلى القديس فسقط على الارض مطرٌ غزير . وكان هذا القديس مكرَّمًا جدًّا عند القديس غريغوريوس المعظم ولذلك بعث اليهِ بالهدايا وطلب صلواتهِ . ولم يبقَ رئيسًا عامًا الَّا اربع سنين لانهُ رام الرجوع الى خلوتهِ ليستعدَّ هنالك للموت . ولما اشرف على الموت طلب منهُ اخوهُ رئيس دير طورسينا ان يصلي من اجلهِ لكي يتبعهُ بالموت عاجلًا . فاجابهُ القديس ان الله قد استجاب طلبتك ففي هذه السنة تموت فكان كذلك . وتُوفّي القديس يوحنا في اوائل القرن السابع وهو ابن ثمانين سنة

اليوم الحادي والثلثون

وفيهِ ترجمة القديس ربول الاسقف

كان القديس المذكور يونانيًّا وثنيًّا شريف الاصل مزيّنًا بالسجايا الحميدة . فلما بلغهُ ان القديس يوحنا الانجيلي رجل معتبر جدًّا في افسس لاجل تعليمهِ وحسن افعالهِ اشتاقت نفسهُ الى مشاهدة ذلك الرسول العظيم وتاق الى استماع تعليمهِ الباهر . فانطلق حينئذٍ الى افسس وهناك استنارت عيناهُ بضياء الديانة المسيحية فتنصَّر وعمَّدهُ الرسول المشار اليهِ بيدهِ واقام بافسس مع يوحنا مدةً وكان ينمو بالفضيلة كل يوم . ولما تأمل قول السيد لذاك الشابّ الغني ان شئت ان تكون كاملًا امضِ وبع كل مالك وأعطهِ للمساكين واتبعني رجع الى وطنهِ وكان ابواهُ قد ماتا فباع كل مالهُ واعطاهُ للمساكين ولم يبقِ لنفسهِ شيئًا . وبعد ان قطع كل علاقةٍ لهُ مع اهل الدنيا ونزَّه نفسهُ عن حب زخارفها والارتياح الى لذاتها عاد الى معلمهِ الانجيلي ليجري على مقتضى كلامهِ ويجري بواسطة ارشادهِ في طريق البرّ

غير انهُ لما نُفي البشير الحبيب الى جزيرة بطموس خرج القديس ربول من افسس ومضى الى اثينا ليتتلمذ للقديس ديونيسيوس العلَّامة المفضال . فقبلهُ ديونيسيوس بفرح عظيم وذهب بهِ الى رومية المكرَّمة ليبشّرا بالانجيل المقدس تحت ارشاد البابا اكليمنضوس خليفة القديس بطرس الذي كان تُوفّي قبل ذلك بقليل . فالحبر الروماني لما رأى القديس ربول احبهُ جدًّا ولذلك امرهُ بان يدعو اليهِ القديس ديونيسيوس وبقية التلاميذ . فلما مثلوا لدى البابا خاطبهم بما نصهُ : لقد عرفتم يا اخوتي وابناءي ان سيدنا يسوع المسيح الذي وُلد من ابيهِ قبل انشاء العالم قد أحب ان يصير انسانًا نظيرنا وان يولد من مريم البتول . ثم أتبع ذلك بذكر ما فعلهُ المسيح وهو على الارض وختم الكلام بقولهِ وبعد ان تألم المسيح ومات وبُعث من بين الاموات وصعد الى السماء وارسل الروح القدس وملأهم من نورهِ ونعمتهِ تفرق التلاميذ في الدنيا وطفقوا يدعون اليهود وباقي الامم الى النصرانية . وبعد ان تمموا ما أُمروا بهِ اوصونا بان نعتني بكرم الرب اعتناءً تحصل منهُ ثمرة . فلا يحسن اذًا ان يقعد بنا التواني عن اتمام ما امرنا الله بهِ فكيف لا وهوذا الحصاد كثير والفعلة قليلون كما قال تعالى . وقد عرفتم ان اكثر الناس الى اليوم في حال الظلام ولا سيما في اقاليم الغرب . ولذلك انا آمركم من قِبل الله تعالى ان تمضوا الى هناك وتدعوا الامم الى النصرانية . ثم باركهم وارسلهم الى مملكة فرنسا واقام القديس ديونيسيوس رئيسًا عليهم

فخرجوا من رومية كخروج الرسل من العلية بحيث ان محبة الله ألهبت في قلوبهم الغيرة على تخليص النفوس وساروا حتى وصلوا الى فرنسا . واما اسماؤهم فهذه ديونيسيوس وروستيكوس وربول والوتاريوس . وفي حال وصولهم دخلوا مدينة ارلي وشرعوا يبشّرون بالانجيل المقدس وقد اثبت الله تعاليمهم وأيَّدهُ بالعجائب والمعجزات فبصلاة القديس ديونيسيوس سقط على الارض امام الجمهور صنم كانت مدينة ارلي تكرمهُ جدًّا فاضحى قِطعًا قِطعًا فاذهلت تلك المعجزة الشعب الوثني فتنصَّر . حينئذٍ هدم القديس ديونيسيوس هيكل الصنم وبنى في مكانهِ كنيسةً ورسم القديس ربول اسقفًا على هذه المدينة ومضى مع القديس روستيكوس والقديس الوتاريوس الى باريز . وهناك بشّروا بالانجيل المقدس وانقذوا نفوسًا كثيرة

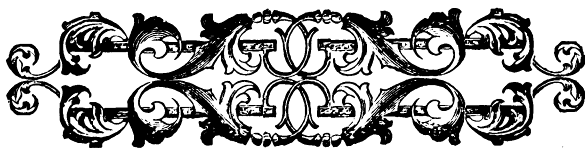
ثم استشهدوا

فبقي القديس ربول وحدهُ في مدينة ارلي وكان محبوبًا جدًّا لاجل برارتهِ ورحمتهِ للفقراء ولا سيما بسبب اتضاعهِ العجيب. واتفق لهُ يومًا حينما كان يُقدّم ذبيحة القداس الالهي اذ وصل الى ذكر الشهداء القديسين ان ذكر بينهم بلا نيّة ولا انتباه القديس ديونيسيوس والقديس روستيكوس والقديس الوتاريوس. فبعد ذكرهِ اياهم انتبه متعجبًا وابتدأ يفكّر في ذلك فلما رفع نظرهُ ابصر ثلث حمامات واقفات فوق صليبٍ على المذبح وعلى صدورهنّ اسماء هولاء القديسين فاستدل بذلك على انهم قد سفكوا دماءهم لاجل سيدنا يسوع المسيح فتأججت في فؤادهِ لواعج الشوق الى ان يُهريق دمهُ ايضًا حبًّا بالله فاقام القديس فيليكوس راعيًا على مدينة ارلي وذهب هو الى باريز وسكن عند كاتولا امرأة مسيحية كانت قد تنصّرت على يد القديس ديونيسيوس. ومنها عرف القديس بوفاة القديسين الشهداء وانهم استشهدوا يوم رؤيتهِ المذكورة

ثم رحل القديس ربول عن باريز الى سَنْليس مدينة بفرنسا. فعلمت بقدومهِ امرأة كان يعذب ابنها الشيطان الرجيم فقدمتهُ للقديس امام الجمهور وطلبت اليهِ ان يبرئهُ. فصلى القديس ثم امر الشيطان باسم المسيح ان يخرج. فخرج للحال من الشخص المشار اليهِ بشكل وطواط شنيع المنظر. فان الشعب عند ذلك صرخوا كلهم ان السيد المسيح اله حقًّا وباسمهِ تفعل هذه العجائب. ثم مشى القديس في المدينة ولما انتهى الى باب السجن حيث كان حاكم المدينة قد حبس مسيحيين كثيرين لاجل النصرانية مسّ الباب بعصاهُ فانفتح فهرب المسجونون فارسل الحاكم جنودًا ليمسكوهُ ويفتكوا بهِ. ولكن القديس اختبأ حالاً وليلة ذلك اليوم ظهر القديس ديونيسيوس للحاكم في حلمهِ وقال لهُ كف عن طلب موت اخي ربول والاّ فتموت فجأةً. فلما انتبه الحاكم طلب القديس ربول لالكي يعذبهُ بل ليكرمهُ ويتعلم منهُ ويرتشد بمشورتهِ. فحضر لديهِ القديس وخاطبهُ كثيرًا ثم خرج ودخل هيكل الوثنيين فعند دخولهِ تساقطت الاوثان وتهشمت تماثيل الآلهة امام شعب غفير. فرام كاهن الآلهة ان يفتك بالقديس وحدث في الهيكل خصام كبير فاتى الحاكم مسرعًا ولما رأى الاوثان مُهشمة تهشيمًا ومطروحةً على الارض وان هذا حصل بمجرد وقوف القديس ربول بازاء الاوثان. تكلم حينئذٍ كرسول وبيّن لهم كثافة جهل الذين يعتقدون بالوهية ما قد صنعتهُ ايديهم ويسجدون لتماثيل من رخام وحجر. وابان لهم ايضًا ان لا اله الاّ اله القديس ربول الذي بقوتهِ تساقطت جميع الاوثان وتكسرت. ثم اخبرهم بما رآهُ في حلمهِ وختم كلامهُ بقولهِ انهُ يريد ان تُعرض عليهِ النصرانية فيتنصّر. وبعد قليل من ذلك الزمان اعتمد ذلك الحاكم وتبعهُ الاكثرون وحوّلوا الهيكل المذكور كنيسة على اسم مريم العذراء عليها اشرف السلام

والحاصل انهُ بعد ان بشّر القديس ربول بالديانة المسيحية في مدينة سنليس المذكورة واهتدى على يدهِ خلق كثير ابتدأ يعلم في القرى واثبت الله ايضًا تعليمهُ بالعجائب. ومن تلك الايات التي فعلها الله على يدهِ في القرى سكوت الضفادع بمجرّد قولهِ آمركِ باسم يسوع ان تصمتي وانما فعل ذلك لانها كانت تنقّ وهو يكلم الناس فلا يسمعون. وانتقل الى دار النعيم في اليوم الثلاثين من شهر اذار في السنة السادسة والثلاثين من المائة الثانية للمسيح وكان عمرهُ ستين سنةً. وبعد وفاتهِ شرّفهُ الله تعالى بعجائب كثيرة وانما عدلنا عن ايرادها حذر الاطالة

حاشية. قد ذهب البعض الى ان بشارة القديس ربول في بلاد فرنسا انما كانت في عهد ديوكليسيانوس لكنهُ كان هذا غير ذلك وانما كان اسقف ارلي ولم يكن اسقفًا لسنليس (راجع ما قال البولانديستيون وبوتلير في هذا الصدد في اليوم الثلثين من اذار)



شهر نيسان

اليوم الاول

وفيهِ ترجمة القديس هوغو الاسقف

انهُ ينبغي لنا قبل ان نروي خبرهُ ان نتكلم قليلاً عن ابوَيهِ فاعلم انهما كانا من اهل الشرف والتقى ولما شاخ ابوهُ زهد في الدنيا وترهَّب في دير الكرتوسيين حيث عاش ثماني عشرة سنةً بكمال النشاط . اما والدة القديس فقد عزمت ايضاً على الترهب ولكنما ابنها القديس هوغو صدها عن ذلك فبقيت في منزلها مهتمة بتدبير اولادها ومساعدة الفقراء وممارسة الصوم والصلاة . واما مولد القديس المشار اليهِ فهو الحصن الجديد مدينة بمملكة فرنسا وكان ذلك في السنة الثالثة والخمسين بعد الالف للمسيح . ومما يُروى من اخبارهِ ان والدتهُ حلمت بهِ وقد كان مصوَّرًا في حشاها ورأتهُ بصورة طفل جميل المنظر . ثم اخذ بيدهِ بطرس الرسول عليهِ السلام واصعدهُ مع كثير من القديسين وقدمهُ لسيدنا يسوع المسيح فملأت تلك الرؤيا قلب والدتهِ المباركة سرورًا فاحسنت اهتمامها بتربيتهِ فعكف على العلم والتعبد منذ نعومة اظفارهِ وما كانت رغبتهُ في تحصيل العلوم بمطفئةٍ لرغبتهِ في اكتساب الفضيلة وكانت حشمتهُ سياجاً لتحصنهِ وحفظ عفافهِ . وبما ان العفة كما تدري هي كوردة بين الاشواك اقتضى لهُ ان يتلافاها مخافةً ان تقوى عليها الاشواك فتذبل فجعل يسقيها من ماء التقشفات وشظف العيش . ومن عجب الايام ان التقشف الذي نحل بهِ الاجسام يعتبر كماء زلال بالنظر الى تلك الوردة ونظرًا الى طباعهِ فكان ليّن العريكة موطأ الاكناف ولذلك كانت لهُ في قلوب الجميع محبة صافية . وبعد ان اكمل درس العلوم عاد الى بلدتهِ وحينئذٍ تعينت لهُ وظيفة اكليريكية . ثم ارسل البابا غريغوريوس السابع اسقفاً من قِبلهِ ليفتقد تلك البلاد فرسمهُ كاهنًا وبعد قليل من ذلك الوقت عقد القاصد المشار اليهِ مجمعًا اقليميًّا في مدينة افينيون وكان هناك القديس هوغو . وفي هذا الزمان عينهِ حضر اكليريكيون مرسلون من مدينة غرينوبولي وطلبوا من قاصد الحبر الاعظم ان يقيم هوغو اسقفًا لمدينتهم لان اسقفهم قد تُوفّي ولشدَّ ما فرح القاصد بذلك وبناءً عليهِ استدعى هوغو وكلمهُ في هذا المعنى فاعتذر هوغو قائلاً انا اليوم ابن سبع وعشرين سنةً وعاجز بالكلية عن القيام بعبء تلك المرتبة وكانت الدموع حينئذٍ تسيل من عينيهِ . وكان ذلك القاصد من اهل الدراية فعرف ان إباءهُ الاسقفية نشأ عن الاتضاع فأمرهُ ان يرافقهُ الى رومية لكي يرسمهُ الحبر الاعظم اسقفًا . فجعل الشيطان وتنئذٍ يوسوس اليهِ فاقلقهُ بالتجديف والتذمر من احكام الله جلَّ شأنهُ اربعين عامًا وما زال كذلك حتى تُوفّي . وقد حملهُ على التجديف وانتقاد كلام الله تنزَّه الله عن مثل ذلك ان الاشرار الذين يضطهدون الاخيار قويت شوكتهم واعتزَّ شأنهم وان جماعة الاكليريكيين قد فشا بينهم استعمال السيمونيا وما اشبه ذلك مما قد سمح الله تعالى بحدوثهِ لاجل اسباب لائقة بحكمتهِ لا يعرفها بشرٌ . غير ان القديس كان يجتهد ليبعد هذه الافكار وينتصر عليها دائمًا . ثم وصل الى رومية واورد للبابا كل ما جرى لهُ مما ذُكر وعندهُ ان ذلك ربما يكون علةً للتخلص من الترقّي الى الدرجة الاسقفية . فلم يعبأ البابا بكلامهِ ولا اجابهُ الى ما طلب بل عزَّاهُ وشجعهُ وامرهُ بقبول الاسقفية . فاستوى على كرسي اسقفية مدينة غرينوبولي

ولكنهُ بعد ذلك اكتأب كل الاكتئاب بحيث وجد ابرشيتهُ على حال يرثى لها بسبب ما فشا فيها من الربا والزناء والسيمونيا اللاءِي افسدنَ العالميين حتى الاكليريكيين ايضاً بحيث صار بعضهم يتزوَّجون على اعين الناس . وحاصل الكلام ان رونق الكنيسة كان قد زال في تلك الايام وتشوَّه بهاؤها ومن ثمَّ جثا ذلك الراعي الصالح امام سيدنا يسوع المسيح وطلب

منهُ الغوث واستعان بهِ على مداواة امراض مثل هذه الرعية باذلاً نفسهُ في سبيل تسديدها الى طريق الرشاد ثم اخذ يعلّم وينصح ويوبّخ ويستحثّ الناس بقدوتهِ الصالحة وبطول أناتهِ وانقياد غيرتهِ. فنجع ذلك في رعيتهِ وظهرت لهُ ثمرة جيدة غير انهُ لم يبرح مضطربًا لعلو مقامهِ ولم يزل مرتاعًا لكثرة واجباتهِ فشرع يتذكر الاساقفة القديسين الذين من اجل هذه العلل بانوا الاسقفية واختلوا في البراري فاخذ ذلك الفكر في عقلهِ كل مأخذ ولذلك خرج بالخفاء من المدينة لسنتين من اسقفيتهِ واختبأ في دير من اديرة القديس باناديكتوس حيث لبس ثوب الرهبانية. ولكن لما شعر بذلك الحبر الاعظم غريغوريوس السابع امرهُ بالاياب الى كرسيهِ فرجع. ولا ريب ان معادهُ كان لرعيتهِ تعزية كبيرة وجعل يقوم باعباء منصبهِ بأتمّ نشاط وغيرة. ثم اتاهُ القديس برونو منشئ رهبانية الكرتوسيين لثلثة اعوام لهُ من عودتهِ الى رعيتهِ وكان معهُ خمسة اشخاص فطلب منهُ مكانًا منفردًا بابرشيتهِ ليبنوا فيهِ ديرًا لرهبانيتهم. وكان قد جاء الاسقف نبأ من الله بحيث قبل ان يصلوا اليهِ بايام قليلة رأى في الحلم ستة كواكب اتتهُ ثم اعتزلت في باديةٍ بابرشيتهِ. فقبلهم وقتئذٍ بالمحبة والاكرام ووهبهم موضعًا في قفرٍ يُعرف باسم كرتوس وكان القديس هوغو كثيرًا ما يختلي معهم ويباشر ادنى ما يكون من خدم الرهبانية. وحبًّا بالفقراء اراد في ذلك الحين ان يبيع جوادهُ لكي يتصدّق بثمنهِ على المساكين. ولكنما القديس برونو منعهُ عن ذلك مخافةً ان يشتد مرضهُ لان معدتهُ كانت مؤوفةً لمواظبتهِ على الصوم والصلاة والسهر وغيرها من الرياضات المضنية وابتُلي فوق ذلك بوجع رأس أليم عُذّب بهِ اربعين سنةً

وقد كان هذا القديس يطلب ان يُتلى امامهُ الكتاب المقدس حينما يكون جالسًا على المائدة وكلما ذُكرت آية كبيرة المعنى جزيلة النفع استعادها. ولا جرم انهُ كان يستعذب هذه القراءة ويجدها احلى من الشهد المصفّى. وكثيرًا ما كان يلجئهُ البكاء الى ترك الاكل او ترك القراءة وكذلك كانت تسيل عبراتهُ وهو يسمع الاعترافات وبدموعهِ يصيّر المعترفين يبكون معهُ. وما كان يعرّف النساء الاّ في موضع يراهُ فيهِ كل احد ونظرهُ منصرف عنهنّ دائمًا. ومن العجيب انهُ قضى خمسين عامًا في هذه الدنيا وكانت كثيرات منهنّ يستشرنهُ ولكنهُ لم يعرف منهنّ الاّ عجوزًا كانت تخدمهُ وذلك لانهُ لم يكن ينظر الى امرأةٍ البتة

واتفق ان عجوزًا اتتهُ يومًا بثياب ثمينة موشّاة فخاطبها ثم خرجت فقال لهُ احد انقياء الله لماذا لم توبخها على ذلك قال القديس اني لا ابصرت صورتها ولا رأيت شكل ثيابها. وكان يقول في هذا الصدد ما نصهُ اني لا ادري وليتني ادري كيف ينجو من الافكار النجسة من لا يغضُّ نظرهُ لان الموت كثيرًا ما يدخل من طاقات العيون كما قال القديس ايرونيموس ولذلك كان يصمّ اذا نطق قدامهُ بغيبةٍ او نميمة ويقول انهُ لايجوز لنا ذلك وانما علينا ان ننظر الى زلّاتنا وعيوبنا ونفرغ الجهد كلهُ لنتخلص من كل زلّةٍ ووصمة. وغاية في الغرابة عطفهُ على الفقراء ومحبتهُ لاعدائهِ ومن المشهور انهُ باع حلّتهُ الحبريّة والاواني المقدسة وتصدّق بالثمن على الفقراء. وقد زيّن اعمالهُ بالاهتمام بمصالحة الاخصام وكانت عنايتهُ بذلك شديدة بحيث انهُ عندما يرى اناسًا يأبون المصالحة لقساوة قلوبهم كان يجثو امامهم في شوارع المدينة على الارض وكثيرًا ما كان يفعل ذلك والغمام يبلّ الارض بمائهِ ولم يكن ينهض من الوحل قبل ان يقبلوا طلبتهُ. وباتضاعهِ هذا كان يُلين القلوب القاسية وكان يعظ بسلطان عظيم لان تعليمهُ كان مؤكدًا بافعالهِ. ولم يكن يعبأ بان تحسبهُ الناس عالمًا فصيحًا وما كان يرغب الاّ في ان يكون تعليمهُ نافعًا لخلاص النفوس

ولا جرم ان الاتضاع كان أجلّ فضائلهِ فلم يعدَّ نفسهُ الا عبدًا بطّالاً ولاعتقادهِ هذا اليقيني طلب مرّات كثيرة من الباباوات ان يقيموا غيرهُ اسقفًا على كرسيهِ معتذرًا بالشيخوخة والمرض فلم يرتضِ بذلك الاحبار الرومانيون بحيث مع شيخوختهِ ومرضهِ كان يفيد الرعية اكثر من اسقف حدث السن صحيح الجسم. وليس من ينكر عليهِ انهُ نفع تلك الابرشية نفعًا عميمًا لان الرذائل كانت كثيرة فيها عند اول اسقفيتهِ ولكنهُ ازالها وما مات حتى زهت الفضائل في كل اطرافها

ولما صار داؤهُ يثقل رويدًا رويدًا ضعفت ذاكرتهُ فنسي كثيرًا ما كان يعرفهُ من احوال الدنيا وامورها ولكنهُ ما ذهل عن ذكر ما يتعلق بخلاص النفس. والحاصل ان امرهُ اذهل الناس لانهُ نسي من كان يعرفهم ويعاشرهم واذا سئل عن شيءٍ ما يتعلق بقواعد النصرانية وامور التعبد اجاد في الجواب وكان يقرأ عن ظهر قلبهِ كثيرًا من الصلوات

الكنائسية وكتاب المزامير كلهُ. وانتقل الى جوار ربهِ في السنة الثانية والثلثين من المائة الثانية عشرة للمسيح

اليوم الثاني

وفيهِ ترجمة القديسة مريم المصرية

انهُ قبل الكلام على ولادتها وتصرُّفها وافعالها نقول انتقلت الى جوار ربها في السنة الحادية والعشرين من المائة الخامسة للمسيح على عهد الملك تاودوسيوس الصغير وقد اراد الله تعالى ان يعرّفنا صدق توبتها وفضائلها بواسطة القديس زوسيموس كما انهُ تعالى اشاع برارة القديس بولس اول السياح بواسطة القديس انطونيوس

انهُ كان بفلسطين راهب ورع يتقي الله اسمهُ زوسيموس وقد كان منذ صبائهِ مارس جميع الرياضات الرهبانية وحفظ برَّهُ الاول وحصل على فضيلة عظيمة ومن اجل ذلك رسمهُ الاسقف كاهنًا وبعد ان سلك مدة ثلث وخمسين سنة طريق النسك بكمال النشاط حدَّثتهُ نفسهُ بالكبرياء والعجرفة واظهرت لهُ ان ليس في تلك البادية احد افضل منهُ. فطاب لهُ التفكر في ذلك فارسل الله الى زوسيموس راهبًا غريبًا بيَّن لهُ فساد فكرهِ وعظم ضلالهِ واشار عليهِ ان يطلب اذنًا من الرئيس لكي يزور ديرًا لا يعرفهُ الا قليل من الناس وهناك يرى من فضائل قوم ابرّ منهُ ما لا يبقى معهُ وجهٌ لعجرفتهِ وكبريائهِ. فرضي زوسيموس واستأذن رئيسهُ ومضى مع الراهب الغريب ولما دخل الدير سأل الرئيس ان يقيم هناك تحت طاعتهِ فقبل الرئيس. اما زوسيموس فلما رأى ما رأى من فضائل الرهبان زال كِبرهُ وصار متضعًا لان اولئك الرهبان كانوا كملائكة متجسمين لا يألون جهدًا في عبادة الله وكانوا يصرفون النهار في الصلاة والتراتيل وعمل الايدي ولم يكن يهمهم امر الدنيا ولذلك كثيرًا ما كانوا يذهلون عن حاجات المعيشة. وكانت لهم عادة انهم في ابتداء صوم الاربعين يخرجون من الدير ليستوطنوا البراري والقفار اكرامًا للمسيح الذي صام في البرية اربعين يومًا. ففي اليوم الاول من هذا الصوم المقدس كان جميع الاخوة يحضرون القداس ويتناولون القربان الاقدس ثم يخرجون من الدير ويعبرون الاردن ويعتزلون منفردين في جوف البرية الى احد الشعانين الذي فيهِ كان ينبغي لهم ان يرجعوا الى الدير

واما القديس زوسيموس فعبر الاردن معهم ومن حيث انهُ كان يتوق الى ان ينظر في تلك البادية رجلاً فاضلاً من انقياء الله تقدم على وجههِ وأوغل لنيل مأربهِ الحميد. وبعد ان مضى عليهِ في هذا السفر المتعب عشرون يومًا جلس عند الظهيرة ليرتّل المزامير بحسب عادتهِ فابصر في ذلك الوقت عن بعدٍ انسانًا يسير راكضًا فخاف القديس وعلى الفور عمل فوق جبهتهِ علامة الصليب المقدس والشخص الذي رآهُ كان امرأةً وهذه عندما نظرتهُ فرَّت هاربةً لانها كانت عريانةً الَّا ان القديس لم يكن يعرف انها امرأة فنهض حالاً وطفق يسير مسرعًا في اثرها. فلما رأت القديسة انهُ قد قرب منها جدًّا صرخت نحوهُ قائلةً اسألك يامن يتعبد لله في هذه البرية ان تقف ريثما اختبئ. ثم انحدرت الى حفرةٍ مغطاةٍ بالاعشاب ولما انتهى ذلك الشيخ الى حيث كانت قالت لهُ ايها الاب زوسيموس الق رداءك الى هذه الخاطئة المسكينة ان كنت تشاء ان اتبارك منك واخاطبك. وساعتئذٍ استدلَّ على ان الشخص الذي جرى هو على اثرهِ من اولياء الله لانها نادتهُ باسمهِ فنزع رداءهُ والقاهُ عليها فتردَّت بهِ ثم صعدت من الحفرة ووقفت امامهُ. فجثا القديس امامها وطلب بركتها. فخرَّت على قدميهِ قائلةً ما هذا أيها الاب المكرَّم أنسيت انك كاهن فباركني اذًا انا اشقى الخاطئات. فلما انتهت تلك المفاوضة المقدسة نهض الاثنان وجلسا ثم افتتح القديس الخطاب وسأل المرأة من انتِ وكم لكِ في هذه البرية. اجابت المرأة لنصلينَّ وبعد ذلك اردُّ عليك جوابًا. ثم اتجهت نحو المشرق ورفعت يديها وعينيها الى السماء وشرعت تصلّي. فصلى القديس ايضًا وفي صلاتهِ التفت الى ناحية المرأة فرآها مرتفعة فوق وجه الارض وملتحفة بالنور. فاستولى عليهِ الحزن لانهُ قال في نفسهِ لا يخلو اما ان تكون روحًا او خيالاً. وللحال صرخت قائلةً لهُ لست انا بروح بسيط ولا خيال وانما انا تراب ولست اهلاً لان ارى النور. وانا احقر النساء واشقاهنَّ ولكن لي الشرف الباذخ والمجد الاثيل لاني نصرانية. وحينئذٍ عملت علامة الصليب على جبهتها وعينيها وقلبها وشفتيها. ثم تقدمت الى القديس وشرعت تخاطبهُ بما نصهُ

اعلم ايها الاب المكرَّم ان الله المهتمَّ بخرافهِ الضالة كاهتمامهِ بالخراف التي لم تضل قد ارسلك الى هذا المكان من اجلي فليكن اسمهُ مباركًا الى الابد. ثم قالت اني انا ابنة مصرية

خرجتُ من بيت ابي لاجل ارتكاب البغاء والفجور ولم اكن وقتئذٍ الاَّ ابنة اثنتي عشرة سنةً وذهبتُ الى الاسكندرية وتلطخت هناك وتمرَّغت في اقذار اشنع الفواحش سبع عشرة سنةً. ولم افعل ذلك لاجل تحصيل المال واحتشادهِ وما كنت ابتغي الا الخطية نفسها. واعلم يقينًا ان ليس في البرّية كلها امرأة اهلكت مقدار ما اهلكتُ من نفوس العالمين فقد ملأْت جانبًا كبيرًا من جهنم شبانًا ظرفاء وبقيت على تلك الحال في الاسكندرية حتى اتفق بتقدير الله جل شأنهُ اني رأيت اناسًا يركضون الى الميناء ليركبوا السفينة فسألت الى اين يذهب هولاء كلهم فقيل لي انهم مسافرون الى اورشليم ليعيّدوا هنالك عيد ارتفاع الصليب المقدس. فعزمت على ان ارافقهم وقد ارتكبت من الآثام في تلك السفينة وفعلت من المنكرات والقبائح ما تضطرب نفسي عند ذكرهِ وفعلت في اورشليم مثل ما فعلت في الاسكندرية. فلما كان صباح يوم العيد تقدَّمت مع من تقدموا الى الباب لكي اعاين الصليب المقدس واسجد لهُ. ولكني لما عزمت على الدخول الى الكنيسة شعرت ان يدًا غير منظورة طردتني ومنعتني عن الدخول فتقدمت ثانيةً وثالثةً فلم تدعني ادخل. فعرفت حينئذٍ ان كثرة آثامي هي التي تحرمني مشاهدة العود المقدس الذي عليهِ اكمل ابن الله فداء العالمين. ثم شرعتُ اتأمل قبح سيرتي ورداءة تصرُّفي فاخجلني ذلك التأمل حتى ندمت على ما فرَّطت في جنب الله وأتبتُ اليهِ بتوبةٍ نصوحٍ. ثم جلست في ناحية تجاه باب الكنيسة وقد اشتدَّت ندامتي وطفقت اتنهَّد وابكي. وفي شدة حزني رفعت عينيَّ فوجدت امامي ايقونة البتول عليها افضل الصلاة وازكى التحية. وتذكرت ما كنت قد سمعتهُ مرات كثيرة ونصهُ انا ام الرحمة وملجأ الخطأة فصرخت نحوها قائلةً ايتها البتول ام الرحمة ارحمي هذه الشقية الخاطئة فانتِ ملجأ الخطاة وملاذ الأثمة وانا اعظمهنَّ. ولا ريب ان حالي التعيس مما يميلكِ الى ان ترحميني واما الان فلا استحق ان انال من نِعَم الله ما ينالهُ الابرار غير انني اسألكِ ان تأذني لي فارى العود المقدس الذي عليهِ سفك المسيح ابنكِ دمهُ الكريم لاجل خلاص نفسي. وانا اعاهدكِ اني بعد ذلك اسكن البرّية حياتي كلها وابكي هناك دائمًا على خطاياي. فشعرتُ حينئذٍ برجاء باطن وتقدمت الى باب الكنيسة ودخلتها من دون مانع. فجثوت امام العود الالهي بقلب منسحق وعين ذارفة الدموع. ثم خرجت ورجعت نحو ايقونة العذراء المذكورة فجثوتُ امامها وصرخت قائلةً ايتها البتول ام الرحمة اني بعد اتكالي على الله تعالى ارجو منكِ كمال التوبة والثبوت عليها بحيث لا يبقى هذا العمل ناقصًا لان شقاءي قد جعلني اهلاً لان ترؤفي بي. وقد قطعت معكِ عهدًا باني ازهد في الدنيا وانقطع عن اهلها واسكن البادية حيث لا ارى احدًا. فها انذا مستعدة للوفاء بالعهد فامريني بما تريدينهُ واهديني الى طريق الخلاص فسمعتُ صوتًا يقول من بعد ان تعبري الاردن تنالين الراحة. فخرجتُ حالاً من اورشليم وجعلتُ العذراء امًّا لي. ولم آخذ معي للاكل الاَّ ثلثة ارغفة فوصلت مساءً الى شاطئ الاردن ووجدت هناك كنيسة مبنية على اسم القديس يوحنا المعمدان فاكلت ثمَّ نصف رغيف وصرفت الليل كلهُ في التندُّم على آثامي. فالله يدري كم تنهَّدتُ وكم بكيت في ذلك الليل طالبةً من الله الرحمة والغفران ثم ابكرت الى تطهير نفسي بسرّ التوبة وتناولت القربان المقدس ثم فوَّضت الى العذراء امري وعبرت الاردن ودخلت هذه البادية السعيدة وانا ابنة تسع وعشرين سنةً. وقد مضى عليَّ في هذه البرية سبع واربعون سنةً وما ابصرت عيناي من احدٍ

فقال لها القديس زوسيموس وبماذا كنتِ تقتاتين كل هذا الزمان الطويل قالت القديسة دخلت هذه البادية ومعي رغيفان ونصف رغيف فكفاني ذلك الزاد بضعة اسابيع ولما نفِدَ عشت بالبقول واعشاب البرية. قال القديس بالله ربكِ الاَّ اظهرتِ لي كل شيء مما اسألكِ عنهُ. أما استصعبتِ الانفراد بسبب تجارب الشيطان ولاسيما في الابتداء. قالت مريم اني الى اليوم ارتعب حين اتذكر تلك التجارب التي ادركتني في البرية مدة سبعة عشر عامًا لان الشيطان كان يصوّر لي ويمثّل لعينيَّ كل ما كنت قد ارتكبت بهِ المعصية ايام الجهل والاثم لا بارك فيها. وكنت لذلك اجثو على الارض في الحال وأُعفّر في التراب خدي واضرب صدري وابكي طالبةً من العذراء التي كنت جعلتها كفيلة توبتي عند ابنها اتبادر الى اغاثتي وتعضدني حتى اظفر بعدوّها. فنظرت دموعي ورثت لحالي بحيث تشفَّعت فيَّ عند المسيح ابنها ومدَّت لي يدًا بها قهرت الشيطان وانتصرت عليهِ في كل موقعة. على انهُ بعد سبع عشرة سنةً احجم ابليس واراحني الله من تجاربهِ فلهُ الشكر على كل حال. وبما انها كانت تؤيد كلامها بآيات

من كتاب الله قال لها زوسيموس هل قرأتِ كتاب الله قالت لا ولكنما الله علمني ذلك سبحانهُ الهًا يؤتي النعمة من يشاء. وحينئذٍ خرَّت على قدميهِ وقالت لهُ أَبتِ انك قد عرفت عظمة خطاياي وكثرة آثامي اني لذلك محتاجة الى من يصلي من اجلي ويطلب من ابي المراحم ان يلطف بي ويغفر لي فاسأَلك ان تذكرني في صلواتك ولاسيما حين تقدم ذبيحة القداس الالهي باركني الان فاخلّي سبيلك والاَّ فلا اطلقك قبل ان تباركني. فجثا القديس واطرق في الارض ثم قال مبارك الرب الذي يصنع عظائم لا يحصى لها عددٌ ويفيض من غدير رحمتهِ على الذين يشكرون النعم الجزيلة وهو الله الذي اياهُ اسأَل ان يبارك عليكِ ويختم بالخير امركِ فليكن اسمك اللهمَّ مباركًا الى الابد وانني اشكرك لانك اريتني اليوم النعم الوافرة التي تمنُّ بها على خائفيك

ثم سأَلتهُ القديسة ان ينهض قائمًا فلما وقف قالت لهُ اني اطلب منك شيئين الاول ان تدفن في صدرك كل ما سمعتهُ مني لا تبوح منهُ بشيءٍ ما بقيت انا حية. والثاني ان لا تخرج من الدير في صوم الاربعين القابل بحسب عادتك لكي تعبر الاردن فذلك يكون عليك من اشد المصاعب. وانما ارجوك ان تجيءَ اليَّ يوم خميس الاسرار من اسبوع الالام بعد تلاوة الصلوات الكنائسية بالقربان المقدس لأَتناولهُ في الساعة التي تناول فيها تلاميذ المسيح الاطهار عليهم السلام وانتظرني على شاطئ الاردن فاني سانطلق الى هنالك بدون تردُّد ولا ارتياب لكي اتناول ذلك الطعام الذي هو قوام النفس وغذاء الروح. ذلك وانني ارجوك يا ابي ان تنصح يوحنا رئيس الدير كي يحسن الاحتراس على نفسهِ وعلى من تحت لوائهِ لان عبادة بعضهم قد فترت واياك ان تذكر ذلك للرئيس المشار اليهِ الاَّ حينما يأمرهُ الله تعالى بذلك ثم طلبت من القديس البركة ثانيةً فباركها ثمَّ انفردت عنهُ ودخلت البرية مسرعة.

فرجع القديس زوسيموس الى الدير شاكرًا عزتهُ تعالى على ما رآهُ من عجائب نعمتهِ واقام بذلك الدير السنة كلها صامتًا متعبدًا لله بلا فتور وفي ابتداء الصوم الاربعيني اعترتهُ حمى فعاقتهُ عن الخروج من الدير فكان ذلك مصداقًا لما تنبأت بهِ القديسة مريم. الاَّ انهُ يوم الخميس من الاسبوع العظيم حمل القربان المقدس وخرج من الدير فوصل الى شاطئ الاردن عند المساء وبعد قليل رأى بواسطة ضوء القمر القديسة مريم آتية من بعيد وعندما انتهت الى الشاطئ عملت على المياه علامة الصليب ومشت على الماء كما تمشي على الارض. فانذهل القديس من ذلك وخرَّ على الارض وعلى الفور قالت لهُ القديسة انك كاهن وحامل القربان المقدس فقم فقام وخرَّت هي ساجدة للقربان المقدس بكمال التهيُّب. ثم طلبت منهُ ان يذكر قانون الايمان والصلاة الربية وبشارة الملَك. فذكر كل ذلك فتناولت القربان المقدس وقدَّمت الشكر لله بالورَع ثم صرخت قائلةً الان ايها السيد اطلق أَمتك لان عينيَّ قد ابصرتا خلاصك. ثم التفتت الى القديس وقالت لهُ اسأَلك يا ابي ان تأتي في الصوم القابل الى المكان الذي كنت فيهِ عند ما صادفتني في البرية وهناك ستلقاني على ما يريد الله من الاحوال. ثم طلبت بركتهُ وبعد ان باركها القديس عملت علامة الصليب على الماء وعبرت ثانيةً الاردن ماشية على المياه واختبأَت في البرية

وعقب سنة من ذلك خرج القديس زوسيموس وباقي الرهبان في ابتداء الصوم ليعتزلوا في البرية بحسب عادتهم فلما وصل الى المكان المعين وجد القديسة مريم المصرية ميتةً ومكفَّنةً بالرداء الذي كان قد اعطاها اياهُ. وكأَن قد اتى على وفاتها ساعئتذٍ دقيقة واحدة. ووجد بقرب جسدها كلامًا مكتوبًا على الرمل ونصهُ. ايها الاب زوسيموس ادفن هنا جسد المسكينة مريم التي قد ماتت يوم الجمعة من الاسبوع العظيم بعد ان تناولت القربان المقدس من يدك بزمن يسير وصلِّ من اجلها. فحزن القديس وبكى وصلى وفي حين صلاتهِ اتى اسد وقبَّل قدمَي القديسة ووقف بازاء القديس كانهُ حيوان اهلي ثم حفر حفرة عميقة وبعد ان اكملها ذهب الى بعيد فدفنها وقتئذٍ القديس مرتلاً عليها صلوات الكنيسة. ثم عاد الى ديرهِ واخبر بكل ما رآهُ ونصح الرئيس بما تقدمت اليهِ القديسة عليها سلام الله. اما القديس زوسيموس فعاش مائة سنة بتقوى الله. وكانت وفاة القديسة مريم المصرية في اليوم الاول من شهر نيسان ٤٢١ كما قرر ذلك اليونانيون ويذكرها السنكسار الروماني في اليوم الثاني منهُ

اليوم الثالث

وفيهِ ترجمة القديس فرنسيس بولا

انما لقّب القديس المذكور ببولا لانهُ وُلد ببولا مدينة

بايطاليا في السنة السادسة عشرة من المائة الخامسة عشرة للمسيح وكان ابواهُ من الفضلاء الذين يتقون الله واذ مرَّ على زواجها زمن ولم يولد لهما نذرا لله تعالى نذورًا اكرامًا للقديس فرنسيس الكبير ووعد الله سبحانهُ بانهُ اذا اتاها ابن ذكر يسميانهِ فرنسيس . فقبل الله سبحانهُ نذرهما وحين حبل والدتهِ بهِ ظهر نور فوق المنزل وابصر ذلك النور خلق كثير وما كان ذلك الاَّ دليلاً على ان ابنهما سيكون كنور في العالم . غير ان الله تعالى الذي يمتحن قديسيهِ ويزج سلوتهم بالحزن لاغراض لا يعلمها احد من العالمين رزقهما الله ولدًا كفيفًا لانهُ وُلد وعلى عينيهِ بياضةٌ تمنعهُ النظر . فالتجأَت والدتهُ ثانيةً الى القديس فرنسيس ونذرت انها تترك ابنها يخدم في احد اديرتهِ سنة كاملة وهو لابس ثوب الرهبانية . فقبل الله سبحانهُ نذرها الثاني وبشفاعة القديس فرنسيس ذهبت البياضة عن عين الطفل حتى لم يبقَ لها اثر . ثم ان والديهِ بعد ولادة ابنهما هذا نذرا لله العفة واقاما على هذه الحال الى حين وفاتهما ثلاثين عامًا . ذلك وان بعضًا من المؤرخين يذكرون انهما لم ينذرا العفاف الاَّ بعد ان ولدت الام ابنة . ولما بلغ فرنسيس بولا السنة الثالثة عشرة من عمرهِ تراءى لهُ في الحلم راهب لابس ثوب القديس فرنسيس ولا يبعد انهُ هو القديس فرنسيس بعينهِ . وقال لهُ قم وقل لوالديك تمّمَا نذركما فقام الصبي واخبرهما بكل ما جرى لهُ وقيل لهُ في الحلم . فادخلاهُ حينئذٍ دير رهبان القديس فرنسيس وهنالك لبس ثوب الرهبانية وخدم اولئك الرهبان سنة كاملة . وحرَّم على نفسهِ اكل اللحوم والالبان لا متابعةً للرهبان المشار اليهم فان تلك العادة لم تكن جارية عندهم وانما فعل ذلك من باب الزهد في لذات الدنيا والرغبة في الاخرة فانهُ كان مخلصًا لله الطاعة بكل قلبهِ . ومما يدل على ذلك ويؤيدهُ ان رهبانًا كانوا يراقبونهُ اكدوا انهُ كثيرًا ما كان يُحيي الليل كلهُ مصليًا اما امام صورة يسوع المصلوب واما امام صورة العذراء او صورة القديس يوسف مع انهُ يكون قد تعب كثيرًا في النهار . ذلك ولاجرم ان نموَّهُ بالفضيلة أَمال الناس اليهِ وحبَّب اليهم محضرهُ وكلامهُ فكان جميع الرهبان يعتبرونهُ ويحبونهُ بل الاسقف نفسهُ كان يشتهي مشاهدتهُ ويستعذب مخاطبتهُ . فبعد ان انهت السنة وتمَّ النذر اتى ابواهُ الدير ليذهبا بابنهما . فحزن الرهبان حتى الرئيس على فراقهِ فبكوا وسألوهُ ان يُقيم عندهم . فقال لهم الغلام المتنوّر بروح النبوة بعد ان شكر فضلهم . اعلموا ايها الاباء المحترمون ان الله سبحانهُ لا يشاء ان اقيم هنا اكثر من ذلك وبناء عليهِ لا بد من الفراق فودَّع الرئيس والرهبان وخرج من الدير . ثم زار باذن والديهِ الاماكن المقدسة برومية وكنيسة القديس فرنسيس الكبير بمدينة اسيسيا . ثم انقلب راجعًا الى مدينتهِ واستأذن والديهِ في ان يختلي في منزل لهما منفرد بجوار المدينة وكان لهُ حينئذٍ من العمر اربع عشرة سنةً فاذن لهُ والدهُ في ذلك لعلمهِ بان روح الله كان يرشدهُ ويهديهِ فذهب وما لبث ان تزاحمت الناس عليهِ افواجًا ليروا يوحنا المعمدان الجديد في البرية لان نفحات برّهِ نمَّت بعد قليل في تلك النواحي . فانطلق من هناك واختبأَ ضمن صخرةٍ على شاطئ البحر . وهناك جدَّد سيرة السياح القدماء . لانهُ كان ينام على وجه الصخرة ويلبس المسح وفوقهُ ثوبًا خشنًا دنيئًا . وكان يغتذي بالبقول والاعشاب ويشرب ماء صرفًا . ذلك فضلاً عن انهُ كان يصرف الليل والنهار في الصلاة والتأمل وقراءة الكتب الروحية

الاَّ ان الله الذي انتخبهُ واراد بهِ خيرًا ليساعد الناس ويهديهم الى سبيل الكمال أَلهمهُ ان يقبل عندهُ تلاميذ ولذلك اذ اتاهُ بعض الشبان وطلبوا اليهِ ان يتتلمذوا لهُ قبلهم . ثم بنوا كنيسة وقلالي بقرب مغارتهِ وكان يجيء اليهم كاهن من قرية قريبة ويقيم الصلاة ويقدم الذبيحة الالهية ويناولهم القربان المقدس . فعلى هذا المنوال انشأَت رهبانية هذا القديس في السنة الرابعة والخمسين بعد الالف والاربع مائة وكان وقتئذٍ ابن تسع عشرة سنة لا اكثر ولا اقل . وسرت نسمات فضلهِ في الآفاق فاتتهُ التلاميذ افواجًا حتى اضطرَّ الى ان يبني ديرًا كاملاً . فاستحسن جبلاً قريبًا من مدينة بولا وشرع يبني فيهِ وللوقت اقبل الناس على مساعدتهِ في اقامة ذلك الدير . فجاءهُ خلق كثير من الرعاع والعظماء حتى نساء الاشراف . والجميع كانوا يناولون الحجارة والطين للبنائين ويعطونهم الاجرة

وليس بعجيب ان الناس يسعون برغبةٍ في انشاء مثل ذلك الدير الذي شرَّفهُ الله عزَّ وجل بعجائب كثيرة نقتصر على ذكر بعضها فنقول . روى ثقات المؤرخين ان رجلاً كان عاجزًا عن المشي لوجع أَليم في احد فخذيهِ حُمل على ايدي الناس الى القديس فرنسيس بولا فلما رآهُ قال لهُ انما ابتلاك

الله بهذا الوجع من اجل قلة احترامك له ولوالدته ثم امره ان يحمل الى البناء خشبةً طويلة وثقيلة بحيث يعجز كثيرون عن تحريكها . فتبسم المريض ولم يتحرك فقال له القديس اني لا اطلب منك ما لا تقدر عليهِ قم وافعل ما طلبته منك . فقام المريض وحمل الخشبة على منكبيهِ ووصل بها الى البناية وزال عنهُ الوجع كلهُ . ورووا ايضًا انهُ أُخبر عليهِ السلام بان أتون الكلس المتقد انشق من فوق النار وحرارة اللهيب وانهُ بعد قليل تتساقط الحجارة فيتلف الأتون . فذهب القديس ودخل الاتون ملتهبًا ولبث هناك الى ان رتَّب الحجارة ورمَّم الاتون ثم خرج سالمًا . ورووا ايضًا انهُ انفصل جزء عظيم من الصخرة وتدحرج من قمة الجبل على ذلك البناء فرفع القديس يدهُ نحو السماء فوقفت الصخرة وقد وصلت الى منحدر الجبل . والحاصل انهُ بعد ان فرغ من بناء الدير وضع رسومًا لرهبانيتهِ وعلاوةً على نذور الرهبانية الثلثة الاعتيادية الزم رهبانهُ بان ينذروا الامتناع الدائم عن اكل اللحم

فما لبثت هذه الرهبانية المقدسة ان نمت واحبها الناس وطلبوا ان يبنوا لها اديرة فانشأوا في مدة قليلة اربعة اديرة ببلاد كالابريا وانما كان ذلك بعناية الله جل شأنهُ وبحيث ان أرج فضائل القديس المشار اليهِ عبق في الاقطار ارسل البابا بولس الثاني كاهنًا معتبرًا لكي يختبر حقيقة الامر فلما وصل الكاهن المذكور وابصر القديس بهرهُ نور ظهر من وجههِ فخفض الكاهن رأسهُ ليقبل يدهُ فمنعهُ القديس عن ذلك وقال لهُ انا يجب عليَّ ان الثم يدك انت الذي قد ارتسم كاهنًا منذ ثلثين سنةً . ثم خاضا في الحديث وجرى بينهما كلام طويل وعرف ذلك الرسول ضيق عيشتهِ فقال لهُ كيف يمكنكم ان تستمرُّوا على مثل هذه العيشة القشفة . فقام القديس ووضع على كفهِ جمرًا ملتهبًا وتركهُ هكذا طويلاً . ثم قال لذلك الرسول اعلم يا سيدي انهُ لا يعسر شيءٌ على الذين يعبدون الله ظاهرًا وباطنًا . اما المرسل فارتعد من تلك الآية وجثا على الارض بهابةٍ . ثم نهض وعاد راجعًا الى البابا واعلمهُ بكل ما رأَى وسمع . فبدأَ الحبر الروماني من ذلك الزمان يأخذ بيدهِ ويسعفهُ في اعمالهِ ولا سيما البابا سيستوس الرابع فانهُ اثبت رهبانيتهُ في السنة الرابعة والسبعين بعد الالف والاربع مائة . ولكنهُ لم يرد ان يثبت الامتناع عن اكل اللحوم والالبان . فأَمسك القديس يد الكردينال جوليانوس وقال لهُ انك ستثبت نذرنا هذا ان شاء الله . ثم اثبتهُ لان هذا الكردينال بعد اثنين وعشرين عامًا جلس على عرش الخلافة البطرسية باسم جوليانوس الثاني وهو الذي اثبت ذلك النذر . ومما يُروى عنهُ ايضًا انهُ جمع يومًا رهبانهُ في زمن الشتاء وجعل يحثهم كثيرًا على الامتناع عن اكل اللحوم والالبان وما شابهها . فاخذ بمجادلة واحد من اولئك الرهبان اسمهُ يوحنا ويبين لهُ ان الوفاء بذلك النذر صعب جدًا . وحينئذٍ امر القديس احد الاخوة ان يأتي بفحم متقد لان البرد كان شديدًا وزمان الخطاب طويلاً . فاتى بذلك ووضعهُ امام الاخ يوحنا لان بردًا شديدًا اصابهُ . وقد فهم يوحنا مراد القديس بذلك وبعد زمن يسير احترق في الموقد فرفع حينئذٍ القديس جمرًا من ذلك الموقد ووضعها على كفهِ فخاف الحاضرون ثم امر بان يأتوا بقدر ليضعوا الجمر تحته فمضى احد الاخوة وأبطأَ في المجيء . اما الحاضرون فاخذتهم الحيرة لان يد القديس لم تحترق . وبعد ان وضع القدر فوق الموقد والجمر تحتهُ قال لهم اعلموا يا ابنائي انهُ لا يعسر شيءٌ على محبي الله . وان الخليقة التي لا حسَّ لها تُطيع من يُطيع الله عزَّ وجلَّ . وفعل ايضًا مثل ذلك امام انطونيوس يسكوزيتي راهب من رهبانية القديس فرنسيس الكبير كان يغتاب القديس فرنسيس بولا امام الجمهور ويغضُّ من شرفهِ ويخفض شأنهُ وقد تمادى في ذلك الامر الفظيع حتى غدا يوبّخ الناس على اعتبارهم اياهُ كاهنًا قديسًا وحملتهُ القحة آخر الامر على ان جاء القديس وقد اراد ان يهزأ بهِ . فوجدهُ مصطليًا على النار اما القديس فلما رأى انطونيوس اخذ بيدهِ جمرًا ملتهبًا وبعد زمان يسير قدَّمهُ للراهب الغريب وقال لهُ بصوت منخفض خذ هذا ايها الاب واصطلِ بهِ فانك لمحتاج اليهِ كل الاحتياج . ولا يخفى ما في ذلك من الاشارة الى انهُ عادم نار المحبة . فلما ابصر الراهب هذه الاعجوبة خرَّ ساجدًا للقديس واستغفر منهُ . ومن ذلك اليوم لم يزل عبير برهِ ينمُّ وينتشر في الآفاق البعيدة . ورُوي عنهُ ايضًا ما هو اعجب من ذلك قالوا انهُ عزم على الشخوص الى بلاد صقلية برفيقهِ فابى الملاحون ان يقبلوهُ في سفينتهم فبسط رداءهُ على وجه الارض وجلس هو ورفيقهُ فوق ذلك الرداء ثم سارا هكذا على وجه البحر امام اولئك الملاحين فوصلا قبلهم الى صقلية وفي ذلك الوقت مرض ملك فرنسا لويس الحادي عشر فارسل احد عظماء المملكة الى البابا وسأَلهُ

ان يرسل اليهِ القديس فرنسيس بولا ليشفيهُ من مرضهِ فامرهُ الحبر الاعظم بان ينطلق الى فرنسا فذهب وقابل الملك فأجلَّ مقامهُ واكرم مثواهُ وابدى مزيد الاحترام حتى انهُ جثا امامهُ وطلب منهُ بتلهُّفٍ ان يسأل الله شفاءهُ . فخاطبهُ القديس بسلطان نبوي وقال لهُ اعلم ايها الملك المعظم ان ايام الملوك محدودة كايام السوقة . وقد ارسلت انت وطلبت ان آتيك لتطول حياتك . واما الله سبحانهُ فقد ارسلني لأعدك بميتةٍ صالحة . فقبل الملك ذلك الحكم بكل خضوع مع انهُ كان الى ذلك اليوم يخاف ويرتاع من ذكر الموت وذلك كما لا يخفى امر عجيب وبناء عليهِ استعدَّ للموت ومات بين يدي القديس ميتةً صالحة

ولما كان هذا القديس في مدينة نابولي وعدهُ الملك بان يبني لهُ ديرًا . فقال لهُ القديس ايها الملك ان فعل الصدقة من مال الناس لا يفيدك شيئًا . فبهت الملك ثم قال لهُ اتظن يا ابانا اني آخذ اموال الناس فقال القديس ان الذي طلبتهُ من الشعب فوق حقوقك ليس هو مالك بل مال الشعب ودم رجال الارامل واليتامى . ثم طلب القديس قرشًا من الملك فامسكهُ وكسرهُ فجرى منهُ دم فقال حينئذٍ للملك أعلمت الان صدق كلامي . ويروى ان امرأةً اراد ابنها ان ينضوي تحت اسكيم رهبانية القديس فرنسيس بولا فمنعتهُ . ثم مات ذلك الشاب وأُخذت جثتهُ الى كنيسة القديس وهناك جنزوهُ ثم امر القديس رهبانهُ ان يحملوا جسد الميت الى قلايتهِ حيث اقامهُ وبعد قليل من قيامتهِ اتت والدة الميت وقالت للقديس لو لم اصدَّ ابني عن الترهب ما كان قد مات . فقال القديس هل ترضين بترهبهِ الان لو كان حيًّا . فتأسفت المرأة وقالت لهُ ان ارتضائي بذلك الان هو باطل . فقال لها القديس مهلاً وصعد الى قلايتهِ وألبس الشاب ثوب الرهبانية ثم قدَّمهُ لامهِ وهو على تلك الحال

ذلك وان اغرب ما فعل من الايات المواظبة على التقشفات زهاء ثمانين سنةً بحيث لم يكن يتناول الا البقول البريَّة وما كان يتناول ذلك الا عند المساء . وكثيرًا ما كان يطوي يومين وثلثة واربعة لا يأكل شيئًا وكان في الاعياد الكبيرة يعتزل في قلايتهِ الى ثمانية او عشرة او اثني عشر يومًا لا يكلم احدًا ولا يأكل شيئًا . ولما بنى ديرهُ الاول بقرب مدينة بولا اقام مختليًا من دون اكل ولا شرب مدة الصوم الاربعيني كلها . ثم انهُ لم يكن يمشي الا حافيًا في زمن الشتاء وهكذا كان يمرُّ بين الثلوج ويلبس المسح دائمًا ويرقد على الواح من خشب بدون فراش ويجلد جسدهُ بالسياط ويضربهُ بغيرها من آلات التعذيب

فحضرتهُ المنية وهو ابن احدى وتسعين سنةً وحينئذٍ جمع كل رهبانهِ الذين كانوا في الاديرة القريبة واخبرهم بقرب موتهِ ثم وعظهم كثيرًا . وفي احد الشعانين اعترتهُ حمى خفيفة ويوم الخميس من الاسبوع العظيم مضى الى الكنيسة وسمع القداس وتناول القربان المقدس وفي الغد بعد ان بارك على رهبانهِ واستودع الله نفسهُ ورهبانيتهُ انتقل الى رحمة المولى وكان ذلك في اليوم الثاني من شهر نيسان في السنة السابعة من المائة السادسة عشرة للمسيح

اليوم الرابع

وفيهِ ترجمة القديس افلاطون الراهب

ان هذا القديس وُلد بالقسطنطينية في السنة الرابعة والثلاثين من المائة الثامنة للمسيح وكان ابواهُ سرجيوس واوفاميا جليلي القدر كريمي الاصل يتقيان الله ولهما من الناس احترام عظيم . فرضع العبادة من ثدي امهِ فتمكنت في قلبهِ مخافة الله ولذلك لم تغوهِ زخارف الدنيا وعجزت عن ان تستميل قلبهُ الى حبها . وكانت ولادتهُ على عهد الملك كوبرونيموس المنافق عدو المسيح واوليائهِ . ومن اجل نفاقهِ ضربهُ الله بوباء لم يُسمع بمثلهِ وفشا في القسطنطينية كلها فانهُ كان يظهر بغتةً على اثواب الناس شكل صليب بلون سماويٍ وللحال يُصابون بالطاعون وبعد قليل يموتون . فمات هكذا اكثر من نصف القسطنطينية ووالد القديس افلاطون ووالدتهُ ايضًا

ومن حيث انهُ كان صغيرًا بعدُ اتخذهُ عمهُ ورباهُ تربية حسنة فنما بالعبادة والعلم ثم صار عمهُ قيّم المملكة فجعل ابن اخيهِ مساعدًا لهُ في ذلك العمل . وقد اضحى افلاطون معتبرًا جدًّا في بلاط الملك بفطنتهِ وامانتهِ في تدبير الامور

على ان مراتب الدنيا ولذاتها وحظوتهُ عند الملك لم تغرَّهُ ولم تستفزهُ فلم يكن ممن تطيشهم المناصب والرتب وسار بين الكرامات الدنيوية سير محترس على نفسهِ بحيث كان يدأب الصلاة وقراءة الكتب الروحية . ولما زهد في الدنيا

كان وقتئذٍ في بلاط الملك فريدًا بين اقرانهِ . والحاصل انهُ باع املاكهُ كلها واعطى ثمنها للمساكين . وبعد ان قطع هذه الرُبُط الدنيوية قص شعر رأسهِ ولبس ثوبًا اسود وخرج من القسطنطينية وهو ابن اربع وعشرين سنةً وذهب هكذا الى جبل اوليمبوس ببلاد بيطينية ودخل ديرًا يقال لهُ سيمبولون وكان هناك تاوتيستوس رئيسًا . فلما نظر اليهِ ذلك الرئيس الفاضل نظرة متأمل ورآهُ ضعيف المزاج حدِث السن غير معتاد على تقشف المعيشة اشار عليهِ ان يعدل عن هذا السبيل ويسلك سبيلاً مناسبًا لحالهِ . الاَّ ان الشاب النشيط لم يرتخِ عزمهُ بل قال للرئيس نعم ان جسمي لضعيف الان ولكنما عزمي قوي . ولاجرم ان النعمة ستغني عما سينقصني من قوة الجسم وقد فوَّضت اليك امري لتتصرف بي بسلطان مطلق . نعم اني عاجز ضعيف ولا اعرف شيئًا ولكن اعرف ان اطيع واقدر على ذلك . فقبلهُ الرئيس وانجز افلاطون وعدهُ ولم يكن في الدير احد اطوع واوضع وآمن منهُ . ولذلك انتخبهُ الرهبان كلهم رئيسًا بعد ان مات تاوتيستوس . فنظر حينئذٍ افلاطون في واجبات مرتبتهِ ورأى ان مجرَّد كونهِ رئيسًا يلزمهُ بان يكون اجلَّ من مرؤوسيهِ قدرًا واسمى برًّا واكثر فضلاً ليصلح ان يكون قدوة لهم في السيرة التي ذكرها كاتب ترجمة القديس تاودوروس الملقب بستوديتوس حيث يقول انهُ لم يكن يستعمل الاَّ الصلاة والقراءة في كتب اولياء الله وكان تصرُّفهُ منطبقًا على مضمونها لانهُ كان يغوص في بحرها على درر المعاني . ذلك ولم يُرَ بطَّالاً قط . وكان الرهبان وقتئذٍ يسلكون سبيل البرّ باتم النشاط

اما الملك قسطنطين كوبرونيموس فكان وقتئذٍ يتعب كنيسة الله بمحاربتهِ الذين يكرمون صوَر اولياء الله وخلاَّنهِ الصالحين . ولان الرهبان كانوا في هذه العبادة المقدسة اكثر غيرة وشجاعة من البقية حاربهم الملك المنافق باشد قساوة وقتل كثيرين منهم فضلاً عن انهُ هدم بعض اديرتهم ونفى كثيرين منهم . ولكن الله تعالى الذي لا يهمل كنيستهُ جعل القديس افلاطون ترسًا للمؤمنين وانارةً لأذهانهم ووقايةً لهم من شرّ كل عدو فانهُ لما اتى القسطنطينية لاقاهُ الشعب كانهُ ملَك هبط عليهم من السماء ولان الجميع كانوا يشتهون مشاهدتهُ ويتوقون الى استماع تعاليمهِ ردَّ كثيرين عن الضلال في زمن قليل وثبَّت المتقلقلين في الايمان والقى السلام في المدينة بعد ما كان المبتدعون ملأُوها اضطرابًا وخصومةً فتألَّفت قلوب الناس وامتد بينهم الوداد . ولذلك رجعت المدينة كلها الى حسن العبادة ورجع الرهبان والراهبات الى التنسك وممارسة الفضيلة

واراد البطريرك ان يرسم القديس اسقفًا على مدينة نيقوديميا فلم يرتضِ الراهب المتضع بذلك بل خرج من القسطنطينية وعاد الى ديرهِ بكل شوق . غير ان حبهُ الشائع في الشرق اخرجهُ ثانيةً من خلوتهِ . لانهُ بعد موت لاون ابن كوبرونيموس جلس على عرشهِ ابنه قسطنطين وهو اذ ذاك ابن عشر سنين ومن ثم كان تدبير الملك في يد الملكة إيريني والدتهِ . وهذه قد ابطلت امر الملوك المتقدمين الذين كانوا ينهون الناس عن الترهب وللوقت زهد في الدنيا اهل بيت افلاطون جميعهم وترهبوا وتسبَّبوا لكثيرين غيرهم في الترهب أما اهل القسطنطينية فلمعرفتهم عظم الفائدة الناشئة للمسيحيين من حضور القديس افلاطون ألزموهُ ان يترك ديرهُ ليدبر ديرًا آخر قريبًا من المدينة يُدعى دير ساكوديون . فشرع هناك القديس يردّ رسوم القديس باسيليوس الى كمالها الاول فاخرج من المنزل الملتصق بالدير كل النساء اللواتي كنَّ يخدمنَ هناك والزم الرهبان بان يصمتوا دائمًا ويواظبوا على الاختلاء . ولعمري انهُ تعب جدًّا باصلاح حال هذا الدير واختبر حقيقة ذلك الكلام القديم القائل ان رجوع الرهبان عن الفتور الى حال النشاط من اعظم واغرب عجائب الله سبحانهُ . ولكنما القديس انتصر على صعوبة الامر باصلاح السيرة وطيب النية وطول الاناة بحيث انهُ كان يسبق الجميع في اصعب رياضات رهبانيتهِ

ولم يلحقهُ ضررٌ من جهة قرب الدير من القسطنطينية لانهُ عدا الناس الكثيرين الذين كانوا يفتقدونهُ تفاقمت عليهِ الرسائل ايضًا فباشر كل تلك الامور ولكن بدون تشتت بال ولا قلة تأمل في الله سبحانهُ . وفي السنة السادسة والثمانين من المائة الثامنة للمسيح حضر المجمع القسطنطيني في كنيسة الرسل وفيهِ أثبت تكريم الصوَر المقدسة بغيرة ابوية وفصاحة عجيبة وشجاعة اسديَّة وبواسطة ذلك اخزى اهل الاهواء وظفر بهم وعقب سنة واحدة من ذلك العهد حضر المجمع النيقاوي الثاني وفيهِ اظهر غيرتهُ وسعة علمهِ ومن ذلك اليوم لم يزل مبغضو الصوَر يضادونهُ

اما الملك قسطنطين فلم تكن سيرتهُ على مقتضى متانتهِ في المذهب الكاثوليكي وان كانت الملكة ايريني ربَّتهُ عليهِ وعودتهُ ان يستعمل رسومه وانما كان ذلك لانهُ عشق تاودوتا احدى خادمات الملكة فطلّق مريم امرأتهُ وتزوَّج بتاودوتا المشار اليها ولم يقاومهُ احدٌ الاَّ القديس تاراسيوس والقديس افلاطون وابن اخيهِ القديس تاردوروس مع ان تاودوتا كانت من اقربائهما . وبحيث ان كلام الانبا افلاطون كان معتبرًا جدًّا ولم يقدر على ان يسدَّ فاهُ لا بالملاطفة ولا بالهدايا ولا بالوعيد ارسل جنودًا فقبضوا عليهِ في ديرهِ واتوا بهِ الى الملك

فلما مثل لديهِ لم يضطرب بل طفق يوبّخهُ باحترام وغيرة كما فعل القديس يوحنا المعمدان اذ وبَّخ هيرودس على زنائهِ فغضب قسطنطين وألقاهُ في السجن وقيَّدهُ بالاغلال الثقيلة . ولم يبرح معذبًا الى اكثر من سنة . ولكن لم يطفئ ذلك نار غيرتهِ ولا اضعف عزمهُ ولا قلَّل من شجاعتهِ بل كان في سجنهِ كما كان في قلايتهِ من حيث الهدوء وراحة الضمير مع ان بوَّاب السجن كان يبغضهُ لانهُ هو ذاك الكاهن الذي كان قد كلل الملك والمرأة الزانية . الاَّ ان الله عزَّ وجل انتقم من ذلك الملك الشرير بحيث سقط عن عرشهِ وعُزل عن حقوقهِ ومات كفيف النظر . فخرج للوقت القديس من سجنهِ منتصرًا ممدوحًا من الجميع . ثم عاد الى ديرهِ واقام هناك سبع سنين ملازمًا للاختلاء ومواظبًا على الرياضات والصلوات والتقشف ولان قوتهُ كانت قد ضعفت جدًّا من السجن طلب ان يُعفى من الرئاسة فرضي الرهبان بذلك حبًّا لهُ وحفظًا لحياتهِ غير انهم طلبوا ان يكون رئيسًا عليهم بدلاً منهُ ابن اخيهِ القديس تاودوروس ولكن الشيطان لم يدع القديس في خلوتهِ زمانًا مديدًا لان الملك نيكفوروس نفاهُ من اجل انهُ لم يرد ان يشترك مع ذاك الكاهن المحروم الذي زوَّج الملك قسطنطين بتاودوتا . وفي غضون ذلك قُتل نيكفوروس في الحرب فجلس ميخائيل على كرسيهِ ثم اعاد القديس الى ديرهِ

فهذه الحوادث كلها عجَّلت موت القديس افلاطون فلما عرف ان ساعتهُ الاخيرة قد دنت استدعى كل رهبان الدير وكان عددهم اكثر من تسعمائة شخص فباركهم وطلب اليهم ان يحملوهُ الى قرب قبرهِ فحملوهُ وذهبوا بهِ ولما ابصرهُ من بعيد قال هذه هي راحتي الى دهر الداهرين

ثم افتقدهُ عظماء القسطنطينية حتى القديس نيكفوروس البطريرك واخيرًا صلى من اجل الكنيسة واخوتهِ الرهبان ومن اجل الذين اضطهدوهُ وانتقل الى رحمة الله في اليوم التاسع عشر من شهر اذار في السنة الثالثة عشرة من المائة التاسعة للمسيح وكان عمرهُ يومئذٍ تسعًا وسبعين سنةً صرف منها في الدير خمسًا وخمسين سنةً

وقد ختم هذه الترجمة القديس تاودوروس ستوديتوس بالتضرُّع الى هذا القديس خالهِ قال . انظر اليَّ يا ابي من علو السماء حيث رفعك الله تعالى لتلاحظني . كن لي مرشدًا وعاضدًا . ارعَ معي هذه الرعية التي جمعتها بتعب جزيل كي نسلك بحسب الوصايا الالهية مقتدين بآثار سيرتك احرسنا جميعنا كما طلبت منك في ساعة وفاتك لاننا كلنا خاصتك . تضرَّع من اجلنا لكي نكون على الدوام في الايمان ثابتين وفي العبادة نشيطين فنستمر الى آخر نسمة من حياتنا في طريق البرّ باستحقاقات سيدنا يسوع المسيح الذي لهُ المجد مع الاب الضابط الجميع والروح الكلي قدسهُ الى الابد امين

اليوم الخامس

وفيهِ ترجمة القديس فينسنسيوس فراريوس

وُلد القديس المذكور بفالانسيا مدينة باسبانيا في السنة السابعة والخمسين من المائة الرابعة عشرة للمسيح . وكان ابواهُ من اشراف المملكة رؤفين على المساكين . فقد كانا في آخر السنة يوزّعان على الفقراء كل ما يفضل عندهما من الاموال . وكان لهما ثلاثة بنين الاول بطرس تزوَّج وسار سيرًا قويمًا وعمل الخير قدام الرب . والثاني بونيفاسيوس تزوج ايضًا وماتت امرأتهُ فترهب في رهبانية الكرتوسيين وزها بينهم بالفضائل فاقاموهُ لاجل خلالهِ الحميدة رئيسًا عامًّا . والثالث فينسنسيوس وهذا كان منذ صبائهِ حبيبًا الى الاكثرين بحيث قلما رآهُ احد ولم يحبهُ . ولما كان ثاقب العقل قوي الذاكرة مقبلاً على العبادة كان يظهر بين اقرانهِ معلمًا ويعتبرونهُ كذلك . ومن ثمَّ كان يجمعهم احيانًا ويعظهم بما يكون قد استمعهُ في الوعظ قائلاً لهم انصتوا ايها الصغار وانظروا لعلي انا واعظ مُجيد

وقد ابتدأ يدرس الفلسفة وهو ابن اثنتي عشرة سنة ونبغ بها حتى فاق اقرانهُ واحرز قصبات السبق في مضمار

المحاورات الفلسفية وعقب سنتين من ذلك اقبل على علم اللاهوت وتعلمهُ وبرع حتى فاق معلميهِ في مدة ثلثة اعوام وكان مع ذلك ينمو بالعبادة لان العلوم لم تعقهُ عن اكتساب الفضيلة ومن ذلك الزمان حاز من الله موهبة البكاء وكان كل مرة يذكر امامهُ اسم العذراء الجليلة يبتهج قلبهُ متهللاً وعند ذكر آلام المخلص كان يتوجع حزنًا وعيناهُ تذرفان دموعًا

فلما بلغ السنة الثامنة عشرة من عمرهِ اخذ يتأمل زوال لذات الدنيا وفناء كراماتها وقد رآها كحقل مشحون فخاخ الهلاك فعندما سألهُ ابوهُ عن الدعوة التي يريدها . قال لهُ اني اخترت الترهب في رهبانية القديس دومينيكوس ففرح والداهُ فرحًا عظيمًا جدًّا لانهما بعد الحبل بهِ ابصرا في الحلم راهبًا من هذه الرهبانية قال لهما افرحا لانهُ في هذه السنة يولد لكما ابن سيكون في رهبانيتنا رسولاً وواعظًا . فذهب بهِ والدهُ وقدمهُ لرئيس دير من اديرة هذه الرهبانية . اما الرئيس فبما انهُ كان عارفًا بجلال مناقب فينسنسيبوس قبلهُ بسرور عظيم كهبة مقدمة لهُ من الله تعالى . وبناء على ما ذكر اذ ترهب شرع يقرأ ترجمة القديس دومينيكوس ويتأملها ليقتفي آثارهُ في الفضيلة وجرى على مقتضى الرسوم الرهبانية ولاسيما تلك التي تخص الاتضاع والطاعة وقهر الجسد مظهرًا في سلوكهِ الاحتشام والبشاشة . وبعدما فرغ زمن التجربة ونذر نذور الرهبانية جعلهُ رئيسهُ معلم الفلسفة وبواسطة هذا العلم كان يعلم تلاميذهُ علم الخلاص والبرّ . ثم ارسلهُ الى مدينتيّ بارشيلونا وليريدا حيث كان علماء الرهبانية والمملكة لكي يمهر في العلم فاشتهر اسمهُ بين علماء الفلسفة واللاهوت وهو ابن ثماني وعشرين سنةً . وما كان يصرف كل زمانهِ في قراءة العلوم وانما كان يعرض عنها وقتًا في كل يوم ويتفرغ فيهِ للصلاة وعبادة الله كما تكلم عن ذلك في الفصل الثاني من مقالتهِ في الحياة الروحية ونص عبارتهِ انهُ لا يليق بطالب العلم ولو ثاقب الفكر ذكي الجنان ان يغفل عما ينميهِ بالعبادة بل الخليق بهِ ان يوجّه الى سيدنا يسوع المسيح كل ما يقرأهُ ويتعلمهُ مخاطبًا اياهُ تعالى وصاغيًا لهُ وطالبًا منهُ الكشف عن مخبآت درسهِ فالذي يقرأ كتابًا يجب عليهِ ان يحول عند نظرهِ اوقاتًا كثيرة ليلج بالفكر جراحات السيد المسيح . ثم ليعد راجعًا الى القراءة وليجث امام الله تعالى عند انتهاء درسهِ ويرسل الى السماء صلاةً تدل على صدق المرء في محبتهِ لله بحيث تنفذ السحاب وتصل الى عرش الله سبحانهُ

ثم رجع القديس الى مدينة فالانسيا وباشر هنالك الوعظ في البيَع على جماهير النصارى مدة ستة اعوام وكان لكلامهِ وقع حسن في قلوب اهل تلك المدينة التي نبتت فيها الفضيلة ونمت وزهت على يدهِ وبناء على ما ذكر ثقات المؤرخين لم يعد مستغربًا ان الناس ما كانوا ينادونهُ الاّ بابيها الواعظ الواسع العلم والجزيل البرّ . لانهُ مع كونهِ معلمًا فصيحًا في وعظهِ لم يرغب في المجد الباطل ومدح الناس بل كانت نيتهُ متجهة دائمًا الى مجد الله تعالى وخلاص النفوس

فلما رأى الشيطان هذه كلها وان كثيرين تابوا الى الله على يدهِ اخذ يعمل عليهِ ويهيئ واسطةً ليوقعهُ في خطيئة فظيعة لكي يزول برّهُ وكرامتهُ معًا فيعود تعليمهُ بلا ثمرة فاخذ ينصب لهُ فخاخًا كما فعل (اخزاهُ الله) لكثيرٍ من القديسين . ففيما كان القديس ذات يوم يقرأ كتاب القديس ايرونيموس في بتولية العذراء الدائمة ويطلب شفاعتها عند ابنها الحبيب لكي يستمر بتولاً كل حياتهِ سمع صوت هاتف يقول لهُ ان الله سبحانهُ لا يمنح الجميع موهبة البتولية وستعدمها انت عما قليل . فحزن القديس حزنًا عظيمًا والتفت الى صورة العذراء مريم وقد ملأ فؤادهُ الغمّ وسالت الدموع على خدّيهِ وطلب التعزية والسلوان وسألها من اي روح اتاهُ ذلك الصوت . فتجلت لهُ ملكة السماء وقالت من الشيطان كان ذلك الصوت فلا تخف فانت تحت كنفي ومن ثم فلا خوف عليك وستبقى عفيفًا حتى الموت وحيل ابليس لا تقوى عليك . ولما رأى ذاك انهُ قد حبط مسعًى وخاب املاً ظن انهُ ينتصر عليهِ بواسطة اخرى . وكان القديس عليهِ السلام لطيف الكلام جميل المنظر حبيبًا الى كل قلب . فاضرم ابليس حبهُ بقلب امرأة جميلة المنظر فشرعت تكثر من زيارتهِ وتسهب معهُ الخطاب في ما يتعلق بأمر نفسها . فايقن القديس لسلامة ظنهِ انها من النساء اللواتي ينعمن بالتعبد لله فاجتهد في ارشادها كل الاجتهاد . ولا جرم ان ذلك دأب امثالهِ الفضلاء الكاملين . بيد ان هاتيك المرأة تمارضت ودعتهُ الى منزلها بحجة الاعتراف . فذهب ودخل بيتها وهنالك كاشفتهُ بما أجنّ قلبها من هواهُ وعشقهِ وقالت لهُ اني سأقتل نفسي بيدي ان لم ابلغ منك اربي . اما القديس فارتاع عند سماعهِ فحيح هذه الحية الجهنمية فاعرض عنها ساعتئذٍ ووجّه الى الله فكرهُ واستغاث بهِ . فشدّد الله قلبهُ وحينئذٍ وبّخ هاتيك الشريرة بكل غضب

ثم قال لها اعلمي اني خصصت لله تعالى نفسي وجسدي فمن المستحيل ان اخونهُ عزَّ وجل واخالف نذري ولو أُجثت الى الموت الف مرة قال هذا وفرَّ هاربًا . اما المرأة فتحوّل حبها الرديء بغضةً فصرخت بنية ان تجمع الجيران وقذفت القديس قالت انهُ اراد ان يزني بي اغتصابًا الاَّ ان الله الذي يهتم بعبادهِ برَّأ القديس في الحال

وكان ذلك ان الشيطان دخلها بعد ان فعلت ما فعلت ضد القديس فحضر احد الكهنة وقسم عليها ليخرج منها الشيطان فأبى وقال انني لااخرج الاَّ بامر من كان في وسط النار والنار لم تحرقهُ . اما الحاضرون فلم يفهموا معنى ابليس الا انهم لما تذكروا ان القديس فينسنسيوس اتاها ليعرّفها وانهُ بعد خروجهِ من بيتها دخلها الشيطان استدعوهُ وذكروا لهُ ما جرى بالمرأة بعد ذهابهِ من منزلها . فتأمل القديس الامر امام الله . ومخافة ان يشان صيتها اذا ابى الانطلاق اليها . تسلح بالصلاة ومضى الى بيت المرأة وفي حين دخولهِ صرخ ابليس قائلاً بفم المرأة ها هوذا الذي كان في وسط النار والنار لم تحرقهُ . قال هذا وخرج من المرأة وقد اشرفت على الموت غير ان الشيطان اخزاهُ الله خرج وما يئس من الظفر ونصب لذلك القديس وهقًا لعلهُ يقتنصهُ بهِ بحيث ان قومًا كان القديس قد نهاهم عن السيرة الرديئة ونصحهم ليسلكوا سبيل البرّ والاستقامة . اعطوا مالاً لامرأة بشرط ان تدخل سرًّا قلايتهُ حتى اذا عاد من صلاتهِ نصف الليل يجدها جالسةً على فراشهِ . ففعلت المرأة بحسب العهد فلما رجع الى قلايتهِ ورآها على فراشهِ وقع في قلبهِ انها شيطان تمثل لعينيهِ بهيئتهِ ليجربهُ فقال لهُ ما قصدك ايها اللعين اتيت بشكل امرأة لتجرّبني كما جرَّبت كثيرين من عباد الله . اما المرأة فذكرت لهُ اسمها وعلة ذهابها وشرعت تستعمل حيَلها الزنائية لكي تصطادهُ باوهاق الاثم . فللوقت اضطرم القديس بغيرة متقدة واخذ يبين لها شدة النار الاكلة الدائمة المعدَّة لها ان لم تتب عن سيرتها . فسمعت المرأة لنصحهِ وخرجت من عندهِ تائبة وعاشت فيما بعد عيشةً صالحةً وأظهرت كل ذلك مع ان القديس كان قد امرها بكتمهِ

ذلك ولم يزل يحذر شيطان الزناء ويحترس منهُ بان يفر من مخاطبة النساء ويعرض عن مشاهدتهنَّ ولا يتكلم معهنَّ الاَّ فيما يتعلق بخلاص النفس فلله درهُ عفيفًا ينتفع الناس بمتابعتهِ والجري على طريقتهِ وبعد هذا الامتحان اصطفاهُ الله رسولاً وكان ذلك انهُ اذ مرَّ بمدينة افنيون وقد اشرف على الموت تجلى لهُ المسيح وامرهُ ان يطوف بالممالك المسيحية وينذر الناس بالتوبة . ثم وضع يدهُ الالهية على رأسهِ فشُفي في الحال فاذن لهُ البابا في التبشير في الممالك . ولاريب ان كل الفوائد التي اجتناها الناس منهُ قد كانت من اثمار الرسولية بحيث هي المصدر الاصلي لها ولاجرم ان الله سبحانهُ اذا اختار احدًا لعمل ما اعطاهُ من الحكمة والفطنة والرزانة ما هو ضروري لمباشرة ذلك العمل ولهذا منح القديس فينسنسيوس عقلاً حاذقًا وذاكرة عجيبة وصوتًا جهوريًا ونغمةً لذيذةً وفصاحةً تأخذ بمجامع القلوب . وزيّنهُ بالعلم الباهر وفهم مؤلفات الاباء القديسين والكتاب المقدس ايضًا ذلك وحلت عليهِ نعمةٌ كبيرة صيرتهُ عند الناس رجلاً فريدًا وكان ابتداء رسالتهِ في اسبانيا حيث استنار بوعظهِ في مدة قليلة خمسة وعشرون الف يهودي وثمانية عشر الف كافر . اما عدد الخطأة المؤمنين الذين تابوا الى الله على يدهِ فذلك لا يحصى وقد جاءهُ ذات يوم واحد منهم واعترف لهُ بخطيئة كبيرة فوضع عليهِ رسمًا من اجل تلك الخطيئة وأمرهُ ان يجري عليهِ ويحفظهُ سبع سنين . ونظرًا الى التائب فلشدة ندامتهِ على آثامهِ استصغر القانون واستخفَّ بهِ وقال أتظن يا ابي ان وفاء مثل هذا القانون يكفي لخلاص نفسي . قال القديس الآن أُغير قانونك وامرك بان تصوم عن الخبز والماء ثلثة أيام فقط وفي هذا كفاية فامضِ بسلام . فاخذ المعترف يزداد حزنًا وندامةً ولم يعتقد ان مثل هذا القانون يكفي لخلاصهِ فقال لهُ حينئذٍ القديس يكفي لمغفرة اثامك ان تصلي الصلاة الربية وبشارة الملك جبرائيل ثلاثًا فشرع المعترف يتلو الصلاة الربية وعند تلاوتهِ اياها اشتدت ندامتهُ كل الاشتداد حتى سقط ميتًا على قدمي القديس وقد ذهبت نفسهُ الى جنان الخلد ولم تمرَّ بالمطهر كما الهم الله ذلك القديس فينسنسيوس المذكور

ومما لاريب فيهِ ان الرسول كان دأبهُ الصلاة والتعبد لله سبحانهُ ومن الصلاة كان يتعلم ما ينبغي لهُ ان يعظ بهِ الناس واتفق ان اميرًا جليل القدر رفيع الشان اقترح عليهِ عظةً فاخذ يجهد نفسهُ ويكدُّ قريحتهُ ليأتي بمعانٍ عالية وعبارة بليغة لتجيء العظة على طبق ما طلب الامير المشار اليهِ .

والحاصل انهُ اتمها و وعظ بها فلم تعجب الامير كغيرها من مواعظهِ السابقة بعد كل ذلك الجد فسأَلهُ الامير عن سبب ذلك فقال لهُ القديس لا عجب انك قد فضَّلت عظاتي الأُولى على عظتي هذه الاخيرة. لان هذه عظة فينسنسيوس واما تلك فعظات المسيح. وما فتئ الرسول المشار اليهِ قائمًا باعباء الرسالة بحيث صرف ثماني عشرة سنةً في الوعظ والانذار ولم يفتهُ الوعظ في كل هاتيك المدة الطويلة الا خمسة عشر يومًا

وماذا اقول في العجائب التي تبعت عظاتهِ واتعابهُ الرسولية. ومن هاتيك الايات انهُ اذ كان يعظ بلغةٍ واحدة على قوم لغاتهم مختلفة كان الجميع يفهمونهُ حتى ان الذين يكونون بعيدين منهُ مسافة ساعة من الزمان كانوا يسمعونهُ ايضًا. وكانت الملئكة تظهر فوق رأْسهِ وهو يعظ. واما باقي عجائبهِ التي صنعها في اربع مدن فقط فحسبنا القول ان عددها يتصل الى ثماني وستين اعجوبةً الا اننا سنذكر واحدة منها لاجل عظمتها فنقول. ان هذا القديس دخل مدينةً ليعظ فلم يجد فيها ديرًا ولذلك نزل ببيت رجل من اصدقائهِ متزوج بامرأَة فاضلة فاتفق يومًا انهُ حينما كان يعظ والرجل المذكور يستمع وعظهُ. واما امرأَتهُ فكانت حينئذٍ تصلح للقديس غذاءً من سمك فاعتراها بغتةً مرض جنون وبحركة الغضب ذبحت ابنتها ووضعت شطرها على قضيب من حديد وشوتهُ على النار والنصف الآخر تركتهُ نيئًا. فلما عاد القديس من الكنيسة هو وصاحب البيت ومعهما اناس اخر كثيرون ورأَوا هذا المنظر المريع اخذ حينئذٍ يُعزّي الرجل قال لهُ ان الله تعالى سمح بذلك ليظهر عجائبهُ وكم يحب المحسنين الى عبادهِ. ثم انهُ امر ان يأْتوهُ بالابنة المذبوحة فوضع القديس الجزء المشوي مع الجزء النيء وشرع يصلي قائلاً يا يسوع ابن مريم ومخلص العالم يامن خلق من العدم نفس هذه الابنة اسأَلك ان تدخلها ثانيةً في هذا الجسد لتمجيد اسمك القدوس. وبعد ذلك عمل علامة الصليب فوق الاجزاء فنهض الجسد في الحال حيًا كما كان آنفًا

وكان فوق تلك العجائب يباشر واجبات مرتبتهِ على اسلوب عجيب لانهُ كان يُحيي اكثر الليل في الصلاة والدرس ثم يُبكّر الى مكان عظتهِ وهناك كان يقدّس على نغمات المعازف وآلات الغناء علمًا بان هذا يليّن القلوب ويحيي العبادة وينميها حتى اذا فرغ من القداس صعد الى المنبر وظهر للناس كانهُ ملك قد هبط من السماء وكان قد اعتاد على ان يصدّر عظتهُ بما يدل على شدة احتياجنا الى التوبة متابعةً للسيد المسيح ويوحنا المعمدان. هذا ولم يكن شيءٌ مما ذكرناهُ تصنُّعًا لان الفضيلة كانت قد تأَصلت فيهِ بحيث انهُ ما كان يتكلم في خطيئةٍ ما ويبين قبحها وسماجتها الاَّ وقد صحب كلامهُ بكاء يبكي لهُ المحضر كلهُ. فما كان اكرمهُ عند ربهِ لله درهُ فان الله كان يكاشفهُ باسرار قلوب الناس ولذلك كانت الحاظهُ كسهام تنفذ النفوس وكنور يكشف خفيَّات الافئدة واذ تقرر ذلك فلا استغراب ان مواعظهُ ليَّنت كثيرًا من القلوب القاسية فمن ذا عساهُ ان يصف فعل عظاتهِ بالقلوب وقد تكلم عن آلام سيدنا يسوع المسيح او عن الدينونة الاخيرة او عن جهنم لانهُ كان حينئذٍ يرتعد بكل جسدهِ ويرتجف معهُ الجميع وقد اتفق احيانًا ان كثيرين من الحاضرين خرُّوا على الارض معترفين جهارًا باشنع الكبائر. وكان يتبعهُ كثير من الذين يسمعون مواعظهُ من قريةٍ الى قريةٍ وقد اتصل عددهم يومًا الى ثمانين الف شخص وبناء على ذلك مسَّت الحاجة الى ان يتقدم بعض منهم ليهيئوا ما يكفي لمعاشهم

ومع انهُ كان يكابد في الحصاد الروحي ما يتصعَّدهُ ويشقُّ عليهِ من الاتعاب لم يهمل شيئًا من تقشفاتهِ لانهُ كان يصوم كل يوم عدا ايام الاحد وكان في الاربعاء والجمعة يصوم على الخبز والماء فقط. وقصارى القول انهُ بعد ان وعظ وعلَّم هكذا في اسبانيا وفرنسا وانكلترا اصابهُ المرض الاخير في فرنسا في مدينة فان باقليم بريتانيا فاعترف اعترافًا عامًّا وتناول القربان المقدس ودُهن بزيت المسحة ثم طلب ان يقرأَ لهُ خبر آلام المخلص ومزامير التوبة السبعة وطلبة الاباء القديسين وما فرغوا من ذلك الاَّ وقد طابت نفسهُ وانتقل الى جوار ربهِ في السنة التاسعة عشرة من المائة الخامسة عشرة للمسيح وهو ابن اثنتين وستين سنة

اليوم السادس

وفيهِ ترجمة القديس اوتيكوس بطريرك القسطنطينية

ان هذا القديس وُلد بباغوس قرية ببلاد فريجيا في السنة الحادية عشرة بعد الخمسمائة وكان ابوهُ اسكندر رجلاً فاضلاً جنديًّا شجاعًا باسلاً. اما والدتهُ المسماة سينيسيا فكان الجميع يمدحون احتشامها وفطنتها وعبادتها فبعد ان حملت هذا

الابن المبارك رأت يومًا في الحلم جسدها ملتحفًا بالنور وكان دليلاً على انها ستلد ابنًا يكون في الكنيسة معلمًا منيرًا . اما عمهُ الذي ربّاهُ فكان رجلاً مشهورًا بالبرّ وكان الله تعالى يصنع على يدهِ العجائب فاتفق يومًا ان القديس اوتيكوس حينما كان فتى لعب مع اقربائهِ الفتيان وكان كل منهم يختار لنفسهِ حالة الاكليريكية فاختار هو لنفسهِ الدرجة البطريركية وقد رُوي ذلك عن القديس اثناسيوس

فلما بلغ من العمر اثنتي عشرة سنة زهد في الدنيا وباذن عمهِ هجر مكانهُ ودخل ديرًا في مدينة آمَزا حيث جعل يسلك سبل الفضل والكمال سلوك جبّارٍ وقد سما في الفضيلة ونبغ في العلم ومن ثمّ انتخبهُ الرهبان رئيسًا عليهم وفي السنة الثالثة والخمسين بعد المائة الخامسة للمسيح مضى الى القسطنطينية لاجل امر ملائم للايمان الكاثوليكي وكان البطريرك وقتئذٍ القديس مناس فرأى القديس اوتيكوس واختبر برّهُ وعلمهُ فسرّ بهِ سرورًا وتنبأ لهُ بانهُ سيكون خليفتهُ في الكرسي فرح بهِ الملك يوستينيانوس ولا سيما بعد ان اظهر القديس جزيل علمهِ في مجادلة حدثت بين علماء المدينة لانهُ عندما رأى الاكثرين يتجادلون في انهُ لا يجوز ان يحرم اهل الاهواء بعد موتهم قال ألا تعلمون ان يوشيا الملك التقي احرق اعضاء الذين كانوا في زمن حياتهم قد ذبحوا للاوثان . فلمَ لم تفعلوا هكذا بالذين حادوا عن الحق واتبعوا الباطل بل لماذا بقي لهم ذكر في الكنيسة بعد ان ماتوا وكان الحق يقتضي ان يذهب ذكرهم مع الدويّ كما لا يخفى

وبعد قليل من ذلك العهد استأثرت رحمة الله بالقديس مناس البطريرك وخلفهُ القديس اوتيكوس ولما كان بعض الاساقفة يطلبون هذه المرتبة العالية قال الملك يوستينيانوس ان القديس بطرس الرسول ظهر لي في الحلم ليلاً وامرني ان انتخب القديس اوتيكوس بطريركًا . وقد كان وقتئذٍ ابن اربعين سنةً . ونظرًا اليهِ فقد اعتنى بسياسة الكنيسة وانتبه على رعايتها والقى السلام فيها مدة اثني عشر عامًا بيدَ انهُ كان من اهل الدراية وارباب الفطنة فكيف لا يكون ذلك وما تبوّأ عرش البطريركية الاّ وقد كتب الى البابا فيجليوس وطلب منهُ ان يعقد مجمعًا عامًا ففعل وهو المجمع الخامس الذي حضرهُ اربعة بطاركة وترأس عليهِ البابا فيجيليوس المشار اليهِ . وتورّط الملك يوستينيانوس في بدعةٍ لانهُ اعتقد ان جسد سيدنا يسوع المسيح غير قابل الموت من اجل اتحاده باللاهوت وقد انتشرت هذه البدعة وفشت في الافاق حتى حسب خلق كثير ان ذلك الرأي اعتقاد رسوليّ فطلب الملك من القديس اوتيكوس اثبات هذا الرأي فاجاب البطريرك قائلاً حاشا لي ان اثبت هذا الرأي الذي يضاد تعليم الرسل مضادة كلية خير لي ان اخسر كل شيء ولا اطيعك في ذلك . فعزلهُ الملك عن البطريركية ونفاهُ واستبدلهُ بيوحنا ووقع ذلك في السنة الخامسة والستين من المائة السادسة للمسيح . ولكنما الله سبحانهُ اظهر برارة عبدهِ الامين بحيث قد صنع على يدهِ في المنفى آيات كثيرة

واما البطريرك المشار اليهِ فبقي في المنفى حتى توفي الملك يوستينيانوس وحينئذٍ رجع الى مقام بطريركيتهِ وكان ذلك في السنة الثامنة والسبعين بعد الخمس مائة وقد اظهر الله تعالى عظم سروره في رجوعهِ لانهُ عند وصولهِ الى القسطنطينية زال وباء عظيم كاد يبيد اهلها . فهذا القديس صنف كتابًا جليلاً في قيامة الاجساد من التراب بعد الموت الاّ انهُ فيما بعد زلّ في رأيهِ لانهُ اعتقد ان اجساد الذين يقومون من الموت في يوم الدينونة لا تكون اجسادًا ملموسة بل تكون الطف من الهواء ومن كل ما يمكن ان نتصورهُ لكنهُ قد رجع عن ذلك الرأي الفاسد بكلام غريغوريوس الكبير الذي كان قد أُرسل من البابا بيلاجيوس الى الملك تيباريوس الثاني غير انهُ ما لبث بعد رجوعهِ الى الصواب ان ابتلي بمرض الموت فامسك جسدهُ ساعتئذٍ وما برح يقول حتى مات اني اعتقد اننا سنقوم بجسدنا هذا . وكانت وفاتهُ في اليوم الخامس من شهر نيسان سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة للمسيح

اليوم السابع

وفيهِ ترجمة القديس افراهاتس

ان هذا القديس وُلد ببلاد فارس على رأس المائة الرابعة للمسيح وكان ابواهُ من عبدة الاوثان فتربّى على دينهما ولسلامة طويتهِ اشتهر بين قومهِ في اخلاص العبادة للاوثان وما برح يفعل ذلك حتى بلغ سنّ الرشد وحينئذٍ شرع يتأمل عبادة الاوثان فلم يرَ لها وجهًا سديدًا بحكم العقل بصحتهِ ولذلك رأى ان السجود للحيوانات ولبقية آلهة بلدتهِ ضلالاً مبينًا . ولا جرم انهُ كان ميّالاً الى الحق والصلاح طبعًا ومما يدل على

ذلك ويؤيدهُ اشمئزازهُ من السجود للاصنام فاتفق بعناية الله انهُ وجد المسيحيين قد اتوا من بلاد ما بين النهرين فشرع يعاشرهم وكان يتعجب من وداعتهم واحتشامهم واستقامة سيرتهم فاخذ يسألهم عن قواعد ايمانهم ولما عرف منهم ما يتعلق بتوحيد اللاهوت وتثليث الاقانيم الالهية وتجسد المسيح لاجل فداء البشر وعقاب جهنم وسعادة القديسين ونقاوة اوامر الانجيل وكمال تعليمهِ حصل على سرور لا يكاد يوصف . فهتف لديهم قائلاً قد تنصرت والحمد لله ثم رفع يديهِ نحو السماء وقال لتكن مباركًا ايها الاله الخالق السماء والارض لأنك اظهرت لي الحق وعرفتني بطلان عبادة الاوثان . وبعد قليل من ذلك الوقت اي بعد ان تعلم جيدًا حقائق النصرانية واعتصم بها بكل قلبهِ اعتمد وحينئذٍ تاقت نفسهُ الى اكتساب الكمال المسيحي فحدَّثتهُ نفسهُ بان يخرج من ارضهِ كما قال الملاك لابرهيم فخرج من منزلهِ وترك كل اموالهِ وانطلق الى بلاد ما بين النهرين وسكن هناك في مدينة اورفا حيث كانت الديانة المسيحية نامية وزاهية . وبقي في هاتيك المدينة حتى عرف كل اسرار النصرانية ثم انفرد في مكان قريب من المدينة ليهتمَّ بخلاص نفسهِ . وكان يسلك طرق الكمال وينمو في الفضائل ولذلك لم يلبث ان فاح عبير برّهِ وانتشر عرف فضلهِ في كل ناحية فتزاحم الناس عليهِ ليعاينوا هاتيك الاعجوبة . ولهذا عزم على الاختلاء في مكان اخر فانطلق الى بلد سورية وافتقد هناك الاباء السياح ابتغاء ان يتمهر بارشادهم في علم الكمال ثم عزم على الاقامة باراضي انطاكية

وكانت وقتئذٍ بدعة آريوس قد تقوَّت جدًا في انطاكية وامتدَّت بمساعدة الملك والنس الذي كان يضطهد الكاثوليكيين برجز وغضب شديد فلذلك لم يشإِ القديس ان يدخل مدينة قد فشت فيها البدعة بل جعل سكناهُ في مكان قريب منها . فاقام لنفسهِ هناك قلاَّية صغيرة وكان يقيم فيها الصلاة ويمارس التقشفات على انهُ لم يكن يأكل الا خبزًا ولا يشرب الا ماء وذلك بعد غروب الشمس ولا ينام الا على حصيرة ممتدة على الارض . وقد افتقدهُ يومًا رجل جليل القدر اسمهُ انتيموس الذي صار فيما بعد واليًا على الشرق فقدم للقديس ثوبًا من بلد العجم فقبلهُ منهُ القديس ببشاشة لطيفة لان عيشة القشف لم يغير من وسامة وجههِ . ثم قال للرجل المقتدر اني استشير حضرتكم على قضية حيَّرت

وبلبلت فكري وهي اني من زمن مديد عزمت على انهُ لا يكون لي الا رفيق واحد والذي اخترتهُ واعيش معهُ منذ ست عشرة سنة يعجبني جدًا ويعزّيني كثيرًا ولم يحزني ابدًا فمن زمن يسير اتى واحد اخر من بلدي يُريد ان يخرج الاول ويكون في موضعهِ فايُّ الاثنين يجب ان اقبلهُ . اما انتيموس فلم يفهم المراد بذلك الكلام الرمزي ومن ثمَّ قال لهُ انهُ يجب عليك ان تفضّل الذي يعيش معك منذ ست عشرة سنة . واما أن الضيف الجديد اعجمي فلا يُعد حجَّةً من اجلها يُردُّ الضيف القديم . فثنَّى القديس كلامهُ وقال لانتيموس لا تغتظ اذًا من عدم قبولي الثوب الاعجمي الذي اتيت بهِ اليَّ . لان ثوبي هذا العتيق الذي لبستهُ ستة عشر عامًا يكفيني ولا يليق بي ان ابدلهُ بثوب غريب . ذلك فضلاً عن انهُ لا يجوز ان يكون لي ثوبان . فتبسم انتيموس لما رأى من اللطف في سؤال القديس وعظم في نفسهِ اعتبار برّهِ

وبقي القديس الى ذلك العهد ملازمًا قلاَّيتهُ لا يخرج الى موضع وكان الناس يفتقدونهُ ويستشيرونهُ في ما يتعلق بامر الخلاص . ولكنهُ لما عرف ان الملك والنس نفى القديس ملاتيوس اسقف انطاكية وانهُ يمنع الكاثوليكيين عن اجتماعاتهم المقدسة مطلقًا ويلزمهم بالانقياد لبدعتهِ . خرج حالاً من خلوتهِ ودخل مدينة انطاكية واخذ يشجّع المؤمنين ويشدّدهم في الايمان القويم ويبيّن لهم نفاق المبتدعين الناكرين الوهية سيدنا يسوع المسيح . واما الاريوسيون فلم يتجرَّأ احد منهم ان يجادلهُ او يمانعهُ لان استقامة سيرتهِ وكثرة عجائبهِ وشدة شجاعتهِ في محاربتهِ اياهم جعلتهُ مهيبًا في عيونهم . وكان الملك والنس يومئذٍ في انطاكية فرأى وهو في بلاطهِ القديس ماشيًا بسرعة مع انهُ شيخ فسأل الملك عنهُ ولما عرف انهُ هو ذاك السائح المعتبر من الجميع استدعاهُ وسألهُ الى اين ماضٍ بهذه السرعة فاجابهُ القديس قائلاً الى حيث يجتمع الكاثوليكيون لكي اصلي من اجل المملكة . فقال لهُ الملك كان الأولى بك ان تلازم قلاَّيتك وفيها تقيم الصلاة فقال القديس لله درك ايها الملك ما احسن ما قلت فاني على هذا جريت وهكذا فعلت طالما كانت رعية السيد المسيح على سلام . اما الان وقد احاطت بها الذئاب الخاطفة فهل يحسن بي ان ألازم قلايتي . فماذا يجب على ابنةٍ ابصرت النار تلتهب في بيت ابيها أان تبقى متحجبةً في خدرها حياءً وحشمةً وتترك النار تحرق بيت ابيها بل

تحرقها هي ايضاً أم تخرج خارجاً وتدعو الناس ليطفئوا النار ونسعى هي معهم بكل قوّتها. فهذا ما افعلهُ انا الآن لاني لما رأيت من قلايتي نار الاضطهاد قلت احترقت كنيسة الله فبادرت لاطفائها. فلم يجبهُ الملك بكلمة بل اطلقهُ بسلام غير ان واحداً من خدام الملك شتم القديس فانتقم الله منهُ سريعاً لانهُ في ذلك اليوم نفسهِ مات فجأةً. وكان لذلك الكلام في قلب الملك وقع عظيم حتى انهُ لم يرد ان ينفي القديس وان كان الاريوسيون قد ألحّوا عليهِ في ذلك

وعقيب قليلٍ من ذلك مات والنس حريقاً فاستراح الكاثوليكيون وحينئذٍ لم يعد القديس يرى وجهاً للبقاء بين الشعب فرجع الى قلايتهِ واختلى فيها ممارساً افعال التوبة ومقيماً الصلاة لمساعدة النفوس. ولم يزل كذلك حتى انتقل الى رحمة الله على انتهاء المائة الرابعة للمسيح. واما يوم تذكارهِ فمختلف فيهِ لانهُ في الكنيسة اللاتينية اليوم السابع من شهر نيسان وفي الكنيسة الشرقية اليوم التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني

اليوم الثامن

وفيهِ ترجمة القديسة ولترودة الارملة

ان القديسة المذكورة اخت القديسة الديغوندا وُلدت ببلاد اوستراسيا في مملكة فرنسا نحو السنة السادسة والعشرين من المائة السابعة للمسيح. وكان ابواها الامير البرتوس والاميرة بيرتيلاّ من اكبر المتورّعين يتقيان الله ظاهراً وباطناً. وقد سلكت هذه القديسة طريق الفضيلة من عهد الصِغَر تحت ارشاد والدتها الفاضلة وتزوّجت بالامير ماديلغاريوس رجل شريف من اتقياء الله كُتب اسمهُ من بعد موتهِ في سفر اولياء الله عزّ وجلّ وولدت منهُ اربعة بنين وكلهم ماتوا موت الابرار. واما بعلها فزهد في الدنيا وترهّب واولادهُ احياء واما هي فبقيت بعد ذلك بين الناس زُهاء ثلث سنين متعبدةً لله بكل قلبها ومهتمة بتدبير اولادها فرأت ذات ليلةٍ في الحلم القديس غوجيريكوس اسقف مدينة كمبري يقدّم لها كأساً ويحثها على التقدم في الكمال والزهد في الدنيا بالكلية فقصّت هذه الرؤيا على بعض اشخاص فضحكوا منها وجعلوها هزءاً وسخرية. ولان استقامة سيرتها كانت لكثيرٍ من النساء توبيخاً مضمراً اخذن يستهزئن بعبادتها وحكمن عليها بانها مرائية قلن عنها انها تحت سجاف العبادة الباطلة وغطاء الاحتشام الكاذب تخفي رذائلها وتغطي زلاّتها وتنال فوق ذلك مدح الناس في تقواها وحسن سيرتها اما القديسة فلم تكن تعبأ بتقوّلات اولئك النساء الشريرات المتكبرات بل كانت تصبر على كل مكروهٍ وبالصبر تقتني نفسها كما جاء في الانجيل الشريف وبناء عليهِ فوّضت امرها لله سبحانهُ وسألتهُ ان يعطيها الصبر الجميل لانها ايقنت ان ذلك لم يكن الاّ تنقيةً لنفسها وتقديسها

الاّ انهُ تغلب عليها الحزن يوماً فتراءى لها ملاك الرب ووبّخها على ذلك قال اما تعلمين ان الله تعالى ينقّي الانفس بنار المحن والتجارب ان حزنكِ الشديد يشهد على ما اصابكِ من ضعف فضيلتكِ فاشكري الهكِ الذي اهّلكِ لان تشربي من كأس اهاناتهِ. فبهذا الكلام تعزّت القديسة كل التعزية وامتلأ فؤادها سلواناً ولذلك احتملت فيما بعد الاضطهادات والاهانات بالصبر الجميل لا بل كانت تستعذبها ايضاً. حينئذٍ اشار عليها مرشدها القديس غيسلينوس بان تنفرد عن الناس وتقضي حياتها في الخلوة فطلبت من القديس يدولفوس احد اقربائهِ ان يبتني لها قلايةً صغيرة. اما يدولفوس فبنى لها قصراً ملكيّاً فرأتهُ القديسة وأبت ان تسكنهُ ولكنهُ ما لبث ان هدمتهُ ريح عاصفة هبّت عقيب قليل من بنائهِ ومن ثمَّ اقام لها القديس المذكور قلاّية وكنيسة صغيرتين بحسب مرامها فلما ارادت ان تسكن هناك لبست ثوب رهبانية القديس اوبرتوس اسقف كمبري في السنة الست مائة والسادسة والخمسين للمسيح

فانفردت في قلايتها بسرور عظيم شاكرةً الله تعالى من صميم فؤادها لانهُ انقذها من محبس الدنيا وشرعت تبذل جهدها في اكتساب اسمى الفضائل لكنها لم تخلُ من التجارب وقد تم بها ما قال الملك لطوبيا: اذ كنت مقبولاً امام الله كان لا بد ان تُمتحن بتجربة: فانها لما كانت مجتهدة هكذا في الرياضات المقدّسة اي الصلاة والصمت والفقر والتقشفات رأت ان المواظبة على مثل هاتيك الرياضات نيراً ثقيلاً لا يُحتمل فتذكرت حالها الماضية وعذوبة عبادتها الاولى وكم كانت في ذلك الحين تمارس من افعال الرحمة نحو الفقراء غير ان القديسة لما شعرت بهذا اليأس الروحي استمرّت ثابتة في رياضاتها ولم تنقص منها شيئاً بل كانت تضاعفها ملتمسة عوناً من يسوع بشفاعات والدتهِ مجدّدة بين يديها ألف مرة

في كل يوم مقاصدها الحميدة ونذورها الرهبانية وبهذه الوسائط ظفرت بقوات الجحيم واجتنت من ثباتها على ممارسة افعال التعبد أثمار عذوبة العبادة

ولاجرم ان كثيرين قد اقتدوا بها وانفردوا عن الناس واقبل على قلاّيتها عدد وافرحتى صارت ديرًا زاهيًا باثمار الفضائل المغطاة باوراق المحامد والآداب فصار هذا الدير مبدأ مدينة كبيرة في بلجيكا تُسمّى مونس التي اخذت القديسة ولترودة شفيعة لها ولكل اقليمها . وكانت ولترودة لطيفة المزاج غضّة الجسم ومع هذا لازمت لبس المسح والرقاد على اديم الارض وواظبت على تقشفات اخر كثيرة . ثم ماتت موت الابرار في اليوم التاسع من شهر نيسان في السنة السادسة والثمانين بعد الست مائة وكانت يومئذٍ ابنة ستين سنة . وقد شرّفها الله تعالى بعجائب كثيرة قبل وفاتها و بعدها

اليوم التاسع

وفيهِ ترجمة القديس مكاريوس اسقف انطاكية

ان القديس المذكور كان شريفًا ارمنيًا وكان ميلادهُ نحو نصف المائة العاشرة للمسيح وعندما صار غلامًا اخذهُ عمهُ مكاريوس اسقف انطاكية من بلاد بيسيديا وربّاهُ على تقوى الله وحسن الآداب ولما رآه في الفضيلة اصيلاً وفي العلوم ماهرًا ادخلهُ بين الاكليريكيين وكان في الاكليريكية للجميع قدوة صالحة . فلما دنت ساعة وفاة عمهِ اجتمع الشعب حولهُ فقال لهم اني اطلب منكم أمرين الأوّل ان تصلوا لاجلي بعد وفاتي . والثاني ان تنتخبوا مكاريوس ابن اخي اسقفًا فهو الذي يسد خللي ويكمل نقصي . فاجابهُ الشعب كلهم انتخبناهُ انتخبناهُ

فجلس مكاريوس المذكور على كرسي الاسقفية وعند ذلك تلألأ بفضائلهِ كسراج مضيء قد وضع على جبل . وفي الجملة فانهُ كان مصداقًا لكل ما قالهُ الرسول في شان الاسقف الكامل ولاريب فانهُ كان يعلم الشعب كل يوم ويعود المرضى ويصطنع الى الفقراء بكل مالهِ وينشد الخراف الضالة . وبسيرتهِ الحسنة القويمة وبتقشفاتهِ أضحى عزيزًا جدًّا عند المؤمنين ولعمري ان ذلك جدير بمثلهِ بحيث ما كان يصلي الاّ وقد اضطرمت نار التوبة والمحبة في قلبهِ واحرقت كل شرٍّ ان كان وأسالت دموعهُ على روض خديهِ ولذلك كان يضع في يدهِ منديلاً ليمسح بهِ عبراتهِ المقدسة . فاخذ يومًا هذا المنديل رجل ابرص ووضعهُ على جراحاتهِ فتطهر حالاً فلما درى ان الناس يعدُّونهُ قديسًا حزن وضجر من اعتبار الشعب لهُ واستحوذ عليهِ خوفٌ عظيم من ان يهلك هو فيما بين تلك الكرامات فعزم على الفرار منها ليهتم بخلاص نفسهِ فسلّم رعيتهُ الى كاهن من انقياء الله يقال لهُ إلوتاريوس وخرج من المدينة خفيةً وذهب الى بلاد فلسطين ليزور الاماكن المقدسة

ولم يخف السراكسة على كثرتهم في تلك الاماكن بل كان يبشرهم بالانجيل ويدعوهم الى النصرانية كلما اجتمع بهم فتنصر على يدهِ خلق كثير منهم ولذلك اخذهُ البرابرة وهزأُوا بهِ وضربوهُ وسجنوهُ ولكنهُ لم يعبأْ بكل ذلك بل استمر على ما كان عليهِ من هذا القبيل فمدوهُ ثم علّقوهُ على شكل صليب . ثم وضعوا على صدرهِ حجرًا ثقيلاً محمى بالنار ولم يقتصروا على ذلك بل عذبوهُ اعذبةً أُخر كثيرة واما هو عليهِ السلام فصبر على كل تلك الآلام حتى تعجبوا من صبرهِ . ولما كان في السجن ضاء فيهِ بغتةً نورٌ سماويٌّ وظهر لهُ ملَك وامرهُ ان يخرج من هناك ويذهب الى المكان الذي عينهُ الله لهُ . ثم قال لهُ اياك ان تيأس من العناية الالهية فالله يهتم بك ليلاً ونهارًا . وقاوم اهل الضلال بكل غيرتك ولينتصر بك الحق في وسط هذا الشعب القاسي فاياك ان تتوارى عنهم وتفرَّ منهم . وانما الخليق بك ان تظهر امامهم علانيةً بكمال الشجاعة فان الله سبحانهُ سيتكلم بفيك وسيتتلمذ لك غدًا الذين اهانوك وعذبوك . فخرج القديس من السجن وبعد تقدمتهِ الشكر لله تعالى من اجل اهتمامهِ الابوي دخل في الغد ناديًا قد حفل بجم غفير من السراكسة واليهود فلما ابصرهُ اولئك اخذهم الانذهال وسألوهُ من الذي اطلقهُ من السجن فاجابهم القديس ان الله تعالى هو الذي اخرجني لانهُ ارسل ملكه فقطع قيودي واطلقني وقد فعل هذه الاعجوبة اثباتًا لما بشرتكم بهِ . فارسل الحاضرون وأتوا بحارس السجن وسألوهُ عما جرى فاجاب الحارس وهو متحير بما كان قد رآهُ عيانًا وقال لهم انهُ في نصف الليل ظهر بغتةً في السجن نورٌ باهرٌ فانفتحت بعد دقيقة ابواب السجن كلها ثم أحضروا كل المسجونين وسألوهم واحدًا واحدًا فقالوا كلهم كما قال ذلك الحارس وحينئذٍ ظهرت للحاضرين حقيقة الأعجوبة فخرُّوا على قدمي القديس واستغفروا منهُ وطلبوا العفو عما فعلوا بهِ . وسألوهُ ان يعلمهم فعلمهم أسرار النصرانية و بعد

ايام قليلة عدهم جميعًا ثم قدموا لهُ اوتيكوس شابًا من اشراف السراكسة كان اصم وابكم واحدى يديهِ شلاَّء منذ طفوليتهِ فجثا القديس على الارض وصلى وما فرغ من الصلاة الاَّ وقد شفيت يد ذالك الشاب وابتدأ يسمع ويتكلم حسنًا و بسبب هذه الآية تنصر كثيرون من السراكسة واليهود وغدا اكثر سكان تلك المدينة مسيحيين

ولما درى اهل انطاكية بهذه الاشياء قصدوا ان يرسلوا ويُرجعوا القديس مكاريوس الى كرسيهِ اما هو فركب سفينةً وفرَّ الى بلاد المغرب وكانت العجائب والآيات تتبعهُ في كل مكان . ولكثرة ما صنع من المعجزات في بافاريا اقليم ببلاد المانيا ظن البعض من حاشية ادالبرنس احد الشرفاء الذي كان قد نزل بدارهِ انهم يستغنون اذا سرقوا منديلهُ لانهم املوا ان يفعلوا بهِ العجائب غير ان الله سبحانهُ قد انتقم منهم وعاقبهم على هذا الفكر الردي فاصابهم مرض عضال اشرفوا بسببهِ على الموت فشفاهم القديس المشار اليهِ

فلما رأى ان عجائبهُ تظهرهُ وتشرّفهُ في كل مكان عزم على ان يواصل السفر والتغرب لعل ذلك يكون وسيلةً لان يحيا محتقرًا مهانًا لا يعرفهُ عظماء الدنيا . ولكنما الله سبحانهُ اراد بذلك ان شعوبًا كثيرين يعرفون فضائل عبدهِ ويقتدون بهِ ولذلك كان اشتهارهُ . ومن ثم كان يظهر كل يوم بفعل المعجزات لانهُ اذ مرَّ بمدينة كولونيا شفى الرجل الذي أواهُ في منزلهِ من الصرع . وفي مدينة مالين اطفأ بمجرد كلامهِ نارًا كانت تحرق المدينة . وفي مدينة كمبري فتح لهُ ملَك الله باب كنيسة سيدة العالم . وفي مدينة موبيج حيث زار ذخائر القديسة الديغوندا ظهر نبيًّا . ودخل مدينة تورني فرأى سكانها على حربٍ مستعدين لسفك الدماء فتخلَّل اولئك القوم وبيدهِ ايقونة السيد المسيح المصلوب وخاطبهم في شان الصلح بكلام حسن ناشئ عن الغيرة مقرون بالصواب ولم يكن يعرف منهم احدًا ولا كان يفهم لغتهم ومع كل ذلك فهم الشعب حالاً ورضوا بالصلح وحينئذٍ هتفوا جميعًا أُعجوبة أُعجوبة فخرج عليهِ السلام من تلك المدينة وذهب الى مدينة غان وكان وصولهُ اليها في السنة الحادية عشرة بعد الالف للمسيح ولما ان رأى الكرامة ترافقهُ دائمًا وتضطهد تواضعهُ في كل موضع انطلق الى احد الاديرة فقبلهُ الرئيس بمحبةٍ واكرام وانعطف عليهِ رهبان ذلك الدير انعطاف اخوان الصفا فطلبوا منهُ ان يقيم عندهم

على ان اتضاعهُ لم يأذن لهُ في الاقامة عندهم لانهُ كان بينهم محفوفًا بالاكرام ومن ثم نوى الرجوع الى الشرق . فلما ركب السفينة اعترتهُ حمى شديدة فاضطر ان يؤوب فآب الى الدير المذكور ومكث هناك نحو ستة اشهر متأهبًا للموت . فالتجأ اليهِ الناس لاجل الوباء الذي صار فصلى صلاتهُ وقال لهم اني سأُطعن بهذا الوباء ولكنكم ستنجون منهُ

قال وتُوفي في الدير المذكور في مدينة غان في اليوم [...] من شهر نيسان في السنة الثانية عشرة بعد الالف ولم يز[ل] سبحانهُ يشرف هذا القديس بالآيات والعجائب

اليوم العاشر

وفيهِ ترجمة القديس لاون المعظم

ان هذا القديس من اجل فضائلهِ والامور العظيمة التي صنعها من اجل الكنيسة استحق ان يُدعى في المجمع الخلكيدوني الحبر المعظم كما سيأتي في ختام ترجمتهِ . نشأ القديس المذكور برومية وتربَّى في مدرسة الاكليريكيين التي هنالك لان الكنيسة الرومانية كانت قد ابتدأت ان تربّي في بعض المدارس احداثًا ليخدموا بيعة الله بعد ان تكون العلوم قد رسخت في اذهانهم والفضائل قد تأصلت في قلوبهم وكان لاون فيما بين اولئك الطلبة الاكليريكيين فريدًا يشار اليهِ بالبنان لكثرة ورعهِ وسرعة فهمهِ وبعد ان ارتسم اكوليتوس فقط ارسلهُ البا[با] سوزيموس الى بلاد افريقية ليسلم الى الاساقفة ما رسمهُ ا[لبابا] المذكور بخصوص بدعة بيلاجيوس . وهناك ارتبط مع القديس اغستينوس بحبل المودة وبعد رجوعهِ الى رومية ارتس[م] انجيليًّا واستخدمهُ الحبر الاعظم القديس سلاستينوس في كتابة رسائلهِ وبواسطة هذه الوظيفة اشتهر اسمهُ وبعد صيتهُ واليهِ ارسل القديس كيرلوس بطريرك الاسكندرية الرسائل التي فيها يخبر البابا بتكبر يوفيناليس اسقف اورشليم ومن ذلك الزمن كان القديس لاون يحتمل اثقل الحوادث التي تجري في كنيسة المسيح

ثم ان البابا سيستوس الثالث ارسلهُ الى فرنسا ليطفئ نار البغضاء بين ايسيوس واالبينوس قائدَي جيش الرومانيين اللذين بمخاصمتهما القيا المملكة والكنيسة في خطر مبين . فباشر القديس لاون هذا الامر بكمال الحكمة وصالحهما

مصالحة صادقة . وفيما كان في فرنسا انتقل الى رحمة الله البابا سيستوس وقد كانت الكنيسة على خطر عظيم من قِبل المبتدعين والبرابرة فانتخبوا القديس لاون خليفةً لهُ وقد كان غائبًا فحضر وجلس على عرش الخلافة الرسولية في اليوم الثامن من شهر ايلول في السنة الاربعين بعد الاربع مائة وبعد جلوسهِ أَلقى على الشعب الروماني خطابًا افتتحهُ بكلام الاتضاع قال يا شعب [illegible] صوتك فجزعتُ وتأملت اعمالك فارتعدت لانهُ لا أغربَ من ان يُضطرَّ الضعيف الى التعب والحقير الى العظمة والدنيء العاجز الى القيام بالمناصب العالية

ولكن الله تعالى الذي يعتني بكنيستهِ اقام هذا القديس المعظم لكي يدبّر امورها وكان المبتدعون والبرابرة يضطهدونها وقتئذٍ من كل ناحية . فان تبّاع ماني كانوا خرجوا من بلاد افريقية بسبب استيلاء الوالندليين عليها فدخلوا ايطاليا وهناك كانوا يزرعون زوان بدعتهم . ولكنما البابا المشار اليهِ بيد الله وسعيهِ استأصلها بالكلية في السنة الثالثة من حبريتهِ من العالم المسيحي كلهِ . ثم اقدم بغيرتهِ على مقاومة البيلاجيين وعزل جوليانوس الاسقف عن كرسيهِ . ثم نهض على السميبيلاجيين وقاومهم بكل قوّتهِ وفي ذلك الزمن حدثت بدعة بريسيليانوس في اسبانيا فحرّك القديس لاون اساقفة تلك المملكة على مناصبة اصحابها فزالت سريعًا . وعلى عهدهِ ايضًا قام اوطيخا ليزرع في الشرق زوان بدعةٍ جديدة لانهُ علّم بوجود طبيعة واحدة في سيدنا يسوع المسيح . فجمع القديس فلابيانوس بطريرك القسطنطينية مجمعًا وفيهِ حرم الاباء بدعة اوطيخا . اما اوطيخا ذلك الراهب المتكبر فلم ينقد لحكم هذا المجمع الجنسي ولانهُ كان متصفًا بالدهاء والتمويه سبق فكتب الى القديس لاون ان بدعة نسطور قد نمت ثانيةً فلم يرد ان يتبعها فلذلك قد حُرم في مجمعٍ نسطوري . اما البابا المشار اليهِ فلزيادة حكمتهِ لم يصدق كلام اوطيخا بل ارسل نوّابًا من قبلهِ ليفحصوا عن حقيقة الامر وكتب رسالةً الى القديس فلابيانوس . اخبر القديس صفرونيوس في التأليف المدعو المرج الروحي انهُ قبل ان يرسل هذه الرسالة وضعها على ذخائر بطرس الرسول وصام وصلى اربعين يومًا طالبًا من هامة الرسل ان يصلح ما في تلك الرسالة من الخلل . ثم اخذها الحبر الاعظم فرآها مصحّحة وظهر لهُ هامة الرسل وقال لهُ اني قرأت رسالتك واصلحتها . فارسلها حينئذٍ القديس لاون الى البطريرك القسطنطيني وهي تلك الرسالة الشريفة التي مدحها المجمع الخلكيدوني المسكوني قائلًا انها رسالة الهمها الروح القدس نفسه فتستحق ان تكون قانونًا لجميع الكنائس . ولان القديس اولوجيوس بطريرك الاسكندرية اثبتها في مجادلتهِ الاراطقة تراءى لهُ القديس لاون في الحلم وشكرهُ على ذلك . وقد كانت هذه الرسالة تقرأ في كل كنائس الشرق يوم عيد الميلاد . وبأمر ذلك الحبر التأم المجمع المسكوني في خلكيدونية وكان ابتداؤهُ في اليوم الثامن من شهر تشرين الاول في السنة الحادية والخمسين بعد الاربع مائة في كنيسة القديسة اوفيميا وكان عدد الاساقفة ست مائة وثلاثين اسقفًا وجميعهم حرموا اوطيخا وديوسقوروس واثبتوا ان في السيد المسيح اقنومًا واحدًا وطبيعتين كاملتين غير مختلطتين الالهية والانسانية

فلما كانت الكنيسة منتصرة في الشرق بغيرة القديس لاون دخل جيش البرابرة ايطاليا في السنة الثانية والخمسين بعد الاربع مائة وكان ملكهم اتيلا قد فتك بمدن كثيرة واقترب من رومية المكرّمة فالتجأ الشعب الروماني الى راعيهم الصالح وطلبوا منهُ بالحاحٍ وهم يذرفون الدموع ان يمضي هو وحدهُ فيرفع عنهم البربر جيش الاعداء

فتوجّع لرعيتهِ وتوكل على الله الذي بيدهِ ازمّة الملوك وعرّض نفسهُ للخطر بحيث خرج هو عينهُ امام اتيلا وخاطبهُ بفصاحةٍ أُوتيها من السماء تأخذ بمجامع القلوب فكيف لا وقد اقترنت بغيرةٍ مثلها فانها ليّنت قلب اتيلا فاتضع امام القديس وقبل طلبتهُ وخرج من بلاد ايطاليا . ولما سُئل عن سبب طاعتهِ للحبر الروماني قال انهُ لما كان يخاطبهُ القديس رأى من عن يمينهِ وشمالهِ شيخين عزيزين وفي يد كلٍّ منهما سيف مجرَّد وهما يتوعدانهِ بالموت ان كان يردُّ الحبر الروماني خائبًا . واما ذانك الشيخان فكانا الرسولين بطرس وبولس حافظي رومية المكرّمة

وفي السنة الخامسة والخمسين من المائة الخامسة خرج جانسريكوس الملك الآريوسي من افريقية على ايطاليا وفتح مدنها حتى رومية . ولكنهُ من اجل ما توسل اليهِ القديس المذكور لم يدع جنودهُ يسفكون دمًا ولا يحرقون شيئًا . واقام بها تيك المدينة المكرّمة اربعة عشر يومًا وخرج منها بجيشهِ .

الاَّ انهُ أَسر كثيرين من الرومانيين وجلاهم الى افريقية . واما القديس الموماً اليهِ فلم يزل يشجعهم ويعزيهم برسائلهِ . وحصل لهُ بهم تعزية كبيرة لما عرف ان خلقاً كثيراً من الآريوسيين رفضوا البدعة وقبلوا الايمان الكاثوليكي على يد اولئك الاسارى فاضطرَّ وارسل رعاةً الى تلك الرعية الجديدة. ذلك وقد حان لنا ان نقول ان المجمع الخلكيدوني لقَّبهُ بالمعظم من اجل فضائلهِ ولاسيما اعتنائهِ بتدبير امور البيعة المقدسة وقد اشتهر ايضاً هذا القديس بعظاتهِ ورسائلهِ ولنا منهُ اكثر من مائة عظة شريفة موضوعها اعياد السنة ومائة واحدى واربعون رسالة لاشخاص مختلفة فيها كنز تعليمهِ وارشادهِ العالِين. وجلس على عرش الخلافة الرسولية احدى وعشرين سنة واستأثرت بهِ رحمة المولى في اليوم الحادي عشر من شهر نيسان في السنة الحادية والستين من المائة الخامسة وكان ابن ستين سنةً

اليوم الحادي عشر

وفيهِ ترجمة القديس سابا الشهيد

ان هذا القديس كان من غوطيا وهو اقليم قريب من بلاد سيتيا . وكان اكثر الغطط يومئذٍ وثنيين فان جماعةً منهم تنصَّروا على الدين الكاثوليكي في عهد الملك قسطنطين الكبير واولادهِ وذلك قبل ان يذهبوا مذهب آريوس. وكان القديس سابا مسيحياً ومال الى الفضيلة منذ الصغر . ولاجل مناقبهِ كان عزيزاً على قلوب الجميع . ولعمر الله لا استغرب ذلك لانهُ كان من اخص فضائلهِ تكريم خصوصي لمريم البتول عليها افضل الصلاة واطيب السلام ومن اجل تلك الفضيلة عاهد عينيهِ بالاَّ تعاينا النساء وعقلهُ الاَّ يفتكر بامرأة . فكان في كل حركاتهِ محتشماً مميتاً حواسهُ ملازماً للصلاة والفرار من خطر الدنس . فبهذه الوسائط عاش عيشة الابرار وكان في وسط شعب وثني متوحش . ثم ان مؤمني كنيسة غوطيا يذكرون برسالة كتبوها الى كنيسة بلاد كبادوكيا حينا كان القديس باسيليوس راعي هذه الكنيسة ان القديس سابا كثيراً ما افاد الشعب بقدوتهِ الصالحة وفضائلهِ السامية وان لم يكن من العلماء ولاسيما حينا قام اتاناريكوس ملك الغطط واضطهد المسيحيين في السنة السبعين من المائة الرابعة للمسيح وكان هذا الملك يحارب ملكاً آخر يدعى فريتيجيرنوس وبحيث ان هذا الملك لم يقدر على مقاومة اتاناريكوس التجأ الى الملك والنس الاريوسي وتنصَّر على مذهب آريوس لعنهُ الله فارسل والنس عسكراً وبهِ ظفر فريتيجيرنوس باتاناريكوس فهذا الملك المغلوب طفق بعد ذلك يضطهد المسيحيين وعزم على ان يبيدهم جميعاً من مملكتهِ ان كانوا لا يصيرون وثنيين فارسل جنوداً الى كل مكان فيهِ مساكن للمسيحيين وامرهم ان يقتلوا في الحال كل من لا يسجد للاصنام . وان كثيرات من النساء خرجنَ من البيوت باولادهنَّ ودخلنَ الكنيسة ولذلك احرقهنَّ الجنود والكنيسة بالنار

فلما وصل امر الملك الوثني الى حيث كان القديس سابا رثى الحكَّام الوثنيون للنصارى الذين في مدينتهم فاشاروا عليهم ان يتناولوا ما ذُبح للاوثان ولا يسجدوا لها وظنوا ان المسيحيين يتنازلون الى مثل ذلك فيكون وسيلةً للنجاة من الموت . فاتفق ان بعض الوثنيين عزموا على ان يشهدوا بالقسم ان لا مسيحي في المدينة وانما قصدوا ان يفعلوا ذلك حبًّا بالمسيحيين . اما القديس سابا فعندما رآهم دخلوا المحفل ليشهدوا هكذا امام اولئك الذين أُرسلوا من قِبل الملك لاضطهاد المسيحيين دخل هو وهتف بصوت عالٍ قائلاً لا تحلفوا لاجلي لاني انادي علانيةً باني مسيحي ولا ارضى ان يحلف احد كذباً محافظةً على بقاءي حيًّا . فحلف الوثنيون بان لا مسيحي عندهم الاَّ سابا فسألهم الحاكم المرسَل من قِبل الملك كم عندهُ من المال فأُجيب انهُ لا يملك الاَّ الثوب الذي عليهِ فاخرجهُ من المدينة وقتئذٍ كصعلوك

ولكن عقب سنة واحدة تجدَّد الاضطهاد فهرب سانسالوس خوري القرية خوفاً . ومن ثم خرج سابا ليعيد عيد الفصح في قرية اخرى . فلقي في الطريق رجلاً ذا هيبة فاشار عليهِ بان يرجع الى قريتهِ لانهُ فيها يجتمع بلا ريبةٍ بالخوري سانسالوس المذكور. فما صدَّقهُ القديس فاستمرَّ ذاهباً الى غوتيكوس كاهناً آخر وكانت السماء حينئذٍ مصحيةً على انهُ بغتةً سقط ثلج وافر فاستدل القديس بذلك على حقيقة الرؤيا ورجع الى قريتهِ فوجد بها الخوري سانسالوس فعيَّد معاً عيد الفصح بحسن عبادة وفي اليوم الثالث من هذا الاسبوع قبض عليهما ليلاً اتاريدوس قائد الجنود . فركب القس سانسالوس مركبتهُ اما القديس سابا فجرَّتهُ الجنود عرياناً بين الاشواك والحجارة وهم يضربونهُ بالعصي والسياط فاحتمل كل

ذلك بالصبر الجميل . ولما كان الصباح ظن الجنود انهم يجدون القديس مجروحاً مكلوماً من كل جهة فنظروا فاذا بهِ ولا اثر جراحةٍ فيهِ . فشرع يسألهم على سبيل الاستهزاء قائل اين آثار ضربانكم اين الجراحات فغضب عليهِ الجنود وربطوا يديهِ ورجليهِ بشدة وتركوهُ على هذه الحال ثم رقدوا . فتوجعت صاحبة المنزل وفكّت وُثقهُ التي كان مربوطاً بها واطلقتهُ فلم يهرب بل مكث يخدم المرأة لانها كانت تصلح طعاماً للجنود . فلما عرف اناربدوس القائد ما كان وان القديس لم يهرب حينما كان يمكنهُ ذلك ازداد غضباً عليهِ وحالاً امر الجنود بان يربطوهُ بحبل ويعلقوهُ على خشبة سقف المنزل وبعد ذلك انزلوهُ ووضعوا امامهُ وامام القس سانسالوس لحماً مذبوحاً للاوثان فقال القس اصلبوني وعذّبوني كيف شئتم فابى الله ان افعل مثل هذا النفاق . فقال الجنود اياكما ثم اياكما ان تخالفا امر اناربدوس القائد المقتدر . حينئذٍ هتف القديس سابا قائلاً ومن الحاكم المقتدر الذي يأمرني بما ينهى الله عنهُ قولوا لأناربدوس ان الله تقدّس اسمهُ ينهانا عن اكل اللحم الذي يقتل نفس من ياكلهُ . فلما سمع هذا احد الجنود طعن القديس بحربة في صدرهِ فاسقطهُ على الارض فظن الحاضرون انهُ مات . الآن القديس نهض حالاً وقال للجندي انك قد حسبتني ميتاً ولكن السيد المسيح حفظني بنعمتهِ فلم تضرّني حربتك شيئاً

اما اناربدوس القائد فلما أُخبر بما قال القديس عميت بصيرتهُ بدخان الغضب وحكم على القديس بالموت واطلق القس سانسالوس فحزن عليهِ القديس وقال ما الذي صنع هذا من الضرر كيلا يموت معي . فقال الجنود ان هذا لا يعنيك ثم استاقوهُ الى النهر ليغرّقوهُ فيهِ . وكان القديس يسير بسرور لا يوصف مباركاً الله الذي اهّلهُ لان يموت من اجلهِ فلما وصل الى النهر حزن عليهِ الجنود وارادوا ان يطلقوهُ قائلين ان هذا الرجل بارٌّ فلماذا نقتلهُ فلندعهُ يذهب الى بلد آخر بحيث لا يعلم بهِ اناربدوس . فقال لهم القديس حاشاكم ان تطلقوني بل انفذوا ما امركم بهِ ولا تحرموني الاكليل الذي اشتهيهِ فها هوذا قد انحدر الان من السماء الذين يملكونني السعادة الابدية . فالقتهُ الجنود حينئذٍ مربوطاً في النهر فاختنق القديس في المياه وكان ذلك في اليوم الثاني عشر من شهر نيسان في السنة الثانية والسبعين من المائة الرابعة للمسيح

اليوم الثاني عشر

وفيهِ ترجمة القديس زينون الاسقف

ذكر المؤلف القديم كاتب ترجمة هذا القديس انهُ كان يظهر للناس كرجلٍ تقدس مثل ارميا النبي من حشا امهِ . وُولد بافريقية وتربّى في مدينة فيرونا من اعمال ايطاليا اما في انتهاء الجيل الثالث او في اوائل الجيل الرابع . ولانهُ كان ينمو كل يوم في الفضيلة كان الجميع يعتبرونهُ ويحبّونهُ وترهب في دير بجوار المدينة كان رهبانهُ يعيشون بالتقشف فاحبهُ اولئك الرهبان وفرحوا فيهِ فرحاً عظيماً . وشرع القديس يمارس كل الامور الرهبانية باتمّ النشاط ولاسيما الصلاة والاختلاء والاتضاع والامانة . وكثيراً ما كان يصرف اياماً كثيرة ولا يتناول مأكلاً سوى القربان المقدس وكان لهُ غيرة على خلاص النفوس تتّقد في قلبهِ كالنار الملتهبة . وتلك كانت تبكيهِ البكاء المرّ كلما تأمل في ضلال عبدة الاوثان ولهذا يغار غيرة مقدسة من اولئك الانام المهتمين بخلاص النفوس ويطلب كل يوم من الله ان يطلق لسانهُ بالفصاحة المسيحية . فانعم الله عليهِ بالبلاغة فصار واعظاً فصيحاً لا نظير لهُ في عصرهِ ونال فوق ذلك موهبة عمل العجائب

وفي غضون ذلك انتقل الى رحمة الله اسقف مدينة فيرونا وكان الوثنيون والمبتدعون وقتئذٍ يضطهدون الكنيسة اضطهاداً شديداً . فانتخب الجميع الراهب زينون ولئلا يفرّ هذا القديس المتضع ويختبئ في البرية هرباً من شرف الاسقفية ذهبوا حالاً الى الدير ليمسكوهُ وأعلموهُ ان الاكليريكيين والعوام كلهم اختاروهُ اسقفاً وان هذا دليلٌ جليٌّ على ان الله تعالى اختارهُ ايضاً . فلما تأمل القديس واعتبر ان الاسقفية في ذلك الزمن تبلغهُ اكليل الاستشهاد اجابهم الى ما طلبوا وصار اسقفاً ونال ما تقتضيهِ المرتبة الاسقفية من النعم والمواهب

فظهر حينئذٍ ان البلاغة تفيد في خلاص النفوس وهي مقترنة بالتقوى فائدةً كبيرةً فانهُ ثبّت بها وقد أيدهُ إله المسيحيين في النصرانية والتقوى وتنصر على يدهِ كثيرٌ من عبدة الأوثان وعمّا قليل نمت فيرونا وزهت اكثر كنائس ايطاليا واشتهر شرف الكنيسة المشار اليها في آفاق البريّة بواسطة آية صنعها القديس مع بنت ملكٍ يُدعى غليَنوس . وهي ان الشيطان كان قد دخل

هذه الابنة وعذبها العذاب الاليم وانما فعل الله ذلك تشريفًا لكنيستهِ ولعبدهِ القديس فاتفق يومًا ان قال الشيطان بفم الابنة انهُ لايخرج من جسدها الاَّ بامر الاسقف زينون فلما سمع الملك ذلك امر احد قواد عساكرهِ ان يطلب ذلك الاسقف ويأتي بهِ مع انهُ كان أقسى أعادي المسيحيين فاسرع القائد في قضاء الامر واستخبر عن الاسقف ولما عرف انهُ في مدينة فيرونا ذهب ودخل المدينة بجماعة من الجنود وطلب الاسقف زينون فاضطرب من ذلك المؤمنون لأنهم ظنوا ان الملك يريد ان يفتك براعيهم فاخبروا القديس بما كان فلم يهلع قلبهُ من الموت في سبيل الله بل طابت بذلك نفسهُ فاظهر لأولئك حينئذٍ انهُ يشتهي ان يسفك دمهُ حبًّا بالسيد المسيح بحيث خرج حالاً للقاء القائد وواجههُ بوجهٍ باش ثم تمثل لديهِ فسألهُ المرسل أأنت الاسقف زينون فتبسم وأجاب نعم فقال القائد المشار اليهِ ان الملك سيدي وسيدك يريد ان تذهب فتنجي ابنتهُ من يد الشيطان القاسي الذي يعذبها عذاب الموت فعند ذلك فكَّر القديس في نفسهِ وسأل الله ان يرفع شان كنيستهِ . ثم قال للقائد قم لنذهب ومضيا جميعًا فوقتما وصل القديس الى البلاط ووقف بازاء الابنة المعذبة هتف الشيطان قائلاً انك اتيت يازينون لتخرجني من هنا وانا الان اتعذب بحضورك ولااطيق الوقوف امامك . فامسك القديس يد الابنة وقال للشيطان اني آمرك باسم يسوع المسيح ان تخرج حالاً من جسدها ففي تلك الساعة خرج الشيطان وهو يقول انك اخرجتني من هٰهنا ولكنك ستراني عما قليل في فيرونا . اما الملك فاذ ابصرت عيناه هذه الاعجوبة اخذ منهُ الفرح فاخذ الاكليل الثمين الذي كان على رأسهِ وسلمهُ الى القديس فلم يأخذهُ وانما طلب منهُ اذنًا ليبني في فيرونا معبدًا للمسيحيين فاجابهُ الملك الى ذلك . ثم عاد الاسقف الى مركزهِ وعندما وصل قابلهُ النصارى والوثنيون بفرح عظيم فابتنى وقتئذٍ الكنيسة ولم تسع كل المؤمنين لانهُ بعد الاعجوبة المذكورة آنفًا كثر المسيحيون جدًّا فاستأذن الملك وبنى كنائس اخر . ثمَّ انتقل الى رحمة الله في اليوم الثاني عشر من شهر نيسان في اواخر المائة الرابعة للمسيح

روى القديس غريغوريوس الكبير انهُ بعد وفاة القديس المذكور فاضت مياه النهر الجاري وسط مدينة فيرونا فيضانًا عظيمًا حتى ارتفعت فوق اعلى نوافذ الديار العالية . فولج المؤمنون كنيسة ذلك القديس لينجوا من الغرق بشفاعتهِ فاحاطت بها المياه وكانت ابوابها مفتحة ولم تدخلها بل احترمت المعبد ثم جرت وخرج المؤمنون سالمين يشكرون الله تعالى ويباركونهُ ويثنون على القديس زينون الذي خلصهم

اليوم الثالث عشر

وفيهِ ترجمة القديس ارمينجيلدوس الشهيد

انهُ لما كانت السنة الثامنة والستون من المائة السادسة مات في بلاد اسبانيا ليوبا ملك الفيسيغطيين الاريوسيين فخلفهُ اخوهُ لوفيجيلدوس وكان لهذا الملك ابنان ارمينجيلدوس وريكاريدوس فاقام كلاًّ منهما على جزء من مملكة اسبانيا . ثم زوَّج ارمينجيلدوس بإينغونذا ابنة سيجيبرت ملك اوستراسيا بفرنسا ولا جرم انها كانت فتاة كاثوليكية فاضلة . اما غوسفيند امرأة الملك لوفيجيلدوس فاخذت تجدُّ في ان تستميل إينغونذا الى بدعة اريوس فما فازت بالمرغوب بل ذهب تعبها باطلاً ومن ثم جعلت تُهينها وتضربها وقد تمادت الايام على ذلك حتى انها ذات يوم القتها في بحيرة ماء لتغرقها . وكانت اينغونذا تقاسي كل ذلك بالصبر الجميل غير ان ارمينجيلدوس زوجها لما رآها مخدوشة بالجراح وعرف ما كان خرج من مدينة ابيهِ وسكن مدينة سفيلا عاصمة بلاد الاندلس حيث كان اسقفًا القديس لياندروس الذي يذكرهُ السنكسار الروماني في اليوم الثامن والعشرين من شهر شباط ففي ذلك الحين اخذت اينغونذا تستميل قرينها الى الايمان الكاثوليكي ولما رأتهُ قد اخذ بالدين الكاثوليكي اخبرت القديس لياندروس بذلك وهذا القديس قد اكمل الامر فرفض ارمينجيلدوس بدعة اريوس علانيةً ثم اعتمد وثُبِّت على عادة الكنيسة المقدسة الكاثوليكية فنال بسر التثبيت نعمةً كبيرة ثم بها مات شهيدًا

ولا جرم ان اباهُ كان آريوسيًّا ولذلك اذ علم بما فعل ابنهُ تلهَّب غيظًا وعزم على ان يفتك بهِ ان كان لا يرجع الى اعتقادهِ الاول فكتب لهُ اولاً ما نصهُ اعلم يا ابني اني ارغب جدًّا في ان اخاطبك وجهًا بازاء وجه لانك اذا رأيتني رأيت حينئذٍ في وجهي علامات محبتي لك التي الزمتني ان اقيمك ملكًا قبل وفاتي . فياليت شعري كيف نسيت ما كان يجب

ان يكون لديك افضل واعزّ من حياتك عينها أَفما يكفيك ان تملك معي فلماذا تريد ان تنفرد بالملك وتستبدّ بالسلطان ولهذا ذهبت مذهب الرومانيين اعداء مملكتنا فكيف لا تذكر ان شعب الغطط حصلوا على اشرف العظمة لانهم اخذوا بمذهب آريوس . أَمَا تعلم ان الاختلاف في الدين من شأنهِ ان يعربس الافكار ويبعد القلوب عن بعضها ويقطع صلة المودة . فكيف اقدمت على فعل ذلك وهو يكدّر قلبي ويغيظني جدًّا . فتذكَّر اذًا اني والدك وملكك فمن حيث اني والدك أُشير عليك ومن حيث اني سلطانك آمرك ان ترجع عن غيك وتعود الى اعتقادك الاول فانك ان فعلت ذلك بقيت في مقامك الاول والاَّ عاملتك بدون رأفةٍ وبلا شفقةٍ . فقال ارمينجيلدوس القديس مخاطبًا لابيهِ اني اعلم جيدًا يا ابتاهُ ما انا ملتزم بهِ نحو عزّتك لاجل كونك ابي وملكي غير اني اعرف ايضًا ما انا ملتزم بهِ نحو الله تعالى واني لمستعد ان اطيعك في كل شيءٍ لا يخلّ بالطاعة لله . وبناءً على ذلك اعترف علانيةً باني لا اجحد ابدًا الايمان الكاثوليكي المقدس الذي تمسكت بهِ لانهُ لا خلاص بدونهِ . ومن ثمَّ اسأَل رأفتك الابوية الاَّ تحسب عليَّ انمَّا تركي ضلال الاريوسيين وقبولي الايمان المستقيم الذي من اجلهِ اشتهي ان اسفك دمي

فلما قرأَ لوفيجيلدوس الملك رسالة ابنهِ عزم على الانتقام منهُ فاضطهد اولاً الكاثوليكيين ثم ارسل جيشًا ليقبضوا على ابنهِ . فلما عرف ارمينجيلدوس المذكور ارسل امرأَتهُ اينغوندا مع ولدها الى افريقية اما هو ففرَّ هاربًا الى احدى المدن . فحاصرها جيش ابيهِ وفتحها عنوةً ثم طرح الملك ابنهُ في سجن وارسل اليهِ اناسًا كثيرين ليجذبوهُ الى بدعة الاريوسيين . فكانما كان ذلك اغراءً لهُ بالتمسك بعروة الكثلكة فعزم والدهُ على قتلهِ . فلما اتى عيد الفصح ارسل اليهِ اسقفًا اريوسيًّا ليناولهُ القربان فلما ذهب الاسقف وبلّغهُ امر ابيهِ بان يتناول القربان المقدس من يدِ اريوسية ويشترك مع اشياع اريوس لعنهُ الله سخط بسبب ذلك وطرد الاسقف الموماً اليهِ قائلاً اني افضّل الموت على ان احيا مشتركًا معك في القربان المقدس . ومن ثمَّ ارسل ابوهُ جنودًا ليفتكوا بهِ في السجن فوجدوهُ جاثيًا على ركبتيهِ متأَهبًا للموت . فتقدم احدهم وضرب رأْسهُ بفاسٍ فالقاهُ ميتًا وشرَّفهُ الله تعالى بعجائب كثيرة فكيف لا وان القديس غريغوريوس ينسب الى شفاعة هذا القديس دخول اخيهِ ريكاريدوس والغطط الذين في اسبانيا جميعًا الى الايمان الكاثوليكي . وكان استشهاد القديس ارمينجيلدوس في اليوم الثالث عشر من شهر نيسان في السنة السادسة والثمانين بعد الخمس مائة

اليوم الرابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس يوستينوس الفيلسوف

ان هذا القديس وُلد بسوخار مدينة بالسامرة في اواخر الجيل الاول وهذه المدينة تسمى اليوم نابلوس فلسطين وكان ابوهُ بريسكوس رجلاً وثنيًّا شريف الاصل وقد ربَّى ابنهُ على ضلال الوثنية وادخلهُ مدارس الفلاسفة فمهر يوستينوس بكل ما تعلمهُ هناك ولانهُ لم يجد في تلك المدارس ما كان يرتاح اليهِ اعني بهِ الحق انتقل من تعليم الى تعليم واخيرًا تمسك بفلسفة افلاطون . ولما كان عقلهُ يحب الحق طبعًا لم يقتنع بما تعلمهُ . فاتفق يومًا انهُ ذهب الى مكان منفرد ليتعمق وحدهُ في درس اراء الفلاسفة الافلاطونيين . فلما وصل الى المكان الذي نوى السفر اليهِ وجد هناك شيخًا من الرجال ذا هيبةٍ لطيفة . ولما كان يوستينوس يتفرَّسهُ متعجبًا قال لهُ الشيخ لماذا تتعجب مني فقال القديس لاني وجدت انسانًا في هذا القفر . ثم جلسا يتخاطبان فطفق الشيخ يسأَلهُ عن سبب مجيئهِ الى ذاك المكان فقال لهُ يوستينوس اني قصدتُ الانفراد ههنا لاتأَمل بعض دقائق القضايا الفلسفية . ثم اخذا في التكلم عن معرفة الحق وطبيعة الله وخلود النفس والثواب على الفضائل والعقاب على الرذائل . وكان يوستينوس يتكلم بهذه كلها بحسب مبادىء فلسفة افلاطون . اما الشيخ فشرع حينئذٍ يبين لهُ ان معرفة الله والنفس وعواقب الانسان وما يلزم فعله للخلاص الابدي لا يدركها احدٌ بمبادىء الفلسفة ولا بتعليمهم واقام على ذلك الادلَّة الساطعة والبراهين القاطعة واورد كل ما اورد من هذا القبيل بصوَر الاقيسة المنطقية فسلَّم يوستينوس بكل ما ذُكر وقال جميع الفلاسفة ضالُّون عن الحق وكل الذين تتلمذتُ لهم هم ضالُّون مضلُّون قادة عميان . فقال الشيخ اعلم انهُ قبل ظهور اولئك الفلاسفة ظهر اناس ابرار يتَّقون الله مستنيرون منهُ تعالى وهم الانبياء فهولاءِ هم الذين عرفوا الحق حقًّا وبشروا بهِ العالم صدقًا بدون ان يطلبوا المجد والربح الزمني . اقرأْ كتبهم فتجد هناك معرفة المبدأ الاول والغاية

القصوى والحكمة الحقيقية واشياء اخر سامية جدًّا كان من المستحيل ان يحصل الانسان على معرفتها بمجرّد قوة عقلهِ وتلك الحقائق التي هي فوق ادراكنا نراها مؤيدة بتمام ما تنبأُوا عليهِ وبعجائب اخر كثيرة لا يمكن ان تُصنع الاَّ لاثبات الحق فهناك تحصل على معرفة الله خالق البرايا كلها ومعرفة ابنهِ السماوي المساوي لهُ في اللاهوت الذي تجسد لاجل البشر وتعلم موقنًا انهُ هو وحدهُ مخلص العالم وهناك تحصل على الحكمة الحقيقية التي تنير العقل وتنقي القلب. وزبدة الكلام ان الفلسفة الحقيقية هي الفلسفة المسيحية لا غير وكل تعليمٍ غيرها ضلال مبين

ومنذ ذلك اليوم تاق يوستينوس الى تلاوة الكتب المقدسة ولما وجدها قرأها بتأنٍّ وامعان نظرٍ فوجد فيها كل ما كان قد اناره بهِ ذلك الشيخ المنير. وكان يتعجب من عظمة اسرار الديانة المسيحية ونقاوة اوامرها وشجاعة القديسين الشهداء. فتعمّد واضحى فيلسوفًا حقيقيًا بحيث قد تنصّر. ولانهُ كان عارفًا بمذاهب الفلاسفة الوثنيين وضلال اليهود اخذ يجادلهم كرسولٍ فيلسوف فتنصّر على يدهِ جمٌّ غفير منهم ولذلك قيل لهُ بولس الجديد. لان الاناء المصطفى كان فيلسوفًا يهوديًّا فتنصّر وصار رسولاً الى اليهود وباقي الامم. ومثلهُ يوستينوس فقد كان فيلسوفًا وثنيًا ثم تنصّر وأُرسل الى اليهود والامم ليُثبت بالقول والعمل حقائق النصرانية لانهُ كان غيورًا فاضلاً. فتعجب الجميع من ان فيلسوفًا متكبرًا صار انسانًا متضعًا يسير سيرةً قشفة. ثم انطلق القديس من بلاد فلسطين الى رومية فقابلهُ المسيحيون بسرورٍ عظيم ورسمهُ القديس تلاسفروس البابا كاهنًا واقامهُ واعظًا. فشرع القديس المذكور يعلّم الجميع لان اليهود وباقي الامم كانوا يجتمعون عندهُ ليسأَلوهُ عن النصرانية فكان يعلمهم حقائقها ويثبت لهم مبادئها بالبراهين الجليَّة. وحاصل الكلام ان النصرانية انتشرت وامتدّت في رومية بمجاوراتهِ المقرونة بنعمة الله

ولهذا شرع الوثنيون واليهود يشينون شأن المسيحيين ويشنّعون عليهم بحيث نسبوا اليهم كل قبيحٍ ورديء وعزوا اليهم ايضًا النفاق الى غير ذلك مما استطاعت أَلسنة اولئك الخبثاء ان تنطق بهِ. فكتب حينئذٍ القديس يوستينوس كتابًا يتضمن تبرئة اولئك المتهومين من كل تلك التهم الباطلة؛ وارسل الكتاب الى الملك ادريانوس انطونيوس والى محفل قضاة رومية. ونص كتابهِ ان الذين هم فلاسفة حقًّا لا يعتبرون ولا يحبُّون شيئًا اخر سوى الحق ولا يتبعون اراء الشعب الجاهل فانتم الذين تدعوكم الناس فلاسفة اتقياء اظهروا الان حقيقة ذلك ونوّروا دعواكم بالبينات الساطعة لكي نكون على بصيرة في هذه القضية. على اننا في كتابنا هذا سنذكر لكم الحق المحض ولسنا نطلب منكم هذا الاَّ ان تحكموا بعد الفحص البليغ بالحق والعدل. اما نحن فقد تحققنا انهُ لا يقدر احد ان يضرّنا شيئًا ما لم يثبت علينا اثم. نعم تقدرون ان تنتكوا بنا ولكنكم لا تستطيعون ان تضرُّونا ولكي يتضح ان كتابي هذا لا يتضمن الاَّ الحق فاننا نطلب منكم ان تفحصوا بكل تدقيق عما يُنسب الينا من الاثم فان ثبت علينا ذلك فأدّبونا بمقتضى العدل ولا تعاملونا بالرحمة فاننا لا نريد عند ذلك ان ترفقوا بنا. ولكن اذا عجز اعداؤنا عن اثبات تلك التهم والذنوب التي طالما قرفونا بها فلا يقتضي ان يتعذب من كان بريئًا مما يتهم بهِ باطلاً. وقد اقتضى الحال ان نبرّئ انفسنا لئلا تصدق التهم وتثبت علينا بصمتنا

هذا ما قالهُ القديس في افتتاح خطابهِ ثم اخذ يبرّئ المسيحيين قال لا ريب ان الحكم على احد بالعذاب لاجل مجرّد كونهِ مسيحيًا امر يضادّ العدل. أَفلعل المسيحي ينكر وجود الله تعالى لاجل عدم سجودهِ للشياطين. فاما اولئك الالهة فنصرّح باننا ننكر وجودهم. واما نظرًا الى الاله الواحد خالق الجميع الذي يحب العدل والعفة وبقية الفضائل ويُثيب على الخير ويعاقب على الشرّ فاننا نؤمن بهِ ونعبدهُ ونسجد لعزّتهِ ونعبد معهُ ايضًا ابنهُ الوحيد المساوي لهُ في الكمالات الالهية الذي تجسد لينقذ الانام من خطيئة آدم. ولم يزل مع ذلك الهًا وهو نفسهُ الذي كشف لنا كل هذه الاسرار ومهّد لنا الطريق الذي يؤدي الى السعادة الابدية. فنحن اذًا وان اعتقدنا ان في الله سبحانهُ ثلثة اقانيم فلا نعتقد الاَّ باله واحد. ومن المحال ان يكون اكثر من اله واحد والاَّ لفسد الكون وتغيّر نظام المخلوقات. ثم اننا نرجو بعد الموت حياةً مؤبدة سعيدة في السماء مع الله وتلك جزاء الذين يحفظون الشريعة التي تنهى عن كل شر ولا تحتمل اثمًا واحدًا بحيث لا يدخل جنة الخلد شيءٌ دنس اصلاً. وبناءٌ عليهِ فليس الذي يدين الناس بعد الموت هومينوس او رادامانتوس او غيرهما من آلهتكم الكاذبة كما زعم افلاطون وشعراؤكم. وانما الديّان المطلق الوحيد

هو سيدنا يسوع المسيح الذي سيحكم على كل اثم بالعذاب السرمد فنحن اذًا انما نرجو و ننتظر ملكًا سماويًا لا ملكًا ارضيًا كما زعم كذبًا اعداؤنا ولعمري لو كنا ننتظر ملكًا ارضيًا لما كنا نمضي الى الموت بسرور بل كنا ننكر اننا مسيحيون فيكون ذلك حياةً لنا

انكم لاتجدون في المملكة من يحب بقاءها ويسعى بتأبيدها وعزّها نظير المسيحيين على اننا نؤمن بالله ولا يخفى شيء على الله . فهذا الاعتقاد نفسهُ يصيّر فضائلنا خالصةً من كل رياء وهوذا انتم مع رسومكم القاسية وتعاذيبكم الشديدة لا تقدرون ان تضبطوا الاشرار العارفين بانكم بشر لا تعرفون ما بالقلوب . على انهم لو كانوا يعتقدون مثلنا بوجود الهٍ واحد مطّلع على اخفى اسرار القلوب لكان الخوف يصدُّهم عن الشر فيرتدُّون عن كل منكرٍ . ولكن الظاهر انكم لاتريدون ان الجميع يحسنون سيرتهم بحيث انكم تضطهدون الذين يعبدون الاله الواحد الذي يعاقب على الافعال والاقوال حتى الافكار فانهُ يؤاخذ بادنى فكرٍ رديٍ

ثم ان القديس يورد اخص حقائق ديانتنا ويتكلم على سر القربان المقدس بما نصهُ . اننا لا نتناول القربان المقدس على انهُ ماكل ومشرب اعتياديان بل اننا لمعتقدون ان السيد المسيح تجسد لاجل خلاصنا ونعتقد ايضًا ان هذا الطعام المقدس الذي نسميهِ اوخارستيا بعد تقديسهِ بالصلاة التي علمناها كلمة الله يصير جسد المسيح ودمهُ (انتهى)

فلما قرأ الملك هذا الكتاب اثرت فيهِ قراءتهُ كل التأثير كما روى اوروسيبوس المؤرخ القديم واستراح المؤمنون الاَّ انهُ بعد موت الملك ادريانوس الذي كان في السنة الحادية والستين بعد المائة للمسيح جلس الملك مرقس اوراليوس . وفي عصرهِ اضطهد الكفار الشعب المسيحي في اقاليم كثيرة وكان حينئذٍ برومية كريشانتوس وهو فيلسوف متلطخ بالآثام فنازل في ميدان الجدال القديس يوستينوس امام جمّ غفير فافحمهُ القديس المذكور فاسودَّ وجههُ ولذلك افرغ كنانة جهدهِ عند قضاة رومية ولاسيما انهُ وشى بهِ الى جونيوس روستيكوس حاكم المدينة ليفتكوا بالقديس . لانهُ قال لهم ان يوستينوس بتعليمهِ وتآليفهِ يقوّي المسيحيين ويثبتهم في مذهبهم و يزيدهم عددًا . فارسل الحاكم وقبض على القديس ومعهُ ستة اشخاص مسيحيين فسألهم الوالي المشار اليهِ أَمسيحيون انتم فاجابوا جميعهم نعم اننا مسيحيون وبهذا الاسم نفتخر . ثم قال القديس يوستينوس زيادةً على ذلك الجواب ولا نفتخر بذلك الاسم فقط بل اننا نشتهي ان نتألم ونموت من اجلهِ ايضًا . فقال لهُ روستيكوس اظن متوهمًا انك بعد الموت تصعد الى السماء . قال القديس اني لست اعلم ذلك على سبيل الظن والوهم بل على يقين ثابت . فحكم ذلك الوالي وقتئذٍ بان تقطع هامات الذين عصوا الملك وأَبوا ان يسجدوا للاوثان . فقبل الشهداء هذا الحكم بفرح وشكروا الله تعالى عليهِ فقُطعت رؤُسهم ونالوا اكليل المجد الابدي في اليوم الثالث عشر من شهر نيسان نحو السنة الثامنة والستين بعد المائة . اما القديس يوستينوس فلم يُقطع راسهُ بل اماتوهُ بسمّ خوفًا من ان الذين يعرفونهُ ويعتبرونهُ يلقون اضطرابًا وينشئون في الشعب شقاقًا

اليوم الخامس عشر

وفيهِ ترجمة القديسة ليدوفينا البتول

وُلدت القديسة المذكورة بهولاندا في السنة الثمانين من المائة الرابعة عشرة للمسيح . وكان ابواها عند ذلك فقيرين ولكنهما كانا يتقيان الله تعالى . واما هي فحينما بلغت من العمر السنة الثانية عشرة فقط نذرت لله سبحانهُ عفتها . وكان ابواها يريدان ان يزوّجاها لان كثيرين كانوا يطلبون ان يتزوّجوها لانها كانت بارعة في الجمال . فقالت لهما انهُ من الممتنع ان اكون عروسًا الاَّ لسيدنا يسوع المسيح . ثم خوطبت في هذا الامر مرةً اخرى وأُلحَّ عليها فقالت لابيها الذي كان يلحُّ عليها كثيرًا اعلم يا ابي اني ساموت عذراء وان رجعت تخاطبني في شان الزواج مرةً ثالثة فاني اصلي واطلب الى الله ان يقبّح منظري ويشوّه صورتي حتى يستقبحني كل من رآني فعند ذلك تركها ابوها

فلما بلغت السنة الخامسة عشرة من عمرها اصابها مرض فاظهرت الصبر الجميل . وسببهُ انها سقطت ذات يومٍ من موضعٍ عالٍ فانكسرت لها ضلع صغيرة فاورثها السبب المشار اليهِ مرضًا على طول عمرها فذاقت من الألم ما لا تكاد تحتملهُ الطبيعة البشرية . ومن ثم لنا ان نقول انها عاشت بعد ذلك بألم الموت لانها في مدة ثلثين سنة لم تتناول من القوت ما يكفي المرء ثلثة ايام . فانفق والداها كل مالهما في مداواتها على انها لم تنتفع بذلك شيئًا البتة وانما كانت البتول تستعمل تلك الأدوية كلها وهي عارفة بان الله وحدهُ هو الذي يستطيع ان يشفيها

وذلك مخافة ان يظن الناس انها تجرّب الله عزّ وجل . فتأمل ايها المؤمن ولينذهل عقلك من كثرة اوجاعها وشدة آلامها فكيف لا وقد اتصلت الى شرّ حالٍ بحيث عجزت عن استخدام رجليها وما كانت تمشي الاّ على ركبتيها ويديها ولا تستطيع ان تاكل وتشرب ما يفيدها بل كانت تشتهي ان تشرب ماء منتنًا . ثم انها لم تكن تقدر على ان ترقد وبعد هذه المصائب كلها ظهرت في حشاها دمّلة وكان يخرج منها دود كثير قبيح المنظر جدًّا . وابتُليت ايضًا بمرض آخر نادر الوجود فان نارًا باطنة آكلت احشاءها حتى عظامها وكان منكبها اليمين مفكوكًا . وكانت مع ذلك تشعر بوجع رأس اليم وكانت عيناها واسنانها وحلقها وجبينها وحاجبها كلهنَّ معذبات بآلامٍ مختلفة . وكان يسيل من فمها وأُذنيها وانفها وعينيها دمٌ كثير . ذلك وماذا اقول في وجع الرئة والكبد والحمى الذي كان يؤلمها على الدوام . وفي الجملة فكل اعضائها كانت متألمة

فهذه هي الحال التي اقامت عليها القديسة ليدوفينا مدة ثمان وثلثين سنة وهي فقيرة لا يلتفت اليها احد كما لا يخفى فلم تجد من تتعزّى بهِ سوى سيدنا يسوع المسيح . غير انهُ عزّ وجلّ كان احيانًا يزيد على اوجاعها لتنقّى نفسها كالذهب في أتّون النار لانهُ تعالى سمح ان يحسبها الناس ساحرة خبيثة مرائية . وكان احيانًا يمسك عنها كل تسلية روحية وقد قضت الاربع السنين الاولى من مرضها بصبر ضعيف وطلبت العلاج بشوق طبيعي فلم تجدهُ . ومن ثم كان يأخذها حزن شديد ولم تزل كذلك حتى عادها كاهن فاضل وقال لها لا تعزية لكِ في هذه الدنيا الاّ بتأمل آلام المسيح التي احتملها لاجل خطايانا . واشار عليها ان تترك مخاطبة النساء بالكلية وتتذكّر الاعذبة الكثيرة الشديدة التي كابدها الشهداء القديسون حبًّا بسيدنا يسوع المسيح ثم ناولها القربان المقدس وقال لها ايضًا ايّاكِ ان تنسي ما امرتكِ بهِ بل تذكّريهِ كل يومٍ واظبي على تأمل آلام المسيح . فان الله الذي يُغيث كل مضيم سيملأُ نفسكِ تعزيةً وسلوانًا . فعند ذلك خالط قلبها السلوان وامتزجت بهِ التعزية وحملها ذلك على البكاء خمسة عشر يومًا واستعذبت العذاب حتى طلبت منهُ عزّ وجلّ ان يزيدها وجعًا . وفي غضون ذلك حدث طاعون وفشا في تلك البلاد فسألت الله ان يرفع ذلك الوباء عن شعبهِ ويضربها

بهِ فطُعنت في حلقها وتحت قلبها ثم طلبت منهُ تعالى ان تُصاب بضربة ثالثة اكرامًا للثالوث الاقدس فاجابها الله الى ما طلبت فطُعنت تحت حدقتها ثم شُفيت من الطعنتين الأُوليين واما الثالثة فاستمرّت في عينها على باقي حياتها

ومرضت والدتها مرض الموت فطلبت من ابنتها ان تصلّي من اجلها . فقالت لها القديسة اني قد وهبتكِ كل ما استحققتهُ الى الان من الوفاء عن آثامي . فتعزّت والدتها ورقدت بسلام . اما البتول فبعد وفاة امها زادت على اوجاعها لانها وضعت على حقويها زنّارًا من حديد فتألمت بسببهِ وابقتهُ هكذا الى اخر حياتها . ثم باعت كل امتعة منزلها وانفقت اثمانها على المساكين وكانت تتصدّق على الفقراء ايضًا بكل ما يُعطى لها . فشاع شقاء حالها واشتهر ايضًا صبرها عليهِ فازدحمت عليها الاتقياء العبّاد ليروا ذلك الامر العجيب . وممّن زارها اميرة هولاندا التي حارت واندهلت لما عاينت كنوز سعد السماء في عمق الشقاء . وممن زارها ايضًا امير هولاندا وامير بافاريا وكثيرون غيرهم وانما غرضهم من الزيارة ان يستشيروها في ما يتعلق بامر خلاصهم . وبحيث علموا بشقاء حالها وضيق معاشها بعثوا اليها بالصدقات الكثيرة . اما هي فكانت توزّعها على الفقراء

وكان الله سجانهُ يفعل على يدها عجائب كثيرة نقتصر في هذا المقام على ذكر بعضها فنقول . مات احد اخوتها مديونًا فاعطت البتول رجلاً كيسًا كانت قد وضعت فيهِ نحو اربعين قرشًا فوفى بهِ كل ديون ذلك الميت وبقي في الكيس اكثر من ذلك كثيرًا . ومن اجل ذلك دُعيت ليدوفينا مخزن الله . اما والدها فلم يُرد ان يعيش من صدقات ابنتهِ ومن اجل ذلك حرّك الله امير هولاندا الى مساعدتهِ فكان يرسل اليهِ كل يوم ما يحتاج اليهِ . وبعد وفاة والديها عاشت مع امرأة اخيها وكانت تلك المرأة شرسة الاخلاق قبيحة ونظيرها كانت رفيقة لها بل شرًّا منها لانها كانت تشتم القديسة بافظع الشتائم وكثيرًا ما كانت تلطمها على وجهها . فسألها يومًا واحد وقال لها لماذا تحتملين هذا كلهُ فاجابت قائلة انهُ من الواجب علينا ان نجذب الناس الى التوبة بصبرنا ولا ريب ان الفضائل تنمو بالصبر . والصبر وطول الاناة يليّنان الطباع القاسية ويهذّبان الاخلاق الشرسة

ولكن الله سجانهُ كان يقوّي أمتهُ بالنعم الجليلة كمشاهدة

الملئكة ورب الملئكة . فعرفت بروح النبوة ساعة وفاتها وجاءها السيد المسيح مع والدتهِ المجيدة ورسلهِ الاطهار. وانتقلت الى دار النعيم في اليوم الرابع عشر من شهر نيسان في السنة الثالثة والثلثين من المائة الخامسة عشرة للمسيح

اليوم السادس عشر

وفيهِ ترجمة القديس استفانس رئيس دير سيتو

وُلد القديس المذكور ببلاد الانكليز بعد نصف الجيل الحادي عشر ولما شبَّ ترهب في رهبانية القديس بناديكتوس فتعلم فيها مبادىء الرهبانية ثم أُرسل الى مملكة فرنسا حيث درس علم اللاهوت في مدينة باريز. وبعد ذلك انفرد في دير من اديرة القديس بناديكتوس في فرنسا يقال لهُ دير موليسم وكان القديس روبرتوس رأس ذلك الدير. اما الرهبان الذين هناك فكانوا نشيطين في العبادة وهم فقراء يغتذون بالبقول ولكن لما كثر دَخْلهم توانوا وخمدت حرارة التقوى في قلوبهم وجعلوا يتدرجون في الشر والمعصية . فلما رأى ذلك القديس روبرتوس خرج من الدير ثم خرج البريكوس رئيس اولئك الرهبان الثاني والقديس استفانس فخجل اخيرًا الرهبان المتوانون في العبادة وطلبوا روساءهم وعاهدوهم بالتوبة . فعاد اليهم القديس استفانس والقديس روبرتوس والبريكوس . ولم يمرَّ زمان طويل حتى تذمَّر اولئك الرهبان الفاترون لان القديسين المذكورين دققوا عليهم بحفظ الرسوم ومن ثمَّ اتفق القديس روبرتوس والقديس استفانس والبريكوس على ان يباينوا ذلك الدير ثانيةً وذلك لعلمهم اليقين ان انشاء رهبانية جديدة هو ايسر من اصلاح رهبان متوانين متراخين في العبادة

فذهبوا ثلثتهم الى برية سيتو التي بقرب ديجون مدينة بفرنسا وهناك اسسوا ديرًا وفيهِ تقدَّس رهبان كثيرون بل انهُ صار كامٌّ لاديرة كثيرة وقد صار القديس روبرتوس الرئيس الاول في السنة الثامنة والتسعين بعد الالف . غير ان الرهبان الفاترين المتقدم ذكرهم كتبوا الى البابا مظهرين توبتهم على فتورهم وطلبوا رئيسهم الاول . فاضطرَّ القديس روبرتوس ان يعود اليهم وصار القديس البريكوس رأس دير سيتو . وعقب عشر سنة من ذلك توفي البريكوس فخلفهُ في الرئاسة القديس استفانس . ولما كان هذا الدير الجديد لا يحوي حينئذٍ الَّا جماعةً من الرهبان يعيشون بالتقشف على اتم النشاط وليس عليهم رسوم ولا قوانين اخذ القديس استفانس يضع لهم رسومًا تؤدي الى اكتساب الكمال الانجيلي . وبحيث انهُ كان قد عرف ان الغنى قد اورث دير موليسم التراخي في العبادة جعل الفقر رأسًا لكل الفضائل الرهبانية وبناء عليهِ اخرج من دير سيتو ومن قلالي الرهبان كل شيء لا تمسُّ الحاجة اليهِ . واظهر الله وقتئذٍ مزيد سرورهِ بالفضيلة المشار اليها وكان ذلك في بيرامون العنصرة وكان قد نفد كل مأكل في الدير حتى الخبز فلم يضطرب الرهبان من ذلك بل انهم بعد انتهاء القداس والصلاة في يوم العيد دخل كلٌّ منهم قلآيتهُ مسرورًا مقدمًا لله تعالى صومهُ من صميم قلبهِ . وفيما كانوا على هذه الحال اذا بأُناس اتوا الدير ومعهم مآكل وافرة فاغتذى اولئك الرهبان وبعد الغذاء وعظهم رئيسهم القديس اورد لهم هذه الآية الداودية وهي الرب يرعاني فلا يعوزني شيء . وفي آخر الخريف اخبرهُ وكيل الدير انهُ لم يبقَ من الدراهم سوى ثلثة فلوس مع ان المؤنة كانت قد نفدت واثواب الرهبان تمزَّقت . فقال لهُ القديس اذهب وخذ معك ثلث مراكب وابتع كل ما يعوز الدير . فخرج الوكيل وسار قليلاً واذا برجل غني قد وضع على تلك المراكب كل ما كان يحتاج اليهِ الدير لانهُ كان قد قصد ان يتصدَّق على الفقراء باكثر اموالهِ

ووصل اولئك الرهبان الى اقصى درجات العيشة القشِفة حتى تعجب الناس من شدة تقشفاتهم وضيق معيشتهم لكنهُ لم يكن يترهب هناك الَّا قليل حتى حزن القديس استفانس من جرَّاء ذلك وخاف ان يكون الله غير راضٍ عن رهبانيتهِ . ولما اشرف واحد منهم على الموت قال لهُ ذلك الرئيس القديس أَرأَيت يا اخي كيف تقل جماعتنا الزهيدة كل يوم ولا يأتينا احد . فلا ريب في ان رهبانيتنا تتلاشى بعد قليل ولعل ذلك من عدم رضا المولى سبحانهُ بها . ومن ثمَّ انا آمرك ان تخبرنا بعد موتك ان سمح لك الله بذلك . هل يرتضي بالطريق الضيق الذي نسلكهُ ام لا . فمات الراهب فشرع الرهبان يزيدون في صلواتهم فتراءى الميت بنورٍ سماوي للقديس استفانس وقال لهُ ليتعزَّ قلبك بقطيعك الصغير المتضع لانك بعد ايام قليلة سترى ان هذه الحبة الصغيرة صارت شجرةً كبيرةً تمدُّ اغصانها الى

بمكان بعيد. وعقب هذه الرؤيا جمع الرئيس الرهبان واخبرهم بما سمع من ذلك الراهب الميت. ولم يمضِ وقت قليل الا وقد جاء القديس برنردوس ومعهُ ثلثون شخصًا وطلب من القديس استفانس ان يترهب وجماعتهُ في دير سيتو فاستقبلهم الرئيس المومأ اليهِ بفرحٍ عظيم. ومن ذلك اليوم امتلأ دير سيتو من البركات وفي زمنٍ قليل كثر الرهبان وصاروا جمًّا غفيرًا حتى اضحى دير سيتو نظير مدينة في اتساعهِ وكثرة رهبانهِ. ولان المكان لم يكن يسع كل الذين ترهبوا هناك ابتنى القديس استفانس خمسة اديرة أُخر في مواضع مختلفة منها الدير المدعو الوادي المضيء حيث اقيم القديس برنردوس رئيسًا في السنة الخامسة عشرة من الجيل الثاني عشر. وفي كل دير كان عدد الرهبان جزيلاً جدًّا

فلما رأى القديس استفانس رهبانيتهُ على تلك الحال السعيدة جمع رؤساء الاديرة سنة ثلث وثلثين ومائة والف للمسيح وعزل نفسهُ عن الرئاسة العامة ليستعدَّ للموت. واذ حانت منيتهُ قال لهُ احد الرهبان طوبى لك يا ابانا لانهُ قد ساغ لك ان تقف امام الله تعالى بطمأنينةٍ. فقال لهُ القديس الحقَّ الحقَّ اقول لكم يا اخوتي اني ماضٍ بخوفٍ ورعدةٍ للمثول امام الهي ولا ثقة لي الا برحمتهِ عزَّ وجلَّ. ذلك وانتقل الى دار النعيم في اليوم الثامن عشر من اذار في السنة الرابعة والثلاثين بعد المائة والالف وتعين لتذكارهِ اليوم السابع عشر من شهر نيسان

اليوم السابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس ابولّينوس الشهيد

انهُ في السنة الثمانين بعد المائة استراح المؤمنون بموت اوراليوس قيصر لان ابنهُ الملك كومودوس اقرَّ المسيحيين على احسن وانعم بال وكان ذلك وسيلةً لانتشار النصرانية في كل مكان ولاسيما في رومية وعاضدت الوسيلة المذكورة غيرة القديس الوناريوس البابا عليهِ السلام ومن جملة الذين تنصروا حينئذٍ في رومية القديس ابولّينوس وكان رجلاً جليلاً لانهُ كان أحد قضاة المدينة العظمى وعلّامةً بليغًا فلما تلا الكتاب المقدس ظهر لهُ نور الحق وكشف الله عن بصيرتهِ فرفض عبادة الأوثان وتنصر واعتمد وسلك طريق الكمال الانجيلي وأمال الى النصرانية بقدوتهِ الصالحة ومواعظهِ البليغة جمًّا غفيرًا اما الشيطان على ما روى اوسابيوس المؤرخ فلما رأى المؤمنين يكثرون كل يوم بوسيلة الصلح والسلام وبقدوة ابولّينوس وغيرتهِ حرَّك رجلاً اسيرًا شريرًا يقال لهُ ساوروس ليشتكي على ابولّينوس مع انهُ كان قد برز امر الملك بقتل كل من يشكو مسيحيًّا فدخل ساوروس على برانيوس حاكم رومية وعرض لهُ ان القاضي ابولّينوس تنصر فلما سمع ذلك برانيوس المذكور امر حالاً بان يُقتل الشاب بحسب امر الملك فقُتل ساوروس ثم قال الحاكم لابولّينوس أنكر النصرانية فتصون حياتك وتحافظ على شرف مقامك فقال لن اجحدها. ولما وجدهُ ثابتًا في الايمان فقال أَورد صورة اعتقادك امام محفل القضاة الشريف. وكان حينئذٍ القديس قد مهر جدًّا في معرفة حقائق الايمان المسيحي ولهذا لقبهُ القديس ايرونيموس باول المعلمين بعد الاباء المتنورين. فألف القديس ابولّينوس مقالةً في شرف النصرانية تتضمن اثباتًا صريحًا لصحتها وتقديس اوامرها

والحاصل انهُ في هذه المقالة أثبت بدلائل ساطعةٍ مقنعةٍ وجود الله عزَّ وجلَّ خالق جميع البرايا التي تنبئنا عن قدرتهِ وحكمتهِ اللتين لاحدَّ لهما. ثم برهن على عدم امكان وجود آلهة كثيرين واثبت نفاق عبادة الذين يسجدون لها. ثم اخذ يشرح حقائق الديانة المسيحية واقام البرهان على استحالة اختراع مذهب يضاهي المذهب المسيحي نظرًا الى النقاوة والحكمة والبرارة

وقد اورد هذه كلها بحذاقةٍ وفصاحة تقنع العقول وتليّن القلوب والجميع كانوا يستمعونهُ بلذةٍ. غير ان المتقدم قال للقديس ان شرائع القياصرة قد امرت بان من يُشكى عليهِ بانهُ مسيحي لا يُطلق ان لم يرتد الى مذهب الملوك والا فليقتل. ثم خاطبهُ كثيرًا في شأن الارتداد عن النصرانية. فاجابهُ القديس اني لأتعجب من انك تحثني على جحد الايمان الذي قد برهنت لك انهُ الايمان الحق فاعلم ان الموت من اجل هذا الدين هو شيء شهي وانا اشتاق اليهِ كل الاشتياق ومن ثمَّ اني احثُّك واحثُّ الجميع على ترك الوثنية وقبول حقائق الانجيل المقدس فتعجب المحفل من شجاعتهِ الا انهُ حكم عليهِ بقطع هامتهِ. فظهر للوقت في وجه القديس الفرح العظيم ولكنما الشعب كلهم حزنوا جدًّا بل تذمروا علانيةً. فخاف برانيوس من تعصُّب الشعب ومن ثمَّ اسرع بقطع رأس القديس وكان ذلك في

اليوم الثامن عشر من شهر نيسان في السنة الخامسة والثمانين بعد المائة

اليوم الثامن عشر

وفيهِ ترجمة القديس الوتاريبوس الشهيد ووالدتهِ القديسة انثيئا الشهيدة

ان هذا القديس وُلد برومية نحو السنة السبعين للمسيح وكان والدهُ متقدمًا في محفل القضاة ولا يُعرف أمسيحيًّا كان أم لا. الا ان والدتهُ القديسة انثيئا كانت مسيحية وربّتهُ باهتمام جزيل ولا سيما بعد موت اوجانيوس بعلها. ولما رأتهُ نما بالفضيلة قدمتهُ للقديس اناكليتوس البابا فقبلهُ ذلك الحبر القديس وادخلهُ فيما بين الصبيان الاكليريكيين. ثم ارسلهُ الى اسقف قديس كان في مدينة ايكانيا واوصاهُ فيهِ فاحبهُ الاسقف القديس كثيرًا. ولما بلغ العمر المعيَّن في رسوم البيعة ارتسم كاهنًا فبعد ان ارتسم الوتاريبوس كاهنًا ظهر في بيعة الله كسراج مضيءٍ للعالم بسمو فضائلهِ وعلمهِ وغيرتهِ وشجاعتهِ في زمن اشد الاضطهادات. ثم ارسلهُ اسقف ايكانيا الى البابا القديس اسكندر الاول وطلب منهُ ان يكون خليفتهُ في الاسقفية فيرسمهُ اسقفًا. وكان برسالتهِ يمدح القديس الوتاريبوس جدًّا فرسمهُ البابا اسقفًا. ولان شعب بلاد ايليريا كان وقتئذٍ يطلب من البابا رجلاً رسوليًا يعلمهم قواعد الايمان ارسل اليهم الاسقف الجديد. نعم ان الحصاد كان كثيرًا جدًّا ومتعبًا لوجودهِ في وسط قوم برابرة ولكن الله سبحانهُ ساعد ذلك القديس الغيور ولذلك لم يمرّ قليل من الزمان الّا وقد زهت الديانة المسيحية في بلاد ايليريا المدعوة الان اسكلافونيا. وقد ايّدهُ الله جلّت قدرتهُ بفعل المعجزات. وبها سهل جدًّا تغيير هذا الشعب البربري. فلما رأى كهنة الاوثان ان الديانة المسيحية انتصرت في بلدتهم حرّكوا بعضًا من عظماء الوثنيين فكتبوا الى الملك ان عبادة الاوثان كادت تبيد بالكلية في بلاد ايليريا وتُستأصل بحيل ساحرٍ مسيحي اسمهُ الوتاريبوس لانهُ بقوة افعالهِ وكلامهِ سحر عقول الاكثرين وصاروا مسيحيين فان لم يخرج من هناك سريعًا تنصّرت البلاد كلها

فارسل الملك من رومية فيليكوس احد الولاة ليقبض على القديس الوتاريبوس ويأتي بهِ الى رومية. فلما وصل الى حيث كان القديس وقبض عليهِ قال لهُ ما اسمك وما دعواك وما الحِيَل الشيطانية التي بها سحرت سكان المدينة. قال القديس اني مسيحي واسمي الوتاريبوس. واما الحِيَل الشيطانية فمرفوضة في ديانتنا المسيحية واما العجائب التي فعلتها كاخراج الشياطين وشفاء الامراض الى غير ذلك من الآيات فانما فعلتها بقدرة الاله الواحد خالق السماء والارض الذي اياهُ اعبد ولهُ اسجد واظن انك ان تتبعت افعال المسيحيين ايقنت ان الدين الذي يميل بالانسان الى مثل تلك الافعال الصالحة هو الدين الحق الذي رسمهُ الله لعبادهِ. فلما كان القديس ينطق بهذهِ وغيرها كان الله سبحانهُ يُنير عقل الحاكم فيليكوس فطلب ان يخاطبهُ القديس سرًّا وحينئذٍ تحقق كذب عبادة الالهة وصدق الدين المسيحي واعتمد بعد قليل

وبناءً عليهِ لم يعد يستطيع ان يُسلم القديس لانهُ هداهُ الى الدين الحقّ وصار لهُ ابًا روحيًّا. غير ان القديس طلب منهُ بمزيد الالحاح ان يرجع معهُ الى رومية فلما يكون فرحل الاثنان مع الجنود. وفي الطريق اكمل لتلميذهِ ما كان قد ابتدأ بهِ وصيّرهُ مسيحيًّا نشيطًا. فلما انتهيا الى رومية تقدّم القديس بنفسهِ لدى الحاكم فافرغ ذلك الحاكم كنانة الجهد لكي يستميل القديس الى عبادة الاوثان فوعدهُ وتوعّدهُ وتملّقهُ وهدّدهُ فرآهُ لا يكترث بحطام الدنيا ولا يرجو فيها خيرًا ولا يخاف عقابًا ومن ثمّ عرّاهُ والقاهُ على جمر متّقد ليحترق هناك. الّا ان النار استحالت لديهِ الى ندى ولهذا طرحوهُ بعد ذلك في خلقين مملوءٍ زيتًا وقيرًا مغليّ فلم يمسهُ اللهيب ايضًا. فاخرجهُ الاعوان ومزّقوا جسدهُ بمخالب حديدية ومع ذلك لم يتحرّك القديس بل كان كانهُ لا يشعر بألم. ولهذا امر الحاكم بقطع رأسهِ. وهكذا نال القديس الوتاريبوس اكليل المجد الابدي وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من شهر نيسان في انتصاف القرن الثاني

اما والدتهُ القديسة انثيئا فلما سمعت ما كان ذهبت مسرعة الى حيث كان جسد ابنها ملقى ميتًا فانطرحت عليهِ تذرف الدموع وتشكر الله تعالى على ما انعم بهِ على ابنها واذا بجنود اتوا من قِبل الحاكم فقطعوا رأسها ايضًا



اليوم التاسع عشر

وفيهِ ترجمة القديس لاون الحبر الروماني التاسع

ان القديس المذكور كان يُسمى برونون قبل ان جلس على عرش الخلافة الرسولية وولد في السنة الثانية بعد الالف للمسيح بالساسيا اقليم بفرنسا وكان والدهُ من اقرباء ملك النمسا. ونظروا على جسمهِ عند مولدهِ صورة الصليب مرسومةً في اماكن كثيرة بلون احمر. فلما كان ابن خمس سنين سلمتهُ والدتهُ لبيرطولد اسقف مدينة تول ليتخرَّج في الآداب والعلوم فاستفاد عندهُ جدًّا وكانت علومهُ وفضائلهُ كجَنْيَة غضة الازهار وكان الجميع يعتبرونهُ ويحبونهُ وبعد ان اخذ عنهُ العلم عاد الى بيت ابيهِ. فاضطجع يومًا في النهار ورقد وفيما كان غارقًا في نوم ثقيل صعدت ضفدعة سامَّة الى عنقهِ ووجههِ وامتصت دمهُ وسكبت على الجراحات سمَّها فانتبه الشاب اخيرًا وصرخ من جزعهِ فاسرع اليهِ مدبرهُ ومرشدهُ ولما رأَى وجههُ قد انتفخ واعترتهُ حمَّى شديدة اتاهُ بالطبيب فعالجهُ بكل الادوية الطبية فلم تفدهُ شيئًا وحينما كان الطبيب قد يئس وامُّ ذلك الشاب الحزينة تهيئ كل شيء لتكفينهِ ظهر للشاب القديس بناديكتوس وفي يدهِ صليب فمسَّ بطرفهِ وجههُ وعنقهُ فخرج حالاً كل السمّ وبرئ تمامًا

وغب ذلك استدعاهُ اسقف مدينة تول وادخلهُ في الاكليريكية وللوقت افتكر برونون في كثرة واجبات الكاهن من نحو حسن السلوك والتقوى والتوسُّع في العلوم اللاهوتية الى غير ذلك من مقتضيات الكهنوت. ومن ذلك اليوم ترك اللهو والتنزُّه وخصَّص ايامهُ للصلاة وخدمة الشعب والدرس والمطالعة وكان فوق ذلك كثير الصوم وجزيل الاعتبار في عيون الجميع. ولذلك بعد ان انتقل الى رحمة الله اسقف مدينة تول الزمهُ الاكليروس والشعب بأن يخلفهُ. فارتسم اسقفًا في السنة السادسة والعشرين من المائة الحادية عشرة للمسيح فازداد برونون في عبادة الله تعالى نشاطًا وافرغ جهدهُ في ان يجعل الاكليريكيين يحسنون الخدمة الالهية والرهبان يجرون على مقتضى الطريقة الرهبانية المقدسة. اما اهتمامهُ بحاجات المساكين فكان عجيبًا وكان كل يوم يطعم منهم كثيرين ويغسل اقدامهم ويخدمهم. ثم ان اتضاعهُ كان يصيّرهُ عند نفسهِ اصغر الجميع مع انهُ كان عند الجميع من اعظم علماء عصرهِ. وكان يُغطي على تقشفاتهِ الشديدة بالبشاشة وطلاقة الوجه ولله درهُ مؤمنًا فان متانة ايمانهِ كانت تُجري الدمع من عينيهِ في حين تقديس القربان

فحدث حينئذٍ خصومة فيما بين روبرتوس ملك فرنسا وكونرادوس ملك النمسا وتعبت الكنيسة بتلك الخصومة ووقعت في بجس عظيم. فاشتغل القديس بتلك المسألة واطفأ نار الخصام وصالح ذينيك الملكين مصالحةً لا على دَخَنٍ وبغضٍ وبعد ذلك استدعاهُ هنريكوس ملك النمسا الى مجمع عقدهُ لازالة شقاقٍ كان قد سبَّبهُ بناديكتوس التاسع البابا الدخيل الذي كان يجعل نفسهُ حبر البيعة الرومانية بعد موت البابا دامَزوس الثاني. وقد كان في هذا المجمع نوَّاب الكنيسة الرومانية فاتفق الجميع واختاروا برونون ليجلس على عرش الخلافة الرسولية. فاضطرَّ القديس وقتئذٍ الى قبول تلك المرتبة العالية. ولما وصل الى باب مدينة رومية خلع حذاءهُ ودخل حافيًا وارتسم بابا في اليوم الثاني عشر من شهر شباط سنة تسعٍ واربعين والف للمسيح ودُعي لاون التاسع

انهُ باشر القيام بواجبات البابوية على تعبٍ لا يُكاد يُصدَّق فانهُ مع ضعف مزاجهِ سافر الى جهات كثيرة لتدبير امور الكنيسة ذهب الى ساكسونيا وهي اقليم بمملكة النمسا. ثمَّ ذهب الى فرنسا وعقد هناك مجمعًا ثم انطلق الى النمسا وعقد فيها ايضًا مجمعًا ثم رجع الى رومية ثم انطلق الى اقاليم ايطاليا ليرد كل شيء الى النظام الكنائسي. ولما عاد الى رومية عقد مجمعًا وفيهِ رذَل بدعة برينغاريوس الناكر حقيقة وجود السيد المسيح في القربان المقدس. وبعد ذلك عقد مجمعًا لرفض ومقاومة بدعة أُخرى. وفي السنة الثانية والخمسين بعد الالف عقد مجمعًا ايضًا من اجل مسالمة ملك النمسا وملك هونغاريا. ثم اتى مدينة مانتوا وعقد هناك مجمعًا. وعقد مجمعًا في رومية ملافاةً لانفصال الروم

فاخذ حينئذٍ النورمانديون يفسدون في بلاد ايطاليا فطلب القديس الى ملك النمسا ان يرسل جيشًا فيخرجهم من تلك المملكة فذهب الجيش غير انهُ انكسر في الحرب. ولما كان القديس مسافرًا امسكهُ النورمانديون وذهبوا بهِ الى اميرهم واقام بين يديهِ نحو سنة وقضى كل ذلك الزمان صائمًا مصليًا لابسًا المسح نائمًا على الواحٍ من خشب متوسدًا حجرًا وكان يقدّس كل يوم ساكبًا الدموع. وهكذا كان يزداد في

العبادة نشاطًا يومًا فيومًا بمقدار ما كان جسدهُ يزداد ضعفًا فاتفق انهُ خرج ذات يوم ليصلي في كنيسة بعيدة كثيرًا عن منزلهِ فوجد رجلاً ابرص شنيع المنظر تفوح منهُ رائحة النتانة عريـانًا الى نصف جسدهِ . فالبسهُ القديس ثوبهُ ثم حملهُ ووضعهُ على فراش مفروش ثم دخل مخدعهُ ليصلي . ولما عاد ليفتقد الابرص لم يقف لهُ على اثر لانهُ كان قد غاب عن النظر

واخر الامر خارت قوة القديس فعرف ان موتهُ قد اقترب فحملوهُ الى رومية ولما انتهى اليها جمع الكرادلة والاساقفة والاكليريكيين وخاطبهم هكذا انهُ قد حضرت ساعة انتقالي ومفارقتي اياكم الى ان يجمعنا الرب في ملكوتهِ حيث ارجو من رحمتهِ عزَّ وجلَّ ان احظى بكم . وقد عرفتم ضرورة الكنيسة والتزامكم بخدمتها فليكن اعتقادكم مستقيمًا وسيرتكم حميدة على الدوام . واحترسوا على نفوسكم وعلى جميع الرعية التي اقامكم فيها الروح القدس لترعوا بيعة الله التي اقتناها السيد المسيح بدمهِ الذكي . وتذكروا ان القدوة الصالحة تجعل تعليمكم موثرًا في نفوسكم . وعقب يوم من تاريخ هذه العظة طلب ان يُحمل الى كنيسة القديس بطرس وصرف هناك النهار كلهُ في الصلاة واذ دخل المساء طلب ان يحملوهُ الى لحدهِ وصلى هناك ايضًا . وفي الغد امر ايضًا بان يحملوهُ ثانيةً الى كنيسة القديس بطرس وهناك تناول القربان المقدس وحينئذٍ طلب ان يتركوهُ ليقدم الشكر لله ويصلي وفيما هو يصلي هكذا سلَّم الروح الى الله في اليوم التاسع عشر من شهر نيسان في السنة الرابعة والخمسين بعد الالف وكان ابن اثنتين وخمسين سنة

اليوم العشرون

وفيهِ ترجمة القديسة اغنس الراهبة

كان مولد هذه القديسة في السنة الرابعة والسبعين بعد المائتين والالف للمسيح بمونتي بولسيانو مدينة بايطاليا وقد كانت منذ زمن طفوليتها مغرمة بمحبة يسوع وامهِ المجيدة غرامًا شديدًا حتى كانت تدعو السيد المسيح سيدها والعذراء المجيدة امها العزيزة . ومن ثم كثيرًا ما كانت تبتهج عندما تُبصر ايقوناتهما المباركة . ولما كانت ابنة خمس سنين طلبت ان تترهب فلم يقبل ابواها وقتئذٍ بحيث كانت ابنةً عزيزةً عليهما . ولكن جرت حادثة عجيبة اضطرتهما الى ان يرتضيا بترهبها وهذه صورة الحادثة . انها مضت ذات يوم مع والدتها وجماعةٍ ليتنزَّهوا على جبل قريب من المدينة وكان يسكن قمة ذلك الجبل نساء زانيات فطارت من منزلهنَّ غربان وهجمت على اغنس وجعلت تضربها بمناقيرها وظهر فيما بعد ان الشياطين هم الذين انحدروا عليها ليهلكوها . لانها كانت عتيدةً ان تصيّر هذا المنزل النجس منزل الطهارة وديرًا لراهباتٍ قديسات . اما هاتيك الفتاة التقية فلما رأت علامات الخوف على وجهَي والديها قالت لهما انما عُوقبت هكذا من اجل انكما منعتماني عن الترهب . فللوقت رضي ابواها بذلك مع انها لم تكن الاَّ ابنة تسعة اعوامٍ

فذهبت اغنس الى احد الاديرة حيث اقامت خمس سنوات ولم تنذر نذور الرهبانية . وكانت في كل تلك المدة قدوةً صالحةً للجميع في الكمال الرهباني لانها كانت من جهة الطاعة كأن لا ارادة لها وكانت مضطلعةً نشيطةً بممارسة جميع الرياضات الرهبانية وكانت تلك المناقب مقرونة بالبشاشة والابتهاج . ولما كانت من ذوات الفطنة الفائقة سلموها تدبير الكرار فقامت على تلك الوظيفة احسن القيام وهي ابنة اربع عشرة سنةً لا اكثر

انهُ في ذلك الزمان أُنشئ دير جديد للراهبات في ايطاليا باقليم اورفيانو . فطلبت الراهبات الحديثات من البابا نيقولاوس الرابع ان يقيم اغنس رئيسة على ديرهنَّ . فاجابهنَّ الحبر الاعظم الى ذلك وامر اغنس ان تنتقل من ديرها وتترأس على ذلك الدير الجديد . ولم تكن اغنس قد نذرت نذور الرهبانية الاَّ قبل ذلك بقليل وكان عمرها وقتئذٍ خمسة عشر عامًا . ووقتما صارت رئيسة ظهر لها وثبت عندها ان الرئاسة تلزمها بان تقدم الجميع في الفضيلة ومن ثم زادت في ممارسة افعالٍ تكسبها الكمال . فكانت تصوم على الخبز والماء وتنام على اديم الارض تفترش التراب وتتوسَّد الحجر ذلك فضلاً عما كانت تفعلهُ مع جميع الراهبات . غير ان الله سبحانهُ لم يتركها بل كان يعزّيها برؤًى سماوية ويملأ نفسها فرحًا لا يصفهُ لسان فصيح ولا قلم بليغ

والحاصل ان اغنس من بعد ما غرست الفضيلة في الدير المشار اليهِ اعادها الله تعالى الى ديرها الاول بمونتي بولسيانو لتأسيس دير آخر في المكان الذي كان الشياطين قد انحدروا منهُ بصورة غربانٍ ليهلكوها . ولما بُني هناك الدير

دخلتهُ اغنس وصيّرتهُ منزل الملئكة . بحيث ان ذلك الدير غدا منارة لطالبي الكمال المسيحي وكانت تلك الرئيسة تعيش هناك كملك في السماء وتراءت لها الملئكة مرّات كثيرة وقد اتفق في بيرامون عيد انتقال العذراء الى السماء حينما كانت اغنس تتأهب مصلّيةً امام ايقونة العذراء لتعيّد ذلك اليوم الشريف ان اضطرم فؤادها بنار محبة العذراء عليها السلام فالتجأت اليها قائلةً . اني اطلب منكِ يا امي العزيزة إما ان تخمدي التهاب قلبي بهذه النار واما ان تقوّي ضعفي لاحتمالها . فظهرت لها ملكة السماء ملتحفةً بنور يبهر النظر وكان على يدها يسوع الطفل فسلمتهُ اليها وتركتهُ بين يديها ساعةً واحدةً . اما رب المجد فوهبها صليبًا صغيرًا اشارةً الى انها بالصليب تكتسب التسليات الروحية وذلك الصليب الى اليوم في هذا الدير

وصنعت القديسة ثمَّ اي في الدير المومأ اليهِ آيات كثيرة ولاجرم ان اعظم تلك العجائب كانت طهارة الروح لانها عند اشد الامراض كانت تمارس كل رياضات الرهبانية كانها على كمال العافية وكانت تظهر في باقي افعالها النشاط والبهجة وابدت في المرض الاخير البهجة والحبور . وبعد ان تناولت القربان المقدس انتقلت الى دار النعيم في اليوم العشرين من شهر نيسان سنة سبع عشرة وثلث مائة والف للمسيح وكان عمرها ثلثًا واربعين سنةً وقد صرفت منها ستة وثلثين عامًا في الرهبانية

اليوم الحادي والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس انسلموس

ان هذا القديس وُلد سنة ثلث وثلثين والف للمسيح باوستا مدينة ببلاد امير سافويا وهو سليل قوم شرفاء واغنياء واسم ابيهِ غوندلفوس واسم امهِ ارمينغادا وكانت امرأة فاضلة ولذلك ربّتهُ على تقوى الله . فسلك سبيل البرّ ايام الحداثة ولكنهُ بعد ان استأثرت رحمة الله بوالدتهِ مال عن طريق البر واطلق العنان للشهوات الرديَّة وهجر الدرس والمطالعة وهام في الضلال . على انهُ لم يتسكّع في الضلال زمانًا طويلاً لان الله تعالى نظر اليهِ بعين الرحمة فسمح بان يبغضهُ والدهُ حتى لم يعد يريد ان يراهُ فتغرَّب انسلموس وذهب الى فرنسا ثم انتشر خبر بان في احد اديرة القديس بناديكتوس الذي باقليم نورماندِيا عالمًا فاضلاً اسمهُ لانفرنكوس فذهب انسلموس الى مدرستهِ وقرأ عليهِ فنبغ في كل ما تعلّم عندهُ لذكائهِ ومواظبتهِ على الدروس وبينما كان ذات يوم يتأمل فرط شوقهِ الى العلم وشدَّة اجتهادهِ في تحصيلهِ وخزهُ ضميرهُ لتوانيهِ في امور التقوى والتعبد واثَّر فيهِ وخز الضمير على ما مرَّ . فعزم على الترهب ولكنهُ عندما بلغهُ ان اباهُ غوندلفوس مات موتًا صالحًا وترك اموالاً وافرةً خطر لهُ انهُ ربما يكون الافضل ان يبقى بين الناس ولا يعتزل في البريَّة ليعتني بحاجات المساكين ويساعدهم باموالهِ . فاستشار في ذلك معلمهُ الفاضل فلم يتجرأ المعلم على ان يحكم بهذا بل ارسلهُ الى اسقف مدينة روان المتنوّر من الله وذاك بعد الفحص الواجب عن الامر اشار على انسلموس بالترهب . فدخل للحال القديس ديرًا كان معلمهُ لانفرانكوس رأسهُ وكان قد بلغ من العمر سبعًا وعشرين سنةً فترهب في السنة الستين والالف للمسيح

ولا يخفى ان امر انسلموس قد بيّن جليًّا مزيد انتفاع الرهبان من خوضهم ميدان الكمال بنشاط لانهُ في زمن قليل اضحى في الدير راهبًا كاملاً . ومن ثم لما أُقيم لانفرانكوس رئيسًا على دير آخر اختير انسلموس رئيسًا عوضهُ مع انهُ لم يكن لهُ في الرهبانية سوى ثلث سنين لا اكثر . فاستحوذ على بعض الرهبان الحسد وكانوا يستصعبون جدًّا الطاعة لمن كان بالنسبة اليهم راهبًا مبتدئًا فقط . الاَّ ان انسلموس استمالهم جميعًا الى حبهِ بوداعتهِ وجميل صبرهِ وسهولة تدبيرهِ ونموذج باقي فضائلهِ وصيَّر ديرهُ دير القديسين . فأخذ حينئذٍ يؤلف كتبًا في اخص فضائل الايمان التي لم يؤلف فيها احد قبلهُ وقد اخذت الكنيسة الجامعة بالاساليب التي اورد بها تلك الامور السامية وعوَّلت عليها الكنيسة الكاثوليكية في مدارس اللاهوت وقد كان القديس في درسهِ هذه الاسرار يعتمد على الصلاة ونقاوة القلب وخلوص النية اكثر مما يعتمد على حذاقة عقلهِ ومزيد بحثهِ . ومن اجل ذلك كان الله سبحانهُ ينوّرهُ بضياء الحكمة التي بدونها لا يفوز بمقصودهِ ولا يبلغ مأربهُ . روى بعض المؤرخين انهُ تأمل في قلايتهِ ذات ليلةٍ كيف ابصرت الانبياء الاشياء الماضية والمستقبلة . ثم التفت الى الحائط واذا بنور الهي ابصر بهِ واضحًا رهبانهُ يعدُّون كل شيءٍ في الكنيسة لصلاة نصف الليل . فعرف من ذلك ان الله بلا صعوبة يُري الانبياء الاشياء البعيدة عنهم . وفوق ذلك كان الله قد آتاهُ موهبة الاطلاع على اسرار الناس ومعرفة افكارهم

وما عوّد نفسهُ عليهِ قلّة الرقاد وكثرة الصوم ولشدة ما كان يلتذ باقامة الصلاة كان لا يشعر بالجوع ولو كان صائمًا من وقتٍ طويل وكانت صلاتهُ تقترن بسجم الدموع بحيث كان يتذكَّر حينئذٍ زلاَّتهِ ومساوئهُ وخطايا الغير ايضًا ويتأمل انهُ بعيد عن الوطن السعيد . وماذا عسى ان اقول عن حكمتهِ في تدبير امور الرهبان وقد كانت نصائحهُ ممزوجة بعسل الخلوص وتوبيخاتهُ مقرونةً باللطف والوداعة فكان تونيبهُ على قلوب الرهبان احلى من الشهد المصفَّى . وكتب الى احد رؤَساء الرهبان وكان ذلك نزق الاخلاق قليل الصبر ما نصهُ . من اين تجد السلام والمحبة في ديرك وانت لا تطعم الرهبان الاَّ الافسنتين ولا تذيقهم الاَّ المرّ . وكان القديس قد ملك بحسن سياستهِ قلوب جميع الرهبان وكانوا يلتجئون اليهِ في كل امر ويكاشفونهُ بما في صدورهم من الاسرار كانهم صبيان صغار . ولذلك هان على الرئيس ان يعالج امراضهم الروحية لانهُ على اتحاد الاعضاء بالرأس وانقياد المرؤوسين للرؤساء يتوقف نجاح الرهبانية وتتوفر شروط الحياة الروحية

وكان لذلك الدير اموال كثيرة في بلد الانكليز فاضطرَّ القديس الى الذهاب الى هناك لتدبير هذه الامور . فوجد ثمَّ معلمهُ العزيز لانفرانكوس لانهُ كان اسقفًا في مدينة كانتوربري وحصل للقديس انسلموس اكرام جزيل من قِبل الانكليز ومن ملكهم غيليلموس المظفَّر ثم عاد الى ديرهِ . وفي غضون ذلك استأثرت رحمة الله بملك الانكليز فجلس على عرش الملك من بعدهِ ابنهُ غيليلموس الثاني . ثم انتقل الى دار النعيم لانفرانكوس مطران المدينة المشار اليها فلم يُرد ذلك الملك ان يقيم لها اسقفًا ابتغاء ان يختلس دخل الاسقفية . ونصحهُ كثيرون حتى البابا فلم ينجع النصح بهِ وما سمع الى احدٍ . فذهب القديس انسلموس الى مملكة الانكليز ثانيةً لكي يُزيل هذا الشك . فخرج الملك للقائهِ وسمع نصائحهُ باحترام ولكن ما نجعت بهِ وما برح مصرًّا على رأيهِ حتى ابتلاهُ الله بمرضٍ عضال . فحينئذٍ اناب الى الله نادمًا وعزم على اصلاح الفساد الذي نشأ على يدهِ فانتخب القديس انسلموس اسقفًا لكانتوربري فابى القديس المذكور فاضطرَّهُ الشعب الى قبول الاسقفية فارتسم اسقفًا في اليوم الرابع من شهر كانون الاوَّل سنة ثلثٍ وتسعين والفٍ للمسيح

اما الملك فاظهر للقديس في اول الامر اكرامًا ومحبةً راجيًا انهُ يقدّم لهُ من دخل الكنيسة اموالاً وافرة واما القديس المذكور فلم يقدم لهُ شيئًا من ذلك . ولما خاب املهُ ورأى انهُ من المستبعد ان ذلك الاسقف يهب مال المساكين اخذ يضطهدهُ علانيةً باختلاس مال الكنائس والاكليريكيين . ولكن القديس لم يقدر ان يمنعهُ فعزم على الخروج من المملكة فطلب اذنًا من الملك ليذهب الى رومية ويطلب تثبيتهُ من البابا اوربانوس الثاني . وفي ذلك الزمان كان غويبرتوس البابا الدخيل الذي كان الملك غيليلموس يحسبهُ البابا الحقيقي فاغتاظ الملك من القديس جدًّا ونهض عليهِ عظماء المملكة حتى الاساقفة ايضًا . فحينئذٍ طلب اذنًا بان يخرج من المملكة فرضي الملك ولكنهُ قال للقديس ان خرجت من مملكتي اعلم انك تكون منفيًّا ولن تعود اليها ما حييت . فخرج القديس وذهب الى رومية وهنالك حصل على اكرام البابا وفاز بالتفاتهِ . ثم طلب منهُ اذنًا للتنزُّل عن الاسقفية وينفرد باحد الاديرة . فلم يأذن لهُ البابا بذلك وانما امرهُ ان يحضر مجمع باري فلما حضر المجمع اورد كلامًا جليًّا في تفنيد آراء الروم واثبت حقيقة انبثاق الروح القدس من الآب والابن فتعجب الجميع من سعة علمهِ ولطف فصاحتهِ فصرخ المحفل كلهُ قائلاً ان الروح القدس هو الذي نطق بفم انسلموس

ثم انطلق باذن البابا الى مدينة ليون واقام فيها مع مطران المدينة مساعدًا لهُ وممارسًا افعال الفضيلة . وفيما كان على تلك الحال اذا برسالةٍ وردت اليهِ فملأَت قلبهُ حزنًا لانها كانت تتضمن ان الملك غيليلموس في اليوم الثامن من شهر آب في المائة الحادية عشرة للمسيح قتلهُ احد اتباعهِ في الصيد . وتقدم رئيس دير سيتو واخبر بما رآهُ في الرؤيا بان الملك غيليلموس قد قُدّم الى منبر عدل الله وقد دِين وقضي عليهِ بالعقاب المؤبد في جهنم . اما ابنهُ انريكوس الاول فكتب الى القديس انسلموس وطلب منهُ ان يرجع الى رعيتهِ فعاد وقبلهُ الملك باكرام . غير انهُ بعد قليل عرف ان البابا اوربانوس الثاني حرم في مجمع روماني كل رجل عالمي يختلس مال الكنائس او يهبهُ لآخر . وعرف ايضًا ان القديس انسلموس كان في ذلك المجمع فاضطرم قلبهُ عند ذلك غضبًا على القديس المشار اليهِ فاخذ كل دَخل الاسقفية ثم امرهُ ان يذهب الى رومية ويطلب من البابا باسكال الثاني الذي كان جالسًا يومئذٍ على عرش الخلافة الرسولية ان يبطل

هذا الحرم . فما اجابهُ القديس الى ذلك والكنما الملك الزمهُ بالذهاب الى رومية مع نوّابهِ

فلما وصل الى رومية ومعهُ نوّاب الملك قبلهُ البابا باكرام جزيل ورفض طلب النوّاب . فاغتاظ انريكوس الملك ومنع القديس انسلموس ان يعود الى كرسيهِ . ومن ثمَّ انطلق الى مدينة ليون ومكث هناك سنةً ونصف سنةٍ . غير ان الله لين قلب الملك فاعترف باثمهِ وانقاد لبيعة الله وردَّ كل الاموال التي كان قد اختلسها من دخل كنيسة كانتوربري وتحوّل بغضهُ للقديس انسلموس محبةً صافيةً . فالذي يجب ان ينظر اليهِ المؤمن هنا شيئّان الاول شجاعة الاساقفة القائمين على حقوق الكنيسة بدون ان يداروا الناس . والثاني تأييد الله سبحانهُ الملوك الذين يحترمون الكنيسة والاكليريكيين . ألا ترى ان الملك انريكوس بعد خضوعهِ للكنيسة انتصر على اخيهِ روبرتوس وخلص من يدهِ بلاد نورمانديا . وبعد ثلث سنين من عود القديس الى مركزهِ دنت ساعة وفاتهِ فطلب ان يموت على الرماد وهو لابس المِسح . وفيما كان يستمع تلاوة آلام سيدنا يسوع المسيح اسلم الى الله روحهُ في اليوم الحادي والعشرين من شهر نيسان في السنة التاسعة بعد الالف والمائة وكان ابن ست وسبعين سنةً

اليوم الثاني والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس ابيبوديوس والقديس اسكندر الشهيدين

انهُ ليس في الدنيا كلها مدينةٌ عدا رومية تشرَّفت بكثرة الشهداء مثل ليون مدينة بفرنسا ومن جملة اولئك الشهداء المعظمين الذين استشهدوا في تلك المدينة القديس ابيبوديوس والقديس اسكندر . اما القديس ابيبوديوس فولد بليون واما القديس اسكندر فولد بالشرق وكلاهما كانا من اصل شريف ومن حداثتهما اعتصما بحبل مودَّةٍ بحيث بعضهما بعضًا على البرّ ولانهما كانا يتجنبان معاشرة الامم كانا يعيشان في المدينة كانهما في الخلوة بحيث كان المسيحيون يندهلون من برارة هذين الشابين

وفي ذلك الزمن أي في زمان الملك انطونينوس وفي ابتداء تملك الملك اوراليوس كان المسيحيون عائشين بسلام الا ان الاضطهاد تجدد واشتدَّ بما حدث في جيش الملك على ان الملك اوراليوس لما رام ان يحارب الذين في بلاد النمسا ودخل جبال اقليم بويميا لم يجد الجيش ماءً ليشرب فكادوا يموتون من شدة العطش وقد كان في هذا الجيش كثيرٌ من النصارى فاجتمعوا للصلاة في وسط المعسكر وسألوا الله بتمانة الاعتقاد ان يرحم جيش الرومانيين فينجيهم من العطش ويمنحهم الظفر باعدائهم . فتعجب الرومانيون من ذلك وازدادوا تعجبًا عند ما رأوا بغتةً ان وجه السماء قد تبرقع بالغمام ونزل مطر غزير ففرحوا وارتووا بمائهِ . ونضت من تلك الغمامة بروق وسُمعت رعود وانقضَّت صواعق فوقع الرعب في قلوب الاعداء وحينئذٍ هجم عليهم الرومانيون . والامر العجيب انهُ في ذلك الوقت لما اشتدَّت الحرب واختلط الرومانيون بالبرابرة كانت تنهزم الرعود ويظهر ان نارًا تنحدر على الجميع لكنها لم تمسَّ سوى البرابرة حتى ان المطر لم يُفدهم شيئًا بل كان يحرقهم كزيت مغلًى مع انهم كانوا مبلَّلين. وقد شاهد الجيش الروماني هذه الاعجوبة ونسبوها الى صلاة المسيحيين واعترفوا علانيةً انهم انما فازوا بالظفر بواسطة صلاة النصارى . ومن ثم لُقِّبت جماعتهم بلاجاؤون المرعب . فهذه الاعجوبة التي بها صار المسيحيون عند الملك معتبرين شاع خبرها في اقاليم المملكة فاضرمت في قلوب الوثنيين ولا سيما الحكام نار البغضاء للنصارى اشد من ذي قبل في مدينة ليون لانهُ لكثرة المسيحيين الذين قتلوا هناك كان الدم يجري كنهر . ومن ثمَّ استمرَّ نهرا تلك المدينة يجريان زمانًا مديدًا ممتزجين بالدم حتى ظن الوثنيون ان اسم المسيحيين باد من ليون بالكلية

اما ابيبوديوس واسكندر فكانا يستعدان للحرب مختليين في منزلهما مواظبين على الصلاة ليلاً ونهارًا . فخرج عبد احدهما واخبر الحاكم بان في المدينة اثنين من المسيحيين فارسل الحاكم وقبض عليهما وكان للوثنيين عند ذلك فرح عظيم . فلما وقفا امام الحاكم سألهما قائلاً ما اسمكما وما مذهبكما . فقالا اننا مسيحيان ثم قال احدهما اما انا فاسمي ابيبوديوس وقال الاخر وانا اسمي اسكندر . فلما سمع الشعب اقرارهما بانهما مسيحيان نهضوا عليهما بصراخٍ عظيم وطلبوا ان يُدفعا لهم لكي يقطعوهما اما الحاكم فقال بغضب شديد ماذا انتفعنا من سفك دماء جماعتكما ولا يزال اسم مسيحكما يُذكر في ليون الى هذا اليوم ثم امر بان يُفرّق بينهما حتى لا يشجّع احدهما الاخر . فاخرجوا

اسكندر من المحفل وبقي ابيبوديوس وحدهُ لكونهِ اصغر من رفيقهِ . فحينئذٍ اخذ الحاكم يخاطبهُ بلطافةٍ ومحبة قائلاً . ما بالك يا ابيبوديوس مع كونك من اشرف اهل المدينة تتبع بدعة احقر الناس انت الان حدث السن مهذَّب الاخلاق حميد المناقب . فلماذا لا تسجد لآلهتنا الذين يعبدهم ملوكنا المفخمون وفلاسفتنا المتنوّرون . فاين تجد ديانة سهلة مبهجة شهية مثل ديانتنا التي تبيح لنا كل ما تميل اليهِ الطبيعة . وكيف فضَّلت عليها الديانة المسيحية التي تمنع التنعُّم والمجد العالمي وكل ما يبتغيهِ القلب البشري طبعًا . وكيف تسجد لاله مصلوب لا يعدك في هذه الدنيا بشيءٍ من خيور الارض بل يطلب منك ان تحب الفقر وتتمتع بالاهانة ويحثك على اماتة شهواتك بالعفَّة والصوم . اقبل مشورتي فتحيا

فاجاب القديس قائلاً اعلم ياسيدي ان الذي تنوَّر بايمان ربي يسوع المسيح يزدري بكل ما تمدحهُ وترغّب فيهِ ويفرُّ هاربًا كارهًا لما تحبهُ . بل ان الذي تعتدُّهُ تنعمًا لا نعدُّهُ الَّا سبيلاً موصلاً الى موت ابدي وان الذي يتبين لك انهُ اماتة في ديانتنا فاننا نعتبرهُ عربون السعادة الخالدة . ناشدتك الله قل لي ايها المولى أَما ان الانسان مركَّب من نفس ناطقة وجسد ترابي لا جرم ان اشرف هذين الجزءين هو النفس ومن ثم يجب على الجسد ان يخضع لها وذلك عين ما في ديانتنا ولكن الجسد في ديانتكم هو الذي يترأس على النفس . فليس في مذهبكم سوى الاشياء الجسدية وما تميل اليهِ شهوات الجسد واما نحن فان السلطة والتدبير عندنا هما في يد الانسان الروحي خلافًا لكم فان السلطة عندكم انما هي في يد الانسان الحيواني . فنحن نحارب الجسد حبًّا بالنفس وحفظًا لها واما انتم بعد التمرُّغ في اللذات الحيوانية فلا تجدون بعد الموت الا عقابًا موبدًا . ثم اقول اخيرًا ان الديانة المسيحية روحية على الاطلاق واما ديانتكم فانها بكل احوالها حيوانية . وهي في الحقيقة ديانة الجسد لا غير

فغضب المغتصب وامر ان يُضرَب الشاب القديس فلطموهُ على وجههِ فخرج الدم من فمهِ وفيما هم يضربونهُ هكذا كان يقول اني اعترف ان سيدنا يسوع المسيح هو اله وانهُ هو ابن الاله الواحد . انهُ لواجب عليَّ ان اموت من اجل الذي خلقني ثمَّ فداني معلقًا بيديهِ ورجليهِ على خشبة العار وممزَّق الجسد بالمسامير . ولأن القديس كان يكابد تلك العقوبات بالصبر الجميل الذي حارت لهُ الالباب صرخ الشعب وطلبوا بالحاح ان يُسلَّم اليهم ليعذبوهُ ثم يقتلوهُ . فخاف الحاكم من ان يضطرب الشعب ويتعصَّبوا فامر بقطع هامة القديس . وقد تم ذلك في اليوم الثاني والعشرين من شهر نيسان سنة سبعٍ وسبعين ومائة للمسيح

وقدم في غد ذلك اليوم القديس اسكندر فقال المغتصب اعلم انهُ لم يبقَ في مدينة ليون من المسيحيين سواك فانتفع من غباوة اولئك الذين سفكوا دماءهم لاجل هذا المذهب الرديء الذي يرفضهُ البرابرة انفسهم . فاجاب اسكندر اني اشكر الله الذي يتوّبني بفمك على سفك دمي من اجل يسوع الهي . لاني كيف لا أُقفّي على آثار صديقي المخلص ابيبوديوس ومثال الوف الوف انتصروا بهذا الايمان على اعذبتكم . فلا تظننَّ انك تستأصل ديانتنا التي لن تقوى عليها ابواب الجحيم ثم اعلم اني مسيحي واشتهي من صميم الفؤاد ان اموت مثل اخي ابيبوديوس شهيد النصرانية . فعلَّقوا القديس وشرعوا يضربونهُ بقساوة وحشية ومزَّقوا جسمهُ من كل ناحية وكان مع ذلك يبارك الله تعالى . ثم امر الحاكم بصلبهِ فاستودع المسيح نفسهُ ومات مصلوبًا

اليوم الثالث والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس جاورجيوس الشهيد

ان هذا القديس من اشراف كبادوكيا ووُلد بها وكان ابواهُ مسيحيين جليلين معتبرين جدًّا لاجل غيرتهما على النصرانية والزمهُ شرف اصلهِ بأن يتبع ديوكليسيانوس الملك في الحروب فرافقهُ وحظي عندهُ لأن هيئتهُ كانت تدل على شجاعتهِ فضلاً عن ان مزاياهُ كانت حميدة فاقامهُ قائدًا ومدبرًا لجيشهِ مع انهُ لم يكن قد بلغ من العمر سوى عشرين سنة لا اكثر وكان هذا القديس يزداد كل يوم عند الملك اعتبارًا وشرفًا بسبب صحة تدبيرهِ وشجاعتهِ في مواقع الحروب

فاشتعلت حينئذٍ نار الاضطهاد الجديد للمسيحيين فجرت دماء الشهداء فاستعد عند ذلك القديس جاورجيوس بممارسة أَعظم الفضائل ولأَنهُ كان من ذوي المشورة عند الملك كان لا بدَّ لهُ من ان يصرّح بدينهِ بعد قليلٍ فباع كل ما ورث من والديهِ حتى امتعة منزلهِ وافخر اثوابهِ ووهب ثمنها للمساكين . فذلك ما قدمهُ لله عزَّ وجلَّ قبل ان قدَّم لهُ نفسهُ . ثم ارسل

الملك ودعاهُ لانعقاد الديوان وطلب المشورة وبعد ان انتظم المحفل قال الملك اني قد قصدت ان استأصل ديانة المسيحيين وذلك بان أقتلهم عن آخرهم فاستصوب الجميع رأي الملك واستحسنوا مقصدهُ على انفاذ ذلك في اقرب وقت فقام حينئذٍ القديس جاورجيوس وطلب اذنًا ليتكلم في شأن المسيحيين فاذن لهُ وطفق يوضح بفصاحة وشجاعة شرف ايمانهم وحسن سيرتهم ولما فرغ من الخطاب رأى الملك ارباب الديوان صامتين ولم يجسر احد ان يردَّ على جاورجيوس فنهض عند ذلك ماغناسيوس وقال للقديس . انهُ ينتج مما قلت امام عزَّة الملك الذي لم تستصوب رايهُ انك قد اخذت ببدعة النصارى فان كان ذلك حقًّا فلنا من ينتقم منك ويجزيك عن نفاقك شرَّ الجزاء . فقال القديس ان النفاق المستحق العذاب هو الذي بهِ يُنسب للخليقة ما يختص بالخالق عزَّ وجل ومن المؤكد انهُ لا يمكن ان يكون سوى الاله الواحد الذي اعبدهُ ويستحيل ان يكون في الكون غير الله وانا مسيحي وبهذا الاسم أظفر وافتخر ومن أجلهِ أُريد ان أسفك دمي . فأوغر ذلك صدر الملك فأمر بتعذيب القديس فعذبوهُ عذابًا اليمًا لم يسمع لهُ بمثيل فانهم علَّقوهُ على دولاب مغروسٍ فيهِ سيوف ومخالب حديد وجعلوا يدبرون جسدهُ فوق تلك السيوف الباترة والمخالب الحادَّة فتقطعت اعضاؤُهُ وتمزَّق لحمهُ وكان يحتمل كل ذلك بالصبر الجميل بل بالسرور . وبعد تعذيبهِ على تلك الصورة ظنوا انهُ قد مات ولكن وجد جسدهُ صحيحًا كأنهُ لم يتعذب ومن اجل هذه الاعجوبة آمن كثيرون من الوثنيين اما الملك ديوكليسيانوس فاشتدَّ غضبهُ واحتدم غيظهُ واستعمل في تعذيب القديس كل ما كان يُستعمل في العقوبات كالنار والحديد والكلس غير ان الشهيد لم يكن يبالي بها لمتانة ايمانهِ وشجاعة جنانهِ

ثم اخذ الملك يكلم القديس بملاطفةٍ قائلاً لهُ اعلم يا بنيَّ اني انا عاملتك هكذا عن اضطرار لا عن اختيار وان قلبي مجروح مما اصابك لانك انت عزيزٌ عندي حقًّا وكريم لديَّ جدًّا انا ارى انك سترتقي الى أسنى مناصب المملكة فدع عنك هذا العناد المهلك وهلمَّ معي الى هيكل الآلهة . فذهب معهُ وتبعهُ جمعٌ غفير من الشعب ولما وقف أمام صنم افولُّو هتف نحوهُ بصوت عالٍ قائلاً أأنت الهٌ لأُقدم لك ذبيحة فاجاب الصنم بصوتٍ مريعٍ لست انا الهًا . ثم سأل باقي اصنام الهيكل ذلك السوال فقالوا لسنا الهة فقال القديس فكيف اذًا يا ايها الملئكة الطالحون المحكوم عليكم بالخلود في نار جهنم تتجرَّأُون ان تقفوا بازاءي انا عبدَ السيد المسيح ابن الله العلي . ثم عمل علامة الصليب المقدس وفي الحال سقطت الاصنام وتهشمت فنسب الوثنيون هذا الفعل لقوة الشيطان وطلبوا من الملك ان ينتقم بعدو آلهتهم . فحالاً امر الملك فقُطع رأس القديس المشار اليهِ فمات شهيدًا . وكان ذلك في اليوم الثالث والعشرين من شهر نيسان سنة ثلث وثلاثمائة للمسيح

اليوم الرابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس سابا الجندي الشهيد

اننا لا نقدر ان نكتب عنهُ ما يكون جديرًا بالثقة وخليقًا بالاعتماد الاَّ انهُ كان قائدًا في الجيوش الرومانية وانهُ استُشهد في رومية المكرَّمة عينها على عهد اوريليانوس قيصر سنة اثنتين وسبعين من المائة الثالثة للمسيح

انهُ شُكي على القديس المذكور الى ارباب الديوان الملكي في رومية بانهُ كان يزور بنفسهِ المحابيس المسيحيين ويعزيهم ويشجعهم . فقُبض عليهِ وأُحضر امام اعضاء ذلك الديوان فسألهُ رئيس المجلس ما دينك قال النصرانية ولم يهب احدًا فحكم عليهِ بان يُشوى على سفُّودٍ كبير (هو آلةٌ من حديد يشوى عليها اللحم تُعرَف في ايامنا بالمصبَّع) فوق نارٍ متقدة . فاحتمل ذلك العذاب الغليظ بكل تجلُّد ولم يمت ثم وُضع في مرجلٍ كبيرٍ مملوءٍ زفتًا مغلًّى فلم يمسهُ من ذلك ضررٌ . قلت ولما راى عبدة الاوثان ان تلك الاشياء قد تجرَّدت عن قوتها آمن بالمسيح منهم سبعون رجلاً واعترفوا على اعين الجميع بانهم آمنوا بالمسيح . فرئيس الديوان المذكور امر بان يسقوهم كؤُوس العذاب ففعلوا . ولكن اولئك المتنصّرين لم يبرحوا يقرُّون بالنصرانية بلا خوفٍ ولا هلعٍ وعند ذلك حكم عليهم جميعًا بان تزهق ارواحهم بقطع الرأس فقُطعت هاماتهم وفازوا باكاليل المجد الذي لا ينتهي . واما القديس سابا الجاهد في سبيل الله فقد طرحوهُ في نهرٍ فائض فاختنق . وهكذا لحق باولئك السبعين شهيدًا متطايرًا الى السماء لينال الجزاء بالاشتراك في سعادة دار النعيم الى الابد

وفيهِ ايضاً ترجمة القديسة اليصابات الشرقية

انهُ لم ينتهِ الينا علم وطن القديسة المذكورة ولا خبر مولدها غير ان ذلك كما لا يخفى لا ينقص شيئًا من استحقاقاتها فكيف لا وان الكنيسة الجامعة تكرّمها شرقًا وغربًا بالعبادة وتلقبها بالعجيبة وذكرها منتشر في الآفاق كلها كرائحة الخزامى وذلك لكثرة الآيات التي جرت على يدها ولفضائلها السامية وسيرها الحسن في طريق الكمال المسيحي . ولا جرم انها أُولعت بالفضائل منذ نعومة اظفارها فلم تكن تتغافل عن ممارسة كل شيء تتأصّل بهِ العبادة الحقيقية لله . ومن ثمَّ كانت تنمو بالنعمة كل يوم وتتحلى بالفضائل الباهرة كالعذراء التي تتزيّن بحلاها فمن فضائلها محبة الفقراء وكان لها عناية شديدة بهم حتى انها كانت تذهب الى بيوت الارامل واليتامى والمقلّين وتقدّم لهم بنفسها القوت الذي تقتضيهِ كثرة الصوم . فانها كانت تطوي الصوم الاربعيني كلهُ نظير موسى الكليم وايليا النبي لا تتناول طعامًا . وكان طعامها خبزًا او بقولاً مسلوقةً ولباسها ثوبًا رثًا كقميص طويل تتغطى بهِ زمن الصيف والشتاء وقلبها كان على الدوام ملتهبًا بنار محبة الروح القدس وما غسلت جسدها ولا استحمت طول عمرها

ولما كانت من التقوى والتقشف وحسن المزايا على ما رأيت تكرّم الله عليها وشرّفها بفعل المعجزات فكانت تشفي الامراض المزمنة وكل داءٍ عضال . ولذلك كان المرضى وذوو العاهات يزدحمون ببابها ومن ثمَّ لُقبت بالعجيبة وماذا عسى ان اقول عن تاملاتها المتواصلة في قواعد الدين فانها بقيت مرةً ثلثة اعوام ساهيةً غائصةً بحر التأمل في اشياء سموية وفي الله نفسهِ . ومن الغريب انها في كل تلك المدة لم ترفع الحاظها الى السماءِ بل كانت مطرقةً برأسها نحو الارض وعلى هذا النمط كانت تعيش حتى انتقلت الى دار النعيم حيث تشفع في من يكرّمونها وتتمتّع بالله عزَّ وجلَّ

اليوم الخامس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس مرقس الانجيلي

ان هذا القديس وُلد يهوديًا باقليم كان يُدعى الخمس المدن وقد ذهب بيدا المكرَّم الى انهُ كان لاويًا . ثم انهُ ربما رأى سيدنا يسوع المسيح ولكنما جمهور العلماء ذهبوا الى انهُ لم يكن من السبعين تلميذًا غير انهُ كان ممن آمنوا على يد بطرس الرسول بعد حلول الروح القدس في صدر النصرانية . ومن ثمَّ يدعوهُ الرسول في رسالتهِ الاولى ابنهُ لانهُ تنصَّر على يدهِ كما مرَّ . وكان ترجمانهُ ورفيقهُ في اسفارهِ وسافر معهُ الى رومية المكرَّمة واشترك معهُ في اتعابهِ الرسولية . ولما قامت الكنيسة في رومية وفاحت رائحة الطهارة عنها في كل اقطار الدنيا ودعت الضرورة الرسول الى ان يخرج من رومية ويبقى مدةً بعيدًا عنها امر تلميذهُ العزيز بخدمة هذه الكنيسة وحينئذٍ طلب المؤمنون من القديس مرقس ان يكتب لهم خبر الانجيل المقدس لكي يتعزَّوا بتلاوتهِ ويدوم ذكرهُ الى الابد . فحرَّر لهم الانجيل المقدس حسبما كان تعلم من القديس بطرس ولهذا قال اوسابيوس ان هذا الانجيلي لم يذكر ما قالهُ السيد المسيح في مدح بطرس الرسول بعد ان اعترف بالوهيتهِ تعالى واغفل ايضًا ذكر الآية التي صنعها عزَّ وجل من اجل بطرس حينما مشى على وجه البحر . وبخلاف ذلك يسهب الكلام في زلَّات هذا الرسول كنكرانهِ السيد المسيح وذلك لان الرسول كان قد اخبرهُ عن هذه لا عن تلك . فلما عاد القديس بطرس الى رومية قرأ انجيل تلميذهِ واثبتهُ

وعندما برز امر الملك كلاوديوس باخراج جميع اليهود من رومية سنة تسع واربعين للمسيح ارسل القديس بطرس تلميذهُ الحبيب الى مصر ونواحيها ليبشر بالانجيل المقدس . فذهب ووصل الى اقليم الخمس المدن المسماة كيرينة وبعجائبهِ وقدوتهِ الصالحة استنار هناك كثيرون بالايمان المسيحي . ثم طاف باقاليم ليبيا وغرس فيها النصرانية وصرف هنالك اثنتي عشرة سنةً . ثم دخل بلاد مصر والصعيد وقد بارك الله على غيرته على نوعٍ عجيب لان الارض التي كان ظلام الكفر والرذيلة مسدولاً عليها استحالت بتبشير القديس مرقس الانجيلي الى فردوس سماوي تضيء فيهِ شمس العدل . لانهُ علا ما ذكرناهُ مرَّات كثيرة عن سياج الصعيد فقد اخبرنا المؤرخون المسيحيون وفيليون اليهودي ايضًا ان هذا الرسول وتلاميذهُ المسيحيين كانوا زاهدين في الدنيا لا يكترثون بشيءٍ من حطامها وانما كانوا يهتمون بالله فقط . ومن ثمَّ كانوا جميعهم متحدين بمحبة صافية وفائزين بسلام الارواح السماوية ولم يكن فيما بينهم فقيرٌ ولا غني لان الاغنياء منهم كانوا قد اعطوا اموالهم للفقراء لكي يفتكر كل واحد فيما يجعل الانسان غنيًا بالله . ولم يكونوا يتناولون ماكلاً سوى مرة واحدة كل يوم

وذلك بعد غروب الشمس وبعضهم كانوا يصومون ثلثة ايام او خمسة من دون ان ياكلوا شيئًا. وكان ما كلهم الخبز ومشربهم الماء لاغير. وذلك كان للرجال والنساء على حدٍّ سوى

وقد ذُكر انهُ لما وصل القديس مرقس الى مدينة الاسكندرية دخل بيت اسكاف اسمهُ انيانوس ثم قدّم لهُ حذاءً ليصلحهُ وفيما كان الاسكاف الوثني يصلحهُ دخل المخرز في يدهِ فصرخ من شدة الألم قائلاً يا الهي فجعل القديس مرقس كلام الاسكاف المشار اليهِ سببًا لان يبشرهُ بذاك الاله الحقيقي الذي دعاهُ الههُ مع كونهِ لم يعرفهُ . ثم وضع على جرحهِ قليلاً من الطين وعمل فوقهُ علامة الصليب المقدس فشفي حالاً فتعجب انيانوس وطلب من القديس ان يتناول الطعام عندهُ فقبل طلبتهُ وحينئذٍ بشّرهُ بالانجيل الالهي فآمن انيانوس واهل بيتهِ واعتمدوا وهذا هو الاسكاف الذي اقامهُ القديس مرقس اسقفًا على الاسكندرية

وبعد ان كثر المؤمنون هناك نهض على مرقس الوثنيون ولانهُ رأى مونةً قد اقترب اخذ يرتب كل شيءٍ في الاسكندرية ثم افتقد مؤمني الخمس المدن وبعد ان رتّب هناك ايضًا الامور الكنائسية عاد راجعًا الى الاسكندرية . ثم اتفق يومًا حينما كان الوثنيون يُعيدون عيد سرابيس احد آلهتهم ان الشعب تعصب على القديس وطلبوا قتلهُ فوجدوهُ في محل القداس مقدمًا الذبيحة الالهية فوثبوا عليهِ ووضعوا في عنقهِ حبلاً وما زالوا يجرونهُ في ازقة المدينة وهو على تلك الحال حتى المساء وحينئذٍ القوهُ في السجن فظهر لهُ سيدنا يسوع المسيح ووعدهُ بان يكللهُ بعد زمن قليل بالمجد الابدي . فلما طلع الفجر اخرجوا القديس من السجن وفعلوا بهِ كما فعلوا بهِ من ذي قبل ولم يكفوا عن صنيعهم هذا حتى مات وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر نيسان سنة ثماني وستين للمسيح

اليوم السادس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة زيتا

وُلدت القديسة المشار اليها بقرية قريبة من مدينة لوك التي بايطاليا واسم ابيها لومباردوس واسم امها صالحة . وكلاهما كانا فقيرين وبحيث كانا يتقيان الله تعالى اهتما بأن يُغنيا ابنتهما بكنز التقوى والفضيلة وقد وجداها مستعدة لذلك لانها حينما بلغت سنّ التمييز وعرفت الله احبتهُ تعالى من كل قلبها ولم يعد يمكنها ان تحب غيرهُ ولما كانت والدتها تريد ان تمنعها عن امرٍ كانت تكتفي بان تقول لها ان الله سبحانهُ لا يسرُّ بهذا او انهُ عزَّ وجل قد نهى عن ذلك. ومنذ صباها كانت تحب اربعة اشياء الاحتشام والصمت والصلاة والعمل

فلما ادركت من العمر اثنتي عشرة سنةً أخذتها أمها الى مدينة لوك ووضعتها خادمةً في بيتٍ ما فأخذت زيتا تعتني باحسان الخدمة واحكام العمل لانها كانت تعلم يقينًا ان عبادة الأمة يحسنها الاعتناء بخدمة مولاها وقضاء المفروض عليها فلذا كانت تنهض باكرًا وتصلي في الزمان الذي ينام فيهِ الاتباع والخدم وتسمع القداس قبل ان يأتي وقت الخدمة في المنزل ومع انها كانت تحب الاختلاء والاعتزال عن الناس والمواظبة على الرياضات الروحية وتباشر كل امور الخدمة الدنيوية كانها لا تهتم الآ بها ولا تشتهي سواها غير انها كانت بين الاشغال الزمنية تتأمل في الله سبحانهُ . واضطهد هذه الابنة المباركة اهل ذلك المنزل بضع سنين مع انها كانت خبيرة بكل عمل ونشيطة وطائعة ومتضعة لكنهم لسلوكها المنزّه عن كل كذبٍ وحيلةٍ حسبوها بجهل بهيمة عديمة العقل النطقي ونسبوا مزيد نشاطها في تتميم خدمة البيت الى سبب حسدٍ وكبرياء خفيين. ثم ان خدمتها لم تكن ترضي مولاتها فضلاً عن ان كلام باقي خدام المنزل في حقها كان يربي في قلب مولاتها اشمئزاز الحقد عليها بحيث كلما تلف او نقص شيءٌ في البيت نسبوهُ اليها واظهروا لها علامات الغضب ولانها كانت تحتمل هذا كلهُ صامتة صابرة كانوا يهزأون بها وبعبادتها . اما تلك الأمة المباركة فكانت تشرب كاس الاهانة حبًّا بالسيد المسيح ولم يكن يخرج من فمها كلمة شكوى ولا تذمر اصلاً حتى انهُ لم يظهر في وجهها أدنى اثر يدلُّ على الحزن او الضجر بل استمرت كل تلك المدة على حال الهدو والوداعة تمارس الخدمة برغبة مقدّسة

على ان اهل المنزل علموا آخر الامر سمو فضائل هذه الأمة التقية ومن ثم طفق رب البيت وامرأتهُ وكل الخدام يتعجبون من طهارتها ويمدحونها الاَّ انها استصعبت تغيير قلوب هولاء من جهتها ومدح الناس اياها اشد من استصعابها تجربتها الأولى . وقد حسبت هذا التغيير انتقامًا من الله تعالى اقتصَّ بهِ منها عقابًا عن توانيها في العبادة وآخذها من اجل

ذلك أسفٌ شديد حتى ان معلمتها كثيرًا ما كانت تلومها متعمدة وتغضب عليها لتزيل عن خادمتها حزنها وتريح نفسها . ومن ذلك الوقت سلموا لها كل نفقة المنزل وتدبيرهِ وكان الجميع يندهلون من جزيل احتراسها على مال البيت وكان يظهر احيانًا ان تدقيقها في ذلك مفرط . وهذه الخادمة القديسة التي هي قدوة كل الخادمات المسيحيات كانت قد نادت بالحرب الدائم على البطالة لكونها في مدة الخمسين سنة التي خدمت فيها ذلك البيت لم يشاهدها احد فارغةً من العمل . ولا بدَّ ان نذكر هنا ما كانت تقولهُ مرارًا ونصهُ ان اخص فضائل الخادمة المسيحية انما هو مخافة الله والامانة والتواضع وحب العمل . وباطلة كل عبادةٍ للخدَم ان لم تكن مقرونة بمحبة الخدمة

ولما كانت زيتا المذكورة قد احبَّت منذ طفوليتها ملكة العذارى أحبت الطهارة ايضًا حبًّا شديدًا حتى انها صرفت ما صرفت من الاعوام في مباشرة خدمة البيوت ولم تنظر وجه رجل البتة وكانت في لبسها دائمًا على اتم الاحتشام . ومن ذا الذي يصف نفورها من الالفاظ القبيحة واوشك ان يُغشى عليها من شدة ألم قلبها النقي عندما تجرَّأ أحد الخدام وكلمها كلامًا قبيحًا على عادة الجهال الحمقى كما لا يخفى على احدٍ ولو لم يطرد رب المنزل ذلك الخادم النجس من منزلهِ حالاً كانت قد خرجت من البيت حالاً . ولأن هذه الفضيلة تشبه الزنبقة التي في وسط الاشواك كما قيل في الكتاب المقدس لذلك كانت القديسة زيتا تمارس اصعب التقشفات وقد كانت تصوم ايام السنة كلها واكثرها على الخبز والماء فقط . ولم تكن تمشي الاّ حافيةً . حتى في عزّ الشتاء وكانت ترقد إما على أديم الارض واما على الواح خشب فهذا ما كان يظهر للناس ما خلا التقشفات التي كانت تمارسها سرًّا لأنهُ بعد وفاتها وُجد على جسدها حبل كان قد ولج جسمها . ولا جرم ان مثل ذلك التقشف يؤلم مثل تلك الفتاة المواظبة على الاعمال الخدميَّة إيلامًا شديدًا ومع انها كانت تصرف النهار في اعمال البيت مع ذلك لم تنقطع عن الصلاة ولم يكن الشغل يلهيها عن التأمل في الحق سبحانهُ فكيف لا وان قلبها كان ملتهبًا على الدوام بنار محبة الله عزَّ وجل ومن ثمَّ كثيرًا ما كانت تنطق بهذه الالفاظ الغرامية أُحبك يا عروسي الالهي أُحبك من كل قلبي . وكان لها في البيت موضع منفرد كقلاية

صغيرة وهناك كانت احيانًا تصرف الليل كلهُ في الصلاة . وقد شهد اهل ذلك المنزل أنهم رأوا مرَّات كثيرة قلاَّيتها مضيئة بنورٍ باهرٍ . ثم اتفق مرةً انها أطالت صلاتها فلهت عن عمل العجين ولما أفاقت أسرعت حالاً لتصلح ذاتها . ولكن الله سبحانهُ كان قد اهتم بعملها لانها وجدت الطحين معجونًا مهيأً لان يُوضع في التنور . وصنع الله معجزاتٍ أُخر كثيرة لاظهار برارة أمتهِ . ومع هذا كلهِ كانت تلك الأَمة المتضعة تحتقر نفسها وتتعجب من ان الناس لا يحتقرونها وان الله سبحانهُ يحتملها على الارض وكان محققًا عند الجمهور ان من يحتقرها يكون عندها محبوبًا مكرمًا كمن أحسن اليها احسانًا عظيمًا . ولم تقتصر على ذلك بل كانت تجعل نفسها خادمةً لبقية الجواري والخدَم وكانت تطيع جميعهم حتى كأنهم ساداتها . ومن آثارها الحميدة التي يتزين بذكرها الكلام انها كانت لا تلوم الناس بل تعتني جدًّا بان تبرئهم وتقدّر لافعالهم مطلقًا غايات حسنة ومن ثمَّ جعل قوم يتهمون بعض ابرياء بما لا صحة لهُ ابتغاء أن يروا زيتا تجتهد في تبرئتهم . وما من احد سمعها تتكلم في حق امرىءٍ اصلاً وكانت تجد افعال القريب كلها حسنة ولم تحسب احدًا ذا نقص سواها . وكانت تنتصر بوداعتها على اشرس الناس طبعًا وانزقهم خلقًا ولما كان رب البيت يتلهب غيظًا ويحتدم غضبًا كانت هاتيك الأَمة الوديعة تارةً تطفي غيظهُ بعذوبة كلامها وتارةً تجثو على قدميهِ لتشفع في الغير

ذلك وان اسنى فضيلة اشتهرت بها القديسة زيتا هي الرفق بالمساكين والمرضى والحزانى ولما كان سيدها يعلم ان رزقهُ يكثر كل يوم بين ايديها كان أذن لها ان تصطنع من مالهِ الى الفقراء بجودٍ وسخاء ففعلت زيتا المذكورة بمقتضى إذنهِ ولكن كان جودها بحكمةٍ وادراكٍ . وكان الله تعالى يسعى معها في ذلك بالعجائب لانها في زمان الغلاء فرَّقت على المحتاجين كل ما كان في منزل سيدها من الحنطة ولكن وجدت الحنطة في الاهراء اكثر مما كانت قد اعطتهُ ومرةً أُخرى طلب منها احد الفقراء قليل خمرٍ وما كان عندها وقتئذٍ فملأَت الاناء ماءً فتحوَّل خمرًا . ونظرًا الى ما يخصها من الدراهم والامتعة والاثواب فكانت تتصدق بجميعهِ على المساكين ولم يكن لها من الثياب الاَّ ما تلبسهُ كل يوم . واتفق يومًا ان سيدها اعارها فروةً لتلبسها ليلة عيد الميلاد لاجل شدة البرد فلبستها ومضت لتحضر القداس نصف الليل فعاينت على باب الكنيسة فقيرًا

عريانًا يرتجف مرتعدًا من البرد فدفعت لهُ الفروة ولما عادت الى البيت تقدَّم الفقير وهو على الباب وقدم لها الفروة وغاب حالاً عن النظر. وقد كانت هذه الابنة ترغب من كل قلبها في خلاص النفوس وتصلي كل يوم من اجل الذين لا يهتمون بذلك

ولما اصابها داء المنون طلبت القربان المقدس وتناولتهُ بأتمّ الخشوع وان كان المرض لم يظهر انهُ خطر . وبعد خمسة ايام لمرضها رقدت بسلام وكان ذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر نيسان سنة اثنتين وسبعين ومائتين والف وكانت قد بلغت من العمر ستين سنةً وفي ذلك اليوم نفسهِ اظهر الله تعالى برارة هذه البتول بحيث اضاء ساعة موتها نورٌ من السماء في المنزل الذي ماتت فيهِ وطفق الاطفال يهتفون في الشوارع ان القديسة زيتا ماتت. ولم يزل الله تعالى يشرّف ضريحها بالعجائب وفي السنة الثمانين بعد الالف والخمس مائة فتحوا قبرها فوجدوا جسدها صحيحًا كما كان يوم وفاتها

اليوم السابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة تاودورا الشهيدة
والقديس ديديموس الشهيد

قال القديس امبروسيوس كاتب هذه الترجمة ان القديسة تاودورا وُلدت بالاسكندرية على انتهاء القرن الثالث وكان ابواها مسيحيين من عظماء البلاد ولم يكن لها في المدينة نظير من حيث النسب وخصوصًا من حيث الجمال البارع . وكان كثيرون من الاشراف يرسلون يخطبونها اما هي فكانت قد نذرت عفتها لله تعالى ومن ثمَّ لم تكن تخرج من بيتها الاَّ لكي تزور الكنيسة وتسمع الوعظ وتتناول القربان المقدس . وكانت تصرف باقي الوقت معتزلةً في منزلها مواظبة على الصلاة وقراءة الكتب الروحية وعمل اليد . وحينما نادى والي مدينة الاسكندرية بامر الملكين ديوكليسيانوس ومكسيميانوس على المسيحيين كانت تاودورا قد بلغت السنة السابعة عشرة من عمرها فشُكي عليها حينئذٍ بانها مسيحية وأُخذت الى الوالي . ولما مثلت بين يديهِ انذهل الحاضرون من بهاء جمالها المقترن بالادب واللطف وتوجَّع لها بروكولوس الوالي . ولما تحقق بشهادة البتول نفسها والحاضرين انها مسيحية شريفة النسب قال لها لماذا لا تتزوَّجين يا ربَّة الجمال البارع وصاحبة النسب الشريف . فقالت الفتاة اني نذرت عفتي لسيدنا يسوع المسيح الذي مع كونهِ الهًا صار انسانًا وافتدانا بموتهِ المقدس ووعدنا بحياة ابدية ان ثبتنا في ايماننا واقمنا على البر

فقال لها الوالي ألاَّ تعلمين ان الملوك امروا بان كل العذارى المسيحيات اللواتي لا يرجعنَ عن النصرانية يُطرحنَ في بيوت الريبة فيخسرنَ زنبق البتولية . قالت تاودورا اني اعلم ايضًا ان الله تعالى يهتم بالذين يخلصون لهُ العبادة بقلب نقي ويبعد عنهم كل ضرٍ ويقيهم التلطخ بالدنس ايَّان كانوا. فازداد بروكولوس تعجبًا واطال الكلام معها في المعنى المتقدم ذكرهُ . فقالت البتول انك تتكلم باطلاً لاني لا ارجع عن عزمي ولو قطعتني عُضوًا عُضوًا فاني لواثقة بان السيد المسيح الذي من اجلهِ اقدّم نفسي للموت يحفظني ثابتةً في الايمان والعفة . فقال لها الحاكم اني احزن على جهلكِ وعنادكِ ومن ثمَّ امهّل عليكِ ثلثة ايام لعلكِ تعقلين وتتوبين . فقالت الفتاة سيدي افترض ان تلك الثلثة الايام قد انقضت فافعل بي الان ما تشتهي والاَّ فلا اطلب منك الاَّ ان تجعل زنبق طهارتي في الامان . فامر الوالي ان تُحفظ في مكان امين

ففي هذه الثلثة الايام شاع خبر شجاعة تاودورا في مدينة الاسكندرية كلها . وكان الوثنيون يمدحونها جدًا اما هي فكانت تستعد للموت . وبعد الثلثة الايام قُدمت الى الوالي. ولما رآها ثابتة على عزمها امر بان تقاد الى بيت الريبة لتُفتضَّ اما البتول فلم تضطرب من ذلك واذ دخلت ذلك المكان ارسل الله شابًا مسيحيًا يقال لهُ ديديموس اخترع بالهام الله واسطةً لحفظ طهارة البتول فلبس اثواب جندي وتقلّد سيفًا ومشى مسرعًا ينظر نظرة الوقح ليدخل على الابنة فاعطى الحرَّاس مبلغًا من الدراهم ودخل حيث كانت تاودورا فلما رأتهُ استحوذ عليها رعبٌ مقدس اما ديديموس الشاب النقي فقال لها لا تخافي لاني اتيتكِ اخًا أُحافظ على طهارتكِ فافعلي ما اشير بهِ عليكِ وهو ان نبدل اثوابنا فانا البس ثوبكِ وانتِ البسي ثوبي واخرجي متنكرةً بهيئة جندي وبهذه الوسيلة تنقذين بتوليتكِ من ايدي الكفار . فارتضت البتول بالمشورة ثم تردَّت بثوب ديديموس وتقلدت سيفهُ وغطَّت وجهها بالرداء كالذي يستحي من ان يعرف الناس عند خروجهِ من مكان ردي وخرجت ذاهبةً وتركت ديديموس

في مكانها

وعقيب قليلٍ اطلع الحراس على حيلتهِ فقدموهُ الى الحاكم بثوب تاودورا فسألهُ المغتصب قائلاً من أرسلك لتخالف بخباثتك امر سلطاني فاجاب ديديموس ان الاله الذي اعبدهُ هو الذي ارسلني لاصنع ما صنعت. قال لهُ الحاكم ان كنت لاتخبرنا اين تاودورا فتموت موتًا. قال ديديموس لست اعرف ذلك وانما اعلم انها خرجت من ماخور البغاء نقية طاهرة الذيل فسألهُ بروكولوس ما اسمك وما مذهبك فاجاب الشاب اسمي ديديموس ومذهبي مذهب النصارى وكنت مقيّدًا بسلاسل الآثام فحلني السيد المسيح واطلقني بنعمتهِ. فامرهُ المغتصب ان يسجد لآلهة الاصنام ولانهُ رآهُ ثابتًا في الايمان حكم عليهِ بان يقطع راسهُ ويُلقى جسدهُ في النار ليعود كلهُ رمادًا فاستاقوهُ للوقت الى المنزل ليقتل. قال القديس امبروسيوس واذ عرفت تاودورا بما كان خرجت حالاً من المكان الذي كانت مختلية فيهِ ومضت مسرعةً ولما أدركت الشهيد القديس قالت لهُ ماذا يا اخي أهكذا تختلس اكليلي. فقال القديس اذكري يا أختي احساني اليكِ ولا تكافيهِ بعدم المعروف ان الذي فعلتهُ من اجلكِ لم اقصد بهِ الاَّ سعادة هذا الموت وحُكم بهِ عليَّ لا عليكِ. اما تاودورا فقالت لهُ لا يا اخي لا يكن هكذا لانهُ لم يُحكم عليك بالموت الاَّ من اجلي ولما رضيت بانك تنقذ بكوريتي لم ارضَ بانك تختلس مني اكليل الاستشهاد فدعني اقل ما يكون ان أتقدمك في الموت. وكان الحاضرون جميعهم منذهلين من هذا المشهد العجيب بل كان الاكثرون يذرفون الدموع باكين حتى تعجب الوالي ايضًا ورثى لهما ولكنهُ لم يجسر ان يطلقهما خوفًا من القياصرة فامر بقطع رأسيهما وهكذا توفيا كلاهما اما احدهما ففي حب العفاف واما الآخر فمحافظة عليهِ. فلله درّ تاودورا عفيفةً أحبت البكورية من اجل المسيح اكثر من الحياة. وكان استشهادهما سنة اربع وثلاثمائة للمسيح

اليوم الثامن والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس فيتال الشهيد والقديسة فالاريا قرينتهِ

ان القديس المذكور وُلد بميلان مدينة بايطاليا وكان ابواهُ نصرانيين. روى بعض المؤرخين انهُ كان أبًا للقديس جرفاسيوس وبروتاسيوس الشهيدين وكان قد نال في جيش الملوك منصبًا شريفًا وفي ذلك الزمن اتحد مع الوالي بولينوس بحبل المودة الصافية فهذا القديس مع انهُ كان مسيحيًا لم ينتهز فرصةً يظهر فيها ايمانهُ غير انهُ كان يسعف المسيحيين سرًّا ويعزيهم ويشجعهم ويعطي للوثنيين بحسن سلوكهِ قدوةً صالحة. فطلب منهُ ذات يومٍ صديقهُ بولينوس ان يذهب معهُ الى مدينة رافنّا وكان حينئذٍ قد اشتد الاضطهاد على المسيحيين فذهب القديس معهُ فعند دخولهِ أُخبر ان طبيبًا مسيحيًا اسمهُ اورسيسينوس قُدّم للوالي وانهُ لما نظر آلات العذاب جزع وهلع قلبهُ وتزعزع ايمانهُ. فقال القديس فيتال في نفسهِ قد حان الوقت الذي ينبغي لي ان اظهر كوني مسيحيًا واني ملتزم بمساعدة اخي لئلا يرتد والعياذ بالله عن النصرانية فيهلك. فترك الوالي وذهب مسرعًا الى المحكمة فوجد اورسيسينوس بين جمٍّ غفيرٍ من عبدة الاوثان يحثونهُ على حفظ حياتهِ بالرجوع عن دينهِ وكان قد اوشك ان ينغلب فلما رأى ذلك القديس فيتال دخل في الوسط وهتف بالطبيب وقال لهُ تشدَّد يا اخي وتشجع متقويًا واقتدِ بسيدنا يسوع المسيح فاقبل الموت إكرامًا لمن جاد بنفسهِ حبًّا بك فها انهُ تعالى ينظر اليك من السماء ويعدُ لك اكليل المجد الابدي. فايَّاك ان الخوف من عذاب زمني يُلقيك في أتون النار المؤبدة. فهذه كلها اثرت في اورسيسينوس فاعترف حالاً بسيدنا يسوع المسيح ثم نال اكليل الشهادة وبعد ذلك دفنهُ القديس فيتال ومضى ليتأهب للاستشهاد فذهب قوم وأخبروا بولينوس بما صنع فيتال صديقهُ

فجاء اليهِ الوثني بالخفاء وقال لهُ ما هذا الامر الذي فعلتهُ. ان هذا الشيء لا يفعلهُ الاَّ مسيحي وماذا ظن الشعب بك اليوم وماذا يكون ظن الملك حينما يبلغهُ ذلك. فقال القديس لابدَّ ان الشعب والملك يظنون اني نصراني حقًّا وانا لا انكر ذلك بل اني افتخر ثم شرع يذكر لهُ نفاق عبادة الذين يعتقدون بوجود آلهة كثيرة وبرهن لهُ حقيقة الديانة المسيحية. فتحيَّر بولينوس لانهُ كان يحب فيتال جدًّا واضطرب عقلهُ وحار في أمرهِ ولكنهُ خاف ان يغيظ الملك فيخسر ما لهُ من الحظوة والكرامة عندهُ اذا ترك فيتال هكذا فمن ثم القاهُ في سجنٍ حيث كان مسيحيون كثيرون موثقين لاجل الايمان فدخل القديس السجن ببهجة سرَّ بها جميع المؤمنين. ثم أُخرج قدام الوالي بولينوس وبامرهِ ربطوا يديهِ ورجليهِ وخلعوا عظامهُ

بالضربات ثم مزّقوا لحمهُ بمخالب حديدية بقساوة وحشية ولأنّ القديس كان يزداد شجاعةً كلما اشتدّ العذاب أمر اعوانهُ بان يقيموا مذبحًا في المكان الذي قُتل فيهِ القديس اورسيسينوس وان يدفنوا هناك القديس فيتال وهو حي ان كان يأبى ان يقدم ذبيحةً للآلهة الباطلة. فالقوهُ في حفرة عميقة ورموهُ بالحجارة والتراب وانتقل الى رحمة الله في اليوم الثامن والعشرين من شهر نيسان سنة احدى وسبعين ومائة للمسيح على ما قال بارونيوس المؤرخ. وحين وفاة القديس دخل الشيطان كاهنًا وثنيًّا كان قد حرَّك بولينوس كثيرًا واغراهُ بقتل القديس وكان يصرخ ليلاً ونهارًا هاتفًا ما اشد العذاب الذي يعذبني بهِ فيتال لاني احترق حيًّا وفي اليوم السابع من عذابهِ لعجزهِ عن احتمال النار الملتهبة فيهِ انطرح في نهرٍ فغرق

ثم اعلم ان الكنيسة تذكر في هذا اليوم وفاة القديسة فالاريا قرينة القديس فيتال لانها عند رجوعها من رافنّا الى مدينة ميلان بعد وفاة رجلها ضربها الفلاحون وهي على الطريق بالعصي كونها لم تشأْ ان تأكل لحمًا مذبوحًا الاوثان وبعد يوم من وصولها الى مدينة ميلان رقدت بالرب

اليوم التاسع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس بطرس الشهيد

ان هذا القديس وُلد بفيرونا مدينة بايطاليا في السنة الخامسة بعد المائتين والالف للمسيح وكان والداهُ مانويّين اي من اشياع ماني الذي زعم ان الله تعالى مبدأ كل الروحيات والغير المنظورات وان الشيطان مبدأ الاشياء الجسمية والمنظورة وانها هي تحت سلطانهِ وتدبيرهِ. اما الله سبحانهُ الذي يخرج النور من الظلام فاختار ابن اولئك المانويّين ليكون نورًا للمؤمنين وينجيهم من المبتدعين وكان يتبين ان الله سبحانهُ رسم في هذا القديس من بطن أُمهِ محبة الايمان الكاثوليكي لانهُ كان يفرُّ من كل بدعة ولم يستطع والداهُ ان يستميلاهُ الى ما يضاد الدين القويم مع انهما اجتهدا بذلك جدًّا. غير ان اباهُ كان يستخف بذلك ويحسب هذا الامر في ابنهِ لعبًا او عنادًا متأملاً انهُ فيما بعد يجذبهُ الى بدعتهِ وبحيث لم يكن في المدينة الاَّ معلم كاثوليكي أرسل ابنهُ الى مدرستهِ وكان بطرس حينئذٍ ابن سبع سنين فقط فاتفق يومًا ان عمهُ صادفهُ عند خروجهِ من المدرسة فسألهُ ما الذي تعلمتهُ فطفق الغلام يقرأ لهُ قانون الايمان قائلاً انا أُومن باله واحدٍ آبٍ ضابط الجميع. حينئذٍ قال لهُ عمهُ حاشاك ياولدي ان تعتقد ان الله خالق السموات والارض لان هذه البرايا المملوءة شرًّا لم يخلقها الله بل خلقها الشيطان. اما الصبي فجادل عمهُ مثبتًا اعتقادهُ. فلما رأى الاب ان عقل ابنهِ حاذق وانهُ راغب في العلم ارسلهُ الى مدينة بولونيا وهناك صادفهُ أُناس كثيرون ونصبوا لهُ فخ الدنس الاَّ ان الله الذي كان قد نجا عقلهُ من سمّ اهل الاهواء في فيرونا حفظ قلبهُ ايضًا من سم الدنس في بولونيا

ولما رأى الشاب الطاهر ان نفسهُ على هذا الخطر عزم على الزهد في الدنيا ومجانبة الناس فطلب من القديس دومينيكوس ان يقبلهُ في رهبانيتهِ فقبلهُ القديس والبسهُ ثوب الرهبانية. ولم يكن بطرس وقتئذٍ الاَّ ابن خمس عشرة سنة فلما دخل مدرسة الكمال شرع يمارس ما رُسم فيها من الرياضات بنشاط لا مزيد عليهِ وقد تجاوز الحدّ وافرط في التقشفات حتى كاد يموت مما اعتراهُ من ذلك. ثم انهُ تمهر جدًّا في العلوم ولم يرجع عن اجتهادهِ في بلوغ البرارة ومن ذلك الزمان كان الله تعالى يظهر لهُ وهو مصلٍّ رؤًى سماوية تشريفًا لعبدهِ فلما كان ذات يوم في قلاَّيتهِ ممارسًا الصلاة ظهرت لهُ القديسة اغنس والقديسة كاترينا والقديسة سيسيليا واخذنَ يخاطبنهُ فسمعهنّ احد الاخوة وظن انهنّ نساء أرضيات عابدات دخلن قلاية القديس ليخاطبهنّ في امور الخلاص. فلما اجتمع الرهبان أخبرهم الاخ بما سمع في قلاية بطرس ولما سألهُ الرئيس عن حقيقة الامر خاف القديس من الاعتذار ومن اظهار الرؤيا السماوية فجثا على الارض امام الاخوة قائلاً اني خاطئ فوبخهُ الرئيس توبيخًا شديدًا جدًّا مع انهُ ظن انهُ انما قبل اولئك النساء بسذاجة لا بخباثة. ومن ثم لم يقتصَّ منهُ بمقتضى الرسوم المشدّدة وانما ارسلهُ الى دير وحبسهُ فيهِ وبعد قليل حزن القديس حزنًا شديدًا بشريًّا وقال في مناجاتهِ لله. ألا تعلم ياسيدي اني بريءٌ مما اتهموني بهِ فكيف اذًا تسمح بان احسانك اليَّ يُعطي سببًا للناس ليدينوني ويؤدبوني هل سكوتي يجعلك ايضًا تصمت ولا تبرّئني فكان يقول ذلك امام ايقونة العذراء وايقونة السيد المسيح. فاجابهُ الرب من على صليبهِ قائلاً وما الذي صنعتهُ انا يابطرس لاصلب هكذا. فخجل القديس ومن ذلك اليوم ارتاحت نفسهُ الى شرب كاس الاهانات

غير ان الله اصل الصلاح ومنشأ الرأفة لم يدع صديقهُ في هذه المحنة زمانًا مديدًا بل اظهر براءتهُ للرهبان وغدا عندهم مكرمًا اكثر مما كان قبلاً وحاز مواهب جزيلة صيَّرتهُ معتبرًا ولا سيما موهبة الوعظ مع غيرة مضطرمة في خلاص النفوس ولما كان يعظ فلم تكن الكنائس تسع كل الذين كانوا يرغبون في استماع مواعظهِ لان الجميع كانوا يحسبونهُ رسولاً . اما موضوع عظاتهِ الاعتيادي فكان التوبة وايضاح عظمة شر الخطيئة وبغضها والندامة عليها وقد اثمر في الشعب اثمارًا عجيبة . الّا ان قوة كلامهِ كانت تظهر على الخصوص حين مجادلتهِ للمبتدعين اهل الاهواء وكان الله حينئذٍ يثبت دلائلهُ بالعجائب . وفي هذا المعنى قال بعض الثقات انهُ جادل ذات يومٍ واحدًا من اساقفة المبتدعين امام جمهور غفير في الشوارع لان المجادلة قد طالت وكانت الشمس تحرق بحرارتها الحاضرين فاحتدم احد المبتدعين غيظًا وصرخ نحو القديس قائلاً . ان كنت انت قديسًا كما يتوهم الشعب الجاهل فاسأل الله ان يأتينا بسحابة تقينا حرارة الشمس . فقال القديس بالهام الله ان سألت الله ذلك وارسل الله سحابة فترتد انت ويرتدّ معك بقية المبتدعين الحاضرين فلم يجبهُ احد بكلمة . ولكن مع ذلك صلّى القديس بطرس وطلب منهُ تعالى ان يمجد اسمهُ القدوس ويثبت الايمان الكاثوليكي ويخزي الاراطقة ويعزّي الكاثوليكيين فيرسل سحابة تصون المحفل من اشعة الشمس وبعد صلاتهِ هذه عمل علامة الصليب المقدس فظهرت حالاً سحابة وحجبت اشعة الشمس عن الشعب الى ان انتهى الجدال

وقد اخبرونا انهُ في محفل آخر تقدم رجل فصيح من شرفاء المانويين واورد دلائلهُ امام الجمهور لاثبات بدعتهِ واسهب كلامهُ في ذلك فلما فرغ من سردها صلى القديس قليلاً ثم التفت الى ذلك الرجل المانويّ وطلب منهُ ان يورد دلائلهُ ثانيةً فلم يقدر المانوي ان ينطق بكلمة لان الله تعالى كان قد ربط لسانهُ فلما رأى الاراطقة هذه الاعجوبة ارعوى منهم خلق كثير ورجعوا الى الايمان الكاثوليكي

ومن الغريب اقول ان الله سبحانهُ سمح للشيطان ان يجرّب القديس يومًا في الايمان نفسهِ فلما اشتدَّت عليهِ هذه التجربة جثا امام ايقونة والدة الله طالبًا منها العون . فسمع صوتًا يقول اني قد صلّيت من اجلك يا بطرس لئلا ينقص ايمانك وفيهِ ستثبت اخوتك . وقد اثبتهم حقًّا في الايمان بتعليمهِ وقدوتهِ الصالحة . واجرى الله سبحانهُ على يدهِ آيات كثيرة في حياتهِ وبعد موتهِ واكثرها شفاء الامراض باقسامها . ولا بدَّ ان نذكر هنا بعضًا منها فنقول . انهُ ذات يومٍ تقدم اليهِ شاب ليعترف فقال لهُ لبطتُ امي برجلي وبعد ان اتمَّ الاعتراف اوضح القديس لذلك التلميذ ثقل خطيئتهِ ثم قال لهُ لا اعلم ايّ قانونٍ اضعهُ عليك لانهُ لا يوجد قانون يوازي ثقل خطيئة ضربك امك . فاعلم يا ابني انك لمستحق ان تُقطع رجلك وانما اقول لك هذا لا لكي تفعل ذلك بل لكي تعقل شرّ هذا الاثم الفظيع . ثم حلَّهُ وخلى سبيلهُ فمضى ذلك الشاب وقطع رجلهُ بطبر فانتشر خبر هذا الفعل وسببهُ فلما عرف القديس ذلك ارسل واحضر الشاب ورجلهُ . فلما جاء الى الدير وضع القديس الرجل المقطوعة على الشاب فبرئ حالاً ولم يظهر اثر قطع

فلما رأى المبتدعون كثرة عجائب هذا القديس اجتمعوا فقال متقدمهم اعلموا ان بطرس هذا بتعليمهِ المؤيَّد بالمعجزات يستأصل مذهبنا ويمحو ذكر أُمَّتنا فيجب اذًا ان نشنّع عليهِ ونبطل ولو واحدة من معجزاتهِ . فانا اتمارض واتقدم اليهِ طالبًا منهُ الشفاء فيضع يدهُ عليَّ وبعد ان يعمل علامة الصليب عليَّ يقول كعادتهِ امضِ فقد شُفيت وللوقت اصرخ بين الشعب ان الاعجوبة كاذبة وتشهدون انتم لصحة عافيتي . فتقدَّم الخبيث الى القديس بهيئة مريض وطلب الشفاء وكان كثير من المبتدعين يتبعونهُ . غير ان الله تقدس اسمهُ لا يُهزأ بهِ باطلاً . فقال القديس بطرس لذلك المانويّ المحتال اني اسأل سيدي يسوع المسيح ان يشفيك ان كنت مريضًا حقًّا وان كنت تمارضت فاسألهُ تعالى ان يبتلي جسدك بمرضٍ لتشفى نفسًا . فحالاً اعترتهُ حمى شديدة مميتة فكاد يموت في ذلك اليوم ولكنهُ التجأ الى القديس واعترف بخباثتهِ ورذل تلك البدعة فبرئ للوقت

وقد عرف بروح النبوة ان الاراطقة عزموا على قتلهِ فبينما كان يعظ اخبر المؤمنين قائلاً ان الاراطقة تعدوا قتلي والذين وعدوهم بقتلي قد اخذوا منهم الاجرة . نعم اني سأموت من اجل الدين القويم كما يشتهي قلبي ولكنهم لا يبلغون بذلك مأربًا بحيث اني من بعد موتي أُثير عليهم حربًا شديدةً واستميل منهم الى الدين ميتًا اكثر مما استملت حيًّا . وقد تمَّت نبوَّتهُ لانهُ قُتل بعد اربعة عشر يومًا وفي الزمان الذي عيَّنهُ

هو. وكان ذلك انهُ لما خرج من مدينة ميلان واحد من الرهبان كمن لهُ في الطريق شخصان مُرسلان من اولئك المبتدعين ليفتكا بهِ فعند وصول القديس الى حيث كانا مختفيين وثبا عليهِ وضرب احدهما رأسهُ بطبرٍ متين فسقط القديس على الارض وشرع يقول اذ كان مشرفًا على الموت انا أُومن بالله الضابط الجميع خالق السماء والارض وكل ما يرى وما لا يرى ثم قال يارب استودعك روحي. اما الذي ضربهُ فانفرد عنهُ ولكن لما رأى القديس يتحرَّك بعدُ عاد اليهِ وضربهُ بسيف في قلبهِ فمات وقد ضرب ايضًا رفيقهُ الَّا انهُ صرخ فحضر اناس وانقذوهُ من الموت ثم ساروا في اثر الرجلين فامسكوهما ومضوا بهما الى الحاكم. غير ان احدهما الذي اسمهُ كاربنوس وكان قد قتل القديس هرب من بين يدي الوالي ثم انتظم في سلك رهبانية القديس وهناك قضى حياتهُ بتوبةٍ نصوحٍ ومات موتًا صالحًا. وقد اظهر الله تعالى برَّ القديس بطرس بعد موتهِ بعجائب متعددة واعظمها الانتصار على الاراطقة حسب نبوَّتهِ لانهُ منذ يوم وفاتهِ ضعفت قوَّتهم جدًّا وذلك بكثرة الذين اعتصموا بالحق واخذوا بالمذهب الصحيح. وتُوفّي في اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان سنة اثنتين وخمسين ومائتين والفٍ للمسيح

اليوم الثلثون

وفيهِ ترجمة القديسة كاترينا السيانية

ان القديسة المذكورة وُلدت بسيانا مدينة بايطاليا في السنة السابعة والاربعين من القرن الرابع عشر. وكان والداها صائغين. اما هذه الابنة فكانت مهذَّبة الاخلاق بشوشة الوجه جدًّا بحيث كان الذين يرونها لا يكادون يحوّلون عيونهم عنها ولذلك سميت افروسينا. فلما بلغت السنة الخامسة من عمرها استبان للجميع انها تكرّم كل التكريم سيدتنا مريم العذراء عليها اشرف السلام. لكونها كانت كلما صعدت درج البيت تجثو في كل درجةٍ على ركبتيها وتقيم صلاة بشارة الملاك جبرائيل. ولما كانت ابنة ست سنين خرجت يومًا مع اخيها ليزورا اختها المتزوجة فعند رجوعها من هذه الزيارة رأت الابنة على قبة كنيسة القديس دومينيكوس منبرًا متلألئًا وهناك كان يسوع المسيح جالسًا بحلّة الحبرية العظمى والى جانبهِ الرسولان بطرس وبولس والقديس يوحنا الانجيلي وكان السيد المسيح ينظر اليها بمحبة ليباركها فامتلأت تلك الابنة سرورًا وبهتت ولم تتحرَّك وكان اخوها يهتف بها لتمشي فلم تسمع فامسكها وجرَّها. فلما انتبهت قالت لهُ لو كنت تنظر يا اخي ما انا انظر اليهِ لما كنت ترضى بترك هذا المكان. ثم التفتت الى مكان الرؤيا فلم تنظر شيئًا

فمن ذلك الوقت تغيرت كاترينا تغيرًا تامًّا واستحالت من طفلة صغيرة الى حال امرأة كاملة لانها بالهام الله عرفت سيرة القديسين السياح ولا سيما سيرة القديس دومينيكوس فشرعت تصلّي اكثر الاحيان وتتروَّض بالتأملات وتلازم السكوت وتنقص من ماكلها. ثم جمعت فتياتٍ مثلها وجعلت تعلمهنَّ طرائق العبادة وتخلي معهنَّ وتمارس بعض تقشفات. ولفرط ما كانت ترغب في سيرة القديسين السيّاح هربت يومًا من البيت واخذت معها رغيفًا واحدًا وخرجت من المدينة واختبأت في مغارةٍ وهناك ابتدأت تصلّي. فاوحى اليها الله وهي تصلي ان تعود الى بيتها فعادت

ولما بلغت السنة السابعة من عمرها نذرت العفة لسيدنا يسوع المسيح وطلبت من العذراء ان تقدها عروسًا لله سبحانهُ وبعد ان نذرت هذا النذر تاقت الى ان تترهب ولفرط ما كانت تحب رهبان القديس دومينيكوس لاجل اهتمامهم بخلاص النفوس كانت تقبل الارض التي يطأُونها حتى انها افتكرت في ان تخفي جنسها فتترهب عندهم بهيئة شاب ولكن السيد المسيح نهاها عن ذلك

وحينما وصلت كاترينا الى السنة الثالثة عشرة من عمرها اهتمت والدتها بتزويجها وطلبت من ابنتها ان تتزيَّن واما الابنة فلم تكن تريد ان تغيظ والديها وكانت تفضل الموت الف مرة على النكث بوعدها لسيدنا يسوع المسيح فمن ثمَّ حزنت جدًّا وكشفت سرها الى اختها المتزوجة. فقالت لها تلك انكِ وان كنتِ لا ترتضين بالزواج فيحسن بكِ ان تتزيني لكي ترضي والدتكِ وتظن انكِ لم تنفرّي من الزواج. فاتبعت كاترينا هذا الرأي الَّا انها ندمت على ذلك مدة حياتها كلها ولم تزل تذكر ذلك في اعترافها كاعظم الكبائر. فلما طلبها واحد من المدينة ليتزوَّجها ووجدهُ ابواها مناسبًا لها حثَّاها على التزوُّج مرارًا فلم تقبل فبدأا يعاملانها بشيء من القساوة فلما رأت الفتاة انهما لا يزالان يخاطبانها في المعنى المذكور قصَّت شعر راسها واظهرت بلسان الحال انها ناذرة العفة.

فاغتاظ والداها من ذلك جدًّا وجعلاها كجارية في البيت والزماها بمباشرة كل ما يحتاج اليهِ البيت من امور الخدمة ابتغاء ان يمنعاها بذلك عن رياضاتها الروحية وان ترجع عن عزمها على حفظ البتولية . فحزنت الفتاة المذكورة على هجرها لخلوتها حيث كانت تتأمل دائمًا في الله ولكن الله اعلمها بانها تستطيع ان تبني لنفسها خلوةً في الباطن حيث تتأمل في الله وان كانت قائمة باشغال البيت المختلفة . فمنذ ذلك الوقت لم تبرح مختليةً ومتأملةً في الله تعالى على الطريقة المومأ اليها وكانت تتمّم كل ما يقتضيهِ البيت من امور الخدمة بالابتهاج والطمأنينة فتعجب والداها من صبرها واتضاعها وطول اناتها وبشاشتها في اصعب الخدم واحقرها ومن ثمَّ تركاها تتبع الارشاد الالهي

والحاصل انها عندما ظفرت بهذه الحرية ابتدأت تتأهب للانضمام الى راهبات القديس دومينيكوس وكان ذلك بان امتنعت عن اكل اللحم وشرب الخمر ولم تأكل الَّا بقولاً غير مطبوخة ولم تنم الَّا على الواح خشب من دون حصيرة ولا فراش وتنطَّقت بزنار حديد ذي مناخز ولم تبرح تتنطق بهِ طول عمرها ولكن تركتهُ قبل موتها بساعات قليلة طوعًا للامر بالترك . ومن ذلك اليوم ابتدأت ايضًا تصوم صومًا دائمًا ولا ترقد من الليل الا ساعة واحدة وتصرف بقيتهُ في الصلوات . وفي كل يوم كانت تجلد جسدها ثلث مرات بقساوة مقدسة . فهذا ما ابتدأت كاترينا تفعلهُ وهي ابنة ثماني عشرة سنة واستمرَّت عليهِ جميع ايام حياتها . فاصابها يومًا مرضٌ ولذلك خافت والدتها وخشيت بانها تموت بهِ فقالت لها ابنتها اعلمي يا امي ان عافيتي متعلقة بالترهب فمضت وقتئذٍ والدتها وطلبت من راهبات القديس دومينيكوس ان يقبلنَ ابنتها في ديرهنَّ

ثم دخلت الدير وترهبت وحينئذٍ عندما رأت ان رُبُط الدنيا التي كانت مربوطة بها قد حُلَّت بحيث تهيأ لها ان تسلك طريق اهل الوَرَع والنسَّاك بدون خوف عزمت عزمًا شديدًا على بلوغ الكمال ومن ثمَّ في الثلث السنين الاولى استمرَّت مختليةً في قلايتها صامتةً على الدوام لا تخرج منها الا لكي تدخل الكنيسة . فظهر لها سيدنا يسوع المسيح وعلمها كل ما كانت تحتاج اليهِ لارشاد نفسها وكان الله يتراءى لها غالبًا حتى كانهُ عزَّ اسمهُ كان يتردَّد معها دائمًا . وقال لها مرةً اتعلمين يا ابنتي من انا ومن انتِ فاعلمي هذا وافرحي من كوني اعلمكِ اياهُ . اني انا الذات الواجب الوجود واما انتِ فانكِ العدم نفسهُ . وقال لها مرةً اخرى افتكري فيَّ وانا افتكر فيكِ واهتمّ بكِ . وقد استفادت القديسة كثيرًا من ذلك التعليم الالهي لانها عقلت انهُ يجب على الانسان ان يتكل على العناية الالهية كل الاتكال بحيث يفوّض الى الله جميع امرهِ

وكانت القديسة عليها السلام تسلم لله في كل شيءٍ ومن ثم كانت نفسها تفوز بالطمأنينة الدائمة . ثم انها تعلمت من القول الالهي المذكور ان تتضع متأملة نفسها انها العدم وفي تأملها ذاتها الدنية كانت ترتقي الى ملاحظة كمالات الله تعالى الغير المتناهية وتخوض هذا البحر الغير المحدود وذلك بافعال التعجب والتسبيح والمحبة وتقدمة نفسها لخدمتهِ عزَّ وجلَّ بكل عزم قوي . والحاصل انها بهذا التعليم الالهي كانت تنمو بالعبادة وتسمو في الفضيلة يومًا فيومًا

وبعد ان سلحها السيد المسيح بتلك الاسلحة الروحية اذن للشيطان ان يحاربها فاخذ اخزاهُ الله يُريها اشباحًا قبيحة ويجرّبها بافكار ردية وحركات خبيثة . وانهُ لمن المحال ان يوصف كيف كان ابليس لعنهُ الله يضيّق على تلك النفس الطاهرة بتلك الاشباح والافكار والحركات ويعذبها بها . وعدا ذلك كانت ايضًا تجلد جسدها بمجالد قوية . واتفق يومًا ان شدد الشيطان الحرب عليها حتى اضحت مخيلتها مشحونة تخيُّلات زنائية وجسدها كلهُ كان يستبين لها انهُ ملتهب بنار شهوة البغاء . وبينما كانت على تلك الحال في وسط هاتيك الحرب الشديدة تقاوم قوات الجحيم بتذكُّر صليب يسوع وآلامهِ ظهر لها معزّي النفوس النقية رب المجد . ولما ابصرتهُ البتول الحزينة شكت اليهِ عن حبّ قالت اين كنت يا الهي الحبيب ولماذا تركتني هكذا . اجابها يسوع اني كنت معكِ في وسط قلبكِ يا كاترينا . فقالت الابنة كيف امكن ان تكون معي وانا على شرّ الافكار واخبث الحركات . فسألها يسوع قائلاً هل كنتِ تستلذين اختياريًّا بهذه الافكار والحركات فاجابتهُ البتول قائلةً حاشاي يا الهي بل كانت لديَّ امرَّ من الموت . فقال لها السيد ومن اين لكِ هذا الَّا مني انا الموجود فيكِ ومن نعمتي المقوّية قلبكِ على التجربة فاعلمي ان الاشعار بهذه الافكار السمجة الغير المسببة منكِ لا يعدُّ اثمًا وان العناية بمقاومتها مجلبة اجرٍ كبير

وطالت التجربة عليها لانها اقامت على هذه الحال زمنًا

مديدًا غير ان العدوّ لما لم يقدر ان ينتصر على كاترينا بأَسلحة الدنس أخذ يحاربها باسلحة أُخرى لكونها بأمر السيد المسيح ابتدأت تمارس افعال الرحمة . وذلك بخدمتها ارملة فقيرة أَصابتها آكلة مستكرهة في ثديها واقامت القديسة كاترينا على خدمتها بابتهاج ومحبة . وبينما كانت على تلك الحال اذا بالمريضة قد وسوس اليها الشيطان فشرعت تشين صيت المحسنة اليها قالت انها بعلّة انفرادها في الليل للصلاة كانت تصرف هذا الزمن في الترفه مع بعض اشخاص وما برحت كاترينا مع ذلك تخدمها كل يوم. وبحيث انها احست ذات يوم عند مداواتها قرحة المرأة المذكورة بكرهٍ عظيم وضعت حينئذٍ فمها على القرحة نفسها واستمرّت على هذه الحال الى ان انتصرت على التجربة ومرةً اخرى شعرت ايضًا بشيء من الكره فغسلت تلك القرحة و بعد ان استغرفت كل القيح المنتن الكريه شربتهُ كلهُ بدون تقزُّز ولكن الله سبحانهُ لاجل انتصارها هذا العجيب على ذاتها صيَّر لها ذاك المشرب الذ من كل ما كانت تشربهُ في حياتها كلها . وليلة ذلك اليوم ظهر لها يسوع واذن لها ان تضع فمها على جرح جنبهِ الاقدس ففعلت كما امرها وشربت حينئذٍ ماءً لاتوصف عذوبتهُ و بعد ذلك طلبت منهُ تعالى ان يباركها ويبرئها مما اتهمت بهِ فتراءى لها السيد وعلى يدهِ اكليل من ذهب وفي يدهِ الاخرى اكليل من شوكٍ فقدَّم لها الاكليلين قائلاً خذي الذي تريدينهُ منهما . فقالت كاترينا اني اريد ان اقتدي بك يا الهي .فأختار اكليل الشوك واجعل تنعمي في الآلام . ثم تناولت اكليل الشوك و وضعتهُ على رأسها بفرحٍ فشعرت بوجع عظيم وللوقت امرها الرب بالمواظبة على خدمة المرأة ووعدها بانهُ يهتمُّ بحفظ صيتها وبعد قليل اتفق ان المرأة المشار اليها رأت القديسة كاترينا على مجدٍ ونور عظيم فمنذ ذلك الوقت شرعت تمدحها ولم تزل شاكرةً فضلها وملتمسة منها العفو

ثم ان ابليس الرجيم لعنهُ الله اثار عليها اضطهادًا آخر بحيث جعل الناس يشككون في تقواها ويظنون انها مرائية لانها كانت تكرم القربان المقدس وتتناولهُ بشوق عظيم حتى انها كل يوم لاتتناول فيهِ القربان المقدس تكون حالها حال من قد اشرفت على الموت . وكل مرة كانت تتناول هذا السر الاقدس كان يقوي نفسها وجسدها ايضًا بحيث لا تحتاج الى ان تاكل شيئًا البتة . فاتخذ ابليس سببًا لان يضطهد البتول فصيرّ الناس يشكُّون فيها كما تقدم ومن اولئك المشككين جماعة من اهل الفضل والوَرَع . حتى ان معلم اعترافها نفسهُ امرها بان تاكل فاكلت طائعةً ولكنها كادت تموت من الاكل ومع ذلك فلكي يزول ذلك الشك كانت تجلس على المائدة وتمتصُّ ماء الطعام وتبذل كل جهدها لتبتلعهُ ثم تستمر متألمة متعذبة بما اكلتهُ الى ان تتقيَّأَهُ وتستفرغهُ فلما تحقق المعلمون الروحيون حقيقة المعجزة تركوها بغير اكل في يد ربها تعالى الذي كان يقويها على نوع عجيب بواسطة تناول القربان المقدس وقد ذُكر عنها انها استمرت مرةً واحدة بدون اكل ولا شرب من ابتداء صوم الاربعين الى عيد الصعود

وكان الشيطان يعذبها مرات كثيرات بشدة القساوة و يزجّها في النار اما البتول فكانت تستهزئ بهِ مع انهُ كان قد انحلها وصيَّرها كمن ليس لها سوى الجلد والعظام الاَّ ان الله سبحانهُ كان يعزيها برؤى واختطافات عظيمة جزيلة العدد

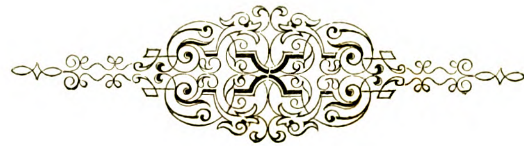
ذلك وان غيرتها في خلاص النفوس كانت كنارٍ مضطرمة بحيث انها لم تكن تألُ جهدًا في ردّ الخطأة الى التوبة . ومن ثمَّ كانت تصوم وتصلي باكيةً وكان الله سبحانهُ اعطى اقوالها وصمتها ايضًا قوةً شديدةً لجذب القلوب الى حب الفضيلة . ألا ترى ان البابا بيوس الثاني قال فيها ان كل من اقترب منها رجع وهو احسن مما كان

فاتى اليها ذات يومٍ جماعة برجلٍ كان قد افسد المدينة كلها بما أحدث وانشأ من الفتن والخصومات فاخذت القديسة تخاطبهُ باقوال قويَّة جدًا فوجدتهُ ابعد من ان يتأثر بكلامها فتركت الكلام والتجأت الى الله مصليّةً فاستجاب الله طلبتها وحلّت يد الرب على قلب الرجل الموما اليهِ فتاب الى الله توبةً نصوحًا لانهُ طلب ان يصالح اعداءهُ كلهم ومارس في باقي عمرهِ افعال التوبة والتقوى

هذا ومن دلائل القوة التي كان لها تأثير في القلوب ان البابا غريغوريوس الحادي عشر كان قد أمر ثلثةً من الآباء الدومينيكيين ان يستمعوا اعترافات الذين كانت تردّهم الى صراط التوبة فلذا التزموا ان يجلسوا على عرش الاعتراف ليلاً ونهارًا لكثرة التائبين على يد القديسة . اما تأثير كلامها في البابا غريغوريوس الحادي عشر نفسهُ وحثُّها اياهُ على

الرجوع من افنيون الى رومية واجتهادها في ان تردّ الى طاعة خليفتهِ أُربانوس السادس من كان من الكرادلة وانفصل عنهُ بعد انتخابهِ الشرعي فنضرب صفحًا عنهُ حبًّا للاختصار

ثم انهُ تعالى شرفها بروح النبوة وبفعل عجائب كثيرة وقد ماتت في مدينة رومية في اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان سنة ثمانين وثلاثمائة والف للمسيح وعمرها ثلاث وثلاثون سنة



شهر ايار

اليوم الاول

وفيهِ ترجمة الرسول يعقوب الصغير

اعلم ان البولانديستيين فرّقوا بين القديس يعقوب بن حلفى والقديس يعقوب بن كلاوبا فقالوا ان الاوّل كان من الاثني عشر رسولاً الذين اختارهم الرب ورسمهم هو نفسهُ فكان اخا متى الرسول وذهب بعد قيامة الرب يبشر بالانجيل الى غزة وصور وبلاد العرب. فمات مصلوبًا في مدينة اوستراسينا من اعمال اسكندرية. اما القديس يعقوب بن كلاوبا المعروف باخي الرب فكان من السبعين تلميذًا ورسمهُ الرسل بعد قيامة الرب في اليوم السابع والعشرين من شهر كانون الاول في السنة التاسعة والعشرين للمسيح ليكون اسقفًا على اورشليم. وانما قيل لهُ اخو سيدنا يسوع المسيح لانهُ وُلد من امرأَة كانت من اقرباء الطوباوية مريم كبنات العم والعمة والخال والخالة خلافًا لالفيديوس المبتدع الشرير الذي زعم انهُ وُلد من مريم العذراء نفسها وخلافًا لمن ادَّعى ايضًا انهُ وُلد من امرأَة ليوسف خطيبها قد تزوَّجها قبل خطبتهِ البتول. وقد زعم ايضًا جماعة من العلماء انهُ دُعي اخا الرب لانهُ كان ابن كلاوبا اخي القديس يوسف وكما ان السيد المسيح دُعي ابن يوسف دُعي ايضًا كلاوبا او حلفى اخا القديس يوسف عمَّ السيد المسيح ومن ثمَّ دُعي القديس يعقوب اخاهُ تعالى لان اليهود كانوا يسمُّون اولاد الاعمام اخوة. ثم انهُ دُعي اخا الرب من اجل سبب آخر لانهُ كان يشبه جدًّا السيد المسيح صورةً وخلقةً حسبما ذكر ذلك القديس اغناطيوس الشهيد في رسالتهِ الى القديس يوحنا الانجيلي

ووُلد هذا القديس قبل سيدنا لهُ المجد ببعض سنين وقال عنهُ اجيزيبوس العلاّمة الجليل بين العلماء القدماء انهُ تقدَّس من بطن امهِ اي ان والدتهُ خصصتهُ لخدمتهِ تعالى قبل ان تلدهُ ومن ثمَّ التزم بان يجري رسوم النذيرة وحفظها كل ايام حياتهِ ولذلك قال فيهِ القديس ايرونيموس ان حياتهُ كلها كانت صومًا دائمًا. وانهُ منذ طفوليتهِ الى موتهِ لا أكل لحمًا ولا شرب خمرًا ولامشى الاَّ حافيًا. ومن هناك تعلم الى اي حدٍّ انتهت تقشفاتهُ فان جسدهُ كان يشبه جثة محترقة مجرَّدة عن اللحم بالكلية. ولا غرو فكان ماكلهُ ومشربهُ الخبز والماء فقط. ومن مواظبتهِ على الصلاة تكاثف جلد ركبتيهِ وجنبيهِ حتى اضحى كجلد الجمل. فهذه كلها مع احتشامهِ العجيب في حركاتهِ ومخاطباتهِ كانت قد جعلتهُ معتبرًا جدًّا عند اليهود حتى كانوا يحبون تقبيل ثوبهِ ولا يدعونهُ الاَّ صدّيقًا

وكان احد العالميين الذين أُذن لهم ان يدخلوا مقدس الهيكل وقد اتفق ان جفَّت الارض من انقطاع الغيث واوشكت الاثمار ان تتلف فطلب منهُ اليهود ان يصلّي في شأن هذا الامر. فلما رفع يديهِ الى السماء نزل حالاً مطرٌ وافرٌ فاخصبت الارض ومن اجل ذلك قيل لهُ بالسريانية اوبل ومعناهُ سند الشعب. ثم ان يوسيفوس المؤرخ اللبيب مع انهُ كان يهوديًّا ذهب الى ان خراب اورشليم على عهد تيطس قيصر ما كان الاَّ انتقامًا الهيًّا من الشعب اليهودي. لانهم قتلوا القديس يعقوب اخا يسوع المسيح. ودعا هذا الرسول رجلاً بارًّا. قلت ان هذا الكلام يظهر كم كان ذلك القديس معتبرًا عند اليهود لان اورشليم لم تخرب لانهم قتلوهُ وانما خربت لانهم قتلوا المسيح مقدّس القديسين

فهكذا كان القديس يعقوب لما دعاهُ السيد المسيح الى الرسالة. وروى القديس ايرونيموس عن تقليد قديم ان

هذا الرسول ليلة العشاء السرّي عزم على ان لا ياكل ولا يشرب الى ان يقوم المسيح من الموت ولذلك ظهر له المسيح بعد قليل من قيامتهِ . وقال القديس اكليمنضوس بطريرك الاسكندرية ان السيد المسيح بعد قيامتهِ وهب القديسين بطرس ويعقوب الصديق ويوحنا موهبة العلم اي انار اجنانهم بضياء المعرفة السامية الملائمة للرسالة فشركوا فيها سائر الرسل

وبعد ان صعد السيد المسيح الى السماء شرع بطرس الرسول يباشر واجبات الرسالة والرئاسة العامّة المستظلّة بها الكنيسة الجامعة كلها . وبمشورة بقية الرسل اقام القديس يعقوب اسقفًا على اورشليم . ففرح بذلك جدًّا مسيحيّو تلك المدينة بحيث كانوا يحترمونهُ كل الاحترام . فتنصّر على يدهِ بمواعظهِ التي رافقتها نعمة الله من اليهود خلق كثير . ولما وقع الاضطراب في كنيسة انطاكية لان بعضًا من اليهود الذين تنصّروا طلبوا ممن تنصّر من بقية الامم ان يختتنوا فابوا ووقع الاختلاف ونشأ الاضطراب كما اسلفنا . وكتب من قِبلهم القديسان بولس وبرنابا الى القديسين بطرس ويعقوب ويوحنا الذين كانوا مقيمين حينئذٍ باورشليم ليستشيروهم في حل هذا المشكل لانهم اعمدة الكنيسة كما قال القديس بولس ومن اجل ذلك عُقِد في اورشليم المجمع الاول حيث كان القديس بطرس هو المتقدم . ولذا قام وافتتح الكلام قائلاً لقد عرفتم ايها الاخوة ان الله سبحانهُ انتخبني لأبشر الامم بالانجيل فيؤمنوا وقد اعطاهم الله الروح القدس مثلما اعطانا ولم يضع بيننا وبينهم فرقًا . فلماذا تضعون نيرًا على رقاب التلاميذ لم نستطع نحن ولا آباؤنا ان نحملهُ

ثم قام القديس يعقوب ليتكلم بعدهُ لانهُ كان اسقف تلك المدينة المقدسة فقال اسمعوا ايها الاخوة ان سمعان أخبر كيف ابتدأ الله ان يخصص لهُ شعبًا من الأمم وهذا يوافق كلام الأنبياء اني بعد هذا أرجع وأبني ايضًا بيت داود الذي سقط وما هدم منهُ اجدّدهُ واقيمهُ لكي يطلب الرب بقية الناس وجميع الامم . ان الله عالم منذ البدء بما كان منتظرًا ان يعملهُ . ومن اجل ذلك احكم مع سمعان بان لا يُضيَّق على الامم الذين آمنوا بالمسيح وبالانجيل المقدس وان نأمرهم بان يمتنعوا عن نجاسات الاصنام وعن الزناءِ واكل المخنوق والدم فقبل الجميع هذا الرأي فأرسلوا الى انطاكية القديسين بولس وبرنابا وبَرسبا وسيلا ومعهم رسالة من قبل الجميع حاويةً ما نصهُ : انهُ قد رأى الروح القدس ونحن ايضًا ان لا نضع عليكم ثقلاً ازيد من الذي لابدَّ منهُ وهو ان تمتنعوا عمّا ذُبح للاصنام وعن الدم والمخنوق والزناء فاذا انتم صنتم انفسكم عن ذلك فنعمّا تصنعون كونوا معافَين (اعمال فصل ١٥)

وكان عدد المسيحيين يزيد كل يوم في اورشليم بغيرة القديس يعقوب وبرهِ ووداعتهِ على انهُ كان يداوي اليهود ويأخذهم بحكمتهِ ولا يمنعهم عن استعمال الطرائق اليهودية التي لاتضاد النصرانية وبهذه الوسيلة كان يستميل قلوبهم رويدًا رويدًا الى ان يتركوا الطرائق الموسويّة . وفي السنة الثامنة والخمسين للمسيح انطلق بولس الرسول الى اورشليم فأشار عليهِ القديس يعقوب ألاَّ يظهر نفسهُ بانهُ يرذل بعض طرائق موسوية غير معتبرة لئلا يسبب شكًّا لقوم كانوا لا يزالون ضعفاء في الايمان فقبل القديس بولس مشورتهُ

ولا ريب ان روساء اليهود وعلماء الناموس كانوا غضابى من تكاثر النصارى ولذلك بعد ان مات فستس الذي كان واليًا على اليهودية من قِبل الرومانيين وقبل وصول البينوس خليفتهِ في منصب الولاية المذكورة تآمر معلمو الناموس والفريسيون على المسيحيين لانهم رأوا الوقت مناسبًا لغرضهم ولان المسيحيين كانوا قد تكاثروا جدًّا في كل اليهودية ولا سيما في اورشليم عزموا على استئصالهم . وبناء عليهِ في السنة الستين للمسيح نهض حنانيا الحبر الاعظم وهو ابن حانيا او حانان حمي قيافا المذكور في الانجيل المقدس فانتهزوا الفرصة ولأنهُ كان عظيم الكهنة جمعهم كلهم ليروا كيف يدبرون الامر لنيل ذلك المآرب الخبيث استشار بعضهم بعضًا واطبق الجميع على انهم يلزمون القديس يعقوب بانكار سيدنا يسوع المسيح لانهم قالوا اذا انكر هذا نبعهُ بقية المؤمنين فبعثوا وطلبوهُ وقد قال اجيزيبوس المذكور . انهُ عندما وقف القديس يعقوب في هذا المحفل اجتمع جميع الشعب لأنهم كانوا يحبونهُ ويعتبرونهُ جدًّا . فقال رئيس الكهنة انا استدعيناك لكي تسعى معنا وتسعفنا في رد الشعب عن الضلال لأن الاكثرين آمنوا بتعليم يسوع الناصريّ واعتقدوا انهُ هو المسيح المنتظر من آبائنا فالمأمول منك انهُ بحيث حان عيد الفصح واجتمع هنا اليهود من كل ناحية وهم يعدُّونك رجلاً صدّيقًا محبًّا للحق ومحاميًا عنهُ بغير محاباة

تصعد على المنبر وتخطب بالشعب وتردّهم عن ضلالهم بتعليمك ذاكرًا لهم ما تعتقدهُ في يسوع المسيح وما يجب ان يعتقدوهُ هم

فرضي القديس بذلك ومضى معهم الى الهيكل وتبعهُ الناس طرًّا ورقي المنبر وحينئذٍ صرخ الكتبة والفريسيون قائلين لهُ . يا ايها الصديق اخبرنا كيف يجب ان نعتقد في يسوع الناصريّ المصلوب لأَننا سنقتنع برأيك وقولك . فهتف حينئذٍ القديس بصوت عالٍ قائلاً

يا ايها الاخوة اسمعوني واقبلوا شهادة الحق . فاعلموا وتحققوا ان سيدنا يسوع المسيح ابن الانسان ذاك الذي تسألون عنهُ هو في السماء جالس من عن يمين الله الاب لكونهِ ابن الله حقًّا وسيأتي على سحاب السماء كي يدين الجميع . فلما قال هذا آمن كثيرون وسبحوا الله قائلين اوصنّا لابن داود

أَما الكتبَة والفريسيون فلما رأَوا أَن أَملهم قد خاب صرخوا قائلين لقد ضلَّ الصديق . وحالاً طرحوهُ من فوق المنبر العالي على البلاط فلم يمت من ذلك بل انتصب على ركبتيهِ وبدأ يضرع من اجل قاتليهِ . اما اعداؤهُ فشرعوا يرجمونهُ بالحجارة ليميتوهُ قبل وصول البيينوس الحاكم الجديد الى المدينة . فصرخ رجل من ذريَّة المكابيين وقال لراجمي القديس أَما تسمعون كيف يصلي من اجلكم فلماذا تميتونهُ . فلم تلن قلوبهم بل زادوا غضبًا عليهِ فضرب واحد منهم رأسهُ بخبطٍ وهكذا مات القديس يعقوب يوم عيد الفصح نفسهِ في السنة الستين للمسيح وكان قد رعى الشعب في اورشليم نحو ثلثين سنة

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس فيلبُّس الرسول

ان القديس فيلبُّس وُلد ببيت صيدا مدينة بالجليل منها الرسولان بطرس واندرواس ومنذ صبائهِ كان يحب تلاوة الكتب المقدسة وبواسطة تلاوتها عرف منها ما يشير الى المسيح فلذلك لما دعاهُ المخلص عرفهُ حالاً بسهولةٍ وتتلمذ لهُ وحينئذٍ اي لما رأَى ابن الله المتجسد استمال اناسًا كثيرين الى معرفتهِ ومنهم ناتانائيل وذلك بقولهِ لهُ الذي كتب موسى من اجلهِ في الناموس والانبياء وجدناهُ وهو يسوع المسيح (يوحنا ١ : ٤٥) وقد ذكر القديس اكليمنضوس الاسكندري ان هذا القديس اعني بهِ فيلبس هو الذي طلب اذنًا من السيد المسيح ليمضي ويدفن اباهُ وقال لهُ يسوع دع الموتى يدفنون موتاهم فمن هذا الوقت لزم القديس بالرب ولم يفارقهُ ولما اراد تعالى ان يصنع آية الخمس خبزاتٍ التفت الى هذا الرسول قائلاً لهُ من اين نبتاع خبزًا لنطعم هولاء

فاجاب الرسول قائلاً بسذاجة ما يكفيهم خبز بمائتي دينار اذا نال كل واحد منهم يسيرًا (يوحنا ٦ : ٥) وقال لهُ ذات يومٍ قوم من الأُمم اننا نريد ان نرى يسوع فدلهم الرسول عليهِ تعالى ونالوا بغيتهم المقدسة (يوحنا ١٢) . وبعد ان صعد المسيح الى السماء وحلَّ الروح القدس على الرسل مضى القديس فيلبُّس الى بلاد فريجيا حيث آمن على يدهِ قوم كثيرون وانطلق الى مدينة يروبوليس ووجد اهلها يعبدون أَفعى فحزن القديس على ضلالهم فصلى وبصلاتهِ قتل الافعى وطفق يعلم الشعب ويذكرهم ببطلان عبادتهم وحقيقة الانجيل المقدس فآمن الشعب بالمسيح وزهت هنالك النصرانية كالروضة الغنَّاء . فنهض عليهِ يومًا كهنة الاصنام وحكام المدينة فضربوهُ بقساوةٍ ثم صلبوهُ وقبل موتهِ بزمن يسير تزلزلت الارض بغتةً ففرَّ الكفار هاربين ولما اراد المسيحيون ان ينزلوا الرسول عن الصليب طلب منهم ان يتركوهُ ليموت مصلوبًا نظير يسوع معلمهِ . وبعد قليل سلم رعيتهُ الى الله تعالى وتُوفّي في اليوم الاول من شهر ايار في السنة السابعة والثمانين للمسيح . وكان تذكار وفاتهِ عند الشرقيين في اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الثاني

اعلم ان عيد القديس فيلبُّس كان شريفًا جدًّا في الكنيسة الشرقية كلها لما ذكرهُ تاودوريتوس من انهُ سنة اربع وتسعين وثلاثمائة رأَى تاودوسيوس الكبير ان جيش اوجانيوس قد قوي عليهِ فحصل لهُ من ذلك غمٌّ شديد فالتجأ الى الله وصلى ذلك الليل كلهُ ولما نام رأَى في الحلم شخصين لابسين ثوبين ابيضين وكلاهما راكبٌ جوادًا أَبيض فاشارا عليهِ بالحرب وحثّاهُ عليها كثيرًا ووعداهُ بالانتصار وعرَّفاهُ انهما الرسولان يوحنا وفيلبس فتحقق الملك صحة هذه الرؤيا ولاسيما عندما عرف ان جنديًّا فاضلاً كان في جيشهِ رأَى ايضًا نظيرهُ في الحلم فحالاً تهيأَ ووثب على اوجانيوس وانتصر عليهِ انتصارًا تامًّا

اليوم الثاني

وفيهِ ترجمة القديس اثناسيوس بطريرك الاسكندرية

ان القديس اثناسيوس المعظم وُلد بمدينة الاسكندرية في

السنة السادسة والتسعين بعد المائتين للمسيح . وكان ابواهُ معتبرين نظرًا الى تقواها ونظرًا الى شرف نسبهما ايضًا . ومالت بهِ عواطف الشوق الى العلم والعبادة . فعلم القديس اسكندر بطريرك الاسكندرية ان الله تعالى انتخب اثناسيوس ليكون في الكنيسة رجلاً بارًّا ولهذا اوصى والديهِ بان يهتما بتربيتهِ جدًا وان يقيما لهُ معلمين يخرّجونهُ في العلم والفضيلة ثم يأتيا بهِ اليهِ لاجل خدمة الكنيسة ففعلا وعما قليل قدما ابنهما للقديس اسكندر ولما رآهُ ماهرًا في كثير من العلوم أمرهُ ان يتعلم اللاهوت فما لبث ان نبغ في ذلك العلم السامي حتى غدا علاَّمةً فيهِ بين اهل عصرهِ

غير ان رغبتهُ في تحصيل العلوم لم تكن تضاهي حرارة شوقهِ الى الفضائل . واما القديس اسكندر فاذ رأى ما رأى من علوم اثناسيوس وبرهِ رسمهُ كاهنًا . ومن ذلك اليوم نزل هذا القديس الجليل في ميدان الحرب مع جميع اراطقة ذلك العصر الذين اعظمهم آريوس المنافق الذي كان القديس بطرس البطريرك الشهيد قد حرمهُ وأخرجهُ من الكنيسة . ولكنهُ تظاهر بعد ذلك بالتوبة . فقبلهُ القديس اكيلاَّوس البطريرك ورسمهُ كاهنًا وأذن لهُ ان يتصرف في المدينة بكل مقتضيات الكهنوت

ومن بعد ان انتقل القديس اكيلاَّس الى جوار ربهِ اجتهد آريوس في ان يكون بطريركًا فخاب أملاً وحبط عملاً لان القديس اسكندر استوى على كرسي البطريركية الاسكندرية ولذلك نادى حينئذٍ بالحرب على الوهيَّة سيدنا يسوع المسيح . فنهض وقتئذٍ القديس اثناسيوس وشرع يقاومهُ بمواعظهِ ومخاطباتهِ سرًّا وجهارًا . فانتصر عليهِ القديس اثناسيوس وفنَّد اقوالهُ الكاذبة ومع ذلك امتدت البدعة الاريوسية في الدنيا كما تدبُّ الاكلة حتى ضاق الرؤساء ذرعًا في منع سريانها ومن ثم اقتضت الحال ان يُعقد مجمع في نيقية وهو المجمع الاول المسكوني . وكان القديس اثناسيوس حينئذٍ شماسًا انجيليًا فذهب بهِ بطريركهُ الى المجمع المشار اليهِ وهنالك فنَّد آراء الاريوسيين وابطل ادلتهم وأدحض براهينهم المغالطية وأظهر من الغيرة على الكنيسة الكاثوليكية ما لا يكاد يصفهُ قلم فتعجب الآباء كلهم من حذاقة لبهِ وصحَّة فكرهِ . ثم ان المجمع المقدس حرم الرأي الاريوسي ومن ذلك اليوم لم يزل الاريوسيون يضطهدونهُ . فعاد القديس اسكندر الى الاسكندرية وعقب خمسة عشر يومًا من وصولهِ الى هناك انتقل الى رحمة الله ولانهُ أشار على الشعب في مرض موتهِ أن ينتخبوا القديس اثناسيوس بطريركًا من بعدهِ هرب اثناسيوس وعن هربهِ هذا كان قد تنبأ القديس قائلاً . انك لقد ظننت يا ابني انك تنجو من البطريركية بهربك فقد اخطأت في هذا الظن

والحاصل انهُ بعد وفاة القديس اسكندر اجتمع الشعب حالاً واختاروا القديس اثناسيوس بطريركًا وقد اثبت انتخابهُ جميع الاساقفة فاضطر القديس اثناسيوس الى ان يقبل الارتقاء الى مقام البطريركية فارتسم بطريركًا في اليوم الثامن عشر من شهر كانون الثاني في السنة السادسة والعشرين من المائة الرابعة للمسيح . فحصل للاريوسيين بذلك غمٌّ جسيم وكادوا ييأسون لانهم كانوا يجدون في شخص القديس اثناسيوس بطريركًا حسن السيرة بريئًا من كل عيب مستقيمًا في تعليمهِ حاذقًا في علمهِ مضطرمًا بنار الغيرة على الايمان الكاثوليكي واصلب من الحجر في الحرب عنهُ . ولكن الاريوسيين اتخذوا قوةً من ابغاضهم للحق ومنتهم لعاضدهِ فعزموا على اسقاط القديس عن عرش البطريركية واخراجهِ من ارض رعيتهِ بل من الشرق كلهِ وقصدوا ان يميتوهُ ايضًا ان استطاعوا ولعمري ان الله كما قال المعلم روفينوس في تواريخهِ قد انتخب هذا القديس ليريهُ كم ينبغي لهُ ان يتألم من اجل اسمهِ . على انهُ قد تبين ان الدنيا قامت تحاربهُ وان الملوك والشعب اتفقوا ليبيدوهُ من الارض . وكان القديس يرى هذا كلهُ بطمانينة قلبٍ ملقيًا همهُ بين يديهِ تعالى ومعدًّا نفسهُ للموت من اجل الايمان الكاثوليكي . قائلاً في قلبهِ بشجاعةٍ من لدن الله إن اصطفَّ عليَّ عسكر فلا يخاف قلبي وان قام عليَّ قتال فانا بهِ واثق (مزمور ٢٦ : ٣) وقد اضطهدهُ ملوك الشرق الأربعة اي قسطنطين الكبير وابنهُ قسطنسيوس ويوليانوس الملحد والنس

اما قسطنطين فلم يضطهدهُ الاَّ على سبيل الغلط وبنيَّة صالحة . واما الثلاثة الآخرون فانهم اضطهدوهُ بقصدٍ خبيث وبروح البدعة والنفاق . ان الاريوسيين وشوا بهِ الى الملك قسطنطين الكبير قالوا ان ارتسام اثناسيوس لم يكن قانونيًا ولكنما كثيرون من الكاثوليكيين اثبتوا حقيقة ارتسامهِ ومنهم القديس باخوميوس الذي حين ارتقاء القديس اثناسيوس الى الكرسي رأى رؤيا وفيها قال روح الله اني قد أقمت

اثناسيوس عمودًا ونورًا لكنيستي وستنالهُ شدائد وتلقى عليهِ تهم كثيرة من مناضلتهِ عن حق الديانة . الاَّ انهُ بالقوة الالهية يظفر بكل التجارب ويبشر الكنائس بحق الانجيل

وفي غضون ذلك قدَّم آريوس صورة ايمان ملتوٍ ذات التباس لانها كانت في الظاهر ارثوذكسية . فقبلهُ قسطنطين الملك وامر بقبولهِ . اما القديس اثناسيوس فلما اطلع على التباس آريوس فلم يرد ان يشترك معهُ فطفق الاريوسيون يسعون بالقديس الى الملك قسطنطين بالتهم الباطلة ويشنعون عليهِ بمثل قولهم انهُ بسلطانهِ وضع على مدينة مصر ضريبةً جديدة لربح كنيستهِ. ولكن بعناية الله سبحانهُ كان وقتئذٍ عند الملك كاهنان وهما اليبيوس ومكاريوس فبرَّآهُ من تلك التهمة . فعاد الاريوسيون بعد ذلك واتهموهُ تهمةً افظع من الاولى قالوا ان اثناسيوس كسر كاسًا مكرَّسًا وهدم كنيسةً وارسل مبلغًا وافرًا من المال الى فيلومنوس عدوّ المملكة فامر الملك بان يحضر اثناسيوس ويبرّئ نفسهُ مما قرفوهُ بهِ ويدفع تلك التهمة عنهُ . فحضر وكذَّب كل ما قرَّفوهُ بهِ واظهر خباثة اعدائهِ فردَّهُ الملك الى كنيستهِ ومدحهُ كثيرًا في رسالةٍ يقول فيها اني قبلت باكرام اثناسيوس اسقفكم كقبولي رجل متنوّر من الله . ومما سمعتهُ منهُ ورأيت فيهِ فقد استبان لي انهُ رجل جليل القدر وان كنيستكم على احتياج اليهِ لانهُ عالي الهمة وذو عناية بحفظ الحق والديانة ومحب للسلام وقابل للصواب

ففرح الكاثوليكيون بذلك جدًّا وازداد غضب الاريوسيين واجتهادهم في محاربة القديس وابتدأوا يتهمونهُ باشياء كثيرةٍ باطلةٍ وطلبوا ان يُعقد مجمع ليفحص عن هذه القضايا فاجابهم الملك الى ذلك وامر بان يُعقد مجمع في مدينة صور فاجتمع هناك اساقفة الشرق وكان اكثرهم اريوسيين وكان المتقدم في المجمع اوسابيوس اسقف قيصرية وهو رجل آريوسي فاتى القديس واساقفة مصر ودخل المجمع ومع انهُ كان ينبغي ان يكون هو المتقدم في ذلك المجمع من اجل كونهِ بطريرك الاسكندرية . فلم يأذنوا لهُ ان يجلس مع الاساقفة ولما رأى ذلك القديس بوتامون اسقف اراكيا نهض من كرسيهِ وبعين تذرف الدموع قال لاوسابيوس القيصري من يحتمل ان تكون انت جالسًا على كرسي التقدم واثناسيوس يقف كرجل مذنب أما تذكر اني أُلقيت واياك في السجن في زمن اضطهاد الوثنيين واني من اجل الايمان عدمت عيني اليمنى وانت خرجت سالمًا من السجن فكيف امكنك الخروج من السجن سالمًا

ثم نهض القديس باخوميوس واخذ معهُ القديس مكسيموس اسقف اورشليم وخرجا من المجمع فلم يبالِ الاريوسيون بذلك بل شرعوا يوردون ما اخترعوهُ من التهم الفاسدة ضد القديس ومن تلك التهم أنهم ادخلوا الى المجمع امرأةً زانيةً فقالت ان اثناسيوس غشيها رغمًا عنها ولكن الله الذي نهى عن الكذب أظهر في الحال كذبها وبيَّن خباثة اولئك المبتدعين الذين كانوا قد علموها هذه التهمة وحرضوها على ان تقذفهُ بها في المجمع . وكان ذلك انهُ لما سمع كلامها تيموتاوس الكاهن نهض للوقت والتفت الى المرأة مظهرًا بلسان الحال انهُ هو اثناسيوس لان المرأة لم تكن تعرفهُ وقال لها . أانا أيتها المرأة الذي زنيت بكِ كرهًا فصرخت المرأة قائلة . اي نعم أنت هو انت هو الذي جامعني وأثبتت كلامها بقسم رهيبٍ وطلبت من اباء المجمع باكيةً ومتباكيةً ان ينتقموا لها منهُ .فضحك الكاثوليكيون وخجل الاراطقة واخرجوا تلك البغيّ. ذلك ولم يقفوا عند هذا الحد بل قالوا انهُ ساحر وانهُ بواسطة سحرهِ قتل اسقفًا مبتدعًا اسمهُ ارسانيوس ومخافة ان يظهر كذب هذه التهمة كانوا قد خبأوا ارسانيوس المذكور في سجن ببلاد فينيقيا . ثم اظهروا يد ميتٍ كانت قد يبست الاَّ ان ارسانيوس بما انهُ كان عارفًا ببغض الاريوسيين خاف من ان يحكم عليهِ بالموت فيما بعد اذا ظهر الكذب فهرب من سجنهِ واتى مسرعًا الى القديس قبل ابتداء المجمع واخبرهُ بقصد الاراطقة ومن ثم لما اتهموهُ في المجمع قال القديس اثناسيوس هل في المجمع احد يعرف ارسانيوس اجابوا انهم يعرفونهُ حينئذٍ قام ارسانيوس في الوسط فلما قالوا هذا هو حقًّا نزع القديس عن ارسانيوس رداءَهُ واظهر يديهِ اليمنى واليسرى ثم قال لمن هذه اليد الثالثة المقطوعة اسألوا الذين اتهموني من أين اخذوها اما الاراطقة فلما رأوا انهُ وضح خبثهم وقحوا وجهًا ونسبوا اظهار كذبهم هذا الى سحر اثناسيوس ولو لم يخرج من المجمع ويفر هاربًا الى القسطنطينية ليخبر الملك بما كان لكانوا قطعوهُ عضوًا عضوًا . فحكم وقتئذٍ المجمع الخبيث على القديس وعزلوهُ عن كرسيهِ ونفوهُ من مدينتهِ واثبت حكمهم المشار اليهِ مجمعٌ خبيثٌ عُقد في اورشليم واخبروا الملك بان آريوس على

ايمان المجمع النيقاوي ولان كونستاسيوس ابن الملك كان اريوسيًّا تقوّى الاريوسيون جدًّا ورُزقوا حظوةً عند الملك ولم يستطع القديس اثناسيوس ان يخاطب الملك لان اشراف الدولة والجنود اكرامًا لخاطر ابن الملك كانوا يمنعونهُ الدخول اليهِ . انهُ عندما كان الملك ذات يومٍ يجول في المدينة رام القديس ان يدنو منهُ فدفعتهُ الجنود . فهتف حينئذٍ القديس قائلًا يا ايها الملك اسأل عزَّتكم شيئًا واحدًا ان تحضر الذين حكموا عليَّ لكي اورد دعواي فامر الملك بان تجيء الاساقفة اخصامهُ الى القسطنطينية

فحضر اساقفة الاريوسيين واتهموا القديس من جديد انهُ عزم على ان يمنع ان يُجلب شيءٌ من مصر الى القسطنطينية فصدق الملك هذي التهمة وغيرها وامر بان يُنفى القديس اثناسيوس الى تريفيرا مدينة ببلاد المانيا وكان ذلك سنة ست وثلاثين من المائة الرابعة للمسيح . اقول لا يخلو اما ان يكون الملك قد اصاخ سمعًا اليهم وصدّق كلام اولئك الاساقفة الخبثاء فنفاهُ كما اسلفنا واما انهُ رأى ان كنيسة الاسكندرية لا تستريح ولا تنتهي منها تلك المجادلات الدينية ان لم يغب اثناسيوس المبغض من جميعهم . واما ان يكون قد خاف من انهم يقتلونهُ ان لم ينفِ اثناسيوس ويثبت حكم الاساقفة عليهِ بذلك المجمع المومأ اليهِ . وبناء عليهِ ينسب هذا الحكم على الخصوص الى الاساقفة الاراطقة الذين ظهروا لديهِ بلباس الحملان مع كونهم ذئابًا خاطفة

ومع ذلك لما سمع القديس هذا الحكم قال الملك انهُ سيقوم الله ديَّانًا بيني وبينك انت الذي قبلت شكوى اعدائي وصدقتها . فانطلق القديس الى المدينة المعينة لنفيهِ مع جملة اساقفة كاثوليكيين وقد قبلهُ باكرام قسطنطين الصغير قائد جنود المملكة في الغرب والقديس مكسيمينوس اسقف مدينة تريفيرا غير ان كاثوليكيي الاسكندرية حصل لهم بعد ذلك حزن شديد واضطراب عظيم . وكتب القديس انطونيوس الكبير الى الملك وابان جورهُ في حكمهِ بالنفي على القديس المذكور وطلب منهُ ان يصلح الامر . فلم يلتفت الملك الى كلامهِ بل أذن لاريوس ان يعود الى الاسكندرية . غير ان قسطنطين الملك طلب من اريوس ان يكتب لهُ صورة ايمانهِ وان تكون نظير ايمان المجمع النيقاوي . فقدَّم لهُ اريوس صورة ايمانهِ وبعد ما قرأها الملك قال لاريوس ان كنت تعتقد في قلبك ما تلونهُ بفمك فحسنًا قد حلفت لكن ان كنت تكلمت بشيءٍ يضادُّهُ ما في قلبك فليعاقبك الله على كذبك وقسمك الباطل . وبعد ذلك افرغ اريوس كل جهدهِ في ان يشترك مع القديس اسكندر اسقف القسطنطينية وطلب بذلك عونًا من الملك والجنود ليدخل بهم الكنيسة الاسقفية

غير ان القديس المعظم بما انهُ كان عارفًا بخبث اريوس آثر ان يموت الف مرة على ان يحيا مشتركًا مع ذلك المبتدع ولم يطلب عونًا بشريًّا بل انفرد في كنيسةٍ تسمى كنيسة السلام اقام هناك ايامًا كثيرة مواظبًا على الصلاة اثناء الليل واطراف النهار ملتمسًا العون الالهي بدموع سخينة قائلًا نحوهُ تعالى الهي ان كان ديني حقًّا كما اعتقد فأذن ان يُعاقَب اريوس مصدر كل هذه البلايا بحسب اثمهِ ونفاقهِ . والشعب ايضًا كانوا يطلبون ذلك معهُ وصاموا سبعة ايام بمشورة القديس يعقوب اسقف نصيبين الذي كان وقتئذٍ في القسطنطينية فلما تقدم اريوس بجماعة من الجنود ليدخل الكنيسة قهرًا اصابهُ بغتةً اسهال شديد فقذف من جوفهِ مواد كثيرة حتى امعاءهُ كلها ومعها خرجت نفسهُ الشريرة

وبعد قليل توفّي قسطنطين الكبير وكان قد عزم مصممًا على اعادة القديس اثناسيوس الى كرسيهِ وخلفهُ ابناءهُ الثلثة اعني قسطنطين في بلاد الغرب وقسطنسيوس في الشرق وقسطنت في ايطاليا وافريقيا . وللوقت ارجع قسطنطين القديس اثناسيوس الى مركزهِ مع رسالة كان يمدحه فيها جدًّا ويقول ان اباهُ المعظم ارسلهُ الى تريفيرا لكي ينقذهُ من ايدي اعدائهِ . فلم يجسر وقتئذٍ قسطنسيوس الاريوسي ان يضادَّ اخاهُ بل صبر قليلًا الى ان ينتهز فرصةً لقضاء غرضهِ

اما الاريوسيون فلم يحتملوا ذلك بل ارسلوا الى البابا جوليوس الذي مع انهُ كان عارفًا بان اقوالهم في حق القديس اثناسيوس اكاذيب لا تصح لم يُرِد لاغراضٍ اقتضتها الحال ان يحكم بالامر من تلقاء نفسهِ بل عقد مجمعًا في رومية سنة احدى واربعين من المائة الثالثة للمسيح اثباتًا لتبرئة القديس اثناسيوس على عيون الاخصام ولذلك دعاهم ودعاهُ للمجمع فحضر القديس اثناسيوس ولم يحضر اعداوهُ . وفي هذا المجمع قرئت رسالة اساقفة مصر التي بها برَّأوهُ ونزهوهُ عن كل ما رماهُ بهِ اريوس واتباعه من التهم . وبعد الفحص عن القضية حكم المجمع بانهُ بريءٌ من كل ما قرفوهُ بهِ . ومكث القديس في

رومية سنةً ونصف سنةٍ وهناك نشر ترجمة القديس انطونيوس الذي كان لا يزال حيًّا وبقرائتها زهد كثيرون من العظماء في الدنيا اقتداءً بهِ . ثم عاد القديس اثناسيوس ثانيةً الى كرسيهِ

ولكن الاريوسيون عقدوا لمقاومتهِ مجمعًا آخر في انطاكية في السنة الحادية والاربعين بعد الثلث مائة وكان الملك قسطنسيوس حاضرًا وحكموا على القديس انهُ مذنب لانهُ تجاسر على ان يعود الى مركزهِ بغير اذن مجمع اكبر من المجمع الذي عزلهُ . واقاموا اسقفًا في كنيسة الاسكندرية رجلاً مبتدعًا كبادوكيًّا فدخل ذلك الشرير كذئب خاطف على رعية الراعي الحقيقي الصالح وبدأ يتنك بالكاثوليكيين بقساوة وحشية . وكان يسعفهُ على ذلك فيلاغروس والي مصر الذي كان قد انكر النصرانية والعياذ بالله وكان يهيج جنودهُ ليسفكوا دماء الكاثوليكيين . اما القديس اثناسيوس فلما رأى ذلك كلهُ خرج من المدينة خفيةً راجيًا ان يكف المبتدعون عن مثل تلك الشرور الفظيعة اذا غاب هو . ولكنهُ قبل خروجهِ كتب رسالة الى جماعة الكاثوليكيين وفيها ذكر ما شاء الله من البراهين التي تثبتهم في الايمان وامرهم بان يؤثروا الموت ولو الف مرة على ان يجبوا مشتركين مع الاراطقة اشتراكًا كنائسيًّا . فانطلق القديس المذكور الى رومية عاصمة الايمان وملجأ المؤمنين المضطهدين . وكان قد مات حينئذٍ قسطنطين الصغير وكان اخوهُ قسطنت في بلاد ايطاليا فقبلهُ البابا جوليوس والملك المذكور بالمحبة والاكرام واهّلوا بهِ وبُرِّئ القديس اثناسيوس في مجمع عقدهُ البابا في رومية في السنة الثانية والاربعين بعد الثلث مائة . ذلك وان الاراطقة من اساقفة المشرق لم يرتضوا بارجاع اثناسيوس الى كرسيهِ . فكتب الملك قسطنت الى اخيهِ في شان القديس اثناسيوس ليحامي عنهُ ويردّهُ الى كرسيهِ . فصدر امر البابا جوليوس والملك قسطنسيوس بان يُعقد في بلاد الشرق المجمع المسكوني السرديكي في السنة السابعة والاربعين بعد الثلث مائة للمسيح

وفي المجمع المشار اليهِ حكم الاباء على ايمان القديس اثناسيوس بانهُ صحيح كاثوليكي . وعلى اعتقاد الاريوسيين اعدائهِ بانهُ خطأ مرذول وعزلوا غريغوريوس الكبادوكي عن كرسي البطريركية الاسكندرية ودعوهُ اسقفًا دخيلاً بل انكروا عليهِ الاسقفية . اما الاساقفة الاريوسيون فخرجوا من ذلك المجمع والتأموا في مدينة فيليبُوليس ولم يستحيوا من ان يحرموا اباء المجمع السرديكي حتى البابا جوليوس نفسهُ لانهم اشتركوا مع القديس اثناسيوس . اما قسطنت الملك الكاثوليكي الغيور حقًّا فكتب الى اخيهِ الملك الاريوسي ثانيةً انهُ سينادي عليهِ بالحرب ان لم يرجع القديس اثناسيوس الى كرسيهِ . ولذلك عندما ذهب القديس الى انطاكية ليسلّم على الملك استقبلهُ الملك بالاكرام واهّل بهِ واظهر لهُ محبتهُ واقسم لهُ بانهُ سيحامي عنهُ فيما بعد وانهُ لا يصدق ما لا بدّ ان يقال عنهُ قبل ان يسمع منهُ ما يُبرّئهُ . ثم قال للقديس بمشورة اولئك الاراطقة اطلب منك ان تعطي في الاسكندرية كنيسةً واحدةً للاريوسيين ليصلوا فيها . فقال القديس نعم ولكن بشرط ان يعطونا كنيسة واحدة في انطاكية . فبهت الملك من هذا الجواب ورجع عن طلبهِ بمشورة الاريوسيين انفسهم . وخرج القديس من انطاكية منطلقًا الى مركز بطريركيتهِ . ولما وصل الى اورشليم قابلهُ القديس مكسيموس الاسقف بسرور عظيم وعُقد هناك مجمع وحضرهُ القديس اثناسيوس واثبت فيهِ ايمانهُ . ولما وصل الى الاسكندرية استقبلهُ اهلها كانهُ ملك هبط عليهم من السماء واظهروا من الفرح ما يعجز عنهُ لسان القلم ولم يقتصروا على الجذل وانما نشطوا الى الافعال التقوية . واما هو فبعث برسالةٍ الى السياح يقول فيها ان الناس في الاسكندرية شرعوا يحثّون بعضهم بعضًا على ممارسة افعال البرّ بحيث قد صارت تلك المدينة بستان الآداب وجنة الخلال الحميدة وحديقة الفضائل المسيحية وان كثيرين زهدوا في الدنيا واستوطنوا الفيافي ليترهبوا . وان فتيات كثيرات نذرنَ لله بتوليتهنَّ وشبانًا كثيرين متزوجين عاشوا بالعفة مع نسائهم . والاغنياء وزعوا اموالهم على الفقراء وكان كل بيت نظير كنيسة

الَّا انهُ بعد ان قتل رجل بربري يُدعى مغنانتيوس الملك قسطنت واختطف مملكتهُ سنة خمسين وثلاثمائة للمسيح وجد الاريوسيون الزمن ملائمًا فشرعوا يقولون ان الله تعالى انتقم من قسطنت لاجل مدافعتهِ عن البطريرك اثناسيوس ومن ثمَّ يجب على اخيهِ الملك قسطنسيوس ان يعزل هذا البطريرك الذي مات اخوهُ بسببهِ . ولكن الملك الاريوسي لم يتجرَّأ ان يفعل ذلك لان مغنانتيوس الملك الدخيل كان يحاربهُ في ذلك الوقت . بل انهُ كتب حينئذٍ رسالةً مملوَّة من

عبارات الاحترام والمحبة الى القديس اثناسيوس . ولكنهُ بعد سنة من ذلك العهد انتصر على مغنانيتوس ووجَّه حربهُ نحو الكاثوليكيين . ولما كان اثاسيوس راسهم رام هوان يعقد مجمعًا ضدهُ في مدينة ميلان وفيهِ احضر جبرًا البابا ليباريوس وامرهُ وكثيرين من الاباء ان يحرموا القديس اثناسيوس ويطردوهُ من الكنيسة فلم يقبل البابا ولا اولئك الاباء فنفاهم الملك جميعهم ووغر صدرهُ على الكاثوليكيين واثار عليهم اضطهادًا شديدًا قال عنهُ القديس باسيليوس اني ظننتهُ ابتداء اضطهاد المسيح الدجَّال الذي تنبَّأ عنهُ القديس بولس في رسالتهِ الى اهل تسالونيكي الَّا اننا لا نذكر هنا سوى ما حلَّ بالقديس اثناسيوس في الاسكندرية فبحسب امر الملك اخذ سيريانوس القائد الاريوسي خمسة آلاف جندي وفي اليوم التاسع من شهر شباط سنة ست وخمسين وثلاث مائة للمسيح دخل بغتةً هو وجنودهُ كنيسة الاسكندرية حيث كان القديس يعظ الشعب من على المنبر فلم يتحرَّك القديس ولم يزل واعظًا المؤمنين ومحثًّا اياهم على الصلاة فاقترب منهُ الجنود ليمسكوهُ ولكن الله سبحانهُ ضرب على عيونهم غشاوةً فما قدروا ان يميزوهُ . فجاز حينئذٍ فيما بينهم مع بعض من الاكليريكيين واختبأ في المدينة زمنًا قليلاً ثم هرب الى البريَّة واختبأ في احدى المغاور ستة اعوام وكان احد الاكليريكيين يأتيهِ بالقوت الضروري . فشرع الاريوسيون يطلبونهُ ويفتشون عنهُ بامر الملك في كل اطراف المملكة برًّا وبحرًا حتى كانهُ عدوُّ البشر كلهم . وفيما كان في مغارتهِ مواظبًا على الصلاة اذ نمى اليهِ خبرٌ بان الاريوسيين كتبوا صورة ايمانهم وانهم يُكرهون الناس على قبولها وختمها . وان كثيرين ختموها خوفًا من الملك . فحزن الراعي الصالح على تلاف خرافهِ ونظير اسد يزأر في البرية كتب اربع مقالات يحث فيها المؤمنين بغيرة شديدة على الثبات في الايمان الكاثوليكي . فلما كانت الامور على تلك الحال مات الملك قسطنسيوس الاريوسي وكانت وفاتهُ في اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني سنة احدى وستين من المائة الرابعة للمسيح وجلس على عرش الملك من بعدهِ يوليانوس الجحد الذي مع انهُ كان يبغض المسيحيين ويشتهي ان يُبيدهم أمر بان كل الاساقفة الذين كان قد نفاهم سالفهُ يعودون الى كراسيهم فرجع اثناسيوس الى الاسكندرية كما روى القديس ايرونيموس . وما كان ذلك

عن مودَّةٍ كما مرَّ بل لمأربٍ فانهُ كان يريد ان يخدع النصارى حتى يحسبوهُ ملكًا رؤوفًا بالرعية وان يشين سالفهُ قسطنسيوس لانهُ كان يبغضهُ جدًّا ولذلك فرَّج كل الذين جار عليهم سالفهُ المذكور

وروى القديس غريغوريوس النزينزي انهُ عندما رجع القديس اثناسيوس الى الاسكندرية خرج كل سكانها للقائهِ واستقبلوهُ بالابتهاج والفرح . واما جاورجيوس الاسقف الدخيل فكان لهُ وقتئذٍ في قلوب الجميع بغضٌ شديد حتى ان الوثنيين قتلوهُ قبل رجوع اثناسيوس واحرقوا جسدهُ والقوا رمادهُ في البحر وفرح الاراطقة بقتلهِ . فاخذ القديس يصلح في الرعية ما كان تلف لا بقوة السيف بل بقوة التعليم وايضاح الحق . وفي الجملة فقد ردَّ الناس عن الغواية وعن عبادة الاوثان . فدرى بذلك يوليانوس الملك الوثني فامر بقتلهِ فنهض حينئذٍ القديس وركب السفينة في النهر ليهرب الى الصعيد . غير ان رسول القتل عرف انهُ هرب فسار في طلبهِ اسرع من الطير . فلما رأى الذين كانوا مع القديس ان سفينة رسول القتل اقتربت منهم اشاروا عليهِ بان يخرج الى البر فيهرب الى البريَّة ويختبئ . وبغتةً استنار عقل القديس المومأ اليهِ بفطنةٍ من عند الله فامر رئيس المركب ان يوجّه السفينة نحو طالبي نفسهِ كانهُ منطلق الى الاسكندرية فلما صار بازاء اعدائهِ قال الاعداء هل جاز من هنا اثناسيوس وهل هو بعيد منا . فقال القديس نعم انهُ جاز من هنا حقًّا وليس هو بعيد . فجدُّوا في طلبهِ بالمجاذيف اما القديس فعاد الى الاسكندرية ومكث هناك مختبئًا الى ان مات يوليانوس الملك بعد سنة اشهر من ذلك العهد . فملك جوفيانوس وبحيث انهُ كان رجلاً كاثوليكيًّا نقيًّا محبًّا للناس وللقديس استراحت الكنيسة من الاريوسيين غير انهُ لم يبقَ حيًّا الَّا ثمانية اشهر . وخلفهُ في الملك والنتينوس وقسم المملكة فاخذ ما في الغرب لنفسهِ وسلَّم الشرق الى اخيهِ والنس ولانهُ كان هذا آريوسيًّا امر بنفي جميع الذين كان قد نفاهم قسطنسيوس الاريوسي فاختبأ وقتئذٍ القديس اثناسيوس في قبر ابيهِ واستمر هناك اربعة اشهر

غير ان الملك والنس خاف من ان يغتاظ اخوهُ الملك والنتينوس وان يتعصب عليهِ الشعب الملحّ في طلب راعيهِ ولذلك اذن ان يعود القديس الى كرسيهِ . فآب اليها وجعل

يرعاها بالهدوء والسكينة حتى استأثرت بهِ رحمة المولى في اليوم الثاني من ايار سنة احدى وسبعين وثلاثمائة للمسيح . وقال فيهِ القديس غريغوريوس النزينزي ان من يمدح القديس اثناسيوس يمدح الفضيلة نفسها . واما عن تصانيفهِ فقال الانبا قزما ان من يجد شيئًا منها فليكتبهُ حالاً على قرطاس وان كان لا يجد قرطاسًا فليدوّنهُ على اثوابهِ

اليوم الثالث

وفيهِ عيد وِجدان صليب السيد المسيح

اعلم ان كل ما نذكرهُ في هذا الفصل مأثور عن القديسين امبروسيوس وبولينوس وعن الأنبا روفينوس وغيرهم من المؤرخين

ان الملك قسطنطين الكبير حينما كان منطلقًا مع عسكرهِ ليحارب مكسنسيوس الذي كان عسكرهُ مؤلفًا من مائتي الف جندي رأى انهُ محتاج الى عون من لدن الله سبحانهُ فالتجأ وقتئذٍ الى اله المسيحيين ولم يزل في سفرهِ يستعين بهِ . وبينما هو على تلك الحال رأى في النهار صليبًا في الجو اضوأ من الشمس وكان مكتوبًا حولهُ انك بهذه العلامة تفوز بالظفر . فاندهش الملك والجيش من هذه الآية . وليلة ذلك اليوم تجلّى سيدنا يسوع المسيح للملك نفسهِ بهذه العلامة ثانيةً وأمرهُ ان يصوّرها على راية الحرب ففعل . ثم استدعى بعض اساقفة ليتعلم منهم حقائق ايماننا وبعد ان عرف قواعد النصرانية آمن وعزم ان يغرس الدين المسيحي في كل المملكة ويبطل العبادة الوثنية كلها

وفي غضون ذلك أخرج مكسنسيوس جيشهُ العظيم من رومية وابتدأت الحرب بين عسكرهِ وعسكر قسطنطين فانكسر عسكر مكسنسيوس انكسارًا كليًا وغرق هو في النهر ودخل قسطنطين رومية منتصرًا . ثم انتصر ايضًا على ليسينيوس ملك الشرق . وللوقت اهتم بان يؤيد النصرانية ويُبيد ما كان قد بقي من عبادة الاوثان . ولما كان الوثنيون قد دنسوا الاماكن المقدسة واقاموا على القبر المقدس هيكلاً لآلهتهم أمر بان يهدموهُ وابتنى في ذلك المكان كنيسة عظيمة . وفي هذا الصدد كتب الى مكاريوس اسقف اورشليم ما مضمونهُ: اني امرت دراسيليانوس حاكم البلاد بان يبني هذه الكنيسة على الهيئة التي رسمتها . اما القديسة هيلانة والدتهُ فارادت هي ان تعتني بهذا البناء وكانت حينئذٍ ابنة ثمانين عامًا فامرت الفعلة ان يحفروا في ارضٍ في جبل الجلجلة فحفروا وبعد تعب شديد كُشِف عن قبر المسيح . ومن حيث ان اليهود كانوا قديمًا يدفنون كل آلات التعذيب مع اجساد الذين عُذّبوا بها . أمرت الملكة ان يفتشوا عنها حول قبر المسيح فوجدوا ثلثة صلبان واللوح الذي كان فوق صليب المخلص ولان هذا اللوح كان بجانب الثلثة الصلبان ولم يمكن ان يُميَّز صليب السيد المسيح من غيرهِ . أمر الاسقف الشعب المسيحي بان يُصلوا فطلبوا من الله تعالى ان يظهر باعجوبة ايُّ الثلثة هو العود الذي صُلب عليهِ رب المجد . وبعد الصلاة اتوا بامرأة كانت قد اشرفت على الموت ومسوها بالصليب الاول والثاني فلم تبرأ فلما وضعوا عليها الثالث برئت للوقت

وقال القديس بولينوس انهم وضعوا الصليب المقدس على رجل ميْت فقام من الموت . والأولى ان نقول حسب رأي نيكيفوروس ان هاتين الاعجوبتين صُنعتا بقوة الصليب المقدس . وكان وجودهُ سنة ست وعشرين وثلاثمائة للمسيح حينئذٍ بنت القديسة هيلانة كنيسة كبيرة في ذلك المكان وتركت فيها جزءًا من الصليب وما بقي ارسلتهُ الى ابنها الملك وقد قال القديس كيرللس الاورشليمي الذي جلس على هذا الكرسي بعد عشرين عامًا من وفاة القديس مكاريوس . ان الدنيا كلها امتلأت في زمنٍ قليل من اجزاء هذا الصليب المقدس لان اساقفة اورشليم وزّعوا من الجزء الذي تُرك في اورشليم على كل الزوّار المعتبرين . وقال هذا القديس ان الجزء الموضوع في اورشليم لم ينقص ابدًا وان هذه القوة التي بها كان هذا العود اليابس ينشأ وينمو كانهُ حيٌّ انما اخذها من ذلك الجسد الالهي الذي مات وانتصر على الموت بقيامتهِ المجيدة

ان الكنيسة تعيّد لوجدان صليب سيدنا يسوع المسيح لكي نعلم كم يجب علينا ان نكرمهُ . قال القديس يوحنا فم الذهب ان الصليب المقدس هو رجاء المسيحيين وتعزية الحزناء وملجأ الخطأة وميناء الخلاص للجميع وهو الذي يخيف الشياطين وينتصر على قوات الجحيم كافةً ومشاهدتهُ تزيدهم عذابًا . ان المؤمنين بالصليب والمتكلين عليهِ عند ما يبصرونهُ ويسجدون لهُ يجدون دواءً لأدوائهم وطمأنينةً لقلوبهم في ساعة الموت وشجاعةً عند الهول والخطر . لانهُ بالنظر الى الصليب يخف

اثقل ما في العيشة القشفة . ان الصليب هو شكٌ لليهود واهانة للامم . ولكنهُ للمؤمنين قوة الله وحكمتهُ وزينة اكاليل الملوك كما جاء في كتاب الله . ثم يهتف القديس افرام قائلاً لنرسمنّ على ابوابنا وجباهنا وافواهنا وصدورنا علامة الصليب المقدس ولنتسلح بهذا السلاح لان الصليب هو انتصارنا على الموت ورجاؤنا ونور العالم ومفتاح الفردوس والسيف الذي يقطع المبتدعين

فعليك ايها المسيحي ان تحمل هذا الترس ليلاً ونهارًا وليكن معك في كل مكان ولا تبتدئنّ بشيءٍ الاّ وقد عملت علامة الصليب . نائمًا او ساهرًا مشتغلاً او مستريحًا مسافرًا في البحر او في البر فكن متنطقًا بالصليب دائمًا . وقال القديس يوحنا الدمشقي ان الصليب هو ترسنا تجاه اركون الظلام وهو الرسم المكرَّم المرسوم علينا كي نجو بهِ من الملَك المبيد المنتقم . وكان قد نادى بذلك المعلم ترتوليانوس قال ان المسيحيين عادةً لا يبدأُون بعمل قبل ان يعملوا علامة الصليب المقدس ومن ثمّ يجب علينا كلما خرجنا من البيت او دخلناهُ وكلما انتبهنا من النوم وكلما لبسنا اثوابنا وكلما جلسنا على المائدة لناكل وكلما اضجعنا على الفراش لننام ان نعمل فوق جباهنا علامة الصليب لاعتقادنا اليقين اننا نجو بهِ من كل شرّ

اليوم الرابع

وفيهِ ترجمة القديس اسكندر البابا

اعلم ان هذا القديس هو الخامس من خلفاء القديس بطرس في الرئاسة على كنيسة الله كلها وقد جلس على عرش الخلافة الرسولية مع انهُ لم يكن الاّ ابن ثلثين سنة ومنذ حداثتهِ انتظم في سلك الاكليريكيين . ولما كان شريف النسب كان لا يعاشر الاّ اماثل المدينة . ولذلك استمال منهم كثيرين الى النصرانية . وجلس على عرش الخلافة الرسولية بانتخاب الاكليريكيين والشعب الروماني سنة تسع ومائة للمسيح بعد وفاة القديس افارستوس البابا في عهد تراجانوس الملك . فازدادت غيرة القديس اسكندر وبها زادت رعيتهُ في زمن قليل بحيث تنصَّر على يدهِ جماعة كثيرة من جملتهم هرمس حاكم مدينة رومية مع امرأتهِ وكل اهل بيتهِ . وقد تم الامر على هذه الصورة اي ان هذا الحاكم كان لهُ ابن وحيد عزيز جدًّا فمرض مرضًا ثقيلاً ومن جرى ذلك امتلأ منزلهُ حزنًا . فلما اختبر كل ادوية الاطباء ورآها بدون فائدة التجأ الى آلهتهِ فحملوا الابن المريض من صنم الى صنم ولم ينل الشفاء بل ازداد مرضهُ خطرًا ثم مات . فقالت مرضع الصبي لوالديهِ من شدة اسفها على موتهِ وقد كانت عمياء لو انكما تحملان الولد الميت لا الى هياكل آلهتنا بل الى قبر يسميهِ المسيحيون قبر القديس بطرس ونقدمانهِ للبابا اسكندر لكان ابنكما شُفي . فقالت لها والدةُ الصبي ان كنتِ تتكلين على قدرة البابا فاذهبي اليهِ واطلبي منهُ ان يرد اليكِ النظر فان فعل معكِ هذه الاعجوبة فحينئذٍ يصير لنا امل انهُ يقدر ان يقيم ابننا من الموت . فقامت المرأة من ساعتها ومضت الى القديس اسكندر وجثت امامهُ قائلةً لهُ ان كان الاله الذي تعبدهُ لهُ قدرة ضابطة الجميع فارغب اليك ان تضرع اليهِ من اجلي ليفتح عينيّ . حينئذٍ عمل علامة الصليب المقدس وفتح عينيها باسم السيد المسيح

فعادت المرأة الى البيت مسرعة وحملت على ظهرها الولد الميت واتت بهِ الحبر القديس وكان قد تبعها بعض اشخاص من ذلك المنزل فلما مثلت امامهُ وضعت على الارض الولد الميت وقالت لهُ اسأَلك ياسيدنا ان تصير في عمياء كما كنت قبلاً وتنهض هذا الغلام من الموت . فاجابها الحبر القديس اعتقدي ان سيدنا يسوع المسيح الاله الضابط الجميع يُقيم الصبي من الموت من دون ان تفقدي النظر الذي نالكِ من كرم الله قال ذلك ثم صلى وبعد صلاتهِ اقام الفتى من الموت امام خدام الحاكم . ثم امسكهُ بيدهِ ومضى بهِ وقدَّمهُ لأبيهِ حيًّا . فاخذتهُ الحيرة اما والدتهُ فلما عاينت ابنها حيًّا احتضنتهُ بفرح لا يوصف ولما هدأَت حركة فرح ابويهِ خرًّا على قدمَي القديس وطلبا اليهِ ان يُقيمهم بين المسيحيين . فعلمها القديس وعلَّم ابنها وكل ما عندهما من الاتباع ايضًا قواعد النصرانية ثم عمَّدهم جميعًا وبعد المعمودية زهد الحاكم وامرأتهُ في الدنيا وصرفا جانب اهتمامهما الى عبادة الله فقط ثم اطلق جميع خدامهِ الاسرى ووزَّع عليهم وعلى الفقراء امواله كلها

فشاع في رومية خبر هذه الاعجوبة فتنصر بسببها خلق كثير واضطربت لها الشياطين فحرَّكوا كهنة الاوثان وكتبوا الى الملك تراجانوس واعلموهُ بما جرى . فارسل الملك واليًا آخر الى رومية يقال لهُ اوربليانوس وهو من اقسى اعداء

النصارى وامر ان يُضيق على المسيحيين بحيث لا تأخذهُ شفقة على احد منهم . فلما وصل الى السجن سجن القديس اسكندر والكاهنين افانسيوس وتاودولوس . واما هرمس الحاكم فسلمهُ الى صديقهِ كيرينوس احد اشراف المدينة لانهُ وعد الوالي بانهُ يرد صديقهُ الى مذهبهِ الاول . فاخذ كيرينوس يخاطب صديقهُ بصفاء المودة مجتهدًا ان يردهُ الى عبادة الاوثان . اما هرمس فبيَّن لكيرينوس حقيقة الاعجوبة التي تنصَّر بسببها لانهُ استدل بها على ان الديانة المسيحية مقدسة وشريعة المسيح مطهَّرة بحيث قابل ما بها من الادبيات بما تتضمَّنهُ الديانة الوثنية من الفساد وقلة الآداب ورأى ما بينهما من الفرق العظيم من هذه الحيثية . واما كيرينوس فكان يسمع ذلك كلهُ متعجبًا صامتًا

ثم فتح فاهُ وقال لهرمس صديقهِ ان أردت ان اقتفي على آثارك واتنصَّر انا ايضًا فاعمل وسيلةً لاشاهد هذه الآية وهي انهُ بعد ان يكون قد اغلق باب سجنك يأتيك البابا اسكندر من سجنهِ . فاجابهُ هرمس ليكن كقولك لان الذي تطلبهُ سهل لدى اله المسيحيين القادر على كل شيء . فارسل هرمس واخبر القديس اسكندر بطلبة كيرينوس وقصدهِ . ثم ختم كيرينوس سجن البابا وسجن هرمس وكثَّر عليهما الحرَّاس فصلَّى القديس اسكندر واذا بملاك ظهر لهُ بصورة طفل وفي يدهِ مصباح متقد فقال لهُ اتبعني فخرج من السجن من غير ان يفتح الباب وذهب الى حيث كان هرمس مسجونًا ودخل سجنهُ ايضًا من دون ان يفتح الباب

فلما اتى كيرينوس وتحقق الاعجوبة اخذهُ العجب والانذهال وعلَّموهُ بآيات المسيح وآمن هو وابنتهُ وكل الذين كانوا في السجن واعتمدوا . واما كيرينوس وهرمس فانا بعد ان عُذّبا عذابًا أليمًا

اما اوريليانوس الوالي فلما عرف هذه كلها تلهَّب قلبهُ غيظًا وامر بعض الجنود ان يضربوا القديس اسكندر وذينك الكاهنين سياطًا ففعلوا . ثم مزَّقوهم بمخالب حديدية ولأنهم كانوا يحتملون كل ذلك بصبر وابتهاج ايضًا القاهم في أتون ملتهب فلم تمسَّهم النار البتة . فقطع حينئذٍ رأس الكاهنين المشار اليهما وأمات القديس اسكندر بوخز المناخز وهكذا نال اكليل المجد الابدي . وكان استشهادهُ في اليوم الثالث من شهر ايار سنة سبع عشرة ومائة للمسيح بعد ان رعى الكنيسة ثماني سنين . وفي هذه السنة نفسها مات ترايانوس الملك في الشرق . اما اوريليانوس فبعدما فتك بهم سمع صوتًا يقول نحوهُ هكذا انهُ قد انفتح لهولاء باب السماء اما لك فانفتح ايضًا باب جهنم وضُرب للوقت بمرض مميت ومن شدة الامهِ كان يمزّق لسانهُ باسنانهِ ثم اسلم روحهُ للشيطان . اما امرأتهُ سيفيرينا فآمنت بالمسيح واخذت تدفن اجساد الشهداء

اليوم الخامس

وفيهِ ترجمة القديسة مونكا امّ القديس اغسطينوس

ان الله جلَّت حكمتهُ جعل القديسة مونكا قدوةً صالحةً للنساء المسيحيات المقترنات برجال غلاظ الطباع شرسي الاخلاق ولهنَّ اولاد ارديا . وُلدت عليها السلام بافريقية سنة اثنتين وثلثين من المائة الرابعة للمسيح وكانت مائلةً الى العبادة ومحبةً للصلوات . ومنذ حداثتها مارست الفضيلة وكانت تروم ان تكون بتولاً طول عمرها . ولكنها لما رأت ان والديها يريدان ان يزوّجاها مشت على ارادتهما واقترنت برجلٍ غني يقال لهُ باتريسيوس كان وثنيًا فظَّ الطباع شرس الاخلاق فاقامت معهُ طويلاً وهي تحتمل أذاهُ بالصبر الجميل وتواظب على الصلاة وما برحت تفعل ذلك حتى آمن بالمسيح واعتمد . فحينئذٍ صار يداريها ويكرمها ويجري على ارادتها في كل شيء . اما الواسطة التي بها ربحت زوجها فتعرفها مما يأتي . قال القديس اغسطينوس ان هذه المرأة كانت تخدمهُ كأَمة تخدم سيدها وتنصحهُ بنموذج اعمالها الصالحة اكثر مما تعظهُ بكلامها . وحينما كانت تنصحهُ بالكلام كانت تمزج نصيحتها بعذوبة الاحتشام واللطف . وحينما كان يترق ويقذف الشتائم والالفاظ القبيحة المؤلمة ما كانت تبدي لهُ ما يزيدهُ غضبًا ولا كانت تتذمَّر منهُ عند احد . وبناء على ما ذُكر من تصرُّفها الحسن كان النساء يتعجبن كيف لم يقع بين مونكا وبعلها لا خصام ولا نزاع على فظاظة طبعهِ وصعوبة معاشرتهِ كما كان يقع بينهنَّ وبين رجالهنَّ وعند ذلك كانت تعلمهنَّ كيفية سلوكها معهُ واجتهادها في ارضائهِ في كل امر لا يضاد شريعة الله . وقالت لهنَّ مرةً انهُ منذ اليوم الذي فيهِ اقترنَّا بالرجال فقد الزمنا نفوسنا بالخضوع لهم . لان الرجل هو الرأس والسيد الذي ينبغي للمرأة ان تطيعهُ وتخدمهُ وتحتمل نقائصهُ وتربح محبتهُ بصبرها الجميل ودعتها فيجب

عليها ان تلازم الصمت وتحسن الخضوع. لان المرأة التي تكشف نقائص رجلها فان ذنبها في ذلك يساوي ذنب زوجها

فبالوسيلة المار ذكرها ظفرت القديسة مونكا بمحبة بعلها وخلاص نفسهِ وهو لما تأمل فضيلة امرأتهِ تحقق ان ديانتها انما هي الديانة الحقيقية فآمن بالمسيح واعتمد وصار بعد ذلك رجلاً انيسًا متضعًا عفيفًا نقيًا. هذا ما ذكرهُ القديس اغستينوس. ويذكر ايضًا انها فازت كذلك بمحبة حماتها التي الجواري كنَّ يزرعنَ بينها وبين كنَّتها الفتنة بحسب عادتهنَّ. لانها اي الحماة لما ان تأملت ثبات كنتها في حال التواضع والصبر والوداعة توعَّدت جواريها بالتأديب ان عدنَ تشكينَ من مونكا وبهذه الوسيلة صار للبيت سلام. غير انهُ بعد اعوام قليلة من ولادة القديس اغستينوس مات والدهُ قرير العين ولما أرملت القديسة مونكا جعلت تمارس ما يوصي بهِ الرسول الارامل. فاختلت في بيتها واهتمت بعبادة الله وبتدبير منزلها لا غير. ومع انها عُنيت بتربية ابنها اغستينوس على شريعة الله سلك منذ صبائهِ طريق الاشرار وتمرّغ في حمأة الرذائل وارتطم في اوحالها اياماً كثيرة حتى انهُ تهوَّر ايضًا في بدعة ماني القائل بالهين اله يفعل الخير واله يفعل الشرّ. قال وأما تلك الأم المتورّعة فما برحت تجتهد في ردّ ابنها عن الشرور وارجاعهِ عن الضلال. فكانت تنصحهُ بمحبة وتتضرَّع الى الله في شأنهِ بدموع سخينة وعن هذا كلهِ افصح ابنها القديس في كتاب اعترافاتهِ قائلاً يا العمق لجّة الشرور التي كنت انا غريقًا فيها ومع ذلك لم تهملني يارب بل مددتَ يدك لتنشلني من هاوية الهلاك. لان والدتي كانت حينئذٍ تبكي عليَّ ولا بكاء الثاكلة النائحة على موت ابنها الوحيد. وانما ذلك لانها كانت تراني ميتًا بين يديك وقد كانت تشاهد هذا بعين الايمان والنعمة التي اوليتها اياها ومن اجل هذا استجبت طلبتها وترأفت على دموعها المتواصلة. وكان الله تعالى قد اوحى اليها برؤيا انهُ سيتوب ابنها. وقال لها ذات يوم اسقف بارٌ ثقي يامونكا وليطمئنِ قلبكِ لانهُ من الممتنع ان يهلك الولد الذي تطلب امهُ خلاصهُ بمثل هذه العبرات. وفي هذا المعنى قال ابنها ايضًا. هل كان من الممكن ايها الاله الرحيم ان ترفض توسلات هذه الارملة المتضعة التقية الرؤوفة بالفقراء التي تأتي كنيستك صباحًا ومساءً لا لترى الناس وتخاطبهم بل لتسمع كلامك وتظهر امامك لواعج اشواقها المقدسة. ويا ليت شعري هل كان من الممكن ايضًا ان لا تنظر الى دموع أمتك التي لم تكن تطلب منك خيرًا زائلاً وانما كانت تطلب نجاة ولدها فقط من يد الشيطان. انتهى. ذلك ولم تكتفِ القديسة مونكا بممارسة ما مرَّ ذكرهُ من الافعال الحميدة من اجل خلاص ابنها بل انها عند ما شعرت بانهُ ركب متن البحر وذهب الى رومية ليعلّم فيها البيان ولهُ من العمر تسع وعشرون سنة وانهُ بعد مرض اصابهُ سافر الى ميلان ركبت ايضًا سفينة ومضت تنشد ذلك الخروف الضال وبعد ان فتشت عنهُ في عدة امكنة وجدتهُ في مدينة ميلان وكان حينئذٍ يتردَّد على القديس امبروسيوس اسقف تلك المدينة

ولذلك حينما وصلت والدتهُ الى هناك كان قد استفاد كثيرًا من معاشرة القديس المشار اليهِ وبعد قليل أناب الى الله بكل قلبهِ وتاب توبة نصوحًا واعتمد في المدينة المذكورة سنة سبع وثمانين من المائة الرابعة للمسيح وكان يومئذٍ ابن ثلث وثلثين سنة ثمَّ عزم على الرجوع الى افريقية بوالدتهِ ولما انتهيا الى اوستيا وهي مدينة على شاطي البحر في غربي رومية اقاما فيها قليلاً كي يستريحا من تعب الطريق. هذا وان القديسة مونكا تكلمت ذات يومٍ مع ابنها المذكور كلامًا طويلاً في احتقار الاشياء الزائلة واعتبار الاشياء الباقية

ثم قالت انهُ اذ انعم الله عليَّ بهذا اني اراك يا ابني مسيحيًا متعبدًا لله عزَّ وجلَّ فلم يعد يليق بي ان اشتهي الحياة على الارض. ثم اصابها مرض عضال فاوصت ابنها بان يصلّي لاجلها بعد وفاتها خصوصًا عند تقدمتهِ الذبيحة في القداس الالهي. ثم ماتت في اليوم الرابع من شهر ايار سنة ثمانٍ وثمانين من القرن الرابع للمسيح وهي ابنة ست وخمسين سنة

اما جسد القديسة مونكا فكان قد حُمل الى الكنيسة حيث قُدّمت لاجلها الذبيحة قبل ان تُدفن في القبر كما كانت العادة بين المؤمنين .

ونظرًا الى اغستينوس فكان يملك نفسهُ الى ذلك الوقت ولكن لما رأى انهُ وحدهُ اطلق عنان ناظرهِ فجرت عبراتهُ ولم يعد يقدر ان يتذكَّر فضائل والدتهِ القديسة الَّا بأقصى ما يكون من رقَّة القلب وهي مزيد اعتنائها باولادها وشدَّة محبتها لهم وبالأخص هواجس وهموم كان هو قد سبَّبها لها. ولكن ظنَّ منذ ذلك الوقت بانهُ صار ملتزمًا بان يُبرّئ الدموع التي كان قد سجها فقال اللهمَّ ان احد لامني في بكائي بعض

الاحيان والدتي ناحت عدّة اعوام لتنال نعمة ان تراني حيًّا امام عينيك . فيخطر لي انهُ على الاقلّ لا يهزأ بي وان كانت لهُ محبة فيبكي هو ايضًا لكي تصفح عن آثامي . هذا وهو يتوسل الى الله من اجلها في كتاب اعترافاتهِ ويستحلف كل الذين يقرأُون كتابهُ بان يذكروا على المذبح مونكا وباتريس قائلاً في مناجاتهِ لله سبحانهُ استجبني اللهمَّ اكرامًا للذي اراد ان يُعلّق على الصليب من اجلنا وبدمهِ شفى جراحات نفوسنا وبعد ان جلس عن يمينك يشفع فينا . ومن الثابت عندي ان والدتي استعملت افعال الرحمة وغفرت من كل قلبها للذين اسؤوا اليها . فاغفر لها اذًا ايها الرحيم الآثام التي لعلها تكون قد فعلتها فان رحمتك تفوق عدلك ومن حيث العدل فلا تدخل بالمحاكمة معها . فانت وعدت بان تُعامل بالرحمة الذين كانوا يرحمون ..... هي اوصتنا وقد أشفت على الموت ان نذكرها على مذبحك المقدس في القداس الالهي الذي كانت تحضرهُ كل ايام حياتها . والذي منهُ عرفت انهم يوزّعون الضحية التي دمها محا حكم الموت المقضي بهِ علينا (انتهى)

ذلك وان جسم القديسة مونكا كان قد نُقل من مدينة اوستيا الى رومية سنة ثلثين واربعمائة والف للمسيح على عهد البابا مرتينوس الخامس . فكتب هذا البابا نفسهُ قصة هذا النقل وأشفية مختلفة صُنعت بشفاعة القديسة عليها السلام

اليوم السادس

وفيهِ ترجمة القديس يوحنّا الدمشقي

ان هذا القديس وُلد بدمشق الشام في السنة السادسة والسبعين من المائة السابعة للمسيح وكان ابواهُ شريفين غنيين تقيين وفي زمن طفوليتهِ تسلطت السراكسة على دمشق . ولما كان ابو القديس المدعو سرجيوس منصور معتبرًا في المدينة ومحبوبًا اقامهُ قائد البرابرة حاكمًا وولّاهُ امر المدينة ونواحيها فاتفق ذات يوم انهُ وجد بين اسرى السراكسة رجلاً محتشمًا باكيًا فسألهُ سرجيوس الوالي عن سبب دموعهِ فقال لهُ الاسير انني كاهن من بلد ايطاليا واسمي قزما ولست ابكي لإسري وشقاءي الزمنيّ اذ لا يسوغ للمسيحي ان يحزن لمثل ذلك وانما احزن واتأسف لاني بعد ان تعبت جدًّا في تحصيل العلوم ولي رجاء ان اعلّم من يسعف الكنيسة ويعضدها أُسرت وأُوثقت بالقيود فصارت وزنتي مدفونةً لا تنفع شيئًا .

فلما سمع سرجيوس هذا الخطاب شكر الله تعالى لانهُ ارسل اليهِ من يعلم ولدهُ فاشترى حينئذٍ ذلك الاسير واقامهُ معلمًا لابنهِ . فاخذ عنهُ يوحنا علومًا مختلفة ونبغ في جميعها وتأصلت الفضائل في قلبهِ فصارت البلاد تستنير بعلمهِ وتتعطر برائحة فضائلهِ الطيبة . فلما رأى ذلك الاستاذ ان يوحنا قد صار امهر منهُ في العلوم استأذن سرجيوس وترهب في دير الانبا سابا الذي ببلاد فلسطين وبعد قليل توفي سرجيوس منصور ابو يوحنا الدمشقي ونقلد ابنهُ بأمر السراكسة وكان وزيرًا في الديوان والجميع كانوا يمدحونهُ لحكمتهِ وفضلهِ وتدبيرهِ امور البلاد كلها الاّ ان روح يوحنا كانت ترتاح الى الزهد في الدنيا وتميل بهِ الى الاختلاء في البادية فلم يسمح لهُ الملك بذلك غير ان الله تعالى الذي كان قد اختار يوحنا ليقيمهُ معلمًا في الكنيسة ومرشدًا في الاديرة جعل الامور موافقةً لمقاصدهِ الالهيَّة وفي ذلك الزمان جلس على عرش مملكة الشرق لاون الاربوسي الملقَّب بالملك القاسي ومبغض الصُوَر . فلما استوى على كرسيّ الملك واستبدَّ بالسلطان اشار عليهِ بعض اليهود وبيراربوس المسيحي المنافق الذي كان لهُ حظوةٌ عندهُ ان يثير اضطهادًا على كل من يكرّم الصُوَر . فنادى بالحرب على الايقونات المقدسة وعذب بشدة القساوة الذين كانوا يحتفظون بها واوقد نار حربهِ الشيطانيَّة بكسراخصّ صوَر سيدنا يسوع المسيح وهي التي كانت اكثر اعتبارًا في عيون الناس ومنصوبةً على باب من ابواب القسطنطينية ثم امر في السنة الخامسة والعشرين من المائة الثامنة للمسيح ان ينتزع من مملكتهِ الصوَر والتماثيل المقدَّسة ويرجع الناس عن تكريمها وشدَّد الامر بذلك جدًّا بحيث كل من بقي عندهُ صورة او تمثال يُعذب عذابًا اليمًا ومن ثمَّ عذَّب كل من احتفظ بايقونةٍ . وكان في من تعذبوا اثنا عشر اكليريكيًا من العلماء الابرار والذين كان الملوك يستشيرونهم في امورهم الباهظة فهولاء احرقهم في منازلهم مع كتبهم كلها ولم يتجاسر احد ان يقاومهُ الاَّ القديس جرمانوس بطريرك القسطنطينية ولذلك نفاهُ الملك في السنة الثلثين من القرن الثامن للمسيح

وعند ذلك اخذ القديس يوحنا الدمشقي يقاوم بالكتابة هذا الملك المنافق وارسل كتبهُ الى اساقفة الشرق لينشروها بين المؤمنين ليثبتوا في استقامة الايمان . واثبت في تلك الكتب بالادلة الجليَّة ان المسيحيين قد اعتادوا تكريم الصوَر المقدَّسة

منذ عصر الرسل وان قول لاون ان المؤمنين يسجدون لها كأنها آلهة هو محض كذب لا صحة له بل ان الله تعالى الذي امرنا بان لا نصوّر صورًا ونسجد لها لم ينهنا عن اكرام القديسين الذين تمثلهم لنا تلك الايقونات حيث انهُ نفسهُ اوصى بان تكون صُوَرٌ في هيكل اورشليم وعلى التابوت ونتيجة ذلك ان الملك بمضادّتهِ واضطهادهِ الذين يكرّمون الصوَر الممثلة اشخاص اولياء الله سبحانهُ يضادُّ الله نفسهُ ويقاومهُ صريحًا والعياذ بالله من سوء المنقلب. ومما ذكرهُ في تلك المؤلفات الجليلة والرسائل المعتبرة قولهُ ان هذه البدعة نشأت عن خبث الشيطان اخزاهُ الله فانهُ كما حرّك الناس قديمًا الى ان عملوا تماثيل لاقبح الحيوانات لكي يسجدوا لها هو نفسهُ يحرّك اليوم اناسًا جهلاء منافقين الى ان يستأصلوا الذين يكرّمون صوَر اولياء الله فها ان لاون المنافق ينصب صورهُ ويأمر الشعب باكرامها ويعذّب من يحتقرها فكيف اذًا ينهى المؤمنين عن وضع ايقونات القديسين واكرامها. انتهى كلام القديس

فانتشرت كتب القديس في كل الشرق وتعزّى بقراءتها المؤمنون ورسخوا في الايمان جدًّا غير ان هذا الامر قد اضرم في قلب لاون الملك غضبًا شديدًا بعثهُ على طلب الفتك بالقديس يوحنا. ولما لم يقدر ان يقبض عليهِ لكونهِ في غير مملكتهِ اخترع حيلةً خبيثةً ليقتلهُ بايدي السراكسة وكانت الحيلة انهُ وجد رسالةً مكتوبةً بيد القديس فدعا كتبةً ماهرين وأمرهم بان يكتبوا الرسالة الاتية بخطٍّ يشابه خطهُ عليهِ السلام. ففعلوا بحسب مرامهِ وكان في الرسالة ما مضمونهُ الى عزّة لاون الملك المسيحي أيّدهُ الله على اعدائهِ اني اذ كنت بنعمة الله مسيحيًّا وتضطرني الديانة الى ان اسعف ملكًا مسيحيًّا بكل ما اجد اليهِ سبيلاً فاعرض لعزتك بان مدينة دمشق التي توليت انا جميع امرها ليست هي محصنة جيدًا من السراكسة فاسأل عزتك باسم الله الحي ان تنتهز الفرصة التي آتاك الله اياها لتنقذ الشعب المسيحي الدمشقي من ايدي البرابرة المنافقين ولترسل جنودًا سرًّا وانا افتح لهم الابواب واسلمهم المدينة

فارسل لاون الملك هذي الرسالة واتبعها برسالةٍ أُخرى الى ملك السراكسة يقول فيها

ان الاختلاف في امر الايمان ليس هو حجة للملك لينقض ما عاهد بهِ ملكًا آخر ولكي يكون محققًا عندك اني ساحفظ عهدي معك للدوام. ابعث اليك برسالةٍ مرسلة لي من رجلٍ اثيم مقرّب لديك ومهتمّ بان يرفع يدك عن دمشق ويسلمها اليّ فمن هذا تعلم خباثة هذا المسيحي الشقي وخلوص امانتي ومحبتي لك

فلما قرأ الملك تينكَ الرسالتين استحضر للوقت يوحنا وأراهُ الرسالة الأُولى فقرأها. ثم قال للملك ان خطّ هذه الرسالة يشبهُ خطي حقًّا الا اني لم اكتب هذا اصلاً. فامر الملك للوقت ان تقطع يمينهُ وتعلّق في المدينة بمسمار فقُطعت وعلّقت بدون ابطاء. اما القديس فعرف من حرّك ملك السراكسة الى هذا العمل فشكر الله تعالى الذي اهلهُ الى ان يسفك قليلاً من دمهِ لاجل غيرتهِ في اكرام صور عبادهِ الصالحين وترجى منهُ تعالى ان يرد لهُ يدهُ صحيحةً

فلما كان مساء ذلك النهار ارسل فطلب من الملك ان يأمر بان تردّ لهُ يدهُ المقطوعة ليدفنها فاجابهُ الملك الى ذلك لان نار غضبهِ كانت قد باخت. فبعد ان اخذ القديس يدهُ المقطوعة دخل مخدعهُ ووضعها بازاء صورة مريم العذراء الجليلة وقال نحوها يا ايتها البتول ملكة السماء وملجا المؤمنين المضطهدين من اجل الايمان والعدل اني لعارف بان يدي هذه انما قُطعت لكوني حاربت محافظًا عن صوَركِ وصوَر ابنكِ يسوع نفسهِ ومثبتًا اكرامها وعبادتها فاقهري اليوم اعداءكِ واظهري كذب ما اتهموني بهِ وذلك بان تردّي اليَّ يدي هذه على حالها الاوّل لكي استطيع ان أُحارب بها اعداء ابنكِ واعداءكِ ويكون هذا شهادةً للحقّ. فبعد صلاته هذه مدّ ذراعهُ نحو اليد المقطوعة وللوقت رجعت يدهُ على ما كانت من عهد السلامة ولكن بقي اثر حمرةٍ في موضع القطع فاحيا القديس بقيّة الليل مقدّمًا الشكر لله تعالى ولوالدتهِ المجيدة من اجل هذا الاحسان

فشاع خبر الاعجوبة في المدينة كلها ولما عاينها ملك السراكسة وتحققها وفهم خباثة لاون الملك احتضن القديس واستغفر منهُ وقال لهُ سلني ما تشاء فاجيبك اليهِ واثبت كلامهُ بقسم. اما القديس فبما انهُ كان يرفُّ الى الانفراد في البراري ويرتاح اليهِ استأذنهُ في ذلك ليصرف جانب اهتمامهِ الى عبادة الحق سبحانهُ. فساء الملك ذلك الطلب غير انهُ رضي بهِ بعد وسائط كثيرة ليبرَّ قسمهُ

فرجع يوحنا الى منزلهِ ففرَّق امواله الوافرة على الفقراء والبِيَع وذوي قرابتهِ ولم يبقِ لنفسهِ شيئًا منها سوى ثوب واحد لبسهُ وذهب بهِ الى فلسطين ليترهب في دير القديس سابا . فدخل الدير كانهُ رجل خامل الذكر لا يعرفهُ احد فاقاموا لهُ اعلم الرهبان واكثرهم خبرةً بارشاد الانام . على ان ذلك المرشد اذ اطلع على ما يصدر تلميذهُ من كنوز الحكمة صغُر هو في نفسهِ وأبى ان يشير عليهِ في امرٍ من الامور وكذا فعل كلٌّ من الآباء الروحيين فيما روى جماعة من ثقات المؤرخين . وحينئذٍ تقدَّم لارشادهِ راهب شيخ متصف بسذاجة مقدسة اصيل في الفضيلة فادخل القديس قلاَّيتهُ وقدم لهُ ما ستری من الرسوم التي هي بمنزلة أُسّ الورَع والتعبد . فعلَّمهُ اولاً ان يعصي هواهُ ولا يجري على مقتضى ارادتهِ . وثانيًا ان يقدم لله تعالى مرَّات كثيرة افعالهُ واتعابهُ وصمتهُ وصلواتهِ . وثالثًا ان ينزّه قلبهُ عن الدنيا وزخارفها . ورابعًا الاَّ يفتخر بعلمهِ ولا بان ترك ثروتهُ ولا بشيءٍ آخر البتة . وخامسًا ان لا يميل الى مجدٍ روحي ولا يشتهي رؤيا ولا مواهب روحية غير اعتيادية . وسادسًا ان لا يثق بنفسهِ ولا يتكل على قوتهِ وعلمهِ في امرٍ من الامور ولو زهيدًا . وسابعًا ان يكون على حذر من افعالهِ دائمًا ويلازم الاختلاء الروحي ولا يتكلم فيما يتعلق بهِ مطلقًا . فامتثل التلميذ تلك الرسوم الطاهرة وحفظها كلها وزاد عليها ايضًا هذا انهُ لم يكن يضادُّ احدًا في المخاطبة ولا يتذمَّر ولا يأذن لعقلهِ ان يخطّئ رئيسهُ في ما يأمرهُ بهِ

ولكي يعرف مرشدهُ أمتكبّر هو أم لا اختبرهُ بما يضادُّ الكبرياء ويميتها اعطاهُ يومًا حمل قُفف وامرهُ بان يحملهُ ويذهب بهِ هكذا الى دمشق حيث كان معتبرًا ويبيعهُ بما هو ارفع من الثمن المتعارف مرَّتين . فذهب القديس ودخل المدينة بثياب رثَّةٍ وهيئة رجل دنيءٍ فلما طلب ذلك الثمن الزائد ولم يعرفهُ احد من هو ضحك منهُ الجميع . ثم مرَّ بهِ احد خدامهِ القدماء فعرف انهُ مولاهُ فاشترى منهُ كل القفف بالثمن الذي طلبهُ . ثم عاد القديس وعندهُ ان الطاعة هي التي قلعت من قلبهِ الكبرياء من اصلها وهي التي سهَّلت لهُ البيع بالثمن المذكور . فكان يكلفهُ مرشدهُ أتعب الاعمال وادناها ويوبّخهُ على كل زلَّةٍ ولو هفوةً خفيفةً

واتفق ان احد الاخوة ذات يوم طلب من القديس ان ينظم شعرًا ليتعزّى بهِ في موت اخيهِ لانهُ كان قد مات من عهدٍ قريب فنظم القديس رثاءً وكان ذلك من باب المودَّة ولم ينتبه لامر مرشدهِ الذي بهِ نهاهُ من ان يكتب شيئًا ما فلما شعر الشيخ بذلك اخرج القديس من قلايتهِ ولم يعد يهتمّ بشيءٍ من اموره

فانتبه يوحنا على زلتهِ فندم وبكى ومع هذا لم يقبلهُ الشيخ الاَّ بشرط ان يُنظف كل ما بالدير من بيوت الخلاء . ففعل القديس ذلك لا بدون ابتهاج فسرَّ بهِ الشيخ جدًّا وللوقت ارجعهُ الى قلايتهِ واستمر على هذه الحال معتزلاً مميتًا شهواتهِ

وبعد زمنٍ تراءت ملكة الملكة للشيخ وامرتهُ بان لا يمسك الماء في ينبوعهِ بل يدعهُ يجري والاَّ يمنع يوحنا ان يستعمل الوزنات الجليلة الموهوبة لهُ من الله . بل يأمرهُ من قِبلها بان يثبت بالتآليف حقائق الايمان الكاثوليكي ويفنّد ضلال البدعة الجديدة

فشرع القديس يؤلف لكن لم يهمل شيئًا من كل رياضاتهِ الروحية وقد استفادت الكنيسة جدًّا من كتبهِ . فزارهُ بطريرك اورشليم ورسمهُ كاهنًا في السنة الثامنة والاربعين من المائة الثامنة للمسيح . وبعد ارتسامهِ اشتدَّت حميتهُ ونشط الى المحاماة عن الايمان المقدس بتآليفهِ والى رد الضالين الى صراط الحق وتثبيت المؤمنين فسافر لذلك الى بلاد فلسطين والى القسطنطينية ايضًا ورجع الى ديرهِ حيث تُوفّي في اذار في السنة الثمانين من المائة الثامنة للمسيح وكان لهُ من العمر ما ينيف على مائة سنةٍ . اما الشرقيون فيذكرون موتهُ في شهر كانون الاول

اليوم السابع

وفيهِ ترجمة القديس استانيسلاوس الشهيد

ان هذا القديس وُلد بكراكوفيا مدينة ببولونيا في اليوم السادس والعشرين من شهر تموز سنة ثلثين والفٍ للمسيح . فكان ابواهُ معتبرين من حيث الثروة والسيرة الصالحة وعمل الفضائل ولا سيما الرحمة للفقراء وكان للقديسة الجدلية عندهما اكرام عظيم ولذلك ابتنيا في اراضيهما كنيسة معظمة اكرامًا لها واجلالاً لشأنها . وبعد ثلثين عامًا لزواجها رزقهما الله هذا الابن المبارك وازداد فرحهما لما رأياهُ مائلاً من صغر سنهِ الى الفضيلة لانهُ اخذ يروّض نفسهُ بان عوّدها على الصوم

والتقشفات ولم يكن وقتئذٍ الاَّ ابن عشر سنين

وكان في اوَّل امرهِ يتعلم في مملكة بولونيا ثم أَرسلهُ والداهُ الى فرنسا ليتمهَّر في العلوم في مدرسة باريز حيث اقام سبع سنين يأخذ العلم عن كبار الاساتيذ . ثم عاد الى وطنهِ وبعد موت والديهِ وزَّع كل امواله وارزاقهِ على الفقراء ثم رسمهُ الاسقف كاهنًا وحينئذٍ زاد قوةً على ممارسة رياضات العبادة وقضى حياتهُ في الصلاة والمطالعة وافعال الرحمة نحو القريب ثم عُني بالوعظ وكان كلامهُ يؤثر في القلوب تأثيرًا قويًّا

ولما توفي الاسقف اتفق الاكليريكيون والشعب واختاروا القديس استانيسلاوس اسقفًا على مدينة كراكوفيا فارتسم سنة اثنتين وسبعين والف للمسيح وكان فوق اهتمامهِ بشعب المدينة المذكورة يفتقد كل سنة كل كنائس رعيتهِ ويسعف المؤمنين في اللوازم الدينية والدنيويَّة . وينفق كل دخلهِ في مساعدة المساكين . ذلك وانهُ مع كل هذه الاتعاب لم ينقص شيئًا من تقشفاتهِ بل زاد عليها لانهُ كان يصوم كل يوم ومنذ يوم ارتسامهِ اسقفًا لم يخلع عن جسمهِ الطاهر المسح ومن ثمَّ لقبهُ الشعب بالاسقف القديس

وكان ملك بولونيا حينئذٍ بوليسلاوس الثاني الذي مع ما اكتسب من الشهرة بشجاعتهِ في الحرب وانتصاراتهِ لم يُضادّ شهواتهِ بل كان في المملكة حجر عثرة بسبب ما كان يفعل من الفواحش المختلفة ولم يتجاسر احد ان ينصحهُ . فزارهُ القديس وطلب منهُ بدموع سالت من شدة اسفهِ ان يزيل ما سبَّب للشعب من الشكوك ويطفئ سريعًا الغضب الالهي بتوبتهِ النصوح . فاغتاظ الملك من كلامهِ ولكنهُ كظم الغيظ اعتبارًا لفضيلة الاسقف المذكور وتظاهر بانهُ استفاد من خطابهِ وانتصح بكلامهِ . على انهُ من بعد ان انصرف عنهُ القديس اضرم جلساؤُهُ والذين يتملَّقونهُ نار الغضب في قلبهِ على ذلك الاسقف فازداد شرًّا لانهُ بعد ذلك اختطف لاجل الزناء امرأَة فاضلة جليلة القدر كانت زوجة لاحد اشراف المملكة وسبَّب شكًّا عظيمًا في كل المملكة واساء ذلك جميع ذوي الشرف وغضبوا منهُ ولكن لم يكن من يتجاسر ان ينصح الملك . فنصحهُ الاسقف القديس نظير يوحنا المعمدان قال لهُ لا يجوز ان تكون لك امرأَة قرينة اخيك . فتلهَّب الملك غيظًا وشرع يفتكر في واسطة ينتقم بها من الاسقف القديس ففي ذات يوم جمع في مجلسهِ جمًّا غفيرًا ثم استدعى القديس ولما حضر تقدم اناس واشتكوا عليهِ قائلين انهُ اختلس حقلاً لبطرس الذي كان قد مات منذ زمان . فقال القديس نعم اني ابتعت هذا الحقل من بطرس الاَّ اني دفعت لهُ ثمنهُ امام شهود . ثم احضر الشهود ولكنهم لم يتجرَّأُوا ان يشهدوا للحق لان الملك توعَّدهم بالموت ان شهدوا . فلما رأَى القديس ان كنيستهُ تخسر هذا الحقل قال للملك امام محفل العظماء انهُ من حيث ان هولاء يمتنعون عن أَداء الشهادة فانا أُحضر الى هذا المحفل بعد ثلثة ايام بطرس نفسهُ الذي مات وابتعت منهُ هذا الحقل فهو يشهد للحق

فانذهل الملك والمحفل من هذا العهد بل ضحكوا منهُ غير ان الملك اخَّر الحكم الى ما بعد ثلثة ايام . فصرف القديس هذا الزمان في الصوم والصلاة ولما كان اليوم الثالث قرَّب ذبيحة القداس الالهي . ثم خرج بحلَّةٍ حبريَّة وذهب مع شعب غفير الى قبر بطرس فأمر بان يحفروا ذلك القبر فحفروهُ ووجدوا جسدهُ قد استحال ترابًا لانهُ كان قد مات منذ ثلث سنين . وحينئذٍ قال القديس للميت اني آمرك يابطرس باسم الاب والابن والروح القدس بان تقوم من الموت لكي تشهد للحق . فخرج الميت للوقت من القبر حيًّا وامسكهُ القديس بيدهِ وذهب بهِ الى الكنيسة ليشكر الله على هذا الاحسان العظيم

ثم مضى بهِ الى الملك حيث كان العظماء مجتمعين فاخذت الحيرة جميعهم ولم يتجاسر احد ان ينطق بكلمة . ففتح الميت فاهُ وقال اعلم يقينًا ايها الملك اني بعتُ حقلي الى الاسقف استانيسلاوس واني قبضتُ ثمنهُ فبرئت ذمَّتهُ من ذلك . قال هذا والتفت الى الشهود ووبَّخهم على كتمهم الحق خوفًا من ملك زمني . ثم خرج الاسقف مع الميت وتبعهما اكثر المحفل واعادهُ الى لحدهِ فجلس فيهِ ومات موتًا ثانيًا وقُبر ثانيةً . وقد ذكر مجمع بالي المقدس هذه الاعجوبة في اثناء تفنيدهِ ارطقة يوحنا هوس المضادة الاملاك الكنائسية

على ان الملك بوليسلاوس لم يرعوِ عن غيهِ ولا رجع عن سيرتهِ الزنائية واما القديس فلم يبرح ينصحهُ ولكنهُ لما رأَى ان النصح لم ينجع بهِ ولا يفيدهُ شيئًا منعهُ من دخول الكنيسة فقسا قلبهُ كقلب فرعون بسبب هذا التأديب الكنائسي وعزم على قتل القديس . فارسل جنودًا ليفتكوا بهِ فكان عليهِ السلام قد دخل كنيسة القديس ميخائيل التي خارج المدينة ليقدّس فيها ولم يتجرَّأْ الجنود على ان يمدُّوا اليهِ يدًا . فخرجوا من الكنيسة

وقالوا للملك استحوذ علينا الخوف ونزل بقلوبنا الرعب حتى لم نقدر ان ندنو منهُ فارسل غيرهم فجرى لهم ما جرى للاولين فدخل الملك حينئذٍ الكنيسة والسيف في يدهِ وضرب بهِ رأس القديس فوقع على الارض ميتًا وكان ذلك في اليوم الثامن من شهر ايار سنة تسع وسبعين والف للمسيح

ذلك وان الملك المنافق لم يكتفِ حتى اخرج جسد القديس من المعبد وامر جنودهُ بان يقطّعوهُ عضوًا عضوًا ويلقوهُ طعامًا للوحوش فنعلوا. ولكن الله سبحانهُ حفظهُ من الوحوش. وبعد ايام قليلة ذهب الاكليريكيون ليلاً ودفنوا جسدهُ. فلما بلغ ذلك البابا غريغوريوس السابع حرم الملك وامر جميع الاساقفة الذين ببولونيا ان ينادوا بحرمهِ وان يُغلقوا البِيَع كلها. فضحك الملك الاثيم من هذا الحرم الاَّ ان الانتقام الالهي ادركهُ سريعًا لانهُ اضحى ممقوتًا من الجميع وهاج عليهِ الشعب في مدن كثيرة. وكان عليهِ اصعب من كل ذلك انهُ ابصر والجميع ايضًا نورًا سماويًّا على قبر القديس كل ليلةٍ. فخرج لهذا السبب من مملكة بولونيا وذهب الى مملكة اونغاريا وهناك فقد عقلهُ بالكلية وهرب الى البراري حيث مات موتًا شقيًّا واكلت جسدهُ وحوش الغاب. هذا ما ذكرهُ يوحنا لونجينوس مؤلف ترجمة القديس استانيسلاوس. الا ان غيرهُ من مؤرخي امور بولونيا يذكرون ان هذا الملك الشرير تاب اخيرًا عن مأثمهِ في دير من اديرة القديس عبد الاحد ومات تائبًا مما تشفع لهُ الاسقف القديس الذي كان قتلهُ

اليوم الثامن

وفيهِ ظهور القديس ميخائيل رئيس الملئكة

ان القديس ميخائيل زعيم الملئكة ومقدَّم الجنود السماوية واول هولاء الارواح السعداء القائمين دائمًا امام عرش الله كان على الدوام ينظر الى الكنيسة نظير محامٍ خصوصي للمسيحيين وكذلك كان قبل ميلاد المسيح يدافع عن الشعب الاسرائيلي وان الملك الذي ارسلهُ الله الى نبيّهِ دانيال ليعلمهُ بقرب مجيء المسيح وبعدَّة اسرار اخر دينية متنبئًا عما لا بد ان يكون في آخر الاجيال امتحانًا لايمان المنتخبين قال انهُ في تلك الايام يقوم ميخائيل الرئيس العظيم ليحمي ابناء شعب الله (دانيال ١٢:١)

اذ كان الله جعلهُ حارسًا لبيعتهِ كما جعلهُ لجمع اليهود اراد ان يُعلن للمومنين باشارات محسوسة قيمة هذه الحراسة ويحثهم بتجليات هذا الروح المغبوط المختلفة على ان يكون لهم نحوهُ احسن عبادة واشد محبة

ان تجليات زعيم الملئكة المقدسة والممجدة والمشهورة في الكنيسة بالاعياد العامة ثلثة والاَّ فلهُ تجليات اخر كثيرة لم تشتهر كهذه

ان الظهور الاول كان في مدينة كونس بفريجيا ويظهر انهُ اشهر التجلّيات التي كانت معروفة عند اليونانيين والشرقيين. والقديس ميخائيل اظهر نفسهُ بهيئة بشرية لرجل من لاوذيكية كانت لهُ ابنة خرساء حصلت على النطق في الحال فبهذه العجيبة تنصَّر الاب وابنتهُ وتذكارًا لذلك بُني هيكل جميل ورُسم عيد خصوصي في الكنيسة الشرقية تكريمًا لشان زعيم الجنود السماوية وعُيّن لهُ اليوم السادس من شهر ايلول. واما مدينة كونس فكانت معروفة قديمًا باسم كولسي وهي مشهورة من الرسالة التي كتبها بولس الرسول الى اهلها

ولكن اشهر واعظم تجلّيات القديس ميخائيل ظهورهُ على جبل قَرْقان في مملكة نابولي الذي يُسمى الان جبل الملاك القديس فهذا فعل عجيب حصل لهُ رنَّة عظيمة. وان الكنيسة لاجل تذكُّرهِ ولكي تجدّد من وقتٍ الى وقتٍ عبادة المؤمنين لحاميها القادر الجليل رسمت لهُ عيدًا وعينت لهُ هذا اليوم

انهُ نحو آخر القرن الخامس على عهد البابا جلاسيوس كان راعٍ يرعى قطعانهُ على قمة جبل قَرْقان في بلاد بويل واذ كان يريد ان يُخرج من مغارةٍ ثورًا صغيرًا كان قد اوى اليها رماهُ بسهمٍ ولكن السهم ما وصل الى مدخل المغارة الاَّ وقد ارتدع على راشقهِ بنوعٍ عجيب ورجع بشدة القوة التي كان قد رُشق بها وجرح الراعي. ولاجرم ان هذه الحادثة المذهلة جدًا حيَّرت كل الذين رأوها وانتشرت للوقت في مدينة سيبونتو التي كانت في سفح الجبل. فالاسقف بعد ان بحث عن ذلك لم يشكّك اصلاً بان هذه الاعجوبة تتضمن سرًّا ما. ولاجل معرفة ما كان يريد الله ان يظهرهُ بواسطة هذه الآية امر رعيتهُ كلها ان تصوم ثلثة ايام وحرَّض المؤمنين ان يقرنوا الصوم بالصلاة ويسألوا الله بالحاجةِ ان يتفضَّل عليهم ويعرّفهم ارادتهُ

فاستجاب الله لذلك الحبر القديس فظهر لهُ الملك ميخائيل في آخر الثلثة الايام واعلمهُ ان الله اراد ان الملك حارس

الكنيسة يُكرّم بنوعٍ اخصّ حيث صُنعت الآية منذ عهدٍ قريب لكي يُقوّي العبادة والايمان في قلوب المؤمنين ويجعلهم يشعرون باثار لذيذة لقدرتهِ الحارسة

واما الاسقف ففيما كان متأثرًا باشد احساسات التقوى وشكر النعمة جمع الاكليروس والشعب وقصّ عليهم رؤياهُ ثم ذهب معهم باحتفالٍ الى الموضع الذي جرت فيهِ المعجزة فوجدوا هناك في الصخر مغارةً واسعة على شكل هيكل قبّتها شامخة جدًّا وفوق مدخلها كوّة كافية للاضاءة . ومن ثم لم يكن احتياج الاّ الى ان يُقام هناك مذبح نقرّب عليهِ الذبيحة الالهية فكرّسها الاسقف تكريسًا لم يصر مثلهُ بعظمة الاحتفال وقوة العبادة وانطلق الى تلك الكنيسة كل من حولها من الشعوب جملةً واستمرّ العيد عدة ايام حتى اغتنت الكنيسة الجديدة من التحف والهدايا الثمينة . بحيث ما خلت الكنيسة من الزائرين مدة زمنٍ وكانوا يرغبون فيها بمجد الله سبحانهُ ويقرّبون الذبيحة الالهية بورَعٍ عظيم اكرامًا للمحامي المخصّص للكنيسة ومن ذلك العهد اخذت عبادة زعيم الملائكة تزيد يومًا فيومًا بين مؤمني تلك النواحي

وما ابطأ الله جلّ شأنهُ ان اعلن بعجائب جديدة كم كانت تقوى هولاء الشعوب مقبولة امامهُ . فان عددًا كبيرًا من المعجزات انشأ بعد قليلٍ عبادةً تقويّة جدًّا . ألا ترى ان معبد جبل قرْقان اضحى مقصودًا من جمٍّ غفير من الزوار الانقياء . ذلك وان النعم التي كانوا ينالونها بشفاعة القديس ميخائيل كانت تملأ فرحًا قلوب المؤمنين المنطلقين الى هناك من كل الامم

قال القديس الشهير بطرس داميانوس انهُ نحو سنة اثنتين والفٍ قتل السلطان اوتان الثالث كرسَّانس احد اعضاء الديوان الروماني ضد العهد الذي كان قد قطعهُ لهُ وفضح ارملتهُ تشكيكًا وعثرةً للكنيسة كلها . ثم فيما كان متأثّرًا بندامة صادقة جاء وجثا على رجلَي القديس رُموالد الذي امرهُ ان يذهب حافيًا من رومية الى جبل قرْقان ليزور كنيسة القديس ميخائيل تكفيرًا عن آثامهِ . فاتمّ السلطانُ ذلك الامر بروح التوبة واعطى قدوةً صالحة لكل الذين رأوهُ

ولاجرم ان ذلك كان لكي تبقى على الدوام عبادة الملَك ميخائيل حتى تحصل ثمرة نافعة لتذكار هذه الاعجوبة العظيمة التي اراد الله سبحانهُ ان يُعلن بها للناس شدة محاماة زعيم ملائكتهِ

انهُ في الكنيسة الغربية تُذكر تجليّات اخر كثيرة للملَك ميخائيل وكلها مشهورة جدًّا . والذي حدث مع اوبرت اسقف افرنش مدينة بفرنسا هو احد تجليّاتهِ الاجل اعتبارًا . انهُ بينما كان هذا الاسقف جالسًا على صخرةٍ في ابرشيتهِ عند مدخل البحر في الزاوية التي بين نورماندِيا وبريطانيا عرف ان حادثة عجيبة تشبه حادثة جبل قرْقان جرت على هذه الصخرة فصرخ قائلاً ينبغي لي ان اقتدي باسقف مدينة سيبونتو فأمر بصلوات واصوام لكي يعرف ما كان يشاء الله سبحانهُ ان يعلمهُ اياهُ . ولكن بعد ان قلّت طاعتهُ لله وضعف ايمانهُ ارتاب في علاماتٍ كانت تدل على مشيئتهِ تعالى فاحسّ بقصاصٍ على قلّة خضوعهِ وضعف اعتقادهِ ولكن العقاب جعلهُ أطوع مما كان واكثر خضوعًا وعرف ان الله عزّ وجل كان يشاء ان الملَك ميخائيل يُكرّم على وجه الخصوص في هذا الموضع وكان هذا التجلي في اوائل المائة الثامنة للمسيح . ولذلك بنى الاسقف المذكور فوق أعلى الصخرة كنيسة جميلة المنظر حسنة البناء جدًّا وانتهى بناؤها سنة سبعمائة وتسع وكرّسها على اسم الملك ميخائيل في اليوم السادس عشر من شهر تشرين الاول . فذلك الحبر نفسهُ اخرج المتوحّدين الذين كانوا يقيمون قبلاً على هذه الصخرة ووضع اثني عشر راهبًا قانونيًا لخدمة الكنيسة . غير ان خلفاءهم اذ لم يسلكوا طريقًا مستقيمًا طردهم من هناك ريكارد الاوّل امير نورماندِيا الذي جعل محل هذه الجمعية ديرًا لرهبان القديس مبارك وما كان يُسمى الاّ جبل القديس ميخائيل . وكان حينئذٍ من اشهر اماكن الزيارة في مملكة فرنسا ولا يزال المؤمنون الانقياء يذهبون افواجًا افواجًا الى ذلك المكان ليزوروا كنيسة القديس ميخائيل الشهيرة ويكرموهُ ويطلبوا شفاعتهُ لدى رب السماوات

اعلم ان التاريخ الكنائسي يذكر تجليات اخر عديدة للقديس ميخائيل وان احد هذه التجليات كان سببًا لبناء الكنيسة الحسنة الهيئة البهية المنظر التي قامت في القسطنطينية اكرامًا لهُ . ذلك وان البابا بونيفاسيوس بنى لهُ كنيسة ثانية في رومية في الموضع الذي كان يُدعى قصر الملك ادريان واما اليوم فيسمى قصر الملَك القديس . وبنى لهُ البابا لاون الرابع كنيسة أُخرى في الفاتيكان بعد انكسار السراكسة مرجحًا انهُ لا يمكن ان يتجاوز الحدّ في بناء كنائس جديدة بان نحرّك في قلوبنا

العبادة للذي يقدّم الى الديّان العظيم نفوس المؤمنين عند ما تخرج من اجسادهم والذي اقامهُ الله محاميًا خصوصيًا لكنيستهِ

اليوم التاسع

وفيهِ ترجمة القديس غريغوريوس النزينزي

ان هذا القديس هو الملقب بالثالوغوس وهو احد اكابر علماء الكنيسة الشرقية . وُلد في ابتداء المائة الرابعة للمسيح وكان ابوهُ رجلًا وثنيًا الا انهُ تنصر على يد امرأتهِ . فاعتمد وصار بعد ذلك اسقفًا ومات قديسًا . اما والدتهُ فهي القديسة نونّا التي كُتبت ترجمتها في سفر الاولياء في اليوم الخامس من شهر آب وكان لهُ اخ واخت وهما القديس كيساريوس والقديسة غورغونيا . واما القديس غريغوريوس فسلك منذ نعومة اظفارهِ طريق الفضيلة ولم يحِد عنهُ حتى استبان للجميع انهُ طُبع على الصلاح . وذكر القديس عن نفسهِ انهُ لما كان فتى رأى في الحلم فتاتين جميلتين محتشمتين ولابستين اثوابًا بيضاء . فقالت لهُ احداهما انا العفَّة وقالت الاخرى انا الحكمة . وقالتا انهما واقفتان على الدوام بازاء عرش المسيح تبارك اسمهُ فلما انتبه القديس من نومهِ شعر في قلبهِ بمحبة العفة لم تفتر طول عمرهِ . ومن ذلك اليوم لم يستعذب سوى الصلاة وقراءة الكتب الروحية . ولما كان على حكمةٍ وسعةٍ في معرفة القضايا اللاهوتية لقَّبهُ الآباء القديسون بالثالوغوس واعتبرت الكنيسة وأَجلَّت كتبهُ جدًّا . قال القديسان ايرونيموس وتوما اللاهوتي انهُ لا غلط فيها البتة . وقد زاد على ذلك المعلم روفينوس قال ان من تجاسر على ان يدحض تعليم هذا القديس يُحسب ارطوقيًا او قلما يكون يشكُّ في ايمانهِ . ومن ثم يفتخر القديس ايرونيموس في انهُ كان تلميذًا في مدرسة هذا القديس . وبعد ان درس هذا القديس العلوم في مدارس بلاد فلسطين ومدينة قيسارية التي ببلاد كبادوكيا انطلق سنة سبع وعشرين وثلثمائة للمسيح الى مدينة اثينا كي يتمهَّر في العلوم ولهُ من العمر سبع وعشرون سنة . فوجد هناك القديس باسيليوس وارتبط بحبل مودَّتهِ فاتى حينئذٍ مدينة اثينا يوليانوس الملحد ذلك الذي ملك على الشرق بعد قسطنسيوس ليدرس العلوم واراد ان يرتبط بمودة القديس غريغوريوس ومع انهُ كان ذكي العقل ويتظاهر بانهُ مسيحي متعبّد اطلع القديس على شرهِ الخفي وقال عنهُ ما اشرس هذا الوحش الذي تربيهِ المملكة في حضنها . ولذلك كان يتجنب معاشرتهُ فلما جلس يوليانوس على كرسي الملك اجتهد في ان يجذبهُ اليهِ ويضعهُ في بلاطهِ فلم يستطع . وبلغ القديس ان اخاهُ كيساريوس قبل من هذا الملك وظيفة معتبرة فكتب اليهِ بما استولى عليهِ وعلى ابيهِ وامهِ من الاستحياء الذي سبَّبهُ لهم ارتضاؤهُ بخدمة ملك عدوّ لسيدنا يسوع المسيح الذي يتظاهر بلباس الحملان وما هو الا ذئبٌ خاطف . فاثَّر كلامهُ في قلب اخيهِ فترك وظيفتهُ الشريفة مع انهُ بتركها القى نفسهُ في خطر الموت . ثم ان القديس بعد ذلك اي لما طفق يوليانوس يضطهد المسيحيين كتب ضدهُ ونشر كتبهُ في المملكة

وبعد ان رحل القديس باسيليوس صديقهُ المخلص عن اثينا ضجر القديس غريغوريوس من السكنى هناك فرجع الى بيتهِ سنة ست وخمسين وثلثمائة فوجد اباهُ قد صار اسقفًا فرسمهُ والدهُ كاهنًا سنة احدى وستين وثلث مائة ابتغاء ان يسعفهُ في تعليم الرعية . الا ان القديس كان يرتاح دائمًا الى الاختلاء ولذلك لما عرف ان القديس باسيليوس انفرد في البرية انطلق هو اليهِ وعاشا هناك سنين كثيرة كملائكة الله مواظبين على الصلاة وقراءة الكتب الروحية ولبس المسح دائمًا . وبعد عدة سنين مات اخوهُ كيساريوس ولان اباهُ كان قد طعن في ايامهِ طلب منهُ ان يأتي فيعينهُ في شيخوختهِ فخرج القديس غريغوريوس من البرية واتى مدينة نزينز فوجد كل الشعب مشمئزين من ابيهِ الاسقف ومتجنبين مشاركتهُ لانهُ خطأً كان قد ختم صورة الايمان الآريوسي المرسوم في مجمع ريميني اي فعل ذلك بسذاجةٍ وبدون ان يشعر بسم الارطقة المغطى تحت الفاظ ملتبسة لانهُ كان غير ماهر في علوم المدارس . الا ان ابنهُ القديس بعد تقدمتهِ الصلاة من اجل ابيهِ شرع يظهر لهُ ما في تلك الصورة من مكامن الخبث بدلائل ساطعة مقنعة . فارتدَّ ابوهُ عن ضلالهِ ورجع الشعب الى الاشتراك معهُ

اما القديس باسيليوس الذي كان يومئذٍ قد صار اسقف قيسارية فطلب من القديس غريغوريوس ان يقبل اسقفية ساسيموس واذ كان القديس لم يرتضِ بذلك جاء القديس باسيليوس الى نزينز والحّ هو وابو القديس ورسمهُ اسقفًا القديس باسيليوس نفسهُ في السنة الثانية والسبعين بعد الثلث مائة . الا ان انتيموس اسقف تيانه لم يدع القديس يستلم هذه

الاسقفية. فدعاهُ حينئذٍ والدهُ ليسعفهُ في سياسة رعيتهِ لانهُ كان قد بلغ من العمر مائة سنة. فتقدم ابنهُ لمساعدتهِ على شرط انهُ لا يكون ملتزمًا بعد وفاة ابيهِ برعاية تلك الرعية

ولما تُوفي ابوهُ انفرد في احد الاديرة ومكث خمس سنين ممارسًا لرياضات الصلاة والتقشف. الا انهُ لما سمع ان مدينة القسطنطينية امتلأت من المبتدعين وان اولئك الاراطقة غصبوا كنائس الكاثوليكيين كلها طلب منهُ الكاثوليكيون ان ينطلق لاعانتهم. فخرج من خلوتهِ وذهب الى القسطنطينية فلما شاع خبر وصولهِ ارتجف الاراطقة الاريوسيون والنوفاسيون والمكدونيون والابوليناريون والانوميون واتفقوا جميعهم على محاربتهِ واضرموا نار الحرب بالشتم والطعن والقذف بالتهم وحرّكوا الشعب عليهِ ولا سيما النساء وجعلوهُ رجلاً فاسقًا مفسدًا ساحرًا وثنيًا وخاصموهُ في المحاكم ورجموهُ مرارًا بالحجارة في الشوارع. اما القديس فلم يقاومهم في كل هذه الوقائع الأ بصبرهِ ووداعتهِ واحتشامهِ. ولما كان الاريوسيون قد غصبوا كل الكنائس كما عرفت كان القديس غريغوريوس يجمع الكاثوليكيين في بيتٍ ما ودُعي ذلك البيت فيما بعد انسطاسيا اي القيامة لانهُ فيهِ اقام الايمان الكاثوليكي ثم صار كنيسة كبيرة

فظهرت للجميع حينئذٍ قوة فصاحتهِ المقترنة بالفضائل ألا ترى ان المبتدعين الذين كانوا يذهبون بروح العناد ليسمعوا كلامهُ كانوا يستمعونهُ باحترام وتهيُّب ويذعنون للحق. فتكاثر في القسطنطينية عدد الكاثوليكيين جدًّا ولذلك لما مات بطريرك القسطنطينية اتفق البطريرك الاسكندري والاساقفة واقاموا القديس غريغوريوس بطريركًا على القسطنطينية. فحصل للمدينة فرح عظيم. ثم جاءهُ ذات يوم فيلسوف وثني يقال لهُ مكسيموس وكان موقرًا وجليلاً في عيون الناس بحيث كان يتظاهر بالاحتشام ويتصرَّف تصرُّف من يزدري بالارضيات ويرتاح الى السماويات فقط واظهر لهُ جميع امورهِ. ثم طلب منهُ العماد فاحبهُ القديس وعلمهُ حقائق النصرانية فعمَّدهُ واتخذهُ صديقًا وكان يتناول معهُ الاطعمة ويكشف لهُ امورهُ ويستشيرهُ فيها ايضًا فاضحى لذلك من اهل الوجاهة. وللوقت عزم على عزل القديس عن كرسيهِ فاقترض مبلغًا من المال وبهِ رشا كثيرين حتى استمال الى غرضهِ البطريرك الاسكندري وكثيرين من اساقفة مصر

فرسموهُ بطريركًا على القسطنطينية. فذهب اليها ليجلس على العرش البطريركي فهاج الشعب عليهِ واخرجوهُ من المدينة جبرًا. فذهب الى مدينة تسالونيكي بجماعةٍ من اساقفة مصر حيث كان الملك تاودوسيوس الكبير فطردهم ذلك الملك

ثم اتى الملك القسطنطينية وقبل القديس غريغوريوس باتمّ الاكرام. ولما كانت الكنيسة المختصة بغبطتهِ لذلك العهد في يد الاريوسيين وعدهُ الملك بانهُ يردُّها لهُ وعين لها الزمان الذي فيهِ تسلّم الى يدهِ. فتعصَّب الاراطقة حينئذٍ متمرّدين على الملك وعزموا على ان يفتكوا بالقديس. الا ان الملك ارسل جنودًا في جهات المدينة وسكّن الاضطراب. ولما حضر اليوم الذي عيَّنهُ الملك ذهب وسلم الكنيسة الى القديس وصرف الكاثوليكيون ذلك النهار في الصلاة في تلك الكنيسة. واذ رأى الملك ان بعض القوم يشكّون في ارتسام القديس بطريركًا على القسطنطينية من حيث كان اسقفًا على نزينز ولا يجوز لهُ ان ينتقل الى كرسيّ آخر بدون اذن من جانب مجمعٍ صحيح. فاجابهم الملك الى ما طلبوا من جهة التئام مجمع ليفحص عن حقيقة ذلك ويثبت الايمان النيقاوي ضد الاريوسيين. فعقد مجمعًا في السنة الحادية والثمانين من المائة الرابعة للمسيح وهو المجمع العامّ الثاني فحكم الآباء بان القديس غريغوريوس هو البطريرك القسطنطيني الشرعي. وكان القديس ملاتيوس بطريرك انطاكية متقدمًا في هذا المجمع الا انهُ بعد ان ابرز هو والآباء هذا الحكم توفّي قبل انتهاء المجمع. فتقدَّم على الجميع من بعدهِ القديس غريغوريوس وهذا الامر اضرم في قلوب كثيرين من الاساقفة نار الحسد وخصوصًا اساقفة مصر لان هولاء لم يكونوا قد وصلوا الى المجمع فبعد وصولهم قاوموا انتخاب القديس غريغوريوس بطريركًا

فقال للوقت القديس ايها الآباء المحترمون رعاة خراف السيد المسيح انكم قد اجتمعتم هنا كي تجعلوا الكنيسة في سلام ومن ثم لا يليق بكم ان تنشئوا الخصام واضطراب الافكار بحيث يزول السلام من بينكم جميعًا. فان كنت انا سبب هذا الاضطراب فالقوني في البحر كيونان ليهدأ الهيجان وتحظوا انتم بالسلام وان اردتم فاجلسوا على كرسيّ راعيًا غيري وخذوا ما لم اطلبهُ قط ولا ارغب فيهِ ابدًا وان امرتموني بالخروج من القسطنطينية فذلك هو اقصى مرغوبي فطالما مال قلبي الى ان اعتزل عن الناس واعيش في خلوةٍ فما يهمني في الحقيقة الا

ان تكون بيعة الله على سلام خاليةً من الشقاق والخصام . ثم ذهب الى الملك وطلب منهُ بالحاح ان يأذن لهُ في التنزّل عن منصبهِ وانهُ قد عجز عن القيام بمقتضيات مثل هذه المرتبة لكبر سنهِ وضعف قواهُ . وانهُ خير للكنيسة ان يتنحى لعلمهِ بان الاضطراب لا يزول الا بهذه الواسطة فاقنع بكلامهِ الملك ورجع الى مدينة نزينز

وبعد رجوعهِ الى نزينز استأصل ما كان فيها من بقية المبتدعين الابوليناريين وبعد ذلك اي في السنة الحادية والثمانين بعد الثلثمائة انفرد في مكان قريب من المدينة يروّض نفسهُ بالصلوات والتأملات الطويلة في امر المعاد والدينونة واتخذ كل ذلك اهبة للرحيل من الدنيا . ثم سلم الى اكليريكي وصيتهُ الاخيرة التي بها وهب المساكين كل املاكهِ وامواله ولم يعطِ شيئًا لاقربائهِ وذلك كما يقول القديس لان الله تعالى جعل الفقراء ورثة الاكليريكيين . ثم توفي في اليوم التاسع من شهر ايار سنة تسع وثمانين من المائة الرابعة للمسيح وكان ابن ثمانين سنة . وقد بنى لهُ البابا غريغوريوس الثالث عشر هيكلاً بكنيسة القديس بطرس في رومية وهناك وُضع جسدهُ سنة ثمانين وخمسمائة والف للمسيح ويُحتفل بتذكار وفاتهِ في اليوم التاسع من شهر ايار

اليوم العاشر

وفيهِ ترجمة القديس فرنسيس ايرونيموس اليسوعي

ان القديس المذكور وُلد بكروتالي مدينة ببلادا وترنت من مملكة نابولي في اليوم السابع عشر من شهر كانون الاول سنة اثنتين واربعين من القرن السابع عشر للمسيح واسم ابيهِ ليونار ايرونيموس واسم امهِ جنتيلسكا كرافينا وكانا من الاعيان المتأدبين يتقيان الله وربّيا بالورع ما رزقهما الله سبحانهُ من الاولاد وكان عددهم احد عشر والبكر القديس فرنسيس

واما افعالهُ ايام الصغر فاقتصر منها على ذكر شيء واحد . فاقول انهُ كان يحبُّ ان يتصدّق فكان يلتقط كل ما يجد في البيت من الخبز ليوزّعهُ على الفقراء فرأتهُ والدتهُ ذات يومٍ حاملاً قليلاً من الزاد فعنّفتهُ ووبّختهُ لانهُ يسلب خير البيت ويعطيهِ الاجانب . فقال الولد القديس امي ماذا تقولين: ان الصدقة لا تخرب بيتنا ابدًا فالأولى بكِ ان تنظري ان كان قد قلّ الخبز عندكِ وللوقت ركضت امهُ الى بيت المؤنة فوجدتهُ مملوءًا كالعادة فرجعت الى ابنها باكية وقالت لهُ ان فعل الصدقة كان واجبًا

وكان في المدينة المذكورة اخوية اكليريكيين كانوا يعيشون معًا ويربّون أحداثًا لخدمة المذبح فدخل القديس بين اولئك الأحداث وبقي هنالك الى ان صار ابن ستّ عشرة سنةً وحينئذٍ ادخلهُ رئيس اساقفة مدينة تارنت في صف الاكليريكيين واشار بذلك الى استقامة سيرتهِ ومحبتهِ للصلاة وصفاتهِ المحبوبة . وسنة ثماني وخمسين وستمائة والفٍ للمسيح كان قد بلغ اشدهُ فارسلهُ ابواهُ الى مدينة تارنت يتعلّم مع طلبة الفلسفة واللاهوت وارتسم هناك شماسًا رسائليًا وشماسًا انجيليًا ثم ذهب الى نابولي ليتمّم علم اللاهوت مرافقًا بواحدٍ من اخويتهِ اسمهُ يوسف كان مأمورًا بان يتعلّم التصوير

وفي الثامن عشر من شهر اذار سنة ست وستين وستمائة والفٍ للمسيح رسمهُ كاهنًا السيد باناديكتوس سانكس من هرّارا مطران مدينة بوزّول باذن الكرسي الرسولي لانهُ لم يكن وقتئذٍ الّا ابن نحو ثلاثةٍ وعشرين عامًا وبعض اشهر ودخل نظير راعٍ مدرسة الشرفاء للرهبانية اليسوعية فتهيأ لهُ بذلك ان يواظب على دروسهِ اللاهوتية ويضع اخاهُ يوسف عندهُ

وكان يُسمّى في المدرسة الاب القديس فالمعلمون والتلاميذ كانوا يتعجبون من آدابهِ واستقامة سيرتهِ ولطفهِ وتواضعهِ التام . حتى ان واحدًا من الطلبة عند احتدام غضبهِ ضربهُ ذات يوم كفًّا فعوض ان يقتصَّ منهُ جنا وحوّل لهُ خدّهُ الآخر فحملت هذه المعاملة ذلك الشاب على ان يفتكر في نفسهِ وأثّرت بهِ اكثر من قصاصٍ لا يمكن ان يكون اشد منهُ

وبعد ان اقام عليهِ السلام باعباء رعاية الطَلَبة مدة اربع سنين نال من عائلتهِ بقوة الالحاح اذنًا لينتظم في سلك الرهبانية المذكورة فلبس ثوب الرهبانية في شهر تموز من سنة سبعين وستمائة والفٍ وليلة عيد زيارة البتول الكلية الطهر اضحى قدوةً للمبتدئين وكان معلم المبتدئين قد امتحنهُ بضروبٍ من التوبيخ والقصاص وبكل نوعٍ من الاهانة . فلم يزعزعهُ ذلك الامتحان مطلقًا وانما قوّى طاعتهُ ولهذا حالما انقضت السنة الاولى ارسلهُ رؤساؤهُ بالرسالة مع الاب الشهير انيلّو برينو وبشّرا بالانجيل معًا مدة ثلاثة اعوام

في اقليم بويل وبلادا وترانت مقدّسين بالتوبة المدن والقرى وجدّدا بالتمام كل تلك البلاد الواسعة تجديدًا كلّيًا حتى ان السكان السعداء بالتغيير الذي كان جرى عليهم قالوا بعض مرات ان الاب برينو والاب ايرونيموس ليسا من البشر ولكن هما من ملئكة الفردوس الذين ارسلهم الله لاجل خلاص نفوسنا

وفي سنة اربع وسبعين وسبعمائة والف أُمر القديس بالرجوع الى نابولي ليتمّم دروسهُ اللاهوتية مع انهُ كان ابن اثنين وثلثين سنةً وكان مشهورًا بجودة قريحتهِ وفصاحتهِ. فذهب وجلس في مقام الطلبة بطاعةٍ مملوءة فرحًا واحتج بانهُ لا يعرف شيئًا وانهُ محتاج الى التعلم جدًّا . مع ان دفاترهُ في اللاهوت كان التلاميذ يطلبونها لوضوح عبارتها وعلو انشائها فكانت تعزيتهُ الوحيدة في هذا الزمان ان ينطلق يوم الاحد للوعظ في ساحات نابولي وما كان يعود الاّ وقد اصطاد خطاةً كثيرين بحبائل كلامهِ . وفي آخر السنة قُبل في الدير الكبير المسمّى جسو نوفو

ثم تأهّب للمواعظ العمومية في جمعية رهبان محترفين يشتغلون بعمل الايدي تسمى مجمع رسالة المساعدين الصالحين وانتخب منهم على وجه الخصوص اثنين وسبعين كانوا نظير تلاميذ يسعفونهُ في عيادة المرضى البعيدين وفي تسكين الغضب وفي ارجاع كبار الخطاة الى التوبة وفي حمل اسعافات للفقراء الذين يخجلهم التكفف. وكان يتقدمهم كذلك في التقوى ويعلمهم ان يصلّوا ويقودهم اما الى دير القديس لوسيا ليمارس معهم درب الصليب واما لزيارة الكنائس السبع بتذكر سبع رحلات لسيدنا يسوع المسيح في آلامهِ

ويوم الاحد كانوا يرافقون القديس في ساحات نابولي فبعد ان القى خطابًا وجيزًا خرجوا بهِ من كنيسة جسو نوفو بزيّاح ثم ارجعوهُ اليها مرنمين التسابيح في الساحات وفي الطرق التي كانت تتزاحم فيها الاقدام . وكان الكذّابون والمزّاحون والشعراء جالسين على مقاعد من خشب فلما نظروا الزياح تركوا مقاعدهم لا بدون غضب ولكن ما اجترأوا ان يقاوموا سلطة البرارة وبقية الايمان التي كانت في قلوبهم فصعد القديس ساعتئذٍ على تلك المقاعد كانها منبر وخاطب هذا الشعب الغفير بصوت كان يصل الى كل مكان وشجاعة تحمل الاضطراب الى قلوب المصرّين على خطاياهم

فابتدأ يصف عواقب الخطيئة الهائلة ويبيّن الاضرار والعقوبات التي تتبعها بقوة وحينما كان الخوف في قلوب الجميع كان يتكلم عن جودة السيد لهُ المجد ومحبتهِ الابوية والفرح الذي يكون لهُ عزّ وجلّ اذ يأخذ بذراعهِ اولادهُ المتفرّقين وحينئذٍ كان يشجّع الخطاة ويُريهم ان الله باسط يدهُ لقبولهم وانهُ كان يشاء ان يمارس افعال التوبة والامانة لاجلهم ولاجلهِ وخرّ على ركبتيهِ عند اسفل الصليب ووجههُ مبتلٌّ بالدموع وكان يضرب نفسهُ لاجل ذلك بآلةٍ من حديد . فتوجّع لهُ الشعب وقتئذٍ بسبب ذلك المنظر المحزن والمؤلم الى الغاية وجثوا وسألوا السيد تبارك اسمهُ المغفرة بالزفرات والدموع وكثيرًا ما كان يُرى خطاة كثيرون يأتون ويعترفون بزلاّتهم ونساء زوانٍ يسجدنَ امام احدى صُوَر المصلوب وينتفنَ بايديهنَّ شعورهنَّ دلالةً على التوبة

ومع ذلك أُنكرت غيرة القديس مرارًا وأُهين واحتُقر وضُرب ايضًا . ولكن لطفهُ لم يجعلهُ ينتقم من المعتدين عليهِ الاّ بمغفرةٍ واعظم شفقةٍ ولكن الله عزّ وجلّ كفل بعقابهم وكان شديدًا

واهانتهُ ذات يوم بعض النساء الزواني اللواتي كانت واحدة منهنّ اسمها كاترينا جمعتهنّ في فناء بيتها حتى يبلبلنَ الوعظ باغانيهنّ وهزئهنّ وصراخهنّ المقلق واملنَ انهُ يذهب غضبًا. ولكن بقي آخذًا في كلامهِ ولم يظهر انهُ اطّلع على خباثتهنّ ورجع بعد قليل بسبب عيدٍ الى ذلك الموضع نفسهِ ليعظ فرأى الباب مغلقًا والبيت الذي كان اعتياديًا مملوءًا ضجيجًا لا يسمع فيهِ صوت البتة

فقال القديس ماذا جرى لكاترينا

قالوا هل الاب لا يعرفهُ . البارحة مساء الشقية اصيبة بصيبة مميتة وماتت ولم تستطع ان تنطق بكلمة واحدة

اجاب القديس هل ماتت كاترينا وهل توفيت فجأةً فلنذهب لنراها

ففتح الباب والقديس صعد على الدرج ودخل غرفة الاستقبال حيث كانت الجثة والجمع يتبعهُ فنظر اليها ذمنًا بعين مرتعبة ثم قال لها بصوت عظيم . يا كاترينا اين انتِ الان فبقيت الجثة خرساء

فقال القديس ايضًا . يا كاترينا قولي اين انتِ الان انا اسألكِ ان تقولي لي اين انتِ

وفيما كان الجميع منذهلين متحيرين فتحت كاترينا عينيها واجابت بصوت ضعيف ومرتجف قائلةً انا في جهنم . انا في جهنم

فلما سمع الجمهور هذا الكلام هربوا مرتعبين ورجع القديس معهم مكرّرًا هذا الالفاظ . ايها الاله الرهيب . في جهنم هل سمعتموها . في جهنم

لله ايَّة موعظة بليغة مثل هذا الجواب

فالخطأة الاشقياء الذين شاهدوا هذه الواقعة وقع رعبٌ شديد في قلوبهم حتى ان جماعةً كثيرة منهم لم يُرِد احد منهم ان يرجع الى بيتهِ الاَّ بعد ان يكون تسالم مع الله سبحانهُ

ذلك وان القديس لما كان يتمّم كل ما تقتضيهِ الحال ليحرّك سامعيهِ ويحثهم على التوبة نظر ذات مرةٍ ولدًا كان يسمع كلامهُ بغاية ما يكون من الانتباه ويبكي بدموع حارَّة فادناهُ اليهِ واحتضنهُ بشفقة وقال لهُ يا بُنيَّ ما بالك تبكي على الخطايا التي لم ترتكبها وبين هولاءِ السامعين اثمة عليهم ذنوب كثيرة ولا يريدون ان يتوبوا بل انما قلوبهم متصلّبة على الدوام . ثم استنارت بصيرتهُ بنور غير طبيعي فاردف كلامهُ قائلاً للولد لكن ابوك ماذا يفعل

وكان ابو الولد رجلاً ذا سيرة مشككة بالكلية غير انهُ اذ تأثَّر من دموع ابنهِ ومواعظ القديس ركض وجثا امام صورة من صوَر المصلوب صارخًا ابي اغفر ذنوبي . فتوبتهُ ابكت الجمهور وتاب بواسطتها ايضًا كثير من الخطأة

وبينما كان القديس يعظ مرةً اخرى على جسر قياجا امام بيت قبيح الصيت في الوقت الذي كان فيهِ السامعون جاثين امام صورة المصلوب اذا بمركبة حاولت ان تخرج من ذلك البيت وتخترق الجمهور فترجَّوا النساء اللواتي كنَّ في المركبة ان ينتظرنَ الى نهاية الوعظ فذهب الرجاء عبثًا اذ لم يسمعنَ لهم وامرنَ سائق المركبة ان يسوق الخيل فتقدمت المركبة وحينئذٍ غضب القديس حقًّا واخذ صورة المصلوب التي عندهُ وصرخ قائلاً آه يا يسوع بما ان هذه الشياطين لم تحترمك مطلقًا فتحترمك على الاقل هذه الخيل . واحضر الخيل امام صورة المصلوب فوقفت الخيل من ساعتها وثنت سوقها الى ما قدام واستمرَّت جاثية اكثر من ثُمن ساعة ساجدةً للخالق الذي اهانهُ اصحابها فمن ثمَّ تعلم ايُّ تأثير ينبغي ان يحصل للجمهور من هذه القضية

كان في نابولي صاحب مركب مشهور من لصوص البحر المعروفين في ايامنا بالقرصان وكان سابقًا من الكفَّار فبعد ان عرف بصيت القديس حصل لهُ شوق الى ان ينظرهُ فذهب الى عظةٍ من مواعظهِ وسمعها بطول اَناةٍ ولكن لما رآهُ اخذ سلسلةً من حديد وضرب بها كتفيهِ لينال من الله سبحانهُ نعمة التوبة للخاطئ ما اضطرب ذلك الرجل السافك الدم لان ضميرهُ قال لهُ انهُ هو ذلك الخاطئ ووثب على القديس وخطف منهُ السلسلة صارخًا اترك اترك يا أبتِ ما هذا عليك لانك لست بقاتل لكن عليَّ انا الذي كفرت بيسوع المسيح

وللوقت كشف على كتفيهِ وضربها باشد قساوة حتى سال الدم من كل جهة على ثيابهِ ثم ذهب الى دير جِسو نوڤو وقال للقديس انت قد ابتدأت في امر توبتي فعليك ان تكملهُ واعترف اعترافًا صادقًا وعمل رياضةً في ذلك الدير نفسهِ مدة شهر تمكينًا لتوبتهِ

اتى رجل قاتل ذات يومٍ ليسمع عظة الاب ايرونيموس وفي نفسهِ انهُ يصادف بين السامعين رجلاً كان قد عمد على قتلهِ . فعرف القديس نيتهُ وصرخ قائلاً ماذا نويت ان تفعل ايها الشقي فهوذا الجميع يبكون على زلاَّتهم الماضية وانت تريد ان تقترف ذنبًا جديدًا . ان الله سيضربك ولا ترجع الى ما وراء رعبًا وجهنم فاتحة فمها لتبتلعك فاحذر فما قليل تسقط فيها . والحاصل ان ذلك الرجل خاف واتى وجثا على قدمَي القديس واعترف لهُ بخطيئتهِ

انني اتأسف بحيث لا استطيع ان اذكر كل الارتدادات العجيبة المذكورة في ترجمة هذا القديس الرسولي غير اني لا اقدر ان امتنع عن ذكر ما يأتي

كان في باريز رجل بروتستاني اسمهُ فرنسيس كاسير متزوّج امرأة كاثوليكية صالحة يقال لها مجدلينا اوليفيه ولهُ منها ابنتان وكان لهُ قصد متين ان يقودها الى البروتستانية لكن امها كانت على الدوام تصونها من تلك البدعة ولذلك كان يتعبها بمعاملتهِ الردية ويبغضها بغضًا شديدًا . وبعد وفاة والدتها عزم ان ينطلق بها الى جنيفا ليفوز بمرغوبهِ باسهل طريقة فالبسها اثواب رجال وسار معها في الطريق . ولما تعبتا ذات يوم من المشي ومن سوء معاملتهِ اياها طلبتا اذنًا من والدها ان تستريحا قليلاً فاجابها الى ذلك واذ

كان هو مشعرًا بالتعب ايضًا رقد على العشب ونام وكان ذلك في موضع منفرد. فالابنتان الشقيتان فيما كانتا غائبتين عن الهدى بسبب المعاملات الردية التي كانتا تحتملانها منذ زمان طويل اخذتا سلاحًا له بلطفٍ حتى انهُ لم يدرِ وقتلتاهُ واخفتا جثتهُ في غابةٍ كثيفة. وبعد ان ارتكبتا هذا الاثم الفظيع خرجتا من فرنسا وهما متنكرتان باثواب الرجال وذهبتا الى مدينة ميلان لتتقيدا بخدمة كارلوس الثاني ملك اسبانيا المتسلط وقتئذٍ على هذه المدينة

ان فرقتهما التي كان قائدها الدون عمانوئيل دي اريانا أُرسلت بالمحافظة الى مسّينا ثم الى نابولي ومن هنالك ذهبت بارسالية ضد الاردياء المقلقين الذين كانوا انسحبوا الى بلدة الابروز فقاتلت الاختان بشجاعة على انهُ بعد ان قُتلت احداها بصدمةٍ اعتنت الاخرى بان تدفن هي جثتها خشيةً من ان تُنزع ثيابها ويُعرف انها امرأة

اخذت الاخت الباقية اسم شارل بيمانتال وبعد ابادة جماعات اللصوص رجعت الى نابولي حيثما نعمة الله كانت تنتظرها وغيرت قلبها كما يأتي ذكرهُ

كان ذات يوم شارل بيمانتال يحافظ مع فرقتهِ في ساحة شاتونيف فرآهُ القديس وبعد ما فرغ من الوعظ اشار اليهِ بان يأتي ويخاطبهُ فقال الجندي في نفسهِ ماذا يُريد مني هذا الرجل بحيث لا اعرفهُ ولا عمل لي معهُ. مع ذلك ذهب الى القديس بعد ان دعاهُ ثانيةً فاختلى معهُ وقال لهُ بلطافةٍ اريد ان تعترف. قال الجندي ولماذا اعترف فهل ارتكبت خطيئةً كبيرةً توجب الشنق. واقول بسلامة ضمير لا اعرف اني خاطئ ثمَّ ادار كتفيهِ بقلة ادبٍ واراد ان ينصرف فامسكهُ القديس وقال لهُ كيف تستطيع ان تقول انك لم ترتكب خطيئةً. اما انت امرأةٌ تنكرت بثياب رجل. افما انتِ مريم كاسير المولودة في باريز فمن اين اتيتِ ايطاليا. أما اتخذتِ لنفسكِ اسم شارل بيمانتال وانتِ لا تقدرين ان تنكري ذلك فان الذي انبأني هو يسوع المسيح الذي ترينهُ على الصليب. هو انبأني بذلك. اتُريدين ان اكلمكِ اكثر في هذا الشان اما انتِ هي التي بالاتحاد مع اختها قتلتِ اباكِ بقساوة

حالما سمع الجندي هذا الكلام الصريح اخذهُ دُوار قويٌّ واصفرَّ وارتعد من اخمص قدميهِ الى قمة رأسهِ ولم يُرد مع ذلك ان يعترف. فعقب ان سكت قليلاً قال انا لا اعرف من امكنهُ ان يخدعك بمثل هذه الحكاية. ثم فيما كان مفتكرًا في ما ينبغي ان يمنع بهِ الاب عن التكلم عاهدهُ انهُ يذهب اليهِ في الغد ويعترف. فانتظرهُ القديس يومين ولكن بدون فائدة ثم جعل يفتش عنهُ وبعد ان وجدهُ قال لهُ أَهكذا كان العهد الذي اعطيتني اياهُ. فاجاب الجندي ايها الاب صدّق اني ما قدرت على ذلك والنتيجة انهُ مستحيل ان اذهب اليك الان لانهُ بموجب امر نائب الملك نركب السفينة حالاً ونسافر الى توسكانا

اما القديس فتبصر في ذلك وقتًا وقال انت لا تسافر. أَقسم لي اذًا بالمسيح انك تأتيني صباح غدٍ ولا تخف فان لي رجاء عظيمًا في ان الله يريد ان يخلصك

أُبطل حقًّا الامر بالسفر في اليوم نفسهِ كما كان قد انبأهُ القديس وانطلق الجندي في الوقت الى كنيسة جسو نوفو لينجز وعدهُ فلما لحهُ الاب اخذتهُ هزّة الطرب المقدس وقال لهُ انت تريد ان تفلت من يد الله ولكنهُ هو الاب الذي يحبك ويريد ان يخصصك لهُ. ثم سمع القديس اعترافهُ واعدَّهُ لقبول الحلة في ذلك الصباح نفسهِ وجعلهُ يتقدم الى المائدة المقدسة فقضى الجندي ذلك النهار السعيد كلهُ في الكنيسة ممارسًا للعبادة. وفي المساء ذهب بهِ القديس الى اميرة سانتو ستفانو فهذه السيدة التي كانت نقية جدًّا أَهّلت بهِ تأهيلاً عجيبًا وجعلت مريم كاسير تلبس من جديد ثياب النساء وابقتها عندها مدة اربعة اشهر ثم وضعتها في بيت صغير حيث كانت تعيش بدخل ستة ريالات في الشهر وكان عليهِ السلام نال ذلك من صندوق العسكرية وهو معاش تقاعد لكل جندي عاجز

فهذه التوبة الغير الاعتيادية كانت في السنة الثامنة والثمانين من القرن السابع عشر. ومريم كاسير لم تَمت الاَّ في السنة السابعة والعشرين من القرن الثامن عشر وهي اثبتت تفاصيل اهتدائها بقسمٍ لاجل دعوى تقديس مرشدها. وبقيت دائمًا على احسن عواطف الاتضاع والندامة باكيةً على سقطتها وممارسة كل يوم افعال التوبة

ان العذراء الكلية الطهر كانت ترسل الى القديس احيانًا الأَثمة الذين نالت لهم نعمةً من ابنها وكان من اولئك الاثمة رجل لم يقترب من كرسي الاعتراف المقدس منذ خمس وعشرين

سنة وكان عنده انه من المستحيل ان يجد معرّفًا يريد ان يحله وبناء على ذلك بقي غريقًا في بحر الفساد ظانًا ان خطاياه لا تغفر . فذات ليلة ظهرت له البتول الكلية الطهر في حلم واغرته ان يغيّر سيرته ويتسالم مع ابنها وظهرت له مرة ثانية . غير ان الشقي بعد ان وعدها ابى ان يتمم وعده بحجة انه غير ممكن ان يجد معرّفًا يريد ان يعطيه الحلة . وتراءت له العذراء ثالث مرة وقالت اذهب مسرعًا واعترف فقد نلت لك من ابني مغفرة زلّاتك لانك كنت دائمًا تحيّي صوري بالاحترام . فاجاب هذا الخاطئ العنيد لكن ياسيدتي لا اجد شخصًا يشاء ان يحلّني . فقالت له العذراء عليها اشرف السلام انطلق الى كنيسة جسو نوڤو واطلب خادمي فرنسيس ايرونيموس ولا تخف شيئًا فانه عندما يعرف انك منذ زمن مديد لم تعترف يعانقك باقصى ما يكون من رقة القلب ويمدّك بما تحتاج اليه من الاسعافات لكي تخرج من سلاسل الخطيئة

فهذا الرجل القليل الاطمئنان ذهب غدوةً الى الكنيسة وطلب الاب فرنسيس وعندما قال له انه منذ خمس وعشرين سنة لم يعترف طار القديس فرحًا لانه رأى نفسًا راجعة الى الهها بعد غياب طويل الى الغاية وعانق الرجل المشار اليه وبفرح مقدس قبّله مرارًا كثيرة وهيّأه تهيئةً حسنة جدًّا حتى ان هذا الخاطئ الشقي سار من ذلك العهد سيرة الابرار واعطى قدوة صالحة

رجل مشهور بالقبائح قال للقديس ذات يوم آه ايها الاب العزيز ارجوك بالمحبة الّا تطردني . فسأله الاب منذ اي زمان انت لم تعترف . فما اجترأ ذلك الرجل ان يجيبه الا بدموعه . فقال القديس لماذا اطردك يابنيّ اما ان سيدنا يسوع المسيح ذهب بنفسه يطلب الخطأة ليخلصهم . فلننظر هل منذ عشرين سنة لم تعترف

قال الرجل آه ايها الاب منذ اكثر من ذلك

قال الاب أمنذ ثلثين سنةً ام منذ اربعين

قال الرجل ويلاه اكثر ايضًا

قال الاب تشجّع وقل أمنذ خمسين سنة

قال الرجل بالضبط يا ابتي اني اهرب من الله تعالى خمسين سنة

فقال القديس بالهُ من ضلال كيف تهرب من الاله الصالح الذي يتأتّى بقلب أبٍ مملوءٍ من الرحمة . أبٍ يمدّ الينا ذراعه بكل محبة وبكل رحمة . آه ارجع يابنيّ ارجع الى الهك الى ابيك الذي ينتظرك بصبر عظيم فتكون سعيدًا جدًّا في توبتك

فبكى الخاطئ الشيخ وكذلك القديس لم يقدر ان يمسك دموعه مباركًا رأفة الله الغير المتناهية

نعم ان الله رحيم ولا يشاء الّا خلاصنا والظاهر انه يطلب كل واسطة لذلك واتجاسر ان اقول كل علةٍ ليخلصنا ويعطينا السماء ومع ذلك نحن نهتم كثيرًا بان نخسرها . فقد سمعنا خبر الرجل الذي نالت له العذراء الكلية الطهر النعمة جزاء لانه كان يحيّي بالاحترام صورها في طرق نابولي . فهاك امرأة قبيحة السيرة صفح الله عنها لاجل صدقةٍ قليلة وكانت هذه المرأة تسمى انجل ماري ولما كان اصلها من مدينة فنيسيا (اي البندقية) كانت تُلقّب بفنيسيئًا الصغيرة وبينما كان القديس يعظ ذات يوم جاءت امرأة اخرى شقية الحال بدموع ووقعت على رجليه طالبةً منه ان ينقذها من آثامها ويضعها في مكان امين . واما رجل الله فامتلأ فؤاده فرحًا ورجع نحو معبده وقال من منكم يريد ان يساعد على تخليص هذه المرأة التي عزمت على ان تخصص نفسها لله عزّ وجل

فجمعوا حالاً مبلغًا كافيًا لان تدخل تلك التعيسة الى بيت التائبين . فالفنيسيئًا الصغيرة اذ كانت تنظر هذا المشهد من كوى بيتها احسّت برغبة المساعدة على انقاذ تلك النفس فرمت هي ايضًا قطعة فضة . فاتوا بها الى المرسل الذي استقبلها بفرح وقال لهذه المرأة قابضًا بيده على درهمها اختي لا يخامرك ريب ان هذه الصدقة تفيدك كثيرًا وهذا يكون بعد قليل . فعقب ايام اذ لم تستطع الفنيسيئًا الصغيرة ان تقاوم نعمة الله أتت دار الرجل القديس وجثت على قدميه واعترفت بخطاياها

فهي نفسها قالت عن اعترافها هذا انها بعد ما ظنت انها اشتكت على نفسها بكل خطاياها اجابت على سؤال القديس . انني ذكرت الكل فقال المعرّف لماذا لا تشتكين على نفسك بالخطيئة الفلانية فقالت يا للعجب يا أبت . انا ارتكبت تلك الخطيئة غير اني نسيتها مطلقًا

وفضلاً عن ذلك ان هذه المرأة التي كانت توبتها نصوحًا الى الغاية سألت الله ان يعاقبها على آثامها في هذه الدنيا فلذلك ضربها الله بسرطان مريع اكل وجهها فشفاها

القديس بذخائر القديس صير التي كان يحفظها معهُ اعتيادياً اخفاء لعجائبهِ. الاَّ ان اثر ذلك الجرح بقي دائمًا ومن ثمَّ فقدت تلك الفتاة جمالها وابتهجت بذلك لانهُ نظير مثبت لخلاص نفسها

هذه النظرة النبوية التي كان القديس تنبأ بها على توبة هذه المرأة كانت لهُ اعتيادية . وانا اضيق ذرعًا عن ذكر كل الارتدادات الى الله المذكورة في دعاوي اثبات قدسهِ . كان القديس صباح يوم في كرسي الاعتراف فاحاط بهِ جمٌّ غفير من التائبين فقام وخرج من الكنيسة وتمشى في الطريق فصادف رجلاً فاوقفهُ وقال لهُ الى اين انت ذاهب ياولدي فقال الرجل الى شغلي وانا متعجب جدًّا يا ابي انك تشغل فكرك في سيرتي . قال القديس تشجع يا اخي والذي سألتك عنهُ هو لاجل منفعتك ارجوك ان تقول لي الى اين انت ذاهب . فما اجابهُ هذا الرجل الاَّ بالشتائم الثقيلة . غير ان القديس استمعها بدون ان يضطرب وقال لهُ رفقًا يا اخي ألست آتيًا من تلك المدينة وانت مدجَّج بالسلاح لتقتل عدوَّك أتريد اذًا ان تهلك بضربة واحدة نفسين نفسهُ ونفسك فبهت الرجل ولم يقدر ان يردَّ جوابًا . فعانقهُ القديس برقَّة قلب وقال لهُ فلنذهب الى الكنيسة لتصالح الله وعدوَّك . فاتبعهُ وحصل للقديس فرحٌ عظيم لانهُ انقذ نفسين في وقت واحد

ان فلاحًا فقيرًا تشكى ذات يوم الى القديس بان شجرةً في حقلهِ كانت قبلاً تثمر لهُ كثيرًا ثم لم تعد بعد تثمر شيئًا . فتوجَّع رجل الله لتوجُّعهِ واقبل نحو الشجرة بسذاجةٍ مذهلة وقال نحوها ماذا يقال عنكِ فلانتِ قديمة العهد جدًّا حتى لا تستطيعي ان تثمري الان شيئًا ولا هذا زمان راحتكِ فاثمري وعزِّي هذا الرجل المسكين . فبهذا الكلام اورقت الشجرة وتغطَّت بالازهار واثمرت ايضًا اعوامًا كثيرة

انا آسف لاني ملتزم ان اسكت عن افعال اخر كثيرة لهُ لانها تصرِّح بجودة خادم الله وقدرتهِ وكنت اشتهي ان اذكر لك على الخصوص الرسالات التي عملها في اقاليم مملكة نابولي والعجائب التي صنعها هناك كلما مشى خطوةً وتوبة الخطأة القساة القلوب ومصالحات الاعداء العنيدين التي كانت تدل على اجتيازهِ في تلك الاماكن

على ان هذه الرواية جرَّتنا الى ما وراء حدود هذا التأليف ولا بد ان نستعجل ونحضر الدقائق الاخيرة من حياة ثمينة جدًّا

وهو عليهِ السلام عرف ساعة موتهِ وانبأ بها لما فقد اخًا كان لهُ وقد مات منذ سنة ميتة صالحة لانهُ قال اني بعد سنة انطلق اليهِ وقال حينما وعظ آخر مرة في دير العذراء مريم عن المحبة الالهية مع ان صحتهُ كانت لم تزل جيدة . يابناتي العزيزات هذه آخر خطبة تسمعونها من فمي والان اودّعكنَّ راجيًا الاَّ تنسينني في صلواتكنَّ اذ لا يرى بعضنا بعضًا الاَّ في الفردوس

ولما اصابهُ المرض جعل الناس لهُ رجاء بانهُ يبقى حيًّا الى عيد القديس صير الذي كان متعبدًا لهُ جدًّا . فقال لا لا فانا لا ابقى هنا الى العيد ولكن ارجو ان اعيّدهُ في السماء . ثم شكر طبيبهُ لما بذلهُ نحوهُ من العناية وقال لهُ اننا لا ننظر بعضنا بعضًا في هذه الدنيا لان يوم الاثنين هو آخر حياتي

واصابهُ داء المنون كما يصيب جنديًا شجاعًا ليسوع المسيح في ساحة الشرف اعني معطيًا التمرينات الروحية لطلبة مدرسة الشرفاء . تعذَّب كثيرًا لكن صبرهُ بدَّد الالام وكان يقول الله ارسلها اليَّ فانا اقبلها من يدهِ بكل خاطري فلتزدد دائمًا فكان يقول ايضًا هذا شيء قليل بالنسبة الى كل ما تستحقهُ مآثمي . وحينما يتشكى احدٌ امامهُ يقول لهُ ليس هذا بوجع كبير فان اوجاعي لا تعلن الا ضعفي وليس غير المسيح المصلوب يقدر ان يقول لا يوجد ألم نظير ألمي

وكان لهُ ساعة فرح عند ما جيء اليهِ بتمثال القديس صير الذي كان صنعهُ من فضة بمساعدة احبائهِ والقديس صير كان يسعفهُ دائمًا ونسب الى هذا القديس كل ما صنع من العجائب وقال للوقت وهو ناظر الى تمثالهِ الان اموت مسرورًا

ان احد الحاضرين حدَّثهُ عن المجد الذي يكسبهُ اياه هذا الفعل الجميل . فقال لهُ أَلي الشرف ولماذا فانا لم اعمل شيئًا يستحق المجد . الى الله الى الله وحدهُ يتوجَّه كل مجدٍ

وجيء اليهِ في اليوم الثالث من شهر ايار بالقربان المقدس فجثا في وسط الغرفة لقبول سيدهِ وسأل بدموعٍ العفو عن جميع ما جنى من الآثام والمغفرة عن كل ما القى من الشكوك . وطلب الى اخوتهِ باتضاع ان يصلُّوا عن نفسهِ . ثم طلب مساعدة البتول الكلية الطهر وقال نحوها آه يا امي العزيزة انا كنت بالنسبة اليكِ ابنًا رديًّا جدًّا لكن تمّمي رحمتكِ واطلبي لي محبة ابنكِ يسوع . وقال للباكين حولهُ لماذا تبكون

انا منطلق الى فردوس النعيم حيث اذكركم واستطيع ان اساعدكم اكثر . ولما عرف انهُ قد دنت ساعة وفاتهِ رتّل شكرًا لما اسبغ الله عليهِ من النعم ومات في اليوم الحادي عشر من شهر ايار سنة ست عشرة وسبعمائة والف للمسيح وعمرهُ اربع وسبعون سنة قضى ستًّا واربعين منها في الرهبانية واربعين في اعمال الرسالة واثبت قداستهُ البابا غريغوريوس السادس عشر سنة سبع وثلثين وثمانمائة والف

اليوم الحادي عشر

وفيهِ ترجمة القديس ابيفانيوس الاسقف

وُلد القديس المذكور في اوائل المائة الرابعة بفلسطين وكان ابواهُ متورّعين فربّياهُ على خوف الله وعلّماهُ العلوم اللاهوتية وغرسا في قلبهِ عبادة الله عزّ وجل . ومن ثمَّ اضطرمت في فؤادهِ لواعج الشوق الى تخصيص نفسهِ لخدمة المولى . فرحل عن فلسطين الى مصر حيث كانت جماهير السيّاح والرهبان والنساك . وقبل ان يعتزل في دير اقام بالاسكندرية زمانًا وفيها قرأ العلوم الدنيوية على بعض المشائخ . وقال عليهِ السلام محدّثًا عن نفسهِ انهُ رأى المبتدعين الغنوستيكيين الذين كانوا ينكرون لاهوت السيد المسيح وغير ذلك من حقائق النصرانية ويبيحون الزناء فاجتهدوا ان يستميلوهُ الى مبتغاهم وذلك بان ارسلوا اليهِ البعض من النساء الزانيات ونصبنَ لهُ فخاخًا الّا انهُ نجا بنعمة الله ولم يقع فيها . وفيما بعد كتب ضدهم واشاع فساد تعليمهم وسيرتهم

ومن بعد ان انتصر عليهِ السلام على العدو في هذه المعركة الجهنمية انتبه الى نفسهِ بتيقظ وعزم على ان ينفرد عن الناس فذهب الى القديس انطونيوس واسترشدهُ وجرى على كل ما كان يرشدهُ اليهِ . وطفق يتقدم في سبيل الناسكين يومًا بعد يوم حتى زها بالفضائل والخلال الحميدة بحيث انهُ بعد قليل صار قدوة الرهبان في كل عمل صالح . ورجع بعد اعوام من مصر الى فلسطين وانشأ ديرًا بجوار مدينة اوطاروبوليس. فاقبل عليهِ جماعةٌ طمعًا في الاقتداء بهِ لانهُ كان كما مرَّ نموذج الصلاح ورغبوا عن الدنيا وترهبوا في ديرهِ ولما درى اسقف المدينة المذكورة انهُ جامع لشتات الفضائل رسمهُ كاهنًا حتى لا تبقى فوائدهُ مختصة بالرهبان بل تعم الكنيسة ايضًا وكان كذلك . وهو عليهِ السلام انصب ايام النسك على تلاوة كتاب الله واطال النظر في استخراج معانيهِ كما اقبل على قراءة كتب الفلاسفة وعُني بجمع براهين المبتدعين وما بنوا عليهِ ضلالهم من الادلة الكاذبة . ثم اخذ يفندها افادةً للمؤمنين وتحذيرًا لهم من رشف سم تلك البدع ولا سيما شيعة الاريوسيين التي كانت منتشرة في ذلك العصر اكثر مما سواها

ولما كان لا يرى نفسهُ من حيث الكمال والعلم في المنزلة التي يراهُ فيها القوم وذلك كما لا يخفى دأب الصالحين صادق القديس ايلاريون الكبير الذي كان ناسكًا في بريّة مدينة مايوما وعاشرهُ واصاخ سمعًا لاقوالهِ وتنكّه باحاديثهِ الطيبة . غير ان القديس ايلاريون لما رأى الناس قد اقبلوا عليهِ افواجًا افواجًا اذ كان قد انتشر عبير فضائلهِ واشتهرت العجائب التي فعلها الله على يدهِ فارق بلاد فلسطين ورحل الى امكنة مختلفة كما سترى في ترجمتهِ في اليوم الحادي والعشرين من شهر تشرين الاول . وسنة خمس وستين وثلاثمائة قطن جبلاً بجزيرة قبرس وهناك اثنى على القديس ابيفانيوس واكثر من ذكر مناقبهِ الحميدة وفضائلهِ الوافرة. وذكر كلامًا طويلاً على سعة علمهِ وغزارة مادّتهِ. ولذلك اذ مات مطران مدينة سالامينا وعلى الارجح قسطانسا اكبر كراسي الجزيرة المذكورة انُتخب القديس ابيفانيوس ورُسم اسقفًا عليها لا بارادتهِ سنة ثمان وستين وثلاثمائة . فحينما وُضع ذلك السراج على منارة الكنيسة اضاءت انوارهُ لكل من في بيت الرب واشتهرت اخبار فضلهِ وقدسهِ اشتهار نار على علم خصوصًا لان اعمال الاسقفية ومقتضياتها لم تنقص من ممارستهِ لافعال تذلّل الجسم وتقوّي الروح

ولما كانت فضيلة المحبة مالكة لقلبهِ عليهِ السلام كان يصطنع الى الفقراء واما الذين نزلت بهم بلايا خصوصية من نحو خسائر جسيمة وغرق اموال واحتراق بضاعة الى غير ذلك من مصائب الدهر فكان يساعدهم بكل ما يقدر عليهِ والحاصل انهُ انفق في سبيل الله كل مالهِ حتى انهُ كان يصرف دخل الكنيسة في سدّ عوز المحتاجين ولذلك اعطاهُ كثيرون من اهل عمل الخير اموالاً وكلفوهُ بتوزيعها على المساكين ومن اولئك المتصدّقين القديسة ديمتريادة المشهورة التي تصدّقت على جمّ غفير من الناس ثم وهبت القديس ابيفانيوس جانبًا كبيرًا من الدراهم وعقارات واسعة

انهُ اذ كانت حسنات المسيحيين ودخل الاسقفية لا تكفي

لاتمام رغبتهِ في الاحسان كان الله يوءتيهِ مالاً بوسائط فائقة الطبيعة حتى يتمّ بغيتهُ الصالحة. ويُروى انهُ طلب مرة من قيّم البيعة دراهم ولم يكن عندهُ وقتئذٍ الّا قليل فتشكى القيّم المشار اليهِ وطلب منهُ ان يوقف سخاءَهُ عند حدٍّ فلم يلتفت لكلامهِ بل امرهُ ان يعطي الفقراء ذلك الباقي القليل ففعل فاضحى صفر اليدين وحينئذٍ جاء اليهِ رجل غريب بكيس كبير مملوءٍ ذهبًا وسلمهُ اياهُ وغاب عن عينيهِ بدون ان يعرفهُ من هو ولا من قِبَل من اتى. ولاجرم ان في ذلك اشارة الى محبة الله للمعطي الباش

غير ان البعض من اهل الطمع كانوا ينتهزون فرصة سخائهِ وما هم بفقراء ولما عرف اثنان من طالبي الصدقة انهُ سيمرّ بمكان انطرح احدهما على الارض كانهُ ميت ووقف الآخر عند رأسهِ فمرّ الراعي من هناك ورآهُ يبكي وليس لهُ ما يدفن بهِ رفيقهُ فاعطى للوقت مبلغًا كافيًا لتجهيز الميت قائلًا لهُ اعتنِ يا ابني الان بدفن هذا المسكين ولا تضيع الزمان ببكاءٍ عليهِ فان رفيقك لا يقيمهُ بكاؤك وهذا شيءٌ لا دواء لهُ الا الصبر. ثم تقدَّم على وجههِ ولما ابتعد عنهما جعل الذي اخذ الحسنة ينبّه المتظاهر بانهُ ميت ويقول لهُ ان الحاجة قد انقضت وصرنا نقدران نتمتع بالدراهم غيران ذلك المتماوت مات حقيقةً وحينئذٍ فارقهُ رفيقهُ الحيّ وطفق يركض حتى ادرك القديس وانطرح على قدميهِ معترفًا بالحيلة التي صنعها ومخبرًا اياهُ بموت رفيقهِ وتوسل اليهِ ان يتضرَّع الى الله لتعود اليهِ روحهُ. ففعل القديس ولم يولهِ الله تلك النعمة لكي يعلم الجميع كم يغضب الله على من يهزأ بعبيدهِ الامناء ثم اخذ يسليهِ ويعزّيهِ بما قدر عليهِ

وذهب القديس الى رومية على عهد البابا داميوس في امور واغراض تفتقر اليها الكنيسة الشرقية وذهب معهُ القديس بولينوس اسقف انطاكية والقديس ايرونيموس صديقهُ وبعد ان قضى هناك اغراضهُ عاد الى كنيستهِ

وفيما بعد مضى الى اورشليم حيث كان القديس ايرونيموس قد اختلى مع اخيهِ بولينيانوس ومن حيث انهُ رسم اخاهُ المذكور كاهنًا غضب عليهِ يوحنا بطريرك اورشليم. والارجح ان غضبهُ على القديس ابيفانيوس وعلى القديس ايرونيموس انما نشأ عن مقاومتهما بدعة الاوريجانيين لان يوحنا كان يميل الى هذه البدعة ويعضد احزابها. هذا وان يوحنا ارعوى فيما بعد ورجع عن ضلالهِ كما روى القديس ايرونيموس

ومن اجل هذا عينهِ وقعت مشاجرة بين القديسين ابيفانيوس وفم الذهب. لانهُ لما مضى الى القسطنطينية حينما كانت الملكة اودوكيا تضطهد فم الذهب كان بعض الاساقفة يتآمرون في عزلهِ عن الكرسي وشرع اولئك الاساقفة يتملّقون القديس ابيفانيوس ليستميلوهُ الى رأيهم فقالوا لهُ ان البطريرك يوحنا فم الذهب صَلِف متكبر مفتن وتابع لشيعة اوريجانوس فطلب منهُ القديس ابيفانيوس ان يرفضها في الاسكندرية وقبرس ومواضع اخر. فابى ذلك القديس يوحنا وقال ان مثل هذا الامر الجسيم يقتضي مجمع اساقفة يفحصون اول الامر عن هذا التعليم قبل ان يُرفض ليرذل بحكم كنائسي احترامًا لاوريجانوس فانهُ رجل جليل ولجماعةٍ من اهل الفضل اخذوا بهذا التعليم وجروا عليه

ومن الغريب ان الآريوسيين لم يضطهدوا القديس ابيفانيوس مطلقًا مع انهُ كان يقاوم بدعتهم بكل قوتهِ وانما ذلك على ما قال القديس ايرونيموس لان الجميع حتى المبتدعين كانوا يحسبونهُ رجلاً قديسًا ومن ثم خشي الاريوسيون من ان تسخط عليهم الشعوب وتضطهدهم ان اضطهدوهُ فكان عدم التعرض لمقاومتهِ مأربًا لا حفاوةً كما في المثل. وكانت وفاة هذا القديس في شهر اذار عند رجوعهِ من القسطنطينية الى قبرس ودُفن في اليوم الثاني عشر من شهر ايار سنة ثلث واربعمائة للمسيح وكان لهُ من العمر ست وتسعون سنة

اليوم الثاني عشر

وفيهِ تراجم القديسين الشهداء ناريوس واكلاوس وبانكراسيوس ودوميتيلا الشهيدة

ان القديسين ناريوس واكيلاوس هما اخوان تنصّرا على يد القديس بطرس الرسول. وكانا يخدمان القديسة دوميتيلا وهي فتاة كريمة النسب من اقرب الانسباء الى الملك دوميسيانوس وتنصَّرت بعد ان آمنت بالمسيح على خطر فقد حياتها. ثم خطبها بعد ذلك رجل من عظماء بلاط الملك يقال لهُ اوريليانوس. ولما رآها ذانك الاخوان الفاضلان تتزيّن باثواب ثمينة قالا لها مرارًا ليتكِ يادوميتيلا تجتهدين هكذا في ان تزيني نفسكِ بحلى الفضائل. لو كنتِ بهذا ترتجين محبة سيدنا يسوع المسيح لكان تعالى يقبلكِ عروسًا

لهُ ويهبكِ بهاء لا يفنى بالموت . فقالت دومينيلا اني لست اقصد في الزواج سوى ان آتي ببنين يعبدونهُ تعالى ولعمر الله اني ما قصدتُ في هذا التزيُّن والتحلّي الّا ارضاء خطيبي فهل في هذا خطيئة . فاجابها ناربوس قال انكِ لا تفتكرين الا في خيورٍ زائلة واما الخيور الباقية فما لاعناية لكِ بها فانكِ تنظرين الى فوائد الزواج ولكن لا تنظرين الى ما يتعلق بهِ من الواجبات والاتعاب والاخطار. فاعلمي يقينًا أيتها الفتاة ان البنت التي تتزوّج تعدم حرّيتها وتصير كأَمةٍ لبعلها الذي يأمرها ان تمشي على هواهُ وربما يمنعها من زيارة اهلها وينهاها عن كل ما كانت تتسلّى بهِ . وان ذلك سهلٌ في جنب غيرة الرجل التي كثيرًا ما تدعوهُ الى اساءة الظن بامرأتهِ . فياليت شعري هل في البرية اشقى من امرأة على هذه الحال . ذلك وان كانت عقيمًا فيكون لها من الحزن ما لا يعرف شدّتهُ الا النساء العواقر. وان رُزقت اولادًا فيصيبها آلام واوجاع وتلمُّ بها احزان تنشأ عن الاولاد يصعب وصفها . فكم من امرأة ماتت لان الله رزقها ولدًا ناهيك عما تلقاهُ النساء من شدة التعب وفرط الحزن في تربيتهم وامراضهم . وفي الجملة فان للنساء من الزواج اتعابًا لا تقدَّر وهي اما ان تكون ناشئة عما ذكرناهُ من الاسباب او عن اسباب اخر من نحو كون الاولاد اشرارًا قساةً على والديهم . فلله كم من امرأة تلعن اليوم الذي ولدت فيهِ ولدًا شريرًا وكم من والدة ذهبت الى النار من شر اولادها . اما اكيلّاوس فقال لدومينيلا ما احسن العفة واسعد الاعفّاء فانها تُبعد البتول عن كل هذه البلايا وتصيّرها شبيهةً بالملائكة وعروسًا لرب الملائكة . فياليتكِ تحبين هذا العروس الالهي الذي يقوّي محبيهِ وينصرهم على شهوات الجسد والدنيا وعلى الشياطين ايضًا . فانظري يادومينيلا من تريدين ان يكون عروسكِ أَسيدنا يسوع المسيح الذي لا يموت ام رجلاً مائتًا

وفيما كانا يتخاطبان في ذلك كان قلب تلك الفتاة التقية يجدّ فيها بان تتبتّل الى الله ويزيّن لها اكليل الاستشهاد . فاجابت قائلةً ان قصدي الان هو حفظ البتولية وان بفقد حياتي لكنما اسالكما ان تساعداني بصلواتكما . فحينئذٍ شكر الاخوان الله سبحانهُ على عزم الابنة وذهبا حالاً الى القديس اكليمنضوس البابا واخبراهُ بما وقع . اما الحبر المتنوّر من الله فاجابهما قائلاً انهُ قد آن الزمن الذي يريد الله مني ومنكما ومن دومينيلا ان ننال فيهِ اكليل الاستشهاد . فاذ قد امرنا سيدنا لهُ المجد بالّا نخاف ممن لهُ سلطان ان يميت الجسد دون النفس فلا نباليَنّ اذًا بملك ارضي ولنطع الملك السماوي قال هذا وخرج للوقت وذهب الى بيت دومينيلا وخصَّصها لله بنذر العفة الدائمة

اما اوريليانوس فلما علم بذلك وغر صدرهُ وغضب غضبًا شديدًا وقبض اولاً على ناربوس واكيلّاوس لانهُ ظن انهُ اذا انتصر عليهما يستميل دومينيلا بسهولة الى غرضهِ . فما باليا بوعدهِ ولا التفتا الى وعيدهِ فضُربا سياطًا بقساوةٍ وحشية واحتملا بالصبر الجميل ألم الضرب وحينئذٍ انقطع رجاء اوريليانوس فحكم عليهما بالموت لكونهما مسيحيين . ولكنهُ خاف من ان ثباتهما في الايمان يشجّع دومينيلا فارسلهما الى مدينة تراسينا ولما مثلا لدى مينوسيوس واليها آتاهما بخورًا ليقدماهُ للاوثان فهتفا معًا أَبعد علينا ان نعبد اوثانكم بعد ان اعتمدنا بيد بطرس الرسول . فامر للوقت الوالي ان يعلّقوهما ويحرقوا خواصرهما بلهيب المصابيح فقاسيا ذلك العذاب الاليم بالبهجة حتى تعجب منهم الوثنيون انفسهم

ولكون الوالي خاف ان الشعب الوثني يميلون الى النصرانية امر بقطع رقبتيهما في اليوم الثاني عشر من شهر ايار سنة خمس وتسعين للمسيح

اما دومينيلا فلم يتزعزع ايمانها ولكن الملك لم يقضِ عليها بالموت لانها كانت كريمة الاصل بل نفاها الى احدى الجزائر ثم اعادها الى تراسينا وسلمها اوريليانوس الى اختين وهما افروسينا وتاودورا قصد ان يميلا بها الى مبتغاهُ ونظرًا الى تينك الاختين فشرعتا تخاطبانها بفطنة شيطانية قالتا لها لماذا ترفضين التزوُّج باوريليانوس وان هذا لا يصدكِ عن النصرانية ولا يبعد ان يتنصَّر على يدكِ وهكذا تميلين باهل منزلهِ الى ديانتكِ . فقالت القديسة دومينيلا يا ايتها الاختان العزيزتان لو خطبكما ارفع الامراء قدرًا وأَجلُّ الملوك شأنًا ثم طلب احقر اتباعهم ان يخطبكما فهل تجيبان ذلك الخادم الى ما طلب . فقالت تانك الاختان كلَّا اننا لا نفعل ذلك البتة فقالت القديسة اعلما اني اذ نذرت العفة صرت عروسًا للمسيح تبارك اسمهُ فهل يليق بي ان اكون خطيبة انسان قابل الموت . فقالت لها الاختان ارينا قدرة عروسكِ الالهي لنؤمن بهِ فان لنا اخًا اعمى فاطلبي من الهكِ ان يعيد اليهِ البصر

فاجابت القديسة ان اخاكما في غربةٍ فلا سبيل الى ان نرياهُ الان حتى نتحققا الآية ولكن في منزلكما خادمة خرساء فأحضراها التي لأُريكما فيها اليوم قوة سيدي وعروسي الالهي. فحضرت تلك الخادمة وصلّت من اجلها القديسة دوميتيلا فشفيت للوقت وهتفت قائلةً لا اله الاَّ الذي يعبدهُ المسيحيون وللحال جثت افروسينا وتاودورا على قدمَي القديسة وقالتا اننا قد آمنا بسيدنا يسوع المسيح الاله الحق وخصصنا انفسنا لهُ فلا نريد ان نقترن برجلٍ

فلما عرف اوريليانوس بما كان استأذن الحاكم وأحرق البيت الذي كانت فيهِ القديسة دوميتيلا مع الاختين فمتنَ ثلثهنَّ بالنار (راجع حاشية الوجه ٢٠١)

اعلم ان الكنيسة تعيّد في هذا اليوم عيد استشهاد القديس بانكراسيوس الذي وُلد ببلاد فريجيا وبعد موت والديهِ انتقل بهِ عمهُ ديونيسيوس الى رومية حينما كان ديوكليسيانوس الملك يضطهد المسيحيين. واتفق ان منزلهما في رومية كان قريبًا من منزلٍ كان اليهِ يلتجئ القديس مرسلينوس البابا فتعجبا من برارتهِ وفرحا من مخاطباتهِ وقبلا تعاليمهُ وايمانهُ واعتمدا وبعد قليل من ذلك توفي ديونيسيوس وكان بانكراسيوس ابن خمس عشرة سنةً . فقبض عليهِ الملك ديوكليسيانوس بما انهُ كان عارفًا بابيهِ ثم لاطفهُ بالكلام ووعدهُ باشياء مختلفة بشرط ان يرجع الى عبادة الاصنام . فرآهُ غير ملتفت الى مواعيدهِ فانذرهُ بانواع العذاب الشديد المهيأ لهُ ان كان لايطيع امرهُ . فقال لهُ القديس حينئذٍ انك باطلاً تعدني ايها الملك بخيور دنيوية وعبثًا تتهددني وتتوعدني بأعذبةٍ دنيوية ايضًا فاعلم ان المسيحي لا يحب الدنيا ولا يخاف عذابها. حينئذٍ امر الملك بقطع رأسهِ فكان ذلك سنة اربع وثلاثمائة للمسيح وقد بُنيت في رومية كنيسة على اسم هذا القديس

اليوم الثالث عشر

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا الملقب بالصامت

وُلد القديس المذكور بنيكوبوليس مدينة بارمينية في سنة اربع وخمسين واربعمائة للمسيح وكان كريم الاصل وشريفًا جدًّا في بلاد الشرق كلها . فان بعض اجدادهِ كانوا قوّاد الجيوش وبعضهم كانوا ولاة على قسم من المملكة . واسم ابيهِ انكراسيوس وامهِ اوفيميا وكلاهما كانا يتقيان الله . ولما تُوفّيا كان يوحنا قد بلغ السنة الثامنة عشرة من عمرهِ . ولانهُ كان منذ صبائهِ متعبدًا للعذراء عليها اشرف السلام ابتنى لها في نيكوبوليس كنيسة عظيمة وديرًا انفرد بهِ مع عشرة اشخاص زهدوا مثلهُ في الدنيا وكان هو رئيسًا عليهم . فتقدمهم كلهم في ممارسة الرياضات الرهبانية وبذل الجهد في اكتساب الفضائل ولاسيما الاتضاع .ولانهُ كان يدبر من الامور بقدوتهِ الصالحة اكثر مما يدبر منها بنصائحهِ وكان الرهبان يحبونهُ ويطيعونهُ فما لبث هذا الدير حتى غدا نموذج الصالحين

وبما ان رائحة فضائلهِ كانت قد عبقت في الآفاق وانتهى صيتهُ الى الاماكن البعيدة اختارهُ شعب مدينة كولونيا واكليروسها اسقفًا بعد ان رقد اسقفهم بالرب ولم يكن وقتئذٍ الاَّ ابن ثمان وعشرين سنةً . فارسل مطران مدينة سبسطية واستدعى القديس فلما حضر لدى المطران المذكور اعلمهُ بانهُ أُنتخب اسقفًا على كولونيا ورسمهُ اسقفًا

وبعد ان ارتسم اسقفًا لم ينقص شيئًا مما كان يعملهُ وهو راهب حتى ان حبهُ للعفاف منعهُ عن دخول الحمام ايضًا . ولله درّ اتضاعهِ الذي كان زينةً لباقي فضائلهِ ولذلك ما مرّت مدة طويلة حتى نمت العبادة وزهت التقوى في كل اطراف رعيتهِ ونمت نفحات فضلهِ على مألوف العادة حتى انتهت الى بلاط الملك ايضًا . لان برغيبوس اخاهُ وتاودوروس ابن عمهِ اللذين نالا الحظوة لدى الملك ابتدأا يحسنان سلوكهما واضحيا لاهل الدنيا قدوةً في الفضائل . الآن باسينيكوس زوج اختهِ اقلق رعيتهُ وانشأ فيها الاضطراب كما انهُ كان واليًا على بلاد الارمن فكان يظلم الشعب ويمنع الاكليريكيين ان يباشروا واجبات وظائفهم . واما القديس فنصحهُ مرارًا فلم ينجع بهِ النصح وانما مَثَل النصح لهُ مثل ماء وقع على مثل ورق الملفوف والقلقاس وما اشبه . وبناء على ذلك ذهب الى القسطنطينية وشكاهُ الى الملك زانون ونال منهُ كل ما طلب غير ان هذا القديس من بعد ان تأمل ما هو عليهِ من تشتُّت البال وتذكر ما كان عليهِ من راحة الفكر وهو معتزل عن الناس تاقت نفسهُ الى سيرتهِ الاولى . فبعد مكثهِ في رعيتهِ نحو عشر سنين كتب ورقةً بعزل نفسهِ عن هذه الاسقفية وسلمها الى بعض الاكليريكيين . ثم ركب سرًّا السفينة وذهب الى بلاد فلسطين فلما وصل الى هناك طلب من الله بدموع

غزيرة ان يهديهُ الى مكان فيهِ يصرف باقي عمرهِ بدون ان يعرفهُ احد بحيث يكون متفرغًا للاهتمام بخلاص نفسهِ فقط. فاتفق لهُ ذات ليلة وهو يصلي انهُ رأى كوكبًا مضيئًا جدًّا ومقبلاً عليهِ وكان الكوكب بهيئة صليب وسمع صوت هاتف يقول لهُ اتبعنَّ هذا الكوكب فسار وارشدهُ الكوكب الى دير القديس سابا الذي كان فيهِ وقتئذٍ مائة وخمسون راهبًا. وكان ذلك سنة احدى وتسعين واربعمائة للمسيح ولهُ من العمر ثمان وثلثون سنة. فعند ما دخل القديس يوحنا الدير قبلهُ الرئيس سابا ولم يعرفهُ واقام وكيل الدير مرشدًا لهُ ورئيسًا عليهِ. وكان يستخدمهُ الوكيل لممارسة احقر الخدم واصعبها. وكان القديس يمارس هذه الاشغال بصمت ووداعة وقلبهُ مشغوف بالله خالقهِ

الاَّ ان القديس سابا اطَّلع على برارة يوحنا فوهبهُ قلاية ليسكن فيها وحدهُ ويمارس ضمنها رياضات التأمل. فلبث هناك ثلث سنين لا يكلم احدًا ولا يكلمهُ احد. وكان يصرف الخمسة الايام الاولى من كل اسبوع لا ياكل ولا يشرب شيئًا ويومي السبت والاحد ينطلق الى الكنيسة ليحضر القداس وفي ذلك الوقت كان يُرى كانهُ رجلٌ اوغل في التأملات الروحية حتى لم يعد يقدر ان يكفكف دموعهُ

فبعد هذه الثلث السنين اقامهُ الرئيس وكيلاً في الدير ومع ذلك لم يزل يردّد في عقلهِ التأملات في الحقائق الدينية فيما بين الاشغال المتواصلة. فلما تأمل هذه الاشياء القديس سابا ذهب بيوحنا الى البطريرك وقدَّمهُ للارتسام الكنائسي واستعلم البطريرك عن فضائلهِ. فحار يوحنا في امرهِ ولما كان ملتزمًا باظهار ما هو عليهِ طلب من البطريرك ان ينفرد بهِ ويخاطبهُ. فلما خرج الناس سأل البطريرك ان يكتم جميع امرهِ. ثم اخبرهُ بانهُ اسقف وقد عزل نفسهُ عن الاسقفية وانفرد في البرية ليبكي على خطاياهُ. فقال البطريرك للقديس سابا ان يوحنا اخبرني سرًّا بشيء يمنعهُ عن الارتسام واوصاهُ بان يتركهُ في خلوتهِ. فاندهل القديس سابا وحزن جدًّا لانهُ ظن ان راهبهُ اهلٌ لان يرتسم كاهنًا

فبعد رجوعهِ من القدس انفرد في مغارة تبعد مسافة ثلثة ايام عن الدير وهناك زاد على تقشفاتهِ الاعتيادية وطلب من الله بصلواتهِ المتوالية ان يعرّفهُ هل الذي حسبهُ اهلاً للخدمة الالهية هو اناء مختار ومنتخب للمجد الابدي ام اناء لا افادة لهُ. فقال لهُ هاتف الغيب ان الراهب يوحنا هو اناء مختار وكنز في ديرك وانهُ لا يمكن ان يرتسم كاهنًا لكونهِ اسقفًا

فامتلأ قلب القديس سابا سرورًا وتعجبًا وعاد الى الدير ودخل قلاية يوحنا ولامهُ بكلام ممتزج بالاحترام قال لهُ لماذا يا ابانا اخفيت عني ما قد عرفتهُ اليوم من الله تعالى. فخجل القديس يوحنا من ذلك وهمَّ للوقت بان يخرج من الدير وينطلق الى موضع آخر. فتعلّق الرئيس بذيلهِ وابقاهُ في محلهِ وعاهدهُ امام الله بانهُ لن يبوح بسرهِ. فاطمأَن القديس حينئذٍ واختلى في قلايتهِ واستمرَّ فيها اربع سنين ولم يكلم احدًا ولم يخرج منها الاَّ الى الكنيسة

ولما بلغ القديس يوحنا السنة الخمسين من حياتهِ اتفق ان روح الفتنة دخل الدير وبلبل الرهبان ولان القديس سابا لم يقدر ان يطفئ نار هذه المشاجرة خرج من الدير وترك الرهبان. اما القديس يوحنا فما اراد ان يشترك مع اولئك الرهبان العصاة المقلقين بل باين الدير ايضًا وانفرد في برية اخرى ومكث هناك تسع سنين موجهًا قلبهُ نحو الله فقط. ولم يخاطب احدًا من العالمين وكان يغتذي من البقول البريَّة. وفي غضون ذلك عرف الرهبان مقرَّهُ فرغبوا اليهِ ان يرجع الى الدير والحّوا في الطلب بواسطة راهب بعثوا بهِ اليهِ. فاجابهُ من المستحيل ان ارجع الى الدير ما لم يكن فيهِ القديس سابا. واما الراهب فلبث عندهُ

وفي ذلك الزمن دخل السراكسة بلاد فلسطين فلم يفرَّ القديس من مغارتهِ مع ان السراكسة كانوا بالقرب منها وفوَّض الى الله امرهُ. فارسل اليهِ تعالى اسدًا حرسهُ ليلاً ونهارًا ولم يدع السراكسة يدنون من مغارتهِ. وبعد انقضاء هذه الحرب عاد القديس سابا الى الدير واعاد معهُ يوحنا سنة تسع وخمسمائة للمسيح. وقد استمر القديس ملازمًا لقلايتهِ اربعين سنة وهو مكبٌّ على التأمل في نِعَم الله والشكر عليها وفي كل ذلك الزمان الطويل لم يخاطب احدًا فرام الله تعالى ان يكشف للعالم فضلهُ بواسطة اسقف يقال لهُ اتيريوس من بلاد اسيا اتى اورشليم ليزور الاماكن المقدسة ففي صلاتهِ امرهُ الله ان يذهب الى دير الانبا سابا ليرى هناك اناء مختارًا وهو يوحنا. هذا الذي مع كونهِ اسقفًا صار راهبًا بسيطًا يعيش خامل الذكر عيشًا قشفًا مواظبًا على الصلاة اناء الليل واطراف النهار

فقام اثيريوس لساعتهِ وذهب مسرعًا الى الدير المعيَّن لهُ ولما دخل الدير جثا عند رجلَي يوحنا واخبر الرهبان بان يوحنا هو اسقف

وروى المؤرخون قالوا ان القديس سابا مات في ذلك الزمان وظهر بعد موتهِ للقديس يوحنا ليعزيهُ عن الحزن الذي اصاب قلبهُ من اجل وفاتهِ وقال لهُ انهُ وان كنت ترتاح الى الموت لتحظى بالله الّا ان الله تعالى سيتركك على الارض زمانًا كي تعزّي اخوتك وتقويهم في الايمان بازاء الاراطقة الذين يضطهدون الكنيسة . وقد تمّ ذلك لان تبّاع اوريجانوس اضطهدوا رهبان هذا الدير اضطهادًا عظيمًا . غير ان القديس يوحنا شدّد عزائمهم فلم يزالوا ثابتين في الايمان الكاثوليكي

روى كيرلوس كاتب ترجمة هذا القديس قال زرت في زمن الصبا هذا الاب وكان قد بلغ يومئذٍ تسعين سنةً فاستشرتهُ في الدعوة التي كان يجب عليَّ ان اختارها فاشار عليَّ بان اترهب في دير القديس اوطيميوس اما انا فتوجهت الى دير من الاديرة التي على نهر الاردن . فحالما وصلت الى ذلك الدير اعتراني المرض وعرفت انهُ انتقام من الله لاجل مخالفتي مشورة الشيخ القديس . وحينما كنت راقدًا ظهر لي القديس يوحنا ووبّخني على مخالفتي وامرني ان اذهب للوقت الى اريحا حيث اجد راهبًا يهديني الى دير الانبا اوطيميوس وقال لي حينما تدخل الدير تبرأ من دائك . ثم انتبهت والحمى كالنار تلتهب في جسدي فعزمت على السفر فاعترفت وتناولت القربان المقدس ثم سافرت . فلما رأتني الاخوة مسافرًا على هذه الحال طلبوا مني بالحاح الّا اسافر . غير اني اردت ان اطيع امر القديس فوصلت الى اريحا وقد اعياني المسير فوجدت هناك الراهب الذي اشار اليهِ وللوقت اهداني الى دير الانبا اوطيميوس وعلى حين دخلت الدير زالت عني الحمى بالكلية

وروى ايضًا ان امرأة شريفة من القسطنطينية تدعى باسيلينا انقاد احد اقربائها الذي كان من عظماء المدينة المذكورة الى بدعة اوريجانوس فاشارت عليهِ تلك المرأة ان يزور القديس وطلبت من تاودوروس تلميذ يوحنا ان يقدّمهُ لهُ . ولما قرع باب القلاية خرج القديس الى الباب فطلب منهُ تاودوروس ان يباركهما . فقال لهُ الشيخ القديس اني باركتك يا ابني اما من جهة الذي معك فحاشاي ان اباركهُ لانهُ رجل مبتدع ومنقاد لاهل الاهواء . فلما سمع ذلك الرجل المشاق تحقق ان الله كشف للقديس باطن لبّهِ . فارتدّ حينئذٍ عن تلك البدعة وحارب بعد ذلك مجاهدًا منتصرًا للايمان الكاثوليكي في القسطنطينية بغيرة عظيمة . ومات هذا القديس ميتة سعيدة في السنة الثامنة والخمسين بعد الخمس مائة وكانت كل حياتهِ مائة واربع سنين وصرف منها في البرية ستًّا وسبعين سنة . انتهى

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس بونيفاسيوس الشهيد

ان الله جلت قدرتهُ اظهر في اواخر القرن الثالث رحمتهُ الغير المتناهية نحو الخطاة بتوبة شخصين خرجا من لجة الشرور وصارا قديسين بحيث كانت في ذلك الزمان شابّة مسيحية جميلة المنظر في رومية على جانب عظيم من الغنى ومن عائلة كريمة النسب يقال لها اغلايي وكانت تحب اللهو والتنزّه وتسرف في هذا السبيل . فكلفت برجل مسيحي اسمهُ بونيفاسيوس وكيل ارزاقها ومدبر امورها فارتكب المنكر معها . غير انهُ كان يصطنع الى الفقراء ويترأف على المحتاجين . فعاملهُ الله ايضًا برحمتهِ وذلك بتوبة اغلايي التي كانت قد اغرتهُ بالدنس لانها تأملت ذات يومٍ عذاب جهنم وقصر هذه الحياة الزائلة . فحينئذٍ اضاء لها نور من السماء فرأت عظمة آثامها وعرفت سماجة خطاياها

فانسحق قلبها بخلوص الندامة وعزمت على التوبة وللوقت باعت كل اثوابها الثمينة وما عندها من الجواهر الكريمة ووزّعتها على الفقراء ثم انفردت في منزلها وسلكت سبل التائبين من نحو الاقتصار على المآكل القشفة والمواظبة على الصلوات والتأملات . فاقتدى بها بونيفاسيوس تائبًا . ومن ذلك الوقت جريا كلاهما على طريق البرّ

وفي ذلك الزمان كان مسيحيو رومية على اتم الراحة لان قسطنسيوس كلوروس ابا قسطنطين الكبير كان يتولى مملكة الغرب وهو لم يكن يحب سفك الدماء وكان يحب المساكين والمسيحيين . غير ان نصارى المشرق كانوا على خوف عظيم وقلق شديد مما أُثير عليهم من الاضطهادات . فلما سمعت اغلايي هذا الخبر قالت لبونيفاسيوس اننا نحتاج جدًّا الى شفاعة القديسين الشهداء وقد سمعت ان من يخدمهم يستحق

شفاعتهم عند الله . والحال انهُ الان يموت في الشرق كثيرون من المسيحيين لاجل الايمان . فقد عزمتُ انا على ان ارسلك الى الشرق كي تسعف باموالي اخوتنا المضطهدين وتأتيني بجسد احد الشهداء كي ابني لهُ في رومية هيكلاً لائقًا بهِ . فاخذ بونيفاسيوس معهُ مالاً وافرًا وذهب الى بلاد صقلية وفي حين خروجهِ من رومية مع عشرة اشخاص من خدام اغلاي قال لها انكِ ارسلتِني لكي ارجع اليكِ بجسد احد الشهداء فاذا انعم الله عليَّ واهّلني لان اموت شهيدًا واتوكِ بجسدي فهل تقبلينهُ كجسد مقدس . فاجابتهُ اغلاي من كان مجرمًا نظيرنا فلا يستحق مثل هذا الاكليل لاننا غير اهل لان نلمس اجساد الشهداء فحسبك ان تكون اهلاً لتأتيني بما طلبتهُ

اما بونيفاسيوس فأخذ يتأهَّب على الطريق بالصوم والصلاة لنيل اكليل الاستشهاد فلما وصل الى ترسوس حيث كان سيمبليسيانوس يضطهد المؤمنين بقساوة لا غاية بعدها مضى لساعتهِ الى المكان الذي بهِ كان الحاكم يعذب المسيحيين من اجل الايمان فوجد عشرين شخصًا تحت العذاب فالبعض كانوا معلَّقين بارجلهم والنار نقد تحت رؤُسهم والبعض كان الجلّادون يمزّقون لحومهم بالحديد والبعض كانوا مسمَّرين على الخشب وآخرون كانوا يُضربون بالعصيّ . فلما رأى القديس هذا المنظر العجيب اي لما رأى الشهداء جميعهم يكابدون العذاب الاليم بالصبر الجميل دنا منهم وقبَّل جراحاتهم ودهن وجههُ بدمائهم وصرخ قائلاً : يا ما اعظم اله المسيحيين الذي من اجلهِ يحتملون هذه التعاذيب الأليمة . اسالكم ان تشفعوا فيَّ عند الله لكي يشركني في حظكم السعيد فسقيًا لكم وطوبى لانفسكم يا شهداء سيدنا يسوع المسيح فانتم تطهرون قلوبكم في هذا الحرب الالهية لان الله تعالى يحارب معكم . اخزوا قوات الجحيم بثباتكم في الايمان لان تعبكم هذا يزول سريعًا واما اجركم فيبقى الى الابد

فلما كان القديس يتكلم بذلك كان سيمبليسيوس الوالي يعاينهُ فاستدعاهُ ولما مثل بازاء عرشهِ قال لهُ مَن انت وما معنى ما تقولهُ امامي فاجابهُ القديس اني مسيحي واطوّب هولاء المسيحيين اخوتي على حسن سعادتهم في سفكهم دماءهم من اجل سيدي والهي يسوع المسيح . فقال لهُ الوالي ما هذه الجرأة وانت تخاطبني هكذا حينما اعذب المسيحيين فاعلم انك ستعذَّب اشدّ عذاب ان كنت لا تسجد الآن لالهتنا . فاجاب القديس قائلاً اعلم انت ايضًا اني لا اسجد لآلهتك ولو اذقتني كل اعذبة الجحيم

فاحتدم الوالي غيظًا شيطانيًا وامر ان يمزقوا لحمهُ بمخالب حديدية فمزقوها حتى العظام ثم ادخلوا بين اظافرهِ ولحمهِ مناخز بحيث كان القديس بونيفاسيوس يحتمل هذا ببشاشة وجهٍ شاكرًا الله ثم امر الحاكم ان يسقوهُ مذوّب الرصاص فظن القديس انهُ يموت بهذا الالم . فقال اشكرك يا سيدي يسوع المسيح ابن الله لانك اهّلتني لاقدم حياتي ذبيحةً لك فهلمَّ لمعونتي واغفر لي آثامي ابتهل اليك ان تجعل موتي كفّارةً عنها قوّني بنعمتك وامنحني الصبر على كل عذابٍ ثم التفت الى الشهداء الحاضرين وخاطبهم قائلاً اسالكم يا عبيد سيدنا يسوع المسيح ان تصلوا من اجلي . اما الشهداء فطلبوا منهُ ايضًا ان يصلي من اجلهم

فتعجب الوثنيون من صبرهم وبراراتهم فصرخوا كلهم معًا قائلين يا ما اعظم اله المسيحيين لا اله الاَّ الههم لا اله الاَّ اله الشهداء فكن خلاصنا يا يسوع ابن الله وما لبثوا بعد هذا الهتاف ان هدموا مذبح الاوثان فخاف الحاكم وارجع الشهداء الى السجن وفرَّ هاربًا وفي الغد امر الوالي بان يطرح القديس بونيفاسيوس في خلقين مملوء زيتًا مغلى واذ كان الجلّادون ينزلونهُ في الخلقين عمل علامة الصليب فتشقّق الاناء من كل ناحية وانصبَّ الزيت على الجلّادين والذين معهم فخاف الحاكم من ان يتعصب الشعب ايضًا فأمر للوقت بان يقطعوا هامة القديس بونيفاسيوس ففعلوا وآمن من الوثنيين خمسمائة وخمسون شخصًا وكان استشهاد هذا القديس في اليوم الرابع عشر من ايار سنة مائتين وتسعين للمسيح

واما رفقاؤهُ فلم يعرفوا ما جرى لهُ لانهم عند ما وصلوا الى ترسوس تركوهُ في المنزل وذهبوا ليهيئوا كل ما يحتاجون اليهِ ولما رجعوا طافوا المدينة كلها فلم يجدوهُ فسألوا الناس عنهُ وذكروا لهم اوصافهُ وشكلهُ وهيئة جسمهِ فسمع هذا اخو حارس السجن فقال لهم انهُ قُتل امس من اجل كونهِ مسيحيًا ودلهم على مكانٍ خارج المدينة حيث كان جسدهُ مطروحًا فيهِ على الارض . فلما وصلوا الى ذلك المكان نظروا الجثة فعرفوا بتاكيدٍ انهُ هو بنفسهِ فجثوا على الارض بابتهاجٍ وتهيب وللوقت فتح القديس عينيهِ ونظر اليهم مبتسمًا فاشتروا الجسد

بثمن كثير وعادوا بهِ الى مدينة رومية

وبعد قليل من ذلك اتفق ان اغلاي فيما كانت تصلي سمعت صوت هاتف من السماء يقول . ان الذي كان يخدمكِ قد صار اخانا وهو معنا فاقبليهِ واكرميهِ كما تقبلين سيدكِ لان الله تعالى بشفاعتهِ سيغفر لكِ خطاياكِ وقد قبلتهُ اغلاي باتمّ الاكرام واوفر السرور وابتنت لهُ هيكلاً مكرمًا وبعد ذلك تصدَّقت ببقيَّة اموالها على المساكين وعاشت ثلث عشرة سنة ممارسةً لرياضات الصلاة والتقشُّف ثم ماتت ميتة صالحةً وقد اثبت الله قداستها بعجائب كثيرة

اليوم الرابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس باخوميوس

وُلد القديس المذكور بالصعيد سنة خمس وسبعين من القرن الثالث وكان ابواهُ وثنيَّين فاتفق يومًا انهما أخذاه الى هيكل الاوثان فتكلم الشيطان قائلاً اني لا افتح فمي ولا اجيب احدًا بكلمة ما دام هذا الطفل في الهيكل وفي يوم آخر سقياهُ خمرًا كانت قد قدّمت للاوثان فتقيأها لساعتهِ فعلم والداه على سبيل النتيجة انهُ سيكون عدوًا للاوثان ولما بلغ العشرين من عمرهِ تجند وحارب في الحبش قسطنطين الذي كان وقتئذٍ قائد جيوش الملك ديوكليسيانوس

فدخل يومًا بقوم من الجنود مدينة ديوسبوليس وكان اكثر سكانها مسيحيين فاستقبل أُولئك المسيحيون الجنود بكل محبةٍ مقدمين لهم بفرحٍ ما كانوا يحتاجون اليهِ فانذهل باخوميوس من ذلك وسأل قائلاً ما هو السبب الذي من اجلهِ عامل بمثل هذه الرحمة هولاء الانام أُناسًا غرباء مثلنا . فاجابوهُ ان اهل المدينة مسيحيون وديانتهم تأمرهم بان يمارسوا افعال المحبة فازداد باخوميوس تعجبًا ومال قلبهُ الى هذه الديانة وانفرد عن ارفاقهِ قليلاً وقال

ايها الاله الخالق السماء والارض اني اعاهدك بان اعبدك واحفظ وصاياك كل ايام حياتي اذا نظرت اليَّ برحمتك وعرفتني بلاهوتك قال هذا وذهب برفقتهِ الى الحرب وتجنب فيها كل فخاخ الشيطان . فبعد ان انتهت الحرب ذهب الى قرية من الصعيد يسكنها المسيحيون ودخل بين الموعوظين وبعد زمن يسير اعتمد وتناول القربان المقدَّس ومن ذلك اليوم عزم على اكتساب البرّ والجري على المشورات الانجيلية

ولما عرف ان في البرية رجلاً فاضلاً يدعى باليمون ذهب اليهِ وطلب منهُ ان يقبلهُ تلميذًا لهُ فقال لهُ باليمون انك لا تستطيع يا ابني ان تحتمل صعوبة عيشتنا الضيّقة لاني لا آكل سوى الخبز المملوح ولا اعرف الزيت ولا اشرب الخمر وفوق ذلك اسهر الى نصف الليل صارفًا هذا الزمان في تلاوة المزامير والتأمل في الحقائق الدينية

وكثيرًا ما أُحيي الليل كلهُ مصليًا فأُشير عليك ان تتلمذ لغيري لان كثيرين ابتدأُوا عندي بهذه السيرة ولم يثبتوا . ولما سمع باخوميوس هذا الكلام لم يفشل قلبهُ بل قال اني ارجو الله تعالى الذي ارسلني اليك ان يساعدني على الاقتداء بسيرتك فاقبلني اذًا يا ابي فقبلهُ الشيخ والبسهُ اثواب السياح

فسار التلميذ في طريق الكمال سير جبّارٍ وما ابطأ ان أدرك معلمهُ في الفضيلة لزيادة نشاطهِ في ممارسة الرياضات الروحية لم يستصعب شيئًا فزارها يومًا احد السيّاح الذي صنع الله تعالى على يدهِ العجائب لانهُ كان يمشي على جمر ملتهب ولا يحترق فسألهما قائلاً هل حصل احدكما على مثل هذا الايمان الذي بهِ امشي في وسط النار ولا تمسني فاجابهُ الشيخ باليمون ان أحسنا التواضع فيكون حينئذٍ ايماننا حسنًا فسمع هذا باخوميوس ولما عرف فيما بعد ان هذا الراهب الفاعل العجائب اسقطهُ الشيطان في خطيئة الزناء ومات ميتةً شريرةً استفرغ مجهودهُ في ان يتأمل ويتعمق في الاتضاع

وبعد مدة سنين تباعد يومًا من قلّايتهِ وأوغل في البرية واذ كان هناك يصلي سمع صوتًا من السماء يقول لهُ استقر هنا وابتنِ ديرًا واسعًا لان كثيرين سيأتون اليك وانت ترشدهم حسب القانون الذي اعطيك اياهُ وللوقت ظهر لهُ ملك اعلمهُ القانون فقصَّ القديس هذه الرؤيا على الشيخ القديس ثم ذهبا وسكنا في المكان المعيَّن لهما الذي تسمى فيما بعد دير تابينا وهو على شاطئ النهر

وبعد زمنٍ يسيرٍ توفي باليمون ويذكر السنكسار الروماني وفاتهُ في اليوم الحادي عشر من شهر كانون الثاني الآن باخوميوس القديس تعزى بمجيء أخيهِ يوحنا البكر لانهُ بعد اعتمادهِ زهد في الدنيا ليسير مع اخيهِ في سبيل الكمال وقد تعب كثيرًا القديس باخوميوس من قبل تصرُّفات يوحنا لانهُ كان فظًا عنيدًا اما القديس فكان يحتملهُ بكمال الصبر وبهِ صير اخاهُ انيسًا ودبعًا وعاش فيما بعد بسلام وبعد خمس

عشرة سنة مات يوحنا وبقي القديس وحدهُ وكان قد ابتنى قلالي كثيرة منتظرًا اناسًا يسكنونها . غير ان الشيطان كان يضطهدهُ على انواع مختلفة ليرتدّ عن عملهِ فان الابالسة كانوا يظهرون لهُ تارةً بصور وحوش ضاريةٍ وتارةً يضربونهُ وتارةً كانوا يظهرون لهُ كانهم في مجلسٍ شريف حافل فياتون للقائهِ قائلين لهُ اهلاً وسهلاً برجل الله ومرات اخرى يتمثلون امامهُ بشكل نساء جميلات ولم يقصد الشيطان اخزاهُ الله الاَّ ان يصطادهُ على فخّ الدنس او انهُ يضجر من السكنى في الفيافي الاَّ ان القديس كان ينتصر عليهم دائمًا وكان قد اعطاهُ الله سلطانًا على الوحوش حتى على تماسيح نهر النيل فلم تكن تضرهُ ابدًا

فلما حان الوقت الذي كان يريد الله تعالى ان يقيمهُ أبًا ومرشدًا لرهبان كثيرين اخبرهُ احد الملئكة بذلك ثانيةً فاتاهُ اناس كثيرون ليتتلمذوا لهُ فلم يكن يلبس احدهم ثوب الرهبانية قبل ان يجرّبهُ جيدًا مدة ثلث سنين حسبما امرهُ الملك وكان ينزع عنهم ما تميل اليهِ الطبيعة ولئلا يستصعب احد شيئًا كان يتقدَّم الجميع فيما تفرّ منهُ النفس اكثر فرارًا . وما لبث ان زها ديرهُ بازهار البرّ وعبقت فيهِ نفحات الفضائل وانتشرت حتى انتهى عدد رهبانهِ الى المائة

ثم ان الملك كان قد كتب في الرسوم ان الرهبان يصلُّون اثنتي عشرة مرةً نهارًا واثنتي عشرة مرةً ليلاً . الاَّ ان هذا الرسم الملكي لم يكن يأذن للرهبان ان كلاًّ منهم يصوم كالآخر بل كان كل واحد يصوم حسب طاقتهِ غير انهُ كان يلزم كل واحد ان يشتغل بحسب مقدار اكلهِ . اما الاكل فلم يجز للرهبان الاَّ وهم مجتمعون في المائدة العمومية

وقد روى ان القديس باخوميوس كان يتصرف مع الرهبان بالحلم والرفق ولاسيما الشيوخ والمرضى واما الرهبان الاحداث فكان يعاملهم بطول الاناة ويتساهل في التصرف معهم مرقيًا اياهم الى الكمال شيئًا فشيئًا باهتمام جزيل ومداراة معتدلة . وماذا اقول عن غيرتهِ على الايمان الكاثوليكي وكثيرًا ما كان يشدّد على رهبانهِ حتى لا يقرأوا كتب الاراطقة ولا يضعوها في قلاليهم . ومن مناقبهِ الحميدة انهُ لم يكن يحتمل التذمر من القريب ولاسيما الرؤساء

وفيما هو يرشد هكذا رهبانهُ وكان قد انتشر خبر برارتهِ واتصل الى الآفاق البعيدة زارتهُ اختهُ لكي تستفيد من تعليمهِ فلم يرد ان يخاطبها حتى ولا ان يراها . بل ارسل بوَّاب الدير وامرهُ ان يقول لها ان اخاكِ في حال السلام . فاذهبي الان لانهُ لا يريد ان يراكِ بعد ان زهد في الدنيا ولم يعد يكترث بامر الجسد . وان كنتِ قد اتيتِ الى هنا بنية النسك وان تصرفي حياتكِ بالبكاء والندامة على خطاياكِ وتصيري قدوةً للنساء ليفعلنَ كذا فحينئذٍ ابتني لكِ ديرًا بقرب ديري لتعبدي الله هناك في الخلوة اذ لا سعادة ولا راحة في هذه الحياة الاَّ في خدمة هذا الرب العظيم . فبارك الله تعالى على تصرُّف القديس مع اقربائهِ فيما يخص خلاصهم لان اختهُ قد اختارت ان تختلي هناك فابتنى لها اخوها قلاَّية ثم اجتمعت بنساء كثيرات معها وعشنَ هناك بالبرّ تحت تدبيرها وتدبير القديس باخوميوس

وكان من جملة الذين زهدوا في الدنيا ونسكوا هناك ليتتلمذوا لهذا القديس شاب وحيد اسمهُ تاودوروس وامهُ شريفة كريمة الاصل وافرة الثروة . فلما بلغ السنة الرابعة عشرة من عمرهِ طفق يومًا يتأمل في زوال خيور الدنيا فقال ماذا تنفعني يوم موتي كرامة اصلي وكثرة مالي اذا لم افز بالمجد الابدي لانهُ من الممتنع ان يذوق احد تنعمات الارض ويستحق مجد السماء . فعند تأملهِ هذا شرع يذرف الدموع ثم هتف قائلاً: يا الهي العارف بخفيات قلبي انك تعلم اني لا أُفضّل شيئًا ما ارضيًا على محبتك . فعرّفني بما تريدهُ مني وانعم عليَّ ان افعلهُ على طبق ارادتك . فمن ذلك الوقت بدأ يحب الاختلاء والفرار من معاشرة الناس ويكثر من الصوم والصلاة . وبعد ان عاش هكذا سنتين خرج من بيتهِ واتى القديس باخوميوس وطلب ان يقبلهُ بين رهبانهِ فقبلهُ لعلمهِ بان الله اختارهُ ليكون ابًا للرهبان

اما والدتهُ التي شملها الحزن على فقد ابنها الوحيد فذهبت الى الدير ومعها رسالة من الاساقفة الى القديس باخوميوس وفيها يطلبون اليهِ ان يردّ تاودوروس الى امهِ . فلما وصلت الى الدير وطلبت ابنها لتخاطبهُ اوصى القديس تلميذهُ ان يمضي فيخاطب والدتهُ . فقال تاودوروس لرئيسهِ عاهدني يا ابي ان الله تعالى لا يحاسبني في الدينونة الاخيرة على قبولي زيارة والدتي فقال لهُ باخوميوس حينئذٍ لست آمرك بهذا يا ابني واني اقرُّ معترفًا بان مقصدك حميد ومتجه نحو الكمال والصلاح . ولا ريب ان سيادة الاساقفة المحترمين لا يلومونك بل

يمدحونك من اجل عزمك هذا فيكفيك ان تصلي لاجل امك في خلوتك. وقد انتفعت امهُ من قساوة ابنها المقدسة فكيف لا وقد عزمت ايضًا على النسك فترهبت في دير بناهُ القديس باخوميوس لاجل النساء

انهُ كانت من جملة الصفات الحسنة التي زيَّن الله بها القديس باخوميوس الفطنة في تدبير الرهبان وفي هذا المعنى ذكر ان راهبًا نسج في ذات يوم نسيجين مع انهُ لم يكن ملتزمًا الاَّ بنسيجة واحدة ثم وضع الاثنين على باب قلايتهِ ليرى القديس نشاطهُ في العمل فلما اطّلع القديس على ذلك تنهد تنهُّد الاسيف وقال للرهبان الذين حولهُ أرأيتم كيف عمل هذا الاخ طول النهار بافراط النشاط ليقدّم تعبهُ للشيطان ولا يربح خيرًا اذ قصد في هذا العمل ان يرضي الناس لا ان يمجد الباري تعالى. ثم دعا الراهب ووبخهُ بشدَّةٍ وعاقبهُ عقابًا ثقيلاً وامرهُ ان يلازم قلايتهُ مسجونًا مدة خمسة اشهر لا يكلم احدًا ولا يأكل الاَّ الخبز والملح

ذلك وانهُ لم يكن يعامل الرهبان معاملةً واحدةً لان الاحداث والضعفاء المزاج لم يكن يلزمهم بتقشفات الدير الاعتيادية كلها بل أمر الطباخ بان يصلح لهم طعامًا خصوصيًا فلم يعجب الطباخ هذا الامر حتى انهُ بعض الايام لم يهيئ لهم شيئًا من الطعام لانهُ بحسب زعمهِ لم يرَ هذا لائقًا بالراهب ومن جهة اخرى كان يجد فرصةً لجدل الجدائل لاجل ان يربح الدير. فلما علم القديس بفعلهِ هذا امرهُ بان ياتي بكل ما كان صنع من الجدائل وكان عددها نحو خمسمائة فوضعها كلها امام الرهبان واحرقها ثم قال لهم ان الطاعة لا تأذن للراهب ان يفحص عن تصرُّفات رئيسهِ فان ذلك ما لا يسوغ لهُ انما عليهِ ان يطيع بسرعةٍ وسرور

ومرة أخرى أرسل وكيل الدير ليبيع جدائل الدير وعيَّن لهُ ثمنها فلما مضى ذاك الوكيل اتفق ان اناسًا قدموا لهُ اكثر من الثمن الذي كان عينهُ لهُ الرئيس فباعها بالثمن الاعلى فاذ علم القديس بذلك وبخهُ ايضًا على مخالفتهِ واوصاهُ بان يرد للشاري ما كان اخذهُ فوق الثمن المعين ثم عزلهُ عن وظيفتهِ وعاقبهُ بان فرض عليهِ ممارسة افعال شاقة

وذكر انهُ رأى يومًا قومًا من الرهبان الحديثين صاعدين الى شجرة تين لياكلوا سرًّا وابصر على راس الشجرة شيطانًا ينظر اليهم بفرح فامر حينئذٍ القديس بقطع الشجرة فشفع فيها البستاني الذي كان رجلاً فاضلاً معتبرًا ولم يرد القديس ان يكسر خاطرهُ فلم يقطعها ولكنهُ صلّى وبعد صلاتهِ يبست التينة

وقد كان الناس يأتون من البلدان البعيدة ليشاهدوا هذا القديس الجليل ويستشيروهُ في امورهم وكان من أُولئك الناس راهب جاء من رومية ليكشف لهُ ضميرهُ ويعترف لهُ وبحيث انهُ لم يكن يعرف اللاتينية ابتهل الى الله قائلاً اللهمَّ انت عالم اني لعدم معرفتي اللغات لا اقدر ان اسعف الذين يأتون من اماكن بعيدة فلماذا اذًا ترسلهم اليَّ فان اردت يا الهي ان اخدمك بهذا الامر فامنحني ما افتقر الى معرفتهِ فحصل لهُ كما طلب وسمع اعتراف هذا الراهب

وقد بنى القديس باخوميوس اديرةً كثيرةً واجتمع فيها سبعة الآف راهب وكان في ديرهِ الاوَّل الف واربعمائة راهب وقبل وفاتهِ بيومين جمع كل رهبانهِ واوصاهم بتشديد ان يمتثلوا رسومهُ وان يتجنبوا المبتدعين والمشاقين ويثبتوا على الايمان الكاثوليكي

ثم قدَّم لهم راهبًا يقال لهُ بترونيوس ليترأس عليهم بعد موتهِ وتكلم قليلاً مع تلميذهِ تاودوروس العزيز ثم توفّي في اليوم الرابع عشر من شهر ايار سنة تسع واربعين وثلثمائة وهو ابن اربعٍ وسبعين سنةً

اليوم الخامس عشر

وفيهِ تراجم القديسين بطرس واندراوس وبولس الشهداء والقديسة ديونيسيا الشهيدة

انهُ نحو نصف القرن الثالث على ما روى اوروسوس تلميذ القديس اغسطينوس اشتدَّ الاضطهاد على المسيحيين اشتدادًا لا غاية بعدهُ حتى ظنوا انهُ قد حان الزمان الذي قال عنهُ السيد المسيح انهُ فيهِ يضلُّ المختارون لو كان ذلك ممكنًا

وقد نسب القديس قبريانوس هذا الاضطهاد الى فتور النصارى وتراخيهم في العبادة من حيث ان الاكثرين كانوا عكفوا على الاموال طمعًا في الدنيا والاساقفة تراخوا ايضًا في اتمام ما تقتضيهِ واجبات مراتبهم ولم يكن للمؤمنين من حسن السيرة ما كان في القديم وكانت النساء تحب الزينة والتنزهات فمن اجل هذا كلهِ يقول القديس المذكور ان الله تعالى قد سمح بهذا الاضطهاد ليحرق الزوان بالنار ويجمع

الحنطة الجيدة في الاهراء

فلما جاس الملك داسيوس على عرش ملكهِ امر ان يُفتك بالمسيحيين وارسل واوصى كل المملكة بانفاذ امرهِ فصرف الحكام جميعهم جُلّ اهتمامهم كما روى القديس غريغوريوس نيصص وهو ان يقبضوا على المسيحيين ويخترعوا انواعًا جديدة من العذاب

ففي ذلك الزمن امسك الوثنيون شابًّا مسيحيًّا يُدعى بطرس وقدّموهُ الى الوالي في مدينة لامبساكوس في بلاد اسيا الصغرى ولانهُ لم يرد ان يسجد للاوثان حكم عليهِ ذاك الوالي بعذاب الدولاب فعلّقوهُ عليهِ ثم اداروهُ بعزم شديد ولما كان الدولاب في مكان ضيق وفيهِ بعض آلات تمزّق اللحم وتكسّر العظام ذاق من الالم ما لا يكاد يصفهُ القلم. غير انهُ احتمل كل ذلك بالصبر الجميل واستهزأ بالجلّادين وهو يشكر الله تعالى قائلاً: اشكرك يا ربي لانك عضدتني بقوة شديدة وملأت نفسي تعزية وافرة فيما بين ضروب العذاب الموجعة. فلما رأى ذلك الوالي ان الجمهور يتعجبون منهُ ويمدحون شجاعتهُ امر بقطع رأسهِ وهكذا نال اكليل الشهادة

وفي هذا الزمان عينهِ قدّموا للوالي المشار اليهِ ثلثة من النصارى وهم اندراوس وبولس ونيكومكوس فسألهم الوالي هل انتم مسيحيون فاجاب القديسان اندراوس وبولس باتضاع انهما مسيحيان وانهما على النصرانية بنعمة الله حتى الموت اما نيكومكوس فاجابهُ بصوت امرءٍ جريءٍ انهُ هو مسيحي لا من جملة الوثنيين الذين يسجدون للشياطين فامر الحاكم بان يعذّب عذاب الدولاب وقد صبر نيكومكوس على شدة هذا العذاب زمانًا الّا انهُ بعد ذلك الألم هتف قائلاً لست انا مسيحيًّا بل وثنيًّا عابد الاصنام. ففكوهُ حينئذٍ وانزلوهُ عن الدولاب فقدم بخورًا للوثن. وللوقت ابتدأ ينبح ككلب ويزبد ويمزّق لسانهُ باسنانهِ ثم اسلم روحهُ الى الشيطان بميتة ردية

وكان بين الذين حضروا وشاهدوا هذا الامر ابنة مسيحية قد بلغت من العمر ست عشرة سنة يقال لها ديونيسيا فهتفت بصوت اسيف وقالت آهًا على شقائك كيف القيت نفسك في تعاذيب ابدية خوفًا من عذاب زمني. فسمع الوالي كلامها فسألها هل انتِ مسيحية فاجابت قائلة بشجاعة اي نعم انا مسيحية ومن اجل هذا اتأسف على هذا الشقي الذي كفر ولم يصبر زمنًا يسيرًا لينال السعادة الابدية. فغضب الحاكم وقال لها اعلمي انك تُلقين في النار ان لم ترتدّي عن النصرانية غير انني آمر قبل ذلك شبّانًا يغشونكِ ويزيلوا بكارتكِ. على ان ديونيسيا لم تضطرب من ذلك بل اجابتهُ قائلةً اعلم انت ايضًا ان الاله الذي اعبدهُ اعظم منك واقوى بما لا يقدَّر وانهُ يستطيع ان ينجيني من الذين يريدون ان يفعلوا بي الفعل المحرَّم. اما النار التي تتوعدني بها فانني اتوق اليها كي اقدّم فيها نفسي محرقة لالهي

فسلمها حينئذٍ الحاكم الى اثنين من الاشرار فذهبا بها واستاقاها الى منزلهما. فدخلت المنزل ودخل معها ملَك الرب وحينما كانت القديسة تقاوم شهواتهم الدنسة ظهر الملَك بنور عظيم فارتاع ذانك الشابّان من هذا المنظر مضطربين وجثوا امام القديسة ملتمسين صلواتها فاخبرتهما ديونيسيا قائلةً هذا هو حارس بتوليتي فاعترفا بالهي الذي يصنع هذه الاعجوبة ولا تخشيا

اما الحاكم فبعد موت نيكومكوس وتسليمهِ البتول للشابين المذكورَين امر بان يُلقى اندراوس وبولس في السجن. وفي غد ذلك اليوم أُحضرا اليهِ ثانيةً وكانت هناك جماعات من الشعب. فلما مثلا امامهُ قال لهما انكما قد ابصرتما ما جرى بنيكومكوس فلو قبل مشورتي لكان قد قُتل عليهِ العذاب المميت فاعتبرا بما اصابهُ ولا تظنّا انكما اشدّ بأسًا منهُ وارسخ قدمًا وبالنتيجة ان قبلتما مشورتي فزتما بالحياة حيث لا يجديكما نفعًا ان تلتجئا الى الهتنا بعد ان تكون قد انسحقت اعضاؤكما واحترق جسمكما. فاجاب القديسان اندراوس وبولس خلِّ عنك الاهتمام باستمالتنا الى الوثنية فان ذلك من المستحيل ومن ثمَّ يذهب جهدك باطلاً واما موت نيكومكوس فزادنا اثباتًا في النصرانية. فامر الحاكم وقتئذٍ بان يُضربا بالسياط وكانت حبالاً معلقًا بها مهاميز من حديد فضربوهما بقساوة كلية ومزّقوا جسديهما تمزيقًا. ثم سلمهما الى الوثنيين ليميتوهما كيفما ارادوا فربطوا ارجلهما وجرُّوهما الى خارج المدينة ليرجموهما

فلما عرفت ديونيسيا البتول ما جرى اسرعت ذاهبةً الى حيث كان الشعب يرجمونهما وجثت حينئذٍ على اقدامهما وكانت الحجارة تنحدر عليها ثم قالت لهما اني اعترفت نظيركما باسم يسوع المسيح ونظيركما اريد ان اموت من اجل اسمهِ تعالى فوقف الشعب متعجبين من شجاعة هذه البنت التقية ومضوا

فاخبروا الحاكم بذلك ومضى ايضاً الشابان اللذان كان قد سلمها اياها لكي يفعلا بها المنكر واخبراهُ ايضاً عن الملك الذي ظهر وحفظ بتوليتها . فامر حينئذٍ الحاكم بقطع رأسها فذهب المرسلون ليتمموا امر الملك فلما وصلوا الى المكان كان الشهيدان قد ماتا رجماً فقالوا للقديسة ديونيسيا انهُ قد حكم عليكِ بقطع الراس . فتهللت فرحاً كما تتهلل الفتاة يوم عرسها وشكرت الله تعالى الذي اهّلها لان تسفك دمها حبّاً لهُ ثم قدّمت هامتها للجلّاد فانتزعها من بين منكبيها وكان ذلك في اليوم الخامس عشر من شهر ايار في انتصاف الجيل الثالث

اليوم السادس عشر

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا الشهيد

اننا نذكر هنا ترجمة احد الشهداء الذي فضّل الموت على ان يحيا ويبوح بسر الاعتراف . ونقدم هذا القديس مثالاً للكهنة وللشعب . اما للكهنة فلكي يتعلموا منهُ كيف يلتزمون التزاماً كلياً وتحت خطيئة مميتة نفاقية بالاَّ يفشوا سر الاعتراف مطلقاً بوجهٍ من الوجوه ولو ساقهم كتمانهُ الى الموت واما للشعب فلكي تكون لهم تعزية بحيث يرون ان الله تعالى حبّاً بهم أَلزم الكهنة بان يكتموا اسرار الاعتراف تحت حجاب الصمت عنها دائماً

وقد وُلد القديس المذكور بمملكة بوهيميا في قرية يقال لها نيبوموك سنة ثلثين وثلثمائة والف للمسيح وكان ابواهُ غنيين فضيلةً ومالاً . ومن فضائلها تكريم خصوصي لملكة السماءِ التي رزقهما الله بشفاعتها هذا الولد المبارك وهو قد جاء نظير صموئيل ثمرة الصلاة ولهذا راما ان يسمّياهُ في المعمودية يوحنا اي حبيب الجليلة مريم البتول . قيل انهُ ساعة مولدهِ نزل نورٌ من السماءِ واحاط بمنزل ابويهِ وصنع الله هذه الاية ايضاً ساعة موتهِ . ومشى منذ نعومة بنانهِ في طريق البرّ حتى ان نقاوة نفسهِ كانت تظهر في كل جارحةٍ . ولما آن اوان درسهِ للعلوم دخل المدرسة وبعد سنين نبغ في العلوم جدّاً حتى عُدّ بين الفلاسفة واللاهوتيين

وبعد ان تسلح بالبر والعلم شعر في قلبهِ بحركات فائقة الطبيعة تدعوهُ الى درجة الكهنوت . فاختلى ليفحص عن ذلك وتأهب لقبول الدعوة الالهية وبقي شهراً كاملاً ممارساً للرياضات الروحية . وفي غضون ذلك ارتسم كاهناً ثم حرّضهُ الله تعالى على يد رئيس اساقفة مدينة براغا على مباشرة وظيفة الوعظ في المدينة المذكورة . ولما كان مشهوراً بالفصاحة والعلم والسيرة المستقيمة كان المؤمنون يتوقون الى وعظهِ ويستمعون كلامهُ بلذة ويتعجبون من لطف عظاتهِ لان كثيرين منهم كانوا يتوبون

وكان موضوع مواعظهِ دائماً قول القديس يوحنا المعمدان توبوا وكان الملك فِنشسلاوس والملكة حنة يحضران وعظهُ ويطيبان نفساً باستماعهِ واختاراهُ لتوزيع صدقاتهما . حتى ان الملكة اختارتهُ مرشداً لها فلم تكن تعترف الاَّ لهُ . وكان الجميع يلتجئون اليهِ من اجل ارشاد انفسهم . اما المساكين فكانوا يحسبونهُ ويدعونهُ اباً لهم لانهُ كان يهتم بمساعدتهم اهتمام أَب ولا يدع احداً منهم يُلِحّ عليهِ في طلب شيءٍ بل كان يكتفي ان يعرف احتياجهم فيتصدّق عليهم لا مما يفضل عندهُ فقط بل ما كان يحتاج هو اليهِ . ومع انهُ كان لاجل فضائلهِ مكرّماً وموموقاً من الجميع كان حقيراً اثيماً عند نفسهِ . وبهذه البرارة كان يستعد لنوال اكليل الاستشهاد

وكان يزداد كل يوم فضيلةً والملك فِنشسلاوس يزداد نموّاً في الرذيلة وقد اتصل شرهُ الى غاية بعيدة حتى ان تدبير امور الشعب اضحى غير محتمل وسلوكهُ مع الملكة عاد ايضاً لا يُطاق . لان محبتهُ لها جعلتهُ يشك فيها وكان يتكدّر منها اذا حضرت بين يديهِ ويظن بها سوءًا اذا غابت عنهُ ويُبلبل عقلهُ ويملأ قلبهُ غضباً

فقد اتضح ظلم هذا الملك الشرير واشتهرت شدة قساوتهِ ولا سيما في سنة ثلث وثمانين من المائة الرابعة عشرة للمسيح لانهُ حينئذٍ ابتدأ يقتل بشراسة وحشية عظماءَ بلاطهِ وهم متكئون معهُ على المائدة . فلما رأَت ذلك الملكة ولم تقدر ان تمنع شرّهُ اتخذت من ذلك سبباً لان تخلص تعبُّدها لله وتتأمل في ما اولى الله عبادهُ من النعم . واذ لم تجد على الارض تعزية وجّهت ميلها نحو السماء فشرعت تصرف كل زمانها في الصلاة والصوم وممارسة افعال الرحمة نحو المحتاجين وكانت تفتقدهم وتخدمهم ولا تزال ضارعةً من اجل الملك زوجها طالبةً من الله سبحانهُ ان يمنحهُ نعمة التوبة

غير ان هذا الامر الذي كان ينبغي للملك ان يعتبر الملكة من اجلهِ اكثر اعتبار ويزداد حبّاً لها اساءَ ظنهُ فيها

فاشتد بغضهُ لها وزاد غضبهُ عليها حتى ثبت عندهُ انها خائنة وسائرة مع آخر في طريق الزناء. فرام ان يعلم من الذي عشقها ولكن اراد الاطلاع على ذلك بواسطة كشف اسرار اعترافاتها فاستدعى يومًا القديس يوحنا معرّفها وطفق يلاطفهُ ويتملقهُ لعلهُ بذلك يصل الى غرضهِ ثم قال لهُ ان امرأتي الملكة لكونها عروس الملك تلتزم بان تكشف لي كل اسرار قلبها وبما انك معرّفها عليك ان تتمّم واجبات تلميذتك بان تبوح لي ببعض من اسرارها فاني بهذا انجو من كل تشويش واضطراب وتنال مني جزاءً على ذلك من الاحسان ما لا يمكن ان تشتهي اعظم منهُ

فلما سمع القس الفاضل هذا الخطاب ارتجف فرقًا ولم يخطر لهُ ما يجيب الملك بهِ الّا انهُ بعد زمن يسير شجّعتهُ الغيرة وخاطب الملك بكمال الحرية قال لهُ انهُ لنفاق عظيم كشف أسرار الاعتراف . وبناءً عليهِ فطلب كشفها نفاقٌ ايضًا . فلما سمع الملك وغر صدرهُ ولكنهُ كظم الغيظ في قلبهِ لعلهُ في وقت آخر ينال أربهُ

وقد اتفق بعد قليل انهُ فيما كان الملك متكئًا على المائدة ليأكل قُدم لهُ فرّوج ولم يكن قد نضج جيدًا فأضرم ذلك في قلبهِ الخبيث غضبًا شديدًا حتى انهُ امر من ساعتهِ ان يُشوى الطباخ على النار فارتاع الجميع من هذا الامر ولم يجترئ احد ان يقاومهُ او ينصحهُ فشعر بذلك القديس يوحنا وتذكّر ما قالهُ الحكيم ان الصمت لهُ وقت والتكلم لهُ وقت . فذهب القديس الى الملك ولامهُ بالفاظٍ لطيفة منزهة على قساوة قلبهِ قال لهُ انهُ لا يليق بعزة الملك بل لا يجوز لهُ ان يقتل انسانًا لمثل هذه الهفوة التي فرطت منهُ فلهُ اذا اراد ان يؤدبهُ من أجل ذلك ان يجد نوعًا آخر من التأديب يجعلهُ منتبهًا على اتقان وظيفتهِ بدون ان يكون الملك لذلك ممقوتًا عند الشعب . ولكن القديس لما رأى ان هذه النصيحة اللطيفة لم تؤثر في الملك شدد عليهِ التوبيخ قائلاً لهُ انك لقد توطأت بفعلك هذا كل شرائع العدل وعبثت بالانس الطبيعي ولا عجب فان الغيرة قلما تُقبل في بلاط الملوك لان غيرة ايليا رُذلت في بلاط احاب وكذا غيرة يوحنا المعمدان في بلاط هيرودس فنُفي الاول وسُجن الثاني ثم قُتل لاجل هذا السبب نفسهِ كما جاء في الكتاب المقدس . فلم يحتمل فِنشسلاوس الملك توبيخ يوحنا بل اظهر لهُ غيظًا عظيمًا واخرجهُ من البلاط مهانًا ولم يكتفِ بذلك بل انهُ بعد دقيقةٍ من الزمن أرسل فقبض عليهِ والقاهُ في سجن قاتم منتن ولم يكن يقدم لهُ من المآكل والمشرب سوى ما يحفظ الحياة فقط ومن ثم كانت قوتهُ تخور يومًا فيومًا اما نفسهُ فكانت تتشجع ولم يزل مباركًا الله وشاكرهُ لانهُ اهّلهُ لأن يتألم من اجل اسمهِ القدوس ومحافظةً على شريعتهِ الطاهرة اما حارس السجن فكان يقول لهُ ان أطعت امر الملك وكاشفتهُ باسرار الملكة فتخرج للحال من السجن سالمًا فلم يتقلقل يوحنا في عزمهِ بل ثبت فيهِ راسخًا كعمود غير متزعزع

فاحتار الملك في امرهِ ولم يرتد عن غيهِ بل اخترع واسطة ظن انهُ ينال بها أربهُ فارسل الى القديس الذي كان مسجونًا احد عظمائهِ وقال لهُ من قبلهِ ان الملك يقول لك انهُ نادم على ما أنزل بك من الشر ومن ثم يطلب منك العفو والمسامحة وانهُ منذ الان فصاعدًا يعاملك بكل ما يمكن من الاكرام والمحبة ويشاء من صميم فؤادهِ ان تذهب اليهِ بعد خروجك من السجن وتتناول الطعام على مائدتهِ فيظهر لك امام عظماء المملكة مزيد احترامهِ اياك وشدة محبتهِ لك

فخرج يوحنا وذهب الى البلاط واستقبلهُ الملك باوفر اكرام واظهر لهُ محبة عظيمة . على ان الملك الخبيث انما كان يتظاهر بهذه المودّة الكاذبة لينصب للقديس فخًا شيطانيًا . فكيف لا وقد انفرد بنفسهِ بعد الغذاء ثم قال لهُ ان عقلهُ لا يزال مضطربًا متعذبًا من قِبل الملكة ووعدهُ بقسم رهيب انهُ ان اباح لهُ اسرار اعترافها فتبقى مكتومة في صدرهِ لا يبوح بها لاحد من العالمين . ثم اختتم كلامهُ قائلاً ان كشفت لي هذه الاسرار فسأمنحك اعظم ما تشتهي من الجاه والغنى والّا عذّبتك بما يمكن ان اخترعهُ من ضروب العذاب عند احتماء غضبي . فقال القديس بشجاعةٍ واحترام اني اطيع كل اوامر عزّتك الّا ما تنهى عنهُ شريعة الله . وكتم سر الاعتراف هو بلا شك وصية الهية لابد من حفظها . واني مستعدٌّ حفظًا للناموس الالهي ان اقاسي الذل والهوان وكل نوع من العذاب حتى الموت

حينئذٍ ظهر كل غضب الملك ورجزهُ فاستدعى جنودًا وسيّافين وامرهم ان يذهبوا بالقديس الى السجن ويذيقوهُ هناك اشد العذاب . فمضوا بهِ الى السجن واعدّوا كل شيءٍ لتعذيبهِ فمدوهُ ثم ربطوا يديهِ ورجليهِ بحبال معلّقة على بكرات ثم

شرعوا يسحبونهُ عليها من اطرافهِ بكل قوتهم وبعد ذلك شرعوا يحرقون جسدهُ بشموع متقدة. ولذلك ما لبث جسدهُ ان اضحى مخلَّعًا محرقًا. وفيما كان الجلاَّدون يعذبونهُ ويطلبون منهُ ان يكشف للملك اسرار اعترافات الملكة كان هو صامتًا لا يفوه بكلمة ورافعًا نظرهُ نحو السماء شاكرًا الله ومباركًا اياهُ ناطقًا بكل دقيقة باسم يسوع والعذراء مريم حتى اذا عجز السيافون ورأوا الظفر بصبرهِ ضربًا من المستحيل تركوهُ في السجن. الاَّ ان الله تعالى لم يهمل عبدهُ الباسل الشجاع بل عزَّاهُ بان تراءت لهُ بعض الملئكة والقديسين وملأ قلبهُ سرورًا وشجاعةً. الا انهُ لم يستمرَّ في السجن زمنًا مديدًا بل أُطلق منهُ اما لان الملك خجل من قساوتهِ الوحشية بعد ان هدأ غضبهُ واما لان الملكة تلميذة القديس سكَّنت غضبهُ بدموعها فعاد يوحنا الى منزلهِ وظهر في المدينة وباشر للوقت وظيفة الوعظ كعادتهِ. على انهُ لم يذكر شيئًا في مواعظهِ مما أُنزل بهِ من انواع العذاب

ولا يخفى ان رجوعهُ الى ما كان عليهِ بعد ان احتمل ما احتمل من الذل والنكال امر عجيب. ففيما كان يعظ ذات يوم امام جمّ غفير هتف بروح النبوة قائلاً انكم لا ترونني منذ الان الا قليلاً ولا اكلمكم كثيرًا لانهُ سيُفتك بي من اجل الشريعة المقدسة وقد قال هذا بطلاقة وجهٍ مظهرًا السرور والتقوى. ثم قال وعلى وجههِ علامات الحزن ان الاراطقة سيتغلَّبون على مملكة بوهيميا ويخربون الكنائس والاديرة. ثم استغفر الله والجميع كانهُ هو سبب لحلول تلك البلايا. وكان الشعب يسمع ذلك والدموع تسيل من عيونهم ولم يفتكر يوحنا في غضون ذلك الا ان يتأهب للاستشهاد فزار الاماكن المبنية للعذراء المجيدة في مكان بعيد من المدينة وجثا امام صورة من صوَرها عليها اشرف السلام وصلَّى مرارًا وذكر لها التجربة التي ستنزل بهِ وابان مزيد ضعفهِ وعجزهِ. فطلب منها بثقة قلبٍ ان تدرّبهُ بقوة فائقة كي يبذل نفسهُ حبًّا لابنها واكرامًا لشريعتهِ. فحدَّثهُ قلبهُ ان العذراء استجابت صلاتهُ وقبلت طلبتهُ فرجع الى مدينة براغا متشجعًا مسرورًا

وكان حينئذٍ قد اشتد غضب الملك لانهُ كلما نظر الملكة ضاعفت محبتهُ لها شكّهُ فيها وزاد غضبهُ على يوحنا مرشدها وفيما كان قلقًا من قِبل هذه الشكوك وملتهبًا بهذا الغضب وقف في كوَّة بلاطهِ يتنزَّه على منظر المدينة فابصر القديس يوحنا راجعًا من زيارتهِ فزاد غضبهُ التهابًا. وارسل للوقت قومًا من الجنود ليمسكوهُ ويأتوهُ بهِ. فذهب الجنود بسرعة ولما قبضوا عليهِ عرف حينئذٍ متحققًا ان قد حان اوان موتهِ. فرفع عينيهِ الى السماء وقدم حياتهُ لله ذبيحةً من كل قلبهِ. ولما مثل قدام الملك قال لهُ الملك وعلامات الغضب على وجههِ اما انك تفشي لي أسرار اعترافات الملكة واما انك ستموت. فان ابيتَ ان تكاشفني بها فاني احلف الك باسم الله انك تشرب من الماء حتى لا تعطش ابدًا. اما القديس فلم يضطرب من توعُّد الملك لهُ بل اقتدى بمعلمهِ الالهي حينما قُدّم الى هيرودس الحاكم الاثيم وبالنتيجة انهُ لازم الصمت ولم يفُه بكلمة. فلما رأى الملك هدو قلب يوحنا وشجاعتهُ التي ظهرت علاماتها على وجههِ امر جنودهُ ان يوثقوهُ بسلاسل من حديد. ففعلوا واذاقوهُ من الاوجاع ما لا يكاد يُصدَّق مرضاةً لذلك الملك الطاغي. وحذر ان يفتك بالقديس نهارًا مخافة ان يتعصَّب الشعب ويهيجون عليهِ فاختار ظلام الليل. وللوقت ذهبت الجنود بالقديس الى النهر وبعد ان اوثقوا يديهِ ورجليهِ القوهُ في وسط النهر. وكانت وفاتهُ السعيدة في اليوم السادس عشر من شهر ايار سنة ثلث وثمانين من المائة الرابعة عشرة للمسيح

واعلم انهُ اراد بتغريقهِ ليلاً اخفاء موتهِ كما سبقت الاشارة اليهِ ولذلك شدَّد الامر على الجنود بالاَّ يخبروا احدًا بما كان غير ان ذلك ذهب على غير طائل. لانهُ حالما اختنق يوحنا بالمياه تلألأ على وجه النهر كلهِ نور سماوي ولا سيما حيث كان حينئذٍ القديس. فانذهل الجميع من هذه الاعجوبة التي كانوا يجهلون سببها. وقد رأتها ايضًا الملكة مع عدم معرفتها بقتل مرشدها واخبرت بها زوجها الملك. ولما شاهد الملك هذا الامر عيانًا اضحى كمن انقضَّت عليهِ صاعقة. فاختلى للحال في غرفته ومكث هناك ثلثة ايام لئلا يتبيَّن يأسهُ أو لكي يظهر بهذا ندامتهُ الكاذبة على نفاقهِ. ولكن من المحقَّق ان هذا الملك المنافق استمرَّ نظير قايين مضطرب البال بقية ايام حياتهِ ولم يزل اثمهُ نصب عينيهِ كجلاَّد لا يزال يعذبهُ

ولم يقف عدل الله عند هذا الحد بل سمح بان الشعب كلهم يمقتون هذا الملك المنافق الردي فخلعهُ عظماء المملكة وانزلوهُ عن عرش الملك وسجنوهُ في مدينة وينَّا واجلسوا على العرش بدلاً عنهُ فريديريكوس وكان ذلك سنة اربعمائة والف للمسيح. ولما رأى ذاتهُ مُهانًا هكذا طرح نفسهُ في نهر

كان جاريًا بقرب سجنهِ وكان هناك صيّاد فانتشلهُ ولولاهُ
كان اختنق بالماء لامحالة . وقد سقط في بحرٍ آخر مرّ بحر
احزانٍ مميتة مسبَّبة من ذكر مأتمهِ ومن البلايا التي ادركتهُ
من اجلها وتوفّي اخيرًا في السنة التاسعة عشرة من الجيل
الخامس عشر للمسيح

لنرجع الى ما حدث عند وفاة القديس فنقول انهُ ما عدا
الآية السابق ذكرها حدثت آية اخرى عند موتهِ وهي ان مياه
النهر تناقصت جدًّا حتى ان جسد القديس ظهر على الارض
فاجتمع كهنة المدينة القانونيون كلهم وذهبوا مسرعين
ليقيموا جسدهُ غير مبالين بغضب الملك فاقاموهُ واتوا بهِ
باكرام وافر . ولما حفروا لهُ قبرًا وجدوا كنزًا عظيمًا يشتمل
على مقدار وافر من الفضة والذهب والجواهر الكريمة . وكان
جسد القديس بعد موتهِ ذا لطافةٍ وبهاءٍ عجيب

فاجتمع الشعب كلهُ ليروهُ فلما شعر الملك بذلك ارسل
وامر بان يُطرد الشعب ويُدفن الميت سرًّا حيث لا يدري
بهِ احد . ففعلوا ولكن اشتهر امر الميت لانهُ من ذا الذي
يقدر ان يقاوم الله حينما يشاء ان يكرم اولياءهُ ويرفع شان
قديسيهِ وابتدأ حينئذٍ يفوح من ضريحهِ عرف ذكي ورائحة
عطرة جدًّا . فبادر الشعب كلهُ مسرعًا نحو الضريح . فنهض
الكهنة القانونيون ونقلوا جسد القديس بزيّاح مجيد الى كنيستهم
وشاء الله تعالى فمجّد عبدهُ في هذا الزيّاح بمعجزات كثيرة وفي
السنة التاسعة عشرة بعد الالف والسبع مائة اخرجوا جسد
القديس من قبرهِ قدام قاصد الكرسي الرسولي . فعاين اناس
كثيرون من عظماء الشعب وبعض الاطباء ذلك الجسد
مجردًا من لحمهِ وكانت العظام كلها مركبةً تركيبًا طبيعيًّا واما
لسانهُ فلم يعترهِ فساد البتة حتى كانهُ مات وقتئذٍ حسبما تم
الامر في لسان القديس انطونيوس البادواني فهذا لاجل انهُ
تكلم حسنًا وذاك لانهُ صمت جيدًا . وفي سنة خمس وعشرين
وسبعمائة والف بعد اثنين واربعين سنةً وثلثمائة من وفاتهِ امر
المجمع المقدس بان يظهر الجسد ويفحص عنهُ امام جمهور من
الانام وفيما كانوا يفحصون عن اللسان نظروا لونهُ يتغير
رويدًا في مدة ساعة واحدة ومن بعد كونهِ اصفر يابسًا احمرَّ
وانتفخ وكانت عروقهُ كلها ظاهرة كلسان انسان حي . وبعد ان
تحقق المجمع المقدس هذه الاعجوبة وغيرها كتب اسمهُ في سفر
القديسين في اليوم السادس من شهر شباط سنة تسع وعشرين
وسبعمائة والف للمسيح

اليوم السابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس باسكال بيلون

ان هذا القديس وُلد بمملكة اسبانيا سنة اربعين وخمسمائة
والف للمسيح وكان والداهُ من الفلاحين . فلما بلغ السنة
السابعة من عمرهِ تقيّد بخدمة رجل غني فاقامهُ على رعاية
اغنامهِ وكلما انطلق ليرعاها كان يأخذ معهُ كتابًا . واذ لم يكن
يعرف القراءة كان يسأل كل من يمرُّ بهِ ان يعلمهُ الهجاء وبهذه
الواسطة تعلم القراءة

وما برح منذ ذلك اليوم وهو فيما بين الخراف يقرأ
كتابهُ جالسًا او يصلي جاثيًا وكان من عادتهِ ان يعمل علامة
الصليب المقدس على جبهتهِ وكان يرسم على شجرةٍ صورة
صليب ويعلّق تحتها ايقونة العذراء . ومن هذه الرياضة كان
عقلهُ يتلألأ انوارًا سماوية وقلبهُ يضطرم بلهيب المحبة الالهية .
ومن ثم كان يتكلم في اسرار الايمان كانهُ معلم قضى اياما
طويلة في مدارس اللاهوت

فمن اجل ذلك ومن اجل استقامة سيرتهِ كان سيدهُ
يحبهُ كثيرًا ولكي يستقرّ في بيتهِ رام ان يتبنّاهُ ويجعلهُ وارث
لكل ارزاقهِ . غير ان الراعي لم يرتضِ بذلك بل قال لسيدهِ
من حيث ان الله تعالى خلقني فقيرًا فلا استطيع ان اترك
حالةً قد اختارها لي السيد المسيح وفضّلها على حالة الاغنياء
فكان ينمو كل يوم في الفضيلة وجميع الناس يتعجبون منهُ ولا
سيما من صبرهِ ودعتهِ واحتشامهِ واستقامة سيرتهِ . فكيف لا
ولم يكن يسمح لنظرهِ ان يقع على امرأةٍ البتة وبذلك عاش
عفيفًا طاهر الذيل وكان يروّض نفسهُ بالتقشفات ولا سي
بالتأملات . واذ انتبه هذا الشاب القديس من تلقاء نفسهِ ا
صعب عليهِ منع الغنم عن الاضرار بالحقول او الرعاة رفقا
عن الخصومات اليومية قصد ان يترك شغلهُ هذا ليترهب
وكاشف بهذا المقصد امرءًا فاشار عليهِ بان يترهب في د
كثير الاموال اجابهُ كلّا لاني وُلدت فقيرًا وقصدي ان اعي
واموت كذلك . ثم تقدم هذا القديس الى رئيس رهبان القديس
فرنسيس وطلب اليهِ بالحاح ان يقبلهُ راهبًا خادمًا في الدير
ففرح بهِ الرهبان وراموا ان يضمّوهُ الى طلبة الكهنوت . غ
انهُ لم يرد ان يكون في الدير الّا خادمًا للاخوة . فدخل د

التجربة سنة اربع وستين وخمسمائة والف للمسيح . وكان اخص فضائله الاتضاع والتقشف ومن ثم كان يطلب احقر الوظائف واصعب الاشغال ويمارسها بسرور . وقضى بقية عمره في الرهبانية لا ياكل ولا يشرب اكثر الاوقات الا الخبز والماء ولم يزد على ذلك الا قليلاً من البقول بامر رؤسائه وكان علاوة على كل ذلك يلبس المسح دائمًا ويضع نعلَي فرس على جسده احداهما على صدره والاخرى على ظهره مع سلسلة حديدية . ولم يكن فراشه سوى ادىم الارض ولا وسادته الا خشبة ضخمة وما كان يرقد الا ساعتين او ثلثًا وكان يصرف بقية الليل مصلّيًا وكثيرًا ما اختُطفت روحهُ في الصلاة . ولم يكن يجدهُ احد الا مباشرًا الاشغال او ممارسًا للصلاة . وقد كان في زمن الحر يشتغل بالبستان مكشوف الراس دائمًا . ومع مباشرته اكثر وظائف الدير لم يعدّ نفسهُ الا راهبًا بطّالاً لا نفع له

ولما كان الرئيس العام على الرهبانية في مدينة باريز والتزم القديس بان يسافر اليه بامر الرؤساء مرّ ببلاد الاراطقة حافيًا لابسًا الثوب الرهباني فانزل به المبتدعون كل نوع من الاهانات حتى انهم ضربوهُ بالعصي ورشقوهُ بالحجارة وجرحوهُ جرحًا لم يشفَ منهُ باقي عمره وقبضوا عليه كانهُ من الجواسيس . لكن الله تعالى نجاهُ من ايديهم وبعد ان انتهى سفرهُ رجع الى ديره باسبانيا واخذ يباشر اعمال وظيفته ولم يتشكَّ بما اذاقه الاراطقة من الألم في السفر

فابتدأ الناس يتوقون الى مخاطبة هذا القديس لانهُ كان يتكلم على الامور الروحية على اسلوب عجيب . وبالاتفاق خاطبهُ اثنان من علماء الرهبانية ولم يعرفا انهُ راهب بسيط غير مرتقٍ للكهنوت بل حسباهُ من ابرع الرهبان في علم اللاهوت وفي ما يخص الحياة الروحية . وقد امرهُ رئيسهُ بان يضع كتابًا في شرح ما يتعلق بالوهية المسيح وتجسده من المضامين الخفية ففعل وقرأ كتابهُ احد الاساقفة فاذا به كنز الفوائد فقال للحاضرين لتتضع الان جميع العلماء ها هوذا راهب بسيط كان يرعى الغنم ولم يدرس شيئًا من العلوم قط وقد تعلم بواسطة الصلاة ما لم يتعلمهُ اجلّ العلماء بدروسهم المتواصلة . وانتقل الى دار النعيم في اليوم السابع عشر من شهر ايار سنة اثنتين وتسعين بعد الخمسمائة والالف

اليوم الثامن عشر

وفيهِ ترجمة القديس فيليكوس الكَنْطَليسي

ان هذا القديس وُلد بكَنْطَليسيا قرية بايطاليا في اقليم يُدعى أُمبريا في السنة الخامسة عشرة من القرن الخامس عشر وعائلتهُ فقيرة دنيئة المقام فكان ابواهُ يُلقَّبان بقديسين وكانت افعالها موافقة اللقب . قيل ان اباهُ لما مرضت بنت ابنهِ البكر المسمى بلاسوس واشرفت على الموت قال لها اذهبي يا بنتي ببركة جدّكِ فستنظريني في جنة النعيم لاني اتبعكِ يوم السبت القابل فصار كما تنبأ به . فاستفاد فيليكوس من تربية والديهِ ومالت به عواطف الشوق الى عبادة الله فكان كل يوم فيما يرعى رعيتهُ يصلي كثيرًا جاثيًا امام صورة صليب كان يرسمهُ على شجرة . ولما تقوّى جسمهُ خدم الناس في فلاحة الارض

فسمع يومًا خبر احد السياح القديسين الذين صرفوا حياتهم في ممارسة الافعال النسكية وعاشوا عيشةً قشفة فسأل اين يوجد مثل هولاء . فاجابهُ واحد في رهبانية الكبوشيين وكان يومئذٍ للرهبانية المذكورة عشرون سنة . فحالما سمع فيليكوس هذا الجواب ذهب الى دير من اديرتهم وطلب ان يكون فيه راهبًا خادمًا

فاعلمهُ الرئيس باصعب التقشفات ثم اراهُ ايقونة سيدنا يسوع المصلوب وقال له هذا هو المثال المقدم للراهب الكبوشي ليتقدس به . فلا غرو ان مثل هذه العيشة لا تليق بمن يريد الراحة وما يقتات به . وفيما كان الرئيس يتكلم على ذلك كان فيليكوس يذرف الدموع ثم خرّ على قدمي الرئيس واشهد السماء على انهُ لا يطلب الترهب الا بنية ان يعيش في الرهبانية عيش انسان مصلوب . فقبلهُ الرئيس وضمّهُ الى المبتدئين وكان عمرهُ يومئذٍ ثماني وعشرين سنة

ومنذ ترهبهِ الى يوم وفاتهِ لم يزل يحارب حواسهُ وكان في الاصوام الثلثة المرسومة في تلك الرهبانية لا يتناول الا الخبز والماء ولا ينام الا على حصير ولا يتوسّد الا حزمة حطب ولا يرقد الا قدر ساعتين ويجلد جسدهُ كل ليلة ثلث مرات ويلبس المسح غالبًا ومع انهُ كان على نفسهِ قاسيًا كان نحو الغير حليمًا وديعًا

روى بعض المؤرخين قال زار جماعةً كان الناس

يشكون لرداءة سيرتهم فجثا امامهم وخاطبهم باتضاع ووداعة قائلاً اضرع اليكم ان ترحموا انفسكم وبهذه الكلمات رجعوا الى الله. ويُروى ايضًا انهُ لما كان في بيت احد قضاة المدينة اتى الى هناك رجل لهُ دعوى في المحكمة وقدَّم للقاضي عجلاً على سبيل الهدية فما ابطأ العجل ان خار اي صوَّت. فقال القديس للقاضي حينئذٍ أسمعتَ ياسيدي ما قال العجل فانهُ يتشفع عندك ويطلب منك ان تبرز حكمًا مرضيًا لمن اتى بهِ وقدَّمهُ لك. وانما عليك يا ايها القاضي الافتكار في انهُ لابد لك ان تعطي حسابًا عن حكمك عند الديَّان الالهي. قال الراوي ان القاضي لما سمع هذا الكلام قام للوقت وقبَّل القديس شاكرًا نصيحتهُ هذه

واقامتهُ الرهبانية على التسوُّل لاجل الدير فتسوَّل في رومية اربعين عامًا. وكان كل مرة يخرج لطلب الصدقة ياخذ بيدهِ المسبحة ويقول لرفيقهِ هلمَّ يا اخي ليرفع كل منا الى السماء عقلهُ وليكن نظرهُ على الارض. قال الراوي انهُ اذ كان عند نيافة الكردينال الحامي عن الرهبانية قال رفيقهُ لسيادتهِ انهُ يليق ان يُطلب من الروساء ان يرفعوا عن هذا الشيخ وزر التسوُّل فارتضى بذاك الكردينال وسأل القديس فيليكوس عن رأيهِ في ذلك فاجاب القديس قائلاً انهُ من كونهِ جنديًا للمسيح يجب عليهِ ان يموت متسلحًا ومن كونهِ بمنزلة حمار الدير ينبغي لهُ ان يموت تحت ثقل وزرهِ فترجى نيافتهُ ان يساعدهُ على تميم واجباتهِ هذه

وماذا عسى ان اقول عن محبتهِ لسيدنا يسوع المسيح فكانت شديدة جدًّا فكيف لا وكان اغلب الاحيان ينطق باسم يسوع وعيناهُ تذرفان الدموع ولا يتكلم الفم الاَّ من فضلة ما في القلب. فاتفق انهُ حينما كان يصلي ليلاً في الكنيسة اضطرمت نفسهُ بهذه النار الالهية كل الاضطرام حتى انهُ تقدم الى صورة لسيدة العالم تمثّلها حاملةً على يدها ابنها وطلب منها ان تأذن لهُ ان يتناول ابنها ويقبلهُ فظهرت لهُ والدة الاله ومنحتهُ ابنها الالهي ومن ذا الذي يصف شدة المحبة التي بها قبَّل سيدهُ وحبيب قلبهِ

وكان بينهُ وبين القديس فيلبس نيري محبة شديدة صافية حتى انهما كلما التقيا في طرق رومية تعانقا وكل منهما يشتهي لصاحبهِ ان يحتمل حبًّا للمسيح الاعذبة الاكثر قساوة التي احتملها الشهداء

وكان هذا القديس يتناول القربان المقدس ثلث مرات في كل اسبوع ما عدا الخمس عشرة سنة التي قبل موتهِ فانهُ كان يتناول القربان المقدس فيها كل يوم

فلما اصابهُ داء المنون زارتهُ ملكة السماء مع زمرة من الملئكة ودعتهُ الى ملكوت السماء وكانت وفاتهُ في اليوم الثامن عشر من شهر ايار سنة ستٍّ وثمانين وخمسمائة والالف للمسيح

اليوم التاسع عشر

وفيهِ ترجمة القديس بطرس سلاستينوس البابا

ان هذا القديس وُلد بايطاليا في السنة الحادية والعشرين بعد المائتين والالف وكان ابواهُ يكرمان مريم العذراء كل الاكرام ويستغيثان بها ولاسيما والدتهِ التي ولدت اثني عشر صبيًا وكان هو بينهم الحادي عشر ولما مات والدهُ لم يكن قد بلغ من العمر الاَّ خمس سنين

وفيما كانت والدتهُ جالسة ذات يوم مع بنيها الاثني عشر قالت لهم أما يصير احدكم قديسًا. فقال بطرس بلى وانا هو الذي يصير قديسًا. ومنذ طفوليتهِ سلك طريق الفضيلة وكان كلما ارتكب هفوةً يوبّخهُ عليها ملاك الرب ويحثهُ على التوبة. فكبر الغلام ودرس العلوم ونما في العبادة فكرهت نفسهُ الدنيا. ولما بلغ العشرين عامًا هجر منزلهُ وانفرد في البريّة وقطن باحدى المغاور واقام هناك ثلث سنين ممارسًا رياضات الصلاة وعائشًا بالتقشف. فجاءهُ عدوُّ البشر وجرَّبهُ تجارب كثيرة فمرةً ظهر لهُ بصورة امرأة جميلة ليزجَّهُ في اشراك الدنس ويومًا آخر القى في حضنهِ حيات لدغتهُ الاَّ ان القديس انتصر على تجاربهِ وازداد نشاطًا في رياضاتهِ وكانت اسلحتهُ في هذه الحرب الصلاة والتقشفات والالتجاء الى مريم العذراء عليها اشرف السلام

فظهر لهُ يومًا شيخ بثياب بيض ذو طلعة مهابة وقال لهُ اسمع مني يا ابني وارتسم كاهنًا. فاجابهُ القديس ان كان القديس بناديكتوس وآخرون غيرهُ من القديسين لم يرتضوا ان يرتسموا كهنة فكيف اكون انا الخاطئ اهلاً لقبول هذا السر الذي ترهبهُ مناكب الملئكة. فقال لهُ الشيخ ومن الذي كان اهلاً لقبول هذه الدرجة اسمع وارتسم كاهنًا وقدس بعبادة واحترام. وبعد ان قال ذلك غاب. فاتى القديس رومية وارتسم كاهنًا وعاد الى الخلوة وعاش هناك عيشة مناسبة

لدرجة الكهنوت فانتقل الى جبل مورون واختار لسكناهُ مغارةً كانت ذات هيئة حسنة . ولما دخلها خرجت منها افعى كبيرة ضخمة الجسم هائلة المنظر واقام هناك خمس سنين . ولما رأى اناساً يأتون حول مغارتهِ ذهب الى جبل آخر مع تلميذين استرشداهُ وطلبا ان يعيشا معهُ . وبعد زمن يسير تكاثر تلاميذهُ جدًّا فانشأ الرهبانية المعروفة برهبانية السلاستينيين التي ثبتها البابا غريغوريوس العاشر سنة اربع وسبعين ومائتين والف للمسيح

وكان عليهِ السلام يصلي اكثر النهار والليل ويمتنع عن اكل اللحم وشرب الخمر ولو مريضاً وكان يصوم اربع مرات الصوم الاربعيني فثلاث مرات كان يصومهُ على الخبز والماء فقط اما في المرة الرابعة فكان يمارسهُ باشد قساوة . وروى بعض الثقات انهُ صام مرةً الصوم المذكور بقساوة مفرطة لانهُ استمرَّ اربعين يوماً في زمن الشتاء في حفرةٍ عميقة ولبس على جسدهِ الاَّ مسح خشن طويل ولم يكن عندهُ من الزاد الاَّ عشرة ارغفة وثمَّ بصلات ولكثرة ما سقط من الامطار ولاشتداد البرد جمد مسحهُ فصار كقطعة جَمَد ومع هذا لم يزل يرتل التسابيح الالهية لكنهُ سمع صوتاً من السماء يقول احذر يابطرس من ان تثقل الحمل على هذا الحمار لئلا يقع تحتهُ فلا يقدر ان يحملك . فلما اتى تلاميذهُ هاتيك الحفرة ليخرجوهُ منها وجدوهُ مشرفاً على الموت ورأوا خمسة ارغفة كانت باقية عندهُ

وفي سنة اربع وتسعين ومائتين والف اجتمع الكرادلة ليختاروا خليفةً للبابا نيقولاوس الرابع لانهُ كان قد كرَّ زمان طويل ولم يتفقوا على انتخاب خليفةٍ لهُ فاشار عليهم احد اولئك الكرادلة ان يختاروا بطرس فارتضى بهِ الجميع لاجل استقامة سيرتهِ وكثرة فضائلهِ . وذهب من قِبلهم الى القديس الاسقف ليون واسقفان آخران فلما وصلوا اليهِ طلبوا منهُ ملحين ان يقبل هذه الدرجة فلم يرتضِ بل هرب واختبأ الا انهم وجدوهُ وجاؤا بهِ الى مدينة رومية وارتقى الى عرش الخلافة البطرسية في اليوم التاسع والعشرين من شهر آب في السنة الرابعة والتسعين من القرن الثالث عشر واتخذ اسم سلاستينوس الخامس . وبعد ارتقائهِ الى العرش الرسولي لم يغير شيئاً في سيرتهِ من جهة الصلاة والتقشف . غير انهُ لاتضاعهِ كان يستصعب جدًّا القيام بمقتضيات هذه المرتبة السامية وكان يتحوَّل سكون بالهِ الى اضطراب بين الاشغال

الكنائسية الكثيرة وخشي من ان يحدث ضرر للكنيسة لعدم خبرتهِ بتدبير هذه الامور . وبناءً على ذلك عزل نفسهُ عن الكرسي الرسولي في اوايل الشهر السادس لبابويتهِ . وفي ذلك اليوم عينهِ خلع حلة الحبرية ولبس ثوب الرهبانية وتأهب للرجوع الى ديرهِ وكان ذلك في شهر كانون الاول لسنة ارتسامهِ المذكورة

ثم جلس على عرش الخلافة البطرسية البابا بونيفاسيوس الثامن ولانهُ خاف من ان يحدث خصام من جرى عزل القديس نفسهِ عن المقام البابوي منعهُ عن الرجوع الى ديرهِ فظن القديس حينئذٍ ان البابا يريد ان يبقيهُ في بلاطهِ دائماً ومن ثمَّ هرب سرًّا من رومية وعاد الى ديرهِ . فخاف البابا بونيفاسيوس من ان اناساً مفتنين يحرّكون القديس ويلقون اضطراباً في الكنيسة فارسل اليهِ بعضاً من اهل الوجاهة والاعتبار فركب سفينة وفرَّ منهم هارباً . الا ان الريح العاصفة الجأتهُ الى الرجوع وعلموا باياتهِ فاحضروهُ الى حيث كان البابا بونيفاسيوس فامرهُ بونيفاسيوس ان يصرف بقية عمرهِ في قصر على ساعتين من مدينة اغاني . ولان بعضاً كانوا يحزنون على القديس قال لهم لا حجة لي الان للشكوى لاني كنت احب الاختلاء في القلاية وها انا قد وجدتها هنا . ولما عرف بالهام الله ان قد اقتربت منيتهُ تناول القربان المقدس ورقد بالرب في اليوم التاسع عشر من شهر ايار سنة ست وتسعين ومائتين والف للمسيح

اليوم العشرون

وفيهِ ترجمة القديس برنردينوس السياني

ان هذا القديس وُلد بمدينة ماسّا من اعمال سيانا باقليم ايطاليا وكان والداهُ يستشفعان العذراء لكي يرزقها الله بشفاعتها ابناً . فاغاثتها بالشفاعة فرزقها الله هذا الابن العزيز الذي وُلد بيوم عيد العذراء اي اليوم الثامن من شهر ايلول في السنة الثمانين من القرن الرابع عشر . وماتت امهُ ولم يبلغ السنة الرابعة من عمرهِ وتُوفي ابوهُ وهو دون السنة السابعة من حياتهِ . فربَّتهُ عمتهُ وكانت امرأة فاضلة اسمها ديانه على مخافة الله واكرام البتول العذراء ومنذ صبائهِ كان كلما سمع عظةً يجمع الصبيان ويخاطبهم بكلام الواعظ كلهِ مقلّداً اياهُ بحركاتهِ واشاراتهِ . اما محبتهُ للفقراء فكانت عظيمة حتى انهُ لما

كانت عمتهُ تلزمها الضرورة ان تُنكر عليهم المطلوب وتردّهم خائبين كان الصبي برنردينوس يطلب منها بالحاح ان تعطيهم ما كان محفوظًا لهُ للعشاء

ولما كان ابن اثنتي عشرة سنةً دخل المدرسة فتعجب معلمهُ من حذاقة عقلهِ واستقامة سيرتهِ وكان بهاء منظرهِ مقترنًا باحتشام عجيب لانهُ كان اذا سمع كلامًا مضادًّا لهذه الفضيلة يحمرُّ وجههُ خجلاً ولذلك كان الناس يخشون ان يتحدثوا بالفاظ قبيحة بحضرتهِ واذا كانت الفاظ الخطاب مستهجنة ورأوهُ آتيًا من بعيد كانوا يقولون ها قد اقبل برنردينوس فلنصمت عن مثل هذا الكلام

وبعد ان فرغ من درس الفلسفة عكف على درس اللاهوت ونبغ فيهِ حتى صار من اعظم علماء عصرهِ . وكان يزداد برارةً بمقدار ما يزداد تبحرًا في العلوم . ولمعرفتهِ ان العفة تُحفظ وتنمو بالتقشفات كان يصوم ثلثة ايام من كل اسبوع ويلبس المسح غالبًا وينام قليلاً لاعلى فراش ويؤلم جسدهُ النقي بالسياط وانما نشأت فيهِ هذه المحبة للعفة من تعلقهِ بالعذراء عليها اشرف السلام . ويُروى انهُ قال في هذا المعنى لشبان رفقائهِ ان قلبي متعلق ببتول بهية عجيبة بليغة . فاحتاروا وقالوا ما هذا يا برنردينوس وانت تفرُّ من نظر النساء . فتبسم برنردينوس وقال اي نعم وما ذلك بشيء يصدني عن حب هذه البتول الجميلة وعن مخاطبتها لانهُ من المستحيل ان يمرّ يوم ولا أزورها واخاطبها . ثم خرج من ذلك المكان ذاهبًا الى حبيبتهِ هذه فتبعهُ رفقاؤهُ لكي يطلعوا على حقيقة الامر فرأوهُ دخل الهيكل وجثا امام ايقونة العذراء المجيدة وطفق يصلي كانهُ ملَك

وقد حدث وباء عظيم في مدينة سيانا في السنة الاربع مائة بعد الالف وقد هلك بهِ خلق كثير في المستشفيات ولم يكن من يخدمهم فعزم على مساعدتهم ولم يكن قد بلغ العشرين سنة ولما راى انهُ لا يقدر وحدهُ على خدمة الجميع حثَّ بعض الشبان على هذا العمل المبرور . فذهبوا الى المستشفيات وخدموا المطعونين الى انتهاء الطاعون . ولكن اصابهُ بعد ذلك مرض شديد واستمر على هذه الحال اربعة اشهر . فلما برىء من مرضهِ عزم على الاعتزال والترهب فشرع اولاً يمارس في الاختلاء رياضات الرهبانية ملتمسًا من الرب ان ينيرهُ ويكاشفهُ بما يريد بهِ فاختار رهبانية القديس فرنسيس ودخلها وكان لهُ من العمر وقتئذٍ اثنتان وعشرون سنة

وقد دخل دير المبتدئين يوم عيد ميلاد العذراء . وبعد تمام السنة نذر في هذا العيد نذور الرهبانية وفي هذا العيد ايضًا من السنة الرابعة بعد الاربع مائة والالف للمسيح قدَّس قدَّاسهُ الاوَّل وحينئذٍ ابي بعد ارتسامهِ قسًّا امرهُ رئيسهُ بمباشرة وظيفة الوعظ مع ان لسانهُ كان غير طليق وصوتهُ غير حسن فتضرع القديس اليهِ تعالى وطلب منهُ قائلاً الهي اذ قد ارسلتني لأبشر شعبك بتعليمك فاطلق لساني وحسّن صوتي وللوقت نال مطلوبهُ وانطلق لسانهُ وحسن صوتهُ فخرج برنردينوس من قلايتهِ كرسول من العلية بعد حلول الروح القدس عليهِ وطاف اكثر مدن ايطاليا منذرًا بتعليم الخلاص

وكان لكلامهِ في كل مكان وقعٌ عظيم وتأثير شديد بحيث كثرت اثمار التوبة والفضيلة وذلك لان قلبهُ كان مضطرمًا على الدوام بمحبة سيدنا يسوع المسيح وكان يسطع سنى لهيبها ولاسيما بعد تقدمة الذبيحة الالهية فقد كانت هذه النار تتقد في قلبهِ كل الاتقاد حتى انهُ كان يبين كساروفيم فكانت حياتهُ يسوع المسيح ولم يزل ينطق بهذا الاسم القدوس في عظاتهِ ومخاطباتهِ ورسالاتهِ وتصانيفهِ ولم يكتفِ بذلك بل كان يحمل معهُ دائمًا ايقونة مكتوبًا عليها اسم يسوع وكثيرًا ما كان يريها للشعب في عظاتهِ ولا عجب في ذلك فانهُ كان ينال باسم المسيح كل ما يرجو ويطلب حتى انهُ لم يسأل الله شيئًا الاَّ بذلك الاسم الكريم

وبعجائب كثيرة ايَّد الله كلام رسولهِ وكان اخص تلك المعجزات توبة كثيرين من الخطأة الذين سمعوا وعظهُ ولكنهُ لم يخلُ من حسدٍ فان قومًا انتقدوا كلامهُ حتى عند الحبر الاعظم وقالوا انهُ مخلٌّ بالديانة متأوّلين بعض عبارات منهُ على غير معناها فاستدعاه البابا مرتينوس الخامس الذي كان يومئذٍ وفحص عن سيرتهِ وعظاتهِ ولما تحقق ما كان عليهِ من الفضل والغيرة برَّأهُ مما اتهمهُ بهِ حاسدوهُ بل قدَّم لهُ اسقفية سيانا في السنة السابعة والعشرين بعد الالف والاربع مائة . فلم يرتضِ القديس كما انهُ لم يقبل بعد ذلك ايضًا ان يرتقي الى اسقفيتي فيرارا واربيا اللتين كان قدمهما لهُ بالحاح اوجينوس الرابع

قلنا كان لكلامهِ تأثير في القلوب وقد اتضح ذلك مما

صنعهُ لازالة العداوة بين شعوب ايطاليا وقد أُخبر انهُ لما سمع سكان مدينة بيروزيا في خصومة شديدة اسرع وذهب الى هناك واخذ يعظ عندهم بضرورة المصالحة للخلاص الابدي وفي الآخر استدعى كلاً من الحاضرين يريد المصالحة الى ان يقف عن يمينهِ فاصغوا لكلامهِ ولم يبقَ في الشمال الا واحد من اشراف البلدة متذمرًا فاقبل عليهِ القديس ووبخهُ على عنادهِ وتوعدهُ بالانتقام الالهي. وبعد زمان يسير مات هذا التعيس موتًا شقيًا

وقد مات القديس في اليوم العشرين من ايارسنة اربع واربعين بعد الاربع مائة والالف وهوا بن اربع وستين سنةً

اليوم الحادي والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس اوسبيسيوس السائح

هذا القديس كان فرنسوي الاصل وعاش في الجيل السادس فلما سمع بسيرة الآباء السيّاح الذين في بلاد مصر تاقت نفسهُ جدًّا الى الاقتداء بهم فذهب اليهم وأخذ عنهم الطريقة المقدسة ثم عاد الى مملكة فرنسا وأخذ يطالب مكانًا مناسبًا لقصدهِ الحميد فوجد بقرب مدينة نيقية في جنوب فرنسا برجًا قديمًا مهملاً فاختلى بهِ واخذ حينئذٍ يمارس كل رياضات التقشف فلبس مسحًا طويلاً مرصعًا بآلات حديدية كانت تخز جسمهُ من كل جهة وحمل على ظهرهِ وساعديهِ سلاسل ثقيلة

وكانت قلايتهُ كالقبر وهناك كان يصوم كل يوم لا يأكل ولا يشرب الاّ مرةً واحدة وكان ماكلهُ الخبز فقط اما في الصوم الكنائسي فلم يأكل الاّ البقول المرة التي كان يأتيهِ بها تجارٌ من بلاد مصر وكان يشتغل بعض ساعات من النهار ويصرف بقية الوقت في الصلاة غير انهُ خصص لرقادهِ يسيرًا من الزمان واضحى جسدهُ مكلومًا مجرَّحًا ترعاهُ الديدان ولم ينقص شيئًا من تقشفاتهِ وكان الناس يقبلون من كل النواحي ليعاينوا هذه الأعجوبة

روى عنهُ القديس غريغوريوس الذي من طور مدينة بفرنسا انهُ لما كان الله تعالى يظهر قدسهُ وبرارتهُ بالمعجزات وقد افاض عليهِ نقدس اسمهُ روح النبوة اخبر سكان القرى والاديرة بدخول اللومبارديين الاريوسيين بلاد فرنسا واشار عليهم ان يلتجئوا الى المدن ولما أشار بالفرار على الرهبان الذين في دير قريب منهُ قالوا لهُ ولِمَ لا تهرب انت يا ابانا قال اذهبوا انتم ولا تعتنوا بي لان البرابرة الذين سيعاملوني بقساوةٍ لا يفتكون بي

فدخلت الاعداء البلد في السنة الخامسة والسبعين من المائة السادسة واقترب جماعة منهم الى مدينة نيقية فوجدوا القديس في ذلك البرج بحيث انهُ كان قد سدَّ باب قلايتهِ منذ مدة لكثرة ما تزاحم الناس عليهِ وانحدر البرابرة الى قلايتهِ من السقف ولما نظروا القديس عليهِ السلام حاملاً السلاسل ظنوا بهِ انهُ اثيم مسجون هناك من جرَّاء آثامهِ. فسألوهُ ما الجرم الذي ارتكبهُ. فاجابهم القديس اني رجل خاطئ اثيم حقًّا مستحق العذاب والموت. فاستلَّ احد البرابرة سيفهُ وهمَّ ان يضربهُ فيبست يدهُ للوقت وسقط السيف على الارض فاخذ البرابرة الاندهاش والخوف وسألوا القديس ما العمل فدنا منهُ القديس وصلَّب على يدهِ اليابسة فبرئت للحال وشفي الجندي لا بالجسد فقط بل بالروح ايضًا لانهُ ترك رفقاءهُ ومكث مع القديس زمنًا طويلاً بجوار ذلك البرج

فبعد ان خرجت البرابرة من فرنسا ازداد صيت القديس اوسبيسيوس شرفًا وانتشر عبير فضائلهِ في مملكتي فرنسا وايطاليا فزارهُ رجل اكليريكي كان ذاهبًا بامرئٍ اصمّ واخرس الى رومية ليزور هناك الاماكن المقدسة ويطلب شفاء هذا الانسان من القديسين بطرس وبولس. واخبر القديس ان رفيقهُ من مدينة انجير كان اعتراهُ حُمّى شديدة فزادت واورثتهُ الخرس والصم. فقال لهُ عليهِ السلام احضر اليَّ ذلك الاصمَّ الاخرس فلما مثل بين يدي القديس وضع على لسانهِ قليلاً من زيت مكرس وسكب منهُ ايضًا على رأسهِ ثم قال لتنفتح اذناك باسم السيد المسيح وليعد اليك النطق بالسلطان الذي بهِ اخرج الشياطين من الانسان الاخرس والاصمّ ثم سأل المريض ما اسمك فاجابهُ على الفور باسمهِ فرحًا كل الفرح ورفع يديه نحو السماء وهتف قائلاً لتكن مباركًا يارب من اجل هذه الاعجوبة التي صنعتها على يد عبدك اني كنت منطلقًا الى رومية لالتمس عونًا من الرسولين العظيمين بطرس وبولس وها قد وجدت هنا من هو نظيرهما

وفيما كانت الناس تتعجب من ذلك قُدم اليهِ رجلٌ اعمى منذ مولدهِ يُدعى دومينيكوس فسألهُ القديس أتريد ان تبصر

فقال الاعمى لست اعرف ما البصر فعمل على عينيهِ صليبًا بزيت مقدس ثم قال لهُ لتنفتح عيناك باسم سيدنا يسوع المسيح فابصر الاعمى ولما شاهد العالم وما فيهِ لبث زمانًا مبهوتًا متحيرًا

وبقي على هذه الحال خمس عشرة سنةً ثم أُوحي اليهِ من الله ان قد ازفت منيَّتهُ فأرسل حينئذٍ وطلب من اوستاديوس أُسقف نيقية ان يأتي ليناولهُ القربان المقدس واخبرهُ انهُ سيموت بعد ثلثة ايامٍ فاتى الاسقف ومعهُ رجل اخر اسمهُ كرسيانوس فهذا لما نظر الى القديس تأسف عليهِ وبكى قائلاً لهُ كيف استطعت ان تطيق مثل هذا العذاب خمس عشرة سنةً وانت تحت هذه الاغلال الثقيلة والدود يرعى جسدك . فقال القديس ان الذي حبًّا بهِ احتمل الام الصليب هو الذي اقدرني على ذلك ولما درى ان قد دنت ساعة وفاتهِ طلب ان تُنزع القيود عنهُ

ثم صلى طويلاً وبعد ان فرغ من الصلاة امتدَّ على تخت ورفع عينيهِ الى السماء وشكر الله على احسانهِ اليهِ واستودعهُ نفسهُ وتُوفّي مطمئن القلب وكان ذلك في اليوم الحادي والعشرين من شهر ايار في السنة الحادية والثمانين من المائة السادسة . وحينما اسلم روحهُ اضمحل الدود من جسدهِ بالكلية

وروى ايضًا القديس غريغوريوس المذكور انهُ في يوم دفنهِ اخذ رجلٌ من تراب قبرهِ شيئًا ووضعهُ في منديلٍ لهُ وركب سفينة كانت مسافرة الى مرسيليا واذ كانت السفينة لتجار يهود لم يتجاسر الرجل ان يقول لهم انهُ مسيحي وهو مسافر الى دير بجزيرة ليرينس . اما السفينة فلما وصلت الى تجاه الجزيرة الموما اليها وقفت وان كانت الريح مناسبة للذهاب فتعجب القوم وسأَلوا بعضهم بعضًا عن سبب وقوف السفينة فاخذ حينئذٍ الرجل المسيحي يبين لهم حقيقة الامر وانهم ان لم ينزلوهُ بجزيرة ليرينس فلا تتقدم السفينة . اما هم فصدقوهُ وأَنزلوهُ بها فتحركت السفينة وذهبت الى ما قدام ولهذا السبب يُعد عليهِ السلام مع شفعاء الجزيرة

اليوم الثاني والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة جوليا البتول الشهيدة

لما كانت السنة التاسعة والثلثون من المائة الخامسة للمسيح دخل هونِريكوس ملك الفَنْداليين الاريوسي مدينة قرطاجنة وفتك بالكاثوليكيين ولاسيما اغنيائهم وشرفائهم واستأسرهم ونساءهم وابناءهم وبناتهم وكان تسلط الفَنْداليين الى السنة الثالثة والثلاثين من المائة السادسة

ومن جملة اولئك البنات الشريفات اللواتي استأسروهنَّ مدة تسلطهم كانت القديسة جوليا المتعبدة لله منذ نعومة بنانها بعبادة صافية كانت قد صيَّرتها اعجوبة مدينتها . واشترى جوليا من الفنداليين رجل وثني يقال لهُ اوسابيوس فمضى بها الى سورية وبعد ان كانت الناس تخدمها اضحت ملتزمة بخدمة رجل وثني . ولكنها تعزَّت حالاً عندما تأملت انها لم تزل أَمة الرب وان تكن أَمةً لذلك الوثني

واعتنت جهدها بان توفي فروض العبادة في حال الاسر وقد بارك الله تعالى عليها وآتاها صبرًا في تجربتها بحيث لما رأى اوسابيوس سيدها استقامة سيرتها واحتشامها وجزيل اهتمامها بخدمتهِ حسبها كنز بيتهِ وبركة منزلهِ وكان يعتبرها ويحترمها جدًّا حتى انهُ كثيرًا ما كان يقول انني اختار ان افقد كل مالي على ان اخسر جوليا أَمتي

ولما كانت القديسة على هذه الحرية في اسرها شرعت تمارس جهارًا كل فروض عبادتها اي الصلاة وتلاوة الكتب الروحية والصوم الدائم وتقشفات اخر كانت تؤلم بها جسدها الطاهر كل يوم وتتعزَّى في خلوتها بالنظر الى ايقونة سيدنا يسوع التي كانت لا تزال منوطة بعنقها وكان تعالى يملأُ قلبها سرورًا وكان اخصّ فضائلها العفة التي زينتها باطنًا وظاهرًا حتى انذهل منها الوثنيون انفسهم وغدا كل من يراها يمدح الديانة المسيحية ويحبها خصوصًا اوسابيوس سيدها

ومع هذا كلهِ كانت القديسة جوليا تستعد للموت والاستشهاد لانها منذ يوم وقوعها بين ايدي الوثنيين اعتقدت يقينًا ان الله تعالى يؤَهلها لاهراق دمها حبًّا بهِ عزَّ وجلَّ . وقد كانت تسأل السيد المسيح ذلك بشفاعة والدتهِ كلما صلّت فاتفق بعد سنين ان اوسابيوس سيدها لكونهِ غنيًّا جدًّا عزم على السفر الى فرنسا رغبةً في التجارة فرام ان يأخذ معهُ جوليا لتخدمهُ فسافرت معهُ ووصل المركب الى جزيرة كورسيا ا[...] كان كل سكانها عبدة اوثان يوم عيد الهتهم فنزل اوسابيوس مع قوم من خدامهِ ودخل هيكل الاوثان وكانت ذبيحة ا[...] ثورًا . اما جوليا فمكثت في المركب تتنفس الصعداء على عم[...] الوثنيين وبينما كانت على هذه الحال اذ بناس من خ[...] فيليكيوس امير الجزيرة دخلوا المركب ليروا بض[...]

اوسابيوس فوجدوا البتول جاثية تصلي فسألوا الملاَّحين ماذا تفعل هنا هذه الفتاة . فاجابهم انها اسيرة اوسابيوس التاجر تستهزئ بعبادة الاوثان. فلما عاد الخدام الى فيليكيوس اخبروهُ بما كان وقد كان ذلك الرجل غيورًا على عبادة اوثانهِ جدًّا

فلما سمع ما قال الخدام قال لاوسابيوس مَن هذه الفتاة التي تخدمك ولماذا لم تأتِ اليوم لتحضر ذبائحنا فاجابهُ التاجر قائلاً انها عذراء مسيحية ولم استطع ان استميلها الى عبادتنا الاَّ انها فاضلة جدًّا جدًّا . قال لهُ فيليكيوس ولكن يجب عليك اما ان تلزمها باكرام آلهتنا واما ان تبدلها باخرى وتبيعني اياها. اجاب اوسابيوس لا استطيع ان افعل احد هذين الشيئين ولو قدمت لي جميع اموالك فانها عندي لاتوازي ثمن هذه الابنة المسيحية بل اني لمستعد ان اخسر كل مالي ولا ادعها تخرج من عندي . ففكر فيليكيوس ثم اخترع حيلةً ليخطف بها البتول فصنع وليمة عظيمة ودعا اليها مولاها ولما سكر ارسل واخذ جوليا أَمتهُ . فاذ حضرت لديهِ قال لها لا تخافي ايتها الابنة على بتوليتكِ لاني لست اغدر بها وقد عرفت عظم محبتكِ هذه الفضيلة . بل انما اريد اليوم ان اطلقكِ من حال العبودية فاذهبي الى هيكل آلهتنا وقدمي لهم الاكرام الواجب

فقالت القديسة جوليا اني ما دمت اخدم سيدي يسوع المسيح فانا حرَّة ولست اعرف على الارض سواهُ . ونظرًا الى آلهتك فانها كاذبة وعبادتها قبيحة وبناء عليهِ فارفضها من كل وجهٍ . فغضب فيليكيوس وامر بان تُعلَّق بشعر رأسها فعُلِّقت وشرع الجلاَّدون يضربونها بالعصي حتى كادت تموت. اما البتول فكانت تشكر الله تعالى وتباركهُ بصوت الابتهاج. فخاف فيليكيوس من ان ينتبه اوسابيوس من نومهِ فيخلصها من يديهِ فامر ان تسمَّر على الصليب لتموت مصلوبةً فلما رأت الصليب طابت نفسًا وهتفت نحو سيدنا يسوع المسيح قائلة لتكن مباركًا يا الهي بحيث اهلتني لان اموت نظيرك ومن اجلك مسمرةً على الصليب . فاسألك باستحقاق دمك الزكي ان تنظر بعين رحمتك الى هولاء الشعب الجالسين في ظلام الموت وتغفر لهم خطيئتهم بقتلي . فصلبها الاعوان وماتت على الصليب وفي غضون ذلك انتبه اوسابيوس ولما رأى كل هذا حزن وتأسف وغضب على ان ذلك كلهُ ذهب باطلاً

وبعد وفاتها استولى على اولئك المنافقين خوف عظيم فولّوا كلهم مدبرين . وحينئذٍ ظهر ملَك الرب في غُرغونا جزيرة قريبة من كورسيا لرهبانٍ صالحين وامرهم بنقل جسد هذه القديسة فاتوا ونقلوهُ باحترام جزيل الى ديرهم . ومن هناك نقلهُ ديداربوس ملك اللومبارديين الى باراشيا مدينة ببلاد البندقية في السنة الثالثة والستين من القرن الثامن . وفيما بعد بُنيت كنيسة على اسمها الشريف . وكانت وفاتها في اليوم الثاني والعشرين من شهر ايار

اليوم الثالث والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس بوفون

ان القديس المذكور وُلد في نصف المائة العاشرة في جنوبي فرنسا من اصل شريف ولما كان ابوهُ ادلفريدوس جنديًا باسلاً شاء ان يعلم ابنهُ ما يتعلق بفن الحرب . غير انهُ اجتهد ايضًا في ان يمرنهُ منذ حداثتهِ على عمل الخلاص ولاسيما امهِ اوديليندا المرأة الفاضلة وكان الصبي مفطورًا على دماثة الاخلاق وكرم الطباع وتجند بعد ذلك ونال في الجندية مرتبة عالية

ومع انهُ لم يحد وهو في الجندية عن طريق الصلاح بل استمرَّ جاريًا عليهِ مباشرًا الوظيفة ببسالةٍ غير متغاضٍ عن كمال السيرة المسيحية . كان في الحروب خاليًا من كل خوف وثابتًا في العبادة . وماذا عسى ان اقول في عفتهِ وقد كان ينفرُّ من كل ما فيهِ رائحة الدنس ولم يكتفِ بذلك بل كان يذلّل جسمهُ بالتقشف والصوم ايامًا في كل اسبوع علمًا بان البرَّ لا يُحفظ الاَّ باماتة الجسد

وبعد وفاة والديهِ ورث اموالاً كثيرة وشارك المساكين فيها . ولاجل وفرة صدقاتهِ قال فيهِ قومٌ انهُ قد عزم على ابادة الفقر من بلدتهِ . ثم دخل اقليمهُ البرابرة اعداء المسيحيين وفتحوا قلعةً حصينة جدًّا مبنية بقرب البحر في ابراشيا فريجوس وكانوا يخرجون منها احيانًا ويفتكون بالمؤمنين . فالتجأ المسيحيون الى بوفون . فانفرد اولاً وصلى طالبًا العون من الله تعالى ثم نذر لله انهُ اذا انتصر على اعداء الايمان واخرجهم من المملكة يترك الجندية ويتفرَّغ للعبادة ويزور قبر رسولي الله بطرس وبولس ويصرف بقية ايام حياتهِ منفردًا عن

الناس وممارسًا ما تقتضيهِ الفضيلة ثم اضجع على فراشهِ لينام . فظهر لهُ القديس بطرس وقال لهُ ان الله تعالى قبل نذرك وسرَّ بهِ وانك ستنتصر بحول الله على البرابرة انتصارًا مبينًا . فانتبه وقتئذٍ من رقادهِ فوجد قلبهُ قد اعتزَّ بقوة جديدة وشرع يجمع اجواقًا من الجنود .

ثم سار بهم الى تجاه تلك القلعة مطمئنين وواثقين بالله . فلما ابصرهم البرابرة الذين في القلعة ضحكوا من قلة عددهم ولم يتحركوا ليدفعوهم . واذا برجل انحدر من القلعة سرًّا فوعد القديس انهُ اذا اتى ليلاً يفتح لهُ باب القلعة . فتبعهُ القديس بجنودهِ وفي الليل دخلوا القلعة وقبضوا على كل من كان فيها من البرابرة ثم انحدروا الى مراكبهم التي كانت في الميناء في اسفل القلعة واسروا كل من كان فيها واخذوا اموالهم وامتعتهم غنيمةً فتنصَّر اكثرهم وقد حدث ذلك سنة ثلث وسبعين من المائة العاشرة على عهد كُنْراد الملك وكان ويليلموس اميرًا في تلك الجهات

وبعد ذلك قُتل اخو القديس ظلمًا من عدوٍ لهُ فحزن عليهِ حزنًا بليغًا لانهُ كان يحبهُ جدًّا . وخرج القديس ذات يوم بقوم من اصحابهِ واقرانهِ فوجدوا عدوَّ اخيهِ في الطريق وحدهُ ولا سلاح معهُ ولا يقدر ان يهرب . فجثا ذاك على قدمَي القديس وطلب منهُ المسامحة فاستلَّ رفقاؤهُ سيوفهم ليفتكوا بهِ فقال لهم كفوا عن الضرب ودعوني انتقم من الذي قتل اخي . وللوقت احتضن عدوهُ بمحبة قائلاً لهُ اذهب يا صاح هذا انتقامي منك بعد ان قتلت اخي

فمن ذلك الوقت اولاهُ الله نعمًا جزيلة وابتدأ يشعر بمحبة عظيمة نحوهُ تعالى . فترك بوفون الجندية وتصدَّق على الفقراء باكثر اموالهِ ومضى الى رومية راجلاً ليفي نذورهُ . ثم رجع يسلك طريق البرارة بعزم متين . فانشأ قلاَّية في مكان منفرد وهناك كان يمارس اصعب رياضات التقشف فاستمرَّ على هذه الحال بقية حياتهِ

وفي السنة السادسة والثمانين بعد التسع مائة خرج ليزور ما في رومية من الاماكن المقدسة ولما وصل الى فوغيرا مدينة بايطاليا اعتراهُ مرض وعرف من الله سبحانهُ انهُ سيموت بهِ . فتناول القربان المقدس وسار الى جنة الخلود في اليوم الثاني من شهر ايار في السنة المذكورة وشرَّف الله قبرهُ بعجائب كثيرة

اليوم الرابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس سمعان العمودي الصغير

انما لُقِّب هذا القديس بالعمودي الصغير تمييزًا لهُ عن القديس سمعان الاوَّل الملقب بالعمودي

وُولد بانطاكية في السنة الحادية والعشرين بعد الخمس مائة . واسم ابيهِ يوحنا وامهِ مرتا وكان ابوهُ عطارًا . حكي ان امهُ الفاضلة قيل لها في رؤيا انها ستلد ابنًا يكون عظيمًا امام الله بسيرتهِ القشفة . وقد تم الامر كما قيل لها لان القديس سمعان احب الصوم منذ طفوليتهِ . فتوفي والدهُ وهو ابن خمس سنين فقط بوقوع سقف منزلهِ عليهِ حينما حدثت الزلازل التي اخربت مدينة انطاكية سنة ست وعشرين بعد الخمس مائة اما الابن وامهُ فكانا وقتئذٍ في كنيسة القديس يوحنا المعمدان التي بقيت بعناية الله سالمةً

فلما بلغ من العمر اثنتي عشرة سنة زهد في الدنيا وعزم على الذهاب الى البرية فخرج من انطاكية ودخل ديرًا في سفح الجبل العجيب ببلاد سلوكية ولما كانت عيشة الرهبان قشفةً ضيقةً وكان عددهم قليلاً . وتقدم سمعان الى الرئيس وطلب منهُ ان يضمهُ الى عدد رهبانهِ لم يرتضِ بذلك لصغر سنهِ وضعف جسمهِ فقال لهُ الرئيس لست تعلم يا ابني ما تطلبهُ لانهُ لا قدرة لك على احتمال ثقل تقشف سيرتنا . فاجابهُ الفتى ان الله الذي ارسلني لاترهب هنا سيعين ضعفي ويُقدرني بنعمتهِ على الاقتداء بكم . فتشاور الرهبان وبعد الفحص الواجب علموا يقينًا ان الله تعالى ارسل سمعان ليترهب فقبلوهُ واقاموا لارشادهِ يوحنا الملقب بالعمودي لانهُ كان يقيم غالبًا فوق عمود مبني في الدير . ففرح التلميذ جدًّا من كون الله منحهُ مثل هذا المرشد

فابتدأ يغتذي بالبقول وكان لا ياكل الاَّ مرةً في كل يوم وبقي مرةً بدون اكل ثلثة ايام . واتصل اخيرًا الى ان لا ياكل ولا يشرب الا مرةً واحدة في الاسبوع . اما زمانهُ فكان يصرفهُ في الصلاة وتلاوة الكتب الروحية وعمل الايدي فحرَّك الشيطان انسانًا راعيًا ليقتل القديس فمد يدهُ لياخذ سيفًا ويمضي ليقتلهُ فيبست يدهُ حالاً ولم يبقَ منها سوى العظ والجلد . فارتاع الراعي وشرع يبكي على خطاياهُ وعلى اصابهُ قصاصًا عنها وذهب الى رئيس الدير واراهُ يا

واعترف له بخطيئتهِ فاخذهُ الرئيس الى قلاية القديس وفي حال وصولهِ خرَّ ذلك الراعي امامهُ بدموع معترفًا له بخطيئتهِ وطالبًا منهُ العفو فقبَّلهُ القديس بمحبة وقال لهُ سامحك الله وللحال برئت يدهُ

قال الحكيم ان النشاط في العبادة يشبه النار التي لا تكتفي ولو اكلت الدنيا فمن ثم كان القديس سمعان يرتاح الى سيرة أوفر انفرادًا وتقشفًا فاستشار مرشدهُ وباذن رئيسهِ ابتنى عمودًا صغيرًا في الدير وسكن عليهِ ست سنين مقابل مرشدهِ ثم ابتنى عمودًا اعلى من الاول وسكن على قمتهِ سنوات عديدة ممارسًا التقشف يتامل حقائق ايماننا وقد كان عمودهُ ضيقًا لا يقدر ان يوجد عليهِ الا واقفًا او جاثيًا على ركبتيهِ. وزاد على صومهِ لانهُ ابتدأ يعيش من ورق الاشجار التي حول الجبل ولم يكن يشرب الا نادرًا جدًّا ثم شد وسطهُ بحبل على اللحم شدًّا بليغًا حتى غرز باللحم وكان يسيل من هذا الجرح المثخن قيح منتن حتى لم تستطع الناس ان تدنو منهُ. فامرهُ وقتئذٍ مرشدهُ بفك هذه الحبلة ففكها حالاً

ثم ان هذا القديس كان يرتّل في الليل الزبور كلهُ ويجثو في اثناء ذلك مرارًا كثيرة والامر العجيب هو ان الله تعالى سمح ان يجرّبهُ الشيطان نهارًا وليلاً باقبح الافكار ولذلك كان يصرخ بكل قوّتهِ ارحمني يارب ارحمني فاني عليك توكلت وبظلال جناحيك ظللني واحفظني من الذين يقاومون يمينك. احفظني مثل حدقة العين. اللهمَّ اصغَ الى معونتي يارب اسرع الى اغاثتي. والحاصل ان الله نقى بالتجارب نفسهُ ثم تفضل عليهِ بنعمٍ جسامٍ منها موهبة الصلاة العقلية التي كانت نفسهُ تغيب فيها عن الحسّ أغلب الاحيان وبواسطتها عرف ادقَّ اسرار النصرانية. وصنع عجائب لا تكاد تحصى وعند شفائهِ اجساد المرضى كان بنصائحهِ يشفي انفسهم ايضًا

فلما سمع بهذه الاشياء أُسقفا انطاكية وسلوكية ذهبا ليفحصا عن حقيقة الامر فابصرا اعظم مما سمعا ولذا اتفقا على ان يرسماهُ شماسًا ثم كاهنًا فالزماهُ بذلك وبعد ان رقي الى درجة الكهنوت اتخذ ذلك حجة ليزيد في تقشفاتهِ. ثم شرع يعظ الذين كانوا يجتمعون تحت عمودهِ وكان قد كتب رسائل الى اناس كثيرين منهم الملك يوستينيانوس وفي رسائلهِ اليهِ يحثهُ جدًّا على مقاومة الاراطقة مُبغضي الايقونات المقدسة وبعد ذلك تجاسر السامريون وكسروا الصور المقدسة في مكان ببلاد فلسطين فاخبرهُ بذلك اسقف المكان وطلب منهُ ان يشتكي عليهم الى الملك. فكتب اليهِ بما مضمونهُ ان الاكرام الذي تقدمهُ الناس لصوَر اولياء الله يتوجه الى اولئك الاولياء الذين تمثلهم لنا تلك الصوَر وكذلك افتراء الناس عليها هو افتراء على القديسين انفسهم

ثم سأل الملك ان ينتقم من السامريين المذكورين ويعاقبهم عقابًا شديدًا على تناقهم قائلاً ان كانت الشريعة تحكم بتاديب الذين يفترون على صوَر الملوك فبأَولى حجة يجب ان يتعذب الذين هشموا ايقونات سيدنا يسوع المسيح ووالدتهِ المجيدة واوليائهِ الكرام فقبل الملك هذه الرسالة باحترام حتى كان يدعوها كنزهُ. ثم قرئت بعد ما ينيف على مائتي سنة من ذلك العهد في المجمع النيقاوي الثاني فانكرها اعداء الايقونات وقالوا انها مصنوعة فاثبتها البابا ادريانوس واساقفة الشرق ايضًا. ثم ان هذا القديس كتب ايضًا ضد ارطقة نسطوريوس واوطيخا ولما اقتربت ساعة وفاتهِ جمع كل الرهبان المتتلمذين له واوصاهم بتشديد ان يحفظوا القوانين مدققًا وتُوفي في اليوم الثالث والعشرين من شهر ايار في السنة السادسة والتسعين بعد الخمس مائة وله من العمر خمس وسبعون سنة

اليوم الخامس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة الجدلية البازية

ان هذه القديسة الجليلة وُلدت بفلورنتية مدينة بايطاليا في السنة السادسة والستين من المائة السادسة عشرة من اصل شريف وقد بلغت التمييز من قبل اوانهِ ومنذ ذلك الزمان انصبَّت نفسها نحو الفضيلة ومُنحت موهبة الصلاة العقلية وكانت تصرف فيها ساعات كثيرة. ولما سئلت عما تفعل وتقول في صلاتها أجابت قائلةً اني اطلب من سيدنا يسوع المسيح ان يعلمني ماذا يريد ان افعل لأُرضيهُ وما الذي يُرضيهِ اكثر من غيرهِ

ومنذ ذلك الوقت كانت تحب السيد المسيح محبة شديدة وابتدأت تمارس سرًّا التقشفات. هذا وان شوقها الى تناول القربان المقدس كان غريبًا. ولان والديها لم يكونا يسمحان لها بان تتناولهُ من اجل صغر سنها كانت كلما شاهدتهما

يتناولانهِ نقترب منها ومن القربان الذي تحبهُ ما استطاعت . فلما بلغت السنة العاشرة من عمرها أذن لها مرشدها اليسوعي في تناول القربان المقدس ومن ذلك الزمان فصاعدًا ازدادت توقًا الى التألم حبًّا بيسوع . ولما بلغت السنة الثانية عشرة من حياتها شرعت ترقد على اديم الارض وتذلل جسدها بجميع انواع التقشفات . حتى انها كل مرة كانت تخترع تقشفًا جديدًا وتمارسهُ . وضفرت ذات يوم اكليلاً من شوكٍ وكللت بهِ رأسها ورقدت بهِ ليلةً كلها محتملةً هذا الوجع الاليم ثم انها كانت تلبس المسح دائمًا

ونحو هذا الزمان نذرت لله بتوليتها وعزمت على الترهب وكان في مدينتها ديران احدها للرهبان الكرمليين والآخر لرهبان القديس عبد الاحد . فاختارت دير الكرمليين لان الراهبات فيهِ قد كنَّ يتناولنَ القربان المقدس كل يوم . فدخلت الدير في السنة الثانية والثمانين من المائة السادسة عشرة للمسيح وكان عمرها يومئذٍ نحو ست عشرة سنة ونصف سنة وبعد ثلثة اشهر لبست ثوب الرهبانية . ومنذ ذلك اليوم لم تعد تشاء ان ترى احدًا من العالمين وجعلت الدير قبرها وهناك ارادت ان تكون كمكفنة ومدفونة . وعندما انتظمت في سلك الرهبانية اخضعت ارادتها لكل من يترأس عليها ويتولى امرها حتى صارت كأن لا ارادة لها . وبهذه الطريقة ومن جرَّاء نشاطها في ممارسة رياضات رهبانيتها زهت بالفضائل وانتشرت عنها رائحة التقوى ثم نذرت النذور الرهبانية في اليوم السابع والعشرين من شهر ايار في السنة الرابعة والثمانين من الجيل السادس عشر

وعند تقدمة نفسها وجسدها لله اضطرمت بنار محبة لله خالصة . حتى انها غاصت بحر التأمل وغابت عن الحس ساعات كثيرة ومن ذلك الزمان الى مدة سنتين كانت تختطف غالب الايام وتستمرّ على هذه الحال مختطفة اربع ساعات او ستًّا وحينئذٍ تكون عديمة الحركة موجهة نظرها اما نحو السماء او نحو ايقونة المسيح المصلوب وتهتف احيانًا وهي باكية يا ايتها المحبة الالهية ياموضوع حبي أَيمكن ان يعرفكِ الانسان ولا يحبكِ . وكثيرًا ما كانت تركض في البستان واروقة الدير وهي مختطفة بالروح بوجهٍ ملتهب قائلةً مع عروس النشيد أما رأيتم من تحبهُ نفسي اين هو حبيب قلبي . اني لا ازال اطلبهُ حتى اجدهُ . انا حيَّة ولست انا حيَّة بل

المسيح يحيا فيَّ . ولفرط ما كانت نار هذه المحبة تلتهب في قلبها كانت احيانًا تضطر الى ان تضع ثلجًا على صدرها

فسأَلها يومًا المعرّف قائلاً ما الذي امركِ بهِ سيدنا يسوع المسيح . فاجابتهُ ان معلمي الالهي قد امرني بان اكون نقية القلب وان اباشر كل عملٍ كأني انتظر الموت بعدهُ وان لا التفت الى ما يفعلهُ الآخرون واوجّه افكاري كلها الى ما اكون ملتزمة بهِ . ثم امرني بان اظهر الوداعة للجميع . والاَّ انطق اصلاً بكلمة ذات تمليق او عجرفة . وان اسعف اخواتي بكل ما يمكنني وأعد نفسي أمةً للجميع . وان اعتبر كثيرًا اقلَّ قوانين الرهبانية ولا اتكلم ابدًا عما ينعم بهِ تعالى عليَّ الاَّ للذين يرشدونني . اخيرًا اوصاني بالاَّ اصرف فكري عن آلامهِ وقد امرني بان احرّض نفسي كي تتوق على الدوام الى تناول القربان المقدس وافتقدهُ في الكنيسة كل يوم ثلثين مرة .

وقالت يومًا لرئيسها ان سيدنا يسوع المسيح أمرني بان لا آكل الاَّ الخبز ولا اشرب غير الماء فلم ترتضِ الرئيسة بذلك بل امرتها بان تعيش بحسب عادة اخوات الدير فمضت واطاعت رئيستها بدون مقاومة ولا تذمُّر وكانت معدتها تقذف الاطعمة وتتقيَّأُها ولم تستطع ان تأكل الا الخبز ولا تشرب الا الماء . واستمرَّت على هذه الحال بقية ايام حياتها ثم نالت اذنًا لتمشي حافيةً حتى في زمن البرد ولم تخلع عنها مسحها الخشن المؤلم

ثم ان الله سبحانهُ ألقى هذه النفس النقية في أتون التجربة لكي تزداد نقاوةً واستحقاقًا واستمرت على تلك الحال خمس سنين . اي انهُ تعالى سلمها الى اصعب ما يجرّب بهِ الشيطان الانفس لان المحتال لعنهُ الله انساها احسانات الله تعالى اليها والقاها في يبوسة روحية لا مثل لها بحيث كرهت جميع رياضات العبادة وليس هذا فقط بل تمرّدت عليها باطنًا كل الشهوات التي لم تكن تشعر بها قبلاً وتضجرت من الرهبانية وظهرت لها ارهب الاشباح واقبح الافكار ولم تزل مضطربة البال ليلاً ونهارًا . ذلك وان النعمة الالهية كانت تعينها وبها ظفرت بكل هذه التجارب غير انها لم تكن تشعر بهذه النعمة . ومع هذه الامتحانات كلها لم يفشل قلبها ولم يضعف نشاطها ولم تطلب نفسها النجاة من هذه الحال المرثيّ لها وكان الموت لديها شيئًا شهيًّا . الا انها كانت تقول في مناجاتها لله لا الموت يارب بل التألم . وفي زمن التجربة كلهِ كانت تقوم

بفروض الرهبانية بالتدقيق وكمال النشاط وكانت تطلب اصعب وظائف الدير واحقرها

فنهض اخيرًا رب المجد وامر فهدأ البحر حالاً وسكنت الرياح . لانهُ جلت اساؤهُ تراءى للقديسة المجدلية فاقشعت حالاً غيوم تجاربها المزمنة . وكان حبها للسيد المسيح يزداد كل وقت اضطرامًا وكانت حين صلاتها تهتف غالبًا بهذه الكلمات قائلةً ماذا يفصلني عن محبة يسوع . اني لأعدُّ كل الاشياء قمامات لاربح يسوع الرب يسوع يحفظني فممن اخاف . وحينما كانت مخطوفةً بالروح ذهبت مسرعةً الى المذبح المبني اكرامًا للعذراء فوقفت هناك بازاء ايقونتها وهتفت نحوها قائلةً : يا ايتها البتول الكلية طهارتها اني اخصص لكِ نفسي واكرمكِ ما بقيت حية . وقد اخترتكِ امًّا لي واياكِ ارجو وعليكِ اتكل فيا يسوع ومريم انتما كل كنزي وتعزيتي

وكان الله تعالى قد اراها عظمة سعادة الدعوة الرهبانية ولفرط ما كانت تعتبر هذه الدعوة المقدسة وتستعظمها كانت تقبّل كل يوم جدران الدير مرات كثيرة وتقول لو عرف الناس عذوبة الرهبانية وسعادتها ما كان مستبعدًا ان تتحوّل قرى العالم ومدنهُ سريعًا فيافي غير مسكونة

ثم ان غيرتها على خلاص النفوس كانت كنار آكلة ومن اجل ذلك كانت تقدّم لله في هيكل قلبها صلوات كثيرة وتمارس تقشفات عديدة. واختارتها الراهبات في السنة الثامنة والتسعين من القرن السادس عشر لتكون مرشدة للمبتدئات . ثم في السنة الرابعة من القرن السابع عشر اقاموها نائبة الرئيسة وتصرفت في كلا الامرين تصرُّفًا حسنًا مقرونًا بالاهتمام والدعة والفطنة والمحبة وكان ذلك تاكيدًا لكلام القائل ان روح النشاط يدخل سريعًا الدير الذي يتولى امرهُ مرشد يُثبت صحة تعليمهِ بنموذجهِ الصالح . ولا جرم ان كل شيءٍ يصطلح بسهولة اذا كان الرؤساء صالحين

ومن جملة ما كانت القديسة تخاطب بهِ اخواتها قولها ان سيدنا يسوع المسيح امرني مرارًا كثيرة بان نعتبر قوانين الرهبانية جميعها كانهُ قد كتبها بيدهِ . وقولها ايضًا اما من جهة مكان المخاطبة مع العالميين فاعتقدنَ يا اخواتي انهُ موضع كثير الخطر والراهبات لا تخرج منهُ غالبًا كما دخلنَ بل يرجعنَ فاترات في العبادة وجانحات الى الدنيا . وفي الجملة فان مكالمتكنَّ العالميين وان كانت روحية حميدة لا بد ان تحدث اضطرابًا في نفس الراهبة وتولد قلقًا في ضميرها الباطن . اننا بنعمة الله قد خرجنا من مصر ونجونا من اسرها فلا يجوز لنا بعد ان نطلب اطعمتها ومخاطبتها فاحذرنَ جدًّا من مكان مواجهة الدنيويين بحيث منهُ يسري حب الدنيا الى قلوب الراهبات

وقد اراها الله سبحانهُ يومًا شقاء راهبة كان قد حتم عليها بالخلود في نار جهنم . فصرخت القديسة قائلةً لماذا يا شقية تكلَّفتِ كل هذا التكلف حتى اخترتِ ان تهلكي فيما بين رياضات الرهبانية وتقشفاتها المتوالية وعندي انهُ لم يدركك هذا الهلاك الا لانكِ استخففتِ بحفظ قوانين الرهبانية

وانتقلت هذه القديسة الى رحمة الله في اليوم الخامس والعشرين من شهر ايار في السنة السابعة من المائة السابعة عشرة للمسيح وكانت قد بلغت من العمر احدى واربعين سنة وبقي جسدها الى يومنا هذا ناجيًا من كل فساد

اليوم السادس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس فيلبس نيري

وُلد هذا القديس بمدينة فلورنتية في اليوم الثاني والعشرين من شهر تموز في السنة الخامسة عشرة من الجيل السادس عشر وبحيث كان يميل طبعًا الى الخير وبالخصوص الطاعة لوالديهِ ولاستماع كلام الله لُقّب في المدينة بالصالح . فكان لهُ عمٌّ غني جدًّا وعقيم اي لا ولد لهُ فتبنّى فيلبس وعهد اليهِ بوراثة مالهِ فارسلهُ والدهُ الى بيت عمهِ وهو ابن ثماني عشرة سنة

فمكث عندهُ سنتين ثم استاذن عمهُ ليمضي الى رومية ويدرس هناك العلوم . فصعب هذا الامر على عمهِ جدًّا لكنهُ ارتضى بذلك خوفًا من ان يقاوم ارادة الله تعالى . فدرس فيلبس العلوم وتمهّر فيها . الا ان معظم اجتهادهِ كان مبذولاً لتقديس نفسهِ لا لتزيين عقلهِ بالعلم

وكانت رائحة البرارة تفوح من سيرتهِ الصالحة وتتلألأ علاماتها على وجههِ . ومرات كثيرة نصب لهُ الشيطان فخاخ الدنس ليصطادهُ بها فما قدر فرجع خائبًا . ذلك وان هذه المخاطر جعلتهُ يقظان على نفسهِ وزادتهُ في العبادة نشاطًا وفي الدنيا زهدًا حتى انهُ كان لا ياكل الا مرة في كل يوم وما كلهُ كان الخبز ومشربهُ الماء فقط . غير انهُ كان ياكل مع الخبز احيانًا قليلاً من البقول . ولم يكتفِ بذلك بل كان يصوم

اغلب الايام ويصلي اكثر الليل والنهار . وكان يقاوم هواهُ في الصغائر قائلاً من اهتم بالانتصار على الصغائر كان مستعدًّا للغلبة على الكبائر . فبهذه الرياضات اضرم في قلبهِ نار محبة الله تعالى حتى انهُ لعجزهِ عن احتمال لهيب النار السماوية كان يسأل الله احيانًا ان يقلل حرارة ذلك اللهيب

فاذ بلغ السنة الثالثة والعشرين من عمرهِ عزم على ترك العالم ليتفرَّغ للاهتمام بامر خلاص نفسهِ ونفوس الغير وبعد تتميم رياضة صلواتهِ كان يخرج ويطوف بشوارع المدينة والاماكن المشتهرة ليعلم الناس . وكان في كل مكان يثمر بغيرتهِ اثمار الخلاص وبالزام معرّفهِ ارتسم كاهنًا

وقد كان يقدس كل يوم وفي كل قداس كان يظهر كانسان مختطف بالروح ذارفًا الدموع من عينيهِ ولا سيما بعد تقديس القربان . وغالب الاوقات كان يستبين وجههُ ملتهبًا ويستمرُّ هكذا غير متحرّك ساعات كثيرة ولم يكن ينتقل من المذبح الاَّ باضطرام . وطلب ذات يوم بعد فروغهِ من القداس الالهي موهبة المحبة الالهية من الروح القدس ينبوعها . فالتهب بغتةً بهذه النار التهابًا بليغًا حتى ارتفع قلبهُ بعزم شديد ورفع ضلعين من مكانهما ليجد اتساعًا لشدة حركتهِ . وعاش هذا القديس بعد هذه الاعجوبة خمسين سنة وشاهدها الجميع بعد موتهِ

وكان شديد التعلق باكرام البتول عليها اشرف السلام ولم يكن يدعوها غالبًا الاَّ امهُ العزيزة وتنعُّم قلبهِ وموضوع حبهِ وفي كل تعليمهِ ومخاطباتهِ كان يذكر العذراء الجليلة . ويقول دائمًا للذين دخلوا الاخوية التي انشأها في رومية على اسم الثالوث الاقدس اكرموا مريم يا ابنائي واحبوها فان الله تعالى يوزّع جميع نعمهِ على يدها . ثم انهُ كان كل يوم يصلي مسبحتها وكثيرًا ما كان يشير على المؤمنين بان يتلوا كل يوم اكرامًا لها ثلثًا وستين مرةً هذه الصلاة يامريم العذراء والدة الله يابتولاً ووالدةً معًا تضرعي من اجلي عند يسوع ابنكِ

اما الاثمار التي صنعها باستماعهِ الاعترافات فلا تكاد توصف لكن يكفينا ان نقول على ذلك ان عدد الذين تابوا بالاعتراف لهُ يوازي عدد الذين اعترفوا بين يديهِ . لان كلامهُ كان يسحق أقسى القلوب صلابةً ويذيبها وكان الخطاة الاكثر قساوة يفرُّون عنهُ خوفًا من تأثير كلامهِ لكنهُ كان يردُّ هؤلاء الى التوبة بصلواتهِ الحارَّة فارتد احدهم وكان وعدهُ بان يصلي كل يوم تبشير العذراء ويقول من الممكن اني اموت غدًا . اما هو فكان يخصص الليل للصلوات ويقدس باكرًا ثم يجلس على كرسي الاعتراف ويبقى هناك حتى يخيّم الظلام . ولكن المُحال لعنهُ الله لم يحتمل انتصارات القديس فلذلك حثَّ اناسًا كثيرين على اضطهادهِ . فاشتكوا عليهِ كانهُ مبتدع الا انهُ بعد الفحص المدقق عن ذلك خرج من المحكمة الكنائسية مبرَّأً . اما اكثر الحاسدين لهُ فسالمهم وربحهم بصبرهِ العجيب وبوداعتهِ العظيمة حتى اذا جاء اكبر اعدائهِ وخرَّ على قدميهِ طالبًا منهُ العفو عانقهُ وضمهُ الى تلاميذهِ

وقد انشأ هذا القديس جمعية المصلّين وهي تفيد الكنيسة جدًّا وهي موءلفة من اكليريكيين ومجرّد قصدهم تعليم المؤمنين والاهتمام بخلاصهم وقد اثبتت الكنيسة قوانينها وكان الكردينال بارونيوس من اعضاء هذه الجمعية وترأس عليها بعد موت القديس وقد اثبتها البابا غريغوريوس الثالث عشر في السنة الخامسة والسبعين من الجيل السادس عشر

فشاخ القديس ولانهُ لم يستطع ان يقدس في الكنيسة ولا يمتنع عن القداس أذن لهُ البابا غريغوريوس الرابع عشر ان يقدس في قلايتهِ

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر ايار في السنة الخامسة والتسعين من المائة السادسة عشرة قدس القداس الاخير وبعد ساعات لانتهائهِ انتقل الى رحمة الله ولهُ من العمر ثمانون سنة

اليوم السابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا البابا الشهيد

وُلد القديس المذكور الذي هو اول بابا بهذا الاسم بمدينة فلورنتية على انتهاء القرن الخامس ولم يخبرنا المؤرخون عن تصرفاتهِ في ايام حداثتهِ . ولكن من المؤكد انهُ درس العلوم في رومية . ومن كثرة فضائلهِ وسعة علمهِ اختير ليجلس على كرسي الخلافة البطرسية بعد ان استأثرت رحمة المولى بالبابا أُرمِسْدَس في اليوم الثالث عشر من شهر آب سنة ثلث وعشرين وخمسمائة

وكانت الكنيسة حينئذٍ محتاجة الى مثل هذا الحبر الاعظم ليقاوم الاراطقة بالبرارة وسيف القلم . وكانت ايطاليا يومئذٍ تحت ولاية تاودوريكوس ملك الاريوسيين . وكان الملك

بوستينوس قد امر الاريوسيين بان يردّوا جميع الكنائس التي كانوا قد اخذوها من الكاثوليكيين. فتوسل آريوسيّو الشرق الى الملك تاودوريكوس فكتب الى الملك يوستينوس مرات كثيرة متوعدًا اياهُ انهُ سيطرد من مملكة ايطاليا جميع الكاثوليكيين ان كان لا يردّ الى الاريوسيين كنائسهم. فما اثرت تلك الرسالة في الملك يوستينوس فبعث اليهِ سفراء ورام ان يكون البابا يوحنا اوّل اولئك السفراء واختار من قضاة رومية اربعة ظن انهم متفقون مع يوستينوس الملك. واراد ان يمضي معهم خمسة اساقفة وقال لهم انهُ سيعامل الكاثوليكيين في ايطاليا كمعاملة يوستينوس الاريوسيين في مملكة الشرق ان كانوا لا ينطلقون اليهِ ويخاطبوهُ في ذلك الشان. ثم قال للبابا يوحنا اني اقتل وأُبيد جميع الكاثوليكيين الذين في مملكتي ان كان يوستينوس لا يردُّ الينا كنائسهم

وروى القديس غريغوريوس الكبير في الفصل الثاني من كتاب مخاطباتهِ الثالث ان القديس يوحنا لما وصل الى مدينة كورنتس قدّم لهُ احد العظماء جوادًا انيسًا لم تركبهُ الَّا امرأتهُ فركبهُ البابا الى احدى المدن ثم ردهُ الى صاحبهِ. الا ان ذلك الجواد بعد ما حمل نائب السيد المسيح لم يعد يطيق ان تركبهُ امرأة. فلما رأى ذلك صاحب الجواد قدّم جوادهُ هذا للبابا وتوسل اليهِ ان يمتنع بجوادٍ قد حرَّمهُ بركوبهِ اياهُ.

فلما وصل الى القسطنطينية استقبلهُ الملك والشعب بجزيل الاكرام والسرور حتى ان الملك الذي اتى الى لقائهِ جثا امامهُ بتهيُّب. فعند دخولهِ المدينة فتح عينَي اعمى. وذهب الى الكنيسة وجلس فيها برضى البطريرك في الكرسي الاوّل ولا ريب ان ذلك كان اقرارًا من البطريرك بتقدم الحبر الروماني على جميع البطاركة

واما من جهة الامر الذي كان قد اتى القسطنطينية بسببهِ قال بعض المؤرخين انهُ حثّ الملك على الثبات بمقاومة الاريوسيين. ولو ان تاودوريكوس كان قد عزم على محاربة الكاثوليكيين في ايطاليا. اما انستاسيوس وتيوفانس المؤرخان فرويا ان هذا الحبر القديس تحرُّزًا من سفك دماء الكاثوليكيين في المغرب حثّ الملك يوستينوس على ان يعامل الاريوسيين في الشرق بحنو وان الملك ارتضى بذلك. ويؤيد البولانديسيون هذا الرأي قائلين ان الالوكة المنسوبة الى هذا الحبر الجليل في خلاف ذلك انما هي مزوّرة

ثم عاد البابا الى تاودوريكوس فما اجترأ ان يقتلهُ بل حبسهُ في مدينة رافينا ومات في السجن. وكان المغتصب قبل رجوع البابا من القسطنطينية قد امسك اوّل وزرائهِ الفيلسوف بويسيوس الكاثوليكي الشهير بخلوص ايمانهِ الكاثوليكي وباستقامة قلبهِ وكانت المملكة كلها قد تمتعت بالصلح والملك تاودوريكوس فاز بحب الشعب طالما اصغى لقول هذا الوزير الفاضل في تدبير المملكة ولكن حكم عليهِ بالموت بعد ان اقام شهود زور وشهدوا عليهِ بالخيانة وقطع هامتهُ وهامة سيماكوس صهر بويسيوس المذكور. الَّا ان الله تعالى انتقم سريعًا من هذا الملك المنافق. وبعد ثلثة اشهر من وفاة القديس يوحنا في السجن قُدّم لهُ في العشاء رأس سمكة عظيم المقدار فظهر لديهِ رأس ابن آدم. وللوقت تذكَّر الذين قتلهم ظلمًا واستولى عليهِ خوف عظيم من ذلك فمرض ومات. وروى القديس غريغوريوس قال انهُ حين موت هذا الملك الشقي ابصرهُ سائح قديس مقيدًا تجاه القديس يوحنا وسيماكوس وهما القياهُ في اتون نار ملتهب

وكانت وفاة القديس يوحنا في اليوم السابع والعشرين من شهر ايار سنة ستّ وعشرين وخمسمائة للمسيح

اليوم الثامن والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس جرمانوس اسقف مدينة باريز

ان هذا القديس وُلد بمدينة اوتون من اعمال فرنسا سنة ست وتسعين واربعمائة للمسيح فرام والدهُ ان يرسلهُ الى مدينة افالون ليدرس هناك مع ستراديدوس ابن خالتهِ. واما خالتهُ فنوت قتلهُ لينتقل ميراثهُ لابنها. فملأت قنينتين خمرًا وألقت سمًّا في احداها واوصت الخادمة بان تسقي منها جرمانوس. فلما جلس جرمانوس وستراديدوس ابن خالتهِ ليغتذيا غلطت الخادمة فسقت جرمانوس من الخمرة الجيدة وناولت ستراديدوس الخمرة المسمومة فاوشك ان يموت منها وعاش بقية حياتهِ ابرص. فلما رأى جرمانوس ان ابويهِ لا يحبانهِ وان خالتهُ تبغضهُ ذهب الى احد اقربائهِ وهو القديس سكوبيليون وابتدأ يعيش معهُ عيشة الرهبان واستمرَّ هناك خمس عشرة سنة

ولما علم القديس اغريبينوس اسقف مدينة اوتون باستقامة سيرة جرمانوس رسمهُ كاهنًا واقامهُ خليفتهُ القديس نكتاريوس

رئيسًا على ديرٍ كان معتبرًا بكثرة رهبانهِ. وكان فيما بين اولئك الرهبان كنور يضيء وكنار تضطرم. وبتعليمهِ وسيرتهِ الصالحة انمى الفضيلة في الدير. وكان يواظب على الصلاة ويختطف فيها اختطافًا روحيًّا مرارًا عديدة ويلازم السهر والصوم ويقتصر غالب الايام على أكل الخبز وشرب الماء فقط. ولم ينزع عن جسمهِ المسح حتى ولا في المرض. ووضع الله تعالى في وجههِ سمة برّهِ فكان كل من يبصرهُ يحسبهُ ملكًا سماويًّا

وماذا عسى ان اقول عن محبتهِ للمساكين وقد كان لهم بمنزلة أبٍ رؤوف فكيف لا ولم يكن يردّ فقيرًا خائبًا واخذتهُ الرأفة بهم يومًا فاعطاهم كل ما في الدير ثم وهبهم ايضًا الخبز المعدّ لغذاء الرهبان. فتذمّر عليهِ جميع الرهبان فدخل الكنيسة وصلى فاذا بامرأة ارسلت الى الدير خبزًا وفي غد ذلك اليوم وصل الى الدير مركبات حاملات مؤونة كثيرة للرهبان

فصمت الرهبان وقتئذٍ وازدادوا احترامًا لرئيسهم القديس. ثم شرع الاشرار يضطهدونهُ في المدينة ووشوا عليهِ الى الاسقف فقبض عليهِ وسجنهُ. ولكن ما لبث باب السجن بعد دخولهِ ان انفتح من ذاتهِ فلم يشأ ان يخرج حتى يأذن لهُ الاسقف الذي لما رأى هذه الاعجوبة احبهُ واكرمهُ كثيرًا ولا سيما بعد ما رأى اعجوبة أُخرى صنعها هذا القديس في غضون ذلك. وكان ان الرهبان لما رأوا نارًا اشتعلت في الدير حتى اوشك ان يحترق بها اخبروهُ فذهب الى محلّ الحريق وسكب على النار قليلاً من الماء المقدس مرتّلاً هليلويا لمعرفتهِ بالاعجوبة المنتظرة فانطفأت النار حالاً فشاعت عجائبهُ وانتشر خبرها اطيب من رائحة الخزام

وبعد وفاة اسقف باريز انتخبهُ الاكليرُ يكيون خليفةً لهُ والزمهُ بذلك الملك شيلديبرتوس. فارتسم اسقفًا في سنة اربع وخمسين وخمسمائة. ذلك وانهُ لم يقلّل رياضاتهِ وتقشفاتهِ الرهبانية وكان يجلس الفقراء على مائدتهِ غالبًا وعند تناول الاغذية كان احد الاكليريكيين يتلو لديهِ كتابًا روحيًّا. ولم يتناول الطعام في بيوت الاغنياء قط الا لكي يحثّهم على عمل الصدقة

روى بعض المؤرخين ان الملك اعطاهُ يومًا مقدارًا عظيمًا من الدراهم ليوزّعهُ كلهُ على المساكين في ذلك النهار. فوزّعهُ في ذلك اليوم الا قليلاً وقدم الباقي للملك. فامرهُ الملك بان يهب ذلك الباقي ويأخذ ايضًا من كنوزهِ كل ما يريد ان يصطنع بهِ الى الفقراء فنال الملك برأفتهِ رضوان ملك الملوك لانهُ بعد ذلك مرض مرضًا عضالاً فشفي بصلاة القديس جرمانوس فاعطاهُ لكنيستهِ القصر الذي شفي فيهِ وكل توابعهِ

وبعد وفاة هذا الملك الرحيم خلفهُ كلوتاريوس اخوهُ وهو ابن كلوفيس الرابع ولم يكن في اول الامر يحب القديس كحب اخيهِ لهُ لكنهُ اذ اعتراهُ مرض استدعى الاسقف القديس. اما القديس فلما وصل اليهِ اخذ رداءهُ ومسّ بهِ جسد المريض فشفي حالاً فمنذ ذلك الوقت احبهُ الملك كمحبة اخيهِ لهُ. وبعد وفاة هذا الملك تسلط ابنهُ كاريبرتوس على مدينة باريز وبمشورتهِ ايضًا ابرز الملك امرًا بسحق ما كان باقيًا في المملكة من الاصنام وابطال عبادتها ومنع الرقص وباقي الالعاب الغير اللائقة في ايام الآحاد والاعياد. ولان الملك طلّق امرأتهُ وتزوّج اخرى حرمهُ القديس جرمانوس بعد توبيخهِ اياهُ عبثًا ولما لم يرتدع بهذا التأديب الكنائسي انتقم الله منهُ ومن تلك المرأة الشريرة التي تزوّجها لان المنية انشبت اظفارها بهما عقب الحرم

ولم يزل القديس مجتهدًا في خلاص النفوس في الحروب التي حدثت بين ابني كلوتاريوس سيجيبرتوس وشيلبريكوس وامرأتيهما برونيهولدا وفريديغوندا الشهيرتين بمعاداة احد الاخرى. ولما انتصر سيجيبرتوس على اخيهِ ودخل مدينة بار وكان قصدهُ ان يحاربهُ في تورناي ليستأصلهُ اجتهد القدي جرمانوس في ان يمنعهُ عن ذلك ويميلهُ الى المصالحة واذ لم ينجع بهِ هذا النصح قال لهُ القديس ان كان قصدك قت اخيك فيدركك الانتقام الالهي حالاً. فتمّ الامر كما قال ا فريديغوندا ارسلت اثنين فقتلاهُ وهو ذاهب مع الجيش لل هذا ولم يترك القديس شيئًا من تقشفاتهِ حتى في ز الشيخوخة وتوفّي في اليوم الثامن عشر من شهر ايار سن وسبعين وخمسمائة ولهُ من العمر ثمانون سنة

اليوم التاسع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس مكسيمين اسقف تريفي

كان هذا القديس من الرعاة الذين اقامهم الل الاضطهاد ليدافعوا عن كنيستهِ. وولد بمدينة بواتير شريفة وهو من اقرباء مكزنص الذي جلس ع المدينة المذكورة قبل القديس هيلاريوس. واذ كا

صغيرًا استرشد القديس اكريص اسقف كريفي الذي كان له اعظم اعتبار بسبب فضائلهِ السامية فربَّاهُ ذلك الاسقف تربيةً اكليريكية ثم قيَّدهُ بخدمة كنيستهِ بان رسمهُ كاهنًا وبذلك جعلهُ اهلاً للخلافة ولم يدرِ. وسنة اثنتين وثلثين وثلثمائة صار القديس مكسيمين اسقفًا على مدينة تريفي

وبعد اربع سنين نُفي القديس اثناسيوس الى تريفي كما سبق ذكرهُ في اليوم الثاني من هذا الشهر فاستقبلهُ مكسيمين كمعترفٍ مجيد بيسوع المسيح لا كمغضوبٍ عليهِ. ولم يظهر لهُ نظير في الغبطة التي حصلت لهُ بالعيشة مع قديس شهير جدًّا. وبقي القديس اثناسيوس هنالك سنتين وقد مدح في مؤلفاتهِ عناية مضيفهِ برعيتهِ وشهامتهُ البطليَّة وكمال سيرته وهو كان قد مُنح قبل هذا الزمان موهبة العجائب

والتجأ اليهِ ايضًا القديس بولس اسقف القسطنطينية حينما نفاهُ الملك قسطنسيوس. ولا جرم ان مشورات مكسيمين منعت الملك قسطنت ان يغترَّ ويخدع بدسائس الاريوسيين فانتهز كل الفرص التي سنحت له ليكشف حِيَل اولئك الاراطقة ويوقف نجاح بدعتهم. وكان في المجمع المنعقد في مدينة سرديكا سنة سبع واربعين وثلثمائة من اشهر المدافعين عن قانون الايمان النيصي وحصل لهُ شرف بان يجرمهُ والقديس اثناسيوس الاريوسيون المجتمعون في مدينة فيلوبوبولي

قيل ان القديس مكسيمين انتقل الى رحمة الله سنة تسع واربعين وثلثمائة بمدينة بواتير حيث كان منطلقًا ليشاهد عائلتهُ ودُفن بقرب مدينة بواتير. غير ان جثتهُ نُقلت مذ ذاك الحين الى تريفي ويُحتفل بنقل جسمهِ في يوم عيدهِ. واكتُشفت سنة ثماني وثمانين وثمانمائة ذخائرهُ التي كانت مخفيةً في زمان غارات النُرمنديين وكانت مشرَّفةً بعجائب مختلفة واذاع البولانديسنيون روايةً مضبوطة لهذه المعجزات ولكثيرٍ غيرها من عجائبهِ ما كتبهُ سيجار راهب دير القديس مكسيمين بامر رئيسهِ في السنة الستين من المائة العاشرة للمسيح

ان القديس مكسيمين باضافتهِ المعترفين بالمسيح ومحاماتهِ عنهم استحق النعمة بان يكون ثابتًا في الاعتراف بالايمان الكاثوليكي. وما اكثر ما استفاد من العواطف الجيدة في مخاطباتهِ لاثناسيوس وهكذا ظهر في كل فرصة مقتديًا بهِ كل الاقتداء فكان مثلهُ في الاستعداد الدائم لان يخصص حياتهُ للمحاماة عن الوهية المخلص ونظيرهُ اثار على الضلال حربًا شديدة واخزى المتعصبين بقوة لا تقبل الارتخاء ومثلهُ كان يسهر على حراسة قطيعهِ ليحنفظ بوديعة الايمان المقدس. وعاش بسيرة موافقة لاعتقادهِ ومثلهُ اعطى اخيرًا مثال كل الفضائل للمؤمنين الذين كان تقديسهم موكولاً الى عنايتهِ

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس كيرلُوس الصبي الشهيد

قد كان ابو كيرلُوس متوغّلاً في اباطيل عبادة الاصنام ولذلك اذ رأى ابنهُ بعد ان تعلم سرًّا الديانة المسيحية يرفض السجود للاوثان طردهُ من بيتهِ وعذّبهُ بالمعاملة السيئة بحسبما استطاع

ان والي قيسارية لما فحص عما جرى اراد ان يجذب اليهِ الصبي كيرلُوس وعند ما سمع اعترافهُ باسم يسوع المسيح لم يقدر ان يضبط غضبهُ ولكنهُ اخفى ما في ضميرهِ واجتهد ان يكتسبهُ بطريق الملاطفة وكان يقول لهُ اكره اسم مسيحك وأعِدك بان اعفو عن زلتك وأُصالحك مع ابيك واثبت لك التملُّك على اموالهِ. فاجاب كيرلُوس اني فرحت بالتوبيخات التي وبّخني بها وساكون مقبولاً عند الله وهناك اجد اني احسن بما لا يتناهى من ان اكون مع ابي ومن كل خاطري اريد ان اكون فقيرًا على الارض حتى املك الغنى الابدي في ديار الآخرة ولا اخشى الموت فانهُ يجلب لي حياةً احسن من هذه الحياة. فاذ كان يتكلم بذلك ربطوهُ كانهُ مسوق الى الموت ولكن القاضي امر الجنود سرًّا بان يكتفوا بتخويفهِ

فاروهُ نارًا عظيمة وهدَّدوهُ بان يلقوهُ فيها. فما كان لذلك المنظر ان يزعزع من عزمهِ وارجعوهُ الى القاضي فقال لهُ أرأيت يا هذا النار والسيف اللذين ستموت بهما فتعقَّل ولا تركض الى هلاك لا مفرَّ منهُ. فقال كيرلُوس لقد صنعت لي ضررًا حقيقيًّا عند ما امرت برجوعي بحيث لا اخاف النار ولا السيف وانا محترق شوقًا الى ان انطلق الى الهي فبادروا الى اماتتي حتى افوز بشرف رؤيتهِ حالاً. وقال للحاضرين وقد سالت دموعهم لماذا تبكون والجدير بكم ان تروني بخلاف ذلك فرحًا عظيمًا ولكنكم تجهلون ما هو رجاءي ولا تعرفون المملكة التي انا منطلق اليها. وبهذه العواطف الجيدة انتقل الى رحمة الله. ويُظن ان حياتهُ انتهت ضربًا بالسيف اما على عهد داسيوس او على عهد فالريان وكُتب اسمهُ في

كتاب تراجم الشهداء المنسوب الى القديس ايرونيموس وفي كتاب تراجم الشهداء لفلوروس

اليوم الثلثون

وفيهِ ترجمة القديس الشهيد البابا فيليكوس الاول

وُلد هذا القديس برومية في السنة العاشرة من القرن الثالث ثم صار اكليريكيًّا . ولما كان على جانب كبير من البرّ والعلم والغيرة والشجاعة نال الاعتبار من الجميع . ومن اجل كونهِ على ما ذُكر من الاوصاف الحميدة رسمهُ ديونيسيوس البابا كاهنًا واتخذهُ مساعدًا لهُ في الامور الكنائسية . وبعد وفاتهِ اختارهُ الاكليريكيون خليفةً لهُ . فجلس على عرش الخلافة البطرسية في سنة سبعين ومائتين وقد كانت بيعة الله في ذلك الزمان مستريحة من الاضطهادت ببلاد الغرب

الَّا انها كانت مضطربة منذ بعض سنين في بلاد سورية من قِبل بولس السميساطي بطريرك انطاكية الذي احدث بدعًا شنيعة ضد سرّي التثليث والتجسد قائلًا ليس في الله تعالى اقانيم مختلفة وانما فيهِ صفات لا غير وان فادينا لهُ المجد ليس الهًا ولكن انسانًا انعم الرب عليهِ بروح الحكمة . واما كفرهُ هذا نعوذ بالله منهُ فانما كان ارضاء لخاطر الملكة زنوبيا التي كانت متسلطة حينئذٍ على بلاد سورية . وقد عُقد ضدهُ مجامع في انطاكية وعزلهُ الاباء عن كرسيهِ في مجمع انعقد في المدينة المذكورة سنة تسع وستين ومائتين ولانهُ لم يطع امر الاساقفة بل بقي بعد الحرم ساكنًا بيتًا بانطاكية مختصًّا بالكرسي البطريركي ولم يكن من يتجاسر عليهِ خوفًا من الملكة المحامية عنهُ . فالتجأ الكاثوليكيون الى الملك اوريليانوس اذ كان راجعًا من بلاد ما بين النهرين وقد انتصر على الملكة زنوبيا ودخل مدينة تدمُر عاصمة مملكتها واسر الملكة نفسها . وامر ذلك الملك مع انهُ كان وثنيًّا بان لا يجلس على كرسي انطاكية الَّا من يثبتهُ اسقف رومية

قلت ولاجرم انهُ يتضح من هذا الامر جليًّا انهُ لا يكون كاثوليكيًّا من لا يخضع لامر الاسقف الروماني الذي بحكمهِ الجازم تنتهي كل دعوى كنائسية شرقًا وغربًا . فكيف لا وهو راس كنيسة المسيح تبارك اسمهُ . ويظهر ايضًا ان هذا القانون كان معروفًا حينئذٍ اي في الجيل الثالث حتى عند الوثنيين

وكتب آباء المجمع الى البابا فيليكوس بما حكموا بهِ في هذين المجمعين على ارطقة بولس السميساطي الذي يقولون عنهُ ما نصهُ : انهُ قبل ارتفاعهِ الى الكرسي الانطاكي كان فقيرًا واليوم صار غنيًّا وافر الثروة . ويمشي الخيلاء في الشوارع . وبتكبرهِ صيَّر الامم يبغضون الايمان . فلا يريد ان يقول عن السيد المسيح انهُ اتى من السماء . ومع كل هذا فان الذين يمدحونهُ بالقصائد والخطب يدعونهُ ملكًا هبط من السماء ولا يمنعهم عن هذا التجديف اعاذنا الله منهُ . ذلك وان عندهُ ثلث نساء جميلات المنظر لم يكن وجهٌ لاقامتهنّ عندهُ يبعد الشك عن الشعب . فالابرار جميعهم يحزنون على ذلك ونحن نحسبهُ عضوًا فاسدًا مقطوعًا من جسد الكنيسة ومبتدعًا شريرًا وقد عزلناهُ عن كرسيهِ واخترنا عوضًا عنهُ دُمْنوس وكتبنا اليك ايها الاب القديس لتكتب الى هذا الاسقف الجديد وتقبلهُ في الاشتراك معك

اما القديس فيليكوس فبعد ان قرأَ هذه الرسالة حرم بولس السميساطي واثبت دُمْنوس على الكرسي الانطاكي . ثم كتب الى اباء المجمع المذكور والى مكسيموس بطريرك الاسكندرية . ورسالتهُ هذه مدحها القديس كيرلوس جدًّا قال ان مؤلفها هو معلم الكنيسة كلها . ومنها قولهُ اننا نؤمن ايمانًا ثابتًا بسيدنا يسوع المسيح الذي وُلد من العذراء مريم ونؤمن بانهُ هو نفسهُ ابن الله حقًّا منذ الازل . وانهُ الكلمة وليس هو انسانًا اتخذهُ الله واتحد بهِ حتى يكون غيرهُ تعالى بل ان ابن الله هو الهٌ تام وصار انسانًا تامًّا بتجسدهِ من العذراء مريم . انتهى

ولما ابرز الملك اوريليانوس امر الاضطهاد ضد النصارى لم يزل القديس فيليكوس يعتني بجميع احتياجات رعيتهِ واخذ يعلم ويعظ ويشجع ويثبّت المؤمنين بكلامهِ المؤثر وبنموذجاتهِ الى ان طُرح في سجنٍ مات فيهِ في اليوم الثاني والعشرين من شهر كانون الاول سنة اربع وسبعين ومائتين . فدعاهُ المجمع العام الافسسي والقديس كيرلُّوس شهيدًا لاجل ما احتملهُ من الاتعاب والمشقات حبًّا بالايمان المقدس وان لم يُسفك دمهُ . ويذكرهُ السنكسار اللاتيني في اليوم الثلثين من شهر ايار

اليوم الحادي والثلثون

وفيهِ ترجمة القديسة بيترونيلا البتول

ان هذه القديسة اعتمدت مع اهل منزلها في رومية على يد القديس بطرس الرسول ومن اجل ذلك دُعيت ابنتهُ وبما انهُ عليهِ السلام كان يكثر من زيارة منزلها ليعلّم المؤمنين

الذين كانوا يجتمعون عندها . ولم يكن بين هذا الرسول وهذه القديسة الأنسبة روحية كالتي بين المعمّد والمعمَّدة وبين المرشد وتلميذتهِ

ولما كان هذا القديس قد اضرم في قلبها محبة شديدة لسيدنا يسوع المسيح نذرت لله تعالى بتوليتها وقدّمت جسدها للتألّم والموت حبًّا بمن حبهُ لها علّقهُ وسمّرهُ على الصليب من اجل خلاصها . فاستجاب الله طلبتها وسمح بان يعتريها داء الفالج مع وجع متصل في كل جسدها وكانت تحتمل هذا بصبر جميل وبشاشة وجهٍ وسرور قلبٍ شاكرةً الله تعالى . وكان جميع المؤمنين يتعجبون من فضيلتها فطلبوا من القديس بطرس ان يشفي تلميذتهُ . وتعجب قوم وقالوا كيف لم يشفق على التي خصّصت منزلها واموالها لخدمة الانجيل مع انهُ كان بظلّهِ يشفي المرضى . اما الرسول فكان جالسًا مع المؤمنين يتناول طعامًا في بيتها فخاف من ان هذا التحيُّر يضعف ايمانهم فامر تلميذتهُ بيترونيلا بان تنهض من فراشها وتخدم المؤمنين فقامت حالاً متعافية كانها لم تمرض اصلاً . وفيما هم يتعجبون ويشكرون الله ويسبحونهُ طفق المغبوط بطرس يوضح للمؤمنين ان المرض خير لتلميذتهِ من العافية وفي انتهاء تعليمهِ التفت الى القديسة وامرها بان تضجع على فراشها لتمارس هناك فضيلة الصبر فرجعت للوقت الى مرضها الاول

فبقيت على هذه الحال بعض سنين غير انها شُفيت اخيرًا باعجوبة اخرى وذلك بعد وفاة القديس بطرس وحينئذٍ جمعت جملة بنات مسيحيات وكانت تمارس معهنّ العبادة وتسعف المؤمنين باموالها وكان الله يشرّف برارتها بالمعجزات فشاع صيتها في رومية . ولان الجميع كانوا يمدحون صفاتها رام فلاكوس احد عظماء رومية ان يبصرها . فلما رآها عزم ان يتخذها قرينةً لهُ فزارها بموكبٍ عظيمٍ واظهر لها مقصودهُ .

اما البتول فاستقبلتهُ بحسن الاحتشام . ثم قالت لهُ اني لست باهل لهذا الاكرام غير اني ارغب اليك ان تمهّل عليَّ ثلثة ايام لافتكر في هذا الامر واهيّئ كل شيء وبعد ذلك ارسل البنات والنساء ليأخذنني الى منزلك

فانصرف عنها فلاكوس مسرورًا وبعد خروجهِ من منزلها اختلت القديسة بيترونيلاّ مع بتول اخرى تُدعى فيليكولا ثلثة ايام في الصلاة والصوم ضارعةً الى يسوع بشفاعة والدتهِ قائلة . اللهمّ انك عالم باني افضّل صليبك على كل لذات الدنيا وكراماتها واذ قد اهلتني لان اكون عروسًا لك فلا تدع رجلاً وثنيًّا يصير لي زوجًا . اذ قد عرّفتني فضل البتولية وشدة محبّتك لها . فيامن لم يرتضِ بان يولد الاّ من بتول اهّلني ان اعيش بتولاً واموت كذلك او ان ابذل حياتي حفظًا لبتوليتي . فاستجابها عروسها الالهي وارسل اليها في اليوم الثالث كاهنًا يسمى نيكوديموس فقدّم في بيتها ذبيحة القداس وناولها القربان المقدس وفيما كانت تصلي جاثيةً بقرب المذبح انتقلت الى رحمة الله

وفي غضون ذلك وصل الى منزلها بنات ونساء كثيرات كان قد ارسلهنّ فلاكوس ليمضينَ بها الى منزلهِ لكن لما عرفنَ انها قد تُوفيت رافقنَ جسدها الطاهر الى القبر . ثم رجعنَ الى بيت سيدهنّ فاخبرنهُ بما كان . اما فلاكوس فمن حيث انهُ كان شاهد فيليكولا البتول في بيت القديسة بيترونيلاّ حوّل نحوها حبهُ وطلبها بدلاً من رفيقتها . فاجابت مرسَليهِ باني مسيحية ناذرة بتوليتي لله ومن ثم لا اقدر ان اتزوّج باحد . فاشتكى عليها فلاكوس الى الوالي ثم طُرِحت في سجنٍ وتُركت فيهِ بدون اكلٍ ولا شربٍ مدة سبعة ايام ثم عُذّبت باشد القساوة وتُوفيت شهيدةً تحت العذاب الاليم

حاشية . اعلم انهُ بعد وفاة القديسة بيترونيلا دُفِنت في مقبرة الفلافيين المسيحيين التي بنتها القديسة فلافيا دوميتيلا المذكورة في ترجمة القديسين نار بوس واكِيلّاوس على طريق ارديا في حقل يُدعى اليوم تُرمرَنْشيا وفيها دُفِن ايضًا نار بوس واكِيلاوس . وبنى القديس سيريسيوس خليفة القديس دامَسوس على قبور هولاء الشهداء في الدياس عينهِ كنيسة رممها القديس يوحنا الاول سنة ٥٢٢ ولما جلس القديس غريغوريوس الكبير على الكرسي الروماني (٥٩٠ - ٦٠٤) وعظ المؤمنين فيها وارسل الى ملكة اللومبرديين قناني فيها زيت القناديل الموقدة على قبور الشهداء

وفي السنة ٧٥٨ نُقل جسد القديسة بيترونيلا الى الكنيسة الواتيكانية ولما كانت كنيستها على طريق ارديا قد خربت بنى البابا لاون الثالث (٧٩٥-٨١٦) معبدًا فوق رمسَي الشهيدين نار يوس واكِيلاوس . اخيرًا في السنة ١٨٧٣ لما اشترى السيد دوميرود تُرمرَنشيا اذن العلامة روسي ان يحفر الارض لاكتشاف الكنيسة القديمة ففعل وظهر للعيون كل ما بقي من هذه الكنيسة اي اثار صحونها الثلاثة وقبر الشهيدين وكرسي القديس غريغوريوس ورخام منقوشة عليهِ كتابة تدل على مدخل مقبرة الفلافيين

شهر حزيران

اليوم الاول

وفيهِ ترجمة القديس بمفيليوس الشهيد

قد ذُكر في سنكسار الكنيسة الرومانية ان هذا القديس كان كاهنًا متَّصفًا ببرٍّ عجيب وعلم باهر ونشأ بمدينة بيروت ودرس في مدارسها مبادي العلوم واستبان منذ الصغر انهُ ذو عقل ثاقب وقلب مائل الى الفضيلة . ولما كانت العلوم في ذلك العصر زاهيةً في الاسكندرية مثل الروضة الغنَّاء ذهب اليها وبعد سنين قليلة صار اعجوبة عصرهِ وافصح فصحاء دهرهِ كما شهد لهُ اوسابيوس اسقف قيسارية . ولسعة علمهِ لُقّب باوريجانوس الصغير وعُرضت عليهِ مراتب عالية في مدينة قيسارية . ولكن قلبهُ لم يذهب وراء غنى الدنيا وشرف مناصبها بل وزَّع على الفقراء اكثر اموالهِ وارزاقهِ . وما لبث ان انتظم في سلك الاكليريكيين ثم ارتسم كاهنًا . فازدادت حينئذٍ رغبتهُ في درس العلوم الدينية فجمع في منزلهِ مكتبةً كبيرة فيها اجلّ كتب القدماء ليسهل على المؤمنين تحصيل العلوم المفيدة لاثبات حقائق الايمان ولتفنيد تعاليم المبتدعين حتى انهُ لولا اجتهادهُ لكانت الكنيسة قد خسرت اخبار اجيالها الاولى . قال القديس إسيدوروس من اسبانيا ان عدد الكتب التي جمعها نحو ثلثة آلاف مجلَّد . هذا ولعلمهِ بالاضرار التي أتت على الكنيسة من جهل الاكليريكيين انشأ مدرسة في مدينة قيسارية وشرع يعلّم علم اللاهوت وبقي مباشرًا هذه الوظيفة الى ان اشتد اضطهاد الملك ديوكليسيانوس على المسيحيين

وكان والي بلاد فلسطين حينئذٍ وثنيًّا اسمهُ اوربانوس فلما اتاهُ امر الملك عزم ان يقبض على القديس بمفيليوس لشدة اعتبارهِ بين المسيحيين . فلما مثل امام المغتصب واخذ يحامي عن الديانة المسيحية ببراهين قاطعة وادلة ساطعة مزَّقوا جسدهُ بمخاليب حديدية ثم القوهُ في السجن وبعد ذلك قُتل اوربانوس الحاكم بامر الملك وتولَّى امر فلسطين فِرْميليانوس . فهذا ترك القديس بمفيليوس في السجن مدة سنتين على ان ذلك لم يكن الاَّ بعناية الله نفعًا لأُناس كثيرين انما ثبتوا في الايمان بتعليمهِ ولما كان للقديس بمفيليوس مقدار سنتين في السجن دخل مدينة قيسارية خمسة رجال مصريين قالوا عند دخولهم جهرًا انهم مسيحيون واتخذوا لهم اسماء تدل على عبادتهم واستعدادهم لخدمة الله تعالى وهي ايليا وارميا واشعيا وصموئيل ودانيال . فقبض عليهم الوالي وطرحهم في السجن مع القديس بمفيليوس ولفرط فرحهم بوجود القديس شكروا الله تعالى على سعادتهم ونقوَّوا في الايمان جدًّا

وبعد ايام وقفوا مع القديس بمفيليوس امام الحاكم ولما سألهم قائلاً ما هو ايمانكم ومن ابن انتم . اجاب اصغرهم وقال اننا مسيحيون سكان مدينة صهيون السماوية . فغضب الحاكم فِرْميليانوس غضبًا شديدًا وامر للوقت بان تُرمى رقابهم . فلما سمع ذلك شابٌّ ابن ثماني عشرة سنة وهو بُرْفوريوس خادم القديس بمفيليوس طلب اذنًا من الحاكم ان يدفنهم بعد موتهم . فسألهُ فِرْميليانوس هل انت مسيحي مع انهُ لم يكن وقتئذٍ معمَّدًا . فاجاب انهُ مسيحي مشتهٍ ان يعتمد بسفك دمهِ من اجل السيد المسيح . فاوغر ذلك صدر الوالي حتى غاب عن الرشد وامر الجنود ان يمزّقوا لحم بُرْفيريوس بمخالب حديدية حتى العظام ففعلوا ولم يشكُ ذلك الشاب حتى ولا

بكلمة واحدة. فازداد غضب فِرميليانوس التهابًا وامر بان يُطرح في النار ويموت حريقًا. فدخل بُرْفيريوس في وسط النار بوجهٍ مبتهجٍ بشوش وحينما كان يردّد اسم يسوع اسلم روحهُ في وسط اللهيب

فذهب حالاً احد الحاضرين وكان مسيحيًّا من قوّاد الجنود اشتهر بشجاعتهِ في الجندية وكان قد احتمل مرة ضربات الجلد لاجل الايمان المسيحي اسمهُ سلاكوس من بلد كبادوكيا واخبر القديس بمفيليوس بوفاة خادمهِ بُرْفيريوس ثم عانق احد الشهداء فقبضوا عليهِ وقطعوا رأسهُ بامر الحاكم من اجل الايمان. فكان القديس بمفيليوس في ذلك اليوم مهّد السبيل لدخول السماء لان خدام الحاكم قبضوا ايضًا على رجل آخر لاجل السبب المذكور اي لاجل معانقتهِ الشهداء في السجن وهذا الشهيد يقال لهُ تاودولوس وكان شيخًا مسيحيًّا قديسًا ومات مصلوبًا

وبعد ذلك قُدّم القديس بمفيليوس الى الحاكم مع مسيحيين آخرين يُسمى احدهما والنس دياكونوس والاخر بولس ولما كان الثلثة يتعذبون من اجل الايمان رأى المغتصب علامات البهجة متلألئة في وجوههم فعلم على سبيل النتيجة ما مرّ ان حثّهُ اياهم على عبادة الاوثان ضرب من العبث فحكم بقطع رؤوسهم. وفيما هم يقدّمون رؤوسهم للجلّادين دخل مدينة قيسارية مسيحي من بلاد كبادوكيا اسمهُ يوليانوس فسمع هذا الخبر فاسرع حالاً ليبصر الشهداء. وحينما وجدهم مطروحين على الارض امواتًا عانقهم بفرحٍ. فاندهش الكفّار من رغبة المسيحيين في اشد العقوبات وشرّ الميتات من اجل السيد المسيح. اما فِرْميليانوس فامر بان يحترق في النار شيئًا فشيئًا. وهذا الشهيد كان الثاني عشر للذين قُتلوا من اجل النصرانية في اليوم السادس عشر من شهر حزيران في السنة التاسعة من المائة الرابعة للمسيح. ويذكر السنكسار الروماني بعضهم في هذا اليوم ايضًا وبعضهم في اليوم الاول من شهر حزيران مع ترجمة القديس بمفيليوس

وبعد وفاتهم أُلقوا طعامًا للوحوش الضارية ومكثوا على تلك الحال اربعة ايام واربع ليالٍ. فلم تمسّهم الوحوش ومن اجل ذلك أذن الحاكم ان يُدفنوا

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس سمعان المتوحّد

ان القديس المذكور كان من بلد صقلية ووُلد بمدينة سيراكوزا على اواخر الجيل العاشر. وكان ابواهُ غنيين معتبرين فلما بلغ السنة السابعة من عمرهِ انطلق بهِ ابوهُ الى القسطنطينية ليدرس هناك العلوم. وفيما كان والدهُ يباشر وظيفتهُ في بلاط الملك كان سمعان يدرس العلوم ويمارس رياضات العبادة. فاتفق يومًا انهُ وجد في القسطنطينية اناسًا آتين من الغرب ليزوروا الاماكن المقدسة في اورشليم بروح التقوى والعبادة فذهب معهم وبعد ان تمّم هذه الزيارة زهد في الدنيا وعزم على الاعتزال عن الناس. فانفرد في ناحية الاردن وتتلمذ لشيخ قديس

وكان القديس سمعان يرتقي يومًا فيومًا من فضيلة الى فضيلة وقد اتفق في ذلك الزمان ان اجتاز بقرب قلّايتهِ بنات ونساء ليسقينَ خرافهنَّ من نهر الاردن. فنظر اليهنَّ القديس بقصد التنزه فعرف هذا الامر مرشدهُ بالهام الله فاستدعاهُ حالاً وقال لهُ ماذا يفيدك يا ابني اعتزالك عن الناس وهجر منزلك وترك اموالك ان كنت تسمح لقلبك ان يتعلق بالخلائق ولعينيك ان تنظرا ما يمكن ان يدنس نفسك بسهولة. اعلم يا ابني واعتقد ان الشيطان اقتنص نفوسًا كثيرة بهذا الشرك فكن حذرًا واحترز من الخطر. أمِت حواسّك ولازم الاختلاء ولا تنظر الى وجه امرأة ابدًا بل لا تنظر اليهنّ ولو عن بُعدٍ. اما التلميذ فكان يستمع هذا التوبيخ بخجلٍ مقدس ودموع التوبة. ثم قال لهُ ذلك الشيخ ثِق يا ابني بجود الله الذي دعاك الى طريق الكمال وكن امينًا في خدمتهِ تعالى فيكون لك معينًا. اما انا فقد اقتربت ساعة وفاتي ولان الناس ابتدأوا يبلبلون افكاري بزياراتهم المتواترة قصدت ان انفرد حيث لا يراني احد. فاذ سمع التلميذ هذا الخطاب اشتد حزنًا وطلب من مرشدهِ بالحاحٍ الّا يفارقهُ. الّا ان الشيخ بعد ايام قليلة انطلق وكان تلميذهُ قد خرج يجمع بقولاً برّية ليأكلها مع معلمهِ

فلما اتى القديس سمعان وعرف ان معلمهُ قد ذهب لم يتجاسر ان يمكث وحدهُ في البرية فذهب الى دير بيت لحم وما لبث ان اطلع الرئيس على فضائلهِ وحينئذٍ قدمهُ الى الاسقف فرسمهُ شمّاسًا انجيليًا. غير انهُ لاتضاعهِ أنف من

احترام الناس له فاستأذن الرئيس وانطلق الى دير كان بسفح طورسينا وعاش هناك عدة سنين ولان نفسهُ كانت ترتاح دائمًا الى الخلوة الكلية خرج ايضًا من هذا الدير باذن الرئيس وتوارى في مغارة وجدها على شاطئ البحر الاحمر. وكان احد الاخوة يأتيهِ كل يوم سبت بخبز ليعيش بهِ . فاستمرَّ هناك القديس بعض سنين ممارسًا لانواع كثيرة من التقشفات ولما بدأت الناس تفتقدهُ وتلقي اضطرابًا في خلوتهِ رجع الى الدير وزاد على تقشفاتهِ الاعتيادية لانهُ كثيرًا ما كان يطوي ثمانية ايام لا ياكل ولا يشرب ابدًا الا القربان المقدس وكان يلبس المسح دائمًا ويثقل جسدهُ بالسلاسل ويصرف اكثر الليل في الصلاة ولا ينام الا ساعات قليلة على اديم الارض

اما رهبان هذا الدير فكان معظم معاشهم على صدقات اهل الغرب ولاسيما امير فرنسوي في اقليم نُرْمَنديا يقال له ريكَرْدوس الثاني ولكون الرهبان الذين ذهبوا من هذا الدير ليلتمسوا هذه الصدقات كانوا قد ماتوا في الطريق . كتب الامير الى الرئيس ليرسل رهبانًا آخرين يلتمسون صدقاتهِ . فامر الرئيس القديس سمعان ان يذهب الى هناك مع احد الاخوة فسافرا ووصلا الى فرنسا وبعد وصولهم تُوفي رفيقهُ المدعو قُزْما . وغب ذلك علم ان الامير المار ذكره قد تُوفي ايضًا فاخذهُ القديس بوبون رئيس اساقفة مدينة تريفي رفيقًا له في سفرهِ الى الاماكن المقدسة والزمهُ بمرافقتهِ في رجوعهِ الى بلاد فرنسا وقدَّم له حصنًا بجانب باب الكنيسة ومن هناك كان يسمع كل صلوات الكنيسة بواسطة شباكٍ كان ينظر منهُ الاكليريكيين في الكنيسة

فعاش هناك القديس سمعان بقية ايام حياتهِ مختليًا صائمًا مواظبًا على الصلاة . ثم تكاثرت المياه في البلد اي تكاثر حتى اتلفت كل اثمار الارض وبوسوسة الشيطان ظن قوم من الشعب ان سمعان المتوحد هو ساحر وبسحرهِ سبَّب هذا الطوفان فاتوا ليرجموهُ ولولم يسرع الى معونتهِ اناس ويدفعوهم عنهُ لكانوا قتلوهُ بدون شكٍ . وحينئذ عرف القديس ان ساعة وفاتهِ قد دنت فسأل الاسقف قائلاً له اني اسأل قدسكم الاذن في ان يُدفن جسدي في قلايتي هذه لان هذه هي راحتي الى الابد . ههنا انتظر يوم الرب ههنا أسكن لاني اخترت . وقد كان للقديس خادم اكليريكي يُدعى استفانس فقال له القديس اني اريد ان اصرف بعض ايام في الصلاة ثم امرهُ بالا يدع احدًا يبلبل افكارهُ وقت اختلائهِ وبعد ثلثة ايام رأى استفانس ان القديس لم يأخذ الخبز الذي كان يضعهُ كل يوم على نافذة منزلهِ فاخبر بذلك راهبًا كان صديقًا للقديس وكان قد اصابهُ وقتئذٍ فالج فطلب ان يحملوهُ الى القديس وفيما كانوا سائرين في الطريق شفي من مرضهِ شفاءً تامًا. فلما دخل على القديس وجدهُ مشرفًا على الموت فناولهُ القربان المقدس . ثم انتقل الى رحمة الله في السنة الخامسة والثلثين من القرن الحادي عشر في اليوم الاول من شهر حزيران وبعد سبع سنين لوفاتهِ كتب اسمهُ البابا بناديكتوس التاسع في سفر القديسين سنة اثنتين واربعين والفٍ وبعد اربعمائة سنة لذلك وُجد جسدهُ صحيحًا ناجيًا من كل فساد وشرَّف الله تعالى قبرهُ بعجائب كثيرة

اليوم الثاني

وفيهِ ترجمتا القديس بوتينوس والقديسة بلَنْدينا ورفقائهما الشهداء في ليون

قد ذكرنا آنفًا ان الملك مرقس اوراليوس كان قد انتصر في السنة الرابعة والسبعين من المائة الثانية للمسيح على البرابرة بواسطة صلوات المسيحيين كما صرح بذلك هذا الملك نفسهُ وجيشهُ ايضًا ومن اجل ذلك استراح المسيحيون سنين كثيرة . الا انهُ بعد ذلك اشتد الاضطهاد عليهم في مواضع كثيرة ولاسيما في مدينة ليون وقد اتخذنا هذا الخبر من رسالة مؤمني هذه المدينة الى كنائس اسيا وافريقية التي يذكرون فيها ما رأوهُ عيانًا

فلما نما المسيحيون في مدينة ليون وتكاثروا جدًا نهض عليهم الوثنيون ليبيدوهم فأمر الحاكم اولاً بالا يظهر احدهم لا في الحمامات ولا في الشوارع . ثم قام عليهم وثنيو المدينة رجالهم ونساؤهم. ولما كان بغضهم شديدًا تعصَّبوا ودخلوا منازل المسيحيين ونهبوا اموالهم وعاملوهم بكل نوعٍ من الاهانة والاذلال واخيرًا قبضوا على البعض منهم واتوا بهم الى الحاكم وبما ان اولئك المسيحيين اعترفوا جهارًا بايمانهم أُلقوا في السجن وبعد ايام قليلة مثل هولاء الشهداء امام الحاكم فعذبهم بقساوة عظيمة ابتغاء ان يستميل بذلك قلوب اهل المدينة

فتقدم شاب معتبر يقال له إباغوتوس وطلب اذنًا

لينكم ويبرئ هولاء المسيحيين مما قرفهم بهِ اعداؤهم فهتف الشعب ضدهُ اما الحاكم فسألهُ هل انت مسيحي فاعترف الشاب علناً انهُ مسيحي فللحال امر الحاكم بان يُضمّ الى اولئك الذين سيقتلون من اجل ايمانهم بالسيد المسيح وارجعهم الى السجن

وبحيث ان الوثنيين كانوا عندما يقبضون على المسيحيين يمسكون عبيدهم ايضاً ولما كان بعض اولئك العبيد وثنيين خافوا ان يُعذَّبوا لاجل ايمان اربابهم . فشرع قوم منهم يثبتون على اسيادهم المسيحيين جميع ما قالهُ الشعب الوثنيون فيهم كذباً وظلماً لانهم كانوا يتهمونهم بانهم ياكلون لحم بني آدم ويمرغون في مجامعهم في افظع النجاسات ولاجل ذلك يدعون بعضهم اخوةً واخوات . فبهذه التهمات ازداد الاضطهاد التهاباً وقبضوا ايضاً على جماعة من المسيحيين فامسكوا منهم فتاةً اسيرة ضعيفة المزاج يُقال لها بلنْدينا فمن اجل صغر سنها وضعف مزاجها كانت معلمتها المسكة معها لاجل الايمان تخشى انها لا تعترف بالنصرانيّة ولكنما الفتاة اظهرت اشدّ شجاعةٍ عند اشد العقوبات لكون الوالي أمر الوثنيين فمزّقوا جسدها كلهُ بالمخاليب الحديدية واحرقوها وعذّبوها يوماً كاملاً بافراط القساوة وبعد هذا كلهِ لم تنطق الاَّ بهذه العبارة اني مسيحية . ولا ريب ان اولئك المسيحيين كانوا يجهلون اسم الخطيئة التي اتُّهموا بها . فعجز الجلاَّدون عن تعذيبها وصرَّحوا بان شجاعة بلنْدينا عجيبة وانها كانت بمساعدة الله تعالى فارجعها الحاكم الى السجن

ثم وقف امام الوالي رجل اكليريكي يسمى سَنْكتوس فسئل عن اسمهِ ووطنهِ ودعوتهِ وديانتهِ فلم يجب الاَّ بقولهِ اني مسيحي بنعمة الله تعالى . فعذَّبوهُ بالحديد واحرقوهُ بالنار على نوع مريع وبعد ايام قليلة عذبوهُ جديداً راجين ان شجاعتهُ قد خارت مع قوتهِ . غير ان الله سبحانهُ اظهر وقتئذٍ قوة نعمتهِ لانهُ بينما كان الجلاَّدون يضربون القديس ويجرحونهُ بآلات حديدية تشدَّد القديس بقوةٍ جديدةٍ واستحال جسدهُ الى حالتهِ الاولى

فرام الحاكم ان يلزم احد المسيحيين بان يثبت بشهادة ما اتهمهم بهِ اعداؤهم الكفرة . ولما لم يجدوا بين الشهود من يقرّ بذلك افتكر المغتصب في امرأة مسيحية يقال لها بيبليس كانت منذ ايام قليلة قد جحدت الايمان المقدس خوفاً من العقوبات فامسكها وتوعَّدها باشد العقاب ان كانت لا تثبت بشهادةٍ التُهم التي اتهم بها المسيحيين ولانها لم ترتضِ باثبات الكذب طفقوا يعذبونها . فانتبهت حينئذٍ بيبليس على جحودها للايمان المسيحي ومن جرى العذاب الذي كانت تكابدهُ تصوَّرت في عقلها شدة العذاب الابدي المعدّ لها لاجل كفرها بالايمان المستقيم فصرخت وقالت تبرئةً للمسيحيين كيف يمكن لمن تلزمهم شريعتهم بالامتناع عن شرب دم الحيوانات ان يشربوا دم الاطفال وكيف يُصدَّق عن الذين يستكرهون الفكر الدنس ويرذلونهُ ان يزنوا باقاربهم. ثم اعلموا اني مسيحية على الدوام واني مستعدّة لان اجود بدمي من اجل هذا الايمان . فخجل الوثنيون واعتزَّت النصرانية ولما رأى الحاكم انهُ لا يقدر ان ينتصر عليهم بشدة العذاب اخذ يجرّبهم باطالة الألم فألقاهم في سجون مظلمة منتنة كبالوعة الحمأة وهناك أوثقوا ارجلهم بخشب وشدوا الوُثق شدًّا عنيفاً حتى مات بعضهم من شدة الوجع وبعضهم من فساد الهواء وكثيرون غيرهم من شدة الهول وتفاقم الشتاء وكان من جملة هؤلاء القديس بوتينوس اسقف ليون الذي قبض عليهِ الوثنيون وهو ابن تسعين سنةً وقدّموهُ الى الحاكم فسألهُ مَن اله المسيحيين. فاجاب انك ستعرفهُ اذا كنت اهلاً لذلك حقّاً فغضب المغتصب ووثب عليهِ الوثنيون وضربوهُ بأرجلهم ورشقوهُ بالحجارة ثم جرَّحوهُ وجرُّوهُ الى السجن وبعد يومين انتقل الى جوار ربهِ

فاذ حان الوقت المعيَّن لتعذيب الشهداء المحبوسين أُخرجوا من السجن القديسين ماتوروس وسنكتوس واتَلوس والقديسة بلَنْدينا وفيما كانوا ذاهبين في الشوارع ضربوهم بالسياط باشدّ القساوة امام الشعب ثم ادخلوهم ميدان الوحوش الضارية وأطلقوها عليهم فوثبت الوحوش عليهم وانشبت مخالبها بهم فمزَّقتهم كل ممزَّقٍ . ولما رآهم عبدة الاوثان قد اقتربوا من الموت طلبوا الى المغتصب ان يعذّبهم عذاب الكرسي المحمى فاجابهم الى ذلك وحالاً اجلسوا القديسين على الكرسي الملتهب وفيما كانوا يحترقون هكذا كانوا يباركون الله تعالى بصوت عالٍ قائلين اننا عبيد سيدنا يسوع المسيح ونحسب التألم لاجل اسمهِ القدوس وسفك دمائنا الى آخر نقطة شرفاً وسعادةً لنا . فهذه الشجاعة اضرمت نار الغضب في قلب احد الجلاَّدين فقتل الاولين بالسيف وهكذا فازا بجنات النعيم . اما القديسة بلَنْدينا فكانت موثقةً بخشبة على شكل صليب فاطلقوا عليها الوحوش فدنت تلك

الوحوش منها ولم تمسها اصلاً فتعجب الشعب من هذه الاعجوبة ولهذا ارجعها المغتصب الى السجن مع القديس أتَلوس ولكون هذا رومانيًا اراد المغتصب ان يستفهم بشأنهِ الملك

ولقد كان لأُولئك المعترفين منظرٌ يدهش الابصار ويحار فيهِ البصائر فلله درُّهم مؤمنين اعتزَّت النصرانية بجراحاتهم فكانوا ما بين مكلوم من كل جهةٍ ومحرق الى نصف جسدهِ على انهم لم يكونوا الاَّ مبسرورين شاكرين الله من حيث أهّلهم لان يهانوا ويُعذَّبوا من اجلهِ . واغرب من ذلك كلّهِ اتضاعهم الذي لا تكاد تصفهُ الاقلام فكيف لا وقد ابوا ان يدعوهم المؤمنون شهداء وانت تدري ما مرَّ انهم طُرحوا طعامًا للوحوش الضارية وكابدوا اعذبةً اليمةً لاجل النصرانية ولكنهم كانوا يطلبون منهم ان يصلوا لاجلهم لكيلا يخسروا اكليل الاستشهاد . وقد أثرت براراتهم هذه في قلوب كثيرين كانوا قد جحدوا الايمان فانقلبوا يعترفون جهارًا بانهم مسيحيون ومن ثم طُرحوا في السجن مع بقية الشهداء واشتركوا في اكليلهم

وكان حينئذٍ في ليون رجل مسيحي اسمهُ اسكندر من نُطس الاطباء وكان يبين للجميع قواعد النصرانية ولا سيما المرضى الذين يستطبُّونهُ فذلك الرجل كان حاضرًا حينما سأل الحاكم اولئك الذين كانوا قد كفروا بالايمان فطفق يشجعهم بالاشارة فاطلع الجمهور على اشاراتهِ فهتفوا ضدهُ . فالتفت الحاكم اليهِ وسالهُ قائلاً من انت فقال اسكندر انا مسيحيٌّ بنعمة الله . فقضى عليهِ حالاً بان يُلقى للوحوش الضارية وارجع باقي الشهداء الى السجن ثم القوهم طعامًا للوحوش وبعد ان مزَّقهم الوحوش تمزيقًا طلب الشعب بان يعذبوا بالكرسي المحمى فأجلسوهم عليهِ وفيما كانوا يحترقون كان اسكندر صامتًا يتأمل في الله تعالى اما أتَلوس فلما رأى الشعب متضايقًا من دخان لحمهم المحترق صرخ قائلاً انكم انتم هم الذين ياكلون اللحم البشري كونكم تشوونهُ وتستنشقون رائحتهُ اما نحن المسيحيين فلسنا ناكل بشرًا ولا نرتكب الآثام التي تنسبونها الينا كذبًا

فبعد ان أماتوا اكثر المؤمنين أدخلوا الى الميدان الوحشي القديسة بلَنْدينا مع شابٍّ حدَث السنّ يُدعى بُنتيكوس كان قد بلغ من العمر خمس عشرة سنةً وقال قوم من المؤرخين انهُ كان اخا القديسة فظنَّ الشعب ان شجاعتها تضعف بعد مشاهدتها العذاب الاليم فيكفران بالمسيح الاَّ ان هذا نفسهُ زادهما شجاعةً ومن اجل ذلك اشتدَّ عليهما غضب الشعب فطلبوا ان يُعذبا اشدَّ تعذيب . فتوفي اولاً بُنتيكوس امام أُختهِ التي ماتت بعد الجميع مع انها تقدَّمت للعذاب قبلهم وهي اضعفهم مزاجًا . ولعمري ان استشهاد هولاء اعجوبة مذهلة العقول ومعزية القلوب بحيث ان هذه القديسة كانت مبتهجة كل الابتهاج وهي تحت العذاب وبعد ان مزقت السياط جسدها الطاهر وهشمتهُ أنياب الوحوش ومخالبها اجلسوها على الكرسي الحديدي المحمى فبعد هذا جميعهِ لم تبرح تعترف بايمانها قائلةً انا مسيحية . ثم ألقوها في شبكةٍ واطلقوا عليها ثورًا بريًّا فرفعها مرارًا بقرونهِ الى الجوّ . ولم يزل قلب بلَنْدينا مع ذلك هاديًا كانها في حجرتها تتأمل في جودة الله تعالى وآخر الامر طعنوها في حلقها فماتت

لابد لنا ان نقول ان هولاء الثمانية والاربعين شهيدًا مجّدوا الله تعالى وشرَّفوا الكنيسة تشريفًا عجيبًا في سنة سبع وسبعين ومائة للمسيح في اوائل حبريَّة البابا الوتاريوس وفي السنة السابعة عشرة للملك مرقس اوريليوس . وقد كان من العبث اجتهاد الوثنيين في ان يستأصلوا الديانة المسيحية بسفك دماء الشهداء ويبيدوا ذكر المسيحيين بافناء حياة المؤمنين لان الامر آل الى ضدّ ما قصدوهُ فان دم المسيحيين المسفوك كما قال المعلم ترتوليانوس اضحى زرعًا مخصبًا فزاد المؤمنين عددًا ومن رماد هولاء الشهداء المقتولين خرج اناس مؤمنون شحنوا الارض كلها . وهذا دليل صريح يُرينا جليًّا ان الديانة المسيحية هي ديانة الهية وان يد الله عزَّ وجلَّ هي التي صنعت هذا العمل اذ لا يستطيع عليهِ بشرٌ ولا ملَكٌ

وفيهِ ايضًا ترجمة القديسين الشهيدين
مَرْشِلّينوس وبطرس

كان في اوائل الجيل الرابع مَرْشِلّينوس كاهنًا برومية وبطرس شماسًا مقسمًا على الشياطين . وكان مستلمًا زمام المُلْك في ذلك العصر ديوكليسيانوس . ومن حيث ان القديس بطرس حاز من الله تعالى سلطانًا عظيمًا على اخراج الشياطين نهضت عليهِ قوات الجحيم فهاج الوثنيون عليهِ فامسكوهُ وضربوهُ ومزَّقوا جسدهُ بالسياط ثم سجنوهُ . وقد احتمل كل ذلك التعذيب ببشاشة وجهٍ . ولم يزل وهو في

بجنهِ مرتلاً التسابيح الالهية ليلاً ونهارًا مع ان كل اعضاء جسمهِ كانت مجروحة والاغلال ثقلت عليهِ جدًّا

فاذ رأى يومًا السجان المدعو ارتيموس باكيًا سألهُ عن سبب حزنهِ وبكائهِ فقال لهُ ارتيموس ان لي بنتًا عزيزة معذَّبة منذ بعض سنين من شيطان خبيث شرس قاسٍ يعذبها على نوعٍ يُرثى لهُ ولم يستطع احد ان يعالجها . فشرع القديس يعزّي السجان ثم قال ان اردت يا ارتيموس فاني بقوة سيّدي يسوع المسيح الاله سأُخرج الشيطان من جسد ابنتك بدون شكٍّ . اما البواب فاستخفَّ بالقديس وقال لهُ ان كان الهك قد منحك مثل هذا السلطان فلماذا لا يفكّ قيودك ويطلقك من السجن . فاجابهُ القديس حاشا لسيدي انهُ ينجيني مما يكسبني اكليل مجد لا يفنى . فللوقت قال ارتيموس للقديس بطرس ان أردت ان أُومن بالهك وبقدرتهِ فاقطع سلاسلك وافتح ابواب السجن وجز فيما بين الحراس سالمًا وتعالَ الى بيتي . فوعدهُ القديس بما طلب ثم مضى السجان الى بيتهِ

فاذ دخل بيتهُ اخبر امرأتهُ بما كان فقال لها ان احد المسيحيين المسجونين قد فقد عقلهُ لشدة ما ذاق من العذاب الاليم فوعدني بانهُ يخرج الشيطان من بولينا بنتنا وانهُ بقوَّة الهِ المدعو يسوع المسيح يقطع اغلالهُ ويفتح ابواب السجن ويأتي اليوم منزلنا بدون ان تمسكهُ الحراس . فقالت لهُ امرأتهُ كَنْديدا ان تمَّ وعدهُ فلا جرم ان هذا دليل مقنع على ان الهُ هو الالهُ حقٌّ . فاجابها ارتيموس زوجها قائلاً هل عدمتِ انتِ عقلكِ ايضًا انهُ لو هبط من السماء اعظم الهتنا مع بقية الالهة لما استطاعوا ان يخرجوهُ من سجنهِ ويقطعوا قيودهُ . وفيما هما يتخاطبان هكذا خرج القديس بطرس من السجن ودخل بيت ارتيموس بثوب ابيض وكان ممسكًا بيدهِ ايقونة الصليب المقدس وحين دخولهِ خرج الشيطان من جسد بولينا وصرخ قائلاً ان قوة يسوع المسيح الذي فيك يا بطرس اخرجتني من جسد بولينا وقيَّدتني

فجثت البنت ووالداها على قدمي القديس منذهلين باكين من فرط تهيُّبهم واندهاشهم وفرحهم . ثم صرخوا قائلين لا اله الا اله المسيحيين . فالتأم عندهم اناس كثيرون ولما تحققوا الأعجوبة آمنوا كلهم بالسيد المسيح . فخرج للوقت القديس بطرس واخبر القديس مرشلّينوس الكاهن بما كان وأتى بهِ الى بيت ارتيموس وبعد تعليمهم الواجب عمَّدهم جميعهم

اما ارتيموس فحالاً عاد الى السجن واخرج كل المسيحيين . وقد مكث القديس مرشلّينوس معهم خمسين يومًا كي يثبتهم في الايمان ويعدّهم للاستشهاد . وكان حينئذٍ سيرينوس الوالي مريضًا فاذ شفي من مرضهِ استدعى ارتيموس السجان وامرهُ بان يقدّم لهُ المسجونين . فقال لهُ ارتيموس اعلم يا سيدي ان بطرس المسيحي الذي أَمسكتهُ كسر قيود المسجونين وفتح ابواب السجن بقوَّة السيد المسيح فخرج الحابيس الاَّ مرشلينوس وبطرس ومن اجل هذه الأعجوبة تنصَّرت انا واهلي

هيهات ان تصف الاقلام والالسنة شدة الغضب الذي استولى على الحاكم وقتئذٍ فامر حالاً بان يُضرب ارتيموس بدون شفقة حتى انهُ لو لم يحفظهُ الله تعالى بقدرتهِ العجيبة لكان قد مات تحت الضرب . اما القديس مرشلينوس فضربوهُ ايضًا بفرط القساوة . ثم مدُّوهُ عريانًا في السجن على كسرٍ من زجاج والقوا القديس بطرس في سجن آخر وأَوثقوا رجليهِ بالواحٍ من الخشب غير ان يد الله تعالى التي كانت قد كسَّرت القيود وفتحت باب السجن اخرجتهم منهُ في تلك الليلة لان ملَك الرب دخل الى حيث كان القديس مرشلّينوس فكسر قيودهُ وشفاهُ وامرهُ بان يلبس ثيابهُ . ثم مضى بهِ الى السجن حيث كان القديس بطرس وأخرجهُ ايضًا وذهب بهما الى حيث كان المسيحيون مجتمعين للصلاة

ومكث هناك اياما قليلةً فلما عرف الوالي انهما خرجا ايضًا من السجن قبض على ارتيموس وكَنْديدا امرأتهِ وبولينا ابنتهما . وبما انهم لم يرتدُّوا عن النصرانيَّة أَمر بان يُدفنوا احياء . فاذ كانوا ذاهبين الى المكان المعيَّن لاقاهم القديسان مرشلينوس وبطرس ومعهما كثيرٌ من المسيحيين وحضروا وفاتهم على ان الوالي ما لبث ان امسكهما وقطع رؤوسهما في السنة الرابعة والثلث مائة للمسيح

اليوم الثالث

وفيهِ ترجمة القديسة كلوتلدا ملكة فرنسا

ان الله اقام هذه الملكة لينتصَّر على يدها كلوفيس الوثني ملك فرنسا ومنذ ذلك الزمن لم يتسلط على فرنسا الاَّ ملوك مسيحيون . اما الملكة المذكورة فهي ابنة شِلْبِريكوس الذي كان متوليًا على جزءٍ من بلاد بُرْغُنْديا وقتلهُ ظلمًا غُنْديبالدوس اخوهُ الذي قتل ايضًا كل ذكر لشلبريكوس

المشار اليهِ ولم يبقَ من نسلهِ الاَّ ابنتاهُ اي سديليندا وكلوتلدا لانهُ لم يخف منها وشفق عليها لاجل جمالها . واما من جهة سديليندا فدخلت احد الاديرة وترهبت . واما كلوتلدا فبقيت مقيمة ببلاط عمها الاريوسي وهي معتصمة بالايمان الكاثوليكي وممارسة التقشف والعبادة بدون مبالاة باحدٍ وبثباتها في العبادة حصلت على الاعتبار التام عند الجميع

فاشتهر في اكثر الاقطار انها مهذبة الاخلاق وان منظرها الجميل مقرون بعفةٍ ملكية . فعزم كلوفيس ملك فرنسا على التزوُّج بها فارسل الملك يطلبها من عمها . اما غُنْدبيالدوس عمها فمع انهُ كان يستصعب هذا الزواج ويخاف من ان كلوتلدا تنتقم منهُ فيما بعد من اجل قتلهِ والديها واخوتها لم يجسر ان يغيظ الملك فارسلها اليهِ باكرام وافر وهدايا كثيرة وانما طلب من كلوفيس ان يترك لكلوتلدا حريَّة تامة لممارسة ديانتها فارتضى كلوفيس بذلك

فلما جلست كلوتلدا على عرش المملكة تحققت ان الله تعالى اختارها لكي يتنصر الملك على يدها وتصير المملكة كلها مسيحية. ومن ثم ضاعفت صلواتها على هذه النية واجتهدت في ان تحبّب الملك بها وتستميلهُ الى الديانة المسيحية . ولذلك كثيرًا ما كانت تخاطبهُ في هذا الشان . اما الملك فلانهُ كان يعتبر برارتها ويحبها جدًّا كان يصغي الى كلامها بانتباه . فأذن لها اولاً ان تمارس علانيةً في القصر الملكي رياضات الديانة المسيحية وان تعمّد اولادها . فولدت كلوتلدا ذكرًا واعتمد الاَّ ان الطفل بعد العماد مرض ومات فنسب الملك هذا لغضب آلهتهِ عليهِ. اما الملكة فقالت لهُ ان هذا علامة ارتضاء الله بزواجنا لانهُ قبل ثمرتها الاولى وادخلها ملكوتهُ . ثم ولدت ابنًا آخر وهذا بعد الاعتماد مرض ايضًا حتى الموت . فطفق الملك يتذمَّر على الملكة فجثت وقتئذٍ كلوتلدا امام صورة يسوع وقالت اسأَلك يا الهي ان تشفي ابني وانت عالم باني لست اطلب منك ذلك الا لاجل مجدك وشرف كنيستك . وفيما كانت تصلي للمخلص تبارك اسمهُ اخبروها بان ابنها قد شفي وفارقهُ كل ألمٍ ولذلك ازداد حب الملك للملكة وزاد ميلهُ الى النصرانية

وفي سنة ست وتسعين واربع مائة للمسيح والسابعة عشرة للملك كلوفيس خرج من بلاد المانيا عسكر جرَّار ليحارب الملك كلوفيس . وحين خروجهِ من باريز لمقاومتهم قالت لهُ القديسة كلوتلدا انك ماضٍ الى الحرب لتظفر باعدائك فالتجِ الى اله المسيحيين لانهُ هو اله الحرب فينصرك وتذكَّر كلامي هذا في حومة الوغى فلا جرم انك اذا استعنت بالهي تتغلب على البرابرة وتنتصر عليهم ولو حارب كل جندي من عسكرك مائة من عسكرهم . فذهب الملك وابتدأت الحرب وتقوَّت البرابرة على عسكر كلوفيس فولوا مدبرين وكاد الملك يقع بايدي اعدائهِ . فتذكَّر حينئذٍ كلام الملكة فصرخ قائلاً يا اله امرأتي يا يسوع ابن الله الحي انت ملجأ الخائفين والمانح الظفر للمتكلين عليك فهأنذا التجئ اليك بكل اتضاع فان نجيتني من هذا الخطر ونصرتني على اعدائي فاني سأُومن باسمك واتعمَّد واجعل مملكتي كلها نصرانية . وبعد ذلك وثب على الاعداء بطأْنينةٍ فوقع على البرابرة خوف عظيم فجزعت قلوبهم وانتصر عليهم الملك المومأ اليهِ انتصارًا تامًّا . فحينئذٍ جثا كلوفيس على الارض معترفًا ان يد الله تعالى هي التي صنعت هذه القوة وقال ايها الرب اله المسيحيين لا اله سواك ومنذ الان فصاعدًا لا اعبد غيرك . فلما عاد منتصرًا عمَّدهُ القديس رميجيوس ثم ابتنى في باريز كنيسة للقديسين الرسولين بطرس وبولس وكنائس اخر غيرها واديرة كثيرة . وكانت الملكة القديسة تحرّضهُ على اعمال التقوى . اما اكرامهُ للبابا فكان كثيرًا جدًّا فارسل اليهِ اكليلاً من ذهب دلالةً على انهُ كان يخضع مملكتهُ كلها لخدمة الكنيسة

ولان الاريوسيين كانوا قد تكاثروا في جنوبي مملكة فرنسا أشارت القديسة على الملك ان يحاربهم وحرَّضتهُ كثيرًا على ذلك . فجمع عسكرًا ومضى ليحارب الاريكوس الثاني الملك الاريوسي فانتصر عليهِ وقتلهُ بيدهِ في السنة السابعة من الجيل السادس . وبعد سنين قليلة مات الملك كلوفيس في باريز سنة احدى عشرة وخمسمائة . فقسمت الملكة كلوتلدا القديسة المُلك بين اولادها الثلثة وانفردت لكي تقضي حياتها في ممارسة العبادة فقط الا ان الله تعالى المسمى في الاسفار المقدسة مجرّب الابرار جرَّب القديسة كلوتلدا في مدة حياتها الاخيرة تجارب مؤلمة جدًّا لان ابنها كلودُمير ملك سواسون قتل ابن عمها القديس سيجسموند ملك بُرغُنديا وامرأتهُ واولادها . ولانهُ قُتل بعد ذلك من اخي القديس المذكور . ولان ابنها الاخر المدعو شِلدِبرتوس وابنها المدعو كلوتاريوس لما رأيا ان اولاد كلودُمير بعد موت ابيهم التجأُوا الى كلوتلدا وانها كانت

تعاملهم بمحبة اشتعلا حسدًا واستدعياهم كانهما يريدان يرفعاهم الى مُلك ابيهم . اما بعد فارسلا اليها مع شخص سيفًا ومقصًّا واوصياه ان يقول لها من قبلهما ان تختار احد الامرين اما انهُ يُقطع رؤوسهم او يقص شعورهم فينرهبوا واذ انها لم ترد ان نرهبهم لكن ارتقاهم الى عرش ابيهم المتوفى اخذ كلوتاريوس وقتل الاول والثاني . اما الثالث المسمى كاودوالدوس فهرب وترهب ولولا ذلك لكان قتلهُ

هذا وان ابنتها المتزوّجة في بلاد اسبانيا احتملت ضربات واهانات لا توصف من زوجها ومن الاريوسيين لانها لم ترد ان تتبع ارطقة الاريوسيين وبعد ان جُنّد ابناها وانتصرا على المغتصب ماتت ابنتها هذه عند رجوعها معهما الى فرنسا

واخيرًا نهض شلدبرتوس ملك باريز على كلوتاريوس اخيهِ ملك سواسون فاذ عرفت القديسة كلوتلدا هذا الخبر المحزن وان العسكرين قد اقترب بعضهما من بعض سهرت الليل كلهُ مصلية الى الله وطالبة العون منهُ . فلما ابتدأت الحرب امطر الله عزَّ وجل على عسكر شلدبرتوس مطرًا غزيرًا وبدّد كل جنودهِ ولم يقع منهُ شيءٌ على عسكر كلوتاريوس . فلما رأى شلدبرتوس هذه الاعجوبة مضى الى اخيهِ كلوتاريوس وتصالحا . فكانت هذه المصالحة ثمرة صلوات القديسة كلوتلدا

وبعد سنين قليلة عرفت القديسة كلوتلدا بالهام الله يوم وفاتها فاستدعت ابنيها المذكورين وخاطبتهما كثيرًا في شأن اتحادهما دائمًا بالمحبة والسلام وفي ما يتعلق بخلاصهما الابدي . ثم تناولت القربان المقدس بعبادة ونشاط وانتقلت الى رحمة الله في اليوم الثالث من شهر حزيران نحو السنة الاربعين من المائة السادسة للمسيح وقد شرَّف الله لحدها بعجائب كثيرة

اليوم الرابع

وفيهِ ترجمة القديس كيرينوس الشهيد

انهُ في السنة الثالثة بعد الثلث مائة جلس والبريوس مكسيميانوس على عرش المملكة وما ابطأ بعد جلوسهِ ان اضطهد المسيحيين وبامرهِ قبضوا على القديس كيرينوس بسيسيا مدينة باقليم يسمى الان كرواسيا او بنّونيا حيث كان مرتسمًا اسقفًا والاولى ان نقول حيث كان رسولاً لان كل ذلك الاقليم كان تنصَّر على يدهِ . فلما عرف هذا القديس ان مكسيمونس حاكم البلد ارسل اناسًا ليقبضوا عليهِ هرب اتباعًا لمشورة الرب الا انهُ لاجل شيخوختهِ لم يقدر ان يسرع هاربًا فادركهُ الجنود وقدموهُ الى مكسيمونس الوالي

فقال لهُ المغتصب ما بالك يا كيرينوس تهرب فقال اني كنت اتمّم امر سيدي والهي الذي اوصانا قائلاً اذا اضطهدوكم في مدينةٍ فاهربوا الى أُخرى . فقال لهُ الوالي أَما علمت امر الملك وان الهك لا يقدر ان ينقذك من يديهِ . فقال القديس اني اعلم واعترف مصدّقًا ان الرب يسوع الذي اعبدهُ قادر ان ينجيني من ايدي جميع اعدائي الارضيين واعلم ايضًا واعترف جهارًا انهُ كان معي حينما قبض عليَّ الجنود وانهُ حاضرٌ هنا وهو الان يخاطبك بفيّ ويعزّي نفسي ويقوّيها في شيخوختي . فقال لهُ الوالي اني اقيمك كاهنًا وحبرًا لآلهتنا فانكر مذهبك الباطل ودينك الكاذب . فقال القديس حاشا لي ان اسجد لاناس اشرار قد ألّهتموهم فانما اعبد الهًا واحدًا وهو خالق السماء والارض رب الارباب وملك الملوك وانا كاهنٌ لمذبح الله تعالى واشتهي ان اصير ذبيحةً لهُ واموت تمجيدًا لاسمهِ . فامر الوالي بتعذيبهِ فضربوهُ بالسياط أَقسى الضرب وكان حينئذٍ يشكر الله الذي اهّلهُ لان يتألم من اجل اسمهِ . ثم قال للمغتصب ان الذي احتملهُ الان ليس هو بشيءٍ بالنسبة الى ما اشتهي ان اكابدهُ من الاوجاع اكرامًا لسيدي يسوع المسيح . اما الوالي فلانهُ لم يرد ان يميت القديس كيرينوس تحت الضرب امر بان يُطرح في السجن

فلما دخل السجن جثا على الارض وصلى قائلاً اشكرك يا الهي لانك شركتني في الامك . واطلب منك الان ان تُري كل الذين في هذا السجن انك انت الاله الحق وحدك . فلما انتصف الليل الا وقد اشرق في السجن نورٌ من السماء فاذ عاين السجّان هذه الاعجوبة خرَّ على قدمي القديس وقال لهُ . تضرَّع الى الهك من اجلي يا عابد الاله الواحد اني اعترف ان الاله الذي تعبدهُ هو وحدهُ اله حق وارفض الان بكل قلبي عبادة الاوثان . فعلمهُ القديس قواعد النصرانية وعمّدهُ وكان اسم ذلك السجّان مَرْشَلُّوس

وبعد ثلثة ايام امر الوالي باخراج القديس من السجن ثم ارسلهُ مع جنود الى اقليم كان يُدعى وقتئذٍ بنّونيا الصغرى واذ كانوا في الطريق وقد ثقّلوا عليهِ الاغلال اتفق ان بعضًا

من النساء المسيحيات اقتربنَ منهُ وقدَّمنَ لهُ مأْكلاً وفيما كان القديس كيرينوس يبارك على المآكل بحسب عادة المؤمنين سقطت القيود من يديهِ ورجليهِ . وقد صنع الله عزَّ وجلَّ هذه الآية ليظهر بها كم كان يسر بما تفعل اولئك النساء من اجل هذا الاسقف القديس

فلما وصل الى مدينة ساباريا وهي التي تدعى اليوم ساروار مثل لدى امنتينوس الوالي فاعترف امامهُ بالايمان كما كان قد اعترف بهِ امام الوالي مكسيموس فامر ذلك الوالي بان يُعلق على عنقهِ حجر الرحى ويُزج في النهر فالتأم جم غفير من الشعب ليروا موتهُ . فالقوا القديس وذلك الحجر على عنقهِ من على الجسر الى وسط النهر فلم يغرق بل بقي مع الحجر يطفو على وجه الماء وطفق يعظ وهو على وجه النهر ساعات كثيرة فآمن في ذلك الوقت أُناس كثيرون . ثم قال في مناجاتهِ الله الهي وسيدي يسوع المسيح انت الذي اوقفت مياه نهر الاردن وأهلت القديس بطرس هامة رسلك لان يمشي على البحر كما يمشي في البر فاذ قد اظهرت فيَّ قدرة الوهيتك أَظهر جودتك ورحمتك عليَّ واهّلني لان اموت الان من اجل اسمك . فقال هذا وللحال استجابهُ الله وحينئذٍ نزل الحجر معهُ في النهر وكانت وفاتهُ على رأي القديس ايرونيموس في السنة العاشرة بعد الثلث مائة . فلما تسلط البرابرة على بلاد بنونيا نقل سكانها جسدهُ الى رومية وهناك دفنوهُ

اليوم الخامس

وفيهِ ترجمة القديس بونيفاسيوس رسول المانيا

وُلد القديس المذكور نحو سنة ثمانين وستمائة بكرتون من اعمال انكلاترة وسمي في المعمودية وِنْفريد . ولما كان ابن خمس سنين نشأَت في قلبهِ لذة فريدة في استماع كلام الله فلما ذهب الى بيت ابيهِ بعض الرهبان الذين كانوا يمارسون الرسالة في البلد وأَثَّرت فيهِ سيرتهم الصالحة وتعاليمهم اشتاق جدًّا الى الترهب مع انهُ لم يكن وقتئذٍ الَّا ولدًا واما اثر الفضيلة الذي وصل الى نفسهِ حينئذٍ فلم ينمحِ مطلقًا

فظن ابوهُ اول الامر ان شوقهُ الى الترهب يزول بتمادي الايام ولكنهُ لما رأى ذلك الشوق يزداد يومًا فيومًا بخلاف ما افتكر اضطرب واستعمل كل قوتهِ وبذل اقصى جهدهِ لكي ينزع من قلب وِنْفريد ذلك الميل فذهب جهدهُ باطلاً على انهُ بعد ان مرض ووقع في خطر الموت عرف ان يد الله هي التي ضربتهُ انتقامًا منهُ لانهُ كان يضادّ اتمام ارادتهِ تعالى ومن ثمَّ فلم يعد يمنع ابنهُ بل اذن لهُ ان يتبع دعوتهُ . فذهب وِنْفريد وقضى ثلث عشرة سنة في دير اكزيتر تحت ارشاد وُلفارد الرئيس القديس وقدَّس هناك درس الغراماطيق بالمواظبة الكلية على الصلاة والتأمل وكان يمارس هناك قبل الترهب كل تقشفات الرهبانية التي اضحى عضوًا منها منذ ذلك الوقت بواسطة النذر . ثم أُرسل الى دير نوتسال الذي كان يسوسهُ وِنْبرت الشهير والمشهور كثيرًا بمدرستهِ وبنظام قانونها حصل على نجاح غير اعتيادي في علم العروض والبيان والتاريخ ومعرفة الكتاب المقدس فامرهُ رئيسهُ منذ ذلك الوقت ان يُعلم هذه العلوم جماعة من الطلبة فوفَّى القديس وظيفة التعليم حقها وحينما كان الطلبة يستفيدون من شروحهِ وايضاحاتهِ كان يستفيد ايضًا بمراجعة دروسهِ الاولى على الترتيب ويفوز بفائدة تجلب الى الرجل النطين كمال الادراك الذي لا يأتي الَّا بتمادي الاعوام

ولما بلغ الثلثين سنة من عمرهِ رقَّاهُ رئيسهُ الى درجة الكهنوت وكان يصرف معظم همتهِ الى الوعظ وتقديس النفوس واذ كان مشهورًا بالفضيلة والحكمة امرهُ رؤساؤهُ بقضاء امر عظيم الاهمية لدى بريتوالد رئيس اساقفة كنتربري واذ تمَّ واجباتهِ بمزيد النجاح وأَعطى في هذه الفرصة براهين ساطعة على استحقاقهِ اعتبرهُ الاسقف والملك التقي اعتبارًا ممتازًا ولذلك دعاهُ اساقفة الاقليم الى كل المجامع التي عُقدت فيما بعد وما كانوا يأنفون ان يستشيروهُ في امورهم

ولما كان القديس مشتعلاً بنار الغيرة على مجد الله وخلاص النفوس كان ينوح ليلاً ونهارًا على شقاء الشعوب الذين ما برحوا لذلك العهد متوغلين في ظلمات الوثنية واذ كان متهيجًا باميال نقوية استشار الله ليعرف هل كان مدعوًّا الى الرسالة اولا ولما لم يقدر ان يشكك في ثبوت دعوتهِ ترجى رئيسهُ سنة ست عشرة وسبعمائة ونال منهُ اذنًا في ان يذهب وينذر بالانجيل كفرة اقليم بهولندا يقال لهُ فريز ولكنهُ وجد دون بلوغ مأربهِ عوائق كثيرة تولَّدت خصوصًا من الحرب التي كانت منتشبة بين كرلوس مرتل حاكم فرنسا

ورَدبود ملك فريز ومع ذلك تقدم خادم الله حتى أُوتريك عاصمة البلاد وسأل الملك الحرية لينطق بالكلمة المقدسة ولكنها اذ رُفضت بعناد سار في طريق انكلترة ورجع الى ديره

انهُ بعد زمن قليل اذ كان وِنبرت مشرفًا على الموت انتخب وِنفريد خليفةً لهُ واتفقت الاصوات عليهِ فاجتهد في ان يجتنب هذه المرتبة واحتجّ بانهُ كان مدعوًّا لان يبشر الكفرة بالايمان وانهُ لم يزل مكلفًا بذلك . وقد نجح في ذلك اكثر من ذي قبلٍ وحرَّض دانيال اسقف وِنْشيستر بان يقبل استعفاءهُ ويأذن في اقامة رئيس بدلاً منهُ ففعل الاسقف بحسب مطلوبهِ

وبعد ان اقام سنتين بانكلترة سافر الى رومية ومثل بين يديْ البابا غريغوريوس الثاني ليطلب بركتهُ الرسولية والتفويضات التي كان محتاجًا اليها ليبشّر الكفرة بالانجيل فامرهُ البابا ان يحضر مكاتيب مطرانهِ وبعد ان قرأها تكلم معهُ قليلاً فهذه المخاطبة أيَّدت الشهادة النافعة التي كان قدَّمها بونفريد دانيال مطران وِنشيستر . فالبابا اذ كان يعتبر القديس كثيرًا اضافهُ بكل اكرام واعطاهُ سلطانًا مطلقًا ليبشر بالانجيل كل عبدة الاوثان الذين في المانيا واعطاهُ كمية وافرة من ذخائر القديسين ثم منحهُ البركة الرسولية واعطاهُ توَاصي كثيرة للامراء المسيحيين الذين يصادفهم في طريقهِ

ثم سافر هذا الرسول بدون ابطاء الى المانيا وباشر اولاً اعمالهُ الرسولية ببلاد بافير وتورِنج وعمَّد هناك جمًّا غفيرًا من الكفرة ووجد مسيحيين في بافير والاقاليم المجاورة فرنسا ولكن معاشرة الوثنيين كانت قد اوشكت ان تميت كل ما عندهم من شعائر النصرانية . هذا وان الاساقفة والكهنة لم يكونوا اقل فسادًا من الشعب اما الرسول المشار اليهِ فحملهم على ان يغيّروا سيرتهم والزمهم بقوة خطبهِ ان يعيشوا بحسب قواعد الانجيل ويحفظوا ترتيب الكنيسة الذي كانوا خالفوهُ ظاهرًا

ومن بعد ما علم ان كَرْلوس مَرْتل صار صاحب اقليم فريز بموت الملك رَدبود وان سيكون لهُ حرية من الان فصاعدًا ليبشر هناك بالانجيل ذهب الى تلك البلاد سريعًا واشتغل بالانذار متحدًا مع وِلّيبرود الاسقف القديس مدة ثلث سنين واكتسب ليسوع المسيح نفوسًا كثيرة ولكنهُ حالما علم ان القديس وِلّيبرود قاصد ان يجعلهُ خليفةً لهُ ترك هذه الرسالة ليتخلص من حمل الاسقفية واعتذر عن إبائهِ الاسقفية بان البابا كان قد كلفهُ ان يبشر وثنييّ المانيا بالانجيل واذ خرج من فريز اخذ يجول بلاد هاس وقسم من سَكْس وكان في كل موضع يشتغل بتعميد الوثنيين وبناء كنائس لهم على آثار هياكلهم

الاَّ انهُ اعلم البابا بنجاح رسالاتهِ بالوكةٍ بعث بها اليهِ مع مسعفيهِ وبها استشارهُ في مشاكل كثيرة عرضت لهُ في مباشرة وظيفتهِ . اما البابا فشكر الله على هذه الاخبار السارَّة التي بلغتهُ ثم كتب الى الرسول المشار اليهِ مهنئًا اياهُ وأَمرهُ بتلك الرسالة ان يجيء الى رومية فاطاعهُ خادم الله وسافر . ووصل الى تلك المدينة سنة ثلث وعشرين وسبعمائة فسالهُ البابا ان يعترف بايمانهِ وهذا كان دأبهُ مع المنتخبين للاسقفية الذين يكونون على استعدادٍ الى الارتسام . ثم سألهُ اسئلة مختلفة عن حالة البلاد التي تنصرت وبعد ايام قليلة رسمهُ اسقفًا . قيل ان البابا سماهُ حينئذٍ بونيفاسيوس غير ان ذلك لم يثبت اذ عُلم من رسائل لخادم الله المذكور متقدمة على هذا التاريخ انهُ كان معروفًا باسم بونيفاسيوس وِنفريد

ان هذا القديس الذي نسميهِ منذ الان فصاعدًا (بونيفاسيوس) أَقسم بانهُ يحافظ على صحة الايمان والاتحاد بالكنيسة وابقى على قبر القديس بطرس صورة هذا القسم مكتوبة بيدهِ واعطاهُ البابا مجموع قوانين منتخبة يتخذهُ قاعدة لسلوكهِ وكتب اكرامًا لهُ توَاصي الى كَرْلوس مَرْتل والى الامراء والاساقفة في كل ما يجتاز بهِ من الولايات والاقاليم

وبعد ما رجع عليهِ السلام الى بلاد هاس واظب على اعمالهِ واقترنت بمثل النجاح السابق وقلع بلخةً كبيرة مكرسةً لجو بتير اله الوثنيين واستعمل جذرها لبناء معبدٍ صغير لهامة الرسل وانشأ عدة كنائس وديرًا في أُرْدروف ولما كان الحصاد يزداد خصبًا يومًا بعد يوم كتب الى انكلترة ليرسلوا لهُ فعلةً فارسلوا فوضعهم في بلاد هاس وبلاد تورِنج

وعقب ان جلس على عرش الخلافة البطرسية غريغوريوس الثالث سنة اثنتين وثلثين وسبعمائة ارسل بونيفاسيوس يستشيرهُ في المشاكل التي وقعت لهُ فاستقبل البابا رسلهُ باتم الاكرام وامرهم ان ياخذوا للقديس الباليوم الذي

كان ينبغي ان يستخدمهُ في احتفال الاسرار الالهية وعند رسامة الاساقفة وجعلهُ حينئذٍ رئيس اساقفة المانيا ورئيسًا على روساء اساقفتها وفوَّضهُ تفويضًا مطلقًا ان يُقيم اسقفياتٍ حيثما يظهر لهُ ان ذلك ضروريٌّ

اما بونيفاسيوس فسافر ثالثةً الى رومية في السنة الثامنة والثلثين من القرن الثامن لكي يزور قبر الرسولين ويتداول مع البابا في امر الكنائس التي قد انشأها . فاعطاهُ البابا كل ما يجب من علامات الاحترام لبرارتهِ السامية وسماهُ قاصدًا رسوليًّا في المانيا . وعلى اثر رجوعهِ من تلك المدينة استدعاهُ الامير أُوديلون الى بافير لابطال العادات الردية واذ لم يكن لبافير الاَّ اسقفية باسو انشأ فيها اسقفيتي فريسنجن وراتيسبونا واثبت البابا ذلك سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ثم انشأ ثلث اسقفيات أُخر احداهنَّ في بلاد تورنجِ والثانية في اقليم هاس والثالثة في فرنكونيا وانشأ ايضًا اسقفيةً رابعةً في بالاتينا من بافير

اما غريغوريوس الثالث فمات في شهر تشرين الاول من سنة احدى واربعين وسبعمائة وخلفهُ زكريا وعامل بونيفاسيوس كسالفهِ من حيث الاعتبار والاكرام واثبت كل ما قد فعلهُ بخصوص كنيسة المانيا . وحدث في ذلك الزمان الثورة المشهورة التي نقلت تاج فرنسا الى عائلة اخرى . ومات كرلوس مرتل سنة احدى واربعين وسبعمائة وهو اما ابن خمسين او خمس وخمسين سنة وكان قد حكم فرنسا ستًّا وعشرين سنةً بصفة وزير القصر وبحكمتهِ فتح بُرْغنْديا واكيتانيا واخضع سكسونيا وانتصر انتصاراتٍ كثيرة على عرب الاندلس وصارت الوزارة بعد موتهِ بالوراثة وأُعطيت غالبًا لمن يلقب من الفرنسويين بدوك او امير امير ٩

فكَرْلومان بكر كرلوس خلفهُ في وزارة اقليم اوسترازيا اي الُّورين وقسم من المانيا كان وقتئذٍ تحت سلطة الفرنسيس فاخضع اوديلون وتياري احدهما دوك بافير والثاني درك سكس . ذلك ولم يكن مفطورًا على محبة الحرب . وكان اهم غرضهِ ان يلقي السلام بين الشعوب ويحامي عن الديانة وان يجعل العلوم المفيدة زاهيةً . فافرغ كل قوتهِ لمساعدة القديس بونيفاسيوس الغيور في كل ما قصدهُ ليُعرَف اسم يسوع المسيح وينتشر في جهاتٍ كثيرة

ونحو ذلك الزمان جلب عدو البشر كذَّابين ليشوّش الكنيسة المنتشئة في المانيا اسم احدهما ادَلْبير وهو مولود بفرنسا وهذا الاذاً ادَّعى ان يطَّلع على اسرار القلوب اعطى الناس الاغبياء شعورهم وقلامات اظافرهم واوهمهم انها ذخائر . وهو نفسهُ كتب ترجمتهُ التي ملأَها عجائب هزلية مضحكة واتخذ في كتاب ترجمتهِ اسم مستهامٍ مملوءٍ من الكبرياء متشبثٌ بأوهامهِ . واسم الثاني اكليمنضوس وهو الذي وُلد ببلاد سكوسيا ثم نبذ ترتيب الكنيسة وعلَّم ان المسيح لما نزل الى الجحيم حرَّر نفوس جميع المنجوبين . ولم يقف عند ذلك الحد بل تقدَّم الى غوايات أُخر تتعلق بالقضاء والقدر . فشجبهما القديس بونيفاسيوس في مجمعٍ عقدهُ في المانيا ولذلك وضعهما كَرْلومان في السجن واثبت البابا حكم القديس والاساقفة الذين جمعهم في مجمع عقد برومية سنة ثلث واربعين وسبعمائة . وسنة خمس واربعين وسبعمائة عقد بونيفاسيوس مجمعًا آخر في لبتين وكان ذلك قصر ملوك اوسترازيا التي بقرب ات في ابرشية كمبري

واذ رأَى كَرْلومان ان رسول المانيا مملوءٌ من روح الله مشى على نصائحهِ في كل ما يختص بامر خلاصهِ فالتعاليم التي كان يسمعها من ذلك الرسول اشعلت في قلبهِ نار محبة جديدة نحو الله جلَّ شانهُ حتى نوى ان يترك الدنيا ويعتزل عن الناس كل الاعتزال واوصى اخاهُ بابين بمملكتهِ ونجلهِ دروكون ثم ذهب الى رومية ليزور قبر الرسولين وامكنة اخرى مقدسة . وبعد ان اطلق رفقاءهُ لبس ثوب الرهبانية من يد البابا زكريا وسار الى جبل سوركت وبنى عليهِ ديرًا على اسم القديس سِلفسترُوس ولقربهِ من رومية كثرت الزيارات عليهِ ولاسيما من اكابر فرنسا . فاستشار البابا في الواسطة التي تمنع تشتت العقل وبعد ما ذهب ليختلي في جبل كَسين وعاش هنالك سنوات عديدة بانكسار القلب وحرارة العبادة كان يفرح جدًّا في ممارسة احقر وظائف الدير . ولذلك اشتغل في المطبخ ورعى القطعان وحرث ارض البستان ثم مات في ويَنا سنة خمس وخمسين وسبعمائة في رحلتهِ الى فرنسا لاغراض تختص بديرهِ . فملك اخوهُ بابين اولاً باسم وزير القصر لكن سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة أُنتخب ملكًا برضا الشعب وكان شِلدريك الثالث قد عُزل قبلاً عن كرسيهِ وحُلق شعر رأسهِ وحُبس في احد الاديرة وهذا الملك اعني شِلدريك هو آخر نسل ملوك فرنسا المدعوين مروفنجيين والظاهر ان القديس بونيفاسيوس لم يشترك في هذا الانقلاب

ذلك وان رسائلهُ تدل من جهة اخرى على انهُ كان ذا ضمير موسوس جدًّا وما كان من طبعهِ ان يحكم حكمًا قاطعًا. ونظرًا الى البابا زكريا فاجاب مملكة فرنسا التي استشارتهُ بان الاوفق لها ان تعرف ملكًا من كانت فيهِ السلطة الملكية ذاتها فعلاً. فجميع الاحزاب ارتضوا بهذا الحكم وحكموا بانهُ لا يمكن ان يكون ملكان في وقت واحد

ان مؤرخي ذلك العصر يخصون بابين كامير مزيَّن بجميع اوصاف الملوك العظام ويقولون ان غيرتهُ على الديانة ومحبتهُ للكنيسة تعادلان بطشهُ وحكمتهُ وخبرتهُ وانهُ لاجل ذلك وضع اساسًا لهذه الدرجة العالية المجيدة التي رقَّى ابنهُ المملكة الفرنسوية اليها

ولما اراد الملك الجديد ان يتوّج بيد ابرّ اسقف في مملكتهِ انتخب بونيفاسيوس لهذا الاحتفال الذي جرى في مدينة سواسون بحضرة جميع اكابر الشعب وترأس القديس المذكور على المجمع الذي التأم في هذه المدينة وسُمي قاصد الكرسي الرسولي في المجمع الاول الذي عُقد في المانيا. ومجامع لبتين وسواسون تثبت جليًّا التفويضات المتعلقة بالوظيفة المشار اليها وكانت تلك التفويضات ممتدة الى فرنسا. فترجى القديس بونيفاسيوس البابا زكريا ان يرسل قاصدًا من قِبلهِ الى هذه المملكة لكي يرفع عنهُ الحمل الذي كان عليهِ. فرفض البابا طلبتهُ ولكن اذن لهُ البابا زكريا ان ينتخب هو نفسهُ من يريد ان يكون خليفةً لهُ في المانيا بعد موتهِ. وذلك ما لم يسبق لهُ مثيل

فلم يكن للقديس بونيفاسيوس الى ذلك العهد كرسي معيَّن مع انهُ كان اسقفًا منذ زمان طويل فاعطاهُ الملك بابين اسقفية مَغنسا وجعلها البابا زكريا حديثًا ميتروبولينيَّة اكرامًا لرسول المانيا وحدث ذلك سنة احدى وخمسين وسبعمائة. اعلم انهُ عند ما كانت الديانة المسيحية تأسست في غاليا كان الحكم الكنائسي تكوَّن نظير الحكم المدني عمومًا. فاسقف الميتروبولينية المدنية صار ميتروبوليتًا على اقليم كنائسي وكان يترأس على جميع اساقفة الاقليم بحسب الترتيب السياسي وهكذا كنائس جرمانيا الاولى كانت منذ الاجيال السالفة خاضعة لميتروبولينية مَغنسا ولكن بعد ما خربت المدينة المذكورة في السنة السابعة من الجيل الخامس بهجمات البرابرة انفصلت من هذه الميتروبولينية جميع الاسقفيات الخاضعة لها بانضمامها الى ميتروبولينية تريفي واما في سنة احدى وخمسين وسبعمائة فانشئت فيها ميتروبولينية مَغنسا ثانيةً وسلَّطهُ البابا زكريا المذكور على اسقفيات كولونيا وتُنكر وأُتريك واسبورج وكوار وكُنستنس التي انشاها القديس بونيفاسيوس وعلى اسقفيات استرَسبورج وسبير وفُرْمس. هذا وبعد مدةٍ صارت كولونيا مقرًّا لرئاسة اسقفية

ان بونيفاسيوس استدعى من انكلترة جماعةً من الرجال والنساء المعتبرين بفضائلهم لكي يلقي بين البرابرة روح اللطف والتقوى المامور بهِ في الانجيل الشريف وسلطهم على الاديرة التي بناها في بلاد تورنج وبافير وفي امكنة اخرى. وسنة ست واربعين وسبعمائة وضع اساس دير فُلدا الذي طالما كان مصدرًا لعظماء الرجال الذين اشتهروا بالعلم والتقوى وكان قد انشأ ثلثة اديرة أُخر احدها في فريتسلار على اسم القديس بطرس والآخران في همبورج وأُردروف على اسم زعيم الملئكة وكان رهبان تلك الاديرة يعيشون بعمل ايديهم

ذلك وان شدة غيرة بونيفاسيوس اثَّرت في عدة نواحٍ رغمًا عن اعتنائهِ الكثير بالكنائس وعن انشائهِ اماكن جديدة وكان اخصّ تأثيرها في البلد الذي وُلد بهِ. ولما علم سنة خمس واربعين وسبعمائة ان اتلْبَلد ملك المارسين شوَّه جمال مزاياهُ بقباحة الفحشاء وان كثيرين اقتدوا بسيرتهِ المشككة كتب اليهِ رسالةً باوفر قوة والحاح ونصحهُ بان يتوب قائلاً لهُ تأمل كم تجرّ اليك عارًا العيشة تحت ظلم الشهوة البهيمية وان الاله الذي سلطك على شعب قوي تنزل بـهِ الهوان لاجل ما ارتكبت من الامور الفاضحة. فاشفق على نفسك وعلى نفوس رعيتك التي يجب ان تقدّم حسابًا عنها يومًا ما. ثم قال ان العفة كانت مكرَّمة جدًّا عند وثنيي بلاد سكس القديمة ولذلك اذا ثبت الزناء سواء كان على عذراء او متزوجة يخنقونها ويحرقونها بالنار ويصلبون من فعل بهنَّ ذلك القبيح في المكان الذي احرقوها فيهِ. هذا وغير مرة ان النساء كنَّ تارةً يجلدنَ ظهور تلك الزواني بالسياط وتارةً يخزنهنَّ بحديد محدَّد ويطفنَ بهنَّ من قريةٍ الى قريةٍ معذباتٍ هكذا حتى يمتنَ

وبناءً عليهِ كان القديس يردف قائلاً في كتابتهِ الى الملك:

فاذا كان الوثنيون الذين لا يعرفون الاله الحقيقي تعشَّقوا العفة فاي عواطف ينبغي ان تكون لك انت يا ايها الملك المسيحي فاذكر اذًا سوء عاقبة سالفك سيبولْرِد واوسْرِد ملك

نور ثمبر فكلاهما عاشا بالاثم والدنس فخطفهما الموت بغتةً وهما منهمكان بفعل الفحشاء . انتهى

ظن بعض المؤرخين ان اتلبلد الملك تاب توبةً نصوحًا وكفَّر عن آثامهِ بالندامة واعتمدوا في ذلك خصوصًا على ما كانوا يرون من اعمالهِ الصالحة وقالوا هل يمكن ان نفترض انهُ لم يتب حينما نفتكر انهُ اعطى الكنيسة المقدسة اراضي واموالاً ورسم شرائع تلاحظ خير الكنيسة . ومهما كان الامر فان بورنرد المتمرّد قتلهُ سنة سبع وخمسين وسبعمائة

ثم بعث القديس بونيفاسيوس منشورًا عامًّا الى الاساقفة والخوارنة العالميين والشمامسة والكهنة القانونيين والرهبان والراهبات وكل شعب انكلترة لكي يصلوا الى الله الذي يريد خلاص جميع البشر ويسألوهُ ان ينعطف برحمتهِ ويبارك اعمال الذين يشتغلون بتطهير النفوس . وكتب الى انكلترة عدة مرارٍ ليرسلوا اليهِ من تلك البلاد كتبًا مختلفةً ولا سيما مؤلفات بيدا المكرَّم المسماة مصباح الكنيسة . وترجى الرئيسة ادبُرج لكي تشتري لهُ رسالتَي القديس بطرس المكتوبتين بحروف ذهبية وبذلك قصد ان يبلّغ بمزيد الاحترام الوحي الالهي الناس الشهوانيين والخشني الطباع واراد ان يقوم باكرام إمام الرسل الذي سماهُ محامي رسالتهِ

انهُ يظهر من عدة رسائل لهُ ان المرسلين واكليروس انكلترة كانوا متحدين بالمودة ولذلك ارتبطوا بتبادلٍ على ان يصلوا الى الله عن نفوس الذين انتقلوا من هذه الدنيا وخاطب في الرسالة الرئيس ادربوس وتوسل اليهِ ان يقدّم ذبيحة القداس الالهي عن انفس المرسلين الذين رقدوا منذ قليلٍ . وقال في بعضها اخرى بعث بها الى راهبة انهُ احتمل كثيرًا من الوثنيين كما احتمل من المسيحيين الاشرار والاكليريكيين ايضًا . ولكن محبتهُ كانت حارّةً جدًّا حتى انهُ كان يشتهي ان يتعذب اكثر لان مرغوبهُ انما كان ان يبذل نفسهُ لاجل الذي مات عنا . ولا شيء احسن مما قالهُ في واجبات الرعاة في رسالتهِ الى كُثْبر رئيس اساقفة كَنْتَرْبري قال فلنحارب لاجل سيدنا في هذه الايام السيِّئة المحزنة ولنمت ان اراد الله لاجل شرائع آبائنا المقدسة لكي نستطيع ان نصل معهم الى الميراث الابدي لا نكن كلابًا خرساء ولا حرّاسًا نائمين او اجرى هاربين عندما يبصرون الذئب . فلنكن احسن الرعاة المتنبهين والمستيقظين ولنعظ الكبار والصغار والاغنياء والفقراء وجميع الاشخاص من كل عمرٍ وحالة . فالقديس ذكر في مواعظهِ تعاليم شريفة على حقيقة اعمال الدين المسيحي ولكن كان مدار كلامهِ غالبًا على قداسة العهود المعقودة في المعمودية وضرورة كونها صادقة

وانتخب بونيفاسيوس خليفةً لهُ بموجب الاذن الذي اعطاهُ اياهُ البابا زكريا القديس لويل وكان راهبًا من مَلمسبري ورسمهُ رئيس اساقفة على مَغنسا سنة اربع وخمسين وسبعمائة وترك لهُ الاعتناء بتتميم كنيسة فُلْد كما ترك لهُ الاهتمام بالكنائس التي بدأ ببنائها في تورنج واستحلفهُ ان يبذل جهدهُ في تنصير الذين لم يزالوا وثنيين . وحينئذٍ كتب الى فُلْراد رئيس دير القديس ديونيسيوس وتوسل اليهِ ان يجعل انتخابهُ مقبولاً عند الملك بابين . ثم قال ان اسقامي تؤكد لي ان ايامي قصيرة فترجَّ الملك ان يضع تحت حمايتهِ تلاميذي الذين اكثرهم غرباء بحيث ان الكهنة متفرقون في اماكن مختلفة لخدمة الكنيسة والرهبان يعيشون في دير صغير وفيهِ يعلمون الاولاد فالاوّلون في تخوم الوثنيين ومع كونهم محرومين من خيور الارض كلها يقدرون ان يكتسبوا القوت ولا يستطيعون ان يحصلوا الاثواب ما لم تمد اليهم يد المساعدة . فاعطاهُ الملك بابين كل ما طلبهُ وكذلك اثبت البابا استفانس الثاني تنصيبهُ القديس لويل الذي كان عليهِ ان ينطلق ويبشر بالانجيل الذين لم يتنصروا بعدُ من شعوب المانيا

ولما رأى القديس بونيفاسيوس نفسهُ غير مقيَّد بعملٍ واظب على ممارسة الدعوة التي دعاهُ اليها الله عزَّ وجل لكي يشتغل بتنصير الكفرة ولذلك لم يقدر ان يذوق طعم الراحة مطلقًا طالما كان هناك قوم لا يعرفون بعدُ يسوع المسيح ومن جهة أُخرى اصبح اكثر من ذي قبل مشتعلاً بالشوق الى ان يريق دمهُ لاجل الايمان المسيحي وكان في قلبهِ دليل خفي على قرب موتهِ

وعقب ان وضع ترتيبًا لامور كنيستهِ ذهب ببعض مساعديهِ الغيورين ليبشر بالانجيل البرابرة القاطنين بابعد نواحي فريز وتنصَّر على يدهِ خلق كثير وتعمَّدوا . وكان بارامون عيد العنصرة هو اليوم المعين لتوزيع سرّ التثبيت على المتنصرين حديثًا ولما ضاقت الكنيسة عنهم نوى ان يمنح السر المذكور في بريّة واسعة فاختار محلاً بقرب دوكُم يبعد قليلاً عن نهر بُردا الجاري في وسط بلاد الفريز فنصب

الخيام في هذا المكان وتوجّه هنالك في اليوم المعين ولكنهُ فيما كان يصلي منتظرًا المسيحيين المحدَثين اذا بالكفرة ركضوا والسلاح في ايديهم وهجموا على خيمتهِ فنهبًا خدَّامهُ ليدفعوا البرابرة فلم يفعلوا ذلك لان بونيفاسيوس نهاهم عن مقاومة القوة بالقوة وفيما هو يقول لهم انهُ منذ زمان طويل كان يتلهّف الى اليوم الذي ينبغي لهُ ان يتحد فيهِ بيسوع المسيح حثهم على ان يحتملوا بفرحٍ موتًا يفتح لهم باب الحياة الابدية.وعند ذلك وثب الوثنيون عليهِ وذبحوهُ وقتلوا ايضًا معهُ اثنين وخمسين رجلاً مسيحيًا وحدث ذلك في اليوم الخامس من شهر حزيران في السنة الخامسة والخمسين من القرن الثامن.

وطفق الكفرة بعد هذه المذبحة ينهبون خيمة بونيفاسيوس وطلبوا الدراهم فما وجدوا الا الكتب والذخائر فرموها هنا وهناك

ووُجد بعدُ بين تلك الاشياء ثلثة مجلدات لم تزل محفوظةً عند رئيس دير فُلْدا فالمجلد الاول هو نسخة الانجيل المكتوبة بيد القديس بونيفاسيوس والثاني هو التوفيق بين فصول العهد الجديد والثالث كان ملطخًا بدم الشهيد وهو يتضمن رسالة القديس لاون الى تاودوروس اسقف فريجوس وخطبة القديس امبروسيوس على الروح القدس ونبذةً للاب نفسهِ في فوائد الموت

واما جسد القديس بونيفاسيوس فنُقل على التعاقب الى اوترِكت ثم الى مَغنسا ثم الى فُلْدا وأُودعهُ القديس لوبل في دير فُلْدا وحفظ فيهِ حتى الان كاثمن كنز وفعل هناك عجائب كثيرة جيلاً بعد جيل. وذكرها البلاّنديستيون في كتابهم اعمال القديسين(مترجم من غودَسكار)

اليوم السادس

وفيهِ ترجمة القديس فيلبس احد الشمامسة الاولين

لما كان عدد المؤمنين يزداد بمواعظ القديس بطرس الاولى انتخب الرسل سبعة رجال مملوئين من الحكمة ونعمة الله وامروهم ان يعتنوا بالفقراء ليتفرّغوا فقط لخدمة الكلمة وسموهم شمامسة. فالقديس فيلبس كان الثاني في جريدة الاسماء التي وصلت الينا عن القديس لوقا ووُلد بقيسارية فلسطين حسب رأْي القديس ايسيذوروس البلوزي

على ان وظائف الشمامسة لم تكن مخصرة في ممارسة ما ظهر انهُ العلة الاصلية لاقامتهم بل كانوا يوزعون ايضًا الاسرار الالهية على المؤمنين الذين كانوا يشتركون فيها بعض مرات بعد العشاء كما يتبين من رسالة القديس بولس الاولى الى اهل كورنتس (فصل ١١) ولكن تناول القربان المقدس على هذه الكيفية لم يستمر زمانًا طويلاً لانهُ فيما بعد امر الرسل ان لا يوزّع القربان المقدس الأ على من كان صائمًا

ان الشمامسة ارتسموا بوضع الايدي والصلاة وامر القديس بولس ان يكون استعدادهم لوظيفتهم كاستعداد الكهنة والاساقفة وان لا يُقبلوا في خدمة الكلمة الأ بعد الامتحان وكانوا يدورون غالبًا بالكاس على المؤمنين فان الكتاب المقدس وكتابات تلاميذ الرسل تؤكد انهم اقيموا لمساعدة الكهنة في القداس الالهي وبالنتيجة اقول انهُ من المحتمل ان اقامتهم كانت بامر خصوصي من المخلص لهُ المجد

ان القديس اغناطيوس الشهيد يسمي الشمامسة في رسالتهِ الى ترالّيان خدَمة اسرار المسيح وامر اهل ازمير ان يحترموهم نظير خدام سيدنا تبارك اسمهُ. وضمهم في بقية رسائلهِ الى الكهنة والاساقفة. واما القديس كبريانوس فدعاهم خدام الاسقفية او الكنيسة وها نحن نبين هنا وظائفهم الاعتيادية فنقول كانوا يخدمون الكاهن على المذبح حين تقديس الافخاريستيا كما يدل على ذلك كلام القديس لورَنتيوس الى البابا سيكستوس الذي رواهُ القديس امبروسيوس ويعمدون عند غيبة الكاهن ويبشرون بكلام الله عزَّ وجل

ان القديس فيلبس سما وفاق في التبشير بالانجيل واستحق ان يُلقب بالانجيلي كما يبين ذلك في سفر اعمال الرسل (٢١ : ٨) وبعد استشهاد القديس استفانس وتفرُّق تلاميذ المخلص لهُ المجد تنصّر على يدهِ اهل السامرة واستنارت بصائرهم بضياء الايمان فسمع كلامهُ اهل تلك الناحية بانتباهٍ وتنصر منهم جم غفير عند ما رأَوا العجائب الباهرة التي فعلها اثباتًا للتعليم الذي بشرهم بهِ فشفى الامراض العضالة واخرج الشياطين من اجساد المعترَين

وكان في ذلك الزمان سيمون الملقب بالساحر ذا وجاهة في السامرة ووُلد الساحر المذكور بجيتون مدينة صغيرة بتلك البلاد وقبل وصول القديس فيلبس كان حصل على شهرة عظيمة وفتن الشعب بسحرهِ فتبعهُ الجميع من صغيرهم الى كبيرهم وقالوا هذه موهبة عظيمة من الله. واستخدمهُ الشيطان

ليقاوم بعجائبهِ الكاذبة معجزات يسوع المسيح كما استخدم قديمًا سحرَة فرعون ليمنع العجائب التي صنعها موسى . ولكن الله عزَّ اسمهُ اذ سمح بان امانة عبيدهِ تمتحن بمثل هذه التجربة هيَّأ الوسائط لكشف واخزاء الغش والخداع ولذلك منح القديس فيلبس قوةً على ان يصنع عجائب باهرة وان سيمون الساحر المذكور خزي كل الخزي واندهش لما رأى الشعب يركضون الى القديس ويطلبون المعمودية فاعتقد او على الاقل تظاهر انهُ معتقد بالمسيح وحينما اعتمد تعلق على الخصوص بفيلبس مترجيًا انهُ ينال قوةً ليصنع عجائب كالمعجزات التي رآهُ يصنعها

واذ بلغ الرسل في اورشليم ما حدث في السامرة ارسلوا اليها القديسين بطرس ويوحنا ليضعوا الايدي على المتنصرين حديثًا اي ليعطياهم سر التثبيت الذي ما كان يمنحهُ في اوائل النصرانية الّا الاساقفة وكان وقتئذٍ يتبع ذلك السرَّ عادةً عدة مواهب خارجة كما جرى حينئذٍ لاهل السامرة

ولما رأى سيمون المعجزات الصادقة التي حدثت بوضع ايدي الرسل قدَّم لهما فضةً وقال لهما اعطياني انا ايضًا هذا السلطان حتى كل من اضع يدي عليهِ يقبل الروح القدس . فقال لهُ بطرس لتكن فضتك معك للهلاك أتظن ان موهبة الله تُقتنى بفضة فتُب الان عن شرِّك هذا وصلِّ الى الله لعلهُ يغفر لك كفر قلبك هذا لاني اراك في مرارة المرّ ورباط الظلم (اعمال الرسل ٨ : ١٩ و٢٠ و٢٢ و٢٣) فهذا الاستعداد الردي منع عن سيمون موهبة الروح القدس واعتراهُ مع ذلك خوف من هذه الشرور الزمنية وقال لبطرس صليا انتما لاجلي حتى لا يصل اليَّ شيء مما قلت لي عنهُ . ومن خطيئة سيمون أُخذ اسم السيمونية لخطيئة يرتكبها من يبيع او يشتري الاشياء الروحية لاجل خيرٍ ما زمني اعلم ان هذه الخطيئة التي تضاد الايمان والقوانين الطبيعية وشريعة الله كليًّا يشار اليها في الحق القانوني باسم بدعة سيمون الساحر . ان الكتاب لم يُنبئنا شيئًا بعد عن هذا الكذاب ويُظن مع ذلك ان ما قالهُ القديسان بولس (تيموتاوس ثانية ٣) ويهوذا (فصل ٤) هو عنهُ وعن تلاميذهِ وان القديس يعقوب (فصل ٢ : ١٤) اثبت ضدهم ضرورة الاعمال الصالحة لاجل الخلاص ويُظن ايضًا ان هولاء هم الانبياء الكذبة الذين صوَّرهم لنا القديس بطرس (ثانية ٢) بالوانٍ تلقي الرعب والهول في القلوب

ولا جرم ان القديس فيلبس احسَّ بألمٍ عظيم عندما اطلع على خبث سيمون الساحر وعرف الموانع التي وضعها امام نجاح الانجيل ولكنهُ تذكَّر في الوقت نفسهِ المضادات التي أُمتحن بها المسيح نفسهُ من جهة المجرمين المصرّين على خطاياهم ولذلك قصد ان يهذّب تلاميذهُ ويعلمهم الصبر والدعة لانهم اذا تعاطوا بعد كل ذلك اعمال الرسالة ولا يكونون معرَّضين لمثل هذه الامتحانات يضيعون بسهولةٍ جزءًا من الاستحقاق الذي يستطيعون ان يحصّلوهُ

ويُظن ان القديس فيلبس كان بعدُ في السامرة حينما امرهُ الملَك ان يذهب الى الجنوب ويسير في الطريق الذي يؤدي من اورشليم الى مدينة غزة فوجد في ذلك الطريق خصيًّا عظيمًا لقنداس ملكة الحبشة وكان وكيلًا على جميع خزائنها وبما انهُ يهودي كان قد ذهب ليزور هيكل اورشليم وفيما كان راجعًا الى بلادهِ حملتهُ رغبتهُ الكلية في الكتب المقدسة ان يقرأ وهو في مركبتهِ سفر اشعيا النبي ولما وصل الى الموضع الذي يقال فيهِ عن يسوع المسيح : مثل نعجة سيق الى الذبح ولم يفتح فاهُ ومثل حَمَلٍ بلا صوت امام الذي يجزه . . . . من يستطيع ان يصف ولادتهُ (اشعيا ٥٣ : ٧و٨) واما القديس فيلبس فشرح للخصي معنى تلك الآية وعلمهُ كل قواعد الايمان ثم عمَّدهُ . فذهب الخصي الى بلادهِ مملوءًا من الفرح ونشر فيها تعليم يسوع المسيح كما قال عنهُ القديس ايرونيموس بحسب راي اوسابيوس . هذا وان الحبشة يعدونهُ مثل رسول اليهم

واما القديس فيلبس فانتقل حالًا الى ازوت وبشَّر هناك بيسوع المسيح وهكذا فعل في كل المدن حتى وصل الى قيسارية حيث جعل اقامتهُ غالبًا في البيت الذي سكنهُ القديس بولس حينما اتى المدينة المذكورة سنة ثماني وخمسين للمسيح

وكان لهُ اربع بنات وكلهنَّ تنبأنَ . وقال القديس ايرونيموس انهنَّ حفظنَ بتوليتهنَّ بموجب نذرٍ او اقل ما يكون بالتعبد . واردف القديس ايرونيموس كلامهُ قائلًا ان موهبة النبوة التي تزيَّنت بها اولئك العذارى كانت جزاء عفتهنَّ

ومن المحتمل ان القديس فيلبس مات في قيسارية . ويجب التفريق بينهُ وبين القديس فيلبس الرسول الذي توفي في مدينة هيرابوليس خلافًا لبعض المؤرخين

اليوم السابع

وفيهِ ترجمة القديس بولس الشهيد بطريرك القسطنطينية

ان هذا القديس هو احد الذين قاوموا الاريوسيين باشد شجاعة وُولد بمدينة تسالونيكي نحو ابتداء الجيل الرابع فقضى ايام حداثتهِ في درس العلوم ومطالعتها ولانهُ كان ذا عقل ثاقب تمهر فيها جدًّا. وكان علمهُ الجزيل مقترنًا بسيرة نقية واخلاق حميدة فذهب الى القسطنطينية في عصر القديس ميتروفانيوس بطريرك المدينة المذكورة . ولما عرف ذلك البطريرك بتقواهُ وعلمهِ وفصاحتهِ أحبهُ جدًّا وضمهُ الى عداد الاكليريكيين وجعلهُ كاتبًا للقديس اسكندر نائب البطريرك في المجمع النيقاوي الاول . ومن المحتمل ان تكون في هذا المجمع ابتدأت هذه المحبة الشديدة التي استمرَّت بينهُ وبين القديس اثناسيوس ومن ذلك الحين ابغضهُ الاريوسيون وطفقوا يضطهدونهُ

فلما توفّي البطريرك ميتروفانيوس المذكور خلفهُ القديس اسكندر في انتهاء السنة الخامسة والعشرين من المائة الرابعة للمسيح . فرسمهُ حينئذٍ البطريرك الجديد كاهنًا واقامهُ واعظًا للشعب القسطنطيني فقام بمقتضيات وظيفتهِ هذه ولما اشرف القديس اسكندر على الموت اشار على الاكليريكيين ان يختاروا بعد وفاتهِ بولس بطريركًا . وقد تمَّ الامر بحسب مشورتهِ في سنة اربعين وثلثمائة وتغلَّب الكاثوليكيون على الاريوسيين الذين كانوا مجتهدين في ان يقيموا على الكرسي القسطنطيني مَكيدونيوس المنافق الكافر بالوهية الروح القدس . فاذ انتصب القديس بولس بطريركًا شرع مكيدونيوس يغتابهُ ويشين عرضهُ بالتهم الفظيعة . ولما رأى انهُ لا يملك اربهُ بهذه الطريقة ذهب والتمس منهُ المسامحة واظهر لديهِ توبة كاذبة فقابلهُ القديس بوجه المسامحة لا الانتقام بحيث ظن ان توبتهُ حقيقية

غير ان الاريوسيين اثاروا بعد ذلك الاضطهاد على القديس بولس واتهموهُ بما لا يمكن ان يُصدَّق عنهُ من التهم الشنيعة وكان اخص محرضيهم على ذلك اوسابيوس الذي بعد انتقالهِ من اسقفية بيروت الى اسقفية نيكوميديا بروح الطمع افرغ كنانة الجهد ليجلس على عرش البطريركية القسطنطينية فانهُ هيَّج قسطنسيوس ملك الشرق على القديس بولس واقنعهُ بان انتخابهُ الذي حدث في غياب الملك انما كان احتقارًا لسلطانهِ فاغتاظ الملك ونفى القديس بولس في مجمع تألَّف من اساقفة اريوسيين واجلس على كرسيهِ اوسابيوس الدخيل

فاحتمل القديس هذه الاهانة بالصبر الجميل وبحيث ان اعداءهُ كانوا يطلبون قتلهُ ذهب الى مدينة تريفي حيث ذهب القديس اثناسيوس ومن هناك الى رومية التي توجَّه اليها ايضًا اثناسيوس . فقبلهُ القديس يوليوس البابا بمحبة واكرام . وبعد حكم مجمع التام برومية عاد كل الاساقفة الذين اضطهدهم الاريوسيون الى مراكزهم وكان قد مات اوسابيوس الدخيل فعاد القديس بولس الى كرسيهِ ولما لم يكن لهُ عدوٌّ سوى من كان عدوّ الايمان الكاثوليكي خرج معهُ جميع الكاثوليكيين ورافقوهُ الى كرسيهِ ولما وصلوا الى الكرسي وعظ على الشعب الغفير وعظًا اضرم في قلوبهم نار الغيرة على حفظ الايمان المستقيم وزادهم نشاطًا في العبادة . ولكنما ارطقة آريوس لم تُدفن بدفن اوسابيوس لان الاريوسيين بحركة تاوغنيس اسقف نيقية وتاودوروس اسقف اراكليا اقاموا مكيدونيوس المذكور بطريركًا على القسطنطينية

فاذ عرف الشعب الكاثوليكي ذلك النفاق لم يحتملوهُ وحدث شغب في القسطنطينية فارسل الملك جنودًا ليخرجوا القديس من المدينة وكان القائد ارموجانيس فقاومهُ الشعب وقتلوهُ . فلما بلغ خبر الفتنة وقَتْلُ القائد الى انطاكية حيث كان الملك يومئذٍ ذهب الملك المشار اليهِ الى القسطنطينية وحكم بنفي القديس بولس ثانيةً . فاغتمَّ الكاثوليكيون من جرَّاء ذلك ايَّ غمّ وكتبوا الى قُسطنت ملك الغرب ولكونهِ كاثوليكيًّا اهتم بهذا الامر وباهتمامهِ عند اخيهِ قسطنسيوس رجع القديس الى كرسيهِ مرةً ثانية . وبعد ذلك عُقد مجمع مسكوني في مدينة سرديك ببلاد ايليريا في السنة السابعة والاربعين من الجيل الرابع فاثبت هذا المجمع البطريرك القديس في كرسيهِ

على ان الاريوسيين بعد ان مات قسطنت سنة خمسين وثلثمائة في بلاد المغرب انتهزوا الفرصة وشرعوا يضطهدون البطريرك القديس فامسكهُ الملك وارسلهُ موثقًا الى المنفى بكبادوكيا واسلمهُ الى الاريوسيين . فالقوهُ

في السجن وتركوهُ هناك ستة ايام بلا ماكل ولا مشرب وافتقدوهُ عقب سبعة ايام فوجدوهُ حيًّا فاماتوهُ شنقًا في اليوم السابع من شهر حزيران سنة خمسين وثلثمائة

اليوم الثامن

وفيهِ ترجمة القديس ميدَرْدوس الاسقف

ان القديس المذكور هو احد اساقفة مملكة فرنسا وُلد في السنة السابعة والخمسين من المائة الخامسة للمسيح فكان ابوهُ نكتَرْدوس رجلاً شريفًا وعزيزًا عند الملك كلوتاريوس واسم امهِ بروتاجيا اجدادها من اشراف رومية ووهبهُ الله نفسًا منصبة على الفضائل ولاسيا فضيلة الرحمة والتعطف على المساكين . روى بعض المؤرخين انهُ في صبائهِ وجد فقيرًا عريانًا الى نصف جسمهِ فخلع حالاً ثوبهُ الثمين واعطاهُ اياهُ واذ سئل لماذا فعل ذلك اجاب بسذاجة القديسين اني وجدت في الطريق احد اخوة المسيح محتاجًا الى ثوب فاعطيتهُ اياهُ . وكان حيث يرعى غنم ابيهِ يوزّع غذاءهُ على المساكين ويبقى هو بدون غذاء ليطعمهم وفيما كان يتردد في المدارس تنبأ وقال لصبي انك ستكون اسقفًا فصار اسقفًا وهو القديس الوتاريوس الذي ذكرنا ترجمتهُ في اليوم العشرين من شهر شباط . ورأى ذات يوم تاجرًا حزينًا على موت جوادهِ فقدم لهُ واحدًا من خيل ابيهِ التي كان يسهر عليها وقتئذٍ في المرعى واخبر اباهُ بما صنع من الرحمة مع ذلك التاجر المسكين وافتقد ابوهُ الخيل فوجد عددها غير ناقص البتة فمنذ ذلك الوقت صار عزيزًا عند والديهِ وجميع الناس

فمضى بهِ ابوهُ الى اسقف مدينة فيرومَنْدا وسلمهُ اليهِ ليعلمهُ ويربيهُ فنما هناك في العلم والبرارة فرسمهُ الاسقف كاهنًا وآتاهُ الله سبحانهُ قوةً على صنع المعجزات واخراج الشياطين . قال بعض الرواة انهُ مضى يومًا ليصالح شخصين من ارباب الدولة والشرف ولانهما لم يتفقا على حدود اراضيهما اخذ القديس حجرًا ووضعهُ في مكان وداس برجلهِ الحجر قائلاً ههنا تخوم اراضيكما فاثرت رجل القديس في الحجر كانهُ شمع مذاب

فاذ ابصر هذه الاية ذانك الرجلان تراضيا حالاً وزالت من بينهما الخصومة . وحصل بعد وفاة ابيهِ على ثروة وافرة فصرفها في مساعدة المساكين والاسرى والمرضى ولانهُ لم يكن يطالب من كان يختلس مالهُ سعى الله سبحانهُ في حفظهِ . ومما قيل في هذا الصدد ان بعض اشخاص سرقوا شهدًا لهُ فوثبت عليهم النحل ولم تزل تتبعهم وتلدغهم الى ان مضوا الى القديس فنجاهم بصلاتهِ من الانتقام الالهي

وكان عليهِ السلام يطوف في الابرشية وقراها ويعلم الجميع وثابر على ذلك اربعين سنةً . ثم اتفق في هذه المدة ان الملك كلوتاريوس تغلب على سكان تلك البلاد واختلس ما وجد ثمينًا في الكنائس ووضع غنائمهُ كلها على مراكب وفيما هو عازم ان يعود بها الى مدينتهِ وقفت الخيل ولم تستطع ان تسحب المراكب فذهب الملك الى القديس فوبَّخهُ القديس حينئذٍ توبيخًا عنيفًا والزمهُ برد جميع ما اختطفهُ فحالما اعاد الغنائم ابتدأت الخيل تمشي وتجرُّ المراكب بحسب عادتها

فتوفّي اسقف المدينة وغب وفاتهِ انتخب الاكليريكيون وجميع الشعب القديس ميدَرْدوس خليفةً لهُ فارتسم اسقفًا في السنة الثلثين من المائة السادسة وكان عمرهُ حينئذٍ اثنتين وسبعين سنةً وباشر هذه الوظيفة متممًا كل واجبات الراعي الصالح وكأن رعيتهُ لم تكن كافية لغيرتهِ حتى طلب منهُ شعب ابرشية تورني ان يكون اسقفًا عليهم ايضًا بعد وفاة اسقفهم القديس الوتاريوس الذي كان تنبأ القديس ميدَرْدوس في زمن صبائهِ انهُ سيصير اسقفًا . الاّ ان هذا القديس لعلمهِ بان القوانين الكنائسية تمنع ان يكون الاسقف متوليًا على ابرشيتين لم يقبل اسقفية مدينة تورني المذكورة . فلما عرف البابا من قِبل القديس رَميجيوس افتقار الرعية المشار اليها الى اسقف اقام القديس ميدَرْدوس اسقفًا على مدينة تورني مع انهُ كان اسقف مدينة نويون باقليم بيكَرْديا حيث كان قد نقل مركزهُ بسبب غزوات البرابرة

فذهب القديس الى تورني حيث كان الوثنيون قد تكاثروا . وبدَعتهِ وطول اناتهِ وسيرتهِ الصالحة جذبهم الى الايمان فهدموا وقتئذٍ هياكل آلهتهم واقاموا موضع كل هيكل كنيسة . الاّ ان هذا التغيير العجيب لم يصر بسهولة بل بتعب شديد وآيات عديدة . هذا وانهُ بعدما تعب في هذه الكرمة خمس عشرة سنة عاد الى مقامهِ الاول ومرض هناك المرض الاخير وعادهُ في مرضهِ الملك كلوتاريوس ليعترف لهُ فعرَّفهُ القديس وحلّهُ بعد ان وضع عليهِ قانونًا واجبًا . واستأثرت بهِ رحمة المولى في اليوم الثامن من شهر حزيران سنة خمس

وأربعين وخمسمائة للمسيح

اليوم التاسع

وفيهِ ترجمة القديسين الشهيدين بريوس وأخيهِ فيليكيانوس

كان القديسان المذكوران من شرفاء رومية وأغنيائها ونالا بشرف النسب وكثرة المال اعتبارًا عظيمًا في مدينة رومية وتنصرا على يد البابا فيليكوس الاول ومع انهما كانا يتعهدان الشهداء في السجون ويشجعانهم بل يرافقانهم الى المستشهد. لم يسمح الله بان يضطهدهما الوثنيون الا انهُ بعد زمن مديد اي سنة ست وثمانين ومائتين وبعد ان خدما الشهداء جهارًا سنوات عديدة في رومية حيث كانت دماء المسيحيين لا تزال جارية انتبه اخيرًا كهنة الاوثان على كثرة الذين كانوا قد تركوا عبادة الالهة وباينوا هياكلهم بواسطة غيرة بريوس وفيليكيانوس. فشرعوا للوقت ينادون في المدينة ان الالهة مغتاظون على الشعب الروماني وانهُ لا يهدأ غضبهم ان كان لا يأتي بريوس وفيليكيانوس ويُقدّما لهم ذبيحةً

فاضطربت المدينة كلها بصراخ الكهنة ولهذا ارسل مكسيميانوس وقبض على ذينيك الاخوين القديسين فاذ امتثلا امامهُ نظر اليهما بعين الغضب وقال ماذا اسمع عنكما يا ملعوني الحظ لماذا تتبعان عبادة ترفضها الملوك فالان اما ان تقدّما ذبيحةً لالهتنا استغفارًا عن جحودكما عبادتهم واما انكما تتعذبان باشد القساوة. فاجابا وقالا لهُ لا اله الاّ الاله الذي يعبدهُ المسيحيون ولا عبادة حقيقية الا عبادتهم وانّا لمستعدان لسفك دمنا من اجل هذا الايمان القويم. فغضب الملك عليهما غضبًا بليغًا وامر ان يلقيا في السجن ولكن بعد زمن قليل من دخولهما السجن دخل ملَك وقطع قيودهما فشرعا كلاهما يشكران الله تعالى قائلين ليكن اسمك مباركًا يا ايها الاله الرحيم اله كل تعزية يا من ارسل ملكهُ ليعزّينا في السجن ويفك قيودنا كما فعل من اجل بطرس رسولهِ أنعم علينا يارب بما انعمت بهِ على هذا القديس اي ان نحتمل الموت من اجل اسمك

فاخبروا الملك بما كان فنسب هذه الاعجوبة الى قوة السحر الشيطاني وامر بتعذيبهما فضربوهما اولاً بالسياط ثم مزقوا لحميهما بآلات من حديد ومع ذلك لم تضعف شجاعة هذين الشيخين فخزي الملك ولا سيما حين تحقق انهُ لم يبقَ لجراحاتهما أثر. ثم ارسلهما الى مدينة نومنتا ليسلما الى يدي حاكمها المدعو بروموتوس عدوّ المسيحيين المهلك وامرهُ بان يلزم الاخوين المذكورين بالرجوع الى عبادة الاوثان وان يعذبهما اذا أبيا ذلك. فضربهما ذلك الرجل المتوحش الشرس الطباع اولاً بحبال مركّبة من رصاص فكان الاخوان يصليان قائلين أعنّا يا الله مخلصنا من اجل مجد اسمك يارب نجنا اظهر قوتك يارب بضعف عبديك لئلا يقول الامم اين هو الههما

فتحيّر المغتصب من شجاعتهما وفرحهما حال شدة الالم وظن انهما يقوّيان بعضهما بعضًا ففرّقهما واخذ اولاً فيليكيانوس وخاطبهُ بلطافةٍ قائلاً لهُ من المستغرب انك تختار ان تقضي حياتك في لجة العذاب فاحسن رايك وعزمك وطع امر الملك واصرف ايام شيخوختك في سلام وكرامة. اجابهُ القديس ولهُ من العمر تسعون سنة قائلاً انهُ من المستغرب حقًّا ان حاكمًا ذا عقل ثاقب يسجد لالهة كثيرين والحال ان كثرة الالهة امر مستحيل ومما يضاد العقل النطقي فاحسن انت اذًا رايك في ذلك وكن مسيحيًا لكي تكتسب جودة وسعادة لا حد لها ولا نهاية. ثم اعلم اني على الهي متكل فلا اجزع ماذا يصنعهُ بي ذو لحم. فبهت بروموتوس من شجاعة القديس وفكر ثم امر ان يسمّر بيديهِ ورجليهِ على خشب فسمرهُ الاعوان ومكث مسمرًا ثلثة ايام فامر الملك ان يجلدوهُ ويرجعوهُ الى السجن

وعقب يوم استدعى القديس بريوس وقال لهُ بمكرٍ وكذب ان اخاك عرف الصواب ورجع الى عبادة الالهة تائبًا وحاز كرامةً عند الملك فاقتدِ بمثالهِ. اما القديس بريوس فلأنّ ملكًا من السماء اخبرهُ بما جرى لاخيهِ قال للمغتصب انك باطلاً تلتجئ الى الكذب لتأخذني بأُحبولتك لاني عالم بان اخي قد صُلب وجُلد وانهُ لم يزل مسرورًا شاكرًا الله تعالى وارجو من الهي ان اكون نظيرهُ امينًا وثابتًا في عبادة سيدي يسوع المسيح

فتخلق بروموتوس بخلق وحش وقال للقديس اما انك تعبد آلهتنا الان واما انك تقاسي اشد الاعذبة. قال الشهيد لا اعبد آلهتك الكاذبة ولا أُبالي بالعقوبات المؤلمة. هلمَّ لننظر أيُّنا يعجز اولاً أأنت من التعذيب ام انا من احتمالهِ. فغضب المغتصب جدًّا وامر الاعوان فرضضوا جسد القديس ومزّقوهُ

بالضربات وكووا جراحاتهِ بشموع متقدة وكان القديس يصرخ قائلاً جرّبتني يارب واحميتني كما تحمى الفضة الا انك بقدرتك الضابطة الجميع لاتدع النار تؤلمني

ولكون القديس لم يزل شاكرًا سيدنا يسوع المسيح امر المغتصب بان يُسكب في فمهِ رصاصًا مذابًا فشربهُ القديس ككاس ماء بارد امام القديس فيليكيانوس لان الحاكم كان قد ارسل واتوا بهِ من السجن ليحضر عقوبات اخيهِ . فقال القديس ريموس للحاكم انك قد رأيت العجائب التي صنعها بنا السيد المسيح فاعترف انهُ وحدهُ هو الاله الحق . فامر الحاكم بان يقدم الاخوان فريسةً للوحوش الضارية فادخلهما الشُرَط الى الميدان واطلقوا عليهما أُسُدًا وذئابًا وكان شعب المدينة كلهم مجتمعين ليروا هذا المشهد الهائل . اما الأُسُد والذئاب فجثت على اقدام القديسين كحملان انيسة لاحسة ارجلهما بألسنتها ومتملقةً اياهما باذنابها . فصرخ الاخوان نحو المغتصب قائلين هاهوذا الوحوش الضارية تعترف بلاهوت اله المسيحيين فكيف لا تؤمن انت بالحق الظاهر . فصرخ الشعب قائلاً لا اله الاَّ الذي يعبدهُ المسيحيون وآمن منهم اكثر من الف رجل . فخاف المغتصب وحالاً قطع راس ذينك الاخوين وامر بان يُرميا كلاهما للكلاب والطيور الكاسرة لكنما الكلاب والطيور لم تمسهما وفي الليل جاء المسيحيون واخذوها ودفنوهما باحتفالٍ وهكذا نالا اكليل الاستشهاد الابدي في اليوم التاسع من شهر حزيران سنة ست وثمانين ومائتين للمسيح

اليوم العاشر

وفيهِ ترجمة القديس برنابا الرسول

ان القديس برنابا كان عبرانيًا من سبط لاوي وُلد بجزيرة قبرس وكان اسمهُ يوسف الاَّ ان الرسل بعد صعود السيد المسيح الى السماء سموهُ برنابا ومعناهُ ابن التعزية لان الله كان قد اعطاهُ موهبة خصوصية لتعزية الحزانى . وقال القديس يوحنا فم الذهب ان والديهِ كانا غنيين جدًا فارسلاهُ الى اورشليم ودرس هناك مع بولس الرسول الكتب المقدسة في مدرسة غمالائيل الذي كان معلمًا ماهرًا في معرفة التوراة ورجلاً معتبرًا عند الجميع ومنذ ذلك الوقت نشأ بين برنابا وبولس محبة خصوصية . فتمهر القديس برنابا في العلم اللاهوتي ونما في الفضيلة وكان يقسم زمانهُ بين الصلاة والدرس في الكتب الالهية وصار معتبرًا عند الناس

فعلى هذه الحال كان القديس برنابا لما ظهر سيدنا يسوع المسيح في العالم وابتدأ يعلم ويصنع العجائب لانهُ كان يعرف الكتب وكان قلبهُ مستقيمًا راغبًا في الحق ومن محبي مجيء المسيح فلما رأى اعمال يسوع وابصر عجائبهُ وفحص عن تعليمهِ وقابل ذلك بما كُتب عنهُ تعالى في كتب الانبياء ثبت عندهُ ان يسوع كان المسيح المنتظر فتتلمذ لهُ وانتظم في سلك الاثنين والسبعين تلميذًا ولم يكتفِ في ان يكون تلميذ يسوع بل عرّف آخرين بهِ تعالى واشركهم في بركتهِ

وكان للتلميذ المشار اليهِ عمة في اورشليم تدعى مريم امّ يوحنا الملقب بمرقس فاخبرها بما رأى في السيد يسوع وبرهن لها انهُ هو المسيح حقًا فآمنت هي وكل من في منزلها ومنذ ذلك الوقت صار بيتها منزلاً ليسوع مدة اقامتهِ باورشليم وكذلك الرسل كانوا يلتجئون الى ذلك المنزل بعد صعودهِ تعالى الى السماء . وقد كان للقديس برنابا حقل في اورشليم كثير الثمن فباعهُ بعد حلول الروح القدس ودفع ثمنهُ للرسل . ولما عرف ان شاول الذي هو بولس يضطهد بغيرة يهودية المؤمنين بالسيد المسيح خاطبهُ كثيرًا مبرهنًا لهُ بشهادات الكتب المقدسة ان هذا الذي ظهر وعمل العجائب هو المسيح المنتظر . الاَّ انهُ لم يذعن لنصحهِ بحيث انهُ عزَّ وجل كان قد خصص لذاتهِ توبة شاول . ولكن لما ارتد شاول عن ضلالهِ ذاك الارتداد العجيب ذهب الى القديس برنابا واخبرهُ بما جرى لهُ في الطريق بدمشق ومع حنانيا وطلب منهُ ان يقدّمهُ للرسل . فذهب برنابا واخبر الرسل بما جرى ثم قدّم لهم الرسول الجديد فقبلوهُ بفرحٍ عظيم

وبعد نحو اربع سنين او خمس تنصّر كثيرون في انطاكية بتعليم بعض التلاميذ . فلما عرف الرسل هذا الامر ارسلوا الى انطاكية القديس برنابا ليثبت اولئك المسيحيين الحديثي الايمان ولانهُ كان كما سُطّر في سفر اعمال الرسل رجلاً صالحًا قديسًا ممتلئًا من الروح القدس ازداد بكلامهِ عدد المؤمنين جدًا ولما رأى الحصاد قد كثر ذهب الى ترسوس في طلب القديس بولس . فلما وجدهُ جاء بهِ الى انطاكية فترددا هناك سنة كاملة وادخلا الى الكنيسة جمعًا غفيرًا وهم الذين دُعوا اولاً مسيحيين

حينئذٍ تمّ ما كان اغابوس احد الانبياء الانجيليين قد تنبأ واعلم المؤمنين انهُ سيكون جوع في المسكونة كلها . ولهذا اهتمّ المؤمنون الانطاكيون باحتياجات اخوتهم الذين في اليهودية فارسلوا اليهم صدقاتهم على أيدي القديسين برنابا وبولس. ولما عادا الى انطاكية أتيا بيوحنا الملقب بمرقس احد أنسباء القديس برنابا . وفيما هما يخدمان الرب في انطاكية مع سمعان الملقب بالاسود ولوسيوس الذي من قيرينا ومناهين اختار الله برنابا وبولس على نوع عجيب لتبشير الامم على أنهُ حينما كان التلامذة في احد ايام الصوم مجتمعين لخدمة الاسرار قال لهم الروح القدس افرزوا لي بولس وبرنابا للعمل الذي قد اخترتهما لهُ اي لتبشير الامم بالانجيل . ثم ارتسما بوضع الايدي وذهبا الى سلوكية ببلاد سورية ومن هناك انطلقا الى قبرس وجعلا يبشران بالانجيل المقدّس في مدينة سالامينا ثم طافا في الجزيرة كلها واتيا مدينة بافيوس ونصّرا فيها الوالي سرجيوس بولس وخلقًا كثيرًا وبعد ذلك انتقلا الى انطاكية مدينة بيسيديا وكادا ان يُرجما هناك . ولان كثيرين كانوا يتنصرون حرّض اليهود كثيرًا من تلميذاتهم المتعبدات واعيان الشعب على بولس وبرنابا واخرجوهما من المدينة . فقال لهم الرسولان بجراءة رسولية انهُ كان ينبغي ان يبشروا بالانجيل عندكم اولًا ولكن من اجل انكم ترذلونهُ وجزمتم على نفوسكم انكم غير اهل لحياة الابد فها نحن نتجه الى الامم ثم نفضا غبار احذيتهما عليهم

وذهبا الى ايقونية وهناك آمن كثيرون من الامم وبعض اليهود. ثم ذهبا الى مدينة لسطرة من بلد لوقانيا ولكثرة المعجزات التي فعلاها هناك ظن الامم انهما الهان واتوا بذبائح ليقدموها لهما . اما الرسولان فلما ابصرا ذلك مزّقا ثيابهما وصرخا نحو الجموع قائلين ما بالكم تقدّمون الذبائح اعلموا اننا بشر نظيركم قابلان الموت قد أتيناكم لنهديكم سواء السبيل ونصرفكم عن هذه الاباطيل فتؤمنوا بالاله الحق الذي خلق السماء والارض . وبعد ذلك أتى بعض يهود افسدوا قلب الشعب فرجموا بولس وجرّوهُ خارج المدينة فظنوا انهُ قد مات الا انهُ في يوم واحد وصل مع القديس برنابا الى مدينة دربة وطافا في بلد لاقونيا وبيسيديا وبمفيليا ثم ذهبا الى مدينتي برجا واتاليا وكان المؤمنون يكثرون في كل موضع وعادا اخيرًا الى انطاكية وأوضحا جميع ما صنع الله على ايديهما

فقال بعض المتنصرين من اليهود انهُ لا خلاص للمسيحيين ان لم يحفظوا الناموس الموسويّ فمن اجل ذلك ذهب بولس وبرنابا الى اورشليم ليبلغا ذلك الامر وحضرا المجمع الاول وحسبا رسولين للامم . واذ عادا الى انطاكية افترق الاثنان بعضهما من بعض ليمضي كل منهما الى حيث أُرسل . فذهب القديس بولس الى اسيا ومعهُ شيلا. اما القديس برنابا فذهب الى قبرس ومعهُ يوحنا مرقس المار ذكرهُ وبتعليمهِ وعجائبهِ جذب كل شعب تلك الجزيرة الى النصرانية ثم مضى الى بلاد ايطاليا وكرز في مدينة ميلان ثم رجع الى قبرس ليثبت رعيتهُ في الايمان . فعرف بالهام الله انهُ سيموت من اجل المسيح

واذ طلع ذلك النهار السعيد قدّم باكرًا ذبيحة القداس الالهي وامر تلميذهُ يوحنا مرقس بان يختبئ ولا يرجع الا بعد وفاتهِ ليدفنهُ . فبعد ذهاب التلميذ هجمت على القديس يهود سلامينا وجرّوهُ الى خارج المدينة ورجموهُ بالحجارة فمات شهيدًا في اليوم الحادي عشر من شهر حزيران نحو السنة الستين للمسيح

اليوم الحادي عشر

وفيهِ تراجم القديسين الشهداء باسيليوس وكيرينوس ونابور ونزاريوس

كان هؤلاء الشهداء من شرفاء الرومانيين وجنودًا معتبرين في عسكر الملك مكسنْسيوس . وكان في ذلك الزمن قسطنطين الملك الكبير قائد جيش في بلد الانكليز فلأن المسيحيين كانوا يحبونهُ ابتدأ الملك مكسنسيوس يتظاهر بالنصرانية ولم يدع الوثنيين يضطهدونهم الا انهُ بعد زمان يسير رأى حسب زعمهِ ان لا خطر عليهِ من قِبَل المسيحيين وذلك بعد ان انتصر في افريقية على اسكندر الذي كان ملكًا على العسكر الروماني اظهر مكسنسيوس سمّ قلبهِ وشدة بغضهِ للمسيحيين فاضطهدهم بكل قوتهِ وذلك في السنة التاسعة من الجيل الرابع

فلما رأى هذا الامر الشهداء المتقدم ذكرهم استعدوا للاستشهاد ووزّعوا جميع اموالهم على المساكين . وفي غضون ذلك قبض عليهم اوراليوس والي مدينة رومية فخاطبهم اولًا باكرام وقال لهم اني استدعيتكم لاعرف منكم حقيقة ما يقال

عنكم في المدينة وهو انكم مسيحيون . اما انا فلا اصدّق هذه التهمة اي انكم تمسكتم بديانة النصارى التي تبغضها الملوك العظام . فلإزالة هذا الشك المفترى بهِ عليكم ينبغي لكم ان تذهبوا معي الى الهيكل فتسجدوا لآلهتنا . فاجابهُ القديس باسيليوس ان الذي يقال عنا ليس تهمةً بل خبرًا حقيقيًّا يكسبنا شرفًا فنعترف جهارًا اننا مسيحيون وبهذا الاسم نفتخر فلا نعبد الاَّ الهًا واحدًا خالق الجميع وهو الذي يعبدهُ المسيحيون . فامر المغتصب بان يُلقوا في سجن مظلم تفوح منهُ رائحة منتنة

وبعد دخولهم السجن عزّاهم الله تعالى بفعل قدرتهِ لانهُ اضاء بغتةً في السجن نور سماوي وفاض عرف عطر لذيذ لا نظير لهُ على الارض فرام السجان ان يختبر حقيقة الامر فانحدر الى السجن فوجد الشهداء مسرورين وبعد التفتيش البالغ لم يجد سراجًا ولم يرَ من اين يأتي ذلك النور البهي فاعتقد انهُ عجيبة من الله . فجثا على اقدام الشهداء وطلب المعمودية هو وكل الذين بمنزلهِ . فلما شاع هذا الخبر استدعاهم اوراليوس ثانيةً . وكان لاولئك الاربعة الشهداء منظر عجيب اذ خرجوا من السجن بوجوه ذات هيبة وسرور واحتشام سماوي جائزين في شوارع مدينة رومية برؤوس مكشوفة مكتّفي الايدي وحاملين على مناكبهم قيودًا ثقيلة

فلما وقفوا امام اوراليوس قال لهم انهُ لا ريب في ان عذاب السجن يكون قد احسن رأيكم . على اننا قد اخبرنا ان ظلام هذا المكان المنتن ازال عن كثيرين حجاب الضلالة فارتدوا عن ضلال المسيحيين ورجعوا الى عبادة آلهتنا تائبين لعلكم تبتم مقتدين باعمالهم ومثالهم . فاجابهُ القديس باسيليوس انهُ لا جهل اكثف من جهلكم اله المسيحيين واعتقادكم بآلهة كثيرين . ثم اعلم اننا مستعدون للموت من اجل الرب المقتدر الذي نعبدهُ . فقال الحاكم انهُ لما لم يحسن رايكم في السجن فلنختبرنَّ الان هل شدة العذاب تخمد وقاحتكم . فشرع الجلادون يضربونهم بسياط مسماة بالعقارب لانهُ كان معلقًا باطرافها مهاميز بشكل العقارب وبهذه مزّقوا لحمانهم وبعد ذلك اعادوهم الى السجن وامر بان يُتركوا هناك من دون علاج . فاستمرّوا على هذه الحال سبعة ايام . والامر العجيب هو انهم كانوا على سرور عظيم يشكرون الله تعالى على عذابهم . فرام الملك مكسنسيوس ان يرى الاعجوبة فاذ مثلوا امامهُ وجدهم مسرورين وهم في حال يرثى لها تعجب منهم . ولكون الديانة المسيحية كانت تتشرّف بعجائبهم وشجاعتهم هذه امر بان تنزع رؤوسهم وهكذا حازوا اكليل المجد الذي لا يفنى وكانت وفاتهم في اليوم الثاني عشر من شهر حزيران سنة تسع وثلثمائة للمسيح

اليوم الثاني عشر

وفيهِ ترجمة القديس انطونيوس البادوي

ان هذا القديس المعظم لقّب بالبادوي من اجل اطالة سكناهُ في مدينة بادوا لكنهُ وُلد في السنة الخامسة والتسعين من المائة الثانية عشرة بليسبونا مدينة بمملكة البرتوغال ودُعي في المعمودية فرديننْدوس وكان ابواهُ معتبرين لشرف اصلهما فتربّى من صغرهِ بين الاكليريكيين القانونيين الخادمين كنيسة ليسبونا الاسقفية وهناك نما في الفضيلة وتعلم العلوم واذ بلغ السنة الخامسة عشرة من عمرهِ زهد في الدنيا ودخل دير الاكليريكيين القانونيين واقام هناك نحو تسع سنين ممارسًا لاعمال البرّ ودارسًا العلوم المقدّسة . وحينئذٍ وصل اخو ملك البرتوغال من افريقية واتى باجساد خمسة رهبان من رهبانية القديس فرنسيس الذين قُتلوا من اجل الايمان المسيحي فاضطرم في قلب فرديننْدوس شوق عظيم لسفك دمهِ ايضًا . فخرج من جماعة الاكليريكيين القانونيين وترهب في رهبانية القديس فرنسيس في السنة الحادية والعشرين من الجيل الثالث عشر راجيًا انهُ بدخولهِ هذه الرهبانية ينال اكليل الاستشهاد ومنذ ذلك اليوم دُعي باسم انطونيوس

وبعد مدة ذهب باذن رئيسهِ الى افريقية ليبشر هناك بالانجيل المقدّس ولكن اذ اصابهُ داء عضال التزم بالرجوع الى اسبانيا . وفيما هو عائد الى تلك البلاد هبت ريح عاصفة فسارت بالسفينة الى بلد صقلية ومنها وصل الى مدينة مسينا . فأُخبر هناك بان القديس فرنسيس عقد مجمعًا رهبانيًا في اسيسيا مدينةٍ بايطاليا ولفرط اشتياقهِ الى مشاهدة هذا القديس ذهب الى هناك . فاستقبلهُ القديس المعظم بمحبة عظيمة غير ان اكثر الرؤساء الذين كانوا قد اجتمعوا في تلك المدينة حسبوهُ راهبًا لا ينفع شيئًا ولم يرد احد ان يقبلهُ في ديرهِ فحزن عليهِ احدهم واتخذهُ معهُ وادخلهُ ديرًا حقيرًا على قمة جبلٍ فسكن هناك القديس زمنًا طويلاً . ولما كان يبذل

الجهد باخفاء وزناتهِ استمرّت مدفونةً الى ان حان اخيرًا اوان ظهورها ووُضع هذا السراج على المكيال . لانهُ أُرسل القديس الى مدينة فُرْلي ليرتسم كاهنًا فصادف في الدير بعض الرهبان الدومينيكانيين اتوا ليرتسموا كهنة فبعد العشاء طلب الرئيس من الرهبان الدومينيكانيين ان يعظ واحدٌ منهم الاخوة . ولما استعفى جميعهم تواضعًا التفت ذلك الرئيس الى القديس انطونيوس وامرهُ بان يعظ حالاً اولئك الاخوة فوعظ القديس واذهل عقول الحاضرين جميعًا بسعة علمهِ وفصاحة لسانهِ

فلما شعر بذلك القديس فرنسيس امرهُ ان يدرس اللاهوت وبعد مدة امرهُ بان يعلم اخوانهُ اللاهوت وكتب اليهِ: الاخ فرنسيس يهدي الى اخيهِ العزيز انطونيوس جزيل السلام من قِبل يسوع المسيح . اني رأيت من المناسب ان تفسر للاخوة كتب العلم اللاهوتي المقدس وباشر ذلك بشرط ان لا تدع ممارسة الدرس تضعف فيك ولا في الاخوة الميل الى الصلاة كما كُتب في رسومنا وهذا ما اوصيك بهِ واحثك عليهِ فوق جميع الامور وليكن الرب معك : فبهذا الامر ارتفع انطونيوس المتضع الى منبر العلماء واضاء في الكنيسة ككوكب السماء وكان الجميع يتعجبون من اتساع معرفتهِ وغزارة علمهِ

وبعد ان علّم في اربع مدن من ايطاليا وفرنسا خرج ليعظ الشعب في مدن وقرى هاتين المملكتين بغيرة رسولية وسلطان على فعل العجائب لم يُرَ مثلهُ منذ عهد الرسل وقد ردَّ من الاراطقة الى الايمان المستقيم ومن الخطأة الى التوبة خلقًا لا اعداد لهم. ومما ذكر في هذا الشان انهُ وعظ يومًا في مدينة طولوزا بمملكة فرنسا واثبت بشهادات الكتاب المقدس حقيقة وجود لاهوت يسوع المسيح وناسوتهِ في سر الافخارستيا واذ فرغ من وعظهِ التفت الى احد المبتدعين وسألهُ هل تقدر ان تنفد ما اوردتهُ من البراهين المقدسة . فاجاب المبتدع المشار اليهِ لا اقدر على تنفيدها الا انهُ لا يمكنني ان اومن بهذا السر ان لم ابصر جوادي في حين جوعهِ تاركًا الشعير الموضوع امامهُ ومتقدمًا الى الجودة الالهية ساجدًا امامها . فارتضى القديس بذلك وقال لهُ دع جوادك صائمًا ثلثة ايام ثم ايت بهِ . فترك ذلك الارطوقي جوادهُ دون اكل كليًا ثلثة ايام ثم اتى بهِ الى القديس والتأم معه كل شعب مدينة طولوزا . فخرج القديس حينئذٍ من الكنيسة حاملاً على يدهِ القربان المقدس وحينما ظهر وضع الارطوقي شعيرًا تجاه الجواد . اما القديس فقال نحو الجواد اني باسم هذا الرب الذي بين يدي آمرك ان تأتي حالاً وتخرّ لهُ ساجدًا لكي تخزي خباثة الاراطقة الناكرين وجود السيد المسيح في هذا السرّ الالهي . فترك الجواد الشعير حالاً وخرَّ امام القربان المقدس ساجدًا واستمر على هذا الحال ما بقي القديس واقفًا تجاههُ مع القربان المقدس والقى هذا المنظر سرورًا عظيمًا في قلوب الكاثوليكيين واورث الاراطقة خزيًا وعارًا . اما الارطوقي الذي كان قد طلب هذه الآية فتمَّم وعدهُ وارتدَّ الى الايمان المستقيم

ودخل القديس يومًا مدينة ريميني التي على شاطئ نهرٍ ولا تبعد عن البحر الا قليلاً جدًا ورام ان يعظ الشعب ولان الاكثرين منهم كانوا اراطقة او ارديا السيرة فلم يريدوا ان يسمعوهُ استدعاهم الى البحر والتفت الى المياه وخاطب السمك قائلاً انهُ اذ قد أَبت الناس استماع كلام الله فهلمَّ ياسمك البحر ياخلائق الله تعالى واخزي بطاعتك قساوة قلوب هولاء المنافقين . فحالاً ظهر السمك على وجه البحر من كل ناحية وكرز القديس موردًا عظمة القدرة الالهية ثم بارك السمك واطلقها وبهذه الاعجوبة تاب اهل المدينة

وقيل انهُ دخل ذات يوم بيتًا لاحد المبتدعين ليتناول طعامًا وكانوا قد مزجوا سمًّا في الاطعمة فلما جلس الهمهُ الله ان المأكل مسموم فوبّخهم على ذلك بكلام لطيف فاجابهُ الاراطقة اننا فعلنا هذا لنختبر هل انت واعظ رسولي ويتمّ فيك وعد المسيح فان كنت تتناول السم ولا يضرّك رجعنا الى ايمانك والا فلا وحسبنا تعليمك كاذبًا . حينئذٍ رسم القديس الصليب المقدس على الاكل المسموم وتناولهُ فلم يضرهُ البتة ومن اجل ذلك ارتد منهم كثيرون الى الايمان المستقيم

وقيل ايضًا انهُ لما كان في مدينة بدوا الهمهُ الله عزَّ وجل ان قومًا شكوا اباهُ كذبًا في مملكة برتوغال واتهموهُ بانهُ هو قاتل الرجل الذي وجدوهُ مقتولاً وكان الحاكم قد عزم ان يحكم عليهِ بالموت . فطلب القديس اذنًا ليخرج من المدينة قليلاً من الزمان فخرج باذن رئيسهِ وفي لحظة واحدة وصل الى بلاد البرتوغال ودخل المحكمة وقال للحاكم اني اتيت لاوضح كذب الشكوى . ثم طلب ان يحضروا جسد الانسان المقتول فلما حضر امرهُ القديس بان يقوم حيًا ويقول هل

الذي قتلهُ هو ابوهُ او لا. فنهض الميت وقال امام الجمهور ان ابا القديس بريء من دمي حينئذٍ طلب منهُ الحاكم قائلاً اسألك يا ابانا ان تلزمهُ بان يقول من الذي سفك دمهُ. فاجابهُ القديس اني قد اتيت كي اخلص من الموت ابي المتهوم ظلمًا لا لكي يُعرف المذنب ويُعذب. فعاد الميت الى قبرهِ والقديس الى ديرهِ في دقيقة واحدة من الزمن

اعلم ان ذكر جميع عجائب هذا القديس المعظم كلها ضرب من المستحيل ولذلك نقول بالاجمال انهُ كان بمجرَّد بركتهِ يشفي كل مرض فلما عرف بروح النبوة ان قد دنت ساعة وفاتهِ اختلى في مكان منفرد ليمارس هناك الصلاة. وبعد تناولهِ القربان المقدس بكمال العبادة شرع يتلو تسبحة ما لاكرام والدة الاله وفيما كان يتلوها تُوفّي بالرب في اليوم الثالث عشر من شهر حزيران في السنة الحادية والثلثين من المائة الثالثة عشرة للمسيح وعمرهُ ستٌّ وثلثون سنة

اليوم الثالث عشر

وفيهِ ترجمة القديس باسيليوس الاسقف ومعلم الكنيسة

ان القديس المذكور قد لقّب بالمعظم لانهُ كان عظيمًا في كل شيء من جهة عقلهِ وحكمتهِ وغيرتهِ وشجاعتهِ في محاربة الاراطقة. وقد وُلد بمدينة قيسارية التي باقليم كبادوكيا في السنة السادسة عشرة من الجيل الرابع. وكان ابوهُ يدعى ايضًا القديس باسيليوس ووالدتهُ كانت القديسة اميليا واما جدَّتهُ فهي القديسة مكرينا التي علمتهُ مبادئ الديانة وهو صغير السن وضعيف المزاج بعد وكانت تلميذة القديس غريغوريوس العجائبي. وكان لهُ اخوان واخت وهم القديس غريغوريوس اسقف نيصص والقديس بطرس اسقف سبسطية والقديسة مكرينا الملقبة بالصغيرة. ويتضح من ذلك ان القديس باسيليوس وُلد من قديسين شريفين وتربَّى بين القديسين. ثم انهُ كان بالطبع هاديًا وفي كل حركاتهِ منتظمًا محتشمًا كشيخ محترم

اما عقلهُ فكان حاذقًا ثاقبًا فدرس العلوم اولاً في قيسارية بعد موت جدتهِ وكان لهُ وقتئذٍ من العمر اربع او خمس عشرة سنة. ثم بعثهُ والدهُ الى القسطنطينية ليدرس العلوم السامية وتعلم في مدرسة ليبانيوس المعلم الشهير فتعجب هذا مما وجد في باسيليوس من الاستعداد للعلوم ومن النمو فيها

ومدحهُ كثيرًا في رسالاتهِ. واذ تمهَّر في تلك العلوم ذهب الى اثينا الملقبة بامّ العلوم فوجد هناك القديس غريغوريوس النزينزي وبقي يدرس معهُ سنين كثيرة حتى رقي منبر التدريس ثم عاد الى وطنهِ في السنة الخامسة والخمسين من المائة الرابعة للمسيح واخذ يعلم البيان وكان الجميع يمدحون فصاحتهُ العجيبة. فلما وجدتهُ اختهُ القديسة مكرينا غائصًا في درس العلوم الطبيعية والبشرية شرعت تذكر لهُ بطلان هذه الامور وحثتهُ على طلب العلوم الخلاصية التي ترينا الاشياء الباقية السماوية وتغرس البرّ في القلوب. وقد ذكر القديس باسيليوس انهُ لما سمع كلام اختهِ هذا اضحى كانسان قد انتبه من نوم ثقيل فشرع يبصر نور الانجيل العجيب وعرف اباطيل الدنيا وغرورها وعزم على طلب علم القديسين

فانطلق الى مصر ليعاشر القديسين السيّاح في البراري حيث كان وقتئذٍ القديسون بخوميوس ومكاريوس وبفنوتيوس وغيرهم من تلامذة القديس انطونيوس الكبير واستمرَّ هناك بعض سنين. ثم عزم على زيارة الاماكن المقدسة في بلد فلسطين.

فلما عاد الى مدينة قيسارية رسمهُ الاسقف قارئًا في الكنيسة لخوفهِ من ان تتخذهُ كنيسة اخرى غير ان نفسهُ كانت ترتاح على الدوام الى الاختلاء فاخذ يعاشر رهبان دير أسسهُ اوسطاتيوس اسقف سبسطية الآ انهُ اذ لم تسق فيهِ هذه المعاشرة حبهُ للاختلاء ترك قيسارية وتنحى الى شاطئ نهر إيريس في بلاد بونتي حيث كان موطن جدتهِ. وكانت امهُ واختهُ قد ترهبتا في دير وكتب لصديقهِ القديس غريغوريوس النزينزي ليجذبهُ اليهِ واصفًا لهُ حسن مقام اختلائهِ فجاء اليهِ القديس المذكور في آخر السنة الثامنة والخمسين من المائة الرابعة للمسيح

ومارس هناك باسيليوس ما كان رآهُ فيما بين القديسين السياح من رياضات النسك. فلما لبس المسح الخشن لم يشعر بهِ احد اذ انهُ كان لابسًا فوقهُ ثوبًا آخر. اما صومهُ فكان متصلاً وقد تتلمذ لهُ اناس كثيرون ووضع عليهم قانونًا يتضمن اسمى ما يوجد في الحياة الروحية ومن كتاب رسوماتهِ اتخذ القديسون مؤسسو الرهبانيات المختلفة اشياء كثيرة وفيما كان ينهج طريق الكمال بمثالهِ وتعليمهِ أُخبر بان اسقف قيسارية قبل بغشٍّ قانونًا آريوسيًا يدعى قانون ايمان

ريميني فخرج القديس من خلوتهِ ومضى الى ذلك الاسقف ونبههُ على زلتهِ . فرفض ذلك الاسقف جهارًا صورة الايمان الاريوسي ثم مات هذا الاسقف وجلس عوضهُ اوسابيوس فرسم القديس باسيليوس كاهنًا واقامهُ في الكنيسة واعظًا . ولكن اذ رأى ان القديس اضحى لدى الجميع معتبرًا استحوذ عليهِ الحسد واخذ يضطهدهُ فاغتاظ الشعب من ذلك جدًّا حتى اوشك ان يقع بسببهِ خصام في تلك المدينة ولذا انسلَّ وهرب باسيليوس وعاد الى بريَّتهِ الاولى وتبعهُ القديس غريغوريوس النزينزي . الا ان اسقف قيسارية انتبه فيما بعد الى شدة افتقار رعيتهِ الى القديس باسيليوس فكتب للقديس غريغوريوس النزينزي لكي يلزم القديس باسيليوس بالرجوع الى قيسارية لان الاريوسيين كانوا يقوون جدًّا هناك يومًا فيومًا . فرجع القديس وطفق يحارب الاراطقة بكل جهدهِ وقوَّتهِ

ثم تُوفّي اسقف قيسارية واجتهد الاريوسيون ان يقيموا على الكرسي رجلاً اريوسيًّا غير ان الكاثوليكيين انتصروا عليهم فارتسم القديس باسيليوس اسقفًا على تلك المدينة في اليوم الرابع عشر من شهر حزيران سنة سبعين وثلثمائة وينبغي ان نقول ان ذلك اليوم هو يوم انتصار الكنيسة الكاثوليكية على الاراطقة وعلى ضلالهم . وليس هذا فقط بل انهُ ولَّد في الشعب ميلاً الى العبادة القديمة وكتب في هذا المعنى الى احد اصدقائهِ قائلاً : ان نفسي لتبتهج جدًّا لاني اعاين الشعب المسيحي يتناول القربان المقدس اربع مرات في كل اسبوع . وحدث في عصرهِ غلاء وجوع عظيم في قيسارية فباع كل املاكهِ وانفق اثمانها في مساعدة الفقراء . واذ لم يستطع وحدهُ ان يطعم الجميع شرع يحث الاغنياء على الصدقة والاصطناع الى المساكين لا في الكنيسة فقط بل في الشوارع والبيوت ايضًا قائلاً لهم اعلموا ان ما تعطونهُ الفقير يتناولهُ السيد المسيح نفسهُ وانهُ تعالى يمسك الان عن الغني الشرير نقطة ماء في جهنم لاجل انهُ لم يعطِ المساكين الفتات الذي يتساقط من مائدتهِ وتحققوا ان الذي لا يسعف الفقير الجائع وهو قادر على ذلك فانهُ ولاريب يقتل المساكين . ثم اعتقدوا انكم تكفّرون عن خطاياكم بالصدقة وانها هي مفتاح ملكوت السماء وشجرة الحياة والكنز الخفي واللؤلؤ الثمين كما ذكر في الانجيل المقدس وزرع اسحق الذي يأتي بمائة ضعف . وزيت الشونامية الذي كثر في الآنية . ورغيف الارملة الفتية الذي لا يفنى . وسلم يعقوب التي كانت قائمة على الارض ورأسها متصلاً الى السماء . وطيب المجدلية الذي سرَّ بهِ السيد المسيح . وفي الجملة فان الصدقة رباء روحي . وبهِ نمنح رغيفًا ونتخذ بدلاً عنهُ جنة النعيم . فبهذه التعاليم وبقدوتهِ الصالحة حرَّك الاغنياء الى الصدقة وانقذ المحتاجين من مخالب الجوع

ذلك ولا جرم ان اخص الفضائل التي اشتهر بها القديس باسيليوس هي الشجاعة والثبات في محاربة الاراطقة وما قيل في هذا المعنى انهُ حينما كان الملك والنس الاريوسي يضطهد الكاثوليكيين باشد القساوة . في ذلك الوقت انطلق الملك الى قيسارية واذ اقترب من المدينة ارسل واحدًا من قواد جيشهِ لكي يلزم القديس بالاشتراك مع الاريوسيين فلما وصل رسول الملك المدعو مودستوس استدعى القديس واذ حضر قال لهُ : من اين لك هذه الجراءة المقرونة بوقاحة الوجه حتى تقاوم اوامر عزة الملك . فاجابهُ القديس بسكينة وهدو وما الذي دلَّ على اني ذو جسارة . فقال القائد يدل على ذلك عدم اتباعك لايمان الملك . فقال القديس ان الله تعالى امرني بان لا اذهب مذهبهُ ولا اومن ايمانهُ . فقال مودستوس وما رأيك في الملك وفينا نحن المتمسكين بايمانهِ . فاجابهُ القديس اني اعدُّكم اناسًا اجلاَّء في الدنيا مستحقين الاعتبار والاكرام غير اني لا اذهب اكرامًا لخواطركم مذهبًا فاسدًا مرفوضًا من الله تعالى . فاغتاظ القائد وقال لهُ أهكذا تقول في مَن يقدر ان يأخذ كل اموالك وينفيك ويقتلك . فقال لهُ القديس انك باطلاً تتوعدني بسلب الاموال وبالنفي والموت لانهُ ما الذي تأخذهُ ممن لا شيء لهُ وكيف تنفي من بحسب الارض كلها منفًى . اما الموت فانهُ عندي شيء شهي ترتاح اليهِ نفسي جدًّا . فبهت حينئذٍ القائد ثم قال للقديس اني لم اجد حتى الان اسقفًا يتكلم هكذا . اجاب القديس ان هذا دليل على انك لم تخاطب قط واحدًا منا نحن الاساقفة الكاثوليكيين لاننا جميعنا على هذه الاستعدادات . فاطلقهُ القائد قائلاً لهُ امضِ وافتكر واجبني غدًا باكرًا . قال القديس اني ساكون غدًا كما انا اليوم لا يتغير عزمي ولا يتغير ايضًا عزمك معي

فاورد مودستوس كل هذا للملك والنس فتعجب الملك من شجاعة القديس باسيليوس ومدحهُ جدًّا . وفي الغد أحب ان يحضر القداس وكان يومئذٍ عيد الظهور الالهي . فدخل

الكنيسة بكثيرين من جيشهِ وحضر الصلاة وقداس القديس وسمع عظتهُ واندهل من احتشام الشعب الكاثوليكي الماثلين امام المذبح وكان يظهر القديس على المذبح كأحد الملئكة. فادهش الملك ذلك المنظر العجيب حتى كاد يُغشى عليهِ من فرط التحيُّر ولم يجسر ان يدنو من المذبح ليقدم هداياهُ بل وضعها بعيدًا ولم يجسر احد الكاثوليكيين ان يتناولها منهُ لانها هدايا ملك ارطوقي. فبعد الخروج من الكنيسة اراد الملك ان يخاطب القديس باسيليوس وكان القديس غريغوريوس النزينزي حاضرًا فيذكر ان القديس باسيليوس تكلم امام الملك ومحفل عظائهِ على ما يتعلق بالايمان على اسلوب الهي وكان الله تعالى يتكلم بفمهِ وقد اندهل الملك وكل الذين معهُ واكرم القديس باسيليوس كثيرًا ووقف على الكنيسة ارضًا كثيرة الدخل لتوزَّع غلَّتها على الفقراء وكف عن اضطهاد الكاثوليكيين

غير انهُ ما لبث ان عاد الى غيّهِ وطلب من القديس باسيليوس ان يشترك معهُ ومع بقية الاريوسيين. ولكون القديس لم يرتضِ بذلك امر الملك بان يُرسل الى المنفى فاعدُّوا المركبة واتوا بالقديس ليتمموا امر الملك وحينما كان صاعدًا الى المركبة ليذهب نحو المنفى اعترت بغتةً ابن الملك المدعو غالاتوس حمى شديدة وشعرت الملكة باوجاع عظيمة فقالت الملكة للملك ان مرضي ومرض ابني انما هو انتقام من الله تعالى لاجل ما حكمت بهِ ظلمًا على القديس باسيليوس. فطلب ان يصلي من اجل ابنهِ لكي يشفى. فقال لهُ القديس ان آمنت بما انا أومن بهِ وكففت عن اضطهاد الكنيسة وتركتني اعمد ابنك وارَبّيهِ واعلمهُ يشفى بدون شكٍّ. فقبل الملك هذا الشرط بحسب ما قال القديس افرام فصلى القديس وشفى الابن المريض. الّا ان الملك نكث بالوعد لانهُ دعا بعد ذلك اسقفًا آريوسيًّا وعمد ابنهُ فمرض ثانيةً ومات. فقسا قلب الملك من جرَّاء التأديب الالهي وعزم ثانيةً على نفي القديس فبعد ان سطَّر الكاتب ذلك الامر وقدمهُ للملك ليمضيهُ ويختمهُ اخذ القلم ليكتب فانكسر حالاً ثم اخذ آخر فانكسر كذلك وهكذا صار في القلم الثالث ولم ينتبه الى الانتقام الالهي فتناول ايضًا قلمًا آخر فاخذت يدهُ حالاً ترتجف ولم يقدر ان يكتب شيئًا فارتاع وحينئذٍ الملك ومزَّق الورقة وترك القديس في اسقفيتهِ مستريحًا. فاذ رأى ذلك القائد مودستوس المذكور وواحد آخر من عظماء بلاط الملك ارتدَّا عن الارطقة وجاهدا في سبيل الايمان الكاثوليكي

ثم ان القديس اظهر شجاعتهُ في محلٍّ آخر. قيل ان رجلاً اريوسيًّا كان ذا كرامة ومكانة عند الملك يقال لهُ اوسابيوس فهذا ابصر يومًا ارملة شريفة القدر وجميلة المنظر فهام بحبها وشاء ان يتخذها لهُ زوجةً ولانها لم ترتضِ بذلك عزم ان يغتصبها ويكرهها على الزواج فالتجأت الى القديس في الكنيسة طالبةً منهُ ان ينقذها ممن يريد ان يمنعها عن حفظ العفة. فلما اتى اوسابيوس ليمسكها طردهُ القديس من الكنيسة. فغضب ذلك الاريوسي غضبًا عظيمًا وارسل فاخذ القديس ولما حضر امر بتمزيق ردائهِ. فقال لهُ القديس ان رمت فاني اقدّم لك بقية ثيابي فتوعَّدهُ الحاكم بالضرب والموت فلم يضطرب القديس من ذلك. اما الكاثوليكيون فلما شعروا بهذا تعصَّبوا جميعهم وذهبوا بالسيوف والاسلحة ليفتكوا باوسابيوس ولو لم يمنعهم القديس لكانوا اماتوهُ. فدخلت حينئذٍ تلك المرأة دير راهبات كانت قد ترأست عليهنَّ وارشدتهنَّ القديسة مكرينا اخت القديس باسيليوس ثمَّ ترهبت هناك

فبعد كل هذه الاضطهادات تركهُ الملك الاريوسي وساس القديس رعيتهُ بهدوٍ وراحة فلما قربت وفاتهُ اظهر الله تعالى برَّهُ وفضلهُ للقديس افرام في الرؤيا لانهُ رأى يومًا في صلاتهِ عمودًا ناريًّا وقيل لهُ ان هذا رمز الى القديس باسيليوس وأُمر بطلبهِ واستماع تعليمهِ فذهب الى قيسارية ودخل الكنيسة حينما كان القديس باسيليوس يقدّم الذبيحة الالهية وكان ثمة يظهر للقديس افرام كانهُ ملتهب وابصر حمامة جالسة على منكبهِ اليمين. واذ شعر القديس بان موتهُ قد دنا رسم كهنةً كثيرين من الذين كان قد اختبر صحة ايمانهم وحسن سيرتهم من اجل منفعة ابرشيتهِ. ثم مرض المرض الاخير وبعد زمن يسير تُوفّي بسلام في اول يوم من شهر كانون الاول في السنة التاسعة والسبعين من المائة الرابعة للمسيح وكان قد بلغ من العمر احدى وخمسين سنة الّا ان الكنيسة تعيد عيدهُ في يوم ارتسامهِ

اليوم الرابع عشر

وفيهِ تراجم القديسين الشهداء فيتوس وموديستوس وكريسَنْسيا الشهيدة

ان الله عزَّ وجل الذي اختار اضعف ما في العالم لينتصر على الاقوياء انتخب القديس فيتوس منذ نعومة اظفارهِ وصيَّرهُ اعجوبة دهرهِ . واما القديس المذكور فمولدهُ صقلية وابوهُ رجل جليل من شرفاء الوثنيين يُقال لهُ هيلاس واقام لتعليم ابنهِ رجلاً مسيحيًا يقال لهُ مودستوس ومن المحتمل انهُ علمهُ قواعد النصرانية فاعتمد واعطاهُ الله تعالى قوة لفعل العجائب وهو بعدُ ابن اثنتي عشرة سنة لا غير . فكان يشفي المرضى ويخرج الشياطين . واذ كان الملك ديوكليسيانوس يضطهد المسيحيين اضطهادًا شديدًا كان القديس فيتوس يظهر علانيةً انهُ مسيحي

فشعر بذلك فاليريانوس حاكم مدينة صقلية فاستدعى هيلاس ابا القديس وقال لهُ اني لمتعجب من كون ولدك قد صار مسيحيًا فان اردت ان تنقذهُ من الموت ردَّهُ سريعًا الى عبادة الاوثان . قال هذا ثم اطلقهُ مغضبًا فرجع هيلاس حزينًا واخذ ابنهُ سرًّا وقال لهُ ما هذا الذي اسمعهُ عنك يا ابني العزيز وهو ان المسيحيين سحروك فتعبَّدتَ لانسان مصلوب وجعلتهُ الهك . حاشاك يا ابني من ان يدخل عليك هذا الجنون وبهِ تضع حياتك في خطر الموت . فاجابهُ ابنهُ باحتشام واكرام قائلاً انك لقد ضللت يا ابي المكرَّم في حكمك على المسيحيين بانهم سحرة بحيث انهُ لا شيء اطهر واقدس من ايمانهم وسيرتهم اما موت السيد المسيح ابن الله فانهُ لا يتبين جنونًا وجهالةً الاَّ تجاه عقول الامم الذين لا يعقلون عظمة هذا السر الالهي وحكمتهُ فلما رأى هيلاس انهُ لا يقدر على ابنهِ بالتفلسف تركهُ

ولكون هذا القديس لم يزل يشفي المرضى ويخرج الشياطين بمجرد رسم الصليب المقدس ارسل فاليريانوس وقبض عليهِ فاتبعهُ والدهُ . ولما مثل الفتى القديس لدى الحاكم قال لهُ بلطفٍ ورفقٍ لماذا يا بنيَّ لا نراك في هياكلنا ولا تحضر ذبائحنا . ألا تعلم ان الملك امر بقتل جميع المسيحيين . اجاب الغلام قائلاً . اني عارف بهذا بل اني حضرت موت المسيحيين وشاهدت شجاعتهم في مكابدة الموت والعذاب . ثم اني لمتعجب من كون الملك يريد منا ان نعبد الاوثان اعمال ايدي البشر ونسجد لها . فلما سمع ابوهُ هذه الكلمات صرخ قائلاً ويلي ثم ويلي على هلاك ابني . فالتفت فيتوس وقال لابيهِ بمحبة ذات احتشام لا ترثِ لي يا ابي ولا تحزن لان الموت من اجل سيدي يسوع المسيح هو ينبوع حياة الابد . اما المغتصب فغضب وامر الاعوان فضربوا القديس بالسياط وفيما كانوا يضربونهُ بشدة القساوة سألهُ الحاكم قائلاً هل تتوب وتطيع امر الملك . فاجابهُ قائلاً ان الذي قلتهُ آنفًا اقولهُ الآن وساقولهُ دائمًا نظرًا الى اني لا اعبد آلهتكم

حينئذٍ امر الملك الجلاَّدين بان يربطوا يديَ القديس ورجليهِ ويفكوا عظامهُ . وفيما كانوا يربطونهُ يبست ايديهم ويد الحاكم ايضًا وشعر بوجع عظيم . فنسب الوثنيون ذلك لقوة السحر الاَّ ان القديس اظهر لهم ان الله تعالى هو الذي صنع هذه الاعجوبة . لانهُ دنا من الحاكم وقال نحوهُ بقوة يسوع المسيح ابن الله لتشفَ يدك فشفيت للوقت وهكذا شفى السيَّافين . وعند ذلك هدأ غضب الوالي المذكور فاطلق الفتى واوصى اباهُ ان لا يألو جهدًا في ارجاع ابنهِ الى عبادة الاوثان . فالتفت هيلاس الى واسطة شيطانية لكي يفسد ابنهُ ويبعدهُ عن الديانة المسيحية التي ترفض كل دنس . فجمع في غرفة من دارهِ فتيات جميلات المنظر ووعدهنَّ باجرة وافرة اذا جذبنهُ الى الذعارة . ثم ادخل ابنهُ تلك الغرفة واغلق الباب ومضى . فاستغاث فيتوس بالله تعالى واستعان بهِ فحالاً تلألأَ في الغرفة نور سماوي وشرع الملئكة يرنمون تسابيح الهية الى ان عاد ابوهُ فلما دخل وابصر هذا النور العجيب عمي منهُ الاَّ ان ابنهُ شفاهُ واعاد اليهِ نظرهُ باسم يسوع نور العالم

فهذه الاعجوبة التي كان حريًّا بابيهِ ان يتنصَّر بسببها جعلها واسطة ليثبت ان ابنهُ هو ساحر حقًّا فعزم على اهلاكهِ غير انهُ تعالى ارسل ملكًا من السماء وظهر لمودستوس معلم فيتوس وامرهُ بان يمضي بتلميذهِ الى شاطئ البحر وهناك يجدان مركبًا فيركبانهِ ويذهبان الى حيث يصل المركب . فقصَّ مودستوس الرؤيا لفيتوس فذهبا ووجدا المركب وسافرا فيهِ وبعد قليل وصلا الى لوكانيا بلدة بمملكة نابولي واقاما بالبرية يقتاتان مما كان يأتيهما بهِ نسرٌ في كل يوم . وفيما كانا عائشين هكذا بالبرّ والفضيلة دخل الشيطان رجلاً من المقرَّبين الى الملك وجعل يعذبهُ تعذيبًا شديدًا قائلاً انهُ لا يخرج الاَّ بامر فيتوس القاطن بلوكانيا . فارسل الملك اناسًا يطلبونهُ ويأتون

بهِ فوجدوهُ مع معلمهِ يصليان . فلما مثل القديس فيتوس امام الملك سألهُ ديوكليسيانوس بايّما حكمة انت تخرج الشياطين اجابهُ القديس قال لا تنفع في ذلك حكمة طبيعية ولا فطنة شيطانية لكن اخراج الشياطين بقوة السيد المسيح الاله الذي لاسمهِ تجثو كل ركبة ما في السماء وما على الارض وما تحت الثرى . ثم دنا من المجنون فوضع عليهِ يديهِ وصلى وبعد صلاتهِ قال ايها الروح النجس اني آمرك باسم مخلصنا والهنا يسوع المسيح بان تخرج حالاً من هذا الجسد . فحالاً خرج الشيطان بضوضاء وبجس عظيم وفتك بكثيرين من الوثنيين الذين كانوا قد جدفوا على الديانة المسيحية

فتعجب الملك وأكرم القديس فيتوس جدًا ووعدهُ بان يتبنّاهُ بالذخيرة اذا جحد الايمان المسيحي ورجع وثنيًا . اما القديس فرفض وعدهُ فغضب الملك وألقاهُ في سجن مظلم مع معلمهِ وامر ان يُتركا بدون اكل حتى يموتا جوعًا . ولكن بعد قليل لدخولها السجن انفتح بابهُ وانكسرت اغلالها واضاء نور باهر ملأ الحاضرين خوفًا ورهبةً . فذهب السجّان واخبر الملك بما كان فامر حينئذٍ ديوكليسيانوس بان يُقدّما فريسةً للوحوش فلما قُدّما التأم من الشعب الروماني نحو اربعين الف نفس ونيّف . ثم اطلقوا عليها الوحوش الضارية فعمل في ذلك الوقت القديسان علامة الصليب المقدس على جبهتيهما فاقتربت الوحوش منهما وجثت امامهما كحيوانات انيسة فصرخ الشعب متعجبًا وآمن منهم نحو الف رجل . ثم أُلقيا في اتون ملتهب فخرجا منهُ سالمين فرأت هذا امرأة يقال لها كريسنسيا فآمنت ومدحت جهارًا الديانة المسيحية ولهذا عُذّبت معهما . ثم مزّقوا اجسادهم بمخالب حديدية حتى اوشكت احشاؤهم ان تظهر فصلى القديس فيتوس وحالاً تزلزلت الارض ورعدت السماء وهدمت هياكل الاوثان وقُتل منهم خلق كثير . فهرب الملك والشعب معًا . ثم ظهر الملاك فنقل القديسين الى لوكانيا وهناك صلى القديس فيتوس وطلب من الله تعالى ان يقبلهم في جنة النعيم . فتوفوا ثلثتهم في اليوم الخامس عشر من شهر حزيران على نهاية المائة الثالثة للمسيح

اليوم الخامس عشر

وفيهِ ترجمة القديس كيروس الشهيد وامهِ القديسة يوليتا الشهيدة

ان القديسة يوليتا وُلدت بمدينة ايقونية التي باقليم ليقونيا وهي من عائلة شريفة حيث كان قد وعظ الرسولان بطرس وبرنابا . وقد تزوّجها رجل شريف النسب فعاشت معهُ كالمرأة الحكيمة الممدوحة في الكتاب المقدس مهتمة بحفظ السلام ومحترسة على منزلها وملازمة العمل ومواظبةً على الصلاة ومتجنبة معاشرة الناس . الّا ان اخص فضائلها كان الرحمة للفقراء

ولم تبقَ على الزواج زمنًا مستطيلاً لان زوجها مات في زهرة عمرهِ وخلف طفلاً صغيرًا يدعى كيروس فربّتهُ والدتهُ باهتمام مقدس وعلمتهُ مبادىء الايمان المسيحي وحالما ابتدأ ينطق كان يكرّر غالبًا بوجه البشاشة وصوت الابتهاج هذهِ العبارة انا مسيحي . فلما بلغ السنة الثالثة من عمرهِ خرج امر من الملك ديوكليسيانوس بقتل جميع المسيحيين شرقًا وغربًا فشرع دوميسيانوس الذي كان متوليًا على ليقونيا يضطهد المؤمنين بقساوة لا غاية بعدها

ففكرت القديسة يوليتا ولخوفها من ان يختطف ابنها ويقع في ايدي الوثنيين تغربت مع جاريتين كانتا لها وذهبت الى مدينة سيلوكيا . ولان المسيحيين كانوا هناك في حال اضطهاد عظيم هربت الى مدينة طرسوس في بلاد سيليكيا . ولكن على اثر وصولها الى هناك عرف اسكندر الوالي انها مسيحية فارسل وقبض عليها فمضت القديسة يوليتا بسرور قلب طالبة من الله تعالى ان يشرك ابنها في نيل اكليل الاستشهاد معها فاذ مثلت امام المغتصب وهي حاملة ابنها على ساعدها سألها الوالي هل انتِ مسيحية . فاجابتهُ القديسة اي نعم انا مسيحية وابني ايضًا . فقال لها المغتصب اما تعلمين ان الملك قد اخرج كل آلات الموت لتعذيب المسيحيين . فاجابت يوليتا ألا تعلم ايضًا ان المسيحيين مستعدون للعذاب والموت وان تعاذيبكم تزيدهم عددًا وشجاعةً . فغضب الوالي وامر بضرب القديسة فاختطفت الجنود ابنها من يديها ثم ضربوا جسدها الطاهر بشدة القساوة حتى جرى الدم من كل جهاتهِ

اما كيروس ابنها فطفق يبكي ويصرخ وكان يجتهد في ان يخرج من بين ايدي القابضين عليهِ ويمضي الى والدتهِ لانهُ كان بهيًّا ومحبوبًا فطلبهُ الحاكم ليتملقهُ ويسكتهُ وفيما هو يلاطفهُ ويريد ان يقبّلهُ رفسهُ الطفل برجليهِ وخدش وجههُ باظافرهِ ولم يزل يصرخ قائلاً انا مسيحي . فغضب المغتصب ومن شدة رجزهِ القاهُ من عرشهِ على البلاط بعزم شديد فتهشم رأس الطفل وتطاير دماغهُ ومات بازاء والدتهِ . فلما رأَت ذلك شرعت تشكر الله تعالى الذي استجاب لها وخوّل ابنها اكليل الشهادة فسمع ذلك اسكندر الوالي وامر بتعذيبها ثانيةً فمزّقوها بمخالب حديدية وسكبوا عليها قِيرًا مغلًى وهي لم تكف عن الشكر لله تعالى . واخيرًا قطعوا راسها بالسيف فماتت هكذا في اليوم السادس عشر من شهر حزيران سنة خمس وثلثمائة للمسيح . اما جاريتاها فاتتا ليلاً واخذتا جسد معلمتيهما وجسد ابنها ودفنتاها في مغارة كانت بالقرب من المدينة فبقيا هناك حتى عهد قسطنطينوس الكبير . وكانت حينئذٍ احدى الجاريتين في قيد الحياة فدلّت المسيحيين على المقام الذي فيهِ جسدا الشهيدين فجاؤا ودفنوها باحتفال عظيم وفي اول الجيل الخامس نقلهما القديس اماتور الاسقف الى بلاد فرنسا

اليوم السادس عشر

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا فرنسيس راجيس اليسوعي

ان هذا القديس وُلد في اليوم الحادي والثلثين من شهر كانون الثاني في السنة السابعة والتسعين من القرن السادس عشر ببلدة تُدعى عين مجوبة وهي بفرنسا وكان ابواهُ معتبرَين فاضلين . ومنذ نعومة اظفارهِ مالت نفسهُ الى الخير . وحينما كان يدرس العلوم في مدرسة الرهبان اليسوعيين دخل اخوية المتعبدين لمريم العذراء . ولما كانت استقامة سيرتهِ لدى الاشرار توبيخًا مضمرًا كانوا يستهزئون بهِ ويضحكون عليهِ بسبب عبادتهِ ومع ذلك لم يغيرها ولا نقص منها شيئًا . واضحى من اجل ثباتهِ على رياضات العبادة معتبرًا عند جميع الذين كانوا في المدرسة وجذب قلوبهم الى حبهِ وحب العبادة حتى تتلمذ لهُ بعضهم واسترشدوهُ وخضعوا لارائهِ وترتيبهِ وقد عاش هكذا الى ان بلغ من العمر ثماني عشرة سنة

ثم انهُ مرض مرضًا ثقيلاً اشرف بسببهِ على الموت فلما تعافى انفرد في خلوة ليسأل الله ان يلهمهُ ما الحالة التي يختارها فبعد ان بحث بحثًا واجبًا عزم على الانفراد والاعتزال ونوى الترهب . ثم طفق يسأل الله عزَّ وجل ان يلهمهُ في اية رهبانية يترهب . ثم تناول القربان المقدس وللوقت التهبت نفسهُ بغيرة عظيمة على تمجيد العزة الالهية وخلاص النفوس . ومال قلبهُ الى الرهبانية اليسوعية فاستشار في هذا الامر مرشدًا خبيرًا فثبّتهُ المرشد في عزمهِ وللحال طلب دخول الرهبانية اليسوعية وكان دخولهُ دير التجربة في السنة السادسة عشرة من الجيل السابع عشر

ولاجل اعتيادهِ على الجندية الروحية كان يستعذب ما بالدير من الافعال التقوية التي تُمارس تمجيدًا لله تعالى واعانةً على تهذيب النفس والكفّ عن المحرّمات كالصمت والاختلاء الجسدي والروحي واماتة النفس والتقشف حتى كان يقال عنهُ انهُ كان يحسب جسدهُ اعظم اعدائهِ . اما الصلاة فكانت لهُ بمنزلة روحهِ وحياتهِ وكان يظهر في الصلاة لعيون الملاء انهُ ملكٌ كريم . واما مخاطباتهُ فكانت كلها روحية متعلقة بامر الخلاص وتهذيب الاخلاق . ولما أُرسل حسب عادة رهبانيتهِ ليخدم المرضى المساكين في البيمارستان اظهر لهم حينئذٍ مزيد محبتهِ بان خدمهم بسرورٍ في احقر الامور وأكرهها فصرف مدة سنتين في دير التجربة على هذا النسق ثم نذر نذورهُ

وبعد هذا ارسلهُ رئيسهُ الى دير آخر ليتمهّر في العلوم ولما كان الدرس من شأنهِ ان يضعف القلب ويُرخي النشاط في اكتساب الكمال اقتضت الحال ان يقرنهُ بالصلاة بل انهُ في محل الدرس كان ينزل في قلبهِ روح العبادة وذلك بابراز كثير من النوافذ الروحية . ولهذا السبب كان يُدعى ملَك المدرسة . وفي ايام الاحاد والاعياد كان يطوف في القرى التي حول المدينة ليعلم الفلاّحين وفي ذلك الزمن نفسهِ انشأ عبادة خصوصية قد امتدّت في الكنيسة وهي اخوية القربان المقدس التي يتخذ كل من اعضائها وقتًا ليصرفهُ في اكرام سر القربان المقدس

ثم أُرسل ليعلم في المدارس وقد اقام على الوظيفة المذكورة سبع سنين وكان يعتني بتهذيب الطَلبة وتخريجهم في العلوم والآداب بيد انهُ كان يصرف اخص اهتمامهِ الى ان يصيرهم قديسين ايضًا . ولهذا السبب كان يحوّل تفسير العلوم للبشرية

بما يناسب علم الخلاص والاشياء الروحية . وبما انهُ كان يتكلم عنها بغيرة كان تلاميذهُ عند استماعهم كلامهُ يذرفون دموعًا . فمرض احدهم مرضًا شديدًا اشرف بسببهِ على الموت ولما يئست الاطباء منهُ وكان والداهُ والاقرباء يبكون عليهِ كانهُ قد مات . دنا وقتئذٍ يوحنا من فراشهِ وعمل علامة الصليب المقدس ثم صلى وبعد صلاتهِ خاطب ذلك المريض قائلاً لهُ ثق يا ابني لانك دون شكٍ ستشفى فيريد منك تعالى ان تحسن عبادتك لهُ منذ الان فصاعدًا . وللحال خفَّ مرض الفتى وعقب ايام قليلة تعافى تمامًا

ثم ان الرؤساء امروا يوحنا ان يستعد للارتقاء الى درجة الكهنوت ولكون الطاعة لم تدعهُ يرفض درجة القسوسة على ما كان يقتضي اتضاعهُ افرغ كنانة جهدهِ في تحسين استعدادهِ لهذه الخدمة الالهية وكان ذلك في السنة الثلثين من القرن السابع عشر في مدينة طولوزا حيث درس اللاهوت . ولما ارتسم كاهنًا وقدم الذبيحة الالهية تلألأ على المذبح كانهُ واحد من الملئكة المقربين ملتهبًا بنار المحبة السماوية ملاشيًا ذاتهُ بمزيد التهيب امام عزتهِ تعالى . وغب ذلك حدث وباء عظيم في المدينة فخدم المرضى المطعونين بامر الطاعة . وبعد ان صرف سنة في الرياضات الروحية وهي سنة التجربة الثالثة عند اليسوعيين اقامهُ رئيسهُ مرسلاً في تلك البلاد فدخل للوقت هذا القديس ميدان هذه الحرب متدججًا باسم الرب ليحارب بكل قوتهِ اعداء الله اي الاراطقة واصحاب الرذائل . على انهُ في ذلك الزمن كانت ارطقة كَلْوينوس قد افسدت تلك المدن

اعلم انهُ من الممتنع ان احدًا يباشر وظيفة الرسالة وتخليص النفوس ولا يكون قلبهُ مضطرمًا بمحبة الله وقد كانت نار المحبة تضطرم في قلب القديس المذكور كل الاضطرام حتى انهُ كثيرًا ما كان يقول ماذا اريد يارب على الارض سواك ليتني احبك كما تستحق وكما يشتهي قلبي . هذا وقد كان لهيب غرامهِ بالله يشتد في قلبهِ اشتدادًا لا تصفهُ الاقلام حتى انهُ كان يضطر الى ان يأخذ ماء باردًا ويسكبهُ على صدرهِ وكان كلامهُ كسهام نارية تنفذ القلوب وتلهبها . واما اتعاب وظيفتهِ كلها فما كان يظهر انهُ يحس بها بل انهُ كان يحسبها راحةً وتنعمًا . وحينما قام عليهِ الاشرار وضربوهُ فكان يقول اجعلني يارب اكابد حبًا بك اكثر من ذلك

وهذه المحبة الالهية مع غيرتهِ على تخليص النفوس كانت تصيّرهُ لا يبالي بالخطر والاتعاب بل اقول ان شجاعتهُ كانت تزداد بمقدار ازدياد الاخطار والاتعاب . لم يكن يستصعب شيئًا قط سوى قساوة قلب الخطأة لان نفسهُ حينئذٍ كانت تذوب من شدة الحزن . ولشدة ما حزن حينما كان يحث احد الخطأة على التوبة وذاك يقسّي قلبهُ ويأبى ان يرجع الى الله كشف يوحنا صدرهُ وقال لهُ اسألك يا اخي ان تطعنّي في صدري بسيفك ولا تسيء الى الله وتهلك نفسك

وقد كان عليهِ السلام فوق ذلك كلهِ يلبس المسح دائمًا ويتزنر بزنار مركّب من مناخز حديدية يدور على جسمهِ ادوارًا كثيرة ويجلد جسدهُ في كل ليلةٍ بقساوة متفاوتة الحدّ ذلك وانهُ ما كان يفترش الّا اديم الارض ولا ياكل الا الخبز مع قليل من البقول ولم يكن يشرب الا الماء القراح . ومع هذا لم يكن ياكل سوى مرة واحدة كل يوم . وكان في اواخر عمرهِ يضع دقيقًا في جرابٍ حينما كان يمارس وظيفة الرسالة وحين الاكل كان يمزج قليلاً من ذاك الدقيق بالماء ويتناولهُ على هذه الحال . ولم يكن ينام الا ساعتين وعلى الكثير ثلثًا وقال يومًا لاحد اصدقائهِ ما كنت احتمل هذه الحياة لو لم اجد فيها تعبًا اكابدهُ حبًا بالسيد المسيح وليس لي في الدنيا تعزيةٌ غير هذه

واما عن رياضاتهِ فاقول انهُ كان يرقد قليلاً كما ذكرنا آنفًا ثم يستيقظ ويصلي جزءًا من بقية الليل حتى اذا فرغ من الصلاة يقبل على انشاء مواعظ ثم يمضي الى الكنيسة قبل الصبح وفي ذلك الحين كان يشرح للشعب قاعدةً من قواعد الايمان المقدس . ثم يجلس ويسمع اعترافات المؤمنين ثم يعظ ثم يعود الى استماع الاعترافات ثم الى الوعظ والانذار . وكان اذا فرغ من الوعظ يرجع الى استماع الاعترافات ايضًا على نحو ما ذكرنا . ثم يقدّم ذبيحة القداس الالهي وكان عند الظهر يجمع الاطفال ويعلمهم التعليم المسيحي ويعود المرضى ويسعف الفقراء ويسالم الاخصام ويصالح الاعداء . ثم يعظ ايضًا وبعد الوعظ الثالث كان يسمع الاعترافات الى الليل

وكانت الناس تتراكض من القرى لاستماع تعاليمهِ حتى المبتدعون وكانوا يتوبون جميعهم لان الله تعالى كان قد منح كلامهُ قوة موثرة منتصرة حتى انهُ يومًا ما زار امرأةً ارطوقية شريفة القدر كانت قد قاومت كلام كل من يرشدها فقال

لها الى متى تقاومين النعمة لماذا تريدين هلاك نفسكِ التي بذل السيد المسيح عنها دمهُ الزكي. أَتفهمين ما هو هلاك نفسكِ الى الابد. فلما سمعت صوت الاب القديس تلك المرأة التي كانت تعسي قبلاً بتكبُّرٍ وتشامخ كل من كان ينصح لها ورأت غيرتهُ المقترنة باحتشام ملكي اضطربت وقالت لهُ حاشا لي ان اهلك نفسي لانني لا املك شيئًا افضل منها. فقال يجب ان تقبلي الايمان الكاثوليكي اذ لا خلاص الاَّ بهِ. فهتفت تلك المرأة حينئذٍ وقالت ما هذا التغيير الذي يتمُّ فيَّ انا التي لم تزل حتى الان ترفض مثل هذا الكلام والان اشعر في نفسي بشيءٍ ينتصر عليَّ لانني أُريد ان اكون كاثوليكية فعلَّمها الاب القديس قواعد الايمان الكاثوليكي وردَّها الى الكنيسة المقدسة

وكانت غيرتهُ على خلاص النفوس كنار آكلة حتى لم يكن التعب والخطر يستطيعان ان يمنعاهُ عن طلب النفوس الضالَّة. وقد اتفق انهُ وهو منطلق الى حيث كان الناس ينتظرونهُ والثلج قد سدَّ الطرق ولم تعد تُسلَك سار في وسط ذلك الثلج وفيما كان نازلاً من احد الجبال سقط وانكسرت ساقهُ فلم يبالِ بذلك بل نهض وشرع يمشي متوكئًا على عصاهُ ومنكب رفيقهِ ولما وصل الى الضيعة دخل الكنيسة وسمع الاعترافات. وبعد ان خرج اقبل الطبيب ليجبر رجلهُ فاذا بها قد برئت ورجعت الى ما كانت عليهِ من الصحة

انني قد سبقت فقلت ان ارطقة كَلْفينوس كانت قد افسدت هذه البلدة ولان فساد السيرة يتبع طبعًا فساد الايمان لذلك افسد الزناء كثيرين. ولكن من حيث ان الله تعالى كان قد اقام يوحنا فرنسيس راجيس لارتداد هذه النفوس. آتاهُ الله عزَّ وجلَّ قوةً على هذه الارواح النجسة. ولذلك كثيرًا ما قيل ان كلام يوحنا ومنظرهُ ومجرَّد حضورهِ كان كلٌّ منها يجذب الناس الى حب الطهارة وكم من أُناس اعترفوا لهُ ثم قالوا صريحًا انهم استشعروا التغيُّر بغتةً. وقال رجل ذو اعتبار وخبرة ان الله تعالى كان قد منح هذا القديس قوةً فاعلة عجيبة ليس لارتداد الزانيات عن الخطيئة فقط بل ليثبتنَ في التوبة عليها ايضًا. ومن ثمَّ فلم يسمع ولم يرَ ان واحدةً من الزواني اللواتي تبنَ الى الله على يدهِ رجعت الى الخطيئة اصلاً مع ان عددهنَّ وافر لا يكاد يُحصى. ومع انهُ كان يتردَّد على الدوام مع مثل هولاء لم يجسر اعداؤهُ ان يشبنون سمعتهُ بما يختص بالطهارة. وقد قال يومًا لاحد اصدقائهِ انهُ بنعمتهِ تعالى لم يشعر ابدًا بمخز اللحم. غير انهُ في محاربتهِ هذا الشيطان المسمى في الكتاب المقدس القوي شدَّدهُ الله تقدَّس اسمهُ بعفةٍ تامة وبشجاعةٍ نادرة الوجود. لان اناسًا كثيرين ممن كان قد اختطف اولئك النساء من ايديهم هجموا عليهِ مرارًا ليقتلوهُ وكان يقدم لهم صدرهُ ويقول لهم افعلوا بي ما تريدون لانني اشتهي ان اموت لاجل يسوع المسيح

وقد صنع الله سبحانهُ عجائب كثيرة لينجيهُ من ايديهم حتى انهُ كان تارةً يجعل القديس غير منظور وتارةً يجعلهُ يرهبهم بكلامهِ. وفي هذا المعنى حكي عن شابٍّ انهُ لما عرف ان المرأة التي يعشقها قد تابت بكلام هذا القديس اختبأ بجانب الطريق ليقتلهُ فلما قرب المرسل ورأى ذلك الشاب مقبلاً اليهِ عرف بالهام الله قصدهُ الرديء فتقدم للقائهِ ونظر اليهِ كعادتهِ نظرة وداعة ولطفٍ وقال لهُ يا اخي لماذا تريد شرًّا لمن يشتهي لك كل خير ويريد ان يخسر حياتهُ من اجل خلاص نفسك. فتعجب ذلك الشاب من هذه المحبة العجيبة وجثا على رجليهِ وطلب منهُ العفو وتتلمذ لهُ تائبًا

ومن اجل هذا السبب عينهِ ان ثلثة من الرجال اتوا الدير ليفتكوا بهِ فتظاهروا انهم يريدون ان يعترفوا لهُ فطلبوهُ بحسب الظاهر لهذا الغرض فأمر هو البواب ان يفتح لهم الكنيسة ونزل ليخاطبهم ولما رآهم قال لهم انهُ لا يخفى عليَّ ما قصدتم وانكم انما جئتم لتفتكوا بي الاَّ اني جعلت اتكالي على الله تعالى. اما الذي يحزنني الآن فليس هو الموت الذي اشتهيهِ بل هو حال الهلاك الذي انتم عليهِ بدون خوف. فبهت اولئك الاشرار مفكّرين كيف عرف الامر الذي لم يكشفوهُ لاحد فلبثوا متحيرين. فقال لهم حينئذٍ يوحنا اني ارغب اليكم لاجل كثرة آثامكم وعظمتها ان ترجعوا عن شروركم لانهُ سبحانهُ سيعاملكم برحمتهِ. ثم احتضنهم بمحبةٍ ابوية وطلب منهم بالحاحٍ ان يتوبوا فأصغوا الى نصحهِ واعترفوا للوقت ثلثتهم عندهُ وهم الذين اشاعوا الخبر عن ذلك

وذكر عنهُ انهُ خرج ليلةً ليسمع اعتراف انسان مشرف على الموت فصادف في الطريق اربعة رجال كانوا يترصدونهُ ليقتلوهُ فبادر الى لقائهم وقال لهم بوداعةٍ انا اعلم انكم تطلبوني لتقتلوني فها انا امامكم فافعلوا بي ما تريدون اما هم فسقطوا حالاً على الارض فتركهم وذهب الى المريض

ولما كان هذا القديس يختطف كل يوم مثل هولاء الخطأة من ايدي الشيطان كان أخزاهُ الله يغري ايضًا الناس ويحثهم على قتلهِ. قيل ان الانبا عرف ان رجلاً قد وضع في منزلهِ شابّة يتيمة فذهب حالاً الى بيتهِ وطلب تلك الشابّة فانكرها عليهِ ذلك الرجل فألحّ عليهِ بالطلب فغضب ذاك غضبًا شديدًا وانتهرهُ برجزٍ وتوعّدهُ بالضرب. اما القديس يوحنا فلم يكن يبالي بالخطر فيما يخص مجدهُ تعالى وخلاص النفوس وقال لهُ بسلطان: اعلم ايها الشقي اني اخطف منك هذه المرأة بيدي ان كنت لا تسلمني اياها برضاك. قال هذا وحالاً جذب الرجل من امام باب المنزل ودخل الى هناك فوجد المرأة مختبئة داخلاً فاخرجها وادخلها بيت امرأة فاضلة. وعاشت فيما بعد عيشة صالحة حتى ان ذاك الذي اختطفها من يدهِ تاب ايضًا

اما القديس الغيور فبعد ان أخرج اولئك النساء والبنات من حمأة الدنس لم يتغافل عنهنّ بل كان يسكنهنّ في بيوت النساء الفاضلات ليحترسنَ عليهنّ. الّا انهُ لما رأى عددهنّ قد تكاثر فكر ان يبني لهنّ ديرًا فحرّك المؤمنين الاغنياء على هذا الفعل الحميد وفي مدة قليلة بنى الدير ودعاهُ الملجأ وحصّل لهُ من الدخل ما يكفي لمعيشة ثلثين امرأة. فادخلهنّ حينئذٍ الدير ببركات وافرة. غير ان ابليس لعنهُ الله خاف وقتئذٍ من هذا العمل واجتهد ان يهدمهُ لانهُ في ابتداء ليلة من الليالي تآمر جماعة من الشبان وراموا ان يدخلوا الدير اغتصابًا. فلما أُخبر بذلك يوحنا طلب اذنًا من رئيسهِ ليمضي بسرعة الى اعانتهنّ. فقال لهُ الرئيس ماذا عسى ان تفعل وحدك يا ابانا تجاه كثيرٍ من الجهال المتعصبين. فاجابهُ المرسل اني ساقف على باب الدير ولا أدع احدًا يدخلهُ قبل ان يطرحوني قتيلاً على الارض. فقال لهُ الرئيس اني اخاف من انك اذا قُتلت يحاسبني الله سبحانهُ على موتك. فاجابهُ يوحنا قائلاً وكيف لا تخاف يا ابي من ان الله تعالى يحاسبك على انك تركت كل هذه النفوس في خطر الهلاك الابدي خوفًا من ان يموت رجل شقي مثلي اني اعد مثل هذا الموت سعادة عظيمة. فللوقت قال لهُ الاب الرئيس اذهب يا ابانا ملاحظًا بعناية الله تعالى الى حيث يدعوك مجدهُ وخلاص النفوس. فخرج حالاً يوحنا وسار مسرعًا مقدمًا لله تعالى حياتهُ في الطريق غير انهُ جل ذكرهُ اقتنع بنيتهِ فقط لانهُ قبل وصولهِ الى الدير اخبرهُ اناس بانهُ قد التأم قوم من الانام الاتقياء وطردوا اولئك الشبان الاردياء

انهُ من جملة الفضائل التي تلألأت في هذا القديس يوحنا راجيس فضيلة محبة المساكين لانهُ كان قد جعل تنعمهُ في التردّد معهم وفي تعليمهم ومساعدتهم وكان يكتب اساءهم واحتياجات كل احد منهم في قرطاس لكيلا ينساهم حتى انهُ اقام شركة اناس فضلاء لاسعافهم وهو نفسهُ كان يحث الاغنياء على مساعدتهم فسمع لهُ الاغنياء ولذلك كان بعضهم يتسوّلون. واما ما كان يحثهم بهِ على ذلك فهو قولهُ ان السبب الذي من اجلهِ احب الله تعالى ان يجعل البعض اغنياء والبعض فقراء هو ان يخلص اولئك بالغنى وهولاء بالفقر وانهُ تعالى جعل الاغنياء وكلاء عنايتهِ وقهارمنها ودفع لهم اموالاً ليوزّعوها على المحتاجين. وقد كان ليوحنا مكان للحنطة وآخر لبعض اشياء ضرورية لمساعدة المحتاجين كالاثواب والفرش وما شابه ذلك من الامتعة

وقد اظهر الله سبحانهُ عجائب كثيرة اشارةً الى انهُ يسرّ بافعال هذه المحبة. على انهُ في السنة السابعة والثلثين من القرن السابع عشر حدث غلاء عظيم في المدينة حيث كان قاطنًا هذا المرسل وكان اهل الحِرَف وارباب الصنائع على ضرورة قصوى. فتأسّف على شقائهم وعزم على مساعدتهم جميعهم فخاطب الاغنياء وأبان لمن كان منهم قد خزن مقدارًا وافرًا من الحنطة طمعًا في ارتفاع الثمن وبيعها باغلى الاسعار انهُ لا يجوز لهم ان يربحوا بتضرُّر الجمهور ولا ان يستغنوا بسبب احتياجاتهم. وكان يعظ غير هولاء من الاغنياء ويلزمهم ان يزيدوا على صدقاتهم ويضاعفوها على حسب ازدياد احتياج الشعب ويوضح لهم انهُ في حين الضرورة الكلية يلتزمون بالصدقة اشد التزام بحيث اذا لم يتمموا ما هم ملتزمون بهِ يعذبهم الله عذابًا اليمًا. والحاصل انهُ بمثل هذه النصائح وغيرها اضرم في قلوب الاغنياء نار المحبة للقريب ومن ثم فتح البعض منهم مخازنهم وشرعوا يبيعون كل طالب فاستراح الشعب زمانًا

واما بقية المكثرين من اصحاب الثروة فمالت قلوبهم الى الرحمة ودفعوا للمرسل صدقات وافرة فابتاع بها حالاً مقدارًا وافرًا من الحنطة غير ان تلك الحنطة الكثيرة كانت كلا شيء بالنسبة الى كثرة المحتاجين وكان الجميع يلومونهُ على جسارتهِ

في قولهِ انهُ سيكفي جميع الفقراء . اما هو فكان قد وضع اتكالهُ على الله سبحانهُ وتعالى المهتم بامر المساكين . واوصى وكيل الاهراء والمخازن ان يعطي كل فقير ما يطلب منهُ حتى فرغت اخيرًا المخازن من الحنطة والصندوق من الدراهم فارسل الوكيل واخبر القديس بذلك . ولكنما القديس بعد ان اخبرهُ الوكيل بهذا ارسل اليهِ امرأة تطلب منهُ حنطة فلما قدَّمت لهُ ورقة من قِبلهِ يأمرهُ بها ان يعطي تلك المرأة حنطة تعجب الوكيل من ذلك وانطلق اليهِ حالاً وقال لهُ لماذا تأمرني يا ابانا بما قد عرفت انهُ غير مستطاع أما اخبرتك بان الحنطة قد فرغت . فقال لهُ الابنا اذهب واعطِ هذه المرأة ما تطلبهُ من الحنطة . فاجابهُ الوكيل ليكن محققًا عندك يا ابي انهُ لا يوجد في الاهراء حتى ولا حبة واحدة . فقال لهُ الابنا اذهب واعطِ لانك ستجد فيهِ ما يكفي هذه المرأة واناسًا كثيرين . فذهب الوكيل حينئذٍ ليرى الاهراء مع انهُ كان متحققًا انها فارغة من الحنطة بالكلية . فاذ فتحها رآها ممتلئة حنطة فانذهل من هذا العجب الباهر ولفرط سرورهِ من ذلك عاد الى الدير سريعًا ليخبر الابنا راجيس عن الاعجوبة غير ان الاب حالما رأى الوكيل وقبل ان يقول لهُ شيئًا خاطبهُ بما نصهُ : احسن يا ابني اتكالك على جودة الله تعالى مرة اخرى واعتقد ان اهراءهُ تعالى لا تفرغ امضِ ولا تخبر احدًا بما حدث

اما الشعب الذين كانوا يرون المرسل يمنح الكل بسخاء وافر ولم يعرفوا بالاعجوبة المتقدم ذكرها فتعجبوا من ذلك لانهم لم يفهموا كيف كان يستطيع وحدهُ ان يطعم كل المحتاجين . غير ان الوكيل من حيث انهُ لم يقدر ان يكتم السرّ اخبر الناس بالمعجزة المذكورة ولم يزل يمنح كل من سألهُ الى ان فرغت الاهراء ثانيةً . ثم ذهب الوكيل واخبر القديس بما كان فقال لهُ لا تحمل همًّا من هذه الجهة انا افتكر في ذلك . فظن الوكيل انهُ قصد ان يشتري مؤونة جديدة فعاد وكنّس الاهراء ونظّفها . واذا بزُمرٍ من المساكين أتوا من قِبل يوحنا القديس وطلبوا حنطةً . فاتى الوكيل وتشكى من الاب لانهُ بعث بالفقراء اليهِ بعد ان عرف ان الاهراء قد فرغت كليًّا ثم طلب بالحاحٍ ان يشتري مؤونة اخرى فاجابهُ الاب القديس لا حاجة الى ذلك لانك ستجد في الاهراء حنطة غزيرة تكفي الجميع زمنًا مستطيلاً . فلما رجع الوكيل وجد المخازن مملوءة حنطة كانهُ لم يؤخذ منها شيء . وفي يوم آخر بعد ان كانت تلك المخازن قد فرغت ولم يبقَ من الحنطة سوى نصف كيل اتى اناس كثيرون من قِبل الاب الرحيم وطلبوا حنطة من الوكيل . اما الوكيل فمضى الى الاب المذكور واخبرهُ بانهُ لم يبقَ من الحنطة الاَّ نصف كيل وبناء عليهِ لا يقدر ان يعطي ما يطلبهُ الناس الذين ارسلهم اليهِ . فقال لهُ يوحنا اذهب واعطهم ما يطلبون من الحنطة وبعد ذلك سيفضل منها ايضًا . فذهب الوكيل واعطى الناس من الحنطة كل ما طلبوا وبعد ان اعطى واكتفى الجميع وجد من الحنطة اكثر مما كان . والعجب من ذلك كلهِ هو ان تكثير الحنطة استمرّ كل مدة الغلاء في تلك المدينة

هذا ما فعلهُ من اجل المحتاجين الاصحاء اما المساكين المرضى فانهم كانوا موضوع محبتهِ الخاصة وبعد انقضاء سنة الغلاء المذكورة دخل تلك المدينة مرض واستوبأ فيها ولازدياد عدد السقام امتلأت المستشفيات فاخذ حينئذٍ القديس يوحنا يهتم بجميعهم وكان يعزيهم ويخدمهم ولم يكن يستنكف من الرائحة الوبائية ولا من التعب وكان يخدمهم بسرور قلب وبشاشة وجه . وفيما كان يخدمهم اخبروهُ برجل مسكين مهمل في بيتهِ لاجل جراحاتهِ المنتنة فافتقدهُ حالاً ولما رآهُ على هذه الحالة توجّع لهُ وبكى وابتدأ ينظّف جراحاتهِ ويغسل ثيابهُ وقميصهُ ثم احضر لهُ فراشًا وقمصانًا . وجعل يقدّم لهُ الطعام كل يومٍ . فاتفق ان المريض شكر الاب يوحنا الحنون ودعاهُ اباهُ ومخلصهُ . فاحتضنهُ الابنا وضمهُ الى صدرهِ قائلاً لهُ لماذا تشكرني يا اخي العزيز اني بخدمتي لك اربح اكثر مما تربح انت والذي افعلهُ الان معك ليس هو شيئًا بالنسبة الى ما اشتهي ان افعلهُ لاجلك ويجب عليَّ ان اطلب منك شيئًا واحدًا وهو ان تغفر لي لاني تأخرت في خدمتك ولم اسعفك بابتداء مرضك

وقد اتفق لهُ يومًا انهُ وجد ابنةً معذَّبةً بحمى شديدة كانت تعول اهلها بشغل يدها فلما رآهم مضيقين لاجل مرض البنت جثا على ركبتيهِ وصلى ثم قام وصلّب عليها وهتف بصوتٍ عالٍ اخرجي ايتها الحمى من جسد هذه المريضة المحتاجة الى عافية لتستطيع ان تعول اهلها فحالما تم كلامهُ شفيت تلك الابنة بالكلية

ان ابا الفقراء يجب ان يموت فيما بينهم وقد اخبر صديقهُ

ان موتهُ قد اقترب وانفرد بعض ايام لكي يتأهب للموت واعترف اعترافًا عامًّا ثم خرج من المدينة ليعظ في القرى وكان ذلك في اليوم الثاني والعشرين من شهر كانون الاول في السنة الاربعين من القرن السابع عشر ثم صعد الى الجبال حيث يسكن الفلاحون . ولان الارض كانت مغطاةً بالثلوج تاه عن الطريق وبعد تعب جزيل وعناء وافر وصل الى قرية تُدعى فيرينه وكان قد دخل الليل ولم يرد احد الفلاحين ان يقبلهُ في بيتهِ فالتزم ان يأوي الى بيت مهدوم مهجور وصرف ليلتهُ كلها في ذلك البيت وكانت تهبُّ عليهِ ريح باردة جدًّا . وبما انهُ دخل ذلك المنزل عرقانًا اعترتهُ من ذلك نخزة في خاصرتهِ مع حمى شديدة . وسافر مع ذلك الى قرية لالوفيسق حيث كان الناس ينتظرونهُ . فلما رأى الاب ذلك الجمّ الغفير من الشعب دخل الكنيسة وحالاً صعد الى المنبر ووعظ ثم سمع اعترافات الناس نهار ذلك اليوم وليلهُ وهو اليوم الرابع والعشرون من شهر كانون الاول ويوم عيد الميلاد اشتدَّ عليهِ الالم وازدادت الحمى ومع هذا وعظ في ذلك اليوم ثلث مرات وفي اثناء ذلك جلس يسمع الاعترافات . وحينئذٍ خارت قواهُ بالكلية فغشي عليهِ فحملوهُ الى منزل خوري تلك البلدة . ولما افاق من غشيتهِ وانتبه على ذاتهِ سمع ايضًا اعترافات بعض الفلاحين الذين كانوا قد تبعوهُ الى المنزل فغشي عليهِ ثانيةً . وبعد ذلك اعترتهُ حمى واعترف عند احد اباء رهبانيتهِ اعترافًا عامًّا وقد شهد معلم اعترافهِ بعد موت هذا القديس انهُ في مدة حياتهِ كلها لم يخطئ خطيئة مميتة ابدًا بل انهُ لم يخطئ خطيئةً عرضية بكامل اختيارهِ اصلاً وبعد اعترافهِ وتناولهِ القربان المقدس طلب من الحاضرين ان يدعوهُ وحدهُ ليتأمل قليلاً وبعد مدة من الزمان طلب ان يحملوهُ الى اصطبل لكي يموت هناك على التبن . وفي مساء اليوم الحادي والثلثين من شهر كانون الاول انفتحت لهُ السماوات وظهر لهُ سيدنا يسوع المسيح ووالدتهُ ودعاهُ الى الملكوت . ولشدة ما ابتهجت نفسهُ من هذي الرؤيا الالهية التفت الى رفيقهِ الراهب اليسوعي وقال لهُ ما اسعد حظي يا اخي العزيز وما اشهى موتي فها انا ابصر يسوع ومريم آتيين للقاءي ليهدياني الى الوطن السماوي . ثم رفع عينيهِ الى السماء وهتف بالفاظ صحيحة واضحة وبصوت عالٍ قائلاً ياسيدي يسوع المسيح استودعك روحي وللوقت خرجت نفسهُ النقية بتمام الهدو وغاية السكينة

وكانت وفاة هذا القديس في السنة الاربعين من القرن السابع عشر واما العجائب التي صنعها في مدة حياتهِ ولم يزل يفعلها بعد وفاتهِ في كل مكان حتى في بلد الهند والدنيا الجديدة ايضًا فهيهات ان تُحصى لانها كثيرة جدًّا

اليوم السابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس افيتوس

ان هذا القديس قد وُلد باوريلاك مدينة بفرنسا بعد نصف الجيل الخامس وكان ابوهُ رجلاً فلاحًا فقيرًا . وقد ذكر انهُ لما وُلد امتلأ البيت نورًا سماويًّا باهرًا . ولأن والديهِ كانا تقيين علما ابنهما العبادة من طفوليتهِ ومن صغر سنهِ صبت نفسهُ ومالت الى الصلاة فنما في القامة والفضيلة ولما بلغ سن الشباب سلماهُ الى كاهن اعتنى بتعليمهِ مبادىء الديانة والعلوم المقدسة . وصادف يومًا راهبًا فاستخبرهُ عن احوالهم وعن سيرتهم وحالاً مضى الى الدير القريب من مدينة اوريلاك المدعو دير مينتي وطلب من الرئيس ان يقبلهُ في الدير خادمًا فتعجب الرئيس من اتضاع الشاب وسذاجتهِ المقدسة فقبلهُ في الدير ككنز ثمين

غير ان بقية الرهبان لم يظنوهُ هكذا لانهم لما رأوهُ متضعًا مطيعًا كمن ليس لهُ ارادة ذاتية حسبوهُ عادم النطق يساق الى حيثما يرى احدًا يسوقهُ . اما الرئيس فكان يعتبرهُ جدًّا واقامهُ وكيلاً على الدير فباشر هذه الوظيفة التي تبلبل روح العبادة حافظًا على الدوام روح الاختلاء والنسك . الا انهُ بالهام الله في منتصف الليل وضع مفاتيح الدير تحت وسادة الرئيس وخرج من هناك هو والقديس كاريليبوس احد رهبان ذلك الدير الذي كان من اصل شريف واتفق معهُ على ترك بلدة اقربائهما والاختلاء في مكان بعيد فسافرا ليلاً الى نهر اللوار وعبراهُ بسفينة وجداها ووصلا اخيرًا الى ارض مدينة اورليان فبلغهما خبر القديس مكسيمينوس مؤسس دير ميسي فذهبا اليهِ ولما نظراهُ وسمعا كلامهُ وتحققا برارتهُ طلبا اليهِ ان يقبلهما في ديرهِ ليستفيدا من ارشادهِ فقبلهما القديس مكسيمينوس بمنزلة رفيقين لهُ ومساعدين في تدبير ديرهِ الجديد فاصبحا قدوةً لجميع الرهبان ولما رآهما القديس يتقدمان يوميًّا في البرّ امر كلاً منهما ان يرتسم كاهنًا . اما بعد فقلّد القديس

افيتوس وكالة الدير والاعتناء باطعام الفقراء فتمّم ذلك بمحبة فائقة حتى انهُ لم يمضِ نصف السنة وللوكيل شيءٌ يوزّعهُ على الفقراء وعند ذلك قدم جمٌّ غفير من الفقراء ملتجئين اليهِ وطالبين منهُ قوتهم ففتح القديس اهراء الدير واذا بها ممتلئة من المؤنة ففرح القديس بذلك واخذ يوزعها على المساكين

الّا انهُ لم يزل يحب الاختلاء هو ورفيقهُ القديس كاربليبوس فتركا الدير وذهبا الى جنوبي اورليان ودخلا غابًا وبدأ يمارسان رياضات الصلاة والتقشف حسب نشاط عبادتهما. لان ماكلهما كان ورق الاشجار وما يشبه ذلك فاستمرًا على هذه السيرة حتى انتقل القديس مكسيمينوس الى رحمة الله تعالى في السنة الخامسة والعشرين من المائة السادسة للمسيح فحينئذٍ اختار الرهبان القديس افيتوس ليكون رئيسًا على الدير ومضوا اليهِ فاغتصبوهُ واتوا بهِ الى اسقف اورليان وذاك الزمهُ بسلطانهِ الكنائسي بقبول الرئاسة فمضى الى الدير وبحسن تدبيرهِ وبرارة سيرتهِ زها ذلك الدير بازهار الفضائل الغضة

الا ان روح الله كان يحثهُ دائمًا على الاختلاء فاذ تحقق ارادتهُ تعالى في ذلك هرب من الدير ثانيةً واختبأ في غاب بعيد عن المدن والقرى مع راهب من ديرهِ واقام هناك مجهولاً حتى اظهرهُ الله تعالى بالعجائب لانهُ قد اتفق بحادثةٍ نادرة الوجود ان شخصين يرعيان الخنازير دخلا ذلك الغاب واذا برعود وبروق وامطار حدثت فتفرقا وتبدّدت الخنازير وكان احدهما اخرس من صغر سنهِ فرأى عن بعدٍ ضوء سراج في وسط الغاب فذهب اليهِ راكضًا ليشعل عود حطب فدخل قلاية القديس افيتوس واخذ يكلمهُ بالاشارة. واما القديس فلكونهِ لم يبصر احدًا قط في ذلك الغاب ظن انهُ خيال او شيطان فعل على جبهتهِ علامة الصليب وجثا مصليًا على الارض ثم التفت الى الاخرس وصلّب عليهِ ايضًا وامرهُ بان يقول لهُ من هو وما الذي يريدهُ منهُ. فشعر الشاب بان لسانهُ المرتبط قد انفك فخرّ على رجلي القديس واخذ يصرخ قائلاً العجوبة العجوبة واخبر القديس بما جرى لهُ ثم اوقد العود وطاف في الغاب صارخًا من كل قوتهِ وداعيًا رفيقهُ باسمهِ

فشاع خبر هذه الاعجوبة وبرارة القديس افيتوس واتى اليهِ اناس كثيرون وتتلمذوا لهُ وعاشوا معهُ كسياج الشرق وقد كان من عادتهِ ان يبرز احيانًا من الدير لينفرد وحدهُ في البرية وفيما كان مختليًا هكذا توفّي الراهب الذي كان قد انفرد معهُ قبلاً فاذ عرف القديس هذا الامر عاد حالاً الى الدير ولما ابصر تلميذهُ في النعش حزن وبكى ثم صلى وبعد صلاتهِ نهض وقال للميت اني آمرك باسم الله تعالى الضابط الكل ان تأتي وتشكر الله سبحانهُ على الحياة الجديدة الموهوبة لك منهُ عزَّ وجلَّ. فقام الميت وجثا على قدمي القديس ودخل مع الاخوة الكنيسة ليقدّم لله تعالى الشكر الواجب عليهِ وقد شهد القديس لوبينوس الاسقف انهُ عرف هذا الخبر من الراهب الذي قام من الموت لانهُ عاش سنين كثيرة بعد وفاة القديس افيتوس

فتوفّي القديس افيتوس بعد قليل من حدوث هذه الاعجوبة في اليوم السابع عشر من شهر حزيران نحو السنة السابعة والعشرين من الجيل السادس ولهُ من العمر ستون سنةً

اليوم الثامن عشر

وفيهِ ترجمتا القديسين الشهيدين جرفاسيوس وبروتاسيوس

اننا اتخذنا هذا الخبر مما كتبهُ القديس امبروسيوس فاعلم ان هذين القديسين كانا توأمين وقد وُلدا بمدينة ميلان في بلاد ايطاليا وكان والدهما القديس فيتال الشهيد وامهما القديسة فاليريا الشهيدة. اما ابناهما فسارا مثل والديهما في طريق الفضيلة ولأنهما كانا قد ورثا اموالاً وافرة كانا يسعفان بها المسيحيين المضطهدين. ثم اختليا في بيتهما ومكثا هناك عشر سنين ممارسين رياضات السيرة الملكية والصوم والصلاة ومتأهبين على هذا المنوال لاكليل الاستشهاد

فاجتاز بمدينة ميلان انسطاس قائد جيش الملك ليحارب جيش اعداء المملكة. فذهب اليهِ كهنة الاوثان وقالوا لهُ من الممتنع ان تنتصر على الاعداء اذا لم تلزم جرفاسيوس وبروتاسيوس المسيحيين بعبادة الآلهة. فارتعد القائد من كلام الكهنة وقبض على القديسين واذ رأى ارتفاع قامتهما وهيبة خلقتهما لاطفهما بالكلام قائلاً لهما اني اريد ان امضي معكما الى هيكل الآلهة كي اقدّم لهم معكما ذبيحةً ونطلب منهم الانتصار على اعداء جيش المملكة. فاجاب بروتاسيوس ان اردت ان تفوز بالظفر فاطلب العون لا من آلهة لهم آذان ولا يسمعون

ولهم ايدٍ ولا يتحركون . بل التمس من رب الجيوش الاله الضابط الكل الذي هو اله المسيحيين . فصرخ كهنة الالهة قائلين ليمت الشرّير الذي يجدّف على آلهتنا . فامر انسطاس بان يُضرب القديس فضُرِب بقساوة وحشية ومات تحت الضربات

ثم التفت الحاكم الى اخيهِ وقال لهُ ان أطعت وعبدت الأوثان فيكون لك كرامة وغنى عظيم والاَّ فانت مقتول لامحالة . فقال له القديس ان سعادة الانسان ليست هي قائمة بهذه الحياة السريعة الزوال بل انما تتوقف على معرفة الاله الحق خالق السماء والارض وعلى عبادتهِ . فاعلم يقينًا ان المسيحي لايخاف من العذاب والموت واتجاسر فاقول ان انسطاس يخاف من جرفاسيوس اكثر ما يخاف جرفاسيوس منهُ . فغضب انسطاس على القديس وقال له انهُ اذ قد اخترت ان تهلك فليكن الهلاك حظك . فقال القديس وهل يمكن ان اهلك بالموت الذي يكسبني حياة الابد . قال هذا وحالاً تقدّم الجلاد وبامر الحاكم انتزع راسهُ . ثمَّ أُلقي جسديهما خارج المدينة كجيفٍ تُطرَح للوحوش فأتى ليلاً فيلبس رجل من المؤمنين ونقلها الى بيتهِ ووضعها في قبرٍ من رخام ودفنها بمنزلهِ . وكتب كل ما ذكرناهُ وترك الورقة تحت هامة القديسين

فاستمر هذا الكنز في قلب الارض مدة ثلثمائة سنة واكثر وقد اظهرهُ الله تعالى للقديس امبروسيوس بالكيفية المذكورة في رسالة هذا القديس الى اختهِ مَرْشِلينا حيث يقول لها انهُ حينما كنت اعدُّ كل شيءٍ لتكريس الكنيسة التي بنيتها في مدينة ميلان أتاني الشعب فطلبوا مني ان أكرسها كتكريس كنيسة الرسل القديسين حيث وضعت ذخائر الرسل فاجبتهم اني افعل ما تطلبون ان وجدت ذخائر قديسين فحالاً شعرت في نفسي بحركة ما باطنة سرَّتني وقوتني وبعد ان صرفت صوم الاربعين مع المؤمنين استحوذ النعاس عليَّ يومًا عند المساء وفي ابتداء رقادي انتبهت بغتةً فرأيت لديَّ شابين وعلى كلٍّ منهما ثوب ابيض طويل ورداءٌ ببياضٍ عجيب . وكانا كانهما يُصليان فلما انتبهت انتباهًا تامًا انتهت الرؤيا ولاني لم افهم معناها ضاعفت صومي وصلواتي فرأيت الرؤيا المتقدم ذكرها ثانيةً وفي الليلة الثالثة وقف بازاءي ايضًا ذانك الشابان وقد كنت حينئذٍ منتبهًا انتباهًا تامًا ومعهما شخص آخر ظننتهُ بولس الرسول عليهِ السلام بحيث كان يشبههُ صورةً فاستمر الشابان صامتين اما الشخص الثالث فقال لي ان اللذين امامك هما شهيدان معظمان في مجد يسوع المسيح وشرَّفا كنيسةً جدًّا بسيرتهما وموتهما وستجد ذخائرهما في المكان الذي تصلي فيهِ . فسألتهُ انا عن اسميهما فقال انك ستجدهما مكتوبين في لحدهما مع مختصر ترجمتهما وموتهما . فاستدعيت حالاً الاساقفة الذين في نواحي مدينة ميلان وقصصت عليهم وعلى الاكليريكيين هذه الرؤيا وذهبنا جميعًا الى المكان المعين وحفرنا الارض الى اربعة وعشرين شبرًا فوجدنا القبر المقدَّس ففتحناهُ ورأينا عمقهُ مصبوغًا بالدم واما عظام الشهيدين فكانت لم تزل صحيحةً وعلى تركيبها الطبيعي وانبعثت رائحة لذيذة من القبر تعطَّر منها المكان ثم وجدنا تحت هامتي القديسين الورقة المذكورة فقبل ان نرفعها جيءَ بمجانين كثيرين وبقوة هاتين الذخيرتين المقدستين نجوا من الشياطين . ثم نقلنا ذخائرهما الى الكنيسة وفيما كنا ننقلها دنا منها رجل اعمى معروف من كل سكان المدينة يقال لهُ ساوروس ولمس طرف الكساء الذي كانت موضوعةً عليهِ فانفتحت عيناهُ حالاً وابصر جيدًا . وكذلك شفي كثيرون من امراضهم بمجرد لمسهم ذلك الكساء بل بمجرد ظل هذه الذخيرة . انتهى قول القديس امبروسيوس . وان القديس اغسطينوس وبولينوس الكاهن كانا حاضرين عند شفاء الاعمى وشهد كلاهما عليهِ واخبرا بهِ في تاليفاتهما

اعتبر هنا ايها المؤمن ان الله تعالى شرَّف كنيستهُ بهذه المعجزات وبها عزَّى القديس امبروسيوس حينما كانت يوستينا الملكة الاريوسية والدة الملك فالنتينيانوس الصغير تضطهدهُ وتجتهد في عزلهِ عن الاسقفية لتقيم مكانهُ اسقفًا اريوسيًا بل اخزى بها الله قبلاً باجيالٍ الاراطقة المحدثين المقاومين اكرام القديسين وذخائرهم

وكانت وفاة هذين القديسين الشهيدين نحو انتهاء الجيل الاول واما انتقال جسديهما فحدث في اليوم التاسع عشر من شهر حزيران في السنة السادسة والثمانين من المائة الرابعة للمسيح

اليوم التاسع عشر

وفيهِ ترجمة القديس سِلفاريوس البابا الشهيد

انهُ اذ كان يُستينيانوس مالكًا على الشرق وتاوداتوس ملكًا على الغطط\ين في ايطاليا انطلق القديس اغابيتوس الى القسطنطينية ليطلب الصلح من قبل ملك الغططين وكان وقتئذٍ البطريرك القسطنطيني انتيموس الارطوقي اوطاخيّ المذهب غير انهُ كان يتظاهر للملك انهُ كاثوليكي قابل المجمع الخلقيدوني ولكون القديس اغابيتوس لم يرد ان يشترك معهُ نفى انتيموس بامر الملك واقام البابا القديس مِنّاس خليفة لهُ اما القديس اغابيوس فمات في القسطنطينية بعد زمان قليل سنة ستّ وثلاثين وخمسمائة للمسيح

فارسلت الملكة فيجيليوس الى رومية وأمرت بليساريوس قائد الجيش في ايطاليا بان يقيم فيجيليوس على الكرسي البطرسي وكان فيجيليوس قد وعد الملكة بالاتحاد مع انتيموس ان جلس على الكرسي الروماني . الّا ان تاوداتوس ملك الغططين لم يرتضِ بذلك فاجتمع الاكليريكيون والزم تاوداتوس بان يختاروا سِلفاريوس الذي كان مولودًا باراضي رومية وكان ابن اورمِسداس الذي بعد موت زوجتهِ ارتسم كاهنًا وصار فيما بعد بابا . نعم ان انتخاب سِلفاريوس لم يكن قانونيًا بالتمام في الابتداء الّا انهُ اصطلح فيما بعد باتفاق الاكليريكيين وكان سِلفاريوس قد ارتقى الى هذه الدرجة باستعداد غير مقدس لكنهُ بعد ارتفاعهِ اليها انتبه الى ذلك وندم امام الله تعالى على روح الكبرياء الذي كان قد حرّضهُ على اكتساب هذه الكرامة وشرع يبني الشعب المسيحي باستقامة سيرتهِ وجزيل اهتمامهِ بتدبير الكنيسة

فلما وصل فيجيليوس الى رومية ووجد سِلفاريوس جالسًا على الكرسي الرسولي لم يتجرّأ ان يحدث اضطرابًا لكنهُ لم يرتد عن غرضهِ وترجى ان يبلغ أربهُ في ايطاليا بواسطة بليساريوس قائد جيش المملكة الذي كان قد تسلط على مدينة نابولي وطرد منها الغططين

فذهب الى نابولي وقدّم لهُ رسالة الملكة التي بها تأمر بان يقيم فيجيليوس على الكرسي البطرسي فوعدهُ القائد بانهُ يتمم مطلوبه بعد ان ينتصر على الغططين ويفتح مدينة رومية وبعد قليل دخل بليساريوس رومية غير ان الغططين حاصروها حالاً ومع كونهم برابرة آريوسيين لم ينهبوا كنائس الكاثوليكيين التي في جهات رومية حتى انهم لم يحاربوا المدينة من جهة الغرب لكونها تحت حماية القديس بطرس مع ان نصف تلك الجهة كان مهدومًا وهذا الاحترام الذي اظهروهُ نحو القديس بطرس اتخذهُ اعداء القديس سِلفاريوس سببًا لان يتهموهُ بالاتفاق مع الغططين

اما فيجيليوس فعاد الى القسطنطينية واخبر تاودورا الملكة بماجرى ففكرت وارادت ان تختبر اولاً أمر البابا سِلفاريوس لكي تبلغ بذلك اربها من دون كدر ولا اغتصاب فكتبت اليهِ طالبةً منهُ ان يثبت انتيموس الاوطاخي على الكرسي القسطنطيني وبقية الاساقفة الذين طردهم عن كراسيهم المجمع الخلقيدوني. فلما قدّموا لهُ تلك الرسالة أعلموهُ من قِبل الملكة انهُ اذا خيَّب املها ولم يجبها الى ما طلبت يُطرد من كرسيهِ ويُنفى ويسقط في اشقى حال . فلم يضطرب القديس من ذلك ولم يذعن الى الملكة . وحينئذٍ كتبت تاودورا الى بليساريوس وأمرتهُ بان يقبض على البابا سِلفاريوس عدو الاوطاخيين ويطردهُ عن كرسيهِ ويقيم مكانهُ فيجيليوس . غير ان بليساريوس من حيث انهُ كان يتقي الله عزّ وجلّ خاف في اول الامر من وضع يدهِ على مسيح الرب فترك الامر ولكن بعد ذلك غلبهُ الخوف من تاودورا الملكة واخذ يطلب حجة ليضطهد القديس سِلفاريوس . ولذلك اذ تقدّم اناس وقرّفوهُ باطلاً قائلين انهُ متفق مع الغططين اعداء الملك واستشهدوا على ذلك ببعض رسائل مدّعين انهُ قد ارسلها الى الغططين المحاصرين وقتئذٍ رومية ففحص بليساريوس عن الدعوة فوجدها تهمةً محضة لكن اتخذ منها سببًا ليتمم غرض الملكة فارسل واستدعى اليهِ القديس سِلفاريوس وحثهُ على ان يرضي الملكة بالاتفاق مع انتيموس واذ لم يرتضِ القديس بذلك ارسل واخبر الاكليريكيين ان البابا قد انعزل وصار راهبًا ولم يقف ذلك القائد عند هذه الحدود بل انهُ لما رأى الشعب الروماني ملحًا في طلب راعيهِ نفاهُ الى باترا مدينة ببلاد ليكية في السنة السابعة والثلثين من المائة السادسة للمسيح والزم الاكليريكيين بان ينتخبوا فيجيليوس ويقيموهُ على الكرسي البطرسي وهذا كله عملهُ بليساريوس بمشورة امرأتهِ التي لم تزل تحثهُ يوميًا على ان يرضي الملكة

واحتمل القديس كل ذلك بالصبر الجميل شاكرًا الله تعالى على ذلك وطالبًا منهُ ان يؤهلهُ للموت من اجل الايمان المقدس والكنيسة الكاثوليكية . غير ان الله تعالى جلَّت رحمتهُ لم يدع صديقهُ بدون اعانة لان اسقف باترا لما رأَى الحبر الاعظم معزولاً من كرسيهِ ومنفيًّا ظلمًا ذهب الى القسطنطينية وتشفَّع في القديس سِلفاريوس عند الملك وبما ان يوستينيانوس كان كاثوليكيًّا نقيًّا امر ان يعود البابا سِلفاريوس الى ايطاليا بحيث يمنع من الاقامة برومية اذا اثبت عليهِ انهُ كتب الى ملك الغطظيين الرسائل المتقدم ذكرها . واذا ثبت انهُ بريٌ من هذا الذنب فليرجع الى كرسيهِ فلما شعر فيجيليوس برجوع البابا سِلفاريوس الى ايطاليا طلب من بليساريوس ان يسلمهُ القديس فسلمهُ اياهُ . وحينئذٍ نفاهُ الى جزيرة تدعى بالماريا وهناك مات جوعًا في اليوم العشرين من شهر حزيران في السنة الثامنة والاربعين من المائة السادسة للمسيح

وقد شرَّف الله تعالى قبرهِ بعجائب كثيرة ومن جملتها تغيير فيجيليوس على انهُ اي فيجيليوس بعد وفاة القديس سِلفاريوس اختارهُ الاكليريكيون جميعًا ليجلس على الكرسي الرسولي . وحينئذٍ حارب الاراطقة بكل شجاعة ولم يفعل شيئًا مما كان قد وعد بهِ تاودورا الملكة بل قال انهُ لا يتمّم وعدهُ الارطوقي لها ولو أُلزم بالنزول عن الكرسي وبالموت ايضًا . ثم حرم تاودورا الملكة نفسها لاجل ارطقتها . اما بليساريوس فاظهر توبتهُ ايضًا فكيف لا وقد ابتنى في رومية كنيسة تذكارًا لتوبتهِ

اليوم العشرون

وفيهِ ترجمة القديس لويس غونزاغا

ان هذا القديس كان من بيت مانتوا التي ببلاد ايطاليا وكان مولدهُ في السنة الثامنة والستين بعد الالف والخمسمائة وقد ارضعتهُ امهُ المباركة لبن العبادة من صغر سنهِ وكان الرب الاله يبارك على شدة اعتنائها بحسن تربيتهِ . ومن ثمَّ غدا لويس من عهد الطفولية مؤدبًا محتشمًا في جميع اقوالهِ وافعالهِ وحركاتهِ كانهُ ملك متجسد . فلما بلغ السنة السابعة من عمرهِ فرض على نفسهِ بعض رياضات روحية وعيَّن مكانًا وزمانًا ليمارسها فيهما وحفظ كل هذه الرسوم بأتم التدقيق والنشاط بحيث انهُ لم يهمل منها شيئًا بالكلية حتى في زمن مرضهِ المستطيل الذي اعتراهُ في ذلك الزمن مدة ثمانية اشهر

وكان لهذا القديس اخ اسمهُ رودلفوس يدرس معهُ العلوم في مدينة فلورنسا وهناك شرع لويس يفتكر في ما ينمي عبادتهُ ويحسّنها فنذر لله بتوليتهُ وحينئذٍ التهب قلبهُ بنشاط جديد وعزم متين. وكان اهلهُ يجدونهُ تارةً جاثيًا على الارض امام ايقونة يسوع المصلوب ذارفًا الدموع بتنهُّدٍ وتارةً في رياضات الصلاة العقلية متغاضيًا عن ذاتهِ موجهًا افكارهُ جميعها الى الامور الروحية . ومن كثرة تأملهِ في الله عزَّ وجل امتلأَ قلبهُ من روح العبادة ولذلك كان مدار احاديثهِ على الامور الروحية ومذاكرتهُ ممتلئةً عذوبةً تجذب القلوب الى العبادة

وكانت رياضاتهُ هذه مقترنةً بروح الاماتة والتقشفات ولعمري انهُ لامر عجيب ما قد مارسهُ من التقشفات في عنوان صبائهِ وضعف حداثتهِ لانهُ كان يصوم كل اسبوع ثلثة ايام ولم يكن يفطر فيها غالبًا الاَّ على الخبز والماء فقط واما في بقية الايام فكان ياكل قليلاً من ادنى ما يوجد وما عدا ذلك جميعهُ فكان يُعذّب جسدهُ ويجلدهُ بقساوة شديدة حتى ان دمهُ كثيرًا ما كان يجري على الارض وكثيرًا ما كان ينام على وجه الحضيض بدون فراش ولانهُ لم يجد مسحًا ليتردَّى بهِ زنَّر حقويهِ باشواك حديدية . واعلم ان والدتهُ اتخذت رغبتهُ في التقشفات وحسبتها من الاسباب والعلل التي لاجلها كانت تطلب من زوجها الامير بالحاح ان يرضى بترهب لويس لرجائها ان الطاعة تمنعهُ من الافراط بممارسة التقشفات

فلما بلغ من العمر ثلث عشرة سنة مضى بهِ والدهُ الى بلاط فيلبس الثاني ملك اسبانيا ليتربَّى هناك مع ابن الملك فتعجب الجميع من عبادتهِ . واتفق ذات يوم ان ابن الملك كان معهُ واذا بريح شديدة هبت وكانت تزعج ابن الملك فطفق بحركة صبائهِ يأمر الريح بان يسكن . فالتفت اليهِ لويس حالاً وكلمهُ بغيرة لطيفة محتشمة قائلاً انهُ يجوز لك يا سيدي ان تأمر الناس بما تشاء لا العناصر التي لا تطيع الاَّ باريها ولهُ تعالى ينبغي ان تخضع انت ايضًا . ثم انهُ كثيرًا ما كان يتأمل وقتئذٍ حسن سعادة الذين زهدوا في الدنيا واعتزلوا عن اهلها الى الاديرة ليعبدوهُ تعالى بكمال النشاط وعند تأملهِ ذلك كانت نفسهُ ترتاح الى الوحدة باشواق احرّ من لهيب النار

غير انهُ كان يطلب من الله بتواتر ان يظهر لهُ ويعرّفهُ اية رهبانية يريد تعالى ان يقضي فيها اجلهُ . فمال قلبهُ بالهام الله الى رهبانية اليسوعيين مع انهُ كان يعتبر جميع الرهبانيات ويوقرها . ولانهُ كان من الممتنع ان يدخل هذه الرهبانية بدون اذن والديهِ التجأ اولاً الى الله تعالى وطلب منهُ ان يعطف قلب والديهِ بحق مقصودهِ الحميد وفي اثناء ذلك كاشف والدتهُ بمقصدهِ . اما هي فاذ سمعت ذلك فرحت فرحاً عظيماً وقدّمتهُ لله تعالى من كل قلبها مع كونهِ اعز اولادها اما ابوهُ فلم يرضَ بذلك اصلاً بل احتدَّ على ابنهِ مغتاظاً . الاَّ ان لويس لم يزل ثابتاً في قصدهِ الحميد وطلب منهُ تعالى ان يغير قلب والدهِ فلم يخب املهُ بحيث لما كان والدهُ مريضاً واشتد عليهِ داء الملوك دخل لويس محل صلاتهِ ومكث هناك مقدار خمس ساعات ملتمساً من الله عزَّ اسمهُ ان يليّن قلب ابيهِ . فشعر الشاب البارُّ بان الله تعالى قد استجاب لهُ فقام وذهب الى ابيهِ مسرعاً وكلمهُ قائلاً : اني اتيت ياسيدي لأُخبرك باستعداد نفسي وبما يريدهُ الله سبحانهُ منك فليكن محققاً عند سعادتك اني لا ازال خاضعاً ومطيعاً لك ما حييت فمُرني بما تشاء الاَّ اني اسأَلك ان تتأمل جيداً وتعلم يقيناً انهُ تعالى يدعوني الى الرهبانية اليسوعية وانك بمقاومتك اياي وعدم رضاك باختياري هذه الرهبانية تقاوم بدون شكٍ ارادة الله قال هذا وخرج . اما ابوهُ فاثر فيهِ كلام ابنهِ وبعد مدة يسيرة طلبهُ واذن لهُ ان يجيب الله تعالى الى ما دعاهُ اليهِ

ليت شعري من لنا بان يصف عظم الفرح الذي شعر بهِ حينئذٍ هذا الشاب لانهُ من ساعتهِ تأهب للسفر وهيَّأَ كل شيءٍ يوافق للذهاب الى الدير وذهب عاجلاً الى رومية وبعد وصولهِ دخل الرهبانية اليسوعية وكان ذلك في السنة الخامسة والثمانين بعد الالف والخمسمائة ولهُ من العمر ثماني عشرة سنة وعند دخولهِ دير التجربة ترنَّم فرحاً بهذه العبارة : هذه هي راحتي الى دهر الداهرين ههنا اسكن لاني ارتضيت . فنسي بيت ابيهِ وشرف نسلهِ وكان يفرُّ من ذكرها ويستصعب كلام من يخاطبهُ عن ذلك لان المسكنة بالروح كانت لديهِ اشرف من الغنى وكل جاهٍ دنيويٍ . ثم انهُ اجتهد بحفظ قوانين الرهبانية حفظاً مدققاً حتى انهُ قبل وفاتهِ بزمن يسير قال لاحد اصدقائهِ سرًّا انهُ منذ ترهبهِ لم يخالف شيئاً من تلك القوانين . وزد على ذلك انهُ كان يحفظ ادنى الرسوم واحقرها لاعتقادهِ انهُ لاشيء دنيٌّ في الامور المنتسبة الى عبادة الله تعالى وان اجقر الامور الممارسة بقصد رضاهُ تعالى جليلة في الغاية . ومع ان كل امورهِ كانت منتظمة عند ترهبهِ زاد اجتهاداً في ضبطها واتقانها وكان كانهُ ينادي بالحرب دائماً على جسدهِ ولم يزل يضطهدهُ ببغضة مقدسة حتى انهُ ابطل كل نوع من التنزُّه والترفُّه وما يضاد الاحتشام الرهباني ايضاً وكان يمارس كل صنف من التقشفات . ولما قال لهُ بعض الرهبان على سبيل النصيحة انهُ عند موتهِ سيندم على فرط تقشفهِ لم يجبهم بشيء غير انهُ عند موتهِ لما ذكر هذا الامر قال للحاضرين ان ضميري لا يلذعني من جهة تقشفاتي اصلاً لاني مارستها دائماً باذن الرؤساء

وكان القديس لويس يتقوّى كل يوم في الفضيلة ويتسامى فيها واعتراهُ ضعف جسمٍ فظن روساؤهُ ان تغيير المكان يفيدهُ فارسلوهُ الى مدينة ميلان ليتم هناك درس علم اللاهوت ولما اشتد مرضهُ في تلك المدينة رجع بامر رئيسهِ الى رومية وعرف حينئذٍ بالهام الله ان موتهُ قد اقترب ومن ثم افرغ كل جهدهِ ليستأصل من قلبهِ محبة الارضيات ويصرف بقية عمرهِ متعلقاً بالامور الروحية ومتعشقاً لها ولذلك كانت حياتهُ ملكية اكثر مما كانت بشرية فكان يدرس العلوم بمجرد حركة الطاعة بدون ميل اكتسابها . وعند درسها كانت نفسهُ باطناً متعلقةً بالله تعالى وحدهُ واتحادهُ المتصل بهِ عزَّ وجل كان يضرم في قلبهِ محبة عظيمة جدًّا فكان كلما سمع كلاماً عنهُ تعالى يتقد بلهيب تلك المحبة اتقاداً غريباً

والحاصل انهُ على هذا النسق كان يتأهب الموت وفي السنة الحادية والتسعين بعد الالف والخمسمائة فشا في بلاد ايطاليا مرض وبائي واشتد جدًّا لا سيما في مدينة رومية فتقدم الرهبان اليسوعيون لخدمة المرضى وكان بينهم القديس لويس عليهِ السلام . ومات منهم بذلك الوباء جماعة كثيرون اما القديس لويس فاعتراهُ ذلك المرض ايضاً الا ان مرضهُ طال جدًّا واتلا يضيع شيءٌ من بقية حياتهِ لم يكن يتكلم الاَّ بما يخص عبادة الله وعنها كان يتكلم على الخصوص مع مرشدهِ الانبا بلَرمينوس الذي صار فيما بعد كردينالاً . فلما حان زمن وفاتهِ تناول القربان المقدس باكمل عواطف التقوى وعند تلفظهِ باسم يسوع ومريم اسلم روحهُ بسلام في

اليوم الحادي والعشرين من شهر حزيران حسب نبوتهِ في السنة الحادية والتسعين بعد الالف والخمسمائة

واعلم ان بلّرمينوس قال عنهُ وقد اثبت بالقسم ما قالهُ ان لويس غونزاغا لم يشعر اصلاً في كل زمن حياتهِ بنخز اللحم ولا بتجربة شهوانية وانهُ كان في صلواتهِ اللفظية والعقلية غالب الاوقات غير متشتت البال . وكان في الاتضاع والطاعة والامانة والعفة نموذج الكمال وقبل موتهِ بايام قليلة رأى المجد السماوي . اما القديسة مريم المجدلية دي بادزي فقد رأت في اليوم الرابع من شهر نيسان في السنة الست مائة بعد الالف هذا القديس متمتعاً في مجد القديسين ولعظم اندهاشها من مجدهِ الوسيم صرخت قائلة يالهُ من مجد يتمتع بهِ ابن اغناطيوس هذا ترى هل مجدٌ مثل هذا المجد ثمرة محبتهِ العظيمة نحو الرب يسوع

ونقتصر هنا من العجائب التي شرّفهُ الله تعالى بها على ذكر اثنتين فقط فالاولى ادرجها البلانديستيون في مؤلفهم مجلد ٥ ٢ وجه ٩١٧ وهي ارتداد امرأة زانية لها من العمر سبع وعشرون سنة كانت في مدينة برْما حيث سبّبت شكوكاً للناس اذ كرهت لزوجها ومالت الى غيرهِ بعشق مفرط حتى انها حيناً اضطربت كل الاضطراب من وعظٍ سمعتهُ وابانت للكاهن ما كانت عليهِ من التعلق بغير زوجها اردفت كلامها قائلة بتنهدٍ انني اريد ترك الخطيئة ولكن لا اقدر ان انتصر على العادة والملكة هذا وبيني وبينهُ عهدٌ لا يمكني فسخهُ وابطالهُ اذ عاهد بعضنا بعضاً بقسمٍ ان لا نتفارق ابداً . فاعلمها الكاهن انهُ لا قوة لقسمٍ قد أُبرز لعمل الشر واقنعها بان تستعمل الوسائط لتقوية ارادتها الصالحة الّا انهُ لما تحقق الكاهن انهُ لم يستفد من الوسائط الاعتيادية حرّكها ان تلتجئ الى القديس لويس غونزاغا لكونهِ قدوة الطهارة قائلاً اذهبي الى الكنيسة واجثي امام ايقونة القديس لويس غونزاغا واطلبي بشفاعتهِ ان ينزع من قلبكِ هذا العشق الرديء وانذري انكِ ان تمّ ذلك تصومين كل سنة في بيرامون عيدهِ الشريف . ففعلت المرأة كما قال لها الكاهن ووقت تضرعاتها الى القديس امام ايقونتهِ شعرت بتغيُّر قلبها واميالهِ تغيُّراً كلياً حتى انها بمقدار ما كانت تميل الى عاشقها قبلاً بمقدار ذلك اصبحت تكرههُ وتشمئز منهُ وترفض معاشرتهُ ومخاطبتهُ . ومع انهُ افرغ جدهُ وحيلهُ الشيطانية ليغير عزمها اخذت تعذب جسدها بالات التقشف والصوم ولو لم ينهها مرشدها لكانت كشفت لزوجها ولاقربائها ما كانت عليهِ من المعاشرة الزنائية سابقاً حبًّا بالتذلل . وبعد ثلثة اشهر وهي على هذهِ الحال من التوبة نُودي بالغفران المعروف بالجوبيليوم العام فاجتهدت في اكتسابها اياهُ ثم اعترفت وتناولت القربان المقدس وتمّمت الشروط الواجب تتميمها لربح الغفران ثم طلبت بشفاعة القديس لويس غونزاغا من الرب يسوع لهُ المجد ان ينهي حياتها وهي في حال النعمة . وفي هذا اليوم نفسهِ مرضت وتحققت ان طلبها قد أُستجيب وبعد ان تناولت القربان المقدس ماتت بسلام وكانت قد طلبت من زوجها وامها واقربائها الحاضرين العفو عما صدر منها لهم من الحزن وسألت مرشدها ان يعلن بالاقل لاهما سيرتها كلها لكي تصلي عن روحها

فحين جنازها حدث ما يدل على كمال توبتها وهو انهُ وقت اقتراب الناس الى جثتها اقترب ايضاً عاشقها واذ مال الى وجهها بقصد ان يُقبّلها خرج من فمها دم ومادة منتنة فارتعد العاشق وفرّ هارباً وتحقق انها ثابتة في ارتدادها وتوبتها

الاعجوبة الثانية قد تمّت في بلاد ايطاليا ايضاً في السنة الخامسة والعشرين من المائة الثامنة عشرة في ابنة شريفة القدر كانت قد قاربت الموت بعد مرض مستطيل فهذه الابنة اذ وصلت الى هذه الحال اتاها رئيس دير الرهبان اليسوعيين لكي يساعدها ويحثها على الموت الصالح فقدم لها ذخيرة القديس لويس غونزاغا وحثها على الالتجاء اليهِ فقبلتها المريضة بحسن عبادة وامتلأ قلبها فرحاً . وقد اراد الرئيس ان يترك الذخيرة في بيت تلك الابنة الّا انها قالت لهُ خذ معك يا ابانا الذخيرة المقدسة لاني غير اهل ان يكون عندي هذا الكنز العظيم فاجاب الرئيس لست آخذها الى ان تشفي من مرضكِ بشفاعة القديس لويس . ومن ذلك الوقت لم تزل تلك الابنة تلتجئ الى هذا القديس . غير ان مرضها اشتد جدًّا وحكم الاطباء بان لا رجاء في شفائها فاستمرّت على هذه الحال ثلثة ايام ولم يكن يمكنها ان تتناول شيئاً البتة من جميع المآكل والمشارب واخيراً حصلت عديمة الحركة والحسّ فمضى اناس ليأتوا بالخوري ليمنحها سر المسحة ومضى غيرهم يطلب اذناً من الاسقف ليدفنوها في الدير الذي كانت قد

عزمت ان تترهب فيهِ . فحينما كان الجميع يظنون انهُ قد حانت وفاتها قدم لها رئيس اليسوعيين الذخيرة المار ذكرها وقال لها اتريدين ذخيرة القديس لويس ومع انها لم تكن تسمع ولا تعقل شيئًا منذ زمن كما شهدت هي فيما بعد على ذلك سمعت حسنًا صوت الرئيس ولا سيما لما لفظ اسم القديس لويس وحصلت باطنًا على فرحٍ عظيم وسمعت صوتًا كانهُ يخاطب قلبها قائلاً ان المغبوط القديس لويس استماح من الله سبحانهُ شفاءكِ والرب استجاب لهُ . فيالهُ من عجبٍ مستغرب لانها حالاً شعرت بالشفاء وذاك الوجه الذي كان استحال الى صورة شنيعة رجع بغتةً الى رونقهِ الاول والتفتت الى الرئيس وقالت لهُ بصوت قوي قد برئتُ يا ابانا من مرضي . فسألها الرئيس قائلاً ومن ذا الذي شفاكِ . فاخذت وقتئذٍ الذخيرة المقدسة وقبّلتها ثم قالت ها هوذا الذي شفاني . فسألها الرئيس ثانيةً قال لها ومن الذي شفاكِ . فاجابتهُ الابنة ان الطوباوي لويس غونزاغا هو الذي أبراني . فتقدم الطبيب وقال لها أما تحسّين الان بوجع معدتكِ المميت . فاجابتهُ قائلة اني لست اشعر بادنى وجع . فانذهل الجميع من هذه الاعجوبة ولبثوا صامتين متحيرين من عظمتها ولا سيما ابويها اللذين كانا قد خرجا من المنزل لئلا يحضرا موت ابنتهما العزيزة فاذ أُخبرا بما كان اتيا مسرعين ولما نظراها متعافية بالكلية اذرفا الدموع من فرط فرحها وطفقا يسبحان الله تعالى الصانع العجائب بقديسيهِ وكان الحاضرون جميعًا يسبحون الله تعالى ويشكرون القديس لويس غونزاغا الذي بشفاعتهِ تمّت هذه الاعجوبة . اما الابنة فنهضت حالاً من الفراش وتناولت المآكل بقابلية وفي ليلة ذلك اليوم رقدت رقادًا ثقيلاً مدة تسع ساعات ثم نهضت ومضت ماشيةً مع امها الاميرة الى كنيسة الاباء اليسوعيين وهناك اعترفت وتناولت القربان المقدس شكرًا لله وللقديس شفيعها . فهذا ما رآهُ اناس كثيرون وشهدوا بحقيقتهِ . وقد فحص عن هذه الاعجوبة اسقف المدينة بامر الحبر الروماني واثبتها بختمهِ . فتبارك الله العجيب في قديسيهِ الى دهر الداهرين

اليوم الحادي والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس اوسابيوس اسقف سميساط

ان المؤرخين لم يذكروا عن هذا القديس الاّ ما فعلهُ من الغيرة نحو الكنيسة الكاثوليكية في الزمان الذي كان فيهِ اكثر الكراسي بتلك الجهات يجلس عليها اساقفة اريوسيون . وهو انهُ بعد ان انتخب القديس ملاتيوس بطريرك انطاكية في مجمع اساقفة بانطاكية في السنة الحادية والستين من المائة الرابعة كما ذكرنا في ترجمة هذا البطريرك البار في اليوم الثاني من شهر شباط سلّم الاباء صورة هذا الانتخاب الى القديس اوسابيوس فمضى بها الى اسقفيتهِ واذ قام الاريوسيون على القديس ملاتيوس فنُفي هذا واختير غيرهُ بطريركًا أرسل الملك قسطنسيوس بوشاية الاريوسيين وطلب صورة الانتخاب من القديس اوسابيوس . فقال للرسول انهُ لمن المستحيل ان اردّ هذه الوثيقة للملك لانها وديعة مسلَّمة لي من الاباء . فاغتاظ الملك من هذا الجواب فبعث اليهِ رسولاً آخر وكتب اليهِ ما نصهُ : اني ارسلت جنديًّا ليقطع يدك اليمنى ان كنت لا تسلمني الوثيقة . غير ان الملك كان قد اوصى المرسل سرًّا بالاّ يقطع يدهُ . فبعد ما قرأ القديس هذه الرسالة قدّم حالاً للجندي يدهُ اليمنى مع اليسرى وقال لهُ اقطع الاثنتين فاني لن اسلّم هذه الورقة المثبتة بها رداءة الاريوسيين . فاذ سمع الملك هذا الامر مدح شجاعة القديس وتركهُ الا انهُ مات بعد زمن يسير

فلما جلس والنس على كرسي المُلك واخذ يضطهد الكاثوليكيين نفى القديس اوسابيوس الى بلد تراسيا في السنة الثالثة والسبعين بعد الثلث مائة . واما كيفية نفيهِ فكانت هكذا . انهُ لما وصل الرسول الى سميساط وبلغ القديس امر الملك قال لهُ القديس اكتم امر الملك حتى الليل لئلا ينهض عليك الكاثوليكيون فيقتلوك . فذهب القديس الى الكنيسة واكمل صلاة المساء وخرج سرًّا من المدينة وركب سفينةً وسار بها الى زوغما مقام على شاطئ الفرات الاّ ان اهل سميساط جاؤا اليهِ افواجًا افواجًا باكين متضرعين والحوا عليهِ بالرجوع الى كرسيهِ . اما القديس فاخذ يسكّنهم ويلين اضطرابهم وحثهم على ان يخضعوا لامر الملك بل ليتكلوا على الرب ولا يزالوا ثابتين في الايمان الصحيح . هذا وما قدموهُ لهُ لسد احتياجات النفي لم يقبل منهُ الاّ شيئًا قليلاً وباركهم وذهب على هذه الحال الى بلد تراسيا في السنة الثالثة والسبعين من المائة الرابعة للمسيح . هذا وفي السنة السادسة والسبعين من المائة الرابعة لما غزا الغططبون بلاد تراسيا

والتزم والنس ان يرجع الى ايطاليا اذن للاساقفة الكاثوليكيين بالرجوع الى كراسيهم فرجع القديس اوسابيوس الى سميساط ووصل اليها بعد موت والنس الذي خلفهُ غراتيانوس التقي واذ امر الملك المذكور ان تُرَد للكاثوليكيين كنائسهم اخذ هذا القديس يجول البلدان ويباشر هناك وظيفة الرسالة لانهُ رأى كنائس كثيرة بلا رعاة بحيث كان الاراطقة قد طردوهم ونفوهم وطاف هكذا في بلاد سورية وفينيقيا وفلسطين ورسم هناك كهنة واساقفة لخدمة الكنائس وتثبيت المؤمنين في الايمان الكاثوليكي . وفيما كان داخلاً مدينة زوليكا بصحبة اسقفها الجديد القت على هامتهِ امرأة اريوسية اجرّة ثقيلة وتُوفّي بالرب وقبل موتهِ طلب من المؤمنين الاّ يشتكوا على المرأة ولا يسيئوا اليها وكان موتهُ في السنة التاسعة والسبعين من المائة الرابعة للمسيح ويذكرهُ الشرقيون في اليوم الثاني والعشرين من شهر حزيران اما اللاتينيون فيذكرونهُ في اليوم الحادي والعشرين من الشهر المذكور

اليوم الثاني والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس بولينوس اسقف مدينة نولا

قد مدح هذا القديس كثيرًا القديسون امبروسيوس وايرونيموس واغسطينوس وغيرهم واما ولادتهُ فكانت بمملكة فرنسا بمدينة بُردو في السنة الثالثة والخمسين من المائة الرابعة وصرف ايام شبيبتهِ في درس العلوم وتمهر فيها جدًّا اذ كان معلمهُ اوسُنيوس الشهير . وقد كان والداهُ واجدادهُ معتبرين بشرف اصلهم وكثرة ثروتهم ثم تزوّج بامرأة من مملكة اسبانيا يقال لها تراسيا شريفة القدر وكثيرة الغنى . وكانت ذات اخلاق حميدة نظير بعلها الذي مع انهُ لم يكن قد اعتمد بعدُ بل انهُ كان بين المؤمنين الموعوظين فقط كانت سيرتهُ مستقيمة جيدة غير انهُ كان يحبُّ الجاه الدنيوي ولما بلغ السنة الخامسة والعشرين من عمرهِ أُقيم واليًا على مدينة رومية فاستخدمهُ الملك الروماني في تدبير امور الملك واذ كان بميلان عاشر القديس امبروسيوس واستفاد كثيرًا من مخاطبتهِ وفي هذا الزمان زار في مدينة نولا القديس فيليكس وتأمل ما كان جاريًا هناك من العجائب بشفاعة هذا القديس الامر الذي أثّر بهِ كثيرًا ومال بهِ الى احتقار الخيور الزائلة وكثيرًا ما يعظم هذا القديس شفيعهُ فيما كتب من الاشعار في هذا الصدد . ثم التزم بالذهاب الى اسبانيا وفرنسا وهناك اعتمد بمدينة بُردو على يد القديس دِلفينوس اسقف هذه المدينة في السنة الثالثة والتسعين من المائة الرابعة للمسيح ولهُ من العمر ثمان وثلثون سنة وبالنور الالهي المعطى لهُ في هذا السر انتبه على زوال مجد الدنيا وعرف ان ذلك من اباطيلها فاستخفَّ بهِ ونشأت في قلبهِ محبة الاختلاء فطفق يمارس الصوم والصلاة

ولان اصدقاءهُ كانوا يزورونهُ ويعدمونهُ هدو الخلوة انتقل بامرأتهِ الى اسبانيا فولدت هناك ابنًا ومات بعد ثمانية ايام لولادتهِ وحينئذٍ نذرا انهما يعيشان معًا كاخٍ واختٍ لا كرجل وقرينتهِ

ولما كان بولينوس يبذل جهدهُ هكذا في ان يجهل الدنيا والدنيا تجهلهُ اظهر الله سبحانهُ برارتهُ ورفعهُ الى درجة الكهنوت لانهُ في عيد ميلاد السيد المسيح في السنة الثالثة والتسعين من المائة الرابعة حينما كان يتأمل في هذا السر الالهي نهض الاكليريكيون وباقي المؤمنين وبالهام الله طلبوا ان يرتسم بولينوس كاهنًا فرسمهُ الاسقف لمبيوس رغمًا عنهُ ولما ارتسم كاهنًا سافر الى فرنسا وباع كل ما لهُ من الاملاك الوافرة ووزّع كل ثمنها على المساكين واضحى هو افقر اهل الدنيا ومثلهُ فعلت تراسيا امرأتهُ الاّ انها ابقت لنفسها ما تحتاج الى ان تعيش بهِ . ولما رأى انهُ لا يقدر ان يعيش في اسبانيا مجهولاً خامل الذكر عاد الى ايطاليا واختبأ في مدينة نولا فازداد هناك اعتبارًا وتتلمذ لهُ اناس كثيرون من اشراف الدولة وكانت سيرتهم كسيرة السياح القدماء لانهم كانوا يصومون على الدوام وما كانوا يأكلون الا الخبز والبقول ولا يشربون الا الماء القراح . ولا يخفى ان ذلك امرٌ عجيبٌ وهو ان والي مدينة رومية الحائز اجلّ الكرامة والثروة يشمئز منها حبًّا بسيدنا يسوع المسيح حتى فضّل المسح على الثياب الثمينة الموشاة بالنقوش المستظرفة فلبسهُ ولبس فوقهُ ثوبًا خشنًا من شعر المعزى وشدّ وسطهُ بحبلةٍ ولكنهُ على قدر ما كان يجتهد ان يُجهل ويُهان كان الله تعالى يحرّك الناس الى اعتبارهِ لكون القديس نيكيتاس اتى مرّتين من شاطئ نهر الطونه ليفتقدهُ وهكذا فعل اجلّ اساقفة ايطاليا حتى ان اساقفة افريقية ارسلوا اليهِ سفراء ليظهروا لهُ كثير ما عندهم من اعتبارهِ وكذلك فعل اساقفة بلاد ايليريا والقديس مرتينوس كان

يقدمهُ لتلاميذهِ كمثال الكمال الانجيلي وقد ذكرنا كم كان القديسون امبروسيوس واغسطينوس وايرونيموس يكرمونهُ

فلما كان ظافرًا من القديسين بمزيد الاعتبار تُوفّي اسقف مدينة نولا فالزمهُ المسيحيون بقبول الاسقفية فارتسم اسقفًا نحو انتهاء السنة التاسعة بعد الاربع مائة وغدا نموذج الكمال للاساقفة. لانهُ لم يكن يتصرَّف مع الرعية باظهار سلطتهِ طالبًا شرف الاحترام. بل كان يتصرَّف احسن تصرُّف يجتذب اليهِ قلوب مرؤسيهِ ولذلك كان الجميع يحترمونهُ ويطيعونهُ. فكان الحزان يجدون عندهُ التعزية والمساكين الصدقة والمظلومين الشفاعة وبالجملة فان الجميع كانوا يجدون عندهُ عونًا في حين الضرورة لانهُ قد اضحى كلاًّ للكل ليربح الكل للسيد المسيح

وبعد سنةٍ لارتقائهِ درجة الاسقفية دخل الاريكوس ملك الغطظين مدينة نولا ونهبها. الاَّ ان الله سبحانهُ فرج رعيتهُ بموت الاريكوس وللوقت انعقد مجمع لاصلاح بعض امور تتعلق بالكنيسة ولما رأى الملك اونوريوس ان القديس بولينوس لم يحضر لاجل علةٍ اعترتهُ طلب من الاباء ان يؤخروا المجمع الى ان يشفى القديس بولينوس ويأتي وكتب اليهِ ما مضمونهُ: اسألك ايها الاب المحترم والقديس ان تكلف خاطرك وتأتي لتعزّينا بحضورك وتباركنا

وبعد قليل اتى من افريقية جيش برابرة اريوسيين(١) ونهبوا ايضًا مدينة نولا واستأسروا كثيرين من الشعب فدفع القديس بولينوس كل ما لهُ ليفتديهم ولما لم يبقَ معهُ شيء من المال اصلاً اتتهُ امرأة ارملة وطلبت منهُ ان يفتدي ابنها من ايدي البرابرة. فقال لها القديس اني الان لم اعد امتلك شيئًا الاَّ شخصي فانا امضي معكِ الى افريقية وهناك ابذل نفسي عن ابنكِ واكون اسيرًا مكانهُ. فذهب معها الى افريقية كما ذكر القديس غريغوريوس وتقدَّم مع تلك الارملة الى البربري سيد ابنها وطلب منهُ ان يقبلهُ اسيرًا وخادمًا لهُ عوضًا عن ابنها فاذ تفرَّس البربري في وجه القديس سرَّ بهِ وقبلهُ بفرح واطلق ابن الارملة واقام القديس على خدمة بستانهِ. وقد بارك الله تعالى على ذلك البستان وامتلأ اثمارًا وازهارًا. ومن اجل ذلك كثيرًا ما كان سيدهُ يتردَّد في البستان ويحب مخاطبة البستاني. وفي ذات يوم تنبأ القديس عليهِ فاخبرهُ بان الملك يموت بعد زمن قليل فلما تمت النبوة وعرف ان القديس هو اسقف اراد ان يطلقهُ بهدايا ثمينة ولأن القديس لم يقبل ذهبًا ولا فضةً وهبهُ كل اسارى اهل ايطاليا. فرجع القديس بولينوس بكل اولئك الأسرى ولكن من يقدر ان يصف الفرح الذي حصل لشعب ايطاليا ولمدينة نولا لما رأوا راعيهم الصالح آتيًا بغنائم محبتهِ التي تفوق كل محبةٍ بشرية

وعقب قليل من وصولهِ اعتراهُ مرض الموت ومع ذلك لم يزل يصلي الفرض الكنائسي مع بعض الكهنة حتى انهُ رام ان يقدس قبل وفاتهِ بيومين واذ حان موتهُ اتاهُ بُستوميوس وكيلهُ وطلب منهُ مبلغًا من المال ليفي بهِ احد التجار لانهُ كان قد دفع للفقراء عدة اثواب بامر الاسقف فقال لهُ القديس متبسمًا لم يبقَ لي شيئًا افي بهِ هذا الدين غير ان الله سبحانهُ لا يدعني اموت مديونًا. فلم يتمَّ كلامهُ هذا الاَّ وقد قُدِّم لهُ دراهم من قبل اسقف لوكانيا ومن رجل اخر شريف فوفى بهِ دين المساكين ثم رقد بسلام في اليوم الثاني والعشرين من شهر حزيران في السنة الحادية والثلاثين من الجيل الخامس وكان لهُ من العمر ثمان وسبعون سنةً

وبعد موتهِ قُبر في الكنيسة التي كان قد ابتناها اكرامًا للقديس فيليكس ثم نقلوا ذخائرهُ الى رومية ووضعوها في كنيسة القديس برتولوماوس الرسول

اليوم الثالث والعشرون

وفيهِ ترجمة الطوباوية مريم الاوغنيَّة

ان هذه القديسة ولدت بنيفِلاَّ مدينة بفلاندرا في السنة السابعة والسبعين من المائة الثانية عشرة من اصل كثير الغنى ومنذ صباها مالت الى العبادة ولاسيما عبادة سيدنا يسوع المسيح ووالدتهِ الجليلة اما والداها فبما انهما لم يكونا مائلين الى العبادة لم يرتضيا بفرارها من الدنيا ومما تحبهُ الدنيا. ومع انها كانت قد اتخذت من الطبيعة جمالاً بارعًا الزماها بان

(١) حاشية. قد نُقل ما ياتي عن مخاطبات القديس غريغوريوس الطوري كتاب ٣ فصل ١ الاَّ ان البلاَّنديستيين ابانوا ان ما يخبر بهِ هنا عن القديس بولينوس عملهُ غيرهُ من خلفائهِ وهو بولينوس الثالث نحو السنة الحادية عشرة من المائة السادسة للمسيح لكون الونداليين لم يغزوا ايطاليا قبل السنة الحادية والثلاثين من المائة الخامسة التي فيها مات القديس بولينوس الاول (راجع البلاندستيين في اليوم الثاني والعشرين من شهر حزيران)

تزينهُ كالآ بلبس الاثواب الثمينة المزخرفة . اما هي فكانت تقول لها ان كنت انا جميلةً فما الحاجة الى بهاء الاثواب . فكان ابواها يجتهدان ان يصيراها تعاشر الناس وهي كانت تجتهد بان تكون منفردةً لله تعالى ولفرط ما كانت تحب التامل فيهِ جلَّ شأنهُ كانت تجد حججًا ووسائط كثيرة لتنفرد وتصلي وتقوم ليلاً لتتأمل

فخاف والداها من ان تدخل ديرًا لتترهب فيهِ ومن اجل ذلك زوجاها سريعًا حينما كانت قد بلغت من العمر السنة الرابعة عشرة الآ أن الله سبحانهُ بعث اليها رجلاً فاضلاً سمح بان تمارس ما ارادت من الرياضات الروحية. فلما فازت بهذه الحرية ازداد نشاطها في اكتساب الكمال . وبعد ان كانت تهيّئ كل شيء في منزلها كانت تمضي الى الكنيسة وتصلي ساعاتٍ كثيرة ثم عند خروجها من الكنيسة كانت تعود المرضى وتسعفهم بصدقاتها وخدمتها وتصرف بقية النهار بعمل الايدي والصلاة ايضًا وكثيرًا ما كانت تعتبر النقائص الصغيرة وتحترس منها وتعترف بكل ما رأتهُ في تصرفاتها وتمارس اشد التقشفات لتنفي عنها

فاذ بلغت السنة السادسة عشرة من حياتها شرعت ترقد على الواح بغير فراش وكانت تولم جسدها النقي على انواع مختلفة فكان زوجها قد حتها في الابتداء ان تنقص تقشفاتها . الآ انهُ لما سمع ما خاطبتهُ بهِ امرأتهُ الفاضلة عن عظمة فوائد هذه التقشفات واستحقاقاتها رغّبها هو ايضًا ولما رأت مريم هذه زوجها منصبًّا نحو رياضات الفضيلة طفقت تحثهُ على حفظ العفة ونذرها فبارك الله تعالى على فصاحتها ومع انهما لم يكونا قد بلغا من العمر الآ ثماني عشرة سنة نذرا لله العفة الدائمة ومن ذلك اليوم عاشا كملكين يحث بعضهما بعضًا على محبة الله عزَّ وجل ولانهما كانا ينموان كل يوم في العبادة اتفقا على ان يقتديا بفقر سيدنا يسوع المسيح فاعطيا المساكين كل اموالهما ولبسا اثوابًا دنية وشرعا يخدمان البرص . فاغتاظ اقرباؤهما من فعلهما هذا واضطهدوهما واخذ جمهور المدينة يستهزئون بهما وكان الاولاد يرجمونهما في الشوارع والاكثرون كانوا يحسبونهما مرائيين او عادمي العقل . اما هما فكانا يسرّان بهذه كلها ويشكرانهِ تعالى لانهُ اهّلهما لان يُضطهدا من اجل تعبُّدهما لهُ عزَّ وجلَّ

ولا سيما الطوباوية مريم التي منذ طفوليتها تكرّم آلام المسيح بعبادة خصوصية واتخذت غالب الاوقات اوجاعهُ واهاناتهِ تعالى موضوعًا لتأملاتها فان عبادتها هذه ازدادت جدًّا بعد احتمالها الاهانات المتقدم ذكرها حتى انها كلما كانت تنظر ايقونة يسوع المصلوب او تسمع خبرًا عن ذكر آلامهِ المقدسة كانت تذرف الدموع حالاً بغزارة وكثيرًا ما غُشي عليها من زيادة حبها ليسوع المصلوب. واتفق يومًا ان احد الكهنة خدمة الكنيسة اذ رآها على هذه الحال من اجل ما سجمت من الدموع اخذ يوبخها على بكائها وسكب عبراتها فاضطربت القديسة المتواضعة وطلبت من الله ان يبري موبّخها هذا ان ما كان يأمرها بهِ لم يكن في استطاعتها فاستجاب الله طلبها بحيث لما شرع الكاهن يقدم الذبيحة الالهية أُعطي من الله موهبة البكاء هذه قوتها حتى انهُ ما استطاع على ضبطها ومنعها مع انهُ بذل في ذلك جهدهُ وتعلّم بهذه التجربة ان توبيخهُ للقديسة لم يكن في محلهِ . هذا وكانت ملتهبة بحب سيدها المصلوب بهذا المقدار حتى انها كانت في فصل الشتاء تذهب الى الكنيسة حافية الرجلين ولا تشعر بالبرد الشديد في هذا الاقليم

فانتبه اخيرًا اهل المدينة على حقيقة عبادتها وبدأ الجميع يعتبرونها فزهدت في الدنيا ايضًا فخرجت من نيفيلاً وذهبت الى مكان وجدت فيهِ منزلاً صغيرًا حذاء كنيسةٍ فاختلت هناك واستمرّت بخلوتها تواظب على التأمل والتقشفات وقد قال فيها الكردينال دي فيبتري مرشدها ان تقشفاتها كانت عجيبة لانها كانت تصوم السنة كلها على قليل من الخبز والماء فقط ومرةً واحدة بقيت صائمةً اربعين يومًا لم تتناول الا مرّتين في الاسبوع وقد مارست هذا الصوم المتعب على ما خبرنا الكردينال المذكور لكي تخلص شابة نقية كان الشيطان يعذبها بتجربات التجديف وقطع الرجاء فنجحت هذه بتضرعات القديسة وصومها . ومزّقت ذات يوم جسدها بمخالب حديدية باشد ما استطاعت من القساوة المقدسة حتى ان علامات جراحاتها ظهرت على جسدها بعد وفاتها ثم انها كانت تصرف اكثر الليل في الصلاة ولم تنم الآ ساعتين او ثلثًا على اديم الارض وكانت وسادتها قطعة خشب

الآ ان الله سبحانهُ وتعالى كان قد رزقها وزين نفسها بمواهب الروح القدس السبع التي تلألأت في جميع اعمالها كما ابان ذلك الكردينال دي فيبتري بيانًا جليًا فكان عزَّ وجل يملأ

قلبها سرورًا ولزيادتهِ كثيرًا ما كان يتذهل لبها حتى تبقى نحو أربع ساعات غير متحركة ويداها مرتفعتان الى السماء. ولما كانت تنتبه فيسألوها عما تحتاج اليهِ كانت تقول لا اشتهي الاَّ ان اتناول جسد الهي. ثم ان الملئكة كانوا يظهرون لها مرارًا كثيرة ولاسيما ملكها الحارس والقديس يوحنا الانجيلي. اما عبادتها لملكة الملئكة فكانت عجيبة ولفرط اعتبارها وحبها لوالدة الله كانت تركع لدى ايقونتها كل يوم مرارًا عديدة حتى انها مرةً واحدة ركعت لها الفًا ومائة ركعة في يوم واحد وهكذا فعلت مدة اربعين يومًا لكي تتأهب لعيد من اعيادها. فاذ حان زمن انتقالها الى السماء مرضت مرضًا ثقيلاً مدة ثلثة اشهر وفي كل هذه المدة لم تتناول ماكلاً سوى احدى عشرة مرة الا انها كانت تتناول القربان المقدس كل يوم ولم تزل نفسها مرتاحة الى الحظوة بالله

وانتقلت الى رحمة الله مرتلة تسابيح روحية مبتهجة وكان ذلك في اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران في السنة الثالثة عشرة من القرن الثالث عشر ولها من العمر ست وثلثون سنة. وكتب الكردينال دي فيرتري اخبار سيرتها باسهاب في كل ظروفها وعبارات يفيد القارئ كثيرًا الاطلاع عليها وقد ادرجها كلها البلانديستيون في اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران

اليوم الرابع والعشرون

وفيهِ ميلاد القديس يوحنا المعمدان

اعلم انهُ قبل انتهاء مُلك هيرودس العسقلاني الذي هو آخر ملوك يهوذا ارسل الله الملَكَ الذي تنبأ عنهُ ملاخيا النبي وهو الذي كان تعالى وعد بانهُ يرسلهُ قبل مجيء السيد المسيح ليعد لهُ الطريق. واما الملَك فهو القديس يوحنا المعمدان النبي العظيم بل افضل بني البشر كما قال عنهُ ابن الله تعالى وفيهِ انتهى الناموس العتيق والانبياء. وبمولدهِ سرَّ العالم كلهُ وببرارتهِ تسامى على مواليد جميع النساء وهو ابن زكريا واليصابات من سبط هرون سبط الكهنة. وقد قال البشير وكانا كلاهما بارَّين قدام الله وسائرين في جميع الوصايا من غير عيب

اما زكريا فكان من آل ابيًّا واحدٍ من الاربعة والعشرين قسمًا التي قسم اليها داود الملك سبط هرون لاجل حسن الانتظام وكان كل قسم يباشر الوظيفة الكهنوتية بالنوبة مدة اسبوع كامل وفي ابتدائها كانوا يلقون القرعة على من كان يخدم خدمة الهيكل ويقدم باكرًا ومساء في المقدس الالهي بخورًا للرب على المذبح الذهبي. فلما كان الاسبوع المختص بآل ابيًّا اراد الله سبحانهُ فوقعت القرعة على زكريا الكاهن فدخل في الساعة المعينة ذلك المكان الذي لا يجوز لاحدٍ ان يدخلهُ سوى الكهنة وفيما كان يقدّم البخور ويصلي ظهر لهُ ملَك الرب بصورة بشرية وكان قائمًا عن يمين مذبح البخور. فاضطرب زكريا واعتراهُ خوف مقدس فقال لهُ الملَك لا تخف يا زكريا لان صلواتك قد استجيبت وان اليصابات امرأتك تلد ابنًا وتدعو اسمهُ يوحنا وسيكون لك فرح وابتهاج ويفرح كثيرون بمولدهِ لانهُ سيكون عظيمًا عند الله ولا يشرب خمرًا ولا مسكرًا ويمتلئ من روح القدس وهو في بطن امهِ ويردّ كثيرين من بني اسرائيل الى الرب الههم وانهُ يتقدمهُ بروح ايليا ليرجّع قلوب الاباء الى الابناء والكافرين الى حكمة الابرار ليعدّ للرب شعبًا كاملاً

ان زكريا الكاهن قد انذهل من عظمة هذا الوعد ولو كان موقنًا ان الذي وعدهُ بهِ هو ملَك الرب ولفرط ما تعجب واستغرب لم يصدّقهُ تصديقًا واجبًا ولهذا قال الملَك كيف يمكن ان يكون ذلك وانا شيخ وامرأتي قد طعنت في ايامها. فوبّخهُ الملَك على عدم ايمانهِ وادّبهُ قائلاً لهُ انا جبرائيل الواقف امام الاله الحق الذي ارسلني لاكلمك عن هذا ولانك شككت في هذه البشارة لتكن صامتًا لا تستطيع ان تتكلم الى اليوم الذي يتم فيهِ ما بشّرتك بهِ. اما الشعب الذين كانوا يصلون خارجًا عن المقدس الالهي فلانهم كانوا غير عارفين ما حدث وكانوا ينتظرون متعجبين من ابطاء زكريا هناك ازدادوا تعجبًا عند خروجهِ من الهيكل لما راوهُ لا يقدر ان يتكلم واستدلّوا من ذلك على سبيل النتيجة انهُ رأى رؤيا

فلما كملت ايام خدمتهِ عاد الى بيتهِ في مدينة عين كريم (١) وبعد قليل حبلت اليصابات ومكثت في بيتها خمسة اشهر شاكرةً الله تعالى طول هذه المدة. وفي الشهر السادس افتقدتها القديسة مريم العذراء نسيبتها وهي حبلى بابن الله بقوة الروح القدس لكون البتول الجليلة لما عرفت من الملَك جبرائيل

(١) حاشية. راجع الحاشية المدرجة في اليوم الثاني من تموز وجه ٣٦٦

حبل نسيبتها العجيب خرجت حالاً من الناصرة وأتت اليهودية واذ دخلت بيت زخريا سلمت على اليصابات وحينما سمعت اليصابات صوت هذا السلام تحرّك الجنين بابتهاج في بطنها وتقدس حالاً اي تبرَّأ من الخطيئة الاصلية بحضور الرب الساكن في مستودع مريم العذراء . ثم انهُ تعالى انعم على اليصابات نعمًا جزيلة لانها عرفت سرّ التجسد الالهي ولفرط تعجبها من هذا السر المسجود لهُ صرخت بصوت عظيم وقالت مباركة انتِ يا من هي افضل جميع النساء ومباركة ثمرة بطنكِ فمن ابن لي ان تأتي اليَّ والدة ربّي والهي . تأمل الان ايها المؤمن ماذا كانت مخاطبات العذراء مع نسيبتها مدة ثلثة اشهر وكم استفادت منها القديسة اليصابات

فلما تمت الايام ولدت امرأة زكريا فأتت بالقديس يوحنا ولما انتشر هذا الخبر اجتمع حالاً في بيتها جيرانها واقاربها وهنأُوها على ما انعم الله تعالى بهِ عليها برحمتهِ وجودتهِ وفي اليوم الثامن حين كان ينبغي ان يختتن الصبي اراد الاقرباء ان يدعوهُ باسم ابيهِ زكريا فلم ترتضِ بذلك اليصابات بل قالت فليدعَ اسمهُ يوحنا . اما اقرباؤُها فاستغربوا هذا الاسم وقالوا لها ليس احد من جنسكِ يُدعى بهذا الاسم فالتفتوا الى زخريا وبما انهُ كان اخرس واطرش سألوهُ بالاشارة بماذا يريد ان يُسمي ابنهُ . فاخذ لوحًا وقلمًا وكتب ليكن اسم ابني يوحنا . فتعجب الجميع ولا سيما اذ سمعوا صوت الشيخ القديس لانهُ حالاً انطلق لسانهُ وابتدأَ يتكلم ويبارك الله قائلاً بروح النبوة ما معناهُ : مبارك الرب اله اسرائيل الذي افتقد شعبهُ لينقذهُ من الاسر والشقاء انهُ كان قد سقط بيت داود من شرف عظمتهِ وقدرتهِ والان اتى المخلص الذي سيردّهُ الى شرفهِ الاول بل يزيدهُ مجدًا واقتدارًا وكان الله تعالى قد وعد بذلك على لسان انبيائهِ القديسين الاقدمين بقولهم انهُ ولو مهما كثرت اعداؤنا وقوي مبغضوننا فان يد الرب تخلصنا من ايديهم . انهُ لقد اتضح ان الله تعالى لا يقدر ان ينسى عهدهُ لابينا ابرهيم حينما حلف انهُ يعامل ابانا برحمتهِ وانهُ يعطينا ذاتهُ لنعبدهُ بعد انتصارنا على اعدائنا بلا خوف سائرين في طريق البرّ كل ايام حياتنا

فبعد ان تكلم الشيخ القديس في هذا المعنى التفت الى يوحنا الطفل ابنهِ ولعلمهِ بانهُ قد أُعطي الفهم من بطن امهِ قال لهُ اما انت يا ابني فقد اختارك الله سبحانهُ لتتقدم امام مخلص العالم وتبشر الناس بمجيئهِ فتسبقهُ لتعدّ لهُ الطريق اي لتعدّ الشعب الاسرائيلي لقبولهِ فتعلمهم الخلاص لكي يرجعوا اليهِ تعالى بالتوبة فينالوا مغفرة خطاياهم . فهذا ما تفضّل علينا بهِ باحشاء رحمتهِ ذاك الاله الرؤوف الذي نزل من السماء ليفتقدنا وليضيء بنور نعمتهِ على الذين هم في الظلمة وظلال الموت ويهديهم الى طريق السلامة

فملأَت هذه الاعجوبة اليهودية كلها . فقال الجميع من تراهُ يكون هذا الصبي حتى تشرَّف مولدهُ بهذه المعجزات . وقد ذكر القديس بطرس بطريرك الاسكندرية انهُ اذ ارسل هيرودس ليقتل المسيح طلب ان يقتل يوحنا ايضًا لاجل ان العجائب التي صارت في مولدهِ واختتانهِ كالتي صارت في ميلاد المسيح وتقدمتهِ في الهيكل . الاَّ ان والدتهُ القديسة اليصابات هربت بهِ الى البرية وانقذتهُ من يد هيرودس ومكثت معهُ زمانًا ثم الهمها الله فتركتهُ في البرية . وقد اورد القديس المذكور هذا الخبر كامرٍ معلوم وثابت عند الجميع . وقد اثبت جمهور الاباء ان القديس يوحنا المعمدان عاش منذ طفوليتهِ في البرّية ونهج للقديسين السياح طريق النسك والعيشة القشفة ولهذا يدعوهُ القديس غريغوريوس النزينزي سائحًا والقديسان يوحنا فم الذهب وبرنردوس قد سمياهُ قائد الرهبان ومعلمهم وقد اقام بالبرية مواظبًا على الصلاة والتقشف الى ان امرهُ الله تعالى ان يبشّر الشعب بمجيء مخلص العالم . لان الذي شرَّفهُ الله تعالى بعجائب قبل ميلادهِ وبعدهُ وكان منذ ايام طفوليتهِ يستوطن الفيافي وعاش فيها اكثر من عشرين سنة عيشةً ملئكية كانت شهادتهُ اثبت من شهادات بقية الناس ولانهُ كان كملك نزل من السماء ابتدأ يبشّر بملكوت السماء وبالتوبة التي تبلغ بنا الى السماء

اعلم ان ما ذكرناهُ من ترجمة القديس المذكور صيَّر اليهود يعتبرونهُ قديسًا عظيمًا بل كانوا مستعدين لان يعترفوا بانهُ المسيح نفسهُ لو ادَّعى ذلك ولكنهُ اذ كان رسولاً متضعًا نادى عليهم بانهُ ليس هو المسيح وانما هو مرسل من قبلهِ ليعدّ طريقهُ حسب قول نبيهِ

ولعمري انهُ يكفينا لتقريظ هذا القديس ان نورد ما قالهُ عنهُ تعالى وهو انهُ اعظم مواليد النساء ومن ثم كانت الكنيسة قديمًا تقدّس في عيد ميلادهِ ثلثة قداديس

اليوم الخامس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة فابرونيا البتول الشهيدة

اعلم انهُ كان بالقرب من نهر دجلة على حدود بلاد فارس مدينة يقال لها سيبابوليس وهي نصيبين وكان فيها دير معتبر بكثرة الراهبات وبرارتهنَّ نحو انتهاء الجيل الثالث ورئيسة الدير كان اسمها بريانًا وقد ربَّت في الدير بنتًا لاختها تُسمى فابرونيا وبعد ان تربت هذه البنت هناك منذ طفوليتها نذرت اخيرًا وترهبت. ولأنها كانت ذات جمال عجيب لم تكن الرئيسة تسمح لاحد ان يبصرها اما فابرونيا فكانت تبذل مجهودها كلهُ لكي تُعدم بهاء جسدها وذلك بالصوم والتقشفات ووسائط اخر كثيرة. كانت تستمر يومين بلا اكل ولم تكن تاكل سوى البقول ولا تنام الا قليلاً على وجه الارض ومع ذلك كلهِ لم ينقص جمالها بل كان يزداد يومًا فيومًا

فشاع خبر حسنها وبهاء جمالها وبرارتها وطلب اناس كثيرون ان يعاينوها الا ان الرئيسة كانت تحفظها دائمًا في ظلام الخلوة ولم تكن تأذن لاحد ان يراها حتى ولا لاقربائها. فأتت يومًا الدير ارملة حدثة السن شريفة النسب يُقال لها هيريا ولم تكن قد اعتمدت بعد. فطلبت من الرئيسة بالحاح بليغ ان تبصر فابرونيا وتخاطبها ولان الرئيسة لم ترتضِ بذلك جثت على قدميها بدموع وقالت لها اني لا افارقكِ قبل ان انظر فابرونيا. فرقَّ قلب الرئيسة على الارملة الحزينة وقالت لها اعلمي ان فابرونيا عزمت على انها لا تتكلم مع اهل العالم فالبسي ثوب الرهبانية وهكذا يمكنكِ ان تشاهديها وتخاطبيها. فلبست هيريا ثوب راهبة ودخلت الدير. اما فابرونيا فبما انها كانت غير عالمة بالحيلة وكلمت هيريا كانها راهبة او قاصدة الترهب وكان خطابها معها على شرف الدعوة الرهبانية وسعادتها واسهبت الكلام في ذلك وقد أثر كلامها في قلب هيريا تأثيرًا شديدًا حتى انها بعد ان كانت قد عزمت على ان تتزوَّج مرةً ثانيةً زهدت في الدنيا واعتمدت وجذبت كل اهل منزلها الى الايمان المسيحي

وفي ذلك الزمن اتى ليسيماكوس ابن الحاكم الروماني مع عمهِ سيلينوس ودخلا مدينة سيبابوليس وكان قد ارسلها الملك ديوكليسيانوس ليستأصلا المسيحيين. فبعد المناداة بذلك هرب اكثر المؤمنين العالميين والاكليريكيين والرهبان حتى الاسقف ايضًا وعند فرارهِ اذن للراهبات ان يخرجنَ من الدير ليهربنَ ويختبئنَ فاطلقت الرئيسة اكثر الراهبات الا انها لم ترد ان تهرب بل اختارت ان تمكث لتموت من اجل السيد المسيح. ثم قالت لفابرونيا وانتِ ماذا تفعلين. فاجابت البتول اني سامكث هنا معكِ تحت ستر كنف سيدنا يسوع المسيح عروسي الالهي وامي المجيدة العزيزة ملكة السماء فلا تخافي عليَّ ياخالتي اني قادرة على كل شيء بقوة من يقوّيني وبعد ان قدّمت لهُ تعالى قلبي بنذوري أُريد ان اقدم لهُ حياتي ايضًا

اما ليسيماكوس فكان ابن نحو عشرين سنة وكان ابن انتيموس الرجل العزيز جدًّا عند ديوكليسيانوس واما والدة ليسيماكوس فكانت امرأة مسيحية ومع انهُ كان كابيهِ وثنيًا كان يحب المسيحيين ويسعفهم. واما سيلينوس اخو انتيموس فكان يبغضهم الى الغاية. فكان ليسيماكوس قد اقام واحدًا من اقربائهِ يقال لهُ بريموس قائدًا على عسكرهِ وابان لهُ اشمئزازهُ من قتل المسيحيين وان الاولى بهم ان يعطوهم سبيلاً للفرار ولا يفتكوا بهم بقساوة بربرية. فاذ وصل سيلينوس الى مدينة تدمُر فتك بالمسيحيين وقتل منهم كثيرين بقساوة اغتاظ منها ليسيماكوس وبعد ذلك سافروا الى بلاد ما بين النهرين وعرف سيلينوس من الوثنيين ان بالقرب من مدينة نصيبين ديرًا معتبرًا فيهِ خمسون راهبة فارسل جنودًا ليأتوهُ بهنَّ ولكن بحيث ان اكثرهنَّ كنَّ قد فررنَ هاربات تقدمت الرئيسة الى الجنود فاستل احدهم سيفهُ ليقتلها فجثت حينئذٍ فابرونيا البتول امام الجندي وطلبت ان تموت هي قبل الجميع من اجل السيد المسيح. اما الجندي فلما راى هذه الشجاعة في بنت حسنة المنظر جدًّا بُهت ثم ردَّ سيفهُ الى غمدهِ وعند ذلك وصل بريموس قائد الجيش فطرد الجنود من الدير ولما عرف ان اكثر الراهبات فررنَ هاربات قال للاتي بقينَ في الدير لماذا لم تفررنَ هاربات مع الأُخر واشار عليهنَّ بالفرار

ثم عاد بريموس الى ليسيماكوس واخبرهُ بما حدث قائلاً اني وجدت في ذلك الدير تلك التي خلقها الله لتكون امرأتك لانهُ لا يوجد لها نظير في البهاء. فقال لهُ ليسيماكوس اني سمعت من امّي ان بنات الاديرة اتخذنَ المسيح عروسًا لهنَّ ومن الممتنع ان هذه تتزوَّج. فمضى احد الجنود واخبر سيلينوس

بان بريموس يريد ان يزوّج ليسياكوس ابنة مسيحية اعجوبة دهرها في الحسن. فاذ سمع ذلك عدوّ المسيحيين القاسي ارسل جنودًا فقبضوا على القديسة فابرونيا وقدّموها لهُ وحينما عاينها تعجب من منظرها الفريد في الحسن والجمال ثم سألها هل انت اسيرة. فاجابت فابرونيا نعم اسيرة. فقال لها سيلينوس ومن هو سيدكِ اجابته البتول سيدي هو يسوع المسيح الاله ربّ الجميع. فقال لها سيلينوس انتظرين ليسياكوس فهذا هو ابن اخي وهو جزيل الاعتبار عند الملك فانكري ديانة المسيحيين وتكوني امرأةً لهُ واجعلكما وارثين لاموالي كلها قال هذا وامر الجنود بان ينزعوا عنها قيودها. فاجابتهُ البتول قائلةً ارغب اليك يا سيدي الّا تنزع عني هذه القيود التي افضلها على كل جواهر الارض. اما من جهة الاقتران بليسياكوس فاني بعد ان اتخذت السيد المسيح عروسًا فقد عاد الامر مستحيلاً لديّ كما انهُ مستحيل ان انكر النصرانية فلا تظن انك تنتصر عليّ من اجل كوني فتاة حدَثة السن فانني ابنة مسيحية متقوّية بالنعمة التي لا نقدر ان نقوى عليها قدرة العالم ولا قوة الجحيم فاخبرني ان شئت بكل انواع التعذيب

فتعجب المحفل من تلك الشجاعة الفائقة الطبيعة. اما سيلينوس فغضب وامر بضرب البتول فتقدم الجنود وجلدوها بافراط القساوة حتى اضحى جسدها كلهُ كجرح واحد ولان فابرونيا كانت وهي في هذه الحال تبارك الله زعم سيلينوس انها تزدري بالعذاب وتستخفُّ بهِ فمدوها على سرير من حديد محمّى لكي تحترق شيئًا فشيئًا ومع ذلك لم تزل شاكرةً الله تعالى على اوجاعها. وبعد هذا العذاب كسروا اسنانها وقطعوا ثدييها الّا ان شجاعتها كانت اقوى من كل عذاب واخيرًا قطعوا هامتها وهي تدعو يسوع المسيح. وكان استشهادها في اليوم الخامس والعشرين من شهر حزيران نحو السنة الرابعة من المائة الرابعة للمسيح

وبعد ان انتقلت القديسة الى رحمة الله انفرد ليسياكوس ببريموس وشرعا يتكلمان على شجاعة البتول ويمدحان اله المسيحيين وبينا هما يتخاطبان اذ برسولٍ اخبرهما ان سيلينوس قد جُنَّ بغتةً وضرب نفسهُ فمات فاسرعا ليريا الامر فلما نظرا جثتهُ المريعة قال ليسياكوس لبريموس صديقهِ من ذا لا يتحقق قدرة السيد المسيح الضابط الجميع فاذهب وضع في قبرٍ جسد هذه البتول الشهيدة ولا تتركها ولا تسكب من دمها ولا نقطة على الارض وان اراد احد ان يمنعك عن ذلك فقل اني أُمرت ان افعل. ثم تنصّر ليسياكوس وبريموس وتنصر كثيرون وانتهى الاضطهاد في تلك الجهات

اليوم السادس والعشرون

وفيهِ ترجمة الاخوين الشهيدَين يوحنا وبولس

اعلم ان قُسْطَنْسيا ابنة قسطنطين الكبير من بعد ما برئت من مرضها بشفاعة القديسة اغنس زهدت في الدنيا ونذرت عفتها لسيدنا يسوع المسيح وطلبت من ابيها الملك ان يعطيها مقامًا لتختلي فيهِ وتمارس هناك رياضات العبادة غير مهتمة بامور الدنيا. ففرح الملك وخصص لابنتهِ منزلاً بالقرب من قبر القديسة اغنس واقام على خدمتها جماعةً منهم القديس يوحنا واخوهُ القديس بولس ولانهما كانا اصيلين في العبادة كانت البتول تعتبرهما جدًّا وتسلّم اليهما تدبير منزلها

وفي السنة الثامنة والعشرين من القرن الرابع للمسيح اتفق ان البرابرة دخلوا بلد سيتيا فاراد قسطنطين الملك ان يرسل عليهم غاليكانوس قائد جيشهِ المظفَّر وكان قد انتصر حديثًا على بلاد الفرس. اما غاليكانوس الذي كانت امرأتهُ قد ماتت فطلب من الملك ان تكون قُسْطَنسيا امرأةً لهُ اذا عاد من هذه الحرب منتصرًا فاحتار الملك لان غاليكانوس كان رجلاً وثنيًّا وقسطنسيا قد نذرت بتوليتها كما علمت. فلما شعرت البتول بذلك كتبت الى ابيها الملك الذي كان وقتئذٍ ببلاد بيطينية وقالت لهُ ارتضِ يا ابي بما طلب غاليكانوس لاني ارجو من الله سبحانهُ ان يحفظ طهارتي وليكن شرطك معهُ هذا فقط وهو ان يوحنا وبولس يرافقانهِ في الحرب ويترك عندي ابنتيهِ اتّيكا وارتميا. فارتضى غاليكانوس بهذا الشرط وسافر بيوحنا وبولس ودخلت اتّيكا وارتميا بيت قسطنسيا فبعد دخولها انفردت البتول في حجرتها لتصلي وشرعت تقول في مناجاتها لله: ايها الرب الضابط الجميع يا من شفاني من المرض بشفاعة القديسة اغنس وعلمني طريق الحق وصيّرني عروسًا لهُ فانت يا يسوع الاله مخلص العالم اسأَلك بحق دمك الكريم الذي ارقتهُ من اجلنا ان تخلص انفس هاتين الابنتين وابيهما فيعرفونك ايها الحق الازلي ويتعبّدون لك

وارشد اللهمَّ لساني لكي اخاطبها كما يجب وافتح ذهنها ليقبلا تعاليمك

فبعد انتهاء هذه الصلاة اخذت قسطنسيا تعلّم اتّيكا وارتيميا حقائق الايمان المسيحي وتبين لها ان اوامر الانجيل كلها مقدسة ولذلك بعد قليل جذبتها الى النصرانية

اما ابوها غاليكانوس فبعد تقدمة الذبائح الوثنية سافر بجيشهِ ليحارب البرابرة وفي ابتداء المعركة قوي عليهِ جيش الاعداء فانهزم كثيرون من جنودهِ واوشك هو ان يقع في ايدي الاعداء وحاصروهُ في مدينة فيليبوليس ببلاد طراسيا فجزع قلبهُ خوفًا لانهُ لم يرَ وجهًا للنجاة فاشار عليهِ يوحنا وبولس بان يعد الله تعالى بقبول النصرانية اذا فاز بالظفر فحلف غاليكانوس انهُ يتنصر اذا انتصر على عسكر البرابرة . وللوقت رأى شابًّا حاملاً على منكبيهِ صليبًا وقال لهُ استلَّ سيفك واتبعني فتبعهُ بجنودهِ وسار على وجههِ فاذا بجنود كثيرين متسلحين قالوا لهُ لا تخف لاننا نمضي معك . فتخلل معسكر البرابرة فاستحوذ عليهم الخوف وفتئذٍ وفرّوا هاربين فقبض على ملك البرابرة وانجز وعدهُ للرب بان ترك في الحال عبادة الاصنام وتنصر ففرح الملك قسطنطين بتنصرهِ هذا اكثر من فرحهِ من انتصارهِ على اعداء المملكة وقلدهُ كرامة قنصل روماني مرة ثانية

وبعد هذا الانتصار العجيب رجع غاليكانوس الى رومية ودخل اولاً كنيسة هامة الرسل ليشكر الله تعالى لا على انتصارهِ على البرابرة فقط بل على انهُ بهذا الانتصار رأى نور الايمان المسيحي ثم طلب المعمودية وبعد الاعتماد زهد في الدنيا وعزم على ان يقضي حياتهُ في العبادة فقط فاطلق ثلثة آلاف اسير كانوا لهُ وفرّق اموالهُ على الفقراء وانفرد في اوستيا مدينة بجوار رومية تحت ارشاد ايلارينوس رجل من الفضلاء وابتنى هناك بيتًا لاستقبال المسافرين الفقراء وكان هو نفسهُ يخدمهم ويغسل ارجلهم فاشتهر صيتهُ واخبار تواضعهِ في المعمورة كلها . ثم مات شهيدًا سنة اثنتين وستين وثلثمائة للمسيح على عهد يوليانوس الملحد بمدينة اسكندرية حيث كان نفاهُ الملك الملحد ويُذكر استشهادهُ في اليوم الخامس والعشرين من شهر حزيران

فكان ايضًا القديسان يوحنا وبولس عادا الى خدمة قسطنسيا البتول واقاما معها حتى رقدت بالرب وبعد ذلك مكثا في بلاط اولاد قسطنطين الملك مكرَّمَين محبوبَين من الجميع لاستقامة سيرتهما وصدقاتهما الوافرة على المساكين .

الا انهُ بعد وفاة ابناء قسطنطين الملك جلس يوليانوس الملحد على عرش الملك في السنة الستين من المائة الرابعة للمسيح واثار الحرب على النصرانية وترك القديسان وظيفتهما الشريفة ليهتما بخدمة الله تعالى فقط . فكان وقتئذٍ عم يوليانوس حاكمًا في رومية يُدعى ايضًا يوليانوس فهذا بامر الملك الذي كان حينئذٍ في بلاد الشرق ارسل الى الاخوين واحدًا من قواد الجيش يُقال لهُ تيرَنسيانوس وهو الذي كتب خبر وفاة هذين القديسين فقال لهما ان الملك يريد منكما ان تعودا الى البلاط لتباشرا وظيفتكما القديمة . فاجابهُ القديسان قائلين انهُ لا يليق بل لا يجوز لهما ان يكونا في خدمة من نادى بمحاربة الايمان المسيحي . فلما عرف الحاكم هذا الجواب توعَّدهما بغضب شديد بان يعذبهما حتى الموت بعد عشرة ايام ان كانا لا يطيعان امرهُ

فاستدلَّ الاخوان من ذلك انهُ قد حان الوقت السعيد الذي فيهِ ينالان اكليل المجد الابدي فصرفا هذا الزمن في افعال التقوى ووزّعا اموالهما على الفقراء وواظبا على الصلاة اناء الليل واطراف النهار . وبعد العشرة الايام المعينة اتى تيرَنسيانوس ولاطفهما كثيرًا وفي انتهاء هذا الاكرام المصنَّع قال لهما ان الملك لا يريد منكما ان تنكرا الايمان المسيحي جهارًا ولا ان تدخلا هياكل الالهة لتقدما لها الذبائح بل انهُ لا يطلب منكما الاّ ان تسجدا امامي للالهة . قال هذا ثم اخرج صنمًا واظهرهُ لهما . فارتاع الاخوان لما ابصرا صنمًا في بيتهما فقالا لتيرَنسيانوس حاشا ان نقدّم لعمل ايدي البشر اكرامًا مختصًّا بخالق الانسان . حينئذٍ قال لهما تيرَنسيانوس اعلما ان الملك قد حتم عليكما بالموت . فجثا حالاً الاخوان على الارض وقدّما عنقيهما فقطعهما تيرَنسيانوس ودفنهما في منزلهما واخفى موتهما بحسب امر الملك

غير ان الله تعالى شهر باكرًا في الغد موتهما المقدس بافواه المجانين لانهم كانوا يصرخون قائلين ان اله الشهيدَين يوحنا وبولس يعذبنا حتى ان الشيطان دخل ابن تيرَنسيانوس وكان ينادي ايضًا بوفاة الشهيدين فذهب ابوهُ الى لحدهما وندم على خطيئتهِ فخرج الشيطان من جسد ابنهِ فآمن تيرَنسيانوس وجميع اهل بيتهِ . وكان موت القديسَين في السنة

الثانية والستين من المائة الرابعة في اليوم السادس والعشرين من شهر حزيران

اما بوليانوس الملك الملحد فقُتل بعد سنة لاستشهاد الاخوين القديسين في اليوم الذي فيهِ سفك دم هذين الشهيدين وهذا في معركة كانت لهُ مع الفرس. قال الراوي انهُ اذ جُرح في الحرب وتحقق موتهُ اغتاظ وغضب غضبًا جنونيًا ورمى بدمهِ الى السماء صارخًا بتجديف: انك غلبتَ حقًّا ايها الجليلي. وخلفهُ جوفينيانوس وكان ملكًا كاثوليكيًا نقيًا

اليوم السابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة بوتامينا والقديس باسيليدوس الشهيدَين

قد هذَّب اوريجانوس هذين الشهيدين على الفضيلة فبوتامينا كانت أَمةً جنسًا وكانت امها مرشِلاً قد ربَّتها على قواعد الايمان الا انها وضعتها منذ ذلك الوقت تحت ارشاد العلاَّمة المذكور آنفًا لكي يتمّم البناء الذي ابتدأت بهِ

انهُ لما كانت بوتامينا فتاة ذات جمال بارع نادر الوجود تعشَّقها الذي كانت تخدمهُ فاغراها وحثها على ان ترتضي بشهواتهِ الفاضحة غير انها تصرَّفت عليها السلام تصرُّفًا لم يُبقِ لهُ في ذلك مطمعًا البتة فاستعمل حِيَلاً كثيرة وذهبت عبثًا كالتملق والتهديد والوعد والوعيد. واذ قصد ان ينتقم منها سلمها الى الوالي المسمى اكيلا ولكن نرجاهُ ان لا يؤذيها اذا قدر ان يُغريها بقبول شهوتهِ ووعدهُ بمبلغ وافر من الدراهم يدفعهُ لهُ اذا جاءَ الامر كما يتمنى. وبالنتيجة عند ما رأى الوالي ان اجتهاداتهِ المتكرّرة لم تنجح مطلقًا وان بوتامينا ثابتة على عزمها حكم عليها بعذاب مختلف الانواع ثم هيَّأ خلقينًا مملوءًا من الزفت المغلي وهدَّدها بانهُ يلقيها في ذلك الخلقين اذا اصرَّت على عصيان مولاها. فاجابت القديسة الوالي على الاسلوب الاتي قائلةً استحلفك بحياة الملك الذي تجلُّهُ ان لا تسمح بان تنزع اثوابي وأُظهر عريانةً ومُر الان ان أُنزَل رويدًا رويدًا في الخلقين باثوابي وحينئذٍ ترى اي صبرٍ لي فان الصبر الذي اعطاهُ يسوع المسيح لمن يرجونهُ لا تعرفهُ انت. فامر الوالي واحدًا من الحرَّاس ان يُنفذ ذلك الامر

واما ذلك الحارس فكان اسمهُ باسيليدوس وعامل بوتامينا بكل ما قدر عليهِ من الاكرام وصانها على طول الطريق من تجاسُر اراذل الناس الذين اهانوا احتشامها بالكلام الدنِس ونال جزاء ادبهِ لانها قالت لباسيليدوس تشجَّع وأكَّدت لهُ انها بعد الموت تنال لهُ من الله نعمة الخلاص وحالما فرغت من كلامها وُضعت رجلاها في الزفت المغلي فسرى في جسدها شيئًا فشيئًا حتى وصل الى قمة رأسها وهكذا تمّت ضحيتها. وماتت امها مرشِلاً حريقًا في ذلك الوقت نفسهِ

وكان حينئذٍ حسب قول ترتوليانوس واوريجانوس رؤى ومظاهر والنتيجة انهُ تنصر خلق كثير بواسطتها. وكان اشهر هذه الاهتداءات العجائبية تنصُّر ارنوبيوس احد علماء البلاغة المشهورين بين كتّاب الاجيال الاولى الذين تعلموا من العدو نفسهِ فن الغلبة واستعاروا من الوثنية سلاحًا ليقاتلوها بهِ. وُلد بسيكًا مدينة بافريقية وعلمهُ وبلاغتهُ اكسباهُ اشتهارًا عظيمًا وأُمر ان يعلّم البيان في نوميديا فاضطرهُ ذلك الى ان يطالع كتب القدماء والمحدَثين وصيَّر نفسهُ حاذقًا بعلم العقائد الوثنية الذي خطّأهُ تخطئةً كبيرة عند ما اقبل على ايضاح الوحي الالهي مع انهُ كان احد الحامين الاشد غيرة على الوثنية. قال القديس ايرونيموس ان التنبيهات التي اتتهُ من السماء في الحلم قد اجتذبتهُ الى ذلك. روى اجلّ المؤرخين واكثرهم اعتبارًا اهتداءات مختلفة جرت وقتئذٍ بالنتيجة عن الاحلام او الرؤى التي أُرسلت بنوع فائق الطبيعة

ومن اولئك المتنصّرين باسيليدوس الذي وعدتهُ بوتامينا بان تصرّح بشكرهِ عند ما تتحد بيسوع المسيح فبعد قليل طلب من الشهيد المذكور رفقاؤهُ العساكر ان يقسم بالالهة الكاذبة فرفض ذلك قائلاً انهُ مسيحي فظنوا في اول الامر انهُ يهزل ولكن اذ رأوهُ ثابتًا في عزمهِ قادوهُ الى الوالي فسجنهُ. واما المسيحيون الذين قد زاروهُ فارادوا ان يعرفوا علة هذا التغيير الفجائي فقال لهم ان بوتامينا ظهرت لي ليلة النهار الثالث لاستشهادها ووضعت اكليلاً على رأسي واخبرتني انها قد نالت لي نعمة الخلاص من لدن السيد لهُ المجد وانني عما قليل اشترك معها في المجد السماوي. فامتلأ الاخوة فرحًا وعمَّدوهُ وفي الغد اعترف باسيليدوس ثانيةً بالايمان امام محكمة الوالي وحُكم عليهِ بقطع الرأس وذكر في كتاب تراجم الشهداء الروماني في اليوم الثامن والعشرين من شهر حزيران مع القديسة بوتامينا والقديس بلوتركوس ورفقائهِ

اليوم الثامن والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس إيريناوس الشهيد

ان هذا القديس وُلد ببلاد الشرق نحو السنة العشرين من المائة الثانية للمسيح ولم يذكر المؤرخون اسم الموضع الذي وُلد بهِ ولكن من حيث قد تتلمذ للقديس بوليكربوس استنتجوا انهُ وُلد بازمير وتربَّى فيها. اما والداهُ فكانا مسيحيين وربياهُ تربيةً مسيحية ووهبهُ الله عقلاً قابلاً لاكتساب العلوم وقلبًا منصبًّا نحو الفضيلة وتتلمذ منذ حداثتهِ للقديس بوليكربوس الذي احبهُ جدًّا لكونهِ حسن الطباع ولطيف الاخلاق واعتنى بتعليمهِ ما استطاع. وكان ذلك التلميذ يهشُّ عند استقبال معلمهِ ويمتلئُ قلبهُ فرحًا اذا ذكر لهُ ما قد سمعهُ من القديس يوحنا الانجيلي ومن الذين صحبوا سيدنا لهُ المجد

وقد استفاد ايريناوس جدًّا من تعليم هذا المعلم القديس وعنهُ يتكلم في رسالتهِ التي كتبها في زمن شيخوختهِ الى فلورينوس قائلاً: اني اتذكَّر الان ما سمعتهُ ورأيتهُ في ذلك الزمن اكثر مما اتذكر ما سمعتهُ ورأيتهُ فيما بعد لاني حتى الان اعرف وابصر بالعقل اين كان جالسًا القديس بوليكربوس وهو يعلم الشعب وانصوّر دائمًا في مخيلتي الاحتشام والبرارة المتلألئة على وجههِ. وكيف كان يصف لنا معاشرتهُ القديس يوحنا الانجيلي وكثيرين غيرهُ الذين كانوا على عهد السيد المسيح وما كانوا استمعوهُ من فمهِ العزيز فكنت اصغي لذلك الخطاب برغبةٍ متقدة وارسمهُ على صفحات قلبي وبقيت هاتيك الاخبار كلها مطبوعةً عليهِ ولم ازل اتذكَّرها

فاتفق ان القديس بوليكربوس ذهب الى رومية ليدبّر امور كنيستهِ فاتخذ معهُ القديس ايريناوس وهناك عرف ان تلميذهُ القديس بوتينوس اسقف مدينة ليون قد طعن في ايامهِ وان الشعب المسيحي كثر هناك جدًّا فارسل تلميذهُ الجديد اي القديس ايريناوس ليسعف ذلك الاسقف في شيخوختهِ فبارك عليهِ البابا انيستوس وذهب الى ليون حيث تنصر على يدهِ كثير من الوثنيين لان غيرتهُ كانت مقترنة ببرارة وعلم واحتشام

ثم ارسلتهُ كنيسة ليون الى رومية ثانيةً ليطلب من البابا الوتاريوس حل بعض مسائل تختص بتلك الكنيسة وفيما هو هناك في السنة السابعة والسبعين من القرن الثاني هاج الوثنيون على الشعب المسيحي في مدينة ليون وفتكوا بالقديس بوتينوس وبكثيرين غيرهِ كما ذكرنا ذلك في ترجمة اليوم الثاني من شهر حزيران. فلما شعر القديس ايريناوس بابتداء هذا الاضطهاد خرج من رومية حالاً وعاد الى ليون وقد تعزَّى المؤمنون جدًّا عند وصولهِ وجعلوهُ خليفةً للقديس بوتينوس فطفق القديس يجمع الرعية المتبددة ويرعاها بغيرة عجيبة غير مبالٍ باخطار الموت بل كان يطوف في كل الاماكن ويقوّي الضعيف ويشفي المريض وينشد الضالّ.

وبعد موت اوراليوس الملك ارتاح المؤمنون كل ايام ابنهِ كومدوس. وفي هذه المدة بارك الله تعالى على غيرة القديس ايريناوس وقبل الايمان الكاثوليكي اكثر سكان مدينة ليون حتى ان غيرتهُ امتدَّت الى ما وراء هذه المدينة العظيمة ايضًا لانهُ كان يعتني بكنائس اخر كما يقرّر اوسابيوس المؤرّخ وتتلمذ لهُ خلقٌ كثير وخرج من مدرستهِ اناس ووعظوا في اقاليم مختلفة ونشروا فيها النصرانية

اقول ولابدَّ ان نورد في هذا المقام شدة غيرة هذا القديس على الكنيسة الكاثوليكية ونذكر الدلائل والبراهين التي كان يناصب بها مبتدعي عصرهِ المنفصلين عن الكنيسة الرومانية. فليصغِ اذًا المؤمن باحترام الى ما قالهُ هذا التاولوغوس الجزيل القدس والواسع العلم كما دعاهُ القديس ابيفانيوس في كتابٍ لهُ في البِدَع حيث يقول. ان الاراطقة يستغربون محبتنا لهم ويسمّون غيرتنا على خلاصهم قساوةً لاننا نشدّ على جراحاتهم ليخرج منها سمّ قلوبهم المنتفخة بالكبرياء والعجرفة ونحرق بالكي اللحم المميت الفاسد ونسألهُ تعالى ان يخرجهم من هوة الضلال حتى يرجعوا الى كنيسة المسيح فهذا ما نطالبهُ لهم بكل قلوبنا لاننا نحب خلاصهم اكثر مما يحبون هم انفسهم ونرجو ان تكون هذه المحبة الصافية مفيدةً لهم اذا قبلوها

هذا وان القديس في كتابهِ الثالث في البدَع يتكلم كلامًا جليًّا مضمونهُ انهُ لابدَّ ان يكون كل تعليم في كنيسة المسيح مختص بقواعد الايمان والخلاص موافقًا لاعتقاد الكنيسة الرومانية لانهُ اثبت تعليم الكنيسة بالكتب المقدسة والتقليدات ثمَّ اثبت التقليدات الكنائسية بتسلسل اساقفة الكنيسة الرومانية ثم قال: اننا بالتقليدات التي تسلمتها الكنيسة الرومانية من القديسين الرسولين بطرس وبولس عينهما وبهذا الايمان الذي بُشّر بهِ الناس والمحفوظ الى يومنا هذا

بتسلسل الاساقفة الرومانيين فاننا نطرد ونلعن كل الذين يحدثون شيئًا في الدين . فكيف لا ويجب ان تكون جميع الكنائس متحدة بهذه الكنيسة الرومانية ومتفقة معها على تعليم واحد لانها متسلطة على جميع الكنائس اذ أسَّسها الرسولان الجليلان بطرس وبولس ورقّيا الى مرتبة الاسقفية لينوس وخليفتهُ اناكليتوس والثالث اكليمنضوس الذي كان قد رأى ذينك الرسولين عليهما السلام وبعدهُ قام افاريستوس ثم اسكندر ثم سِكستوس ثم تالسفروس ثم هيجينوس ثم بيوس ثم انيساتوس ثم سوتيروس ثم الوتاريوس الجالس الان على العرش البابوي

اعلم انهُ بواسطة الخلافة وصل الى الكنيسة ما وصل من تقليدات الرسل وانذار الحق بحيث لو لم يُدوَّن الرسل او لم يسلموا ما كتبوهُ لكنا ملتزمين ان ناخذ بالتقليد ونجري عليهِ كما جرى لخلق كثيرين من البرابرة ممن آمنوا بالمسيح لا بتعليم مسطَّر في كتاب بل بمجرَّد الكلام وهم يحفظون التقليد القديم بامانة حتى لو انذرهم احد بلغتهم بما اخترعهُ الاراطقة واحدثوهُ في الدين القديم لسدُّوا آذانهم وهزأُوا بهِ حتى لا يسمعوا تجديفهُ

هذا ما قالهُ القديس التاولوغوس وبهِ اخزى الاراطقة القدماء والمحدَثين الذين ما اجمعوا ولا اطبقوا الَّا على عصيان بيعة الله المقدسة الرومانية

قد ذكرنا آنفًا ان المسيحيين حصلوا على حال السلامة وتمتعوا بالامان على عهد كومدوس الملك اما في السنة الثانية والتسعين بعد المائة فجلس الملك سابتيموس ساوروس وفي اول ملكهِ حيث كان مشتغلاً بمقاومة اخصامهِ واعداء المملكة لم يضطهد المسيحيين بل كان يبين اعتبارهُ لطاعتهم الَّا انهُ بعد عشر سنين اي في سنة اثنتين ومائتين للمسيح اطلق العنان لما طُبع عليهِ من القساوة واشعل نار الاضطهاد الخامس ولانهُ كان سابقًا والي مدينة ليون وعرف ان هذه المدينة امتلأَت من المؤمنين كان اوَّل من اثار عليهم الحرب واذ دخل هذه المدينة بجيشهِ قبض اولاً على القديس وقطع رأسهُ ثم فتك الجنود ببقية المسيحيين وقتلوا منهم في يوم واحد تسعة عشر الفًا وكان دمهم يجري في شوارع المدينة . وكانت وفاة القديس ايريناوس في السنة الثانية من القرن الثالث للمسيح

اليوم التاسع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس بطرس هامة الرسل

ان القديس بطرس هامة الرسل وراس الكنيسة المنظور وعمود الايمان الغير المتزعزع كما قال المجمع الافسوسي المقدس وصخرة الديانة ومسندها حسبما سُطّر في المجمع الخلقيدوني ونائب سيدنا يسوع المسيح على الارض والاساس الذي عليهِ بُنيت الكنيسة وبهِ تدوم كما قال القديس اغسطينوس كان اسمهُ سمعان قبل دعوتهِ الى الرسالة وقد وُلد ببيت صيداء مدينة الجليل وموقعها على شاطئ بحيرة جانشر وهي بحيرة طبريَّة . فكان ابوهُ يونا او يوحنا دنيَّ النسب صيَّادًا الَّا ان سيرتهُ كانت ممدوحة عند الجميع ولانهُ كان قد تزوَّج امرأَة في كفرناحوم كان يسكن هناك مع اخيهِ القديس اندراوس

وهذا اعني بهِ اندراوس كان قد تتلمذ للقديس يوحنا المعمدان فلما رأى سيدنا يسوع المسيح وعرف من معلمهِ انهُ هو المسيح حقًّا اتى اخاهُ سمعان ليبشّرهُ بهذه البشرى المفرّحة فقال لهُ اننا قد وجدنا المسيح وكلمناهُ . اما سمعان فبما انهُ كان حارًّا ونقيًّا ومرتاحًا مثل اخيهِ الى مشاهدة المسيح طلب منهُ بالحاح ان يهديهُ اليهِ تعالى فذهبا معًا فنظر يسوع الى سمعان بعين المحبة الخصوصية وقال لهُ انت سمعان بن يونا هذا اسمك الان ولكني اريد ان اسميك من الان فصاعدًا الصفا الذي تأويلهُ الصخرة وفي اللغة اللاتينية باترا اي بطرس اشارةً الى انهُ كما انهُ تعالى هو الصخرة الاصلية الاولى التي بُنيت عليها الكنيسة هكذا أَشركهُ في اسمهِ وخواصّهِ فيكون للكنيسة نائبًا تعتمد عليهِ وتتحد بهِ بقية المؤمنين كحجارة روحية اتحادًا غير منفصل حتى ان كل قوات الجحيم لا تقدر ان تهدمها

فمكث الاخوان مع السيد لهُ المجد ذلك النهار كلهُ ومنذ ذلك الوقت اضحى بطرس انشط تلاميذهِ تعالى ولما عاد الى بيتهِ ربح كل من فيهِ ليسوع ومع انهُ لم يزل يباشر صناعتهُ كان يفتقد السيد المسيح غالب الايام . وقد ذهب المعلمون الى انهُ حضر عرس قانا الجليل وابصر الآية الاولى التي صنعها يسوع الَّا انهُ لم يترك شيئًا الى ان وجدهُ يسوع هو واندراوس اخاهُ عند رجوعهِ من اورشليم وكانا يغسلان شباكهما على

شاطئ البحيرة في سفينتهما فصعد اليها يسوع وقال لبطرس تقدَّما الى العمق وأَلقيا شباككما للصيد. فاجاب سمعان وقال له. يامعلم قد تعبنا الليل كلهُ ولم نأخذ شيئًا ولكن بكلمتك انا القي الشبكة ولما فعلا ذلك اخذا سمكًا كثيرًا جدًّا حتى كادت شبكتهما ان تتمزَّق. فاذ رأَى ذلك سمعان خرَّ عند ركبتي يسوع وقال له ابعد عني ياسيدي فاني رجلٌ خاطئ. فاقامهُ الرب وقال لهُ ثق يابطرس ولا تخف فاتبعني واجعلك صيَّادًا تصيد الناس

فحالاً عاد بطرس الى بيتهِ وفارق امرأَتهُ الفاضلة ولكن باذن منها وترك كل شيء وتبع السيد المسيح ولم ينفصل عنهُ ابدًا. وكان هذا الرسول يحب سيدنا يسوع المسيح محبة عظيمة ويظهرها في كل فرصة وقد ذُكر في الانجيل المقدس ان هذا الرسول جاز يومًا بحيرة جانيسارث مع بقية الرسل فجاءهم يسوع ليلاً ماشيًا على المياه ولفرط ما اشتهى بطرس ان يلتقي بهِ تعالى ويجثو لهُ هتف قائلاً مُرني يارب بان آتي اليك على الماء. فقال لهُ يسوع هلمَّ فانطرح بطرس على وجه البحيرة بدون خوف ومشى على الامواج ذاهبًا الى يسوع الاَّ انهُ لما رأَى قوة الريح خاف واوشك ان يغرق فهتف قائلاً يارب خلصني وللوقت مدَّ يسوع يدهُ واقامهُ وقال لهُ ياقليل الايمان لِمَ شككت

فكان بطرس يزداد كل يوم حبًّا وايمانًا بالسيد المسيح وقد اظهر ذلك حينما كان عزَّ وجل يوضح لاهل كفرناحوم سرَّ القربان المقدس لان كثيرين من تلاميذهِ استغربوا هذا التعليم وتركوهُ. حينئذٍ التفت المخلص الى الرسل وقال لهم هل انتم تتركوني ايضًا فاجاب سمعان الصفا يارب الى اين نذهب وكلام الحياة الدائمة عندك اننا نعترف متيقنين انك انت المسيح. وفي يوم آخر سأَل يسوع رسلهُ ماذا يظن الناس بهِ تعالى ومَن يقولون انهُ هو. فاجابوهُ قائلين قومٌ يقولون انهُ يوحنا المعمدان او ايليا وآخرون ارميا او واحدٌ من الانبياء فقال لهم يسوع اما انتم فمن تقولون اني انا هو فتقدَّم بطرس بحرارةٍ وقال بابتهاج قلب مؤمن ومحب: انت المسيح ابن الله الحيّ حينئذٍ قال لهُ رب المجد طوبى لك ياسمعان بن يونا من اجل انهُ ليس جسد ولادم اظهر لك حقيقة الوهيتي بل ابي الذي في السماوات اظهر لك ذلك وانا اعلمك الان مَن تكون انت فاعلم انك صخرة واني على هذه الصخرة ابني بيعتي وابواب الجحيم لن تقوى عليها فيحاربها الملوك المغتصبون ويجتهد في استئصالها الاراطقة المتمرّدون فلا يجديهم الجهد نفعًا بل انما يذهب على غير فائدة فان كنيستي المبنية عليك تستمرّ وتثبت على ممرّ الدهور وكل ما سوف يحدث من البدع فانهُ مبني على الرمل فلا يدوم لانهُ غير موسس على هذه الصخرة. وانا ساعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فالذين تفتح لهم بابها يدخلونها والذين تغلق دونهم هذا الباب فلا يلجونها لان الله تعالى يثبت في السماء ما تحكم بهِ على الارض فكن عليها نائبي وانا اثبت كل ما ترتّبهُ انت باسمي

وقد اتفق جميع الاباء القديسين على ان سيدنا يسوع المسيح جعل القديس بطرس هامة الرسل واقوى ركن للكنيسة وراسها المنظور وقد احب السيد المسيح ان يشرّف هذا الرسول بهذه الاختصاصات السامية بما ان بطرس كان يحبهُ اكثر من سائر الرسل. ولفرط ما كانت هذه المحبة تضطرم فيهِ كثيرًا ما كان يخرج عن الصواب في القول والعمل لانهُ لما تقدم ملكس ليمسك السيد المسيح وثب عليهِ بطرس كأسد وقطع أُذنهُ. وقد شهد يسوع ان بطرس يحبهُ اكثر من باقي الرسل ولا نكير فانهُ عزَّ اسمهُ سأَلهُ قائلاً اتحبني اكثر من هولاء ثم اقامهُ راعيًا عامًّا على كنيستهِ كلها قائلاً ارعَ خرافي ونعاجي. هذا وكلما ذكر في الانجيل اسماء الرسل جاء اسم بطرس في المقام الاوَّل ليتميز هكذا عن سائر الرسل الكرام. ويذكر الانجيل ايضًا ان السيد المسيح كثيرًا ما كان يشرّف بطرس على انواع مختلفة لانهُ لما طلب منهُ اليهود الجزْيَة ولم يكن معهُ تعالى دراهم قال لبطرس امضِ الى البحر وأَلقِ السنارة فيخرج سمكٌ فخذهُ وافتح فاهُ فتجد فيهِ إِستارًا فادفعهُ للجابي عني وعنك. ولما اراد ان يغسل ارجل تلاميذهِ ابتدأَ من بطرس ولما تنبأَ لهُ قبل آلامهِ انهُ سينكرهُ ثلث مرَّات حينئذٍ قال لهُ ياسمعان هاهوذا الشيطان سأَل ان يغربلكم مثل الحنطة ولكنني قد طلبت من اجلك لئلا ينقص ايمانك.

وبعد سقوط هذا الرسول في الخطيئة المذكورة لم يهملهُ سيدهُ حتى ولا في حين آلامهِ بل التفت نحوهُ ونظر اليهِ نظرة المحبّ وكاد قلب الرسول لتلك النظرة ان يتفتّت من فرط الندامة فكيف لا وقد تقرّح خدّاهُ لكثرة ما سال عليها من الدموع السخينة

اما بعد صعود سيدهِ الى السماء وحلول الروح القدس

عليهِ فما ابطأ ان خرج من العلية وقبل الجميع أنذر بالصليب المقدس بغيرة متقدة وبعظتهِ هذه الاولى جذب الى الايمان ثلثة آلاف نفس وبعظتهِ الثانية آمن خمسة آلاف رجل وهو اوَّل من أثبت لاهوت سيدنا يسوع المسيح باعجوبةٍ وذلك لما شفى رجلاً مقعدًا من بطن امهِ بقولهِ له باسم يسوع المسيح الناصري قم فامشِ ولما عاين الشعب ذلك وتعجبوا منهُ قال لهم ما بالكم متعجبين ولماذا تتفرَّسون فينا كأننا بقوَّتنا وسلطاننا فعلنا هذه الآية اعلموا انكم بقتلكم السيد المسيح قد قتلتم مصدر الحياة وخالق كل البرايا وقد قام من الموت وباسمهِ القدوس قد شُفي هذا الرجل الذي ترونهُ وتعرفون انهُ مقعد من بطن امهِ

ثم ان السيد المسيح شرَّف رسولهُ بطرس بان آتاهُ ان يصنع من الآيات والمعجزات ما لم يفعلهُ تبارك اسمهُ اذ كان على الارض وكان الناس اذا مرَّ بطرس في الشوارع يضعون حالاً المرضى على الاسرَّة والفرش حتى اذا وقع ظل الرسول على واحد منهم يبرأُون جميعًا فانتشر خبر هذه العجائب فارسل رئيس الكهنة وقبض عليهِ وقال له اننا قد امرناكم الاَّ تعلموا احدًا بهذا الاسم. ومع هذا فقد امتلأَت اورشليم من تعليمكم فقال الرسول يجب ان نفضّل امر الله تعالى على امر الناس وخرج القديس من المحفل مستبشرًا لانهُ أُهّل ان يُهان ويتألم من اجل اسم يسوع ولم يكفَّ عن التبشير بيسوع في الهيكل والبيوت ولا فارق اورشليم بل اقام بها كل ايام الاضطهاد الاوَّل حتى بمشورة غمالائيل كفَّ عنهُ روساء الكهنة فاستراحت الكنيسة مدة

حينئذٍ تنصَّر اهل السامرة فافتقدهم بطرس ويوحنا لكي يقبلوا سر التثبيت بوضع ايديهما وصلاتهما ويقبلوا الروح القدس .وعند رجوعهِ من السامرة ذهب بطرس الى مدينة اللدّ مدينة بجوار يافا فوجد هناك انسانًا يقال لهُ اينيا وكان لهُ ثماني سنين ملقى على سرير بحيث كان مخلّعًا فقال لهُ بطرس يا اينيا قد شفاك الرب يسوع قم فافرش لنفسك.فقام لساعتهِ امام اهل المدينة فتنصروا جميعًا .ثم انطلق الى يافا وعلى اثر وصولهِ اليها صنع آية عظيمة لاجل ارملة تدعى طابيتا كانت قد ماتت منذ يومين فصلى من اجلها وقال للمرأة الميتة طابيتا قومي فقامت حالاً وآمن كثيرون بسبب هذه الآية

وفي غضون اقامتهِ بيافا رأى رؤيا عجيبة ذُكرت في الفصل العاشر من كتاب اعمال الرسل بها اعلمهُ سيدنا يسوع المسيح انهُ مات من اجل خلاص العالم كلهِ. ومن ثم يريد ان الجميع يخلصون وفي اثناء هذا الامر حضر لديهِ ثلثة رجال مرسلون من قبل قائد روماني اسمهُ كرنيليوس وطلبوا منهُ ان يمضي معهم الى مدينة قيسارية. فذهب الرسول معهم واذ دخل بيت كرنيليوس وجد عندهُ اناسًا كثيرين فقال بطرس للقائد لماذا دعوتني فاجاب كرنيليوس وقال انهُ منذ اربعة ايام حينما كنت اصلي في بيتي وقف امامي رجل بلباسٍ أبيض وقال ياكرنيليوس قد سُمعت صلاتك وقُبلت صدقاتك من الله فأرسل الى يافا وادعُ سمعان بطرس المقيم ببيت سمعان الدبَّاغ الذي على شاطي البحر فيقول لك ما يجب ان تفعل. فابتدأ الرسول يبشرهم بالمسيح وفيما هو يتكلم حل الروح القدس على الحاضرين فاخذوا يتكلمون بالسنة مختلفة فعمدهم بطرس ولما رجع الى اورشليم علم المؤمنون بما فعلهُ الرب في الأمم

ولما كانت السنة الخامسة لصعود الرب ذهب بطرس الى انطاكية حيث جعل كرسيهُ في اول الامر ودُعي المؤمنون باسم النصارى وفي السنة الثانية عشرة بعد صعود الرب نقل كرسيهُ الى مدينة رومية بالهام الله وذلك لان الله تعالى قد شاء كما قال القديس لاون المعظم ان المدينة التي كانت أُم مدن الدنيا ومعلمة الضلال تكون مركز الايمان ومدرسة الحق ومعلمة جميع كنائس المسكونة. وكان القديس بطرس يفارق رومية كثيرًا ليزور كنائس المشرق والمغرب

وفي السنة الرابعة عشرة لصعود السيد المسيح الى السماء حين كان القديس بطرس في اورشليم ارسل هيرودس اغريبا فامسك الرسول والقاهُ في سجن واقام ستة عشر جنديًا للمحافظة عليهِ. فشرع المؤمنون يصلون من اجلهِ بغير انقطاع. وفي تلك الليلة التي فيها كان هيرودس قاصدًا ان يقتل بطرس ظهر ملك الرب بغتةً ووقف بازائهِ فاستنار السجن ولأن الرسول كان نائمًا لمسهُ الملك وقال قم واتبعني فسقطت السلسلتان اللتان كان مرتبطًا بهما فقام الرسول وتبع الملك وهكذا نجا من ايدي اليهود. واخذ يطوف في بلاد الشرق ثانيًا ويرسم اساقفة في اماكن كثيرة ثم رجع الى رومية

واذ كان المغبوط بطرس في رومية كتب رسالتهُ الأُولى نحو السنة التاسعة والاربعين الى مومني الشرق ليثبتهم في

الايمان المقدس ويحذّرهم من ضلال الاراطقة الاولين وفي السنة التاسعة والاربعين ايضاً اذ كان اليهود يتجسسون المدينة بغضاً للمسيحيين امر كلاوديوس الملك بان يخرجوا هم والمسيحيون من رومية فرجع القديس بطرس الى اورشليم وعقد هناك المجمع الاول في السنة الحادية والخمسين وفيهِ اثبت هو والرسل ان العهد العتيق قد بطل وقام مكانهُ العهد الجديد الانجيلي . ثم ذهب الرسول الى انطاكية حيث كان القديس بولس وشرع يعاشر من تنصّر من الامم ويؤاكلهم بدون نظرٍ الى الاطعمة . الّا انهُ لما رأى ان المتنصرين من اليهود يشككون امتنع عن ذلك فكان قد نصحهُ القديس بولس بل وبّخهُ على ذلك ايضاً بحيث كان من الممكن ان يستدل من ذلك على ان المؤمنين ملتزمون بحفظ العهد العتيق . فاذعن القديس بطرس للنصيحة مع انهُ كان هامة الرسل كما قال القديس اغستينوس في مقالتهِ الثامنة عشرة على نبوة حزقيال النبي ورأس الكنيسة وفضّل الاتضاع على تقدّم رئاستهِ ولم يفكر بان القديس بولس كان تحت سلطانهِ فعاد القديس بطرس الى رومية

وفي اثناء اقامتهِ برومية انتصر على قوات الجحيم لان راس الشياطين عدوّ الله لما رأى ان المسيح جلّت حكمتهُ اقام سمعان راساً للكنيسة التي هي جماعة الكاثوليكيين . اقام لعنهُ الله سمعاناً آخر راساً لاحزابهِ جماعة الاراطقة . فهذا المذكور كان اعتمد بالسامرة بيد الشماس فيلبس وحينما كان القديسان بطرس ويوحنا بالسامرة كما ذكر في الفصل الثامن من كتاب اعمال الرسل ورأى ان الروح القدس يحلّ على المؤمنين بوضع ايدي الرسل عليهم ثم ينطقون بألسنة مختلفة ويفعلون عجائب كثيرة قدّم للرسولين المذكورين مبلغاً وافراً من المال كي يشركوهُ في هذا السلطان . فقال لهُ بطرس لتكن فضتك معك للهلاك من اجل انك ظننت ان موهبة الله تُعطى بالفضة . فلما انتقل القديس بطرس من السامرة شرع سيمون الساحر يعلّم هناك وفي مدن الشرق انهُ هو قوة الله العظمى وكان يقول انهُ هو ابن الله لليهود والروح القدس للامم

فلما عرف الشيطان ان القديس عزم على المضي الى رومية لينصب هناك كرسيهُ ارسل ابليس لعنهُ الله رسولهُ سمعان الساحر الى رومية قبل ما وصل اليها بطرس الرسول عليهِ ازكى التحية لكي يلاشي او قلما يكون يضعّف بسحرهِ وآياتهِ الخيالية معجزات الرسول الحقيقية . وقبل وصول القديس بطرس الى رومية كان سيمون الساحر قد حيّر عقول الرومانيين بسحرهِ الذي يسبي الالباب وكان يُعَدُّ انساناً قديساً حتى انهم اقاموا لهُ في المدينة تمثالاً كأنهُ اله كما روى القديس يُستينوس والمعلم ترتوليانوس وكانت لهُ كرامة لدى نيرون الملك وظفر عندهُ بالمكانة والاعزاز . بيدَ انهُ بعد قليل من الزمان ظهر انهُ انسان شرير خبيث لكونهِ لما اراد ان يرتفع الى السماء واجتمعت الشياطين اسعافاً لهُ ابتدأ يرتقي الى السحاب على ايديهم اخزاهم الله اجمعين . ولكن لما صلى بطرس وطلب من الله تعالى ان يخزي الشيطان ويظهر شرّ سيمون الساحر سقط بغتةً وانكسرت ساقاهُ فحملوهُ الى بيت كان قريباً ولفرط خجلهِ من هذا السقوط رمى بنفسهِ من على سطح البيت الى اسفل فمات شرّ ميتةٍ

وكانت غيرة القديس بطرس بحسب سلطانهِ تمتدُّ الى كل الكنائس فكتب رسالتهُ الثانية الى جمهور المؤمنين ثم ارسل تلاميذهُ يدعون الناس الى النصرانية فقبل الناس بشارتهم شرقاً وغرباً وفيما هو يخدم كرم الرب هكذا وصل القديس بولس الى رومية . فتضاعف فرح المؤمنين وتكاثر عددهم ولاجل ذلك اخذ الملك نيرون يضطهدهم فالحّ المؤمنون على القديس بطرس بان يبتعد وقتاً واذ كان خارجاً من المدينة تراءى لهُ السيد المسيح كانهُ يتوجه اليها فسألهُ الرسول قائلاً الى اين انت ماضٍ يارب

فاجابهُ رب المجد اني ماضٍ الى رومية لأُصلب ثانيةً . ففهم الرسول معنى المسيح تبارك اسمهُ وذكر ما تنبأ عليهِ سيدهُ قبل موتهِ وبعد قيامتهِ قائلاً لهُ : الحق الحق اقول لك اذ كنت شاباً كنت تشد حقويك وتمشي الى حيث تشاء واذا شخت فانك تبسط يديك ويشدك آخر ويمضي بك الى حيث لا تريد (يوحنا ٢١ : ١٨) . فرجع الى المدينة ليتأهب للموت . فقبض عليهِ الملك نيرون في ذلك اليوم عينهِ وبقي في السجن مع القديس بولس نحو تسعة اشهر وهو يعظ هناك وآمن من الحرّاس اثنان وهما القديسان بروسيستوس ومارتينيانوس وعمدهما وسبعة واربعين شخصاً ثم صُلب ومات في اليوم التاسع والعشرين من شهر حزيران نحو السنة الخامسة والستين للمسيح وكان ذلك بعد خمس وعشرين سنة لنقل كرسيهِ من انطاكية الى رومية وسبع وثلاثين سنة

بعد صعود الرب لهُ المجد.

اليوم الثلثون
وفيهِ ترجمة القديس بولس الرسول

ان هذا القديس رسول الامم ومعلمهم المعظم كان يهوديًّا من سبط بنيامين وكان يُدعى اولاً شاول. وُلد بترسوس بعد ميلاد سيدنا يسوع المسيح بسنتين. ولان اباهُ كان فريسيًّا ارسلهُ منذ صبائهِ الى اورشليم ليتعلم هناك علم الناموس والتقليدات الناموسية في مدرسة غمالائيل المعلم اللبيب. وما لبث ان مهر بهذه العلوم وغار للناموس غيرة مضطرمة واضطهد الكنيسة بكل قوتهِ. فطلب موت القديس استفانس وحرَّك اليهود واغراهم برجمهِ وكان يحفظ ثياب عندما رجموهُ وذلك على ما قال القديس اغستينوس لكي يرجمهُ بايدي جميع راجميهِ. وبعد ذلك شرع يطلب المسيحيين في شوارع المدينة وفي الهيكل والبيوت. وكان كل من وجدهُ من المؤمنين بالسيد المسيح يسوقهُ الى السجن ويسلمهُ الموت. ولفرط بغضهِ للمسيح لم يكتفِ باضطهاد تلاميذهِ الذين في اورشليم واليهودية والجليل وفي كل بلاد فلسطين بل طلب كذئب مفترس ظمآن الى دم المؤمنين من محفل الحكام اذنًا وسلطانًا ليمسك كل من بدمشق الشام من المسيحيين رجالاً ونساء ويوثقهم ويجيء بهم الى اورشليم. ولما قرب من مدينة دمشق تجلَّى لهُ سيدنا يسوع المسيح على الصورة المذكورة في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني وصيَّرهُ بغتةً رسولاً للانجيل المقدس. وقد ذكرنا هناك كل ما جرى لهُ وقتئذٍ. وبعد ان ابتعد من دمشق الشام واختلى زمانًا في بلاد العربية رجع الى تلك المدينة وشرع يبشر بلاهوت المسيح ويُخزي اليهود بقوة تعليمهِ. ولان اليهود كانوا يطلبون امساكهُ وقتلهُ ويرصدون ابواب المدينة لكيلا يهرب دلَّتهُ الاخوة بزنبيل من على السور فهرب

وذهب الى اورشليم ليعاين القديس بطرس الرسول ولان المؤمنين كانوا يهربون منهُ ظانين انهُ لم يزل ذئبًا خاطفًا التجأ الى القديس برنابا صديقهِ القديم واخبرهُ بكل ما جرى لهُ. ففرح القديس برنابا فرحًا لا يوصف وادخلهُ على القديس بطرس. ففرح بطرس وبقية الرسل والتلاميذ فرحًا يتعذَّر على القلم وصفهُ لما تحققوا هذا التغيير العجيب الذي صنعتهُ يد يسوع الضابطة الكل. ولانهُ جلَّ ثناؤُهُ كان قد صيَّر شاول اناء مختارًا ليحمل اسمهُ امام الامم والملوك وبني اسرائيل عاد شاول المذكور الى طرسوس وطنهِ وطاف في مدن كثيرة ببلاد سورية وكيليكية وجذب كثيرين الى الايمان

ولان القديس برنابا وجد في انطاكية الحصاد متزايدًا اتى طرسوس وكلف القديس بولس بالمضي معهُ الى انطاكية وبعد ان خدما هناك كرمة الرب نحو ثلث سنين قال الروح القدس للانبياء الذين في انطاكية افرزوا لي شاول وبرنابا للعمل الذي اتخذتهما من اجلهِ اي لتبشير الامم بالانجيل (اعمال الرسل ١٣ : ٢) حينئذٍ صاموا وصلوا ووضعوا عليهما الايدي واطلقوهما. فذهبا الى سلوكية ومن هناك الى قبرس. ولما وصلا الى سلامينا التي كانت اول مدن هذه الجزيرة كرزوا هناك وبكرزهم آمن كثيرون. وقد ذهب المعلمون الى ان القديس بولس في ابتداء هذه الرسالة أُختطف الى السماء الثالثة حيث اراهُ الله عجيبة فائقة كل وصف بشري وكشف لهُ اجلَّ الاسرار (٢ كورنتس ١٢ : ٧) الا انهُ كما قال هو نفسهُ لئلا يستكبر بعظمة هذه الرؤيا أُعطي مخسًا جسديًّا ملك الشيطان لكي يلطمهُ. اي انهُ كما قال جمهور الاباء كان يشعر في جسدهِ بحركات لحمية مسببة من الشيطان ومن اجل ذلك كان يزيد الرسول على اتعاب رسالتهِ تقشفات مضنية ويعذب جسدهُ (١ كورنتس ٩ : ٢٧)

ولما كان بجزيرة قبرس كان هناك حاكم من قِبل الرومانيين يسمى سرجيوس بولس رجل لبيب فطن وكان يستمع لشاول بشهوة ويميل الى الايمان (اعمال الرسل ١٣ : ٧) الاَّ ان الياس الساحر الرجل اليهودي كان يمنعهُ عن ذلك. فالتفت اليهِ القديس بولس وقال لهُ يا ممتلئًا من كل غش ومكر يا ابن الشيطان وعدو كل برّ ألا يكفيك ان تغض نظرك عن نور الحق حتى تجتهد في صد الاخرين عن قبولهِ ايضًا فها ان يد الرب عليك وتكون اعمى الى زمن. فعمي الساحر حالاً وبدأ يلتمس من يمسك يدهُ ويهديهِ. فلما رأَى سرجيوس هذه الآية تنصَّر ومن ذلك اليوم اتخذ هذا الرسول اسم بولس لئلا يشمئز منهُ اليونانيون والرومانيون لاجل اسمهِ العبراني. وبعد ما غرس الايمان في قبرس انطلق الى اسيا الصغرى. ولما وصل الى انطاكية مدينة باقليم بيسيدية كرز في مجامع اليهود بغيرة عظيمة وآمن بالانجيل جماعة كثيرون



القديس بولس في السجن

فلما عاين ذلك كهنة اليهود ومعلموهم قاموا على الرسول وجدفوا على تعليمهِ. فقال لهم بولس بشجاعة ان الرب يسوع امرنا ان نبشركم بالانجيل قبل الجميع ولكن من اجل انكم تبعدونهُ عنكم فها نحن نتوجه الى الامم. ثم نفض غبار رجليهِ عليهم وجاء الى مدينة ايقونية حيث اجتذب الى الايمان نفوساً كثيرة منهم القديسة تقلا البتول

فقام هناك ايضاً اليهود والامم ورؤساؤهم على الرسول وكادان يُرجم منهم. فذهب الى مدينة لسطرة ثم الى مدينة دربة وغيرها من المدن حيث بشر بالانجيل. وفيما هو في لسطرة رأى انساناً مقعداً من بطن امهِ فقال لهُ بصوتٍ عالٍ قم على رجليك مستوياً (اعمال الرسل ١٤ : ٩) فوثب ومشى لحسبهِ ورفيقهُ بَرْنابا اهل المدينة الهين وكانوا يريدون ان يقدموا لهما ذبيحة. اما بولس وبَرْنابا فمزّقا ثيابهما وقالا لهم ما هذا الذي تصنعونهُ اننا انسانان قابلان الموت نظيركم. وبعد ذلك بايام قليلة نهض اليهود واثاروا اضطهاداً على بولس واخرجوهُ خارج المدينة ورجموهُ وتركوهُ لانهم ظنوا انهُ قد مات الا انهُ قام ولم يزل يطوف في المدن والقرى ويبشر بالانجيل في كل مكان ويرسم كهنة واساقفة لخدمة الكنائس وبعد ان انفصل القديس برنابا عنهُ افتقد كل كنائس كيليكية وسورية ولما كان في بلد لوقانية اتخذ معهُ تلميذهُ العزيز القديس تيموثاوس ومضى بهِ الى بلد فريجية وغلاطية حيث تنصر على يدهِ خلق كثير

ولما دعا الله القديس بولس الى مكدونية بحلمٍ كما ذُكر في اعمال الرسل (١٦ : ٩) اخذ معهُ سيلا ولوقا وتيموثاوس وذهب الى ساموتراس جزيرة بحر اجيا ووصل في الغد الى نابولي مدينة بساحل مكدونية ومن ثم وصل الى فيلبي مدينة للمهاجرين الرومانيين فوعظ هناك في متعبَّد اليهود الذي هو على مسافة قريبة من المدينة وكان في الذين تنصروا بياعة ارجوان اسمها لوديا فهذه المرأة التي اعتمدت هي وكل عائلتها الزمت القديس بولس ان ينزل ببيتها ما اقام بفيلبي وكان الذين تنصروا حديثاً يجتمعون كل يوم في المتعبَّد الذي تكلمنا عنهُ آنفاً

وكان في تلك المدينة امة معتراة من الشيطان وكانت تجرّ لمواليها اذ تتنبأ ربحاً معتبراً فلما التقت تلك الفتاة بالقديس بولس والذين معهُ جعلت تصرخ هولاء الرجال هم خدَّام الله العلي وهم يهدوننا الى طريق الخلاص ولازمتهم اياماً ولكنما القديس بولس اذ خاف ان هذه الشهادة المقدمة للحق تُعين على اضلال كثيرين فضلاً عن انهُ لا يناسب ان يكون ارواح الظلام حظٌ مع اعمال النور قال للشيطان. باسم يسوع المسيح اخرج من هذه الفتاة فخرج للحال. اما مواليها فلخلهم غضبوا على الرسل القديسين ولذلك جمعوا عليهم اراذل الناس وقادوهم الى امام الولاة الذين امروا بضربهم بقضبان كانهم اناس مفتنون ثم القوهم في سجنٍ مظلم وقيَّدوا ارجلهم باغلالٍ من حديد الامر الذي الزمهم ان يستمرّوا على ظهورهم واذ توسلوا الى الله في جوف الليل بصوتٍ عالٍ حدثت زلزلة تزعزع منها السجن فانفتحت ابوابهُ وتكسرت قيود المسجونين وأيقظ ذلك الضجيج السجّان فلما رأى السجن مفتوحاً صرخ قائلاً قد نجا من كان فيهِ وبما انهُ كان قد كفلهم بنفسهِ اخذ سيفهُ آئساً ليقتل نفسهُ لكنما القديس بولس حالما نظرهُ قال لهُ بصوتٍ عالٍ لا تفعل بنفسك شرًّا لانهُ لم يخرج احدٌ من السجن. واما ذلك الرجل فاخذهُ العجب والاندهال واشعر بجودة الرسول فاتى وخرَّ على قدميهِ وطلب المعمودية وكل عائلتهِ ايضاً

وارسل الولاة صباح الغد يقولون للسجان اطلق المسجونين فاما القديس بولس الذي احتمل بدون تشكٍّ ولا تظلُّم السجن وضرب القضبان قال. كان من المستغرب جدًّا ان يُهان ويُشتم من ابناء الوطن الروماني بدون ان يعرفوا دعواهم وان ينووا ايضاً طردهم سرًّا من السجن بدون ان يعلموا لهم نوعاً من الترضية والتعويض لشرفهم. انما تصرَّف بهذا النوع ليخوّف الولاة وليحرّك غيرة المؤمنين فاذ اضطرب الحكام من اسم ابن الوطن الروماني ذهبوا بانفسهم الى السجن وطلبوا ان يخرج القديسون منهُ

وعقيب ان اسس الرسل في تلك المدينة كنيسة زاهية كما يظهر من رسالة القديس بولس الى اهل فيلبي اخذوا رخصةً من لوديا ومن بقية المؤمنين واجتازوا بامفيبوليس وبابلونينة واتوا تسالونيكي عاصمة مكدونية حيث وعظ القديس بولس ثلث مرَّات مختلفة في مجمع اليهود ونصَّر بعض اليهود وقوماً كثيرين من عبدة الاوثان اضحوا بصبرهم قدوة الكنيسة كلها وكان رسولهم يحبهم ويحنو عليهم دائماً كما يتضح من رسالتهِ الاولى الى اهل تسالونيكي (٢ : ٧)

ان اليهود الذين استمرُّوا على عنادهم لم يروا نجاح الانجيل الَّا رغمًا لهم فجمعوا زمرةً من العصاة واتوا يحاصرون بيت جازون حيث كان القديسون اما بولس وسيلا فلم يكونا هناك فقادوا جازون الى الحكومة التي أَلزمتهُ ان يُعطي كفيلاً على انهُ يُحضر القديس بولس اذ يتضح انهُ مذنبٌ بشيءٍ ولما سكنت الثورة خرج بولس وسيلا من المدينة ليلاً وذهبا من هناك الى بيريا ومدينة مكدونية فآمن من بها من اليهود بالانجيل بفرحٍ وتنصَّر كثيرون لانهُ كان فيها عدد غفير من الوثنيين الذين آمنوا بالمسيح فالتزم القديس بولس ان يسافر عما قليل بسبب الضجة التي ارتفعت لكن ترك في المدينة سيلا وتيموثاوس ليتمّما العمل الذي كان قد ابتدأ بهِ وسار نحو اثينا

ووعظ في محفل القضاة بالمدينة المذكورة. فآمن احدهم وهو القديس ديونيسيوس وامرأَة تُدعى دامَريس. واتى من اثينا الى كورنتس حيث مكث سنة وستة اشهر يسكن في بيت اكويلا ويشتغل معهُ بصناعة المظال ويكرز بانجيل الرب في السبوت فردَّ الى الايمان بهِ كثيرًا من اهل كورنتس (اعمال الرسل ١٨ : ١ — ١٨) وبعد ان ذهب من كورنتس ليزور اورشليم ويحتفل فيها بعيد العنصرة رجع الى ايطاليا. وفي اثناء ذلك ذهب الرسول وافتقد كنائس غلاطية وفريجية وبقية اقاليم اسيا. ثم ذهب الى افسس. ولان كثيرين كانوا قد تركوا عبادة الاوثان نهض رجل صائغ اسمهُ ديمتريوس وحرك الشعب على الرسول لان صناعتهُ كانت قد بطلت برذل الاصنام (اعمال الرسل ١٩ : ٢٤) فذهب الى مكدونية

وبعد ان اقام ثلثة اشهر ببلاد الروم سافر ليأخذ لمؤمني اليهودية ما كان قد حصَّلهُ من الصدقات في مكدونية واكائية وقضى زمانًا في فيلبي وشهرًا كاملاً في ترواذا وليلة سفرهِ من هذه المدينة اجتمع المؤمنون ليسمعوا وعظهُ ويكسروا معهُ الخبز وكانوا متعطشين جدًّا الى الوعظ حتى لم ياكلوا ساعة الظهر ولا العشاء مع انهُ كان يوم احد وزمان الفصح. واضطربت نصف الليل هذه الجمعية المقدسة بسبب هذه الحادثة وهي ان شابًا اسمهُ اوتيك كان جالسًا على الكوة وفيما الرسول يعظ نام فسقط من الطبقة الثالثة الى حيث كانوا فرُفع ميتًا ولكنما القديس بولس عليهِ السلام احياهُ في الحال واستمرَّ يعلم الاخوة حتى مطلع النهار

وخرج من ترواذا يوم الاثنين في اليوم السابع عشر من شهر نيسان وذهب من هناك ماشيًا الى اسُّون وبعد ان سافر بحرًا وصل الى متيلان بلدة بجزيرة لسبوس ومرَّ في الغد حتى الى جزيرة ساموس ورسا اخيرًا في تروجيل التي هي راس ايوني ووصل في اليوم التالي الى ميلات ببلد كاريا وارسل يطلب الكهنة وقدماء كنيسة افسس لكي يعطيهم بعض تعاليم. وبعد ان مرَّ بجزيرتَي كوس ورودوس أتى باتار مدينة بليسية حيث سافر في سفينة موسقة الى صور مدينة فينيقية ورسا اخيرًا في هذه الميناء خمسة ايام عقيب رحيلهِ عن ميلات فبعض نصارى صور الذين كان لهم موهبة النبوة توسَّلوا اليهِ ان لا يذهب الى اورشليم واخبروهُ عن الشرور التي تحدث لهُ هناك واذ لم يستطيعوا ان يرجعوهُ عن عزمهِ عانقوهُ وصلُّوا معهُ على الشاطئ

فسافر الرسول بحرًا الى بتولمائذ المعروفة اليوم بعكا ثم الى قيسارية وفيها اتاهُ نبي اسمهُ اغابوس فاخذ منطقة بولس واوثق بها رجلي الرسول ويديهِ وقال هكذا يقول الروح القدس. ان الرجل صاحب هذه المنطقة سيوثقهُ اليهود هكذا في اورشليم ويسلمونهُ الى ايدي الامم (اعمال الرسل ٢١ : ١٠) فلما سمع هذا الامر الحاضرون طلبوا من الرسول الَّا يصعد الى اورشليم لكن لم يستطيعوا ان يزعزعوهُ عن عزمهِ وقال لهم انهُ مستعدٌّ لا الى السجن فقط بل الى الموت ايضًا من اجل اسم المسيح فبقي سائرًا على وجههِ حتى بلغ غاية سفرهِ فدخل اورشليم نحو السنة الرابعة والخمسين للمسيح ونحو السنة الثالثة والعشرين لايمانهِ

ولما وصل الى اورشليم ودخل الهيكل تقاطرت اهل المدينة واجتمع الشعب وجرُّوهُ. وفيما هم يستعدون لقتلهِ وقد ابتدأُوا يضربونهُ اتى قائد من قواد الرومانيين مع جنود فانقذ بولس من ايديهم وطفق يسأَل عنهُ من هو وما الذي صنع. الَّا انهُ من زيادة الصياح والضوضاء لم يقدر ان يعرف حقيقة الامر. فذهب بهِ الى مكان العسكر وكان الشعب يتبعهُ ويطلب قتلهُ. ولما رأى اليهود ان القائد يريد ان ينجي بولس من ايديهم اجتمع اناس من اليهود وكانوا بالعدد اربعين ونيفًا. فجزموا واحرموا على انفسهم انهم لا يأْكلون ولا يشربون حتى يقتلوا الرسول. فتقدموا الى روساء الكهنة

والشيوخ وقالوا اننا حلفنا الاّ نذوق شيئًا قبل ان نقتل بولس. فاطلبوا من القائد ان يخرجهُ اليكم كانكم تريدون ان تخاطبوهُ فنحن حينئذٍ نقتلهُ لا محالة. فسمع هذا ابن اخت بولس واخبر قائد الجنود بما كان. ولهذا دعا القائد جنودًا وارسل معهم الرسول الى قيسارية وبقي في سجن تلك المدينة كل ايام استيلاء فيليكس عليها ولما عُزل هذا خلفهُ فستس واراد الحاكم ان يربح جميل اليهود ويرسل بولس الى اورشليم ليحكم هناك على دعوتهِ. فقال الرسول اني انا رجل روماني (لانهُ ولد في مدينة طرسوس وقد كان اهل هذه المدينة من اجل امانتهم نحو الرومانيين يتمتعون بحقوق الرومانيين واختصاصاتهم) وانا استغيث بمنبر قيصر هناك ينبغي ان تقضى دعوتي. فقال لهُ فستس انهُ اذ قد طلبت ان تقضى دعوتك امام منبر قيصر فالى قيصر تمضي. ثم سلمهُ الى جنود ليمضوا بهِ الى رومية ويسلموهُ للملك

ولما كانوا بقرب جزيرة كارادة وقعوا في خطر وكادوا يغرقون. فطرحوا امتعة السفينة في البحر واستمرُّوا اياماً كثيرة لا يبصرون الشمس ولا النجوم وكان قد انقطع رجاء خلاصهم. حينئذٍ قال لهم بولس لا تخافوا لانهُ لا يهلك منكم ولا واحد. غير ان السفينة تنكسر وتغرق. وقد ظهر لي في هذه الليلة ملاك الله وقال لي انهُ ينبغي ان نقف امام قيصر وقد وهبك الله كل الذين معك فلا يغرق احد منهم (اعمال الرسل ٢٧ : ٢٣) اما الجنود والنوتية فكانوا انقطعوا عن الاكل منذ اربعة عشر يومًا فشرع الرسول يطلب اليهم بالحاح ان ياكلوا ووعدهم بان شعرة واحدة لا تنقطع من راس احد منهم. فاكلوا ثمَّ ساروا ووصلوا الى جزيرة مالطه وهناك انكسرت السفينة وصعد الجميع الى الارض سالمين. فقبلهم البرابرة سكان الجزيرة بمحبة واضرموا نارًا ليصطلوا لاجل البرد الذي كان. وفيما كان الرسول يحمل قشًّا ليضعهُ على النار خرجت منهُ افعى ولدغت يدهُ. فلما رأى البرابرة الافعى معلقة بيدهِ اخذوا يقولون ان هذا رجل اثيم لانهُ بعد ان نجا من البحر لم يدعهُ الله العادل يعيش. اما بولس فرمى الافعى ولم تؤذهِ البتة. فلما عاين اولئك الذين كانوا قد ظنوا انهُ يتورم من ساعتهِ ويسقط ميتًا انهُ مضى زمان مستطيل ولم يصبهُ شيء شرعوا يقولون عن الرسول انهُ اله. ثم ابرأ ابا حاكم الجزيرة من مرض عضال وحينئذٍ اتوا اليهِ بجميع المرضى فابراهم كلهم. فبعد ثلثة اشهر سافر مع الجنود ووصل الى رومية بسلام في السنة السادسة والخمسين واخذ اذنًا ان ينزل حيث يشاء مع جندي كان يحرسهُ. ثم اخذ يكرز في رومية وكثر المؤمنين جدًّا حتى في بلاط الملك. وبعد سنتين حكم عليهِ الملك بانهُ بري مما قُرف بهِ كذبًا فأُطلق

وكان القديس بولس يبشر بالايمان مع القديس بطرس باجتهاد وشجاعة ونمت الكنيسة في رومية جدًّا جدًّا ثم ذهب الى بلدان الشرق المختلفة التي نشر فيها الانجيل واقام كنائس كثيرة خاصَّةً في كارادة حيث وضع تلميذهُ تيطس اسقفًا واخيرًا عاد الى رومية في السنة الرابعة والستين فالقي في سجن مع القديس بطرس بامر الملك نيرون ومكثا في السجن سنة واحدة ثم حُكم عليهما بالموت. فلما أُخذ القديس بولس ليقطع راسهُ صلى اولاً ثم تقدم بشجاعة الى الجندي. وقد ذكر القديس يوحنا فم الذهب والقديس امبروسيوس انهُ لما قُطع راس الرسول خرج لبن عوضًا عن الدم وارتفعت هامتهُ من على الارض ثلث مرات فامن حينئذٍ من الحاضرين خمسة وثلثون شخصًا

اننا قد اوردنا الى هنا افعال الرسول ولا بد لنا الان ان نتكلم قليلاً عن فضائلهِ. انهُ لقد يسوغ لنا ان نقول عن هذا الرسول انهُ كان على الارض كانسان سماوي لانهُ كان كمن يحيا فيهِ السيد المسيح (غلاطية ٢ : ٢٠) ولم يرد ان يحيا الاَّ مع المسيح ومن اجل مجدهِ (فيلبي ١ : ٢١) ويحتسب الموت لاجلهِ تعالى ربحًا ومجدًا (فيلبي ٣ : ٢٠) وكانت كل افكارهُ واشواقهِ في السماء حيث المسيح اما اقوالهُ كلها فكانت كأنَّ المسيح نطق بها ومن ثم قال عن نفسهِ انهُ لا يعرف شيئًا اخر غير سيدنا يسوع المسيح وهو مصلوب. وان لا شيء يفصلهُ عن محبتهِ لا ضيق ولا جوع ولا اضطهاد ولا خطر ولا موت (رومية ٨ : ٣٥) وماذا نقول عن محبة الرسول نحو اعدائهِ وغيرتهِ على خلاصهم فكان يشتهي ان يكون محرومًا من المسيح اعني من الحظوة بمشاهدتهِ في السماء بشرط ان يخلص اليهود مبغضوهُ ويحزن مع الحزان ويمرض مع المرضى بروح التعطف. وكان يظهر للجميع احشاء اب وام ومرضعة ولم يكن يطلب من احد شيئًا بل لكيلا يضيق على احد بمعاشهِ فكان يعمل بيديهِ ويكتسب ما تحتاجهُ عيشتهُ. ومحبتهُ للسيد المسيح الغير الموصوفة كانت تحملهُ ان يحب هكذا النفوس

ويرغب خلاصها. ومن اجل ذلك القى نفسهُ في اخطار عديدة لانهُ القي في السجن مرات كثيرة وضُرب وجُرح مرات عديدة ومن شدة الضربات كاد يموت ثم جلدهُ اليهود خمس مرات والامم جلدوهُ ايضًا. ورُجم رجمًا مميتًا وانكسرت بهِ السفينة ثلث مرات. ومكث في عمق البحر ليلاً ونهارًا. وكم مرة خاطر بحياتهِ في الطريق من قبل اللصوص واليهود والامم والاخوة الكذبة بحرًا وبرًا (٢ كورنتس ١١ : ٢٣ الخ) ومع انهُ كان نصب وتعب اكثر من باقي الرسل فكان يعد نفسهُ اصغرهم بل كان يعتقد انهُ غير اهل لان يدعى رسولاً. والذي هو ابلغ من ذلك انهُ كان يحسب نفسهُ اول الخطاة (تيموتاوس اولى ١ : ١٥)

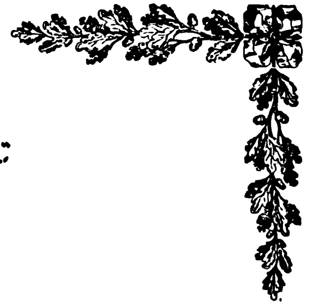
وقد كتب هذا القديس رسائل كثيرة حاوية عظائم اسرار الديانة المسيحية واستقامة السيرة. وهي بالعدد اربع عشرة رسالة. وقد رتبتها الكنيسة لا بحسب تاريخ تحريرها بل جعلت اولى تلك التي كتبت الى المومنين بوجه العموم. ثم وضعت بعدها الرسائل التي بعث بها الى الافراد خصوصيين. قد ارتأى البلانديستيون ان اكثر هذه الرسائل كُتبت قبل السنة الثامنة والخمسين للمسيح فالاولى لاهل رومية وقد كتبها في كورنتس في السنة الثالثة والخمسين والرسالة الاولى الى اهل كورنتس كتبها في افسس في السنة الحادية او الثانية والخمسين. ورسالتهُ الثانية الى اهل كورنتس كتبها في مكدونية بعد اشهر قليلة من التاريخ المذكور. اما رسالتهُ الى اهل غلاطية فكتبها في رومية في السنة التاسعة والخمسين. ورسالتهُ الى اهل افسس كتبها من رومية في اسرهِ الاول نحو السنة السادسة والخمسين. ورسالتهُ الى اهل فيلبي كتبها من رومية نحو الزمن المذكور وكذلك رسالتهُ الى اهل كولسي ورسالتهُ الاولى الى اهل تسالونيكي هي اول كل رسائلهِ كتبها من كورنتس نحو السنة الخمسين اما الثانية فقد كتبها ايضًا في كورنتس بعد الاولى بزمن يسير. ورسالتهُ الاولى الى تيموتاوس كتبها من مكدونية ومن فريجية في السنة الثالثة والخمسين ورسالتهُ الثانية الى تلميذهِ هذا كتبها حينما كان مأسورًا في رومية في السنة السادسة والخمسين. ورسالتهُ الى تيطس كتبها في مدينة افسس نحو السنة الثانية والخمسين. ورسالتهُ الى فيلمون كتبها في رومية في اسرهِ الاول. ورسالتهُ الى العبرانيين اعني الى اليهود الذين كانوا قبلوا الانجيل في اورشليم وبلد فلسطين كتبها في رومية بعد قليل لنجاتهِ من اسرهِ الاول

حاشية * شك علماء كثيرون في حقيقة سفر القديس بولس الى اسبانيا وحذا حذوهم في ذلك البلانديستيون ايضًا حيث ان الكتاب المقدس لم يذكر انهُ سافر الى تلك البلاد لكن اعلم ان سكوت الاسفار الالهية عن امرٍ ليس بداعٍ كافٍ للشك فيما يشهد بهِ كثيرون من اباء الكنيسة كما هو الامر في هذه المسألة فان القديس يوحنا الذهبي الفم في مقالتهِ الخامسة والسبعين على بشارة متى والقديس ايرونيموس في الفصل الثاني من تفسير نبوة اشعيا والقديس غريغوريوس الكبير في الفصل الثاني والعشرين من كتاب الاداب الثالث والقديس ابيفانيوس في العدد السادس من الكتاب السابع والعشرين من تآليفهِ لهُ في تفنيد اقوال المبتدعين وثاودريتوس في تفسيرهِ العدد الاول من المزمور المائة والسادس عشر كلهم يشهدون بسفر الرسول بولس الى اسبانيا

ومن تقاليد كنائس فرنسا ان القديس كريسانثيوس اول اسقف على مدينة وينا بفرنسا كان قد جاء من اسبانيا حيث كان وقتئذٍ القديس بولس فارسلهُ الى فرنسا ليبشّر هناك بالانجيل راجع الوجه ٥٢٨ من المجلد الخامس من تاريخ الكنيسة هذا والقديس بيدا المحترم يذكر في سنكسارهِ ان القديس بولس سافر من رومية الى اسبانيا ومعهُ القديس سرجيوس بولس الذي كان قد اهتدى على يدهِ الى النصرانية بجزيرة قبرس واقامهُ اسقفًا على مدينة نَرْبونا حيث مات هذا الاسقف القديس وقُبر. ويذكر ذلك ايضًا السنكسار الروماني في اليوم الثاني والعشرين من اذار







ترجمة مريم العذراء والدة الله المجيدة

اننا في ابتداء الجزء الاول من كتابنا هذا الملقب بمروج الاخيار في تراجم الابرار كتبنا سيرة سيدنا يسوع المسيح ابن الله مقدّس القديسين وينبوع كل قدس ولذلك وجب علينا الان ان نسطّر في ابتداء الجزء الثاني سيرة والدة ابن الله ملكة القديسين كما تدعوها الكنيسة في تسابيحها

فاعلم وتأمل ايها المؤمن التقي انهُ لما آن الاوان السعيد المشتهى منذ اجيال عديدة والذي كان الله قد عيَّنهُ ليتمّم فيهِ سرَّ تجسد ابنهِ الازلي وهب حينئذٍ الدنيا من كان منتظرًا ان تحمل في مستودعها النقي مخلص البشر وتلدهُ وهي مريم البتول اعجوبة الدنيا كما قال فيها الاباء المتنوّرون وقد حبلت بها القديسة حنة باعجوبة لانها كانت عاقرًا منذ سنين كثيرة وكانت قد طعنت في ايامها . اما ابوها القديس يواكيم فكان من ذريّة داود . ووالدتها القديسة حنة كانت ايضًا من سبط يهوذا ومن ذرية داود النبي والملك . وقد احبَّ الله تعالى ان يطعنا في ايامهما قبل ان يثمرا هذه الثمرة العجيبة لكون اعجوبة ميلاد العذراء من والدة عاقر كما قال القديس يوحنا الدمشقي تعدُّ الناس لتصديق ميلادٍ اعجب من ذلك وهو ميلاد السيد المسيح من مستودع بتول . فحبلت القديسة حنة بالطوباوية مريم في اليوم الثامن من شهر كانون الاول وقد ذهب بعض من القديسين الى ان الله عزَّ شانهُ كان قد ارسل الملاك جبرائيل وبشّر القديس يواكيم والقديسة حنة بميلاد هذه الابنة وانها تلد المسيح واوصاهما بان يسمياها مريم

. وهذا الحبل العجيب بتلك التي كانت مزمعة ان تلد مقدّس القديسين لم تعترهِ الخطيئة الاصلية بل انهُ كان بريًا من دنسها . وحينما دخلت نفس العذراء جسدها في تلك الدقيقة الاولى من حياتها حلّت عليها نعمة الله واتّصفت بكل مواهب الروح القدس (١)

فبعد ان استقرَّت تلك الامينة في مستودع امها القديسة حنة تسعة اشهر استهلّت في اليوم الثامن من شهر ايلول في السنة الخامسة والثمانين بعد الست مائة والثلثة الالاف لتكوين العالم وهي المصطفاة منذ الازل لتكون ملكة البشر والملئكة ووالدة المسيح . وُلدت بالناصرة بمدينة الجليل وبعد ثمانية ايام لولادتها سُميت مريم وهو اسم ان كان من السريانية فمعناهُ سيدة او من العبرانية فمعناهُ نجمة البحر المرشدة الى الميناء بسلام . ومن ثم قال القديس برنردوس العسليّ فهُ اياك ان تحول نظرك عن هذه النجمة البهية السعيدة ما دمت مسافرًا في بحر هذه الدنيا وكل مرة تلطم الامواج القوية سفينتك انظر الى هذه النجمة استغث بالعذراء مريم . فهذا الاسم المكرَّم من جميع القديسين والعزيز عند جميع الكاثوليكيين تكرمهُ الكنيسة بعيدٍ خصوصي في يوم الاحد الواقع بعد ميلاد العذراء

ثم بعد ثمانين يومًا لميلاد العذراء ذهبت القديسة حنة الى الهيكل لتطهر كما امر الناموس وقدمت عنها وعن ابنتها خروفًا وحمامة او قل ما يكون قدمت يمامتين بل قدَّمت ايضًا ابنتها للرب لتكون مختصة لخدمتهِ تعالى . وبعد ثلث سنين لذلك اتى يواكيم وحنة الكهنة وقدما ابنتها لتخدم هيكل الرب . فدخلت البتول منزلاً قريبًا من الهيكل وكان ذلك مسكن نساء عابدات يربّين البنات المتقدِّمات لخدمة هيكل

(١) حاشية . قد اثبت عقيدة الحبل بوالدة الله بدون دنس الحبر الاعظم بيوس التاسع في منشور ابرزهُ برومية في اليوم الثامن من شهر كانون الاول في السنة الرابعة والخمسين من القرن التاسع عشر باحتفالٍ حضرهُ اكثر اساقفة العالم الكاثوليكي . اما تفسير هذه العقيدة وايضاح النعمة التي نالتها البتول المجيدة في الحبل بها بلا دنس فيأتي ذكرها في اليوم الثامن من شهر كانون الاول

الله . فعاشت هناك تلك الطفلة المباركة ثماني سنين او تسعًا بكمال العبادة وتُوفّي والداها . ولذلك اذ ادركت سن النساء اختار لها الكهنة رجلاً صدّيقًا من سبطها وهو القديس يوسف فارتضت هاتيك البتول المتنوّرة من الله والعارفة انهُ تعالى قد قدم لها في هذا الخطيب ملكًا ارضيًا يحفظ بتوليتها وحينئذٍ ظهرت أُعجوبة لم يشاهد قبلاً مثلها اي البتولية مقترنةً بالزواج . وقد ذهب القديس توما اللاهوتي الى ان العذراء الجليلة وخطيبها المجيد نذرا معًا العفة يوم اقترانهما بالزواج اي اليوم الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني . ثم في اليوم الخامس والعشرين من شهر اذار ارسل الله الملَك جبرائيل وبشّرها انها ستلد ابنهُ الوحيد وعلى ذلك سنتكلم في عيد البشارة . اما ما يخص زيارتها للقديسة اليصابات فقد اوردناهُ في محلهِ كما سنتكلم فيما بعد على ميلاد السيد المسيح من هذه الام البتول وتقدمتها ابنها للهيكل وهربها بهِ الى مصر ورجوعها معهُ تعالى الى الناصرة

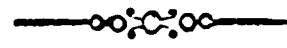
ولم يذكر الكتاب المقدس شيئًا عن سكناها بالناصرة مع ابنها الالهي الاَّ انهُ تعالى كان يخضع لها . وقد ضمَّن البشير في هاتين الكلمتين اعجوبتين مذهلتين الأُولى ان الاله يلزم نفسهُ بالطاعة لخليقتهِ والثانية ان امرأةً لها سلطان لتأمر الهًا . اما قدس سيرة البتول مع ابن الله ابنها ومع خطيبها البتول فانهُ كما قال الاباء القديسون يفوق كل وصف وادراك بشري اما الزمن الذي مات فيهِ القديس يوسف فانهُ غير معروف ولكن المحقق انهُ انتقل الى رحمة الله قبل ان يظهر السيد المسيح في العالم ليبشّر في الانجيل المقدس . وقد ذكر القديسان ابيفانيوس وبرنردوس ان الطوباوية مريم كانت تتبع ابنها مرات كثيرة حينما كان يبشر . وقد حضرت عرس قانا الجليل ولما رأت ان الخمر قد نفدت خشيت من ان يخجل العروس فتشفعت فيهِ الى ابنها واكرامًا لها سبق الله تعالى وصنع آيتهُ الاولى وحوّل الماء خمرًا . ويذكر القديس متى البشير انهُ فيما كان لهُ السجود يومًا ما يكلم الجموع اذا بامهِ واخوتهِ كانوا واقفين خارجًا يطلبون ان يكلموهُ فقال لهُ انسان ها امك واخوتك واقفون خارجًا يطلبونك فاجاب يسوع وقال : من هي امي ومن هم اخوتي واومأ بيدهِ الى تلاميذهِ وقال ها امي واخوتي لان كل من صنع مشيئة ابي الذي في السماوات هو اخي واختي وامي (متى ١٢ : ٢٦ الخ) مشيرًا بقولهِ هذا الى انهُ يجب علينا ان نفضل دائمًا وابدًا خدمة الله وتتميم وصاياهُ على حب الوالدين والاقارب

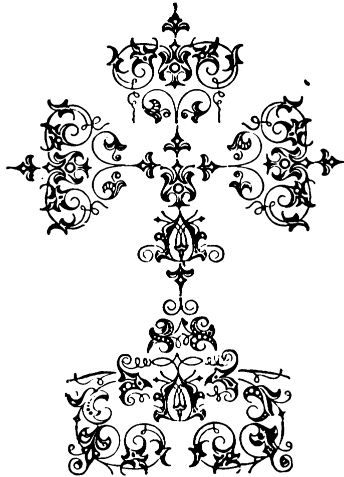
ولا يذكر الكتاب المقدس عنها شيئًا غير ذلك لان كل بهاء ابنة الملك كان من داخلها غير ان الانجيليين يذكرون انها حضرت صلب ابنها وموتهُ . ومن المستحيل ان يفهم احد فرط الحزن والوجع الذي مزّق قلبها . وقد ذهب القديس انسلموس الى ان جميع ما احتملتهُ الشهداء من العذاب المختلف الانواع شيءٌ جزئيٌّ بل كلا شيء بالنسبة الى ما احتملتهُ سيدتنا مريم العذراء من الاوجاع عند موت ابنها ومشاهدتها اياهُ مصلوبًا . اما يسوع فلما رأى قلبها مستغرقًا في بحر الاحزان والمرائر فقال لها من على الصليب يا امرأة هذا ابنكِ ثم قال للتلميذ هذه امك وبهذا صيّر القديس يوحنا ابنًا لها بالذخيرة . ثم ان الابن كما قال الاباء القديسون صيّر ايضًا جميع المؤمنين في شخص القديس يوحنا ابناء لها بالذخيرة . ثم ان الاباء والمعلمين قالوا ان السيد المسيح دعا والدتهُ المجيدة باسم امرأة . اولاً على سبيل الاكرام لان لفظة امرأة باللغة العبرانية هي لفظة احترام . ثانيًا لم يدعُها امًّا لئلا يهيج عليها غضب اليهود ورجزهم . ثالثًا لئلا يزيد حزنها بذكر هذه الكلمة الدالة على المحبة . رابعًا اشار بلفظة امرأة بالمعنى السرّي الى ان والدتهُ هي تلك المرأة الثانية التي اصلحت تحت شجرة الصليب ما سببتهُ من الشرور حوّاء المرأة الاولى تحت الشجرة في الفردوس

فبعد ان حضرت الجليلة مريم موت ابنها انفردت في بيت مريم ام مرقس حيث كان يسوع قد اكل العشاء السرّي مع رسلهِ واقامت هناك متأملة سرّ آلام ابنها الحبيب الى ان قام من بين الاموات وظهر لها ثم حضرت صعودهُ المجيد الى السماوات ومن ذلك اليوم صعدت معهُ بالروح ولم تبقَ على الارض الاَّ بالجسد . ثم انتقلت الى العلية حيث حل عليها الروح القدس . وقد اقامت باورشليم بعد ذلك نحو احدى عشرة سنةً حتى نهض اليهود واضطهدوا المؤمنين اضطهادًا شديدًا وحينئذٍ مضى بها القديس يوحنا الى مدينة افسس ولا يُعرف كم مكثت هناك غير انهُ من المحقق انها عادت الى اورشليم . اما حياتها كلها بعد صعود ابنها الى السماء فقد قضتها في الصلاة العقلية متأملة ليلاً ونهارًا اسرار حياتهِ تعالى ولم يزل قلبها ملتهبًا بنار محبتهِ وقد عاشت على الارض نحو

اثنتين وسبعين سنة. اما موتها وانتقالها الى السماء بالنفس والجسد فسنذكرها في اليوم الخامس عشر من شهر آب

ولعمري ليس عجيبًا ان نرى المؤمنين منذ ابتداء الكنيسة يكرمون سيدتنا مريم العذراء عليها اشرف السلام فوق ما يكرمون جميع اولياء الله عزّ وجل لا لكونها والدة الله فقط بل لسمو برارتها التي تفوق برارة البشر والملئكة ايضًا ومن اجل ان ابنها عزّ اسمهُ جعلها شفيعة لنا في السماء فمن ثمّ لا يمكن ان يردّها خائبة مما تطلبهُ لاجلنا. والحاصل انهُ من اجل هذه البراهين تحثّ الكنيسة بنيها على اكرامها والالتجاء اليها في ضرورتهم. وبعكس ذلك يفرغ الشيطان عدوّ البشر كنانة جهدهِ ليصرف المؤمنين عن هذه العبادة لانهُ يعلم لعنة الله بما ينالونهُ بواسطتها من الفوائد الجليلة والمنافع الكبيرة. اقول ولا بدَّ ان نعتبر انهُ منذ ابتداء الكنيسة حتى الان لم يقم مبتدع الّا وتراهُ ينكر صحة هذه العبادة ويُشنّع على اصحابها. ولكي تعلم ايها المؤمن سبب بغضة الاراطقة لوالدة الله تذكَّر ما قالهُ الله تعالى للحية الجهنمية منذ ابتداء العالم. اني اضع عداوة بينك وبين المرأة فهي تسحق راسكِ وانتِ ترصدين عقبها. فبما ان العذراء سحقت راس هذه الحية وذلك لا بالحبل بها البري من الخطيئة الاصلية فقط بل انما لانها ولدت مخلص العالم الذي اخذ كل اسلحة القوي وانتصر على قوات الجحيم. فمن اجل ذلك لم تزل الحية الملعونة تفرغ سمها على هذه المرأة المباركة وامّ البركات جميعها وتهيّج الاراطقة وتُغريهم بمحاربة من يعبدونها ويكرمونها. الا انها على غير فائدة ترصد عقب ملكة السماء التي ستستمر مكرَّمةً على الارض كما يكرمها ابنها في السماء. ولنا ان نقول ان من يبغض اكرام والدة ابن الله يبغض ابن الله ايضًا وان من يكرمها ويحبها يكرمهُ تعالى ويحبهُ وينال منهُ بشفاعتها اجلّ البركات





شهر تموز

اليوم الاول

وفيهِ ترجمة القديس سمعان الملقب بسالس

اذا أجلنا النظر في كتاب الله وتواريخ بيعتهِ المقدسة رأينا ان الله جلّت حكمتهُ كثيرًا ما اقام اناسًا جهلةً ليخزي حكمة الدنيا الكاذبة بجهلٍ مقدس ذي حكمة سماوية فيجتهدون في ربح الاهانات بمقدار ما يجتهد الدنيويون في اكتساب الكرامات الزمنية. فمن جملة اولئك القديسين كان القديس سمعان الملقب بسالُس اي احمق الذي نأتي بترجمتهِ كما كتبها ليونسيوس اسقف نابولي مدينة بقبرس وهو من معاصري القديس سمعان. ان هذا القديس وُلد بمدينة اورفا المسماة قديمًا اديسا نحو السنة الثانية والعشرين من المائة السادسة للمسيح ولم يذكر المؤرخون عن حداثتهِ شيئًا الا ان ابويهِ كانا معتبرين بالنسب ومن اكبر المتمولين وغيورين على الايمان الكاثوليكي حينما كان الاراطقة قد كثروا في بلاد الشرق. وانهُ كان تعلم العلوم جيدًا وحصَّل في مدينة اورفا اعتبارًا وافرًا

فلما بلغ من العمر نحو عشرين سنة عزم على زيارة الاماكن المقدسة في بلاد فلسطين مع رجل من اقاربهِ يُقال لهُ يوحنا وقد تمما زيارتهما بحسن العبادة ورجعا. الا انهما لما وصلا الى وادي اريحا شرعا ينظران عن بعدٍ الى الاديرة الكثيرة المقامة على شاطئ نهر الاردن فجلسا هناك واخذ سمعان يقول ليوحنا يا لحسن سعادة هولاء السيّاح الذين اعتزلوا عن الناس وتخلَّصوا من اخطار الدهر وحوادثهِ والفوا هدوء الفيافي ليهتموا بخلاص نفوسهم وتقديسها فقط. حقًّا انهم اختاروا الحظ الافضل. ثم التفت الى يوحنا وقال لهُ اعلم يا اخي اني كثيرًا ما اشتهي ان ازور هولاء الملئكة الارضيين بقصد التبرُّك. فاجابهُ يوحنا وقال لهُ وهذا الذي تشوق اليهِ نفسي انا مزيد الشوق. فقاما وسارا نحو الدير الاقرب دير القديس جراسيموس الذي ذكرنا ترجمتهُ في اليوم الخامس من شهر اذار وفي ذلك الحين كان الانبا نيكون رئيسًا على الرهبان. فوجدا على باب الدير رجلًا من اجلاَّء مشايخ الرهبان فاستقبلهما بترحاب الاتقياء وبعد دخولهما الدير عاملهما الرئيس بجزيل المحبة. فلما رأيا عيشة الرهبان القشفة واحتشامهم واتضاعهم ووداعتهم المبهجة ومواظبتهم على الصلاة والصمت ونموهم في باقي الرياضات الرهبانية عزما على هجران الاقارب والخلاَّن وصمَّما في التعبد لله في الدير المذكور وبعد ايام ألحَّا على الرئيس ان يقبلهما فيما بين رهبانهِ. فقبل الرئيس طلبهما وقص شعر رأسيهما واحصاهما بين الاخوة وقد صارا في طريق النسك بنشاط عظيم حتى انهما تقدما عما قليل أقدم الرهبان قدسًا وبرارةً

الا انهما كانا يشتهيان عيشةً اكثر تقشفًا من عيشة رهبان ذلك الدير وكانا يخافان ايضًا من طغيان المحال ولهذا استشارا رئيسهما في ذلك. ولما تحقق الرئيس ان دعوتهما هي من الله باركهما واطلقهما بسلام. فانطلقا ووجدا في البرية مكانًا منفردًا لقصدهما فعاشا هناك تسعًا وعشرين سنة ممارسين رياضات التقشف والصلاة بنشاط كان يزداد كل يوم. ولم يخلوا من تجربة وهما في البرية لان عدو البشر لعنهُ الله اقترب منهما كاقترابهِ من ابن الله في البرية واخذ يجرّبهما. اما سمعان فبذكر والدتهِ واما يوحنا فبذكر زوجتهِ فالتجآ كلاهما الى الاسلحة الروحية وانتصرا على تجارب العدو وبعد مدة عرف سمعان بالهام الله ان والدتهُ توفيت بالرب

وكذلك أُعلن ليوحنا موت امرأتهِ

وبعد هذه المدة قال القديس سمعان لرفيقهِ ان الله تعالى يريد مني يا اخي ان اترك هذه البرية واعود راجعاً الى العالم لاعتني هنالك في خلاص النفوس. فقاوم يوحنا قصد رفيقهِ الّا انهُ لما تحقق من جواب القديس ان قصدهُ هذا انما كان من الله ارتضى بان يفارقهُ ونصحهُ كثيرًا في ان يحترز من العالم ومن فخاخ الشيطان. فاجاب القديس انهُ بنعمة الرب ينتصر عليهِ. قال هذا ووعد يوحنا بان يعود اليهِ راجعاً قبل وفاتهِ. ثم سافر وزار ثانيةً الاماكن المقدسة مماثلاً ما احتمل ابن الله فيها من الاهانات ولاسيما في بلاط هيرودس حيث حُسب احمق فحالاً قصد ان يظهر في العالم كرجل احمق ويظهر كانهُ مسلوب العقل وفاقد الادراك وذلك لكي ينتصر على الكبرياء العزيزة انتصارًا كليًّا ويخزي ايضاً حكمة العالم الكاذبة ومن هناك ذهب الى حمص مدينة بسورية نحو السنة الثالثة والثمانين من المائة السادسة للمسيح

فلما دخل تلك المدينة افتكر فيما يمكنهُ ان يجعلهُ بين الناس رجلاً احمق فكان تارةً يختلط مع الصبيان ويلعب معهم واحياناً كان يقف في الشوارع ويورد مذاكرات مضحكة ويمشي كمجنون وعلى الاطلاق فاقول انهُ بحسب ظواهر حالهِ احمق كما عدَّهُ القوم كافةً. اما الشعب فلم يكتفوا بان يجعلوهُ هزءًا وسخرية بل كانوا يضربونهُ بقساوة واذ لم يكن يغتاظ من ذلك بل كان يقبل الاهانات والضربات بضحكٍ لم يكن يحزن عليهِ احد اما هو فكان يبتهج قلبهُ مفتخرًا افتخارًا مقدساً لكون الله تعالى اختارهُ لهذه الاهانات. والامر العجيب انهُ مع كونهِ حُسب على الدوام مجنوناً في مدينة حمص ردَّ الى التوبة رجالاً كثيرين ونساءً زانيات يكاد لا يُحصى عددهنَّ وكان يخالط اولئك على سبيل الضحك والجنون الّا انهُ كان يضمن احاديثهُ الهزلية كلاماً على سبيل التعليم والنصيحة كسهامٍ ملتهبة ينفذ العقل ويلج القلب. ومع كل ذلك لم يعدَّهُ احد من اهل حمص عاقلاً كما ذكرنا آنفاً فتبارك من يتصرَّف في العباد كيف يشاء. وكانت الشياطين تخرج من اجساد المعترين اذا حضر وبناءً عليهِ كان الناس يذهبون اليهِ بالمعترَين فيجعل يصرخ مثلهم ويماثلهم في كل حركاتهم ومع كل ذلك تخرج الابالسة من اجسامهم اما الشعب فلم يزل يعتبرهُ مجنوناً كما مرَّ

اعلم ان ذلك الجنون كان يحجب كل تقشفاتهِ العجيبة فانهُ كان يستمرُّ تارةً ثلثة ايام لا ياكل ولا يشرب وتارةً سبعة ولم يكن يرقد كل يوم الّا ساعتين او ثلثًا على الارض واما بقية الليل فكان يقضيها في الصلاة. وشرَّفهُ الله تعالى بروح النبوة وشفاء المرضى الّا انهُ تعالى الذي يصنع العجائب ليظهر بها برارة المتضعين رأى جلَّ شأنهُ ان يعمي الناس على نوع ما كما قال كاتب ترجمة هذا القديس لكيلا يشعر احد بقدسهِ في زمن حياتهِ حبًّا لعبدهِ المشتهي الاهانات حتى انهُ تعالى سمح ان بنتاً زانية قرفتهُ ونادت عليهِ علانيةً بانهُ هو اب لمن كانت حبلت بهِ من قِبل الزناء. اما القديس فرضي بالتهمة ولم يقل ولا كلمة واحدة لتبرئة نفسهِ. الا ان الله تعالى اظهر الحق وانتقم من البنت الشريرة وعندما اتاها المخاض فانها بقيت معذبة باوجاع شديدة ولم يمكنها ان تلد الى ان برَّأت القديس جهارًا مما اتهمتهُ بهِ باطلاً

حينئذٍ أُوحي للقديس سمعان ان موتهُ قد دنا فمضى وزار صديقهُ يوحنا في البريَّة كما وعدهُ واخبرهُ بكل ما جرى لهُ. ثم رجع الى حمص واختلى في بيت لاحد الاكليريكيين الصالحين كان يحترم القديس سمعان ويحبهُ جدًّا وطلب اليهِ ان يدعهُ وحدهُ في خلوةٍ بعض ايام. وبعد يومين دخل الاكليريكيُّ حيث كان القديس سمعان فوجدهُ ميتاً وحينئذٍ شرع الله تعالى يظهر برارة عبدهِ بالمعجزات والعجائب الكثيرة. نفعنا الله ببركات ادعيتهِ وكان موت القديس سمعان نحو السنة الثامنة والثمانين والخمس مائة ولهُ من العمر ست وستون سنة

اليوم الثاني

وفيهِ تذكار زيارة القديسة الجليلة مريم البتول لنسيبتها القديسة اليصابات عليهما السلام

لا يخفى ان شان الشمس ان تبرز نورها وتضيء البريَّة وشأن النار ان تسخن وتحمي كذلك شان جود الله ان يشرك الخلائق في ذاتهِ. ومن ثم نرى القديسين الذين يمتلكون الله في نفوسهم ويتصفون بصفاتهِ الالهية على نوع ما يبذلون كل جهدهم في ان يشركوا الناس في انوارهم اي في معرفة الخير الاعظم وحبهِ وقد صنعت ملكة الملئكة ذلك بعينهِ لكونها بعد ان نطقت بما فرَّح السماء والارض وهو قولها للملَك جبرائيل

ليكن لي كقولك وحبلت في حشاها الطاهرة بابن الله فصارت امًّا لهُ . فيذكر عنها لوقا البشير انها مضت مسرعةً الى الجبال الى مدينة يهوذا لتزور هناك نسيبتها القديسة اليصابات التي كانت قد حبلت بالقديس يوحنا المعمدان من قبل بستة اشهر وانما مضت البتول الى عين كريم مدينة يهوذا التي بالجبال (١) البعيدة عن مدينة الناصرة نحو ثلثين ساعة . لان الروح الحالّ فيها حرَّكها الى ان تشرك نسيبتها في الكنز الالهي الموجود فيها والعطايا الالهية الموهوبة لها

فلما وصلت البتول الى بيت زكريا سلمت على اليصابات وكان لما سمعت اليصابات سلام مريم تحرَّك الجنين بابتهاج في بطنها وامتلأَت اليصابات من الروح القدس فصرخت بصوتٍ عظيم لانها عرفت حينئذٍ سرَّ التجسد الالهي وان نسيبتها البتول حبلت بابن الله فقالت باندهاش عقل مباركة انتِ في النساء ومباركة ثمرة بطنك فمن ابن لي هذا ان تاتيني ام ربّي . وحاصل ذلك ان يسوع زار يوحنا ومن بطن امهِ البتول سلَّم عليهِ تسليمًا باطنًا سريًّا شعر بهِ يوحنا في مستودَع امهِ لانهُ وُهب ادراك العقل فعرف سيدهُ وكان تهللهُ في بطن امهِ يُشير الى تعبدهِ لله وسجودهِ لهُ . وليس بعجيب ان يوحنا تهلل هكذا في حضور من كانت تنتظرهُ الاباء منذ دهور وكان ابرهيم ابو الاباء قد تهلل من فرط شوقهِ ليرى يوم ظهورهِ غير انهُ لم يرَ سوى ظل ذلك اليوم السعيد . اعلم انهُ في ذلك الوقت تقدَّس يوحنا وتطهر من الخطيئة الاصلية وثبت في النعمة ولم يرتكب بعد ذلك خطيئة مميتة اصلاً . وفي هذا الصدد قال القديس بطرس الذهبي العبارة انظروا كيف صعد يوحنا الى السماء قبل دخولهِ الدنيا ووُهب الروح الالهي قبل ان يدرك العقل البشري ونال مواهب الله قبل ان ينال أعضاء الجسد وحيي لله قبل ان يحيا لنفسهِ فامتلأَ مثل امهِ من الروح القدس وبفيها وبروح واحد قال من اين تاتيني ام ربي بل من اين لي ان يفتقدني الهي ويقدسني من بطن امي وهكذا عرف الاثنان واعترفا معًا قبل الجميع ان القديسة مريم البتول هي والدة الله وانها حبلت بابن الله بقوة الروح القدس وان المسيح جاء الى العالم وانهُ يخلص البشر

ثم قالت القديسة اليصابات لمريم طوبى لكِ لأنكِ آمنتِ بان يتم ما قيل لكِ من قِبل الرب . وقد اشارت بهذا حسب تفسير القديس غريغوريوس الى انها عرفت بالهام الله كلام الملَك جبرائيل لسيدة العالم وانها آمنت بكل ما قيل لها . ولما تأملت ان التي تزورها هي ام رب السماء والارض وانها حبلى بابن الله صرخت وقالت مباركةٌ انتِ في النساء ومباركة ثمرة بطنكِ ومن ابن لي ان تاتيني ام ربي . اقول ان ما ذكرهُ البشير لا يخلو من سرّ وهو انهُ لما سمعت اليصابات صوت سلام العذراء تهلل بابتهاج الجنين في بطنها وتقدس لأنهُ بهذا يعلمنا قوة فاعلية صوت العذراء وشفاعاتها وان الخطأة بها ينالون مغفرة خطاياهم ويتطهرون منها بل يحوزون ايضًا اعظم المواهب الالهية . ثم اعتبر ان القديسة اليصابات لم تقل ان العذراء مباركة فقط بل اوردت سبب بركتها بقولها مباركة ثمرة بطنكِ . لا يقال عن ثمرة انها تعتبر لاجل شجرتها لكن الشجرة لاجل الثمرة هكذا قالت القديسة اليصابات ان الجليلة مريم مباركة في النساء لاجل ان ابنها مبارك من قبل طبيعتهِ الالهية والانسانية وذلك بمثابة قولها فانتِ اذًا افضل من كل النساء اللواتي لهنَّ بنون كثيرون لاجل ان ابنكِ هذا الوحيد هو افضل من جميع البنين . فقد توجد نساء مباركات لا من قبل اولادهنَّ الذين هم ارديا بل من قبل فضائلهنَّ اما انتِ ايتها الام البتول فانك مباركةٌ لأنكِ ممتلئة من الروح القدس ولأنكِ أُم ينبوع البر والقدس . ثم انكِ مباركة بابنكِ هذا الوحيد لانكِ بهِ صرتِ ام جميع المؤمنين بني الله الحقيقيين لان ابرهيم كان قد دُعي أبا المؤمنين لا من قِبل الشعب الاسرائيلي فقط بل لان الله كان قد وعدهُ بان السيد المسيح يولد من ذريتهِ ومن ثم يجعلهُ ابًا لجميع المؤمنين فكم بأقوى حجة يجب ان نقول عن الطوباوية مريم والدة ابن الله انها ام جميعنا ولهذا قد قيل في الانجيل المقدس انها ولدت ابنها البكر لكي نعلم ان كل اخوة المسيح هم بنوها لا باللحم بل بالروح ومن ثم يكون بكرًا لاخوة كثيرين كما قال الرسول

فبعد ان مدحت القديسة اليصابات مريم العذراء على كونها والدة الله مدحتها ايضًا على متانة ايمانها بكل ما قيل لها من قِبل الله على ان هذه البتول المغبوطة آمنت بكلام الملَك

(١) حاشية . ارتأى بعض المفسرين ان مدينة زكريا هذه لم تكن عين كريم بل حبرون التي بجنوبي بيت لحم او ماكيرا التي بعبر الاردن الا ان هاتين المدينتين وقتئذٍ اعني حين وُلد المسيح كانتا خارجًا عن الكورة المسماة باليهودية وليستا في جبال يهوذا

ايمانًا امتن من ايمان جميع القديسين والانبياء وافضل من ايمان ابرهيم نفسهِ . لانهُ اي ابرهيم آمن بان سارا تلد ابنًا ولو كانت عاقرًا اما مريم فآمنت بانها تلد بتولاً و لا تزال بتولاً . ابرهيم آمن بان يكون لهُ ابن قابل الموت واما البتول فآمنت بانها تلد انسانًا الهًا . ابرهيم آمن بانهُ يولد لهُ ابن كما يولد لباقي البشر واما العذراء فامنت انها تلد ابنًا بطريقة فائقة الطبيعة وآخرًا ابرهيم آمن ان الله يتم عهدهُ وانهُ تعالى قادر على كل شيء وانهُ يقيم ابنهُ من الموت . اما مريم فآمنت بانهُ يمكن ان يولد الله ويموت ويقوم من الموت . فمن ثمَّ نقول ليس بعجيب ان القديسة اليصابات اكثرت من مدح ايمان نسيبتها وطوَّبتها لاجلهِ

غير ان البتول المتضعة لما سمعت هذا المديح خاضت في تأمل ذلها وحقارتها وحوَّلت المدح الى الله تعالى اصل كل الحسنات والبركات وطفقت تسبحة قائلة تعظم نفسي الرب الخ . ان تسبحة العهد العتيق الاولى هي التي رتلتها مريم اخت موسى بعد ان غرَّق الله في البحر الاحمر عسكر فرعون الملك واجتاز الشعب الاسرائيلي في وسط ذلك البحر كما اجتاز في القفر فخلص من الاسر . واما تسبحة العهد الجديد فهي التي رتَّلتها لا مريم اخت موسى بل مريم ام موسى الحقيقي واضع العهد العتيق والجديد ومخلص العالم من اسر الشيطان . فقالت انكِ يا نسيبتي تمدحينني وتدعينني مباركة لاجل ما اولاني الله من حسناتهِ . اما انا فامدحهُ ونفسي تذوب بين يديهِ من شدة محبتي لهُ تعالى وامجدهُ واعظم اسمهُ على ما صنع بي لانهُ صانع هذه العظائم التي تذهل العقول وعقلي ايضًا . انهُ هو الشمس التي انبثقت منها هذه الاشعة والنبع الذي منهُ جرت هذه المياه والشجرة التي اثمرت هذه الاثمار . واذ قد تهلل روحكِ عند استماعكِ صوتي فكم وكم يجب عليَّ ان اتهلل بالروح انا الحاملة في مستودعي ذلك الاله المقتدر الذي صنع بي هذه العظائم . وانما لم تصف العذراء تلك العظائم لانها لا يحيط بها وصف البشر ولا تدركها عقول الناس

ثم مدحت عظائم الله وذكرت سبب احسانهِ اليها اعني رحمتهُ الغير المتناهية التي صيرتهُ ينظر الى ذلها وحقارتها من عرش عزة الوهيتهِ ليرفعها فوق اسمى الخلائق وافضلها شرفًا فتمدحها وتباركها جميع قبائل الارض الى ابد الدهور وقد ذكر الكتاب المقدس ان العذراء بقيت في بيت اليصابات نحو ثلثة اشهر ومن ذلك يُعرف على سبيل النتيجة وفور البركات التي حلت على اهل هذا البيت حيث اقام ابن الله مع والدتهِ كل ذلك الزمان الطويل . ان كان الملكان اللذان نزلا ببيت لوط واقاما عندهُ يومًا واحدًا فقط خلَّصاهُ هو واهل بيتهِ من النار التي احرقت صادوم . وان كان الله اكثر بركاتهِ على بيت لابان الرجل الوثني لاجل سكنى يعقوب الصديق فيهِ . فما اكثر البركات وما اجلَّ النعم التي حلَّت على بيت زكريا مدة اقامة ملكة الملئكة عندهُ . انهُ لما دخل ايليا منزل ارملة الصارفية الفقيرة دخل معهُ وفور الزيت والدقيق وخرج الجوع منهُ . ولما دخل اليشع النبي بيت السونامية اقام ابنها من الموت . ولان تابوت العهد دخل بيت عوبيد ادوم واقام هناك ثلثة اشهر بارك الله عليهِ وعلى بيتهِ . فليت شعري كم تكون البركة الممنوحة منهُ تعالى لبيت زكريا لما دخلتهُ تلك التي كانت تابوت الله الحاوي ينبوع كل البركات ومكثت هناك نحو ثلثة اشهر فليس عجيبًا ان يتهلل يوحنا بازاء هذا التابوت الجديد بعد ان رقص النبي داود متهللاً امام التابوت العتيق

تأمل الان ايها المؤمن ماذا كانت مذاكرات العذراء مع نسيبتها انهُ لا شك ولا ريب في ان اللسان ينطق من فضل ما في القلب فمن حيث انهما كانتا قد امتلأتا من الروح القدس فمن ثمَّ كان موضوع خطابهما مقدسًا

اعتبر الفرق الذي بين هذه الزيارة المقدسة وزيارات اصحاب العالم فهولاء من كونهم ممتلئين من روح العالم يتكلمون عما يزيد قلوبهم حبًّا للعالم واباطيلهِ وتنعماتهِ . ولانهُ عند دخولهم البيوت كثيرًا ما يدخل معهم اركون العالم اعني الشيطان روح اللهو والطرب روح الحسد والنميمة روح الكبرياء والانتقام روح الشراهة والسكر روح السماجة والزنا فتمتلئ بيوت اولئك الزوَّار من الشرور واللعنات

اما عيد زيارة العذراء فكان قد رسمهُ البابا اوربانوس السادس ليلتمس من الرب بشفاعة والدة الاله زوال الانشقاق الغربي الكبير وثبتهُ البابا بونيفاسيوس التاسع في السنة التاسعة والثمانين من القرن الرابع عشر . اما البابا بيوس التاسع فقد امر بازدياد احتفالهِ تذكارًا لما نال من النعم والمعونة الالهية بشفاعة العذراء المجيدة في اوائل حبريتهِ الشريفة

وفيهِ ايضًا ترجمة القديسين بروسِستوس ومرتينيانوس الشهيدين

قد ذكرنا في ترجمة القديس بطرس الرسول انهُ لما رجع الى رومية وجد هناك سيمون الساحر الذي كانت لهُ مكانة وكرامة عند الملك نيرون وقلنا انهُ كان قد وعد هذا الملك ان يرتقي يومًا الى السماء جهارًا. فلما اجتمع الرومانيون ليشاهدوا هذه العجيبة ارتقى سيمون الى الجو بقوة الشيطان ولكن لما صلى الرسول وطلب من الله ان لا يدع الشعب الروماني يخدع بسحر هذا الرجل المضل فالذي طلب اجنحة ليطير في الجو سقط حالاً امام الجميع على الارض وانكسرت ساقاهُ ولم يعد يمكنهُ ان يمشي على الارض بل انهُ لفرط ما خجل من هذه السقطة قتل نفسهُ بيدهِ وهلك. فخجل الملك نيرون واعلمهِ بان هذه الاعجوبة صارت بصلاة القديس بطرس قبض على الرسول والقاهُ في السجن مع القديس بولس

وكان من جملة الجنود المقامين على حراسة السجن بروسِستوس ومرتينيانوس اللذان كانا معتبرين جدًا في الجيش لاجل شجاعتهما في الحروب فلما رأيا ان الرسولين يشفيان المرضى ويخرجان الشياطين باسم سيدنا يسوع المسيح آمنا بهِ تعالى وطلبا المعمودية. وفيما كان الرسولان يعلمانهما اسرار الايمان امام الذين معهما في السجن من الوثنيين قالوا لهما ان كان يسوع الناصري الذي تؤمنان بهِ هو الاله الحق وقادر على كل شيء كما تقولان فليخرج لنا ماء في زمن الصيف ولا يدعنا نموت من شدة العطش. فقال لهم القديس بطرس ان آمنتم بالله الاب القادر على كل شيء وبالسيد يسوع المسيح ابنهِ الوحيد وبالروح القدس فانكم تنالون حالاً مطلوبكم. فاجاب الجميع اننا سنؤمن ان تمَّ ما وعدتنا بهِ. فحينئذٍ رسم القديس علامة الصليب المقدس على صخرة كانت في السجن فجرى الماء حالاً ولم يزل جاريًا الى يومنا هذا فآمن الوثنيون واعتمدوا مع القديسين بروسِستوس ومرتينيانوس وكان عددهم سبعة واربعين رجلاً

فانتشر خبر هذه الاعجوبة في رومية فارسل بولينوس الحاكم وقبض على بروسِستوس ومرتينيانوس ولانهما كانا يمدحان النصرانية ويذكران كثرة العجائب التي صارت امامهما باسم السيد المسيح تقدَّم الجلاد بامر المغتصب وضربهما بحجر على خدودهما وفكوكهما ثم قدَّم لهما صنمًا ليسجدا لهُ فابيا السجود لذلك الصنم الشيطاني فعلَّقهما الجلاد بايديهما وارجلهما وسحبهما بعزم شديد حتى تفككت عظامهما وفيما هما يتعذبان هكذا كانا يترنمان بصوت الابتهاج قائلين مبارك اسم الرب يسوع المسيح الذي دعانا الى ايمانهِ بواسطة رسوليهِ بطرس وبولس ويجعلنا الان نحتمل هذا العذاب بسرور لا يوصف ويقوّينا بنعمتهِ

فلما رأى بولينوس ان الشعب يتعجبون من شجاعتهما ويمدحونهما ارجعهما الى السجن لكي يذيقهما بعد ذلك اشدَّ العذاب. الاَّ ان الله تعالى انتقم من هذا الحاكم القاسي بعد ثلثة ايام وكان ذلك بان سمح ان يدخلهُ الشيطان ويعذبهُ على نوع عجيب مريع فمات بولينوس من ساعتهِ. اما ابنهُ بوميسينيوس فبعد موت ابيهِ بسحر الشهيدين بحسب ظنهِ اشتكى عليهما الى الملك فقطع راسيهما في اليوم الثاني من شهر تموز نحو السنة الستين للمسيح. وقد ذكر القديس غريغوريوس الكبير عجائب كثيرة كان يصنعها الله كل يوم بشفاعات هذين القديسين. وفي ذات يوم ظهرا لامرأة عابدة كانت تكرمهما كل يوم في صلواتها فقالا لها انهما يكافيانها في ساعة موتها على اكرامها لهما

اليوم الثالث

وفيهِ ترجمة القديس اليودُر الاسقف

كان القديس المذكور معاصرًا للقديس ايرونيموس وكانت بينهما دائمًا مودة صافية ويُظن ان كليهما من ستريدون مدينة بالِّيرية على تخوم دَلماسيا وبانونيا. ووُلد نحو ابتداء المائة الرابعة للمسيح ولا يُعرف ما جرى لهُ في ايام حداثتهِ الاَّ ان ابوَيهِ كانا متموّلين وربّياهُ تربية مسيحية. وتبع القديس ايرونيموس اذ قدم ايطاليا اشتياقًا الى تكميل نفسهِ بدرس علم البيان وسائر العلوم على ان ذلك لم يكن السبب الوحيد لسفرهِ فانهُ بما كان قاصدًا ان يختار نوع العيشة الاكثر صلاحية لان يصير قديسًا كان يريد باول الامر ان يجول في كل الشرق ليتعلم من كبار معلمي السيرة الروحية علم البلوغ الى الكمال لكن لما عرف اهليَّة القديس ايرونيموس اعتقد ان مرشدًا نظيرهُ جزيل القدس والعلم يكفي بدون ريب لتعليمهِ وهكذا ما علم برجوعهِ من فرنسا الاَّ وقد ادركهُ

في مدينة اكويلي ولما كان تحت ارشاد هذا المعلم اللبيب نجح في قليلٍ من الزمان نجاحًا عجيبًا في سبيل الله

ولم يذُق عليهِ السلام عذوبة الحياة الباطنة الاَّ وقد كرِه حياة الدنيا المضجّة وأضحى موضوع شهواتهِ الاعتزال عن الناس وما استطاع ان يعزم مع ذلك على ترك مرشدهِ العزيز والزمهُ الامر حينئذٍ ان يترهب وابتدأ ان يمارس في بيتهِ بدون ان يدخل ولا ديرًا من الاديرة كل رياضات العيشة النسكيَّة ولما كان كانهُ لا يرى احدًا قضي النهار واحيا الليل وحدهُ في الصلاة ودرس الكتب المقدسة

ولما عزم القديس ايرونيموس ان يسافر الى بلاد المشرق بالأبوين افاغريوس واينوشنسيوس اراد اليودُر ان يرافقهم ولم يكن غرضهم من ذلك مجرَّد ان يصيروا اعلم بواسطة مخاطبة افاضل الرجال الذين كانوا زاهين هنالك يومئذٍ وانما ان يضحوا اكثر كمالاً بزيارة كثيرين من الاجلاء الذين كانت الناس تقتدي بهم . فطافوا معًا في تراسيا وبينينية وبونت وغلاطية ومرُّوا بسوريَّة ولما كانوا بانطاكية تعرَّفوا بابوليناريوس المبتدع المشهور الذي لم تكن بدعتهُ قد انتشرت يومئذٍ بحيث كان قد صرف جل همتهِ ليخفي الاضاليل المستكرهة تحت حجاب الصدق الظاهر بصناعات البلاغة التي كان يخدع الناس بها . واما اليودُر فكان يذهب غالب الاوقات ليسمع تفاسيرهُ للكتاب المقدس فلم يمرّ زمن طويل حتى عرف بالسمّ الذي كان ينشرهُ بمكرٍ ودهاء ذلك العلاَّمة الذي كان ينصب للناس اشراكًا . كيف لا وارآؤهُ الحديثة الغير المسموعة في كنيسة الله صارت للقديس بسبب ذلك فقط تحت الشك والريب وما اقتضى لهُ اكثر من ذلك ليرتعب من تعليمهِ

واما القديس ايرونيموس فبعد ان اقام مدةً بانطاكية انفرد في برية اقليم كَلْشيدا نحو تخوم سورية والعربية وتبعهُ اليودُر الى هناك فمودتهُ للقديس ايرونيموس نبهت فيهِ الميل الذي كان لهُ نحو الانفراد واما الاب افاغريوس فاستمر في انطاكية وبما انهُ كان غنيًّا اخذ على نفسهِ الاعتناء بهما وكفل بان يقدم لهما كل ما يحتاجان اليهِ

اما اليودُر فبعد ان نجح نجاحًا عجيبًا في علوم القديسين تحت ارشاد ذلك العلاَّمة الحاذق ولَّد في قلبهِ حبُّ الوطن والشوق الى أبويهِ الرغبة في العود الى دلماسيا . فذهب باطلاً تنبيه القديس ايرونيموس لهُ على الفخ الذي كان ابليس قد نصبهُ لهُ بحيث ان محبة الوطن جذبت اليودُر فسافر بعد ان وعد مرشدهُ العزيز بان يرجع اليهِ قريبًا . واقامتهُ بالقرب من والديهِ ظهرت طويلةً على القديس ايرونيموس وسببت لهُ اضطرابًا وبلبالاً وخاف ان ابوي اليودُر والخبور التي يمكن ان يؤملهُ بها ابوهُ تزعزعهُ عن دعوتهِ وتميلهُ ثانيةً الى ارتباكات الزمان ولذلك كتب اليهِ من البرية التي كان منفردًا بها رسالةً مملوءة من التعطف والشعائر التقوية الجيدة

فقال لهُ انت تعلم ياعزيزي اليودُر باية حرقةٍ كنت أراك مسافرًا فقد أثَّر بي بعادك حتى ان مدامعي لم تزل سائلةً . ولا جرم ان هذه الرسالة نفسها تعلمك ان الينبوع الى الان لم يجفّ فلتذهب رسائلي الى حيث أنت لتطلبك لاني ما قدرت ان ابقيك بالقرب مني . ثم استطرد الى مواعظ مملوءة رأفةً وقال

لكن لماذا استعمل معك التوسلات والتلطفات ان قلبًا مجروحًا بالتأثر نظير قلبي لم يبقَ لهُ اسلحة لاجل الانتقام الاَّ الغيظ فماذا تفعل اذًا في بيت ابيك يا اليودُر الكثير اللطف والشديد الخوف فها صوت البوق قد رنَّ في اذنيك ولم تجسر ان تذهب الى القتال ماذا صارت شجاعتك الأولى المقدسة الحارة هل نسيت في ديوان اي سلطان اكتتبت . وقد اورد القديس ايرونيموس في هذا المكان الى عزيزهِ اليودُر هذه القاعدة الراهنة والمعبرة عن التعليم المسيحي الذي تكرر مرارًا كثيرة وقال ولو يفترق شعر أُمك وتبتلُّ عيناها بالدموع وتستعمل كل الرقة الاكثر خداعًا وتكشف لك ثديها اللذين رضعتهما لتوقفك . ولو ينطرح ابوك على عتبة الباب لكي يغلقهُ عليك فلا تخف ان تمر الى الجانب الآخر ولو اقتضى انك تدوسهما برجليك لتتبع يسوع المسيح في هذه الحالة حتى ان قساوة القلب وصلابتهُ تضحيان تقوى مسيحية حقًّا فاركض واسرع الى راية يسوع المسيح التي تقيدت تحتها . ثم قال تذكر انك اذا طلبت ميراثًا زمنيًّا يقتضي ان تترك الاشتراك في ميراث المسيح ولاجرم ان خادم يسوع المسيح الامين لا يشتهي ولا يقتني الاَّ يسوع المسيح . فاذا اشتهيت ان تكون كاملاً ياعزيزي اليودُر فلماذا توجّه الحاظك حتى الان نحو ميراث ابيك العاجز الفاني وان لم تكن باقية فيك هذه الرغبة فلماذا تخادع السيد لهُ المجد واعدًا اياهُ انك لا ترتبط الا بهِ . واما الاسباب التي انبئتني بها لتعتذر عن جبانتك فلا طائل تحتها

وليس من وُثق لا تستطيع محبة الله او الخوف من جهنم ان يحلاَّها متى نريد ذلك

وفي ختام الرسالة يمدح العيشة المنفردة ويدعو اليودُر الى ان يعود الى هناك . فصرخ ذلك العلاَّمة القديس قائلاً يا ايها القفر يا ايها القفر الذي ينبت فيهِ الازهار المحبوبة وحدها من يسوع المسيح ايها الانفراد الجميل الذي فيهِ تولد الحجارة التي لا بد ان تُبنى منها المدينة المقدسة ايتها الرياضة الحلوة اللذيذة التي لا يزدري الله ان يساير الانسان فيها بدالَّة وأُنس . فماذا تعمل في الدنيا يا اخي العزيز انت اشرف منها . فحتى متى تستمرّ اسيرًا في هذه الاقامة بالمدن المضجّة أَتخشى القفر يا اليودر وقد سمي يسوع المسيح الفقراء سعداء . هل يخيفك الشغل لكن لا يتوّج احد من غير تعب . إن الاصوام والاماتات تفزعك لكن تأمل ان الايمان يُحلّي كل شيء . يا عزيزي اليودُر لا ينبغي ان نرجو ان نتمتع في الدنيا ونملك في الاخرة مع يسوع المسيح

ان التوسُّلات الحارَّة والملازمة قد أثرت في قلب مستعدٍ حسنًا غير اننا لا نعرف ما هي الموانع التي عاقت القديس عن الرجوع الى سورية وانما نعرف ان ترغيب الدنيا له ذهب على غير طائل وان استعملت لاغوائهِ كل حيلةٍ . واما اليودُر فلم يناقض قصدهُ الاوَّل واقامتهُ بوطنهِ لم تفسد الذوق الذي كان له نظرًا الى الرياضة فكان يعيش بين انسبائهِ كما لو كان في صومعة كُلشيدا . ومذ قدر ان يفارق وطنهُ خرج منهُ حتى لا يعود اليهِ ابدًا ولما كان قاطعًا الرجاء من الاستطاعة على الوصول الى مرشدهِ القديس عزم على ان يمرّ ثانية بايطاليا . هذا وان امثلة فضائلهِ الصالحة التي كان قد تعجب منها جم غفير من الاكليريكيين القديسين الذين تألفت منهم كنيسة اكويلي حملتهُ على ان يرجع الى سورية وما وصل اليها الاَّ وقد صيَّرتهُ تقواهُ ومعرفتهُ واهليتهُ مشهورًا ذائع الصيت . وقد قُبل في مصاف الاكليروس ومهما كانت هذه الشركة الاكليريكية جليلة ومحترمة فهذا القديس قد امتاز فيها عما قليل بتعليمهِ وفضائلهِ النادرة الوجود . فعيشتهُ الانفرادية الذابلة القاسية المتعبة جذبت اليهِ احترام الشعب وأُعتبر حينئذٍ كقديس . ولما فرغ كرسي التينو الخاضع لميترو بوليتية اكويلي ولم يوجد رجل اهل للكرسي المذكور اكثر من القديس اليودُر وقد صعب عليهِ ان يغلب نفورهُ من ذلك ولم يقدم انتخاب الشعب والاكليريكيين على اقناعهِ انهُ اهل لذلك لان فروض الاسقفية المريعة خوَّفتهُ غير انهُ بعد الرفض الطويل التزم اخيرًا ان يجري على ارادة الله جل شأنهُ

ولا جرم ان هذه المرتبة العالية أَعطت رونقًا جديدًا لفضيلتهِ فضاعف صومهُ وبقية تقشفاتهِ وما لبث ان اضحى من أَقدس اساقفة عصرهِ في غيرتهِ وتعليمهِ ومحبتهِ وتمسك بتعليم الكنيسة تمسكًا غير منفكٍّ وأَثار حربًا دائمة على جميع اعداء الايمان فضادَّ بقوةٍ عقائد الابولّيناريين والاريوسيين الكفرية وحضر بسبب ذلك مجمع اكويلي سنة احدى وثمانين وثلثمائة . فالقديس امبروسيوس الذي بمساعيهِ وهمتهِ انعقد المجمع المذكور وكان لذلك المجمع بمنزلة روح ما ابطأَ ان اطّلع على قيمة ذلك الكنز المخبوءِ وارتبط بحبل ودادهِ

فانتهى المجمع ولم يجتهد القديس المذكور الا ان يمشي شعبهُ في طريق الخلاص ويطعمهم خبز كلام الله ولم يكن قط راعٍ مثلهُ منتبهًا الى تدبير كل ما تحتاج اليهِ رعيتهُ وان يحميها ويصونها من كل ما يمكن ان يضرّ بها ويؤذيها . واما امثلتهُ فكانت تكمل دائمًا ارتداد الذين تحرَّكت قلوبهم بمواعظهِ وارشاداتهِ فصار كلاًّ للكل ليربح الكل ليسوع المسيح . ذلك وان محبتهُ للقريب ولطافتهُ وتواضعهُ امالت اليهِ كل القلوب وكانت سعادتهُ ان يتصدَّق بكل دخلهِ على الفقراء

فاما القديس ايرونيموس فما نسي تلميذهُ وشهد في احدى رسائلهِ انهُ حافظ في الاسقفية على التقشف وضبط العيشة الرهبانية . ذلك ولا يُعرف بالحصر في اي زمان رقد القديس اليودُر . وانما يُعرف بتأكيد ان موتهُ كان كريمًا لدى الرب لان الكنيسة قدَّست تذكارهُ وعيَّدت له في اليوم الثالث من شهر تموز . ويغلب على الظن انهُ مات نحو نهاية المائة الرابعة للمسيح

اليوم الرابع

وفيهِ ترجمة القديس اودَلريك

ان الاب برنون كتب ترجمة القديس اودَلريك اسقف اوكسبورج كما رواها سوريوس في المجلد الرابع من تآليفهِ . وهو من امراء ديلنغين المشهورين . واسم ابيهِ هوبَلد واسم امهِ تيبورج واعتمد بعد ثلثة ايام من ميلادهِ وقد لحظ منذ حداثتهِ دلائل كبيرة على برارة سيرتهِ . وقد هذَّبهُ والداه على

ايدي رهبان دير سنكال ليقدر ان يتعلم معهم العلوم الادبية والفضائل الالهية فحصل لهُ كثيرٌ من اللذة في تأمل الله جلَّ شأنهُ وقصد ان يترك الدنيا بالكلية لكي يترهب ولكان فعل ذلك لو لم تردعهُ عنهُ ابنة قديسة اسمها فيبرت كانت محبوسةً بين اربعة جدران قائلةً لهُ انهُ لم يأتِ زمانهُ بعدُ ومن ثمَّ رجع الى بيت ابويهِ اللذين لما وجداهُ متقدمًا كثيرًا في العلوم وصيّا بهِ ادلبرون الذي كان وقتئذٍ مطران اوكسبورج وهو رجل صالح محترم فاخذهُ لخدمتهِ وبعد ان اختبر معرفتهُ وفضيلتهُ عاملهُ بكل انسٍ واقامهُ على جميع اعمالهِ الخدمية

فاشتهى القديس اودَلريك ان يذهب الى رومية ليزور قبرَي الرسولين بطرس وبولس فاذن لهُ الاسقف في ذلك فاستقبلهُ البابا باكرام وسألهُ من أنت فاجاب اني اكليريكي الماني وخادم السيد ادلبرون مطران اوكسبورج . فقال لهُ البابا اسقفك قد مات ويريد الله ان تكون خليفةً لهُ وتحمل على كاهلك العناية الرعائية بالكنيسة المشار اليها . فاندهل القديس اذ سمع هذا الكلام . وحيث كان يعتبر انهُ غير مستحق لهذه المرتبة انسلَّ خجلاً وهرب من رومية

اما البابا فبسبب هرب اودَلريك اقام هِلتون اسقفًا وقال لاودَلريك لا بريد ان يسوس كنيسة اوكسبورج التي هي الآن في راحة واطمئنان فسوف يضطرّ الى ان يحمل هذا الحمل اذ تكون مضطربةً ومتبلبلةً بالبلايا والمصائب . وقد تمَّ ذلك بعد خمس عشرة سنة لما مات هِلتون الذي قضى كل تلك المدة براحةٍ ورغدٍ لان الملك هنري والشعب كلهم الزموا اودَلريك ان يقبل الاسقفية

وحالما ارتقى الى الاسقفية اعطى ادلة وبراهين على قدسهِ وبرارتهِ وقام بواجبات راعٍ معتنٍ وساهر وكان مشتغلاً على الدوام اما بالصلاة واما بقراءة الكتب المفيدة ويقشّف جسدهُ بقساوةٍ لانهُ لم يكن ياكل لحمًا البتة وكان يطعم كثيرًا من الفقراء على مائدتهِ ويتكلم قليلاً ولكن بحكمة وتأثير

وكان يقدّس بعبادةٍ كلية . وفي ذات يومٍ لما اراد ان يأخذ البرشانة ليقدّسها رأى الحاضرون يدًا نزلت من السماء وانضمّت الى يد الاسقف القديس لتساعدهُ على تقديس الذبيحة الالهية . ولما اراد مرةً اخرى ان يرتاح قليلاً ظهرت لهُ القديسة افرا شهيدة مدينة اوكسبورج واستدعتهُ الى الحقول حيث وجد القديس بطرس جالسًا فيما بين

كثير من القديسين يطلبون من الله ان ينتقم عن دمهم من الذين اضطهدوهم فصرخوا على الخصوص ضد أرنُلْدوس امير بافريا الذي كان حيًّا وقتئذٍ لانهُ هدم كثيرًا من الكنائس والاديرة واعطى دخلها الى العالميين فأُتّم أرنُلْدوس المذكور بحكم جميع هولاء القديسين . ذلك وان السيد لهُ المجد أُوحي اليهِ مرارًا عديدة وانباءهُ بالاشياء قبل وقوعها بزمان طويل . وكانت لهُ عناية كبيرة باقامة الكنائس التي هدمتها واحرقتها ودرستها الاعداء وباكثر من ذلك كان يهتمّ ايضًا بردّ النفوس التي افسدتها الخطايا والعادات الردية . واهتمّ بالاكثر باستئصال السيمونيا التي كانت متأصلة جدًا في عصرهِ وباقي العادات الردية التي دخلت شيئًا فشيئًا وكبرت اكثر فاكثر والرعاة غافلون عوضًا عن ان يقتلعوها قبل ان تتأصل

ووقعت منازعة كبيرة بين الملك أُوتن وابنهِ لودُلف حتى جمعا الجيوش ولما كانا مستعدين الى الدخول في المقاتلة علم بذلك القديس اودَلريك فذهب بهادَربرا اسقف كواري وانطرح بين العسكرين حيث افاد كثيرًا ببرارتهِ وبلاغتهِ فوقّف هذين الملكين عن الحرب وقرَّر السلام بينهما

وقد شرَّف السيد لهُ المجد القديس اودَلريك بعجائب كثيرة شافيًا بشفاعتهِ ذوي الاسقام والامراض المختلفة وخلّص مدينة اوكسبورج من يد المجر الذين قد هجموا على البلدة وجعلوا يحصرونها ويضيّقون عليها وذلك بانهُ جمع في الكنيسة جميع الاطفال الراضعين لتصعد اصواتهم الى السماء كصعود صوت ابن هاجر أَمة ابرهيم وكان هو بينهم يتضرَّع الى الله لخلاص رعيتهِ . فاقتصَّ الله منهم بصلاة الاسقف القديس فمات كثير منهم هناك واما الباقون فرفعوا الحصار بخجلٍ وخزيٍ . وبما ان كثيرين من الاكليريكيين صاروا فقراء محتاجين بسبب الغارات والبلايا التي ذاقوها من البرابرة جدَّ في مساعدتهم بعناية ومحبة كبيرتين حتى تعرَّى لكي يكسوهم

وقد حدث لهذا القديس امر معتبر لانهُ كان يشتهي جدًا ان يترك الوظيفة الرعائية ليكبَّ على الصلاة والتأمل وكان لهُ ابن اخت اسمهُ ادَلبر فسلمهُ اسقفيتهُ لكن هذا الاسقف الجديد اطلق لنفسهِ عنان الشهوات ثم اماتهُ الله في نهاية بعض اشهر . فاودَلريك خالهُ الذي كان استعدَّ للموت بتوزيع كل ما كان لهُ على الفقراء وثابر على البكاء

والصلاة لينال من الله غفران خطاياهُ ابتدأ يئن مرةً كانهُ منتبه من رقاد عميق قائلاً واحسرتاهُ ياليتني لم اعرف ابن اختي أدابر لان القديسين لا يريدون قبولي في جمعيتهم بدون قصاص بحيث قد تركت نفسي ذاهبًا وراء شهوتهِ معترفًا بانهُ اخطأ بتسليمهِ سياسة الكنيسة الى ابن اختهِ وانهُ يكفّر عن خطيئتهِ في المطهر

ان القديس المذكور قد مات بعد ما طلب الغفران من الحاضرين على ايدي الكهنة القانونيين الذين كانوا يسكبون الدموع وعمرهُ ثمانون سنةً ومدة اسقفيتهِ خمسون سنةً وكان ذلك سنة ثلث وسبعين وتسعمائة في اليوم الرابع من شهر تموز على عهد الملك اوتون الثاني. ودُفن في كنيسة القديسة افرا الشهيدة حيث صنع عدة عجائب بشفاعتهِ. وقد ذُكرت ترجمتهُ في كتاب تراجم الصالحين

اليوم الخامس

وفيهِ ترجمة القديس غوار السائح

وُلد القديس المذكور باقليم اكتانيا من اعمال فرنسا في اواخر الجيل الخامس للمسيح من اصل شريف. وقضى ايام الفتوة والشباب في ممارسة الفضائل ثم ارتسم كاهنًا وحينئذٍ شرع يهتم بخلاص النفوس. ولان فصاحتهُ كانت مقترنة بالبرّ كان تعليمهُ يؤثر في القلوب فتاب بوعظهِ كثيرون من الخطأة واقتنع جمٌّ غفير من المبتدعين وتنصر جمهور كبير من الوثنيين. فهذه الاشياء كلها صيّرتهُ محترمًا عند الجميع ولهذا عزم على الفرار من هذه الكرامات بالاختلاء في البراري فخرج من مملكة فرنسا وذهب الى نواحي مدينة تريفيري من مملكة المانيا نحو سنة تسع عشرة وخمسمائة للمسيح وبنى هناك باذن الاسقف فيليسيوس قلاّية ومعبدًا صغيرًا وشرع يمارس كل رياضات السياح القديسين اعني الصوم الدائم وعمل الايدي وترتيل التسابيح وتأمل اسرار الايمان وكان يقدم كل يوم ذبيحة القداس الالهي. ووجد في تلك النواحي قومًا كثيرين من الوثنيين فدعاهم الى الديانة المسيحية فقبل كثيرون منهم الدعوة وارتدُّوا عن الضلال

فابتدأ الناس يأتون من كل جهة ليشاهدوا هذا السائح القديس. فكان يأويهم ويطعمهم جميعًا بكل محبة. ذلك وان اهتمامهُ هذا بخدمة الغرباء لم ينقص شيئًا من رياضاتهِ الروحية ولا نكير فقد كان غالب الايام يتلو الزبور كلهُ ثم يقدّم ذبيحة القداس ثم يصرف بقية النهار في استقبال الغرباء وكان هو وحدهُ يصلح لهم الاطعمة ويخدمهم وكان يفعل ذلك باظهار الوداد الاخوي وفيما هم ياكلون كان ينتهز الفرصة فيغذّي انفسهم بالتعليم الروحي وبنصائح مناسبة لدعواتهم ثم كان يدعوهم الى ان يصلوا معهُ وفي حين سفرهم كان برافقهم مقدمًا لهم زادًا للطريق. فبهذه الوسائط كان يثمر في الانفس اثمارًا عجيبة وشاع خبر برارتهِ في تلك الابرشية كلها

فسمع هذا اثنان من خدام الاسقف المدعو روستيكوس خليفة فيليسيوس وعزما على زيارة القديس بروح الحسد الخبيث وسافرا ولما وصلا الى قلاّيتهِ استقبلهما بمحبة كعادتهِ ولانهُ كان يصلح لهما الطعام ويخدمهما بوجهٍ باش وياكل معهما قبل الوقت المعيّن للسياح اخبرا الاسقف عند رجوعهما بما كان وصوّراهُ لهُ رجلاً مرائيًا منهمكًا في المآكل والمشارب وفاضحًا بها سيرة السياح القديسين. فاسرع الاسقف بالتصديق وامرهما بان يرجعا الى القديس ويأتياهُ بهِ. فعادا اليهِ وقالا لهُ ان الاسقف عرف بالاخبار الشائعة عن برارتك وانهُ يشتهي ان يخاطبك ومن ثم يكلفهُ الذهاب اليهِ بل يأمرهُ بذلك بقوة الطاعة. فاستقبلهما القديس كما استقبلهما اول مرة وبكّر في الغد الى تقديم ذبيحة القداس ثم قدّم لهما مائدة ليفطرا. اما هما فرفضا الغذاء وقالا لهُ من المستغرب ان سائحًا مثلك يتناول الطعام باكرًا. فاجابهما القديس باحتشام ودعة لا تستغربا يا اخوتي ما فعلتهُ بروح المحبة لان التقشف لهُ وقت والمحبة لها وقت وان كنتما لا ترتضيان ان تُفطرا فاصبرا قليلاً لان هنا رجلاً غريبًا فبعد ان يفطر نذهب

ففطر الغريب وقام القديس وزوّد خادمَي الاسقف وسافر معًا. اما الله الفاحص القلوب والعارف بما كانا يفتكران في القديس خطأً ويقصدانهِ حسدًا وجورًا انتقم منهما سريعًا لانهما بعد ما سارا قليلاً اشتد عليهما الجوع والعطش وخارت قوتهما فجلسا ليأكلا ويشربا بقرب عين ماء فلما فتحا خُرجهما لينتنا ولا الزاد لم يجدا فيهِ شيئًا ثم التفتا الى عين الماء فلم يجدا فيها ماء فانتبها على ذنبهما وجثوا على قدمَي القديس وطلبا منهُ العفو. اما القديس فعانقهما بمحبة وغفر لهما واذا بثلث أيّلات مررن بهم فاستدعاها القديس فانتهُ فاحتلب لبنها وقدمهُ لخادمي الاسقف ثم بارك على خرجهما وعلى عين

الماء فوجدا الزاد وعاد الماء يجري كعادته

فلما وصل الخادمان مع القديس الى الاسقف اخبراهُ عن عجائب القديس غوار المتقدم ذكرها فلم يصدقها الاسقف بل نسب هذه كلها الى قوة السحر . ثم دخل عليهِ القديس ولما نظر في جانب الحجرة اشعة شمسية تنفذ في الداخل ظنها قصبة وتقدم ببساطة وعلق جبَّتهُ على تلك الاشعة كانها قصبة وبقيت عليها بقدرة الله . فتعجب الحاضرون . أما الاسقف فنسب ذلك ايضًا الى السحر ثم التفت الى القديس وسألهُ اين تعلمت هذا العلم الشيطاني . وفيما كان يسألهُ عن ذلك قُدّم للاسقف طفل ابن يوم واحد وُجد ملقًى على الارض في الشوارع لا تعرف لهُ امٌّ ولا أبٌ . حينئذٍ قال الاسقف للقديس اني آمرك بان تصلي وتطلب من الله ان يفتح فم هذا الطفل فيقول من هو ابوهُ ومن هي امهُ . فسكت القديس ثم الهمهُ الله فالتفت الى الطفل اللقيط وامرهُ بان يقول مخبرًا من هو ابوهُ ومن هي امهُ فحالاً رفع الطفل يدهُ واشار بها نحو الاسقف وقال هذا هو ابي اما والدتي فتدعى فلافيا . فاسودَّ وجه ذلك الاسقف خزيًا ولبس ثوب الخجل وحار كل الشعب في امرهِ . اما القديس فاشتملهُ حزن عظيم ثم اخذ يحث الاسقف سرًّا على التوبة ثم وعدهُ بانهُ يمارس من اجلهِ افعال التوبة القشفة مدة تسع سنين . فاستفاد الاسقف ما حصل عليهِ من الخجل ومن نصائح القديس واعترف بذنبهِ واعلن معترفًا انهُ ليس باهل للاسقفية فاعتزل عنها ودخل احد اديرة العذراء حيث مارس مدة سبع سنين افعال التوبة والتوجع حتى انهُ اصبح قدوة للتائبين في التوبة والفضائل واستحق بها ان يُدرَج اسمهُ في مصفّ القديسين التائبين بعد وفاتهِ الصالحة وقد ثبت الله قدسهُ بعمل معجزات كثيرة ويذكر البولانديستيون ارعواءهُ وفضائلهُ في اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الاول

هذا ولما شعر الملك سيجبرتوس والاساقفة بما جرى أثبتوا عزل الاسقف ذاتهُ من كرسيهِ ودعوا القديس ليرسموهُ اسقفًا بدلاً عنهُ . اما القديس فالتمس اولاً من الملك ان يخلي مدة عشرين يومًا . وفي غضون ذلك لم يزل مصليًا طالبًا من الله الّا يدع الملك والاساقفة يغتصبونهُ بهذا الارتسام فاستجاب الله تعالى صلاتهُ فجعل الملك لا يذكر ذلك الامر مدة سبع سنين اما بعد فرجع امر القديس في فكر الملك وارسل يستدعيه . فمرض القديس ومات موت الاولياء في اليوم السادس من شهر تموز في السنة الخامسة والسبعين بعد الخمس مائة للمسيح

اليوم السادس

وفيهِ ترجمة القديسة غودولينا الشهيدة

ان اتعاب الزواج لحمل ثقيل جدًّا وما الانسان بقادر ان يحتملها كما ينبغي الّا بعون الله لانهُ لا يخلو اما ان يُولد للمتزوجين او لا فان كان الثاني حزنوا لاسباب اخصها انقطاع ذكرهم وذهاب متروكاتهم الى غير اولادهم ولا يخفى ما في ذلك من الغصة على من تملك فيهم حب الدنيا وان كان الاول فاذا مرض الاولاد او ماتوا استولى عليهم الاسف واشتد بهم الحزن وان شبُّوا على الرذائل كالسكر ولعب القمار وحضور الملاعب التي يجري بها من الكلام والافعال ما يهيج الشهوة اللحمية ويفسد الاداب والاخلاق الحميدة كما هو كثير الوقوع في المدن والعواصم حيث يوجد كثير من الناس يتخذون تلك الملاعب واسطة للمعاش وبئس الواسطة وبقي ما لو كان الاولاد مهذَّبي الاخلاق حسني الخصال فان الاباء يخافون مع ذلك ان يسطو عليهم الموت . وماذا عسى ان اقول عن صعوبة هذه الدعوة متى زرع الشيطان في قلوب المتزوجين سم البغضة فلا جرم انهم يحتاجون الى نعمة خصوصية قوية ليستطيعوا ان يحتملوا مثل هذا النير الثقيل فمن كان هذه الحال حالهُ فليتعزَّ وبثق بمثال القديسة غودولينا

وُلدت القديسة المذكورة في اواسط الجيل الحادي عشر باقليم من اعمال فرنسا يقال لهُ بيكَرْديا من اصل ذي نسب شريف . ولانها كانت جميلة جدًّا خطبها احد الامراء المدعو بَرْتُلدوس من بلاد فيلاندرا ثم اتخذها قرينةً لهُ ولما ادخلها الى منزلهِ تحوَّل حبُّهُ لها بغضةً شديدة حتى لم يعد يطيق مخاطبتها ولا مشاهدتها ولا مساكنتها ومثلهُ كانت حماتها لا تزال تحثهُ على زيادة البغض لها قائلةً لهُ ما كان اغناك عن ان تجلب من مكان بعيد هذه المرأة التي تشبه الغراب الاسحم . فكانت بهذه التهمة تشير الى سواد شعر القديسة . هذا وانهما كانت تجتهد مع ابنها في قتلها الّا انهما لم يتجاسرا على ان يقتلاها جهارًا خوفًا من والدي غودولينا غير انهما عزما على ان يميتاها رويدًا رويدًا فسلماها لاحد الخدام وخصصاها لهُ

فعاملها بقساوة برضا مواليهِ ولم يدعاها تاكل سوى رغيف واحد في النهار . ولان هذا لم يكفِ لقتلها نقصا قليلاً من الرغيف

اما القديسة فكانت تحتمل هذا كلهُ بصبر عظيم وتظهر محبةً لطالبي موتها وتتعزّى بالصلاة وتتقوّى بها . غير انها لما رأت ان زوجها يريد قتلها اتفقت مع جاريتها ومعها فرّت هاربةً من البيت والمدينة وعادت راجعةً الى بيت ابيها فاشتكى ابوها لدى امير فيلاندرا فلما شعر بذلك امير فيلاندرا استدعى اسقف البلاد وقال لهُ ابرز الحكم على بَرْتُلْدوس في استرجاع زوجتهِ وانهُ اي الامير سيجبرهُ بالطاعة لحكمهِ الكنائسي فكان كذلك لان الامير وبّخ بَرْتُلْدوس على معاملاتهِ امرأتهُ بهذه القساوة وزجرهُ وتوعدهُ بالانتقام ان لم يخضع لحكم الاسقف . فاظهر بَرْتُلْدوس ندامة لدى الامير ووعدهُ قائلاً منذ الان فصاعدًا لا أُعامل غودولينا الا بالاكرام والمحبة . فرجعت القديسة الى بيت زوجها لكن لم يمض زمان طويل وشعرت القديسة ان المصالحة لم تكن الاّ بالظاهر ورجع زوجها الى ما كان عليهِ من النفور والبغضة والقساوة فاستنتجت من ذلك ان الرب يريد ان يشاركها في صليبهِ فعزمت ان تحتمل كل شيء حتى الموت بسكوت وصبر حبًّا لهُ تعالى واذ كان بعض اصدقائها ينهون امامها بقساوة زوجها ويشتمونهُ كانت تمنعهم وتسألهم ان يباركوهُ ويصلوا لاجلهِ . اما زوجها فبلغ بغضهُ لها حدًّا بعيدًا حتى قصد ان يقتلها خفيةً وبعد زمن يسير استعدَّ للسفر ثم امر خدامهُ بان يميتوها قتلاً في غيابهِ . فسافر بَرْتُلْدوس وبعد ايام قليلة دخلوا منزلها في نصف ليلةٍ ما وهي نائمة فقبضوا عليها وخنقوها وانزلوا جسدها في بحيرة قاصدين بذلك ان يغرقوها لو لم تختنق ثم ارجعوها الى حجرتها واشاعوا عنها الخبر بانها ماتت بغتةً موتًا طبيعيًا . الا ان الله تعالى شرّف قبرها بعجائب كثيرة منها شفاء ابنة لبرتُلْدوس وُلدت لهُ من زوجتهِ الثانية وكانت وُلدت عمياء فشفيت بتغسيل عينيها بماء من البركة التي غرقت فيها القديسة . اما زوجها فندم اخيرًا على عملهِ وبنى ديرًا للراهبات واقام الكنيسة على اسم امرأتهِ هذه القديسة وترهب هو ايضًا ومات موتًا مقدسًا . وكانت وفاة هذه القديسة في اليوم السادس من شهر تموز في السنة السبعين بعد الالف للمسيح

اليوم السابع

وفيهِ ترجمة القديسة اليصابات الملكة

ان هذه القديسة وُلدت في سنة احدى وسبعين ومائتين بعد الالف للمسيح وكان ابوها بطرس الثالث ملك اراغونيا وجدُّها يعقوب الملقب بالقديس والمظفَّر لاجل قدس سيرتهِ وكثرة انتصاراتهِ واخذ جدُّها المذكور تربيتها عليهِ وكفل بتهذيبها فنمت في الجسم والبرّ والتقى معًا . ذلك ومنذ الصغر كانت محتشمةً في جميع حركاتها وتشمئز من زينة الجسد كل الاشمئزاز وترغب في الاختلاء وتأمل حقائق الدين ومناجاة الله تعالى بالصلاة . ولما بلغت السنة الثامنة من عمرها اخذت تمارس التقشفات والاصوام وخصوصًا الصوم في كل سبت وفي بيرامونات اعياد العذراء جميعها وكانت تتلو كل يوم فرض الكهنة الكنائسي وقد مارست هذه الرياضات الى يوم وفاتها ومن ثم كان والداها يسميها الملَك الحارس لمملكتهِ . هذا وان تلك الفضائل جميعها كانت مقترنة بجمال عظيم ولهذا طلب كثير من الملوك ان يتزوَّجوا بها ولم يفز بذلك النصيب الاّ ديونيسيوس ملك البرتوغال

وفي تغيُّرها هذا وانتقالها الى حال الزواج لم تغير شيئًا من سيرتها بل عاشت في بلاط البرتوغال كعيشتها في بيت ابيها الملك . ولم يغرَّها لمع اكليلها الملوكي . وترفهات بلاط زوجها لم ترخِ فيها روح التقشفات فابتدأت اولاً ان ترتب زمانها فكانت تقوم باكرًا وبعد صلاتها العقلية كانت تتلو جزءًا من الفرض الكنائسي ثم كانت تحضر القداس الالهي وفيهِ كانت تتناول غالبًا القربان المقدس . وفي اثناء ذلك كانت تتلو الفرض الكنائسي المرتب من الكنيسة لاكرام والدة الله ولمساعدة الانفس التي في المطهر . ثم كانت ترجع الى البلاط الملوكي وترتب الامور العالمية واما بقية النهار فكانت تراوح فيها بين الاعمال اليدوية لتزيين كنائس الله وقراءة الكتب الروحية والصلاة اي تعمل هذا مرةً وذاك اخرى ومن ثم لم يرها احد قطُّ بطَّالة

وكان من عاداتها الحميدة انها كل يوم خميس من اسبوع الالام تغسل اقدام ثلث عشرة امرأَة فقيرة . ومن غريب ما جرى لها في عادة الغسل المذكورة انها رأت بين اولئك النساء امرأَةً مقروحة الرجل ورائحة النتانة تنبعث من ذلك

الفرح فغسلت رجلها ثم قبَّلتها كانها هي رِجْل السيد المسيح المجروحة المثقوبة فنالت الشفاء تلك المرأة حالاً . ومما ينتظم في سلك ذلك انها خرجت ذات يوم من البلاط لتوزّع على الفقراء صدقات وكانت قد وضعت الدراهم في ذيل ثوبها الملوكي فصادفها الملك زوجها وسألها ما الذي تحملينهُ في ذيلكِ فقالت ورد ولم يكن حينئذٍ زمن الورد فاراد الملك ان يراهُ عياناً فأرتهُ الملكة ما في ذيلها فوجد فيهِ ورداً غضّاً كما قالت

ولم تخلُ القديسة من التجربة لكون الله تعالى اعتاد ان يمحن جميع ابرارهِ فامتحنها بتجربة صعبة جدًّا قلَّ من تحملها من النساء بصبرٍ . وهي انهُ كان بعلها في الاول يرغب عنها الى غيرها ويخون امانتهُ لها اما القديسة فلم يسمعوها قط تتذمر ولا تتهم عليهِ بل التجأت الى الصلاة واجتهدت في ان تلين قلبهُ بصبرها ونقواها حتى انها كانت تعتني بتربية البنين الذين كانت قد ولدتهم لهُ تلك النساء الزانيات فاستحقت بتصرفها هذا وبصلواتها الحارّة انهُ ارتد بعلها اخيرًا عن سوء سيرتهِ . ولما كان الملك لم يرتد بعد ارتداداً كاملاً عن سيرتهِ المتقدم ذكرها حدث ما سيأتي بيانهُ وهو انهُ فيما بين خدام الملكة كان غلام جزيل التقوى والاحتشام وكانت القديسة تستخدمهُ كثيرًا من اجل عبادتها كتوزيع صدقاتها وما ضاهى ذلك فحسدهُ غلام من رفقائهِ فوشى بهِ الى الملك قال ان ذلك الغلام العزيز على قلب الملكة قد نصب لها فخ البغاء واضطرم حبهُ في قلبها . فصدقهُ الملك وعزم على قتل الغلام سرًّا . فعند رجوعهِ من الصيد والقنص مرَّ باتون كلس ملتهب فاوصى صاحبهُ سرًّا بان يلقي في الاتون الغلام الذي يرسلهُ بوجه ان يسألهُ من قبلهِ هل عمل ما أَمرهُ بهِ . وفي غد ذلك اليوم باكرًا دعا الملك ذلك الشاب التقي خادم الملكة وقال لهُ اذهب الى صاحب الاتون واسألهُ من قِبلي هل عمل ما امرتهُ بهِ . فمضى الشاب ولما كان ذاهباً في الطريق دخل كنيسة كانت تُقرَّب فيها ذبيحة القداس فدخل الكنيسة ليحضرهُ وصار بعد ذلك القداس قداس آخر فحضرهُ ايضاً فابطأ عن الذهاب . اما الملك فلفرط ما كان يشتهي ان يعرف كيف انتهى امرهُ ارسل الغلام الواشي الى صاحب اتون الكلس ليعرف هل تمم امرهُ . فذهب حالاً مسرعاً ولم تعقهُ الرغبة في حضور القداس الالهي فسبق الغلام الذي اتهمهُ . ولما وصل سأَل صاحب الاتون هل انفذت امر الملك . فامسكهُ ذاك على الفور والقاهُ في اسفل الاتون ولم تمرّ دقيقة من الزمن حتى استحال جسدهُ رماداً . وما ابطأ ان وصل الشاب المتهوم الذي أُرسل اولاً وسأَل صاحب الاتون هل انفذ ما اوصاهُ بهِ الملك فقال لهُ صاحب الاتون قل للملك ان امرهُ قد تم على حسب مرامهِ . فرجع واخبر الملك بما كان فاخذهُ التحير ولما عرف كيف جرى الامر مجّد العناية الالهية التي بحكمة تدبيرها اظهرت الحق وبرَّأت الملكة والغلام خادمها من التهمة وانتقمت من ذلك الواشي الخبيث

فمع هذا كلهِ اي مع ان الله تعالى برَّأ القديسة على نوعٍ عجيب عاد الملك فشكَّ فيها من جهة اخرى فان الفونسيوس ابنها تمرَّد على ابيهِ بعد ان اقترن بابنة ملك كَسْتيلينا وبما انها كانت تزور ابنها ابتغاء ان تستأصل النزاع من بينهما وتقرّر الصلح والسلام ظن الملك انها تحامي عن ابنها العاصي وتنتصر لهُ وقد فاتهُ ان الشك اثمٌ مع ان البابا يوحنا الثاني والعشرين كان قد مدحها في رسالة انفذها اليها على جزيل اجتهادها في مصالحة ابنها مع ابيهِ . فاخرجها الملك من بلاطهِ ونفاها الى مدينة حقيرة من مملكتهِ وقطع عنها مرتَّب النفقة فمضت الملكة الى المنفى بغير تمرُّد بل بسرور كمضيها الى محلّ الصلاة . وكانت اختارت هذا المكان لكي تناجي الله تعالى في الاختلاء بكمال الطمانينة والحرّية الّا ان الله جلَّت مراحمهُ لم يدعها في خلوتها زماناً مستطيلاً لان الملك استفاق على شكهِ فيها فارجعها الى بلاطهِ باكرام جزيل ثم عاملها فيما بعد بخلوص المحبة الدائمة

ثم مرض الملك وطالت علَّتهُ ولم تزل الملكة تساعدهُ على التأهب للموت بصلواتها ونصائحها حتى استأثرت بهِ رحمة الله في السنة الخامسة والعشرين من المائة الرابعة عشرة للمسيح . وحينئذٍ عزمت الملكة على الانفراد والاعتزال عن اهل الدنيا الى البادية فجثت امام ايقونة السيد المسيح المصلوب وقدَّمت لهُ نفسها لتخدمهُ وحدهُ بقية ايام حياتها ثم قصت شعر رأسها وخلعت اثوابها الملوكية ولبست ثوب الرهبانية وحضرت على تلك الحال تجنيز الملك زوجها وبعد دفنهِ دخلت دير راهبات وسلَّمت زمام المملكة الى ابنها البكر . غير ان عظماء المدينة طلبوا منها ان تقتصر على رياضات الرهبانية في الخلوة بدون ان تترهب لكي تستطيع ان تسعف المملكة

متى مسّت الحاجة ويستفيد ابنها الملك من مشورتها في تدبير المُلك فابتنوا لها منزلاً بقرب دير لبعض الراهبات وقضت هناك بقية ايام حياتها مواظبةً على رياضات العبادة

ولكن لما وقعت الفتنة فيما بين الفونسيوس الرابع ابنها البكر ملك البورتوغال والفونسيوس الحادي عشر ابن ابنتها قُسْطَنْسيا ملك اراغونيا وكانا قد جمعا الجيوش لشبوب نار الوغى خرجت من خلوتها لكي تصالحهما وبعد ان اطفأت ما بينهما من الحقد والضغينة وأوشكت ان ترجع الى خلوتها اصابها داء المنون وهي في الطريق وحينئذٍ تناولت القربان المقدس وهي جاثية على ركبتيها في الكنيسة ثم خاطبت ابنها ملك البورتوغال في امور الخلاص وحسن تدبير المملكة وآخر الامر تناولت سرّ المسحة الاخيرة بعبادة عجيبة ثم طلبت من الحاضرين ان يخرجوا عنها فخرجوا وحينئذٍ ظهرت لها العذراء عليها اشرف السلام وملأت قلبها سروراً سماوياً ثم انتقلت الى رحمة الله بسلام في اليوم الرابع من شهر تموز في السنة السادسة والثلثين بعد الثلث مائة والالف للمسيح وكانت قد بلغت من العمر خمساً وستين سنة. وبعد مائتين وستٍ وسبعين سنة لوفاتها اي في السنة الثانية عشرة من القرن السابع عشر كشفوا عن قبرها فوجدوا جسدها صحيحاً سالماً لم يعترهِ فساد. وقد نقل عيدها البابا اوربانوس الثامن الى اليوم الثامن من شهر تموز

اليوم الثامن

وفيهِ ترجمة القديسة اناتوليا البتول الشهيدة

ان هذه القديسة كانت على عهد داسيوس الملك نحو نصف الدهر الثالث وُلدت برومية من اصل شريف غني وبعد وفاة والديها أقامت مع اخت لها تدعى ناصرة كانت منفردةً عن الناس تمارس رياضات العبادة. فمن اجل بهاء جمالها وثروتها الغزيرة طلبها رجلان وثيان من رجال الدولة وهما اوريليانوس الذي طلب ان يقترن باناتوليا واوجنيوس الذي طلب ان يتزوّج ناصرة فارتضت ناصرة بالخطبة لانهُ اعني اوجنيوس كان يحب المسيحيين اما اناتوليا فأبت ان تتزوّج باوريليانوس فالتجأ وقتئذٍ الى ناصرة وطلب منها بواسطة اوجنيوس خطيبها ان تسترضي خاطر اختها وتعطفها نحو الزواج فوعدتهُ بذلك وخاطبت اختها كثيراً محبّةً اياها على قبول الخطبة وبقيت اناتوليا صاغيةً لكل ما قالتهُ اختها في القضية المذكورة حتى فرغت من خطابها. فشرعت اناتوليا تذكر لها اتعاب الزواج واخطارهُ وعظمة ثواب العفاف وسعادتهُ. وبما انها كانت تتكلم على ذلك بفصاحة مقدسة تغيّر قلب اختها ناصرة بغتةً وقالت لها ليكن الله مباركاً فانهُ بكلامكِ نبهني من سبات مُهلكٍ فاثبتي يا اختي في قصدكِ الحميد فاني بنعمة الله اقتفي آثاركِ في التبتُّل ولست ارضى زوجاً غير السيد المسيح. فاخذتا من ثمَّ توزعان كل اموالهما على الفقراء استعداداً هكذا لان تتبعا عروسهما الالهي الذي لما كان غنياً صار فقيراً لاجلنا

فلما شعر بذلك اوريليانوس واوجنيوس طلبا من الملك داسيوس اذناً لينقلا اناتوليا وناصرة من رومية الى ارضهما ليتزوجاها فرضي الملك بطلبهما. فانتقلت اناتوليا الى بلدة قريبة من رومية تُدعى بلد السابيين. وقد حدث حينئذٍ امرٌ شهر خبرها في كل الاقاليم وهو ان الشيطان دخل انيانوس بن ديودوروس حاكم تلك البلدة وجعل يعذبهُ بقساوة وعنفٍ شديد ويصرخ قائلاً انكِ تحرقينني يا اناتوليا فلم يفهم احد معنى هذا الكلام. ثم شرع اناس يمضون بالمجنون الى هيكل الاوثان طالبين العون من آلهتهم واذ كانوا ممسكين بهِ يوماً لينقلوهُ الى هيكل وثنٍ عظيم لديهم كان قريباً من المكان حيث كانت الاختان فهرب المجنون من ايديهم ودخل المكان وجثا على قدمَي اناتوليا قائلاً لها انتِ التي تحرقينني بحرارة صلواتكِ. فصلّت البتول ثم امرت الشيطان باسم سيدنا يسوع المسيح ان يخرج من جسد المجنون فخرج الشيطان حالاً. فلما شفي انيانوس قدم شكراً جزيلاً للقديسة المذكورة على احسانها العظيم وعاد الى بيتهِ. ولما ابصرهُ والدهُ معافى هكذا ذهب الى البتول وشكرها وقدّم لها هدايا كثيرة الثمن. اما اناتوليا فأبت ان تقبلها ولكنها حرّضتهُ على قبول الايمان المسيحي وتوزيع هداياهُ على الفقراء

فانتشر خبر هذه الاعجوبة في كل نواحي الاقليم ومضوا الى القديسة اناتوليا بمرضى يكاد لا يحصى لهم عدد وهي كانت تعلمهم قواعد النصرانية وتعد بالشفاء كل من يقبلهُ. فآمن منهم كثيرون ونالوا الشفاء فلما شعر الملك داسيوس بذلك ارسل فُستينيانوس حاكم مدينة تورا ليعذب هذه البتول ويميتها قتلاً ان كانت لا تنكر ايمانها وتعبد الآلهة فقبض على

البتول وامرها امام محفل حافل بان تعبد الاصنام وتذبح لها ولانها أبت مثل ذلك النفاق أمر الجلادين بان يمزّقوا جسدها بالسياط فاحتملت البتول هذا العذاب بشجاعةٍ اذهلت عقول الحاضرين

فخشي المغتصب من ان الشعب يتعصّبون عليهِ فالقاها في سجنٍ مظلم ثم استشار اوداكيوس احد اصدقائهِ في كيفية اهلاك البتول فاشار عليهِ ان يُطلق عليها حيَّةً تقتلها في السجن فاعجبت الحاكم هذه المشورة فاوصى اوداكيوس بانفاذها فذهب واطلق على البتول وهي في السجن افعى ذات سم قاتل واغلق عليها الباب ثم أتى ليرى هل لدغت الافعى تلك البتول لانهُ كان ساحرًا لا يخاف من الحيات فلما فتح باب السجن وجد البتول على حال الصحة غير ان الافعى وثبت عليهِ حالاً وعرقلتهُ ولو لم تأمرها القديسة باسم السيد المسيح ان تكفَّ عنهُ أذاها لكانت قد اهلكتهُ لا محالة . فلما رأى اوداكيوس هاتين الاعجوبتين آمن وخرَّ على رجلي القديسة اناتوليا وطلب المعمودية

وبعد قليل عرف الحاكم ان اناتوليا لم تزل في قيد الحياة فارسل الى اوداكيوس لكي يعرف منهُ ما جرى فاتاهُ واخبرهُ بما كان من الافعى ثم قال ان الاله الذي تعبدهُ اناتوليا اله حق ولا اله غيرهُ وانا كالمسيحيين اعبدهُ . فقال لهُ الحاكم ألا تعلم انهُ بعد هذا الاعتراف تذوق العذاب المميت . اجاب اوداكيوس اني عارف ذلك وانا مستعدٌّ لهُ . أما انهُ لا خلاص الاَّ في النصرانية ولعمر الله لا أحبَّ اليَّ من الموت لاثبات صحتها . فامر الحاكم بان يُلقى في السجن حيث كانت القديسة اناتوليا ولما رأتهُ موثقًا وثابتًا في الايمان ابتهجت نفسها وشكرت الله تعالى على جزيل رحمتهِ فشرعت تعلمهُ اسرار الايمان ثم اعتمد وفي غضون ذلك استحضرهُ المغتصب ولما وجدهُ ثابتًا على الايمان المسيحي امر بقطع رأسهِ . ثم اذ رأى الحاكم كثيرين من الشعب يتركون عبادة الاصنام بما كانوا يرون من المعجزات المصنوعة بصلوات البتول اناتوليا ارسل الى السجن جلاَّدًا فوجد البتول متأهبةً للموت بالصلاة فضرب قلبها بسيفٍ وهي تستغيث قائلةً يا يسوع وعلى هذه الحال سلمت نفسها . وتذكر الكنيسة استشهادها في اليوم التاسع من هذا الشهر . اما اختها القديسة ناصرة فمن حيث لم تزل ثابتة كاختها في حفظ البتولية اتهمها اوجنيوس خطيبها من الملك ان تُطعن بحربة فطُعنت وانتقلت الى رحمة الله شهيدة بعد أشهرٍ من موت اختها وتذكر الكنيسة ترجمتها في اليوم الثالث والعشرين من شهر كانون الاول

اليوم التاسع

وفيهِ ترجمة القديسة سعادة الشهيدة وابنائها السبعة الشهداء

اعلم وفَّقك الله ان الاباء القديسين قد أوغلوا في مدح هذه القديسة وقدَّموها نموذجًا للأمهات المسيحيات الترابية اولادهنَّ لكونها بعد موت زوجها نذرت العفة ثم تركت كل زينة دنيوية من نحو الذهب والفضة والجواهر المختلفة الانواع والثياب الناعمة الى غير ذلك مما تتحلَّى بهِ النساء في كل عصرٍ ورغبت عن معاشرة الناس وانفردت في بيتها حيث كانت تهتم بما اوصى بهِ الرسول الارامل اي بالمواظبة على الصلاة وكان لها سبعة ابناء وهذه اسماؤهم جانواريوس وفيليكوس وفيلبس وسيلانوس واسكندر وفيتال ومَرْسيال . ولا جرم ان ابناءها المذكورين قد سلكوا طريقة الفضيلة باستقامة سيرتها وصحة تعليمها وذلك على حدّ قولهم في المثل ان الكلام يُحرّك تحريكًا واما المثال فيجذب كالحبال . ولان قلبها كان ملتهبًا بمحبة السيد المسيح كانت احيانًا كثيرة تقول اني ساحسب حظي اسعد من حظ كل الأمهات اذا رأيتكم جميعكم تسفكون دماءكم حبًّا بسيدنا يسوع المسيح فبمثل هذا التعليم كانت تضرم في قلوبهم محبتهُ تعالى وتجعلهم يستعدُّون للاستشهاد . وكان ابنها البكر يقول لها اننا لا ندعكِ تموتين وحدكِ من اجلهِ عزَّ وجلَّ لاننا نصرخ كلنا امام المغتصب اننا مسيحيون مثلكِ وهكذا نربح معكِ المجد الابدي . ليت شعري كيف كانت تبتهج تلك الوالدة السعيدة عند استماعها هذه المخاطبات التقوية

وقد كان الوثنيون يمدحون جدًّا برارة هذه العائلة المباركة حتى آمن منهم خلق كثير بالانجيل المقدس لما رأوا من استقامة سيرتهم وحميد تصرُّفهم ومن اجل ذلك شكا كهنة الاصنام القديسة سعادة وبنيها الى الملك انطونيوس . فامر هذا بوبليوس والي مدينة رومية بأن يجبرها هي واولادها بالعذاب الشديد على عبادة الالهة فقبض على الأم مع بنيها . ولما وقفت امامهُ وامام محفل غفيرٍ من الناس ابصر الحاكم

اولادها السبعة ممتثلين امامهُ بشجاعة ذات حشمة وبهجةٍ فاحبهم ورقَّ قلبهُ لوالدتهم فقال لها اعلمي ياسعادة وتحققي ان الملك يرقّي اولادكِ الى اشرف المراتب واعلاها ويجعلكِ اسعد الأمهات ان اطعتِ امرهُ وعبدتِ الالهة ثم اعلمي يقيناً انكِ تذوقين وابناءكِ ايضاً اشد العذاب واغلظهُ ان خالفتِ هذا الامر الملوكي. فقالت القديسة اعلمنَّ يقيناً اني لا اشتهي الكرامات التي وعدتنا بها وبقوة الروح القدس الحالّ فينا سننتصر على كل قوات الجحيم

اما الحاكم فاخذه العجب العجاب من شجاعة القديسة غير انهُ قال لها لماذا تقسّين قلبكِ الى هذا الحدّ على بنيكِ وريحانة روحكِ ولا تدعيهم يعيشون في كرامةٍ. فاجابتهُ الأُمُّ المسيحية ان اولادي بموتهم لاجل السيد المسيح يربحون حياةً وسعادة ابديةً ولعمري لو فضّلوا الحياة الحاضرة على مثل هذا الموت لعددتهم موتى قبل ان يُدفنوا. حينئذٍ التفتت الى بنيها وقالت يابنيَّ الاعزاء انهُ قد اصبح يوم انتصاركم اليوم السعيد الذي تتكللون فيهِ بتاج مجد لا يفنى فارفعوا الحاظكم الى السماء وانظروا السيد المسيح الذي هيَّأَ لكم هذا الاكليل واحسبوا ربح خيور الدنيا زائلاً. فغضب حينئذٍ بوبليوس وامر الجلاد ان يلطم خدَّيها بقساوةٍ

ثم اخذ يتملق بنيها وقال لجانواريوس ابنها البكر اعتبر يابنيَّ بعذاب والدتك فقد قيل اذا رأيت العبرة فاعتبر فاسجد للاصنام والاَّ فتُضرب بالسياط حتى الموت. فقال جانواريوس لا اخاف السياط ولا الموت فقد حان لك ان تيأس من سجودي لالهتك. فأمر ان يُضرب بالسياط فضُرب ثم أُلقي في السجن. فعاد بوبليوس يلاطف فيليكوس ولما رآهُ فيليكوس يطيل معهُ الكلام قطع خطابهُ قائلاً لا ثمرة لكلامك اذ يستحيل ان يفصلني شيءٌ عن محبة سيدي يسوع المسيح. فأمر الحاكم أن يؤْخذ الى السجن مع فيلبس وسيلانوس واسكندر لانهُ رآهم مستعدّين للموت كاخيهم جانواريوس وفيليكوس. وبقي فيتال ومَرْسيال اصغرهم غير ان هذين ايضاً اظهرا جراءةً عظيمة فقال فيتال اني اموت الف مرة قبل ان اعبد الشياطين. فسأَلهُ الحاكم ومن هم الشياطين اجاب الفتى قائلاً ان الهتك هم الشياطين ومثلهُ كان يقول مَرْسيال اخوهُ الصغير فانذهل الحاكم من هذه الشجاعة المتجاوزة حدود الطبيعة

فلما عرف الملك ذلك امر بقتلهم فضُرب جانواريوس بحبالٍ ذات عقدٍ رصاصية ومات تحت الضرب اما فيليكوس وفيلبس فكسرت الشُرَط عظامهما بعصيٍّ وسيلانوس طرح من فوق الى اسفل فتكسر جسدهُ واما اسكندر وفيتال ومَرْسيال فقطعت رؤُسهم وقطع اخيرًا رأس والدتهم. وكان استشهادهم الكريم نحو نصف المائة الثانية للمسيح

فقال القديس غريغوريوس الكبير في تأبينهِ هذه القديسة انهُ لا يكفي ان ندعوها شهيدةً فقط على انها هي افضل من ذلك لكونها قدّمت بنيها السبعة للموت الصالح حبًّا بالمسيح وحينما كانوا تحت العذاب كانت تشجعهم وتحثهم على الموت. ولعمري انها لم تمت بموتها مرة واحدة فقط بل انها عُذّبت بتعذيب بنيها وماتت بموتهم سبع مراتٍ وقد كانت تحبهم حقًّا محبة عظيمةً لكونها قد ارتضت بموتهم ليربحوا بهِ حياةً ابدية. انتهى كلام القديس

اليوم العاشر

وفيهِ ترجمة الاختين العذراوين الشهيدتين روفينا وسيكوندا

ان هاتين الشهيدتين وُلدتا برومية المكرَّمة نحو السنة الثلثين من المائة الثالثة للمسيح وهما شريفتا النسب واسم ابويهما استاربوس ووالدتهما اوريليا وكان قد خطبهما شابان مسيحيان مُعتبران يقال لاحدهما اماتاريوس وللآخر فيرينوس بيد انهما جحدا فيما بعد الايمان خوفًا من العذاب والموت ثم شرعا يجتهدان في ان يجرّا خطيبتيهما والعياذ بالله الى الكفر. اما تانك الأُختان فهربتا من رومية وفيما كانتا هاربتين اذ بجنود امسكوهما في الطريق وارجعوهما الى رومية وسلموهما للحاكم. فلما كانتا تحت سلطتهِ كلم اولاً روفينا في غياب اختها وشرع يحثها على ان تبدل اسرها بحرية العيش في كرامات العالم وسجنها ببيت خطيبها حيث تتمتع معهُ بحظ الحياة. فاجابت البتول قائلة يا لهُ من واعدٍ لا يقدر ان يؤْمن نفسهُ على يوم واحد من هذه الحياة ويعد غيرهُ بطول العمر وحظهِ. ويا لهُ من حكيم يحثني على العيشة الناعمة بفقد بتوليتي وعلى ازالة عذاب وقتي بفقد السعادة الابدية

فلما سمع الحاكم جوابها ورآها ثابتةً على دينها احضر سيكوندا اختها وامر الجلاد بان يضرب روفينا بالسياط من

فبر رأفةٍ وفيما كان الجلاد يضربها قالت سيكوندا للحاكم لماذا تشرّف اختي ولا تشركني في شرف عذابها مع اني مسيحية مثلها فلا تظنّ اننا نرتاع من تعاذيبك فاعدّ السياط والعصيّ والحجارة والسيوف وبقية الات الانتقام وعذبنا بها كلها فانهُ بمقدار ما تزيدنا عذابًا بمقدار ذلك تزيدنا شرفًا. فالقوا حينئذٍ الاختين في خلقين مملوءٍ زيتًا مغلّى فمكثتا فيهِ ساعة ولم تشعرا بالالم فاخرجوهما وعلقوا في عنقيهما حجرًا والقوهما في نهر فاستمرَّتا على وجه الماء نحو نصف ساعة وكانتا ترتّلان مدائح المبة فاطلقوهما وقتيئذٍ من النهر وقطعوا راسيهما وكان ذلك نحو السنة السابعة والخمسين من المائة الثالثة في اليوم العاشر من شهر تموز

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس بيوس الاول البابا الشهيد

ان البابا هيجينوس قُتل شهيدًا للنصرانية نحو نصف الجيل الثاني وحينئذٍ صام المؤمنون ثلثة ايام طالبين من الله تعالى ان يقيم على عرش الخلافة البابوية رجلاً صالحًا مملوءًا من روح الله ليدبر كنيستهُ ويحامي عنها ويردع الوثنيين والمبتدعين الذين يهجمون عليها تارةً بقوة الجنود والاسلحة وتارةً بمغالطات سفسطية فاطبقوا على انتخاب القديس بيوس. ومولدهُ بمدينة اكويليا فلما جلس على عرش الخلافة البطرسية واستبدَّ بالسلطان على كنيسة الله كلها ورأى فيها شيئًا شأنهُ ان يسبب الانشقاق طفق يجتهد في استئصالهِ وذلك انهُ مع كون الرُسل المتعلمين من السيد المسيح كانوا قد اوصوا المؤمنين بان يعيدوا عيد الفصح في يوم الاحد الذي بعد انتصاف قمر اذار كان كثيرون من مسيحيي الشرق ولاسيما اليهود الذين تنصروا يُعيدون ذلك العيد على عادة العهد القديم لانهم كانوا يميلون الى عادات مذاهبهم فاصدر ذلك الحبر الروماني القديس براءةً وفيها اوصى جميع كنائس المسكونة ان يحفظوا التقليد الرسولي ويعيدوا عيد الفصح في يوم الاحد الذي بعد انتصاف قمر شهر اذار وقد ثُبّت امرهُ هذا في مجامع كثيرة بعد ذلك

ولابدَّ ان نورد هنا اشياء أُخر قد رتبها وكتبها هذا القديس ايضاحًا لجزيل اهتمامهِ بتدبير الكنيسة فرسم اولاً قوانين ثقيلة على الكهنة الذين يقدمون ذبيحة القدّاس بقلة الاحترام ويقول فيها ما نصهُ. اما الكاس الحاوية دم سيدنا يسوع المسيح اذا انسكب بعد التقديس شيءٌ منها على الارض فليمارس الكاهن افعال التوبة اربعين يومًا واذا نقط منهُ على الانديمسي فقط فليكن في حال التوبة ثلثة ايام وكل مكان أُهرق فيهِ من الدم الاقدس فليمسحهُ بمنديل ويمسح الموضع وليحرق الجميع ويلقي رمادهُ في المكان المعين لهذا. ويقول في رسالتهِ الى جوستوس اسقف مدينة فياننا من مملكة فرنسا التي كتبها في السنة الحادية والستين بعد المائة للمسيح ما نصهُ (١) اننا نجتمع في مكان مكرم من حيث يصير القداس. وفي رسالةٍ لهُ أُخرى يقول اننا قد سررنا سرورًا لا يوصف لما قرانا رسالة الشهداء وعرفنا انهم ظفروا بقوات الجحيم وبغاية شجاعة انتصر اخونا فيروس الاسقف على اعداء سيدنا يسوع المسيح فانت الان جالس على كرسيهِ فماثلهُ في فضائلهِ وابذل كل جهدٍ في ان تباشر جيدًا هذه الوظيفة المقدسة ثم اهتم بحفظ ذخائر الشهداء كما اهتم الرسل بحفظ جسد القديس اسطفانس. افتقد مرارًا كثيرة المؤمنين المسجونين لاجل الايمان وثبتهم فيهِ وشجعهم بكلامك وقد الهمني الله سبحانهُ ان موتي قد اقترب. فاسالك ان تذكرني حينما تقدّم على المذبح الذبيحة الالهية. وقد مات هذا القديس شهيدًا نحو السنة الخامسة والستين بعد المائة للمسيح في اليوم الحادي عشر من شهر تموز. كذا على حساب بارونيوس

اليوم الحادي عشر

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا غالبرتوس

ان هذا القديس وُلد بفلورَنسا مدينةٍ بايطاليا نحو اوائل الدهر الحادي عشر من اصل حسيب شريف ومع انهُ قد تربّى في مبادي الديانة المسيحية لم يتأخر حب العالم وفخرهُ ان يفسد قلبهُ ويسلط عليهِ تعليمهُ الفاسد ولما كان قد كبر وشب على ذاك الضلال اتفق ان قُتل اخوهُ المدعوُّ هوغو ظلمًا والذي قتلهُ رجلٌ من اشراف البلدة فعزم يوحنا وقتئذٍ يطلب ثارهُ ويقتل قاتلهُ ايضًا. ولما كان على هذا القصد سافر الى مدينة فلورَنسا حاملاً اسلحتهُ ومعهُ عدة جنود يرافقونهُ وكان

(١) حاشية. قد ادرجنا مختصر هذه الرسالة والتي تليها على ما رواها الكردينال بارونيوس في تاريخ الكنيسة في السنة السادسة والستين من المائة السادسة وان كان قد شك بعض العلماء في صحتها

ذلك اليوم يوم الجمعة العظيمة فصادف قاتل اخيهِ في طريق ضيق فسلّ حالاً سيفهُ وهمَّ ان يثب عليهِ هو وجنوده فخرّ ذلك القاتل على رجلي يوحنا وصرخ وهو رافع يديهِ الى السماء على شكل صليبٍ قائلاً اسالك باستحقاق ابن الله ربنا يسوع المسيح الذي صُلب ومات لاجلك ولاجلي في مثل هذا اليوم ان لا تقتلني . فبهت يوحنا وتذكر كيف سيدنا يسوع المسيح صلّى من اجل صالبيهِ وغفر لهم فردّ سيفهُ الى غمدهِ ثم عانق عدوَّهُ قاتل اخيهِ وغفر لهُ بل وعدهُ بانهُ من ذلك الوقت وصاعدًا يصبح من اصدقائهِ ومضى

ولما سار يسيرًا وجد كنيسة دير فدخلها وجثا امام ايقونة السيد المسيح المصلوب ليصلي وفيما كان يطلب من الله تعالى ان يغفر لهُ خطاياهُ كما غفر هو لعدوهِ نظر الايقونة تحني امامهُ رأسها دلالةً على الاستجابة . فتغير قلبهُ حينئذٍ بغتةً وعزم حالاً على ترك العالم والتعبد لله وحدهُ فخرج من الكنيسة واطلق الجنود خدام ابيهِ ثم دخل الدير وطلب من الرئيس بالحاح لا مزيد عليهِ ان يقبلهُ بين رهبانهِ . فلما وصل هذا الخبر الى ابيهِ ذهب مسرعًا الى الدير وطلب ابنهُ واذ لم يشأ ابنهُ ان يخرج اخذ يتوعّد الرهبان قائلاً انهُ يحرق الدير ان كان لا يخرج ابنهُ منهُ . فلم يضطرب يوحنا بل زاد في عزمهِ تمكنًا ولما عرف ان اباهُ هو في الكنيسة حيث كان قد اجتمع جمٌّ غفير من الشعب اخذ ثوب احد الرهبان ودخل الكنيسة ووضع الثوب على المذبح وشرع امام الجميع يقص شعر هامتهِ ثم لبس ثوب الرهبانية فامتلأ المحفل سرورًا وحبًّا عند نظرهم نشاط هذه العبادة واضطرامها وقام ابوهُ حينئذٍ بعين باكية وعانق ابنهُ ومدحهُ على ترهبهِ وحثهُ على الثبات فيهِ ورجع الى بيتهِ

اما يوحنا فبعد ترهبهِ هذا العجيب سلك طريق الكمال سلوك جبّار ممارسًا لرياضات العبادة بنشاط لا مزيد عليهِ ولا سيما الصلاة والتقشفات وكل ما من شأنهِ ان يميت شهوة الجسد والنفس وفيما كان يرتقي كل يوم من فضيلة الى فضيلة مات رئيس الدير فاجتمع الرهبان واختاروهُ رئيسًا على الدير فلم يرتضِ بذلك مع ان الرهبان اجتهدوا جدًّا في اقامتهِ رئيسًا . فنهض احدهم واتخذ الرئاسة لذاتهِ ولما كان فعلهُ هذا وتدبيرهُ قد ملأا الدير اضطرابًا خرج يوحنا المذكور من الدير مع بعض من الرهبان طالبين مكانًا مناسبًا للاختلاء والتقشف . وفيما كانا ذاهبين وليس لهما من الزاد الاّ رغيف واحد اذا بفقير طلب اليهما صدقة فامر القديس يوحنا رفيقهُ بان يعطيهُ الرغيف ويذهب ليتسوّل في اقرب قرية ففعل ذلك رفيقهُ ورجع وليس معهُ الاّ ثلث بيضات اعطاهُ اياها احد القرويين واذ كان يتشكى على ذلك سمعهُ بعض الرعاة وقدم لهما ثلثة أرغفة بدلاً من الواحدة التي اعطاها للفقير . اخيرًا وصلوا الى مكان قريب من فلورنسا يدعى الوادي الظليل لان فيهِ اشجارًا كثيرة وكلها تظلل عليهِ ووجدوا فيهِ سائحين فمكثوا معهما فشاع خبر برارة يوحنا وشرع الناس يفتقدونهُ من كل جهة وتتلمذ لهُ كثيرون فبنى هناك ديرًا . وفي السنة السبعين بعد الالف اثبت رهبانيتهُ البابا اسكندر الثاني ولاجل كثرة الناس المشتهين الترهب تحت تدبيرهِ بنى فيما بعد اربعة اديرة أُخر

ذلك وقد كان للجميع مثال القدس والبرارة لان اتضاعهُ كان عميقًا ومحبتهُ نحو القريب مضطرمة وصبرهُ عجيبًا وصلاتهُ متصلة . وكان في تدبيرهِ حكيمًا وديعًا ونحو الرهبان الماردين قاسيًا ونحو الضعفاء حنونًا وعلى الفقراء رحيمًا وقد شرَّفهُ الله تعالى بروح النبوة وبعجائب كثيرة منها ما صنعهُ حين اتى احد اديرتهِ قدسة البابا لاون التاسع ومعهُ موكب كبير فحيث لم يكن في الدير الا مؤنة الرهبان القشفين واراد القديس ان يقدم لقدسهِ ولموكبهِ سمكًا استدعى بعض رهبانهِ وامرهم بان يذهبوا ويصطادوا من البحيرة القريبة سمكًا فاجابوهُ انهُ من المعلوم ان ليس سمك فيها فامرهم مع ذلك بان يذهبوا فذهبوا واتوا بسمك اصطادوهُ من البحيرة فتقبلهُ القديس بفرح شاكرًا الرب الذي ارسل لهُ ما يقدّم لخليفتهِ في ارضهِ

وكانت وفاتهُ بالرب في اليوم الثاني عشر من شهر تموز في السنة الثالثة والسبعين بعد الالف للمسيح وقد بلغ من العمر اربعًا وسبعين سنة

اليوم الثاني عشر

وفيهِ ترجمة القديس اوجانيوس اسقف مدينة قرطاجنة

ان الله جلت حكمتهُ جعل القديس اوجانيوس مثالاً للاساقفة الذين كان المبتدعون والمشاقون يضطهدونهم . اما

والداهُ فلم يخبرنا المؤرخون عنها ولا عن حداثتهِ ايضًا ولكن من المحقق انهُ وُلد بافريقية نحو السنة الثلثين بعد الاربع مائة للمسيح وانهُ كان لاستقامة سيرتهِ معتبرًا من الاراطقة والوثنيين ايضًا. بيدَ انهُ كان محبوبًا جدًّا من الكاثوليكيين فانتخبوهُ اسقفًا لهم في السنة الحادية والثمانين من المائة الخامسة للمسيح وقد جلس على كرسي مدينة قرطاجنة في عهد هونريكوس ملك الواندليين الاريوسيين واخذ يهتمّ بمساعدة المساكين ولفرط ما كان رحيمًا لهم كريمًا عليهم كان يُفقر ذاتهُ ليعدم الفقر من بيوت المساكين فقيل عنهُ انهُ افقر الفقراء. وذلك من اجل انهُ كان يفرّق كل يوم على المحتاجين جميع ما كان يوجد عندهُ بدون ان يبقي منهُ شيئًا للغد ولا يتخذ منهُ لنفسهِ سوى ما كانت تقتضيهِ ضرورة معيشتهِ. ولان قومًا من المؤمنين كانوا يستغربون ذلك ويشيرون عليهِ بان يخزن ما سيحتاج اليهِ فيما بعد. اجابهم قائلاً ينبغي للراعي الصالح ان يكون مستعدًّا لبذل حياتهِ من اجل رعيتهِ ومن ثم لا يحتاج ان يهتم بحاجات المعيشة

فلما رأى الاريوسيون كم كان الايمان الكاثوليكي ينمو ويثبت ويتشرّف ببرارة هذا الاسقف وغيرتهِ اخذوا يشون بهِ الى الملك فارسل الملك الى القديس رسولاً يأمرهُ من قبلهِ بالا يجلس في الكنيسة على كرسي الاسقفية ولا يعلم الشعب ولا يباشر وظيفة من وظائف الاسقفية ولا يدع في كنيستهِ احدًا بلباس الواندليين لا رجالاً ولا نساء. فقال القديس اوجانيوس للرسول ان الكنيسة هي بيت مفتوح لجميع المؤمنين ولا يجوز لي ان اخرج منها احدًا للبسهِ اثواب الواندليين لاسيما ان الملك نفسهُ يسمح للكاثوليكيين الذين يخدمونهُ في بلاطهِ ان يتزيّوا بزيّ الواندليين وانهُ لاجل كوني راعي الشعب لا ينبغي لي ان اعدمهم طعام كلام الله. فلما عرف الملك جواب القديس ارسل جنودًا وجلّادين فقبضوا على الكاثوليكيين الذين كانوا يتوجهون الى الكنيسة الاسقفية ويتزيّون بزيّ الواندليين وسحبوهم في الشوارع بشعر رؤوسهم رجالاً ونساء بواسطة كلاليب حديدية. وقد مات كثيرون منهم بهذا العذاب البربري وكثيرون فقدوا عيونهم

غير ان هذا لم يكن الّا ابتداء الاضطهاد المعظّم الذي حدث بعد قليل لان هذا الملك الاريوسي اعني بهِ هونريكوس تحرّك من كيرولا الذي كان يُدعى بطريرك الاريوسيين ونفى اولاً نحو خمسة آلاف من الاساقفة والكهنة والشمامسة الكاثوليكيين الى احدى البراري حيث مات كثيرون من الشقاء وعذّب جميع العذارى والراهبات عذابًا هائلاً فظيعًا الا انهُ لم يجسر وقتئذٍ ان يضطهد القديس اوجانيوس لشدة اعتبار الناس لهُ. فاجتمع جميع رؤساء الاريوسيين عند الملك واتفقوا على ان يبيدوا كل رعاة الكاثوليكيين فارسل الملك في عيد صعود السيد المسيح في السنة الثالثة والثمانين بعد الاربع مائة فنادى في كنيسة الكاثوليكيين حيث كان يقدّس القديس اوجانيوس وامر كل اساقفة افريقية ان يجتمعوا في قرطاجنة في اليوم الاول من شهر شباط ليردّوا جوابًا على اعتقادهم في لاهوت السيد المسيح. ولما عرف القديس اوجانيوس وغيرهُ من الاساقفة الذين سمعوا ذلك ومنهم القديس فيكتور دي فيت الذي كتب ترجمة القديس اوجانيوس وفهموا نية الملك وشعروا بخبثها ذكروا للملك في رسالة تلك البراهين التي من اجلها لا يجوز ولا يمكن ان يُعقد هذا المجمع ومن جملتها ان الفحص عن هذه القضية الدينية يخص الكنيسة الجامعة وانهُ لا بد ان يكون البابا حاضرًا فيهِ بشخصهِ او بنائبهِ لاجل كونهِ نائب السيد المسيح في الارض وراعي كنيستهِ. اما الملك الخبيث الذي كان قد قصد ان يبيد الايمان المسيحي فلم يرتضِ بذلك بل انهُ قبل ان يعقد هذا المجمع حكم بالنفي والموت على كثيرين من اعلم الاساقفة الكاثوليكيين وكان من جملتهم الاسقف لَتوس الذي كان احد اساقفة ذلك العصر الاجلّ علمًا فاحرقهُ حيًّا. وقد فعل ذلك لكيلا يقاوم قصدهُ الارطوقي اولئك الافاضل

هذا ما فعلتهُ قوة الجحيم لتنتصر على الكنيسة الكاثوليكية غير ان الله الذي يهتم بها ابهج المومنين وثبتهم بأعجوبةٍ شاهدها الاريوسيون وشهدوا لها وهي ان رجلاً أعمى يعرفهُ جميع سكان مدينة قرطاجنة يدعى فيليكوس سمع في الحلم في بيرامون عيد الغطاس صوتًا يقول لهُ اذهب الى الاسقف اوجانيوس فهو يشفيك وهذا الصوت سمعهُ مرتين وخُيّل لهُ انهُ متوهم ولكن لما سمعهُ مرةً ثالثة تحقق وقتئذٍ انهُ وحي الهيّ فقام وذهب الى الكنيسة حيث كان جمّ غفير من الشعب قد اجتمع لاجل شرف العيد وكان القديس اوجانيوس يكرس حينئذٍ جرن الماء للمعمودية فجثا فيليكوس على قدميهِ وطلب منهُ بالحاجِ باسم سيدنا يسوع المسيح ان يشفيهُ من عماهُ. فابى القديس

المتضع مثل هذا الطلب وطرده قائلاً أيمكن ان يصنع الله آية على يد خاطئ مثلي. على ان فيليكوس لم يرتدّ عن طلبتهِ لمتانة تصديقهِ للوعد الالهي فاورد للقديس قدام الشعب ما جرى لهُ في تلك الليلة. حينئذٍ تنازل القديس الى طلبتهِ فصلى اولاً وطلب من الله ان يبارك على ايمان الاعمى. ثم رسم باصبعهِ على عينيهِ علامة الصليب المقدَّس فحالاً انفتحت عيناهُ وأبصر جيدًا

فشاع للحال خبر هذه الأعجوبة في كل المدينة ورام الملك ان يرى الضرير ويعرف بالتدقيق حقيقة هذه المعجزة فلما تحققها بعد الفحص البليغ اعتراهُ الخجل كما اعترى بقية الاريوسيين الّا ان اساقفتهم العميان بالروح وقادة العميان لما رأوا انهُ لايمكن انكار حقيقة الآية شرعوا يقولون ما قالهُ الفريسيون في عجائب السيد المسيح وهو ان الاسقف اوجانيوس فتح عيني الاعمى بقوة الشيطان ثم على ما ذكرهُ القديس غريغوريوس اسقف طور المؤرخ في تاريخ الفرنسيس كتاب ٢ فصل ٣ عزموا على قتل الرجل الاعمى الذي كان برهانًا محسوسًا مقنعًا يظهر للجميع كذب بدعتهم وحقيقة الكنيسة الكاثوليكية ولانهم لم يقدروا ان يملكوا اربهم هذا الردي اخترع كيرولا بطريركهم وسيلة أخرى لازالة ما حدث لهم من الاهانة من قبل هذه العجيبة فاعطى رجلاً اربوسيًّا خمسين دينارًا بشرط ان يجعل نفسهُ أعمى وفي ذات يوم خرج كيرولا الى الشوارع فتقدَّم اليهِ ذلك الاربوسي بزيّ رجل كفيف وصرخ قائلاً يا كيرولا حبيب الله يا من شفيت اناسًا كثيرين ارحمني واشفني من عماي. فاجتمع شعب كثيرون ليروا العمل. حينئذٍ وقف كيرولا وكانهُ رجل نبي صرخ قائلاً. انهُ لكي يعلم الجميع ويعتقدوا يقينًا ان اعتقادنا حق لتنفتح عيناك يا ابني فابصر. قال هذا وحالاً اخزى الله هذا البطريرك المجدّف وانتقم من الرجل الآخر المنافق لانهُ حالاً عمي حقًّا ولما انتبه الى الانتقام الالهي الذي ادركهُ القى على الارض الخمسين دينارًا وشرع يخبر الجمهور بخيانة كيرولا. وقد ذكر المؤرخ ان هذا الاعمى مضى بعد ذلك الى القديس اوجانيوس وجحد بدعة الاريوسيين ورجع اليهِ بصرهُ بصلاة القديس

ثم حان الزمن المعين للمجمع الخبيث والتزم الاساقفة بحضورهِ ورام كيرولا ان يكون متقدمًا فيهِ فجلس على منبر عالٍ وكان الاساقفة الكاثوليكيون واقفين بازائهِ فطلب الكاثوليكيون ان يدخل في المجمع اعيان مدينة قرطاجنة ليسمعوا ما سينال من الطرفين ويشهدوا بهِ. فصرخ الاريوسيون بصوتٍ عالٍ ان هذه طلبة أناس مفتنين قاصدين الاضطراب وللوقت بامرهم دخل حرّاس المدينة المجمع فضربوا كل واحد من الكاثوليكيين بالعصي مائة ضربة ثم طلب القديس اوجانيوس من كيرولا ان يبدأ بالجدال فلم يرد ان يفحص عن شيء حينئذٍ شرع القديس يقرأ صورة ايمان الكاثوليكيين والشهادات الالهية والادلة الساطعة التي تُثبت اعتقادهم. وفيما هو يقرأ الصورة المذكورة تلهّب الاريوسيون غيظًا عليهِ لانهُ دعا اصحابهُ كاثوليكيين. حينئذٍ خرج قوم منهم ووشوا بالكاثوليكيين عند الملك واتهموهم كثيرًا من التهم الباطلة

فامر ان تغلق كل كنائس الكاثوليكيين ويُعطى دخلها للاريوسيين ان كان لا يرتدّ اسقفها عن اعتقادهم فلم يزعزع ذلك ثبات الاساقفة في الايمان ومن ثم ازداد غضب هونريكوس عليهم التهابًا وأمر بان يخرجوا حالاً من المدينة وتوعد بالموت من يأوي واحدًا منهم او يطعمهم ولهذا اشتدّت شجاعة الشعب الكاثوليكي على قدر اشتداد الاضطهاد. لانهم كانوا يرتلون جهارًا التسابيح لتمجيد الوهية سيدنا يسوع المسيح فقبض الملك على كثيرين منهم وقطع السنتهم وكان الشهداء ينطقون ويسبحون لاهوت ابن الله كما كانوا يفعلون من ذي قبل وهذه آية كبيرة تذهل الالباب. وقد شاهد القديس فيكتور المؤرخ المعاصر تلك الاعجوبة وشهد بصحتها في تاريخ الوانداليين كتاب ٥ قائلاً ان من يشك فيها فليأتِ مدينة القسطنطينية فيرى هنا احد هولاء الشهداء المدعو ريباراتوس الذي لا يزال متكلمًا وان كان قد انقطع لسانهُ وهو مكرَّم من الملك زينون والملكة. وشهد على ذلك ايضاً انيوس الفيلسوف الوثني من غزة الذي كان وقتئذٍ في القسطنطينية في السنة الثالثة والثلثين من المائة السادسة اذ كتب انهُ سمع هولاء الشهداء المتكلمين وتحقق ان السنتهم كانت مقطوعة من اصلها. اما بروكوبيوس فيخبر في تاريخ حرب الوانداليين كتاب ١ فصل ٨ انهُ قد رأى الشهداء المتكلمين وسمعهم وان اثنين منهم اذ ارتكبا المنكر لم يعودا يتكلمان

ولان القديس اوجانيوس كان عمود الايمان الكاثوليكي ويثبت الشعب فيهِ بتعليمهِ وقدسهِ وعجائبهِ قبض عليهِ الملك

اخيرًا واراد اولاً ان يحكم عليهِ بقطع رأسهِ . غير ان ذلك الملك الخبيث اذ خشي ان الكاثوليكيين يحسبون القديس اوجانيوس شهيدًا بعد موتهِ نفاهُ الى برية طرابلس الغرب وسلمهُ الى اسقف اريوسي فعاملهُ بقساوة بربرية وبعد ذلك مات هونريكوس الملك الاريوسي شرَّ ميتة في السنة الرابعة والثمانين بعد الاربع مائة للمسيح . وقد روى القديس فيكتور المؤرخ ان هذا الملك الشقي جنَّ من شدة مرضهِ واكل لحم ساعدهِ ككلب كَلِبٍ . وزاد على ذلك ايسيدوروس المؤرخ قال ان هذا الملك الاريوسي المنافق مات قاذفًا امعاءهُ من مخرجهِ وقانا الله وإياكم مثل هذه الميتة

فلما جلس ابن اخيهِ غُنتموندوس على عرش المملكة اعاد الاساقفة من المنفى ولم يضطهد الكاثوليكيين فرجع القديس اوجانيوس الى قرطاجنة ورعى رعيتهُ بهدوٍّ مدة اثنتي عشرة سنة وبعد ذلك نُفي ثانية في عهد تراسيموندوس الى البي مدينة بفرنسا حيث تتلمذ لهُ كثيرون من الكاثوليكيين وبنى لهم ديرًا وفيهِ قضى حياتهُ بالبرارة وانتقل اخيرًا الى رحمة الله في اليوم الثالث عشر من شهر تموز في السنة الخامسة بعد الخمس مائة للمسيح

اليوم الثالث عشر

وفيهِ ترجمة القديس بوناونتورا

ان هذا القديس وُلد بمدينة يقال لها الحمام الملوكي من بلاد ايطاليا في السنة الحادية والعشرين من المائة الثالثة عشرة للمسيح وسُمي في المعمودية يوحنا الا انهُ بعد اربع سنين تغيَّر اسمهُ لاجل حادثة عجيبة وهو انهُ مرض مرضًا ثقيلاً كاد يموت منهُ فنذرت والدتهُ انها تخصصهُ لرهبانية القديس فرنسيس ان برئ من مرضهِ وقد كان القديس فرنسيس حينئذٍ في تلك المدينة فدعتهُ والدة يوحنا وطلبت منهُ ان يصلي من اجل ابنها وفي انتهاء صلاتهِ شفي الطفل حالاً فصرخ القديس قائلاً باللغة الايطاليانية بوناونتورا ومعنى هذه الكلمة حادثة جيدة سعيدة ومن اجل ذلك دُعي فيما بعد بوناونتورا

فلما نما في عمرهِ وكان منصبًا منذ نعومة بنانهِ على الخير لم يستبن فيهِ شيءٌ ما رديء . قال عنهُ معلمهُ اسكندر هالس الجزيل علمهُ وفضلهُ انهُ قد يستبين ان بوناونتورا لم يخطئ في آدم اي لم يرتكب الخطيئة الاصلية

وقد ترهب في رهبانية القديس فرنسيس ولهُ من العمر اثنتان وعشرون سنة وظهر فيها للعالم كالكوكب اللامع لكون الله قد وهبهُ علم القديسين اي علمًا واسعًا مقترنًا باتضاع جزيل جدًّا . ومع شدة حبهِ لابن الله المتجسد ورغبتهِ في تناول القربان المقدس كان اولاً يمنع ذاتهُ بروح الاتضاع . قيل انهُ اذ كان يومًا حاضرًا القداس الالهي ولم يتجاسر ان يتقدم الى المائدة المقدسة لكن كان يتأمل في آلام الرب وجزيل حبهِ لنا انتقل على يد الملئكة جزء من الخبز السرّي ودخل فم القديس فاضطرم حبًّا ليسوع ومن ذلك الوقت وصاعدًا جعل يتقدم الى القربان المقدس اكثر من ذي قبل . اما عبادتهُ لوالدة الله فكانت جزيلة جدًّا ولما ارتفع في السنة السادسة والخمسين من المائة الثالثة عشرة الى رئاسة رهبانية خصصها لخدمة العذراء المجيدة وكثَّر فيها افعال العبادة والاكرام التي منها تبشير العذراء وقت المغرب لظنهِ انهُ في هذا الوقت عينهِ حدثت البشارة الملئكية في الناصرة

لا يخفى ان سعة العلم من شأنها ان تنفخ المرء وتجعلهُ متكبرًا متشامخًا لانهُ يبدو لعيون الناس كالشمس ويبهر صاحبهُ باطنًا بيد ان ذلك يفعلهُ العلم في قلب صبا الى الدنيا وغلبهُ حبها حتى غدا مقرًّا للاهواء المنحرفة عن محجّة الصواب لكنهُ أعجز من ان يمسّ بهِ فؤاد امرئ نبذ الدنيا وزهد فيها ورغب عنها الى الله تعالى وانما يحثُّ المتورّعين على ان يتأصلوا في البرّ ويعتصموا دائمًا بحبل الله ويُزيّن لهم ان يقتفوا آثار اولياء الله متحلّين بحلى الفضائل ولاسيما الاتضاع الذي هو اكبر دليل على التقوى وسلامة القلب وسعة العلم كما لا يخفى على المتأمل ويجعل افئدتهم تلتهب بنار محبة المسيح . فياليت شعري من ينكر ما قرَّرتهُ وقد تمَّ بكل احوالهِ في القديس بوناونتورا الذي اجمع اللاهوتيون على ثقوب فطنتهِ وذكاء عقلهِ وقوة ذاكرتهِ . ذلك ولما قرأ الانبا جرسون العلاَّمة الفاضل تصانيف القديس المذكور ندم لكونهِ لم يعكف على قراءتها ودرسها فقط كل عمرهِ راغبًا عما سواها . ثم قال انهُ قد كان يكفيني ما ألفهُ هذا القديس الذي لم اجد بين العلماء اوفر منهُ علمًا ولا اقدر على التعليم

وكفى بهِ رفعةً وشرفًا ما قالهُ عنهُ البابا سِستوس الرابع ونصُّ عبارتهِ ان الروح القدس قد علَّم المؤمنين بقلم هذا القديس وقد جعلتهُ الكنيسة فيما بين المعلمين القديسين .

وقيل ان القديس توما اللاهوتي شمس المدارس اللاهوتية الذي كان بمدينة باريس والقديس بوناونتورا يعلم في المدرسة الكبرى كان يتعجب من جزيل علمهِ فسألهُ يومًا من اين استقى هذا العلم الوافر. فأراهُ القديس ايقونة سيدنا يسوع المسيح وقال لهُ هذا الكتاب الذي اقرأهُ واتدبر عبارتهُ وامعن النظر فيهِ ومنهُ اكتسبت ما اكتسبتهُ من العلم. هذا وقد كان علمهُ الوافر مقرونًا باتضاع أفضل منهُ. فكيف لا وهو يحذر من يقرأ مؤلفاتهِ مما ربما يكون فيها من الخطاء والخلل ثم يرجو كل من قرأها ان يبحث بتدقيق عما رآهُ فيها من الغلط ويصلحهُ. ذلك فضلاً عن انهُ كان يعدُّ نفسهُ أحقر العلماء وأكبر الخطأة ايضًا مع ان الجميع كانوا يعدونهُ عظيمًا جدًّا في العلم والبرارة. ولما استأثرت رحمة الله بالحبر الروماني واختارتهُ جماعة الكردينالية ليكون حبرًا فلم يرتضِ بقولهم فطلبوا منهُ اخيرًا ان يرتضي قلما يكون بان يقيم على الكرسي الرسولي من يريدهُ هو نفسهُ. فعين لهم من لم يكن حاضرًا في المجمع اعني تاوبلدون من بلاشنسا الذي كان وقتئذٍ في القدس الشريف فاختارهُ الكردينالية ممجدين تواضع القديس بوناونتورا وحبهُ الجزيل لخير الكنيسة كلها

فعن مثل هذا الاتضاع قال القديس برنردوس ان الاتضاع فيما بين الكرامات هو امر نادر الوجود جدًّا وقال البابا سِستوس الرابع ان هذا الاتضاع العجيب كان قد جعل القديس بوناونتورا محبوبًا عند الجميع وكان روح الاتضاع يميل بهِ الى مباشرة احقر الوظائف واصعبها كخدمة المرضى كل يوم عدة ساعات. ولما ارسل البابا غريغوريوس العاشر ليرقيهُ الى المرتبة الكردينالية وجدهُ المرسلون مشتغلاً بخدمة المطبخ فخرج منهُ بأمر البابا وبعد ارتفاعهِ الى المرتبة المذكورة في السنة الثالثة والسبعين من المائة الثالثة عشرة للمسيح رسمهُ الحبر الاعظم اسقفًا وقد كان القديس توما اللاهوتي يعتبرهُ علاَّمةً وقديسًا ايضًا فلما زارهُ يومًا وجدهُ يكتب ترجمة القديس فرنسيس قال المعلم الملكي لندعنَّ قديسًا يدوّن ترجمة قديس

فطلب البابا المذكور ان يحضر القديس بوناونتورا مجمع ليون حيث تجدد اتحاد كنيسة الشرق مع الكنيسة الرومانية وفيما كان الاباء يتممون هذا العمل مرض القديس وانتقل الى رحمة الله في اليوم الرابع عشر من شهر تموز في السنة الرابعة والسبعين بعد المائتين والالف للمسيح ولم يكن قد بلغ من العمر سوى ثلاث وخمسين سنة فقط وشرّف الله قبرهُ بعجائب كثيرة ومنها انهُ لما انتقل جسدهُ الى هيكل جديد في السنة الرابعة والثلثين من القرن الخامس عشر اي بعد مائة وستين سنة من وفاتهِ وُجدت هامتهُ على صحتها بدون اثر الفساد وفي السنة الثامنة والعشرين من القرن السابع عشر للمسيح حين كان الوباء قد فشا في مدينة ليون التجأ الشعب المؤمن الى شفاعة القديس بوناونتورا وساحوا بالمدينة سياحة احتفالية حاملين ذخائر القديس فزال المرض المهلك. وقد ذكرت هذه الاعجوبة وبقاء هامتهِ على صحتها في اعمال تقديسهِ

اليوم الرابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس يعقوب أُسقف مدينة نصيبين كما رواها تاودوريتوس اسقف كورس

ان هذا القديس وُلد نحو انتهاء الدهر الثالث بمدينة نصيبين بنواحي مدينة ديار بكر ومنذ نعومة اظفارهِ سلك في سبيل الفضيلة وانفرد في برية اما في الشتاء فكان يختلي في مغارة واما في الصيف فكان يعيش تحت السماء بدون ان تكون فوقهُ مظلة ترد عنهُ حرارة الشمس ولا ياكل الاَّ عشب البرية ولا يلبس الاَّ ثوبًا من شعر المعزى انما كان يروض نفسهُ بالصوم والصلاة دائمًا ومن ثم حصل في قلبهِ انوارٌ سماوية ووهبهُ الله ايضًا روح النبوة فلما راى حال سكان هذه الاراضي وان اكثرهم متسكعون في ظلام الموت غار غيرة على خلاص النفوس ودخل بلاد العجم ليبشرهم بعلم الخلاص وعند اقترابهِ من احدى القرى صادف نساء وثنيات يغتسلن في عين ماء بحال مضادة للاحتشام فشرعنَ يشتمن القديس ويلعنهُ فصلى القديس وطلب من الله تعالى ان يعذبهنَّ عذابًا مفيدًا لخلاصهنَّ فجفت حينئذٍ عين الماء وابيضَّ شعر رؤُس اولئك النساء فرجعنَ الى القرية مسرعات خجلات واخبرنَ الناس بما كان فخرج الوثنيون للقاء القديس واستقبلوهُ باتم الاكرام فصلى القديس مرةً ثانية فجرى الماء من العين ولكنهُ لم يرجع شعر النساء الى لونهِ الاول اذ لم يردنَ ان يتوسَّلنَ الى القديس بل بقينَ على ما كنَّ عليهِ من الجراءة وعدم الاحتشام. وقد صنع القديس عجائب أُخر فكانت تنتشر بها النصرانية كثيرًا

فلما توفي اسقف نصيبين انتخبهُ المؤمنون اسقفًا عليهم . بل اضطروهُ الى قبول هذه الدرجة فجلس على كرسي الاسقفية غيرانهُ لم يغفل شيئًا من عيشتهِ القشفة ورياضاتهِ الروحية بل انهُ زاد عليها الاهتمام في تعليم الشعب ومساعدة المساكين ولما كان يرفق بهم رام قوم منهم ان يحتالوا عليهِ ليختلسوا منهُ صدقةً فجعل أحد الفقراء نفسهُ بمنزلة ميت وامتدَّ على النعش مكفنًا ولما مرَّ بهِ القديس يعقوب تقدَّم اليهِ رفيق ذلك الفقير المكفَّن وطلب منهُ صدقةً فتحنَّن عليهِ الاسقف وتصدَّق عليهِ قائلاً ليقبل الله نفس هذا المكفَّن برحمتهِ ومضى . فلما اراد ذلك ان يقيم صاحبهُ من النعش رآهُ قد مات فرجع الى القديس باكيًا نادمًا على خطيئتهِ وطلب اليهِ ان يقيم صديقهُ من الموت فصلى ايضًا ذلك الراعي الرؤف واقامهُ من الموت. روى الراوون انهُ قد صُنع ايضًا مثل هذه المعجزة على ايدي القديسين غريغوريوس وابيفانيوس

قد حضر القديس المذكور المجمع النيقاوي الاوَّل الذي فيهِ حرم الاباء آريوس وحرَّموا تعليمهُ المضلّ (١) وبعد ذلك عاد راجعًا الى اسقفيتهِ فأتى سابوروس ملك العجم وحاصر مدينة نصيبين بعسكر جرَّار ولان المدينة كانت حصينة ولم يقدر الملك على افتتاحها بعد سبعين يومًا أمر بان يُقام حاجز عظيم ضد جريان النهر الذي كان يمرُّ في وسط المدينة ولما تعالت مياههُ جدًّا حينئذٍ امر بان يُهدم الحاجز وهكذا انحدرت المياه بقوة عظيمة وصدمت اسوار المدينة بشدة فهدمت منها جانبًا كبيرًا. فتهللت عساكر الفرس فرحًا غير انهم اخَّروا هجمتهم الى الغد لكثرة المياه السادة طرق المدينة ومداخلها . فلما رأى الاسقف القديس ان رعيتهُ من الشدة والضيق على اردا حال صعد الى برج عالٍ ثم رفع يديهِ الى السماء وسأل الله أبا المراحم ان يرسل على عسكر البرابرة نحلاً وزنابير فيبيدهُ ويُنقذ شعبهُ من ايديهم. فعلى الفور وثب على العسكر خَشْرَم اي جماعة من النحل والزنابير فلذع الخيل والجمال والافيال والجنود فهرب الجميع حتى لم يبقَ احدٌ فرجع الملك الى بلدتهِ مسودّ الوجه معترفًا بجبروت اله المسيحيين . وكان يجب ان نقول هنا ما قالهُ سليمان الحكيم عن انتصار الله على فرعون بواسطة الذباب انهُ قد كان يمكنك يارب ان ترسل عليهم ذئابًا او آسادًا او وحوشًا أُخر هائلة مفترسة . وياليت شعري مالي اقول ذلك وانت القادر ان تستأصل شأفتهم وتبيدهم عن آخرهم متى وكيف تشاء

ذلك وقد انتقل القديس يعقوب الى رحمة الله على عهد قُسطَنْسيوس الملك نحو انتصاف الجيل الرابع والسنكسار الروماني يذكر وفاتهُ في اليوم الخامس عشر من شهر تموز اما سنكسار الروم فيذكرهُ في آخر يوم من شهر تشرين الاول

(١) حاشية . قال بعض المؤرخين ان القديس يعقوب اقام بالقسطنطينية مع القديس اسكندر اسقف تلك المدينة لما تضرَّع الى الله تعالى والتمس منهُ الانتقام من اريوس المنافق كما مرَّ في ترجمة القديس اثناسيوس وجه ٢٤٩ الاَّ ان غيرهم من المؤرخين ابانوا ان ما وُجد في تاليف تاودوريتوس في هذا الصدد ليس هو من قلمهِ بل من قلم ناقل اضاف هذه القطعة الى ماكتبهُ تاودوريتوس وملأهُ غلطًا جسيمًا (راجع ترجمة القديس يعقوب المذكورة في اليوم الخامس عشر من شهر تموز في تاليف البلاَّنديستيين)

اليوم الخامس عشر

وفيهِ عيد ثوب السيدة

ينبغي لنا ان نورد هنا خبر ابتداء هذا العيد الشريف الذي اثبتتهُ بيعة الله المقدسة الرومانية وشرَّفهُ الله عزَّ وجل بآيات كثيرة . فاعلم ان الرهبان الكرمليين كانوا ساكنين اولاً بمغارة جبل الكرمل ولما وصل القديس لويس ملك فرنسا الى بلد فلسطين نحو نصف الجيل الثالث عشر نقلهم من هناك الى مملكتهِ وبنى لهم أديرة كثيرة ومن فرنسا مضى بعضهم الى بلد الانكليز ليؤسسوا هناك رهبانيتهم وفي حين وصولهم دخل رهبانيتهم رجلٌ كان يسير في سبيل الله من زمانٍ طويل وهو القديس سمعان الملقب بستوكوس لاجل السبب الاتي ذكرهُ . كان الرجل المذكور شريف الاصل كريم النسب واعتزل عن الناس الى القفار لما بلغ من عمرهِ اثنتي عشرة سنة وكان يعيش هناك على الحشيش والماء ويسكن في جوف شجرة حيث يضطرُّ الى ان ينتصب على قدميهِ دائمًا ولذلك لُقّب بستوكوس في اللغة الانكليزية ومعناهُ أصل شجرة ولما كان يعيش كملائكة الله كانت الملئكة تتعهدهُ وتظهر لهُ غالب الاوقات الاَّ ان عبادتهُ الخصوصية كانت نحو سيدة العالم مريم البكر التي كانت تتراءى لهُ ايضًا كثيرًا وكان لهُ في البرية ثلاث وثلاثين سنة لما وصل الرهبان الكرمليون الى بلاد الانكليز وحينئذٍ تراءت لهُ والدة الله واخبرتهُ بوصولهم

وحبها لهم ثم امرتهُ بان ينضوي تحت قانونهم

ففارق القديس سمعان الفيافي وطلب من رئيس الكرمليين ان يضمهُ الى رهبانيتهِ . فقبلهُ ذلك الرئيس بسرور عظيم كهدية مرسلة اليهِ من السماء . فبعد ان اكمل القديس سمعان زمن التجربة ونذر نذور الرهبانية طلب اذنًا ليزور الاماكن المقدسة التي بفلسطين فزارها كلها حافيًا واقام بجبل الكرمل ستة اشهر وعاش هناك مع الملئكة وسلطانة الملئكة كاحد ملائكة الله ثم رجع الى انكلترة وقد أثمر تعليمهُ وعجائبهُ في قلوب الانام اثمارًا جيدة وافرة ولما أُقيم رئيسًا عامًا على رهبانية الكرمليين افرغ جهدهُ في ان يزيد في رهبانيتهِ و في العالم كلهِ تكريم العذراء عليها السلام . فطلب منها لبلوغ الارب ان تنعم عليهِ نعمة جديدة ليقدر بها ان يغرس في قلوب المؤمنين ما تستحقهُ من التكريم والتمجيد وقد استمر على هذه الطلبة سنين كثيرة ممارسًا تقشفات عظيمة . فبينما كان على هذه الحال اذا انهُ في اليوم السادس عشر من شهر تموز سنة احدى وستين ومائتين والف للمسيح ظهرت لهُ الوافرة الغبطة مريم البتول وكان في يدها ثوب فقالت لهُ اقبل يا ابني العزيز هذا الثوب كعربون محبتي لرهبانيتك وهو العلامة التي تُعرَف بها ابنائي وسيكون هذا الثوب راية الخلاص وعلامة عهدي الابدي معهم . وان طابقت سيرتهم برَّ هذا الثوب فمن يمت منهم وهو لابسهُ فلا تمسهُ النار الابدية . هذا ما قالتهُ سيدتنا مريم العذراء للقديس سمعان ستوكوس

اعلم ان والدة الله لمعرفتها ان كل عبادة يجب ان تثبتها الكنيسة وتقدمها للمؤمنين ولو ظهر انها مقدسة جدًّا ظهرت في السنة الثانية والثلثين من الجيل الرابع عشر للبابا يوحنا الثاني والعشرين واخبرتهُ بالاختصاصات المتعلقة بهذه العبادة وفوائدها كما قال هو في منشورٍ لهُ قد ذكرهُ خلفاؤهُ الاعظمون اسكندر الخامس واكليمنضوس السابع وبولس الثالث والقديس بيوس الخامس وغريغوريوس الثالث عشر في مناشيرهم في اثبات هذه العبادة المنسوبة الى العذراء المسماة شركة ثوب السيدة . وقد امتدَّت هذه العبادة في كل العالم وقد ايَّدها الله تعالى بعجائب كثيرة منها ان هذا الثوب وقى مرارًا كثيرة لابسهُ من النار والماء والقي في النار فانطفأَت تلك النار ولم يحترق الثوب هذا ما رآهُ الناس بعيونهم مرارًا لا تحصى وكذلك نجا بهِ اناس لا يحصى عددهم من الغرق . ومن لي بان أعدَّ الناس الذين شفوا بهِ من امراض معضلة ومن الطاعون

ان ايراد العجائب المختلفة التي فعلها ثوب السيدة يقتضي لهُ مجلدات عديدة فنقتصر هنا على ذكر واحدة منها قد عاينها كل جنود عسكر لويس الثالث عشر ملك فرنسا حتى الملك نفسهُ وكان ذلك في المائة السابعة عشرة للمسيح وهي ان جنديًا في محاصرة احدى المدن ضُرب برصاصةٍ فنفذت الرصاصة اثوابهُ كلها ولكنها اذ وصلت الى ثوب السيدة الذي كان لابسهُ بهِ وقفت هناك ولم تمس جسد الجندي المضروب

فياليت شعري من ذا الذي يشك بعد في عبادة ثوب سيدتنا البتول اي بعد ان شهد فيها احد قديسي الله واوليائهِ واثبتها الحق تعالى نفسهُ بافواه نوابهِ وبواسطة العجائب ايضًا انهُ ما من كاثوليكي يشك في شدة قوة شفاعة ملكة العذارى . وقد قال القديس جرمانوس بطريرك القسطنطينية ان قوة شفاعة سيدتنا البتول مريم تفوق ادراك العقول . وقال القديس بوناونتورا ان سلطان والدة الله يُقدَّر بقدرة الله . ولا يستغرب ذلك من صح اعتقادهُ وعرف ارتفاع منزلة العذراء لدى ابنها يسوع المسيح ولكنهُ يظهر في بادي الراي غريبًا عند من ضعف اعتقادهُ وارتخى ايمانهُ كما لا يخفى . واما القديس بطرس داميانوس فقال ان العذراء تتقدم الى عرش الله كوالدة وملكة لا كامةٍ ولا كمن تشفع بل على نوع ما كمن تأمر ولذلك قال القديس انطونينوس انهُ لكي تنال مريم العذراء من الله ما تريدهُ يكفي انها تطلبهُ منهُ تعالى . وقال ايضًا القديس داميانوس ان الذي تكون صلَّت مريم من اجلهِ مرة واحدة لا يدركهُ الويل الابدي . والقديس برنردوس يهتف نحو العذراء قائلًا ان من استشفع فيكِ لن يهلك

اليوم السادس عشر

وفيهِ ترجمة القديس ألكسيوس

ان القديس المذكور ولد برومية بعد منتصف الجيل الرابع على عهد الملك والنتينيانوس الاول واسم ابيهِ اوفيميانوس واسم والدتهِ اغلايس وكلاهما كانا معتبرين جدًّا في المدينة الموما اليها لكونهما غنيين وشريفي النسب على انهما كانا عند الله افضل اعتبارًا لفضائلهما التي اخصها الرافة على الفقراء فكانا يعولان في كل يوم ثلثمائة او اربعمائة من المساكين

فوق ما كانا يوزعانهِ سرًّا على بقية الفقراء وأتى على زواجهما زمان طويل ولم يرزقهما الله ولد فبارك الله تعالى على صبرهما فوُلد لهما ابنٌ وصار قديسًا وهو الذي نورد هنا ترجمتهُ وقد سلك هذا الابن مع والدتهِ في طريق العبادة وبعد ان تعلم العلوم وبلغ مبلغ الرجال قدم لهُ والدهُ فتاةً فاضلة شريفة غنية جميلة المنظر ليتزوَّجها اما هو فقد كان مغرمًا بالتبتل لله غير انهُ لمجرَّد احترام والدهِ ارتضى ان يتزوَّجها على انهُ في يوم العرس نفسهِ اضطرم شوقهُ لحفظ زهرة العفاف اضطرامًا شديدًا حتى انهُ عزم حالاً على قطع كل ما كان مقيَّدًا بهِ من رُبُط الدنيا الغرور. فلما دخل الليل ذهب الى حيث كانت قرينتهُ ووهبها خاتمًا وزنَّارًا ثمينين ثم نزل وغيَّر ثيابهُ وفرَّ هاربًا في تلك الليلة نفسها وركب سفينةً اوصلتهُ الى اللاذقية. واما حزن ابويهِ وقرينتهِ فنمسك عنان القلم عن وصفهِ ونتركهُ للقاري فهو قادر ان يتوصَّل الى شدة اسفهم بدون ان نذكر كلامًا في ذلك. غير ان القديس الكسيوس حصل لهُ بذلك اتمّ السرور لانهُ لم يعد في الدنيا شيءٌ يعوقهُ عن التعبد لله وحدهُ

فلما وصل الى اللاذقية خاف من ان يكون هناك من يعرفهُ فسافر راجلاً وذهب الى اورفا ابتغاء ان يقضي فيها حياتهُ مجهولاً ومهانًا فاعطى الفقراء كل ما فضل لهُ من الدراهم وفوَّض امرهُ لله. وبحيث كان رجلاً غريبًا بزي صعلوك كان الاكثرون يزدرون بهِ ويخفضون شأنهُ وما كان يتصدَّق عليهِ احدٌ الاَّ ويشمئز منهُ باطنًا. ولعمري ان ذلك كان نفس مقصد القديس حبًّا بالسيد المسيح. اما عيشتهُ في اورفا فكانت هكذا. انهُ كان يبكر الى كنيسة مبنية على اسم والدة الله وهناك يقضي اكثر النهار ثم يخرج فيطلب في المدينة قليلاً من الخبز ويرجع الى باب الكنيسة حيث كان يقضي الليل بالصلوات ما عدا ساعات قليلة يخصصها لرقاده

اما ابوهُ فاذ عرف ان في اللاذقية رجلاً غريبًا ارسل جنودًا ليطلبوهُ فلما وصلوا اليها سألوا عنهُ فقيل لهم انهُ مضى الى اورفا فذهبوا الى هناك وطلبوهُ فوجدوهُ وأعطاهُ احدهم صدقةً ولكنهم لم يعرفوهُ لان وجههُ كان قد تغير تغيرًا تامًّا اما القديس فعرفهم ولذلك جعل يختفي عنهم باختلاطهِ مع احقر المساكين. فاقام باورفا نحو سبع سنين مقدِّسًا نفسهُ بالاهانات وضيقة العيش فابتدأ حينئذٍ اهل المدينة يشعرون بقدسهِ وبرارتهِ وظن كثيرون انهُ على غير ما يتظاهر بهِ وكانوا يمدحون احتشامهُ ووداعتهُ وصبرهُ وعبادتهُ وحبهُ الاختلاء والصلوات

وفي ذلك الوقت ابتدأ الواهف اي قندلفت الكنيسة وكان كاهنًا فاضلاً يخبر الناس بانهُ سمع صوتًا خارجًا من ايقونة العذراء التي كان القديس يُكثر من الصلاة امامها ويقول ان الصوت قال اعلم ان الفقير الذي ينام في كل ليلة على باب الكنيسة هو رجل بارٌّ وكريم عند الله جدًّا. ثم بعد ان سمع الكاهن الفاضل هذا الصوت واخبر الناس بهِ مضى الى القديس وطلب منهُ بالحاح ان يسكن في بيتهِ ووعدهُ بانهُ يعطيهُ كل ما يحتاج اليهِ. وقد سمع هذا الصوت مرَّتين وشاع خبرهُ في المدينة

فهرب حالاً القديس ورجع الى اللاذقية وركب احدى السفن طالبًا من الله تعالى ان يوصلهُ الى حيث يريد ان يعيش مجهولاً مهانًا حقيرًا وكان قد قصد رئيس المركب ان يمضي من هناك الى مدينة طرسوس الاَّ ان شدة الريح ألزمتهم بالذهاب الى ايطاليا فوصل القديس الى ميناء رومية. فخطر لهُ ان الله اعادهُ الى وطنهِ لكي ينتصر على الجسد انتصارًا بيِّنًا فعزم على ان يعيش في رومية كما كان يعيش في اورفا فلما وجد اباهُ راجعًا من المحكمة باحتفال عظيم استقبلهُ على باب بيتهِ وقال لهُ ارحم يا سيدي هذا الرجل الفقير عبد سيدنا يسوع المسيح واسمح لهُ ان يسكن باحقر مكان من منزلك الشريف واعتقد ان الله سبحانهُ يجازيك خيرًا عما تفعلهُ معهُ من الرحمة. فلما اتمَّ القديس الكسيوس خطابهُ تذكَّر والدهُ اوفيميانوس هرب ابنهِ من بيتهِ ولم يعلم انهُ هو الذي يخاطبهُ فتحرَّكت احشاؤهُ وتنهَّد وبكى ثم امر خدامهُ بان يأووهُ في بيتهِ ويهتموا بهِ

اما الخادم الذي اوصاهُ سيدهُ بذلك فلما سمع هذا الامر استثقلهُ جدًّا فادخل الكسيوس بالاشمئزاز موضعًا حرجًا ضيقًا مبنيًّا تحت درج بيت ابيهِ. غير ان ذلك الامر نفسهُ ملأَ قلب القديس سرورًا فشكر الله الذي أهَّلهُ لان يجد في وطنهِ وفي بيت والديهِ ما كان يرجوهُ من الهوان وشظف العيش في البلدان البعيدة. فاستمرَّ في بيت ابيهِ سبع عشرة سنة مجهولاً من والديهِ ومهانًا مضطهدًا من الخدام وكان فراشهُ الارض وكل امتعتهِ ايقونة السيد المصلوب وكان صومهُ دائمًا وصلاتهُ

متصلة لا يقطعها الاَّ نومٌ قليل ولا يأكل الاَّ الخبز ولا يشرب الاَّ الماء ولا يخرج من ذلك المنزل الحرج الضيق الاَّ ليحضر القداس في الكنيسة. وكان يتناول القربان المقدس مرة واحدة كل اسبوع واما اصعب ماكان يحتملهُ في بيت ابيهِ فانما هو حزن والديهِ وزوجتهِ على فقدهِ لانهم كانوا يذكرون اسمهُ غالبًا ويتنفسون الصعداء ويبكون كثيرًا كلما ذكروهُ وكان حينئذٍ يلتجيء الى الصلاة ملتمسًا من الله بشفاعة والدتهِ الجليلة ان يقوّي نفسهُ تجاه محاربة الجسد .

فبعد ان قضى على تلك الحال سبع عشرة سنةً ألهمهُ الله ان موتهُ قد اقترب وأعلمهُ بيومهِ وساعتهِ وأوعز اليهِ جلّت حكمتهُ ان يكتب كل ما جرى لهُ من بعد خروجهِ من بيت ابيهِ الى زمن وفاتهِ. فعلّق كل ذلك على قرطاس وقبض عليهِ ثم انتقل الى جوار ربّهِ . واما والدهُ اوفيميانوس فكان يسمع وقتئذٍ قداس البابا اينوشنسيوس الاول في كنيسة القديس بطرس وكان الملك اونوريوس حاضرًا فسمع الجمهور صوتًا من السماء قائلاً لقد مات منذ دقيقة واحدة رجل بارٌ تقي في بيت اوفيميانوس . فتعجب الجميع ولا سيما اوفيميانوس فجعل يفكّر من ذا عسى ان يكون ذلك القديس ثم قال للملك انهُ لا يمكن ان يكون هذا الاَّ رجلاً فقيرًا يعيش بخوف الله تحت درج بيتي . فبعد ختام القداس ذهب البابا والملك بجم غفير الى بيت اوفيميانوس فوجدوا الفقير ميتًا وفي يدهِ ورقة فتقدم اوفيميانوس ليأخذها فلم يقدر ان يخرجها من يد الميت . فجثا البابا على ركبتيهِ وصلى هو وصلى الحاضرون وراءهُ ثم تقدَّم الى الميت واخذ من يدهِ القرطاس بسهولة وسلمهُ الى ايسيوس رجل شريف فقرأ ذلك القرطاس فاذا فيهِ ترجمة القديس . فلما سمع الحاضرون اسم والدهِ ووالدتهِ وزوجتهِ التي تركها في يوم عرسهِ وانهُ وهبها خاتمًا وزنارًا ثمينين وبقية ما حدث لهُ في حياتهِ الى حين وفاتهِ انذهلوا . هذا ومن لنا هنا ان يصف ما حصل لوالديهِ وقرينتهِ من الحيرة التي اخذتهم من قِبل الحزن والفرح وكانوا جاثين عند قدميهِ يقبلونها بدموع الحزن والفرح . ثم دفنهُ البابا باتم الاكرام وكان الملك حاضرًا وكل الشعب الروماني واقام على جوانب قبرهِ ابوهُ وامهُ وزوجتهُ سبعة ايام وسبع ليالٍ . وشرَّفهُ الله تعالى بعجائب كثيرة وكانت وفاتهُ الصالحة في اوائل الجيل الخامس

اليوم السابع عشر

وفيهِ ترجمة القديسة مارينا البتول

اعلم ان الكنيسة تقدّم للمؤمنين سيرة القديسة مارينا موضوعًا للتعجب وكشيء اراد الله تعالى ان يظهر بهِ قوة نعمتهِ ويبين الطرائق المختلفة التي يهدي بها مختاريهِ

اما بعد فالارجح انها وُلدت في القرن الثامن ببلاد بيطينية ولا بدَّ ان تُميَّز عن سميَّاتها القديسات ولا سيما القديسة مارينا التي استشهدت في مصر ويذكر السنكسار الروماني استشهادها في اليوم الثامن عشر من شهر حزيران وعن تلك التي كانت بسورية لان التي نذكر اليوم ترجمتها انما هي من العذارى لا من الشهداء فانها دُعيت اولاً مارينا وقد ماتت والدتها وهي طفلة اما ابوها المدعو اوجانيوس فكان رجلاً فاضلاً فربَّاها تربية حسنة فصارت متورعةً فاذ رآها هكذا عزم على الاعتزال عن العالم والترهب فسلمها الى احد اقربائهِ وكان ذاك رجلاً صديقًا فاضلاً ليربّيها وذهب الى الدير وترهب ولنشاطهِ في ممارسة الرياضات النسكية ارتقى في سلّم الفضيلة حتى غدا الاخوة والرئيس يعتبرونهُ قديسًا فبعد ان سار هكذا اعوامًا كثيرة افتكر بغتةً فكرًا محزنًا اقلقهُ كثيرًا في رياضاتهِ الرهبانية لانهُ افتكر في ابنتهِ وخاف ان يطغيها العالم ويهلكها . فاطّلع الرئيس على غمهِ واكتئابهِ فسألهُ سرًّا عن سببهِ فقال اوجانيوس اعلم يا ابي ان لي ولدًا صغيرًا في العالم واخاف عليهِ كل الخوف وهذا هو ما تضطرب لهُ نفسي وتحزن ليلاً ونهارًا . فظن الرئيس ان الولد الذي ذكرهُ اوجانيوس هو ذكر فقال للراهب اذهب يا اخي وأتِ بهذا الولد ونربّيهُ في الدير . ففرح اوجانيوس بالاذن المعطى لهُ ثم ذهب الى حيث كانت ابنتهُ واورد لها سبب مجيئهِ وقص شعر راسها وألبسها ثوب غلام وغيّر اسمها ودعاها مارين ثم اوصاها بحفظ السر وعلّمها كيف يجب ان تسلك وتتدرَّب وانطلق بها الى الدير فعلموها هناك القراءة وكان الجميع يمدحون حسن عقلها واحتشامها وعبادتها ولم يكونوا يسمونها الاَّ الاخ مارين

فاذ بلغ هذا الاخ السنة الرابعة عشرة من عمرهِ سلمهُ الرئيس الى اوجانيوس ابيهِ لكي يرشدهُ وكان اوجانيوس يقول مرارًا للاخ اي لابنتهِ احترسي يا ابنتي كل الاحتراس لئلا يدري

احد انكِ ابنة وتحرزي ايضاً باجتهاد كلي من ابليس وفخاخهِ فلاجرم انهُ ينصبها لكِ لعنهُ الله. الآ انكِ بنعمة الباري تعالى ستنتصرين عليهِ بواسطة الاتضاع واماتة النفس والصلاة والاختلاء ومناجاة المولى عزَّ وجلَّ وهكذا تحفظين البر دائماً. واحبي الصمت والانفراد واحذري من لطافة مبهجة في كل اعمالكِ واقوالكِ وحركاتكِ لان الاجدر بكِ ان تميلي الى القساوة فلا تظهري بشاشة ولا تنظري وجه احد وتذكري على ممرّ الاوقات ان سيدنا يسوع المسيح قرينكِ وان العذراء مريم هي أُمكِ العزيزة. والتجئي اليهما كل وقت فاذا سرتِ على هذا المنوال وبقيتِ سالكةً في منهج العفة تنالين اكليل المجد الابدي

فهذا التعليم كان يقطر على قلب الاخ مارين كالندى على الارض فتأسست هذه الرسوم في نفسهِ وحفظها على الدوام وكان الاخوة يحسبونهُ مثال الفضائل الرهبانية ولاسيما الاحتشام والامانة لانهُ لم يكن احد من الرهبان يعرف عينيهِ. ولكن الرئيس لم يكن يسمح لهُ بان يباشر الوظائف المتعبة لضعف مزاجهِ فكان يرغب في احقر الاشغال ويباشرها بالكمال. وكان يصوم على التوالي وكثيراً ما كان يلازم الصمت سبعة ايام لا يتفوه بكلمة واحدة. فتوفي اوجانيوس ابوهُ وهو ابن سبع عشرة سنة فتركهُ الرئيس في قلايتهِ واقامهُ على وظيفتهِ

فشرع الاخ مارين يمضي مع الاخوة الى المدينة ليبيعوا هناك ما اشتغلهُ الرهبان ويبتاعوا ما يحتاج اليهِ الدير. ولانهم غالب الاوقات لم يكونوا يقدرون ان يعودوا الى الدير في ذلك النهار كانوا يبيتون في قرية على الطريق. فاتفق يوماً ان ابنة صاحب ذلك المنزل حبلت بالزناء فاخذ والدها يضربها ويسألها قائلاً قولي لي من فعل بكِ هذا المنكر اما الابنة الشقية فلم ترد ان تصرّح باسم من كان قد زنى بها بل قالت ان الذي وطئها هو الراهب مارين الذي كان قد تردّد الى بيتهم مراراً لاجل السبب المذكور. فذهب والدها واشتكى الى الرئيس على الاخ مارين فلما سمع الرئيس هذا الخبر استحوذ عليهِ الخوف والذهول ولم يصدق فدعا الراهب المذكور وسألهُ هل ارتكب مثل هذا الاثم القبيح فبهت مارين وفكر كيف يجاوب عما سئل ثم جثا متنهداً باكياً على قدمي الرئيس وقال لهُ اني اعترف يا ابي ان هذه الخطيئة عظيمة جداً واني خاطئ وغير اهل لان اكون راهباً واقبل القصاص ولو مهما كان شديداً جداً. فلم ينتبه الرئيس على التباس هذا الجواب المقدس المنزّه عن كل كذب بل انهُ فهم ان مارين ارتكب اثم الزناء مع الابنة فبعد ان وبّخهُ توبيخاً شديداً أخرجهُ من الدير

فخرج مارين واقام ثلثة اعوام على باب الدير صائماً باكياً ملتمساً من الرهبان بكمال الاتضاع ان يقبلوهُ في الدير. فلما ولدت الابنة الشقية أتى ابوها بالطفل وتركهُ على باب الدير فاتخذهُ الرهبان وسلموهُ الى مارين قائلين لهُ خذ ابنك وربّي ثمرة خطيئتك فقبلتهُ البتول المتضعة وعالتهُ سنتين. اما الرب الاله الذي يحب مناجاة المتضعين ويسر بهم فكان يعزّيها في الصلاة تعزيةً فائقة ويملأ قلبها سروراً. وبعد انقضاء مدة الثلث السنين رقّت قلوب الرهبان على ضيق عيش البتول فتشفعوا فيها الى الرئيس قائلين لهُ نسألك يا ابانا ان ترحم اخانا مارين بعد توبتهِ هذه القشفة المستطيلة وعاملهُ كمعاملة الاب الانجيلي ابنهُ الشاطر. فدعا الرئيس حينئذٍ الراهب مارين وقال لهُ اننا نقبلك ثانيةً في الدير اكراماً لابيك القديس واجابةً لتوسلات الاخوة من اجلك غير اني آمرك بان تنظف وحدك الدير كلهُ من الوسخ وتستقي كل ما يحتاج اليهِ الدير من الماء وتربّي ابنك ثمرة خطيئتك كي تدوم توبتك بمشاهدتك اياهُ. اما البتول فكانت تسمع هذا وهي جاثية على الارض باكية فقبلت القانون واكملتهُ بالتدقيق

فمرضت اخيراً البتول وتناولت القربان المقدس وحينئذٍ تهللت بالروح وماتت بسكينة فتحيرت الاخوة من فرح الاخ مارين في ساعة موتهِ. غير انهم لما رأوا ان يغسلوها قبل ان يدفنوها عرفوا انها بنت فازدادوا تحيراً وهتفوا متعجبين ذارفين دموعاً سخينة ولاسيما الرئيس لما تحقق الامر جثا امام جسد البتول متنهداً ضارباً صدرهُ بحزن عظيم ثم ارسل ودعا الابنة التي اشتكت على البتول ظلماً واخبرها بما كان. اما الابنة فلما شاهدت الاعجوبة اعترفت بتهمتها وكذبها ضد الاخ مارين لأن الشيطان اعتراها وعذّبها مدة من الزمان الى ان ذهبت الى قبر القديسة مارينا فاعترفت حديثاً بخطيئتها واستغفرت منها وطلبت شفاعتها

وكان انتقال القديسة مارينا الى رحمة الله في الجيل الثامن وقُبرت في ضواحي القسطنطينية وانتقل جسدها

الطاهر من هناك الى مدينة البندقية ببلاد ايطاليا في السنة الثلثين من الجيل الثالث عشر. ويذكر السنكسار الروماني انتقالها في اليوم السابع عشر من شهر تموز

اليوم الثامن عشر

وفيهِ ترجمة القديسة سيمفوروزا الشهيدة وابنائها السبعة الشهداء

ولدت القديسة المذكورة بمدينة رومية بعد انتصاف الجيل الاوَّل وكانت كريمة النسب ومن اجل فضائلها اتخذها لهُ زوجةً رجل شريف ايضاً يسمى جيتولوس ولهُ اخ يقال لهُ امنسيوس وكانا كلاهما من اشرف قوَّاد عسكر الملك ادريانوس. فلما نادى هذا الملك باضطهاد المسيحيين اختبأ امَنْسيوس وخرج جيتولوس من رومية ونقل اهل منزلهِ الى مدينة تيفولي. اما هو فسكن بقرب رومية وكان يعلم ويقوت هناك مسيحيين كثيرين فشعر بغيرتهِ الملك فأرسل سيريال نائب رومية ليمسكهُ غير أنهُ بعد ان قبض عليهِ وعلى أخيهِ امَنْسيوس وخاض في خطابهما وسمع ما قالاهُ في شان الديانة المسيحية آمن بالمسيح ورجع الى رومية واصطبغ بيد القديس سِستوس البابا. فلما عرف الملك هذا الامر أرسل لِسبنيوس فقبض على الاخوين وعلى نائب المدينة وعلى رجل آخر يسمى بريميتيفوس فضُربوا كلهم بالسياط ثم طُرحوا في السجن وعُذّبوا على أساليب مختلفةٍ وقُطعت رؤُوسهم بعد سبعةٍ وعشرين يوماً

اما سيمفوروزا فكانت مختلية في منزلها مع بنيها السبعة متأهبةً هي وابناؤُها للموت بقولها لهم اذكروا يا ابنائي الاعزَّاء ان لكم ابًا وعمًّا شهيدين وانهما كابدا عذابًا زمنيًّا وبهِ نالا سعادة ابدية فليجعلكم الله تقتدون بهما. ثم التفتت الى اوجانيوس أصغر أولادها وقالت لهُ فماذا تفعل يا ابني اذا قال لك المغتصب قدّم لآلهتنا بخورًا واعبد الاصنام والا فتضرَب بالسياط فأجابها اوجانيوس وقال لها وعلى وجههِ علامة الشجاعة اني اسلّم جسدي الى الجلاد ليمزقهُ بالسياط حتى الموت ولا اعبد الشياطين. ولكون هذه الام التقية كانت تخاطب بنيها مرارًا كثيرة بقولها لهم. اني اخاف يا ابنائي الاحباء من انكم تجزعون في حين وقوفكم امام المغتصب اذا أراكم الات التعاذيب. قال لها ذات يوم كريسنسيوس ابنها البكر لا تخشي يا امي لان محبة المسيح المغروسة في قلوبنا بتعليمكِ ونعمة الله تقوّينا جميعنا على احتمال اشدّ العقوبات وعلى الموت ايضاً

كان الملك ادريانوس قد بنى قصرًا بقرب بيت القديسة سيمفوروزا ورام ان يصير تدشينهُ باحتفالات وثنية وتقدماتٍ للالهة الكذبة فدخل هيكلاً ما ليستشير الصنم ويعرف منهُ هل تُقبَل تقدمتهُ لذلك الاله. فقال لهُ الشيطان الساكن الصنم ان سكنى الملك بذلك القصر لا تكون سعيدة قبل أن يلزم سيمفوروزا وابناءها السبعة ان يرتدُّوا والعياذ بالله عن النصرانية ويسجدوا لآلهتنا. فقبض الملك حينئذٍ على القديسة وبنيها. ولما مثلت امامهُ وابناءها قال لها الملك انكِ قد علمتِ يا سيمفوروزا كم كان جيتولوس زوجكِ عزيزًا ومكرَّمًا عندي وانهُ لاجل عنادهِ وتمرُّدهِ على امري خسر كرامتهُ وحياتهُ فاعتبري بجهلهِ واطيعي امري واعبدي آلهتي واكون لبنيكِ ابًا واجعلهم اعزَّاء واملأ بيتهم ثروةً. فقالت القديسة ما كنا لنشتهي شيئًا من خيور الارض وكرامتها ونشهد ان لا اله الا المسيح اما آلهتك فما هم الَّا شياطين والان اشتهي انا واولادي ان نموت اثباتًا لحقيقة النصرانية كما مات ابوهم وعمهم. وفيما هي تتكلم هكذا كان بنوها جميعهم يظهرون في وجوههم شجاعةً وبهجةً عجيبةً

فغضب وقتئذٍ ادريانوس وامر للوقت الجلاد ان يُعذّبها فضربها اولاً على وجهها بقساوةٍ ثم علقها بشعر رأسها ولان شجاعتها كانت تزداد كما يزداد العذاب علقوا في عنقها حجرًا ثقيلاً وطرحوها هكذا في النهر فماتت واخذ اخوها اوجينيوس احد اعضاء مجلس المدينة جسدها ودفنهُ على الطريق بالقرب من المدينة. ولما كان الغد وقف بنوها السبعة امام الملك وهذه اسماؤُهم كريسنسيوس وجوليانوس ونيميسيوس وبريميتيفوس وبوستينوس واستكتيوس واوجانيوس فشرع الملك يُلاطفهم ويعدهم باسمى المراتب واوفر الاموال واعظم الكرامات اذا اطاعوا امرهُ وكرَّموا الهتهُ وهددهم بكل نوع من العذاب اذا عصوهُ فاجابهُ كريسنسيوس ان وعدك ايها الملك بخيور الارض ووعيدك بكل ضربٍ من العذاب لا يؤثر في قلوبنا لاننا ابناء جيتوليوس الشهيد وسيمفوروزا الشهيدة ونشاء ان نموت مثلهم شهداء. فامر الملك حينئذٍ بان كل واحدٍ من السبعة الاخوة يُعلق على خشبةٍ وشرع الجلاَّدون يمزقون اجسادهم ويرضُّون عظامهم وكانوا

جميعهم يحتملون هذا بشجاعةٍ وسرورٍ مباركين الله تعالى لسعادة حظهم. فخجل الملك من انهُ لم يقدر ان ينتصر على سبعة غلمان مسيحيين فامر بان يقتلوا حالاً بسرعة. فتقدم الجلادون وطعنوا كريسنسيوس في حلقهِ. وجوليانوس في صدرهِ ونيميسيوس في قلبهِ بحربةٍ وبريتيفوس في بطنهِ. ويوستينوس في ظهرهِ واستكتيوس في خاصرتهِ اما اوجانيوس فقطعوا نصفهُ جزءين من هامتهِ الى رجليهِ وهكذا توفوا جميعهم في اليوم الثامن عشر من شهر تموز. ثم امر الملك بان يُقبروا وسمى الوثنيون ذلك المكان قبر السبعة الغير المبالين بالموت

اليوم التاسع عشر

وفيهِ ترجمة القديس ارسانيوس السائح

قبل أن نبدأ بترجمة القديس المذكور نقول قد لقبهُ القديس ايرونيموس بزينة البادية وعمود طريق الرهبانية. كان مولدهُ بمدينة رومية نحو نصف الجيل الرابع وكان والدهُ احد القضاة فيها وصبا منذ صبائهِ الى اكتساب العلوم وتمهر فيها جدًّا وكان علمهُ الواسع مقترنًا بعبادةٍ جليلة (١) فتلألأ ككوكبٍ في الكنيسة بوفرة علمهِ ومزيد برهِ حتى انهُ غدا مكرمًا عند اهل المدينة كافةً. وكان في ذلك العهد جالسًا على عرش مملكة الشرق تاودوسيوس الكبير فكتب الى البابا والى غراسيانوس ملك الغرب وطلب منهما ان يختارا لهُ رجلاً عالمًا فاضلاً ليربي ابنهُ اركاديوس. فاتفق الحبر الروماني مع الملك غراسيانوس واختارا ارسانيوس وارسلاهُ الى القسطنطينية سنة ثلث وثمانين وثلثمائة

فقبلهُ الملك باتم الاكرام فيما بين قضاة رومية واسكنهُ في قصرهِ ثم قدَّم لهُ ابنهُ وحينما قدَّمهُ قال لهُ هذا معلمك وليكن عندك يا ابني بمنزلة اب فاحترمهُ واحبهُ كاحترامك وحبك اياي بل افضل من ذلك لانك لم تتخذ مني الاَّ ما يخص الجسد اما ابوك هذا الجديد فانك تتخذ منهُ ما يحسّن عقلك ونفسك. واتفق يومًا ان دخل الملك الى حيث كان ارسانيوس يعلم اركاديوس فوجد ابنهُ جالسًا ومعلمهُ واقفًا فاستغرب ذلك واوصى ابنهُ بان يقف امام معلمهِ وهو اي المعلم جالس (١)

اما القديس فكان يستصعب الاقامة بقصر الملك وكثيرًا ما كان يخطر لهُ ان يعتني بأمر خلاصهِ لا غير. فلما شرع يصلي ملتمسًا من الله تعالى ان يعلمهُ ما ينبغي ان يصنعهُ لكي يخلص نفسهُ سمع هاتفًا يقول لهُ يا ارسانيوس اهرب من معاشرة الناس وهكذا تخلص. فغيَّر القديس ثيابهُ وخرج ليلاً من القصر وركب سفينةً وذهب الى مصر وكان ذلك في السنة الرابعة والتسعين من القرن الرابع للمسيح ولم يقدر الملك ان يعرف اين مقرهُ بعد ان بحث عنهُ زمانًا مديدًا. فذهب القديس الى بريَّة مصر التي كانت وقتئذٍ مقامًا للسيَّاح القديسين. ولما كان في قلاَّيتهِ جثا على الارض وطلب الى الله تعالى ان يعلمهُ ما يجب عليهِ ان يفعلهُ لكي يكون قديسًا فسمع مرةً ثانيةً هاتفًا يقول لهُ تجنب معاشرة الناس وكن مواظبًا على الصمت واجتهد ان تستمرَّ مجهولاً. وحفظ القديس هذه المشورة الالهية بحيث لم يكتفِ ان يحجب معرفتهُ عن الناس بل نزع من فكرهِ حالهُ الاول حال الشرف والجاه العالمي واخذ يتظاهر كانسان سادج لا يعرف شيئًا وكان يستشير اصاغر السياح كما يستشير التلميذ معلمهُ وارتدى ادنى اثواب السياح. اما اصوامهُ وصلواتهُ فتكاد تكون متوالية بحيث كان يتفرغ للصلاة العقلية واللفظية والترانيل الروحية في جميع ما يبقى لهُ من الوقت بعد الزمن المخصص بعمل الايدي والساعتين اللتين كان ينامهما. وكانت الدموع تسيل من عينيهِ وهو يصلي اذ لم يكن يقدر ان يمنعها فمن اجل ذلك كان يحب ان يصلي منفردًا وحينما كان يجتمع مع الاخوة في الكنيسة للصلاة كان يقف وراء عمودٍ لكي لا يرى احدٌ مدامعهُ المصبوبة

غير ان بعض الاباء السياح كانوا يراقبون القديس ارسانيوس كيف يتصرف. وفيما هم يتكلمون على فضائلهِ متعجبين خطر لاحدهم ان هذا هو الذي فتش عنهُ الملك بمزيد اهتمامٍ فاخذوا يسألونهُ عن ذلك ثم أمرهُ الرئيس بان ينطق

(١) حاشية. روى بعض المؤرخين ان القديس داموسوس البابا ادخلهُ في مصاف الاكليريكيين ورسمهُ رئيس شمامسة في كنيسة القديس بطرس. ولكن غيرهم شكوا في صحة هذه الرواية. ويؤيد ذلك كلام البلاَّنديستيين في ترجمة القديس المذكورة في اليوم التاسع عشر من شهر تموز

(١) حاشية. روي انهُ فيما كان القديس يبذل كل جهدهِ وجدّهِ في تعليم تلميذهِ هذا التزم مرة بتاديبهِ لاجل زلة ما فاغتاظ التلميذ واوصى احد خدامهِ بقتل معلمهِ ولان الخادم كان فاضلاً اخبر القديس ارسانيوس عن قصد اركاديوس فكان ذلك السبب الذي من اجلهِ ترك القديس البلاط وزهد في العالم. الاَّ ان ترجمة القديس ارسانيوس التي الفها القديس تاودوروس وادرجها البلانديستيون لم يذكر فيها شيءٌ من ذلك ولذا ضاد البلانديستيون هذه الرواية

بالحق فيقول هل هو ارسانيوس الذي كان يعلم اركاديوس ابن الملك تاودوسيوس. فاعترف حينئذٍ القديس انهُ هو بعينهِ. فشاع هذا الخبر وذاع في كل بلاد المشرق وفي ايطاليا ايضاً وكان اركاديوس وقتئذٍ جالساً على عرش المملكة. فلما نمى الى مسامعهِ خبر بان أُستاذهُ مقيم مع الاباء السياح كاحد ملكه الله بعث اليهِ رسلاً من قبلهِ واعطاهم رسالةً بها يطلب دعاءهُ ومالاً وافراً ليصطنع بهِ الى المساكين والرهبان. فلم يردّ القديس جواباً للملك بالكتابة بل قال للرسول قل للملك اني اطلب من الله تعالى ان يغفر لهُ خطاياهُ وان يلهمهُ تدبير ملكهِ بحسب مرضاة الله تعالى ولاني قد متُّ عن العالم لا اقدر ان اتصرَّف بصدقاتهِ. قال هذا ثم خلّى سبيل الرسول

وبعد ذلك اتى رسول آخر من رومية وقدَّم لهُ وصيَّة أَحد المتوفين من اقربائهِ بها وهبهُ جميع تركتهِ الوافرة. فسأَلهُ القديس متى مات ذلك الرجل. فاجابهُ الرسول منذ نحو سنة. فقال القديس ناشدتك الله قل لي كيف أَرثهُ وقد متُّ انا منذ احدى عشرة سنةً

ولاجرم ان شدة اجتهاد ارسانيوس في اكتساب الفضيلة لم ترتخِ قطُّ بل انهُ كان يحث نفسهُ اوقاتاً كثيرة ويحدّثها قائلاً يا ارسانيوس لماذا جئت الى هنا وماذا عسى ان تطلب في البرية ولماذا زهدت في الدنيا وترهبت فهلاَّ تسير اذاً سير راهب

روى بعض المؤرّخين قال زار يوماً جماعة من عظماء بلاط الملك ارسانيوس فلم يفتح لهم باب قلاَّيتهِ ولما دخلها بغتةً بطريرك الاسكندرية هو وجماعةٌ من اهل الدولة وطلب من القديس ان يخاطبهم بما يفيد الخلاص. قال القديس مخاطباً البطريرك اني اسأَل قدسكم قبل افتتاح الخطاب ان تعاهدني انك ستتبع مشورتي فعاهدهُ البطريرك على ذلك حينئذٍ قال لهُ القديس متى عرفت يا سيدي أَين ارسانيوس فلا تذهب الى ذلك المكان ابداً. ونُقل انهُ وجد ذات مرة على باب قلايتهِ امرأَة شريفةً اتت من رومية لتفتقدهُ وتطلب صلواتهِ فقال لها القديس بغيظٍ مقدّس قد كان الاجدر بكِ يا امرأَة ان تلبثي مختلية في بيتكِ ومهتمة بتدبيرهِ ولا تأْتي هذا الموضع فتقلقي الرهبان. قال هذا وانصرف عنها. فصرخت المرأَة وهي باكية وقالت لهُ عاهدني بانك فلما يكون

ستذكرني امام الرب في حين صلاتك. فاجاب القديس وقال لها اسأَل الله تعالى بكل شوق قلبي ان يمحو ذكركِ من عقلي الى الابد. فرجعت المرأَة الى المدينة مضطربة من جواب القديس كل الاضطراب حتى اعترتها حمى شديدة ولم تزل تعذبها حتى قيل لها انهُ لم يرد بجوابهِ ان يحرمها من صلواتهِ بل يمحو من ذهنهِ تذكار منظرها فقط

فشاخ القديس ارسانيوس وضعفت قوتهُ فنقلهُ الرئيس الى منزلٍ قريب من الكنيسة والزمهُ بان يستعمل فراشاً ووسادةً. ثم زارهُ يوماً احد السياح ولما وجد القديس جالساً على فراش مغطى بطنفسةٍ صغيرة متكئاً على وسادة استغرب ذلك وتذمَّر عليهِ في قلبهِ. فاطلع الرئيس على شكهِ وقال لهُ سرًّا ماذا كنت تفعل يا اخي في الدنيا قبل ان تترهب قال السائح كنت راعي بقر حينئذٍ. قال لهُ الرئيس اما ارسانيوس هذا فكان من عظماء قصر الملك الذين يتقلبون في الرخاء ويُحفُّون بالاكرام على غاية الرفاهية فهل يجوز لك ان تستغرب فيهِ استعمال فراش حقيرٍ ووسادة دنية وذلك في زمن شيخوختهِ انت الذي عند ترهبك وجدت في الرهبانية ما لم تجدهُ في بيتك

وكان القديس ارسانيوس على حبّهِ الاختلاء والاعتزال عن الناس يقابل جميع السياح ويتلطف معهم في الكلام وما كان أَحلى حديثهُ وشهد الحكمة يقطر منهُ وقد بلغ بهِ تواضعهُ الى ان كان ينسب ما لهُ من الحسنات والفضائل الى شخصٍ آخر. فقال ذات يومٍ ان سائحاً من السياح رأَى رؤيا كبيرة الفائدة وهي انهُ اذ كان مواظباً على الصلاة سمع هاتفاً يقول لهُ اخرج وانظر ما يفعل الناس فخرج فاذا برجلٍ زنجيٍّ يحتطب حطباً ولما همَّ ان يحمل ما احتطب وجد الحمل ثقيلاً فعاد يحتطب ايضاً ويزيد على الحمل. ثم التفت السائح فرأَى انساناً يستقي ماء من بئر بعناءٍ شديدٍ ثم يسكبهُ في جرن مثقوب. ثم وجه ذلك السائح نظرهُ الى ناحية اخرى فابصر شخصين راكبين جوادين وممسكين بايديهما طرفي خشبة طويلة تجاههما وكانا كلاهما يتنازعان على دخول الهيكل قبل الاخر. ثم سمع هاتفاً يقول لهُ ان الذي يقطع الحطب ويزيد على حملهِ الغير المحتمل هو رمز الى من قد كثرت خطاياهُ وهو عوضاً عن ان يبادر ويعترف بها يزيد على حملهِ خطايا جديدة. اما الذي يستقي الماء ويسكبهُ في جرن مثقوب فهو

رمز الى من يتعب جدًا ويعمل كثيرًا من الاعمال الحميدة ولكنهُ انما يعملها لمقاصد دنيوية كنيل الجاه وانتشار الصيت وغير ذلك مما ينوبهِ كثيرون من فاعلي الخير فانهُ لذلك لا يربح شيئًا من الله البتة. واما الشخصان الحاملان على منكبيهما خشبة طويلة فهما رمز الى السياح المتكبرين الذين يحملون نير مذهبهم الثقيل وهم خالون من روح الخضوع والتواضع فلا يدخلون هيكل الله السماوي

وقد ذكر هذا القديس ما جرى لهُ ونسبهُ الى غيرهِ ايضًا فقال ان شيخًا من السياح كان سالكًا طريق البرّ والامانة وكان غبيًا وقد خدعهُ الشيطان بوساوسهِ فشكّ في حقيقة وجود جسد السيد المسيح ودمهِ الاقدسين في سر القربان المقدّس وذكر شكهُ لاثنين من الاباء السياح فاخذ ذانك الابوان يثبتان لهُ هذه الحقيقة الدينية بشهادات الكتاب المقدس واذ لم يقنع بما اوردا لهُ من الادلة والشواهد جعلا يصليان وطلبا من المخلص ان يرحم هذا الشيخ المسكين. ولما اجتمع السياح في الكنيسة يوم احد ليحضروا القداس الالهي وبعد ما لفظ الكاهن على الخبز كلمات التقديس ظهر في الجوهر طفل بارع في الجمال وكان الشيخ المذكور يتفرّس فيهِ متعجبًا ورأى لما مدَّ الكاهن يدهُ لكسر الخبز المقدس اذا بملاك نزل من السماء وفي يدهِ سكين ليذبح بهِ الطفل وجرى دمهُ في الكاس. ولما تقدم الشيخ الى الكاهن ليتناول القربان المقدس رأى في يد الكاهن لحمًا ابيض ملطخًا بدم ولما فتح فاهُ ليتناولهُ رأى اللحم استحال الى شكل الخبز الاعتيادي فآمن الشيخ ايمانًا منزهًا من كل شك وتناول القربان المقدس شاكرًا الله الذي ازال اضطرابهُ وشكهُ

فاستمرَّ القديس ارسانيوس في البرية عائشًا على الارض كانهُ ملك هبط من السماء وكان قد بلغ من العمر خمسًا وتسعين سنة ولم يشعر الا بضعف الشيخوخة فأُوحي اليهِ من قِبل الله تعالى ان قد دنا رحيلهُ من الدنيا فجمع تلاميذهُ وانبأَهم بموتهِ وحثهم على الفضيلة واوصاهم بان يربطوا رجلهُ بحبل من بعد موتهِ و يسحبوهُ هكذا الى الجبل ويقبروهُ فيهِ ولا يدعوا احدًا يعرف موضع قبرهِ. فلما قرب من الموت استحوذ عليهِ خوف عظيم واخذ يرتعب ويرتجف ويبكي حتى تعجب تلاميذهُ وقالوا لهُ ما هذا يا ابانا أَيمكن ان تخاف من الموت. فاجابهم قائلاً اعلموا اني منذ ترهبت لم ازل اخاف من الموت. الاَّ انهُ بعد ذلك هدأَت نفسهُ وانتقل الى رحمة الله في اليوم التاسع عشر من شهر تموز في السنة ٤٤٥

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس منصور دي بول (راجع وجه ٨٧٧)

اليوم العشرون

وفيهِ ترجمة القديسة مرغَريتا البتول الشهيدة

ان هذه القديسة المسماة عند الروم مارينا وُلدت بانطاكية موضع بيصيديا وكان والداها وثنيين وماتت امها بعد الولادة بزمن يسير اما ابوها المدعو اديسيوس فكان احد كهنة الوثنيين المتقدمين فسلم ابنتهُ لامرأَة مسيحية لترضعها ففرحت المرضعة جدًا راجيةً ان هذه الابنة تصير مسيحية. فربَّتها باهتمام وعلمتها منذ الصغر قواعد الايمان المسيحي فتعلمتها برغبةٍ قلبية وكانت تمارس رياضات الديانة المسيحية بروح النشاط ثم اعتمدت وعند اعتمادها نذرت لله بتوليتها ثم لم تزل تقول كل يوم لنعم الله عليَّ ان اكابد اشدَّ العقوبات واموت من اجل السيد يسوع المسيح

اما والدها اديسيوس فلما شعر بذلك ارجعها الى منزلهِ وشرع يُهينها على كونها مسيحية مستهزئًا بها فقالت لهُ الفتاة بجراءَةٍ واحتشام. ابي هل اصبت في انك حقرتني واهنتني لاني نصرانية ولاني قبلت الديانة التي لا خلاص الاَّ بها. فاغتاظ منها وقتئذٍ وقال لها بغضب. ما هذا الكلام ياشريرة أهكذا تجهلين نفسكِ اذكى مني وأَعلم. فاعلمي يقينًا انكِ تصيرين عبدة في بيتي وتباشرين احقر الخدم ان كنتِ لا تعبدين آلهتي. فقالت لهُ القديسة. اجعلني عبدتك وعبدة اماءك واما آلهتك فلا يمكن ان اعبدها ما حييت ولو اذقتني العذاب الاليم. فطردها حينئذٍ من امامهِ وجعلها احدى جواريهِ ولانها كانت تحتمل هذا بسرور نزع عنها اثوابها الثمينة وأَلبسها ثيابًا حقيرة واخرجها من بيتهِ. فخرجت البتول بابتهاج شاكرةً الله تعالى على خروجها من بيت متدنس بعبادة الاوثان ورجعت الى بيت مُرضعها وبقيت عندها ترعى غنمها بكل اعتناء واحتشام كراحيل اخرى شاكرة الله على ذهابها الى البرية حيث كانت تمارس رياضات عبادتها بكل حرّية وتناجي الله عزَّ وجلَّ. فاستمرَّت القديسة هكذا في الفيافي مناجيةً الله ترعى غنم مُرضعها

فاتفق يومًا انها ساقت الغنم الى مرعى قريب من الطريق فاجتاز من هناك اولبريوس حاكم البلد وقائد

جيش الملك فلما ابصرها اذهلهُ حسن بهائها الباهر فامر جنودهُ ان ياتوا بها ففعلوا ذلك والقديسة تتسلح بتضرعاتها الباطنة الى الرب . فذهبوا بها الى الحاكم الذي وقف وسألها كثيرًا واجابتهُ البتول عن كل شيءٍ لاسيما عن كونها مسيحية . فعزم اوليبريوس على ان يتخذها زوجة لهُ فامر جنودهُ بان يمضوا بها الى انطاكية وفي الغد امر باحضارها . فلما وقفت البتول لديهِ ورآها ثانيةً التهب قلبهُ بنار حبها اكثر من ذي قبلٍ فاخذ يخاطبها بلطافةٍ ثم قال لها . اعلمي يامرغريتا اني اصيرك اشرف نساء الاقليم باتخاذي اياكِ زوجة ان جحدتِ مذهب المسيحيين وتبعتِ مذهبي . فاجابتهُ البتول قائلةً اني منذ تنصرت ارتفعت الى اسنى المراتب وأمجدها . فاوغر ذلك صدر الحاكم وقال اياكِ العناد في امر المذهب اجحدي دينكِ الان والّا فتذوقين اشد العذاب . فقالت تلك الفتاة . قد طال ما انتظرت ما تهددني بهِ ايها الحاكم

فلما ابطأ الشُرَط ان نزعوا الثياب عن البتول التي هي كالحمامة الوضيَّة وضربوها بالسياط بقساوة وحشية لاغاية بعدها حتى جرى دمها في المنزل . اما هي فكانت تحتمل كل هذا صامتةً غير متحركة . فلما عجز الجلادون عن الضرب التفتت الى اوليبريوس الحاكم وقالت لهُ اخترع انواعًا أُخر من العذاب وعذبني بها فان سيدنا يسوع هو معي وهو يقويني واني لواثقةٌ بانك لاتقدر ان تنتصر عليَّ . فأزبد الحاكم من شدة رجزهِ وامر الشُرَط فشرعوا يوثقون ايدي البتول ورجليها بحديد محمي ثم جددوا جراحاتها بضربهم اياها بزناجير الحديد ثم القوها في السجن

فبعد انتصارها على قوة غضب البشر ظفرت وهي في السجن بالشيطان ايضًا لانهُ لعنهُ الله دخل السجن بشكل تنين عظيم ليبتلعها اما القديسة فالتجأت على عادتها الى سلاح الصلاة وعملت علامة الصليب المقدس فهرب عنها ابليس ولكنهُ رجع يحاربها بعد مدةٍ فظهر في السجن بصورة انسان كلِبٍ يريد ان يفترسها فعملت ثانيةً القديسة اشارة الصليب المقدس ونجت بالكلية من محاربة الشيطان . وليس هذا فقط بل ان السجن امتلأ نورًا سماويًا وسمعت هاتفًا يهنئها على انتصارها ويحثها على الثبات وحينئذٍ شفيت كل جراحاتها وعاد جسدها كما كان قبل العذاب بل ازداد جمالًا

وقد زاد عشق اوليبريوس ايضًا لها فعاد يخاطبها بعذوبة الكلام وقال لها اني لافرح جدًا يامرغريتا لان آلهتنا رحموكِ فشفوكِ فهلمي الان لنذهب الى هيكلهم لكي تشكريهم على ما تكرَّموا بهِ عليكِ . فاجابتهُ البتول باستهزاء قائلةً أيمكن لآلهتك المركبين من حجارة اونحاس وما شاكل ذلك ان يُعطوا العافية وليس لهم عافية . ان الذي شفاني ليس هو الهًا صنعتهُ يد بشر بل انما هو عروس نفسي يسوع المسيح خالق كل البرايا . فاوغر ذلك صدر اوليبريوس وكان كنارٍ تأججت في فؤادهِ فما لبث ان امر الجنود فاحرقوا ثدييها وخاصرتها بشموعٍ متقدة ثم انزلوها في بحيرة ماءٍ باردٍ ليشتد عليها الالم . اما القديسة فكانت تظهر علائم السرور على محياها وتبين تعزية قلبها بواسطة كلامها الحلو اللذيذ . ثم تزلزلت الارض وسُمع هاتف من السماء يقول تعالي ياقرينة السيد المسيح الامينة العزيزة . وهذا الصوت سمعهُ الشعب الحاضر وكثيرون منهم تنصروا . فخاف الحاكم من ان الشعب يتعصب عليهِ فامر بقطع راس البتول وهكذا نالت مرغريتا اكليل المجد الابدي

اليوم الحادي والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس فيكتور الشهيد

ان القديس المذكور وُلد بمرسيليا مدينة بفرنسا في المائة الثالثة للمسيح والظاهر انهُ نشأ في الديانة المسيحية وتعلَّم قواعدها وتأدَّب بآدابها وعرف جميع عادات النصارى ولما صار شابًا اكتتب في عسكر السلطان وصار جنديًا لكونهِ شريف النسب وبحيث اظهر مرارًا كثيرة شجاعة في الحروب ظن المؤرخون انهُ لذلك لُقب بفيكتور الذي معناهُ منتصر . فذهب الملك مكسيميانوس الى مرسيليا نحو السنة المائتين والتسعين وكان منذ ثلث سنين او اربع فتك بجماعة الجنود الشهداء المعروفة باسم اللاجون الصعيدي كما سيأتي ذكرهُ في ترجمة القديس موريسيوس وكان المسيحيون حينئذٍ قد تكاثروا هناك جدًا . اما هذا الملك فاذ كان من اكبر اعداء الديانة المسيحية امر الجنود على اثر دخولهِ المدينة ان يقبضوا على كل المسيحيين فامتلأت السجون منهم عما قليل . فقام حينئذٍ القديس فيكتور كقائد الجندية المسيحية وكان يفتقد كل يوم المؤمنين في سجونهم ويعزيهم ويقويهم ويسعفهم بمشوراتهِ وصدقاتهِ وعلى هذا النسق كان يصنع مع المؤمنين

الذين في البيوت. ولم يقتصر على ذلك بل رافق الشهداء الى المقتل لكي يشجعهم ولم يفارقهم حتى فارقوا الدنيا

وكان يجاهد في حروب الله فقبضوا عليهِ وسلموهُ الى اثنين كانا يتوليان امر المدينة استيريوس واوتيكوس وبحيث كانا يعتبران القديس ويحبانهِ استقبلاهُ باكرام ومحبة وقالا لهُ لا نظنّ يا صديقنا الحبيب المحترم اننا صدّقنا ما اتهمك بهِ الجمهور من انك صرت مسيحيًّا فاننا عارفون سعة علمك وفطنتك فذلك مما يقال ولا يُخال وكيف يمكن ان صاحب العقل الثاقب والعلم الواسع والسجايا الحميدة نظيرك ايها الخلّ الوفي بل كيف يتصوَّر انهُ يتبع مذهبًا مبنيًّا على الجهل والهوان اي مذهب المسيحيين الذي من شأنهِ ان يسقطك عن كرامتك ويزجك في هاوية البلايا بل في الموت ايضًا. فقال لهما القديس اني لم اشكّ قط في صفاء ودادكما ولهُ في قلبي احسن موقع بيدَ ان ظنكما بان اتباعي الديانة المسيحية انما هو ضرب من المحال ليس هو الاّ ظن الذين لم يتنوَّروا بعدُ بنور الايمان فارجوكما ان راق باعينكما ان تفحصا مثلي عن عظمة اسرار هذه الديانة التي اثبتتها الادلة الواضحة والعجائب المذهلة ثم تأملا بامعان النظر نقاوة التعليم المسيحي وقدس وصاياهُ ومشوراتهِ وقابلا ذلك بكثافة المذهب الوثني ونجاسة تعليمهِ وشرّ فروضهِ وسننهِ فيظهر لكما حينئذٍ وجه الحق والصواب فتعرفان ان اعتقادكما ضلال مبين ينتهي باصحابهِ الى البوار والهلاك وان لا حق ولا خلاص الاّ في الديانة المسيحية. فتذمَّر الحاضرون عليهِ وقال لهُ الحاكمان اما بعد ان اقررت بالديانة المسيحية علانيةً وازدريت آلهتنا فلا بد ان نرفع امرك الى الملك قيامًا بواجبات وظيفتنا ونعرض لجلالتهِ كل ما جرى منك بالتفصيل. فقال القديس افعلا ما تريدانهِ فهاءنذا قد تجندت للسيد المسيح ابن الله وساكون امينًا الى الابد

فلما عرف الملك ما كان أمر بان يُربط القديس بيديهِ ورجليهِ ويُسحب هكذا في جميع شوارع المدينة فربطوهُ وسحبوهُ كما امر وابتدأ الوثنيون يشتمونهُ ويهينونهُ ويضربونهُ. فبعد ان انجرّ على هذه الحال في كل شوارع المدينة وصبغها بدمهِ وظنّ الشعب انهُ قد مات او اشرف على الموت احضروهُ ثانيةً امام استيريوس واوتيكوس فقال لهُ احدهما ان ما المّ بك من البلايا انما هو لاجل عنادك واصرارك على رأيك وعدم اذعانك لمشورة اصدقائك فهل يمكن بعد ذلك ان تستمرّ على سوء رأيك. فاجابهُ القديس فيكتور قائلاً ان الحال الذي انا فيها لا تقتضي ان ترثيا لي من اجلها لان رجاءي السعادة الابدية في دار الخلود يصيّر كل هذه البلايا شهية عذبة. فقال لهُ استيريوس ليس من الحكمة في شيء ان تترك خيورًا حاضرة لاجل رجاء باطل في الحصول على خيور وهمية ومستقبلة. فاضطرمت في قلب القديس نار الغيرة فهتف قائلاً ان مكابدة المسيحيين كل نوع من اعذبتهم القاسية الشديدة بالسرور والصبر الجميل على رجاء السعادة الدائمة في جنة الفردوس دليل واضح على ان رجاءهم ثابت مبني على الحق. كيف لا وانتم المشاهدين شجاعتهم وصبرهم وابتهاجهم وهم يتقلبون في كل صنفٍ من العذاب لا تستدلون بذلك على قدرة الههم الضابط الجميع فمن الثابت المقرَّر ان مثل ذلك من الصبر والسرور والشجاعة فوق امكان الطبيعة البشرية

فحدث فيما بين الشعب مشاجرة لان بعضًا كانوا يمدحون القديس وقومًا كانوا يشتمونهُ ويطلبون قتلهُ فخاف الحاكمان ان ينتشب النزاع وفيما هما يتشاوران على نوع تعذيبهِ وقتلهِ وقع بينهما ايضًا مشاجرة وخرج اوتيكوس من المحفل وترك الحكم لاستيريوس. فتمّم الحكم وقتئذٍ استيريوس وبامرهِ تقدَّم الجلادون وعلَّقوا القديس برجليهِ ويديهِ على خشبة واخذوا يشجُّونها بكل عزمهم وقوَّتهم وكان القديس يحتمل هذا العذاب الشديد بصبر عجيب طالبًا من سيدنا يسوع المسيح ان يقوّيهُ بنعمتهِ فظهر لهُ رب المجد وفي يدهِ صليب وبارك عليهِ فامتلأ للحال قلبهُ سرورًا وأشعر بعذوبة روحية ازالت عنهُ كل وجع. فلما رأى استيريوس الحاكم ان القديس يحتمل هذا العذاب كمن لا يشعر بهِ امر بان يُلقى في سجن مظلم فلما دخل السجن اضاء فيهِ نور ابهى من نور الشمس فاذ عاين ذلك الحرَّاس وهم اسكندر واولجينوس وفيليسيانوس خرُّوا على قدمَي القديس معترفين انهُ لا اله الاّ الاله الذي يعبدهُ المسيحيون فعلمهم القديس فيكتور قواعد الايمان ثم اتى كاهن وعمَّدهم

وفي الغد عرف الملك مكسيميانوس ان الثلثة الحرَّاس قبلوا الايمان المسيحي فامر بقطع رؤسهم وتعذيب القديس فيكتور اشد العذاب. فخرج الاربعة الشهداء ولما وصلوا الى حيث اجتمع كل الشعب تقدم الثلثة الحرَّاس بشجاعة وقدَّموا

روسهم للجلاّد ونالوا اكليل المجد الابدي. اما القديس فيكتور فامروا بيديهِ ورجليهِ على الدولاب بشدة ثم جلدوهُ باعصاب بقر بافراط القساوة وكان يقاسي ذلك بصبرٍ اندهش منهُ الوثنيون حتى آمن من اجلهِ كثيرون منهم ولذلك ارجعوهُ الى السجن. فظن الملك ان سبب ثبات القديس في ايمانهِ انما هو رخاوة الحاكمين في تعذيبهِ فامر ان يُعذَّب امامهُ فاقتحم العذاب بمثل الجراءة الاولى فامرَّوهُ ثالثةً على دواليب ثم أتوا بمذبحٍ ووضعوا عليهِ صنمًا وحينئذٍ قام الملك وامر القديس بغضب مرعب ان يقدّم للصنم بخورًا فاشتدّت غيرة القديس فيكتور وتقدَّم الى المذبح ورفسهُ برجلهِ فهوى الصنم ساقطًا. ذاك ولا يخفى ما حصل للملك من الغيظ ومن ثمَّ امر بان تُقطع رجلهُ التي قلب بها الصنم عن المذبح فقدَّمها هو بشجاعة فزاد رجز الملك ولما كان القديس يظهر بعد ذلك ما بقلبهِ من الفرح والسرور أمر الملك بان يُطرح تحت حجر الرحى ليطحنهُ كالحنطة فوضعوهُ تحت الحجر وطفقوا يديرونهُ عليهِ الّا ان الحجر انكسر سريعًا فاخرجوا القديس من تحتهِ وكانت قد انسحقت عظامهُ ولانهُ كان يتحرَّك قليلاً بعدُ قطعوا رأسهُ بامر الملك وحينئذٍ سُمع هاتف من السماء قائلاً لقد انتصرت يانصر يافيكتور الكلي الغبطة لقد انتصرت. وكان ذلك في انتهاء الجيل الثالث

اليوم الثاني والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة مريم المجدلية

يجب على كل مؤمن ان يرغب في قراءة ترجمة هذه القديسة التي اراد ابن الله ان ينتشر خبرها في المعمورة كلها. لان الله اظهر في هذه القديسة من الحنوّ على الخطأة ما لا يُدرَك وجزيل قدرة نعمتهِ المنتصرة التي تنشل النفوس من حمأة الدنس الى قمة البرّ والكمال. فاعلم ان القديسة مريم المجدلية وُلدت ببيت عنيا وهي قرية قريبة من اورشليم. وقد قال القديس انطونينوس ان والدها كان يُدعى سيروس ووالدتها اوفكاريا وكانا عند اليهود جزيلي الاعتبار لاجل شرف اصلها وغزارة اموالها وكان لها ابن واحد وهو القديس لعازر وبنتان وهما القديسة مرتا والقديسة مريم المجدلية. فبعد موت والديهم قسموا الوراثة فاخذ لعازر ومرتا اراضي ميراثهم التي ببيت عنيا وحول اورشليم اما مريم فاخذت قصرًا في الجليل يقال لهُ مجدل واراضيهِ ومن هذا القصر اتخذت اسم مجدلية. فخرجت المجدلية من بيت اخيها واختها وسكنت قصرها وانما كان قصدها في الخروج من بينها حبُّ اللهو والترفُّهات الدنيوية ولانها كانت ذات عقل ثاقب وقلب ليّن وجمال باهر وكثيرًا ما كان الناس يتردّدون الى منزلها افتضح صيتها سريعًا. ويقول لوقا البشير انها كانت خاطئةً مشهورة (لوقا ٧: ٣٧) وذلك اما لانها كانت متلوثةً بحمأة الدنس كما زعم كثيرٌ من القديسين والعلماء واما لانها بمعاشرة الناس على غير احتشام ولاجل حبها زينة الجسد شككت الناس وقدَّمت لهم سببًا ليظنوا انها خاطئة (١)

وكان في ذلك الزمان قد ابتدأ سيدنا يسوع المسيح ان يظهر في العالم ولا سيما في اليهودية وكان لعازر ومرتا ممن تتلمذوا لهُ وهما كانا يطلبان منهُ تعالى ان يرحم اختهما ويردّها الى التوبة فسرَّ يسوع بطلبتهما. كيف لا والحال انهُ جلت رحمتهُ نزل من السماء من اجل خلاص الخطأة وليطلب الخراف الضالة. فذهب الى نواحي عبر الجليل وبدأ يعظ في بيت صيدا وكفرناحوم ولانهُ كان يعمل هناك عجائب خرجت المجدلية لاجل التفتيش والبحث لتعاين السيد المسيح وتسمع تعليمهُ وقد تمَّ حينئذٍ ما قال سليمان الحكيم وهو ان الملك يبدّد كل شر بنظرهِ (امثال ٢٠: ٨) ولانهُ لما اتت مريم المجدلية وجلست تجاه يسوع لكي تسمع تعليمهُ نظر اليها يسوع وبنظرهِ الالهي اراها رداءة سيرتها وسوء حال نفسها ثم حرَّك قلبها بنعمتهِ الى بغض الخطيئة والندامة عليها واظهر لها أحشاء رحمتهِ وكم كان يشتهي خلاصها. فاذ نظر هكذا ملك المجد الى المجدلية تبدد حالاً الظلام المحيط بعقلها وابصرت هونة شرورها القبيحة فاستكرهتها وبنور النعمة الذي ضاء لها ابصرت مزيد رحمة يسوع على الخطأة والتائبين وانعطافهُ اليهم وفي ذلك الحين نفسهِ تابت المجدلية وفرحت بتوبتها ملائكة السماء بل رب الملئكة ايضًا

ولانها كانت خاطئة مشتهرة ارادت ان تشهر توبتها ايضًا فيذكر الانجيل المقدس ان احد الفريسيين دعا السيد

(١) حاشية. اننا في ترجمة القديسة مريم المجدلية قد تبعنا الراي الراجح عند الاباء اللاتينيين وهو انهُ لا فرق بين المجدلية او المرأة الخاطئة واخت مرتا ولعازر

المسيح في ذلك اليوم لياكل في بيتهِ فارتضى تعالى بذلك فنزل الى بيتهِ لياكل مع عدة خطأة ابتغاء ان يجذبهم الى التوبة باظهار توبة امرأة خاطئة مشتهرة. فبينما هم ياكلون هناك كانت المجدلية تفتش عن مخلص نفسها لتتوب بين يديهِ فلما عرفت انهُ دخل بيت سمعان الفريسي حملها الشوق الى ان تجثو على قدميهِ وتتعبّد لهُ بكل خلوص قلبٍ وان تذهب الى بيت الفريسي ولا تبالي باحتقار الناس لها وسوء ظنونهم فيها. فذهبت ودخلت بيت ذلك الفريسي وجثت امام الجمهور على قدمَي السيد المسيح وشرعت تبلّهما وتدهنهما بالطيب. اما يسوع فكان يفعل نظير ذلك في قلب المجدلية فافاض عليها نعمة التبرير ومسح بها كل ادران خطاياها وسكب على نفسها طيبًا سماويًا اعني بهِ طيب التقديس وجعلها تلميذتهُ العزيزة

اما سمعان الفريسي فكان يقول في نفسهِ متذمّرًا على يسوع لو علم يسوع مَن هذه الخاطئة لم يدعها تلمسهُ. على ان سمعان كان احد اولئك العابدين المتكبرين الذين يشمئزّون من الخطأة والقائلين في سفر اشعيا النبي ابعد عني لا تقرب مني لانك نجس (٦٥: ٥). فاظهر ابن الله الوهيتهُ بكشف افكار سمعان فضرب مثلاً وقال غريمان عليهما لمرابٍ دين على احدهما خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون دينارًا واذ لم يكن لهما ما يوفيان وهبهما ما كان عليهما فايهما اكثر حبًّا لهُ. اجاب سمعان وقال اظنّ ان الذي وُهب لهُ الاكثر. فقال لهُ السيد المسيح حسنًا قلت ثم التفت الى المجدلية وقال لسمعان اترى هذه المرأة اني لما دخلت بيتك لم تسكب على رجليَّ ماء وهذه بلّت رجليّ بدموعها ومسحتهما بشعر رأسها. انت لم تقبّلني وهذه منذ دخلت لم تكفف عن تقبيل قدميّ. انت لم تدهن رأسي بزيتٍ وهذه دهنت قدميّ بالطيب. فلا تعجبنّ اذًا من قولي انهُ قد غُفرت لها خطايا كثيرة لانها احبّت كثيرًا. فكانهُ يقول انهُ حتى الان لم يجيء احد اليّ الاّ ليستشفي من مرضٍ جسدي اما هذه فانها اتت لكي تطلب شفاء نفسها ثم التفت الى مريم المجدلية وقال لها مغفورة لكِ خطاياكِ اذهبي بسلام (لوقا ٧: ٥٠)

اما المجدلية فبعد ان اظهرت توبتها هكذا عادت الى بيت عنيا وسكنت مع اخيها واختها واخبرتهما بما صنع يسوع معها برحمتهِ وما صنعتهُ هي لتظهر توبتها. ومن ذلك اليوم أُولعت بمحبة يسوع حتى انها لم تزل متفكرة فيهِ تعالى ومتأملة كمالاتهِ ومتذكرة حسناتهِ وشاكرة فضلهُ ومحبة بكل عواطف قلبها.

فلما افتقدها يسوع في بيت اخيها واختها وكانت مرتا تبذل جهدها في اصلاح ما تقدمهُ لهُ تعالى من الاطعمة كانت المجدلية جالسة على قدميهِ تسمع كلامهُ كجلوس التلميذ تجاه معلمهِ. فتشكت مرتا من اختها وقالت لسيدنا يسوع المسيح يارب أَما يعنيك ان اختي تركتني اخدم وحدي فقل لها ان تعينني. فحامى الرب عن المجدلية وعلّم اختها حقيقةً هي كمختصر التعليم المسيحي بقولهِ لها مرتا مرتا انكِ مجتهدة ومهتمة باموركثيرة والحاجة الى واحدٍ. فكانهُ تعالى يقول لها حسب تفسير القديس اغستينوس اني لا الوم نشاطكِ في خدمة جسدي الا اني لا امدح انهماككِ في هذه الخدمة. اما مريم اختكِ فقد اختارت لها الحظ الافضل كمالاً وهو تقديس نفسها وهذا النصيب لا يُنزع منها (لوقا ١٠: ٤٢)

وفي انجيل يوحنا (فصل ١١) انهُ حينما كان السيد المسيح مترددًا في الجليل مرض لعازر مرضًا ثقيلاً ولما اشتد عليهِ المرض ارسلت اختاهُ اليهِ تقولان لهُ ياسيدنا هوذا الذي تحبهُ مريض ولكنهما لم تقولا لهُ بعد هذا الكلام تعالَ مسرعًا اليهِ لكي تشفيهُ لانهما كانتا تعرفان انهُ لكي يشفي اخاهما لا يحتاج ان يجيء اليهِ بل كان يكفي ان يقول كلمة واحدة وهو في الجليل وبها يبرأ لعازر وهو ببيت عنيا فاكتفتا بان تخبراهُ تعالى بمرض لعازر فقط لان الله كما قال القديس اغستينوس لا يهمل من يحبهُ. وقد صار كذلك لان السيد المسيح اتى الى بيت عنيا لا لكي يشفي لعازر كما طلبت الاختان لانهُ سمح ان يموت بل لكي يصنع افضل ما طلبتا اي لكي يقيمهُ من الموت. فلما قرب يسوع من بيت عنيا كانت المجدلية حزينة جدًّا ولذلك كان كثيرون من اليهود قد جاؤا ليعزُّوها. فلما سمعت بقدوم يسوع وقالت لها اختها ان المعلم قد جاء يدعوكِ نهضت للحال مسرعةً وذهبت اليهِ وجثت على رجليهِ وهي تذرف دموع المحبة والحزن وقالت لهُ ياسيد لو كنت ههنا لم يمت اخي. فلما رأى يسوع المجدلية حزينة باكية على موت اخيها رقّ لها قلبهُ الرؤوف وبكى معها ولاجلها كما تقول الكنيسة في قداس عيدها واقام اخاها من الموت. فليتعزَّ اذًا الخاطئ عند ما يعاين رب المجد يظهر مثل هذه المحبة لامرأة خاطئة بعد توبتها

وبعد زمن قليل وقبل الفصح الاخير بستة ايام تقدّم رجل غني من بيت عنيا يُقال لهُ سمعان وكان يسوع قد

ابرأهُ من البرص فصنع لهُ وليمة وكان لعازر واحدًا من المتكئين معهُ نقدس اسمهُ ومرتا كانت تخدم اما مريم فافتكرت كيف تكرم حبيب قلبها امام الجمهور وتظهر محبتها لهُ فاخذت رطل طيب ناردين خالص كثير الثمن ودهنت بهِ قدمَي يسوع ومسحتهما بشعر رأسها فامتلأ البيت من رائحة الطيب فقال يهوذا الاسخريوطي لِمَ لم يُبَعْ هذا الطيب بثلثمائة دينار ويُدفع للمساكين. اما السيد المسيح الذي قد برَّر المجدلية لما كان الفريسي يظن انها لم تزل خاطئة بعدُ وحينما تشكَّت مرتا اختها وحسبتها بطَّالةً نهض ثالثةً لابرئها مما نسبهُ اليها احد تلاميذهِ من الاسراف والتبذير بل اراد ان يمدحها جميع المؤمنين على صنيعها هذا الى انقضاء العالم فلذا قال لهُ السجود: دعوها انما حفظتهُ ليوم دفني لان المساكين عندكم في كل حين وانا لستُ عندكم في كل حين (يوحنا ١٢ : ٧ و٨)

الان محبة المجدلية نحو سيدنا يسوع المسيح ظهرت على نوع عجيب في حين آلامهِ تعالى وموتهِ وبعد موتهِ بحيث رافقتهُ الى جبل الجلجلة وكانت تحت صليبهِ متألمة معهُ لانها حينما بكت على خطاياها عند رجلي يسوع وغفر لها لم تكن تعرف في ذلك الوقت ما كان سيحتملهُ تعالى من الاهانات والاوجاع من اجل خطاياها ولكن لما رأت جسدهُ ممزَّقًا بالسياط ومعلَّقًا على خشبة بمسامير ومكللاً بالشوك ومطعونًا بحربةٍ وابصرت دمهُ كلهُ جاريًا على الارض ونظرت ربَّها رب المجد يذوق الالم بسبب ذلك كانت حينئذٍ المحبة تعذب قلبها على نوع لا يكاد يوصف حتى انهُ لم تستطع ان تفارق جسد حبيبها. ومن ثمَّ عزمت على اختلاسهِ من ايدي الحرَّاس ولما أتت القبر وابصرت ملكين عند القبر وسألاها عن سبب بكائها قالت لهما انهم حملوا سيدي ولست اعلم ابن وضعوهُ. ذلك وان هذه الرؤيا لم تلهها عن موضوع حبها ولذا اسرع يسوع لتعزيتها. قال يوحنا البشير (فصل ٢٠) انها لما قالت هذا التفتت الى ورائها فرأت يسوع واقفًا ولم تعلم انهُ يسوع فقال لها يسوع يا امرأة لماذا تبكين مَن تطلبين. فظنت انهُ البستاني فقالت لهُ ياسيدي ان كنت انت حملتهُ فقل لي ابن وضعتهُ وانا آخذهُ. فقال لها يسوع يامريم فالتفتت هي وقالت لهُ رابوني الذي تفسيرهُ يامعلم. قال لها يسوع لا تلمسيني لاني لم اصعد بعد الى ابي بل امضي الى اخوتي وقولي لهم اني صاعد الى ابي وابيكم والهي والهكم. فجاءت مريم المجدلية واخبرت التلاميذ انها رأت الرب وانهُ قال لها هذا (انتهى)

ولكون المجدلية بعد صعود السيد المسيح لم تزل تظهر امام الجميع فرط حبها لهُ تقدَّس اسمهُ قبض عليها اليهود وعلى اخيها واختها وقيل انهم انزلوهم في سفينة قديمة مكسرة بغير قلوع وتركوهم هكذا في وسط البحر ليغرقوا وقد ادخلوا في السفينة ايضًا مارسيلا أمة الاختين مريم ومرتا تلك التي لما سمعت يومًا السيد المسيح يعلم الشعب صرخت قائلة طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين رضعتهما. ثم ان اليهود جعلوا في هذا المركب القديس مكسيموس احد تلاميذ يسوع السبعين والقديس كاليدونيوس الذي وُلد اعمى وفتح يسوع عينيهِ. وانما عزم اليهود على اخراج لعازر من بلاد الشرق مع اهل بيتهِ والذي وُلد اعمى لان وجودهما في اليهودية كان شهادة واضحة على لاهوت المسيح لكل من يراهم. وانما لم يهتوهم لمجرَّد خوفهم من انهُ تعالى يقيمهم من الموت لاجل حبهِ الخاص لهم

فسار المركب من دون قلوع ووصل الى مدينة مرسيليا بسلام واعجوبة وصولهِ هذه ادهشت عقول الناس الا انهم ازدادوا تعجبًا لما سمعوا خبرهم وتعليمهم واختبروا برارتهم فقبل كثيرون الايمان المسيحي. ولما رأت القديسة مريم المجدلية اهل المدينة قد تعبَّدوا لسيدنا يسوع المسيح وان اخاها لعازر صار اسقفهم خرجت من المدينة وانفردت في مغارة على قمة جبل لكي تفتكر في حبيب قلبها وتناجيهُ وقد قضت ثلثين سنة في ذلك المكان وقضت أجلها في هذه الرياضات الملتكبة رياضات المحبة. وقد كُشف عن قبرها الكريم وعن ذخائرها الطاهرة في اواسط الجيل الثالث عشر في مكان دُعي فيا بعد باسم القديس مكسيموس ولا تزال موجودة حتى الان في كنيسةٍ بُنيت على اسم القديس المذكور بنفقة كرلوس ملك نابولي (١)

اليوم الثالث والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس ابوليناريوس الشهيد

اعلم ان هذا القديس كان احد تلاميذ سيدنا يسوع

(١) حاشية. زعم قوم من الروم ان لعازر ومرتا ومريم المجدلية ماتوا في افسس غير ان ذلك لم ينقلهُ احد من علماء الكنيسة الشرقية الاَّ بعد الانشقاق

المسيح وبعد صعوده تعالى الى السماء ذهب مع القديس بطرس الى انطاكية ومن هناك رافق الرسول الى رومية ثم ارسلهُ القديس بطرس الى مدينة رافينا من بلاد ايطاليا فانطلق القديس وعند دخولهِ هذهِ المدينة امسكهُ غلام اعمى وطلب منهُ صدقةً فحزن القديس على شقاء ذلك الغلام وصلَّب عليهِ فانفتحت عيناهُ وأبصر. فاجتمع حولهُ اناس كثيرون واخذهم العجب فقال لهم حينئذٍ القديس ما قد قالهُ بطرس الرسول بمثل هذا الحادث يا ايها الرجال ما بالكم مبهوتين متعجبين من هذا ولماذا تنظرون اليَّ كاني بقوتي وسلطاني فتحت عينَي هذا الغلام. اعلموا اني فتحت عينيهِ باسم يسوع المسيح الاله مخلص البشر الذي بهِ وحدهُ يخلص الناس. فآمن الغلام وابوهُ ابريناوس الذي كان جنديًا وآمن معهُ كل اهل بيتهِ

فانتشر في المدينة خبر هذه الاعجوبة فارسل احد قواد الجيش وطلب من القديس ان يأتي فيشفي امرأتهُ المشرفة على الموت فمضى القديس وصلى من اجلها وعمل فوقها علامة الصليب المقدس ثم امرها باسم السيد المسيح ان تقوم فشفيت المرأة للحال وقامت وجثت على قدمَي القديس مع زوجها وكل اهل بيتها واعترفوا انهُ لا اله الاَّ الاله الذي يعبدهُ المسيحيون ثم اعطى القديس بيتًا في المدينة ليجتمع فيهِ المؤْمنون فكثرت الرعية جدًّا في قليل من الزمان ورسم اكليريكيين لخدمة الكنيسة وتدبيرها

فلما انتبه كهنة الاوثان على ان رعيتهم قد قلَّت وقل دَخلهم ايضًا ذهبوا الى الحاكم واشتكوا على القديس ابوليناريوس فارسل وقبض عليهِ. ثم كلمهُ بلطافةٍ قائلاً لماذا تضر جوبيتر المعظم لانهُ هكذا كان يُدعى اكبر آلهة الوثنيين فاجابهُ القديس قائلاً اني لست اعرف جوبيتر الذي تقول عنهُ اني سببت لهُ ضررًا. فقال لهُ الحاكم تعالَ معي فأُريكهُ ثم اخذهُ الى هيكل الآلهة فلما رأى القديس الصنم وكثرة الاواني الذهبية والشعب ساجدين لهُ تأسف وبكى وقال أهكذا تسجدون لاعمال ايديكم وتقدمون للفضة والذهب عبادة مختصة بالله وحدهُ خالق السماء والارض. فلما سمع الوثنيون هذا الكلام تعصَّبوا ووثبوا على القديس وضربوهُ بعصي وحجارة ولما حسبوا انهُ قد مات سحبوهُ خارج المدينة وتركوهُ فاتى المؤْمنون فوجدوهُ حيًّا فحملوهُ الى بيت ما ثم عُوفي وعاد يعظ ايضًا كعادتهِ

فشعر بذلك رجل شريف يقال لهُ بونيفاسيوس اي عرف بان القديس حي فارسل اليهِ امرأتهُ وطلبت منهُ ان يجيء الى بيتها ويشفي رجلها الذي خرس وعجزت عن شفائهِ الاطباء ولم ينجع بهِ علاج. فذهب القديس وعند دخولهِ بيت بونيفاسيوس وجد هناك جارية كان قد دخلها الشيطان فوقف القديس وامر الشيطان باسم سيدنا يسوع المسيح ان يخرج من جسد الجارية فخرج للحال وحينئذٍ خرَّ بونيفاسيوس على قدمَي القديس وفي الحين انطلق لسانهُ وتكلم حسنًا فآمن جميع الذين في ذلك البيت وتبعهم في الايمان خمسمائة نفس واكثر. فتعصَّب الوثنيون على القديس ثانيةً وقبضوا عليهِ وضربوهُ واخرجوهُ من المدينة فانفرد القديس في مغارة وكان المؤمنون يأتونهُ من اجل تعليمهِ وتنصَّر على يدهِ كثيرون

فلما رأى القديس ان الكنيسة قد تأسست في مدينة رافينا انطلق الى اقليم اميليا وطاف فيهِ وباقاليم اخر وبشر هناك بالانجيل المقدس واثمر كلامهُ في كل مكان غير ان مؤمني مدينة رافينا لفرط حبهم لراعيهم ورئيسهم الروحي ارسلوا اناسًا ليفتشوا عنهُ ويرجعوهُ اليهم فرجع القديس وقبلهُ المسيحيون بفرح عظيم. وحينئذٍ ارسل روفوس احد قضاة رومية الذي كان وقتئذٍ في رافينا وطلب منهُ ان يأتيهُ ليشفي ابنتهُ التي على خطر الموت. فذهب القديس وحين دخولهِ بيت روفوس ماتت تلك الابنة ولما كان روفوس رجلاً وثنيًا ظن ان آلهتهُ غضبوا عليهِ واماتوا ابنتهُ فشتمهُ بغيظٍ ورجز. اما القديس فقال للقاضي بهدو واحتشام ان قامت ابنتك بقوة السيد المسيح فهل تدعها تتنصَّر. فاقسم روفوس وقال لهُ ان قامت ابنتي من الموت فاني لا امنعها ان تتنصر وانا امدح الايمان المسيحي. فصلى القديس ابوليناريوس ثم قال لتلك الفتاة الميتة بصوتٍ عالٍ ايتها الابنة قومي باسم سيدنا يسوع المسيح واشكري المحسن اليكِ فقامت الفتاة حالاً وصرخت قائلةً لا اله الاَّ اله ابوليناريوس. فمن اجل هذه الاعجوبة آمنت الابنة وامها وآمن اكثر من ثلثمائة من اهلها وصار روفوس من محبي القديس لكنهُ كان يساعدهُ سرًّا خوفًا من الملك اما ابنتهُ فتممت حياتها في البتولية

فذهب بعض الى الملك واخبروهُ ان ابوليناريوس قد فتن اكثر شعب رافينا بسحرهِ وجعلهم يبغضون آلهة الملك ليعبدوا اله المسيحيين فارسل الملك عند ذلك مَرسلينوس

الى رافينا ليصلح الامور وعند وصولهِ الى المدينة قبض الحاكم على القديس ابوليناريوس وعذبهُ عذابًا اليمًا مختلف الانواع وكان ذلك انهُ امر ان يربطوا يديهِ ورجليهِ ففعلوا وجرّوهُ على دواليب. ثم ضربوهُ بالسياط بقساوة وسكبوا على جراحاتهِ ماء مغلى. ولان القديس لم يزل يرتل تسابيح الهية كسروا فكيهِ. ثم نفاهُ الى بلاد المشرق فركب السفينة وتبعهُ ثلثة من الاكليريكيين وبعد ما سارت السفينة قليلاً غرقت وغرق جميع من كان فيها ما عدا القديس والاكليريكيين الثلثة وجنديين قبلا الايمان المسيحي. فوصل القديس الى اقليم ميسيا حيث شفى من البرص انسانًا شريفًا وبشّر بالانجيل واثمر كلامهُ جدًّا. ثم مضى الى اقليم تراسيا وعند دخولهِ المدينة ابكم صنم الوثنيين الذي كان الشيطان يجيب بفمهِ كل من يسألهُ. فاضطرب الوثنيون من ذلك وقدموا للصنم ذبائح كثيرة وسألوهُ عن سبب سكوتهِ. فاجابهم الصنم انهُ دخل المدينة ابوليناريوس تلميذ بطرس رسول المسيح وهو الذي ابكمني وسدَّ فمي. فقبضوا على القديس وضربوهُ وألقوهُ في سفينة كانت ذاهبة الى بلاد ايطاليا

فرجع الى مدينة رافينا بعد ثلث سنين وقبلهُ المؤمنون بفرح عظيم وشرع يعلمهم كعادتهِ وفيما هو يقدس على المذبح دخل الوثنيون الكنيسة فضربوهُ بعصيّ ثم جرّوهُ الى الحاكم المدعو توروس ففرح الحاكم لانهُ كان يشتهي منذ زمن مديد ان يرى هذا الرسول الصانع العجائب فجمع في بيتهِ كل اصدقائهِ ثم قال للقديس مقدمًا لهُ ابنهُ هوذا ابني الذي وُلد اعمى فان فتحت عينيهِ وصار يبصر فاني انا وكل اهل بيتي نقبل ايمانك والاَّ فالقيك في النار. فعمل القديس علامة الصليب المقدس على عيني الصبي وقال لهُ باسم سيدي والهي يسوع المسيح تنفتح عيناك فحالاً ابصر وآمن كثيرون. اما توروس فلخوفهِ من ان الوثنيين يقتلون القديس فاسكنهُ في منزل لهُ بقرب المدينة وباشر هناك القديس وظيفة رسالتهِ اربع سنين

فشعر بذلك كهنة الاوثان واخبروا الملك فسباسيانوس فامر بان يخرج القديس ويُنفى. الاَّ ان الوثنيين باذن الحاكم قبضوا عليهِ وضربوهُ على باب المدينة حتى ظنوا انهُ قد مات فاتى بعض من المؤمنين وحملوهُ الى بيت قريب من ذلك المكان فبقي حيًّا سبعة ايام أخر محثًّا المؤمنين على الثبات في الايمان حتى الموت. وتُوفي بين ايدي تلاميذهِ في اليوم الثالث والعشرين من شهر تموز نحو السنة الرابعة والسبعين او الخامسة والسبعين

اليوم الرابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة خرستينا البتول الشهيدة

ان القديسة خرستينا وُلدت بتوسكانا بمدينة غير موجودة الان كانت تُدعى تيرو على شاطي بحيرة بُلسينا وكان والدها اوربانوس حاكم المدينة من اكبر اعداء المسيحيين وكان يضطهدهم بكل رجز قوتهِ ولم يكن يدع يومًا يمضي بغير تعذيب واحد منهم. اما خرستينا فكانت تحضر المحفل حينما كان والدها يسأل المسيحيين ويعذبهم وكانت تتعجب من احتشامهم وشجاعتهم في احتمال اشد العذاب. فاستخبرت عنهم سرًّا وقيل لها انهم مسيحيون وانهم يعبدون الهًا واحدًا و يرذلون عبادة الاوثان وانهم يترجّون بعد الموت حياة ابدية سعيدة ومن اجل ذلك يزدرون خسران هذه الحياة. فاتفق بعد ذلك بتدبير العناية الالهية ان خرستينا وجدت نساء مسيحيات فتعلمت منهم قواعد النصرانية واعتمدت سرًّا وكانت يومئذٍ ابنة عشر سنين لا اكثر

ودخلت ذات يوم المكان الذي كان فيهِ ابوها يحفظ الاوثان الفضية والذهبية فكسرتها واعطت الكسر للمسيحيين الفقراء فلما تحقق ابوها ان ابنتهُ فعلت ذلك وتنصّرت احتدم غيظًا فعزم على تعذيبها وقتلها ان لم ترتدَّ عن تلك الديانة الجديدة. فقال لها انطقي بالحق ياخرستينا وقولي لي هل انتِ كسرتِ وسحقتِ اوثاني وآلهتي التي يُسجد لها. فاجابتهُ البتول ما هولاء الآلهة الذين تسحقهم وتلاشيهم يد ابنة عشر سنين. فتلهب قلب ابيها غيظًا وقال لها اعلمي ياشريرة يامنافقة انكِ تموتين تحت العذاب الشديد ان كنتِ لا ترذلين مذهب المسيحيين وتعبدين آلهتنا. فاجابتهُ البتول انك تقدر ان تعدمني هذه الحياة ولكنك لا تقدر ان تفصلني عن الايمان بسيدي يسوع المسيح واني لواثقة باني بنعمتهِ اظفر باشد عذاب. حينئذٍ امر ابوها بتعذيبها فضربوها اولاً بسياط ولما رآها هادئة تحت الضرب كانها لم تُضرب امر الجنود بان يزقوا لحمها بمخالب حديدية الى ان تموت تحت العذاب. فلما امتلأ البلاط من دمها ومزّق لحمها اخذت جزءًا منهُ وأرتهُ اباها

باحتشام وشجاعة مقرونة بابتهاج. فخجل اوربانوس ابوها وامر بان تُلقى في السجن

غير انهُ ما لبث ان اخرجها من ذلك السجن ولما رآها ثابتة في الايمان حكم عليها بتعذيب مريع فعلقوها على دولاب وادارها عليهِ فوق نار ملتهبة وكانوا يسكبون عليها زيتًا ليشووها وجمهور من الناس يشاهدون هذا المنظر المرثي لهُ. وفيما كانوا يديرون البتول هكذا طارت النار بغتةً من مركزها واحرقت كثيرين من الوثنيين فخزي الحاكم ابو الشهيدة وارجعها الى السجن. واذا بملك اسطع ضياءً من الشمس ظهر في السجن وعزّى القديسة وشفاها شفاءً تامًّا. فمضى حينئذٍ الحرّاس الذين ابصروا هذه الاعجوبة واخبروا بها اوربانوس الحاكم فاشتد غضبهُ على ابنتهِ وامر بان يُعلَّق في عنقها حجر الرحى وتُطرح في البحيرة وهكذا يبيد ذكرها. فلما القوها هكذا في وسط المياه ظهر حينئذٍ ملك على وجه الماء واوصل القديسة الى حافة النهر وخلصها من الغرق. فلما سمع هذا ابو الشهيدة جُنَّ غضبًا وسخطًا ومات

فخلفهُ في الحكم ديون واخترع عذابًا لم يُسمع لهُ اسم بعد لينتصر بهِ على شجاعة هذه الشابة المسيحية فوضعوا امامها سرير حديد ملتهبًا محمّى ثم امر المغتصب بان تُمد على هذا الفراش الناري اما هي فلم تدع احدًا يمسها بل صلّبت وامتدّت من تلقاء نفسها على ذلك السرير قائلة هوذا السرير الذي تضعون فيهِ طفلة صغيرة وُلدت بالمعمودية ميلادًا روحيًا منذ سنة واحدة فاعلموا اني متنعمة هنا كاني في حمام. فامر الحاكم في ذلك الوقت بان تُقاد خرِسْتينا الى هيكل الاوثان اغتصابًا لكي تقدم بخورًا للآلهة فاجتمع كل شعب المدينة ومضوا بها فلما ادخلوها الهيكل سقط الصنم على الارض وانسحق وفي تلك الدقيقة عينها سقط ديون الحاكم من منبرهِ ميتًا. فخرَّ الجلادون على قدمي القديسة وصرخوا قائلين لا اله الَّا الاله الذي يعبدهُ المسيحيون وقال كذا ثلثة آلاف من الوثنيين وطلبوا المعمودية واطلقوا القديسة

ذلك وبعد قليل خلف ديون في الولاية يوليانوس فقبض على القديسة خرِسْتينا وامرها ان تسجد للاوثان فأبت البتول ذلك وقالت لا اسجد الَّا لالهٍ واحد خالق السماء والارض فالقوها على الفور في اتون ملتهب حيث بقيت خمسة ايام كانها في جنة النعيم ولم تزل تبارك الله تعالى وترتل لهُ تسابيح الشكر فاخرجوها بعد ذلك من الاتون ثم دلّوها بمشورة ساحر الى بئر مملوءة حيات وعقارب وما اشبه ذلك من الحشرات والهوام السامة غير ان تلك الحشرات لم تدنُ منها. ولانهُ رأى البتول ترتل تسابيح اله المسيحيين ليلاً ونهارًا امر بقطع لسانها فقُطع الا انها بقيت بعد ذلك تتكلم كما كانت من ذي قبل فقالت بصوت عالٍ ان الهنا في السماء والارض وكل ما يشاء يصنع اما اوثان الامم فما هي الَّا فضة وذهب اعمال ايدي الناس. فانذهل الجميع من كثرة هذه العجائب وآخر الامر علّقوها على خشبة ورشقوها بالسهام. وهكذا انتقلت الى دار النعيم في اليوم الرابع والعشرين من شهر تموز في انتهاء المائة الثالثة للمسيح

اليوم الخامس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس يعقوب الرسول الملقب بالكبير

انما لقب القديس المذكور بالكبير لأنهُ دُعي الى الرسالة قبل القديس يعقوب الرسول الاخر ابن كلاوبا اسقف اورشليم الذي قد كتبنا ترجمتهُ في اول يوم من شهر ايار. اما هذا القديس المذكور الذي كان ابن زبدي وصالومي واخا القديس يوحنا الانجيلي فوُلد ببيت صيدا مدينة بالجليل وزعم قوم انهُ قد وُلد قبل سيدنا يسوع المسيح بعشر سنين او اثنتي عشرة سنةً وان اخاهُ يوحنا وُلد بعد السيد المسيح وكانا مقيمين مع ابيهما ببيت صيدا حيث ولد ايضًا القديس بطرس وفيلبس واندراوس الرسول. وقال القديس ابيفانيوس ان القديس يعقوب كان تلميذ القديس يوحنا المعمدان وانهُ هو احد التلميذين اللذين اتيا السيد المسيح من قبل معلمهما

فاتفق يومًا ان ذينك الاخوين اي يعقوب ويوحنا كانا يصطادان مع ابيهما في بحيرة جناصرت المسماة ايضًا بحيرة طبرية وكان بطرس في سفينة يصيد معهم وكان سيدنا يسوع المسيح يعلم على شاطئ هذه البحيرة. ولما كان الجموع يزدحمون ليسمعوا تعليمهُ صعد الى سفينة بطرس وطلب منهُ ان يبعد عن الشاطي فلما تقدم الى العمق والسفينة الاخرى التي فيها ابنا زبدى مع ابيهما قال لهم يسوع القوا شباككم للصيد. فقال لهُ بطرس يامعلم قد تعبنا الليل كلهُ ولم نأخذ شيئًا ولكن بكلمتك انا القي الشبكة ولما فعل ذلك اخذ سمكًا كثيرًا جدًّا وكادت شبكتهم تتمزق فاشار الى شركائهِ الذين

في السفينة الاخرى ان يأتوا فيعينوهم فملأوا السفينتين من السمك وكادتا تغرقان من كثرتهِ فاعتراهم التحير فتركوا شباكهم وتبعوهُ (لوقا ٥ : ١ — ١١) غير انهم لم يتتلمذوا لهُ وقتئذٍ ولكن بعد قليل وجد يسوع على شاطئ بحر الجليل سمعان بطرس واندراوس اخاهُ فقال لهما اتبعاني فاصيّركما صيادي الناس فتركا شباكهما للوقت وتبعاهُ فلما سار بهما قليلاً رأى يعقوب بن زبدى ويوحنا اخاهُ فدعاهما وللوقت تركا شباكهما وكل شيءٍ لهما وتبعاهُ (متى ٤ : ١٨ — ٢٢)

وقد ذكر القديس مرقس (فصل ٣ : ١٧) ان السيد المسيح دعا القديس يعقوب والقديس يوحنا اخاهُ بوانرجس اي ابني الرعد. ذلك ويليق بنا في هذا المقام ان ننبه على ان المسيح لم يغيّر اسماء رسلهِ الا ثلثة وهم بطرس وسماهُ صفاة بحيث قد جعلهُ الصخرة الاصلية التي بنى عليها بيعتهُ ويعقوب ويوحنا اشارةً الى انهما يكونان بعد القديس بطرس اعز اصدقائهِ تعالى وقد جعلهما والرسول بطرس اشرف من بقية الرسل الكرام لانهُ لما اقام بنت رئيس الجماعة من الموت لم يدخل من رسلهِ البيت غير بطرس ويعقوب ويوحنا وهكذا لما تجلّى على الجبل واظهر جزءًا من مجد لاهوتهِ لم يأخذ معهُ سواهم . وكذلك انفرد بهم وحدهم في بستان الجسمانية ليتأهب للموت بحزن مميت . وقد لقب القديس يعقوب واخاهُ وسماها ابني الرعد اشارةً الى انهما اخصُّ قواد جيشهِ وبتعليمها سيرعبان الناس كالرعد ويردّان الخطأة الى التوبة . وقد ذكر ان القديس يعقوب الذي اتخذتهُ مملكة اسبانيا شفيعًا لها بعبادة مخصوصة ظهر مرارًا كثيرة في طليعة الجيش ضاربًا البرابرة اعداء المملكة بالرعود والصواعق

روى لوقا البشير (فصل ٩) قال انهُ لما كان السيد المسيح ماضيًا الى اورشليم قرب عيد الفصح ارسل بعضًا من تلاميذهِ الى مدينة السامرة ليعدُّوا لهُ ماكلاً واذ لم يقبل اهل المدينة المسيح اغتاظ ابنا الرعد فطلبا اذنًا من السيد المسيح جلت رأفتهُ ليحدرا نارًا من السماء تهلكهم . فنهرهما السيد الرؤوف وقال لهما لستما تعرفان من اي روح انتما اني لم آتِ لاهلك الناس بل لكي اخلصهم فكانهُ تعالى يقول ان الروح الذي يحرككما هو روح الانتقام لا روح الوداعة روح ايليا والعهد العتيق لا روحي روح العهد الجديد

فلما اشعر الاخوان بان السيد المسيح يحبهما محبة خصوصية راما التقدم على بقية الرسل . ولا ريب ان ذلك كان دليلاً على ضعف فضيلتهما بحيث لما سمعا معلمهما يعد رسلهُ بانهم يجلسون على اثني عشر كرسيًا ليدينوا اثني عشر سبط اسرائيل طلبا منهُ تعالى بواسطة والدتهما صالومي ان يجلس احدهما عن يمينهِ والاخر عن يسارهِ . فاجاب يسوع وقال لهما لستما تعرفان ما تطلبانهِ لانكما انما تطلبان رتبًا زمنية ارضية ولا جرم ان مُلكي ليس من هذا العالم واذا طلبتما رتبًا روحية سماوية فلستما تطلبان هذا كما يجب اذ انكما تطلبان ان تنالا اكليل المجد قبل الانتصار . ثم قال السيد لهُ المجد اتقدران ان تشربا الكأس التي اشربها فقالا اننا نستطيع ان نشربها وحينئذٍ شرع يسوع يعلم رسلهُ روح انجيلهِ المقدس روح الاتضاع بقولهِ لهم انكم علمتم ان روساء الامم يسودونهم وعظماءهم مسلطون عليهم فلا يكون هكذا فيما بينكم لكن من اراد ان يكون فيكم الاكبر فليكن لكم خادمًا (متى ٢٠ : ٢٥)

هذا ما ذكرهُ الكتاب المقدس عن القديس يعقوب

اما المؤرخون الكنائسيون فرووا ان هذا الرسول بعد حلول الروح القدس على التلاميذ كرز في مدن اليهودية والسامريين الى حين وفاة القديس اسطفانس ثم انطلق الى مملكة اسبانيا وبشر هناك بالانجيل المقدس وفيما كان يطوف في المدن والقرى ويعلم ظهرت لهُ الجليلة مريم البتول على عمود من برفير ولم تكن قد انتقلت بعد وامرتهُ بان يبني هناك كنيسة على اسمها ووعدتهُ بانها تعتني اعتناء خصوصيًا بهذه المملكة التي سيغرس في قلوب اهلها اكرام والدة الله عليها اشرف السلام . والحاصل ان الرسول بنى هذه الكنيسة واقام تلاميذ لتعليم الشعب ثم عاد الى اليهودية وباشر هناك وظيفة رسالتهِ بكمال الغيرة فبتعليمهِ وعجائبهِ وفضائلهِ كان ينتشر الانجيل جدًا

وهذه كلها كانت تلهب غضب اليهود على القديس فلما كان ذات يوم يعلم الشعب ويثبت لاهوت سيدنا يسوع المسيح بشهادات الانبياء قبضوا عليهِ وضربوهُ بقساوة ثم اخذوهُ الى هيرودس اغريبا ملك اليهودية ولما كان اليهود يبغضون الملك المذكور بغضًا شديدًا انتهز هذه الفرصة المناسبة لمرغوبهِ لانهُ كثيرًا ما كان يشتهي ان يستعطف خواطرهم فارضى اليهود وسلمهم الرسول ليقتلوهُ وحكم بقطع راسهِ . وقد روى المعلّم اكليمنضوس الاسكندري الذي كان على نهاية المائة الثانية ان الجندي الذي قبض على القديس لما

رأى شجاعة الرسول وجميل صبرهِ جثا على رجليهِ واستغفر منهُ واعترف علانيةً بالديانة المسيحية ومن اجل ذلك حكم عليهِ ايضًا بقطع الراس ووقع استشهادهما قرب عيد الفصح في السنة الثالثة والاربعين للمسيح

اما تلاميذهُ فنقلوا ذخائرهُ الى اسبانيا حيث دُفن فيما بعد بامر الملك الفونسيوس الملقب بالعفيف بمدينة قُمْبوستيلا وهناك لا يزال الزائرون يزورونها ويكرّمونها وما برح الله يمجد رسولهُ بعجائب عديدة

اليوم السادس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة حنة ام سيدتنا مريم العذراء

كفى بالقديسة حنة تقريظًا ومدحًا ان نقول انها امّ والدة الله وجدّة سيدنا يسوع المسيح وكفى بابنتها فخرًا ورفعةً انها والدة الله . ومما لا ريب فيهِ ان الله تعالى أنعم عليها بكل الفضائل والمناقب اللائقة بمن ستكون جدّة ابنهِ . فهذه القديسة المعظمة المسماة من الاباء القديسين تعزية بني الله المنتظرين مجيء المسيح وُلدت ببيت لحم في سبط يهوذا وكان على رأي القديس إيبوليتوس في تاريخ نيقيفوروس كتاب ٢ فصل ٣ ابوها ماثان كاهنًا من سبط لاوي ومن آل هرون . واما والدتها فكانت مريم من سبط يهوذا وكانا كلاهما معتبرين ممدوحين لاستقامة سيرتهما ووُلد لهما ثلث بنات فالاولى دُعيت مريم باسم والدتها وتزوّجت كلاوبا وولدت القديس يعقوب الصغير والقديس يهوذا الرسولين والقديس سمعان الذي جلس على الكرسي الاورشليمي بعد وفاة القديس يعقوب واخيرًا ولدت يوسف الملقب ببرسبا او صديق . فهؤلاء هم الذين يُدعون في الانجيل المقدس إخوة السيد المسيح بحسب عادة اليهود . اما بنت ماثان ومريم الثانية فكانت تُدعى سوبا ومنها ولدت القديسة اليصابات والدة القديس يوحنا المعمدان . والبنت الثالثة التي وُلدت من مريم وماثان فهي القديسة حنة التي قال فيها يوحنا الدمشقي ان الله تعالى قد انتخبها منذ الازل لتكون امًّا للتي كانت ستلد مخلص البشر . وقد افاض الله تعالى على هذه الابنة من صغر سنها نعمًا وافرة غزيرة عند والديها افضل من بقية اخواتها لانهُ كان يتلألأ في جميع افعالها الاحتشام والحكمة والعبادة وقد جعلها الروح القدس الذي كان يدبّرها ويقدّس قلبها نموذجًا لجميع البنات بحيث كانت تجتنب معاشرة الناس وتحب الانفراد ومناجاة الله تعالى بالصلاة

ولا جرم انها بمثل هذه الرياضات المقدسة كانت تستعد لزواج سعيد فتزوَّجها القديس يواكيم وكان ناصريًا من ذرية داود وبذلك الاقتران الحسن السعيد اتحدت الذرية الكهنوتية مع الذرية الداودية ولا شبهة ان ذلك الزواج المقدس لا نظير لهُ على الارض البتة لان الروح الذي كان قد قدّسهما قبل اقترانهما زادهما برًّا وفضلاً . وبمشاهدتهما اليومية كانا يحثان بعضهما بعضًا على الفضيلة ويرتقيان فيها يومًا فيومًا . وقد استمرًّا هكذا سنين عديدة ممارسين افعال العبادة بخلوص النية والنشاط وكان الله لذلك العهد لم يرزقهما ولدًا ولا جرم ان ذلك كان صعبًا جدًّا على القديسة حنة لاجل الوعد الالهي لسبطها انهُ منهُ اي من ذرية داود يولد المسيح المشتهى . غير ان القديسة كانت تُطبق ارادتها على ارادة الله تعالى ومع ذلك لم تزل تطلب منهُ جلت مراحمهُ ان ينعم عليها بثمرة . وفيما كانت تصلي يومًا في الهيكل بهذا الغرض تذكرت ما جرى لحنة امرأة القانة ووالدة صموئيل وانها لما كانت على مثل هذه الحال صلّت في الهيكل بدموع وقبل الله صلاتها فصلت ايضًا هذه القديسة اعني بها حنة وطلبت من الله ان ينعم عليها بثمرة ونذرت بانها اذا ولدت نقدّم لله ثمرة بطنها لتكون مختصة بخدمة هيكلهِ المقدس فارسل الله اليها والى القديس يواكيم ملكًا اخبرهما ان صلواتهما قد قُبلت

وبعد قليل حبلت القديسة حنة بتلك البتول المصطفاة ولكن بغير دنس الخطيئة الاصلية فامتلأت الارواح السماوية فرحًا وتعجبًا لانهم وجدوها في تلك الدقيقة الاولى من حياتها اقدس من اعظم القديسين . فان كان القديس يوحنا المعمدان في مستودَع امهِ قد اشركها في ما نال من النعم فياليت شعري كم يكون مقدار النعم التي حازتها القديسة حنة حينما وجدت في بطنها تلك البتول الجليلة التي امتلأت نعمةً في بدء حياتها ومن ذا الذي يصف عظمة ابتهاج نفس القديسة حنة لو عرفت ان التي قد حبلت بها ستكون والدة الله . وقد تمّ فرحها اذ ولدت بعد تسعة اشهر لحبلها هذه الابنة المباركة التي كان العالم منتظرًا ان ينال بها بركات الخلاص الابدي

ولله ما قال في هذا المقام القديس يوحنا الدمشقي نحو القديسة حنة والقديس يواكيم ونصهُ ان كانت الشجرة من ثمرتها تُعرف فاذا يكون برّكما وما اعظم قدسكما لا ريب ان قدسكما كان يضاهي برّ ابنتكما التي ستكون والدة مقدس القديسين فلانكما استمررتما سائرين في طريق القدس والبرارة أهّلكما الله لان تأتيا بكنز البتولية . ثم قال مخاطبًا القديسة حنة الطوبى ثم الطوبى لثدييكِ اللذين رضعتهما من كانت سترضع مخلص البشر فانكِ مغبوطة حقًّا لانكِ ولدتِ ابنة ممتلئة من البركات والدة ابن الله . فيا السموّ سعادة حظكِ وهل يمكن انهُ تعالى يرفض طلبة جدّتهِ (انتهى كلام الدمشقي) ويتحصّل من ذلك انهُ يجب على المؤمنين ان يحترموا جدًّا القديسة حنة جدة ابن الله وام والدتهِ وان يلتجئوا اليها بمزيد الطمأنينة

فبعد ثلث سنين قدّمت القديسة حنة ابنتها للهيكل لتكون مختصة لخدمتهِ تعالى كحسب نذرها الاَّ انها اذ لم تقدر ان تفارقها كل المفارقة كما لا يقدر صاحب الكنز ان يفارقهُ اتت اورشليم مع زوجها وسكنا هناك بقية ايام حياتهما . وقد تُوفّي القديس يواكيم بعد قليل من ذلك وكان قد بلغ من العمر ثمانين سنة وبعد موتهِ ماتت ايضًا القديسة حنة وهي ابنة تسعٍ وسبعين سنة وكانت العذراء ابنتها قد بلغت السنة الحادية عشرة من حياتها

اليوم السابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس بندليمون الشهيد

ان القديس المذكور وُلد بنيكوميدية مدينة باقليم بيثينية وكان الملك ديوكليسيانوس قد اختارها لسكناهُ . اما والدهُ فكان وثنيًا واسمهُ اوستورجيوس واما والدتهُ فكانت مسيحية واسمها اوبولا وقد ربّت ابنها هذا منذ نعومة اظفارهِ على قواعد النصرانية ثم ماتت قبل ان يكبر في سنهِ . فبقي تحت تدبير ابيهِ الوثني وعبد معهُ الاصنام ولانهُ كان يحب العلوم طبعًا درسها باجتهاد وتمهّر فيها ولا سيما علم الطب . فاختارهُ الملك غالاريوس مكسيميانوس طبيبًا لهُ واحبهُ جدًّا لاجل حذاقتهِ في علم الطب ولاجل لطافة اخلاقهِ ولين عريكتهِ

وفيما كان مشتغلاً بطلب الكرامات العالمية ومتغاضيًا كل التغاضي عما كان قد تعلمهُ من والدتهِ المسيحية نظر الله تعالى اليهِ بعين رحمتهِ وبتدبيرهِ الالهي فاجتمع يومًا بشيخ مسيحي يُقال لهُ ارمولاوس وهذا الشيخ لما رأى مناقب بندليمون الحميدة النادر وجودها خطر لهُ انهُ ليس ببعيدٍ عن قبول النصرانية فقال لهُ لستَ على ما اراك وثنيًا الاَّ بحسب الظاهر ولا شك انك اطلعت على بطلان عبادة الاوثان . فاجابهُ بندليمون اني اعترف لك ان والدتي كانت مسيحية وانها ربّتني في هذه الديانة الاَّ انها ماتت قبل ان ينغرس تعليمها ويتأصّل في قلبي . فقال لهُ الشيخ فانت اذًا لست بوثني طوعًا ولا فحصت عن بطلان عبادة الاوثان انت يا ذا الذي وهبهُ الله عقلاً ثاقبًا حاذقًا وزيّنهُ بمعارف واسعة . فقال بندليمون اني حتى الان لم ادرس الا علم الطب علم غالينوس واسكولابيوس وقد اكّد لي معلمون ان مَنْ برع فيهِ اضحى قادرًا ان يشفي جميع انواع الامراض والاسقام . فقال لهُ الشيخ ارمولاوس . حقًّا انك تمهّرت في الطب ولكن ماذا يفيدك هذا العلم بدون ان تعرف علمًا تخلّص بهِ نفسك فاعتقد ان سيدنا يسوع المسيح هو طبيب ارفع بما لا يقدّر من غالينوس واسكولابيوس اذ باسمهِ القدوس يبرأ كل مرض وكل سقم . وعلم الاطباء لا يبحث الاَّ في حفظ العافية التي لا بد من ان تزول سريعًا اما تعليم معلمنا الالهي فانهُ يمنح حياة مؤبدة . ثم لما رأى ارمولاوس ان كلامهُ يؤثر في قلب بندليمون اخذ يورد لهُ اخصّ حقائق الديانة المسيحية وخاطبهُ مرّةً اخرى في هذا المعنى . فقال لهُ بندليمون قد ثبت عندي ان لا خلاص الاَّ بالنصرانية

ثم عزم بندليمون عزمًا متينًا على ان يترك عبادة الاوثان وبينما كان يفتكر في امرهِ هذا وهو سائر في الطريق رأى غلامًا ميتًا لان افعى كانت قد لدغتهُ والتفّت على جسدهِ فرام ان يختبر قدرة السيد المسيح فدنا منهُ وقال لهُ قم ايها الغلام من الموت باسم يسوع المسيح ولتمُت باسمهِ ايضًا الافعى التي لدغتك وقتلتك . فاشتدّ ذلك الغلام للوقت وقام وماتت الافعى . فلما رأى الطبيب بهذه الاعجوبة قوة ابن الله الضابط الجميع مضى سريعًا الى ارمولاوس واخبرهُ بما كان وطلب المعمودية ولفرط ما فرح بعد قبولهِ هذا السر عاد راجعًا الى بيتهِ ليشرك اباهُ في سعادتهِ . ولما كان ابوهُ عنيدًا في رايهِ مصرًّا على ضلالهِ طفق ابنهُ يعمل فكرهُ ويكدّ عقلهُ ليجد وسيلةً يجذبهُ بها الى الايمان فظهر امام ابيهِ بوجهٍ حزين عبوس ولما سألهُ والدهُ عن سبب حزنهِ هذا قال لهُ اني متكدّر من قِبل خرافات

ديانتنا لاننا نعتقد ان آلهتنا كانوا بشرًا ولا ارى من اين تألهوا أوَ ليس ضربًا من الجهل الذي يضادّ كل صواب ان نقدّم قرابيننا للاصنام التي لها اعين ولا تبصر ولها آذان ولا تسمع ولها ارجل ولا تمشي. ذلك وماذا أقول عن فساد مذهبنا الذي يأذن ان تصنع من مادة واحدة كالحديد والنحاس طناجر وآلهة. وكان ابو الطبيب يسمع صامتًا باهتًا واذا باناس اتوا بشخص الى بندليمون وقالوا له ان الاطباء الذين عالجوا عيني هذا اضرُّوا بنظرهِ فعمي بالكلية. فقال بندليمون للاعمى اذا ارتضيت ان تتنصَّر فاني اشفيك حالاً قال هذا وللوقت طلب من سيدنا يسوع المسيح ان يشفي الاعمى فللوقت انفتحت عيناهُ وابصر حسنًا فآمن الاعمى وابو الطبيب. وبعد زمن قليل مات هذا الاب المبارك اصلح ميتة

فشاع خبر هذه العجائب في مدينة نيكوميدية وعليها حسد بقية الاطباء القديس بندليمون وابغضوهُ اي بغض فاشتكوا عليهِ الى الملك مكسيميانوس فتعجب الملك من طبيبهِ كيف تنصَّر وقبل ان يحضروهُ دعا الرجل الاعمى الذي كان قد اشتهر في المدينة كلها بانهُ شفي بصلاة القديس واستخبرهُ عن كيفية شفائهِ. اما الاعمى المسيحي فاورد الامر على البساطة قال ان الطبيب بندليمون فتح عينيَّ من دون دواء بل بمجرَّد دعائهِ باسم يسوع المسيح. فقال الملك للاعمى قد نلت هذا الاحسان بقوة آلهتنا. فقال الاعمى كيف أيمكن لآلهة لا يبصرون ان يفتحوا عيني اعمى. فغضب عليهِ الملك المغتصب وامر بقطع رأسهِ

فلما تحقق مكسيميانوس بان بندليمون طبيبهُ صار مسيحيًّا دعاهُ وقال لهُ أيمكن ان الذي انا جعلتهُ في المملكة مكرَّمًا ووسَّعت ارزاقهُ وكثرت ثروتهُ يكون عدوًّا لي ومبغضًا لآلهتي. اجابهُ القديس اني اسجد لالهٍ واحد خالق السماء والارض لا لآلهة صنعتها ايدي البشر. وان اردت ان تقف على حقيقة كلامي وهو انهُ لا اله الاَّ اله المسيحيين فليتقدم هنا امام عزَّتك وامام هذا المحفل الحافل انسان مصاب بداءٍ غير قابل الشفاء ثم لتطلب كهنتكم من آلهتكم شفاء ذلك المريض كما انا اطلب ذلك من سيدي والهي يسوع المسيح حينئذٍ يظهر أيُّنا على ضلال وبقوة اي الهٍ يُشفى المريض. فسرَّ الحاضرون بكلام القديس واحضروا في المحفل رجلاً مخلَّعًا منذ سنين عديدة ومعروفًا من الجميع فشرع كهنة الوثنيين يصلُّون ويُقدِّمون لآلهتهم قرابين وذبائح ملتمسين منها شفاء المخلَّع فلم يشفَ. فتقدم حينئذٍ القديس بندليمون وصلَّى وبعد صلاتهِ عمل على المريض علامة الصليب المقدس ثم قال لترجع لك العافية باسم السيد المسيح الاله. فمن ساعتهِ قام المخلع صحيحًا معافًى وقال لا اله الاَّ اله المسيحيين فمن اجل هذه الاعجوبة آمن الاكثرون وفي كل مدينة نيكوميدية كانوا يمدحون قدرة السيد المسيح

غير ان الملك مكسيميانوس نسب هذا الى السحر والى قوة الشيطان ولخوفهِ من ان الشعب يميل الى الديانة المسيحية أمر ان يُعذب القديس في وسط المدينة اشد تعذيب فعلقوهُ على خشبة وطفق الجلادون يمزّقون لحمهُ بمخالب حديدية ثم احرقوا جراحاتهِ بشموع متقدة وفي غضون ذلك ألقوهُ في خلقين مملوء رصاصًا مذابًا. اما القديس فكان تحت هذه الاعذبة كمن لا يشعر بوجع ما لان سيدنا يسوع المسيح تراءى لهُ ولم يدع العذاب يؤثر فيهِ. فخاف الملك من ان كل هذه المعجزات تجذب الشعب الى الايمان المسيحي ومن ثمَّ عزم على قتلهِ سريعًا فامر ان يُعلق في عنقهِ حجر ثقيل جدًّا ويُطرح في البحر. فلم تقدر المياه ان تبتلعهُ ثم علَّقوهُ على دولاب مركَّب من موسيات (وهي البواليد في لغة العامة) ومناخز حديدية وأداروهُ هكذا فلم يجرح بل ان الدولاب انكسر وقتل خلقًا كثيرًا من الوثنيين

فلما رأى الملك انهُ عاجز عن قتل القديس بندليمون وجَّه غضبهُ نحو ارمولاوس الشيخ ورفيقيهِ ارميبوس وارموكراتوس فلما حضروا أراهم الملك آلات التعذيب المعدَّة لهم ان كانوا لا يرتدُّون والعياذ بالله عن النصرانية. فضحكوا منها ولما تقدم الجلادون لتعذيبهم تزلزلت الارض وظنَّ الجميع ان المدينة تنهدم فقال الملك الآلهة زلزلوا الارض دليلاً على غضبهم. اجابهُ ارمولاوس انك ستعلم بعد هنيهة من الزمان ان آلهتك ليست هي التي سبَّبت هذه الزلزلة بل انها انسحقت وفيما كان يقول هذا اتى اناس واخبروا الملك والجمهور بان كل تماثيل الآلهة سقطت وتكسرت وتلاشت. فلم يرتد الملك عن غيهِ بل حكم بقطع راس الشيخ ورفيقيهِ اما الطبيب القديس فبعد ان قطع الجلاد رأس القديس ارمولاوس ورفيقيهِ استحضرهُ الملك من السجن وامر بقطع رأسهِ ايضًا فضربهُ الجلاد بسيفهِ مرارًا كثيرة فلم يؤثر فيهِ السيف فصلى القديس وطلب من

الله ان يسمح بان يموت لاجل مجدهِ فضربهُ الجلاد بعد ذلك وقطع رأسهُ ونالوا جميعهم اكليل المجد الابدي في اليوم السابع والعشرين من شهر تموز في السنة الخامسة من المائة الرابعة للمسيح

اليوم الثامن والعشرون

وفيهِ ترجمتا القديسين الشهيدين نزاريوس وسيلسوس

ان القديس نزاريوس وُلد برومية واسم ابيهِ افريكانوس واسم امهِ دائمة وهي مولودة برومية وقد تنصَّرت وتعمدت على يد بطرس الرسول وهي التي جذبت بعلها الى الايمان المسيحي وتذكر الكنيسة في تراجم القديسين القديسة دائمة هذه في اليوم الرابع من شهر آب . وقد اعتمد ابنها هذا من صغر سنهِ وسلك مع والدتهِ في طريق الفضيلة وقبل وفاتها كان نزاريوس من المسيحيين الاكثر غيرة على انتشار النصرانية . فبعد ان تعلم جيدًا حقائق الانجيل من القديس لينوس خرج من بلاد ايطاليا وذهب الى بلاد غاليا فوصل الى مدينة جينفا حيث لم يكن قد سُمع بعد باسم السيد المسيح بل كانوا جميعهم وثنيين وشرع يبشر هناك بالانجيل المقدس وآمن بهِ كثيرون ومن الذين آمنوا امرأة ارملة شريفة الاصل كان لها ابن وحيد عزيز على قلبها جدًّا يقال لهُ سيلسوس فبعد ان علمهُ القديس نزاريوس التعليم المسيحي وعمَّدهُ طلب من والدتهِ ان يرافقهُ في اسفارهِ الرسولية فصعب هذا الامر جدًّا على الارملة الَّا انها اخيرًا قدمتهُ ليرافق القديس في سبيل التبشير بالايمان المسيحي

فانطلقا وطافا في كثير من المدن والقرى وألقيا فوائد كثيرة في قلوب الشعوب ولا سيما في مدينة تريفيرا وقد ذكر القديس امبروسيوس انهما جذبا في تلك المدينة جمًّا غفيرًا الى الايمان المسيحي بغيرتهما وعجائبهما ومن اجل ذلك اضطهدهما الكفرة وزجُّوهما في نهرٍ عظيم ليغرقا . الَّا انهما شرعا يسيران على وجه الماء كانهما على اليابسة . فمن اجل هذه الاعجوبة لم يجسر الوثنيون على قتلهما بل اخرجوهما من بلدتهم سالمين . فرجع القديس نزاريوس الى ايطاليا ورافقهُ تلميذهُ سيلسوس ووصلا الى مدينة ميلان وبشرا هناك بالانجيل فقبض عليهما انولينوس الحاكم وحكم بقطع رأسيهما . فلما سمع القديس نزاريوس هذا الحكم التفت الى رفيقهِ وتلميذهِ العزيز وقال لهُ بابتهاج سماوي تبارك الله الذي اهَّلنا اليوم لان نموت حبًّا لهُ وشهادة لانجيلهِ . ثم قال القديس سيلسوس اني اشكرك يا يسوع الاله لانك تريد ان تقبلني في مجدك منذ حداثتي . ثم قال لمعلمهِ بفرح عجيب هلمَّ يا ابي لنسفك دمنا اكرامًا وحبًّا لمن افتدانا باهراق دمهِ الالهي . فتقدما الى منقع الدم بشجاعة وسرور فقطع الجلاد رأسيهما

ولا بد ان نكرّر هنا ما كتبهُ بولينوس في ترجمة القديس امبروسيوس وهو انهُ بعد نحو ثلثمائة سنة لوفاة هذَين الشهيدَين في اواخر القرن الرابع اوحى الله الى القديس امبروسيوس اين كان قبرهما وقد امرهُ الله تعالى في هذه الرؤيا ان ينقل ذخائرهما الى الكنيسة المبنية حديثًا لتكرَّم من المؤمنين . فذهب القديس مع الاكليريكيين وحفر الارض في المكان المعيَّن لهُ في الرؤيا فوجد اولاً جسد القديس نزاريوس ومعهُ قنينة من دمهِ الذكي يظهر كانهُ جديد وكان جسدهُ صحيحًا الى ذلك الوقت بريئًا من الفساد حتى كانهُ قد قُبر في ذلك اليوم نفسهِ وخرجت من القبر رائحة زكية . ثم حفروا في موضع آخر فوجد جسد القديس سليسوس فنقلوا هاتين الذخيرتين المقدستين بمزيد الاكرام ووضعهما القديس امبروسيوس في الكنيسة الجديدة التي كان قد بناها على اسم الرسل فارسل من الدم المتقدم ذكرهُ الى القديس غودَنسيوس في برسيا من اعمال فرنسا وارسل ايضًا جزءًا من ذخائر القديسين الى القديس بولينوس من مدينة نولا الذي عظمها في كتاب اشعارهِ عدد ٢٤

اليوم التاسع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة مرتا البتول

ان من النساء القديسات اللاءِي تبعنَ يسوع المسيح واعترفنَ اعترافًا مشهورًا بكونهنَّ تلميذاتهِ وهو على الارض القديسة مرتا وهي من افضلهنَّ لا لمجرَّد شرف اصلها وسمو مقامها عند اليهود لكن بالخصوص لاجل العفاف الذي اعتنقتهُ وقضت فيهِ كل حياتها

يمكن ان يُرى في ترجمة اختها القديسة المجدلية انها كانت ذات مقام ممتاز لا فقط من حيث شرفها لكن ايضًا من حيث الاموال الوافرة التي ورثتها من ابوَيها واذ قُسمت

تلك التركة كان سهمها الاراضي المجاورة اورشليم والدار التي كانت ببيت عنيا ويُظن ان مرتا كانت بكر العائلة وعلى الاقل كانت الأُولى من جهة تدبير البيت . ذلك وكانت ذات طبيعة حلوة ومحسنة وذات حكمة بالغة الحدّ وقدوة صالحة وكان من طبعها الوقار والاحتشام الجميلان . وقضت عمرها كلهُ كابنة ذات استحقاق عظيم وكان لها في اورشليم وبيت عنيا احترام لاجل فضيلتها وبسبب هذه الصفات الحميدة لم تشقَّ عليها المعرفة بان يسوع المسيح هو المسيح الحقيقي وان تستحسن تعليمهُ بحيث ما رأتهُ حتى اعتمدت على ان تكون واحدةً من إمائهِ الامينات وكان كذلك وقد ارتفعت عما قليل الى برارة سامية وساعدها على ذلك كلّ من هذه الامور اعني بها مبادرتها الى استماع تعليمهِ واتباع مشوراتهِ بسهولةٍ والامانة في استعمال تعاليمهِ وتخصيصها ذاتها لهُ ونفوسها

ان المدائح التي كان المخلص يمدح بها البتولية من وقتٍ الى وقتٍ والاعتبار السامي الذي اظهرهُ لهذه الفضيلة العجيبة حكما عليها بان لا تأخذ لها بعلاً الاَّ بعل العذارى وبما انها كانت اكثر مواظبة على اتباع تعاليمهِ الالهية ما تأخرت ان استعملت اتمّ ما في الانجيل . وبعد ما تركت الدنيا واباطيلها كرّست نفسها للاختلاء والاعتزال عن الناس وعقب ان تتلمذ اخوها لعازر للمخلص واختها المجدلية اعطت قدوةً صالحةً للناس بتوبتها التي اشتركت فيها قديستنا اشتراكًا عظيمًا اضحت دار بيت عنيا مقرًّا للتقوى والغيرة بحيث كان الجميع فيها بترتيب وانتظام وكلهم كانوا يميلون الى الفضيلة وكان يُصرف بالصلاة والقراءة وعمل الايدي واعمال المحبة كل الزمان وهكذا عما قليل صار بيت مرتا مأوى للمخلص مدة اسفارهِ حول اورشليم

وقد ذكرنا في ترجمة المجدلية توبيخ المسيح لها على فرط اهتمامها وانهماكها في خدمتهِ . اما الجواب الذي سمعتهُ فكان تعليمًا مفيدًا جدًّا للسيرة الروحية . وهو قول السيد لها مرتا مرتا انكِ مهتمة كثيرًا فانني حقًّا امدح اهتمامكِ لكن اذمّ اضطرابكِ فكل ما يقلق النفس ويبلبلها وتشتت البال لا يرضيني فيجب ان تخدميني بغيرة لكن يجب ان لا تفقدي اطمئنان القلب في خدمتي ابدًا فلاجرم انكِ تعذبين نفسكِ بدون فائدة لانكِ تريدين ان تعملي كثيرًا ووليمتنا لا يلزمها اشياء كثيرة اذ يكفينا صنفٌ من الطعام فاختكِ مريم اشتغلت احسنَ منكِ ولو لم تشتغل بيدها وان كان بالها في الظاهر مطمئنًّا لم تكن كسلانة وعملت ما ستعملهُ دائمًا . ان كلامي هو طعام تمتعت بهِ ولا يمكن ان الناس والملئكة يذوقون طعامًا الذّ منهُ وهو الذي تقتات بهِ الى الابد ولا احد ينزعهُ منها

ان القديسة مرتا استفادت فائدة عجيبة من هذا التعليم الروحي والكامل جدًّا وبدون ان تنقص اهتمامها بخدمة مخلص العالم انعشت فيها الروح الباطن الذي جعل فضيلة ضيافتها المخلص انقى واكثر استحقاقًا وارادت ان تحصل على الشرف لا فقط بان تهيئ لهُ طعامًا لكن ايضًا ان تخدمهُ على المائدة وقد كانت تتعزّى بان تخاطبهُ وتسمع كلامهُ

ذكرنا ايضًا اقرار القديسة مرتا بلاهوت المسيح عند قيامة اخيها من بين الاموات فاقرارها هذا لا يظهر لنا اقل ارتفاعًا ولا اقل شهامةً من الاقرار الذي اوحاهُ الآب الازلي الى القديس بطرس الذي استحق بهِ هذا الرسول النعم السامية والعناية الخصوصية التي شرّفهُ المسيح بها . ويمكن ان يُقال انهُ اذا كانت دموع المجدلية التي بشّرتها القديسة مرتا بقدوم معلمها الصالح قد حنّنت قلب المخلص . فايمان قديستنا قد ساعد كثيرًا لكي يجملهُ على ان يُقيم لعازر . وحقًّا بعد ما امر يسوع ان يُرفع الحجر الذي فوق القبر قالت مرتا ان لهُ اربعة ايام هنا ولا بد ان يكون قد انتن . اجابها المخلص لا تخافي ألا تتذكرين بعد ما قلت لكِ ان كان لكِ ايمان فسترين عما قليل ان سبب غمكِ اضحى موضوع مجدٍ لله وتعجب للناس

اما مرتا فآمنت واما الاعجوبة فتمت ومن ثمَّ يسهل عليك جدًّا ان تعرف ما هو فرح هاتين الاختين في قيامة اخيهما وفرط حبهما نحو المخلص وتخصيصهما انفسهما لهُ ولم يغب عن نظرها ولاسيما في وقت آلامهِ

ان القديسة مرتا بعد صعود المخلص الى السماء لم تفارق سيدتنا مريم العذراء الى ما بعد حلول الروح القدس الذي اخذت منهُ المواهب في علية العشاء السرّي وكابدت شيئًا من الاضطهاد الذي احتملهُ تلاميذ يسوع المسيح ونُفيت من اليهودية واذ لم يقدر اليهود ان يحتملوا لعازر الاعجوبة المنظورة والشهادة الحية لالوهية الذي اماتوهُ ولم يتجاسروا ان يقتلوهُ خوفًا من ان يسوع يقيمهُ مرةً ثانية لخجلهم خطر لهم ان يضعوا كل هذه العائلة في سفينة بدون صوارٍ وبدون دفة

وبلا قلوع وبلا أدوات . ولم يشك اليهود ان تعريضهم تلك العائلة هكذا لهيجان الامواج هو اوكد واسطة لتخلصهم منها لكنما العناية الالهية أعدّتهم لهداية شعب غزير . وقد ذُكر في ترجمة القديسة المجدلية كيف وصلت السفينة الى ميناء مرسيليا وكم من الاهتداءات تبعت هذه الاعجوبة السعيدة

يوجد تقليد قديم معتبر ويظهر لي ايضاً انهُ مثبت من الكنيسة وهو ان القديسة مرتا بشّرت بالايمان المسيحي في مدن مرسيليا واكيس وافنيون وفي كل نواحيها وتنصر على يدها خلق كثير . يؤكد المؤرخون ان سكان تاراسكون والشعوب المجاورين لها طلبوا مساعدتها لتنقذهم من التنين العظيم الذي كان يفترس الناس ويخرب الارض . اما القديسة التي لم تقصد الاّ مجد المسيح وخلاص النفوس فرأت كم تؤثر هذه المعجزة في عقول الوثنيين لذلك اجتازت نهر دورنص ودخلت غابةً قريبة منهُ فوجدت ذلك التنين يفترس انساناً فعملت فوقهُ علامة الصليب ورشتهُ بالماء المصلّى ثم ربطتهُ بزنّارها وقادتهُ الى المدينة كخروف فركض جميع الشعب لينظروا هذا الشيء الغريب فضربوا التنين بالعصيّ ورشقوهُ بالحجارة . ثم انطرحوا على رجلي القديسة وتوسلوا اليها ان لاتتركهم (١) . اما هي فاذ عرفت ان اختها القديسة المجدلية انفردت في بريّة سانت بوم قصدت ان تبقى في البرية المجاورة مدينة تاراسكون واسم تلك البرية الغابة السوداء وحينئذٍ اراد كثير من الفتيات اللاءِي تنصرنَ على يدها ان يرافقنها فبنينَ ديرًا وعاشت فيهِ تلك العفيفات عرائس يسوع المسيح كالملئكة تحت ارشاد هذه التي كانت هي نفسها مضيفة المخلص وأَمَةً لهُ

واذ اراد السيد لهُ المجد ان يجازيها اعلمها بيوم وفاتها برؤيا عرفت منها ان اختها العزيزة القديسة المجدلية تتمتع بالمجد في السماء وحينئذٍ اعترتها حمى بطيئة وجعلت تمتحن صبرها وتزيد استحقاقاتها مدة سنة واذ حانت ساعة ذهابها للقاء الهها ومخلصها انطرحت على الارض فوق الرماد بحضرة بناتها

(١) حاشية . ان البعض يرتأُون بان ذلك التنين لم يكن الاّ رمزًا الى الديانة الوثنية التي انسحقت هناك بانذار القديسة وهذا منقوض لانهُ لو لم يكن تنيناً حقيقةً لما صُوّر مع القديسة الموما اليها وحدها فان كثيرين تسحقوا معها بتبشيرهم الديانة الوثنية كالقديس مكسيمينوس وغيره ولم يُصوَّر مع احدٍ منهم تنين البتة

وبعد ان حرّضتهم على الامانة الثابتة انتقلت بسلام الى رحمة الله نحو سنة ثمانٍ وستين او سبعين للمسيح وعمرها على ما يُظنّ خمس وستون سنة

اما جسدها فنُقل الى المدينة على رأْي من يظنون ان الدير كان في خارج المدينة اما على راي غيرهم فيمكن ان المكان الذي هو ديماس تحت الارض حيث يرى الى اليوم قبرها كان كنيسة الدير او معبدهُ الصغير . فمهما يكن من ذلك فليس شيءٌ احسن من المعبد الصغير الذي تحت الارض حيث حسب التقليد يحفظ هذا الجسم المقدس

وفيهِ ايضاً ترجمنا القديسين عبدون وسنّان الشهيدين

اعلم ان هذين القديسين قُتلا شهيدي النصرانية في الاضطهاد العظيم الذي قال عنهُ ديونيسيوس بطريرك انطاكية ان المؤمنين ظنوا انهُ هو الاضطهاد الذي تنبأَ عنهُ السيد المسيح وقال انهُ لو يمكن لكان المختارون يضلون في زمانهِ وقد ابتدأَ هذا الاضطهاد على عهد داسيوس الملك في السنة التاسعة والاربعين بعد المائتين وبقي نحو ثلث سنين . فلما كان الوثنيون يثبون على المسيحيين كالذئاب على الخراف كانت السجون مشحونةً من النصارى وكان هذان القديسان يفتقدانهم في السجون ويشجعانهم بل كانا يرافقانهم الى المقتل ولا يزالان يحثّانهم على احتمال العذاب اكرامًا للسيد المسيح . فهذا ما كان يفعلهُ عبدون وسنّان في بلاد العجم حينما كان داسيوس مشتغلاً بالحرب في هذه المملكة وقد يكون ذلك في عهد غُرْديانوس الملك (١)

ولأَنهُ انتصر على اعدائهِ ونسب هذا الانتصار لالهتهِ عزم على استئصال الديانة المسيحية المقاومة لعبادة الاوثان وافرغ في ذلك كنانة جهدهِ فلما عرف ما يفعلهُ عبدون وسنّان ارسل حالاً فقبض عليهما ولأَنهما كانا من اشراف الدولة استقبلهما باكرام وقال لهما بمحبة انكما قد فعلتما ما يستحق الموت الاّ اني اتغاضى عن ذلك لاجل شرف اصلكما فمنذ الان فصاعدًا افعلا ما تستحق محبتي وكفّا عما يغيظني ويغيظ آلهة المملكة اجحدا مذهب النصارى واعبدا اوثاننا . فقال القديسان اننا لانعرف الالهة بل نعتقد ان من المستحيل ان يكون الهان

(١) حاشية . راجع الفصل الثاني من ترجمة هذين القديسين للبلانديستيين

فكيف يمكن والحالة هذه ان نعبد آلهة المملكة الذين عددهم يوازي عدد جنود عسكرك . اما الاله الذي نعبدهُ فهو واحد وهو الذي خلق السماء والارض . فغضب داسيوس على الشهيدين الَّا انهُ لم يجسر على قتلهما في بلاد غريبة بحيث كانا من اعيان البلد فأجَّل تعذيبهما الى ان يصل الى رومية فسافرا معهُ ولما وصلا الى رومية سلمهما داسيوس الى والٍ اسمهُ فاليروس فلما تقدما ورآهما الحاكم لابسين اثوابًا ملوكية اجتهد في ان يحثهما ويجذبهما الى عبادة الاوثان لينقذهما من الموت فوضع قدامهما صنمًا وطلب منهما ان يظهرا باشارةٍ ما انهما متعبدان للاوثان . فقال القديسان اننا مسيحيان بنعمة الله تعالى وديانتنا ترفض كل التباس ومخاتلة ولا سيما في امر الايمان فليعلم الجميع اننا نرفض عبادة الاوثان وان الاله الذي نعبدهُ ليس مخلوقًا نظير آلهتكم بل انما هو الخالق نفسهُ

فحكم عليهما بالموت فاتى الجلادون اول الامر وضربوهما بحبال عليها عقد من رصاص وبعد هذا العذاب العظيم ادخلوهما ميدان الوحوش ثم اطلقوا عليهما أسدين واربعة ذئاب غير ان هذه الوحوش الضارية استحالت للوقت حيواناتٍ انيسة ووقفت عند ارجل القديسين وقوف الكلاب بازاء اصحابها ولما لم تمسهما البتة اخرجهما الجلادون من الميدان ونقدم السياف وقطع رأسيهما

اليوم الثلثون

وفيهِ ترجمة القديس جرمانوس اسقف مدينة اوسير

ان هذا الاسقف المعظم قدوة الفضائل المختصة برعاة الشعب المسيحي وُلد باوسير مدينة بفرنسا نحو السنة الثامنة والسبعين من المائة الرابعة للمسيح من اصل شريف و بعد ان قضى ايام الشباب في تحصيل العلوم ولاسيما علم الفقه والفصاحة اختارهُ الملك اونوريوس ابن الملك تاودوسيوس الكبير واقامهُ مدبرًا وقاضيًا في مدينة اوسير فاحسن القيام باعباء ذلك المنصب من حيث الانصاف وحسن التصرف ولذلك اطبق الجميع على مدحهِ ورسموا محبتهُ على الواح قلوبهم اما امرأتهُ فكانت فاضلة جدًّا . غير انهُ كان يحب الصيد والقنص وكان كلما اصطاد وحشًا من وحوش الغاب يعلق رأسهُ بقصد العجرفة والكبرياء على شجرة قديمة كانت وسط المدينة وعليها كان الوثنيون قبلاً يعلقون مثل ذلك بقصد عبادةٍ وثنية . اما القديس اماتور اسقف المدينة فقال للحاكم جرمانوس ان ما تفعلهُ من شانهِ احياء نفاق الاوثان ونصحهُ مرارًا كثيرة ليعدل عن ذلك فلم ينتصح الحاكم ولذلك امر الاسقف بقطع الشجرة فقُطِعت حينما كان الحاكم ذاهبًا الى الصيد

فلما درى بذلك جرمانوس اغتاظ جدًّا وعند احتدام غضبهِ قال مهدّدًا انهُ لا بدَّ ان يقتل الاسقف فخرج القديس اماتور ريثما ينطفي غضب الحاكم والتجأ الى القديس سيمبليسيوس اسقف مدينة اوتون وشرع هناك يصلي ليلاً ونهارًا لاجل خلاص الحاكم فاوحى الله اليهِ ان الحاكم جرمانوس سيكون خليفة لهُ في الاسقفية وانهُ سيدبرها بكل ما يمكن من البرّ والغيرة فامتلأ القديس اماتور سرورًا وبعد اداء الشكر لله لانهُ رحم رعيتهُ رجع الى مدينة اوسير وكان قد هدأ رجز جرمانوس فاستقبلهُ الاكليريكيون باكرام وسرور عظيم وكان الحاكم جرمانوس حاضرًا فقال لهم الاسقف القديس ان الله انبأني برؤيا ان ساعة وفاتي قد دنت وانهُ يجب عليكم ان تختاروا مكاني اسقفًا يكون قلبهُ كقلب الله قال هذا ثم مضى بهم الى الكنيسة وبعد دخولهم أمر الاسقف ان تقفل ابوابها ثم صلى امام المذبح وقام واتى الى حيث كان الحاكم جرمانوس وقال لهُ بحضرة جميع الاكليريكيين ان الله اختارك لتكون خليفتي على هذا الكرسي فينبغي لك اذًا ان تصير الان اكليريكيًّا فقص شعرهُ والبسهُ ثوبًا اكليريكيًّا وأمرهُ بان يتأهب لدرجة الاسقفية

اما جرمانوس فكان ساكتًا متحيرًا لا يعرف ماذا يقول ولا ماذا يفعل ولكنما الله تعالى الهمهُ فكاشف امرأتهُ الفاضلة بمقصدهِ فشكرت الله سبحانهُ على ذلك وانفصلت عنهُ لينذر العفة ليخصص ذاتهُ لله نفسًا وجسمًا وعقب قليلٍ من ارتسامهِ كاهنًا انتقل الاسقف القديس الى رحمة الله وكان ذلك في السنة الثامنة عشرة بعد الاربع مائة وحينئذٍ اتفق الاكليريكيون مع شعب المؤمنين واختاروا الحاكم جرمانوس اسقفًا على مدينة اوسير فارتسم في اليوم السابع من شهر تموز واتضح حينئذٍ ان الله تعالى كان قد انتخبهُ ليكون للاساقفة قدوة الكمال بحيث وزّع اول الامر امواله الوافرة على الفقراء ثم وقف على كنيستهِ سبعة حقول كثيرة الدخل و وقف ستة حقول على ديرين وكان ينفرد احيانًا في احدهما لرياضات الصلاة

ثم انهُ من بعد ارتسامهِ الى يوم وفاتهِ حرَّم على نفسهِ شرب الخمر واكل خبز القمح وانما كان ياكل الشعير وكان يطحنهُ

ويعجنهُ هو لنفسهِ ولم يقف عند ذلك بل امتنع عن تناول البقول والزيت والخل حتى الملح غير انهُ في عيدَي الميلاد والفصح كان يمزج قليلاً من الخمر بمقدار وافر من الماء وكلما جلس لياكل كان يضع في فمهِ رمادًا ويمضغهُ لئلا يشعر بلذة ما عندما يتناول خبز الشعير . اما اثوابهُ فكانت دنية وكان من عادتهِ ان يقول ينبغي للاسقف ان يحصل على اعتبار الناس لا بحسن اثوابهِ بل بسمو فضائلهِ . ذلك فضلاً عن انهُ كان يوزع دخلهُ كلهُ على المساكين وكان يعيش كواحد منهم واتفق مرارًا كثيرة انهُ خلع ثيابهُ ليكسو الفقراء العراة ولان الناس كانوا يتعجبون من سخائهِ على المساكين كان يقول اني لست اعطيهم سوى مالهم . واما فراشهُ فكان حفرة في الارض مغطاة بالرماد ولم يكن يرقد الاَّ ساعتين او ثلثًا وكان يلبس دائمًا عوض القميص مسحًا طويلاً

وفيما كان يضعف جسدهُ هكذا كان يتقوى بالروح اذ كثيرًا ما تراءى لهُ السيد المسيح في صلواتهِ الطويلة والاولى بنا ان نقول المتصلة لانهُ فيما بين اشغال وظيفتهِ لم يكن يبرح مفتكرًا في سيدنا يسوع المسيح مناجيًا اياهُ واذا تقرر ذلك فلا عجب من كونهِ قد فاز بمحبة رعيتهِ وجميع المملكة وقبول تعليمهِ وزهو ابرشيتهِ وتقدمها في الفضائل

وفيما كان يخدم كرم الرب على النمط المشار اليهِ اتتهُ رسالة من قبل البابا سلاستينوس وفيها يأمرهُ بالذهاب الى مملكة الانكليز ليقاوم هناك ضلال بيلاجيوس المبتدع . ولايضاح ذلك يجب ان نورد بالاختصار خبر المبتدع المذكور وماهيَّة بدعتهِ فنقول . ان بيلاجيوس كان راهبًا انكليزيًّا ولهذا قد سماهُ القديس بروسبير حيَّة انكليزية وكان ينكر الخطية الاصلية وعلَّم ان الانسان بمجرد اختيارهِ الطبيعي يقدر ان يفوز بحياة الابد . فنشر بدعتهُ اول الامر في بلاد الشرق ثم في بلاد افريقية ثم في ايطاليا فقاومهُ القديس ايرونيموس في بلاد الشرق اي بلد فلسطين وحاربهُ ايضًا القديس اغستينوس في افريقية وحرمهُ وحرم بدعتهُ البابا اينوشنسيوس والبابا زوزيموس والبابا سلاستينوس وآخر الامر نُفي بأمر الملك اونوريوس اما بدعتهُ فانتشرت في بلدتهِ اي انكلترا وكان قد شرع يعلم هناك تلميذهُ سلاستيوس وتبعهُ اناس كثيرون فكتب الاساقفة الانكليزيون الى اساقفة مملكة فرنسا واستعانوا بهم فجمع القديس بروسبير بعض اساقفتهِ

واختاروا منهم القديس جرمانوس والقديس ديب ليمضيا فيقاوما بدعة بيلاجيوس ثم كتب اليهما الحبر الروماني المذكور وارسلهما الى بلاد الانكليز

فسافر القديسان في السنة التاسعة والعشرين بعد الاربع مائة ولما كانا في الطريق بقرب مدينة باريز وجد القديس جرمانوس في قرية نَنْتير القديسة جينوفيفا التي كتبنا ترجمتها في اليوم الثالث من شهر كانون الثاني ومع انها لم تكن وقتئذٍ الاَّ ابنة عشر سنين نذرت بين يديهِ بتوليتها وتنبأ عليها انهُ بقداستها يخلص كثيرون . ثم ركب القديسان السفينة ليذهبا الى بلاد الانكليز فخاف الشيطان من براءتهما فحرَّك امواج البحر ليغرقها وكان قد انقطع رجاء الملاَّحين من الخلاص لانهم لم يروا قط في بحرٍ هيجانًا مثل هذا . فقام القديس جرمانوس وزجر البحر والرياح والشيطان ثم صلى فبغتةً هدأ ذلك الهيجان العظيم فتعجب الملاَّحون وقالوا من هو هذا فان الرياح والبحر يطيعانهِ

فلما وصل القديس الى بلاد الانكليز انفرد اولاً في برية حيث اقام بعض ايام مستعينًا بالله ومتأهبًا للحرب بالصوم والصلاة . ثم دخل المدن والقرى وشرع يبين للمؤمنين ضرورة النعمة الالهية وفاعليتها ولما كان المؤمنون المغترُّون يرجعون عن الغيّ والضلال طلب البيلاجيون مجادلةً جهاريَّة بينهم وبين القديس . فاجتمع العظماء والشعب وبعد ان تكلم البيلاجيون في اثبات بدعتهم اخذ القديس جرمانوس يبين سمَّ ارطقة البيلاجيين ويفنّد براهينهم ويبطل ادلتهم ثم اورد راي الكنيسة الكاثوليكية واكَّدهُ بشهادات كتاب الله وبالبراهين اللاهوتية . وفي غضون ذلك قدم لهُ احد عظماء المدينة ابنتهُ وكانت عمياء منذ عشرة اعوام وطلب اليهِ ان يشفيها فاوعز اليهِ القديس جرمانوس ان يقدمها للبيلاجيين ليشفوها اما البيلاجيون فاعتذروا باتضاع خبيث بل طلبوا من القديس ان يفتح عيني البنت . حينئذٍ صلى القديس ثم وضع على عيني البنت ذخيرة مقدسة كان يحملها دائمًا وعمل علامة الصليب المقدس وللوقت ابصرت الابنة فصرخ الشعب مادحًا اعتقاد القديس جرمانوس ورافضًا بدعة بيلاجيوس . اما القديس فبعد شفائهِ الابنة ذهب برفيقهِ الى قبر القديس البانوس الشهيد شاكرًا الله على ما جرى على يدهِ لاثبات الايمان القويم واخذ من تراب القبر شيئًا فظهر حالاً

احمر لوجود دم الشهيد فيهِ

هذا وبارك الله الشعب المؤمن من اجل اصغائهِ الى تبشير القديس وانقذهم على يدهِ ايضًا من هجمة اعدائهم فان جيشًا جرَّارًا من البرابرة كان قد دخل بغتةً بلدتهم ليتملكها فاصبح الشعب كلهُ على خوف عظيم فصلى القديس جرمانوس وشجَّع جنود الانكليز حتى لا يخافوا وامرهم ان يهجموا على البرابرة هاتفين هللويا. ففعلوا كما أمر واذا برُعبٍ شديد استولى على البرابرة وبدَّد جيشهم فهربوا من البلاد تاركين امتعتهم كلها

ثم عاد القديس الى اسقفيتهِ فوجد رعيتهُ محزونين مظلومين من وكلاء الملكة فتوجعت لهم احشاؤهُ الابوية وسافر ثانيةً ليشفع فيهم عند الحاكم الذي كان متوليًا وقتئذٍ أمر مدينة ارلي وقد كان يرافقهُ بعض من الاكليريكيين. فعشية اول يوم من سفرهِ وجد فقيرًا فادخلهُ معهُ حيث كان قد نزل اما الفقير فسرق في الليل فرس القديس وهرب بهِ فرام احد الاكليريكيين ان يركض في اثرهِ الاَّ انهُ منعهُ وقال لهُ لا حاجة الى هذا التعب لان الفقير سيرجع الينا سريعًا ويردّ الجواد. وكان كذلك لانهُ بعد ما هرب الفقير وقف الفرس كانهُ لا يريد ان يتقدم ولا خطوة ولم يطع السارق ان يسير بهِ. فلما رأى هذه الاعجوبة ارتدَّ الى القديس نادمًا وردَّ اليهِ فرسهُ واستغفر منهُ. اما القديس فاجابهُ بوداعتهِ الاعتيادية قائلاً لهُ ان ذنبك في اخذك ركوبتي لا يوازي ذنبي في عدم اهتمامي بمساعدتك لانهُ قد كان يجب عليَّ ان اسبق تجربتك وزلَّتك في فعل الرحمة فوهبهُ من ساعتهِ ثوبًا ودراهم

فلما وصل الى مدينة ليون وجد على بابها جماعة من المرضى كانوا ينتظرونهُ ليطلبوا منهُ الشفاء فابرأهم جميعهم. ثم وصل الى مدينة ارلي وكان حينئذٍ القديس ايلاريوس اسقفًا في المدينة المذكورة فاستقبلهُ باتمّ الاكرام كانهُ رسول السيد المسيح وهكذا حاكم المملكة واجابهُ الى كل ما طلبهُ منهُ. ثم ان القديس جرمانوس شفى امرأتهُ من داء مزمن ورجع الى ابرشيتهِ فخرجت المدينة كلها للقائهِ وكان كل احد يطلب بركتهُ ويقبّل آثار قدميهِ. فافتقد ابرشيتهُ ليعلم الشعب وفيما هو يخدم الكرمة المستودَعة لهُ بعث اليهِ اساقفة انكلترة برسلٍ يخبرونهُ ان البيلاجيين عادوا الى ارطقتهم ثم طلبوا منهُ ان يأتي ثانيةً فيكمل ما قد ابتدأ بهِ. فسافر القديس جرمانوس ثانيةً هو والقديس ساويروس اسقف مدينة تريفير ومرَّ بمدينة باريز حيثما وجد القديسة جينوفيفا متهمةً ومضطهدة من اناس اشرار فبرَّأها في محفل وعظهِ وانقذها من التهمات الباطلة انهُ قبل وصول القديس الى بلاد الانكليز كان الشيطان قد اخبر الجميع بفم المجانين فمن ثم مضى احد الشرفاء المدعو الافوس الى الميناء التي كان منتظرًا ان يصل اليها القديس ومكث هناك ينتظرهُ فعند وصولهِ استقبلهُ الافوس وقدم لهُ ابنهُ الذي كان مخلعًا وطلب منهُ ان يبرئهُ فابرأهُ القديس. فلما شُفي ذلك المخلَّع شرع يطوف في مدن المملكة والقرى واخبر الجميع بوصول القديس واعجوبتهِ المذكورة. وكل الذين كانوا قد تبعوا ارطقة بيلاجيوس رذلوها ثانيةً حتى انهم بمشورة القديس نفوا من بلدهم معلمي تلك البدعة ومنذ ذلك الزمن انقطع ذكر هذه الارطقة

فرجع القديس الى مدينة اوسير وبعد زمن قليل اتاهُ رسول آخر من بريتانيا اقليم بفرنسا كان قد بعث بهِ الشعب ملتجئين اليهِ في ضرورتهم لان شعب هذه الاقاليم كان قد تعصب على الملك والتينيانوس الثالث ولهذا ارسل ايسيوس وكيل الملك في بلاد فرنسا احد قواد البرابرة مع عسكرهِ لينتقم منهم فسافر القديس حالاً وذهب الى لقاء القائد وتشفَّع الى الشعب فلم يقبل القائد شفاعتهُ بل ركب جوادهُ ليذهب الى الحرب وينتقم من الشعب المتعصب فامسك القديس عنان الجواد وضبطهُ فتعجب القائد من شجاعة القديس متحيرًا ثم قال لهُ انني أَعدك بانني لا افعل شيئًا ضد شعب بريتانيا الى ان تمضي انت الى ايسيوس او الملك وتستميح العفو. فسافر القديس وذهب الى ايطاليا وفي طريقهِ نزل ببيت كاهن اسمهُ سيناتو كان صديقًا لهُ فقدَّم لهُ الكاهن ابنةً خرساء كان لها من العمر عشرون سنة فاخذ القديس قليلاً من الزيت وبارك عليهِ ودهن بهِ جبين تلك البنت فانحلَّت عقالة لسانها حالاً ونطقت فصيحًا. ثم ان القديس قال للكاهن على سبيل النبوة عند خروجهِ من بيتهِ لا يرى احدنا الآخر على الارض فيما بعد

ورُوي ايضًا انهُ في هذا السفر وجد شيخًا حاملاً حملاً ثقيلاً جدًّا ولم يجسر ان يخوض النهر بهِ فمع ان القديس كان قد طعن في ايامهِ ايضًا وضعف كثيرًا من جرَّاء الاصوام والتقشفات تقدم الى الشيخ واخذ حملهُ ونقلهُ الى عبر النهر ثم رجع ثانيةً وحمل الشيخ ايضًا على ظهرهِ. ثم وصل القديس

الى مدينة رافينا حيث كان الملك فخرج للقائهِ القديس بطرس كريزولوغوس اي الذهبي الكلام اسقف المدينة واستقبلهُ باتم الاحترام. اما الملك والنتينيانوس والملكة بلاسيديا فاستقبلا القديس باوفر الاكرام. وروى المؤرخ امرًا آخر ويُشهد الله على جميع ما يذكرهُ في ترجمة هذا القديس وهو انهُ لما كان في مدينة رافينا اقام من الموت ابنًا لكاتب اسرار الملك كان قد وقع في النار ومات. ومرة اخرى مرَّ بالسجن فصرخ الذين فيهِ ملتمسين عونهُ فاراد القديس ان يفتقدهم غير ان حرَّاس السجن هربوا لئلا يفتحوا الباب فصلى وبعد صلاتهِ رفع الباب قليلاً فانفتح وحينئذٍ دخل القديس السجن واخرج منهُ كل من كان فيهِ ومضى بهم الى الملك وطلب منهُ ان يطلقهم فاطلقهم وغفر ايضًا لاهل بريتانيا الذين كانوا قد تعصبوا عليهِ ورجع العسكر الذي كان قد ارسلهُ عليهم

حينئذٍ قال القديس للاساقفة الذين كانوا معهُ ان موتهُ قد قرب وفي الغد مرض فحزن الجميع ولا سيما الملكة بلاسيديا التي اكثرت من عيادتهِ وافرغت جهدها في علاجهِ ولما حان وقت وفاتهِ طلب من الملكة ان يُنقل جسدهُ بعد موتهِ الى الكنيسة التي بمدينة اوسير. ثم انتقل الى جنة النعيم في اليوم الحادي والثلثين من شهر تموز في السنة الثامنة والاربعين بعد الاربع مائة وعمرهُ سبعون سنة

اليوم الحادي والثلثون

وفيهِ ترجمة القديس اغناطيوس منشئ الرهبانية اليسوعية

١ في توبة القديس اغناطيوس وذهابهِ الى الاماكن المقدسة

قد وضح للناس كبير عناية الله بالكنيسة المقدسة لانهُ حينما نهض عليها في القرن السادس عشر المبتدعون اللوتريون والكلفينيون اقام الله تعالى لمناصبتهم القديس اغناطيوس وقد سبق الله وأبان بانهُ هو عزَّ اسمهُ اقامهُ وانشأ رهبانيتهُ لاجل هذا الغرض لانهُ في السنة التي فيها تجاسر لوتر على ان يشهر الحادهُ ويبرزهُ ويثبتهُ في مجلس حفل بهِ كثير من عظماء مملكة النمسا. ثم اختلى وألَّف كتابًا ضد نذور الرهبانية اخرج بهِ من الاديرة رهبانًا لا يحصى عددهم. ففي هذه السنة عينها زهد القديس اغناطيوس في الدنيا وخصص نفسهُ لعبادة الله واختلى فالَّف كتاب رياضاتهِ الروحية الذي بهِ انشأ رهبانية وملأ بقية الرهبانيات من الرهبان. وحينما ابتدأ كلفين ان يزرع زوان ارطقتهِ في مدينة باريز وجمع لهُ تلاميذ فكان القديس حينئذٍ يجمع تلاميذ يقاومون معهُ اعداء الايمان. واخيرًا حينما تمرَّد هنريكوس الثامن ملك الانكليز على الكنيسة واقام نفسهُ رئيسًا على الكنيسة الانكليزية وامر الجميع تحت عقاب الموت ان يمحوا اسم البابا من كل كتاب وكل ورقة شرعية انشأ القديس اغناطيوس في ذلك الحين رهبانية تنذر الطاعة الدائمة للبابا

وكان مولد هذا القديس في السنة الحادية والتسعين بعد الالف والاربع مائة للمسيح بمملكة اسبانيا من اصل شريف وتربَّى في بلاط الملك ثم اراد ان يتجند في عسكر الملك ليشرّف نفسهُ وبيتهُ بافعال الشجاعة وكان حينئذٍ لا يحب الاَّ المجد العالمي ومع ذلك يظهر احترامًا جزيلاً نحو ما يخص الايمان المقدس والديانة المسيحية ولم ينطق اصلاً بكلمة تضادُّ الاحترام لهُ. واستمرَّ على هذا الحال الى ان بلغ من العمر تسعًا وعشرين سنة وحينئذٍ انعم الله عليهِ بنور فارعوى عن ضلالهِ وكان ذلك كما يأتي

اعلم انهُ لما شبَّت نار الهيجاء بين ملك فرنسا وملك اسبانيا في السنة الحادية والعشرين من القرن السادس عشر للمسيح حاصر ملك فرنسا مدينة بمبيلونا وكان نائب الملك قد اقام هناك اغناطيوس ليشجّع الجنود ويضبط شعب المدينة فطفق الفرنسويون يهدمون اسوار القلعة بالمدافع ولما وجدوا المدخل كافيًا صعدوا الى القلعة فصعد القديس على المدخل مستعدًا لدفع الاعداء. وفيما هو يشجع الجنود بالكلام والمثال اطلق الفرنسويون مدفعًا واصابت الرصاصة ساقهُ اليمنى فكسرتها فخرَّ على الارض صريعًا فهبطت قلوب الجنود الاسبانيوليين وسلموا القلعة والمدينة الى الفرنسويين فعاملهُ الفرنسويون بمزيد الاكرام واهتموا بمداواة جرحهِ. ثم قدَّموا لهُ مركب برّ فانطلق بهِ الى قلعة ابيهِ المسماة لويولا ولاجل اسمها هذا لُقّب بلويولا فتجدَّد هناك وجعهُ فدعوا جرَّاحًا فرأى ساقهُ المكسورة فاذا بها لم تجبر جيدًا فجبرها ثانية وكان اغناطيوس صابرًا ولم يظهر علامة التألم ولانهُ استمرَّ زمانًا مديدًا على الفراش ولم يكن يحتمل البطالة طلب كتابًا من كتب الغزو والحروب ليتسلى بقراءتهِ فلم يكن في منزل ابيهِ من هذه الكتب فقدموا لهُ كتاب سيرة سيدنا يسوع المسيح وتراجم

الاولياء والقديسين

ولاجرم ان هذه هي الواسطة التي انتخبتها العناية الالهية لتخليص اغناطيوس وتقديسهِ. على انهُ لم يكن يستلذُ اوَّل الامر بقراءة ذلك الكتاب ولكنهُ ما لبث ان وجد فيهِ فكاهة غير ان ذلك حصل شيئاً فشيئاً. والحاصل انهُ بعد ما فاز باللذة وواظب على قراءتهِ بكل رغبة تعجب في اول الامر من حب القديسين للانفراد والامانة وكان ينذهل عقلهُ عندما يرى ببادية الصعيد رجالاً من العظماء لابسين المسوح ومعتزلين عن الناس في الكهوف ومميتين اجسادهم بالصوم وبقية التقشفات وعند تأملهِ ذلك كان يقول ان طبيعة هولاء لم تكن مخالفةً لطبيعتي فلماذا لا افعل ما فعلهُ هولاء. وحينئذٍ بدأ يرغب في ان يقتفي على آثارهم مقتدياً بهم ولم يصعب عليهِ شيء فعزم حينئذٍ على ان يزور اورشليم وينفرد في مغارة ما الا ان هذه العواطف كانت تزول سريعاً وكان يترك الكتاب ويدع عقلهُ وقلبهُ يشتغلان بافكار دنيوية ولما كان يستحوذ عليهِ الضجر كان يقرأ تراجم الاولياء والصالحين فيزداد عقلهُ تنويرًا وقلبهُ ميلاً الى العبادة. فتحقق وقتئذٍ بطلان كل دنيوي وثبت عندهُ ان لا راحة الا في الله جلَّ وعلا كما ثبت عندهُ أن من اراد ان يخلص نفسهُ يجب عليهِ ان يترك كل دنيويٍ. وعند تأملهِ نموذجات القديسين كان يجد كل شيء سهلاً ولكن كانت تذهب افكارهُ عقب ذلك الى اباطيل الدنيا وتجذبهُ الى حبها. فاستمرَّ على هذه الحال اياماً كثيرة متقلقلاً متحيرًا مجذوبًا من الله ومُمسكاً من الدنيا غير انهُ انتبه على مفعولات افكارهِ لان بعضها يختلف عن بعض اختلافاً عظيماً لان التي كانت من قِبل الله تعالى كانت تملأ نفسهُ تعزية وتجعلها في هدو وسكون. واما بقية الافكار فانها وان كانت تسبب لهُ في الابتداء لذة ما الا انهُ في اثناء ذلك كان يشعر باضطراب عقل ولوعة قلب. فلما افاق على ذلك عرف من هذه الحروب على سبيل النتيجة وجود روحين يضادُّ احدهما الاخر اي روح الله وروح العالم. ومما كان يختبرهُ عرف ان الاشياء السماوية انما هي التي تجعل الانسان في سلام وسرور حقيقي. وفيما كان الله تعالى يهبهُ هذه الانوار كان يحث نفسهُ على مقاومة وساوس الشيطان فعزم اخيرًا على تغيير سيرتهِ وترك العالم

وبعد ان تمكن بنعمة الله تعالى هذا القصد في قلبهِ عزم على ممارسة افعال التوبة الشاقة فنوى اول الامر ان يزور ما باورشليم من الاماكن المقدسة حافياً وبثياب دنية وان يعيش على الخبز والماء فقط ولا ينام الا على الارض وانهُ بعد هذه الزيارة المقدسة يقضي حياتهُ في احدى المغاور وبحيث ان ساقهُ لم تكن قد شفيت بعدُ كان يثبّت في قلبهِ عزمهُ الصالح ويمكّنهُ وفي كل ليلة كان ينهض من فراشهِ ويندم على سيرتهِ السالفة ذارفاً الدموع السخينة. وقد اتفق لهُ مرةً انهُ نهض لممارسة رياضتهِ هذه الاعتيادية فتقدم الى ايقونة والدة الله وجثا امامها باقوى ما يكون من العبادة وقدَّم نفسهُ للسيد المسيح بواسطتها وخصص حياتهُ لخدمة الابن ووالدتهِ المجيدة واعدًّا اياها بكل نشاط نفسهِ ان يخدمها خدمة دائمة. وفي انتهاء صلاتهِ هذه سمع صوتاً عظيماً وتزلزل المكان الذي فيهِ وانكسر كل زجاج النوافذ حتى ان حائط المكان انشق ايضاً واظهر الله تعالى بذلك سرورهُ بتقدمة عبدهِ نفسهُ لخدمتهِ عزَّ وجل واما عدو الجنس البشري فلا بد ان يكون قد ابان وقتئذٍ رجزهُ من اهتداء من كان مزمعاً ان يخلص بواسطتهِ اناس كثيرون. وفي ليلة اخرى ظهرت لهُ الجليلة مريم حاملةً على يديها يسوع الطفل وبهذه الرؤيا غابت عنهُ كل اشباح اللذات الحسية وانتزع عنهُ كل ميلٍ شهواني ومن تلك الساعة الى يوم وفاتهِ لم يضطرب بفكر ولا بحركة من الحركات اللحمية

فلما رأى ان ساقهُ قد برئت اعدَّ من ساعتهِ كل شيء لاتمام عزمهِ فركب جوادهُ وخرج من بيتهِ فظن اهل المنزل انهُ ماضٍ الى مدينة كانت قريبة اليهم ليزور احد اصدقائهِ الامراء فتبعهُ اثنان من خدامهِ الا انهُ لما وصل الى تلك المدينة ارجعهم الى بيتهِ وبعد زيارة الامير خرج من المدينة ومضى الى كنيسة مبنية على اسم ملكة السماء فوق صخرة عالية ولكن قبل وصولهِ اليها نذر العفة الدائمة لكي يكون اكثر قبولاً لدى هذه البتول المجيدة والدة الله. ولما قرب من الكنيسة ابتاع لاجل سفرهِ الى اورشليم ثوباً طويلاً من كتان خشن وزناراً واناء للماء وعصاً طويلة ثم دخل الكنيسة واعترف اعترافاً عاماً لراهب فرنسويٍ تقي من رهبانية القديس بناديكتوس. ولما كانت دموعهُ تسيل كالمطر المدرار وقت اعترافهِ وشدة ندامتهِ تصدهُ عن ايراد خطاياهُ قضى في اعترافهِ ثلثة ايام ثم اورد لمعلم اعترافهِ كل مقاصدهِ

الحميدة وطلب مشورتهُ وارشادهُ فثبّتهُ الراهب الفاضل في عزمهِ وأراهُ حيل الشيطان وحبائلهُ التي يصطاد بها المبتدئين بالعبادة

فبعد ان فرغ من اعترافهِ خرج من الكنيسة ونزع ثيابهُ كلها واعطاها سرًّا لفقير ولبس هو الثوب الحقير الذي كان قد ابتاعهُ حديثًا وشد حقويهِ بجبلةٍ ورجع الى كنيسة العذراء وسهر هناك الليل كلهُ امام ايقونتها المقدسة مقدمًا نفسهُ لخدمة يسوع ومريم كجندي فتجنّد لها الى الابد. ثم علق اسلحتهُ جانب المذبح وفي الغد باكرًا تناول القربان المقدس وخرج من ذلك المكان يوم عيد بشارة العذراء في السنة الثانية والعشرين من الجيل السادس عشر وكان قد وقف فرسهُ على ذلك الدير واخذ آلات التقشفات لا غير. ثم ذهب حافيًا بزيّ صعلوك ولا غطاء على رأسهِ وبقلب مسرور جدًّا وبعد ما سار تسعة اميال وصل الى مدينة منريزا ودخل موضع الفقراء لكي يمارس في الخلوة افعال التوبة الشاقة من غير ان يدري بهِ احد وكان يصوم كل يوم على الخبز والماء ما عدا يوم الاحد فكان ياكل فيهِ شيئًا من البقول المسلوقة ولكنهُ كان يرشّ عليهِ رمادًا ثم ياكلهُ وشد حقويهِ بحديد مركّب من اشواك ومناخز حديدية ولبس مسحًا عوض القميص وكان يجلد جسدهُ ثلث مرات كل يوم جلدًا عنيفًا ولا يرقد الاّ على الارض وذلك فوق حضورهِ الصلاة في الكنيسة وكان يصرف في التأمل كل يوم سبع ساعات. ثم انهُ لكي يستأصل من قلبهِ كل عواطف العجرفة والمحبة الذاتية شرع يجول في الشوارع طالبًا الخبز وكان في كل جوارحهِ وحركاتهِ يتظاهر باقصى ما يكون من الفاقة ومن ثمّ كان يشمئزّ منهُ الاكثرون ويهزأون بهِ

غير انهُ بتمادي الزمان اطّلع بعض الناس على برّهِ وابتدأوا يعتبرونهُ ولذلك فرّ من ذلك المكان وانفرد في مغارة مختليًا وزاد نشاطًا في ممارسة التقشفات لانهُ كان يمزّق كل يوم جسدهُ بسلسلة حديدية اربع مرات او خمسًا ويطوي ثلثة ايام او اربعة لا يذوق طعامًا وكان ياكل البقول ويقضي اكثر نهارهِ وليلهِ في الصلوات مجددًا ندامتهُ على خطاياهُ وشاكرًا الله تعالى على مراحمهِ. ومع انهُ كان ذا طبع وجسم قوي فمن فرط تقشفاتهِ الشاقة تلف مزاجهُ وقد وجدهُ اناس في مغارتهِ مغشيًا عليهِ فاخذوهُ الى المستشفى المذكور وهو على

هذا الحال. فانتهز الشيطان الفرصة وجرّب هذا القديس قائلاً لهُ باطنًا كيف يمكنك ان تحتمل شدة هذه العيشة خمسين سنة. اما اغناطيوس فاطّلع من ساعتهِ على مكر المجرّب وقال في قلبهِ وانت يامن يقول هذا أَتقدر ان تضمن لي ساعة واحدة فقط حتى انني وان كنت سأعيش خمسين سنة ايضًا فما هو ذلك بالنسبة الى الابدية. ثم دهمتهُ تجربة اخرى طويلة وهي انهُ بعد ان كان قد تمتع بالسكينة والتعزية منذ يوم رجوعهِ الى الله تعالى اصابهُ نفور تامّ من الامور الروحية حتى لم يعد يشعر بتعزية ما وفي ممارسة الصلاة والتقشف كان يجد قلبهُ كحجر عديم الحسّ الا انهُ كان يضيء لهُ احيانًا وبغتةً نور روحي مبهج يملأ نفسهُ سرورًا لا يكاد يُنعت ثم يرجع حالاً الى ظلام الفكر والنفور من الروحيات وقانا الله من ذلك لانهُ لم يكن قد اختبر هذه الاحوال المختلفة ولا عرف بعد ان الله سبحانهُ يعامل احيانًا هكذا عبيدهُ في ابتداء دخولهم طريق العبادة لئلاّ ينسبوا نشاطهم الى قوّتهم ويلتمسوا تعزيات الله افضل من التماسهم الله نفسهُ

وفضلاً عن كل ذلك ابتدأ يشك في اعترافهِ العام وكان يخطر لهُ نظرًا الى بعض خطايا انهُ ربما لم يعترف بها اعترافًا مفصّلاً ولا اوضح كل شيء كما يجب وان الحياء الردي صدّهُ عن ذلك وفي حين هذه التجربة كان يلتجئ الى الصلاة الا انهُ حينئذٍ كانت تتكاثر شكوكهُ ويشتدّ بلبالهُ حتى اتصل الى ان يتوهم انهُ يخطئ في كل خطوة. ولم يستطع ان يكفّ نفسهُ عن المواظبة على الفحص عن حالهِ ولافراط تضيقهِ كثيرًا ما كان يتنفس الصعداء صارخًا ويلقي نفسهُ على الارض وكان اكثر الاوقات صامتًا مستغرقًا في لجة الحزن. وفي حال هذه الحرب الشديدة المستطيلة لم يتخذ قوة الاّ من القربان المقدس الذي كان يتناولهُ كل يوم احد. وقد اتفق احيانًا انهُ في حين استعدادهِ لتناولهِ كانت تتكاثر عليهِ الشكوك جدًّا حتى انهُ كان يمتنع عن تناول القربان المقدس خوفًا من خطيئة النفاق. والحاصل انهُ تعب كثيرًا وباطلاً في البحث عن هذه كلها وخطر لهُ انهُ لا ينجو من هذه الحال الاّ بواسطة الطاعة وترجى انهُ يهدأ حالما يأمرهُ مرشدهُ باهمال الفحص عن حياتهِ الماضية الا انهُ خاف من ان يورد لمرشدهِ هذه الواسطة من اجل انهُ كان قد اخترعها. فمن ثم استمرّ على حال الاضطراب والشك مع انهُ كان يمارس كل رياضاتهِ الروحية بالتدقيق

فلما رأى انهُ لا يتخذ عوناً من الارض ولا من السماء ظن ان الله تعالى قد اهملهُ ورفضهُ الى الابد . ولعمري انهُ لا يعرف عظم هذا العذاب الاَّ من اختُبر بمثل هذه التجربة . فرقَّ لهُ وقتئذٍ الرهبان الذين كانوا يسمعون اعترافهُ واعطوهُ منزلاً في ديرهم واشتدَّت هناك تجربتهُ واستحوذت عليهِ ماليخوليا مميتة حرَّكتهُ يوماً ان يرمي بنفسهِ من العلو الى اسفل لينتهي شقاؤهُ بالموت . ومع ان السماء كانت لديهِ من نحاس او حديد رفع عينيهِ الى الله سبحانهُ بايمان حي وهتف باكياً أَغثني يارب قوِّني ياعاضدي الوحيد لاني منك وحدك التمس عوني وارجو خلاصي لاتصرف وجهك عني انت الهي أَرني الطريق الذي تشاء ان اسلكهُ . ثم تخالج في صدرهِ ان احد السياح لما كان يطلب من الله شيئاً ولم ينلهُ صام الى ان استجاب الله طلبتهُ لذلك صام هذا القديس سبعة ايام لا يأكل ولا يشرب ولم ينقص شيئاً من رياضات صلواتهِ وتقشفاتهِ ولانهُ لم يشعر بضعف اراد ان يستمرَّ على الصوم لولم يمنعهُ مرشدهُ عن ذلك

فبارك الله اخيراً على نشاط عبدهِ اغناطيوس في العبادة وطاعتهِ لمرشدهِ اذ رجعت اليهِ سلامتهُ الاولى وتعزيتهُ . وانما احبَّ الله ان يجرِّب هذا القديس هكذا لانهُ كان قد اختارهُ لتدبير النفوس ولهذا كان يجب ان يتعلم بالتجربة الطرائق المختلفة التي سلك فيها عبادهُ . فحصل اخيراً على هدو تامّ ولم ينجُ من الشكوك فقط بل وهبهُ الله تعالى نوراً لمداواة الانفس المضطربة بها وككثرة اوجاعهِ واحزانهِ السالفة اكثر الله عليهِ تعزياتهِ ومنحهُ ابهج الانوار السماوية لانهُ حينما كان يوماً يتلو صلوات موضوعة من الكنيسة لاكرام العذراء الجليلة رأى بغتةً صورة تُريهِ الثالوث الاقدس وهذه الرؤيا نوَّرتهُ وعزَّتهُ جدًّا حتى انهُ لم يقدر في ذلك النهار كلهِ ان يكفكف عبراتهِ ولم يتكلم الاَّ عن الثالوث الاقدس وبنوع جليٍّ سامٍ بحيث كان يذهل بخطابهِ عقول أجلِّ علماء اللاهوت مع انهُ كان لا يعرف حينئذٍ الا القراءة والكتابة . ومرةً اخرى رأى في القدَّاس حقيقة وجود جسد المسيح ودمهِ في القربان المقدس واراهُ الله تعالى ايضاً في وقت آخر كل اسرار الايمان المسيحي وجميع حقائقهِ وقد اظهر الله لهُ ذلك بوضوح لا غاية بعدهُ حتى قال فيما بعد انهُ لو لم تكن هذه الاسرار وتلك الحقائق مسطَّرة في الانجيل المقدس لأثبتها بسفك دمي . وبعد ذلك اختُطف بالروح وبقي على هذه الحال ثمانية ايام حتى ان الناس حسبوهُ ميتاً ولو لم يَعُدهُ طبيبٌ ماهر حكم بانهُ لم يزل حيًّا لكانوا دفنوهُ لا محالة وفي انتهاء اليوم الثامن رجع الى حالهِ وعند انتباههِ هتف بصوت حسن يدل على تقواهُ وعبادتهِ وقال يا يسوع ولم يرد ان يوضح لاحد اصلاً ما حدث لهُ في هذه الرؤيا

ذلك ومع انهُ كان يستنير من الله تعالى بكل هذه الانوار كان يستشير مرشدهُ ويتدرَّب بتعليمهِ وكان مرشدهُ يقول احياناً لرهبانهِ انهُ سيكون للكنيسة سنداً بحيث يكون رسولاً كالقديس بولس يصلح الدنيا ويردُّ بنورهِ الوثنيين عن الظلام . ان القديس اغناطيوس الى الان لم يقصد في كل رياضاتهِ الا تقديس نفسهِ وكمالها الا ان الله سبحانهُ الذي كان قد اصطفاهُ لخدمة الانجيل وأعدَّهُ لها بان جعلهُ يحتقر الدنيا ويستعمل الاماتات الهمهُ اموراً والقى في صدرهِ مقاصد جيدة فيتأمل بعين البصيرة الوقادة ان السيد المسيح اشترى نفوس البشر بثمنٍ لا يوازيهِ في البريَّة ثمن ومن ثم ان اعظم خدم الانسان واكثر قبولاً لديهِ تعالى الاهتمام بخلاص النفوس وان مجد الله الاعظم قائم في نجاة هذه النفوس من الهلاك الابدي . وبعد اعتبارهِ هذا كان يحدِّث نفسهُ قائلاً انهُ لا يكفي ان اعبد الله وحدي بل ينبغي ان يحبهُ كل قلب ويسبح بحمدهِ كل لسان

فبعد ان عزم على الاجتهاد في تخليص النفوس خرج من الخلوة ولبس من الاثواب ما لا يجعل الناس يشمئزُّون منهُ واذ كان عارفاً ان خدمة النفوس تقتضي قوةً وعافية شرع ينقص من تقشفاتهِ ولبس ثوباً من صوف وطفق حينئذٍ يتكلم علانيةً في الامور الروحية ولما كان يرى الشعب قد التأموا حولهُ في الشوارع ليسمعوهُ كان يصعد الى حجر فيجعل يعظهم من فوقهِ بحقائق الخلاص . ولم يكتفِ بهذا بل صيَّر كل مخاطباتهِ مع الناس في هذا الشان وجذب كثيرين الى تأمل مثل هذه الحقائق في الخلوة والانفراد . فلما رأى القديس شدة تأثير هذه الحقائق في قلب الانسان ولا سيما في فؤاد من يتأملها على انفراد متأنياً صنَّف كتاب رياضاتهِ وهو كتاب غريب نظراً الى ما اودعهُ من الفوائد وقد قرَّظتهُ الكنيسة كلها واثبتهُ الاحبار الاعظمون ولم يزل مثمراً في نفوس المؤمنين ثمار الخلاص والبرّ (١) .

(١) حاشية . ان الكتاب المذكور هنا ترجمهُ الاب بطرس فرماج الى اللغة العربية وقد طُبع حديثاً في مطبعة الاباء اليسوعيين ببيروت

غير ان القديس لما رأى اعتبار الناس لهُ عزم على الفرار ثم خرج من منريزا وانطلق الى مدينة البندقية لكي يركب هناك سفينة ويمضي فيزور الاماكن المقدسة في اورشليم فلما وصل الى هناك ولا فضة معهُ بحيث رام ان يتشبَّه بالرسل في زيارة الارض المقدسة فلم يكن من يقبلهُ في منزلهِ فاضطر ان يصرف الليل في شوارع المدينة وكان في تلك المدينة قاضٍ شريف وعزيز الجانب عند جميع الناس لِما كان عليهِ من كثرة الخبرة وثقوب الفطنة ولانهُ كان امينًا وحكيمًا ولكثرة ماكان يتصدق بهِ على الفقراء وكان اسمهُ انطونيوس تريفيزان فهذا فيما كان راقدًا على فراشهِ سمع هاتفًا يقول لهُ أهكذا تستريح على فراشك نائمًا وتدع عبدي في الشوارع متروكًا. فقام حالًا ذلك القاضي الحكيم وخرج يطلب ذلك الرجل فوجد القديس اغناطيوس منطرحًا على الارض فكلفهُ ان يذهب الى بيتهِ وعاملهُ هناك بكل كرامة ومحبة . ثم ركب القديس سفينة كانت مسافرة الى جزيرة قبرس ومن هناك سافر الى يافا وكان وصولهُ اليها في آخر يوم من شهر آب في السنة الثالثة والعشرين بعد الالف والخمس مائة . ثم مضى اخيرًا الى اورشليم ودخلها في اليوم الرابع من شهر ايلول وزار هناك كل الاماكن المقدسة بتقوى لا تكاد توصف وقصد القديس الموما اليهِ ان يقضي بقية حياتهِ في بلاد الشرق ليعظ الغير المؤمنين راجيًا ان يموت شهيدًا ويسفك دمهُ من اجل السيد المسيح غير انهُ لما امرهُ رئيس رهبان القديس فرنسيس بالسلطان الذي اعطاهُ اياهُ الحبر الاعظم بان يخرج من الاماكن المقدسة ويرجع الى بلاد المسيحيين خرج حالًا ووصل الى قبرس سالمًا ثم طلب الى رُبَّان (اي رئيس مركب) بندقي ان يقبلهُ في سفينتهِ حبًّا بالله تعالى فاشمأزَّ منهُ ذلك الربَّان وقال لهُ على سبيل التهكم والاستهزاء انت رجل قديس حسب شهادة الناس فلا حاجة لك الى مركب لكي تمضي الى ايطاليا سِرْ على وجه الماء . فسمع هذا رئيس سفينة اخرى صغيرة فقبل القديس فيها بمحبة . ثم سافر ووصل بسلام الى البندقية اما المركب الآخر فانكسر في البحر من عاصفة ادركتهُ وغرق كل ما فيهِ ما عدا الركاب

٢ في درس القديس اغناطيوس العلوم

ولم يزل القديس ملتهبًا بغيرة على خلاص النفوس مهتمًّا بتحصيل الوسائط التي تبلغ بهِ الى المقصود ولما رأى انهُ من ثم بدون العلوم لا يكون أُس هذا البناء متينًا راهنًا عزم على درس العلوم الدنيوية ورجع الى مدينة بارسيلونا ودخل المكتب ليتعلم مع الصبيان مبادي العلوم وكان عمرهُ وقتئذٍ ثلثًا وثلثين سنة. اما الشيطان اخزاهُ الله فعرف ما سينتهي اليهِ امر القديس من درس العلوم فتزيًّا بزيّ ملَك النور وجعل يحثهُ على الرياضات والعبادة لكي يصرفهُ بها عن الدرس. ولم يقف ذلك العدو المخاتل عند هذا الحد بل كان ينشئ في قلب القديس عواطف جيدة عذبة شأنها ان تشغل عقلهُ عن درس العلوم بالكلية كلما عثر في الكتب العالمية على لفظة الله او السيد المسيح . غير ان القديس لما انتبه على هذه الحال ذهب الى معلم المدرسة واعلمهُ بتجربتهِ وطلب منهُ ان يعاملهُ كاصغر الصبيان اي ان يؤدبهُ كتأديبهِ اياهم ان وجدهُ متراخيًا في الدرس . ثم نذر النذور على درس العلوم وبفعل اتضاعهِ هذا اخزى المجرِّب حتى انهُ لم يجسر بعد ذلك ان يوسوس اليهِ بهذه التجربة ابدًا

اما اغناطيوس فلكي يجد زمانًا للدرس ويستطيع ان يحتمل هذا التعب العقلي نقص قليلًا من الساعات السبع التي كان يقضيها في الصلوات ونقص كذلك يسيرًا من تقشفاتهِ ولما كان الله تعالى يمسك عنهُ تعزياتهِ الروحية الاعتيادية لم يكن يضطرب لاجل ذلك البتة لعلمهِ بالفرق ما بين الفتور واليبوسة الروحية ومن ثم كان يقول ان فقد عذوبة العبادة في من يدرس العلوم البشرية لمجرَّد مجد الله لافضل جدًّا من كل تعزيات العبادة الحسية . غير انهُ لم يدع حرارة العبادة ومحبة التقشف يبردان فيهِ لانهُ كان يلبس المسح على الدوام ويصلي ليلًا في حجرتهِ سرًّا فضلًا عن الصلاة نهارًا . وقد شاء ابن الرجل الذي كان اغناطيوس مقيمًا بمنزلهِ ان يعرف كيف يقضي الليل فرآهُ مرةً ساجدًا متأملًا بوجه ملتهب مبتلٍّ بالدموع ومرةً اخرى ابصرهُ مرتفعًا من على وجه الارض ولامعًا بالنور كالشمس متنهدًا وقائلًا مرارًا كثيرة يا الهي يا حبيب قلبي وسرور نفسي ليت الجميع يعرفونك حتى لا يجسر احد منهم ان يغيظك فيا ما اعظم جودك ورحمتك لانك تحتمل خاطئًا مثلي

وفيما كان يدرس العلوم باجتهاد لم يدع الاهتمام في خلاص النفوس بمخاطباتهِ ومثال سيرتهِ وقد اشتهرت غيرتهُ

في ما سيأتي ذكرهُ وهو انهُ في ذلك الزمان كان بجوار مدينة بارسيلونا دير راهبات يقال لهُ دير الملكية . بيد ان ذلك الاسم لم يكن يناسب هذا الدير بحيث لم يكن في اولئك الراهبات ما يليق بدعوتهنَّ سوى الثوب الرهباني . فلما رأى القديس الرجس والنفاق في المكان المقدس اضطرم بالغيرة الا انهُ تدبَّر في الاصلاح بلطافة علمًا بان اهل العبادة والاديرة اذا انفصلوا عن الله يعسر ارتدادهم جدًّا جدًّا فاختار كنيسة ذلك الدير محلاًّ لصلاتهِ وكان يقضي فيها اربع ساعات او خمسًا ويتناول القربان المقدس فاطلعت الراهبات على ذلك ورمنَ ان يخاطبهنَّ . فتقدم القديس وشرع يذكر لهنَّ واجبات الدعوة الرهبانية وكم يريد السيد المسيح ان عرائسهُ يكنَّ نقيات وقد اورد ذلك بغيرة مقرونة بغاية ما يكون من اللطف والانس ولما رأى ان كلامهُ ابتدأ يؤثر فيهنَّ طفق يخاطبهنَّ في هذا الامر مدةً ثم اشار عليهنَّ بتأمل الحقائق المذكورة في كتاب رياضاتهِ وبواسطة ممارستها اصطلح هذا الدير . فاغتاظ من ذلك قوم من ارباب الفساد وعزموا على اخذ ثأرهم منهُ لكونهِ صدَّهم عن شرّهم ومن ثم لما كان راجعًا هذا القديس مع قس آخر من ذلك الدير الى مدينة بارسيلونا وثب عليهما اولئك الاشرار وضربوهما فمات القس من الضربات وسقط القديس طريحًا على الارض كميت . فحُمل الى منزلهِ واستمرَّ مريضًا ثلاثة وخمسين يومًا ولما رجعت اليهِ صحتهُ باذن الله عاد حالاً الى ذلك الدير وقال للذين كانوا يجتهدون في صدهِ عن الرجوع الى ذلك المكان حذرًا من غضب اعدائهِ لينعم الله عليَّ بان اموت من اجل هذا الخير . اما اعداؤهُ فلم يتركوهُ فيما بعد فقط بل تابوا عن شرهم والذي كان فيهم اكثر شرًّا افتقد القديس وجثا على قدميهِ واستغفر منهُ

وفيما كان راجعًا ذات يوم من هذا الدير الى مدينة بارسيلونا رأى اناسًا داخلين بيتًا وكان صاحبهُ قد شنق نفسهُ فدخل معهم القديس وامر بقطع الحبلة فوجدوهُ قد مات فجثا حينئذٍ القديس على الارض وطلب الى الله تعالى بصوت مرتفع ان يُحيي ذلك الميت لكي يعترف فقام الميت من ساعتهِ فاعترف ثم مات ثانيةً

اما معلم المدرسة فلما رأى القديس اغناطيوس تعلم جيدًا اللغة اللاتينية وبرع فيها في سنتين اشار عليهِ ان يدخل مدرسة الفلسفة فذهب لذلك الى مدينة القالا المشهورة بمدرستها وذهب معهُ خمسة شبان كانوا قد سلكوا بتعليمهِ وارشادهِ طريق الفضيلة . فشرع القديس المذكور يدرس الفلسفة بكل جهدٍ شوقًا الى مباشرة وظيفة تخليص النفوس وخطر لهُ انهُ اذا درس علومًا مختلفة معًا يبلغ أربهُ سريعًا فطفق يدرس علم الفلسفة الطبيعية والادبية وعلم اللاهوت معًا الاَّ ان اجتهادهُ بتحصيل العلوم من حيث انهُ كان على خلاف النظام عاد باطلاً بالكلية وقد كان ذلك بتدبير الله الذي كان يريد من القديس ان يعلم هناك الاخرين علم الخلاص ويبقى تعليم ارسطوطاليس والقديس توما اللاهوتي الى زمن آخر

ولما رأى اغناطيوس انهُ لايستفيد شيئًا من دروسهِ وجه فكرهُ واجتهادهُ الى خلاص النفوس مع الذين كانوا قد تبعوهُ . وقد كان في مدينة القالا رجل اكليريكي شريف مقتدر رديء السيرة جدًّا كان يأخذ كثيرين بشراك الدنس فعزم هذا القديس على ردّهِ عن الشر وبعد ان سأل الله تعالى النور والعون مضى الى ذلك الشخص وفتح معهُ الخطاب هكذا : اني اتيتك ياسيدي لاجل اعظم الامور التي تخصك وهو امر خلاص نفسك فكيف تعيش على الارض كمن لايؤمن بوجود الجنة والنار . كيف لا تفتكر في ابدية العذاب المعدّ لك لاجل قبح سيرتك فلو انك تموت الان ليت شعري ماذا كان يصير فيك انت الذي لايزال مجتهدًا ان يرمي بنفسهِ وبنفوس كثيرين معهُ في هاوية الهلاك الابدي . فاوغر ذلك صدر الاكليريكي المومأ اليهِ وزجر القديس وتوعدهُ بالضرب والطرد والاهانات ان كان لايخرج من بيتهِ سريعًا . اما اغناطيوس فلم يضطرب من ذلك بل تشدَّد بالتوبيخ بغيرة متقدة وفيما كان على هذه الحال تغير قلب الاكليريكي بغتةً وعزم القديس على ان يتعشى عندهُ وبتعليمهِ وارشادهِ تاب الى الله ورجع عن سيرتهِ الرديَّة . فشاع خبر هذا التغيير العجيب وبمثال توبة هذا الشخص الشريف تاب كثيرون في المدينة

ثم شرع اغناطيوس يجمع الشبَّان ويفسر لهم الحقائق المرشدة للخلاص ولأن اكثر الذين كانوا يحضرون هذه الاجتماعات دخلوا منهج الفضيلة تحيَّر الناس من امر هذا التغيير وظن كثيرون منهم ان اغناطيوس هو رجل ساحر وقال آخرون انهُ رجل مبتدع من اهل الاهواء واتصل

اخيرًا الخبر الى المحكمة المقامة ضد الاراطقة وكانت قد حكمت منذ قليل على قوم من اهل الضلال لقبوا انفسهم بالمتنورين فخاف القضاة من ان بدعة لوتاروس تدب وتفشو في مملكة اسبانيا ففحصوا عن سيرة القديس وتعليمهِ ثم انهم مدحوهُ بحكم شرعي وغدا لذلك عزيز الجانب ومكرمًا في المدينة فكيف لا وكانوا يلقبونهُ بالقديس. غير انهُ جرى بعد ذلك ما جدَّد شك الناس فيهِ وهو انهُ كان في هذه المدينة امرأة ارملة ولها ابنة ارملة ايضًا وقد ارتدَّتا عن سيرة ردية بارشادات القديس اغناطيوس وكانت تندرَّبان بمشورتهِ فعزمت المرأة وبنتها على زيارة مكان مقدس بعيدًا عن المدينة فاستشارتا مرشدها في ذلك فاستغرب منها هذا الفعل وقال ان ذلك شانهُ ان يعرضكما في اخطار كثيرة واهوال عديدة ويسبب في المدينة شكًّا. غير انهما لم تسمعا الى مشوراتهِ وذلك دأب كثير من العابدات من جهة مخالفة راي المرشدين وتفضيل ارائهنَّ على ارائهم. فسافرتا الاثنتان بغير رفيق وزارتا في اقليمين بعيدين الاماكن المقدسة ومع انهما كانتا من بيت معتبر كثير الغنى اكملتا هذا السفر ماشيتين على ارجلها يتسولان في الطريق معيشتهما. فلما انتشر في مدينة القالا سفرهما قام الجمهور على اغناطيوس من حيث ظنوا انهُ هو الذي اشار عليهما بهذه الزيارة وقالوا لهُ لا يليق فضلاً عن انهُ لا يجوز ان رجلا غبيًّا وغير اكليريكي يباشر وظيفة التعليم وارشاد النفوس وبما انهُ قد ظهر منهُ مثل هذا الضلال والجنون يجب ان يلقى في سجن لا يخرج منهُ الى اخر عمرهِ لئَلا يضل الناس. فارسل نائب المطران وقبض على القديس اغناطيوس والقاهُ في السجن وفيما كان ماضيًا الى السجن فيما بين الشرط صادفهُ فرنسيس بورجيا ابن امير غنْدِيا الذي ترهب في الرهبانية اليسوعية وكُتب اسمهُ في كتاب تراجم القديسين فلما رأى القديس اغناطيوس ماشيًا والناس محيطين بهِ يهينونهُ ويهزأُون بهِ ومع ذلك لا يبين في وجههِ الّا حلم واحتشام جزيل شعر في قلبهِ بعواطف الاحترام والمحبة نحوهُ وقد احدثت العناية الالهية هذه الحادثة كزرع نبت في حينهِ

غير ان الله تعالى جعل سجن القديس مدرسة بحيث ان الناس طفقوا يجتمعون اليهِ ليسمعوا كلامهُ. وكان بينهم معلمهُ الاول في مُعلّمي اللاهوت ولفرط ما احب كلام القديس تغاضى عن المضي الى المدرسة ليعلم هناك. فلما خرج من السجن ووجد تلاميذهُ ينتظرونهُ قال لهم باندهال عقل اني رأَيت اليوم بولس في السجن. فبعد سبعة وعشرين يومًا ذهب نائب المطران الى السجن ليفحص عن دعوة القديس فسألهُ عن المرأة وابنتها الارملة المذكورتين وعن زيارتهما المتجاوزة حدود الادب فاقرَّ القديس انهُ كان يعرفهما وانهما استشارتاهُ في هذه الزيارة غير انهُ لم يرتضِ بها بل انهُ افرغ جهدهُ في صدّها عنها. فقال لهُ نائب المطران بما انهُ ثبت وتحقق ذلك فانك بري من كل ذنب لانهُ لم يُحكم عليك بالسجن الّا لاجل هذه الحجة فقط. وفيما كان يفحص النائب عن حقيقة الامر رجعت المرأة وابنتها من زيارتهما ولما وقفتا امام النائب وسألهما عما كان برَّأتا القديس اغناطيوس تبرئةً تامةً. فخرج وقتئذٍ من السجن غير ان النائب اوصاهُ بأَلّا يعلّم الناس فيما بعد التعليم المسيحي. فشقَّ ذلك على القديس جدًّا جدًّا ولكنهُ امات نفسهُ ولم يضادّ حكم النائب بكلمة غير انهُ قصد ان يذهب الى مدينة توليدا حيث كان المطران ويذكر لهُ دعوتهُ. فبعد ذلك بايام قليلة وجد في الشوارع اناسًا كثيرين مجتمعين للعب فطلب منهم الصدقة فنظر اليهِ واحد من الجمهور وهتف قائلاً نحو القديس ليحرقني الله حيًّا ان كان هذا الرجل لا يستحق ان يُحرق حيًّا. وفي ذلك النهار عينهِ حضر فرجة دنيوية مبهجة وكان واقفًا على برميل مملوءٍ بارودًا واذا بشرارة ملتهبة وقعت على ذلك البرميل فاشتعل البارود حالاً واحرق الرجل حيًّا

فذهب القديس الى مدينة توليدا وكاشف المطران بدعوتهِ اما المطران فاستقبلهُ بمحبة واشار عليهِ بالمضي الى مدينة سَلاَمَنكا ليعلم هناك امور الخلاص. فذهب القديس الى هناك وما لبث ان اثمر تعليمهُ في النفوس اثمارًا جيدة وكان شرفاء المدينة من رجال ونساء يحبُّون تعليمهُ وارشادهُ. غير ان هذا الامر لم يُستحسن عند بعض الانقياء وذلك كان اما بحركة الحسد الذي بهِ نذم الخير الذي لا نشترك في فعلهِ واما خوفًا من روح الارطقة الذي كان يفسد الممالك المحيطة باسبانيا. فمن ثمَّ قالوا انهُ لأَمر لم يُسمع بمثلهِ ان رجلاً غبيًّا من العامة يعلم الشعب ويباشر وظيفة راعٍ اكليريكي. وكان من القائلين بذلك منهم بعض رهبان. فارسل نائب المطران وقبض على القديس ورفقائهِ والقاهم في سجن مظلم واوثقوا ارجلهم بقيود كاناس مفتنين واراطقة. اما هم فقضوا الليل كلهُ مرتلين

تسابيح الشكر لانهم أُهِّلوا لان يُهانوا اكرامًا للسيد المسيح . فلما شاع هذا الخبر في المدينة تراكض الناس من كل ناحية ليزوروا القديس في السجن ومنهم فرنسيس مندوزا الذي صار فيما بعد مطران مدينة بورغوس وكاردينالاً . فهذا سأل القديس قائلاً أما تستصعب طرحك في السجن . فاجابهُ القديس لعلَّك تعتبر هذا شيئًا عظيمًا فاعلم اني ارغب في ان تكون كل سجون المدينة مسكني وكل قيودها اطواقي

ثم زارهُ ايضًا نائب المطران وسألهُ كثيرًا اما القديس فسلمهُ كتاب رياضاتهِ فاخذهُ النائب وقرأهُ متأنيًا ثم اعطى ذلك الكتاب ثلثة من علماء اللاهوت لينظروا فيهِ نظرة النقاد الخبير ثم وقف القديس اغناطيوس في محكمة الاكليريكيين وسألهُ الحكام عن اشياء كثيرة تخص كتاب رياضاتهِ وعلم اللاهوت ثم امروهُ بان يفسر لهم الوصية الالهية الاولى بحسب تفسيرهِ اياها امام الشعب . فاجابهم عن كل شيء جوابًا سديدًا حتى انذهلوا واعتقدوا ان الروح القدس كان ينطق بفمهِ غير انهم قالوا لهُ انهُ لأمر مستغرب ان رجلاً مثلهُ غير عارف بالعلوم السامية يورد في كتاب رياضاتهِ الفرق ما بين الخطيئة المميتة والخطيئة العرضية . فقال القديس انكم قد أُقمتم حكامًا عليَّ فافحصوا اذًا عن القضية واحكموا غير اني اسألكم ان تحكموا بعد ان تجثوا في المشكلات بصحتها اذا رأيتموها مستقيمةً . وفيما كان الحكام يسألون القديس هكذا قام الناس الذين في السجن فكسروا الابواب وقتلوا بعضًا من الحرَّاس وكتفوا بعضهم وهربوا جميعهم ما خلا رفقاء القديس اغناطيوس فبعد ان مكثوا في السجن اثنين وعشرين يومًا حضروا المحكمة وبرَّأهم الحكام وصحَّحوا تعليمهم واذنوا لهم ان يعلموا الشعب في المدينة

غير ان الله تعالى ألهم القديس واوحى اليهِ ان يذهب من المدينة ومن اسبانيا الى فرنسا ليدرس العلوم في باريز ولانهُ رأى ان طلب الصدقة كان يعوقهُ عن الدرس اخذ من اصحابهِ الذين بمدينة بارسيلونا مبلغًا من الدراهم وسافر وحدهُ بحيث ان رفقاءهُ جميعهم استصعبوا التغرب وتركوهُ فوصل الى باريز في ابتداء شهر شباط في السنة الثامنة والعشرين بعد الالف والخمس مائة وسكن مع ثلثة اسبانيوليين تلاميذ المدرسة وسلم الى احدهم دراهمهُ . اما هذا الرجل فبعد ان بذَّر من المال شيئًا هرب بما كان بقي معهُ من ذلك المال

غير انهُ لما وصل الى مدينة روان مرض وحصل على شقاء لا مزيد عليهِ فكتب الى القديس ملتمسًا منهُ العون في ضيقتهِ . فقام من ساعتهِ القديس وسافر ليُسعف هذا المريض ولما ظنَّ انهُ يسرع بالمسير اكثر اذا سافر حافيًا ترك حذاءهُ ومشى . بيد انهُ استحوذ عليهِ بعد ذلك الحزن والضجر وشعر بثقل عظيم فبكَّت نفسهُ على ذلك وحثها بل اضطرها على المشي ثم غاب عنهُ كل ضجر وثقل وامتلأت نفسهُ تعزيةً ومع انهُ لم يكن قد تناول شيئًا من المآكل استمرَّ ماشيًا بسهولة وعجالة كانهُ طير وبعد ما سار على هذا الحال اياما وصل الى مدينة روان ولما وجد المريض اعتنقهُ بمحبة واخذ يعزّيهِ ويخدمهُ ولم يتركهُ بل واظب على خدمتهِ حتى برئ برءًا تامًا واعطاهُ نفقةً لاتمام السفر

ثم عاد الى باريز واقام بالمدرسة يدرس العلوم بكل جهد لانهُ كان يعرف ما اراد الله بهِ من الخير ومن اجل ذلك اهمل كثيرًا من الافعال الحميدة مخافة ان تعوقهُ عن الدرس . بل انهُ في الزمن المعين للدرس لم يكن يتكلم على امور العبادة بحيث كان قد اختبر انهُ كلما بدأ يتكلم فيها لا يقدر ان يوجّه افكارهُ الى الدرس الا بعد زمن مديد ولكنهُ لم يهمل شيئًا من رياضاتهِ الروحية ولا سيما فحصَي الضمير العام والخاص المورد تفسيرها في كتاب رياضاتهِ ولكنهُ مع هذا كان في وقتهِ يكلم القريب عن خداع العالم وبغض الخطيئة وعذاب جهنم . وبهذا كراتهِ ارشد كثيرين وردَّهم عن الخطيئة فسلكوا طريق العبادة لان كثيرين منهم تركوا المدرسة وترهَّبوا فاغتاظ المعلمون من ذلك جدًّا لانهم رأوا ان ربحهم نقص فاشتكوا على اغناطيوس الى مدبر المدرسة وصوَّروهُ في عينيهِ رجلاً خبيثًا يمنع الناس عن درس العلوم في المدرسة فبامر مدبر المدرسة وبحسب عادة ذلك الزمان التام جميعهم ليجلدوهُ بالسياط ثم ارسلوا فدعوا القديس ليحضر . اما القديس فمع انهُ كان عارفًا قصدهم ذهب حالاً الى رئيس المدرسة المدعو غوفيا ورفع اليهِ دعونهُ باحتشام وأورد لهُ اخيرًا شدة استعدادهِ لاحتمال اعظم اهانة وأوجع عذاب من اجل سيدنا يسوع المسيح فلما انتهى خطابهُ اخذهُ الرئيس بيدهِ ولم يجبهُ بكلمة بل ادخلهُ المحفل حيث كان معلمو المدرسة ينتظرونهُ والسياط في ايديهم ليضربوهُ بها امام جمهور غفير من الناس . فلما وقف في وسطهم وكان المعلمون ينتظرون علامة لضربهِ جثا رئيس المدرسة

على قدمي القديس وطلب منهُ المسامحة لانهُ اسرع بتصديق ما اتهموهُ بهِ ثم نهض على رجليهِ وقال للحاضرين بصوت عالٍ اعلموا وتحققوا ان اغناطيوس انما هو رجل قديس لا يرغب الاَّ في خلاص النفوس وانهُ مستعدٌّ الى احتمال اعظم اهانةٍ

فمنذ ذلك اليوم اشتهر اسم اغناطيوس فاحبهُ أعلم الذين بتلك المدرسة واشرفهم واعتصموا بحبل مودتهِ اي اعتصام وكان منهم المعلم مارسيال وهذا بعد معاشرة القديس اعترف ان اغناطيوس انما اتخذ انوار علمهِ من مدرسة الروح القدس. ومعلم آخر يقال لهُ بينيا كان قد اضطهد القديس ثم احبهُ فيما بعد محبة صافية واوصى تلميذهُ فابر بان يسعف القديس في علم الفلسفة وكان هذا ساكنًا مع فرنسيس كسافاريوس رسول الهند فسكن القديس اغناطيوس معهما وبعد ثلث سنين ونصف حُسب من علماء الفلسفة ثم دخل مدرسة علم اللاهوت عند رهبان القديس دومينيكوس

٣ في جمع اغناطيوس تلاميذهُ الاولين وفي نذورهم الاولى

فزادت حينئذٍ نفسهُ غيرة على خلاص النفوس وعرف يقينًا ان الله اختارهُ ليؤَلف جماعةً يهتمون بخلاص القريب وانهُ يجد في مدرسة باريز رفقاء لهُ وقد وجَّه فكرهُ اولاً الى فابر المذكور لانهُ وجدهُ متصفًا بصفات حسنة حميدة مناسبة لمقصودهِ لكون المعلم المشار اليهِ كان واسع العقل ثاقب الفطنة مع بساطة قلب وسعة علم عزيزة المثال. الاَّ ان القديس لم يكشف لهُ في الابتداء قصدهُ فيهِ بل انما كان يحثهُ على الخير دائمًا. اما فابر فمع انهُ كان عفيفًا وقد نذر العفة الدائمة منذ صباهُ لم ينجُ من التجارب المضادة الطهارة ولانها كانت تشتدُّ عليهِ حينما كان يقاومها بالصوم حصل لهُ من قِبلها كدر عظيم واضطراب جسيم. فكاشف ذات يومٍ القديس اغناطيوس بامرهِ واعلمهُ بانهُ قاصد الزهد والاعتزال الى الفيافي. اما القديس اغناطيوس فبما انهُ كان خبيرًا بتمييز الارواح قال لهُ: ليس الاعتزال في البراري والقفار دواء شافيًا في كل وقت من مثل هذا الداء وان القديس ايرونيموس لقي في البرية ما كان يهرب منهُ ولا غرو فان الانسان الى حيثما مضى يرافقهُ اكبر اعدائهِ اي جسدهُ وان ممارسة التقشفات على وحدةٍ لا تكفي دائمًا لمداواة هذا الداء فكيف لا وان كثيرين بالغوا في ممارستها وكانت تضغطهم مع ذلك تجارب الزنا. ثم شرع القديس يورد لهُ الوسائل الروحية التي كان قد اختبر نفعها فعلمهُ اولاً رياضة فحص الضمير الخاص الجليل نفعهُ لاستئصال الميل الفاسد الذي جعل الجسد يتمرَّد على الروح واشار عليهِ باستعمال الافعال الباطنة المضادة كل تجربة خصوصية.

هذا يتوقف على ان الانسان مثلاً يتضع باطنًا عند اعتبارهِ فناءهُ وخطاياهُ حينما يخطر لهُ فكر العجب والعجرفة. فهدأ قلق فابر واعترف اعترافًا عامًّا بكل سهولة. وفي اثناء ذلك اي بعد ان ابرأ القديس امراضهُ الروحية هكذا مرَّنهُ على ممارسة الفضائل الراهنة شيئًا فشيئًا وبعد سنتين قال لهُ انهُ قد نوى الذهاب الى الشرق بعد ان يفرغ من علم اللاهوت ليباشر هناك وظيفة رسول. فلما سمع هذا فابر تهللت نفسهُ وقال لهُ ببرارة مقدسة. ليكن محققًا عندك اني اتبعك وارافقك حتى الموت. وسافر حالاً وذهب الى سافويا بلدتهِ ليتخلص من كل ما يتعلق بهِ من امور الدنيا

وفيما كان فابر متغربًا اخذ القديس اغناطيوس يجذب فرنسيس كسافاريوس الذي كان حينئذٍ يعلم الفلسفة في باريز وكان قد زيَّنهُ الله تعالى بعقلٍ ثاقب ونفس منصبَّة على كل ما هو حميد. غير انهُ كان يحب يسيرًا المجد الباطل والشرف العالمي ويرغب ويرجو الارتقاء الى رتبة شريفة في الكنيسة. فرأى القديس اغناطيوس ان من كان متصفًا بهذهِ الصفات والمزايا اذا مال الى الخير فلا يبعد انهُ يفعل امورًا عظيمة غير انهُ وجد الامر مستصعبًا لانهُ لما اخذ يذكر لهُ غرور وزخارف الدنيا وبطلانها ويحثهُ على احتقارها كان كسافاريوس كانسان لا يصغي او يزدري بما يسمع. اما القديس فكان يداريهِ ولم يزل ينتهز كل فرصة لاستمالتهِ الاَّ ان الوقت لم يكن قد اتى بعد

فعرف حينئذٍ ان رجلاً ما معروفًا منهُ كان يعاشر امرأة تسكن قرية بجوار باريز معاشرة رديئة فكلمهُ القديس كثيرًا ليردهُ عن الخطيئة ولم تؤثر نصائحهُ فيهِ لان الشهوة كانت قد اعمتهُ فازداد اغناطيوس غيرةً على تخليص نفسهِ وانتظرهُ ذات يوم على الطريق ولما رأى ذلك الشقي آتيًا رمى بنفسهِ حتى رقبتهِ في بحيرة مجلَّدة اذ كان فصل الشتاء فلما مرَّ بهِ ذلك الرجل صرخ القديس نحوهُ من وسط البحيرة قائلاً الى اين ماضٍ يا شقي أَلست تسمع صوت الرعد يرهبك الله بهِ أَلست تنظر سيف غضبهِ قد استلَّهُ ليضرب بهِ اذهب الان وأشبع شهواتك

البهيمية اما انا فاستمرُّ هنا الى ان يسكن غضب الله عليك . فارتعد ذلك الرجل الزاني واندهش من غيرة اغناطيوس وخجل من رداءة شهوتهِ ورجع الى بيتهِ تائبًا . وقد استعمل واسطة اخرى مع كاهن كان يعيب درجتهُ العالية بقبح سيرتهِ وخبث سريرتهِ فذهب اليهِ واعترف لهُ اعترافًا عامًّا وفيما كان يذكر ضلال حياتهِ الأولى بندامة عظيمة كان ضمير الكاهن يبكّتهُ وبعد انتهاء الاعتراف اوضح الكاهن للقديس حاله واستعان بهِ ليتخلص من حمأة الدنس ثم مارس تحت ارشاد القديس رياضاتهِ شهرًا كاملاً وصار فيما بعد رجلاً فاضلاً بل معلمًا ماهرًا في الامور الروحية

فرجع حينئذٍ فابر من بلدتهِ قاصدًا بكل عزمهِ ان يطيع القديس اغناطيوس ويتبعهُ دائمًا . ولما اجتمع بهِ اشار عليهِ بممارسة الرياضات في موضع منفرد فمارسها فابر بمزيد النشاط واستمرَّ ستة ايام صائمًا لا يتناول ماكلاً الاَّ القربان المقدس ولو لم يمنعهُ مرشدهُ لكان قد اطال صومهُ اكثر من ذلك.وبعد هذه الرياضات جعل فابر يرتقي يومًا فيومًا سُلَّم الفضائل وشرع حينئذٍ القديس اغناطيوس يكاشفهُ بمقصدهِ في تأليف جماعة يهتمون بخلاص النفوس . وكان قد لان قلب فرنسيس كسافاريوس ولا سيما لما تأمل التغيير العجيب الذي طرأ على قلب فابر وعرف شرف اصل اغناطيوس لانهُ الى ذلك الوقت كان يظن انهُ رجل حقير من رعاع الناس . فلما وجدهُ القديس منصبًّا على قبول تعليمهِ قال لهُ اخبرني يا كسافاريوس .ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كلهُ وخسر نفسهُ . نعم لو لم يكن للناس الاَّ الدار الحاضرة لكان جديرًا بك ان تسعى جهدك لتكون فيها ذا كرامةٍ وفخر لكنما بعد هذه الدار الفانية يذهب الناس الى دار البقاء فاما سعدًا واما شقاءً . فلماذا توجّه كل افكارك واشواقك الى ما يزول كالدخان وما لا يبقى الاَّ كلمحة بارقٍ او سحابة صيفٍ ولماذا تفضّل الزمني على الابدي . فاعتقد ان كرامة العالم لا تستحق ان نرغب فيها والجدير بنا ان نرتاح اليهِ انما هو جنة النعيم لاغير . اني لستُ أريد ان تدع عنك الميل الى المجد والامور السامية كلاَّ . بل انما أُريد منك ان توجّه هذه الرغبة الى ما هو اسمى واعظم وتحتقر كل ما يفنى ويزول . فبهذا الخطاب انتصر القديس على كسافاريوس فتتلمذ لهُ من ساعتهِ وتدرّب بارشادهِ

وقد كان لكسافاريوس صاحب من الشرفاء فلما بلغهُ ما كان من امر كسافاريوس وغر صدرهُ على القديس اغناطيوس وعزم على قتلهِ . فنصب ذات ليلةٍ سلمًا على حائط منزلهِ ليصعد ويدخل من نافذةٍ ويقتل اغناطيوس وفيما كان صاعدًا سمع هاتفًا يقول بصوت مرعب الى اين انت ماضٍ يامنكود الحظ وما الذي تريد ان تصنع فارتدَّ حالاً وارعوى تائبًا. ثم بعد ذلك تتلمذ للقديس رجلان معتبران جدًّا لسعة علمهما وهما يعقوب لاينس والفُنْسيوس سَلْميرون فالاول كان قد بلغ من العمر اثنين وعشرين سنة والثاني كان لهُ من العمر ثماني عشرة سنة فقط وكان كلاهما ماهرَين في اللغتين اليونانية والعبرانية وعلم الفلسفة وكانا قد اتيا باريز لينظرا القديس اغناطيوس الذي كانا قد سمعا خبر برّهِ في اسبانيا وقصدا ان يرتشدا بمشورتهِ . وقد اتفق بتدبير عناية الله ان اوّل رجل وجداهُ عند دخولهما مدينة باريز كان هذا القديس . فلما قلّب لاينس نظرهُ فيهِ ورأى سِمات البرّ والحكمة تسطع على وجههِ وثبت عندهُ انهُ هو بعينهِ مع انهُ لم يكن قد رآهُ قط اقتربا منهُ وفرحا جدًّا لانهما وجدا سريعًا ما كانا يطلبانهِ . واما القديس فقبلهما ايضًا بفرح عظيم كقبولهِ ملاكين هبطا عليهِ من السماء ثم احصاهما بين تلامذتهِ فمارسا تحت ارشادهِ رياضات وخرجا من الخلوة بغيرة مضطرمة على خلاص النفوس

وبعد ذلك ضمَّ القديس الى تلامذتهِ رجلاً فقيرًا يقال لهُ نيقولاوس بوباديلا وكان المذكور عالمًا في الفلسفة ومتصفًا بصفات مناسبة للوظيفة الرسولية . اما تلميذهُ السادس فهو سمعان رودريكوس الرجل الشريف الاصل فهذا كان ذا عقل ثاقب وصورة جميلة محبوبة ومتصفًا من صغر سنهِ بالطهارة وتنبأ عنهُ والدهُ قال انهُ سيخدم الكنيسة خدمًا كثيرة . وكان قد ارسلهُ ملك البورتوغال ليدرس العلوم في باريز

فجمع القديس تلامذتهُ وقال لهم اني قد عزمت على الاقتداء بسيدنا يسوع المسيح على النوع الافضل كمالاً لانهُ جل سناؤهُ لم يقصد في كل زمان تردّدهِ على الارض سوى خلاص البشر فاريد ان اقتدي بهِ وان اهتم بقية ايام حياتي بتقديس نفسي وتخليص النفوس . ثم ان الاقامة بالقفر هي اكثر هدوءًا وعذوبةً من الاقامة بين الناس كما لا يخفى على احد ولكن

لا بدَّ ان نفضّل مجد الله تعالى على كل شيء وما عدا ذلك فاننا اذا رغبنا عن السكينة والراحة من اجل ذلك الغرض الاهمّ فاننا نفوز بنعم وافرة . هذا هو المذهب الذي ذهب اليهِ الرسل وربهم رب المجد ولعمري انهُ لا مذهب اسمى منهُ ولا اكمل ثم اني تأملت جميع اماكن المسكونة واخترت لرسالتي بلاد فلسطين التي هي الان على شفاء عظيم واشتهي ان اريق دمي هناك في سبيل خدمة النفوس حبًّا بمن اراق دمهُ الكريم كلهُ في تلك الاماكن حبًّا بنا ولاجل خلاص النفوس ولهذا قصدت ان انذر الذهاب الى بلاد فلسطين والزهد في الدنيا . وفيما كان القديس يخاطب تلاميذهُ هكذا كان وجههُ كلهُ ملتهبًا . فاجابهُ تلاميذهُ جميعهم قائلين انهم يقتدون بمثالهِ ويطيعونهُ كطاعة البنين لأبيهم . فذهبوا كلهم الى كنيسة مبنية على جبل يُقال لهُ جبل الشهداء وهي بجوار باريز وبعد ان قدّس احدهم المدعو بطرس فابر اوّل تلاميذ القديس وتناولوا القربان المقدس نذروا جهارًا انهم في الزمن المعيَّن منهم يمضون الى بلاد فلسطين ليهتموا بخلاص النفوس وانهم يتركون كل اموالهم ما عدا ما يحتاجونهُ للسفر في رسالاتهم وانهُ اذا عرض لهم عدم الاستطاعة على الذهاب الى بلاد فلسطين والمكث هناك فحينئذٍ يتقدمون الى الحبر الروماني نائب السيد المسيح ويذهبون الى حيثما يرسلهم لغاية تخليص النفوس . وقد نذروا هذا النذر يوم عيد انتقال العذراء في السنة الرابعة والثلثين بعد الالف والخمس مائة للمسيح

٤ في ذهاب اغناطيوس الى بلدتهِ ثم الى البندقية وارتسامهِ ورفقائهِ كهنة

ثم قصد القديس اغناطيوس ان يذهب الى اسبانيا ليدبر امور رفقائهِ الدنيوية ويحلّهم من رباط الاقارب هذا وبما انهُ كان قد اعتلّ بباريز وخارت قوّتهُ كان الاطباء قد اشاروا عليهِ ايضًا بالذهاب الى بلدتهِ ليعتدل هناك مزاجهُ وكان تلاميذهُ قد طلبوا هذا منهُ بمزيد الالحاح وانهُ لكي يربّي في تلاميذهِ روح النشاط ويُوثق فيما بينهم رباط المحبة رسم عليهم رياضات روحية وعيَّن لهم تأملات وتقشفات يومية واوصاهم ان يقرأُوا كتاب الاقتداء بالمسيح ويفحصوا ضمائرهم كل يوم مرارًا كثيرة ويعترفوا ويتناولوا القربان المقدس كل اسبوع . ولئلا تخلّ هذه الرياضات بدرسهم العلوم ولا درسهم العلوم يُرخي نشاطهم في العبادة عيَّن لهم الازمنة الواجبة لممارسة رياضاتهم الروحية والتي تنبغي لدرس العلوم فجعل فابر رئيسًا عليهم وخرج من باريز في اول السنة الخامسة والثلثين من الجيل السادس عشر ووعدهم انهُ ينتظرهم في مدينة البندقية بعد تتميمهِ الامور الموجبة ذهابهُ الى هنالك وكان قد اوصاهم بالاَّ يخرجوا من باريز قبل ان يتمموا درس علم اللاهوت

فلما وصل الى اسبانيا تقوّى جسدهُ ورجعت اليهِ عافيتهُ فلما قرب من اقليمهِ دخل منزلاً لياكل هناك ويستريح قليلاً فوصل الى ذلك المكان يوحنا اكويبار احد اصحابهِ القدماء فسأل صاحب المنزل هل وصل غيرهُ الى هناك فاجابهُ ذلك نعم انهُ قبل اتيانك بزمن قليل اتى خيَّال ذو هيبة وهيئة جميلة ولغتهُ تدل على انهُ من اهل هذه الاقاليم. فاشتهى اكويبار ان يراهُ فتقدم الى باب المكان حيث كان القديس وجعل يتفرّس فيهِ من ثقب الباب فرآهُ ساجدًا يصلي كمن قد اختُطف عقلهُ فعرف وتحقق بالنظر انهُ هو اغناطيوس خليلهُ فركب جوادهُ حالاً ومضى الى قلعة لويولا واخبر اهل القديس بوصولهِ الى هناك . اما اخوهُ البكر فكان قد عرف منذ قليل ان اغناطيوس في باريز سالك سبيل الابرار ولكن لما درى انهُ قدم عزم من ساعتهِ ان يمضي الى لقائهِ بجماعة من ذوي المناصب السنية والرتب العالية ولكنهُ خشي ان ذلك يشقّ على اخيهِ فعدل عن لقائهِ فبعث اليهِ باكليريكي جليل ليهنئهُ على وصولهِ بالسلامة ويرافقهُ في الطريق ويجيء بهِ الى القلعة حيث كان ينتظرهُ بفرط الشوق . اما القديس فلم يرد ان احدًا يرافقهُ ومن ثم ارجع الاكليريكي المشار اليهِ الى اخيهِ ولم يذهب الى قلعة لويولا بل انطلق الى مدينة اسبيسيا وهي قريبة جدًّا من القلعة التي سبقت الاشارة اليها . فشعر اهل المدينة بقدوم اغناطيوس ومن ثمَّ خرج حالاً الاكليريكيون للقائهِ كخروجهم بالزيَّاح . اما القديس فاجتهد في الفرار من هذه الكرامة ودخل المستشفى وهناك افتقدهُ اخوهُ واهل بيتهِ وطلبوا اليهِ بمزيد الالحاح ان يجعل اقامتهُ في قلعة لويولا حيث بيتهُ . فاجابهم القديس انني منذ اليوم الذي خصصت فيهِ حياتي لخدمة الله لم يعُد لي منزل في الدنيا وانني لا اريد الاَّ ان اخدم المساكين . فارسل لهُ اخوهُ فراشًا ثمينًا من بيتهِ وطعامًا من طعام مائدتهِ فلم يشأ ان يرقد على ذلك الفراش بل استمرّ نائمًا على الارض

الى ان قدّموا لهُ فراشًا كفُرُش الفقراء اما المآكل الكثيرة اللذيذة التي كانت تُرسل اليهِ كل يوم فكان يوزّعها كلها على المساكين وهو كان يعيش من الخبز الذي كان يستعطيهِ في المدينة

واستمرَّ عائشًا مع الفقراء ومثل الفقراء في مدينة اسبيسيا مدة ثلثة اشهر ولم يمضِ الى منزل اخيهِ الاَّ مرةً واحدة وذلك لان امرأة اخيهِ طلبت هذا منهُ باستحقاقات آلام ابن الله وهي جاثية على قدمَي القديس وفي زيارتهِ هذه لم يتكلم الاَّ على احتقار الدنيا وسوء حظ اصحابها ولانهُ كان قد زارهم مساء صرف الليل عندهم غير انهُ رقد على الارض و بعد ان صلى طويلاً رجع باكرًا الى المستشفى وقد ازدادت هناك رغبتهُ في ممارسة التقشفات عند مشاهدتهِ الاماكن التي كان عائشًا فيها عيشةً دنيوية. فلبس مسحًا خشنًا وشدَّ حقوَهُ بزنّار من حديد وكان في كل ليلة يجلد جسدهُ بشدة. ثم اخذ يُعلّم الاطفال مبادئ التعليم المسيحي وكان فوق ذلك يعظ في كل اسبوع ثلث مرات او اربعًا ولكون الكنيسة لم تسع كل الشعب الذي ازدحم لاستماع تعليمهِ اضطرهُ ذلك الى ان يعظ خارج المدينة في وسط الحقول وكانت الناس تجتمع من المدن والقرى التي في تلك النواحي وكان كثيرون منهم يصعدون الى الاشجار لكي يبصروهُ وقد اثرت تعاليمهُ جدًّا في النفوس

وفيما كان القديس اغناطيوس يخدم على هذا النسق كرم الرب في بلدتهِ كان تلاميذهُ في باريز يفرغون جهدهم في تحصيل العلوم ويحثون بعضهم بعضًا على الفضيلة تحت ارشاد الانبا بطرس فابر رئيسهم فاتحد معهم ثلثة من العلماء المستقيمي السيرة وهم كلاوديوس لوجاي من بلد سافويا ويوحنا كودور وبَسْكز بروي من مملكة فرنسا ومن ثم صار عدد تلاميذ اغناطيوس تسعة (١). فلما عرف ذلك القديس خرج من اسبانيا ليذهب الى مدينة البندقية و ينتظر هناك تلاميذهُ الذين لم يصلوا اليها الاَّ في اوائل السنة السابعة والثلثين من

وبعد ان وصلوا الى هناك جميعهم فالذين لم يكونوا قد ارتسموا كهنة ارتقوا الى هذه الدرجة مع القديس اغناطيوس وفيما هم يستعدُّون للسفر الى بلاد فلسطين نادى البنادقة بالحرب على الهاجريين فانتظروا هناك سنة كاملة بحسب نذرهم وفي هذه المدة انفرد كلٌّ منهم ليتأهب لقداسهِ الاول بممارسة الرياضات الروحية فاختار القديس اغناطيوس لهذا العمل منزلاً في البريَّة متروكًا مائلاً للانهدام وعاش هناك كعيشة سياح الصعيد في كهوفهم ومغاورهم مواظبًا على الصوم والصلاة ولكثرة التعزيات التي حازها في خلوتهِ كاد يفقد النظر فخرج بعد اربعين يومًا لكنهُ لم يمارس قداسهُ الاول بل زاد تأهبهُ لذلك اكثر من سنة اذ احتفل قداسهُ الاول برومية في عيد ميلاد الرب في السنة الثامنة والثلثين من القرن السادس عشر كما كتب القديس الى اخوتهِ. ففرّق تلاميذهُ في المدن التي حول البندقية ليكرزوا وقد كانوا يعلمون غالبًا في الشوارع من على حجر وبعد ان صرفوا النهار في خدمة النفوس كانوا يستعطون قليلاً من الخبز لمعاشهم ويعودون الى منزل خالٍ من الاثاث لا يجدون فيهِ فراشًا الاَّ الارض او قليلاً من التبن

فمرض منهم سمعان رودريكوس وكان قد يئس من شفائهِ فلما وصل اليهِ القديس اغناطيوس عانقهُ وقال لهُ ثِق يا اخي ان ستبرأ من مرضك بحول الله وفي تلك الدقيقة خفَّ داؤهُ وما لبث ان برئ تمام البرء. غير ان الشيطان اجتهد في ان ينصلهُ عن جماعة القديس اغناطيوس فوسوس اليهِ وصوَّر في عقلهِ ان الواسطة العظيمة التي بها يتحد الانسان مع الله تعالى هي رياضات الوحدة وكل الوظائف الخارجية ولو مهما كانت مقدسة فمن شأنها ان تشتت الفكر ومن يهتم بخلاص النفوس فهو على خطر دائمًا فالاسلم لي ان اهتم بتخليص نفسي فقط. ولم يكاشف بافكارهِ هذه القديس اغناطيوس بل عزم على الذهاب الى رجل كان منفردًا في البريَّة ليستشيرهُ وعزم على اتمام مشورتهِ. فخرج سرًّا ليزور السائح الاَّ انهُ عند خروجهِ من المدينة تقدَّم اليهِ رجل ذو قامة اعظم من قامة الانسان وكان وجههُ مرهبًا وفي يدهِ سيف مجرَّد. فخاف رودريكوس ووقف قليلاً ولكنهُ ظن ذلك خيالاً فشرع يسير في طريقهِ. اما الرجل الذي كان بازائهِ فزجرهُ برجز

(١) حاشية. اعلم ان من اولئك التسعة التلاميذ مَن ادرج البابا غريغوريوس الخامس عشر اسمهُ مع اسم اغناطيوس في صف القديسين في السنة الثانية والعشرين من القرن السابع عشر وهو القديس فرنسيس كسافاريوس ومن ادرجهُ البابا بيوس التاسع حديثًا في ما بين الطوباويين وهو بطرس فابر

وغضب وتقدم ليضربهُ بسيفهِ فتوارى حينئذٍ رودريكوس وعاد راكضًا ولما دخل الى حيث كان القديس اغناطيوس مدَّ لهُ يدهُ متبسمًا تبسم الاولياء قائلاً لهُ ياقليل الايمان لماذا شككت. فخزي من ذلك وثبت في دعوتهِ وتحقق ان الله تعالى كاشف مرشدهُ بكل اسرار قلبهِ

٥ في ذهاب القديس اغناطيوس الى رومية وتاسيسهِ رهبانيتهُ

فلما انتهت السنة المعينة لسفرهم الى بلاد فلسطين جمع القديس تلاميذهُ وقال لهم انهُ اذ قد عاد لدينا الذهاب الى هناك غير ممكن وجب علينا ان نتمم الجزء الثاني من نذرنا وهو ان نمضي الى رومية ونقدم للحبر الاعظم انفسنا لنخدم النفوس حيثما يشاء ويريد. لعمري ان الله عجيب حقًا في تدبيرهِ قديسيهِ وحثهِ اياهم احيانًا على ما لا يريد ان يكملوهُ مع انهُ يريد ان يفرغوا كل جهدهم في تكميلهِ. فاتفق جمهور هولاء الآباء على ان القديس اغناطيوس ينطلق الى رومية مع فابر ولاينس ليعرضوا للبابا مقصودهم وان البقية منهم يتفرَّقون في اعظم مدارس ايطاليا لكي يجذبوا الى الفضيلة من هم من طلبة العلم. ثم عزموا على حفظ الرسوم الآتي ذكرها وهي. اولاً ان لا يسكنوا الاَّ المستشفيات مع الفقراء ولا يعيشوا الا من الصدقة. ثانيًا ان يترأس عليهم واحد منهم يطيعونهُ وينقادون لهُ حذرًا من ان يتجاوزوا الحد بافراط النشاط. ثالثًا ان يعظوا في الشوارع وحيثما يمكنهم وانهم في عظاتهم يوردون للمؤمنين كل بهاء الفضيلة ومجازاتها وسماجة الرذيلة وشديد عقابها. رابعًا ان يعلموا الصبيان مبادىء التعليم المسيحي. خامسًا ان لا يقبلوا مالاً لاجل خدمتهم الانجيل والمذبح المقدس

ثم ان القديس اوصاهم ان يجاوبوا كل من يسألهم عن دعوتهم وعن اسم مذهبهم بهذا الجواب ونصهُ اننا اتحدنا لكي نقاوم جميع المبتدعين ونستأصل الرذائل محاربين تحت راية السيد المسيح ومن ثم ليس لجماعتنا غير هذا الاسم وهو جماعة يسوع. وقد اظهر الله تعالى للقديس كم كان يسرُّ بقصدهم وانهُ تعالى قبلهم تحت رايتهِ الالهية لانهُ في ذهابهِ الى رومية وجد في الطريق كنيسة مهدومة تبعد من رومية نحو ستة اميال فدخلها ليستودع يسوع هذا القطيع الصغير وفي ابتداء صلاتهِ اختُطف بالروح ورأى الآب الازلي يقدّمهُ لابنهِ الوحيد ورأى السيد المسيح حاملاً صليبًا ثقيلاً وهو يقبل القديس على يد ابيهِ الالهي قائلاً لهُ ساكون لكم في رومية معينًا. فلما انتبه من سباتهِ خرج من الكنيسة بوجه ملتهب وادرك في الطريق رفيقيهِ الانبا لاينس والانبا فابر وقال لهما متهللاً فرحًا اني لا اعرف ما سيصيبنا برومية من الاضطهاد ولكني متحقق ان سيدنا يسوع المسيح يكون لنا معينًا. ثم لكي يجعلهما يتأهبان للتجربة ويقوّيهما اخبرهما بالرؤيا

فوصلوا الى رومية في اوائل السنة الثامنة والثلثين من المائة السادسة عشرة للمسيح وقدمهم للحبر الروماني قاصد اسبانيا اما البابا فقبلهم بفرح وحالاً اوصى الانبا لاينس والانبا فابر ان يعلما برومية علم اللاهوت. اما القديس اغناطيوس فاخذ يعلم الشعب ويرشدهُ في العبادة بالوعظ والرياضات الروحية. فرام الكردينال كُنتاريني صاحب الفضيلة والمنزلة العالية بين اعظم علماء عصرهِ ان يعاين القديس ويسمع تعليمهُ فبعد ما اختبرهُ فوَّض اليهِ امر ارشادهِ وتدربهِ وكتب بيدهِ كتاب رياضاتهِ. وفيما كان القديس اغناطيوس يهتم في دير الرهبان البنادكتيين على جبل قسين بارشادهِ في عمل الرياضات الروحية بطرس اورسين صادف هناك شابًا يُدعى فرنسيس ستراداكان قد اتى رومية ليقيم هناك شانهُ ويستغني بواسطة العلم واذ لم تجرِ الامور على حسب مرادهِ عدل عن درس الكتب وحمل سيفًا ليتبع دعوة الجندية واذ خاطب القديس اغناطيوس اكثر الشكوى من اهل رومية. اما القديس عليهِ السلام فقال لهُ لا وجه لك للشكوى لان الدنيا التي خدعتك انما فعلت بك على عادتها وكان يجب عليك ان تمدحها على ذلك لانها اذ اساءَت معاملتك اكَّدت لك انهُ لا تستحقُّ خدمتك لها واتعابك لاجلها وتشير اليك بلسان الحال ان تترك خدمتها. واما انت فلا تفعل الاَّ كفعل الذين انكسرت سفينتهم في بحرٍ وبعد ذلك يسافرون الى بحرٍ آخر فها انك تخرج من رومية وتذهب الى نابولي كأن في نابولي هو اكثر امانةً مما في رومية اما انا فحقًا اني حزين عليك لا لان املك قد خاب بل لاجل رجائك الاخر الذي سيخيب لا محالة. فان قبلت مشورتي فارغب عن الدنيا واطلب الله تعالى وحدهُ لانك فيهِ وحدهُ تجد راحتك وسعادتك. فوقتئذٍ تغيَّر قلب الشاب حالاً بنعمة من في يدهِ قلوب البشر جميعها لانهُ رجع الى رومية مع القديس اغناطيوس وتتلمذ لهُ فكان العاشر من تلاميذهِ

الاولين

وبعد ذلك اظهر الله تعالى للقديس بانوار جديدة طريقة الرهبانية التي سينشئها وحرَّضهُ على مباشرة الامر سريعاً فجمع اغناطيوس تلاميذهُ برومية وقال لهم اتظنون يا اخوتي ان الله جمعكم من اقاليم مختلفة وربطكم بمودَّة صافية لكي يفترق بعضكم عن بعض على حسب هواكم فاعلموا ان الله سبحانهُ يريد منا ان نخصص انفسنا لخدمتهِ الى الابد وان نترك بعد موتنا خلفاء يقتفون آثارنا ويذهبون مذهبنا. لاجرم ان الله بعدما اغلق امامنا بلاد فلسطين زادنا غيرة على تمجيد اسمهِ يوماً فيوماً وهذا دليل على انهُ تعالى لا يريد ان نستميل اليهِ بلداً واحداً بل كل بلد وكل مملكة وقد كثر عدد رفقائنا وسيكثر فيما بعد اكثر من ذلك. الا انهُ ماذا نفيدنا كثرة الذين يتحدون معنا ان كانوا لا يُربطون بنذر الطاعة. ولعمري اننا نفعل شيئاً قليلاً اذا لم تصر جماعتنا رهبانية تامة قابلة لان تنتشر في كل المسكونة وتبقى الى انقضاء العالم. فلا ريب ان الدنيا تضادُّنا ونقاوم مقصدنا ولكنما الله تعالى سيكون معيناً لنا حتى لا نقدر الدنيا ولا جهنم ان نقاوما حكمتهُ وقدرتهُ الغير المتناهية (انتهى). فاتفقوا حينئذٍ على انهم جميعهم ينذرون الطاعة لواحد ينتخبونهُ رئيساً عليهم

وبحيث ان الحبر الاعظم كان قد خرج من رومية قاصداً المضي الى نواحي مملكة فرنسا ليصالح ملكها وملك اسبانيا باشر اغناطيوس وتلاميذهُ في غياب البابا وظيفة الوعظ والتعليم على ما عظم من الجهد فبارك الله سبحانهُ على كل اتعابهم فاتت بالثمار وافرة. غير انهُ دهمهم بغتةً اضطهاد شديد حتى اوشك ان يهدم كل ما بنوا. لانهُ كان حينئذٍ في رومية راهب يتظاهر بالفضيلة والعيشة القشفة ولكنهُ في الباطن كان ارطوقياً لانهُ شرب سم ارطقة لوتاروس. فهذا لما رأى البابا غائباً عن رومية تجاسر على ان يزرع بوعظهِ زوان ضلالهِ بالفاظ ملتبسة. فلما سمع القديس اغناطيوس هذا الخبر لم يصدّقهُ بل ارسل لاينس وسلميرون ليحضرا عظات الراهب ويفحصا عن حقيقة الامر. فبعد ان حضرا تعليمهُ مراراً كثيرة اخبرا القديس ان هذا الراهب هو لوتراني قحّ. فارسل القديس ونصحهُ سرًّا ليرعوي عن غيهِ بكل ما استطاع من الفطنة والمحبة ولكن اذ كان من شأن المبتدعين ان يتظاهروا بأنس ولطافة لدى الذين يتلطفون معهم ويتلهبون غيظاً ممن يقاومهم اوغرت تلك النصيحة صدر ذلك الراهب الذي كان قد حصل لهُ في رومية جاه كبير حملهُ على العجرفة والكبرياء وغضب على القديس ورفقائهِ غضباً متجاوزاً كل حد وطفق يثبت ظاهراً وعلانيةً جميع اراء لوتاروس الضال المبتدع

فلما رأى اغناطيوس ان النصيحة السريَّة لم تجدِ نفعاً البتة اخذ هو وتلاميذهُ يدحضون آراء بدعتهِ ويفنّدون مباديها الخبيثة فما اذهب الله تعبهم باطلاً فكيف لا واضحى الناس يشكُّون في تعليم ذلك الراهب الخبيث الخادع حتى اضطرَّ ان يعود الى الحيلة والخبث كما كان يعمل اوَّل الامر. فقال عن القديس وتلاميذهِ انما صوَّروهُ في عيون الناس رجلاً ارطوقياً ليتخذوا ذلك وسيلة الى اخفاء بدعتهم. ولكي يؤكد هذا حرَّك ثلثة رجال فقالوا عن القديس انهُ رجل ارطوقي. ثم رشا الذي كان قد عزم على قتل القديس بمدينة باريز بسبب تتلمذ فرنسيس كسافاريوس لهُ فهذا ذهب الى حاكم مدينة رومية واعلمهُ ان اغناطيوس انما هو ارطوقي ساحر وانهُ حُكم عليهِ باثم الارطقة بمدينة القالا وبباريز وبالبندقية وحلف ان الذي الزمهُ بهذه الشكوى انما هو ضميرهُ والحق لا غير. فبهذه التهمة الباطلة تغيَّر رأي الشعب في اغناطيوس ورفقائهِ حتى غدا الجمهور يعدُّونهم مرائين وانبياء كذبة وارطقة سيُقضى عليهم بالموت شرعاً لاجل آثامهم. اما القديس فلم يضطرب من ذلك بل قال امام رفقائهِ انهُ قد تم الان يارب ما سبقت واريتنيهِ بالصليب الثقيل الذي رأيتهُ على منكبيك في الرؤيا فاتمّ الان يا الهي ما بقي منها وكن لنا معيناً في رومية

فاتفق يوماً ان احد اصحاب القديس اغناطيوس زار اقدم الكرادلة اذ كان بينهما قرابة ومودة. فقال لهُ الكردينال انهُ لا يليق بك ان تعاشر قوماً اشتهروا بالرداءة والقبح ولاسيما اغناطيوس مرشدهم ورئيسهم فتنكَّب عن مخالطتهم فانك بمعاشرتك اياهم لا تخاطر بصيتك فقط بل بخلاصك ايضاً. فاجابهُ ذلك لو كنت تعرف اغناطيوس كما اعرفهُ انا لكنت تطلب معاشرتهُ انت ايضاً. فقال لهُ الكردينال انهُ قد اتضح ان هذا الخبيث سحرك كما انهُ سحر الذين يتبعونهُ فأتني بهِ لكي ابصرهُ واوبخهُ على آثامهِ. فاتى القديس اغناطيوس ووقف امام الكردينال بطلعة لينة مقرونة بالاحتشام. اما ما قالهُ هذان في المفاوضة التي استمرَّت بينهما فوق ساعتين فلا نعرف منهُ

الّا ان الكردينال في انتهائها جثا على قدمَي القديس وطلب المسامحة منهُ لانهُ ظنّ فيهِ ظنًّا سيّئًا ومنذ ذلك اليوم لم يزل يرسل اليهِ في كل اسبوع صدقة وافرة

فحينئذٍ ابتدأ القديس يجتهد في ردّ صيت جماعتهِ متبعًا قاعدة كان يكرّرها كثيرًا على رفقائهِ وهي انهُ في حال الكوارث والمصائب الشديدة المستصعبة يجب علينا ان نفوّض امورنا كلها الى الله تعالى كأنّهُ لايمكن ان ينجح امرنا ويكون حميد النهاية الا باعجوبة من العلاء بيد انهُ مع كل ذلك ينبغي لنا ان لا نألو جهدًا في انجاح امورنا كأنّا لا نرجو ان نفوز بعونٍ من الله تعالى. فذهب اولاً الى حاكم المدينة وطلب اليهِ ان يفحص عن دعوتهِ ويحكم عليها. فعيّن الحاكم يومًا وحضر القديس والمشتكي عليهِ. ثم شرع المشتكي يقرّر كل ما كان قالهُ ضد اغناطيوس واثبت شهادتهُ بارهب الاقسام. حينئذٍ اراهُ القديس رسالة وسألهُ قائلاً اتعرف خط مَنْ هذهِ الرسالة. فقلّب المشتكي نظرهُ في الخط ثم قال ان الخط خطهُ وقد صدق بقولهِ الّا انهُ لم يذكر مضمون الرسالة التي كان قد كتبها حديثًا لاحد اصدقائهِ وكان يقول فيها ان اغناطيوس ورفقاءهُ يعيشون عيشة مقدسة. وانهُ عاشرهم في باريز وانهم في الحق كالرسل. ثم انهُ بتدبير الله اتفق ان كان حينئذٍ برومية الثلثة الحكام الذين قال عنهم المشتكي انهم حكموا على اغناطيوس بالارطقة بمدينة القالا وباريز والبندقية وقد شهدوا كلهم بان قول المشتكي كذب صريح وحُكم عليهِ اي على المشتكي بالنفي ولو لم يشفع فيهِ القديس لكان حكم عليهِ باشد قساوة. ثم ابرز الحاكم وثيقة شرعية بها برّأ القديس وكل رفاقهِ واثنى عليهم جميل الثناء. اما الراهب الذي كان سبب هذه الدعوى الكاذبة كلها فهرب من رومية واظهر نفسهُ ارطوقيًّا وفيما بعد حُكم عليهِ بالموت بسبب ارطقتهِ

٦ في تثبيت الحبر الاعظم الرهبانية اليسوعية وفي ارتفاع القديس اغناطيوس الى رئاسة رهبانيتهِ

فرجع الحبر الاعظم الى رومية وهو البابا بولس الثالث فقدم لهُ القديس مختصر رسوم الرهبانية فدحهُ الحبر الروماني وسلم الكتاب الى بعض العلماء لكي يفحصوهُ فحصًا مدققًا واثبت الرهبانية اليسوعية في اليوم السابع والعشرين من شهر ايلول في السنة الاربعين بعد المائة الخامسة عشرة للمسيح

فافتكر حينئذٍ القديس انهُ ينبغي قبل كل شيءٍ ان يُنتخب للرهبانية الجديدة رئيس عام فجمع رفقاءهُ وبعد ان قضوا ثلثة ايام في الاختلاء مواظبين على الصلاة وملتمسين العون من ابي الانوار ففي اليوم الرابع انتخبوا القديس اغناطيوس برأيٍ واحدٍ وقد فسر القديس فرنسيس كسافاريوس رأيهُ واختيارهُ هكذا اني اختار ابانا اغناطيوس راسًا ورئيسًا على جماعتنا لانهُ هو الذي جمعنا بتعب جسيم ولا جرم انهُ يسوسنا ويدبرنا احسن من الجميع من حيث انهُ خبير بنا ثم اعترف انهُ لم يخجلني احد على هذا الاختيار واني انما حكمت على حسب ذمتي

اما القديس اغناطيوس فحزن وقال لهم اني اسالكم يا اخوتي ان تصدقوا كلامي وتتحققوا اني عاجز عن مباشرة هذهِ الوظيفة لانهُ كيف يستطيع ان يرشد غيرهُ من لا يقدر على ارشاد نفسهِ. لعمري اني لما اتأمل ضلال حياتي السالفة ونقائص سيرتي اليومية لايمكنني ان اقبل وظيفة الرئاسة العامة ومن ثم اناشدكم الله ان تصلوا ثانيةً في الاختلاء ثلثة ايام اخرى او اربعة لكي يريكم الله تعالى من يكون لنا ابًا ورئيسًا عامًا ولهُ استطاعة ان يدبر امورنا تدبيرًا حسنًا. فاختلوا جميعهم بحسب مشورتهِ ثانيةً واختاروا ايضًا القديس رئيسًا عامًا على الرهبانية فاجتهد وقتئذٍ في دفع الرئاسة عنهُ ثم قال اخيرًا انهُ يسلم الامر الى معلم اعترافهِ فارتضى بذلك رفقاؤهُ فذهب القديس الى معرفهِ راهبٍ من رهبان القديس فرنسيس كان يعترف لهُ غالبًا قبل ان يثبت البابا رهبانيتهُ. فبعد ان كشف لهُ كل نقائصهِ الجسدية والروحية اعترف لهُ اعترافًا عامًّا. وفي اثناء ذلك حكم معلم اعترافهِ انهُ برفضهِ الرئاسة يقاوم مشيئة الله تعالى وامرهُ من قبل الله سبحانهُ ان يقبلها. فاذعن القديس اخيرًا وتسلم عنان سياسة الرهبانية يوم عيد الفصح في السنة الحادية والاربعين بعد الخمس مائة والالف للمسيح

هذا واتفقوا كلهم على ان ينذروا نذرهم الاحتفالي في ذلك الاسبوع نفسهِ وفعلوا يوم الجمعة الذي كان واقعًا في اليوم الثاني والعشرين من شهر نيسان وقد جرى الاحتفال على هذه الصورة انهم زاروا الكنائس السبع التي هي مشاهد رومية وعقب ان وصلوا الى كنيسة القديس بولس المبنية خارج اسوار المدينة قدّم القديس اغناطيوس القداس على مذبح

العذراء وقبل ان يتناول التفت نحو الشعب وفي احدى يديهِ جسد السيد له المجد وفي الاخرى صورة نذورهم المكتوبة وقراها بصوت عالٍ ثم تناول والتفت نحو رفقائهِ الذين كانوا جاثين حذاء المذبح وقبل نذورهم وهو حامل خمس برشانات على صينية الكاس ثم ناولهم القربان المقدس فتعهدوا جميعهم مثلهُ ان يحفظوا الفقر والعفة والطاعة الدائمة بحسب نوع العيشة المذكورة في براءة رسومهم ونذروا فوق ذلك بطاعة خصوصية للحبر الاعظم نظرًا الى الرسائل المعينة في تلك البراءة نفسها والزموا انفسهم ان يعلموا الاولاد التعليم المسيحي

ليس بين نذر القديس اغناطيوس ونذر رفقائهِ الا فرق واحد فهو انهُ تعهد لنائب يسوع المسيح رأسًا واما رفقاؤهُ فتعهدوا لهُ كانهُ قائدهم ورئيسهم وعقب ان قدّس ذهبوا كلهم معًا الى المذبح الكبير حيث ترتاح عظام الرسولين المغبوطين بطرس وبولس وهناك عانقوا اباهم العام وقبلوا يدهُ باحتشام دلالةً على خضوعهم وطاعتهم لهُ

الاب العام بدأ ان يمارس وظيفتهُ بتفسير التعليم المسيحي في كنيسة القديسة مريم ستراتا التي وهبها بطرس كوداك ضابط جيش البابا في رومية اذ لم يكن لهم وقتئذٍ الا بيت بالاجرة فهذا هو الذي اذ فتنتهُ عيشتهم المقدسة ترك المرتبات الكثيرة بقصد الانفراد وانتظم بينهم بنية ان يتفرغ للاشغال الزمنية ويجمع لهم الصدقات

ومع ان هذا الرئيس الجديد لم يعلم خصوصًا هذه التعاليم المسيحية الا للاولاد تبعًا لالزام نذرهِ كان يحضر اليهِ الرجال والنساء من كل مقام واللاهوتيون والعارفون بالحق القانوني وكان يشرح بالايطاليانية اسرار الايمان ووصايا الله بنوعٍ سهل ومناسب لفهم الشعب وكان يضع في هذا التفسير نُبذًا ادبية موثرةً ومهيجة ومع ان لغتهُ كانت غريبةً كانت توثر كثيرًا في الناس الذين بعد ان يسمعوهُ يلتجئون الى السكوت والدموع سائلة من عيونهم والندامة في قلوبهم فالتوبة كانت بعض مرات شديدة التأثير حتى ان الذين كانوا يريدون ان يعترفوا على اثر انتهاء التعليم المسيحي كادوا لا يقدرون ان يقولوا كلمةً.

وقد واظب على هذا العمل ستة واربعين يومًا في تلك الكنيسة عينها واقتداء بهِ كان روساء الرهبانية يعلمون التعليم المسيحي اربعين يومًا حينما يأخذون على مناكبهم حمل الرئاسة

فاخذ حينئذٍ يكتب قوانين رهبانيتهِ ورسومها وعلى هذا كان يقضي كل يوم عدة ساعات من النهار وجزءًا من الليل وقد تدرَّب في هذا العمل على الاسلوب الاتي اي انهُ كان يتأمل اولاً كل قضية على موجب العقل النطقي ملاحظًا بتأنٍّ الحجج من الطرفين وهذه الاسباب لم تكن قليلة العدد حتى في اقل القضايا. وذلك لانهُ وُجد في ورقة مكتوبة بيدهِ ثماني حجج من الطرف الواحد وخمس عشرة حجة من الطرف الاخر وكل منهنَّ معتبرة قابلة لان تشغل الفكر وتصدهُ عن الحكم وفي اثناء هذا الفحص كان يتجرد من كل حب ذاتي ويقابل حججًا مع حجج ليقدر ان يميز تلك التي تكون اكثر قوة او اقل وبعد ان يكون قد عمل كل ما تقتضيهِ الفطنة الطبيعية كان يستشير الله تعالى ولذا يعود الى تامل الامر على موجب نور الحقائق الابدية . وكان يطلب من سيدنا يسوع المسيح بشفاعة والدتهِ الالهية ان يعلمهُ ما يجدي اسمهُ افضل مجد ويجرّ لجماعتهِ اكثر نفع. وبعد هذه كلها ومع ان رأيهُ يكون قد استقرَّ على حجج تزيل كل شكٍّ كان لا يبرح مواظبًا على طلب النور من الله تعالى في صلواتهِ لكي يعلم بنوع اجلى ما هو الراي الافضل. اخيرًا كان يكتب القضية ويضعها على المذبح مقدمًا اياها في القداس لكي ينظر اليها الآب الازلي ويعرّفهُ هل هي موافقة الكمال الانجيلي ام لا وقد كان الله سبحانهُ يمنحهُ نورًا بهِ كان يثبت في رأيهِ

ان القديس اغناطيوس قبل ان يكتب قوانينهُ كان قد قرأ قوانين الرهبانيات المختلفة الا انهُ عند ما كتبها لم يكن في قلايتهِ سوى كتاب الانجيل المقدس وكتاب الاقتداء بالمسيح . وحينما كان يكتب قوانينهُ عاين رهبانهُ مرارًا كثيرة لهيبًا فوق هامتهِ شبه الالسنة النارية التي ظهرت على رؤوس الرسل حينما حلَّ عليهم الروح القدس وقد شرفهُ الله تعالى برؤى ونِعم أُخر سماوية كثيرة

٧ في اعمال القديس مدة رئاستهِ

فيما كان القديس اغناطيوس يكتب رسوم رهبانيتهِ وقوانينها ويباشر في رومية امورًا اخر مفيدة لخلاص النفوس كان رفقاؤهُ يخدمون كرم الرب في مدن كثيرة من كل الممالك الكاثوليكية لانهُ في زمن يسير زاد عددهم جدًّا فانعقد حينئذٍ المجمع التريدنتيني وطلب البابا بولس الثالث من القديس اغناطيوس لاهوتيين من رهبانيتهِ ليحضرا من

قِبَلِهِ المجمع المقدس مع نوّابِهِ . فقدّم لهُ الانبا لاينس والانبا سلميرون واوصاهما ان لا يقصدا في المجمع الأ مجد الله الاعظم وخير الكنيسة العمومي ولا يهملا الاجتهاد في نموّ نفسيهما في الفضيلة . ثم قال لهما انهُ حينما تذكران آراءكما في المجمع المقدس فأوردها بقدر ما تستطيعان من الاحتشام وأظهرا مزيد الاتضاع اكثر من اظهاركما سعة العلم وافحصا جيدًا امر الذين يتكلمون قبلكما لكي تحسنا جوابكما وتلزما الصمت حينما يجب ذلك واذا سُئلتما عن مشكلات يتجادل فيها ما بين العلماء الكاثوليكيين فاوردا ما تستند عليهِ الآراء من الطرفين لئلا يتبين انكما متمسكان برأيكما وفي اثبات احد الآراء لا تذكرا شهادة عالم لم يزل حيًّا بعد لكيلا يُظن انكما متملقان لهُ . ثم اوصاهما بان يعودا المرضى ويزورا الفقراء في المستشفيات كل اربعة ايام مرة واحدة ويعلّما الاطفال مبادئ التعليم المسيحي ويعظا الشعب . فهذه هي النصائح التي اوردها لهما وقد ارسل هذه النصائح ايضًا الى واحدٍ من رهبانهِ كان مضى ليحضر المجمع من قِبل الكردينال اوتون مطران مدينة اوسبورج واوصاهما القديس آخر الامر ان يكونا يدًا واحدة بصفاء المودة وان يحترسا من الاختلاف في الآراء ويفحصا كل مساء ويتكلما بما وقع في ذلك النهار ويدبرا في الغد ما يجب عليهما فعلهُ وان يسعفا المجمع بكل ما يمكنهما وينبّه احدهما الآخر على نقائصهِ محرّضين انفسهما على البرّ

اعلم انهُ الى ذلك العهد لم يكن الاباء اليسوعيون قد فتحوا مدارس ولكن في السنة السادسة والاربعين بعد الخمس مائة والالف للمسيح وبعد ست سنين لتثبيت الرهبانية وهبهم فرنسيس بورجيا امير غنديا مدرسة وفيها ابتدأوا يعلمون علومًا مختلفة منها علم المنطق والفلسفة واللاهوت . اما القديس فامر المعلمين ان يتبعوا في الفلسفة ارسطوطاليس وفي علم اللاهوت القديس توما اللاهوتي وان يمرّنوا صِغار الطَلَبة على استظهار امور كثيرة غيبًا ومجادلة بعضهم بعضًا في ما يتعلمونهُ . ولم يشأ القديس ولا اراد ان يكون تأديب الذين يدرسون بيد معلميهم وذلك لكي يحفظوا الاحتشام الرهباني ولكيلا يمتزج في التأديب احتداد الالم . وقد اراد القديس من كل الذين يدرسون في مدارس رهبانيتهِ ان يحضروا القداس كل يوم ويعترفوا في كل شهر وان يصلُّوا قبل ابتداء الدرس مع معلميهم طالبين من الله تعالى ان يبارك على درسهم وان يعظ المعلم كل اسبوع مرة واحدة على الذين في المدرسة ويكثر من مخاطبتهم في الامور الروحية

ان اهتمام القديس اغناطيوس بالاشغال الزمنية لم يعقهُ عن المطالعة وجعل العلوم والمعارف زاهيةً في رهبانيتهِ لذلك الزم معلمي مسّينا ومعلمي باليرما ان يطلعوهُ على شغلهم كل اسبوع واراد ان يُرسل اليهِ من داخل اسبانيا مسائل فلسفية ولاهوتية ومسابقات الطلبة نثرًا ونظمًا وحتم ايضًا بان هذه المسابقات تُرسل اليهِ كما كتبها الطلبة قبل ان يطلع عليها احد وكان يتعب نفسهُ بقراءتها بين جميع ارتباكات وظيفتهِ وأمر ان تفحص بحضرتهِ من العلماء العارفين بها وكان يستعلم ولا سيما عن النجاح الذي كان بحصلهُ طلبة الرهبانية الذين يدرسون في باريز لانهُ كان يعتبر كلية باريز بمنزلة المدرسة الاكليريكية الاصلية لرهبانيتهِ

لكن اذ علم ان بعض معلمي اسبانيا وايطاليا وصقلية يتبعون آراء خصوصية مخرفة عن الآراء المقبولة عمومًا في التعليم عزلهم عن التدريس ولو كانوا اذكياء الالباب . وقال اذا بقيت الف سنة فلن ازال اصرخ ضد الاشياء الحديثة التي أُدخلت في اللاهوت والفلسفة والغراماطيق . وكان يعامل بهذا الاسلوب نفسهِ الذين جعلتهم المعرفة متكبرين او قليلي العبادة وكانت لهُ عادة ان يقول من غشتهُ العلوم فلا يكون مناسبًا للتعليم ولم يكن يفهم بالعبادة اللذات الروحية والتعزيات الباطنة لكن كان يفهم بها ممارسة افعال التقوى والفضائل الرهبانية بامانةٍ لانهُ كان يعرف جيدًا ان وقت الدرس لم يكن بالكلية وقت هذه التعزيات السماوية التي تطلب عقلاً رائقًا جدًّا . ونقرأ في احدى رسائلهِ ما نصهُ : انهُ يجب ان لا نذهل من ان العلوم سواء كانت نظرية محضة او بشرية محضة تنقص فينا تأثير العبادة وانهُ اذا طلبنا الله وحدهُ في الدرس فدروسنا تكون عبادات جيدة واذا جعلنا للصلاة الوقت المفروض في القانون فينبغي لنا ان نكون قليلي المبالاة لما وجدنا فيها عذوبةً او خشونةً . لذلك لم يكن يأمر معلمي وطلبة رهبانيتهِ اكثر من ان يجعلوا غاية شغلهم مجد الله الاعظم ويعتقدوا ان الدرس بهذا القصد الصالح يكون مقبولاً لدى الله اكثر من الصلاة الدائمة

لما فرغ القديس اغناطيوس من كتابة الرسوم خطر لهُ ان يطبعها غير انهُ اراد ان يخضعها قبل ذلك لا نتقاد

مشاهير رهبانيتهِ وان فرصة السنة المقدسة ظهر لهُ انها موافقة لقصدهِ فمن ثم دعا الى رومية الاباء الاوفر استحقاقًا والاقوى سلطةً فحضروا جميعهم الاَّ سمعان رودريكوس الذي ابقاهُ ملك البرتوغال في ليسبونا وسلمهم الرسوم وطلب منهم ان يمحنوها بالتدقيق ويُعلموهُ صريحًا بما يجب ان يُغير فيها . ولما كان يطلب ان روح الرهبانية يكون متساويًا في كل مكان وان قوانين السياسة توافق جميع الشعوب والطباع اراد ان الاباء الذين كان اكثرهم من بلدان مختلفة وامزجة مختلفة يحكمون هم انفسهم على هذه القوانين وارسل نسخة الرسوم الى الانبا رودريك الذي اراد ان يعرف رأيهُ فيها.وارسل نسخة أُخرى منها لاجل ذلك السبب نفسهِ الى بعض المساعدين الروحيين الذين كانوا عقلاء جدًّا وان لم يكونوا من العلماء المتبحرين .

وعقب ان سمع الآراء والاجوبة من الفريقين استفاد من ارشاداتهم وصحح تاليفهُ ولكنهُ اذ كان موقنًا ان الشرائع الرهبانية لا يُصححها الاَّ الزمان والاستعمال ما اراد ان الرهبانية تلتزم بحفظ الرسوم الاَّ متى اجتمعت كلها واستصوبتها هي نفسها ولم يكن ذلك الاَّ بعد موتهِ في رئاسة لينس ولم يُقتصر على تنقيحها من الجمعية الاولى العمومية فقط لكن ايضًا ثُبتت من الكرسي المقدس الرسولي بعد مجادلةٍ مدققة عليها اربعة من الكرادلة ولم يغيروا كلمة واحدة من تلك الرسوم

انهُ كما رأى القديس اغناطيوس سنة الغفران زمانًا مناسبًا جدًّا لان يستدعي الاباء الى رومية ظهرت لهُ فرصة حضورهم موافقة كل الموافقة لاتمام المقصد الذي قصدهُ لانهُ ما كان مكلفًا بسياسة الرهبانية الاَّ بكراهة كما رأينا واذ اخذها غصبًا عنهُ قصد قصدًا وطيدًا ان يتركها ذات يوم ليحصل على لذة الخضوع واستحقاق الطاعة . واعتقد انهُ قد اتى ذلك اليوم السعيد وان امراضهُ الدائمة مع تقدمهِ في العمر ظهرت لهُ انها تعدهُ بما كان يشتهيهِ ويتوق اليهِ فلذلك امر ان يجتمع الاباء لكن اذ تذكر مخالفتهم اياهُ عندما لم يُرِد ان يقبل وظيفة الرئاسة لم يذهب الى الجمعية لكن بعث رسالة بخط يدهِ وهي هذه

ايها الاخوة الاعزاء بالرب اخوة الرهبانية اليسوعية

بعد التأملات المختلفة التي تأملتها متأنيًا بدون ميل يلزمني ان اتأملها اقول لكم بصدق امام خالقي والهي الذي سيدينني دينونةً ابدية الامر الذي اظن انهُ يجب ان يكون لمجد الله الاعظم . فاذ كنت اعتبر خطاياي وزلاّتي وكل اسقامي الجسدية والروحية افتكرت عدة مرارٍ اني بعيد جدًّا عن الاوصاف اللازمة لان اقوم بالحمل الذي وضعتموهُ على منكبيَّ فارغب اذًا باسم سيدنا في ان يُطلب ويُنتخب شخص ليتمّم الوظيفة احسن مني او بالحري لايسيء التصرف نظيري في هذه الوظيفة بل ولو كان غيري لا يعمل احسن مني فاشتهي مع ذلك ان يأخذ وظيفتي

وبعد ان تأملتُ بامعانٍ قلتُ باسم الآب والابن والروح القدس اعزل نفسي وارفض بسلامة ضمير ومطلقًا الرئاسة واتوسّل بسيدنا يسوع المسيح وبكل نفسي الى الناذرين النذور الاربعة والذين يعجبهم ان يشاوروهم وارجوهم جميعًا ان يقبلوا استعفائي الذي عملتهُ امام الله لاسباب صوابية جدًّا لكن اذا كان بينهم اختلاف في ذلك فارجوهم بمحبة سيدنا يسوع المسيح ان يفوّضوا الامر كل التفويض الى الله لكي يُعمل بكل ارادتهِ المقدسة لمجدهِ الاعظم ولاكبر فائدة للنفوس ولكل الرهبانية

ان قراءة هذه الرسالة عملت حركة كبيرةً في الجمعية لأن البعض صرخوا متعجبين ومدحوا بصوتٍ عالٍ تواضع أبيهم والآخرين انذهلوا ورقّت قلوبهم اكثر ولم ينطقوا بكلمة . والجميع لم يقبلوا استعفاءهُ الاَّ الاب اوفيدو وحدهُ الذي كان ببساطة وسلامة قلبهِ من اهل الاجيال الأُولى لانهُ لما جاءت نوبتهُ ليتكلم قال يظهر لي انهُ لا يجب ان نخالف الاب اغناطيوس وحينما سألهُ الاباء عن سبب ذلك اجابهم لانهُ قديس ولهُ من المعارف ما ليس لنا لكن اذ فتح عينيهِ حينئذٍ وعرف ان القديسين كثيرًا ما يظلمون انفسهم خطأً رأيهُ الاول ورجع الى الراي العام فارسلوا يبينون للاب العام قرار الجمعية العمومية فقال لهُ الاباء بهذه الالفاظ الصريحة طالما احياهُ الله لا يترأس علينا غيرهُ ولا رئيس آخر الاَّ هو

ان بعض التنبيهات التي اوجب على نفسهِ ان يوردها لم يريدوا ان يستمعوها وأُجبر على الخضوع بيد ان خضوعهُ لم يعقهُ ان يتألم باطنًا المًا شديدًا حتى ولا ان يقع مريضًا . فكيف لا وقد اخذهُ الداء يوم عيد الميلاد بعد ان قدّم قدّاسين متتابعين ولما كان مرضهُ مخطرًا جدًّا ظن ان الله اراد ان يرفع عنهُ الحمل الذي لم يُرِد الناس ان يرفعوهُ عنهُ . فهذا الفكر

جعلهُ يفرح ورجاؤُهُ ان يكون عما قليل معتوقًا من قيود الجسد قد ملأ نفسهُ من احلى العذوبات التي يقدر القديسون ان يذوقوها في هذه الدنيا ولم يكن مشتهيًا بعد ذلك الا ان يرى ربَّهُ . ذلك والاقتراب من الابدية ضاعف شهواتهِ قوةً حتى ان الاطباء اوصوهُ ان يملك ذاتهُ ويكره نفسهُ على ذلك اذ لم يرد ان يميت ذاتهُ الا انهُ اتجه الى الصحة لانهُ اطاعهم او لان الاطباء اخطأُوا في هذه الاحوال ومن ثم اخذ يستعمل وظيفتهُ

في اثناء ذلك علِمَ برسائل فرنسيس كسافاريوس نجاح الانجيل في الهند وكم بارك الله اعمال فعَلَة الرهبانية وعرف في ذلك الوقت نفسهِ بواسطة رسائل أُخر انهم كانوا يُعجّلون اكثر من اللازم في تعميد الوثنيين الذين تنصَّروا وحدث غالبًا ان هولاء المؤمنين المحدَثين يرجعون الى الوثنية اولا يعيشون على حسب الديانة المسيحية كما يقتضي . فمداواةً لهذا الداء امر ان يُقام في الهند أديرة للموعوظين حيث الوثنيون الذين يريدون ان يعتنقوا الايمان يُختبرون ويُهذَّبون جيدًا قبل ان يُعمَّدوا

واتباعًا لمشورتهِ اقيم فيما بعد ديرٌ في مدينة غوا وكان مفيدًا لجميع الهنود ومن هناك خرج بعض الشبان الهنود الغيورين جدًّا حتى لما اخذهم الاتراك كانوا يحثون العبيد المسيحيين على الثبات وانواع هذه الاديرة كانت موافقة بالتمام مقصد القديس اغناطيوس وكذا مدارس الاكليريكيين الذين يستعدُّون للارتقاء الى الدرجات المقدسة . ومن ذلك الوقت ارسل كلوديوس لوجي الى المانيا وأمرهُ ان يُشير على الاساقفة الذين يريدون ان يكون عندهم آباء وكهنة مهذَّبون ان يقيموا في ابرشياتهم مدارس اكليريكية حيث يتعلم الشبان الكاثوليكيون المنتخبون الديانة الحقيقية تمامًا وكل واجبات المخصَّصين للمذبح . فانشأ كثيرٌ من الاساقفة مدارس اكليريكية في مدنهم ومن ذلك مدرسة اوسبورج وسالسبورج . فلو جروا على مشورة القديس اغناطيوس لكان قد أُقيم في كل ابرشية مدرسة اكليريكية

لما كان القديس يجتهد على الاسلوب المشار اليهِ في اصلاح كل الارض اذا المبتدعون الذين كان اليسوعيون يقاومونهم في المانيا وفرنسا اذ لم يعرفوا كيف ينتقمون منهم اخذوا يلقون الفتنة بينهُ وبين ابنائهِ ولاجل ذلك اخترعوا اختراعًا لا يقدر ان يلهمهُ الاَّ روح الكذب وهو ان فيلبس مِلنكتون الذي ترأس على البروتستانت بعد موت لوتاروس ومبتدعًا آخر ارسلا الى رومية واحدًا من تلاميذهما اسمهُ ميخائيل وأمراهُ ان يقاوم الكثلكة كل المقاومة ويذهب الى رئيس اليسوعيين العام ليضمهُ الى رهبانهِ

وكان التلميذ المشار اليهِ في عنفوان شبابهِ ويظهر نقيًّا مهذبًا محتشمًا وذا هيئة سعيدة الطالع . اما القديس اغناطيوس فلم يرتب في قبولهِ لسبب هذه الظواهر الحسنة الى الغاية . على ان المبتدئ الخدّاع تنكر تنكرًا غريبًا حتى انهُ كان الاوّل في كل شيء اذ كان يعترف ويتناول عدة مرارٍ في الاسبوع وكان يُعاقب ايضًا جسدهُ بقساوة كلية واغرب من ذلك انهُ لم يكن يظهر عليهِ لا حبّ الذات ولا الكبرياء

اما ميخائيل المذكور فلما رأى انهُ متمكن بالكفاية اخذ ينشر رداءتهُ وقد فعل ذلك بمكرٍ لا غاية بعدهُ . انهُ اذ أُقيم على خدمة المائدة واعطوهُ رفيقًا اوليفيه مانار اغتنم فرصة ليكلمهُ على انفرادٍ فجدَّ في ان يفسدهُ شيئًا فشيئًا بعد ان خدعهُ بانواع مقبولة ونقويّة معًا واذ كان على المائدة صوَر قديسين في اماكن مختلفة سأل رفيقهُ مانار على سبيل حديث وغرض بسيط ماذا تُفيد هذه الصور أوَ لا يكون فعلاً رديًّا ان تكشف رأسك امامها او تسجد لها

اما مانار الذي كان عالمًا وقد ختم درس اللاهوت منذ قليل اجابهُ لا بما كان يجب ان يجيبهُ بهِ الكاثوليكي التقي فقط بل اللاهوتي الماهر ايضًا . فقال ذلك الخبيث رويدك فكم اختلفت الآراء في قضية واحدة وانا اعرف في المانيا علماء مشهورين كانوا يرتابون في تكريم هذه الصوَر ويوردون لذلك آية القديس يوحنا احترسوا لانفسكم من الاصنام

اجاب مانار ان هولاء العلماء كانوا اراطقة في حقائق قليلة او لم يكونوا حذّاقًا جدًّا كما تفتكر فكيف لا وان آية القديس يوحنا لا تتعلق الاَّ بتماثيل الآلهة الكذَبة ولا بدَّ ان يقرأ الكلام السابق للاقتناع بما قلتُ لان القديس يوحنا قابل الآلهة الكذبة بالاله الحقيقي قائلاً يسوع المسيح هو الاله الحق والحياة الابدية فاحترزوا من الاوثان . اما ميخائيل فاظهر من نفسهِ انهُ سلَّم بهذه العبارة الواضحة جدًّا ولم يتمادَ في الاشكال غير انهُ مرةً اخرى ترجى رفيقهُ ان يفسّر لهُ كلام القديس بطرس : يسلّم عليكم الاخوة الذين ببابل : فقال مانار ان

الرسول تكلم هناك عن رومية التي كانت تستحق عند ذلك ان تُسمى بابل لاختلاط الاضاليل التي كانت ممتلئة منها. فاجاب ميخائيل ضاحكًا ان لاهوتيي المانيا فهموا هذه الآية بهذا المعنى نفسهِ ولكن زادوا على ذلك ولا ادري أمصيبون هم أم لا ما نصهُ: ان القديس بطرس انما سمى رومية هذا الاسم بحيث لا بدَّ ان المسيح الدجّال ينصب فيها ذات يوم الكرسي التي يسميها داود كرسي الوباء. فتحيّر مانار من حديثٍ كذا على انهُ لم يظهر مع ذلك شيئًا قصدَ ان يطّلع احسن اطلاع على ما لم يلمحهُ الالمحة ولكن اعلم بكل ذلك القديس اغناطيوس فأمرهُ القديس ان يجاري ميخائيل في آرائهِ بحسب الظاهر ويخالفها مع ذلك بعض الاحيان لكي يجعلهُ يتكلم ويُظهر كل ما في باطنهِ

فمن المخاطبة الاولى عرف مانار ميخائيل كارطوقي وفي ايام قليلة سمع من فيهِ اكثر من عشرين قضيةً لوترانية وجادلهُ على الثلاث التي ما كانت اكثر كفرًا وبعد ان استمالهُ الى كتابتها ترجاهُ ان يتخبا بطيبة خاطر قاضيًا على اختلافهما وذكر لهُ اسم افرار مركوريان صديقهما الذي كان سبق واعلمهُ بما كان. فظن ميخائيل ان مانار كنصف مائل لارائهِ وترجى ان يُفسد مركوريان فرضي بكل شيء بحضرة مركوريان نفسهِ ووضع القضايا بين ايديهما ليبحثا فيها بتأنٍّ لكن عوضًا عن ان يفحصاها اخذاها للقديس اغناطيوس مع القضايا الاخر التي كان قد كتبها مانار نفسهُ. فالقديس اغناطيوس اذ لم يشك لا في تعليم ميخائيل ولا في مقاصدهِ نبّه مفتش العقائد الكبير يوحنا بطرس كارافا الذي ارتقى منذ ذلك الزمان الى عرش الخلافة البطرسية وطرد في ذلك الوقت الغشّاش من الدير اما مفتش العقائد فقبض عليهِ والقاهُ في سجن ضيّق بضعة اشهر فالتزم لذلك ان يقرَّ بالحق رغمًا عن انفهِ ثم حكم عليهِ بالمنفى

واذ لم تنجح هذه الحيلة عند البروتستانت اقبلوا الى استعمال حيلةٍ اخرى بان ارسلوا الى آباء رومية صندوقين كبيرين مملوءين كتبًا كانت على الاغلب مناسبةً جدًّا لسمّ الشبيبة. اما اوليفيه مانار ففتح الصندوقين ووجد ان الكتب التي فوق كاثوليكية والتي تحت لوترانية فأعلم من ساعتهِ القديس اغناطيوس فعرف اول الامر من اين جاءت تلك الصدقة وامر ان تُحرق هذه الكتب ويُذرّى رمادها في الهواء بما انهُ خشي انها تفسد الدير. ولانهُ اعتقد ان كل ما يأتي من الاراطقة

لا بد ان يكون مشكوكًا فيهِ لم يُرد ان احدًا من الرهبانية يقرأ كتابًا من كتبهم مهما كانت جيدةً لانهُ كان يقول عند ما يقرأ المرء كتابًا مفيدًا لرجل شرّير فبعد ان يلتذ بالكتاب يميل بسلامة قلبٍ الى المؤلف حتى يعتقد بعض مرّات ان كل ما يكتبهُ مؤلف كذا هو صواب. وافتكر هكذا خصوصًا في إرَسم وما شابههُ من المؤلفين قبل ان يُحكَم بضلال تأليفاتهم بزمان طويل. وسند رايهُ على رايِ القديس باسيليوس الذي قال بالفاظ صريحة يجب على الراهب ليس ان يخاف من تعليم المبتدعين فقط لكن الّا يقرا الّا الكتب التي تتضمن روحًا مستقيمًا وتستصوبها الكنيسة بحيث ان كلام المبتدعين حسب راي الرسول كالآكلة التي تُتلف وتُفسد شيئًا فشيئًا كل ما هو سليم

بما ان القديس اغناطيوس ما ابعد عن رهبانيتهِ الوظائف الكنائسية الّا ليحسن خدمة الكنيسة كانت عيناهُ تنظران دائمًا احتياجات الديانة المسيحية ومقاصدهُ امتدّت الى طرف الدنيا لكنما قصدهُ الاصلي كان نحو اقاليم الشمال التي كانت الارطقة قد أخربتها. فان اكبر قسم من المانيا كانهُ لم يبقَ فيهِ شيء من التقوى الحقيقية لان كتب الاراطقة كانت تُقرأ هناك بدون قصاص والشبيبة استقت من هذه الينابيع الفاسدة المبادئ الدينية الأولى. وبما ان اكثر الكاثوليك ما قدروا ان يحتملوا اسم باباويين الذي سمّاهم بهِ البروتستانت تخجلوا من اعتقادهم اما الكهنة والرهبان فكانوا على ارتباك ومهما كان للاساقفة من الغيرة على اصلاح رعاياهم ما وجدوا الّا قليلًا من الخدّام الذين يمكن ان يأتمنوهم على خلاص النفوس

ان القديس اغناطيوس خاطب في تلك الاثناء الكردينال مورون واتفقا معًا على طريقة واحدة لمعالجة تلك الشرور الكثيرة وهي ان يوضع في كل الكنائس رعاة ذوي تعليم صحيح وسيرة نقية يكونون المانيين جنسًا لكن يقتضي ان يُهذَّبوا قبلًا وان ذلك لا سبيل اليهِ الّا بانشاء مدرسة يتربّى فيها شبّان البلاد على العلم والتقوى وبما ان المانيا كانت قد أُفسدت لم يكن لهما ثقة بان ينشئا هذه المدرسة هناك واذ لم يستطيعا ان يتخبا مدينةً انسب من رومية وذلك لاجل قدس الموضع الذي ينعش الآراء الكاثوليكية ولان حضور الاحبار الاعظمين وسخاؤهم يعينان كثيرًا على هذا العمل الجيد جدًّا فاتفق رايهما بتأسيس تلك المدرسة في رومية

ان البابا الذي كلمهُ الكردينال عن ذلك استصوب كثيرًا هذا المقصد الذي كان قد خطر لهُ قديمًا وابتدأ يُعيّن راس مال لنفقة المدرسة وبعد ان امر القديس اغناطيوس لا فقط بان يفتّش ويختار الاحداث الالمانيين لكن ايضًا ان يسوسهم ويهذّبهم فالقديس المذكور استدعى اول الامر اربعًا وعشرين شابًّا من مواضع مختلفة من بلاد المانيا وكلهم ذوو سرائر طيبة واخلاق حميدة. ثم كتب لهم بامر البابا رسومًا وقوانين وجعل آباء الدير الكبير والمدرسة الرومانية كمرشديهم ومعلميهم. ولم يكن الا الامر الدنيوي الذي لم يُرد ان يختلطوا فيهِ وكان يقول ان هذه الانواع من التدابير فضلاً عن الاتعاب والموانع التي تسببت أعطت في الاغلب محلاً للشكوك والتذمرات

وفي اثناء ذلك كتب القديس اغناطيوس رسالةً عن الطاعة وكان سبب كتابتها ما ياتي. ان الغيرة التي كانت في مدرسة كوامبر في البورتوغال ازدادت كثيرًا مع الزمان الاّ انها في النهاية لم تحفظ القياس لان كل واحد كان يظن ان لهُ حقًّا على ان يسوس نفسهُ نظرًا الى الامانة والتقوى وما كان يشاور الأعقلة ولا يتبع الاّ حرارة عبادتهِ. فالبعض كانوا ينضنون من التقشفات حتى يصيروا مهزولين بالكلية ومشرفين على الموت والبعض اذ تُسبى عقولهم بعذوبة التأمل يقضون الايام والليالي في مناجاة الله. وقلما يهتمون بالدرس

ان القديس اغناطيوس لكي يداوي هذا الشر بما انهُ كثير الخطر لصدورهِ عن زيادة الفضيلة نبّه البورتوغاليين ونصح لهم على الضلال الذي كانوا فيهِ ولكنهُ اذ عرف ان هذه التنبيهات لا تعمل تأثيرًا كافيًا وان غيرةً عادمة الملاحظة الى هذا الحد امتدّت من البورتوغال الى اسبانيا انشأ خطبةً طويلة على صورة رسالةٍ لكي يجعل الذين اضلّتهم العبادة الكاذبة في طريق مستقيم

ان في هذه الرسالة المسماة بفضيلة الطاعة الى البورتوغاليين يعتني القديس بان يُفهمنا ان الطاعة هي الفضيلة الوحيدة التي تولد وتحفظ فينا بقية الفضائل وهي التي تتكل عليها خاصةً فضيلة رهبانية يسوع والمزيّة التي يتميز بها اولادها قال فلا يصعب علينا ان سائر الرهبانيات تفوقنا بالاصوام والاسهار وبعدّة استعمالات اخر روحية تحفظها كل رهبانية بطهارة حسب روح عبادتها لكن نظرًا الى ما يخص الطاعة فيجب ان لا ندع احدًا يسبقنا في تتميمها لان طريقتنا تلزمنا ان نكون كاملين فيها

وبما ان الاب العام افتكرَ في الجميع وعرف جيدًا ان احتشام الرهبان لا يساعد فقط على افادة العالميين افادةً روحية واكتسابهم لكن يحفظ ايضًا الرهبان انفسهم في واجباتهم وفروضهم كان قد ألّف قبلاً قوانين خصوصية تخص اللياقة الظاهرة وهذه القوانين هي المعنونة بقوانين الاحتشام وتتضمن ثلاثة عشر فصلاً وامر في ذلك الوقت الاب لويس كونزالز ان يعلنها في الدير الكبير ويوصي الجميع ان يحفظوها جيدًا. فهذا الاب الذي كان لهُ اعتناء بالقانون الخدمي لم يجرِ بسرعةٍ ما أُمر بهِ فوبّخهُ الاب العام علانيةً على توانيهِ بهذا الكلام: اننا كلّفنا انفسنا عناءً جسيمًا لنضع النواميس وخدامنا يتكاسلون اكثر الاوقات في ان يجعلوها محفوظةً كأن تلك القوانين لم تكلفنا شيئًا. ثم قال ان هذه القوانين التي اتكلم عليها كلفتني كثيرًا فكيف لا وقد استشرت الله مرارًا اذ كنت اكتبها وصلواتي كانت مرافقة بدموع غزيرة

كان القديس يعتبر كثيرًا قوانين الاحتشام ولكي يقررها بالاستعمال اوصى ذات يوم لاينس ان يشرحها امام كل اباء الدير وان تفهم جيدًا اهميتها وذلك يكون عند الخروج من المائدة وبينما لاينس يتكلم والجميع يسمعون لهُ بانتباهٍ سمع ضجيجًا عظيمًا كأن الارض اضطربت فهذا الضجيج الذي حيّر المتكلم والسامعين مع ذلك لم يقطع خطابهُ لكن حالما انتهى رغب كل ان يعرف ما الذي كانوا قد سمعوهُ فما خرجوا من المكان حيث كانوا مجتمعين حتى رأوا باعينهم سبب الضجيج فالرواق الذي كان يطلّ على البستان حيث كان الاباء القدماء يتذاكرون كل يوم بعد الاكل سقط حالاً بنوع انهُ لو لم يُلزم الاب العام كل الاباء ان يحضروا المحاورة لكان وقع اكثرهم تحت ردم الرواق. فالقديس اغناطيوس سجد للعناية الالهية الحارسة لخدّامها وقال لهم يظهر جيدًا يا اولادي ان القوانين التي اتينا لنوضحها لكم لا تغيظ الله

٨ في اعمال القديس اغناطيوس الاخيرة وفي وفاتهِ السعيدة

ان القديس اغناطيوس اخذ على كاهلهِ الاعتناء من كل وجهٍ برهبانيتهِ وساسها كلها وهو متوعّك المزاج وكثيرًا ما

ألزمهُ ذلك ان يلازم الفراش لان قواهُ كانت تضعف يوماً بعد يوم والاعمال تزيد كما تنمو الرهبانية فظن ان من الواجب أن يشارك من يقاسمهُ على شغلهِ او بالاحرى من يتقلد منصبهُ غير انهُ اذ لم يحكم بمناسبة فعل هذا الانتخاب بذاتهِ جمع اليهِ كل اباء الرهبانية اليسوعية الذين كانوا برومية ما خلا واحداً او اثنين لم يكونوا بعدُ قد تمّوا ايام الابتداء واعلمهم بالحالة التي الجأتهُ اليها أدواؤهُ واستحلفهم بالله ان يقدموا لهُ رجلاً اهلاً للقيام باعباء وظيفتهِ

عقيب ان صلوا كلهم ثلاثة ايام متوالية بصوت واحد رأسوا الاب ايرونيموس نادال الذي كان قد رجع منذ عهد قليل من اسبانيا حيث كان الاب العام ارسلهُ ليعلن الرسوم وكان متصفاً بجميع الصفات التي يقتضيها مقام كذا كبير الاهمية اما بعض اهل الجمعية فارادوا ان يأخذ لقب نائب او وكيل الرئيس اما هو فارتأى ان لا ياخذ لقباً من الاثنين لكي يترك دائماً سلطان الرئيس العام محترماً. فأُتبع رأيهُ

اما الاب العام فاستصوب الانتخاب الذي عملوهُ والقى على نادال الاعتناء بالاعمال ولم يبقِ لنفسهِ الاّ العناية بالمرضى ظاناً ان ضميرهُ لا يرتاح ابداً على احد في امر المرضى وحاكماً بان الرئيس ملتزم بان يستعدّ لاحتياجات الذين عرفوهُ كابيهم

ولذلك انحصر كل اجتهادهِ في ذلك الامر ولم يقدر ان يتصور كم صيرهُ حنوهُ الابوي سريع الاحساس بأقل امراض ابنائهِ. قال انهُ بترتيب خصوصي للعناية الالهية حصل على قليل من الصحة وان الامراض المختلفة التي كان هو متعرضاً لها جعلتهُ يشعر بزيادة بامراض الغير وجعلتهُ رؤوفاً على كل صنفٍ من السقام

ومع ان امراضهُ كانت تزيد كل يوم اكثر فاكثر مع العمر ولم تاذن لهُ ان يتصرف في الخارج اراد ان يُقدم لهُ حساب الاعمال التقويَّة الباهرة التي كانت تصير في ايطاليا وغيرها واذ علم يوماً ان جماعة من شبان ماسرّاتا اعدّوا رواية قليلة الادب لافراح المرفع فالآباء الذين كانوا قد انطلقوا الى هناك بالرسالة من مدرسة لوريت صمدوا القربان المقدس في معبد مزين حسناً حيث أُقيمت صلوات الاربعين ساعة في الثلاثة الايام التي سبقت اربعاء الرماد فالشعب مالوا الى الاحتفال الجديد فتركوا الملعب لكي ياتوا ويسجدوا للمسيح على المذابح . فهذه العبادة اعجبت كثيراً القديس اغناطيوس فاراد ان تُستعمل كل سنة في اديرة الرهبانية ومنها امتدت هذه العبادة الخلاصية الى كل المسكونة

ولما شعر القديس ان موتهُ قد اقترب استدعى احد رهبانهِ فقال لهُ انهُ قد دنت ساعة وفاتي واريد ان تعلم الرهبانية افكاري الاخيرة فيما يخصُّ الطاعة فاكتب اذاً ما اقولهُ لك. انهُ ينبغي للراهب اول ما يترهب ان لا يألو جهداً في تفويض كل اموره لتدبير الرئيس وليعتقد انهُ خير لهُ ان يجد رئيساً مجتهداً في تخطئة رأيهِ وقهر ارادتهِ . وليعلم اولاً ان لا بد لهُ ان يطيع رئيسهُ في كل ما لا خطيئة فيهِ ويخضع لهُ رأيهُ ولاجرم ان الطاعة تتمّ اما بان نفعل ما أُمرنا بهِ بقوة الطاعة واما بأن نفعل ما قالهُ لنا الرئيس بدون امر مشدَّد واما بان نفعل ما علمنا على سبيل الاستدلال ان الرئيس يريد منا ان نعملهُ وهذا أكمل الطاعة وافضلها . وليعلم الراهب ثانياً انهُ ينبغي لهُ ان يطيع جميع روسائهِ على حدٍّ سوى بدون تفضيل امر الرئيس الأعلى على امر من هو دونهِ من الروساء. وليلاحظ اذاً في كلٍّ منهم السيد المسيح الذين ينوبون عنهُ تعالى . واذا ما خطر للراهب على سبيل الاتفاق ان امر الرئيس مضادٌّ لوصايا الله عزَّ وجل الاَّ ان ذلك لم ينجلِ لهُ فيجب حينئذٍ ان يُطاع لكن ان استصعب ضميرهُ تكميل الامر فليستشير بعضاً من ذوي العلم والخبرة وليقتنع في حكمهم فان كان لا يقتنع بذلك فليعلم انهُ بعيد جداً عن كمال المذهب الرهباني على انهُ ينبغي لهُ ان يكون لا لنفسهِ بل لله خالقهِ ولمن اخضعهُ لتدبيرهِ وليكن بين يدي رئيسهِ كالشمع اللين يقبل لان يرسم فيهِ كل ما يريد او كجسد ميت لا يتحرَّك بذاتهِ او كعصا شيخ يستعملها كما يشاء . فلا يطلب اذاً الراهب من رئيسهِ ان يجعلهُ في المسكن الفلاني او الوظيفة الفلانية غير انهُ يجوز لهُ ان يورد لرئيسهِ رأيهُ وميلهُ بشرط ان يسلم الامر لهُ ويستحسن رأيهُ ويقبلهُ مفضلاً اياهُ على رايهِ الذاتي ولا سيما فيما يخص الفقر . وليكن الراهب كالتمثال الذي تؤخذ منهُ اثوابهُ من دون ان يمانع او يشكو . فهذه هي وصية القديس اغناطيوس الاخيرة لرهبانهِ

وبعد ذلك بزمن يسير اصابهُ داء المنون فتناول القربان المقدس ثم نطق باسم يسوع وانتقل الى رحمة الله في غاية شهر تموز في السنة السادسة والخمسين من المائة السادسة

عشرة للمسيح وكان قد بلغ من العمر خمساً وستين سنةً وكانت رهبانيتهُ قد امتدَّت في المعمورة كلها

فان الرومانيين اذ عرفوا بموتهِ كانوا يقولون من كل ناحية لقد تُوفي القديس . وقال فيهِ القديس فيلبس نيري انهُ كان رجلاً ممتلئاً من روح الله وانهُ رأى مرارًا كثيرة راسهُ ملتحفًا بنور سماوي وانهُ خدم الكنيسة خدماً جسيمة

لعمري اننا لو اوردنا كل ما ذُكر عن بقية فضائل هذا القديس لطال بنا الشرح جدًّا غير اننا نقول انهُ بعد الفحص المدقق عن فضائلهِ العظيمة وعجائبهِ الكثيرة التي اكثر من مائة عجيبة منها محقَّق ثابت بشهادات سمائة وسبعين رجلاً . وكتب البابا بولس الخامس اسم هذا القديس في سفر الطوباويين في السنة التاسعة من القرن السابع عشر للمسيح . وبعد ذلك بثلث عشرة سنةً وبعد فحص ثانٍ مدقق عن فضائلهِ وعجائبهِ كتب اسمهُ البابا غريغوريوس الخامس عشر في سفر القديسين

وفيهِ ايضاً ترجمة الثلث مائة والخمسين شهيدًا الذين قتلوا بسورية مناضلةً عن المجمع الخلكيدوني

كان افتتاح الجيل السادس على سورية باشدّ المجادلات الدينية والأَراطقة أَصبحوا اقوياء على اضطهاد الكاثوليكيين بشدَّة الجرأة والقساوة لانهم كانوا في ظل الملك أَناستازيوس وهذا الملك الذي حكم من سنة ٤٩١ الى سنة ٥١٨ كان قد وعد ان يتمسك بخلوص بأحكام المجمع الخلكيدوني الذي قضى سنة ٤٥١ على ضلال اوطيخا لكنهُ ساعف سرًّا بجهد قوتهِ القائلين بالطبيعة الواحدة (الذين عرفوا فيما بعد باليعاقبة) المتعصبين لذلك المبتدع المتعزّز بهذه المعاونة فهؤلاء الاراطقة لم يداوموا فقط التعليم بانهُ ليس في يسوع المسيح الاَّ طبيعةٌ واحدةٌ غير مفرّقين بسبب ضلالهم الاقنوم الالهي الذي ما هو الاَّ واحدٌ في الطبيعتين الالهية والانسانية اللتين هما متميزتان فيهِ ولو متحدتين لكنهم كانوا يضطهدون الكاثوليكيين بجراءةٍ وقساوةٍ وكانت الاضطرابات والاضطهادات مثارةً على الخصوص من قبل سافاريوس صاحب بدعة الاسيفاليين او السافاريين الذي نصبهُ الملك أَناستازيوس على كرسي البطريركية الانطاكية وكانت مهيجةً ايضاً من قبل كزانياس او فيلوكسيناس اسقف هيرابوليس فهذان الاسقفان اللذان هما اكبر بليَّةٍ على كنيسة المشرق سعيا في نشر البدعة وخصوصاً انهما أَمرا ان يُترنم بهذه الزيادة على ترنيمة المجد للآب والابن والروح القدس وهي الذي مات من أَجلنا. والذي اضاف ذلك الكلام بطرس القصَّار وذلك ليظن الشعب ان اللاهوت نفسهُ قد تألم في يسوع المسيح وانهُ لم يكن في فادينا الالهي سوى طبيعةٍ واحدةٍ

ففي خطر الايمان هذا بقي الرهبان متمسكين بالكنيسة اكثر من سائر المؤمنين وقاوموا بغيرةٍ وشجاعة مشروعات وخدائع الاساقفة الاراطقة الذين نظير الذئاب كانوا يمزقون قطيع يسوع المسيح . غير ان المبتدعين انتقموا لانفسهم وسفكوا دماء هؤلاء الذين لم يقدروا ان يفسدوا ايمانهم ولا يدحضوا كلامهم . واما رهبان اقليم سورية الثانية التي كانت تمتد في وادي العاصي في شمال لبنان من رافانيا المسماة اليوم بارين الى رافانية التي كانت عاصمتها فرفعوا الى الحبر الاعظم البابا هرميسداس برسالةٍ موثرةٍ خبر الاضطهاد الدموي الذي كابدوهُ من قبل أُولئك الاراطقة الذين استحالوا قَتَلَةً . وهذا نص رسالتهم

قد اقامك المسيح الهنا رأساً على الرعاة ومعلماً وطبيباً للانفس مع ملاكك القديس فمن العدل اذًا ان نعلمك بالعذاب الذي نقاسيهِ وان نشكو اليك الذئاب الخاطفة الذين بدَّدوا قطيع يسوع المسيح حتى تطردهم من بين الغنم بعصا سلطانك وتعتني بان تنعش النفوس بكلام تعليمك وتخفّف بلواها بأدوية صلاتك

لكن ان قيل من هم ومن الذين سلَّحوهم علينا فانتم تعرفون ايها الأَب الاقدس من دون ريب ان المهيج هو سافاريوس وبطرس القصَّار اللذان لا يجوز ان يُحصيا في عداد المسيحيين فهما يحرمان كل يوم علانيةً المجمع الخلكيدوني المقدَّس والبابا لاون القديس ولم يعتبرا حكم الله وحكم كنيستهِ وداسا بالأَرجل قوانين الاباء القديسين المعتبرة وعزلا الاساقفة بقوَّة الملك وأَرادا ان يكرهانا على احتقار المجمع المقدَّس المذكور معذبينا عذاباً فائق التصديق فبعض الاساقفة أَصابتهم جراحات فماتوا وكثيرون منا هلكوا بحد السيف

وذلك فيما كنا منطلقين الى مندرا (دير القديس سمعان) لاجل خير الكنيسة وعند ذلك نصب لنا هؤلاء المبتدعون الكافرون فخاخًا على الطريق ووثبوا علينا وذبحوا منا ثلثمائة وخمسين راهباً وجُرح الآخرون واستطاع بعض الفرار فالتجأُوا الى المذابح المقدَّسة فقُتِلوا هناك ثم أَحرقوا ديرنا وارسلوا ليلاً جماعةً من أَوباش الناس المستأجرين وعطَّلوا القليل الذي في الكنائس . وقد بعثنا بيوحنا وسرجيوس الى القسطنطينيَّة راجين ان يُقتصَّ لنا عن كل هذه الذنوب لكن الملك لم يتنازل الى مخاطبتهما بل طردهما باحتيالٍ وهدَّدهما من حيث رفعا اليهِ تلك الشكوى فعلمنا حينئذٍ ان كل هذه الرداءة والوقاحة اللتين نشأَت عنهما هذه الاضرار الهائلة للكنيسة هما صادرتان عن تحريض الملك المشار اليهِ

واضاف هؤلاء الرهبان انفسهم الى المعروض المقدَّم الى المجمع الخامس العام ما نصهُ

كان مشهدًا مريعًا مرأى هؤلاء الرهبان الذين جاهدوا من اجل الكنيسة حتى آخر الشيخوخة عراةً وغير مدفونين وعددهم يزيد على الثلث مائة وجميعهم من سورية الثانية ومعرَّضين كفريسة للكلاب والطيور... فسيف الأراطقة لم يوقر مشيب هؤلاء الثلث مائة والخمسين راهبًا بل اتمَّ بهم فعلهُ القاسي وقطَّع أعضاءهم بنوعٍ وحشيٍّ

اخيرًا ختم أُولئك الرهبان رسالتهم الى البابا القديس هرميسداس بهذا التوسل

لا تتركنا ايها الاب الأقدس لا تتركنا نحن الذين تجرحنا كل يوم الحيوانات المفترسة. ولكي نعرف ملاكك القديس بنا أتمَّ معرفةٍ نحرم في هذه الرسالة التي لها قوَّة اعترافٍ بالايمان كل الذين يرفضهم كرسيك الرسولي او يحرمهم

فهذه الرسالة الحسنة التي لم نذكر منها الاَّ ما يخبر بعذاب الشهداء كتبها اربعة وعشرون ارشيمندريتًا او رئيس دير ومائة وسبعون كاهنًا او شماسًا انجيليًّا . فهؤلاء الشهود الكثيرون يشهدون شهادةً صريحةً بايمان واستشهاد اولئك الثلث مائة والخمسين راهبًا الذين بذلوا حياتهم اثباتًا لما نادى بهِ المجمع الخلكيدوني من الايمان بطبيعتين كاملتين في يسوع المسيح بعد اتحادها في اقنوم الكلمة وقد ذُبح أُولئك الرهبان ضحايا مقدَّمة لمجد يسوع المسيح سنة ٥١٧ حينما انتصر الاراطقة في سورية الثانية في ايام الملك اناستازيوس

فهذه الرسالة تنبئنا ايضًا بالاضرار الغريبة التي بثتها البدعة بسورية التي كانت سعيدةً فيما سلف . والبابا القديس هرميسداس كتب في السنة التابعة الى كاثوليكيي المشرق المختبرين رسالة تعزية لكي يحثهم على ان يقاوموا بشجاعةٍ الاضطهاد الذي لم يقدر عند ذلك ان يوقف شدَّتهُ لكن دماء الثلث مائة والخمسين شهيدًا ما تأخرت ان صرخت نحو السماء فالملك اناستازيوس معاون الاراطقة قُلب اولاً بواسطة هيجان وهلك بعد قليل مضروبًا بصاعقة في السنة التالية لاستشهادهم وهي سنة ٥١٨ وسافاريوس الكافر اكبر مسبب لهذا الاضطهاد عُزل عن البطريركية التي كان قد غصبها وقُضي عليهِ بقطع اللسان بسبب الكفر الذي كان يقذفهُ من فيهِ. فالملك يوستينوس الاول الذي خلف اناستازيوس أعان الكنيسة على طرد المبتدعين واعادة الاساقفة الكاثوليكيين الى كراسيهم واخمد نار الفتن ورد السلام الى الكنيسة. وعلى هذا النوع استحقاق الشهداء سكَّن تلك الزوبعة الشديدة واعاد الطمانينة الى الكنائس ووطد اتحادها بالكنيسة الرومانية وسبح الله المؤمنون الذين تعزَّوا جميعهم بهذا الانتصار ومدحوا الشهداء الذين ردُّوا الى الحق ضياءهُ والى الكنيسة سلطانها

ومن أجل ذلك اراد الله بحكمتهِ غير المتناهية ان يبقى لهولاء الشهداء الاماجد في وادي العاصي اكرامٌ عظيم الى ايامنا هذه فالأُمة المارونية تقدم لهم هذا الاكرام الخاص مقرونًا بعبادةٍ نقويةٍ تحت اسم تلاميذ القديس مارون . ولا ريب انهم لم يُلقَّبوا بذلك اللقب لان القديس مارون بنى أديارهم اذ انهُ كان ناسكًا باقليم سيريستيك وهؤلاء الرهبان كانوا معتزلين باديار سورية الثانية. ولا لان كل هؤلاء الشهداء كانوا من دير القديس مارون الذي هو قرب أباميا او خاضعين لهُ لانهُ كان باقليم سورية الثانية وحدهُ اربعة وعشرون ارشيمندريتًا كلٌّ منهم مستقلٌّ في ديرهِ غير خاضع الاَّ للأُسقف بحسب الحق القانوني الجاري حينئذٍ وايضًا لا لان هؤلاء الشهداء كانوا من لبنان او من الطائفة المارونية حيث ان الاقليم الذي كانوا يقطنونهُ كان متاخمًا لشمالي لبنان والطائفة المارونية لم تكن وجدت بعدُ. لكن الموارنة يكرمونهم باحتفال تحت لقب تلاميذ القديس مارون اولاً لان اكبر اديار هولاء الشهداء الطوباويين كان معروفًا باسم القديس مارون وارشيمندريت الدير هذا الذي كان اسمهُ اسكندر هو اول من أمضى الرسالة التي رُفعت الى البابا هرميسداس القديس. وثانيًا لأن كثيرين من هؤلاء القديسين كانوا يتشجعون على الثبات في الايمان والاستشهاد امام ذخيرة هامة القديس مارون الثمينة التي كانت بهذا الدير. وثالثًا لان هولاء الرهبان القديسين كانوا اشجع المناضلين عن الايمان الكاثوليكي الذي يغار لهُ الموارنة غيرةً واخيرًا لان هؤلاء الرهبان القديسين كانوا خاضعين اتم الخضوع لكرسي هامة الرسل كما رأينا في الرسالة المذكورة والطائفة المارونية تفتخر بانها تقتفي آثارهم في ذلك

وبحسب السنكسارين الروماني واليوناني يعيّد الموارنة عيد الثلث مائة والخمسين شهيدًا في ٣١ من تموز وهو عيدٌ عظيم في جميع كنائس الامة المارونية والبابا مبارك ١٤ شرك جميع كنائس تلك الطائفة في الغفران العام الذي كان قد منحهُ البابا اكليمنضوس ١٢ منذ سنة ١٧٣٤ في مثل هذا اليوم لرهبان الموارنة وحدهم

شهر آب

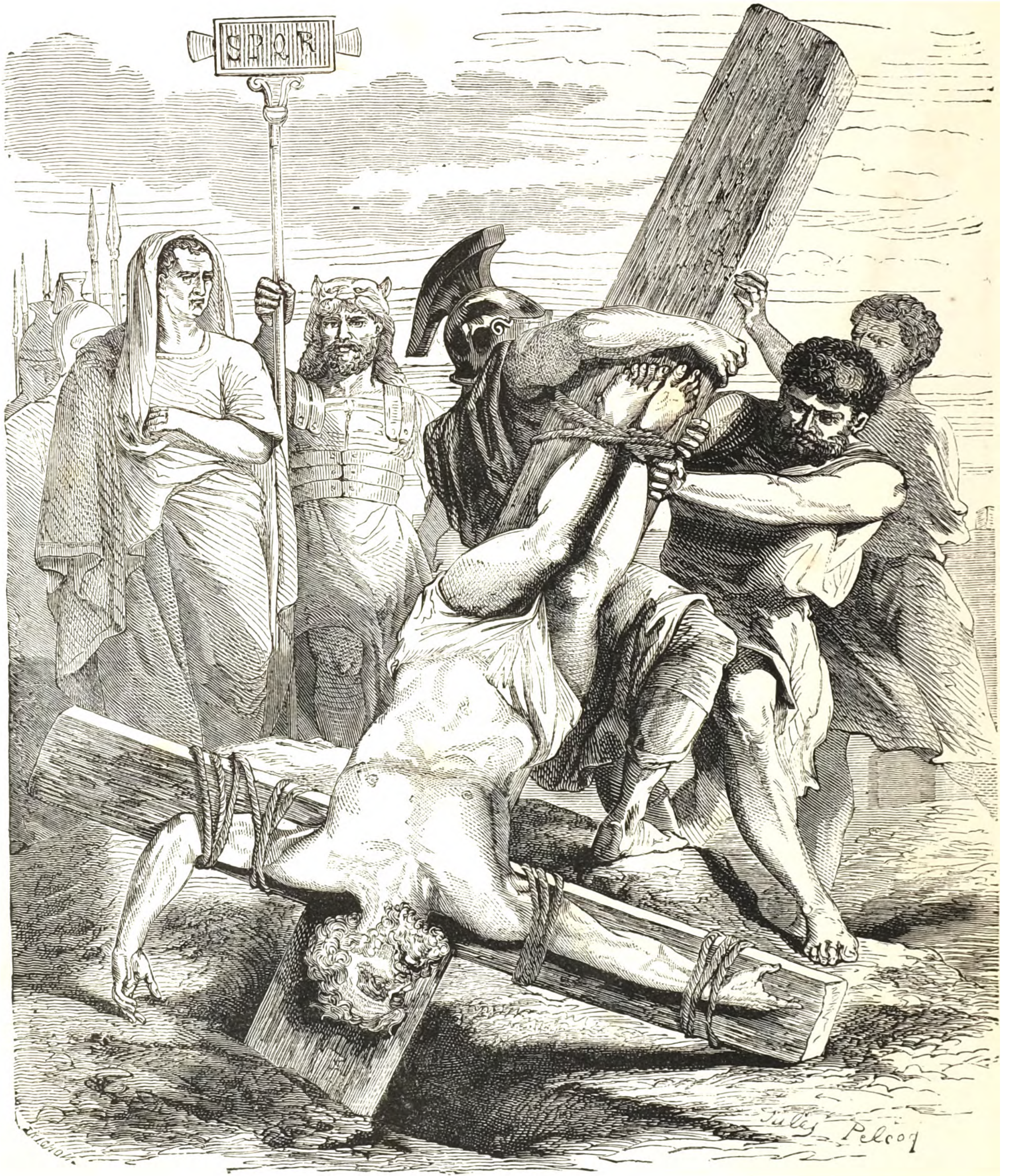
اليوم الاول

وفيهِ عيد سلاسل القديس بطرس الرسول

اعلم ان الكنيسة المقدسة انما تعيد في هذا اليوم لسلاسل القديس بطرس وذلك اولاً لكي نشكر الله تعالى لانهُ فكَّ قيود راعي كنيستهِ العام واخرجهُ من السجن وأنقذهُ من ايدي طالبي نفسهِ. فكما ان جميع المؤمنين لما عرفوا ان هذا القديس أُلقي في السجن طفقوا يصلُّون من اجلهِ بلا انقطاع (اعمال ١٢ : ٥) وجب عليهم ايضاً ان يشكروا الله سبحانهُ لانهُ اخرجهُ من السجن سالماً. وثانياً اكراماً لسلاسل هذا الرسول التي كان يفتخر بها مسروراً لعلمهِ بان الله تعالى يتمجَّد بما يحتملهُ عبيدهُ من الاهانات والاوجاع حبًّا لهُ

روى القديس لوقا ان الملك هيرودس الملقَّب باغريبا بن اريستوبولوس قتل القديس يعقوب اخا القديس يوحنا وانما كان الداعي الى ذلك ان هذا الملك كان مكروهاً جدًّا عند اليهود فإرادة ان يستميلهم اليهِ و يربح مودَّتهم طفق يضطهد المسيحيين وبحيث ان اليهود فرحوا كثيراً في موت القديس يعقوب أرسل فقبض ايضاً على القديس بطرس في اسبوع الآلام في السنة الثانية والاربعين للمسيح والقاهُ في سجن واقام على حراستهِ ستة عشر جندياً وكان اربعة منهم واقفين على باب السجن ليحرسوهُ بالنوبة في كل هزيع وكان يريد ان يُسلّم ذلك الرسول الى اليهود بعد عيد الفصح. وفي تلك الليلة التي كان هيرودس يريد ان يُسلّم فيها الرسول الى اليهود كان الرسول عليهِ السلام نائمًا بين جنديين ومقيَّداً بسلسلتين وكان اولئك الجنود يحرسون السجن عند الباب وبغتةً وقف ملك الرب بازائهِ واشرق نورهُ في ذلك السجن فمسَّ جنب الرسول وأيقظهُ قائلاً لهُ قم سريعاً وفي الحال سقطت السلسلتان من يديهِ. ثم قال لهُ الملك شدَّ منطقتك والبس حذاءك ففعل وقال لهُ تلفَّف باثوابك واتبعني فخرج الملك وتبعهُ الرسول ولم يكن يعرف ان ذلك حقيقة وانما كان يظن انهُ رؤيا يراها في الحلم. فلما جازا الحرس الاول والثاني وصلا الى باب الحديد الذي كان اول ابواب السجن فانفتح باب الحديد لهما من تلقاء ذاتهِ ثم مشيا زقاقاً واحداً بالمدينة وحينئذٍ توارى الملك عنهُ فانتبه الرسول على نفسهِ فقال اني علمت الان يقيناً ان الله تعالى أرسل ملكهُ وانقذني من يد هيرودس واليهود. فجاء الرسول الى بيت مريم ام يوحنا المدعو مرقس وهو الذي رافق القديس بولس والقديس برنابا في بعثتهما وكان قد اجتمع في ذلك البيت كثيرون من المؤمنين ليصلوا. فلما قرع الرسول باب البيت قامت شابَّة اسمها روده وجاءت مسرعةً الى الباب فلم تعلم من الذي يقرع الباب في جوف الليل. فلما سمعت صوت القديس بطرس عرفت انهُ هو فلفرط فرحها لم تفتح الباب حالاً بل رجعت بسرعة الى الذين في الدار وبشرتهم ان الرسول واقف بالباب فما صدقوها بل قالوا لها انكِ مجنونة حقًّا واما هي فاذ لم تزل تثبت قولها قالوا لها انهُ ليس بطرس عينهُ بل انما هو الملك الحارس. اما بطرس فلم يزل يقرع الباب فلما فتحوا ونظروا بُهتوا جميعهم وشرع القديس يقصُّ عليهم ما جرى لهُ مع الملك (اعمال ١٢). فهذه هي الاعجوبة التي تتذكرها الكنيسة اليوم

قد ذكر في عِظةٍ منسوبةٍ الى القديس يوحنا فم الذهب (غير ان الكاردينال بارونيوس ينسبها الى بروكلوس والى القديس جرمانوس خليفتي فم الذهبي على الكرسي القسطنطيني) ان بعضاً من الحرَّاس المار ذكرهم الذين رأوا هذه الآية وبسببها تنصروا أخذوا من السجن السلسلتين اللتين



استشهاد القديس بطرس

كان الرسول مقيدًا بها وسلموها الى مسيحيي اورشليم ليحفظوها وفي السنة التاسعة والثلثين من المائة الخامسة للمسيح اتت اورشليم اودكسيا امرأة تاودوسيوس الصغير لكي تزور الاماكن المقدسة وطلبت من الاسقف يوفيناليوس ذخيرةً مقدسةً فوهبها السلسلتين اللتين تقدستا بيدي الرسول بطرس . اما الملكة فحفظت واحدة منها لكنيسة القسطنطينية وارسلت الاخرى الى ابنتها قرينة الملك والنتينيانوس الثالث وهذه الملكة ارسلت هذه السلسلة للبابا سكتوس الثالث وأراها هو سلسلة اخرى كان ارتبط بها القديس بطرس في رومية في عهد الملك نيرون فتقرَّب الحبر السلسلة الواحدة الى الاخرى وللحال تعلقت احداها بالاخرى وظهرتا سلسلةً واحدةً

لاجرم ان هذه المعجزة زادت المؤمنين اكرامًا لقيود الرسول بطرس ومن اجل ذلك ابتنت اودكسيا الملكة كنيسة كبيرة برومية على اسم القديس بطرس و وضعت فيها هاتين السلسلتين اللتين صارتا سلسلةً واحدةً . وفيها قال القديس اغستينوس ان المسيحيين يعتبرونها اكثر من كل ذهب الدنيا. والقديس غريغوريوس الكبير يذكر انهُ في عصرهِ كانت العادة ان يُبرَد قليل من هذه السلسلة و يُرسل كذخيرة مقدسة وان الله كان يصنع بها آياتٍ باهرة وكان البابا نفسهُ يبردها . ويذكر ايضًا ان السلسلة كانت احيانًا تُبرد بسهولة واحيانًا لم يكن ينزل منها شيء اذا بُردت لبعض اشخاص. اما هذه البُرادة المقدسة فكانوا يضعونها تارةً في صلبان او مفاتيح من فضة او ذهب ثم كانوا ينزلون هذه الصلبان والمفاتيح بواسطة خيط في قبر القديس بطرس والذين كانوا يُعطَون هذه الذخيرة كانوا يحملونها على عنقهم ليُحفظوا منها من كل كارثة . هذا ما كتبهُ الحبر الروماني المومأ اليهِ الى ملك فرنسا لما وهبهُ مثل هذه الذخيرة. وقد اخبرنا ايضًا هذا القديس ان الله تعالى انتقم من رجل شريف كان يستهزئ بالقوة المنسوبة الى هذه المفاتيح ولما كان يكسر ذات يوم واحدًا من تلك المفاتيح اما احتقارًا واما طمعًا بقيمة فضتهِ دخلهُ الشيطان حالاً فقتل نفسهُ بيدهِ ذلك اليوم عينهُ

وجاء ايضًا في تواريخ الكنيسة ان الملك يوستينيانوس الذي جلس على عرش المملكة بعد موت يوستينوس طلب من البابا اورمسداس ذخيرةً من هذه السلسلة المقدسة ليضعها في كنيسة كان قد بناها بالقسطنطينية على اسم القديس بطرس فارسل اليهِ الحبر الروماني منديلاً مقدسًا اي منديلاً كان قد وُضع على قبر هذا الرسول مع صليب ومفتاح كان وُضع فيهِ شيء من بُرادة سلسلة القديس بطرس . وروى القديس غريغوريوس المعظم ان هذه المناديل كانت تفعل العجائب التي كان جسد الرسول نفسهُ يعملها ويشهد ايضًا ذلك القديس ان هذه المناديل المقدسة كانت اذا قُطعت احيانًا تجري دمًا وقد سُطّر في اخبار الكنيسة انهُ في السنة التاسعة والستين بعد التسع مائة دخل الشيطان جسد امير عزيز جدًا لدى الملك اوتون المعظم فكان يمزّق لحمهُ باسنانهِ فارسلهُ الملك الى البابا يوحنا الثالث عشر فوضع البابا سلسلة القديس بطرس على عنق المجنون ومن ساعتهِ خرج الشيطان بصراخ مرعب

ومن ثمَّ تُدرك اهمية السبب الذي لاجلهِ تكرّم الكنيسة سلاسل القديس بطرس الرسول التي كان المؤمنون الاولون يعتبرونها جدًّا بحيث رُوي ان القديس اسكندر البابا الشهيد شفى وهو في السجن البينا امرأة شريفة فارادت هذه ان تقبّل قيودهُ فمنعها القديس وقال لها ان هذا الاكرام انما هو مختصٌ بسلاسل القديس بطرس فاذهبي وقبّليها

فلنختمنَّ كلامنا بما جاء في العِظَة المذكورة المنسوبة الى القديس يوحنا فم الذهب حيث يقول قد اصبح اليوم الذي فيهِ تُرينا الكنيسة سلاسل القديس بطرس لكي نكرّمها لاننا بها نحلُّ كل رُبُط الروح الشرير ونستأصل كل حيلهِ ونظفر بعدوّ خلاصنا وننجو من الموت الابدي. فهذه هي السلاسل التي تزيّن بها الرسول وفيها كان يجعل سرورهُ وافتخارهُ وبها تزيّنت ايضًا الكنيسة عروس السيد المسيح المقدسة النقية وتعدُّها قلادةً واكليلاً ثمينين يزيد بهاؤها تجاه عروسها الالهي . اذ كان ينبغي لنا ان لا نقتصر على تكريم هذه السلاسل بل يجب علينا ان نكرّم كل ما استعملهُ هذا الرسول نائب السيد المسيح على الارض والفم الذي منهُ تعلم المؤمنون حقائق دين الله واوامرهُ . فياليتني ارى حذاء هذا الرسول فاقبلهُ بالابتهاج والتوقير . فانت يا ايها المغبوط بطرس صخرة كنيسة المسيح وثباتها وهامة الرسل الذي احتملت هذه السلاسل كرجل اثيم وصيّرتها آلات الشفاء فانظر الينا بعين الحنوّ والتعطف واحرسنا واحفظنا بشفاعتك

وفيهِ ايضًا ترجمة السبعة الاخوة المكابيّين الشهداء ووالدتهم الشهيدة

انهُ قبل تجسد ابن الله بنحو مائة واربع وسبعين سنة كان مستوليًا على سورية رجل متلطخ بالاثم والشرّ يدعى انطيوخوس الرابع لُقّب اولاً بابيفانوس ومعناها المجيَّد ثم لُقّب بابيمانوس ومعناها المجنون . فهذا الملك حاصر مدينة اورشليم قبل الميلاد بمائة وسبعين سنةً ثم فتحها وقتل من اليهود ثمانين الف نفس وأسر منهم اربعين الفًا وكذلك باع منهم اربعين الفًا . ثم دخل الهيكل المقدس ونهب الاواني المقدسة الذهب والفضة واقام هناك صنمًا وقرّب لهُ ذبائح وكان يُلزم اليهود بعبادتهِ

ثم رجع الى مدينة انطاكية وشرع يُكرِه اسراء اليهود على السجود للاوثان وترْك شريعة الله. فقبض اول الامر على الشيخ الشريف لعازر الذي كان يومئذٍ ابن تسعين عامًا واخذ يغتصبهُ على جحد شريعتهِ لكنما الشيخ القديس آثر الموت على ان يحيا مخالفًا قضية واحدة من قضايا الناموس . وبعد موتهِ المقدس قبض المغتصب على سبعة اخوة عبرانيين واكبرهم كان قد بلغ من العمر نحو عشرين سنة وقد دُعوا مكابيين لان يهوذا المكابي قام مثالاً وقائدًا لليهود الذين حفظوا الناموس في هذا الاضطهاد ولهذا على ما زعم قومٌ من المعلمين الماهرين دُعوا مكابيين مع بقية اليهود الذين اظهروا شجاعةً في هذا الاضطهاد الشديد وقد ظنَّ العلماء ان هولاء الاخوة السبعة كانوا قد تربَّوا في مدرسة لعازر المذكور

فلما أُخذوا الى المغتصب مضت والدتهم معهم لكي تُشجعهم على احتمال التعاذيب وتحضر انتصارهم . فلما مثلوا امام انطيوخوس وضع على مائدةٍ لحم خنزير وعلى اخرى آلات التعاذيب المميتة ثم امرهم الملك برجزٍ ان ياكلوا اللحم المقدَّم لهم . اما احدهم وهو الاكبر فقال لهُ اما هذا الذي تطلبهُ منا فاعلم اننا مستعدُّون لان نموت ولا نتعدّى الشرائع الالهية . فغضب انطيوخوس وامر أن تُشعل نارٌ تحت خلاقين من نحاس ففعلوا بكل سرعة ثم أمر ان يُقطع لسان الاخ الاكبر ويُسلخ جلد رأسهِ وتُقطع ايضًا اطراف يديهِ ورجليهِ امام اخوتهِ ووالدتهِ . ففعل المأمورون ذلك واذ لم يمت بعد كل هذا العذاب امر ان يُلقى في خلقين وفيما كان يتعذب

هكذا كان الاخوة مع امهم يحثّون بعضهم بعضًا على قبول الموت قائلين ان الرب الاله سيتذكَّر وعدهُ ويتعزَّى بنا كما قال موسى نبيهُ في تسبحتهِ (تثنية الاشتراع ٣٢) وقبولنا الموت حفظًا للشريعة يخجل الذين تعدَّوها خوفًا من العذاب

فلما مات الاول على الوجه المذكور ساقوا الثاني ليستهزئوا بهِ ويعذبوهُ فسلخوا جلد رأسهِ مع شعرهِ ثم سألوهُ هل يريد ان ياكل من لحم الخنزير قبل ان يتعذب في كل جزءٍ من اجزاء جسدهِ. فاجاب قائلاً لست افعل ما تريدونهُ لان الله تعالى نهاني عنهُ . فتعذب مثل اخيهِ البكر واذ اشرف على الموت قال للملك المنافق : انك انت ايها الملك الاثيم تعذبنا في هذه الحياة وتقتلنا الاَّ ان رب العالمين خالق السماء والارض سيقيمنا من الموت ويخوّلنا حياةً ابدية

ثم بعد هذا استهزأُوا بالثالث وامروهُ ان يُخرج لسانهُ فدلعهُ سريعًا ومدَّ يديهِ بشجاعة وقال بطمأنينةٍ اني قبلت هذه من الله تعالى والان لاجل شريعتهِ اقدّمها لتقطع وارجو اني ساقبلها منهُ ثانيةً فتعجب الملك والذين معهُ من تصلُّب الشاب الذي كان يعدُّ العذاب والموت كلا شيء

ولما تُوفّي هذا عذَّبوا الرابع كذلك ولما قرب من الموت قال للملك انطيوخوس طوبى لنا نحن الذين نُمات الآن لاجل الناموس لاننا نرجو من الله تعالى ان يقيمنا من الموت ويُحيينا حياةً سعيدة ابدية . اما انت فلا تكون قيامتك هكذا بل انما تقوم لكي تتعذب نفسك وجسدك عذابًا لا حدَّ لهُ ولا نهاية

فتقدم الخامس وفيما هو تحت العذاب الشديد نظر الى المغتصب وقال لهُ انك انت الآن ذو سلطان واقتدار وتفعل بنا كل ما تشاء فتذكَّر انك قابل الموت وانهُ بهِ يفسد جسدك ويزول كل سلطانك ومجدك فلا تظنَّ ان جنسنا مخذول من الله سبحانهُ لانك عما قليل سترى قدرتهُ العظيمة وانتقامهُ منك ومن نسلك

فبعد موتهِ عذبوا ايضًا السادس وهو اذ بدأ يموت قال لانطيوخوس لا تضلَّ ظانًّا ان هذه البلايا أدركتنا لاننا لا نطيعك بل ان الله تعالى يعذبنا الآن لاننا اخطأنا اليهِ فيؤدبنا كما يؤدب الاب ابنهُ لكي نتوب . اما انت فلا تظنَّ انك تنجو من العذاب بعد ان تجاسرت على ان تحاربهُ تعالى لانهُ جلَّ

شانهُ يؤخر تعذيبك الى يوم اظهار غضبهِ وحينئذٍ تعلم ما أرهب الوقوع بين يدي الله الحي

اما تلك الامُّ التي هي فريدة شعبها والمستحقة ان يذكرها كل لسان فكانت ترى بنيها السبعة مكابدين عذابًا اليمًا بل الموت نفسهُ حفظًا لشريعة الله ومع ذلك لم تبكِ ولم تحزن بل كانت تهيّجهم وتشجعهم حتى ان قلبها كان يبتهج كابتهاج الأمّ التي تشاهد اولادها يظفرون بالاعداء ولافراط فرحها قالت لهم اني لست اعلم كيف جُبلتم في بطني لاني لست انا التي ركّبت اعضاء كلٍّ منكم ولم اعطِكم النفس والحياة بل ان خالق العالم هو الذي جبلكم وأحياكم فانتم اعمال يديهِ تعالى وانتم ابناؤهُ اكثر مما انتم ابنائي فهو الذي فيما بعد يُعيد اليكم هذه الحياة التي تفقدونها اكرامًا لهُ وحفظًا لشرائعهِ

فلما تأمل انطيوخوس شجاعة الستة الاخوة التي لم يقدر ان ينتصر عليها خجل في نفسهِ وخاف من ان الناس يضحكون عليهِ فيصير لذلك سخريةً وهُزءًا في انطاكية ان كان الاخ السابع الذي هو اصغرهم لا يطيعهُ فبذل كل جهدهِ واستعمل كل حيلةٍ ليجذبهُ الى رأيهِ ومرامهِ لانهُ تلطف معهُ بالكلام ووعدهُ بالمقامات العالية والاموال الوافرة وانهُ يتبنّاهُ . ولما رأى ان كلامهُ لم يؤثر فيهِ الا كتأثير الكتابة على صفحات الماء حثّ الأمّ على ان تستميل ابنها الى الطاعة لكي يخلص من الموت وبحيث طلب منها ذلك بالحاح وعدتهُ انها تستعطف ابنها فطأطأت اليهِ راسها وخاطبتهُ باللغة العبرانية التي لم يكن يعرفها الملك واخذت تستهزئ بالمغتصب . ثم قالت اذكر يا ابني العزيز اني حملتك في بطني تسعة اشهر وارضعتك ثلث سنين وربّيتك واوصلتك الى هذا العمر فاطلب منك الان يا ولدي ان تنظر الى السماء والارض وتعقل ان الله تعالى خلقها وخلق البشر ليعيشوا على الارض زمانًا ويحفظوا وصاياهُ وهكذا ينتقلون الى السماء . فلا تخف اذًا الملك المغتصب ولا الجلاّد القاسي لان العذاب سينتهي سريعًا فاقبل اذًا مع اخوتك العقاب والموت لكي تقبل معهم اكاليل المجد الابدي

وفيما هي تكلم ابنها قال الغلام للجلادين ما الذي تنتظرونهُ اني لست اطيع امر الملك بل اطيع امر الشريعة الالهية . ثم التفت الى انطيوخوس وقال لهُ اما انت ايها الشرير عدوّ الاسرائيليين فاعلمنّ انك لا تُفلت من يد الله تعالى . والان فيعذبنا الرب لاجل خطايانا الا انهُ تعالى سيذكر رحمتهُ ويغفر لنا . اما انت ايها الملك الاثيم يا اخبث الناس طرًّا فلا ترتفع باطلاً بامل باطل لان قضاء عدل الله المستعجل عليك سيدركك عما قليل فها انذا اسلّم نفسي الى الموت مع اخوتي حفظًا لشرائع الله تعالى واسألهُ جلّ ثناؤهُ ان يتعطف على أمّتنا لكي تعلم وتعرف انهُ هو الاله الواحد . اما فيَّ وفي اخوتي فينتهي غضب الله على ملّتنا . فوغر حينئذٍ صدر الملك وعذبهُ عذابًا اشد من عذاب اخوتهِ . فمات هذا ايضًا وبعد وفاتهِ أُلقيت امهُ في النار وانتقلت الى رحمة الله مع ابنائها السبعة

اما الملك انطيوخوس المنافق فما ابطأ العدل الالهي ان ادركهُ لانهُ بعد زمان قليل قام يهوذا المكابي واخوتهُ الشجعان وتسلطوا على القدس الشريف واستأصلوا منهُ عبادة الاوثان ونسخوها وانتصروا على قوة الملك . اما هذا فيخبر عنهُ صاحب كتاب المكابيين الثاني فصل ٩ قائلاً وفي ذلك الزمان كان انطيوخوس قد رجع بهوان من بلاد فارس فانهُ دخل مدينة فرسِبُليس واجتهد ان يسلب الهيكل ويظلم المدينة ولكن القوم اجتمعوا بالسلاح فولّى الملك وجماعتهُ مدبرين وهرب بخجل ولما وصل الى مدينة قفطان سمع ما جرى لقائدَيهِ نيقانور وتيموتاوس من الانكسار في اليهودية . فامتلأ قلبهُ سخطًا وظن انهُ يقدر ان يرجع على اليهود ما أُلمّ بهِ من عار الهزيمة فلذا امر ان يعجل مركبهُ وما استمرّ سائرًا فان القضاء السماوي يدركهُ من اجل انهُ تكلم هكذا تكبّرًا ان سيجي الى اورشليم ويجعلها مقبرة اليهود . اما الرب اله اسرائيل البصير في الجميع فضربهُ ضربةً خفيّةً مهلكة . لانهُ لما فرغ من هذا الكلام أخذهُ وجع احشاء شديد فكان ذلك بعدلٍ بحيث كان قد عذب احشاء غيرهِ اعذبةً اليمةً متفنّنة . غير انهُ لم يزل مع ذلك سوءهُ بوجهٍ من الوجوه بل امتلأ تكبرًا متنفسًا نار الغضب على اليهود وامر بان يستعجل في المسير وفيما كان على هذا الجدّ وقع من المركب وتعذّبت اعضاؤهُ اذ صدمها جسم شديد . ألا انظر ذلك الذي سوّلت لهُ نفسهُ ان يتسلط على امواج البحر ويزن بالميزان علو الجبال ممتلئًا من العجرفة التي هيهات ان يتّصل اليها بشر كيف اصبح مخفوضًا الى الارض يُحمل على كرسي والديدان تخرج من بدنهِ وهو حيٌّ يثقّل على جيشهِ برائحتهِ المنتنة . والذي كان عن قليلٍ يظن انهُ يمسّ كواكب السماء كيف لم يقدر احد ان يحملهُ لشدة نتانتهِ فمات شرّ ميتة

اليوم الثاني

وفيهِ ترجمة القديس استفانس البابا الشهيد

ان هذا القديس من شرفاء رومية المكرّمة وُلد بها نحو المائة الثالثة للمسيح اما حوادث صبائهِ فلا يروي المؤرخون منها شيئًا غير انهُ قبل الدعوة الاكليريكية وكان معتبرًا جدًّا من جميع المؤمنين لاجل نقاوة سيرتهِ وسعة علمهِ وشدة غيرتهِ . ثم انهُ كان عزيزًا مقرَّبًا عند القديس كرنيليوس والقديس لوسيوس المتقدمين في الكرسي البطرسي وسلّما اليهِ كل كنز الكنيسة ولما استأثرت رحمة الله بالقديس لوسيوس شهيدًا في السنة الثالثة والخمسين من المائة الثالثة اشار على الاكليروس ان يختاروا لمنصبهِ القديس استفانس ليترأس على الكنيسة ففعلوا وكانت الكنيسة حينئذٍ محاربةً من الاراطقة النوفاسيين . وهولاء الاراطقة كانوا يعلّمون ان من ارتكب خطيئةً كبيرةً بعد المعمودية لا يجوز حلّهُ وقد قالوا هذا بوجه ان يُمجَّد عدل الله تعالى ولهذا لقبوا انفسهم بالكاتاريين اي الانقياء الّا انهم لم يدروا انهم بهذا التعليم يبيدون رحمة الله تعالى ويلقون النفوس في اليأس وقطع الرجاء . ثم ان النوفاسيين حرّموا ايضًا الزواج الثاني وكانت الكنيسة على هذا الحال لما جلس القديس استفانس على عرش الخلافة البابوية فحارب بكل غيرتهِ النوفاسيين وغيرهم من اهل الضلال وهم الذين دُعوا وثنيين . وقد لُقّب بهذا اللقب قوم من المؤمنين المتراخين الذين في زمن الاضطهاد كانوا يُقدّمون لقضاة الوثنيين دراهم لكي يأخذوا منهم وثيقةَ شهادةٍ على انهم قدّموا ذبيحةً للاوثان وإن لم يفعلوا ذلك وكانوا يلتجئون الى هذه الحيلة الشيطانية ليحفظوا بها حياتهم واموالهم . وفيهم تكلم المجمع النيقاوي الثاني في القانون الحادي عشر . فلما عرف القديس استفانس ان اسقفين باسبانيا طلبا واخذا من الحكّام الوثنيين مثل هذه الشهادات حرمها وعزلها عن كراسيهما

ثم انهُ في ذلك الزمان وقعت مجادلة عظيمة فيما بين اعظم القديسين فمنهم من ارتأى ان تعيد الاراطقة غير صحيح ومن ثمَّ ينبغي لمن اعتمد بيد مبتدع ان يعتمد ثانيةً بيد كاثوليكي ومنهم من ذهبوا الى ان من اعتمد على يد رجل مبتدع بالمادة والصورة والنية الواجبة قد صحّ اعتمادهُ ولا يجوز تكريرهُ . فابتدأ قوم من الاساقفة الكاثوليكيين يعمدون في الشرق المؤمنين الراجعين عن البدعة حتى ان اساقفة ايقونية وكبادوكية وغلاطية وغيرهم عقدوا مجمعًا في السنة السادسة والخمسين بعد المائتين وحكموا ان معمودية الاراطقة غير صحيحة وانهُ لا بدَّ ان تُجدَّد . اما القديس استفانس فضادَّ هذا التعليم كل المضادة وابان انهُ شيءٌ جديد في كنيسة المسيح فرفضهُ وهدَّد كل المتمسكين بهذا الرأي بقطع الاشتراك معهم ان لم يرتدوا عنهُ . غير ان القديس ديونيسيوس بطريرك الاسكندرية كتب في ذلك الشان الى البابا استفانس الاول حتى لا يحرمهم بل ليتصرَّف معهم بصبرٍ . فاتصلت النار الى كنيسة افريقية حيث ان القديس كبريانوس مع سبعة وثمانين اسقفًا حكموا في مجمعٍ ان معمودية الاراطقة المذكورة لا تصح . فرفض ايضًا القديس استفانس رأيهم وحكمهم مع انهُ لم يقطع الاشتراك معهم بالحرم الشخصي . غير ان الكنائس الافريقية والشرقية قبلت اخيرًا حكم هذا القديس خليفة ذلك الرسول الذي صلّى من اجلهِ ابن الله لئلا ينقص ايمانهُ ووعدهُ بان ابواب الجحيم لن تقوى عليهِ

وقد كانت الكنيسة حينئذٍ متمتعةً بالسلام والطمأنينة من قِبل القياصرة الا ان سلامها لم يبقَ زمانًا طويلاً لان الملك واليريانوس أبرز امر الموت على كل المسيحيين وبهذا الامر كان يهب كل اموال المؤمنين للذين يشتكون عليهم . حينئذٍ جمع القديس استفانس كل الاكليريكيين والشعب المسيحي ليجعلهم متأهبين لانتهاب اموالهم وللموت ايضًا من اجل السيد المسيح ذاكرًا لهم الأجر العظيم المعدَّ لهم . وفيما كان يعظهم هكذا بغيرة وشجاعة صرخ كاهن يقال لهُ صالح انَّا جميعًا مستعدُّون لا لخسارة الاموال فقط بل لأشد التعاذيب والموت ايضًا من اجل سيدنا يسوع المسيح . فقال الجميع بصوتٍ واحد ليكن آمين . ثم ان القديس بدأ يفتقد المؤمنين في منازلهم ليعلمهم ويناولهم الاسرار الالهية . وفي يوم واحد عمَّد مائة وثمانين من الموعوظين ثم ناولهم سرَّ التثبيت وقدَّس لاجلهم وناولهم القربان المقدس وقد تكلّل كثيرون منهم بعد ذلك بزمن قليل باكليل الاستشهاد

وبينما كان القديس استفانس على هذا الحال اذ برسول قد اتاهُ من قِبل رجلٍ غني لهُ سلطة في تدبير رومية يُقال لهُ نيماسيوس وطلب منهُ ان يجيء الى بيتهِ ليشفي ابنتهُ العمياء .

فذهب القديس ولما رأى البنت قال لها ولأبيها اني سأصنع ما تطلبانهِ ان آمنتما بالسيد المسيح الذي باسمهِ وقوّتهِ تكمل هذه الاعجوبة . فرضي الاثنان وطلبا المعمودية فعلَّمهما الحبر القديس ثم عمَّدها وسمى تلك البنت لوسيلاً وحالما اعتمدت انفتحت عيناها وابصرت . فلما رأى هذه الآية الوثنيون الحاضرون آمنوا واعتمدوا ايضًا وكانوا ثلثةً وستين رجلاً

فشاع هذا الخبر في المدينة ومن ثمَّ ارسل الملك والريانوس وقبض على نياسيوس ولوسيلاً ابنتهِ وسمبرونيوس وكيل بيتهِ . فلما حضروا اليهِ أمر اولمبيوس الحاكم من قِبل الملك سمبرونيوس ان يسلمهُ دفتر اموال نياسيوس . فاجابهُ قائلاً ان نياسيوس سيدي بعد قبولهِ سرَّ المعمودية وتنصُّرهِ اعطى المساكين كل اموالهِ . فقال لهُ الحاكم فاذًا انت مسيحي مثلهُ . اجاب سمبرونيوس اي نعم وانا لاجل كوني مسيحيًّا افرح وافتخر . فغضب اولمبيوس وامر ان يُقدَّم لهُ صنم ثم امرهُ باسم صنمهِ ان يدفع لهُ دفتر اموال نياسيوس سيدهِ . فنظر سمبرونيوس الى الصنم بغيظ مقدس وقال لهُ اني اطلب من سيدنا يسوع المسيح ابن الله الحي ان يسحقك ايها الصنم الشيطاني ويخزي الذين يعبدونك فسقط الصنم من ساعتهِ وعاد الى تراب . فاذهل اولمبيوس ونتج من هذه الاعجوبة ان آلهة الوثنيين كذبة وتكلم على ذلك مع امرأتهِ اوكسوبيريا التي كانت مسيحية في الباطن فثبَّتت زوجها في رأيهِ . ثمَّ دعا القديس استفانس معلمها فعمدهُ

فنمى الى بلاط الملك خبر هذه العجائب وكثرة الذين يتنصرون كل يوم فقبض عليهم جميعهم مع اثني عشر اكليريكيًّا وكان احدهم القس صالح المذكور فقُتلوا جميعهم . ثم قبض على القديس استفانس ولما وقف امامهُ زجرهُ الملك وقال لهُ أأنت المسيحي الخبيث الذي يُلقي الاضطراب في المدينة والمملكة ويصدُّ الناس عن عبادة الآلهة . فقال القديس اني ما كنت لألقي القلق والاضطراب في المدينة ولا في المملكة بل انما احثُّ الناس على ترك عبادة الشياطين واغريهم ان يعبدوا الاله الواحد خالق السماء والارض . فغضب الملك وامر بان يُساق القديس الى هيكل الآلهة ويُقتل هناك . فلما قرب من هذا الهيكل رعدت السماء وومضت البروق وانقضَّت الصواعق وسقطت جدران الهيكل . فهرب كل من كان هناك من الوثنيين وبقي القديس استفانس مع قوم من المسيحيين الذين كانوا قد رافقوهُ فذهب بهم الى قبر القديسة لوسينا حيث كان المسيحيون يجتمعون فقدَّم ثمَّ ذبيحة القداس الالهي وبعد تناول القربان المقدس دخل الجنود الوثنيون وقتلوهُ وهو جالس على كرسي درجتهِ حيث كان يعظ المؤمنين وجرى ذلك في اليوم الثاني من شهر آب نحو السنة ٢٥٧

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس النونسيوس ليغوري (راجع وجه ٨٨٤)

اليوم الثالث

وفيهِ تذكار وجود جسد القديس استفانس اول الشهداء

انهُ بعد ما رُجم اول شهداء النصرانية هذا ارسل احد علماء اليهود وشرفائهم سرًّا وهو غمالائيل الذي كان مسيحيًّا بحسب الباطن فنقل جسد القديس ودفنهُ في مكان بعيد عن اورشليم سبع ساعات بارضٍ لهُ تدعى كفر مجلا حيث كان يقبر اهل بيتهِ وبقي جسد القديس مختفيًا هناك زمانًا مستطيلاً نحو اربعمائة سنة ولم يدرِ احد اين دُفن

فاراد الله تعالى اخيرًا ان يُري الناس هذا الكنز المخبوءَ وذلك في عهد الملك تاودوسيوس الصغير في السنة الخامسة عشرة بعد الاربع مائة للمسيح وجرى الامر على هذه الصورة انهُ كان في ذلك الزمن كاهن فاضل اورشليمي يخدم كنيسة مبنية في الموضع الذي كان مدفونًا فيهِ ذلك الشهيد الجليل الشان وكان اسم هذا الكاهن لوسيانوس فرأى رؤيا في اليوم الثالث من شهر كانون الاول اي انهُ ظهر لهُ غمالائيل وأراهُ الموضع الذي كان فيهِ جسد القديس استفانس وقال لهُ انك تجد بجوار قبر هذا القديس قبري وقبر ابني وقبر نيقوديموس ثم اوصاهُ بان يخبر بذلك يوحنا اسقف اورشليم ليأتي هو ويفتح القبر . فلما استيقظ لوسيانوس وتأمل الرؤيا لم يجسر ان يعمل شيئًا بل خرَّ ساجدًا وطلب من الله تعالى ان يعرّفهُ حقيقة هذه الرؤيا ان كانت قد أتت منهُ تعالى فيراها ايضًا مرَّتين . ثم استعد لنيل هذه النعمة فصام كصوم المؤمنين في الاربعين المقدسة اي على الخبز والماء فقط

وفي انتهاء اليوم العاشر من كانون الاول ظهر لهُ غمالائيل ثانيةً وأراهُ اختلاف استحقاقات الاربعة القديسين السابق ذكرهم بطريق الرمز لانهُ ابصر اربع قفف مملوَّة زهورًا

فالقفة الاولى التي تشير الى القديس استفانس كانت من ذهب وزهورها كانت وردًا أحمر واما القفتان الآخريان فكانتا من مادة اقل ثمنًا من الذهب وكانتا ممتلئتين من ورد ابيض واما القفة الرابعة فكانت من فضة ومملوءة طيبًا ذكيًا فواظب اوسيانوس على صومهِ وصلواتهِ فتراءى لهُ غمالائيل ثالثةً وأمرهُ ان يعجل في اتمام ما امرهُ بهِ

فانتبه القس القديس ومن ساعتهِ ذهب الى اورشليم واخبر الاسقف يوحنا بما كان فلم يقدر الاسقف ان ياتي كفر مجلا . لانهُ كان حينئذٍ ملتزمًا بالمضي الى مدينة ديوسبوليس ليحضر مجمعًا كان عُقد هناك ضد بدعة بيلاجيوس . ولكنهُ أمر الخوري ان يحفر في الموضع المعيَّن لهُ حتى انهُ اذا وجد شيئًا يرسل ويخبرهُ . فرجع لوسيانوس وفي اليوم الثامن عشر من شهر كانون الاول حفر ووجد الكنز المخبوء اي قبر القديس استفانس والثلثة القبور الاخر وكان مكتوبًا على القبر الاول لفظة كليل وهي كلمة عبرانية معناها اكليل كلفظة استفانس في اللغة اليونانية فارسل لوسيانوس واخبر الاسقف يوحنا بما وجدهُ فاتى الاسقف من ديوسبوليس الى كفر مجلا واتى معهُ اسقف اريحا واسقف سبسطية . ولما حضروا وفتحوا أمامهم القبر تزلزلت الارض حالاً وانبعث من القبر عرفٌ ذكيٌ وفي تلك الساعة برئ ثلثة وسبعون رجلاً من امراضهم حذاء قبر هذا القديس ثم كثرت المعجزات . فنقلوا هذه الذخيرة الى اورشليم ووضعوها بمدينة صهيون في اليوم السادس والعشرين من شهر كانون الاول

وكان القديس اغسطينوس حيًّا في ذلك العهد فشكر الله تعالى على وجود هذه الذخيرة وقال ان هذه الاعجوبة من شأنها ان تردَّ المبتدعين عن ضلالهم . فارسل اليهِ اسقف اورشليم جزءًا من هذه الذخيرة المقدسة في السنة الرابعة والعشرين بعد الاربع مائة للمسيح وبها صُنعت آيات ومعجزات كثيرة ذكرها القديس المذكور وعاين اكثرها ومنها ما سنذكرهُ . روى القديس ان امرأة عمياء قدَّمت زهورًا لكي يضعوها على بيت الذخيرة ثم وضعتها على عينيها ومن ساعتها ابصرت وبدت تقود الذين كانوا يقودونها . ثانيًا يذكر هذا القديس ان رجلاً وثنيًا يقال لهُ مرسيال كان لهُ ابنة مسيحية وصهرهُ كان مسيحيًا ايضًا واثناهما كانا قد كلَّما كثيرًا مرسيال ليتنصر فلم يرضَ واخيرًا مرض فلما رأت ابنتهُ وصهرهُ ذلك

مضيا وصليا لاجلهِ امام ذخيرة القديس استفانس وأخذا قليلاً من الزهور التي وضعت عليها وجاءا بها الى البيت ووضعاها في الليل تحت راس المريض فلما انتبه مرسيال صباحًا طلب المعمودية فعمِّد وما زال يقول يارب يايسوع اقبل روحي حتى انتقل الى جوار ربهِ عقب بعض ايام من ذلك ولم يعرف المريض ان هذا اخر ما نطق بهِ الشهيد القديس . ثالثًا يذكر القديس اغسطينوس انهُ في ايبونا مدينة اسقفيتهِ صنع الله في مدة سنتين بل اقل من ذلك سبعين الاعجوبة بذخيرة شهيدهِ استفانس . منها قيام ثلثة رجال من الموت احدهم قام بواسطة زيت الشهيد الذي دهنوا بهِ جسد الميت . اما الاخر فكان صبيًّا مرَّ على جسدهِ دولاب عربة وسحقهُ فحملتهُ امهُ ميتًا ووضعتهُ على مذبح القديس استفانس وللحال قام من الموت ولم يكن على جسدهِ اثر من جراحاتهِ

(تنبيه) اعلم ان كل ما ذكرناهُ في هذا المقام اخذناهُ عن رسالةٍ قُرئت في كنائس المشرق والمغرب وعمَّا كتبهُ القديس اغسطينوس عليهِ ازكى السلام

وفيهِ ايضًا ترجمتا القديسة مارانا والقديسة كورا السائحتين

ان تاودوريتوس اسقف صير العالم الجليل كتب ترجمتي هاتين القديستين وكان لهما كمرشدٍ . وقد رأى بعينهِ كل ما ذكرهُ عنهما وابتدأ هكذا قال . انهُ بعد تأليف تراجم السيَّاح الذين قدَّسوا البراري بتقشفاتهم العجيبة . وجب عليَّ أن أروي أخبار هاتين القديستين اللتين مارستا أتعب التقشفات حتى غدتا بهما من افاضل السيَّاح بل فضلتاهم ايضًا على انهما مع كونهما من النساء ضعيفتي المزاج والطبع مارستا اشد ما مارسهُ اعظم القديسين السيَّاح من الصوم والاتعاب والتقشُّفات

انهما من العائلات الشريفات في بيريا وهي مدينة حلب وُولدتا بها على نحو انتهاء المائة الرابعة للمسيح وبحيث كانتا متصفتين بصفات حميدة طلب كثيرٌ من اعظم رجال الدولة ان يتزوجوهما الاَّ انهما كانتا قد نذرتا عفَّتهما لله منذ الصغر وبعد اتخاذهما يسوع عروسًا لهما اتفقتا ان تناجيا الله وحدهُ وان تقتديا بهِ في ما الزمنة محبتهُ لنا ان يحتملهُ من الاتعاب والآلام . وبناء على ذلك عزمتا على ترك نزهات العالم وتنزُّهاتهِ

وممارسة رياضات التقشفات مع رياضات الصلاة المتوالية بتأمل آلام سيدنا يسوع المسيح . واما عيشتهما في الدنيا فكانت على هذه الصورة وهي انهما كانتا تصومان غالب الايام ولا تخرجان من بيتهما الا لكي تُصليا في الكنيسة وما بقي من الزمن بعد الفروغ من رياضات عبادتهما كانتا تقضيانه في عمل الايدي لاجل خدمة الكنائس وزينتها او مساعدةً للمساكين وكان فراشهما حصيرةً خشنةً مفروشة فوق اديم الارض . على انهما لم تكونا ترقدان الا قليلاً

هذا ما كانتا تمارسانه في بيت والديهما غير ان الله تعالى الذي كان قد اختارهما ليجمل بهما تواني المؤمنين الفاترين حرّك فيهما ميلاً الى ارتقاء ارفع درجات الكمال واسنى مراتب التقشف . ولذلك اتفقتا بعد وفاة والديهما على ان يُقفيا على آثار سيدنا يسوع المسيح المصلوب وعوّلتا على ان تشتركا في اوجاع عروسهما المصلوب بممارسة تقشفات فائقة الطبيعة . فخرجتا من بيتهما واختلتا خارج المدينة في بيت لهما لم يكن له باب وانما كان له كوّة صغيرة ولم يكن له سقف . فدخلتا كلتاهما هناك ولم تأخذا معهما الا آلات لتعذيب الجسد وكتاب صلواتهما وكانتا تنامان على الارض وتتناولان قليلاً من الخبز والماء وكان يُوصل اليهما من الكوّة المذكورة . ذلك وكانتا متنطقتين بسلاسل حديد ثقيلة جداً وفي عُنُقيهما سلسلة اخرى فكانتا تلبسان فوقها ثوباً عريضاً طويلاً مخافةً ان تظهر تقشفاتهما هذه

اما الجواري اللاتي كنّ يخدمنهما في الدنيا وتبعنهما ليختلينَ معها ويسرنَ بتدبيرها فبنت القديستان لهنّ قلاّية متصلة بمنزلها . ومن نافذتها كانتا تكلمانهنّ وترشدانهنّ ومن غير هذه النافذة كانتا تأخذان من الخارج قوتهما وكانت القديسة مارانا تكلم العابدات اللاتي كنّ يزرنهما وذلك من عيد الفصح الى عيد العنصرة فقط اما القديسة كورا فحفظت الصمت الدائم . وقال تاودوريتوس انهُ افتقدها مراراً كثيرة ولاجل احترامها للدرجة الاسقفية كانتا تدعانهِ يدخل محلّهما وان التزم لذلك ان يفتح باباً في الحائط فيقول عنهما اني رأيت بعيني هذه السلاسل التي كانتا تحملانها دائماً واظن ان أقوى الرجال كان يعجز عن حملها . وقد كانت تلك السلاسل اربعاً وكل واحدة منها كانت ذات ثقل فالاولى كانت على العنق والثانية كانت زنّارها والثالثة والرابعة على ايديهما

هذه هي العيشة التي كانتا تعيشانها لا منذ مدة خمس سنين او عشر او خمس عشرة سنة بل منذ اثنتين واربعين سنة وبعد مواظبتهما هذه المستطيلة على هذه السيرة القشفة لم تفتر ولم تنقص حرارة نشاطها في ممارسة هذه الرياضات المستصعبة . واذ كانتا لا تزالان تنظران عروسهما المصلوب فذلك النظر والتأمل المتصل كانا يُحلّيان لهما مرارة هذه التقشفات . وقد شهد تاودوريتوس ايضاً انهما صامتا ثلث مرات اربعين يوماً لا اكلاً وشرباً وصامتا ثلث مرات اخرى صوم دانيال النبي اعني ثلثة اسابيع لا اكلاً ولا شرباً . فاتفق يوماً انهما عند تأملهما آلام سيدنا يسوع المسيح اشتهتا جداً ان تزورا الاماكن المقدسة في اورشليم فسافرتا وسارتا هكذا عشرين يوماً ولم تشربا شيئاً فبعد ان زارتا تلك الاماكن المصبوغة بدم عروسهما يسوع المسيح وبلّتاها بالمدامع الغزيرة أفطرتا اخيراً . ثم ارتحلتا الى حلب على النوع المذكور اعني لم تاكلا ولم تشربا شيئاً وبعد قليل من ذلك الزمان زارتا قبر القديسة تقلا ببلاد ايسوريا على الاسلوب المذكور . ثم اختلتا في خلوتهما الى ان رقدتا بالرب في منتصف الجيل الخامس . والسنكسار الروماني يذكرهما في اليوم الثالث من شهر آب

اما تذكارها عند الروم فهو حسب نسخة قديمة من نسخ سنكسارهم في اليوم الثامن والعشرين من شهر شباط

اليوم الرابع

وفيهِ ترجمة القديس دومينيكوس منشئ رهبانية الدومينيكيين

ان الله تعالى الذي لهُ عناية كبيرة بكنيستهِ لما رأى الاراطقة الالبيين يضطهدونها في مملكة فرنسا اقام القديس دومينيكوس لمحاربتهم وكان مولد هذا القديس باسبانيا سنة سبعين من المائة الثانية عشرة للمسيح وهو من عشيرة معتبرة من حيث البرّ وشرف الاصل ولما كانت امهُ حبلى بهِ رأت في الحلم انها تلد كلباً ممسكاً بفمهِ شمعةً متقدة يطوف بها في الدنيا وينيرها وقد عرفت في رؤيا اخرى معنى هذا الحلم لانهُ قد ظهر لها القديس دومينيكوس صيلوس من رهبانية القديس مبارك اذ كانت تصلي في كنيسة مبنية على اسمهِ وقال لها ستلدين ابناً يكون نور العالم المسيحي وتعزية الكنيسة فولدتهُ وسمّتهُ في المعمودية دومينيكوس باسم القديس الذي ظهر لها

ومنذ صباهُ بل منذ طفوليتهِ مالت نفسهُ نحو العبادة وكان يهبّ من نومهِ ليلاً لكي يُصلّي . وكان لهُ خال من افاضل الكهنة فاخذهُ الى بيتهِ ليربّيهُ على العبادة ثم ارسلهُ الى المدرسة بمدينة بالنسيا وقرأ على بعض المدرّسين هناك علم الفلسفة واللاهوت ستة أعوام ومهر فيهما

على ان جُلّ اجتهادهِ كان في اكتساب الفضيلة والنموّ فيها فكيف لا وكان يصوم مرارًا كثيرة كل اسبوع وينام قليلاً لا على فراشٍ لكي يُصلّي طويلاً . اما حواسّهُ فكان يضبطها بلجام الامانة الدائمة وكان قد أخذ على عينيهِ عهدًا كايوب البارّ ان لا تنظرا وجوه النساء (ايوب ٣١ : ١) ولهذا لم يكن يأذن لنظرهِ ان يقع على عذراء او امرأة ومن اجل عفّتهِ وطهارة ذيلهِ احبّتهُ جدًّا مريم البتول عليها اشرف السلام واما هو فكرّمها وايّ تكريم وفيما كان بمدرسة اللاهوت ألمّت بالمدينة بليّة الغلاء والجوع فاعطى المساكين كل ما كان لهُ من الدراهم ثم باع امتعتهُ وكتبهُ وفرّق اثمانها على المحتاجين وبعدما اعطى كل شيء لهُ اذا بامرأة طلبت منهُ صدقةً فداء لابنها الذي كان اسيرًا لدى المسلمين فاراد ان يبيع ذاتهُ لينقذ ابنها المذكور من ايديهم لكن المرأة لم ترتضِ بذلك

ان محبتهُ للقريب لم تكن تكتفي باعانة الجسد فقط بل كان يعتني بمساعدة النفس ايضًا وبحيث ان قلبهُ كان ممتلئًا من محبة الله تعالى ومضطرمًا بغيرة عظيمة كان كلامهُ كنورٍ يضيء وكنارٍ تضرم فتاب على يدهِ خلق كثير . ومع ان القديس دومينيكوس كان حدث السن اذ ذاك كان الجميع يعدّونهُ اعظم علماء عصرهِ في علم الخلاص ويستشيرونهُ . وفي ذلك العهد كان اسقف مدينة أوسما اقام حديثًا في كنيستهِ اكليريكيين قانونيين فهذا الاسقف الفاضل دعا القديس دومينيكوس وجعلهُ ارشيدياكونوسًا وبقدوتهِ الصالحة زها بقية الاكليريكيين في الفضيلة ومنذ ذلك الزمن زاد في اصوامهِ واسهارهِ وسائر تقشفاتهِ وكان كل ليلة يؤلم جسدهُ النقي ثلث مرّات بحبال مربوط بها مهاميز

ثم ارتسم كاهنًا وحينئذٍ خرج كرسول وطاف اقاليم مملكة اسبانيا وبوعظهِ وقدوتهِ الصالحة ردّ عن الارطقة والبدعة خلقًا يكاد عددهم لا يُحصى . ولما كانت الكنيسة تضيق عن جماهير الناس التائقين الى استماع كلامهِ كان يعظ في الشوارع وخارج المدن

وكان قد حان الوقت الذي عيّنهُ الله لمجيء القديس دومينيكوس الى مملكة فرنسا ليجلو بنور تعليمهِ وفضائلهِ وعجائبهِ ظلام بدعة الالبيين الذين انما أُطلق عليهم هذا الاسم لان اكثرهم كانوا بابرشية مدينة البي اما منشىء هذه البدعة فهو تاجرٌ غنيٌّ من تجّار مدينة ليون يقال لهُ بطرس فالدو كان يصطنع الى الفقراء بصدقات كثيرة وبما ان المساكين كانوا يمدحونهُ جدًّا شرع يعظ ويتلمذ اناسًا ومن اجل ذلك قيل لهؤلاء الاراطقة فقراء ليون وكان بطرس هذا يذهب الى ان اموال المؤمنين ينبغي ان تكون مشتركةً بينهم لانهم اخوة كما تشترك تركة الاب بين اولادهِ . وان سلطان تلاميذهِ كالسلطان المعطى للكهنة فهذه البدعة امتدّت كل الامتداد في مدينة البي ونواحيها وكان رئيس تلك الجماعة اوليفاريوس وقد جدّد بدعة ماني اي ان الالبيين كانوا يعتقدون ان الله تعالى خلق النفوس وان الشيطان خلق الاجساد ولهذا كانوا ينكرون صحة التوراة وانكروا ايضًا اسرار العهد الجديد ثم انكروا ان الله جلّت قدرتهُ يخلق نفوسًا جديدة وذهبوا مذهب فيثاغورس الفيلسوف الوثني الى ان الارواح تنتقل في الاجسام وكانوا ينكرون ايضًا يوم البعث والنشور كالزنادقة الذين كانوا على عهد المسيح وكبعض الحمقى من اهل هذا الزمان الذين ينكرون صحة الكتاب المقدس ولا يعتقدون بدين من الاديان ومن ثم انكر اولئك المبتدعون المطهر وجهنم وتجسد المسيح

فارسل ملك اسبانيا اسقف مدينة أُسما مع القديس دومينيكوس الى ملك فرنسا فبعد ان تمّما في فرنسا الامر الذي كانا أُرسلا لاجلهِ عزما على ردّ اولئك الاراطقة الى الكنيسة وباذن البابا دخلا بين الخراف الضالة وبالحري بين الذئاب الخاطفة لانهم كانوا رجال الدماء وطفقا يعظانهم وكان هذا الاسقف الغيور قد ارجع الى اسبانيا جميع موكبهِ قائلاً ان المبشرين بالانجيل المقدس لا يليق بهم ان يظهروا العظمة بل التواضع ليجذبوا الضالين الى الحق . وبعد ان تعبا سنين في ردّ الاراطقة واثمرا فيهم اثمارًا كثيرة جيدة رجع هذا الاسقف الفاضل الى رعيتهِ وترك لرفيقهِ القديس دومينيكوس وكالتهُ الرسولية في ما بين الالبيين

هذا والقديس دومينيكوس لم يكن يبدأ بالوعظ الاّ بعد الصلاة التي اتخذها منهُ الكنيسة المقدسة وهذه صورتها : اينها

العذراء انعمي عليَّ بان امدحكِ امنحيني قوةً تجاه اعدائكِ .
فطاف القديس المدن والقرى وكان يعلّم الجميع فخاف الاراطقة من ان تعليم القديس يؤثّر في القلوب فصنّفوا كتابًا ضد تعليمهِ وارسلوهُ اليهِ ففنّد القديس اقوالهم ودحضها بالادلة الساطعة والبراهين القاطعة باللسان والقلم وسلّم كتابهُ الى الاراطقة فاجتمع اولئك وبعد قراءتهم الكتاب القوهُ في النار ليحترق فلم يحترق فاوقدوا نارًا اخرى عظيمة والقوا فيها الكتاب ثانيةً فلم يحترق وكذا فعلوا مرةً ثالثة ولم تمس النار تأليف القديس. فلم يتب منهم بهذه الاعجوبة سوى واحد دلالةً على ان العجائب لا تكفي لردّ الاراطقة عن الضلال .
فالتجأ حينئذٍ الالبيون الى الحيلة فبلوا ورقة ارطقتهم بماء الشبّ ثم قدّموها للكاثوليكيين والاراطقة واوقدوا نارًا عظيمة ثم القى الاراطقة ورقتهم في النار لظنّهم ان ماء الشبّ بقوتهِ الطبيعية يحفظ الورقة من الحريق . غير ان الله تعالى لاشى هذه القوة الطبيعية واحترقت الورقة حالاً في دقيقةٍ من الزمان . ثم ارتضى القديس دومينيكوس بان كتابهُ يُلقى ايضًا في النار فطرحوهُ ولبث فيها صحيحًا الى ان انطفأت النار
فازداد الالبيون قساوةً وعزموا على قتل القديس فحزن واكتأب وفيما كان يصلي امام ايقونة والدة الله شاكيًا من صلابة قلوب الاراطقة تراءت لهُ ملكة السماء وامرتهُ بان ينادي بعبادة الوردية فترك القديس كل جدال وتأليف وشرع يحثّ المؤمنين على هذه العبادة الجليلة مبيّنًا لهم كيفية ممارستها واظهر الله تعالى مزيد سرورهِ باكرام والدتهِ . لانهُ بواسطة صلاة الوردية رجع من المبتدعين الى الايمان الكاثوليكي وتاب من الخطأة في زمن قليل الف ومائة نفس ونيف

واما الحبر الاعظم اينوشنسيوس الثالث فلما عرف ان الالبيين يفتكون بالكاثوليكيين حرّك ملك فرنسا الى محاربتهم فارسل الملك سمعان مُنفورت قائد جيشهِ ليحاربهم ولما كان في قلعة حصينة مع الف وثمانمائة جندي حاصرهُ الاراطقة بجيش مؤلف من مائة الف جندي وروى بعض المؤرخين انهم كانوا مائتي الف فلم يهلع قلب القائد الكاثوليكي الباسل بل التجأ الى الله تعالى وبعد الاعتراف وتناول القربان المقدس مع كل جنودهِ خرج من القلعة كأسد مع عسكرهِ ووثبوا على عسكر الالبيين وكان القديس دومينيكوس يصلّي لاجلهم كما فعل موسى حينما كان يشوع يحارب اعداء اسرائيل . فانتصر الكاثوليكيون على الاراطقة انتصارًا تامًّا ولم يُقتل من جنود سمعان القائد سوى ستة او سبعة جنود وكان هذا الانتصار في اليوم الثاني عشر من شهر ايلول في السنة الثالثة عشرة من الجيل الثالث عشر

ثم عُقد المجمع اللاتراني الرابع في السنة الخامسة عشرة من المائة الثالثة عشرة للمسيح وكان فيهِ بطريرك القسطنطينية وبطريرك اورشليم واما بطريرك الاسكندرية وبطريرك انطاكية فارسل كلٌ منهما نائبًا وترأس على المجمع البابا اينوشنسيوس وكان فيهِ اربعمائة اسقف وفي هذا المجمع رفض الآباء بدعة الالبيين ووضعوا قضايا اخر وكان القديس دومينيكوس حاضرًا ايضًا . وعزم حينئذٍ على انشاء رهبانية لمجرّد الوعظ والتعاليم وكاشف بمقصدهِ الحبر الاعظم فلم يجبهُ الى ذلك غير انهُ في تلك الليلة تراءى لهُ القديس دومينيكوس ساندًا كنيسة لاتران بمنكبيهِ وحافظًا اياها من السقوط . فلما انتبه من نومهِ دعا القديس وامرهُ بكتابة قوانين رهبانيتهِ واثبتها خليفتهُ البابا اونوريوس الثالث في السنة السادسة عشرة من المائة الثالثة عشرة للمسيح وسمى رهبانهُ واعظين ومن هذه الرهبانية كان القديس توما اللاهوتي ونشأ فيها كثير غيره من القديسين الذين اسعفوا الكنيسة جدًّا بعلومهم وغيرتهم
هذا ولما رأى الشيطان قاتلهُ الله اثمار القديس دومينيكوس واثمار رهبانيتهِ عزم على قتل منشئها فرشقهُ بحجرٍ وهو يصلّي في الكنيسة وكان اماتهُ لو لم يحفظهُ الله . ودخل القديس دومينيكوس الدير ذات مرّةٍ واذا بالشيطان لعنهُ الله يركض فيهِ فقال لهُ القديس ما تفعل هنا وماذا تُريد يا ايها الوحش الجهنمي . قال الروح الخبيث اني أُباشر هنا وظيفتي ولا بد ان احصل منها على ثمرة فكيف لا واني اذا رقد الرهبان وحان وقت الصلاة اوسوس الى بعض ان يستغرقوا في الرقاد فاذا تجاوزوا الحدّ وتعدّوا القانون فعلت بهم اردأ من ذلك . وأُزيّن لبعض النفور من الكنيسة والسأمة والضجر من الصلاة حتى يصلّوا وهم ساهون ومتى كانوا على المائدة أُحبّب اليهم النَهَم في المآكل واجعلهم يتذمرون من المآكل واحثّهم واهيّج فيهم الضحك ومتى اجتمعوا في الديوان ابعثهم على ان يلذعوا بعضهم بعضًا بالكلام واذا فعلت ذلك فلا بد ان اربح شيئًا ولكن في الدير موضعًا اراهُ شرًّا من جهنم فيهِ

اخسر غالبًا كل ما اكون قد ربحتهُ وهو مكان اعتراف الرهبان امام الاخوة جهارًا بروح الاتضاع والندامة لكل ما خالفوا فيهِ القوانين

وصنع القديس دومينيكوس عجائب كثيرة في زمان حياتهِ وبعد موتهِ ولنقتصر هنا على ذكر ثلثٍ منها . الاعجوبة الاولى هي ان امرأة رومانية كما روَوا تركت يومًا ابنها ملقًى على فراش المرض ومضت لكي تسمع موعظة هذا القديس وعند رجوعها الى بيتها وجدت ابنها قد مات فحملتهُ وقدَّمتهُ للقديس امام اناس كثيرين . فصلَّى القديس ثم صلَّب على الميت وامسكهُ بيدهِ وقدمهُ لامهِ حيًّا معافى . والاعجوبة الثانية هي انهُ بينما كان ذات يوم مع ثلثة كرادلة اذ برسول اخبر احدهم ان ابن اخيهِ وقع عن حصانهِ فمات اما عمهُ فغشي عليهِ من شدة الحزن فذهب القديس عليهِ السلام الى حيث كان جسد الميت وصلى عليهِ فقام الميت حيًّا باذن الله وذهب الى عمهِ الكردينال واخبرهُ بالمعجزة . الاعجوبة الثالثة هي انهُ فيما كان قومٌ يبنون ديرًا قُتل منهم واحدٌ فاقامهُ القديس من الموت امام جمهور المدينة

هذا واما في حين الصلاة فكان يذهب عقلهُ الى الله تعالى غالبًا ويتشرَّف برُؤًى سماوية . وقد ذكر انهُ حينما كان يصلي يومًا من اجل الخطأة ظهر لهُ سيدنا يسوع المسيح بوجهٍ غضوب على معشر الخطأة وكانهُ قد استعدَّ لتعذيبهم وحينئذٍ تراءت ام الرحمة وقدمت لابنها دومينيكوس والقديس فرنسيس وطلبت ان يعفو عن الخطأة حبًّا بهذين الصديقين فتعزى القديس دومينيكوس وفي ذلك اليوم نفسهِ وجد القديس فرنسيس واعتصم بحبل مودَّتهِ . واصابهُ آخر الامر داء واعلمهُ الله ان ذلك المرض سيكون سبب موتهِ فتناول القربان المقدس ومُسح بالمسحة المقدسة ثم انتقل الى جنة النعيم في السنة الحادية والعشرين من المائة الثالثة عشرة للمسيح في اليوم السادس من شهر تموز وكان قد بلغ من العمر احدى وخمسين سنة

اليوم الخامس

وفيهِ عيد سيدة الثلج

ان تكريم مريم العذراء لا ريب في انهُ ابتدأ منذ أُنشئَت كنيسة المسيح اعزَّها الله ونما معها بقدر ما نمت كما قال الآباء القديسون لان المسيح اذ قال لها ان يوحنا هو ابنكِ ولهُ هذي هي امك جعل والدتهُ امًّا لجميع المؤمنين وصيَّرهم بنين لها . ومن اجل ذلك قال القديس اغسطينوس نحو هذه السيدة الالهية انما انتِ يامريم رجاء الخطأة وبكِ نرجو اجرنا الابدي . وعلى هذا المعنى قال القديس جرمانوس بطريرك القسطنطينية مخاطبًا هذه السيدة الجليلة القدر انهُ لايخلص احد الا بكِ وما من احد ينجو من بلايا هذه الدنيا الا بواسطتكِ ولا ينال الرحمة الا بشفاعتكِ . فلهذا السبب ترغب الكنيسة في اكرامها وقد رسمت اعيادًا كثيرة لتمجيدها اما السبب الذي من اجلهِ رسمت هذا العيد فهو

انهُ نحو نصف الدهر الرابع على عهد البابا ليباريوس كان برومية رجلٌ شريفٌ متموِّلٌ متعبِّدٌ للعذراء جدًّا اسمهُ يوحنا غير انهُ اذ لم يكن لهُ ولد رام ان تكون العذراء وارثةً لجميع اموالهِ وكانت امرأتهُ موافقةً لهُ على هذا المقصد الحميد فصلَّيا وطلبا من السيدة ان ترضى بما قصداهُ وتبيِّن لهما السبيل الذي تريد ان يصرفا فيهِ اموالها اكرامًا لها فاستجابت الجليلة مريم صلاتهما وليلة اليوم الخامس من شهر تموز تراءت لهما في الحلم وقالت انها وابنها الاله سرًّا بعبادتهما ثم امرتهما ان يبنيا كنيسة على اسمها ففعلا وهي الكنيسة المدعوة الان كنيسة القديسة مريم العظمى . وقالت اما المكان الذي عيَّنهُ الله تعالى لبناء هذه الكنيسة فتجدانهِ مغطى بثلج . فلما استيقظا ذهبا الى البابا ليباريوس وكان قد رأى في نومهِ هذه الرؤيا ايضًا واخبراهُ برؤيتهما . فلما تحقق الحبر الاعظم ارادة الله تعالى ذهب بالاكليريكيين وجمهور المؤمنين الى المكان المبيَّن لهما في الحلم فوجداهُ مغطى بثلج في عزّ الصيف . فتعجب الجميع من الاعجوبة وبها تحقق كم يسرُّ ابن الله في اكرام والدتهِ المجيدة

وفي الحين ابتدأ بناء هذه الكنيسة المعظمة برومية وقد سُميت اولاً كنيسة سيدة الثلج لاجل الحادث المتقدم ذكرهُ والكنيسة الليبارية لكونها بُنيت في عهد البابا ليباريوس وقد كرَّسها البابا سِكستوس الثالث في السنة الخامسة والثلثين من المائة الخامسة للمسيح ولان مذود السيد المسيح انتقل من بيت لحم اليها ووُضع فيها حيث ترى المؤمنين يتكاثرون ويزورونهُ دُعيت ايضًا كنيسة المذود ومن حيث انهُ بُني في رومية وفي العالم كلهِ كنائس كثيرة على اسم العذراء المجيدة لُقِّبت كنيسة القديسة مريم هذه بالعظمى تمييزًا لها عن بقية

الكنائس المبنية على اسم سيدتنا مريم البتول واخذ المؤمنون جميعهم يعتبرونها بمنزلة مكان مخصص اكثر مما سواه بعبادة مريم البتول . هذا وفيها ايضًا ايقونة العذراء التي صوّرها القديس لوقا البشير

وقد حثّنا الاباء الشرقيون والغربيون على تكريم العذراء. قال القديس يوحنا الدمشقي من كان متعبدًا لكِ ايتها البتول الكلية الغبطة فقد تسلح بالاسلحة التي يهبها الله لمن يُريد ان يخلصهُ . وقال القديس جرمانوس يا والدة الله الكلية الطهارة وحياة المسيحيين الى اي شقاء نصير اذا اهملتِنا . وقال بيدا المكرَّم لنكرمنَّ اذًا هذه الملكة التي لا تُهمل المتكلين عليها

اليوم السادس

وفيهِ عيد تجلي سيدنا يسوع المسيح

انهُ منذ القديم ابتدأت الكنيسة شرقًا وغربًا تعيّد في مثل هذا اليوم تجلي ابن الله لانهُ فيهِ اعلن الله تعالى سرّي التثليث والتجسد وانَّ المسيح معلم البرية كلها مُرسَل من قِبل الله . ثم ان سرّ التجلي يظهر المجد العظيم الذي بهِ سياتي ليدين الاحياء والاموات ومجد اجساد الابرار الذين سيبعثون من القبور يوم القيامة

اعلم هداك الله ان بطرس الرسول بعد ان استنار بالهام الله اعترف ونادى بالوهية سيدنا يسوع المسيح واما المسيح فعقب ان وعد رسولهُ هذا بانهُ يعطيهُ مفاتيح الملكوت طفق حينئذٍ يذكر الالام التي كان منتظرًا الماها بهِ قائلاً ينبغي ان يمضي الى اورشليم ويحتمل آلامًا كثيرة من المشايخ والكتبة ورؤساء الكهنة ويُقتل ثم يقوم في اليوم الثالث على انهُ جلّت حكمتهُ بعد اثبات الوهيتهِ بشهادة رأس رُسُلهِ كان يجب ان يعلم رسلهُ الحقيقة الاخرى الضرورية لخلاصنا وهي تجسدهُ لكي يتألم ويموت لاجلنا مونًا بهِ ينتصر على الموت نفسهِ ومن ثم اراد ان يُظهر لتلاميذهِ شيئًا من مجدهِ بواسطة التجلي اثباتًا لما نطق بهِ بطرس الرسول عنهُ بالهام الله وحتى لا يشكّ تلاميذهُ فيهِ يوم آلامهِ بل يعتقدوا ان معلمهم هو رب الحياة والموت وانهُ انما يموت بكامل رضاهُ وسيقوم من الموت بسلطانهِ

فبعد شهادة القديس بطرس المذكور بستة ايام اخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا اخاهُ وصعد بهم الى جبلٍ عالٍ وتجلى قدامهم واضاء وجههُ كالشمس وصارت ثيابهُ بيضاء كالثلج . واما ذلك الجبل فهو على رأْي القديسين ايرونيموس ويوحنا الدمشقي وبيدا المكرَّم جبل طابور حيث انتصر باراك ودبورا على عسكر سيسرا الكنعاني وحيث على رأْي بعض المفسرين وعظ السيد المسيح وعظهُ العجيب المشتمل على ثماني تطويبات متضمنة مختصر كل الكمال المسيحي وسمّاهُ القديس بطرس بالجبل المقدس

واما أنَّ ابن الله انتخب لاظهار مجدهِ مكانًا منفردًا وثلثة شهود فقط واختار لاظهار اهانتهِ اعظم مدن اليهودية وشعبها الكثير فلكي يعلمنا ان من يتتلمذ لهُ تعالى يلزمهُ ان يفرّ في هذه الدنيا من كل مجد زمني ويرغب في ان يحتمل الاهانات حبًّا لهُ تعالى واعترافًا بايمانهِ . فصعد سيدنا الى جبل طابور ليصلّي كما روى لوقا البشير ويتبيّن انهُ تجلّى في الليل لان البشير المذكور يقول انهُ كان قد ثقل النوم على الرُسُل

اعلم هُديت الرشاد ان جسد السيد المسيح لم يتغيّر من حيث الجوهر وانما البسهُ ضياء ومجدًا جديدًا نفذا جوهر جسدهِ وكل اجزائهِ الباطنة كما ان النور ينفذ البلور وكما تكون اجساد القديسين بعد القيامة وكما يظهر جسدهُ تعالى يوم الدينونة على ما ذهب الى ذلك القديسان ايرونيموس ويوحنا الدمشقي . واما رأْي القديس توما اللاهوتي وبقية الاباء فهو ان الضياء الذي ظهر حين تجلى سيدنا يسوع المسيح لم يكن الاَّ في خارج جسدهِ تعالى وان هذا المجد العظيم المساوي ضياء الشمس صيَّر ثيابهُ بيضًا كالثلج . وهذا التجلي المجيد كان عجيبًا نظرًا الى حال جسد السيد المسيح القابل حينئذٍ الآلام والموت . واما هذا النور فكان يصدر من لاهوتهِ ومجد نفسهِ المباركة التي منذ اتحادها بجسدها رأت الله سبحانهُ وفازت بالغبطة السماوية ومن ثم كان ينبغي لجسدها ان يشترك في مجدها وفي الصفات الاربع المختصة باجساد الطوباويين بحيث انهُ ينبغي ان يكون جسد النفس المجيدة مجيدًا نظيرها غير ان ابن الله مخلص العالم كان يمنع جسدهُ من الاشتراك في مجدهِ وذلك لكي يستطيع ان يتألم فيهِ لاجل خلاصنا ومن ثمَّ كان امساكهُ تعالى هذا المجد عن جسدهِ اعجوبة دائمة وتجلي جسدهِ المجيد في جبل طابور كان على نوع ما امرًا طبيعيًا

ثم قال البشير انهُ ظهر وقتئذٍ موسى وايليَّا بمجد ليشهدا تجلي السيد المسيح وكان ظهور ايليَّا بجسدهِ ونفسهِ اما موسى كما

قال القديس توما فظهرت نفسهُ في جسدٍ مأخوذ من الهواء كما ظهر الملئكة الّا ان ترتوليانوس واوريجانوس والقديسين ايريناوس وكبرأوس وايرونيموس واغستينوس وغيرهم من العلماء الماهرين ارتأوا ان موسى النبي قام حينئذٍ من الموت وظهر بنفسهِ وجسدهِ ولاجرم ان المسيح تبارك اسمهُ اراد ان موسى وايليا يظهران في وقت تجلّيهِ لكي يتضح بظهورهما ويتحقق ان الناموس والانبياء يشهدان لسيدنا يسوع المسيح بحيث ان موسى كان رمزًا الى الشريعة القديمة وايليا كان رمزًا الى الانبياء . ثم انهُ تعالى أراد ازالةً لما كان يقع في عقول الناس من انهُ كان موسى او ايليا او احد الانبياء القدماء كما جاء في الانجيل الشريف وزال هذا الظن لما تجلّى السيد المسيح فيما بينهما كمعلمها . ثم ان ابن الله بتجلّيهِ فيما بين ايليا الحي وموسى الذي مات اشار الى انهُ رب الاحياء والاموات

ولابدّ ان ننظر هنا ايضًا الى صفات هذين الشخصين الذين اختارهما السيد المسيح شاهدين لهُ . اما موسى فهو الذي نزلت عليهِ الشريعة القديمة التي تُنسب اليهِ وظفر بالاعتبار ومزيد الاكرام عند أسباط اسرائيل . واما ايليا فكان اعظم الانبياء من حيث الغيرة على حفظ العهد العتيق ومن ثمَّ بشهادتهما لهُ عزَّ وجل انهُ لايخالف الناموس بل يكملهُ كانا يدحضان تهمة اليهود وشكواهم عليهِ عزَّ وجل انهُ ناقض الناموس . ولاجرم ان مخاطبة الله ذينك النبيين عند التجلي في ما نزل بهِ من الاهانة والالم والموت امرٌ عجيبٌ وما هذا الّا لكي نعرف ونعتقد انهُ اختار الألم واجبةً لاجل خلاصنا وانهُ لم يمت الّا لانهُ تعالى اراد ان يبذل نفسهُ حبًّا لنا

فانتبه الرسل ولما رأوا معلمهم الالهي مكلّلاً بالمجد ومضيئًا كالشمس بل اكثر منها ورأيا النبيين العظيمين يكرمانهِ بكمال التوقير والتهيب ويشهدان انهُ المسيح المنتظر الذي تنبَّأا عنهُ امتلأت قلوبهم سرورًا لاسيما بطرس الرسول غير انهُ لما رأى ان النبيين يسهبان الخطاب في اهانات عزيز قلبهِ والامهِ وموتهِ طفق يبعدهم عن ذكر ما لم يكن يشاء ان يحل بمعلمهِ فصرخ نحو السيد المسيح قائلاً يارب جيدٌ ان نكون ههنا ان شئت فنصنع ههنا ثلاث مظالٍّ واحدة لك وواحدة لموسى وواحدة لايليا . فكانهُ يقول يارب دع عنك العزم على المضي الى اورشليم لتحتمل الاهانات والاوجاع بل امكث ههنا حيث نفوز بالمجد اللائق بعزتك . اما الانجيلي فيقول ان الرسول لم يدرِ حينئذٍ ماذا يقول وذلك اولاً لان ظن الرسول بان الآم المسيح واهانتهُ وموتهُ كانت مخلّةً بشرف عزتهِ الالهية انما هو ظنٌّ شيطانيٌّ كما قال تعالى في الانجيل . وثانيًا نظرًا الى ذاتهِ بحيث ان بطرس الرسول كان يشتهي ان يقضي حياتهُ مع معلمهِ الالهي متمتعًا بمجدهِ ونعمتهِ فالظاهر انهُ لم يكن يعرف حقيقة ما يقول لانهُ طلب على الارض ما لا يوجد الّا في السماء واشتهى ان ينال الاكليل قبل انتهاء الحرب ويُجازى قبل اتمام الخدمة في الكرم . ولم يعلم ما كان يقولهُ لانهُ كان يكتفي بمعاينة مجد السيد المسيح ظانًّا انهُ كمال السعادة مع ان ذلك لم يكن الّا كقطرة من غدير النعمة الذي يفرح مدينة الله ويسر سكانها . غير ان الذي يتكلم هكذا بعد ان يذوق نقطة واحدة من هذا المشرب الالهي ماذا تراهُ كان يقولهُ لو ذاق من كل ما يوجد على المائدة السماوية .وشرب كثيرًا من غدير النعمة الالهية

لعمري انهُ ليس بعجيب ان هذا الرسول زلَّ واخطأ حينما كان يعاين مجد جسد معلمهِ الذي بضيائهِ ادهش عقل الرسول واختطفهُ واسكرهُ بل ان الامر الذي يجب ان نتعجب منهُ ونرثي لهُ هو انهُ يوجد في العالم اناس يحبون هذا العالم ويرتاحون الى خيورهِ كل الارتياح حتى انهم يقولون اما بافواههم واما بلسان الحال جيدٌ ان نكون ههنا . ولو ارتضى الله بذلك لاختاروا دوام الاقامة بالدنيا وما هم الّا الذين يقول لهم القديس برنردوس موبخًا قائلاً ما قولكم انهُ جيدٌ ان نكون ههنا كيف لا تدرون ان المكث ههنا متعب ومخطر جدًّا لان العالم كلهُ موضوع في الشر . اما ترون انكم تسلكون في الظلام وفيما بين مخاطر الموت الابدي والاشراك واللصوص المكمنين . كيف يكون جيدًا المكث تحت هذه الشمس حيث جميع الكائنات باطلة . على ان بطرس الرسول اصلح من خطائهِ بقولهِ للسيد المسيح يارب ان شئت مشيرًا بهذا الى انهُ كان يُفضّل ارادتهُ تعالى على شهوتهِ البشرية

ولما كان الرسول يقول هذا اذا بسحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة يهتف قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سُررت فاسمعوا لهُ . وقد تكلم الله تعالى من سحابة لكي يُعلم الرسل ان الصوت نازلٌ من السماء وخارج من فم رب السماء الساكن في العلاء . واما تلك السحابة فلم تكن مظلمة كسحابة طورسينا التي استخدمها الله ليلقي خوفهُ في قلوب الشعب

الاسرائيلي بل كانت نيّرةً دلالةً على انهُ كان قد حان زمان النور الانجيلي. لهذا سُمع صوت يقول هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سُررت فاسمعوا لهُ . فكأنهُ تعالى يقول انظروا الى معلمكم المتلالئ الان كالشمس فهذا هو ابني الحبيب بالطبيعة وهو ابني المساوي لي في الجوهر وجميع الكمالات سررت بهِ سرورًا لا حدَّ لهُ ولاجلهِ غفرت للبشر وسررت بهم . فهذا هو ابني فينبغي ان تسمعوا لهُ لانهُ هو المعلم الذي تعليمهُ يفوق كل تعليم العلماء . هذا هو واضع الشرع الصحيح الحقيقي غاية الانبياء وقائد الشعب المختار لا الى ارض الميعاد ارض الموتى بل الى السماء وطن الاحياء السعيدة. وهو مثال كل برٍّ ومصدرهُ وصورة عزتي الجوهرية . فهذا هو الذي ينبغي ان تقبلوا تعليمهُ وتطيعوا اوامرهُ وتقتفوا آثارهُ ان اردتم ان تكونوا لي ابناء بحسب الطاعة كما انهُ هو ابني بالجوهر والطبيعة . قد انتسخت الشريعة العتيقة فلا تسمعوا لموسى بل تتلمذوا لمعلم موسى وربهِ واحفظوا انجيلهُ

فلما سمع التلاميذ هذا الصوت الالهي سقطوا على وجوههم وخافوا جدًّا ولو لم يسرع يسوع الى معونتهم لكانوا استمرُّوا على حال الارتياب هذا فتقدم حينئذٍ ولمسهم وقال لهم قوموا لا تخافوا. ثم نزل معهم من الجبل واوصاهم بالاَّ يُعلموا احدًا بالرؤيا حتى يقوم من القبر. وروى القديس لوقا ان التلاميذ سكتوا ولم يخبروا احدًا بالرؤيا. وقد امرهم السيد المسيح بكتمها اولاً لئلا يستحوذ روح الحسد على بقية التلاميذ الذين كانوا لم يزالوا ضعفاء في الفضيلة . ثانيًا علمنا تعالى بذلك كما قال القديس توما اللاهوتي انهُ لا يجب ان يُكاشَف الجميع بالاسرار الجليلة بل انما يجب ان تُكشف اولاً لمن هم اكثر قابلية لقبولها ثم تُظهر للباقين بواسطتهم رُويدًا رُويدًا

اما الفائدة الخصوصية التي يجب ان نجتنيها من هذا السر المجيد فهي الرجاء الثابت اننا نشترك مع سيدنا يسوع المسيح في مجدهِ وان اجسادنا تتجلَّى فيما بعد نظير جسدهِ اذا سمعنا لهُ تعالى كتلاميذ حقيقيين فلنكثر في دار الشقاء هذهِ تذكار هذا الامر وهو اننا ندخل مجد الرب وفرحهُ وسعادتهُ اذا سلكنا في الطريق الموصلة الى السماء طريق وصايا الله معلمنا

اليوم السابع

وفيهِ ترجمة القديس البرتوس سليل رهبانية الكرمل

وُلد هذا القديس في السنة الخمسين من المائة الثالثة عشرة للمسيح بمونت تربانو موضع بمملكة صقلية وكان ابواهُ شريفين وغنيَّين جدًّا وكان لهما اشتهار بالكَرَم والتُقى في كل البلاد. واكتأب هذان القرينان لان زواجهما كان عقيمًا وسألا الله زمانًا طويلاً ان يرزقهما نسلاً فبعد اعوام كثيرة رزقهما الله ابنًا وسمَّياهُ بالمعمودية البرتوس ثم رزقهما ابنةً ولم يخبرنا التاريخ عنها شيئًا خصوصيًّا

اما الابن فتربَّى على شعائر التقوى ومحبة الله عزَّ وجلَّ غير ان والدتهُ التي نذرت قبل ميلادهِ ان تكرّس وريثهما الاول للرب بالترهُّب لم تتاهل ابدًا ان تجعلهُ يحب الخلوة ويشتهيها فنجحت مساعيها على مقتضى نذرها بحيث ان الفتى المشار اليهِ بدا منذ حداثتهِ يتاهب لهذه الدعوة المقدسة بكل صنفٍ من الاعمال الصالحة

اما ابوهُ فاذ كان جاهلاً ذلك النذر الذي نذرتهُ امرأتهُ والترغيبات التي كانت تخاطب بها ابنها اشتغل بامر زواجهِ لكنهُ اذ علم بما كان انتهى رجع عن متصدهِ وأذن لهُ ان ينتخب لهُ بحسب ذوقهِ رهبانية يترهب فيها . الطوبى للوالدين الذين يرتفعون فوق كل اعتبار دنيوي وعلى هذهِ التصوُّرات البشرية الحقيرة بحيث لا يضادُّون مطلقًا ارادة الله الظاهرة نظرًا الى ما يخص اولادهم . والويل للوالدين الذين يصدُّون اولادهم عن قبول الدعوة الالهية لاغراضٍ جسدية ويعملون لتتميم مرادهم هذا وسائط كثيرة توقعهم في اوحال الدنس والاثم فلا بدَّ ان يقدّموا حسابًا مدقَّقًا لله تعالى ان هلك الاولاد او خلصوا كما قال القديس يوحنا فم الذهب في كتابٍ لهُ ألَّفهُ ضدّ من يقاوم الدعوة الالهية . اما القديس الفونسيوس ليكوري فقال في هذا الصدد ان الله يعاقبهم في وادي يوشافاط بعدل ويعاقب الاولاد ايضًا لانهم رفضوا الدعوة الالهية

فبعد ان نال البرتوس الاذن من ابيهِ ذهب الى دير قريب لرهبان الكرمل وطلب ان يُقبل فيهِ كراهبٍ . غير ان رئيس الدير امتلأ قلبه فرحًا وتعجبًا من رؤيتهِ فتى مُكثرًا ومزيَّنًا بمحامد الاوصاف الروحية والجسدية يرفض

زخارف الدنيا كارضية باطلة ويخضع لقانون شديد القساوة لكنهُ لم يتجرَّأ ان يجيبهُ الى ما طلب اما لانهُ شك في ثباتهِ واما خوفًا من ابوَيهِ . غير ان ذلك الفتى الذي لم تجفَّ لهُ دمعة تشكى من ذلك الى ابوَيهِ فذهبا بانفسهما يتوسَّلان الى الرئيس وبعد ذلك لبس الثوب الرهباني بحضرة والديهِ اللذين ذرفا عبرات السرور

ان مدة اقامة هذا الراهب الحدَث السنّ بحصن الخلوة المقدسة كانت لهُ في الحق وقت تكمُّل وبركة فاجتهد بمعظم الغيرة في درس العلوم وتمرَّن على ممارسة جميع الفضائل التي تناسب الراهب الكامل فالصبر والتواضع وأتم الطاعة كانت اعزّ فضائلهِ التي بها مات عن نفسهِ تمامًا بحيث لم يحيَ الاَّ لله باماتةٍ دائمة وكان يصوم كل يوم الاثنين والثلثاء والجمعة اما يوم الجمعة خصوصًا فلم يكن ياكل الاَّ الخبز والافسنتين

ذلك ومع ان البرتوس نجح سريعًا في طريق الفضيلة لم يقدروا ان يقنعوهُ بان يقبل درجة الكهنوت فتواضعهُ كان يأبى قبول وظيفةٍ رفيعة جدًّا ذات مسئولية عظيمة والحاصل انهُ لم يقبل ذلك الا بالطاعة . لكن لكي يتمم دعوتهُ طلب في كل موضعٍ فرصةً لممارسة افعال التقوى وكان لمواعظهِ أتمّ النجاح واعاد الى طريق الندامة والتوبة جماعةً كثيرين من الخطأة القاسية قلوبهم . وعند تقديمهِ للقريب القوت الذي يُحيي النفس لم يكن يصرف نظرهُ عن احتياجاتهم الجسدية . ان حصار مسّينا الذي حدث في المائة الثالثة عشرة فتح سبيلاً واسعًا لمحبتهِ بدون حدٍّ وكان من وقت الى آخر يعطي فقراء المدينة الحبوب وينقذ كثيرين منهم من موتٍ لامناص منهُ

ان رئيس الاقليم انتقل الى دار النعيم بعد ان زار الاماكن المقدسة باورشليم ووقع الانتخاب الجديد على القديس البرتوس الذي كان معتادًا ان يطيع اكثر من ان يأمر فرأى انهُ ملتزم ان يرضى رغمًا عنهُ بهذه الوظيفة الجديدة

ذلك ولما طعن القديس في السنّ عرف ان قد اقترب موتهُ فزار اختهُ آخر مرةٍ وخاطبها بكلام تقويّ وودَّعها وداعًا ابديًّا وانفرد في ديرٍ بقرب مسّينا منتظرًا بحرارة مقدسة مجيء الرب . وانتقل الى رحمة الله في اليوم السابع من شهر آب في السنة السادسة من المائة الرابعة عشرة للمسيح وصنع الله على رمسهِ آياتٍ كثيرةً ذُكرت في كتاب البلاّنديستيين

اليوم الثامن

وفيهِ تراجم القديسين الشهداء كيرياكوس ولارغوس وسمارغروس

ان الملك مكسيميانوس بنى برومية قصرًا لا نظير لهُ في العالم اكرامًا للملك دوكلتيانوس الذي كان اجلسهُ على عرش ملكهِ وشركهُ في تدبير المملكة واعترافًا بفضل من أحسن اليهِ ولما كان عارفًا بان دوكلتيانوس يبغض النصارى بغضًا شديدًا وجَّه فكرهُ الى كيفية اضطهادهم وبحيث رأى ان سلفاءهُ الذين عذَّبوا المسيحيين لم يبلغوا اربهم ولا فازوا بمطلوبٍ بحيث ان المسيحيين كانوا يشتدُّون عزمًا بالتعذيب ويكثرون بالقتل عزم ان ينتقم منهم على غير ذلك الاسلوب وعوَّل ان يؤلمهم بدون سفك دمٍ . فالزم المسيحيين ان يخدموا في البناء العظيم فجمعهم من كل ناحية . فقد كان عجيبًا منظر اولئك النصارى الذين تألفوا من رجال ونساء مختلفين وطنًا ومقامًا وجنسًا فكان فريق منهم يحفرون الارض ويجبلون الطين وفريق يحملون الحجارة وفريق يقدمون الطين للبنّائين . ولان الملك كان قد قصد ان يبيدهم جميعهم ألزمهم باشغال عنيفةٍ دائمة ولم يكن يقدم لهم من المآكل الاَّ شيئًا يسيرًا جدًّا . والامر العجيب هو انهُ لم يبقَ الى يومنا هذا من جميع قصور القياصرة القدماء الاَّ هذا القصر الذي بني بعرَق المسيحيين المضطهدين وهو الان كنيسة عظيمة بيد الرهبان الكارتوسيين تُعرف بكنيسة سيدة الملئكة

وكان حينئذٍ برومية رجلٌ غنيٌّ من الاشراف مبطنٌ النصرانية اي مسيحي باطنًا فلما رأى المؤمنين على هذا الشقاء رقَّ لهم وعزم على مساعدتهم فكاشف بقصدهِ كيرياكوس ولارغوس وسمارغروس وهم من الذين ابطنوا النصرانية وسلم اليهم صدقاتهِ ليوزّعوها على المؤمنين المظلومين . وقد باشر المذكورون هذه الوظيفة بسرور وشجاعة ونشاط فكانوا يفتقدون المؤمنين في اتعابهم ويعزُّونهم ويثبتونهم في الايمان ويساعدونهم في ضرورياتهم . فشعر بذلك الحبر الاعظم القديس مرسلينوس وشكر الله تعالى على جزيل عنايتهِ بشعبهِ ثم دعا القديس كيرياكوس ورسمهُ شماسًا انجيليًّا لكي يستطيع ان يخدم المؤمنين في الاشياء الروحية ايضًا

فاطّلع اخيرًا الوثنيون على صدقاتهم فقبضوا عليهم والزموهم بخدمة البنّائين وما يحتاجون اليهِ في البناء فشكروا الله تعالى الذي اهّلهم لان يشتركوا في اضطهاد المؤمنين وشرعوا يباشرون هذه الخدمة الشاقّة بسرور عظيم. ولم يكتفوا بالاشغال المرسومة عليهم بل كانوا يسعفون اخوتهم في اتعابهم ايضًا. ولما رأوا احد المسيحيين الذي يقال لهُ ساتورنينوس عاجزًا عن التعب وساقطًا تحت الاحمال طلبوا من مديري البناء ان يُطلقوا هذا الشيخ المحترم ويُكلّفوهم باشغالهِ. فتعجب المديرون من هذه المحبة ولما رأوهم يباشرون وظائفهم المتعبة بفرح مقدس ويعينون المؤمنين في اتعابهم بمحبة علموا من ذلك ان في المسيحيين قوة فائقة الطبيعة ومدحوهم امام الملك مكسيميانوس فغضب الملك غضبًا شديدًا على القديس كيرياكوس ولارغوس وسمارغروس وألقاهم في سجن قاصدًا ان يعذبهم. فاخذ تعالى حينئذٍ يشرّف القديس كيرياكوس بالعجائب لانهُ بقدرة الله فتح اعين العميان وابرأ كثيرًا من المرضى وكثير منهم آمنوا بالانجيل المقدس (١)

فاغتاظ الملك مكسيميانوس وارسل وقبض على الثلاثة القديسين وبعد ان الزمهم بالركض امام عربيتهِ احتقارًا للديانة المسيحية سلمهم الى حاكم المدينة واوصاهُ ان يعذبهم اشد العذاب ويُكرههم على عبادة الاوثان فوقف القديس كيرياكوس ولانهُ عصى امر الحاكم بالسجود للالهة سكبوا على رأسهِ ماء مغلى ثم سحبوا يديهِ ورجليهِ على دواليب ورضّضوا جسدهُ بضرب العصي وكان القديس يبارك الله قائلاً ارحمني يا يسوع الهي الذي اهّلتني انا الخاطئ لان اتألم من اجل اسمك القدوس. فتعجب الحاضرون من شجاعة القديس ثم امر الملك ان تُقطع هامة القديس كيرياكوس وهكذا حكم على القديس لارغوس والقديس سمارغروس وعلى عشرين من المسيحيين وعلى هذا المنوال نالوا اكليل المجد الابدي في اليوم السادس عشر من شهر اذار في السنة الثانية بعد الثلث مائة للمسيح اما انتقال اجسادهم فحدث على يد البابا مَرْشِلّوس في اليوم الثامن من شهر آب

اليوم التاسع

وفيهِ ترجمة القديس رومانوس الشهيد

ان الكنيسة المقدسة اذ تحتفل بعشية عيد القديس لورنسيوس تعمل تذكار القديس رومانوس الذي شماس الكنيسة الرومانية هذا المشهور هداهُ الى الايمان وهو تحت العذاب وكان متعزّيًا برؤيتهِ اياهُ مكللاً قبل ان يظفر هو نفسهُ بنخلة الاستشهاد

وان القديس المذكور كان من حَرَس رأس الملك فاليريانوس ومن ثم كان ملتزمًا ان يحضر استنطاقات المسيحيين وعقوباتهم. اما القديس لورنسيوس المشهور فبعد ان كان مقبوضًا عليهِ بامر الملك سُلّم الى حراسة هيبوليتوس ورومانوس ولما استنطقهُ كرنيليوس حاكم المدينة على ديانتهِ وعلى كنوز الكنيسة التي كان موكلاً عليها قدّم علة ايمانهِ ووكالتهِ بمزيد الحكمة وغاية البلاغة فانذهل من ذلك كل الحاضرين. اما رومانوس الذي كان بقرب القديس والذي بجودة قريحتهِ فهم اكثر من الجميع الحقيقة وقوّة أسباب القديس المعترف بيسوع المسيح كان يلاحظ كل شيء ويتأمل المحوظات التي اجوبة لورنسيوس وأقيستهُ كانت ألقتها في عقلهِ فالنعمة التي كانت تُريد ان تُغير هذا الجندي الوثني الى مصارع شهم مسّت قلبهُ بتنوير عقلهِ وانتجت لهُ ان حكمة القديس التي كانت تتلألأ في كل كلامهِ وكذلك ثباتهُ البطَليّ في أرهب واشدّ الاعذبة لم يكونا طبيعيّين. انهُ لم يكن ذلك الأ قوة الهية وفائقة الطبيعة التي يمكن ان تجعلهُ يتكلم ويحتمل مع عَظَمة النفس هذه حتى ان اشدّ الوثنيين عنادًا يتعجبون ايضًا. وبينما كان رومانوس مشتغلاً بهذه الافكار الصحيحة ومبرهنًا بصوابٍ اراد الله ان يكشف لهُ بعجيبةٍ عنايتهُ وانهُ جلّت رحمتهُ كان يُلطف اشدّ الاوجاع بفضلٍ عظيم بمن تعذّبوا تمجيدًا لاسمهِ

ان القديس لورنسيوس كان قد علق منذ قليل على دولاب من حديد (آلة للتعذيب كانت تُشد بها الحبال التي كانت اجساد المذنبين تُعلّق بها في الهواء) وفي هذه الحالة كان

(١) حاشية. حكى بعض الرواة ان القديس كيرياكوس اخرج الشيطان اولاً من جسد ابنة الملك ديوكليتيانوس المدعوة ارتيميا. وثانيًا من ابنة صابور ملك الفرس الذي كان قد استدعاهُ من رومية فآمن بالمسيح هو وابنتهُ واعتمدا مع اربعين شخصًا. الاّ انهُ شكّ البلاّنديستيون في صحة هاتين الروايتين اما الاولى فلعدم وجود ابنة لديوكليتيانوس تُدعى ارتيميا اما الثانية فلكون صابور الاول كان قد تُوفّي منذ اكثر من ثلثين سنة وصابور الثاني لم يكن قد وُلد بعدُ ولا برهان صحيح على ان هذا الملك صار مسيحيًا (راجع البلاّنديستيين مجلد ٢٦ وجه ٣٣٠ الخ

القديس ممزّقًا بضربات السياط المعلّق بها حديد مع قساوة شديدة ارتاع منها الحاضرون. اما القديس لورنسيوس فكان يظهر انهُ غير مشعر فكيف لا ولم يتنهّد البتة ولا سحّت عبراتهُ. فرومانوس اذ ارتاع خوفًا من قساوة السيّافين كان متعجبًا من ثبات الشهيد وصفاء بالهِ ولم يستطع ان يفهم كيف يقدر رجلٌ ان يحتمل نكالاً شديدًا دون ان يتظلّم ويبكي بل انهُ يكابد ذلك بفرحٍ. حينئذٍ رأى ملكًا بصورة فتى ذي جمالٍ بارع كان بيدهِ منشفة مسح بها العرق الذي سال على وجه القديس والدم الذي جرى من جراحاتهِ

ان هذا المشهد الغريب أثر في رومانوس تأثيرًا شديدًا واذ كان بصعوبة يُصدّق نظرهُ ويرتاب في ما رآهُ سأل من كانوا بالقرب منهُ هل نظروا فتى غير معروف مسح دم الشهيد وقوّى وانعش شجاعتهُ وعرف انهُ لم يكن هناك احد غيرهُ رأى هذه الرؤيا واذ كان بعد متأثرًا من ذلك جدًّا وعذوبة النعمة الباطنة كانت تزداد قوةً وفاعليّةً قصد ان يكون مسيحيًا فاقترب من القديس الشهيد وبيّن لهُ ما رآهُ وما قصد ان يعملهُ وترجّاهُ بدموعٍ ان لا يتركهُ. فالقديس لورنسيوس اذ عرف بفرح لا يُنعت انتصار سيدنا يسوع المسيح هذا وعجيبة نعمتهِ هذه الجليلة هنّأهُ وحثهُ وشجّعهُ بكلام وجيز الى آخر ما استطاع. وكان صعبًا جدًّا ان يعمّد هذا المهتدي اذ لم يكن ماء واما بعد ان حصل على الماء فلم يكن ممكنًا ان يُعمّدهُ بحضرة جمّ غفير من عَبَدة الاوثان الهائجين على المسيحيين فضلاً عن ان الشهيد كان ممدودًا على دولاب الاستشهاد ويداهُ ورجلاهُ مربوطتان ربطًا محكمًا ولم يترجَّ انهُ ينفكّ الاّ بعد ان يموت تحت هذا العذاب. فهذه الصعوبة اقلقت فكر الشهيد. اما رومانوس فكان يشتهي العماد اشتهاء عظيمًا مخوفهُ من ان القديس لورنسيوس يموت على دولاب العذاب والارتياب هل يجد من يقدر ان يخاطبهُ بثقةٍ ولا سيما رغبتهُ في ان يرى نفسهُ من عدد المؤمنين كل ذلك جعلهُ يرتعش وينقبض حينًا العناية الالهية التي تلاحظ منتخبيها بمحبة عظيمة خلّصتهُ من كل ارتباك

انهُ اذ بلغ الملك ثبات القديس لورنسيوس وبايّة طمأنينة وبايّ فرح ايضًا كان ثابتًا تحت التعاذيب لم يُرد ان يُغلب من قوتهِ هذه فامر ان تُحلّ قيودهُ ويرجع الى السجن معدًّا لهُ اعذبةً جديدةً. فمن ذا الذي يصف فرح رومانوس فكيف لا وقد ظهر اكثر اسراعًا الى اجراء امر الملك وتكلّف وحدهُ ان يقود الشهيد الى الحبس المظلم مشتعلاً حينئذٍ بالشوق الى ان يكون مسيحيًا فاخذ ابريق ماء ودخل السجن مع القديس وسألهُ الاّ يؤخر سعادتهُ بان لا يتأخر عن اعطائهِ سرّ المعمودية فالقديس لورنسيوس بعد ما سألهُ هل استدرك الخطر الذي سيكون معرّضًا لهُ بعد قليل وهل يكون قادرًا على الاعتراف بالمسيح في اشدّ التعاذيب وجد في ايمان هذا التلميذ الجديد عزمًا وشجاعةً لا يمكن انهما يكونان الاّ مفعول النعمة واذ وجدهُ اذًا مهذّبًا بالكفاية ومستعدًّا ايضًا عمّدهُ وبعد ان قبّلهُ بانعطافٍ حثّهُ وحرّضهُ على ان يتأهب للاستشهاد

ان النبوة تمّت بعد قليل لان ذلك المهتدي لم يقدر ان يضبط فرحهُ ولا ان يكتم ويخفي السعادة التي اولاهُ اياها الله منذ قليلٍ فعُرف بسهولة ان رومانوس كان قد تنصّر فكلامهُ وهيئتهُ وسيرتهُ كلها كانت تبين ديانتهُ. واذ قُصّ ذلك على الملك استشاط غضبًا وما استطاع ان يمتنع عن تبيين الكدر الذي ألمّ بقلبهِ اذ رأى ان ارهب التعاذيب لم تزعزع ثبات المسيحيين البطليّ فضلاً عن انها اعانت ايضًا على ردّ الوثنيين الى النصرانية فاراد ان يعلم من نفسهِ حقيقة الفعل فامر ان يُقاد رومانوس امام محكمتهِ قاصدًا ان يجعلهُ للحال عبرةً فما دخل القديس حلقة المحكمة الاّ هتف بكل قواهُ انا مسيحيٌ نعم انا مسيحي وذلك مجدٌ لي

ان هذا الاعتراف بشجاعة كلية أغضب الملك الى الغاية فامر حالاً ان تُرضَّض عظام القديس بالضربات ثم يُقطع رأسهُ فأُنفذ حالاً هذا الحكم القاسي فالقديس رومانوس عُزل بعارٍ من الجندية الرومانية فرأى نفسهُ مماتًا بضربات السياط كأحقر عبدٍ واهتزّ طربًا تحت هذا الضرب الشديد وسُمع صارخًا بدون انقطاع انا مسيحيٌ انا مسيحيٌ واعدّ نفسي سعيدًا جدًّا اذ اقدر ان ابذل دمي لاجل الله مخلصي الذي تفضّل ان يجود بنفسهِ لاجل خلاصي. والحاصل انهُ بعد ما تمزّق جسدهُ حتى العظام قُطع رأسهُ وفي اليوم التاسع من شهر آب استحق جُنديُّ يسوع المسيح اكليل الاستشهاد سنة ثماني وخمسين ومائتين للمسيح. واما جسدهُ فخطفهُ ليلاً كاهن قديس اسمهُ جوستين ودُفن في حقل فيران. ان هذا القديس

العظيم مكرَّمٌ على وجه الخصوص في كثير من مدُن ايطاليا وفرنسا واما مدينة لوكا فتفتخر بان فيها جزءًا من ذخائره

اليوم العاشر

وفيهِ ترجمة القديس لورَنْسيوس الشهيد المعظَّم

ان مدينة رومية قد تشرَّفت بهذا الشماس الروماني بمقدار ما تشرَّفت اورشليم بالقديس استفانس الشماس الاورشليمي حسبما قال القديس لاون المعظَّم. ان الآباء القدماء لم يكتبوا شيئًا من احوال صبائهِ ولا من احوال شبيبتهِ (١) غير انهُ كان برومية على عهد القديس سكستوس الحبر الروماني حيث رسمهُ شماسًا القديس المذكور وكان بعد قداس الحبر الاعظم يناول المؤمنين القربان المقدس وكانت كل اموال كنيسة رومية في يدهِ

واما بيعة الله فكانت يومئذٍ متمتعة بالسلام والاطمئنان اي في ابتداء تملُّك فاليريانوس قيصر بحيث كان رجلاً انيسًا سليم القلب وقصرهُ ممتلئًا من المسيحيين غير انهُ اضطهدهم بعد ذلك باقصى ما استطاع من القساوة لان ماكريانوس الرجل الخبيث كان قد حرَّضهُ على ان يضطهد المسيحيين وكان الشيطان لعنهُ الله قد عاهدهُ بان يرفعهُ الى عرش الملك اذا محا من المملكة اسم المسيحيين. ففي السنة الثامنة والخمسين من المائة الثالثة حكم الملك فاليريانوس بالموت على كل اساقفة المسيحيين وكهنتهم ونادى بذلك الحكم في كل اطراف مملكتهِ فقبضوا اولاً على القديس سكستوس الحبر الروماني وجرُّوهُ الى السجن. فلما عرف ذلك القديس لورَنسيوس ذهب مسرعًا ليلحق بمعلمهِ ويشترك معهُ في الآلام والموت. وفيما كان يمشي في شوارع مدينة رومية راكضًا وقرب من الحبر القديس طفق يصرخ نحوهُ قائلاً امام الجمهور حسبما روى القديس امبروسيوس ما هذا يا ابي القديس لماذا تمضي هكذا وحدك لتقدم ذبيحة ولم تأخذ معك من يخدمك دائمًا على المذبح المقدس لعلك تشكُّ في خلوص ايماني وامانتي فجرِّبني الان لكي تعلم هل اكون اهلاً للوظيفة المقدسة التي ائتمنتني عليها ام لا. انهُ لا يجوز للشماس ان يفارق الحبر فلماذا تهملني هكذا يتيمًا ألا يجب ان الابن يتبع اباهُ والخروف راعيهُ. فحزن عليهِ القديس سكستوس وقال لهُ ثِق يا ابني ولتتعزَّ نفسك لانك عما قليل تبلغ مأربك وتنال مرادك وقد اعدَّ لك الله تعالى انتصارًا اعظم من انتصاري. فاذهب الان يا بنيَّ وبادر الى توزيع كنوز الكنيسة المستودَعة لك على المساكين واستعدَّ للاستشهاد

فذهب القديس لورنسيوس متعزّيًا لينفذ امر معلمهِ فسلَّم الاواني المقدسة الى بعض المؤمنين ثم اخذ كل دراهم الكنيسة وافتقد فقراء المسيحيين المستخفين وفرَّق عليهم الصدقات. ولما عرف ان كهنة كثيرين مع قوم من العالميين المؤمنين اختبأوا في بيت ارملة يقال لها كيرياكي افتقدهم مساء وغسل ارجل الكهنة واعطى المساكين دراهم ثم وضع يديهِ على رأس كيرياكي وشفاها من مرضٍ أليم كان قد اعتراها ومن هذا البيت انطلق الى بيت ندْسيس رجل من المسيحيين حيث كان كثيرٌ من المؤمنين وفرَّق عليهم دراهم وكان بينهم اعمى منذ سنين عديدة فوضع عليهِ يديهِ وردَّ لهُ النظر. ثم خرج واتى مخزن نيبوسيانوس حيث كان قد اختبأ ثلثة وستون مسيحيًا وفعل هناك معهم كما فعل قبلاً مع المؤمنين الآخرين وقضى هكذا الليل كلهُ في افعال المحبة

فلما كان الصباح اتى باب السجن ليرى معلمهُ مرةً اخرى قبل موتهِ لانهُ كان حُكم على القديس سكستوس بقطع رأسهِ وحينما خرج من السجن ليمضي الى المقتل جثا لورَنسيوس على قدمَي الحبر الاعظم وقال لهُ اني قد انفذت امرك ووضعت كنوز الكنيسة عند امناء فدعني ارافقك الان في تقدمتك لله ذاتك ذبيحةً. فقال لهُ الحبر القديس بروح النبوة انك بعد ثلثة ايام تنال اكليل الشهادة اما انا فان الله تعالى نظر الى ضعف شيخوختي ومن اجل ذلك رسم اني اموت بعذاب خفيف واما موتك فيتمُّ بعذاب أليم ويكون انتصارك عظيمًا

فسمع الجند ما قالهُ لورنسيوس فقالوا للملك ان هذا الشماس اخفى كنوزًا وافرة اما الملك فبما انهُ كان يرغب في سلب اموال المسيحيين وسفك دمائهم ارسل وقبض على القديس لورنسيوس فتمَّ حينئذٍ فرح القديس وذهب مع الشُرَط ووقف امام الملك باحتشام مقرون بطمأنينة وشجاعة. فسألهُ الملك اولاً عن دعوتهِ وديانتهِ فاجابهُ القديس انني مسيحي

(١) حاشية. من العلماء المحدّثين من قال ان القديس لورنسيوس وُلد ببلاد اسبانيا وانهُ اتى رومية في عنفوان شبابهِ ومنهم من قال انهُ وُلد برومية وتربَّى فيها والله اعلم

وشماس روماني. ثم قال له الملك ابن وضعت كل كنوز الكنيسة اجاب الشماس ان تمهلت عليَّ يوماً واحدًا جمعتها حالاً وقدّمتها لك فاطلقهُ. اما القديس لورنسيوس فذهب وجمع جمهور الفقراء وجاء بهم الى الملك وقال لهُ ها هوذا مخازن كنوز الكنيسة وليس فيها شيءٌ اثمن من ذلك. فغضب الملك وحسب هذا هزءًا وافتراء عليهِ وفي الحين امر الشُرَط ان يضربوهُ بالسياط ضربًا عنيفًا ففعلوا ثم وضعوا امامهُ آلات اشد العقوبات وأرهبها وقال لهُ الملك اعلم انك تُعذَّب بجميع هذه الآلات ان كنت لا تُطيع امري وتعبد آلهتي. فقال القديس ان آلهتكم لا يستحقّون ما تستحقّهُ انت من الاكرام فكيف تلزمني بالسجود لها فليعلم الجميع اني لا اهلع ولا اخاف من تعاذيبكم وان كل هذه الآلات لا تخيفني بل ارجو اني سأحتمل بنعمة الله اشدّ العقوبات بصبرٍ يستدلُّ الحاضرون منهُ على ان الاله الذي اعبدهُ هو وحدهُ الاله الضابط الجميع. فلما سمع الملك منهُ هذا الكلام امر بان يُعاد الى السجن وسلمهُ الى هيبوليتوس قائد من شرفاء بلاطهِ

اما هيبوليتوس فتعجب من شجاعة القديس وفصاحتهِ السماوية فذهب بهِ الى السجن ووقف على الباب واذ دخل السجن وقف جميع المؤمنين المحبوسين هناك وجثوا على قدميهِ وكان بينهم اعمى يُقال لهُ لوسيلوس فامسك يد القديس ووضعها على عينيهِ فانفتحتا وابصر. فلما رأى هيبوليتوس هذه الاعجوبة آمن واعتمد هو وكل اهل بيتهِ. وفي الغد باكرًا ارسل وأمر حاكم المدينة بتعذيب القديس لورنسيوس بكل ما يمكنهُ ان يخترع من العقوبات ليلزمهُ بالسجود للآلهة فعلّقوهُ اول الامر بيديهِ ورجليهِ وجرّوهُ هنا وهناك بحبال وعلى دواليب حتى تفككت عظامهُ ثم مزّقوهُ بعقارب من حديد. فظن القديس انهُ يموت من شدة الوجع فطلب الى الله تعالى ان يقبل روحهُ فاذا بهاتفٍ من السماء يقول لهُ ان الله سيعينك لتصبر على اشد من هذه التعاذيب. وفي اثناء ذلك تنصّر رومانوس الجندي كما ذكرنا في اليوم السابق. فلما سمع الحاكم هذا الصوت قال نحو الشعب انظروا كيف الشياطين يأتون لمساعدة هذا الساحر الذي لا يخاف من الالهة ولا من الملوك الا اننا سنعاين الآن هل يقوون على شدة الاعذبة فارجعهُ ايضًا الى السجن ليخترع أعذبةً اشد من الاولى واغلظ فلما اصبح اليوم السعيد يوم انتصار القديس لورنسيوس على قوة ملوك الارض وقوة الجحيم تقدم الى الحاكم بشجاعة جديدة فسألهُ الحاكم عن وطنهِ فاجابهُ القديس اني نصرانيٌّ واعتمدت في طفوليتي وتربَّيت برومية في عنفوان شبابي ومنذ صباي لم ازل اتأمل الشريعة الالهية التي جعلتني ان ازدري بكل عذاب واسرُّ بها. فامر الحاكم ان يأتوهُ بمشواةٍ حديدية ويوقدوا تحتها نارًا ليّنةً ليطول العذاب ويدوم الوجع ثم وضعوا لورنسيوس على تلك المشواة واستمرَّ هناك ساعات كثيرة مقدمًا جسدهُ محرقةً لله لا يتحرّك ولا يشكو من الألم. وكان الحاضرون ينظرون ذلك باندهال وتحيُّر ثم رفع القديس عينيهِ الى الحاكم وقال لهُ قد نضج نصف جسدي على النار فاقبلهُ الان وكُل ما قد نضج. انهُ لما كان القديس امبروسيوس يتأمل شجاعة القديس لورنسيوس هذه الفائقة الطبيعة قال ان الشهيد المغبوط كان يحترق خارجًا بامر الملك المغتصب الا ان نار محبتهِ للسيد المسيح كانت تلتهب فيهِ باطنًا التهابًا اعظم وأقوى من التهاب النار الخارجة ومن اجل ذلك ولو مهما كان الجنود يجتهدون في ازدياد النار ما كان ايمانهُ الحي ليدعهُ يشعر باللهيب ولما كان لا يشتهي ولا يريد الا ان يتمّم ما يريدهُ الله كان اشدّ العذاب لديهِ كندى الاسحار

فلما حان الوقت المحدود من الله عزَّ اسمهُ لتكليل الشاهد المعظم رفع عينيهِ الى السماء وقال اشكرك يا الهي وسيدي يسوع المسيح لاني بك بلغت الى باب السعادة الابدية. ثم انتقل الى جنة النعيم في اليوم العاشر من شهر آب في السنة الثامنة والخمسين بعد المائتين للمسيح. وقد بنى لهُ قسطنطين الكبير برومية كنيسة كبيرة والقديسة بلكاريا الملكة بنت لهُ كنيسة بالقسطنطينية.

وفيهِ ايضًا ترجمة القديسة فيلومينا (راجع وجه ٨٩٤)

اليوم الحادي عشر

وفيهِ ترجمة القديس تيبُرسيوس والقديسة سوسنّة الشهيدين

ان من الذين تنصّروا على يد القديس سهبستيانوس كروماسيوس حاكم مدينة رومية وكان لهُ ابن يُدعى تيبُرسيوس وقد كان شابًا بارعًا في العلوم ذا اخلاق حميدة وعقل ثاقب وبما انهُ كان حديثًا في الايمان يوم شُبّت نار

الاضطهاد في عهد ديوكلتيانوس الملك واضطرم سعيرها أشار عليهِ القديس كايوس البابا ان يخرج من المدينة ويختفي الَّا ان الشاب التقيَّ التائق الى سفك دمهِ لاجل السيد المسيح طلب باجتهادٍ ان يمكث في رومية فرضي بذلك الحبر الاعظم وكان تيبُرْسيوس يفتقد المؤمنين حيث كانوا مستخفين ويعزيهم ويشجعهم

واتفق انهُ فيما كان سائرًا في المدينة رأى غلامًا سقط من سطح بيتهِ ومات وكان ابواهُ يستعدَّان لتجهيزهِ ودفنهِ فدنا منهما تيبُرْسيوس وقال لهما دعاني اتلو على ابنكما صلاة قصيرة. فصلَّى عليهِ الصلاة الربيَّة ثم صلَّب عليهِ وقال لهُ باسم يسوع المسيح الاله قم واحيَ واجحد عبادة الاوثان. فقام الغلام وتنصَّر هو وابواهُ وبسبب هذه الاعجوبة ثبت المؤمنون بايمانهم وآمن خلق كثير من الوثنيين

رُوي ان هذا الشاب القديس البهي المنظر الشريف الاصل وجد فيما بين المسيحيين شابًّا يقال لهُ تُرْكاتوس محبًّا للَّهو والترفهات العالمية منهمكًا في تزيين الجسد واستمالة القلوب الى حبهِ بل كان يتكلم كثيرًا مع النساء ويواكلهنَّ. فشرع القديس بنصحهِ بغيرة ومحبة مبيِّنًا لهُ ان سيرتهُ هذه تُهين الديانة المسيحية وتهلك نفسهُ ونفوسًا كثيرة. اما تُرْكاتوس فكان يقبل نصائح القديس بلطافة ملتبسة ويشكرهُ على غيرتهِ على خلاص نفسهِ غير انهُ لم يكن يرعوي عن غيِّهِ ومن ثم لم يزل القديس تيبُرْسيوس ينصحهُ ويوبخهُ. فضجر تُرْكاتوس من غيرة القديس وعزم على موتهِ فاشتكى عليهِ الى فابيانوس حاكم المدينة واعلمهُ ان تيبُرْسيوس قد آمن بالمسيح وخشيةَ ان يُظنَّ انهُ اشتكى على القديس طلب من الحاكم ان يمسكهُ معهُ ولا ريب ان ذلك حيلة شيطانية

وعقب ذلك ارسل فابيانوس وقبض على تيبُرْسيوس وتُرْكاتوس فلما مثلا امام منبرهِ سأل تُرْكاتوس عن اسمهِ وايمانهِ فقال الاخ الخبيث ان اسمهُ تُرْكاتوس وقد تنصَّر. ومعلمهُ في الايمان تيبُرْسيوس وهو الذي هداهُ الى هذا الطريق ويريد ان يقتفي آثارهُ دائمًا. حينئذٍ قال القديس تيبُرْسيوس نعم ان تُرْكاتوس هذا يقول انهُ تنصَّر منذ زمن الَّا ان سيرتهُ لا تطابق ايمانهُ لانهُ يحب نعومة العيش وزينة الجسد ومجالسة النساء والحال ان ديانتنا لا تقبل ذلك بل ترذلهُ وتحرمهُ. فتلهَّب الحاكم غيظًا من هذا الخطاب وقال للقديس دع عنك هذا الكلام الباطل واهتمَّ بحفظ حياتك طع امر الملك واعبد آلهتهُ. أجاب الشهيد قائلًا اني لا اقرُّ الَّا باله واحد وهو الذي خلق السماء والارض واياهُ وحدهُ اعبد. فامر فابيانوس بتعذيب القديس وفي الحين اتى الجنود بجمر متقد وفرشوهُ على الارض. ثم قال الحاكم لتيبُرْسيوس اعلم انهُ يجب عليك اما ان تُلقي على هذه النار بخورًا لاكرام الآلهة اما انك تمشي عليها حافيًا. فبعد اتمام قولهِ هذا خلع القديس حالًا حذاءهُ وصلَّب على جبهتهِ وشرع يمشي على الجمر المتقد كانهُ يمشي على الورد وحينئذٍ قال القديس للحاكم اعترف الان ان سيدنا يسوع المسيح هو اله وان كل شيء مخلوق يخضع لهُ والَّا فامشِ مثلي على هذه النار لترى هل النار تطيع امر آلهتك. فغضب الحاكم وقال لهُ ان هذا هو فعل السحر الذي تعلمتهُ من مسيحك. فارتعب القديس من هذا التجديف الشيطاني والتهب بغيرة وقال للحاكم اصمت ولا تتكلم بالتجديف على رب العالمين ديَّان البشر العادل المرهوب. فلم يطق فابيانوس هذا الافتراء على آلهتهِ فامر بقطع رأسهِ فقُطع حالًا في اليوم الحادي عشر من شهر آب في السنة السادسة والثمانين بعد المائتين للمسيح

اعلم ان الكنيسة تذكر ايضًا في هذا اليوم وفاة القديسة سوسنَّة الشهيدة ابنة القديس غابينوس اخي القديس كايوس البابا وكلهم كانوا من اقرباء دوكلتيانوس الملك الذي لم يكن يعرف انهم مسيحيون فرام ان يزوِّج احد اشراف بلاطهِ (١) مع سوسنَّة ابنة غابينوس فارسل كلاوديوس احد اقاربهِ وطلب من غابينوس ابنتهُ لتكون امرأة لهذا الرجل الشريف فقال غابينوس ان الامر في يد ابنتي واذا ارتضت فاني ارتضي ايضًا ولما حضرت سوسنَّة تقدم كلاوديوس ليُقبِّلها على حسب العادة الجارية في ذلك الحين بين الاقرباء عند الرومانيين اما سوسنَّة فرجعت الى الوراء وقالت لهُ انني حتى الان لم ادع احدًا يقبِّلني فكيف اترك رجلًا وثنيًا يقبِّلني

(١) حاشية. جاء في ترجمة القديسة ان هذا الرجل الشريف كان غاليريوس مكسيمينوس وان زوجتهُ كانت قد توفيت ويضادُّ هذا الراي ما ورد في تأليف العلاَّمة لكتنسيوس في الكلام على موت المغتصبين اذ قال فيهِ ان مكسيمينوس غاليريوس مات قبل زوجتهِ المتقدم ذكرها (راجع ترجمة القديسة سوسنَّة في كتاب البلاَّنديستيين عدد ٣)

بغم متدنّس باكل ذبائح الشياطين . ثم شرعت تبيّن لهُ ان عبادة الاوثان جهل لا يعادلهُ جهل وتُعلمهُ جليًّا بقبح سيرة الذين يعبدونها وتبيّن لهُ ايضًا اسرار التعليم المسيحي وشرف اوامره وطهارتها . وقد اثّر كلامها هذا في قلب كلاوديوس فطلب منها ان تعرّفهُ ما الذي يجب عليهِ فعلهُ ليرعوي عن غيّهِ فقالت لهُ سوسنّة اذهب مع ابي الى عمي كايوس الحبر فهو يرشدك الى طريق النور والخلاص فذهب كلاوديوس الى البابا القديس فعلمهُ هو واهل بيتهِ اعني امرأتهُ المسماة بربيديغنا وابنيها وعمّدهم

فلما رأى ديوكليتيانوس الملك ان كلاوديوس ابطأ ولم يخبرهُ بكيفية قضاء الامر الذي ارسلهُ لاجلهِ بعث اليهِ بمكسيموس احد الامراء لكي يستخبرهُ عن القضية فلما دخل بيت كلاوديوس ورآهُ جاثيًا امام ايقونة يسوع المقدسة ذارفًا الدموع ولابسًا المسح وضاربًا صدرهُ واذ عرف من كلاوديوس انهُ آمن بالمسيح بُهت وازداد تحيرًا . ثم طلب مكسيموس ان يتعلم الايمان المسيحي فاتى القديس كايوس وكلمهُ كما كان كلّم كلاوديوس فآمن مكسيموس واعتمد . فلما اعتمد باع كل املاكهِ ليسعف بها المساكين

فعرف اخيرًا الملك كل هذه اي ان سوسنّة رفضت ان تتزوّج الشرفاء وان كلاوديوس ومكسيموس آمنا بالمسيح فاوغر ذلك صدرهُ وقبض عليهما مع بربيديغنا ونفاهم الى مدينة اوستيا حيث ماتوا حريقًا بامر الملك . ثم القوا غابينوس في السجن وسلّم سوسنّة الى سيدة من البلاط ابتغاء ان تستميلها الى الزواج غير ان السيدة المذكورة كانت مسيحية بالباطن فتثبّتت سوسنّة في عزمها فبعد ايام قليلة سأل ديوكليتيانوس السيدة قال لها هل استمالت سوسنّة الى غرضهِ فقالت انهُ غير ممكن ان سوسنة بعد نذرها البتولية تتزوّج احدًا . فعزم الملك على تسليم البتول الى عاشقها الآ انهُ لم يرد ان يتم ذلك في بلاطهِ فارجعها الى بيتها وقد شعرت البتول بقصد الملك ولهذا لما دخلت بيتها جثت امام الله تعالى وطلبت منهُ ان ينجّيها من كل فساد . فلما اتى عاشقها في الليل سرًّا ودخل محلّ البتول وجدها جاثية تصلّي وهي ملتحفة بنور عظيم فهرب من المنزل اما الملك فنسب هذا الى قوة السحر وارسل واحدًا من قوّادهِ يقال لهُ مكدونيوس لكي يلزمها بعبادة الآلهة فقدّم لها القائد صنمًا لتسجد لهُ . اما القديسة سوسنة فرفعت عينيها الى السماء وطلبت من الله سبحانهُ ان يخزي الاوثان وعبادتهم فغاب الصنم بغتةً وبعد مدة وجدوهُ مطروحًا بعيدًا في الشوارع . فمزّقها مكدونيوس بالسياط فلم تتحرّك تحت الضربات ولم تزل تشكر الله تعالى فامر الملك حينئذٍ بقطع رأسها . وقد خبرنا المؤرخون ان السيدة المذكورة آنفًا لما درت بقطع رأس القديسة سوسنة اتت بالليل سرًّا وبلّت ازارها بدم الشهيدة ودفنتها باكرام . وكان موتها في السنة الخامسة والتسعين بعد المائتين وبعد موتها بستة اشهر تُوفّي ابوها القديس غابينوس شهيدًا ويذكر السنكسار الروماني استشهادهُ في اليوم التاسع عشر من شهر شباط

اليوم الثاني عشر
وفيهِ ترجمة القديسة كلارا البتول

ان هذه القديسة وُلدت حيث وُلد القديس فرنسيس بمدينة اسيسيا في السنة الثالثة والتسعين من القرن الثاني عشر للمسيح واسم ابيها فافورينوس وامها اورتولانا وكان والدها كريم الاصل شريف النسب وكانت امها امرأة فاضلة مخلصةً في عبادة سيدنا يسوع المسيح ولزيادة تقواها زارت الاماكن المقدسة باورشليم ونواحيها . فلما حبلت بالقديسة كلارا شرعت تصلّي لاجل ثمرة بطنها فسمعت هاتفًا من السماء يقول انكِ تلدين نورًا يضيءُ للعالم كلهِ فسمّت ابنتها كلارا اي نيّرة وقد لاح منذ طفولية هذه الابنة المباركة ان سيكون لها شان كبير في الدنيا لانها كانت منصبّة نحو الاختلاء والصلاة وكانت تستعمل حصًى اذا لم تجد مسبحة تصلي عليها وبها كانت تعدّ كم مرّة تتلو الصلاة الربية وبشارة الملك . اما فضيلتاها الخصوصيتان في زمن صباها فكانتا العفة والرحمة للفقراء . هذا ولما نشأت في العمر نمت ايضًا في العبادة وبحيث كانت ملتزمة بلبس ثياب ثمينة مزخرفة مراعاةً لشرف اصلها وسمو مقامها كانت تلبس تحتها مسحًا خشنًا وزادت على ذلك تقشفات كثيرة

فبهذه الطريقة اي بحب الاختلاء والصلاة والعفة والتقشفات كانت كلارا البتول ترتقي كل يوم من فضيلة الى فضيلة وتتسامى في البرّ فسمعت يومًا ان القديس فرنسيس كان هو ورهبانهُ يعيشون كملائكة الله في دير بجوار مدينة اسيسيا فذهبت الى الدير وكاشفت القديس المذكور باسرار قلبها واستشارتهُ في كيفية تقديها ذاتها لله تقدمةً تامةً وكان

القديس عرف بالهام الله برَّ البتول والطريق الذي يريد الله تعالى ان تسير فيهِ. فقال لها ان الله سبحانهُ يُريد منها ان تسير في منهج الكمال الذي نهجهُ تعالى في قوانين رهبانيتهِ فتفعل مع النساء ما فعلهُ هو مع الرجال. وفي اليوم الثاني عشر من شهر اذار في السنة الثانية عشرة من القرن الثالث عشر للمسيح قدم لها القديس فرنسيس قوانين رهبانية جديدة للنساء فدخلت الكنيسة حيث كان الاسقف يقدّس وكانت هذه البتول مزينة باثمن الاثواب وافخرها فنزل الاسقف من المذبح وقدّم لها غصناً كعربون انتصارها المستقبل على العالم وفي مساء ذلك اليوم رجعت الى الكنيسة واستقبلها القديس فرنسيس وجميع رهبانهِ على باب الكنيسة وفي ايديهم شموع متقدة فجثت البتول على ركبتيها امام المذبح فقصَّ القديس شعرها ثم قدّم لها ثوب الرهبانية الذي هو نظير ثوب رهبان القديس فرنسيس فقبلتهُ باحترام وسرور ومضت الى بيت قريب من الكنيسة وهناك خلعت ثوب الفخر الدنيويّ ولبست ثوب الفقر الانجيلي ثم أدخلها القديس فرنسيس دير راهبات القديس بناديكتوس واقامت بهِ ريثما يجد لها ديرًا تُنشئ فيهِ الرهبانية الجديدة المسمَّاة الرهبانية الكلارية

فلما دخلت كلارا البتول الدير لم تكن الّا ابنة ثماني عشرة سنة فلما عرف والدها بذلك اغتاظ جدًّا وذهب الى الكنيسة حيث كانت ابنتهُ واراد ان يأخذها الى بيتهِ. اما كلارا فامسكت المذبح باحدى يديها وباليد الاخرى أرت اباها شعر رأسها المقصوص وقالت لهُ اعلم يا ابي اني لن اقترن ما حييت الا بسيدنا يسوع المسيح فتركها ابوها ورجع الى بيتهِ. ثم نقلها القديس فرنسيس من هذا الدير الى ديرٍ من اديرة القديس بناديكتوس وبعد ذلك بنحو خمسة عشر يومًا اتتها اغنس اصغر اخواتها لتترهب معها فزاد ذلك قلب ابيها فافورينوس غضبًا وتوجه الى الدير مشتعلاً غيظًا واخذ بمعيتهِ اثني عشر شخصًا والقوا الاضطراب في الدير واخذوا اغنس من بين ايدي كلارا اختها بل مزّقوا ثيابها وجرّوها بالضرب والشتائم ولم تزل تصرخ قائلةً اني أُريد ان اكون راهبةً. اما كلارا فلما رأت اختها مُكرَهةً هكذا على الخروج من الدير التجأت الى الله تعالى وبعد صلاتها خرجت ولحقت باختها وبغتةً وقفت اغنس ولم يستطع جميع الحاضرين ان يحرّكوها. فلما رأوا هذه المعجزة بعيونهم خجلوا ومضوا ورجعت اغنس مع اختها الى الدير منتصرةً

فشاع خبر هذه الاعجوبة فلم يجسر احد فيما بعد أن يزعجها فاشترى القديس فرنسيس بيتًا واصلح كنيسة قريبة منهُ كانت مهدومة ثم ادخل الاختين الى هناك لتبتديا بالعمل وعمَّا قليل دخلت ديرها والدتها واختها الصغرى المسماة طوباوية ثم دخل بعدهنَّ ايضًا اثنتا عشرة بنتًا. وقد اثبت البابا اينوشنسيوس الثالث هذه الرهبانية في السنة الثانية عشرة بعد المائتين والالف وكذلك اثبتها بعد ذلك البابا اونوريوس الثالث

وكانت القديسة كلارا رئيسة الدير غير انها لم تكن تستعمل رئاستها الا لكي تختار لنفسها اصعب وظائف الدير واحقرها. اما حبها للفقر الرهباني فكان غايةً في الغرابة كما كان في مرشدها القديس فرنسيس وبقوة هذه الفضيلة اصطنعت الى الفقراء بكل ما ورثتهُ من تركة ابيها واما الصدقات المقدمة للدير لمعاش الراهبات فلم تكن تقبل منها الا ما كان ضروريًا في الحال اعتقادًا ان روح الاستكثار في الراهب والراهبة شائبةٌ تقتلع الفضيلة. وقد اتفق يومًا ان فرغ من ديرها الزاد حتى انهُ لم يبقَ الا رغيف واحد مع ان الراهبات كنَّ بالعدد خمسين فاوصت القديسة ان يُعطى منهُ نصف للرهبان الذين كانوا يخدمونهنَّ فبقي للراهبات النصف الاخر فاجتمعنَ واكلنَ منهُ وشبعنَ. ومرة اخرى نفد الزيت من الدير فاخذت القديسة إناءً وغسلتهُ واعطتهُ لمن كان يتكفّف لهنَّ في المدينة ليمضي ويطلب زيتًا فلما تناول الاناء الفارغ قبلاً وجدهُ ممتلئًا زيتًا جيّدًا جدًّا. هذا ولما فحص البابا اينوشنسيوس الرابع عن مزيد فقر هذه الرهبانية عزم على ان يخففها ويحل القديسة من حفظ هذه القوانين الثقيلة. فلم ترتضِ كلارا بذلك بل قالت ان الحلَّ الذي نشتهيهِ جميعنا ليس هو الحل من حفظ قوانين الفقر بل انما هو الحلّ من الخطايا

اما ثوبها فكان مؤلفًا من قِطعٍ كثيرة كاثواب اشقى الفقراء وكان زنارها حبلةً خشنة وكانت تمشي حافيةً دائمًا وتنام غالبًا على وجه الارض من دون فراش ووسادتها كانت خشبةً. اما في صوم الميلاد والاربعين فكانت تبقى لا اكلاً ولا شربًا يوم الاثنين والاربعاء والجمعة وكانت تلبس المسح دائمًا وقد كان روح الصلاة يُربّي فيها محبة التقشّفات

وتأملها السيد المسيح مصلوبًا كان يجعل اصعب الرياضات سهلًا محبوبًا لديها . اما عبادتها الخصوصية فما كانت الأ القربان المقدس . هذا وفيما كانت تتامل ليلة عيد الجسد افراط محبتهِ تعالى التي الزمتهُ بان يمكث معنا بلاهوتهِ وناسوتهِ الى انقضاء العالم وصيَّرهُ مأكلنا ومشربنا اختُطِفت بالروح ولبثت على هذه الحال طول الليل حتى ظنّت الراهبات انها قد ماتت

فمن اجل عبادتها لهذا السرّ الجليل خلّص الله ديرها من ايدي البرابرة لانهُ لما كان الملك فريدريكوس الثاني يحارب الحبر الاعظم حاصر مدينة اسيسيا وكان في عسكرهِ كثير من السراكسة الذين لما رأوا دير القديسة كلارا المبني بقرب هذه المدينة صعدوا الى الاسوار لينهبوهُ وينتكوا بالراهبات . فاخذت القديسة ذخيرة كان فيها القربان المقدس وجاءت بها الى باب الدير تجاه البرابرة ثم جثت امام ذلك السرّ العظيم ملجأ البائسين وقالت يا ربي لا تسلم الى الوحوش انفس المعترفين بك وانفس بائسيك لا تنسَ الى الانتهاء (مزمور ٧٣ : ١٩) فخرج صوت من بيت الذخيرة قائلًا اني سأحفظكنَّ دائمًا فسقط حالًا البرابرة من على الاسوار وهربوا وهرب ايضًا العسكر المحاصر المدينة

ذلك وان القديسة كلارا قد دبرت امور ديرها ورهبانيتها مدة اربعين سنة واستمرَّت مريضةً ثماني وعشرين سنةً ولم يظهر منها ادنى حزن بل كانت تعزّي الذين كانوا يحزنون عليها . فلما أخذ معلم اعترافها يذكر لها فوائد فضيلة الصبر لكي يقوّيها على احتمال امراضها قالت لهُ اني منذ اليوم الذي فيهِ خصّصت نفسي لخدمة الله تعالى لم استصعب شيئًا البتة . ثم قالت يا ابانا ما احلى التألم مع يسوع وبعد ان تناولت الاسرار المقدسة تراءى لها سيدنا يسوع المسيح ومعهُ تعالى عذارى كثيرات يدعونها الى عُرس العروس السماوي . ثم انتقلت الى دار البقاء في اليوم الحادي عشر من شهر آب في السنة الثالثة والخمسين بعد المائتين والالف للمسيح

اليوم الثالث عشر

وفيهِ ترجمة القديس هيبوليتوس الشهيد

ان القديس لورَنسيوس الشهيد المظفر كان قد سُلّم الى حراسة جندي اسمهُ هيبوليتوس . وهذا بعد ان رأى العجائب التي كان يفعلها الله على يد القديس لورنسيوس وهو في السجن تنصَّر وعُمّد منهُ مع كل عائلتهِ المؤلفة من تسعة عشر شخصًا واشتاق هيبوليتوس جدًّا الى ان يموت لاجل المسيح فلهذا لما رأى القديس لورنسيوس يقاسي العذاب فانهُ لكي يرافقهُ ويموت معهُ اراد ان يصرخ بصوتٍ عالٍ انهُ مسيحي والتزم القديس لورنسيوس نفسهُ بان يمنعهُ من ذلك موصيًا اياهُ ان يسكت وينتظر وقتهُ الذي سيأتي

اما بعد ان انتهت حياة القديس لورنسيوس بعزٍ محروقًا بالنار دفنهُ باكرام هيبوليتوس والكاهن جوستينوس وبعد ان علم الملك ذلك بثلثة ايام قُبض بامرهِ على هيبوليتوس وأُحضر لديهِ فقال لهُ الملك أساحرٌ أنت نظير لورَنسيوس الذي دفنتَ جسدهُ . فقال هيبوليتوس صحيح اني دفنتُ جسدهُ لا كانهُ ساحر لكن بالحري لانهُ مسيحي . فأغضب ذلك الظالم جدًّا حتى منعهُ من الكلام راشقًا اياهُ بالحجارة ونزع عنهُ ثوب العماد الابيض الذي كان عليهِ . لكن القديس هيبوليتوس قال للظالم انت ألبستني عوض انك نزعت عني . وبعد كلامٍ امر فاليريانوس ان يُمدّ على الارض ويُضرب بقساوةٍ بقضبانٍ وعصيٍّ ضخام . فشكر القديس الله لانهُ أهّلهُ لهذا العذاب فهتف حينئذٍ الظالم قائلًا هيبوليتوس لا يشعر بضربات القضيب فليسلخ كل جسدهِ بامشاطٍ من حديد فما صُنع الأ هذا . لكنما هيبوليتوس صرخ بصوتٍ عالٍ انا مسيحي وأُعذّب لاجل يسوع المسيح

فالجلّادون اذ تعبوا من سلخ جلدهِ وتعذيبهِ امر الظالم ان يُرفع عن الارض ويُلبس ثوبهُ القديم وبدأ يتوسّل اليهِ بلطافةٍ ان لا يبقى عنيدًا لكن يريد ان يحبّهُ ويتمتع بكرامات كثيرة وبخيور أُخر سيعطيها لهُ . فاستهزأ هيبوليتوس بذلك وقال لهُ صريحًا كل حظي ومجدي ان اكون جنديًا حسنًا ليسوع المسيح واموت تحت رايتهِ . فاوغر ذلك صدر الظالم فضبط املاكهُ واستدعى عائلتهُ كلها اذ عرف انها مسيحية وكان من تلك العائلة امرأة قديسة اسمها كونكوردا وهي التي كانت ارضعت وربّت هيبوليتوس فقال لها الظالم انهُ يكون لها اكرام في حياتها اذا أبت ان تموت مع معلمها هيبوليتوس لكنها أجابتهُ اما انا وباقي الذين هنا فنفضّل الموت معهُ بشرفٍ على ان نعيش بعدهُ بخيانةٍ . فغضب

الظالم من ذلك وقال العبيد لا يُثقَّفون الاَّ بالعصا فامر ان تُجلد كونكوردا جلدًا عنيفًا بسياط معلّق عليها رصاص ففعلوا فاسلمت روحها تحت هذا العذاب بحضرة هيبوليتوس اخيرًا امر فاليريانوس ان يُخرج هيبوليتوس وكل عائلتهِ الى خارج رومية وتُضرب اعناقهم بحضرتهِ ثم عُلّق هيبوليتوس بذنب حصان غير مروّض وركض بهِ بين الحقول وانتقل الشهيد الى رحمة الله مجرورًا بذنب الحصان واذ كان كل جسمهِ مكسرًا دفنهُ ليلاً جوستينوس ودفن ايضًا مسيحيين آخرين في حقل فيران بالقرب من جسد القديس لورنسيوس. هذا وان الكنيسة تعيّد لاستشهادهِ في اليوم الثالث عشر من شهر آب وكان استشهادهُ سنة ثماني وخمسين ومائتين للمسيح على عهد فاليريانوس وغليانوس ابنهِ

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس كاسيانوس الشهيد

كان القديس المذكور مدرّسًا وعلّم القراءة والكتابة ابناء مدينة إمولا التي هي على سبعة وعشرين ميلاً من رافنّا مدينة بايطاليا ولما ثار على الكنيسة اضطهاد شديد (١) قُبض عليهِ كمسيحيّ واستنطقهُ والي الاقليم واذ رفض ان يذبح للاوثان وأصرّ على ذلك أمر القاضي الذي كان شرس الاخلاق ان تلاميذهُ يخزونهُ باقلامهم حتى يموت قد طالت الآمهِ على مقدار ضعف اولئك الضاربين . ذلك وعُرّض عريانًا بين مائتي ولدٍ فكان بعضهم يضربونهُ على وجههِ ورأسهِ باخشاب كانوا يكسرونها غالبًا على جسمهِ وكان الآخرون يخزونهُ باقلامهم ويشقّون لحمهُ ويأخذون منهُ قِطعًا وكان بعضهم يعملون لعبةً وحشية بان يكتبوا زلّتهم على جلدهِ مغطى بدمهِ وممزّقًا جسمهُ من كل جهةٍ . وقال لاولئك الاطفال الاشقياء لا تخافوا شيئًا ضاعفوا قُواكم . بيدَ انهُ لم يُرِد بهذا الكلام ان يرغّبهم في ذنبهم بل ان يُظهر حرارة اشواقهِ الى ان يموت لاجل يسوع المسيح . ودفنهُ النصارى بعد وفاتهِ في مدينة إمولا وحُفظت منذ ذلك العهد ذخائرهُ في قبر مزخرف . قال برودنسيوس انهُ في سفرهِ الى رومية زار قبر القديس الشهيد وتوسّل الى الرحمة الالهية لاجل خطاياهُ بدموع غزيرة وقد ذكر في تأليفهِ الصورة الموضوعة فوق المذبح التي كانت تستحضر استشهاد القديس كاسيانوس كما اخبروهُ وحثّ كل المؤمنين على ان يتضرّعوا معهُ الى هذا القديس الذي لا يتغافل عن استماع الصلوات التي نقدّمها لهُ

(١) حاشية . لم يتفق المؤرخون على الزمان الذي استشهد فيهِ القديس كاسيانوس فقيل في عهد داسيوس وقيل في عهد فاليريانوس وقيل في عهد يوليانوس الجحد

اليوم الرابع عشر

وفيهِ ترجمة القديسة اتاناسيا الارملة رئيسة دير تيميا ببلاد المشرق

ان هذه القديسة وُلدت باجينا من بلاد المشرق (وهي جزيرة من الجزائر اليونانية بالقرب من اثينا) واسم امها ايريني واسم ابيها نيكيتاس وهو رجل من الاغنياء الاشراف وقد اهتمّ والدها كل الاهتمام بان يُربّيها على قواعد النصرانية وآداب المسيحيين ولذلك منعها ان تقرأ الاّ الكتاب المقدس والكتب الروحية كتراجم الصالحين وما اشبه ذلك من المؤلفات الجليلة التي اغنى بها العلماء الروحيون الكنيسة المقدسة اعزّها الله وعوّلوا في انشائها على تهذيب الروح وتطهيرها. ولما كانت قوية الذاكرة استظهرت الزبور كلهُ فكانت تعرف كل المزامير عن ظهر قلبها وتراجم اكثر القديسات ولم تكن يومئذٍ الاّ ابنة سبع سنين فمال بها ذلك منذ الصغر الى الفضيلة ونفّرها من الملاهي والمتنزهات وفيما كانت ذات يوم تشتغل في خلوتها رأت نجمًا مضيئًا أبهر بنورهِ نظرها ونوّر عقلها لانها بعد هذه الرؤيا فهمت بطلان الخيور الارضية ومنذ ذلك الوقت رغبت عن كل ما يشتهيهِ اهل الدنيا واحتقرتهُ غير انها التزمت ان تتزوّج . وتزوّجها رجل شريف من قوّاد عسكر الملك وبعد ان زُفّت اليهِ بستة عشر يومًا التزم قرينها ان يذهب الى جزيرة كنديا بجيش الملك ليحارب السراكسة وهناك قُتل في الحرب فبقيت اتاناسيا ارملةً وقوي في قلبها حينئذٍ حب الاعتزال عن الناس فعزمت على الترهب

وفيما كانت تتأهب لاتمام مقصدها صدر امر من الملك ميخائيل الثالث وكان رجلاً منافقًا الى كل الارامل والعذارى البالغات ان يتزوّجنَ وبنى ذلك على ان اهل المملكة قلّوا بكثرة الحروب . فتزوّجت اتاناسيا ثانيةً رجلاً تقيًا فاضلاً وكانا يمارسان معًا افعال العبادة . ومن افعالها الصالحة انها كانت كل أحدٍ وعيد تجمع في بيتها ما يحبّها من النساء والبنات فيصلّين ثم تقرأ لهنّ كتابًا روحيًا وتقضي معهنّ بقية

النهار في مذاكرات مفيدة للخلاص . وفي ذلك الزمن فشا جوع شديد في الجزيرة كلها وحينئذٍ انفقت لمساعدة المحتاجين مؤونتها واموالها وكانت صدقاتها تكثر في ايديها

وفي غضون ذلك دخل زوجها ديرًا وترهب باذنها اما هي فاذ لم يكن لها اولاد استعدَّت للترهب ايضًا بمثل عزمها القديم فاصطنعت الى المساكين بجزء من ارزاقها واموالها واذ كانت على هذه الحال تقدَّم اليها كثير من البنات والارامل وطلبنَ منها ان يعشنَ معها عيشة الراهبات فجعلت وقتئذٍ بيتها ديرًا وهناك عاشت معهنَّ تحت ارشاد كاهن قديس ونذرت نذور الرهبانية وقد اضطُرَّت ان تكون رئيسة عليهنَّ الاَّ انها كانت لديهنَّ كالخادمة وخصصت لذاتها ادنى الخدم واصعب الاشغال . فقالت لها الراهبات اننا لم ننتخبكِ لتكوني خادمة لنا بل رئيسة علينا . فقالت القديسة ان اكبر منفعة للرئيسة هي انها تستطيع على ان تخصص لذاتها ادنى الوظائف واكرهها

ولم تكن تاكل الاَّ مرةً واحدة كل يوم واما ماكلها ومشربها فالخبز والماء فقط غير انها في عيد الفصح كانت تاكل قليلاً من الجبن والسمك اما في صوم الاربعين وبقية الاصوام فلم تكن تاكل الاَّ مرةً واحدة في كل يومين وكل ماكلها كان بقولاً غير مطبوخة ولم تكن تشرب شيئًا . هذا ومن جهة النوم فكان فراشها الارض ووسادتها الحجر . ولم تكن ترقد اكثر من ساعتين او ثلثًا وكانت تلبس المِسح دائمًا وامتنعت عن اكل الفواكه مع انها كانت تحبها طبعًا . ذلك ولم يكن يظهر من تلك التقشفات للناس شيء بل كانت تعاشرهم ببشاشة وجهٍ وانس ولطافة ومودَّة وبهذا ملكت قلوب الراهبات

ومن حيث انهُ لم يكن في امكان ابليس ان يرى بعين هادئة اناسًا سالكين في سبيل النسك لان الخاطئ كما قال المرتل اذا ابصر الصديقين يعطون المساكين الصدقة ويمارسون افعال العبادة حينئذٍ يرجز ويصر اسنانهُ ويذوب كالشمع امام نار حسدهِ فمن ثمَّ هيَّج الشيطان على اتاناسيا اهل المدينة فحسبوها مرائية متكبرة ملتمسة مجد العالم بتقشفات كاذبة . اما هي فعند ما كانوا يكدّرونها بالتهمة كانت كالنبي تلبس مسحًا وتذلل نفسها بالصوم وتصلّي لاجلهم باطنًا الاَّ ان الشيء الذي كانت تستصعبهُ انما هو تردُّد الناس الى ديرها لانهُ كان يوقع البلبلة في رياضاتها الرهبانية . فلذلك عزمت على الخروج من المدينة والذهاب الى مكان منفرد هادئٍ وارتضت بهذا الرأي كل الراهبات فمهَّد الله لهنَّ الطريق لانهنَّ وجدنَ في البرّيَّة كنيسة فبنى لهنَّ الكاهن مرشدهنَّ هناك ديرًا ودعاهُ دير تيميا وأسكنهنَّ هناك وفيما كان ماضيًا معهنَّ في الطريق وجدهنَّ على حال الضعف لاجل شدة تقشفاتهنَّ فاشار على الرئيسة ان تنقص عليهنَّ من هذه التقشفات فنقصت منها الاَّ انها لم تنقصْ هي شيئًا من تقشفاتها

انها رأَت ذات يوم رؤيا سماوية وهي انها عاينت شابًا ملتحفًا بنور معجب للعيون فشرعت تفتكر ما الذي صيَّرهُ متنورًا هكذا . فقيل لها ان هذا النور منبثق من فضيلتين مومومقتين جدًا من السيد المسيح وهما الاتضاع والوداعة ومن اجل ذلك بذلت القديسة اتاناسيا كل جهدها في اكتساب هاتين الفضيلتين

فشاع خبر برارتها في القسطنطينية وارادت ثاودورا الملكة التقيَّة والدة ميخائيل الثالث ان تراها فارسلت اليها واحضرتها الى القسطنطينية وقابلتها باتم الاكرام والاحترام ولم تدعها ترجع الى ديرها الا بعد سبع سنين . فلما وصلت الى خلوتها اختلت اختلاء تامًّا حتى انها لم ترضَ بان تكلم شخصًا غريبًا وزادت ايضًا على تقشفاتها السابقة وصلواتها وكانت تقضي اكثر النهار والليل في الكنيسة التي جعلتها تحت حماية سيدتنا مريم البتول عليها اشرف السلام متأملة فضائل ملكة السماء وملتمسةً بحرارة شفاعتها . وكثيرًا ما كانت تخاطب الراهبات في شرف سيدتنا مريم البتول وكانت تشتهي ان تموت عشيَّة عيدها

اخيرًا مرضت في اليوم الثالث من شهر آب وفي ذلك اليوم نفسهِ عرفت برؤيا ان موتها قد اقترب لانها رأت شخصين بلباس ابيض قدَّما لها رقعةً مكتوبًا فيها ما نصهُ: انهُ قد انقضى زمن نفيكِ فافرحي بحيث قد انتهى تغرُّبكِ. فلما انتبهت اخبرت إحدى الاخوات بما رأتهُ ولرجائها المتين انها تموت عشية عيد انتقال العذراء قضت اثني عشر يومًا لا اكلاً ولا شربًا متأمّلةً بعين البصيرة . وفي اليوم الرابع عشر من شهر آب دعت الاخوات وقالت لهنَّ اني منذ بلغت سبع سنين من عمري قرأت في كل يوم كل مزامير داود النبي وقد قرأت منهُ اليوم تسعين مزمورًا ولست اقدر الآن ان اكمل ما بقي فامضينَ الى الكنيسة وكملنَ قراءة الزبور عني . فمضت



الاخوات وصلّينَ الستين مزمورًا الباقية ورجعنَ الى القديسة بعيون باكية وشرعنَ يقلنَ لها لماذا تفارقينا يا امنا العزيزة كيف تُعدمينا مثال قدوتكِ الصالحة التي كانت تحريضًا لنا على الفضيلة. فاجابتهنَّ القديسة نعم اني افارقكنَّ غير اني ارجو ان الله يجمعنا في جنة الابرار حيث النعيم المؤبد والآن فاسأل الله ان يباركَكُنَّ فاياكنَّ ان ترتخينَ في عبادتهِ بتقليل [illegible] احفظنَ بينكنَّ خلوص المحبة والاتحاد

[illegible] هذا ثم سكتت واغمضت عينيها وسلمت روحها [illegible] احد انها ماتت لان البشاشة كانت تتلألأ على وجهها [illegible] الراهبات لما رأينَ وجهها منيرًا عرفنَ ان نفسها [illegible] السماوي. هذا وكانت وفاتها نحو السنة الستين [illegible] مائة للمسيح وشرّف الله قبرها بعجائب كثيرة وبعد [illegible] من موتها فتحوا قبرها فوجدوا جسدها صحيحًا كما [illegible] وفاتها

اليوم الخامس عشر

وفيهِ انتقال سيدتنا مريم العذراء الى السماء

[illegible] سيدنا يسوع المسيح لما صعد الى السماء لم يأخذ معهُ [illegible] العزيزة بل أبقاها على الارض لئلا تكون الكنيسة يتيمة بحيث تركها على الارض لتضيء عليها كقمر في غياب الشمس او لتكون لها كمرضع لكي ترضع ابناءها الذين كانوا بعد اطفالاً في الايمان ولكي تربيهم على الفضيلة بتعليمها وقدوتها المقدسة

ثم ان الكنيسة تعيّد اليوم مكملة اولاً تذكار موت العذراء السعيد ثانيًا انتقال نفسها النقيّة الى السماء ثالثًا اتحاد هذه [illegible] بجسدها ثانية وصعودها بهِ الى السماء بمجدٍ عظيم. [illegible] نذكر هنا موت ملكة الملئكة فنقول انهُ قد ثبت [illegible] بالتقليد الكنائسي ان سيدة العالم بعد صعود ابنها [illegible] بقيت على الارض ثلثًا وعشرين سنةً وبعض اشهر [illegible] الاباء القديسين كابيفانيوس زعموا أن العذراء [illegible] وهذا الرأي مبنيٌّ على الحبل بها بلا دنس [illegible] الاصلية وشرف الوالدية الالهية على ان الله تعالى لم [illegible] على الانسان الا من أجل الخطيئة الاصلية او الفعلية [illegible] كانت برية من كل خطيئة اصلية وفعلية حتى العرضية [illegible] شرف الأمومة الالهية كان يقتضي ان الله يستثني [illegible] الحكم العامّ المسجّل على جنس البشر بالموت. ولكن من المحقّق بتعليم الكنيسة ان سيدتنا وملكتنا ماتت موتًا لا من اجل انها كانت استحقت ذلك بالخطيئة بل من اجل ان ابنها ارتضى بان يموت فاكرامًا لموتهِ وحبًّا لهُ تعالى اشتهت ان تموت ايضًا. ثم انهُ لو لم تمت لكان المانويّة وغيرهم من الاراطقة وجدوا حجةً لاثبات رأيهم الفاسد في ان القديسة مريم العذراء كانت ملكًا لا امرأة وان السيد المسيح كان لابسًا جسدًا خياليًا لا بشريًا ولكان هولاء الاراطقة المذكورون تمكنوا في ضلالهم فمن اجل ذلك حسن انها تتوفّى امام كثيرين وتُكفَّن وتُدفن

فلما اقترب الزمان السعيد المحدود من ابنها لتنتقل من الارض هبط الملاك جبرائيل من السماء وتراءى لها واخبرها بان قد دنا يوم انتصارها. فلما انتشر هذا الخبر اجتمع المؤمنون في بيت امّ القديس مرقس حيث كانت العذراء قد جعلت سكناها وكان هذا البيت مبنيًّا على جبل صهيون وهناك كان السيد المسيح صنع العشاء السرّي ورسم سرّ القربان المقدس وحلّ الروح القدس في عيد العنصرة فاشتهت العذراء ان تعاين الرسل قبل وفاتها لكي تظهر محبتها وتحثهم على انتشار الايمان المقدس وتباركهم. ولهذا السيد المسيح الذي يخضع كل شيء لقدرتهِ أحضرهم جميعهم حالاً ونقلهم بواسطة الملئكة او بمجرّد قوة ارادتهِ من اقاصي العالم الى حيث كانت والدتهُ المشرفة على الموت. والقديس ديونيسيوس الاريوباجي الذي حضر موتها يشهد بذلك قائلاً ان القديس بطرس هامة العلماء اللاهوتيين كان حاضرًا مع القديس يعقوب اخي الرب وبقية روساء الكنيسة وآخرين كثيرين من تلاميذ الرسل. فلما ابصرتهم العذراء محدقين بسريرها تهللت بالروح واظهرت لهم محبتها ببشاشة الوجه ولطافة الكلام وباركتهم ثم خاضت في ممارسة افعال المحبة نحو الله تعالى وابنها متأهبةً لانتقالها

وقال القديس برنردوس ان الروح القدس كان قد اضرم في قلب سيدتنا مريم العذراء نار محبة شديدة الالتهاب حتى ان حياتها كانت اعجوبة بحيث لم يكن في الامكان احتمال ذلك اللهيب بدون معجزةٍ. فهذه الاعجوبة زالت عند موتها اي ان الله سبحانهُ لما اراد ان ينقلها من الارض الى السماء سلب عنها القوة الفائقة الطبيعة التي بها كانت تحتمل حموّ نار محبتها ففنيت وقتئذٍ قوّتها الطبيعية وحياتها الزمنية في وسط نار المحبة من غير ان تشعر بوجعٍ من اوجاع الموت. ولهذا قال القديس

يوحنا الدمشقي اننا لا نسمي انتقالها موتاً بل رقاداً او نوماً او تغرُّباً وانتقالاً من حياةٍ زائلة الى حياةٍ باقية . وقال القديس ايلدافُنْسوس انهُ كان ينبغي ان العذراء اما ان لا تموت واما ان تموت بالمحبة فقط

وفيما كانت تسلم نفسها السعيدة لمحبتها المتزايدة ظهر لها سيدنا يسوع المسيح ابنها باجواق الملئكة مرنمين تسابيح الهية . وحينما رأتهُ ذاب قلبها بشدة المحبة كالشمع تجاه النار وخارت قوّتها وانفصلت نفسها من جسدها وصعدت حالاً الى السماء واذ كانت صاعدة كما قال القديس ايرونيموس خرج الملئكة للقائها مترنّمين بمدائحها وهذه النفس التي تفضل قدساً الملئكة ارتفعت كما قال القديس اغُسْتينوس حتى منبر الرب السماويّ فوق كل الارواح السماوية بحيث لم يكن واجباً ان تكون الاّ حيث كان ابنها جالساً

فلما انتشر في اورشليم خبر موتها اجتمع المؤمنون طرّاً وجثوا جميعاً بمزيد الاكرام ذارفين الدموع . وقد ذكر القديس يوحنا الدمشقي ان كثيرين من المرضى المؤمنين بل اليهود الغير المؤمنين ايضاً نالوا الشفاء باكرامهم جسدها . ثم حملهُ الرسل ومضوا بهِ الى قرية جسمانية البعيدة من اورشليم نحو ثلثمائة خطوة وكان محفل المؤمنين غفيراً جدّاً وفي يد كل واحد شمعة متقدة حتى ان كثيرين من اليهود اتوا مع المؤمنين ليكرموا دفن هذه البتول المجيدة . فوضع الرسل هذا الجسد الاقدس في القبر ودحرجوا عليهِ حجراً كبيراً . وقال يوفيناليس بطريرك اورشليم في رسالتهِ التي كتبها الى ماركيانوس الملك بلكاريا الملكة في شأن انتقال العذراء المجيدة ان الرسل استمرّوا مع المؤمنين عند القبر ثلثة ايام مرتلين تسابيح مقدسة مع الملئكة وكان يشهد بذلك القول على ما تعلم من التقليدات

لا عجب ان الفساد لم يعترِ هذا الجسد المقدس لانهُ ان كان الله تعالى ما سمح ان يلم الفساد بتابوت العهد القديم فكيف كان يمكن ان يلم بتابوت العهد الجديد الذي قال المرتل فيهِ قم يارب الى راحتك انت وتابوت قدسك (مزمور ١٣١ : ٨) . فليعتبر المؤمن ان الملك النبي يتكلم هنا على قيامة الابن بقولهِ قم يارب الى راحتك ثم يتنبأ عن قيامة الأم قائلاً انت وتابوت قدسك . فكما ان الموت ابتلع ابنها على نحو ما ابتلع الحوت يونان اي لم يفسد في جوفهِ . وايضاً كما ان الاسود ما تجاسرت ان تثلم جسد دانيال النبي مع انها كانت جياعاً لم تجسر الدود والحشرات ان تدنو من جسد سيدتنا مريم العذراء . وقد اثبت هذا القديس اغستينوس في عظتهِ في انتقال العذراء ان القول بان هذا الجسد النقي الذي منهُ اتخذ ابن الله جسدهُ قد أُعطي طعاماً للدود فذلك ما لا أُسلّم بهِ اصلاً ويأبى عقلي صحتهُ وفمي ان ينطق بهِ . لان الله ان كان حفظ الثلثة الفتية في أتون بابل بل صان اثوابهم ايضاً ولم يدع اللهيب يمسها فلماذا لا يصنع من اجل والدتهِ ما قد صنع لاجل حفظ ثياب اولئك

ان الباري تعالى حفظ والدتهُ من كل خطيئة وحفظ بتوليتها على الدوام حتى وبعد صيرورتها امّاً وحفظها ايضاً من كل وجع في حين الولادة والموت فكيف لا يحفظ جسدها من الفساد ولا سيما بعد انهُ تعالى صان منهُ اي من الفساد اجساد البعض من القديسين اعواماً كثيرة فالذي فعلهُ من اجل العبيد فكيف لا يفعلهُ من اجل الملكة ذلك ولا جرم ان النفس تشتهي طبعاً الاتحاد بجسدها فكيف لا يكون ابنها قد اعطاها مشتهاها . ولعمري ان لحم يسوع هو لحم مريم فمن يظن ان الذي كان اتى لا لكي يحلّ الشريعة بل لكي يكمّلها لم يصنع بامهِ ما يجب فعلهُ لان الشريعة التي تأمر باكرام الأم تأمر ايضاً الابن بان يحفظ امهُ من الاهانات . وقد كان يستطيع السيد المسيح ان يحفظ جسدها من الفساد فكيف لا يحفظهُ لان الفساد هو عار طبيعتنا فقد وجب اذاً ان يسوع يحفظ من الفساد طبيعة العذراء التي منها اتخذ طبيعتهُ . انتهى تفلسف القديس اغستينوس

وقد تم الامر هكذا وحُفظ جسد العذراء ناجياً من الفساد لانهُ في اليوم الثالث بعد موتها كما ذكر القديس يوحنا الدمشقي وكثيرون من الآباء الشرقيين والغربيين وصل القديس توما الرسول ولانهُ طلب بشوق عظيم ان يعاين جسد العذراء فتحوا قبرها المقدس فلم يجدوا الاّ كفنها واثوابها وكانت تنبعث منهُ اي من القبر رائحة عطرة لذيذة جدّاً فاعتقد الرسل واعتقد اعتقادهم المؤمنون كافةً ان جسد والدة الله لم يُحفَظ من الفساد فقط بل انهُ اتحد بنفسهِ ثانيةً وصعد الى السماء كما صعد اليها جسد ابنها وذلك لكي تتزيّن السماء العليا بهذين النورين كما ان السماء السفلى تتزيّن بالشمس والقمر ويكون العالم تحت تدبير انسان الهٍ وامرأة والدة الهٍ اي تحت

تدبير السيد المسيح بسلطان مطلق وتدبير والدتهِ العذراء الجليلة لخزانة كنوز السماء وموزّعتها

ذلك وفضلاً عن جميع ما مرّ ذكرهُ وجب ان تنتقل مريم العذراء بجسدها الى السماء تمكيناً لاعتقاد قيامة اجسادنا من الموت لانهُ حينما نرى في السماء لا جسد المسيح الاله والانسان فقط بل نُعاين جسد العذراء امهِ التي كانت خليقة بسيطة ايضاً لا ريب انهُ يحيا ايماننا ويتمكّن رجاؤنا لعلمنا ان اجسادنا ستقوم لامحالة وتصعد كذلك الى السماء . ولكي تثبت هذه الحقيقة اشدّ ثبوت اعني حقيقة قيامة العذراء من الموت وانتقالها بالنفس والجسد الى السماء سنوردنّ دليلاً آخر مقنعاً اخترعهُ الانبا سوارس اليسوعي العلاّمة الجليل وهو انهُ لولم تقم العذراء من الموت بل بقي جسدها على الارض لم يكن يسمح الله ابنها بان يجهل المكان الذي ترك فيهِ ويعدم الاكرام الواجب لهُ المعتاد ان يُقدَّم من المؤمنين لذخائر القديسين لكونهِ تعالى قد صنع عجائب كثيرة لاظهار اجساد القديسين واكرامها لهم

فصح اذاً ان والدة الله انتقلت بالنفس والجسد الى السماء ففي اليوم الثالث بعد وفاتها نزل من السماء السيد المسيح مع الملئكة وحينئذٍ دخلت نفس العذراء جسدها وأحيتهُ وحالاً اتصف بالصفات المجيدة المختصة بالاجساد بعد القيامة ولمن المحال ان نصف عظمة هذا الجسد الطاهر مقدس اللاهوت . واصطفت الملئكة من القبر الى السماء كجيش عظيم لاكرام ملكتهم وفيما بين هذه الارواح السماوية صعدت العذراء مستندةً على ابنها الحبيب فلما ولجت جنة النعيم قدّمها ابنها لابيهِ الازلي وهو تعالى قبلها عروساً في هيكلهِ وكللها وصيرها ملكة على جميع الخلائق فجلست نظير بتشبع ام سليمان الحكيم على كرسيٍّ مجيدٍ من عن يمين ابنها وفوق طغمات جميع الملئكة والقديسين . واما هم فجميعهم قدموا الاكرام الواجب لسيدتهم وملكتهم متعجبين منذهلين من سموّ برّها وعظمة مجدها لانهُ كما قال القديس بوناونتورا لا مجد في السماء بين الملئكة والقديسين يضاهي مجد هذه البتول وكمالها

ويجوز لنا ان نقول مع القديس بطرس داميانوس ان انتقال العذراء الى السماء قد كان على نوعٍ ما امجد من صعود ابنها الى السماء بحيث انهُ تعالى لما صعد الى هناك لم تنحدر للقائهِ غير الملئكة اما العذراء فانتقلت الى السماء ومعها الملئكة والقديسون وابنها مقدّس القديسين فلنصفنّ الان درجة المجد التي ارتقت اليها العذراء يوم انتقلت الى السماء

قال القديس ايلدافُنسيوس ان ما فعلتهُ سيدتنا مريم العذراء لا نظير لهُ كذلك الاجر الذي نالتهُ والمجد الذي تكللت بهِ يفوقان كل وصفٍ وادراك . وقال القديس برنردوس انهُ لا هيكل في الدنيا امجد من هيكل بتولية مريم الذي فيهِ حبل بابن الله كذلك لا شيء في السماء يضاهي مجد المنبر الملوكي الذي اجلسها عليهِ ابنها من عن يمينهِ . وقال القديس يوحنا الدمشقي ان بين والدة الله وعبيدهِ فرقاً يكاد لا يكون لهُ نهاية . وقال القديس افرام ان مجد العذراء ابهى من مجد اسمى الارواح السماوية جداً . وقال القديس لورنسيوس يوستينيانوس ان كل ما يوجد من مجد وسعادة في القديسين فهو في العذراء المجيدة . وقال القديس بوناونتورا كما ان العذراء المجيدة فاقت جميع القديسين بالنعمة التي نالتها في هذه الحياة باستحقاقاتها تفوقهم جميعهم في الاجر والمجد الذي نالتهُ في السماء . والقديس ايرونيموس يقول ان النعمة أُعطيت للقديسين بالكيل اما العذراء فأُعطيت كل ملء النعمة . وفي هذا المعنى تقول الكنيسة في ترانيلها انّ مقام العذراء في ملء القديسين (ابن سيراخ ٢٤ : ١٦) وهو كقول القديس برنردوس ان العذراء حصلت على الكمال فصارت بحيث لا يعوزها شيءٌ من ملء كمال جميع القديسين

فمثل هذا يقول قديسون آخرون وقولهم يطابق الصواب لان الله جلّت حكمتهُ اذ يتكرّم على عبادهِ بالنعم انما ينظر الى احوالهم ويراعي مقاماتهم ووظائفهم ويهبهم النعم على مقتضاها والحال ان مقام سيدتنا العذراء عليها السلام سامٍ سموّاً غير متناهٍ على نوعٍ ما . فهل عجيب ان يكون الله تعالى قد اعطاها نعمة اعظم من كل النعم التي أُعطيت لكل القديسين اذ ان رتبة الوالدية الالهية تقتضي ذلك . والحال ان المجد السماوي يُعطى على حسب النعمة المعطاة فينتج اذاً من ذلك ان مجد العذراء أعظم من مجد جميع القديسين فكيف لا والحال ان الله سبحانهُ قد احب هذه البتول اكثر من القديسين كافةً لكونهِ رفعها تعالى الى اسمى ما يكون من درجات المجد اذ جعلها والدة ابنهِ فكيف لا يكون منحها نعمةً وبالتالي مجداً اعظم من كل ما أعطاهُ من النعمة والمجد جميع القديسين لان محبة الله عزّ اسمهُ ليست هي متقيّدة كمحبة البشر بل انهُ تعالى يكثر نعمهُ بحسب

كثرة محبتهِ أفلا يجب اذًا ان الابن يحب امهُ اكثر من جميع عبيدهِ

ليت شعري كيف كان فرح القديسين والملئكة لما رأوا ملكتهم مكللةً بمجدٍ ابهى من كل مجدهم. قال القديس برنردوس اذ تأمل ذلك ان البتول المجيدة صعدت اليوم الى السماء وازداد بها اهل السماء سرورًا وفرحًا لانها هي التي بصوتها تهلل يوحنا المعمدان في بطن امهِ فكم وكم اذًا فرحت الملئكة والقديسون حينما دخلت الملكوت بحيث لم يقتصروا على استماع صوتها بل نظروا وجهها وتفكهوا بطيب كلامها

ذلك وان الله عزَّ وجلَّ اراد ان العذراء تنتقل بالنفس والجسد الى السماء لكي تشفع فينا شفاعةً فعّالة ويقوى اتكالنا على شفاعتها لمعرفتنا انها تعاين في الله ضرورتنا وتسمع صراخ طلباتنا وتتحنن علينا ونقدم صلواتنا لابنها وتستميح لنا منهُ تعالى الاجابة. وقد ذكرت الكنيسة هذا السبب في قداس هذا العيد ومن ثم قال القديس برنردوس ان نهر البهجة الذي يفرّح مدينة الله يقطر علينا ندى نعمهِ لانهُ بعد ان ملكتنا سبقتنا وحظيت في السماء بالمجد فالعبيد يتبعونها بطمأنينة مرتلين قائلين اجذبينا وراءكِ فنسعى الى نسيم طيوبكِ. واما الان اذ لنا عند الله شفيعة ام الديان ام الرحمة فلا جرم انها تدبر لديهِ امورنا لاجل فائدتنا ونفعنا

وقد التحفت بالشمس بعد ان ألبست الله جسمها وحول رأسها اثنا عشر كوكبًا وتضع رجليها على القمر المشار بهِ الى كل ما خُلق على الارض وهو قابل النمو والتناقص والتغيُّر لتعلم ان كل ما تحت السماء هو في سلطان سيدتنا وملكتنا هذه وانهُ يجب علينا ان نلتجئ اليها في جميع اتعابنا وضروريّاتنا لانها هي الباب الذي دخل منهُ الكلمة الازلي الى الارض كما قال القديس بوناونتورا وبهذا الباب اي بشفاعة هذه البتول ندخل نحن ملكوت السماء وهي ملجأنا في التعب والفقر والمرض والعار وفي كل بلية برًّا وبحرًا. ولهذا قال القديس جرمانوس بطريرك القسطنطينية في مناجاتهِ العذراء انهُ لا يخلص احد الا بكِ وبدونكِ لا ينجو احد من الشر. وما من احد ينال النعم الالهية الا على يدكِ ايتها البتول النقية ولا يصنع الله رحمةً مع احد الا بواسطتكِ وليس بعد ابنكِ الحبيب من يهتمُّ بخيرنا مثلكِ ويسرع الى معونتنا في حال ضيقتنا ولذلك نلتجئ اليكِ بحسن الاتكال

وما احلى ما قالهُ القديس برنردوس في مناجاتهِ هذه السيدة ونصهُ. ايتها البتول النقية وشفيعتنا الحنونة انت سُلَّم الخطاة وبكِ يخرجون من لجة الشرور ويصعدون الى السماء انتِ رجائي العظيم وعليكِ يتوقّف كل اتكالي. لا رجاء للخطاة الا بكِ وبواسطتكِ نرجو غفران خطايانا وننتظر الأجر الابدي. وقال القديس انسلموس هذهِ هي السيدة التي أُعطيت كل سلطان على الارض وفي السماء وليس شيء غير مستطاع لدى التي ترد الآئسين الى الرجاء. وكل ما لنا من الرجاء والنعمة والخلاص قد اتخذناهُ بواسطتكِ يا مريم. فان اردت ان الله لا يردَّ طلبتك فقدمها على يد مريم لان في يدها كما قال القديس بطرس داميانوس قد جعل الله كنوز مراحمهِ ومن كان متعبدًا لها عبادةً حقيقيةً فقد اتخذ الاسلحة التي بها يفوز لا محالة بالانتصار على عدو خلاصهِ

اليوم السادس عشر

وفيهِ ترجمة القديس روكوس

ان هذا القديس المشهور بقبول الشفاعة في الوباء المعروف بالطاعون هو من اشراف فرنسا الاغنياء وُلد بها نحو السنة الخامسة والتسعين من المائة الثالثة عشرة للمسيح وكان والدهُ المدعوُّ يوحنا حاكمًا في المدينة. ورآهُ ابواهُ كموهبة من الله تعالى لانهما كانا مكثا سنين كثيرة ولم يأتيا بثمرة الزواج الى ان طلباها بحسن العبادة من سيدة العالم ليكون لهما ابنًا متعبدًا لها يتصرف باموالها تصرفًا مقدسًا. فقبل الله سبحانهُ طلبتهما ورزقهما ولدًا وجدا على صدرهِ صليبًا مرسومًا بلون احمر ودعوهُ روكوز. اما والدتهُ ليبريا فربّتهُ على أدب شريعة الله ورسوم التقوى والاكرام لسيدتنا مريم العذراء. وعرفت منذ طفوليتهِ ان الله قد اصطفاهُ ليكون قديسًا لانهُ يوم الاربعاء والجمعة لم يكن يرضع الا مرة واحدة وكان في كل اسبوع يصوم هذين اليومين مدة حياتهِ كلها. اما اكرامهُ لوالدة الله فوُلد في قلبهِ يوم وُلد وبقي في قلبهِ على كل حالٍ

ولما كان طاهر النفس منصبًّا على الفضيلة قضى حياتهُ كلها من الشباب الى المشيب بسيرة مقدسة وحينما توفي والدهُ كان ابن نحو عشرين سنة ولما رأى كثرة الاموال التي ورثها تأمل ما قالهُ السيد المسيح في الغنى ومحبيهِ وتذكر القديسين الذين اتبعوا المشورة الانجيلية وتركوا كل الاموال الارضية

وعزم على الاقتداء بهم فاحسن سرًّا الى المساكين بكل ما امكنهُ أن يوزّعهُ أما الحقول فسلَّم تدبيرها لعمّهِ . ثم تنكَّر وخرج بزيّ رجلٍ متغرب وذهب الى رومية ولانهُ كان قد ترك كل شيء وافتقر حبًّا بالسيد المسيح اضطُرَّ الى ان يجلس على الطريق ويستعطي. فلما وصل الى اقليم تُسكانا وعرف ان الطاعون فشا باحدى المدن انطلق اليها ليخدم المرضى المطعونين ولما ابتدأ يختلط معهم ويخدمهم زال الطاعون من المدينة . فخرج حينئذٍ روكوز منها وذهب الى مدينة اخرى فشا بها هذا الداء وهناك ايضًا انتهى المرض حالما شرع يخدم المطعونين وهكذا جرى في مدينة أخرى ولهذا كان الجميع يطلبونهُ ويحسبونهُ ملكًا

ولكنما الله تعالى اراد ان يجرّب هذا القديس ليزداد برهُ بالتجربة لانهُ فيما كان يخدم المرضى المطعونين بمدينة بلاشِنيا ابتُليَ هو بهذا الداء فاعترتهُ حمى شديدة وشعر في فخذهِ بألمٍ شديد جدًّا ومع انهُ كان بقلبهِ شاكرًا الله تعالى على مرضهِ كان يصرخ من شدتهِ صراخًا عظيمًا فخاف من ان الله بصراخهِ يزيد بقية المرضى وجعًا فطلب ان ينقلوهُ الى خارج المستشفى وبما انهُ الحَّ في الطلب حملوهُ وتركوهُ في احد الشوارع على الفراش فخاف اهل المدينة من انهُ يفسد الشوارع برائحة جراحهِ المنتنة فحملوهُ ووضعوهُ خارج المدينة فسُرَّ القديس وشكر الله تعالى مبتهجًا لانهُ تُرِك هكذا عند الضيقة وطُرد من المدينة . ثم أخذ يتوكَّأ على عصاهُ ومضى الى غابة قريبةٍ من المدينة حيث وجد كوخًا صغيرًا فأوى اليهِ

غير انهُ كان بقرب كوخ القديس حصن وكان مختبئًا فيهِ من الطاعون رجل شريف يقال لهُ غوتَرْدوس فاتفق ان كلبًا من كلابهِ التي للصيد اختطف من مائدتهِ رغيفًا وهرب بهِ فلم يسأل الرجل الشريف عن ذلك لظنهِ ان الكلب جائع على انهُ لما رأى الكلب في اليوم الثاني يخطف رغيفًا آخر من المائدة وبَّخ خادمهُ على عدم اعطائهِ الكلب قوتهُ اما الخادم فاخبر سيدهُ بانهُ أطعم الكلب كل الخبز المعيَّن لهُ فلم يصدقهُ ولكنهُ في اليوم الثالث اذ اختطف الكلب رغيفًا ثالثًا من على المائدة وهرب بهِ أمر رب ذلك البيت خادمهُ ان يتبع الكلب الى حيث يمضي فتبعهُ فراءَ الكلب راكضًا الى كوخ القديس روكوز مقدمًا لهُ الرغيف . فلما عرف غوتَرْدوس الرجل الشريف هذا الخبر اتى الى الكوخ وشرع يسأل القديس قائلاً لهُ من انت ولماذا تسكن بهذا المكان . فأجابهُ اني رجلٌ مطعون ولهذا ارجوك ان لا تدنو مني فارجع الى منزلك فعاد الى حصنهِ الذي كان بعيدًا من الكوخ نحو ثلثمائة خطوةٍ غير انهُ لما دخل بيتهُ وتأمل ما رأى من البرّ في الرجل المطعون خجل وعاد الى المريض وقال لهُ انني قد عزمت على المكث عندك والاَّ افارقك أبدًا. اجابهُ القديس طوبى لك ثم طوبى لك لانك أذعنت للدعوة الالهية سريعًا اعلم ان الله تعالى يدعوك الى خدمتهِ ويريد ان تترك كل شيء وتتعلق بهِ وحدهُ . فاعتبر غوتَرْدوس كلام القديس كأمرٍ نازل من السماء ثم سألهُ ماذا يريد ان اصنع فقال لهُ القديس ان الله سبحانهُ يريد منك ان تلبس ثوبًا مثل ثوبي وتدخل المدينة القريبة من هذا الحصن وتستعطي هكذا في الشوارع . فلم يأنف الرجل الشريف من ذلك وان كان مثلهُ صعبًا على مثلهِ بل دخل المدينة بأثواب فقير وشرع يتكفف طالبًا صدقة في الشوارع فضحك منهُ الجميع وبعد ما أكمل ما أُمر بهِ رجع الى مرشدهِ ومكث معهُ وتحت تدبيرهِ

وبعد مدة من الزمن دخل روكوز الى المدينة وكان الطاعون باقيًا بعدُ وطاف في كل الشوارع والمستشفيات ورسم في كل مكان علامة الصليب المقدس وشفى الجميع من الطاعون فتعجب الشعب كلهُ من هذه الاعجوبة ثم رجع الى كوخهِ وعلى اثر ذلك سمع هاتفًا من السماء يقول لهُ ها قد عُوفيت يا روكوز فارجع الى بلدتك وهناك ينبغي ان يُمتحن صبرك وهذا الصوت سمعهُ غوتَرْدوس . فتقدم وقتئذٍ الى القديس وجثا على قدميهِ فقال لهُ القديس اياك ان تشهر اسمي وما قد سمعتهُ عني قبل موتي . فبعد ان علم القديس تلميذهُ غوتَرْدوس وارشدهُ بنوعٍ كافٍ واثبتهُ في طريق النسك انطلق الى بلدتهِ بمقتضى الامر الالهي بهيئة صعلوك . فلما وصل الى قرية كانت جزءًا من ملكهِ وجد الناس على خوفٍ بسبب الحروب ولما كان غريب الزيّ ظنوا انهُ مرسلٌ من قبل الاعداء ليجس الارض فامسكوهُ وذهبوا بهِ الى حاكم المدينة فسألهُ عن اسمهِ وبلدتهِ وبيتهِ ولانهُ لم يرد ان يجيب على ذلك ثبت الظن انهُ عدوٌّ فحكم عليهِ بان يُلقى في سجن منتن مظلم . فلما دخلهُ القديس امتلأ سرورًا وتذكر ما جاءَ في الانجيل الشريف عن سيدنا يسوع المسيح انهُ اتى الى خاصَّتهِ وخاصتهُ لم تقبلهُ وكان يقضي النهار والليل في الصلوات لا يأكل الاَّ

خبزًا ولا يشرب الا ماء وبقي في السجن خمسة اعوام اما البوّاب فكان يتعجب من صبرهِ ووداعتهِ

فرام الله تعالى ان ينقل عبدهُ من وادي الحزن الى جنة الفرح الابدي فأوحى اليهِ بذلك وحينئذٍ استدعى القديس كاهنًا ليعترف لهُ فلما دخل الكاهن السجن المظلم ورأى فيهِ القديس ملتحفًا بنور سماوي أخذهُ العجب غير انهُ ازداد تعجبًا عقب ان سمع اعترافهُ فناولهُ القربان المقدس ثم خرج وذهب مسرعًا الى الحاكم واخبرهُ بما رآهُ فضحك الحاكم ما قالهُ الكاهن غير ان الشعب لما سمعوا هذا الخبر اجتمعوا على باب السجن لكي يبصروا القديس ففتح البواب السجن فوجد القديس قد مات وكان فوق رأسهِ ورجليهِ مصباح متّقد وبازائهِ لوحٌ مكتوبٌ عليهِ من اصابهُ الطاعون والتجأ الى عبدي روكوز فينجو منهُ بشفاعتهِ. فلما وصل هذا الخبر الى امّ القديس روكوز التي كانت لم تزل حيّةً قالت انها تعرف بسهولةٍ هل هذا هو ابنها ام لا لان روكوز ولد وعلى صدرهِ صليب بلون احمر فلما فحصوا عن ذلك ورأى الجميع هذه العلامة على صدرهِ وتحققوا انهُ هو ابن المرأة امتلأوا تعجبًا وتهيبًا. اما اقاربهُ فبنوا لهُ كنيسة عظيمة وشرّف الله تعالى قبرهُ بعجائب كثيرة. هذا وكانت وفاتهُ سنة سبعٍ وعشرين من المائة الرابعة عشرة للمسيح(١)

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس ياسينتوس

ان هذا القديس من شرفاء بولونيا اي بلاد الاه وُلد بها سنة ثلثٍ وثمانين من القرن الثاني عشر للمسيح وقد طُبع على الاحتشام والوداعة والميل الى الفضيلة وبعد ما تعلم العلوم في المدارس ارتسم كاهنًا وكان لهُ عمّ اسقف بمدينة كراكوفيا وقد اضطرّ هذا الاسقف ان يذهب الى رومية بسبب احتياج كنيستهِ واختار ياسينتوس رفيقًا لهُ في هذا السفر لكي يستشيرهُ في امورهِ ويتعزّى بمخاطبتهِ غير ان الله تعالى كان يريد بذلك السفر تمجيد اسمهِ وتقديس عبدهِ لانهُ كان

(١) حاشية. ارتأى بعض المؤرخين ان القديس روكوز وُلد في السنة الثامنة والعشرين من الجيل الرابع عشر وسافر الى ايطاليا في السنة الثامنة والاربعين من الجيل الرابع عشر ثم تُوفي في السنة الستين من الجيل المذكور (راجع الجزء الثامن من مقدمة ترجمتهِ في كتاب البلاّنديستيين)

حينئذٍ في بلاد ايطاليا القديس دومينيكوس يضيء ككوكب بعجائبهِ وبرّهِ. فزارهُ اسقف كراكوفيا وطلب منهُ بعضًا من رهبانهِ ليبني لهم ديرًا في مدينتهِ فلم يستطع القديس ان يجيب الى ما طلب لان رهبانيتهُ كانت وقتئذٍ حديثة بعدُ ورهبانها قليلين ومنتشرين في اقاليم مختلفة ولكن وعدهُ انهُ يبعث اليهِ فيما بعد ببعض منهم. ثم توسل القديس دومينيكوس الى ا... وطلب منهُ ان يرسل الى رهبانيتهِ اناسًا يخدمون كرمهُ و... فرغ من صلاتهِ تقدّم القديس ياسينتوس ومعهُ ثلثة اشخاص من رفقاء عمهِ الاسقف وطلب اليهِ ان يقبلهُ في رهبانيتهِ الجديدة اما القديس دومينيكوس فلما تحقق برارة تلميذهِ وبرّهُ ... مدة سنة اشهر على ممارسة افضل رياضات البر ووجد... فيها ماهرًا طلب آخر الامر اذنًا من الحبر الاعظم ليقبل نذور القديس ياسينتوس ورفقائهِ الثلثة فرضي البابا بذلك وكان القديس ياسينتوس يومئذٍ ابن خمس وثلاثين سنة

ثم ان القديس دومينيكوس سلّم ياسينتوس ورفقاءهُ الى ... اسقف كراكوفيا عمهِ ليرجع معهُ الى بلاد الاه وقد كان ... تعالى اشركهُ في روح القديس وموهبتهِ لفعل العجائب ف... الاسقف بفرح عظيم واستعد للرجوع الى رعيتهِ اما هم فسافروا مشاة يعيشون على الصدقة ويعظون في كل مكان وينفعون الناس كثيرًا في ما يتعلق بامر المعاد والخلاص ونجحت نصائحهم واثمرت مواعظهم في النفوس جدًّا حتى ان اهل مدينة فريسياك الزموا القديس ان ينشئ رهبانية في مدينتهم. فمكث عندهم سنة اشهر وبنى ديرًا وقبل فيهِ اناسًا وبعد ان ... على قوانين الطريقة الرهبانية رأّس عليهم ارمان احد رفقائهِ ثم خرج ليذهب الى مملكة بولونيا وكان قد سبقهُ عمهُ اسقف كراكوفيا فلما وصل القديس الى هذه المدينة استقبلهُ الجميع كأنهُ ملك أرسل من السماء لان برارتهُ الباطنة كانت ت... في ظاهرهِ الملائكي حتى انهُ بمجرد حضورهِ كان يجذب القلوب الى التوبة والفضيلة ومن ثمّ لا عجب ان البرّ زها بمواعظهِ وقدوتهِ الصالحة كالرياض النواضر في كل ابرشية كراكوفيا ذلك وانهُ كان يزيد على التقشفات المفروضة تقشفات كثيرة اصعب منها فكيف لا وكان يمزّق جسدهُ بالجلد كل ليلة ويقضي اكثرها بالصلوات في الكنيسة امام القربان المقدس وينام قليلاً لا على فراش بل على أديم الارض ... درّهُ نشيطًا لم يمرّ بهِ وقت قط ولا يعمل فيهِ عملاً يجب ...

يعظ واما يسمع اعترافات المؤمنين او يعود المرضى او يصلّي وكان قبل ان يشرع في امر باهظ يلتجي دائمًا بالصلاة الى القربان المقدس والى سيدتنا مريم العذراء المجيدة وفي كل عظاتهِ ومذاكراتهِ كان يحثُّ الناس على عبادتها . ورُوي انهُ في بيرامون عيد انتقالها الى السماء حينما كان يتأمل هذا السر المجيد تجلّت لهُ ملكة السماء بنور باهر وقالت لهُ اعلم يا ابني وتحقق انك تنال من ابني كل ما تطلبهُ بشفاعتي

فبعد ان القديس ياسينتوس اثبت ابرشية كراكوفيا على حال الصلاح عزم على تبشير الاقاليم الغربية فارسل بعض رهبانهِ الى مملكة بوهيميا وانطلق هو مع قوم منهم الى اقاليم الشمال حيث كان كثيرون في ضلال الارطقة وكثيرون في ضلال الانشقاق وبحسن سيرتهِ ارجعهم الى الكنيسة المقدسة وبنى هناك اديرة كثيرة ثم ذهب الى اقليم ليفونيا ومملكة سويديا ودانيا وسكسونيا وروسيا وهناك ردّ كثيرين عن ضلال انشقاق الروم وبعد ذلك مضى الى مملكة موسكوفيا ونشر فيها الايمان الكاثوليكي وكان الله تعالى يسعى معهُ بفعل عجائب كثيرة نقتصر على بعضها فنقول

انهُ لما كان هذا القديس يعظ في كيوفا مدينة باقليم روسيا كان امير البلد يضادُّهُ ويضطهدهُ بعد ان اذن لهُ في التبشير بمدة وببناء دير في المدينة لانهُ كان يتبع انشقاق الروم ويغتاظ من كثرة الاهتداءات التي جرت على يد القديس . فهذا الامير المدعو فالدومير عزم على طرد القديس من امريّتهِ وفيما كان يُعدّ كل شيء لتتميم قصدهِ الرديء هجم التتر على مدينة كيوفا وفتكوا بالشعب فبلغ القديس ياسينتوس هذا الخبر عند انتهاء قداسهِ فاخذ حالاً ذخيرة القربان المقدس وامر رهبانهُ ان يتبعوهُ وكان في تلك الكنيسة ايقونة العذراء من رخام لايقدر على رفعها اناس كثيرون لاجل ثقلها فلما جاز القديس على هذه الايقونة المكرّمة منهُ جدًا سمع صوتًا خارجًا من فم الايقونة قائلاً لهُ اهكذا تتركني يا ابني بين ايدي البرابرة فتأسف القديس وبكى وقال كيف يمكني يا امي العزيزة ان احمل مثل هذا الثقل العظيم . فاجابتهُ الايقونة جرّب الامر وانظر هل الثقل يفوق طاقتك . فتقدم القديس ياسينتوس وامسك الايقونة وحملها بيد واحدة كانها قصبة خفيفة وخرج بها مع رهبانهِ من باب المدينة الذي كان البرابرة وصلوا اليهِ الا انهُ لما بلغ الى النهر لم يجد جسرًا ولا قاربًا ليعبر النهر غير انهُ لحسن اتكالهِ على قدرة من كان يحملهُ في القربان المقدس وعلى شفاعة من كان يحمل ايقونتها مشى على وجه الماء وامر رهبانهُ ان يتبعوهُ وهكذا عبروا النهر ولم يغرق منهم احد

ومن بعد ان باشر اعمال الرسالة اربعين سنةً أُوحي اليهِ انهُ يموت يوم عيد انتقال العذراء فمرض قبل هذا العيد بايام قليلة وفي عشية العيد جمع رهبانهُ ووعظهم وحثّهم على حفظ قوانينهم وعلى العبادة لوالدة الله وفي يوم العيد حضر الصلاة مع الرهبان في الكنيسة وتناول القربان المقدس ثم رقد بالرب في اليوم الخامس عشر من شهر آب في سنة الف ومائتين وسبع وخمسين للمسيح

اليوم السابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس ماماس الشهيد

ان جماعةً من مؤلفي تراجم الصالحين والكتبة الكنائسيين رووا اخبارًا عن القديس المذكور غير ان ما كتبهُ فيهِ القديسان غريغوريوس النزينزي وباسيليوس الكبير هو اخصُّ واوثق ما يُروى عنهُ . اما ولادتهُ فكانت في خلال الجيل الثالث باقليم الكبادوك وهو من عائلة فقيرة خالية من كل الخصائص التي تكسبها اعتبارًا في عيون الناس وعليهِ فلم يكن لذلك الشهيد ان يفتخر مزدهيًا بشيء من الشرف والثروة كما قال القديس باسيليوس فماذا ورث من ابويهِ غير الفقر وحسن العبادة الذي كان مجمّلاً بهِ وبالخصال الحميدة اما نظرًا الى شغلهِ فكان يرعى الغنم باجرة يومية تكاد لا تكفي لقوتهِ ولم يكن يملك من حطام الدنيا الا عصًا ووشاحًا من جلدٍ كباقي رعاة الغنم المساكين ساكنًا البراري تحت الفضاء على الدوام حسبما كانت تقتضيهِ رعاية الغنم . ولاجرم انهُ في مثل هذه العيشة القشفة استعدَّ لنوال نعمة الاستشهاد التي توّج الله بها جميع ما وهبهُ من المواهب والنعم . ووقع استشهادهُ عام اربعة وسبعين من المائة الثالثة للمسيح في اضطهاد الملك اورليانوس قيصر في قيسارية الكبادوك على الارجح . وتذكرهُ الكنيسة الشرقية في اليوم الثاني من شهر ايلول غير اننا لا نعرف شيئًا من العذاب الذي عُذّب بهِ يوم استُشهد ولا من المسائل التي القاها عليهِ المغتصبون ولا من اجوبتهِ عليها ولا بايّ عمرٍ ولا بايّ نوعٍ

من العذاب كان استشهادهُ (١)

ان قيسارية الكبادوك التي سفك فيها القديس ماماس دمهُ شهادةً للمسيح قد تشرفت ببقاء جسدهِ فيها ذخيرةً كريمة مدة اجيال على الاقل وكانت لديها كالينبوع تجري منهُ البركات والنِعَم والعجائب وما احسن ما قالهُ القديس غريغوريوس النزينزي في هذا الشان ونصُّهُ ان هذا الشهيد هو الان راعي المدينة الميتروبوليتيَّة قيسارية هذهِ بوجود اعضائهِ الكريمة فيها كما كان في حياتهِ راعي الاغنام الغير الناطقة ويؤيد معلّم الكنيسة اللاهوتي المذكور هذا بقولهِ ان وجود اعضاء الشهيد ماماس في مدينة قيسارية الكبادوك كان يُنعش نفوس سكانها بواسطة نوالهم النِعَم السماوية الكثيرة المنحدرة عليهم بشفاعتهِ ولذلك كانوا ينمون في العبادة والتقوى وقد اشار القديس باسيليوس الكبير في خطابهِ لشعب هذه المدينة الكثيرِ الى غزارة تلك النِعَم والمواهب . قال يوم تذكار هذا الشهيد السنوي الاحتفالي ليتذكر احسان هذا الشهيد جميع الذين تكرّم هو وظهر لهم في الحلم والذين بتوسلهم اليهِ في هذا المعبد المقدس نالوا منهُ العون عند احتياجهم وكذا الذين اذ استغاثوا باسمهِ بمجرّد ذكرهم اياهُ في اعمالهِ تحققوا فعلاً عظم اسعافهِ ثم الذين نجوا بغوثهِ من اخطار السفر ورجعوا الى اوطانهم بسلامةٍ ونجاحٍ . والذين برئوا بشفاعتهِ من الامراض والذين ابرأ اولادهم بعد ان اشرفوا على الموت والذين طالت بتضرعاتهِ اعمارهم . فاجتمعوا اذًا يا معشر الذين انعم عليهم هذا الشهيد وتحدثوا بنعمهِ ومعجزاتهِ الباهرة وبذلك تنظمون لهُ التقاريظ الواجبة

اعلم ان جميع الآيات والعجائب التي فعلها الله على يد القديس ماماس لم تحمل الناس على تكريمهِ والالتجاء اليهِ كالحادث الذي فعلهُ نحو يوليانوس (الذي بعد مدة ارتقى الى عرش الملك وارتد عن النصرانية) ثم نحو اخيهِ غالوس فهذان الاخوان الاميران اللذان هما ابنا اخي قسطنطين الملك العظيم قد كانا مبتعدين عن مهامّ المملكة وضوضاء الدنيا ومتفرغين لافعال التقوى والعبادة ولا سيما للتأمل في تراجم الشهداء كما روى سوزومينوس المؤرّخ في الفصل الثاني من كتابهِ الخامس والقديس غريغوريوس النزينزي في خطابهِ الثالث ضد يوليانوس ولما كانت اقامتهما الاعتيادية غالبًا في اقليم الكبادوك بالقرب من قيسارية اعتمدا ان يبنيا بنفقتهما كنيسةً ملوكية حيث قبر الشهيد ماماس نفسهُ ومن ثم اتفقا على ان كلاً منهما يبذل جهدهُ ويقدم نفقة لبناء نصف الكنيسة من غير ان يشترك مع الآخر وابتدأا معًا واظهر الله تعالى لتقدمة هذين الاخوين علامات ومعجزات كالتي اظهرها في بدء الخليقة نحو تقدمة قايين واخيهِ هابيل وكانت تلك العلامات كبيرة تدل على ما سيقع بعد قليل بحيث ان الجانب الذي بُني بنفقة غالوس أُقيم في قليل من الزمان من دون صعوبة. واما الجانب الذي كان يُبنى بنفقة يوليانوس فحال دون اقامتهِ موانع شتى لانهُ تارةً كان يسقط قسم منهُ بدون علة تُعرف وتارة كان يزيغ قسم عن مقرهِ بحيث يحتاج الى هدمهِ وتارةً كانت تخسف الارض فتتفرق الحجارة ويزول انتظام البناء فاستدلّ من ذلك على ان هنالك قوةً فائقة الطبيعة تحول دون هذا العمل وتقاوم الذين يباشرونهُ. وعُرف ان في ذلك اشارةً الى سر غامض غير ان السر الغامض اكتُشف حين جلس يوليانوس على عرش السلطنة وارتدَّ والعياذ بالله عن النصرانية . وشرع يضطهد بيعة الله بقساوة لا تعادلها قساوة الوحوش الضارية .

قال القديس غريغوريوس النزينزي ان الشهيد ماماس ابان على الاسلوب العجيب المذكور رفضهُ الشديد للكرامة التي نقدمت لهُ ممّن كان سيفتري على عظيم الشهداء واظهر جليًا يأبى ان يقبل هدية ممن سيدنّس المعابد والكنائس باضطهاد النفاقية او بالحري من كان مزمعًا لحسدهِ ان يستأصل مجد الاستشهاد ويغلق بابهُ . والحاصل ان الشهيد ماماس لم يُرد ان ينفرد عن جميع الشهداء بمثل هذا الاحتقار اي بان على اسمهِ كنيسة بيدٍ دنسةٍ وكل الكنائس التي بُنيت لاكرام انما بناها الاتقياء ذوو الفضائل والشمائل الحميدة فكيف يرضى عليهِ السلام ان يقيم لهُ معبدًا من كان سيهدم المعابد والمساجد المبنية على اسماء الشهداء

اليوم الثامن عشر

وفيهِ ترجمة القديسة كلارا البتول الملقبة بالصليبية

ان القديسة كلارا هذه هي غير التي اوردنا ترجمتها

(١) حاشية. لا يعتمد العلماء على قصة اعمالهِ العجيبة التي أُلفت بعد عصرهِ باجيال ولا يذكر القديسان باسيليوس وغريغوريوس النزينزي شيئًا منها. راجع ما كتبهُ البلاّنديسيون في هذا المعنى في مقدّمة ترجمة القديس ماماس في الجزء الاول

اليوم الثاني عشر من هذا الشهر. فكلارا هذه وُلدت بأُومبريا اقليم من بلاد ايطاليا نحو سنة ثماني وستين من الجيل الثالث عشر للمسيح بمدينة يقال لها الجبل الباشق واسم ابيها داميانوس واما بعقوبة وكانا من الانقياء المتورّعين ولكن اعتبارهما عند الناس كان قليلاً . وكانت لهما ابنتان يقال للاولى جيوانّا وللاخرى كلارا وقد صرفت جيوانّا عمرها في رياضات الفضيلة مع بنات كانت جمعتهنّ ومرّنتهنّ على طريقة الورَع والتقوى

اما كلارا فلما كانت ابنة خمسة أعوام اتّبعت آثار العبّاد ورغبت في الصلاة واحبّت الاختلاء ومناجاة الله بالتأمل وبما ان شأن الصلاة ان تميل بالقلب الى السيرة القشفة مارست افعال التقشف واليها كانت تتوق نفسها كلما تأملت السيد المسيح مصلوبًا . فتقدّم الشيطان وسجّس هذه البتول بتجارب كثيرة وخيالات مفزعة لكي يضجرها ويردّها عن العبادة . غير انها اطّلعت على حِيَل العدوّ ودسائسهِ وانتصرت عليهِ بالتجائها الى يسوع المصلوب والى مريم العذراء ملجا النفوس النقيّة . ولما طلبت اذنًا من والديها لتنضمّ الى العذارى العائشات مع اختها وتحت تدبيرها لم تكن قد بلغت من العمر الاّ ست سنين لا اكثر ولشدة الحاحها أُذن لها والدها

فانضمّت الى اولئك العذارى وقبلنَها كواحدة منهنّ ومنذ دخولها منزلهنّ المقدس شرعت تحفظ رسوم الكمال بكل النشاط وصامت حبًّا بالسيد المسيح ثمانية ايام ولم تاكل في كل تلك المدة الاّ تفاحةً واحدةً وقليلاً من الخبز . ولعمري ان إمساكها الاعتيادي كان عجيبًا لانها في مدة شهر لم تاكل ما يحتاج اليهِ قوتها في مدة ثمانية ايام وما كلها الاعتيادي كان الخبز وقليلاً من البقول والفول المنقوع في الماء وكان فراشها أديم الارض او الواحًا من خشب . وحيطان قلايتها كانت مصبوغةً بدمٍ من جسمها والمسح كان على لحمها غالبًا . وكانت تمارس كل هذه التقشفات حبًّا لابن الله الذي اراد حبًّا لها ان يتألم ويموت ليخلّصها . اما السيد المسيح فكان يعزّيها جدًّا في رياضات الصلاة ويملأ قلبها سرورًا لا يكاد يوصف وكثيرًا ما كانت تُختطف بالروح . وذات يوم ظهرت لها ملكة السماء وقدّمت لها ابنها الالهي بشكل طفل صغير فالتهب طبها حينئذٍ بنار محبة السيد المسيح ووالدتهِ حتى اوشكت ان تموت

ولما كثر عدد العذارى تحت تدبير جيوانّا اخت القديسة كلارا ابتنت هذه ديرًا كاملاً ونذرت بحضرة الاسقف نذور الرهبانية مع بقية العذارى المترئّسة عليهنّ واختارت قوانين القديس اغستينوس وقد قبلت القديسة كلارا تلك القوانين كرسومٍ الهيّة ولظنها يومًا انها خالفت قانون الصمت بحيث نطقت ببعض كلمات غير ضرورية ففرضت على ذاتها بمنزلة قصاص ان تتلو الصلاة الربية مائة مرة ورجلاها في ماءٍ بارد جدًّا . اما احتراسها من التفرّس في وجوه الناس فكان كليًّا . ومرةً قالت لها اختها انهُ حينما يزورها ابواها يجوز لها ان ترفع البرقع عن وجهها قدامهما . فاجابتها القديسة كلارا ان المخاطبة تتمّ باللسان فقط دعيني اكفُّ عيني واغطي وجهي بالخمار . فكانت كلارا مثال جميع الفضائل تجاه الراهبات وكنّ يحسبنَها ملَكًا متجسّدًا

فماتت اختها جيوانّا موتًا مقدّسًا وانتخبت الراهبات كافّةً القديسة كلارا رئيسة بعدها والزمنها بذلك وحينئذٍ ازدادت نشاطًا في رياضات الرهبانية وبهِ كانت تنشط الاخوات كلهنّ في العبادة . فحدث في تلك البلد جدب عظيم ولم يجدنَ الراهبات خبزًا ليأكلنَ فالتجأت القديسة الى الله تعالى وبعد صلاتها قرع باب الدير ملكان بشكل شابّين وقدما لهنّ خبزًا كثيرًا وهذه الاعجوبة لم تزل حتى زال الجدب . واهتمامها بضروريّات الاخوات في حين مرضهنّ كان عجيبًا ولانها تقزّزت ذات يومٍ طبعًا حينما كانت احدى الاخوات تداوي دُمَّلة راهبة ما فلما انتبهت القديسة على اشمئزازها الطبيعي عزمت على الظفر بهِ فدلوت هي الدُمَّلة ومصّت بفمها القيح الجاري منها ومن ذلك الوقت زال اشمئزازها بالكلية

هذا ومع ان امراضها كانت كثيرة لم تكن تشبع من الالم فطلبت يومًا من عروسها الالهي ان يدعها تشعر باوجاع آلامهِ المقدسة ومرائرهِ فظهر لها السيد المسيح حاملاً صليبهُ على منكبيهِ واشركها في آلامهِ بحيث لو لم تُعنها قدرة حبيبها لكانت قد ذاقت طعم الموت من شدة الوجع ومنذ ذلك اليوم حصلت على ضعف عظيم وكانت تقول عن ذاتها انها صارت أمة الجليلة مريم العذراء على جبل الجلجلة وقد جعلت موضع تاملاتها الاعتيادية الآم يسوع والآم العذراء وكثيرًا ما كانت تحث الراهبات على ذلك الاّ ان الله رام ان يزيد برّها باشد

التجارب . وهوانهُ تعالى نزع عنها كل تسلية روحية فوجدت نفسها كأنها متروكة من الله ولم تزل مضطربة بتجارب مختلفة الانواع مفزعة قبيحة واستمرت على هذا الحال احدى عشرة سنة وحينئذٍ بارك الله سبحانهُ على صبرها فملأ قلبها من التعزيات الروحية وشرفها برؤى سماوية وقال لها يومًا انهُ لاجل اكرامها آلامهُ يريد ان يرسم على قلبها كل الآت اوجاعهِ ومنذ ذلك الوقت لم يزل قلبها متألمًا من قِبَل هذه العلامات

وكانت قد وُهبت من الله روح النبوة واقامت من الموت شخصين وصنعت عجائب اخر كثيرة ولما ألهمها الله أن موتها قد دنا تناولت الاسرار الاخيرة وخاطبت الراهبات كثيرًا على محبة السيد المسيح ووالدتهِ . ثم انتقلت الى الفردوس في اليوم الثامن عشر من شهر آب سنة ثمانٍ وثلاثمائة والف للمسيح . وكانت قد بلغت من العمر نحو اربعين سنة . فلما اخرجوا قلبها وجدوا صورة آلات آلام ابن الله مرسومةً عليهِ ولان الكاهن المرسَل من الاسقف ليفحص عن هذه الاعجوبة كان يشك في حقيقتها ويقول ان هذه العلامات رُسمت بعد موتها امر ان يقسم القلب من وسطهِ ففعلوا ووجدوا الآت السيد المسيح مرسومةً في وسط القلب على الجهتين كما كانت مرتسمةً في الخارج وهذه الأعجوبة قد رآها اهل المدينة كلها

اليوم التاسع عشر
وفيهِ ترجمة القديس لويس الاسقف

ان هذا القديس كان من ذرية القديس لويس ملك فرنسا ومن ذرية القديسة اليصابات ملكة أنغاريا . ووُلد سنة اربع وسبعين ومائتين والف للمسيح واسم والدهِ كرلوس الثاني ملك نابولي وصقلية ووالدتهِ مريم ابنة اسطفانس الخامس ملك أنغاريا . وعكف منذ صبائهِ على الفضيلة ولم يكن يأْذن لقلبهِ ان ينعطف الى الملاهي بل انما كانت رغبتهُ متجهةً الى اقامة الصلاة وإماتة الحواسّ وحينما بلغ السنة السابعة من عمرهِ ابتدأ يرقد على اديم الارض . اما حضورهُ في الكنيسة فكان كحضور ملك سماوي ماثل امام عرش الله تعالى . ولاحتشامهِ واستقامة سيرتهِ لُقِّب بملَك البلاط ومنذ صبائهِ لم يدع امرأة او فتاة تدخل منزلهُ وكان قد عاهد عينيهِ مثل ايوب البار على ان لا يرى ولا واحدةً من النساء اصلاً . ولاجرم ان شدة محبتهِ للعفاف قد اكسبتهُ اياها اكرامًا على وجه الخصوص لملكة العذارى . وذلك انهُ سنة اربع وثمانين ومائتين والف خرج ملك اراغونيا وحارب كارلوس ابا لويس وقبض عليهِ وسجنهُ واستمرَّ مسجونًا اربع سنين فلما راقت الاحوال بوساطة ملك فرنسا والبابا نيقولاوس أُرسِل لويس واثنان من اخوتهِ ليكونوا عند ملك اراغونيا كعربون الصلح بينهُ وبين ملك نابولي ابيهم وكان عمرهُ حينئذٍ اربع عشرة سنةً واقام بمدينة برسلونا سبع سنين شاكرًا الله تعالى على مُصابهِ معزِّيًا اخوتهِ والذين معهم بقولهِ اعتقدوا ان الشدَّة هي أفضل وانفع من النجاح لأنّ النجاح الدنيويَّ شأنهُ ان يلهي الانسان عن عبادة الله ويأخذ بالقلب ويميل بهِ الى الشرّ . اما الشدَّة فمن شأنها ان تردَّ الانسان الى التوبة وتبيد الرذائل

ولعمري ان القديس لويس كان ينمو كل يوم في الفضيلة ولاسيما في حفظ الطهارة ولكي يتعذَّر على ابليس ان ينصب لهُ فخَّ الدنس لم يأذن لامرأة او بنت ان تكلمهُ على انفراد . ولا ريب ان ولوعهُ بهذه الفضيلة الملكيَّة حرَّكهُ على قمع حواسهِ بحيث كان يصوم اكثر ايام الاسبوع على ممرّ حياتهِ ويجلد جسدهُ النقي بسلاسل حديدية حتى يسيل الدم ويصلّي كل يوم الصلوات الكنائسية المفروضة على الاكليريكيين وصلوات أُخر اكرامًا لأمّ سيدنا يسوع المسيح وكان يعترف كل يوم قبل حضور القداس الالهي ويكثر من عيادة المرضى المساكين ويخدمهم . اما معاشرتهُ فلم تكن عادةً الاَّ مع رهبان القديس فرنسيس وعندهم تعلم اللاهوت وبرع فيهِ

هذا واصاب القديس لويس داءٌ مخطر فنذر وهو على فراش المرض انهُ اذا برئ من دائهِ يترهب في رهبانية القديس فرنسيس فعُوفي وفي غضون ذلك تمَّ الصلح بين أبيهِ وملك اراغونيا الذي تزوَّج اخت القديس لويس فالتزم حينئذٍ بالذهاب الى ايطاليا وهناك صار اكليريكيًا وبعد قليل ارتسم كاهنًا في مدينة نابولي بنية ان ينضمَّ الى رهبانية القديس فرنسيس غير ان البابا بونيفاسيوس الثامن اراد ان يقيمهُ اسقفًا على مدينة تولوزا في مملكة فرنسا مع ان القديس لم يكن قد بلغ من العمر الاَّ اثنتين وعشرين سنة ولما كان امر البابا في ذلك شديدًا طلب القديس ان يكمل نذرهُ الرهباني قبل ان يصير اسقفًا فلبس ثوب رهبانية القديس فرنسيس وتبرع من كل حق الى مُلك ابيهِ محولاً اياهُ الى

اخيهِ الاصغر لان اخوهُ البكر كان قد مات ونذر نذور الرهبانية علانيةً في سنة الف ومائتين وستٍ وتسعين وبعد ذلك ارتسم اسقفًا وسافر الى رعيتهِ

اما اهل تولوزا فاستقبلوهُ بتمام الاكرام فشرع يصرف جلَّ اهتمامهِ الى مساعدة المساكين فكان يزورهم كثيرًا ويوزّع عليهم كل مالهُ وكان يواكلهُ كل يوم خمسة وعشرون شخصًا منهم • وبقدوتهِ الصالحة وتعليمهِ غرس في قلوب الشعب عواطف البرّ والخير فأتوا باثمار الخلاص واهتدى على يدهِ خلق كثير من المبتدعين اذ رفع عن عيونهم حجاب الغفلة والعمى بل اجتذب ايضًا كثيرين من اليهود الى الايمان المسيحي. وكان كل يوم يقدّم ذبيحة القدّاس فاحب الله تعالى ان ينقلهُ الى النعيم كثمرة نضجت وأدركت بسرعة فبعد ان تناول القربان المقدس اراد ان يقضي بالصلاة ما بقي لهُ من الزمن ولانهُ لم يزل يتلو سلام الملَك سألهُ احد الحاضرين عن سبب ذلك فاجابهُ اني بعد اتكالي على سيدنا يسوع المسيح قد جعلت كل رجاءي في والدتهِ الرأوفة. قال هذا وحالاً سلَّم روحهُ في اليوم التاسع عشر من شهر آب سنة سبع وتسعين من الجيل الثالث عشر للمسيح وعمرهُ ثلث وعشرون سنةً ونصف سنة لا غير. وفي وقت موتهِ ظهر لاحد الرهبان القديسين صاعدًا الى السماء ما بين الارواح السماوية القائلين هكذا يصنع الله مع الذين يُخلصون لهُ العبادة ويعيشون بتمام العفاف .

اما ادراج اسمهِ في سفر القديسين فكان في اليوم السابع عشر من شهر نيسان سنة سبع عشرة وثلثمائة والفٍ للمسيح بعد الفحص المدقّق عن فضائلهِ ومعجزاتهِ على يد البابا يوحنّا الثاني والعشرين وكانت ام القديس لويس ملكة صقلية بعدُ في قيد الحياة فكتب اليها الحبر الاعظم المذكور يخبرها بادخالهِ ابنها العزيز في صفوف القديسين. وبراءتهُ في ذلك ادرجها البلاّنديستيون في ترجمة القديس وهذا معناها

الى جلالة ابنتنا العزيزة مريم ملكة صقلية. انهُ يليق بكِ يا ابنتي العزيزة ان تسرّي بالرب لان ابنكِ لما مات للعالم استحقّ ان يحيا سعيدًا بالله ويتمتع بالوطن السماويّ وبالسكنى في المنازل العالية والمظالّ الابدية . فينبغي لكِ السرور والتهلّل بما انكِ ولدتِ رجلاً ملائكيًا كان كل اهتمامهِ ان يشترك في مجد الملئكة فيليق بكِ ان تتهالي فرحًا لانكِ ولدتِ على الارض ابنًا تفوزين بشفاعتهِ في السماء وبنعمهِ لدى الناس وبتضرُّعاتهِ عند الله. فابنكِ هذا السعيد الذكر هو لويس اسقف تولوزا الذي اراد الرب المجيد في قديسيهِ والمجيد برحمتهِ ان يُجلّهُ بفعل العجائب فأصعدهُ من درجةٍ الى درجة في سلّم النعمة والمجد فكان الملك السماوي قد اختارهُ ليكرّسهُ في الوطن السرمدي فاجلسهُ في مسكن الراحة ملتحفًا بالنور السماوي كانهُ ثوبٌ ملوكي ومتكللاً باكليل الجلال. فهذا ابنكِ العزيز بما اننا بموجب وظيفتنا ولاجل استحقاقاتهِ العظيمة قد اشتهينا ان يُكرَّم من جميع المسيحيين ويُثنى عليهِ في كل المسكونة ادرجنا اسمهُ في سفر اولياء الله القديسين يوم الخميس الواقع بعد عيد الفصح وهو اليوم السابع من شهر نيسان وأطبق على ذلك جميع اخوتنا الكرادلة الحاضرين الآن لدى كرسينا الرسولي

اعلمي اننا انما اخترنا الفصح المجيد لهذا العمل لازدياد فرح هذا الاحتفال الجديد اذ يقترن بفرح الاحتفال الفصحي فلكِ يا ابنتي الحق ان تفرحي بالرب ولنفسكِ التلذُّذ بالرب مخلصكِ فأدّي الشكر الواجب للعليّ لانهُ رزقكِ هذا الولد المبارك وبارتفاعهِ هذا العظيم قد منحكِ غزير بركاتهِ. فلذا اسرعي واركضي بعطر طيب ابنكِ الطوباوي واصلحي طرق حياتكِ واسعي في ممارسة الافعال الصالحة واجتهدي ان تستحقّي ان تتبعي ابنكِ الى الملكوت كما كنتِ تلازمينهُ بمحبتكِ الوالدية لو كان بعدُ في المنفى   كُتب بافينيون

في اليوم الخامس من نيسان سنة سبع عشرة من الجيل الرابع عشر للمسيح

اليوم العشرون

وفيهِ ترجمة القديس برنردوس

ان هذا القديس العظيم الذي فاحت نفحات فضائلهِ وانتشرت عجائبهُ وعلمت الآفاق بسعة علمهِ وُلد بعين ماء قرية بجوار مدينة ديجون من مدن فرنسا سنة احدى وتسعين والفٍ للمسيح من اصل شريف لان اباهُ المدعو تِسلين كان احد امراء الاقليم وكانت والدتهُ تدعى اليكسا وهي من ذرية امير بُرغونديا وولدت ابنةً واحدة وستة ابناء وكان برنردوس ثالث الذكور. ولما كانت حبلى بهِ رأت في الحلم انها حاملة في مستودَعها كلبًا فاستحوذ عليها من ذلك خوف

عظيم فقصّت الرؤيا على رجل صالح متنوّر من الله ففسّر لها الحلم قال . انكِ ستلدين ابنًا يحرس فيما بعد رعية الرب بكل امان ولا يزال ناجحًا على اعداء الايمان والكنيسة

فلما ولدتهُ امهُ اخذتهُ بين يديها وبحسب عادتها الحميدة قدّمتهُ لله تعالى ليسلك سبيلهُ جلّ شأنهُ كل ايام حياتهِ فنما الطفل المبارك واظهر ما كان قد غرس الله تعالى في نفسهِ من المناقب الحميدة والمواهب الروحية لانهُ كان متصفًا بعقل حاذق وفكر ثاقب ونفسهُ كانت منصبّة نحو الهدوّ والصمت والاختلاء والاحتشام . فاصابهُ في حين صبائهِ داءٌ عضالٌ واتت امرأة ساحرة لتداويهُ بحيل شيطانية فلما اطّلع على قصدها نهض للوقت وطردها ومن ساعتهِ شُفي شفاءً تامًّا . ثم ارسلتهُ والدتهُ الى المدرسة فتزيّن باكاليل التقدّم على الجميع اما منظرهُ فكان غايةً في الجمال ولله حسنهُ الذي كان يأخذ بمجامع القلوب

اما سلطانة العذارى التي كان يقدّم لها كل الاكرام فقد غرست في قلبهِ الولوع بالطهارة ومن ثمّ لم يُؤخذ بأوهاق الدنس وفخاخ الزناء التي كثيرًا ما نصبها لهُ ابليس الرجيم بل فرّ منها وانتصر عليهِ في كل موقعة . رُوي انهُ التفت الى وجه امرأة ذات يوم على سبيل الاتفاق فلما انتبه الى ذلك غضب على نفسهِ غضبًا شديدًا فالقى بذاتهِ حالاً في بُحيرة قريبة من هناك في عزّ اوان البرد فغرق في الماء الى عنقهِ وبقي فيهِ حتى خمدت منهُ نار الشهوة الدنسة

ثم شرع برنردوس يتأمل في أخطار الدنيا وكيف ينجو منها الآن الشيطان اخذ يوسوس اليهِ بحيلة جاذبًا اياهُ الى الخيور واللذات الزمنية ومصوّرًا لهُ الحياة الآتية والطريقة الرهبانية شيئًا لا يُطاق ولا يُحتمل وأشار عليهِ ان يؤجّل ممارسة العبادة والاعتزال عن الناس الى زمن الشيخوخة وبمثل ذلك اشار عليهِ جماعة من اصحابهِ واقربائهِ الذين لما عرفوا منهُ انهُ عزم على الترهب أفرغوا كنانة الجهد في صدّهِ عن ذلك قالوا لهُ ان مزاجهُ الضعيف ليس بقابل لهذه الدعوة وان الاجدر بهِ ان يعبد الله تعالى في دعوة مناسبة لضعف مزاجهِ وانهُ بواسطة العلم يقدر ان يمجّد الله في الدنيا ويفيد النفوس ويشرف بلدتهُ . فاضطرب القديس من قِبل هذه الافكار والاقوال فاكتأب . ومن هنا استنتج ايها القاري كم يجب على الانسان ان يكتم سرّ الدعوة الالهية ولا يكاشف بهِ الا بعضًا ممن اضاء لهم نور الورَع كما فعل التاجر الانجيلي الذي لما وجد كنزًا في حقل أخفاهُ وباع كل ما لهُ واشترى ذلك الحقل ليتمتّع بكنزهِ سرًّا

وفيما كان متقلقلاً من قبل هذه الوساوس دخل كنيسة ليصلّي فاخذ يظهر كل ما بقلبهِ لدى الله سبحانهُ ملتمسًا منه تعالى العون في تجربتهِ هذه وان ينيرهُ بساطع نورهِ ليهتدي الى الطريقة التي يريد ان يسلك فيها وقدّم حياتهُ كلها لخدمتهِ . وحينئذٍ افتقدهُ الله تعالى بتنور سماوي عزّز مشيئتهُ وشدّدهُ بنعمة النصر ليتمّم بها مقصدهُ الحميد. فخرج الشابّ القديس من صلاتهِ كجندي ونادى علانيةً بالحرب على الشهوات الدنيوية فطفق يجذب اخوتهُ واقرباءهُ واصحابه الى الترهب معهُ ولأن الله عزّ اسمهُ كان افاض على شفتيهِ النعمة ومن اجلها لُقّب بالعسليّ الفم . تقدّم اليهِ ثلثون رجلاً ليمضوا معهُ ويترهبوا وكان من هولاء اخوتهُ كلهم ما عدا الصغير الا انهُ في اول الامر لما عرف احدهم المدعو جيرَردوس قصد اخوتهِ ضحك منهم ونسب ذلك الى خفة عقولهم فدنا منه القديس اخوهُ ووضع يدهُ على جنبهِ وقال لهُ اعلم يا اخي انك تُطعن هنا بحربة مميتة الا انك ستُشفى من جرحها حينما تعزم على الترهب معنا . وقد تمّت النبوة بعد ذلك بايام قليلة لانه في حصار مدينة طُعن بحربةٍ في الموضع المعيّن لهُ من اخيه فقال حينئذٍ بصوت عالٍ ها قد عزمت بكل خاطري على الرهبانية وهكذا حملوهُ ووضعوهُ في سجن فمكث هناك اياما كثيرة ثم سمع هاتفًا في الحلم يقول لهُ انك ستخرج اليوم من السجن سالمًا فلما انتبه وجد السلاسل التي كان مقيّدًا بها تقطعت ورأى الباب مفتوحًا فهرب وعاد الى اخوتهِ واقتفى في الزهد آثارهم

وكان في ذلك الزمن بجوار مدينة ديجون دير مشهور بتورّع الرهبان واستقامة سيرتهم وشدّة تقشّفهم يقال لهُ دير سيتو وكان رئيسهُ القديس روبرتوس وفوّض للقديس اسنفانس تدبير اموره فعزم القديس برنردوس على الترهب هناك مع اخوتهِ وبقية رفقائهِ . ثم ان برنردوس واخوته من بعد ان ودّعوا والدهم واخذوا إذنهُ وبركتهُ قال الاخ البكر لأخيهم الصغير المدعو نيفَردوس ها نحن ذاهبون الى الرهبانية ونترك لك كل املاكنا . فاجابهُ الصبي الصغير قائلاً أهكذا انتم تأخذون السماء وتتركون لي الارض لعمري

هذه قسمة جائرة فتبعهم فيما بعد وترهب في دير سيتو. فاضطرب الناس من كثرة الذين كان قد جذبهم القديس برنردوس الى الترهب معهُ فصارت الامهات يخبّئنَ ابناءهنَّ والنساء يردنّ رجالهنّ عن مخاطبة هذا الشاب القديس. ولما اعتزل عن الناس كان لهُ من العمر اثنتان وعشرون سنةً وعند خروجهِ من مصر الدنيا اتخذ معهُ ما كان اكثر ثمنًا فيها اعني ثلثين رجلاً مستعدّين لبلوغ الكمال الانجيلي فمضى بهم الى دير سيتو واستقبلهم الرئيس القديس بهشاشةٍ وفرحٍ

فلما خاض هذا المبتدئ النشيط في ميدان الكمال سلك فيهِ كجبّار وظهر بين الاخوة لا كراهبٍ مبتدئ بل كراهب قديم قد بلغ قمّة الكمال. وكان غالب الاوقات يردّد في عقلهِ هذا الكلام وينطق بهِ قائلاً يابرنردوس لمَ ترهّبت. ثم شرع يجتهد في امانة حواسّهِ الباطنة والخارجة وكان في كل اعمالهِ كانسان مختطف بالروح ويغترقهُ ذكر الله تعالى صارفًا فكرهُ عن كل ما سواهُ حتى انهُ من بعد ان سكن قلايتهُ سنة لم يعرف هل كانت مسقّفة بخشب ام كانت معقودةً بالحجارة. ومع ان الكنيسة كانت ذات طاقات كثيرة ظن ان لها طاقة واحدة. ولعمري انهُ كان يحب الصمت والتردّي بالاثواب الحقيرة والاختلاء الّا انهُ مع ذلك كان في سلوكهِ ومذاكرتهِ بشوشًا وباثوابهِ نقيًّا غير ان كثرة اصوامهِ اتلفت معدتهُ بالكلية حتى انها لم تكن تقبل المآكل القليل الذي كان يتناولهُ بل كان يتقيأهُ حالاً ومن ثمَّ كان الاكل لديهِ ألمًا. وعدِم حاسّة الذوق اصلاً حتى انهُ اتفق يومًا ان غلط خادم المائدة فقدَّم لهُ دهنًا منتنًا عوض السمن وزيتًا عوض الماء فاكل الدهن وشرب الزيت من دون ان يشعر بذلك. ومع انهُ كان على هذه الحال من الامراض كان يريد ان يباشر مع بقية الاخوة اصعب وظائف الدير

فبهذه الواسطة اي بالامانة ارتقى القديس برنردوس الى اعلى درجات التأمل والصلاة العقلية ومن النِعم التي نالها من الجودة الالهية في الصلاة ما ذكر في ترجمتهِ بعض من يُوثق في كلامهم ونصُّ قولهم انهُ في ذات يوم حين كان يتأمل في كنيسةٍ امام ايقونة سيدنا يسوع المسيح المصلوب وتذرف عيناهُ الدموع من شدَّة محبتهِ السيد المصلوب مدَّ تعالى يدهُ الواحدة واحتضنهُ مظهرًا لهُ محبتهُ العظيمة. اما رغبة القديس في الاختلاء ومناجاة الله تعالى فلم تكن تعوقهُ عن مباشرة الامور الخارجة ولا سيما التي كانت تفرضها الطاعة. غير ان قلبهُ كان فيما بين هذه الاشغال لا يبرح متعلقًا بالله تعالى. وروى بعض المؤرخين عنهُ قال انهُ مشى ذات مرة يومًا كلهُ على شط بحيرة مع جماعة من الاخوة ولما سألوهُ مساءً عن تلك البحيرة لم يعرف انهُ مشى على شاطئ بحيرة. ومرةً اخرى ركب جوادًا مزيّنًا بلجام ثمين اركبهُ اياهُ احد الاصحاب فمضى على هذه الحال وافتقد رئيس دير الكرتوسيين فاستغرب الرئيس هذا الامر من القديس فتنبّه حينئذٍ لغلطهِ الذي لم يدرِ بهِ قبلاً

ذلك ونظرًا الى علمهِ الفريد بالكتب المقدسة وبغامض اسرار الامور اللاهوتية فقد اكتسبهُ من مناجاتهِ المتصلة لله أبي الانوار. ولهذا قال يومًا لاخوتهِ ان هذا العلم القليل الذي لي قد اكتسبتهُ في البراري حيث لم يكن لي معلم الّا اشجار الغاب. ولعمري انهُ كان قد حفظ كل الكُتُب المقدسة بمعانيها وألفاظها حفظًا تامًّا حتى ان كل مخاطباتهِ ورسائلهِ وعظاتهِ كانت مشحونة منها وكان كأنهُ لا يقدر ان يتكلم الّا بالفاظ الكتاب المقدس

فانتشرت في الآفاق رائحة فضائل القديس برنردوس ورفقائهِ الثلثين وفي اقل من سنتين كثر الرهبان في دير سيتو حتى انهُ لم يعد يسعهم فارسل رئيسهم القديس استفانس كثيرين منهم الى اماكن مختلفة ليبنوا اديرة جديدة واختار القديس برنردوس ليبني ديرًا في بريّة كانت تُسمّى وادي الافسنتين لوجود لصوص هناك كانوا يسلبون ابناء السبيل والان يُسمى الوادي المضيء فدعا القديس برنردوس ليقيمهُ رئيسًا على هذا الدير الجديد وبحسب العادة الجارية في ذلك الزمن قدَّم لهُ اثني عشر راهبًا ليكونوا تحت طاعتهِ وسلَّمهُ صليبًا. فخرج الرئيس الجديد من دير سيتو برفقائهِ حاملاً بيدهِ راية البرّ والخلاص وذهبوا الى بريّة وادي الافسنتين وسكنوا هناك بمنزل ضيّق وسخ وبحيث لم يكن لهُ دخلٌ أصابتهم حاجةٌ شديدة فكان مأكلهم ورق الاشجار وخبزهم من دُخْن وكان وكيل الدير جيرَردوس اخو القديس برنردوس فلما رأى الاخوة على هذه الحال اعلم اخاهُ الرئيس بضيقهم الشديد وحرَّكهُ على مساعدتهم. فاختلى القديس ليصلّي لاجل ذلك وفيما هو يصلي اتتهُ امرأة ووهبت لهُ دراهم وافرة وطلبت اليهِ ان يصلّي من اجل زوجها المشرف على الموت فقبل القديس الصدقة وقال للمرأة اذهبي بسلام

وستجدين زوجك معافًى وكان كما قال

انهُ فيما كان يذوق في البرّية عذوبة الاختلاء اظهر لهُ الله تعالى انهُ قد اقامهُ لرعاية النفوس وخلاصها لانهُ رأَى في رؤيا اناسًا لا يحصى عددهم آتين الى دير الوادي المضيء من كل ناحية ولم تسعهم اراضي المكان وقد تمت النبوة حيث تكاثر الرهبان في ديرهِ حتى انهُ اضطُر الى ان ينقل كثيرين منهُ ليبتنوا أديرةً اخرى. ومن جملة الذين اتوا ليترهبوا في دير القديس برنردوس كان والدهُ وقد تمّم حياتهُ تحت طاعة ابنهِ بموت مقدس. اما اخت القديس اومبلّينا فكانت قد اقترنت برجل مُكثِر مائلاً الى ترفهات العالم واباطيلهِ فهذه نفسها زارت يومًا اخوتها الرهبان ولانها اتت بثياب ثمينة مزخرفة لم يُرد احد منهم ان يخاطبها غير انهُ بعد ان بكت وصرخت قائلة انها خاطئة محتاجة الى نصائح خلاصية وان الرب لا يطرد الخطأة فجاء اليها القديس برنردوس وخاض معها في مخاطبة روحية مبيّنًا لها ضلال الدنيا وخديعتها فأثَّر كلامهُ في قلبها لانها اخذت تعبد الله في الدنيا بأشد النشاط وبعد سنتين من ذلك اعتزلت عن الناس باذن زوجها وترهبت في دير كان قد بناهُ اخوها منذ قليل من اجل البنات والنساء

اما ما سيأتي ذكرهُ فهو اعجب من ذلك وهو انهُ قد ذُكر ان شبانًا جهّالاً من اولاد الدولة اتوا راكبين الى دير الوادي المضيء وطفقوا يلعبون بالاسلحة حول الكنيسة فتقدَّم اليهم القديس وطلب منهم بلينٍ ولطفٍ ان يكفُّوا عن اللعب بقرب الكنيسة فلم يؤثر فيهم كلامهُ فقدَّم لهم شراب المزر أي بيرا وباركهُ وتركهم فيا للعجب لانهم بعدما شربوا منهُ تغيَّرت حالاً قلوبهم وشرعوا يتكلمون على سعادة الطريقة الرهبانية وكثرة اخطار الاقامة بالمدن والقرى ونقدموا جميعهم الى القديس طالبين الترهب في ديرهِ فقبلهم وضمهم الى رهبانهِ وثبتوا في ذلك الدير سالكين طريقة النسك الى حين وفاتهم.

ورُوي ايضًا ان ابن لويس ملك فرنسا المدعو انريكوس زار يومًا القديس ليستشيرهُ في امور مهمة وفي انتهاء ذلك طلب ان يجتمع الرهبان لكي يودّعهم ويطلب صلواتهم فقال لهُ القديس اني ارجو من الله تعالى الاَّ يدع عزَّتكم في حالتكم هذه بعد ان استعنتم بصلوات عبيدهِ وفي ذلك اليوم عينهِ طلب انريكوس ان يترهب هناك فحزنت حواشيهِ على ذلك

حزنًا شديدًا ولا سيما احدهم المدعو اندراوس فانهُ لم يقف عند حدّ الحزن بل خرج عن دائرة الصواب واخذ يتكلم بالتجديف ويفتري على القديس ويقول لهُ انت رجلٌ غاش ونبيٌّ كاذب اما القديس فقال لابن الملك لا تضطربنَّ من ذلك بل اعطِ محلاً لغضبهِ ومرارة قلبهِ وثِق انهُ سيقتدي بك. فسمع اندراوس واشتد رجز غضبهِ وصرَّ باسنانهِ وقال اني الان قد تحققت انك نبيٌّ كذاب لانك تنبأت بما لا يصير ابدًا فخرج من الدير مزبدًا من فرط غيظهِ مكثرًا اللعنات على رئيس الدير وطالبًا من الله تعالى ان تنشقَّ الارض وتبلع جميع الرهبان. غير انهُ في مساء ذلك اليوم بكَّتهُ ضميرهُ تبكيتًا بليغًا ولفرط ما ندم على ما جرى منهُ رجع حالاً الى دير الوادي المضيء وترهب. هذا ولا ريب اننا لو قصدنا ان نذكر جميع الذين ادخلهم في الرهبانية بقوة كلامهِ وصلاتهِ لطال بنا الشرح

على ان القديس برنردوس كان في ابتداء رئاستهِ يقيس جميع الرهبان على نفسهِ ونشاطهِ وهذا جعلهُ شديدًا على الرهبان لانهُ عندما كان يقبل رجلاً في الرهبانية كان ينصحهُ قائلاً ان رمت ان تصير راهبًا فدع الجسد خارج الدير وادخل بروحك فقط. ثانيًا لما كان يقبل اعترافات رهبانهِ كان يستعظم ادنى هفواتهم وكان يطلب من كل واحد منهم كمالاً ساميًا الى الغاية حتى ان كثيرين من الاخوة يئسوا من بلوغهِ. ومن ثمَّ كانت تستحوذ على تلاميذهِ الكآبة والمرارة السوداء وصغر النفس الذي من شأنهِ ان يصدَّ عن التقدم في سُلَّم العبادة. غير ان جميع الرهبان كانوا ينسبون الذنب الى فتورهم بحيث لم يتذمَّروا على رئيسهم اصلاً وقد بارك الله على اتضاعهم هذا لان القديس لما تأمل صبر تلاميذهِ المتضعين نسب لذاتهِ الذنب كلهُ وعزم على ان يخفف النير عليهم ويدبرهم بسكوتهِ ونموذجاتهِ لا بعظاتهِ الى ان يعرّفهُ الله تعالى ما هي ارادتهُ وحينئذٍ ظهر لهُ طفل سماوي ملتحف بنور عجيب وأمرهُ ان يتكلم رهبانهُ بكل ما في قلبهِ وأعلمهُ ان الروح القدس سيتكلم بفيهِ. وبعد خطابهِ تعالى لهُ على هذا الوجه منحهُ عذوبة الحلم والدعة وبها دبَّر الرهبان بقية ايام حياتهِ مراعيًا في سياستهِ ضعف الاخوة وقوتهم الا في ما هو مطلوب من كل راهب نظرًا الى الطريقة الرهبانية

ومن ثمَّ اضحى القديس متغيّرًا بالكلية مجتهدًا في مساعدة

الرهبان لا في حاجاتهم الروحية فقط بل في حاجاتهم الجسدية ايضاً ولأن بعضهم رأوهُ لابساً المسح تحت ثوبهِ الرثّ خلعهُ لئلا يرغب في لبسهِ ايضاً اولئك الضعفاء النحيفو المزاج فتضعف اجسامهم . وبحسن سياستهِ ازداد نشاط الرهبان في اكتساب الفضيلة ولهذا كانوا يحتملون ضيق المعاش بفرح ويباشرون اعمال الايدي برغبةٍ ويصلّون في الكنيسة بأتمّ الاصغاء . ذلك وان محبتهم الصمت كانت غايةً في الغرابة حتى ان الدير مع كونهِ واسعاً مملوءاً من الرهبان كان كأنهُ قفرٌ بلقعٌ لا ساكن فيهِ . ولا بدّ ان نذكر هنا نصيحة هذا القديس لرؤساء الرهبان ونصها : انهُ اذا نصح الرئيس لأحد الرهبان ولم يقبل النصح بخضوعٍ بل تذمّر فحينئذٍ يجب على الرئيس ان يُغيّر اسلوب الكلام محتملاً مروتهُ ويبقي التأديب الى زمن آخر بحيث اذا غضب الرئيس والراهب فلا يكون العمل تأديباً بل حرباً وخصاماً . ولكنّ القديس مع انهُ كان قد بلغ كمال الحلم لم يزل ينصح بمحبة ابويّة الرهبان وينبّههم على ذنوبهم في السرّ والجهر على مقتضى الضرورة ولما كان يرى ان اجتهادهُ ذهب على غير طائل كان حينئذٍ يقطع العضو الفاسد وينصلهُ من جماعة الرهبان لئلا يفسد البقية غير انهُ كان يحزن من جرّاء ذلك حزن امٍّ قد مات ابنها

اما الفضيلة التي اشتهر بها القديس برنردوس فانما هي الاتضاع لان عرفانهُ قدر نفسهِ أبعد عنهُ الكبرياء وجعل فيهِ ميلاً الى احتمال الهوان والافتراء حتى انهُ لم يكتفِ بان يكون متواضعاً بل اراد ان يكون دنيّاً حقيراً . ومع كل هذا يُروى انهُ كتب ذات يوم الى اسقفٍ بعض نصائح فاغتاظ الاسقف من ذلك وردّ لهُ جواباً مرّاً وعدّهُ مجنوناً. فكتب اليهِ القديس ثانيةً مستغفراً منهُ ملتمساً العفو بمزيد الاتضاع فانذهل الاسقف وحملهُ هذا الاتضاع على ان يحب القديس ويكرمهُ على الدوام . ويوماً آخر اتاهُ راهب من غير رهبانيتهِ وطلب اليهِ ان ينظمهُ في سلك رهبانيتهِ فلم يقبل فاحتدم ذاك الراهب غيظاً ولطمهُ لطمةً عظيمة على صفحة خدّهِ ومع ذلك لم يشكُ القديس بل اوصى الرهبان ان يظهروا لهُ في الدير اكراماً ومحبة اكثر من المعتاد . هذا وروى ثقات المؤرخين ان بعض الاعداء غصبوا حقول أديرة الرهبانية العشرة كلّها اما القديس فصبر على شرّهم ولم يُرد ان يخاصم احداً . والحاصل ان الاعداء ناصبوهُ دائماً ولم يقاومهم الاّ بالتواضع مقابلاً الشرّ بالخير . فياليت الناس اليوم يذهبون مذهبهُ ويغضّون الطرف عن آثام الغير ولو اهلاً وجيراناً . فلا ريب ان هذا هو شأن ابناء الله عزّ وجلّ

وجاء ايضاً في ترجمتهِ انهُ اختُطف يوماً بالروح ورأى نفسهُ ماثلاً امام منبر الديّان العادل والشيطان مشتكياً عليهِ فبعد ان فرغ العدوُّ من الشكوى قال القديس اني اقرُّ معترفاً اني لا استحقُّ المجد الابدي . ولكنما هو لسيدي من وجهين الاوّل كونهُ ابن الله الازلي ووارث ملكهِ الطبيعي . والثاني انهُ اكتسبهُ باهراق دمهِ الكريم . وقد اكتفى لنوالهِ بالحق الاوّل ووهبني حقهُ الثاني الذي بهِ يجوز لي ان اطلب ملكوت السماء فخجل العدوُّ وغابت الرؤيا . ولما كان القديس يعظ امام جمّ غفير وكان الجميع يسمعونهُ خطر لهُ بغتةً فكر عُجبٍ لان الشيطان كان يقول لهُ انظر كيف يتعجب الناس من كلامك وانما كان قصدهُ قاتلهُ الله ان يصرف القديس عن تعليم الشعب بواسطة الخوف من المجد الباطل . اما القديس فقال لهُ باطناً اني لم ابتدئ بالوعظ لاجلك فلا اتركهُ لاجلك

فرام الله تعالى ان يمجّد عبدهُ المتضع ويظهر للناس ما قد كان ادّخرهُ من مواهبهِ السماوية في هذا الاناء المختار الذي صار كآلة عمومية استعملها جلّ شأنهُ لاصلاح الناس واستئصال شرورهم لانهُ سنة الف ومائة واربع وعشرين صالح شعب مدينة رينس واسقفهم وعقب ثلث سنين ألقى الصلح بين اسقف باريز والملك . ومثل ذلك صنع في كثيرٍ من المدن وفي سفرهِ هذا ألّف كتاباً جليلاً في النعمة والانتخاب وبعد ذلك بسنة أمرهُ البابا اونوريوس الثاني ان يحضر مجمعاً عقدهُ في مدينة ترويا حيث حكم في كل امرٍ حكماً قاطعاً ورتّبوا كل شيءٍ حسب رأي القديس وبعد انتهاء هذا المجمع وقع انشقاق في الكنيسة من قِبل مَن تسمى باسم اناكليتوس وادّعى انهُ بابا ضد اينوشنسيوس الثاني البابا الحقيقي وكان قد استمال الى رأيهِ اهل رومية واقليم ميلان وملك صقلية وامير اكيتانيا وامراء كثيرين . فالتجأ الحبر الاعظم اينوشنسيوس الى مملكة فرنسا وعُقد هناك مجمع فالتزم القديس برنردوس بالحضور ففحص الآباء عن باباويّة اينوشنسيوس الحبر الاعظم ثم اطبقوا جميعهم على ان يفوّضوا

الامر للقديس برنردوس ليفحص هو ويحكم ففحص القديس فحصًا مدققًا وحكم ان اينوشنسيوس هو البابا الحقيقي فقبل رأيهُ كل المجمع وقبلتهُ ايضًا مملكتا فرنسا واسبانيا . الّا ان غيلموس امير اكيتانيا لم يرتدّ عن الانشقاق الى ان القديس ردَّهُ الى طاعة الكنيسة متأثرًا من برّهِ اكثر مما تأثر من فصاحتهِ وبلاغة عظاتهِ لانهُ لما رآهُ مستعدًّا لترك الانشقاق وغير مستعدٍّ ان يترك للكنائس ما كان قد سلبهُ من اموالها اشتعل غيرةً وابتدأ القداس والامير مع باقي المشاقين خارجين من الكنيسة فبعد التقديس وقت تناول الشعب اخذ القديس جسد الرب وتقدَّم الى الامير وجعل يخاطبهُ كمن لهُ السلطان من العلى قائلاً انهُ اذ كان لم يسمع من العبد الدني لا بدَّ لهُ من الخضوع للمولى العظيم الذي سيصير ديَّانًا لهُ والذي يسجد لهُ كل جاثٍ في السماء وعلى الارض وفي جهنم . فاضطرب الامير وتغيَّر قلبهُ ووعد القديس بتتميم واجباتهِ كلها

وبعد ذلك حضر بامر البابا مجمع ريمس ثم مضى الى ايطاليا ليصالح بعض مدن ومن هناك ذهب الى بلاد النمسا ليصالح الملك وامير الصرب . ثم في السنة الرابعة والثلثين من المائة الثانية عشرة للمسيح حضر مجمع بيزا ودُعي في كل مكان ملاك السلام وعمود الكنيسة وحيثما توجَّه كان يصنع عجائب كثيرة وفيما بين كل هذه الاشغال المتفاقمة اي في السنة الخامسة والثلثين من المائة الثانية عشرة للمسيح ابتدأ بتأليف كتابهِ العجيب في تفسير سفر النشيد وياليت كثرة الاشغال لم تمنعهُ عن تتميمهِ . فلا جرم انهُ امرٌ عجيب يذهل العقول ان رجلاً قد توالت عليهِ الامراض حتى ضعفت قوَّتهُ استطاع ان يحتمل كل هذه الاتعاب وينشئ مائة وستين ديرًا ويحارب وحدهُ كل اعداء الكنيسة ويباشر اعظم امور الممالك والكنيسة

وكان في ذلك العصر منطقيٌّ مشهور يقال لهُ بطرس ابيلاردوس فهذا بعد ان التوت سيرتهُ وفسد ايمانهُ سريعًا التأم في فرنسا مجمع حضرهُ القديس برنردوس وهناك افحم ابيلاردوس اما بعدُ فردَّهُ الى التوبة وقضى حياتهُ في رهبانية القديس . ثم ظهر ايضًا في ذلك العصر رجل مبتدع اسمهُ بطرس بروس فدحض رأيهُ ايضًا هذا القديس . وسنة ثماني واربعين من الجيل الثاني عشر للمسيح عقد مجمع في مدينة ريمس ضد اسقف يقال لهُ جلبرتوس لابوري كان قد صنَّف كتابًا في الثالوث الاقدس خالف فيهِ التعليم الكاثو… كي فحضر القديس هذا المجمع وبيَّن فساد تعليمهِ فرُذل كت… ب الاسقف

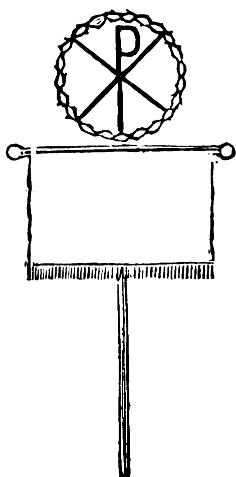
ثم عاد الى دير الوادي المضيء حيث تكاثرت امر… ضهُ فعادهُ غومَرْدوس ملك سردينيا سنة احدى وخمسين … من الجيل الثاني عشر وخاطبهُ القديس كثيرًا في اباطيل ال… نيا وزوال مجدها وانبأهُ انهُ سيفوز من الكرامات ويترهب … في هذا الدير وتمَّت نبوَّتهُ بعد سنة واحدة . ومع ان القديس … كان قد دنا من الموت لشدة مرضهِ ذهب الى نواحي مملكة ال… سا حيث صالح بكلامهِ وعجائبهِ جيشين كانا مستعدَّين للحرب … ثم عاد راجعًا ليموت في ديرهِ الذي كان يحوي من الرهبان … نحو سبعمائة وسبعين راهبًا . واستأثرت بهِ رحمة الله في خل… ل سنة ثلث وخمسين من المائة الثانية عشرة للمسيح في ا… وم العشرين من شهر آب وكان عمرهُ ثلثًا وستين سنة

اليوم الحادي والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسين بونوسي ومكسيميليانوس الشهيدين

ان يوليانوس الجاحد أمر بان تُنزَع صورة الصل… ب المقدس واسم يسوع المسيح من البيرق حيث كان وضع… ها قسطنطين (١) وان تُرجَع بيارق الملوك الوثنيين التي … ن مرسومًا عليها صور الآلهة الكَذَبة فيوليانوس خالهُ الذي … مهُ والبًا على المشرق ارتدَّ مثلهُ والعياذ بالله عن النصرانية ل… ى

(١) صورة بيرق قسطنطين الملك على ما وصفها اوسابيوس الم… رخ في ترجمة الملك (كتاب ١ فصل ٢٨)



كان البيرق على صورة عصا … بة مذهَّبة في طرفهِ الفوقاني اكليل … في الاكليل حرفان P X من اسم … سيح باللغة اليونانية وتحت الاكليل … صا ثانية مذهبة تقطع عصا الحربة ب… كل صليب وبهذه العصا الثانية يتعل… حجاب من برفير مرصَّع بحجارة ثمي… تصوَّرت عليهِ صُوَر الملك قسطن… ين وابنيهِ

من أشد المضطهدين تلاميذ يسوع المسيح

وكان في المعسكر ضابطان ذوا فضيلة نادرة وكانا مسيحيين وشديدي الغيرة نحو ديانتهما اسم احدهما بونوس واسم الآخر مكسيميليانوس رفضا ان يغيّرا راية قسطنطين لان كل فرقة كان بيرقها كعلامة مختصّة بها فامرهما الامير ان يطيعا الملك وان يسجدا لتلك الآلهة نظيره لكن بونوس اجاب عن كليهما بانهما لا يسجدان لعمل ايدي الناس وعلى هذا الجواب جلدهما اكثر من ثلثمائة جلدة بسيور من جلدٍ معلّق باطرافها كرات من رصاص . اما بونوس فضحك حينئذٍ بدون ان ينتبه الى ما يُقال لهُ فامر الامير مكسيميليانوس ان يقترب فقال هذا متى آلهتكم سمعوكم وكلموكم نسجد لها لاننا نعرف ان الديانة المسيحية تحرم علينا ان نسجد لأصنامٍ صمٍّ خرسٍ. فمدّهُ الامير على دولاب العذاب فدعا كلاًّ منهما باسمهِ وقال لهما ها قد اشرفتما على العذاب فاطيعا اذًا وانزعا عن رايتكما صورة الصليب لتضعا في مكانها صورة آلهة غير مائتة. فقالا لا نستطيع ان نطيع الملك الى هذا الحد لاننا نرى بعين الايمان الله الغير المنظور والعادم الموت الذي عليهِ نتكل . اما يوليانوس فامر ان يُضربا بحبال رصاصيّة مرارًا شتّى وكان يحث الجلّادين ان يضربوا بكل قواهم وألاَّ يعطوهما راحةً وبما ان الشهيدين لم يُحسّا بهذا العذاب امر يوليانوس ان يغرقوهما في زفتٍ مغلًى واذ لم يُضرَّ بهما ذلك صرخ اليهود وعبَدة الاوثان انهما ساحران فأُلقيا في السجن فارسل اليهما الامير خبزًا مختومًا بختمهِ فابيا ان يأكلا منهُ بحيث ظهر انهُ كان منقوشًا على الختم صورة صنم وحينما كانا في هذه الحال زارهما في السجن ميسدلس ورآها متمتعين بصحة تامة وطلب صلاتهما وهذا كان اخا صابور ملك بلاد فارس وكان قد تنصر بعد ان غادر بلادهُ وكان قد قضى الجزء الاكبر من حياتهِ في بلاط قسطنطين وقُنستنس

ان الامير من بعد ان امر باستنطاق بونوس ومكسيميليانوس ثانيًا وثالثًا اجاباهُ انهما مسيحيان وقاصدان الثبوت في دينهما واضافا الى ذلك ما معناهُ ان قسطنطين نحو نهاية حياتهِ استحلفهما ان يكونا امينين نحو اولادهِ ونحو الكنيسة ولا شيءَ يحملهما على ان ينكثا بالوعد . فيوليانوس اراد ان يعذبهما جديدًا لكن حاكم الشرق المدعو سَقُنْدوس الذي كان معتبرًا مع كونهِ وثنيًا لعدالتهِ ولطافتهِ وكان جالسًا بجانبهِ واستقبح جدًّا هذا التوحش وآخر الكلام ان بونوس ومكسيميليانوس حُكم عليهما حالاً وعلى كثير من المسيحيين بقطع الراس فرافقهم القديس مَلاتيوس بطريرك انطاكية وبعض الاساقفة الى المقتل

هذا وعما قليل اصاب الامير يوليانوس بغتةً مرض مخيف في امعائهِ وفي الاعضاء القريبة منها . وانتلد هناك كمية وافرة من الديدان فكان مستحيلاً اتلافها فاستعان الاطباء بكل ما يمكن ان يتصورهُ العقل من الادوية واستحضرت بنفقة وافرة العصافير النادرة الوجود وذُبحت ليوضع دمها على محل المرض لكنَّ الديدان التي كان يُقصد استئصالها بهذه الواسطة تعمقت في جوفهِ اكثر وسبّبت ليوليانوس اوجاعًا اشدَّ من السابقة . فامرأةُ هذا الشقي التي كانت مسيحية غيورًا قالت لهُ يجب عليك ان تشكر يسوع المسيح لانهُ جعلك تحسُّ بقدرتهِ بواسطة هذا العذاب . فما كنت تعلم بدون ذلك من هو الذي عاديتهُ علانيةً . اما الامير فاذ كان المهُ متجاوز الحدّ عاد الى نفسهِ واظهر الندامة على كونهِ مضطهدًا وقال لامرأتهِ بادري الى كنائس المسيحيين وصلي لاجلي ثم سأل الله الغفران ومات

وفيهِ ايضًا ترجمة القديسة فرنسيسكا دي شنتال (وجه ٨٩٧)

اليوم الثاني والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس سِمفوريانوس الشهيد

ان هذا القديس ولد بأُوتون مدينة بفرنسا سنة ثلثٍ وستين من القرن الثاني للمسيح في ابتداء دخول النصرانية هذا البلد وكان ابوهُ فوستوس مسيحيًا من اشراف تلك المدينة وكانت امهُ مسيحية ايضًا فنشأ سِمفوريانوس في الايمان ونما في الفضيلة وكان لهُ من العمر خمس عشرة سنة لما استشهد القديس بانيغنوس الذي كان قد عمدهُ . اما بعد خمس سنين فاتفق يومًا انهُ رأى في شوارع المدينة جمًّا غفيرًا حاملين صنمًا ومقدمين لهُ اكرامًا الهيًا فحزن أشدَّ الحزن ووبّخهم على نفاقهم فهاج عليهِ وقتئذٍ الشعب وأمسكوهُ وقدّموهُ الى الحاكم الوثني اراكليوس . فهذا لما عرف ان سِمفوريانوس هو من اعيان المدينة خاطبهُ واطال الكلام معهُ ليجذبهُ الى عبادة الاوثان ولأن القديس لم يبالِ بكلامهِ أمر بتعذيبهِ فضربوهُ بالسياط ثم أُلقي في السجن وبعد ايام قليلة وقف امام الحاكم ثانيًا ولما رأى القديس ثابتًا في الايمان المسيحي حكم عليهِ بقطع

رأسهِ خارج المدينة

وفيما كان ماضياً في الشوارع صادفتهُ والدتهُ وقالت لهُ طوبى لك يا ابني العزيز طوبى لك اذكر الرب الاله الحي ليدخلك في دار النعيم فارفع الحاظك الى هناك وتقوَّ برجاء الاجر الابدي . انك بالموت لا تخسر الحياة بل تبدلها بحياة ابدية . نعم ان الطريق هي ضيقة لكنها قصيرة وبها تصل بعد تعب قليل الى الوطن السعيد حيث المجد المؤبد واما بعد وصولك الى هناك فاذكرني يا ابني وصلِّ لاجلي . ولا جرم ان هذا الخطاب شجَّع ابنها فذهب فرحاً الى الميدان حيث قدَّم رأسهُ للسيَّاف بكل سرور وبقطعهِ اكتسب اكليل المجد الدائم وكان ذلك سنة ثلث وثمانين من القرن الثاني

اليوم الثالث والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس فيلبس بينيسيوس

ان هذا القديس وُلد بفلورَنسا مدينة بايطاليا نحو السنة الثالثة والثلثين من المائة الثالثة عشرة للمسيح وهو من شرفاء تلك المدينة وسلك منذ الصبا طريق الفضيلة وثبت فيها . وبعد ان تعلَّم علم الطب في مدينة باريز رجع الى بلدتهِ وشرع يفتكر ما هو السبيل الذي يُدعى اليهِ فدخل ذات يوم كنيسة الرهبان السرفيتيين الذين يقدّمون لوالدة الله اكراماً ممتازاً ليحضر القداس الالهي وقرئ فيهِ ما ذُكر في سفر اعمال الرسل عن الخصيّ الحبشي . اما فيلبس بينيسيوس فلما سمع هذا الكلام الذي قيل من الروح القدس لفيلبس تلميذ الرسل ونصهُ تقدَّم ولازم هذه المركبة فقبل ذلك الكلام كانهُ قيل لهُ ايضاً . فرجع الى بيتهِ واختلى واخذ يطلب من العذراء المجيدة ان تريهُ الدعوة المعيَّنة لهُ من الله تعالى فاستمرَّ مصلّياً الى نصف الليل وحينئذٍ تنوَّر برؤيا سماوية بان ابصر حولهُ اراضي ممتلئة صخوراً كبيرة وفخاخاً وحيَّات فخاف ذلك الشاب وصرخ من فرط جزعهِ ولكنهُ تعزَّى للوقت برؤيا اخرى وهي انهُ رأى بغتةً ملكة السماء على مركبة عجيبة محاطة بملائكة وقديسين وقالت لهُ ما كان قد سمعهُ في القداس اعني قول الروح القدس هذا تقدم ولازم هذه المركبة ثم امرتهُ ان يدخل رهبانية السرفيتيين المشار اليها بهذه المركبة

وانما هذه الرهبانية كانت قد ابتدأت منذ خمس عشرة سنة لا غير ولم يكن لها الاَّ دير واحد بجوار مدينة فلورنسا ومنزل صغير على باب المدينة المذكورة حيث [redacted] بينيسيوس حضر القداس المومأ اليهِ . فلما كان الصباح [redacted] الى هذا المنزل وطلب من الرئيس ان يضمهُ الى رهبانه [redacted] لا يرتسمون كهنةً بل يباشرون وظائف خدمة الدير. [redacted] الرئيس وأرسلهُ الى الدير المبني على جبل يبعد من هناك [redacted] اميال فذهب عليهِ السلام واقام على ممارسة احقر خدَم [redacted] مغطّياً بذلك على شرف اصلهِ وكرم نسبهِ وسعة علومهِ مع [redacted] كل هذه الاشغال كان يصلّي كل يوم ساعات كثيرة [redacted] امام ايقونة والدة الله وكان يتعزَّى باطناً برجائهِ انهُ يبقى في الر[redacted]انية مجهولاً غير ان الرهبان افاقوا على مواهبهِ الجليلة فالتزم ا[redacted] ان يرتسم كاهناً . روى المؤرخون الذين كتبوا ترجمتهُ [redacted] في قداسهِ الاوَّل حينما كان بعد التقديس يرفع جسد ا[redacted] ليسجد لهُ الحاضرون سُمع اصوات الملئكة المرنمين قـ[redacted] قدوس الرب الصباؤت . وبعد اعوام قليلة اقيم رئيساً [redacted] عامًّا على الرهبانية

ذلك وان الله تعالى اراد ان يظهر خلوص عبادته با[redacted] اشتهرت في مدينة رومية لانهُ فيما كان ذاهباً الى روبة [redacted] في الطريق رجلاً ابرص عريانا ولم يكن معهُ دراهم فخلع [redacted] واعطاهُ اياهُ فحينما لبسهُ الابرص تطهَّر حالاً من [redacted] فطلب منهُ القديس ألاَّ يشهر ما كان جرى اما الا[redacted] فراعاة لمعرفة الجميل وغيرةً على مجد الله تعالى اذاع [redacted] الاعجوبة في كل مكان. ولكنما اتضاع هذا القديس تلألأ [redacted] من ذلك فيما بعد وهوانهُ بعد موت البابا اكليمنض [redacted] الرابع التأم الكرادلة ليختاروا خليفةً يجلس على الكر[redacted] البطرسي فاختاروا باتفاق القديس فيلبس بينيسيوس [redacted] واختبأ في الجبال واقام مستتراً في كهوف الارض الى ان [redacted] الكرادلة غريغوريوس العاشر

فألهمهُ الله ان يخرج من الكهف فخرج وانطلق [redacted] من رهبانهِ الى بلاد بعيدة لينذر الناس بالتوبة ويحـ[redacted] على تكريم العذراء عليها سلام الله فطاف مملكة فرنسا وبلد [redacted] والنمسا ذاكراً في كل مكان عظائم السيدة وقضى في هذه الـ[redacted] اعوامًا ثم عاد الى ايطاليا وهناك تعب كثيراً في القاء [redacted] بين سكان بعض المدن وما احتمل في هذا الامر الحميد [redacted] الاضطهاد ما نذكرهُ وهو ان شعب احدي هذه المدن كان يجتهد في القاء الصلح بينها وثبوا عليهِ وعرّوهُ وضر

بالسياط في وسط الشوارع ثم اخرجوهُ من المدينة باهانةٍ فتعجب احدهم من صبر القديس واختار رهبانيتهُ ليقضي هناك بقية عمرهِ بافعال التوبة

وآخر الامر اصاب القديس مرض الموت وبعد ان تناول القربان المقدس بكمال العبادة طلب كتابةً اعني ايقونة ابن الله المصلوب التي كان يسميها كتابةً وفيما هو يضمها الى صدرهِ انتقل الى رحمة الله في اليوم الثاني والعشرين من شهر آب في السنة الخامسة والثمانين بعد الالف والمائتين للمسيح

اليوم الرابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس برتولوماوس الرسول

انهُ بالصواب حزن القديس يوحنا فم الذهب على عدم وجود كتب تخبرنا بكل ما فعل الرسل القديسون بعد حلول الروح القدس عليهم فقال متأسفًا ليت احدنا كان قد كتب بالتدقيق والتحقيق والتفصيل أخبار الرسل الاطهار غير مقتصر على ما قالوهُ وكتبوهُ فقط بل منتهيًا الى تسطير ما فعلوا في ازمانهم حيث لا ريب ان المؤمن يتعزّى ويتقوّى في العبادة برؤية الاماكن والسجون التي استوطنوها . فياليت شعري اية تعزية كانت لقلوبنا وكيف كنا نتنشّط في الفضيلة لو عرفنا اقوالهم وفضائلهم وعجائبهم . هذا ومن الثابت البيّن أن المحب يشتهي ان يعرف كل ما يتعلّق بحبيبهِ ولذا يستخبر برغبة عما يقولهُ ويعملهُ ويحدث لهُ فكم بالحري يجب أن نرغب في معرفة اخبار معلمي المعمورة كلها . انتهى

اعلم ان هذا الرسول قيل لهُ برتولوماوس لان اباهُ كان يُدعى تولوماوس والرأي الغالب بين الاباء المفسرين والعلماء انهُ هو التلميذ المسمى ناتانائيل الذي اخبر عنهُ يوحنا البشير ما يأتي وهو ان فيلبس وجدهُ وقال لهُ ان الذي كَتب موسى عنهُ في الناموس والانبياء قد وجدناهُ وهو يسوع بن يوسف من الناصرة . فقال لهُ ناتانائيل أَمن الناصرة يمكن ان يكون شيء صالح فقال لهُ فيلبس تعالَ وانظر . ورأى يسوع ناتانائيل مقبلاً اليهِ فقال هذا اسرائيلي حقًّا لا غشّ فيهِ . فقال لهُ ناتانائيل من اين تعرفني اجاب يسوع وقال لهُ قبل ان يدعوك فيلبس وانت تحت التينة رأيتك . اجاب ناتانائيل وقال لهُ يامعلم انت هو ابن الله انت هو ملك اسرائيل . اجاب يسوع وقال لهُ لانني قلت لك انني رأيتك تحت التينة آمنت سوف تعاين اعظم من هذا وقال لهُ الحق الحق اقول لكم انكم سترون السماء مفتوحةً وملئكة الله يصعدون وينزلون على ابن البشر (يوحنا ١ : ٤٣ ـ ٥١)

وقد لاحظ المفسرون ان دعوة ناتانائيل هذه مشابهة كل المشابهة لدعوة القديس بطرس التي ذكرها متى البشير (فصل ١٦) لانهُ كما وجد اندراوس اخاهُ بطرس وقال لهُ قد وجدنا المسيح فاتى بهِ الى يسوع وجد فيلبس ناتانائيل وقال لهُ اننا قد وجدنا يسوع فائتِ وانظر . وكما ان يسوع قال لبطرس اذ نظر اليهِ انت سمعان بن يونا فتُدعى كيفا قال الرب لهُ المجود اذ نظر الى ناتانائيل هذا اسرائيلي حقًّا لا غشّ فيهِ . هذا واعتراف الرسولين معًا لا يخلو من المشابهة ايضًا لان يسوع لما قال لتلاميذهِ وانتم من تقولون اني انا هو اجاب سمعان بطرس قائلاً انت المسيح ابن الله . اما ناتانائيل فلما قال لهُ يسوع اني رأيتك قبل ان يدعوك فيلبس وانت تحت التينة اجابهُ يامعلم انت هو ابن الله انت هو ملك اسرائيل . وكما يسوع قال لبطرس جزاءً لاعترافهِ طوبى لك ياسمعان بن يونا فانهُ ليس لحمٌ ولا دم كشف لك هذا لكن ابي الذي في السماوات قال لناتانائيل جزاءً لاعترافهِ ايضًا لاني قلت لك اني رأيتك وانت تحت التينة آمنت سوف تعاين اكثر من ذلك . وقال لهُ الحق الحقّ اقول لكم انكم من الان ترون السماء مفتوحةً وملئكة الله يصعدون وينزلون على ابن البشر

فمن هذا كلهِ يستنتج العلماء ان ناتانائيل كان من أحبّ الرسل الى يسوع المسيح ومن حيث انهُ كلما يذكر الانجيليون اسماء الرسل يأتون باسم القديس برتولوماوس سادسًا بعد اسم القديس فيلبس يستنتج من ذلك العلماء المذكورون ان القديس برتولوماوس هو ذلك التلميذ الذي دُعي بعد القديس فيلبس وبواسطتهِ ايضًا (١) وانهُ كان من قانا الجليل على ما يذكرهُ القديس يوحنا (فصل ٢١ : ٢) وقد ارتأى البعض من العلماء ان مهنتهُ لم تكن الصيد لكن العمل في الحقول لكنهُ لم يزل الامر تحت الشكّ والريب اذ لا شيء في الانجيل يحلّ هذا المشكِل (٢)

(١) حاشية . راجع ما قالهُ البلانديستيون بهذا الصدد في مقدمة ترجمة القديس جزء ٤ (٢) راجع المقدمة المذكورة جزء ٥

وبعد حلول الروح القدس على الرسل وتقسيمهم العالم كلهِ ليعظ كلٌّ منهم في جزءٍ منهُ عينوا لرسالة هذا القديس بلاد اسيا الصغرى وبلاد الارمن وجزءًا من بلاد الهند فانطلق الرسول حاملاً معهُ كتاب الانجيل المقدّس الذي كتبهُ القديس متى باللغة العبرانية وبشَّر الامم في تلك البلدان وبشَّر ايضًا في كل بلدة كان يمرُّ بها. ويُحتمل انهُ بعد ما كرز في الهند رجع الى بلاد اسيا الصغرى وطاف بها مع القديس فيلبس وانهُ قد تعب كثيرًا في بلاد فريجيا وصُلب كما روى نيكيتاس في هيروبوليس مدينة بفريجيا مع القديس فيلبس وتخلّص من الموت بواسطة الزلزلة التي حدثت وقتئذٍ كما ذكرنا في اليوم الاول من شهر ايار وان القديس برتولوماوس ذهب من هناك الى بلاد لوكانيا حيث تعب كثيرًا ببشارة الانجيل واثمر كثيرًا بردّ الوثنيين الى الايمان المسيحي. فترك اسيا الصغرى وتوجَّه الى ارمينيا الكبرى فبشَّر فيها زمانًا اذ قال عنهُ احد المؤرخين انهُ هناك ربّى الشعوب في الديانة المسيحية وأسَّس كنائس كثيرة ثم وصل الى شماليّ بلاد الارمن في لوقانيا بالقرب من البحر المسمّى كسبيان حيث قام عليهِ كهنة الوثنيين وحرَّكوا اعيان المدينة على ان يميتوهُ اما كيفية وفاتهِ وظروفها فلم يتفق المؤرخون فيها قال البعض ان الجلاَّدين صلبوهُ وقال غيرهم انهم سلخوهُ وقطعوا رأسهُ والمحتمل انهم فعلوا كلا الأمرين

قال القديس غريغوريوس المؤرّخ ان جسد القديس برتولوماوس نُقل من لوقانيا الى ليباري جزيرة صقلية في آخر القرن السادس وعلى ما اخبر انَسْتاسيوس انتقل من هنا الى مدينة بينيفانتو في اوائل الجيل التاسع ويذكر الكردينال بارونيوس انهُ في السنة الثالثة والثمانين من المائة العاشرة للمسيح صار انتقالهُ الى مدينة رومية حيث دُفن في كنيسة مبنية على اسمهِ بجزيرة نهر التيفري ولا يزال مكرَّمًا هنالك

اليوم الخامس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس لويس ملك فرنسا

لا بدَّ لنا في استهلال ترجمة هذا القديس مقتدَى الملوك المسيحيين ان نهتف مع المرتّل قائلين الآن ايها الملوك افهموا وتأدَّبوا يا جميع قضاة الارض (مزمور ٢ : ١٠) لانهم اذا تأملوا سيرة القديس لويس يرون كيف يمكنهم ان يقرنوا فخر الدنيا بالاتضاع المسيحي والشجاعة في الحروب والحكمة في التدبير وبقية المناقب الطبيعية بالفضائل الفائقة الطبيعة

اعلم ان القديس لويس وُلد بمملكة فرنسا في السنة الخامسة عشرة من القرن الثالث عشر للمسيح في اليوم الخامس والعشرين من شهر نيسان وكان والدهُ الملك رجلاً عفيفًا غيورًا على الايمان الكاثوليكي طائعًا الكرسي الرسولي مناصبًا اراطقة عصرهِ الالبيين وبعد انتصارهِ عليهم انتقل الى جنة النعيم الدائم ولم يكن ابنهُ يومئذٍ الاَّ في عمر اثنتي عشرة سنةً. ولما كانت قوانين مملكة فرنسا حينئذٍ لا تسمح لأحد ان يتسلَّم زمام الملك ما لم يكن ابن خمس وعشرين سنة بقيت المملكة تحت سياسة والدتهِ الفاضلة التي كثيرًا ما كانت تقول لهُ قصدَ ان تربّي في قلبهِ مخافة الله عزَّ وجلَّ. اعلم يا ابني العزيز انهُ خيرٌ لك ان تموت من ان تسقط في خطيئة واحدة مميتة

لاجرم ان هذا التعليم المغروس في قلبهِ من أُمهِ المباركة صانهُ مدة حياتهِ كلها من كل خطيئة مميتة. واتفق يومًا في مخاطبتهِ اميرًا من اصدقائهِ الاعزَّاء ان سأَلهُ قال اخبرني يا صاح أيَّ الامرين كنت تختار لو اضطُررت اما الى ارتكاب خطيئة واحدة كبيرة واما ان يعتريك البرص. فاجاب الامير اني كنت اختار ان ارتكب مائة خطيئة مميتة ولا اريد ان يصيبني البرص. فاوغر ذلك صدر الملك فوبخهُ على جهلهِ قال لهُ اعلم لو انك تعقل جيّدًا سوءَ حال من ارتكب خطيئة كبيرة حتى غدا الله عزَّ شأنهُ يبغضهُ لاخترت ان تدركك جميع بلايا الدنيا ولم تُرد انك تكون مجرمًا لدى الله ولو بخطيئة واحدة مميتة. هذا ما كتبهُ الامير نفسهُ عن الملك مادحًا اياهُ بعد موتهِ على صلاح سيرتهِ

فلما بلغ السنة التاسعة عشرة من عمرهِ تزوَّج فتاةً فاضلة وعاش معها بكمال المحبة المسيحية ومنذ ذلك الزمن كان يمارس افعال التقشف بالصوم ولبس المسح وغير ذلك اما الصلوات فكان يحبها جدًّا غير ان رغبتهُ في رياضات العبادة لم تكن تنقص شيئًا مما كان يجب عليهِ من الاهتمام بتدبير امور المملكة. ومن ثمَّ لما تمرَّد عليهِ احد امراء المملكة واتحد مع ملك الانكليز ليحاربهُ ذهب للقاء عسكرها وانتصر عليهما وقبض على الامير وعلى امرأتهِ الاَّ انهُ غفر لهما واعاد لهما امريتهما. والحاصل انهُ بشجاعتهِ ورحمتهِ ارجع السلام الى المملكة. وكان بعد ذلك غلاء شديد في ثلثة اقاليم من بلاد فرنسا فأرسل

الى تلك الاقاليم كثيرًا من القمح واعطى المساكين منهُ كثيرًا

فشاع صيت لويس وانتشر خبر شجاعتهِ ومناقبهِ الحميدة حتى اتصل الى الممالك البعيدة وبلغ في الشرق الى شيخ الجبال المشهور بالقسوة فاشتعل حسدًا لهذا الملك العزيز فارسل جماعةً ليقتلوهُ فسافر رسل الموت ووصلوا الى فرنسا غير ان الذي كان قد ارسلهم تغيَّر بتدبير العناية الالهية نحو الملك القديس فرجع عن قصدهِ في قتل ملك معظَّم ممدوح من الجميع وبعد ما سافر المرسلون الاوَّلون أرسل غيرهم ليحذّروا الملك من الاوَّلين فوصل هولاء الى باريز قبل وصول اولئك الى فرنسا واخبروا الملك بما كان فلما وصل المرسلون الاولون لم ينتقم منهم الملك بل عاملهم بمحبة وأنعم عليهم وأرجعهم سالمين

ان بَلْدوينوس ملك القسطنطينية التجأ اليهِ في الضيق الذي اصابهُ من قِبل اعداء النصرانية فامدَّهُ الملك القديس بمبلغ وافرٍ في احتياجهِ ولذا ارسل لهُ بَلْدوينوس اكليل الشوك المقدس الذي تكلَّل بهِ السيد المسيح وقت الآلام فقبلهُ ذلك الملك المتورّع بغاية ما يكون من المهابة والوقار ووضعهُ في احدى الكنائس مع جزءٍ من صليبهِ تعالى وكان في كل سنة يوم الجمعة من الاسبوع العظيم يذهب الى تلك الكنيسة بثيابهِ الملوكية يجثو تجاه آلات آلام المسيح مكشوف الرأس حافي القدَم ويصلّي ثم يتقدم قليلاً ماشيًا على ركبتيهِ ويصلي ايضًا واخيرًا يدنو من الصليب المكرَّم ويُصلي برأس منخفض وعين باكية ويقبّلهُ بخلوص العبادة. ومما يبيّن للقارئ صدق ايمان هذا القديس ما يأتي وهو انهُ اتفق ذات يومٍ فيما كان احد الكهنة يقدّس في هذه الكنيسة ان ظهر سيدنا يسوع المسيح في القربانة بشكل طفلٍ جميل المنظر فاجتمع جميع الناس ليعاينوا هذه الآية واخبروا بها الملك القديس ليأتي هو ويراها فلم يُرد ان يمضي وقال انهُ لا حاجة لي الى مشاهدة مثل هذه الاعجوبة اني أُومن بحقيقة وجود ابن الله تعالى في القربان المقدس

فعزم هذا الملك القديس على محاربة اعداء الايمان المسيحي ففي السنة الرابعة والاربعين من المائة الثالثة عشرة للمسيح اصابهُ مرض فنذر حينئذٍ ان يصلي نار الوغى وتزيّن بعلامة الصليب المقدس فاخذ يجمع جنودهُ وسافر في السنة الثامنة والاربعين من القرن الثالث عشر الى دمياط وعند وصولهِ اليها انتصر على العدوّ مرَّتين اولاً في دمياط التي اخذها ثانيًا في وسط الاراضي على شاطئ نهر النيل الاَّ ان الانتصار الذي زاد عبادة الملك زج اكثر الجيش في حمأة الرذائل ومن ثمَّ انتقم الله منهم ضربهم بالوباء فمات اكثرهم ثم وثب الاعداء على ما بقي من العسكر وظفروا بهم واستأسروهم جميعهم مع الملك نفسهِ وقد استبان حينئذٍ اصالة التقوى في هذا القديس بحيث لم يظهر منهُ ادنى اثر حزنٍ او ضجرٍ او خوفٍ واذ طلب منهُ سلطانهم لعقد الصلح ان يسلّم لهُ كل مدن فلسطين التي كانت بعدُ بيد المسيحيين ومبلغًا وافرًا من الدراهم لاطلاق سبيلهِ اجابهُ ان المدن المذكورة لا سلطة لي عليها اما الدراهم فلا أُعطي شيئًا منها فداءً عن نفسي بحيث ان ذلك مخلٌّ بشرفي بل اعطيها فداءً عن قومي المأسورين معي اما شخصي الملوكي فافديهِ بتسليم مدينة دمياط لا غير . ولما رآهُ السلطان ثابتًا على قولهِ هذا ولا يقبل غيرهُ اتفق معهُ على ذلك ثم بعد ما قُتل السلطان المذكور من امراء جيشهِ طلب هولاء الى ملك فرنسا ان يثبت عقد الصلح بيمينٍ يخالف اعتقادهُ وديانتهُ فأبى ذلك مع ان الاعداء وثبوا عليهِ مرارًا كثيرة بسيوف مجرَّدة ليلزموهُ بما لم يكن جائزًا فلم يضطرب البتة ولم يتغيَّر عزمهُ وليس هذا فقط بل انهُ في حال اسرهِ كان يمارس كل رياضات عبادتهِ ولم ينقص شيئًا البتة من تقشفاتهِ . فتعجب الاعداء من شجاعة لم يروا مثلها قط وتشاوروا في ان يقيموهُ سلطانًا عليهم بل خافوا من ان يحوّل مجامعهم كنائس لديانتهِ فارتضوا اخيرًا بما كان وعد بهِ سلطانهم واطلقوهُ سالمًا مع بقية عسكرهِ

فسافر الملك مع عسكرهِ الى بلاد فلسطين ونزل في عكاء وبقي هناك وجعل يشجّع المسيحيين ويساعدهم في حاجتهم خاصّةً في تحصين مدنهم يافا وعكاء وصيدا وبعد خمس سنين لخروجهِ من فرنسا بلغهُ ان والدتهُ قد ماتت. فرجع الى فرنسا ولما رأى ان خطيئة التجديف قد ظهرت وفشت فيها امر ان تثقب شفة من يجدف بجديد محمي ولأن الذي امسكوهُ اولاً لاجل هذا النفاق كان رجلاً معتبرًا بكثرة غناهُ مضى كثيرون الى الملك وتوسّلوا اليهِ من اجلهِ وتشفّعوا فيهِ بالحاح اما الملك فلم يُشفّع احدًا منهم بل امر بتعذيب ذلك المجدِف وحيث ان قومًا استغربوا ذلك قال لهم ياليت لي استطاعة ان استأصل التجديف من مملكتي

فأثقب شفتي بحديد محمى بكل خاطري . الاّ انهُ بعد ذلك بمشورة الحبر الاعظم اكليمنضوس الرابع وضع قانونًا جديدًا لهذا الشان امر بهِ ان يُحكم على المجدِّفين اما بدفع مبلغ من دراهم او بالسجن والجلد بحسب حالهم وثقل تجديفهم

اما العدل فكان عندهُ من اعظم العبادات وابان حبهُ لهُ بانهُ بعد رجوعهِ من بلد فلسطين اخذ يجول في مملكتهِ ليتحقق بذاتهِ هل كان القضاة يحكمون بالعدل. وذكر عنهُ الامير المومأ اليهِ انفًا انهُ كثيرًا ما رآهُ جالسًا في غابة فينسان تحت شجرة يقبل كل من لهُ شكوى و يزيل بحكمهِ كل المخاصمات وكان يرسل الى حيث لا يستطيع الذهاب اناسًا حكماء عادلين ليوفوا عما جرى من الظلم على اسمهِ او اسم المرحوم ابيهِ الملك فيلبس

ولا ريب ان فصلهُ الخصام الذي وقع بين اخيهِ الامير دانجو وواحد مأمور بهِ دليلٌ كافٍ على اعتنائهِ باجراء العدل لانهُ بعد ما حكم القضاة في هذا الامر مراعاةً لخاطر الامير ونادى المحكوم عليهِ بان يرفع دعواهُ الى الملك وقد امر الامير بان يقبض عليهِ و يُلقى في السجن استدعى الملك اخاهُ ووبخهُ على صنيعهِ المغاير العدل والرحمة والزمهُ بان يُطلق مامورهُ واختار هو قضاة حلفهم بان يحكموا في الامر بالعدل ولا يراعوا احدًا فصار كذلك وصدر الحكم على الامير اخي الملك

وكان الملك لويس يزداد في البرّ يومًا فيومًا . ذلك ولم يكن يكتفي ان يسمع كل يوم قداسًا واحدًا بل قداديس كثيرة بهيئة ملئكية وفضلًا عن الاصوام الكنائسية كان يصوم صوم الميلاد وكل يوم جمعة على مدار السنة على نحو صوم الاربعين . اما برامونات اعياد السيدة فكان يصوم فيها على الخبز والماء فقط وفي صوم الاربعين والميلاد كان يمتنع عن السمك والفواكه وفوق ذلك كلهِ كان يلبس المسح دائمًا . ثم انهُ كل يوم سبت كان يجمع نحو مائتي فقير و يغسل ارجلهم ويقبلها ثم يتصدَّق عليهم وداخل بلاطهِ يعول كل يوم مائة وعشرين مسكينًا ولا يجلس على المائدة الاّ مع جماعة منهم ولشدة اهتمامهِ بمساعدة الشعب في حاجاتهم لُقّب بابي الشعب

وقد ساقهُ روح الرحمة الى محاربة اعداء المسيحيين ثانيةً فسافر الى بلد تونس بعسكر وعند نزولهِ على الشاطئ حارب العدوَّ وبدَّد شملهُ الاّ ان الله تعالى الذي لا تستقصى تدابير احكامهِ سمح ايضًا بحدوث وباء في عسكرهِ فضرب الملك نفسهُ وابنهُ الصغير. ولما شعر باقتراب الموت استدعى فيلبس بكرهُ وقال اصغَ يابنيَّ لتعليم ابيك ووصيتهِ الاخيرة احبَّ الله تعالى من كل قلبك اذ بدونهِ عزَّ اسمهُ لا نقدر ان تصنع شيئًا وفضّل موتك بارًا على حياتك اثيمًا. واذا اصابك مرض او بُليت بمحنة فاقبل ذلك بخضوع وشكر لعلمك بانك كنت تستحق اعظم من ذلك لاجل خطاياك . واذا منَّ الله عليك بحسناتهِ فاشكرهُ عليها بتواضع . واحذر من ان يصيّرك النجاح الزمني متكبرًا . ثم انني أُشير عليك ان تختار لك معرِّفًا من الالبّاء الانقياء يهتم بتعليمك وارشادك وأكثر من الاعتراف لهُ وكن منقادًا لمعرّفك ومسايرًا لاصحابك بحيث اذا نصحوك لا تغتاظ منهم وملِ الى حضور الصلاة الكنائسية وليكن حضورك فيها بادب ومهابةٍ واصغاء وايّاك ان تتكلم في الكنيسة ولو كلمة واحدة بطالة لانهُ ينبغي ان يكون احتشامك الظاهر شاهدًا لايمانك . أُوصيك أن تكرم والدة الله احسن اكرام وتترفق بالفقراء ومتى اشتد عليك الحزن فاكشف قلبك اما لمرشدك الروحي او لرجل آخر نظيرهِ . أكثر من مخاطبة اهل التقوى والفضيلة ولا تأذن لأحد أن يتكلم امامك بما هو خارج عن الاداب وعذب بقساوة المجدفين على الله تعالى المزدرين باوليائهِ الكرام واذا جلست على عرش المملكة فتأمل كثيرًا وأمعن النظر في واجبات رتبتك وتعلمها جيدًا. وكن في كل اقوالك وآرائك عادلًا متجنبًا كل حيلة ومتنكبًا عن كل دهاء والتباس. ولا تؤخر فعل ما أنت ملتزم بهِ ولو دقيقة واهتم بان لا يُظلم اكليريكي. أحبَّ الرهبان وأحسن اليهم وتدرَّب بتعليم الملك فيلبس جدّي الذي كان يقول انهُ ينبغي للملك ان يتغاضى عن انحرافات الاكليريكيين لئلا يسبب شكًا بمقاومتهِ اياهم بشدة. واكرم الكنيسة الرومانية جدًّا واحترم سيدنا البابا كل الاحترام واطرد من مملكتك كل المبتدعين ولا تنفق المال في الباطل ولا تكلّف الرعية ضرائب ظلم. واما بعد موتي فاطلب من كهنة كل كنيسة ومن رهبان كل أديرة المملكة ان يقدموا من اجلي ذبيحة القداس هذا واني اسأل سيدنا يسوع المسيح ان يحفظك بنعمتهِ ويثبتك في عمل الخير واتوسل اليهِ ان يجمعني وايّاك في جنة الخلد حيث نراهُ ونباركهُ ونعبدهُ الى ابد الابدين

ولما فرغ الملك القديس من توصية ابنهِ وجه كل افكارهِ الى الموت . فتناول القربان المقدس بعبادةٍ محضة ثم لبس مسحًا طويلًا على جسدهِ وامتد على فراش من رماد وفيما

هو يصلي قائلاً اني سادخل الى بيتك يارب واسجد في هيكل قدسك فقرّب ايقونة يسوع المصلوب الى فمهِ وانتقل الى رحمة ربهِ في اليوم الخامس والعشرين من شهر آب سنة سبعين من القرن الثالث عشر وبعد وفاتهِ وصل الى البلد اخوهُ كرلوس ملك صقلية ومعهُ جيشهُ ووجد الملك القديس قد مات فاعتنى هو وابن الملك بتجنيزهِ بكل اكرام وعلى مقتضى العادة في ذلك الزمان وضعوا جسدهُ في خمر وماء مغلي حتى ينفصل اللحم عن العظام اما اللحم والاحشاء والقلب فارسلها ملك صقلية الى مملكتهِ اما العظام فلم ترد الجنود ان تُرسل الى فرنسا بل ارادوا ان تبقى في المعسكر محاماةً عنهم . اما العدو فاغتنم الفرصة وجمع جنودهُ وهجم على العسكر الفرنساوي لكن هولاء الشجعان بعد ان دفنوا الملك قاوموا العدو وانتصروا عليهِ انتصاراً كليًّا وألزموهُ بطلب الصلح وكانت شروط المصالحة ان صاحب تونس يطلق جميع المسيحيين الاسرى ويأذن لهم في اعمال ديانتهم وبناء الكنائس ولا يمنع المسلمين عن الاعتقاد بالايمان المسيحي اخيراً ان يدفع كل سنة جزيةً لملك صقلية اخي القديس لويس . وكان هذا انتهاء آخر الحروب الصليبية . فرجع العسكر الى فرنسا ومعهُ عظام القديس لويس التي كرّمتها الشعوب وكانت ترافقها معجزات كثيرة في شفاء المرضى

اليوم السادس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس زفيرينوس البابا

ان هذا القديس وُلد برومية في نصف القرن الثاني ولم تخبرنا كتب المؤرخين عن شيء فعلهُ قبل جلوسهِ على عرش الخلافة البطرسية غير ان الله تعالى اظهر سموّ برّهِ باعجوبة ألزمت المؤمنين ان يجلسوهُ على الكرسي الروماني بعد ان استأثرت رحمة الله بالقديس فيكتور في السنة الثانية بعد المائتين . لانهُ حينما كان المؤمنون يطلبون الى الله تعالى ان يقيم لهم حبراً مستحقًّا حلّ الروح القدس علانيةً بشكل حمامة على هامة القديس زفيرينوس (١) فاختارهُ المؤمنون حالاً واقاموهُ على الكرسي البطرسي

(١) حاشية . هذا ما قالهُ روفينوس في تاريخ الكنيسة كتاب ٦ فصل ٢١ اما اوسابيوس فيذكر ذلك في كتاب ٦ فصل ٢٩ من تاريخهِ قال انهُ حدث في انتخاب القديس فابيانوس

وكان ساوروس قيصر يضطهد حينئذٍ المؤمنين بكل ما وصلت اليهِ قوّتهُ وبقي هذا الاضطهاد مدة تسع سنين وفي كل هذه المدة لم يزل القديس زفيرينوس يفتقد المؤمنين في بيوتهم وسجونهم محثًّا اياهم على الثبات في ايمانهم موزّعًا عليهم الاسرار المقدسة بل كان برافقهم ايضاً الى المشهد مزدريًا بخطر الموت لكي يحفظ الخراف المستودعة لهُ . فتوفّي الملك ساوروس سنة احدى عشرة ومائتين وبموتهِ استراحت الكنيسة قليلاً

ولكن قام على الكنيسة حينئذٍ كثيرٌ من المبتدعين ومنهم تبّاع تاودوتوس الذي كان قد حرمهُ البابا فيكتور القديس . اما تاودوتوس فكان دبّاغًا جحد النصرانية ثم زاد على اثمهِ اثمًا حيث لما رأى المؤمنين يوبّخونهُ على كفرهِ أراد ان يبرّئ نفسهُ فانكر والعياذ بالله الوهية سيدنا يسوع المسيح وعلّم جهراً ان المسيح ليس هو الاّ انسانًا أقدس وأطهر من بقية الانام ولكنهُ ليس الهًا وان كان قد حُبل بهِ من روح القدس . فاتى هذا المنافق رومية وزرع هناك زوان بدعتهِ فتمسّك بها بعض الرومانيين فقاومهم القديس زفيرينوس بغيرةٍ متّقدةٍ

ثم وجّه سهام المقاومة الى مبتدع آخر يقال لهُ براكسياس وُلد باسيّا. فبراكسياس هذا كان من أشياع مونتانوس الدنس التعليم والقبيح السيرة ثم رفض بدعتهُ وسقط في بدعة اخرى فانكر الثالوث الاقدس وقال ان الآب الازلي هو الذي تألّم وصُلب ثم ارعوى عن غيّهِ ورجع بواسطة القديس زفيرينوس ولكنهُ لم يثبت على الهدى بل عاد كالكلب الى قيئهِ ومات في بدعتهِ . غير ان القديس تعزّى بتوبة رجل آخر معتبر بين تبّاع تاودوتوس المارّ ذكرهُ يُقال لهُ ناتاليس كان قد بقي زمانًا مديدًا يقاوم القديس زفيرينوس الذي اجتهد ليردهُ عن ضلالهِ لانهُ كان هذا اولاً احتمل أعذبةً شديدةً حفظًا للايمان الصحيح ثم خدعهُ قوم من الاراطقة حتى انهُ كان ارتضى ان يرتسم اسقفًا على يد الاراطقة ويعيش مما كانوا يقدمون لهُ كل شهر وكان ذلك شيئًا كثيراً . وبينما هو على هذه الحال اذ بملَك هبط من السماء وجلدهُ جلدًا عنيفًا . ولا جرم ان قساوة الله هذه الكلية الرحمة نبّهت ناتاليس على ارطقتهِ فرذلها جهراً امام المؤمنين وثبت في الايمان الكاثوليكي

فسمع ترتوليانوس ان البابا القديس قَبِل ناتاليس في الكنيسة وشركةً في صلواتها واسرارها بعد تتميمهِ قوانين التوبة المرسومة فاستغرب هذا الحنوّ الابوي وكتب ضدّ

الحبر الاعظم ولكنَّ ترتوليانوس ما لبث ان وقع في اضاليل مختلفة بحيث انقاد الى كثير من المبتدعين. ولم يُعرف هل ارتدَّ عنها قبل موتهِ ام لا. اما القديس زفيرينوس فاستمر محاربًا الاراطقة في كل مكان مدة ست او سبع عشرة سنة ومات على عهد الملك البوغابلوس في اليوم السادس والعشرين من شهر آب في السنة الثامنة عشرة او التاسعة عشرة من القرن الثالث للمسيح

اليوم السابع والعشرون
وفيهِ ترجمة القديس بيمين السائح

ان القديس بيمين الذي أضاء كمصباح وهَّاج بين آباء البريَّة زهد واعتزل عن الناس نحو السنة الخامسة والثمانين من المائة الرابعة وانفرد في بريَّة الاسقيط بمصر حيث تبعهُ اخوتهُ الستة الذين اذ تأثروا بقدوتهِ وقوة احاديثهِ اضطرموا شوقًا الى الكمال واما اسماؤهم فهي أنوب وبايز وسمعان وألون ونسطور الملقب منذ القديم بالناسك وسارماص الشاب

اما بيمين فكثيرًا ما كان يقضي عدَّة ايام متتابعة وبعض الاحيان اسبوعًا كاملاً بدون ان يتناول قوتًا لكنهُ كان يُشير على الآخرين بتخفيف الاصوام ولا يدعهم يقضون يومًا بدون أكل وكان يمنع الرهبان من استعمال الخمر وينهاهم عن طلب كل ما يملّق الحواس وكان يقول ان اللذة الشهوانية تطرد من القلب الندامة وخوف الله كما يطرد الدخان النحل فرائحتها تخمد النعمة وتنزع عن النفس التعزية وحضور الروح القدس ايضًا

اعلم انهُ كان في صبائهِ يُكثر من زيارة الشيوخ لكي يستفيد من آدابهم وخبرتهم ولم يضجر من تأمُّل قول الانبا موسى. يجب ان يكون لخادم الله دائمًا قلب منسحق بالندامة ولا بد ان يخشع كل التخشع لاجل ذنوبهِ ويراها دائمًا امام عينيهِ على انهُ لا بدَّ حينئذٍ من ان لا يفتكر ابدًا في زلَّات القريب ولا يحكم على احدٍ ما لم يُفوَّض لهُ ذلك اما من باب المحبة واما للقيام بواجبات وظيفتهِ

ان البرابرة أغاروا على بريَّة الاسقيط سنة خمس وتسعين وثلثمائة فانسحب مع اخوتهِ الى تيرينوث بالقرب من هيكل قديم للأوثان واقام هناك عدة اعوام يسوس جماعتهُ القليلة بمساعدة أنوب اخيهِ وكان احدهما يكرم الآخر اكرامًا عجيبًا اما الليل فكانوا يقسمونهُ الى ثلثة اقسام صارفين اربع ساعات منهُ في الشغل واربعًا في الصلاة وترتيل المزامير ويرتاحون في الاربع الباقية واما في النهار فكانوا يشتغلون الى الساعة السادسة ثم يقرأون الى الساعة التاسعة ثم يجمعون البقول ليقتاتوا بها

ولما كانوا بالقرب من معبد الاصنام المومأ اليهِ جرت واقعةٌ غريبة مذهلة كما في الكتاب الخامس من تراجم السيَّاح وهي انهُ كان في ذلك المعبد صنم احد الآلهة الكَذَبة فاخذ انوب يلطم الصنم ويضربهُ على رأسهِ ويرشقهُ بالحجارة اما بعد فجثا لهُ بتذلل طالبًا منهُ الصفح والغفران. فتعجب بيمين من فعل اخيهِ وسألهُ عن السبب اجابهُ انوب اني اسألك ايضًا هل رأيت الصنم مغتاظًا حين كنت الطمهُ واضربهُ او مشروحًا اذ كنت اطلب منهُ الصفح قال بيمين لا وكيف كان يمكنهُ ايضاح ذلك وهو صنم اجاب انوب فعلى هذا المنوال يا اخي يلزمنا ان نصير مثل هذا الصنم لا نشعر بالاهانات ولا بالكرامات لا يحزننا الذمّ ولا يفرحنا المدح

فبناء عليهِ لم يتصرَّف القديس الأ على مقتضى هذه القاعدة الخلاصية فكان اصمَّ لا يسمع ما يقال عنهُ واعمى لا يلتفت الى نقائص القريب واخرس لا يتكلم فيها ولا يحكم عليها بل يترك الحكم لله وحدهُ. ومن اقوالهِ المشهورة انهُ لا يجوز ان يُحتقر انسان ولو أُبصر مرتكبًا اعمالاً شنيعة على انهُ وان كان يتضح من ذلك فساد قلب ذلك الانسان يلزمنا لا ان نزدري بهِ بل ان نعترف باننا ضعفاء مثلهُ فيمكن ان نفعل ما هو شرٌّ منهُ ونقرَّ ايضًا بان عدم فعلنا اياهُ انما هو من رحمة الله التي تسبقنا وتحرسنا من ارتكاب القبائح. ومن اقوالهِ ايضًا ان من لا يكشف نقائص الغير يستحق بذلك ان الله تعالى لا يكشف ذنوبهُ لاننا بالكيل الذي نكيل يُكال لنا

اما بيمين فكان يجتنب كل ما يسبّب لهُ اقلَّ لهوٍ ويذكرهُ في الدنيا التي تركها ولما اتت امهُ لتراهُ عند ما كان في مصر السفلى قال لها بدون ان يفتح باب غرفتهِ أتحبّين ان تريني دقيقةً الآن او تكوني معي الى الابد في العالم الآتي فلا جرم انكِ ستتمتَّعين بسعادة السماء اذا قاومتِ الآن رغبتكِ. اما امهُ فلما سمعت هذا الكلام ذهبت بفرحٍ قائلةً اني ارفض لذة رؤيتك على الارض لكي اتحقق سعادة التمتُّع بمصاحبتك

في السماء

وعلى هذا الاسلوب تصرّف مع والي الاقليم الذي أَلحّ عليهِ ان يزورهُ . وحدث الامر على الوجه الآتي وهو انهُ ذهبت اليهِ شقيقتهُ متوسلةً اليهِ بلسان الغير ليتوجه الى حاكم البلد ويترجاهُ في اطلاق ابنها من الحبس لان الحاكم كان اكد انهُ يطلقهُ ان حضر اليهِ بيمين لانهُ كان مشتاقًا الى ان يراهُ ويتفاوض معهُ. فلما عرف القديس مجيء اختهِ والداعي اليهِ ارسل احد ارفاقهِ يقول لها ان بيمين ليس لهُ بنون في العالم ولا يريد ان يتوجَّه الى الحاكم. اما هذا فلما سمع جواب القديس لاختهِ قال فان كان كذا فليأمر بيمين بكلمة واحدة وانا اطلقهُ وأُرسل من يخبر القديس بذلك. فقال القديس للحاكم افحص عن امر ابن اختي فاذا وُجد مذنبًا فليقتصَّ منهُ بحسب الشريعة والاَّ فليفعل بهِ ما يشاء . فتعجب الحاكم من فضيلة القديس واطلق الشاب

ثم رجع الى بريَّة الاسقيط عندما ظن انهُ يقدر ان يتم ذلك بدون خطر لكنها البرابرة هجموا هجمةً جديدةً فاضطُرَّ ان يخرج من تلك البريَّة مع القديس ارسانيوس في السنة الثلثين من القرن الخامس ولما وجدهُ ذات يوم الأَب اسحق مخطوفًا بالروح سألهُ عندما رآهُ راجعًا الى نفسهِ . ماذا اصابك . اما بيمين فلم يقدر ان يقاوم الحاج صديقهِ ولذلك قال لهُ كنت بالروح مع والدة الله بازاء الصليب وكنت اودُّ لو استطيع ان ابكي دائمًا على هذا النمط نفسهِ

ذلك وتعالَ الان نذكر بعض ما هو مشهور من اقوال هذا الرئيس القديس . قيل ان أَحد الاخوة ارتكب زلَّةً فتعهد للرئيس انهُ يُريد ان يكفّر عنها باماتة ثلث سنين فقال لهُ اذ أَخاف ان لا نثبت على هذا المقصد يجب ان نرضى باماتة ثلثة أَيام وتعملها بحرارة . وقيل ان آخر من الاخوة جاء يستشيرهُ في الوسائط التي يستعملها لينجو من تجربة شديدة وقويَّة فامرهُ ان يبعد عن مسكنهِ مسافة ثلثة ايام وثلث ليال ويصوم كل يوم حتى المغرب مدة سنةٍ

وقيل ان راهبًا كان متعذبًا جدًّا من افكار التجديف وكان غالب الاوقات يذهب اليهِ لكن أَتى عليهِ زمان طويل ولم يجسر ان يكلمهُ في ذلك اما القديس فاذ لح منهُ ذلك رغبةً في ان يظهر لهُ تعبهُ فما بادر الاخ الى ذلك الاَّ ارتاح من التجربة فعزاهُ بيمين بلطافة واشار عليهِ ان يقول للمجرّب اذا وسوس اليهِ بمثل هذه الافكار ان تجديفك يقع عليك واما انا فلا آخذ جزءًا منهُ بحيث ان قلبي يبغضهُ

انهُ في ذات يوم جاءهُ رجل من سورية وسأَلهُ اي دواءٍ أَنفع لصلابة القلب فاجابهُ الحرارة في الصلاة والمواظبة عليها أَلا ترى ان الماء اذا نزل نقطةً فنقطةً يخرق اصلب الصخور وكذا كلام الله اذا وقع في قلوبنا شيئًا فشيئًا ينتصر بالتمادي على قساوتها فاذا أُضيف الى الصلاة استعمال الامانة نجو من صلابة القلب ولا ريب اننا نفوز بالتخشع او على الاقل ندرك فوائدهُ اذا تأَسفنا باتضاع على عدم حصولنا عليهِ

ان القديس بيمين اذ كان يحثُّ الاخوة بقوةٍ على ان يشتركوا غالبًا في الاسرار المقدسة اراد انهم يرغبون في التناول بحرارة كحرارة الظبي الظمآن شوقًا الى ينبوع الماء الحيّ . ولذا وقال قد لُحِظ ان الظباء بعد ان تفترس الأَفاعي في البراري تلتهب بالنار الناشئة عن سمها فتطلب الماء لكي تبرّد غليلها وهكذا الامر في نفوسنا فلا نقدر ان نجتاز بادية هذه الدنيا بدون ان نبتلع شيئًا من سمها ولا ننجو من ذلك الاَّ بالمبادرة الى تكرار تناول جسد المسيح ودمهِ

انهُ اعطى تلاميذهُ هذه القاعدة وهي لا تطلبوا ابدًا ان تجروا على هواكم فالجدير بكم ان تجتهدوا في ان تغلبوهُ وتُخضعوهُ لارادة الغير حيث لا جرم ان الذين يحبُّون ان يجروا على مرادهم لا يحتاجون الى الشيطان لكي يجرّبهم فهم انفسهم مجرّبون أَشدَّاء . هذا وكان يقول انهُ لا يمكن ان يُطرد الشر بالشر : اذا فعل احدٌ معك شرًّا فافعل معهُ خيرًا لتغلب الشر الذي يفعلهُ معك بالخير الذي تفعلهُ معهُ . وأَضاف الى ذلك ما نصهُ ان المُقلق والمتذمّر والمتظلّم لا يستطيع احد منهم ان يكون راهبًا وكذا ذو الاميال الرديئة الشديدة ومن يجازي الشر بالشر . وكثيرًا ما كان ينصح اخوتهُ ان لا يكتموا التجارب في انفسهم قائلاً لا شيء أَحبّ الى العدو من ان يرى واحدًا مصرًّا على عدم اخبار رئيسهِ او مرشدهِ بتجاربهِ

وفي تراجم اباء البادية أَقوال أُخر كثيرة لهذا القديس ولا سيما في ما يتعلق بالصمت واحتقار الذات وضرورة ان تكون عيوب المرء دائمًا نُصب عينهِ بحيث ان ذلك يمنعنا ان نلاحظ عيوب الغير على قدر ما كانت تسمح لهُ واجباتهُ. وكان يقول ان الصوم والانسحاق يمنعاننا ان نرى زلاَّت الغير ولو كانت تظهر مسوغًا للذين يغفلون عن

خطاياهم. فلا ريب ان الذي يحكم على نفسهِ يقدر ان يعيش في كل موضع ويحتمل بصبرٍ كل الشتائم. وقال يوماً لراهب ان من يملك نقاوة القلب هذه التي بها تستحق النفس ان ترى الله هو مقتنع ان فساد قلبهِ قد جعلهُ اردأ من القَتَلَة انفسهم. اما اخوهُ انوب فأثبت هذا الحكم بقولهِ ان الدينونة التي يدين بها الانسان نفسهُ تحجب زلأت غيرهِ فليس الانسان عادلاً الاَّ متى حكم على نفسهِ. ان القديس بيمين كان يستعمل عادةً هذا التشبيه وهو رجلان كان لكلٍّ منهما صاحبٌ ميت في بيتهِ فذهب الواحد الى الآخر وكلاهما يبكي على جسم مَن حبيبهُ يتأسف عليهِ ومن ثم سبيلنا ان نشفق بعضنا على بعضٍ ونتأسف على زلأت القريب

ذلك وكان انتقال هذا الاب القديس الى رحمة الله نحو السنة الحادية والخمسين من الجيل الخامس للمسيح. وتُذكر ترجمتهُ في كتاب تراجم القديسين الروماني في هذا اليوم وكذا عند اليونان الذين يُلقّبونهُ بنور العالم وقدوة الرهبان (غودسكار)

اليوم الثامن والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس اغُستينوس

اننا قبل الشروع في الكلام نقول قد اخذنا ترجمتهُ على وجه الخصوص مما كتبهُ القديس بوسيديوس الذي عاصرهُ وعاش معهُ اربعين عاماً. ومما كتبهُ هو عن نفسهِ في كتاب اعترافاتهِ. فاعلم ان هذا القديس الذي هو اعظم معلمي الكنيسة وُلد في بلاد افريقيا بمدينة تاغاست في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني في السنة الرابعة والخمسين من القرن الرابع للمسيح. وكان ابوهُ رجلاً وثنياً يقال لهُ باتريسيوس وكانت والدتهُ القديسة مونيكا المذكورة ترجمتها في اليوم الرابع من شهر ايار. فلما كبر اغستينوس وصار قابلاً لتعلُّم اللغات ادخلهُ والدهُ المدرسة غير قاصدٍ الاَّ ان يكتسب ابنهُ بواسطة العلوم جاهاً ومالاً في الدنيا ولما بلغ من العمر ستّ عشرة سنة عزم والدهُ على ان يرسلهُ الى مدينة قرطاجنّة لكي يتمهّر هناك في علم البلاغة فاستمرّ سنةً كاملة في اعداد كل ما يلزمهُ لهذا الغرض

على ان الفراغ في تلك السنة زجّ اغستينوس في حمأة الدنس بحيث انهُ في ذلك الزمن عاشر شبّاناً اردياء قبيحي الخصال ادخلوهُ معهم في منهج الدَنَس وحيث كانوا يفتخرون بالقبائح شرع اغستينوس يفتخر بها ايضاً حتى انهُ كان يتبجح ويزدهي بان ينسب الى نفسهِ شروراً لم يأتِها وقبائح لم يتلطخ بها ومصداق ذلك قولهُ في كتاب اعترافاتهِ ونصّهُ كنت اخجل من عدم فعل الشرّ بوقاحةٍ منزّهة عن الحياء. بيد ان اباهُ الوثني كان متغاضياً كل التغاضي عن شرور ابنهِ وما كان يريد لهُ الاَّ ان يعيش بالعلم شريفاً وغنيّاً ولاجل ذلك ارسلهُ الى قرطاجنة كما مرَّ. اما والدتهُ القديسة مونيكا فواظبت على نصحهِ والصلاة ببكاءٍ لاجلهِ غير انهُ لم يرعوِ عن غيّهِ ولم يرتدّ عن الشرّ ولكن الله تعالى عزّاها بقول رجلٍ تقي لها ونصّهُ ثقي يا امرأة انهُ من الممتنع ان يهلك من تطلب والدتهُ توبتهُ وخلاصهُ بمثل هذه الدموع. الاَّ ان اغستينوس بقي يتمرَّغ في الادناس تسع سنين ولم يبرح مواظباً على تحصيل العلوم

هذا وبعد ان برع في علم البيان والفلسفة انشأ مدرسةً وعلَّم في مدينة قرطاجنّة وبما ان الزلّة تجرُّ زلة ومن شان فساد السيرة ان يُفسد الايمان تهوّر اغستينوس في البدعة ايضاً فذهب وراء ماني المبتدع وبقي في هذا الظلام تسعة اعوام الاَّ انهُ بواسطة البحث في مبادئ بدعتهِ اطّلع على بطلانها لاسيما اذ سمع فُستوس هامة تبّاع ماني يخطب امام محفلٍ غصّ بالناس حيث تحقّق ان عبارتهُ مؤلفة من الفاظٍ فصيحة لا معنى لها فحينئذٍ ترك بدعة ماني لكنهُ لم يرتدّ الى الايمان الصحيح بل بقي متردداً في آرائهِ

فغدا اغستينوس عند الجميع مشرَّفاً لسعة علمهِ بالفلسفة والفصاحة واذ كان ابن تسعٍ وعشرين سنة عزم على المضي الى رومية لعلّهُ يزداد هناك فخراً وغنًى وكان والدهُ توفّي بعد ان تعمّد. فلما شعرت والدتهُ بهذا ذهبت مسرعةً الى قرطاجنّة لكي تصدّهُ عن ذلك فلم يرتدّ عن مقصودهِ فعزمت على ان تركب سفينةً معهُ وتذهب الى رومية فاشار عليها اغستينوس من باب الاحتيال ان تمضي الى كنيسة القديس كبريانوس. فمضت وفيما كانت تصلي هناك ركب السفينة وسافر

فوصل الى رومية ثم اخذ يعلّم البيان وقد نال اعتباراً كبيراً وما مرَّ وقت طويل حتى جاء رسول من حاكم مدينة ميلان وطلب من حاكم مدينة رومية منطقيّاً ماهراً فارسل لهُ اغستينوس فذهب الى حيث كانت تهديهِ العناية الالهية لانهُ وجد هناك القديس امبروسيوس ولما تأمّل القديس اغستينوس عناية الله بهِ هتف قائلاً انك يا رب كنت تهديني

الى هذا الاسقف لكي يجذبني اليك . فابتدأ اغستينوس يحب القديس امبروسيوس لا كمعلّم الحق بل كانسان حكيم حليم . ولما كان هذا الاسقف يعظ الشعب كان يحضر ويصغي باجتهادٍ لا بروح العبادة وقصدِ معرفة الحق والخلاص بل بروح التفتيش ممتحنًا فصاحتهُ ومن ثمّ كان يوجّه كل فكرهِ الى مجرّد تميق الالفاظ متغاضيًا عن جوهر المضامين والمعاني ويحبث ان فصاحة القديس امبروسيوس عسلية لا غروان اغستينوس كان يستعذبها جدًّا وعلى هذا الحال ابتدأ يضيء لهُ النور رويدًا رويدًا

وفيما بدأ ينظر نحو الحق وصلت والدتهُ القديسة مونيكا الى مدينة ميلان وشرعت تحث ابنها على معاشرة القديس امبروسيوس واستماع نصائحهِ واما هي عليها السلام فلم تزل تصلي لاجل توبتهِ لانهُ كان حينئذٍ لا مبتدعًا ولا كاثوليكيًّا ولكنهُ كان مقيَّدًا بشراك اللذات الشهوانية وهو نفسهُ يقول انهُ كان يعدُّ حينئذٍ حفظ العفة شيئًا مستحيلاً . ثم اتفق بتدبير عناية الله تعالى ان اغستينوس زار كاهنًا شيخًا فاضلاً اسمهُ سِمبلسيانوس كان البابا دَماسوس ارسلهُ الى ميلان ليستفيد من تعليم القديس امبروسيوس وفي حين المذاكرة ذكر لهُ الشيخ كيفية توبة فيكتورينوس الذي كان وثنيًّا مشهورًا بالبلاغة في آفاق الدنيا كلها وكيف قضى حياتهُ في النصرانية بسيرةٍ حسنة فأثّر خبر توبتهِ في قلب اغستينوس

هذا وكان لاغستينوس صديقٌ مخلصٌ يقال لهُ اليبيوس وفيما كان عندهُ في منزلهِ دخل عليهما صديق لهما من الشرفاء يقال لهُ بونتيسيانوس فهذا شرع يقصُّ عليهما خبر القديس انطونيوس المعظم وكيف هجر الدنيا اثنان من اشراف بلاط الملك بعد قراءتهما ترجمتهُ وترهّبا . فلما مضى عنهما بونتيسيانوس قال اغستينوس لاليبيوس ما هذا يا صاح ها هوذا الأنام الجهلاء يختطفون السماء ونحن المفتخرين بالعلوم نستمرُّ على الارض دائبين فلِمَ لا نقتدي بهم قال هذا ثم خرج فدخل بستانًا حيث جثا تحت شجرة تين واخذ يتنهّد ويبكي قائلاً حتى متى يارب والى متى ولماذا أُوخر الى الغد ما يمكنني ان افعلهُ الان وفيما هو يهتف بهذا متأسفًا سمع هاتفًا قائلاً لهُ خذ واقرأ خذ واقرأ . ففتح كتاب رسائل القديس بولس فاذا بهِ قد وجد هذهِ الآية الكريمة لا تسلكوا طريق الشراهة والسكر والفواحش بل البسوا الرب يسوع المسيح ولا تهتمّوا بشهوات اجسادكم (رومية ١٣ : ١٤) وعند قراءتهِ هذا النصّ الرسولي اضاء لهُ نورٌ من السماء ومزّق غشاوة الظلام التي على عقلهِ واحسّ في قلبهِ بنعمة كبيرة غيّرتهُ بغتةً ثم كتب في ذلك ما مضمونهُ . قد نظرت اليَّ يارب بعين رحمتك ولما رأيت نفسي على شقاءٍ واثمٍ طهّرتها بنعمتك واستأصلت منها انعطافها الدنس . فياما اعمق الهوّة التي انتشلتني منها في دقيقة من الزمن وياما اسعد هذه الدقيقة التي حنيت فيها عنقي لنير شريعتك وكم فرحت نفسي في ترك كل ما كانت تميل اليهِ شهوتي . وكان رجوعهُ الى الحق في شهر آب او ايلول من السنة السادسة والثمانين من المائة الرابعة للمسيح ولهُ من العمر اثنتان وثلثون سنةً

فرجع القديس اغستينوس الى اليبيوس صديقهِ واخبرهُ بما جرى وأظهر لهُ عزمهُ المتين على التوبة فتبعهُ اليبيوس في هذا القصد الحميد وذهب كلاهما الى القديسة مونيكا واخبراها بتغيّرها العجيب . فحصل لها من الفرح ما يعزّ على القلم ان يصفهُ ولاسيما لما عرفت من ابنها انهُ عدل عن ان يتزوّج وانهُ يريد ان يختلي ليتأهّب لقبول سرّ المعمودية . ثم اعتزل بوالدتهِ وصديقهِ اليبيوس وغيرهما من تلاميذهِ واصحابهِ الى موضع قريب من مدينة ميلان حيث اقام مدةً من الزمن ممارسًا افعال التوبة ومتأملاً الحقائق الالهية . ثم كتب الى القديس امبروسيوس وابان لهُ افكارهُ ومقاصدهُ وطلب منهُ تعليمًا يجعلهُ مستعدًّا لقبول سرّ المعمودية وبعد ان خرج من خلوتهِ ذهب الى ميلان في ابتداء صوم الاربعين في السنة السابعة والثمانين بعد الثلث مائة للمسيح واعتمد بيد القديس امبروسيوس هو وصديقهُ اليبيوس وكان عمرهُ يومئذٍ ثلثًا وثلثين سنة

ثم سافر القديس اغستينوس بوالدتهِ قاصدَين العود الى وطنهما وفيما هما ينتظران في مدينة اوستيا السفينة استأثرت رحمة الله بوالدتهِ نفعنا الله بشفاعتها كما ذكرنا في ترجمتها في اليوم الرابع من شهر ايار . فعاد ابنها الى رومية ليسعى في هداية تبّاع ماني ويردّهم عن ضلالهم وبحيث كانوا يفتخرون بنقاوة سيرتهم الكاذبة صنّف ضدهم كتابين بيّن فيهما نقاوة الكنيسة الكاثوليكية وفساد مذهب ماني واحزابهِ . ثم ألّف كتابًا آخر أثبت فيهِ ارادة الانسان المعتقة . هذا واقام برومية نحو سنة ثم رجع الى افريقية حيث اختلى خارج المدينة مع بعض من

اصحابهِ وصرف هناك ثلث سنين مواظبًا على اصعب افعال التوبة ورياضات الصلاة المتواترة وتلاوة الكتاب المقدس وصنّف هناك كتبًا شتى

وفي اثناء ذلك اذا برجل شريف جدًّا من مدينة ببونا كتب الى القديس وطلب اليهِ باشدّ الالحاح ان يزورهُ فذهب القديس الى ببونا وبما ان خبر علمهِ وبرّهِ كان قد شاع وملأ الاسماع جمع فاليريوس اسقف تلك المدينة اعيان الشعب على اثر وصول اغستينوس اليها وبيّن لهم احتياجهُ الى كاهن يسعفهُ في خدمة النفوس واخبرهم بوصول اغستينوس واشار عليهم ان يختاروهُ ليكون عندهم كاهنًا فقبل الشعب مشورة الاسقف بطيبة خاطر وحينا دخل اغستينوس الكنيسة ليحضر القداس الالهي امسكوهُ وقدّموهُ للاسقف ليرسمهُ كاهنًا فافرغ كل جهدهِ ليبعد عنهُ شرف هذه الدرجة فما قدر وحيث ذلك التزم آخر الامر ان يقبل الارتسام غير انهُ قبل ارتسامهِ طلب من الشعب بستانًا كان من اوقاف الكنيسة ليبني فيهِ ديرًا فاعطوهُ فبني ديرًا وما لبث ان امتلأ من الرهبان الاجلاّء الاطهار ووضع عليهم قوانين فكان الفقر عندهم كليًّا والصوم والصمت متّصلين والصلوات متواترة وعلى موجب هذه القوانين يجري الى يومنا هذا كثيرٌ من الرهبان

اما فاليريوس الاسقف فلما تأمل ضرورة تعليم شعبهِ وتحقق اتساع علم القديس اغستينوس الزمهُ ان يعظ المؤمنين فصعد حينئذٍ الكاهن الغيور على المنبر وشرع يعظ وما كان الشعب ليرتووا من تعليمهِ بل كانوا دائمًا عطاشًا اليهِ مع انهُ كان يعظ اكثر الايام ولا جرم ان الناس استفادوا فوائد جليلة من مواعظهِ فلقّبوهُ برسول كلام الله . على ان غيرتهُ لم تكتفِ بهذه الاتعاب فكلّف نفسهُ تأليف الكتب ومن مؤلفاتهِ كتابٌ في فائدة الايمان وبهِ اصلح اشياء كثيرة في مدينة ببونا ثم جادل بحضور كثير من اجلاّء الناس فُرْتوناتوس اعظم علماء المانويّة وانتصر في هذا الجدال على ذلك العلاّمة المانويّ واقنعهُ امام الجمهور كلهم . وسنة ثلثمائة وثلث وتسعين حضر مجمعًا التأم في مدينة ببونا حيث كان اوريليوس اسقف قرطاجنّة متقدمًا وبمشورة آباء هذا المجمع أَلّف كتابًا في الايمان وقانونهِ وفي تلك السنة صنّف ايضًا كتابًا آخر ضدّ تبّاع ماني والدوناتيين وبالنتيجة اضحى حينئذٍ مقمعة المبتدعين جميعًا. وفي السنة الثانية اتحد القديس اغستينوس مع القديس ايرونيموس بمحبة خصوصية بواسطة اليبيوس صديقهِ الذي مضى ليزور الاماكن المقدسة حيث كان القديس ايرونيموس

وكان فاليريوس الاسقف قد طعن في ايامهِ فبرضا اوريليوس اسقف قرطاجنة وبقية اساقفة الاقليم اقام القديس اغستينوس اسقفًا مساعدًا له في شيخوختهِ وخليفتهُ بعد موتهِ فارتسم اسقفًا سنة ثلثمائة وخمس وتسعين وعند ارتقائهِ الى درجة الاسقفية قال اني ارى ارتفاعي الى مقام الاسقفية هذا علامة غضب الله عليّ. ولكن الكاثوليكيين فرحوا بذلك كما حزن الاراطقة ولا سيما الدوناتيين الذين كانوا يملأون بلاد افريقية فجعل يجتهد كثيرًا في ان يردّهم الى الايمان الحقيقي ويستدعيهم الى جدال جهري اما الدوناتيون فاشتعلوا حسدًا وحثّوا قومًا منهم ارديا السيرة يقال لهم سرقُمْسلّيونس اي طوّافو البيوت وحرّكوهم على محاربة الكاثوليكيين بالسيوف وكثيرًا ما اجتهدوا في قتل القديس الاّ ان الله تعالى انقذهُ من ايديهم فألّف لمنفعتهم كتابًا في المعمودية ووحدة الكنيسة

اما الملك اونوريوس فامر بان علماء الدوناتيين وعلماء الكاثوليكيين يجتمعون للجدال فالتأموا في مدينة قرطاجنة سنة اربعمائة واحدى عشرة وحضر من الكاثوليكيين مائتان وخمسة وسبعون اسقفًا ومن الدوناتيين مائتان وتسعة وسبعون اسقفًا وحضر ايضًا الجدال مرسلّينوس نائب الملك حتى لا يكون اضطراب ولا شجس . فقام القديس اغستينوس وجادلهم جدالاً مفحمًا وانتصر عليهم انتصارًا مبينًا بقوة البراهين القاطعة والادلة الساطعة فرجع اكثر الدوناتيين الى الايمان الصحيح

لا يخفى اننا قلنا ان هذا القديس كان قد بنى ديرًا وجمع فيهِ رهبانًا وكان يعيش معهم لكي يربي في نفسهِ روح الانفراد والنشاط وقد بنى ايضًا ديرًا آخر للراهبات ووضع عليهنّ قوانين حسنة جدًّا استعملتها فيما بعد اديرة راهبات لا يُحصى عددها

غير ان الله تعالى لم يدع هذا النور يضيء على بلاد افريقية فقط بل جعلهُ كوكبًا منيرًا على العالم كلهِ فحارب بكُتُبهِ الاريوسيين شرقًا وغربًا وأشياع اوريجانوس وبرسيليانوس . ثم ظهرت بدعة بيلاجيوس الذي وُلد ببلاد الانكليز يوم وُلد القديس اغستينوس ببلاد افريقية ولا غرو

ان السيد المسيح ما سمح ان يظهر عدو لكنيستهِ الاَّ اقام حالاً من يقاومهُ ولعمري انهُ بعد القديس بولس الرسول لم يظهر في كنيسة الله احد اثبت النعمة الالهية وعظَّمها كالقديس اغستينوس

كان بيلاجيوس ينكر وجود النعمة الالهية ويقول ان الانسان يستطيع بمجرَّد قوة اختيارهِ الطبيعي ان يربح حياة الابد فضلاً عن انهُ كان ينكر الخطيئة الاصلية . وسكن بيلاجيوس اديرة مصر حيث ابتدأ يزرع زوان بدعتهِ متظاهرًا بانهُ كاثوليكيٌّ فاضل ثم انطلق الى بلاد صقلية ورودس وبثَّ هناك بدعتهُ ونشر ضلالهُ ايضًا في بلدتهِ وفي ايطاليا واورشليم وافريقية غير ان الله تعالى المعتني بكنيستهِ اقام حينئذٍ ضدَّ هذه البدعة القديسين ايرونيموس واغستينوس اما القديس اغستينوس فقاوم بيلاجيوس بالكلام والكتابة مدَّة عشرة اعوام مثبتًا وجود النعمة الالهية وفاعليتها وضرورتها وحقيقة الخطيئة الاصلية وفساد الطبيعة البشرية وحقيقة ارادتنا الاختياريَّة وعجزها عن كل خيرٍ مفيد للخلاص دون نعمة السيد المسيح التي تسبق وتحثُّنا وتُسعفنا وتسعى معنا في كل فعلٍ خلاصيٍّ وأثبت ايضًا قضايا كهذه وقد مدحهُ جميع الآباء القديسين والعلماء اللاهوتيين ولقَّبوهُ باللاهوتي وبكوكب العلماء وزهرة المدارس وزينتها وعمود الكنيسة وترس الايمان الكاثوليكي ومِقمعة المبتدعين ولقَّبوهُ ايضًا بأقدس العلماء وأعلم الأولياء

وقد كتب اليهِ يومًا القديس ايرونيموس ما نصهُ : اني احترمت دائمًا ابوَّتكم المكرَّمة احترامًا جزيلاً واحببت جدًّا السيد المسيح الحالّ فيكم . الاَّ ان هذا الاحترام الجزيل قد ازداد كثيرًا وكذا حبي لك بحيث لا تمرّ ساعة واحدة من دون ان اذكرك واتكلم على حرارة ايمانك التي قاومت بها الرياح العاصفة المضادة وقد فاح طيب فضائلك في المعمورة كلها فيمدحك جميع الكاثوليكيين ويدعونك عاضد الايمان القويم ولا يخفى ان الذي يزيدك مجدًا وفخرًا ان جميع الاراطقة يبغضونك . والقديس بولينوس اسقف نولا قد كتب في رسالتهِ الى القديس اغستينوس انت الملح السماوي الذي ملَّح الله بهِ قلوبنا لئلا تفسد باباطيل هذا العالم . وانت المصباح الموضوع على منارة الكنيسة الذي يضيء لكل الكاثوليكيين ويمزّق سجاف الظلام الحالك الذي كان يُغطي فساد التعاليم . وفمك هو قناة الماء الحي وتشتهي نفسي كارضٍ يابسة ان ترتوي بمياه تعليمك

وقال القديس بروسبير ان القديس اغستينوس كان حاذق العقل ثاقب الفطنة ماهرًا في العلوم ولطيفًا في كلامهِ واديبًا في حركاتهِ وشجاعًا في خدمة الكنيسة لا يُبالي بالاهوال والمخاوف . ويحلّ المشكلات الدينية مضطلعًا وفي تفنيد آراء الاراطقة مقنعًا . وفي تفسير الكتاب المقدس صائبًا . وكفى بهِ شرفًا ما قال فيهِ المجمع المقدس التوليتاني الثامن انهُ كان يبحث عن الاشياء بحذاقةٍ وامعانٍ ويفسّرها بحكمةٍ وفصاحةٍ. والمجمع الفلورنتيني العمومي قد دعا القديس اغستينوس معلم اللاتينيين الجليل والقديس غريغوريوس المعظم قال ان اردتَ ان تتناول طعامًا لذيذًا فاقرأ كتب القديس اغستينوس فتجد ان خبزهُ انما هو خلاصة الحنطة وان خبزنا بالنسبة اليهِ انما هو من نخالة الحنطة . فهذا نزرٌ يسيرٌ مما قالتهُ الآباء في تعليم القديس اغستينوس

اعلم انهُ على تعظيم الجميع لهُ ومدحهم اياهُ كان صغيرًا عند نفسهِ ولا نكير فانهُ يخضع تصانيفهُ للغير ويطلب اليهم اصلاحها . ومن ثمَّ لما ارسل الى القديس ايرونيموس كتابًا من تآليفاتهِ ترجَّاهُ ان يقرأهُ بتأنٍّ ويصلحهُ بكل تدقيقٍ . ثم يقول لهُ صعبٌ جدًّا ان اكون على ما أَلَّفتهُ حاكمًا منصفًا. نعم اني اطلع احيانًا على زلاَّتي الاَّ اني اشتهي ان ينبهني عليها آخر افضل مني لاني حينئذٍ اعتقد اني واخصامي لم نتجاوز حدَّ الاعتدال في الحكم على تآليفي وانما حكمنا عليهِ بموجب الحق والعدل . فان كتبت انا شيئًا غير صحيح او اوردت شيئًا على سبيل الخطا فانصحني على ذلك لكي انتبه على زلاَّتي واتوب عنها. ولكن القديس اغستينوس اظهر جزيل اتضاعهِ بكتابين لم يؤلف نظيرهما احد من القديسين وقد سمى الاوَّل كتاب اصلاح غلط تصانيفهِ حيث يبحث عن كل ما أَلَّفهُ بعد قبولهِ سرَّ المعمودية ويحكم بالتدقيق على ما وجدهُ ناقصًا في المضامين والالفاظ . اما الكتاب الثاني الذي فيهِ اظهر القديس اغستينوس اتضاعهُ العجيب فهو كتاب اعترافاتهِ حيث يورد مفصَّلاً جراحات نفسهِ وخطايا حداثتهِ ابتغاء ان يظهر بذلك للعالم شرَّهُ ورحمة الله تعالى

فهذا هو الاتضاع العميق الذي عليهِ بنى القديس فضائلهُ الآتي ذكرها وهي انهُ كان شحيحًا بخيلاً على نفسهِ وكريمًا على

الفقراء بحيث كان يوزّع عليهم صدقات وافرة مما لهُ ومن دخل الكنيسة . الَّا انهُ لم يرد ان يكون هذا الدخل في يدهِ بل كان يسلّمهُ لأُمناء وهم كانوا يوزّعونهُ حسب امرهِ ثم يقدّمون لهُ حسابهم في آخر السنة . روى المؤرّخون ان رجلاً وقف على الكنيسة حقلاً وسلَّم القديس صكَّ الوقف غير انهُ ندم بعد ذلك على ما وقف على بيت الله وطلب من القديس الصك فردَّهُ اليهِ للحال ولم يوبّخهُ على ذلك . غير انهُ اعلمهُ بحلم ان رجوع الانسان في ما وهبهُ لله امرٌ قبيح ووراءَهُ اخطار . فتذمَّر قومٌ من المؤمنين من جرَّاء ذلك فوعظ القديس وأورد في تعليمهِ هذه الكلمات الذهبية قال . ان الذي يتغاضى عن احتياج بنيهِ ويريد ان يجعل الكنيسة وارثةً لهُ فليذهب الى غيري ويُقدّم اموالهُ لمن يريد ان يقبلها . حرمهُ الله ان يجد احدًا يقبلها منهُ . ثم ان سخاءَهُ نحو المساكين الزمهُ ان يبيع الآنية المقدسة لاجل ضرورتهم ولما كان يفرغ كل ما عندهُ وفي الكنيسة كان حينئذٍ يقول لأرباب الدولة انهُ لم يبقَ شيءٌ لاتصدَّق بهِ على المساكين فاعطوهم انتم الان او اعطوني فاعطيهم انا . وكان يقول احيانًا انهُ لا يليق بالاسقف ان يحتشد مالاً ويردّ الفقير الذي يطلب منهُ الاحسان خائبًا . ومثلهُ كان يقول معلمهُ ومرشدهُ الروحي القديس امبروسيوس ان الكنيسة تجمع المال لا لتخزنهُ بل لتتصدّق بهِ على الفقراء

هذا وماذا عسى ان اقول في ولوع هذا القديس بفضيلة العفة من بعد توبتهِ فانهُ بعد ان نالها من سيدنا يسوع المسيح ثابر على طلبها منهُ تعالى علمًا بانها هبةٌ من الله . وفوق ذلك كان يجتنب كل سبب عطب وشكّ ولهذا لم يأذن لعابدة ولا لامرأة ولو كانت اختهُ او من نساء اقاربهِ ان تقيم بدارهِ . ولم يقف عند هذا الحدّ بل انهُ لم يكن يخاطب امرأة في خلوة او على انفرادٍ البتة . اما الامر العجيب فهو انهُ على ذكاء عقلهِ وثقوب فطنتهِ بالعلوم الدقيقة وتروّضهِ بمجادلة الاراطقة في حلّ اصعب المشكلات الفلسفية واللاهوتية واغمضها التي من شأنها ان تبرّد حرارة العبادة وتُصلّب القلب عند الصلاة كان مع هذا كلهِ يمارس رياضة الصلاة بعواطف ليّنة تذيب القلب ولا ريب ان ذلك يتبيّن جليًّا لمن يقرأ كتاب تأملاتهِ وكتاب مناجاتهِ الله وكتاب اعترافاتهِ . لانهُ هناك يخاطب سيدنا يسوع المسيح قائلاً نحوهُ يا يسوع الحلو الصالح اضرم في قلبي نار محبتك لتغرق نفسي في هذا البحر الملتهب بحر لهيب محبتك الذي لا تقدر كل المياه ان تطفئهُ . انك انت يارب هو المحبة التي تلتهب على الدوام ولا تُطفأ ابدًا فاسألك ياسيدي الحلو يايسوع الصالح ان تُشعلني بنار محبتك لكي يرتاح قلبي الى التمتع بك بالشوق المقدس الذي يستأصل مني كل حبٍّ رديءٍ وخادع وانثبت نفسي على محبتك وفي على مخاطبتك وعقلي على الافتكار بك . وقال يومًا عند تأملهِ سرَّ تجسد المسيح ان من لا يعبدك لانك خالق فلا ريب انهُ يستحقّ جهنم ولكن من لا يعبدك بعد ان تأنست وتألمت لاجلهِ ومن اجل خلاصهِ فجزاؤهُ جهنم اشد عذابًا من الاولى

فلما بلغ القديس من العمر اثنتين وسبعين سنة ورأى ان قوّتهُ قد خارت وضعفت استعان على تدبير الكنيسة بكاهن واراد ان يكون خليفتهُ في كرسيهِ وعاش ايضًا اربع سنين مستعدًّا للموت وبينا هو على هذه الحال اذ بعسكر الوانداليين الآريوسيين حاصروا مدينة بيونا فتوسل القديس الى الله تعالى وسألهُ ان ينقذ رعيتهُ من اسلحة الاعداء او يُوليهِ الصبر الجميل ليحتمل هذا الشقاء او يقطع خيط حياتهِ حتى لا يرى رعيَّتهُ على شقاء . فاستجاب الله سبحانهُ طلبتهُ الاخيرة وفي الشهر الثالث للحصار اصابهُ مرض أليم عرف من شدتهِ انهُ داء المنيَّة فتناول القربان المقدس ثم طلب ان يُوضع امامهُ كتاب مزامير التوبة السبعة وجعل يتلوها بندامة ودموع كالمطر وما زال على تلك الحال حتى نقلهُ الله الى دار الاخيار في اليوم الثامن والعشرين من شهر آب عام اربع مائةٍ وثلثين للمسيح ولهُ من العمر ستٌّ وسبعون سنة قضى منها اربعين عامًا في خدمة الله كما عرفت مما مرَّ

اليوم التاسع والعشرون

وفيهِ تذكار موت القديس يوحنا المعمدان

ان الكنيسة تعيّد في هذا اليوم لموت القديس يوحنا المعمدان وكانت تسمّي موت هذا القديس قبل الجيل السادس آلام القديس يوحنا المعمدان ويوم ميلادهِ السماوي واما الآن ومنذ زمان القديس غريغوريوس الكبير فقيل لهذا العيد عيد قطع رأس القديس يوحنا المعمدان ومن حيث ذكرنا ميلادهُ وسيرتهُ الملكية في اليوم الرابع والعشرين من حزيران اقتضى الان ان نروي خبر وفاتهِ المقدسة فنقول . خبرنا الكتاب الالهي ان هيرودس الملقب انتيباس بن هيرودس

الملقب بالكبير الذي في عصرهِ وُلد المخلّص له المجد كان اختطف هيروديّا امرأة اخيهِ فيلبس بارتضائها ومن فعلهِ هذا وقع شكٌّ عظيم عند اليهود فخرج القديس يوحنا المعمدان من البريّة وذهب الى المدينة ودخل بلاط هيرودس ووبّخهُ عليهِ قائلاً له لا يحلّ لك ان تكون لك امرأة اخيك. فاغتاظ الملك جدًّا من هذا التوبيخ. ذلك فضلاً عن ان هيروديّا حرّكت نار غضبهِ فزادت التهابًا فاراد ان ينتقم من يوحنا فارسل واخذهُ وحبسهُ ومع قصدهِ في قتلهِ لم يفعل ذلك خوفًا من الشعب. اما القديس يوحنا فلم يسكت بل كان ينادي عليهِ دائمًا بانهُ لا يجوز ان تكون زوجة اخيهِ امرأةً له

فان شجاعة غيرة هذا البوق السماوي والصوت الصارخ اضرمت في قلب هيروديّا بغضًا لا يوصف فعزمت على قتلهِ ومن ثمَّ لم تألُ جهدًا في ان تغتنم فرصةً لبلوغ اربها وقد وجدت هذه الفرصة يوم تذكار مولد هيرودس حيث صنع هيرودس وليمةً عظيمةً لعظماء الجليل لانهُ في انتهاء تلك الوليمة ادخلت ابنتها سالومي التي كانت ابنة فيلبس فرقصت امام المحفل وأعجبت هيرودس برقصها جدًّا فقال لها اسأليني ما تريدين فاعطيكِ وحلف لها قائلاً اني اعطيكِ كل ما تسأليني ولو كان نصف مملكتي. فلما سمعت الصبية هذا اقبلت الى امها واستشارتها في ما تسألهُ فقالت لها هاتيك الامّ الرديئة اطلبي رأس يوحنا المعمدان على طَبَقٍ. فطلبت ذلك من الملك فحزن الملك ولخوفهِ الباطل من يمينهِ زاد على خطيئتهِ هذه خطيئةً اخرى اعظم منها فارسل جنديًّا وامر ان يُؤتى برأس يوحنا على طبقٍ. فقطعهُ الجندي في السجن واتى بهِ على طبقٍ وقدّمهُ للصبية والصبيّة قدّمتهُ لأمها. وقد ذكر القديس ايرونيموس ان هيروديا لما اخذت رأس يوحنا نخست لسانهُ بابرةٍ انتقامًا من توبيخهِ على زنائها

فهكذا مات اعظم مواليد النساء كما قال فيهِ الانجيل الشريف فمن لا يتعجب اولاً من احكام الله بان اعظم القديسين يُضطهد ويُقتل هكذا لاجل غيرتهِ للبرّ وخلاص النفوس وان راس نبيٍّ وافضل من نبيٍّ يُعطى جزاءً لابنةٍ رقصت. غير انهُ ينبغي لمن يستحوذ عليهِ هذا الذهول ان يرفع نظرهُ الى ابن الله المصلوب الذي وقع بين ايدي الأَثمة ومات من اجل حبهِ البرّ وخلاص البشر فالذي يتأمل ما اصابهُ له المجد لا يتعجب مما اصاب القديس يوحنا. اما الشيء الذي يجب ان نتأملهُ هنا ونتعجب منهُ فهو اعظم الشرور الناشئة من شهوة الزناء التي اعمت هيرودس وهيروديّا حتى ان هيروديا طلبت قتل انسان أجمع الناس على مدحهِ حتى انهُ مُدح بفم الله عينهِ ومع كل ذلك ارتضى هيرودس بقتلهِ

اعتبر الان انهُ قد تمَّ في القديس يوحنا المعمدان ما كان قد تنبأ عنهُ السيد المسيح حيث قال ليس بقصبةٍ تحرّكها الريح على انهُ لم يصدّهُ عن تتميم مقتضيات وظيفتهِ غيظ هيرودس وهيروديّا بل لم يزل يعظ ضدها جهرًا غير مبالٍ بخطر الموت ولانهُ كان قد أُرسل ليهيّئ الطريق للسيد المسيح لم يسدّ الخوف فاهُ بل اوضح الحق وتكلم بشهادة الله تعالى قدّام الملوك ولم يخزَ. وقد قدّم الله سبحانهُ هذا القديس مثالاً لمبشري الانجيل المقدس وللذين أُقيموا لرعاية الشعب انهُ فيما يخصّ مجد الله تعالى وخلاص النفوس يلزمهم ان يتجرّدوا عن كل خوفٍ ومداراةٍ وفطنة عالمية رديئة وانهم اذا دعت الضرورة فليموتوا لاجل البرّ ويحسبوا ذلك مجدًا وسعادةً. ولهذا قال القديس بطرس العسلي فمهُ موجهًا الخطاب لهيرودس الملك ان الموت حالٌّ فيك وانت فيهِ اما يوحنا فنال الحياة بموتهِ لان حياة الشهيد لا تزول بالموت بل تُبدل بحياة افضل منها ولا جرم ان موتهُ الزمني يزيد حياتهُ الابدية شرفًا: انهُ قد نُزع عنك البرفير والاكليل الملوكي وانتهت ولائمك اما يوحنا فلبس ثوب المجد الابديّ وجلس على مائدة ملك السماء بين الملئكة وهو يسمع الان الترانيم السمويّة واما انت فلا تسمع الاَّ ولولةً وصريف اسنانٍ

غير ان الله العادل عذّب في هذه الحياة نفسها هيرودس وهيروديا وابنتها بان هيَّج عليهِ اريتاس ملك بلاد العرب الذي كان متزوّجًا ابنتهُ وطلّقها ليتخذ امرأة اخيهِ زوجةً له فجمع عسكرًا وحارب هيرودس وانتصر عليهِ انتصارًا كليًّا. ثم لما سمعت هيروديّا ان هيرودس اغريبا سُمي ملك اليهودية اخذت تحث عاشقها لان يتوجّه الى رومية ليسأل كاليغولا القيصر الروماني ان يسمّيهُ ملك الجليل فسافر لكن كاليغولا اذ سمع انهُ يجمع جنودًا كثيرة شكَّ في تعصبهِ لأعداء المملكة وعزلهُ عن ولايتهِ ونفاهُ مع هيروديا الى ليون مدينة بفرنسا حيث هلكوا من شدة الشقاء

حاشية. روى نيكوفورس قال ان سالومي نُفيت مع امها ومشت يومًا على الجمد فانكسر الجمد تحت رجليها وفيما كانت عائمةً على

المياه لطمت قِطع الجَمَد عنقها فانقطع رأس تلك التي لاجل رقصها قُطع رأس القديس يوحنا. لكن لا اثر لهذه الرواية في تآليف القدماء من الاباء فضلاً عن المؤرخين بل انها لا توافق ما قال مؤرخون آخرون عن سالومي انها تزوّجت اولاً بفيلبس ابن زوجة هيرودس الاولى ثم مات فتزوّجت بارستوبولُس عمها وتوفيت في سورية (راجع ما قالهُ البلاند يستيون في هذا الصدد في اليوم الرابع والعشرين من حزيران في مقدمة ترجمة القديس يوحنا المعمدان في الفصل الثاني

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس ميدريكيوس

ان مولد هذا القديس كان في اتون مدينة بفرنسا في انتصاف الجيل السابع للمسيح وهو من اشراف تلك المدينة وقد مرّنهُ والدهُ منذ الصِغَر على ممارسة الفضائل فلما بلغ السنة الثالثة عشرة من عمرهِ عزم على الاعتزال عن الناس ليتجرّد للاهتمام بما لله تعالى فطلب اذنًا من ابوَيهِ ليتمّم قصدهُ هذا. اما والداهُ فجعلا يقولان لهُ انت الان صغير وان الرهبانية لا تناسب مزاجك وان امر الخلاص لا يقتضي الفرار من معاشرة الناس فسكت ميدريكيوس احترامًا لأبويهِ الاّ ان نفسهُ لم تزل مرتاحة الى الاختلاء. غير ان ابويهِ اذ تحقّقا ان دعوتهُ هي من الله ارتضيا بترهّبهِ فذهبا بهِ وقدّماهُ لرئيس دير كان بمدينة اتون

وكان في ذلك الدير خمسون راهبًا مشهورين بالفضل غير انهم لما رأوا فضائل هذا المبتدىء خصوصًا تواضعهُ وطاعتهُ وتقشفاتهِ اخذهم التعجب واحتسبوا نشاطهم في العبادة فتورًا بحيث كان من جهة التقشف كالسيّاح القدماء. اما طاعتهُ فجعلتهُ كأن لا ارادة لهُ ومن فرط انقطاعهِ الى الله تعالى نسي اهل بيتهِ كانهُ بعيدٌ عنهم جدًّا مع انهُ واياهم في بلدةٍ واحدةٍ ولم يكن يذكر اقرباءهُ قط الاّ متى صلّى لاجلهم. ولحبّهِ الصمت والاختلاء قالت عنهُ الرهبان انهُ كان في مدينة اتون اكثر توحدًا من السيّاح المستوطنين الفيافي وبروح الامانة ومحبة الاختلاء ظاهرًا وباطنًا ما لبث ان ارتقى الى اسمى درجات الفضيلة ونال من الله تعالى موهبة صلاة سماوية سامية جدًّا

وفيها كان الله تعالى يمنحهُ انوارًا سماوية فانتشرت رائحة برّ ميدريكوس المتضع ووصلت الى الاقاليم الشاسعة وكان الناس يأتونهُ من كل ناحية ليطلبوا صلواتهِ ومشوراتهِ فعزم على الذهاب الى البريّة لكي ينجو من الاضطراب الذي ينشا عن مخالطة البشر. على انهُ فيما كان يتأهب لذلك تُوفّي رئيس الدير فحينئذٍ انتخبهُ الرهبان باتفاقٍ تام رئيسًا عليهم واضطرّوهُ الى ذلك بحيث ترجّوا اسقف المدينة الذي امر القديس بتدبير الدير فحنى ميدريكوس رأسهُ لنير الطاعة ولعلمهِ بانهُ يجب على الرئيس ان يرشد الرهبان في طريق الكمال بمثالهِ اكثر مما يرشدهم بتعليمهِ لم يكن يأمر احدًا بشيءٍ قبل ان يفعلهُ هو وكان من عادتهِ ان يقول يجب على الرئيس ان لا يقول المرؤوس اذهب وافعل كذا بل اتبعني واصنع مثلي ولم يكتفِ في انهُ يريهم سبيل الكمال على ما روى كاتب ترجمتهِ بل كان يتقدّمهم ويمهّد لهم الطريق بنموذج نشاطهِ وكانت الرئاسة مقترنةً فيهِ بمحبة ابويّة تحملهُ على ان ينتخب لنفسهِ اصعب الامور ويقدّم للاخوة أخفّها

والحاصل ان هذه الامور كلها جعلتهُ في تلك المدينة اكثر اعتبارًا وشهرتهُ في الآفاق البعيدة افعالهُ الحميدة فاخذ الناس يتراكمون عليهِ من كل جهة ليستفيدوا من مخاطباتهِ فعزم ثانيةً على الفرار فخرج ليلاً واختبأ في مغارة بقرب مدينة اتون ومارس هناك برهةً رياضات الصلوات والتقشفات على أتمّ الطمأنينة. اما الرهبان فمضوا يطلبونهُ وبعد التفتيش البليغ وجدوهُ في تلك المغارة فارجعوهُ غير ان روح الاختلاء كان يقودهُ دائمًا الى الفرار من معاشرة الناس فهرب ثانيةً وذهب الى باريز حيث اختلى في قلاّية صغيرة ملتصقة بكنيسة القديس بطرس الرسول وهناك قضى حياتهُ ممارسًا الصلاة والتقشف آناء الليل وأطراف النهار ومات أقدس ميتةٍ في اليوم التاسع والعشرين من شهر آب على رأس المائة الثامنة للمسيح

اليوم الثلثون

وفيهِ ترجمة القديس فياكروس

ان هذا القديس كان من عائلة شريفة ببلاد ابرلاندا او سكوسيا وكان مولدهُ في اوائل الدهر السابع وتربّى على أدب شريعة الله ونشأ في الفضيلة فلما تأمل في زوال مجد الدنيا وانتهاء فخرها ونعيمها زهد فيها وترك المملكة ليتفرّغ لخدمة ملك الملوك فتنكّر وركب سفينةً وذهب الى فرنسا. فلما وصل تقدّم الى القديس فارون اسقف مدينة ميلدا وطلب منهُ ان يُعطيهُ مكانًا في البريّة ليعبد الله تعالى على خلوةٍ. فاعطاهُ الاسقف مكانًا في الغابة ليختلي هناك فدخل القديس البريّة وقبل كل شيءٍ بنى معبدًا على اسم الجليلة

مريم البتول . وطفق يسير هناك سير سياح الصعيد القديسين (١)

كيف لا وكان ياكل البقول البرية وينام على أديم الارض ولا شيء له لانهُ لم يُرد ان يقتني شيئًا الّا الله تعالى ونفسهُ. وبين تقشفات سيرتهِ كان يذوق تعزيات تُكرّههُ ألذّ ما في بلاط الملوك. فشرع الناس يزورون القديس في بريتهِ لا سيما المرضى المساكين وكان يستقبلهم جميعهم بمحبة . ذلك فضلاً عن انهُ بنى منازل كثيرة حول قلايتهِ لينزلهم بها وهناك كان يُطعمهم ويعلمهم ويشفيهم . فلما رأى ان الموضع الذي وهبهُ لهُ الاسقف ضاق على الزوّار عاد الى القديس فارون وطلب منهُ مكانًا واسعًا ليستطيع ان يطعم المساكين الآتين اليهِ. فاستقبلهُ الاسقف القديس بمحبةٍ واحترام ووهبهُ من اراضي تلك الغابة قطعةً يقدر القديس فياكروس السائح ان يحفر حولها حفرةً في نهار واحد . فعاد القديس الى بريتهِ. وفي الغد بكّر الى اقامة الصلاة ثم أخذ عصاهُ بيدهِ وشرع يرسم بها المكان المعطى لهُ فاذا بالارض حُفرت في كل الموضع المرسوم حفرةً عميقة واسعة ولا ريب ان هذه الاعجوبة وكانت تنفتح الارض تحت عصاهُ وخطواتهِ حين كان يرسم الارض بل كانت تُستأصل الاشجار ايضًا وتسقط. وكانت هناك امرأة تبصر ذلك الامر المذهل غير انها حسبت القديس ساحرًا فذهبت مسرعةً الى الاسقف واشتكت عليهِ بانهُ ساحر وشهدت انها رات مفاعيل سحرهِ ثم عادت الى الغابة وطفقت تشتم القديس بكل صنفٍ من الشتائم . اما الاسقف القديس فذهب ليفحص عن الامر وبعد الفحص شكر الله تعالى على ما صنع لاجل شرف قديسهِ. وحثّ القديس فياكروس على تكميل العمل وبقيت هذه الاعجوبة الى يومنا هذا لان طول الزمن وحدوث الزلازل لم ينقصا شيئًا من عمق هذه الحفرة المستطيلة الواسعة والعميقة

ذلك وروى المؤرخون شيئًا اغرب مما مرَّ ذكرهُ وهو انهُ من اجل تلك المرأة التي افترت على القديس بان حسبتهُ ساحرًا بسبب فعل الاعجوبة المذكورة لا يريد الله تعالى ان امرأة ما تدخل المكان المحاط بهذه الحفرة العجيبة وكل امرأة تجاسرت حتى الان على ان تدخل ادركها للوقت الانتقام الالهي . فاحترمت النساء هذا المكان بامتناعهنّ عن الدخول اليهِ وقد عملت كذلك جلالة حنة من النمسا ملكة فرنسا في السنة الحادية والاربعين من الجيل السابع عشر حين زارت قبر القديس وامتنعت من الدخول لكنها اكتفت بان تصلّي في باب المصلّى

وفيما كان القديس يعيش في بريتهِ كملائكة الله زارهُ كيليفوس احد اقاربهِ واشراف بلدتهِ حين كان راجعًا من رومية فبقي معهُ مدةً فاستفاد من معاشرتهِ هذه حتى انهُ ترك امواله وكل كرامات العالم وتنعماتهِ ليقتدي بسيرة نسيبهِ وصار قديسًا والكنيسة تكرمهُ في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الاوّل

ان خبر برارة القديس فياكروس كان يشتهر يومًا فيومًا فكان يزداد الجميع تعجبًا من برّهِ ولا يخفى على المتواضع ان ذلك شقّ جدًّا على القديس فياكروس حتى سأل الله تعالى ان ينقذهُ من العالم فمرض وانتقل الى دار النعيم في اليوم الثلاثين من شهر آب في سنة ستمائة وسبعين للمسيح

ولم يزل الله سبحانهُ يُشرّف ضريحهُ بالعجائب والمعجزات واذ لا يحتمل المقام ذكر جميعها نقتصر هنا على ايراد اثنتين منها الاولى انهُ ذهب ذات يوم سبعة رجال وزاروا كنيسة القديس ديونيسيوس ليفوا نذرهم بموضع قريب من قبر القديس فياكروس ثم عزم اربعة منهم على زيارتهِ واما الثلثة الاخرون فلم يريدوا ان يزوروا ذلك القبر المكرّم قائلين ان القديس فياكروس طبيب البرص فليزر قبرهُ من كان ابرص اما نحن فلا نحتاج الى عونهِ وبعد ان نطقوا بهذا التجديف نعوذ بالله منهُ فارقوا الاربعة الزوار الاخرين ولكن ما لبثوا ان ضُربوا بالعمى فطفقوا يصرخون في اثر رفقائهم قائلين اعينونا وارشدونا لاننا قد صرنا عميانًا فظنَّ الاربعة ان الثلثة

(١) حاشية . قال بعض المؤرخين ان هذا القديس كان ابنًا بكرًا للملك سكوسيا وانهُ لما كان في اختلائهِ هذا مات والدهُ الملك وجلس على السدة الملوكية اخوهُ الصغير وعزلهُ الشعب بسبب انهُ كان تابع ارطقة بيلاجيوس وارسلوا الى ملك فرنسا الذي كان وقتئذٍ كلوتاريوس الثالث ليلزم القديس فياكروس بالرجوع الى بلادهم فيجعلوهُ ملكًا . وان القديس لما شعر بذلك وباقتراب المرسلين تضرَّع الى الله وطلب منهُ تعالى ان يجعلهُ ابرص لينجو من الحاح طالبيهِ وصار كذلك الى ان رجعوا الى بلادهم فتعافى القديس من برصهِ. الا ان هذه الرواية لم يذكرها احدٌ من القدماء كما قال البلاّنديستيون ولذلك لم يذكروها في ترجمة القديس التي ادرجوها في تاليفهم واحكم بمثل ذلك ايضًا على ما ذُكر في كتب بعض المؤرخين انهُ كانت اختٌ للقديس تُدعى سورا وانها اتت معهُ الى فرنسا وترهبت

يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء فساروا غير ملتفتين اليهم وكملوا زيارتهم وبعد ان عادوا وجدوهم على حال العمى تائهين فرجعوا بهم الى قبر القديس فياكروس وهناك بعد ان تابوا عن خطيئتهم وطلبوا الغفران والشفاء رجع اليهم البصر

اما الاعجوبة الثانية فجرت مع جلالة حنة النمساويّة ملكة فرنسا المتقدم ذكرها لانها انما زارت قبر القديس لتؤدّي لهُ الشكر على شفاء زوجها الشريف لويس الثالث عشر من مرضٍ اعتراهُ بمدينة ليون ولذلك ذهبت ماشيةً الى قبر القديس ورجعت من هناك كذلك وكانت هذه الملكة الجليلة تنسب الى شفاعتهِ شفاءها من نزيف دم كان الاطباء عجزوا عنهُ كلهم وتاكدت ايضًا انها بصلواتهِ القديرة نالت من الله تعالى زوال عقمها وولدت ذلك الابن الذي صار ملكًا باسم لويس الرابع عشر الملقب بالكبير ولذا كانت كل سنة ترسل من يزور قبر القديس على اسمها . هذا ولما اصاب ابنها الملك لويس الرابع عشر مرضٌ عضال القاهُ في خطر الموت جاء بوسويت اسقف ميلدا الى قبر القديس وابتدأ هناك صلوات دامت تسعة ايام لشفاء جلالتهِ

اليوم الحادي والثلثون

وفيهِ ترجمة القديس ريموندوس الملقَّب بنّاتوس

اعلم ان هذا القديس من شرفاء اسبانيا ووُلد بها في ابتداء الجيل الثالث عشر للمسيح وكانت ولادتهُ بعد موت امهِ لانهُ بعد وفاتها فتح الاطباء جنبها واخرجوهُ حيًّا معافًى ومن اجل ذلك لُقّب بنّاتوس ومعناهُ باللغة اللاتينية غير مولود فنشأ هذا الطفل المبارك ولما تامل ان لا ام لهُ اتخذ والدة الله امًّا لهُ فكرّمها منذ الصِغر كل التكريم ولذلك قيل لهُ ابن العذراء مريم . الّا ان والدهُ لما رأى ابنهُ منعطفًا بكل قلبهِ الى العبادة ودرس العلوم ارسلهُ الى احدى القرى حيث كان لهُ اراضٍ واسعة وأمرهُ بتدبيرها فذهب ريموندوس اتباعًا لأمر ابيهِ مع رغبتهِ في الصلاة العقلية والاختلاء فكيف لا وقد اختار ان يرعى غنم ابيهِ في البراري حيث كان يقضي نهارهُ كلهُ في الصلاة والتأمل وممارسة افعال الامانة كما هو شأن العبّاد المنقطعين الى الله تعالى

واما الشيطان عدوّ كل خيرٍ لعنهُ الله فخاف من نشاط هذا الشاب القديس في العبادة فتراءى لهُ بصورة راعٍ وخاض في المذاكرة معهُ قال لهُ اني اتعجب كل التعجّب من شابٍّ شريف النسب نظيرك يتفرّغ لرعاية الحيوانات فياليت شعري ما الذي حبّب اليك هذه الوظيفة التي تحطّ قدرك وتخفض مقامك وكيف تقضي ايام الشباب التي هي غرّة العمر وبهجتهُ في البادية بعيدًا عن الناس مع انك لو بقيت بين الناس لكنت تتمتّع بلذات العالم كلها وترتقي الى اسمى المناصب . ثم شرع قاتلهُ الله يذكر لهُ اشياء سمجةً . فلما انتبه ذلك الشاب الطاهر الذيل على الخطر رفع عينيهِ الى السماء واستغاث بالعذراء الجليلة قائلاً اعينيني يامريم فلما نطق بهذا الاسم المقدس هرب الشيطان بصراخٍ هائل ودخانٍ جهنمي اما ريموندوس فدخل من ساعتهِ كنيسةً مبنيةً على اسم سيدتنا العذراء وجثا امام ايقونتها واستعان بها ليستظهر وينتصر على هذا العدو الخبيث القوي وجدّد تكريمهُ لها عليها وعليهِ السلام

غير ان ابليس لم يرجع عن قصدهِ الرديء بل اخذ يلقي بين ريموندوس وبقية رعاة ابيهِ وخدّامهِ الحسد فقالوا لابيهِ ان رعيّتهُ تتلف اذا استمرّت بيد ابنهِ من اجل افراط رغبتهِ في الصلاة والاختلاء . فاتى والدهُ ليفحص عن الامر ولما وصل الى حيث كانت رعيتهُ ابصر راعيًا شابًّا جميل المنظر ذا هيبةٍ حارسًا الرعية باهتمامٍ جزيل وبحيث انهُ لم يجد ابنهُ مع الرعية ذهب الى الكنيسة المذكورة فوجد ابنهُ امام صورة العذراء فسألهُ من ذا الذي اقمتهُ راعيًا للغنم . اما القديس فلعدم علمهِ بما كان ولظنهِ ان كلام ابيهِ انما هو توبيخ لهُ على تركهِ المواشي خرّ على قدمي ابيهِ واستغفر منهُ فتحقق ابوهُ حينئذٍ برّ ابنهِ وعانقهُ بمحبةٍ وتركهُ يمارس رياضاتهِ بحرّية

ثم ظهرت لريموندوس ملكة السماء وأخبرتهُ بان الراعي الجميل الذي رآهُ والدهُ حول رعيتهِ كان ملكًا ثم قالت والآن يا ابني فاني اريد ان تباين البراري وتدخل الرهبانية المنشأة حديثًا على اسمي لانقاذ المسيحيين من ايدي البرابرة . فذهب حالاً الى رئيس هذه الرهبانية الذي كان حينئذٍ القديس بطرس نولسكو وطلب منهُ ان يقبلهُ في الرهبانية المقدسة فقبلهُ الرئيس بفرح عظيم وقد ازداد فرحهُ بهِ جدًّا لما اختبر فضائلهُ . وبعد اربع سنين اختارهُ وارسلهُ الى شمالي افريقية لينقذ المسيحيين من الاسر . فسافر القديس ريموندوس اولاً سنة تسع وعشرين ومائتين والف للمسيح وعلى اثر بلوغهِ

الى الجزائر ابتاع من الاسرى المؤمنين مائة وخمسين ورجع بهم الى اسبانيا وسافر ثانيًا الى تونس سنة احدى وثلثين ومائتين والف للمسيح فابتاع من الاسرى المؤمنين مائتين وثمانية وعشرين وارسلهم الى اسبانيا ولكن لما راى انهُ قد بقي منهم كثيرون وانهُ لم يبقَ معهُ مالٌ ليقدّمهُ فكاكًا قدّم ذاتهُ للبرابرة عربونًا فارتضوا واطلقوا الاسارى ورجعوا الى بلدتهم سالمين وبقي هو اسيرًا بدلاً عنهم وسُلّم الى رجل اخذ يعاملهُ بأشدّ القساوة حتى كاد القديس يموت من شراسة اخلاقهِ فشعر بذلك حاكم المدينة وخاف من انهُ اذا مات هذا الاسير يخسر مبلغ المال الذي كان تكفل لهُ بهِ فامر بان لا يتعبهُ ولا يضرّ بهِ احد

فحزن القديس لانهُ لم يؤهل لان يتألم ويموت من اجل محبة القريب وكان يفتقد في السجن اولئك المسيحيين الذين أُسِروا حديثًا ويعزيهم ويسعفهم بكل ما كان يمكنهُ. ولم تقف غيرتهُ عند هذه الحدود بل كان يبشر البرابرة ويذكر لهم قواعد الديانة المسيحية فآمن على يدهِ كثيرون منهم وارادوا انهُ هو يعمّدهم ومن اجل ذلك حُكم عليهِ بان يموت فشفع فيهِ أُناس كرام عندهم طالبين ان يُبدل لهُ الموت بالعذاب لئلا يخسروا المال الذي كفل بهِ القديس. فبدل الحاكم الموت بعذاب آخر فضُرِب القديس اولاً بعصيٍّ ضربًا عنيفًا وبما انهُ لم يفتأ يعلّم الديانة المسيحية امر الحاكم بان يُجلد في كل شوارع المدينة. ثم ثقب الجلّاد شفتي القديس بحديد محمى وقفلها بحديدٍ وقدّم مفتاح القفل للحاكم ولم يكن يأذن في انفتاحها الأّ في حين الاكل واستمرّ على هذه الحال حتى وصل مبلغ المال الذي كان متكفلاً بهِ

وبعد ان قبض الحاكم مبلغ المال اطلق ريموندوس من الاسر لرهبان كانوا اتوا من قِبل رئيسهم القديس بطرس بولسكو وسمح لهُ ان يعود الى بلدتهِ فسافر. وعند وصولهِ الى بلاد المسيحيين جعلهُ البابا غريغوريوس التاسع كردينالاً الاان هذه الدرجة السامية لم تغير شيئًا من طريقتهِ الرهبانية وقد اتفق يومًا انهُ وجد في الطريق رجلاً فقيرًا لم يكن لهُ ما يغطي بهِ رأسهُ فنزع القديس غطاء رأسهِ واعطاهُ اياها وعانقهُ بمحبة اخوية وليلة ذلك اليوم تراءت لهُ الجليلة مريم العذراء مع جماعة عذارى يأخذنَ زهورًا في مرج ويصنعنَ منها اكليلاً وتقول ان هذا الاكليل سيكون لمن غطى اليوم راس فقير بغطاء هامتهِ اما القديس فقال انني افضّل اكليلاً من شوك على هذا الاكليل الجيد. فسرّ السيد المسيح برغبة عبدهِ المقدسة وظهر لهُ وقتئذٍ بهيئة فقير على رأسهِ اكليل من شوك وفي يدهِ اكليل من زهور فقال لهُ اختر ما تريد. فاختار القديس اكليل الشوك فوضع السيد المسيح على رأسهِ اكليلاً من شوك غير منظور نظير اكليلهِ الالهي ولذلك كان القديس يشعر بألم الراس بقية حياتهِ

ولكثرة ما سمع البابا عن افعالهِ الحميدة وآثارهِ الممدوحة اراد ان يراهُ عيانًا فارسل ودعاهُ اليهِ غير انهُ اذ كان في الطريق قبل ان يخرج من تخوم اسبانيا اصابهُ المرض في مدينة كوردوفا وبعد ايام قليلة اشرف على الموت فطلب من يناولهُ القربان المقدس لكن لم يوجد منتاح الذخيرة. فلما عرف القديس بذلك قال في مناجاة السيد المسيح تذكر يارب اني اشتهيت ان اهرق دمي من اجلك ولم تمنّ عليَّ بهذا لاجل عدم استحقاقي فانعم عليَّ ان اتناول جسدك ودمك الاقدسين في سرّ القربان المقدس وهذا اطلبهُ بشفاعة والدتك المجيدة العزيزة. فما فرغ من هذه الصلاة الوجيزة الاّ جاءهُ زمرةٌ من الملئكة بزي رهبان حاملين في ايديهم شموعًا متقدةً وكان في وسطهم سيدنا يسوع المسيح رافعًا القربان المقدس على صينية فتقدّم الى القديس وناولهُ اياهُ وانتهت الرؤيا. اما القديس فبقي بعد ذلك مختطفًا بالروح ثم تُوفي في اليوم الحادي والثلثين من شهر آب سنة مائتين والف واربعين للمسيح. وكل حياتهِ نحو ست وثلثين سنةً

هذا وقد اختلف الناس على موضع دفنهِ فاهل مدينة كوردوفا ارادوا ان يُدفَن عندهم. وطلب اكليريكيو مدينة بارسلونا ان يكون رمسهُ في تلك المدينة لانهُ كان كردينالاً ورهبانهُ كانوا ايضًا يطلبون ان يُقبر عندهم. والحاصل انهُ بعد مجادلة مستطيلة اتفق الجميع على ان يضعوا جسدهُ في صندوق وتحملهُ دابّة عمياء وحيثما تقف تلك الدابة من تلقاء ذاتها هناك يُدفَن وصار كذلك. فسارت الدابّة كثيرًا في وسط الغابة والبراري ووقفت تجاه الكنيسة المذكورة آنفًا المبنية بالبرية حيث كان هذا القديس حاز من الله تعالى نعمًا كثيرة بشفاعة والدة الله فهناك دُفن. نفعنا الله بشفاعتهِ

شهر ايلول

اليوم الاول

وفيهِ ترجمة القديس اجيديوس

ان هذا القديس وُلد باثينا مدينة ببلاد الشرق قبل انتصاف القرن السابع من ذريَّة ملوكيّة اما ابوهُ المدعو تاودوروس وامهُ المسمَّاة بيلاجيا فكانا متمسكين بالايمان الكاثوليكي فيما بين الاراطقة والمنشقّين ومنهما تعلم اجيديوس الايمان المستقيم وقواعد البرّ واليها مال منذ نعومة اظفاره لانهُ حين كان صغيرًا كان يهب المساكين ويوزّع عليهم مالهُ حتى اثوابهُ وكان يشمئزّ من كل لهوٍ وتنزُّهٍ عالمي ويحب الاختلاء والانفراد ولما كان في المدرسة كان يوجَد على الدوام اما في الكنيسة واما في بيتهِ منفردًا ممارسًا الصلاة او درس العلوم حتى ارتقى سموًّا على جميع اقرانهِ وأضحى في مدينة اثينا معتبرًا جدًّا بسمو فضائلهِ ومعارفهِ وقد تُوفّي والداهُ في عنفوان شبابهِ وكان برتاح الى الكمال الانجيلي جدًّا فلما تأمل ما قالهُ سيدنا يسوع المسيح لذلك الشاب ونصهُ ان كنت تُريد ان تكون كاملاً فبِع كل مالك وأعطهِ للمساكين واتبعني باع هذا القديس كل املاكهِ ودفع ثمنها للفقراء والمساكين ومنذ ذلك اليوم ولاجل هذا الفعل الحميد انعم الله عليهِ بمواهب جزيلة منها موهبة العجائب . اتفق يومًا ان رجلاً مجنونًا طفق يصرخ في الكنيسة وقت القداس صراخًا مخيفًا حتى انهُ لم يدع الناس يصغون كما ينبغي عند حضور الذبيحة الالهية فاذ رأى اجيديوس ذلك لم يحتمل ان الشيطان يبلبل هكذا المؤمنين في المقدس الالهي فتقدم الى المجنون امام الجميع وقال لهُ باسم السيد المسيح اصمت واخرج من جسدهِ فحالاً صمت الشيطان وخرج من جسد الرجل امام جميع الشعب . ثم انهُ في يوم آخر لدغت حيةٌ رجلاً فقيرًا فاشرف على الموت ولما خرج اجيديوس من الكنيسة طلب اليهِ المؤمنون ان يرحم المسكين ويُصلّي من اجلهِ فصلّى القديس وبعد صلاتهِ نهض المريض معافًى

فابتدأ وقتئذٍ اهل المدينة يحترمونهُ ويعدُّونهُ قديسًا ولذلك عزم على الفرار من وطنهِ فخرج من المدينة واختبأ اولاً في جزيرة غير مسكونة واخذ يمارس هناك رياضات الصلاة والتقشف ولما وجد الفرصة المناسبة لقصدهِ ركب السفينة وذهب الى مملكة فرنسا وفيما كان يبتهج باطنًا ويشكر الله تعالى على كونهِ مجهولاً خامل الذكر تكدَّر كاس فرحهِ باعجوبة جديدة لانهُ بعد ان تقدَّم المركب الى شاطي البحر هاجت الرياح واوشكت ان تكسرهُ وتغرقهُ لان الماء كان يدخلهُ من كل جهة حتى يئس الملاَّحون من الحياة وتركوا خدمة السفينة وتدبيرها فتوجَّع لهم قلب القديس الرؤوف ثم صلّى لاجلهم فسكنت الرياح حالاً فكان هدوٌّ عظيم ووصل المركب الى فرنسا بسلام فذهب حينئذٍ القديس اجيديوس الى مكان بالقرب من نهر الغارد (١) وقد لبث هناك مدة سنتين الاَّ انهُ لما رأى الآيات والعجائب تتبعهُ في كل مكان وتصيّرهُ معتبرًا فرَّ سرًّا وانفرد في غابةٍ قريبة من ذلك المكان وعاش هنالك بالبرّ معتزلاً عن الناس . غير ان الله تعالى لم يدع عبدهُ المتضع مجهولاً لانهُ بعد زمن يسير عرف الناس مسكنهُ فشرعوا يأتونهُ من كل ناحية مستشفين من امراضهم فعزم ايضًا على الفرار وتوغَّل في الغابة وطلب موضعًا لا يعرفهُ احد من الناس فوجد مغارةً في قلب صخرة

(١) حاشية . قد خطأ البلاَّنديستيون مَن ظنَّ من المؤرخين ان القديس اجيديوس هذا كان معاصرًا القديس سيساريوس اسقف ارلي ولم يفرّق بينهُ وبين اجيديوس آخر كان في اوائل القرن السادس معاشرًا القديس الاسقف المذكور

كان معبرها مسدودًا باشواكٍ كثيرة فدخل القديس الى هناك مبتهجًا شاكرًا الله تعالى على احسانهِ هذا العظيم وقضى هناك اعوامًا كثيرةً على الصوم والصلاة والسهر وحيث لم يكن في تلك البرية ما يعيش بهِ كانت تأتيهِ باذن الله أيّلةٌ كل يوم مرةً واحدةً وتقدم لهُ لبنها فكان يشربهُ ويحيا بهِ

الّا ان الله تعالى الذي يحبُّ الاتضاع ويشرّف المتضعين اظهر للناس جديدًا برَّ عبدهِ لأنهُ قد اتفق نحو السنة الثالثة والسبعين من الجيل السابع ان ملك الفيزيغوط المدعو فامبا خرج يومًا الى القنص فدخل تلك الغابة ليصطاد . اما الأيّلة التي كانت تذهب كل يوم الى ذلك الموضع كما مرَّ آنفًا فلما رأت الكلاب هربت ملتجئةً لحى القديس واختبأت في مغارتهِ فوقفت الكلاب تجاه مدخل المغارة الذي كان مملوءًا اشواكًا فرشق الصيادون سهامهم في المغارة فاصابت احداهنَّ القديس وجرحتهُ ثم دخل الملك المغارة مع حواشيهِ ولما ابصروا القديس هناك والأيلة جالسة عند قدميهِ اعتراهم الذهول فتقدم الملك وخاض في المذاكرة مع القديس ثم قدم لهُ هدايا ثمينة ولأن القديس لم يقبلها طلب منهُ الملك بالحاح ان يبين لهُ ما الذي يُريد ان يفعلهُ لاجلهِ فحينئذٍ عرّفهُ القديس بانهُ يروم ان يبني في ذلك الموضع ديرًا لأُناس يريدون ان يقتفوا أثر سيّاح الصعيد فما لبث ان تمَّ البناء وامتلأ الدير اناسًا زهدوا بالبر تحت ارشاد القديس اجيديوس

هذا ونحو السنة التاسعة عشرة من المائة الثامنة للمسيح ارسل كرلوس مرتيل ملك فرنسا وطلب من القديس ان يتوجه الى بلاطهِ لكي يستفيد من مشورتهِ فخرج القديس من بريتهِ وذهب الى مدينة اورليان ولكثرة العجائب التي صنعها في الطريق اشتهر اسمهُ وفاحت رائحة برّهِ في كل جوانب المملكة وقد ذكر القديس انطونينوس ان الملك كان حينئذٍ على حال اضطراب عظيم من قِبل خطيئة ثقيلة صدرت منهُ ولم يجسر على ان يعترف بها فطلب من القديس اجيديوس ان يتضرّع الى الله تعالى من اجلهِ فاختلى القديس ليصلي وفيما هو يصلي اذا بملاك هبط من السماء واعطاهُ ورقةً مكتوبًا فيها ان الله قد استجاب طلبتك فقدّم القديس الورقة للملك فرأى مكتوبًا فيها ما نصهُ ان الله قد قبل شفاعة عبدهِ فيك وسيغفر لك خطيئتك اذا اعترفت بها فاعترف الملك بها وبمشورة القديس وارشادهِ سلك سبيل الصلاح . ثم رجع القديس الى ديرهِ ولما كان في الطريق فعل الله آيات كثيرة على يدهِ ولذلك لم يبرح القديس مجتهدًا في ان يصل الى بريتهِ سريعًا وفيما كان جائزًا في احدى القُرى طلب منهُ اهل القرية ان يدخل بيت رجل شريف استولت عليهِ الكآبة لموت ابنتهِ فدخل القديس المنزل وصلّى وفيما هو يصلّي قامت الابنة من الموت ففر للوقت من هناك ووصل اخيرًا الى ديرهِ حيث ثابر على المعهود من افعالهِ الحميدة قائلاً في نفسهِ انهُ ينبغي لي ان اصلح ما الحقني من الخلل الروحي بمخالطتي الناس التي انما كانت اضطراريّة .

ولاجرم ان طالبة الانفراد عن الناس كان يذهب بلا طائل بحيث كان الجميع يزورونهُ من كل اقاليم المملكة اما تبرّكًا واما استشفاءً من أمراضهم. ثم ان الاتضاع الذي ساقهُ الى البرية اخرجهُ ايضًا منها فانطلق الى رومية ليزور قبر الرسولين بطرس وبولس وفيما كان يصلّي ذات يوم في رومية في الكنيسة كشف الله تعالى ايضًا برَّهُ واستقبلهُ الحبر الاعظم باتم الاكرام ثم عاد القديس الى ديرهِ عاجلاً ومكث هناك مع السيّاح مرشدًا اياهم وسالكًا معهم في طريق البر حتى قضى نحبهُ منتقلاً الى رحمة الله نحو السنة العشرين او الخامسة والعشرين من الجيل الثامن

اليوم الثاني

وفيهِ ترجمة القديس استفانس اول أُمراء اونغاريا

اعلم ان والدَي هذا القديس كانا وثنيين واسم والدهِ جيزا واسم والدتهِ سارلوط واما جيزا هذا فمع انهُ كان وثنيًا متوحشًا شرس الأخلاق وجائرًا على شعبهِ كان أنيسًا نحو الغرباء وكان يعامل بلطافةٍ الذين يرتادون بلادهُ ويدأبون الذهاب اليها وبما ان الاكثرين منهم كانوا مسيحيين أحبهم جدًّا لاجل حسن سيرتهم وبعد ما اطلعوهُ على حقائق النصرانية استعظمها ايَّ استعظام فلما شعر بهذا القديس ادلبرتوس اسقف براغا من مملكة بوهيميا دخل بلاد اونغاريا وبشّر بالانجيل المقدّس فتنصّر على يدهِ جيزا وامرأتهُ وكذلك كثيرون من العظماء فبعد ان اعتمدت المملكة وبعلها سلكت طريق الصلاح بممارسة أسمى الفضائل الانجيلية

اما الامير فكان مستقيم السيرة ناريَّ الغيرة في انتشار

النصرانية وقد رزقها الله ولدًا مباركًا كان أنبأها بهِ قبل ميلادهِ بواسطة رؤيا لأنهُ ذات ليلة تراءى القديس استفانس أوّل الشهداء للاميرة وقال لها ان الله عزَّ اسمهُ يهبها ابنًا يكون ملك اونغاريا ورسولها وتمت النبوة بميلاد هذا الابن المبارك في السنة السابعة والسبعين بعد التسع مائة للمسيح وسمي في دفتر المعمودية استفانس

فلما نما الولد المشار اليهِ ظهرت علائم نجابتهِ ولاحت عليهِ امارات من يكون قدوةً للملوك المسيحيين لا سيما في اكرام ملكة السماء التي تعظيمًا لها بنى كثيرًا من المعابد والكنائس الكبيرة فأصبح استفانس بلين عريكتهِ وتروُّض اخلاقهِ مكرمًا عند الوثنيين والمسيحيين وبعد وفاة والدهِ اي في السنة السابعة والتسعين من المائة العاشرة للمسيح تقلَّد زمام المملكة وحينئذٍ اهتمَّ بتوطيد السلام بينهُ وبين جيرانهِ لئلا يصدّوهُ عما كان قد قصدهُ من ازالة الوثنية من مملكتهِ ثم شرع يجمع الشعب الوثني ويعلمهم كرسولٍ مظهرًا لهم فساد عبادتهم للاصنام وصحة الديانة المسيحية وبحيث ان كثيرين منهم كانوا يؤمنون على يدهِ قام كهنة الاوثان وهيّجوا الوثنيين فتمردوا عليهِ فجمعوا عسكرًا جرّارًا وحاصروا مدينة من مدن مملكتهِ. اما الامير القديس فجمع ايضًا عسكرًا من المسيحيين غير انهم كانوا قليلين بالنسبة الى عسكر الوثنيين ولا ريب انهُ لو ارتضى الملك ان الوثنيين الذين بمملكتهِ يبقون على الوثنية لصالحوهُ وارتدُّوا عن الحرب ولكنهُ عليهِ السلام لم يرضَ بان شعبًا خاضعًا لهُ لا يكون خاضعًا للسيد المسيح. ذلك وبعد ان استعان برب الجيوش ذهب بعسكرهِ القليل وقابل جيش الوثنيين الوافر وتبعهُ المسيحيون فظفروا بالنصر المبين فشكر الله على ذلك ثم بنى في موضع الحرب ديرًا كبيرًا واعتنى في استئصال ما بقي من الديانة الوثنية في مملكتهِ فاستدعى رهبانًا قديسين طافوا في كل المدن والقُرى مبشرين بالانجيل المقدس وكان يرافقهم في اتعابهم الرسولية والحاصل انهُ على هذا الاسلوب انتشرت النصرانية في مملكة اونغاريا

وحينئذٍ قسم مملكتهُ الى ثلث عشرة ابرشية ثم ارسل الى رومية كاهنًا فاضلًا اسمهُ هَنْريكوس مع انسطاس رئيس احد اديرة رهبانية القديس بناديكتوس وطلب الى الحبر الاعظم سيلفسترس الثاني ان يقبل شعبهُ تحت طاعتهِ وظل عنايتهِ وسألهُ ايضًا ان يُسمي اونغاريا التي لم تكن لذلك العهد الا امريَّة مملكةً اما البابا فهشَّ للرسل واكرم مثواهم واظهر لهم فرحًا مقرونًا بمحبة واثبت كل ما كان قد رتبهُ القديس استفانس في بلادهِ وارسل لهُ اكليلًا وبهِ جعلهُ ملكًا

فهاج عليهِ وقتئذٍ اميرٌ من الامراء الذين بنواحي اونغاريا فحاربهُ القديس وانتصر عليهِ ايضًا وأمسكهُ ثم تنصر على يدهِ هو وشعبهُ ثم حاربهُ اهل البلغار فظفر بهم ايضًا وحينئذٍ تزوج اخت القديس هَنْريكوس ملك النمسا المدعوة جيسيلا وعاش معها عيشةً صالحة ولم يزل باذلًا جهدهُ في ان تزهر العبادة في مملكتهِ. هذا واما تكريمهُ للبتول فهو اعظم من ان يحيط بوصفهِ قلمٌ ولم يكن يدعوها الا سيدتهُ العظمى وبنى في اكثر المدن اديرةً . وكان يهتمُّ بمساعدة جميع فقراء مملكتهِ ولذلك قال المؤرخون لم يكن على عهدهِ في اونغاريا فقيرٌ محتاجٌ واراد يومًا ان يوزّع الصدقات بيدهِ فتنكَّر وخرج في الشوارع ولما وجد قومًا من المساكين اخرج كيسًا ممتلئًا دراهم ليوزعها عليهم فلما رأى ذلك اولئك الفقراء وثبوا عليهِ والقوهُ على الارض وضربوهُ واختطفوا منهُ الكيس وهربوا فلم يفتح الملك فاهُ بل نهض من بين الاوحال وقال لملكة السماء أرايتِ ياسيدتي العظمى ما فعل عبيد ابنكِ بمن صيَّرتهِ ملكًا فلو كانوا اعداء الايمان لانتقمت منهم وجعلتهم عبرةً للناس ولكن من حيث انهم عبيد ابنكِ الحبيب الهي ومخلصي اقبل هذه الاهانة بسرورٍ واشكركِ عليها

لاجرم ان القديس كان ينمو كل يوم في الفضيلة بالمواظبة على الصلاة وتناول القربان المقدس وكان كلما عزم على التناول يقضي الليل مصليًا وقد جرَّب الله تعالى صديقهُ على اساليب مختلفة ابتلاهُ بمرض تقلَّب زمانًا طويلًا في جسمهِ ثم سمح جلَّت حكمتهُ بوفاة جميع اولادهِ وان كونرادوس خليفة القديس هَنْريكوس ملك النمسا ينادي بمحاربتهِ ودخل مملكة اونغاريا بجيشٍ جرّار فخرج القديس بعسكرهِ الى لقائهِ ولما اصطف الجيشان للقتال التجأ القديس الى العذراء سيدتهِ العظمى وفيما كان يستغيث بها اذا بخوف عظيم اخذ بقلوب معسكر اعدائهِ فهربوا مدبرين. وفوق التجارب المذكورة أذن الله سبحانهُ ان احد عظماء مملكتهِ بنوي قتلهُ فاستل سيفهُ وهجم عليهِ في حجرتهِ الا انهُ عند دخولهِ قال الملك كلمة فحالًا القى ذلك السيف على الارض وخرَّ على

قدمي الملك وسأله المغفرة فغفر له القديس وبهذه الواسطة تاب الى الله تعالى

ثم اوحى اليهِ الله ان قد قربت منيّتهُ فتأهب حينئذٍ للموت بحرارة العبادة وبعد ان تناول القربان المقدس استودع الله روحهُ يوم عيد انتقال العذراء الجليلة الى السماء وكان ذلك في السنة الثامنة والثلثين بعد الالف للمسيح غير ان البابا اينوشنسيوس الحادي عشر عيّن اليوم الثاني من شهر ايلول لعيد هذا القديس الجليل

اليوم الثالث

وفيهِ ترجمتا القديستين سيرابيا وسابينا الشهيدتين

ان القديسة سيرابيا من نصارى انطاكية وقد وُلدت بها فلما اشتدَّ هناك الاضطهاد على المؤمنين انطلق ابوها الى ايطاليا وربّى ابنتهُ على أدب شريعة الله وكانت يوم مات والدها بالغةً مبلغ النساء فطلب كثيرٌ من اكابر رومية ان يتزوّجوها لانها كانت مشتهرة بحسنها وجمالها وترؤُّض اخلاقها . اما سيرابيا فكانت قد نذرت عفّتها لله تعالى فدفعًا لما لا بدَّ ان يلمَّ بها من البلبال من هذه الجهة اختارت ان تكون أمةً لارملة شريفة يقال لها سابينا ابنة هيرودس الذي كان معتبرًا جدًّا على عهد فسباسيانوس قيصر وبعلها كان من اشراف الملك ولذلك كانت عالية المقام في رومية وغنيّةً ومع كونها وثنية أحبت كثيرًا سيرابيا أمتها المسيحية لاجل مناقبها الحميدة . فاتخذت سيرابيا ذلك وسيلةً لان توقف سيدتها على بطلان الوثنية ورداءتها وتبيّن لها صحة النصرانية واستقامة تعاليمها . فآمنت سابينا واعتمدت وتتلمذت لأمتها واتباعًا لمشورتها خرجت من رومية واستوطنت ارضًا كانت لها باقليم اومبريا (١) ثم تبعها بعض من العذارى المسيحيات فاصبح منزلها ديرًا مقدسًا

ذلك وفيما كنَّ يعشنَ في الخلوة كملئكة الله شبّت نار اضطهادٍ جديد على المؤمنين وكان ذلك نحو السنة الخامسة والعشرين بعد المائة الاولى للمسيح فلما عرف حاكم اومبريا الذي اسمهُ بيريلّوس ان اهل بيت سابينا تنصّروا جميعهم ارسل اليها وامرها ان تُرسل اليهِ جميع العذارى اللاتي عندها فلم تُرد سابينا ان تخرج واحدةٌ منهنَّ . اما سيرابيا فطلبت ان تأذن لها لتذهب وحدها الى الحاكم لعلها تسكّن غضبهُ فترفع عنهنَّ الاضطهاد وبما انها ألحّت في الطلب ثبت عند سابينا انهُ وحيٌ من الله فاجابتها الى ما طلبت وذهبت معها الى بيريلّوس الوالي المذكور فاستقبلها كما يقتضي مقامها السامي ثم قال لها بلطافةٍ وظرفٍ انني لمتعجب من انك قبلتِ الديانة المسيحية ديانة الذلّ والهوان وأذعنتِ لكلام أمتكِ الساحرة وكنى بذلك عن القديسة سيرابيا . فقالت سابينا ان المسيحيين يرذلون السحر وحِيل الشيطان وان ما يفعلونهُ من العجائب انما يفعلونهُ بقوة الههم الضابط الكل . فلم يُجبها الحاكم البتة بل اطلقها وسيرابيا بسلامٍ فرجعتا كلتاهما الى الدير

وبعد ذلك بثلثة ايام ارسل ايضًا الحاكم جنودًا فقبضوا على سيرابيا واتوا بها فتبعتها سابينا وقدّمت لهُ هدايا ثمينة وتشفّعت فيها لديهِ ولكنَّ قلبهُ القاسي لم يلِن لا بالدموع ولا الهدايا وحيث ذلك عادت سابينا الى منزلها ثم وقفت القديسة سيرابيا في المحكمة فامرها الوالي ان تسجد لأوثان الملك فقالت البتول انني لا اعبد ما تعبدون وانما اعبد الله الذي خلق كل شيء من العدم وهو قادر على كل شيءٍ ومنهُ وحدهُ أخاف واياهُ اعبد وأحبُّ واما اوثانكم كلها فانما هي شياطين . فقال لها الحاكم قدّمي اذًا امامي ذبيحة للمسيح الهكِ . اجابتهُ سيرابيا انني لا ازال مقرَّبةً لهُ تعالى الذبائح واذا قلتَ كيف ذلك قلتُ بتقديم السجود والحمد والشكر لهُ جلّت قدرتهُ . فقال الحاكم وأين هو هيكل الهكِ قالت القديسة ان هيكلهُ في قلوب المسيحيين النقية وهناك نُقدّم لله العواطف الطاهرة . فقال الحاكم فانتِ اذًا هيكل الهكِ فاعلمي انّي أُسلمكِ الى جماعةٍ يرتكبون فيكِ المنكر ويُنجّسون هيكل الهكِ . اما البتول فلم تضطرب من كلامهِ ولكنها اكتفت بان تقول لهُ ان الهي الذي اعبدهُ منذ الصغر هو يحفظ هيكلهُ فيَّ بريئًا من كل دنس

ثم أُخذت تلك البتول الى منزلٍ حيث دخل بامر الحاكم رجلان من اهل الخلاعة وعند دخولهما تراءى ملَك الله فبهرهما بأشعة نورهِ واسقطهما على الارض فبقيا على تلك الحال الى الغد . فجاء الحارس وفتح باب المنزل فاذا بالرجلين منطرحان على الارض كالموتى فهالهُ ذلك المنظر واخبر بهِ

(١) حاشية . هذا ما ذهب اليهِ بعض العلماء اما البلاّنديستيون فذهبوا الى ان اقامتها انما كانت بمدينة رومية نفسها حيث استُشهدت هي ورفيقتها جريًا على رأي المؤرخين القدماء

الوالي فاستدعى البتول وسألها قائلاً ما هذا السحر الذي بهِ قتلت هذين الرجلين فاجابت سيرابيا انما سحري هو قوة الهي الذي يردُّ الاردياء عمَّن تبتَّلوا لهُ ولذلك لم يسمح ان تُلامس أمَتهُ فاعلمنَّ هداك الله ان ليس للنصارى سحرٌ الَّا الالتجاء الى الله والاتكال عليهِ. فأسخط كلامها الوالي فقال للبتول عليكِ اما ان تعبدي آلهتنا وتذبحي لهم واما ان تموتي تحت العذاب الغليظ. فاجابت البتول اعلم ايها المولى ان وعيدك هذا يملأ قلبي سرورًا لاني بهِ ابذل نفسي ضحيَّةً لربّي الذي أوجدني ومنهُ ارجو حياة الابد. فتقدم حينئذٍ الجنود وبامر الحاكم ضربوا القديسة بعصيٍّ حتى كادت تموت فلما رآها المغتصب ثابتةً أمر بقطع رأسها وهكذا انتهى استشهاد القديسة سيرابيا في اليوم التاسع والعشرين من شهر تموز في اوائل الجيل الثاني

فارسلت القديسة سابينا واخذت جسدها ودفنتهُ باكرام وبحيث ان الوالي كان يحترم شرف نسبها لم يتجرَّأ ان يضطهدها فكانت تمارس في خلوتها التأمل في الحقائق الدينية وتنضي اكثر زمانها في الصلاة على قبر القديسة سيرابيا طالبةً من الله بشفاعة القديسة المذكورة ان يؤهلها لان تماثلها في سفك دمها حبًّا بهِ تعالى ولم يُبطئ الله في استجابة صلاتها فكيف لا وقد انعزل بيريلُّوس وخلفهُ أَلبيديوس وكان رجلاً شرس الاخلاق قاسي القلب فارسل وامسكها ولما وقفت امامهُ عاملها كأحقر الخلق ثم القاها في سجن ولقد ابتهجت القديسة عند دخولها هذا الموضع المظلم المنتن كابتهاج الملكة اذ تصعد الى عرشٍ سامٍ وهتفت قائلةً ترى هل اراد الله تعالى ان يمنحني اكليل سيرابيا فياما اسعد حظي اذا بذلت حياتي مثلها لاجل عزيز قلبي اني ارجو ذلك من كرم الله بشفاعة صديقتي العزيزة سيرابيا

ثم مثلت سابينا ثانيةً امام البيديوس فقال لها بوجهٍ غضوب كيف اصابكِ هذا الجنون المُطبق حتى خفضتِ مقامكِ الرفيع بان اتَّبعتِ النصارى الذين يفتخرون بالفقر والهوان ويزدرون باللذات والخيرات العاجلة اما بالغباوة واما بسحرٍ شيطانيّ راجين ولكن باطلاً ان لهم سعادةً آجلةً بعد موتهم في جنة الخُلد. فقالت سابينا لو ارتفع عن عينك حجاب الجهل الذي يُغطي عيون اصحاب هذه الخيرات الزائلة وانجلى لك الحق بنور النصرانية لازدريت مثلي بكل ما يزول بزوال حياتنا هذه وابتغيت بلواعج الشوق السعادة المعدَّة للمسيحيين. لعمري انهُ ليس ذلٌّ ادنى من سجودكم للأوثان هي اعمال ايديكم ولا ريب ان ذلك ضربٌ من الجهل والنفاق فخجل الحاكم وأمر ان يُضرب عنق القديسة سابينا اما هي فما لبثت ان رفعت يديها الى السماء قائلة اشكرك ايها المسيح ابن الله على ما تحسن بهِ اليَّ فلتباركك لذلك جميع الخلائق فهاءنذا استودعك روحي. قالت هذا وفي الحين تقدم السيَّاف وقطع رأسها واستشهدت بعد شهر واحد لاستشهاد القديسة سيرابيا كما قرَّر البلاَّنديستيون وفي مثل اليوم الذي ظفرت فيهِ باكليل الاستشهاد اي في اليوم التاسع والعشرين من شهر آب غير ان الكنيسة نقلت عيدها الى اليوم الثالث من شهر ايلول لان ذلك اليوم مخصَّص لتذكار موت القديس يوحنا المعمدان

اليوم الرابع

وفيهِ ترجمتا القديسين الشهيدين مرسلُّوس وفاليريانوس

قد أسلفنا ان مرقس اوريليوس قيصر مع انهُ لم يأمر باضطهاد المسيحيين (وذلك لم يتفق عليهِ المؤرخون) لم يكن يردع ولاة الاقاليم عن ان يضطهدوهم وانما ذلك من فرط ضعفهِ وتغاضيهِ عن عقوبة المذنبين ورغبتهِ في ارضاء خواطر الرومانيين الوثنيين الذين يبغضونهم. ومن ثم وقع المؤمنون في حرب شديدة لم يكن مثلها من قبل وشرع الحكَّام يسفكون دماءهم في اعظم مدن المملكة ولا سيما في مدينة ليون حيث كان الاكثرون قد آمنوا بالمسيح وكان من جملة الذين سُجنوا القديسان المذكوران مرسلُّوس وفاليريانوس. وفيما كانا يستعدَّان للموت أُوحي اليهما من قِبل الله تعالى انهُ لم يأتِ زمان استشهادهما بل انهُ تعالى يريد انهما يبشران بالانجيل في اماكن اخر ثم انفتحت لهما بغتةً ابواب السجن فخرجا منهُ مجتازين بين الحرَّاس ومن العجيب انهُ لم يدرِ بهما احدٌ من اولئك الحرَّاس. ثم ذهبا الى المدن التي بنواحي ليون وبشَّرا بالانجيل المقدس وكان تعليمهما يُثمر في كل مكان

ثم ذهب القديس مرسلُّوس الى شالون وهي مدينة قريبة من ليون وعند دخولهِ رأى فوق باب دارٍ كبيرة ثلثة تماثيل للأوثان وكان صاحب تلك الدار رجلاً غنيًّا معتبرًا مفطورًا

على عمل الخير مطبوعًا على الاحسان ومساعدة الناس لبيبًا حاذقًا يقال له لاسيون فكان مع انهُ وثنيٌّ ليّن الجانب مضيفًا للغرباء باكرامٍ وسخاء فطلب منهُ القديس ان يأويهُ في منزلهِ يومًا واحدًا وانما ترجّاهُ بذلك لكي يجذبهُ الى النصرانية ففرح لاسيون من حضور هذا الضيف واحبهُ جدًّا لما رأى من احتشامهِ ولطافة كلامهِ فانتهز القديس الفرصة وشرع يسأل صاحب المكان عما تفيد الثلثة التماثيل التي فوق باب دارهِ . فاجابهُ لاسيون ان هولاء تماثيل آلهتي آلهة الملوك الرومانيين هذا ولا اخفي عليك اني عجبت من سؤالك هذا فكيف لا تفهم ما هو مفهوم عند الجميع . فقال القديس اني انا متعجبٌ ايضًا نهاية العجب من ان عاقلاً مثلك يعتقد بوجود آلهة كثيرة حيث يمتنع ان يكون للاله مثيل او مساوٍ فقد تنزّه جلّ شأنهُ عن ان يكون له ندٌّ لان كونهُ الهًا يقتضي ضرورةً ان يكون تامًّا في كل الكمالات على نوعٍ غير متناهٍ هذا ما قد عرفناهُ من النور النطقي الطبيعي

وفيما كان القديس يورد دلائل اخر ويوضح بها بطلان عبادة الاوثان ويبيّن فسادها كان لاسيون يصغي مبهوتًا صامتًا . فلما فرغ القديس من تعليمهِ قال له لاسيون الرجل الوثني فانما الناس كلهم على مقتضى كلامك في غياهب الظلام وطرق الهلاك . فقال القديس كلاَّ لان المسيحيين لا يعتقدون الاَّ باله واحد وهو الذي خلق كل البرايا . ثم اخذ يُفسّر له حقائق النصرانية ويبيّن طهارة فرائضها . فقال لاسيون ان المسيحيين يُضطهَدون في كل موضع . اجاب القديس اي نعم بيد ان ذلك غير عجيب من حيث ان الشياطين الذين يبغضون الاله الحق الذي لا اله غيرهُ طغوا الناس وأمالوهم الى عبادة الآلهة الكاذبة وحرّضوهم على اضطهاد من عبد منهم الاله الواحد ومن اجتهد في استئصال الديانة الوثنية الباطلة التي انما هم وضعوها . نعم ان الولاة والملوك قد أوجدوا بحرًا من دماء عباد الله المسيحيين الاَّ انهُ في هذا البحر الدموي يغرق الكفر الوثني ويتلاشى . فآمن حينئذٍ لاسيون هو وكل اهل بيتهِ واعتمدوا وقفّى على اثرهِ كثيرون من مدينة شالون وكان ذلك على يد القديس مرسلوس

وفي ذات يوم خرج القديس الى قريةٍ ليعظ فوجد هناك بريسكوس حاكم الاقليم فدعاهُ ذلك الحاكم الى ذبيحة كان عزم على تقدمتها للاوثان فاستعفى القديس من ذلك محتجًا بانهُ مسيحي ولا يحلّ في النصرانية ان يُذبح للاوثان وكذلك حرام اكل ما ذُبح لهم وطفق يبيّن للجمهور عظم خطيئة الذين يعبدون الاوثان وشدة جهلهم فهاج عليهِ الوثنيون وطلبوا موتهُ فعلّقوا يديهِ ورجليهِ باغصان جسيمةٍ من شجرتين ابتغاء انهم اذا ما أرخوا تلك الاغصان المالة تنفسخ يداهُ ورجلاهُ . فبعد ان علّقوهُ هكذا أرخوا تلك الاغصان فلم يمسّهُ ضررٌ من ذلك فتعجّب بريسكوس وأمر ان يُحلّ القديس وأخذ يخاطبهُ بلطافةٍ سرًّا يقول له ارغب اليك الاَّ تقدح في آلهتنا والاَّ تُخطّئ الناس في اكرامهم فهل يخفى عليك كم أرقنا من دماء المسيحيين في ليون وغيرها من المدن وقد عزمنا على استئصال ذكرهم من الارض فان كنت لا تريد ان ترتدّ عن غوايتك وضلالك فعلى الأقلّ اخفِ دينك في قلبك ولا تظهرهُ وهكذا تحيا . اما القديس مرسلوس فقال له بصوتٍ عالٍ حتى سمعهُ الحاضرون حاشا لي ان أُبطن الايمان واظهر الكفر مستحيًا ان ارذل آلهتكم الكاذبة وتعبُّدي للاله الحق خالق الكون كلهِ وقد استعدَّ قلبي للموت فلا اخاف من عذابكم . فامر الوالي بان يوءخذ الى مدينة شالون لانهُ كان ملتزمًا ان يكون هناك بعد قليلٍ فأُخذ وهناك حكم عليهِ بعذابٍ لم يكن قد سبق نظيرهُ واذا قيل كيف كان ذلك قلت أمر فحفروا الارض وانزلوهُ فيها الى وسطهِ واستمرّ هكذا ثلثة ايام طعامًا للحشرات والدود ولم يزل يبارك الله ويشكرهُ الى ان انتقل الى دار النعيم في اليوم الرابع من شهر ايلول نحو سنة ثماني وسبعين ومائة

فسمع القديس فاليريانوس ما جرى واراد ان يشترك مع صديقهِ في سعادة موتهِ فخرج من مدينة اتون حيث كان يبشّر بالانجيل المقدس وذهب الى نواحي مدينة شالون وفيما كان يعظ هناك وصل الحاكم بريسكوس المذكور فقبض عليهِ وقال له انك مسيحي مثل مرسلّوس صديقك ومثلهُ تطغي الشعب الروماني بتعليمك وسحرك وتعلّم الناس ان يحتقروا آلهة القياصرة وتبعدهم عن عبادة تلك الآلهة الكريمة فستذوق ارهب العقوبات كما ذاق وتموت شرّ ميتة وفي الحين أمر الشُرَط ان يعذّبوهُ فعلّقوهُ باطرافهِ وسحبوهُ بحبال ودواليب فترضّضت عظامهُ ثم مزّقوا جسدهُ بمخالب حديدية ومن اكبر الغرائب انهُ قاسى كل ذلك العذاب الاليم بهدوٍ وصبر

وبهجة ادهشت عقول الحاضرين فجعل الشُرَط يسكبون خلاً على جراحات القديس ويحرقونها بشموع متقدة ولم يزل يبارك الله ويشكرهُ فخجل المغتصب من انتصار صبر القديس فالبريانوس على اشد العقوبات وحسب هذا اهانة لآلهتهِ واوثانهِ فامر بقطع هامتهِ وهكذا انتقل الى جوار ربّهِ في اليوم الحادي عشر لموت القديس مرسلّوس اي في اليوم الخامس عشر من شهر ايلول

اليوم الخامس

وفيهِ ترجمة القديس لورَنتيوس يوستينيانوس بطريرك البندقية

ان هذا القديس وُلد بالبندقية في السنة الثمانين من المائة الرابعة عشرة للمسيح وهو ابن برنردوس يوستينيانوس الذي كان ذا مقام ممتاز بين اكابر الشرفاء واسم امهِ كويريني وهي ابنة عائلة ليست دون عائلة ابيهِ من حيث الشرف والاشتهار فلم يمضِ على زواجها زمان طويل حتى مات زوجها فعطفت على اولادها الصغار غير مريدةٍ ان تتزوّج ثانيةً وان كانت في عنفوان صبائها على انهُ لم يخطر ببالها الاَّ ان تخصص ذاتها لتتميم واجبات حالتها قاصدةً ان لا تغيّرها واعتبرت نفسها كانها مخصصة للامانة والانفراد ومن ثم لم تعد تشتغل الاَّ بالصوم والصلاة وبقية الاعمال الصالحة وكانت تربية اولادها من اخصّ ما تهتم بهِ

قد لُحظ في لورنتيوس حتى مذ طفوليتهِ انهُ ليّن الجانب نادر المثال وان لهُ عظمة نفس غير اعتيادية بحيث لم يكن يضيّع وقتهُ نظير أترابهِ وكان يحبُّ مخاطبة الناس العقلاء او الاشتغال بالامور الدقيقة المهمة . اما والدتهُ فونّبتهُ بعض مرّاتٍ ليحذر من الكبرياء ويأخذ بالتواضع وحثّتهُ على ما كان اكثر كمالاً فاجابها حينئذٍ انهُ سيجتهد ان يحسن العمل وقال لها لا يشتهي الاَّ ان يصير قديسًا معتقدًا انهُ ما وُجد فوق سطح الارض الاَّ ليخدم الله لكي يملك الى الابد معهُ ومن ثمَّ كان يوجّه اليهِ تعالى كل افكارهِ وجميع اعمالهِ .

وفي السنة التاسعة عشرة من عمرهِ حدّثهُ قلبهُ بانهُ مدعوّ الى ان يكرّس نفسهُ لخدمة الله على وجهٍ خصوصيٍ فظهر لهُ في رؤيا انهُ رأى الحكمة الازلية بصورة امرأة جليلة ومحاطة بضوءٍ ابهى من ضوء الشمس فظنّ حينئذٍ انهُ يسمع هذا الكلام لماذا انت ضالّ تنتقل من شيءٍ الى شيءٍ أتطلب راحتك عند غيري فلا تجد ما تشتهيهِ الاَّ عندي فما هو في يديك اطلبهُ مني انا حكمة الله واذ تأخذني كقرينةٍ لك وكنصيبك تملك كنزًا لا يساويهِ ثمنٌ . ولما كان متحرّكًا جدًّا من الشرف والفائدة اللذين تضمّنتها دعوة النعمة هذه أحسَّ انهُ مشتعلٌ بشوقٍ جديد الى ان ينصبَّ كل الانصباب على طلب معرفة الله ومحبتهِ

ولم يبقَ عندهُ ريب في انهُ مدعوٌّ للرهبانية التي لا بد ان يجد فيها جميع الوسائط التي تبلغهُ الى نهايةٍ عظيمة كان قد قصدها لكنهُ أبى ان يعوّل على ذلك قبل ان يستشير الله بصلاة خشوعية فاستنصح مارينوس كويريني خالهُ وكان هذا كاهنًا عالمًا صالحًا من اخوية القديس جاورجيوس المساة ألغا لان الدير كان بجزيرة ألغا وهي على مسافة ميل عن البندقية.ذلك ولما رأى هذا المرشد الحكيم ان ليوستينيانوس ميلاً شديدًا نحو الدعوة الرهبانية أشار عليهِ ان يختبر اولاً قوّتهُ معوّدًا نفسهُ شيئًا فشيئًا على استعمال التقشف . اما يوستينيانوس فاطاع وابتدأ ينام الليل اما على قِطع خشبٍ واما على اديم الارض . واذ تصوّر ذات يوم من جهةٍ كرامات الدنيا وغناها ولذاتها ومن جهةٍ اخرى صعوبة الفقر والاصوام والاسهار والكفر بالذات قال في ذاتهِ يا نفسي هل لكِ ان تزدري بتنعمات الدنيا وان تواظبي على سلوك سُبُل الامانة والتقشف ثم بعد ان استراح مدةً نظر الى صورة المصلوب وكمّل على هذا النوع قائلاً يا الهي انت رجاءي فيك التعزية والقوة ورأوهُ منذ ذلك الوقت قاهرًا جسدهُ بشدة التقشف وانكبَّ برغبةٍ لا تكلُّ على كل صنفٍ من الرياضات الرهبانية حتى ان امهُ واصحابهُ خافوا ان يتلف صحتهُ فارادوا ان يحوّلوهُ عن الغاية التي كان قاصدًا اجراءها وعرضوا عليهِ مقامًا شريفًا من مقامات الدنيا . واما هو فاذ كان غير عارف كيف يجتنب الفخاخ التي اظهرت لهُ رأفة كاذبة انسلّ هاربًا وذهب ليترهب عند كهنة اخوية القديس جاورجيوس ألغا

وما وجد ان جمهور آباء الاخوية المذكورة يستعملون تقشفات لم يكن مستعملها . اما الرؤساء فاضطرّوا الى ان يُلطّفوا حرارة غيرتهِ من هذا القبيل ولا غرو انهُ مع شبيبتهِ فاق على جميع الاخوة بشدة اصوامهِ وطول اسهارهِ فكيف لا وما اذن لنفسهِ قط في تنزُّهٍ عادم الفائدة . وكان يجلد نفسهُ

بالاسواط القاسية وما كان يتدفأ حتى ولا في صبارة البرد وما كان يأكل الاَّ لقوام الجسم وما شرب قط الاَّ عند اخذ الطعام فحينما كانوا يعرضون عليهِ الشرب اطفاء للحرارة التي كانت مفرطة ولكونهِ مضنوكاً بالتعب كان معتاداً ان يقول لهم اذا لم نستطع ان نحتمل الظمأ فياليت شعري كيف نقدر ان نطيق نار المطهر . ولا جرم ان هذا الاستعداد لمكابدة الشدائد كان يُولد فيهِ صبراً غير مغلوب عند كل تجربة . قيل انهُ في ايام ابتداء ترهُّبهِ اصابهُ ألم في عنقهِ فلاجل الشفاء اقتضى ان يستعمل الحديد والنار هذا ولما حان وقت استعمال الدواء كان يطمئن على هذا الوجه الناظرين المرتعشين قائلاً لماذا تخافون أتظنون اني لا اقدر ان آخذ ما احتاج اليهِ من الصبر والجَلَد ممَّن استطاع ان يعزّي ويُنقذ من اللهيب الاولاد الثلثة المرميين في الاتون . والحاصل انهُ صبر على فعل الدواء ولم يتنفس الصعداء البتة ولم ينطق الاَّ باسم يسوع المقدس وقد اظهر مثل هذه الشجاعة حينما عُمل لهُ شقٌّ مؤلم فكيف لا وكان يقول للجرَّاح الخائف اقطع بجراءة فان آلتك دون اظافر الحديد التي كانت تمزّق بها اجسام الشهداء

وكان دائماً اوَّل من يصل الى الرياضات العمومية وآخر من يخرج منها . اما بعد صلاة نصف الليل فما كان يتبع الاخوة الذين يذهبون ليستريحوا لكن كان يبقى في الكنيسة حتى الصلاة الاولى التي تُقام عند بزوغ الشمس . انهُ لم يعد شيء يرضيهِ اكثر من استعمال الاتضاع ولذلك كان ينتخب الوظائف الدنية لاجل الكمال وكان يلبس دائماً أردأ اثواب الجمهور وكان يطيع حالاً اقل علامة تبيّن لهُ ارادة الرئيس وفي المخاطبات الشخصية كان يُثبت حكمهُ لحكم الآخرين وكان يطلب في كل شيء المقام الاخير على قدر ما امكنهُ ان يفعل بدون افتخار . ولما كان يذهب ويُفتّش في الطرق كان يطلب كل سبب يجذب اليهِ احتقار الناس واستهزاءهم ولما كان ذات يوم في موضع لا بد ان يكون فيهِ هزءا اعلمهُ رفيقهُ بذلك اما هو فقال لهُ بسكينة فلنذهب ونطلب الازدراء بجسارة فلا ريب اننا لم نصنع شيئاً ان لم نرفض الدنيا الاَّ بالكلام فيقتضي ان ننتصر عليها اليوم باكياسنا وصلباننا . وكان يعرف ان الاهانة المرتضى بها والعذاب المقبول بفرح هما اثبت دليل على الانتصار التام على انفسنا واستئصال الكبرياء التي هي فينا واحدةٌ من اصول موانع الفضيلة . وكان يعلم ايضاً كم هو مفيد ونافع عدم الاكتفاء بما ترسلهُ الينا العناية الالهية من الاهانات وان نزيد عليها بطيبة خاطر بشرط ان نفعل ذلك دائماً بحكمةٍ ونجتنب كل ما دأبهُ يجعلنا نشعر بالافتخار والازدهاء. هذا واذ كان يتكفَّف كان يحضر غالباً البيت الذي وُلد بهِ ولكنهُ ما كان يدخلهُ بل يبقى في الطريق ويطلب الصدقة وهو على الباب واما امهُ فما سمعت صوتهُ قطُّ بدون ان يتوجَّع قلبها لهُ وكانت تُوصي خدامها ان يعطوهُ بسخاء فتذهب وصيّتها على غير طائل بحيث لم يكن يأخذ الاَّ رغيفين وكان يتمنَّى الراحة والسلام للذين كانوا يساعدونهُ وينصرف كما لو كان غريباً . ولما احترق مخزن مؤونة الجمهور السنوية قال لأخٍ كان يتشكى وينوح لماذا نذرنا ان نعيش بالفقر فالله اعطانا هذه النعمة لكي نحسَّ بهِ وهكذا كان يبيّن محبتهُ للاهانات والتعاذيب وكان يستعمل كل الفضائل التي هي نتائجها والتي اكسبتهُ أخصَّ الاستحقاق

ولا جرم انهُ منذ زهد في الدنيا تعوَّد ان يملك لسانهُ فلم يكن يقول شيئاً ليزكي نفسهُ او ليعتذر فلما اتُّهم ذات يوم في المجمع بانهُ خالف قانوناً من القوانين لزم الصمت مع انهُ كان رئيساً وقتئذٍ ونزل عن كرسيهِ ومشى قليلاً مطرقاً رأسهُ نحو الارض ثم جثا على ركبتهِ وسأل الاخوة المغفرة وطلب ان يُلقى عليهِ قصاص فخجل المشتكي من ذلك وللحال خرَّ على قدميهِ مقرّاً بانهُ طاهرٌ بريء وحكم على نفسهِ علانيةً . اما لورنثيوس فكان يخاف من تشتيت بال خوفاً قويّاً وبناء عليهِ فمذ دخل الدير الى ان مات لم يدخل بيت ابيهِ الاَّ ليساعد والدتهُ عند ساعة موتها

انهُ بعد انفرادهِ بقليلٍ عُرِّض لتجربة هائلة من قِبل احد اصدقائهِ القدماء الذي كان من اكابر المشيخة فهذا على اثر رجوعهِ من بلاد الشرق تصوَّر انهُ يتمكَّن من ان يحوّلهُ عن مقصدهِ وعوَّل على ان يستعمل كل الوسائل الممكنة ليصل الى المقصود وبناء عليهِ ذهب الى دير القديس جاورجيوس وفي صحبتهِ جماعة من الموسيقيين فأُذن لهُ ان يدخل الدير مراعاةً لوجاهتهِ واذ لمح لورنثيوس أثَّر فيهِ جدّاً احتشامهُ ورزانتهُ والانذهال الذي اصابهُ سكّتهُ برهةً . واخيراً اذ غلب نفسهُ قال لهُ كل ما يمكن للمحبة ان تلقيهُ من الحنوّ ليستميلهُ الى اتباعهِ وبما ان هذه الوسائل لم تنجح بادر الى

التوبيخات والشتائم التي لم تنج ايضاً فلما فرغ من كلامهِ اورد القديس حديثاً موثراً جداً في الموت واباطيل الدنيا . واما صديقهُ فاذ تأثر من كلامهِ وندم ندامة صادقة واتصل من ذلك الى ان قطع بدون تأخر كل الربط التي كانت تقيدهُ بالدنيا عوّل على ان يقبل الدعوة التي لا يكون لهُ فيها الاَّ الاحتقار ولبس الثوب الرهباني في دير القديس جاورجيوس واظهر ايام ابتداء ترهبهِ نشاطاً في الامانة لا مثيل لهُ ولم يغير سلوكهُ الحسن بعد الابتداء والحاصل انهُ كان موضوع تعجب وقدوةً صالحةً لكل المدينة ومات اخيراً موت الابرار

ان القديس لورنثيوس ارتقى الى درجة الكهنوت التي كان اهلاً لها بفضائلهِ فكيف لا وروح الصلاة والانسحاق الذي كان مزيناً بهِ الى درجة سامية جداً والمعرفة التي كانت لهُ بالامور الروحية وبطرق التقوى الباطنة جعلاهُ اهلاً لان يشتغل بتقديس النفوس بفائدة كبيرة . ولا ريب ان الدموع التي سالت من عينيهِ في رياضاتهِ ولا سيما وقت القداس أثرت تأثيراً بليغاً في الحاضرين وأيقظت ايمانهم واما هو فأُنعم عليهِ باختطافات روحية مختلفة

انهُ انتخب رغماً عنهُ رئيساً عاماً على رهبانيتهِ فساسها بحكمة عجيبة واصلح ترتيبها حتى انهُ اعتُبر منذ ذلك الوقت كمنشئ الرهبانية . وفي مخاطباتهِ عموميةً او خصوصيةً كان يتكلم على الفضيلة بعذوبة كلية رقّت بسببها كل القلوب وأنعش الفاترين وملأ قلوب المدّعين خوفاً خلاصياً والقى في قلوب الجبناء الاتكال وحرّض الجميع على حرارة العبادة وكان معتاداً ان يقول ينبغي للراهب ان يرتجف من اسم اقل تعدٍ . وكان يقبل اناساً قليلين في رهبانيتهِ ويمتحن طويلاً الذين يظنُّ انهم يستحقون القبول اعتماداً على ان هذا الكمال وفرائض الرهبانية انما هي لقليل من الناس وانهُ لا توجد في الكثيرين الحرارة والروح الذي تقتضيهِ الرهبانية وبناء على هذه الاصول اختبر بتدقيق جميع طلبة الرهبانية واول شيء كان يطلبهُ من تلاميذهِ انما هو الاتضاع العميق وكان يُعلمهم ان هذه الفضيلة لا تقتصر على تنقية النفس من الكبرياء بل تُلقي في صاحبها ايضاً شجاعة حقيقية تُعلّمهُ ان لا يتكل الاَّ على الله وكان يُشبّهها بنهرٍ واطئٍ وهادئٍ في الصيف لكنهُ عالٍ وعميق في الشتاء فكان يقول تبعاً لهذا التشبيه نفسهِ ان فضيلة التواضع تلزم الصمت ولا تتسامى بالسعد فيما ان سموها

الشريف المقرون بالفرح والشجاعة الغير المغلوبة انما هو في الشدة والشقاء وكمّل كلامهُ قائلاً انهُ لا شيء مثل التواضع يكون للناس عرضةً للغش وقلّت المعرفة بهذه الفضيلة التي لا يمتلكها الاَّ الذين افاضها الله عليهم جزاء لاجتهاداتهم الكثيرة ولروح الصلاة الذي كان فيهم . لا يخفى ان التواضع الذي يُكتسب بالاعمال المتكررة ما هو الاَّ استعداد لهذا فمع كونهِ لازماً وضرورياً هو دائماً اعمى وناقص . ان الاتضاع الذي افاضهُ الله على القلوب يضيء النفس في جميع طرقها ويُريها جلياً كل شقائها وتعاستها ويجعلها تحسُّ بذلك ويشركها في هذا العلم الحقيقي وهو ان نعرف ان الله وحدهُ هو كل كمالٍ واننا عدم . وبناء عليهِ كان عند الحروب والبلايا العمومية يحثُّ الولاة وارباب الدواوين على ان يعقلوا اولاً دناءتهم لان شأن هذا الاستعداد ان يميل اليهم عين رحمة الله عزَّ وجلَّ

اعلم انهُ منذ ارتسم قساً الى ان مات لم يتأخر عن اقامة القداس الالهي كل يوم ما لم يمنعهُ من ذلك المرض وكان يقول في هذا المعنى ان محبة المسيح تكون قليلة اذا لم نجتهد في الاتحاد بهِ الامر الذي يستطاع في اكثر الاوقات . وكثيراً ما كان يرسّخ هذا المبدأ في العقول قائلاً انهُ ضربٌ من الحماقة ان يدّعي العفاف من يعيش بالرخاء والبطالة متقلباً في اللذات الجسدية وكذا من يريد ان يطفي النار ساكباً الزيت فوقها . هذا ولم ينفتأ يكرّر على الاغنياء التزامهم بان يتصدقوا اذا ارادوا ان يخلصوا وكانت احاديثهُ منزّهةً عن الافكار المصنّعة حيث كانت ممزوجةً بعذوبةٍ لم يستطع سامعوهُ ان يتجنبوا تأثيرها

ان البابا اوجانيوس الرابع الذي عرف فضيلة لورنثيوس السامية رسمهُ اسقفاً على البندقية سنة ثلثٍ وثلثين واربعمائة والف للمسيح اما القديس فاستعمل ما قدر عليهِ من الوسائط ليرفض هذه المرتبة السامية حتى انهُ حرّض رهبانهُ ان يكتبوا الى البابا مترجّين ان يتركهُ في خلوتهِ ولكنَّ جميع تلك الوسائط ذهبت على غير فائدة فالتزم ان يطيع . وقد اخذ الاستيلاء على كنيستهِ سرّاً حتى ان اصدقاءهُ الاخصَّاء لم يتأكدوا ذلك الاَّ عند ما صُنع الاحتفال . هذا وقد قضى كل الليل الذي يلي رسامتهُ بالصلوات امام مذبحٍ ما لينال النعم من الله وكذلك فعل في الليلة السابقة رسامتهُ . وقد كان على ما روى احد مشاهير البروتستانت عجيباً في تقواهُ الصافية نحو الله

تعالى وفي حرارة غيرتهِ على مجد الله وفي محبتهِ الغير الاعتيادية للفقراء. على انهُ لم ينقص شيئًا من التقشفات التي كان يستعملها في ديرهِ ولا يخفى ان مثابرتهُ على الصلاة قد افاضت عليهِ انوارًا سماوية وهذا الثبات الغير المغلوب وهذا النشاط الذي لا يكلّ ولا يتعب وكان لهُ اثر في كل سيرتهِ. ومن ثمَّ استطاع ان يُسكّن الفِتَن الداخلية التي كانت قد اقلقت المملكة ورعى رعيتهُ في اشدّ الاوقات بسهولةٍ كما رعى ديرهُ

وان اثاث دارهِ كان يدلُّ على محبتهِ للبساطة والفقر واذ كان البعض يحثّونهُ على ان يعمل شيئًا حفظًا لشرف اصلهِ وسموّ مقامهِ ومراعاةً لخاطر المشيخة كان يقول لهم ان الفضيلة وحدها هي زينة الاسقفية وينبغي ان لا يكون للاسقف عائلة غير فقراء ابرشيتهِ. ذلك وان اهل دارهِ كانوا خمسة اشخاص وكان يأكل في صحنٍ من تراب وينام على فراش من تبن مغطّى بأخلاقٍ بالية ولم يكن لهُ الاَّ ثوب واحد على ان قساوتهُ على نفسهِ قرنت ببشاشتهِ ولين جانبهِ نحو الغير فكيف لا والجميع يحترمونهُ حتى اكتسب سلطة قويَّة على جميع الارواح وجميع القلوب و بسهولةٍ وصل الى ان اصلح التصرُّفات الرديئة التي كانت داخلةً في الاكليريكيين والعالميين ومن ثمَّ كانت رعيتهُ تحبهُ وتحترمهُ حتى لم يكن من يعصي لهُ امرًا فاذا لقي اول الامر صعوبةً قدر ان ينتصر عليها اما بلطفهِ واما بصبرهِ

لا يخفى ان غيرتهُ ضد الملاعب جلبت لهُ كثيرًا من الاعداء فمن اولئك الاعداء رجل ذو سطوة فهذا تجرَّأ بقلّة أدب وخالف المنشور الذي كتبهُ في هذا الشان واعتبر الاسقف القديس كرجلٍ اراد ان يكلّف العالميين السيرة الرهبانية وحسبهُ كراهبٍ موسوسٍ اقلقتهُ الشكوك الباطلة وبذل اقصى مجهودهِ ليهيّج الشعب عليهِ. هذا ومرةً اخرى شُتم يوستينيانوس وأُهين علانيةً في الطريق وعُومل معاملة مراءٍ ولله درُّهُ صبورًا فقد سمع الشتائم التي قذفوهُ بها ولم تتغيَّر سحنتهُ ولا فقد شيئًا من وقارهِ وسكينتهِ فكيف لا ولم يكن يحسُّ بالمدائح والاستصوابات التي كانت تُقدَّم لهُ وما لُحظت فيهِ من حركات الكدر ولا من حركات الألم وحاصلهُ انهُ كان يتمتع بطمأنينة النفس التي ما كان شيءٌ قادرًا ان يفسدها

اعلم ان زيارتهُ الابرشية اوَّل مرة جاءت بفوائد غير مظنونة ولا منتظرة فقد انشأ خمسة عشر ديرًا وكثيرًا من الكنائس والمعابد وهذّب كل ما كان قد دخل من سوء التصرُّف نظرًا للاحتفال بالخدمة الالهية وتوزيع الاسرار المقدسة ووضع قانونًا جيّدًا جدًّا لكنيستهِ الكاتدرائية التي اصبحت دستورًا وقدوةً للنصرانية كلها ورتّب تعايين جديدة لخدّام المذبح لكي يُخدَم الكنيسة بما عظم من الادب وشرف النفس وأقام عشر خورنيّات جديدة بالبندقية فضلاً عن العشرين خورنيَّة التي كانت قبلاً. وكل يوم كنت ترى الناس افواجًا افواجًا الى قلاَّيتهِ ما بين طالبٍ تسلية في اتعابهِ او مساعدةً في بلاياهُ ومستشيرٍ القديس في ما هو مرتاب فيهِ واما باب قلاَّيتهِ فما كان يُغلَق على الفقراء وكثيرًا ما كان يحبُّ ان يوزّع الخبز والثياب مجانبةً للاساءة الجارية في استعمال المال حتى عند الفقراء او اذا كان يعطي منهُ كان ذلك كميَّة قليلة. ان السيدات المتورّعات كانت تحمل صدقاتهِ الى الفقراء المحتشمين او الى الذين ذاقوا خسائر معتبرة. هذا ولعمري انهُ لم يكن لهُ في ما يمامهُ من افعال المحبة التفات الى اللحم والدم. ان رجلاً جاءهُ من قِبل اخيهِ ليوناردوس فارجعهُ اليهِ قائلاً ارجع نحو الذي ارسلك واكلّفك ان تقول لهُ انهُ قادرٌ على ان يساعدك. ذلك وما من احد احتقر المال نظيرهُ ألا ترى انهُ فوّض الاعتناء بأمرهِ الزمني لوكيل امين وكان معتادًا ان يقول في هذا المعنى لا يليق براعي النفوس ان يصرف قسمًا معتبرًا من الزمان الذي هو ثمين جدًّا في امور جزئية تتعلق بالمال

اعلم ان الاحبار الاعظمين اظهروا اكرامًا وافرًا للقديس لورنثيوس ألا ترى ان البابا اوجانيوس الرابع دعاهُ الى مدينة بولونيا واعطاهُ علامات امتيازٍ كبيرة ولقّبهُ بزينة الاسقفية وكذا البابا نيقولاوس الخامس فقد كان هذا الحبر الاعظم يطلب كل فرصةٍ ليعطيهُ براهين اعتبارهِ الجليلة اخيرًا وجد فرصة عند ما تُوفّي دومينيكوس ميخائيل بطريرك كرادو ووقع ذلك عام واحد وخمسين واربعمائة والف للمسيح فنقل البطريركية الى كرسي مدينة البندقية. اما مجلس اعيان هذه المدينة فمحافظةً على حريتهم واستقلاليتهم اخذوا يضادون قصد البابا ومن ثمَّ أوجدوا مشاكل كبيرة خوفًا من ان البطريرك الجديد يضرُّ بحقوقهم وامتيازاتهم في بعض الاحوال وفيما ارباب ذلك المجلس مضطربون الى الغاية من هذا الامر توجَّه القديس لورنثيوس الى حيث كانوا

مجتمعين واعلمهم انهُ كثيرًا ما يحبُّ ان يترك المقام الذي لم يكن لائقًا بهِ وقال انهُ بقي فيهِ ثماني عشرة سنة على غير ارادةٍ منهُ وانهُ قد ثُقّل باضافة منصب جديد الاعباء الذي كان لهُ بجملها مزيد التعب والعناء ولله درُّهُ خطيبًا فلا ريب ان الخطاب الذي خاطبهم بهِ في تلك الفرصة دلَّ على خلوص محبتهِ وعميق اتضاعهِ . والنتيجة ان رئيس المشيخة نفسهُ لم يقدر ان يكفكف دموعهُ فطلب الى القديس لورنثيوس ان لا يفتكر في الاستعفاء وان يجري على مقتضى امر البابا الذي يكون انفاذهُ مفيدًا للكنيسة ومشرفًا بلادهم واما اعضاء مجلس الاعيان فاستصوبوا رأي رئيس المشيخة والحاصل ان احتفال تنصيب البطريرك الجديد جرى بفرح كبير في كل المدينة

هذا وان القديس لورنثيوس اعتبر نفسهُ كمن تعهد بالتزام جديد ان يشتغل بحرارةٍ بنمو مملكة يسوع المسيح وتقديس النفوس المستودَعة لعنايتهِ فتبيّن حينئذٍ للعيان ما يقدر عليهِ قديسٌ في المناصب العالية . فان القديس لورنثيوس منذ ذلك الوقت كان يقدّس نفسهُ ويساعد القريب وقط لم يجعل الناس ينتظرون مطلوبهم وكان يترك كل شيء ليواجه الذين يريدون ان يخاطبوهُ ولم يجعل فرقًا في ذلك بين الفقراء والاغنياء وكان يقابل جميع الذين يمثلون امامهُ بمعظم البشاشة ويبدي لهم مزيد الحبّ ويعزّيهم بنوع مؤثّر جدًّا وكان يظهر انهُ منزّه بالتمام عن كل ميل كانهُ غير مشترك في الخطيئة الاصلية بل كان كل احدٍ يعتبرهُ كملَك هبط على الارض واما مشورانهُ فكانت مناسبةً لاحوال الذين يقصدونهُ . هذا وشهد الجميع بصلاحهِ وفضيلتهِ وحكمتهِ ومعارفهِ وفي رومية لم يريدوا ان يفحصوا ثانيةً الدعاوي التي حكم بها عندما ترفع الدعوى اليهم وكانوا يُثبّتون هناك الاحكام التي بتّها . وكثيرًا ما كان يحتقر ذاتهُ ولم يكن يبالي بما يمكن ان يُفتكر في شخصهِ فاذا مدحهُ احدٌ اتخذ ذلك وسيلةً لان يتواضع بزيادة امام الله والناس ولذلك كان يخفي اعمالهُ الصالحة على حسب استطاعتهِ

ولما كان يسجم العبرات الصادرة اما عن محبة الله واما من شدة انسحاقهِ اعتاد ان ينسب ذلك الى ضعفهِ وشفقة نفسهِ المتجاوزة الحد . هذا وكان ميتًا عن ذاتهِ بالتمام حتى لم يكن يبالي بشيءٍ يختص بجسدهِ . قيل ان خادمًا قدّم لهُ ذات يوم على المائدة خلاًّ عوض الماء والخمر فشربهُ ولم يقل شيئًا

والخلاصة ان كل شيء حتى مكتبتهِ كان يدل على حبهِ الفقر

اعلم ان المشيخة اضطربت في زمانهِ بقلاقل شديدة وهُدّدت باعظم الاخطار . روى المؤرخون ان احد النساك الفضلاء الذي خدم الله منذ ثلثين سنة بحرارةٍ في جزيرة كورفو أكّد انهُ عرف بطريقة غير طبيعية ان المملكة نجت بصلوات الاسقف القديس . ان ابن اخي لورنثيوس الذي كتب ترجمتهُ بعبارة بليغة مهذَّبة قال كشاهدٍ عيانٍ انهُ كان منعمًا عليهِ بموهبة فعل العجائب وموهبة النبوة

ولما ألّف كتابهُ المسمّى مراتب الكمال كان ابن اربع وسبعين سنة وما فرغ منهُ الا اصابتهُ حمّى شديدة ولما رأى خدّامهُ مشغولين بان يهيئوا لهُ فراشًا قال لهم بكل قلقٍ واضطراب ماذا تريدون ان تعملوا فانتم تضيّعون زمانكم ان ربّي مات معلّقًا على الصليب أفلا تذكرون ما قال القديس مارتينوس عند سكرة الموت ونصهُ ينبغي ان يقضي المسيحي أجلهُ على الرماد ومسح الشعر . ولم يرد الا ان ينيموهُ على التبن.وفيما كان اصحابهُ يبكون حولهُ صرخ في معظم فرحهِ قال ها العروس فلننطلق اليهِ ثم رفع ناظريهِ نحو السماء وقال ياسيدي يسوع المسيح انا ذاهب اليك واستسلم مرّةً اخرى الى عواطف هذا الخوف المقدس الناشئ عن الافتكار بديونة الله . ولما قال لهُ احد الناس ذات يوم انهُ ينبغي لهُ ان يسرّ ويفرح بحيث انهُ منطلقٌ ليُكلَّل اضطرب وقال انما الاكاليل للجنود الباسلة لا للجبناء نظيري . هذا واما فقرهُ فكان مدقعًا حيث لم يكن لهُ شيء يستطيع ان يتصرّف فيهِ وانما عمل وصيّتهُ لمجرّد حثّ الناس وتحريضهم على الفضيلة وليأمرهم ان يدفنوهُ كواحدٍ من عامّة الرهبان في دير القديس جاورجيوس واما بعد موتهِ فلم يُرد مجلس الاعيان ان يأذن في انفاذ هذا الشرط الاخير . وفي بحر اليومين اللذين قبل وفاتهِ جاء فِرَقٌ مختلفة من عسكر المدينة ليتبرّكوا منهُ واما باب غرفتهِ فكان مفتوحًا للفقراء كما هو للاغنياء وألقى على الجميع تعاليم شديدة التأثير ولما كان مارسل احد تلاميذهِ المحبوبين جدًّا يبكي بكاء مرًّا عزّاهُ بقولهِ لهُ انا اتقدّمك وانت عما قليل تلحق بي ونجتمع في الفصح القابل . هذا وان الحادثة قد أثبتت نبوّتهُ . واغمض عينيهِ ومات بسلام في اليوم الثامن من شهر كانون الثاني في السنة الخامسة والخمسين من القرن الخامس عشر للمسيح وعمرهُ اربع وسبعون سنة اثنتان وعشرون منها في الاسقفية واربع

في البطريركية . ولم يُدفن الاّ في اليوم السابع عشر من شهر اذار لِما حدث من الخصام على موضع دفنهِ . وطوَّبهُ البابا اكليمنضوس السابع سنة اربع وعشرين وخمسمائة والف واثبت قداستهُ البابا اسكندر الثامن عام تسعين وستمائة والف وعيَّن لعيدهِ اليوم الخامس من شهر ايلول لانهُ مثل هذا اليوم ارتسم اسقفًا (مترجم عن غودسكار)

اليوم السادس

وفيهِ ترجمة القديسة سلطانة البتول الشهيدة

ان هذه القديسة وُلدت بمدينة اليزا في بورغُنْديا من اعمال فرنسا نحو سنة ست وثلثين بعد المائتين للمسيح وهي من قوم وثنيين شرفاء هناك وماتت امها بعد قليل من ولادتها فاضطرَّ اكليمنضوس ابوها ان يسلّمها الى مُرضعٍ وهذه كانت مسيحية غير ان اكليمنضوس لم يكن عارفًا بذلك . فلما بلغت سلطانة سنَّ التمييز شرعت مربّيتها تعلّمها قواعد النصرانية وكان ينزل تعليمها على قلب تلك الفتاة كندًى سماويّ ثم اعتمدت سرًّا ومنذ ذلك اليوم نمت في العبادة وكانت اكثر الاحيان تتكلم على جزيل ثمن فضيلة العفاف وسعادة الذين يموتون حبًّا بالايمان المسيحي ولا عجب فان الفم يتكلم من فضلة ما في القلب كما جاء في الانجيل الشريف . ولما تأملت ان الله تعالى وهبها جمالاً بارعًا وان زهرة العفة البهية النضرة لا تُحفظ الاّ في الاختلاء فكانت تفرُّ من معاشرة الناس وتقضي اكثر زمانها اما في هيكل المسيحيين الخفيّ واما مختلية في منزلها وبعد صلواتها كانت تقرأ تراجم القديسين والشهداء بمعظم الرغبة ولقراءتها سِيَر اولئك القديسين الذين هرقوا دماءهم حبًّا بسيدنا يسوع المسيح استعرت في قلبها نار محبة المسيح حتى اختارتهُ عروسًا لها ونذرت لهُ عفَّتها وانتخبت سلطانة العذارى امًّا لها وقدَّمت لها ابلغ التكريم اللائق بمقامها السامي ولم تزل تطلب من يسوع بشفاعة والدتهِ ان يؤهلها لان تسفك كل دمها حبًّا لهُ عزَّ وجلَّ ولكي تُعدَّ من شهدائهِ

وفيما كانت مربّيتها تصف لها يومًا اشدَّ التعاذيب التي كان الكفّار يعذّبون بها المسيحيين سألتها هل استعدَّ قلبكِ لهذه كلها يا سلطانة فاجابتها اعلمي يقينًا انهُ لا يقدر شيءٌ من جميع هذه الأعذبة ان يفصلني عن محبة عروسي يسوع . لاني قد عرفت بمن آمنت واني لواثقةٌ باني استطيع بمساعدة نعمتهِ ان اظفر بكل شيء كما اني واثقة ان المغتصب وخدّام غضبهِ يعجزون عن تعذيبي اما انا فلا اعجز عن احتمال العذاب . هذا وماذا اقول في سرور مربّيتها عند استماعها كلام تلميذتها العزيزة فقالت لها اني لأَرجو من كرم الله تعالى اني اراكِ بعد قليل من الزمان شهيدة

اما اكليمنضوس ابوها فمع انهُ كان قد سمع ان ابنتهُ آمنت بالمسيح على يد مربّيتها لم يُرد ان يسلمها الى غيرها بحيث قد أحسنت تربيتها وقامت بالاعتناء بها احسن قيام آملاً انهُ يجذبها فيما بعد الى عبادة الاوثان فتركها في بيتها حتى بلغت مبلغ النساء وحينئذٍ طلبها كثيرون من اشراف البلد وقد اختار والدها احدهم وقدَّمهُ لها عروسًا . فقالت لهُ البتول لقد عرفت يا ابي وسيدي صنماء حبك لي وانك لذلك تقدّم لي هذا الرجل الغني الشريف النسب زوجًا الاّ اني اسألك يا أبتِ اذا اراد من هو اشرف منهُ واغنى ان يتزوَّجني أفلا ترتضي بذلك . فاجابها لاجرم يا ابنتي العزيزة اني ارضى بذلك حالاً غير اني اسألكِ هل في كل هذا الاقليم اعزُّ جانبًا وأوفر ثروةً من ذلك الرجل . فاجابتهُ سلطانة بأتم الحرّية والاطمئنان قالت اعلم يا أبتِ المحترم اني قد وجدت في الديانة المسيحية قرينًا منقطع النظير ليس في اقليمنا هذا فقط بل في كل المسكونة ايضًا وهو السيد المسيح ابن الله خالقنا ومخلصنا وديّاننا . فقال لها اكليمنضوس ابوها ما هذا الكلام يا ابنتي أيمكن ان تقبلي هذا المذهب الذي تكرههُ الامم كلها فدعي عنكِ هذه الحماقة المستقبحة . فقالت ليتك يا ابي تتنوَّر بتعليم النصرانية فإن رضيت بذلك تيقّنت في الحال ان لا حكيم الاّ في النصارى وان الوثنيين جميعهم على جهلٍ كثيف . فلما سمع اكليمنضوس هذا الكلام ارتدَّ راجعًا الى منزلهِ متحيرًا في امرهِ مفكرًا كيف يبلغ أربهُ . اما ما كان من سلطانة فاخبرت حالاً مربّيتها بما جرى فهنّأت تلميذتها وحثتها على ان تستعدَّ للحرب بواسطة الصلاة

وبعد ايام قليلة اخذها ابوها الى منزلهِ وقال لها ونار الغيظ تستعر في صدرهِ انظري لنفسكِ ايَّ الامرين تختارينهُ اما ان تكوني لديَّ ابنةً طائعةً فتعبدي آلهتي واما ان اصير بالنسبة اليكِ رجلاً مغتصبًا قاسيًا ولما رأى ان الوعيد لم يؤثر فيها بل بقيت ثابتةً على عزمها أخذ يضربها بقساوةٍ وفيما كان يعاملها هكذا وصل الى مدينة اليزا

اوليبريوس حاكم المملكة وكان قد ارسلهُ داسيوس قيصر نحو السنة الحادية والخمسين بعد المائتين وعند وصولهِ اخبروهُ بمعاملة آكليمنضوس ابنتهُ ومدحوا لهُ جدًّا جمالها البارع وعقلها الذكي وبقية صفاتها الحسنة فاشتهى الحاكم ان يبصرها فارسل ودعاها اليهِ . فلما وقفت امامهُ تعجب منها واخذ حبها بقلبهِ كل مأخذ ولهذا استقبلها باكرام واراد ان تجلس لكي تكلمهُ وطفق يمدح بهاء جمالها الباهر و بيَّن لها من العلامات ما يدل على تعشقهِ اياها . اما البتول فقالت لهُ انني بعد ان آمنت بالمسيح لهُ المجد نذرت لله تعالى عفّتي وهي لديَّ افضل كثيرًا من كل مجدٍ دنيويّ . اما اوليبريوس فلم يغظها بكلمة بل لاطفها بخطاب عذب واطلقها قائلاً امضي الان وارجعي بكرة غدٍ لعلكِ في هذه المدة تحلمين وتطيعيني . فقالت لهُ حينئذٍ انك لمخطىءٌ في ظنك بي ان أحول عن عزمي لاني بحول الله ربي ساكون غدًا كما انا الآن . فلما مضت الى بيتها عاد ابوها وشرع يبذل كل جهدهِ في ان يغيّر عزم ابنتهِ وحيث لم يفز بمطلوبهِ بعد ان افرغ كل ما عندهُ من حيل الكلام وقساوة الضرب ذهب الى الحاكم واشتكى عليها

فوقفت سلطانة امام اوليبريوس ثانيةً فهشَّ لاستقبالها وحيَّاها بالطف الكلام ثم قال لها اني قد عزمت على ان ارفعكِ الى مقام اشرف نساء المملكة الرومانية بان اتزوَّجكِ فاجحدي الآن مذهب المسيحيين مذهب الذل والهوان واقضي حياتكِ في العزّ والتنعم . فقالت القديسة اني قد قلت لك قبلاً ان لي قرينًا لا نظير لهُ في العزّة والغنى والاقتدار ومن اجلهِ وحبًّا بهِ اشتهي ان اكابد ارهب عذاب واذوق شرّ ميتة . فاوغر ذلك صدر اوليبريوس وقال لها انني الى الان لم أُعاملكِ الاَّ باكرام ومحبة لعلَّكِ تهتدين الى الصواب فلم تهتدي . اما الآن وقد رأيت من امركِ ما رأيت فاجرّب واسطة اخرى ربما تتأدَّبين بها ثم القاها في سجنٍ . فولجت سلطانة السجن وعلامات الابتهاج متلألئة على وجهها وأَحيت الليل كلهُ مصليَّةً وقد انعم الله تعالى عليها بتعزية عظيمة بها زادت شجاعتها ونشاطها

وصباح الغد خرجت من السجن ومثلت امام المغتصب الذي لما رآها ثابتةً في عزمها تحوَّل حبهُ لها بغضًا فامر ان يُشدّ حقواها بمنطقة من حديدٍ ورُبط الزنار في الجدار بمسامير من حديد وتركها هكذا في ذلك السجن وقد بقيت القديسة على تلك الحال نحو شهر لا تستطيع ان تجلس ولا ان تستريح وفي هذه المدة لم يبرح والدها واقاربها واشراف المدينة يزورونها ويغرونها ويحثونها على ان تجحد والعياذ بالله النصرانية ولكنها ما كانت لتبالي بكلامهم . ثم أُخذت الى المغتصب وكان لها من العمر خمس عشرة سنة فطفق يخاطبها بما كان قد خاطبها بهِ قبلاً . ذلك ولما رأى ان كلامهُ قد ذهب باطلاً امر بتعذيبها امام جمٍّ غفير من الناس فاخذ حينئذٍ الجنود يضربونها ضربًا عنيفًا بحبال علَّقوا باطرافها مهاميز من حديد حتى مزَّقوا جسدها الطاهر . فلما رأى الحاضرون دمها يجري من كل ناحية توجَّعوا لها ورثوا لسوء حالها . فخاف الحاكم فارجعها الى السجن . وعزَّاها الله تعالى في تلك الليلة برؤيا ظهرت لها لانها عاينت سلَّمًا عظيمةً متَّصلةً من الارض الى السماء وعلى رأس السلَّم حمامة منيرة بدَّدت بنورها ظلام السجن . ثم سمعت هاتفًا يقول تشدَّدي بالقوة والشجاعة ياعروس السيد المسيح العزيزة انكِ ستتوَّجين عما قليل بالاكليل الذي استحققتِهِ بعفّتكِ وصبركِ وصليب آلامكِ يكون لكِ سلَّمًا بها تصعدين الى السماء

فلما سمعت صوت الهاتف السماوي زالت كل اوجاعها واحسَّت من نفسها بشجاعةٍ جديدةٍ فخرجت حينئذٍ من السجن ووقفت مرة ثالثة امام الحاكم الذي كان قد عزم على ان يذيقها اشد العقوبات . فلما رآها أوعز الى الجند فاحرقوا جسدها حالاً بشموع ملتهبة ثم انزلوها في ماءٍ بارد ليزداد وجعها غير ان الله تعالى لم يدعها تشعر بوجع البتة وبحيث كان المحفل يتعجبون من ذلك قالت لهم انظروا عظم قدرة اله المسيحيين الذي يحوّل العذاب الاليم راحةً وتنعمًا . هذا وفيما كانت تحثهم على ان يؤمنوا بالله تعالى رأت تلك الحمامة حاملةً اكليلاً ووضعتهُ على رأسها ثم سُمع هاتف يقول هلمي ياسلطانة تعالي املكي السماء مع عروسكِ الالهي الى الابد وسمع صوت ذلك الهاتف كل من كان حاضرًا فآمن منهم ثمانمائة وخمسون رجلاً وتنصَّروا جهرًا فخاف اوليبريوس من تعصُّب الشعب فامر السيَّاف ان يقص عنق تلك العذراء النقية ففعل وهكذا انتصرت تلك الفتاة العفيفة على قوات الارض والجحيم . وقد انتقلت الى جنة النعيم نحو السنة الحادية والخمسين بعد المائتين للمسيح ويذكر السنكسار اليوناني استشهادها في اليوم السابع من شهر ايلول

اليوم السابع

وفيهِ ترجمة القديس توما فلاَّنوفا

ان هذا القديس الذي هو قدوة الاساقفة قد وُلد ببلاد اسبانيا سنة ثماني وثمانين واربعمائة والفٍ للمسيح وكان لأبويهِ رأفة قلبية على الفقراء والمساكين وكان يُدعى ابوهُ الفونسيوس غراسيا واما امهُ فكانت تُدعى لوسيا وقد كانا يقسمان في كل سنة دخلهما الى قسمين اما القسم الاول فلقضاء حاجات الحياة واما الثاني فلاعانة المحتاجين فمن احشاء هذه الرحمة وُلد لهما هذا الابن الرحيم الذي كان يرفق بالمساكين ويصطنع اليهم وهو القديس توما وقد استبانت فيهِ هذهِ الفضيلة منذ صباوتهِ لانهُ مذ بلغ السنة السابعة من عمرهِ شرع يسعى في مساعدة الفقراء بمحبة اخويَّة . وكان يُحسن اليهم كل يوم بطرقٍ مختلفة فكان تارةً يمتنع عن تناول ماكلهِ ليقدّمهُ للبائسين وتارةً يخلع اثوابهُ ويُعطيها الفقراء وكان غالبًا يأخذ من البيت ما يجدهُ مناسبًا لهم ويمنحهم اياهُ كالحنطة والخبز واللحم وما شاكل ذلك وكان والداهُ يفرحان بذلك ولا سيما امهِ المباركة . فاتفق انهُ خرج ذات يوم بثوب جديد فلما وجد صبيًّا صغيرًا فقيرًا لابسًا ثيابًا رثةً اعطاهُ ذلك الثوب الجديد ورجع الى البيت ولبس ثوبهُ العتيق فلما سألتهُ امهُ عما كان من امر الثوب الجديد اجابها بلطفٍ قال اعلمي يا امي انني قد اعتدت على هذا الثوب العتيق وان الجديد هو انسب للفقراء وانفع لهم . ولما كان مرةً اخرى منفردًا في البيت دخل عليهِ ستة رجال يطلبون الصدقة واذ لم يكن معهُ مفتاح المآكل وبيت المؤونة اخذ ستة افراخ دجاجةٍ كانت في البيت واعطى كل واحد منهم واحدًا منها فلما رجعت امهُ ولم تجد الفراخ سألتهُ عنها فاخبرها بما فعل وختم كلامهُ قائلاً ولو جاءني مسكين آخر لكنت اعطيتهُ الدجاجة ايضًا

ذلك وان فضيلة الرحمة كانت مقترنة فيهِ بفضائل أُخر ولا سيما الاحتشام والوداعة والطهارة التي لم تتلطخ بشيءٍ من الدنس واقترنت ايضًا بخوفٍ شديد من كل كذب والتباس ومكر واما اللفظتان اللتان تعلمهما من ابويهِ ونطق بهما اوَّل مرة فهما اسمي يسوع ومريم وكان اكرامهُ لوالدة الله عجيبًا ومن ثم تلقّب بابن مريم ولحظ المؤرخون انهُ ترهب وارتسم اسقفًا ومات في عيدٍ من اعيادها فهذا القديس دخل المدارس وتمهر في العلوم حتى انهُ اقيم معلمًا للفلسفة في مدينة الفالا وفي مدرسة سالامنقا الكلية غير ان نفسهُ كانت تتوق دائمًا الى الاختلاء . فبعد التماسهِ النور من الله ليعرف الطريق التي يريد تعالى انهُ يسلك فيها انضمّ الى رهبانية سياج القديس اغسطينوس وكان ذلك في السنة الثامنة عشرة بعد الخمس مائة والالف

هذا وبدا يمارس رياضات الرهبانية لا كمبتدئٍ بل كعلاَّمة في السيرة الروحية ولم يكن يجد صعوبة ولا في اصعب الرياضات ولا يستثقل شيئًا منها ولو كان مما تنفر منهُ الطبيعة اشدَّ النفور ولانهُ كان منذ حداثتهِ سالكًا منهج الفضيلة وكان يمارسها كشيءٍ مطبوع على الميل اليهِ الزمهُ رئيسهُ بعد خروجهِ من دير المبتدئين بقبول الكهنوت ثم امرهُ بمباشرة وظيفة الوعظ وباشرها كرسول وكان الجميع يتعجبون منهُ . وبعد ذلك اقيم رئيسًا على الاديرة وفي زمان رئاستهِ هذه أُخبر بان الملك كرلوس الخامس قضى بالموت على ثلثة رجال من الشرفاء بسبب تمرّدهم وان اشرف عظماء المملكة والاساقفة تشفَّعوا فيهم لديهِ فلم يُشفّع منهم احدًا ولا ابنهُ فيلبس الذي طلب اليهِ ان يعفو عنهم فمضى القديس توما وهذا تشفّع فيهم فللوقت اطلقهم الملك من السجن وغفر لهم . ولما رأى الملك ان اهل بلاطهِ يستغربون تفضيلهُ شفاعة القديس على شفاعة ابنهِ وعظماء مملكتهِ واساقفتها قال لهم اعلموا ان طلبات هذا الرئيس هي عندي في مقام امر الهي أو ليس من الصواب ان نُجيب طلب من يجب علينا ان نلتجيء اليهِ ليقدّم لله طلباتنا ويتضرَّع من اجلنا ويتشفّع فينا

ثم عزم الملك على ان يضع هذا السراج على المنارة ومن ثم قدّم للقديس اسقفية مدينة والنسيا وقد رُوي ان الملك كان قدّم لهُ قبل ذلك اسقفية غراناتا فلم يرتضِ القديس بقبولها . وانهُ لما اراد الملك ان يُقيم رئيس اساقفة لمدينة والنسيا كان امر كاتب اسرارهِ بان يذكر في الكتابة احد رهبان القديس ايرونيموس فكتب اسم القديس توما واذ اطّلع الملك على الكتابة سأل الكاتب عن سبب وجود اسم توما فيها فاجاب انهُ قد سمع اسمهُ من فم جلالتهِ فتعجب الملك ونسب هذا الامر للعناية الالهية وامر الكاتب بارسال الكتابة الى توما المكتوب اسمهُ فيها

وقد حتم على اشرف العالميين والاكليريكيين ورؤساء رهبانيتهِ ان يلزموهُ بقبول الاسقفية فاطاع رؤساءهُ وارتسم

اسقفًا في السنة الرابعة والاربعين بعد الخمس مائة والالف وللوقت سافر الى مركز اسقفيتهِ ماشيًا لا راكبًا ولابسًا ثوبًا عتيقًا من اثواب رهبانيتهِ ففكّر في ان يفتقد والدتهُ التي بعد موت زوجها كانت تخدم الفقراء ووهبتهم بيتها وكثيرًا ما كانت ترتاح الى مشاهدة ابنها قبل وفاتها وحيث ذلك ألحت عليهِ في ان يزورها ولكنهُ عليهِ السلام لما تأمل الامر امام الله رأى ان هذه الزيارة مقرونة بما يميل اليهِ الجسد فامتنع عن زيارتها فوصل الى والنسيا وجلس على الكرسي الاسقفي في اول يوم من السنة الخامسة والاربعين بعد الخمس مائة والالف

وبعد وصولهِ قدم لهُ الاكليريكيون اربعة آلاف دوكا(١) لانهم رأوهُ على فقر فقبلها القديس بشكر وفي ذلك الحين امام الاكليريكيين تصدّق بها على المساكين وقال لهم ان الدرجة الاسقفية لا تنافي الفقر الرهباني وعزم على حفظ النذر الذي نذرهُ ومن ثمَّ لم يغيّر ثوبهُ الرهباني ولم يزد شيئًا على المآكل التي اعتاد ان ياكلها في رهبانيتهِ وقال ان الشيءَ الذي ينبغي ان يتميّز بهِ الاسقف ويشرّف درجتهُ انما هو الفضيلة والطهارة لا التزيُّن بالاثواب الفاخرة . وكان يحتسب دخل كنيستهِ الوافر وديعةً مسلَّمة اليهِ ليوزّعها على المحتاجين ذلك وكان يصوم دائمًا كل اصوام الرهبانية اما اصوام الكنيسة فلم يكن ياكل فيها الّا الخبز ولا يشرب الّا الماء ولم ينَم قط على فراش وكان اكثر الايام يوزّع صدقةً على اربعمائة فقير ونيفٍ عدا ما كان يرسلهُ سرًّا الى الذين كان الحياء يصدُّهم عن طلب الصدقة ومن ثمَّ سمي منزلهُ منزل المساكين

اما غيرتهُ في خلاص النفوس فكانت اعجب من ذلك لانهُ كان في كل سنة يفتقد ابرشيتهُ كلها ويعظ كل يوم على الأقلّ مرّةً واحدةً وكان يقع كلامهُ في القلوب احسن موقع ويؤثّر اشدَّ تأثير وكان يقضي بقية النهار في عيادة المرضى وتعليم الجهال وردّ الخطأة . ذُكر انهُ اذ كان يومًا يحث احد الخطاة على التوبة وراَهُ لم يسمع لهُ ولا يؤثر كلامهُ فيهِ اخذ يُعرّي كتفيهِ من ثيابهِ الحبريَّة ويجلد ذاتهُ بضربات شديدة

(١) حاشية . الدوكا ضربٌ من النقود يكون فضّةً وقيمتهُ من خمسة عشر قرشًا الى خمسة وعشرين ويكون ذهبًا وقيمتهُ من خمسة واربعين قرشًا الى خمسة وخمسين وذلك بحسب البلدان

حتى جرى الدم فتغير قلب الخاطي . عند ذلك وخرَّ على قدميهِ تائبًا . ومع فرط اهتمامهِ برعيتهِ لم يزل مضطربًا من قِبل الحساب الذي يؤديهِ بعد موتهِ فطلب بمزيد الالحاح اذنًا لترك مرتبتهِ الخيفة المسئولية فلم يجبهُ الى ذلك الحبر الاعظم فالتجأ حينئذٍ الى الله تعالى وسأَلهُ ان يخلص كنيستهُ من راعٍ مثلهِ بطّال غير مستحقٍ فاستجاب الله طلبهُ واراد ان يقيم لتلك الكنيسة شفيعًا في السماءِ من كان يدبّرها على الارض بعنايةٍ مقدسة بحيث في يوم عيد ظهور العذراء المجيدة حينما كان القديس يصلّي مختليًا وتشتاق نفسهُ الى الحظوة بالله سمع هاتفًا يقول لهُ لا تحزن يا توما بل تعزَّ وافرح لانك في عيد ميلاد العذراء والدتي تنال اجر اتعابك . فمن ذلك الوقت ازداد نشاطًا في ممارسة افعال الفضائل لاسيما محبة القريب والرفق بالمحتاجين

ثم اصابهُ مرضٌ ومع ذلك كان فرح قلبهِ يتلألأُ على وجههِ وبعد ان تناول زاد المسيحي الراحل الى الابدية طلب ما بقي لهُ من الدراهم فامر ان تُوزَّع للحال كلها على الفقراء فلما عرف انهُ قد وهب كل ما عندهُ قال اشكرك يارب لانك انعمت عليَّ بهذا ان اموت فقيرًا ثم لفظ اسم يسوع ومريم وسلَّم روحهُ بسلام وكان ذلك في اليوم الثامن من شهر ايلول في السنة الخامسة والخمسين بعد الخمس مائة والالف وقد شرّفهُ الله تعالى في زمن حياتهِ وبعد موتهِ بآيات ومعجزاتٍ كثيرة وبعد ثلث وثلثين سنة لموتهِ وجدوا جسدهُ صحيحًا ناجيًا من كل فساد

وقد عُيّن لعيدهِ اولاً اليوم الثامن عشر من شهر ايلول ويذكر البلانديستيون ترجمتهُ في هذا اليوم اما بعد فانتقل الى اليوم الثاني والعشرين من الشهر المذكور

اليوم الثامن

وفيهِ مولد العذراء المجيدة والدة الله

ما اصوب هتاف الكنيسة بالترانيم في عيد مولد الطوباويَّة مريم العذراء: هلموا لنعيّد بابتهاج لمولد مريم البكر التي بولادتها بشّرت العالم كلهُ بالفرح: ولله ما يقول القديس برنردوس في هذا الشان : اليوم وهبنا الله تعالى هبةً كريمةً وحوّل حزن حوّاء فرحًا كما قال الدمشقي . ان نجمة الصبح بظهورها تُنبي بانتهاء ظلام الليل هكذا العذراء المجيدة بظهورها

ومولدها تبشرنا بانتهاء شقائنا وتعزّينا كما قال الانبا روبرتوس . وكانت ولادتها بمدينة ناصرة في اليوم الثامن من شهر ايلول فهناك يهتف القديس يوحنا الدمشقي ويهنّي القديس يواكيم والقديسة حنة قائلاً . طوبى لكما طوبى لكما لأنكما ولدتما من يُنتظَر ان تكون والدة الله . طوبى للحشى التي حملت هذه الابنة الجليلة طوبى للثديين اللذين رضعتهما . وقال ايضًا اليوم قد ابتدأ خلاصنا فهلّلوا للرب ياكل الارض سبّحوا وهلّلوا ورتّلوا له . فلا جرم انهُ بعد نفس السيد المسيح لاتوجد نفس تضاهي نفس العذراء في الكمال ولا يفوقها في الحسن الاَّ خالقها كما قال القديس بطرس داميانوس . وقد وضعها الله في جسد مناسب لها ببهاء كماله ومحمود صفاته ولم يدع الخطيَّة تدنو منها عند الحبل بها بل خرجت من العدم ملتحفة بنور النعمة والبر ومنذ اوَّل وجودها احبَّت الله تعالى افضل مما احبَّهُ اعظم اوليائهِ القديسين والملئكة ومن ثم كانت عند ابتداء حياتها اقدس منهم جميعهم . هذا ما قالهُ القديس فينثنسيوس ولا ريب ان قد كان يزداد في كل وقت برها وتنمو فضائلها ويكثر كنز نعمها فما اعظم ما كان برها بعد ممارستها في مستودع امها أجلَّ الفضائل على النوع الاكمل . ذلك ولله ما قال فيها الاباء القديسون ومنهم القديسان ايفانيوس واغستينوس اللذان يقولان ان برَّ هذه السيدة لايكاد يوصف وانها حازت من نِعَم الله سبحانهُ كل ما يمكن ان يُعطى لخليقة بسيطة

وما اجدر الارض والسماء ان تبتهجا بميلادها لانها تكون ملكة البشر والملئكة وهي رجاؤنا الوحيد بعد السيد المسيح كما قال القديس ايفانيوس . وكفيلتنا عند الله وشفيعتنا عندهُ تعالى حسبما قال القديسان اغستينوس وبرنردوس . وهي دواء لجميع امراضنا وبلايانا . وهي أُمنا وسلامتنا وسرورنا كما قال القديسان افرام وبوناونتورا وبالنتيجة فهي فخرنا وعزُّنا وحياتنا كما تُرنّم الكنيسة في صلواتها

فليس بعجب اذًا ان رأينا الكنيسة تحرّض المؤمنين على اكرام هذه السيدة وتجعل العبادة الصادقة لها احدى علامات انتخاب الانسان للمجد الابدي لأن الكنيسة تخصص لهذه البتول الجليلة هذا الكلام ونصهُ من يجدني يجد الحياة وجميع الذين يمقتوني يُحبُّون الموت . (امثال ٨ : ٣٥ و٣٦) وبحسب هذا المعنى قال القديس بوناونتورا ان الذي يكرم مريم كما يجب يتبرّر ويخلص والذي يتغاضى عن اكرامها يموت في خطاياهُ والانبا الذي لقَّب نفسهُ بجاهل وقد سمتهُ الكنيسة الجاهل الحكيم يقول من وجد مريم وجد كل خير وبما انها تحب من يحبها بل تخدم من يخدمها لا كأنها تجعلنا نظفر بالخلاص باستحقاقاتها بل لانها كما قال الاباء القديسون انما هي موزعة آلاء الرب يسوع فتتخذ من كنوزهِ نعمًا وافرة وتهبها لعبيدها ومحبيها وتدفع عنهم سهام العدو المسمومة بترس شفاعتها

ناشدتك الله ان نتأمل الان ان العذراء عليها السلام انما سُميت مريم بالهام الله تعالى على نحو ما سمي زكريا ابنهُ يوحنا بامر الملك وقد اراد الله عزَّ اسمهُ ان يعلمنا بهذا الاسم العجيب سمو الخصائص التي لهذه السيدة وبحيث ان تلك الصفات الحميدة كثيرة جدًّا وجب ان يكون اسمها متضمنًا معاني مجيدة مختلفة في لغات متنوعة لكونها ولدت من اجل خلاص كل الشعوب . فاعلم اذًا ان اسم مريم كما قال القديس بوناونتورا معناهُ نجمة البحر وبحر ممتلئ مرارةً . وسيدة او مرتفعة في العظمة . ومتنورة . ومنيرة . وسلطانة الشعب . فاعتبر اولاً ان هذه السيدة السعيدة هي نجمة البحر حقًّا لكونها نور او رجاء الذين يسيرون في بحر هذا العالم الكثير الخطر لانها تُرشدهم فيما بين الامواج والعواصف التي هي مخاطر الهلاك المتصلة وبصلواتها ونموذجاتها وشفاعاتها تبهجهم وتقويهم وتشجعهم في هذا السفر الخطر الى ان يصلوا الى ميناء الخلاص بسلام . واعتبر ثانيًا انها هي بحر ممتلئ مرارةً وانما ذلك لاسباب مختلفة فهي بحر لكثرة النعم والمنح التي نالتها من سخاء الله الذي اختارها والدةً لهُ وانما سُميت ممتلئة مرارةً لكثرة الاوجاع التي حزنت قلبها وفتَّتهُ عندما رأت آلام ابنها الحبيب لأن الله سبحانهُ من شانهِ ان يجعل الاوجاع مساويةً للافراح . واعتبر ثالثًا انها هي سيدة وملكة على الاطلاق ومن ثمَّ فلها سلطان مطلق على شهواتها وحواسها وقواها كافةً وهي ايضًا ملكة الملئكة والبشر فكيف لا وقد اطاعها سيدنا يسوع المسيح الذي هو اله حق وانسان حق . واعتبر رابعًا انها هي مستنيرة ومنيرة لانها قبلت من السماء انوارًا عظيمةً وحكمةً عجيبةً لا لمجرَّد تنوُّرها بل لتنوير العالم كلهِ وبهذا صارت معلمة الرسل الاطهار والمؤمنين كافةً

فيتحصَّل من ذلك ان اسم هذه البتول المجيدة هو في

الحقيقة نظير اسم يسوع زيتٌ مهراقٌ يُضيءُ لنا ويقينا ويشفينا ويفيض البهجة في قلوبنا . فارشدينا اذًا يانجمة البحر فيما بين صخور بحر هذا العالم ومخاطرهِ. فيابحر الآلاء ويابحر المرارة اشركينا في هاتين الصفتين واجعلينا نكتسب نِعَم ابنكِ ونذوق من مرارة آلامهِ. ويا ايتها المستنيرة والمنيرة مزّقي ظلام جهلنا لكي نسير دائمًا في نور الخلاص

ثم اعلم ان البابا اينوشنسيوس الحادي عشر عيَّن يومًا في كل سنة لاكرام اسم مريم وهو يوم الاحد الواقع بعد عيد ميلاد العذراء . قال القديس فرنسيس انهُ بعد اسم يسوع لا يُذكر في الارض ولا في السماء اسم ينال بهِ المؤمنون من الله تعالى وفور النعم والتعزيات الآ اسم مريم . فالطوبى لمن يحب هذا الاسم المعظم فكيف اذًا لا يرغب الجميع في اكرام هذا الاسم الذي لا يمكن ان يتلفظ بهِ احدٌ بدون ان يظفر بالنفع الجزيل . ان الذين يذكرون اسم مريم المجيد العجيب لا يخافون في ساعة الموت بل يفوزون باتمّ السلام

وفيهِ ايضًا ترجمتا القديسين الشهيدين دوروتاوس وغُرْغونيوس

انهُ اذ هبَّت على المسيحيين عواصف الاضطهاد حينما اتفقت كل قوات الارض والجحيم وتعصَّبت لتبيد ان قدرت اسم المسيحيين وذلك على عهد ديوكليسيانوس الملك أقسى اعداء الكنيسة انتصرت الكنيسة انتصارًا مبينًا في ذلك الزمان نفسهِ في وسط بلاط هذا الملك الاثيم. لانهُ لما جلس على عرش المملكة في السنة الرابعة والثمانين بعد المائتين للمسيح بعد ان انتصر على جميع اعدائهِ اتصل من الحمق الى ما لا غاية وراءهُ وما منكرٌ لهذا اذ اراد ان يُدعى الهًا ويُسجد لهُ كما يُسجد لله . فرفض المسيحيون ذلك فطفق في السنة الثالثة بعد الثلث مائة يضطهدهم فاصلى لهم نار اضطهادٍ شديد لم يسبق لهُ مثيل لانهُ أمر في اطراف مملكتهِ ان يُحارب المسيحيون ومن ثم فجميع المدن والقرى اصطبغت ارضها بدمائهم ولكثرة عدد الذين قُتلوا من المسيحيين ظن الملك انهُ قد استأصل النصرانية كما نقش ذلك على اعمدة حجرٍ ولكنما الدهر اعلمهُ انهُ خاب ظنًا واملاً لان دم المسيحيين المهراق كان كزرعٍ ينبت ويكثر عددهم في كل مكان حتى في بلاطهِ

ومن جملة الذين كانوا مسيحيين في بلاط ديوكليسيانوس الملك القديسان دوروتاوس وغُرْغونيوس وكان القديس دوروتاوس احد عظماء خدام الملك وكان ارتفع الى هذه المرتبة الشريفة بواسطة لوسيانوس الرجل المسيحي الذي كان قد تنصَّر على يدهِ كثيرون من عظماء البلاط . وبعد موتهِ اخذ القديس دوروتاوس وظيفتهُ واحسن القيام بها وكان بينهُ وبين غُرْغونيوس شريكهِ في الوظيفة مودةٌ صافية جعلت الاثنين واحدًا في القول والعمل وكانا فاضلين حسني الاخلاق وكريمين نحو الجميع وكان لهما مكانةٌ ومزيد اعتبارٍ عند الملك وحبٌّ واكرام في قلوب الجميع . اما هذا الملك الشرس الاخلاق فاصدر براءةً في السنة التاسعة عشرة من ملكهِ يوم الجمعة من اسبوع الآلام عينهِ وبها أمر جميع وُلاة المملكة تحت قطع الرأس بان يفتشوا عن المسيحيين بالاستقصاء ويقتلوا منهم كل الذين لا ينكرون ايمانهم . فلما علَّقوا هذه البراءة في مدينة نيقوميديا حيث كان الملك ورأى ذلك احد عظماء بلاط الملك الذي يقال لهُ يوحنا تلظَّى صدرهُ بنار الغيرة المقدسة واخذ تلك البراءة المعلَّقة ومزَّقها جهرًا فنهضوا عليهِ حالاً واماتوهُ قتلاً وكان هو اول المستشهدين . وفي غضون ذلك احترق بلاط الملك وكان احتراقهُ بمكر صهره غاليريوس مكسيميانوس الذي أرسل بخباثةٍ أخرى اناسًا يقولون للملك ان مسيحيي المدينة اتحدوا مع الذين هم مسيحيون مثلهم في البلاط واتفقوا على احراقهِ وما كان قصدهم بذلك الاَّ ان يحترق الملك ايضًا. فوقعت تلك التهمة في قلب ديوكليسيانوس موقع الصدق فقتل من المؤمنين خلقًا كثيرًا

ومن اولئك المسيحيين كان بعض من خدَّام بلاطهِ واوَّلهم بطرس احد خصيان الملك فهذا لما امرهُ الملك بان ينكر الايمان المسيحي ويعبد الاصنام قال لهُ في امكانك ايها الملك ان تعدمني هذي الحياة الفانية اما حياتي الدائمة القائمة في العبادة للسيد المسيح ومحبتي لهُ تعالى فلا تستطيع ان تنتزعها مني . فامر الملك للوقت بتعذيبهِ فعلَّقوهُ في الجوّ ومزَّقوا جسدهُ بالسياط الى ان نزعوا عنهُ الجلد واللحم حتى العظام وفيما هم يضربونهُ هكذا كانوا يقولون لهُ اخضع للملك واعبد آلهتهُ والاَّ تمُت تحت العذاب الاليم . وبحيث كان يحتمل ذلك بكمال الشجاعة انزلوهُ وسكبوا على جراحاتهِ خلاًّ وملحًا . اما هو فكان يزداد صبرًا عند ازدياد الوجع . هذا وآخر الامر مدّوهُ

عريانًا على مشواةٍ من حديد وفرشوا تحتهُ جمرًا ملتهبًا ومع ذلك كانوا اعجز واضعف من ان ينتصروا على صبرهِ الغريب كيف لا وقد كابد ذلك العذاب المرّ حتى الموت

هذا ولا ريب ان ديوكليسيانوس كان يعرف ان دوروتاوس وغُرْغونيوس مسيحيان ايضًا لكنما اعتبارهُ صفاتهما الحميدة وامانتهما في خدمتهِ صدّهُ عن قتلهما فضلاً عن ان غاليريوس مكسيميانوس صهر الملك لم يتجرّأ ان يطعن فيهما لمعرفتهِ حبَّ الملك لهما مع ان غاليريوس كان يبغضهما اشدَّ البغض. الّا انهما بعد ان رأيا شجاعة بطرس في العذاب مالت بهما الرغبة الى ان يشتركا في سعادة موتهِ وعزما على ان يظهرا امرهما لديوكليسيانوس. فلما وجداهُ وحدهُ قالا لهُ بما عظم من الاحترام ما نصهُ اعلم ايها الملك المعظم ان الناس يخدعونك بتهم باطلة ليضرموا في قلبك نار بغضتهم للمسيحيين والحال انهُ قد ثبت عندك الى اليوم انهُ بين كل الشعوب الخاضعين لسلطانك وجميع حاشيتك الذين يخدمون في بلاطك لا احد يشابه المسيحيين في الامانة والغيرة في خدمتك فمن اولئك النصارى الامناء في خدمتك ايها الملك بطرس عبدك الذي لاجل تهمة مبغضيهِ سلّمتهُ للموت ظلمًا . فان كان هذا استحقّ هذا العذاب الشديد لكونهِ مسيحيًّا فنحن نستحقُّ مثل ذلك العذاب ايضًا ونشتهي الان مثلهُ ان نختم حقيقة دياناتنا بسفك دمنا الى آخر نقطةٍ . اما ديوكليسيانوس فكان يسمع هذا صامتًا ويشاور نفسهُ باطنًا فمن جهة كان يعتبر دوروتاوس وغُرْغونيوس ويحبهما ومن جهةٍ اخرى لم يحتمل ان يظهرا لهُ ايمانهما على هذا الوجه فضلاً عن توبيخهما اياهُ لقتلهِ بطرس

فشعر بهذا غاليريوس مكسيميانوس فذهب مسرعًا الى البلاط فاذا بالملك مغتاظ وتتجاذبهُ البغضاء والمحبة فانتهز حينئذٍ الفرصة بما انهُ عدوُّ المسيحيين الالدّ وشرع يُعظم لهُ ما كان من امر دوروتاوس وغُرْغونيوس قال ياسيدي قِس على ما فعلهُ هذان خبث المسيحيين جميعهم بحيث انهما بعد ان ارتقيا الى اسنى المناصب في منزلك وامتلأا من خيرات بيتك تجاسرا بالكبر والتمرُّد ان يخالفا اوامر عزّتك امام وجهك ويذمّا تصرفاتك الحكمية فلا تدع ايها الملك فعلهما هذا بلا تعذيب وسلّمني اياهما وانا سأُعاملهما بحسب ما يستحقان . فياليت شعري من يدري الى ايّ حدّ اضرم هذا الخطاب في قلب ديوكليسيانوس نار البغضاء بعد ما اشرفت على الخمود والانطفاء وللوقت سلّم القديسين الى غاليريوس ليعذبهما كيف يشاء

حينئذٍ اخذهما الى خارج البلاط وامر بتعذيبهما فتقدم الشُرَط ونزعوا ثيابهما الفاخرة وشرعوا يضربونهما بالسياط بقساوة وحشية ثم صبّوا ملحًا وخلاًّ على جراحاتهما واخيرًا مدّوهما على مشواة تحتها جمر ملتهب وفيها هما يحترقان كانا يباركان سيدنا يسوع المسيح ويشكرانهِ ويحثان الحاضرين على الايمان بهِ تعالى . فلم يُطق المغتصب معاينة انتصارهما هذا العجيب فامر بشنقهما . وقد كان موتهما المقدس في اليوم التاسع من شهر ايلول في السنة الثالثة من القرن الرابع للمسيح

اليوم التاسع

وفيهِ ترجمة الطوباوي بطرس كلافير الراهب اليسوعي الملقب برسول العبيد الافريقيين

ان الطوباوي بطرس كلافير قد وُلد من نسل شريف بقرية تسمّى فيردو بابرشية سلسونا من معاملة كاتالونيا بمملكة اسبانيا بعد السنة الثمانين والخمسمائة والالف للمسيح على عهد البابا غريغوريوس الثالث عشر. ولان والديهِ كانا تقيّين قد اجتهدا بمقدار شرفهما في تربيتهِ بالعبادة والبرارة وقد حصلا منهُ على كمال غايتهما لانهُ من حين طفوليتهِ سار سيرةً مرضيةً واظهر ميلاً شديدًا نحو الامور التقوية حتى انهُ صار محبوبًا من الله والناس معًا . فبعد ما أُرسل الى مدرسة اليسوعيين التي ببرسلُونا ظهر كملَك لسمو عقلهِ واستقامة سيرتهِ . ولما كان والداهُ يرغبان في ان يكون اكليريكيًّا قبل الدرجات الصغار من يد اسقف سلسونا ومذ ذلك الوقت مالت بهِ عواطف الشوق الى ان يكتسب كمالاً اعظم فلذلك قصد الدخول في الرهبانية اليسوعية وتمّم قصدهُ في اليوم السادس من شهر آب سنة اثنتين وستمائة والف للمسيح غب اخذهِ البركة من والديهِ

ودخل دير المبتدئين بترّغونا حيث اجتهد اجتهادًا كليًّا في اكتساب اسمى الفضائل . ويمكننا ان نعرف كمال سيرتهِ من اعتبارهِ روح دعوتهِ العظيم ومما ذكرهُ من هذا القبيل في دفتر وُجد بعد موتهِ حيث يقول

ان دليل المبتدئ الصالح في الرهبانية اليسوعية يكون قائمًا باربعة امور الاول ان يطلب الله تعالى في كل شيء

مستعملاً الخلائق كسلّم يصعد بها الى الخالق . الثاني ان يجتهد اجتهادًا كليًا في اكتساب الطاعة الكاملة مخضعًا ارادتهُ وتمييزهُ لارادة الرئيس وتمييزهِ . الثالث انهُ يقصد بكل فكرٍ وعاطفة وفعلٍ ولو كان طفيفًا مجد الله الاعظم . الرابع ان لا يطلب على الارض سوى تخليص النفوس ممتثلاً طريقة يسوع المسيح حتى الموت موت الصليب . وصار هذا المبتدئ القديس يجتهد كل يوم اكثر اجتهادٍ بان يطابق افعالهُ ويكملها حسب هذه الاصول الاربعة المذكورة المتينة المطبوعة في عقلهِ والمتأصلة في قلبهِ . وفي زمان ابتدائهِ قد أُرسل لزيارة كنيسة السيدة التي بدير مونسيراتو . وهناك اشركهُ الله بمبادي روح ابيهِ القديس اغناتيوس منشئ الرهبانية اليسوعية ومنحهُ كابيهِ المذكور نِعمًا جليلة حتى انهُ ما كان يستطيع بعد ذالك التكلم على هذه الزيارة من غير ان تسيل دموع السرور من عينيهِ . ففي اليوم الذي نذر فيهِ النذور الرهبانية كان يبين ان قد ملأت قلبه انوار الروح القدس

ودرس من ثمَّ علم البديع والبلاغة في مدينة جيرونا في مدة سنة واحدة فقط لانهُ كان قد اتقن تعلُّم اللغتين اللاتينية واليونانية . وفي السنة الخامسة من القرن السابع عشر أُرسل ليدرس الفلسفة في جزيرة مايوركا ففرح بهذا فرحًا عظيمًا لمعرفتهِ بانهُ هناك كان يسكن الطوباوي الفونسيوس رودريكوس الاخ المساعد في الرهبانية اليسوعية الذي كان خبر قداستهِ مشتهرًا في جميع مملكة اسبانيا . وحالما دخل المدرسة زار الطوباوي الفونسيوس المذكور وطلب اليهِ ان يساعدهُ في سلوك الطريق الروحية . ومن تلك الساعة قد وقع فيما بينهما اتحاد بالروح شديد جدًّا . وقد تنازل الباري تعالى الى ان يُعلم الفونسيوس بدرجة البرّ والمجد اللذين كان منتظرًا ان تلميذهُ يصل اليها . فاختُطف الفونسيوس المذكور بالروح ورأى كراسي عظيمة عليها اناس كرام اجلاء رفيعو القداسة قال وكان هناك كرسي أبهى واحسن من جميع الكراسي ولكن لم يكن احدٌ جالسًا عليهِ فوقتئذٍ رغب في ان يعلم لاية نفس كان معدًّا ذلك الكرسي البهي وعرف انهُ معدٌّ لتلميذهِ بطرس كلافير جزاء لفضائلهِ السامية ولكثرة النفوس التي كان منتظرًا ان يكتسبها لله في الهند الغربي . ومن تلك الساعة فصاعدًا شرع الفونسيوس يوقد في قلب تلميذهِ الغيرة في خلاص النفوس ويضرم بهِ الشوق الى الرسالة الهندية . اما بطرس فقبل هذه الارشادات من هذا المعلم الصالح كاصوات الهية . ومن ثم كتب الى رئيس اليسوعيين في ذالك الاقليم طالبًا رسالة الهند . ولكن لم يتم حينئذٍ شوق قلبهِ لانهُ رجع بامر الرؤساء الى برسلونا ليدرس اللاهوت . فالسفينة التي كان الطوباوي مزمعًا ان يركبها مع بعض رفاقٍ من الرهبانية كانت عتيقة فضلاً عن انهُ كان ينقصها اشياء كثيرة شدَّ ما تحتاج اليها ومن ثمَّ لم يستصوب رفقاؤهُ السفر بها . اما هو فركب تلك السفينة بلا خوفٍ وبلغ بالسلامة المحل المقصود وقد تبين ان اعتمادهُ هذا لم يكن الاَّ من الهام الرب . على ان المركب الذي ركبتهُ اصحابهُ وثب عليهِ لصوص البحر فاستأسروا ركّابهُ

وقد اجتهد هذا اللاهوتي الجديد في درس اللاهوت اجتهادًا كليًا لان هذا الدرس كان يسعفهُ في معرفة الله ومحبتهِ بنوعٍ اكمل فبعد سنتين حصل على نوال الرسالة المرغوبة منهُ ومن دون ابطاء سافر وما اراد ان يعرّف اهلهُ بذهابهِ لئلا يعوقوهُ بل اذ كان مارًّا بالقرب من وطنهِ لم يرد ان يغيّر الطريق لكي يودع اهلهُ الوداع الاخير

ومنذ زمان يسير كانت قد أُنشئت الرسالة في اقليم كراناتا من جهة اميريكا الجنوبية والرئيس العام كان قد امر جميع رؤساء اقاليم اسبانيا بان يرسل كلٌّ منهم الى هذا الاقليم الجديد مرسلاً ما معتبرًا فحينئذٍ قد اختير وأُرسل من رئيس اقليمهِ . ففي شهر نيسان سنة عشر وستمائة والف نزل في البحر مسافرًا وارتضى في المركب ان يخدم الكل بتواضعٍ عميق فبعد ما وصل الى مدينة قرطاجنة التي هي ميناء كراناتا الجديدة استراح من تعب السفر قليلاً . ثم ذهب الى مدينة سَنْتافِه التي تأويلها الامانة المقدسة البعيدة من قرطاجنة مائتي ساعةٍ ليتمّم هناك بالمدرسة درس اللاهوت وقد تأخر زمان ابتداء الدرس اذ لم يكن للمدرسة دخلٌ كافٍ لاقامة التلاميذ ولهذا اشتغلت التلاميذ في خِدَمٍ مختلفة . فمن حيث ان بطرس لم يكن قد ارتقى بعدُ الى درجة الكهنوت تقيَّد بأدنى الوظائف المختصة بالمدرسة وكان يلتذ بممارستهِ اياها ايّ التذاذ حتى انهُ مرارًا عديدة ألحَّ على الرؤساء ان يكون محسوبًا فيما بين الاخوة المساعدين . ولكن بما ان الله دعاهُ الى اسمى شيء جعل الرؤساء ينهونهُ عن ان يخاطبهم في هذا

الموضوع . وبعد سنتين انكبّ على درس اللاهوت واستفاد منهُ جدًّا حتى انهُ كان يفوق الآخرين علمًا على قدر ما كان يفوقهم فضيلةً

وحالما فرغ من الدرس أُرسل لكي يقضي سنة الابتداء الثالثة بحسب عادة اليسوعيين ولكي يقدم لباقي المبتدئين نموذج الكمال الرهباني . وهناك مارس وظيفة القندلفت والبواب بكل تواضع وغيرة . ففي سنة خمس عشرة وستمائة والف دُعي الى قرطاجنة لكي يستعدَّ لقبول درجة الكهنوت فاستعدَّ لذلك مدة سنة باستعمال الصلوات والاصوام وما شاكل ذلك من الاماتات . ولما ارتسم كاهنًا خرج من الهيكل كالرسل من العلية اذ انهُ كان مملوءًا من محبة الله والقريب واما القداس الاول الذي قدَّسهُ بقرطاجنة فاراد ان يكون في معبدٍ على اسم سيدتنا مريم العذراء حيث كان يُكرَّم ايقونتها العجائبية بأتم الاكرام وكان ذلك محبةً منهُ لسلطانة السماء هذه . وفي ذلك الزمان كان قد ابتدأ الاب الرسولي الفونسيوس دي ساندوفال يعلم الايمان المقدس العبيد الذين جاء بهم التجار من افريقية الى قرطاجنة لكي يُباعوا نظير البهائم وكان قد عمَّد منهم في قليلٍ من الزمان ثلثين الفًا وقد تعيَّن لهُ بطرس كلافير لمساعدتهِ لسبب انهُ ما كان كافيًا وحدهُ للقيام بخدمة العبيد الكثيرين الذين كانوا ياتون يوميًّا ويبلغ عددهم نحو احد عشر الفًا في السنة . ومارس هو والاب ساندوفال هذه الخدمة المتعبة مدة سنة . فحينئذٍ التزم هذا المرسل الغيوران يذهب الى موضع آخر لقضاء اغراض مهمة ولا جرم انهُ قام الاب كلافير بسياسة هؤلاء العبيد وحدهُ ولا يخفى ما في ذلك من التعب الشديد

انهُ لا يمكن شرح التمليقات التي استعملها هذا المرسل الجديد ليجتذب بها الى الايمان القوم البرابرة لانهُ كلما كانت تدخل الميناء سفينة موسَقة من العبيد المساكين فحالاً كان يمضي اليهم ليسلم عليهم ويهديهم بعض هدايا محبوبة منهم مثل حلوى وعاطوس وكعك وليمون الخ . وكان يسمي هذه الهدايا صنّارةً يجتذب بها هولاء العبيد الى الله وكان من عادتهِ ان يقول يجب ان يتكلم مع هؤلاء الناس باليد قبل التكلم بالفم ولذلك كان يذهب الى احد اصدقائهِ رجل متورّع وجزيل السخاء على المساكين ويقول لهُ قد وصل الان مركب موسق عبيدًا فابتغي منك صنارةً لكي اصطادهم بها وحالاً كان يرسل لهُ صديقهُ كل ما يحتاج اليهِ . ولما كانوا يخرجون من المركب كان الطوباوي يستعدُّ في الميناء لمساعدتهم على النزول وكان يسند الضعفاء بيديهِ ويضع المرضى على عجلةٍ اعدَّها لهذه الغاية . ومن ثم كان يتبعهم الى المستشفى او الفندق وما كان ينفصل عنهم الاَّ بعد ما يوصي بهم الحرَّاس كثيرًا . هذا ومن اين لنا ان نشرح عواطف قلبهِ الرؤوف المسبّبة من شدة محبتهِ لهم العجيبة ومن اصغائهم اليهِ بسهولةٍ

فبعد ما كانوا يستريحون اياماً قليلة كان يذهب ايضًا الى مسكنهم لابسًا ثوب مرسل وفي صحبتهِ تراجمين ليعلمهم التعليم المسيحي وهكذا يتهيأون لقبول المعمودية المقدسة . ومن حيث ان هذا الجنس الجاهل في الغاية كان يفهم بالنظر اكثر من السمع كان يستخدم لهم صُوَرًا مختلفة مصوَّرًا بها السرّ الذي كان يشرحهُ لهم ومنها صورة كانت تمثّل سعادة المعتمد وشقاء من يرفض العماد وهذه الصورة كانت صورة يسوع مصلوبًا سافكًا دمهُ الكريم من جراحاتهِ الخمس والدم يهراق في جرن المعمودية والكاهن يأخذ من هذا الدم ويسكبهُ على رأس عبدٍ . وكان في اسفل هذه الصورة رسم احبارٍ وملوك وكرادلة وامراء كانهم متعجبون من استعمال المسيح دمهُ بغسل عبد مسكين وكان في جانب الصورة صُوَر جماعةٍ من العبيد نظيفين ومنيرين وفي الجانب الآخر جماعة منهم متلطخون بالاوساخ وشنيعو المنظر وهم بين مخالب وحوش هائلة . اما الاوَّلون فكانوا يمثّلون من كان اعتمد والآخرون من رفضها . فعند ما كان اولئك البرابرة ينظرون تلك الصورة كانت قلوبهم تتحرَّك خاشعةً وكانوا يطلبون من الاب المذكور نعمة العماد . فبعد ما كان يحملهم على ان يُنكروا اعتقادهم ويُبغضوا خطاياهم كان يعمّدهم ويعلّق على اعناقهم ايقونة مطبوعًا عليها اسم يسوع ومريم لكي يُميزهم من اولئك الذين لم يعتمدوا بعد . وغب انتهاء المعمودية كان يحثهم كثيرًا لكي يكونوا ثابتين في الامانة ومستعدّين دائمًا للموت متحرّين الاَّ يغيظوا الله بشيء ولكي يجعلهم يبغضون الخطيئة اشدَّ البغض كان يظهر لهم من جهةٍ صورة نفسٍ هالكةٍ ومعذَّبةٍ في جهنم ومن جهةٍ اخرى صورة نفس سعيدةٍ وممجدةٍ في السماء . وبعد ما كان يرفع بيدهِ تمثال مخلصنا مصلوبًا كان يهتف قائلاً انظروا كيف فعلت خطايانا بالهنا العظيم وابينا المحبوب تأمَّلوا الى اية حال مغمة أوصلتهُ رداءتنا الكبيرة في حقهِ

ومحبتهُ الغير المحدودة نحونا نعم انهُ قد مات من اجلنا على الصليب ومن اجلنا غرق في بحرٍ من الاوجاع . وعند اقوالهِ هذه كان يتنفَّس الصعداء ويبكي بكاءً مرًّا حتى ان هولاء البرابرة كانوا يصرخون صراخًا يكاد يُليّن أقسى القلوب واخيرًا كان يقبلهم جميعًا بحبٍّ جزيل جدًّا . وفي اثناء ذلك كانوا يظهرون تعزيتهم وفرحهم برفع اعينهم الى السماء ويصفّقون بايديهم جاثين على رُكبهم راغبين في ان يقبّلوا ولو ذيل ثوبهِ ومع تكرار اصوات الفرح كان كلٌّ منهم يدعو له بلغتهِ بالبركات مرارًا كثيرة وكانوا اينما وجدوهُ بعد ذلك يقدّمون لهُ دائمًا اشارات محبتهم واحترامهم راكضين جملةً امامهُ وجاثين اجلالاً لـــهُ وكانوا يدعونهُ معلمهم ومحاميهم وأباهم

أقول ولا يمكن ان يُذكر كم قد خلّص من هولاء العبيد هذا الطوباوي من عبودية الشيطان ومن المعلوم انهُ قد عمّد بيدهِ اكثر من ثلثمائة الف وكان كثيرٌ منهم يموتون بعد المعمودية حالاً . واما الآخرون فكان يعتني بهم دائمًا وهم ساكنون بقرطاجنة . فانهُ قد كان كل يوم يزورهم ويُعلّمهم وفي كل عيد يقودهم الى الكنيسة ويقدّس لهم كأنهُ راعيهم واذا علم بان احد التجار جلب بالخفاء عبيدًا كان يجتهد لكي يعرف مساكنهم ويحسن اليهم بخدمتهِ الخلاصية وكان يُشيّعهم الى المركب اذا سافروا من المدينة ويُعطيهم النصائح الاخيرة ويعانقهم ويباركهم . ولم يكن يذهب من الميناء الاَّ بعد ما يغيب عن نظرهِ ذلك المركب الحامل بنيهِ المحبوبين لديهِ

وما كان اقلّ من ذلك اعتناؤهُ بالعبيد الساكنين بالمدينة ولاسيما اذا كانوا مرضى وكان مجتهدًا بان يساعدهم حين الموت . ولكي يستمرّ مستعدًا لمعونتهم نهارًا وليلاً طلب من الرؤساء غرفةً صغيرة فوق البوابة وكانت مكتوبة عندهُ اسماء المرضى المخطرين ليعودهم مرارًا . وكان يلتمس من مواليهم بان يعلموهُ كلما مرض واحدٌ من عبيدهم ومن الغريب انهم اذا نسوا ان يخبروهُ متى مرض عبدٌ كان الله جلّ شأنهُ يُعلمهُ باطنًا . قيل انهُ ذات مرةٍ حينما كان راجعًا الى الدير ترك الطريق الاعتيادي ومضى مارًّا بطريق اخرى فوقف قليلاً عند بيت ما وقال لرفيقهِ لندخلنَّ الى هذا البيت ومذ دخلاهُ وجدا هناك عبدةً مشرفةً على الموت فبعد ما عرَّفها الاب الطوباوي تُوفّيت حالاً . وفي يوم آخر اذ خرج من الدير مضى مسرعًا من الباب المدعو باب البساتين وهناك وجد تحت خيمةٍ عبدًا قد اعجزتهُ الشيخوخة فناولهُ القربان المقدس ثم صلّى عليهِ ومات ذلك العبد بسلام

هذا ولم يكن يقتصر على الاعتناء بالنفوس بل كان يهتمُّ بالاجساد ايضًا ولهذا عال بحسناتهِ عبدةً ما مدة ثلث سنين وأمةً اخرى عشر سنين . وعال ايضًا عبدًا مريضًا خارج المدينة متروكًا من الجميع ودبَّر لهُ كل ما كان محتاجًا اليهِ مدة اربع عشرة سنة حتى رقد بالرب وفي الجملة فغرفتهُ كانت نظير حانوت مفتوح للمرضى كافةً لانهُ هناك كان يجمع كل ما كان يقدر ان ينفعهم بهِ ولما كان يزورهم في البيوت كان يأخذ معهُ كيسًا مملوءًا من الادوية وكل شيء يظن انهُ مقبول عندهم .

وكثيرًا ما اظهر الله عجائبهُ على يد خادمهِ هذا الذي كانت ترضيهِ محبتهُ العظيمة . فيومًا ما كانت عبدة حاملة طفلاً مملوءًا جراحاتٍ فتلقّفهُ الاب ببعض اشياء حلوة ثم وضعهُ على ثوبهِ الرهباني لكي يستريح وبعد زمنٍ قليل سلّمهُ الى والدتهِ صحيحًا معافى . وكذلك شفى إحدى الإماء من داء الصرع واخيرًا اقام ثلثة اموات لكيما يعطيهم حياة النفس بقبولهم الاسرار فالاول كان عبدةً تسمى اوغستينة ماتت وكادت الناس تدفنها بحضر القديس واقامها ثم عمّدها ثم ماتت . والثاني كان عبدًا وصل الى قرطاجنة مشرفًا على الموت وحالما نزل من المركب اجتهد الاب في ان يجعلهُ يستعدُّ لقبول المعمودية ولكن اجتهادهُ كان باطلاً فلهذا تركهُ ذاهبًا الى الدير لكي ينام قليلاً واما العبد المعاند فبرفضهِ قبول المعمودية مات ولما أُخبر الطوباوي بموتهِ رجع حالاً بكل سرعة واذ وجد الناس مستعدّين ليطرحوهُ في الحقل مثل بهيمةٍ امرهم ان يحملوهُ ايضًا الى مسكنهِ حيث دخل معهُ منفردًا وبعد ما صلّى عليهِ قليلاً اقامهُ وعمّدهُ وابقاهُ حيًّا معافى . والثالث كان صبيًّا لهُ من العمر اربع عشرة سنة وهو خادم احد الاغنياء فلما وجدهُ ربّ البيت ميتًا دعا اليهِ كاهن الرعية الذي حينما رآهُ عادم الحركة وبارد الجسم خرج من عندهِ راجعًا ظنًّا منهُ بانهُ مات وبالاتفاق جاء الاب كلافير على حين كان الناس حامليهِ الى الكنيسة فأمر الحاملين بالوقوف فرشّ عليهِ ماءً مباركًا ووضع المصلوب على فمهِ . وبعد ما صلّى عليهِ دعاهُ باسمهِ فالميت فتح عينيهِ وتنهّد تنهّدًا قويًّا وصحا واعترف للطوباوي

وتناول الاسرار من يد كاهن الرعية ثمَّ مات

لا ريب ان الله جلَّت عدالتهُ انما صنع كل هذه الآيات على يد عبدهِ الرسول الامين جزاءً لمحبتهِ واماتاتهِ الفائقة باعتنائهِ بخدمة المرضى هذا ولا بد ان نخبر عن الامراض الكثيرة التي يُستنكف منها الملمَّة بالعبيد في تلك النواحي لنفهم كمال فضائلهِ وكان من تلك الامراض نوع من البرص والجدري والخراجات التي يخرج منها شيء كدخان رائحتهُ كريهة جدًّا ومرض الآكلة وعدة امراض غير معروفة منا وعلى هذه البلايا تزداد رداءة مساكن هولاء المساكين حيث هم مطروحون على التبن او على الارض يتقلَّبون في نجاساتهم أشقى من الحيوانات ومن ثمَّ ترى رائحتهم في غاية النتانة حتى انها تصدُّ اخذ النَّفَس وتملأ القلب غمًّا وان كنت في ريب من ذلك فانظر ما حدث للراهبين اليسوعيين اللذين ارادا ان يرافقا الاب مرةً ما في عيادة هؤلاء المرضى وقد غُشي عليهما عند دخولهم

وكانما الطوباوي لم يكن مكتفيًا ان يشمّ هذه الرائحة الشديدة النتانة بل كثيرًا ما كان يُقبّل جراحاتهم ويلحسها بلسانهِ وكذلك كان يؤاكلهم ويتناول الطعام من الاناء الذي كانوا ياكلون منهُ لكي يشجع قابليتهم للاكل . فهكذا شهد وحقَّق الاب يوحنا دي ماغوت الراهب الاغسطيني انهُ لا شك ان طبيعتهُ كانت تكره هذه الاعمال لكن كان يخاطب نفسهُ بهذه الالفاظ وهي : هكذا يجب ان يكون هكذا يجب ان يُفعل . قيل انهُ اذ لم يقدر ذات مرةٍ ان يغلب شدة كراهية معدتهِ النفوية لقلة العادة جلَدَ ذاتهُ بقساوةٍ محدثًا نفسهُ بهذا الكلام : ما هو هذا التكرُّه يا جسدي فينبغي لنا ان نوفيهُ . فحينما انتهى من الجلد ابتدأ يقبّل جراحات ذلك المريض ويلحسها بلسانهِ ثم يعرّفهُ ولم يتركهُ الا بعد ان عزَّاهُ بمقدار استطاعتهِ

اعلم انهُ عند ممارسة افعال هذه المحبة نحو القريب كان يستعمل بنوعٍ خصوصي رداءهُ كفراشٍ وغطاء للعبيد وتارةً كخرقةٍ لاجل تنظيف جراحاتهم وتارةً كنعشٍ لاجل حمل الموتى الى المقبرة وكثيرًا ما كان يأخذهُ مملوءًا من الاوساخ . فمع ذلك ما كانت تصعد منهُ رائحة منتنة بل بالاحرى كانت تفوح منهُ رائحة سماوية كأنهُ كان فيما بين ازكى الاشياء رائحةً كما شهد بذلك اناس يوثق بكلامهم . ومنحهُ الله فضلاً عن تلك القوات العجيبة قوة الشفاء التي ظهرت في حوادث كثيرة . رُوي انهُ اجتمع ذات يوم جمٌّ غفير من العبيد حول بئرٍ ليستقوا ويملأوا آنيتهم فعصفت هناك بغتة ريح شديدة وانقضَّت بينهم صاعقة والذي كان يستقي الماء سقط حينئذٍ في البئر وسقط الباقون على الارض مغشيًّا عليهم فحضر اناس كثيرون ليسعفوا هولاء المساكين وكان فيما بينهم طبيب حاذق ولكن كل اجتهادهم ذهب باطلاً فاراد الله تعالى ان يحضر الطوباوي كلافير اتفاقًا بغير ان يعلم الامر وتلك البلية . فعند نظرهِ هذا الحادث المغم جدًّا تنهّد باكيًا ورفع عينيهِ الى السماء طالبًا من ابي الجود والرحمة الحياة لاولادهِ الاعزَّاء ومن ثمَّ غطَّى بردائهِ هولاء العبيد واحدًا فواحدًا وحالاً استبان ان روح الحياة كانت ترجع الى هذه الاجساد وجميعهم ابتدأوا يتحركون وينهضون ماشين ويظهرون اصحَّاء واقوياء كما كانوا . فلاجل ذلك كانت تلاميذ الطوباوي تقبّل هذا الرداء بكل وقار وكرامة بمنزلة ذخيرة ثمينة . وكان يستعمل منشفتهُ ايضًا لعبيدهِ اكثر مما كان يستعملها لذاتهِ حيث انهُ كان معتادًا ان ينشف بها عرق المرضى وينظّف جراحاتهم . ثم ان تعبهُ الاعظم كان في الصوم الكبير حينما كان يُعِدُّ العبيد لمناولة القربان المقدس في عيد الفصح . نعم انهُ في مدار السنة كان مواظبًا على الجلوس على منبر الاعتراف كل الزمان الباقي بعد زيارة المرضى غير انهُ في الصوم كان يستمرُّ في كرسي الاعتراف من الفجر الى نصف النهار

وبعد قداسهِ كان يجمع عبيدًا وإماءً في الكنيسة ويعلمهم قواعد النصرانية ويرشدهم الى ممارسة الاسرار المقدسة ثم يجلس على منبر الاعتراف ولم يزل يعرّف الى وقت الظهيرة وكان بعد ان تناول الطعام يعلّم الصبيان والبنات التعليم المسيحي . ثم يأخذ في ارشاد الجَهَلة البالغين . وفي وقت المغرب عند خلوص الفعلة من اشغالهم كان يُعزّيهم بالكلام الالهي . هذا وكان يجمع اكثر الليالي ثلث مراتٍ في الاسبوع اشدَّ العبيد غيرةً ويمارس معهم افعال العبادة والاماتة الجسدية وكان يسعفهم بهذا النوع ليبقوا حارّين في خدمة الله تعالى ومحبتهِ وما كان يقبل الا عبيدهُ هولاء . واذا تقدم اليهِ رجال شرفاء كان يقول لهم انهُ لا ينقصكم معلمو اعتراف مستعدون لخدمتكم . واذا تقدَّمت اليهِ نساء شريفات كان يقول لهنَّ انظرنَ منبري كيف هو ضيق لا يسع ملابسكنَّ

الكبيرة الواسعة فلا يليق الاَّ بالعبيد . وكان يخرج في ايام الاعياد من الدير وفي احدى يديهِ جرس صغير وفي الاخرى قضيبٌ طويل عليهِ مصلوب يجمع الشعب الى الكنيسة لاستماع الوعظ ثم يجلد جسدهُ . روى المؤرخون ان الشيطان ظهر مرةً غضبان من غيرة الطوباوي هذه وكان ذلك وهو يعظ عند باب الكنيسة ليسمع الذين داخلاً وخارجاً معاً فحدث اضطراب عظيم حتى ان كل الحاضرين خافوا وانهزموا . فالاب طُرِح من المنبر بقوةٍ غير منظورة فانجرح وبقي مجروحاً ومدوساً من كثيرين واما الشعب فلم يمسَّ احداً منهم اذًى

وبعد نهاية الفصح كان يجول في البيوت ليسمع اعتراف المرضى الذين لم يقدروا على تتميم الوصية الفصحية داخلاً في الاماكن الاكثر انفراداً حتى الى اصطبل الدواب لانهُ كان علم ان كثيرين من العبيد مرضى ومسنُّون كانوا متروكين يموتون وليس من يُعطيهم اللوازم الروحية . قيل انهُ وجد ذات مرةٍ أَمَةً مسنَّةً لها من العمر نحو مائة سنة كانت معتبرةً في المدينة كمسيحية ولم تكن اعتمدت بعد فعمَّدها الاب وغب ايامٍ قليلة ماتت موت المسيحيين

هذا وبعد ما كان يُتمّ مباشرة وظيفتهُ في المدينة كان يجتهد في مساعدة العبيد الذين في البرّيَّة حيث حدث لهُ حادثٌ مخيف جدًّا وإن قلت كيف كان ذلك قلت انهُ انذر عبدًا نشأ من قبح سيرتهِ شكوك كثيرة ونبَّههُ لكي يحسن سيرتهُ ويرفع الشكوك والاَّ فيعاجلهُ الله بالانتقام . اما ذلك العبد الخائن فلم يعبأ بالانذار ولابالى بالتنبيه وبقي على سيرتهِ الفاسدة . فاختفى ذات يومٍ بغتةً ولم يعد يظهر فأُفرغ الجهد في الاستعلام عنهُ فلم يُوقف لهُ على خبرٍ . فبعد مدة اتفق انهُ قُتلت حية كبيرة في مكان بقرب القرية وشقُّوا بطنها واذا فيهِ رأس ذلك العبد الشقي واما في مغارتها فوُجد جزء من جسدهِ ايضاً . فهذا القصاص قد حلَّ عليهِ من الله تاكيدًا لتهديد الطوباوي لهُ

ثم ان غيرتهُ كانت تمتدُّ الى اعانة المحبوسين في الامور الروحية والجسدية وعلى الوجه الاخصّ كان يساعد المحكوم عليهم بالموت واذا كان احد منهم مستشيطاً بجمرة الغضب حتى انهُ ما كان يريد ان يسمع ولا كلمةً واحدة لاجل خلاص نفسهِ يُدعى اليهِ الاب كلافير ويدخل معهُ على انفراد ويقفل الباب فيسمع من خارج ضربات السوط الذي كان يجلد بهِ جسدهُ بنوعٍ مخيف وبعد قليل يسمع صراخ المحبوس طالبًا الرحمة . ثم يذهب هذا المسكين الى المشنقة مع اشارات التوبة النصوح وتسليم ارادتهِ للارادة الالهية . وبمثل هذه الندامة قد مات نحو ثلثين عبدًا كانوا لصوصاً قطَّاع الطريق في اليوم عينهِ وذلك لاجل تخويف العبيد الآخرين وصاروا جميعاً متاهبين لميتة صالحة باعتناء هذا الطوباوي

ثم ان محبة رسول قرطاجنة هذا نحو النفوس قد بلغت الى اعلى درجة في السنة التي فيها جاءت من اماكن كثيرة سفن موسَقة نحو عشرة آلاف عبدٍ وبحيث دخل الميناء سفن اخرى من غير اماكن شعر سكان المدينة بغلاء شديد وزد على ذلك حصول تغييرات مختلفة من قِبل اختلاف الهواء الفاسد في بعض فصول السنة فمن هذا نشأ في المراكب وفي البرّيَّة ايضاً امراضٌ كثيرة واخيرًا اشتدَّ الطاعون جدًّا ومن ثمَّ استسلم الاب كلافير في هذه الحال الى تخليص الجميع وقد جمع احساناً كثيرا لسدّ احتياجاتهم وافادهم كثيرًا في الامور الروحية والزمنية وذلك لمدة ثلثة اشهر . ثم ان خلقًا كثيرًا من الكفار عند نظرهم محبة الطوباوي الفائقة في خدمة المطعونين تنصَّروا . وكان من اولئك الاراطقة المرتدّين الى الدين الصحيح واحدٌ يُسمَّى عندهم ارشيدياكونًا من لُندرة كان قد اسرهُ الاسبانيوليون مع كثيرين من الانكليز وفي ذات يوم قدَّس الطوباوي في المركب امام الاسرى الانكليزيين بحرارةٍ عظيمة وبدموعٍ سخينة حتى ان الاراطقة الحاضرين اخذهم العجب منهُ لفعلهِ هذا وبعد ذلك دعاهُ الربَّان رئيس السفينة الى وليمةٍ اقامها لهُ . ذلك وما برح وهو على الطعام يظهر للاراطقة بشاشة وجهٍ ومحبة شديدة الى الغاية حتى انهم انجذبوا اليهِ وارتضوا ان يتحدَّثوا معهُ في امور الديانة . ثم اراد الطوباوي مواجهة إمامهم على انفرادٍ وهو الارشيدياكون المومأُ اليهِ . واما الإمام فكان شيخًا كبيرًا وخطهُ الشيب وكان جليلاً كريم الاخلاق . فالاب كلافير انحنى قدامهُ واظهر لهُ دلائل الاعتبار والوداد وانفرد بهِ مدة طويلة في غرفة بمؤخر المركب وتكلما في شان الديانة الحقيقية وكانت النتيجة ان ذلك الشيخ الصالح الحاذق الفطن اقرَّ بانهُ اضحى مغلوبًا بقوة البراهين الساطعة ووعد بانهُ يصير كاثوليكيًا محضاً واما نظرًا لاقرارهِ بنكران ديانتهِ فقال

للاب ان لي امراةً واولادًا ومرتبة عالية كثيرة الفائدة فاذا اشتهر رجوعي الى الديانة الكاثوليكية يأخذ الحكم مني كل دَخلي ومن ثم لا يكون لي حيلة ولا طريقة بها أُعيّش عائلتي بيد اني اصلّي الى الله تعالى لعله يهبني نعمةً لكي استطيع على اظهار ايماني بهِ. فحزن الاب عند سماعهِ ذلك لضعف الشيخ المذكور فتوسل الى الباري تعالى مستعينًا بهِ بصلاة حارَّة وبتقشف شديد وبذلك حصلت الفائدة لان الاب حينًا كان يخدم ذات يوم الضعفاء في المستشفى اذا بالشيخ قد جيء بهِ محمولاً من ثقل دائهِ وحالما رأى احدهما الآخر بكيا من قلب رقيق وتعانقا. فقال الشيخ اني اتيت لاكمّل وعدي معك لله فلا تتركني يا ابا نفسي في هذه الساعة الاخيرة من حياتي فلم يتركهُ الاب منذ ذلك الوقت بل تقدم اليهِ واخذ بيدهِ وشجّعهُ فوقتئذٍ جحد ضلالهُ واقرّ بالايمان الكاثوليكي وتناول القربان المقدس بعبادةٍ صادقة وتُوفّي متكلاً على جودة الله. ثم انهُ لسبب اشتهار رجوع هذا الشيخ ارتدّ الى الايمان الكاثوليكي مقدار ستمائة ارطوقي كانوا ارفاقهُ

ولما كانت تأتي المراكب الاسبانيولية الموسقة فضة من بلد بيرو كان يزور الآتين بها ويبشرهم بالنصرانية وكان يرجع على يدهِ خطأة كثيرون وكان يفرح جدًّا باكتساب نفسٍ واحدة لله اكثر مما كانت اسبانيا تسرّ بكثرة الذهب والفضة الآتية اليها في المراكب

واذ لا سبيل لنا الى الكلام على جميع ما فعلهُ غيرةً على تمجيد الله وتخليص النفوس نكتفي بما لخّصناهُ من سيرتهِ واما الآن فنتكلم قليلاً في فضائلهِ فنقول ان الطوباوي كلافير كان مرآة الكمال الرهباني لاجل جميع اخوتهِ وللآخرين ايضًا في مدة اثنتين وخمسين سنة عاشها في الرهبانية فلم يرهُ احدٌ قط خالف قانونًا ما من القوانين وكان فقيرًا جدًّا في كل شيء بحيث كان مسكنهُ اردأ محلٍّ في الدير وفراشهُ لوحًا وغطاؤهُ رثًّا عتيقًا. ومرةً اعطاهُ الرئيس ثوبًا جديدًا وامرهُ ان يلبسهُ فحزن من اجل ذلك وخجل وشرع يقول تكرارًا آه كيف يمكنني ان اتكلم مع الفقراء احبتي وانا لابسٌ بُردًا حسنًا واما الرئيس فلما رأى الحزن قد اخذ فيهِ كل مأخذ سمح ان يُردّ اليهِ الثوب العتيق فكان ردُّهُ تعزيةً لهُ. وكان ملائكيًا وفضيلة طهارتهِ ظاهرة على وجههِ وحفظ بتوليتهُ بريًّا من كل دنس حتى الموت لابسًا ثوب برارة المعمودية. ولكي يصون عفّتهُ كان متعبّدًا عبادةً حارّةً لسرّ الحبل بمريم البتول بلا دنس ضابطًا كل عواطفهِ وبالاحرى كان يحارب حواسهُ حربًا دائمةً منكرًا عليها كل ما تطلبهُ وطالبًا كل ما تنكرهُ. ولم يزل يميت جسدهُ كل يوم ليخضعهُ للروح خضوعًا مطلقًا. وكان يعذب كل عضوٍ من جسدهِ عذابًا خصوصيًا ويجلد جسمهُ يوميًا بالسياط حتى يسيل الدم ويلبس المسح كلما سافر او وعظ او نام فضلاً عن انقيادهِ للرؤساء عقلاً وارادةً. هذا وفي بداية كل شهر كان يعطي حسابًا مدققًا عن ضميرهِ ولم يرسل ولم يفتح مكتوبًا قطّ بغير ان يُطلع الرئيس عليهِ. ثم ان راهبًا يسوعيًا كان يرافقهُ مقدار ثلثين سنة شهد فيهِ بقَسَمٍ انهُ كان محبًّا الطاعة حبًّا شديدًا حتى تصرّف كل حياتهِ في الرهبانية تصرُّف مبتدئ وما كان يظهر امام الرؤساء الّا مكشوف الرأس محتشمًا متواضعًا كأنهُ امام المسيح له المجد. كيف لا وكان تواضعهُ يجعلهُ يحبُّ الاحتقار ويُفتش عنهُ كانهُ ظمآن اليهِ. وكان يخدم جميع العبيد كانهُ أخسُّهم وأدناهم واحيانًا كان يذهب الى المستشفيات حاملاً حملاً ثقيلاً نظير الحمّال وهناك كان بفرحٍ عظيم يخدم المرضى في أدنى الامور واحقرها حبًّا بالمسيح كما انهُ في الدير كان يرتضي بان يساعد الذين يمارسون أحطّ الوظائف شأنًا. واما صبرهُ فكان على قدر محبتهِ الرسولية قد تخطّى حدّ اعلى الفضائل بحيث ان معاملتهُ كانت مع اخسّ البرابرة واغلظ الجهلاء عقلاً واقلهم ادبًا والمبغضين للمعمودية والديانة وكل تعليم روحاني بغضًا شديدًا

ومن الثابت ان صبرهُ وبقية فضائلهِ كانت تأخذ قوّتها من نعمة الروح القدس بما انهُ كان مشغوفًا على الدوام بالله عزّ وجلّ وانهُ مع اخفائهِ ما كان يظفر بهِ من نِعم الله التي كان ينالها منهُ تعالى في الصلاة والتأمل رآهُ كثيرٌ من الناس مرارًا مختطفًا ومرتفعًا عن الارض ومتوشحًا بثوبٍ من نورٍ. ومن طرائقهِ وعباداتهِ الخصوصية انهُ كان يستغيث في كل ساعة من النهار بقديس من اربعة وعشرين قديسًا اتخذهم كحامين عنهُ ومنهم سيدتنا مريم العذراء والملاك الحارس والقديس اغناطيوس لويولا الذي كان يشفي بايقونتهِ مرضى كثيرين

وقبل موتهِ باربع سنين اصابهُ الطاعون بالعدوى من العبيد المرضى لمخالطتهِ اياهم ليخدمهم واستعزّ عليهِ ذلك

الوباء فكابد اوجاعًا شديدة باطنة وكانت ترتجف جميع اعضائهِ كقصبة في مهب الريح ومن ثمَّ ما كان يستطيع ان يتحرَّك بذاتهِ من مكان الى مكان وكانت غيرتهُ أحرَّ من النار كيف لا وقد طلب ان يحملوهُ الى الكنيسة واحيانًا الى البيوت ليرشد العبيد ويعرّفهم ويساعد المرضى . وكان يقول عن نفسهِ انني لما كنت صحيح الجسم كنت كالعبد البطَّال والآن وانا على فراش السقام فلا انفع شيئًا ولكني آكل خبز الدير بغير فائدة ولا استحقاق . هذا وفي سنة اربع وخمسين وستمائة والف جاء مدينة قرطاجنة مرسَلٌ يسوعي لهُ في مملكة اسبانيا اعتبار كبير لاجل شرف عائلتهِ وغزارة علمهِ ونموّ فضائلهِ وذلك ليكون مسعفًا للاب كلافير ومعينًا لهُ على خدمة العبيد حسبما تقتضيهِ ارساليتهُ اليهم . ولهذا عند ما بلغ الاب كلافير قدومهُ فرح كل الفرح وذهب اليهِ في حال ضعفهِ وجثا امامهُ وقبَّل قدميهِ قائلاً مع سمعان الشيخ الآن اطلق عبدك يا رب وكان قد تنبَّأ بانهُ يموت يوم عيد ميلاد السيدة مريم العذراء وصدقت نبوَّتهُ وبعد قليلٍ من مجيء هذا الاب قبل عيد ميلاد العذراء بيومين طلب ان يحملوهُ الى الكنيسة ليتناول زاد الراحلين عن هذه الدنيا وعمل ذلك بخشوعٍ عظيم وحب ملتهب وبعد رجوعهِ الى حجرتهِ استمرَّ يناجي الله بعواطف الشوق الى جنان الخلد ولم يزل هكذا حتى اصابتهُ حمَّى شديدة وفي اليوم الثاني وجد مغميًّا عليهِ ودُهن بزيت المسحة الاخيرة وبقي على هذه الحالة الى الساعة الاولى بعد نصف الليل من يوم العيد وحينئذٍ سلَّم نفسهُ الى الله تعالى فيما بين اخوتهِ وبعض اشخاص عالميين متلمذين لهُ ما ارادوا ان يهملوهُ الى حد الموت وانتقل بسلام الى السعادة الابدية وعمرهُ تسع وستون سنة قضى اثنتين وخمسين سنةً منها في الرهبانية

وأثبت تطويبهُ البابا بيوس التاسع في اليوم الثامن من شهر ايلول سنة احدى وخمسين وثمانمائة والف للمسيح

اليوم العاشر

وفيهِ ترجمة القديس نيقولاوس التولنتيني

ان مولد هذا القديس كان بقرية اسمها قصر الملك ببلاد ايطاليا في السنة الخامسة والاربعين بعد المائتين والالف وكان والداهُ فقيرين في الدنيا وغنيَّين بالفضائل الروحية وكانت محبوبة امهُ قد طعنت في ايامها ولم تلد ابنًا فتراءى لها ولزوجها المدعو رفيقًا ملك يأمرها بان يذهبا الى زيارة القديس نيقولاوس المعظم ليطلبا بشفاعتهِ من الله تعالى ان يمنحهما ابنًا يقتدي بفضائلهِ . ثم عزم الاثنان على هذه الزيارة المقدسة فلما وصلا الى كنيسة القديس نيقولاوس وكان قد اعياهما التعب والظمأ استحوذ عليهما النعاس فناما فظهر لهما وقتئذٍ ذلك القديس المعظم بحلَّةٍ حبريَّة وانبأهما بانهما سيلدان ابنًا بعد زمن يسير وانهُ يكون نقي السيرة وقديسًا واوصاهما بان يسمّياهُ نيقولاوس وبعد تسعة اشهر لذلك ولدت المرأة المباركة ابنًا مباركًا ودُعي في المعمودية نيقولاوس فنشأ هذا الابن بصلوات والديهِ ومنذ طفوليتهِ لاحت عليهِ علامات البرّ ومال ايام الصبا كل الميل الى الصلاة وبحيث لم يكن في بيتهِ الاَّ نموذج الفضيلة كان يرتقي فيها يومًا فيومًا

فلما سمع ان القديس نيقولاوس كان في زمن طفوليتهِ يصوم ثلثة ايام في كل اسبوع رام ان يقتدي بهِ ولم يكن وقتئذٍ الاَّ ابن سبع سنين . وقد صام هكذا حتى يوم وفاتهِ اما وقت الصلاة لا سيما في الكنيسة فكان يظهر باحتشامهِ كأنهُ ملَك سماوي وفي حين القداس الالهي كان يلتهب وجههُ ويذرف الدموع كانهُ ناظرٌ بعينيهِ السيد المسيح . اما حبهُ فضيلة الطهارة واحتراسهُ على حفظها فكانا من الامور المستغربة لانهُ مذ كان طفلاً لم يدع امرأة تلاطفهُ او تدنو منهُ ولم يكن ينظر الى النساء اصلاً . اما المساكين فكان يحبهم اشدَّ حبٍّ ويدخلهم بيت والديهِ ويشركهم في معاشهِ وكسوتهِ

فكبر نيقولاوس ودرس العلوم وتمهَّر فيها فجعلوهُ اكليريكيًّا غير ان قلبهُ كان يميل الى الاعتزال عن الناس واتباع الطريقة الرهبانية . هذا وبينما هو يمعن النظر في الرهبانيات المختلفة ليختار واحدةً منها سمع عظة لاحد الرهبان الملقبين بمتوحّدي القديس اغستينوس وكان موضوع العظة احتقار العالم فاعجبهُ الوعظ والواعظ ايضًا فعندما نزل من على المنبر تقدم اليهِ القديس وكاشفهُ بنيّتهِ وطلب اليهِ ان يضمهُ الى رهبانهِ . فذهب بهِ الراهب الى والديهِ ليقف على خاطرهما فعلى اثر وصولهِ كاشفهما بما نواهُ ولدهما نيقولاوس من الترهب فسرَّهما الامر ايَّ سرور . فدخل نيقولاوس دير المبتدئين ولم يكن وقتئذٍ الاَّ ابن اثنتي عشرة سنةً فظهر عند جميع ابناء تلك الرهبانية المقدسة كملك هبط من السماء ومن

ثم كان قدماء الرهبان وشيوخهم يندهشون من خلوص عبادتهِ وشدة تقشفاتهِ وحسن فضائلهِ ولذلك قبل ان يبلغ العمر الذي عيّنتهُ الكنيسة المقدسة لابراز نذور الرهبانية طلب الرئيس لاجلهِ اذنًا فنذر جهرًا النذور الرهبانية بين متوحدي القديس اغسطينوس

وبعد ان نذر لله نذور الرهبانية سلك سبيل اهل الورع كأن لم يسلكهُ قبلاً وسار فيهِ سيرًا قويًّا بممارسة الفضائل على النوع الاكمل ولا سيما الاتضاع فكان يعدُّ اصغر الرهبان رئيسًا لهُ ويرغب في احقر خِدَم الدير واصعبها ويصوم اربعة ايام في كل اسبوع وامتنع عن اكل اللحم امتناعًا مطلقًا وكان يلبس المسح دائمًا ويشدُّ حقويهِ بزناجير حديدية. فزارهُ يومًا عمهُ الذي كان رئيسًا من رهبانية غير متمسكة بشدة التقشف فحثهُ على ان ينضمَّ الى رهبانيتهِ اما الراهب النشيط فرفض من ساعتهِ هذه المشورة وقال لعمهِ حاشا لي ان اجزع من سلوك الطريق الضيقة التي سلكها السيد له المجد وادخلني فيها ألا تعلم اني لم اترهب للتنعم والرفاهية بل لأُميت نفسي. وفي ذلك اليوم عينهِ تجلّى ملئكة من السماء وهنأوهُ على عزمهِ المقدس وقوّوهُ فيهِ

فارتسم القديس كاهنًا وزاد نشاطهُ في العبادة معًا ولا سيما وقت تقدمة الذبيحة الالهية ولعمري انهُ كان كل وقت يسنين كانهُ ملك سماوي اما في وقت القداس فكان يظهر كانهُ ساروفيم نظرًا الى لهيب المحبة الالهية المتلألئ على محيّاهُ ومن ثم كان الناس يبادرون الى ان يسمعوا قداسهُ. رُوي انهُ بعد ارتسامهِ كاهنًا ظهر لهُ في حلمٍ وهو نائم ذات ليلة رجل قد تُوفّي حديثًا وكان يعرفهُ في قيد الحياة وطلب اليهِ ان يساعدهُ وينجيهُ من عذاب المطهر بتقدمة القداس لاجلهِ واذ اجابهُ القديس قائلاً انهُ بامر الرئيس ملتزم في كل الاسبوع بتقديم القداس لاجل الجمعية. فاخذهُ ذاك الرجل واتى بهِ الى مكان بالقرب من مدينة بيسارو واراهُ جمًّا غفيرًا من النفوس المتعذبة في المطهر المنتظرة صلواتهِ لتنجو من المطهر وغابت الرؤيا. اما القديس فلما استيقظ من النوم وهو متحنّن على تلك النفوس التي تُصلى بنار المطهر طلب الى الرئيس ان يأذن لهُ بتقديم القداس في الاسبوع لاجل النفوس المطهرية فاذن لهُ الرئيس بذلك وفي آخر الاسبوع ظهر لهُ ذلك الشخص عينهُ شاكرًا لهُ وقائلاً ان نفوسًا كثيرة كانت تُعذَّب بالنار المطهرية نجت بتضرعاتهِ

ثم باشر وظيفة خلاص النفوس في مدينة تولنتينو مدة ثلثين سنة وفي كل يوم او اكثر الايام كان يعظ الشعب ثم يجلس في كرسي الاعتراف ويسمع اعترافاتهم وكان لكلامهِ في النفوس افعل تأثير وأجود ثمرة ويقضي بقية الزمان في مناجاة الحق سبحانهُ. وكان الله تعالى يصنع على يدهِ عجائب كثيرة وها نحن نُورد هنا واحدةً منها فنقول. روى التاريخ ان هذا القديس طلب مرةً صدقةً من امرأة فقيرة لم يكن عندها من المآكل الا رغيف واحد فاعطتهُ ما طلب وقالت لهُ انهُ لا يوجد عندي من الحنطة ولا من الدقيق شيء البتة فتوجّع لها ورثى لسوء حالها وسأل الله تعالى ان يأجرها عن صدقتها اجرًا وافرًا. وللحال استجاب الله تعالى طلبة عبدهِ بحيث ان تلك المرأة وجدت في منزلها مقدارًا وافرًا من الحنطة وعاشت بهِ هي واهل منزلها زمانًا طويلاً

وماذا عسى ان اقول في محافظتهِ على العيشة القشفة التي استمرَّ عليها بدون ان ينقص شيئًا فاخذ عدو البشر تلك الفرصة ليُلقيهُ في وسواسٍ وقلقٍ نظرًا الى تقشفاتهِ اما القديس فالتجأ الى الصلاة طالبًا من الرب نورًا ومعونة فظهر لهُ الرب لهُ المجد في الحلم وازال اضطرابهُ معلنًا لهُ انهُ مرتضٍ باعمالهِ فاستيقظ القديس قائلاً مع المرتل فرحت بما قيل لي الى بيت الرب نذهب (مزمور ١٢١) ولما حانت منيّتهُ تكرّر ظهور الملئكة لهُ ومعهم ملكتهم والقديس اغسطينوس وبعد تناولهِ القربان المقدس انتقلت نفسهُ الى السماء وبعد موتهِ تشرّف قبرهُ بكثيرٍ من الآيات والمعجزات. وقد حدث موتهُ المقدس في اليوم العاشر من شهر ايلول في السنة الخامسة بعد الالف والثلث مائة للمسيح

وفيهِ ايضًا ترجمة القديسة بُلكاريا الملكة

لقد أثنى المؤرخون جميعهم على القديسة بُلكاريا لحسن عبادتها وانقاد غيرتها في الايمان حتى ان المجمع الخلكيدوني المقدس يدعوها حارسة الايمان. اما ميلادها فكان في اليوم التاسع عشر من شهر كانون الثاني في السنة التاسعة والتسعين بعد الثلث مائة للمسيح وكان والدها أركاديوس الملك ابن تاودوسيوس الكبير وامها افدكسيا الملكة وقد مات والدها وهي ابنة نحو تسع سنين ولا ريب ان العناية الالهية

ارادت ان تُعدمها قدوة تربية والدَيها حسب قول احد المؤرخين لكي تُعلم الناس ان الله تعالى ربّاها وعلّمها منذ نعومة اظفارها وانها اتخذت من الروح القدس ما ظهر فيها فيما بعد من مواهب الحكمة بحيث لم تكن قد بلغت الاّ اثنتي عشرة سنةً لما ظهرت متصفةً بحكمةٍ عجيبة واحتشام ملكيّ وتقوى صادقة وفي كل مخاطباتها وافعالها وحركاتها كانت الحكمة تتلألأ مع احتشام عجيب مقترن بجمال بارع

فلما رآها عظماء المملكة متّصفةً بهذه المناقب السنية فوّضوا اليها امر اخيها تاودوسيوس الصغير لكي تربيهُ وتهذبهُ بعد موت والدِيهِ وكانت حينئذٍ ابنة نحو اثنتي عشرة سنة واخيها الملك ابن نحو ثماني سنين فاحسنت تربيتهُ ورشّحتهُ للمُلك كما ينبغي للملك مسيحي ولذلك ربّت اختيها اركاديا وماريتا اللتين نمتا وزهتا في البرّ والفضائل ولما بلغت السنة الخامسة عشرة من عمرها كانت قد مهرت حينئذٍ باللغتين اللاتينية واليونانية واخبار التواريخ ونذرت حينئذٍ لله بتوليتها وبمشورتها نذرت ايضًا اختاها عفّتهما وأذاعت خبر نذرها لئلا يتقدم احد ويطلب ان يتزوّج بها ويتخذ من ذلك حجةً ليشوّش المملكة

فجلس تاودوسيوس الملقب بالصغير على عرش الملك ولهُ من العمر اربع عشرة سنة واقيمت اختهُ القديسة بُلكاريا شريكة لهُ في السلطنة وتدبير المملكة وكان عمرها اذ ذاك ثماني عشرة سنة فاختارت جماعةً من اهل الحكمة والفضل يسعفونها في التدبير وكانت تلاحظ قبل كل شيء ما يخص الايمان والديانة وتفضّلهُ على كل ما سواهُ لعلمها ان الاهتمام بما يخص خدمة الله تعالى يجلب للمملكة وفور البركات السماوية . ولعمري ان مملكة الروم لم تصل قط الى حال اشرف واسعد من الحال التي كانت عليها بتدبير القديسة بُلكاريا. ذلك ومع اعتنائها بتدبير الملك لم تزل ترشد اخاها الى طرق سياسة المملكة على ما يقتضيه الدين المسيحي وتحثهُ على الفضيلة وكان الملك ينتفع جدًّا من ارشادها ومن ثم لم يكن يحضر الى الكنيسة الاّ باحتشام ومهابة بليغة ونشأت لهُ رغبةٌ في تلاوة الكتب الروحية والمخاطبات المقدسة وكان يصوم في كل اسبوع يومين وبالنتيجة فكل هذه انما كانت اثمار تعليم اختهِ الحكيمة كما روى المؤرخون

اما اهتمامها بخير المملكة فلم يصدّها عن الاعتناء بتقديس نفسها كيف لا وقد اختارت من البلاط الملوكي موضعًا منفردًا وخصّصتهُ لها ولأختيها ولم تكن تأذن لرجل ان يدخل ذلك الموضع البتة وكانت تمارس هناك اصعب تقشفات السيّاح وتقضي اكثر الليل مصلّيةً وتنام قليلاً ولكن لا على فراشٍ وتصوم كل يوم اما سخاؤها على المحتاجين فارفع من ان ينعتهُ القلم وما هذا بغريب فقد قيل انها كانت بغزارة احسانها استأصلت الفقر من المملكة

ولما رام اخوها ان يتزوّج استشارها في ذلك فقالت لهُ ينبغي لك ان تلاحظ في هذا الامر ما هو اكثر مجدًا ونفعًا لله تعالى ولنفسك وللملك فقال انني اريد ان اقترن باتاناسيا لانها مستقيمة السيرة حميدة الصفات . واما اتاناسيا فكانت ابنة لاونسيوس الفيلسوف الوثني الذي من مدينة اثينا ولما رآها ابوها المذكور حاذقة العقل ثاقبة الفطنة اعتنى بان تتمهّر في العلوم وتتضلّع بها ولظنهِ ان علمها يكفيها لكي تكتسب معيشتها منعها من الارث بوصيتهِ الاخيرة بل اوصى بكل مالهِ لاخوتها فذهبت هي الى القسطنطينية والتجأت الى بُلكاريا الملكة وطلبت منها ان تُبطل وصية ابيها الاخيرة وتُعطيها ما يصيبها من التركة. اما الملكة فانذهلت من صفاتها الحميدة فتبنّتها واجتذبتها الى الايمان المسيحي وسمّتها في المعمودية افدوكسيا وقد كانت ذات جمال بارع فتزوّجها الملك

وفي غضون ذلك اظهرت القديسة بُلكاريا غيرتها على حفظ الدين الصحيح بحيث كان في ذلك الزمان نسطور البطريرك القسطنطيني يزرع زوان الارطقة ويطغي الشعب بظواهر تقوى كاذبة ويعلّم ان في سيدنا يسوع المسيح طبيعتين واقنومين وبهذا ينفي عن الطوباوية مريم العذراء شرف الأمومة الالهية غير مُريد ان يقال لها والدة الله وانما اراد ان يقال لها والدة المسيح فقط . وكان يقول بان السيد المسيح انسان بسيط وانهُ بعد ميلادهِ استحق بافعالهِ الصالحة ان يتحد مع الكلمة الازلي لا اتحادًا اقنوميًّا بل ادبيًّا فقط وبهذا التعليم الفاسد ينقض سرّ تجسُّد المسيح القائم باتحاد الطبيعة الالهية والانسانية في اقنوم واحد . فلما سمع القديس كيرلُّس بطريرك الاسكندرية بهذا التعليم النفاقي كتب الى القديسة بُلكاريا رسالةً واعلمها بسمّ هذا التجديف وفي الحين حرّكت اخاها الملك الى المكافحة عن الايمان فعُقد مجمعٌ في افسس سنة احدى وثلثين واربعمائة وهناك رذلت الآباء بدعة

نسطور ونادوا بان الجليلة مريم العذراء هي والدة الله حقًّا ولإكرامها واثبات هذه القضية الدينية واشاعتها بنت الملكة القديسة هيكلاً معظمًا بالقسطنطينية. ولكي تزيد عبادة الشعب نحو والدة الله ابتنت لها كنيسة اخرى في وسط المدينة

اعلم ان القديسة بُلكاريا كانت تنصح اخاها الملك وتونّبهُ على توانيهِ في تدبير امور المملكة وعلى عادتهِ في ختم الاحكام والوثائق المقدمة له قبل ان يقرأها ويفحصها. فلما رأت ان نصائحها لم تؤثر فيهِ استعملت حيلةً وكانت ترجو منها خيرًا فبعثت اليهِ رسالةً مضمونها ان بُلكاريا تطلب من الملك ان تكون افدوكسيا الملكة أمةً لها فختم الملك هذه الالوكة من غير قراءة ولا تمييز فبعد ان اخذتها بُلكاريا من الملك ذكرت له مضمونها فانتبه الملك على غفلتهِ وانهُ لايليق بملكٍ ان يصادق على المعاريض والاحكام التي تُقدَّم له قبل الاطلاع عليها

ومع ان الملك لم يكن قابلاً لتدبير المملكة كان كل شيء فيها منتظمًا بواسطة حسن تدبير بُلكاريا ولهذا حرَّك الشيطان خريصافيوس الخصيّ رجلاً شرّيرًا على عزل الملكة عن تدبير امور المملكة لانهُ كان مقرَّبًا وعزيزًا عند الملك فهذا كان قد قصد ان يعزل عن الكرسي القسطنطيني القديس فلابيانوس الذي كان اقيم بطريركًا بدلاً عن القديس بروكلوس ولعلمهِ انهُ لا يبلغ اربهُ وتدبير المملكة في يد القديسة بُلكاريا جعل يزرع الحسد فيما بينها وبين افدوكسيا امرأة الملك فاخذت افدوكسيا تحثُّ الملك على طرد بُلكاريا من البلاط فأمر بطردها واخبرها عن ذلك البطريرك. ومع ان القديسة دبَّرت المملكة تدبيرًا حسنًا مدة ثلثين سنة لم تشكُ من اخيها ولم تظهر ادنى توجُّع فخرجت من البلاط وانفردت في منزلها خارج المدينة لمجرَّد الاهتمام بالرياضات الروحية ولكن ظهر سريعًا كم كانت المملكة محتاجةً الى تدبيرها فندم الملك على ما فعل وألحَّ على اختهِ في الطلب لان ترجع الى القصر الملوكي وتسعفهُ في تدبير امور الملك فلم ترتضِ بترك خلوتها ولكنها خوفها على فساد الايمان الصحيح الزمها بالرجوع

لانهُ ظهر حينئذٍ في القسطنطينية راهب مراءٍ متكبّر يقال له اوطيخا وهذا شرع يدحض ويفنّد من على المنابر بدعة نسطور لكي يُحدِث بسهولة بدعةً اخرى لان نسطور كان يقول ان في السيد المسيح طبيعتين واقنومين وينكر كون المسيح الهًا وانسانًا. اما اوطيخا فقال ان في المسيح طبيعةً واحدة فقط وكان ينكر ان المسيح الهٌ وانسانٌ. فعقد القديس فلابيانوس مجمعًا في القسطنطينية وبعد الفحص رفض الآباء بدعة اوطيخا وعزلوهُ عن رئاسة ديرهِ. اما اوطيخا فلم يبالِ بعزلهم ايّاهُ ولم يُذعن لامر المجمع لاجل حماية خريصافيوس له لان هذا الخصي كما قلنا كان مقرَّبًا وعزيزًا عند الملك وكان الملك يتدرَّب بمشورتهِ ولم يكن يفعل شيئًا الاَّ برضائهِ. فلما رأت القديسة بُلكاريا ان الايمان المستقيم على خطر وان اخاها الملك لم يزل يطلب منها ان ترجع الى البلاط الملوكي بارحت خلوتها حيث كانت قد مكثت اربع سنين ولما دخلت المدينة استقبلها اخوها بمحبة كانت ازدادت بطول غربتها فشرعت حينئذٍ تذكر له حِيَل الاراطقة المجتهدين في أن يسقطوهُ في لجَّة الضلال والهلاك ثم اطّلع الملك على خبث خريصافيوس الخصيّ الشقيّ فعزلهُ عن جميع مناصبهِ وسلَّمهُ الى القضاة ليقضوا عليهِ وبمشورة اختهِ اصلح ما كان قد افسدهُ وعاد كل شيء في الكنيسة والمملكة الى ما كان عليهِ من النظام والسلام

وبعد قليل استأثرت رحمة الله بالملك في السنة الخمسين بعد الاربع مائة اما افدوكسيا فتنحت الى فلسطين حيث قضت حياتها في افعال التقوى واذ لم يكن للملك وريثٌ كان قد اشار على اختهِ ان تقيم بعد موتهِ مرقيانوس ملكًا وهذا كان معتبرًا جدًّا بحسن العبادة والشجاعة في الحروب وخبيرًا بتدبير الامور فجعلتهُ القديسة بُلكاريا شريكًا لها في تدبير المملكة وارتضت بان يكون لها بعلاً بشرط ان تستمرَّ عذراء وانما رضيت بهذا حبًّا بمصلحة المملكة ونفع الكنيسة. هذا ولعمري انها اشتهرت كثيرًا بحسن تدبيرها لانها فضلاً عن القوانين المشدَّدة التي ابرزتها ضد الاراطقة وعلاوةً على ردّها الاساقفة الكاثوليكيين الى كراسيهم عُقد على يدها في السنة الحادية والخمسين بعد الاربع مائة للمسيح مجمع مسكونيّ بمدينة خلكيدونية ضد تبّاع اوطيخا

ما ابلغ المديح الذي مدح بهِ آباء هذا المجمع المقدس تلك الملكة الفاضلة في رسالةٍ كتبتها اليها في ابتداء المجمع فانهم سمّوها فيها الملكة ذات التقوى المحِبَّة للمسيح والمحبوبة من الله تعالى الحامية عن الايمان الكاثوليكي والتي بمعونة سلطتها قد التأم هذا المجمع المقدس فادّوا الشكر لله لاجل انهُ بضوء اعمالها الصالحة قد تنوَّر الجميع وبعنايتها تكمَّل التعليم وظهر الاتحاد

في الايمان وتبدّد ظلام البدَع وقُلع الزوان من حقل رب البيت المقدس. هذا وحين حضرت القديسة مع زوجها الشريف في الجلسة السادسة كرَّمها الآباء كل التكريم واثنوا عليها احسن ثناء. وبعد ثلث سنين لذلك ماتت الملكة القديسة موتًا مقدسًا وجعلت بوصيتها الاخيرة المساكين ورَثة كل مالها. وكانت وفاتها في اليوم العاشر من شهر ايلول سنة ثلث وخمسين واربعمائة ولها من العمر تسعٌ وستون سنة

اليوم الحادي عشر

وفيهِ ترجمة القديس بَفنوتيوس

ان هذا القديس وُلد بمصر بعد منتصف الجيل الثالث ومنذ حداثتهِ كان ممتلئًا من نِعم المولى تبارك اسمهُ. ولما قلَّب نظرهُ واجال فكرتهُ في احوال الذين كانوا قد شرعوا يقتفون في بادية مصر وتبايئس آثار من زهدوا في الدنيا واعتزلوا عنها الى القفر البلقع ما لبث ان قفَّى على آثارهم بان عاف ملذّات هذه الدنيا الغرور ونفر قلبهُ منها ومال الى دار البقاء حيث النعيم المؤبَّد قائلاً في نفسهِ اذا كانت السماء جديرةً بان تُفضَّل على الارض والفردوس السماوي هو وطني والارض منفاي فلماذا لا أُقبل والحالة هذه بأتمّ الانعطاف وخلوص الارادة نحو السماء وارغب عن الارض وانفر منها هاربًا.

وقد رأى الصواب ان يُقيم مع السيَّاح البعيدين من وطنهِ في مصر مخافة ان تحدث لهُ موانع من قِبل اقاربهِ ومن ثم ذهب الى دير بيسبار الذي هو على طرف تخوم الاقليم المصري الاعلى وكان رئيس ذلك الدير في ذلك الوقت القديس انطونيوس الكبير الذي لاشتهارهِ بالفضل والبرّ في اكثر الآفاق أقبل اليهِ خلق كثير ممن ارادوا ان ينقطعوا الى الله تعالى واتخذوهُ مرشدًا لهم في طريق الملكوت. هذا ولما بلغ بَفنوتيوس الى الدير المذكور اظهر للقديس انطونيوس انهُ قد نوى الاعتزال عن الناس الى البريَّة فوطَّد القديس عزمهُ على ذلك وضمهُ الى تلامیذهِ

وكثيرًا ما صرَّح القديس انطونيوس بخلوص فضائل بَفنوتيوس من كل شائبةٍ وقد اخصّ بالمدح فطنتهُ وشدة محبتهِ. قيل ان النسَّاك اشتكوا ذات يوم على احد السيَّاح بذنب وانكر المشتكى عليهِ ذلك الذنب واما المشتكون فلم يملُّوا من تكرار الشكوى فامعن بَفنوتيوس نظرهُ في المسألة وقال رأيت على شاطئ النهر رجلاً منغمسًا في الوحل ثم نظرت واذا بجماعةٍ كثيرين جاءوا لاعانتهِ فمدُّوا ايديهم لينشلوهُ ولكن عوض ان يخرجوهُ ادخلوهُ في الوحل حتى عنقهِ. وبهذا الكلام أشار بَفنوتيوس الى انهُ لا ينبغي ان يوبَّخ بشدَّةٍ المذنب الذي لا يُقرُّ باثمهِ بحيث ان مثل هذا التعنيف لا يُفيد البتة الخاطئ المُنكر انهُ خاطئ وانما يبعثهُ على ارتكاب زلَّات جديدة بالانكار والكذب والاصرار على الاثم فضلاً عن ان التوبة لا تكون اغتصابًا ولاسيما اذا صدر ذلك ممَّن ليس لهُ سلطة على الاثيم المصرّ على الاثم. فلما سمع القديس انطونيوس هذا الكلام التفت نحو الحاضرين وقال هذا هو الرجل الذي يعرف ان يحكم بالحق في كل مسألة ويقدر ان يفهم افكار القلوب

ثمَّ انهُ بعد هذا بزمان قليل قُبض عليهِ وعلى كثير من المسيحيين وكان ذلك على ما اخبرنا اوسابيوس نحو السنة السادسة لاضطهاد مكسيمينوس دايا الكنيسة المقدسة اي نحو السنة الثامنة بعد الثلث مائة ونظرًا الى المعترفين الذين كانوا وقتئذٍ في براري مصر في المكان المسمَّى بُرْفيريتوس لوجود الرخام فيهِ فكانوا يلزمونهم باستخراجهِ واخذوا سبعة عشر شخصًا ما عدا النساء والصبيان وأتوا بهم الى بلاد فلسطين حيث اعترفوا جهرًا بالايمان المقدس فلما فرميليانوس الوالي فامر هذا بان تُحرق اعصاب الرِجْل اليسرى لكلٍّ منهم وتُقلع العين اليمنى كذلك. ثم ارسلهم الى معادن تلك البلاد (١) ليفنيهم هناك بالتعب الشديد. ويؤكد هذا المؤرخ قائلاً انهُ رآهم وغيرهم ايضًا أُرسلوا بعدهم من جهات فلسطين وخاصَّةً من غزَّة حيث قبض عليهم لاجل انهم ابوا الاختلاط مع الوثنيين في مراتبهم الدينية او وُجدوا مجتمعين لقراءة الكتب الالهية

فالظاهر ان القديس بَفنوتيوس كان من اولئك المعترفين او من الذين أُرسلوا بعدهم لا بزمان طويل

(١) حاشية. اعلم ان المعادن المذكورة كانت في مكان يُدعى فينوم وهو محطة مرحلة من مراحل العبرانيين في سفرهم من مصر الى اليهودية بين الصخرة وابوت (سفر العدد ٣٣: ٤٢ و٤٣) التي في نصف المسافة من بحيرة لوط الى بحر ابلاكا. وقد وُجد حديثًا فيها آثار معبد قديم كان اولئك المعترفون قد بنوهُ زمان اقامتهم هناك وبعد الاضطهاد في ايام الملوك المسيحيين اصبح هذا المعبد كنيسة اسقفية

من مصر ايضاً الى فلسطين على ما قال المؤرخ المذكور وكان عددهم مائة وثلثين شخصاً فبقي القديس في تلك المعادن مع سائر المعترفين الى نحو السنة الحادية عشرة بعد الثلث مائة التي فيها التزم الملك غاليريوس المغتصب ان يأمر بازالة الاضطهاد عن المسيحيين لاجل مرضٍ اعتراهُ على ما روى اوسابيوس (كتاب ٨ فصل ١٧)

فرجع اكثر المعترفين الى وطنهم ورجع القديس بَفنوتيوس الى مصر حيث بقي تحت ارشاد القديس انطونيوس الكبير وكانت سكناهُ في دير بيسبار المبني على جبل بالقرب من نهر النيل كما يتضح ذلك من ترجمة القديس انطونيوس التي كتبها القديس اثناسيوس

وبما ان الله لم يزيّنهُ بتلك الحكمة الفائقة لينفرد في التباني طول عمرهِ بل ليقوم على رعاية قطيعٍ من خرافهِ الناطقة ويُنير بيعتهُ الجامعة بمصابيح تعاليمهِ وقدوتهِ الصالحة انتُخب اسقفاً لمدينة باقليم تيبائِس فاقلقهُ ذلك كثيراً فافرغ الجهد في الفرار من الاسقفية وما زال هكذا حتى تبيَّنت لهُ من قِبل رؤَسائهِ ارادة الله في ذلك فحينئذٍ حنى عنقهُ لنير الانجيل وارتسم اسقفاً وخرج من القفر متكلاً على الله كل الاتكال

ولما جلس على عرش الاسقفية استضاءت بانوار فوائدهِ اجفان الرعية وانتشرت نفحات فضائلهِ الذكية التي مارسها اذ كان يُرشَد من القديس انطونيوس وهكذا اقتفى اثرهُ الشعب كلهم واقتدوا بهِ ونِعم المقتدَى . وكان جلّ اهتمامهِ ان يستأصل الرذائل من شعبهِ ويغرس الفضائل وفي الجملة فقد غدت رعيّتهُ اهلاً لان توصف بانها مسيحية اسماً وفعلاً

انهُ لم يكن اقلَّ غيرةً في دحض بدعة آريوس التي دبَّت في ذلك الزمان كالآكلة وهذا ما لا شكَّ فيهِ لانهُ توجَّه الى مجمع نيقية الذي عُقد عام خمسة وعشرين وثلثمائة وهناك ظهرت غيرتهُ وعلو همتهِ ظهور شمس الضحى . ونال الحظوة والمكانة لدى الملك قسطنطين الذي اتصل الى ان يستشيرهُ في وضع الاوامر الموافقة لتوطيد الدين القويم ولاستئصال البدعة المشار اليها . وكان الملك كلما خرج هذا القديس من ديوانهِ يُقبّل عينهُ اليمنى المقلوعة عقوبةً على اعترافهِ بالمسيح تبارك اسمهُ . ولا جرم انهُ كان يعلّم بمثل هذا عظماء دولتهِ وبقية اهل المملكة ان احترام خدَّام المسيح الامناء اكبر واجبٍ

وكان متحداً بالالفة والوداد مع القديس اثناسيوس بطريرك الاسكندرية وبقية الاساقفة الكاثوليكيين ورافقهُ مع القديس بوتامون الذي من هيراكليا وسبعة واربعين اسقفاً الى المجمع الذي التأم في صور سنة ثلث وخمسين وثلثمائة للمسيح وكان اكثر آباء هذا المجمع يذهبون مذهب آريوس المبتدع اما بَفنوتيوس فلما تحقق ذلك ورأى بينهم مكسيموس اسقف اورشليم اخذهُ بيدهِ وخرج بهِ من المجمع وقال لهُ لا يليق ان يكون في جماعة الاشرار مطران كاثوليكي اعترف بالمسيح في الاضطهاد الاخير وكيف يحتمل ان رجلاً نظيرك مشهوراً بالغيرة في المناضلة عن الايمان يُعرّض نفسهُ لان يُضلّهُ ويغرّهُ الاراطقة الذين قصدوا ان يُهلكوا القديس اثناسيوس الذي هو اشجع محامٍ عن هذه القضية الاساسية من قانون الايمان . ثم اعلمهُ بتعصب الآريوسيين الذي كان يجهلهُ الى ذلك الوقت . والحاصل انهُ فصلهُ عن حزبهم وثبَّتهُ دائماً في شركة بطريرك الاسكندرية المومأ اليهِ

هذا ولا نعرف شيئاً بعدُ من ترجمة القديس بَفنوتيوس الّا انهُ رجع الى كرسيهِ معتصماً بمودَّة الاساقفة الكاثوليكيين وما برح يحامي عن الايمان ويقاوم المبتدعين حتى ادركهُ المنون في وقتٍ لم يعيّنهُ التاريخ غير انهُ لنا برهان قوي يؤيد ظنّنا انهُ عاش طويلاً ولم ينتقل الى رحمة الله الّا بعد ان صار شيخاً فانياً واما الكنيسة اليونانية فتذكرهُ في اليوم التاسع عشر من شهر نيسان

وفيهِ ايضاً ترجمة الطوباوي كرلوس سبينولا اليسوعي ورفقائهِ

ان الاب كرلوس المشار اليهِ وُلد عام اربعة وستين بعد المائة الخامسة عشرة للمسيح بمدينة جينوفا وقيل بمدينة براغا وهو من شرفاء تلك المدينة وابوهُ كان عزيز الجانب ومقرَّباً لدى الملك ريدلفوس الثاني فتربَّى كرلوس في اوائل عمرهِ عند عمهِ فيلبُّس كردينال مدينة نولا واسقفها وعكف في تلك البرهة على درس العلوم الرياضية . ولما عرف سنة اربع وثمانين من المائة السادسة عشرة للمسيح ان قد مات الاب ريدلفوس اكوافيفا من الرهبانية اليسوعية شهيداً بالهند هاجت الاشواق في قلبهِ الى الاقتداء بسيرة هذا الشهيد المعظم وموتهِ وفي الحال التمس الدخول في الرهبانية اليسوعية فقُبل فيها في اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الاول من تلك

السنة ولما قضى سنة من سني ابتدائهِ أُرسل الى انكلترة ليقضي السنة الثانية وهناك اعتصم بمودَّة الاب برنردينوس ريالينو المحترم ثم ذهب الى نابولي ودرس هناك الفلسفة مع القديس لويس غونزاغا ثم درس في ميلانو علم اللاهوت وارتسم كاهنًا وأُرسل الى كريمونا حيث استأذن رئيسهُ في الذهاب الى اليابون ابتغاء التبشير بالنصرانية فاذن لهُ الرئيس في ذلك فسرَّ بنيل هذه الاجازة سرور من عثر على كنزٍ. فقام للوقت وسافر الى جينوفا ومن هناك مضى الى ليسبونا ثم أقبل الى الهند في اليوم العاشر من شهر نيسان سنة ستٍّ وتسعين من الجيل السادس عشر. فلما بلغ الى ناحية الرجاء الصالح هبَّت عليهِ في البحر زوبعة شديدة هائلة فالجأتهُ الى ان يتوجَّه نحو البرازيل وهناك صادفتهُ سفينةٌ انكليزية فقبضت عليهِ وعلى رفيقهِ وأتت بهما اسيرَين الى انكلترة

ان امير البحر والضُبَّاط قبلوا بشفقةٍ الراهبين وسألوهما عن وطنهما وصنعتهما اما الاب سبينولا فعرف شدة كره الاراطقة للرهبانية اليسوعية ولكنهُ اغتنم فرصة الاحتمال هذه بفرحٍ واعلمهم صريحًا بانهما راهبان يسوعيان من بلاد ايطاليا فخاب ظنهُ لان امير البحر بعد معرفتهِ مَن كانا لم يعد يكلمهما الاَّ بالتفاتٍ واحترامٍ. غير ان الاب سبينولا لم يقدر ان يعرف من تلقاء نفسهِ سبب هذه السيرة الحميدة فقال تُرى ماذا يكون سببها أعاطفة رأفةٍ ام مفعول عقائد كاثوليكيٍ بالباطن ام اذن الله. الله اعلم. ومهما يكن من ذلك فالاسرى اقتيدوا الى انكلترة وبلغوا اليها في اليوم الخامس من شهر تشرين الثاني ودخلت ميناء ارغوت بعد ان هبَّت عليها زوبعتان. واما امير البحر فما برح يُبدي حسن المعاملة والالتفات لذينك الراهبين اليسوعيين مع انهم كانوا على تخوم بلاد تتسلط عليها الملكة اليصابات القاسية فاعطى لكلٍّ منهما حجرةً خصوصية فكان كلٌّ يأكل ويُتمّم واجبات عبادتهِ في محلهِ بدون ان يراهُ احدٌ ومع ذلك لم يأذن لهما ان يُبعدا كثيرًا عن المدينة مخافة انهما اذا توغَّلا في باطن البرّية يجرَّان لانفسهما أذًى وضرًّا ومنعهما ايضًا من تقديس الاسرار الاَّ في محل اقامتهما خلافًا لما كان يشتهيهِ الكاثوليكيون السعداء بحصولهما على كاهنين كاثوليكيين. وانما جرى معهم هذا المجرى صيانةً لهما بحيث لو انفضح امرهما لعُرِّضا للتعاذيب الشرعية واخيرًا ألبسهم ثيابًا على زيّ ثياب الشعب احتراسًا من خطر القبض عليهما لكونهما راهبين محكومًا عليهما من شرائع المملكة وبعث بهما الى مدينة ليسبونا وما خرجا من الميناء الاَّ ردَّتهما زوبعة الى ساحل انكلترة ولعلَّ هذين اليومين سبَّبا لهما عذابًا اكثر مما سبق من سفرهما الطويل في البحر كيف لا وقد بقيا ثماني واربعين ساعة تبلّهما الامواج المتلاطمة التي كانت مغطيةً السفينة كل ذلك الوقت وكان يعذّبهما البرد القارس وهالهما تعب البحر وذاقا منهُ عذابًا اليمًا كما خوَّفهما ايضًا توقُّع بليةٍ كان يظهر انها قريبة النزول ولكن صبرهما لم يتزعزع في جميع تلك الاخطار

فانظرهما ثانيةً على سواحل انكلترة التي أبت ضيافتهما ومن ثم اضطرَّا الى ان يطلبا فرصةً مناسبة للسفر. ووجدا اخيرًا سفينة عتيقة تكاد لا تحوي الادوات الضرورية للسفر الى مدينة ليسبونا فسافرا ثمانية ايام سفرًا سعيدًا وانتهيا اليها في اليوم الثامن من شهر كانون الثاني سنة ثماني وتسعين وخمسمائة والف للمسيح لان كثرة العوائق والتعاذيب والتأخرات ما كانت لتضعف شجاعة الاب سبينولا بل بالعكس ظهرت حرارة غيرتهِ مبتهجة بهذه الموانع اكثر مما مضى وكان مستعدًّا لان يلاقي اخطار السفر ايضًا مرارًا عديدة وان يحتمل اثقل الاتعاب ليبلغ سواحل اليابون التي طالما تشوَّق اليها منذ اعوامٍ وكانت تبين انها فانت حنينهُ الى زيارتها فلهُ ان يقول حقًّا كالرسول بولس: باسفارٍ مرارًا كثيرة. باخطار سيولٍ. باخطار لصوصٍ. باخطار من جنسي. باخطار من الامم. باخطار في المدينة. باخطار في البرّية. باخطار في البحر. باخطار من اخوةٍ كَذَبة. في تعبٍ وكدٍّ. في اسهارٍ مرارًا. في جوع وعطش. في اصوام مرارًا كثيرة. في بردٍ وعُري (٢ كورنتس ١١: ٢٦ و٢٧)

فلما دخل الاب سبينولا ورفيقهُ دير ليسبونا الكبير كاد الرهبان لا يعرفونهما لان شعرهما الطويل واطلاق لحيتيهما وثيابهما الرثَّة وزيّهما الغريب كانت تدلُّ على انهما يشبهان الملاَّحين اكثر مما يشبهان الرهبان ولكن اذ تعرَّفوهما استقبلوهما بفرح عظيم يعادل انتظارهم اياهم زمانًا طويلاً بدون ان يسمعوا أخبارهما. واما المرسَل القديس فلما رأى نفسهُ ما بين اخوتهِ في زيّهِ الحقير احسَّ بسعادة الفقر المقدس وكانت اثوابهُ الرثَّة دلائل مجيدة على الفقر الاختياري وبراهين جليَّة قاطعة على سيرتهِ الرسولية وكان يقول ما

لبست قطُّ احسن واجمل منها

وبقي هناك سنة كاملة منتظرًا امكان السفر الى الهند . ففي هذه الفترة نذر النذور الرهبانية الاحتفالية الاربعة . ثم ركب السفينة مسافرًا الى اليابون فوصل الى ننكازاكي في السنة الثانية بعد الست مائة والالف وانصبَّ اولاً على تعلم لغة تلك البلاد . ثم شرع في مباشرة اعمال الرسالة فكان ينذر شعوب اقليم اريا المتشتتين في نحو مائة قرية وقد عمَّد بيديهِ اكثر من خمسة آلاف من الوثنيين

وكان ابتداء اعمالهِ الرسولية على هذا الاسلوب . انهُ لما كان ذات يوم مارًّا باحدى طرق المدينة رأى جماعة من الشعب محدقين بولدٍ لأبوين وثنيين قد اشرف على التلف اما هو فاغتنم فرصة تشتتهم واقترب من ذلك الولد كأنهُ يختبر دواء ورشَّ للحال قليل ماء على رأسهِ وتلا صورة العماد ولاح للخاطر ان تلك النفس المسكينة لم تكن منتظرة الاَّ نعمة الرحمة الالهية هذه وبعد قليل صعدت مطهَّرة نقية الى الجنة . هذا ولا جرم ان تأمُّل الاب كرلوس هذه المنّة الفائقة الطبيعة الممنوحة لهذه النفس التي لولاها لهلكت شرح صدرهُ وسرَّ قلبهُ اطيب السرور . ثم اكَّد ان الله سبحانهُ ولو لم يجازهِ الاَّ بذلك عن هذه الاتعاب التي كابدها ولا عن المشاق التي سيكابدها ايضًا كان يوقن مع ذلك انهُ نال من الجزاء فوق ما يستحق لان الله استخدمهُ آلةً في تخليص هذه النفس

ثم سار من هناك الى مدرسة مياكو ليساعد الرئيس في ولايته وبقي فيها ست سنوات فرتَّب جمعية معلمي التعليم المسيحي وردَّ من سكَّان تلك الامصار الى الايمان المسيحي نحو خمسة آلاف من عبدة الاوثان

وكان يجعل الناس يتعجبون من فضائلهِ ويحبونهُ لاجل محبتهِ وبشاشة وجههِ ودماثة اخلاقهِ . وأثبت ايضًا ما كان لهُ من الاشتهار في كونهِ راهبًا جليلاً ورعًا واهلاً لان يُقدَّم قدوةً للناس طرًّا فما كان قاسيًا الاَّ على نفسهِ فكل يوم كان يجلد جسدهُ بسوطٍ خشنٍ واما في الصوم فلم يزل يضرب جثمانهُ بالمجالد حتى يسيل دمهُ . هذا ولا نتكلم عن المسح الذي كانما اعتاد لبسهُ على الدوام ولا عن قوتهِ القليل الى الغاية الذي يمكن ان يُسمى زهدًا دائمًا ولا عن اصوامهِ القاسية المتكرِّرة اذ لا شيء يحيّر ويذهل من جهتهِ وانما نقتصر على ذكر قضية لتتصوَّر امانتهُ فنقول . ان اثمار بلاد اليابون مشهورةٌ بجودتها وطيب طعمها ولذلك يطالبها اهل اوربا كثيرًا وهذا الاب اقام هناك اعوامًا ولم يمسّ واحدةً من تلك الثمار الممدوحة جدًّا وقصد ان يبقى في التقشف على هذا الحال لو لم يأمرهُ رئيسهُ ان يخفّف هذه الشدة المفرطة

وقد اجتهد ان يعيش مع الله ولاجلهِ في مدرسة مياكو كما كان يعيش في بلاد اوربا حيث كان مرسلاً ولذلك في كل سنة كان يقضي شهرًا متجرّدًا للتأمل العميق مشتغلاً بممارسة الرياضات الروحية وفي الاتحاد مع السيد لهُ المجد وفي مدة اسابيع الرياضة هذه كانت تفيض عليهِ حلاوة التأمل ولذّتهُ حتى لا يستطيع سبيلاً الى ان يكفكف دموعهُ بل كانت تنهلُّ بغزارةٍ ولا سيما وقت القداس وبواسطة اتحادهِ مع الله استفاد قوّة النفس هذه الفائقة القوة البشرية حقًّا والجاعلة يحتقر الحياة وهذا الاستعداد المتين لان يغتنم كل فُرص التألم والمحن

وفي السنة الحادية عشرة من الجيل السابع عشر رُقي في الرهبانية الى مقام مدبر الاقليم ومساعد الرئيس الاقليمي والى وظيفة نائب الاسقف فقام بحقوق هذه الوظيفة على قدم الغيرة ولم يخشَ ما فيها من اخطار الاضطهاد من قِبل الكفرة . فلما كان الاضطهاد ثائرًا على المسيحيين في ايام الملك كوغونساما التزم ان يتخبأ ويتنكر اسعافًا للمسيحيين . وقد قرأنا في رسالة مبعوثة الى الاب بوميليس لامبرتيني مؤرَّخة في اليوم الثاني من اذار في السنة السابعة عشرة من القرن السابع عشر للمسيح بعض اخبار عن اعمال القديس مع انهُ تكلم فيها باحتراس عظيم ناشيء عن احتشامهِ

قال فها لي عامان ونصف اجتهد في تحريض المسيحيين وتشديدهم اني اذهب من بيتٍ الى بيتٍ سرًّا واسمع ليلاً الاعترافات وأُقدّس حيث أُوجد اذ لم يبقَ لنا منازل ثابتة ولا معابد وانتحي عن الناس اكثر الوقت في مدة النهار وانفرد بنفسي لا فرح ولا تعزية لي الاَّ بما يجود الله بهِ من الافراح والتعزيات على الذين يشتغلون ويذوقون العذاب حبًّا بهِ فان اكبر عنائي وتعبي انما هو رؤيتي تَلَف ازهار الكرم واغصانهِ التي قلبتها العاصفة وتَلَف العناقيد الناضجة وخيبة الامل الموعودة بهِ تلك الاعمال . هذا ولم أزل على شيء من قوّة الجسم في بقية هذه الاحوال المحزنة ولم ينحل جسمي نحولاً كثيرًا وإن اعوزني اشياء كثيرة ومسَّت الحاجة ان آكل

مرةً واحدة كل نهار حتى اني اتذكّر حقًّا هذا الكلام وهو ليس بالخبز وحدهُ يحيا الانسان بل بكل كلمةٍ تخرج من فم الله

ولا يخفى ان اعتناءهُ بتدبير امور الولاية الذي ما برح موكّلاً بهِ كان يزيد عليهِ الخطر ومن حيث انهُ كان ملاذًا للجميع وكانت تمسّ الحاجة الى انهُ يتعرّض للخطر اكثر منهم اذ انهُ اقلّ تحجّبًا من البقية. ذلك فضلاً عن ان رغبتهُ في التقيُّد بالسلاسل وسفك الدم حبًّا بالمسيح جعلتهُ شجاعًا الى الغاية بحيث ان الناس كلهم اخذهم العجب العجاب من البسالة والطمأنينة اللتين كان يقتحم بهما الموت مرارًا على انهُ لم يكن سبيلٌ الى ان يُعرف كيف استطاع ان يحفظ في هذه الاحوال الهائلة صفو البال وتمام الاطمئنان الباطني وحينئذٍ كثيرون نسبوا هذه السكينة الى جسارة لجهلهم كم يجلب الاتكال على الله من القوة والطمأنينة الى النفس ومع ذلك فلنبادر ونقُل انهُ اذ لم يكن متغفلاً اخذ الاحتياطات التي اقتضتها الحال وكان كلما خرج يستعلم بالاستقصاء عن الطريق هل هو امين وهل هو خالٍ من الخطر

وعرف بواسطةٍ فائقة الطبيعة انهُ سيقع ذات يومٍ في ايدي المضطهدين غير انهُ لم يعرف الساعة المعيَّنة لذلك عند الله وانما اقتصر على هذا القول مستعدٌّ قلبي يارب مستعدٌّ قلبي (مزمور ١٠٧) وقد تبيَّن لرفقائهِ هذا الانتظار السعيد المقرون بالهدء للنصيب الذي كان معدًّا لهُ ولذلك قبل ان يُقبض عليهِ باربعين يومًا رأى فيهِ جلساؤهُ علامات نشاطٍ غريب. لانهُ كان يقضي وقتًا طويلاً في تقديم الذبيحة الالهية ويصرف اكثر الزمان في الصلاة ويظهر اعظم بهجة وبشاشة في المعاطاة الباطنية ودعا معلم التعليم المسيحي الذي عندهُ وامرهُ ان يُخبّئ بعض امتعة ويخرج علبةً مملوءةً صُوَرًا أوصاهُ ان يوزّعها على آباء الرهبانية وسلَّمهُ ايضًا حساب الدخل والخرج الخنص بالمرسلين وبعض مفكّرات اخر تتعلق بوكالة المصروف وكان ذلك قبل القبض عليهِ بيومين

ففي السنة الثامنة عشرة من القرن السابع عشر قُبض على الاب كرلوس وثمانية من ارفاقهِ اليسوعيين وعلى غيرهم ايضًا من المسيحيين نحو اربعين شخصًا والقوا في السجن في بزوزوته. ولما كان اليوم السابع من شهر نيسان إقتيد المعترفون بالايمان الى سجنٍ جديد افتخرت الفريحة البربريّة باختراعهِ وهو مبنيٌّ باوتادٍ بين الواحد والآخر قدر اصبعين وعرضهُ متران وسبع سنتيمترات وطولهُ خمسة امتار وعشرون سنتيمترًا وكان السقف من جوائز (وهي المعروفة عند العامة بالمدود والروميّات) عليها اخشاب ضخمة كبيرة وكان بابهُ حرجًا ضيّقًا يكاد لا يمرّ بهِ جسم امرء وفي احدى جهاتهِ نافذة كان يؤمر بادخال القوت منها وكان حول ذلك السجن فسحة عرضها زهاء مترين ويحيط بها صفّان من اوتادٍ طويلة متدانية منتهية بمسامير ومفروشة بالاشواك واخيرًا دائرة ثالثة محصّنة بالاوتاد وفيها الباب الاصلي والممرّ الذي يؤدي الى السجن الداخل وهكذا كان ذلك السجن كقفصٍ معرّض لكل الرياح لا يقي من حرّ الشمس ولا من برد الشتاء ولا يُقدر فيهِ على الامتداد لاجل الراحة. موضع العذاب الذي اوشك فيهِ المعترفون بالمسيح ان ينضنوا ويذوبوا شيئًا فشيئًا مستسلمين لشدة الجوع والعري والنتانة. على ان محبة الله التي ملأت قلوبهم ظفرت بتلك التعاذيب فما هم يتقدمون واذ يرون هذا المحلّ المدلهم يترنمون بقول داود النبي فرحت بالقائلين لي الى بيت الرب نذهب (مزمور ١٢١) أما ان العناية الالهية هي التي ترتّب حوادث هذه الدنيا أو ما الله هو الذي يهب القوة عند اشتداد المحن. وكانوا يعتبرون كل الاعتبار مقاصد الله جلّ شأنهُ وكانت لهم ثقة بالمساعدة العلويّة وذلك يسبب لهم هذا الفرح الفائق الطبيعة البشرية

ان الاب كرلوس المومأ اليهِ اذ خاطب الجنود المنذهلين من سرورهِ هذا اهتمّ ان يُفهمهم السرّ في الصبر المسيحي قال اذا فرحت بكوني ضمن سجن ضيق حبًّا بالهي فانما ذلك لاني ارجو ان احصل في السماء على مقامٍ يوازي سموّهُ دناءة الموضع الذي كنت فيهِ على الارض واما انتم الذين تتقلّبون تمتّعًا بكل نوعٍ من الحريّة فمكروهون لدى الرب بسبب خيانتكم ولا بدّ ان تهبطوا ذات يومٍ الى النار وتكونوا فريسة العذاب السرمد

وحينئذٍ جثا برهةً ودخل السجن مكرّرًا بلذّةٍ هذا الكلام ونصهُ هذا مقرّ راحتي الى دهر الداهرين واسكن هناك لاني ارتضيت وما خرج من السجن الاّ مرّتين المرة الاولى ليذهب الى بلد فيراندو والثانية الى الموت

واما ما احتملهُ في الاسر مدة اربع سنين فاعظم من ان

بتصوُّرهُ العقل وقد بيَّن لنا في رسائلهِ انهُ كان لكل حاسَّة من الحواسّ الظاهرة عذابٌ مختصٌّ بها قال كنا في غاية الازدحام لان كلاًّ منا لم يكن لهُ الاَّ مقدار شبرين وثلث من ذلك الموضع وكان يصل عددنا الى ثمانية وعشرين واغلب الاحيان الى ثلثة وثلثين اسيرًا ومن ثمَّ لم يقدروا ان يناموا على اللوح ليلاً. هذا واحدى نتائج هذه الفسحة الضيِّقة عدم استطاعتهم ان يفعلوا شيئًا سرًّا حتى ان جميع اعمالهم العمومية كان لها شهود بالضرورة فيالهُ من عذاب لحشمة ولطافة شعائرهم وكانوا يُعطون غذاء قليلاً جدًّا بحيث ان عيشتهم كانت ضيِّقة بل صومًا دائمًا. ان ذلك الغذاء كان كافيًا لان يبعد الموت لكنهُ هيهات ان يسكِّن الجوع. كتب الاب سبينولا ما نصهُ ان اطعمتنا الاعتيادية هي كاسا ارزٍّ باردٍ مطبوخ بالماء وصحنةٌ ملوَّثة اكزيرًا (وهو ضرب من الشراب يُعمل بعصير اعشاب مختلفة) مرًّا حتى يكادوا لا يستطيعون ان يشربوهُ وأضف الى ذلك بعض جذور نيئة ومالحة او زوجًا من صغار السمك. وقال ايضًا في رسالة أُخرى عذَّبنا الجوع عذابًا شديدًا حتى انهُ منذ قليل قدم لنا الشُرَط كسر خبز رديء فطير يابس فكان كل منا ياكل منها كأنها شيء لذيذ

يسأل سائل ترى ماذا كان يعمل المسيحيون اذًا. هل محبة أسرى المسيح لا تُلقنهم الافتكار بان يخففوها في فقرهم المجيد اجبتُ لا ريب ان النصارى كانوا يتبعون التقليدات المقدسة في كل اجيال الكنيسة ولاسيما ايام الاضطهاد ويقدمون للمعترفين بالايمان كل ما ربما يحتاجون اليهِ لكنما هذه الاشياء قلَّما كانت تصل اليهم واما الجنود فاذ رقُّوا وتوجَّعوا لسوءِ حالهم وشدة ذلهم ومالوا اليهم بملاطفتهم وأضحوا ليِّني الجانب شيئًا فشيئًا كانوا روساؤهم يعزلونهم حالما يرونهم مائلين الى الاسرى

ان هذه الضيقات الطويلة أضعفت الاب سبينولا جدًّا حتى انهُ ظنَّ مرارًا انهُ سيموت موتًا فجائيًّا ناشيئًا عن انحلال القوى وكان الله حقًّا يكافيهم مكافاةً وافية عن هذا الفقر بلذات حضورهِ في عمق قلوبهم. لاريب ان اكبر تسليةٍ لهم كانت استطاعتهم على تقدمة القداس وبفضل خاص من الجود الالهي لم يعوزهم قط البرشان ولا الخمر ولا الشموع ولا بقية الاشياء اللازمة الى العمل الطقسي العظيم. فالاب سبينولا كان يقدس دائمًا الاَّ اذا منعهُ المرض ولكن بدون معرفة الحراس وكتب انهُ بسبب هذه النائلة التي لا تثمن كان يظهر لهُ حبس سوزوته مثل فردوس. مع ذلك لم نذكر بعد كل الاعذبة التي احتملها الشهداء المسجونون فان سجنهم كان على تل معرَّض لكل الرياح مبني بأوتادٍ منفرجة عن بعضها وكانت حرارة الشمس تقع عليهِ من كل الجهات في ايام الصيف وكانت تستولي ايضًا على ذلك السجن حرارة شديدة حتى ان الجميع كانوا ليلاً ونهارًا مبللين بالعرق فضلاً عن شدة ازدحامهم

والحبس اضحى في الشتاء غير مطاق اكثر من ذي قبل بحيث ان المسجونين لم يقدروا ان يقوا انفسهم من الهواء البارد والمطر والثلج حتى ان الريح كانت تهبُّ في كل موضع في خلال التفاريج والشقوق وايضًا لانهم كانوا في افتقار الى الملابس الضرورية. قال الاب سبينولا في احدى رسائلهِ ليس احد منا (اقول كلامًا بشريًّا) لا يُفضّل احراق جسدهِ على مثل هذا الاسر فكانما نحن بلا ثياب لتغطية اجسادنا والحراس لم يأذنوا ان يرجع الينا الذين ارسلناهم الى ننكازاكي للاصلاح فالتحف التي أُخذت لم تردَّ. ذلك ومع ان اقامتنا على قمة تل بردهُ شديد التأثير لم يعطونا شيئًا حتى ولا حصيرة لكي نتقي برد الهواء والمطر او الثلج

ياليت شعري ماذا عسى ان نقول عن الابخرة المنتنة المتصاعدة من هذه الاجسام المنحصرة في فسحة ضيقة ما كانوا يستطيعون على الخروج منها ابدًا وعلى رائحة مجتمع الاوساخ والاقذار فلا ريب ان المسجونين كانوا لا يقدرون ان ينشفوا العرق الذي سال من عامة اعضائهم بحيث لم يوذن لهم ان يغيروا الثوب البالي ولا ان يغسلوهُ متى اتسخ. وقد صرح الاب سبينولا انهُ لبس ثوبًا واحدًا ثلاثة اعوام وقدَّس بحلَّة واحدة كل تلك المدة فيا لشدة هذا الجور. من يا ترى يتصور كمية الهوام الهائلة المتولدة من هذه الاقذار والتي كانت اما بلذعها واما بقرصها تمنع الاسرى المساكين ان يغتنموا دقيقة راحة. كيف لا وكان القمل يغطيهم من قمة الراس الى اخمص القدم ويتزايد من كل جهة متولدًا من هذه النتانة. هذا وكان كلما هطل المطر طفح الماء من الحفرة العمومية وانصب عليهم فتصوروا اخيرًا اولئك الشهداء بصور ضعيفة مصفرة وشعور مشتبكة غير منظمة ولحية طويلة ومنتفشة وانتم تتصوَّرون التعاذيب الفاحشة التي كابدوها. والحال انهم لم

يستعملوا لجميع هذه الاعذبة الطبيعية دواء الاّ الصبر والرجاء الثابت بالله اما الاب سبينولا فبرقّة نفس متسلّطة على كل تعاسات الارض كان يقول بلطافةٍ لي رجاء وطيد اني انال من الرب نعمة ان انذر النذور الاخيرة بعد هذا الابتداء الطويل العنيف الذي استمرّ اربعة اعوام

لاجرم ان هذا الكلام يبين لنا جليًّا ما كانت تتقلب فيهِ نفسهُ من نعيم السلام الغير المتغير ولم يزل راهبًا صالحًا كما كان فضلاً عن ان الرسائل التي بعث بها الى كثيرين من اباء الرهبانية مملوءة غيرة سماوية وتبين سروره الباطن وغزارة التسليات الروحية التي كان يفيضها الله تعالى عليهِ. فلاشعارهِ بهذا الحظ الفائق الطبيعة البشرية امضى اسمهُ مذ قُبض عليهِ كرلوس الاسير او كراوس الاسير لاجل يسوع المسيح

وفي غضون ذلك بعث كونغوساما بخمسة شبّان الى سجن سوزوته فحزنهم اول الامر تأخُّر استشهادهم الاّ ان الاجتماع بكثير من القديسين المعترفين بالايمان المجتمعين سلاّهم ولطّف احزانهم فاول شيء عملوهُ بعد دخولهم ذلك السجن انما هو كتابتهم الى الاب ماتيو دي كوروس الرئيس الاقليمي في ان يقبلهم في الرهبانية فاجابهم ذلك الرئيس الى ما طلبوا لان فضائلهم كانت مشهورة منذ عهدٍ طويل ومختبرةً اختبارًا مدققًا فضلاً عن ان اعترافهم بالايمان المقرون بالشجاعة نفى كل علّةٍ لاقلّ ارتيابٍ في امرهم

ان الرئيس الاقليمي قبلهم في الرهبانية وجعل لهم السجن لاجل الابتداء وعيّن الاب سبينولا معلمًا للمبتدئين والبسهم مذ ذاك ثوب الرهبانية اليسوعية امهم من وجهين الاوّل لانها ولدتهم في الايمان والثاني لانها قبلتهم كابنائها. هذا ويحكم بايمانهم الحارّ وميلهم الى احتمال العذاب بعبادةٍ من رسالة موجّهة الى احد آباء الرهبانية ونصها: بما ان الضمير كثيرًا ما يوبّخنا على الزلاّت نخشى ان لانكون اهلاً للاستشهاد وعلى الاقلّ نرجو ان يأذن الله ان نختم حياتنا في هذا السجن فنرجو من الله تعالى الغبطة بحمل الاغلال والقيود لاجل اسم المسيح وذلك يجب علينا للرهبانية اليسوعية فصلواتها واستحقاقاتها مع شفاعة القديسين اغناطيوس وفرنسيس كسافاريوس نالت لنا هذه النعمة. فلنقدّم شكرًا لا يُحصى الى هولاء القديسين والى الرهبانية ولاجرم اننا لا نستطيع ان نبين بالكلام كم نحن منشغفون بالاب كرلوس ابينا المحبوب جدًّا. فمتى شاء الله الكلي الجود والعظمة ان يتركنا الف سنة في هذا السجن نعدُّ انفسنا سعداء ونخضع في كل امرٍ لارادتهِ المقدسة فانعطف اذًا ونل لنا هذه النعمة بصلواتك

قد بدأوا يمارسون بتقوى رياضات الابتداء في ذلك السجن ولاجرم ان امثلة الفضيلة الكاملة التي انذهلوا منها في شخص الاب سبينولا اعانتهم اكثر من الكلام على تطهير انفسهم وتقديسها فكانت عيونهم موجّهةً اليهِ كانهُ قدوة البرّ التي اتبعوها. ان احدهم بطرس سمبو كتب عن الاب سبينولا قال ما عرفت احدًا احمل صبرًا واشدّ تقشفًا واكثر ثباتًا نظيرهُ فلا غرو فانهُ منذ نحو اربع سنين يذوق العذاب وقد عجبت حقًّا من رؤيتي اياهُ يحتمل التجارب الشديدة بفرحٍ وطلاقة وجهٍ ياليت شعري كيف قدر ان يوافق طباع اناس كثيرين يتباينون جدًّا في الزيّ والبلاد والعقول

انهم بنموذجاتٍ كثيرة وبالانصباب التقوي على الكمال كانوا يستعدُّون للجهاد العظيم وكانوا يجدّدون نذورهم اكثر مما جرت العادة بهِ في الرهبانية مع انهم لم يتمّموا ابتداءهم فكانوا دائمًا يتنعمون بفيضان اللذات السماوية ويعطون الذين يرونهم قدوة صالحة وفائدة كبيرة لنفوسهم

وفي السنة الثانية والعشرين من القرن السابع عشر ارسل الملك الى فيكوبون والي امورة يأمرهُ بارسال المحابيس ليحرقوا بالنار في ننكازاكي. ففي الحال بعث الوالي بجنودٍ الى السجن فأوثقوا الشهداء بالقيود واخرجوهم ليأتوا بهم الى ننكازاكي. فكان عبيد الله يترنمون بترانيم الفرح والتهليل ويشكرون الله سبحانهُ على هذه النعمة. اذ كان لهم في السجن نحو اربع سنين منتظرين يوم الاستشهاد برغبة وشوق لا يُقدَّر فانزلوهم في سفينة واتوا بهم الى ناغايا. اما الشهداء فلم يتوانوا في الانذار والوعظ في كل تلك المسافة وكان هناك جمهور وافر من المسيحيين نظروا اليهم ليعانقوهم ويبدوا لهم علائم الاكرام. ومن ثم لم يَرُم الشُرَط الوقوف في تلك البلدة فاتوا بهم سريعًا الى ننكازاكي ونوّموهم في المكان المعدّ لحريقهم. فهنالك تزاحمت عليهم الجموع وكان المكان مشرفًا عليهم حتى كان الجميع ينظرونهم. فعند ذلك رفع الشهداء اصواتهم بالانذار لذلك الجمع الغفير وهم فرحون مبتهجون لما ازمعوا ان ينالوهُ

فكان الظالمون قد وضعوا للوَقود صفًّا خمسين كومة

حطب وجعلوا في كل منها منفذًا لمن يُريد ان يخرج منها كافرًا بالمسيح فلما همُّوا ان يُلقوا عليهم الابدي ليطرحوهم في النار هتف الاب كرلوس سبينولا بترنيم التسبيح قائلاً سبحوا الرب ياجميع الشعوب وامدحوهُ ياكل الامم فهتف معهُ باقي الشهداء بنغمةٍ شجية وعيونهم مرفوعة الى السماء وايديهم مبسوطة فخشع الناظرون ايَّ تخشُّع فسالت الدموع من عيونهم. قيل ان نغمة التسبيحة التي ترنَّموا بها لم يُسمع من بشرٍ مثلها في عذوبتها ولذَّتها حتى خُيِّل ان ملئكة السماء ساعدوهم على الترنُّم بها وقيل ان كثيرين من الحاضرين رأوا الملئكة ينغمون تلك التسبحة معهم

فلما فرغ الاب من تسبيحهِ التفت نحو وزير الملك الذي كان قائمًا ليرى عذابهم ونحو الجمهور الحاضر معهُ واخذ يبرهن لهُ بلغتهِ عن فساد معتقدهِ ويعظهُ ليتركهُ ويتنصر واعلمهُ انهُ هو ورفاقهُ انما وافوا بلادهم ليتنصَّر اهل اليابون على يدهم وانهُ بعد موتهم سوف يأتي غيرهم كثيرون ولا يمنعهم من ذلك خوف العذاب والموت. وقد بيَّن ما كان عليهِ هو ورفقتهُ من البهجة والحبور عند اشتداد العذاب وانهم لم يأتوا تلك البلاد ويطوّحوا بنفوسهم في الاخطار لغاية زمنية وانما السعادة الابدية هي التي دعتهم الى مباشرة الاسفار واقتحام الاخطار فلو كانت الدنيا وزخارفها سبب مساعيهم لاستحوذ عليهم اشد الغموم ولكانوا يهربون من العذاب لينجوا من التهلكة اذ كانت اعظم خيرٍ يُشتهى في الدنيا وبهذا الكلام كان يخاطب الوزير وأُمة اليابون ويجادلهم في امر الديانة المسيحية

وكان بين الشهداء ثلثون رجلاً قُضي عليهم بقطع الرأس فامر الوزير الجنود ان يضربوا اعناقهم قبل ان يرموا الاب كرلوس ورفقتهُ في النار لعلمهم اذا رأوا الثلثين قتلى امامهم يخشون الموت ويكفرون بالمسيح اعاذنا الله فقطعوا رؤوس الثلثين واحدًا واحدًا وكان الاب يشجعهم ليثبتوا على الايمان والرجاء الثابت في نوال ملكوت الله القريب منهم

وكان بين المحكوم عليهم بقطع الراس امرأة اسمها اليصابات لها ولد عمَّدهُ الاب كرلوس بيدهِ وكان عمرهُ وقتئذٍ اربع سنوات فرأى الاب المرأة ولم يرَ ابنها بحيث كان محجوبًا عن عينيهِ وراء الحطب وكان قد خرج الحكم عليها وعليهِ لانها آوت المرسلين المسيحيين فقال لها الاب كرلوس يا اليصابات انني اراكِ ولا ارى ابنكِ فاين هو. فعند ذلك تناولت الولد ورفعتهُ من وراء الحطب قائلةً هذا ابني فباركهُ يا أبتِ وقالت لولدها هذا ابوك الروحي فاطلب بركتهُ. فحينئذٍ طاب الاب نفسًا ورفع يديهِ وبارك الصبي وامهُ بقدر ما امكنهُ لان يديهِ كانتا موثقتين بالقيود فصاح الجموع بالبكاء عندما رأوا اليصابات وابنها الطفل مزيَّنًا بالملابس كانهُ في يوم عيدٍ. فلما انهى الظالمون من قتل مَن حُكم عليهم بازهاق الروح ورأوا الآخرين ثابتين غير متزعزعين ولا خائفين أشعلوا النار وحرقوهم بسرعةٍ فهتف الاب ورفاقهُ حينئذٍ باصوات التسبيح قائلين سبحوا الرب ياجميع الشعوب ثم قالوا يايسوع اقبل ذبيحتنا هذه التي نقدمها اكرامًا لك واستلم نفوسنا ثم رفع المسيحيون اصواتهم وتوسلوا الى الله سبحانهُ ليعطيهم أتمَّ الظفر فايَّد الله تعالى بنعمتهِ عبيدهُ ودرَّعهم بدرع قوَّتهِ فاحتملوا العذاب حتى الموت بفرحٍ ولم يرهبوا عذابًا ولم يخشوا موتًا بل انما حسبوا كل شيءٍ كالزبل ليربحوا المسيح فربحوهُ

فلما كُتبت اسماء الستة والعشرين شهيدًا اليابونيين الأوَّلين في سفر اولياء الله القديسين سنة ١٨٦٢ تنبهت الافكار الى بقية الشهداء الذين استشهدوا في اليابون منذ سنة سبع عشرة وستمائة والف الى سنة اثنتين وثلثين وستمائة والف وهم من رهبانيات ومراتب مختلفة بعضهم كهنة وبعضهم من عوامّ الناس ومنهم رجال ومنهم نساء وصبيان وعددهم ثلثمائة وخمسة شهداء فترجَّى رؤساء رهبانياتهم وعدة كرادلة واساقفة من ايطاليا وفرنسا وانكلترة وكثير من النوَّاب الرسوليين في مدينة مايصور وسيام ولاسًّا واسوتشوان وترجى ايضًا بعض من عائلة سبينولا الشريفة وطلبوا من سيدنا البابا بيوس التاسع المالك سعيدًا ان يعقد مجمعًا اتمامًا لاثبات كونهم طوباويين فاجابهم الاب الاقدس الى ما طلبوا وعيَّن خمسة كرادلة مع متقدمي المجمع المقدس ليبحثوا بنظرٍ دقيق في كل ما يتعلق بهذه المسألة بموجب الرسوم القانونية ففي هذا المجمع حُكم بانهُ تأكدت حقيقة استشهاد الشهداء المذكورين وانهُ تحققت ايضًا صحة العجائب الاربعة المدرجة تحت الاعداد ٤ و١٣ و١٣ و١٤ في قائمة العجائب المتقدمة للمجمع. فبناء على رأي المجمع حكم الاب الاقدس في اليوم السادس والعشرين من شهر شباط سنة سبعٍ وستين وثمانمائة وألف بصحة استشهاد الشهداء المشار اليهم وأثبت اربعًا من المعجزات التي فعلوها هذا وغب وقوفهِ على راي السادات المستشارين

وباقي كرادلة مجمع الطقوس المقدس في امكان ادراج اسمائهم في سفر الطوباويين اثبت رأيهم بحكم مشتهر ابرزهُ في المكتبة الملكية لدير رهبان القديس اغستينوس في غاية نيسان سنة سبع وستين وثمانمائة والف. ثم في اليوم السابع من شهر ايار في السنة المذكورة أصدر براءة في تطويبهم بمدرج الطوباويين وفي تكريم ذخائرهم تكريمًا مشتهرًا وأجاز التعييد لهم ايامًا في السنة بتلاوة الفرض الكنائسي وبتقديم الذبيحة الالهية حسب رتبة القداس والفرض الروماني

اما احتفال تثبيت اولئك الطوباويين فقد تمَّ في اليوم السابع من شهر تموز في كنيسة القديس بطرس على جاري العادة بحضرة اكثر الكرادلة والبطاركة والاساقفة المجتمعين هناك لتذكار استشهاد القديس بطرس هامة الرسل كما انتشر ذلك في المعمورة كلها

اليوم الثاني عشر

وفيهِ ترجمة القديس غيدون

ان هذا القديس الملقب بالفقير وُلد بقرية من بلاد فلاندرا نحو منتصف الجيل العاشر وانما لُقب بذلك لشدة فقر والديهِ اللذين غرسا في قلبهِ بغض الخطيئة ولما عرف ان سيدنا يسوع المسيح اختار المسكنة وفضلها على الكرامة وانهُ انتخب رُسلهُ من فقراء الناس واذلائهم جعل يستعظم الحال التي وُلد فيها وأُولع بحب الفقر والفقراء ومن ثم كان يوزّع على البائسين القليل الذي يملكهُ. ثم انهُ منذ الصغر كان يحبُّ الصلاة ولا يفارق ابوَيهِ الاَّ من اجلها ولوداعتهِ ولين عريكتهِ واحتشامهِ ورصانتهِ لقّب منذ صبائهِ بملَك القرية

فدخل يومًا كنيسة على اسم مريم العذراء المجيدة في قرية بجوار مدينة بروكسيل وفيما كان يصلّي هناك كان يراقبهُ الخوري سرًّا فتعجب من احتشامهِ وحسن عبادتهِ فاستدعاهُ وخاطبهُ فزادهُ ذلك عجبًا. ثم قال لهُ ألا تكون معنا في هذه القرية وتخدم الكنيسة ونحن نقدّم لك ما تحتاج اليهِ من المعيشة فقبل غيدون هذه الوظيفة بسرور وكان حينئذٍ ابن نحو اثنتي عشرة سنة فاقاموهُ قندلفتًا على الكنيسة وكانت وظيفتهُ تلزمهُ بان يكنسها ويزيّن المذابح ويهتمُّ بالسكرستيا ويدقُّ الجرس ويحمل الصليب والماء المكرّس مرافقًا الكاهن في عيادة المرضى ويخدم القداديس وكان يباشر كل هذه الامور بنشاط وروح تقويّ ويقضي ما يبقى من الزمن بعد القيام بما تطلبهُ وظيفتهُ في الصلاة بل انهُ كان يقضي الليل ايضًا مصليًا لا ينام الاَّ قليلاً وعلى بلاط الكنيسة وبهذا غدا عند الله والناس عزيزًا محبوبًا. ومع ان دخل وظيفتهِ كان قليلاً كان يصطنع باكثرهِ الى المساكين لانهُ بكثرة اصوامهِ كان يبقي منهُ ذلك وكان يمارس تقشفات أُخر ليشترك في آلام سيدنا يسوع المسيح فضلاً عن اصوامهِ واسهارهِ

فلما تأمل تاجر من مدينة بروكسيل فضائل هذا الشاب القديس ولا سيما حبهُ المساكين ورغبتهُ في مساعدتهم اخذهُ سرًّا وقال لهُ اني اشكر الله واشكرك على جزيل اهتمامك بحاجات الفقراء واروم ان اشترك معك في هذا الفعل الحسن فاعلم يابنيَّ انك بسبب فقرك لا تستطيع ان تسعف البائسين الاَّ قليلاً بتقدمتك لهم قليلاً من الخبز فقط ولكن لو كنت من اهل الغنى لاستطعت حينئذٍ ان تتصدّق عليهم بحسنات وافرة واري ان وظيفتك هذه القليلة الدَخل لا توافق حبك المساكين مع شوقك الى مؤاساتهم ومساعدتهم فان قبلت مشورتي اغتنيت عما قليل وصرت صاحب ثروة وحينئذٍ تحسن بها الى المساكين اخوة السيد المسيح الاحباء. اما مشورتي فهي ان تسكن في بيتي وتكون شريكًا في تجارتي. فانخدع غيدون وتبع التاجر واخذ يتجّر معهُ. غير ان الله تعالى لم يبارك على تجارتهِ بل انهُ كان يخسر في كل معاملتهِ فانتبه على ضلالهِ ولاسيما في الحادثة الآتي ذكرها وهي انهُ اوسق قاربًا بضائع ليربح بها ولما سار على الماء انغرس القارب في الرمل وفيما كان يفرغ كل جهدهِ ليخلص القارب بعصاهُ الطويلة انكسرت تلك العصا ودخل جزءٌ منها في ساعدهِ ولم يمكنهُ اخراجهُ. فاستفاق حينئذٍ على حيلة الشيطان الذي أغواهُ وعاد الى وظيفتهِ الاولى وشرع يفي عن خطائهِ بدموعهِ وصلواتهِ واصوامهِ وغير ذلك من افعال التوبة وفيما كان يصلّي ذات يوم امام ايقونة العذراء ويطلب شفاء يدهِ لكي يستطيع ان يباشر خدمة الكنيسة خرج من يدهِ جزء العصا المكسورة واندمل جرحهُ وبرئ

فازداد وقتئذٍ نشاطهُ في العبادة غير ان دموعهُ لم تزل سائلة ندامةً على تلك الزلّة ولفرط ما استعظمها ظنَّ انهُ لا يملك ان يفي ما للعدل الالهي من اجلها من دون ان يزور الاماكن المقدسة في رومية واورشليم وقد اكمل هاتين

الزيارتين صائمًا كل يوم وممارسًا تقشفات أُخر. ثم رجع الى رومية بعد سبع سنين وقد وجد هناك كاهنًا فاضلاً كان قد قصد زيارة الاماكن المقدسة هو وقوم من اصدقائهِ فطلب من القديس غيدون ان يزورها معهم ثانيةً فسافر معهم ولما انتهت هذه الزيارات المقدسة ادركهم الطاعون فمات منهم اول الكل الكاهن الفاضل ثم توفي جميع رفقائهِ اما الكاهن فقبل وفاتهِ قال للقديس غيدون ان الله تعالى يريد منك ان تعود الى بلدتك فرجع واخبر بوفاة الكاهن المذكور

وحينئذٍ عرف القديس بالهام الله ان موتهُ قد دنا فاستعدَّ لهُ بازدياد نشاط في عبادة الله وفيما كان يصلي مرةً في الليل امتلأ المنزل نورًا سماويًا وسمع هاتفًا يقول هلمَّ ايها العبد الامين ادخل مجد ربّك الذي يشاء ان يكون هو اجرك الابدي في هذه الدقيقة . وتُوفي وكان ذلك في اليوم الثاني عشر من شهر ايلول بعد السنة الثانية عشرة من الجيل الحادي عشر للمسيح

اليوم الثالث عشر

وفيهِ ترجمة القديس مورلُوس الاسقف

ان هذا القديس من مسيحيي ايطاليا وولد بها قبل منتصف المائة الرابعة للمسيح وعلمهُ والداهُ مبادىء الايمان المسيحي ثم سلماهُ الى القديس مرتينوس ليرشدهُ في منهج الفضيلة ولكنهُ لم يستمر زمانًا طويلاً في هذه المدرسة المقدسة لان اوكسنسيوس الاريوسي مطران مدينة ميلان اخرج القديس مرتينوس من ابرشيتهِ فمكث مورلُوس في الدير حيث كان القديس المذكور يُربّي ويُهذّب صبيانًا وتعلَّم هناك العلوم واشتهر بسعة علمهِ وعبقت روائح فضائلهِ فمات في ذلك الوقت ابوهُ والي اقليم ميلان وحيث ذلك وبما انهُ كان يرغب في ما هو أسمى كمالاً في الانجيل المقدس عزم على الاقتداء بمشورة السيد المسيح فترك بيتهُ وكل امواله وذهب الى فرنسا حيث كان القديس مرتينوس ارتسم اسقفًا على مدينة طور وجمع رهبانًا كثيرين في دير صيّرهُ منزل قديسين فدخل ديرهُ وتتلمذ لهُ ثانيةً وكان يسمو يومًا فيومًا في الفضيلة

فلما تأمل القديس مرتينوس برّ تلميذهِ رسمهُ كاهنًا نحو السنة السابعة والسبعين بعد الثلث مائة للمسيح وغار حينئذٍ على تخليص النفوس وغيرتهُ هذه كانت كنار متقدة في قلبهِ ومن ثم حينما سمع انهُ في احدى القرى القريبة منهُ هيكل مبني للاوثان ذهب الى هناك متسلحًا بايمان حيّ واتكال عظيم على العون الالهي فلما قابل الهيكل جثا على الارض وصلَّى متواترًا طالبًا من الله تعالى ان يهدم هذا البناء الشيطاني ويقوّضهُ وفي اثناء صلاتهِ هذه الحارَّة النشيطة انحدرت من السماء بغتةً زوبعة ناريَّة محقت الهيكل في دقيقة واحدة . وبعد هذه الاعجوبة التي ادهشت عقول اهل القرية بشَّرهم بالانجيل واجتذبهم كلهم الى الايمان المسيحي . ثم ابتنى كنيسة حيث كان هيكل الاوثان وخدمها اثنتي عشرة سنة وكانت العجائب تتبعهُ دائمًا وتثبت تعليمهُ وتجعل اتعابهُ الرسولية ذات اثمار حسنة

ولما شعر الوثنيون الذين كانوا في نواحي تلك القرية بالزوبعة التي أحرقت الهيكل ومحقت الاصنام جمعوا كل ما عندهم من تماثيل الاوثان وأخفوها في مكان سفليّ وهناك كانوا يقدمون لها الذبائح الشيطانية . فلما درى القديس بما كان انقدت غيرتهُ ومضى الى حيث كانت هذه التماثيل فحالما دخل المغارة ارتعدت الارواح الشريرة من حضورهِ وصرخت بصوتٍ هائلٍ قائلةً لماذا تضطهدنا يامورلُوس في كل مكان أتجاربنا حتى في قلب الارض . فلما سمع القديس صراخهم وتذمرهم اشتدَّت غيرتهُ فعمل علامة الصليب المقدس وأمرهم بان يفرُّوا من هناك ولا يعودوا اليهِ ابدًا فهربت الشياطين حالاً بضجيج فتعجب الوثنيون من انتصار القديس على قوات الجحيم وآمنوا جميعهم . فبنى هناك ايضًا كنيسة وديرًا وما لبث ان امتلأ من الرهبان والقديسين الذين بتعليمهم وقدوتهم الصالحة نشروا الايمان وحسن العبادة في تلك الاراضي

ثم رجع القديس الى كنيستهِ وعند وصولهِ الى القرية وجد تجارًا معهم جمٌ من اسارى مسيحيين صبيانًا وبناتٍ فهرب احد الاسارى ودخل كنيسة القديس وطلب منهُ ان ينقذهُ من الاسر فرثى لهُ القديس وذهب حالاً الى التاجر سيّد الاسير المتقدم ذكرهُ وتشفع فيهِ فلم يرتضِ التاجر باطلاقهِ اما القديس فرجع الى الكنيسة وقضى فيها الليل مصليًا وفي بكرة الغد اخبروهُ بان التاجر الذي ابى اطلاق اسيرهِ اعترتهُ حمى شديدة ومات . فخاف بقية التجار خوفًا عظيمًا ان يحلَّ بهم ما حلَّ بذلك التاجر رفيقهم فاتوا جميعهم الى القديس

واطلقوا قدامهُ الاسارى وطلبوا منهُ ان يصلّي من اجل الميت ليقوم من الموت ويحيا قلما يكون الى ان يعترف بخطاياهُ وينال الغفران فصلّى القديس فقام الميت وأُطلق الأَسير المذكور واعترف بندامة شديدة

فبهذه كلها شاع خبر برارة هذا الرسول وعجائبهِ ولما استأثرت رحمة المولى ببرُسبير اسقف مدينة انجر اختارهُ الشعب اسقفًا عليهم خليفةً للمتوفَّى فلم يرتضِ بذلك غير ان الله تعالى أثبت هذا الاعتبار بآيةٍ باهرة . وهي انهُ لما دخل الكنيسة مع القديس مرتينوس حلت على هامتهِ حمامة اشد بياضًا من الثلج واستقرت هناك الى ان انتهت الرسامة وقد رسمهُ اسقفًا القديس مرتينوس وشهد انهُ ما عدا الحمامة التي رآها هو والجميع على رأس القديس مورلُوس رأى ايضًا طغمة من الملئكة يحضرون الارتسام وقد صرف الاسقف مورِلُوس ليلة ذلك النهار في الكنيسة بالصلاة طالبًا من الله تعالى ان يمنحهُ الروح الرسولي لكي يُحسن مباشرة وظيفتهِ ومع ان اتعابهُ كانت قد تكاثرت لم ينقص شيئًا من تقشفاتهِ بل زاد عليها وذلك كما قال لكي يصيّر بها غيرتهُ اكثر فاعلية

فبارك الله على اتعابهِ فجاءت على ابرشيتهِ بفوائد عميمة غير انهُ كان ينفر من الشرف المتعلق بمنصبهِ وبناء عليهِ خطر لهُ ان يتركهُ وقد عزم على ذلك عزمًا ثابتًا لما عرف ان غلامًا مسيحيًّا من رعيتهِ مات قبل ان تناول سر التثبيت فخرج سرًّا من المدينة وركب سفينة ليذهب الى بلاد الانكليز لكي يعيش هناك مجهولاً وفيما هو في البحر وجد معهُ مفتاح ذخائر كنيستهِ فقال في نفسهِ ماذا اعمل بهِ وكيف أُرجعهُ الى الكنيسة وعند تأملهِ ذلك وهو ماسك المفتاح بيدهِ صدمت الامواج السفينة بغتةً فسقط المفتاح في البحر فحزن القديس وقال اني لست ارجع الى كنيستي قبل ان اجد هذا المفتاح فوصل الى انكلترة سالمًا بثياب انسان فقير وقدَّم نفسهُ لرجل شريف فاقامهُ ذلك الرجل على خدمة بستانهِ وكان الله تعالى يبارك على شغلهِ فأخصب البستان وأثمر ومن ثمَّ احبَّهُ سيدهُ وجعل يتعجب من فضائلهِ وكان الجميع يمدحونهُ

غير ان رعيتهُ لما استفاقوا على هربهِ ارسلوا حالاً اربعة رجال طافوا ممالك كثيرة سبع سنين وفيما كانوا ذات يوم ينتظرون مركبًا ليسيروا بهِ الى بلاد الانكليز وجدوا على شاطئ البحر حجرًا مكتوبًا عليهِ قد اجتاز من ههنا مورلُوس اسقف انجر في اليوم الفلاني والسنة الفلانية فركبوا المركب بفرح راجين ان يجدوا اسقفهم القديس ولما كان المركب سائرًا بريح مناسبةٍ صعد من العمق حوت وسقط في المركب فتعجَّب المرسلون من ذلك الاَّ انهم ازدادوا تعجبًا لما شُقَّ جوفهُ ووُجد فيهِ مفتاحٌ وتحققوا انهُ هو مفتاح ذخائر كنيستهم ولكنهم ظنوا ان القديس قد غرق في البحر الاَّ انهُ أُوحي اليهم من قِبل الله انهم سيجدونهُ . فتعزَّوا حينئذٍ وساروا ولما وصلوا الى بلاد الانكليز أُخبروا بان رجلاً غريبًا فاضلاً اتى من فرنسا وانهُ يخدم بستان احد اشراف المدينة . فذهبوا الى البستان ووجدوا هناك القديس فجثوا على قدميهِ وطلبوا اليهِ باسم رعيتهِ كلها ان يرجع الى اسقفيتهِ وأَلحُّوا عليهِ في هذا السؤال . فرقَّ لهم قلبهُ وقال لهم لو لم اعاهد الله ان لا اعود الى كنيستي قبل ان اجد مفتاح ذخائرها الذي أَضعتهُ في البحر لكنت ارجع . فأروهُ وقتئذٍ المفتاح واخبروهُ بما حدث لهم في البحر فتحقق حينئذٍ مشيئة الله فآب راجعًا الى اسقفيتهِ

روى القديس فُرتوناتوس انهُ تراءى ملك للقديس مورِلُوس وامرهُ بالاياب الى ابرشيتهِ وأَعلمهُ ان الله تعالى وهبهُ ان يقيم من الموت الغلام المذكور الذي مات قبل قبولهِ سرَّ التثبيت ثم يذكر المؤرّخ المشار اليهِ ان القديس في حين وصولهِ الى مدينة انجر مضى الى قبر الغلام وصلَّى فقام الميت وناولهُ حالاً سر التثبيت وسمَّاهُ ريناتوس وهو اسمٌ لاتيني معناهُ المولود ثانيةً وقد روى تلك الحادثة صاحب ترجمة القديس التي ظنوا انها تأليف القديس غريغوريوس اسقف مدينة طور

فاستمرَّ القديس مورِلُوس في اسقفيتهِ مثبتًا تعليمهُ وتدبيرهُ بعجائب متتابعة ومتممًا وظيفتهُ الرسولية ومحتملاً في خدمة كرم الرب الحرَّ والبرد . هذا وقرن عذوبة مخاطباتهِ وتدابيرهِ باتعاب السيرة القشفة لانهُ في صوم الاربعين لم يكن يأكل سوى مرةٍ واحدةٍ في كل ثلثة ايام وما كلهُ كان خبز شعير فقط ولا ينام الاَّ على أَديم الارض بلا فراش ولا لحاف وقد بلغ من العمر نحو تسعين سنة وتُوفي في اليوم الثالث عشر من شهر ايلول نحو السنة السابعة عشرة بعد الاربع مائة للمسيح

اليوم الرابع عشر
وفيهِ ذكر ارتفاع الصليب المقدس

ان الكنيسة المقدسة تعيّد شرقًا وغربًا اليوم السعيد الذي فيهِ استنقذ هِرَقل الملك الصليب المقدس من يد ملك العجم ونقلهُ من هناك الى أُورشليم حيث كان اختطفهُ كِسرَى الثاني ملك العجم وهذا الملك الوثني كان قد قتل والدهُ اورمِسداس الذي جلس على عرش المملكة سنة خمسمائة واحدى وتسعين ولاجل هذه الفعلة القبيحة أبغضهُ الشعب العجمي فهرب الى القسطنطينية والتجأَ الى الملك موريسيوس فقبلهُ الملك الجوَّاد بمحبةٍ ثم ارجعهُ الى كرسي مملكتهِ ثم تمرَّد فوكاس على موريسيوس الملك في السنة الواحدة بعد الست مائة للمسيح وفتك بهِ وباولادهِ فلما عرف ذلك كِسْرَى ملك العجم عزم على الانتقام من قاتل صديقهِ والمحسن اليهِ فانتصر بقوة عساكرهِ على بلاد ارمينية وفينيسيا وسورية وفلسطين وكبادوكية ووصل الى نواحي القسطنطينية مظفَّرًا منتصرًا على الجميع

وكان حينئذٍ في بلاد افريقية هِرَقل ابن والي هذا الاقليم. فلما سمع صراخ كل شعب المشرق المظلوم من ملكهِ الدخيل المغتصب جمع عسكرًا وأَتى الى القسطنطينية وظفر بعسكر فوكاس الرديء وقبض عليهِ وقطع رأسهُ وجلس على عرش الملك برضا عظماء المملكة والشعب وكان ذلك في السنة الحادية عشرة بعد المائة السادسة للمسيح ثم اجتهد ان يعقد الصلح مع كسرى ملك العجم غير ان انتصارات كسرى كانت قد جعلتهُ متكبرًا فرفض الشروط المقدمة لهُ للصلح وحاصر أُورشليم في السنة الرابعة عشرة بعد القرن السادس وافتتحها واخذ الصليب المقدَّس بدم ابن الله المهراق لفداء البشر واسر كثيرين من المسيحيين ونفاهم الى بلاد العجم وكان من اولئك الاسرى زكريا بطريرك أُورشليم الذي لم يفارق الصليب المكرَّم قطّ وشرَّف الله تعالى هذا العود المبارك بين الوثنيين كما شرَّف تابوت العهد بين الفلسطينيين. على انهُ ما تجاسر احد من الفرس ان يلمس هذا العود الاقدس الذي جعلتهُ القديسة هيلانة في بيت من فضَّة مع ان الملك كان مولعًا بحبّ الفضَّة

وبعد هذا الظفر ارسل هِرَقل رسل لكسرى طالبًا منهُ الصلح. غير انهُ أُخبر كِسرَى بان في اسيا الصغرى احد قوّاد عسكرهِ انتصر على جيش هِرَقل واخذ خلكيدونية ورجع مظفرًا الى بلاد العجم. فقال لرُسل ملك الروم انهُ لا يرضى ان يعقد صلحًا مع ملكهم ان لم يكفر الملك والشعب كلهم بسيدنا يسوع المسيح ويعبدوا الشمس إلهة العجم. فلما سمع هِرَقل الملك جمع عظماء المملكة وقال لهم ينبغي لنا ان لا نسكت على هذا التجديف وانا اشتهي ان يُسفك دمي حبًّا بالمسيح. ثم نادى بالحرب انتصارًا للدين وفرح من ذلك كل الشعب المسيحي وسعى فيهِ الاكليريكيون والرهبان ببذل اموالٍ وافرة لمؤونة العساكر فذهب هِرَقل مع عسكرهِ الى العجم ولما وجد عسكر الاعداء اخذ بيدهِ ايقونة ابن الله وسار في وسط المعسكر واراها جنودهُ قائلاً لهم هذا يوم الجهاد فاننا نحارب في سبيل رب الجيوش فلنستعن بهِ على اعدائنا. ثم اشتعلت نار الوغى فظفر المسيحيون بعسكر الاعداء ظفرًا مبينًا واستولوا على اقاليم كثيرة. وفيما كان هِرَقل يحارب ملك العجم في مملكتهِ اتحد عسكر العجم مع عسكر البرابرة الذين من نواحي بلاد تراسيا وحاصروا القسطنطينية فاستغاث حينئذٍ شعب المدينة بوالدة الله فاغاثتهم بان فشا الطاعون في المعسكرَين حتى اضطرُّوا الى ان يتركوا الحصار

فلما رأَى هِرَقل الملك ان الله يحارب معهُ توغَّل في مملكة العجم غير ان المسيحيين لما رأَوا جيش كِسرَى اكثر من عساكرهم وقفوا وخافوا اما هِرَقل الحامل بيدهِ ايقونة السيد المسيح فقال لهم ما بالكم تضطربون وانتم محاربون عن الله فبعون الله تعالى كلٌّ منكم سيغلب الفًا من الاعداء. وكان كما قال لان المسيحيين قتلوا في الحرب اكثر جنود العجم واسروا اكثر قوَّادهم وحدث هذا الانتصار المبين بالقرب من نينوى القديمة وذلك في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول سنة سبع وعشرين وستمائة للمسيح. فاضطرَّ ملك العجم الى الفرار ومن ذلك اليوم اشمأَزَّ منهُ الفرس كلهم وخلعوهُ وملَّكوا عوضًا عنهُ سيرواس مع ان اباهُ كان قد عهد بالخلافة لابنهِ الاصغر. فلما جلس سيرواس على عرش الملك ألقى اباهُ في السجن ثم قتلهُ وهكذا انتقم الله تعالى ممَّن كان قد قتل اباهُ ايضًا

ثم طلب سيرواس ان يعقد الصلح مع هِرَقل وكان من شروط الصلح ان يردَّ الصليب المقدس الذي بقي في بلاد

فارس اربع عشرة سنة وان يطلق البطريرك زكريا وجميع الاسرى المسيحيين . فقبل سيرواس بكل الشروط وردَّ الصليب المقدس وكان ذلك في السنة الثامنة والعشرين بعد القرن السادس للمسيح . فاتى بهِ هرقل الملك اولاً الى القسطنطينية وخرج للقائهِ كل شعب المدينة وفي ايديهم اغصان زيتون ومصابيح متقدة ثم بعد سنة واحدة لذلك ذهب الملك الى اورشليم ليضع الصليب في مكانهِ ويشكر الله تعالى على انتصاراتهِ

فياليت شعري من ذا عسى ان يحيط بوصف الابتهاج والاكرام اللذين لقي بهما المسيحيون ذلك العود المبارك الذي بهِ انتصر ابن الله على الخطيئة وخلَّص العالم وبهِ ظفر المؤمنون باعظم اعدائهم فاجتمع من كل نواحي بلاد فلسطين قوم كثيرون وخرج بهم جميع الاكليريكيين لاستقبال الراية الخلاصية وحينئذٍ لبس الملك افخر اثوابهِ الملوكية وحمل على منكبيهِ الصليب المقدس وسار بهِ بين جمّ غفير من الاكليريكيين وعظماء المملكة والمؤمنين . غير انهُ لما وصل الى اوَّل الطريق المؤدّي الى جبل الجلجلة شعر بما يمنعهُ من المسير الى ما قدَّام فتحيَّر هو والذين معهُ وفيما كانوا يفكرون في ما لعلهُ يكون سبب هذه الاعجوبة قال البطريرك زكريا للملك اعتبر ايها الملك التقي انك بثيابك هذه الفاخرة لا تشبه ما كان عليهِ رب المجد وملك الملوك من الاتضاع حينما خرج من هذا الباب حاملاً صليبهُ هذا المقدس الى جبل الجلجلة . فحالاً خلع الملك اثوابهُ الملوكية ولبس ثوباً اعتيادياً وحلَّ سيور حذائهِ وكشف رأسهُ وعلى هذا الحال حمل الصليب المكرَّم فسار حينئذٍ بسهولة الى الجبل المقدس ووضعهُ في مكانهِ . ثم فتح البطريرك بيت هذه الذخيرة فاذا ختومها على صحتها وقد جرى ذلك في اليوم الرابع عشر من شهر ايلول ولهذا تعيّدهُ الكنيسة شرقاً وغرباً

ثم اعلم ان القديسين جميعهم اسهبوا الكلام في مدح الصليب المقدس ووجوب اكرامهِ والسجود لهُ وما اصوب ما قالوا لان الصليب المكرَّم كما قال العسجدي فمهُ هو ارفع من كل ما يمكن ان يُقدَّم لهُ من التكريم اذ في الصليب نجد قوةً للمحاربة والانتصار . وقال القديس اغسطينوس ان الصليب هو معين خيور كثيرة وقال القديس امبروسيوس ينبغي لنا ان نعمل علامة الصليب في ابتداء كل عمل من اعمالنا فان لهُ قوة عظيمة نحو من يضعهُ امام عينهِ ويحفظهُ في قلبهِ حتى انهُ بهِ يظفر بشهواتهِ الرديئة . وقد زاد على ذلك القديس برنردوس قال في الصليب المقدس كل خيرات الخلاص وبهِ نصائح الديَّان المرهوب . ان الصليب يُحيي الرجاء في قلوب الآئسين ويحفظ الذين يسيرون بهِ على امواج بحر هذا العالم المزبدة وهو تعزية الحزَان وسند للكنيسة وخلاص كل الذين يستظلُّون تحتهُ

اعتبر ايضاً ايها المؤمن ما قال القديس اغسطينوس كم يكون الآن الصليب ممجَّداً لانهُ صار اليوم في تيجان الملوك فمن ثمرة هذه الشجرة عرفنا قوّتها لانهُ بها لا بقوة الاسلحة انتصر مخلصنا على الارض وكانت الحية النحاسية التي رفعها موسى في البرية رمزاً الى الصليب فكان من لدغتهُ حية ينظر الى العود الذي عليهِ الحية النحاسية فيشفى وهكذا الان كل من يرفع نظرهُ الى الصليب المقدس الذي عُلّق عليهِ ابن الله بحسن الايمان وتمام الاتكال تشفى للوقت كل جراحاتهِ لان المسيح لهُ المجد قد قال كما رفع موسى الحية في البريّة ينبغي ان يُرفع ابن البشر لكي لا يهلك كل من يؤمن بهِ بل تكون لهُ الحياة الابدية (يوحنا ٣ : ١٤) . ثم قال القديس لماذا يا اخوتي نعمل على جباهنا علامة الصليب المقدس وانما اسأل عن ذلك لان كثيرين يصنعونها ولا يعرفون معناها . لعمري ان الله تعالى انما يطلب في هذا فاعلاً يرسم في اعمالهِ قوة هذا الرسم الالهي لا مصوَّراً يرسمهُ على جبهتهِ فقط . فان كنتم تحملون على جباهكم اهانة صليب السيد المسيح وامانتهُ فاقتدوا في قلوبكم باتضاعهِ تعالى واماتتهِ المعبَّر عنهما برسم صليبهِ الاقدس . فاجعلوا افعالكم مطابقةً لصليب يسوع المصلوب

اليوم الخامس عشر

وفيهِ ترجمة القديس ايشاردوس

لا ريب ان الله تعالى قد اقام هذا القديس قدوةً للرهبان وللرؤساء في الاديرة . وولد بمملكة فرنسا وابواهُ من اشراف تلك المملكة وكان ابوهُ من عظماء قصر لوتاريوس الثاني ملك فرنسا . اما والدتهُ ارمينا فقد كانت على جانب عظيم من الورع ولذلك صرفت مزيد الاهتمام الى تهذيب ابنها ومرَّنتهُ منذ الصبا على الفضيلة وقد بارك الله سبحانهُ على اهتمامها ولما حان الزمان الذي فيهِ يستطيع ان يدرس العلوم قدَّمهُ والدهُ

لراهبٍ عالمٍ فاضلٍ وفي قليلٍ من الزمان تعلّم كل ما يتعلّمهُ الاحداث ومن ثم خطر لوالدهِ الذي كان يحبّ الجندية ان يخرجهُ من المدرسة ليتعلم ما يتعلق بالجندية اما والدتهُ المباركة فكانت افكارها في ابنها مختلفة جدًّا عن افكار بعلها فيهِ بحيث لم تكن تريد الّا ان يكون ابنها قديسًا ومن ثم لم تزل تقول لابيهِ ان كنت تحبّ ابنك حقًّا فما بالك تشتهي لهُ غير ما يجعلهُ بارًّا فقط. واما ابوهُ فلم يرتدّ مع كل هذا عن قصدهِ بل كاشف بهِ ابنهُ وكان قد بلغ من العمر خمس عشرة سنة فاجابهُ الشاب قائلاً انني لمستعدٌّ لتكميل اوامرك وساجعل سروري في طاعتك غير اني اقول لك انهُ قد تحقق عندي ان الله تعالى لا يريد بي ان اكون في وظيفة دنيوية وانني منذ سمعت من والدتي انها قبل الولادة نذرتني لله تعالى وخصّصتني لعبادتهِ عزمت ان لا اخدم ملكًا غيرهُ عزّ وجلّ. فلما سمع هذا والدهُ تعجب باطنًا من حكمة ابنهِ وقال لهُ ببكاء لقد أصبت يابنيَّ في ان تفضّل خدمة الله على خدمة الملوك ولو في المناصب العالية

فاختار ايشاردوس من بين كل الاديرة الدير الذي كان يعيش فيهِ الرهبان على معظم النشاط وتمام الاعتزال وهو دير جوين ومنذ ابتداء دخولهِ الرهبانية ظهرت للجميع برارتهُ ورام الله تعالى ان يظهر برّهُ حينئذٍ بالمعجزات لانهُ بوحيٍ سرّيٍ كانت تأتي الناس من كل جهةٍ تطلب شفاء امراضها من ذلك المبتدي القديس وينالون مرامهم فحصل لهُ تشويش بالٍ وشرع يختفي الّا ان اجتهادهُ في هذا عاد باطلاً لان الشياطين انفسهم كانوا يشهرون برّهُ. فلم يجد القديس لذلك الّا هذا الدواء وهو انهُ لا يصلي من اجل شفاء احد الّا بامر رئيسهِ. وقد اتفق وهو مختلٍ في بستان الدير ليصلي ان سمع هاتفًا يقول ان الصديق يضع في قلبهِ مطالع ينطلق من فضيلة الى فضيلة (مزمور ٨٣ : ٨) فالتفت القديس ليرى من اين اتى الصوت فلم يُبصر احدًا فعرف حينئذٍ ان الصوت قد نزل من السماء فزاد ذلك في نشاطهِ وقوى رغبتهُ للنمو في الفضيلة

اما والداهُ فبعد تقدمتهما لله تعالى ابنهما الوحيد قدّما ايضًا كل املاكهما وسلماها الى ابنهما القديس ليتصرّف بها كيف يشاء فلم يرتضِ باخذها وتوزيعها فرجعا وبنيا ديرًا وسلّماهُ الى القديس فيلبيرتوس الذي كان قد طُرِد من ديرهِ ونُفي ظلمًا بامر ابروين وزير ملك نوستري . فهذا القديس المنفيّ طلب القديس ايشاردوس ليكون رئيسًا في ذلك الدير الذي أُخرج منهُ وكان هو رئيسًا فيهِ وقد الزمهُ الاسقف بقبول الرئاسة وتدبير هذا الدير المدعو جوميج. فخرج القديس ايشاردوس من ديرهِ وانطلق الى دير جوميج فوجد هناك تسعمائة راهب وقد تعزّوا سريعًا على فقدهم القديس فيلبيرتوس رئيسهم القديم عندما رأوا رئيسهم الجديد وتحققوا مزيد تقواهُ. وفي الابتداء لم يكرز هذا القديس على رهبانيتهِ الّا بقدوتهِ فسرّت الاخوة بفضائل رئيسهم لا سيما مواظبتهِ على الصلاة وحبهِ الاختلاء والتقشفات وحلمهِ ووداعتهِ ثم طلبوا منهُ ان يعلمهم ويرشدهم بكلامهِ فشرع يورد لهم طرائق أسمى الفضائل والوسائط الموصّلة اليها ومن جملة ذلك امانة النفس واحتقار العالم وما اشبه ذلك وتعليمهُ كان كندًى سماوي منحدر من السماء على ارضٍ جيدة لانهُ صيّر الدير جماعة قديسين

اما رئيسهم القديس ايشاردوس فكان قد حاز من الله تعالى موهبة صنيع العجائب كما ذكرنا آنفًا وفيما كان يومًا يصلي في قلّايتهِ رأى الشيطان يقطع بفأس اغصان شجرةٍ كان الاخوة يشتغلون تحتها فنهض القديس للوقت ولما وصل الى الشجرة صلّب عليها فهرب الشيطان ثم أرى الاخوة الشجرة فاذا هي مقطوعة من النصف ومحروقة من اصولها وكانت تفوح منها رائحة كبريتية غير محتملة. فاستأذن الرهبان الرئيس ليقلعوا الشجرة لئلا يأتي الشيطان ثانيةً ويضر بهم بها . فلم يأذن لهم في قلعها بل قال لهم دعوها هكذا تذكرةً للاحسان الالهي لكيما تشكروا الله تعالى كلما رأيتموها وتحسنوا الحذر من حِيَل العدوّ

وكان الرهبان في دير هذا القديس يحلقون اكليل رؤوسهم كل يوم سبت قبل العصر وذلك لكي يحضروا الصلاة في الخورس نهار الاحد باتمّ اللياقة لانهُ في عشية السبت عند العصر كان وقتئذٍ يبتدئ تعطيل الاشغال اكرامًا ليوم الرب . فاتفق يومًا للقديس انهُ لم يقدر ان يحلق قبل العصر لكثرة الاشغال التي تراكمت عليهِ ولم ينتبه انهُ قد جاء وقت العصر فامر راهبًا ان يحلق لهُ وفيما كان هذا يفعل ذلك رأى القديس الشيطان في زاوية الدير يكتب شيئًا على دفتر وسألهُ عن سبب دخولهِ الدير وما عملهُ هنا

اجابهُ الشيطان بوجهٍ فرحٍ وتوبيخ حقًّا انك راهب كامل ومثال الكمال لانك عملتَ اليوم ما لا يجوز لك عملهُ لأن وقت الشغل قد مضى وانا كاتب ذلك في دفتري . وكان القديس قد حلق وقتئذٍ نصف اكليلهِ فانتبه على زلّتهِ فترك العمل وقال للشيطان عليك ان تخرج من الدير فلا تقلق عبيد الله وخرج من قلاّيتهِ وجمع الرهبان وخرّ امامهم بوجههِ متنهّدًا وذارفًا الدموع واعترف بزلّتهِ جهرًا وأعلمهم كيف نبّههُ الله تعالى عليها ثم قال اني غير مستحق ان البس الثوب الرهباني لاني لست احفظ الوصايا المفروضة على جميع المؤمنين فاسألكم يا اخوتي ان تتضرعوا من اجلي لكي يغفر الله آثامي . قلت ومما يقتضي المقام التنبيه عليهِ انهُ لفرط غمهِ وشدة ندامتهِ على ما فرط منهُ لم يرد ان ينهض رأسهُ من على وجه الارض . فاظهر الله تعالى حينئذٍ باعجوبة ان زلتهُ قد غُفرت بحيث قد عاد اكليل هامتهِ كما كان قبل الحلاقة ومع هذا لم يزل القديس يتندّم على ذلك بقية ايام حياتهِ

وكان من عادتهِ في ابتداء رقاد الاخوة ان يدور على قلاليهم حاملاً ايقونة السيد المسيح والماء المقدس ليخرج بهِ روح الظلام الكامن لعبيد الله ولاسيما في زمن الليل وكان في ديرهِ كما سبق القول تسعمائة راهب وجميع هولاء الرهبان كانوا يجرون على سنن التقوى بنشاطٍ لا يحيدون عن قوانين الطريقة الرهبانية وحينما كان عليهِ السلام يسأل لهم من الله نعمة الثبات في هذا النشاط خشي انهم يتراخون في العبادة من بعد موتهِ فاستولى عليهِ حزنٌ شديد فألهم ان يطلب من الله تعالى ان ينقل من هذه الحياة اولئك الرهبان الذين سوف تبرد عبادتهم. ثم انهُ رأى في الغد وهو في الكنيسة مع جميع الرهبان ملكًا بلباس ابيض ملتحفًا بنور سماويّ يمسّ كثيرين منهم بقضيب ثم دنا من القديس وقال لهُ ان الله سبحانهُ قد استجاب صلاتك فقل لكل الذين مسستهم بالقضيب ان يستعدّوا للموت والوقوف امامهُ عزّ شأنهُ بعد اربعة ايام وأوصِ بقية الرهبان ان يزدادوا نشاطًا في اكتساب الكمال الرهباني . فبعد فروغ الرهبان من صلاة الصبح جمعهم وأخبرهم بهذه الروٴيا غير انهُ لم ينصّ احدًا بالخصوص بل قال لهم على وجه العموم ان يتأهبوا للموت . وبناء على ما ذكرناهُ قضوا جميعهم هذا الزمن في ممارسة أسمى الفضائل وبعد الاعتراف في اليوم الثالث سهروا ليلة اليوم الرابع كلها في الكنيسة وتناولوا القربان المقدس صباحًا ثم امر الرئيس بتلاوة بعض مزامير وصلاة الكنيسة للمشرفين على الموت . وفيما كانوا يصلّون جميعهم مات منهم نحو ثمانين راهبًا وبعد وفاتهم ظهرت اجسادهم ملتحفةً بنورٍ باهر عجيب وقد استمرّ الرهبان في الخورس كل ذلك النهار ثم صلّوا صلاة الساعة الثالثة وبعد تمام الصلاة مات منهم اكثر من العدد المذكور قبلاً وعند الظهر بعد ان صلوا صلاة السادسة مات ايضًا نحو مائتين ومثل ذلك مات منهم بعد صلاة التاسعة واما بعد صلاة الليل فمات النصف من رهبانهِ اما الذين بقوا منهم فحصلوا على حرارة عبادة لا غاية وراءها حتى انهم كانوا يعيشون كانهم ملئكة على الارض

وعما قليل عرف القديس ان موتهُ قد اقترب فقبل ذلك بسبعة ايام كان يجمع في كل يوم الرهبان ليعلمهم الوسائط التي تساعدهم على الثبات في الكمال ويعلمهم ايضًا كيف يرذلون حِيل المجرّب . ثم حثهم كثيرًا على محبة سيدنا يسوع المسيح وعلى مزيد الاكرام للعذراء الجليلة التي كان قد جعل ديرهُ تحت كنف حمايتها ولما آن يوم موتهِ جمع رهبانهُ مع انهُ كان متألمًا بحمى قتّالة وقال لهم احفظوا يا ابنائي الاحبّاء كلامي الاخير في عقولكم احسن حفظ واياكم ان تنسوهُ لان هذا آخر ما اوصيكم بهِ وهو اني اسألكم باسم سيدنا المسيح ان تحبوا بعضكم بعضًا ولا تدعوا ان يلج قلوبكم شيء يبرّد هذه المحبة التي بها يُعرف المختارون واحفظوا اذًا باحتراسٍ كليٍّ المحبة الاخويّة التي هي كنفسٍ للجمعيات الرهبانية . قال هذا ثم رفع عينيهِ الى السماء ورقد بالرب في اليوم الخامس عشر من شهر ايلول نحو السنة السابعة والثمانين من المائة السابعة للمسيح

اليوم السادس عشر

وفيهِ ترجمة القديسين كرنيليوس وكبريانوس الشهيدين

قد اجتمع الاكليريكيون برومية لاجراء الانتخاب بعد ان استأثرت رحمة الله بالقديس فابيانوس الشهيد في السنة الخمسين بعد المائتين للمسيح ولكن لم يُستطع اجراء انتخاب خليفةٍ لهُ على الكرسي الرسولي بسبب شدة الاضطهاد فبقي الكرسي فارغًا اكثر من سنة لكنهُ اذ ذهب داسيوس المغتصب الى محاربة الغُطّين وكان عدد المجتمعين من

الاساقفة ستة عشر وستة واربعين كاهنًا ومن الشمامسة الانجيليين سبعة ومن الرساليين سبعة ومن الشمعدانيين اثنين واربعين ومن المعزّمين على الشياطين والقارئين اثنين وخمسين وكانوا قلبًا واحدًا في انتخاب القديس كرنيليوس للخلافة البطرسية

فيقول القديس كبريانوس فيهِ وفي شان ارتقائهِ الى مقام الحبريَّة الأعلى انهُ بعد ان ارتقى القديس كرنيليوس الى مقام الاسقفية من غير شفاعةٍ ولا اكراهٍ بل بمجرَّد ارادة الله تعالى الذي انما بهِ يختصُّ انتخاب الاساقفة قد اظهر متانة ايمانهِ وابان فضيلتهُ وشجاعتهُ بقبولهِ الجلوس على عرش الخلافة البابَاوية حينما كان المغتصب اشدَّ اعداء الاساقفة ملتهبًا غضبًا عليهم ومفضّلًا ان يرى عدوًّا مجتهدًا في اسقاطهِ عن شرف سلطتهِ على ان يرى في رومية أُسقفًا . أفلا يجب ان نمدح ايمان هذا القديس وشجاعتهُ ونضمهُ الى عداد الشهداء والحال انهُ بقي زمانًا مديدًا جالسًا على الكرسي منتظرًا معذّبيهِ الذين هم جنود عدوّهِ الملك المغتصب لينتقموا منهُ اما بالسيف واما بالصلب واما بالنار او بنوعٍ آخر عقوبةً على ازدرائهِ باوامر المغتصب النفاقية وبتوعدهِ . نعم انهُ تعالى بجودتهِ وقدرتهِ حفظ الى الان هذا الحبر المختار منهُ أفلا يسوغ لنا ان نقول انهُ بغيرتهِ وشجاعتهِ قد كابد كل ما كان مستعدًّا لاحتمالهِ . وانهُ انتصر على المغتصب بقوة فضائلهِ قبل ان ينتصر المغتصب عليهِ بقوة اسلحتهِ . انتهى

وقد اختارهُ الاكليريكيون واجلسوهُ على كرسي الخلافة البطرسية لمزيد برّهِ وعلمهِ ومن ثم كان يُدعى الكاهن القديس وحينئذٍ اي في ابتداء حبريّتهِ اتضحت حرارة غيرتهِ في حفظ الايمان لانهُ في ذلك الزمن كان في رومية نوفاتوس وهذا كان قسًّا افريقيًّا بل رجلًا اثيمًا وكان هرب من افريقية مخافة ان يحرمهُ القديس كبريانوس اسقف قرطاجنة غير انهُ لما رأى القديس كرنيليوس جالسًا على الكرسي البطرسي وعرف فضائلهُ وشجاعتهُ وما بينهُ وبين القديس كبريانوس من المحبة عزم وقتئذٍ على الانشقاق فاتحد مع نوفاسيانوس وهذا كان كاهنًا رومانيًا ونظيرهُ في الشر عزم على ان يرفعهُ الى الكرسي البطرسي بدلًا عن القديس كرنيليوس فشرع الاثنان يشنّعان على القديس بتُهم كاذبة وخدعا ثلثة اساقفة جهّالًا غرباء وفي انهاء وليمة عظيمة رسموا نوفاسيانوس اسقفًا على رومية ولم يقف الاثنان في حدود الانشقاق بل زادا عليهِ الارطقة لانهما مع تلاميذهما طفقوا يعلمون بوجوب تعميد الخطأة جديدًا ومنعا الزواج ثانيةً . فعقد القديس كرنيليوس مجمعًا برومية في السنة الحادية والخمسين بعد المائتين وحرم فيهِ نوفاسيانوس وحرم تعليمهُ الملتوي ولا سيما قولهُ الفاسد انهُ لا يجوز حل خطيئة الذين جحدوا الايمان ولو ندموا عليها

وبعد سنة واحدة لذلك اذ انكسر داسيوس في محاربتهِ الغطّين وخلفهُ في الملك احد قوادهِ المدعو غلّوس اخذ هذا يضطهد المسيحيين فارسل وقبض على القديس كرنيليوس ولما شعر المؤمنون بذلك لم يجبنوا بل ظهروا في ميدان الجهاد معترفين بالسيد المسيح فكابد الحبر الاعظم اشدَّ عذابٍ باعظم صبرٍ وشجاعة فخاف الوثنيون من ان هذا المثال يزيد المسيحيين ثباتًا في الايمان ولهذا اسرعوا في قتلهِ وقد نال اكاليل الشهادة برومية في اليوم الرابع عشر من شهر ايلول في السنة الثانية والخمسين بعد المائتين ولكن من حيث ان الكنيسة تعيّد في هذا اليوم لارتفاع الصليب المقدس فمن اجل ذلك نقلت عيد هذا القديس الى يوم آخر

وفي ذلك اليوم نفسهِ من السنة الثامنة والخمسين بعد المائتين للمسيح نال ايضًا اكاليل الاستشهاد القديس كبريانوس اسقف قرطاجنة المتقدم ذكرهُ وهو احد معلمي الكنيسة المعظمين وقد كتب خبر سيرتهِ بُنسيوس شماسهُ والقديسون غريغوريوس النزينزي وايرونيموس واغسطينوس وعنهم اخذنا ما سيأتي . اعلم ان القديس كبريانوس وُلد بافريقية وكان والدهُ وثنيًا من اشرف قضاة المدينة وقد اجتهد في درس العلوم ولا سيما المنطق والفلسفة والفصاحة وفاز بمدينة قرطاجنة بمزيد الاعتبار نظرًا الى فصاحتهِ وحذاقة عقلهِ ومن العجب انهُ قد تجرَّد لتعلُّم ما اوردناهُ من العلوم بعد ان تزوَّج ورُزق بنين . وحينما صادف بتدبير العناية الالهية كاهنًا قديسًا يدعى سيسيليوس وبتعليمهِ تنور بالايمان المسيحي واعتمد واضاف في المعمودية اسم سيسيليوس الى اسمهِ الاصلي وذلك اكرامًا للذي بتعليمهِ وبرّهِ اولدهُ للمسيح ميلادًا ثانيًا . اما الشعب المسيحي فقد فرح كما قال القديس ايرونيموس فرحًا عظيمًا من هذا التغيير العجيب وتعجب منهُ الوثنيون

وبعد قبول المعمودية نذر كبريانوس العفة برضا امرأتهِ

وسلَّمها مع اولادهِ الى سيسيليوس الكاهن ودفع لهُ من اجلهم جزءًا من اموالهِ وما بقي منها اعطاهُ للمساكين وصار بحسن سيرتهِ قدوة كل الفضائل وقد قال القديس عن نفسهِ انهُ بعد تنصرهِ ازدرى بالفصاحة البشرية واحتقر تنميق الكلام والعناية بزُخرُف الالفاظ ومع اجتهادهِ في اجتناب مثل ذلك ترى كتبهُ مشحونةً بازهار المنطق ومزيَّنة بحلى الفصاحة التي يتعجب منها على الدوام أعظم العلماء ولا سيما القديسين غريغوريوس النزينزي وايرونيموس واغسطينوس وقد انار الله تعالى بصيرتهُ بعد المعمودية فاضحى عالمًا في التعليم المسيحي فرسمهُ الاسقف كاهنًا وبعد موت الاسقف سنة ثماني واربعين ومائتين انتخبهُ الاكليريكيون والشعب خليفةً للاسقف الموما اليهِ . فلم يرتضِ القديس بذلك بل هرب واختفى في بيتهِ ولم يزالوا مجدّين في طلبهِ الى ان ارتضى

فارتسم اسقفًا وقد اتضح ان الله عزَّ اسمهُ كان قد اختارهُ لتدبير رعيتهِ وحفظها في اشدّ الاضطهادات لانهُ عند جلوسهِ على الكرسي ظهرت فضائلهُ الاسقفية وقد تبيَّن من تدبيرهِ فضلاً عن استقامة سيرتهِ وجزيل غيرتهِ وسعة علمهِ انهُ ابٌ محبٌّ حليمٌ نحو الضعفاء والمتضعين وراعٍ قوي شديد نحو المتمرّدين والمتكبّرين وكانت علامات البشر والبشاشة تلوح على وجههِ مقرونةً بالمهابة التي جذبت لهُ تمام الاجلال والاحترام من قِبل الشعب وكان في اثوابهِ معتدلاً لا يطبق فيها ما يضادُّ الاحتشام المسيحي وما يهين شرف درجة الاسقفية . اما اموال الكنيسة وصدقات المؤمنين فكان يوزّعها على المؤمنين بسخاءٍ ابويّ

هذا وبعد عامين لاسقفيتهِ جعل داسيوس الملك يضطهد المسيحيين بأقصى جهدهِ وكتب القديس كبريانوس ان الله انما سمح بهذا الاضطهاد الشديد لاجل تراخي المؤمنين في العبادة لانهم لما استراحوا على زمن فيلبُّس قيصر وابنهِ اللذين تركا المسيحيين في حال السلام طفق العوام ينهمكون في طلب المكاسب الزمنية وحاد الاكليريكيون والرهبان عن احتشام دعوتهم المقدسة وأحبَّت النساء التزيُّن بالاثواب الفاخرة ورَغد العيش . فلإصلاح كل هذه الشرور رفع الله تعالى عليهم عصا اعدائهم لكي ينتبهوا فيتوبوا . فشرع القديس يفكّر ماذا يصنع هل الدخول جهرًا في ميدان الجهاد

فيسفك دمهُ حبًّا بالسيد المسيح وهذا هو الامر الذي كانت تميل اليهِ نفسهُ ام الاختفاء قليلاً لاجل منفعة الرعية التي استودعهُ الله اياها . فرأى اخيرًا ان ذلك امرٌ واجبٌ لا بدَّ منهُ من اجل شدة الاضطهاد واحتياج الشعب الى من يسعفهم في ضروراتهم . فاختفى حينئذٍ هذا الراعي لاجل حفظ الرعية ولم يزل الوثنيون يطلبون من الملك ان يُميت كبريانوس رجاء انهُ اذا فقد المؤمنون هذا المحامي الصنديد يضعف حالاً ايمانهم وينكرونهُ

اما الراعي الصالح فانهُ لم يزل مهتمًّا بتدبير رعيتهِ ولو كان مختفيًا فكان يبعث اليهم برسائل مضمونها انهُ قد حان الزمن الذي فيهِ يُعرف من هم الاصيلون في الايمان وأحبّاء السيد المسيح الذي قال بفمهِ العزيز من يحبُّ نفسهُ وحياتهُ اكثر مني فلا يستحقّني . والنصح بألاّ يبغضوا مضطهديهم بل يصلوا لاجلهم ويحبوهم لانهُ من شان الوثني ان لا يحب غير من يحبهُ اما المسيحي فمن شانهِ ان يحبَّ محبّيهِ واعداءهُ . وكان يعتني ايضًا بالذين قُتلوا في سبيل الله شهادةً للايمان ولذا كان يرسل في الليل اناسًا يحملون اجسادهم ويدفنونهم ويُسعف الذين هم بعدُ تحت العذاب ويساعد اهل بيوتهم باقصى ما يستطيعهُ . كيف لا وان عنايتهُ كانت تتصل الى الاراطقة المنفصلين عن الكنيسة الرومانية أمّ الكنائس كلها بحيث ما برح يكاتبهم ويخاطبهم سرًّا فأنار الله بصائر كثيرين منهم فرجعوا عن الضلال نسأل الله ان يهدي جميع الضالّين . ولاجرم ان هذه الغيرة التي ظهرت منهُ قوّت المؤمنين بطاعتهِ وهوّنت لديهم اقتحام الاخطار وملاقاة الاهوال معاضدةً لهُ بتدبير رعيّتهِ . فهذا الاضطهاد الشديد بقي خمسة عشر شهرًا اي مدة جلوس داسيوس على عرش المملكة وبعد موتهِ استراحت الكنيسة وعاد القديس كبريانوس الى مقامهِ

غير انهُ بعد ذلك دخل البرابرة اقليم نوميديا وأسروا كثيرين من المسيحيين وحينئذٍ كرز القديس وبوعظهِ حرّك المؤمنين على افتداء اخوة السيد المسيح بصدقاتهم فجمع مالاً وافرًا لان كل مؤمن كما قال القديس كان يتصدّق بحسب طاقتهِ وبصدقاتهم انقذوا المؤمنين من الاسر وبعد هذه المصيبة فشا طاعون شديد فخرج حينئذٍ الراعي الصالح ليعود المطعونين من خرافهِ ويؤازرهم في هذه الشدة ويحملهم

يتأهبون للموت. ثم عقد مجمعًا اقليميًا سنة مائتين واحدى وخمسين وفحص الآباء عما يخصُّ الوثيقتين وارطقة نوفاتوس وانشقاق الرجل الملقب بالجزيل الطوبى ولايضاح القضية الاولى نقول. اعلم انهُ منذ وقت الاضطهاد المنوَّه عنهُ جحد الايمان والعياذ بالله كثيرون من المؤمنين خوفًا من شدة العقاب والموت غير ان بعضهم ارتدُّوا عنهُ جهرًا وبعضهم سرًّا اما هولاء فكانوا قد رشوا القضاة الوثنيين وبالرشوة اخذوا منهم شهادةً بانهم قدَّموا ذبيحةً للآلهة وتعبَّدوا للاوثان. واما القديس فكان قد وعظهم واوضح لهم جليًا ان اخذ هذه الشهادة انما هو مجرَّد نفاق فتندَّم كثيرون منهم على إثمهم. الآن شدة القوانين الكنائسية المفروضة على اصحاب تلك الشهادات كانت تصدُّ كثيرين عن الرجوع الى القطيع فكانوا يلتجئون الى الشهداء المحبوسين لاجل الايمان ومنهم كانوا يلتمسون رسالة شفاعةٍ للكنيسة لكي تصفح عنهم وتقبلهم في الاشتراك وتخفّف عليهم القوانين. فمن اجل شفاعة الشهداء واكرامًا لهم كانت الكنيسة تقبل اولئك المذنبين غير انهُ نشأ من ذلك على تمادي الزمن ضررٌ جسيم لانهُ بتراخي خدَّام الكنيسة كان كثيرون من اولئك يُقبَلون في الكنيسة ولا يُعرَض عليهم قانون ما حتى ان بعضهم كانوا يتاجرون برسائل الشفاعة المأخوذة من الشهداء ويبيعونها من الذين ما كانوا قدروا ان يأخذوا مثلها من اجل رداءة سيرتهم. فكتبت الكنيسة الرومانية الى القديس كبريانوس في استئصال هذه العادة القبيحة على حين كان هو ينبّه الناس على رداءتها بمواعظهِ. وكان حينئذٍ في قرطاجنة رجل اكليريكي متكبّر شرّير يقال لهُ فِليسيسيمِ اي الجزيل الطوبى وكان عدوَّ القديس كبريانوس منذ يوم ارتقائهِ الى مقام الحبرية فظنَّ ان قد حان الوقت الذي يريد فيهِ ان يوقعهُ عن كرسيهِ فاتحد مع خمسة كهنة كانوا قد ارتدُّوا عن الايمان في زمن الاضطهاد واختاروا واحدًا منهم اسمهُ فُرتوناتوس واقاموهُ اسقفًا على كرسي قرطاجنة

غير انهُ في غضون ذلك اذ سكن الاضطهاد سنة احدى وخمسين ومائتين بموت داسيوس رجع القديس كبريانوس الى قرطاجنة وعقد مجمعًا اقليميًا في شان مَنْ سقطوا عما نقدم ذكرهُ. فبعد ان فحصوا بالمجمع عن ذلك حكموا على الاكليريكيين الذين جحدوا الايمان بان يُحرموا الشرف الاكليريكي ويكونوا من عوامّ الناس حتى يتوفَّاهم الله. واما اصحاب الشهادات الوثنية فقبلهم المجمع بعد ان وضع عليهم قوانين. واما الذين جحدوا الايمان جهرًا فأمر المجمع بان يمارسوا افعال التوبة زمانًا طويلاً والاَّ يحلّهم احد الاَّ عند خطر الموت وذلك اذا ابتدأوا قبل المرض ان يمارسوا افعال التوبة وتكميل القوانين الكنائسية. ثم حرم الآباء ذلك الرجل الملقب بالجزيل الطوبى وحرموا ايضًا جميع اتباعهِ ومكسيموس الذي اقامهُ احزاب نوفاتوس أُسقفًا على مدينة قرطاجنة بعد ما فنّد القديس كرنيليوس تعاليم بدعتهِ برومية المكرَّمة. والحاصل انهُ في قليل من الزمان ردَّ القديس كبريانوس كل شيءٍ في ابرشيتهِ الى حال النظام

ولكن الكنيسة لم تسترح طويلاً بحيث قد تجدَّد الاضطهاد بامر غلُّوس قيصر وقُتل القديس كرنيليوس شهيدًا في السنة الثانية والخمسين بعد المائتين للمسيح كما مرَّ وكذلك القديس لوسيوس خليفتهُ في الكرسي الرسولي قد نُفي بامر المغتصب ومات بعد خمسة اشهر من انتخابهِ فجلس على كرسيّهِ القديس استفانوس. وفي السنة السابعة والخمسين بعد المائتين للمسيح ابتدأ والبريانوس الملك يضطهد الكنيسة وكان هذا الاضطهاد الثامن العمومي. وكان اسباسيوس حاكم قرطاجنة يومئذٍ عدوَّ المسيحيين فهذا لم يجسر على ان يمسك الاسقف القديس لجزيل اعتبارهِ من الناس فمن ثمَّ امرهُ بالخروج من المدينة فسكن سنة كاملة بمدينة اخرى تبعد عن قرطاجنة نحو خمسين ميلاً. فلما عُزل اسباسيوس عن منصبهِ وخلفهُ غاليروس مكسيموس رجع القديس الى قرطاجنة وسكن في بستان مع كثيرين من الاكليريكيين وبعض من اصدقائهِ وكانت الناس تقصدهُ من مدينة قرطاجنة ومن كل نواحي الاقليم ايضًا. فاشار عليهِ قومٌ من اصحابهِ ان يبتعد عن المدينة وذلك حذرًا من ان يمسكهُ الحاكم ويقتلهُ فلم يرتضِ القديس بهذه المشورة لان الله تعالى كان قد وعدهُ بان ينال اكليل الاستشهاد وقد كتب الى رعيتهِ ما نصهُ اني لما عرفت بقدوم جنود أُرسلوا ليمسكوني ويمضوا بي الى مدينة اوتيكا اختفيت لكوني رأيت ان الاصوب للاسقف ان يعترف بالسيد المسيح امام المغتصبين ويموت من اجل الايمان في مدينة اسقفيتهِ وهكذا يفرّح المؤمنين ويقوّيهم في الايمان

لان كلامهُ حينئذٍ يؤثر في قلوب الجميع ولهذا لستُ ابرح طالبًا من الله تعالى ان ينعم عليَّ بأن اموت شهيدًا امامكم بمدينة قرطاجنة لافادة نفوسكم وخير نفسي لكي نستطيع جميعنا ان نصعد الى السماء

ثم عرف الحاكم اين كان القديس مختفيًا وان كثيرين يفتقدونهُ فارسل وامسكهُ والقاهُ في سجن وفي الغد حكم عليهِ بقطع الراس غير ان الحاكم لم يُرد ان يُقتل في المدينة لاجل محبة الناس لهُ بل أمر ان يُقتل في مكان يبعد عنها ستة اميال اما القديس فلما سمع ان الحاكم قد حكم عليهِ بالموت لاجل كونهِ مسيحيًا هتف قائلاً اني اشكر الله وابارك لانهُ يخرجني من سجن هذا الجسد . وخرج من المدينة وتبعهُ جمٌّ غفيرٌ من المؤمنين باكين وقائلين بصوتٍ عالٍ لتقطع رؤوسنا مع رأس اسقفنا القديس . فلما رأى القديس كثيرًا من الفتيات والعذارى المسيحيات خرجنَ ليتباركنَ منهُ خاف عليهنَّ من الجنود الوثنيين الكثيري العدد فاوصى الشعب المسيحي بالاحتراس عليهنَّ وقد تعجب القديس اغستينوس منتهى العجب من فرط اهتمام هذا الاسقف الشهيد في حال كونهِ منطلقًا الى حيث تُرمى رقاب الشهداء . فلما انتهى الى المقتل خلع ثياب الحبريَّة وسلمها الى الشمامسة الانجيليين ثم اعطى خمس قِطع من الذهب لمن كان سيقطع هامتهُ وفيما كان المؤمنون ينوحون على موتهِ تقدَّم نحو السيَّاف وجثا على ركبتيهِ ثم قدَّم عنقهُ المقدس ففرش المؤمنون تحتهُ ثيابهم ومناديلهم لكي يأخذوا دمهُ ويحفظوهُ فقُطع رأسهُ وحينئذٍ تقدَّم الشعب واخذوا جسدهُ وحملوهُ بأتمّ ما يكون من الاكرام وفي ايديهم شموع متقدة مترنمين بالتسابيح ودفنوهُ بكل شجاعة غير مبالين بالحاكم لانهم جميعهم كانوا مستعدّين للموت . فعلى هذا النسق مات القديس كبريانوس الذي لقَّبهُ القديس ايرونيموس بالعلاَّمة الفصيح البارّ . والقديس اغستينوس بالشهيد المظفَّر المجيد والعلاَّمة الفريد

ثم اعلم انهُ نحو السنة الخامسة والخمسين والمائتين وقعت مجادلة كنائسية بين القديس استفانس البابا والقديس كبريانوس في صحة المعمودية التي تكون بايدي المبتدعين وقد اعتمدنا ان نذكر ابتداء الجدال ايضاحًا لحقيقة الامر فنقول . قبل ان يرتسم كبريانوس كان احزاب مونتانوس الانيكواني قد شرعوا يعمّدون ثانيةً الكاثوليكيين الذين كانوا لاغراضٍ دنيويَّة كما هو في ايامنا يزيغون الى مذهبهم الفاسد المضلّ وقد فعلوا هذا بغضًا للكنيسة الكاثوليكية وازدراءً بها ثم شرع بعض الاساقفة الكاثوليكيون يعمّدون ايضًا ثانيةً كل من اهتدى الى الكنيسة الكاثوليكية من بدعة المونتانيين وكان لهم سببٌ للشكّ والارتياب في صحة معموديتهم بما ان تبَّاع مونتانوس كانوا يعتقدون ان مونتانوس هو الروح القدس غير ان الاساقفة الكاثوليكيين في المشرق لم يقفوا عند هذه الحدود لانهم في مجمع معقودٍ بمدينة ايقونية أمروا بتعميد جميع الاراطقة ثانيةً من ايًّا مذهب كانوا وكانت الكنيسة تمسكت قبلاً وعلى الدوام بما يضادُّ ذلك . فتبع هذا الرأي بعضٌ من اساقفة افريقية وخصوصًا اغريبينوس اسقف قرطاجنة . ووجد القديس كبريانوس هذه العادة جاريةً لما ارتسم اسقفًا . فسألهُ قومٌ من اساقفة نوميديا عن هذه القضية فلما سُئل عن ذلك حينئذٍ عقد القديس مجمعًا اقليميًا بقرطاجنة فحكم المجمع المومأ اليهِ ان المعمودية التي تكون بايدي الاراطقة غير صحيحة . ولكن هذا الرأي لما اشتهر برسالة القديس سبَّب شغبًا في مدن واقاليم كثيرة فعقد مجمعًا آخر وفيهِ أثبت وأيَّد رأي المجمع الاول وكتب الى القديس استفانس البابا . اما الحبر الاعظم فاجابهُ برسالةٍ قائلاً لا يتغير شيء بل يُحفظ التقليد القديم

قلت نعم ان القديس كبريانوس لم يرجع للوقت عن رأيهِ لاعتبارهِ هذا الامر مجرَّد عادة جارية في الكنيسة لا تتعلق بالايمان ولكنهُ رفض هذا الرأي اخيرًا وقد شهد بذلك القديس ايرونيموس ويميل القديس اغستينوس جدًّا الى تصديق ذلك ثم يقول انهُ قد سمح الله بضلال هذا القديس لكي نعلم موقنين ان العقل البشري محدود وانهُ يجب على اعظم العلماء واحذقهم الاَّ يعوّلوا تمام التعويل على ما يظهر لهم من صحة آرائهم لكون عدم امكان الغلط امرًا مستحيلاً فكل البشر تحت مواقع الخطا والزَلل ولا سبيل الى النجاة من الغلط والضلال الاَّ بالخضوع لتعليم الكنيسة الكاثوليكية وحكمها على انهُ لو انفصل هذا القديس من الكنيسة وأصرَّ على خطائهِ لعُدَّ استشهادهُ باطلاً بل حُتم عليهِ الهلاك الابدي اجارنا الله واياكم من شرّ العاقبة

اليوم السابع عشر
وفيهِ ذكر جراحات السيد المسيح المرسومة في جسد القديس فرنسيس

ان الرب عجيب في جميع قديسيهِ كما قال النبي الاَّ ان النعم الخصوصية التي منحها بعضهم والعجائب الباهرة التي جرت على ايديهم لا ريب في انها تبدي لهُ تعالى اكثر مجدٍ . فمن هولاء الاولياء المعظمين القديس فرنسيس الكبير لان حياتهُ كلها انما هي سلسلة عجائب تظهر جلال جودة الله كما تبيّن مزيد برّ هذا الجليل . ومن النعم التي تفضَّل بها الله على القديس فرنسيس النعمة التي نالها في السنة الرابعة والعشرين والمائتين والالف

اعلم ان هذا القديس بعد تركهِ الرئاسة العامة على رهبانيتهِ وتقليدها للطوباوي بطرس الكاتَني انطلق فاختلى في جبل يقال لهُ جبل ألفِرنا ليصوم هناك كعادتهِ في كل سنة اكرامًا لرئيس الملئكة أربعين يومًا وكان قد بنى هناك كنيسة صغيرة وبعض قلالي ولم يأخذ معهُ الّا اون واحدًا من رهبانهِ وفيما هو يصلي في الكنيسة عند اقتراب عيد ارتفاع الصليب المقدس التهب قلبهُ بمحبة سيدنا يسوع المسيح المصلوب لاجلنا التهابًا لا يكاد يُنعت حتى انهُ كان يشتهي ان يكابد حبًّا لهُ تعالى أصعب التقشفات بل أشد الميتات . وفيما كان على هذه الحال اذا بملكٍ هبط من السماء بغتةً ووقف بازاءِ القديس مرتفعًا في الجوّ وكان لهُ ستة اجنحة منيرة ملتهبة كان اثنان منها فوق الراس واثنان ممتدّ ين للطيران واثنان يحجبان جسدهُ كلهُ . وأغرب من ذلك هو ان هذا الملَك كان يظهر مصلوبًا على خشبة ومسمَّرًا بيديهِ ورجليهِ فمن هذا المنظر العجيب مالت بالقديس عواطف المحبة والشوق الى التألم مع السيد المسيح وفيما كان قلبهُ يرتاح الى ذلك ارتياحًا بليغًا عرف بالهام الله ان الله عزَّ وجلَّ سيحقق املهُ ويبلغهُ مرادهُ لا بالاستشهاد ولا بايدي المغتصبين بل بلهيب المحبة . فاستحال القديس الى صورة الملَك الذي تراءى لهُ مصلوبًا ورأى جنبهُ مفتوحًا كأنهُ طُعن بحربةٍ وفي يديهِ ورجليهِ اربعة مسامير لحمية وكان يظهر في وسط كفهِ وفي رجليهِ راس كل مسمار . وكان يظهر احد المسامير من خلف ملويًا داخلاً في اللحم وكثيرًا ما كان يسيل من جرح جنبهِ دمٌ غزير

فتذكَّر القديس في ذلك الوقت قول الملَك رافائيل لطوبيا انهُ خيرٌ لهُ ان يكتم سرّ الملك . ولما كان اخفاء هذه الاعجوبة في غاية الصعوبة اضطرب القديس جدًّا ورأى ان لا بد من ان يستشير في ذلك بعضًا من اعلم رهبانهِ في الامور الروحية فاورد هذا الامر على وجه العموم كانهُ يسأل عما يخص غيرهُ ولكن احذقهم واكثرهم خبرةً لما نظر القديس يورد هذا الامر وتأمل حركاتهِ علم من ذلك ان القديس رأى رؤيا سماوية وان اتضاعهُ يلزمهُ بان لا يخبر بها فقال لهُ اعلم يا اخانا ان الله تعالى يكشف لك احيانًا اسرارهُ لا من اجلك فقط بل من اجل آخرين ايضًا فلا تدفن الوزنة المعطاة لك بل اجعلها مفيدةً للناس بكشفها لهم . فانقاد القديس لرأيهم وأخبرهم بالاعجوبة مفصَّلاً غير انهُ قال انهُ لا يمكن ابدًا ان يصف ما سمعهُ ممَّن تراءى لهُ . وأورد القديس بوناونتورا السبب في ذلك قال ان الاشياء التي سمعها كانت كالتي سمعها بولس الرسول التي لا يقدر ان ينطق بها لسان بشر . فاستمرَّ في خلوتهِ الى انتهاء صومهِ كانهُ ملكٌ ارضيٌ ولم يزل مضطرمًا بعواطف المحبة وبعد اربعين يومًا نزل من الجبل نظير موسى الكليم بوجهٍ مضيءٍ وبعد موت القديس شهد البابا اسكندر الرابع انهُ رأى هذه الجراحات قبل موتهِ وهكذا شهد كثيرون من رهبانهِ وأثبتوا شهادتهم بالقَسم اما بعد موتهِ فابصرها اناس كثيرون من العوام وشهدوا لها

وفيهِ ايضًا ترجمة القديسة إيلديغاردا البتول

قد شوَّش المبتدعون والمشاقون الكنيسة اعظم التشويش في القرن الثاني عشر غير ان الله تعالى المعتني بشرف رأسها السماوي اقام حينئذٍ أُناسًا في الكنيسة الكاثوليكية قديسين كثيرين منهم القديس برونو منشيء رهبانية الكرتوسيين والقديسون برنردوس وبطرس رئيس دير كلوني وتوما مطران مدينة كنتوربري والقديسة إيلديغاردا . فهذه القديسة المعظمة فريدة عصرها كان مولدها في السنة الثامنة والتسعين بعد الالف للمسيح باحدى قرى بلاد المانيا وابواها كانا من اشراف الاقاليم واسم والدها إلديبرتوس واسم والدتها ماتلدا وقد سلكت هذه الفتاة طريق العبادة منذ الصِغر ولما تامل والداها جزيل رغبتها في رياضات الفضيلة استنتجا من ذلك ان الله تعالى اختارها لتكون عروسًا لهُ فشكراهُ تعالى على ذلك ولما بلغت السنة الثامنة من عمرها فوّضا امر تربيتها

وارشادها في سبيل الصلاح عذراء فاضلة يقال لها بارّة كانت معتزلة عن الناس في دير فوق قمة جبل مع عدة عذارى كنّ يسترشدنَ بتعليمها ويُقمنَ معها

فشرعت الرئيسة الحكيمة تتأمل بنظرها ايلديغاردا فبناء على ما علمت من ان هذه الفتاة كانت قد تسامت في البرارة جدًّا ألبستها الثوب الرهباني قبل ان تتمّم السنة الثامنة من حياتها ولم تكن تأذن لها الاّ في قراءة المزامير ثم مرنتها على اسمى الفضائل وأجلّها اعني اماتة الذات وتناسي الخلائق كلها ومناجاة الله سبحانهُ فبعد زمن يسير عرفت الرئيسة ان ايلديغاردا لم تعد محتاجة الى تعليمها وارشادها وان لها مرشدًا سماويًّا الهيًّا يعلمها باطنًا لان الروح القدس كان قد تملّكها تملكًا تامًّا حتى انهُ لم يستطع شيء مخلوق ان يشغل عقلها او يلهيها عن مناجاة عروسها الالهي بحيث قضت كل حياتها في التأمل والامعان في الحقائق الابدية ولذلك كانت تُختطف بالروح احيانًا . ذلك ولا يُستغرب سخاء الله العظيم على هذه النفس النقية التي لم تكن تنكر عليهِ شيئًا مما يطلبهُ منها ولم يقترن بحبها لهُ حبُّ مخلوق البتة

ولكن الله سبحانهُ سمح مع ذلك كلهِ بان يعتريها مرض أليم متصل وقد طال عليها الى انتهاء حياتها بحيث انها لم تكن تقدر ان تمشي ولا ان تقف على قدميها واحيانًا كان يشتد عليها الألم كل الاشتداد حتى اوشكت ان تموت ولم يكن ينفعها دواء من الادوية فبقيت كانسان ليس لهُ سوى الجلد والعظام الاّ انهُ بمقدار ما كان يضعف الجسد كانت الروح تقوى . واعلم انها لم تكن تقتصر في احتمال المرض على الصبر بل كانت تشكر الله عليهِ وتحتملهُ بفرح ايضًا وقد تمّ فيها قول السيد المسيح ليس بالخبز وحدهُ يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله (متى ٤ : ٤) لان ماكلها كان كلاشيء . والظاهر انها كانت تحيا بالقربان المقدس

وقد زاد الله تعالى على هذه الاعجوبة اعجوبة أُخرى اعظم من الاولى وهي رؤيا سماوية متصلة لم تفارقها حتى الموت بها كشف الله لها أخفى اسرار ايماننا واهمّها ووهبها علمًا ساميًا بكل اسرار الحياة الروحية . فلما فحص اعظم علماء عصرها عن حقيقة الامر اعترفوا ان هذه آية من الله تعالى وحدهُ . وقد كانت هذه القديسة تعيش في خلوة الدير المبني على جبل كوسى النبي على طورسينا اعني في وسط لهيب المحبة الالهية متأملة في الله تعالى وحدهُ الذي كان يخاطب قلبها وينير عقلها وفي ذات يوم سمعت صوتًا باطنيًّا يأمرها بتحرير ما يكشفهُ تعالى لها بالرؤيا فطردت القديسة هذا الفكر كانهُ من روح العجرفة لانها كانت قد عزمت على الاختفاء عن كل الخلائق ولم تكن ترغب الاّ ان تكون غير معروفة من الناس الاّ انها لما سمعت مرارًا كثيرة الصوت والامر المتقدم ذكرهُ اضطربت ومع ذلك لم تذعن للامر الالهي وذلك لفرط ما كانت تستصعب اظهار ما أنعم الله عليها من المعارف والنعم الفائقة الطبيعة ومن ثمَّ عذّبها الله تعالى لاجل ذلك بمرض جديد شديد وحينئذٍ استشارت البتول كاهنًا قديسًا وبعضًا من علماء السيرة الروحية فكلٌّ منهم قال لها ان هذا الامر اتى من السماء . فلما تحقّقت القديسة ان الامر هو من الله تعالى اخذت وقتئذٍ تكتب ما نالتهُ فاشتدَّ للوقت جسمها وزال مرضها ولم يقف الامر عند هذا الحدّ بل لكي يُزيل عنها كل شكٍّ في حقيقة امر الله لها زادها تعالى حالاً اعجوبة أُخرى وهي انها مع كونها لم تكن تعلمت الكتابة شرعت تكتب خطًّا في غاية الحسن

فالّفت كتابًا متضمنًا كل ما رأتهُ من الرؤى والنعم منذ طفوليتها الى ذلك الوقت الذي كانت فيهِ اعني الى نحو السنة الاربعين من عمرها فابتدأت بكتابة رؤاها سنة احدى واربعين ومائة والف للمسيح وتممتهُ سنة احدى وخمسين ومائة والف ثم سلّمتهُ الى الكاهن القديس الذي كان قد حثها على تسطيرهِ اما الكاهن فقرأ الكتاب ثم سلّمهُ الى علماء السيرة الروحية وللاساقفة فقرّظوا كلهم ذلك الكتاب ومنهم القديس برنردوس الذي رام ان يفتقد هذه القديسة وبعد ان افتقدها في مدينة تريفري حيث كانت وقتئذٍ تعجب من مزيد برّها ومدحها جدًّا فيما بعد في العالم لكون اكثر الناس كانوا يضحكون من رؤياها ويعدُّونها تخيُّلات عقلٍ ساهٍ ولأن البابا اوجانيوس الثالث كان حينئذٍ في تلك النواحي طلب الناس اليهِ الفحص عن رؤيا هذه القديسة وان يحكم عليها فعمل ذلك في مجمعٍ كان قد عقدهُ هنالك وكان فيهِ من الكرادلة ثمانية عشر وكثيرون من الاساقفة ورؤساء الاديرة فتقدم القديس برنردوس ومطران مدينة موغنسا وأثبتا بادلّة مقنعة حقيقة رؤيا القديسة وفضائلها اما الحبر الاعظم فلم يسرع الى الحكم بل ارسل اسقفًا وكاهنًا جليلاً وجماعة من العلماء الروحيين ليتكلموا مع القديسة ويفحصوا

عن روحها وكيفية عبادتها فبعد ان مضوا اليها اسهب الاسقف الكلام معها امام بقية المرسلين وسألها كثيرًا فاجابته إيلديفاردا عن كل شيء باتضاع وبساطة وحكمة اندهش منها الحاضرون وتحققوا انها مسترشدة حقًا من الروح القدس ثم اخبروا بذلك البابا أوجانيوس فأمر بقراءة الجزء المكتوب وقتئذٍ من كتاب رؤيا القديسة في المجمع وقرأهُ هو وحدهُ ايضًا والجميع حكموا انهُ قد كُتب بروح الله وعند ذلك اثبت البابا الكتاب بل انهُ بمشورة القديس برنردوس كتب اليها رسالةً حثها بها على الثبات في الفضيلة وتسطير كل ما تراهُ من الرؤى وما تنالهُ من المواهب السماوية

والحاصل انهُ بواسطة هذا الامر اشتهر اسم القديسة ايَّ اشتهارٍ ومنذ ذلك اليوم كان الناس يجيئون من كل جهةٍ الى الدير ليطلبوا صلواتها ويستشيروها في قضايا كبيرة مهمَّة وقد ترهَّب عندها جماعة كثيرة من العذارى الشريفات وذوات المقام السامي وبما ان الدير الذي كانت فيهِ الرئيسة ضاق عنهنَّ بنت ديرًا آخر عظيمًا وأدخلت فيهِ راهباتها وحينئذٍ اتباعًا لمشورتها تمسَّكنَ بقوانين رهبانية القديس برنردوس. هذا وان مباشرتها الامور الدنيويَّة مع دوام تعلُّقها بالله سبحانهُ لمن اغرب الامور واعجبها وقد كانت على اهتمامها بسياسة راهباتها الكثيرات نظير مريم المجدلية في اتصالها بالمولى ومثل مرتا في قضاء امور أُخر خارجية وذلك مع كونها معذَّبةً باوجاع مرضٍ أليمٍ كأوجاع من هي مشرفة على الموت. ومع هذا جميعهِ لم تزل تدبّر كل شيء باهتمام بليغ وتقبل الجميع وتكلمهم بكمال الحلم والوداعة وتصنّف كتبًا كثيرة مفيدة جدًّا فضلاً عن الرسائل المتعدّدة التي بعثت بها الى اناسٍ كانوا يطلبون منها إمَّا تسليةً في مصائبهم او برهانًا تنقطع بهِ شكوكهم وكان من اولئك الطالبين البابوات اوجانيوس الثالث المذكور وادريانوس الرابع واسكندر الثالث وملوك النمسا وكثيرون من الاساقفة وبطريرك اورشليم ايضًا واكثر علماء كنيسة الله

اعلم ان هذه القديسة نفعنا الله بشفاعتها لم تكن شيئًا عند نفسها مع كل ما كان لها من الاعتبار والاكرام عند اكابر الناس واشرافهم وان كنت في ريبٍ مما قرَّرناهُ في هذا الشان اقرأ ما كتبتهُ في رسالةٍ بعثت بها الى راهبٍ قديس حيث تقول: اني لا ازال على خوفٍ عظيم من قِبل عجزي وعدمي لأن الله سبحانهُ لا يزال يُريني بانوارهِ هُونة عدمي ويبيّن لي شدة حقارة نفسي وكوني غير اهل لنعمهِ ولكني ارفع يديَّ نحوهُ تعالى كجناحَين وحينئذٍ يهبّ نحنهما نسيم نعمتهِ جلَّ جودهُ وأَجد نفسي وقتئذٍ قويَّة بقوة نعمتهِ. فهذه حالي منذ طفوليتي حتى الآن التي فيها بلغت السنة الثمانين من الحياة. وقد عاشت هذه القديسة اثنتين وثمانين سنة ورقدت بالرب في اليوم السابع عشر من شهر ايلول في السنة التاسعة والسبعين بعد المائة والالف للمسيح

اليوم الثامن عشر

وفيهِ ترجمة القديس يوسف كوبرتينو

وُلد يوسف ديزا في اليوم السابع عشر من شهر حزيران سنة ثلاثٍ وستمائة والف للمسيح بكوبرتينو مدينة صغيرة بابرشية ناردو وموقعها بين برندزا واترنتة على ستة اميال من جهة خليج ترانتة وكان ابواهُ فقيري الحال غير انهما كانا تقيين فاضلين ولقباهُ منذ ذاك بكوبرتينو وهو المكان الذي وُلد بهِ اما والدتهُ فربتّهُ على عواطف الورَع والتقوى ولكنها كانت تتصرَّف معهُ بما عظم من العنف والقساوة وتناقشهُ في العقوبة على اخفّ زلَّةٍ ومن ثم عوَّدتهُ على عيشة قاسية وذات امانة فابدى منذ صِغرهِ نشاطًا خارق العادة. وكان كل ما فيهِ يدلُّ على انهُ ذاق عذوبة التعزيات السماوية. هذا وثابر على خدمة الله ولبس المسح الخشن وقهر جسدهُ بتقشفات مختلفة في السنّ الذي لا يروم المرء فيهِ الاَّ اللذَّة وعلّمهُ ابواهُ حِرفة السكافة التي مارسها مدةً

ولما بلغ السنة السابعة عشرة من عمرهِ طلب من الآباء الفرنسيسكانيين ان يقبلوهُ في رهبانيتهم حيث كان لهُ عمَّان مشهوران في تلك الرهبانية فمع ذلك لم يقبلوهُ لانهُ لم يكن قد تعلَّم العلوم. ولكن كل ما استطاع ان ينالهُ انما هو قبولهُ عند الرهبان الكبوشيين بصفة أخٍ خادمٍ ولكنهم بعد ثمانية اشهر لابتدائهِ طردوهُ كأنهُ غير اهلٍ لدعوتهِ لكنهُ لم ينفر بل بقي قاصدًا ان يترهب. والحاصل ان الفرنسيسكانيين اخذتهم الرأفة عليهِ فقبلوهُ في ديرهم المسمى المغارة الصغيرة لوجود معبدٍ فيهِ تحت الارض على اسم سيدتنا مريم البتول وهذا الدير قريب جدًّا من مدينة كوبرتينو ونذر القديس نذور الرهبانية بعد ان قضى وقت الابتداء على معظم

النشاط وقُبل كأخٍ خادمٍ بين المنذورين لله من الرتبة الثالثة واقاموهُ اول الامر على ادنى خِدَم الدير فقام بها حق القيام وضاعف اصوامهُ وتقشفاتهِ وكان يواظب على الصلاة ولا ينام الا ثلث ساعات في الليل وقد جرَّ اليهِ اتضاعهُ ولطافة اخلاقهِ وحبهُ للامانة وتقديم الكفَّارة احترامًا كبيرًا. فمن ثمَّ جُزم في المجمع الاقليمي الملتئم في ألتامورا سنة خمس وعشرين وستمائة والف بقبولهِ بين رهبان الخورس ليستعدَّ للدرجات المقدسة

ذلك وان يوسف المنوَّه بهِ طلب ان يبتدئ ثانيةً فابتعد عن الناس اكثر من ذي قبل ليتفرَّغ للتأمل في الله سبحانهُ على نوعٍ اكثر خلوصًا وكان يعتبر نفسهُ كخاطئٍ كبير ويفتكر انهُ ما أُلبس الثوب الرهباني الاعلى سبيل المحبة وهذا قد جعلهُ يحتمل بسكوتٍ وفرحٍ التوبيخات العنيفة على زلاَّت لم يرتكبها وكان يطيع ويُجري أصعب ما يُؤمَر بهِ. وبالنتيجة ان فضائلهُ صيَّرتهُ موضوعًا لتعجُّب الجميع وارتسم كاهنًا سنة ثماني وعشرين وستمائة والف للمسيح وقدَّس اوَّل مرة بعواطف ايمان ومحبة واحترام يعجز القلم عن وصفها واختار لنفسهِ قلاَّية منفردةً مظلمةً مزعجةً وكثيرًا ما كان يذهب يصلّي في المعابد التي قلما يتردَّد اليها الناس لكي يتجرَّد بملءِ حرّيتهِ الى استيفاء التأمل. وعرَّى نفسهُ من جميع ما منحهُ اياهُ القانون ولما رأى انهُ على تمام التجرُّد قال وهو ساجدٌ امام صورة المصلوب ياسيدي ها اني قد تجرَّدت عن جميع الاشياء المخلوقة فكن خيري الوحيد وأناشدك اني اعتبر كل خير سواك نظير خطرٍ مبينٍ وكهلاك نفسي

وقضى خمس سنوات بعد ان رقي درجة القسوسة لا يأكل خبزًا ولا يشرب خمرًا وانما كان يغتذي كل ذلك الزمان بالبقول والاثمار اليابسة واما البقول التي كان يأكلها كل يوم جمعة فكانت كريهة الطعم الى الغاية حتى ان احدًا غيرهُ لم يستطع ان يمسها. واما امساكهُ في الصوم الكبير فكان اشدَّ فانهُ قد بقي سبع سنين لا يتناول قوتًا الاَّ ايام الخميس والآحاد بل كان يبقى على القربان المقدس الذي يتناولهُ كل يومٍ وكان يظهر وجههُ كل صباح اصفر الى الغاية ثم يصير بعد التناول أحمر ناضرًا. وتعوَّد ان لا ياكل لحمًا بحيث ان معدتهُ لم يبقَ لها استطاعة على هضم اللحم. هذا وان رغبتهُ في الامانة جعلتهُ يخترع وسائط مختلفة للتقشُّف فأبتلي مدة عامين باتعاب داخلية ذاق منها عذابًا غريبًا واعقب الاضطراب اخيرًا هدوٌ وسلام

ولما انتشر الخبر بانهُ خُطف وعمل آيات ومعجزات تبعهُ الشعب افواجًا وهو يجول في اقليم باري وشقَّ ذلك على نائب الاسقف العام فتشكى الى قضاة نابولي الدينيين فاحضروا يوسف فتبيَّن لهم انهُ بريء فاطلقوا سبيلهُ. وقدَّس بنابولي في كنيسة القديس غريغوريوس المختصَّة باحد اديرة الرهبان ولما تمت الذبيحة الالهية خُطف بالروح كما شهد فيما بعد كثيرٌ من الشهود العيانيين في دعوى اثبات قداستهِ فارسلهُ القضاة الروحيون الى رئيسهِ العام في رومية فقابلهُ بنشوفةٍ ثم بعث بهِ الى دير اسيسيا ففرح القديس فرحًا عظيمًا بسبب ما كان عندهُ من الاكرام لرئيس رهبانيتهِ القديس فرنسيس. اما حافظ ذلك الدير فعاملهُ كذلك بنشوفةٍ. وكانت برارتهُ مع ذلك تشتهر اكثر فاكثر وأشهر الناس كانوا يبدون شوقًا حارًا الى ان يروهُ. فوصل الى أسيسيا سنة تسع وثلثين وستمائة والف وبقي هناك ثلث عشرة سنةً وكابد اول الامر اتعابًا ومشاق داخليَّة وخارجية فكان يدعوهُ الرئيس غالبًا خبيثًا ويُبدي نحوهُ قساوةً عظيمةً. هذا ومن جهة أُخرى ظهر ان الله قد تركهُ فاقترنت رياضاتهُ بنشوفةٍ كدَّرتهُ وقد سلَّطت عليهِ داء السوداء من قبل الاشباح النجسة التي كانت تتراءى لهُ والتجارب الهائلة حتى كأنهُ لم يعد يتجاسر ان يرفع طرفهُ. ولما استعلم الرئيس العام عن الحالة السيئة التي كان عليها دعاهُ الى رومية وأبقاهُ هناك ثلثة اسابيع ثم ارسلهُ الى دير أسيسيا

وفيما كان مسافرًا الى رومية احسَّ بان قد رجعت اليهِ التسليات السماوية التي وُهبت لهُ فيما بعد بغزارةٍ اكثر من ذي قبل. وكان كمن يغيب عن الهدى عند ذكر اسم الله وحدهُ واسم يسوع او مريم وكان يصرخ قائلاً تكرَّم يا الهي واملأ وامتلك كل قلبي فتقدر نفسي ان تحلَّ من رُبط الجسد وتتحد بيسوع المسيح. يايسوع يايسوع اجذبني اليك فلا اقدر بعدُ ان ابقى على الارض. وكثيرًا ما كانوا يسمعونهُ يحثُّ الغير على ان يحبُّوا الله عزَّ وجلَّ قائلاً لهم أحبُّوا الله فمن تملَّكت فيهِ هذه المحبة فهو غنيٌّ ولو لم يشعر بذلك. وكانت اختطافاتهُ كثيرة وخارقة العادة وكثيرًا ما حدثت لهُ جهرًا وعاين ذلك جمٌّ غفير من اماثل الناس وشهدوا بحقيقة ذلك بقَسَمٍ ومن هولاء الشهود يوحنا فريدريك امير

برونسويك وهانوفر . اعلم ان هذا الامير الذي كان لوثريًا وقع في قلبهِ ما رآهُ احسن موقع واثَّر فيهِ كل التأثير حتى انهُ رفض البدعة ودخل في حضن الكنيسة الكاثوليكية . وكان ليوسف مزيَّة ممتازة في ردّ اقسى الخطأة واكبر الأثمة الى التوبة ولاطمئنان النفوس التي تعاني اتعابًا داخلية اعتاد ان يقول للموسوسين الذين كانوا يأتون اليهِ لا يُريد الرب الوسواس ولا المرّة السوداء فلتكن نيَّتك مستقيمةً ولا تخف شيئًا . وكان يفسّر أغمض اسرار الايمان باجلى بيان حتى يجعلها على نوعٍ ما مدركةً حسًّا . وكان قد حصل على المعارف السامية التي كانت تُلاحَظ فيهِ بواسطة مناجاة الله القلبية في الصلاة

ان الحكمة التي اظهرها في سياسة النفوس جذبت اليهِ جمًّا غفيرًا من الناس حتى من الكرادلة والامراء . فانباً يوحنا كزمير بن سيجيسموند الثالث ملك بولونيا بانهُ سيملك يومًا ما لاجل خير الشعوب وتقديس نفوسهم واشار عليهِ ان لا يتقيَّد برهبانيةٍ من الرهبانيات وهذا الامير بعد دخولهِ عند اليسوعيين نذر هناك نذور تلاميذ الرهبانية لكن اذ اقامهُ البابا اينوشنسيوس العاشر كردينالاً أرجعهُ يوسف عن العزم على الارتقاء الى الدرجات المقدسة . فتمَّت نبوة القديس لان اولاديسلاس بكر سيجيسموند سلَّم روحهُ في السنة الثامنة والاربعين من القرن السابع عشر فانتُخب يوحنا كزمير ملكًا على بولونيا لكنهُ استعفى فيما بعد ورجع الى فرنسا حيث قضى أجلهُ في السنة الثانية والسبعين من القرن السابع عشر فهذا الامير نفسهُ بيَّن تفاصيل القضية التي رويناها

اعلم ان العجائب التي جرت على يد القديس يوسف لم تكن اقلَّ رونقًا مما آتاهُ الله سبحانهُ من بقية المواهب الخارقة العادة فكم مريضٍ نال الشفاء بصلاتهِ . ذلك ولما اخذتهُ الحمى في مدينة أزيمو في اليوم العاشر من شهر آب في السنة الثالثة والستين من القرن السابع عشر تنبأ ان وفاتهُ قد اقتربت وتناول القربان المقدس ليلة موتهِ وهو زاد المؤمن الراحل الى الابدية ثم دُهن بالزيت المقدس

وكانوا يسمعونهُ غالبًا مكرّرًا هذه النوافذ التي كان يُلقّنهُ اياها قلبهُ المضطرم حبًّا اشتهي ان تُحَلّ نفسي من رُبُط جسدي لتتحد بالمسيح فلنشكر ونحمد الله ولتتمّ ارادة الله . يا يسوع المصلوب اقبل قلبي وأوقد فيهِ نار حبك . هذا وانتقل الى جوار ربّهِ في اليوم الثامن عشر من ايلول سنة ثلث وستين وستمائة والف للمسيح وكل عمرهِ ستُّون سنةً وثلثة اشهر ووُضع جسدهُ في الكنيسة وزارتهُ المدينة كلها باحترام . ثم دُفن في معبد الحبل بلا دنس وبما ان قوة فضائلهِ كانت مختبرةً وحقيقة عجائبهِ مؤكَّدةً طوَّبهُ البابا مبارك الرابع عشر سنة ثلث وخمسين وسبعمائة والف وكتب اسمهُ البابا اكليمنضوس الثالث عشر في سفر القديسين سنة سبع وستين وسبعمائة والف للمسيح وأدخل البابا اكليمنضوس الرابع عشر فرض عيد هذا القديس في كتاب الفرض الروماني

اليوم التاسع عشر

وفيهِ ترجمة القديس جانواربوس الشهيد ورفقائهِ

وُلد القديس جانواربوس بمدينة من اعمال ايطاليا يقال لها بينيفَنتو (١) نحو نصف القرن الثالث اما عن حداثتهِ فلم ينقل لنا المؤرخون شيئًا ولكن يُحتمل انهُ كان من أعلم واتقى اكليريكيي المدينة المنوَّه بها وبعد ما استأثرت رحمة الله باسقفها أُقيم اسقفًا هناك باتفاق الشعب والاكليريكيين على انهُ رفض قبول الاسقفية اول الامر تمام الرفض ولم يزل هكذا حتى جاءهُ امر من قِبل الحبر الاعظم فحينئذٍ ارتضى بها فعند جلوسهِ على الكرسي ظهر للخاص والعام في كل الابرشية مزيد اعتناء الله بها باقامة هذا الراعي عليها في زمن الاضطهاد بما انهُ شرع للوقت يباشر اعمال الابرشية بغيرة وشجاعة ومحبة عجيبة ولم يكتفِ بافتقاد خرافهِ الذين في بيوتهم بل كان يخرج ايضًا خارجًا ويطوف البراري ليفتقد الذين كانوا يستوطنونها لاجل شدة الاضطهاد وكان يعزّيهم ويقوّيهم ويُعينهم بكل ما كان يصل اليهِ امكانهُ فتعجب الوثنيون من براراتهِ المقرونة باخلاق حميدة وطباع مرضية واجتذب منهم كثيرين الى النصرانية

وفيما كان القديس يطوف المدن ليقوّي الشعب المضطهَد دخل مدينة ميسانا ووجد هناك شماسًا قديسًا يقال لهُ سوسيوس كان يخدم هذه الكنيسة وفي حين قراءتهِ الانجيل

(١) حاشية . تجادل اهل بينيفنتو واهل نابولي على مولد القديس فارتأى كل منهم انهُ مولود بمدينتهِ . ذهب العلماء الى ان الارجح انهُ وُلد بنابولي . راجع ما ادرجهُ في هذا المعنى البلاّنديستيون في مقدمتهم لترجمة القديس في الفصل الرابع والخامس

المقدس رأى القديس جانواريوس لهيبًا حول هامتهِ فاستنتج من ذلك انهُ سيموت شهيدًا وما لبث ان تمَّ ذلك لانهُ بعد ايام قليلة ارسل الحاكم الاقليمي دراكنسيوس وامسكهُ فلما مثل امامهُ واجابهُ عن كل ما سُئل عنهُ من جهة الديانة المسيحية تعجب المغتصب من ذكاء عقل الشماس ولطفهِ واحتشامهِ فاطال في الكلام معهُ باذلاً كل جهدهِ في ان يستميلهُ الى المذهب الوثني. ولما رأى الشهيد ثابتًا في الايمان معترفًا بالسيد المسيح مزدريًا بكل ما قدَّم لهُ من الخيور الزمنية وما توعَّدهُ بهِ من العذاب الشديد أمر بتعذيبهِ فللوقت ضربوهُ بالسياط ضرب الوحوش وفي اثناء ذلك جرّوهُ باطرافهِ بكل قوّتهم ورضّضوا عظامهُ بألم عظيم وبحيث ان القديس كان يكابد هذه كلها بسرور وبشاشة ارسلهُ الى مدينة بوزول ليعذبهُ هناك ثانيةً. فلما عرف المؤمنون بقدوم القديس سوسيوس خرجوا حالاً وافتقدوهُ في السجن ومنهم الشماس بروكولوس واوتيكوس واوكوسيوس وهما رجلان عالميّان فقبض عليهم الحاكم المذكور وضُربوا ايضًا بالسياط ثم أُلقوا في السجن مع القديس سوسيوس

فلما درى بذلك القديس جانواريوس افتقدهم في السجن مرارًا كثيرة. وفي هذا الزمن عُزل الحاكم دراكنسيوس وانتصب مكانهُ تيموتاوس ولما وصل الى مدينة نولا قال لهُ قومٌ من الوثنيين ان جانواريوس بسحرهِ يردُّ المسيحيين عن عبادة الالهة وانهُ مضى الى مدينة بوزول ليقوّي في ايمانهِ الذين سُجنوا هناك بامر دراكنسيوس فامر تيموتاوس حالاً بان يُمسك القديس ولما ابصرهُ استشاط عليهِ وامرهُ ان يجحد النصرانية ويقرَّ بعبادة الاوثان وقانا الله واياكم وبحيث ان القديس رفض امرهُ ولم يبالِ بغضبهِ حكم عليهِ بان يُطرح في اتون ملتهب فألقوهُ في وسط اللهيب وحينئذٍ جدَّد الله تعالى الاعجوبة التي فعلها بالثلثة الفتية لانهُ عزَّ من قادر احال النار لدى القديس الى ندًى بهج مبرّد ولم يمسَّهُ اللهيب اصلاً. فاستولى الاندهاش والذهول على كل المحفل وتحيَّر المغتصب غير انهُ نسب هذه المعجزة الى قوة السحر الشيطاني فأمر بترضيض عظامهِ واعصابهِ ثم حملوهُ الى السجن

فلما وصل هذا الخبر الى نصارى مدينة اسقفية القديس حصل لهم بذلك حزنٌ عظيم ومنهم فسطوس الشماس ودِيدِريوس القارىء الاكليريكي فسافرا حالاً وأتيا باسم كل المؤمنين ليخدما القديس فوصلا الى مدينة نولا وعند وصولهما قُبض عليهما وقُدِّما للحاكم فسألهما عن ديانتهما وسبب سفرهما فقالا لا انهما مسيحيان خادمان اسقفهما القديس جانواريوس وانهما اتيا ليسعفاهُ في ضيقهِ ويشتركا معهُ في العذاب والموت لاجل السيد المسيح. فلما سمع المغتصب قولهما هذا اغتاظ جدًّا وامر بان يُربَطا بسلاسل ويمضيا هما والقديس جانواريوس امام عجلتهِ وهو سائر الى بوزول ولما وصلوا هنالك القاهم في السجن حيث كان الشهداء المتقدم ذكرهم. وعما قليل حكم على كل اولئك الشهداء ان يُقدَّموا طعامًا للوحوش المفترسة

فخرجوا جميعهم من السجن وقال القديس جانواريوس لرفقائهِ هلموا يا اخوتي الاحبّاء لنمضي بفرح الى ميدان الانتصار مقدّمين حياتنا حبًّا لابن الله الذي بذل نفسهُ ليربح لنا حياة الابد. انهُ جلَّ جلالهُ ارسلني الى هنا لكي يكون الراعي امام خرافهِ وأُرسلتم انتم الى حيث انا كي لا يتقدّم الاسقف نفسهُ ذبيحة لله بدون خدَّام المذبح فلا نبالِ بالعذاب ولنكن أُمناء في خدمة ربّنا والهنا الى آخر الحياة. فساروا في الشوارع وأمارات الفرح وعلامات الابتهاج تتلألأ على وجوههم وتبهج كل من يراهم. فدخلوا ميدان الوحوش وكان اهل المدينة كلهم حاضرين ثم اطلقوا عليهم أُسودًا ونمورًا وغيرها من الوحوش الضارية التي كان قد أُمسك الطعام عنها منذ ايام كثيرة فخرجت الوحوش بزئير مرعب غير انها لما دنت من الشهداء وقفت جميعها عند ارجلهم وشرعت تحرّك اذنابها وتلحسهم بألسنتها ككلاب مستأنسة فامتلأ الحاضرون تعجبًا وصرخ كثيرون منهم قائلين لا اله الاّ الاله الذي تعبدهُ النصارى فخاف المغتصب من ان يتعصّب الشعب فامر بقطع رؤوس القديسين في المدينة

فخرج الشهداء من ميدان الوحوش سالمين ولما وصل الاسقف القديس الى منبر الحاكم طلب من الله تعالى ان يظهر نفاقهُ ويضربهُ بالعمى لكي تستنير بصائر الشعب بعماهُ ويتنصّروا فعمي تيموتاوس من ساعتهِ وحينئذٍ انتبه على ضلالهِ وتحقق جلال قدرة عبيد السيد المسيح. فقال للقديس جانواريوس اسألك يا عبد الاله الضابط الكل ان تتضرَّع من اجلي لكي يرجع اليَّ البصر الذي فقدتهُ لاجل خطاياي فصلى القديس من اجلهِ وطلب من سيدنا يسوع المسيح ان

يظهر قدرتهُ الغير المتناهية بردّ النظر الى هذا الحاكم فللوقت عاد الى تيموتاوس بصرهُ كما كان وبهذه الاعجوبة تنصّر خمسة آلاف من الوثنيين. اما تيموتاس فخاف من انهُ اذا اطلق القديسين يسقط عن منصبهِ العالي وينتقم الملك منهُ فامر جنودهُ سرًّا بان يقطعوا رؤوس الشهداء عاجلاً وفيما هم ذاهبون الى المقتل تقدم شيخ مسيحي الى القديس جانواريوس وخرَّ على قدميهِ وطلب منهُ شيئًا ما يستعملهُ لكي يحفظهُ في بيتهِ فقال لهُ القديس ليس لي شيء غير هذا المنديل الذي بهِ ينبغي ان اكفَّ عيني قبل قطع رأسي لكنني اعاهدك اني اسلمك اياهُ بعد موتي فلما وصل الشهيد الى المقتل وضع القديس جانواريوس منديلهُ على وجههِ وقال نحو السيد المسيح الهي اليك أُسلم روحي فقطع السيَّاف رأسهُ حالاً وهكذا تمّ الامر برفقائهِ وكان ذلك في اليوم التاسع عشر من شهر ايلول في السنة الخامسة من القرن الرابع للمسيح فدفنهم المسيحيون في مقام قريب من موقع استشهادهم ونحو السنة الاربع مائة للمسيح انتقل جسد القديس جانواريوس الى نابولي

وقد اراد الله سبحانهُ ان يشرّف هذا القديس بعد موتهِ باعجوبة وهي ان دمهُ المحفوظ في قنينة كلما قرب من هامتهِ في عيد القديس يحمى للحال ويغلي ويصير رائقًا كانهُ جارٍ في عروقهِ ولم يزل الناس كلهم يرون هذه الاعجوبة في مدينة نابولي الى يومنا هذا ويشهدون لها

ومن العجائب التي مجّد الله تعالى بها قبر هذا القديس تخليص سكان نابولي مما يقذفهُ جبل فزوفيو حيث لا يخفى ان الناس قاطبةً يعرفون هيجان ذلك الجبل الذي هو على ثمانية اميال من مدينة نابولي ورآهُ الناس عدّة مرارٍ يقذف كميَّة مذهلة من الرمل والرماد والحجارة الملتهبة التي كانت تسقط على ما هو ابعد من تلك المدينة ومرةً أُخرى خرج من ذلك البركان نوعٌ من السائل الكبريتي والملح وحجارة كلسية ومواد أُخر محترقة كماءٍ مائعة وحفر قناة وجاز الوادي الى البحر مخربًا القرى التي على ممرهِ ومرّ غالبًا بمسافة قريبة جدًّا من نابولي. قيل انهُ في الجيلين الخامس والسابع غطت العواصف الرمادية الناشئة عن مفعول هذا القذف السماء من نابولي الى القسطنطينية فاخذ الخوف سكان هذه العاصمة الشرقية واما اهل نابولي فصلّوا الى شفيعهم ولم تذهب صلاتهم بلا فائدة واختبروا مفاعيل حمايتهِ خصوصًا سنة خمس وثمانين وستمائة في رئاسة البابا مبارك الثاني وتملُّك السلطان يوستينيانوس الشابّ فتذكارًا لذلك وضع اليونان عيدًا تكريمًا للقديس وزيّاحَيْن احتفاليَّين في السنة. فمدينة نابولي التي هي على نوع خصوصي معترفةٌ بفضلهِ لتخليصهِ اياها من الانقذافات التي حدثت سنة احدى وثلثين وستمائة والف وسنة ثماني وتسعين وستمائة والف وسنة سبع وسبعمائة والف وفي هذه السنة الاخيرة زُيّح صندوق ذخائر القديس في المعبد الذي في سفح جبل فزوفيو فكفَّ القذف للوقت ثم تبدَّد الضباب وظهرت النجوم ليلاً تضيءُ متألقةً في السماء

اليوم العشرون

وفيهِ ترجمة القديس أُستاكيوس الشهيد ورفقائهِ

لئن هذه الترجمة مملوءَة عجائب وغرائب (١) اراد الله تعالى ان تظهر بها شدة عنايتهِ ووفور رحمتهِ. فاعلم اذًا ان القديس أُستاكيوس سُمي اولاً بلاسيدوس وزعم الكردينال بارونيوس انهُ هو الذي ذكرهُ يوسيفوس اليهودي في تواريخهِ واخبر انهُ كان من قواد عسكر الرومانيين في حصار اورشليم وقدَّم للملك فسباسيانوس ولتيطس ابنهِ خدمًا معتبرة والخلاصة انهُ لم يكن قبيح السيرة كباقي عبدة الاوثان بل كان حسن الطبع وطويل الاناة والسريرة وكان كَرَمهُ على الجنود والمحتاجين قد جعلهُ لدى العسكر الحبيب المكرَّم. فبعد انتهاء محاصرة اورشليم وهدمها رجع الى رومية واتفق انهُ ذهب ذات يومٍ وحدهُ للصيد واذا بأيّل وقف بازائهِ وبين قرنيهِ صورة سيدنا يسوع المسيح المصلوب وسمع صوت هاتفٍ يقول ما قالهُ تعالى لشاول يا بلاسيدوس لماذا تضطهدني اعلم اني انا يسوع المسيح الذي بذل نفسهُ عنك وأُريد الان ان اخلص نفسك. فخرَّ بلاسيدوس على

(١) حاشية. لا شك في استشهاد القديس أُستاكيوس وامرأتهِ واولادهِ غير ان اخبار حياتهم والعجائب المتضمنتها ترجمتهم اليونانية فمن العلماء من يحامي عن صحتها ومنهم من يرفضها باجمعها ومنهم من يشك في اكثرها (راجع البلاّنديستيين في مقدمتهم لترجمة القديس في الفصل الاوَّل) ونذكر هنا مختصر الترجمة المنوَّه بها ونقول ان اسماءهم اشتهرت جدًّا في العالم كلهِ غربًا وشرقًا وان بيعة الله كلها تكثر من اكرامهم وقد بُنيت على اسمائهم كنيسة برومية العظمى بالقرب من مدرسة الحكمة

الارض مضطربًا ثم قال ماذا تريد يارب ان اصنع فقال تعالى ادخل المدينة واطلب الكاهن معلّم المسيحيين فهو يعلّمك ويعمدك وامرأتك وبنيك ثم ارجع الى هنا وانا اعلمك ما ينبغي لك ان تفعل. فقام بلاسيدوس ليتمّم ما امرهُ بهِ تعالى وبعد ما تعلّم من الكاهن المسيحي اخصّ قواعد النصرانية اعتمد مع اهل بيتهِ وسمي بالمعمودية أُستاكيوس وامرأتهُ تاسيانا دُعيت تاوبِسْتا وابنهُ البكر سُمي اغابيوس والثاني تاوبِسْتوس. ثم عاد الى المكان الذي عينهُ لهُ الله ولما وصل الى هناك جثا على الارض وصلّى وطلب من سيدنا يسوع المسيح ان يُنجز وعدهُ فيعلمهُ اوامرهُ فتراءى لهُ المخلّص ومدحهُ على ما فعل وقال لهُ ان الشيطان سيجرّبك كما جرَّب ايوب البارّ لانك سوف تخسر كل اموالك وتؤخذ منك امرأتك وابناك وتصير الى شقاء ليس في الدنيا اعظم منهُ فلا يفشل قلبك لاني ساقوّيك بنعمتي عند المصائب والمحن الشديدة واجازيك مائة ضعف فكن امينًا فاكلّلك باكليل الاستشهاد

فقبل أُستاكيوس هذه النبوة بخضوعٍ واستعدّ للتجارب وأعدّ اهل بيتهِ لها وفيما هم يسيرون في طريق الفضيلة حدث بغتةً مرضٌ وبائيٌ أمات كل ما لهم من البقر والغنم والخيل والعبيد ثم قطع الملك عنهُ وظيفة منصبهِ ولما رأى اصدقاؤهُ او بالحري اصدقاء اموالهِ وكرامتهِ انهُ قد افتقر أعرضوا عنهُ فبارك أُستاكيوس ربَّهُ على هذه كلها هو وامرأتهُ وابناهُ وذلك لا بمجرَّد الصبر بل بابتهاجٍ عظيم حتى ان الوثنيين كانوا يتعجبون منهم. غير انهُ لما رأى الناس جميعهم قد تركوهُ ولم يبقَ لهُ في رومية صديق ولا مُعين عند الضيق خرج منها باهل بيتهِ وركبوا سفينةً قاصدين المشرق وفيما هم سائرون على البحر أضرم الشيطان في قلب الربان رئيس السفينة عشقًا شديدًا لتاوبِسْتا العفيفة فلما وصل الى اراضي افريقية اخرج من المركب أُستاكيوس وابنيهِ وتركهم هكذا على الشاطئ وسار على البحر بتاوبِسْتا فحصل لهم بذلك عظيم غمٍ وكدرٍ غير انهُ لم يزل يبارك الله على تدبيرهِ الذي لا يُفحص عنهُ فسلّم أُستاكيوس امرأتهُ الى العناية الالهية وشرع يسير مع ابنيهِ في البريّة الغير المسلوكة ولأن ابنيهِ اعييا من تعب الطريق حملهما على منكبيهِ واستمرّ ماشيًا بقلب مطمئنٍ راضيًا بما يشاءهُ الله فوصل الى نهرٍ واسعٍ عميق واذ لم يقدر ان يقطعهُ وهو حامل الاثنين حمل واحدًا وخاض النهر وترك الآخر على الشاطئ ولما وصل الى الجهة الاخرى وضعهُ هناك وعاد ليأخذ الآخر وفيما هو في وسط النهر وثب اسدٌ على احد ابنيهِ ومن الطرف الآخر وثب ذئبٌ على الآخر واخذاهما فطفق القديس أُستاكيوس يصرخ نحو الله تعالى بقلب ممزّق من الحزن لكنهُ غير مقاوم لارادة الله ويقول الهي انك انت اعطيتني اياهما وانت اخذتهما فليكن اسمك مباركًا فها انا قد بقيت وحدي فدبّرني كيف شئت

ثم دخل القديس باديسا قريةً بافريقية فقدّم ذاتهُ لفلاّحٍ غني ليخدمهُ واحتمل اهانة هذه الخدمة واتعابها بصبرٍ واتضاعٍ كان يُزيدهما في قلبهِ بتأملهِ المتصل بآلام سيدنا يسوع المسيح وبقي على هذه الحال خمس عشرة سنة وحيث ان الله تعالى كان يبارك على خدمة القديس أخصبت حقول الفلاّح فكان ذلك الفلاّح يقول انهُ بواسطة أُستاكيوس قد وجد كنزًا. اما الله عزَّ وجلّ فلم يهمل امرأتهُ وابنيهِ لان رئيس المركب لما رأى تاوبِسْتا لا تزال ذارفة الدموع ليلاً ونهارًا ما تجرّأ على ان يمسّها بل ان الله جلّت قدرتهُ انتقم منهُ لانهُ بعد اختطافهِ اياها بيومين ادركهُ الموت فلما وصل المركب الى البرّ خرجت تاوبِسْتا سالمةً من كل دنس فقدَّمت نفسها ايضًا للخدمة ومثل هذا الاهتمام الابوي اهتمّ الله سبحانهُ بابنيها لانهُ فيما كان الاسد والذئب يحملانهما للافتراس ركض وراءهما قوم من الفلاحين وانقذوهما من انياب الوحوش واعتنوا بتربيتهما بمحبة ومع ان والديهما لم يكونا بعيدَين عنهما استمرّا خمس عشرة سنة ولم يخبرهما احد عنهما

فبعد ان اختبر الله تعالى فضيلة القديس أُستاكيوس بهذه التجارب الشديدة المديدة أحبَّ ان يشرّفهُ ويعزّيهُ بردّهِ اليهِ كل ما كان قد سلبهُ اياهُ وقد تم الامر على هذه الصورة وهو انهُ بعد موت الملك نيرفا جلس تراجانوس على عرش المملكة سنة ثماني وتسعين وهذا كان قد اختبر شجاعة القديس أُستاكيوس الذي كان يُدعى قبلاً بلاسيدوس وامتحن درايتهُ في الحرب فلما رأى انهُ على خطرٍ من قِبل كثرة البرابرة اعداء الرومانيين ارسل اناسًا يطلبونهُ في كل المملكة لكي يأتوا بهِ ليتولّى قيادة الجيش فوصل اثنان من المرسلين الى القرية التي كان فيها القديس فلما عاينهما عرفهما بحيث كانا من جنودهِ اما هما فلم يعرفاهُ لان هيئتهُ كانت قد تحوّلت الى هيئة

فلاَّح ثم شرعا يتكلمان في حال مخاطبتهما مع اهل بيت الفلاَّح عن بلاسيدوس وقصد الملك فيهِ ومدحا ايضاً امرأتهُ تاوبستا فتذكَّر حينئذٍ القديس مصائب اهل بيتهِ واشتدَّ عليهِ الحزن وكانت الدموع تجري من عينيهِ فتفرَّس فيهِ احد المرسلين ثم قال لرفيقهِ سرًّا ما اشبه هذا الفلاَّح ببلاسيدوس وقد ثبتا على هذا الظن لما وجدا على عنقهِ سمة الجرح الذي كان انجرح بهِ قدامهما في احدى الحروب ومن هذه العلامة استدلاَّ على علامات أُخر بها تحقَّقا انهُ هو بلاسيدوس بلا شبهةٍ فسألاهُ عن حقيقة الامر واستحلفاهُ بان ينطق بالحق وفيما يطلبان هذا منهُ كان القديس مختليًا في باطنهِ مستشيرًا الله تعالى على امرهِ فأُوحي اليهِ ان يُظهر نفسهُ للمرسلين ويمضي معهما ليسعف المملكة في ضيقها فاقرَّ حينئذٍ بالحق وذهب الى الجهة الشرقية حيث كان حينئذٍ تراجانوس

فلما وصل هشَّ لهُ الملك تراجانوس ورحَّب بهِ واقامهُ قائدًا للجيش الروماني ثم سافر لمقاومة الاعداء وظفر بهم جميعهم وكان الملك قد امر بان كل قريةٍ من بلاد الشرق تقدّم رجالاً لجيش الملك فمن ثمَّ وجد فيهِ اغابيوس وتاوبستوس ابنا القديس وقد اراد الله جلَّ شأنهُ ان يكتتبا اثناهما في كتيبة واحدة وان يسكنا في خيمة واحدة . فاتفق انهُ سأل ذات يوم احدهما الاخر عن وطنهِ وعن ابوَيهِ وحوادث حياتهِ وفيما كان ذلك يورد خبر حياتهِ لأخيهِ الذي لم يكن يعرف انهُ هو اخوهُ وذكر انهُ بعد ان اباهُ كان قد عبر نهرًا باخيهِ الصغير ورجع يقطع النهر ليأخذهُ هو فبنقلهِ ايضًا على الشاطىء اختطف اسد اخاهُ وبعد هُنيهة وثب عليهِ ايضًا ذئبٌ واخذهُ فلما سمع هذا اخوهُ نهض واعتنق اخاهُ بفرح لا يوصف وقال لهُ انا هو ذاك الذي اختطفهُ الاسد وخلصني منهُ الفلاح ثم شرعا يوردان كل خبر حياتهما

فشاع خبر هذه الحادثة العجيبة في المعسكر كلهِ ومن ثمَّ اذ كان احد القوّاد في احدى البيوت اورد هذا الخبر العجيب وكانت تاوبستا هناك فلما سمعت ذلك تخالج في صدرها انهُ ربما يكون هذان الجنديان ابنيها وابوهما زوجها فطلبت من الجندي ان يقدمها للقائد فلما مثلت امامهُ قالت لهُ اني ارغب الى عزَّتك ياسيدي ان ترحمني انا المرأة المبتلاة بشقاء عظيم لاني من شريفات رومية وفي يوم واحد خُطف مني زوجي وابناي منذ نحو ست عشرة سنة ولم ادرِ ما جرى لهم فاسألك ان تأمر بان يُفتَّش عنهم في الجيش لعلَّهم يُوجدون فيهِ واسم الكبير اغابيوس واسم الآخر تاوبستوس وعمر الاول اثنتان وعشرون سنةً وعمر الثاني احدى وعشرون سنةً وفيما كانت المرأة تقصُّ خبرها كان القائد زوجها ينظر اليها وقد عرف من عينيها انها تاوبستا فسألها كيف خُطف زوجكِ منكِ فاخذت تبكي ثم اوردت لهُ كيف انزل رئيس المركب زوجها وابنيها على شاطىء بحر افريقية فتحقق أُستاكيوس وقتئذٍ انها هي امرأتهُ فدعا من ساعتهِ اغابيوس واخاهُ وسألهما عن قصَّتهما فاتى كل منهما بما يخصُّهُ فعرف القائد انهما ابناهُ وتحنن قلبهُ الابوي وقال لهما هذه هي والدتكما ثم قال لتاوبستا وانا زوجكِ فاخذوا كلهم يحتضنون بعضهم بعضًا ويبكون من كثرة فرحهم ويشكرون الله سبحانهُ الذي بعد ان تفرَّقوا بعضهم عن بعض جمعهم هكذا باعجوبة حكمتهِ فتعجَّب الجنود كلهم وفرحوا

ثم عاد العسكر الى رومية بعد ان ظفر بالاعداء وكان قد تُوفي تراجانوس الملك وجلس مكانهُ ادريانوس وقد رام هذا الملك ان يقابل قائد الجيش المظفَّر مبديًا لهُ ولامرأتهِ ولابنيهِ جزيل الاكرام فاوصى اولاً بتقدمة ذبيحة عظيمة للآلهة شكرًا لانتصار الجيش فلما تمَّت التقدمة لم يحضرها القائد القديس استدعاهُ الملك وسألهُ عن عدم حضورهِ تقدمة الذبيحة فقال لهُ القديس أُستاكيوس انني انا مسيحي وانني ارفض عبادة الآلهة الكثيرة. فلما سمع ذلك ادريانوس الملك عزلهُ حالاً عن منصبهِ والقاهُ في سجن هو وامرأتهُ وابنيهِ وفيما كانوا في السجن زارهم جميع عظماء المدينة وأفرغوا جهدهم في ان يجذبوهم الى عبادة الاوثان لكي يحفظوا حياتهم وكرامتهم . ولما لم يذعنوا لامر الملك حكم عليهم ان يُقدَّموا فريسةً للوحوش الضارية فلما ادخلوهم الى الميدان تقدَّموا بشجاعةٍ وسرور غير ان الوحوش لم تمسهم بل جلست عند ارجلهم ككلاب انيسة وهذه الاعجوبة اضرمت في قلب الملك نار الغضب والقساوة عليهم فمن ثمَّ اخترع لهم عذابًا لم يكن سُمع بمثلهِ ورام ان يفزّع بهِ جميع المؤمنين وهو انهُ ادخل القديس وامرأتهُ وابنيهِ في بطن ثور من نحاس ثم امر بان تُوقد تحتهُ النار فأُوقدت فقضوا أجلهم ونالوا اكليل المجد الابدي بهذا العذاب الاليم وذلك في اليوم العشرين من شهر ايلول في السنة الثامنة عشرة بعد المائة للمسيح

اليوم الحادي والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس متى الانجيليّ

ان هذا القديس وُلد بقانا الجليل حيث صنع السيد المسيح الآية الأولى بان حوّل الماء خمرًا وكان عشّارًا والعشارون هم الذين كانوا يجبون عند اليهود الجزْيَة من قبل القياصرة الرومانيين ومن ثم كانوا مُبغضين جدًّا من اليهود بل كانوا بمنزلة الخطاة والوثنيين لان هذا الشعب بما انهُ شعب الله كان يريد ان يكون معفيّ من دفع الجزْيَة للامم. وقد كان للقديس متى اسم آخر وهو لاوي بن حلفى وبهذا الاسم يدعوهُ بقيَّة الانجيليين بحيث لا يُستدل من هذا الاسم على وظيفتهِ المكروهة. اما القديس فلم يُبالِ بهذا بل ذكر اسمهُ على الدوام متى لانهُ بهِ كان معروفًا في كل اليهودية

وكان جالسًا عند مكان الجباية خارج مدينة كفرناحوم في الطريق المؤدية الى الميناء حينما اجتاز من هناك السيد المسيح ووقف بازاء جباية متى واحدق بهِ عينيهِ وبنظرهِ الضابط الكل بدَّد عنهُ كل شر لانهُ تعالى كما قال القديس ايرونيموس بنظرهِ هذا انتصر على كل ما من الشرّ بقلب ذلك العشار المحب المال ومن ثمَّ لما قال لهُ رب القلوب اتبعني قام حالاً وترك كل شيء وتبع المسيح وتتلمذ لهُ علانيةً. وصنع لهُ وليمة في بيتهِ وكان هناك جماعة كثيرون من العشارين وانما اراد بذلك ان يظهر لهم توبتهُ ويجذبهم ايضًا الى التوبة بمشاهدة يسوع واستماع تعليمهِ الخلاصي. وقد استغرب هذا الفريسيون والكتبة بل تذمروا عليهِ قائلين لتلاميذهِ لماذا معلمكم ياكل مع العشارين والخطاة فقال لهم يسوع ان الاصحاء لايحتاجون الى طبيبٍ لكن المرضى. لم آتِ لادعو الصدّيقين الى التوبة لكن الخطاة

فهذا الرسول المعظم بعد صعود السيد المسيح الى السماء استمر في اليهودية ثلث سنين منذرًا اليهود بالايمان مع بقية الرسل فلما ازمع الانتقال الى الاقاليم البعيدة طلب منهُ المؤمنون من اليهود ان يكتب لهم الانجيل المقدس فكتبهُ باللغة التي كانت دارجة في ذلك الوقت بين اليهود وهي اللغة المركبة من السريانية والكلدانية ثم ترجمهُ الى اليونانية احد المؤمنين ولما وُجد جسد القديس برْنابا بجزيرة قبرس في السنة الثامنة والثمانين بعد الاربع مائة رأى الحاضرون على صدرهِ هذا الانجيل مسطّرًا بيدهِ

هذا واعلم ان الراي المعوَّل عليهِ عند جمهور العلماء هو ان القديس متى بعد خروجهِ من اليهودية مضى الى اقرب بلاد الحبش من جنوبي بلاد مصر وهي المسماة الان ببلاد سنعار وروى القديس اكليمنضوس بطريرك الاسكندرية الذي كان قريبًا من عصر هذا الرسول انهُ كان يمتنع عن اكل اللحم والسمك ولا ياكل الاَّ البقول والحشائش ولما وصل الرسول الى مدينة نادابير حيث كان الرجل العظيم في بلاط ملكة الحبشة وهو الخصي الذي عمدهُ القديس فيلبُّس فرحَّب بهِ الخصي وفرح بقدومهِ وقد صادف الرسول في هذه المدينة ساحرين كانا خدعا الشعب بحيلٍ شيطانية فطفق القديس يكشف للشعب خباثتهما وبطلان افعالهما الخياليَّة فمن ثمَّ عزما على الانتقام منهُ ومن الشعب الذي رذلهما وبواسطة السحر جذبا الى المدينة تنينين هائلي النظر فتقدم القديس وصلَّب وبذلك استأنسا وصارا كأنهما حماران ثم ارجعهما الى كهفهما ثمَّ صنع آيةً أعظم من هذه لانهُ في غضون ذلك ماتت احدى بنات ملكة الحبش فدعا الملك الساحرين ليقيماها من الموت فافرغا في ذلك ما عندهما من قوة السحر الشيطاني فلم تقُم الابنة فاتى القديس متى وطلب جهرًا من سيدنا يسوع المسيح ان يقيمها من الموت فحالاً نهضت الابنة حيَّةً معافاةً فلما رأى الملك هذه الاعجوبة آمن بالسيد المسيح هو وكل حاشيتهِ وجانب كبير من رعيتهِ

وقد اتفق ذات يوم ان القديس كرز امام اهل بيت الملك في شان العفَّة وفي انتهاء العظة تقدمت اليهِ اكبر بنات الملك وكان اسمها إِفجينيا ونذرت بين يديهِ البتولية ومثلها فعل كثيرٌ من البنات ثم اجتمعنَ كلهنَّ في تلك المدينة التي كانت قبلاً متعبدةً كلها للشياطين غير انهُ بعد موت الملك اختطف اخوهُ المملكة ليثبت على العرش الملوكي واراد ان يتزوَّج بإِفجينيا ولية العهد اما هي فبعد اتخاذها ابن الله عروسًا لها رفضت كل زواج مع أعظم ملوك الارض فارسل الملك الجديد المدعو يرتكوس واستدعى القديس متى وطلب منهُ ان يلزم تلميذتهُ بالزواج فاخذ الرسول يُثبت البتول في عزمها ونذرها وخرج ليقدّم ذبيحة القداس وفي انتهائها دخل الجنود المرسلون من الملك وضربوهُ بقساوةٍ وقتلوهُ ولقبهُ

القديس ابوليتوس بذبيحة البتولية وعاضد العذراء. وكان بقي الرسول يكرز في بلاد الحبش ثلثًا وعشرين سنةً واقام فيها كنائس كثيرة وقد خبّرنا القديس اكليمنضوس ان القديس متى اجرى في الكنيسة عادة استعمال الماء المصلّى

وبعد موت القديس الرسول افرغ الملك الدخيل كل جهدهِ في ان يجذب افيجينيا الى التزوُّج بهِ واستعمل لذلك اعمال الساحرين لكن ذهب كل تعبهُ سدًى واذ كان فاصدًا قتل البتول اعتراهُ مرض عضال لم يقدر احد على شفائهِ فاعتراهُ الجنون وقتل ذاتهُ فتخلصت منهُ افيجينيا وعاشت عيشة مقدسة وماتت ميتة صالحة ويذكر اسمها السنكسار الروماني في اليوم الحادي والعشرين من شهر ايلول

اليوم الثاني والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس موريسيوس ورفقائهِ الشهداء

ان القديس موريسيوس كان قائدًا في عسكر الملك ديوكليسيانوس وكان تحت يدهِ ستة آلاف وستمائة جندي وجميع هولاء الجنود الذين كان يترأس عليهم كان يطلق عليهم اسم الفرقة الصعيدية اشارةً الى انهم كانوا كلهم من بلاد الصعيد ولم يكن في كل المعسكر نظيرهم في الشجاعة ومن ثمَّ كان لهذه الفرقة شان عظيم جدًّا في جميع اطراف المملكة وكان الملك قد اقامهُ للمحافظة على بلاد سورية وفلسطين وكان من قوّادهم اكسوباريوس وكنديدوس

وفيما كان موريسيوس ساكنًا اورشليم اراد ان يُكلّم اسقفها الشريف (١) فلما اجتمع بهِ شرع الاسقف يبيّن لهُ طهارة الديانة المسيحية وعظَمة اسرارها ولما استوفى الكلام على ذلك بحسب ما سمحت لهُ الفرصة اقبل على تفنيد الاعتقاد بوجود آلهةٍ كثيرة وخطأ السجود للاوثان وبيّن فساد قواعد هذا المذهب الملتوي وفيما كان الاسقف يسهب الخطاب في هذا المعنى انتبه موريسيوس الى الحق كانتباه من قام من النوم ورأى انهُ قد زاغ عن الطريق فشكر الله تعالى على ما انعم عليهِ بهذا النور نور الحق والخلاص فطلب من الاسقف ان يعلّمهُ حقائق النصرانية ثم عمّد وبعد هذا الكلام الطويل خرج موريسيوس وجمع اشرف قواد فرقتهِ وكلمهم بفصاحة وحرارة عجيبة بكل ما سمع فتنصّروا جميعًا على يدهِ واعتمدوا كلهم معهُ نفعنا الله بشفاعتهِ ثم اخذوا يعلمون بقية الجنود فبارك الله على غيرة هولاء الرسل الجنود بما ان الفرقة كلهم آمنوا بالمسيح واعتمدوا

وسنة مائتين وست وثمانين اضطرمت نار حرب شديدة على الرومانيين في نواحي بلاد غاليا فاستدعى ديوكليسيانوس الملك الفرقة الصعيدية انجادًا لعسكرهِ وفوّض قيادة الجيش الى مكسيميانوس شريكهِ في تدبير امور المملكة فمكسيميانوس كان يشنأ المسيحيين ويبغضهم بغضة ليس اشد منها. فخرج القديس موريسيوس من الشرق ومضى بجنودهِ الى بلاد ايطاليا بحسب امر الملك ولما وصل الى رومية افتقد الحبر الاعظم وكذا فعل بقية جنودهِ ووعدوهُ بانهم يفضّلون ان يسفكوا دماءهم حبًّا بالمسيح على الاستحياء من الاعتراف بهِ تعالى وبانجيلهِ المقدس. فلما خرج مكسيميانوس بالعسكر خرج معهُ موريسيوس وفرقتهُ المظفّرة وحينما وصل الى مكان من بلاد غاليا يقال لهُ اليوم مَرتيناك وكان قديمًا مدينة معتبرة تدعى اوكتودوروم وهي على شاطئ نهر الرون في شمالي بحيرة جنيفا قصد مكسيميانوس الملك ان يُقدّم ذبيحةً للآلهة وأمر كل الجنود ان يحضروا هذه الذبيحة الوثنية الدنسة اما القديس موريسيوس واكسوباريوس وكنديدوس فلما سمعوا هذا الامر خرجوا حالاً ببقية الفرقة من وسط العسكر لئلا يشتركوا في العبادة الوثنية وابتعدوا منهُ نحو ثلث ساعات الى شرقي مرتيناك في جبال اغون

فلما شعر مكسيميانوس الملك بذلك ارسل وسال القديس موريسيوس عن سبب خروجهِ من المعسكر ولما عرف من المرسَل ان القديس وفرقتهُ جميعهم مسيحيون تعجب من ذلك واندهش واستشاط غضبًا عليهِ ثم امر بان يُقتل منهم واحد من كل عشرة وجعل ذلك بالقرعة فتقدم كل منهم ليموت عن الآخر فبعدما قُتل منهم المقدار المعيَّن من الملك وعرف انهم جميعهم قدموا انفسهم للموت بسرور من اجل ايمانهم أوغر ذلك صدرهُ وزاد التهاب غضبهِ فأمر ايضًا بان

(١) حاشية. يحتمل ان يكون هذا الاسقف هيمنوس سالف زابدا بما انهُ كان معاصرًا الشهداء المذكورين (راجع المجلد الثالث من شهر ايار من كتاب البلّانديستيين في الوجه الرابع عشر وفي حواشي ترجمة هولاء الشهداء

يُقتل ثانيةً واحد من كل عشرة وفي انتهاء قتلهم قالت بقية الفرقة انهم مستعدون لمثل هذا الموت السعيد وانهم يشتهونهُ بمزيد الشوق. اما القديس موريسيوس فقال لهم حينئذٍ اني اسرّ يارفاقي الباسلين الاعزّاء غاية السرور عند مشاهدتي رغبتكم هذه في اراقة دمائكم حبًّا بسيدنا يسوع المسيح وابارك هُ تعالى لانهُ عزّزكم وشدّد بأسكم وأولاكم شجاعةً اعظم من ان تصل اليها طبيعة الانسان وقد كان في وسعكم ان تقاوموا طالبي نفوسكم ظلمًا وتفتكون بهم الاّ انكم تذكّرتم مشورة ابن الله الذي ينهانا عن مقاومة الشر بالشر واردتم ان تتمثّلوا بهِ عزَّ وجلَّ فقدّمتم انفسكم للذبيحة كخرافٍ وديعةٍ. ثم التفت القديس موريسيوس الى الجنود المرسَلين من مكسيميانوس وقال لهم اذهبوا واخبروا الملك بما قد رأيتم وسمعتم اي أعلموهُ ان الذين قتلتموهم بعلَّة انهم مسيحيون يرفضون عبادة اوثانكم قد قبلوا الموت بسرورٍ اعظم من ابتهاج مَن يتكلل بتاج ملوكي بعد انتصارهِ في الحرب وان ما بقي من الفرقة فكلهم بلا استثناء مستعدّون للموت ومرتاحون اليهِ من اجل الايمان المسيحي. قال هذا ثم هتف الجميع اننا مسيحيون نرذل ذبائحكم وعبادتكم للاوثان ومن اجل ايماننا نرغب في ان تُهريق دماءنا

فانطلق الجنود واخبروا الملك مكسيميانوس بما كان فارجعهم حالاً الى تلك الفرقة وامرهم ثالثةً ان يقتلوا واحدًا من كل عشرة فقتلوا ثم تقدّم اكسوبريانوس واحدٌ من كبار قواد الفرقة وعلى يدهِ رايةٌ وهتف نحوهم قائلاً اني اتيتكم يارفاقنا الاحبّاء بهذه الراية لا لكي تتسلحوا وتحاربوا اعداءكم بل لاحثكم على حربٍ يتمّ بها الانتصار بمجرّد الصبر. انظروا اخوتنا المقتولين من اجل الايمان فبالصبر ظفروا ونالوا اكليل المجد الابدي وهم الآن يضرعون من اجلنا لكي نشترك معهم في سعادتهم فلنقدّمنّ للملك هذا المعروض ومضمونهُ اننا نُعلم جلالتكم اننا جنودك وعبيد الله معًا وبهِ نعترف جهرًا فنحن ملتزمون لك بالجندية ومن اجلها نأخذ منك الأجرة الزمنية اما إلهنا ربُّ الكل فاننا ملتزمون لهُ بعبادةٍ منزّهة عن النفاق ومنهُ جلّت قدرتهُ اتخذنا الحياة الزمنية ونرجو حياةً أُخرى ابدية فمن المستحيل ان نطيع اوامرك المقاومة اوامرهُ تعالى لانهُ هو مولانا الاول بل هو مولاك ايضًا وربُّك شئتَ او ابيتَ ومن ثم فلا نبالي بالموت من اجلهِ فارسل من يقتلنا جميعنا لاننا مسيحيون ومن اجل السيد المسيح وانجيلهِ المقدس نرغب في ان تُذبَح كلنا

فلما قرأ مكسيميانوس ذلك المعروض أمر بان تُقتل الفرقة عن آخرها فأنفذوا امرهُ وقتلوهم كلهم واذا بجندي يقال لهُ فيكتور وصل الى ذلك المكان ولما رأى الارض مصبوغةً بالدم وعرف سبب موت الشهداء صرخ قائلاً ياليتني كنت وصلت الى ههنا قبلاً فلو تمّ لي ذلك لكنت اشتركت في انتصارهم. فسألوهُ هل انت مسيحي فقال اي نعم فعلى الفور قطعوا رأسهُ في اليوم الثاني والعشرين من شهر ايلول في السنة السادسة والثمانين بعد المائتين للمسيح الاّ ان البلاّنديسيين احسنوا ادراج استشهادهم في السنة الثالثة بعد الثلث مائة للمسيح

ذكر القديس اوكاريوس اسقف ليون في خبر استشهادهم الذي كتبهُ بعد مائة وخمسين سنة لوفاتهم المباركة انهُ لما كان القديس تاودوروس اسقف اوكتودوروم يبني كنيسةً على اسم هؤلاء الشهداء وبقي احد الفعلة لكونهِ وثنيًّا يشتغل في البناء يوم احدٍ فظهر لهُ بغتةً الشهداء في نور سماوي وبكّتوهُ على اصرارهِ على الضلال الوثني وتوعّدوهُ بالهلاك الابدي ان لم يعتنق الايمان القويم فاضطرب الفاعل من هذه الرؤيا وطلب المعمودية

اليوم الثالث والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة تقلا البتول الشهيدة

ان القديسة تقلا العذراء الوضيَّة التي تمدحها بيعة الله شرقًا وغربًا هي الاولى بين الشهيدات كما ان القديس استفانس هو اوّل الشهداء وهي قدوة الفتيات المسيحيات خصوصًا العذارى. وُلدت بايقونية مدينة شرقية وابواها من عَبَدة الاوثان ولم يُذكر عنهما شيءٌ وبما انها كانت ذات عقل ثاقب وشديدة الرغبة في العلوم عيّن لها والداها معلمين ماهرين ولكنها فاقتهم علمًا وكان علمها النادر الوجود مقترنًا بجمال بارع. هذا وقد خطبها رجلٌ شريف الاصل وكانت تقلا على هذه الحال حينما خرج القديس بولس من انطاكية ووصل الى مدينة ايقونية وبشّر هناك بالانجيل المقدس ولما تكاثر المؤمنون وانتشر اسم الرسول اشتهت هي ان تراهُ وتسمع تعليمهُ فمضت الى حيث كان الرسول يعلّم وكثيرًا ما ابتهجت عند ما بيّن لها

سموّ النصرانية واوضح عدل وصاياها الطاهرة ثم تاقت الى ان تخاطبهُ فلما رآها عرف حالاً ان الله اختارها لخدمتهِ وتقديس اسمهِ فعلّمها بتمام الاهتمام زمانًا طويلاً وآمنت نقلا بالمسيح ايمانًا متينًا فارتاحت نفسها الى البرّ اي ارتياح فنذرت لله بتوليتها لكي تكون متعبّدةً لسيدنا يسوع المسيح احسن تعبُّد وشرعت تسلك في طريق اكمل الفضائل الانجيلية ولما رأت الرسول مرشدها مسجونًا لكونهِ مسيحيًا باعت من ساعتها ما لها من الحلي الثمينة لكي تغيثهُ في ضيقهِ. هذا ما رواهُ القديس يوحنا فم الذهب حيث قال للشعب القسطنطيني في مقالتهِ الخامسة والعشرين على اعمال الرسل ها ان القديسة نقلا في ابتداء تنصرها قدمت ما عندها من الجواهر على وجه الاسعاف لبولس الرسول وانتم القدماء في هذه الديانة والمفتخرين بالاسم المسيحي لا تساعدون المسيح بشيءٍ تتصدَّقون بهِ على الفقراء

وكانت القديسة نقلا تقضي زمانها منفردةً ومناجيةً الله جلَّ شانهُ ومتأملة قضايا الشريعة الانجيلية وبحيث ان التغيير الباطن لابد ان يظهر سريعًا في الخارج سألتها أُمها من اين لكِ هذا الاحتشام الجديد وكيف أَنفتِ ورفضتِ التزيُّن بالحلي خلافًا لجميع العذارى وأَلفتِ الوحدة والانفراد والصلاة فقالت لها تلك الابنة الحكيمة اني منذ سمعت تعليم الديانة المسيحية استنرت بانوار حقائقها الساطعة وتحققت بطلان عبادة الاوثان فاسأَل الله ان يصنع بكِ كما صنع بي ويمزّق عن عينيكِ برقع الغباوة وينجيكِ من هذه العبادة التي توصلكِ الى جهنم وبئس العاقبة . ثم اعلمي يا امي اني نذرت عفّتي لله تعالى نذرًا دائمًا وبناء على ذلك فمن المستحيل ان ارتبط مع احد بالزواج . فلما سمعت والدتها هذا الكلام خرجت للوقت من البيت واخبرت خطّيب ابنتها بكل ما قالت لها نقلا فاخذ اثناها وكل الاقارب يفرغون كل جدٍّ في ان يُرجعوا القديسة عن عزمها بحفظ البتولية واذ كانوا كل يوم يضيّقون عليها خرجت من بيت امها لتذهب الى القديس بولس فجعلها في مكان امين الاَّ ان خطيبها لما عرف بهربها قبض عليها واتى بها وبامها الى الحاكم طالبين منهُ ان يلزمها بالتزوُّج وترك الديانة المسيحية . ولما رآها الحاكم مصرَّة على عزمها مع توعُّدهِ لها قال لها اذهبي مع امكِ الى هيكل آلهتنا وقدّمي معها ذبيحةً للاوثان والاَّ فتُطرحين في النار . اجابت البتول بشجاعة مقرونة بالاحتشام اني لا آمن الاَّ بالاله الواحد خالق الجميع ورب الكل لا اله سواهُ واما آلهتكم فما هم الاَّ اصنام شيطانية وحاشا لي ان اعبد هذه الآلهة الكَذَبة فهل من اله غير المسيح فلهُ وحدهُ اسجد واياهُ أُحبُّ اما آلهتكم فهم اعمال ايديكم فاني احتقرهم وارذلهم وابغضهم ويعجز ان يفصلني عن عبادة السيد المسيح الذي احبهُ اكثر مما احب نفسي كل عذاب مهما كان شديدًا فلا اخاف النار ولا السيف ولا بقية آلات العقوبات . فظنَّ المغتصب ان كلام البتول انما هو ناشيءٌ عن العجرفة والغباوة وخطر لهُ انها تغيّر عزمها متى رأت النار متقدة فاضرموا امامها نارًا عظيمةً ثم تقدموا ليلقوها في وسطها اما هي فعملت علامة الصليب المقدس ودخلت من تلقاء نفسها في وسط اللهيب فلم تمسها النار البتة وهطل بغتةً مطر غزير مع ان السماء كانت صاحيةً واما الناس ففرُّوا هاربين فلم تحرق النار شيئًا من ثيابها حتى ولا شعرةً واحدةً من شعرها

ثم دخلت بيت احد المسيحيين واقامت زمانًا ممارسةً آناء الليل واطراف النهار رياضات العبادة وشاكرةً الله جلَّت رحمتهُ ومستعدةً للاستشهاد . وفي غضون ذلك جاء الى المدينة حاكم جديد فلما عرف ما كان من امر نقلا أَمر باحضارها ولما مثلت امامهُ سأَلها هل هي مسيحية فاجابتهُ اي نعم اني مسيحية وقالت هذا بحرّيةٍ مقدسة امام اعيان الأُمم واليهود . فامر الحاكم حينئذٍ ان تُقدَّم البتول الى ميدان الوحوش الضائرة واجتمع الشعب حول الميدان ثم اطلقوا الوحوش ودخلت القديسة الميدان بشجاعة وسرور ولما رأَت الوحوش أَتت نحوها عملت علامة الصليب المقدس فجلست جميع الوحوش عند قدمَيها ككلاب مستأنسة تلحس رجليها بأَلسنتها وتتملَّقها باذنابها . اما المغتصب فلم يرعوِ عن غيهِ بل امر ان يُعلّقوا القديسة برجليها على ذنبي ثورين برّيين مفترسَين ففعلوا ولم يتحرَّك الثوران مع ان الناس كانوا يخزونهما بمخزٍ محمّى

فاستولى حينئذٍ الذهول على الحاكم وقال للبتول بصوت لطيف اخبريني ايتها الفتاة ما الذي يردّ هذه الوحوش المفترسة عن ان تؤذيكِ قالت البتول اني أَمة الاله الحي فوقع في قلبهِ خوفٌ عظيم وطلب ورقةً وكتب عليها اني اطلق نقلا التقية عبدة الاله الحي وسلَّم تلك الورقة الى البتول فذهبت بها سالمةً . هذا وقضت بقية ايام حياتها في منزل

منفرد بقرب مدينة سلوكية وآمن على يدها خلقٌ لا يكاد يُحصى لهم عدد لان استقامة سيرتها كانت لكل من براها كبرهانٍ جلي مقنع يحقق لهم الديانة المسيحية ولهذا لقبها بعض الآباء برسول سلوكية . ثم انتقلت الى دار النعيم وهي في خلوتها(١) في اليوم الثالث والعشرين من شهر ايلول في انتهاء الجيل الاول للمسيح وكان عمرها نحو ثمانين سنةً ودُفنت في مدينة سلوكية وقد بُني على قبرها في عهد الملوك المسيحيين بعد الاضطهاد الكبير كنيسة على اسمها وزارتها القديستان مرانا وكورا كما ذكرنا في ترجمتها في اليوم الثالث من شهر آب

اليوم الرابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس جيرَرْدوس الاسقف

ان هذا القديس الملقب برسول مملكة المجر هو من شرفاء مدينة البندقية ووُلد بها في انتهاء القرن العاشر وصبا الى الفضيلة منذ كان صغير السنّ ولما بلغ السنة الثانية عشرة من عمرهِ زهد في الدنيا واعتزل عن الناس ذاهبًا الى ديرٍ فترهَّب هنالك وغدا للجميع قدوة البرّ بنشاطهِ في الرياضات الروحية حتى ان كل من كان يبصرهُ يزداد نشاطًا في العبادة . وبعد سنين شعر في نفسهِ بشوق شديد الى زيارة الاماكن المقدسة فأخبر الرئيس بذلك وبعد الفحص عنهُ اثبت القديس في قصدهِ واطلقهُ فسافر ولما وصل الى بلاد المجر حيث كان القديس استفانس الملك يجتهد بغيرة رسولية في ردّ شعب مملكتهِ عن عبادة الاوثان اراد الملك ان يرى الراهب الغريب ويكلمهُ وبعد ان اطال الخطاب معهُ ثبت عندهُ ان الله تعالى قد ارسلهُ ليأخذ بيدهِ في بثّ الديانة المسيحية فامسكهُ ولم يدعهُ يخرج من مملكتهِ فاطلق رفقاءهُ ليمضوا الى اورشليم وقال للقديس جيرَرْدوس اما أنت يا ابانا الموقّر فينبغي لك ان تمكث هنا معنا واعتقد ان ردّ وثني عن الضلال أفضل عند الله تعالى وأكثر قبولاً من زيارة القبر المقدس هذا واقام على القديس جنودًا يحرسونهُ مخافةَ انهُ يهرب وكان ذلك في اوائل المائة الحادية عشرة للمسيح

ولكنما القديس عرف يقينًا ان هذا حدث بتدبير العناية الالهية فعزم على معاضدتهِ في ما قصدهُ من تبشير اهل الضلال غير ان الملك اللبيب الحكيم لم يُرد ان يلقي القديس في خطرٍ فأشار عليهِ ان يستريح قليلاً وينفرد في اي مكان اراد ليمارس هناك رياضات الرهبانية الى ان ينتصر هو على قوم من الوثنيين وتكون المملكة على سلامٍ وأمانٍ . فاختلى القديس جيرَرْدوس في موضع منفرد وجدَّد هناك سيرة سيّاح الصعيد القديسين متأهّبًا بسيرة كسيرة الملئكة لمباشرة الرسالة وقضى هناك سبع سنين وبعد ان ظفر الملك القديس باعدائهِ اعداء النصرانية اخرج القديس جيرَرْدوس من خلوتهِ وبالسلطان المعطى لهُ من الحبر الاعظم ألزمهُ بان يرتسم اسقفًا على مدينة شوناد

ولا ريب في انهُ عليهِ السلام عانى اتعابًا كثيرة في خدمة ذلك الحقل الانجيلي الممتلئ قرطبًا وشوكًا بحيث ان طباع الذين آمنوا من عبدة الاوثان كانت لذلك العهد شكسةً شرسةً غير مروَّضة ولا مهذَّبة . ثم خرج ذلك الراعي الصالح ليفتقد رعيَّتهُ فطاف ابرشيتهُ كلها ودخل كل مدينةٍ وكل قريةٍ بل كل بيتٍ فيها ولم يزل يعلّم نهارًا وليلاً . والحاصل انهُ بحول الله وبقدوتهِ الصالحة وغيرتهِ الابوية آمن على يدهِ في سنة واحدة كل ما بابرشيتهِ من الوثنيين وبنى في كل مكان كنيسة وجعل اكثر الكنائس على اسم سيدتنا مريم العذراء وأمر في كل ابرشيتهِ بان تكنَّى دائمًا بامّ الله وان السامعين كلما سمعوا احدًا يقول أمّ الله يحنون روؤسهم اكرامًا لها وبناء عليهِ سمي الملك مملكتهُ خاصَّة والدة الله . وبالنتيجة فان القديس جيرَرْدوس غدا عزيز الجانب في جميع ابرشيتهِ لصدق فضائلهِ خصوصًا تواضعهُ ووداعتهُ وسيرتهُ القشفة لانهُ فوق اتعاب مرتبتهِ العالية وكثرة اصوامهِ كان يلبس مسحًا خشنًا على جسدهِ ليتألم من مسهِ . اما وداعتهُ فقد رُوي انها كانت كشيءٍ منطبع في قلبهِ وان كنت في ريبٍ من ذلك او خطرت لك فيهِ شبهة فتأمل هذه الواقعة فيذهب عنك الشك رُوي انهُ اتفق يومًا ان احد خدَّامهِ زلّ زلة كبيرة فامر القديس بان يعذَّب بقساوةٍ اما الذين أُمروا بتعذيبهِ فاحتالوا

(١) حاشية . ارتأى بعض العلماء سندًا على بعض تقاريظ الآباء القديسين للقديسة تقلا انها تُوفيت بالاستشهاد ولكن الراي الراجح انها لم تمت تحت عذاب من الاعذبة التي عرّضت لها من قبل المغتصبين لكنها استحقت اسم شهيدة بل الاولى بين الشهيدات لانها كانت اوّل من عُرّض لمثل هذه الاعذبة وان لم تمت بها

على القديس ورشّوا على ساعدَي العبد المسيء وعلى ظهرهِ دم حيوان ثم دخل ونقدم على تلك الحال الى الاسقف فلما رآهُ مضرَّجاً بالدم توجَّع لهُ بل تمزَّق قلبهُ حزناً وندماً فاحتضنهُ بمحبة ولم يزل باكياً ومتندماً على اصدار ذلك الامر حتى اخبرهُ الخادم بالحيلة التي فعلوها

هذا وعلى اثر ما استأثرت رحمة الله بالملك استفانس خلفهُ على عرش الملك بطرس ابن اخيهِ الا انهُ لكثرة ما ارتكب من الفواحش ولفرط قساوتهِ طردهُ الشعب في السنة الحادية والاربعين بعد الالف للمسيح واقاموا مكانهُ رجلاً شريراً مثلهُ يسمى أُوفون مع ان القديس جيرَرْدوس كان قد افرغ كنانة الجهد في ان لا يختاروهُ ملكاً . والمقصود انهُ لما غدا عنان المملكة في يدهِ اظهر ما عندهُ من البغضاء للديانة المسيحية واراد ان يُقيم عبادة الاوثان فقتل كثيرين من عظماء المؤمنين ثم اتى الى مدينة شوناد وطلب من القديس ان يكللهُ ملكاً بحسب الطريقة الكنائسية فأبى ان يفعل ذلك بل وبَّخهُ على اختطافهِ قضيب الملك كما ونبَّهُ على طردهِ الملك الحقيقي وتنبأ عليهِ انهُ سيموت عما قليل اكره ميتة وتمت النبوة لانهُ بعد سنتين لذلك قُتل بايدي الجنود الذين كانوا رفعوهُ الى عرش السلطنة . فجلس بطرس ثانيةً على ذلك العرش ولكنهُ بعد سنتين طُرد ايضاً من اجل آثامهِ واستوى على العرش بعدهُ اندراوس ابن اخي القديس استفانس غير ان الوثنيين الذين كانوا قد تقوّوا واعتزّوا في البلاط الملوكي شرطوا عليهِ ان يقيم عبادة الاوثان في بلاد المجر ويهدم الكنائس ويطرد الاساقفة والكهنة فرضي اندراوس المنافق بهذا الشرط

فلما درى القديس بذلك ذهب على الفور مع اسقفين آخرين وخرج لينصح الملك ويردّهُ عن نفاقهِ وفيما كانوا ذاهبين بهذا القصد انفرد القديس جيرَرْدوس ليصلّي فتراءى لهُ سيدنا يسوع المسيح مقدّماً لهُ وللاسقفين رفيقيهِ كاساً من دمهِ المقدس ليشربوها فاستنتج القديس من هذه الرؤيا انهُ يموت شهيداً وبعد ان شكر الله تعالى على ذلك قصَّ الرؤيا على الاسقفين فامتلأا من السرور واستعدّوا ثلثتهم للموت بتقدمة القداس الالهي ثم ساروا في الطريق ولما وصلوا الى نهر الطونه وثب عليهم جنود وثنيون وكان قائدهم واحداً من الامراء وهو من أقسى اعادي الديانة المسيحية . ثم شرعوا يرجمون القديس بالحجارة الا انهُ عمل علامة الصليب المقدس فلم تصل اليهِ الحجارة ومع هذا لم يرتد الجنود عن قصدهم بل اخذوا القديس وجرّوهُ على الارض وضربوهُ وفيما كان يصلي لاجلهم ويطلب من الله تعالى الّا يكتب عليهم ذلك اثماً بل يغفر لهم طعنوهُ بحربةٍ فمات وكذلك فعلوا بذينك الاسقفين وكانت وفاتهم في اليوم الرابع والعشرين من شهر ايلول في السنة السادسة والاربعين بعد الالف للمسيح

اليوم الخامس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس فِرْمينوس الاسقف الشهيد

ان هذا القديس وُلد بمبيلونا مدينة باسبانيا نحو انتصاف الجيل الثالث وكان والدهُ احد قضاة المدينة اسمهُ فِرْموس واسم والدتهِ أوجينيا وكلاهما وثنيين وفيما كانا يوماً ذاهبين الى هيكل الاوثان وجدا في الطريق كاهناً مسيحياً يُبشر الشعب بالانجيل المقدس فوقفا يسمعانهِ وقد تعجبا من منظرهِ البائنة عليهِ علائم الوداعة واللطف والاحتشام كما اندهلا من تعليمهِ السامي العجيب وعلى اثر ما فرغ من وعظهِ كلّفهُ فِرْموس ان يدخل الى بيتهِ ثم سأَلهُ عن اسمهِ ومذهبهِ ووطنهِ . فقال لهُ الكاهن انني أُدعى اونِستوس وانا مسيحي جئتُ من فرنسا من مدينة تولوزا قد ارسلني معلمي ساتُرْنينوس الاسقف اليكم لأبشركم بالانجيل المقدس ولأهديكم طريق السعادة الابدية . ثم طفق بورد لهم قواعد النصرانية وكان فِرْموس يستمع خطاب هذا الكاهن بتمام اللذة والاصغاء فتاقت نفسهُ الى مشاهدة الاسقف معلمهِ ثم ابان لهُ شوقهُ هذا . ثم سافر اونِستوس وذهب الى تولوزا واخبر القديس ساتُرْنينوس بما كان فذهب بكاهنهِ الى بمبيلونا واخذ يعظ الشعب فآمن بوعظهِ خلقٌ كثير وفي ايام قليلة أضحى اكثر سكان المدينة مسيحيين فبنى لهم كنيسة وسلّمها الى الكاهن القديس المار ذكرهُ ورجع الى ابرشيتهِ

اما فِرْموس القاضي فبعد قبولهِ المعمودية مع اهل بيتهِ اسلم الى القديس اونِستوس ابنهُ فِرْمينوس وكان عمرهُ وقتئذٍ زهاء عشر سنين وبتعليمهِ وارشادهِ غدا فِرْمينوس معتبراً جداً عند المؤمنين لاستقامة سيرتهِ ولرزانتهِ فارسلهُ مرشدهُ الى تولوزا ليمرنهُ الاسقف اونوراتوس خليفة القديس ساتُرْنينوس على الوظائف الاكليريكية . فلما اختبر الاسقف برارة تلميذ

او نستوس رسمهُ اولاً كاهنًا ثم أقامهُ أسقفًا وقال لهُ اعلم يابنيَّ ان الله تعالى قد اصطفاك لتكون اناء مختارًا وبحيث صرت راعي النفوس فاذهب الى الامم المتبددة واجمعها في رعية وأحسن القيام على الرسالة مباشرًا واجبات الرسول أحسن مباشرة . فاخذ الاسقف الجديد بركة القديس اونوراتوس ورجع الى مدينة بَمبيلونا واخبر مرشدهُ بكل ما سمع من القديس اونوراتوس ولم يزل كل يوم يتأمل ما قالهُ لهُ الاسقف القديس وقول السيد المسيح اذهبوا وتلمذوا كل الامم فعزم على تبشير الوثنيين في اقاليم أخر فلذلك لما كان لهُ من العمر نحو احدى وثلثين سنة ودَّع اهل بيتهِ وخرج من بَمبيلونا ودخل بلاد غاليا حيث كان قد اشتد الاضطهاد على المسيحيين

فلما وصل الى مدينة اجين وجد هناك اوسنيا كيوس كاهنًا قديسًا فأعانهُ في الوعظ واثبت المؤمنين وأعدَّهم للاضطهاد ثم ذهب الى حيث كان قد اشتد الاضطهاد وكان يعظ هناك علانيةً غير مبالٍ بالاخطار وفي هذا الاقليم المسمى اوفِرْنيا نازل في ميدان الجدال على ما يتعلق بالدين المسيحي اركاديوس وروملوس وكلاهما من شرفاء الوثنيين وبعد ان اورد لهما بأدلَّةٍ واضحة وبراهين ثابتة بطلان عبادة الاوثان وطهارة الديانة المسيحية طلبا منهُ كلاهما المعمودية وبارتدادهما عن عبادة الاصنام ارتدَّ عنها ايضًا اكثر الوثنيين في ذلك الاقليم. ثم انطلق القديس فِرْمينوس الى مدينة انجِر وغنم هناك للسيد المسيح شعبًا عظيمًا غير انهُ لم يكتفِ بكل هذه الانتصارات بل كانت غيرتهُ كالنار التي لاتقول يكفي

فذهب ايضًا الى اقليم نُرْمَنْديا فآمن على يدهِ خلق كثير ولذلك يسوغ لنا ان نلقبهُ برسول نُرْمَنديا . ذلك وكان يشتهي منذ زمن مديد ان يسفك دمهُ ويموت شهيدًا وهو مباشر واجبات الرسالة وبناء عليهِ فلما عرف ان والِيريوس يضطهد المسيحيين في اقليم بيكَرْديا بمعظم القساوة مضى الى هناك فعند وصولهِ قبضوا عليهِ والقوهُ في السجن حيث كابد شقاء عظيمًا وقد استمرَّ على هذه الحال حتى مات حاكم الاقليم وحينئذٍ اخرجهُ اهل المدينة من السجن. فلما خرج شرع يبشر بالانجيل جهرًا وبنى باقليم بيكَرْديا كنائس كثيرة ودخل أخيرًا مدينة اميان حيث كان سيُكلَّل باكليل الشهادة لعمري لقد كان عجيبًا سلطان هذا القديس وقت التعليم

مع شدة تأثير كلامهِ هنالك كيف يُنكر ذلك وقد جذب الى الايمان في ثلثة ايام ثلثة الاف شخصٍ بعظاتهِ ولكثرة العجائب التي كان يصنعها ظن بهِ الوثنيون انهُ الهٌ كما ظنوا بالرسولين بولس وبَرْنابا وكان اسمهُ مشتهرًا ممجدًا في كل الاقليم الاَّ ان احد الكهنة الوثنيين شكاهُ عند الولاة قائلاً انهُ يمنع الناس كلهم من عبادة الهتهم . فقبض عليهِ حينئذٍ سبستيانوس الحاكم وسألهُ باسم من كان يفعل هذه المعجزات ولاي سبب يمنع الناس عن عبادة آلهة المملكة فاجابهُ القديس انهُ يعمل المعجزات باسم السيد المسيح الاله الحق الواحد ومخلص العالم ثم طفق يورد لهُ حقيقة الايمان المسيحي ايرادًا فصيحًا مقنعًا فاخذ الحاكم يتوعدهُ بان يعذبهُ تعاذيب شديدة متنوعة ان لم يترك التبشير بالديانة المسيحية ويقدم البخور لآلهة المملكة . فاجابهُ القديس انهُ لابد لهُ من التبشير بالحق ولا يعبد الاَّ الاله الحق الذي سيعطيهِ القوة لاحتمال كل التعاذيب ويجعلهُ بها اهلاً للمجد الابدي . فخاف الحاكم من ثبات القديس ومن هيجان الشعب بتعذيبهِ فارسل والقى القديس في السجن وهناك اخبرهُ الله تعالى بان موتهُ السعيد قد اقترب . ثم انهُ في غد ذلك اليوم دخل السجن أحد الجنود وقطع رأسهُ وكان ذلك في اوائل شهر ايلول سنة ستٍّ وثمانين ومائتين

وقد استمر جسدهُ مختفيًا الى ان تحرك القديس سَلْفينوس اسقف مدينة اميان في أوائل القرن السابع وجمع الاكليريكيين وامر الشعب ان يصوموا ثلثة ايام ويسألوا الله تعالى ان يريهم قبر رسولهم وقد قضى الاسقف هذا الزمان كلهُ في الكنيسة صائمًا ضارعًا الى الله وبينما كان على هذه الحال رأى بغتةً في اليوم الثالث قبل شروق الشمس أشعَّة نور نازلةً من العلاء ومتصلة الى ما وراء مذبح الكنيسة فاجتمع حينئذٍ الاكليريكيون وقوم من الشعب وجعلوا يحفرون الارض هناك وفيما هم يحفرون انبعثت من الارض رائحة ذكية تعطَّرت منها الكنيسة كلها ووجدوا ذخيرة القديس فِرْمينوس

اليوم السادس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس كبريانوس الشهيد والقديسة يوستينا البتول الشهيدة

من المعلوم ان الله جلّت حكمتهُ يُظهر احيانًا عظمة قدرتهِ وسموّ حكمتهِ بالوسائل العجيبة التي يستعملها احيانًا لتخليص الخطأة وتقديسهم بما انهُ تقدس اسمهُ يستخرج الدرياق الشافي من السمّ المميت والخير من الشرّ والحياة من الموت وقد تبيَّن ذلك بكل جلاء في ما تكرَّم بهِ على القديس كبريانوس فاعلم ان القديس المذكور وُلد بمدينة انطاكية(١) وهو من عشيرة وثنية ممتازة بالشرف والوجاهة ولفرط ما كان والداهُ راغبين في عبادة الاصنام الشيطانية قدَّما ابنهما منذ صباهُ لآلهة الوثنيين وخصَّصاهُ لخدمتهم وارادا ان يتعلم حِيَل علمهم اعني حِيَل السحر وقد مهر كبريانوس في هذا العلم الجهنمي واضطلع بهِ حتى فاق جميع سحراء عصرهِ ولكي يحصل عليهِ تتلمذ لكل من كان حاذقًا بهذا العلم المهلك في بلاد الروم. ثم انطلق الى مصر والى الهند ملتمسًا كما يذكر هو في كتاب اعترافاتهِ(٢) في كل مكان معرفة اسرار الابالسة فمن ثم اضحى كبريانوس اعظم سحراء العالم ولم يكن يُدعى في الشرق الَّا باسم العالم الماهر في علم الشياطين ولا شبهة في ان القلب ينفر ويشمئزُّ من ذكر ما فعل ليتمّم سحرهُ فكان يستخدم اجساد البشر ويقتل من الاطفال سرًّا ويقدمهم ذبيحةً للشياطين وانما ارتكب ذلك ابتغاء ان يبلغ مآربهُ

فاستمرَّ كبريانوس على هذه الحال ثلثين عامًا الى ان نظر اليهِ الله تعالى بعين رحمتهِ وعزم على رفعهِ من هوَّة الشرّ والكفر وذلك بواسطة ابنة مسيحية تُدعى يوستينا كانت من وثنيي انطاكية الَّا انها آمنت بالمسيح على يد الشماس برائيليوس عند ما سمعت عظتهُ فجذبت والديها الى النصرانية . ولما تأملت تلك الفتاة المباركة طهارة تعاليم الديانة المسيحية نذرت بتوليتها لله تعالى مع انها كانت متفرّدةً بالحسن والجمال في بلاد سورية ومع انها كانت تلزم الاختلاء ولا تخرج من بيتها الَّا لكي تذهب الى الكنيسة في صحبة ابوَيها أبصرها ذات يوم شابٌ اسمهُ اغلايدوس فأحبها وارسل من يطلبها زوجةً لهُ فاجابت القديسة ان المسيح عروسها ولا تريد غيرهُ لكونها قدَّست لهُ بتوليتها . فلما سمع الشاب جوابها هذا هام بها قلبهُ وتملَّكهُ حبها وهواها والتجأ الى كبريانوس وطلب منهُ ان يبلغهُ مرغوبهُ بسحرهِ بان يضرم في فؤاد يوستينا نار الحب والشوق اليهِ

فشرع كبريانوس يستعمل اجابةً لطلب ذلك الشاب أدقَّ صناعة السحر ومن ثم اضطربت البتول بخيالات واشباح نجسة غير انها كانت تلتجي حينئذٍ الى ملكة العذارى وتناجيها كما روى القديس غريغوريوس قائلةً يا ايتها البتول قدوة العذارى وشفيعتهم أعيني بتوليتي المحارَبة يا محاربةً عن البتولية وبمجرَّد عمل اشارة الصليب محقت كل حِيَل الشياطين . فتعجَّب كبريانوس من عجز سحرهِ وقال للشياطين ما هذا ألا تقدرون كلكم ان تنتصروا على فتاةٍ حديثة السن فمن ذا الذي يقوّيها عليكم قال واستدعى رئيس الابالسة نفسهُ وابان لهُ تعجبهُ من ضعف الابالسة بازاء ابنة مسيحية وطلب اليهِ هل كان لهُ قدرة عليها فقال لهُ ابليس انهُ قادرٌ على ذلك وانهُ يأتي بها فاتخذ اللعين صورة احدى العذارى المعروفات من يوستينا وتراءى لها بهذه الصورة وبعد السلام اخذ يورد لها شيئًا فشيئًا ما تعلمهُ منهُ فيما بعد خَدَمة البروتسطانت ضد فضيلة العفة وهو ان حفظ العفة يضاد قول الله تعالى القائل لابوَينا الاوَّلين انموا واكثروا وان هذا الامر الالهي كان يشوش فكرها من جهة حفظ العفة . اما القديسة يوستينا فمن هذا الخطاب ومن اضطراب مخيلتها ادركت حالًا انهُ هو الشيطان فتسلحت بعلامة الصليب فاضطرَّ حينئذٍ الشيطان بقوة الهية ان يرجع الى كبريانوس ويعترف بالحق فقال لكبريانوس اعلم ان اله المسيحيين هو وحدهُ ربُّ السماء والارض والجحيم المطلق وان المسيحيين ينتصرون علينا بعلامة الصليب وبهذا الرسم تصير يوستينا كل قوّتنا ضعيفة واقوى سحرنا باطلًا . فقال لهُ كبريانوس فما انا اذًا الَّا جاهل من حيث اني لم اعبد ربًّا اقوى منك فان كانت ابنة مسيحية تنتصر عليك وعلى الابالسة جميعكم بمجرَّد علامة الصليب فماذا يكون

(١) حاشية . من المحقق عند اشهر العلماء ان المدينة المدعوَّة انطاكية مولد القديس كبريانوس والقديسة يوستينا ليست هي انطاكية عاصمة سورية بل مدينة اخرى من المدن المتميّزة باسم انطاكية ارتأى البلّانديستيون انها كانت في جنوبي سورية ومن اعمال فينيقية وارتأى غيرهم انها كانت انطاكية عاصمة بيسيدية في شمالي سورية

(٢) حاشية . من اراد الاطّلاع عليهِ فيراجع المجلد السابع من كتاب البلّاندستيين في ايلول في الوجه ٢٠٤ الخ

اقتدار هذا الاله . اني منذ الآن فصاعدًا ارفض خدمتكم وكل حِيَلكم السحريَّة واختار التعبُّد للاله الذي تعبدهُ يوستينا المسيحية . فلما قال هذا ورسم على ذاتهِ علامة الصليب المقدس قائلاً ليكن ممجدًا المسيح ابن الله ومخلصنا هرب ابليس في الحال . هذا ما اخبرنا بهِ القديس كبريانوس نفسهُ في كتاب اعترافاتهِ ونقل ذلك القديس غريغوريوس ايضًا

وكان لكبريانوس صديق مسيحي يقال لهُ اوسابيوس وقد كان يوبخهُ دائمًا على استعمال السحر فذهب اليهِ كبريانوس بما انهُ كان صديقًا لهُ مُخلِصًا وقال لهُ بقلب خاشع وبعين باكية اني قد انتبهت بنعمة الله تعالى على ضلالي وعرفت غروري ورداءة السحر وتحققت انهُ لا اله الا الاله الذي تعبدونهُ فهل يمكن ان تقبلوني في جماعتكم انا اعظم الائمة وشرّ الخطأة . فلما سمع منهُ اوسابيوس ذلك اخذ يهنئهُ على تنصرهِ ويحثهُ على الثبات في النصرانية ثم أسعفهُ جدًّا في الابتداء وذلك بما اشار عليهِ وقوى نفسهُ بهِ في تلك الحرب الخطرة لان ابليس لما رأى كبريانوس ثابتًا في عزمهِ افرغ كنانة جهدهِ في ردهِ الى ما كان عليهِ وذلك بانهُ جعل يصوّر في عقلهِ اقبح الخيالات ويهيج أشد الحركات الدنسة في قوَى جسدهِ ولكنهُ لم يصل اخزاهُ الله الى ما اراد منهُ بحيث ان كبريانوس كان عند التجربة يلتجئ حالاً الى سيدنا يسوع المسيح ووالدتهِ تعالى المجيدة مصلبًا على جبهتهِ في كل وقت حسبما كان قد علمهُ اوسابيوس صديقهُ . هذا ولما رأى الروح الخبيث انهُ لا ينتفع شيئًا بهذه الطريقة أخذ يجرّبهُ باليأس وقطع الرجاء قائلاً لهُ باطنًا ان اله المسيحيين هو الاله الواحد الحق الا انهُ يبغض الاثم ويعاقب عليهِ اشد عقاب وذلك انما هو الذي دعاهُ الى ان يرذل الشياطين ويرمي بهم الى دركات الجحيم لمجرد قبولهم فكر الكبرياء ومن أجلهِ حتم عليهم بالخلود في النار المؤبّدة فكم بالحري اذًا يحكم عليك هذا الاله بعد ان فعلت اشنع الآثام وارتكبت الفواحش . فاعلمن ان الله الشديد الانتقام قد عيّن لك في اسفل جهنم موضعًا تُحرَق فيهِ الى الابد فالجدير بك اذًا بعد ان قطع عنك كل رجاء الخلاص ان تقضي بقية ايام حياتك في التنعم . واخيرًا عندما وجدهُ صديقهُ على هذه التجربة الشديدة مضى بهِ الى انتيموس اسقف انطاكية فلما رآهُ الاسقف ذارفًا الدموع ومظهرًا التوبة داخلهُ شكٌّ في هذه العلامات وحسبها حِيَل أعظم السحراء غير انهُ لما بلغهُ خبر توبتهِ وعرف بشدة تجاربهِ ومقاومتهِ اياها شكر الله تعالى على غزارة رحمتهِ نحو الخطأة ثم عزّى كبريانوس وشجعهُ وعلمهُ ليجعلهُ يتأهّب للمعمودية . اما القديسة يوستينا فلما عرفت هذا التغير العجيب الذي تمَّ في كبريانوس وتوبة مَن كان قد نصب لها فخ الدنس وهيج على محاربتها قوات الجحيم سبّحت الله جلّت رحمتهُ وجعلت تصلي من أجلهِ ليلاً ونهارًا طالبةً لاجلهِ من الله تعالى نعمةً منتصرةً . وكان كبريانوس يزداد نشاطًا في توبتهِ يومًا فيومًا مستعدًّا للمعمودية ثم اراد ان يشهر توبتهُ فجمع كل كتبهِ السحرية واتى بها الى الاسقف واحرقها امام جمهور العلماء ثم اعتمد . فتعجب من ذلك المؤمنون بل الوثنيون ايضًا ولاسيما لما رأوا حسن سيرتهِ التقويّة وغيرتهُ في تمجيد اسم السيد المسيح فآمن كثيرون من الأمم وتاب ايضًا كثيرون من المؤمنين

هذا ولفرط ما فرحت القديسة يوستينا بتوبة هذا الخاطي كما روى القديس كبريانوس نفسهُ في كتاب اعترافاتهِ قصت شعر رأسها وباعت كل جواهرها وحِلاها وامتعة بيتها وكل ما كان قد خُصّص لزواجها من العقار وتصدقت بكل ذلك على المساكين واما أبواها فقدما بيتهما لله ليكون كنيسة واما اغلائدوس الذي كان قد كمن لعفة البتول يوستينا فآمن بالانجيل المقدس واعتمد واحسن بكل امواله على الفقراء اذ لا ريب ان سيرة كبريانوس الحسنة كانت في عيون الناس أعجوبة محسوسة متصلة مؤثرة في الانفس . وكان احيانًا يُرى على باب الكنيسة جاثيًا على الارض براس مكشوف مرشوش عليهِ الرماد ملتمسًا صلوات المؤمنين وطلب ان يقام على تكنيس الكنيسة لكن رسمهُ انتيموس اسقف انطاكية كاهنًا ولم يزل يخدم الكنيسة في هذه الدرجة ست عشر سنة ثم ان الله تعالى شرّفهُ بالعجائب وبتعليمهِ المقدس كثر المؤمنون جدًّا في انطاكية وبعد ان تُوفي الى الله الاسقف انتيموس انتخبهُ المسيحيون خليفةً لهُ وقد قام بواجبات هذه المرتبة الرسولية أحسن قيام ثم أظهر بكتاب اعترافاتهِ كل ما صنع في ما مضى من عمرهِ فافاد هذا الكتاب جدًّا حتى تاب الى الله بقراءتهِ كثيرون من الخطأة وتنصّر ايضًا خلق كثير من الوثنيين

اعلم ان خبر توبة القديس كبريانوس وكثرة الانام الذين كانوا قد تنصّروا بتعليمهِ وبشرف شان برارة يوستينا

شاع وملأَ الافاق فشعر بذلك ديوكليسيانوس الملك وهو بمدينة نيقوميدية فأرسل وقبض عليهما اي على القديس كبريانوس في انطاكية والقديسة يوستينا في دمشق الشام حيث كانت تعيش مع عدة عذارى بالبرّ والطهارة ثم قدّما للحاكم اوتلوس في مدينة صور فلما مثلا بين يديهِ سألهما عن ايمانهما فاعترفا بهِ بشجاعةٍ ولذلك أمر بان يُعلّقا كلاهما ويُضربا بالسياط بقساوةٍ وحشية ثم أُلقيا في خلقين من نحاس ممتلئٍ زفتًا وشمعًا ودسمًا مغلى واستمرَّا هناك بسرورٍ شاكرين الله تعالى فظن احد الحاضرين وكان رجلاً خبيرًا بعلم السحر ان هذا من سحر كبريانوس القديم والحاصل انهُ بعد ان أكمل حيلة واستدعى الشيطان دخل تحت الخلقين حيث كان القديس كبريانوس ففعلت بهِ النار حالاً واحترق وعاد جسدهُ كلّهُ الى رماد. فتحقق الجمهور حينئذٍ قوة اله المسيحيين وخاف الحاكم من ان يتعصّبوا عليهِ فارسل الشهيدين الى نيقوميدية واخبر الملك ديوكليسيانوس بما جرى فامر وقتئذٍ الملك بقطع رأسيهما وتمّ ذلك في اليوم السادس والعشرين من شهر ايلول نحو السنة الرابعة والثلث مائة للمسيح على شاطئ نهر غالوس الجاري بالقرب من نيقوميدية وقُتل معهما مسيحي يُدعى تاوكستوس وقد نُقلت ذخائرهما الى رومية ودُفنت في كنيسة القديس يوحنا لاتران

اليوم السابع والعشرون

وفيهِ ترجمتا القديسين قزما ودَميانوس الشهيدين

ان هذين القديسين وُلدا ببلاد العرب وتعلّما الطب بسورية وقد زعم القديس غريغوريوس أُسقف طور مدينة بفرنسا انهما كانا توأمين ومن اصل معتبر كثير الغنى وكانت والدتهما امرأةً فاضلةً وقد كُتب اسمها بسنكسار كنيسة الروم ولها ثلثة بنين وهم انثيموس ولاونتيوس واوبربيبوس ما عدا هذين الاخوين اللذين صارا معتبرَين في البلاد لاتساع علمهما وحسن سيرتهما وانما تعلّما على الخصوص علم الطب لانهما ظنّا انهما اذا تمهّرا فيهِ يظفران بمحبة الوثنيين وهكذا يجدان واسطةً لتعليمهم واجتذابهم الى الايمان وقد بارك الله تعالى على غيرتهما الّا انهما كانا يشفيان اكثر الامراض لا بقوة ادوية الطبّ بل بواسطة فائقة على كل قوةٍ طبيعية لانهما عند دخولهما بيت احد المرضى كانا يصلّيان اولاً ثم يسألان عن ماهية الداء وفي اثناء ذلك يُصلّيان على المريض فحالاً كان المريض يتعافى وعلى هذا النسق كانا يفتحان اعين العميان ويخرجان الشياطين من اجساد المجانين ويشفيان كل انواع الامراض فشرع الوثنيون يستعظمون النصرانية ومن ذلك الاستعظام كان القديسان يتخذان فرصةً لتعليمهم. فغدا ذانك الطبيبان رسولين وبتعليمهما زادت الرعية المسيحية ونمت جدًّا في بلاد سورية وسيليسية ولانهما لم يكونا يتخذان مالاً واجرة من المرضى لُقّبا بمبغضَي الفضة

ولما كانا بمدينة اجيا من اعمال كيليكية أمر الملك ديوكليسيانوس ان يُقتل جميع المسيحيين وارسل ليسياس الى مدينة اجيا ليضطهد هناك المؤمنين وعند وصولهِ الى هذه المدينة اخبرهُ قومٌ من الوثنيين ان اعظم اعداء آلهة المملكة قزما ودَميانوس اللذان بطبّهما السحري الشيطاني يُغويان الناس ويجذبانهم الى مذاهبهما وعما قليل يجعلان كل سكان البلاد مسيحيين ان لم يُبدها الحاكم من الارض. فارسل ليسياس وقبض على الاخوين ولما ابصرهما خاطبهما بصوت رجزٍ ووجه ملتهب بالغضب قال كيف تجاسرتما على ان تُلقيا الاضطراب في المملكة بسحركما واجتهدتما في نسخ دين القياصرة المعظمين وازالة عبادة آلهتهم المعظمين فاعلما اني أتيت لانتقم من تعصّبكما واني اعذبكما بكل نوع من انواع العذاب ان كنتما لا ترتدّان عن شرّكما نادمين وتنكران مذهبكما الرديء وتعبدان آلهتنا الحقيقيين. فقولا لي الآن من ايّما بلد انتما وما دعوتكما فقال القديسان اننا أخوان من بلاد العرب ولنا هنا ثلثة اخوة مسيحيين مثلنا واصلنا من اشراف البلاد وقد تعلمنا الطب وتعاطيناهُ لمنفعة الجميع ولا نقصد بذلك نفعًا زمنيًّا بما اننا نداوي مجّانًا لا نقبل من احد مالاً ولا هديةً ومن جهة المرضى الذين نشفيهم فلتعلم سعادتك ما قد تحقّق عند الجمهور من اننا نشفيهم بقوة السيد المسيح الاله ومن اجل هذه العجائب آمنوا بهِ تعالى وقبلوا النصرانية التي بشّرناهم بها

اما ليسياس فاخذهُ العجب من جوابهما المملوءِ حكمةً فسكن ذلك من غضبهِ ثم ارسل وقبض على اخوتهما الثلثة ولما حضروا اخذ يكلمهم قائلاً انكم من اصل شريف واريد ان ازيدكم شرفًا وارفعكم الى مناصب عالية وان تبعتم مشورتي وأطعتم امر الملك فارجعوا الى عبادة الآلهة واجحدوا مذهب المسيحيين المضطهد الذي يرذلهُ جميع علماء المملكة

وعظامها فالحذر ثم الحذر من انكم تخالفون امر الملك لانكم
اذا عصيتم تُماتون اخيرًا تحت العذاب الاليم فامضوا الان
وافتكروا بما ينبغي لكم ان تفعلوهُ . فقال الاخوة لا نحتاج الى
ان نتأمل ذلك تأمّلاً طويلاً لأنّا قد احسنا هذا التأمل
غاية الاحسان نحن مسيحيون ومن اجل ايماننا الالهي نشتهي
منذ زمن مديد احتمال اشد عذاب ونتوق الى اشنع ميتة .
وياليت شعري من يصف الغضب الذي ولّدهُ هذا الكلام
المقرون بالتقوى والشجاعة في قلب ليسياس فامر الجنود
بتعذيبهم فتقدم الجنود وربطوا ايديهم وارجلهم بحبال وسحبوهم
على دواليب مرضضين عظامهم وفي انتهاء هذا العذاب الشديد
قال الشهداء للمغتصب تمّم ما قد ابتدأت بهِ واستخدم في
تعذيبنا كل ما عندك من آلات العقاب وحينئذٍ تعاين ان
نعمة سيدنا يسوع المسيح تساعدنا على احتمالها بجميل الصبر
وغاية السرور . فلما رأى ليسياس انهم لم يتضرّروا البتة
بالعذاب المشار اليهِ امر بان تُربط ايديهم وارجلهم ويُلقوا
في البحر هكذا ولكن بعد ان طُرحوا في البحر انفكت الحبال
واوصلتهم الامواج على شاطئ البحر سالمين. فانذهل المغتصب
من هذه الآية البيّنة وسألهم قال ما هو السحر الذي بهِ تفعلون
هذه العجائب فاجابهُ الاخوة انهُ لا علم لنا بالسحر بل ان
الشياطين اصحاب هذا العلم القبيح يخافون منا ونطردهم
وننتصر عليهم بمجرّد علامة صليب الهنا فكيف يمكن ان
يسعفونا بصناعتهم السحريّة

فاجاب ليسياس وقال اما انا فباسم الهي ادريانوس
انعكما قال هذا وللوقت انتقم الله تعالى منهُ بحيث في الحال
اخذ شيطانان غير منظورين يضربانهِ ضربًا عنيفًا ولولا ان
الشهداء يضرعون من اجلهِ لكان قد مات تحت الضرب
فانهم طلبوا من السيد المسيح ان يظهر قدرتهُ الالهية ورحمتهُ
الغير المتناهية بانقاذ عدوّهِ من يد الشيطان . فما فرغوا من
هذه الاستغاثة الّا وقد فرّ الشيطانان هاربين ثم قال الاخوة
للحاضرين أرأيتم سموّ قدرة الهنا فلماذا لا تؤمنون بهِ وتقبلون
الحق الواضح . اما ليسياس فعدّ ضرب الشياطين انتقامًا
منهُ فامر بان يرجعوا الى السجن ليفتكر باي عذابٍ جديد
يعذبهم . ففي غد ذلك اليوم امر جنودهُ بان اضرموا نارًا
وزجّوا الاخوة فيها فلم يمسهم اللهيب ثم علّقوا الاخوين على
خشب وشرع الجنود يرشقونهما بالسهام واذا باعجوبة مذهلة
بها اراد الله تعالى ان يظهر قدرتهُ ويخزي الوثنيين لقساوة
قلوبهم وهي ان السهام لم تصل الى اجساد القديسين بل
ارتدعت على الوثنيين وقتلت منهم كثيرين . فوقع في المدينة
شغب عظيم ولذلك امر ليسياس بقطع رأسي الاخوين فخرّا
وجثيا على الارض وطلبا من الله سبحانهُ الّا يؤخر موتهما بآيةٍ
أخرى فاستجاب الله لصلاتهما وقطع السيّاف رأسيهما وكان
ذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر ايلول في السنة
السابعة والثمانين بعد المائتين للمسيح وقد زعم المؤرخون
ان اخوتهما الثلثة نالوا معهما اكليل الاستشهاد

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس ألزيار وقرينتهِ دلفينا البتولين

ان هذا القديس من شرفاء فرنسا ووُلد باقليم منها يقال
لهُ بروفنسا في السنة الخامسة والثمانين بعد المائتين والالف
للمسيح وكانت امهُ فاضلة جدًّا ومن اجل رحمتها ومحبتها
للفقراء المحتاجين كان الناس يدعونها الاميرة الصالحة . فلما
وُلد ألزيار ابنها اخذتهُ للحال بين يديها وقدّمتهُ لله قائلةً الهي
عُنصر كل خير اشكرك لانك وهبتني هذا الابن فها انا اقدّمهُ
لك فاقبلهُ بين عبيدك وانعم عليهِ ببركاتك ثم اسأل بحق
جودك ورحمتك ان تحسن اليهِ بهذا الامر وهو انك لذا
سبقتَ وعرفتَ انهُ سيسيء اليك بمخالفة وصاياك تنقلهُ بالموت
من هذه الحياة بعد ان يعتمد . وقد سرّ الله جدًّا بطلبة هذه الام
المسيحية وبارك عليها وعلى ابنها بنعَم وافية لانهُ منذ صبائهِ
والاجدر بنا ان نقول منذ طفوليتهِ مال بتمام الرغبة الى
الفضيلة حتى كأنما كان قد اتخذ من الطبيعة نفسًا مسيحية
بحيث حينما كان يتغذّى بلبن مرضعهِ ورأى فقيرًا كان
يضطرب ولا يزال قلقًا حتى يُعطى في يدهِ دراهم ويدفعها
للفقير وقد نمت فيهِ هذه الرغبة والرحمة مع نموّهِ في العمر ولما
بلغ السنة الخامسة من عمرهِ بالغ في افعال الرحمة لانهُ كان لا
يألو جهدًا في تحصيل ما يتصدّق بهِ على الفقراء وفي هذه
الرغبة يخترع حيلاً مقدسة ولما كانت امهُ تريد ان تبهجهُ
كانت تأتي بفقيرٍ صغير ليأكل معهُ فكان حينئذٍ يأكل بشهوة
وفرحٍ

ومن الثابت عند ثقات المؤرخين انهُ لم يظهر على
هذا الصبي شيءٌ من شوائب الصبا وعيوبهِ بحيث ان الحكمة

كانت قد سبقت العمر فيهِ فكان على الاطلاق حبيبًا الى كل قلب لانهُ فوق ذلك جميعهِ كان وديعًا محتشمًا جميلاً في تخشيعهِ وحركاتهِ ليّن الاخلاق طائعًا لوالديهِ ومعلّمهِ ببشاشة بهجة فطلبهُ عمهُ ليعلمهُ ويربّيهُ بمرسيليا لانهُ كان رئيسًا في اديرها وهناك كان ألزيار كشجرة مغروسة على مجاري المياه ينمو في الفضيلة يومًا فيومًا . واتفق انهُ سمع ذات يوم خطاب راهب اورد لهُ بهِ ما قاساهُ من العذاب الوف وربوات حبًا بسيدنا يسوع المسيح فسألهُ ألزيار ابن يموت المسيحيون شهداء فقال لهُ الراهب لماذا تسألني عن ذلك . اجابهُ الصبي اني لأشتهي ان اسفك دمي ايضًا من اجل يسوع وأنال اكليل الاستشهاد

فلما بلغ السنة العاشرة من عمرهِ ورد الى ابيهِ من قِبل ملك نابولي وصقلية مرسوم يأمرهُ بهِ ان يخطب لابنهِ فتاةً كريمة النسب عالية المقام يقال لها دلفينا ويزوّجهُ اياها وكان عمرها وقتئذٍ اثنتي عشرة سنة وهذه الابنة كان والداها قد ماتا منذ خمسة اعوامٍ وقد ربّتها خالتها الراهبة في ديرها ولفرط ما كان قلبها مضطرمًا بمحبة السيد المسيح نذرت لله تعالى بتوليتها بعد ان بلغت السنة العاشرة من عمرها ومن ثمّ جعلت تطلب من الله تعالى ان يشوّه وجهها حتى لا يبقى عليها لمحة من الجمال ويعدمها ايضًا كل املاكها واموالها مخافة ان يهواها احدٌ ويطلب ان يتزوجها فتجد شيئًا يمنعها عن الترهب واذا رفضت اوّل الامر الخطبة رغمًا عن الحاح اقاربها وامر الملك غير انها بعد ما رأت الملك مغتاظًا من رفضها ورأت وهي تصلي الى الله رؤيا ابصرت فيها سيدة العالم تَعِدها بمعونتها وبحفظ بتوليتها في حال الزواج نفسهِ ارتضت بمشورة من استشارتهُ في ذلك اولاً بالخطبة وثانيًا بالزواج الذي احتفلت بهِ بعد ٤ سنين اي نحو السنة التاسعة والتسعين من القرن الثالث عشر وانما ارتضت دلفينا بذلك لعلمها الاكيد ان الله تعالى الضابط قلوب البشر يستميل قلب عروسها الى نذر العفة فيتمدّيان بفضيلة مريم المجيدة والقديس يوسف

وحينما انفردت بزوجها قالت لهُ انهُ بعد ان الله عزَّ اسمهُ ربطنا بسرّ الزواج المقدس وجعلنا قلبًا واحدًا لم يعد يجوز لي ان اكتم عليك اسراري واسأل الله تعالى واتأمل من تقاوة قلبك انك تكمل ما عزمت انا عليهِ فاعلم ياسيدي اني نذرت لله بتوليتي وانهُ تعالى سرَّ بنذري وقبلهُ ويريد ان استمرّ في حال الزواج فهل يمكن انك تطلب ما يجعلني خائنةً ومخالفةً نذري هذا بل اني ارجو من حبك لله ومحبتك لي ان تكون عاضدًا لبتوليتي وحارسًا لها فلنقضينَّ هذه الليلة في الصلاة ولا ريب ان الله سبحانهُ ينتقدنا بالبركة ويمنّ عليك بالهبة التي تنفضّل عليَّ بها . ثم شرع ألزيار وزوجتهُ يصليان ومع انهُ لم يكن قصد حفظ العفة قبلاً طلب من الله ان يعلمهُ مشيئتهُ ليتمّمها وفيما كان يطلب ذلك بقلب مستقيم شعر برغبة عظيمة في حفظ العفة فالتفت الى قرينتهِ النقية ووعدها ان يعيش معها كاخٍ مع اختهِ

ومنذ ذلك الوقت اولاها الله تعالى نعمًا وافية وكانا كلاهما يحثّان بعضهما بعضًا على الحب الالهي ولزيادة نار هذه المحبة كانا يُختطفان بالروح غالبًا في صلواتهما وفي عيد انتقال العذراء الجليلة الى السماء بعد ان كان القديس ألزيار تأهب لحضور القداس ولتناول القربان المقدس وقضى الليل في الصلاة غير متحرّكٍ بوجهٍ ملتهب وتناول القربان المقدس واستمرّ ساعات كثيرة في الصلاة باعين تذرف الدموع وكان قد قرب وقت الظهيرة اتاهُ عمهُ واخذه ليأكل مع عظماء الاقليم فاختُطف بالروح ايضًا فظن الحاضرون انهُ مغشيٌّ عليهِ فحملوهُ ووضعوهُ على فراشٍ وتركوهُ وحدهُ وحينئذٍ كما اخبر عنهُ مرشدهُ ومعلم اعترافهِ حاز من الله تعالى انوارًا سامية بها تحقق دناءة الخيور الارضية وحقارة شرف ما في هذه الحياة وقد حسب ذلك جميعهُ بقية ايام حياتهِ كقمامات واقذار مستكرهة ولم تكن نفسهُ ترتاح الاّ الى الخيور الابدية

ثم اخذ حينئذٍ يمارس اصعب رياضات التقشف ومع انهُ كان حديث السن بحيث انهُ كان يصوم فضلاً عن اصوام الكنيسة كل يوم سبت وكل بارامونات اعياد سيدنا يسوع المسيح ووالدتهِ المجيدة ويشد حقويهِ بزنار مؤلم ويلبس مسحًا خشنًا وكان غالب الايام يمزّق لحمهُ بآلات التقشف . وبعد ان عاش مع عروسهِ النقية مدة سبع سنين في بيت ابيهِ انتقل الى مدينة أخرى لكي يحسنا هناك انفرادهما ويمارسا رياضات العبادة باتمّ حريّة وبحيث كان لها خدّام كثيرون اخذ يهتمُّ بتدبير اهل بيتهِ وتقديسهم وقد صيّر منزلهُ كانهُ ديرٌ مرتَّبٌ منتظم لانهُ رسم لهم الفرائض الآتي ذكرها . فامر اولاً ان كل الذين في بيتهِ يحضرون الصلاة والقداس باكرًا

ويكون حاضرًا هو وامرأتهُ . ثانيًا امرهم ان تكون سيرتهم حسنة ومخاطباتهم في أُمور تقويَّة في الغاية وكان اذا نطق احدهم ولو بكلمة واحدة زائغة عن الاحتشام يخرجهُ من منزلهِ حالاً . وثالثًا اوصى بان كلاًّ منهم يعترف مرةً في كل اسبوع وهكذا يتناولون القربان المقدس على الاقل مرةً واحدةً في كل شهر . ورابعًا اوصى بان لا يصدر من احد منهم حلفٌ ولا كذب ولا يفتري بالكلام على احدٍ ووضع قوانين على كل من تصدر منهُ زلّة والقانون الاعتيادي كان الصوم على الخبز والماء . خامسًا اراد من الجميع ان يحضروا تعليمًا روحيًا كان يُعلمهُ احد الكهنة كل يوم في بلاطهِ

فبهذه الفضائل صار القديس أَلزيار محبوبًا في كل امريتهِ وكل خصومة حكم عليها كانت تنتهي بسهولةٍ وبرضا الفريقين بسبب شدّة اعتبارهم لبرارتهِ واستقامتهِ . انهم كانوا يرونهُ كملكٍ قد هبط من السماء لتدبير أُمورهم . فكانا هو وامرأتهُ يعودان المرضى ويزوران بيوت المساكين كأَبٍ يحبُّ خاصتهُ ويعطيهم كل ما يحتاجون اليهِ على انهُ كان يهتم على الخصوص بمساعدة البرص وكان اغلب الايام يقبل في بلاطهِ اثني عشر فقيرًا ويغسل ارجلهم ويطعمهم ويخدمهم على المائدة . رُوي انهُ رأَى يومًا ستة منهم وان نفسهُ اشمأَزت من فرط شناعة منظرهم فلما استفاق على هذا التكره الطبيعي عزم على اماتة نفسهِ فاعتنقهم وقبلهم كلهم مظهرًا لهم اشد المحبة فحالاً طهر اولئك البرص بالكلية

ثم ان هذا القديس كان متعبدًا لقلب يسوع الاقدس بعبادة خصوصية وقد كتب يومًا لعروسهِ النقية انكِ تسأَليني برسالتكِ عن عافيتي وتريدين اني أُعلمكِ بما يخصني فاذهبي مرارًا كثيرة الى الكنيسة لتفتقدي معلمنا الالهي الحبيب في القربان المقدس وادخلي بالروح قلبهُ الاقدس فهناك تجديني دائمًا ولا يخفى عنكِ اني قد جعلت سكناي الاعتيادية في هذا المقدس الالهي

وفي السنة الثانية عشرة من القرن الرابع عشر اشتعلت نار الحرب ما بين روبرتوس ملك نابولي وملك المانيا هَنريكوس الذي كان ذاهبًا الى رومية مع جنودهِ ليستولي عليها فارسل روبرتوس عسكرًا يحاربهُ وسلَّم تدبير عسكرهِ لاخيهِ وللامير أَلزيار وقد انتصرا عليهِ والزماهُ بان يبعد عن رومية فمدح الملك والعسكر شجاعة الامير القديس

واذ كان يصلي احدى الليالي بعد هذا الانتصار اضطربت نفسهُ جدًا لئلا يكون قد سرَّ باطنًا بمدح الناس اياهُ وخوفًا انهُ يكون قد زاغ وقت المعركة عن العدل والمحبة بشجاعة غير منتظمة وحينئذٍ رأَى بالروح سيدنا يسوع المسيح وعرف منهُ تعالى انهُ أَوشك في وقت الحرب ان يخسر نعمتهُ فمن أَجل ذلك عزم القديس على الانفراد فخرج من بلاط ملك نابولي ورجع الى قصرهِ

فكان القديس أَلزيار قد عاش مع زوجتهِ البتول دِلفينا بعفَّة غير ملطوخةٍ بنقصٍ حتى انهما كانا كملائكة الله نحو خمس عشرة سنة ولم يكن قد نذر عفتهُ اذ ذاك فمن ثمَّ رام ان يقتدي بامرأَتهِ البتول واختار لابراز نذرهِ عيد القديسة الجدليَّة وحينئذٍ تقدم مع امرأَتهِ الى المذبح امام شهود ووضع يدهُ على الكتاب المقدس ثم أَبرز نذره قائلاً يا الهي وسيدي يسوع المسيح يا ايها الذي تأْتينا منهُ كل الخيور اني حيث عرفت انهُ امر غير مستطاع ان احفظ ثوب العفَّة الكريم بدون نعمتك المنتصرة قد جعلت اتكالي عليك وحدك فانذر وأُعاهد عزَّتك الالهية والكلية الطهارة مريم العذراء والدتك مستشهدًا كل قديسي ملكوت السماء على عهدي ونذري اني اعيش عفيفًا الى وقت موتي واحفظ مدة ايام حياتي كلها البتوليَّة التي قد حفظتها حتى الان بنعمتك وقد استعدَّ قلبي لاحتمال كل نوع من انواع الشدائد والاحزان واصناف العذاب لحفظ نذري هذا . اما القديسة دِلفينا فمع انها قد ابرزت هذا النذر كما قلنا آنفًا جدَّدتهُ جهرًا في ذلك اليوم على النمط المذكور وكان ذلك نحو السنة الرابعة عشرة بعد القرن الثالث عشر للمسيح . وكان في الحاضرين شابٌ شريف الاصل فهذا لما رأَى هذا المثال العجيب نذر هو العفَّة ايضًا

وقد حفظ القديس أَلزيار نذرهُ بالكمال ورام الله تعالى ان يظهر نقاوة قلب عبدهِ لامرأَة فاضلة كانت قد ربَّتهُ في صبائهِ ونذرت هي ايضًا العفة مع زوجها وهي غَرْسِندا التي ذكر اسمها في سفر الطوباويات لأَنها رأَت يومًا جوهرًا كريمًا لامعًا مبرقًا كالشمس وسمعت هاتفًا من السماء يقول اعلمي ان هذا الجوهر الجزيل البهاء الزاهر اللمعان هو رمز الى عفة أَلزيار . وفي يوم اخر بينما كانت تصلي في الكنيسة لاجل أَلزيار سمعت هاتفًا يقول لها ان الشاب الذي تصلين لاجلهِ قد سلمتهُ لحماية

والذي وجعلتها معلمة له. وبعد ان اخبرت المرأة مرشدها بما سمعت في شأن الشاب القديس سأله المرشد المذكور يومًا عن كيفية تصرفه في وقت محل الصلاة فقال له القديس اعتقد انني لست اعرف كيف يجب ان اصلي ولذلك في ابتداء صلاتي التجي الى والدة الله أمي الجليلة والعزيزة واطلب منها ان تجعل في قلبي وفمي ما هو اكثر قبولاً لديها ولدى ابنها الالهي وأن تسأله تعالى من اجلي ما احتاج اليه اشد احتياج وعلى هذه النية اتلو سلام الملك جبرائيل وبمعونة والدة الله ادخل في التامل. فعرف بهذا المرشد ان العذراء المجيدة كانت في الحقيقة معلمة الشاب

وفيما بعد التزم الزيار بامر الملك روبرتوس ان يعود الى مدينة نابولي حيث فوّض اليه الملك تربية بكره كرلوس بل تدبير المملكة مدة غيابه سنة ثماني عشرة وثلثمائة والالف وبقي القديس يباشر ذلك الى السنة الثالثة والعشرين بعد الثلث مائة والالف وفيها ارسله روبرتوس الى ملك فرنسا وهناك اصابه المرض الاخير وعرف ان موته قد دنا فاعترف اعترافًا عامًا ولم يزل بعد ذلك يعترف كل يوم مرة ثم تناول القربان المقدس ودُهن بالزيت المقدس وآخر الكلام انه بعد هذه كلها ومع انه لم يكن اجترم حياته كلها خطيئة واحدة مميتة أحبّ الله تعالى ان يزيد في استحقاقه بتجربة عظيمة لانه في نزع الموت اضطربت نفسه واعتراها خوف عظيم وكان يصرخ قائلاً ياما أخوف قوة الشيطان ثم قال الشكر لك يايسوع الصالح الذي بموته ظفرتُ بكل قوات الجحيم. فبقي مدة من الزمن على خوفٍ واضطراب بالٍ وهتف ايضًا قائلاً اني اخضع خضوعًا كليًا لحكم ربي وعلى رحمته اجعل متكلي وبعد قليلٍ من الزمن سكنت نفسه وهدأ روعه ولاحت علامات الاطمئنان على وجهه وقال شكرًا لله الذي بنعمته فزتُ بالظفر حقًا قد انتصرت نفسي بنعمة سيدي ومخلصي يايسوع ومريم. قال هذا بوجه مبتهج واسلم الروح حالاً في اليوم السابع والعشرين من شهر ايلول سنة ثلث وعشرين وثلثمائة للمسيح وعمره ثماني وثلثون سنة

اعلم ان شابًا كان مشتهرًا برداءة السيرة حضر وفاته وبمجرد مشاهدته موته المقدس تاب عن سيرته القبيحة وحالاً اراد ان يعترف اعترافًا عامًا. اما القديس فقبل موته بقليل قال لراهب ان برارة امرأتي نهجت لي طريق الخلاص فهي كانت بتولاً لما تزوّجتها ولم تزل الى الآن كما كانت اولاً وقد ظهر لها بعد وفاته واخبرها انه قد دخل الملكوت السماوي وتكلّل بالمجد الابدي

اما امرأته الصالحة فبعد موت زوجها باعت افضل املاكها وتصدّقت بثمنها على المساكين وقضت بقية ايام حياتها مختلية ممارسة الصلاة وافعال التقشف وقد كُتب اسم زوجها في سفر القديسين قبل وفاتها وقضت أجلها اخيرًا في اليوم السادس من شهر تشرين الثاني سنة تسع وستين وثلثمائة والالف للمسيح

اليوم الثامن والعشرون

وفيه ترجمة القديس فنشسلاوس

ان هذا القديس وُلد من اوراتِسْلاوس امير بوهيميا ومن دراهُميرا التي كانت امرأة وثنية شرسة الاخلاق وقاسية الطباع وفوق ذلك خائنة ولم يقدر زوجها المسيحي ان يجذبها الى دين المسيح لا بكلامه ولا بقدوة سيرته الصالحة. وكان لها عدا القديس الذي هو بكرها ابن آخر اسمه بولِسْلاوس فخافت القديسة لوديميلا جدة القديس من ان يهلك بين يدي أمه الوثنية فاخذته وربّته ولما كبر سلّمته الى كاهنٍ فاضل عالم يُدعى بولس فنما في الفضيلة والعلم معًا وكان لايزال حدث السن يوم توفّي الله اباهُ وحينئذٍ اختلست أمه الوثنية تدبير المملكة. فلما رأت في يدها السلطة الملكية وانه لم يبقَ من هو كفوء لان يقاومها اطلقت حينئذٍ العنان لشراستها ولكرهها الديانة المسيحية ابرزت امرًا مشدّدًا في اغلاق كل الكنائس ومنع جميع الكهنة عن تعليم الشعب وعزل كل المؤمنين من المراتب والمناصب الشريفة واقامت رجالاً وثنيين على تلك المراتب وقد اشتدّ الاضطهاد كل الاشتداد حتى استحلّ الوثنيون ان يقتلوا المسيحيين واما المسيحيون فما كانوا يجسرون ان يقتلوا قاتليهم واذ اتفق ان احد المؤمنين قتل رجلاً وثنيًا حفظًا لحياته لما كان الوثني يريد ان يقتله قتلته الملكة ثم امرت بقتل تسعة رجال من المسيحيين ايضًا فانظر الى هذا الجور

غير ان الله تعالى الذي يعتني كثيرًا بخاصّته لم يدع شعبه مضطربًا زمانًا مديدًا لان دراهُميرا الاميرة الوثنية أصبحت مبغضة من المملكة لقساوة تدبيرها وقباحة سيرتها الدنسة فمن

ثمَّ اجتمع ارباب الدولة واستدعوا القديس فِنشِسلاوس واقاموهُ اميرًا وقد سكنت امهُ فجلس القديس على عرش ابيهِ وشرع يصلح كل ما افسدتهُ امهُ وحالاً ابطل كل اوامرها الصادرة في مقاومة المسيحيين ولما كان حسن سيرة الملك يفيد الشعب جدًّا ويؤثر بهِ تأثيرًا حسنًا ازداد الشعب اجتهادًا في العبادة وكان يقضي كل ما يبقى لهُ من الزمن بعد اتمام واجبات امريتهِ في الصلاة وافعال أُخر من التقوى بل انهُ كان يقضي اكثر الليل في رياضات التأمل والصلاة وبهذه الواسطة زهت النصرانية في ملكهِ مع حسن السلام والعدل وتغيرت بلدة بوهيميا سريعًا وكان الجميع يشكرون الله تعالى الذي ولّى عليهم مثل هذا الامير القديس

فلما ابصرت هذا دراهُميرا الخاطئة وافتكرت في ان الامير القديس يتدرَّب بمشورة القديسة لوديميلاجدته غضبت وصرَّت باسنانها وارسلت أُناسًا ارديا ليقتلوها فعرفت القديسة قصد عدوّها فجمعت حالاً كل خدام بيتها واعطتهم اجرتهم ثم دفعت بقية اموالها لُحسن بها الى الفقراء ثم دخلت كنيسة القصر الملكي وصلّت ثم اعترفت وتناولت القربان المقدس وفيما كانت تصلي بعد التناول وتقدّم لله حياتها ذبيحةً لاجل الديانة المسيحية دخل اثنان من جنود دراهُميرا وشنقاها وقد كُتب اسمها في سفر الشهيدات . ولم تكتفِ دراهُميرا بقتلها بل ان بغضتها للنصرانية كانت تقوى وتشتدّ في كل حين ثم فكّرت يومًا في كيف تسقط ابنها القديس عن عرش السلطنة فمن ثم حرَّكت اميرًا يقال لهُ رادِسْلاوس على المحاربة فدخل بلاد بوهيميا بعسكرٍ وفتك بالشعب فارسل اليهِ الامير القديس وسأَلهُ عن سبب هذه الحرب وطلب منهُ الصلح فاجاب ذلك وقال للمرسلين ان الشرط الوحيد للصلح انما هو خروج القديس من امريتهِ . فلما سمع القديس ذلك جمع عسكرًا وذهب للقاء الاعداء ولما اصطفَّ العسكران للقتال طلب القديس ان يكلم رادِسْلاوس وقال لهُ ليس بحسن بل هو ضد الصواب والعدل ان هذا الجمَّ الغفير يسفك دمهُ لاجل شخصين فقط ولكن الأَولى ان انزل انا وانت وحدنا في ميدان الحرب امام العسكرين لكي تنتهي الدعوى بموت احدنا فقط . فارتضى رادِسْلاوس ظانًّا انهُ ينتصر على القديس بسهولة . فنزل رادِسْلاوس في الميدان كجليات الجبَّار متدججًا بكل اسلحتهِ ومن تلك الاسلحة حربة طويلة وسهام وقوس اما الامير القديس فلم يأخذ الاَّ سيفًا صغيرًا فلما مثل كلٌّ منهما امام رفيقهِ ما بين العسكرين عمل القديس على جبهتهِ علامة الصليب المقدس فحالاً أوتر رادِسْلاوس قوسهُ وجعل عليهِ سهمًا وفيما كان يريد ان يرشقهُ أبصر بغتةً ملَكين وسمع صوتًا يقول كفَّ ولا تضربْ فخاف رادِسْلاوس خوفًا عظيمًا والقى نفسهُ على الارض وجثا على قدمَي الامير القديس وطلب المغفرة والصلح بالشروط التي يُريدها فتحقق الجميع ان الرب اله الحروب يحارب عن القديس

ثم رجع القديس منتصرًا شاكرًا الله تعالى على جزيل عنايتهِ وزاد نشاطًا في عبادتهِ ولفرط ما كان يكرّم سرَّ القربان المقدس كان يزرع بيديهِ الحنطة التي يُقصد استعمالها في خدمة القدّاس الالهي ويعصر بيديهِ عنب الخمر المختصّ بتكميل هذا السرّ . ثم انهُ اكرامًا للعذراء المجيدة رام ان يحفظ بتوليتهُ على الدوام. ذلك وان مصاحبتهُ للمساكين كانت صيَّرتهُ ابًا لهم والاحرى ان نقول ان هذه المحبة كانت صيَّرتهُ خادمًا لهم لانهُ علاوةً على صدقاتهِ الوافرة عليهم وزيارتهِ اياهم في منازلهم كان يحمل على منكبيهِ حطبًا لاجلهم . ثم لكي يتعلم الشعب كم يجب على المؤمنين ان يكرموا الكهنة كان يكرمهم دائمًا اكرامًا جزيلاً ولا يخاطبهم الاَّ باحترام . وبهذه الفضائل وغيرها اضحى مكرَّمًا محبوبًا في جميع اطراف امريتهِ حتى ان الشعب لم يكن يدعوهُ الاَّ الامير القديس

وقد اتفق ان اوتون ملك النمسا الاول ارسل واستدعاهُ يومًا الى جمعية تألفت من امراء المملكة المباحثة في تدبير امرٍ ما فلما رآهُ هذا الملك تعجّب من صفاتهِ الحميدة المقدسة واراد حبًّا بهِ ان يجعل امريتهُ مملكةً فلم يقبل القديس هذا الشرف فقال لهُ الملك انهُ اكرامًا لهُ يرفع عن امرية بوهيميا الجزْية التي كانت مرتَّبةً عليها للملك يأخذها منها كل سنة فارتضى الامير بذلك حبًّا بمصلحة شعبهِ . وقد روى بعض المؤرخين انهُ اجتمع ذات يومٍ كل الامراء مع الملك للفحص عن بعض امور اما القديس فتاخَّر عن المجيء لانهُ اراد لن يحضر قدّاسين وقد استغرب الملك هذا وقصد ان ينكي الامير بشيءٍ ما فاوصى الامراء بأَلاَّ يقوموا للامير حين دخولهِ في مكان الاجتماع غير انهُ لما دخل عليهم رأَوا في صحبتهِ ملَكين حاملين امامهُ صليبًا من ذهب فمن ثم نهض الملك حالاً عن كرسيّهِ ونزل

لاستقبالهِ والزمهُ بالجلوس عن يمينهِ وهكذا كل الامراء قدَّموا لهُ اكرامًا جزيلاً ثم وهبهُ الملك يد القديس فيتوس ولما رجع الى بوهيميا بنى بمدينة براغا كنيسة عظيمة على اسم القديس فيتوس ووضع فيها الذخيرة المذكورة ونقل الى هناك جسد جدتهِ القديسة لوديميلا

اما دراهُميرا الوثنية وبولِسْلاوس ابنها المنافق فلم يرتدَّا عن شرّها فعزما على قتل القديس فلما وُلد لبولِسْلاوس ابنٌ دعا اخاهُ الملك وعظماء بوهيميا الى وليمة حافلة فذهب وبعد العشاء لما انتصف الليل قام على عادتهِ ودخل الكنيسة ليصلي وحيث كان قد عرف بالهامٍ الهي اقتراب موتهِ قدَّم حياتهُ ذبيحة فقام بولِسْلاوس ودخل بجنودهِ الكنيسة فلما رفع سيفهُ ليقتل اخاهُ استولى عليهِ الفزع من جسامة اثمهِ فوقع السيف من يدهِ الاَّ ان الذين كانوا معهُ ردُّوا لهُ سيفهُ وحرَّكوهُ على تكميل اثمهِ مبكّتين اياهُ على قلّة شجاعتهِ فطعن بولِسْلاوس اخاهُ بسيفهِ وقتلهُ وفي الغد اختطف امريَّتهُ وفتك بالمسيحيين وقتل منهم خلقًا كثيرًا

ذكر بعض المؤرخين انهُ فيما كانت دراهُميرا تبتهج بسفك دمهم وتسير في حقل مملوء باجساد هولاء الشهداء انفتحت الارض وابتلعتها هي وكل الذين معها فملأ هذا الانتقام الالهي قلب بولِسْلاوس خوفًا ورعبًا لكن لم يردَّهُ الى التوبة ولما رأى ان الله تعالى لا يزال يشرّف قبر اخيهِ بالعجائب أمر بنقل جسدهِ سرًّا الى مدينة براغا وان يوضع في كنيسة القديس فيتوس قصدَ ان تُنسب العجائب التي تجري عند قبرهِ الى القديس فيتوس لا الى اخيهِ الاَّ ان الله سبحانهُ خيَّب امل بولِسْلاوس الخبيث لان المركبة الموضوع عليها جسد القديس لما دخلت مدينة براغا ووصلت الى تجاه السجون وقفت خيلها ولم تمشِ اصلاً حتى ولا بالضرب الشديد الى ان اخرجوا كل الذين كانوا في السجون وليس هذا فقط بل ان تلك الخيل لما وصلت بعد ذلك الى جسر النهر لم ترد ان تمشي عليهِ بل اجتازت من النهر ماشيةً وساحبةً المركبة على وجه الماء وقد عاين ورأى هذه الاعجوبة كل اهل المدينة فطلبوا حينئذٍ ان يبصروا الذخيرة المقدسة ولما فتحوا التابوت وجدوا الجسد على صحتهِ كما كان في ساعة وفاتهِ وكان قد تُوفّي منذ ثلث سنين في اليوم الثامن والعشرين من شهر ايلول بسنة تسعمائة وست وثلثين للمسيح . اما بولِسْلاوس الملقَّب بالقاسي فهاج عليهِ اوتون ملك النمسا وحاربهُ اربع عشرة سنةً والزمهُ اخيرًا ان يقبل قانونًا ثقيلاً جدًّا لاجل قتل اخيهِ ثم اجبرهُ على ان يغرس الديانة المسيحية في امريتهِ ويبني الكنائس التي هدمها ومات اخيرًا في حداثتهِ شرَّ ميتةٍ وخلفهُ بولِسْلاوس ابنهُ الملقَّب بالتقي واقتدى بمثال عمهِ القديس

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس خاريطون السائح

ان هذا القديس وُلد بمدينة ايقونية في اواسط المائة الثالثة وتربَّى على قواعد دين المسيح وتأدب بآداب المسيحيين وتحلَّى بفضائلهم وتزيَّن بمحمود خصالهم ولما استعرت نار الاضطهاد على النصارى على عهد السلطان أُورليانوس قيصر (١) قُبض عليهِ مع مَن قُبض عليهم في المدينة المشار اليها بسبب انهم اتخذوا النصرانية لهم دينًا . فلما وقف امام والي تلك المدينة واعترف بانهُ مسيحي من غير خوفٍ بل بأشدّ من جراءة الاسد الضرغام أمر بجلدهِ فجُلد جلدًا عنيفًا ثم كُوِي بشُعل النار في كل جانبٍ من جسدهِ الطاهر على انهُ بالصبر الجميل كابد ما كابد كما قلنا . ذلك واذ لم يزعزعهُ شيء عن النصرانية بل بقي ثابتًا عليها اقتيد الى احد السجون حيث ذاق اصعب الشدائد

ولم يزل مسجونًا حتى قُتل اورليانوس قيصر بايدي جندهِ في السنة الخامسة والسبعين بعد المائتين للمسيح ولما خمد الاضطهاد أُطلق خاريطون من سجنهِ فتوجَّه الى اورشليم وجعل يتردَّد الى البادية بقصد الاعتزال عن الناس ومجانبتهم فوثب عليهِ اللصوص واخذوهُ مقيَّدًا الى مغارة السَّلَب الذي كانوا يختلسونهُ من الناس . غير ان اولئك اللصوص شربوا خمرًا من دنٍّ قذفت فيهِ السمَّ حيَّة رقطاء فتمزَّقت احشاؤهم منهُ وتشقَّقت امعاؤهم فهلكوا جميعًا

اما خاريطون فاخذ كل الاسلاب التي بالمغارة واصطنع بها الى الفقراء ونسك فيها على التقشف وممارسة افعال الامانة

(١) حاشية . هكذا في ترجمة القديس اليونانية غير ان البلاَّنديستيين ابانوا ان اعتراف القديس خاريطون وتألُّمهُ لا بد ان يكونا على عهد غاليانوس او ليسينيوس وذلك لكي يُطابق انشاء الكنيسة الآتي ذكرهُ على عهد القديس مكاريوس البطريرك الاورشليمي الذي كرَّسها (راجع المجلد السابع من كتاب البلاَّنديستيين في الوجه الحادي والسبعين والخمس مائة في المجلد السابع من تراجم شهر ايلول

وقد جرَّبهُ الشيطان هناك اخزاهُ الله بتجارب شديدة مُوبقة ولكنهُ بحول الله تعالى انتصر على المجرّب وآتاهُ الله فعل كثيرٍ من الآيات والمعجزات ومن ثمَّ شاع صيتهُ فجعل الناس يأتونهُ من كل جانبٍ قصدَ ان يلتقطوا جواهر الفوائد من مواعظهِ وارشادهِ التي انتفع بها كثير من الناس ورجعوا الى الله تعالى

الاَّ ان القديس خاريطون لم يزل يرغب في الاختلاء فلما رأى كثرة الناس يترددون اليهِ سلَّم تدبير هذا الدير الأوَّل الى احد الرهبان وتوجَّه الى الشمال فوجد بالقرب من اريحا مغارة اخذها مقامًا لهُ للاختلاء لكن الله تعالى لم يرد بهِ ان يكون مجهولاً على هذه الحال بل ارسل لهُ اناسًا كثيرين كانوا يطلبون ارشاداتهِ ويريدون ان يعيشوا تحت تدبيرهِ فالتزم بان يبني لهم محلاَّت فكان ثمَّ ديرهُ الثاني الذي عاش فيهِ بعد القديس هَلَبيديبوس . الاَّ انهُ لما رأى كثرة الناس المترددين اليهِ ترك ايضًا هذا المكان الثاني ورجع الى الجنوب وسكن بالقرب من مدينة طقوي مولد النبي عاموس بين اورشليم وبحر لوط . فلم يمضِ زمان حتى شاع خبر سكناهُ هناك فجاء الناس اليهِ وترهب كثيرون عندهُ وبنى لهم قلالي واصبح ديرًا ثالثًا يُدعى دير سوقا وبعد ذلك اختار القديس لنفسهِ بالقرب من هذا الدير في جبل يصعب الصعود فيهِ مغارةً عاش فيها بعض سنين ولما عرف ان أجل حياتهِ قد دنا جمع تلاميذهُ في ديرهِ الاول المدعو فارون واعطاهم نصائحهُ الاخيرة لممارسة افعال الامانة والتواضع والمحبة والثبات فيها وبعد ان انبأهم باضطهادات جديدة كانت ستلمّ بالكنيسة المقدسة مات بدون مرضٍ ولا ألمٍ بعد انتصاف الجيل الرابع للمسيح (١)

اليوم التاسع والعشرون

وفيهِ عيد القديس ميخائيل رئيس الملئكة

ان الكنيسة تعيّد في اليوم التاسع والعشرين من هذا الشهر عيدًا خصوصيًّا اكرامًا للقديس ميخائيل لاجل كونهِ رئيس الملئكة وقائد الجيش السماوي وعاضد كنيسة الشعب المسيحي كما كان قديمًا حافظ كنيسة الشعب الاسرائيلي غير انها تكرّم ايضًا بقية الملئكة المترئّس عليهم كما يظهر من قداس هذا العيد الشريف

لا يخفى ان الكنيسة تعلّمنا ان الله تقدّست اسماؤهُ خلق اولاً هذه الارواح السماويَّة لتكون لهُ تعالى خدَّامًا في بلاطهِ الجديد ثم خلق بقية الكون وما عليهِ ولهذا قال المجمع اللاتراني الرابع اننا نؤمن ان ليس الاَّ اله واحد حق ازلي غير متناهٍ اخرج في ابتداء الزمان من العدم الخليقتين معًا اي الخليقة الروحية الملئكية والخليقة الجسمية العالمية ثم خلق الطبيعة البشرية المركّبة من جسم وروح . فالملئكة اذًا هم جواهر روحية فهيَّة محضة غير متعلقة بجسد متصفة بمواهب وصفات وكمالات مختلفة بحسب كمال طغماتهم وعظمة مراتبهم . فكثيرون منهم لما رأوا جلال كمالاتهم الطبيعية لم يؤدّوا لله تعالى الشكر الواجب عليها بل افتخروا بها ونبذوا ان يطيعوهُ عزَّ وجلَّ وتمرَّدوا عليهِ متكبّرين فطرحهم الله للحال في دركات جهنم ليُعذَّبوا عذابًا ابديًّا . اما بقية الملئكة فثبتوا على ما هم عليهِ من البرّ والطاعة لخالقهم فاسكنهم في السماء حيث يتمتعون دائمًا بمشاهدة الله سبحانهُ ولا يزالون يسجدون لهُ ويسبحونهُ ويحبونهُ محبةً كاملةً . والحاصل انهم خدَّام الله ويرسلهم لينفذوا اوامرهُ نحو بقية الخلائق ولا سيما البشر وهم الذين يقدّمون لله صلواتنا وبهم يُعرّفنا الله مشئتهُ ويصنع عجائب لاجلنا وهم الذين اوصاهم بحراستنا

وقد قال فيهم الكتاب المقدس في العهدين الجديد والعتيق ان ثلثة ملئكة ظهروا لابراهيم واخبروهُ بميلاد اسحق (تكوين ١٨ : ٢) وان الملَك رافائيل ظهر لطوبيا ورافقهُ في سفرهِ (طوبيا فصل ٥) والملَك جبرائيل ظهر لدانيال النبي وانبأهُ بوقت تجسُّد ابن الله ومجيء السيد المسيح (دانيال ٩ : ٢٠) وهذا الملَك ظهر لزكريا واخبرهُ بمولد يوحنا المعمدان (لوقا ١ : ١١) وكذلك تراءى للجليلة مريم البتول وأنبأها بانها ستحبل بابن الله (لوقا ١ : ٢٦) وفي ميلادهِ تعالى ظهر الملئكة للرعاة وبشروهم بميلاد السيد المسيح مخلص العالم وهم الذين خدموهُ تعالى في البريَّة وعزّوهُ في بستان الزيتون وهم الذين اخبروا بقيامتهِ وتنبَّأوا يوم صعودهِ انهُ سيأتي فيما بعد ليدين العالم

وقال القديس غريغوريوس من المعلوم ان الملئكة منقسمون الى ثلث طغمات وكل طغمة الى ثلث رتب

(١) حاشية . من حيث لا يُعرف بتأكيد سنة وفاة القديس فلا يُعرف ايضًا بأيّ اضطهادٍ انبأ تلاميذهُ الاَّ انهُ يحتمل ان يكون هذا اضطهاد الاريوسيين او اضطهاد يوليانوس الجاحد

فالطغمة الاولى والعليا تتضمن السارافيم والكاروبيم والعروش . والطغمة الثانية تشتمل على القوات والسلاطين والسيادات والطغمة الثالثة تحتوي على الرياسات ورؤساء الملئكة والملئكة اما السارافيم فهم الذين يضطرمون بمحبة الله اكثر من بقية الملئكة واما الكاروبيم فهم أعلم وأكثر نورًا ومنهم تأخذ بقية الارواح انوارهم وعلمهم وقد قال الكتاب المقدس انهُ من بعد ان اخرج الله تعالى آدم وحوَّاء من الفردوس الارضي اقام من الكاروبيم متسلحًا بسيف لهيب على باب الفردوس ليحفظ الطريق الموصل الى شجرة الحياة . اما العروش فهم الملئكة الذين يكونون للعزَّة الالهية بمنزلة منابر وكراسي مجيدة . والقوات فهم الذين وهبهم الله قوة عظيمة لفعل العجائب . والسلاطين فهم الارواح الذين يضبطون سلطان الشياطين وجهنم وقد اقامهم الله عزَّ اسمهُ على العلل السفلية لحفظ نظام العالم وانما سمُّوا سلاطين لانهم يظهرون سلطة الله تعالى وقدرتهُ الضابطة الجميع كما قال القديس غريغوريوس . ثم ان السيادات هم الارواح الذين لهم سلطان على البشر وعلى الملئكة الذين هم اقلّ منهم كمالاً واما الرياسات فهم الملئكة الذين لهم سلطان خاص على الممالك لحفظها . ثم اعلم ان لفظة ملك نكرة تُطلق على كلّ من الارواح السماوية غير انها تطلق اصطلاحًا وعلى وجه الخصوص على ارواح الرتبة الثانية والثالثة من الطغمة الثالثة ومعنى ملَك مرسَل والارواح المرسَلون لاجل امور اعتيادية يُدعون ملئكة والارواح المرسَلون لاجل اعظم الامور يسمّون رؤساء الملئكة ومنهم الملئكة جبرائيل ورافائيل وميخائيل

لاجرم ان الكنيسة اعزَّها الله قد أصابت في وضع عيدٍ لتكريم هولاء الارواح المعظمين وذلك اولاً شكرًا لله تعالى الذي خلقهم وزيَّنهم بمثل هذه الصفات المجيدة العجيبة لتمجيدهِ ولنفعنا . ثانيًا لكي نطلب من الملئكة ان يعضدونا ويعينونا ويحفظونا في سفر حياتنا هذا الخطر ونشكرهم على كبير اهتمامهم بنا . ولا ريب ان تكريم الملئكة منذ ابتداء الكنيسة المقدسة وبالغ قوم من المسيحيين في ذلك حتى جعلوهُ عبادة نفاقية وقد اخبر المعلم ترتوليانوس والقديسان ايفانيوس وثاودوريتوس ان كيرنتوس وسيمون الساحر زعما وعلّما ان اكرام المؤمنين الملئكة بقصد العبادة هو ضروري للخلاص واسنا بقادرين ان نُقبل الى الله تعالى بدونهِ وان المعروف يلزمنا ايضًا بذلك من اجل ان الله سبحانهُ أعطى على ايدي الملئكة شريعة موسى التي كان يعلّم ذلك المبتدع ان المسيحيين ملتزمين بحفظها وبهذا الراي الفاسد كان يفتري على السيد المسيح الذي هو وسيطنا الضروري الوحيد عند ابيهِ والمخلص الذي نجانا من نير الناموس العتيق . هذا وقد فنّد ودحض هذه البدعة القديس بولس الرسول في رسالتهِ الى اهل كولسي حيث يقول لا يضلكم أحدٌ بالتواضع وعبادة الملئكة سائرًا فيما لم يعاين ومفتخرًا باطلاً براي جسدهِ (فصل ٢ : ١٨)

وانما يجب على المؤمنين ان يكرموا جدًا هولاء الارواح السماويَّة ويقدموا لهم عبادة اكرام لهذه الاسباب اولاً لاجل جلال كمال طبيعتهم المتسامية فوق كمال الطبيعة البشرية بما لا يوصف . نعم ان الملَك والانسان هما عمل يد الله وخُلقا على صورتهِ تعالى وحازا قوة الذاكرة والفهم والارادة وكلاهما من حيث الطبع كفوءٌ لان ينالا النعمة الالهية ويشتركا في السعادة الابدية ونظرًا الى ذلك فان الملَك والانسان هما متساويان وان لاحظنا بعد ذلك اتحاد طبيعتنا بالطبيعة الالهية وان هذا الانسان الاله هو جالس من عن يمين الله بل اننا اذا تأملنا طبيعتنا المرتفعة في اقنوم الجليلة مريم العذراء فوق جميع طغمات الارواح السماوية فمن هذه الجهة قد غدت طبيعة البشر اشرف جدًا من طبيعة الملئكة . غير اننا اذا اعتبرنا هاتين الطبيعتين بالنظر الى جوهرهما وصفاتهما العزيزة فلا ريب اننا نعترف حينئذٍ انهُ كما ان أنقى الرصاص وأفضلهُ لا يوازي كمال الفضة لا يبلغ جسد بشر مهما كان كاملاً الى كمال روح من الارواح ولا تصل نفس الانسان الى عظمة كمال ادنى الملئكة ولذلك كما قال بعض العلماء قال سيدنا يسوع المسيح انهُ ليس في اولاد النساء اعظم من يوحنا المعمدان ولكن الاصغر في ملكوت الله اعظم منهُ (لوقا ٧ : ٢٨)

فتأمل قليلاً صفات الملئكة العجيبة فمن جهة دوام حياتهم فانهم غير قابلي فساد الموت لكونهم مجردين عن الاجسام ولا يعتريهم وجع من اوجاع اجسادنا لا حرٌّ ولا برد ولا جوع ولا عطش ولا تعب ولا مرض وهلمَّ جرًا ومن جهة سرعة حركتهم فليس في كل الخلائق شيءٌ يضاهيهم . وماذا عسى ان نقول في سمو كمال فهم الملئكة الذي لا يزال فاهمًا ولا

حاجة له الى التفلسف ويعرف كل ما يمكن ان يعرفه بذاته وقد يعرف ذلك معرفة تامة من دقيقة تكوينه الاولى والذي عرفه لا ينساه ابدًا . اما قوتهم فانها عجيبة ايضًا لانه قد ذكر في السفر الالهي ان واحدًا من الملئكة قتل من الاشوريين في ليلةٍ واحدة خمسة وثمانين الفًا ومائة الف (ملوك الرابع ١٩ : ٣٥) . وقال القديس ديونيسوس الاريوباجيتي ان عدد الملئكة اكثر من عدد كل الاشياء الجسمية الهيولية لان الله تعالى من حيث انه في تكوين العالم قصد كماله ولا حدّ لقدرته أراد ان يكثر عدد الاشياء الاكثر كمالاً ولذلك قال ايوب البارّ ألعل لجنوده عددًا (ايوب ٢٥ : ٣) . لاجرم انه أمر تذهل منه الالباب ان بين هذه الارواح السماوية الكثيرة العدد ليس ملك غير مختلف في اقنومه عن الاخر حسب رأي القديس توما اللاهوتي ومن ثمّ الملئكة باختلاف بهائهم وكمالاتهم الجليلة ابهى وازهى من روض تدبّج بالازهار الجميلة المنظر المختلفة الالوان

اعلم ان السبب الثاني الذي من اجله تحثنا الكنيسة على حفظ اكرام الملئكة هو وفور احسانهم الينا في خدمتهم السيد المسيح لانه جلّت اسماؤه هو معطي كل الخيور الطبيعية والنعم الالهية التي نقبلها الّا ان المجاري التي تصل بها الينا تلك الخيور والنعم انما هي الملئكة الذين يستخدمهم الله تعالى لابراز كل ما يشاء في السماء وفي الارض فمن الخيور المشار اليها ما يخص الافراد غير ان البقية تشترك بين الجميع عمومًا لان كل احد كما قلنا آنفًا له ملك حارس يهتم به ويرافقه الى يوم وفاته وهو لديه كمعلم ومدبر ومرشد ليهديه طريق البر والفضيلة ويحذره من حيل اعدائه المنظورين وغير المنظورين ولاشك في انهم لا يذخرون جهدًا في حفظنا مع اننا بالنسبة اليهم والى سمو مرتبتهم العظيمة لسنا الّا كعبيد حقيرين . الّا ان حبهم لله تعالى الذي اوصاهم فينا جعل خدمتهم البشر عندهم شريفة محبوبة فيباشرونها بسرور ونشاط . فمن ذا الذي لا يتعجب مما جاء في الكتاب المقدس عما فعلت الملئكة حبًا للبشر . ومن ذا الذي لا ينذهل عقله عندما يشاهد الملك رافائيل مقدمًا نفسه اطوبيًا ليرافقه ويخدمه في سفره وباذلاً اعتناءه في الطريق بحفظه اياه من حوت كان يهم ان يبتلعه وتحصيله ماله في ذم الناس وتزويجه اياه بامرأة صالحة وردّ النظر لأبيه . ومن لا يمجد الله سبحانه ويشكره على ما صنع بايليا النبي لما اتاه بمأكل وقدمه له ليتقوّى به في الطريق . من لا يفرح قلبه عند قراءته ما ذكر عن ملك نقل حبقوق النبي بشعر رأسه من بلد فلسطين الى مدينة بابل في دقيقة واحدة من الزمن ليعزّي دانيال النبي الملقى في جب الاسود وسدّ افواهها لئلا تفترسه وما كتب عن الملك الذي نقل فيلبس الشماس من الموضع الذي فيه عمّد الرجل الحبشي الى مدينة اشدود

ولا نجد في الملئكة المكرمين في كنيسة الله تعالى الّا ثلثة لهم اسماء في الكتب المقدسة ميخائيل وجبرائيل وروفائيل وبهذه الاسماء كما قال القديس غريغوريوس يعلمنا الكتاب المقدس وظيفتهم وصفاتهم الخصوصية فمعنى لفظة ميخائيل مَنْ مِثْلُ اللهِ واسم جبرائيل يعني جبروت الله وروفائيل دواء الله وقد اعتقدت الكنيسة ان القديس ميخائيل هو رئيس جميع الملئكة كما يُدعى في نبوة دانيال وهذا الملك العظيم كان قد ظهر قبل ظهور النبي المذكور كما سطر في رسالة القديس يهوذا لان الشيطان تامل بعد موت موسى الكليم انصباب الشعب الاسرائيلي وميلهم الى عبادة آلهة كثيرة ولانهم كانوا رأوا النبي يصنع عجائب كثيرة عظيمة ظن الشيطان انه يميل بهم بسهولة الى اكرام النبي كاله بعبادة وثنية فقصد ان يقدم لهم جسد موسى كصنم يعبدونه ويقدمون له الذبائح غير ان القديس ميخائيل عاضد هذا الشعب قاوم ابليس في قصده واخفى جسد موسى النبي ولم يدع احدًا يعرف اين هو . ثم ان القديس يوحنا صاحب الرؤيا قد ذكر انه وقع في السماء قتال وحرب عظيمة ما بين ميخائيل وملئكته والتنين اي لوسيفوروس الحية القديمة المسمّاة شيطانًا فهذا التنين كان يحارب مع الملئكة فظفر بهم ميخائيل رئيس الملئكة وطردهم من السماء ولم يوجد موضعهم فيما بعد في السماء وطُرحوا في جهنم . ولما جاز يشوع بن نون نهر الاردن وعزم على محاربة العموريين تراءى له الملك ميخائيل بزي قائد جيش متسلح فسأله يشوع قال أأنت معنا ام من اعدائنا فاجابه الملك وقال له اني انا رئيس اجناد الرب . وقد زعم كثيرون ان الذي ظهر في العليقة الملتهبة وعلى طورسينا كان هذا الملك نيابة عن العزة الالهية . ومن المعلوم والمحقق ان الملك ميخائيل ظهر مرارًا كثيرة بعد صعود سيدنا يسوع المسيح ليتحقق بذلك اعتناؤه بالكنيسة المستودعة لحراسته ولذلك أقيمت له

كنائس كثيرة

اليوم الثلثون

وفيهِ ترجمة القديس ايرونيموس

ان هذا القديس الذي تدعوهُ الكنيسة المعلم المعظَّم وُلد بمدينة ستريدونيا في نواحي حدود بلاد بَنّونيا ودَلماتيا في السنة الحادية والثلثين بعد الثلث مائة للمسيح وقد دُعي ايرونيموس ومعنى هذه الكلمة اسمٌ مقدَّس وكان ابوهُ المدعو اوسابيوس رجلاً مسيحيًّا معتبرًا غنيًّا . فلما رأى ابنهُ ذا عقلٍ عجيب وراغبًا في العلم جدًّا ارسلهُ الى رومية وهناك درس العلوم البشريَّة وتمهَّر فيها جدًّا ولاسيما المعاني والبيان ومعرفة كتب الخطباء والشعراء والمؤرخين اللاتينيين واليونانيين . ثم أقبل على درس الفلسفة المأخوذة عن افلاطون وارسطوطاليس وغيرهما من الفلاسفة وقد كان الله تعالى يعدُّهُ بهذه المعارف ليقوم على التعليم في كنيستهِ وما بقي لهُ من الزمن فكان يصرفهُ في زيارة مقابر الشهداء القديسين ولم يكتفِ في درس الكتب بل كان ينسخ اشرفها ايضًا فبقي على هذه الحال الى ما بعد السنة الثالثة والستين من الجيل الرابع التي فيها مات يوليانوس الجاحد . ثم بعد ان تخرَّج في العلوم البشريَّة هزَّهُ الشوق الى اكتساب اسمى العلوم وانفعها للخلاص اعني علم اللاهوت فعزم على ان يتغرَّب لكي يجد من يعلّمهُ وبعد ان اعتمد توجَّه على الرأي الغالب الى بلاد غاليا حيث كانت وقتئذٍ في مدن مرسيليا وتولوزا وبُردو واوتون وليون وتريفي مدارس شهيرة فزارها القديس ولاسيما مدرسة تريفي حيث وصل في صحبة بونوسيوس فابتدأ هنالك يسلك سلوكًا مقدَّسًا ممارسًا رياضات الصلاة والتقشف مع انكبابهِ على درس العلوم وهناك نسخ كتاب القديس ايلاريوس وكان يعدُّهُ ككنز عظيم . ثم انطلق من هناك وسنة سبعين وثلثمائة ذهب الى اقويليا مدينة بايطاليا حيث عاشر اسقفها القديس واليريانوس واكليريكيين كثيرين مشهورين بالعلم والتقوى ومنها رجع الى رومية وبعد مدة وجيزة اخذ افاغريوس واينوشنسيوس رفيقين لهُ وسافر الى الشرق وبعد ان طاف اقاليم كثيرة وصل الى سورية وبمشورة القديس تاودوسيوس السائح الذي كان ايرونيموس زارهُ في كيليكية واستشارهُ ايضًا بكتابةٍ عزم على الاعتزال عن الناس فبعد ما شُفي من مرضٍ كان قد اعتراهُ في انطاكية انطلق نحو السنة الرابعة والسبعين والثلث مائة الى البرية التي بين انطاكية ونهر الفرات بالقرب من مارونيا وكان قد مات في انطاكية اينوشنسيوس احد رفقائهِ وكان افاغريوس يرسل لهُ معاشةً مع كتب افضل العلماء فادركتهُ في هذه البريَّة تجربتان بحيث تكاثرت عليهِ الامراض واشتدَّت عليهِ التجارب اللحمية وقد كتب عنها الى القديسة اوستوكيوم البتول قال في رسالتهِ الثانية والعشرين التي كتبها اليها فيما بعد لتزيدها شجاعة في محاربة عدو العفة والبتولية : اني كنت حينئذٍ ساكنًا في اصعب مكان من الفيافي وارهبها حتى ان الرهبان يفرّون منهُ ويخافون السكنى فيهِ وفيما كانت الشمس قد احرقتني هناك بحرارة اشعتها وصيَّرت جلدي كلهُ اسود كانت مخيّلتي تنقلني الى رومية وتريني راقصات النساء وهذا كان يزجُّ بنفسي في بحر الاحزان فكنت اذرف الدموع النهار كلهُ وكنت اقضي الليل جالسًا على الارض باوجاع عظيمة . ولست اذكر لكِ عن شَظَف عيشي وشدَّتهِ لان الرهبان حتى وفي حال المرض لا يشربون سوى الماء ويعتقدون ان المآكل المطبوخ شيءٌ مفرط وفي منفاي هذا وسجني الذي كنت اخترتهُ خوفًا من جهنم لم تكن لي رفقة سوى العقارب والوحوش الضائرة وكان مع هذا كثيرًا ما يتردَّد في مخيّلتي تخيُّلات قبيحة . اما وجهي فكان قد شحب واصفرَّ من كثرة الاصوام وطولها وكانت نفسي مع ذلك تحترق باشواقٍ رديئة في هذا الجسد البارد وفي هذا اللحم الجافّ اليابس الذي مات قبل الموت فلم يكن فيَّ شيءٌ حيٌّ الاّ الشهوات الدنسة وكانت على مقاومتي لها تشتدُّ التهابًا ففي حال ضيقي وتجرّدي عن كل اعانة كنت اجثو امام ايقونة سيدنا يسوع المسيح واسكب عليها دموعي وامسحها بشعري وأطيل صومي الى مدة اسبوع لكي اقمع لحمي

واني استحي من ايراد تجاربي بل اني احزن لاني لست الآن كما كنت في ذلك الزمان واتذكر اني قضيت مرةً واحدةً النهار والليل متنهدًا وصارخًا وضاربًا صدري وما برحت هكذا الى ان أمر سيدي فسكنت عاصفة تجربتي وفازت نفسي بنعام الهدوء . وكنت حينئذٍ أهلع من قلاَّيتي كما أهلع ممن يطلّع على افكاري ويعرف ضميري وكنت استشيط على نفسي واخرج من قلاَّيتي المشار اليها واطلب الاماكن الاكثر

انفرادًا حيث كنت أُقيم الصلاة . فبعد ان صلَّيت صلاةً طويلةً بتنهُّدٍ ودموع شعرت بحلاوةٍ روحية تختطفني بالروح فوجدت نفسي كأنها صعدت الى السماء وانا اترنَّم مع الملائكة قائلاً هاءنذا الآن تجذبني يارب بعرف طيوبك السماوية طيوب تعزيتك اللذيذة . فان كان اللحم يحارب بمثل هذه الشدة من يعذّبهُ فما الذي يفعلهُ بمن يعاملهُ بتذلُّلٍ . انتهى

ومما استعمل هذا القديس في مقاومة هذه التجربة درس اللغة العبرانية وكان قصدهُ الاصلي في ذلك ايضًا درس الكتب المقدسة في لغتها الاصلية لمجاوبة اليهود بمعناها الاصلي وقد درس اللغة المذكورة بابلغ ما يكون من الاجتهاد وتتلمذ لراهب كان يهوديَّ الجنس ماهرًا في اللغة العبرانية فتعلَّمها وتمهَّر فيها جدًّا واستعان بها كثيرًا على تفسير الاسفار المقدسة . وقد ذكر هو نفسهُ كم تعب في هذا الدرس على ان ذلك لم يكن من صعوبة اللغة وانما كان من استغرابهِ بساطة نص هذه الاسفار الخالية عن زُخرُف القول وحسن الترتيب لانهُ عليهِ السلام كان قد تعوَّد قراءة افصح كتب العلماء وابرعهم في التأليف فكان اوَّل الامر يتكرَّه من تلاوة الكتب المقدسة وكانت التجربة تغلبهُ اكثر الاوقات بحيث كان كلما فتح الكتاب الكريم وتلا قليلاً منهُ يطبقهُ مشمئزًا منهُ ويقرأ كتاب شيشرون إمام فصحاء اللاتينيين ليتفكَّه بانسجام عبارتهِ وطيب نفَسهِ غير ان الله تعالى كان قد انتخبهُ لتفسير الاسفار الالهية ومن ثمَّ كان يحثهُ بالهامهِ على تلاوتها وإمعان النظر في دقائق معانيها ولما راهُ غير قابلٍ للدعوة التي دعاهُ اليها أرسل ملكًا ليوبّخهُ ويعذّبهُ (١)

وقد اخبرنا القديس بذلك مفصَّلاً في رسالتهِ الثانية والعشرين الى تلميذتهِ القديسة اوستوكيوم حيث قال اني اورد لكِ خبر شقاءي وتأدُّبي فاعلمي اني لما عزمت على ترك كل شيء لكي اربح ملكوت السماء هجرت بيتي وفارقت ابي وامي واخوتي واخواتي واقرباءي واصعب من ذلك اني لما عزمت على الامتناع عن اكل اللحم وعلى الذهاب الى اورشليم لم اقدر ان افارق كتبي التي جلبتها من رومية بعناءٍ عظيمٍ وكلفة كثيرة . فيالشدة شقاءي اني كنت أُطيل صومي لكي أُطيل

قراءة رسائل شيشرون وبعد السهر الطويل وسجم الدموع على خطاياي كنت ارجع الى قراءة كتب احد الشعراء الوثنيين غير اني كنت بعض الاحيان عندما انتبه من غفلتي آخذ كتب احد الانبياء القديسين ولكن كان يستولي عليَّ الضجر سريعًا ويظلم عقلي لان عمايتي لم تكن تدعني أُبصر النور وكنت اظن ان ذلك من نقصان في الشمس . هذا وفيما كانت الحية الخبيثة تُغويني على هذا الوجه اعترتني حمى شديدة نحو منتصف صوم الاربعين وفي ايام قليلة وصلت الى خطر الموت والذين كانوا محدقين بي شرعوا يُعدُّون كل شيء لدفني وحينما كانت الحرارة الغريزية قد فارقت اكثر اعضاء جسدي واجتمعت كلها في صدري اختُطِفت بالروح وقُدِّمت للرب ديَّاني وديَّان الجميع ولزيادة النور الخارج من المحفل جثوت على الارض مرتعبًا ولم اتجرأ ان ارفع الحاظي فسُئلت عن ايماني وأجبت بطمأنينة اني بنعمة الله مسيحي اما الديَّان فقال انك قد كذبتَ لانك لستَ بتلميذ المسيح بل انك تلميذ شيشرون الوثني وشعراء عَبَدة الاصنام فلما سمعتُ هذا لزمت الصمت منتظرًا الحكم فامر الديَّان بعض جندهِ ان يضربوني بالسياط ففعلوا وفيما كنت اذوق من ضربهم أشدَّ الوجع وكان قلبي يتمزَّق بندامةٍ أمرَّ الما من الضرب متنهدًا باكيًا صرخت قائلاً اغفر لي يارب اغفر لي يارب . فجثا الحاضرون امام منبر الديَّان وتضرَّعوا لاجلي وطلبوا من عزَّتهِ ان يغفر لي خطيئتي الناشئة من جهل حداثتي ويمهل عليَّ الى ان اتوب عليها بشرط اني أُعاقَب أشدَّ من ذلك العقاب ان كنت لا ارتد عن ضلالي وقد عاهدتهم بالقَسَم اني اتوب لا محالة فأطلقني الديَّان وانتبهت فاذا بوجهي مبتلٌّ بسحائب الدمع فلا يظنَّ احد ان هذا انما كان حلمًا باطلاً او شيئًا خياليًّا لا طائل تحتهُ لاني استشهد في ذلك الديَّان الذي أمر ان أُضرب بالسياط واستشهد الملئكة وتشهد بذلك آثار السياط التي بقيت ظاهرةً على جسدي زمانًا مديدًا . فمنذ ذلك اليوم ابتدأت ان اقرأ الكتب الالهية بالرغبة التي كنت بها اقرأ كتب العلوم البشرية . انتهى .

ذلك وقد استعذب فيما بعد تلاوتها وتفكَّه بها اكثر جدًّا ما كان يستلذُّ بمطالعة كتب أفصح الخطباء ودواوين المفلقين من الشعراء وكتب في هذا الشان الى القديس دامسوس البابا الذي كان يستشيرهُ في تفسير أغمض آيات الكتاب المقدس

(١) حاشية . ارتأى البلاَّنديستيون ان ما سيُذكر حدث للقديس وهو في انطاكية واعتراهُ المرض الذي ذكرناهُ سنة اربع وسبعين وثلثمائة . راجع المجلد الثامن وجه ٤٣٩ من تراجم ايلول للعلماء المذكورين

وحلَّ اعوصَ مشكلاتها وقد كان بعدُ حدَث السن فقال في رسالتهِ الى الحبر الروماني ان الذَّ المخاطبات انما التي يكون الكتاب المقدس موضوعها واعترف اني لا اجد في هذه الحياة حلاوة اشهى وما كلاً اطيب والذَّ منهُ

وفي ذلك الزمن اي حينما كان القديس ايرونيموس بعدُ في البريَّة وقع شَغْب عظيم في ابرشية انطاكية بعد وفاة البطريرك وانقسمت الى ثلثة احزاب فقوم اختاروا بولينوس وقوم ملاتيوس وهذا كان كاثوليكيًّا نظير بولينوس والباقون كانوا قد اغترُّوا ببدعة ابوليناريوس وكان مقدام حزب هذا المبتدع فيتاليوس فكل من هولاء الاحزاب كانوا يجتهدون في استمالة القديس ايرونيموس الى رأيهم وانما ذلك لان الجميع كانوا يعتقدون انهُ اذا ارتأى رأيهم مثل هذا العالم القديس ازداد مذهبهم شرفًا واكتسب ثباتًا وانتشارًا . وقوةً وكان الاشكال بين بولينوس وملاتيوس في هذا وهو هل يجوز ان يعتقد وجود ثلثة اقانيم في السيد المسيح كما كانت تعتقد الكنيسة بوجود ثلثة اقانيم في الله عزَّ وجلَّ . ولما كان استعمال الكلمة اليونانية أُبوستاسيس ومعناها اقنوم شيئًا حديثًا حينئذٍ لم يبادر القديس الى الحكم على ذلك المشكل بل كتب الى الحبر الروماني القديس دامَسوس واورد لهُ رأيي بولينوس وملاتيوس وطلب منهُ ان يحكم على القضية لكي يعرف رأي ايّ الاسقفين يرتئي وعلى ايهما يُعوّل وفي هذه الرسالة يقول ما شأنهُ ان يقنع جميع المشاقّين ويخجلهم وهو انني خاضع لصاحب الكرسي البطرسي واعتقد انهُ هو راس الكنيسة اذ ان الكنيسة تأسست على الرسول بطرس كما على صخرةٍ وان كل من ياكل الفصح في خارج هذا البيت فليس هو من شعب الله وانما هو رجل اجنبيٌّ عن ذلك الشعب وكل من لا يكون في هذه السفينة البطرسية سوف يهلك وقت الطوفان ومن لا يجمع مع هذا الرسول فهو يبدّد . هذا والظاهر ان البابا القديس أثبت رأي بولينوس لان القديس ايرونيموس استمرَّ مشتركًا معهُ وخاضعًا لهُ

وبولينوس هذا استدعى القديس ايرونيموس وألزمهُ ان يرتسم كاهنًا اما القديس فرضي بذلك بشرط انهُ لا يكون ملتزمًا بخدمة كنيسةٍ معيَّنة ولا يترك الطريقة الرهبانية وكان عمرهُ وقتئذٍ نحو خمس واربعين سنة . ثم نحو السنة الثمانين من المائة الرابعة للمسيح ذهب الى القسطنطينية حيث كان القديس غريغوريوس النزينزي بطريركًا واقام بها نحو سنتين وتتلمذ لبطريركها وتعلَّم منهُ تفسير الكتاب المقدس . اما البابا دامَسوس فلما رأى كنيسة الشرق على شَغْب وبلبال عزم ان يعقد مجمعًا فدعا اليهِ اساقفة الشرق واسعفهُ في ذلك الملك تاودوسيوس الكبير فاراد بولينوس اسقف انطاكية مع القديس ابيفانيوس ان يكون القديس ايرونيموس رفيقًا لهما فمضى معهما وقد ظهر في رومية بباهر علمهِ وسموّ برّهِ كالكوكب المتألّق في السماء الصافية وتاب الى الله بكلامهِ كثير من الخطأة وانمى العبادة لا سيما في اكثر النساء الشريفات حتى كان كل احد يرغب في ان يسمع خطابهُ ويستشيرهُ . وفي الجملة فان علمهُ الغريب الذي كان مقترنًا ببرٍّ سامٍ جعلهُ آية عصرهِ غير انهُ عليهِ السلام لم يرضَ اوَّل الامر ان يكون مرشدًا لامرأةٍ من النساء اصلاً لما كان يعرف ما بذلك من الخطر وشرّ المنقلب ولكنهُ رضي فيما بعد طاعةً لامر الحبر الاعظم ان يكون مرشدًا للقديسات مرسيلاً الارملة وامّها البينا واختها اسيلاً البتول وليتا الارملة وفابيولا ومرسلّينا وسعادة وبولا وابنتيها اوستوكيوم وبليسيلا وقد صار هذا القديس قدوةً لمرشدي النساء لانهُ فضلاً عن فرط احتشامهِ معهنَّ وتحذّرهِ من ادنى ضحكٍ وتبسُّم ومجانبتهِ اطالة المكث والمخاطبة معهنَّ لم يكن يدع ولا واحدة منهنَّ تفتقدهُ ولم يأخذ منهنَّ هدية ولم يكن يتكلَّم معهنَّ الاَّ على ما يتعلق بالبرّ والخلاص وكان ذلك بأقلّ ما يمكن من الايجاز واكثر ما يكون من الاحتشام وبكتابات ورسائل بقيت لارشاد النفوس التقية . اما اخصّ اهتمامهِ فكان مصروفًا الى تعليم الرجال والشبّان وارشادهم في طريق الكمال فاستفادوا بحول الله من مواعظهِ حتى ان كثيرين منهم زهدوا في الدنيا فترهَّبوا

وكان يباشر مع هذه كلها وظيفةً أُخرى اقامهُ عليها القديس دامسوس الحبر الاعظم وهي ان يجاوب خطَّا الذين كانوا يبعثون الى الكرسي الرسولي برسائل استفتائية على ما يتعلق بالايمان والامور الكنائسية. ثم انهُ وهو برومية اصلح كتاب الزبور وقابل الاربعة الاناجيل بل العهد الجديد كلَّهُ على الاصل اليوناني وقد ألَّف ايضًا برومية ثلثة كتب الاول ضد هَلْفيديوس الذي تجاسر ان يجدف على الكلية الطهارة والغبطة مريم ملكة العذارى وقدوتهنَّ بقولهِ فيها انها

بعد ميلاد السيد المسيح عاشت مع القديس يوسف كامرأة مع بعلها وانها منهُ ولدت اولئك الذين يُدعون في الانجيل المقدس اخوة السيد المسيح وقد علم ايضًا شيئًا آخر كما كان تعلَّم من الشيطان الدنِس عدو الطهارة وهو ان التبتُّل ليس افضل من الزواج والثاني في تفنيد اراء جوفينيانوس ودحض بدعتهِ وجوفينيانوس هذا كان من رهبان دير القديس امبروسيوس بمدينة ميلان ولما استصعب قوانين الرهبانية المرسومة من هذا القديس المذكور خرج من الدير مع جماعة من امثالهِ الفاترين ثم رجعوا الى الدير فلم يقبلهم الرهبان بما انهم رأوا ان مخالطتهم للاخوة ذات اخطار فحطم جوفينيانوس غيظًا واخذ يعلّم جهرًا ان الانسان لا يستحق شيئًا عند الله بالاصوام وبقية افعال التقشف وان العفة والزواج سيَّان في الاستحقاقات وان مجازاة القديسين في السماء واحدة وان السيد المسيح كان لابسًا جسدًا خياليًا وان ليس في طاقة الشيطان ان يفسد بالتجربة المؤمنين بعد اعتمادهم وان مريم الجليلة لم تستمر بتولًا بعد ميلاد السيد المسيح. والثالث في افساد تعليم أشياع لوسيفروس أسقف كالياري المشاقّ

قد كان الجميع لهذا العهد يكرمون القديس ايرونيموس ويعدُّونهُ قديسًا وعمود الايمان الَّا ان الله تعالى العجيب بتدبير عنايتهِ نحو القديسين سمح بان روح الحسد يهيج على عبدهِ اناسًا كثيرين فجعلوهُ بتهمهم رجلًا خبيثًا مرائيًا مضلًّا محبًّا مخالطة النساء ومخاطبتهنَّ وقد اشتد عليهِ الاضطهاد جدًّا بعد وفاة القديس دامسوس البابا الذي استأثرت بهِ رحمة الله سنة ثلثمائة واربع وثمانين. اما القديس فلم يكتب شيئًا في تبرئة نفسهِ من تُهم أعدائهِ الكاذبة بل اقتدى بمشورة الرسول فأعطى مهلةً للغضب وخرج من رومية وبما ان نفسهُ كانت ترتاح دائمًا الى الاختلاء الرهباني سافر في شهر آب سنة خمس وثمانين وثلثمائة مع اخيهِ بولينيانوس الى بلاد فلسطين ومرَّ بقبرس حيث قبلهُ القديس ابيفانيوس بمحبةٍ واحترام. ولما وصل الى بلاد فلسطين اخذ يزور الاماكن المقدسة هو والقديسة بولا احدى السيدات المتقدم ذكرها وفي ربيع سنة ستٍّ وثمانين وثلثمائة ذهب الى مصر وزار اديرتها ومدرسة الاسكندرية حيث استفاد كثيرًا من تعليم ديديموس الاعمى الشهير بعلمهِ ثم عاد راجعًا الى اورشليم حيث كانت

قد أتت القديسة بولا تلميذتهُ وابتنت ديرين عظيمين احدهما للرهبان والآخر للراهبات فاختلى القديس ايرونيموس في دير الرهبان وفيهِ كان يسوس الرهبان وراهبات الدير الآخر ثم ارسل اخاهُ المدعو بولينيانوس الى وطنهِ ليبيع كل عقار بيتهما ومن ذلك ابتنى منازل بقرب الدير لاستقبال الغرباء غير انهُ لم يكن يقبل فيها أحدًا من المبتدعين والمشاقين

وكان يمارس في الدير رياضات النسك بكمال النشاط ولاسيما الصوم والصمت والعيشة القشفة والقراءة والصلاة متاملًا غالب الاوقات عواقب الانسان الاربع تاملًا عميقًا وقال فيها كلما ذكرتُ يوم الدينونة هلعت نفسي وارتعد جسدي خوفًا

وقد شرع بعض الناس حينئذٍ يثبتون تعليم اوريجانوس ومن اولئك روفينوس صديق القديس ايرونيموس القديم ويوحنا اسقف اورشليم لان روفينوس كان قد ترجم كتاب اوريجانوس الى اللغة اللاتينية وشهرهُ في رومية وفي فاتحة هذا الكتاب يُطري روفينوس على صديقهِ ايرونيموس ويمدحهُ جدًّا فحدث من هذا في رومية شكٌّ عظيم فلما رأى ذلك قوم من اصحاب القديس كتبوا اليهِ في شان هذا الشك كأنهُ مسبب عنهُ فنهض حينئذٍ القديس لمحاربة من كان سوَّد عرضهُ بل لمقاومة الاراطقة ولان روفينوس كان صديقهُ ولم يظهر منهُ قبلًا دليل على انهُ من المبتدعين نصح لهُ اول الامر طالبًا منهُ بالطف الوداد ان يزيل الشك والفخ الذي نصبهُ لسلامة ضمائر المؤمنين وقال في نصحهِ لهُ اعتقد يا اخي اني لم افتح فمي لو لم تضطرني انت الى ذلك فلا تعضد المبتدعين وينقطع الجدال من بيننا. القِ عنك السيف فانزع عني الدرع والترس. انني أُوافقك الَّا على التقاعد عن مقاومة الاراطقة واظهار كوني كاثوليكيًا فان كانت هذه العلَّة علَّة خصومةٍ بيني وبينك فيمكن ان اموت في القتال ومن المحال ان الزم الصمت ما دمتُ حيًّا فلا يكن بيني وبينك الَّا ايمان واحد ان رمتَ ان يبقى بيننا السلام. فلم ينتصح روفينوس ولم يرتدَّ عن تمسكهِ بكتب اوريجانوس ولم يزل يحامي عنها وان لم يكن يُعلّم الاضاليل التي تتضمنها ومن ثم ناصبهُ القديس ايرونيموس لسبب انهُ عند ترجمة كتب اوريجانوس لم يدحض ما تضمَّنتهُ من الضلال واخذ هو يدحض هذا الضلال

فأجاب روفينوس بكتابين يتهم فيهما القديس كانهُ هو علَّم قبلاً بآراء اوريجانوس وبقي الجدال بينهما الى ان البابا انستاسيوس حرم ما اظهرهُ روفينوس من كتب اوريجانوس وحرم ايضاً الاضاليل التي تتضمنها

وكان يؤيد هذه الاضاليل ويجتهد في نشرها يوحنا اسقف اورشليم وهذا الاسقف كان قد تبع قبلاً بدعة مكدونيوس ولكنهُ تركها رجاء الارتقاء الى مرتبة الاسقفية فلما جلس على عرش اسقفية اورشليم اخذ يثبت آراء اوريجانوس الفاسدة التي كانت تدبُّ حينئذٍ كالاكلة بين المؤمنين فناوأهُ القديس ابيفانيوس اسقف قبرس جهرًا برسالةٍ ترجمها القديس ايرونيموس الى اللاتينية ولا يخفى ان هذه المقاومة اوغرت صدر يوحنا وأشعلت في فؤادهِ بغضاً شديدًا للقديس ايرونيموس فحرمهُ وحرم اخاهُ بولينيانوس وكل رهبان ذلك الدير وكان الداعي الظاهر الى ذلك ان بولينيانوس ارتسم كاهناً ببيت لحم على يد القديس ابيفانيوس كما ذكرنا في ترجمة القديس ابيفانيوس في اليوم الحادي عشر من شهر ايار. ثم عزم على طردهم من اورشليم الاَّ انهُ لم يجسر ان يتمم مرادهُ احترامًا للقديسة بولا الجزيلة الشرف والاعتبار تلميذة القديس ايرونيموس. اما بعد اي نحو سنة تسع وتسعين وثلثمائة رجع الاتحاد بين الاسقف الاورشليمي والقديس بازالة الاسقف الالتباس في اعتقادهِ واعتزالهِ عن اصحاب آراء اوريجانوس

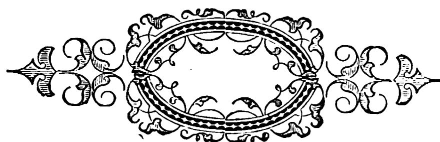
على انهُ في غضون ذلك خرج بيلاجيوس من رومية بسالستيوس تلميذهِ اما هو فانطلق الى افريقية واما سالستيوس فالى بلاد فلسطين وشرعا يزرعان زوان بدعتهما هذا وفيما كان القديس اغُستينوس يحارب بيلاجيوس في افريقية كان القديس ايرونيموس يدحض هذه البدعة في بلاد فلسطين ولله درّهُ حيث يقول في فاتحة كتابهِ الذي الَّفهُ في تخطئة كل قواعد البدعة المشار اليها مخاطبًا الذين كانوا قد حرَّضوهُ على تأليف هذا الكتاب مادحًا القديس اغُستينوس الذي كتب في اظهار هذا الضلال ومضادَّتهِ اني ارى هذا التأليف باطلاً ولقائلٍ ان يؤنبني بقول الشاعر اللاتيني ما بالك تنقل حطبًا الى الغابة على اني اذا كنت في تخطئة بدعة بيلاجيوس ينبغي لي اما ان أُورد ما قد أُورد قبلاً او ان اذكر شيئًا جديدًا والحال ان اغُستينوس قد سبقني وبعقلهِ الثاقب ذكر احسن ما كان يمكن ان يُورَد في هذا الصدد. انتهى

ولا بدَّ ان نصرّح هنا ان القديس اغُستينوس كان يجلُّ القديس ايرونيموس كيف لا وقال في الفصل السابع من كتابهِ الاوَّل ضد يوليانوس البيلاجياني ليس لنا ان نحتقر القديس ايرونيموس من حيث انهُ لم يكن الاَّ كاهنًا بسيطًا لعمري انهُ كان عالمًا ماهرًا في اللغات اليونانية واللاتينية والعبرانية وانتقل من الكنيسة الغربية الى الكنيسة الشرقية لكي يستوطن الاماكن المقدسة دارسًا الكتب الالهية الى زمن الهَرَم وقد امتدَّ نور فصاحتهِ من المغرب الى المشرق

ولا ريب ان شدة تعب هذا القديس المعظم في درس الكتب المقدسة وتأليفهِ كل ما يفيد القاري لاستفهامها امرٌ عجيب وماذا نقول في بقية كتبهِ الكثيرة التي ضادَّ بها الاراطقة والتي أَلَّفها للارشاد التنوس في الكمال ووفور رسائلهِ التي كان يبعث بها الى كل من كانوا يسألونهُ من كل اقاليم المسكونة عن مشكلات دينية وأدبية. انهُ ترجم مرَّتين جميع اسفار العهد العتيق اما في المرة الاولى فمن اللغة اليونانية الى اللغة اللاتينية واما في الثانية فمن العبرانية الى اللاتينية وهكذا ترجم كتب العهدَين مع انهُ كان اكثر اياموِ مريضاً. والظاهر انهُ كان قد اعطاهُ الله موهبة التأليف لانهُ كان يؤلف بسرعة عجيبة كتبًا طويلة حاوية تفسير اعوص الامور واغمضها. فمن ثمَّ كان يتعجب القديس اغُستينوس من مؤلفاتهِ وقد كتب اليهِ في شأنها ما نصهُ: اني قد اطلعت على مولفاتك فاذا بها جنَّة فوائد مزيَّنة بازاهر التدقيقات البهيَّة وقد شوَّقتني محاسنها البديعة الى ان أُلازمك لاستفيد دارسًا كتبك امامك واذ وجدت هذا امرًا مستحيلاً عزمت على ان ارسل الى مدرستك بعضًا من ابنائي الروحيين لاني اعترف بقصور فهمي عن ادراك معاني الكتب المقدسة فانت قد أُوتيت كشفها والخبرة بدقائقها

ولما كان القديس ايرونيموس مع شيخوختهِ يهتم بتأليف الكتب المفيدة هجم البيلاجيون عليهِ فاضطرَّ الى ترك دروسهِ كما ذكر ذلك القديس اغُستينوس في كتابهِ على اعمال البيلاجيين لان بيلاجيوس الشقي المتردّد وقتئذٍ في فلسطين لما رأى ما أَلَّفهُ القديس ضد ارطقتهِ وان الاسقف يوحنا لا يبالي بدسائس احزانهِ ولا يمنعها اظهر بغضهُ الشيطاني لهُ وعزم على الانتقام منهُ فحرَّك قومًا من اللصوص القتَلة فذهبوا

وثبوا بغتةً على الاديرة المؤسسة من القديس ونهبوا كل ما فيها وقتلوا اناساً كثيرين ولم يقدر القديس ان يهرب من ايديهم الاّ باعجوبة . وكان ذلك في السنة السادسة عشرة من القرن الخامس للمسيح فالتجأ القديس ايرونيموس في هذه المصيبة الى عناية الحبر الروماني اينوشنسيوس الاول الذي كتب الى القديس ليعزيهُ والى الاسقف الاورشليمي ليوبّخهُ على توانيهِ من جهة دسائس البيلاجيين وتعدّيهم . وبحيث كان قد سعى في هذا الشر يوحنا اسقف اورشليم لم يتأخر الله تعالى ان ينتقم بالموت السريع من هذا الاسقف وخلفهُ في الاسقفية برائليوس وهذا الاسقف عامل القديس ايرونيموس بكل اكرام ومحبة . فالتأم مجمع ترأس عليهِ تاودوتوس اسقف انطاكية وحُرم فيهِ بيلاجيوس . غير ان القديس ايرونيموس لم يتمتع بهذه الراحة زماناً طويلاً لكون الامراض تكاثرت عليهِ واشتدّت فتهيّأ وقتئذٍ للموت ولما رآهُ قد اقترب استقبلهُ بسكينةٍ وطمأنينة مقدسة وبعد تناول الاسرار الالهية اسلم روحهُ الى خالقهِ في اليوم الثلثين من ايلول سنة اربع مائة وعشرين للمسيح وعمرهُ نحو تسعين سنةً وقد جعلتهُ البيعة المقدسة من علماء الكنيسة الغربية المعظمين الاربعة الذين هم القديسون غريغوريوس الكبير البابا الروماني وامبروسيوس واغستينوس وايرونيموس كما ان علماء الكنيسة الشرقية المعظمين هم ايضاً اربعة القديسون باسيليوس وكيرلُّوس الاسكندري وغريغوريوس النزينزي ويوحنا فم الذهب نفعنا الله تعالى بشفاعتهم جميعاً آمين



شهر تشرين الاول

اليوم الاول

وفيهِ ترجمة القديس رميجيوس

ان هذا القديس رسول مملكة فرنسا وُلد بمدينة لان من اصل شريف لأن اباهُ المدعو اميليوس كان امير تلك المدينة . ووالدتهُ المسماة كيلينيا حُسبت من القديسات فذكرها السنكسار الروماني في اليوم الحادي والعشرين من تشرين الاوَّل فابنهما البكر هو القديس بريسيبوس اسقف مدينة سوَسون والابن الثاني المجهول اسمهُ وُلد منهُ القديس لوبوس الذي صار اسقفًا على مدينة سوَسون بعد وفاة عمهِ ولما كان ابواها قد طعنا في ايامها اتاها احد السيَّاح الذي يقال لهُ مُنتانوس وانبأها من قِبل الله انهما يلدان ابنًا ثالثًا واوصاهما بان يدعواهُ رميجيوس فحبلت بهِ القديسة كيلينيا وولدتهُ في السنة السادسة والثلثين من الجيل الخامس وسمَّتهُ في المعمودية كما امر السائح القديس . وحيث كانت في سنّ الشيخوخة اختارت لابنها امرأةً فاضلة اسمها بلسامية ارضعتهُ وقد كُتب اسمها في سفر القديسات . ولما ترعرع اقامت عليهِ امهُ معلمين ماهرين ومرشدين روحيين فضلاء نهجوا لهُ طريق العلوم والفضائل ولم يكن بلغ من العمر الاَّ ثماني عشرة سنةً ومع ذلك كان الجميع يتعجبون من برّهِ وعلمهِ . وكان يحبُّ الاختلاء حبًّا للصلاة والدرس اللذين كان يقضي فيهما الزمن واستمرَّ مختليًا هكذا حتى بلغ من العمر اثنتين وعشرين سنةً

وكان خبر برّ هذا القديس قد نمى وشاع الى بلاد بعيدة فلما انتقل الى رحمة الله بناديوس اسقف مدينة ريمس اتفق الاكليريكيون والشعب وانتخبوهُ اسقفًا . ومع انهُ لم يكن قد بلغ العمر المرسوم من الكنيسة احب الكرسي الرسولي ان يقيمهُ اسقفًا اعتبارًا لسموّ برّهِ ومعرفتهِ . فلما تحقق الدعوة الالهية ارتسم اسقفًا وشرع يظهر في سيرتهِ كل النضائل المطلوبة من الرسول في الاسقف . فلم تتلطخ عفّتهُ باقلّ شيءٍ من دَرَن الاثم والعيب وكانت محبّتهُ للقريب محبة أبٍ ورسولٍ كيف لا وقد باع كل املاكهِ الوافرة وتصدَّق بثمنها على المساكين بل كان يعدُّ ذاتهُ كأحد الفقراء وان كنيسة ريمس تعولهُ وقد سلّمت اليهِ دَخْلها ليفرّقهُ على المحتاجين . فبهذا وباتضاعهِ ووداعتهِ واحتشامهِ اجتذب كل قلوب رعيتهِ الى حبّهِ . وقد اخبرنا القديس فُرْتونانوس ان كل هذه النضائل السنية كانت مقترنة في القديس رميجيوس بعلم عظيم حازهُ من الله تعالى اكثر مما اكتسبهُ بالدروس وانهُ حُسب اعظم قديسي عصرهِ واكبر علمائهِ

وكان الله سبحانهُ يشرّف عبدهُ باجراء المعجزات على يدهِ فكان المرضى يقصدونهُ من كل جهة ويستشفون منهُ فينالون الشفاء بصلاتهِ ومنهم ابنة كان فيها شيطان وهي من مدينة طولوزا ارسلها ابواها الى رومية وهناك التزم الشيطان بان يعترف انهُ سيخرج من الابنة بصلوات اسقف ريمس القديس فأتوهُ بها فشفاها . ثم انهُ اقام من الموت اناسًا كثيرين

ومن الثابت ان هذا القديس العظيم هو الذي اجتذب الى الايمان المسيحي الملك كلوفيس اول ملوك فرنسا المسيحيين وبيد هذا الملك بثَّ النصرانية في كل مملكة فرنسا وقد ذكرنا آنفًا في ترجمة القديسة كلوتِلدا في اليوم الثالث من شهر حزيران كيف انتصر هذا الملك الوثني على جيش اعدائهِ باعجوبةٍ بعد ان وعد الله تعالى بانهُ يتنصَّر اذا فاز بالظفر ثم انهُ لما عاد من معركة الحرب ظافرًا ذهب القديس

رميجيوس لاستقبالهِ وهنَّأَهُ على انتصارهِ العجيب وشرع يعلمهُ قواعد الايمان المسيحي وعما قليل طلب الملك المعمودية غير انهُ بمشورة القديس جمع كل قواد عسكرهِ وكلمهم كثيرًا في شأن صحة ايماننا موردًا لهم اعجوبة انتصارهم على اعدائهم بعد التجائهِ الى اله المسيحيين . فطفق الجميع يصرخون قائلين اننا نرذل عبادة الآلهة والاصنام ولانعبد غير الاله الذي يعبدهُ رميجيوس الاسقف القديس . فاخذ القديس حينئذٍ يعلمهم ولما وجدهم متعلمين مستعدّين لقبول سرّ المعمودية المقدسة زيّنوا المدينة بالاقمشة النفيسة وأوقدوا شموعًا ممتزجةً بروائح عطرة ذكية . ولما كان عيد ميلاد المسيح دخل الملك كلوفيس الكنيسة في ثلثة آلاف من قواد عسكرهِ وكان ذلك في السنة السادسة والتسعين بعد الاربع مائة للمسيح . فلما مثلوا امام الاسقف بثياب بيض خاطبهم القديس موجهًا استهلال عظتهِ الى الملك كلوفيس قال : ايها الملك اتضع الان تحت يد الاله الواحد خالق البرايا وضابط الكل . واطرح عنك عبادة الاصنام التي كنت تعبدها وليفعل مثل هذا كل القواد المتنوّرين بالايمان الحقيقي واعترفوا جميعكم بالاهٍ واحد ذي ثلثة اقانيم آب وابن وروح قدس وبتجسد الابن الاقنوم الثاني في مستودَع الجليلة مريم البتول . وانهُ لاجل خلاصنا صُلب ومات حقًّا وقام من الموت . وصعد الى السماء وجلس من عن يمين الله الآب . وانهُ من هناك سيأتي في انقضاء العالم ليدين الاحياء والاموات ويدخل في ملكوتهِ عبيدهُ المؤمنين الذين حفظوا اوامر انجيلهِ

ثم انهُ بعد ان اعترفوا جميعهم علانيةً بالايمان المسيحي ووعدوا الله بحفظ الوصايا الانجيلية والطاعة للكنيسة عمَّدهم كلهم ومع الملك اعتمدت اختهُ المسماة البوفليدا اما اختهُ الثانية التي كانت قد انخدعت بضلال الاريوسيين فرفضت هذه الارطقة وقبلت سر التثبيت . واخبر هنكمار اسقف ريمس في ترجمة القديس الذي كتبها في الجيل التاسع انهُ اظهر الله تعالى باعجوبة سامية مزيد سرورهِ بتنصُّر هذا الملك . لانهُ لما اراد القديس رميجيوس ان يمسح الملك بالزيت المقدس ولم يكن موجودًا من اجل ان الاكليريكي الذي كان حاملهُ لم يقدر ان يدخل الكنيسة من شدة ازدحام الناس نزلت من السماء حمامة وفي منقارها اناء مملوءٌ بلسمًا ذكيًا فقدمتهُ للقديس وغابت للوقت . واعلم ان ذلك الاناء لم يزل محفوظًا الى يومنا هذا في مدينة ريمس وجرت العادة حتى زمان الثورة الكبيرة ان تُمسح بهِ ملوك فرنسا (١)

فلما سمع الحبر الروماني ما جرى لملك فرنسا على يد القديس رميجيوس كتب الى الملك ليثني على اعتقادهِ وجعل الاسقف القديس نائبهُ الرسولي في مملكة فرنسا وبناء عليهِ حضر هذا الاسقف مجمعًا في مدينة اورليان ضد بدعة اريوس ولما دخل المجمع سلّم فقاموا لهُ الاَّ اسقفًا اريوسيًّا بقي جالسًا فخرس هذا الاسقف للحال . ولما شعر بالانتقام الالهي جثا على قدمي القديس مظهرًا ندامتهُ وملتمسًا العفو والعون بلسان حالهِ فصلى القديس من اجلهِ فانطلق لسانهُ وتكلم برفض ارطقتهِ . وقد أُوحي للقديس انهُ سيكون عما قليل غلاء عظيم فجمع مقدارًا وافرًا من الحنطة للرفد والاسعاف عند الضرورة . فظن قوم انهُ يفعل ذلك بخلاً فاحرقوا اهراءَهُ واذ كانت النار قد اشتعلت بهِ من كل ناحية وافنت الحنطة اتى القديس وقتئذٍ ليخلصها من الحريق وكان ذلك في نصف الشتاء . فلما رأى النار قد اتلفت الحنطة قال للحاضرين بصوت منخفض وسكون قلب عجيب ان النار جيدة الان فهلمّ لنصطلي عليها لانها لا تبيد الاَّ هذا . الاَّ ان الله تعالى قاصَّ بامراض شديدة جميع الذين كانوا احرقوا الحنطة وتلك الامراض اتصلت ايضًا الى وارثيهم على ما ذكر هنكمار الاسقف في ترجمتهِ

فشاخ القديس رميجيوس وبعد ان تنصّرت على يدهِ اكثر مملكة فرنسا بنى فيها كنائس وانشأ اسقفيات واقام عليها اساقفة ووقف عليها الاموال التي انعم عليهِ بها الملك كلوفيس ووهنت قوتهُ ورقد بسلام في اليوم الثالث عشر من كانون الثاني في السنة الثالثة والثلثين بعد الخمس مائة للمسيح . وكان قد بلغ من العمر نحو ست وتسعين سنة ورعى اسقفيتهُ خمسًا وسبعين سنة . وبما ان العجائب كثرت عند وفاتهِ نقلهُ المؤمنون الى الكنيسة . وفي الجيل التاسع فتحوا قبرهُ فوجدوا جسد القديس صحيحًا لم يعترهِ الفساد وهكذا وجدهُ ايضًا القديس لاون التاسع في السنة التاسعة والاربعين بعد الالف . وهذا الحبر جعل عيد القديس رميجيوس في اليوم

(١) حاشية . لم يتفق العلماء على صحة الاعجوبة المتقدم ذكرها . وسبب شك البعض فيها ان المؤرخين الذين عاشوا وكتبوا قبل هنكمار لم يذكروها (راجع البلاَّنديستيين في مقدمتهم لترجمة القديس جزء ٨ و٩)

الأوّل من شهر تشرين الاول وهو يوم انتقال جسدهِ الأوّل

اليوم الثاني
وفيهِ عيد الملئكة الحرّاس

ان الله تعالى جلّت عنايتهُ لقد اظهر لنا محبتهُ الغير المدركة لما اعطانا ابنهُ ليخلصنا ببذل حياتهِ. ومن هذا الاحسان العظيم تندهش عقول الملئكة وبسببهِ يحبّوننا جدًّا وانما ذلك حبًّا بالله الذي احبّنا هكذا كما قال القديس برنردوس. اي نعم ان هذه المنة الالهية هي اعظم من ان يدركها العقل وأخصّ ما يُلزمنا ان نقوم دائمًا على شكر الله تعالى وان الاله الرحيم عقب أن اطلقنا من اسر الخطيئة اقام لحفظنا في هذه الحياة الملئكة واوصاهم ان يحفظونا في جميع طرقنا لان الله لجودهِ ومحبتهِ لم يكتفِ بما خلق لاجلنا بل انهُ بعد تكوينهِ البرايا وتسليطهِ ايانا على كل خيور الارض اقام ملئكة على حفظنا وارشادنا وخدمتنا ليحملونا على ايديهم لئلا تعثر ارجلنا بحجرٍ (مزمور ٩١: ١١). رُوي ان اسكندر الملك كان يفتخر بانهُ تلميذ ارسطوطاليس اكثر من افتخارهِ بكونهِ ابنًا لفيلبّس الملك الظفر. فياليت شعري ما هذا الشرف بالنسبة الى شرف من يكون ملك سماوي لهُ معلمًا ومرشدًا وحافظًا وصديقًا اذ انهُ ارفع من كل الفلاسفة والملوك علمًا واقتدارًا بما لا يوصف

فاعلم ايها المؤمن ان كل انسانٍ ما عدا السيد المسيح بعد ميلادهِ يُعطى من الله تعالى ملكًا يحرسهُ كل ايام حياتهِ هذا ما علّمناهُ جمهور الآباء القديسين وانما استثنينا المسيح لانهُ تعالى من اجل كونهِ الهًا لم يحتج الى ملك ليحرسهُ. وقولنا ان الله يخصّص للانسان بعد مولدهِ ملكًا حارسًا لانهُ ما دام الانسان في مستودَع أُمهِ يحرسهُ الملَك الذي يحرس امهُ على مثال ناطور الشجرة فانهُ يحفظها وثمارها. ولاشك اننا محتاجون جدًّا الى مثل هؤلاء الحرّاس لشدة ضعفنا وجهلنا ولشدة قوة اعدائنا وخبثهم لانهم اخزاهم الله يفرغون كل جهدهم كما قال القديس غريغوريوس النيصي في ان يمنعونا الجلوس على الكراسي التي سقطوا عنها لئلا نبلغ الى المجد الذي خسروهُ ولهذا وهب الله تعالى كلاًّ منا ملكًا يقاومهم ويردع سهامهم عليهم ثم انهُ تعالى كما قال القديس ايلاريوس ارسل الملئكة الحرّاس ليهدونا طريق الخلاص لانهُ بدون حراسة الملئكة يصعب علينا واي صعوبة ان ننجو من حيل العدو الجهنمي وبأُولئك الحرّاس ننال من الله سبحانهُ الانوار المفيدة للخلاص وهم الذين يدفعون عنا مخاطر النفس والجسد. قال الله تعالى لموسى هاءنذا ارسل ملكي امامك ليحفظك في الطريق ويدخلك المكان الذي اعددتهُ لك فاحترمهُ وطع أمرهُ لانهُ هو نائبي ومعهُ اسمي فان سمعتَ لقولهِ وفعلت ما اقولهُ لك فاكون عدوًّا لاعدائك فأُضايق مبغضيك والملَك الذي ارسلهُ يتقدمك دائمًا (خروج ٢٣: ٢٠—٢٣). وقُصارى الكلام ان هذا هو مايفعلهُ معنا الملَك الحارس وهذا ما يجب ان نفعلهُ نحن معهُ. وفي الكتاب المقدس لما تأمّل طوبيا تمام حراسة ملَكهِ لهُ وكثرة الاخطار التي نجا منها بواسطتهِ ووفور الخيرات التي اتتهُ من قِبلهِ قال لابيهِ اية اجرة نعطيهِ او بماذا نقدر ان نكافيء احسانهُ فقد خلّصني من الحوت الذي اوشك ان يبتلعني وفتح عينيك وأعاد لك النظر وفي الجملة فقد ملأنا خيرًا فبأيّ شيءٍ يا تُرى نستطيع ان نجازيهُ عن هذه كلها (طوبيا ١٢: ٢و٣)

اعلم هداك الله ان القديس اغسطينوس لما تأمل في هذا الامر هتف في مناجاة الله قال انك بجودك اللهمَّ لم تقتصر على ان تمنحني سلطةً وولايةً على ما بارضك من الخلائق بل قدّمت لي واحدًا من الارواح السماويّة ليرافقني في غربتي ويحفظني في سفري فهو كحارس امين لاينام ولا ينعس بل يبقى ساهرًا محترسًا كيف يُنكر ذلك وانما هو الذي يهديني ويحفظني من اعدائي وينصح لي ويقوّيني ويقدّم لعزّتك صلواتي ويعينني في كل ساعةٍ وفي كل دقيقة ولا يبرح ضارعًا لاجلي وهو الذي لا يزال يحثني على طلب ملكوتك وتكميل اوامرك وهو الذي يسعفني في تعبي ويحفظني في رقادي ويعزّيني عند شدّتي وكآبتي. وخلاصة القول ان محافظتهُ عليَّ وعلى ما يؤول الى فائدتي وحبهُ اياي هما العجب العجاب. على انهُ انما ينعطف عليَّ كل ذلك الانعطاف لان حبك لعبدك هو اعظم من ذلك كثيرًا. فلتباركك يارب جميع الملئكة لاجل هذا الاحسان الجسيم ثم اسأَلك يا الهي ان تنعم عليَّ بان اكون رفيقًا في السماء لمن جعلتهُ أنت رفيقًا لي على الارض لكي أُحبك واسبحك وامجّدك الى الابد. انتهى

اما القديس برنردوس الملقّب بالعسليّ الفم فلما تأمّل قول المرتل ان الله قد امر الملئكة بك ليحفظوك في طرقك

(مزمور ٩٠ : ١١) قال لا جرم ان هذه الآية الشريفة من شأنها ان تُصيّر كل موءمن يحترم ملكهُ الحارس أجلّ احترام ويجعل لهُ في قلبهِ اكرم مقام ويتكل على شفاعتهِ اشدّ اتكال فاحسن اذًا الاحتشام حيثما يكون ملاكك حاضرًا واذكر ان الله عزّ وجلّ قد اوصاهُ ان يرافقك في كل مكان ويعينك في كل شيءٍ واحترمهُ ولا تفعل امامهُ ما لا تجسر ان تفعله قدّامي . وبهذا يريد القديس منا ان نفعل ما كان قد أوصى بهِ احد الفلاسفة القدماء حيث يقول انهُ لكي نحسن سلوكنا ونسير سيرة قويمة يجب ان نتصوَّر بازائنا شخصًا جليلاً عزيز الجانب عندنا جدًّا يراقبنا مراقبةً متصلة ويفحص عن كل اقوالنا وافعالنا وحركاتنا جميعها ولا يكفينا ان نقتصر على احترام ملكنا الحارس بل ينبغي لنا ان نقدم لهُ اكرامًا تقويًّا كما يليق بمثلهِ من خدَّام الله عزَّ وجلّ . وكيف لا نحب من يُحبنا اخلص محبة ولا يزال يوءكد لنا ذلك بجودهِ علينا باجلّ الخيور . بل كيف لا نفوّض اليهِ أمرنا ونلتجي اليهِ عند كل حاجةٍ وشدة . هذا وآخر ما نقول انهُ ينبغي لنا ان نطيع الملك الحارس ونفتح آذاننا لنصائحهِ الباطنة ونتّبع مشوراتهِ الخلاصية ونكون تحت تدبيرهِ ليّني القلب وسريعي الطاعة . فهل اطيب من هذا الكلام الذي هو ختام خطابهِ فلنحبنَّ اذًا ملائكتنا الحرّاس اصفى محبة ولا نخفْ شيئًا ونحن تحت حمايتهم لانهُ لا يمكن ان يغلبهم احد ولا يغشهم ومن المحال ان يخدعونا ولكونهم أُمناء فطنين مقتدرين ينبغي لنا ان لا نجزع خائفين بل ان نتبعهم بامانةٍ وفي ستر اله السماء نسكن بطمأنينةٍ

اليوم الثالث

وفيهِ ترجمة القديس ليجيريوس الاسقف الشهيد

ان هذا القديس هو من عشيرة فرنسويَّة شريفة كريمة النسب وقد وُلد بمملكة فرنسا نحو السنة السادسة عشرة من المائة السابعة للمسيح ولما كبر ورآهُ الملك كلوتاريوس الثاني اوصى خالهُ اسقف بواتير بتربيتهِ وهناك تعلم ليجيريوس العلوم ولا سيما علم الخلاص بحيث كان يمارس الفضيلة بتمام الانصباب حتى كانها كانت لديهِ شيئًا طبيعيًّا ثم رسمهُ الاسقف كاهنًا وجعلهُ شريكهُ في رعاية الابرشية وقد باشر هذه الوظيفة بغيرةٍ وفطنةٍ عظيمة وانتشرت رائحة برّهِ في المملكة . فلما استأثرت رحمة الله بالملك كلوتاريوس الثاني استدعتهُ القديسة باتيلدا الملكة ليأخذ بيدها في تدبير أُمور الملك لان ابنها الملك كلوتاريوس الثالث كان وقتئذٍ حدث السن . فارتسم القديس اسقفًا على مدينة اوتون سنة تسع وخمسين وستمائة واخذ يعتني بتعليم الاكليروس والشعب وباسعاف الفقراء وتزيين الكنائس ورسم قوانين مختلفة لحسن سلوك الاكليروس والرهبان . ولما شبَّ ابن الملكة البكر أخذ زمام الملك وشرع يُجري الاحكام على وفق المرام . وبمشورات القديس ليجيريوس والقديسين الاسقفين إلوا ووان هجرت الملكة قصر الملك واختلت في دير راهبات

وفيما كان الجميع يباركون الله تعالى كان ابروين الحسود يخترع ما يبلبل حسن السلام وهذا كان رجلاً نمساويًّا قد ارتقى الى منصب مدبّر قصر الملك وغدا بصفاتهِ الحميدة وخبرتهِ بتدبير الامور حبيبًا عزيز الجانب مكرَّمًا عند الجميع غير انهُ كان متكبرًا شكس الطبع فلما رأى ان أخصّ سلطان الملك في يد القديس ليجيريوس تلظّى بنار الحسد وشرع يفتكر كيف يسقطهُ عن كرامتهِ ومن ذلك اليوم اضحى ابروين في المملكة كانهُ نمر مفترس باختلاسهِ اموال الشعب وسفكهِ دم كثيرين وفيما هو يفتكر كيف يهلك القديس مات الملك كلوتاريوس الثالث وخلفهُ على سرير الملك شيلديريكوس الثاني بانتخاب عظماء المملكة الذين طلبوا منهُ حينئذٍ قتل ابروين الظالم فقضى عليهِ بالموت اما القديس ليجيريوس فلما سمع هذا الخبر تشفَّع في عدوّهِ لدى الملك واعيان المملكة فاكرامًا لهُ ارتضوا ان يعتزل ابروين في دير ويعيش مع الرهبان فاحتال ذلك الرجل الداهية الخبيث وطلب الاسكيم الرهباني تظاهرًا انهُ يريد ان يقضي هنالك حياتهُ في ممارسة افعال التوبة

اما القديس ليجيريوس فازمع على ان يرجع الى ابرشيتهِ غير ان الملك لم يرضَ بذلك بحيث كان عندهُ كوزير ومساعد لهُ في تدبير الملك فلما وصل الى هذه المرتبة من ثقة الملك بهِ أصلح حينئذٍ كل ما كان قد افسدهُ ابروين المنافق وهذا نفسهُ اضرم ايضًا نار الحسد والبغضاء في قلوب عظماء البلاط ولما كان عليهِ السلام ينبّه الملك على رداءة سيرتهِ طفقوا يشون بهِ عندهُ ويدَّعون انهُ عادم العقل لكثرة نصائحهِ لهُ وقليل الاجلال لعزّتهِ الملوكية وانهُ يكتم في طي قلبهِ مقاصد

الخيانة فصدّق الملك هذه التهمة الباطلة وابتدأ ان يشك فيهِ . وكان القديس ذهب حينئذٍ الى مدينة اوتون ليعمل لرعيتهِ احتفالات عيد الفصح وفي غضون ذلك قدم الى هناك امير مدينة مرسيليا المدعو اكتور الذي كان صديق القديس فقبلهُ باكرام ومحبة فاخذ اعداؤهُ من ذلك سببًا آخر لاضرام البغضة في قلب الملك فاخبروهُ ان اسقف اوتون استدعى امير مرسيليا ليأتمرا على عزل عزّتك عن عرش الملك وحقق للملك هذا الخبر الكاذب راهب كان عندهُ بمقام نبي مع انهُ انما كان قد اتخذ الاسكيم الرهباني وسيلةً للرفعة والكرامة فللوقت قام الملك وذهب الى مدينة اوتون ليغتال الامير والاسقف وكان قد اخبر الاسقف راهب قديس يُسمى يكاربوس بما نواهُ لهُ الملك من الاذى والضرّ وكان يوم الخميس من الاسبوع العظيم وفي الغد ذهب القديس من تلقاء ذاتهِ الى الملك لكي يموت في اليوم الذي فيهِ بذل ابن الله حياتهُ . ولكنّ الله تعالى لم يشأ ان يموت في ذلك الوقت كما قال كاتب هذه الترجمة لكي يقاسي من اجل البرّ انعابًا أُخر كثيرة فامتنع الملك عن قتلهِ خوفًا ممّن كان وقتئذٍ من العظماء حاضرًا

ثم يوم عيد الفصح حضر الملك القداس في دير الراهب لبئوس المنوّه بهِ فحرّكهُ هذا المرائي الخبيث الى اجراء ما عزم عليهِ كما أشرنا فخرج الملك بقلب ملتهب بنار البغضاء قاصدًا ان يسفك دم القديس . فدخل الكنيسة وفي يدهِ سيف مجرّد وكان الاسقف لابسًا حينئذٍ حلة حبريّتهِ فتقدّم اليهِ بشجاعةٍ تقويّة فلم يجسر الملك ان يقتلهُ بل خرج ودخل منزلاً فاكمل القديس الخدمة الكنائسية ثم عاد الى الملك وسألهُ باحترام قال ما سبب هذا الشغب في هذا العيد الشريف فاجابهُ الملك بحدَّة غضبٍ قال السبب في ذلك اني لا اجد لحياتي امانًا حيث تكون انت حاضرًا . فلما سمع القديس هذا الكلام عزم على التباعد من الملك لتخمد جمرة سخطهِ . فخرج سرًّا هو واكتور امير مرسيليا صديقهُ غير ان الملك لما شعر بذلك ارسل جنودًا في اثرهما فلحقوهما وقتلوا اكتور ورجعوا بالقديس ليجيريوس الى اوتون

ولما مثل امام الملك وكانت جمرة غضبهِ قد اشرفت ان تنطفي لم يقتل القديس بل انقاد الى دير لوكسول حيث كان ابروين الذي اظهر اولاً المحبة لعدوّهِ واعتنقهُ . ثم اخذ القديس يمارس في خلوتهِ رياضات الصلاة والتقشف ثم اتى من قِبل الملك بعض جنودٍ ليقتلوهُ غدرًا فاخرجوهُ من الدير غير انهم لما رأوهُ مقدّمًا نفسهُ للموت بكمال الصبر والوداعة تحوّل بغضهم حبًّا وندموا على ما قصدوا ورجعوا يثنون على قداستهِ . وفي اثناء ذلك اي سنة ثلث وسبعين وستمائة قتل الملك رجلٌ شريفٌ كان قد اهانهُ وعذَّبهُ ظلمًا فرجع القديس ليجيريوس الى اوتون واعتنى بازالة القلق والاضطراب بجلوس تاودوريكوس على عرش الملك اصغر ابناء القديسة باتيلدا. اما ابروين فلما درى بقتل الملك خرج من الدير وخلع ثوب الرهبانية واخذ يُهيج أحزابهُ فاقام ملكًا ضد تاودوريكوس رجلاً من احزابهِ ادَّعى انهُ ابن كلوتاريوس الثالث وفي بادئ الأمر عزم على قتل اسقف اوتون القديس ولمعرفتهِ كم كان اهل مدينة اوتون يحبونهُ وانهم لا يدعون احدًا يمسكهُ أرسل عسكرًا وحاصر المدينة غير ان الراعي الصالح لم يرتضِ بان خرافهُ يتضرَّرون بسببهِ فمن ثم استعدَّ للموت ففرَّق اولاً كل ما بقي لهُ على الفقراء ثم امر الجميع ان يصوموا ثلثة ايام ثم عمل زيّاحًا في المدينة حاملاً الصليب المقدس ثم وعظ على الشعب كلهم واستغفر منهم على ما ربما يكون قد اساء بهِ اليهم بغيرتهِ الشديدة على اصلاح الرذائل وغفر هو ايضًا لكل اعدائهِ . ثم تناول القربان المقدس وخرج من المدينة فامسكهُ اعداؤهُ وقلعوا عينيهِ وفيما هو يكابد هذا العذاب الشديد كان يترنَّم بالمزامير فامر ابروين ان يتركوهُ في غابةٍ لكي يموت جوعًا غير ان القائد لما رأى ما رأى من برّهِ أوى لهُ وتحنَّن عليهِ فذهب بهِ الى بيتهِ وعاملهُ باكرام عن صفو مودَّةٍ

ثم اختلى القديس في ديرٍ واستمرّ هناك سنتين . غير ان ابروين عدوهُ لما رأى ان برَّهُ وحسن سيرتهِ يزيدانهِ شرفًا ووجاهةً في المملكة عزم مرةً أُخرى على قتلهِ بحيث كان قد خدع الملك الجديد حتى استوزرهُ ولكي يستر اثمهُ ببرقع العدل أرجف عليهِ اذ اشاع خبرًا بانهُ هو الذي بمشورتهِ وتهييجهِ قُتل الملك شيلبريكوس وذلك كذب محض كما تدري ثم اخرجهُ من ديرهِ واحضرهُ مع اخيهِ الامير غويرين فعلّقوا هذا على خشبةٍ ورجموهُ وقد تُوفّي سنة ست وسبعين وستمائة تحت الحجارة حينما كان يصلي لاجل اعدائهِ وحُسب من الشهداء القديسين . فخاف ابروين من ان القديس ليجيريوس

يموت ايضاً شهيداً فعزم على تعذيبهِ بعقاب طويل ليلقيهُ في الضجر واليأس فامر اولاً ان يُشوهَ حافياً في طريق طويل صخري فلما رآهُ لم يزل يشكر الله ويباركهُ قطع لسانهُ وشفتيهِ ثم الزمهُ بالمسير بين آجام ذات اوحال ثم سلمهُ الى الحاكم وامرهُ ان يعذبهُ حتى يموت. اما الحاكم فترفق بهِ واسكنهُ في دير حيث كتب القديس على يد كاتب الى امهِ رسالةً يعزيها على فقد ابنها غوبرين ويحثها على الاحتمال حبًّا بيسوع ورجاء للمجد الابدي ويمدحها على ترك الدنيا وتمسكها بالخيرات السماوية. هذا وانما الامر المستغرب انهُ مع قطع لسانهِ وشفتيهِ كان ينطق نطقاً صحيحاً كعادتهِ قبلاً وقد عاين الجميع هذه الاعجوبة ومن ثم عاملهُ الحاكم بكل كرامة وشرع القديس يعظ المؤمنين واثمر كلامهُ جداً في النفوس ومع انهُ اعمى كان يقدّم كل يوم ذبيحة القداس

فلما شعر ابروين المنافق بهذه العجائب زادت بغضتهُ التهاباً فجمع بعضاً من اساقفة خاضعين لشهوتهِ واحضروا امامهم القديس ليجيربوس وحكموا عليهِ بانهُ هو الذي عمل على قتل ملك فرنسا وحينئذٍ سلمهُ الى احد الجنود ليقطع رأسهُ. فظهرت هامة القديس مكللة بنور باهر فتاب حينئذٍ ثلثة من الاربعة الذين مضوا بهِ الى الغابة وفيما كان يصلي لاجلهم جاثياً قطع الجندي الرابع رأسهُ وكان موتهُ السعيد في اليوم الثاني من شهر تشرين الاول في السنة الثامنة والسبعين من المائة السابعة للمسيح

اليوم الرابع

وفيهِ ترجمة القديس فرنسيس الساروفيمي

ينبغي لمن اراد ان يكتب ترجمة وليّ الله هذا الساروفيمي ان ينطق كالملئكة. غير ان الله سبحانهُ اقام انساناً متصفاً بما كان ضرورياً لاستقصاء هذه السيرة العجيبة وهو القديس بونا ونتورا فعنهُ وعن تواريخ رهبانيتهِ اخذنا ما سيُذكر

فاعلم ان القديس فرنسيس المعظم وُلد بأسيسيا مدينة باومبريا من بلاد ايطاليا في السنة الثانية والثمانين بعد المائة والالف للمسيح واسم ابيهِ بطرس برنردون وامهِ بيكا. روى بعض المؤرخين ان هذه المرأة الفاضلة لما جاءها المخاض لتلدهُ استمرّت اياماً كثيرة على ألم ولم تستطع ان تلدهُ واذ كانت على هذه الحال اتى رجل مسكين طالباً صدقةً وبعد ان تناول الصدقة قال ادخلوا المرأة في اصطبل فتلد هناك حالاً. ففعلوا كما قيل لهم فلما دخلت الاصطبل ولدت بسرعة وسهولة ابنها المبارك وسُمي في المعمودية يوحنا ثم سُمي فرنسيس بحيث قد تعلم سريعاً اللغة الفرنساوية وتمهّر فيها لانها كانت لازمة يومئذٍ قضاءً لمصالح التجارة

اما ابوهُ ففيما كان منهمكاً في التجارة لم يدعهُ يدرس العلوم بل ادخلهُ منذ الصغر في مخزنهِ ومرّنهُ على اعمال التجارة وكان عليهِ السلام حسن المنظر ثاقب العقل سخي القلب ومنصبّاً نحو افعال الرحمة الا انهُ كان مطبوعاً على حب التنزُّه والسرور غير ان نفسهُ كانت تفرُّ من كل ابتهاج دنس ومع انهُ كان يهتمُّ باكتساب الخيور الارضية فلم يعلّق قلبهُ بها ولم يكن يردُّ فقيراً خائباً. على ان ذلك صدر منهُ مرةً واحدةً بحيث كان عقلهُ وقتئذٍ مشتغلاً بكليتهِ في عمل من اعمال التجارة الا انهُ لما استفاق على ذاتهِ تخجل باطناً وندم وذهب راكضاً في اثر الفقير ودفع لهُ كل ما كان معهُ حينئذٍ من الدراهم وعاهد الله ان يتصدّق على كل من يطلب منهُ الاحسان حبّاً لهُ تعالى وحفظ عهدهُ طول عمرهِ. ومذ ذلك اليوم تكرّم الله عليهِ بفضل كبير لاسيما محبة عظيمة نحوهُ عزّ وجلّ ومن ثمَّ كان كلما سمع احداً ينطق بلفظة محبة الله يطيب نفساً ويبتهج غاية الابتهاج. فاراد الله عزّ اسمهُ ان يشرّف عبدهُ وكانت بداية تشريف الله اياهُ هكذا. كان يومئذٍ بمدينة اسيسيا رجلٌ ذو بساطة مسيحية وكان هذا الرجل كلما صادف القديس في الطريق يفرش رداءهُ على الارض لكي يمشي عليهِ قائلاً ان هذا الانسان سيفعل عظائم

هذا وفيما كان منخرطاً في التجارة كما مرّ ومنهمكاً في اعمالها وقعت الفتنة بين مدينتي اسيسيا وبروجا فقبض عليهِ اهل المدينة وقت القتال وطرحوهُ في سجن ومكث فيهِ سنة كاملة ولما عاد الى بيتهِ ادركهُ مرض شديد ضعف بهِ جسدهُ ولكن روحهُ تقوّت واستعدّت نفسهُ لقبول المواهب الالهية لانهُ لما برئ من مرضهِ وخرج من بيتهِ بثوب حسن جديد وجد مسكيناً من اصل شريف لابساً اثواباً حقيرة رثّة فخلع ثوبهُ واعطاهُ الفقير ولبس اثوابهُ الممزّقة. وليلة ذلك اليوم رأى في حلم بلاط ملكٍ عظيم تدلّ زينتهُ وزخارفهُ على وفور ثروتهِ مملوءاً اسلحة مرسوماً عليها الصليب فسأل القديس لمن هذه الخيور والاسلحة فأُجيب انها لهُ ولجنودهِ اذا تسلحوا

بالصليب واتّبعوهُ . وبما انهُ لم يكن متروّضًا بعدُ في الامور الروحية ظنّ انهُ سيصير قائدًا مظفرًا وكان ملك فرنسا قد وجّه وقتئذٍ الى ايطاليا عسكرًا لمساعدة البابا على ملك المانيا فذهب اليهِ فرنسيس رغبةً في ان يتجنّد عندهُ . ولكن رب المجد أعلمهُ في الحلم وعبّر لهُ الرؤيا الاولى اذ قال لهُ انها تتمّ فيهِ وفي حزبهِ على معنى روحي وان الجندية والحرب اللتين يدعوهُ اليهما هما روحيتان وهي محاربة نفسهِ وعواطفهِ الزائغة عن منهج التقوى وانهُ يريد بهِ ان يستأصل من قلبهِ الميل الارضي ليتجرّد لعبادة ملك الملوك ويخدمهُ فرجع الى اسيسيا وترك التجارة ومارس رياضات الصلاة فتولّد عندهُ من ذلك احتقار الاشياء الزائلة ليربح الدرّ الانجيلي الّا انهُ لم يعرف بعد كيف كمل ذلك

وفيما كان يزداد يومًا فيومًا رغبةً في اكتساب الكمال المسيحي لاماتة نفسهِ واحتقار ذاتهِ ركب جوادًا وخرج من المدينة فلقي في الطريق رجلًا ابرص شنيع المنظر في الغاية فتكرّه باطنًا من رؤية ذلك الابرص غير انهُ ذكر اذ ذاك ان من تجنّد للسيد المسيح ينبغي لهُ ان ينكر نفسهُ فنزل عن جوادهِ وحينئذٍ مدّ الابرص نحوهُ يد الاستعطاء طالبًا صدقةً اما القديس فقبّلهُ بحبٍّ ثم ركب جوادهُ وسار والتفت ليبصر الابرص فلم يجدهُ . فذهب القديس متعزيًا شاكرًا الله تعالى ومقدمًا ذاتهُ لخدمتهِ وطالبًا منهُ عزّ وجلّ ان يعلمهُ مشيئتهُ . وفيما كان يومًا ما يطلب ذلك في الاختلاء تراءى لهُ السيد المسيح فذاب قلبهُ حبًا عند هذا المنظر الالهي ومن ذلك الوقت فصاعدًا كان كلما تذكر آلام المسيح يبكي بكاءً مرًّا . وحبهُ للسيد المسيح ولّد في قلبهِ عاطفة حبّ للفقراء فصار يمدّهم بالاسعاف عند الضرورة ويعودهم في المستشفيات ويخدمهم . وقد اتفق انهُ في زيارتهِ رومية رأى ذات مرةٍ على باب كنيسة القديس بطرس جملة فقراء يتكفّفون طالبين الصدقة فاحسن بثوبهِ على اشقاهم حالًا واخذ ثيابهُ الدنيئة ولبسها وبقي ذلك النهار كلهُ جالسًا فيما بينهم بقلب مسرور ومشتاق الى اماتة نفسهِ والى الاهانة ليقتدي بربّ المجد الذي اختار لاجلنا وحبًا لنا الاهانة والآلام فهذا ما فعلهُ القديس فرنسيس وهو بعدُ رجلٌ عالميٌ ولم يكن لهُ معلم في هذا كلهِ غير سيدنا يسوع المسيح الذي كان يرقّيهِ في الفضيلة رُويدًا رُويدًا

وكان يحب ان يصلّي منفردًا فاختلى يومًا في كنيسة قديمة خارج المدينة على اسم القديس داميانوس واذ كان يصلي هناك امام ايقونة السيد المسيح سمع صوتًا من فم تلك الايقونة الالهية يقول لهُ قم يافرنسيس واصلح بيتي الذي اوشك ان ينهدم . فظن القديس انهُ تعالى يأمرهُ باصلاح بناء الكنيسة المذكورة فرجع الى بيتهِ وباع من مخزن ابيهِ بضائع كثيرة وجاء بثمنها الى كاهن تلك الكنيسة وقدّمهُ لهُ لترميم الكنيسة واستأذنهُ ان يسكن فيها بعض ايام فاذن لهُ الكاهن في ذلك ولكنهُ لم يقبل منهُ التقدمة المشار اليها حذرًا من ان يغتاظ ابوهُ من ذلك فدخل القديس فرنسيس وألقى الدراهم على كوّة الكنيسة وعقب ايام درى ابوهُ بما فعل ابنهُ فجاء بغضب شديد ليستخلص المال منهُ فاختبأ في مغارةٍ فلم يجدهُ غير انهُ وجد الدراهم فاخذها وعاد الى بيتهِ

اما القديس فعقب ايام قليلة دخل مدينة اسيسيا ولما كان وجههُ قد شحب واصفرّ من الصوم وكان لابسًا اثوابًا رثّة بالية احدق بهِ اهل المدينة وشرعوا يضحكون منهُ وجعل بعضهم يرمونهُ بالطين والحجارة ايضًا فاغاظ هذا الامر اباهُ جدًا فجرّهُ الى بيتهِ وضربهُ ضربًا عنيفًا وأوثقهُ بقيود واستمرّ القديس على هذه الحال الى ان سافر ابوهُ وحينئذٍ اطلقتهُ امهُ ولما عاد ابوهُ من سفرهِ قال لهُ القديس اعلم ياابي اني قد خصّصت كل حياتي لسيدنا يسوع المسيح واني منذ الان فصاعدًا اروم ان أقفو آثارهُ واقتصر على خدمتهِ . فقال لهُ ابوهُ حسنٌ وانما أُريد منك ان تذهب معي الى الاسقف وتترك امامهُ كل ما ترثهُ من تركتي فسرّهُ هذا الطلب وذهب مع ابيهِ الى الاسقف ولما وقف امامهُ خلع ثيابهُ الّا المسح الطويل ثم سلمها الى ابيهِ وقال لهُ لقد دعوتك ابي حتى الان اما فيما بعد فساقول حقًا وبسرور وطمأنينة ابانا الذي في السماوات . ففرح الاسقف من نشاطهِ في العبادة وألبسهُ ثوبهُ الى ان اتوهُ بثوب راعي غنم فألبسهُ اياهُ وبارك عليهِ واطلقهُ وكان ذلك في السنة السادسة بعد المائة الثانية عشرة للمسيح وقد بلغ حينئذٍ الخمسة والعشرين من عمرهِ

فبعد ان قطع هكذا كل رُبُط الجسد وتجرّد عما بالدنيا من عوائق الكمال في العبادة خرج في طلب مكان معتزلٍ وفيما كان سائرًا في الطريق كان يترنّم بالتسابيح الالهية باللغة الفرنسويّة . ولما كان يسير في الغابة اذا بلصوص وثبوا عليهِ وسألوهُ من انت ومن ملكك فاجابهم القديس قائلًا انا

عبد اعظم الملوك فضربوهُ ثم ألقوهُ في هاوية ممتلئة ثلجًا وتركوهُ على هذه الحال اما هو فزاد فرحًا لان الله تعالى اهَّلهُ لان يقاسي مثل ذلك ولم يفتأ يترنَّم بالمزامير بصوتٍ أعلى من الاول وفرحٍ اعظم. ثم خرج من الهاوية ودخل مدينة قوبيا فعرفهُ احد اصدقائهِ واضافهُ الى بيتهِ وألبسهُ ثوبًا لائقًا فشرع القديس يخدم البرص في المستشفيات ويغسل ارجلهم وينظف جراحاتهم المنتنة الكريهة ومن اجل ذلك وهبهُ الله تعالى نعمة الشفاء من امراض الجسد والنفس وقد ذُكر في هذا الشان انهُ لما كان القديس برومية صادفهُ رجلٌ ابرص عند خروجهِ من كنيسة القديس بطرس وكان البرص قد اكل شفتيهِ وخدَّيهِ فخرَّ امام القديس ورام ان يُقبِّل رجليهِ فمنعهُ القديس عن ذلك واحتضنهُ وقبَّل وجههُ وفي الحال تطهَّر من برصهِ حتى لم يبقَ لهُ في جسمهِ اثر

ثم رجع القديس الى مدينتهِ حيث كان قد تعاطى التجارة بكرامة واخذ يتكفَّف مستعطيًا كأحد الفقراء ابتغاء ان يغلب العالم وبذلك يكفر بنفسهِ بممارسة افعال الاتضاع واحتمال الاهانات. وتذكَّر حينئذٍ كلام الهاتف الذي سمعهُ في كنيسة القديس داميانوس فعزم على اصلاح بنائها. فيا للعجب ان الذي لم يقدر ان يعملهُ وهو متموّل عملهُ وهو فقير بواسطة الصدقات وعند تجديد بناء هذه الكنيسة كان كأحد الفَعَلة يحمل الطين والحجارة. وهكذا فعل بكنيسةٍ أُخرى مبنية على اسم القديس بطرس الرسول. وبعد ذلك خرج من اسيسيا وانفرد في موضع قريب من هناك يدعى باللغة الايطاليانية بُرْسيونكولا اي الجزء الصغير لان اراضي ذلك الموضع كانت جزءًا صغيرًا من وقف دير ارهبان القديس باناديكتوس فوجد هناك كنيسةً قديمة متروكة مبنية على اسم السيدة ملكة الملائكة فاخذ القديس يسعى في ترميمها بطلب الصدقة وانتهى العمل جيدًا وهي هذه الكنيسة الشائع خبرها وشرفها التي فيها حاز القديس فرنسيس نِعمًا الهية جزيلة وعند موتهِ اوصى رهبانهُ كثيرًا باكرامها وهناك كان يقضي ليلهُ ونهارهُ مصليًا وطالبًا من سيدة العالم ان تكون شفيعتهُ عند ابنها لكي يجري على مرضاتهِ تعالى

وفي ذات يوم اذ كان يحضر القداس الالهي هناك قُرئ فصل من بشارة القديس متى يقول فيهِ المسيح لرسلهِ حثًا على الكمال الانجيلي لا تقتنوا ذهبًا ولا فضةً ولا هميانًا ولا ثوبين ولا أحذيةً ولا عصًا (متى ١٠: ٩ و١٠) فاعتبر انهُ هو المخاطَب بذلك الكلام كالرسل الكرام فاتخذهُ قانونًا لحياتهِ ومن ساعتهِ خلع حذاءهُ وألقى عصاهُ وترك دراهمهُ ولم يبقِ من اثوابهِ سوى ثوب واحد دني وشد وسطهُ بحبلة وهكذا باشر الطريق الرسولية. ولا ريب انهُ ابتدأ بالهام الله يعظ قائلاً في افتتاح كل عظة يحكم الرب السلام. وقد تاب كثيرون بوعظهِ وقدوتهِ الرسولية بل ان كثيرين تتلمذوا لهُ وجروا على طريقتهِ ايضًا وكان اوَّلهم وبكرهُ في الرهبانية برنردوس كينتفال من مدينة اسيسيا وصار هذا راهبًا ورعًا بارًا. والثاني رجل اكليريكي يقال لهُ بطرس الكاتاني. والثالث الطوباوي اجيديوس الذي اتخذهُ القديس رفيقًا لهُ في الطريق فلما صاروا اثني عشر أرسلهم القديس كما ارسل السيد المسيح رسلهُ ليبشّروا العالم ويدعوا الناس الى التوبة. وعند ارسالهِ كلاً منهم كان يقول لهُ الق على الرب همك وهو يعولك

ثم وضع فرائض رهبانيتهِ باقوال بسيطة ممتلئة من روح الله ولما اشار عليهِ اسقف اسيسيا صديقهُ بان يجعل لكل ديرٍ دخلاً مختصًّا بهِ قال لهُ انني اتخذت لنفسي ولرهباني العناية الالهية دخلاً لا غير. هذا وعقب ما وضع قوانين لرهبانيتهِ ذهب الى رومية ليقدمها للحبر الاعظم لكي يثبتها وكان البابا في ذلك الزمان اينوشنسيوس الثالث. فلما قدَّمها لهُ طردهُ بما انهُ حسبهُ مجذوبًا اما القديس فلم يغتمّ من ذلك ولم يضطرب بل التجأ الى الصلاة. غير انهُ في ليلة ذلك اليوم رأى البابا في الحلم نخلةً نابتةً من تحت قدميهِ وقد نمت وتعالت جدًّا في دقيقة واحدة وعاين مع هذه الرؤيا ذاك الفقير اي القديس فرنسيس الذي طردهُ حاملاً على منكبيهِ قبة الكنيسة اللاترانية المائلة الى الانهدام. فلما انتبه أرسل واستدعى القديس وقابلهُ باكرامٍ ومحبةٍ واثبت قوانينهُ بالكلام وحرَّضهُ على اتمام مقصودهِ ورسمهُ شماسًا واقامهُ رئيسًا على رهبانهِ

فنذر حينئذٍ القديس بين يدي الحبر الاعظم حفظ هذه القوانين التي اثبتها وكذلك نذر رفقاؤهُ ثم رجعوا الى مدينة اسيسيا وسكنوا منزلاً مجهولاً مهدومًا وعاشوا هناك ممارسين رياضات البرّ على كمال الفقر الاختياري. وقد كانت صلاتهم نظريَّة وعقلية اكثر مما كانت لفظية بحيث لم يكن عندهم

حينئذٍ كتاب الترانيم وفيما كانوا يسيرون هكذا بنشاطٍ في طريق النسك خرج القديس ليعظ في كنيسة اسيسيا وفي غيابهِ تراءى للرهبان في جوف الليل جالسًا على مركبةٍ ناريَّةٍ وفوقها نور أبهى من نور الشمس ودارت هذه المركبة الرمزيَّة في المنزل ثلث مرات ومن هذه الرؤيا عرف الاخوة ان القديس وان كان غائبًا عنهم فهو حاضر بينهم بالروح وانهُ متصف بروح ايليا . ثم انطلق القديس من هذا المنزل الى منزل آخر وهبهُ اياهُ رهبان القديس باناديكتوس مع كنيسة سيدة الملئكة المار ذكرها ومن هناك كان يخرج ليعظ في المدن والقرى القريبة

وكان كلامهُ يؤثر في القلوب حتى ان جماعةً كثيرةً من تلاميذهِ العالميين رجالاً ونساءً زهوا بالبرّ والتقوى ومنهم القديسة كلارا التي ذكرنا ترجمتها في اليوم الثاني عشر من شهر آب . وكان ممن يعتبرون برارتهُ رجلٌ يُقال لهُ موريسيوس فهذا لما اصابهُ داءٌ عضال وأعيا الاطباء دواؤهُ حتى يئسوا من شفائهِ بعث يطلب منهُ ان يتضرَّع لاجلهِ فصلَّى القديس فرنسيس ثم اخذ جزءًا من رغيف وبلَّهُ في زيت المنارة الموقدة امام مذبح كنيسة سيدة الملئكة وسلمهُ الى احد رهبانهِ وقال لهُ اذهب واعطِ الاخ موريسيوس هذا الخبز لياكلهُ لانهُ بهِ ينال الشفاء وسيكون في جماعتنا جنديًّا شجاعًا . فلما تناول موريسيوس ذلك الخبز نال الشفاء وللوقت ذهب وترهَّب في رهبانية القديس فرنسيس وفيها عاش عيشةً قشفةً مقدسةً

ونُقل عن ثقات المؤرخين وعمدة الرواة ان شاعرًا مُفلقًا كان لهُ كبير اعتبار عند الشعراء حتى كانوا يلقبونهُ بملك الشعراء زار القديس يومًا فوجدهُ يعظ في ديرٍ ورأى سيفين مجرَّدين احدهما صاعدٌ من قدميهِ الى رأسهِ والآخر موضوع على ساعديهِ بشكل صليب فطلب وقتئذٍ الشاعر ان ينضوي تحت اسكيم هذه الرهبانية فقبلهُ القديس فرنسيس وسمَّاهُ سليمان . والحاصل انهُ بمثل هذه العجائب كان الله تعالى يدعو الناس الى هذه الرهبانية المقدسة حتى اتصل عددهم في زمنٍ يسير الى ما ينيف على خمسة آلاف

ولما استأثرت رحمة الله بالبابا اينوشنسيوس الثالث وخلفهُ البابا أونوريوس الثالث عزم القديس بامر الله على تسطير قانون أوجز وأخصر من الاول . فصعد باثنين من تلاميذهِ الى جبلٍ وهناك كتب القانون كما ألهمهُ الروح القدس ثم نزل وسلمهُ الى نائب الرهبانية لكي يحفظهُ ولكنهُ توانى فضاع القانون . فصعد القديس فرنسيس ثانيةً الى الجبل كموسى الكليم وكتب القانون كما كتبهُ اوَّل مرةٍ حرفًا بحرفٍ . ثم اثبتهُ البابا أونوريوس المومأ اليهِ ولما كان القديس يحثّ اخوتهُ على حفظهِ كان يكثر غالب الاحيان من هذا القول انني في هذه القوانين لم اضع شيئًا من عندي بل ان كل مضمونها أُوحي اليَّ من السماء . واثبت الله كلامهُ هذا بآيةٍ بيّنة وكانت هكذا انهُ لما كان القديس يصلي على الجبل نزل من السماء هاتف يقول ثلث مرات اعلم يا فرنسيس ان ليس في هذا القانون شيءٌ من عندك بل كلهُ من قِبلي واريد ان يُحفظ حرفًا فحرفًا وانا عالم بقوة الانسان والعون المقدَّم لهُ مني

فتأمل الآن ايها المؤمن ما قد قالهُ القديس بوناونتورا في فضائل هذا القديس قال اما من حيث التقشف فقد كان يُعامل جسدهُ بأشد قساوةٍ وكان يقول في هذا المعنى انهُ امرٌ في غاية الصعوبة ان يخدم الانسان جسدهُ في حاجاتهِ الضرورية بدون ان تغلبهُ الشهوات اللحمية وبناءً على ما علمت لم يكن ياكل وهو في حال الصحة من المطبوخات شيئًا الا في النادر وكان اذا اكل يرشُّ على الماكل رمادًا وماءً لئلاَّ يشعر بادنى لذة فاما مشربهُ فكان الماء القراح ولم يكن يروى من عطشهِ اصلاً ولو شديدًا الى الغاية واما في خارج الدير فكان ياكل ما يُقدَّم لهُ . وكانت عادتهُ ان ينام على أديم الارض بدون فراش او كان ينام جالسًا على كرسيّ وكانت وسادتهُ اما حجرًا واما خشبةً ولم يكن يلبس الاَّ ثوبًا واحدًا خلقًا

ومن جهة طهارتهِ اوحى الله تعالى الى اخٍ يُقال لهُ لاون ان رئيسهُ القديس كان بتولاً نفسًا وجسدًا وفضلاً عن ذلك فكان جزيل الاحتراس والاحتشام مع النساء ولا سيما في النظر وكان يقول ان مَثَل من يتكلم مع النساء ويتصرَّف معهنَّ مَثَل من يمشي على نار متقدة ولا يحترق . على انهُ ما بالراهب حاجة الى مكالمتهنَّ الاَّ متى التزم بتعليمهنَّ او استماع اعترافاتهنَّ ولا جرم ان الجسارة في هذا الامر جهالةٌ كبيرة ومن يدع الشيطان يمسكهُ بشعرةٍ واحدة فلا شك انهُ يلقي ذاتهُ في حربٍ شديدةٍ غير انهُ عليهِ السلام لم يبلغ ما بلغهُ من كمال

هذه الفضيلة الاَّ بعد ان انتصر في الهيجاء الروحية على كل مقاومٍ عنيد ولا نكير فانهُ القى نفسهُ مرارًا كثيرة في نهر بارد جدًّا لكي يطفئ لهيب الشهوة الرديئة ويسكن الحركات الحمية وجلد جسدهُ مرةً بأعظم قساوة ولما لم تخمد فيهِ نار الشهوة بالجلد دخل بستانًا وجعل يتمرَّغ عريانًا على الثلج ومن ذلك اليوم لم يعد يشعر بمخز اللحم في بقية ايام حياتهِ. وكان يسمي جسدهُ حمارهُ لانهُ كان يثقل عليهِ التعب ويضربهُ كثيرًا ويطعمهُ قليلاً. والحاصل انهُ عامل جسدهُ اصعب معاملة ولذلك استغفر منهُ عند موتهِ غير انهُ قال ان السبب في ذلك انما كان حبهُ العفة والتألم مع المسيح

واما اتضاعهُ فهو ما لاغاية وراءهُ فانهُ كان لفرط ما يزدري بنفسهِ يشتهي الاهانة ويفرُّ من مديح ومجد حتى انهُ حينما كان الناس يمدحونهُ كان هو يأمر رفيقهُ ان يشتمهُ ويحتقرهُ. وفي الجملة فانهُ لفرط تواضعهِ فعل اشياء يحسن التعجب منها اكثر مما ينبغي الاقتداء بها. وهذه فضيلة التواضع هي التي صدَّتهُ عن قبول درجة الكهنوت لانهُ كان يحسب كل كاهن اهلاً لاكرام عظيم وقال مرة لو لقيت في الطريق كاهنًا في صحبة قديس من السماء وهو غير كاهن لقبلت يدي الكاهن اولاً. ثم انهُ بروح التواضع ترك الرئاسة العامة وطلب من رفيقهِ في الطريق ان يكون رئيسًا عليهِ وقال لو ترأس عليَّ احد الرهبان المبتدئين لأطعتهُ كما اطيع أعظم رؤساء الرهبانية واقدسهم لانهُ يجب على المرؤوس الا يُلاحظ مَن يأمرهُ بل يلاحظ ذاك الذي ينوب عنهُ ويأمرهُ باسمهِ. ولما سُئل كيف ينبغي للراهب ان يطيع رئيسهُ اجاب انهُ ينبغي ان يكون تحت امر الرئيس كجسدٍ ميتٍ في يد من يحرّكهُ

وفي ذات يومٍ اذ كان احد رهبانهِ القديسين يصلّي رأى في صلاتهِ كرسيًّا في السماء مرصعًا بجواهر ثمينة فسأل لمن يكون هذا الكرسي فقيل لهُ انهُ لفرنسيس المتضع. فهذا الراهب نفسهُ سأل بعد ذلك القديس فرنسيس كيف يظن بنفسهِ فقال لهُ انا موءكد اني اعظم الخطاة في الدنيا. فاعاد عليهِ ذاك الاخ السؤال قائلاً كيف يمكنك يا ابانا ان تقول ذلك بدون ان تكذب فاجابهُ قائلاً لانهُ لو جاد الله تعالى على لصٍّ او على اشرّ الناس بما انعم بهِ عليَّ من البركات لأحسن لهُ تعالى الشكر اكثر مني ولكان خيرًا مني فلو اهملني الله سبحانهُ لأصبحتُ شرًّا منهم جميعهم. وقد جاء في ترجمتهِ ايضًا ان احد الكرادلة كلَّفهُ ذات مرةٍ ان يمكث عندهُ وقتًا ما فمكث القديس هناك احترامًا للكردينال وفي الليلة الثانية لما اتى ليرقد بعد صلاتهِ اذا بشياطين دخلوا عليهِ وضربوهُ بقساوةٍ عظيمة حتى كاد يموت فاستدعى حينئذٍ رفيقهُ باكرًا واخبرهُ بما حدث لهُ ثم قال لهُ ان الله تعالى انتقم مني وعلمني بهذا انهُ يجب على الرهبان ان يفرُّوا من منازل العظماء وديار الاكابر وخرج على الفور من بلاط الكردينال

واعلم ايضًا ان الاتضاع كان قد صيَّرهُ يحب الفقر كحب الابن والدتهُ وقد كان يسمي المسكنة ملكة الفضائل والفضيلة الموموقة جدًّا من ملك السماء وسيدتنا البتول وان الفقر هو اسّ رهبانيتهِ وان الله جلَّ اسمهُ اعلمهُ ان دَخل كل رهبانيتهِ هو الفقر ولكثرة ما كان يودُّ الفقر ويتعبهُ هدم بعض اديرة وجدها مخالفةً لما يقتضيهِ الفقر الرهباني. وقد نصب لهُ العدو فخًّا في أمر الفقر وكان هكذا انهُ وجد يومًا في الطريق كيسًا مملوءًا دراهم. فطلب رفيقهُ اذنًا منهُ ليوزّع الدراهم على المساكين فابى القديس ذلك وحيث ان الاخ ألحَّ عليهِ في طلب الاذن لياخذ الدراهم صلى القديس ثم قال لرفيقهِ خذ الكيس واربطهُ بيدك فلما مدَّ ذاك يدهُ ليأخذهُ خرج من الكيس حيَّة واضمحلت هي والكيس حالاً. ومرةً أُخرى صادف في الطريق ثلث بنات يشبهنَ بعضهنَّ بعضًا جدًّا في الطول والعمر وهيئة الوجه وكنَّ الفقر والعفة والطاعة فقلنَ لهُ السلام عليك يا اخانا الفقير ثم غبنَ عن نظرهِ. وبناءً على ما تقدم لم يعد من المستغرب انهُ كان يشقُّ عليهِ حينما يجد مسكينًا بثوب احقر من ثوبهِ. وقيل انهُ في ذات يومٍ لقي رجلاً بثياب احقر من ثوبهِ فدفع لهُ رداءهُ ولما اراد رفيقهُ ان يمانعهُ قال لهُ اني إن لم أُعطِ ثوبي من هو افقر مني حسبت نفسي لصًّا بين يدي الله تعالى. ومرة أُخرى وجد اخًا ينتهر فقيرًا يلحُّ عليهِ بطلب الصدقة فامرهُ القديس بان يجثو على قدمَي الفقير ويستغفر منهُ ثم قال لهُ ألا تعلم ان الفقير هو صورة سيدنا يسوع المسيح الذي اختار المسكنة لكي نستغني نحن ومن ثمَّ ينبغي لك ان تكلم كل فقير بانس ووداد

وكانت محبتهُ لله تعالى قد اضرمت في قلبهِ حبًّا نحو القريب حتى انهُ كان كنارٍ تاكلهُ على الدوام ومن ثم كان يحسب كلا شيء ما يبذل من العناء والجهد في سبيل تخليص

النفوس بحيث كان يُريد ان يموت لاجل ذلك . وبحسب هذه النية سافر مرَّتين مريدًا بلاد فلسطين والزمهُ الله تعالى ان يرجع غير انهُ لما عرف ان بعضًا من رهبانهِ نالوا اكليل الاستشهاد سافر ثالثةً في السنة التاسعة عشر بعد الالف والمائتين للمسيح وفي قلبهِ نار شوقٍ الى ان يسفك دمهُ حبًّا بالله عزَّ اسمهُ ويهتمَّ جهدهُ بتخليص النفوس فلما وصل الى قرب دمياط قبض عليهِ السراكسة وضربوهُ بالعصي واوثقوهُ وقدَّموهُ للسلطان ولما وقف امام منبرهِ بشَّرهُ حالاً بالانجيل المقدس وبيَّن لهُ امر التثليث والتجسد ثم طلب ان تُوقد نار قويَّة ووعد انهُ يجتاز فيها لاثبات الدين المسيحي . ثم قال فليفعل معلمو مذهبكم كما افعل ومن يخرج من النار سالمًا يكن ايمانهُ صحيحًا . ولما لم يرد احد ان يختبر الامر قدَّم القديس نفسهُ لانجاز وعدهِ فطلب ثانيةً ان يوقدوا نارًا ليجتاز فيها فلم يرتضِ بذلك ملك السراكسة حذرًا من ان يغضب الشعب غير انهُ تعجب من شجاعة القديس ولاسيما من عدم مبالاتهِ لانهُ قدَّم لهُ هدايا وافرة فلم يقبلها . ثم لما رأى هذا القديس انهُ لم يبلغ أربهُ بحيث ان احدًا لم يتنصَّر وليس هناك مَن يريد ان يقتلهُ بسبب كونهِ نصرانيًّا عاد الى بلاد الغرب

ولعمري ان من كانت نفسهُ ملتهبةً على الدوام بنار محبة الله لا عجب في إنهُ لا يزال مفتكرًا فيهِ تعالى ومتأملاً جلال كمالات عزَّتهِ لان المحب مولَع بملازمة المحبوب ويستحلي معاشرتهُ ولا ريب ان قلب المرءِ حيث يكون كنزهُ كما نطق بهِ رب المجد . فعلى مقتضى هذا القياس كان القديس فرنسيس يهوى الاختلاء والانفراد ليتأمل كمالات الله تعالى وكثيرًا ما كان يهتف الهي كنزي الوحيد اني فيك وحدك اجد كل خير . وعند الصلاة كان يُختطف بالروح غالبًا وكثيرًا ما ارتفع جسدهُ من على الارض والتحف بنورٍ سماويٍّ وفي ذلك الوقت وغيرهِ ايضًا كان الله سبحانهُ يكشف لهُ الامور المستقبلة واسرار قلوب الناس . وقد وهبهُ تعالى ايضًا الهبة التي وهبها لآدم في حين برّهِ الاصلي اعني السلطان على طيور السماء وحيوانات الارض

واما العجائب التي صنعها في حياتهِ وبعد موتهِ فلا يُحصى عددها بل يكفينا ان نقول انهُ اخرج الشياطين وفتح عيون العميان وشفى المرضى واحيا الموتى الاَّ ان اعظم الآيات هي التي ظهرت في جسدهِ اي رسم جراحات ابن الله في يديهِ ورجليهِ وجنبهِ وقد تكلمنا عنهُ في اليوم السابع عشر من ايلول في العيد المختص بذكر هذه الاعجوبة المذهلة . وقد استمرَّ هذا القديس على حال انسان مصلوب مدةً طويلةً متألمًا مثل السيد المسيح لا بايدي مبغضي الايمان وحد السيف كما كان يشتهي بل بآلة المحبة وبيد المحبة نفسها ايضًا وقد فنيت قوَّتهُ رُويدًا رُويدًا

ولما حان وقت وفاتهِ وهو في دير الجزء الصغير جمع رهبانهُ وخاطبهم بما نصهُ ايها الابناء الاحباء اثبتوا في محبة الله ومخافتهِ لانهُ قد اقترب وقت الضيقة والتجربة فالطوبى للذين يستمرُّون على الصلاح ثابتين فها انا انطلق الى الله تعالى واياهُ استودعكم جميعًا . احفظوا القانون بتدقيق وكونوا في الفقر كاملين وللكنيسة الرومانية طائعين واكرموا الجليلة مريم البتول واحفظوا فيما بينكم روح السلام والصلاح والمحبة . ثم رفع عليهم يديهِ بشكل صليب وطلب من الله ان يباركهم ويكون لهم ابًا وبعد ذلك طلب ان تُتلى امامهُ آلام سيدنا يسوع المسيح المذكورة في بشارة القديس يوحنا الرسول ثم شرع يتلو هو المزمور المائة والحادي والاربعين قائلاً بصوتي الى الرب صرخت بصوتي الى الله تضرَّعت . اسكب امامهُ تضرُّعي فها ان حياتي قد فنيت وانت يارب عالم بسبلي فاليك صرخت وقلت انت رجاءي وحظي في ارض الاحياء أخرج من الحبس نفسي لكي اشكر اسمك . اياي ينتظر الصديقون حتى تجازيني . قال هذا ورقد بالرب في اليوم الرابع من شهر تشرين الاوَّل في السنة السادسة والعشرين من القرن الثالث عشر وكان قد بلغ من العمر خمسًا واربعين سنة

اما الرهبان فقضوا الليل كلهُ في الصلاة محدقين بجسد ابيهم ثم انهم في الغد حملوهُ لينقلوهُ الى مدينة اسيسيا فأدخلوهُ اولاً في كنيسة القديس داميانوس حيث كانت تلميذتهُ القديسة كلارا وهي شاهدت جراحات السيد المسيح المرسومة في جسدهِ وقبَّلتها وكذلك شاهدها سائر الناس وقبَّلوها ثم وضعوهُ في كنيسة القديس جاورجيوس حيث كان قد صُبغ بماء المعمودية المقدس . وبكثرة العجائب التي جرت عند قبرهِ قيَّد البابا اسمهُ في سفر القديسين بعد سنتين من وفاتهِ وحالاً شرعوا في بناء كنيسة كبيرة على اسمهِ في مدينة اسيسيا وفرغوا من اقامتها في اقل من سنتين وهناك وضعوا جسدهُ المقدس

في قبو تحت المذبح ولم يزل الله تعالى يشرّف عبدهُ الى يومنا هذا باعجوبة متصلة شاهدها وشهد لها البابا نيقولاوس الخامس وشهد كذلك السيد استورجيوس احد الكرادلة واثبت شهادتهُ عند موتهِ بما نصهُ . اني رأيت هذا الامر العجيب في السنة التاسعة والاربعين بعد الالف والاربع مائة اي بعد مائتين وثلث وعشرين سنة لموت هذا القديس فكان جسدهُ واقفًا على قدميهِ بدون سندٍ وعيناهُ مفتوحتين مرتفعتين نحو السماء كانهُ حيٌّ بعدُ وجسدهُ صحيحًا لم يعترهِ فساد والخمس الجراحات الالهية مرسومة على يديهِ ورجليهِ وجنبهِ فهذا ما قد شاهدهُ البابا وواحد من الاساقفة ورئيس الدير(١)

اليوم الخامس

وفيهِ ترجمة القديس بلاسيدوس الشهيد ورفقائهِ الشهداء

لما كان القديس باناديكتوس يضيء في بلاد ايطاليا ببرارتهِ وعجائبهِ زارهُ في دير سوبلاكو رجل يُقال لهُ ترتلُّس وكان اشرف اماثل مدينة رومية ثم قدَّم لهُ ابنهُ البكر ليخرّجهُ في الآداب والفضائل وهو القديس بلاسيدوس الذي وُلد سنة خمس عشرة وخمسمائة وكان عمرهُ حينئذٍ سبع سنين فقط وهذا الغرس الصغير الجيّد المغروس على مجاري مياه تعليم مرشدهِ نما وتسامى في الفضائل سريعًا لانهُ دخل بأقوى استعداد للتكمُّل في القداسة ومن ثم لم يكن يستثقل اصعب رياضات الرهبانية بل كان يمارسها كلها بانصباب مقدَّس كمن قد اعتادها منذ زمان مديد . ومنذ صبائهِ كان يفضُل اقدم الرهبان في العبادة والوداعة والنشاط . وقد اخبر القديس غريغوريوس الكبير ان القديس باناديكتوس ارسل يومًا تلميذهُ هذا ليستقي ماء من بُحيرة بقرب الدير وفيما كان يستقي سقط في الماء . فعرف رئيسهُ القديس هذا الامر بالهام الله ومنذ ساعتهِ ارسل تلميذهُ موروس ليخلصهُ فركض التلميذ ولفرط ما كان عقلهُ مشتغلاً بامر اخيهِ دخل البحيرة غير مبالٍ بخطر الغرق فجمدت المياه تحت رجليهِ واصبح وجهها يبسًا فسار فيهِ كما يسير في اليابسة وامسك بلاسيدوس بشعر

(١) حاشية . من اراد الاطلاع على براهين هذه الاعجوبة فليقرأ ما كتبهُ البلاّنديستيون في هذا الشان في المجلد الخمسين من تاليفهم (وهو المجلد الثاني من تشرين الاول وجه ٩٢٨)

رأسهِ ونشلهُ وقال حينئذٍ طالما كنت في البحيرة كنت ارى القديس باناديكتوس ممسكًا بيدي لئلا اغرق

واما بعد هذه الاعجوبة فازداد القديس بلاسيدوس نشاطًا في القيام على اعمال البرّ ولذلك أُولع بحبهِ القديس باناديكتوس حيث عرف بروح النبوة انهُ سيكون اول شهداء رهبانيتهِ وكما كان السيد المسيح متى اراد ان يصنع آيةً يختار اعزّ تلاميذهِ وأحبهم اليهِ كان القديس باناديكتوس يأخذ معهُ القديس بلاسيدوس تلميذهُ العزيز رفيقًا لهُ كلما اراد ان يفعل العجائب واتى بهِ الى دير جبل كسيان في نحو السنة التاسعة والعشرين من المائة السادسة للمسيح وفي ذلك الزمن اتى ترتلُّس ابوهُ الى القديس باناديكتوس ووقف على رهبانيتهِ اراضي وحقول ثماني عشرة قريةً كانت لهُ في صقلية فبعث الرئيس القديس تلميذهُ الحبيب ليبني هناك ديرًا وارسل اثنين اخرين دوناتوس وغُرْدياتوس فسافر القديس بلاسيدوس وفي اثناء سفرهِ زار اساقفة المدن وهم القديس جرمانوس في مدينة كابوا والقديس مرسيانوس في مدينة بانيفنتو والقديس سابينوس في مدينة كانُسًا والقديس سيسينيوس في مدينة رجيو باقليم كلابريا . هذا وكان اكثر الاساقفة في ذلك الزمان السعيد ابرارًا وقديسين وكان القديس بلاسيدوس يصنع العجائب اينما حلَّ الاَّ انهُ بروح الانضاع كان ينسبها جميعها الى برّ رئيسهِ

ولما وصل الى صقلية ودخل مدينة مسينا استقبلهُ الامير مسالينوس احد اصدقاء ابيهِ باكرامٍ واعزازٍ وطلب منهُ ان يلبث في منزلهِ بعض ايام فلم يرتضِ القديس لاعتقادهِ ان اقامة الراهب بمنازل العالميين غير لائقة فاختار القديس بلاسيدوس مكانًا بقرب مدينة مسينا بجانب الميناء وبنى هناك ديرًا وكنيسةً على اسم القديس يوحنا المعمدان كان احتفال تكريسها سنة احدى واربعين وخمسمائة ولم يلبث ان جاءهُ ثلثون من اشرف شبّان الجزيرة ونهج لهم كلهم طريق الفضيلة بتعليمهِ بل بقدوتهِ الصالحة. فكان على ضعف مزاجهِ يصوم دائمًا وكان ماكلهُ المعتاد قليلاً من البقول مع يسير من اللبن ومشربهُ الماء الصِرف على انهُ لم يكن ياكل الاَّ يوم الاحد والثلثاء والخميس وكان يصوم ايامًا كثيرة من صوم الاربعين بالامساك التام لا اكلاً ولا شربًا ولم يكن يرقد على فراش اصلاً بل انما كان فراشهُ كرسيًا بلا مسند وكان ينام عليهِ

هكذا ويسند رأسهُ الى جدارٍ ساعتين او ثلث ساعات ويُحيي بقية الليل مصلّيًا . ولا جرم ان مناجاتهُ لله كانت قد بثّت فيهِ روح الوداعة والحلم على الجميع. هذا ولكثرة ما كان يصنع من الآيات بشفاء الملتجئين اليهِ جعلت المرضى تتزاحم على باب الدير حتى لم يكن يُحصى عددهم فصلّى لاجلهم القديس وصلّب عليهم فبرئُوا كلهم معًا

وكان للقديس بلاسيدوس أخَوان وهما اوكيلوس وفيكتوربنوس واخت يُقال لها فلابيا فهولاء المذكورون سافروا من رومية ليفتقدوا اخاهم بلاسيدوس ويستفيدوا من مخاطباتهِ ونموذج سيرتهِ وقد أثّر فيهم كلامهُ وقدوتهُ كل التأثير حتى انهم ثلثتهم زهدوا في الدنيا ومالت بهم عزيمة النفور من هذا العالم الزائل الى الترهّب . وفي غضون ذلك قدم رجل وثنيّ بربري يقال لهُ ماموكا الى ميناء مسينا بمراكب كثيرة ولأن دير القديس بلاسيدوس كان قريبًا من الميناء دخلهُ اولئك البرابرة وقبضوا على القديس بلاسيدوس وكل رهبانهِ مع اخويهِ واختهِ وأوثقوهم بقيودٍ ثم سأل ماموكا دوناتوس رفيق القديس قال لهُ أأنت مسيحي فقال لهُ الراهب بقلب مستعدّ للموت نعم اني مسيحي بنعمة الله تعالى. فضربهُ ماموكا بسيفهِ فشق رأسهُ . ثم اخذ يزجر القديس بلاسيدوس ورفقتهُ ويتوعّدهم بالموت ان كانوا لا ينكرون النصرانية اعاذنا الله من هذا الكفر الشنيع وبحيث انهم أنفوا جميعًا من الكفر ضربهم بسياطٍ وعصيّ ثم علّقهم بارجلهم الى فوق وأضرم تحتهم نارًا ليستنشقوا الدخان ثم ابقاهم في سجنٍ وكان القديس بلاسيدوس يعزيهم ويشجعهم . اما فلابيا البتول ففيما كان البرابرة يجلدونها جلدًا عنيفًا وهي عريانة جعل ماموكا يقول لها استهزاءً كيف ترتضين بهذه الاهانة ايتها الفتاة الشريفة وتشينين هكذا جلال حسبكِ . فاجابتهُ التقيّة اعلم ان حبي للسيد المسيح يجعل الاهانة شهيّةً اليّ واشد العذاب عذبًا لذيذًا (فليتأمل المؤمنون) واراد البرابرة ان يفعلوا بها المنكر غير ان الله تعالى حفظ بتوليتها بان ضرب كل من تجاسر على ان يدنو منها بهذه النية الدنسة

اما القائد البربري فلم يرجع عن غيّهِ ولم يزل يعذّب الشهداء كل يوم أعذبةً ملوّنةً وكلها اشدّ من الاولى فلما رأى ان القديس بلاسيدوس لم يبرح شاكرًا الله بسرورٍ في وقت التعذيب امر بضرب فمهِ وكسر اسنانهِ وبما انهُ لم يزل يسبّح الله تعالى قطع لسانهُ غير ان هذا عاد باطلاً لان القديس بعد قطع لسانهِ شرع ينطق حسنًا ويترنّم بتسابيح ابن الله باعلى صوت واعظم ابتهاج . فتركهم ماموكا معلّقين بايديهم في الجوّ الليل كلهُ وربط بايديهم مراسي ثقيلة . اخيرًا حكم عليهم بان تُقطع رؤوسهم على شاطئ البحر فخرج ذلك الجمع السعيد ولما وصلوا الى المكان المعيَّن جثوا على الارض مقدّمين حياتهم لسيدنا يسوع المسيح ثم هتف القديس بلاسيدوس قائلاً يا يسوع المسيح ابن الله يا سيدي والهي يا من احببت ان تبذل حياتك على الصليب لاجل خلاصنا انظر الآن عبيدك بعين حنوك وجودك وانعم علينا بان نبذل حياتنا ايضًا حبًّا لعزّتك الالهية فقال بقية الشهداء آمين . ثم تقدّم الوثنيون وقطعوا رؤوسهم في اليوم الخامس من شهر تشرين الاوّل سنة خمسمائة واحدى واربعين للمسيح وكان عدد الشهداء ثلثة وثلثين . فبعد ان فتك ماموكا بهولاء القديسين وهدم ديرهم ودنّس كنيستهم ادركهُ الانتقام الالهي سريعًا لانهُ لما ركب سفينتهُ وسار على البحر مع بقية سفنهِ هاج البحر وكسر كل مراكبهِ وغرق الجميع في لجج الامواج

اليوم السادس

وفيهِ ترجمة القديس برونو

ان هذا القديس منشئ رهبانية الكرتوسيين وُلد بمدينة كولونيا من اصل شريف نحو سنة الف وثلثين للمسيح وقد درس اشرف العلوم في مدينة ريمس اعني الفلسفة واللاهوت وتمهّر فيهما جدًّا وعلّم فيها ايضًا الفلسفة واشتهر خبر علمهِ وتتلمذ لهُ اناس اصبحوا من اشهر اساقفة عصرهِ وكان جرفاسيوس اسقف ريمس قد سلّم لهُ تدبير جميع المدارس في ابرشيتهِ ولما مات هذا الاسقف وخلفهُ اسقف سيموني لم يزل القديس يضادّهُ واشتكى عليهِ في مجمع التأم من قِبل نائب البابا في مدينة اوتون سنة سبع وسبعين والف للنظر في امر الاسقف السيموني غير ان القديس كان من زمان مديد مفتكرًا في ان يترك العالم ويشتغل بامر الكمال لا غير (١)

(١) حاشية . ان البعض من العلماء ينسبون هجران القديس العالم الى حادثة مريعة مذهلة جدًّا وهي. انهُ لما كان القديس مترددًا بباريز كان في هذه المدينة احد معلمي المدرسة رجلاً معتبرًا بسعة علمهِ وحسن سيرتهِ فلما تُوفي هذا وأُخذ جسدهُ الى الكنيسة ليجنزوهُ وشاهد القديس تجنيزهُ

وبعد ان احتمل ما احتملهُ من اضطهاد ذلك الاسقف السيموني انتقامًا عن مقاومتهِ اياهُ اشتدَّ اشتياقهُ الى الاختلاء واخذ يحثُّ من تلاميذهِ مَن كانوا احب لهذا الامر ايضًا وهم ستة اشخاص اشبه بهِ في العلم والفضيلة

فقال لهُ اولئك اننا نتبعك الى حيثما تمضي ونعيش معك ومثلك وتحت ارشادك الى يوم وفاتنا وباعوا جميعهم املاكهم وأحسنوا بثمنها على المساكين ثم عزموا على الانفراد في البراري وفيما كانوا يفتكرون في المكان المناسب لاتمام مبتغاهم قال اثنان منهم انهُ يوجد في اقليم دلفينا مكان مناسب جدًّا للانفراد وان اسقف تلك الابرشية رجل قديس يهبنا هذا المكان لنقطنهُ . فسافر القديس برفقائهِ ولما قربوا من غراتيانوبولي مدينة ذلك الاسقف الذي كان يُدعى هوغو رأى في الحلم في تلك الليلة ملئكة يبنون كنيسة في مكانٍ من ابرشيتهِ يُقال لهُ كرتوزا ثم ابصر سبع نجمات منتظمات بشكل اكليل يسرْنَ امامهُ ويرشدنهُ في الطريق فانتبه القديس هوغو وشرع يتأمل معنى هذه الرؤيا فلم يفهمها . فلما كان على هذه الحال اتاهُ القديس برونو مع رفقائهِ وجثوا امامهُ ثم أوردوا لهُ قصدهم في الاعتزال عن الناس لكي ينقطعوا الى الله تعالى في الفيافي وطلبوا منهُ ان يسعفهم في ذلك . فسرَّ الاسقف سرورًا عظيمًا لانهُ فهم حينئذٍ معنى الرؤيا واعتقد ان هؤلاء هم السبعة النجوم التي رآها في الحلم وان الله سبحانهُ ارسلهم ليجدوهُ في المكان المعيَّن لهُ فوهب لهم حينئذٍ كل برية كرتوزا قائلاً لهم ان كنتم تريدون موضعًا لا تجوز فيهِ الناس فلا يمكن ان تجدوا مكانًا انسب لقصدكم من هذا المكان غير ان الاقامة بهِ مستصعبَة ومفزعة الى الغاية حيث لا تجدون هناك الّا صخورًا عالية تطاول السحاب ولا يُغرس في تلك الاراضي اشجار بسبب الثلج الدائم هناك والى هذا العهد لم يسكن في ذلك المكان احد غير الوحوش الضائرة . ففرح القديس برونو ورفقاؤهُ بما ذُكر لهم من احوال المكان وتوجهوا اليهِ شاكرين الله والاسقف القديس فبنوا بتلك البريَّة هيكلاً صغيرًا على اسم والدة الله وبنوا حولهُ قلالي مبتعدًا بعضها عن بعضٍ لكي يعيش كلٌّ منهم منفردًا متوحدًا واستوطنوا هذا المكان في السنة الرابعة والثمانين بعد الالف . فهذا هو ابتداء رهبانية الكرتوسيين الذين ينذرون علاوةً على النذور الثلثة الرهبانية الصوم والصمت الدائمين ولبس المسح والانقطاع عن اكل اللحم حتى وفي الداء العُضال

فابتدأ القديس برونو يعيش هناك ورفقاءهُ كملئكة الله مستوطنًا السماء بالفكر ومتغاضيًا بالكلية عن الارضيات غير ان الشيطان اخزاهُ الله نهض عليهم واضطهدهم على انواع مختلفة ليخرجهم من خلوتهم المقدسة فالتجأ حينئذٍ القديس الى ملكة الملئكة واكرامًا لها امر في الرهبانية ان يقرأ كل يوم بعد الفرض الكنائسي فرض آخر مرتَّبٌ من الكنيسة اكرامًا لوالدة الاله ومذ ذلك اليوم طُرد الشيطان من تلك البريَّة وتخلصوا من تجاربهِ

وفي اثناء ذلك اي بعد سكناهم هناك بستّ سنين ارسل البابا اوربانوس الثاني الذي كان من تلاميذ القديس برونو في مدرسة ريمس واستدعى القديس الى رومية ليستشيرهُ في تدبير الكنيسة التي كان يضطهدها وقتئذٍ هنريكوس الرابع ملك المانيا فحصل لرفقائهِ حزن عظيم ولمعرفتهم كم كان نموذج سيرتهِ مفيدًا لهم لم يرتضوا ان يفارقوهُ فرافقوهُ الى رومية

هو وجمٌّ غفير من العلماء واعيان الشعب وفيما كان الاكليريكيون يترنَّمون بالصلوات المرسومة من الكنيسة لاجل الموتى اخذ القارئ يتلو فصلاً من سفر ايوب البارّ وقال قُل لي كم هي خطاياي (ايوب ١٣ : ٢٣) فحالاً تحرَّك الميت ورفع هامتهُ وصرخ بصوتٍ هائل قائلاً لقد ابتدأت الشكوى عليَّ امام عرش الديَّان العادل ثم اعاد رأسهُ للنعش صامتًا . فارتجف الحاضرون واستولى على الجميع خوفٌ عظيم وأبقوا تمام التجنيز الى اليوم الثاني فشاع هذا الخبر في المدينة وفي الغد غصَّت الكنيسة بالناس فلما قرأ الاكليريكي النص المتقدم ذكرهُ رفع الميت رأسهُ ثانيةً وقال بصوت أخوف من الاوَّل انهُ قد صدر حكم الله العادل عليَّ ثم سكت ورقد فازداد الشعب خوفًا وأجَّلوا بقيَّة التجنيز الى اليوم الثالث ولما شرع الاكليريكي يقرأ قُل لي كم هي خطاياي قام الميت ايضًا كما قام قبلاً وقال بصوت أخوف من صوت الرعد انهُ قد حُكم عليَّ بالهلاك الابدي حكمًا عادلاً . فجمد دم الحاضرين من شدَّة الخوف وكان كلٌّ منهم ينظر رفيقهُ صامتًا متحيرًا ثم حملوا النعش وفعلوا بالميت كما يُفعل بالحمار كما قال ارميا النبي (٢٢ : ١٩) اي انهم القوهُ على مزبلةٍ في خارج المدينة ومن كانت نفسهُ قد أُعطيت للابالسة ليعذبوها تُرك جسدهُ للكلاب والذئاب لتفترسهُ . غير ان الله تعالى بجزيل عنايتهِ الابويَّة جعل هلاك ذاك مفيدًا لخلاص كثيرين ومنهم القديس برونو . انتهى . لكن اكثر العلماء المحدَثين ينكرون صحة الخبر المذكور سندًا على سكوت المؤرخين الاوَّلين الذين كتبوا ترجمة القديس وتكلموا على ابتداء رهبانيتهِ ولم يذكروهُ البتة والبلاّنديستيون بعد الفحص المدقق في هذه المسألة لم يزالوا مرتابين في صحتها (راجع بحثهم في مجلدهم الثالث من شهر تشرين الاوَّل في وجه ٥٢٥ وما يليهِ)

اما الحبر الاعظم فقبلهُ بسرور واكرام وجعلهُ مرشدًا لهُ في تدبير الكنيسة واسكن رفقاءَهُ في موضع منفرد في رومية لكي يمارسوا بهدوء رياضاتهم ولكنهم ما لبثوا ان عرفوا ما بين السكنى برومية والاقامة بالبرّية من الفرق فملّوا الاقامة بالمدينة لان الضوضاء كانت تحول دون الغرض المقصود من الاختلاء وتاقوا الى السكنى في البراري على أعلى الصخور لما هنالك من السكون والهدوء فطلبوا اذنًا من القديس رئيسهم ليرجعوا الى دير كرتوزا فاطلقهم القديس ورأس عليهم واحدًا منهم غير ان القديس برونو كان يدبّر امورهم برسائلهِ

ولم يزل حبًّا للاختلاء واشتياقًا الى مناجاة الله وحدهُ ملتمسًا من البابا الاذن في تتميم ذلك ورفض قبول اسقفية مدينة راجيو التي قدمها لهُ البابا وبعد مدة من الزمن اضطر الحبر الاعظم الى الذهاب الى فرنسا ورام ان يأخذهُ في صحبتهِ الّا ان القديس اعتذر للبابا قال انني معروف في مملكة فرنسا واخاف ان العالم يجذبني ثانيةً الى خدمتهِ. ثم استأذن لينفرد في بلاد ايطاليا فرضي البابا وفي الحال عزم القديس على الخروج من رومية وكان قد تتلمذ لهُ برومية بعض اشخاص فمضى بهم الى برّية باقليم كالابريا وهناك انفرد معهم ممارسًا رياضات التأمل والتقشف بنشاط متزايد ولم يزل من هناك يكاتب رهبانهُ الذين كانوا في كرتوزا

فاتفق يومًا ان امير كالابريا المدعو روجيربوس دخل هذه البرّية بنية الصيد فلما رأى هيكلًا صغيرًا وقلالي مبنيّة حولهُ طاب نفسًا وقرَّ عينًا فتكلم مع القديس برونو واستخبرهُ عن كيفية مذهبهم فلما عرف ما هم عليهِ تعجّب من قداسة سيرتهم فبنى لهم كنيسةً واعطاهم ديرًا ودَخْلًا وافرًا وكان هذا الامير التقي يتردد في هذا الدير وقد جازاهُ الله تعالى عن احسانهِ الى هولاء الرهبان القديسين لانهُ بعد ذلك اي في سنة تسع وتسعين والف حاصر مدينة كابوا ليُعتق احد اقربائهِ المسجون فيها ظلمًا فعزم على قتلهِ احد قوّاد العسكر اتفاقًا مع اهل المدينة وحينئذٍ تراءى لهُ القديس برونو في الحلم واخبرهُ بخيانة ذلك القائد وهكذا نجاهُ من الفخ المنصوب لهُ

ولما اصاب القديس داء المنون جمع رهبانهُ ومن اجل انهُ في ذلك الزمان نكر بريغاربوس حقيقة وجود السيد المسيح بلاهوتهِ وناسوتهِ في القربان المقدس رذل هو علانيةً بدعة ذاك بعد ان اعترف بالثالوث الاقدس وتجسُّد ابن الله وموتهِ من اجل خلاص البشر جميعهم ثم تناول الاسرار الالهية وفيما هو يُقبّل ايقونة يسوع المصلوب أسلم روحهُ في اليوم السادس من شهر تشرين الاوّل في السنة الاولى من القرن الثاني عشر

اليوم السابع

وفيهِ ترجمة القديسين الشهيدين سرجيوس وبخوس

كان هذان القديسان على شرفٍ عظيم في عسكر مكسيميانوس الملك (١) وعزيزين عندهُ جدًّا لاجل حسن صفاتهم الحميدة ومن اجل ذلك كان الجميع يكرّمونهما الّا انهُ بتمادي الايام حسدهما قومٌ من عظماء الوثنيين وعزموا على اهلاكهما فجعلوا يرصدونهما لكي يتحقّقوا هل هما مسيحيان حقًّا لكون اولئك الحسّاد استنتجوا من نقاوة سيرتهما انهُ من المستحيل ان يكونا وثنيين وقد تاكدوا ذلك ايضًا بدليل آخر وهو انهُ كلما كان الملك يمضي الى هيكل الاوثان كان سرجيوس وبخوس يقفان على باب الهيكل ولا يدخلان فاشتكوا عليهما الى الملك بأنهما عدوّا المملكة وانهما لبغضهما ديانة آلهة المملكة يفارقان عزّتهُ حينما يدخل هيكلهم. اما الملك مكسيميانوس فمع انهُ كان يبغض الديانة المسيحية اشد البغض أغضى نظرهُ لانهُ كان يحبُّ هذين القائدين الامينين ويترجّى ان حبّهما لهُ يردُّهما الى عبادة الاوثان

فسافر للحرب وذهب الى سوريّة ولما وصل الى نهر الفرات استدعى سرجيوس وبخوس واوصاهما ان يرافقاهُ الى هيكل الالهة حيث كان يقدّم ذبيحةً للاوثان فصمت الاثنان وخرجا واستعدّا للموت فلما خرج الملك ليذهب الى الهيكل ذهبا معهُ الّا انهما لم يلجا الهيكل بل وقفا عند الباب وفيما كان كهنة الاوثان يقدّمون ذبيحتهم النفاقية سأل الملك قائلًا هل

(١) حاشية. يحتمل ان الملك المذكور هنا كان مكسيميانوس غاليريوس الذي جال في سورية سنة ست وتسعين وسبع وتسعين بعد المائتين بسبب الحرب ضد الفرس ويُحتمل ايضًا انهُ كان هذا مكسيميانوس الاوّل الذي ملك في الشرق من سنة خمس وثلثمائة الى سنة اثنتي عشرة وثلثمائة واثار على الكنيسة الاضطهاد الكبير (راجع المجلد الثالث من كتاب البلانديستيين من تشرين الاوّل وجه ٨٢٨ و٨٤٤)

سرجيوس وبخوس حاضران فقيل لهُ انهما على الباب ينتظران فلما خرج مكسيميانوس من الهيكل قال لهما اين كنتما حين قدَّمنا الذبيحة للآلهة المعظمين. فأجاباهُ بجرأةٍ واحترامٍ اننا كنا حينئذٍ نقدّم لله الوحيد ذبيحة الشكر والتسبيح رافضين عبادة اوثان صنعتها ايدي الناس . فغضب الملك وأمر للحال ان تنزع عنهما اثوابهما الشريفة التي هي علامة وظيفتهما العالية ويُلبسوا ثياب نساء فتمّم الجنود امرهُ ثم اوثقوهما بالقيود وساقوهما على هذه الحال في شوارع المدينة ثم القوهما في السجن . وفي ذلك اليوم عينهِ جمع الملك محفلاً عظيمًا من وجوه عسكرهِ واحضر الى هناك القديسين وقال لهما اني قد أعليت مقامكما لِما اعرفهُ من امانتكما في خدمتي غير ان مخالفتكما امري برذلكما عبادة آلهتي أمر يدعوني الى الانتقام منكما عن ذلك غير ان حنوّي وحبي لكما لا يأذنان لي في ذلك ولكن ان اطعتما امري وعبدتما آلهتي فاني الان اردُّكما الى شرف وظيفتكما واعاملكما باعظم الاكرام . فقال لهُ الشهيدان اننا لانقبل شرفًا يُعدمنا شرف النصرانية . فامر الملك بتسليمهما الى انطيوخوس والي سورية لان هذا الوالي كان قبلاً في خدمة سرجيوس وبخوس وكتب اليهِ الملك رسالةً يحثهُ بها على ان يفرغ كل جهدهِ في ردّهما الى عبادة آلهة المملكة وان لم يعبدا آلهة المملكة يعذّبهما حتى الموت

فسافرا الى نواحي الفرات الى حيث كان هذا الوالي اما انطيوخوس فانهُ بعد الاطلاع على رسائل الملك استعمل اولاً كل ما امكنهُ من التملّقات والمواعيد فلم يحصل على طائل لانهما بقيا على النصرانية ومن ثمَّ امر الجنود ان يعرّوا القديس بخوس ويجرّحوهُ كمصلوب على خشبةٍ ويتبادلوا على جلدهِ العنيف بل المميت باعصاب البقر ففعلوا كل ما أُمروا بهِ من غير رأفةٍ ولا ترفُّقٍ بحالهِ فقضى أجلهُ بمدينة بسوريةَ يُقال لها بَربا لِسّا موقعها على جانب نهر الفرات. هذا وثاني يوم من استشهادهِ ذهب الوالي المومأ اليهِ الى ريسافا وهي على مسافة مقدار عشرين ميلاً من بَربا لِسّا حيث مثل بين يديهِ القديس سرجيوس فاخذهُ بالحلم واللطف اول الامر آملاً ان ذلك يحملهُ على الخضوع لأمر الملك ولما خاب املهُ من هذا الوجه عذّبهُ عذابًا اليمًا لكن ما وهى عزمهُ ولا ضعف ايمانهُ بالمسيح وحيث ذلك أمر السيّاف ان ينقف عنقهُ والحاصل انهُ على هذه الصورة نال اكليل الاستشهاد في اليوم السابع من ت ا الذي اتّفقت جميع اسفار الصالحين القديمة مع الكنيسة اللاتينية ان تذكر فيهِ ترجمتي هذين الشهيدين

اعلم ان القديس سرجيوس دُفن في ارض بَربا لِسّا ولما ظفرت بيعة الله بالأمان والاطمئنان بواسطة قسطنطين الملك العظيم أُقيمت ثمَّ كنيسة كبيرة على اسم الشهيد المذكور وبها وُضعت عظامهُ وعظام القديس بخوس منقولةً من مدينة بربا لِسّا وقد ازدحم الناس على قبرهِ بنية البركة فنالوا من النعم فوق ما طلبوا وبعد قليلٍ من الايام اضحت بقعة بربا لِسّا مدينةً كبيرةً عامرةً فاحاطوا بها سورًا وسمّوها سرجيوبولي اي مدينة القديس سرجيوس وشُرّفت بجعلها مركز رئيس اساقفة . هذا وماذا اقول في النذور والتقادم والهدايا التي زيّن بها الزوّار قبر القديس سرجيوس فانها كانت كثيرةً وثمينة الى الغاية فان الملك يوسنينيانوس وقرينتهُ قد قدّما الذلك الضريح صليب ذهب ثمينًا جدًّا وزيّنا كنيستهُ بزينٍ جميلة واعجب من ذلك انشغاف الامم البربرية والغير المؤمنين ايضًا بتكريم القبر المشار اليهِ واعتبارهِ جدًّا وكانوا يتقاطرون لزيارتهِ راجين من الله الاسعاف على يد القديس سرجيوس . وحيث انهم كانوا ينالون ذلك على يدهِ قدّموا لقبرهِ هدايا وزينًا فضيّةً وذهبيّةً ومن هولاء كسرى ملك العجم كما قرّر إفاغريوس الشاهد العياني حيث يقول في الفصل السابع عشر والحادي والعشرين من الكتاب الرابع وفي زمانهِ وقع هذا الحادث في اواخر الجيل السادس لما اضطرَّ كسرى بن هرمسداس سلطان العجم ان يخرج من عاصمة مملكتهِ بل عن تخومها سنة ثلث وتسعين وخمسمائة للمسيح بسبب عصيان زادَسبراموس الذي بثَّ في الرعيَّة روح الثورة فهاجوا على الملك حتى الجأهُ الحال ان يهرب الى مملكة الرومانيين ويستجير بماوريسيوس ملك الشرق ويستغيث بهِ . غير انهُ التجأ في الابتداء الى القديس سرجيوس وقد وثق اتكالهُ على ذلك القديس مع كونهِ وثنيًّا ونذر انهُ يقدم لكنيسة سرجيوبولي صليب ذهب مزيّنًا بحجارةٍ كريمةٍ إن أجارهُ هذا القديس ونصرهُ على عدوهِ زادَسبراموس وأقرّهُ على العرش كما كان فما طالت الايام حتى جيء اليهِ برأس ذلك العاصي وحينئذٍ عاد الى عرشهِ بتمام الاطمئنان وعلى الفور وفى نذرهُ بان

ارسل الى البطريرك الانطاكي صليب ذهبٍ متوَّجًا بجواهر ثمينة ومحفورًا عليهِ كلام مشعرٌ بالنذر الشرطي وبالنعمة التي نالها بواسطة استغاثتهِ بالقديس سرجيوس راجيًا من ذلك البطريرك ان يقدم نذرهُ لكنيسة القديس سرجيوس واظهارًا لمعرفة الجميل لم يكتفِ الملك بوفاء النذر المشار اليهِ بل بعث ايضًا لهاتيك الكنيسة الصليب الذي اهداهُ اياهُ يوستينيانوس الملك وقرينتهُ تاودورا لان كسرى سالف سلطان العجم المذكور كان حاصر مدينة سرجيوبولي في نحو السنة الثالثة والاربعين من القرن السادس وما رفع الحصر عنها الاَّ عقيب ان قُدِّم لهُ صليب الذهب المومأ اليهِ فأَخذهُ وحفظهُ في الخزانة الملوكية مع بقية ما غنمهُ من الاشياء الثمينة من المدينة المذكورة وقد اختبر كسرى ايضًا اعانة القديس لهُ سنة خمس وتسعين وخمسمائة للمسيح اذ التجأَ اليهِ طالبًا ان الله يرزقهُ ولدًا من سيرا وهي مسيحية تزوَّجها وصارت من أعزّ نسائهِ اليهِ ونذر ايضًا للكنيسة نذرًا كبيرًا معلَّقًا بشرط الفوز بالمرغوب فلما كان اليوم العاشر لنذرهِ ترآءى لهُ القديس سرجيوس في الحلم قائلاً هوذا امرأَتك سيرا حبلى وستلد لك ابنًا ولما تمَّت النبوة سارع الملك الى وفاء نذرهِ بان ارسل على يد البطريرك الى الكنيسة المذكورة كثيرًا من الاشياء الثمينة ومن جملتها صينية ذهبية عظيمة محفورٌ عليها كلامٌ يدل على النعمة التي طلبها على يد القديس ونالها بدون ابطاء قبولاً لنذرهِ الذي وفاهُ وفضلاً عن ذلك كان مكتوبًا بامرهِ على الصينية انني لقد كنت اشتهي ان جميع الناس يعرفون كم هي عظيمة شفاعة القديس سرجيوس وان الكل يثقون بطمأْنينةٍ باغاثتهِ .ثم قال المؤرخ المنوَّه بهِ قد اصاب هذا الملك ما اصاب بلعام الذي قال فيهِ الكتاب المقدس انهُ كان بفمهِ يعظّم اله اسرائيل ويمجدهُ ويتنبأُ ولكنهُ بقي مع ذلك على ضلالهِ وغيهِ وهكذا كسرى الملك فانهُ وان كان قد نال كثيرًا من النعم الجسام لم يزل على مذهبهِ الكاذب وضلالهِ المبين

اليوم الثامن

وفيهِ ترجمة القديسة بريجيتا

اعلم ان هذه القديسة اعجوبة عصرها وكانت ولادتها بسويديا نحو السنة الثانية بعد الثلث مائة والالف للمسيح وكان ابوها رجلاً نقيًا من اصلٍ ملوكيٍّ يقال لهُ بِرْجيوس وكانت عادتهُ ان يعترف مرةً واحدة في كل اسبوع وكذا كانت قرينتهُ سيغريدا في التقوى والبرّ فكيف لا وقد بنت لله كنائس كثيرة لما حبلت بالقديسة بريجيتا . هذا وفيما كانت مسافرةً بحرًا وهي حبلى بها انكسرت السفينة وغرق كثيرون اما سيغريدا فنجَّاها الله تعالى باعجوبةٍ وفي ليلة ذلك اليوم ظهر لها رجلٌ محترم باثواب بهيَّة وقال لها اعلمي ان الله جلَّت مراحمهُ أَنقذكِ من خطر البحر والغرق لاجل الابنة التي في مستودَعكِ فاهتمي بتربيتها فانها ستكون قديسة عظيمة جدًّا وبقيت هذه الابنة ثلث سنين من بعد ميلادها لم تنطق بكلمة فظن الناس انها خرساء ولكنها عند انقضاء المدة المذكورة شرعت بغتةً تنطق وتحسن النطق كمن بلغ عشرين سنةً

الاَّ انهُ بعد قليل انتقلت والدتها الى رحمة الله وفُوِّض امر تربيتها الى عمتها اذ كانت امرأَة فاضلة فصرفت جلَّ اعتنائها الى تهذيبها الاَّ انها عرفت اخيرًا ان الله تعالى كان يرشد هذه الابنة ارشادًا باطنًا خصوصيًا لانها لم تكن قد بلغت من العمر الاَّ سبع سنين ومع ذلك فقد كانت تعرف اسمى اسرار الكمال وتمارس اعظم رياضات التقشف وحينئذٍ ترآءت لها المغبوطة مريم البتول بنورٍ عظيمٍ وفي يدها اكليل ثمين فقالت لبريجيتا أَتريدين ان تُكلَّلي بهذا الاكليل فقالت اي نعم يا امي الجليلة والعزيزة ثم جثت على قدمَي ملكة السماء فكللتها بذلك الاكليل وعقيب ثلثة اعوام لذلك ترآءى لها السيد المسيح بالهيئة التي كان حاصلاً عليها بعد صلبهِ والدم يسيل من جراحاتهِ الخمس فصرخت الصبية متأَسفةً قائلةً مَن هم الذين جرحوا هكذا عزَّتك الالهية .فقال لها يسوع هم الذين يتعدَّون ناموسي ويكافئون إفراط محبتي لهم بافراط الافتراء والاهانة فتأَثرت القديسة بريجيتا من هذه الرؤيا الى الغاية حتى لم يبقَ في امكانها ان تتأَمل آلام سيدنا يسوع المسيح ما لم تجرِ أنهار الدموع من مقلتيها

ومن ثمَّ كان ذلك التأَمل يستغرق عقلها حتى وعند ممارسة اعمالها الاعتيادية ولما رأَت منها عمَّتها ما رأَت من هذا القبيل خافت انها تقضي في التأَمل زمانًا طويلاً . فعينت لها كل يوم مقدارًا من العمل وفيما كانت ترصدها ذات يوم لترى كيف يكون عملها وجدتها ممسكة بيدها الابرة وعيناها مرتفعتان الى السماء تذرفان الدموع ورأَت ايضًا بازائها فتاةً جميلة المنظر جدًّا تُوشّي ذلك القماش عنها فلما عاينت عمَّتها

هذا حفظت تلك القطعة الموشاة كانها منقّشة بايدي الملئكة . فبهذه الطريقة اي بواسطة الصلاة العقلية وافعال السيرة القشفة كانت بريجيتا ترتقي يومًا فيومًا في سلم الفضائل فلما نصحتها عمتها ووبّختها على كثرة تقشفاتها قالت لها تلك الفتاة لاتخشي عليّ ياعمتي المكرّمة لان سيدي يسوع المسيح الذي شاهدتهُ انا مصلوبًا هو الذي يعيّن لي ما يريدهُ مني

فلما بلغت السنة الثالثة عشرة من عمرها زوّجها ابوها باميرمن بلاد فيريسيا يقال لهُ اولفون . وقد بارك الله تعالى على زواجها لانهُ بعد ان عاشا نحو سنتين باتفاق كاخ واخت رزقها الرب ثمانية اولاد وكان الامير قد سلك مع امرأتهِ طريق الفضيلة فربي اولادها على تقوى الله وشبّوا مزينين بالفضائل والمناقب المحمودة ومنهم القديسة كاترينا التي ذكرنا ترجمتها في اليوم الرابع والعشرين من شهر اذار وبعد ذلك ارتضى زوجها ان يعيش معها في العفة وشرع حينئذٍ بمشورة امرأتهِ يعترف ويتناول القربان المقدس مرةً كل اسبوع وبرضائهِ جعلت بيتها منزلاً للمساكين وكانت تعولهم بل تخدمهم وتغسل ارجلهم وفي هذا الزمان عند رجوعهما من زيارة قبر القديس يعقوب الرسول باسبانيا مرض الامير مرضًا شديدًا فصلّت القديسة بريجيتا لاجلهِ فظهر لها القديس ديونيسيوس وبشرها انهُ سينال الشفاء وكان كذلك فحينئذٍ عزم على الاعتزال وترهب في رهبانية سيتو ومات هناك ميتةً صالحة في السنة الرابعة والاربعين بعد الثلث مائة والالف للمسيح

ولما حصلت القديسة على الحرية المرغوبة قسمت اموالها واملاكها على اولادها ثم نزعت عنها ثياب الفخر العالمي وتزيّت بزيّ اهل العبادة فضحك منها كثيرون لاسيما الذين في بلاط الملك اما هي فلم تبالِ بذلك أصلاً وقد ابان لها الله مزيد سرورهِ بكرها الحياء الدنيوي لانهُ عز ذكرهُ تراءى لها بين نورٍ عظيم وقال لها انني اتخذتكِ عروسًا لعزّتي وساكشف لكِ اسرارًا وغوامض شتى من أجل خلاص كثيرين ثم قال فاصغي اذًا لكلامي باتضاعٍ واذكري لمعرّفكِ كل ما سأبينهُ لكِ فيما بعد . فمنذ ذلك اليوم لم يزل السيد المسيح يكشف لها اسرارًا عظيمة تتعلق بآلامهِ المقدسة وما كان يحدث في بعض الممالك وامرها عروسها الالهي بان تكتب كل ما كلفها بهِ من الأسرار ووهبها نورًا سماويًا لارشادها وارشاد غيرها في سبيل البر والتقوى ومع انها كانت متحققة انها مرشَدة من الروح القدس كانت تطيع معرّفها وتخضع لارشادهِ ولم تكن تفعل شيئًا الّا بامرهِ وفي مدة الثلاثين سنة التي عاشتها بعد وفاة زوجها سلكت في طريق الكمال بنشاط عظيم فقرنت رياضات السيرة الروحية مع افعال المحبة واشد التقشفات لانها في كل هذه المدة المديدة لم تزل لابسة مسحًا خشنًا ولم ترقد على فراشٍ وكانت تربي في جسدها جرحًا وتجددهُ في كل يوم جمعة بسكب شمعٍ مذاب محرق عليهِ نقطةً فنقطةً . فهذا ما كانت تفعلهُ فيها محبتها نحو يسوع المصلوب وتأملها المتصل في آلامهِ المقدسة.ثم انها كانت تصوم اربعة ايام في كل اسبوع وتسهر اكثر الليل مصليةً وكانت تعترف كل يوم وتتناول القربان المقدس مراتٍ في كل اسبوع ومن ثمّ كانت تقضي اكثر النهار ساجدةً امام القربان المقدس

وقد ابتنت دير راهبات وأدخلت فيهِ ستين فتاةً ووضعت لهنّ رسومًا وقوانين مبنيّة على القداسة واختارت هي فيهِ ايضًا ولكن بعد سنتين تراءى لها السيد المسيح وأمرها ان تذهب الى رومية لكي تكرم ذخائر القديسين فسافرت مع ابنتها القديسة كاترينا وبعد ان أقامت برومية زمانًا أمرها ايضًا عروسها الالهي بزيارة الاماكن المقدسة بفلسطين فقابلت الامر بالطاعة وزارت تلك الاماكن المقدسة هي وابنتها بعبادة وهناك شرّفها الله تعالى برؤيا ونبوات كثيرة ثم رجعت الى رومية حيث انباها المسيح بيوم وفاتها وبعد ان حضرت القداس وتناولت زاد المؤمن المنطلق من هذه الدنيا رقدت بالرب في اليوم الثالث والعشرين من شهر تموز سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة والف وكل عمرها احدى وسبعون سنةً. ومن العجائب التي فعلها الله على يدها في زمن حياتها وبعد موتها قد ذكر القديس انطونينوس اقامة عشرة اشخاص من الموت ومعجزات أُخرى كثيرة

ذلك واما كتاب رؤاها الذي كتبتهُ بامر السيد المسيح باللغة السويدية وترجمهُ اثنان من مرشديها الى اللغة اللاتينية فبامر الاحبار الرومانيين جرى الفحص المدقّق عما يتضمنهُ من التعليم والرؤى فوُجد مطابقًا كل المطابقة للايمان القويم ومفيدًا لنمو النفوس في الفضائل المسيحية

وفيهِ ايضًا ترجمة القديسة بيلاجيا

ان الله تعالى قد اظهر رحمتهُ الغير المتناهية نحو الخطأة بما انعم بهِ على واحدة من اكبر الخاطئات اسمها بيلاجيا وكان ذلك نحو سنة ثلث وخمسين واربعمائة للمسيح في عصر مركيانوس الملك التقي وكان حينئذٍ مكسيموس بطريركًا على انطاكية فهذا البطريرك عقد مجمعًا اقليميًّا وكان احد اساقفة هذا المجمع القديس نونوس الذي كان ارتسم اولاً اسقفًا على اورفا عوض ابياس المعتزل عن هذا الكرسي ولما ارجع اباء المجمع الرابع المسكوني ابياس الى كرسيهِ اخذ القديس نونوس يبشر بالانجيل المقدس في بلاد سورية ولاسيما بمدينة هليوبوليس (بعلبك) وآمن على يدهِ خلق كثير بما انهُ قد كان يجذب القلوب باتضاعهِ ودعتهِ وسذاجتهِ المقدسة وسيرتهِ القشفة

فاتفق ان البطريرك مكسيموس جلس ذات يومٍ مع القديس نونوس وسبعة آخرين تجاه باب كنيسة القديس بوليانوس فطلب البطريرك من القديس نونوس ان يعظ امامهم فشرع يكرز وفيما كان المحفل يسمع كلامهُ ويتعجَّب من روح الله المتكلم بفمهِ اجتازت من هناك بيلاجيا الزانية المشهورة وتلقَّبت بمرغريتا اعني درةً من اجل جمالها البارع ومن اجل انها كانت تتزيَّن بكل نوعٍ من الجواهر الكريمة والملابس الفاخرة الموشَّاة. وقُصارى الكلام انها اذ مرَّت بهذه الزينة الخلاعية راكبةً بغلاً حسنًا قويًّا مزيَّنًا بسرج ثمين وحولها جماعة من الجواري والخدَّام حوَّل الاساقفة عنها ابصارهم مشمئزين من هذه الحال اما القديس نونوس فلم يصرف عنها نظرهُ بل استمرَّت بعينهِ حتى غابت عن النظر ثم اخذ يذرف الدموع وبعد ذلك شرع يخاطب المحفل قائلاً لأخاف جدًّا من ان هذه المرأة التي بذلت وُسعها في انها تحبب الناس اليها تخزينا في يوم الدينونة لاننا فاترون في تحصيل ان نكون مرضيين لدى الله جل شأنهُ . قال هذا ثم ذهب وانفرد مع شماس كان خادمًا لهُ وهو الذي أَلَّف ترجمة القديسة بيلاجيا فلما دخل منزلهُ جثا على الارض باكيًا متنهدًا ضاربًا صدرهُ وقائلاً ارحمني يارب ارحمني انا الخاطئ ها هوذا هذه المرأة الشقية تقضي جانبًا من الوقت كل يوم لتزيّن جسدها وتستعمل اثمن وافخم وابهى ما في الدنيا لكي تجتذب الناس الى عشقها فما حيلتي وماذا اصنع بحسب كوني كاهنًا ومطرانًا وماذا عسى ان يكون اجتهادي في تزيين نفسي بالفضائل لكي اظفر بحبك . قال هذا وقطع النهار كلهُ مصليًا متأسفًا

وليلة ذلك اليوم رأى حلمًا وقصَّهُ على شماسهِ قال رأيت نفسي قائمة قبالة المذبح المقدس فاذا بحمامةٍ سوداء مدنَّسة ذات رائحة منتنة غير مطاقة رفرفت حولي وبذلتُ كل جهدي لكي ابعدها عني فلم اقدر بل استمرَّت الى ان امر الشماس الموعوظين بالخروج من الكنيسة فخرجت حينئذٍ تلك الحمامة معهم. ثم بعد تقديس الاسرار وأداء الشكر لله تعالى نهضتُ لاخرج من الكنيسة فوجدتُ على عتبة الباب الحمامة التي سبقت الاشارة اليها فامسكتها وغطَّستها في اناء مملوء ماءً فابيضَّت من ساعتها ولم يبقَ فيها درنٌ ما وطارت الى السماء وغابت عن عينيَّ فلينعم الله علينا ان نفهم معنى هذه الرؤيا

وكان الغد يوم احد فاجتمعت الاساقفة قاطبةً لتقديس الاسرار وبعد قراءة الانجيل المقدس طلب البطريرك من القديس نونوس ان يعظ الشعب الغفير الملتئم لشرف العيد وحضور اساقفة الابرشية فتكلم القديس في عظتهِ على شرّ الخطيئة الغير المتناهي وكنوز المراحم الالهية الغير المحدودة وأوسع المقال في ذلك الصدد وزخرفهُ بفصاحةٍ تفوق طور الانسانية فتخشَّعت قلوب السامعين وتليَّنت وكان من السامعين بيلاجيا بحيث كان اسمها مسطَّرًا بدفتر الموعوظين اي بين الذين كانوا يطلبون المعمودية ويتعلمون قواعد الايمان الاَّ ان الشهوات اللحمية كانت قد خنقت فيها الزرع الجيّد . وكانت في ذلك اليوم قد دخلت الكنيسة بنيَّة الفرجة واللهو ومع ذلك فكل كلمة خرجت من فم الواعظ كانت كسهم ينفذ قلبها وكنور يضيء نفسها وشرعت وقتئذٍ تسجم الدموع من فرط ندامتها ثم انها خرجت من الكنيسة وكتبت الالوكة الآتية و بعثت بها الى القديس نونوس وهذه صورتها

رسالة الخاطئة أمة الشيطان الى القديس تلميذ السيد المسيح اني قد سمعت عن الهك انهُ نزل من السماء الى الارض لفداء الناس وتنازل الى ان يعاشر الخطأة والعشَّارين مع ان الارواح السماويّة لا تجترئ ان تحدقهُ بابصارها وخاض في المذاكرة مع امرأة سامرية خاطئة فان كنت انت تلميذًا للحنَّان الغفور فلا ترفضني انا الخاطئة المشهورة ودعني اخاطبك لعلّي استطيع بوساطتك ان انال الرحمة من سيدنا يسوع

المخلص

فلما قرأ القديس نونوس هذه الرسالة التبس عليهِ الامر وخاف من ان الشيطان يلقي لهُ حبائل الخطيئة بواسطة هذه المرأة فكتب اليها ما نصهُ . اعلمي يا بيلاجيا ان سيدي ومعلمي الالهي يعلم ما في القلوب ولا يغيب عن علمهِ شيء من نوايا المرء ولو كانت غاية الخفاء فاياكِ اذًا ان تقصدي في مخاطبتي ان تنصبي لي شَرَك الإثم . فان كانت نيّتكِ صالحة فهلمي ولكن اعلمي يقينًا اني لا اخاطبكِ وحدي البتة ولا اقبلكِ في منزلي الاَّ بحضرة بعض الاساقفة

فلما قرأت بيلاجيا هذه الرسالة سارعت الى كنيسة القديس يوليانوس حيث كان القديس نونوس والاساقفة وجثت على رجليهِ وبلّتهما بدموعها وطلبت منهُ المعمودية برغبةٍ احرّ من النار . فقال لها القديس ان قوانين الكنيسة تنهى عن السرعة في تعميد امثالكِ من الخاطئات المشهورات قبل ان يختبروا حقيقة ندامتهنّ . اما بيلاجيا فلم تترك رجلي القديس ولم تزل ملتمسةً منهُ سرّ المعمودية بمعظم الالحاح قائلةً ايها الاب المحترم ان دموعي هذه السخينة تشهد بالكفاية لحقيقة توبتي فاحذر من ان الله تعالى الذي هداني اليك ليغسلني من خطاياي بواسطة خدمة وظيفتك يواخذك هو عزّ اسمهُ على تأخيرك اياي عن هذا التطهير . حينئذٍ شفع فيها الاساقفة فرضي القديس نونوس بتعميدها

فارسل اولاً الى البطريرك واخبرهُ بما كان وطلب منهُ ان يختار من رعيّتهِ امرأة فاضلة تكون اشبينةً لبيلاجيا في المعمودية وتعلمها فيما بعد التعليم المسيحي ففرح البطريرك فرحًا عظيمًا واختار امرأةً يقال لها رومانة لارشاد هذه النعجة الضالة الراجعة الى القطيع . فلما سمعت ذلك رومانة التقية نهضت وذهبت مسرعةً ومبتهجةً الى الكنيسة وهنَّأت بيلاجيا على توبتها فبعد ان علّمها القديس نونوس اخصّ قواعد الايمان عمّدها وثبّتها وناولها القربان المقدس . ثم قال المؤلف وخرج القديس نونوس من الكنيسة بابتهاج وقال لي ان هذا اليوم هو يوم سعيد وعيد شريف وابهى كل ايام حياتي فيجب ان نميّزهُ عن سائر الايام فلندع اليوم شدة صومنا المعتاد واطبخ لنا الحشائش بقليل من الزيت ولنتناولنّ شيئًا من الخمر ثم جلسا على المائدة لياكلا . وفجأةً صرخ صارخٌ بصوتٍ مخيف قال شدّ ما اتعبتني وحزّنتني ايها الشيخ ألم يكفِك انك اختلست من يدي ثلثين الفًا من السراكسة وعمّدت كل اهل هليوبوليس فلماذا اختطفت مني بيلاجيا التي هي اعز على قلبي من جميع رعيتي . فليدركك الموت سريعًا ايها الشيخ الملعون . فلم يضطرب القديس من ذلك بل أخزاهُ بعلامة الصليب المقدس وطردهُ

اما بيلاجيا فلما رجعت الى بيتها بعد ان اصطبغت بماء المعمودية اعتقت كل جواريها وخلّت سبيل خدّامها وانفقت كل مالها على الفقراء وتجرّبت يومين من شيطان الزناء تجربةً شديدة جدًّا ولكنها انتصرت عليهِ لعنهُ الله بقوة الصليب المقدس والاستغاثة بيسوع ومريم على ما كان علّمها مرشدها . وفي اليوم الثامن من معموديتها لبست المسح وثوبًا آخر فوقهُ اخذتهُ من الاسقف القديس وخرجت سرًّا من انطاكية وذهبت الى اورشليم واختلت في مغارة كانت على جبل الزيتون وسكنت هناك بهيئة سائح حديث وسمّت نفسها بيلاجيوس ولم تزل ممارسةً الصلاة واصعب التقشفات

اما القديس نونوس فعرف بالهام الله اين تلميذهُ ولكن لم يخبر احدًا بذلك ثم استأذنهُ شماسهُ يعقوب كاتب ترجمتها هذه في زيارة الاماكن المقدسة فأذن لهُ ولما اطلقهُ اوصاهُ بان يستخبر عن سائحٍ يُقال لهُ بيلاجيوس ناسكٍ على جبل الزيتون من نحو ثلث سنين او اربع . فانطلق يعقوب ولما وصل الى اورشليم سأل عن بيلاجيوس السائح فقالوا لهُ انهُ هو ملكٌ متجسّد واعجوبة البلد بسيرتهِ النشفة لان لهُ نحو اربع سنين في مغارة كالقبر لا يقتات الاَّ بعشب البريّة ولا يخاطب احدًا وانما اقتصر على مناجاة الله وملئكتهِ . فقام يعقوب وذهب مسرعًا الى حيث كان بيلاجيوس ووجدهُ في تلك المغارة ولم يعرف انهُ بيلاجيا التي حضر توبتها ومعموديتها لان نضارة لونها تحوّلت شحوبًا واصفرارًا لشدة تقشفاتها . فقال يعقوب لبيلاجيوس انني قد اتيت من قِبل القديس الاسقف نونوس وانهُ اوصاني بان استخبر عنك فلم يجبهُ بيلاجيوس الاَّ بهاتين الكلمتين ان الاسقف نونوس هو قديسٌ حقًّا فاطلب منهُ من قِبلي ان يصلي من اجلي . قالت هذا ثم اغلقت كوّة المغارة الذي كان يعقوب يكلمها منهُ وأخذت تصلّي الصلاة الثالثة

فرجع الشماس الى أُورشليم وزار الاماكن المقدسة وفي كل مكان كان يسمع الناس يتحدّثون ببرارة بيلاجيوس فلما

فرغ من الزيارة المقدسة عزم على افتقاد السائح قبل رجوعهِ الى بلدهِ فجاء وقرع كوّة مغارتهِ فلم يفتح لهُ فعاد ثانيةً وثالثةً فلم يردّ عليهِ السائح حينئذٍ تقدم يعقوب ووصوص اليهِ من خرق في النافذة فرأى بيلاجيوس ملقى على الارض ميتًا فجمع وقتئذٍ سيّاح تلك الناحية وشرعوا يعدّون ما يلزم لدفنهِ فلما ارادوا ان يكفّنونهُ ورأوا انهُ امرأة صرخوا منذهلين قائلين تبارك الاله الذي خزن في الاناء الضعيف كنوز القداسة العظمى فشاع هذا الخبر في كل اورشليم ونواحيها فالتأم الجميع ولا سيما الراهبات والرهبان وجنّزوها بتمام الاكرام. هذا وكان انتقالها الى رحمة الله نحو سنة اربع مائة وسبع وخمسين ونقلوا جسدها فيما بعد الى فرنسا

اليوم التاسع

وفيهِ ترجمة القديس ديونيسيوس ورفقائهِ الشهداء القديسين

كان مولد هذا القديس بعد مولد السيد المسيح بثمان سنين او تسع بمدينة اثينا وهو من اغنياء تلك المدينة وشرفائها وكانت حينئذٍ مدينة اثينا أُم العلوم ولا سيما علم الفلسفة وقد تمهّر القديس ديونيسيوس في هذا العلم وسافر الى مصر ليتمهر هناك ايضًا في علم الحساب والفلك. وفيما كان بمدينة هليوبوليس متعمقًا في علم الفلك صُلب سيدنا يسوع وكُسفت الشمس فتأمّل في امر هذا الانكساف الذي كان وقت طلوع القمر بدرًا فاستنتج من ذلك ان هذا الانكساف كان فائقًا الطبيعة فصرخ قائلاً اما ان اله الطبيعة يتألم واما ان العالم اوشك ان يُهدَم (١)

ولما رجع الى مدينة اثينا تزوّج بامرأةٍ يقال لها داماريس كما ذكر عنهُ القديس امبروسيوس الذهبي الفم (٢) وبعد ذلك أُحصي بين قضاة المحكمة العظمى المسماة اريوس باغُس وحينئذٍ ذهب القديس بولس الرسول الى اثينا وشرع كعادتهِ يبشّر اليهود اولاً بالانجيل المقدس ثم اخذ يعظ في الشوارع على الشعب مبيّنًا ان الاعتقاد بغير اله واحد نفاق محض ومثبتًا توحيد الله وسرّ تجسّد المسيح وقيامة الموتى تجرّهُ الشعب الى الحكمة وأورد الرسول حقيقة الاسرار المتقدم ذكرها بفصاحة الهية لكن كما ذُكر في اعمال الرسل (فصل ١٧) باحثهُ قومٌ من الفلاسفة الابيكوريّين والرِواقيّين وقال بعضٌ تُرى ما يريد هذا المكثار أن يقول وقال آخرون كانهُ ينادي بجانّةٍ غريبةٍ لانهُ كان مُناديًا لهم بيسوع والقيامة. فاخذوهُ وجاءوا بهِ الى محفل أَريوس باغُس قائلين هل يُمكننا ان نعرف ما هذا التعليم الذي تتكلم بهِ لانك بلّغتَ مسامعنا امورًا غريبةً فنودُّ ان نعلم ما عسى ان تكون هذه. فاما الاثينيون كلهم والغرباء والمستوطنون فلم يكونوا يتفرّغون الاّ لان يقولوا او يسمعوا شيئًا جديدًا. فوقف بولس في محفل أَريُوس باغُس وقال يارجال اثينا اني أَرى أنكم في كل شيء تغلون في العبادة لاني في مروري ومعاينتي لمناسككم صادفتُ مذبحًا مكتوبًا عليهِ للاله المجهول فهذا الذي تعبدونهُ وانتم تجهلونهُ بهِ انا أُبشّركم ان هذا الاله الذي صنع العالم وجميع ما فيهِ لكونهِ ربَّ السماء والارض لا يحلّ في هياكل مصنوعة بالأيدي ولا تخدمهُ ايدي البشر كانهُ محتاج الى شيءٍ اذ هو يُعطي للجميع حياةً ونفسًا وكل شيءٍ. وقد صنع من واحدٍ جميع أُمم الناس ليسكنوا على وجه الارض كلها وحدّ الأزمنة المعيّنة وتخوم مساكنهم ليطلبوا الرب لعلهم يلمسونهُ فيجدونهُ مع انهُ غير بعيدٍ من كل واحدٍ منا. فانّا بهِ نحيا ونتحرّك ونوجد كما قال بعض شعرائكم ايضًا إنّا نحن ذرّيتهُ. فاذ كنا نحن ذرّية الله فلا ينبغي ان نحسب اللاهوت شبيهًا بالذهب او الفضة او الحجر او سائر ما يُنقش بصناعة الانسان واختراعهِ. وقد اغضى الله عن ازمنة هذا الجهل فيُبشّر الآن جميع الناس في كل مكان ان يتوبوا لانهُ قد عيّن يومًا فيهِ يدين العالم بالعدل بالرجل الذي فرزهُ مقدّمًا للجميع ايمانًا اذ اقامهُ من بين الاموات. فلما سمعوا بقيامة الاموات استهزأ بعضٌ منهم وقال غيرهم سنسمع منك عن هذا مرّةً أُخرى. وهكذا خرج بولس من بينهم ولزمهُ اناسٌ وآمنوا منهم ديونيسيوس الاريوباغيّ وامرأة اسمها داماريس وآخرون معهما. وكان اهتداؤهم الى الايمان الحقيقي نحو السنة الخمسين للمسيح

وقد اخذ ديونيسيوس الانذهال وثبت في الايمان لما عرف من الرسول ان انكساف الشمس العجيب الذي كان رآهُ في

(١) حاشية. راجع ما ذُكر في هذا المعنى في رسالة القديس السابعة

(٢) حاشية. ارتأى ايضًا القديسان امبروسيوس ومكسيموس ان داماريس التي اهتدت على يد القديس بولس في اثينا كانت زوجة القديس ديونيسيوس الاّ ان الراي الغالب بين الاباء والمفسرين ان القديس كان عزبيًا

هليو بوليس حدث حين كان ابن الله مصلوبًا وقريبًا من الموت فمنذ ذلك اليوم تتلمذ للقديس بولس وبعد ثلث سنين رسمهُ الرسول اسقفًا على مدينة اثينا فبثَّ فيها الايمان بتعليمهِ وارشادهِ

وما يدل على غيرة القديس ديونيسيوس الرسولية حقًا ما كتبهُ في رسالتهِ الى ديموفيلوس الذي اقامهُ هو نفسهُ بوَّابًا للكنيسة وألبسهُ بيدهِ ثوب الرهبانية واما سبب هذه الرسالة فسيأتي ذكرهُ: لما رأى ديموفيلوس هذا في الكنيسة واحدًا من كبار الأئمة جاثيًا على قدمَي كاهنٍ وطالبًا باتضاع ان يعرّفهُ ويفرض عليهِ قانونًا ويحلهُ من خطاياهُ والكاهن مزمعًا ان يعرّفهُ كما كان يجب عليهِ أخذت ديموفيلوس عند ذلك غيرةٌ مقرونةٌ بجسارةٍ وعدم مبالاةٍ فسخط على ذلك التائب وضربهُ برجلهِ وطردهُ من الكنيسة لانهُ قد اسخط الاله العليّ وشتم الكاهن الذي رضي ان يسمع اعتراف ذلك الخاطئ وأمرهُ ان يخرج من الكنيسة ظانًّا انهُ يعمل عملاً صالحًا ويقدّم لله تعالى خدمةً ممتازةً فكتب ديموفيلوس الى القديس ديونيسيوس رسالةً ذكر لهُ فيها هذه القصة فاجابهُ القديس ولامهُ على غيرتهِ الزائغة عن الصواب ووقاحتهِ العظيمة وأورد لهُ خبرًا سمعهُ من القديس كربوس الاسقف يوم كان بجزيرة كنديا وذلك الخبر عن مؤلف جليل حريٌّ بان يُنقل عنهُ لإفادة الخطأة واطبّائهم الروحيين

قال القديس ديونيسيوس انهُ لما كان بكنديا نزل بمنزلهِ القديس كربوس رجلٌ كاملٌ ما قدّس قط الأوانأهُ في القداس زائر خصوصي من الله جزاء لطهارة نفسهِ ونقاوة قلبهِ واخبرهُ انهُ مرةً كان مغمومًا جدًا من كافر كان اجتذب لكفرهِ كاثوليكيًا مغترًا بسبب عيدٍ عملهُ لآلهتهِ فهذا الغم أغاظ القديس كربوس غيظًا شديدًا من اولئك الخطأة الذين اسخطوا المولى عزَّ وجلَّ واذ ظنَّ انهم لا يستحقون ان يعيشوا بعد توسّل الى الله تعالى ان يقضّ الصواعق على رؤوسهم هذا وفيما كان القديس غضبان أحسَّ ذات ليلة بزلزلة عظيمة حرّكت البيت الذي كان نائمًا فيهِ واذ انشق سقف البيت لح حينئذٍ نورًا سماويًا ساطعًا ورفع عينيهِ الى السماء فرآها مفتوحةً ورأى المخلص بهيئة بشريّة محاطًا بملئكة لا يُحصى عددهم واذ نظر الى الارض رأى تحتهُ هوة هائلة ورأى الرجلين اللذين اغتاظ عليهما لما اقترفاهُ من الاهانة بالله عزَّ شأنهُ على حافة الهاوية مرتجفين واوشكا ان يسقطا فيها

وخرج من تلك الهاوية افاعي كانت باسنانها واذنابها والسنتها تفرغ الجهد ان تسقطهما الى الهوة وكان اناس يساعدون تلك الحيات في ذلك ويضربونهما حتى يقع هذان المسكينان

وكان القديس كربوس في ابتداء هذه الرؤيا مسرورًا لانهُ رآهما مقاصّين بحسب ما يستحقهُ ذنبهما ولاح لهُ انهما لم يقعا في تلك الهوة قبل الوقت الواجب لانهُ كان غيورًا على مجد الله وعقوبة الاشرار. فلما كان ملتهبًا بنار هذه الرغبة رفع طرفهُ الى السماء فرأى يسوع المسيح متحننًا على هذين الخاطئين فقام عن كرسيهِ ونزل الى حيث كانا ومدَّ اليهما يدهُ بلطفٍ والملئكة اعانوهما ونجّوهما من ذلك الخطر المبين فقال السيد لهُ المجد للقديس كربوس اضربني فاني مستعدٌّ ان اتألم مرةً أخرى لأخلّص البشر وساعمل ذلك بتمام رضاي حتى لا يخطأوا بعدُ وأنت الذي ابديت جانبًا عظيمًا من الغيرة فانظر ما يوافقك اذا فضّلت التمتّع بمصاحبة الله على السقوط بهذه الحفرة العميقة المملوءة حيات وافاعي . ذلك وختم القديس ديونيسيوس رسالتهُ بما نصهُ قد سمعت هذا من كربوس وعندي انهُ صحيح

وذكر بعض الرواة انهُ اشتهى جدًا ان يُبصر البتول الجليلة العجيبة التي ولدت ابن الله فسافر القديس ولما وقف بازائها ونظر اليها متأملاً استولى عليهِ العجب واخذتهُ الهيبة الى الغاية بحيث لو لم يعرف انها كباقي الناس لجثا وسجد لها سجودًا مختصًا لله. لكننا لم نرَ هذه الرواية في تأليف القديس الاَّ انهُ في التأليف عن الاسماء الالهية في الفصل ٣ يُذكر انهُ حضر مع الرسل الكرام في القدس عند وفاة العذراء المجيدة ويُحتمل ان ذلك كان نحو السنة السادسة والخمسين للمسيح

ولما رأى الايمان غُرس في اثينا ونما وكثر المسيحيون ذهب الى افسس ليشاهد القديس يوحنا الانجيلي فاشار عليهِ الرسول ان يمضي الى رومية ويقدم نفسهُ للقديس اكليمنضوس لخدمة الانجيل فرجع القديس ديونيسيوس الى اثينا واقام اسقفًا على الرعية القديس بوبليوس تلميذ القديس بولس وانطلق الى رومية في صحبة رُستيكوس الكاهن والوتاريوس الشماس . فلما وصل الى هناك استقبلهُ الحبر الاعظم بسرور وترحاب ثم بعث بهِ الى غاليا ليبشّر بالانجيل المقدس وذهب معهُ القديس ريول تلميذ القديس يوحنا الانجيلي كما

ذكرنا في اليوم الحادي والثلثين من شهر اذار والقديسين لوسيانوس واوجانيوس(١) فلما وصلوا الى مدينة قريبة من مرسيليا يُقال لها ايس وجدوا هناك مسيحيين كثيرين كان قد عمَّدهم القديس تروفيموس الذي كان قد ارسلهُ القديس بطرس الى بلاد غاليا فمكث القديس ديونيسيوس عندهم مدة من الزمن ليعلمهم ورسم عليهم القديس ربول اسقفًا وارسل القديس اوجانيوس الى بلاد اسبانيا وغيره الى جهات غاليا اما هو فصحب رُستيكوس والوتاريوس وذهب معهم الى مدينة باريز

فلما دخل المدينة نادى في وسط الشوارع ببطلان عبادة الاوثان ثم بشَّر بالتثليث والتجسد وكان يثبت تعليمهُ بآيات كثيرة فآمن لذلك كثيرون وطلبوا المعمودية وكان اولهم واشرفهم لِسبيوس فهذا أضاف الرسل الى بيتهِ . وبنى القديس كنيسة على اسم الثالوث الاقدس ثم بنى كنيسة أُخرى على اسم مريم والدة الله. فلما رأى كهنة الوثنيين ان اكثر اهل باريز مالوا عن عبادة الاصنام الى النصرانية وصاروا مسيحيين ذهبوا وشكوا القديس ديونيسيوس الى فيسنِّيوس الذي كان واليًا على المملكة بامر القياصرة فامر الوالي بان يُقبض على القديس واعيان المسيحيين فامسكوهُ هو والذي كان عندهُ اعني لِسبيوس والقديسين رُستيكوس والوتاريوس. وفيما هم ماثلون امام الوالي تقدمت لاربيا امرأة لِسبيوس وشكت زوجها بغضب عظيم قائلةً انهُ سحق كل اوثان بيتها فاخذ الوالي يُوعد لِسبيوس بالموت ان كان لا يرتدّ عن النصرانية ولما وجدهُ ثابتًا عليها حكم عليهِ بالموت فقطع رأسهُ امام امرأتهِ

اما القديس ديونيسيوس ورفيقاهُ فالقاهم في سجنٍ وهناك وضعوا في ارجلهم قيودًا وحجارةً ثقيلة ثم استحضرهم بعد ايامٍ واوعدهم بصنوف من العذاب ان كانوا لا ينكرون ايمانهم فقال لهُ القديس ديونيسيوس اختبر ثباتنا في الايمان المسيحي باشد العقوبات فسترى انهُ لا شيء يضعف ايماننا على ان السيد المسيح هو حياتنا وليس يفصلنا عنهُ وعن محبتهِ عذاب ولا موت. فوقتئذٍ ضربوا الشهداء بحبال معلَّق بها مهاميز حديدية وكان القديس ديونيسيوس يومئذٍ ابن اكثر من مائة سنة وكان يحتمل الضرب بابتهاج وتهلُّلٍ مترنّمًا بتسبيح الله تبارك اسمهُ فحيّر الوالي من هذه الشجاعة العجيبة فارجع الشهداء الى الحبس ثم مزَّقوا جسد القديس بمخالب من حديد لكن لم يخرج من فيهِ كلمة ولا زفرة متنهّدٍ فالقوهُ بعد ذلك في فرنٍ محمى فخرج منهُ سالمًا ثم علَّقوهُ على صليب فجعل يعظ كانهُ فوق المنبر

فدهش الوثنيون والوالي عندما رأوا كل هذه العجائب الاَّ انهُ ارجع القديس الى السجن وهناك اجتمع المؤمنون وتناولوا من يدهِ القربان المقدس عند انتهاء التدآس وفي الغد حُكم عليهِ وعلى رفيقيهِ بقطع الرأس فانفذ السيَّاف ذلك الحكم ثم فتك الوثنيون بالمسيحيين فمنهم نالت اكليل الاستشهاد لاربيا امرأة القديس لِسبيوس الشهيد لانها بعد وفاة زوجها لما رأت الآيات التي فعلها الله على يد القديس ديونيسيوس آمنت بالمسيح . وتنقل الرواة ان هذا القديس بعد ان قُطعت هامتهُ اخذها بين يديهِ وحملها ماشيًا الى المكان الذي فيهِ الآن مدينة مساة باسمهِ وهي على ستة اميال من باريز. وكانت وفاتهُ في اليوم التاسع من شهر تشرين الاول نحو السنة السابعة عشرة بعد المائة للمسيح

اليوم العاشر

وفيهِ ترجمة القديس فرنسيس بورجيا اليسوعي

الجزء الاول
في تصرُّفهِ في العالم

اعلم ان مولد هذا القديس كان ببلاد اسبانيا سنة عشر وخمسمائة والف للمسيح وكان والدهُ يوحنا اميرًا على اقليم غنديا ووالدتهُ حنة كانت ابنة الفونسوس ابن فردينندوس الملك اما فرنسيس فمنذ صباهُ احب الفضيلة وسلك في منهاجها دائمًا ولما ماتت والدتهُ كان ابن عشر سنين فطلبهُ وقتئذٍ خالهُ رئيس اساقفة سارَغسّا لكي يرشدهُ فحضر اليهِ ولحسن اهتمامهِ

(١) حاشية . ظن كثيرٌ من علماء الجيل الثامن عشر ومنهم البلاَّنديستيون ان القديس ديونيسيوس مات شهيدًا باثينا فيفرقون بينهُ وبين القديس ديونيسيوس الذي استشهد بباريز قائلين ان هذا كان في الجيل الثالث غير ان العلماء الحديثين ابانوا ان هذا الراي مبنيٌّ على غلط تاريخي وقع فيهِ القديس غريغوريوس المؤرخ (راجع ما كتبهُ في هذا المعنى داراس في المجلد الخامس في الوجه ٥١٥ الخ وفي المجلد السادس وجه ٣٨٧ الخ من تاريخ الكنيسة والعلاَّمة فايلون فيما كتبهُ على زمان اساقفة فرنسا الاولين في المجلد الثاني والوجه ٢٤٧ من تاليفهِ في رسالة القديسة مريم المجدلية والقديس لعازر في جنوب فرنسا

نما في البر والعلم ثم ارسلهُ والدهُ الى قصر الملك فلما تنبَّه على اخطار العالم الغرَّار غرس حبّ شريعة الله في قلبهِ وكثيرًا ما حدَّثتهُ نفسهُ بهذه الآية الكريمة : اني حلفت وعزمت على حفظ احكام عدلك (مزمور ١١٨ : ١٠٦) وبمشورة مرشدهِ اكثر من تناول القربان المقدس وجعل يقرأُ كل يوم كتبًا روحية ويفرّ من المخاطر التي تضرّ العفة وبهذه الوسائط استطاع ان يبقى بريئًا من كل دنس

ولما بلغ من العمر السنة السابعة عشرة ادخلهُ والدهُ في بلاط كارلوس الخامس ملك النمسا واسبانيا فلما رأى الملك حسن مناقبهِ وكمال صفاتهِ المحمودة لحظهُ بعين الاعتبار والمحبة وكذلك الملكة فانها عندما عرفت حسن اخلاقهِ عزمت على تزويجهِ بابنة شريفة الاصل وعزيزة عندها جدًّا اسمها ايليونورا دي كسترو وبما انها كانت تتشبه بهِ من حيث التقوى والفضيلة بارك الله تعالى على زواجها ورزقهما اولادًا كثيرين اصبحوا من عظماء المملكة فبعد ما تزوَّجها ازداد الملك حبًّا لهُ ولم يزل مشرّفًا اياهُ اكثر من بقية الذين في البلاط . اما هو اعني الامير فكان يربي دائمًا في قلبهِ مخافة الله تعالى برياضات روحية لا سيما بتناول القربان المقدس وقراءة الكتب الروحية وقال فيما بعد ان الله تعالى رقَّاهُ الى التأمل النظري بواسطة قراءة هذه الكتب التي كان يتلوها بتأنٍّ مازجًا فيها بعض اعتبارات ومقاصد خلاصية . هذا واعلم انهُ بحيث كان ملتزمًا بمرافقة الملك في تنزُّه الصيد كان حينئذٍ يمارس افعال اماتة النفس على الصورة الآتية . لما كان الباشق ينقضُّ على الطائر كان يغضّ طرفهُ فرارًا من السرور الطبيعي . ولم يكن يشترك في شيء من اللَّعب التي تكون خسارتها او ربحها دراهم فضلاً عن انهُ كان يمنع اهل بيتهِ من الاشتراك فيها وكان دأبهُ ان يقول ان المرء في اللعب لا بد لهُ ان يخسر احد ثلثة امور الزمان والمال والنفس

واعلم ان الذي جعل هذا الامير يتجرَّد عن حبّ هذه الدنيا الغرور انما هو التغيُّر الذي حدث في جسم الملكة بعد موتها لانهُ لما نقل القديس بامر الملك جسدها الى مدينة غرناطة حيث توجد قبور ملوك اسبانيا وفتح النعش والتزم بحسب العادة ان يحلف ان هذا هو جسد الملكة ورأى ما طرأ من الشناعة والفساد والنتانة على الملكة التي كانت ابهى نساء عصرها وافضلهنَّ شرفًا واقتدارًا لم يجسر ان يحلف ان هذا هو جسد الملكة بل انما حلف انهُ صرف جلّ عنايتهِ واهتمامهِ الى حفظ ما استُودعهُ وانهُ محقق عندهُ انهُ هو جسد الملكة . فلا جرم ان التغيير الذي طرأ في نفس هذا الامير كان اعظم من التغيير الذي حدث في جسد الملكة لانهُ لما قابل حالها هذه بحالها الماضية اضاء لهُ نورٌ من السماء أراهُ بطلان العظائم العالمية وجهل الذين يبتغونها فعزم من صميم فؤادهِ وقتئذٍ عزمًا ثابتًا انهُ لا يجعل سعادتهُ في ما يزول ولا يخدم ملكًا قابل الموت ومن ثمَّ لم يزل نشيطًا في عبادة الله

وبعد ان خرج من الكنيسة حيث دُفنت الملكة عاد راجعًا الى منزلهِ وهناك جثا امام الله مجدِّدًا عزمهُ المقدس بعبراتٍ وزفرات وفيما هو يظهر عواطف قلبهِ واميالهُ امام ايقونة السيد المسيح متندّمًا على الزمان الذي اضاعهُ في طلب اباطيل العالم جعل يصرخ اني لن اخدم ربًّا قابل الموت ابدًا ابدًا . وقضى الليل كلهُ في اظهار هذه العواطف ونذر انهُ اذا ماتت امرأتهُ قبلهُ يعتزل عن الناس ويترهب . ولما رجع الى بلاط الملك طلب اذنًا لينفرد في بيتهِ فلم يرضَ الملك بذلك واقامهُ نائبًا عنهُ في مملكة كاتالونيا فذهب حينئذٍ الى مدينة برسيلونا وشرع يتأمل واجبات منصبهِ فلما رأى انهُ قد تكاثر اللصوص في المملكة وانهم يكمنون في الطرق لأبناء السبيل بعث عليهم جنودهُ وحاربهم وخلَّص البلاد من شرّهم وأذاهم . وبعد ان رتَّب كل شيء وجعل الجميع في حال السلام وحسن النظام صرف اهتمامهُ الى ما يتعلق بتقديس نفسهِ فشرع يمارس رياضات السيرة الروحية ولا سيما الصلاة العقلية فكان يقضي في تلك الصلاة اربع ساعات او خمسًا كل يوم ومن ثمَّ ارتقى الى تأملٍ سامٍ وقرن الصلاة بالصوم وغيرهِ من التقشفات لان ذلك يجعلها اكثر قبولاً لدى الله سبحانهُ فقطع عنهُ اولاً العشاء ثمَّ صام مرَّتين صوم الاربعين ولم يكن يأكل كل يوم الاَّ قليلاً من الحشائش او البقول مع قليل من الخبز مرة واحدة فقط ولم يكن يشرب الاَّ الماء ولما رأى ان هذا الصوم لم يضعف جسمهُ صام هكذا سنةً كاملةً الاَّ ان جسدهُ حصل على هذه الحال وهي انهُ كان يقدر ان يدير جلد بطنهِ حولهُ ويتردَّى بهِ وعلى هذه الصورة كان الامير يزيد على نفسهِ تقشفات أُخر كثيرة مؤلمة

غير ان معظم اجتهادهِ كان في اماتة نفسهِ التي منها تتخذ التقشفات كل ثمنها واستحقاقها وقد ظهر حينئذٍ شدة رسوخهِ

في هذه الفضيلة لانهُ اتفق ذات يومٍ ان اشرف نساء مدينة برْسيلونا اجتمعنَ في منزل امرأتهِ وطلبنَ منهُ تخلصًا من الضوضاء والقَلق ان يمنع دخول الرجال الى منزلهنَّ فمدح الامير فرنسيس قصدهنَّ هذا فوقف هو بنفسهِ على باب المنزل حتى لا يدخل اليهِ احدٌ من الرجال وفي غضون ذلك تقدم احد اشراف المملكة ورام ان يدخل فمنعهُ بحسن اللطافة اما ذلك الشاب الجاهل فاستشاط عليهِ فسلَّ سيفهُ وقال انهُ سيقتل الامير ان كان لا يدعهُ يتمّم امرهُ . ومع ان القديس كان يقدر ان ينتقم منهُ حالاً بسلطان منصبهِ الملوكي تمالك وردع حركات الغضب باطنًا وظاهرًا وقال للشاب انهُ لا يسوّغ لنا المجد الالهي ولا خدمة الملك ولا جاه اسمك واسمي ان يقتل احدنا الآخر فادخل اذًا المنزل فدخل ولم يبقَ هناك كثيرًا لانهُ رأى النساء مشمئزات منهُ ومن جهة أُخرى كانت نفسهُ مضطربةً من فعلهِ فخرج بقلب مملوءٍ خوفًا وكدرًا لعلمهِ بان عملهُ يستحق الموت غير ان الامير لم ينتقم منهُ بشيءٍ بل انهُ لما عرف ان الخبر اتصل الى الملك وانهُ عزم على تعذيب الشاب تشفع فيهِ ونجّاهُ من الموت فلاجل فعلهِ هذا اي فعل المحبة التي اظهرها لعدوّهِ ملأهُ الله تعالى تعزيات روحية وافرة لذيذة جدًّا

ولما كانت العبادة المسيحية الحارَّة تحرّض المرءَ على تناول الاسرار الالهية كان الامير يتناول القربان المقدس في كل عيد شريف جهرًا وكل يوم احدٍ سرًّا وانما ذلك لان آراء العلماء كانت لذلك العهد مختلفةً في الاكثار من امر تناول القربان الاقدس فكان كثيرون منهم يرشقونهُ بسهام الملامة على ذلك ويقولون انهُ رجل متزوّج ومدبّر مملكة وقد تفاقمت عليهِ اصعبُ الاشغال ومن ثمَّ يستحيل ان يخلو من النقائص وان يكون على الاستعداد الواجب لتناول القربان المقدس مرارًا في مدة وجيزة اما الآخرون فارتأوا الخلاف لانهم كانوا يقولون ان الآباء القديسين يسوقون المؤمنين الى ذلك وان الامير في هذا الامر لا يفعل الاَّ ما فعلهُ المسيحيون الاوّلون غير ان هذا الاختلاف في آراء العلماء الاجلاَّء كان يوقع القديس في اضطراب بال

وجاء في ذلك الزمان الى برْسيلونا بامر القديس اغناطيوس احد الرهبان اليسوعيين الذي يُدعى اراوس ووعظ هناك بفصاحةٍ مؤثرةٍ في النفوس ولا سيما في نفس الامير نائب الملك ولانهُ كان قد سمع بهذه الرهبانية الجديدة وبقداسة منشئها استدعى الواعظ وسألهُ كثيرًا عن غاية تلك الرهبانية وعن برارة القديس اغناطيوس فلما تحقق انهُ خبيرٌ بالامور الروحية وارشاد النفوس كتب اليهِ يسألهُ كيف ينبغي لهُ ان يتصرَّف في قضية اختلف فيها جميع علماء اسبانيا فاجابهُ القديس بمثل ما اجاب القديس ابرونيموس رجلاً من اشراف رومية كان قد سألهُ عن هذه القضية وهذا جوابهُ انهُ لأمرٌ عسِرٌ جدًّا وضع قاعدة كليَّة على ما يتعلق باستعداد متناولي هذا السرّ غير انهُ يجوز القول فيهِ على وجه العموم من حيث ان احد مفعولات هذا السرّ العجيبة هو حفظ الانسان عن ارتكاب الاثم واسعافهُ في القيام بعد السقوط فيهِ بضعفٍ بشري ان الاجدر للمؤمن ان يُكثر من تناول هذا السر الالهي بروح المحبة والرجاء وتمام الاحترام من ان يمتنع عن تناولهِ بافراط الخوف ولاجل صِغر نفسٍ وانهُ ينبغي في ذلك ان كل احدٍ يقتدي بقول الرسول اي ان يدين نفسهُ ويتدرَّب في هذا الامر على ما يشعر بهِ في قلبهِ من نقاوة النية وحرارتهِ في العبادة وبغضتهِ الخطيئة وكيفية استعدادهِ لهذه الوليمة الالهية والنفع الواصل اليهِ منها للانتصار على طباعهِ القاسية وانهُ ينبغي على الخصوص ان يلتجئ الى مرشدٍ عالمٍ خبير ويكشف لهُ اسرار ضميرهِ كشفًا تامًّا. اما من جهتك فعلى ما عرفتهُ عن سيرتك من اناس صادقين وعلى حسبما اخبرتني عنها برسالتك فاشير عليك ان تستمرّ على عادتك في تناول القربان المقدس كثيرًا متكلاً على رحمة الله تعالى الغير المتناهية واني ارجو انك تجتني من ذلك اثمارًا وافرة لنفسك وتكون مثالاً لكثيرين يقتفون اثرك في هذه العادة الحميدة

فلما قرأ الامير هذا الجواب سكنت اليهِ نفسهُ وحصلت على تعزية عظيمة فكان يتناول القربان المقدس كل يوم احد وكان يتأهب لتناولهِ في ثلثة ايام ممارسًا افعال المحبة والاشتياق ويشكر على نيل هذه النعمة ثلثة ايام. وقد ثابر على ذلك اربع سنين

واعلم انهُ بعد وصول رسالة القديس اغناطيوس توُفي والد القديس فرنسيس بورجيا وحينئذٍ استأذن الملك في ان يعود الى امريتهِ ويدبرها بدلاً عن ابيهِ فرضي الملك بذلك مراعاةً لحكم الضرورة وعاش القديس هناك باتفاق كلي مع

امرأتهِ الاميرة لانها كانت نظيرهُ في الاهتمام بتربية بنيها ومساعدة الفقراء وتناول القربان المقدس وممارسة افعال التقشف ورياضات العبادة قيل ان نساء عظماء البلد اشرنَ عليها ان تداري جسمها وتلبس اثوابًا ناعمة بهية ما يليق بمقامها السامي وقدرها الرفيع فقالت لهنَّ كيف السبيل الى ان افعل ما تُشرنَ بهِ عليَّ وها هوذا الذي جعلهُ الله مرشدي وقدوتي يلبس المسح ويحتقر فخر العالم ونعمهُ وملاذهُ وعاشا معًا هكذا متحدين بمحبة مقدسة نحو ثماني عشرة سنة ثم اصاب الاميرة داء المنية وفيما كان الامير يصلي لاجلها ملتهبًا بنار التقوى وطالبًا من الله تعالى شفاءها سمع هاتفًا باطنيًا يقول لهُ ان اردت ان تشفى امرأتك فاني استجيب لطلبتك فتتعافى الآن هذا ليس خيرًا لها ولا لك فقال الامير حينئذٍ بقلب متضع من انت يارب ومن انا لتفضل مسرّتي على مرضاتك من ذا الذي يعرف ما يفيدنا سواك وماذا عسى ان اشتهي الا تكميل ارادتك . اني اقدم لك حياة الاميرة وحياتي معًا وحياة اولادي وجميع مالي فتصرف كيفما تشاء . فماتت الاميرة موتًا مقدسًا وكان عمر الامير اذ ذاك ستًّا وثلثين سنةً وخلفت ثمانية اولاد خمسة ذكور وثلثًا بنات

فجدّد حينئذٍ القديس نذرهُ للترهب وأعد كل شيء لتتميم مقصودهِ ولم يزل يكاتب القديس اغناطيوس ارشادًا لنفسهِ وكان ذلك القديس يبني في اماكن كثيرة مدارس وكان رهبانهُ يعلمون فيها جميع العلوم وانما قصدهُ بهذا انهم بواسطة العلوم يصوّرون المسيح كما قال الرسول اي انهم بواسطة العلوم يرسمون في قلوب الغلمان والشبان اللينة صورة الفضيلة التي تنغرس وتنمو فيهم على اسهل سبيل . ولكي يُباشر المعلمون وظيفة التعليم بخلوص النية ومجرد الغيرة لمجد الله تعالى وتخليص النفوس جرّدهم القديس عليهِ السلام عن طلب كل خير دنيوي فهذا الامر لما شعر بهِ الامير بورجيا عزم حالاً على بناء مدرسة بغنديا مدينتهِ بامريّتهِ وارسل اليهِ القديس اغناطيوس الانبا فابر ابنهُ البكر في الرهبانية وهو الذي كان القديس فرنسيس سالاسيوس يسميهِ قديسًا والتجأ الى شفاعتهِ بعد موتهِ وقد ادرج حديثًا البابا بيوس التاسع المالك سعيدًا اسمهُ في سفر الطوباويين . وهذا اشار على القديس فرنسيس بورجيا في بناء مدرسة كبيرة

وبعد تتميم هذا العمل رجع الانبا فابر الى رومية حيث توفي ولما رأى اغناطيوس رهبانهُ متاسفين على موتهِ عزّاهم قائلاً . ان الامير بورجيا سيترهب عما قليل بدلاً عن الانبا فابر وبالحقيقة شرع الامير بعد موت الانبا فابر يفتكر كيف يكمل نذرهُ سريعًا وعزم اولاً على ان يختار رهبانية تكون مقيمة بعدُ على روح النشاط في حفظ النذور والرياضات الرهبانية . فمال قلبهُ اولاً الى رهبانية متمسكة بطريقة الانفراد ولكن تاقت نفسهُ بعد ذلك الى تمجيد الله تعالى بالاعتناء بخلاص النفوس فاراد ان يدخل في رهبانية تقرن رياضات السيرة الروحية بالاهتمام بتخليص القريب فمالت نفسهُ الى رهبانية القديس فرنسيس لما فيها من شدة العيش ومزيد الفقر . غير انهُ خشيَ من انهُ اذا ترهب عندهم يرتقي فيما بعد الى المراتب الكنائسية وعرف ان الرهبانية اليسوعية قد سدّت هذا الباب مقاومةً للعجرفة بنذر خصوصي فذهب الى راهب فاضل من رهبانيَّة القديس فرنسيس وكاشفهُ باسرار قلبهِ ودعوتهِ الى الرهبانية اليسوعية فاثبتهُ الراهب في قصدهِ بعد الفحص البليغ عنهُ وحينئذٍ نذر الامير الترهب في هذه الرهبانية

ثم كتب الى القديس اغناطيوس وبيّن لهُ مقصدهُ وطلب منهُ الدخول في الرهبانية فأجابهُ القديس برسالة وهذه صورتها . لقد سررت غاية السرور عند قراءتي رسالة عزتكم واسأَل جميع الملئكة وجميع النفوس المتمتعة بالمجد السماوي ان يؤدوا لله تعالى الشكر الواجب على ما انعم بهِ على جماعتنا الصغرى بدعوتكم اليها واني أرجو الله جلّت عنايتهُ ان يجعل انضمامكم الى رهبانيتنا مفيدًا لكم ولكثيرين يقتدون بمثالكم اما نحن الذين في هذه الرهبانية فنزداد نشاطًا في خدمة كرم الرب الذي يدعوكم الى معونتنا فها انا اقبلكم الآن في رهبانيتنا واضمكم الى عدد اخوتنا . ثم يشير القديس على الامير ان يتمّم كل امور بيتهِ قبل ان يشهر هذا الامر وان يدرس علم اللاهوت فمن ثمَّ زوّج ابنهُ البكر واثنتين من بناتهِ الثلثة لان ثالثتهنَّ كانت قد ترهبت قبل وفاة امها وبعد ذلك نذر النذور الاولى وباذن البابا بقي مدة اربع سنين يدبر امور بيتهِ ويستعد يوميًا بدرس اللاهوت والتأمل والتقشف الى دعوتهِ الجديدة

وسنة خمسين وخمسمائة والفٍ عزم على الذهاب الى رومية ليترهب فاستدعى ابنهُ البكر وقال لهُ اعلم يا ابني اني

ماض الى رومية لكي انفرد عن الناس وأُسلم اليك امر بيتي وانرهب عند الاباء اليسوعيين فليكن تدبيرك شعب الامرية تدبيرًا ابويًا واجعل ناموس الله تعالى امام عينيك دائمًا واحفظهُ بكل رغبتك وفضّلهُ على كل ماسواهُ واجعل مجدك ان تذيع مجد الله عزّ وجلّ وقد جعلتك على اخوتك بمنزلة أبٍ فعاملهم دائمًا بمحبةٍ وكن في الامرية محب الفضيلة وعاضدها ومبغض الرذيلة ومضطهدها واحذر من ان اقتدارك يصيرك متكبرًا بل اتضع من اجل انك امير متذكرًا مناقشة الحساب على ذلك عند الموت وانك لا تأخذ من كل ما لك شيئًا بل تخرج من العالم فقيرًا مرفوعًا على النعش. ايّاك والعجلة في كل امرٍ مهمٍ واجعل الموت مشيرًا لك قبل ان تحكم على امرٍ من الامور فلا تعتمد على فطنتك بل استشر دائمًا اهل العلم والفضل

قال هذا ثم سافر وعند خروجهِ من مدينة غنْديا طفق يترنّم بالمزمور المائة والثالث عشر حيث يذكر داود النبي سعادة شعب الله حينما خرجوا من مصر وفي انتهاء المزمور قال الامير بابتهاجٍ مقدس الفخ انكسر ونحن باسم الرب نجونا. فلما قرب من رومية اراد ان يدخل في الليل سرًّا فرارًا من الكرامة العالمية غير ان القديس اغناطيوس كتب اليهِ بان دخولهُ خفيةً يُغيظ اكابر رومية بحيث كانوا قد اعدُّوا كل شيءٍ لاستقبالهِ باكرامٍ فخرج كثير من الكرادلة وقدَّم لهُ البابا قصرهُ منزلاً لكنهُ استعفى ونزل في دير الاباء اليسوعيين وكان القديس اغناطيوس ينتظرهُ على الباب وظهرت حينئذٍ حلاوة المحبة المبنية على اسّ البر والتقوى لما سالت دموع السرور من اعينهما حين تلاثما

الجزء الثاني

في سلوك القديس فرنسيس بورجيا في الرهبانية

ان القديس بورجيا كان باذن الحبر الاعظم قد نذر منذ ثلث سنين النذور الرهبانية فصار راهبًا يسوعيًا وهو ماكث في العالم لتدبير اهل منزلهِ فمع ذلك لم يكن قد اشتهر هذا الخبر بعدُ وهذا من اجل كونهِ اميرًا كان ينبغي قبل اظهار ترهبهِ ان يأخذ اذنًا من الملك في ان يترك امريتهُ لابنهِ البكر فكتب اليهِ وفي اثناء ذلك سمع وهو برومية ان البابا كان قاصدًا ان يرفعهُ الى درجة الكردينالية فخرج باذن القديس اغناطيوس من رومية على الفور سرًّا وسافر الى اسبانيا وسكن في قلعة لويلا وهناك وصل لهُ جواب الملك المرتضي بما طلب اليهِ فارتسم كاهنًا وظهر راهبًا يسوعيًا في كنيسة مبنية في قلعة امير لويلا اخي القديس اغناطيوس وفي هذه الكنيسة قدَّس قدَّاسة الاول ثم قطن دير اليسوعيين المبني في البرية بقرب مدينة اونيات وابتدأ يجول في القرى ليعلم الفقراء والمساكين وكان الجميع يسمعون كلامهُ بشهوةٍ ويدعونهُ المرسَل من الله تعالى

وفيما كان مخالطًا المساكين او مختليًا في البرية شاكرًا الله سبحانهُ الذي اهّلهُ لان يكون منسيًا من عظماء العالم اظهر الله حينئذٍ ما كان قد لاحظهُ القديس اثناسيوس في ترجمة القديس انطونيوس الكبير الذي اختلى في البرية وهو انهُ تعالى الذي من شانهِ ان يمجّد الذين يرغبون في مجدهِ قد حرَّك اعظم اهل العالم ليفتقدوا هذا القديس ويكرموهُ في خلوتهِ اذ انهُ من كل ناحية اتاهُ اشراف اسبانيا الى البريّة حيث كان منفردًا وهنّأُوهُ على انتصارهِ على العالم وكثيرون منهم بمثالهِ وكلامهِ انتصروا ايضًا على العالم واعظمهم لويس اخو ملك برتوغال وانطونيوس امير كُرْدوبا وكثيرون غيرهما اما كارلوس ملك اسبانيا والنمسا فلما تأمل اثمار القداسة الوافرة الحاصلة في المملكة كلها بقدوة القديس فرنسيس بورجيا اراد ان يزيدهُ شرفًا فطلب من البابا يوليوس الثالث ان يصيرهُ كردينالاً فوعد البابا بذلك. غير ان القديس اغناطيوس لما شعر بهذا ذهب حالاً الى البابا واورد لهُ ان الله تعالى دعا الانبا بورجيا الى سيرة مضادَّة بالكلية شرف مرتبة الكردينالية وانهُ سبحانهُ قد اظهر بالكفاية انهُ يريد من عبدهِ ان يمجدهُ باحتقار العالم وانهُ اذا صار كردينالاً تخسر الكنيسة بارتقائهِ الى هذه المرتبة الشريفة قدوة الاتضاع المسيحي وانهُ بهذا يعطي الناس سبيلاً ليظنوا بهِ ظنًّا رديئًا والحاصل ان الرهبانية تحتمل ضررًا جسيمًا اذا انفتح باب العجرفة المغلق حتى الآن. فقال لهُ البابا اني استحسن رايك غير اني لست بقادر ان اتبع مشورتك لاني قد وعدت الملك برفع الانبا بورجيا الى مقام الكردينالية. اما القديس اغناطيوس فلمعرفتهِ استعداد قلب فرنسيس وانهُ لا يزال يطلب من الله تعالى ان ينقلهُ من هذه الحياة قبل ان يخرج من حال الاتضاع قال للبابا قد يمكن ان قداستكم ترضي الملك والانبا بورجيا وتدفع عن رهبانيتنا هذا الضرر وهو انكم تقدّمون للراهب

المتضع شرف مقام الكردينالية ولكن بدون إلزامكم اياهُ بذلك فاعجبت هذه المشورة الحبر الاعظم كثيرًا وبها خلص القديس بورجيا ما كان يفرُّ منهُ تواضعًا لانهُ لم يرتضِ اصلاً بقبول هذه المرتبة العالية

غير ان القديس اغناطيوس لما رأى ان كثيرين من عظماء مملكة اسبانيا يطلبون القديس فرنسيس ليستفيدوا من قدوة فضائلهِ ويسترشدوا بتعليمهِ كتب اليهِ ما نصهُ: تذكَر ايها الاب المكرَّم ان الله عزَّ اسمهُ لم يدعُك الى رهبانيتنا لكي تعيش متوحدًا في دير مبني في الفيافي بل انما دعاك اليها لكي تعتني بتخليص النفوس وتقتدي بمثال سيدنا يسوع الذي خرج من حضن ابيهِ ليعتني بتخليصها وبُغيتها ويرعاها ويحييها باتعابهِ واوجاعهِ وموتهِ وبهذا انا أُريد منك بل آمرك ايضًا بان تُرضي كل العظماء الطالبين تعليمك وارشادك. فلما وصلتهُ هذه الرسالة خرج للحال من خلوتهِ مع انهُ كان يحبُّ الانفراد جدًّا ليباشر بامر الطاعة وظيفة الرسول. هذا واذا اردنا ان نورد هنا جزيل اثمار رسالتهِ في مملكة اسبانيا وبرتوغال لكان يطول بنا الشرح جدًّا فنضرب عنها صفحًا ونقول انهُ فيما كان يباشر هذه الوظيفة بغيرة رسولية تُوفّي القديس اغناطيوس وحينئذٍ كتب اليهِ البابا بيوس الرابع وطلب منهُ ان يأتي الى رومية وفي تلك الرسالة يقول لهُ من حيث ان الكنيسة تحتاج الآن الى خدَّام امناء حسني الخدمة اطلب منك ان تأتي الى رومية حالما يمكنك ذلك من اجل ان استقامة سيرتك واعمالك لتمجيد الله تعالى تبث في كل مكان عرفًا طيبًا ومن ثم ارجو ان حضورك الى رومية يفيد الكرسي الرسولي غاية الافادة

فلما وصل الى رومية قبلهُ الحبر الاعظم باكرامٍ وحبٍّ ونظيرهُ الاب لاينس الرئيس العام خليفة القديس اغناطيوس ولانهُ كان ذاهبًا الى المجمع التريدنتيني من قِبل البابا اقام القديس بورجيا نائبًا عنهُ في تدبير الرهبانية كلها في غيابهِ. وفي السنة الخامسة والستين بعد الخمس مائة والالف للمسيح تُوفي الانبا لاينس وأُقيم مكانهُ القديس فرنسيس بورجيا رئيسًا عامًّا وبعد قليل استأثرت رحمة الله بالبابا بيوس الرابع وخلفهُ على كرسيهِ البابا المعظم القديس بيوس الخامس من رهبانية القديس عبد الاحد وفشا في المدينة حينئذٍ ان هذا الحبر الاعظم قد عزم على ابطال الرهبانية اليسوعية او على تغيير قوانينها. غير انهُ لما رُفع اليهِ ذلك الخبر سدَّ افواه المتكلمين بذلك عن حسدٍ وبغض قائلاً لم حاشا لي ان ارتكب مثل هذه الخطيئة بعد ان رأيت الله سبحانهُ يريد ان استخدم الرهبان اليسوعيين لمنفعة الكنيسة ورفع راية انتصارها على الكفرة والمبتدعين. ثم زار القديس بورجيا في ديرهِ وعانقهُ بمحبةٍ ودموعٍ ولم يزل بعد ذلك يظهر لهُ ولرهبانيتهِ محبةً زائدة لانهُ في كل وقت كان يستشير القديس ويطلب رهبانهُ لانفاذ مقاصدهِ

وقد وجب علينا الآن ان نصف فضائل هذا القديس التي جعلتهُ مكرَّمًا عند كل من كان يعاشرهُ فنقول كما ان الخطأة الواقعين في اوحال الآثام المختلفة لا بدَّ ان يكون بعضهم ممتازًا على الآخرين برذيلةٍ كبيرةٍ تنشأ عنها بقية الرذائل كذلك الصالحون يمتازون بعضهم عن بعضٍ بفضيلة معتبرة تجلب اليها بقية الفضائل ولهذا قال الحكيم في الصديق انهُ لا يوجد لهُ شبيه. نعم ان الصلاح الذي هو في قلوب الصالحين هو واحدٌ والروح القدس الذي فيهم هو واحد الا ان مواهبهُ التي يظهر بها متلألئًا في كل صديق تكون على انواع مختلفة بحسب مقدار النعمة واختلافها. وهذا هو الروح الخاص بكل قديس وهذه هي المحبة التي وان كانت واحدة يرتبها الله في قديسيهِ على انواع مختلفة. لاننا اذا دقَّقنا في الكلام على ذلك نقول ان كل فضيلة ليست فضيلة الا بالمحبة التي تحبيها وان انتظام الفضائل انما هو نظام المحبة بعينها وهذه المحبة تظهر بواسطة الفضيلة التي تؤثر في قلب كل قديس اشدَّ تأثير. وان فضيلة القديس بورجيا الخصوصية كانت بغضهُ لنفسهِ وكفرهُ بها المتضمن الانتصار المتصل على محبة الذات وتنزيه القلب عن طلب كل خير ذاتي ولذة بشريَّة. ومن حيث ان هذا القديس كان يعلم ان القداسة هي متعلقة بذلك كان يقول كلما سمع عن احد انهُ قديس لا ريب في انهُ يكون قديسًا ان كان يحبُّ ان يُميت نفسهُ ويكفر بها

ثم انهُ يجوز لنا ان ندعو القديس فرنسيس بورجيا بالاسم الذي كان يريد احد الآباء ان يُعرف بهِ الراهب الحقيقي وهو انسان مغتصب نفسهُ اغتصابًا متَّصلاً والحال انهُ لكي يصل الانسان الى هذا التجرُّد المفتقر اليهِ كل الافتقار من يريد ان يتجند تحت راية ابن الله العريان

المصلوب بلزمة اولاً ان يحتقر الخيور الارضية ويزهد فيها والحال ان هذا الامر قد فعلهُ القديس المومأ اليهِ لانهُ في العالم تمتّع بخيور غزيرة جدًّا من غير ان يُعلق بها قلبهُ ثم تركها كلها بسرور واعتنق الفقر الانجيلي واحبهُ بكل قلبهِ ورام ان يشعر بهِ دائمًا ولم يكتفِ برذل ما ليس ضروريًّا فقط بل كان يمتنع عن الاشياء الضرورية لاعتقادهِ ما قالهُ احد القديسين ان الراهب الذي لا يريد ان يعوزهُ شيءٌ قد قصد ان يكون اغنى من عظماء العالم ولهذا كان يرغب في ان يعوزهُ دائمًا شيءٌ في قوتهِ وكسوتهِ وقلاّيتهِ وبقية الاشياء الملائمة الضرورية للجسد وللعيشة ولذلك كان اذا ألمّت بهِ مصيبة يُسرّ بها كسرور التاجر الانجيلي عندما وجد اللآلئ

ثم بعد ان كفر القديس بنفسهِ كما علمت استأصل من قلبهِ كل محبة نحو اهل بيتهِ منحرفة عن مقتضى الشريعة وقد لاحظ القديس غريغوريوس ان في الاديرة اناسًا بعد اتباعهم مذهب الزهد في الدنيا لا يزالون متكدرين بهموم العالم وذلك لانهم لا يقتلعون من قلوبهم المحبة المنحرفة نحو الاقرباء التي من شأنها ان تُنبت فيهم بقية الاميال المخالفة الطريقة الرهبانية ولا ريب ان حبهم هذا يزجّهم في لجة الهموم التي كانوا قد نجوا منها فيما يتعلق بهم وهذا الكفر بالدم واللحم الذي اوصى بهِ خصوصًا السيد المسيح كل من يتبعهُ يزداد صعوبة متى كان الاقرباء ممن يستحقون المحبة لاجل صفاتهم الحميدة. والحال ان اقرباء القديس بورجيا كانوا كثيري العدد واكثرهم لاجل حسن صفاتهم وشرف اصلهم كانوا قد ارتقوا الى اسمى المراتب واسنى المناصب فان اثنين من اخوتهِ ارتقيا الى مقام الكردينالية وآخرين تسلّما نيابة الملك في مملكة كاتالونيا وأخ آخر صار ايضًا نائب الملك في مملكة فالنسيا وكل ابناء القديس ارتفعوا الى مناصب شريفة جدًّا وهم جميعهم كانوا يظهرون للقديس جزيل الاحترام والمحبة فمع هذا كلهِ لم يدع نفسهُ تميل اليهم بحبٍّ مخلّ بالطريقة الرهبانية. ولما استغرب احد الرهبان هذا الامر فيهِ كتب اليهِ ما نصهُ: اعتقد اني احب اقربائي حقًّا واصلي لاجلهم كثيرًا وربما ان الله تعالى يُسرّ بصلاتي من اجل كونها منزّهة عن حب اللحم والدم فليمت هذا الجسد الذي تحيا بموتهِ نفسي

وبناءً على ما علمت من تجرُّدهِ عن العواطف الجسدية اعتبر جسدهُ عدوًّا لهُ فلم يزل يضطهدهُ ويعذبهُ بقساوة مقدسة ويستعمل في ذلك اشد التقشفات وبالنتيجة فانهُ لم يكن يشبع من التألم. انما كان يعامل جسدهُ هكذا أولاً لكي يخضعهُ لخالقهِ وثانيًا لاجل الهفوات التي ارتكبها وكان يحسب انهُ مستحق اشد العذاب وثالثًا لانهُ تلميذ ربٍّ صُلب من اجل خطايانا وقاسى اعظم الاوجاع وعلّمنا بقدوتهِ كم يجب علينا ان نعتبر الآلام. فهذه هي الاسباب التي كانت تحرّض القديس بورجيا على حب التقشفات وقد كان يقول ينبغي لكل مسيحي ان يحسب نفسهُ كرجل مربوطٍ الى جنب اسدٍ فلا يزال ذلك الرجل مجتهدًا في قتل الاسد او قلما يكون في ان يضبطهُ خشية ان يفترسهُ. هذا ولما كان يصيبهُ ألمٌ شديد كان يقول احيانًا اني احتمل غضب الرب لاني اخطأت اليهِ (ميخا ٧: ٩) اني اخطأت وحقًّا أثمت ولم اقبل ما استحقهُ (ايوب ٣٣: ٢٧)

غير انهُ اكبر ما كان يحثهُ ويدعوهُ الى التقشف انما هو حبهُ للسيد المسيح وشوقهُ الى ان يقتدي بهِ ويتألم معهُ تعالى ولاجلهِ وهذا الامر كان قد غرس في قلبهِ ميلاً شديدًا الى تعذيب نفسهِ حتى كان يتعذب حين لا يتعذب وكان معتادًا ان يقول ان حواسهُ واعضاء جسدهِ هي التي صلبت ابن الله وقتلتهُ فلو ان امرءًا قتل اعزّ اصدقائهِ بسيفهِ بالاتفاق لكان ينظر الى السيف بغضبٍ ويكسرهُ هكذا يجب على الانسان ان يعامل جسدهُ الفاسد بالخطيئة التي سبّبت موت السيد المسيح. ولما ترأس على الرهبانية كلها لم يبرح يحثّ اخوتهُ على سلوك مثل هذا المنهج حبًّا بخلاصنا قائلاً لهم في رسائلهِ من لا يكون معتادًا على تأمل اسرار صليب سيدنا يسوع المسيح ولا بحبهِ تعالى وهو مصلوب فانهُ سيجد نفسهُ فاترة عاجزة في اتعاب دعوتنا اذ لنا في صليب السيد المسيح علاج نافع ولذة عند التعب والوجع. لاننا نرى ان عصا موسى ابادت المصريين فكيف لا يبيد صليب المسيح اعداءنا الباطنة اعني حركات قلوبنا الرديئة. فان كان اهل مصر يحيون فينا بعدُ فذلك اوضح دليل على اننا لم نعلّق حياتنا بالصليب. فياليت شعري من ذا الذي يقدر ان ينفصل عن محبة يسوع مَن قد تعلق بصليبهِ. فتذكّروا يا اخوتي انهُ جلّ ذكرهُ قد تشكى من انهُ داس المعصرة وحدهُ (اشعيا ٦٣: ٣) فمن منّا يستطيع ان يحتمل مثل هذه الشكوى ومن منّا لا

يرضى بان تدوسهُ الناس متى أبصرهم يدوسون رب المجد

وبما ان الامانة تميل بالراهب الى امانة ارادتهِ بالطاعة واخضاعها لمشيئة الذين اقامهم الله تعالى لتدبيره بمخالفة ارادتهِ تمامًا وهي المسماة من القديس ايرونيموس الحريّة الكاملة لان الراهب بخضوعهِ لقوانين رهبانيتهِ وطاعتهِ لرئيسهِ يصير على نوعٍ ما غير قابل الخطيئة وينجو من اسرها الصادر دائمًا من تصرفنا المنحرف بارادتنا . فكان القديس بورجيا يقول في هذه الفضيلة انهُ من جهة الطاعة التي بها يجب ان رهبانيتنا تمتاز عمّا سواها من الرهبانيات وهي اقوى ركنٍ لها لا يمكن للرهبانية ان تبقى بدونهِ ولقد كتب فيها منشىء الرهبانية رسالة جزيلة النفع بل عجيبة فانني ارغب اليكم ان تتدرّبوا بمقتضاها . افعلوا هذا فتحيوا

وكان نمو الرهبانية ايام رئاستهِ عجيبًا الى الغاية لانهُ ادخل فيها كثيرين من اهل العقول الثاقبة وكثر عدد المدارس وامتلأت بالطلبة وايضًا انشأ مدارس جديدة كثيرة وبعث في سنة ستّ وستين وخمسمائة والف للمسيح رهبانًا الى جزائر كاناري التي كانت على اشدّ الاحتياج الى مثل هذه المساعدة الروحية وطلب الملك فيلبُّس الثاني بارسال آخرين الى فلوريدا في السنة الثامنة والستين من القرن السادس عشر لكي يُبشروا هناك بالانجيل فقُتلوا شهداء من اهل تلك البلاد وانفتح باب الهند الغربية الذي كان مقفولاً الى ذلك الحين . لانهُ بحيث ان الملك فيلبس الثاني الحّ عليهِ في طلب آباء الرهبانية لكي يُبشّروا الهنود في ذلك المكان فخرج آباء رهبانيتهِ في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني عام سبعة وستين من المائة السادسة عشرة للمسيح من ميناء سان لوكار ليذهبوا الى بلاد بيرو وواظبوا منذ ذلك الوقت على اعمال الرسالة وسنة اثنتين وسبعين وخمسمائة والف في اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران ذهب اربعة عشر من آباء رهبانيتنا الى اسبانيا الجديدة ليأخذوا مسكنًا في عاصمة المملكة

ولما كان هذا الاب مهتمًا ان يتخلص من وقر الرئاسة العامّة اراد الله جلّت حكمتهُ ان يضمّ اليهِ سفرًا طويلاً شاقًا بحيث ان البابا بيوس الخامس اجابةً لطلب اشراف البندقية اذ رأى السلطان سليمًا قد استولى على مملكة قبرس وهدّد النصرانية كلها متعززًا ومفتخرًا بانتصارهِ عقد معاهدةً بين فيلبُّس الثاني ومشيخة البندقية لكي يقاوموا العدوّ العام ولذلك بعث بالكردينال اسكندر ابن اخيهِ نحو ملوك فرنسا واسبانيا وبرتوغال وأصحبهُ بالاب فرنسيس ليعينهُ بنفوذهِ وحكمتهِ في مفاوضة اولئك الملوك فوصلا الى مدينة فالنسا وهناك لم يستطع الاب بورجيا ان يعتذر عن الوعظ في الكنيسة الكبيرة التي كانت غاصّةً بالناس حتى انهُ بصعوبةٍ استطاع ان يذهب ويصعد الى المنبر

وحظي الاب المومأ اليهِ عند الملك فيلبُّس ومعهُ كان يتكلم في امور مهمة لخدمة الله كان البابا اوصاهُ بها بوجه الخصوص ولما انتهت سفارتها لدى الملك ذهبا الى بلاد البرتوغال وهناك رحّب الملك سيبستيانوس بنائب البابا وذلك الاب وقابلهما باكرامٍ خارق العادة واذ قضيا الاشغال العمومية والخصوصية ذهبا الى فرنسا حيث وجدا الملك كرلوس التاسع في مدينة بلوا مع امهِ الملكة حزينين الى الغاية من الحروب الداخلية التي أخربت المملكة لان قبيلة الهوكنو (كان لقبًا وقتئذٍ لتبّاع كلوينوس) كانوا قد نهبوا وهدموا اكثر الكنائس فكان الكاثوليكيون مظلومين من كل جهةٍ وأبان الاب فرنسيس باسباب قويّة ان بقاء المملكة بفقد الديانة الحقيقية امر مستحيل واشار على الملك وامهِ الملكة مشورات صالحة

ثم سافرا من فرنسا الى ايطاليا وفي الطريق اصابتهُ حمى شديدة فذاق منها أشدَّ الألم واذ عرف ان هذا الداء لابد ان يُخرجهُ من سجن هذه الدنيا ولشوقهِ ان يموت برومية المكرّمة سافر بطريق لوريتو ووصل الى رومية في اليوم الثامن والعشرين من ايلول سنة اثنتين وسبعين من القرن السادس عشر منطرحًا على الهودج لانهُ لم يقدر ان ينهض عنهُ ولما قيل لهُ انهُ بلغ الى المدينة ترنّم بهذه التسبحة : الان اطلق عبدك بسلام وشكر الله لانهُ فقد العافية وكمّل حياتهُ تحت طاعة الكرسي المقدس وايضًا لانهُ كمّل نذرهُ الرابع

وكانت وفاة بيوس الخامس قبل رجوع الاب فرنسيس الى رومية وخلفهُ على العرش البابا وي غريغوريوس الثالث عشر فعلم هذا البابا وهو في تيفولي ان الاب فرنسيس قد اشرف على الموت وبحيث كان يعتبرهُ قال قد خسرت الكنيسة خادمًا امينًا وعمودًا من اثبت اعمدتها وبعث اليهِ بالبركة الرسولية ومنحهُ غفرانًا كاملاً

ولم يعش القديس برومية الاّ يومين وهناك تناول

القربان المقدس مجاوبًا بعبادةٍ على صلوات سرّ المسحة وعلى الاستغاثات بالقديسين ثم سلَّم نفسهُ بسلام الى خالقهِ في غاية ايلول سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة والف قُبيل نصف الليل وكل حياتهِ اثنتان وستون سنةً الاَّ ثمانية وعشرين يومًا ودُفن جسدهُ في الكنيسة القديمة امام الابوين اغناطيوس ولينس

اليوم الحادي عشر

وفيهِ تراجم الشهداء تراكوس وبروبوس واندرونيكوس

ان انتصار هؤلاء الشهداء الثلثة مجّد اسم الله في اضطهاد ديوكلتسيانوس وأرجح الآراء انهُ كان سنة اربعٍ وثلثمائة في ايام كانت تُنفذ المراسيم والاوامر الملكية ضد المسيحيين قاطبةً بدون تمييزٍ ولا تفريق. ولاجرم ان اعمال القديسين تراكوس وبروبوس واندرونيكوس هي من اجلّ آثار القدمية الكنائسية وأثمنها فالثلثة الاقسام الأُول من تراجمهم تتضمن الاستنطاقات التي استُنطقوها بطرسوس وموبسوست وأنازرب مدن كيليكية وهذه النسخة الشرعية من سجلاّت الحاكم اشتراها المسيحيون بمائتي دينار من الكُتّاب الشرعيين والقسم الرابع عن ثلثة رجالٍ مسيحيين مرقس وفيلكس وفاروص كانوا شهودًا عيانيين وهم الذين خطفوا سرًّا اجساد الشهداء القديسين ودفنوها وقصدهم ان يقضوا بقية حياتهم حيث وُضع هذا الكنز الثمين وطلبوا ان يُدفنوا في ذلك المكان عينهِ متى دعاهم الله تعالى اليهِ. ذلك وان الشهداء المنوَّه بهم كانوا مختلفين سنًّا وبلدًا فكان تراكوس رومانيّ الاصل ولو انهُ وُلد بايزُرية فهذا كان خادمًا في جندية المملكة لكنهُ تنحّى عن الجندية مخافة ان يجبروهُ على فعل شيءٍ يضاد ضميرهُ وكان عمرهُ يوم قُبض عليهِ خمسًا وستين سنةً. وكان بروبوس مولودًا بمفيلية فترك ثروةً كبيرةً ليتفرّغ لخدمة الله تعالى بتمام الحريّة. وكان اندرونيكوس اصغر من كليهما وهو من أخصّ عائلات مدينة افسس وقُبض عليهم جميعًا في بُمبيوبوليس بلدة بكيليكية وأُحضروا امام نوميريانوس مكسيموس والي الاقليم فامر الوالي المذكور عند وصولهِ الى هذه المدينة ان يُقادوا الى طرسوس حيث كان لا بدّ ان يتوجّه الى هناك عما قليل فعند بلوغهِ اليها أُحضر لديهِ قائد المائة ديمتريوس المعترفين الثلثة قائلاً لهُ ان هؤلاء هم الذين مثلوا لديك بمبيوبوليس كمجرمين باعترافهم بالنصرانية المذهب الكفري وبتجاسرهم على عصيان الملوك

الاستنطاق الاول

ان مكسيموس الوالي التفت اولاً نحو تراكوس وسأَلهُ عن اسمهِ فاجابهُ الشهيد انا مسيحي فقال (م) لا تكلمني في امر كفرك لكن قل لي ما اسمك (ت) انا مسيحي (م) فليُضرَب على فيهِ ليتعلم ان لا يجاوب عن غير ما يُسأَل عنهُ وبعد ان ضُرب (ت) كفًّا أُعلمك باسمي الحقيقي اذا اردت ان تعرف الاسم الذي سمّاني بهِ ابواي وهو تراكوس ولما كنت جنديًّا سُميت منصورًا فقال (م) ما صناعتك ومن أية بلاد انت قال (ت) انا من عشيرة رومانية غير اني وُلدت بكلوديوبولي مدينة بايزُرية وكنت شُرطيًّا لكني تركت الجندية بسبب ديني قال (م) كفرك جعلك غير اهل لان تكون جنديًّا لكن كيف تركت الخدمة قال (ت) استأذنت في ذلك بوبليون رئيس فرقتي فأذن لي قال (م) اعتبارًا لشيبتك أُحصّل لك التفات السلطان وحبّهُ اذا كنت تجري على مقتضى اوامرهِ فهلمّ واذبح للآلهة على مثال ما يعمل الملوك انفسهم قال (ت) لاجرم ان الملوك مغترّون من الشياطين في اشتراكهم في مثل هذه العبادة قال (م) اكسروا فكّيهِ لانهُ قال ان الملوك مغرورون قال (ت) نعم وانا اكرّر ذلك القول بحيث هم بشرٌ لذلك هم مخدعون قال (م) ضحِّ لآلهتنا ودع جنونك قال (ت) لا قِبَل لي ولا استطاعة على ان انكر شريعة الله جلّ شانهُ قال (م) ايها الشقي لا ناموس غير الذي نتبعهُ ونخضع لهُ قال (ت) ان يوجد ناموس آخر وانتم تعصونهُ بسجودكم لعمل ايديكم لتماثيل الخشب او الحجارة قال (م) فليُضرب على وجههِ لينترك جنونهُ قال (ت) ان الذي تدعوهُ جنونًا هو خلاص نفسي فلن اتركهُ ابدًا قال (م) لابدّ ان اجعلك تنبذهُ واجبرك انك تصير عاقلاً قال (ت) افعل بجسدي كل ما ترضى بهِ فهو تحت سلطانك قال (م) عرّوهُ واضربوهُ بالقضبان قال (ت) وهم يضربونهُ ها قد جعلتني الآن عاقلاً حقًّا لان الضرب الذي أمرت ان أُضربهُ قوّاني وشدّد ثقتي بالله وبيسوع المسيح قال (م) كيف تنكر كثرة الالهة وقد اعترفت بانك تعبد إلهين أما اعطيت اسم الله لشخص يُدعى المسيح قال (ت) نعم لانهُ ابن الله الحيّ ورجاء المسيحيين ومعطي الخلاص

للذين يتعذّبون حبًّا بهِ قال (م) دع هذه الحماقة وتعالَ ضحِّ لآلهتنا قال (ت) لستُ كما تظنُّ فانا ابن خمس وستين سنة وقد ادركت الحق فلا استطيع ان انبذهُ فقال لهُ ديمتريوس القائد الذي كان يُظهر لهُ الشفقة والرأفة اعمل على هواي واتبع مشورتي وخلص ذاتك من الموت بان تذبح للآلهة قال (ت) اذخر نصيحتك واحفظها لنفسك ياخادم الشيطان قال (م) أوثقوهُ بالسلاسل الضخام واذهبوا بهِ الى السجن

هذا وجاء القائد ديمتريوس بالثاني من جهة العمر فقال لهُ (م) ما اسمك قال اسمي الاخصّ والاشرف مسيحي لكنما الناس يدعونني بروبوس قال (م) من اي بلد انت ومن ايّة عشيرة قال (ب) كان ابي من تراكيا وانا من العامَّة ووُلدت بصيدا بلدةٍ بمفيلية ودينيَ النصرانية قال (م) لا ينفعك اسمك شيئًا صدّقني وضحِّ للآلهة لتكون جديرًا بمحبتي وبالتفات السلاطين والحُظوة لديهم قال (ب) كل ذلك لا ينفعني شيئًا كان لي ثروة كبيرة واسعة فغادرتها تاركًا لاخدم الاله الحي يسوع المسيح قال (م) انزعوا عنهُ ثيابهُ وضعوا عليهِ إزارًا ثم مدُّوهُ ليُضرب باعصاب البقر وفيما كانوا يضربونهُ على ذلك الاسلوب قال لهُ ديمتريوس قائد المائة اشفق على نفسك ياصاح فها الارض قد اصطبغت بدمك قال (ب) اعملوا بجسدي كل ما تريدون فتعذيبكم بالنسبة اليَّ رائحة طيبة قال (م) ألا يشفى داء حماقتك وماذا عساك ان ترجو قال (ب) انا أعقل منك بحيث لا اسجد للشياطين قال (م) اقلبوهُ واضربوهُ على بطنهِ قال (ب) يا الهي أعِن عبدك قال (م) اسألوهُ وانتم تضربونهُ اين ظهيرهُ الحامي عنهُ قال (ب) قد اعانني ويُعينني فاني لا اعتبر تعاذيبك ولا أُطيعك البتة قال (م) يالشقائك فها قد تمزَّق جسدك وتضرَّجت الارض بدمك قال (ب) كلما تعذَّب جسدي لاجل المسيح اكتسبت نفسي قوةً وبأسًا شديدًا قال (م) أوثقوا يديهِ ورجليهِ بأغلالٍ من حديد ومدُّوا ساقيهِ على آلة العذاب حتى الثقب الرابع ولا تأذنوا لاحدٍ ان يعالج جراحهُ

وحينئذٍ أُحضِر ثالث الشهداء القديسين امام المحكمة فقال لهُ (م) ما اسمك قال اندرونيكوس اسمي الحقيقي مسيحي والذي عُرِفت بهِ بين الناس هو اندرونيكوس قال (م) من اية عشيرةٍ انت قال (أ) ان ابي من شرفاء افسس قال (م) اسجد للآلهة وطع الملوك الذين هم آباؤنا واسيادنا قال (أ) الشيطان ابوك متى عملت اعمالهُ قال (م) ايها الحَدَث انت وقح أتدري ان العذاب مهيَّأ عندي بالتمام قال (أ) انا مستعدٌّ لكل ما يمكن ان يُصيبني قال (م) عرُّوهُ وضعوا عليهِ إزارًا ومدُّوهُ على آلة العذاب فقال وقتئذٍ قائد المائة للشهيد طع ياصاحِ قبل ان يُمزَّق جسمك قال (أ) اني لأوثر وأُفضّل ان يُمزَّق جسمي تمزيقًا على خسارة نفسي قال (م) ضحِّ والاّ فاحكم عليك بموتٍ ذريع قال (أ) لم اذبح للشياطين منذ طفوليتي ولا ابتدىء بذلك اليوم. فوقتئذٍ قال لهُ اثناسيوس احد فاحصي العسكر انا بحسب العمر كأبيك وينبغي لي ان أُشير عليك فاخضع للحاكم قال (أ) يالها من مشورة غريبة عجيبة ان أُضحي للشياطين قال (م) ايها الشقي سنرى ان كنت لا تشعر بالتعاذيب فمتى شعرت بها فربما ترفض جنونك وحماقتك قال (أ) هذا الجنون يفيدنا نحن الذين لنا الرجاء بيسوع المسيح ولا ريب ان حكمة الدنيا تجرُّ الى موتٍ مؤَبد قال (م) عذِّبوهُ عذابًا صعبًا شديدًا قال (أ) ما فعلتُ شيئًا من الشرِّ وانت مع ذلك تعذبني كاني قاتل فانما احتمل ذلك من اجل العبادة التي تجب للاله الحقيقي قال (م) لو كان لك ادنى احساس التقوى لكنت تسجد للآلهة الذين يسجد لهم الملوك بغاية التقوى والتعبُّد قال (أ) كفرٌ هو ان اترك الاله الحقيقي لاسجد لتماثيل النحاس والرخام قال (م) كيف تجاسرت ان تقول ان الملوك مجرمون بالكفر. زيدوهُ عذابًا وانخزوهُ من كل جهةٍ قال (أ) انا بين يديك وانت متسلط على جسدي قال (م) ضعوا على جراحهِ ملحًا وافركوا اطرافهُ بقطعٍ من كِسَر القرميد قال (أ) ان تعاذيبكم تكسب جسمي راحةً حقيقيَّةً. قال (م) لاهلكنَّك بموتٍ بطيءٍ قال (أ) ان وعيدك لا يُريعني البتة وان شجاعتي لاعظم واسمى من كل ما نجعلك قساوتك تفتكر فيهِ قال (م) ضعوا رجليهِ وعنقهُ في السلاسل والقوهُ في سجنٍ ضيقٍ. وهكذا انتهى الاستنطاق الاول وامتُحن هؤلاء الشهداء ثانية بمدينة موبسوست كما سياتي ذكرهُ

الاستنطاق الثاني

لما جلس فلافيوس اكليمنضوس نومبريانوس مكسيموس على كرسي الحكم قال لقائد المائة ديمتريوس

أحضروا لديَّ هؤلاء الكفرة تبَّاع ديانة المسيحيين فقال القائد ها هم يامولاي فحينئذٍ قال (م) لتراكوس كثيرون من الشيوخ يُحترَمون لان الحكمة والتعقل يرافقان هذا السن فان كنت استفدتَ من الزمان الذي تركتهُ لك فاظن ان تأملاتك تكون قد اعطتك غير هذه الاميال فلا تاكد هذا التغير آمرك ان تضحي للالهة فان طاعتك تجعلك عند مواليك وسادتك جديرًا بالاعتبار قال (ت) انا نصراني وعساك انت والملوك ان تتركوا عمايتكم لتعتنقوا الحق الذي يؤدي الى الحياة قال (م) ارشقوا وجههُ بالحجارة واكرهوهُ ان يرفض جنونهُ قال (ت) هذا الجنون انما هو الحكمة الحقيقية قال (م) كل اسنانك مكسرة يامسكين فترفَّق بنفسك وتعالَ الى المذبح وضحِّ للآلهة لتكفي نفسك عذابًا أشد قال (ت) قطّعوا جسدي عضوًا عضوًا فلن يزحزحني ذلك عن عزيمتي الثابتة لان يسوع المسيح هو الذي يؤتيني قوة الانتصار والظفر قال (م) انا اقدر ان اشفيك من داء جنونك هذا اجلبوا جمرًا وضعوا يديهِ على النار حتى تحترقا قال (ت) ما كنت لأخاف نارًا زمنيَّة تمضي قوتها عما قليل وانما أخاف من اللهيب الأبدي قال (م) انظر يديك محترقتين بالكلية أما يمكن لشيء ان يعقّلك ضحِّ قال (ت) اذا كان عندك عذاب آخر فعذبني اياهُ واني أُومل ان اكون اهلاً لمقاومة كل مساعيك قال (م) علقوا رجليهِ واتركوا رأسهُ في دخان كثيفٍ قال (ت) كيف أخشى الدخان من بعد ان احتملت النار وقاسيت عذابها قال (م) اسكبوا في منخريهِ خلاً وملحًا قال (ت) ان خلك ليس هو بالنسبة اليَّ الاَّ حلاوةً وعذوبةً ويظهر لي ان ملحك لا ملوحة لهُ وانما هو بلا طعمٍ قال (م) امزجوا الخردل بالخل وصبُّوا المزيج في حفرة أنفهِ قال (ت) لقد غرَّك خدَّامك فانهم سقوني عسلاً عوض الخردل قال (م) حسبنا الان هذا وسوف اخترع لك تعاذيب جديدة لاحملك على نبذ حماقتك قال (ت) ستجدني مستعدًا الى ان اقاوم كل هجماتك قال (م) القوهُ في سجنٍ وأتوا اليَّ بآخر منهم

فلما أُحضر لديهِ بروبوس قال لهُ هل تأملت وامعنت النظر وقصدت ان تضحي لآلهتنا كالملوك قال (ب) قد جئتك بعزم شديد ولم يفعل العذاب الذي قاسيتهُ الاَّ ان قسى جسمي وجعل نفسي اقوى مما كانت قبلاً ولك ان تختبر ذلك فلي في السماء الهٌ حيٌّ وهو الذي أخدمهُ واسجد لهُ ولا أعرف الهًا سواهُ قال (م) كيف ياشقي أليس آلهتنا أحياء قال (ب) واعجبا أيمكن ان تعتبر كاحياء التماثيل الحجرية والخشبية وهي عمل ايدي الناس فانتم لا تعرفون ما تفعلون عندما تقدمون لها الضحايا قال (م) أصلح وقاحتك فلما يكون بان تضحي للمشتري العظيم ولا اطلب منك شيئًا بعد قال (ب) من اين لك ان تُعطي اسم الله لمن هو ملوَّث بالفسق والزناء بمحارمهِ وبغير ذلك من الكبائر قال (م) اضربوا فاهُ بحجر ليمتنع عن التجديف قال (ب) لماذا تعاملني هذه المعاملة مع اني لم اقل في المشتري الا ما يعرفهُ الذين يسجدون لهُ ولم اجرح الحق واستشهدك على ذلك قال (م) أوثقوا رجليهِ بحديد محمًى قال (ب) لا حرارة لنارك وبالاقل فانا لا أُحس بمفعولها قال (م) مدُّوهُ على آلة العذاب واضربوهُ على ظهرهِ بسيور من جلدٍ حتى تنسلخ كتفاهُ قال (ب) كل مساعيك بدون فائدة اخترع عذابًا جديدًا فسترى قدرة الله الذي هو فيَّ ويقويني قال (م) احلقوا رأسهُ وغطوهُ بحجارة حامية قال (ب) انت تحرق رأسي ورجليَّ وسترى اني لا ازال مع ذلك مؤمنًا بالهي ومزدريًا بتعاذيبك ان الله سيخلصني واما آلهتكم فلا يقدرون الاَّ ان يهلكوا الساجدين لهم قال (م) ألا ترى اذًا الذين يسجدون لهم حول كرسيَّ مكرمين من الصالحين والملوك وهم ينظرونك باحتقار وازدراء انت ورفقاءك قال (ب) اذا لم يتوبوا ويخدموا الاله الحي يهلكون جميعًا لانهم ضد ضمائرهم يسجدون للاوثان قال (م) اضربوهُ على وجههِ ليتعلم ان لا يقول فيما بعد الاله بل الالهة قال (ب) لقد اسأت اليَّ وظلمتني وشوَّهت بظلمٍ وجهي لاني قلت الحق قال (م) سأقطع لسانك نهاية لتجاديفك وألجئك الى ان تطيع قال (ب) ان لي غير هذا اللسان لسانًا داخليًا وغير مائت ولا سلطان لك عليهِ قال (م) أذهبوا بهِ الى السجن وأحضروا اليَّ الثالث

ولما وقف امامهُ أندرونيكوس قال لهُ ان رفيقَيك نبذا اوَّل الامر الطاعة فاقتضت الحال تعذيبهم انتصارًا على عصيانها واخر الامر خضعا وأطاعا وجوزيا على طاعتها بسخاء وانت فان اردت اجتناب تلك الأعذبة فضحِّ للالهة فتكرَّم من ملوكنا ولكن اذا اصررت على عنادك وتمردك فاحلف لك بالآلهة الغير المائتين والملوك القاهرين انك لا

تفلت من غضبي العادل قال (أ) لماذا تريد ان تغرّني وتخدعني باخفاء الحقيقة عني فان رفيقيّ لم يرفضا عبادة الاله الحق وهَب انهما فعلا مثل ذلك فانا لا اجعل نفسي مجرمًا بمثل هذا الكفر الشنيع فالاله الذي اعبدهُ واسجد لهُ سلحني بسلاح الايمان ويسوع المسيح مخلّصي هو قوّتي حتى اني لا اخاف قوّتك ولا قوة سلطان مواليك ولا سلطان آلهتك فامتحن ذلك وأذقني كل صنف من التعاذيب التي تعلّمك اياها اشدّ قساوة قال (م) اربطوا رجليهِ واضربوهُ باعصاب البقر قال (أ) لا شيء جديد ولا خارق العادة في هذا العذاب فقال لهُ اثناسيوس ان جسدك مثخنٌ جراحًا من قمة رأسك الى اخمص قدمك أوَ ليس كل ذلك عندك شيئًا قال (أ) ان الذين يحبون الاله الحيّ لا يبالون بمثل هذا العذاب قال (م) افركوا ظهرهُ بملح قال (أ) افعلوا ما أُمرتم بهِ ولا تبقوا منهُ شيئًا فساكون مصونًا عن الفساد وأشدّ قوة على احتمال عذابك قال (م) اقلبوهُ واضربوهُ على بطنهِ لتنفتح جراحاتهُ الاولى قال (أ) لقد رأيتَ عند ما قادوني ووقفت امام كرسيك اني كنت قد شُفيت وبرئت تمام البرء من الجراح التي جُرحتها في استنطاقي الاول والذي شفاني قادرٌ ان يشفيني ايضًا قال (م) لحارسي السجن ايها الخائنون ألم أنهكم صريحًا ان تأذنوا لكائن من كان ان يدخل ويرى هذا الرجل ويُداوي جراحهُ فقال باكازا السجّان أُقسم بعظمتك ان احدًا لم يرهُ وما من احدٍ داوى جراحهُ وانما حُفظ مقيّدًا بالسلاسل في أبعد مكان في السجن فاذا شككت في امانتي فدونك رأسي فانا راضٍ ان افقد الحياة قال (م) فاذا جرى اذًا حتى لم يبقَ عليهِ اثر من آثار جراحهِ قال السجّان لا ادري كيف برئ من جروحهِ قال (أ) هل انت اعمى أفلا تعرف ان الطبيب الذي شفاني هو قادر على مقدار ما هو رحيم ومحبّ وانت لا تعرفهُ . هو شفاني لا بقوة الأدوية بل بمجرّد كلامهِ وهو في كل مكان مع انهُ يسكن في السماء وأُكرّر القول انك انت لا تعرفهُ قال (م) ان هذا الكلام الباطل لا يفيدك ضحِّ والاّ نففت عنقك قال (أ) ان اجوبتي لن تتغيّر بل تبقى هي نفسها فما انا بولدٍ لأميل بوعيدك او بوعدك قال (م) لا تظنّ انك تغلبني وتنتصر عليّ قال (أ) سترى ان عذابك لا يزعزع عزمي قال (م) انك لا تحتقر سلطني ولا يُقتصّ منك قال (أ) لا يقال البتة ان حق يسوع المسيح يكون مغلوبًا منك قال (م) أعدّوا أعذبةً جديدة للمرة الاولى التي اجلس فيها على كرسي وفي غضون ذلك قيّدوهُ بالسلاسل واسجنوهُ في حبس الظلام ولا تأذنوا لاحدٍ ان يراهُ

الاستنطاق الثالث

ثم امتحن هولاء الشهداء باستنطاق ثالث بمدينة أنازَرب وتراكوس الذي وقف قبل الجميع امام المضطهد ما برح يجاوب بتجلّد وثبات وكان يقول ان الموت سينهي قتالي ويبدأ بسعادتي.العذاب الطويل سيكسبني اعظم جزاء.

اما مكسيموس فربطهُ على آلة العذاب فقال لهُ (ت) انا قادر ان اطلب من ديوكليتيانوس مفعول الامر الذي بهِ امنع القضاة ان يضعوا الجنود على مركبة العذاب لكنني لا اريد ان استخدم حقي هذا خشية انهُ يخامرك شك اني خائف قال (م) انت تعلّل نفسك وترجو ان تُبخَّر من النساء المسيحيات بعد موتك لكنني اعلم يقينًا انك لا تنال ذلك قال (ت) افعل بجسدي كل ما يرضيك في حياتي وبعد موتي قال (م) مزّقوا وجههُ واقطعوا شفتيهِ قال (ت) قد أضفت الى نفسي ملاحةً جديدة بواسطة تشويه وجهي وبحيث اني متقوٍّ بمحبة الله لا اخشى شيئًا من عذابك البتة قال (م) ضعوا على ثدييهِ قضبانًا من حديد حامية الى الغاية واصلوا أذنيهِ قال (ت) لا يصير قلبي بذلك اقل انتباهًا لكلام الله عزّ وجل قال (م) اسلخوا جلد رأسهِ وغطّوهُ بجمارٍ متقدة قال (ت) لو سلخت كل جسدي فلا تصل الى ما قصدتهُ من انفصالي عن الهي قال (م) احموا القضبان الحديدية اكثر من المرة الاولى وضعوها على اضلاعهِ قال (ت) يا اله السماء وجّه عليّ الحاظك وكن قاضيّ قال (م) ارجعوهُ الى السجن وابقوهُ لألعاب الغد . ثم قادوا اليهِ بروبوس

وعندما وصلوا بهِ كرّر الحاكم عليهِ التحريض ليضحي للآلهة فذهب اغراؤهُ بلا فائدة فامر ان يُربَط ويُعلّق برجليهِ وتوضع قضبان الحديد المحماة على اضلاعهِ وظهرهِ قال (ب) ان جسدي تحت سلطتك ياليت ان اله السماء والارض ينظر الى صبري وتواضع قلبي قال (م) ان الاله الذي تستغيث بهِ هو الذي اسلمك الى يديّ قال (ب) هو محب البشر قال (م) افتحوا فاهُ وضعوا فيهِ خمرًا ولحمًا مما ذُبح للآلهة قال (ب) انظر اللهمّ الظلم الذي صُنع بي واحكم على دعواي قال (م) انت تفضّل ان تحتمل اعذبةً كثيرة على

إن تذبح لالهتنا ومع ذلك اشتركت الآن في ضحايانا قال (ب) لا ينبغي لك ان تفتخر بما أمرت ان يُفعل معي رغمًا عن انفي قال (م) لا بأس فما فعلتهُ عِد انك تفعلهُ برضاك فأُخلّي سبيلك قال (ب) اعلم انك ولو اغتصبتني ان اتناول بفيّ كل ما قُدّم على مذابحكم المكروهة فلا اتدنّس بها والله شاهد على ما اقاسيهِ من الظلم قال (م) سخّنوا القضبان وأحرقوا ساقَيهِ وبعد ان فعلوا ذلك قال لم يبقَ جزءٌ من جسدك الاَّ استوفى عذابهُ وانت لا تزال على حماقتك ايها الشقي ماذا ترجو قال (ب) قد سلّمتُ لك جسدي لكي اخلص نفسي قال (م) أحموا المسامير الحادّة واثقبوا بها يديهِ قال (ب) لك الشكر يامخلصي لانك حكمت باني أهل لان أُشاركك في تعاذيبك قال (م) ان العذاب الذي قاسيتهُ لم يعمل الاَّ الزيادة في حمقك قال (ب) عسى انك تغرق في مثل هذه الغباوة قال (م) قد تعطّلت كل اعضائك وانت تشكو من انك لم تفقد بعدُ عضو البصر فانخزوا مقلتيهِ ولكن شيئًا فشيئًا حتى تثقبوا عضو الإبصار قال (ب) هاءنذا الان أعمى قد اعدمتني عيني الجسد لكن لا تقدر ان تعدمني عيني النفس قال (م) لا تزال مجادلاً افتكر انهُ قد حُكم عليك بعمى لا يزول قال (ب) لا جرم انك لو عرفت ما انت عليهِ من عمى النفس لاحتسبتَ نفسك اشقى مني قال (م) لا تستطيع انت ان تستخدم جسدك اكثر من الميت ولا تزال تتكلم قال (ب) لا ازال اتكلم عن الهي واباركهُ وامدحهُ طالما انعشت الحرارة الطبيعية بقية ما تركتَ لي من جسدي قال (م) ياللعجب أترجو ان تعيش بعد هذه التعاذيب وهل لك ان تظن اني ادعك ترتاح دقيقةً واحدة قال (ب) لاجرم اني لا انتظر منك الاَّ ميتةً شديدة ولا اسأل الله بعد ذاك الاَّ نعمة الثبات الى المنتهى على الاعتراف باسمهِ المقدس قال (م) ساتركك تنضني زمانًا طويلاً كما يستحق كافرٌ مثلك . أخرجوهُ من هنا وحافظوا كل المحافظة على هولاء الاسرى بحيث ان اصدقاءهم لا يقدرون ان يروهم فقد اعددتهم للالعاب العامّة . هذا وأحضروا اليَّ اندرونيكوس أعند هولاء الثلاثة

فجاؤا بهِ فشدّد عليهِ الحاكم ليطيع وقال لهُ ان رفيقَيك ضحّيا اخيرًا للآلهة وللسلاطين ايضًا فاجابهُ (أ) قال ان قولك هذا انما هو قول من يسجد لإله الكذب وبكذبك هذا اعرف ان الناس يشبهون الآلهة الذين يعبدونهم ويخدمونهم فليحكم عليك الله ياخادم الاثم . فامر (م) ان توضع نار على شوابق الورق فيحرَق بها بطن الشهيد ثم حرقوا اصابعهُ بمسامير حادة محماة . هذا ولما رأى القاضي انهُ عاجز عن تسكيتهِ قال لا ينبغي ان تنتظر انك تموت الاَّ مرةً وانما تبقى الى اليوم المعيَّن للالعاب لكي ترى اعضاءك ممزّقة واحدًا فواحدًا بانياب الوحوش الضائرة قال (أ) انك لأشد توحشًا وبربريّة من الانمار وأطمع في الدم من أشرس القتَلة قال (م) افتحوا فاهُ وناولوهُ كرهًا ممَّا ذُبح للآلهة قال (أ) اللهمّ انظر الظلم الذي اكابدهُ قال (م) ماذا تقول الان لقد اكلت ما قُرِّب على المذابح وها انك دخلت في اسرار الآلهة قال (أ) اعلم ايها الظالم ان النفس لم تتلطّخ بالدنس حيث تحمّلت رغمًا ما ترذلهُ وتؤثّم فاعلهُ ولا ريب ان الله العالم بسرائر القلوب يرى ان قلبي لم يرتضِ بهذه الرجاسة قال (م) حتى متى تغترّ مخيّلاتك بهذا الجنون وهو لا يقدر ان يخلصك من يدي قال (أ) الله يخلصني متى شاء قال (م) هذه حماقة جديدة فسآمر بقطع لسانك لتسكت جبرًا قال (أ) ارجوك ان تنعم عليَّ وتقطع هاتين الشفتين وهذا اللسان التي تتوهّم اني بها اشتركت في ضحاياكم الدنسة قال (م) اقلعوا اسنانهُ واقطعوا حتى الاصل هذا اللسان الذي كثيرًا ما نطق بالتجديف ثم احرقوها وذرّوا رمادها في الهواء بحيث يعجز الرجال والنساء من هذه البدعة الكفرية ان يجمعوها ويحفظوها كذخيرةٍ مقدسة وثمينة وأرجعوهُ الى السجن الى ان تفترسهُ الوحوش الضارية في الملعب

ذلك ولما انتهى استنطاق هولاء الشهداء الثالث ارسل مكسيموس في طلب ترنتيانوس الكاهن الذي كان ناظرًا على الالعاب العمومية والمشاهد ليامر ان يجري في الغد الالعاب لانشراح الخواطر فذهب من الشعب جماعة تكاد لا تحصى الى الملعب الذي كان على مسافة ميل من مدينة أنازَرب وهالك هناك كثير من اهل السيف الذين قتلتهم او افترستهم الوحوش الضائرة فالنصارى الذين على جبلٍ مجاور لذلك الملعب كانوا ينظرون ما يحدث مترقبين بالهلع والخوف عاقبة مبارزة اخوتهم . وامر الحاكم اخيرًا بعض الحرّاس ان يذهبوا في طلب المعترفين بالنصرانية الذين حُكم عليهم ان يُقذَفوا الى سباع البهائم وكانت التعاذيب قد افضت

بهم الى شرّ حالةٍ حتى لم يعد في امكانهم ان يقوموا منتصبين وألزمهم ان يأتوا بهم الى الملعب . قال كاتب اعالهم لما تقدّمنا على قدر الاستطاعة محترسين من ان لا يرانا الوثنيون أسال دموعنا منظر اخوتنا على تلك الحالة المحزنة حتى ان كثيرًا من المشاهدين لم يتمالكوا ان يمنعوا عيونهم من البكاء ولما ظهر الشهداء كان سكوت وتذمّر الناس على توحش الحاكم وان كثيرين منهم خرجوا من الملعب ورجعوا الى المدينة فسخط الحاكم وامر ان تُرصد جميع الطرق حتى لا يفرّ احد وأمر ان يُحافظ على جميع الذين يحاولون الذهاب ليقدر ان يستنطقهم ثم أُطلق عددًا كثيرًا من تلك الوحوش وهذه كانها اكتسبت الرزانة والوقار بقوة غير منظورة فلم تدنُ من الشهداء فأوغر ذلك المشهد الغريب صدر الحاكم فامر بضرب المقامين على خدمة الوحوش كأن بينهم وبينها اتفاقًا على ذلك . فهولاء الاشقياء اذ رأوا انهم هُدّدوا بالقتل أطلقوا دبًّا كان قد فرّس ذلك النهار ثلثة رجال ولكن ماذا كان من امرهِ حينئذٍ . انهُ تقدّم بهدوء نحو الشهداء وجعل يلحس جراح اندرونيكوس وأراد الشهيد المذكور ان يهيّجها عليهِ فلم تتهيّج . اما مكسيموس فاذ لم يعُد يملك نفسهُ أمر ان يُقتل الدبّ حالاً على رجلي اندرونيكوس فامر ترنتيانوس وهو خائف على نفسهِ ان يُطلقوا عليهم لبوةً هائجةً ولاجرم ان زئير اللبوة أرعب أشجع المشاهدين غير انها لما دنت من الشهداء الملقين على الارض انطرحت على قدمَي تراكيوس ولحستهما وفيما كان مكسيموس مزبدًا من الغضب أمر بان يحرّشوها عليهم اما اللبوة فاذ غضبت وهاجت اسمعت زئيرًا هائلاً وخاف منهُ الحضر وارتعدوا جدًّا حتى صاحوا انهُ ينبغي ان يُفتح محلها فدُعي الجالِدون فأجهزوا على الشهداء وامر مكسيموس ان توضع اجسادهم مع اجساد مَن قُتل من الجالِدين وامر ستةً من الشُرَط ان يحرسوها مدة الليل خشية ان تسرقها النصارى ولكن بسبب الظلام والعاصفة الشديدة تبدّد الحرّاس وعرف المؤمنون الاجسام الثلثة بنورٍ عجيب دلّهم عليها فحملوها باحترام على مناكبهم وخبأوها في مغارةٍ بالجبال المجاورة حيث لا يُظنّ ان احدًا يطلبها هناك اما الحاكم فعاقب الحرّاس عقابًا عنيفًا لانهم تركوا مكانهم. هذا وثلثة من المسيحيين الحاذقين في العبادة يدعون فاليكوس ومَرْكيانوس وفاروس اعتزلوا الى تلك المغارة قاصدين ان يقضوا هناك بقية حياتهم وعقيب ثلثة ايام من موت الشهداء القديسين خرج الحاكم من انازَرب فارسل مسيحيو تلك المدينة هذه القصة الى كنيسة ايكونيا راجين ان تُبلَغ الى مسيحيي بيسيدية وبمفيلية لافادتهم الروحية. هذا وقتل هولاء الشهداء في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الاوّل وفي مثل هذا اليوم كُتبت اساؤهم في كتاب تراجم الصالحين (غودسكار)

اليوم الثاني عشر

وفيهِ ترجمة القديس ويلفريد الاسقف

وُلد هذا الحبر الطوباوي بانكلترة سنة اربع وثلثين وستمائة للمسيح وكان متسلطًا على مملكة كَنْت ادبَلد وعلى مملكة نورثمبرلند القديس أُسفَلد فلما استهلّ من حشا والدتهِ ظهر فوق بيت ابيهِ عمود نارٍ فاضاء الطريق كلهُ ولم يُحدِث شيئًا من الاذى فاعتُبر ذلك اشارةً الى ان هذا الصبي سيكون مصباح الكنيسة المضيء ولما أبدى في طفوليتهِ علامات ميلهِ الشديد الى الفضيلة ارسلهُ والدهُ الى قصر الملكة أنفليدا حليلة الملك أُسفي خليفة أُسفَلد فرحّبت بهِ وقابلتهُ بتمام الاكرام ولما رأتهُ ذا ميلٍ الى النسك أدخلتهُ وهو ابن اربع عشرة سنةً دير لِندِسفرن فمكث ثمَّ بعض اعوام على ورَعٍ عظيم وقبل ان يحصل على الاكليل الرهباني تعلّم مزامير داود وبدأ يدرس الاسفار المقدسة . غير انهُ اذ رأى ان الرهبان وهم اسكوسيون لم يُعلّموهُ أوكد طرائق الكمال ازمع ان يسافر الى رومية ليترهّب بها ويتعلم ايضًا الاحتفالات الكنائسية وكل ما يتعلق بالترتيب الرهباني

واخبر بقصدهِ الملكة انفليدا مساعدتهُ وملك كَنت فاصحباهُ لاتمام مقصدهِ بالقديس مبارك بيسكوب وفي الحال سار معهُ واذ مرَّ بمدينة ليون سلّم هناك على رئيس الاساقفة القديس أنامون فهذا الحبر القديس اذ عرف اولاً وبمجرَّد النظر ان طبيعة هذا الشاب والنعمة قد جعلتاهُ كاملاً اراد ان يبقيهُ عندهُ وامتحنهُ بتقادم وهدايا كبيرة إرادةَ ان يعطنهُ الى الاقامة بفرنسا لكنما ويلفريد قدّم لسيادتهِ الشكر عما عاملهُ بهِ من الاكرام وداوم المسير حيث لم يكن قاصدًا الاّ تخصيص نفسهِ تمامًا ليسوع المسيح

ومنذ بلوغهِ الى رومية المكرَّمة على عهد البابا مرتينوس الاول زار ضريح القديس بطرس وفتح الله عليهِ

بسبب ذلك ليتعلم ما كان راغبًا في ان يعرفهُ وآتاهُ سهولة التعبير ليقدر ان يفسّر لشعوب انكلترة ما يكون قد تعلمهُ فكان الله عزّ وجلّ يقودهُ وارسلهُ الى رجل صالح يُقال لهُ بونيفاسيوس رئيس شمامسة ومستشار الكرسي الرسولي ففسّر لهُ تفسيرًا سديدًا مصيبًا الاناجيل الاربعة وحلّ لهُ مشاكل حساب الفصح المجيد وبيّن لهُ كثيرًا من الامور التي لم يكن لهُ سبيل الى ان يعرفها في وطنهِ. هذا ولما تعلّم ما كان في قصدهِ ان يتعلمهُ عاد الى انكلترة وكان قد توجّه قبلاً الى مدينة ليون ومثل امام رئيس الاساقفة الذي كان قد اكرم مثواهُ وعاملهُ بلطفٍ كما رأيت فاذا بهِ على عهد المحبة كما وجدهُ في مروره الاول وبناء على ذلك لبث لديهِ ثلث سنين ورئيس الاساقفة هذا أعدّهُ لقبول الدرجات المقدسة بان عمل لهُ الاكليل الاكليريكي وكان الحبر المذكور ناويًا ان يرقّيهُ الى درجة الكهنوت وان يجعلهُ ايضًا خليفتهُ ووريثهُ غير ان الموت الذي عاجلهُ وقّفهُ عن اجراء هذا المقصد وكان ويلفريد يريد ان يموت معهُ ليحصل على نصيبهِ في مجد الشهيد. لكنما رُسل ابروين القتَلة لمعرفتهم انهُ غريب لم يضرّوهُ شيئًا. فرجع من ثمّ الى انكلترة وبالتفات وامداد الكفريد ملك البرنيصيان بنى ديرًا بمكان يقال لهُ ستمفرد وتمتع باوقاف دير ريبون الذي كان عامرًا ومأهولاً قبلاً بالرهبان الاسكوسيين

فما لبث الناس ان عرفوا في هذه الوظيفة سموّ فضيلتهِ وحكمتهِ ورسمهُ كاهنًا اجيلبرت مطران فست سكسون واشتهر في محاورة مشهورة جرت في دير القديسة هيلدا في سترينسلش المعروفة اليوم باسم فيتبي بحضرة الملك أسفي وابنهِ الملك الكفريد وكان الجدال على زمان تعييد الفصح فكان اهل سكوسيا وبريتانيا يريدون ان يتبعوا في ذلك عادة بعض الشرقيين (١) واما القديس ويلفريد فناضل عن العادة الرومانية. هذا وليس شيء اكثر اعتبارًا في هذه المحاورة التي فيها يعتبر كلا الخصمين سلطة الكرسي الرسولي نظير قاعدة ما تفوّه بهِ احد هذَين الملكين وهو انهُ لما ذكر القديس ويلفريد ان المسيح قال لبطرس انت الصخرة الخ قال أسفي أتعلمون كلكم ان يسوع المسيح خاطب بهذا الكلام القديس بطرس وبهذا القول اعطاهُ مفاتيح ملكوت السماء اجابوا نعم نعرف ذلك فقال الملك اعلموا اني لا اريد ان اخالف من هو بوّاب السماء واني مستعدٌّ ان اطيع اوامرهُ حتى لا يُغلق بوجهي ذلك الباب. فاستحسن قصد الملك المجمع كلهُ

وصار القديس ويلفريد اسقف يورك وارتسم بفرنسا ولكنهُ لم يجلس على كرسي هذه الاسقفية الاّ سنة ستمائة وتسع وستين للمسيح ومنذ تقلّد رعاية كنيستهِ صرف جلّ همّتهِ وغيرتهِ الى تأديب الرعية فأدخل فيها كثرة الاعتراف والتناول وتلاوة الفروض الالهية وعادة المواعظ الكنائسية والانذار بكلام الله وعُني بان يهذّب اخلاق المؤمنين على قواعد الانجيل المنزّهة عن الخطأ. والحاصل ان ابرشيتهُ ما لبثت ان تحوّلت الى هيئة أُخرى

ان غيرتهُ على حفظ وصايا الكنيسة أغاظت عليهِ اكفريد ثاني اولاد أسفي فاضطهدهُ هذا الملك اضطهادًا شديدًا فركب سفينةً ليسافر الى رومية غير انهُ ما دخل البحر الاّ هبّت زوبعة وطرحتهُ على جوانب بلد فريز. ولا ريب ان ذلك كان عناية من الله الذي قادهُ الى تلك البلاد فقابلهُ هناك الملك ادلجيز بالاكرام وحسن الالتفات وكذا رعيتهُ كلهم مع انهم وثنيون وبشّر ثمّ بالمسيح وعمّد منهم الوفًا وجعل ايضًا سبيلاً للقديس ويليبرود ليؤسّس هناك كنيسةً جديدةً. فشتّى في تلك البلاد ثم ذهب الى رومية فاظهر لهُ البابا القديس اغاتون كل علامات الاعتبار والالتفات وفحصت دعواهُ في مجمع اساقفة فظهرت برارتهُ كالشمس في كبد السماء وثُبت في كرسيهِ بدون صعوبة البتة ثم أُرسل الى انكلترة ليثابر هناك على ممارسة وظيفتهِ لكنما الملك لم يأذن لهُ ان يدخل بلادهُ فذهب

(١) حاشية. من المؤكد ان الرسل الذين كانوا بين اليهود احتفلوا مدّة ان يُعيّد الفصح المسيحيّ واليهودي في يوم واحد ومن الثابت ايضًا ان العادة المضادة كانت تعليم الكنيسة العام التعليم الذي وضعهُ الرسل تفرقةً بين العهد القديم والعهد الجديد ولذلك بدلوا السبت بالاحد ولهذا السبب عينهِ ابطل المجمع النيقاوي المسكوني المنعقد سنة ثلثمائة وخمس وعشرين عادة تعييد الفصح مع اليهود في اليوم الرابع عشر من الشهر القمري الذي بعد الاعتدال الربيعي وأصرّ قوم على رأيهم فاضحوا مشاقّين ولُقّبوا بالاربعة عشريّين واعتبر قوم تلك العادة كوصية بحسب شريعة اليهود فاعتُبروا دائمًا كمبتدعين. وفي الجيلين الخامس والسادس عيّد الاسكوسيّون والايرلنديّون الفصح يوم الاحد لكنهم خالفوا الكنيسة الرومانية في انهُ اذا وقع اليوم الرابع عشر الاحد احتفلوا فيهِ بالفصح مع اليهود اما الكنيسة الرومانية فتعيّد الفصح يوم الاحد الواقع بعد اليوم ١٤ فرارًا من التعييد مع اليهود. وبالنتيجة لم يحكم بتخطئتهم المجمع المسكوني النيقاوي اذ لم يكونوا على عادة الشرقيين المذكورين وإن كانوا على ضلال

الى الانكليز السكسونيين ليبشرهم بالانجيل فحصل لمواعظهِ هناك نجاح كبير. كيف لا وقد عمَّد منهم خلقًا كثيرًا ورقّى كثيرًا منهم الى درجة الكمال المسيحي وجعلهم يتبعون الطريقة الرهبانية وبنى في ذلك الصُقع دير بُرنام ودير سلسي. ذلك وافاض على البرابرة البركات الروحية وجلب لهم كل نوع من البركات الزمنية ولاسيما انهُ انقذهم من المجاعة التي نشأت عن انقطاع المطر زمانًا طويلاً وبدعائهِ سقى الله ارضهم سحائب غزيرة هطّالة فغدت طيّبة مخصبة

ومات أكفريد وخليفتهُ اخوهُ ارجع هذا القديس سنة ست وثمانين وستمائة الى ابرشيتهِ غير انهُ لم يقدر ان يسوسها مدة طويلة لانهُ التزم ان يقاوم الملك الجديد مناضلةً عن النواميس الكنائسية كما قاوم سلفاءَهُ ونُفي ظلمًا وعدوانًا كما نُفي اول مرةٍ وكان على عرش الخلافة البطرسية وقتئذٍ يوحنا السادس فتشكى من هذا الظلم في وسط المجمع ولم يحتمل ان مثل هذا الراعي ينفصل عن رعيتهِ ولذلك اعطاهُ براءة رسولية وبها امرهُ ان يعود الى ابرشيتهِ. ولما فاز ويلفريد بهذه البراءة رجع من رومية الى فرنسا ليعود الى بلادهِ واذ بلغ مدينة مو اصابهُ مرضٌ شديد لم يظن احد انهُ يشفى منهُ غير ان الله عزَّ وجل بعث اليهِ ميخائيل رئيس الملئكة فعزَّاهُ وشدَّدهُ واعاد اليهِ العافية. ولما رجع الى انكلترة اتحد بريتفلد رئيس اساقفة كنتوربري وايتلرد الذي ترك التاج ليتبع الطريقة الرهبانية ثم صار رئيس دير برني ليُلفوا الصلح بينهُ وبين ملكهِ وينالوا منهُ انفاذ حكم الحبر الاعظم فذهب ذلك على غير فائدة لان الله أذن لكمال هذا القديس ان يبقى مضطهدًا ما دام الملك الكفريد حيًّا وان لا يعود الى كرسي اسقفيتهِ الاَّ على عهد ابنهِ وخليفتهِ الملك أسرد وحينئذٍ عكف بطمأنينة على تأمل الحقائق الابدية وترتيب حساب حياتهِ كلها ليظهر في دينونة الله وهذا ما اعتاد ان يعملهُ في دير أندلم المعروف اليوم بدير أندل. والحاصل ان الله اراد ان يجازيهُ على اعمالهِ وما قاسى من المحن والشدائد فتوفي في ذلك الدير عينهِ بين جماعة من الرهبان الصالحين الذين كانوا هناك ونُقل جسدهُ الى ديرهِ القديم في ريبون وكان ذلك في اليوم الرابع والعشرين من شهر نيسان سنة تسع وسبعمائة

اما هذا الدير فخرب فيما بعد وذخائرهُ نُقل جانب كبير منها الى كنيسة كنتوربري وأُودعت تحت المذبح الكبير حتى امر لَنفرنقوس سنة تسع وخمسين وتسعمائة بوضعها في صندوق مزيَّن ووضعها القديس انسلموس على شمالي ذلك المذبح في اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الاول وبدأت الكنيسة منذ ذلك الوقت تعيِّد عيد القديس ويلفريد في مثل اليوم المذكور. وقد كانوا يعيِّدونهُ في اليوم الرابع والعشرين من شهر نيسان وعُرف ذلك من كتاب الكنيسة البريتانية الذي حُفظ في جوميج ومن التقويم القديم للقديس مكسيموس ومن سنكسار شعريّ لبيدا انتشر على يد دشيري ومن تراجم الصالحين الانكليزية. ويُقال ان عظام القديس ويلفريد هي الان بازاء قبر الكردينال بولس المشهور

هذا ويصوِّرونهُ يُقيم ولدًا من الموت لكي يعمّدهُ (غودسكار)

اليوم الثالث عشر

وفيهِ ترجمة القديس ادواردوس ملك الانكليز

كان مولد هذا القديس على راس الجيل الحادي عشر. وكان جدهُ القديس ادواردوس الشهيد. وقد اختير ملكًا وهو بعدُ في مستودَع امهِ وذلك باتفاق الشعب مع انهُ كان لابيهِ ابن آخر بكر فدخلت البلاد اهل الدانيمرك اعداء الانكليز ومن اجل ذلك ارسلوا الطفل الى نرمنديا من اعمال فرنسا ليتربَّى هناك عند خالهِ فاولع بحب الفضائل منذ نعومة اظفارهِ ولاسيما العفة ومن ثم لم يكن يحتمل ما يمكن ان يعيبها ولو يسيرًا ولذا سُمي ملاكًا وكان يحب التردّد الى اديرة الرهبان طمعًا في مخالطتهم ومخاطبتهم في الامور الروحية. ذلك وتُوفي والدهُ بعد ان رأى اعداءهُ قد تسلطوا على اكثر مملكتهِ في السنة الخامسة عشرة بعد الالف وقتلوا اخوَيهِ بايديهم ايضًا

وفيما كان اولئك الاعداء يفتكون بالشعب وينهبون الكنائس ويهدمون الاديرة كان احد الاساقفة بريتوالد قد اختلى في دير ليصلي من اجل الشعب فرأى في الحلم القديس بطرس الرسول يمسح القديس ادواردوس ملكًا ويتنبأ لهُ انهُ يملك بسلام وانهُ يكون سعادة الانكليز الذين كان الله تعالى قد ارسل عليهم البرابرة بسبب خطاياهم. فكان الشاب المومأ اليهِ ينمو في البرّ يومًا فيومًا ويدلّ بسيرتهِ القويمة على حسن العبادة والحشمة. ورُوي انهُ قال لهُ في ذات يوم احد العظماء

انهُ من الممتنع ان يجلس على عرش مملكتهِ بدون ان تُسفَح دماء كثيرين فاجاب القديس وقال لا اقبل اكليل ملك مشترًى بسفك الدم

فمات كانوتس ملك الانكليز الدخيل المغتصب واولادهُ ايضًا وحينئذٍ جلس القديس ادواردوس على عرش ابيهِ سنة اثنتين واربعين والف للمسيح وحصل للشعب سلامٌ وغبطةٌ ثم أقبل على بناء ما انهدم من البِيَع والاديرة وأحدث كثيرًا من الكنائس والاديرة لاعتقادهِ ان سعادة المملكة انما هي بخلوص العبادة . ثم ان عظماء الانكليز اجتمعوا وطلبوا بالحاحٍ ان يزوّجوهُ امرأةً لئلا يصير زمام المملكة بيد الغرباء اذا انقطع نسلهُ ولم يعرفوا انهُ كان قد نذر لله عفتهُ فتأمل الملك امرهُ امام الله تعالى ثم تزوَّج بفتاةٍ مثلهِ في حبِّ العفة يقال لها اديثا واتفقا كلاهما على حفظ جوهر بتوليتهما تحت حجاب الزواج ومن اجل نقاوة قلبهِ استحق ان يعاين الله تعالى مرارًا كثيرة ولا سيما في سرّ القربان المقدس حيث ظهر لهُ السيد المسيح ومن ثم كان يطيل صلاتهُ امام هذا السرّ الالهي ذارفًا الدموع لشدة ولوعهِ بالعبادة وفيما كان يومًا يحضر القداس اخبرهُ الله تعالى بهلاك سفن شعب غريب كان آتيًا الى محاربة مملكة الانكليز

ان ادواردوس لم يباشر الَّا حربًا واحدةً وكان المراد منها ارجاع ملكولوم ملك سكوسيا وانتصر فيها وظفر ظفرًا مجيدًا . وقامت في داخلية مملكتهِ ثوراتٌ فسكّنها بسرعةٍ وسهولةٍ فرأى الناس حينئذٍ ما يقدر عليهِ الملك الذي هو بمنزلة أبٍ لرعيتهِ . وكل من اتصل بهِ وخدمهُ اقتفى اثرهُ واقتدى بمثالهِ فلم يكن في قصرهِ طمع ولا محبة غنًى وثروة ولا هوًى من الاهواء التي لسوء الحال كثيرًا ما تكون بين جلساء الملوك والمقرَّبين اليهم والتي تمهّد السبيل شيئًا فشيئًا الى خراب الممالك . فكان يظهر ان ادواردوس لا همَّ لهُ الَّا بان يجعل رعيتهُ في غبطةٍ وسعادةٍ فخفّف عليهم الضرائب واتخذ كل وسيلةٍ ليخلص من الشدة كل واحدٍ وحيث لم يكن لهُ اهواء يجري معها كان كل دخلهِ السنوي يُصرف في مكافأة الأمناء في خدمتهِ وفي اسعاف الفقراء وفي تزيين الكنائس والاديرة وقد اقام معابد كثيرة وكان الغرض من ذلك ان يُسبَّح الله على الدوام على انهُ لم يُكلّف الرعية في بناء تلك المقامات المقدسة شيئًا فان دَخْل املاكهِ كان كافيًا لكل ما يباشرهُ من الاعمال الخيرية . هذا وان الناس ما كانوا يعرفون بعدُ الرسوم والتكاليف او ما كانوا يبادرون اليها الَّا زمن الحرب وفي اشدّ الضنك . وابطل الملك الجزية التي كانت تُدفع الى اهل دانيمرك منذ ايام ابيهِ ثم تُحمل الى خزينة السلطان فافتكر اكابر المملكة ان بيت المال قد ضعف بواسطة صدقاتهِ فجمعوا مبلغًا وافرًا من اكياسهم ثم قدَّموهُ لهُ بمنزلة هبة كان يُنعم بها عليهِ شعبهُ لاجل نفقة الجنود ولنفقاتٍ أُخر مسبَّبة عن المصاريف الجمهورية . اما ادواردوس فلما علم بما كان شكر رعيّتهُ على سلامة الطويّة واراد ان تُرَدّ الدراهم الى جميع الذين سعوا في جمع هذه الكمية . وكل سيرتهِ كانت تدلّ على انهُ مهذّب النفس الى الغاية وكان لهُ اطمئنان بالٍ لا يتغيَّر في حال من الاحوال واما حديثهُ فكان عذبًا لذيذًا غير انهُ كان مقرونًا بعظَمةٍ ناشئة عن الاحترام وكان مولعًا بالكلام في الامور الروحية وفي الله سبحانهُ

لما رأى ادواردوس الاتفاق والسلام اللذين اعطاهُ اياهما الله وقع في قلبهِ انهُ قد جاء الزمان الذي يفي فيهِ نذرهُ بان يذهب الى رومية المكرَّمة تبرُّكًا بزيارة قبر رأس الرسل القديس بطرس شفيعهِ فجمع مستشاريهِ وكل اساقفة انكلترة وشرفائها واخبرهم بالنذر الذي نذره لما كان منفيًا ببريتانيا وبالشدة التي كان بها عندما نذرهُ وبما عندهُ من الشوق الى ان يفي لله ما كان يجب عليهِ لعزَّتهِ تعالى من زيارة رومية المكرَّمة شكرًا على كثيرٍ من النِعم الممتازة التي نالها كرفعهِ الى عرش الملك وتحريرهِ مملكتهُ من ظلم الدانيمركيين وردِّها الى الحياة لانها كانت كميّتة . فصاح المجتمعون بصوتٍ واحد وطلبوا الى الملك ألَّا يفارقهم وألَّا يسلّم مملكتهُ الى الاخطار ارضاءً لعواطفهِ التقويَّة . اما الملك فوقع في الارتباك والالتباك فرأى من جهةٍ ان رفض توسُّلات رعيتهِ كلها امرٌ خشنٌ ووحشيٌّ غير انهُ من جهةٍ اخرى شعر بان النذر يُلحُّ عليهِ والعبادة تُغريهِ بان يعتبر الايمان اكثر من شعبهِ وما هو مرتبط بهِ اكثر من انزعاج الآخرين فأمعن النظر في ذلك ثم فوَّض الامر الى السيد لهُ المجد وقصد ان يعرض القضية للبابا (وكان في ذلك العهد لاون التاسع الذي تولّى رئاسة الكنيسة سنة تسع واربعين والف) وينتظر الجواب . فاجابهُ البابا بما مضمونهُ انهُ لا يخرج من مملكتهِ لان

هذا هو الانسب لخدمة الله واعفاهُ من نذرهِ زيارة رومية المكرَّمة ورفع عنهُ هذا الالتزام وأمرهُ ان يحسن الى الفقراء بقدر ما كان لا بدَّ ان ينفقهُ في سفرهِ وان يبني ديرًا جديدًا او يزيد في بعض دير قديم اكرامًا للرسول بطرس الذي لا يزال الله ممجدًا بهِ على الدوام واثبت بسلطانهِ الرسولي كل ما كان قد وقفهُ على هذا الدير واعفاهُ من سلطة الاساقفة ومن كل سلطة عالمية ما خلا سلطة الملك

واعلم انهُ في الوقت الذي ورد فيهِ هذا الجواب من رومية شهد الله عليهِ بواسطة رؤيا انزلها على قلب رجل صالح كان ساكنًا في كهفٍ منذ سنين يقدّم كفَّارةً لله لانهُ ذات يوم لما بسط الليل على الارض حجاب الظلام تراءى لهُ القديس بطرس وامرهُ ان يكتب من قِبلهِ الى الملك ادواردوس ان يعمل بتدقيق كل ما يأمرهُ بهِ البابا وانهُ قد اعفاهُ من الزام نذرهِ

ولا مناص لنا من ان نروي بالاسهاب المحنة المشهورة التي ابتُليت بها ايمَّا أمّ القديس . وهذا هو الاسلوب الذي رواها بهِ كثير من المؤرخين ان بعض الجلساء الحاسدين بمجرَّد حصولهم على ثقة الملك اعتنوا بان يدخلوا في عقلهِ ان يبيد الملكة امهُ وحيث انهم يعرفون تقوى ادواردوس غطوا ذلك ببرقع التقوى وتظاهروا بالغيرة على الديانة مع انهم في الواقع لم يكونوا على شيء من ذلك واما امهُ اذ كانت ترى غالبًا الوينوس التقيّ مطران وَنشستر وكانت تجد في مشوراتهِ قواعد حكمية للسلوك لاجل اشغال ضميرها فصوَّروا هذه الالفة بصورة الاثم وروبرتوس الذي اتى بهِ الملك من نُرمنديا والذي كان رئيس جوميج وصار رئيس اساقفة كنتوربري خُدع بالوشاية والملك وقع في بلبالٍ وقلق شديد لانهُ كان يظهر لهُ من جهةٍ ان الذنب فاحشٌ جدًّا حتى لا يقبل التصديق ومن جهةٍ أُخرى يخاف ان يكون مجرمًا بالموافقة على مثل هذا الشك فكلَّف الاساقفة فحص هذه القضية واراد ان يجتمعوا بمدينة ونشستر ومُنع الوينوس عن الخروج من المدينة وعند ذلك أُدخلت الملكة دير ورويل . ولم يحكم الاساقفة بشيء ثم عقدوا جلسةً ثانيةً وحكم اكثرهم انهُ لا ينبغي الالتفات الى هذه القضية . اما الملك فكان يشتهي ذلك غير ان رئيس اساقفة كنتوربري ألحّ عليهِ مزيد الالحاح لجسامة الشك ولشدة الحاجة الى علاجهِ بدواءٍ فعَّال حتى اعتمدوا على اشد طريقةٍ فذهبت ايمَّا كسوسنةٍ أُخرى الى ان تقدّم نفسها ضحيَّة المتهمين والتجأَت الى الله اذ لم تجد وسيلةً لاثبات عفتها وطهارة ذيلها ولاقت بعظم الاتكال عليهِ تعالى التجربة المدعوة الحكم الكبير (١)

ولما كان اليوم المعيَّن قضت ليلتها بالصلاة واذ أَتت الساعة مشت حافيةً وعلى عينيها برقعٌ على تسع محاريث من حديد محماةٍ كانت موضوعةً في كنيسة القديس سويثين بمدينة ونشستر على انهُ لم يلحقها منها أذًى فأدَّت الشكر لله الذي صانها باعجوبة باهرة واما الملك فتأثَّر من تلك الآية البيّنة وخرَّ على قدمَي امهِ واستغفر منها من صميم فؤادهِ ووقف على كنيسة القديس سويثين اوقافًا كثيرة وبسبب ذلك أغنتها الملكة والاسقف ألوينوس بما وقفاهُ عليها ومطران كنتوربري ذهب الى نُرمنديا ونسك في دير جوميج بعد ان تبرَّك بزيارة رومية المكرَّمة تكفيرًا عن زلّتهِ وايمّا عادت الى الحال

(١) حاشية . ان وضع التجربة التي ذكرناها للكشف عن القضايا التي لم تفحص بالكفاية فاوَّل الامر يُبرّئ المتهوم نفسهُ بالقَسَم اذا طلب ذلك القاضي والمتَّهم واكتفيا بهِ . هذا وكان القسم يُثبَّت احيانًا باثني عشر مزكّيًا يقسمون انهم يعتقدون بان المتَّهم قال الحق واذا لم يُقبل الحلِف يؤمَر بالتزكية الكبيرة وهي ثلثة انواع اعني بها النار الحامية والماء الحارّ والماء البارد اما النار الحامية فكان المتهوم يمسكها بيدهِ او يمشي عليها حافيًا واما الماء الحارُّ فكان يغمس يدهُ فيهِ الى المعصم او الى المرفَق ايضًا واما الماء البارد فكان المتهوم يُغطَّس فيهِ . وانما كان الغرض من هذه التجربة المثلَّثة معرفة السحراء ولم يكن يستعملها اوَّل الامر الاَّ القضاة غير انهُ كثر استعمالها في انكلترة بين الرعية على عهد الملك يعقوب الاوَّل والكرلوسيّين

ان رئيس اساقفة ليون اكوباردوس العلاَّمة المفضال الذي انتقل الى رحمة الله سنة اربعين وثمانمائة وأُحصي مع اولياء الله الكرام صنَّف كتابًا مفيدًا في دحض مثل هذه العادة وأَثبت فيهِ ان الذين يجرون عليها يجرّبون الله ويخالفون الناموس الالهي ويهدمون وصية المحبة . هذا حُكم عليهم في مجمع أُورمس سنة تسع وعشرين وثمانمائة

ان اسكندر الثاني الذي كان مرشد كيليوم الغازي قبل ارتفاعهِ الى الباباوية نسخ هذه التجربة ببراءةٍ لم تزل موجودةً ولما امر المجمع المنعقد في مدينة مَغونسا سنة سبعٍ واربعين وثمانمائة بالنار الحامية في فحص خدَّام متهَّمين قاوم البابا استفانس الخامس هذا الامر برسالةٍ بعث بها الى مطران مَغونسا نفسهِ وهذه التجربة والتجربتان الباقيتان كان قد رذلهنَّ قديمًا البابا غريغوريوس الكبير

ان العادات التي ليست من الترتيب الالهي ولا يتعلّق بها موعدٌ فائق الطبيعة هي اعتقادات باطلة بلا ريب والالتجاء اليها تجربة لله عزَّ شانهُ . وقد تولَّدت بين شعوب الشمال واصلهم من عَبَدة الاوثان والكرسي الرسولي ابطلها في كل موضعٍ منذ عرف بها . انتهى



المسيحيون في الداميس

التي كانت عليها اوَّلاً . واستأثرت بها رحمة الله في مدينة ونشستر

وكان هذا الملك القديس يقسم نهارهُ الى ثلثة اقسام الاوَّل للصلاة والثاني لتدبير امور الملك والثالث لممارسة افعال الرحمة نحو المساكين وقد اتفق لهُ انهُ صادف يومًا رجلاً مخلَّعًا في الطريق فحملهُ على كاهلهِ ومضى بهِ الى حيث يُريد ولما أنزلهُ رأى انهُ قد برئ . واما حبهُ للفضيلة والعفة فجعلهُ مكرمًا للقديس يوحنا الانجيلي عاضد محبي البتولية وكان قد نذر انهُ يتصدَّق على كل من يسأَلهُ صدقةً باسم هذا القديس . قيل انهُ في ذات يوم تراءى لهُ هذا القديس بهيئة رجل يستعطي وطلب منهُ الصدقة باسم القديس يوحنا الانجيلي غير انهُ لم يكن مع الملك دراهم اذ ذاك فاعطاهُ خاتمهُ الملوكي وبعد ذلك بايام قليلة تراءى الرسول المذكور لاثنين من مملكة الانكليز كانا قد اتيا الى اورشليم ليزورا الاماكن المقدسة وقال لهما ردَّا هذا الخاتم للملك وقولا لهُ من قِبَلي انهُ لم يبقَ لهُ من الحياة الاَّ ستة اشهر واني سانزل حينئذٍ لكي اصعد بهِ الى وليمة الحمل النقي فاخبر الملك بذلك فاخذ الاهبة للوفاة ومات في اليوم الخامس من شهر كانون الثاني في السنة السادسة والستين بعد الالف للمسيح وعمرهُ اربعٌ وستون سنة ومدة ملكهِ ثلث وعشرون سنة

هذا وقد صنع الله عجائب كثيرة عند قبرهِ المقدس ولما رأى غويلموس الاول كثرتها امر بان يتزيَّن قبر القديس بفضة وذهب وبعد ست وثلثين سنة لموتهِ نُقل جسدهُ باحتفالٍ على يد القديس توما الاسقف فلما فتحوا القبر وجدوه صحيحًا ولم يعترهِ شيءٌ من الفساد بل كان كانهُ مات منذ يوم واحد ووقع ذلك في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الاول سنة اثنتين ومائة والفٍ للمسيح ومن ثمَّ جعلت الكنيسة عيدهُ في اليوم المذكور

اليوم الرابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس كالِستوس البابا الشهيد

ان التواريخ لم تنقل لنا شيئًا عمَّا صنع هذا القديس قبل ارتقاعهِ الى عرش الخلافة البابا وية ولكن من المتَّفق عليهِ انهُ كان رومانيًا اكليريكيًا وقد جلس على الكرسي البطرسي بعد وفاة القديس زافيرينوس في اليوم السادس والعشرين من شهر آب في السنة السابعة او الثامنة عشرة بعد المائتين للمسيح وكان المسيحيون ذلك الحين في سلام وأمان لان اليوغاباالوس واسكندر الملكين لم يضطهداهم بل ان اسكندر الملك أنعم عليهم بمنزلٍ يجتمعون فيهِ لاقامة الصلاة وقد نقل المؤرخ الوثني ان هذا الملك كان يحب المسيحيين على حسن سيرتهم ونقاوة تعليمهم . فبنى الحبر القديس كنيسةً على اسم العذراء الجليلة بالمكان الذي قيل انهُ خرج فيهِ وقت ميلاد الرب نبع حليب جرى مدة يومٍ وهو بقرب نهر تيبر ثم عيَّن مقبرةً لدفن المؤمنين دُفن فيها الوفٌ من الشهداء وباباوات كثيرون

ومع ان الملك اسكندر كان يعتبر المسيحيين اعتبارًا كبيرًا ويضع في قصرهِ ايقونة السيد المسيح ويكرمهُ كاكرامهِ احد آلهة المملكة وعزم على بناء هيكل لهُ تعالى قُتِل على عهدهِ في رومية بأمر الولاة والحكام كثيرون من المسيحيين بسبب الايمان خصوصًا وقت غيابهِ عن رومية ومنهم القديس كالِستوس اما استشهاد هذا القديس فقدكان سببهُ هذا وهو انهُ في السنة الثانية والعشرين بعد المائتين للمسيح انقضَّت صاعقةٌ على بناء عظيم في رومية يُسمَّى كابتوليون واحرقت اكثرهُ وانكسر حينئذٍ اكبر الاوثان وكان من ذهب ثم ذاب بالنار . فاضطرب الوثنيون ونسبوا ذلك الى سخط آلهتهم فعزموا على ان يقرّبوا لها ذبائح فلما اجتمع الشعب ليحضروا الذبيحة اذا بالسماء قد رعدت مع انهُ لم يكن فيها لطخة غيم وانقضَّت صاعقةٌ أُخرى وقتلت اربعة كهنة وسحقت المذبح والاصنام

فاستحوذ وقتئذٍ على الجميع خوفٌ عظيم وخرج كثيرون من المدينة الى اماكن منفردة فوجدوا المسيحيين مجتمعين للصلاة ولتقدمة التقدُّس الالهي بالقرب من نهر تيبر فلما رأى ذلك باماسيوس احد قناصل رومية ظنَّ بالمسيحيين انهم اجتمعوا لفعل السحر وانهم تسبَّبوا في هدم هيكل آلهتهم . فمضى واخبر بذلك حاكم المدينة فارسل في صحبتهِ جنودًا ليقبضوا على المؤمنين فبادر باماسيوس لانفاذ الامر مع جماعة من الجنود . غير انهم لما بلغوا الى حيث كان المسيحيون لم يجدوا احدًا لان الله تعالى ضربهم بالعمى فنسب باماسيوس هذه الحادثة الى قوة السحر واخبر بها الحاكم وامر بتقدمة ذبيحة للآلهة لتدفع عنهم ضرر السحر

واعلم انهُ في ابتداء هذه التقدمة النفاقية صرخت بوليانا

الفتاة التي فيها شيطان وقالت ان الله المتعبد لهُ كالِستوس هو الاله الحق ولا يطيق رجس ذبائحكم وسينتقم من كل الذين لا يعبدونهُ . فهذا الكلام الذي الزم الله الشيطان ان ينطق بهِ على فم الفتاة أوقع الرُعب في قلب بالماسيوس فخرج من الهيكل وذهب سرًّا الى الحبر القديس وخرَّ لهُ معترفًا بان لا اله الاَّ اله المسيحيين وطلب المعمودية فامتلأ المؤمنون فرحًا وشكروا الله تعالى على هذا التغيير العجيب . وشرع الحبر القديس يعلّم بالماسيوس وجميع اهل بيتهِ قواعد النصرانية ثم عمَّدهم . وافتقدهُ صاحبٌ لهُ اسمهُ فيليكوس وهو من طلاَّب المعمودية وكانت امرأتهُ بلاندا مخلَّعةً وطلب اليهِ ان يصلي لشفاء امرأتهِ واستجاب بالماسيوس طلبتهُ واخذ يصلّي طالبًا من الرب شفاءها ليعرف الجميع انهُ هو الاله الحق ولم تكمل صلاتهُ حتى جاءت تلك المرأة واخبرت انها شُفيت وان السيد المسيح لهُ المجد تراءى لها وامسكها بيدها وشفاها وعند ذلك طلبت المعمودية فاستدعوا القديس كالِستوس الذي عمَّدها وزوجها ايضًا . ولما درى بذلك احد اصدقاء القنصل المدعو سمبليسيوس آمن ايضًا واعتمد ومعهُ كل اهل بيتهِ وكان عددهم ثمانية وستين نفرًا ما علا بالماسيوس

فشاع في رومية خبر هذه العجائب وبما ان الحاكم لم يحرّك لعلمهِ ان الملك يحب المسيحيين تذمَّر كهنة الاوثان وهيجوا الشعب على المغتصب فخاف الحاكم وارسل فقبض على جميع الذين آمنوا بالمسيح حديثًا مع كاليبوديوس الكاهن الذي كان يعلمهم وفي الحال قطع رؤوس جميعهم ثم ارسل يطلب القديس كالِستوس لظنهِ انهُ يميتهُ بهذا السجس . فلما وجدوهُ ضربوهُ ثم ألقوهُ في سجن وتركوهُ هناك خمسة ايام لا اكلاً ولا شربًا وكان جنود الحاكم يضربونهُ كل يوم بالعصي بشدة القساوة . فظهر لهُ القديس كاليبوديوس واخبرهُ انهُ قد جاء وقت انتصارهِ . اما القديس كالستوس فلم يزل مصليًا الى الرب فاقترب منهُ بريفانوس احد الجنود المتألم كثيرًا من قروح كانت اعترتهُ وطلب اليهِ ان يشفيهُ كما شفى بلاندا فاجابهُ القديس انهُ يشفى لا محالة ان آمن واعتمد فقال انهُ مؤمن من صميم قلبهِ وطالب المعمودية وبعد ذلك عمَّدهُ القديس وشفاهُ من مرضهِ

فلما درى الحاكم بذلك حكم بالموت على القديس وعلى تلميذهِ الجديد وهذا قد مات تحت الضرب ثم أسلم المغتصب القديس كالِستوس الى الشعب فجرُّوهُ في شوارع المدينة ثم القوهُ في بئر حيث قضى اجلهُ في اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الاوَّل في السنة الثانية والعشرين بعد المائتين للمسيح

اليوم الخامس عشر

وفيهِ ترجمة القديسة ترازيا البتول

الجزء الاول
من مولدها الى سلوكها طريق الكمال

ان كثيرًا من المؤرخين أوردوا ترجمتها وقد عوَّلنا ان نذكر هنا ترجمتها المكتوبة بيدها امتثالاً لامر معرّفها بل لله الذي اوحى اليها ان تدوّن سيرتها ولكن لا بد هنا من ان ننبه القارىء انها قد عظَّمت زلاَّتها تواضعًا فجعلت الهفوات ذنوبًا كبيرة

ان هذه القديسة ولدت بافيلا مدينة باسبانيا في اليوم الثاني والعشرين من شهر اذار سنة خمس عشرة وخمسمائة والف ونشأت هناك قالت . ان ما انعم الله تعالى بهِ عليَّ ايام صباي قد كان كفوءًا لان أُحصّل بهِ الصلاح لو لم اقاوم جودهُ تعالى بشرّي بما ان والدي كان مولعًا بقراءة الكتب الروحية وكان قد جمع منها في بيتهِ مقدارًا وافرًا ليمرّن اهل بيتهِ على قراءتها وكذا كانت والدتي تهتم بتربيتنا وتحثنا كثيرًا على الصلاة وتكريم والدة الله . ذلك فضلاً عن ان والدي كان رؤوفًا على الفقراء وعفيف اللسان حتى انهُ لم يخرج من فمهِ حلفٌ اصلاً ولا نميمة ولا كذب وفي الجملة فان سيرتهُ كانت محمودة وامي فكانت من اهل الفضائل كيف لا وقد كانت تستخف بالحسن مع انها من ربَّات الجمال وقاست اتعابًا وشدائد ثم ماتت موتًا صالحًا . وكنا نحن اثني عشر ولدًا وقد اقتدى كل منهم بفضائل امي الاَّ انا وحدي مع ان ابي كان يحبني على جميع اخوتي واخواتي

هذا وقبل ان افعل الشرّ كان يظهر للناس اني عاقلة متواضعة وكم يتوجع قلبي ندمًا كلما تذكرت سوء استعمالي الصفات الحميدة التي زيَّنني الله بها ولا ريب اني ركبت ذنبًا كبيرًا بحيث اني لم اجد في اخوتي ما يردني عن فعل الخير فكانوا يحبونني كما كنت احبهم ولا سيما اخًا يكبرني قليلاً وكنا نقرأ معًا تراجم القديسين ولما رأيت ما كابد بعضهم من العذاب كان يتبين لي انهم فازوا بجنة النعيم بقليل من التعب

ونتوق نفسي اشدّ التوق الى ان اموت مثلهم. على ان ذلك لم يكن حبًّا بالله تعالى بل رغبةً في نيل السعادة السماويّة الابدية وهكذا كان اخي وشرعنا نفتكر كيف نبلغ أربنا فعزمنا على الذهاب الى بلاد اعداء الايمان المسيحي وجعلنا نستعطي قصد ان يُميتونا من اجل الايمان ومع اننا كنا صغيرَين حينئذٍ (لان القديسة كانت اذ ذاك في السنة السابعة من عمرها فقط واخوها لم يتجاوز السنة العاشرة) اظن اننا كنا بنعمة الله تممنا مرامنا لو وجدنا الفرصة. لان ابدية سعادة القديسين كان لها عندنا مزيد الاعتبار وعذاب الهالكين كنا ننفر منهُ اشد النفور كيف لا وكنا لا نزال نردّد هذا الكلام يا لها من سعادة ابدية ويالهُ عقابًا سرمديًّا ويالها من حياةٍ دائمة في السماء او في جهنم

ولما رأينا ان استشهادنا مستحيل بما اننا تحت سلطان والدينا (بحيث اذ خرجت باخيها من المدينة انفاذًا لمرامها صادفها عمٌّ لها ورجع بهما الى البيت) اتفقت مع اخي على ان نعيش عيشة السيّاح المتوحّدين فاقمنا في بستاننا كوخين وكنت اختلي كل يوم في كوخي لأُصلي امام ايقونة تمثّل السيد المسيح مخاطبًا السامريّة على البئر. ثم اني كنت انصدّق على الفقراء على قدر ما استطيع وكان لي صلوات كثيرة وصلاة الوردية ولما ماتت والدتي كنت ابنة اثنتي عشرة سنة. وحينئذٍ سجدت امام ايقونة العذراء المجيدة وطلبت منها بدموع هطّالة ان تتخذني ابنةً لها وقد فزت من ذلك بالنفع الوافر لاني علمت يقينًا اني لم التجئ الى العذراء الاَّ اسعفتني

فلما تقدّمت في العمر قليلاً تنبّهت لِما زانني الله بهِ من المواهب الطبيعية التي كان الناس يحمدونها ويعترفون بعظمتها ولكنني عوض ان اشكر الله عليها استعنت بها على اهانتهِ كما سيُذكر. فاعلم ان ما اشرت الى الشروع في ذكرهِ قد ضرّني جدًّا ويخطر لي مرارًا ان الآباء والامهات الذين لا يصدّون اولادهم عما لا يكسبهم الفضيلة يخطأون في حقهم وانا لما بلغت سن التمييز لم يكن يؤثّر فيّ صلاح سيرة والدتي ولكنّ نقائصها سبّبت لي ضررًا عظيمًا لانها رحمها الله كانت مغرمةً بقراءة كتب النوادر غير ان ذلك لم يضرّ بها كما أضرّ بي بحيث انها كانت تقرأها تنزيهًا لافكارها واستراحةً من اتعابها الثقيلة بيد انها لم تكن تغفل عن الاهتمام الواجب باولادها وربما انها لم تدعنا نقرأ هذه الكتب الاَّ حذرًا من اننا نفتكر في ما ربما يُفضي بنا الى الهلاك ولكن كنا نتغاضى عن واجبات دعوتنا لنتفرّغ للتفكُّر في هذا فقط. وبما ان والدنا كان لا يرضى بذلك كنا نختفي عنهُ لنقرأ تلك الكتب. ولا جرم ان زلتي هذه بردّدت مقاصدي الحميدة وجرّت عليّ زلاّت أُخر كثيرة فاني بدأت احبّ التأنّق في اثوابي وان اظهر حسنةً على ان نيتي لم تكن ردية البتة فلم اكن ارضى ان احدًا يُسخط الله بسببي وبقيت على هذه الحال اعوامًا كثيرةً. ولم يتخالج في صدري ان عليّ في كل ذلك ذنبًا والآن فاعلم يقينًا ان ذنبي كان عظيمًا

هذا وأُشير على الوالدين ان يبذلوا الجهد في تهذيب بنيهم وبناتهم ولا يأذنوا لهم ان يعاشروا الاَّ من يمكن ان يستفيدوا من معاشرتهم وقد خبرت حقيقة الامر في نفسي فاني بمعاشرتي فتاةً من ذوات قرابتي رديئة السيرة قبيحة الخصال ملت عن منهج البرّ فبلغت انا السنة الرابعة عشرة من عمري وانا اظن اني لذلك العهد لم ارتكب خطيئةً مميتةً. اما والدي فلما رأى حبي محادثة تلك الفتاة ولم يسعهُ ان يمنعها عن دخول بيتنا ادخلني في احد أديرة الراهبات لأعيش هناك تحت ارشادهنَّ

وفي الثمانية الايام الاولى كنت على غاية البلبال والسجس ولكن بعد ذلك هدأ قلبي واطمأن بالي فرجعت اليَّ افكاري ومقاصدي الحميدة الاولى وذلك بواسطة راهبة فاضلة كانت تدبرني وكنت التذُّ بحديثها وأُقبل على نصائحها فذكرت لي ذات يومٍ انها ترهّبت بمجرّد تأملها قولهُ تعالى المدعوّون كثيرون والمختارون قليلون ثم ذكرت عظمة الاجر الذي عدّهُ جلَّ عداهُ لمن ترك كل ما بالدنيا حبًّا لهُ. فان هذه المحادثة المقدسة استأصلت ما بقلبي من الملكات الرديئة فاشتقت حينئذٍ الى الخيور الابدية وفارقني النفور من الدعوة الرهبانية حتى اني كلما كنت أرى احدى الراهبات مصليةً بدموعٍ او ممارسة فعلاً من افعال العبادة كنت اغار منها. وكانت التقوى قُبيل ذلك في قلبي كالشجرة اليابسة بحيث لو حدّثني احد بكل آلام سيدنا يسوع المسيح لما كانت تسيل من مقلتيَّ دمعةٌ واحدة على ان هذا قد كان يحزنني جدًّا

وقد اقمت بهذا الدير سنة ونصف سنة وانتفعت منهُ كثيرًا. ومرضتُ في غضون ذلك مرضًا شديدًا حتى اضطررت الى ان اعود الى بيت ابي ولما برئت بحول الله تعالى ارسلني ابي الى اختي المتزوّجة في خارج المدينة وزرت

عمي لان منزلهُ كان على طريقي وبقيت عندهُ زماناً بما انهُ كان رجلاً فاضلاً يخاف الله وقد ترهَّب فيما بعد. وقد التقطت من مخاطبتهِ وقراءة كتبهِ فائدةً جليلةً كنت قد تنبَّهت لها ايام الصِغر وهي معرفة ان كل ما بالدنيا حقيرٌ وفانٍ وكالبرق يمرّ فاخذني الخوف من ان اهلك اذا ادركني الموت وانا على تلك الحال فثبت في اعتقادي ان الترهُّب اوثق واسطةٍ لخلاصي ولكن لم اعزم وقتئذٍ عليهِ وما برحت في التردُّد ومقاتلة الافكار ثلثة اشهر حتى لما خطرت صعوبة الدعوة الرهبانية اعتبرت انها بلا ريب دون عذاب المطهر بكثيرٍ وانني ان استحققت عذاب جهنم فلا يكون لي حجة لان اشكو من احتمال هذ العذاب. فافرغ الشيطان كنانة الجهد في ردّي عن الطريقة الرهبانية فاخذ يصوّر لي ضعف مزاجي وعجزي عن احتمال تقشفات تلك الطريقة الاَّ انني كنت حينئذٍ اقاوم هذه التجربة قائلةً في نفسي انهُ من بعد ان سيدنا يسوع المسيح تألَّم لاجلي جدًّا فمن المعروف ان أتألَّم لاجلهِ ايضاً وانا اتوسل اليهِ ان يأخذ بيدي ويعينني على مقاومة الآلام وهو خير مُستعان

ثم عزمت على طلب الاذن من ابي لكي اترهب فكاشفتهُ بمقصدي فلم يوافقني عليهِ لفرط ما كان يحبني بل قال لي افعلي بعد موتي ما تشتهينهُ. غير انني لما طلبت منهُ هذا مرةً أُخرى بالحاحٍ ارتضى وحينئذٍ تكلمت مع احد اخوتي وحرَّضتهُ على الزهد واتباع مذهب الترهُّب وبيَّنت لهُ غرور الدنيا واباطيلها واخطارها. فارتضى بان يترهب معي ولكن لما حان وقت خروجي من بيت ابي كدت اتمزَّق اسفاً وكنت كمن تنكسر عظامهُ وما ذلك الاَّ لضعف محبتي لله العاجزة عن تمام الظفر بحبي لابي ولاقربائي لان حبي لهم كان شديدًا حتى لو لم يعنّي سيدي لكنت قد ارتددت الى ما وراء. غير اني لما دخلت الدير ولبست ثوب الرهبانية عرفت مزيد سرورهِ تعالى بالذين يكفرون بنفوسهم ويغتصبونها. كيف لا وقد احال عزَّ اسمهُ حينئذٍ تصلُّب قلبي الى لين العبادة. ومن ثم فلم استصعب شيئاً في ممارسة احقر الامور الرهبانية واصعبها. ولما تأملت تغيري هذا الباطن ورأيت نفسي منزَّهةً عن اباطيل العالم التي كنت احبها دَهِشت

الاَّ ان اختلاف المآكل قوَّى نفسي وأضعف جسدي فتكاثرت عليَّ الاوجاع ولا سيما وجع القلب واستمررت على هذا الحال السنة الاولى وبعد ما صحّ نذرت النذور الرهبانية ولما رأى ابي ان مرضي على اشتداد طلب اذناً ونقلني الى حيث يوجد الاطباء الماهرون وبقيت انا والراهبة رفيقتي هناك نحو سنة واحدة في بيت اختي المتزوّجة وقد وجدت كتاباً في الصلاة العقلية وقرأتهُ باعظم ما يكون من الرغبة قصدَ ان استفيد منهُ لانني لم اكن اعرف بعدُ كيف تُصلَّى الصلاة العقلية ولا كيف الاختلاء الروحي مع ان السيد المسيح كان قد وهبني موهبة الدموع وفيما كنت اقرأ هذا الكتاب واتأملهُ واتَّبع تعليمهُ أُحبّ يسوع ان يرقّيني الى رتبة عالية من رُتب الصلاة العقلية ولكنني لم اعرفها ولم اجد مرشدًا يرشدني اليها

هذا والان فآخذ في ايراد ما حدث لي زمن التجربة الرهبانية حيث قد ذهلت عن ذكرهِ قبلاً فكنت اتكدَّر الى الغاية لأمور طفيفة كشكوى راهبةٍ عليَّ مثلاً وكظن الراهبات بي متى رأينني باكيةً على خطاياي اني مللت من الرهبانية مع اني كنت احبّ كل رياضاتها. الاَّ اني لم اكن أُطيق حينئذٍ الافتراء والاهانة وبعكس ذلك كنت افرح فرحاً كثيرًا باعتبار الراهبات اياي وكنت احفظ ما عدا ذلك كل القوانين اما التشكي عليَّ بدون ان ارتكب ذنباً فلم يكن لي صبرٌ على احتمالهِ ولا جرم ان ذلك من حبي للاعتبار وكان علامةً على قلة فضيلتي وضعف حبي للسيد المصلوب

ولما بلغت الى حيث كان الاطباء يعالجونني اخذت اعترف لكاهنٍ مشهور ببعض صفات حميدة لكنهُ قليل المعرفة وقد ضرَّني اولئك العلماء القليلو العلم وايَّ ضرر حتى علَّمتني التجربة ان الاجدر بالانسان ان يختار مرشدًا لا علم لهُ اصلاً اذا كان مع جهلهِ متواضعاً من ان ينتخب مرشدًا عندهُ شيءٌ من المعرفة. لان مثل هذا المرشد المتواضع لا يثق بسداد رأيهِ فلا يشير بشيء على تلاميذهِ قبل ان يستشير علماء ماهرين والعلماء الموما اليهم لم يقودوني الى الضلال قط وبالعكس المرشدون القليلو العلم فانهم كثيرًا ما اضلُّوني وان لم يقصدوا ذلك بحيث كانوا يهدوني الى الطريق الواسعة مستخفّين بالصغائر وحاسبين ما هو خطيئة مميتة خطيئة عرضية وقد ذكرتُ انا ذلك لنصيحة غيري ونفعهِ. واعلم اني قد استمررت على هذه الحال اكثر من سبع عشرة سنة حتى علَّمني احد الرهبان الدومنيكانيين ثم الرهبان اليسوعيون وكشفوا لي ضلالي وأروني الخطر الذي اوصلني اليهِ الاستخفاف بالزلاَّت الصغيرة

اما الادوية الطبية التي استعملتها ثلثة اشهر فزادتني مرضًا لانها كانت قويّة على مزاجي الضعيف واشرفت بها على المنون لان وجع الحشى الذي تناولت تلك الادوية لشفائهِ اشتدّ ايّ اشتداد حتى كثيرًا ما خُيّل لي انهُ يمزّق حشاي بمخالب وقد خشي الناس من ان شدة هذا الالم الذي لا يحتمل تفضي بي الى الكَلَب . هذا والحمى لم تكن تفارقني واما النار المشتعلة في حشاي فكانت قد اذوت عروق جسدي وهذه الاوجاع كلها القت نفسي في حزن عظيم حتى أَيس الاطباء من شفاءي واصابني داء السلّ وما برحت على هذه الحال ثلثة اشهر حتى ان الاطباء لم يكونوا يدركون كيف كنت استطيع ان احتمل هذه الاوجاع المميتة كل هذا الزمان وقد كنت اناجي الله وحدهُ في ذلك الوقت واردّد في عقلي واذكر بفمي غالب الاوقات كلام ايوب البارّ القائل نِعَم الله قبلنا وبلواءُ لا نقبل (ايوب ٢ : ١٠) وكانت نفسي تشعر حينئذٍ بتعزيةٍ وتقويةٍ عظيمتين

وفي ليلة عيد انتقال العذراء المجيدة سنة ستّ وثلثين وخمسمائة والف (وعمرها اذ ذاك احدى وعشرون سنة) أُغمي عليّ نحو اربعة ايام حتى لم تبقَ فيّ حركة فدهنوني بزيت المسحة الاخيرة ووقع في ظن الجميع اني متّ فحفروا قبري وصلّوا من اجلي الصلوات التي عيّنتها الكنيسة من اجل المرضى فانتبهت فاذا على وجهي شيء من الشمع الذي كان يسيل عليّ من الشمع المكرّس الموضوع حذاء رأسي . وانما الله يعلم فرط الاوجاع التي أَلمّت بي وشعرت بها بعد انتباهي من هذا الغشيان الطويل لاني وجدت لساني متقطعًا من كثرة ما كنت قد عضضتهُ وحنكي على حال تصدني عن ان أتناول ولو نقطة ماء وعظامي كانها مرضّضة والصُداع قد أخذ برأسي كل مأخذ وفي الجملة فجسدي كلهُ قد غدا نظير كُرة مدوّرة لم اقدر ان احرّك منهُ شيئًا ولا أُطيق ان يمسني احد . وما زلت على هذه الحال الى عيد الشعانين غير ان اوجاعي كانت تسكن مرارًا كثيرة متى كنت وحدي لا يعالجني احدٌ ثم عدتُ راجعةً الى الدير وبقيت نحو ثمانية اشهر ليس عليّ الّا الجلد والعظام ولبثت كالمقعَد لا استطيع الخروج نحو ثلث سنين . لعمري اني كابدت ما كابدتهُ من الاوجاع بتمام الصبر والخضوع لارادة الله . اما اوجاعي الاخيرة فقد احتملتها بسرور اذ كنت أَجدها كلا شيء بالنسبة الى الاولى وكانت الاخوات يتعجبن من ذلك وصرت حينئذٍ اشتهي العافية وانما شهوتي عن شوقي الى ممارسة الصلاة العقلية في الخلوة بحيث كنت احبُّ الاختلاء ومناجاة الله والتكلم عنهُ تعالى وقراءة الكتب الروحية كثيرًا . وكانت ندامتي على خطاياي عظيمة حتى كنت احيانًا اترك الصلاة العقلية فرارًا من أَلم الافتكار في اني قد اخطأت الله عليّ وقد نشأ ذلك الحصر والأَلم عن النِعم التي اعتاد الله ان يتكرّم عليّ بها وقت الصلاة وعدم مقابلتي لها بالمعروف . وتلك الدموع الوافرة التي كنت اسجمها على آثامي لم تكن تعزّيني بل كانت تزيدني حزنًا وتضيُّقًا عند تأَملي انها لا تفيد في لتقويم سيرتي ومع عزمي على التوبة واجتهادي في ذلك لم ازل اخطأ ولذلك كان يبين لي ان هذه الدموع الكاذبة وندامتي المصنَّعة تصيّرانني اكثر خطأ وافظع اثمًا

ذلك ولاعتقادي اني اذا حصلت على العافية اقدر ان اقوّم سيرتي واحسن عبادتي طلبت ان يُقدَّس من اجلي والتجأت الى القديس يوسف فانا اعترف باني نلت من الله تعالى جميع ما طلبتهُ حينئذٍ بشفاعة ذلك القديس المعظَّم وقد اختبر قوة شفاعتهِ خلق كثير ولم أَرَ احدًا من الذين أَخصُّوهُ بالاكرام لم يصعد في سلّم الفضيلة وأَنا ناشد الله كل الذين لا يصدقون كلامي ان يختبروا الامر فانهم سيعلمون بالتجربة مزيد فائدة الاستغاثة بهِ عليهِ السلام

فياليت شعري من كان يخالج قلبهُ اني ارجع الى ما كنت عليهِ من الشرّ بعد ان جاءتني الحسنات الجزيلة من قِبل الله وبعد انهُ جلّ شانهُ بدأ يهبني فضائل وخلّصني من يد الموت وانقذني من خطر الهلاك الابدي وكان قد اقام جسدي ونفسي من الموت . غير اني بعد ما تعافيت زججت بنفسي في أَخطار كثيرة بالتماسي ملاهي باطلة . وقد أَصابني ضررٌ جسيم من سكناي في دير غير محكم الاغلاق تخرج منهُ الراهبات وتدخلهُ الناس ولا ريب ان مثل هذا الدير يُلقي الراهبات الفاترات في خطر عظيم مبين بل انهُ للشرّيرات امثالي طريق جهنم لا حصن لضعفهنّ ومن ثمّ فأُشير على الناس أَلا يُدخلوا بناتهنّ في تلك الاديرة لان الاقامة بها اشدّ خطرًا على نفوسهنّ من البقاء بين الناس . فرجعت انا الى ما كنت افعل على عادة راهبات تلك الاديرة اي الى ان اقبل زيارة العالميين واخوض معهم في الخطاب محبّةً لمثل ذلك الملهى لظني ان هذا

لا يضرُّني اكثر ما كان يضرُّ بقية الراهبات اللواتي كنت أرى ان سيرتهنَّ حسنة. وقد اتفق انني حيناً كنت ذات مرةٍ اخاطب رجلاً عالمياً من اصحابي تراءى لي سيدنا يسوع المسيح باطناً على نوعٍ روحي وقد رأيتهُ اوضح من رؤية العين فعرَّفني حالي وان هذه المحبة لا تليق بي فلشدة ما شملني من الخوف عزمت على ان لا اقبل فيما بعد زيارة ذلك الصاحب ولكن لعدم خبرتي بهذه الرؤى الباطنة وخطإ اعتقادي انهُ لا توجد رؤيا روحية بل حسّية طفق الشيطان يظهر لي ان الذي رأيتهُ شيءٌ خياليٌّ او حيلةٌ شيطانية . هذا وان بعض الراهبات أَلحَحْنَ عليَّ في قبول زيارة ذلك الشخص ولم يكن لي جراءَة ان اكشف الامر لأحدٍ فرجعت الى ما كنت عليهِ قبلاً

فاعلم اني بينما كنت احادثهُ اذ دخلت ضفدعة وأقبلت نحونا بسرعة غير مألوفة لمثل هذه الهامّة ولم اعرف كيف استطاعت ان تدخل ذلك المكان فاعتقدت وقتئذٍ ان هذا الامر لا يخلو من سرٍّ بل لا بد ان يكون لهُ شان وفضلاً عن ذلك فقد كانت تنصحني احياناً راهبة فاضلة طاعنة في السن من اقربائي فلم اقبل نصائحها بل كنت انفر واشمئز منها لظني انها تشكّ وتسيءُ الظنّ بي . هذا وقد ذكرت ما ذكرتهُ اظهاراً لفرط جود الله واعلاماً بخبثي الذي جعلني اهلاً لجهنم لنكراني الجميل وعبرةً للراهبات حتى يحذرنَ عن الاخطار التي تورَّطت انا فيها

والحاصل اني ما زلت على التواني والحادثات الباطلة ذات الخطر وقلق الضمير مفارقةً الصلاة العقلية بحجة الاتضاع لاعتقادي اني دون بقية الراهبات في الفضائل ومن ثمَّ يكفيني السلوك الاعتيادي معهنّ والاقتصار على الصلوات اللفظية المفروضة . واعلم ان هذه هي اعظم تجاربي التي من شانها ان تهلكني لو بقيت على هذه الحال لكوننا بالصلاة العقلية نرتدّ باطناً ونحذر اسباب الخطيئة . والعجب اني فيما كنت متغاضية عن الصلاة العقلية كل التغاضي كنت احرِّض الناس عليها واعلّمهم كيفية ممارستها . وبما اني عند اعتباري نقائص سيرتي كنت اقول انهُ يجب عليَّ قلما يكون ان احثّ غيري على حسن العبادة وانما اورد ذلك لينضح عظم غباوتي انا التي كنت اجدُّ في خلاص الغير واغفل عن خلاص نفسي

ثم اخذت اعترف لكاهن من رهبانية القديس عبد الاحد واظهرت لهُ حال نفسي فاوصاني بالرجوع الى الصلاة العقلية فامتثلت أمرهُ ولم اعد ابطّلها منذ ذلك اليوم غير اني لم أزل اسباب مضرَّتي ولهذا كانت عيشتي في غاية الشقاء والعناء فاني بالصلاة العقلية كنت احصل على معرفة زلاّتي وكان الله تعالى من جهةٍ يدعوني اليهِ وكانت الدنيا من جهةٍ اخرى تجذبني اليها وكانت الخيور الابدية ترغبني في اكتسابها اما التعزيات الدنيوية فكانت تربطني وكنت اشتهي ان اقف ما بين هذين الشيئين المتضادَّين السيرة الروحية والتمتع باللذات الدنيوية . ولاجرم ان هذه الحرب الباطنة كانت تتعبني جدًّا عند الصلاة وقد استمرتُ على هذه الحال ثماني عشرة سنة انقلّب بين امواج الاهواء المتضادَّة مستخفة بالصغائر. نعم اني كنت اخاف من الخطايا المميتة وبنعمة الرب لم اجد نفسي فيها ابداً الاّ اني لم اكن اخاف منها كما كان واجباً ولم اتجنّب اسبابها . ولعمري ان مثل هذه الحال أصعب من كل ما سواها من الاحوال بحيث لم اكن حينئذٍ اذوق عذوبة العبادة الحقيقية ولا عذوبة التسليات الدنيوية لاني لما كنت متمتعة بهذه كان يوقعني في اضطراب بالٍ وقلقٍ تذكُّر ما انا ملتزمةٌ بهِ لله عزَّ وجلَّ . ولما كنت اناجي الحق سبحانهُ في الصلاة العقلية كان يقلقني حبي هذه الملاهي . فهذا ما قد قاسيتهُ في هذه المدة الطويلة

الجزء الثاني

ويتضمن كل ما حدث لها من سلوكها طريق الكمال الى موتها المقدس

والآن فأذكر ما جرى لي وبي في العشر السنين الاخيرة فاقول اني لما كنت على الحال التي يُرثى لها كما سبقت الاشارة وكان ذلك في سنة خمس وخمسين من الجيل السادس عشر دخلت يوماً حجرتي لأصلي فرأيت ايقونة تمثّل رب المجد مجروحاً في كل جسدهِ كما كان بعد الجلد على العمود وكانوا قد استعاروها ليزيّنوا بها كنيستنا في احد الاعياد وكانت خشوعيّةً جدًّا كانها حيّة تظهر ما احتملهُ السيد المسيح من الاوجاع لاجلنا . وهذا المنظر اثّر فيَّ تأثيراً عظيماً وحصلت على آلام شديدة من قِبل عدم معروفي في نحو هذه الآلام الالهية حتى كاد قلبي يتفطّر حزناً فاغرورقت عيناي حينئذٍ بالدموع وجثوت على الارض وطلبت من مخلصي الرحيم ان يقوّيني بنعمتهِ لكي ابتدئ ان اعبدهُ حقّاً ولا اغيظهُ ابداً وقد

خاطبتهُ تعالى قائلةً اني لا اخرج من حُجرتي حتى يستجيب طلبتي وفي غضون ذلك وجدت كتاب اعترافات القديس اغسطينوس الذي كانت نفسي مائلةً اليهِ باكرامٍ خصوصي حيث انهُ من الخطأة الذين اجتذبهم السيد المسيح الى التوبة . وكنت ارجو منهُ ان يسعفني بشفاعتهِ لأظفر مثلهُ من رحمتهِ تعالى بمغفرة خطاياي . غير انهُ كان يأخذني أشدّ الحزن عند تأملي ان هولاء القديسين بعد ان دعاهم الله تعالى لم يعودوا الى خطاياهم اما انا فكان تعالى قد دعاني مرارًا كثيرة ولم أتُب ولكن مع هذا كنت اتذكر جزيل محبتهِ عزّ وجلّ ومن ثم كان يتقوّى رجاءي . واتكالي هذا على رحمتهِ كان يعزّيني فعند قراءتي الكتاب المقدَّم ذكرهُ كنت كمن ترى صورتها في مرآة وكنت استغيث بهذا القديس واستشفعهُ بعبادة ولما وصلت الى حيث يذكر القديس توبتهُ وقرأت ما قيل لهُ حينئذٍ من السماء أثر فيَّ ذلك الكلام كانني سمعتهُ خارجًا من فم السيد المسيح وبقيت زمانًا مديدًا اذرف الدموع بقلب متوجّع . فاعلم انني حتى الان كنت حيّة بحياتي اما فيما بعد فيظهر لي ان الله تعالى كان يحيا فيَّ وانهُ من المحقق عندي انهُ من دون وجودهِ تعالى فيَّ يستحيل ان انتصر على ملكاتي الرديئة

فلما قطعت عني بنعمة الرب اسباب زلاّتي وابتدأت ان أُمارس رياضات الصلاة العقلية باجتهادٍ بدأ يتفضّل عليَّ بنعم جزيلة وبصلاة سامية جدًّا وفيها كان يختطف روحي مرارًا كثيرة ويرتفع جسدي من على وجه الارض ويخاطبني بفمهِ العزيز ولان الشيطان في ذلك الزمن كان قد اغوى بعضًا من النساء برؤًى كاذبة خشيت من ان اكون سالكةً مثلهنّ في طريق الغواية . وقد زاد اضطرابي جدًّا حتى اني اضطررت ان التجئ الى أُناس اتقياء لكي يعلموني ويرشدوني وكان قد بلغني انهُ وصل الى المدينة جماعة من الرهبان اليسوعيين الذين كنت احبهم مع اني لم اعرف احدًا منهم على الخصوص بل انما كنت احترمهم جدًّا لمجرَّد ما كنت قد سمعتهُ عن سيرتهم وطريقة صلاتهم غير اني لم اجد نفسي اهلاً لان اكلمهم ولم اشعر ان عندي استعدادًا لفعل ما يأمروني بهِ وكان هذا الامر يزيد في خوفي واضطرابي لاني عند تأملي في نفسي لم اجد وجهًا لان اتكلم معهم فبقيت على هذه الحال برهةً من الزمن فعزمت اخيرًا على مكاشفة مرشدٍ روحيٍّ بعد حرب باطنة شديدة وهذا دليل على ان الشيطان يبذل مجهودهُ ليصد المبتدئين في العبادة عن طلب ارشاد الآباء الروحيين لمعرفتهِ اخزاهُ الله ان هذا يجديهم نفعًا جزيلاً

فطلبت من رجل فاضل ان يستدعي لي كاهنًا عالمًا كان قد ابتدأ الله يظهر برَّهُ بعجائب فأتى وأطلعتهُ على بواطني واخبرتهُ بصلاتي العقلية فلما تأمل عظم سمو صلاتي أنتج اني متسامية في العبادة ولهذا اراد ان يرقّيني حالاً الى أعلى مراتب البرّ وأسماها او الى الكفر الكامل بالذات ولما كان ذلك فوق ضعفي ولم ارَ ممكنًا ان ارتقي سريعًا واجحد كل شيء معًا استولى عليَّ حزن وتحققت ان الوسائط التي قدَّمها لي لا تناسب الاَّ الانفس المتسامية في الكمال ولكني مع ان الله تعالى كان يُنعم عليَّ بنعم جليلة لم اكن حينئذٍ الاَّ مبتدئة في الفضيلة والسيرة القشفة ومن المحقق عندي انني لو بقيت تحت ارشادهِ لما كان يداوي امراضي . وقد تعجّبت احيانًا من كون هذا الكاهن الفاضل الذي كان بارشادهِ ينمي الانفس في الفضيلة لم يدعهُ الله تعالى يعرف حال نفسي وكيفية تدبيرها الاَّ اني اعلم الآن ان الله دبَّر الامر هكذا لاجل خيري الاعظم اي لكي اتعرَّف بالرهبان اليسوعيين الصالحين

لاني شرعت وقتئذٍ اكتب كيفية صلاتي العقلية وحال نفسي وسيرتي وسلمت هذا الى الرجل المشار اليهِ ليدفعهُ للكاهن الفاضل المتقدم ذكرهُ لكي يفحصا كلاهما ما كتبتهُ ويحكما عليهِ . لان ذاك الرجل كان خبيرًا بالسيرة الروحية فاخذا يفحصان وبعد الفحص المدقّق حكما ان ما يحدث لي في الصلاة العقلية انما هو من الشيطان واشارا عليَّ ان ادعو احد الرهبان اليسوعيين لما لهم من الخبرة البليغة بالامور الروحية وان اعترف لهُ اعترافًا عامًّا وأُورد لهُ كل ما جرى لي واخبرهُ باحوالي كلها في الصلاة وان اتمم بالتدقيق كل ما يأمرني بهِ لاني محتاجة الى مرشدٍ عالم فاخافني هذا الجواب وحزنني حتى لم اقدر الاَّ ان اسجم دموعًا . وبينما انا على هذا الضيق والاضطراب فتحت كتابًا ووجدت آيةً رسولية ونصُّها ان الله امين لا يدع الشيطان يخدعكم . ولا جرم اني تعزّيت بذلك كل التعزية ثم اخذت اكتب اعترافي بكل ما يمكنني من التدقيق والايضاح

ثم استدعيت احد الرهبان اليسوعيين (١) وشرعت

(١) حاشية . ان ذلك الراهب كان يوحنا دي بادرانوس الذي تروَّضت القديسة تحت ارشادهِ برياضات القديس اغناطيوس

اكشف لهُ حال نفسي . والخلاصة ان المرشد اليسوعي المشار اليهِ عنيب ان أطلعتهُ على خفاياي أراح نفسي وسكن بالي وقال ان ما يحدث لي في الصلاة العقلية انما هو من روح الله تعالى بلا ريب غير انهُ كان ينبغي لي ان أصلح ما في سيرتي من الزلل بحيث لم اجعل اساسًا جيدًا ولا غرو فاني لم ابتدِ بممارسة الإماتة . وقد أصاب بما قال لاني حتى ذلك الوقت لم اكن اعرف من الاماتة شيئًا ولا معنى اسمها ثم قال منبّهًا احذري من ان تتركي الصلاة العقلية بل مارسيها بمعظم الاجتهاد من حيث ان الله سبحانهُ كان يمنُّ عليَّ فيها بنعم كثيرة سامية ولعل الله يُريد بواسطتي ان يُنعم كذلك على كثيرين . ولا جرم ان ما قد حدث فيما بعد يؤكد لي انهُ قد تكلم بروح النبوة وان الروح القدس تكلم بفمهِ من اجل خلاصي واجتنيت من ارشادهِ نفعًا جزيلاً ووجدت نفسي متغيرة بالكلية . وقد أمرني بان اتخذ كل يوم للتأمل موضوعًا من آلام سيدنا يسوع المسيح وأُوجه وقتئذٍ كل افكاري الى ناسوتهِ الاقدس وان أرفض وانبذ بحسب الامكان جميع التعزيات التي كانت تبهج نفسي وقت الصلاة الى ان يأمرني بشيءٍ آخر وقد فعلت وتممت كل ما رسمهُ عليَّ ولكن يتعذّر عليَّ ان اشكر الله كما ينبغي لي لانهُ جلَّ شانهُ جعلني اطيع معلم اعترافي ومرشدي الذي كان اكثر الاوقات من الرهبان اليسوعيين

والحاصل اني بعد اعترافي هذا العام وجدت نفسي خاضعة لكل ما كان يمكن ان يأمرني بهِ مرشدي ولم استصعب شيئًا وغيّرت سيرتي في امور كثيرة وقاومت في مدة شهرين بكل قوّتي عذوبة الافتقاد الالهي وقت الصلاة العقلية واجتهادي هذا في تتميم امر مرشدي لم يذهب باطلاً لانهُ حينما كنت اقاومها جهدي كان السيد لهُ المجد يملأُ نفسي عذوبةً وكان يُريني مجدهُ حتى اني كنت ملتحفة بهِ ولم استطع على مقاومة ذلك بكل جهدي فابتدأت اقبل نحو ناسوتهِ الاقدس . ثم اني مارست افعال التقشف التي كنت قد تركتها بسبب امراضي لان مرشدي القديس هداني الى بعض تقشفات لا تضرُّ بعافيتي وقال لي لعل الله اكثر عليكِ الامراض لعدم ممارستكِ الاماتة ففرض عليَّ بعض تقشفات كنت انفر منها طبعًا غير اني مارستها كلها لاعتقادي ان الله عزَّ شانهُ هو الذي أمرني بها بفم مرشدي

وفي ذلك الزمن (اي نحو السنة السابعة والخمسين من القرن السادس عشر) قدم مدينتنا الاب فرنسيس بورجيا الذي كان امير غُنديا وزهد في الدنيا ليدخل في الرهبانية اليسوعية وكان هذا خبيرًا بالامور الروحية وكان الله يتفضّل عليهِ بنعم جليلة جزاءً على تركهِ الدنيا لاجل خدمتهِ فاستشرتهُ بحسب مشورة مرشدي واخبرتهُ كيف أُصلي فلما عرف مني حال نفسي قال لي ان الذي يحدث في صلاتي العقلية هو من الله واستحسن كيفية تصرفي فيها غير انهُ اشار عليَّ ان اكفَّ فيما بعدُ عن مقاومة الافتقادات الالهية العذبة وان اجعل لكل تأمل سرًّا من اسرار آلام المسيح لهُ المجد وان لا ارفض ارتفاع عقلي الى ما هو أعلى من ذلك اذا كان عن مجرَّد ارادة الله بدون سعيٍ مني ولا طلب بل اسلّم نفسي وافوّض امري الى تدبيرهِ تعالى وانتجت من هذه المشورة الجليلة التي حصل لي منها مزيد تعزيةٍ انهُ ماهر في الامور الروحية الى الغاية

ثم أوصى مرشدي اليسوعي(١) ان اتجرَّد عن اختصاص بعض اناس بالمحبة ولو كانت هذه المحبة منزّهة عن كل خطيئة الاَّ ان تعطفها كان مفرطًا ولاني كنت أرى ان ترك هذه المودَّة ضربًا من عدم المعروف قلت لمرشدي يا ليت شعري ما الباعث على ترك مثل هذا الوداد ولا اثم فيهِ . فامرني حينئذٍ ان اصلي الصلاة الكنائسية التي بدؤها هلمَّ ايها الروح القدس مدة ايام طالبةً من الله سبحانهُ ان يبيّن لي مشيئتهُ في ذلك . وقصارى الكلام انهُ لما اخذت في تلك الصلاة وقع عليَّ بغتةً جَذْبٌ وسمعت هذا الكلام اني لا اريد ان تكون مفاوضتكِ منذ الآن فصاعدًا مع البشر بل مع الملئكة فقط فمنذ ذلك الوقت لم يعُد في امكاني ان اخصَّ احدًا بالمحبة ايًّا كان ولا ان اتعزَّى الاَّ مع احباء الله تعالى الذين لا يألون جهدًا في خدمتهِ

فاعلم ان هذه هي المرة الاولى التي سمعت فيها الكلام الباطن وقد سمعت مثلهُ كثيرًا ولم اشك عند سمعي بل لم اقدر ان اشك في حقيقتهِ ولكن بعد مرورها كنت اشكُّ أمن الله هي ام لا . وبناءً عليهِ استشرت في ذلك اربعة او خمسة من الفضلاء عدا مرشدي المشار اليهِ فقالوا لي كلهم ان كل ما

(١) حاشية . ان القديسة تشير هنا الى مرشدها الثالث من الآباء اليسوعيين وهو بلطاسار الفاريس الشهير بالعلم والاماتة الذي بقي مرشدًا لها من سنة ثماني وخمسين وخمسمائة والف الى سنة ست وستين وخمسمائة والف بمدينة افيلا

بجدث لي في الصلاة هو من الشيطان واشاروا عليَّ ان اقلّل من تناول القربان المقدس وان افرّ من الانفراد على قدر ما استطيع . فلما تأملت سعة علمهم وفضائلهم وان عقلي لا يقبل رأيهم وقعت في شكّ واضطراب عظيم لظني ان ذلك كان من تكبري فأطعتهم على غير اقتناع فامتنعت عن تناول القربان المقدس وعن الانفراد فقامت الراهبات كلهنّ عليَّ وحسبنَ كلامي هذيانًا وخيالات فكرٍ سخيفٍ وضلالاً شيطانيًا واخذنَ ينصحنَ معلم اعترافي ألّا يصدّقني وانما هو الذي كان يعزّيني بقولهِ انهُ لا خوف عليكِ من ان هذا يسبّب لكِ ضررًا ولو كان من قِبل الشيطان بحيث كان لي عزم ثابت في هذه الاحوال كلها ان لا اسقط في خطيئة . والحاصل اني بقيت على هذه الحال نحو سنتين مضطربة وخائفة من ان يكون الشيطان هو الذي يكلمني في صلاتي ولما اشتدّ بي الخوف ذات يوم اختليت في حجرتي فصليت اربع ساعات او خمسًا ولم انَلْ تعزية من السماء ولا من الارض ومَثَلي اذ ذاك مثل من قد غرقت في لجج الاخطار . فحينئذٍ سمعت في الرؤيا هاتفًا يقول لي ثقي يا ابنتي فلا أُفارقكِ لا تفزعي ابدًا فلا جرم ان هذا الكلام الوجيز سكّن اضطراب نفسي وقوّاها ونوّرها الى الغاية حتى تغيّرت عما كنت عليهِ قبلاً ومنذ ذلك الوقت زال عني الخوف من الشياطين الذين تراءَوا لي احيانًا

وبعد سماعي صوت هاتف الغيب كما مرَّ امسكت ايقونة رب المجد المصلوب وقلت لارواح الشرّ هلمَّ الآن الى هنا فاني أَمة الرب الضابط الجميع انتظركم بطمأنينة واريد ان اختبر بالتجربة ما الذي تقدرون ان تفعلوهُ من الشرّ وقد تحققت فيما بعد انهم يخافون مني وانا لا اخاف منهم وان لا شيء اقوى على تمزيق شملهم من استعمال شيء ما مقدس وايقنت من ذلك ان كل شيء مرسوم من الكنيسة عجيب ولا شك فان الماء اذا تُليت عليهِ بعض كلمات من خدّام الكنيسة المقدسة يكتسب هذه القوة العظيمة

فشرع الله يشهر نعمهُ عليَّ وافتقادهُ لي لاني كنت أُخطف بالروح أمام الناس ويرتفع جسمي من على الارض مع اني كنت ابذل الجهد لضبط نفسي فلا يمكنني وكان يعتريني حينئذٍ خجلٌ عظيم فاشتهي ان اختبئ حيث لا يراني احد فقصدت ان انتقل الى دير آخر لا يعرفني فيهِ احد لاكون مجهولة ثم اخذت اسأل الله كل يوم ان يري خطاياي الذين يظنونني من اهل الفضيلة والصلاح ولكن مرشدي نهاني عن ذلك . ثم اخذت في استعمال شيء من التصنُّع كلما وجدت امرءًا يحسبني من اهل البرّ والورَع لكي يعرف نقائصي وعن هذا منعني ايضًا الصالحون وذلك هو الصواب لان النفس المائتة لا تبالي بما يُقال فيها خيرًا كان او شرًّا وتسلم ذاتها الى الله كل التسليم وتستعدُّ للاضطهاد . اني اعرف اشخاصًا معروفين بالسيرة المقدسة غير انهم عاجزون عن البلوغ الى الكمال بحيث انهم لم يزالوا مستمسكين بالدنيا وطالبين الصيت الحسن

ثم ان الله اراني المكان المعيَّن لي في جهنم لو استمررت على سيرتي القديمة . هذا وليس في طاقتي ان اصف شدة العذاب الذي كابدتهُ في هذه الرؤيا لما خُطفت بالروح الى جهنم والان عندما اكتب ذلك يتبين لي ان دمي يجمد كلهُ في عروقي من فرط خوفي ومنذ حلّت عليَّ هذه الرؤيا اشتهيت ان ازيد في التقشف والاعتزال فعزمت حينئذٍ على حفظ قوانين رهبانيتي بالكمال الّا ان ذلك لم يكن ممكنًا لان فقر الدير كان يضطرُّ الراهبات الى الخروج منهُ ليعشنَ عند اقربائهنَّ كذلك انا كنت مضطرّة الى الخروج والسكنى عند اناس شرفاء كانوا يطلبون ذلك من الرؤساء فلم تُحفظ القوانين الرهبانية بالتدقيق . فبينما كنت في حجرتي مع صديقات لي مفتكرة في هذا وكنّ نتكلم في شان حفظ القانون قالت واحدة منهنَّ (١) انهُ يمكن ان يُبنى دير اذا اتفقت مع بعض اخوات في حفظ القانون بالكمال . ثم تراءى لي السيد المسيح وأمرني امرًا صريحًا بان افرغ كنانة الجهد في بناء هذا الدير واوصاني ان أَبنيهُ على اسم القديس يوسف لانهُ يحفظ احد بابي هذا الدير ووالدتهُ تعالى تحفظ الباب الآخر . انتهى كلام القديسة تريزيا

هذا وابنة اخيها المارّ ذكرها قدّمت لاجل هذه الغاية ثلثين الف ريال وباذن الرؤساء ابتدىءَ بالبناء وقد تمَّ بحولهِ تعالى وان كان ابليس لعنهُ الله قد اسقط هو نفسهُ البناء الجديد مرّتين وهيج عليها جماعةً من الاردياء ليكفوها عن مقصدها . ثم شاركتهنَّ في ذلك امرأة رفيعة القدر وبواسطة

(١) حاشية . كانت هذه ابنة لاخي القديسة اسمها مريم وقد ترهبت في الدير الآتي ذكرهُ ونمت في الكمال تحت ارشاد القديسة تريزيا

منشور البابا دخلت القديسة الدير الجديد واخذت في اصلاح رهبانية الكرمليات وكان ذلك في السنة الثانية والستين بعد الخمس مائة والالف للمسيح وفي مدة اثنتي عشرة سنة بل اقل بَنت ستة عشر ديرًا لراهباتها وبعض اديرة الكرمليين الذين اتخذوها امًّا لهم وقبلوا منها قوانينهم

فلما شعرت باقتراب موتها كتبت الى اديرتها وأمرت راهباتها ورهبانها ان يحفظوا بتمام التدقيق القوانين ويحبوا المواظبة على الصلاة ويقرنوا الامانة دائمًا بالاختلاء وان تضرم قلوبهم دائمًا باخلص محبةٍ للسيد المسيح . ثم اوصتهم بان يتخذوا ملكة السماء امًّا لهم والقديس يوسف شفيعًا وعاضدًا . ولما دخل الكاهن ليناولها القربان المقدس وكانت خائرة القوى مشرفة على الموت اتخذت قوة جديدة من محبتها لعروسها الالهي ونهضت بذاتها من على الفراش وصار وجهها ملتهبًا ثم هتفت هكذا هلمّ يارب هلمّ ياعروسي الحبيب فقد حان وقت خروجي من منفاي لكي أراك واحظى بك . فبعد تناول سرّي القربان المقدس والمسحة الاخيرة أمسكت بيدها ايقونة السيد المسيح ولم تزل شاخصة بصرها اليها حتى اسلمت نفسها الطاهرة وكان ذلك في اليوم الرابع من شهر تشرين الاول سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة والف (١) . وكل حياتها سبعٌ وستون سنةً وفي حين موتها امتلأ الدير كلهُ رائحةً طيبةً وأشرق وجهها وارتدّ الى لون من هي في حال الصحة وفارقتهُ غضون الشيخوخة وقد بقي جسدها الى الان بحول الله تعالى ناجيًا من الفساد

ولكي اقتصر عن ايراد العجائب الكثيرة التي فعلها الله على يد هذه القديسة في حياتها وبعد موتها يكفي ان اقول ان الكنيسة بعد الفحص الواجب عن قداستها وعجائبها كتبت اسمها في سفر القديسين مع القديسين اغناطيوس وفرنسيس كسافاريوس وفيلبُّس نيري في اليوم الثاني عشر من شهر اذار سنة اثنتين وعشرين وستمائة والف وجعلت عيدها في اليوم الخامس عشر من تشرين الاول

(١) حاشية . كانت وفاة القديسة تريزيا في الليل الذي بين ١٤ و١٥ من تشرين الاول للسنة المذكورة واشتهر ذكر ذلك الليل ايضًا بتغيير التقويم المعروف بالتغيير الغريغوري لكون البابا غريغوريوس الثالث عشر امر بحذف عشرة ايام من التقويم القديم ليطابق حساب السنة رجوع الشمس الى نقطة الاستواء وبحذف تلك الايام العشرة صار اليوم الاول بعد وفاة القديسة تريزيا اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الاول

اليوم السادس عشر

وفيهِ ترجمة القديس غالوس

كان هذا القديس ابرلنديًّا وهو من عائلة ممتازة في تلك البلاد من حيث الشرف واكثر امتيازًا من جهة التقوى وسلامة الضمير . وكان مولدهُ في اواسط الجيل السادس للمسيح ولما كان ابواهُ يعدَّان تهذيب الاولاد من أخص واجبات الوالدين علّماهُ المبادئ الأولى للحياة المسيحية وقدَّماهُ لله في دير بَنكور ببلاد ألتُوني ليتربّى على التقوى والعلم على يد القديس كولُمبان الذي جعل لذلك الدير شهرةً وأُبهةً بفضيلتهِ التي فاح في الآفاق نشرها . وكان للقديس غالوس اهواء وأميال حسنة ولا سيما ميلاً نحو الفضيلة وكان ثاقب الفكر ليِّن العريكة فلم يمرّ بهِ زمن طويل حتى برع براعةً غريبة في علم القديسين وفهم الكتاب المقدس بحيث كان يفسّر أغمض آيات الاسفار الالهية ويحلّ أعضل مشكلاتها . ذلك وفيما كان يتعلم الكتاب الكريم لم يغفل عن درس علوم الدنيا وكان لهُ في الشعر قريحة سيَّالة غير انهُ لم يستعمل النظم الاَّ في التآليف التقويَّة . وقد سبى عقل استاذهِ القديس كولُمبان بطهارة ذيلهِ وحذاقة لبّهِ

اما القديس كونكال منشئ الدير الذي كان مقيمًا بهِ فاذ قد تعجب من صفات هذا الفتى الحميدة وظنّ ان الله جلَّت حكمتهُ لم يُنعم عليهِ بهذه المواهب الاَّ ليجعلهُ بها قديسًا أدخلهُ في الرهبانية مذ بلغ العمر المعين للنذور وكانت حرارة العبادة مستوليةً على ذلك الدير فرأى فيهِ القديس غالوس قدوات كثيرة واستفاد منها فائدة عجيبة فما لبث ان فاق اكبر المتقدمين وأضحى مقدَّم الجميع في كل الرياضات العمومية ومدقّقًا في حفظ القوانين متورّعًا متواضعًا وذا امانات وصار عما قليل موضوع تعجُّب الاخوة وقدوتهم حتى ان الرئيس القديس انتفع من قدوتهِ أتمّ الانتفاع ووعدهُ بالكهنوت . اما القديس غالوس فخاف من درجة الكهنوت وتأثّر اكثر من ذلك لقلة فضيلتهِ وبذل ما عندهُ من البلاغة والذكاء ليقنع رئيسهُ بانهُ غير اهل لتلك الدرجة المقدسة ولكن ذلك أثبت الرئيس على عزمهِ الاول فاطاعهُ اضطرارًا

ولما كان القديس كولُمبان معدًّا من الله لان يُحيي

في فرنسا روح الرياضة والصلاة والتقشف التي رآها الناس في الشرق وكانوا يلاحظونها حينئذٍ في ايرلندا اختار اثني عشر راهبًا من دير بنكور باذن الرئيس ليرافقوهُ ويتبعوهُ في اتمام المقصد الذي حملهُ على ان يطلب قفرًا خاليًا يذوقون فيهِ طعم الطمأنينة وحلاوة التأمل بالبعد عن الضوضى. على ان القديس كولمبان لم ينسَ تلميذهُ القديس غالوس فانتخبهُ قبل الجميع اما رهبان دير بنكور الذين كانوا يتعجبون منهُ ويقتدون بهِ فتأسفوا كل الاسف لما رأوهُ خارجًا من الدير ولا غرو فانهم خسروا كنز الفضائل. هذا واجتازوا من ايرلندا الى انكلترا ومن هناك الى فرنسا نحو سنة خمس وثمانين وخمسمائة واقاموا برهةً بممالك شيلدبرت الثاني الذي كان مستوليًا على أُستراسيا وكان هذا الملك يشتهي ان يبقيهم في بلادهِ ولكن حبهم الاعتزال حملهم على الذهاب في طلب باديةٍ لا أنيس بها وهناك لا يخاطبون الا الله عزَّ وجلَّ مبتعدين عن الناس فوجدوا مكانًا يلائمهم على جبال فوسجي الفاصلة بين اقليم اللورن واقليمي بُرغُنديا والالزاس وكان قفرًا جديبًا مخيفًا أحرى بهِ ان تسكنهُ الوحوش الضارية لا البشر. والخلاصة انهُ لم يكن مكان أوفق منهُ لمقصود القديسين كولُمبان وغالوس وبقوا هناك نحو عامين يعوزهم كل ما لا بدَّ منهُ لسعة العيش لكن كانوا معتاضين عن ذلك بالعذوبة الروحية الخارقة العادة التي جاد الله عليهم بها

ان اعتناء هولاء القديسين المتوحدين باخفاء فضائلهم قد خانهم وجذب الى ذلك القفر جماعةً من الناس فتعجبوا من عيشة سماوية في غاية البرّ فتوسّل اليهم اغنولند ابو القديس ايل وكثيرون من اهل التقى والفضل بالحاحٍ ان يأتوا برغُنديا وقدَّموا لهم ديرًا يُقال لهُ لوكزول من ابرشية بِزَنصون وراء جبل فوسجي فبنى القديس كولمبان ديرًا هناك سنة تسعين وخمسمائة والقديس غالوس هو اول من جرى على القاعدة التي رسمها القديس كولمبان على جميع الذين ارادوا أن يعيشوا تحت تدبيرهِ وما لبث ان غدا مثال الفضيلة والندامة وحفظ القانون. هذا وجذبت شهرتهُ عما قليل الى الله كثيرين كانوا يأتون كل يوم ويتقيَّدون بخدمة الله تحت رعاية هولاء المرشدين الصالحين

وبما ان القديس غالوس كان يزيد اشتعال شوقهِ كل يومٍ الى مرضاة الله قضى عدَّة اعوام في ذلك المكان القفر. وعرَّض الرب فضيلتهُ لتجارب جديدة في اثناء الاضطهاد الذي أثارهُ طيارِي ملك بُرغُنديا خليفة شيلدبرت على القديس كولمبان وتلاميذهِ بتهييج بُرونهوت الملكة التي اغتاظت من ان هذا القديس ارجع الملك عن فسادهِ سيرةٍ كانت تقوّيهِ حبًّا للتسلُّط واما الرئيس القديس فبعد ما نُفي الى مدينة نانت أُرسل من هناك الى ايرلندا واذ لم يجد القديس غالوس وراهب آخر من رهبان لوكزول المدعو اوستكيوس امانًا في ديرهما من اهانة تلك الملكة استجارا بتودوبرتوس ملك أُستراسيا

اما القديس كولمبان الذي ألقتهُ الزوبعة على جوانب فلندرا فكان قد التجأ الى ذلك الملك نفسهِ ولما رأى هناك تلميذهُ العزيز فرح متحيرًا واذ اغتمَّ القديسان من الاقامة بقصر الملك استأذنا الملك في الذهاب الى ايطاليا فشق على جلالتهِ ان يرى خادمي الله العظيمين يخرجان من مملكتهِ ومن ثمَّ طلب اليهما ان يختارا بمملكتهِ أحب موضع اليهما ليخدما الله فيهِ بسلام ويهذّبا الشعوب. فقبلا هذه النعمة وصعدا على جانب نهر الرين ودخلا بلاد سويسرا ومشيا على نهر ليما الى بُحيرة زوريخ وذهبا الى ناحية زوك حيث وجدا باديةً على تمام مرادهما وكان جميع الشعوب المجاورين يتسكَّعون وقتئذٍ في ظلمات الوثنية فقصدوا طردهما من ذاك المكان واما القديسان فتوجَّعا لعمى بصائرهم واجتهدا في تعليمهم النصرانية فلما رأياهم قليلي الاستعداد للاصغاء لم يتمالك القديس غالوس لشدة غيرتهِ ان لا يرمي التقادم وكل ما كان معدًّا لذبائحهم المكروهة ولاجرم ان ذلك الصنيع المقرون بالشجاعة أغاظ الوثنيين كل الغيظ فتعمدوا ان يقتلوهُ فاضطرَّ القديس كولمبان ان يتحوَّل عنهم برفقائهِ مترقبًا فرصةً مناسبة لانذار اولئك الشعوب. واذ وصلوا الى مدينة أربون صادفوا وليبار كاهنًا صالحًا فعرف منهم انهم يريدون بريَّةً يقدرون ان يبنوا بها ديرًا فدلَّهم على قفرٍ قريب كان فيهِ لذلك العهد خرائب قديمة يمكن ان يتخذوها قلالي وكان ذلك القفر هائلاً مخيفًا الى الغاية فجاء على وفق مشربهم ووجدوا هناك معبدًا على اسم القديسة اوريليا الا انهُ كان منجَّسًا من عَبَدة الاصنام فطهَّروهُ وجعلوا يذهبون اليهِ ليعكفوا على الصلاة. وقد حرَّكت قبائح الوثنيين غيرة القديس غالوس فتعمَّد ان يفرغ الجهد للاشتغال بتخليص نفوس هولاء الناس الاشقياء

راجيًا ان يموت هناك شهيدًا فاذن لهُ القديس كولمبان ان يطلق لنفسهِ العنان ارواءً لحرارة محبتهِ. هذا واجتمع ذات يوم جمهورٌ من الشعب ليروا هولاء الغرباء فوعظ القديس غالوس بقوةٍ وبسالةٍ رسوليتين ضدَّ الاعتقادات الوثنية الباطلة وأَظهر لهم ما فيها من الفساد والكفر والخبث ثم قرن القول بالفعل وقلع التماثيل وسحقها ورمى كِسَرها في البحيرة وبارك الله على غيرتهِ فتنصَّر على يدهِ كثير من الوثنيين فتقدَّس ذلك المكان مذ ذاك الوقت واشتهر وكثر الرهبان فيهِ وبنوا قلالي حول المعبد. ورأى الناس هولاء الرهبان الرحَّل ينحون السيرة الزهدية حتى فيما بين الوثنيين

ولما رأى الشيطان زوال المملكة التي استولى عليها منذ زمان طويل احتدم غيظًا وذات ليلةٍ سمع القديس غالوس شيطان الجبل ينادي شيطان البحيرة يقول لهُ تعال أَنجدني لنطرد هولاء الغرباء لانهم اخرجوني من هيكلي وسحقوا أَصنامي وجذبوا وراءهم تبَّاعي. فاجابهُ شيطان بحيرة قنستانس قال ان ما ذكرتهُ عن شقائك قد شعرت بهِ من شقاءي بما ان واحدًا من هولاء الغرباء حبسني في المياه وأَخرب مملكتي ولست بقادر ان اكسر فخاخهُ ولا أَن اخدعهُ كيف لا والاستغاثة بالله لا تزال على فمهِ وبما انهُ لا ينفكُّ متنبهًا لنفسهِ يستهزئ بفخاخنا. فلما سمع رجل الله كل ذلك تقوَّى من كل جهة بعلامة الصليب المكرَّم وقال لاولئك الشياطين استحلفكم باسم المسيح ان تذهبوا عن هذا المكان ولا تضرُّوا بأَحدٍ ثم بادر وقصَّ على رئيسهِ ما قد سمعهُ فاعطاهم الرئيس حينئذٍ علامة الاجتماع في الكنيسة فاجتمعوا ولكن قبل الابتداء بترنيم المزامير سمعوا على قمة الجبل عُواء الابالسة وأَنينهم ساعة الرحيل وحينئذٍ جثا خدَّام الله في الصلاة وشكروا الله على انهُ نجَّاهم من هذه الارواح الشريرة. الاَّ انهم بعد ذلك بمدةٍ اضطرُّوا الى الرحيل من هناك بامر الدوكا دي غوزون صاحب تلك البلاد الذي كان الوثنيون قد حرَّكوهُ الى ذلك

وبعد ان مرَّ القديس كولمبان بايطاليا ابث القديس غالوس بدير بريجنتز غير انهُ مرض واضطرَّ ان يُحمل الى اربون الى بيت الاب ويلمار وعقب ان ارتاح قليلاً لم يشتق الاَّ الى الاعتزال فدلَّهُ هيلتيبود شماس الاب ويلمار على قفرٍ لم يزل مجهولاً اكثر من قفر بريجنتز فانطلق اليهِ فهربت منهُ الافاعي والوحوش الضارية مع انهُ كان مأْوًى لها ولما بلغ اليهِ نصب صليبًا وصام ثلثة ايام وخطَّ رسم كنيسة اراد بناءها على اسم والدة الله التي خصص لها حياتهُ بخلوص عبادة وكان يدعوها والدتهُ العزيزة

فاعلم ان هذا القديس مع ابتعادهِ عن معاشرة الناس لم يبقَ مجهولاً مدةً طويلةً بل حالما اقام بهذا القفر عبقت رائحة برّهِ وانتشر صيتهُ في تلك الأطراف فاقبل عليهِ جماعةٌ وتتلمذوا لهُ كيف لا وان دوكا دي غوزون نفسهُ غيَّر ظنهُ بهِ واعتبر فضيلتهُ وأَجلَّها وكان لهُ ابنة خطيبة لسيجيبسبرت ملك أُستراسيا قد امست معتراةً من مدة وقد تُليت عليها العزائم ولكن لم تنتفع منها شيئًا وأَمر الاب ويلمار ان يرسل اليهِ القديس غالوس ليبرئها حيث ان اسقفين عزَّما عليها ولم يحصل من ذلك فائدة واعزى الناس عدم نجاحها الى قلَّة برارتها. فبعثهُ ويلمار الى الدوكا الذي ابنتهُ منذ ثلثة ايام لم تتناول قوتًا وكانت منطرحةً على ركبتي والدتها كأَنها ميتة مخنية الاعضاء مغمضة العينين ورائحة كبريتية تخرج من فيها فأَخذ القديس يصلي بدموعٍ قائلاً ياسيدي يسوع الذي تكرَّم ان ياتي الى هذا العالم ويولد من العذراء وانتهر الريح والبحر وامر الشيطان ان يرجع الى ما وراء والذي فدى اخيرًا الناس بآلامهِ مُر هذا الروح النجس ان يخرج من هذه الفتاة ثم أَمسك يد المريضة ووضع يدهُ الاخرى على رأسها وقال ايها الروح آمرك باسم سيدنا يسوع المسيح ان تخرج من هذه الفتاة وتُبعد عن مخلوقة الله هذه وللحال فتحت الفتاة عينيها وأَبصرتهُ واما الروح النجس فقال للقديس أأَنت غالوس الذي طردني من مساكني الاولى فقد دخلت هذه الابنة انتقامًا لك لان والدها طردك وانت طردتني منها فاذا اخرجتني منها فيا ترى الى اين اذهب. قال رجل الله الى الهاوية حيث رمى بك الرب وللحال خرج على عيون الحاضرين من فم المعتراة بصورة طائر اسود هائل المنظر فقامت الفتاة معافاةً فقدَّمها رجل الله الى والدتها

اما الدوكا فقدَّم لهُ بتمام الفرح جميع التحف التي كان قد اهداها الملك سيجيبسبرت الى ابنتهِ وترجَّاهُ ان يتفضَّل بقبول اسقفية قنستانس فقال لهُ القديس اني لاَ اقدس في حياة سيدي كولمبان فاذا أَردت ان ترفعني الى هذه المرتبة فأْذن لي ان اكتب اليهِ فاذا حلَّني اكون تحت امرك فوافقهُ على ذلك وبعد ما احسن القديس بكل تلك التحف الى فقراء

مدينة أربون وعاد الى بريّتهِ المحبوبة جذب اليهِ الشماس يوحنا وعلَّمهُ الفلسفة كلها وتفسير الكتب المقدسة

ولما عرف الملك سيجبرت بشفاء خطيبتهِ طلب من ابيها ان يرسلها اليهِ ليقترن بها بسرّ الزواج ففعل ودخلت مدينة متز بمعظم الاكرام واخبرت الملك كيف شفاها القديس وسألتهُ ان يلتفت اليهِ والى مقامهِ الجديد فلما رأى سيجبرت ان دير القديس غالوس بأرض مشاعة اعطاهُ حالاً صك الهبة والحماية الملكية

ولما كان الناس يتأهبون للاحتفال بعرس الملك وخطيبتهِ اجتمع هناك كثير من الاساقفة والاكابر وذهب الملك ليدعو خطيبتهُ الى الاقامة ببلاطهِ فخرّت على قدميهِ وقالت لهُ ياسيدي لقد برئت من مرضٍ شديد مزمن وانا بعدُ ضعيفة فاسأَلك ان تمهلني سبعة ايام ايضًا لأتقوّى قليلاً ويتهيَّأ لي ان اقابلك على ما تحب فاجابها الملك الى ما طلبت ولما كان اليوم السابع ذهبت الى كنيسة القديس استفانس الكاتدرائية عند صلاة الصبح وفي صحبتها رجلان وابنتان وقبل ان تدخلها نزعت عنها ثيابها الملكية ولبست ثوب راهبة وانفردت الى جانب المذبح الكبير وصلَّت قالت ايها القديس استفانس الذي اراق دمهُ حبًّا بالمسيح تشفَّع فيَّ اليوم انا الغير المستحقة لكي يوافقني الملك على ما أُريد ولا يُنزع عن رأسي هذا الغطاء. ولما بلغ الملك ما جرى جمع الاساقفة والامراء ليأتمر معهم ويعرف ماذا يفعل فقال احد الاساقفة الظاهر ان هذه الفتاة لما أُطلقت من اسر الشيطان نذرت ان تعيش عفيفة فإياك ان تمنعها عن ذلك خوفًا من ان نقع في اردإ ما سبق وانك انت ترتكب اثمًا كبيرًا. فقبل الملك برأي الامراء مشورة الاسقف ودخل الكنيسة وأمر باحضار أثواب الملكة وتاجها وقال لخطيبتهِ هلمي فظنَّت انهُ يريد ان يخرجها من الكنيسة فالتصقت بالمذبح فقال لها الملك بأجلى بيان لا تخافي أن تأتي اليَّ فان كل شيء يكون اليوم منقادًا لارادتكِ اما انا ففي فوضعت رأسها على المذبح وقالت ها انذا أمة الرب فليفعل بي ما يشاء. فامر الملك الكهنة ان يأخذوها ويلبسوها ثياب الملكة والبرقع والتاج واستودعها الله قائلاً اني اقدّمكِ مع الحلى التي أعددتها من اجلي كعروس للسيد المسيح وأخذ يدها اليمنى وجعلها على المذبح ثم خرج من الكنيسة ليبكي لانهُ كان مغرمًا بها وفيها بعد سلَّطها على جمعية الراهبات

ولما مات اسقف قنستانس بذل دوكا دي غوزون كل جهدهِ ليجعل اكليروس الابرشية ينتخبون غالوس اسقفًا لكن هذا الذي كان يظن انهُ غير اهل للقسوسة كان مستبعدًا انهُ يرضى الاسقفية واذ لم يرضَ الاسقفية لتواضعهِ طُلب منهُ ان يُقدّم واحدًا من تلاميذهِ ليجلس على هذا الكرسي فقدَّم لهم الشماس يوحنا الذي هذَّبهُ هو بنفسهِ فقبلوهُ ووعظ القديس غالوس يوم ارتسامهِ

وبقي عند الاسقف الجديد برهةً من الزمان ليساعدهُ بآرائهِ ومشورتهِ ثم رجع الى قفرهِ وبنى هناك الكنيسة التي كان قد صوَّر رسمها واحاطها باثنتي عشرة قلاَّيةً لسكنى تلاميذهِ فهكذا نشأ دير القديس غالوس المشهور الذي هو ضمن مدينةٍ بهذا الاسم ورئيسهُ كان صاحب المدينة ومن امراء المملكة فجعل ترتيب ذلك الدير على قانون القديس كولمبان الذي افتخر دائمًا بكونهِ تلميذًا لهُ

ولما مات القديس أُستاكيوس رئيس دير لوكزول انتخب جميع الرهبان القديس غالوس ليكون خليفةً لهُ فرفض هذه المرتبة كما رفض الاسقفية ولم يُرد الخروج من باديتهِ ثم عاش هناك بعض سنين بعد وفاة القديس كولمبان التي أُنبئ بها. واما الفضائل التي واظب عليها حياتهُ كلها فهي الصمت والصلاة والندامة واما القساوة التي كان يهدّد جسدهُ بها فلم ترتخِ ولم تتلطف بسبب الشيخوخة والامراض التي رافقتها. وطلب اليهِ الاب ويلمار القديس ان يزورهُ يوم عيد رعيتهِ فزارهُ ووعظ هناك على جمهورٍ من الشعب جاءُوا لاحتفال العيد. ومرض بعد ثلثة ايام ومات موت الصالحين في اليوم السادس عشر من تشرين الاول نحو سنة ستٍّ واربعين وستمائة للمسيح وعمرهُ اكثر من ثمانين سنة وقضى اكثرها في البرّية

اليوم السابع عشر

وفيهِ ترجمة القديسة هيدوفيجا الارملة

كان ميلاد هذه القديسة على نهاية القرن الثاني عشر وكان والدها برنس كرينتا واستريا وكانت والدتها ابنة كونت نمساويّ وكان لها اربعة اخوة وثلث أخوات منهنّ اغنس التي تزوَّجها فيلبس ملك فرنسا والثانية تزوجها اندراوس ملك المجر وهي أُمّ القديسة اليصابات الملكة والثالثة ترهبت اما هيدوفيجا فتربَّت في دير من ادبرة

راهبات القديس بناديكتوس وكان هناك احب شيء اليها الصلاة امام القربان المقدس او امام ايقونة العذراء عليها اشرف السلام وتلاوة الكتب الروحية ولو ارتضى والدها لترهبت الّا ان الله تعالى الذي يشاء ان يظهر في كل حال نموذجات القداسة اراد ان تتزوّج لتكون قدوة الكمال المسيحي المتزوّجات

فزوّجها والدها بدوكا سيليزيا واللآه ولم تكن قد بلغت من العمر الّا اثنتي عشرة سنةً وتلألأت اذ ذاك فضائلها التي كانت مختفيةً الى ذلك الوقت وسلكت ظاهرًا امام عظماء العالم ومحبيهِ طريق التقوى والعبادة فلاحظت اول الامر طباع قرينها وعرفت اهواءهُ وبذلت الجهد في ارضائهِ وهكذا ملكت فؤادهُ بحبها وربحت نفسهُ لله لانهُ بحبنه لامرأتهِ الفاضلة البارّة سلك سبيل البرّ ورزقها الله ثلثة بنين وثلث بنات وكانت تقضي برضا زوجها في العفة الزمان الذي بين الحبل والولادة مختليةً ممارسةً رياضات العبادة وكثيرًا ما كانت تقول ان عظماء العالم يلتزمون ان يكونوا متسامين بالفضيلة على من دونهم كما هم أعلى منهم في شرف الدنيا ومجدها ولم تكن تدع غيرها من النساء تربّي اولادها . وقد بارك الله على مزيد اهتمامها بهم لان هنريكوس ابنها البكر الذي خلف اباهُ في الولاية لقب لكثرة فضائلهِ بالتقي

ومن اكبر دواعي التعجب انها بعد ولادتها الاولاد الستة المشار اليهم اتفقت مع زوجها على حفظ العفة بقية حياتها مع انها لم تكن وقتئذٍ الّا ابنة عشرين سنةً وكان البرنس ابن ثلثين سنةً فقط ونذرا هذا النذر على يد الاسقف ومنذ ذلك اليوم ارتقيا من فضيلةٍ الى فضيلةٍ واضطرم قلب هيدوفيجا بلهيب العبادة فتزايدت اشواقها واتجهت أميال قلبها نحو السماء والى مساعدة المساكين واليتامى والارامل وكانت تعول منهم كثيرين في كل يوم بل كانت تخدمهم . وبمشورتها ابتنى زوجها ديرًا كبيرًا للراهبات بجوار مدينة بريسلو عاصمة سيليزيا ووقف عليهِ اراضي واسعة كثيرة الغلّة وعما قليل بلغ عدد راهبات هذا الدير الى ما فوق المائتين وكانت رئيستهنّ جرترودا ابنة القديسة هيدوفيجا وهناك كانت الراهبات يربّين كثيرًا من بنات الفقراء

ولما كانت القديسة تقضي اكثر زمانها في هذا الدير لبست باذن البرنس ثوب الرهبانية ولكنها لم تنذر ومارست هناك رياضات الدير كافضل الراهبات نشاطًا خصوصًا رياضات الاتضاع والصلاة والتقشف لانها كانت تصوم كل يوم ما خلا يوم الاحد واعظم اعياد السنة ولم تاكل لحمًا ابدًا ولم تكن تاكل يومي الاربعاء والجمعة سوى الخبز ولم تستعمل احذية بل كانت تمشي حافية على الثلج ولم تخلع عنها المسح ابدًا وتنام على الواح من خشب ولم تكن ترقد اكثر من ثلث ساعات. وكل هذه التقشفات لم تكن تكفيها بل كانت ترغب في ان تخترع او تستعمل غيرها من التقشفات المؤلمة جدًّا حبًّا بالسيد المسيح الذي كانت تشتهي ان تتألم معهُ على الدوام

وكانت سيرتها كاملةً . ولا ريب فانها فاقت كل الراهبات في فضيلة السكوت وحفظ النواميس والقوانين المعيّنة وشدة التقشف ولم تكن تعتبر نفسها الّا كاحدى الخاطئات مع ان ضميرها كان نقيًّا امام الله والملئكة وسيرتها عند الناس قدوة عجيبة للفضيلة وكانت تكره ذاتها حتى انها لم تذكرها الّا بغاية الاحتقار ولتواضعها لم تُرد ان تلبس الاثواب الجديدة لكنها كانت تكتفي ان ترتدّى الاثواب الرثّة التي تكون قد لبستها احدى الراهبات وكانت تلبسها حتى تعدم هيئتها الأُولى . هذا وكانت تحسن الظن بالراهبات ولذلك كانت متى خرجنَ من الخورس تخرّ على ركبتيها وتقبّل المكان الذي صلّينَ فيهِ . وارادت احدى الراهبات ذات يوم ان تعرف ما تفعل هذه في المصلّى فرأتها بعد ان علمت علامات التواضع ساجدةً الى الارض امام صورة المصلوب فحلّ المسيح يدهُ اليمنى وباركها وقال لها صريحًا قد قُبلت صلاتكِ وستنالين ما طلبتِ . قال كاتب ترجمتها يُحتمل انها سألت الله نعمة الثبات لعرائس يسوع المسيح اللواتي كانت تحترمهنَّ الى الغاية وان تكون هي نفسها مشاركتهنّ في الاعمال الصالحة واعلم انها كانت تقبّل مناشفهنّ وتغسل وجهها ورأسها بالماء الذي غسلنَ ارجلهنّ بهِ وكانت تعمل ذلك ايضًا لاولادها الصغار معتقدةً ان خدمتها لهولاء الراهبات القديسات تجلب لها ولعائلتها بركة الله تعالى

واعلم ان هذا الاعتبار السامي للراهبات حملها على ان تجعل الاديرة كلها تحت حمايتها وتزورها من وقتٍ الى آخر وتقاوم بشهامةٍ وشدة كل المظالم الثائرة عليها . وكانت تعتبر الخبز الذي ياكلنهُ كخبز الملئكة وتشتري منهُ بثمنٍ وتتصدّق بهِ على الفقراء ولم تكن تاكلهُ الّا بعد ان تقبّلهُ بعبادةٍ لا مثيل

لما وكانت تعول امرأتين متكففتين لتأتياها بو فتعل منهُ الذ طعام على مائدتها وكانت تطابق على نفسها مطابقةً مقدسة كلام الكنعانية القائلة انها سعيدة جدًّا لانها تاكل الفتات الساقط من مائدة اربابها وكانت هذه تدعو الرهبان أسيادها لاعتبارها اياهم ارفع منها من حيث الكمال كما ان الاسياد في الدنيا هم ارفع من خدَّامهم من حيث الغنى وبمثل هذا كانت تعتبر الفقراء نظرًا لفقر سيدنا يسوع المسيح وتريد دائمًا ان يكون بعضهم لديها ولا سيما وقت الاكل وقبل ان تجلس كانت تناولهم بيدها لياكلوا وكانت تجثو على ركبتيها بتواضع لكي تخدمهم. ذلك ومن الغريب انها لم تكن تشرب بكاسها الَّا بعد ان يشرب بها أشد المرضى ألمًا وأخبثهم رائحة فم. وبعد خروجهم تذهب خفيةً وتقبّل المواضع التي جلسوا فيها وكثيرًا ما كانت تغسل أرجلهم وأيديهم وتتصدَّق عليهم بصدقاتٍ كبيرة غير مهملة شيئًا مما يرضيهم ويوليهم تعزيةً. ذلك وكانت يوم خميس الاسرار تغسل اقدام بعض البرص وتلبسهم ثيابًا جديدةً احترامًا للمسيح الذي اراد حبًّا بنا ان يُعتبر كابرص

واراد الله تعالى بحسب عادتهِ مع مختاريهِ ان يجربها لان كُنْرادوس احد الامراء حارب زوجها وجرحهُ في المعركة وأسرهُ ولم يُرد ان يطلقهُ فجمع ابنها البكر عسكرًا آخر لينقذ اباهُ من اسر ذلك العدوّ اما القديسة هيدوفيجا فلم ترتضِ بسفك الدم فذهبت هي بنفسها الى كُنْرادوس لتطلب زوجها فلما رآها هذا الامير استحوذ عليهِ الخوف وارتضى بكل ما طلبت واطلق زوجها. ثم جرَّبها الله سبحانهُ تجربةً أُخرى أشد من الاولى وهي قتل ابنها البكر في محاربة التتر ولكنها احتملت كل هذا بكمال الصبر تسليمًا للمولى جلَّ شانهُ

واعلم ان الله كان قد آتاها روح النبوة ولذلك عرفت ساعة وفاتها مع انهُ لم يكن ظاهرًا عليها شيء من اعراض الامراض فطلبت سرَّي المسحة والقربان المقدس فتناولت القربان المقدس وماتت فجأةً بسلام في اليوم الخامس عشر من تشرين الاول سنة ثلث واربعين ومائتين والف وكُتب اسمها في سفر القديسين بعد أربع وعشرين سنة لوفاتها ونقلت الكنيسة عيدها الى اليوم ١٤ من الشهر المذكور. ولما فتحوا قبرها كان قد بلي جسدها كلهُ ما عدا ثلثةً من اصابعها كانت ممسكةً ايقونة البتول عليها اشرف السلام وكانت قد حملت هذه الايقونة كل ايام حياتها وكانت ماسكةً اياها عند وفاتها وبعد وفاتها ايضًا بعزم شديد حتى انهُ ما امكن ان تؤخذ منها فدفنوها معها

اليوم الثامن عشر

وفيهِ ترجمة القديس لوقا البشير

ان هذا القديس الفاضل وُلد بانطاكية مدينة بسورية وأكبَّ على الدرس منذ ايام الصبا وللحذاقة لبهِ برع في العلوم وصار لهُ فيها باع طويل قيل انهُ كان وثنيًّا ثم آمن على يد الرسول بولس ورافقهُ في اسفارهِ وكتب ترجمتهُ

وزعم بعض المؤرخين انهُ كان يهوديًّا وانهُ واحدٌ من الاثنين والسبعين تلميذًا ورفيق كلاوبا احد التلميذين الذاهبين الى عمواس اللذين تراءى لهما السيد المسيح في الطريق اما هو فيشهد انهُ لم يكتب انجيلهُ الَّا بحسبما تسلمهُ من الذين كانوا منذ البدء يُبصرون وكانوا خدَّامًا للكلمة (لوقا ١: ٢) اي من الرُسل الاطهار فينتج من ذلك انهُ لم يبصر السيد المسيح. واعلم ان هذا القديس كان طبيبًا كما قال الرسول بولس (كولسي ٤: ١٤) ويقول القديس ايرونيموس انهُ كان ماهرًا في هذا العلم وكان يعرف ايضًا صناعة التصوير والكنيسة تحفظ الى الان في رومية صورة العذراء المجيدة التي صوَّرها هذا القديس بيدهِ وهذا تقليدٌ قديم

فلما وصل القديس بولس الى انطاكية وجد هناك هذا القديس في ظلام عبادة الاوثان فعلّمه وعمَّدهُ وأحبهُ جدًّا ولذلك سمَّاهُ القديس ايرونيموس ابن الرسول الروحي ودعاهُ يوحنا فم الذهب رفيقهُ الامين وشريكهُ في اتعاب الرسالة. ثم انتقل معهُ من طرواذا الى مكدونية نحو السنة الحادية والخمسين بعد انفصالهِ عن القديس برنابا ومنذ ذلك الزمن تبع هذا التلميذ معلمهُ ولم يفارقهُ ابدًا وقد عاشر كثيرين من الرسل وتلاميذ السيد المسيح ومنهم عرف ما حدث للمسيح تبارك اسمهُ وعرف آلامهُ وقيامتهُ وعجائبهُ وتعليمهُ وحينئذٍ اي نحو السنة الثالثة والخمسين حينما كان في اكائية كما قال القديس ايرونيموس كتب انجيلهُ بالهام الله وكان قد كتبهُ القديسان متى ومرقس الَّا انهما تركا اشياء كثيرة لم يكتباها. ثم ان بعض الرسل الكذبة كانوا قد

سطّروا انجيلاً مملوءًا كذبًا فحرّك الله تعالى القديس لوقا الى كتابة الانجيل لكي يعرف المؤمنين الحق ويفرقوا بينهُ وبين الباطل . واعلم انهُ قد انفرد عن بقية الانجيليين بانهُ كتب سيرة سيدتنا مريم البتول وما يناسب طفولية سيدنا يسوع المسيح . فهذه كلها تدل على ان القديس لوقا قد عرف البتول معرفة خصوصية

وقد اثبت بولس الرسول بشارة تلميذهِ وكذلك اثبتها بقية الرسل واحصوا كتابةً بين الاسفار المقدسة بل ان القديس بولس سمى هذا الانجيل انجيلهُ (رومية ٢ : ١٦) كما قال بعض العلماء . ولما كتبهُ هذا البشير ارسلهُ الى ثاوفيلا الذي كان رجلاً مقتدرًا وحاكمًا في احد الاقاليم التي آمن فيها الناس بالانجيل المقدس حسب شهادة القديس اغسطينوس وفم الذهب . هذا وان الرسول بولس سمى القديس لوقا في رسائلهِ رفيقهُ ومعينهُ الحبيب الممدوح من كل الكنائس لاجل نقاوة سيرتهِ وحسن فضائلهِ وشدة غيرتهِ (٢ كورنتس ٨ : ١٨)

ثم ان القديس بولس ارسل لوقا مع تيطس الى كورنتس نحو السنة السادسة والخمسين للمسيح ليخدما هذا الكرم واعطاهما رسالتهُ الثانية الى اهل هذه المدينة وبعد وصولهما الى هناك وصل الرسول ايضًا ومن كورنتس كتب رسالتهُ الى اهل رومية ثم انهم ثلثتهم سافروا الى اسيا واجتازوا بمكدونية ولما وصل الرسول مع القديس لوقا الى قيصرية فلسطين وتنبأ اغابوس على الرسول ان اليهود يسلمونهُ الى ايدي الامم أَلحّ عليهِ ان لا يصعد الى اورشليم ولكن لما رآهُ القديس لوقا منطلقًا انطلق معهُ مع انهُ كان يعرف الخطر ولما قبض عليهِ ليسياس وارسلهُ الى فيلكس الى قيسارية ذهب معهُ وبقي هناك سنتين مساعدًا لهُ في السجن . ولما أُخذ بولس ايضًا الى رومية ليُنظَر في دعواهُ هناك سافر ايضًا معهُ القديس لوقا وقد ذُكر في اعمال الرسل (فصل ٢٧ و٢٨) ما يدل على التعب الذي احتملاهُ في هذا السفر فوصلا الى رومية اواخر فصل الشتاء في السنة الحادية والستين للمسيح واقام بالسجن مع معلمهِ مدة سنتين ليخدمهُ ملقيًا نفسهُ في خطر الموت وكتب هذا البشير حينئذٍ السفر المتضمن أخصّ افعال رسل الرب وما جرى في الكنيسة في مدة ثلثين سنة بعد صعود السيد المسيح وسمى هذا الكتاب اعمال الرسل لكي يتأمل المؤمن في قراءتهِ هذا السفر لا عجائبهم فقط بل فضائلهم ايضًا كما ارتأى يوحنا فم الذهب . وقد زعم جماعةٌ من العلماء ان البشير ألّف هذا الكتاب من اجل ما كان قد كُتب كذبًا في افعال الرسل وليكون للمؤمنين تاريخًا صحيحًا يشتمل على العجائب التي بها ربّى الرب كنيستهُ وكانت براهين واضحة على قيامتهِ تعالى وحقيقة كنيستهِ المقدسة فكتبت في الفصول الاثني عشر الاولى من تأليفهِ هذا ما عملهُ الرسل عمومًا تأسيسًا للكنيسة وتبشيرًا للانجيل منذ صعود السيد المسيح وفي باقي الفصول يذكر خصوصًا اعمال القديس بولس التي كان هو شاهدها واشترك فيها

ولما خرج بولس الرسول من السجن سنة ثلث وستين لازمهُ القديس لوقا ولم يزل بصحبتهِ في اسفارهِ واتعابهِ حتى استُشهد القديس بولس برومية فشهد الرسول في سجنهِ الاخير قائلاً انهُ لم يكن معي الاّ لوقا (تيموثاوس ٤ : ١١) . ثم ان هذا البشير ترجم من اللغة العبرانية الى اليونانية رسالة القديس بولس الى العبرانيين

وروى القديس ابيفانوس ان القديس لوقا بعد انتقال الرسولين بطرس وبولس بشّر بالانجيل المقدس في بلاد ايطاليا وغاليا ودلماسيا ومكدونية . وروى المؤرخون اليونانيون ايضًا انهُ بشّر بمصر وبلاد الصعيد وليبيا ويقول اليونانيون انهُ عاش اربعًا وثمانين سنة وتُوفي بتولاً وشهيدًا ايضًا كما قال القديسان غريغوريوس النزينزي وبولينوس وغيرهما . ومن المؤكد انهُ مات باكائية ولكثرة ما تعب في خدمة الانجيل المقدس تقول الكنيسة في القداس يوم عيدهِ انهُ حمل دائمًا على جسدهِ امانة سيدنا يسوع المسيح

اليوم التاسع عشر

وفيهِ ترجمة القديس بطرس القنطاري

وُلد هذا القديس سنة تسع وتسعين واربعمائة والف للمسيح بالقنطارة مدينة بمملكة اسبانيا ولهذا لُقّب بالقنطاري وكان والدهُ الفونسيوس حاكم هذه المدينة فقيهًا ماهرًا ووالدتهُ شريفة الحسب والنسب كابيهِ وقد اعتنيا بتربيتهِ مزيد الاعتناء غير انهما لم يتعبا بتربيتهِ بما ان الله كان قد زيّنهُ باخلاق حميدة مقدسة ونال منهُ تعالى موهبة الصلاة العقلية منذ صغر سنهِ وقضى اكثر ايام طفوليتهِ وصباوتهِ في هذه

الصلاة ولكنها لم تصرفهُ عن درس العلوم

فلما بلغ الشباب وامعن النظر في الاخطار المحدقة بوِ لجمال مظهرِ المحبوب تدجَّج باسلحة الحرب الروحية وهي ممارسة الصلاة والاكثار من تناول القربان المقدس والالتجاء الى البتول المجيدة والهرب من اسباب الخطيئة وأفعال السيرة القشفة. فبهذا كلهِ انتصر على تجربة الجسد ولكن الشيطان حاربهُ بعد ذلك بتجربة الكبرياء مميلاً اياهُ الى حب الكرامات والمراتب العالية غير انهُ بنعمة الله تعالى وبواسطة الصلاة العقلية عرف ان مجد الدنيا امرٌ زائل وعرف ما هنالك من الاخطار فزهد في العالم ودخل في رهبانية القديس فرنسيس واختار ديرًا مبنيًّا في الفيافي على الجبال عند حدود اسبانيا والبرتوغال وقد اظهر الله سبحانهُ مزيد سرورهِ بمقصد عبدهِ هكذا: ان بطرس هذا لما وصل الى نهر ولم يجد احدًا ينقلهُ في قارب التجأ الى الله طالبًا ان يعينهُ في ذهابهِ الى الدير فللحال نقلهُ ملَك الرب الى العبر

ولما دخل دير المبتدئين لم يكن لهُ من العمر سوى ست عشرة سنة وما بقي ستة اشهر هناك حتى صار للرهبان المتقدمين قدوةً في الكمال الرهباني لا سيما في التقشفات والاتضاع لانهُ كان يستسهل اصعب افعال السيرة القشفة بل كان قد جعل فيها تنعمهُ فكان كل يوم يخترع وسائط لاحتقار نفسهِ ويزداد نشاطًا في ذلك بمناجاتهِ المتصلة لله تعالى بالصلاة العقلية وكان قد عاهد عينيهِ كايوب البار عهدًا ابديًّا انهُ لا ينظر الى امرأةٍ ابدًا فكان في الدير كالاعمى اذ لم يكن يعرف أَبالاخشاب مسقَّفة قلاَّيتهُ والكنيسة ام بالحجارة ولم يكن يميز اخوتهُ الرهبان بعضهم عن بعضٍ الاَّ بمجرَّد الصوت ولفرط ما حارب حواسهُ وعذَّبها اضحى كمن فقد استعمالها

وبعدما نذر النذور الرهبانية أُرسل الى دير منفرد جدًّا وهناك بنى لنفسهِ حجرةً صغيرةً ضيقة الى الغاية حتى كانها قبر واظب ثمَّةَ على تقشفات ترتعد الفرائص عند ذكرها ولولا ان الكنيسة تذكرها في فحصها عن فضائلهِ ما كنت اظن ان احدًا يصدّقها لانهُ كان لا ياكل ولا يشرب الاَّ مرةً واحدة في كل ثلثة ايام وكان احيانًا يطيل هذا الصوم الى ثمانية ايام وكان كل يوم يجلد جسدهُ جلدًا عنيفًا بسلاسل رفيعة حديدية وكان يلبس على الدوام ليلاً ونهارًا مِسحًا محزَّمًا وحدود ذلك المسح كانت تخز جسمهُ كوخز الإبَر ومع انهُ لم يكن ياكل الاَّ خبزًا وحشائش غير مطبوخة كان يمزج ماكلهُ برماد لئلا يستلذ بالماكل التي يستعملها. ولم يكن ينام الاَّ ساعةً ونصف ساعة وبقي ينام هكذا اربعين سنةً وقد خالف الناس في كيفية النوم كما خالفهم في مدَّتهِ اذ كان ينام اما جاثيًا على ركبتيهِ او واقفًا على رجليهِ ورأسهُ مستند الى الحائط وكان يقضي بقية الليل مصليًا او ممارسًا شيئًا من الامانة. ولفرط ما كانت قلاَّيتهُ وطيئةً ضيقةً لم يقدر ان ينتصب فيها واقفًا ولا ان يمتدَّ بطول جسدهِ. وكان في عزّ البرد يدع كوَّة قلاَّيتهِ مفتوحة ولم يكن يمشي الاَّ حافيًا

والحاصل انهُ اذ رغب عن رفاهية العيش واختار حبًّا بالسيد المسيح المصلوب التألم المتصل والامانة الدائمة ملأَ الله تعالى قلبهُ من أَلذ تعزياتهِ ووهبهُ نعمة الصلاة العقلية بطريقة سامية جدًّا فلما كان يصليها كان يقع عليهِ جَذب فيفوز بالافراح السماويَّة

فلما رأى الرؤساء برارة هذا الراهب النشيط لم يدعوا فضائلهُ خافيةً بل وضعوا السراج على المنارة لانهم أَقاموهُ رأس دير ولم يزد عمرهُ على العشرين سنةً وبما انهُ كان اصغر الاخوة سنًّا وقع في قلبهِ انهُ أُرسل ليكون لهم خادمًا وجعل سلطان رئاستهِ معينًا لهُ على اهوائهِ الصالحة لانهُ بهِ كان يختار لنفسهِ أَحقر أَشغال الدير واشقَّها ثم أَلزمتهُ الطاعة ان يرتسم كاهنًا فارتسم وفيما كان يقرّب الذبيحة الالهية كان يظهر كانهُ ملَك ملتهب بنار محبة الله ذارفًا الدموع على المذبح

ثم أَخرجتهُ الطاعة من الدير ليباشر الوعظ ولذلك بقدوتهِ الصالحة جاءَت مواعظهُ باثمار جيدة فليَّن القلوب القاسية واثبتها في التوبة النصوح. هذا وان نفسهُ كانت ترتاح دائمًا الى الاعتزال ومن اجل ذلك بُعث رئيسًا على دير بعيد جدًّا عن العامر وهناك أَلَّف كتابًا في الصلاة العقلية النظريَّة وقرَّظتهُ القديسة تريزيا احسن تقريظ وكذا القديس فرنسيس سالاسيوس وخصوصًا البابا غريغوريوس الخامس عشر. فلما انتشر هذا الكتاب الجليل عبقت رائحة برّ مؤلفهِ ومن ثمَّ طلب يوحنا الثالث ملك البرتوغال من رؤسائهِ بالحاحٍ ان يرسلوهُ اليهِ. فذهب بالطاعة الى هناك ماشيًا حافيًا على عادتهِ. هذا ومن لي بان يصف اثمار فضائلهِ وتعاليمهِ وسيرتهِ الصالحة فان كثيرين اذ رأَوا ما رأَوا من

آثار صلاحهِ فارقوا الاحبَّاء والاقارب ليتفرَّغوا لعبادة الله تعالى على الطريقة الرهبانية وممن اشرنا اليهم اخو الملك واختهُ

ثم رجع الى اسبانيا سنة ثماني وثلثين وخمسمائة والف للمسيح وأُقيم رئيساً اقليميًّا ووقتئذٍ شرع في اقتلاع التراخي الذي وقع في مذهب رهبانيتهِ وردَّهُ الى كمالهِ الاوَّل ولا يخفى انهُ تعب في هذا غاية التعب من اجل ان اصلاح رهبانية اختلَّ نظامها هو اصعب من انشاء رهبانية جديدة نشيطة الَّا انهُ بحول الله تعالى اتمَّ هذا العمل كما ينبغي واعاد الى رهبانيتهِ روح منشئها القديس فرنسيس. وقد أثبت البابا بولس الرابع قوانين اصلاحهِ سنة اثنتين وستين وخمسمائة والف للمسيح ولما كان سنة تسع وخمسين وخمسمائة والف متردّدًا في مدينة افيلا اطلعتهُ القديسة تريزيا على ما كانت عليهِ من الصلاة العقلية ومناجاة الله واخبرتهُ ايضاً ان بعض العلماء قالوا لها ان تعزياتها الروحية انما هي خديعة من الشيطان فاسكن القديس رُوعها وازال اضطرابها وحثها على تتميم مقصدها في تشييد دير تُحفظ فيهِ قوانين الرهبانية بتدقيق

ولما كان القديس يزور الاديرة التي اتخذت قوانينهُ وقع في مرض الموت فتناول القربان المقدس ثم وقع عليهِ جذب وظهرت لهُ ملكة السماء وفي صحبتها القديس يوحنا الانجيلي واخبرتهُ انهُ قد حان زمان دخولهِ ملكوت السماء وحينئذٍ طفق يقول اني فرحت من اجل ما قيل لي الى بيت الرب نمضي. ثم توفّي بالرب في اليوم الثامن عشر من تشرين الاول سنة اثنتين وستين وخمسمائة والف للمسيح الَّا ان الكنيسة المقدسة تعيّد عيدهُ في اليوم التاسع عشر من هذا الشهر

فعنهُ كتبت القديسة تريزيا ما مضمونهُ. لقد عرفت ما يقال غالبًا وهو ان اهل هذا الزمان ليسوا قابلين لمثل هذا الكمال وان هذا كان يناسب الزمان القديم لا زماننا الذي فيهِ قد ضعفت الطبيعة. وها ان الجزيل الطوبى بطرس القنطاري الذي قد رقد منذ زمن قليل كان في عصرنا ولم يكن اقل نشاطًا من القديسين المعظمين الذين كانوا في الاعصار الخالية لانهُ في مدة اربعين سنة لم ينم في كل ليلة غير ساعة ونصف ولم يغطِ هامتهُ ابدًا ولما رأيتهُ لم يكن لهُ الَّا جلد على عظم يشبه قشر الشجر وكان قليل النطق لطيفًا في كلامهِ. وقد مات كما عاش اعني موتًا مقدَّسًا وانا قد حزت من الله تعالى نعمًا كثيرة بشفاعتهِ بعد موتهِ وشاهدتهُ مرارًا عديدة متلألئًا بمجدٍ عظيم وقال لي المرة الاولى ما اسعد ذوي السيرة القشفة التي عليها جوزيت احسن جزاء

اليوم العشرون

وفيهِ ترجمتا الشهيدة امانة البتول والشهيد كبراسيوس

وُلدت هذه القديسة الشريفة النسب بأَجين مدينة بفرنسا ونشأَت على تهذيب الاخلاق بمقتضى الآداب الانجيلية وذلك لان والديها كانا مسيحيين فاضلين وهذا دأْب امثالهم حتى في هذا العصر الذي تغافل الناس فيهِ عن مراعاة هذا الامر المهمّ الذي تتوقَّف عليهِ جميع امور الاولاد الدنيوية والدينية لان المرء على ما ينشأ ويعتاد فاذا لم يُربَّ من الصغر على قواعد الديانة الكاثوليكية ويتعوَّد ممارسة ما فرضهُ الله على كل مسيحي فانهُ يشبُّ على الاهواء الرديئة والاميال القبيحة. فعلى الآباء والامهات اذًا ان يبذلوا الجهد في تهذيب اولادهم في المدارس الكاثوليكية ليرضعوا حليب التقوى والايمان المستقيم كما فعل والدا هذه الشهيدة فانهما كانا على عادة المؤمنين القدماء يخبرانها وقت المحادثة بما احتملهُ الشهداء القديسون من العذاب الاليم حبًّا بالسيد المسيح ليجعلاها تستعدُّ هكذا لقبول الموت من اجل الايمان. اما هي فكانت تطيب نفسًا بسماع هذه الاخبار وتتعجب من شجاعة القديسين مرتاحة الى الاشتراك في اكاليلهم وسعادتهم مع انها لم تكن الَّا ابنة عشر سنين او اثنتي عشرة سنة

وكان داسيانُس على عهد ديوكليسيانوس ومكسيميانوس المغتصبين متوليًا على اسبانيا واعلم انهُ لم يُعرف بين المغتصبين احدٌ اقسى منهُ على المسيحيين فنادى في كل ولايتهِ بالاضطهاد على حسب امر الملكين وذهب الى اجين ليسكب كاس رجزهِ على عبيد الله. اما والدا القديسة امانة فلا يُعلم أكانا قد هربا من الاضطهاد ام توفيا الله اعلم. غير ان البتول الشابَّة لم تفرَّ ولم تضطرب مع ان الناس كانوا يحثونها على ذلك لانها حسبت هذا الهرب اهانةً لايمانها ولعروسها الالهي. ومن ثمَّ اخذت تستعدُّ للحرب مختلية في بيتها على الصوم والصلاة ولشدة عزمها جاد الله عليها بنعمٍ جليلة فتدرَّعت

بقوةٍ جديدةٍ من العلاء ولذلك قام في قلبها الشوق الى الاستشهاد حتى كانت تصرخ قائلةً هلمَّ يا ايها المغتصبون اعداء الايمان المسيحي واضرموا نيرانكم واستلوا عليَّ سيوفكم واستعملوا كل آلات العذاب واطلقوا عليَّ وحوشكم الضائرة. فلقد اتكلتُ على عروسي يسوع المسيح وقدرتهِ وازدري بكل أعذبتكم. ان اسمي امانة وبي ينتصر الايمان المسيحي وسط النار فليختبئ من يختبئ وليهرب من يهرب اما انا فحاشا لي ان اهرب واختبئ ولكنني امضي وأُقدّم نفسي للحاكم ليعرف ان العذاب والموت لا يُريعان القلب المسيحي. قالت هذا وللحال أُخبرت انهُ قد صدر امر الوالي في استحضارها فعملت على جبهتها علامة الصليب المقدس وخرجت من بيتها وذهبت الى الحاكم

ولما مثلت امامهُ اعترفت انها مسيحية اما داسيانوس فلما رأى البتول وعرف شرف اصلها سألها عن اسمها فقالت لهُ اني أُدعى امانة بالاسم والفعل ومن صغر سني تعبّدت للسيد المسيح. فظنَّ داسيانوس انهُ ينتصر عليها بسهولةٍ بملاينات الكلام فمدحها على شرف اصلها وبديع جمالها ووعدها باموال كثيرة ان طاعت امر الملك وعبدت الآلهة. فاجابتهُ البتول قالت. ان اعتقادكم بوجود آلهة كثيرين هو ضلالٌ مبين ولا ريب انهُ من وسوسة الشيطان اخزاهُ الله اما انا فلا اعرف الاَّ الهًا واحدًا وإيَّاهُ وحدهُ اعبد ولهُ تعالى قدَّمت حياتي وكل ما لي ولست اعتبر ما تقدّم لي من الهدايا ولا أُبالي بما توعدني بهِ من العذاب ان اسمي امانة ومن ثم يمكنك ان تقطع خيط حياتي اما ايماني فلا. فاضرم هذا الكلام في قلب المغتصب غضبًا شديدًا ومن ثمَّ امر للحال بتعذيب البتول الطاهرة فمدوها على مشواة مُحماةٍ ليشووها على النار فلم تمرَّ دقيقة واحدة حتى التحفت باللهيب وصارت كالحديد في الاتون فرقت قلوب الوثنيين من مشاهدتهم مثل هذه القساوة وتذمّروا على الحاكم وقالوا لهُ من اين يسوغ لك ان تعذّب شابَّةً شريفة النسب بديعة الجمال عذابًا مريعًا لمجرّد عبادتها لإلهها

فشاع خبر شجاعة القديسة امانة لا في المدينة فقط بل في الجبال التي بتلك النواحي ايضًا حيث كان قد هرب كثير من المسيحيين بسبب الاضطهاد ومنهم كابراسيوس اسقف المدينة الاول وهذا مولود بمدينة اجين ومعتبر فيها جدًّا بسبب صفاتهِ الحميدة وكان قد فرَّ الى هناك مع اكثر رعيتهِ فصعد الى موضع عالٍ قريب من المدينة فرأى لهيب تلك النار المحيطة بالبتول الممتدة على المشواة فانذهل عقلهُ وجثا على الارض ثم رفع يديهِ وعينيهِ الى السماء وطلب من الله بكل قلبهِ ان يعين أَمتهُ في هذه الحرب ويظفرها بالاعداء. وفيما كان يصلي رأى حمامةً انقى من الثلج بياضًا حاملة في منقارها اكليلاً من ذهب متلألئًا بحجارة ثمينة كثيرة رفرفت فوق الشهيدة ثم وضعت الاكليل على هامتها. فاخذ يتامل شدة بأس هذه الفتاة التي لم تفرَّ من الاضطهاد كسائر المؤمنين. فخجل من فشلهِ وبكى قائلاً اليس الهُ هذه البتول هو الهي ايضًا فكيف لا افعل حبًّا لهُ تعالى ما تفعلهُ هي وفيما كان يحثُّ نفسهُ هكذا على الاستشهاد تصوَّر شدة عذاب الشهداء فاستولى عليهِ الخوف البشري وغدا محاربًا من الطرفين من قِبل شوقهِ الحميد الى الموت من اجل السيد المسيح ومن قِبل الخوف الطبيعي فاطرق بوجههِ الى الارض ثانيةً وسأل الله تعالى ان يؤهلهُ لسفك دمهِ من اجلهِ ويريهُ بعلامةٍ ما انهُ استجاب طلبتهُ. وفيما كان راجعًا الى مغارتهِ وهو متردّد في ذلك سأل الله ان يُخرج عين ماء من صخرة مغارتهِ علامة على انهُ يُظفرهُ في القتال فضرب الصخرة فتفجّر منها الماء حالاً ومن ساعتهِ خرج من المغارة ودخل المدينة وتقدّم الى داسيانوس معترفًا انهُ مسيحي كالقديسة امانة

اما المغتصب فخجل من شجاعة المسيحيين ولكن اشتدَّ عليهم غضبًا. ثم امر بالاسقف فعلّقوهُ بيديهِ ورجليهِ على اربع خشباتٍ ومزّقوا جسدهُ بمخالب من حديد. واعلم انهُ لم يحتمل ذلك بالصبر فقط بل كان مسرورًا يبكّت الوثنيين على عبادتهم للاوثان وقد آمن كثيرون من الحاضرين ومنهم بريموس وفيليكيانوس اخوهُ وذهبوا للوقت ليعتمدوا. اما المغتصب فلما رأى ان تعذيب الشهيد يكثر المسيحيين كفَّ عن ضربهِ وارسلهُ الى السجن وامر بالقبض على الاخوين. فلما دخل القديس الحبس وجد فيهِ القديسة امانة على حال الصحة بعد بقائها على المشواة عدة ساعات امتلأ قلبهُ سرورًا واخبرها بما رآهُ وبما جرى في الجبل وفيما كانا يشكران الله تعالى مستبشرين محثين بعضهما بعضًا على الموت دخل السجن بريموس وفيليكيانوس اخوهُ فقضوا الليل في الصلاة والمذاكرة متاهبين للاستشهاد. ولما كان الغد قدَّموا باكرًا للمغتصب فهذا لما رآهم ثابتين على النصرانية ومرتاحين الى

العذاب يئس من ارجاعهم عن النصرانية فامر بهم فقُطعت اعناقهم وهكذا نالوا اكليل المجد الابدي (١)

وفيهِ ايضاً ترجمة القديس ارتيموس (شليطا) راجع وجه ٢٠٩

اليوم الحادي والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس ايلاريون

ان هذا القديس هو ابو الرهبان ومنشيء الاديرة في بلاد فلسطين كما ان القديس انطونيوس الكبير هو منشيء رهبانية ببلاد مصر والقديس باخوميوس ببلاد الصعيد. وكان مولدهُ سنة احدى وتسعين ومائتين للمسيح بقريةٍ بفلسطين تُدعى طبيبات بقرب غزَّة من والدَين وثنيَّين وفي صبائهِ أُرسل الى الاسكندرية ليتعلم فنَّي الصرف والنحو والاجدر بنا ان نقول ان عناية الله هي التي ارسلتهُ الى هناك لان اسقف المدينة كان وقتئذٍ القديس بطرس الذي استُشهد سنة احدى عشرة وثلثمائة ومعلم المدرسة المسيحية كان القديس اكيلاس الشهير فهذا لما رأى تلميذهُ حسن الاخلاق علَّمهُ قواعد النصرانية فآمن التلميذ واعتمد سنة اثنتين وثلثمائة للمسيح وبدأ يسير في طريق الفضيلة

ولما كان برُّ القديس انطونيوس وقتئذٍ مشهورًا في مصر كلها ذهب اليهِ ايلاريون لكي يتعلم منهُ طريقة الكمال المسيحي فأحبهُ الشيخ القديس كوكب البريَّة وبذل في تعليمهِ اقصى جهدهِ لانهُ عرف بالنبوة انهُ سيزهو بالبرّ. فبعد ان بقي عندهُ مدة شهرين أَنف من الاقامة هناك لان كثيرين كانوا يزورون القديس انطونيوس كل يوم فعزم على الاعتزال في البراري ليقضي هناك حياتهُ في مناجاة الله تعالى وحدهُ غير انهُ لما عاد راجعًا الى الاسكندرية أُخبر بموت والديهِ فرجع الى بيتهِ واخذ تركتها الوافرة واحسن بها الى المساكين ليكون الله وحدهُ نصيبهُ وكان قد بلغ حينئذٍ من العمر خمس عشرة سنة فقط. ثم أتى البريَّة التي في جنوبي غزَّة مع انهُ كان عارفًا

(١) حاشية. يذكر السنكسار الروماني في هذا اليوم استشهاد القديس كابراسيوس. اما القديسة امانة فيذكر استشهادها في اليوم السادس منهُ وقد ارتأى البلاّنديستيون ان وفاة القديسة المذكورة كانت في هذا اليوم نفسهِ وان الاسقف القديس لم يمت هو ورفيقاهُ الاّ بعد ايام قليلة من وفاتها واجتذبهُ الى الموت مشاهدتهُ بالرؤيا استشهاد البتول (راجع ما كتبهُ البلاّنديستيون في هذا المعنى في ترجمة القديسة في اليوم السادس من تشرين الاول)

بانها مكمنٌ لكثير من اللصوص وسلك طريق الكمال خمسًا وستين سنة لم يلبس الاّ ثوبًا واحدًا وكان ياكل كل يوم خمس عشرة تينةً بعد الغروب ولما كانت تدهمهُ تجربة ما دنسة كان ينقص من هذا المأكل القليل وكان في بعض الاوقات يمتنع عن الاكل اصلاً ثلثة ايام او اربعة ولم يكن يأذن لنفسهِ بالبطالة قطّ علمًا بان البطالة امّ جميع الرذائل. ولهذا كان دائمًا مكبًّا على الصلاة والشغل الى ان بلغ سنة العشرين ولم يكن لهُ منزل الاّ على شكل كوخ مصنوع من قصب فقط وبعد ذلك بنى قلاَّية كالقبر في ضيقها وانخفاضها وفرش فيها حصيرة لا غير. ولما بلغ السنة الحادية والعشرين لم يعُد ياكل كل يوم الاّ حفنة عدس منقوع في ماء بارد او قليلاً من الخبز وعاش هكذا ست سنين وعاش منذ كان ابن سبعٍ وعشرين سنة حتى صار ابن ثلثين على البقول واما في بقية حياتهِ فانما كان ياكل كل يوم اوقية من خبز الشعير وشيئًا من البقول الغير المطبوخة. الاّ انهُ لما بلغ السنة الرابعة والستين من عمرهِ ترك اكل الخبز بالكلية حتى وفاتهِ ونقص ما كان ياكل يوميًا من القوت بحيث انهُ مع ازدياد عمرهِ كان يزيد في اصوامهِ

ان ضنك عيشتهِ القشفة كان كلا شيء بالنسبة الى ما قاساهُ من اقبح التجارب وحينئذٍ اي حينما كانت تدهمهُ الافكار النجسة وتضغطهُ الشهوات الزنائية كان يطيل الصوم الى أربعة ايام او خمسة ويتعب جسدهُ باشغال كثيرة مضنية ويخاطبهُ بحدَّة غيظٍ قائلاً: يا ايها الحيوان الردي والفرس الشموس اني اعرف كيف اضبطك واصدّك عن الوقوع بي سأضيق عليك بالجوع والعطش والحرّ والبرد والتعب اشدّ المضايقة حتى انك لا تعود تتكبر وتطلب التنعُّم الرديء بل توجّه كل فكرك الى ما هو ضروري لقوام الجسم فقط. فاعلم يقينًا اني لا أزال أُتعبك ما دمت تنعبني

اما الله تعالى فاراد ان يُظهر للناس برَّ عبدهِ بالعجائب لانهُ اتفق وقتئذٍ ان اليبدبوس رجلاً ذا سطوةٍ لما كان راجعًا من مصر حيث زار القديس انطونيوس هو وامرأتهُ واولادهُ ووصل الى غزَّة رأى بنيهِ الثلثة قد اشرفوا على الموت فارسل واستدعى القديس ايلاريون فأتى وصلّى على اولئك المرضى فنهضوا حالاً بكمال الصحة. وقد شاع خبر هذه الآية في الآفاق فاقبل الناس عليهِ بالمرضى من كل ناحية

ولم يكونوا يرجعون الآَّ معافين . وبهذه المعجزات اجتذب الى الايمان المسيحي كثيرًا من الوثنيين في مدينة غزَّة وكان ذلك عام سبعة وثلثين وثلثمائة للمسيح ورام كثيرون من المؤمنين ان يتتلمذوا لهُ . ولم يُرَ قبل هذا القديس بفلسطين سائح بل هو الذي انشأ هناك هذه الطريقة المقدسة وبقدوتهِ الصالحة وكثرة عجائبهِ تكاثرت السيَّاح وكثرت الاديرة وطلب الجميع ان يكون رئيسًا عليهم . فرسم لهم قوانين وقام على رعايتهم ودبَّرهم بجزيل الحكمة والوداعة والمحبة ومن ثم زهت القداسة جدًّا في الاديرة وكانت عدة رهبانهِ زهاء اربعة آلاف

وقد اتفق يومًا انهُ خرج في جماعة من رهبانهِ ليزور الاديرة ولما قرب من مدينة الوز بارض الادوميين كان الوثنيون قد التأموا ليقرّبوا ذبيحةً لصنم من اصنامهم الاَّ انهم لما شعروا بقدوم القديس الذي كان قد شفى كثيرين من مرضاهم واخرج منهم الشيطان خرجوا لاستقبالهِ مع كاهنهم لابسًا حلَّة رتبتهِ فلما رآهم القديس مقبلين عليهِ بابتهاج واكرام تأوَّه على شقاء حالهم وشرع يبكي امامهم ثم اتَّقدت بهِ الغيرة لخلاصهم وطفق يبيّن لهم ان عبادة الاوثان ضربٌ من الغباوة ويظهر لهم صحة الديانة المسيحية . فصرخ الشعب جميعهم اننا نرذل عبادة الاوثان ونؤمن بانجيل ابن الله ثم هدموا هيكل الصنم وبنوا في مكانهِ كنيسةً فعلَّمهم من قواعد النصرانية ما يكفي للخلاص ثم عمَّدهم

اعلم اننا قد نقلنا هذا كلهُ عما كتبهُ القديس ايرونيموس وقد روى ايضًا ان القديس ايلاريون افتقد احد اديرتهِ وكان وكيل هذا الدير رجلاً بخيلاً محبًّا للمال وكان لهُ بستانٌ وهو السبب في دوام تكدّرهِ الليل والنهار مخافة ان احدًا يسرق منهُ شيئًا . فلما وصل القديس الى الدير قدَّم لهُ ذاك الوكيل حزمة لوبياء فاخذها اسيكيوس رفيق القديس ولما كان المساء قدَّمها لهُ ليأكل منها اما القديس فقال من هذه اللوبياء تفوح رائحة البخل ولا قِبل لي ان احتمل نتانتها واثباتًا لذلك امر اسيكيوس بتقدمة تلك الحزمة للبقر فلما قدَّمها لها اشمازت منها كل الاشمئزاز حتى انها خرجت من الاصطبل وهربت بعيدًا حتى لا تشمَّ رائحة تلك اللوبياء

هذا وقد توارد عليهِ الى تلك البريَّة كثيرٌ من الرعاع والشرفاء والكهنة والاساقفة ليشفيهم ويرشدهم فاوقعهُ ذلك في اضطراب وبلبال فعزم على التحوّل الى بريَّة لا انيس بها ليكون مجهولاً فلما عرف الناس عزمهُ اجتمع حولهُ نحو عشرة آلاف طالبين منهُ ببكاء الاَّ يفارقهم . اما القديس فلم يرتدَّ عن عزمهِ ثم قال لهم انهُ لا ياكل ولا يشرب حتى يتمَّ ما عزم عليهِ فلما رأى الشعب انهُ استمرَّ صائمًا سبعة ايام لم يجدوا بدًّا من ان يخلُّوا سبيلهُ ورافقوهُ الى بيت ايل وهناك امرهم بالرجوع الى بيوتهم ولم يأذن في مرافقتهِ الاَّ لبعض السيَّاح وذهب الى دير القديس انطونيوس الذي كان قد تُوفّي منذ سنة واحدة ومن هناك مضى ايضًا الى شرقي نهر النيل بقرب مدينة افروديتة واخذ يمارس في تلك البادية رياضاتهِ بنشاط عظيم . وسنة تسع وخمسين وثلثمائة كان غلاء في تلك النواحي لانها اجدبت بسبب احتباس المطر فالتجأ اليهِ الشعب فلما صلَّى من اجلهم نزل مطر غزير ولما غدا عندهم مكرَّمًا فرَّ هاربًا ايضًا واذ بلغ الاسكندرية نزل بدار احد المسيحيين ورام الخروج مساء الاَّ ان صاحب الدار لم يطلقهُ فقال لهُ القديس دعني انطلق لئلا يحدث لك ضرر اذا بقيت عندك في هذه الليلة فذهب واذا بجنود وثنيين اتوا من قِبل يوليانوس الجحد ليمسكوا القديس اذ قد آمن على يدهِ خلق كثير من الوثنيين في غزَّة ونواحيها فلم يجدوهُ لانهُ كان مضى وسكن بريَّة تدعى واسيس مدة سنة وهناك ايضًا لما صار مكرَّمًا عزم على ان ينفرد في احدى الجزائر

فسافر بتلميذٍ لهُ اسمهُ زانانوس وذلك في آخر سنة ثلث وستين وثلثمائة للمسيح وركبا سفينة كانت سائرة الى جزيرة صقلية وفيما كانا سائرين على البحر دخل الشيطان في ابن الربَّان فصرخ بفمهِ قائلاً لِمَ لا تدعنا يا ايلاريون نستريح فلما يكون على البحر ارجوك ان تتركني حتى نبلغ الى البرّ لانك ان اخرجتني هنا لا يبعد ان اهوي الى عمق الهاوية فقال لهُ القديس ان كان لك اذن من الهي ان تقيم حيث انت الان فأقم ولكن اذا اخرجك الهي من جسد هذا الصبي فلا تشكُ من خاطيء مثلي كأني انا هو السبب في طردك واخراجك فخرج الشيطان حالاً . فلما وصل الى صقلية انفرد في بريَّة مقفرة الاَّ ان الشيطان اخبر اهل رومية بفم مجنون بوصولهِ الى صقلية فأخذ الى القديس وبصلاتهِ نجا من الشيطان وحينئذٍ اتوهُ بالمرضى من كل جهة فشفاهم جميعهم . وفي غضون ذلك وصل اليهِ اسيكيوس تلميذهُ بعد ان نشدهُ وتطلَّبهُ زمانًا طويلاً ثم انتقل القديس من صقلية الى دلماسيا فرارًا من

المجموع وسكن بقرب مدينة ايدورا وهي رغوزا . روى القديس ايرونيموس انهُ لما وصل الى هناك وجد تنينًا عظيمًا كان يقتل البهائم والناس فاماتهُ واحرقهُ بالنار . وفي سنة خمس وستين وثلثمائة كادت المدينة تُهدم من قِبل البحر الذي تجاوز حدودهُ بسبب زلزلة شديدة حدثت وقتئذٍ فذهب الشعب الى القديس ايلاريون وكلفوهُ بالمضي الى شاطئ البحر فذهب ورسم على الرمل ثلثة صلبان وللوقت انزجرت الامواج ونضب الماء عن الساحل

وبعد هذه الاعجوبة خرج القديس من دلماسيا فركب سفينةً وسار الى قبرس وفي صحبتهِ تلميذهُ اسيكيوس وشاع اسمهُ ايضًا في تلك الجزيرة بافواه المجانين واقام بها سنتين يتنقّل من موضع الى آخر لان الله تعالى كان قد شهر حضورهُ بالمعجزات فعزم لذلك ان يرجع الى مصر الاَّ ان تلميذهُ اقنعهُ بان يختار مغارة في الجزيرة فيما بين الجبال الشامخة ففعل وبقي هناك خمس سنين ومن المحقق انهُ في سكناهُ بقبرس تردّد وتحادث مع القديس ابيفانيوس اسقف سالمينا ولما بلغ السنة الثمانين من عمرهِ وشعر باقتراب وفاتهِ كتب بيدهِ كتابًا الى تلميذهِ الذي كان حينئذٍ في فلسطين تاركًا لهُ ثوبهُ وكتاب الاناجيل

فعرف اهل الجزيرة ان القديس تنبأ على يوم وفاتهِ فاجتمع اليهِ اناس لا يحصى عددهم ولما جلس وقرب من الموت اكتنف الخوف نفسهُ غير انهُ قوّاها برجاء المراحم الالهية بقولهِ لماذا تجزعين يانفسي من الموت وها لكِ في العبادة وخدمة السيد المسيح نحو سبعين سنةً ففارقتهُ روحهُ بهدوءٍ في اليوم الحادي والعشرين من تشرين الاول في السنة الحادية والسبعين بعد الثلثمائة للمسيح وكان قد بلغ من العمر ثمانين سنة . اما اسيكيوس تلميذهُ فلما عرف بموت معلمه سافر الى قبرس وبعد دفنهِ بمدة ما من الزمن فتح قبرهُ ووجد جسد القديس صحيحًا تنبعث منهُ رائحة عطرة فنقلهُ الى ديرهِ الاول ببلاد فلسطين وشرع الله تعالى يشرّف قبرهُ بالعجائب كما شهد بذلك القديس ايرونيموس

اليوم الثاني والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا كابِستران

ان هذا القديس من مملكة نابولي وقد وُلد بمدينة كابِستران ولُقّب بها تمييزًا لهُ عمّن يشاركهُ في هذا الاسم وكان مولدهُ بها سنة خمس وثمانين وثلثمائة والف واعلم انهُ سمي يوحنا لانهُ وُلد يوم عيد القديس يوحنا المعمدان . فلما نما الصبي ورأى ابواهُ انهُ ذو عقل ثاقب ومنصبٌ على الخير أدخلاهُ المدارس فمهر بالعلم وفي اثناء ذلك مات والدهُ . فلما وجد والدتهُ مكسورة الخاطر لمات بعلها ولتفاقم اشغالهِ الكثيرة عليها وأنها لاجلها ولاجل تدابير امورها تفتكر في ان تتزوّج ثانية اخذ يعزّيها محثًا اياها بخطاب لطيف على الصبر والاتكال على الله ابي اليتامى وعاضد الارامل وقد تعزّت امهُ جدًّا بكلام ابنها . ولاعتقادها ان الله تعالى كلمها بفمهِ رفضت الزواج الثاني . فرجع يوحنا الى المدرسة وثابر على درس العلوم باجتهادٍ عشر سنين حتى عُدّ من الفقهاء وحينئذٍ أُقيم قاضيًا على مدينة بيروزا وقد باشر واجبات هذا المنصب السني باتمّ ما يكون من الفطنة والامانة . فاتفق مرةً ان رجلاً من اعيان المدينة اعتدى على فقيرٍ فضربهُ والقاهُ في السجن ثم اتى الى ذلك القاضي الفاضل النقي القلب وقدّم لهُ مقدارًا من المال حتى لا يحكم عليهِ ولكن يوحنا لم يقبل الرشوة ولم يرضَ بمجاراة الخاطئ على ما يريد اذ ليس هو من القضاة الذين يسرقون اموال اليتامى . فأوعدهُ ذاك بالموت ان كان لا يحكم على حسب مرادهِ الرديّ غير ان الذي كان قد رذل الرشوة حبًّا للعدل عزم على تكميل واجبات منصبهِ ولم يبالِ بالخطر فحكم بعدلٍ على الظالم واطلق البريء من السجن وبذلك غدا معتبرًا جدًّا في مدينة بيروزا وعرض عليهِ احد شرفاء المدينة ابنتهُ فتزوّجها

واعلم انهُ فيما كان يتقلب في نعيم هذه الدنيا بثوب الكرامة والوجاهة كان الله يريد ان يجعلهُ في حالةٍ أحسن فمالت نفسهُ الى حب السماويات ورغبت عن كل ما هو زائل وحلّت رُبط العالم . اما السبب في زهدهِ واعتزالهِ فانهُ قد وقعت الفتنة بين اهل بيروزا وحاشية ملك نابولي فشرع يوحنا يسعى في المسالمة وفيما كان يجتهد في ذلك اجتهادًا بليغًا ظنّ بهِ قومٌ من الاشرار انهُ يدبّر الامر بخيانة مراعاةً لخاطر الملك فحبسوهُ فبقي هناك طويلاً لا يُعطى في كل يوم الاَّ قليلاً من الخبز والماء ولم يهتمّ احد بمساعدتهِ واطلاقهِ من السجن فانتبه حينئذٍ على زوال خيور الارض وبطلانها وطفق بتأسف متنهدًا ملتجئًا الى والدة الله مستعينًا بها وفيما كان يصلي هكذا

امتلأ السجن نورًا وتراءى لهُ القديس فرنسيس وعزّاهُ واشار عليهِ ان يترهّب فحزن كثيرًا لانهُ كان لا يميل الى الطريقة الرهبانية الَّا انهُ بعد ذلك بيوم واحد هبّ من النوم ورأسهُ محلوقٌ واذا برأسهِ على شكل اكليل بحسب عادة هذه الرهبانية فحينئذٍ علم ان الله تعالى يريد منهُ ان يدخلها وعزم على الترهب عزمًا ثابتًا فدعا الذي قبض عليهِ ودفع لهُ مبلغًا من المال وخرج سالمًا

ولذلك برضا زوجتهِ ردّ لها المَهْر وكانت بعدُ عذراء وباع كل ما لهُ واصطنع بثمنهِ الى الفقراء ثم ذهب الى دير من أديرة القديس فرنسيس كان قريبًا من مدينة بيروزا وطلب ان يترهّب هناك وكان عمرهُ اذ ذاك ثلاثين سنةً . فخاف الرئيس ان يكون ذلك ناشئًا عما اعتراهُ من البلايا الدنيويّة ولذلك رام ان يختبر الامر بتجربةٍ مستصعبة جدًّا فامرهُ ان يطوف كل مدينة بيروزا راكبًا على حمار ولابسًا ثوبًا رثًّا شأنهُ ان يصيّرهُ سخريةً ويغطي رأسهُ بقرطاسٍ مكتوبة فيهِ اسماء خطاياهُ . فرضي بذلك يوحنا وبهِ زهد في الدنيا وانتصر عليها انتصارًا مبينًا . ثم لم يكن يستصعب في الرهبانية شيئًا من افعال الاتضاع . هذا ولما كان قد تأخر في بناء برج الكمال المسيحي روّضهُ الله تعالى منذ ابتداء دخولهِ في الرهبانية على ممارسة اصعب اعمال الفضيلة واكملها لان الرئيس طردهُ مرّتين من الدير كمن لا ترجو الرهبانية منهُ خيرًا ولكنهُ لم يفشل ولم تضعف رغبتهُ في الترهب بل استمرّ على باب الدير صابرًا ملتمسًا الرحمة من الرهبان فقبلوهُ اخيرًا بعد ان وضعوا عليهِ شروطًا شديدة الى الغاية لم يظنوا انهُ يقبلها الَّا انهُ قبلها جميعها بسرور واكملها بتدقيق بل زاد عليها كثيرًا وهكذا بتواضعهِ وصبرهِ تغلّب على قساوة مدبّر بهِ الشديدة

فنذر نذور الرهبانية ومنذ ذلك الوقت لم يعُد ياكل الَّا مرةً واحدةً في كل يوم وامتنع عن اكل اللحم مدة ست وثلاثين سنة ولو لم يلزمهُ اوجينيوس الرابع الحبر الاعظم باكلهِ لامتنع عنهُ دائمًا ولم يكن ينام الَّا ثلث ساعات ولكن لا على فراش وكانت جدران حجرتهِ مصبوغة بدمهِ لانهُ كان جعل السيد المسيح المصلوب مثال سيرتهِ ولهذا كان يرغب في ان يكون دائمًا مجروحًا متألمًا وكان يلبس المِسح غالبًا . اما محبتهُ لله تعالى فكانت ترغّبهُ في مناجاته عزّ وجلّ وحينئذٍ اي وقت الصلاة كان يذرف دموعًا غزيرة . ولما التزم بامر رئيسهِ ان يباشر صناعة الوعظ باشرها اربعين سنة وقد وهبهُ الله سلطانًا روحيًّا عظيمًا فكان كلامهُ يؤثر في اصلب القلوب واقساها

واذ كان عدد الذين يسمعون كلامهُ في المدن تارةً اربعين الفًا وتارةً خمسين واخرى مائة يصعب ان يُعدّ الذين تابوا على يدهِ . ومن اجل هذه الوزنة العجيبة المعطاة من الله تعالى طاف بامر الاحبار الاعظمين في ممالك كثيرة . ان الاحبار الاعظمين مرتينوس الخامس واوجينيوس الرابع في مجمع فيرنسا ونيقولاوس الخامس وكاليستوس الثالث استخدموا يوحنا كابستران في قضايا مهمة واقاموهُ في مراتب عالية فاقيم اولًا على فحص العقائد في ايطاليا ثم جُعل نائبًا باباويًّا في صقلية ثم في فرنسا لدى فيلبُّس دوكا بُرغونيا وكرلوس السابع ملك فرنسا ونائبًا رسوليًّا على المانيا واخيرًا وكيلًا رسوليًّا وواعظ الجيوش في حرب صليبية أُثيرت على اعداء الدين المسيحي فنجحت مساعيهِ في كل موضع فاراد كثيرٌ من الاحبار الاعظمين ان يرفعوهُ الى درجة الاسقفية فرفض ذلك تواضعًا وذهبت كل مساعي الشعب في هذه القضية على غير نتيجة

وفيما كان يوحنا كابستران يشتغل بتمام التوفيق لخير الكنيسة لم يغفل عن مصلحة رهبانية القديس فرنسيس وكان حيثما اجتاز يعيد التهذيب القانوني الى زهوتهِ باعتنائهِ واثبتت المجامع العامة الرسوم المفيدة المعدّة لاحياء روح الرهبانية الاوّل ثم كان مساعدًا قويًّا للقديس برنردينوس السيّاني في انشاء الاصلاح المعروف باصلاح الأبسرفنص اي الحفظ

وكان لهُ موهبة ممتازة في مصالحة الاعداء فاخمد نار الثورة في مدينة رياتي باحيائهِ رجلًا فقيرًا كان قد انشق رأسهُ وألقى الصلح بين مدينة اكويلا والفونس ملك اراغون وجمع بالمحبة بين شرفاء أُروبز ولوكزيفز الذين ربوا بينهم عداوةً كبيرة منذ وقت طويل والزم رجلًا ان يعفو عمّن قتل ابنهُ واكرههُ على اكل كبدهِ . والحاصل انهُ كان ذا قوةٍ في الفعل والقول حتى لم يكن في وسع احد ان يرفض ما يطلبهُ منهُ فللهِ درّهُ من فاعل معجزات فقد حبس المطر في الجوّ مدّة وعظهِ وفرض السكوت على الطير التي كانت تقطع عظتهُ وفرش رداءهُ على نهرٍ كبير ومشى فوقهُ ولم تبتلّ قدماهُ وكان ذلك لان نوتيًّا ابى ان يعبر بهِ ذلك النهر

وحضر المجمع الذي عُقد سنة خمس وخمسين واربعمائة والف للمسيح بمدينة نُستادا وخطب بالشعب خطباً تتوقّد بها نار الغيرة فهيّج الشعوب على قتال اعداء النصرانية ولكن الحروب أُجّلت بوفاة البابا نيقولاوس الخامس لانهُ كان اكبر مهيّج لاصلاء نارها. وفي عهد البابا كاليستُس الثالث الذي تعهّد ان لا يألو جهداً ولو سفك دمهُ في استرجاع القسطنطينية لاديسلاس ملك المجر ويوحنا هونياد حاكم ترنسيلفانية وجاورجيوس برنس روسيا والبلاتيون واعيان المملكة استحلفوهُ ان يذهب اليهم ليقوّي شجاعة المؤمنين التي سطا عليها الضعف فاستأذن البابا وانطلق وألقى شجاعةً جديدة في قلوب الجنود المجتمعة بمدينة بُود. والحاصل انهُ بادر باشارة الحبر الاعظم بعد ان اخذ الصليب من يد الكردينال سنت أنج وكيل الكرسي الرسولي الى مناصرة مدينة بلغراد التي كان يحاصرها محمد الثاني وكان معهُ اكثر من اربعين الف رجل بين فرنسويّ وايطالياني والماني وبوهيمياني وبولوني ومجري كان قد جمعهم بقوة خُطبهِ ومواعظهِ وكان هو وحدهُ يعادل عسكراً ولما كانوا في الطريق تأكدوا ان العساكر المسيحية ستنال النصر والظفر بالحربة التي رأَوها نازلةً من السماء وعليها بحروف ذهبية ما نصهُ: لا تخَف يا يوحنا فانك ستنتصر على الاعداء باسمي وبالصليب المقدس الذي انت حاملهُ ولا يخفى ان هذه الرؤيا فرّجت الغم الذي استحوذ عليهِ وبثّت بأساً غريباً في قلوب الجنود الذين قُصّت عليهم فاقترب من ذلك المكان ودخلهُ بجدٍ رغماً عن همِ المحاصرين واجتهادهم ثم قاوم بشجاعةٍ كل هجمات الاعداء وطردهم عن حصونهم وهجم على معسكرهم ولاجل تمام انتصاراتهِ اكرههم ان يرفعوا الحصار وان يفرّوا بخجلٍ واعلم ان ملكهم الكبير الملقب بهَول المسكونة جُرِح في هذا الحصار بضربة سهمٍ وقيل انهُ قُتل فيهِ ايضاً اربعون الفاً من جنودهِ وقليلٌ من النصارى

ومن الغريب العجيب ان هذا القديس مع انهُ كان في مقدم الجيش في الخروج على الاعداء لم يُجرَح ولا جراحةً. غير انهُ اذ لم يذخرهُ الله في الدنيا الا لهذا العمل الجليل اصابتهُ عما قليل حمى ملازمة مصحوبة بآلام حادّة وثبت عندهُ ان قد دنا الاجل فانساهُ ذلك شدّة اوجاعهِ ومن ثم لم يفعل في اشدّ تشنجاتهِ الّا ان يبارك الله ويبيّن لهُ انهُ لم يتعذب على قدرما يستحق ويشتهي ان يتعذب واذ رغب في ان يقضي نحبهُ بين اخوتهِ طلب ان يُنقل الى ديرهم المسمى أبسرفنص دي فيلِّش بجوار سيرميش ببلاد المجر فذهب الملك والملكة وكل اشراف المجر يعودونهُ وحجرتهُ كانت دائماً غاصّةً بالاكابر وكان يحثهم على ان يعيشوا بحسب النصرانية. واعترف مراراً مدّة مرضهِ وتزوّد زاد المسيحي الراحل الى الابدية وهو منطرح على الارض وكان يجيب على كل ما يقال للمشرف على الموت والحاصل انهُ انتقل الى جنة النعيم في اليوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الاول عام سنة وخمسين واربعمائة وألف للمسيح

اليوم الثالث والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس اغناطيوس بطريرك القسطنطينية

لا يخفى ان ابتداء انشقاق الروم بفوتيوس الذي اضطهد القديس اغناطيوس وجلس على كرسيهِ جعل ترجمة هذا القديس جزءاً كبيراً عميم الفائدة من التاريخ الكنائسي. كان اغناطيوس من عشيرة شريفة وامهُ برُوكوبيا ابنة الملك نيكيفورُس وابوهُ ميخائيل كان اول امرءٍ قائمقام البلاط الملكي وبعد مقتل نيكيفورُس من البلغاريين استوى على عرش الملك ودعتهُ وتقواهُ كانتا تُنبئان انهُ سيُسعد الكنيسة والمملكة ولكن اذ لم تستحق المملكة ان تكون تحت ولاية حاكم صالح هكذا عصى عليهِ قائد الجنود لاون الارمنيّ فخلع عنهُ من تلقاء نفسهِ محاشاةً للحرب الاهلية البرفير الذي لم يلبسهُ الّا سنة وتسعة أشهر. وكان لهُ ثلثة ابناء مات احدهم في السنة القابلة ولهُ ايضاً ابنتان فاعتزل بالملكة واولادهِ الى الجزائر الاميريّة وكلهم ترهبوا فتسمى ناوفيلكتُس بكرهُ أُستراتُس ونيقطاس اغناطيوس وهذا كان عمرهُ وقتئذٍ اربع عشرة سنةً وهو الذي اخذنا في كتابة ترجمتهِ وسُمي ميخائيل في الرهبانية اثناسيوس وعاش ايضاً اثنتين وثلثين سنةً اي الى سنة خمس واربعين وثمانمائة وبدّد الملك الجديد هذه العشيرة الملكية ليطمئن بالهُ من جهتهم وجعل لكلٍ منهم مقراً معيناً وأمر ان يُعتنى بحفظهم كما انهُ امر بخصي الشابّين من تلك العشيرة حتى لا يتركا نسلاً

وكانوا كلهم مطمئنين على عهد لاون الارمنيّ وميخائيل الالثغ وثاوفيلوس وعاشوا بالانفراد مشتغلين برياضة التقوى

والتوبة خاضعين لعناية الله الذي يجعل الحوادث كلها لمجده والخلاص المنتخبين وكانوا يلتذُّون في الخلوة بالتعزيات التي لا تُعرَف في قصور الملوك ويرتّبون أميالهم بحسب قواعد الانجيل وكانوا يستعيضون عن الاجتهاد الذي يبذلونهُ للغلبة على الهوى والشهوة بالسلام الباطن الذي لم يقدر شيء ان يشوّشهُ وحقًّا ان القديس اغناطيوس احتمل كثيرًا لانهُ أقام بدير كان رئيسهُ مضطهد الصُوَر وشكِس الاخلاق فنصب الفخاخ لايمانهِ لكنهُ اجتنبها ولم يزل يتعصّب لتعليم الكنيسة علانيةً واستخدم لتقديس نفسهِ المِحن والعذاب الذي كابدهُ وكان يردّد بلا انقطاع هذا الكلام ونصهُ . ان كمال الراهب لا يقوم بمجرّد الاعتزال عن الناس لكن بالغيرة التي يجتهد كل يوم ان يميت بها نفسهُ

ولهذا اعتبر الناس كثيرًا فضيلة اغناطيوس ولما مات مضطهدهُ انتخبهُ الرهبان طُرًّا رئيسًا عليهم ولا غرو ان محبتهُ قد ملكت قلوبهم جميعًا لانهُ رعى الرهبانية بالحلم والحكمة والمحبة وهذّب الاخوة بالغيرة وانشأ ثلثة أديرة في ثلث جزائر صغار وديرًا رابعًا بالبرّ على اسم القديس ميخائيل

ولما استأثرت رحمة الله بالملك ناوفيلس سنة اثنتين واربعين وثمانمائة للمسيح جُعلت الملكة ناودورا على سرير الملك لتتولى باسم ابنها ميخائيل الثالث الذي كان بعدُ قاصرًا فاعادت هذه الصُوَر المقدسة وطردت يوحنا بطريرك القسطنطينية مضطهد الصُوَر المقدسة واستخلفتهُ بالقديس متوديوس الّا ان هذا مات بعد اربع سنين ولما طلبت خليفةً لهُ اتفق الجميع على اغناطيوس وانتخبوهُ واخرجوهُ من خلوتهِ وألزموهُ ان يقبل المقام البطريركي

ولا جرم ان انتخابهُ بطريركًا عظَّم رونق الفضائل التي اكتسبها في البريّة وجعلتهُ اهلًا للدرجة الاسقفية غير ان جسارتهُ على توبيخ الخطاة ولا سيما الخطاة المشهورين جرّت عليهِ أقسى الاضطهادات . وكان للقيصر برداس اخي الملكة شركةٌ في الحكم ولو لم تكن سجاياهُ الحميدة مدنّسة بفساد قلبهِ لكان اهلًا لذلك وكانت بلاغتهُ قد رفعتهُ على اكثر خطباء جيلهِ وكان شديد الولوع بعلم الادب ولذا اعلن نفسهُ نصيرًا لكل الذين يشتغلون بهِ الّا انهُ كان كذّابًا مكّارًا قاسيًا خليع العذار حتى انهُ ترك امرأتهُ ليساكن جهرًا ابنتها . ولا جرم ان هذه السيرة المشككة قد هيّجت غيرة البطريرك القديس فأقبل عليهِ بابلغ المواعظ وأشدّها تأثيرًا فلم تنجع فيهِ بل كان كأنهُ يضرب في حديدٍ بارد . وكان برداس يفتخر ويزدهي باحتقارها حتى تجاسر يوم عيد الظهور الالهي ان يتقدّم لتناول القربان المقدس مع المؤمنين في الكنيسة الكبيرة فلم يقبلهُ القديس اغناطيوس على المائدة المقدسة ونادى امام الجميع انهُ محرومٌ فاوغر ذلك صدرهُ فهدّد القديس بالموت غير ان تهديداتهِ لم تأتِ بالنتيجة التي كان ينتظرها منها فترقّب لينتقم لنفسهِ بوجهٍ ظاهر

ولما كان الملك الشاب كثير الرذائل ومنهمكًا في أشدّ الانخباطات جعل برداس يتملّق اقبح اهوائهِ ليكتسب سلطانًا عليهِ يمكّنهُ من اخذ كل الوسائل فاهتمّ اوّل الامر ان يسوّد عندهُ وجه بطريرك القسطنطينية ثم اشتغل بابعاد الملكة التي كثيرًا ما كانت تمنع اجراء مآربهِ الاشعبية والاثيمة ومن جهةٍ أخرى كانت تحامي عن البطريرك اغناطيوس فقال الملك قد حان الزمان الذي تتقلّد فيهِ الملك بنفسك وأشار عليهِ ان يُدخل أمهُ وأخواتهِ في دير ما فوقع هذا الرأي عند ميخائيل موقعًا حسنًا ليذهب بحريّةٍ وراء عواطفهِ القبيحة ومن ثمَّ ارسل في طلب البطريرك وأمرهُ ان يقصّ شعور والدتهِ وشقيقاتهِ الثلث ليقدمهنّ للطريقة الرهبانية فأبى اغناطيوس مباشرة مثل هذا الظلم المضادّ العدل والدين . واما برداس فلوّن هذا الرفض باشنع الالوان واكرهها وقرف ايضًا البطريرك واتهمهُ بانهُ اشعل نار الثورة والعصيان

اما ميخائيل فامر بان يُحلق رأس أمهِ ورؤوس أخواتهِ كما أمر ان يُدخلنَ في دير ما وطرد اغناطيوس نفسهُ الذي قد تولّى بطريركية القسطنطينية منذ احدى عشرة سنة ونفاهُ الى جزيرة تربنت التي بها ديرٌ كان هذا البطريرك قد بناهُ واتخذ ما استطاع من الوسائل ليستميلهُ الى ان يعطي صكّ التنازل عن المقام البطريركي لكنهُ رفض ذلك وأصرّ عليهِ لكي لا يقيّد رعيّتهُ تحت غضب عدوّهِ . فلما رأى برداس ان لا فائدة للوعد ولا الوعيد ولا العذاب اعلن فوتيوس الخصي بطريركًا بدون ان يراعي شيئًا من قوانين انتخاب الاساقفة

وكان فوتيوس ابن اخي البطريرك تراسيوس واقرب الانسباء الى الملك وقيصر برداس وكان ماهرًا جدًّا في كل أقسام علم البلاغة الدنيوية الّا انهُ كان في الحقيقة لا يعرف شيئًا من العلوم الكنائسية وانما تعلّمها بعد ارتقائهِ الى مقام

البطريركية وبرع فيها غاية ما يكون وأُولع بالكتب كل الولوع حتى انهُ كثيرًا ما كان يسهر الليالي في مطالعتها وكان في قصر الملك شيخ الخيَّالة واول كاتم أسرار المملكة بيد انهُ لسوء الحظ لم تكن صفاتهُ الادبية موافقةً لصفاتهِ العقلية لانهُ كان مكَّارًا محتالاً مستعدًّا لان يخسر كل شيء ارضاءً لمطامعهِ الاشعبية ومن جهةٍ أُخرى كان مشاقًّا ومحازبًا لغريغوريوس أُبستاز أُسقف سيراكوزا بجزيرة صقلية الذي انشأ فيها حزبًا على اغناطيوس عند ارتقائهِ الى المقام البطريركي فكان القديس يبذل اقصى جهدهِ ليكتسب هذا الاسقف لكن لم يتيسر لهُ ان يحوّل اميالهُ الى أهواء خيرٍ والتزم اخيرًا بان يقضي عليهِ وان يعزلهُ بسبب ذنوبهِ في مجمع عُقد سنة اربع وخمسين وثمانمائة . اما فوتيوس فما برح يحامي عن غريغوريوس ولما اقامهُ برداس بطريركًا ترقَّى الى كل الدرجات في ستة أيام فترهب في اليوم الاول وصار قارئًا في اليوم الثاني وشمَّاسًا رسائليًا في الثالث وشماسًا انجيليًا في الرابع وكاهنًا في الخامس واسقفًا في السادس وجرى كل ذلك سنة ثماني وخمسين وثمانمائة

واعلم ان ليس انتخاب فوتيوس الاَّ من برداس وكان مخالفًا صريحًا للقوانين ولذلك لم يُرِد أحد من الاساقفة أول الامر ان يرسمهُ لكن استمال اليهِ بعضهم مذ ذاك واعدًا انهُ يرفض الشقاق ويشترك مع اغناطيوس ويعرفهُ كبطريركٍ شرعيٍّ بجلهُ كابيهِ ولا يفعل شيئًا بدون رضاهُ . ولم يمضِ على ارتسامهِ شهران حتى أخلف الوعد الذي وعدهُ واضطهد ايضًا الاكليريكيين المتحدين مع القديس اغناطيوس وأذاقهم عذابًا شديدًا

واذ اراد ان يُبيد القديس بالكلية صوَّرهُ للملك بواسطة برداس نظير متعصّب عاملٍ على خراب المملكة وطلب ان يُعقد مجلس للفحص عن ذلك وأُجيب الى ما طلب فارسل الى وكلاء جزيرة تربنت فاستنطقوا خدَّام اغناطيوس ولكن بدون فائدة لكي يلزموهم ان يُتهموا معلمهم ثمَّ قيَّدوهُ باغلالٍ واتوا بهِ الى جزيرة هير حيث حُبس في صيرة المعزى ثمَّ انتقل من هناك الى بروميت بقرب القسطنطينية وهناك ضرب رئيس الحرَّاس وجه اغناطيوس ضربةً أليمةً فكسر سنيهِ ثم قيَّدهُ بالسلاسل وأودعهُ سجنًا مظلمًا ومن ثم فكثيرون من اساقفة الاقاليم اذ غضبوا من هذه الشكوك الهائلة اجتمعوا في كنيسة القسطنطينية وحرموا فوتيوس . واما هذا فجمع كل المتعصبين لهُ ونطق على اغناطيوس بحكم العزل والحرم والحاصل انهُ في شهر آب سنة تسع وخمسين وثمانمائة أركب القديس واكثر اصحابهِ سفينة وارسلهم الى ميتيلينا بجزيرة لسبوس وكانوا كلهم مقيَّدين باغلالٍ

على ان فوتيوس رفع الامر مع ذلك الى البابا نيقولاوس الاول بكتابة مضمونها ان اغناطيوس خلع نفسهُ عن البطريركية لتقدمهِ في السن وتوعُّك مزاجهِ وانهُ اعتزل الى دير يعيش فيهِ معتبرًا من الخاص والعامّ وان الاساقفة انتخبوهُ خلفًا لهُ وان الملك جبرهُ على ان يحمل هذا الحمل الهائل وجعل ختام مكتوبهِ ترجّي الحبر الاعظم ان يرسل نائبين للمصادقة على ما قد جرى وللحكم على مضطهدي الصُوَر وارسل السلطان ايضًا الى البابا بتريصًا (١) واربعة اساقفة بهدايا ثمينة لكنيسة القديس بطرس وكان الغرض من هذه السفارة ان يثبت البابا ما يوافق رواية فوتيوس الكاذبة . هذا واما القديس اغناطيوس فلم يكن لهُ حريَّة ان يراسل رومية ولا ان يبعث اليها احدًا من قِبلهِ

فاجاب البابا على كل الرسائل التي رُفعت اليهِ ولكن اجابةً بمعظم الاحتراس وارسل ايضًا نائبين الى القسطنطينية رودوَلد مطران بورتو وزكريا مطران أنانيا وكان واجبًا عليهما ان يحكما في مسأَلة الصُوَر المقدسة بحسب رسم المجمع السابع العامّ واما في مسأَلة اغناطيوس وفوتيوس فلم يفوّضها الاَّ ان يأخذا الاستنطاقات ويرسلاها الى رومية والبابا نشكى في جوابهِ الى الملك من تنزّل البطريرك بلا مشاورة الكرسي المقدس وان اقامة رجل عاميّ مكانهُ هي على غير ما تقتضيهِ القوانين الكنائسية وهنَّأ فوتيوس في جوابهِ لهُ ومدحهُ على ارثودكسية اهوائهِ غير انهُ لم يُخفِ عنهُ مع ذلك ما كان في انتخابهِ من الشذوذ عن القوانين التي تراعيها الكنيسة وفي ذلك الوقت أُرجع اغناطيوس من ميتيلينا الى جزيرة تربنت فاديرتها والجزائر المجاورة لها لعبت بها يد النهب والسلب من القوم المدعوين الروسيان ومات كثير من خدَّامهِ بهذا السبب

وبلغ نائبا البابا الى القسطنطينية فافرغ الملك وفوتيوس

(١) حاشية . هو لقب شرف في المملكة الرومانية وضعهُ قسطنطين

كنانة الجهد في ان يحزِّباها اليهما ليتمَّ لهما الفوز بهذه القضية وعُقد الجمع في تلك العاصمة سنة احدى وستين وثمانمائة اما نائبا البابا فخانا خيانةً فاحشةً وتجاوزا حد التفويض البابويّ واتصلا الى عزل اغناطيوس على تهمة اثنين وستين شاهد زور طعنوا في قانونية انتخابهِ وعيَّن لهُ فوتيوس بعد هذا الظلم والقساوة بمنزلة سجن قبر قسطنطين كوبرونيم وهو بالكنيسة التي حفل بها الجمع . فتلبَّث هذا البطريرك هناك خمسة عشر يومًا في اشدّ الضيق ذائقًا اغلظ التعاذيب لا يستطيع النوم ويكاد حرمانهُ القوت يكون تامًا فامسك احد حرّاسهِ يدهُ واكرههُ ان يرسم صليبًا على ورقة كانت في يدهِ ليتيسَّر لهُ ان يدَّعي انها علامة حكمهِ على نفسهِ وحُملت تلك الورقة الى فوتيوس وهذا أمر ان تُملأ من رفض اغناطيوس لكرسي القسطنطينية وبهذا الرفض الوهمي للكرسي المذكور حصل للقديس حرية ان ينفرد في بيت والدتهِ ببلد بوز حيث تركوهُ يستريح قليلًا واغتنم فرصة ارتياحهِ ليرفع الى الحبر الاعظم كل ما حدث لهُ فكتب الى قداستهِ رسالةً وامضاها عشرة ميتروبوليتين وخمسة اساقفة وجماعة كثيرون من الكهنة والرهبان وذهب بها تيوكونست رئيس احد أديرة القسطنطينية وأُمر هذا ان يبلغ قداستهُ شفاهًا الايضاحات المناسبة ليكون على معرفة تامة بهذه المسألة كلها

واذ لم يكن فوتيوس على أمان نصح للملك ان يكلّف اغناطيوس قراءة صك الحكم عليهِ من على كرسي كنيسة الرسل ثم يأمر بقطع يدهِ وقلع عينيهِ ولما كان عيد الظهور الالهي اذا بجماعة من الجنود احاطوا ببيتهِ ولما رأى انهُ في خطرٍ مبين لبس ثوب عبدٍ ووضع على كتفيهِ عصًا معلَّقًا على كل طرف منها زنبيل وفرَّ تحت الظلام متنكرًا فلم يعرفهُ احد واضطرَّ ان يختبئ زمانًا طويلًا تارةً في هذه الجزيرة وتارةً في تلك واضطرَّ ايضًا ان يختفي في الكهوف والجبال المقفرة ولم يكن يعيش الا على الصدقات فكانوا ينظرون بطريركًا ابن ملكٍ مضطرًا للاستعطاء . واما فوتيوس والملك فأمرا ان يُبذل في طلبهِ غاية الوسع والطاقة فطاف طلّاب القديس في امل لقائهِ جميع جزائر اليونان وكل الجهات وصادفهُ الجنود مرارًا ولم يعرفوهُ لانهُ كان متنكرًا فكأنهم لم يصادفوهُ بتّةً . وآخر الامر كلّف الرُبّان ان يطلبهُ وأُمر ان يقتلهُ اينما وجدهُ

وفي اثناء ذلك حدثت زلزلةٌ هائلة في القسطنطينية واستمرَّت اربعين يومًا متوالية فهلع اهل المدينة هلعًا عظيمًا وصرخوا قائلين ان الذي جلب عليهم سخط الله سبحانهُ انما هو اضطهاد البطريرك ظلمًا ولما كان الملك وبرداس خائفين صرَّحا علانيةً ان اغناطيوس لا خوف عليهِ وقالا انهُ يستطيع ان يرجع الى ديرهِ وكان كذلك

ولما استعلم البابا عن كل ما جرى لام علانيةً نائبيهِ على ما فعلاهُ في هذا الشان وعاملهما معاملة الخائنين وصرَّح انهُ لم يأذن لهما قط في عزل اغناطيوس ولا في تنصيب فوتيوس في مقامهِ ويتضح من كتاباتهِ الى الملك والى فوتيوس انهُ كان يعتبر اغناطيوس دون غيرهِ البطريرك الشرعي ويحتسب انتخاب فوتيوس غير منطبق على القوانين الكنائسية بل مخالفًا لها ولم يكن يلقّبهُ الا برجلٍ عاليّ وقال البابا للملك في يدنا الرسائل التي بعثتم بها الينا والى السعيد الذكر سالفنا البابا لاون وفيها تشهدون بفضيلة اغناطيوس وتعتبرون ارتسامهُ قانونيًا والآن فتريدون ان تصوّروهُ في أعيننا كدخيل على الكرسي البطريركي الى آخرهِ . وكتب في ذلك الوقت عينهِ منشورًا الى جميع مؤمني الشرق وفيهِ قضى بخيانة نائبيهِ اللذين خالفا أوامرهُ في هذه القضية ثم خاطب البطاركة الاسكندري والانطاكي والاورشليمي ورؤساء الاساقفة والاساقفة قال لهم نحتم عليكم ونأمركم بقوة السلطان الرسولي بان تكون آراؤكم كآرائنا في ما يخص مسألة اغناطيوس وفوتيوس ونوصيكم بان تنشروا وتذيعوا هذه الرسالة العامّة كلٌّ في ابرشيتهِ ليطّلع جميع المسيحيين عليها ويحيطوا علمًا بمضمونها

واما فوتيوس فلم يكن يُبالي بالغشّ والكذب فأخفى الرسالة التي بلغتهُ ولفّق عوضها رسالةً من عندهِ لتكون اسهل وسيلةً للخداع وأرّخها تاريخًا متأخرًا عن تاريخ الرسائل التي أشرنا اليها آنفًا فجعل البابا يتكلم كمنتصرٍ لهُ ومقاومٍ لاغناطيوس . وقال ان هذه الرسالة وردت اليهِ من رومية في يد رجل يقال لهُ أُستراتِ. لكن تبيَّن ان هذا كان كذّابًا حتى ان برداس نفسهُ قضى عليهِ بضرب العِصيّ غير مبالٍ بشفاعة فوتيوس الذي سعى لهُ بمنصبٍ شريف لهُ مرتَّب وافر وعرف الناس حينئذٍ ان كل هذه المكيدة انما كانت من فوتيوس . والحاصل انهُ لا ينبغي ان نتعجب من ذلك اذ لم يكن يحسب شيئًا متدنّسًا واستحسن

نفاق الملك الذي حوّل اجلّ رُتَبٌ الدين الى هزءٍ وسخريَةٍ وتجرأ على مماثلتها هزءًا مع رفقائهِ في الرذائل وكان فوتيوس يثابر على الاقامة بالقصر ويأكل على مائدتهِ مع اولئك الظرفاء المنافقين فأحدهم المسمى ثاوفيلوس شخّص نفسهُ بطريركًا واما الباقون فكلٌّ منهم كان يشخّص اكليريكيًّا . واعلم انهُ قد حُكم بتحريم هذه الطريقة القبيحة المهينة للدين في المجمع الثامن العامّ وكثيرًا ما كان الملك يهزأ بفوتيوس على عدم دينهِ وكان يقول لهُ ان ثاوفيلوس هو بطريركي وفوتيوس بطريرك قيصر واغناطيوس بطريرك المسيحيين . وبحيث ان النفاق لا يلبث طويلاً بدون انتقام من فاعلهِ قُتل برداس سنة ستٍّ وستين وثمانمائة لانهُ عمل مؤامرةً على قتل الملك

اما فوتيوس فبذل جهدهُ ليستعطف الحبر الاعظم واذ لم يفز برغوبهِ عزم آخر الامر ان ينتقم لنفسهِ فكاشف الملك بامياله وعقد بأمرهِ مجمعًا بالقسطنطينية سنة ستٍّ وستين وثمانمائة نفسها وقرأ على المجمع حكمًا بعزل الحبر الاعظم وحرمهِ وهذا اصل انشقاق الروم ولم يتألف المجمع المومأ اليهِ الّا من واحد وعشرين اسقفًا وقد أُعلنت اعمالهُ الكاذبة لكي يقنعوا الناس انهُ كان مجمعًا عامًا وقد وضعوا فيهِ امضاءات زوريّة ليقرروا في اذهان الناس ان رسل بطاركة الشرق الثلثة ونحو الف اسقف حضروا ذلك المجمع . هذا واعلم ان الذي اغضب فوتيوس على وجه الخصوص انما هو ارسال نوّاب البابا نيقولاوس الى البلغار الذين اهتدوا حديثًا الى النصرانية ولم يريدوا ان يقبلوا الميرون الذي كان قد كرّسهُ وكرّسوا هم انفسهم ميرونًا جديدًا ليثبّتوا الاكابر والاصاغر من هذه الطائفة وعزم من ثم ان يدوس كل قانون ويتعدّى كل قياس وكتب بعد مجمعهِ الكاذب منشورًا الى البطاركة وعمدة الاساقفة الشرقيين وبهِ افتخر وتشامخ على الكنيسة اللاتينية ولكن ما لبث ان عُدم وفقد محاميهُ والمقام الذي اختلسهُ

وبما ان الملك كان قد قتل برداس عمهُ انتخب باسيليوس المكدوني وكان ذلك في اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان سنة ستٍّ وستين وثمانمائة وكان باسيليوس هذا جنديًّا وحصل لهُ يد كبيرة في قتل قيصر ولما كان ميخائيل غير كفوءٍ للسياسة ولا اهلاً للمهامّ شرك باسيليوس في الملك وامر بتتويجهِ في كنيسة القديسة صوفيا في اليوم السادس والعشرين من شهر ايّار في السنة عينها غير انهُ لم يمضِ الّا زمان قليل حتى بدأ للملك ان يخلعهُ عن الولاية التي قلّدهُ اياها وينسخ كل ما فعلهُ اكرامًا لهُ . واما باسيليوس فاذ كان قد اعتاد السلطة السامية امر بقتل الملك وهو سكران في شهر ايلول من السنة التابعة

وما رأى انهُ صاحب الامر حتى نفى فوتيوس الى جزيرة سيبي وأعاد في ذلك الوقت عينهِ اغناطيوس الذي كان منفيًا منذ تسعة اعوام فادخلهُ القسطنطينية بأبّهةٍ واجلال عظيم واجلسهُ على الكرسي البطريركي في اليوم الثالث من تشرين الثاني سنة سبع وستين وثمانمائة وبقدر ما كان عالي النفس وهو تحت الشدائد أصبح متواضعًا وهو محفوف بالشرف والمجد وأوّل امرٍ فعلهُ عند رجوعهِ انهُ طلب الى الملك والبابا ان يُعقد مجمع عامّ فلبّياهُ الى ما طلب والتأم المجمع في كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية وهو المجمع الثامن العامّ وترأس عليهِ البابا ادريانوس الثاني بواسطة نوابهِ وقُضي فيهِ بتحريم ما جرى في مجمع فوتيوس ودُعي الى المجمع ذلك المشاقّ نفسهُ واحتجّ مرارًا ثمّ حُرم وقبل المجمع توبة احزابهِ الذين رجعوا عن خطائهم . وقال نيقطاس ان اوراق فوتيوس أُمسكت بامر الملك وكان بينها كتابان في الطباع المهذّبة مزيّنان بغلاف كثير الثمن وعليهما علامات جُعلت لاعتبارها كقديمين عند الاجيال الآتية وكان احدهما يتضمن اعمال مجمع كاذب منعقد ضد اغناطيوس لم يلتئم قط والآخر يشتمل على رسالة ذلك المجمع ضد البابا نيقولاوس وكانا مملوءين شتائم وافتراءات ذات اهانةٍ . ذلك وان فوتيوس بعد ثمانية اعوام لمنفاهُ ألّف شجرة نسب لآل الملك وفيها جعل الملك نازلاً من تيريدات ملك ارمينية ومن ابطال تراكية القدماء وبذلك تملّق الملك المتكبّر فأذن لهُ ان يعود ويقيم بالاستانة

ويُرى من الطريقة التي كان القديس اغناطيوس يقوم فيها بواجبات الاسقفية ان التجارب والاحتمالات كمّلت فضائلهُ . وقد رقد بالرب في اليوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الاول سنة ثماني وسبعين وثمانمائة وعمرهُ نحو ثمانين عامًا ونُقل جسدهُ في تابوتٍ من خشب الى كنيسة القديسة صوفيا حيث صُلّي عليهِ ونُقل من هناك الى كنيسة القديس منّا وكان ثمّ امرأتان قد اعتراهما الشيطان فشُفيتا

بشفاعتهِ واخيرًا وُضعت ذخائرهُ في كنيسة القديس ميخائيل التي كان قد بناها بقرب البوصفور على مسافةٍ قريبة من المدينة . واعلم ان اللاتينيين والروم يحتفلون بعيد القديس اغناطيوس في اليوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الاول (١) (مترجم عن غودسكار)

اليوم الرابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة مرغريتا ألاكوك

قد أثبت الكتاب المقدس بتوكيدٍ ان الرب وزّع أسرارهُ على الانفس البسيطة وتاريخ الكنيسة يُظهر لنا في كل الاجيال اناسًا من اهل التقوى جهّالاً في العلوم الدنيوية وقد انار روح الله بصائرهم باسطع الأنوار وآتاهم المعارف العجيبة فيما يخص السيرة الروحية فلماذا لا يقتضى ان عذراء مسيحية قضت كل ايامها في عفّةٍ ولم يلتهب في فؤادها الاَّ نار محبة الله لا تكون مستنيرةً بتلك الانوار نفسها ولمَ يكون مستحيلاً أنها أُوتيت نعمًا خارقة العادة والله يدّخر تلك النِعم الخصوصية لقليلٍ من خدّامهِ والمؤلف العلاّمة الواسع الدراية الذي كتب ترجمة هذه الطوباوية هو من اجلّ احبار مملكة فرنسا في الجيل الثامن عشر وعلمًا بما كان يحول في عصرهِ من الصعوبة دون تصديق المعجزات التي جرت على يدها لم يرَ بدًّا من أن يأخذ وقد أخذ حقًّا كل الاحتياطات اللازمة لاثبات حقيقة كل ما رواهُ . والحاصل انهُ عنيب استعمال الوسائل التي اقتضتها الحكمة الانسانية أخبر بثقةٍ عن الآيات التي فعلتها نعمة الله تعالى في هذه النفس الامينة فمن اين اذا كان لهذه الرواية مضادّون كثيرون . ان اسباب ذلك معروفة فلا تؤثر شيئًا في الرجل العاقل ولا في ما يُحكَم بهِ على خادمة الله التي أشرفنا على ذكر اعمالها بوجه الاختصار (٢)

---

(١) حاشية . اعلم ان فوتيوس قد استصوب اوَّل الامر تعليم الكنيسة اللاتينية ونظامها كما يظهر ذلك من صورة اعترافهِ بالايمان المدوَّنة في الرسالة الاولى المجمعية التي بعث بها الى البابا نيقولاوس منذ سبع سنين ويقول فيها ينبغي لكل كنيسة ان تحافظ على العوائد المختصَّة بها ثم قال ان اللاتينيين يصومون السبت وعند الروم يستطيع الكهنة الذين تزوَّجوا قبل ارتسامهم ان يبقوا مع نسائهم بعد الارتسام كما كانوا وقد استُعمِل ذلك من المجمع الكوينيسكستي المنعقد سنة اثنتين وتسعين وستمائة ولا يجوز ترقية هولاء الاكليريكيين الى درجة الاسقفية واذا أرملوا فليس لهم ان يتزوَّجوا

لكنهُ غيَّر رأيهُ في ذلك سنة ستّ وستين وثمانمائة حتى ظهر انهُ لم يُرد الاَّ ان يُحدث شقاقًا وقد تشكَّى من اللاتينيين في منشورهِ الذي اصدرهُ في تلك السنة عينها اوَّلاً لانهم لا يحفظون الاسبوع الاوَّل من الصوم ولانهم يصومون السبت مع ان الروم لا يفعلون ذلك ويجيزون في تلك الايام استعمال الألبان والجبن والسمن وثانيًا لانهم لا يقبلون ان يرسموا المتزوّجين الذين لم يرتبطوا مع ازواجهم برضًا متبادلٍ ان يعيشوا في العفاف وثالثًا لانهم يرفضون الميرون المقدَّس من الكهنة ويحفظون تقديسهُ للاساقفة ورابعًا لانهم ضلُّوا في الاعتقاد اذ يعلّمون ويعترفون بقانون الايمان ان انبثاق الروح القدس ليس من الآب وحدهُ بل من الآب والابن واطنب في الكلام على هذه القضية وسمَّى تعليم اللاتينيين والعياذ بالله تمام الكفر . هذا واعلم ان اكثر الروم المشاقّين بانكارهم انبثاق الروح القدس يضيفون البدعة الى الشقاق وانما قيل لهم المشاقّون بحيث انفصالهم كان عن شقاقٍ

ولما انتقل القديس اغناطيوس الى رحمة ربّهِ سنة ثماني وسبعين وثمانمائة أخذ فوتيوس فرقةً من الجند واستولى على كنيسة القديسة صوفيا . والملك باسيليوس سأل البابا يوحنا الثامن ان يرضى برجوع فوتيوس من اجل الخير والسلام وقطعًا لكل انقسامٍ فرضي بذلك ولكن بشرط ان فوتيوس يستغفر في مجمعٍ عن السيئات والشكوك التي صار بها أثيمًا مجرمًا ولما كانت سنة تسع وسبعين وثمانمائة للمسيح عُقد بالقسطنطينية مجمعٌ حافلٌ وترأس فيهِ نوّاب البابا يوحنا الثامن وتُليت فيهِ رسائل قداستهِ على الملك وفوتيوس الاَّ ان تلك الرسائل لم تبقَ كما كُتبت برومية بل لعبت بها يد فوتيوس فحرَّف منها وحذف ما يختص باغناطيوس وكذلك الشرط الذي كُلِّف بموجبهِ ان يطلب المغفرة ووضع في مكان ذلك كلهِ عباراتٍ مبهمةً ومديحًا لهُ وللملك وقضاءً على مجمع اغناطيوس وفي الجملة فقد قُضي على المجمع المشار اليهِ وأُرجع فوتيوس ولم يجرِ الشروط المفروضة عليهِ . واما البابا فحالما درى بما كان رفض كل ما عملهُ نوّابهُ ثم ذهب الى الكنيسة وحرم فوتيوس وعزل نوَّابهُ وارسل مارينوس الى المشرق ليصلح ما طرأ من الفساد بحسب الامكان وهذا النائب الجديد أثبت ما فعلهُ ضد فوتيوس البابا نيقولاوس والمجمع الثامن العامّ ولما خلف يوحنا الثامن على كرسي رومية استمرّ على تلك الآراء بعينها وبهِ اقتدى في ذلك ادريانوس الثالث واستفانس الخامس اللذان تعاقبا على الكرسي الرسولي من بعدهِ ولما بلغت الى المشرق رسائل هذا البابا الاخير سنة ستٍّ وثمانين وثمانمائة كان الملك باسيليوس المكدوني قد مات فدُفعت الى ابنهِ وخليفتهِ لاون الفيلسوف فهذا طرد فوتيوس ونفاهُ الى ديرٍ ببلاد ارمينية وهناك توفّي بعد ان عاش في الشقاق ثلثين عامًا

٢ حاشية . ان يوحنا يوسف لانغويت رئيس اساقفة سانس كاتب ترجمة الطوباوية تُوفّي سنة ١٧٤٣ وعمرهُ ستٌّ وستون سنة . رهن قلمهُ على المدافعة عن الحقائق الكاثوليكية ضد الجنسانيين فقاوم المبتدعين المشار اليهم في تآليف كثيرة فأثار ذلك بغضهم عليهِ ولهذا كانوا يطعنون فيهِ غالبًا في كتاباتهم وما عدا ذلك فاذ كان لمرغريتا مرشدٌ يسوعيٌّ وسعت جهدها في نشر عبادة قلب يسوع فلم تقتضِ الحال زيادةً على ذلك لتكون مكروهةً منهم وقد بذلوا كل مجهودهم ليجعلوها هزءًا

كانت ولادة هذه الفتاة القديسة في اليوم الثاني والعشرين من شهر تموز سنة سبع وأربعين وستمائة والف بلوتكُرْت خورنيَّة فرود بابرشية أتون واسم والدها كلودبوس ألاكوك قاضي امريات عديدة وكان مشهورًا في الاستقامة والتقوى واسم والدتها فيليبرت لامين وسُمّيت القديسة في دفتر المعمودية مرغريتا وضُمَّ اليهِ اسم مريم لما ترهبت. وسيرتها في الطفولية كانت تدل على انها أُوتيت نعمةً من لدن الله فما بدأ عقلها ينمو ويمتدُّ الاَّ وقد أَنفت من الخطيئة وكرهتها مزيد الكراهة. وقد كان خوفها من ان تُسخط الله تعالى عظيمًا في الغاية حتى انهُ كان يكفي لردعها عن الصغائر وهفوات الطفولية أن يُقال لها قد أشرفتِ على ارتكاب زلّةٍ. ولما كانت ابنة اربع سنين طلبتها من والدَيها السيدة دي فوترير اشبيننها ولا جرم ان البرهة التي قضتها مرغريتا في منزل تلك السيدة جاءت عليها بفائدةٍ كبيرة بحيث كانت بين يدي امرأة هذَّبتها في الفضيلة وكان ذلك امرًا سهلاً لان فؤاد هذه الفتاة كان منشغفًا بالله كل الانشغاف فلم تكن تحبّ الاَّ الطهارة ولا تلتذّ الاَّ بالصلاة ولا تميل الاَّ الى يسوع المسيح وكانت تكثر من زيارة الكنيسة وتنقطع ثمَّة ساعاتٍ بتمامها وكان تعبُّدها للبتول منذ ذاك الاوان معتبرًا جدًّا. ولما بلغت ثماني سنوات مات ابوها فوضعتها امها في دير القديسة كلارا من شارول بمنزلة متعلمة واعلم ان دخولها ذلك الدير واقامتها بهِ كانا لها وسيلةً مدبَّرةً بعناية الله لتحفظها وتوطدها على البر والتقوى ولما كانت تستفيد بفضيلة الراهبات المسلّمة لتدبيرهنَّ رأت انها مضطرَّةٌ للاقتداء بهنَّ وقصدت منذ ذلك الوقت ان تترهب فلما علمت اولئك الراهبات مقاصد تلميذتهنَّ الحسنة والتذاذها بالتقوى حكمنَ بمناسبةٍ ان تستعدَّ باكرًا الى المناولة الاولى. والحاصل ان مرغريتا تناولت القربان المقدس اول مرةٍ وهي ابنة تسع سنين. واعلم ان الاستعداد الذي استعدَّتهُ لهذا العمل المقدس والاكرام الذي اظهرتهُ لهُ كانا فاتحة الحرارة التي امتحنت بها كل حياتها من اجل هذا الغذاء الالهي

وما لبثت ان افتقدها الله بالبلايا وبعد قليلٍ لمناولتها الاولى اصابها وجع المفاصل وفالج فألقياها في فراش الألم اربعة اعوام وأشرفا بها على التلف وأباد منها هذا المرض على الاقلّ مدَّة محبة الاباطيل لانها كانت مائلةً اليها طبعًا. وقد شفتها ثقتها بالعذراء المباركة ونالت هذه النعمة لتتقدم في السيرة الروحية ولم يكن لها من العمر الاَّ ثلث عشرة سنة وكانت تقضي في التأمل ساعتين صباحًا وساعتين مساءً وتصوم ثلث مرات في الاسبوع وتلبس المسح وتنام على الارض فلم تمرَّ برهة حتى ظهر في ساقيها قروحٌ تقزّز النفس وتسيء الناظرين ولم تقدر ان تخفيها وعُولجت فلم تشفَ ولكن مرغريتا اذ قرنت صلواتها بصلوات والدتها برئت من تلك القروح

واعلم ان رجوع الصحة اليها نبَّه فيها الميل للهو والملذّات فأخذت تقلّل اعترافاتها مع انها كانت الى ذلك الوقت متواترةً وما كانت تبديهِ لها عائلتها من الانعطاف تملّق كبرياءها فشاركت الناس في اللهو واللعب والملذات ولما كان المرفع تنكّرت في سنةٍ ما وانطلقت الى مكان الرقص. ولا جرم ان هذا الفتور بعد اشدّ الحرارة في العبادة وعقب التقشف وضنك العيش وهذا التراخي الذي ندبتهُ فيما بعد ندبًا مرًّا ابانا لنا مزيد ضعف الانسان عند اهمالهِ وسائل الخلاص الفعّالة التي يقدّمها لهُ الرب في الاسرار الاَّ انهما لم يبقيا مدةً طويلةً يفعلان فيها لان الله تعالى بعد زمان قليل دعاها الى التقوى بمحن جديدة ارسلها عليها ولم تكن هذه المرة الامراض ولا الاوجاع الشديدة لكن اضطهادات من قبل اهل بيتها لان امها شاخت وصارت عاجزة فألجأها الحال ان تسلم امرها الى الخادمات اللواتي تسلَّطنَ عليها حتى أضحينَ صاحبات البيت ولم يصرنَ كذلك الاَّ حتى يجعلنَ مرغريتا وكل عائلتها في الضنك والضيق بحجة الاقتصاد في الخرج فكنَّ ينكرنَ عليها امَّ ما تفتقر اليهِ حتى مسَّت الحاجة غير مرةٍ الى ان تستعير من جيرانها أثوابًا اقل مايكون لتذهب بها الى الكنيسة. وقد اعتدنَ ان يُصحبنَ الرفض عليها بأخشن الطرائق وأغلظ الكلام وأقساهُ حتى أكّدت ان الاستعطاء يظهر لها انهُ أخفّ تعبًا عليها وأيسر مشقّةً وكانت تطلب من الله النصرة والسلوان وكانت تقطع غالب الزمان في البكاء امام المصلوب والصلاة للعذراء المباركة فآتاها الله صبرًا جميلاً ورأفة مسيحية باللواتي اذقنها مرَّ العيش ومن اجل صلواتها مُنحت نعمةً أُخرى وهي ان والدتها برئت تمام البرء من الداء الذي سبَّبتهُ لها هموم كبيرة وتُعرف شدَّة ذلك الداء من قول الجرّاح الذي رآها حيث قال انهُ مرضٌ عضال يُعيي الاطباء ولا يبرأ الاَّ باعجوبة

هذا وان اكتراث مرغريتا بوالدتها وهي على فراش السقام قد عظّم استحقاقها كثيرًا عند كل من عرفها وحملهم على الاهتمام بانها تحصل على حظ في العالم مع انها كانت قد اصبحت قليلة الثروة طلب كثير من الشبان ان يتزوجوا بها لاجل حسن سجاياها وتواتر اجتماع طلّابها لذلك في دار والدتها ولم تكن تدفع عن نفسها بقوةٍ ما جلبتهُ لها تردّد الاصحاب من الغي اذ كان لها ميل الى الزواج لتكون انفع لأمها غير ان عائقين منعاها ان ترضى بهِ وهما نذر العفة الذي نذرتهُ ايام الطفولية واعتقادٌ قلبيٌّ وثيق بانها مدعوّة الى الرهبانية

وكانت متردّدة بين أمرين جعلاها في حال متعب احدها البقاء لدى امها التي كانت مولعة بها ومغرَمةً بحبها والآخر خوفها من ان تقاوم ارادة الله واضطراب البال الذي نشأ لها عن اللهو والتنزّهات فيلحّان عليها ان تدخل في الرهبانية. والحاصل ان نعمة الله قد انتصرت على الحواس الطبيعية والميل نحو المخلوقات وعزمت ان تكرّس نفسها للرب فطلبت ان يُبعد عن البيت الذين كانوا يطلبونها للزواج وتفرّغت لان تستعدّ بممارسة افعال الرحمة لتتمّم ضحيّتها ونالت الرضا من اهلها ولكن بكل صعوبة ولم يبقَ عليها الاّ ان تختار الدير الذي ينبغي لها ان تذهب اليهِ

ولما سافرت مرغريتا الى مدينة ماكون رأت هناك راهبةً من بنات عمها في ديرٍ لراهبات القديسة أُرسولا بتلك المدينة فافرغت هذه اقصى الجهد في استمالتها نحو ديرها وتعهدت لها بتسهيل الوسائل اللازمة ولكنها لم ترتضِ بذلك البتة وقالت لها ذات يومٍ ان انطلقت الى ديركنّ فلا يكون ذلك الاّ حبًّا بكِ بحيث من نيتي ان اذهب الى دير لا اقارب لي فيهِ ولا معارف لكي اكون راهبة لمجرّد حبّ الله تعالى وهكذا فعلت. ورأت انها منجذبةٌ بهوًى نحو رهبانية زيارة مريم العذراء لمجرّد كونها مسمّاةً باسم العذراء المباركة وان لم تكن تعرف هذه الرهبانية وأُخبرت ان بمدينة باربه لمونيال ديرًا من اديرة الرهبانية المومأ اليها فذهبت تزورهُ في صحبة احد اخوتها ولما وصلت الى محل مواجهة الزوّار اذا بهاتفٍ باطني يقول لها انما اريد أن تكوني هنا فملأ هذا الكلام قلبها فرحًا وقد أبلغها ترحاب الرئيسة التي رضيت ان تقبلها الى أقصى مرامها وغاية مرادها. ودخلت ذلك الدير بعد ان انتصرت على مصاعب جديدة من قِبل عائلتها وكان عمرها اذ ذاك ثلثًا وعشرين سنةً وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر ايار سنة احدى وسبعين وستمائة والف

وقد جعلتها السذاجة وبياض القلب والطاعة والغيرة على الفضيلة التي جاءت بهذه الفتاة الى الرهبانية اهلاً لان تحلّ عليها النعم الخارقة العادة التي كان الله قد أعدّها لها وقد سكبها عليها منذ دخولها الدير وعلمت انهُ ينبغي لها ان تماثل باعمالها شدة حياة السيد المسيح الذي ترهبت لتكون عروسًا لهُ وقد جعل فيها هذا النور اعتبارًا كبيرًا وحبًّا شديدًا للمصائب والبلايا بحيث كانت تطلب بلا انقطاع وسائل الامانة وبهذه المقاصد المقدسة لبست ثوب الرهبانية وقضت مدة الابتداء وقد حصل لها في تلك المدة غير فرصةٍ لارضاء ما بها من الميل نحو الاحتمال والآلام لان رئيسة المبتدئات كثيرًا ما كانت تنتهرها بسبب الطريقة العالية التي كانت تسلك فيها في الصلاة وهي الطريقة التي رقّاها اليها السيد المخلص المخاطب اياها باطنًا. ولم يكن ذلك الاّ فاتحة المشاقّ التي كابدتها من بعد ما نذرت

ولما كان اليوم السادس من تشرين الثاني سنة اثنتين وسبعين وستمائة والف نذرت النذور وبموجبها تقيدت بخدمة الله تقيّدًا لا ينفكّ وقد اصبحت قدوة الراهبات بخضوعها وطاعتها ومحبتها للمسيح وشدة ميلها للصلاة والتقشف وكانت عيون الجميع ترى هذه الفضائل وكان ينبغي ان تلك الفضائل تكون للجميع قدوة صالحة غير انهُ لم يحصل ذلك. قبل ان عُرفت أذن الله ان خادمتهُ هذه تُمتحن بتجارب كثيرة فكان الشيطان يعذّبها والرئيسات اللواتي تعاقبنَ على رئاسة الدير اشتبهنَ في الطريقة الغير الاعتيادية التي كانت الأخت مرغريتا تسلك بحسبها ولذلك شككنَ فيها وعاملنها بقساوةٍ وليعرفنَ هل في حالتها من مكرٍ او غرورٍ أقمنها على وظائف خارجية تقتضي مزيد الاعتناء وتعرّضها لتشتّت العقل. وقد امتحنّ صبرها في اتفاقات متعدّدة واعترتها امراض مؤلمة ومتواترة سبّبت لها اوجاعًا تكاد تكون متواصلة. ولم تكن دائمًا خدمتها لله مرافقةً بالتعزية والعذوبة. ولكن هذه النفس الطاهرة التائقة الى المشاقّ والتعاذيب رغبةً في الاقتداء بالمسيح أبدت شجاعة الابطال في هذه الاتعاب المختلفة وطاعةً تامةً لارادة الرب لهُ المجد وكانت تأخذ قوّتها من القربان

المقدس الذي كانت تكثر من تناولهِ بعبادة حارّة وكذلك من زياراتها هذا السر المقدس وكانت تقطع في هذا العمل التقوي كل ما يمكن ان تحصل عليهِ من الزمان حتى الليل بتامهِ عندما كانت تأذن لها الطاعة. وحينئذٍ دخل المسيح في قلب عروسهِ الامينة وكشف لها اسرار أسمى الكمال وغوامض محبتهِ الالهية. وفيما كانت ذات يوم حذاء المذبح غائصة في تأمل فرط حبّ المسيح الغير المتناهي نحونا تراءى لها واعلمها ما بقلبهِ من الحبّ للبشر وانبأها اذ ذاك انهُ قد اصطفاها واختارها لتبثّ في الدنيا عبادة هذا القلب المسجود لهُ غير انها لم تنجح في ذاك الاَّ باحتمال العذاب والذل وقد كشف لها هذا المراد سنة اربع وسبعين وستمائة والف كما يأتي ذكرهُ

لما كانت ذات يوم ساجدة امام القربان المقدس رأت بغتةً انها محاطة بالحضرة الالهية وتركت قلبها مستسلمًا لكل حرارة الحب. واما يسوع فلما جعلها تريح قلبها على صدرهِ مدةً طويلة أظهر لها آيات حبهِ واسرار قلبهِ وهذا نصّ مقالهِ لها: قلبي الالهي مملوء حبًّا للناس ولكِ على وجه الخصوص وحيث لا يسعهُ ان يحوي ضمنهُ شرَر حبهِ المتوقد اقتضى لهُ ان ينشرهُ على يدكِ وان يظهر لهم نفسهُ ليغنيهم مما عندهُ من الكنوز وانا أُعلمكِ ثمن الكنوز المشار اليها فهي تتضمن نِعَم التقديس والخلاص التي لا بدَّ منها لجذبهم من هاوية الهلاك. وقد انتخبتكِ لإنفاذ هذه الغاية الجليلة مع صرف النظر عن غباوتكِ وعدم استحقاقكِ حتى يظهر ان كل شيء قد صدر مني

ثم لما أخذ قلبها ليضعهُ في قلبهِ الاقدس رأتهُ كهباء منثور في أتون حارّ ورُدَّ لها وهو محترق أتمَّ الاحتراق. وكان المخلص لهُ المجد يوتيها كل يوم جمعة مثل هذه النعم وحينئذٍ تجلّى لها القلب الاقدس كشمس لامعة ترمي بأشعتها قلبها المتقد بنارٍ مشبوبة

ولما كان المخلص قد أعدَّها لتكون آلة رحمتهِ ومحبتهِ لم تكن تعرف بعد ايَّة واسطة يجب ان تستعين بها على ذلك فتراءى لها المخلص ثانيةً بجراحاتهِ الخمس وهي تتلألأ كالشموس اللوامع وكان اللهيب يندفق خارجًا من قلبهِ اندفاق السيل وعرَّف مرغريتا آيات حبهِ التي يعجز القلم عن وصفها ومزيد الافراط الذي بهِ كان يحب الناس الذين كان جحدهم لفضلهِ أثقل عليهِ من كل اوجاع آلامهِ وهذا نص كلامهِ: ان تابوا اليَّ فلا يكون كل ما فعلتهُ لاجلهم الاَّ شيئًا يسيرًا في جنب محبتي لهم ولكن ان لم يقابلوني الاَّ بوجهٍ باردٍ وان لم يكافئوني على مبادرتي اليهم الاَّ بالنفور فارضيني أنتِ على الاقل بتعويضكِ عن انكارهم الجميل قدر ما تستطيعين. ثم أظهر لها ما يقتضي ان تعملهُ لإنفاذ مآربهِ وهو ان تكثر من تناول القربان المقدس قدر ما تسمح لها الطاعة بذلك وكل اوَّل يوم جمعة من كل شهر وانبأها انهُ كل ليلة خميس الى الجمعة يشركها في الحزن المرّ الذي شعر بهِ في بستان الزيتون وامرها ان تنهض بين الساعة الحادية عشرة ونصف الليل وتستمرّ ساعة في السجود مطرقةً بوجهها الى الارض واوصاها ان تحترس من الشيطان الذي يحاول ان يخدعها ويغرّها وان لا تُصغي الاَّ الى صوت الطاعة. ذلك وخرجت من هذه الرؤيا منضنيةً متلاشيةً حيث ان النار التي احرقتها اورثتها حمى ثقيلة محرقة وسببت لها تلك الحمى اكثر من ستين نوبة فحمل ذلك الراهبات على القنوط من حياتها وبينما هي في غشيةٍ اذ تراءى لها الاقانيم الثلثة الالهية فالآب وضع على منكبيها صليبًا ثقيلاً مملوءًا شوكًا والابن انبأها انهُ يُعلّقها على هذا الصليب والروح بان سيُضنيها بحبهِ منقيًا اياها من وَضَر الاثم

ولما كان عيد الميلاد حدث لهذه الطوباوية رؤيا جديدة فكاشفها المخلص على التوالي بمقاصدهِ جلّ شانهُ وتجلّى لها قلبهُ هذه المرة كعرشٍ ناريّ يشعّ سنى لهيبهِ من كل جانب ويشفّ كالزجاج وظهر حينئذٍ الجرح الذي اصابهُ على الصليب وكان حول قلبهِ الاقدس تاج من شوكٍ وصليبٌ من فوقهِ ليعلمها ان حبهُ هو منشأ آلامهِ وسببها وقال للطوباوية ان رغبتهُ القوية في ان يكون محبوبًا تمام الحب من الناس قد حملتهُ على ان يظهر لهم فؤادهُ وان لهُ لذَّة ممتازة بان يُكرَّم تحت هيئة هذا القلب اللحمي الذي اراد انهُ يُصوَّر لتراهُ النواظر لعل القلوب القاسية تتأثر اذ تنظرهُ وعقب ذلك قال هذا هو المقصد الذي لاجلهِ اتتكِ هذه النعم الجسام يا ابنتي. ولما حدث لها رؤيا اخرى في عيد قلب مريم الاقدس الذي كان قد رُسم منذ قليل أنبأها المخلص انهُ انتخب الأب كولومبير اليسوعي ليوآزرها على ذلك. وفي يوم من ثمانية ايام عيد القربان المقدس تمم بكشفهِ لها تمامًا ما كان يريدهُ منها مظهرًا لها قلبهُ وقال لها هذا هو القلب الذي كَلِف بمحبة البشر بحيث

لم يدّخر من نفسهِ شيئًا وافنى ذاتهُ في اظهارها لهم ومن جهة معرفة الجميل فلم أُقابل من اكثرهم الاَّ بالجحود فانهم لا يفتأُون يهينونني بكفران الجميل وسوء الادب وبالمقابلة الناشفة وما عندهم من الازدراء بي في سرّ المحبة هذا ولكن اشدُّ ما يؤلمني هو تصرُّف الانفس المكرَّسة لي على هذا الوجه ومن ثمَّ فاطلب منكِ ان يُكرَّس اول يوم جمعةٍ بعد ثمانية ايام القربان المقدس عيدًا لتكريم قلبي بتناول القربان المقدس ذلك اليوم وبتكريمهِ فيهِ يستعيض عما نالهُ من الاهانات حين كان معرَّضًا على المذابح وأَعِدكِ كذلك ان قلبي يرتاح الى ان يوزّع بسخاء كنوز محبتهِ الالهية على من يقدمون لهُ هذا الاكرام وعلى من يسعون في ان يكون مقدَّمًا لهُ

وشدَّدت الرئيسات على مرغريتا ان تعرّفهنَّ بجميع ما نالتهُ من النعم الخارقة العادة وأَلزمنها ايضًا ان تدوّن ذلك فترتَّب عليها من ثمَّ ان تقصَّ عليهنَّ هذه الرؤيا التي ذكرناها آنفًا غير ان طاعتها لهنَّ لم تولّد لها الاَّ التعنيف والمقاومات فعاملنها كمن تدَّعي الوحي كذبًا وأَبينَ مدةً ان يُعطينها تخفيفًا للداء الذي اصابها وهكذا فعلت الرئيسة ولم تكن رفيقات مرغريتا اكثر موافقةً لها بل كنَّ متعصباتٍ عليها لانهُ مهما قال الكفّار في ذلك فليس العباد بمستعدّين دائمًا للاعتقاد بالامور الصادرة عن طرق التقوى الخارقة العادة . والحاصل انهُ انقضى عدة سنين لاقتلاع تعصبات راهبات الزيارة على هذه الاخت القديسة وكانت بالصبر تتوقَّع اتيان تلك الساعة وجدَّت في مدة ذلك الزمان من دون تراخٍ لان تبرع في الكمال . واعلم ان انجذابها نحو السيرة الباطنة لم يعقها عن نفع الدير في الوظائف المختلفة التي كانت مقامةً عليها فقامت على تعليم التلميذات احسن قيام وكان انتباهها بجملها على ان تغرس التقوى في قلوب البنات اللواتي كنَّ تحت رعايتها وقد بذلت غيرةً عجيبة في ان تكتسب لله تعالى هذه النفوس التي لم تزل طاهرةً نقية وان تشرك بعضهنَّ في شرر النار الالهية التي اكلتها ولم يكن كلامها يدل الاَّ على الغيرة وكان في وسعها ان تتكلم في التقوى على وجهٍ لا يزعج السامعين وان تُطهّر ايضًا تنزُّهات هولاء البنات وهكذا ظفرت بثقتهنَّ بها وصرنَ عما قليل يعتبرنَها صديقتهنَّ فوق ما يعتبرنَها معلمتهنَّ غير ان هذه العبادة جرَّت اليها اضطهادات شديدة ومن المعلوم انهُ في ايام هذه الطوباويَّة لم يكن يُقدَّم لقلب يسوع عبادة عمومية في الكنائس والمعابد غير ان بعض اهل الورَع كانوا يكرمونهُ تكريمًا خصوصيًّا لا غير . وكانت عليها السلام تبعًا لامر المسيح نفسهِ قد بثَّت عبادة قلبهِ تعالى بكل وجهٍ قدرت عليهِ. ومع انهُ كان على رفيقاتها ان يعاضدنَها في هذا الشان ويرينَ رأْيها فيهِ كنَّ بعكس الامر يعددنَ رياضات مستحدثة تلك التي كانت تلقيها على المبتدئات ويتشكّينَ منها ويتذمَّرنَ ويشنّعنَ عليها ايضًا بانها مشككة ولكن مرغريتا احتملت عاصفة الاضطهاد هذه بمثل ما أَبدتهُ من الصبر والجَلَد في مثل هذه الاحوال وقد اخذ بيدها الرب لهُ المجد وعضدها بنعمتهِ لانهُ هو الذي القى في فوآدها هذه المقاصد على ما علمت . وقبل هذه المقاومة الاخيرة بعدَّة اعوام كان قد اعطاها في شخص الاب كولومبير اليسوعي مرشدًا منورًا ومعزّيًا لان هذا الراهب المشهور والمعتبر بقداسة السيرة وبجودة قريحتهِ ايضًا كخطيبٍ بليغ أَتى باريه سنة خمس وسبعين وستمائة والف ليترأس على ديرٍ هناك لرهبانيتهِ وعرف عند ذلك سريرة خادمة الله التي الزموها بان تسترشدهُ ولم يجدها على ضلالٍ خلافًا للذين ارتأَوا ذلك بدون تمييزٍ بل وجدها ذات نفس منتخبة كان الله يصبُّ عليها بغزارة أَجل مواهبهِ ولم يأْنف أَن يتتلمذ لها وان يختار عبادة قلب يسوع الاقدس وسعى بنشر العبادة المشار اليها ونشرها في بقية ايامهِ التي انتهت في مدينة باريه في اليوم السادس عشر من شهر شباط سنة اثنتين وثمانين وستمائة والف للمسيح

ولما تقلدت هذه الطوباوية وظيفة معلمة المبتدئات وجب عليها في هذه الوظيفة حسب مشيئة الله ومقاصدهِ ان تكدَّ لتربح لقلب يسوع قلوب الفتيات اللاَّئي تأَهبنَ للدخول في هذه الرهبانية. وانعطاف الله على خادمتهِ هذه كان يتجدَّد على الدوام كل ذلك الزمان ويوتيها قوَّةً لتوفّي واجبات رسالتها وعليهِ فقد اظهرت عليها السلام كبير حذقٍ وفضل درايةٍ في هذا المنصب التي رُقّيت اليهِ بحيث قد عاملت المبتدئات على اختلاف مشاربهنَّ خير معاملة لتجعل لهنَّ لذةً في خدمة مَن تجرَّدنَ لعبادتهِ وخصَّصنَ لهُ انفسهنَّ وانار الله بصيرتها بما أَلقى في قلبها من الانوار الخارقة العادة وبها كانت تطلّع على خفايا القلوب وحصل لها عند المبتدئات إجلالٌ نافع الى ان اكسبها تمام ثقتهنَّ بها . وأَبدت من نفسها

انها ابنة جديرة للقديس فرنسيس سالس وكانت تخاطبهنّ من غير انقطاع على قلب يسوع وتفرغ اقصى جهدها في ان تميلهنّ الى عبادتهِ . واما المبتدئات فأحببنها وبذلنَ تمام الاستطاعة في ارضاء خاطرها ومسرّتها . ووقع عيد القديسة مرغريتا شفيعتها في سنة اربع وثمانين وستمائة والف يوم الجمعة وتهيّأت المبتدئات للتعييد على هذا الوجه أي ان يقدّمنَ في ذلك النهار المدائح الاولى للقلب الاقدس وكان كل شيءٍ بسيطًا في هذا العيد الخاصّ وعملنَ للحال مذبحًا وزيّنّهُ بالازهار ويد غير ماهرة رسمت بقلم حبرٍ على ورق صورة قلبٍ ملتهبٍ معلّق على الصليب ومحاط باكليل شوكٍ وفي وسطهِ مكتوبة كلمة المحبة وخصّصت مرغريتا ومبتدئاتها انفسهنّ للقلب الاقدس . واما بعض الراهبات الناذرات فعندما دُعينَ للاشتراك في ذلك رفضنَ ولكن يسوع عزّى الطوباوية بعد هذا الرفض اذ أراها بهِ ان كنز قلبهِ الاقدس سيُكشف لكل رهبانية الزيارة وبواسطتها الى الدنيا كلها

وقد أُثير عليها اضطهاد جديد شديد لانها أبت ان تصادق باختيارها على قبول في الدير فتاةً لم يظهر فيها علامةٌ من علامات روح الله واستردّ الفتاة اهلها وكانوا ذوي اقتدار وقال ابوها بصوتٍ عالٍ ليس علينا ان نراعي رهبانية تثق تمام الثقة بفتاةٍ نعدّها حمقاء ومجذوبة وتدّعي هبوط وحيٍ عليها وقد فُتحت الآذان لتلك التشكيات فطُلب عزل معلمة المبتدئات وتهدّدنها بالاستغاثة بالسلطان الاسقفي واما مرغريتا فلزمت مقامها والاضطهاد لم يُبطئ ولكن اخصّ ما تأثرت منهُ وآخر تجربة من هذا النوع انما هو حرمانها التناول اوّل يوم جمعةٍ من الشهر وانما أذن الله في ذلك ليفهم الرئيسة والطوباويّة ان كلتيهما عاجزتان لا تستطيعان شيئًا ولم تكونا سوى آلتين لمشيئتهِ تعالى وانهُ لا بدّ ان تسمعا لهُ ويُتمّ ما يرضيهِ تعالى . وأوشكت الرئيسة ان تقع تحت القصاص لان احدى المبتدئات التي كان لهنّ فيها رجاءٌ كبيرٌ أصابها بغتةً مرضٌ مخطر ولم تنجُ من خطر الموت الّا عندما رخّصت الرئيسة للطوباوية ان ترجع الى تناول القربان اوّل يوم جمعةٍ من كل شهر

ودامت الاضطهادات وكانت مرغريتا تحت التهديدات الدائمة فارسل اليها الله الاب اغناطيوس رولين اليسوعي ليعينها على الارتقاء الى آخر الدرجات التي تؤدي الى السلام التام فأُقيم رئيسًا على دير باريه وكان مع مزيد تقواهُ في اول الامر ممّن يشكون في طريقة مرغريتا غير ان تهمة زالت حالما رأى الطوباوية واطلع على اعمال الله السرّية فيها واعانها بكل امكانهِ وبامرهِ كتبت الطوباويّة أخبارها التي شرحت بها احوالها شرحًا حسنًا وهي المعوّل عليها في ايضاح ترجمتها . وضاعف الشيطان يومئذٍ قواهُ عليها ورأت الراهبات ذلك غير مرةٍ وكانت تقع في الدير وقعات عجيبة لا يظهر لها سبب وعدة مرارٍ كانت تُسحب الكرسي من تحتها فتقع على ظهرها فتتألم كثيرًا ولما كانت تُسأل عن ذلك كانت تقتصر من الجواب على الضحك والسكوت . ذلك وفيما كان ابليس مملوءًا غضبًا ورجزًا لرؤيتهِ ان الدائرة قد دارت عليهِ دائمًا غطى كنيسة الدير بغبار كثيف فظنت الراهبات ان هذه الكنيسة ستخرب الى الارض لا يبقى فيها حجرٌ على حجر . وكان معلمها الالهي يزورها متواترًا جزاءً لها ويشكو لها ما كان يدخل في بعض اديرة رهبانية الزيارة من التراخي وان النقائص التي حرّكت الغضب الالهي هي تستير الخطايا في منبر الاعتراف والفضول وطلب المجد الخاص لا مجد الله سبحانهُ غير ان تلك الاديرة اعتنقت عبادة قلب يسوع التي ابعدت عنها نقمة الله تعالى

فجمعية راهبات الزيارة في مدينة سُمور اتفقنَ مع مرغريتا على تكريم قلب يسوع واقتدى بهنّ في ذلك دير باريه فلما كان يوم الجمعة الواقع بعد ثمانية ايام عيد الجسد عام ستة وثمانين وستمائة والف كرّست الرئيسة وجماعة الراهبات ذلك اليوم انفسهنّ بطريقة احتفالية الى هذا القلب المسجود لهُ واعتمدنَ ان يُقمنَ لتكريمهِ معبدًا صغيرًا ضمن الدير وفعلنَ والحاصل ان هذه الراهبة القديسة لما رأت مآربها قد تمّت اخذ منها الفرح كل مأخذ وكتبت بحميّةٍ ما نصهُ : والآن فاموت قريرة العين لان قلب مخلصي اخذ الناس يعرفونهُ . وبقيت بعد حصول ذلك اربع سنوات وقد توجّه اليها مذ ذاك تكريم اخواتها الراهبات وخطر لهنّ ان يولّينها الرئاسة غير ان الله سبحانهُ لم يأذن في ذلك

وقد انتقلت الى رحمة الله بعواطف عجيبة هذه الراهبة المتورّعة التي أنحلتها التقشفات وأضناها ما كابدت من الاتعاب وعلى الأخصّ حبها ليسوع المسيح . وعمرها ثلث

واربعون سنة وكان ذلك في اليوم السابع عشر من شهر تشرين الاول سنة تسعين وستمائة والف وحيث كان اشتهار فضلها وقداستها مقرَّرًا في الاذهان حضر جنازتها خلق كثير وقد استشفعها اناس مرارًا فنالوا بشفاعتها ما طلبوا

ومن وقت موتها فصاعدًا لم تزل عبادة قلب يسوع تزداد في الكنيسة المقدسة وفي العالم كلهِ فاما مرغريتا فلم تزل فضائلها تتلألأ بكثرة العجائب التي جرت بشفاعتها حتى ادرجها البابا بيوس التاسع في السنة الرابعة والستين بعد الثامنمائة والالف في سفر الطوباويات

اليوم الخامس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسين كريسبينوس وكريسبينيانوس الشهيدين

ذهب اكثر العلماء الى ان استشهاد هذين القديسين لم يحدث في زمان الاضطهاد الكبير الذي بدأ سنة ثلث وثلثمائة للمسيح لكنهُ حدث نحو اواخر السنة الخامسة والثمانين بعد المائتين او اوائل السنة السادسة والثمانين بعد المائتين غيرانهُ كان قد جاء مكسيميانوس هركولاوس الى غاليا وأمر بقتل جنود اللاجون الصعيدي كما ذكرنا ذلك في اليوم الثاني والعشرين من شهر ايلول (١)

اعلم انهُ لما تأمل في القرن الثالث نفرٌ من مؤمني رومية من اهل الغيرة ان رعية السيد المسيح التي في رومية لها رعاة قديسون يهتمُّون بها وان اخوتهم الذين في غاليا ربما يحتاجون الى من يسعفهم ويشجعهم في الايمان والشدائد خرجوا من رومية لمساعدتهم. ومن جملة الذين خرجوا بهذه النيَّة على تخليص القريب كان هذان الأخوان الحبيبان النسيبان كريسبينوس وكريسبينيانوس قد أعياها تعب الطريق وعناء السفر كثيرًا. واذ وصلا بسلام الى مدينة قرب باريز يُقال لها سواسون أُوحي اليهما من الله تعالى ان يُقيما هناك فشرعا يفتكران في كيف يُنيران أهل المدينة بنور الانجيل المقدس بدون ان يثقّلا عليهم بل يعيشا من عمل ايديهما كالرسول بولس. فاتفقا على مباشرة حرفة السكافة ووهبهما الله حذاقةً في هذه الصناعة شهرتها في المدينة كلها حتى كان الجميع يرومون ان يأخذوا من شغلهما غير ان الذي زادها اعتبارًا هو احتشامها واستخفافهما بالمكاسب الزمنية لانهما لم يُعيّنا ثمنًا لما كانا يصنعان من الاخفاف بل كانا يقتنعان بما يُقدَّم لهما وهذا عينهُ كانا يحسنان بهِ الى المساكين ما خلا شيئًا قليلاً كانا ينفقانهِ على عيشهما وكان الناس يحبُّون محادثتهما ويتعجبون من سيرتهما وفضائلهما فيكثرون من التردُّد عليهما. وحينئذٍ اخذا يعلّمان الناس شيئًا فشيئًا موردين لهم جسامة جهل الذين يعبدون الاوثان ورداءة سيرة المتعبدين لها. ثم بيَّنا لهم صحة النصرانية وفي زمن يسير كثر المؤمنون بتعليمهما جدًّا

فبقيا على هذه الحال نحو اربعين سنة اي الى السنة الخامسة والثمانين بعد المائتين التي فيها جعل ديوكليسيانوس الملك مكسيميانوس قيصرًا وارسلهُ الى بلاد غاليا. اما هذا فبعد ان قتل فرقة الجنود الصعيدية ووصل الى سواسون سمع بما كان من امر الاخوين فارسل في طلبهما ولما وقفا امامهُ سألهما برجزٍ قال أيَّ الآلهة تعبدون اجاب الاخوان اننا نعبد الاله الواحد خالق السماء والارض واما انتم ففي ضلالٍ مبين لمجرَّد عبادتكم آلهة كثيرين. قال ما أصلكم ومن اية جهة ولماذا جئتم الى هنا فاجابهُ احد الاخوين بأتمّ الاحتشام كما ينبغي في مخاطبات الملوك وبغاية الحريَّة وتمام الجراءة على ما يقتضي الحق وقال اعلم ايها الملك اننا من شرفاء الرومانيين وقد زهدنا في الدنيا فهجرنا الوطن واتينا الى بلاد غاليا لكي نبشر الناس بانجيل السيد المسيح الذي يملك السماء والارض وكل ما فيهما مع الآب والروح القدس وليس لملكهِ انتهاء والأجر المعدُّ منهُ لعبيدهِ يفوق كل ما تجازي انت بهِ أتباعك بما لا يُحدُّ ولا يُقدَّر ولهذا نحن ثابتان في خدمتهِ ولا يفصلنا العذاب عن عبادتهِ. فحلف مكسيميانوس بآلهتهِ انهُ يعذّبهما بكل صنفٍ من العذاب ان كانا لا يطيعان أمرهُ فاجابهُ الاخوان قائلين اننا نحن في انتظار هذا الوقت السعيد الذي فيهِ نتعذب ونموت اكرامًا لسيدنا يسوع المسيح الذي لو عرفتهُ انت لنزلت عن عرشك وتعبَّدت لهُ عزَّ وجلّ فقال مكسيميانوس يكفي انكما قد سحرتما الشعب بانواع سحركما فلا تستعملا سحركما مع الملوك. قال الاخ الآخر ان اجتهادك في نسخ النصرانية لا يأتي بثمرةٍ حتى تفقد النار حرَّها والماء برودتهُ بل اذا بقيت على ما انت فيهِ من الضلال فتهلك لا

(١) حاشية. راجع البلاَّنديستيين في المجلد السادس لشهر ايلول في مقدمتهم لترجمة القديس موريسيوس جزء ١١

مع الشياطين في جهنم

اما مكسيميانوس فلما رأى الاخوين القديسين ثابتين في ايمانهما ارسلهما الى ريكسيوفار نائبهِ وأمرهُ بتعذيبهما حتى الموت ان لم ينكرا النصرانية . فأتمّ أمرهُ باشد ما يكون من القساوة لكون الاعوان ربطوهما بايديهما ورجليهما وسحبوهما بعزم شديد بواسطة الدواليب وحينئذٍ طفقوا يضربونهما بعصيّ بلا رحمةٍ ولا رأفة . اما الشهيدان فلم يظهرا أدنى تألُّم بل كانا يترنّمان بالتسابيح الالهية بصوت الابتهاج فاخترع الحاكم نوعًا من التعذيب جديدًا وذلك انهم غرسوا تحت اظافير ايديهما وارجلهما مناخز حديدية الّا ان السيد المسيح المتألم في عبيدهِ لم يأذن للألم ان يتسلط عليهما وفيما كان الجحفل يتفرّس هذا المنظر العجيب بذهولٍ ازدادوا جميعًا اندهاشًا باعجوبةٍ أُخرى وهي ان تلك المناخز الحديدية خرجت بغتةً من اعضاء الشهيدين وانغرست في اجساد الحاضرين كسهامٍ مرشوقةٍ عليهم بقوسٍ . فامر المنتصب بان يعلق في عنقيهما حجر الرحى ويُلقيا هكذا في النهر الّا ان الحجر استمرّ طافيًا على وجه الماء وكان الاخوان جالسين عليهِ يشكران الله تعالى . فازداد المنتصب رجزًا وألقاهما في خلقين مملوء رصاصًا مذابًا وكانا يترنمان فيهِ بالمزمور السابع قائلين ربي والهي عليك توكلت فخلصني من جميع الطاردين لي . وفيما كانا يترنّمان هكذا بصوت الابتهاج دنا الحاكم من الخلقين لكي يعاين هل هما حقًا في وسط الرصاص المذاب وفيما كان ينظر طارت نقطة من الرصاص فوقعت في عينهِ فعميت من ساعتها بوجع عظيم فامر حينئذٍ باضرام نار عظيمة وطرح فيها القديسين فلم تمسهما النار اصلاً بل خرجا منها بقوة الله سالمين . فزاد لذلك سعير الغضب في قلب الحاكم المذكور والأولى بنا ان نقول ان الشيطان دخلهُ . لانهُ لما رأى النصرانية قد تأيّدت بكل هذه الآيات المذهلة الباهرة امام الشعب رمى بنفسهِ في النار فما ابطأ ان تحوّل جسدهُ رمادًا

اما الشهيدان فرجعا الى منزلهما منتصرَين ممدوحين من الجميع وشاكرين قدرة اله المسيحيين الذي لا اله الا هو فآمن اكثر اهل هذه المدينة الّا ان القديسين كانا على حزنٍ من حيث قد فقدا اكليل الشهادة الذي كانا يتوقان اليهِ . وفيما كانا يطلبان ذات مرةٍ من الله ان يؤهلهما لاكتسابهِ اذا بملَكٍ هبط من السماء وبشّرهما بانهما في الغد ينالان مأربهما ولما كان الغد وصل من قِبل الملك مكسيميانوس جنودٌ فامسكوا الأخوين سرًّا وقطعوا رأسيهما وحدث ذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الاول

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس كريزانتوس الشهيد والقديسة داريا العذراء الشهيدة

ان القديس كريزانتوس وُلد بمدينة الاسكندرية نحو منتصف القرن الثالث وكان والدهُ واسمهُ بوليميوس رجلاً معتبرًا جدًّا وقد ذهب بابنهِ الى رومية واستمرّ هناك أعوامًا فشرع كريزانتوس يقرأ اجلّ وأنفس ما عثر عليهِ من كتب الفلاسفة الوثنيين ولما كان مطبوعًا على ذكاء العقل وحبّ الحق لم يجد فيها ما يقنع عقلهُ وكان يشكو من ذلك غالبًا لدى العلماء . وبينما كان على هذه الحال اذ وقعت لهُ بعناية الله تعالى نسخة من الانجيل المقدس فقرأها بتأنٍّ وامعان نظرٍ فذهلهُ ما هنالك من الاسرار وادهشتهُ التعاليم المعبّر عنها بالفاظ بسيطة خالية من زخارف الكلام فكرهت حينئذٍ نفسهُ كل كتاب سوى كتاب الانجيل وبحيث لم يكن يفهم بعضًا من معاني هذا الكتاب الالهي اخذ يطلب احد العارفين بها ليفسّرها لهُ فوجد كاهنًا قديسًا عالمًا يسمى كَرْبوفورس وهذا الشيخ الفاضل أوضح لهُ كل مشكلات الانجيل الشريف واقنعهُ ببراهين يقينية فاعتمد

فلما رأى بوليميوس سيرة ابنهِ قد تغيرت تغيرًا كليًّا وانهُ مجتنب اللهو والطرب ومحب الانفراد ظن بهِ انهُ صار مسيحيًّا فسألهُ عن حقيقة الامر فاجابهُ انهُ برحمة الله اطلع على ضلال الوثنيين وتحقق ان ليس للناس دين صحيح الّا النصرانية . فلما سمع هذا والدهُ امتلأت نفسهُ كآبةً ثم تحوّلت كآبتهُ الى غضبٍ فالقى ابنهُ في سجن مخيف بقصد ان يعذبهُ بالجوع ويميتهُ ان كان لا يرجع الى عبادة الاوثان ولكن حيث رآهُ بعد ثابتًا على ما كان عليهِ اخترع واسطة شيطانية وتأمّل انهُ يبلغ بها مأربهُ وهي انهُ افتكر ان ابنهُ في ريعان الصبا وانهُ جميل المنظر وقد تدرّب لذلك الوقت على قواعد الوثنية التي تميل بالمرء نحو اللذات الحمية فظن بهِ انهُ بهذه اللذات يردّهُ الى ما كان عليهِ فاخرجهُ من الحبس ودعا فتاةً من افضل عذارى اثينا اسمها داريا وقد كانت ثاقبة العقل بديعةً في

الجمال وخاطبها في ان تتزوّج بابنهِ رجاء انها تجذبهُ وتردّهُ الى عبادة الاوثان فارتضت داريا . ثم قدّمها الاب لابنهِ اما الشاب العفيف فأُوحي اليهِ من قِبل الله تعالى ان هذه العذراء ستهتدي الى الدين الحق على يدهِ فجعل يخاطبها بتمام الاحتشام حتى يخيَّل لك انهُ ملَك موردًا لها ما ردَّهُ عن عبادة الاوثان وحملهُ على الدخول في دين المسيح لهُ المجد فآمنت داريا بالمسيح واعتمدت سرًّا ثم اتفقا على ان يحفظا العفاف وكتما ذلك السرّ مخفًى تحت ستار الزواج . ونظرًا الى بوليميوس فلما رأى ان ابنهُ قد ارتضى ان يتزوّج تلك العذراء الفاضلة هدأ لهيب غضبهِ عليهِ

ولما كان من الممتنع ان تخفى حال المسيحي الحقيقي لم يمرّ زمان مديد الَّا قد عرف ابوهُ بوليميوس ان ابنهُ من الدين على ما كان وانهُ قد نصَّر قرينتهُ وانما انتج ذلك من حسن سيرتهما وزيارتهما المؤمنين في السجون واسعافهم وقد فشا أمرها في المدينة كلها لانهما قد جذبا بمثال الصلاح والمحادثة المفيدة كثيرين الى الانجيل المقدس فامسكهما الحاكم وأمر الشاب ان يسجد للاوثان فابى فسلمها الى القائد كلاوديوس والى جنودهِ فجلدوهُ بقساوةٍ ثم القوهُ في سجن مظلم خبيث الرائحة ولكن في دخولهِ اليهِ استحال ذلك الظلام بقدرة الله الى نورٍ والنتانة الى رائحة طيبة. ثم أمر كلاوديوس بضرب القديس ثانية بسلاسل حديدية فلما أمسكها الجلّادون لانت في ايديهم وهذه المعجزة أدهشت المغتصب وتحقق انها عمل يد الله القادر على كل شيء فآمن وجثا للحال على قدمي القديس ملتمسًا منهُ العفو وطالبًا صلاتهُ من اجل خلاص نفسهِ وكذلك آمن الجلّادون وامرأة الحاكم واولادهُ واعتمدوا

فلما عرف الملك ما كان من امرهم ارسل وقتلهم كلهم ونقل كريزانتوس الى سجن آخر احرج من الاوّل وأشدّ ضنكًا وأمر بادخال داريا في مكان ما وتسليمها الى اناس ارديا لينزعوا بكارتها الَّا ان الله جلّت قدرتهُ لم يهمل تلك العذراء بل سخّر لوقايتها اسدًا فلما أُدخلت الى المكان المنوّه بهِ كسر الاسد باب سجنهِ ودخل منزلها وجلس بازائها فدخل شخص من اهل الفساد فهجم عليهِ الاسد والقاهُ على الارض ولو لم تأمرهُ البتول بالَّا يضرهُ لكان افترسهُ . فخرج الشاب سالمًا وطفق ينادي في المدينة بهذه الآية وبان لا اله الَّا اله المسيحيين فامر المغتصب ان يضرموا نارًا عند باب المنزل الذي كانت فيهِ البتول مع الاسد حارس عفّتها وساعتئذٍ امرت البتول فخرج الاسد واجتاز في اللهيب ولم تمسّهُ مضرّة . اما القديس كريزانتوس فانهم أرادوا ان يحرقوا جسدهُ بشموع متقدة فلم يمسّهُ اللهيب فلما رأى المغتصب ذلك كلهُ امر بان يُدفنا وهما في قيد الحياة في حفرة عميقة وهكذا ماتا في اليوم الخامس والعشرين من تشرين الاول نحو السنة الرابعة والثمانين بعد المائتين للمسيح

اليوم السادس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس اوَريستوس البابا الشهيد

ان القديس اوَريستوس يونانيٌّ مولدًا يهوديٌّ نسبًا لانهُ ابن رجل يهوديّ اسمهُ يهوذا وُلد ببيت لحم واستوطن بلاد الروم وكانت لهُ عنايةٌ ان يهذّب ابنهُ على ديانتهِ . اما ولادة القديس فكانت نحو السنة الستين للمسيح ومع ما كان عليهِ من الاميال الشديدة نحو الفضائل والعلوم ظنّ ابوهُ انهُ ملتزمٌ ان يخرّجهُ في العلم على يد احذق علماء عصرهِ وهكذا فعل . واما اوَريستوس فلما كان سريع الفهم ثاقب الفكر كريم السجايا برع في برهةٍ قليلة ونجح في العلم نجاحًا كبيرًا . ولكن لا يُعرف الآن ولا الأين اللذان فيهما حصل على نعمة الاهتداء الى دين المسيح ولا الامر الذي حملهُ على الذهاب الى رومية وانما يُعرف من امرهِ انهُ كان من اكليروس هذه الكنيسة أمّ جميع الكنائس ومعلمتهنّ ومركز الايمان والتقوى وهي الكنيسة التي غالى في مدحها القديس اغناطيوس بطريرك انطاكية وقد مدح هذا الحبر القديس مؤمني رومية وأمانتهم وشجاعتهم وثباتهم على الايمان وحسن أخلاقهم ومحبتهم التي ضُربت بها الامثال ومدح ما بينهم من شدة الالفة واتفاق الرأي وشدّة كرههم للشقاق ولأضاليل بدع كثيرة كانت الكنيسة تئنّ بسببها وقتئذٍ حتى اقرّ الجميع ان مدائحهُ لنصارى رومية قد انشأت مديحًا لهذا الحبر الذي شاع بين اهل رومية عامّةً غيرتهُ وفضيلتهُ ومعارفهُ التي كانت تغذي المؤمنين برًّا وتقوى والذي وان لم يكن بعد الَّا من عامّة الكهنة اضرم الغيرة والعبادة في افئدة كل الرومانيين بتعاليمهِ ومحبتهِ وبنموذجهِ الصالح . ومن ثمّ كان الاعتبار والاجلال اللذان حصلا لهُ كبيرَين وعامَّين وعليهِ فلما استُشهد البابا أنكليتوس خليفة القديس اكليمنضوس (وكان ذلك حظًّا

لكل هولاء الاحبار الاوّلين) لم يفرغ الكرسي المقدس الاّ ريثما اجتمع الاكليروس الذين انتخبوا كلهم بدون ائتمار القديس اوريستوس رأسًا للكنيسة ولم يكن في البيعة باجمعها من انكر عليهِ هذا الانتخاب الاّ هو فان عميق اتضاعهِ وازدراءَهُ بنفسهِ واعتبارهُ معارف ذلك الاكليروس وفضيلتهُ واستحقاقهُ حملته على ان لا يعتقد ان انتخابهُ لرئاسة بيعة الله كان بالهام الروح القدس وبناء عليهِ تمنّع ورفض وأظهر عدم أهليتهِ لتلك المرتبة العالية غير ان إباءَهُ ورفضهُ أبانا أجلى بيان جدارتهُ باقصى المجد والشرف. والحاصل انهُ سلّم اخيرًا على رغمٍ من تواضعهِ الى ارادة الله المظهَرة بصوت الشعب ومصادقة الاكليروس عامّةً ووقع ارتسامهُ في اليوم السابع والعشرين من شهر تموز عام خمسة وتسعين للمسيح

وما جلس هذا الحبر الاعظم على كرسي الخلافة البطرسية الاّ حوّل جانب اهتمامهِ الى ملافاة الكنيسة وسدّ حاجاتها وكانت يومئذٍ مضطهدةً من الوثنيين وممزّقة من اهل البِدَع السيمونيين وتلاميذ مينندَر والنيقولاويين والغُنُوسيك والكيانيين وتلاميذ سائرنين وبازيليد وتلاميذ كربوكرات والفلنتيان وغيرهم من المبتدعين الذين حرّكهم روح الظلام فبذلوا اقصى الجهد ولم يدّخروا حيلةً في بثّ ذُعاف اضاليلهم خصوصًا بين مؤمني رومية وذلك لما ثبت عندهم من انهُ اذا سرى سم الضلال ولو مرةً في رومية عاصمة العالم المسيحي فلا يلبث ان يفشو في كل الجسد فيتولّد منهُ ضررٌ جسيم غير ان المسيح الذي وعد ان قوات الجحيم لن تقوى على كنيستهِ قد تدارك شدة هذا العصيان بان اجلس اوريستوس على الكرسي الرسولي. وفي الحق ان هذا البابا القديس سهر على حقل الرب الذي ائتمنهُ عليهِ بتمام الانتباه حتى ان العدو لم يستطع ان يزرع فيهِ زوانًا وبقي مؤمنو رومية على طهارة الايمان كما كانوا وان كان اكثر اولئك المبتدعين قدِموا رومية لبثّ اضاليلهم لان حميّة قداستهِ وتعاليمهُ وهمّة الرعائية كانت واقيًا شديدًا فلم يمسّ سمّ الضلال احدًا من المؤمنين مطلقًا

وما لا يتعلّق بهِ ريبٌ ان عناية هذا الحبر الرعائية لم تقف عند وقاية المؤمنين فقط من الاضاليل بل توجهت ايضًا الى تكميل النظام الكنائسي باحسن القوانين وسلّم معابد رومية الى كهنةٍ معيّنين ليعتنوا بخدمتها ولم تكن تلك المعابد وقتئذٍ كنائس لعموم الشعب وانما كانت مصلّيات ضمن منازل خصوصية كان المسيحيون يجتمعون فيها لاستماع كلام الله وللاشتراك في الاسرار المقدسة وانما وضعوا لها هذا اللقب اللاتيني تيتولي ومعناهُ علامات تمييزًا لها عن الاماكن الدنيوية وكانوا يركزون صلبانًا على ابوابها ليعرف انها اماكن مقدسة لان المواضع المعدّة للاجتماعات العمومية كانت تُعرف بتاثيل الملوك التي كانت تُدعى بهذا الاسم ايضًا وكان الكهنة المقامون على خدمة تلك المعابد على الخصوص هم خوارنة رومية وكانوا اربعين كاهنًا في ايام القديس اوبتاتوس اي في انتصاف القرن الرابع. وامر البابا القديس انهُ متى وعظ الاسقف يقتضي ان يُرافَق بسبعة شمامسة لتكريم كلمة الله ومقام الاسقفية اشدّ تكريم ورسم ايضًا موافقةً للتقليد الرسولي ان يحتفل بالزواج جهرًا وان العروسين يقبلان بركة الكاهن. ونُسبت اليهِ رسالتان احداهما الى اساقفة افريقية والأخرى الى مؤمني مصر وكانت هذه في تهذيب الاخلاق وتلك في ابطال تغيير الاسقفية بعلة الطمع او الربح وبيّن فيها جليًّا ان الاسقف لا يقدر ان ينتقل من ابرشيتهِ الى ابرشيةٍ أخرى ما لم تكن ضرورة ظاهرة ونقل قانوني. وكان القديس اوريستوس متفرّغًا للقيام بجميع واجبات الراعي الصالح فلم يكن برتاح من عناء توزيع خبز كلام الله على الكهنة القديسين الذين عيّنهم لكل رعيةٍ وكان يوزّعهُ هو نفسهُ على شعبهِ كل يوم بل عدّة مرارٍ في النهار وامتدّت غيرتهُ التي لا تتعب حتى الى الاولاد والعبيد. والحاصل انهُ بهذه العناية وبتلك المحبة الحارّة الفعّالة أمِن على قطيعهِ من فساد الايمان وسوء الاعتقاد مع انهم كانوا عرضةً لاشراك الهراطقة وحيلهم

ومع ان الملك تراجانوس كان من ارق الملوك الوثنيين وأرفقهم بالرعية لم تُحسن معاملة المسيحيين على عهدهِ فان الاضطهاد الذي ثار على بيعة الله في ايامهِ لم يكن دون سائر الاضطهادات نظرًا الى انواع العذاب والقساوة وكان يفتخر انهُ اشدُّ تديّنًا من بقية الملوك وبانهُ ايّد النواميس الرومانية على ما فيها من الشدة والصعوبة. ومن المسلّم انهُ لم يبرز امرًا جديدًا في مقاومة ديانتنا كما يُستدلّ على ذلك من كلام ترتوليانوس والقديس ميليتون ولكنهُ كان يبغض النصارى حدّ البغض وذلك لان جلساءَهُ الوثنيين وكهنة الاوثان كانوا

بشنعون عليهم بحضرتهِ ويصوّرونهم لديهِ باقبح الاوصاف وبمجرّد بغض الملك لهم هيج عليهم الشعوب والولاة

اعلم انهُ منذ ظهرت ديانتنا على الارض كانت هدَفًا للبغض الذي يتّبع الحق عادةً وقام عليها من الاعداء مقدار ما للحق من الاضداد والاخصام وحيث نقاوة آدابها كانت مضادة كل المضادة لفساد اخلاق الوثنيين عمومًا كان ذلك من اخص دواعي هذه الكراهة العامة المشهورة وبما ان الشياطين الذين كانوا يتسلطون على الارض انتصر عليهم المسيح رشقوا المسيحيين بكل سهام قساوتهم وبغضهم فأضحوا مكروهين من الاكابر والاصاغر بما ان قداسة اخلاقهم وسيرتهم كانت ملامةً عنيفةً على خلاعة الوثنيين وكفر عبادة الاصنام. واما الشيطان أخزاهُ الله فلم يزل يزرع في كل جهةٍ القذف بالمؤمنين والافتراء عليهم فكان يقال ان المؤمنين سحراء وبسحرهم سحروا الناس وجعلوا يعتبرون آبائهم كلها خداعًا وتغريرًا وأرجفوا ان اجتماعاتهم الليلية والسرّية لم تكن الّا ادناسًا مكروهة وانهم بظواهر الاحتشام والتأدُّب يغطُّون اغراضًا خبيثة مدنّسة فكان المسيحيون يُعدُّون كأشرار بحسب هذه الاوهام الكاذبة وبمجرّد اقرارهم بكونهم تلاميذ المسيح كان يُقضى عليهم باغلظ عذابٍ بدون علّةٍ أُخرى ومن ثمَّ كان يُطلب بقلقٍ واضطراب في الملاعب والملاهي العمومية ابادة المسيحيين واستئصال مذهبهم. فمن هذه الثورات الشعبية صدر الاضطهاد الشديد الذي قاستهُ الكنيسة على عهد تراجانوس وكان ذلك نحو السنة الثامنة بعد المائة للمسيح وفي السنة الحادية عشرة لاستيلاء الملك المذكور كما عيّن ذلك اوسابيوس في تاريخهِ وبقي الى ان مات هذا الملك وكان ذلك في السنة السابعة عشرة بعد المائة للمسيح وفي السنة التاسعة عشرة لتملكهِ

وكان القديس اوَريستوس مشهورًا في الكنيسة كلها بسموّ قداستهِ وكانت غيرتهُ ذات تأثير عظيم ومشهورة في الغاية حتى لم يستطع ان يختبيء من عاصفة الاضطهاد الشديدة وقد جعلتهُ عنايتهُ بالقطيع كلهِ مكروهًا من اعداء النصرانية فيالها من عناية شديدة فانهُ مع كونهِ شيخًا كثير الايام لم ينقص لمحبتهِ الرسولية مساعيهُ ولا اعمالهُ ومن الثابت ان بركات الله على غيرتهِ كانت ظاهرة بحيث لا يمكن ان تكون غير معروفة عند اعداء ديانتنا. فكل يوم كنت ترى ان عدد المؤمنين يزداد ودم الشهداء يزيد كل يوم في خصب كرم الرب ولم تمرّ الّا برهة قصيرة حتى اطّلع عبدة الاوثان على ان هذا الخصب هو ثمرة أتعاب ذلك الحبر الاعظم فازمعوا ان يُهلكوهُ اعتقادًا انّ تبديد القطيع يقوم بإبادة الراعي ومن ثمَّ قُبض عليهِ وأُلقي في السجن. فلاحت على وجههِ لوائح الفرح بكونهِ مقضيًّا عليهِ بسفح الدم حبًّا بيسوع المسيح فدهش من سرورهِ الولاة اذ لم يدروا ان شيخًا يبقى لهُ هذا القدر من البأس والشجاعة وحُكم عليهِ بالموت بما انهُ مقدام النصرانية ولكن لا علم لنا بنوع تعذيبهِ ومن المؤكّد انهُ استحقّ اخيرًا اكليل الاستشهاد في اليوم السادس والعشرين من شهر تشرين الاول وبهذه الصفة المجيدة تكرمهُ بيعة الله في هذا اليوم

اليوم السابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس فرومنسيوس

كان رجل فيلسوف اسمهُ ميترودار يحبُّ الاسفار فرحل رحلات كثيرة لرغبتهِ في اكتساب معارف جديدة فضرب في الآفاق حتى تبطّن بلاد فارس والحبشة وعند عودتهِ اهدى الملك قسطنطين الكبير الذي كان قد صار منذ قليل ملك الشرق ماسًا وحجارةً كريمةً وغير ذلك من معجبات التحف مؤكّدًا لجلالتهِ ان مجموع هذه التقادم لو لم يأخذ جانبًا منها ملك العجم لكان اكثر كثيرًا

ولما رأى ميروبيوس فيلسوف صور نجاح ميترودار طمع ورحل تلك الرحلة لمثل ذلك السبب. ولما كانت عناية الله مستغرقةً تصرّفات عبادهِ حتى لا يخطون خطوة الّا بتدبير عنايتهِ جلّت حكمتهُ كان لهُ بهم المقاصد التي سترى عما قليل كيف انفذها وان لم يخطر تعالى بافكارهم حينئذٍ فأصحب ميروبيوس في رحلتهِ فرومنسيوس وايدوس ابني اخيهِ لانهُ تولّى تربيتهما اذ لم يكونا بعد راشدين وحين انتهاء سفرهِ ركب واياهما سفينةً ليرجع الى بلادهِ فوقفت السفينة على ميناء لتاخذ من هناك زادًا للركّاب والملاّحين فألمّ بالمركب برابرة تلك البلاد وكانت نار الحرب مضطرمة بينهم وبين الرومان فنهبوهُ وقتلوا بحد السيف كل الذين صعدوا اليهِ واما ايدوس وفرومنسيوس فكانا جالسَين تحت شجرةٍ على مسافةٍ من هناك يستعدّان لمثائلها ولما وجدها البرابرة أثر

فيهم ما انصفابهِ من الطهارة والجمال وسلامة الضمير وذهبوا بهما الى ملكهم وكان مقامهُ ببلدةٍ يُقال لها اكزوما وما هي الاَّ قرية بالحبشة يُقال لها اكزوم ووقع ذلك في السنة الحادية والاربعين والثلثمائة

وعرف الملك ما لذينيك الولدين من ذكاء العقل والاستعدادات الحسنة فوجَّه الى تربيتهما عناية خصوصية وجعل ايدوس مذ ذاك ساقيهُ واقام فرومنسيوس على بيت المال وكتامة اسرار المملكة وشرَّفهما في حياتهِ بخالص ثقتهِ بهما ولما حضرتهُ الوفاة تشكَّر من حسن خدمتهما واثنى عليهما وخلَّى سبيلهما جزاء تصرُّفهما الحسن غير ان الملكة طلبت منهما ان يبقيا في القصر الملوكي وان يعاوناها بالتدبير لانها قبضت على زمام المملكة حيث ان بكر الملك كان غير بالغ فاستمرَّا في خدمتها وهي ما ابطأت ان اشعرت بمفاعيل فضيلتهما واهليتهما

وبما ان عمدة الاشغال كانت موجهةً الى عهدة القديس فرومنسيوس تاق الى ان ينادي في تلك البلاد ببشارة الانجيل والزم جملة من كان في البلاد المشار اليها من تجَّار النصارى ان يتوطنوا هناك وانالهم امتيازاتٍ عظيمة وجعل لهم كل الوسائل السهلة ليعلموا ديانتهم وغيرتهُ ونموذجهُ الصالح اعانا كثيرًا على جعل النصرانية مكرَّمةً عند الغير المؤمنين

ولما بلغ وليُّ العهد المسمَّى ايزان تولَّى بنفسهِ فترك كلٌّ من ذينك الاخوين منصبهُ مع انهُ قد الحَّ عليهما كثيرًا ان يبقيا في قصر الملك. واما ايدوس فرجع الى صور وهناك ارتسم فيها بعد كاهنًا واما فرومنسيوس فحيث عزم بكل نيتهِ على هداية الحبشة سار الى الاسكندرية سنة ستٍّ واربعين وثلثمائة وترجَّى القديس اثناسيوس ان يبعث اسقفًا الى تلك البلاد ليتمّم هداية شعبٍ عندهُ استعداد عظيم لقبول الايمان. فعقد القديس المذكور مجمعًا فحكم كل الاساقفة الذين حضروهُ ان ليس احد أليق من فرومنسيوس بان يكمل العمل الصالح الذي بدأ بهِ ومن ثمَّ رُسم اسقفًا على الحبشة(١)

وعاد فرومنسيوس الى اكزوم سنة ثلث وخمسين وثلثمائة وقد ارتسم اسقفًا كما مرَّ وبارك الله على مواعظهِ وعجائبهِ فاهتدى بسببها جماعةٌ كثيرون ومن المحتمل ان ليس في ام الارض أُمَّة دخلت في النصرانية بأشد حرارة وشجاعة مثل هذه الامة. واما الملك ايزان وسازان اخوهُ الذي شركهُ في الملك فاصطبغا بالمعمودية وساعدا بغيرةٍ مساعدةً كبيرة على نشر الانجيل بين رعيتهما

وكان الملك قسطنسيوس يكرم القديس فرومنسيوس ويبغضهُ اشدَّ البغضاء علمًا بانهُ متحدٌ بالرأي مع القديس اثناسيوس ولما قنِط من استمالتهِ الى حزب الاريوسيين الذين كان يدافع عنهم بجهدٍ كتب الى ملوك الحبشة رسالة تهديدٍ وأمرهم بها ان يسلموا اسقفهم القديس الى جاورجيوس بطريرك الاسكندرية الدخيل فلم يعبأ اولئك الملوك برسالتهِ وأخبروا عنها القديس اثناسيوس الذي أدخلها في كتابتهِ لقسطنسيوس

واما القديس فرومنسيوس فما برح يهذّب رعيتهُ ويُعطيهم النموذج الصالح حتى انتقل الى رحمة ربهِ ولا يُعرف يوم وفاتهِ ولذلك تعيّد لهُ الكنيسة اللاتينية في اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الاوَّل والكنيسة اليونانية في اليوم الثلثين من شهر تشرين الثاني واما الحبش فيكرّمونهُ كرسول أُوكريا وهي أشرف قسم من ممالكهم ويدخلون ايضًا في عداد القديسين الملكين ايزان وسازان اللذين يُدعى احدهما أبرهة والآخر اتزبا اما القديس فرومنسيوس فيسمّيانهِ فريمونات (غودسكار)

اليوم الثامن والعشرون

وفيهِ ترجمتا القديسين الرسولين سمعان ويهوذا

ان القديس سمعان هذا يُلقَّب في بشارة القديس متى(١٠: ٤) بالقانوي ولذا ظنَّ البعض انهُ وُلد بمدينة قانا الجليل وبهذا

---

(١) حاشية. ان الذي القى اولاً بذر الايمان في بلاد الحبش هو خصيُّ الملكة الذي عمدهُ الشماس فيلبس القديس (اعمال ٨: ٣٨) وهو الذي بشَّر اهل وطنهِ بيسوع المسيح حسبما روى اوسابيوس في الفصل الاوَّل من الجزء الثاني من تاريخهِ (راجع المجلد الاول من تأليف البلاَّنديستيين لشهر حزيران وجه ٦٠٩) فشعوب هذه البلاد يعترفون على الخصوص بفضل القديس فرومنسيوس في هدايتهم الى النصرانية وقد اتبعوا بدعة اوطيخا ولم يزالوا الى يومنا هذا يعتقدون بان في المسيح طبيعةً واحدةً. وفي المائة السادسة بعث ملكهم سفيرًا الى البابا اكليمنضوس السابع فانشئت الرسالات في بلادهم وارسل البابا غريغوريوس الثالث عشر الى هناك الآباء اليسوعيين فطُردوا منها سنة ستٍّ وثلثين وستمائة والف ونجح غيرهم من المرسلين في مدة ليست بطويلة واستشهد كثيرون من هولاء المرسلين سنة ستين وسبعمائة والف ولا يزال المجمع المقدس من مدةٍ الى مدةٍ يوجّه رسلاً الى الحبشة منهم رهبان القديس فرنسيس في جنوبي هذه البلاد وكهنة القديس فينشنسيوس في شماليها حيث يسعون كل السعي في بثّ الايمان الكاثوليكي

اللقب فرّق القديس متى بينهُ وبين القديس سمعان هامة الرسل وبين القديس سمعان اخي الرب الذي خلف اخاهُ القديس يعقوب الصغير على الكرسي الاورشليمي . اما القديس لوقا فقد لقّبهُ بالغيور (لوقا ٦ : ١٥) وذلك اما من أجل غيرتهِ الشديدة واما لان كلمة قانا التي هي لفظة عبرانية (קנא) معناها غيرة . وقال تاودوريتوس انهُ من سبط زابلون وقيل انهُ حضر عرس قانا الجليل وانهُ لما عاين آية السيد المسيح التي بها احال الماء الى خمرٍ تتلمذ لهُ عزَّ شانهُ . اما القديس يهوذا فكان اخا القديس يعقوب الملقب بالصغير ابن مريم كلاوبا (متى ١٣ : ٥٥) وقد لُقّب بتدّاوس ولاباوس تمييزًا لهُ عن يهوذا الاسخريوطي (١) وتدّاوس ولبّاوس لفظتان معنى الاولى اعتراف ومديح ومعنى الثانية رجل لبيب حكيم شجاع

من المسلَّم ان هذين الرسولين تجشّما اتعابًا وكابدا مشاقّ كثيرة في خدمة الانجيل المقدس وبتعليمها وعجائبهما ربحا للايمان شعوبًا كثيرة وان كان الكتاب الكريم قد اقتصر على ذكر شيءٍ قليل في شانهما . وقد ذهب القديس سمعان الى بلاد مصر كما روى مؤرخ أَلَّف كتابهُ في القرن السادس وتسمّى القديس هناك دوروتاوس وقال انهُ بعد ما بشَّر هناك بالايمان المسيحي مضى الى افريقية وزرع هناك زرْع الخلاص ثم انطلق الى بلاد الانكليز ومن هناك ذهب الى بلاد العجم (٢) . اما القديس يهوذا فانذر في بلاد ما بين النهرين وقد ذكر القديس بولينوس ان هذا الرسول علَّم ايضًا في بلاد ليبية وكتب الى جماعة المؤمنين الرسالة الموضوعة عقب رسائل الرسل

وأَخبرنا بعض الرواة الاقدمين عن هذين الرسولين أَنهما بعد ما طافا بلدانًا كثيرة ذهبا معًا الى بلاد العجم وعند وصولهما الى هناك صادفا رجلاً اسمهُ بَرَداش كان قائدًا وكان قد ارسلهُ ملك العجم على جيش الهند فلما دخل الرسولان هذه المملكة صمتت الشياطين ولم تردَّ جوابًا على الناس بخلاف عادتهم . فتحير الجيش وارسلوا اناسًا الى صنمٍ كان قريبًا وسأَلوهُ عن سبب صمت الاوثان فاجاب انهُ قد دخل المملكة رسولان سمعان ويهوذا وهما اللذان ابكما افواه الآلهة وان قوّتهما عظيمة جدًّا حتى لا تقدر الارواح ان تقف بازائهما فتآمر جلّ كهنة الاوثان وطلبوا من بَرَداش ان يقتل الرسولين فلم يبادر ذلك القائد الى قضاء الامر بل تكلم مع القديسين وأَحبهما ثم سأَل كهنة الاوثان كيف تكون حربهُ مع عسكر الهند فاجابوهُ انها ستكون طويلة وذات اخطار جسيمة وانهُ لابدَّ من سفك دماء كثيرة . فلما سمع ذلك الرسولان قالا للقائد اعلم انهم قد تنبأُوا بالكذب وسيظهر كذبهم غدًا في مثل هذه الساعة لانهُ سيوافيك سفراء من قِبل جيش الهند ويسأَلونك الصلح وكان كذلك ومن اجل هذه النبوَّة آمن القائد بالانجيل المقدس مع الاكثرين من جيشهِ

ثم طافا في المملكة وبعجائبهما اجتذبا الى الايمان المسيحي اكثر العجم . وفيما هما يبشّران في احدى المدن تعصب عليهما كهنة الاصنام وهيّجوا عليهما الشعب . فنشروا القديس سمعان من وسطهِ وقطعوا رأس القديس يهوذا فنالا اكليل المجد السماوي في اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الاوَّل وبقدرة الله في ساعة موتهما انسحقت كل الاوثان وهدمت كل هياكلها ومات كل الذين سعوا بقتل الرسولين المعظمين

وفيهِ ايضًا ترجمة القديسة انَسطاسيا البتول الشهيدة

كان مولد هذه القديسة برومية المكرَّمة نحو السنة المائتين والثلثين وكان ابواها مسيحيين وسلكت معهما في صبائها طريق الكمال المسيحي مختلية في البيت وممارسة باجتهادٍ رياضات القداسة ولم تزل على هذه الحالة حتى مات ابواها فدخلت بعدئذٍ منزلاً فيهِ عدَّة عذارى قد انقطعنَ لعبادة الله تحت رئاسة بتول اسمها صوفيا فقبلتها الرئيسة بسرور عظيم لما كانت تعهد فيها من مزيد القداسة وهناك نمت انَسطاسيا في الفضيلة ووجّهت كل افكارها وعواطفها

(١) حاشية . لا بدَّ من التفريق بين هذا الرسول الملقب بتدّاوس وأَحد السبعين تلميذًا المدعو ايضًا تدّاوس ويخبرنا عنهُ التأريخ انهُ بشَّر بالانجيل المقدس بمدينة اورفا واسس كنيستها ومات هناك في عهد الملك ابغاروس الذي روى عنهُ اوسابيوس المؤرّخ في تاريخ الكنيسة (كتاب ١ فصل ١٢ و١٣) انهُ كان قد كتب الى السيد المسيح يستدعيهِ الى بلدهِ ليشفيهُ من مرضهِ وان السيد لهُ المجد اجابهُ انهُ بتميم امر ابيهِ السماوي يرسل اليهِ احدًا من اصحابهِ يشفيهِ ويعلمهُ خاصَّةً طريق الخلاص وقد تم ذلك على يد هذا القديس التلميذ المدعو تدّاوس (راجع البلاّنديستيين مجلد ١٢ من شهر ت ١ وجه ٤٥٠)

(٢) حاشية . وقع الريب عند البلاّنديستيين في صحة هذه الرواية وبناء عليهِ فقالوا انهُ يتضح من التاريخ الصادق ان تأسيس كنائس افريقية وانكلترا كان على يد الاحبار الرومانيين ولذا انتحوا ان القديس سمعان انطلق من مصر الى العجم

الى السيد المسيح الذي من اجلهِ تعالى وحبًّا بهِ كانت تطلب دائمًا بتمام الرغبة ان تبذل حياتها . والامر العجيب ان هذه البتول النقية صارت عرضةً لاشدّ تجارب الزنى مع انها عاشت في سبيل الطهارة من عهد الصغر كما ذكرنا آنفًا ولكنها بحول الله تغلّبت على جميع تلك المحن والتجارب بواسطة الصلاة والتقشف

وفي غضون ذلك اثار فاليريانوس الملك الاضطهاد على المسيحيين وأمر ان يُفتك بهم وبحيث ان انسطاسيا كانت مشتهرة في المدينة ذهب الجنود الى دير اولئك العذارى وكسروا ابوابهُ وطلبوا البتول فدخلت صوفيا الرئيسة قلاّية القديسة انسطاسيا وقالت لها ها قد حضرت الساعة السعيدة التي طالما انتظرناها بشوقٍ ها هوذا عروسكِ الالهي يدعوكِ الى اكليل المجد الابدي فاذهبي وجودي بنفسكِ ذبيحة حبًّا بالذي بذل حياتهُ حبًّا بكِ . قالت هذا وفي الحال دخل الجنود واوثقوا انسطاسيا ومضوا بها الى بلاط الحاكم بروبوس ولما مثلت بين يديهِ سألها عن اسمها وديانتها فاجابتهُ بما نصهُ ان اسمي انسطاسيا المسيحية فلما تفرّس الحاكم جمالها البارع ومزيد احتشامها اخذ يلاطفها بالكلام ويعدها بكرامةٍ وزواج شريف ولما ان البتول احتقرت وعدهُ ورذلت ملاطفتهُ قال لها الحاكم انكِ تتعذبين بارهب آلات العذاب ان كنتِ لا تطيعين امري . فاجابتهُ البتول ان نفسي لمستعدة ومرتاحة الى ما تتوعَّدني بهِ فقد سبقت واعترفت لك علانيةً واعترف الآن ثانيةً اني مسيحية فعذّبني باشد ما عندك من العذاب لاني واثقة ومتحققة ان الاله القدير الذي اعبدهُ يُظفرني بها

فتعجب المحفل من شجاعة جوابها الذي أشعل صدر المغتصب غيظًا فامر ان تُمزَّق ثيابها وتُضرَب على خدَّيها وبعد هذا الضرب الشديد الذي اجرى الدم على وجهها ربطوا يديها ورجليها بالحبال على الدواليب وخلعوا عظامها وعند ذلك كانوا يحرقون جسدها بشموع متقدة ثم مزَّقوها بمخالب حديدية . ولكنها عليها السلام لم تزل فيما بين كل هذه الاعذبة الشديدة تصلي الى الرب وتتعزّى باقوال المرتل الالهية حتى انها كانت تظهر كمن لا يشعر بالضربات . فاشتد من ذلك غضب الحاكم وامر بان يقلعوا اظافيرها ويقطعوا ثديها ويسحقوا اسنانها بضرب المطارق ففعلوا ولم تزل البتول تبارك السيد المسيح وتهزأ بآلهة الوثنيين وتدعوهم آلهة خشبية حجرية نحاسية حديدية خزفية . فلما رأى ذلك الحاكم امر بقطع لسانها فشرعت بعد ذلك ترفع يديها الى السماء شاكرةً الله تعالى في قلبها وبلسان الحال على حسناتهِ اليها فامر بقطع يديها ورجليها فقُطعت ثم أمر بقطع رأسها وقد قتلوا معها رجلاً آخر يدعى كيرلُّوس لانهُ كان قد سقى القديسة كأس ماء في شدة اوجاعها . وكان انتقالها الى رحمة الله في اليوم التاسع والعشرين او الثامن والعشرين من شهر تشرين الاول بين السنة الثالثة والخمسين والستين بعد المائتين للمسيح

اليوم التاسع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس نارسيس الاسقف

ان هذا القديس الذي هو فخر الاساقفة وقدوتهم قد اخبرنا بفضائلهِ اوسابيوس المؤرخ في الكتابين الخامس والسادس من تاريخ الكنيسة كان مولدهُ نحو ابتداء الجيل الثاني للمسيح ومن المحتمل انهُ وُلد باورشليم وانهُ اتخذ الروح الرسولي من تلاميذ الرسل ولكن لا يُعرف شيء مما يتعلق بحوادث شبيبتهِ غير انهُ كان عاكفًا على درس العلوم لا سيما ما يلائم الايمان ويعين على القداسة فارتسم كاهنًا وظهر حينئذٍ ما كان مختفيًا في باطنهِ من الفضائل والمواهب الالهية ومن ثم لم يكن يسميهِ الشعب الاَّ الكاهن القديس . ولما توفي دوليكيانوس اسقف اورشليم جلس على كرسيهِ القديس نارسيس في سنة خمس وثمانين ومائة وكان لهُ من العمر نحو ثمانين سنة وهو على ما ذكر اوسابيوس الثلثون من اساقفة اورشليم فاخذ يهتمُّ برعيتهِ ابلغ الاهتمام دافعًا عنها الذئاب اي اهل البدع الذين يلبسون ثياب الحملان فيتظاهرون بانهم يحفظون وصايا الله ولا يتعدَّون ناموسهُ وهم في باطن الامر كذَّابون مكَّارون ليس لهم الاَّ ظاهر التقوى وهذه اخص علامة تُعرَف بها الاراطقة

وفي سنة خمس وتسعين ومائة حضر المجمع الفلسطيني وكان هو والقديس تاوفيلوس اسقف قيصرية الذي يذكر السنكسار الروماني وفاتهُ وقداستهُ في اليوم الخامس من اذار المتقدمَين فيهِ واوردا فيهِ للآباء امر القديس فيكتور البابا في تعييد عيد الفصح لا مع اليهود في اليوم الرابع عشر

من اذار لكن في الاحد الذي بعد اليوم الرابع عشر من شهر اذار وقد ذكر القديس ايرونيموس واوسابيوس ان آباء هذا المجمع ألّفوا رسالة حسنة كبيرة الفائدة لردع المشاقّين الذين تمرّدوا على الحبر الاعظم اذ بيّنوا فيها انهُ من الواجب ان يكون تعييد الفصح بحسب امر البابا في الاحد الواقع بعد الرابع عشر من اذار

ومن جملة المعجزات التي صنعها هذا القديس تحويل الماء زيتًا قال اوسابيوس المؤرخ انهُ لما دخل كنيستهُ عشية يوم الاستعداد للفصح لاقامة الصلوات الكنائسية نفد الزيت بالكلية فامر القديس احد خدام المذبح بان يستقي ماء من بئرٍ قريبة من الكنيسة ثم صلى عليهِ بايمانٍ حيّ وامر بان يوضع في المنارة فاستحال الماء الى زيتٍ . ومع انهُ كان متلألئًا في رعيتهِ بالقداسة والعجائب أذن الله تعالى ان يُتهم من ثلثة اشخاصٍ ادنياء بتهمة قبيحة فاتهموهُ واثبتوا التهمة بقسمٍ مرهبٍ قال أحدهم لتحرقني النار حيًّا ان كنت كاذبًا في شكواي وقال الثاني ضُربتُ بالبرص ان كان قولي غير صادق وقال الثالث ينتقم الله مني بالعمى ان كنت قد حلفت كذبًا الّا انهُ لم يصدّقهم ولا واحد من الشعب . اما الاسقف القديس الذي كان مرتاحًا من زمن مديد الى الانفراد والاختفاء فانتهز هذه الفرصة واتخذها كعلامةٍ بها كان الله تعالى يدعوهُ الى الاختلاء فخرج سرًّا من المدينة واختبأ في باديةٍ ثماني سنين لا يعرف احد اين هو

واما الذين قذفوهُ بالتهمة المشار اليها فلم يبطئ الله ان ينتصف لهُ منهم فاحترق الاوّل بُعيد فرار القديس وحلّت على الثاني ضربة البرص كما كانا قد طلبا لأنفسهما اما الثالث فلما شاهد هذا الانتقام الالهي ارتعب خوفًا وطفق ينادي بكذبهِ وكذب رفاقهِ في اتهام القديس ولفرط ندامتهِ على خطيئتهِ ولكثرة دموعهِ عمي

فصبر الشعب مدة سنة يفتشون عن القديس نارسيس ولما لم يجدوهُ اختاروا آخر غيرهُ اسقفًا يدعى ديوس الّا انهُ لم يعش الّا بعض شهور وتوفي فجلس موضعهُ جرمانوس ثم جلس من بعدهِ غُرْديوس وحينئذٍ اعلم الله سبحانهُ القديس نارسيس بتبرئة عرضهِ وامرهُ بالرجوع الى كرسيهِ فلما ظهر في اورشليم قبلهُ المؤمنون بفرح واكرام جزيل واجلسوهُ على الكرسي ثانيةً فباشر وظيفتهُ على ما عُهد بهِ من الغيرة لكن لما اعتراهُ ضعف الشيخوخة وبلغ من العمر مائة وست عشرة سنة طلب من الله ان يرسل اليهِ معينًا فاتى حينئذٍ القديس اسكندر اسقف مدينة ببلاد كبادوكية ليزور الاماكن المقدسة . وروى القديس ايرونيموس في ترجمة الرجال الشهيرين فصل ٦٢ واوسابيوس كتاب ٩ من تاريخ الكنيسة انهُ قبل وصولهِ الى اورشليم بيوم واحد كاشف الله تعالى القديس نارسيس بحلم واخبر كثيرين من الاكليريكيين بان الاسقف المار ذكرهُ يدخل الكنيسة صباحًا وانهُ هو الذي يسعف الاسقف نارسيس ويجلس بعد موتهِ على كرسيهِ فقضى الاكليريكيون الليل كلهُ بالصلاة في الكنيسة واذا بهاتفٍ من السماء يقول اخرجوا لاستقبال من ارسلهُ الله ليكون اسقفكم فخرجوا جميعهم فوجدوا القديس اسكندر مقبلاً الى الكنيسة فقصّ عليهِ القديس الرؤيا وما كان من امر الهاتف السماوي وان الله اختارهُ ليكون مساعدًا لهُ في هرمهِ ويكون خليفتهُ في الكرسي الاورشليمي بعد وفاتهِ فهذا القديس اي اسكندر يختم رسالتهُ الى مؤمني مصر قائلاً يهديكم السلام نارسيس الذي رعى هذه الكنيسة قبلي ويرعاها الان ايضًا معي بصلواتهِ والآن قد بلغ من العمر ست عشرة سنة فوق المائة . هذا وتوفي اخيرًا القديس نارسيس في الرب نحو السنة الثانية والعشرين بعد المائتين للمسيح

اما القديس اسكندر مساعدهُ وخليفتهُ في الكرسي الاورشليمي فيروي عنهُ اوسابيوس انهُ جمع في اورشليم في مكتبتهِ كتبًا كثيرة استفاد هو اي اوسابيوس من قراءتها فوائد جزيلة وان هذا الاسقف القديس بعد ان تعب كثيرًا لخير رعيتهِ احتمل الموت شهادةً لايمان المسيح في عهد داسيوس نحو السنة التاسعة والاربعين من القرن الثالث (اوسابيوس تاريخ الكنيسة كتاب ٦ فصل ٢٠ و٣٩) ويذكر السنكسار الروماني استشهادهُ في اليوم الثامن عشر من اذار

وفيهِ ايضًا ترجمة القديسة ارميليندا البتول

كانت ولادة هذه القديسة بقرية قرب مدينة لوفين ببلاد فلاندرا في منتصف القرن السادس وهي من قوم اغنياء كرام النسب وكان ابواها من اهل البرّ والتقوى فربّياها على مذهب الورَع ونجعت فيها تعاليم العبادة في اقرب وقت لان الروح القدس كان قد احبَّ ان يرشدها

ومن عهد الطفولية كانت تهوى الصلاة والانفراد ولما بلغت من العمر اثنتي عشرة سنة نذرت لله تعالى بتوليتها ومنذ ذلك اليوم شرعت تسمي السيد المسيح عروسها والوالدة المجيدة امها وكانت قد استظهرت الزبور كلهُ

فرام والداها ان يزوّجاها برجل من الشرفاء وبما انها كانت تأبى الخطاب وتعتذر باسباب مختلفة أخذ والداها يُغريانها بالزواج ويرغّبانها فيهِ قائلين لها انهما لا يقصدان ان يصدّاها عن السلوك في طريق البرّ وانّ الزواج امرٌ مقدسٌ وفيهِ يمكنها ان تكتسب الكمال وان امرأة فاضلة قائمة بما يجب عليها تمجّد الله تعالى اكثر مما تمجّدهُ العذراء التي تلازم الانفراد وتتجنّب العالم . فلم تذعن البتول لهذه الدلائل فلما رآها والداها ثابتةً في نذرها تركاها ومقصدها لانهما كانا يتّقيان الله تعالى عزّ اسمهُ ويحبّان بنتهما بل انهما بعد ذلك بسنين قليلة سلّماها جزءًا من اراضيهما وحينئذٍ دعاها الله باطنًا كما دعا ابرهيم الخليل قائلًا لهُ اخرج من ارضك ومن قبيلتك ومن بيت ابيك . فمن ثمّ خرجت حالًا من بيت اهلها وباعت ما لها من الاراضي واحسنت بثمنها على البائسين ثم اختلت في بريّة منفردة وتفرّغت للرياضات الروحية ولم تكن تخرج من مُخدعها الّا لكي تزور الكنيسة وكانت تمشي حافيةً دائمًا وتصوم كل يوم وترقد على أديم الارض ونقطع اكثر النهار والليل في الصلاة

ولما رآها الشيطان على ما هي عليهِ من الزهد نصب لها فخ الدنس واضرم لعنهُ الله في قلب احد الشبان لهيب الشهوة فعزم على اختطاف البتول غير انها أُخبرت بذلك من ملاك الرب فهربت من تلك القرية وسلّمت الى ملاكها الحارس والى الله نفسها وجسدها وطلبت منهُ تعالى ان يهديها الى حيث تستطيع ان تعبدهُ بالكمال من غير اضطراب . فوصلت الى منزل حقير قرب كنيسة وهناك جرت على أثر الآباء السيّاح في ضنك العيش وشدّة التقشف فقد حرّمت عليها مطلقًا اكل الخبز والسمك واللبن ولم تكن تعيش الّا على حشائش البر وكانت تلبس على جسدها مسحًا مؤلمًا جدًّا . ذلك فضلًا عن انواع أُخر كثيرة من القشف ومع كل هذا فكان يظهر على محيّاها البِشر ولوائح الابتهاج ولا استغراب فان شديد تعبّدها للمسيح سهّل لديها اصعب الرياضات . وفيما كانت تعيش على الارض كملائكة السماء أصابها داءٌ فماتت والملئكة محدقون بها وكانت وفاتها في اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الاول وقد شرّف الله تعالى قبرها بآياتٍ كثيرة

اليوم الثلثون

وفيهِ ترجمة الطوباوي الفونسيوس رودريكس اليسوعي

الجزء الاول

ينطوي على ما حدث لهُ من مولدهِ الى ترهّبهِ

كان مولد هذا الطوباوي الجليل بمدينة سيكوفيا من اعمال اسبانيا في اليوم الخامس والعشرين من شهر تموز سنة احدى وثلثين وخمسمائة والف فكان ابوهُ دياكو رودريكس يتعاطى التجارة وكان لهُ سبعة بنين واربع بنات . فنشأ الفونسيوس ما بين اخوتهِ بخوف الله وتربّى تربيةً مسيحية وأُشرِب حبّ الفضيلة وممارسة الاعمال الحميدة وقد تعلم على وجه الخصوص تكريم البتول الطاهرة والاستغاثة بها بعبادة حسنة حتى انهُ كلما شاهد ايقونة من ايقوناتها ادّى لها ما يجب من الاكرام وقبّلها بمزيد خشوع يُلهب نار التقوى في قلب كل من أبصرهُ . ولا غرو فانهُ على ما ذكرنا آنفًا تهذّب على اكرامها قيل انهُ اذ كان ماثلًا امام ايقونة هذه السيدة المجيدة وهو ابن اربع سنين خاطبها بسذاجةٍ قال : اعلمي ياسيدتي باني هائم بحبكِ اعظم هيام وأظن انكِ لا تحبينني على قدر ما احبكِ . فاجابتهُ مريم العذراء من تلك الايقونة قائلةً : ما هذا يا الفونسيوس أما تعلم ان المحبة التي انا احبك اياها تفوق محبتك لي فوقًا لا يوصف وليس في امكانك ان تعرفها وتدركها

ولما كان لهُ من العمر اثنتا عشرة سنة كانت قد امتدّت وقتئذٍ رهبانية يسوع الحديثة في اماكن عديدة فبالعناية الالهية توجّه الى مدينة سيكوفيا اثنان من هذه الرهبانية ونزلا ببيت الفونسيوس وأضافهما ابواهُ بجزيل الاكرام فاقاما بمنزلها اياما فرآهما الولد الفونسيوس ذات يومٍ منطلقين للانفراد في احد الاماكن المقفرة فتبعهما بنية الارتشاد منهما في علم السيرة الروحية فاخذ الراهبان الفاضلان يبذلان نحوهُ كمال غيرتهما ويهذّبانهِ بمعرفة الامور الالهية . اما هو فكان يتفكّر بسماع كلامهما فيعيهِ في قلبهِ وتعلّم من تلك الارشادات المقدسة ان يمارس افعال الفضائل السامية ولا سيما اكرام والدة الاله بصلاة ورديتها فتمكنت من ثمّ محبتها في قلبهِ ايّ تمكّن وكانت تنمو مع نموّهِ حتى

جعلتهُ مكرَّمًا عزيزًا لدى تلك الام الالهية

وفي السنة الثالثة عشرة ارسلهُ والداهُ الى احدى مدارس الرهبانية اليسوعية بمدينة القالا ليتخرَّج في العلوم . وبعد اقامتهِ سنة بتلك المدرسة تُوفّي ابوهُ فاضطرَّ ان يعود الى اهلهِ ولما بلغ مبلغ الرجال تزوَّج بفتاةٍ فاضلة وتعاطى اشغال ابيهِ وتجارتهُ ليقوم بمصالح بيتهِ . واما ما بدا منهُ من الاستقامة في هذه الاشغال الزمنية فهيهات ان تفي البراعة بوصفهِ لان من كان مثلهُ سالكًا بخشية الله لا يسيء التصرُّف مع القريب ولا يطلب في الاشغال الزمنية سوى الحصول على الاحتياجات الضرورية لقيام الحياة . فالباري تعالى احبَّ ان يدعو الفونسيوس الى التعبُّد لهُ بنوعٍ أكمل بطريق الامتحان ولاجل ذلك سمح ان تنزل بهِ البلايا فخسر خسائر باهظة في تجارتهِ . وكان لهُ ابنةٌ صغيرةٌ فماتت وببرهة يسيرة توفيت امرأتهُ وبالنتيجة انهُ لم يبقَ في البيت غير والدتهِ واختيهِ وولدٍ وحيد كان لهُ

فاختلى هذا القديس وابنهُ الصغير في بيتٍ وحدهما لان والدتهُ انفردت باختيهِ ايضًا في محل لهما ونذرنَ لله نذر العفة وكنَّ برنقين في معرفة الامور الروحية متقدّمات في خدمة الله وعبادتهِ الطاهرة . اما الفونسيوس وابنهُ فكانا يثابران ايضًا على ممارسة الفضائل المسيحية واعترف الفونسيوس اعترافًا عامًّا بكل ما فعل من الاثم في ما مرَّ من حياتهِ واخذ يسير سيرًا سريعًا في طريق العبادة الحقيقية متأسفًا بالنوح والبكاء على تصرُّفاتهِ القديمة واستمرَّ ثلث سنين على هذه التوبة الشاقة يضعف جسمهُ بالاصوام ولبس المسح ويعذّبهُ بضرب السياط وبغير ذلك من اصناف العذاب وكان يفعل كل ذلك لمجرَّد حبّ الله تعالى وقد قرن تقشفاتهِ هذه بالاكثار من الاعتراف وتناول القربان المقدس . واعلم ان اخصَّ ما كان يكرم بهِ والدة الاله هو صلاة الوردية التي كان يتوغّل في تأمل اسرارها متقلبًا في ملاذ التنعمات الروحية التي كان الله يوتيهِ اياها جزاء محبتهِ لوالدتهِ الكلية الطهارة

وقد اظهر الباري سبحانهُ وتعالى بدليل حسي جزيل مسرَّتهِ من حسن عبادة الفونسيوس وحبهِ لوالدتهِ المجيدة لان الفونسيوس عند إقامتهِ ورديتها المقدسة كان يرى حين يصلي الصلاة الربانية وردةً حمراء وعند اقامة السلام الملائكي وردةً بيضاء ساطعة الجمال . فبمثل هذه العبادات كان الله سبحانهُ وتعالى يرقي عبدهُ الفونسيوس في مراتب الكمال والقداسة . واما الفونسيوس فكان يؤدّي الشكر الواجب لله على ما كان يخصهُ بهِ من الهبات السماوية محتسبًا نفسهُ غير اهل لها . وكان مواظبًا على الندامة والبكاء متأسفًا على سيرتهِ السابقة فلما كان في بعض الايام مواظبًا على البكاء والتحسُّر اذا هو قد رأى مخلص العالم محفوفًا بجماعة اوليائهِ القديسين وكان فيما بينهم القديس فرنسيس اسيزي شفيعهِ الخاص فدنا القديس فرنسيس منهُ وسألهُ عن سبب بكائهِ المتصل فاجابهُ الفونسيوس قال : ايها القديس شفيعي الجليل ان الانسان اذا ارتكب في حياتهِ خطيئة عرضية ولو مرة واحدة ينبغي لهُ ان يثابر على النوح والبكاء ما دام حيًّا في هذه الدنيا فكيف تسألني عن سبب حزني وبكائي انا الذي اقترفت خطايا كثيرة . فسرَّ السيد المسيح من جواب الفونسيوس ونظر اليهِ بعين الانعطاف فانعش قلبهُ بتعزياتهِ السماوية الفائقة

واما انهُ بعدما تجلى لهُ مخلصنا ألهم ان يثابر على التامل في حياة يسوع المسيح وآلامهِ التي قاساها محبةً بالبشر . فاخذ من ذلك الوقت يتامل في حياة يسوع المسيح لا سيما ما احتمل من العذاب والآلام لاجلنا فتارةً كان يتصوَّرهُ مكللاً بالشوك ومخضبًا بدمهِ الزكي وطورًا حاملاً صليبهُ الثقيل على منكبيهِ وتارةً متألمًا على صليبهِ في حال النزع باوجاع شديدة . ولا ارتياب في ان هذه التاملات اجدتهُ فوائد جزيلة وبها الهمهُ الله لترك العالم والدخول في الرهبانية حيث يمكنهُ فيها بوجهٍ سهلٍ ان يقدّم لله ذاتهُ تقدمةً كاملة

وقد تقدَّم القول انهُ بقي للفونسيوس ولد وحيد صغير السن فكان تعزيةً لهُ باحزانهِ التي احتملها من فقد امرأتهِ وابنتهِ فاخذ في بعض الايام يتأمل طهارة نفس ابنهِ في حال صغرهِ وقال في نفسهِ ما ابرَّ هذا الغلام ان بقي كما هو الآن وما أشرَّهُ ان اغاظ الله بالخطيئة المميتة وخسر نفسهُ . وطلب من الله ان ينقل من هذه الحياة هذا الصبي وهو على برارتهِ ونقاوتهِ في صِغَر سنهِ ان كان سيغيظهُ متى كبر . فالباري تعالى سمع لتضرعات هذا الاب المحب ابنهُ محبة صادقة ونقل ولدهُ الى جنة الابرار بعد طلب الفونسيوس ودعائهِ بمدة شهر . فشكر الفونسيوس مراحمهُ تعالى لانهُ تحقق حصولهُ على السعادة الابدية ودفنهُ وهو مسلمٌ ارادتهُ الى عناية الله ومحبتهِ

الغير المتناهية نحو البشر محتسبًا كل تدابيرهِ الالهية عائدة لمصالح الانسان وغبطتهِ في هذه الدنيا وفي الآخرة

وعلى اثر وفاة ابنهِ ماتت والدتهُ فاضحى بحرّية تامّة من جهة اهل بيتهِ لان اختيهِ كانتا مقدّمتين ذواتهنّ لخدمة الله وعبادتهِ المقدسة . فاخذ الفونسيوس يسعى بترك العالم للدخول باحدى الرهبانيات ليتفرّغ لخدمة الله ولاجل ان يثبتهُ تعالى في ذلك العزم انعم عليهِ برؤيا رآها ليلاً في رقادهِ ومنها ازدادت شجاعتهُ على تتميم قصدهِ فعلاً . واما الرؤيا فهي انهُ أبصر سربًا من الطيور المختلفة الاجناس ولكثرة عددها قد غطّت السماء وكانت قبيحة المنظر جدًّا . فبينما هو شاخص الى تلك الطيور اذ بحمامة ظهرت بينها واخذت تبدّدها من امامهِ وطاردتها ثلث مرّات وكان النصر للحمامة ولم يمكن لتلك الطيور ان تضرّها البتة . اما منظر تلك الحمامة فكان بهيًّا وذا بياض ناصع وكان مكتوبًا على عنقها اسم يسوع باحرف ذهبية متلألئًا بالنور والجمال

فانطلق القديس الى معلم اعترافهِ الاب مرتينوس وقصّ عليهِ الرؤيا التي رآها . فاجابهُ الاب مرتينوس على كلامهِ قال ان هذه الرؤيا دليل على جهدك العظيم مع اعدائنا الشديدي العداوة لنا وانك سوف تنتصر عليهم بدخولك في الرهبانية التي ظهر اسمها على عنق تلك الحمامة اعني بها رهبانية يسوع. فتمكّن الفونسيوس من كلام معلم اعترافهِ تمكّنًا عظيمًا وهجر من ثمّ وطنهُ تاركًا ما كان يقتنيه لاختيهِ وانطلق مسافرًا الى مدينة والنسا باثوابٍ رثّة ولما وصل الى تلك المدينة ذهب الى دير الآباء اليسوعيين وذهب الى رئيس الدير وأعلمهُ بحالهِ وشوقهِ الى الدخول في الرهبانية اليسوعية. فنصحهُ رئيس الدير بمحبةٍ ابويّة بان يتمهل في اجراء قصدهِ هذا ويقيم بالمدينة مدةً ويدرس قوانين اللغة اللاتينية ويراجع فكرهُ في هذا المشروع مراجعةً كلية

فاعدّ لهُ رئيس الدير مكانًا مناسبًا في تلك المدينة ليقوم بلوازم عيشهِ ويتمكن من درس اللغة اللاتينية . وكان نزولهُ ببيت احد الاتقياء فوكلهُ بولدٍ صغير يأخذهُ الى المدرسة ويعتني بهِ . فكان الفونسيوس يتمّم واجباتهِ كمألوف عادتهِ بنشاط ومحبة جزيلة . واخذ بدرس اللغة اللاتينية باجتهاد ورغبة للتقدّم في معرفتها . فهذه الاعمال لم تمنع هذا البار عن التقدم في الكمال المسيحي بل حسب مألوف عادتهِ كان مجدًّا في تتميم اعمالهِ الروحية ممارسًا صلواتهِ وسائر تقشفاتهِ المعتاد عليها ومواظبًا على الاعتراف وتناول القربان المقدس . وكان في ذلك البيت مكرّمًا معتبرًا كقديس لاجل صلاحهِ وتقواهُ ونشاطهِ في مباشرة اعمالهِ اليومية والباري جلّ جلالهُ كان يزيد لهُ في مواهبهِ السماوية كلما ازداد نشاطًا في خدمتهِ ويزيدهُ رغبةً في الترهّب ويسهّل عليهِ الطرق الموصلة الى نوالها

فلما لحظ الشيطان الرجيم ان الفونسيوس صمّم عزمهُ على هجر العالم والدخول في الرهبانية حسدهُ واراد ان يمنعهُ من هذه النعمة والسعادة ونصب لهُ شركًا فكاد يأخذهُ بهِ ليعوقهُ عن الترهب وجرى الامر كما يأتي ذكرهُ. جاء الى المدرسة المقيم بها رجلٌ كان في الظاهر تقيًّا مساويًا لهُ في السن والخصال الحميدة فلما رأى الفونسيوس ما رأى من تقواهُ وصلاحهِ احب ان يتخذهُ صديقًا ويعاشرهُ معاشرة ودادية ودامت صحبتهما مدة سنتين غير ان الفونسيوس ما رآهُ يتناول القربان المقدس في مدة هاتين السنتين ولا مرة. واحدة الامر الذي كان شانهُ ان يجعلهُ يخشي ويتحذّر من صديقهِ هذا. وفي غضون ذلك هجر صديق الفونسيوس تلك المدرسة وانطلق للوحدة في صومعة مسماة باسم القديس متى تبعد عن مدينة والنسا يومين. فبعد ان لبس اثواب المتوحدين كتب الى الفونسيوس صديقه ليوافيهُ الى تلك الخلوة فاغترّ الفونسيوس من كلامهِ وانطلق بغير ان يطلب اجازة رئيس تلك المدرسة ولا استشارهُ في هذا السفر لان ذلك الوقت كان وقت الفرصة السنوية

فعند وصول الفونسيوس الى صاحبهِ تلقّاهُ بالسرور والابتهاج واخذ يخاطبهُ في ان ينسك معهُ في تلك البرية فمن حيث كان الفونسيوس مائلاً الى الاختلاء ومناجاة الله وقع في حبالة الخداع ولكن موقتًا فاجاب الفونسيوس صاحبهُ انهُ سيعود اليهِ ان شاء الله ثم رجع الى والنسا. ثم انطلق الى مرشدهِ الروحي وقصّ عليهِ ما جرى لهُ مع ذلك الرجل المتوحّد. فقال لهُ مرشدهُ اعلم يا الفونسيوس اني اخشى عليك من الهلاك . فاجابهُ الفونسيوس ولماذا يا ابي فقال لهُ لانك تتبع ارادتك الذاتية مفضلاً اياها على اراء مرشديك وهذا العمل يصل بك الى عاقبة سيئة . فلما سمع الفونسيوس هذا الكلام

أثَّر فيهِ تأثيرًا عظيمًا وقام عن كرسيهِ وانطرح امام مرشدهِ وقال له اعلم يا ابي انني منذ الآن قد صمَّمت العزم على ان اتبع مشيئتك فارجوك ان تقول لي ما يجب عليَّ ان افعلهُ لأتمّمهُ بدون مهلٍ ولا تراخٍ . اجاب المرشد عليك يا الفونسيوس بتميم قصدك الاول وهو الدخول في الرهبانية . فعزم الفونسيوس على ان يطلب الدخول في الرهبانية اليسوعية

وفي صباح ذلك اليوم الذي كان مزمعًا ان يتمّم قصدهُ فيهِ حدث لهُ ما يدلُّ على ان صديقهُ المتوحد لم يكن حقيقةً رجلًا صالحًا بل شيطانًا اجتهد في ان يضلهُ ويمنعهُ عن الترهب لانهُ بينما كان الفونسيوس تلك الليلة راقدًا سمع صوت قرع شديد جدًّا على نوافذ غرفتهِ فاستيقظ مذعورًا ونهض ففتح احدى تلك النوافذ واذا بصديقهِ المتوحد واقفٌ تجاههُ واخذ من ساعتهِ يوبّخهُ ويعنّفهُ تعنيفًا قاسيًا على عدم ذهابهِ اليهِ ليقيم معهُ بخلوتهِ . فاندهش الفونسيوس من هذا العمل ولم يُجبهُ ولا بكلمة البتة ولكنهُ اغلق تلك النافذة بكل سرعةٍ لينجو من مكر ذلك الرجل . فعلم ان صاحبهُ هذا ما كان الَّا شيطانًا رجيمًا اراد ان يخدعهُ فاخذ حينئذٍ يقدّم الشكر لله لاجل نجاتهِ من خداع هذا المضلّ

الجزء الثاني

ينطوي على ما حدث للفونسيوس منذ ترهُّبهِ الى وفاتهِ

وكان رئيس الاقليم الاب انطونيوس كورديباس مقيمًا في تلك الايام بوالِنسا وكان هذا راهبًا حكيمًا تقيًّا مزدانًا بالفضائل والاعمال الحميدة فاخذ من ثم يفحص عن الفونسيوس وعن حقيقة دعوتهِ الى الرهبانية وسالهُ عن امورٍ تختص باحوال نفسهِ . فلما عرف باطن امرهِ تحقق ان الله دعاهُ الى الطريقة الرهبانية الَّا ان آباء ذلك الدير الذين استشارهم لم يتفقوا على رأيٍ فمنهم من ارتضى بقبولهِ ومنهم من ابى والسبب في ذلك ان الفونسيوس كان قد طعن في سنهِ بحيث لم يعد لهُ استطاعة ان يعتني بدرس العلوم المقتضية لدرجة الكهنوت . فكان قد نحل جسمهُ فأصبح عاجزًا عن القيام بما يترتّب على الاخوة من الاشغال لكبرهِ كما ذكرنا فقد كان ابن اربعين سنةً ولمزيد تقشفاتهِ واماتاتهِ المضنية . اما رئيس الاقليم المذكور فحلّ هذا المشكل بقولهِ لجمهور الآباء المجتمعين انا أقبل الفونسيوس في الرهبانية لكونهِ رجلًا فاضلًا صالحًا قديسًا وأُومل ان الفونسيوس يسعفنا كثيرًا بصلواتهِ لدى الله فاننا نقتدي بحسن سيرتهِ الصالحة . فلما تكلم الرئيس بهذا الكلام ارتضى الآباء المجتمعون بقبول الفونسيوس في الرهبانية وكان الفونسيوس قبل ذلك قد اعلن للرئيس المذكور انهُ يرغب ان يكون راهبًا بسيطًا ما بين الاخوة المساعدين لكي يرفع كل مانعٍ يمنعهم من قبولهِ لاجل ما كان عليهِ من مزيد الاتضاع وعلى هذا الوجه نظمتهُ الرهبانية في عداد الاخوة المساعدين بالاشغال والمهمات الزمنية

ففي اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني سنة احدى وسبعين وخمسمائة والف دخل الفونسيوس دير الابتداء بمدينة والِنسا عينها فكان بين اولئك المبتدئين قدوة للجميع في الصبر والتواضع والاحتشام وسائر الفضائل السامية خصوصًا بطاعتهِ العمياء لرؤسائهِ . واستمرّ في دير الابتداء ستة اشهر فقط لان الرؤساء حكموا بان هذه المدة الوجيزة تكفي لامتحان الفونسيوس في طريق الكمال المسيحي فارسلهُ رؤساؤهُ من ثمَّ الى مدرسةٍ أُنشئت في جزيرة مايوركا حيث أُقيم في المدرسة بوّابًا وكان يتمم واجبات وظيفتهِ هذه الحقيرة بنشاطٍ جزيلٍ ورغبةٍ عظيمة حتى تعجب من رغبتهِ ونشاطهِ كل الذين كانوا يتعاطون معهُ

ففي سنة ثلث وسبعين وخمسمائة والف في اليوم الخامس من شهر نيسان نذر نذور الرهبانية المسماة النذور الاولى اما نذر الرهبانية الاخير الذي يُسمَّى النذر الكبير فنذرهُ سنة خمس وثمانين وخمسمائة والف وقد بقي في هذه المدرسة حتى وقت وفاتهِ على وظيفة البوابة مدة ثلثين سنة باتضاع ونشاط لامثيل لهما . وكان في الصباح متى طُرِق اوّل جرس يجثو على ركبتيهِ ليسجد للثالوث الاقدس ويُصلّي شكرًا لله على انهُ صانهُ من غوائل الشرير مدّة الليل هذه الصلاة : تكرّم ايها السيد واحمنا من الإثم في هذا النهار: ثم يُقبل نحو اكرام العذراء عليها السلام ويتلو طلباتها لتجعلهُ تحت ظلها وبعد ذلك يقيم الصلاة ويحضر القداس حتى اذا فرغ من وفاء كل هذه الفروض أقبل على القيام بوظيفة البوابة فكان يتلقَّى الداخلين ويودّع الخارجين كما لو كان هو المسيح بنفسهِ ومن ثمَّ فكان يتواضع لهم ويعاملهم بالحسنى ولم يتذمر قطُّ من تشوُّش بالهِ مع كثرة الزوّار وتعدُّد المهام التي كانت موجَّهة لعهدتهِ وكثيرًا ما أُهين ووبّخ لانهُ وقَّف على كرهٍ منهُ الذين ارادوا ان يخرجوا من الدير لكنهُ كان يسمع هاتيك الشتائم ولم تحرّك فيهِ

القوة الغضبية البتّة ولما انتهت فتح الباب للذين شتموهُ بطيبة خاطرٍ كأنهم قد أبدوا لهُ مزيد التشكُّر

وكان اذا تفرّغ من الشغل يصرف وقتهُ في صلاة الوردية او في الصلاة العقلية وكان يستغيث في كل ساعةٍ من النهار بحماية العذراء المباركة بتوسلات خصوصية وكان متى جلس على المائدة يسألها ان تهتمّ بالنفوس المسكينة التي تُصلى بنار المطهر لانهُ كان يتوجّع لهاتيك النفوس فيقدّم لهذا المقصد كل ما يعمل من الاماتات على المائدة وكانت عيناهُ تغرورقان بالعبرات عند تأملهِ ما تكابد اهل المطهر من العذاب حتى يشغلهُ ذلك عن الطعام وكثيرًا ما دعت الحال الى ان يأمرهُ الرئيس بان يتناول غذاءهُ كسائر الرهبان

وكان اذا خرج من الدير ولو باذن الرئيس يسأل السيد لهُ المجد ان يعاجلهُ بالموت ولا يسمح ان يغيظهُ في امرٍ من الامور وكان يقيم هذه الصلاة ليظفر بحماية العذراء وصورتها: أظهري أنكِ أمنا: ولهذا كان متى زار احدًا خارج الدير يطرق برأسهِ ويحوّل نظرهُ مجتنبًا بكل جهدهِ ان ينظر الى اية امرأةٍ كانت واذا اضطرّتهُ الحال الى مكالمة النساء كان يُوجز الحديث ما امكن وحرّم على نفسهِ دخول كل مكان لا بدّ ان يرى فيهِ نساء ما لم يُجبر على ذلك بقوة الطاعة ولهذا ما كان يدعى في الجزيرة الّا بالأخ الميت . وفي الحق انهُ كان ميتًا عن الدنيا وقد اوقد لهُ الشيطان في هذا الشان لظى حربٍ شديدة لانهُ نصب لهُ حبائل الدنس سبع سنين متوالية متراثيًا لهُ تحت صُوَرٍ ظنّ انها انسب ما يكون لازالة عفّتهِ ولكن العذراء أخذت بيدهِ والله سبحانهُ أعطى عبده أيدًا فقاوم ابليس دائمًا بكل جراءةٍ . واما الشياطين فتغيّظوا عليهِ وغضبوا غضبًا جهنميًا فعاملوهُ معاملةً سيئة ألقوهُ مرّتين من اعلى درجٍ الى اسفلهِ وتراءوا لهُ ليلاً بصوَرٍ هائلة مذعرةٍ وأذاقوهُ أصناف عذاب أليم في جميع جوارحهِ . واما الطوباوي فصبر على مكابدة العذاب أجمل صبرٍ مشدّدًا جراءتهُ بالاسمين المقدّسين اسمَي يسوع ومريم اللذين تواتر ذكرها على لسانهِ. وقذفتهُ الابالسة ذات ليلةٍ الى نارٍ مضطرمةٍ فلما احسّ بالهلاك استغاث بيسوع وللحال تفرّق ذلك الجمع الجهنمي في كل وجهٍ وبرئت جراحهُ في لحظةٍ

والقى عليهِ الشيطان تجربة اليأس وحاول اقناعهُ بانهُ سيترك يومًا منهج الفضيلة ويكون من الهالكين غير ان الطوباوي استعان بمن اعتاد ان يُجيرهُ على هذه التجربة وهي أثقل ما يمكن ان يُمتحن بهِ الانقياء وصلّى مسبحة الوردية وكان كل مرة عند السلام الملكي يقول اذكريني يا أمّ الله القديسة ولما رأى آخر الامر ان فكر اليأس لا يزال يتقوّى في عقلهِ اكثر فاكثر حتى اشرف على الانقياد لهُ جعل يصرخ خذي بيدي ايتها السيدة فقد كدت اهلك فاذا بالعذراء قد تجلّت لهُ متلألئة بالضياء ولما رآها ابليس هرب وحصل الطوباوي على الاطمئنان

وبعد قليلٍ عاد الشيطان الى شِنشنتهِ المعهودة غير ان العذراء القديسة طردتهُ ايضًا وقالت لخادمها لا خوف عليك هناك حيث انا احفظ الشيطان اخزاهُ الله هذا الكلام ولما كان الطوباوي وقتًا ما تحت ضنك المحن والآلام شعر بافكارٍ سوداوية ومخاوف استولت على نفسهِ واذا بجماعة من الارواح الجهنمية ظهروا وقالوا لهُ بتهكمٍ ابن مريم الآن وبغتةً اضاء في الغرفة نورٌ من السماء معلنًا حضور البتول عليها اشرف السلام واما الشياطين فلم يطيقوا الثبات بحضرتها فولّوا بحنقٍ مدبرين واما الطوباوي فوجد في تلك الدقيقة انهُ قد استراح من تلك التصوّرات

وكان لهُ بالعذراء المباركة تعلّقٌ بنويٌّ قويٌّ ولهذا كان متى اراد ان ينال شيئًا من ابنها الالهي يطلب ذلك على يدها وما برح يُوصي بان هذه أوكد واسطةٍ لاستجابة الصلاة. روى الاب كولين كاتب ترجمتهِ باللغة الاسبانيولية انهُ قبل ارتحالهِ من بلد مايوركا التي اقام بها ست سنواتٍ ذهب ليودّع الطوباوي فوجدهُ في غرفتهِ غائصًا في بحر التأمل في الله عزّ شانهُ فاغتنم هذه الفرصة وجثا ليقبّل قدميهِ ولما استفاق الطوباوي احمرّ وجههُ خجلاً لما رأى من تواضع الاب كولين لهُ

فقال لهُ الاب كولين ايها الاخ الفونسيوس قد صممت ان افارقك ولكن اسألك انك متى تذكرت اعوامًا قضيناها معًا تذكرني ذكرًا روحيًا

اجابهُ الطوباوي متى اشتهيت ان تنال شيئًا من الله تعالى فاسألهُ ذلك بثقةٍ على يد العذراء المباركة وثق انها ستنال لك كل شيء

وكانت سيدتنا مريم العذراء تحبهُ محبة أمٍّ لفرط انعطافهِ نحوها ولما كان مرافقًا ذات يومٍ راهبًا الى قصرٍ على رأس

نلّ وبحيث استصعب المشي وكان المرقى صعبًا تأخر قليلاً واذ قدّم لله أتعابهُ والعرق الذي بلّل جسدهُ تجلّت لهُ البتول ومسحت بخرقةٍ بيضاء جبهتهُ ووجههُ كما تفعل والدةٌ مع ولدها وبثّت حينئذٍ قوّةً شديدةً في كل جوارحهِ فاتمّ بقية سفرهِ ولم يصادف تعبًا البتة فما أجود أمنا وما أجهلنا ان لم نحبها

وكان هذا الطوباوي يكرم اكرامًا عظيمًا عيد الحبل بمريم البكر بلا دنس الخطيئة الاصلية وعيد انتقالها المجيد متذكرًا ما نالهُ من النعم قديمًا في هذا العيد الاخير وقد أحسنت البتول جزاءهُ على ذلك وقدّمت لهُ شهادة الانتصار الذي فعلتهُ لهُ الملئكة عند دخولهِ السماء

وان محبة الطوباوي للمسيح وامهِ الكلية القداسة هوّنت عليهِ واجبات الطاعة وجعلتها حلوةً لديهِ حتى كان وهو ينفذ اوامر روسائهِ ينفذ اوامر الله جلّ شأنهُ . وراَهُ الناس عدّة مرارٍ يستمرُّ يومًا بتمامهِ حيث يامرهُ الرئيس ان يستمرّ متوقعًا بالصبر ان يُجرى ذكرهُ وقد رُوي مثل هذه الامور في ترجمة غيرهِ من القديسين فقد عُومل لاجل ذلك معاملة رجلٍ ساذج لا يقدر ان يفهم مراد رئيسهِ الذي من المؤكد انهُ لا ينتهي اجراء اوامرهِ بعنايةٍ واما الطوباوي فلما كان يطلب الكمال في كل شيء حكم في تلك الغضون ان الانتظار والامانة بالتذلل والجوع هما الاكيل وكانت فرصة العذاب هذه ثمينةً لديهِ فلم يدعها تفوتهُ وكان يطيب نفسًا ويقرّ عينًا اذ يرى الناس يضحكون لسذاجتهِ وبانهُ لذلك يضمّ شيئًا الى كنزهِ في السماء

وأراد رئيس المدرسة ان يختبرهُ فامرهُ ذات يومٍ ان يتوجّه الى الميناء ليسافر بحرًا ولم يذكر لهُ الموضع الذي ارسلهُ اليهِ ولا السفينة التي يسافر فيها . اما الطوباوي فلم يرجع الى غرفتهِ بل ذهب الى الميناء لكي يسافر فاعلمهُ حينئذٍ أخٌ قد سبقهُ الى هناك بامر الرئيس ان الرئيس يريد ان يخاطبهُ فرجع من حيث أتى فقال لهُ الرئيس الى اين كنت ذاهبًا وفي اي مركبٍ أردت السفر لانهُ لم يكن في الميناء عند ذلك ولا مركبٌ فاجابهُ بسذاجةٍ ذهبت اتمم أمر الطاعة

وقد أمرهُ الرئيس المشار اليهِ مرةً أخرى ان يسافر الى بلاد الهند فنزل للحال وطلب الخروج فقال لهُ البواب الى أين تذهب اجابهُ انا ذاهب الى الهند بحسب أمر الاب الرئيس فقال لهُ البواب هل لك كتابة السفر فان لم تكن لك فلا استطيع ان افتح لك فانطلق البواب يسأل عن الرئيس فأمرهُ ان يرسل اليهِ الطوباوي ولما صعد قال لهُ الرئيس على أي وجهٍ أردت السفر الى الهند . اجابهُ الطوباوي ذهبت الى الميناء على اني اذا وجدت سفينةً سافرت فيها والاّ سبحت على قدر ما استطيع حتى متى تعذّرت عليّ السباحة رجعت مغبوطًا لاني قد فعلت كل ما وسعني لاجل الطاعة . فهذه هي طاعة الرهبان الحقيقيين بل القديسين لا جرم ان من اعتاد الطاعة المجرّدة يكتسب القوة على الاتيان بافعال غريبة باهرة كالفعل الذي نأخذ بايرادهِ الآن

ان الرئيس استدعاهُ ذات يومٍ وقال لهُ قد شخت وأصبحت عاجزًا عن كل نوعٍ من الخدمة وليس موافقًا ان الدير يُعيل دائمًا رجلاً لا فائدة منهُ وأمرهُ أن يخرج من الدير فعند هذا الامر القاسي حنا الشيخ رأسهُ ولم يجب ولا بكلمة واحدة والقى جبّتهُ على منكبهِ وسار نحو الميناء ليخرج من ذلك الدير وكان قد خدم فيهِ اكثر من ثلثين سنة وطُرد منهُ بلا رأفةٍ ولم يخطر ببالهِ ان ياخذ شيئًا بل سافر بثيابهِ لا غير فقيرًا الى كل شيء ولما وصل الى الباب ترجّى الاخ البواب ان يفتح لهُ فاجابهُ بما كان سبق الرئيس وامرهُ بهِ قائلاً بصوتٍ مرتجفٍ كلاّ ثم كلاّ لا افتح لك ايها الاخ العزيز فارجع الى غرفتك واعمل ما كنت قد اعتدت ان تعملهُ . فيالها طاعةً سريعةً مجرّدةً باهرةً قد حرّكت المدرسة كلها بحيث انهُ لم يبقَ بعد هذا المثال من راهبٍ يستصعب الطاعة ولا ريب ان الرئيس لم يختبر الاخ بذلك الاّ لاجل هذا الغرض

وكان في المدرسة راهبٌ اسمهُ الاب يوحنا أغوير فهذا بعد ان قضى بضع سنين بمدينة مايوركا أُرسل الى كتالونيا وخرج من الدير منطلقًا الى الميناء ليركب غارب البحر ولما كان الطوباوي مُولعًا بحبهِ صلّى الى الله ليجعل سفرهُ قرين التوفيق وفيما هو يصلي تراءت لهُ سيدتنا مريم البتول وانبأتهُ بانهُ اذا سافر الاب المشار اليهِ يقع بلا ريب في يد الاتراك ويُقاد عبدًا الى الجزائر فاوّل ما سمع الطوباوي هذا الكلام أخذت بقلبهِ الغموم غير انهُ تجرّأ وهتف وسحابة الدموع تهطل من مقلتيهِ هل تتركينهُ ايتها الأم الشفيقة يقع تحت هذه البلية الهائلة فاذا أردتِ فأنتِ تقدرين ان تمنعيه

عن هذا السفر ومن ثمَّ فلا ازال اسأَلكِ ذلك حتى اراهُ رجع وعاد الى غرفتي. واكثر من الالحاح حتى نال النعمة التي اشتهاها. فان الرئيس بعث الى الاب يوحنا وأَمرهُ ان يرجع الى الدير ولكن لا يُعلم ما الذي حثَّهُ على ذلك وحيث ان السفينة كانت بعدُ راسيةً عاد الاب المذكور الى البرّ ورجع الى غرفة صديقهِ بما كان قد توسل الى العذراء المباركة في ذلك. وقصارى القول انهُ أُخبر بعد قليلٍ ان اللصوص سلبوا المركب وباعوا ما فيهِ من الاثاث والناس بمدينة الجزائر

وامر الرئيس المنوَّه بهِ الطوباوي قبيل سفر جماعة من طلبة العلم الى وَلِنسا ان يسأَل السيد لهُ المجد عن سفرهم ففعل فقال لهُ الرب ان سفرهم يكون ذهبيًّا اما الطوباوي والرئيس ففهما هذه الكلمة بمعناها الوضعي حتى عُوّل على السفر فكانت أوائل السفر سعيدةً ولكن لما اقتربت السفينة من اسبانيا أَخذها رجل من لصوص البحر وذهب بما كان فيها من الامتعة والناس الى مدينة الجزائر

وعند ما سُمع هذا الخبر في مدينة مايوركا اغتمَّ الرهبان وبما ان اكثرهم لم يرتضوا بسفر اولئك الطلبة وبّخوا الطوباوي لانهُ مكر بهم حيث قال ان سفرهم يكون سعيدًا وكان كذلك بالحقيقة لانهُ ردَّ الآباء المأسورون الى التوبة كثيرين من العبيد المسيحيين فاحدهم ايرونيموس لوبيز الذي كان فاترًا في التقوى الى ذلك الوقت اظهر لاجل الايمان شجاعةً غير مغلوبة واحتمل اكبر الاهانات وسمع افظع الشتائم واختار ان يعرّض نفسهُ للمنية على ان يعيش وينكر دينهُ فلم يحصل على الحياة الاَّ بواسطة قنصل فرنسا هناك. وبعد سنة افتُدي الآباء وخُلّي سبيلهم ولما عاد ايرونيموس لوبيز الى وطنهِ سار سيرة قديس وبشّر بالانجيل كل اقاليم اسبانيا عاملاً في كل موضعٍ خيرًا عظيمًا حتى لقّب برسول عصرهِ. والحاصل ان رهبان مايوركا باركوا آخر الامر الله على هذا الاسر السعيد وعرفوا حقًّا ان سفرهم كان ذهبيًّا كما وعدهم الرب لهُ المجد

هذا ونقصر الاقلام عن ايراد جميع النبوات والعجائب التي استغرقت حياة هذا الطوباوي ومنها النبوّة التي تنبأَّها لتلميذهِ وصديقهِ كلافير الطوباوي بانهُ رأَى في السماء العرش المعدّ لهُ وقد ذكرناها في ترجمة هذا الطوباوي في اليوم التاسع من ايلول. وقد اتى اليوم الذي فيهِ ذهب الفونسيوس ليأْخذ التاج المعدّ لهُ من السيد المسيح منذ زمان طويل. وانتقل الى دار النعيم بطمأْنينةٍ متلفظًا باسم يسوع الاقدس بعد خمس واربعين سنة انقضت في ممارسة اعجب الفضائل ووقع ذلك يوم الثلثاء ختام شهر تشرين الاول سنة سبع عشرة وستمائة والف وكل عمرهِ ست وثمانون سنة وأُقيمت لهُ جنازة حافلة شهدها نائب الملك وولاة الامور والاكليروس القانوني والعالمي مع جمهور غفير بادروا من جميع آفاق الجزيرة. وقد صنع الله على رَمسهِ آيات كثيرة ولهذا اثبت البابا لاون الثاني عشر طوباويتهُ سنة خمس وعشرين وثمانمائة والف

اليوم الحادي والثلثون

وفيهِ ترجمة القديس كانتين الشهيد

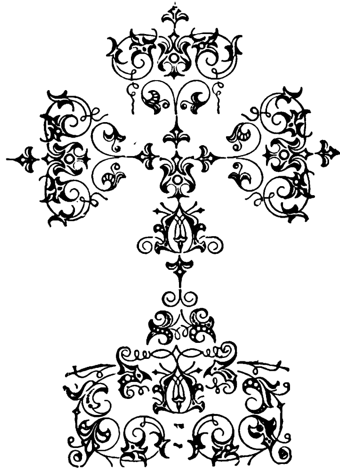
ان هذا القديس وُلد برومية وكان والدهُ المدعو زينون رجلاً شريفًا ذا مكانةٍ عند الملك والظاهر ان ابنهُ القديس كانتين آمن بالمسيح على انتهاء حبريَّة القديس اوتيكيانوس البابا الذي بعد وفاتهِ جلس القديس قايوس على الكرسي الروماني ومنهُ طلب القديس كانتين اذنًا ان يذهب الى بلاد غاليا ليبشّر فيها بالايمان المقدس لانهُ بعد اعتمادهِ كان قد اضطرم بمحبةٍ عظيمة نحو سيدنا يسوع المسيح وكان يشتهي ان الجميع يعرفونهُ تعالى ويحبونهُ. فمدح القديس قايوس غيرتهُ وباركهُ وأَرسلهُ للتبشير نحو السنة الثالثة والثمانين والمائتين

فسافر القديس كانتين مع القديسين كريسبينوس وكريسبينيانوس اللذين ذكرنا استشهادهما في اليوم الخامس والعشرين من هذا الشهر ولما وصل الى اميان مدينة باقليم بيكارديا من بلاد غاليا طفق ينذر الوثنيين بغيرةٍ متقدة موردًا لهم دَنَس عبادة الاوثان وقداسة الديانة المسيحية ومثبتًا حقائقها بعجائب متعدّدة لانهُ بكلمة واحدة اي باسم يسوع كان يُخرج الشياطين ويشفي كل الامراض ومن ثمَّ انتشر الايمان في هذا الاقليم جدًّا. فاشتكى عليهِ كهنة الوثنيين الى ريكسيوفَرُوس الذي كان قد اقامهُ مكسيميانوس حاكمًا على بلاد بلجيكا وغاليا وكان يتردّد وقتئذٍ في هذه الجهات وكان لهُ بغضٌ شديد للمسيحيين فاتى حالاً الى مدينة اميان وقبض على القديس ولما تحقّق ان الوعد والوعيد لا يؤثران فيهِ امر جنودهُ فضربوهُ اولاً بالسياط وفيما هم يضربونهُ بكل قوّتهم

كان القديس يشكر الله تعالى على أنهُ أهّلهُ لان يتألم لاجل مجدهِ ولم يزل ينطق باسم يسوع فسمع صوت هاتفٍ من السماء قائلاً انا هو المتألم فيك انا اعينك في آلامك فانصرع الجلاّدون على الارض كمن انقضّت عليهم صاعقة

وبعد ذلك ألقي القديس في سجنٍ مظلم ولكن بعد ان دخلهُ لمع في جوانبهِ الضياء وفي نصف الليل تراءى لهُ ملك وكسر قيودهُ ثم نقلهُ الى اعظم شوارع المدينة وفي الغد صباحاً اخذ ينذر ببطلان عبادة الاصنام بغيرة متّقدة. فلما اطّلع بوّاب السجن والحرّاس على هذه الاعجوبة آمنوا جميعهم اما المغتصب فازداد قساوةً وقبض على القديس وامر الشُرَط بان يسحبوا يديهِ ورجليهِ بحبال ودواليب وكان آخرون يضربونهُ بحبالٍ رصاصية ثم سكبوا على رجليهِ زيتاً سخناً ممتزجاً بزفتٍ وأحرقوهُ بشموع متّقدة وكان القديس يحتمل كل اصناف هذا العذاب الغليظ بهيئة رجل متنعّم ولم يزل يبارك الله متهلّلاً ثم سقوهُ خلاً ممتزجاً بكلس فشربهُ القديس ككاس لبن او خمرٍ لذيذة

فشرع الحاضرون يتعجبون من هذه المعجزات واظهروا غيظاً على الحاكم ونقل القديس الى مدينة أُخرى من اقليم فيروماندين وهي تُسمّى الآن سان كانتين باسم القديس واخذ يعذّبهُ جديدًا فأدخل في جسدهِ خنجرَين من منكبيهِ الى فخذيهِ ثم أُدخل بين اظافيرهِ ولحمهِ مسامير ولم يربح بهذا كلهِ شيئاً بل ان شجاعة القديس وبهجتهُ كانتا تزدادان كلما ازداد العذاب. فخجل ريكسيوفرُوس من انتصار القديس عليهِ بالصبر والتجلُّد فامر حينئذٍ بقطع رأسهِ وبعد موتهِ الذي حدث في آخر تشرين الاوّل في سنة سبع وثمانين ومائتين للمسيح ألقي جسدهُ في النهر غير ان الله سبحانهُ عرّف المؤمنين بهِ باعجوبة فبنوا لهُ كنيسة بمدينة دُعيت كانتين على اسم هذا القديس



شهر تشرين الثاني

اليوم الاول

وفيهِ عيد جميع القديسين

ان الكنيسة المرتشدة دائمًا من الروح القدس قد رسمت هذا العيد لاسباب كثيرة اوَّلها تمجيد الله تعالى في قديسيهِ الذين مجَّدوهُ جلَّ اسمهُ على الارض وتركوا لنا نموذجات فضائلهم يحثُّوننا بها على اقتفاء آثارهم ويُسعفونا بصلواتهم ويشتهون ان نشترك في سعادتهم ولانهُ من المستحيل ان نعيِّد لكلٍّ منهم عيدًا خصوصيًّا لاجل كثرتهم التي لا تُحصى فقد لاق ان تعيَّن يومًا لاكرامهم على جهة العموم وتطلب شفاعتهم. وثانيها هو ان نصلح ما قد اخطأنا بهِ في مدار السنة في اعيادهم بتعييدنا عيدًا عموميًّا لجميعهم في يوم واحد بنشاط العبادة. والسبب الثالث هو ان نحوز من الله سبحانهُ بتكثير المتشفعين بنا في السماء بركاتهِ بافضل سهولةٍ واوفر مقدار لانهُ في هذا العيد الشريف نتقدَّم جميع القديسين بازاء عرش الله تعالى ويقدِّمون لهُ طلباتنا ويصفون لهُ احتياجاتنا ويطلبون منهُ بحرارة المحبة ان يباركنا ويستجيب طلباتنا

غير ان السبب الرابع والأخصّ الذي من اجلهِ وضعت الكنيسة عيد جميع القديسين هو تحريضنا على الاقتداء بهم اذ نقدّم لنا جلال قداسة سيرتهم وعظم مجدهم وسعادتهم لان اعياد الشهداء وبقية القديسين كما قال الجليل اغسطينوس هي مواعظ تحثُّ المؤمنين على اكتساب القداسة واكليل المجد الابدي ولهذا فيجب علينا ان نورد جلال سعادتهم الخالدة الّا انهُ كيف يمكننا ان نورد ما تعجز عن وصفهِ ألسنة القديسين انفسهم وكيف نفهم هذا الخير الذي هو الخير الوحيد وينبوع جميع الخيرات وعلتها فقد سبق الرسول وقال انهُ لم ترهُ عين ولم تسمع بهِ أذن ولم يخطر على قلب بشر ما اعدَّهُ الله للذين يحبُّونهُ (كورنتس اولى ٢ : ٩) فلا تقدر العين ان تراها ولا الاذن ان تسمعها لانها لا تقع تحت الحواس ولا يستطيع عقل بشر ان يتصوَّرها لانها ليست هي خيرات بشريَّة بل خيرات الهية ولهذا قال القديس توما اللاهوتي ان سعادة القديسين في السماء هي على نوع ما غير متناهية لانهم يتمتَّعون بالخير الغير المتناهي تمتُّعًا ابديًّا ويشتركون مع الله جلَّت قداستهُ في سعادتهِ وفيهم قال الرسول انهم جميعهم يعاينون الله ويتحوَّلون الى شبههِ تعالى في المجد (كورنتس ثانية ٣ : ١٨) وعلى هذا المعنى قال ايضًا التلميذ الحبيب انهُ اذا تبيَّن الله لنا فسيكون لنا بهِ شبهٌ عزَّ وجلَّ (يوحنا اولى ٣ : ٢)

وقد قسم العلماء اللاهوتيون سعادة القديسين الى قسمين القسم الاوَّل يتضمَّن سعادتهم الجوهرية والقسم الثاني يشتمل على سعادتهم العرضية. فالسعادة الاولى تتوقف على اتحاد النفس بالله تعالى اتحادًا نقيًّا كليًّا عذبًا مُفعمًا من كل خيرٍ منزَّهًا عن كل شرٍّ. وهذا الاتحاد العجيب قائم في مشاهدة الله عزَّ اسمهُ على انهُ ولو ان الذي ينظر مِلكًا على الارض لا يصير بهذا النظر مِلكًا وكذلك من يرى شخصًا متصفًا بجمال او متمتعًا بفرح لا يصير جميلاً فرحًا من اجل ان كل هذه الخيرات هي محدودة خارجة عن الانسان الذي يراها. الّا ان الله سبحانهُ هو خير غير محدود ولا متناهٍ وحاوٍ في ذاتهِ كمالاتٍ غير متناهية بها يحيل الى ذاتهِ من يعاينها ويملأهُ من ذاتهِ على حسب قابليتهِ الانسانية ومن كل خيراتهِ. وبهذه المشاهدة المجيدة يتمتَّع بالله تمتعًا سرمديًّا ويحوز فرحًا فائقًا جميع الافراح فؤوقًا يقصر الادراك عن الوصول اليهِ

ثم انهُ في السماء لا يشاهدون الله تعالى فقط بل انهم في الله يرون انفسهم وكل شيء ايضًا. وقد لاحظ هذا القديس فُلجَنسيوس حيث قال كما ان الذي يمثل تجاه مراءةٍ ينظر



اعمالهم تابعة لهم (رؤيا ١٤ : ١٣)

المرآة ويرى نفسهُ فيها. كذلك القديسون المتمثلون بازاء مرآة العزَّة الالهية يرونهُ تعالى وفيهِ يرون انفسهم وكل ما هو خارج عنهُ سبحانهُ ايضاً. فالله اذاً في ملكوت السماء هو لدى القديسين المرآة الجليلة الكاملة التي تريهم بمشاهدةٍ بسيطةٍ كل صفات جميع الخلائق وكمالاتها والاسرار الالهية الخفية التي يعجز اكبر العقلاء في هذه الارض عن ادراكها. فهناك يرون كيف الله تعالى خلق من العدم السماء والارض وكل ما فيها من البهاء وحسن النظام. هناك يفهمون احكام الله السرّية وافعال عنايتهِ العجيبة التي لا تقع تحت البحث. هناك يعرفون السبب الذي من اجلهِ يكون على الارض هذا غنيًّا وذاك فقيرًا. هذا قويّ الجسم والعقل وذاك ضعيف المزاج والفهم. ولماذا هذا بعد المعمودية تُوفّي وانتقل الى السماء وذاك لم يعتمد. ولماذا أُعطي احد اللصَّين نعمة بها آمن بالسيد المسيح وصعد من على صليبهِ الى السماء ولماذا مات اللص الآخر في خطيئتهِ. ولماذا سمح الله تعالى ان يهوذا رسولهُ سقط في خطيئةٍ أهلكتهُ ولم يسمح بان تسقط بقية الرسل مثلهُ. وكما قال القديس اغسطينوس هناك يعاين القديسون السبب الذي من اجلهِ يكون الآن البارّ فقيرًا والشرّير غنيًّا. ويحكم على الصديق ظلمًا ويخرج الخاطئ من المحكمة مبرَّرًا. لماذا تنقطع ايام الذين ينفعون العالم وتطول حياة الذين يضرُّونهُ. ولماذا يجلس على كرسي العزَّة والسلطنة من هو عار العالم وسخرة شك للناس ويهمل على المزبلة افضل الانام وأقدسهم. هناك يرى القديسون ان جميع افعال الله سبحانهُ مملوءة عدلاً ورحمةً وانهُ جلت حكمتهُ يستخرج دائمًا خيرًا من الشرّ وان الاشياء التي تستبين لنا باطلة مضرَّة هي ذات حكمة وجودة مفيدة جدًّا لمجدهِ عزَّ اسمهُ ولنفعنا. وانهُ لا يصدر شرٌّ الاَّ لمجد الله وخيرنا الاعظم. كما انهُ تعالى سمح بحسد بني يعقوب الذين باعوا اخاهم يوسف للاسماعيليين لينتج منهُ خلاص الذين باعوهُ. وكما انهُ تعالى من اضطهاد اليهود للسيد المسيح وقتلهم اياهُ انتج خلاص العالم. ومن قساوة المغتصبين معذّبي الشهداء القديسين أنتج نموَّ الكنيسة وانتشارها. فهذه كلها يراها الابرار في السماء ويفهمونها بمجرَّد مشاهدةٍ بسيطة من غير كدّ فكرٍ ولا زيادة بحثٍ وهذه المشاهدة الالهية تلد في نفس الطوباوي محبة مبهجة لذيذة تلهب كل قواها. وهذه المحبة تصدر فيهِ فرحًا غير مدرَك لاجل اتحاد فهمهِ بحر حكمة الله تعالى الغير المحدود واتحاد عواطف قلبهِ بالخير الاعظم. فهذه مختصر سعادة القديسين الجوهرية التي من اجل عظمتها التي تسمو على افهامنا لا يمكن لاحدٍ ان يستوفي ذكرها

فمن هذه المشاهدة الالهية القائمة فيها سعادة القديسين الجوهريَّة تصدر ثلثة خيرات أُخر تتوقف عليها سعادتهم العرضية كما يجري الماء من منبعهِ. وهي مجد الاجساد وبهاء مسكنهم السماوي وتيقنهم دوام التمتع بهذا المجد والسعادة. على على انهُ اولاً من هذا المجد العظيم الذي يشمل النفس يندفق على الجسد ما يصيرهُ متلألئًا بهيًّا في الغاية. بل ان الجسد المجيد يشترك في صفات النفس كانهُ يصير روحًا لانهُ اولاً في برهة يسيرة من الزمان وفي لحظة عينٍ ينتقل الجسد الى حيثما تريد النفس. فلا خيل ولا نسر ولا سهم يقدر ان يجاريهُ. ثانيًا ينفذ كل الاجسام اسهل مما تنفذ اشعة الشمس البلّور. ثالثًا يكون غير قابل التألم فكما انهُ من الممتنع ان يقطع احد اشعة الشمس بالسيف او يغرقها في البحر او يطمرها في الارض او يحرقها بالنار او يدنّسها بشيءٍ ما يستحيل ايضاً ان يلحق بالجسد المجيد ألمٌ او مضرَّةٌ بنوعٍ من الانواع. رابعًا تكون اجساد القديسين ملتحفةً بضياءٍ يفوق كل اضواء النجوم والكواكب والشمس ايضًا

وماذا نقول في عظمة عرش الله وغناهُ وبهائهِ اما محلهُ فهو ارفع من كل السماوات واما اتساعهُ فعظيم جدًّا حتى انهُ يفوق ادراك عقول البشر وقد أثبت العلماء الفلكيُّون ان اقرب النجوم يبعد من الارض بعدًا شاسعًا حتى ان النور مع سرعتهِ يبقى ثلاث سنين ورُبع سنةٍ لكي يصل الينا من اقرب النجوم(١) فاذًا ماذا يكون اعلى السماوات الذي ترصّع بالنجوم الاَّ كلآلٍ في اكليل او جواهر في جدران بلاط ملوكي فلما تأمل ذلك باروك النبي صرخ منذهلاً يا اسرائيل ما اعظم بيت الله وما اوسع موضع مقتناهُ (باروك ٣ : ٢٤) انهُ هو عظيم وغير محدود وغير ممسوح وان سألت عن بهاء الوطن السماوي فاجيبك بما أوردهُ القديس داميانوس ونقلهُ من كتب القديسين فاقول تصوَّر وطنًا قد بُنيت منازلهُ من جواهر كريمة وسقفهُ من ذهب ابريز وجدرانهُ لامعة براقة

(١) حاشية. اعلم ان النور يصل من الشمس الينا بمدة ٨ دقائق و١٣ ثانية اما المسافة التي بين الارض والشمس فلا نقطعها كرة مدفعٍ الاَّ في مدة اثنتي عشرة سنة فتأمل

وكل شوارعهِ من بلور ارسخ من الرخام لا يشعر احد ببرد الشتاء ولا بحرّ الصيف ولا تزال الارض مزيَّنة بالزهور والهواء يبعث على الدوام روائح طيّبة ذكيّة فبمثل ذلك بل افضل منهُ بما لا يقدَّر ولا يدرَك يكون الوطن السماوي

لاحظ الآن كثرة سكان هذا المكان السعيد وشرفهم وعزَّتهم وائتلافهم العجيب فعن كثرتهم قيل في سفر الرؤيا (٧ : ٩) وسفر دانيال النبي (٧ : ١٠) ان عددهم لا يُحصى وكلهم شرف ملوكي ومتحدون بعضهم ببعض بمحبة تامة . فلو نزل من السماء احد الرسل وتردَّد على الارض وجاز لنا ان نخاطبهُ لتركنا كل شيء لنذهب اليهِ ونشاهدهُ ونخاطبهُ قليلاً من الزمان ولو ان ملكة السماء عينها نزلت لكان قد اشتدَّ بنا الشوق الى مشاهدتها . فماذا يكون اذًا فرح من يسكن مع جميع الملئكة والقديسين ومع ملكتهم لا ساعة واحدة بل مدى الابد

والخلاصة ان جميع ما قلناهُ وكل ما يمكن ان يقولهُ لسان بشري في أمر سعادة القديسين فانهُ كلا شيء والاجدر بنا ان نتأملهُ لا ان نصفهُ . ليت شعري لو تأملنا ما اعدَّهُ الله تعالى من الخيور لعبيدهِ في ملكوت السماء لاحتقرنا ما نراهُ بهذه الارض ونستطيع ان نتأمل ذلك بوجهٍ من الوجوه الآتية . فاعتبر جزيل اقتدار ملك السماء وعزَّته وانهُ تعالى انما خلق الوطن السماوي ليظهر فيهِ مجدهُ ويمجّد فيهِ اصدقاءهُ . على انهُ ان كان الملك الارضي يريد ان يكون بلاطهُ مناسبًا لعزَّتهِ فكيف يكون بلاط الملك السماوي ملك العالمين الضابط الكل الذي بكلمة واحدة خلق العالم كلهُ وبكلمة واحدة يقدر ان يلاشيهُ . ليت شعري ماذا يكون البناء الذي قد سعت فيهِ القدرة الضابطة الكل والحكمة الغير المتناهية فان كانت ملكة سبا لما شاهدت بيت سليمان الحكيم كادت تموت من فرط اندهاشها فماذا يكون بيت من هو افضل من سليمان المكتوب على فخذهِ ملك الملوك ورب الارباب . وان كان احشورش الملك اراد أن يظهر لكل عظماء ملكهِ جلال عظمتهِ وكثرة غناهُ بوليمة مشتهرة عملها في مدينة سوسان وبقيت مدة مائة وثمانين يومًا متوالية فما ظنُّك بالوليمة التي يصنعها الملك الازلي لاعزَّائهِ في السماء حيث يريد ان يظهر لهم كنوز حكمتهِ وجودتهِ وسخائهِ وانهُ يجازي عبيدهُ الامناء على نوع يليق بعزَّتهِ تعالى ويظهر لهم بانهُ الهٌ لان الله عزَّ اسمهُ من الواجب ان يتبيَّن الهًا في كل اعمالهِ فان كان تعالى انعم هنا على الابرار والاشرار بخيرات جزيلة فليت شعري ماذا تكون تلك التي ادَّخرها لخاصتهِ وأحبَّائهِ في ملكوتهِ

وان كان الله سبحانهُ يعطي مجَّانًا وبسخاء عظيم الذين لا يستحقُّون منهُ شيئًا ترى بايما سخاء يمنح الذين يستحقون المجازاة لاسيما عندما يعتبر ما تكلَّف القديسون من أجل ربح هذا المجد سيما الثمن العظيم الذي دفعهُ ابنهُ الوحيد ليربحهُ لهم . ولكون هذا الثمن الالهي هو غير محدود فيمنح الله تعالى اجرًا غير متناهٍ ولأن الله جلَّ شانهُ احتمل الموت حبًّا بالبشر فيعطي البشر حياة الهية وبحزن الله ربح الانسان فرح الله ولاجل عري ابن الله المصلوب من اجل الانسان تكلل الانسان بمجد الهي ابدي . لعمري انهُ ليس شيء يرينا عظمة السعادة السماويَّة مثلما يرينا اياها الثمن الغير المتناهي الممنوح من اجلها

وقد يمكنك ان تحصل على معرفة هذا الخير العظيم بطريق أُخرى فتأمل كثرة الشرور والبلايا التي تلحقنا على الارض ثم اعتبر متأنيًا واعتقد متيقنًا انهُ لا يوجد منها شيء في الابدية السعيدة المجيدة فمن كثرة الشرور الارضية وعظمتها أنتج ما اكثر وما اعظم الخيرات السماويَّة . لاحظ الفقر والامراض والأحزان والاتعاب والاهانات والاخطار والموت فكل هذه البلايا المحيطة بنا تصرخ الينا وتنصحنا قائلة ان وطننا ليس هو ههنا بل ان مسكننا الآن هو منفى او سجنٌ حيث لا نزال متألمين الى ساعة وفاتنا . فلما تامل القديس اغُستينوس هذا الموضوع قال في مناجاتهِ الله الهي ها ان نفسي قد ضجرت من هذه الحياة واطالة هذه الغربة المحزنة فلماذا اسمّيها حياة وقد كان الاصوب ان ادعوها موتًا لانها هي حقًّا حياة كاذبةٌ وموت حقيقيٌ حياة شقية متعبة محزنة دنسة مفعمة خبثًا ومكرًا . فهل يسوغ لنا ان ندعو الآن الحال التي نحن عليها حياة حيث الامراض تضعفنا والاتعاب تضنينا والاحزان تؤلمنا وتنتهي حياة البشر بشدة الاوجاع . ان مثل هذه الحياة هي موت . وقال القديس المذكور في محل آخر موجهًا تأملهُ الى الحياة الآتية قائلاً يا ايتها الحياة المعدَّة من الله تعالى للذين يحبونهُ الحياة الحقيقية السعيدة الحياة النقية المقدسة الحياة الناجية من الموت والحزن ومن كل ألم وضجر وقلق وفساد وتغير متى تأتين وأحظى بكِ

فلنا اذًا في بلايا هذه الحياة وشرورها حجة مؤثرة لنرتاح

الى الحياة الآتية كما ان الذي يسافر في البحر اذا ضربتهُ العواصف يشتاق الى الميناء حيث ينجو من التعب والخطر ويفوز بالهدو والسلام بل ان الشدائد الدنيويَّة من شأنها ان تعزّينا اذا تأملنا انها تعبر سريعًا واننا اذا احتملناها بالصبر نبلغ الى مسكن الراحة والسرور الابدي . فلنفترض الآن وجود انسان ذي عقلٍ حسن وصفاتٍ جيّدة حميدة قد اخذ يفتكر متأنيًا متصوّرًا في عقلهِ حياةً هادية بهيَّة مبهجة ملآنة ممَّا تشتهيهِ النفوس من الخير ومنزَّهة عن كل الشرور والاحزان الارضية . فلو كان الله تعالى يمنح ذلك الانسان هذه الحياة مع وعدهِ لهُ بانهُ يتمتع بها على الدوام بدون تغيير ولا نقص أفما كان يظنُّ ذاك بانهُ بلغ قمة السعادة . فمع هذا لمن المحقق بل لمن المعتقد ايضًا ان حال كل قديس في ملكوت السماء افضل واسعد من حال ذاك الانسان على نوع غير متناهٍ لان الذي تصوَّر سعادة القديسين ورسمها ليس هو انسانًا مائتًا متصفًا بعقلٍ ضعيف محدود الادراك وعرضة للزيغان والانثناء الى اشواقهِ بل ان الذي اخترع سعادة البارّ في السماء هو الله تعالى الحكمة ذاتها والسعادة عينها وهو الذي رسمها قبل انشاء العالم ورام ان يكون الواهب والهبة معًا المجازي والمجازاة المكلِّل والاكليل فكل من يستحق ان يملك مع الله فانهُ يجد في السماء كل ما يشاء ولا يجد شيئًا مما لا يُريدهُ كما قال القديس انسلموس . لان السعادة ليست هي الأشبع الارادة والظفر بجميع مُناها وفرح وخير فائق على كل فرح وخير لا يدانيهِ شرٌّ اصلاً والتيقن الكلي انهُ يكون على هذه الحال ثابتًا الى الابد

فان كان الله تعالى يعدُّ مثل هذه الخيور للفضيلة فمن ذا الذي لا يهواها لاجل هذه المجازاة وفي هذا الصدد قال الاب غرانانوس ما بالك ايها الانسان الغني والشرير تطلب باجتهادٍ وعناء جزيل تبنًا في مصر وتستقي ماءً كدرًا وها ان الله تعالى قد وضع بازائك نبع ماءٍ حيّ نبع السعادة الابدية فان كنت ترتاح الى اللذات فارفع ألحاظك الى السماء حيث تجد الخير الحاوي كل اللذات . اما القديس اغسطينوس فقد اصاب حيث يقول انهُ لو لزم الانسان ان يكابد عذابًا شديدًا في مدة حياتهِ كلها بل لو كان ينبغي لهُ ان يحتمل مدةً من الزمن كل عذاب الجحيم ليكتسب منها سعادة الابد لكان يجب عليهِ ان يحتملهُ . ثم يقول انهُ ان كان لابدَّ ان اكابد اتعابًا كثيرة لكي افوز بالمجد الابدي فها انذا أدعوكِ الآن ايتها الاتعاب قائلاً هلمي وثبي عليَّ باسركنَّ وتحدق بي كل البلايا ولتدركني كل الاحزان والاوجاع وليضطهدني الجميع ولتقم عليَّ كل الخلائق وليصيروني رذالة الشعب وأضحوكتهم ولتنتهِ حياتي بالعذاب ولتفنَ سنو حياتي بالدموع وبها اصل الى السعادة الابدية والى ملكوت السماء

فهذا الذي كان يحثُّ القديسين على الفضيلة هذا الذي كان يصدهم عن الرذائل ومن اجل هذا سلكوا طرقًا صعبة واحتملوا في حقل الرب ثقل النهار والحرّ فاحتسبوا ما قاسوهُ في خدمتهِ تعالى من الاتعاب والاحزان كلا شيء لاعتقادهم اليقيني ان كل اوجاع هذه الحياة لا توازي المجد العظيم الذي سيظهر فيهم . فالكنيسة ترينا في هذا العيد جميع القديسين قائلة لكل منا على لسان القديس اغسطينوس العلك لا تقدر ان تفعل ما فعل هولاء والحال انك ستجد بينهم كثيرين كانوا من اقاربك وربما من اهل بيتك فيما بين التجارب مثلك مصابين بالشدائد مبتلين بالأحزان مرذولين من الناس مظلومين مهانين محاربين الرذائل والشهوات اللحمية نظيرك فجاهدوا وانتصروا عليها مع النعمة الالهية أما تقدر ان تفعل ما قد فعلهُ من كان نظيرك

ابتهال الى جميع اولياء الله القديسين

فها نحن نبتهل اليكم ياسكّان السماء الاجلاَّء ونرفع اعيننا الى الجبل العلوي المجيد حيث نرجو العون والخلاص فانظروا الينا بعين الرأفة والمحبة لاننا اخوتكم حقًّا وعبيدكم معًا الجالسون في وادي البكاء . انهُ لقد انتهت حروبكم وفزتم بالظفر واما نحن فاننا الى الآن في حومة الوغى نقاتل اعداء الخلاص فاشركونا في انتصاراتكم . انكم لقد بلغتم الميناء فلا تتغاضوا عن الذين تصدمهم الامواج في بحر هذا العالم . انكم في الوطن السماوي ساكنون فاسعفونا نحن المتعبين الطالبين الوصول الى حيث انتم . فها نحن سائرون بخوفٍ وعناء زارعين بذرنا بالبكاء فارشدونا في الطريق واجعلونا نجمع بفرحٍ ونخزن في اهرائكم اثمار اتعابنا لانكم لحم من لحمنا وعضو من اعضائنا لقد عرفتم ضعفنا وخبث العدو المجتهد في هلاكنا وقوَّتهُ ورجز غضبهِ فارحمونا اذًا مترأفين واسألوا عنا ابا المراحم ان يقوّينا بنعمتهِ لكي نحارب بشجاعة وننتصر على اعدائنا فننال معكم اكليل المجد الابدي آمين

اليوم الثاني

وفيهِ تذكار الموتى المؤمنين

ان الكنيسة هي جماعة المؤمنين المتحدين بسيدنا يسوع المسيح اتحاد جسد واحد هامتهُ ابن الله مخلصهم ومن ثمَّ فيدخل ضمنها القديسون الذين في الملكوت وهم الكنيسة المنتصرة والابرار الذين في المطهر وهم الكنيسة المتألمة والمؤمنون العائشون على الارض وهم الكنيسة المحاربة ولكن روح هولاء الجماعات هو روح المحبة فنراهم مجتهدين في خدمة بعضهم بعضاً . لان القديسين الذين في السماء يهتمون بخلاص اخوتهم الذين على الارض مقدمين من اجلهم تضرُّعاتهم لله وهكذا ايضاً بصلواتهم يعينون الذين في المطهر لانهم لا يقدرون ان يفوا عنهم بافعالهم الصالحة اذ لا سبيل في الملكوت الى اكتساب استحقاقات جديدة فمن ثمَّ ينوب عن اهل الملكوت المؤمنون الذين على الارض فيسعفون الذين في المطهر لا بمجرَّد صلواتهم كما يفعل قديسو السماء بل بافعالهم الصالحة المقدَّمة من اجلهم وفاء عن دينهم ايضاً

فالكنيسة المحاربة كانت في يوم امس تُسبّح مجد القديسين الذين في اورشليم السماويَّة واليوم تتأسف على تألُّم الابرار المحترقين بنار المطهر . امس كانت تطلب صلوات الذين في الملكوت واليوم تقدّم صلاتها وذبائحها من اجل الذين في المطهر . ويليق بنا ان نورد هنا تعاليم الكنيسة الكاثوليكية فيما يخص حال الانفس التي في المطهر فنقول . اولاً انهُ يوجد مكان يُدعى مطهراً وفيهِ تتعذَّب انفس المؤمنين الذين توفوا في حال نعمة الله غير انهم متدنسون بخطايا عرضية او مديونون بعدُ للعدل الالهي لاجل بعض خطايا مميتة وان كانوا قدَّموا عليها ندامةً حقيقيَّةً الَّا انهم لم يفوا عنها وفاء تامًّا . ثانياً الكنيسة تعلمنا انهُ يمكننا بل يجب علينا ان نسعف تلك الانفس بصلواتنا وصدقاتنا وبقيَّة افعالنا الصالحة فلنأخذ الآن في ايراد القضية الاولى

اعلم ان الموتى على ثلثة اقسام ما خلا الاطفال الذين يتوفون بعد المعمودية فالقسم الاول هو الذين سلكوا دائمًا مسلك البرّ فلم يرتكبوا خطيئة مميتة ولا عرضية او ندموا عليها فغُفرت لهم ووفوا عنها وفاء كاملاً في الحياة . فلا جرم ان هولاء بعد مماتهم يصعدون الى السماء ويتمتعون بالغبطة الابدية . والقسم الثاني هو الذين يموتون في حال الخطيئة المميتة مكروهين من الله تعالى وفي ساعة موتهم يسلمهم الديَّان العادل الى الشيطان ليعذبهم في جهنم الى الابد . اما القسم الثالث فهو المتوسطون بين القسمين المشار اليهما فليسوا صالحين نظير الاولين ولا اشراراً كالآخرين لانهم يموتون في حال النعمة الالهية متلطخين ببعض خطايا عرضية لا تسلب النعمة او بخطايا مميتة تابوا عنها توبةً صادقةً فغُفرت لهم نظراً الى الاساءة غير انهم ما وفوا عنها في هذه الحياة وفاء تامًّا ومن ثمَّ يلتزمون بتكميل الوفاء في الحياة الاخرى لانهُ قد قال البشير الطاهر انهُ لا يدخل اورشليم السماوية شيءٌ دنس اصلاً (رؤيا ٢١ : ٢٧)

فلا بدَّ اذاً من وجود المطهر حيث تتنقَّى الانفس كما يتنقَّى الذهب في الاتون وتتطهر من ادران هفواتها قبل ان تلج ملكوت السماء فهذه قاعدة من قواعد الايمان ومن انكرها فقد صار ارطوقيًّا لانهُ ناهيك عن الادلة الكثيرة المستندة اليها هذه الحقيقة الدينية في كتب العهدين القديم والجديد على حدّ وكفى بها اثباتاً ما فعلهُ يهوذا القائد المكابيّ لان هذا جمع صدقةً وارسل الى اورشليم اثني عشر الف درهم من الفضة ليتقرب بها عن خطايا الموتى قربان قائلاً انهُ شيءٌ مقدَّس ومفيد هو الفكر ان نصلي لاجل الموتى لينجوا من الخطايا (٢ مكا ١٢ : ٤٣ و٤٤) ولتوكيد هذه الحقيقة قال السيد المسيح ان من يخطيء ضد الروح القدس لا يُغفر لهُ في هذا الدهر ولا في الدهر الآتي ومن هناك ينتج جليًّا حسب تفسير جمهور الآباء العلماء انهُ في الدهر الآتي اعني بعد الموت تُغفر بعض خطايا وهي العرضية لانهُ لو لم تُغفر بعض خطايا في الدهر الآتي لكان قول ابن الله باطلاً . وهذا ضربٌ من التجديف فاذاً ان كان الله يغفر في الحياة الأُخرى بعض خطايا فلا ريب في انهُ تعالى يترك ايضاً العذاب الزمني الذي استوجبهُ الانسان بخطيئتهِ ولم يقدر ان يفي عنها قبل موتهِ او تقاعد عن الوفاء . لان هذا الدين لا يُنافي النعمة الالهية التي هي مصدر الوفاء

وقد اثبتت هذه الحقيقة الكنيسة في مجامع كثيرة خاصَّةً في المجمع اللاتراني الذي انعقد على عهد اينوشنسيوس الثالث والفلورنتيني والتريدنتيني ولا جرم ان الكنيسة منذ ابتدائها صلَّت دائمًا في القداس الالهي من اجل الاموات ويشهد لذلك

خدمة قداس القديس يعقوب الرسول وخدمة قداديس القديسين باسيليوس وامبروسيوس والذهبي الفم ومن المحقق الواضح انهم لم يصلّوا لاجل انفس الموتى ولم يقدّموا ذبيحة القداس لاجلها لو لم تُفِدها تلك الصلوات والذبائح وتعالج عذابها . ولهذا قال القديس ديونيسيوس في الفصل السادس من كتابهِ في الرئاسة الكنائسية ان تقليد تقدمة الصلاة لاجل الموتى قد تسلمهُ الرسل واتصل منهم الينا . وقال الذهبي فمهُ انهُ لم تأمر الرسل باطلاً بان نذكر الاموات عند تقدمة الاسرار المقدسة . وقال القديس اغستينوس ان الكنيسة كلها تحفظ ما قد تسلمتهُ من هولاء الآباء القديسين حينما تقدّم ذبيحة القداس لاجل انفس الموتى الذين توفوا في حضن الكنيسة

وقد ذكر القديس غريغوريوس الكبير ان نفس رجل يُدعى باسكاريوس ظهرت للقديس ايرونيموس وتشكّرت فضلهُ عليها لانها بصلواتهِ كانت قد نجت من عذاب المطهر وكذلك يروى عن جوستوس احد رهبانهِ انهُ ظهر بعد موتهِ لراهب آخر اسمهُ كوبوسيوس وقال لهُ انهُ نجا من العقاب المطهري بواسطة ثلثين قداساً كان قد قدّمها لاجلهِ رئيس الدير . والقديس غريغوريوس اسقف مدينة طور قد أخبرنا ان فتاة فاضلة تُسمّى فيتاليانا ظهرت بعد موتها للقديس مرتينوس وقالت لهُ انها انحدرت الى المطهر لاجل خطيئة عرضية فقط وانها خلصت من العذاب بواسطتهِ . والقديس داميانوس يخبر ايضاً ان القديس سفار ينوس ظهر بعد وفاتهِ لرجل اكليريكي وقال لهُ انهُ اجتاز بالمطهر لتركهِ احياناً صلاة الفرض الكنائسي في الزمن المعيّن . ويذكر القديس برنردوس ان القديس ملاخيا نجّى بصلواتهِ اختاً لهُ من عذاب المطهر . وقد ذكرنا في ترجمة القديس ايلاريون في اليوم الحادي والعشرين من شهر تشرين الاوّل انهُ هو ورهبانهُ انقذوا نفوساً كثيرة من المطهر بصلواتهم وصدقاتهم

والآن اذ قد اثبتنا وجود المطهر بأدلة مقنعة مُفحمة يجب ان نذكر مكانهُ وما هو العذاب الذي تكابدهُ هناك انفس الابرار . فاعلم انهُ في قلب الارض قد اعدّ الله تعالى للانفس ثلثة اماكن اوّلها واعمقها جهنم حيث تتعذب الى الابد نفوس الهالكين مع الشياطين والثاني المطهر وانما يُسمّى بالمطهر لان الانفس تتطهر هناك من أدران خطاياها . والثالث اليمبوس وهو المكان الذي كانت مسجونةً فيهِ انفس القديسين قبل ان يفتح السيد المسيح باب السماء بموتهِ المقدس . ففي المطهر تقاسي انفس المؤمنين عذاباً شديداً حتى ان كل ما كابدتهُ الشهداء من العذاب الشديد في هذه الدنيا لا يُقدَّر شيئاً بالنسبة الى عذاب المطهر وعنهُ قال القديس اغستينوس في الفصل السابع عشر والثامن عشر من كتابهِ على التوبة الحقيقية والكاذبة ان مَن اخّر ثمرة توبتهِ الى العالم الآخر ينبغي ان يتنقّى بنار المطهر نعم ان هذه النار ليست مؤبدة الَّا انها شديدة ومؤلمة جدًّا جدًّا لان آلامها تفوق كل ما يمكن للانسان ان يحتملهُ من الاوجاع في هذه الحياة ولا يوجد على الارض وجع يعادل وجع المطهر حتى ولا أشدّ اوجاع الشهداء ولذلك ينبغي لكل منا ان يصلح سيرتهُ وان يجتهد في الوفاء عن خطاياهُ في هذه الحياة كيلا يضطر للوفاء عنها بعذاب المطهر الشديد . انتهى . وكذا قال القديسون غريغوريوس الكبير وانسلموس وبرنردوس وبيدا وتوما اللاهوتي

وهناك اي في المطهر يقول القديس اغستينوس من كان استمرّ في الخطيئة فانهُ يستمرّ اكثر في هذا النهر الناري ويزداد عذاب اللهيب على حسب مقدار الاثم . هناك تحترق الكلمات الباطلة وبقية الخطايا الخفيفة الملتصقة بنا . اعتبر الان انهُ ولو مهما كان عذاب النار المطهرية شديداً فعذاب الخسران أعظم منهُ بما لا يُقدّر والمراد بهِ العذاب الناشئ عن عدم المشاهدة الالهية لان النفس بعد خروجها من الجسد تتوق الى معاينة هذا الخير الاعظم والتمتع بهِ اشد التوقان حتى ان عدم استطاعتها على ذلك يسبّب لها آلاماً اشدّ جدًّا من آلام النار . ولعمري انهُ ليس للنفس في هذه الحال تعزية الَّا انها في حال نعمة الله وانهُ من المستحيل ان تسقط عنها فيما بعد وان عذابها زمني ينتهي اخيراً وانها بعد ذلك تفوز بفرح لا نهاية لهُ ولا تقدير . وما عدا ذلك فان الملئكة تتفقدها وتقوّيها والقديسون يسعون في نجاتها بصلواتهم في السماء والمؤمنون الذين على الارض بصلواتهم وافعالهم الوفائية ولا بدّ ان نتكلم فيها الان

فالافعال التي نستطيع ان نُساعد بها الانفس التي في المطهر تنقسم الى ثلثة انواع الاوّل والأخصّ هو تقدمة القداس الالهي والثاني هو الصلاة والثالث يتضمن كل الافعال المتعبة التي نفي بها عن خطايانا وهي الصدقة والصوم وباقي صنوف التقشف . فلا شك اذًا في ان تقدمة ذبيحة القداس هي

علاج عظيم لانفس المطهر وقد قال القديس اغسطينوس في الفصل التاسع بعد المائة من كتابهِ المسمى الكيريدون من المسلّم ان المؤمنين الاحياء يعالجون انفس الموتى بتقواهم وعبادتهم حينما نقدّم ذبيحة فدائنا او يعطون صدقةً لاجلها. وهذا نفسهُ ينبغي ان نقولهُ عن الصلاة اذ قد سُطّر في سفر المكابيين ان الصلاة لاجل الموتى هي امر جيّد ومفيد (مكا ٢ ١٢: ٤٣—٤٦) ومن جهة الصدقة فقد أمر طوبيا ابنهُ بتوزيعها لاجل الموتى (طوبيا ٤: ١٨) وقل هكذا في بقية الافعال الصالحة الممارسة وفاءً عن انفس الذين في المطهر

وهذه الافعال تفيد الاموات على احد هذين النوعين الاول بتخصيصنا لهم افعالنا المتعبة وفاءً عنهم كأنهم يمارسونها لاننا بهذا التخصيص نصيّر تلك الافعال افعالهم كما ان الدراهم المعطاة لمن أُلقي في السجن لاجل دينهِ تصير دراهمهُ واذا وفي بها دينهُ تقتضي شرائع العدل البشري ان يطلق من السجن والحال ان العدل الالهي هو قياس العدل البشري وميزانهُ ولا ريب في انهُ اقرب الى الرحمة من العدل البشري وبالنتيجة فلا شك في انهُ تعالى يرتضي بان المؤمنين يُخصّصون افعالهم الممارسة في حال النعمة للانفس التي في المطهر بدون انهم بهذا التخصيص يخسرون الاجر الابدي الذي يستحقّونهُ على هذه الافعال. ثم انهم ثانيًا يعينون النفس بواسطة صلواتهم لاجلها كما اننا نشفع عند الحاكم في الناس طالبين منهُ ان يعاملهم برحمتهِ فيطلقهم من السجن سالمين واعلم انهُ فضلاً عن هاتين الواسطتين اللتين بهما يسعف المؤمنون انفس الموتى يمنحها الحبر الاعظم رئيس الكنيسة كلها غفرانًا لا بطريق الحل لانهُ لا سلطان لهُ على الاموات بل بطريق أُخرى لان البابا هو حافظ كنوز الكنيسة وموزّعها اعني كنوز وفاة السيد المسيح والقديسين فمن هذا الكنز الغير المحدود يتخذ الحبر الروماني المقدار الذي يريدهُ ويخصّهُ بانفس الموتى لكي يفي بهِ للعدل الالهي كل دينها او اكثر منهُ

يُستنتج مما مرّ أمران الاوّل انهُ يجب علينا ان نجتهد في مساعدة الانفس المعذبة في المطهر بالصدقة والصوم والصلاة وافعال التقشف ولا سيما بتقدمة القداديس لاجلها وتخصيصنا لها الغفرانات الكنائسية المكتسبة منا لان هذه الصدقة هي واجبة ومقبولة لدى الله تعالى جدًّا لان التزامنا بالصدقة يزداد بمقدار ازدياد ضرورة القريب. والحال انهُ لا يوجد فقر اعظم من فقر الذي ليس لهُ شيءٌ وعليهِ دين وافر وليس في طاقتهِ ان يربح او يقترض شيئًا ومع هذا لا يريد خصمهُ ان يطلقهُ حتى يفي كل ما عليهِ الى آخر فلس. ولا شك في ان هذه الحال هي حال انفس الذين في المطهر ومن ثم يصرخون الينا من اسفل سجنهم قائلين مع ايوب البار ارحمونا ارحمونا قلما يكون انتم يا احبّاءنا من اجل ان يد الله ضربتنا (ايوب ١٩: ٢١). نعم انهُ يجب علينا ان نرحم كل الذين في المطهر لكونهم جميعهم اخوتنا الاَّ انهُ يلزمنا التزامًا خصوصيًّا ان نسعف والدينا واقرباءنا واصدقاءنا وان الله تعالى يسرّ جدًّا بذلك ولا جرم ان هذه الصدقة الروحية التي ترضي الله سبحانهُ وتعين انفس المعذبين في المطهر تفيدنا كثيرًا لان تلك النفوس لا تنسى الجميل بل انها تكافئنا فيما بعد بالصلاة لاجلنا في الملكوت السماوي ويؤيد ذلك ما ورد من اخبار اولياء الله القديسين

واما الثاني فهو بيان غباوة من لا يحذر الخطيئة ولا يجد في الوفاء عنها اذ انهُ من الايمان ان كل خطيئة وأدنى هفوة يقتصّ عليها بعذاب المطهر المخيف وانهُ جهلٌ فظيعٌ يُرثى لهُ جهل الذين يقدرون الآن على الوفاء عنها باتعاب وتقشفات سهلة خفيفة ومع ذلك يؤجلونهُ الى الحياة الاخرى حيث لا يقدرون ان يفوا الاَّ بمزيد العناء. قال الجليل اغسطينوس لقائل ان يقول لا أُبالي بالهبوط الى المطهر والمكث فيهِ زمانًا ما لاني من هناك انتقل الى السماء فايّاكم يا اخوتي الاحبّاء من ان يقول احدكم ذلك لان عذاب المطهر يفوق بما لا يُدرك كل عذاب في هذه الدنيا ويا ليت شعري من ذا الذي يعلم كم يطول هذا العذاب وكيف الذي لا يريد ان يضع اصبعهُ في النار الارضية زمانًا يسيرًا يرتضي بالاستغراق في النار المطهرية زمانًا مديدًا فليحذر اذًا كل منا الخطيئة وليجتهد الان في الوفاء عنها ولا يبقِ شيئًا يستلزم الوفاء عنهُ بعذاب المطهر. ولنبذلنّ المجهود في ان نطابق بين سيرتنا والناموس الالهي وننفي عن سيئاتنا بافعال التوبة القشفة ونحتمل بلايا هذه الحياة صابرين لكي نكفّر بها عن خطايانا ولا يصدّنا شيءٌ بعد موتنا عن دخول الوطن السماوي والتمتع بالسعادة الابدية

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس مركيانوس السائح

ان العلّامة الجليل تاودوريتوس اسقف كيروس مدينة بسورية يقول في ابتداء ترجمة هذا القديس بماذا امدح فضائل مركيانوس العظيمة لعمري انهُ يجب عليَّ ان امثلهُ بالقديس يوحنا المعمدان وبغيرهِ من القديسين الذين كانوا يلبسون جلودًا ويستوطنون البراريّ والجبال ويأوون المغاور

فهذا القديس وُلد بكيروس مدينة بسورية نحو نصف المائة الرابعة وكان ابوهُ من اشراف الدولة وقد اتخذ من الطبيعة جسمًا هيئًا وعقلاً حسنًا وقلبًا متصفًا بصفات حميدةٍ لانهُ كان انيسًا بشوشًا وفي حركاتهِ ظريفًا محتشمًا . وقد ربّاهُ والداهُ تربية حسنة وحينما كان العالم يقدّم لهُ اشرف المراتب والذ الخيرات اطلع على بطلانها واستخفّ بها وعزم على الاهتمام بالأمر الوحيد الذي خُلق الانسان لاجلهِ اعني عبادة الله تعالى وخلاص النفس فهجر العالم وهرب سرًّا من بيت ابيهِ وذهب الى أقصى براري سورية في نواحي بلاد العرب واختار هناك خلوةً وبنى فيها قلّايةً واطئةً ضيّقةً حتى انهُ لم يكن يقدر ان يكون فيها لا واقفًا ولا ممتدًّا بالتمام . فشرع يعيش هناك عيشةً ملئكيةً متغاضيًا عن الامور الارضية ومناجيًا الله سبحانهُ بصلواتٍ متواليةٍ ملازمًا الصوم الدائم لانهُ لم يكن يأكل في النهار الاّ قليلاً من الخبز عند المساء لانهُ اراد ان يستمرّ كل حياتهِ جائعًا وعطشان . فلما رأى الله تعالى عبدهُ قد جحد كل لذة حسية حبًّا لهُ ملأ نفسهُ من التعزيات الروحية بواسطة موهبة الصلاة العقلية بحيث كان يقطع فيها اكثر النهار والليل وبها حصلت لهُ معرفة سامية بحقائق الديانة وقد كان يتعجب من جهل الذين ينهمكون في طلب خيور الدنيا

وبعد اعوام انتشرت رائحة قداستهِ وبرهِ فزارهُ كثيرون منهم شابان اسم احدهما اوسابيوس والآخر اغابيتوس وتتلمذا لهُ وبارشادهِ صارا عن مدة يسيرة من ذوي الفضائل العظيمة وبنى هذان التلميذان قلالي كثيرة من اجل الذين يريدون ان يتتلمذوا معهما للقديس . وقد كثر عدد تلاميذهِ جدًّا فاقام وقتئذٍ اوسابيوس رئيسًا عليهم لان القديس مركيانوس لم يُرد ان يفارق قلّايتهُ الحرجة الضيقة . ولم يكن يدع احدًا من التلاميذ بصرهُ او يكلمهُ غير اوسابيوس الذي كان يأخذ عنهُ التعاليم والنصائح الضرورية لتدبير الرهبان فاوسابيوس هذا رام يومًا ان يرقب القديس سرًّا ليعرف ماذا يصنع في قلّايتهِ فاتى ليلاً وشرع يتفرّس اليهِ من كوّة صغيرة فابصر فوق هامة معلمهِ نورًا ألمع من نور الشمس وكان وقتئذٍ يقرأ الانجيل المقدس . وفي يوم آخر رأى اوسابيوس تنينًا عظيمًا راكضًا الى قلّاية القديس ليفترسهُ فهتف صارخًا ونبّه معلمهُ على الخطر اما القديس فعمل على التنين اشارة الصليب المقدس فهرب التنين حالاً

فاتفق بعض اساقفة سورية على ان يفتقدوا القديس مركيانوس وهم القديس فلابيانوس اسقف انطاكية واكاكيوس اسقف بيرية واوسابيوس اسقف كالسيس وتاودورس اسقف هيرابولي وايسيدوروس اسقف كيروس مع قوم من عظماء البلد . فلما وصلوا الى الدير وجلسوا تجاه قلّاية القديس في عيد الفصح (لانهُ لم يكن يسمح للناس ان يروهُ ويكلموهُ الاّ في ذلك اليوم) خرج القديس ولما رأى هذا المحفل الشريف اخذهُ خجل مقدّس واستمرّ قدامهم صامتًا متضعًا في نفسهِ زمانًا طويلاً وحينئذٍ قال لهُ احد العظماء الحاضرين اعلم يا ايها الاب المكرّم ان هولاء الاساقفة المحترمين قد اتوا اليك ليسمعوا شيئًا من تعليمك مفيدًا للخلاص . فاجاب القديس قال ها هوذا الباري تعالى يخاطبنا على الدوام بواسطة مخلوقاتهِ . ويعلمنا بانجيلهِ المقدس ويبيّن لنا طريق الخلاص ويحثنا على السلوك فيها متوعدًا بالعذاب ومشجعًا باظهار الاجر ومع ذلك لا ننتفع من كل هذه شيئًا البتة فكيف يمكن ان كلام مركيانوس الخاطئ يفيدكم شيئًا . قال هذا وصمت

ومرة أخرى افتقدتهُ أختهُ مع اليبيوس ابنها . اما القديس فلم يرد ان يكلمها ولا ان يبصرها . بل انما اذن لابنها ان يدنو منهُ فكلمهُ كثيرًا في امر خلاص نفسهِ وفي انتهاء المخاطبة قدّم اليبيوس لخالهِ القديس عطايا جزيلة من اجل ديرهِ . فسألهُ القديس . هل اعطيت الاديرة التي مررت بها مثل هذه العطايا فقال لهُ اليبيوس اننا ابقينا لك كل شيء . حينئذٍ قال لهُ القديس اني لا اقبل هذه العطايا لكونها مقدمة لي عن محبةٍ بشريّةٍ

قد كان القديس مركيانوس ينفر من الاراطقة نفورًا

كليًّا ومن ثم لما عرف ان احد السيّاح المعتبر بتقشفهِ لم يذعن لامر الحبر الروماني بتعييد عيد الفصح في يوم الاحد الواقع بعد اليوم الرابع عشر من قمر شهر اذار ذهب اليهِ وكلّمهُ بغيرة متقدة مبيّنًا لهُ جسامة خطيئة مخالفتهِ لأمر الكنيسة ولكون الشيخ لم يرعوِ عن ضلالهِ انفصل عنهُ القديس واعتدّهُ مشاقًّا الاَّ ان ذاك السائح استفاق اخيرًا على خطيئتهِ وتاب عنها طائعًا وقال عند موتهِ نادمًا على انشقاقهِ طوبى للذين يسلكون دائمًا في طريق البرّ ولا يحيدون عن سُنَن الرب .

وكانت وفاة القديس مركيانوس في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني نحو انتهاء الجيل الرابع

اليوم الثالث

وفيهِ ترجمة القديس ملاكيا الاسقف

ان انتساخ تهذيب الاخلاق والارتباك الناشئ عن الحروب المتوالية كانا قد محوا من ايرلندا روح الديانة والتقوى واوقعاها في التوحش البربري والمعايب الفاحشة التي تنشأ عن ذلك عادةً فولد حينئذٍ ملاكيا الذي كان الله تعالى قد اختارهُ لان يعيد هذه الكنيسة الى ما سلف لها من الرونق والزهوة ولقّبهُ بعض المؤلفين الايرلنديين بومُرْجر . وكان ذلك في اواخر الجيل الحادي عشر في مدينة ارماغ وابواهُ من عشيرة كريمة النسب وفاضلان الى الغاية

واعتنت أمهُ بتربيتهِ على مخافة الرب لهُ المجد ولما نما وصار قادرًا على التعلُّم فُوّض امر تعليمهِ وتثقيفهِ الى معلمين معتبرين لتقواهم فدرس بأرماغ قواعد الغراماطيق واما والدتهُ فلم تصرف نظرها عنهُ ولم تزل تبثُّ فيهِ اخصّ عواطف الدين وارتسمت حينئذٍ تلك العواطف في قلب الفتى ملاكيا حتى لم يدركها الامحاء فيما بعد . وفي الجملة فقد كان لأبن الجانب لطيف الطباع كثير الاحتشام امينًا في عمل المفروض عليهِ عاكفًا على خدمة الذين يساكنهم وقد عجب الناس من اقتصادهِ وعفّة نفسهِ ومحبتهِ للامانة وتباعدهِ عن لهو الفتوّة باسرهِ بحيث زاد على اساتيذهِ فضيلةً كما زاد على رفقائهِ الطلبة نجاحًا

وكان في سياق دروسهِ يجتنب كل ما ربما يدلُّ على التظاهر وان رياضات توبتهِ الخارقة العادة لم يكن يعلم بها الاَّ الله وحدهُ ولهذا كان يتحاشى المجد الباطل وما كان يلبث في الكنيسة على قدر ما كان يشتهي من طول الزمان وقد تفرّغ للصلاة في امكنة منفردة وكان اذا اتفق انهُ استسلم في الصلاة الى شدّة عواطفهِ وغيرتهِ يحترس كل الاحتراس كي لا يراهُ احدٌ وكان في التنزُّه مع اترابهِ يترك لهم التقدُّم في المشي لتحصل لهُ حريَّةٌ لان يناجي الله بالابتهالات القلبية المقترنة بحرارة العبادة . ولكن لما وجّه نيتهُ الى ان يتعلم الفن العظيم فنَّ امانة ذاتهِ وتخصيص نفسهِ لخدمة الله فوّض امرهُ الى ارشاد ايماريوس الذي كان يعيش عيشة ناسكٍ في قلاّية قرب كنيسة ارماغ . ولاجرم ان تصرُّف شابٍّ فاضل كهذا قد حيَّر المدينة كلها فكثيرون جعلوا ذلك موضوع استهزائهم وآخرون نسبوهُ الى السرسام او على الاقل الخفّة واما احبّاء القديس فاغتموا من الامر مزيد الغم ووبّخوهُ عليهِ توبيخات مرّة ولم يفهموا ان شابًّا ذا مزاجٍ لطيف في الغاية وآمالٍ قويّة في ان ينجح في الدنيا عزم ان يسلك هذه الطريقة التي يروعهم مجرَّد الافتكار فيها فضلاً عن انها كانت تظهر لهم دنيئة حقيرة غير ان ملاكيا لم يضطرب من كل ما قال لوّامهُ فوجب لوداعتهِ وتواضعهِ الانتصار على العالم وعلى اهوائهِ ولكي يكون اهلاً لان يحبَّ الله حبًّا كاملاً حكم على نفسهِ كما قال القديس برنردوس في ترجمة القديس ان يسكن مكانًا كالقبر وخضع لترتيب غيرهِ اذ لم يكن من الذين يريدون ان يصيروا زيبًا قبل ان يُحصرموا ويعلّموا قبل ان يتعلّموا

فان انقياد ملاكيا للطاعة وحبهُ الصمت وحرارتهُ في الصلاة ورغبتهُ في التقشف ورياضات الامانة كل ذلك بشّر بنجاحهِ وترقّيهِ في سُلَّم الكمال وأضحى عزيزًا على استاذهِ واعطى قدوةً صالحةً لكل اولئك الذين عابوا سيرتهُ اوّل الامر وما لبثوا ان بدلوا استهزاءهم عليهِ بالتعجب منهُ حتى ان كثيرين لكثرة ما أثّرت فيهم قدوتهُ الصالحة سلكوا هذه الطريقة التي انتخبها لنفسهِ . فارتضى ايماريوس بان يقبل اكثرهم تعبدًا وصارت شيئًا فشيئًا جمعية نساكٍ وكان ملاكيا مثالاً وقدوةً للجميع ولو كان يعتبر نفسهُ كأحقرهم ويحكم انهُ غير اهلٍ ان يسكن مع خدّام الله المشار اليهم وبالنتيجة انهُ قد اتصل بمثل هذه الاستعدادات الى مرتبة سامية من الكمال

فظنَّ ايماريوس رئيسهُ وسيلاسيوس رئيس اساقفة ارماغ ان مجد الله يقتضي رسمهُ كاهنًا ومن ثمّ رسمهُ سيلاسيوس غير

ناظر الى مقاومتهِ شمّاسًا انجيليًّا ثم رسمهُ كاهنًا ولم يكن عمرهُ اكثر من خمس وعشرين سنة يوم ارتسم كاهنًا مع ان المرتسم كان يجب بحسب القوانين وقتئذٍ ان يكون ابن ثلاثين سنةً ولكن وجد في استحقاقهِ سببًا عادلًا للاعفاء من القانون المذكور

فجعلهُ رئيس الاساقفة في ذلك الوقت نائبًا عنهُ لينذر الشعب وفوَّض اليهِ السعي باستئصال العادات السيئة القديمة العهد التي كانت قد شوَّهت وقبحت بهاء كنيسة ايرلندا فقام ملاكيا بمقتضيات وظيفتهِ من جهة الغيرة كما من جهة النجاح فان النقائص هُذِّبت والعوائد البربرية انتسخت وزالت والخرافات اقتُلعت ورأى الناس انهُ قد جدَّد في كل موضع استعمال قواعد الانجيل الصادقة فكان كشهاب بين الغاب سبَّب حريقًا لا يدفعهُ شيء. فوضع عدة قوانين لحفظ التهذيب الكنائسي واعاد الى جميع كنائس الابرشية الفرض القانوني الذي انتسخ حتى في المدن منذ هجوم الدينمركيين ونجح في ذلك بسهولة لانهُ تعلم منذ حداثتهِ الترنيم الكنائسي. والاعظم اهميةً انهُ ارجع استعمال الاسرار ولاسيما سرّي التوبة والتثبيت اللذين كانا في زوايا الاهمال منذ زمن مديد واخذ الاحتياطات اللازمة ليصير عقد الزواج بحسب القوانين الكنائسية ومع ذلك فخادم الله خشي انهُ لا يكون مضطلعًا بمعرفة القوانين المقدَّسة لينفذ غاية الاصلاح الذي كان يتعلَّق بالتعليم وكان يولّد لهُ هذا الخوف في الغالب اضطرابًا فطلب من اسقفهِ من ثمَّ فاذن لهُ ان يذهب ويقضي حصةً من الزمان عند ملكي اسقف ليسمور فكان هذا الحبر الانكليزي مولدًا وراهب وينشستر مشهورًا بعلمهِ وبرّهِ ومعتبرًا بمنزلة لسان حال ايرلندا فاحسن مقابلة ملاكيا وهذَّبهُ في كل ما يتعلق بالخدمة الالهية وارشاد النفوس ونرجاه في الوقت نفسهِ ان لا يحرم كنيسة ليسمور الفوائد التي كانت تحصل لها من خدمتهِ

وكانت ايرلندا اذ ذاك منقسمةً الى ممالك صغيرة وكُرماك ملك مونستر الذي سقط عن عرش الملك بمكر اخيهِ في مدة اقامة هذا القديس بليسمور التجأ في بليتهِ هذه الى مَلكي الاسقف لا للحصول على تاج الملك بل ليتعلم منهُ وسائط خلاص نفسهِ ولما شاع خبر وصولهِ الى ليسمور استعد الاسقف الى استقبالهِ بما يليق من الاجلال لمثل عظمتهِ الملوكية غير ان الملك ابى ذلك وصرح انهُ يرفض دائمًا المجد الدنيويّ ويطلب ان يعيش بين الكهنة القانونيين ويتأكد من قبل التوبة الفوز بالسعادة الابدية فبعد ان اعلمهُ الاسقف ما تقتضيهِ الذبيحة التي كان يريد تقديمها عين لهُ مقرًّا واقام ملاكيا معلمًا لهُ وكان معاشهُ على الخبز والماء فكرماك انتعش بمواعظ هذا القديس فذاق ما بخدمة الله من العذوبة والحلاوة وان التوبة التي أخذت بمجامع قلبهِ هيَّأت لهُ نبع دموع كان يغسل وينقي بها على الدوام ادران نفسهِ وكان كداود النبيّ يكرّر بعواطف التوجع والثقة هذه الآية الشريفة انظر يارب الى تواضعي ومذلتي واغفر جميع سيئاتي. وقُبلت صلواتهُ فوق ما كان يشتهي فنال من يد الله خيور الدنيا ومواهب النعمة وان احد الملوك المجاور لهُ اغتاظ من اهانة الذات الملوكية فاهتمَّ باعادتهِ الى عرشهِ وانطلق الى قلايتهِ وكان تفاوض معهُ في ذلك من جهة فائدتهِ الذاتية فلم يقدر ان يجذبهُ الى مرادهِ ومن ثمَّ قال لهُ ان الديانة والعدالة توجبان للرعية حقًّا على الملك ولكن كل اجتهاده ذهب على غير طائل لبقاء الملك على عزمهِ الا ان ملكي وملاكيا عاوناهُ على ذلك وبيَّنا للملك كُرماك اجلى بيان ان الله لا يريد انهُ يتمادى في المقاومة بل ان يعود الى مملكتهِ ولذلك توجَّه اليها وجلس على العرش وحفظ على الدوام في قلبهِ انعطافًا حبيًّا نحو ملاكيا وما برح يكرمهُ كما يكرم الابن اباهُ

وبعد قليل من الزمان استدعى سلاسيوس وايماريوس ملاكيا الى ارماغ الى دير بنكور الذي بامريَّة دوفن وكان الدير وقتئذٍ على حالٍ يُرثى لها ولما كان دَخْلهُ تحت يد عمٍّ القديس تمكن من اصلاحهِ وترميمهِ وغبَّ ان تنزَّل لهُ عمهُ انفرد ليتهيَّأ لهُ ان يجي هناك حفظ القانون واراد الخضوع لارشاد ملاكيا والحاصل ان دير بنكور تحسن في مدة وجيزة وحصلت لهُ هيئة جديدة

فهذا الدير وان يكن عدد رهبانهِ اقلَّ مما كان قديمًا فقد اضحى مدرسةً مشهورةً للعلم والتقوى وترأس عليهِ خادم الله برهةً من الدهر ونقول مع القديس برنردوس انهُ كان هناك بسيرتهِ قدوةً حيَّةً ومراءةً ترى فيها كل الفضائل وكتابًا منفتحًا يستطيع كل احدٍ ان يتعلم منهُ طرائق الكمال الرهباني ولما كانت تقشفات رهبانيتهِ لا تكفي لحرارتهِ في العبادة استعمل تقشفاتٍ خصوصية واخفاها عن معرفة

الناس قدر استطاعتهِ ولاجرم ان شفاءهُ كثيرين على نوع عجيبٍ معجز اضاف الى اشهار قداستهِ رونقًا جديدًا . قال القديس برنردوس ولكن حياتهُ المقدَّسة كانت اعظم من عجائبهِ ونحن نذكر الواقعة الآتية بحسبما رواها القديس برنردوس نفسهُ فنقول كان للقديس ملاكيا اخت منقادةٌ لملاذّ الدنيا فماتت هذه فجعل يسأل الله كلما قرَّب ذبيحة القداس ان يعاملها بالرأفة ولما ترك ذلك شهرًا نُبِّئ بحلم ان اختهُ تنتظر في المقبرة وقد اخذ منها الغم والتوجُّع مأخذًا عظيمًا وأتى عليها ثلثون يومًا لم تذق فيها قوتًا روحيًّا فعلق يُصلّي من اجل اختهِ وقدَّس وسأل الغير ان يقدّسوا على نيتها وظهر لهُ بعد يسيرٍ من الزمان انهُ رآها على باب الكنيسة ثم في الكنيسة نفسها ظهرت لهُ اخيرًا وهو على المذبح بعد ايام بفرح بين جماعةٍ من ارواح الطوباويين فالقى ذلك في قلبهِ تعزيةً كبيرةً

وما بلغ السنة الثلثين من عمرهِ حتى انتُخب اسقفًا لمدينة كنُّور الواقعة الآن بامريَّة انتريم اما هو فأبى ذلك ولم يرضَ بانتخابهِ اسقفًا لكن سيلاسيوس وايماربوس امرا ان لايلتفت الى ميل قلبهِ فقبل انفاذًا لامر الطاعة وكانت رعيتهُ اقوامًا برابرةً متوحشين ومتلطخين بمعايب فظيعة وبالنتيجة ما هم نصارى الّا بالاسم فخاطبهم بدعةٍ ممتزجة بشدةٍ وهذَّبهم وكان اذا لم يحضروا الكنيسة يذهب في طلبهم ويرشدهم برأفةٍ ابويَّةٍ واغلب الاحيان ببكاء الى ان يتأمَّلوا ويتبصَّروا في احوال سيرتهم وقرَّب عنهم الى الله ذبيحة قلبٍ متخشع متواضعٍ وكان يحيي الليل احيانًا بالصلاة لكي يتوبوا وزار ماشيًا أبعد الاماكن في ابرشيتهِ وكابد بالصبر العجيب ما نزل بهِ من الاهانات والمتاعب ولهذا سرى تأثير اقوالهِ وافعالهِ رويدًا رويدًا في اقسى القلوب ولا يقام على ذلك النكير لانهُ اعاد استعمال الاسرار المقدَّسة المتواتر ولأن الرعاة ذوي الغيرة عاونوه واستأصلوا الجهل والاعتقادات الباطلة حتى رأى الناس التقوى قد زهت من كل جانبٍ . وعدُّوا مثل معجزةٍ توبة امرأةٍ كانت غايةً في الغضب وشراسة الاخلاق حتى لم يكن يحتملها الذين يقتربون منها فجعلها ملاكيا كما روى القديس برنردوس الطف واصبر من سائر النساء وامرها باسم يسوع المسيح ان لا تسلم نفسها فيما بعد الى تلك النقيصة وفرض عليها قانونًا مناسبًا للزلَّات التي اعترفت بها وبالنتيجة فلم يبقَ شيءٌ يشوّش اطمئنان نفسها

ولم ينقضِ الّا بضع سنين حتى فتح مدينة كنُّور ملك أولستر ونهبها واما ملاكيا فذهب بمائةٍ وعشرين من تلاميذهِ وتوجه الى مدينة مونستر وبنى هناك ديرًا ايراك الذي قال قوم انهُ قرب كورك وقال آخرون انهُ بجزيرة بحيرين حيث أقام ايماربوس اولًا وبينما كان يرعى رهبانيتهُ بالسلام وقدوةً لرهبانهِ بغيرتهِ وتواضعهِ اذ اصاب سيلاسيوس رئيس اساقفة ارماغ مرض اماتهُ فعيَّن ملاكيا خليفةً لهُ وناشد الذين كانوا لديهِ باسم القديس بطريسيوس منشيء اسقفية ارماغ ان يبذلوا الجهد في تنصيب ملاكيا وان يبعدوا كل دخيل ولم يكتفِ بتصريحٍ شفاهي بل كتب في هذا الشان الى وجوه البلاد وخصوصًا لملوك مونستر العالية والواطية فأراد من ثمَّ ان يقطع العادة المشككة التي كانت منشأ الاضطراب في كنائس ايرلندا وفي الحقيقة ان عائلة سيلاسيوس كانت من اشرف عشائر الابرشية ومتمتعة بالاستيلاء على اسقفية ارماغ منذ جيلين حتى كانت تعتبرها كميراثٍ لها وقد اشتدَّ هذا التطرُّف حتى عند عدم وجود الاكليريكيين كانت تسلم الادارة الى اناس عاميين واحيانًا الى اشخاص متزوجين من هذه العائلة فهؤلاء الدخلاء تمتعوا بدخل كرسي الاسقفية وعاملوا كالظالم بقية اساقفة الجزيرة

وانتقل سيلاسيوس الى رحمة مولاهُ وأُنفذت مآربهُ وانتخب ملاكيا انتخابًا قانونيًّا ليكون خليفةً لهُ غير ان موريسيوس الذي كان من عشيرة سيلاسيوس لم يعبأ بهذا الانتخاب ووضع يدهُ على املاك المطرنيَّة واما القديس عليهِ السلام فأبى ان يؤيّد قانونية حقهِ واحتجَّ انهُ يخاف عواقب تصرُّفٍ لا بدَّ ان يثير عليهِ اضطرابًا وربما تسبَّب عنهُ سفك الدم فمرَّت ثلث سنين على هذه الحالة واخيرًا جمع ملكي اسقف ليسمور وجيلبرتوس اسقف ليمريك الذي كان نائب البابا في ايرلندا الاحبار وأعيان الجزيرة ملافاةً للشك فألحوا على ملاكيا بان يأتي لمساعدة الرعية التي ائتمن على سياستها وهدَّدوهُ بالحرم اذا تمادى في رفضهِ التوجُّه الى الابرشية فانقاد لكلامهم ولكنهُ قال الى اعضاء الجمعية قد اردتم موتي وانا اطمع رجاء الاستشهاد لكن اذا دارت الامور كما ترغبون لي فيكون لي الاذن متى تقرَّر النظام ان اعود الى عروسي الأولى ومحبوبتي الفقيرة . فلما قبلوا هذا الشرط اخذ يتعاطى اعمال المطرنية

المشار اليها في الاقليم كلهِ الاَّ مدينة ارماغ التي أبى ان يدخلها ما دام موريسيوس حيًّا مخافة ان ينشأ عن ذلك هيجان وتحدث ثورة فمات موريسيوس عقب سنتين بدون ان يرجع عن طمعهِ ولذلك اقام نيجيلوس احد اقاربهِ خلفًا لهُ غير ان ملك كُرماك واساقفة الاقليم اقاموا ملاكيا الذي كان من المسلم انهُ هو مطران ايرلندا الشرعي لاغيرهُ وهو في عمر ثماني وثلثين سنةً . واضطرَّ نيجيلوس الى الفرار من ارماغ سنة ثلث وثلثين بعد المائة الحادية عشرة للمسيح غير ان فرارهُ لم يرجع السلام الى تلك الابرشية لانهُ اختطف ذخيرتين كان لهما في قلوب الايرلنديين احترامٌ كبيرٌ واما اسافل الناس فكان في اذهانهم ان الذي يتولَّى عليهما هو المطران الشرعي . والذخيرتان كتاب الاناجيل الطاهرة المختصة بالقديس بطريسيوس وعكَّاز يقال لهُ قضيب يسوع وكان مغشًّى بالذهب ومرصَّعًا بالحجار الكريمة وبهذه الواسطة تحزَّب لنيجيلوس أحزاب عديدة وأثارت عشيرتهُ على ملاكيا اضطهادات شتَّى ودعاهُ ذات يوم واحد من ذوي قرابة نيجيلوس الى بيتهِ بحجة ان يحادثهُ ولكن كانت نيتهُ ان يقطع خيط حياتهِ . فرئيس الاساقفة رغمًا عن كل ما استطاع احبَّاؤهُ ان ينصحوهُ بهِ توجَّه الى مجتمع القوم وفي نيَّتهِ ان يقتحم الموت حبًّا بالسلام ولم يكن في صحبتهِ الاَّ ثلثة من تلامذتهِ كان في قلوبهم مثل تلك المآرب فما دخل بين اعدائهِ الاَّ قد شعروا بانهم خُطفوا من شجاعتهِ ولطافتهِ السماوية بحيث ان الذي كان قد ازمع على قتلهِ قدَّم لهُ من التكريم ما يجب لمثلهِ وتمَّ الصلح من الطرفين ولم يمرَّ الاَّ قليلٌ من الزمان حتى ردَّ نيجيلوس الى ملاكيا كتاب الاناجيل والعكاز اللذين غصبهما واما سائر اعداء القديس فاكثرهم بادوا بشقاء بقضاء الله العادل

ان الوَباء دمَّر ابرشية إرماغ ولكن ملاكيا منع سريانهُ بصلواتهِ وحينما رفع عن تلك الكنيسة الظلم والعدوان واعاد اليها حسن الترتيب والنظام ولم يعُد لهُ فكرٌ حينئذٍ الاَّ بأن يتنحَّى عن الاسقفية كما كان سبق الاتفاق في ذلك واقام على الكرسي اكليريكيًّا فاضلاً اسمهُ جيلاسيوس ثم رجع الى كرسيهِ الاوَّل الذي تعلَّق بكرسي دوفن برهةً طويلةً وظنَّ ان الله يتمجَّد بقسمتها فرسم أسقفًا ليرعى كنيسة كنُور وابقى لنفسهِ ابرشية دوفن وكانت هذه أحقر من تلك وافقر وانشأ جمعية الكهنة القانونيين الذين اشترك معهم للتعاون على الصلاة والتأمل بقدر ما كانت تاذن لهُ بقيَّة ما عليهِ من الفروض ووضع ايضًا قوانين أُخرى كبيرة الفائدة

وان رغبتهُ في ان يثبِّتها الحبر الاعظم دعتهُ الى ان يسافر الى رومية وكان من مرادهِ ايضًا ان ينال البَلِّيوم لكرسيَّ ارماغ ولكرسيٍّ آخر ميترو بوليطيّ قصدهُ سيلاسيوس غير ان البابا لم يستصوب انفاذ ذلك لانَّ الكرسي الاوَّل كان من زمانٍ طويلٍ محرومًا هذا الشرف وذلك من اجل التغاضي والعوائد السيِّئة التي ادخلها الاساقفة الدخلاء الذين جلسوا على ذلك الكرسي بخلاف القانون . وفارق ملاكيا ايرلندا سنة تسعٍ وثلثين ومائةٍ والف وقضى قطعةً من الدهر بمدينة يورك مع كاهنٍ فاضلٍ قديسٍ اسمهُ سيكار . ولما كان بفرنسا زار دير كليرفو وتعرَّف هناك بالقديس برنردوس الذي احترمهُ كثيرًا قدر ما انعطف اليهِ وقد استفاد فوائد روحية بأمثلة الفضيلة الكبيرة التي رآها فلوكان لهُ حريَّة لقضي فيهِ بقية عمرهِ . هذا وداوم على كرهٍ منهُ المسير للذهاب الى ايطاليا ولما كان بمدينة ايفري من أعمال بيمونت اعاد العافية الى ولدٍ كان قد اشرف على الموت وعند بلوغهِ الى رومية مثل لدى البابا اينُوشنسيوس الثاني فاستقبلهُ باكرامٍ لكنهُ أنكر عليهِ الاذن الذي طلبهُ في تخصيص نفسهِ لرياضات التوبة في دير كليرفو واثبت الحبر الاعظم كل ما عملهُ في ايرلندا واقامهُ نائبًا عنهُ في الجزيرة المشار اليها وأذن لهُ في البلِّيوم ولما اجتاز بدير كليرفو وهو راجعٌ من ايطاليا بارك ثانيةً على رهبان هذا الدير كما قال القديس برنردوس وفارقهم وابقى عندهم قلبهُ وأربعةً من رفقائهِ الذين نذروا فرجعوا الى ايرلندا وانشأوا دير ميلّيفون الذي تفرَّع منهُ عدَّة أديرة للرهبانية نفسها . اما القديس فانطلق الى اكوسيا اجابةً لطلب الملك داود ليشفي ابنهُ هنري الذي كان واقعًا في داءٍ عضالٍ فقال لابنه المريض تشجَّع وحقَّق لهُ انهُ لا يموت هذه المرة ورشَّ عليهِ ماءً مصلًّى ولما كان الغد اذا بهنري قد نصل من دائهِ ونال الشفاء التامّ

ولما انتهى ملاكيا الى ايرلندا استقبلوهُ بعلائم الفرح وقام بغيرةٍ مفيدة بالوظيفة التي وُجِّهت الى عهدتهِ من الحبر الاعظم المشار اليهِ فعقد مجامع مختلفة ووضع قوانين حسنةً لإصلاح العوائد السيِّئة ولم يزل الله يعاضدهُ بموهبة صنع

المعجزات . وتعوَّد القديس كرلوس بورماوس ان يذكّر كهنته بواحدةٍ من تلك المعجزات عند تحريضهم على توزيع سرّ المسحة على المرضى في الوقت المناسب ويذكرها القديس برنردوس قال ان امرأةً كانت قاطنة قرب دير بنكور ولما اخذت في النَّزع بعث اهلها في طلب القديس ملاكيا فجاء وابدى التحريضات التي تناسب مقتضى مثل تلك الحال وجعل من الواجب ان تُدهن المريضة بالزيت المقدَّس ولكن احبّاءها اظهروا ان الاحسن تأجيل ذلك عليها الى صباح الغد وانها ستكون متأهّلة لقبوله على وجهٍ أفيد فلم يخالفهم الاسقف بل وافقهم على ذلك ولكن بزيد الكرم وعمل فوق المريضة علامة الصليب الكريم واعتزل في غرفتهِ ولما خيَّم الظلام وقع اهل البيت جميعًا في اضطرابٍ وبلبال فلم يكونوا الاَّ باكين نائحين وانبأ صراخ الخدام وولاولهم ان ربّة البيت قد قضت نحبها فبادر الاسقف الى مأوى المريضة فاذا هي ميتةٌ حقًّا فرفع يديهِ الى السماء وقال عن تحرُّقٍ انا الذي أثِمت وحدي في هذا التأجيل الرديء تأجيل سرّ المسحة وطفق يُصلّي ويحثّ المحضر على ان يشتركوا معهُ في الصلاة وقطع تلك الليلة على هذه الحال حتى اذا طلع الفجر أعطت الميتة علامات الحياة ففتحت مُقلتيها وعرفت ملاكيا . فبُهت من ذلك الحاضرون وتحوَّل غمّهم فرحًا ودهنها القديس بدون مهلةٍ بالزيت المقدَّس معتقدًا مع الكنيسة ان هذا السرّ موضوعٌ لغفران الخطايا وتخفيفًا عن جسد المريض حسبما هو انفع لخلاصهِ والحاصل ان هذه المرأة نالت العافية وقضت بقيَّة أيامها في التوبة ثم ماتت موت الأبرار

ولما كان من مآرب هذا الاسقف القديس ان يشعل نار التقوى في القلوب صرف كل جهدهِ الى زيادة رونق العبادة الخارجية فامر ان تُقام ببنكور كنيسةٌ من حجر كالكنائس التي رآها في أسفارهِ المتعدّدة ولهذا رمَّم كنيسة دونفن الكاتدرائية المشهورة بوجود قبر القديس بطريسيوس فيها والتي نُقل اليها مذ ذاك جسد القديس كولمبوس وجسد القديسة بريجيتا

واذ كان لايزال يحيي شهوة اعادة كنيسة ايرلندا الى زهوتها الاولى ازمع ان يرجع الى فرنسا ليقابل البابا اوجانيوس الثالث الذي كان قدم المملكة المذكورة فان اينوشنسيوس الثاني مات ولم يرسل البلّيوم للذين وعدهما به وكان الحبران الاعظمان ساليستينوس الثاني ولوصيوس الثاني ماتا كذلك منذ اقل من سنة ونصف فجمع ملاكيا اساقفة ايرلندا ليفاوضهم فانتخبوهُ مبعوثًا من قِبَلهم الى الكرسي الرسولي فسار ملاكيا نحو انكلترة وحينما كان عند كهنة جيسبورن شفى بالماء المبارك امرأةً اصابها داء السَّرطان ورجع البابا الى رومية قبل بلوغ القديس ملاكيا الى فرنسا

ولم يُرد ملاكيا ان يسير الى ايطاليا بدون ان يزور دير كليرفو فذهب الى الدير ووصل اليهِ في شهر تشرين الاوَّل سنة ثماني وأربعين بعد المائة الحادية عشرة للمسيح فاكتنفهُ القديس برنردوس ورهبانهُ باعظم سرورٍ لكن هذا الفرح لم يبقَ برهةً طويلةً

ولما قدَّس ملاكيا يوم عيد القديس لوقا أصابتهُ حمّى شديدة فطرحتهُ في الفراش فتبادر الرهبان الى ان يساعدوهُ بجميع ما يفتقر اليهِ واما هو فاكّد لهم مع تشكرهِ لمحبتهم ان اجتهادهم لا يحصّل النتيجة التي يرجونها وانهُ لا يشفى البتة فكان يعرف حسبما قال القديس برنردوس اليوم الذي يدعوهُ الله اليهِ . واراد مع فرط ضعفهِ ان يذهب الى الكنيسة ليتناول القربان المقدَّس زاد الراحلين الى الأبدية واذ انطرح على الرماد استحلف الحاضرين ان لا يزالوا يسعفونهُ بصلواتهم من بعد موتهِ ووعدهم من جهتهِ ان يذكرهم متى رأى السيد لهُ المجد واوصاهم ايضًا بجميع النفوس المسلمة الى عنايتهِ وانتقل الى رحمة الله يوم الاثنين من تشرين الثاني سنة ثماني واربعين ومائة وألف وفي السنة الرابعة والخمسين من عمرهِ أُدخلت جثّتهُ الى معبد البتول وحملهُ رؤساء الاديرة الى القبر وكان في الذين شهدوا جنازتهُ شابٌّ مفلوج اليد بحيث لم يكن يستطيع ان يعمل عملاً فقربهُ اليهِ القديس برنردوس ووضع يدهُ المفلوجة على يد الاسقف القديس فشُفي الشابّ من ساعتهِ فقال العلاَّمة القديس نفسهُ في كلامهِ على القديس ملاكيا قال لرهبانهِ لنرجُهُ ان يساعدنا باستحقاقاتهِ فهو الذي هذَّبنا بقدوتهِ الصالحة وثبَّتنا بعجائبهِ . وبعد ان رنَّم في جنازتهِ قداس الموتى لراحة نفسهِ أضاف القديس برنردوس صلاةً يتوسل بها الى الربّ بشفاعتهِ لانهُ عرف بوحيٍ وهو على المذبح ان ملاكيا في مجد الله كما روى ذلك تلميذهُ جوفوروا في الكتاب الرابع من تآليفهِ في سيرة استاذهِ الطوباوي وأُثبتت قداسة ملاكيا قانونيًّا ببراءةٍ من الحبر الاعظم ارسلت الى مجمع الرهبان

السيسترسيانيين العام (مترجم عن غودسكار)

اليوم الرابع

وفيهِ ترجمة القديس كرلوس بروماوس
اسقف مدينة ميلان

وُلِد هذا القديس ببلاد ايطاليا سنة ثمان وثلثين وخمسمائة والف وهو من وجوه تلك البلاد وابواهُ من اهل الوَرع والبرّ مشهوران بالتقوى خصوصًا والدهُ فانهُ كان مزينًا بقلائد الفضائل التي منها السخاء على المساكين . ومن فرط جودهِ تبيّن للبعض انهُ مسرفٌ متجاوز الحدود فنصح لهُ احد أقربائهِ واصدقائهِ قائلاً ان كثرة أولادهِ تقتضي منهُ ان يكف عن هذه الصدقات الوافرة فأجابهُ الامير ان الله تعالى سيهتمّ باولادهِ على حسب اهتمامي بالمساكين اما ابنهُ كرلوس فأظهر الله قبل مولدهِ ما كان مزمعًا ان يصنع بهِ في العالم وذلك بنور سماوي يشبه اشعّة شميسة تخرج من بيت امها وقت المخاض وتدل الناظرين على نور النعمة التي اتصف بها فيما بعد هذا الولد المبارك والحال انهُ اصبح منصبًّا على العبادة محبًّا للفقراء ومحسنًا اليهم منذ زمن طفوليته . فلما بلغ السنة الثانية عشرة من عمرهِ دخل في جماعة الاكليروس وحينئذٍ سلمهُ عمهُ الذي كان أكليريكيًّا وظيفة كنائسية ذات مرتّبٍ وافرٍ ولكن الشاب القديس كان مع شبيبتهِ عارفًا بالقوانين الكنائسية فأخذ يقول لابيهِ يا ابتاهُ مرتّب الاكليريكي هو دخل المحتاجين ومن ثم ينبغي ان كل ما يبقى منهُ بعدُ المصروف اللازم لقوتهِ ولخدمة الكنيسة يُوزَّع على الفقراء لا على اهل بيتهِ ففرح والدهُ من نصيحتهِ هذه فاخذ يوزع المرتب بحسب مرام ابنهِ ويعطيهِ حساب توزيعهِ

ولما فرغ من درس الفلسفة والعلوم الادبية في مدينة ميلان ارسلهُ والدهُ الى مدرسة مدينة بافيا ليتعلّم العلوم السامية لاسيما علم الحقّ القانوني وهناك ألمّت بهِ تجارب كثيرة شديدة بحيث ان كثيرين من أولاد هذه المدرسة كانوا أشرارًا دنسين فلم يكتفوا بالاستهزاء على عفّتهِ واحتشامهِ بل نصبوا لهُ فخاخ الدنس بأن أدخلوا فتاة جميلة الى منزلهِ سرًّا ومرة اخرى فعل معهُ كذلك احد اقربائهِ الاّ ان الشاب النقي انتصر على هذه التجارب دائمًا بالهرب والالتجاء الى ملكة العذارى وبالمواظبة على رياضة الصلاة والاكثار من تناول القربان المقدس .

فلما انتهى من درس العلوم في بافيا وأُحصي في عدد العلما أجرى عليهِ عمّهُ الكردينال دوميدبسيس مرتّبين كنائسيين وافرَين وكان ينفقها كل سنة في مساعدة الفقراء وخدمة الكنيسة وهذا الكردينال ارتقى بعد ذلك الى عرش الخلافة البطرسية بزمن يسير اي في كانون الاول من سنة تسع وخمسين وخمسمائة والف وهو بيوس الرابع ولم يكن القديس كرلوس الاّ ابن اثنتين وعشرين سنة فرقّاهُ عمهُ الحبر الاعظم الى أسنى المناصب

فلما رأى انهُ قد قرُب زمان ارتسامهِ انفرد في دير الرهبان اليسوعيين وهناك مارس رياضات القديس اغناطيوس تحت ارشاد الأب ريبيرا معرّفهِ ونال من الله في هذا الاختلاء نعمًا كثيرةً فبعد ان ارتسم كاهنًا اقامهُ عمّهُ أسقفًا على مدينة ميلان وكانت هذه المدينة وقتئذٍ على حال يُرثَى لها وذلك من جرّى تمادي غيبة اساقفتها عنها زمانًا مديدًا ولأن الكهنة انفسهم كانوا سببًا لهذه الحال بتوانيهم في تنبيهم واجباتهم . فلما وصل القديس الى اسقفيتهِ العظمى ورأى ما هي عليهِ من سوء حال وقع في قلبهِ حزنٌ عظيم وأعدّ كل شيء لاصلاح كرم الرب فاقتدى بمشورة الرسول لتلميذهِ الاسقف (تيطس ٢ : ٧) فجعل نفسهُ مثالاً في جميع الافعال الصالحة ثم اخذ يرتّب اهل منزلهِ الذين كانوا مائة كاهن يعيشون في دارهِ وبنفقتهِ فأقام عليهم واحدًا منهم مدبرًا وأمرهم بان ياكلوا على مائدة واحدة وأمر ان يُقرأ عليهم وهم على المائدة كتاب روحيّ وكانوا في كل يوم يمارسون الصلاة العقلية مرتين وفحص الضمير وتلاوة المسبحة ورياضات أُخر ذات تقوى مفيدةٍ جدًّا لاصلاح السيرة وتقديسها وارتقى فيما بعد كثيرون منهم الى درجة الاسقفية

ثم وجّه اهتمامهُ الى اصلاح شعب المدينة وكهنتها وأقام في كل محلّةٍ معلمًا يعلّم الأولاد مجّانًا وجعل لكل معلم تعيينًا من مالهِ واستدعى الرهبان اليسوعيين وأعطاهم ديرًا في مدينتهِ وجملة اديرة في ابرشيتهِ واختار آخر الأمر اربعمائة كاهن وجعل كل واحدٍ منهم رقيبًا على جزء من الرعية وبهم كان الاسقف القديس يعرف حال خرافهِ من كهنةٍ ورهبانٍ وعوامٍ ويدبرهم تدبيرًا حسنًا ولكنهُ لم يكتفِ بذلك بل افتقد هو بنفسهِ كل الابرشية مرتين وزار جميع ما فيها من القرى والدساكر لم يترك واحدةً ووضع في كل قرية ومدينةٍ معلمين

يعلمون الاولاد مجانًا ويأخذون مرتَّباتهم من مالهِ ولله كم قاسى في هذا من المشاقّ بحيث كان غالبًا يسافر راجلاً ويكرز في كل مكان ويعرف الشعب ولم يكن يرقد الاَّ على التبن. فبهذه الوسائط اصطلح كل شيء في ابرشيتهِ

فبعد ان افتقد رعيتهُ زاد في تقشفاتهِ التي كانت أَدواتها لا تزال مصبوغةً من دمهِ فمنع نفسه من تناول جميع اللحوم والاسماك وكان فراشهُ من تبنٍ وكذلك لحافهُ وكان يقضي كل يوم ساعةً ونصفًا في ممارسة الصلاة العقلية ويصرف فيها اكثر الليل ايضًا وفي كل سنة كان يختلي عشرة ايام لممارسة رياضات القديس اغناطيوس ولو لم يزجرهُ مرشدهُ الاب ريبرا المذكور عن الافعال القشفة فرط فيها

ولما كانت في سنة الست وسبعين وخمسمائة والف فشا في مدينة ميلان طاعونٌ عظيمٌ فأشار عليهِ أَصدقاؤُهُ بالخروج من المدينة فلم يرضَ بذلك بل اعتدَّه في راعي الكنيسة خيانة فظيعة ولما رأى خدَّامهُ مستعدين للهرب شرع يعظ بغيرةٍ محثًّا اياهم على مساعدة الشعب المسيحي في ضيقهِ وضنكهِ فمكث معهُ منهم ثمانية وخدموا مثله المطعونين كل يوم وحفظهم الله من العدوى. ثم أحسن الى الفقراء بكل شيء لهُ من الفضة والذهب والامتعة الثمينة وحرَّك الاغنياء على الصدقة فقات في مدة ستة اشهر ستين الف فقيرٍ وكان يعول المطعونين الليل والنهار ويعرّفهم ويناولهم الاسرار المقدَّسة ولكي يحرك الشعب الى التوبة ويجتذب الله تعالى الى الرحمة عمل زيَّاحات مقدسة مع الاكليريكيين مرتين باصوات خشوعية وكان هو يمشي في وسطهم حافيًا حاملاً على عنقهِ حبلاً كرجلٍ اثيم مستوجب الموت مقدمًا نفسهُ ذبيحةً استغفارًا عن رعيتهِ فاستمد اخيرًا من الرب انتهاء الوباء وحدث ذلك بعد اربعة اشهر في اوائل السنة السابعة والسبعين وخمسمائة والف

ولا خلاف في ان هذا القديس الجليل كان مكرمًا ومتنفذًا في كل بلاد ايطاليا بل في الكنيسة كلها الاَّ ان الله تعالى الذي قد رسم بان المختارين يشتركون مع ابنه الوحيد في الاضطهادات قبل ان يشتركوا معهُ تقدس اسمهُ في مجده سمح بان ينهض قوم من رهبان لم يجع سعيهُ في اصلاحهم ويطلبوا قتلهُ حتى ان احدهم دخل مساءً في قلايتهِ على حين كان يُصلّي مع خدَّامهِ وأطلق عليهِ بندقيَّة محشوَّة بعدَّة كرات رصاصية فأصابت احداها وسط ظهرهِ ونفذت كل ثيابه ووسمت على لحمهِ اثرًا صغيرًا من دون تألم ثم وقعت عند رجلي القديس اما الرصاصة الاخرى فاصابت مائدة سمك خشبها مقدار اصبع ونفذتها وقد منع القديس خدامهُ عن امساك القاتل واما بقية أعدائهِ فلم يقاومهم الاَّ بصبرهِ وصلواتهِ

ولم يبلغ خبر هذه الحادثة الدوكا دي البوكرك حاكم ميلان الاَّ بادر الى رئيس الاساقفة وألحَّ عليهِ ان يأذن لهُ ان يفتّش في قصرهِ ليعرف من المجرم لكن القديس أبى ذلك وشكر الله علانيةً على حفظهِ ثم ذهب ليقضي بعض ايام في دير الكرتوسيين الذي بشارينيان لكي يجدّد ذبيحة حياتهِ التي قدَّمها الى الله تعالى

ومن ثمَّ قال البعض للقديس في ان يأمر بالبحث عن الذين جنوا عليهِ لكنهُ لم يُرد ذلك اصلاً وكان جوابهُ ان مقاومي قوانينهِ كثيرون حتى لا سبيل الى معرفة المسيء فوقع في قلب القاضي ريب مما قالهُ بعض الرهبان وأدَّاهُ ارتيابهُ على التمادي الى معرفة الحق فالاربعة الذين عملوا هذه المكيدة عُرفوا واقرُّوا جميعًا بإِثمهم بدلائل التوبة اما الاثنان منهم الشريفان فقُطع رأساهما وقُضي على الآخرين بالشنق ولما قصرت يد القديس عن انقاذهما من الموت مع كل ما بذل من السعي في هذا السبيل وجَّه اعتناءهُ الى أقاربهما واما الرجل الخامس الذي كان أخفَّ إثمًا فحُكم عليهِ بالنفي من بلاده غير انهُ لُطِّف هذا القصاص مراعاةً لخاطر القديس رئيس الاساقفة فخُلّي سبيلهُ من بعد ما قطع برهةً من الزمان في احد الأديرة. ذلك وان البابا بيوس الخامس ألغى رهبانية اولئك الرهبان لاجل ارتكابهم مثل هذه الجريمة الفاحشة وأنفق كل دخلها والحاصلات التي لها في اعمال خيرية فاهتمَّ القديس كرلوس بان يمنع قصاصهم ولكن لم يُسمع لهُ كلامٌ في هذا الشان

ثم فيما كان يمارس رياضات القديس اغناطيوس اعتراه داء المنيَّة فطلب ان يعترف اعترافًا عامًّا واستمرَّ قبل ذلك جاثيًا على ركبتيهِ مصليًا ثماني ساعات يذرف المدامع السخينة وبعد اعترافهِ وتناولهِ القربان المقدس والمسحة الاخيرة تُوفّي بسلام وهو لابس المسح في اليوم الرابع من تشرين الثاني سنة اربع وثمانين وخمسمائة والف وكان قد بلغ من العمر ستًّا واربعين سنة

اليوم الخامس

وفيهِ ترجمة القديسين غالاتيون الشهيد واپستميا الشهيدة (١)

اعلم انهُ في النصف الاول من الجيل الثالث كان زمام سورية بيد سيكوندس رجل وثني يكره النصرانية وهو من قبل سافاروس الملك فأخذ هذا يضطهدهم بكل قوّتهِ وأوحى الله تعالى الى سائح قديس يُقال لهُ أنوفريوس ان يبارح خلوتهُ ويسارع الى إعانة المؤمنين فخرج من كوخهِ ولبس ثوب شيخ صعلوكٍ واتى مدينة حمص مريدًا بهذا التنكُّر ان يدخل البيوت بسهولةٍ حتى اذا وجد مسيحيين في بيوتهم يثبتهم في الايمان فقرع ذات يوم باب بيتٍ لرجل وثني يُسمَّى كليتوفون وطلب صدقةً من امرأتهِ المسمَّاة لوسِبَّا فنفرت منهُ المرأة واغلقت دونهُ الباب غير ان القديس لم يضجر بل استمرَّ يقرع الباب ملتمسًا الصدقة ولم يبالِ بذلك فأمرت المرأة بادخالهِ المنزل وشرعت تقول لهُ ما هذه اللجاجة المفرطة من رجلٍ حقير مثلك على باب احد ارباب الدولة . فأجابها القديس قال لم يبقَ لاهل الفقر الاَّ اللجاجة لكي يحصلوا من اهل الغنى والحظ على المساعدة في الضيق والاحتياج . فقالت لهُ المرأة نعم اني انا من أهل الغنى ولكني لست من اهل الحظ وحين قالت هذا ذرفت الدموع من عينيها حالاً ثم قالت لهُ اعلم ايها الشيخ اني منذ سنين عديدةٍ لم ابرح ملتمسة من آلهتنا ولدًا ولم يستجيبوا صلواتي وهذا الامر قد افنى حياتي بالحزن . فاجابها الشيخ قائلاً اني لا اتعجب من ذلك بل اني انا اتعجب من انكِ تطلبين من آلهة كَذَبة امرًا ليس هو في طاقتهم وشرع يبيّن لها جهل الذين يعبدون الأوثان ثم قال لها اذا اردتِ ان تبلغي مأربكِ وتلدي ابنًا فاعبدي الاله الواحد الذي يعتقد بهِ المسيحيون وانا الضمين انكِ تلدين ابنًا مباركًا اذا آمنتِ بسيدنا يسوع المسيح واعتمدتِ. وفيما كان انوفريوس يخاطب لوسِبَّا بهذا مسَّ الله تعالى قلبها بنعمتهِ فقالت المرأة انني أخشى من وقوع البغضاء بيني وبين زوجي اذا تنصَّرت . فقال الشيخ اعتقدي يقينًا ان كليتوفون زوجكِ سيتنصَّر أيضًا اذا تنصَّرتِ انتِ

فآمنت لوسِبَّا واعتمدت سرًّا فما لبثت أن حبلت ولاجل ذلك ازداد زوجها بها حبًّا وقال متهللاً ولوائح البِشر على محيَّاهُ انَّ صلواتنا وقرابيننا المقدمة للآلهة استحقَّت لنا هذه البركة فيجب علينا ان نقدم لهم ذبائح جديدة شكرًا لاحسانهم الينا فتبسَّمت المرأة وقالت لهُ بهزء حقًّا ان احسان آلهتك الينا عظيم في الغاية لأنهم اهملوني عاقرًا حتى الآن ولو لم التجئ الى غيرهم لبقيت عقيمًا حتى الموت ثم شرعت تكشف لهُ ضعف اولئك الآلهة الكَذَبة وبطلان عبادة الأوثان وفساد التعليم الوثني وبعد ذلك بشرتهُ بحقائق الانجيل المقدَّس وقداسة الديانة المسيحية ولما رأتهُ مصغيًا لكلامها ومُنتبهًا على ضلالهِ أخبرتهُ بما تنبَّأ لها الشيخ . فلما سمع كليتوفون بهذا اراد ان يبصرهُ فأرسل من ساعتهِ اناسًا يطلبونهُ ليأتوهُ بهِ فلما حضر الشيخ لديهِ جثا على قدمَيهِ وطلب منهُ المعمودية فعلمهُ انوفريوس قواعد النصرانية وعمَّدهُ ولما أتى على حبلها تسعة اشهرٍ ولدت ابنًا فعمدهُ السائح القديس وسماهُ غالاتيون

فهذا الطفل الذي هو عجيب منذ الحبل بهِ لما شبَّ ظهر أعجوبة في حمص بصفاتهِ الجليلة ولاسيما بنقاوة سيرتهِ المنطبقة على الكمال المسيحي وبعلمهِ الواسع بأسرار الايمان وحقائقهِ وكان قد بلغ من العمر اربعًا وعشرين سنة لما انتقلت والدتهُ الى رحمة الله وحينئذٍ عزم ابوهُ على تزويجهِ مع ان الشاب الطاهر كان قد قصد ان يعيش بتولاً الاَّ انهُ لما رأى اباهُ قد طعن في ايامهِ وان لا بدَّ لهم في البيت من امرأةٍ لتخدم اباهُ في شيخوختهِ اطاعهُ فتزوَّج فتاةً وثنيَّةً شريفة الأصل كريمة الطباع يقال لها اپستميا وقد رجا من الله تعالى ان يجذبها الى الايمان المسيحي وكمالهِ فبعد العرس خرج غالاتيون من البيت ليلاً ثم رجع الى عروسهِ صباحًا فوجدها على قلقٍ وكدرٍ فتشكَّت منهُ بدموع المحبة والوداد فأخذ وقتئذٍ يخاطبها بدالَّةٍ مقدَّسةٍ وذكر لها انهُ مسيحيٌّ وان نفسهُ تنفر من الاشتراك مع امرأةٍ وثنية ثم خبرها بأعجوبة مولدهِ واظهر لها بُطلان عبادة الأوثان وخُرافات تعاليهم الفاسدة وجعل خاتمة خطابهِ لها في شرح قداسة الدين المسيحي وبينما كان يخاطبها بذلك اذ كان قلبهُ مرتفعًا الى السماء ملتمسًا من الله تعالى نور الخلاص فقالت لهُ اپستميا وماذا يمنعني أن أتنصَّر نظيرك لأني أعتقد الآن ما تعتقدهُ وأرذل معك عبادة الأوثان فاذ سمع غالاتيون هذا

(١) حاشية . قد أُخِذَت قصة هذين الشهيدين من ليبومانوس وسوريوس اللذين نقلاها عن مَتافرَستوس اليوناني فاستخرجها الاب بطرس فرماج من كروَريت بحروفها

الكلام رفع عينيهِ الى السماء وقال مبارك الله الآب وابنهُ الوحيد وروحهُ الكلي قدسهُ الذي قبل صلاتي وجذب قرينتي الى النصرانية وجعلها وارثة المجد الابدي ثم شرع يعلمها حقائق الايمان ثمَّة اعتمدت فاتقد في فؤادها الشوق الى ممارسة اسمى الفضائل الانجيلية

فبعد اعتمادها بثمانية ايام رأت وهي تصلّي بلاطًا ملوكيًّا فيهِ جوقتان من الانام إحداهما رجال والاخرى نساء بهيئةٍ ذات هيبةٍ وكلهم لابسون اثوابًا مختلفة لأنَّ الجوقة الأولى كانوا بثيابٍ سوداء يطير منها شَرَر منيرٌ يحرق كل ما يلتصق بهِ . والجوقة الثانية كانت عذارى بملابس بيضٍ ملتحفات بنورٍ عجيب وكان السرور والفرح متلألئًا على وجوه الفريقين . فقصّت اِبسِميا رؤياها على عروسها العفيف وطلبت منهُ تفسيرها فقال لها غالاتيون ان هاتين الجوقتين رمزٌ الى نوعين من الانام الذين هجروا العالم وعاشوا عيشة قشفة وبحرارة عبادتهم المشار اليها بالشرر يلهبون في قلوب الناس بنموذج سيرتهم المقدسة نار المحبة الالهية اما اللابسات الثياب البيضاء فهنَّ العذارى اللواتي يسرنَ دائمًا صحبة العروس الالهي فقالت اِبسِميا فما الذي يمنعنا عن الاقتداء بهنَّ في حفظ بتوليتنا وبجحدنا العالم والتعبد التامّ لله تعالى بتركنا كل خيرات الارض . فسر غالاتيون جدًّا من خطابها واتفق معها على كل ما قالت وحينئذٍ انفقا اموالهما بالصدقة على المساكين ثم خرجا سرًّا من حمص وذهبا الى نواحي طورسينا وترهبا اي ان غالاتيون ترهَّب في دير الرهبان واِبسِميا في دير الراهبات

فعاشا هناك ثلث سنين كأنهما ملكان وحينئذٍ اشتدَّ حرب الوثنيين على المسيحيين في عهد الملك المغتصب داسيوس ولاسيما على الاباء السيّاح لان الجنود فتكوا بهم ولما وصلوا الى نواحي طورسينا هرب أكثر الرهبان من الأديرة واختفوا في المغاور والكهوف الّا ان القديس غالاتيون استمرَّ في الدير رجاء ان يسفك دمهُ اكرامًا للسيد المسيح . فامسكهُ الجنود وفي تلك الليلة رأت اِبسِميا في الحلم انها هي وعروسها في بلاطٍ ملوكيّ وقد امر الملك أن يوضع على رأسها إكليلٌ فسألت احدى الراهبات عن معنى هذه الرؤيا فقيل لها انها ستملك مع زوجها في الملكوت وبعد هذا التفسير أخبرت بان قد قُبِض عليهِ فلما بلغها ذلك طلبت من ساعتها اذنًا من الرئيسة لتمضي فتعترف مع عروسها بسيدنا يسوع المسيح وتسنك دمها معهُ وألحّت في الطلب كثيرًا . حتى تعجّبت منها الرئيسة وأذنت لها بالهام الله . فذهبت اِبسِميا بسرعة وادركت القديس غالاتيون في الطريق مُوثَقًا بسلاسل وماشيًا هكذا فيما بين الجنود فقالت لهُ الطوبى ثم الطوبى لك يا عروسي المكرَّم لكونك قد استحققت من الله تعالى إكليل الاستشهاد . انهُ لا يليق ان تتكلَّل وحدك بل في صحبة قرينتك . ثم هتفت قائلة انا عروس غالاتيون ومسيحية مثلهُ فأوثقوني معهُ بالقيود . فأمر قائد الجند فأوثقوها وساقوها مع زوجها الى الحاكم

فلما وقفا امامهُ زجرهما المغتصب بقولهِ لغالاتيون كيف تجترئ وتفتري على آلهتنا المعظمين وتزدري بأمر الملوك المفخَّمين . فقال الشهيد اننا لا نعرف الّا الهًا واحدًا يرذل عبادة آلهتكم الكاذبة وقد أمرنا الهنا بألاَّ نطيع من يأمر بعبادتهم الباطلة . فتأجّج الحاكم غيظًا على القديس وامر بتعذيبهِ مع عروسهِ . فشرع الشُرُط يضربونهما بعِصِيٍّ ثم ادخلوا قصبًا بين أظافيرهما ولحمهما . وقد قاسيا كل هذا العذاب الهائل بصبر وسرور ولم يزالا شاكرين السيد المسيح ومادحين اسمهُ القدوس . ولما كان الجميع يندهلون من شجاعتهما وآمن كثيرون من جرى تلك الشجاعة أمر الحاكم بقطع لسانيهما ثم قطعوا ايضًا ايديهما وارجلهما . واخيرًا قطعوا رأسيهما وكان ذلك في اليوم الخامس من شهر تشرين الثاني نحو سنة ثلث وخمسين ومائتين للمسيح

اليوم السادس

وفيهِ ترجمة القديس لِيُونَرْدُس

وُلِد هذا القديس بمملكة فرنسا على نهاية القرن الخامس وكان والدهُ رجلاً معتبرًا عند الملك كلوفيس وربَّاهُ القديس ريميجيوس اسقف مدينة ريمس وأحبهُ كثيرًا من اجل حسن صفاتهِ واستقامة سيرتهِ وأدخلهُ في عداد الاكليريكيين . ثم اقامهُ على الشعب واعظًا . فباشر هذه الوظيفة بغيرةٍ رسولية واستفاد الناس من مواعظهِ فوائد جليلة وكان من جملة فضائلهِ الرأفة على المحبوسين ومن ثم لم يكن يبرح يفتقدهم ليعزيهم ويعينهم فبمثل هذه المحبة وهذه الغيرة كان يجتذبهم الى التوبة ففاحت نفحات برّهِ وامتدَّت في الآفاق حتى عرف

بقداستهِ القريب والبعيد فاستدعاهُ الملك الى بلاطهِ ليكون أُسقفًا ووعدهُ بان يجعل لهُ البلاط نفسهُ منزلاً الاَّ ان هذا الاكليريكي المتضع استعفى من الملك بقولهِ لهُ في رسالة اني قد جحدت العالم وكراماتهِ لكي اعبد الله تعالى مختليًا مبتعدًا عن مخالطة الناس وهموم الدنيا وحاشا لي ان أَدع قلبي يميل الى شرف الاسقفية. فتعجب الملك من اتضاع القديس وتركهُ ولكن قال لهُ اسألني ما أَستطيع ان أُظهر بهِ محبّتي لك. فقال لهُ القديس اني اطلب من عزتكم شيئًا واحدًا وهو ان تأذن في ان اطلق من السجن الذين أَراهم اهلاً لهذا الاحسان فقبل الملك طلبهُ وشكرهُ على ذلك

ثم انطلق القديس الى مدينة اورليان وبعد ما وعظ الشعب اختلى في دير ميسي الذي هو على مسافة ساعتين من المدينة حيث كان القديس مِسْمِين رئيسًا ولبث هناك برهةً من الزمن وبحيث انهُ كان في الدير مكرمًا ومحبوبًا من جميع الاخوة لقداستهِ وبرّهِ خرج من الدير باذن الرئيس وانتقل الى اقليم آكيتانيا ليعيش هناك مجهولاً خامل الذكر الاَّ انهُ لما وجد في الطريق ما بقي في مملكة فرنسا من الوثنيين بشرهم بالانجيل المقدس وربحهم للسيد المسيح بعجائب كثيرة ثم دخل البرية ببلاد ليموج في غابة الملك اوستراسيا واستمرَّ هناك مجهولاً زمانًا مديدًا يناجي الله تعالى عائشًا بالبر الاَّ ان غيرتهُ على خلاص النفوس كانت تخرجهُ احيانًا من خلوتهِ ليعلم الشعب الذين كانوا في تلك النواحي. فعاش هناك هكذا نحو عشرين سنةً وفي هذا الزمن لما كان ملك اوستراسيا ساكنًا في قصرٍ كان لهُ في الغابة وقعت ملكة اوستراسيا في خطر الموت من قبل أَوجاع المخاض فقيل للملك زوجها انهُ يوجد في بريّةٍ قريبةٍ رجلٌ قديس حاز من الله موهبة صنع العجائب فارسل الملك للحال واستدعاهُ فاتى القديس وصلَّى على الملكة ففارقتها سريعًا اوجاع المخاض وولدت جنينها بسلامةٍ. فجثا الملك حينئذٍ على قدمي القديس وشكر فضلهُ وقبَّل ذيل ثوبهِ ثم قدَّم لهُ هدايا ثمينة الاَّ ان القديس لم يقبلها بل أَشار عليهِ بتوزيعها على المساكين. ثم رجع الى البرية وشرع الناس يزورونهُ هناك وطلب كثيرون ان يتتلمذوا لهُ. ولهذا السبب التزم ان يبني لهم ديرًا واعطاهُ ملك اوستراسيا قسمًا كبيرًا من الغابة لسكنى رهبانهِ ومعاشهم. فلما بلغ اهلهُ ما كان من امر قداستهِ وعجائبهِ أَتى منهم كثيرون وطلبوا ان يتتلمذوا لهُ ايضًا. غير ان القديس قال لهم ما بالكم تطلبونني وانا هاربٌ منكم لكي تنسوني وأَنساكم ولكن لما عرَّفوهُ انهم باعوا كل املاكهم واصطنعوا باثمانها الفقراء وعزموا على الترهب في ديرهِ والانقياد لارشادهِ قبلهم مع بقية الرهبان مرشدًا إِياهم في طريق الفضائل بتعليمهِ ومثال قداستهِ الى حين وفاتهِ التي حدثت في اليوم السادس من تشرين الثاني سنة خمسمائة وتسع وخمسين

قد اعتاد المؤمنون ان يلتجئوا الى هذا القديس لتخليص النساء من اوجاع المخاض والمسجونين من السجون. وقد أُطلق بشفاعتهِ من السجون أُناس كثيرون

روى صاحب ترجمتهِ القديمة ان كثيرين من هؤلاء المسجونين بعد تخلُّصهم من السجن لمجرد استدعائهم القديس جاءُوا اليهِ من بلدانٍ مختلفة شاكرين لهُ على احسانهِ وطالبين منهُ ان يقبلهم تحت ارشادهِ ففعل ذلك وقسم لهم قسمًا في الغابة التي اعطاها لهُ الملك لسكنى رهبانهِ وهناك عاشوا عيشة قشفةً خلصتهم من الدخول في السجن الابدي. ولكن يجب ان نورد هنا بالخصوص ما قد ذُكر عن اثنين من اولئك المسجونين فنقول

اعلم ان امير مدينة ليموج كان قد صنع سلسلةً ثقيلةً جدًّا ليرهب بها المسجونين وفي ذات يوم أُلقي احد المومنين في السجن ظلمًا وعدوانًا وبامرهِ وضعوا في عنقهِ تلك السلسلة الغير المحتملة وتُرك هكذا. اما المسجون فلما رأَى نفسهُ مشرفةً على الموت هتف من شدَّة الالم نحو القديس لِيُونَرْدُس قائلاً. ايها الشيخ العطوف عاضد المسجونين. أَنت عالم باني بريءٌ مما أُتهمت بهِ فانقذني من هذا السجن ومن أَلم هذهِ السلسلة. فظهر لهُ القديس حالاً بنورٍ عظيمٍ وقال لهُ ثِق يا ابني ولا تخف لانك ستخلص من هذا السجن وتحيا لكي تبشر الناس بعظائم الله تعالى واحمل الى كنيستي هذهِ السلسلة التي مع كونها ثقيلة جدًّا ستجدها خفيفةً. وللحال سقطت السلسلة من عنقهِ فحملها بسهولة وخرج بها من السجن واتى الكنيسة ووضعها على قبر القديس ذاكرًا للشعب الاعجوبة

اما الاعجوبة الثانية فقد جرت مع شخصٍ آخر يُقال لهُ مرتيل امير بكفيل ببلاد كو في الجيل الرابع عشر فكان قد أَسرهُ الاتراك واثنين آخرين من الشرفاء الفرنسويين واعلم أَن ما لقيهُ من ضنك الأَسر وشدتهِ اقتلع من قلبهِ الأَمل في ان

يرى وطنهُ ثانيةً وأنباهُ العبد الذي كان يعتني بهِ وكان هو يكلمهُ في شرف الديانة المسيحية انهُ سيُقضى عليهِ في الغد بالموت فجعل الاسير يُصلّي وقضى جانبًا من الليل وهو يستغيث بالقديس ليونَردُس بأوثق ثقةٍ ونذر على نفسهِ انهُ يبني معبدًا على اسمهِ اذا انقذهُ من الخطر الذي هُدّد بهِ ثم نام ولما استيقظ اذا بهِ قد رأى نفسهُ انتقل باعجوبةٍ الى مدخل غابة بكنيل فبادر الى اظهار الجميل لمنقذهِ والسلاسل بعدُ في يديهِ ورجليهِ وبنى في قصرهِ معبدًا للقديس عليهِ السلام

اعلم أنهُ قد نقل هذه القصّة جماعة من المؤرّخين وان كان بعض ما أُضيف اليها من ذكر الاحوال ربما هو ليس بصادق فذلك لايقدح في صحتها لأن التقليد الذي عند سكان المكان واكرامهم الخصوصي للقديس ليونَردُس والآثار المختلفة التي لم تبرح موجودةً الى يومنا هذا لاتبقي محلاً للريب في ان امير بكنيل لم يُنقذ الاَّ بشفاعة هذا القديس وان الزيّاح الذي يكون كلَّ سنةٍ في الأحد الاوّل من تشرين الثاني هو برهان كافٍ على صحة هذه القصة

اليوم السابع

وفيهِ ترجمة القديس ويلبرود الاسقف

وُلد هذا القديس ببلاد الانكليز نحو سنة ثماني وخمسين وستمائة للمسيح اي في الزمان السعيد الذهبي الذي فيهِ كان الايمان الكاثوليكي زاهيًا بازهار القداسة في تلك البلاد لأن اكثر الاساقفة كانوا قديسين وكل ديرٍ كان يتلألا ببهاء اسمى الفضائل وأغلب بيوت المؤمنين كانت منازل التقوى والعبادة فهذا القديس لما حبلت بهِ والدتهُ رأت في الحلم كوكبًا كان يمزّق بنورهِ ظلام ليلٍ مدلهمّ وكانت أشعّتهُ متصلة الى خارج المملكة. فبعد ان وُلد ونشا وبلغ اشدّهُ سلمهُ والدهُ الى رئيس دير ريبون في اقليم يورك وزرع الرئيس في قلب الغلام زرعًا جيدًا ولما كانت الارض جيدةً أتت باثمارٍ كثيرة وترهب وشرع يجول في ميادين اماتة النفس القائم فيها كل الكمال الرهباني والانجيلي وبها اي بواسطة هذه الاماتة الباطنة والخارجة انتصر على اميالهِ انتصارًا مبينًا فغدا في الحركات الباطنة والخارجة منتظمًا مهذبًا متصرّفًا في كل أفعالهِ باحتشام عجيب ولهذا كان الرهبان يدعونهُ سليمان الجديد

فلما بلغ من العمر عشرين سنةً تاقت نفسهُ الى أن يذهب الى جزيرة ايرلندا لانها كانت في ممالك الغرب كبرية الصعيد وفلسطين في ممالك الشرق وبما ان رياض البرّ فيها كانت ناضرة لُقّبت بجزيرة القديسين فطلب اذنًا من رئيسهِ لينطلق الى هناك وباذنهِ خرج من الدير ومضى الى ايرلندا ودخل ديرًا حيث كان القديس اغبيرتوس رئيسًا وبقي تحت تدبيرهِ نحو عشر سنين وهذا القديس لما رأى تلميذهُ مرتقيًا سلّم الفضيلة يومًا فيومًا الزمهُ بقبول درجة الكهنوت وهذا الامر زاد نشاطهُ في العبادة. فلما رأى الرئيس قداسة تلميذهِ افتكر في ان الله تعالى اختارهُ لاتمام الامر المرغوب منهُ جدًّا وهو تبشير بلد فريزيا بالانجيل المقدس. ومن جهة اخرى كان الروح القدس قد أضرم في قلب القديس ويلبرود غيرةً عظيمة على خلاص النفوس فسبق وطلب من رئيسهِ الاذن في ان يذهب ويبشر اهل بلاد فريزيا التي على مصبّ نهر الربن فاذن لهُ في ذلك فسافر حالاً مبتهجًا وكان وقتئذٍ قد بلغ من العمر اثنتين وثلثين سنةً

فوصل الى فريزيا سنة ستمائة وتسعين فوجد البلاد كلها على ضلال عبادة الاوثان. غير ان القديس ايلوا اسقف مدينة نوايون الذي ذكرنا ترجمتهُ في اوّل كانون الثاني والقديس ويلفريد الذي ذكرنا ترجمتهُ في اليوم الثاني عشر من تشرين الاول قد سبقا وبشّرا بهذه البلاد الاَّ انهُ لم يؤثّر كلامهما كثيرًا وكان اهل البلاد على الجهالة الوثنية اذ دخل الى هناك القديس غير ان بيبين وزير مملكة فرنسا الكبير وابا كرلوس مرتيل الذي صار ملك فرنسا كان منذ سنين غلب في الحرب امير فريزيا وجبرهُ على ان يسمح بان يبشر اهل امريتهِ بالانجيل المقدّس فذهب القديس ويلبرود الى بيبين وطلب منهُ ان يعينهُ في رسالتهِ ورحّب بهِ واكرم استقبالهُ ووعدهُ بالمساعدة فسافر حينئذٍ القديس الى رومية مع رفقتهِ لياخذ من الحبر الاعظم حق رسالتهِ. فسُرَّ البابا سرجيوس الاول بذلك وبارك عليهم وارسلهم ليكرزوا في فريزيا. فرجع القديس واخذ يبشر في اقليم هولندا وزيلندا ولم تمرّ الاسنون قليلة حتى آمن على يدهِ اكثر تلك البلاد. ثم عاد ثانيةً الى رومية لضرورة رعيتهِ وقد ذهب معهُ نوّاب بيبين فقدموا للبابا هدايا ثمينة واخبروهُ بان أعمال القديس ويلبرود اثرت في فريزيا أثمارًا عجيبة وطلبوا من قِبَل مرسلهم

ان يرسم القديس اسقفًا . اما الحبر الاعظم فكان قبل وصولهم بأربعة ايام رأى في الرويا اناسًا يقدمون لهُ مرسلاً غريبًا جاثيًا على قدميهِ ويشهدون لهُ انهُ قد اختارهُ الله تعالى ليبيد ضلالات العبادة الوثنية فتهلل حينما رأى القديس ويلبرود ورسمهُ اسقفًا على بلد فريزيا وغيَّر اسمهُ وسمَّاهُ اكليمنضوس واعطاهُ البليوم واذن لهُ ان يختار هو لكرسيهِ في فريزيا المدينة التي يراها اكثر مناسبة لذلك

فلما رجع الى بلد فريزيا وضع كرسيهُ بمدينة اوتريك وبنى فيها كنيسة الاسقفية . وفي اثناء ذلك وُلد لكرلوس مرتيل ابنهُ بيبين المسمَّى القصير ليميز عن جدهِ فعمدهُ القديس ويلبرود وتنبأ عنهُ انهُ سيصير اكثر اشتهارًا ومجدًا من ابيهِ وجدهِ وصار بالحقيقة ملك فرنسا الشهير المحامي عن الكنيسة وابًا لكرلوس الكبير

هذا وبعد ان الاسقف القديس أسس كنيستهُ دخل اقاليم جديدة والقى هناك زرع الايمان المسيحي . ثم ذهب الى بلاد دانيمرك لكن الذي كان متملكًا عليها يومئذٍ كان شريرًا قاسيًا وحيث كان لنموذجهِ تأثير قويٌّ في رعيتهِ جاء دون هدايتهم مانعًا لا يكاد يُغلب ولما رآهم القديس ثابتين في عبادة الاوثان رجع الى فريزيا مع ثلاثين غلامًا كان قد اشتراهم من غلمان تلك البلاد وعلمهم قواعد النصرانية وعمَّدهم وفيما بعد صاروا رسلاً في بلادهم

وبينما كان راجعًا اذ عصفت زوبعة فطرحتهم الى جزيرة على ساحل فريزيا من ناحية الشمال وكان الدانيمركيون والفريزيون يكرّمون هذه الجزيرة تكريمًا ممتازًا بحيث كانت مخصصةً لالههم فوزيت وكانوا يعتبرون من يتجرأ على الذبح من حيوانات تلك الجزيرة والاكل من نباتها والتكلم عند شرب الماء من ينبوعها بمنزلة كافرٍ ومجدّف فاغتمَّ القديس على عمى بصائرهم وأراد ان يهديهم الى سواء السبيل ويبيّن لهم هذه الخرافة الكبيرة فقتل من حيواناتها وأكل منها هو ورُفقتهُ وعمّد ثلثة أولادٍ في ينبوعها لافظًا بصوتٍ عالٍ كلمات العماد التي وضعتها الكنيسة فتوقع الوثنيون ان إله الجزيرة يبيد هولاء عقوبةً على ما ارتكبوهُ بيد أنَّ الوثنيين لما رأوا انهُ لم يُصبهم شيءٌ مما كانوا يظنون لم يدروا أَ ذلك صبرٌ من قِبَل إلههم او ضُعفٌ اما ردبود الذي كان واليًا على قسمٍ من فريزيا العاكفة على عبادة الاوثان فاستشاط غضبًا لما عرف بما جرى وأمر بان يُقترع في ثلثة أيام ثلث مراتٍ كل يوم قصد ان يقتل منهم من تقع عليهِ القرعة فلم يأذن الله ان تُصيب القرعة ويلبرود بل أصابت أحد رفقائهِ فضُحّي من اجل هذه الخرافة شهيدًا للمسيح

إنَّ القديس بعد فراق ردبود سار الى جزيرة ولشرن من اخصّ الجزائر الخاضعة لزيلندا وهدى هناك من اهل تلك الجزيرة جانبًا كبيرًا الى الايمان وبنى بها جملة كنائس ومات ردبود سنة تسع عشرة وسبعمائة واباح موتهُ التبشير في كل جوانب فريزيا ولما كانت سنة عشرين وسبعمائة اجتمع القديس بالقديس بونيفاسيوس الذي قضى معهُ ثلثة أعوام قبل ذهابهِ الى المانيا وقال بيدا الذي كتب ترجمتهُ : ان ويلبرُود يُلقَّب باكليمنضوس ولم يزَل حيًا وهو شيخٌ مكرَّمٌ واسقفٌ منذ ستٍّ وثلثين سنةً فيتوقَّع جزاءَ الحياة السماوية بعد ان جاهد في الحرب الروحية : وكان عليهِ السلام حسبما روى ألكوين جزيل الفضل جميل المنظر لطيف الطباع بشوشًا عند المحاضرة حكيمًا في مشوراتهِ لا يتعب من واجبات الرسالة وكان يقظان على ان يغذو ويشدّد نفسهُ بالصلوات وترنيم المزامير وبارامونات الاعياد والصوم وقد اثبت هذا المؤلف نفسهُ الذي كتب من بعد خمسين عامًا لموت القديس ان الله كان قد آتاهُ موهبة صنيع المعجزات ومما نقل عنهُ ما يأتي ونصهُ

لما كان ويلبرود يُبشّر في جزيرة ولشرن حيث بُنيت منذ ذلك الزمان مُدُن فليسينغ وميدلبورج وجد في قريةٍ صنمًا مشهورًا كانت تُقدَّم لهُ النذور والذبائح من الشعب فغار للرب وقلب الصنم وكسَّرهُ كِسرًا كِسرًا فضربهُ كاهن الوثن بالسيف فلم يجرحهُ ولكن الشقي دخلهُ الشيطان عما قليل وصار الى حالةٍ أتعس وأشقى

ان ويلبرود ورفقتهُ استأصلوا بدامعهم وصلواتهم وغيرتهم عبادة الاوثان من أعظم أقسام زيلندا وهولندا ومن جميع اماكن البلاد المجاورة حيث لم يكن القديسان امند وليبوين دخلا واما سكان فريزيا فكانوا الى ذلك العهد شعبًا بربرًا ولكن تهذَّبوا رويدًا رُويدًا حتى أصبحوا مشهورين بفضائلهم وكذلك بإتقان العلوم والفنون واما القديس ويلفران رئيس اساقفة سانس وبقيَّة الفعَلَة الانجيليين اذ أفرحهم ذلك النجاح فرحًا عظيمًا رغبوا الى القديس ويلبرود

ان يشركهم في أعمال رسالاتهِ

ان القديس بذل دائمًا الجهد في انتخاب الذين قصد ان يرسمهم كهنةً وخاف من ان خدّامًا جهلةً يهدمون كل ما صنعتهُ رحمة الله من الخير لتخليص النفوس ودقّق حتى يتأكد بنفسهِ استعدادات الذين التمسوا منهُ المعمودية حتى لا تكون اسرار ديننا المقدسة عُرضةً للتدنيس. ولما كان قاصدًا ان يمزّق غياهب الجهالة ويسهّل سبيل التبشير بالانجيل بواسطة تنوير العقول وتهذيب الاخلاق أقام بمدينة أتريك مدارس شتى فنجحت واشتهرت جدًّا

وآخر الامر رأى ويلبرود انهُ قد طعن في السنّ فاتخذ لهُ مساعدًا ورسمهُ أسقفًا لكي يفوّض اليهِ رعاية رعيتهِ واختلى وتأهّب للدخول في الأبدية

وتوفي هذا القديس في اليوم السابع من تشرين الثاني نحو سنة أربعين وسبعمائة وقد شهد لهُ القديس بونيفاسيوس رسول البابا قائلاً انهُ كان رجلاً مقتدرًا في افعالهِ واقوالهِ وعجيبًا في تقشفاتهِ وحسن سيرتهِ وقد خدم كرم الرب خمسين سنة في فريزيا بتعبٍ ونفع جليل وبنى كنائس كثيرة ولم يزل مجتهدًا في خدمة كرم الرب الى ان خارت قوتهُ بالكلية فمات وفاز في السماء بالاكليل المستحق لقداستهِ واتعابهِ الجيدة

اليوم الثامن

وفيهِ ترجمة القديس غوديفريدُس الأسقف

قد ذُكر عن والدَي هذا القديس انهُ في ذات يوم زارهما رئيس ديرٍ يقال لهُ غوديفريدُس وهو عمّ غوديفريدُس ذلك القائد المظفَّر الذي ملك على اورشليم فسألهما في حين مخاطبتهِ هل يرومان ان يخصّصا بنيهما لخدمة الله تعالى فقالا لهُ ان هذا غاية مرغوبنا الاّ انهُ ليس لنا سوى ابنين كلاهما تجنّدا والآن فقد شخنا ولا نقدر ان نأتي بأثمار الزواج فأشار عليهما الرئيس بان ينذرا انهُ اذا رزقهما الله صبيًّا يقدّمانهِ لخدمة الله تعالى فنذرا وبعد تسعة أشهرٍ لذلك رزقهما الله تعالى صبيًّا وعمّدهُ الرئيس المذكور وسمّاهُ اسمهُ وهو القديس الذي نذكر الان ترجمتهُ

فلما شبّ غوديفريدُس قدّمهُ ابوهُ للرئيس التقي ليربّيهُ في ديرهِ منذ صبائهِ فقبلهُ الرئيس كوديعة مسلمة اليهِ من الله تعالى واهتمّ بهِ اهتمامًا بليغًا أي منذ الابتداء رأى فيهِ علامات استدلّ منها على انهُ يكون قديسًا ومن جملتها ما ذُكر من انهُ في ذات يوم وثبت عليهِ أنثى الطير المعروف بالكركيّ وضربتهُ بمنقارها على احدى مقلتيهِ حتى كاد أن يفقد النظر فلما احسّ الغلام بألم الضربة خرج قائلاً يا يسوع ورسم على الجرح علامة الصليب المقدّس فشُفي من ساعتهِ ولم يبقَ الاّ أثر خفيفٌ اسمرٌ في وجههِ مدة حياتهِ كلها تذكرةً للاعجوبة. وكان غوديفريدُس ينشأُ كلّ يوم في التقوى والقداسة ثم ألبسهُ الرئيس ثوب الرهبانية وشرع حينئذٍ يسلك طريق الكمال الرهباني بنشاط جزيل بهِ نشّط الرهبان في اكتساب فضائل دعوتهم لأنهم كانوا يرون وجههُ كوجه ملكٍ مجرّد قلبهُ من حبّ الدنيا واشتاق الى السماويات فقط وكان يقضي اكثر النهار والليل في مناجاة الله تعالى بالصلاة وتلاوة الكتب الروحية. وكان وهو ابن خمس عشرة سنةً لا يزال يصوم في كلّ سنةٍ جملة أيام على الخبز والماء فقط وكان يقيّد كل حاسّةٍ من حواسّهِ عن كل لذّةٍ

ثم جُعل على خدمة المرضى والزُوّار وكان يباشر هاتين الوظيفتين بكمال الاجتهاد والصبر والاحتشام واضافوا عليهِ فوق تينك الوظيفتين وكالة الدير ليهتمّ بمعاش الرهبان وكسوتهم. فأرضى بفرط درايتهِ وعموم مؤانستهِ كامل الرهبان حتى أثنى عليهِ الجميع. بل استمال الى محبّة ديرهِ وقتئذٍ بعض الامراء الذين كانوا الى ذلك الحين اعداء الرهبان ومضادّيهم

ثم انهُ بأمر رئيسهِ ارتسم كاهنًا وكان لهُ من العمر خمس وعشرون سنةً. وحينئذٍ التزم بامر الاساقفة والملك فيلبس الاول ان يخرج من ديرهِ ليكون رئيسًا في دير نوجان من ابرشية لاون الذي كان قد انفسخ فيهِ المذهب الرهباني. حتى ان رهبان ذلك الدير مع تبديدهم اوقاف الدير ظنّوا أنهم غير ملتزمين بحفظ القوانين. فلما رأى القديس الدير على هذه الحال اخذهُ حزنٌ عظيم واتّقدت غيرتهُ لاصلاح الأمور. فبنى ما كان مهدومًا بل زاد الدير اتساعًا واعاد ما كان قد تبدّد من دَخلهِ ثم وجّه اهتمامهُ الى اصلاح المذهب الرهباني. فبارك الله تعالى على غيرتهِ وردّ كلّ شيءٍ الى كمال النظام وامتلأ الدير رهبانًا نشيطين سائرين على آثارهِ وكان كلّ منهم يعتبرهُ لاجل وداعتهِ واتضاعهِ وحكمتهِ وشدّة تقشفهِ لأنهُ كان يمتنع عن اكل اللحم والسمك واللبن ولم يكن يأكل في الغالب الاّ حشائش مسلوقةً غير مملحة. هذا وقبل ان

الطبّاخ وضع في طعامهِ زيتاً فتغيظ منهُ وفرض عليهِ قصاصاً قائلاً الاّ تعلم ان الجسد يتمرّد ان تملقناهُ

وفي احدى السنين أُرسل اسقف مدينة سواسون واستدعاهُ لاجل احتياج شعبهِ . لانهُ في تلك السنة لم ينزل على الارض الامطار قليلٌ واما الاثمار فاوشكت ان تتلف كلها حتى ان البقر والغنم وبقية الحيوانات كانت تموت بالداء الذي استوبأ هناك . فلما وصل القديس غوديفريدُس الى المدينة وسمع من الاسقف ما كان من قبل عدم المطر والوباء أشار عليهِ ان يقتدوا بمثل شعب نينوى فامر الاسقف بان يصوم الجميع حتى الصبيان واجتمع شعب الكنيسة وصلّى القديس . ثم كرز محثاً الناس على التوبة وطلب الرحمة من الله تعالى وكان حينئذٍ الجوّ صافياً . واذا بهِ تردّى بغتةً بغمائم كثيفة فهطل منها مطرٌ غزير ابتهج لهُ وجه الارض فما لبث ان تلبّس بالازهار والاثمار وهكذا خلص البلد من ضنك الغلاء

وبعد ذلك بمدةٍ يسيرة اي سنة ثلث ومائة والف التأم مجمع بمدينة ترول ودُعي القديس الى مجمع الاساقفة حيث كان نائب البابا مترئساً عليهِ . وفيما كان المجمع يفحص عن بعض أُمور كنائسية أَتى من قِبَل أَهل مدينة اميان مرسلون طلبوا القديس غوديفريدُس ليكون أُسقفاً عليهم . ففرح الاباء جدّاً وأَثبت نائب البابا هذا الاختيار والزم القديس بقبول هذه الاسقفية . وبعد قبوله هذه الدرجة المقدّسة مضى الى مدينة اميان وفي حال وصوله اليها خلع حذاءهُ وذهب حافياً الى الكنيسة وكان الشعب ينتظرهُ هناك فألقى عليهم موعظة بفصاحة مقدسة تأخذ بمجامع القلوب فصرخ جميع الحاضرين قائلين مبارك الله تعالى الذي ارسل لنا رسولاً ليكون راعياً . أَما الاسقف فلم يغير شيئاً من رياضاته الرهبانية ولم ينقص شيئاً من انواع تقشفهِ . وانفق كل اموال اسقفيتهِ صدقةً على البائسين وكان يطعم في كل يوم على مائدتهِ ثلثة عشر بائساً ويغسل أَرجلهم ويخدمهم على المائدة . ولم يقف على ذلك بل كان يخدم البرص ويحتضنهم بمحبة فؤادية ولفرط عنايتهِ الابوية باحوال المحتاجين لُقّب بعاضد الأَرامل واليتامى وأَبي المساكين

هذا وباعتنائهِ باصلاح سيرة الاكليروس والرهبان ردّهم الى قداسة دعوتهم وكانت غيرتهُ في ما يختص بمجد الله لا تنقص بمانع من الموانع روى الراوي ان روبرتس احد القوّاد الصليبيين بعد رجوعهِ من القدس اراد ان يعيد عيد الميلاد في مدينة سنتومر باحتفالٍ عظيم مع جم غفير من الامراء واستدعى القديس ليقدّس هناك ففعل الاّ انهُ لما رآهم بزينة زائدة كانت المجامع قد حرّمتها رفض قرابينهم والزمهم بترك تلك الحلية الباطلة ففعلوا لئلا يعدموا بركة هذا الاسقف القديس . الاّ انهُ كان يرتاح على الدوام الى الاختلاء الرهباني ومن ثم هرب سرّاً ودخل ديراً من اديرة الكرتوسيين وعاش هناك سنتين وبعد ذلك عُقد مجمع اقليمي بمدينة سواسون سنة خمس عشرة ومائة والف وبامر الاباء التزم القديس بالرجوع الى أُسقفيتهِ . وبعد رجوعهِ اعتنى ان يردّ اهل الابرشية الى حفظ ايام الانقطاع الكنائسي لان اكثرهم كانوا قد تركوهُ ولان كثيرين تذمّروا وصعد المنبر في يوم الخميس الكبير ووعظ في هذا الصدد بفصاحة اثرت في القلوب حتى ان جثا الشعب على الارض طالبين الغفران فامرهم القديس عقوبةً لتذمّرهم ان يؤخروا التناول الفصحي الى ثمانية ايام فأخّروا كلهم الاّ واحداً اصرّ على العصيان واراد ان يتناول يوم الفصح ولكن اقتُصّ منهُ حالاً حيث اعتراهُ حينئذٍ اوجاع البطن وقيء الدم فاضطُرّ الى ان يعترف علانية بخطيتهِ الامر الذي ثبّت جميع الشعب في الاحترام والطاعة لاسقفهم القديس . وبعد ذلك بسنين قليلة اذ كان يفتكر ثانيةً في ان يعتزل من اسقفيتهِ اراد ان يستشير في ذلك رئيس اساقفة ريمس وفيما كان مسافراً اليهِ توفي بالرب في اليوم الثامن من تشرين الثاني سنة خمس عشرة ومائة والف

اليوم التاسع

وفيهِ تذكار اعجوبة إِيقونة السيد المسيح المصلوب

ان الذي اخبرنا بهذه الاية هو احد اباء المجمع النيقاوي الثاني في جلسة هذا المجمع الرابعة وها نحن نوردها كما أَوردها من اعمال المجمع الانبا قواريسميوس في تاريخ الاماكن المقدسة مجلد ٢ كتاب ٧ فصل ١٤ زيارة ٨ لا نزيد على كلامهِ شيئاً قال

انصتي ايتها القوّات السماوية وتحيّري مما حدث في عصرنا اما انتم يا معشر المؤمنين فأحسنوا الاصغاء واسمعوا

باذانكم وقلوبكم واعلموا انهُ في مدينة بيروت التي بقرب صور وصيداء حيث يوجد اكثر اليهود قد اتفق ان رجلاً مسيحيًا استأجر بيتًا قريبًا من مجمع اليهود وكان قد علّق على الحائط تجاه فراشهِ ايقونة سيدنا يسوع المسيح المصلوب وكانت الايقونة حسنة التصوير وبعد مدة من الزمن رام ان ينتقل من هذا البيت لكي يسكن مكانًا أوسع منهُ. وهذا الامر لم يجرِ بطريق الاتفاق بل بتوفيق عناية الله تعالى الذي يشاء ان الجميع يحصلون على معرفة الحق ويخلصون باظهار عجائبهِ للذين يؤمنون بهِ ويعبدونهُ. لكي يخزى بها غير المؤمنين ويثبت عبيدهُ في الايمان. فاتفق ان المسيحي المذكور لما انتقل من بيت اليهودي ونقل امتعتهُ ترك فيهِ بطريق السهو ايقونة السيد المسيح المصلوب. فاستأجر البيت رجلٌ يهوديٌّ وسكن فيهِ ولم يستفق على الايقونة الى ان دعا الى وليمتهِ قومًا من أصدقائهِ اليهود. وفيما كانوا جلوسًا ياكلون لحظ احد الحاضرين الايقونة المقدسة. فلما رآها التفت حالاً الى صاحب البيت وقال لهُ كيف وانت يهودي تترك في بيتك مثل هذه الصورة وشرع يجدّف عليها بكل صنفٍ من الشتائم. فأخذ صاحب البيت يبرّئ نفسهُ بقولهِ انهُ لم يدرِ بوجود هذه الصورة في بيتهِ واثبت كلامهُ بالقسم. فلما خرج ذاك من البيت اشتكى على صاحبهِ الى المشيخة. ولانهم لم يصدقوهُ ذهبوا معهُ الى صاحب البيت المذكور وتبعهم جمٌّ غفير من شعب اليهود فلما وجدوا الصورة المقدسة غضبوا غضبًا شيطانيًا وحرموا اليهودي صاحب البيت. ثم امسكوا الايقونة وقالوا اننا الان لنهزأوا بك كما فعل آباؤنا. ثم طفقوا يتفلون على وجه يسوع المرسوم عليها وجدّفوا عليهِ وثقبوا يديهِ ورجليهِ. ثم أدنوا من فمهِ خلاً في اسفنجةٍ وضربوا راسهُ بقصبة واخيرًا طعنوا جنبهُ بحربة ومن الغريب العجيب انهُ جرى للحال من جنبهِ تعالى الاقدس دم وماء غزير. لك الحمد يا ربنا يسوع الك الحمد والثناء حقًا ليس لك نظير يا مخلص البشر يا عنصر الجود والصلاح

انصتوا يا بني الكنيسة واسمعوا بقية الخبر وانظروا شدّة اقتدار مخلصنا. فقال احد اعيان اليهود ايتوني بخلاقين وضعوهُ تحت جرح الجنب وننظر كم يجري من الدم والماء. فلما فعلوا ذلك امتلأ الخلقين دمًا وماء بزمن يسير. ثم قال آخر لنختبرنَّ الآن حقيقة ما تقولهُ النصارى ان مسيحهم هذا يصنع عجائب لم يصنعها احد قبلهُ. فلنجمع نحن كل مرضى أمتنا ولنمسحهم بهذا الدم والماء فان شفوا فيكون هو حقًا المسيح المشتهى من آبائنا والاَّ اي ان كانوا لا يبرأُون بهذا الدم والماء فنتحقق حينئذٍ انهُ ليس هو بالمسيح الحقيقي. وكان في المرضى الذين قُدّموا رجل يهودي شيخ مخلّع من حين مولدهِ فمسحوهُ بالدم والماء الاقدسين فمن ساعتهِ انتصب قائمًا على رجليهِ ورجع الى بيتهِ متعافيًا. ثم وضعوا من الماء والدم الالهيَّين على عيني البعض من العميان فحالاً انفتحت اعينهم وابصروا وفعلوا كذلك بمرضى آخرين كثيرين. فشفُوا كلهم مثل الاوَّلين. فخرجوا ممجدين السيد المسيح ومذيعين قدرتهُ الضابطة الكل معترفين جهرًا بلاهوتهِ

فاضطرب اهل مدينة بيروت وتراكضوا لينظروا الاعجوبة حاملين المرضى على ظهورهم. وهم جميعهم نالوا الشفاء حالما كانوا يُمسحون بهذا الدم والماء وقد آمن يهود المدينة كلهم من رجالٍ ونساءٍ كبارًا وصغارًا ولم يزالوا يسجبون سيدنا يسوع المسيح قائلين المجد لك يا يسوع ابن الله الذي اجتذبتنا نحن الاشقياء الى نور انجيلك المقدس بكثرة هذه المعجزات المذهلة فها نحن الان نلتجئ اليك نادمين فاقبلنا برحمةٍ وخلّصنا. وهذا الكلام وغيرهُ كانوا يقولونهُ في كل الشوارع باكين متنهدين. ثم دخلوا الكنيسة حيث كان الاسقف وخرّوا امامهُ معترفين بعظمة خطيتهم واوردوا لهُ كلما جرى امامهم من العجائب بايقونة السيد المسيح فتهلل الاسقف القديس ثم خاطب اليهود وقال ارجعوا يا اسرائيل الى الهكم وآمنوا بالاله الآب رب الاحياء والاموات وبابنهِ الوحيد الذي بهِ خُلق كل شيء وبالروح القدس الذي يحيي انفسنا وينيرها. فصرخ اليهود قائلين ان الله هو واحد واقانيمهُ ثلثة وهم الآب الغير المخلوق وابنهُ الوحيد المولود منهُ منذ الازل وهو السيد المسيح الذي طلب آباؤنا صلبهُ وموتهُ وروح القدس المنبثق من كليهما فمنهم نرجو مغفرة خطايانا ونطلب جميعنا ان نعتمد باسمهم. فشرع الأسقف يعلمهم وبعد أيام عمدهم كلهم وكرّس مجمعهم كنيسةً ثم وضع الدم والماء في آنيةٍ صغيرةٍ كثيرة جدًا وارسلها الى اكثر كنائس الشرق واخبرهم برسالةٍ بالأعجوبة المتقدّم ذكرها وطلب ان يُعيّدوا كلَّ عامٍ اليوم الذي جرت فيهِ اعني اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني

فهذا هو الخبر الحقيقي خبر دم سيدنا يسوع المسيح الذي خرج من الايقونة المقدسة ببلاد سورية في مدينة بيروت

سنة خمس وستين وسبعمائة للمسيح . فلا يجوز للكاثوليكيين ان يعلق في قلوبهم أدنى ريبٍ فيما ذكرناهُ كأنهُ غير ممكن بعد صعود ابن الله الى السماء اذ يتم ذلك الآن في كل يوم على المذبح وقد اسرعت وأخبرتكم بما عرفتهُ انا لافادتكم ونمو ايمانكم لكي تعلموا علوّ قدرة الهنا ومخلصنا يسوع المسيح فاثبتوا اذًا في الايمان وافرحوا لانهُ تعالى صنع في عصرنا مثل هذه العجائب الجليلة ومجّدوا الهنا بسرور وقلب متخشع واشكروهُ على انهُ اهّلنا ان نقبل ايمانهُ ونحصل على معرفتهِ تعالى فالمجد لسيدنا يسوع المسيح مخلصنا وللآب والروح القدس الى دهر الداهرين آمين

وفيهِ ايضًا تذكار اول كنيسة بناها قسطنطين الملك للسيد المسيح في رومية

قال أوسابيوس المؤرخ شاهدًا على ما شاهدهُ عيانًا ان الكنيسة المقدسة حصلت على غاية الفرح حينما آمن قسطنطين الكبير اول الملوك المسيحيين وأذن في بناء كنائس في اقطار مملكتهِ كلها شرقًا وغربًا وبنى هو في مكان قصرِ اللاتراني (١) كنيسة معظمة لمخلص العالم وهي الكنيسة الأولى التي كُرّست تكريسًا مشتهرًا ولهذا قال القديس بطرس داميانوس انهُ كما ان هذه الكنيسة سُميت كنيسة المخلص الذي هو هامة كل المختارين كذلك تكون هي ايضًا راس جميع الكنائس وامها وتاجها وقمة الديانة المسيحية وهي على نوعٍ ما كنيسة الكنائس وقدس القديسين

انهُ لما كرّس موسى الكليم تابوت العهد جعل ذلك اليوم عيدًا شريفًا وفيهِ قدم الشعب العبراني تقادم نفيسة وهكذا سليمان الحكيم كرّس بشرفٍ عظيمٍ الهيكل الأُورشليمي ووضع على اليهود عيدًا خصوصيًا في كل سنةٍ تذكارًا لهذا التكريس واذا كان ذلك فكم يجب على المسيحيين بالاحرى ان يكرسوا هياكلهم ويعيّدوا يوم تكريسها في كل سنة بكل ما يمكنهم من الشرف والعبادة بحيث انَّ كنائسهم تفوق شرفًا ومجدًا على هيكل العهد القديم بمقدار ما يسمو ويرتفع شان الجسد على ظلهِ والنهار على الليل

ثم اعتبروا ايها المؤمنون ان الرسول وان كان يامر بان نسجد لله في كل مكان مقدّمين لهُ تعالى صلواتنا الاَّ ان الصلاة المشتهرة المقدمة لله في الكنائس هي اوفر قوةً وتاثيرًا من الصلوات التي نقدمها سرًّا في منازلنا ولهذا قال القديس يوحنا الذهبي الفم انهُ يوجد اناس يعتذرون عن عدم حضورهم الصلاة في الكنيسة اعتذارًا باردًا بقولهم ان الصلاة في منازلهم وفي الكنيسة تحسن على حدٍ سوى ولعمري انهم في هذا ضالّون ضلالاً جسيمًا لانهُ وان كان يجوز للمؤمنين ان يصلوا في بيوتهم لا يمكن ان تُحسَّن هناك صلاتهم كما يقدرون ان يحسنوها في الكنيسة لانهُ هنا اي في الكنيسة يجدون اناسًا يسعفونهم واما صلاة واحدٍ بمفردهِ فليست هي بفعالةٍ نظير صلاة كثيرين يبتهلون جملةً . ولهذا قال الرسول انهُ نجا من أخطار كثيرة بواسطة صلوات كثيرين وهامة الرسل خلص من السجن بصلوات مجمع المؤمنين . انهُ حينما نصلّي في الكنيسة يسعفنا لا المؤمنون فقط بل الملئكة ايضًا . ولعمري ان الكنيسة من حيث انها هي بيت الله وبيت الصلاة تحثنا على الانفراد بانفسنا وعلى طرد كل همٍّ وفكرٍ ارضي لكي نجمع كل افكارنا في الصلاة وعلى هذا المعنى قال القديس أُغستينوس ان دخلتَ الكنيسة فلا تصنع هناك الاَّ ما يجب فعلهُ في بيت الصلاة . ثم ان المؤمنين بعبادتهم في الصلاة يحركوننا الى العبادة حسب قول الذهبيّ فمهُ لانَّ ننتبه من فتورنا عند تذكرنا حضور الملئكة في الكنيسة وحضور رب السماء في القربان المقدس

انهُ لما قدس سليمان الحكيم الهيكل قال لهُ الرب اني قد

(١) حاشية . كان هذا القصر دارًا قديمة لرجلٍ غنيٍّ من اعضاء مجلس الاعيان يقال لهُ بوبليوس لاتيرانوس كان الملك نيرون حكم عليهِ بالقتل بداعي انهُ شارك بيزون في مكيدةٍ عملها لاهلاك نيرون فبنى قسطنطين الذي ورث عن امرأتهِ فوستينا هذه الكنيسة التي تُدعى الكنيسة القُسْتينيّة وبالعموم الكنيسة القسطنطينيّة معبدًا للقديس يوحنا المعمدان فيهِ مذبح ثانٍ للقديس يوحنا الانجيليّ ليستخدم محلاًّ المعموديّة ووقف على ذلك المعبد ما هو كثير الغلّة من ديارٍ وحقولٍ بايطاليا وصقلية وافريقية وبلاد اليونان

ولا جرم ان أداء فروض العبادة في معبد القديس يوحنا نسخ على التمادي عن الكنيسة اسمها الأوّل حتى لم تعُد تعرف فيما بعد الاَّ باسم القديس يوحنا لاتران وجعل الاحبار الاعظمون ذلك الموضع مقامًا لهم غير ان البابا غريغوريوس التاسع عند رجوعهِ من افنيون جعل اقامتهُ بالواتيكان ولكن هذا لم يمنع الكنيسة اللاترانيّة من ان تحفظ التقدُّم على سائر كنائس رومية والعالم المسيحيّ وأُثبت ذلك التقدُّم ببراءات من البابا غريغوريوس التاسع والبابا بيوس الخامس خَرَجت على دعاوي الكَهنة القانونيين لكنيسة القديس بطرس . ذلك والأحبار الاعظمون يقدّسون هناك بعض ايامٍ في كل سنةٍ

سمعتُ صلاتك وها قد اخترتُ هذا المكان ليكون بيت الذبيحة فان أغلقت انا السماء ولا يكون مطر وامرت الجراد ان يأكل ما في الارض وأرسلت الطاعون فان تاب شعبي ودعا اسمي وصلَّى وارتد عن طرقهِ الرديَّة فانا اسمع من السماء واصفح عن خطاياهم واسقي ارضهم واصغى الى طلبات من يصلّي في هذا المكان لأني اخترتهُ وقدستهُ ليكون اسمي عليهِ الى الابد ولا يزال قلبي موجودًا فيهِ طول الايام (سفر اخبار الايام الثاني الفصل ٧) فان كان الله تعالى قد وعد سليمان بهذهِ المواهب اكرامًا لهيكل لم يكن فيهِ الَّا التابوت وعصا موسى والمن ولوحا الناموس ولم يكن يُقدَّم فيهِ سوى بقر وعجول وغنم وحيوانات أُخر فليت شعري ماذا يصنع اكرامًا لكنائسنا حيث يوجد التابوت الحيّ والناموس لا السينائيّ بل السماويّ وعصا الصليب المقدس وحيث يقدّم لله تعالى في كل يوم لا لحم الحيوان بل لحم ابن الله عينهِ. فليرغب اذًا المؤمن المواظبة على التردّد الى الكنيسة وليلازم هناك بليغ الاحتشام لأنهُ اذا كنا عند دخولنا بلاط ملك ما ومثولنا امامهُ نحسن ظواهرنا و نظهر الاكرام الواجب فياليت شعري كيف نمثل في الكنيسة تجاه ملك الملوك ورب الجميع وبأيَّة هيئة نقف امامهُ جلّ وعلا

اليوم العاشر

وفيهِ ترجمة القديس أندراوس أفيلّين

كانت ولادة هذا القديس سنة احدى وعشرين وخمسمائة وألف بكسترو نيوفو مدينةٍ صغيرةٍ بمملكة نابولي وأظهر منذ طفوليَّتهِ أشدَّ الأميال الى الفضيلة وكان خوف الله دائمًا نصب عينيهِ وكان يخشى حتى من ظلّ اخفّ الخطايا. غير ان جمال صورتهِ جعل عفافهُ عُرضةً لاخطارٍ عظيمةٍ ولكنَّهُ انتصر على تلك الأخطار بالصلاة والتيقُّظ على نفسهِ والهرب من القُرناء الاردياء الذين يعرّضونهُ للخطر

لاريب ان رغبتهُ في ان لا يحيا الَّا لله تعالى حملتهُ على الانضمام الى عداد الاكليريكيين. وارسلهُ ابواهُ الى نابولي ليتعلّم هناك الفقه والشريعة الكنائسية ولما فرغ من دروسهِ حاز رتبة دكتور وارتقى الى درجة الكهنوت وتوكّل في عدَّة دعاوى في المحكمة الكنائسية فرأى ان هذه الوظيفة التي يتعاطاها قد شتَّتت بالهُ كثيرًا بحيث لم تُبقِ لهُ حريَّةً كافيةً ليتفرَّغ للصلاة والهذيذ بالله ولكنهُ انحلّ ما كان لذلك الوقت متقيّدًا بهِ من رُبُط الدنيا بزلَّةٍ ارتكبها فانهُ اذ كان متوكلًا بدعوى كذب في قضيَّة غير ذات اهميَّة. واذ قرأ قول الروح القدس: الفم المتفوّه بالكذب يميت النفس: أثّر فيهِ تأثيرًا بليغًا حتى ترك على طول عمرهِ محاماة الدعاوي لكي يتفرَّغ للندامة وممارسة واجبات خدمة الكهنوت المقدَّسة وباشر ذلك بحرارة كليَّةٍ حتى غدت سيرتهُ مثال الفضيلة والكمال

ولما كان رئيس اساقفة نابولي مقتنعًا بان لا أحد أنسب من اندراوس أفيلّين لرعاية الانفس الملتزمة من قِبَل واجبات دعوتها أن تُقبل على الكمال الانجيليّ ائتمنهُ على سياسة رهبانيةٍ فالغيرة التي استعملها رجل الله في اصلاح ما كان قد دخل ذلك الدير من العوائد السيئة وفي اعادة النظام ولا سيما روح التصوُّن والصلاة العقليَّة أثار عليهِ مقاوماتٍ شتى ورأى نفسهُ هدفًا لغضب جماعةٍ منهم حضور موضع المقابلة ونجا ذات مرةٍ من الموت وقد كان هُدّد بهِ وأصابتهُ مرةً أُخرى ثلث ضرباتٍ على وجههِ واحتمل ذلك من غير شكوى وقدّم حياتهُ ضحيةً من اجل نجاح الفضيلة ومن أجل مجد الله

ولما اشتدَّ بهِ اخيرًا الشوق الى ان يموت عن الدنيا موتًا كاملًا انضمَّ الى الاكليريكيين المرتَّبين المدعوّين التياتينيّين وانفرد سنة ستٍّ وخمسين وخمسمائة والفٍ في ديرهم بنابولي الذي كان قدوةً للمدينة كلها وكان حتى ذلك الوقت منتعشًا بروح القديس غايطانس وغيرته ومات هذا القديس سنة سبعٍ واربعين وخمسمائة وألفٍ. واما قديسنا فترك اسم لنصيلو الذي كان معروفًا بهِ الى ذلك العهد وتسمَّى أندراوس ولما اراد الشروع في ان يكون كاملًا نذر نذرين خصوصيين لا يجوز التساهل في السماح بالتقيُّد بهما بمقتضى قواعد الحكمة المسيحية ولكن ألهم ذلك بحركة نعمة خارقة العادة اما النذران فالاوّل محاربة ارادتهِ على الدوام والثاني ان ينعطف بكل جهدهِ الى الكمال. وكان الناس يندهلون من غيرتهِ على الإماتات الظاهرة وعلى القساوة التي عامل بها جسمهُ ولكن اخصّ ما كان يذهل فيهِ هو حبُّهُ للاحتقار وشدَّة غيرتهِ على ان يهدم ما يخصّ الانسان العتيق. ذلك واحتمل بدون ادنى اضطرابٍ قتل احد ابناء اخيهِ ولم يرد ان يتتبع القاتل فضلًا عن انهُ طلب لهُ العفو بمزيد الالحاح. وكان تدقيقهُ

في ان يحفظ ويجعل الغير يحفظون كل قضايا القانون مُساوياً بحرارة الغيرة التي كان يطلب بها مجداً لله في كل امرٍ وكان يصرف في الصلاة والتأمل كل دقيقة تبقى له بعد ممارسة فروضهِ المألوفة فروح هذه الغيرة والمحبة جعل اعمالهُ جزيلة الافادة لنفوس الذين كانوا تحت رعايتهِ . والجم الغفير من الرهبان والكهنة العالمين الذين استاقهم الى برٍّ سامٍ يثبت انهُ تعلّم فنّ تصيير الناس قديسين (١)

كان الكردينال بولس ارزُّو الذي ارتسم اسقفاً على بليزنسا ثم صار رئيس اساقفة نابولي يخصّ بالاعتبار هذا القديس ويستشيرهُ في أجلّ المهمات وكذلك القديس كرلوس بوروماوس كان يعتبرهُ مثل هذا الاعتبار وطلب منهُ بعض كهنة ربّاهم ليؤسّس في مدينة ميلان دير التياتيّين . ونوى القديس كرلوس بوروماوس بهذا التأسيس اصلاح الاكليروس وان يعيد اليهم روح الكمال وتقديم نموذج جميع الفضائل الكنائسيّة لاكليروسهِ وحثّهم شيئاً شيئاً لأن يجروا على هذه الطريقة التي يجب ان يتّصف بالجري عليها خدّام السيد له المجد . ولكن المنيّة حالت دون إنفاذ هذا المرام

واستُدعي القديس اندراوس الى أماكن مختلفة ليقيم بها أديرةً لرهبانيتهِ وآتاهُ الله في كل موضع بركاتٍ غزيرةً في المشروعات التي باشرها وزاد بهاء فضائلهِ بموهبة النبوّة وموهبة صنيع العجائب

ولما كان القديس عليهِ السلام قد اضنتهُ الاتعاب وضعف من الشيخوخة سقط حذاء المذبح بداء السكتة وكان قد بدأ بالقدّاس فقال ثلث مرّاتٍ ادخل الى مذبح الله ولم يقدران يقوم من هناك فتناول القربان المقدس ودُهن بزيت المسحة على ما عظم من التقوى وانتقل الى ربّهِ في اليوم العاشر من تشرين الثاني سنة ثماني وستمائة وألف وعمرهُ ثمان وثمانون سنةً وحُفِظ جسدهُ بنابولي في كنيسةٍ للتياتيين على اسم القديس بولس وأُثبتت طوباويّتهُ بعد ستة عشر عاماً لوفاتهِ واثبت البابا اكليمنضوس الحادي عشر قداستهُ سنة اثنتي عشرة وسبعمائة والف . هذا وان الصقالبة واهل نابولي اتخذوهُ كأحد شفعائهم (مترجم عن غودسكار)

وفيهِ ايضاً ذكر استشهاد القديسين
طريفون ورِسبيسيوس

ان طريفون ورِسبيسيوس المولودين ببلاد بيثينية قرب أباميا قُبِض عليهما في اضطهاد ديوكليتيانوس عام خمسين ومائتين وكُبّلا بقيودٍ من حديدٍ واقتيدا الى نيقية التي كانت وقتئذٍ مقاماً لأكويلين حاكم بيثينية وبلاد الشرق وأُحضرا لديهِ بعد إقامتهما اياماً في السجن وبما انهما اعترفا بشهادةٍ بيسوع قال لهما الضابط الذي كان على حراستهما ان من يرفض التضحية للاوثان سيُحرق حيّاً وحثّهما ان يترأفا على أنفسهما فقال رِسبيسيوس هذا الذي نعملهُ ولا نستطيع ان نرفق بأنفسنا بأحسن من ان نعترف بالمسيح القاضي العدل الذي لابدّ ان يحكم على جميع الناس في منبرهِ ليقدّموا لهُ حساباً على كل أعمالهم . فقال لهما اكويلين انتما راشدان تعرفان ما تفعلان قال طريفون نعم ولهذا نشتهي ان نبلغ الى كمال الحكمة الحقيقيّة تابعين يسوع المسيح فأمر القاضي بان يُمدّا على آلة العذاب اما الشهيدان فكانا يشتاقان كثيراً الى التألم ولهذا خلعا ثيابهما وتعرّضا للسيّافين بفرح وأظهرا عند العذاب الذي استمرّ ثلث ساعات من الصبر والاطمئنان ما هو في غاية العجب ولم يفتحا أفواههما الّا ليستغيثا بالسيد له المجد وليمدحا رحمتهُ وقدرتهُ ويُنذرا القاضي بالخطر الذي يعرّضهُ لهُ عمى بصيرتهِ واخيراً امر بان ينزلا عن الآلة المذكورة ولما قام الحاكم ليذهب الى الصيد امر ان يسيرا معرّضين للبرد لأن الفصل كان شتاء والبرد قارساً وكانت أرجلهما متشققة من عدّة مواضع بحيث لم يكونا يستطيعان المشي ولا الوقوف ما لم يشعرا بالآلام لا تخطر لأحدٍ ببالٍ . واما أكويلين فعند رجوعهِ من الصيد قال لهما ما هي استعدادتكما قالا لم نزل كما كنّا فأرسلهما الى السجن وأوعدهما بمعاملةٍ اشدّ واقسى وبعد أيامٍ قليلةٍ سافر الحاكم ليزور بعض مُدُن ولايتهِ

(١) ان لورنسيوس سكوبولي هو من اخصّ تلاميذهِ وكان تركهُ للدنيا غاية التمام حتى لم يكن يظهر انهُ مستمسك من الدنيا بشيءٍ وألّف في رياضتهِ كتاباً عجيباً وهو الكتاب المعروف تحت اسم الحرب الروحيّة وقد ضمّنهُ أدويةً فعّالةً لجميع النقائص والمعايب وأحسن الطرائق المؤدّية الى سمو الكمال وعبارتهُ ظاهرة غير معقّدة وتظهر طلاوتهُ في الاصل الطلياني اكثر من ظهورها في المترجم عنهُ وقد اوضح فيهِ مؤلفهُ ان الكفر بالذات والتواضع وتحرّز المرء من نفسهِ والثقة بالله تعالى وبجودتهِ ومحبّتهِ ورحمتهِ كل ذلك اساس الحياة الروحيّة . ولما كان القديس فرنسيس سالس يقرأ الكتاب المنوّه بهِ أُشرب قلبهُ الغرام بمحبّة الكمال وحمل ذلك الكتاب ثماني عشرة سنةً وكان يقرأ منهُ كل يوم ويجني كلما قراهُ فائدةً جديدةً ومن ثمّ قرّظهُ في كثير من رسائلهِ

وعند عودتهِ الى نيقية أمر باحضار المعترفَين وتملّقهما بأحسن المواعيد ليستميلهما اليهِ وترجّاهما ان يخلّصا ذواتهما ما دام لهما وقت. فقال القديسان لا نستطيع ان نتبع نصائحكم وحظّنا يقوم بثباتنا على الاعتراف باسم يسوع المسيح. ولما رأى أكويلين ان مسعاهُ قد خاب أخذ قلبهُ كدرٌ شديد فأمر ان تثقب أرجل الشهيدَين بمسامير غليظة وأمر ان يُجرّا في المدينة والمسامير بأرجلهما عند اشتداد البرد ولاجرم ان الذي ثبّت الشهيدَين على عزمهما أعطاهما شجاعةً تغلب خباثة العدوّ والحاكم انذهل من ذلك وخجل فأمر أن يُجلَدا بقساوةٍ ثم امر ان تُمزّق لحامهما بمخالب من حديدٍ وأن تُحرَق خواصرهما بمشاعيل متقدةٍ واما الجلّادون فظنوا ان تجديد القساوة يذهب بلا فائدة لأن القديسين لم ينغلبا وما برحا يكرّران هذه الصلاة وصورتها. ايها المسيح الذي نقاتل لاجلهِ لا تسمح ان يغلبنا الشيطان فقوِّنا واجعلنا أهلاً لان نكمل مسيرنا حتى نحارب وتغلب بنا. ولما كان الغد استُنطقا من جديدٍ وضُربا ضربًا عنيفًا بسياطٍ معلّقٍ عليها كراتٌ رصاصيّةٌ وقضى عليهما الحاكم آخر الامر بقطع الراس. ووقع ذلك سنة خمسين ومائتين (مترجم عن غودسكار)

اليوم الحادي عشر

وفيهِ ترجمة القديس مرتينوس الأسقف

وُلِد هذا القديس المعظم ببلاد بانونيا بمدينة سابريا سنة ست عشرة وثلثمائة وهو من عَبَدة الأوثان. وكان والدهُ ذا مقامٍ رفيعٍ في جيش الملك قسطنطين الكبير الّا ان ابنهُ هذا كان متّصفًا بصفاتٍ مسيحيّة منصبًا نحو الفضيلة محبًّا من صباهُ مخالطة المسيحيين فلما بلغ نحو عشر سنين من عمرهِ دخل الكنيسة وطلب ان يُحصى ما بين الموعوظين وبعد سنتين لذلك لما سمع اخبار الآباء السياح القديسين المقيمين بالفيافي عزم على الذهاب اليهم واقتفاء آثارهم ولو لم يمنعوهُ من ذلك لبقي مثلهم في البريّة. ثم خرج امر الملك بان اولاد جنود عسكرهِ الأقدمين يتجندون فدخل مرتينوس الجندية الّا انهُ عاش فيها بين الجنود عيشةً مسيحيةً مقدّسةً

ومن جملة الفضائل التي تحلّى بها جيد كمالهِ الشفقة على الفقراء ولا ريب انهُ كان منقطع النظير في الفضيلة المشار اليها لانهُ كان يتصدّق على اهل الفاقة بكل ما لهُ فاتفق يومًا انهُ صادف على باب مدينة اميان من اعمال غاليا رجلاً عريانًا يستعطي ولانهُ لم يكن معهُ دراهم شقّ رداءهُ واعطى نصفهُ للفقير وفي ليلة ذلك اليوم رأى في الحلم سيدنا يسوع المسيح لابسًا نصف الثوب المذكور وقائلاً للملائكة الذين حولهُ مرتينوس الموعوظ وهبني هذا. فبعد هذه الرؤيا طلب المعمودية فعُمِّد ثمّ عزم على جحد الجندية وكان قد بلغ حينئذٍ السنة الثامنة عشرة من عمرهِ فطلب اذنًا من قائد الجيش لكي يترك الجنديّة فلم يرضَ بذلك القائد بل وبّخهُ ونسب طلبهُ هذا لضعف شجاعتهِ لان الحرب كانت قد اوشكت ان تشتعل نارها. فقال لهُ المسيحي الباسل غدًا سأُريك ان طلبي هذا ليس هو عن قلة الشجاعة فضعني في مقدمة الجيش وانا وحدي أقتحم جيش الأعداء غير متسلّح الّا بعلامة الصليب المقدّس فان خرجت من الحرب سالمًا فاسمح لي حينئذٍ بان اترك الجيش والجندية. فأجابهُ القائد الى ما طلب الّا انهُ بتدبير الله تعالى طلب الأعداء الصلح فلم يحدث حربٌ

فانطلق القديس مفتكرًا كيف يعبد الله جلّت أسماؤهُ فذهب الى القديس ايلاريوس الذي كانت الآفاق قد تعطرت برائحة قداستهِ وتتلمذ لهُ ولمّا اختبر القديس ايلاريوس صدق فضائلهِ أدخلهُ في عداد الاكليريكيين وحينئذٍ أُوحي اليهِ من الله ان يرجع الى بيتهِ لكي يجتذب والديهِ الى الايمان فسافر باذن الأسقف معلمهِ ووقع في الطريق بين ايدي اللصوص فرفع احدهم يدهُ ليضربهُ بالسيف فمنعهُ آخر عن الضرب ثمّ اوثقوهُ وأسلموهُ الى واحدٍ ليحرسهُ وهذا سأل القديس هل اعتراهُ الخوف حينما رفع رفيقهُ السيف ليقتلهُ فأجابهُ القديس مرتينوس انني لم أخف البتة من اجل كوني مسيحيًّا ولعلمي بان الله يهتمّ بعبيدهِ اهتمام أبٍ الّا انّي تكدّرت على شقاء حالكم التي تُفضي بكم الى الهلاك الأبدي. ولما رأى القديس ان اللصّ يُصغي اليهِ أخذ يُبشّرهُ بسيدنا يسوع المسيح فآمن اللص واعتمد وترهّب وهو الذي أورد ذلك

فوصل القديس الى وطنهِ واجتذب الى الايمان المسيحي والدتهُ وكثيرًا من الوثنيين. ثم جاوب الاريوسيين الذين كانوا قد كثروا في تلك البلدان فامسكوهُ وجلدوهُ جهرًا في الشوارع ثم أخرجوهُ من المدينة. فذهب الى ايطاليا وهناك أُخبر ان القديس ايلاريوس قد نفاهُ الاريوسيون لاجل الايمان فانفرد القديس مرتينوس بجوار مدينة ميلان وعاش

هناك عيشاً رهبانيًا . الاَّ ان الاريوسيين اخرجوهُ ايضاً من هناك فانطلق مع كاهن فاضل الى جزيرة قريبةٍ من مدينة جنوا وكان يقتات بالبقول البريَّة فقط

فلما عرف سنة ستين وثلاثمائة ان القديس ايلاريوس قد رجع من المنفى عاد اليهِ واختلى باذنهِ في مكانٍ قريب من بواتير مدينة الاسقف مرشدهِ وهناك بنى ديرًا وهو أوَّل دير بُني للرهبان بفرنسا وسار فيهِ سيرة سيَّاح الصعيد القديسين مع اناسٍ كثيرين تتلمذوا لهُ وترهبوا في ديرهِ وقد اظهر فيهِ اولاً ما كان الله تعالى انعم عليهِ من فعل العجائب لان رجلاً ما كان قد اتاهُ طالبًا المعمودية وفيما كان يستعدُّ لقبول السرّ ويتعلَّم الايمان المسيحي توفي بغتةً وكان القديس غائبًا منذ ثلاثة ايام لبعض أُمورٍ تخص الدير فلما رجع عرف هذا القديس مرتينوس وصلّى لاجلهِ فقام الميت حيًّا واعتمد وعاش بعد ذلك أعوامًا كثيرةً . فشاع هذا الخبر في كل المملكة فأضحى القديس عند الجميع في مقام رسول وازداد اسمهُ شرفًا بآيةٍ أُخرى نظير الاولى وهي ان واحدًا من أتباع احد الأكابر يُقال لهُ لوبيسيانوس كان قد خنق ذاتهُ فاجتمع حولهُ جمعٌ غفير كان فيهم القديس مرتينوس الذي لما عاينهُ شرع يصلي لاجلهِ فحيي المشنوق حالاً من بعد ان قد كان مات امام الجميع

وفي غضون ذلك اي نحو السنة الحادية والسبعين بعد الثلث مائة تُوفي القديس ليدوريوس اسقف مدينة طور فاتفق جميع الاكليريكيين والشعب على ان يختاروا القديس مرتينوس اسقفًا ثم الزموهُ بقبول الأسقفيَّة فجاراهم على ذلك ورُسم أُسقفًا الاَّ انهُ بعد خروجهِ من الدير لم يترك شيئًا من رياضات الرهبان ونقشفاتهم لانهُ بنى ديرًا قرب مدينة طور وكانت قلايتهُ من خشب وكان بقية الرهبان ساكنين حولهُ في كهوفٍ وما لبثوا ان وصل عددهم الى ثمانين راهبًا وأغلبهم كانوا قد جحدوا شرفًا ساميًا وغنًى وافرًا وهم جميعهم كانوا يلازمون الصوم والاختلاء الدائم لا يخرجون من قلاليهم الاَّ لكي يرتلوا التسابيح الالهية وكان ذلك اول دير في فرنسا

روى جميع المؤرخين ان هذا القديس كان كلامهُ خاليًا من كل انواع الابهام والدهاء ومتواضعًا الى الغاية وحافظًا نفسهُ من الخطإ على الدوام اي في الضنك والسعة لم يضحك ولم يظهر منهُ اثر حزن ونزاقة وكان مهتمًّا طول عمرهِ بمساعدة الفقراء ومقابلاً بغض اعدائهِ واضطهادهم بالمحبَّة وفعل الاحسان.

ذُكر في هذا الصدد ان اكليريكيًّا اسمهُ بريسيبوس اذ نصح لهُ القديس احتدم عليهِ غضبًا فذهب الى الدير وقذفهُ بالشتائم ازدادت بهِ الجراءة حتى كاد يضربهُ الاَّ ان الاسقف القديس ألجم غضبهُ وقابل شراسة ذلك الاكليريكي وما قذفهُ بهِ من الشتائم بالكلام اللطيف اللين حتى خجل وحينئذٍ بريسيبوس وجثا على قدمي القديس تائبًا وطلب المسامحة فغفر لهُ القديس وانبأهُ بانهُ سيرتسم اسقفًا على ابرشيتهِ فكان كما قال ورُقم اسمهُ في سفر القديسين ويُذكر موتهُ المقدس في السنكسار الروماني في اليوم الثالث عشر من هذا الشهر

وأفرغ القديس جهدهُ وقتئذٍ في استئصال عبادة الأوثان التي كانت لم تزل في بعض اماكن من مملكة فرنسا وفيما كان يعظ يومًا في قريةٍ على الوثنيين تقدَّمت اليهِ امرأة بابنها ميتًا وقالت لهُ انك خليل الله فاسألك اذًا ان تبتهل اليهِ ان يقيم ابني من الموت ليتضح حق ايمانك وتعاليمك . فلما صلّى القديس قام الابن حيًّا بين يدي أُمهِ فاندهش الجميع وجثوا على قدميهِ طالبين المعموديَّة . وقيل انهُ سأل الله ذات يوم ان يهدم هيكلاً للأوثان . فما فرغ من الصلاة الاَّ هبت ريح عاصفة مع رعود وصواعق فسقطت جدران ذلك الهيكل وهكذا طلب هدم عمودٍ كان عليهِ صنم فسقط الصنم وانسحق العمود . ثم تقدَّم ليقطع شجرةً عالية مخصَّصةً بعبادة الاوثان . فمنعهُ الوثنيون ثم قال لهُ احدهم اننا نرتضي بقطع الشجرة ان أردتَ الوقوف تحتها حين وقوعها . فرضي القديس وشرع الوثنيُّون يقطعون الشجرة ولما مالت ناحية القديس واوشكت ان تقع عليهِ عمل نحوها علامة الصليب المقدس فتحوَّلت الى حيث كان الوثنيون ومن اجل هذه الأُعجوبة آمنوا قاطبةً . وقيل ايضًا إنهُ مرَّةً اخرى أحرق هيكلاً للاصنام واذا بريحٍ شديدةٍ ساقت اللهيب الى البيوت القريبة فخاف القديس من ان اهل البلد يعدُّون ذلك من انتقام الآلهة منهم . فصعد الى اعلى السطوح مقدِّمًا نفسهُ للهيب فتحوَّل اللهيب الى الوراء من حيث كانت تهب الريح . ورام يومًا آخر ان يهدم ايضًا هيكلاً شريفًا مكرمًا جدًا عند الوثنيين فمنعوهُ فصام ثلثة أيام وحينئذٍ تراءى لهُ في السماء ملكان في يدي كلٍّ منهما سيفٌ وترس وقالا لهُ اذهب واهدم هذا البناء الشيطاني وها نحن نصونك ونناضل عنك مقابل الجميع . فقام القديس ودخل الهيكل حيث كان قد اجتمع الوثنيون فسحق الأصنام وهدم

المذابح وأخرب اخيرًا الهيكل كلَّهُ ولم يمانعهُ احدٌ بل كانوا كأنهم مقيَّدون بالسلاسل فاستولت عليهم الحيرة من قِبَل هذه الآية فآمنوا واعتمدوا جميعهم. وبينما كان مرةً أُخرى يهدم هيكل أوثان اذ رفع احد الفلاحين فاسًا ليقتلهُ. غير ان ذلك الفلاّح وقع بغتةً الى الوراء امام جمٍّ غفيرٍ من الشعب وفي الحال ارعوى عن غيّهِ وجثا على قدمي القديس مستغفرًا منهُ

اعلم ان القديس مرتينوس قد صنع عجائب أُخر كثيرة بها اجتلف عبادة الاصنام ونسخها من كل مملكة فرنسا. اما العجائب التي صنعها للمسيحيين فكثيرة وعظيمة ومن المفيد ان نذكر بعضها في هذا المقام فنقول. نُقِل ان اميرًا خَشِن الاخلاق وحشيّ الطباع دخل يومًا مدينة طور بنية ان يفتك بسكانها. ولما كانت ليلة اليوم الذي عزم الامير ان يفعل فيهِ ما كان في نيّتهِ الخبيثة ذهب القديس الى باب منزل ذاك الامير وأخذ يصلّي هناك واذا بهاتف من السماء يقول للامير أهكذا ترقد على فراشك مستريحًا وتدع عبد الله على باب بيتك ملقًى على الارض. فنهض الامير مرتعدًا وفتح باب منزلهِ وجثا امام القديس طالبًا المغفرة ثم خرج من المدينة ولم يضرّها شيئًا. ونُقِل ايضًا ان القديس اراد ان يخاطب الملك فالنتينيانوس الاول ليطلب منهُ الغاء امرٍ كان قد اصدرهُ في منع المتخصّصين من العباد قبل وقت وفاتهم ارضاء لخواطر الوثنيين اما الملك فلما عرف قصد القديس امر بان لا يُقبل في البلاط وكانت امرأتهُ الآريوسية تحثهُ على انفاذ امرهِ هذا. فالتجأ القديس الى الله مصلّيًا ولما اتمَّ الصلاة تراءى لهُ ملك سماويّ امرهُ بالذهاب الى بلاط الملك فذهب القديس ولم يمنعهُ احد من الدخول الى وسط القصر فغضب الملك ووبخ جنودهُ لأنهم أذنوا لهُ في الدخول ولم يقم للقديس الاَّ انهُ لما رأى كرسيَّهُ قد التهب بغتةً نهض وأكرمهُ واجابهُ الى كل ما طلب

وفيما كان مسافرًا وجد منزلاً كانت منفردةً فيهِ بتول جزيلة الفضل تعيش كالملائكة متجرّدةً عن الناس أتمَّ التجرُّد فاراد القديس ان يخاطبها لكي يثبّتها في الايمان. اما البتول فلم ترضَ بمفاوضتهِ بل قالت ليعلم الناس جميعهم اني حرَّمت عليَّ مذاكرتهم لست أرضى اليوم ان أُخاطب من هو أفضل الناس طُرًّا. ولله درّ القديس سُلْبيسيوس كاتب هذه الترجمة حيث يقول انصتنَ ايتها العذارى واقتدينَ بهذا المثال اغلقنَ

ابوابكنَّ في وجوه الابرار والكهنة ايضًا لئلا يدنو منها الأشرار

وفي ذلك الزمن كانت الكنيسة قد رذلت بدعة البريسليانيين في مجمع وكان الجنود الرومانيون في انكلترة وفرنسا نادوا بمكسيموس ملكًا وكان هذا قد انتصر على قراتيانوس وجعل كرسي مملكتهِ في تريفي فجاء الى هناك الاساقفة لقضاء امور كنائسهم منهم القديس مرتينوس فهذا جاء ليتشفع لدى الملك في اشخاص فقبلهُ الملك وأكرمهُ وكلّفهُ الاكل على مائدتهِ واجلسهُ من عن يمينهِ وكان معها وزير الملك وأخوهُ وعمّهُ وبينهم كاهن رفيق القديس. فأوعز الملك الى خادمهِ ان يقدّم القديس عليهِ عند الشراب الاَّ ان القديس بعد ان شرب من الكاس قليلاً قدّمها للكاهن ليشرب فحسن ذلك عند المحفل بل عند الملك نفسهِ وأعجبهُ كثيرًا

فقام واحد من الاساقفة يقال لهُ ايتاسيوس وهو من اساقفة اسبانيا وطلب من الملك مكسيموس ان يحكم بالموت على المبتدعين المذكورين فقاومهُ القديس مع اغلب الاساقفة الكاثوليكيين قائلاً ان حكم الاساقفة بالحرم كافٍ وان هذا الحكم الكنائسي لا يختصّ بالسلطة الدنيويّة. الاَّ ان الملك اصغى لايتاسيوس وامر بقتل سبعة من الاراطقة المذكورين وارسل الى بلاد اسبانيا أفرادًا يفتشون عن الاراطقة ويقتلونهم ولذا انفصل القديس مرتينوس من ايتاسيوس وأصحابهِ ولم يرد ان يعاشرهم. فصعب هذا جدًّا على ايتاسيوس وبمشورتهِ ارسل الملك فدعا القديس الى ان يحضر ارتسام أسقف من احزاب ايتاسيوس ثم قال انهُ سيحكم بالموت على كل الذين كان يشفع فيهم ان ابى الحضور فتحيَّر القديس عند ذلك غير ان حنوَّهُ على خلاص القريب حملهُ على حضور الارتسام ولكنهُ على اثر خروجهِ من الكنيسة خرج من المدينة وعاد الى ابرشيتهِ ولم يزل نادمًا على زلتهِ هذه بقية حياتهِ في على اشتراكهِ مدة ساعتين فقط مع اناس كان قد انفصل منهم اكثر الاساقفة الكاثوليكيين وان كانوا لم يُحرَموا من جانب الكرسي الرسولي ومع انهُ عرف بواسطة ملَك من السماء ان قد غُفِرت زلّتهُ

ولما قدم القديس مرتينوس مدينة طور استقبلهُ أهلها كملكٍ وهو مع تقدُّمهِ في العمر لم ينقص شيئًا من تقشُّفاتهِ ولا من أعمالهِ الرسوليّة ولم يزل الى منتهى حياتهِ يثبت التعليم الذي

كان يُعلّمهُ بالآيات والمعجزات التي اوردها القديس سُليبيوس. قد لاحظ هذا المؤرخ ان القديس مرتينوس وإن لم يكن ماهرًا في علم البيان كانت احاديثهُ جليَّةً منطبقة على الأقيسة التركيبيَّة ممتزجةً بالقوَّة والشهامة والطلاوة فكان ذا اقتدار على حلّ أغوص المسائل وأغمضها وكان حاضر الجواب على ما يُعرَض عليهِ من الأسئلة على طرائق الحياة الباطنة وسريع الخاطر في اعطاء المشورات الحسنة بحيث لم يكن احد يدحض الضلال ويبيّن الحق على وجهٍ أثبت وأكثر اقناعًا من الوجه الذي كان يستعملهُ. ولاحظ الناس في جميع أحاديثهِ معاني رائقة وفطنةً وحذاقةً ذات تأثير فانهُ كان يُوضح دائمًا المعنى بعبارةٍ صحيحةٍ ويقرنهُ بصوت الرزانة والاحشام والتواضع الذي لا يمكن التعبير عنهُ. واما ارشاداتهُ على الفضيلة فقد اتخذت من أمثالهِ وعجائبهِ قوةً جديدةً لم يكن يقاومها أحد. وما أبصرهُ الناس قطُّ غضبًا ولا مضطربًا بأدنى ألم وكان على اطمئنان بالٍ في الحوادث كافَّةً ولم يزل اسم يسوع المسيح على لسانهِ وفي فؤادهِ ولم يُعيِ الناس التعجُّب من اتضاعهِ ولطفهِ وتقواهُ وشفقتهِ على الجميع ولم يكن يريد ان يحكم على القريب وكان يحمل اعمال الغير على حسن النيَّة وسلامة الضمير بقدر ما يستطيع. وكان اذا حاول أعداؤهُ ان يضرُّوا بهِ ويؤذوهُ يكتفي بالبكاء على خطاياهم ولا ينتقم لنفسهِ منهم الاَّ بالاحسان اليهم. وما كان يضيع من نهارهِ ولا دقيقةً وكان في الاغلب يقضي الليل مشتغلاً أو مصلّيًا وكان ينام على مِسحٍ ليس تحتهُ الاَّ الارض ولم يكن يرتاح الاَّ قدر ما تلجئهُ الضرورة الى الراحة ولا تشتّت بالهُ في مُعظم الاشغال الخارجية. وكان متعوّدًا ان لا تغيب عن عينيهِ الحضرة الالهية وكان يتخذ من جميع ما يلقاهُ سببًا لتقديس نفسهِ ولان يعلّم الآخرين الفضيلة. فلما رأى ذات يوم نعجةً مجزوزةً حديثًا قال بتعجبٍ للذين معهُ قد تمّمت هذه الشاة وصية الانجيل كان لها ثوبان فأعطت احدهما من ليس لهُ ثوبٌ فلنصنع مثل هذا. فلما رأى رجلاً لابسًا اثوابًا باليةً كان يرعى الخنازير صرخ هوذا آدم مطرودًا من الفردوس فلننزع عنّا آدم العتيق لنلبس الجديد. ومرةً أخرى وصل الى شاطئ نهرٍ كانت الطير تحاول أن تصطاد منهُ سمكًا فقال انظروا صورة أعداء خلاصنا فقد عملوا مكيدةً على أنفسنا ليفترسوها فأمر الطير ان تذهب عن ذلك النهر فذهبت. وعلى هذا الأُسلوب أدخل في قلوب تلاميذهِ ما كان بقلبهِ من عواطف التقوى وقداستهُ السماوية صيَّرتهُ مخيفًا ومهيوبًا عند أركون الظلام وذلك بالمثابرة على ما ذكرناهُ من الفضائل ولاسيما نقاوة قلبهِ العجيبة

ولما اراد الله ان يجازي هذا الأُسقف القديس على أعمالهِ كان عمرهُ فوق الثمانين بل ربَّما كان فوق التسعين وكان قد أنبأ بوفاتهِ قبل وقوعها ببرهةٍ طويلةٍ وقد دعاهُ النزاع الذي وقع بين اكليروس كَنْد قرية في ابرشيتهِ الى ان يسافر الى ذلك المكان وكان في رفقتهِ بحسب العادة كثير من تلاميذهِ وقضى برهةً من الدهر في كند وإعاد اليها السلام والاطمئنان غير انهُ لما تأهَّب للعود الى طور أصابهُ مرض وللوقت فقد قُواهُ فجمع تلاميذهُ وقال لهم ان ساعة موتهِ قد أتت فسالت الدموع من عيونهم وصرخوا بصوتٍ واحدٍ يا أبتاهُ لماذا تتركنا والى مَن تخلف الاهتمام بأولادك فالذياب الخاطفة تثب على قطيعك وإنّنا لعارفون برغبتك في ان تكون مع يسوع المسيح الاَّ ان ثوابك مضمون ولو تأخَّر فلا يزال هو هو فرقّ لاحتياجنا واعتبر الاخطار التي تتركنا فيها. اما القديس مرتينوس فمزج دموعهُ بدموعهم وصلّى لاجلهم هذه الصلاة أيُّها السيد ان كانت خرافك لم تزل مفتقرةً اليَّ فلا ارفض العمل ولتكمل ارادتك المقدَّسة. وكأنّهُ قال ان الشيخوخة والمشاق لم تضنك نفسي وهي الى الآن مستعدَّة الى مقاتلاتٍ جديدة اذا دعوتني اليها ايها السيد لكن بشرط ان تشدّد ضعفي وتضمّني اليك فكن حافظًا ومحاميًا عن هذه النفوس التي أخاف عليها. فبيّن بهذه الصلاة انهُ لم يكن عارفًا ايَّ الامرين يفضّلهُ على غيرهِ أترك الارض للذهاب الى المسيح ام البقاء فيها حبًّا بهِ تبارك اسمهُ ولهذا اعلمنا عندما نطلب من الله النِعَم الدنيويَّة ان نخضع انفسنا لارادتهِ بالتسليم الكامل ونرجوهُ ان يدبّر كل الاشياء فينا وبواسطتنا لاجل مجدهِ الاعظم

ولم يزل القديس مرتينوس على ما يقاسيهِ من ألم الحمَّى منطرحًا على مِسحٍ فوق الرماد ومصلّيًا الليل كلَّهُ فعرض عليهِ تلاميذهُ ان يفرشوا تحتهُ قليلاً من القشّ فأبى وقال لا يليق بالمسيحيّ الاَّ أن يموت على الرماد فياويحي ان أعطيتكم مثالاً رديئًا هنا. وكانت عيناهُ ويداهُ مرتفعاتٍ نحو السماء على الدوام ولما قيل لهُ في تحويل جسمهِ الى جهةٍ أخرى تخفيفًا لألمهِ

قال اسمعوا لي يا اخوتي ان انظر الى السماء لا الى الارض لان نفسي مستعدة لان تطير الى الرب الذي أوشكت ان تتحد بهِ. ثم رأى ابليس أخزاهُ الله يحاول ان يُلقي الهَلَع في قلبهِ فقال لهُ مَن تنتظر هنا نبأ الك من وحشٍ ضائرٍ فليس لك فيَّ عُلقةٌ فانَّ حِضن ابرهيم مفتوح لي ولما فرغ من هذا الكلام قضى أجلهُ في اليوم السادس او الحادي عشر من شهر تشرين الثاني والارجح ان وفاتهُ كانت في المائة الرابعة للمسيح ورأى الذين شهدوا موتهُ ان وجههُ وبقية جسدهِ متلألئان ببهاء المجد

اليوم الثاني عشر

وفيهِ ترجمة القديس مرتينوس البابا الشهيد

وُلد هذا القديس بمدينة تودي من أعمال ايطاليا ولابيهِ وجاهة وشرف في تلك البلاد وكان اتخذ من الله تعالى جسدًا جميلاً وعقلاً حاذقًا وقلبًا نقيًا منصبًا نحو الفضيلة فلاجل جزيل علمهِ وقداسة سيرتهِ انتخبهُ الاكليريكيون برأي واحد وأجلسوهُ على الكرسي البطرسي بعد وفاة البابا تاودوروس سنة تسع واربعين وستمائة وحينئذٍ تلألأت فضائلهُ أبهج تلألؤ

اعلم انهُ في ذلك الزمن كانت الكنيسة رذلت اوطيخا في المجمع الخلكيدوني المقدَّس واثبتت وجود الطبيعتين الالهية والانسانية في السيد المسيح لهُ المجد فخرج عقِب ذلك من البِدعة المشار اليها بِدعة المشيئة الواحدة اي ان ليس في المسيح تبارك اسمهُ الاَّ مشيئةٌ واحدةٌ لا غير والذي ابتدع تلك البدعة تاودوروس اسقف فاران وكيروس اسقف الاسكندرية وسرجيوس وبيروس اسقفا القسطنطينية فهؤلاء لم ينكروا واضحًا الطبيعتين كالاوطيخيين الاَّ انهم كانوا يثبتون ان في ابن الله المتأنس فعلاً واحدًا ومشيئةً واحدةً وبهذا كانوا ينكرون كمال ناسوت ابن الله المتجسد وبالتالي فقد كانوا ينكرون عليهِ عزَّ وجلَّ صيرورته انسانًا بالحقيقة وانتصر لهذا الرأي هرقل الملك لظنهِ انهُ بتسليمهِ لليعاقبة بشيءٍ من عقائدهم يتحدون مع الاساقفة الكاثوليكيين الاَّ انهُ لما عرف ان البابا سافارينوس رذل الامر الذي كان ابرزهُ في ذلك الصدد بمنشور شهرهُ في جميع أطراف المملكة رذلهُ هو ايضًا بأمر آخر فبعد ثماني سنين لذلك اي سنة ثماني واربعين وستمائة ابرز الملك قُسطانت امرًا بهِ كان يأمر الكاثوليكيين تبَّاع بدعة المشيئة الواحدة بالصمت وعدم المجادلة في هذه القضية وهذا الامر قد ابرزهُ بمشورة بولس بطريرك القسطنطينية. ولعمري ان مثل هذا الصلح في امر المعتقد قد رذلتهُ الكنيسة ولم ترضَ بهِ في وقتٍ من الاوقات لما فيهِ من انتصار اهل البِدَع الذين لا يقصدونَ سوى ان لا يقلقهم أحدٌ في ضلالهم

فلما جلس القديس مرتينوس على كرسيّ الحبريَّة العظمى ارسل اليهِ الملك منشورهُ الذي ابرزهُ في ابطال كل جدال في امر الدين كما مرَّ آنفًا ورغب اليهِ ان يثبتهُ بالمصادقة عليهِ أمَّا الحبر القديس فلم يرضَ بذلك بل قال انني اختار الموت على اثبات هذا الامر بل انني سأنادي واحثُّ الجميع على المناداة بما اعتقدتهُ الكنيسة دائمًا في هذا المعنى اي ان في اقنوم سيدنا يسوع المسيح لهُ المجد طبيعتين كاملتين. ولم يكتفِ القديس بذلك بل عقد مجمعًا ورذل فيهِ امر قسطانت وامر هرقل السابق ذكرهُ وحرم كيروس بطريرك الاسكندرية وسرجيوس وبيروس وبولس بطاركة القسطنطينية وكتب الى كل الاساقفة الكاثوليكيين في مقاومة اهل المشيئة الواحدة

فاضرم هذا الامر نار البغضاء في قلب الملك فأمر اوليمبيوس الذي كان قائد جيشهِ بمدينة رفينا ان يذهب الى رومية ويقبض على القديس ويرسلهُ الى القسطنطينية على ان القائد لما رأى ان امساك القديس غير ممكن لاجل حب الجميع لهُ عزم على قتلهِ سرًّا فطلب الرديء من الحبر الاعظم ان يناولهُ القربان المقدَّس في كنيسة مريم الكبرى وكان قد أوصى احد الجنود انهُ حينما يرى القديس مقبلاً اليهِ ليناولهُ السرَّ المقدس يقدم لهُ اي للقائد سيفًا لكي يقتلهُ بهِ غير ان الله تعالى المعتني بحفظ أصدقائهِ أعمى الجندي حينما تقدَّم البابا فخاب أمل اوليمبيوس ولما عرف من الجندي ما جرى لهُ تاب هو ايضًا عن قصدهِ الرديء وسافر الى صقلية ليحارب السراكسة لكن انهزمت جيوشه وهو مرض فمات

بيد أن الملك لم يرعوِ عن غيهِ بل ارسل تاودوروس كاليوباس وهذا امسك القديس مرتينوس واتى بهِ اولاً الى جزيرة نكسوس حيث حفظوهُ مدة سنة متألمًا كثيرًا من مرض اعتراهُ في السفر من سوء معاملة الجنود لهُ ثم اتوا بهِ في شهر ايلول سنة اربع وخمسين وستمائة الى القسطنطينية والقوهُ في سجنٍ بدون ان الشعب يدرون ذلك ومكث هناك ثلثة اشهر ثم في السابع عشر من كانون الاول أُخذ الى الحاكم وقال لهُ القاضي قُل ايها الشقيّ ما الذي صنع الملك بك من الشر

هل غصبك مالك او جار عليك فلم يُجبهُ القديس ولا بكلمةٍ واحدةٍ وحينئذٍ حضر شهودٌ زورٌ وحلفوا على الانجيل المقدس وانهموهُ باطلاً كما كان امرهم الملك انهُ عاصٍ متحدٌ مع أعدائهِ فشرع القضاة يفترون عليهِ باقبح الشتائم اما هو فكان يحتمل هذا بصبرٍ بليغ ولم يزل يرذل ما كان قد رذلهُ قبلاً . فنقلوهُ الى مكانٍ عالٍ تجاه الملك وقال لهُ خازن الملك أنتظر كيف اسلمك الله الى ايدينا بعد تعصبك على الملك . ثم نزعوا عنهُ حلّتهُ الحبريّة ولم يُبقوا عليهِ الأثوبًا واحدًا شقّوهُ نصفين ثم أوثقوا عنقهُ بالحديد وانزلوهُ هكذا الى سجن مظلم

ولما كان الغد دنت المنيّة من بولس البطريرك الارطوقيّ وحينما رآهُ الملك أخبرهُ بما جرى بالحبر الروماني فهتف وقال متحسبًا آهًا على شقاء حالي لكون هذا الامر يملأ مكيال خطاياي فتعجب الملك وسأل البطريرك عن سبب كلامهِ هذا فقال لهُ بولس ان معاملتكم أسقفًا و بابا مثل هذه المعاملة لمن افحج الأمور فلم يتُب الملك بل ترك القديس في السجن خمسةً وثمانين يومًا وبما انهُ كان مصرًا على عدم ابطال منشوره في مقاومة اهل المشيئة الواحدة وثابتًا على عزمهِ على عدم الاشتراك معهم نُفي الى كرسونيزا توريكا (المسماة يومئذٍ قِرْم) وهناك قاسى اتعابًا عظيمة من قِبَل شدة البرد والجوع ولما شعر باقتراب موتهِ كتب الى الاكليروس في رومية وحثهم على الثبوت في الايمان الكاثوليكي وختم رسالتهُ بهذا الكلام يا ايها الراعي الصالح راعي المؤمنين الازلي يا سيدي يسوع وربي ومخلصي لقد تألمت من اجلك حتى الآن فاسمح ان تكون هذه الساعة نهاية منفاي اي نجني من هذا الجسد البالي لكي ادخل ملكوتك وافوز بمشاهدة كمالاتك الازلية المحبوبة وقد استودعتك الرعية التي ائتمنتني عليها فاذكر يارب انك افتديتها بدمك الكريم اسالك يارب باستحقاقات القديس بطرس هامة رسلك ان تحفظها مقابل قوات الجحيم المجتهدة في افتراسها

وكانت وفاة القديس مرتينوس في منفاهُ في اليوم السادس عشر من شهر ايلول سنة خمس وخمسين وستمائة الاَّ ان الكنيسة تذكرهُ في اليوم الثاني عشر من تشرين الثاني لأنهُ في ذلك اليوم نقل جسدهُ من القسطنطينية الى رومية حيث وُضع في كنيسة القديس مرتينوس اسقف طور ولم يزل مكرمًا هناك من الجميع . واما الملك قُسطانت فان الله تعالى اقتصَّ منهُ ببلايا كثيرة واخيرًا قتلهُ احد جنودهِ بمدينة سيراكوزا

اليوم الثالث عشر

وفيهِ ترجمة القديس استانِسلاوس كُستكا اليسوعي

قد كان هذا القديس من اكبر الشرفاء وعشيرتهُ اعزّ شأنًا من جميع عشائر بلاد اللاه وكان مولدهُ في اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الاوّل في السنة الخمسين والخمس مائة والألف وكان منطورًا على الصلاح حسب قول الحكيم فمال قلبهُ منذ صبائهِ الى الفضيلة ومن اجل ذلك كان ابواهُ يلقبانهِ بالملَك وكان ايضًا متّصفًا ببهاءٍ وجمال عظيم حتى قيل في بهائهِ ما قالهُ القديس امبروسيوس في جمال الكلية الغبطة مريم العذراء اعني ان حسنهُ كان يعزي النـاس ويحرضهم على محبة العفة . وقد كانت هذه الفضيلة فيهِ لطيفة الى الغاية حتى كان ينزعج من أدنى كلمةٍ ومن ثم اتفق أن عظماء البلد اجتمعوا ذات يوم في بلاط ابيهِ للأكل او للتنزه فافتتح احد الحاضرين خطابًا منحرفًا عن الادب والحشمة فلما سمع والدهُ ذلك شرع يتوسل الى ذاك الرجل ان يشفق على ابنهِ العفيف ويمسك عن الخطاب لان ابنهُ يكره الكلام في ما يخدش الأدب

ومن جملة الوسائط التي ساعدتهُ على حفظ البرّ مواظبتهُ على رياضات العبادة وانصبابهُ على درس العلوم ولما بلغ السنة الرابعة عشرة من عمرهِ أُرسل الى مدرسة الرهبان اليسوعيين بمدينة وينا مع اخٍ لهُ اسمهُ بولس وكان اشرف عظماء المدينة يتهذبون هناك وقد اصبح فيما بينهم نموذج الفضائل وكان الجميع يتعجّبون منهُ ويشتهون مشاهدتهُ ومخاطبتهُ لكون صلاتهِ في الكنيسة كانت مرافقة باعظم ما يكون من الاحتشام وكانت حرارة العبادة تتوقّد في قلوب الناس اذ يرونها ظاهرةً على وجههِ . كيف لا وكانوا يشاهدونهُ غالب الأوقات ذارفًا الدموع في صلاتهِ وأحيانًا واقعًا عليهِ جذبٌ ومرتفعًا عن الارض فمال الاكثرون الى مصاحبتهِ غيرانهُ لم يعاشر سوى بعض أفراد من ذوي الحشمة والعبادة وكان يصرف الزمان معهم في المذاكرة الروحية المقرونة باللطف والبشاشة المبهجة ومن ثم لم يكن أحدٌ يضجر من مذاكرتهِ ولو كانت على الدوام فيما يخصُّ العبادة

فكان الشاب القديس قاطنًا في المدرسة مع بولس أخيهِ البكر ومع رجل آخر يُدعى بيلنسكي كان أبوهما الامير قد

اقامةً على تدبيرها غير انهما اضطرَّا فيما بعد ان يسكنا خارج المدرسة المتقدم ذكرها فاختار مدبرها لسكناها بيت رجلٍ لوتراني وانما فضَّلهُ على بيوت الكاثوليكيين لحسن موقعهِ وبهجة المكان الواقع فيهِ وهو وسط المدينة فصعب هذا الامر جدًّا على استانسلاوس وذكر لاخيهِ كم هو غير لائق بهما ان يسكنا في ذلك المنزل الَّا ان اخاهُ الذي كان قد ابتدأ حبُّ العالم واباطيلهِ يتسلَّط عليهِ لم يصغِ لمشورتهِ فاضطرب الشابُّ القديس بالطاعة لهُ ولم يكتفِ أخوهُ بذلك بل شرع يهينهُ بكل نوع من الإهانة لاعتبارهِ استقامة سيرة أخيهِ توبيخًا لاعوجاج سيرتهِ الرديئة . اما الشاب المغبوط فكان يحتمل كل هذه بالصبر الجميل ولم يفتح فاهُ بالشكوى مع أنَّ أخاهُ استمرَّ يضطهدهُ مدة سنتين وفي ذلك الزمن كان يتناول القربان المقدَّس كل أحد وفي أشرف الاعياد ويحضر كل يوم قداسين ويصوم دائمًا يومًا واحدًا قبل تناول السر الالهي ثم انهُ كان يلبس المسح مرارًا كثيرةً وينهض من النوم دائمًا نصف الليل ليصلّي وكان بعد صلاتهِ المستطيلة يجلد جسدهُ الطاهر بقساوةٍ مقدَّسةٍ حتى ان خادمهُ كان يجد على الدوام قمصانهُ مصبوغةً بالدم

فهذه السيرة القشفة مع اضطهاد اخيهِ طرحاهُ في الفراش مريضًا حتى كاد يموت من هذا المرض فطلب حينئذٍ ان يأتوهُ بكاهنٍ ليناولهُ الأسرار الالهيَّة فلم يرتضِ بذلك صاحب البيت فلما رأى ذلك القديس صعب عليهِ جدًّا ثم التجأ الى القديسة بربارة وطلب منها ان لا تتغاضى عنهُ في هذه الشدة التي ألمَّت بهِ . ولما كان المرض بشدَّتهِ منعهُ النوم في إحدى الليالي اذا بالقديسة المذكورة تراءت لهُ من جانب فراشهِ وفي صحبتها ملكان كان احدهما حاملاً القربان المقدس فناولهُ السر الالهي . وبعد ذلك بزمن يسيرٍ عادهُ الاطبَّاء فاذا بهِ على حال التلف فتركوهُ ومضوا غير ان معدن الطهارة وملجأ القلوب النقية لم تهمل عبدها النقي بل ظهرت لهُ بوجهٍ باشٍّ مبهج وعزَّتهُ بالفاظٍ عذبة ووضعت على فراشهِ ابنها الالهي بهيئة طفلٍ صغير . فشرع القديس يلاطف ربَّهُ بكل ما امكنهُ من الهيبة والمحبة ثم قالت لهُ العذراء المجيدة انهُ لم يأتِ يوم وفاتك بعدُ يا ابني ولكن لكي تستحق التمتع بيسوع ينبغي لك أن تكون مطيعًا ارادتهُ ويريد منك ان تدخل في الرهبانية التي تشرَّفت واعتزَّت باسمهِ القدوس واوصاني بان آمرك بذلك . قالت هذا بفمها الحلو وغابت عن نظرهِ

وقام استانسلاوس من مرضهِ وطلب من رئيس اليسوعيين ان يدخلهُ في عداد رهبانهِ فأبى لأن والدهُ لم يرضَ بترهُّبهِ اما ابنهُ فلم يقطع رجاءهُ ولهذا اذ كان يُصلّي ذات يوم شعر بعزمٍ شديدٍ على الهرب من بلدتهِ لانهُ كان يجد فيها موانع كثيرة تصدُّهُ عن بلوغ قصدهِ . فقام صباحًا وبعد الاعتراف بين يدي مرشدهِ اليسوعي وتناول القربان المقدَّس خرج من المدينة وحينئذٍ خلع ثوبهُ الثمين وتصدَّق بهِ على أحد الفقراء ولبس مكانهُ ثوبًا دنيئًا من كتَّانٍ وشدَّ حقويهِ بحبلةٍ وعلَّق فيها مسبحتهُ وأخذ بيدهِ عصًا للسفر وشرع يسير مسرعًا . أمَّا أخوهُ بولس وبيلنسكي مدبّرهما فاذ دريا بذلك ركبا من الطريق ليلحقاهُ ولما كانا قد قربا منهُ ولم يبقَ بينهما وبينهُ سوى حقل اذا بالخيل قد وقفت ولم تعُد تخطو ولا خطوةً الى ما قدام فاحتاجا الى ان يرجعاها الى ما وراء اي نحو المدينة التي كانا قد خرجا منها . فلما فعلا ذلك سارت الخيل بسرعتها المألوفة وصنع الله أعجوبةً أُخرى وهي ان القديس سار على مياه نهرٍ في طريقهِ اذ كان هاربًا من وجه أخيهِ المجدّ في إثرهِ ليقبض عليهِ

فلما رجع بولس اخوهُ الى المدينة مع بيلنسكي مدبّرهِ وجد رسالةً كان القديس قد كتبها الى المدبّر المومأ اليهِ وتركها في البيت قبل سفرهِ وفيها ما نصُّهُ . اذا تأمَّل ابي القول الذي كرَّرهُ عليَّ مرارًا كثيرة في انهُ لا يدعني أترهَّب فلا ريب انهُ يعلم حينئذٍ اني بالصواب اخفيت عنهُ مقصودي واظن انا ايضًا انهُ لا يعتب عليَّ لاجل فراري منهُ وتغرُّبي عنهُ لانهُ بهذا الفعل نجا من الخطيئة ومقاومة مشيئة الله بحيث لو بقيت لمنعني من الترهُّب وذلك مضادٌّ لما ارادهُ الله بي . فلما قرأ بيلنسكي هذه الرسالة بعث بها الى والد القديس

اما استانسلاوس فلم يزل سائرًا بسلامٍ قاصدًا الوصول الى المدينة التي فيها رئيس اليسوعيين الاقليمي ببلاد النمسا وكان الرئيس في ذلك العصر الاب كانيسيوس وهو رجل جزيل القداسة والعلم قد ادخلهُ حديثًا البابا بيوس التاسع فيما بين الطوباويين . فاتفق ان استانسلاوس عند هربهِ من بلدتهِ دخل في احدى القرى باكرًا فوجد الناس مجتمعين في الكنيسة ليصلوا فرام ان يتناول القربان المقدس واذ دخل الكنيسة كان يظن بانها كنيسة الكاثوليكيين الَّا انها كانت

في الحقيقة معبدًا لجماعة اراطقة فلما تحقق هذا الامر استحوذ عليهِ حزن عظيم وطلب من الله تعالى ان لا يحرمهُ ما يشوق قلبهُ اليهِ كل الشوق اي أن يناولهُ القربان المقدس ومن الغريب العجيب أن السيد المسيح ارسل اليهِ ملكًا ناولهُ السرّ الالهي ثم سار في طريقهِ وبعد ان مشى مسافة مائتي ساعة على الفور وصل الى المدينة التي كان فيها الرئيس الإقليمي المشار اليهِ فأمرهُ الاب الفاضل بان يخدم طلبة المدرسة ففعل ذلك باتضاع لا مثيل لهُ ومهارة يظنّ كل من يراها انهُ قام على هذه الخدمة منذ زمن مديد. امّا بعد مدةٍ فلما تحقق الرئيس الاقليمي أن دعونهُ من الله أشار اليهِ بان يتغرَّب عن بلادهِ اكثر من ذلك لكيلا يفتكر ابوهُ الامير في ان يمنعهُ عن الترهب ثم أوصاهُ بالمضي الى رومية ليترهب هناك. فلم يستصعب السفر وإن كان طويل المسافة لفرط ما كان يشتهي التعبُّد لله تعالى في الرهبانية اليسوعية. فوصل أخيرًا الى رومية وهناك قبلهُ الرئيس القديس فرنسيس بورجيا باظهار محبة عظيمة وأدخلهُ دير المبتدئين في اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الأوّل سنة سبع وستين وخمسمائة وألف

وبعد دخولهِ في الرهبانية بزمنٍ وجيزٍ أتت رسالةٌ من قِبَل أبيهِ تتضمَّن عباراتٍ غضبية وتدلّ على شدَّة غيظهِ عليهِ من أجل هربهِ منهُ وسفرهِ بزيّ صعلوكٍ حقيرٍ قائلاً انهُ اهان بفعلهِ هذا ودخولهِ في الرهبانية شان اصلهِ الشريف. وقد هدَّدهُ بتلك الرسالة بانهُ سيظهر غيظهُ هذا بالفعل وينشرهُ في جميع الممالك المسيحية انتقامًا ممَّن فضح اصلهُ بهذه الأعمال الفظيعة وختم كلامهُ قائلاً ليتحقق عندك اني اعمل كما قلت وسنعلم بمجرَّد هذا الأمر من الآن فصاعدًا اني والدك. فقرأ ابنهُ هذه الرسالة بقلب هادئ ولما كان رجاؤهُ مبنيًّا على ملك الملوك ردَّ جوابًا لأبيهِ قائلاً: يا سيدي الوالد لو كان ما صدر مني موجبًا لغيظ عزتكم وداعيًا لتوبيخاتكم لحزنت الى الغاية الاَّ أني لم ارتكب في حقكم ذنبًا ولا نقصت من شرف بيتكم شيئًا واما ما حسبتموهُ عليَّ جناية وذنبًا فوالانجيل الطاهر لا أخجل منهُ ولا هو مما يخفض شانكم وشهد الله ياسيدي اني منذ زمن مديد قد جعلت كل مجدي الطاعة لله تعالى واعتناق صليب سيدنا يسوع المسيح وان نفسي لقد وجدت في هذا الامر تسلية وعذوبة عظيمة لا نظير لها على الأرض ومن ثم لست اظنُّ مولاي الذي يحب بنيهِ انهُ يريد ان يحرمني خيرًا لست ابدلهُ باكاليل ملوك العالم كافةً. انتهى

واذا تقرَّر ذلك ساغ لنا ان نصف سلوكهُ الرهباني فنقول انهُ لقد كان عزم على نفسهِ ان يقتدي باخوتهِ الرهبان في كل ما يجدهُ فيهم افضل كمالاً فنظرًا الى التقشفات كانت رغبته فيها حدّ الافراط حتى انهُ لم يكن يترك شيئًا ما يرى سائر المبتدئين يمارسونهُ الاَّ ما ينهاهُ عنهُ الرؤساء. اما طاعتهُ فقال فيها مرشدهُ انها بلغت الكمال الاسمى ومثل هذا قال آخرون في اتضاعهِ ولما كانوا يذكرون أمامهُ علوّ شرف أصلهِ كان يقول ان عظمة الانسان في الدنيا ليست الاَّ امرًا دنيًّا اذ كل ما فيها دنيٌّ ولعمري انهُ لاعظمة حقيقية سوى العظمة التي تصيّر الانسان عظيمًا عند الله تعالى. اما محبتهُ لله تقدس اسمهُ فلم تكن محبة التفضيل فقط التي يقوم بها جوهر المحبّة الفائقة نحو الله تعالى فقط بل كانت مقترنة ايضًا بمحبّةٍ لطيفةٍ لينة من شانها ان تنفذ القلب وتذيبهُ وقد كانت حركاتها عظيمةً الى الغاية حتى كاد مرارًا كثيرةً ان يموت من شدتها. أمّا محبّتهُ لسيدة السماء والارض ورغبتهُ في تمجيد اسمها فمن ذا الذي يقدر ان يصفها على انهُ كان يدرس درسًا خصوصيًا أشرف وأجل ما قال فيها الآباء القديسون والعلماء المتنوّرون وكان هذا الأمر غالب الاوقات مادّة مذاكراتهِ وقد كان يلفظ اسمها المجيد بعاطفة محبة لينة لطيفة عذبة حتى ان احد الرجال العظماء اذ سمع ذلك اندهش منهُ وقال للقديس فرنسيس بورجيا انهُ وجد شيئًا عجيبًا في كلام هذا المبتدئ في مريم العذراء

فلما قرب عيد انتقالها الى السماء اضطرم قلبهُ بشوقٍ عظيمٍ الى مشاهدتها يوم هذا العيد الشريف وطلب من كرمها هذا الإحسان بالحاحٍ مقدَّسٍ حتى شعر باطنًا بان سيدتنا مريم العذراء قبلت طلبتهُ فاخبر حينئذٍ أصدقاءهُ بانهُ سيموت من كل بد قبل انتقال العذراء ثم اخذ يمارس من ذلك الوقت تقشفات خصوصية استعدادًا لموتهِ القريب وبعد ايام قليلة اعترتهُ حمى وطرحتهُ مريضًا على الفراش فاخذهُ الرهبان الى بيت المرضى وحينئذٍ كرَّر قولهُ المتقدم ذكرهُ واخبر رئيس الدير انهُ سيموت ليلة عيد انتقال العذراء اي بعد خمسة ايام من خطابهِ مع الرئيس. اما الطبيب فرأى مرضهُ خفيفًا وحسبهُ كلا شيء لان الحمى كانت خفيفةً جدًّا. فلما بلغ بيرامون العيد اشتدَّ عليهِ المرض وخارت قوتهُ ولما شعر بان

مونةً قد قرب طلب اجازة لان يموت على اديم الارض بغير فراش . ثم تناول القربان المقدّس وسرّ المسحة الاخيرة وحينئذٍ رفع عينيهِ الى السماء وبقي هكذا صامتًا شاخصًا بنظرهِ الى العلاء بعقلٍ مختطف لانهُ في تلك الساعة ظهرت لهُ ملكة السماء وفي صحبتها جم غفير من العذارى كما أخبر رئيسهُ وبعد ذلك اسلم روحهُ بين يدي سيدهِ وامهِ العزيزة قبل نصف الليل بثلث ساعاتٍ في اليوم الرابع عشر من شهر آب سنة ثماني وستين وخمسمائة وألف

اما بعد وفاتهِ فقد بقي على حال بهائهِ الطبيعيّ الاوّل ولم يتغيَّر البتة حتى ان كل من كان ينظرهُ كان يظنُّ انهُ حيّ بعد ثم وضعوهُ في صندوق ودفنوهُ ولم يزل جسدهُ على صحتهِ اكثر من سنتين مع انهُ لم يكن محنَّطًا وقد مجّد الله تعالى عبدهُ بعجائب كثيرة نقتصر على ايراد واحدةٍ منها فنقول . كان في دير اليسوعيين دير المبتدئين بمدينة ليما شابٌّ قد بلغ من العمر أربع عشرة سنةً وبعض أشهرٍ يقال لهُ فرنسيس كسافاريوس وكان ضعيفًا بعد من حمَّى كانت قد لاشت قوَّتهُ فاتفق انهُ في اليوم السابع عشر من تشرين الاوّل سنة ثلث وسبعين وستمائة والف اعتراهُ ايضًا مرض الفالج فتعطَّل نصف جسدهِ الشمالي حتى انهُ لم يستطع ان يحرّك رجلاً ولا يدًا لكنهُ عدم الحركة تمامًا واصبح كانسانٍ ميتٍ . فلما اتاهُ الأطبَّاء حكموا على مرضهِ بانهُ داء لاشفاء لهُ فلم يصنعوا لهُ دواء غير تناول الاسرار الاخيرة . فلما تُرِك المريض من الاطباء الارضيين حضر طبيب سماويّ لمعونتهِ وذلك في اليوم الذي أوصى البابا اكليمنضوس العاشر ان يعيّدوا فيهِ عيد هذا القديس اي في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني ففي ذلك اليوم طلب ذلك الراهب المبتدئ ان يتناول القربان المقدس لئلا يعدم خبز الملئكة يوم عيد من كان يتناولهُ مرارًا كثيرة على ايدي الملئكة . ثم زارهُ احد المبتدئين واذ رآهُ على تلك الحال توجّعت أحشاؤهُ عليهِ حزنًا وقال لهُ اعلم يا اخي ان معي دواء اذا استعملتهُ فلا ينالك منهُ ضررٌ البتة بل المرجو انهُ يفيدك جدًّا ثم أراهُ ايقونة القديس استانسلاوس وقال لهُ هذهِ إيقونة أحد المبتدئين اليسوعيين وقد شفى كثيرين خارجين عن رهبانيتنا فكيف لا يمنُّ بالشفاء على من هو مبتدئٌ مثلهُ وفي رهبانيتهِ ويطلب منهُ الشفاء في يوم عيدهِ . فاستصوب المريض كلام رفيقهِ ورضي ان يتناول

هذا الدواء المقدّم لهُ من أخيهِ ثم طلب صورة القديس فقدّموا لهُ واحدةً صُوِّر فيها الملئكة يناولون القديس السرّ الالهي . فلما رأى الإيقونة المقدّسة طاب نفسًا وقال كأنهُ ينظر الى من سيشفيهِ : ايها المبتدئ القديس اني أُلزم نفسي بان اصلي كل أيام حياتي اكرامًا لك الصلاة الربيَّة وبشارة الملك واصوم بيرامون عيدك على خبزٍ وماء فقط وأُمارس مرةً واحدةً رياضات منشئ رهبانيَّتنا قال هذا الكلام وحينئذٍ تناول الايقونة المقدّسة باليد اليمنى ووضعها على يدهِ اليُسرى اليابسة فتحركت اليد اليابسة من ساعتها ثم وضعها على ساعدهِ محوّلاً الصورة نحو الكتف فكان كل جزء تلمسهُ الايقونة يرجع حالاً الى حال الحسّ والحركة ثمَّ وضع الصورة على ساقهِ ورجلهِ فتمَّ فيهما كما تمَّ في اليد والساعد . أخيرًا وضع الايقونة على جنبهِ كلّهِ فارتدَّ ايضًا هذا الجزء الى ما كان عليهِ من الصحة كأنهُ لم يمرض

فشرع المبتدئون يصرخون وقتئذٍ أعجوبةٌ أعجوبةٌ وبادروا الى قلاَّية الرئيس وهم يصرخون أعجوبة أعجوبة صنعها القديس استانسلاوس كُستكا فلم يصدقهم الرئيس بل وبخهم على سرعة تصديقهم الأمور قبل الفحص الواجب ثم مضى هو وفحص الأمر بالنظر واللمس وتحقق الأعجوبة ايضًا . فقال احد المبتدئين للمريض الذي صُنعت بهِ الأعجوبة . أما تُريد ان نقدم في الكنيسة الشكر الواجب للقديس المحسن اليك . فأجاب فرنسيس كسافاريوس قائلاً اني اشتهي ذلك من كل قلبي فليحملني رجلٌ الى الكنيسة . وانما قال هذا الكلام مع علمهِ بحقيقة عافيتهِ خوفًا من ان تكون قوّتهُ غير كافيةٍ للمضي الى الكنيسة . فقال لهُ الرئيس اني لا اسمح لاحد بان يحملك فان كنت شفيت حقًّا شفاء عجيبًا فينبغي ان يكون الشفاء كاملاً . فقال المبتدئ إيتوني بأثوابي لالبسها وامضي الى الكنيسة فقدموا لهُ ثيابهُ فلبسها وحدهُ من غير مساعد ثم قام ومضى الى الكنيسة ماشيًا كعادتهِ الأولى بخطواتٍ قويَّةٍ في صحبة جميع سكان الدير . فلما مرَّ بايقونة العذراء وكانت في طريقهِ سجد لها منحنيًا على ركبتيهِ سجودًا تامًّا وقام بغير صعوبة . وفي اليوم الثاني التأم الناس في كنيسة اليسوعيين ليروا الأعجوبة وقدّموا النذاس شكرًا لله تعالى والقديس استانسلاوس ومعهم كان المبتدي فرنسيس كسافاريوس الذي صُنعت بهِ الأعجوبة قد حضر القدّاس

كلهُ جاثيًا على ركبتيهِ وفي آخرهِ تناول القربان المقدس وأخيرًا في اليوم الثالث مضى الى وكيل المطران وطلب اليهِ ان يفحص عن حقيقة الأعجوبة فحصًا شرعيًا كنائسيًا وبعد الفحص البليغ أثبت الوكيل حقيقتها وشهد لها بالقسم على الانجيل المقدس خمسة أطبَّاء وجميع الذين في دير المبتدئين

غير انهُ يجوز لنا ان نقول ان اعظم عجائبهِ هي المعجزات التي صنعها بردّ أخيهِ بولس الى التوبة على أن هذا الامير لما تأمل قداسة أخيهِ وقابلها مع القساوة التي عاملهُ بها جحد خديعة العالم وجلس في بلاطهِ بهيئة راهبٍ كاملٍ وعند ممارسة أشدّ الرياضات تقشُّفًا كثيرًا ما كان يهتف من صميم قلبهِ نحو أخيهِ متنهدًا باكيًا يا أخي القديس اضرع من أجلي انا الخاطئ المسكين واغفر لي كل الشر الذي فعلتهُ معك. ولم يبرح على هذه السيرة المقدَّسة أربعين سنة الى حين وفاتهِ ومات موتًا سعيدًا

اليوم الرابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس صالح

وُلد هذا القديس بكرامونا مدينة بايطاليا نحو نصف الجيل الثاني عشر وكان والدهُ تاجرًا وفي حين عمادهِ سمَّاهُ صالحًا ولعمري ان هذا الاسم موافقٌ لهُ لأنهُ اتصف بكل الفضائل التي تُصيِّر الانسان صالحًا وحمل نير الرب منذ صبائهِ وسلك طريق البر المبهج بتعليم والديهِ ومثال سيرتهما الحسنة. فلما كبر أدخلهُ أبوهُ في التجارة وقد اظهر فيها نحو الجميع حسن الأدب والصبر والأمانة وتعاطى الاعمال التجاريَّة وقلبهُ خالٍ من الطمع في الارباح الخبيثة وعقلهُ منزَّهٌ عن كل دهاء وحيلة وكذبٍ والتباس وقرن رياضات العبادة مع التجارة لانهُ كان يستحضر الله تعالى في كل افعالهِ. وما بقي لهُ من الزمن في ايام البيع كان يصرفهُ في الصلاة او في تلاوة كتابٍ مفيدٍ من الكتب الروحيَّة اما ايام الآحاد والاعياد فكان يخصّصها كلها لافعال التقوى ولا يدع عقلهُ يفتكر في أمور التجارة وبهذه الوسائط قضى أيَّام شبيبتهِ وعليهِ زينة البر والصلاح ظاهرًا وباطنًا

فلما بلغ سن الرجولية تزوج فتاةً صالحةً وعاش معها بمحبةٍ مسيحيةٍ حافظين الناموس الالهي وكل ما يقوم بهِ كمال المتزوجين محثين بعضهما بعضًا على العبادة وبهذه الطريقة أضحى عند الجميع محبوبًا وكان الاكثرون يتردَّدون الى حانوتهِ ليشتروا منهُ لانهُ كان في البيع أمينًا وفي قبول الناس والمعاملة معهم محتشمًا لطيفًا لا يطلب غير الثمن المتوسط الواجب وهكذا كثر مالهُ ولم يعلّق عليهِ قلبهُ بل انهُ لما تُوفّي والدهُ وامتلك وراثتهُ شرع يردّد في عقلهِ هذا الفكر وهو ان كل ربحٍ عالمي هو دني وانهُ ليس لنا منهُ سوى الفائدة التي نستنتجها لربح السماء وخلاص النفس وكان يتذكر غالبًا قولهُ تعالى لا تكنزوا لكم كنوزًا على الارض حيث يُفسد السوس والآكلة وينقب السارقون ويسرقون ولكن اكنزوا لكم كنوزًا في السماء حيث لا يفسد سوسٌ ولا آكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون. فعزم هذا التاجر الصالح على ربح ما لا يزول وعدَّ أموالهُ وسائط معينةً لامتلاك الخيور الابدية وذلك بتوزيعها على المحتاجين. فجعل حانوتهُ وبيتهُ حانوت المساكين ومنزلهم ولم يكن ينتظر ان يأتوهُ ليطلبوا منهُ ما يحتاجون اليهِ بل كان هو يسبقهم ويعطيهم ما لم يطلبوهُ وقد سعى الله تعالى معهُ مرارًا كثيرةً بفعل عجائب وذلك بتكثير اموالهِ لانهُ لم يدع فقيرًا في مدينة كرامونا ونواحيها في ضرورةٍ بل كان يمخم جميع احتياجاتهم وكان كلما تصدَّق عليهم ينبههم على خلاص نفوسهم وقد رُوي انهُ بصدقاتهِ ونصائحهِ ردَّ كثيرين الى التوبة

اما امرأتهُ فمع كونها نقية كانت تستغرب وفور صدقات زوجها وتنصحهُ كثيرًا على ذلك وتبكي احيانًا لخوفها من انهما يصلان الى حال الفقر لاجل توزيع هذه الصدقات الوافرة. اما هو فكان يقول لها لا تحزني ايتها المرأة بل تيقَّني ان الله عز اسمهُ يهتمُّ بنا ما دمنا نهتمّ بالمساكين. ان الذي نلقيهِ في حضن الفقير هو زرع جيدٌ ألقيَ في ارض جيدة يُثمر مائة ضعف ومعاملتنا هذه مع الله بالصدقة هي رباءٌ عجيب مقدَّس لانهُ تعالى لا يكتفي في انهُ يعطينا هنا مائة ضعف بل انهُ جلَّ سخاؤهُ يمنحنا مع هذا كلهِ ملكوت السماء وكفيلنا هو امين جدًّا لانهُ هو السيد المسيح الذي قال بفمهِ العزيز مها فعلتم بالمساكين حبًّا بي فبي فعلتم. فقدم الله تعالى ملكوتهُ للبيع وبالصدقة نشتريهِ. فهذا ما قالهُ التاجر الصالح وهذا ما تدرَّب عليهِ دائمًا ولم يكن يهمل شيئًا مما يخصُّ بيتهُ وتجارتهُ ولم يظهر في سيرتهِ الخارجة شيءٌ غير اعتيادي وما عدا القداس الالهي الذي كان يحضرهُ بكمال العبادة كان يصرف كل يوم ساعةً

واحدةً في الصلاة . اما القربان المقدس فكان يتناولهُ كل يوم احد وكان كل مكان لديهِ بيت الصلاة حتى ان الأُمور الخارجة لم تكن تعوقهُ عن مناجاة الله تعالى . وكان مع انهُ في ضوضاء العالم يباشر كل امرٍ بتمام السكينة

ومن انواع تعبُّدهِ انهُ كان كل يوم يحضر صلاة في الكنيسة نصف الليل امام ايقونة السيد المسيح ووالدتهِ المجيدة . فاتفق انهُ بعد حضورهِ الصلاة المذكورة اذ كان جاثيًا في القدّاس الالهي كعادتهِ ملصقًا وجههُ بالارض استمرَّ زمانًا طويلاً على تلك الحال ولذا تقدم احد الحاضرين لينهضهُ فوجدهُ ميتًا . وبعد موتهِ المقدس شرفهُ سبحانهُ بعجائب عديدةٍ ولاجل كثرتها كُتب اسمهُ في سفر القديسين بعد سنةٍ واحدة لموتهِ اي سنة ثماني وتسعين ومائة وألف وكانت وفاتهُ في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس ديداكوس

ان القديس ديداكوس وُلد ببلاد اسبانيا وابواهُ من الفقراء وبما انهما كانا يتَّقيان الله تعالى وابنهما المبارك أحبَّ الفضيلة منذ صباهُ وتتلمذ مدةً من الزمن لكاهنٍ قديس وكان يعيش معهُ منفردًا في البرية متوحدًا ممارسًا رياضات الصلاة والسيرة القشفة عائشًا من الصدقة فقط وكان من عادتهِ اذا شاء ان يؤكد شيئًا أن يقول ليجعلني الله راهبًا في رهبانية القديس فرنسيس ان لم يكن الامر هكذا لان نفسهُ كانت ترتاح جدًّا الى الدخول في هذه الرهبانية . ثم طلب ان يدخلها فنال مرامهُ ودخلها ومن الابتداء اظهر في سيرتهِ الروح المختص بهذه الرهبانية اي روح الاتضاع والفقر والامانة وكان يمتثل امر رؤَسائهِ كأنهُ امر السيد المسيح . واما جحودهُ ارادتهُ الذاتية فكان قد صيَّرهُ لا يريد شيئًا اصلاً غير ما تريدهُ منهُ الطاعة وذلك احترامًا لارادة الله المعلنة لهُ برؤَسائهِ

اما معاملتهُ جسدهُ فكانت ذات قساوة مقدسة لانهُ لم يكن يدعهُ قط خاليًا من الجراحات وشعر ذات يوم بحركةٍ زنويَّة فغطس بكل جسدهِ في نهرٍ باردٍ ومن ذلك الزمن لم يعد يشعر بحركة دنسةٍ ابدًا . ومن جهة الفقر فانهُ قبل سنتين لترهُّبهِ كان قد أحبَّهُ كلفًا حتى انهُ لم يكن يشاء ان يملك مالاً وقد وجد يومًا في الطريق كيسًا مملوًّا دراهم فتركهُ على حالهِ واخبر بهِ رجلاً آخر ليتخذهُ . اما بعد دخولهِ الرهبانية فقد تعرَّى من كل شيء حتى لم يكن لهُ شيء يستعملهُ سوى ثوبٍ واحدٍ وحبلٍ ليشدَّ بها حقويهِ ومسبحةٍ وكتاب للصلاة وهذا نفسهُ لم يكن يحسبهُ شيئًا يتملكهُ لانهُ كان يقول انهُ ليس لهُ شيء يخصُّهُ ويتملكهُ غير الخطيئة

فلما كان في مدينة سيفيليا اتفق ان غلامًا لخوفهِ من ان والدتهُ تضربهُ اختفى في فرن البيت ورقد هناك ولم تشعر أمهُ بذلك فبعد ما عجنت أوقدت نارًا في الفرن ولما اشتعل الحطب انتبه ابنها وصرخ الآن النار تعلَّقت فيهِ عاجلاً وخنقتهُ فزال عقل والدتهِ من إفراط حزنها وخرجت من بيتها منتحبةً مناديةً بقتل ابنها وبينما كانت على هذه الحال اذ مرَّ بها القديس ديداكوس وكان ذلك بعناية الله فلما سمع ما جرى قال للمرأة امضي الى كنيسة العذراء الجليلة وصلّي هناك أما هو فدخل بيت المرأة ومعهُ رفيقٌ وجمٌّ غفيرٌ من الشعب ونقدم الى الفرن المتَّقد حيث كان ابنها وأخرج الغلام من وسط النار حيًّا سالمًا

وصنع القديس آياتٍ أُخر كثيرةً ولكن أعجب ما ظهر فيهِ هو حبُّهُ للسيد المسيح ووالدتهِ المجيدة لانهُ غالبًا كان يوجّه نحوهما افكارهُ وعواطفهُ وعند صلاتهِ امام إيقونة يسوع المصلوب وامام القربان المقدَّس كان يضطرم قلبهُ ويلتهب وجههُ وكثيرًا ما كان يرتفع جسدهُ من على وجه الارض . وحبهُ هذا لابن الله كان يرغبهُ في خدمة المساكين في حال كونهم مرضى ويداوي جراحاتهم كانها جراحاتهُ او جراحات السيد المسيح ومن ثم كان يقبّلها بمحبةٍ مصحوبة بسرورٍ ولما رآهُ احد الرهبان يلطع بلسانهِ جرحًا كريهًا منتنًا اشمأز الراهب وحوَّل وجههُ فقال لهُ القديس أيقن يا اخي ان هذا دواء شافٍ لمثل هذه الامراض

اما طاعتهُ لرؤسائهِ فكانت حدَّ العجب والغرابة وقد اظهر الله سبحانهُ مزيد مسرَّتهِ بها لانهُ ذات يوم لما أراد رئيسهُ ان يرسلهُ الى احد الاماكن قال لهُ القديس ارسلني يا ابانا الى حيثما تشاء لان المكان المعين لي من الطاعة هو دائمًا المكان المشتهى مني لاني اجد الله تعالى في كل مكان . ثم سافر مع رفيقهِ الراهب وبعد ان سارا كثيرًا في موضع قفرٍ أكلهما التعب والجوع فقال القديس لرفيقهِ لنقف هنا يسيرًا لكي نصلي وفيما كانا يصليان التفت رفيقهُ فرأى على الارض منديلاً ممدودًا عليهِ اطعمة مختلفةٌ فجلسا وأكلا شاكرين الله على احسانهِ وكان موتهُ المقدس في اليوم الثاني عشر من شهر

تشرين الثاني سنة ثلث وستين واربعمائة وألف

ومن العجائب التي صنعها بعد موتهِ شفاء ابن فيلبُّس الثاني ملك اسبانيا لانهُ كان قد سقط وجرح جرحًا حكم الاطبَّاء انهُ غير قابل الشفاء فحينئذٍ اتوا بذخائر القديس الى مخدعهِ فشُفي حالاً فاخذ الملك شكرًا لهُ يلح على البابا في ان يدرج اسمهُ في سفر القديسين فقيَّد البابا سكتوس الخامس اسمهُ مع اسماء اولياء الله سنة ثماني وثمانين وخمسمائة وألف

اليوم الخامس عشر

وفيهِ ترجمة القديسة جرترودا البتول

ان هذه القديسة تنتسب الى عشيرةٍ شرفاء وكانت ولادتها بمدينة إيسليب بإمْرِيَّة منسفيلد من سكسونيا العالية وهي أُخت القديسة مكتيلدا ولما كانت ابنة خمس سنين وُضِعت عند راهبات القديس مبارك في مدينة رودسدورف ولبست ثوب الرهبانية في ذلك الدير ثمَّ ترأَّست عليهِ سنة اربعٍ وتسعين ومائتين وألف وفُوِّض اليها بعد سنةٍ تدبير دير هِلْديف واعتزلت فيهِ مع راهباتها وكانت قد تعلَّمت في صباءِها اللغة اللاتينية وكان كل العذارى اللواتي ينقطعن لعبادة الله يتعلمنَ هذه اللغة وقتئذٍ (اي في العصر الذي يدعوهُ الجَهَلة عصر الظلام) وبرعت في اللاتينية حتى صارت تجيد الكتابة فيها وقلَّ من كان نظيرها في معرفة الكتاب المقدَّس وجميع العلوم الدينية وكانت تقضي في الصلاة والتأمُّل اكثر أَوقاتها وأَحبَّت على وجه الخصوص التأمُّل في آلام المسيح وسرَّ الافخارستيَّا وكانت عبراتها عند ذلك تمطر كوابل الغيث فلا تقدر ان تكفكفها وكان كلامها في السيد لهُ المجد واسرار حياتهِ مقرونًا بطلاوةٍ وحميَّة حبٍّ كانت تذهل بها الباب السامعين وتعوَّدت نيل المواهب الخارقة العادة التي تنشأ من اتحاد النفس بالله عند الصلاة وصار وقوع الجَذْب عليها في حكم المألوف قيل انها رأَت حين كان يُترنَّم في الكنيسة بهذا الكلام: رأَيت الرب وجهًا لوجهٍ: مثل وجهٍ الهيٍّ بجمالٍ رائع نفذت مقلتاهُ الى فؤادها وملأتا نفسها بملاذٍ يقصر كل لسانٍ عن وصفها

لاجرم ان نار المحبة لله التي كانت تلتهب في حشاها حتى تتلفها تدل على انها محور أَمياها وأَعمالها ومن ثمَّ نزَّهت نفسها عن الدنيا وأَباطيلها وقمعت جسدها وأَبادت منهُ كل ما ربما يقاوم تسلُّط المسيح التامَّ عليهِ بالطاعة وجحود ارادتها وبالأَسهار والاصوام والزُهد وقرنت كل ذلك باتمّ ما يكون من التواضع واللطف . والخلاصة ان ذلك كان اصلاً لهذه الفضائل التي زيَّنها بها الربُّ ولتلك النِعَم الممتازة التي افاضها عليها

ولم تكن تتشاغل مع اشتهارها بالفضائل الشخصية الاَّ بالنظر في نقائصها ودناءتها وحقارتها وكانت تهوى ان يستزري بها الغير كما تستزري بنفسها وكانت قد تعوَّدت القول ان كون الناس يحتملونها في هذه الدنيا هو من اجلّ عجائب الله جلَّت جودتهُ ولله درُّها من متواضعةٍ لم تغترَّ بكونها رئيسةً بل كانت تتصرَّف كآخر خادمةٍ في الدير وكانت تحكم بانها غير اهلٍ ان تقترب من الراهبات . ومن الغريب ان شدَّة حبِّها للتأمل لم تحملها على اهمال الفروض العمومية وكانت تهتمُّ ايضًا بان تسدَّ كل احتياجات الراهبات الجسدية والروحية ومن ثمَّ كانت تقر عينًا اذ تنظرهنَّ يتقدمنَ في طُرُق الكمال الباطنة

واعلم ان حبها للمسيح جعلها مُغرَمةً بالعذراء القديسة وكانت تظهر كل يوم اكرامها لوالدة الله بطلب حمايتها وكان حبها شديدًا للنفوس التي تُصلى في المطهر نارًا منقيَّةً من الأَوزار فلم تزل تسأل الله ان يدخلهنَّ برأفتهِ مقرَّ الراحة والسلام

وقد رقمت القديسة جرترودا في كتاب الهاماتها ما يُريك صورة نفسها كيف كانت وفيهِ مناجاتها لله وحركات حبها ولعل هذا الكتاب أَفيد تأليف لاهل السيرة النظريَّة وأَنسب لان يُغذّي النفوس طعام التُقى وتعلن فيهِ القديسة طرائق مختلفة للوصول الى الكمال . وغاية ما فرضت فيهِ من تجديد مقاصد المعمودية ان النفس ترفض الدنيا رفضًا تامًّا وتتجرَّد عن ذاتها وتتكرَّس لمحبة الله الصافية وتنذر على نفسها إِنفاذ ارادتهِ تعالى في كل الأُمور وتسهب الكلام في ما يختص بالارتداد الكامل الى الله وتجديد العهود المقدَّسة التي ارتبطت بها مع العروس السماوي وتكريس نفسها للمخلّص بوثاق محبةٍ لا يحلّ وتطلب الى الحقّ سبحانهُ ان يميتها عن نفسها مطلقًا لتُدفن فيهِ تعالى بحيث لا يعرف احد قبرها الاَّ هو عزَّ وجلَّ وان لا يكون لها فيها بعد الأَوظائف المحبة او الوظائف التي تُدبَّر بالمحبة وكرَّرت ذكر هذه العواطف باسلوبٍ غريبٍ في مواضع من تأليفها . ووقفت القديسة في الجزء الاخير من كتابها

بالخصوص الاشواق الحارة الى ان تكون متحدة بمحبوبها في المجد المؤبد وسألت مخلّصها بكل ما احتماله وبرحمته غير المتناهية ان يطهّرها من الادناس وينزهها عن كل الاميال الدنيوية ليمكن قبولها في حضرته الالهية واعلم ان التنهدات التي أظهرت بها حرارة أشواقها الى ان تتحد بالهها في النعيم الدائم جميعها سماوية حتى يُظنّ انها من احد سكان السماء لا من البشر. فيُلاحظ ذلك على وجه الخصوص في الرياضات التي تشير بها على النفس العابدة وهي ان نتفرغ بعض الاحيان يومًا لنشتغل بالحمد والشكر لله تعالى لنتلافى الزلات التي ربما تندسّ يوميًا في اتمام هذا الفرض المضاعف ونشترك في هذا تمام الاشتراك مع الارواح السماوية ولأن نتلافى ايضًا الزلات التي تصحب غالبًا محبتنا لله تنبهنا على ان نستعمل لذلك من وقت الى آخر يومًا تامًا لمباشرة احسن أفعال هذه الفضيلة

ليت شعري ماذا نقول في عفّة القديسة جرترودا وليس في عرائس يسوع المسيح من تحرّز اكثر منها بالاحتياطات اللازمة لحفظ نقاوة نفسها وجسدها ويطول بنا ايضًا المجال اذا ذكرنا كل اوصاف ثقتها بالله ولم تُرد ان تتعزّى ولا تعزية بشرية وانتظرت بصبرٍ حتى شاء الله ان يُبلغها أمانيّها ولقد فرحت بالرجاء والمحبة كلّ زمان المحن والتجارب . فزيارة الروح القدس لها وتألمها من مقاطعته وشربها كاس آلام المخلّص والفرح والغمّ كل ذلك كان لديها في منزلةٍ واحدةٍ بما انها فوّضت امرها الى الله اتمّ التفويض

ولما دنت ساعة اتحادها المؤبد بعروسها السماوي مائت سنة اربع وثلثين وخمسمائةٍ وألف بعد ان ترأست على الدير أربعين عامًا واما شقيقتها القديسة ميكتيلدا فتُوفّيت قبلها بزمانٍ وجيزٍ ولم يكن مرض موتها الّا من شدّة المحبة الالهية وكانت التعزيات التي شملتها غايةَ الحلاوة وفائقة الوصف . ذلك وان كثرة الآيات اعلنت ان وفاتها كانت كريمةً لدى الرب (مترجم عن غودسكار)

اليوم السادس عشر

وفيه ترجمة القديس ادمُنْدوس الاسقف

وُلد هذا القديس ببلاد الانكليز وأبواهُ من اهل الفضل والورَع وابوهُ ادوَرْدوس برضى امرأتهِ المسمّاة مَبيلا اختلى في ديرٍ وترهّب وعاش عيشًا مقدّسًا . ولد ادمُنـدوس كأنهُ لا حياة فيهِ ففكروا ان يدفنوهُ غير ان أُمّهُ خالفتهم وأمرت بان يعتمد فعُمّد فتحرّك الصبي من ساعتهِ ولا غرو ان هذا هو السبب الذي من اجلهِ اعتاد الناس منذ اكثر من ستمائة سنة ان يأتوا الى قبرهِ باطفالٍ وُلِدوا ميتين لينالوا بشفاعتهِ الحياة ونعمة العماد . فلما كبر ادمُندوس أرسلتهُ امهُ الى باريز ليدرس العلوم مع أخيهِ روبرتوس واعطت كلًّا منهما مسحًا واوصتهما بان يلبساهُ في كل اسبوع مرتين او ثلاثًا ليكون درعًا منيعًا يردّ سهام عدو الطهارة . ومدة ما كان القديس ماكثًا في المدرسة كان للجميع مثال الفضيلة ونذر لله العفة أمام ايقونة ملكة العذارى . وكان حبهُ ليسوع الطفل مضطرمًا واحتراسهُ من كل ما يضادّ الحشمة دائمًا وحدث مرةً انهُ لما تباعد من بعض رفقائهِ وانفرد عنهم لئلا يسمع حديثهم المنحرف ظهر له يسوع على قامة عمرهِ وسلّم عليهِ بحبّ قائلًا أفلا تعرفني يا ادمُندوس اجابهُ لا قال وكيف لا تعرفني واني دائمًا بصحبتك فانظر الى وجهي فنظر اليهِ ادمُندوس وقرأ مكتوبًا على جبهتهِ يسوع الناصري ملك اليهود فقال يسوع هذا اسمي فعليك ان تذكرهُ دائمًا قال هذا وغاب . فاشتدّ في قلب ادمُندوس عبادة الاسم تعالى . ثم رجع بأمر والدتهِ الى وطنهِ ولما اشرفت والدتهُ على الموت جثا لديها وطلب بركتها الاخيرة وبعد ان نالها باحترام جزيل طلب ايضًا منها ان تبارك على أخيهِ روبرتوس وعلى اخواتهِ فأجابتهُ أمهُ بروح النبوّة لا يحتاجون الى بركتي لانهُ بك تحلّ عليهم البركات السماوية فاهتمّ بهم كما يليق بالاخ البكر

فبعد ان انتقلت والدتهُ اجتذب اخواته الى الترهّب ومضى بهنّ الى دير من اشدّ الاديرة تدقيقًا على حفظ القوانين حيث اشتهرنَ بقداسة سيرتهنّ . ثم رجع ادمُندوس الى باريز لاجل درس العلوم فجدّ في اكتسابها ولكنهُ لم يزل مجدًّا في الفضيلة ويستعمل لذلك افعال التقوى والتقشف ويعيش كانهُ عتيدٌ ان يموت في كل يوم . ولا جرم ان رغبتهُ في الدرس صانتهُ عن الانقياد للّذات الحسية وبالعبادة اكتسب انوارًا فائقةً بها حصل على معرفة اسمى الحقائق وهكذا من جهةٍ نجا بالدرس من موانع الفضيلة ومن أُخرى كانت الفضيلة تقدّس درسهُ والخلاصة انهُ بهاتين الواسطتين وصل من العلوم والفضائل الى ارفع المراتب جدًّا ثم انهُ كان لا يزال لابسًا المسح ولا يبرح صائمًا وكان بعد حضور الفرض الكنائسي كل ليلةٍ يطيل صلاتهُ امام ايقونة والدة الله زمانًا طويلًا

فأُحصي اخيرًا بين معلّمي المدرسة وشرع يعلّم هو ايضًا وفيما كان يشرح لتلاميذهِ فصلاً في علم الهندسة ظهرت له امهُ ذات ليلةٍ ورسمت على كراس تعليمهِ بالبركار ثلث دوائر وفيما كانت ترسمها تكلمت قائلةً الاب والابن والروح القدس ثم قالت له دع هذا العلم الدنيويّ يا بُنيّ واقصر درسك على هذا العلم الالهي . فمنذ ذلك الوقت لم يعُد القديس يدرس ولا يعلم سوى علم اللاهوت والأُمور الروحية . واتفق يومًا انهُ بينما كان يستعدُّ في منزلهِ على خطبةٍ في شان الثالوث الأقدس اذ غلب عليهِ النعاس فرقد ورأى حمامةً هبطت من السماء فدنت منهُ ووضعت في فمهِ لسانًا ناريًا فلما شرع يتكلّم على هذا السر الالهي ظهر رسولاً ممتلئًا من الروح القدس

وكانت مواعظ هذا العلاّمة القديس ومخاطباتهُ تؤثر في النفوس حتى انهُ ما من احدٍ سمعها ولم يحصل منها على فائدةٍ روحيّةٍ واشتهر كثيرٌ من تلاميذهِ ببرهم ومعارفهم فغادر المدرسة سبعة منهم في يومٍ واحدٍ وذهبوا لينضمُّوا الى رهبانيّة سيتو وكان في هؤلاء استفانُس الذي كان مذ ذاك رئيس دير كليرفو وأنشأ دير او مدرسة البرنردينن بباريز

ولما آب ادمُندوس الى انكلترة أقام بمدينة أكسفرد وبقي هناك منذ سنة تسع عشرة بعد المائتين والألف الى سنة ستٍ وعشرين ومائتين وألف وعلّم هناك منطق اريسطوطاليس الفيلسوف ولم يكن احدٌ الى ذلك العهد فعل هذا . واعلم ان واجبات المعلم لم تعُقهُ عن تقييد نفسهِ بخدمة المنبر وكانت اقاليم أكسفرد وكاوصستر وورصستر مجالاً لغيرتهِ وعمل هناك رسالات أتت بأثمارٍ حسنةٍ

ورفض جملة مناصب عُرِضت عليهِ الاَّ انهُ قبل اخيرًا وظينة القانونيّ والخازن في كنيسة ساليسبوري الكاتدرائية لكنهُ كان يصطنع بدخلهِ الى البائسين وكان لا يذخر لنفسهِ الاَّ ما لا يكاد يسدُّ اشدّ احتياجاتهِ . ثم اقامهُ البابا على المناداة بحربٍ صليبيّةٍ على السراكسة وأذن لهُ البابا ان يأخذ معاشًا من الكنائس التي يُنذر بها واما القديس فوفَّى هذه الوظيفة حقها بتمام الغيرة غير انهُ لا أخذ معاشًا ولا قبل نوعًا من الهدايا. قيل انهُ بينما كان يعظ في سهلٍ قرب كنيسة وُرصستر اذ هبّت عاصفةٌ شديدةٌ . بيد انها لم تمسَّ المكان الذي حفل بهِ الشعب لسماع مواعظهِ . ذلك وكانت أحاديثهُ تحرك القلوب الى ما يُريد ولا غرو فقد ملك القلوب بنصائحهِ حتى تاب على يدهِ اشدُّ الخطأة تصلُّبًا وقساوةً فان غيليوم الملقَّب بالسيف الطويل أمير ساليسبوري الذي سار منذ طويلٍ سيرةً مضادّةً كل المضادّة للدين المسيحيّ حتى انهُ ماتناول الاسرار قط تاب لما سمع عظةً من عظات هذا القديس وتفاوض معهُ بضع ساعاتٍ ولم يعد يشتغل الاَّ بأمر خلاص نفسهِ

وفي غضون ذلك انتُخب أسقفًا لمدينة كنتوربري وأثبت البابا غريغوريوس التاسع انتخابهُ والتزم القديس بقبول هذا المنصب العالي وباشر واجبات الاسقفية بهمّةٍ عالية ورأفةٍ لا تنكر فقد كان ابًا للمساكين وسندًا للأرامل وملجأ المظلومين ومعزيًا للحزان وعدوًّا للرذيلة وشفوقًا على الخطأة التائبين وغيورًا على خلاص النفوس . وأخيرًا ادركهُ الوقت الذي فيهِ يمتحن الله تعالى قديسيهِ اي وقت التجربة . اذ اوجبت عليهِ الحاجة ان يقاوم الملك هنريكوس الثالث الذي كان راغبًا في ابطال حقوق الكنيسة ويمنع او يوخر الانتخابات الكنائسية ويتمتع بدخل المناصب الكنائسية فصيّرهُ ذلك الأمر مبغضًا عند الملك وعظماء المملكة . فلما رأى نصائحهُ للملك خالية من الافادة بالكلية بل تزيدهُ غيظًا اعتزل الى مملكة فرنسا ملجأ الاساقفة المضطهدين وحيث كان سالفهُ القديس توما التجا في عهد الملك هنريكوس الثاني واستقبلهُ الملك القديس لويس باكرام ومحبة . ثم اختلى في ديرٍ من رهبانية سيتو ولكنهُ ما لبث ان اصابهُ داء المنيَّة فتناول الاسرار الالهية واسلم روحهُ الى الله تعالى في اليوم السادس عشر من شهر تشرين الثاني سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف

اليوم السابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس غريغوريوس الصانع العجائب

اعلم انهُ قد سُطّرت ترجمة هذا القديس بقلم من لا يُشكّ في صدق روايتهِ وهو سميُّهُ القديس غريغوريوس نيصص وأثنى عليهِ القديس باسيليوس وشبههُ في العجائب بموسى الكليم وعنهما أخذنا هذه السيرة . فنقول ان هذا القديس غريغوريوس وُلد بقيسارية الجديدة (يومئذٍ نيكسار) التي بنواحي البحر الاسود على رأس المائة الثالثة من والدين وثنيين شريفين غنيين ومعتبرين في العالم ودُعي عند مولدهِ تاودوروس ومن جملة صفاتهِ الطبيعية الحميدة انهُ كان ذا عقلٍ حاذق صائب وقلبٍ

ميّال الى الحق . فلما أخذ يفحص عن قواعد العبادة الوثنية ظهر لهُ بطلانها فاشمأزّ منها فشرع يطلب الحق ويخاف الزيغ عنهُ فكان يبغض طبعًا الكذب والمبالغة وكان حبهُ الحق مقترنًا بسيرة نقيّة

والتزم بتدبير عناية الله ان يذهب مع أخيهِ اثينودوروس الى مدينة قيساريّة ببلاد فلسطين واختها امرأة معاون الوالي ومن هناك ذهبا الى بيروت حيث درسا مدة القانون الروماني وبعد ذلك رجعا الى قيساريّة فلسطين حيث كان اوريجانوس الشهير التجأ من اسكندرية سنة احدى وثلاثين ومائتين وأنشأ مدرسة يعلم فيها العلوم العالية وكادت التلاميذ تزدحم لسماع تعليمهِ . وما احسن ماقالهُ القديس غريغوريوس في تقريظ هذا العلامة المشهور ونصّهُ . ان ملَك الرب أرشدنا في طريق هذه الحياة وربطنا بحبل المودّة مع هذا الرجل المعظَّم الذي منهُ سنستفيد جدًّا فاحسن استقبالنا مع عدم معرفتهِ لنا ومع كونهِ مسيحيًّا وأظهر لنا سرورًا كأننا اناس قد هداهم الله الى اشراكهِ ليصطادنا ويربحنا للانجيل وينقذنا من ظلام عبادة الاوثان

فاخذ ذلك العلامة المسيحي اللبيب يمدح الفلسفة الحقيقية ويحرضهما على درسها قصدَ ان يجذبهما الى قبول الحقائق الانجيلية فقال لهما لا يستطيع الانسان ان يعيش كما يليق بمن هو ذو نفسٍ ناطقة الّا بان يعرف ذاتهُ ثم يعرف ما هي الخيرات التي لا بدَّ لهُ ان يلتمسها وما هي الشرور التي ينبغي لهُ ان يحيد عنها . وبعد ايرادهِ مبادئ الفلسفة النظرية اخذ يشرح لهما مبادي الفلسفة العملية القائمة فيما يقوّم السيرة ويحسن افعال الانسان . ثم ابان لهما ان مبادي هذه الفلسفة لا تُحفظ الّا في الديانة المسيحية وأراهما ضعف ما الفهُ الفلاسفة الوثنيون وكذبهُ وبهرجتهُ فتحقق حينئذٍ تاودوروس كما ذكر عنهُ القديس غريغوريوس نيصص ان الله قد ارتفع بجلال سمو عزته الغير المتناهي فوق ادراك كل عقل مخلوق وان الفلاسفة الوثنيين قد ضلوا في ما قالوهُ في الله تعالى لأنهم أرادوا ان يقيسوهُ عزّ جلالهُ بمقياس المدارك البشريّة . ثم تحقّق أن لاسبيل الى معرفة الله الحقيقية الّا بشهادة من لا يدخل عليهِ الغلط والكذب وبالتالي ان ليس لهُ واسطة امينة توصلهُ الى ذلك غير نور الايمان . اما اوريجانوس فلما رأى الاخوين قد وصلا الى هذا الحد طفق يفسر لهما حقائق الكتب المقدّسة ثم طلب اليهِ الأخوان ان يُضمّا الى الموعوظين

هذا ولما كانت سنة خمس وثلاثين ومائتين للمسيح نادى مكسيمينوس الملك باضطهاد المسيحيين فاضطر اوريجانوس ان يخرج من قيسارية وذهب تاودوروس الى الاسكندريّة حيث كان عِلما الطبّ والفلسفة في رونق النجاح وكانت سيرتهُ نقيّة خالية من كل عيبٍ مع انهُ لم يكن اعتمد وهذا حرّك جماعةً من الشبّان الوثنيين على اضطهادهِ واهانتهِ بواسطة امرأةٍ زانيةٍ فلما رأوهُ يتذاكر مع بعض العلماء في مباحث فلسفيّةٍ دسّوا الى امرأةٍ بغيٍّ فذهبت الى ذلك المحفل وطلبت منهُ أمام المحضر أجرتها كأنهُ ارتكب معها فعلاً منكرًا . فلم يضطرب تاودوروس من كلامها بل ترجّى أحد الحاضرين ان يُعطيها ماطلبتهُ ويطلقها لئلّا تشوّش اذهانهم وتعوقهم عن الدرس والمذاكرة ففعل الّا أنّ تلك البغيّ بعد تناولها الدراهم دخلها الشيطان حالاً وعذّبها عذابًا هائلاً فصرخت وقتئذٍ وقد أزبدَ فمها انها كذبت بما قالت في تاودوروس ولعنت الذين حثّوها على تسويد عرض رجل عفيفٍ . فصلى تاودوروس لاجلها وفي الحين خرج الشيطان منها فانذهل المحفل من احتشام تاودوروس وصبرهِ ومن اهتمام الله تعالى بتبرئة عرضهِ

وبعد ذلك بزمنٍ يسيرٍ اعتمد ودُعي غريغوريوس ومن ذلك اليوم ابتدأ يرتقي في سلّم الفضائل وبعد ان اقام بمدرسة اوريجانوس خمس سنين رجع الى مدينتهِ اي الى قيسارية الجديدة ثم اختلى في برية حيث كان يناجي الله فقط برياضات التأمّل والصلاة غيران الله الذي كان قد اختارهُ ليضيء في الكنيسة بنور علمهِ وقداستهِ حرك احد قديسيهِ ليخرجهُ من البرية ويجعلهُ على المنارة . وهو فيديموس اسقف اماسيا الذي كان متصفًا بروح النبوة فهذا لما بلغهُ خبر قداسة غريغوريوس وتامل سوءحال مدينة قيسارية الجديدة التي لم يكن فيها من المسيحيين سوى سبعة عشر شخصًا عزم على ان يرسمهُ اسقفًا عليها لعلّهُ يهدي سكانها الى دين المسيح فارسل اناسًا ليأتوهُ بهِ اما القديس فاذ شعر بذلك هرب بعيدًا واختبأ فرجع المرسلون واخبروا الاسقف بما كان فالتجأ حينئذٍ فيديموس الى الله تعالى بحسن الاتكال وهتف قائلاً انظر يارب اليَّ والى غريغوريوس ومن حيث لا استطيع أن ارسمهُ اسقفًا بوضع يدي عليهِ فاقبل اللهمَّ كلامي الذي بهِ اقدم لك غريغوريوس ليكون اسقفًا على قيسارية الجديدة . فاستجاب الله

طلبتهُ لانهُ لما عرف القديس غريغوريوس ما طلب فيديوس في صلاتهِ اتى حالاً وارتسم وباذن الأسقف اختلى قليلاً ليتأهَّب للتبشير

أخبر القديس غريغوريوس نيصص ان القديس غريغوريوس بعد ارتسامهِ لما كان قد بدأ ان يشك في بعض قضايا ما كان تعلم من اوريجانوس شرع يطلب من سيدنا يسوع المسيح بشفاعة والدتهِ الجليلة ان يضيء لهُ بنور حقائقهِ لكي يهدي رعيَّتهُ في طريقها وفيما كان يقدّم صلاتهُ هذه بنشاط العبادة ظهرت لهُ مريم البكر الكلية الغبطة بمجدٍ عظيم وفي صحبتها التلميذ الطاهر والرسول الحبيب القديس يوحنا وأمرتهُ ان يكشف لغريغوريوس أسرار السماء ويعطيهُ قانون الايمان فطفق القديس يعلّمهُ ثم انتهى الحلم وللحال كتب القديس غريغوريوس قانون الايمان وهو الذي مدحهُ المجمع المسكوني الخامس اي المجمع القسطنطيني الثاني

ثم ذهب القديس الى مدينة قيسارية الجديدة وبينما كان سائرًا اليها دخل هيكلاً لآلهة الوثنيين وقطع هناك الليل كلهُ مصليًا ولما كان الغد أبكر ومضى وفي غضون ذلك دخل كاهن الأوثان الهيكل المذكور وسمع اصوات شياطين قائلين بولولة مريعةٍ ان غريغوريوس أخرجهم من الهيكل فسار الكاهن مسرعًا في أثر القديس ولما ادركهُ توعَّدهُ ان يشكوهُ الى الحاكم بانهُ رجلٌ مسيحيٌّ دخل هيكلهم فاخرج منهُ آلهتهم. فقال لهُ القديس اني اعبد الهًا تخضع لأمرهِ كل الشياطين. فقال لهُ الكاهن ان كان ذلك كذلك فمرهم بالرجوع الى هيكلنا ففتح القديس كتابًا لهُ وشقّ منهُ جزءًا صغيرًا من الهامش وكتب عليهِ ما نصّهُ من غريغوريوس الى الشيطان يقول لك ارجع. فاخذ الكاهن تلك الورقة ووضعها على مذبح هيكلهم فرجعت اليهِ حالاً الابالسة ومن هذا الامر أنتج الكاهن ضعف آلهتهِ الكذبة وجزيل قوة اله المسيحيين وفي الحين خرج من الهيكل ولحق القديس وأخبرهُ بطاعة الشياطين لامرهِ ثم طلب منهُ ان يعرّفهُ بالاله الحقيقي. فاخذ القديس يبشرهُ بتجسد ابن الله وسر الثالوث الاقدس ولما كان الوثني يستغرب هذا التعليم قال لهُ القديس انهُ لا يقدر الانسان ان يثبت هذه الحقيقة بنفسهِ انما الله هو الذي يثبتها بعجائبهِ. فقال كاهن الوثن أثبت لي اذن هذه الحقيقة بأعجوبةٍ وانقل بمجرد امرك هذه الصخرة من مكانها الى مكان آخر فأمر القديس تلك الصخرة ان انتقلي فانتقلت حالاً فآمن الوثنيّ هو واهل بيتهِ

فشاع خبر هاتين الآيتين في مدينة قيسارية الجديدة قبل وصول القديس اليها فخرج اهل المدينة للقائهِ وادخلوهُ باكرامٍ وحينئذٍ شرع يبشرهم بالانجيل المقدس ويؤيّد تعليمهُ بالآيات الآن الآية العظمى التي حارت الناس فيها كثيرًا هي قداستهُ المقترنة بعلمٍ وفصاحة لا نظير لهما في عصرهِ لانهُ كان ترك أمواله الوافرة وافتقر ليسعف الفقراء وكانت الفضيلة تتلألأ في كل افعالهِ وحركاتهِ ومن ثم كان يتكلم بسلطان ويستأسر العقول ويجتذب القلوب بقوة سيرتهِ الصالحة وكثرة عجائبهِ وعظمتها. فلم يمرّ زمان وجيز حتى كثر المؤمنون جدًّا وعزم القديس على بناء كنيسة وقد سعى معهُ في ذلك الشعب برغبةٍ وسرورٍ غير انهم بعد ما عيَّنوا مكانًا للبناء وجدوهُ ضيقًا ولم يقدروا ان يوسعوهُ لوجود جبل هناك فاخبروا القديس بذلك فذهب هو الى المكان وصلَّى وبعد صلاتهِ انتقل الجبل مسافةً كافيةً مناسبةً لبنيان الكنيسة

ومن ثمَّ كان المؤمنون يحترمون أسقفهم أتمّ الاحترام ويقبلون تعليمهُ كتعاليم مَلَكٍ هبط من السماء وكانت سيرتهم كسيرة المسيحيين القدماء تلاميذ الرسل. والتجأ اليهِ الشعب يومًا وطلبوا اليهِ ان يدفع عنهم مضرَّة نهر ليكوس الذي كان يخرج عن حدودهِ زمن الشتاء كلَّ سنة ويفسد الاراضي بكثرة مياههِ. فقام القديس وذهب بالشعب الى النهر ونصب على ضفّتهِ عصًا كانت بيدهِ وسأل الله تعالى الاَّ يتخطَّى النهر هذا الحدَّ ابدًا فكان كذلك لانهُ منذ ذلك اليوم لم يعد النهر يتجاوز الحدَّ الذي عيَّنهُ القديس بل تأصَّلت عصا القديس وما لبثت ان صارت شجرةً كبيرةً

قال القديس غريغوريوس نيصص من المستحيل ان نورد كل عجائب هذا القديس بل يكفينا ان نقول انهُ كان بكلمةٍ واحدةٍ وبعلامة الصليب المقدّس يشفي جموعًا من المرضى ومن ثم فكان الجميع يعدُّونهُ قديسًا. فأتاهُ مرسلون من مدينة كومنا وطلبوا منهُ ان يختار لهم أسقفًا فلما جلس القديس في وسط الشعب طلب منهم ان يقيموا لهُ اناسًا يليقون لهذه الدرجة فاقاموا لهُ اناسًا شرفاء نبلاء علماء جزيلي الاعتبار في المدينة بحسن سجاياهم. فقال لهم القديس غريغوريوس ان هذه المناقب ليست بكافيةٍ بل الاجدر بكم ان تختاروا انسانًا

قديسًا فطنًا . فقال احد الحاضرين حينئذٍ انهُ على موجب هذا القياس يجب ان يكون اسكندر الفحَّام أُسقفًا علينا . واما اسكندر هذا فقد كان في الفلسفة ماهرًا وكان قد تغرب عن وطنهِ واتى ذلك المكان لكي يعيش خامل الذكر مهامًا بمباشرة صناعة الفحَّامين . فلما سمع القديس غريغوريوس اسم اسكندر الفحَّام استدعاهُ بوحي الهي فحضر بهيئة اهل حرفتهِ اي بثيابٍ ووجهٍ ويدينٍ كلها سودٌ حتى ضحك منهُ الجميع . فلما جلس في الوسط انفرد معهُ القديس وسألهُ اوَّلاً عن قضايا خارجيَّة ومن جوابانهِ استنتج انهُ كثير العلم وجزيل الفطنة . ثم اخذ يسألهُ عما يخصُّ نفسهُ وسيرتهُ ولما ألحَّ عليهِ القديس في طلب ذلك أورد لهُ اسكندر كل شيء فابتهج حينئذٍ القديس غريغوريوس واعتنقهُ بمحبة وألزمهُ بقبول الأسقفية فقبلها ووفَّاها حقها ثم مات شهيدًا ويذكر السنكسار الروماني ترجمتهُ في اليوم الحادي عشر من شهر آب

نقل جماعةٌ من المؤرخين ان اثنين من اليهود احتالا على القديس إمَّا لان يزيلا اشتهار عجائبهِ واما ليختلسا منهُ شيئًا على سبيل الصدقة فتظاهر احدهما بانهُ ميت ولما جاز عليهِ القديس طلب منهُ رفيق ذاك المحتال صَدَقةً ليدفن صاحبهُ فاعطاهُ القديس رداءهُ ومضى فطفق اليهوديُّ يضحك من القديس ويقول لصاحبهِ انهض لكي نضحك من اسقف جعلهُ المسيحيون انسانًا نبيًّا يصنع العجائب الَّا ان اليهودي المحتال كان مات قصاصًا عن افترائهِ على القديس

هذا وان تلك العجائب كما مرَّ بك مأخوذة عن القديس غريغوريوس نيصص وروى القديس باسيليوس جانبًا منها ولم يمرَّ جيل منذ مات أُسقف قيسارية الجديدة العظيم . وكانا قد عرفا ما قالاهُ فيهِ من ماكرينا جدَّتهما ومربيتهما وكانت ماكرينا ايام الصبا تعرفت بغريغوريوس العجائبيّ وسمعت من عظاتهِ وهو على ما روى القديس باسيليوس رجلٌ مزيَّن بروح الانبياء والرُسل وظهرت على سيرتهِ سمة الكمال الانجيليّ في جميع طرائقهِ التقويَّة وكان يظهر اشد احترام وأتم حشمةٍ ولم يُصلِّ مطلقًا ورأسهُ مغطًى ولا يتكلم الَّا باحتشام وسذاجةٍ ويخشى الكذب والحِيَل وهذه الاساليب التي لا تقترن بالحقِّ . ولله درهُ من متواضع لم يكن يعرف الحسد ولا الكِبَر بل كان يكره كل ما ربما يخدش المحبة او يغضُّ من صيت القريب ولا عجب فكان مالكًا نفسهُ على الدوام ولم يركن قط الى الغضب ولم تخرج من فيهِ كلمةٌ تدلُّ على الكدر

وفي مدة اضطهاد داسيوس الذي ابتدأ سنة خمسين ومائتين أشار القديس غريغوريوس على رعيَّتهِ المؤمنين ان يفرُّوا ولا يتعرَّضوا للمقاتلة خوفًا أن يكونوا جبناء في مقاومة أعداء دينهم وحصلت لهُ تعزية اذ لم يرَ احدًا منهم جحد الدين . واعتزل الى باديةٍ ومعهُ كاهنٌ من كهنة الأصنام كان قد آمن على يدهِ فرسمهُ شماسًا ولما درى الوثنيون انهُ مختبئٌ بجبلٍ بعثوا جنودًا ليمسكوهُ غير ان هولاء رجعوا عما قليل الى الذين ارسلوهم وقالوا لهم اننا لم نُبصر الَّا شجرتين فامروهم ان يفتشوا من جديدٍ فالذي كُلِّف التفتيش وجد الاسقف وشماسهُ يصلّيان وهما اللذان ظنهما الجنود شجرتين فاعتقد انهما تخلَّصا بأُعجوبةٍ فأتى وخرَّ على قدمَي الأسقف وتنصَّر ثم اراد ان يرافقهُ في عُزلتهِ ويقاسمهُ تلك الأخطار بعينها واما الوثنيون فلما رأوا انهم لم يدركوا الراعي وجَّهوا غضبهم على القطيع فقبضوا على من وجدوا من المسيحيين وأودعوهم السجن . ولم يزل القديس مختبئًا في البريَّة فرأى بالروح استشهاد الشهيد تروادِ وكان هذا شابًّا مشهورًا في المدينة وفاز بشرف الموت لاجل الايمان من بعد ما ذاق ضروبًا من العذاب

وانتهى الاضطهاد بانتهاء حياة الملك داسيوس سنة احدى وخمسين ومائتين فرجع القديس غريغوريوس الى قيسارية الجديدة وما لبث ان زار البلاد كلها ووضع قواعد حسنة لقطع ما دخل من العوائد المضرَّة وعيَّن اعيادًا سنويَّةً لاكرام الشهداء الذين كابدوا العذاب مدة الاضطهاد

ولما كان احد الايام المكرَّسة لعبادة آلهة الوثنيين حصل في قيسارية الجديدة اجتماع كثيرٌ فانطلق الوثنيون الى هناك ليروا الالعاب والفُرَج التي تُعمل في الملعب غير ان الجمع كان عظيمًا حتى ان البعض طلبوا الى المشتري ان يُعطيهم مكانًا واما الاسقف القديس فاذ اطلع على الامر قال انهم لا يلبثون طويلاً يتشكَّون من الاحتياج الى مكانٍ وفي الحقيقة ان الطاعون الذي مضرَّتهُ ومدَّها الى كل بلاد البونت ولم تنقطع هذه البليَّة من قيسارية الجديدة الَّا بصلاة الاسقف القديس واكثر الذين كانوا وثنيين لذلك العهد فتحوا عيونهم وآمنوا بالمسيح

ولما حان زمن وفاة القديس لم يكن في المدينة من

الوثنيين الأسبعة عشر كعدد المسيحيين الذين وجدهم لما اتى المدينة وأسلم روحهُ بسلامٍ في اليوم السابع عشر من تشرين الثاني سنة سبعين ومائتين وكان قد بلغ من العمر نحو سبعين سنةً

اليوم الثامن عشر

وفيهِ ترجمة القديس رومانوس الشهيد

ان القديس رومانوس وُلد ببلاد فلسطين وكان شماسًا انجيليًا في كنيسة بلدةٍ من اعمال قيسارية لما ابتدأ ديوكليسيانوس الملك يضطهد المسيحيين فارسلهُ اسقفهُ الى انطاكية في امورٍ باهظةٍ ولما وصل الى هناك سنة ثلثٍ وثلثمائة شرع الوثنيون يهدمون الكنائس فاذ رأى رومانوس هدم المقدس الالهي تاسف وتوجع قلبهُ جدًا ولكنهُ حين عاين جموعًا من المؤمنين ذاهبين الى هياكل الأوثان ليطيعوا امر الملك فيسجدوا للاصنام لينجوا من العذاب أوغر ذلك صدرهُ فتخلّلهم وطفق يقول لهم بصوتٍ عالٍ ما بالكم يا اخوتي تجحدون الله خالقكم ومخلصكم لتتعبدوا للشياطين اعدائكم الألدّاء ان السيد المسيح الذي تستحيون الآن من ان تعترفوا بهِ سيأتي يوم مجدهِ ليدين الجميع ويحكم على اعدائهِ بالخلود في النيران المؤبدة. وقد قال هذا بتمام الغيرة فأثّر كلامهُ في قلوب أُولئك المؤمنين الجزوعين ورجعوا الى ما وراءهم ثابتين

فلما شعر اسكليبياد الحاكم بما فعل رومانوس أمر بالقبض عليهِ وأرسل جنودًا في احضارهِ فلم يختبئ القديس ولم يهرب خوفَ أنّ ذلك يضعف شجاعة المؤمنين بل انهُ لما سمع بان الجنود يطلبونهُ خرج من المنزل حيث كان وتقدَّم اليهم مسلّمًا ذاتهُ وسار أمامهم كأنهُ قائدهم وحينما مثُل بازاء الحاكم اعترف علانيةً انهُ مسيحيٌّ وانهُ هو الذي كفَّ قومًا من المسيحيين عن الطاعة لأمر قيصر. فهذا الجواب المقرون بالشجاعة أضرم في قلب الحاكم غضبًا عظيمًا فقال للقديس هاءنذا الان اختبرك لاعاين هل تكون في العذاب وَقِحًا كما انت الآن. فاجاب الشهيد حاشا لي ان اكون وَقِحًا غير اني بنعمة يسوع سيدي والهي ساكون في الاعتراف باسمهِ القدوس شجاعًا الى آخر نفس من حياتي. فجذّوهُ عُريانًا وربطوا أطرافهُ بحبالٍ ليضربوهُ بالسياط الّا ان الحاكم لما عرف ان رومانوس شريف الاصل وان شريعة الرومانيين تنهى عن تعذيب اهل الشرف بالسياط أوعز الى الشُرَط بان يضربوهُ بحبال معقدة معلّقٍ عليها رصاص ففعلوا كما امرهم وضربوهُ بقساوةٍ وحشيَّة الى ان كلّوا من الضرب

اما الشهيد الباسل فلم يزل شاكرًا السيد المسيح لانهُ اهّلهُ لان يتعذّب إكرامًا لالوهيتهِ وهذا الامر زاد الحاكم غيظًا ورجزًا وامر الجلّادين بان يسلخوا لحمان خواصرهِ وصدرهِ حتى تظهر احشاؤهُ ومن حيث ان القديس في هذا العذاب الشديد لم يكف عن تكرار سخريتهِ بجنون الوثنيين وبطلان اعتقادهم محرِّضًا الحاضرين على رذل هذا الضلال المبين امر المغتصب بان يُمزّقوا وجههُ باظفار حديدية ولما فعلوا ذلك قال لهُ القديس اني اشكرك على فضلك هذا لانك بهِ فتحت في وجهي افواهًا متعددة فاقدر بها ان امدح الهي وامجدهُ اكثر. فاغتاظ الوالي فقال للقديس اني سأبكمك وأُلقيك في وسط نارٍ تحترق فيها حيًا. اما القديس فشرع يستهزئ بجهل الذين يعبدون الأوثان ثم قال للحاكم انظر هذه المرأة الحاملة على ساعدَيها طفلها الذي لم ينطق بعد أتريد ان اسأله امامك وامام الجمهور وهو يخبرك بالحق فتعجَّب الحاكم من هذا الكلام ورام ان يختبر الامر فلما ارتضى قال القديس للطفل المسمى بارولاس مَن هو الاله المستحقُّ وحدهُ السجود فاجاب الطفل ان الله هو واحد والسيد المسيح هو اله حق. فاندهش المحفل من الأعجوبة اما الحاكم فاغتاظ منها وامر بتعذيب الطفل امام أمّهِ فضربوهُ بالسياط ضربًا اليمًا وبما أن الحاضرين تذمّروا عليهِ امر بقطع راس الطفل. اما امهُ المسيحية فلما سمعت هذا الامر قبّلت ابنها وهنّأتهُ وطلبت منهُ ان يُصلّي لأجلها بعد موتهِ في ملكوت السماء ثم قدّمتهُ للسيّاف وفرشت إزارها تحت رجليهِ على الارض ليُهراق عليهِ دمهُ فقطع راسهُ وقد رقمت الكنيسة اسمهُ في سفر القديسين

فهذه الأعجوبة لم تليّن قلب الحاكم بل عاد ايضًا ليعذب القديس كما كان من ذي قبل واحتمل الشهيد ذلك بمثل شجاعتهِ الأولى وبعد ان ربطوهُ على خشبٍ واقفًا وجمعوا حولهُ حطبًا ليحترق قال القديس ان النار لا تُفني حياتهُ وكانوا قد اعدُّوا كل شيءٍ وتقدّموا ليوقدوا النار الّا ان الله جلّت مراحمهُ ارسل حالًا مطرًا مِدرارًا فلم يحترق القديس. وكان في ذلك الزمن ديوكليسيانوس الملك في انطاكية ولما أُخبر بهذه الأعجوبة ارسل وأمر الحاكم بان يطلق سالمًا من

قد شهدت السماء لبرّهِ . غير ان اسكليبياد المنافق كتب الى الملك ان هذه المعجزة هي من فعل السحر وانهُ اذا اطلق رومانوس فكل اهل انطاكية يتنصرون وبهذا اقنع الملك وشرع يعذّب القديس ولكون الشهيد لم يبرح يمدح الله تعالى ويشكرهُ عند العذاب امر اولاً بقطع لسانهِ من اصلهِ فلم يزل القديس ينطق كما كان قبل ان يُقطع لسانهُ . وأخبر اوسابيوس المؤرخ انهُ اجتمع بكثيرين ممن شاهدوا هذه الأعجوبة الباهرة و بتدبير الله تركهُ الحاكم في السجن في هذه الحال شهوراً كثيرةً . وكان الجميع يتعهدونهُ في السجن من مؤمنين ووثنيين فثبت أُولئك المؤمنون في الايمان وتنصّر كثيرون من الوثنيين وبعد ان تعذب القديس رومانوس في السجن عذاباً جديداً شديداً ورأى الحاكم انهُ لايمكن ان ينتصر عليهِ امر بشنقهِ سرّاً وهكذا مات هذا الشابُّ المعظم في اليوم التاسع عشر من شهر تشرين الثاني في السنة الثالثة بعد الثلث مائةٍ للمسيح ويُذكر موتهُ السعيد في اليوم الثامن عشر من تشرين الثاني

اليوم التاسع عشر

وفيهِ ترجمة القديسة اليصابات ابنة ملك المجر

ليس على صوابٍ من يظنُّ ان بين الشرف الدنيويّ والتعليم الانجيليّ منافاةً وانهُ لامناسبة بين الاتضاع والعظمة الدنيوية لكون الانجيل المقدس لاينافي شرف المراتب التي اعطاها الله بل انما ينافي الرذائل التي يتورط فيها عظماء العالم باستعمالهم شرف مراتبهم السامية وسلطتهم استعمالاً سيّئاً وقد اظهر الله سبحانهُ هذه الحقيقة لكثيرين من الأنام المكلّلين بالمجد العالمي منهم هذه القديسة اليصابات ابنة ملك المجر فهذه القديسة الشريفة القدر وَلِدت سنة سبعٍ ومائتين والفٍ ومنذ صغر سنها سارت في منهج الفضيلة ولكونها قد خُطبت بلويز امير طورينجيا تربّت مع اغنس أُخت الامير لويز وكانتا تذهبان معاً الى الكنيسة وتتزيّنان على هيئةٍ واحدةٍ فكان على راس كلٍّ منهما إكليل ماسٍ . ولما رأتهما صوفيّا والدة الامير تدخلان بيت الرب رأت اليصابات تنزع الاكليل عن رأسها فسألتها لماذا تصنعين هكذا فأجابتها اليصابات بسذاجةٍ انها لا تستطيع ان تدخل والماس على رأسها الى حيث ترى يسوع المسيح مكللاً بالشوك . ولكن اغنس وأُمها استهانتا بها وكرهتاها لان قلبها كان خالياً عن مثل هذه العواطف التقوية ومراراً يقولان لها ان لكِ قليل ذوقٍ لتنصرٍ في بحسب مقامكِ فالاولى لكِ الاعتزال في احد الأديرة . واستفرغ الجلساء مجهودهم ليحقروا شخص اليصابات فكانوا يقولون ليست بجديرةٍ ان تقترن بالامير فضلاً عن ان الامير لا يهواها فلم يبقَ لها الآن ترجع الى بلدتها لتتزوّج هنالك بشابٍّ شريفٍ . وكانت هذه المحنة اشد صعوبةً على اليصابات لان صوفيّا قبضت على زمام الامرية حتى يبلغ الامير اشدّهُ ويتولّى بنفسهِ . وكان هو اذ ذاك غائباً ومتردداً في اشرف المدارس لتتميم تربيتهِ

فاغتنمت اليصابات فرصة هذا الاضطهاد ووطّنت نفسها اكثر فاكثر على احتقار حطام الدنيا وشرعت تحمل صليبها وتقتفي آثار المخلص بالصبر والتواضع والرقّة والمحبة لمن يجور عليها ويضطهدها ولم ينشأ عن تعلّقها بالله الّا زيادة حبٍّ لهم والحاصل انها خضعت لله وكان انفاذ ارادتهِ تعالى من أخصّ رغائبها . واما زوجها الملقّب بالامير التقيّ لشدّة تعبُّدهِ فبعد رجوعهِ عند ما اطلع على صفات امرأتهِ الحميدة وقداستها شكر الله تعالى على عطيّتهِ الصالحة فازداد احترامهُ لها ولما بلغت السنة الرابعة عشرة من عمرها تزوج بها

ان اليصابات لم تزل متصفةً بالفضائل في حالة عظمتها بل كانت تستعمل شرف رتبتها لمساعدة كل من كان يلتجيء اليها ولم يُؤخذ قلبها بحبائل التنعُّم ورفاهية العيش بل كانت تقمع جسدها وتستعبدهُ لنير الكمال الانجيليّ بتقشُّفاتٍ كثيرةٍ شديدةٍ الّا ان فضيلتها الخصوصية كانت الرافة بالمساكين لانها منذ صباها كانت قد عزمت انها لا ترد احدهم خائباً وكانت توصيهم كلما تصدّقت عليهم بان يصلُّوا مرةً واحدةً سلام المَلَك اكراماً لوالدة الله . واتفق ان الامير مضى ذات يومٍ الى وليمة فارسل واستدعاها الى تلك الوليمة فانطلقت طاعةً لزوجها وبينما هي ذاهبة اذ صادفها انسانٌ فقير وطلب منها الصدقة فلم يكن وقتئذٍ معها دراهم فقالت لهُ انتظرني الى ما بعد الظهر اما البائس فقال لها لاتخيّبي من يلتجيءُ اليكِ باسم يسوع المسيح . ففي الحال نزعت الاميرة رداءها الثمين ودفعتهُ لهُ فرأى ذلك احد عظماء البلاط وأخبر بهِ الامير . فلما دخلت الاميرة منزل الوليمة سألها الامير اين رداؤها فقالت لهُ التفت الى ورائك فتنظرهُ معلقاً على الحائط فالتفت فوجد

الرداء حقًا معلقًا هناك فأنتج الناس من ذلك ان الفقير المتقدم ذكره كان ملكًا ارسلهُ الله لاظهار قداسة الاميرة الرؤوفة بالمحتاجين ولقد كانت رأفتها بهم عجيبة لانها كانت تعول تسعمائة فقيرٍ ما عدا البائسين الذين في المستشفى الذي كانت ابتنتهُ لاجلهم

وفي السنة الخامسة والعشرين والمائتين والالف لما كان زوجها متردِّدًا مع الملك وغائبًا عن امريتهِ حدث غلاء عظيم حتى القى الاكثرين في خطر الموت فأنفقت وقتئذٍ في مساعدتهم دَخل الامرية كلهُ فلما رجع الامير تقدم اليهِ اولئك الوكلاء المقامون منهُ على جميع اموالهِ يشتكون عليها لاجل افراط صدقتها التي بها بددت كل اموال الامرية فسألهم الامير هل كانت ابتاعت الاملاك قالوا لا ولكنها انفقت الدخل كلهُ فقال لهم الامير ثقوا لا تخافوا من ان يعوزني شيء من الاموال الضرورية ما دمت اسمح للاميرة بان توزعها على المساكين. وما كانت تتصدق عليهم فقط بل كانت تخدمهم ايضًا حتى وفي امراضهم الكريهة ولم تشمئز منهم البتة بل كانت تباشر هذه الخدمة بسرورٍ وبهجة كأنها تخدم السيد المسيح نفسهُ

وفي ذلك الزمن نادى ملوك المسيحيين بالحرب الصليبيَّة وذهب معهم الامير ولما وصل الى مملكة نابولي اعترتهُ حمَّى وتُوفّي بعد قبولهِ الاسرار المقدسة من يد غبطة بطريرك القدس الشريف في اليوم الحادي عشر من ايلول سنة سبع وعشرين ومائتين وألفٍ وكان ذلك ابتداء بلاياها الكثيرة. وحينئذٍ اجتمع عظماء الامريَّة وتآمروا على القديسة وأقاموا هنريقوس أخا الامير الميت حاكمًا على البلاد ثم حكموا على الاميرة انها اسرفت في الصدقات حتى أفنت اموال الامريَّة. ومن اجل ذلك اخرجوها من البلاط خاويةً كاحقر الناس اما القديسة فلم يفشل قلبها بل قبلت ذلك من اعدائها من دون شكوى كأنهُ حكم خرج من فم الله تعالى ودخلت بيتًا دنيًا هي وارمان ابنها وصوفيا وجرترودا ابنتاها ثم ذهبت الى الكنيسة وأمرت فصلُّوا للحتبين تسبحة التهليل شكرًا لله لانهُ تعالى اهَّلها للتألم وصرفت هناك الليل في الصلاة ونذرت العفة. ولا ريب انهُ قد تبيَّن حينئذٍ معنى قولهِ تعالى انهُ المجرِّب القوي لقديسيهِ ليظهر قوة نعمتهِ وجزيل قداسة أبرارهِ. لأن الاميرة لم تجد أحدًا من الشعب يريد ان يقبلها لاجل خوفهم من الامير الجديد وعظماء البلد حتى ولا في المستشفيات التي انشأتها من أجل الفقراء ما خلا كاهنًا فهذا لما رآها قد بلغت هذا الحد من العار والشقاء قبلها في بيتهِ الَّا انها ما دخلت منزلهُ حتى أُخرجت منهُ بأمر الامير. فواعجبا من الدهر كيف يتقلَّب ان التي كانت أمًّا للمحتاجين أضحت بغتةً أفقر من الجميع ولم تجد لها من مسعفٍ ولا راحم. فهذه البلايا كلها لم تنقص من اطمئنانها حتى ولم يسمع منها تذمُّر. ولا جرم ان هذا فضل نعمة الله والَّا فالعبد لا يستطيعهُ

اخيرًا علم عمها أُسقف بَمْبرج بحالها وبواسطتهِ صالحها الأمير وارسل اليها كل الدراهم التي قُدِّمت لها يوم عرسها الَّا انها حالاً فرَّقتها على الفقراء. ثم علم البابا غريغوريوس التاسع بما حدث للقديسة من الاضطهادات فجعلها تحت حماية الكرسي الرسولي وكتب اليها مرارًا رسائل تعزيةٍ محثًا اياها على احتمال صليب السيد المسيح. فلم تكتفِ اليصابات بهذه الحرب بل زادت عليها تقشفات جزيلة لانها جعلت غذاءها بقولاً نيئةً او مسلوقةً بالماء فقط وخبزًا من اردا ما يكون ولم ترد ان تخرج من المدينة حيث كان يسكن مضطهدوها بل ابتنت هناك منزلاً صغيرًا من خشبٍ ولبنٍ وسكنتهُ مع أولادها ولو لم يردَّها مرشدها لجالت تستعطي في الشوارع. ولا غرو فان الله سبحانهُ انعم عليها بتعزيات روحية ونعم جليلةٍ لانها من فرط حبها لسيدنا يسوع المسيح كثيرًا ما كان يُغمى عليها عند صلاتها وكان الجَذْب يقع عليها دائمًا بعد تناول القربان المقدس. اما والدها ملك المجر فأرسل اليها بعضًا من خدم بلاطهِ ليأتوا بها فلم ترتضِ ان تخرج من حال الاهانة والفقر. فتراءى لها حينئذٍ رب المجد وانبأها بقرب انتقالها الى السماء فطلبت الاسرار الاخيرة مع انها لم تشعر بعلامة من علامات المرض وبعد تناولها بحسن العبادة رقدت بسلامٍ سنة احدى وثلاثين ومائتين وألف وكانت قد بلغت من العمر اربعًا وعشرين سنة فقط قضت اربع سنين منها ارملةً. هذا ومن أجل كثرة العجائب التي صُنعت على قبرها كتبت الكنيسة اسمها في كتاب تراجم الابرار في السنة الثالثة لموتها وحينئذٍ أُخرج جسدها من القبر بحضرة ملك النمسا واولاد القديسة وجمٍّ غفيرٍ من اساقفة وامراء فوجدوا لحمها قد استحال كلهُ الى بلسمٍ ذكي تعطَّرت من عَرْفهِ الطيِّب المدينة كلها

اليوم العشرون

وفيهِ ترجمة القديس فيلكس الواليزيّ

ان هذا القديس كان جليلاً معتبرًا نظرًا لشرف نسبهِ وأجلّ وأكثر اعتبارًا نظرًا لفضائلهِ فكان أبوهُ كونت ويرمَنديا ووالوا ابن هوغو من فرنسا وحنيد هنريقوس الاوّل ملكها ووالدتهُ ابنة تيبوت الثالث الملقب بالكبير كونت بلوَا وشمبانيا. وكانا كلاهما يقطنان بمدينة سانكتين عاصمة البلاد ولما حُبل بهِ عملت والدتهُ تُساعيَّةً للقديس هوغو رئيس اساقفة روان وبينا كانت جاثيةً أمام مذبح ذلك القديس آخر يوم من التُساعيَّة أخذها النوم فرأت في الحلم مريم البتول عليها السلام وابنها على يديها ووراءها غلامٌ آخر جميل المنظر اما يسوع فكان الصليب على كاهلهِ واما الغلام فكان في يدهِ إكليلُ زهرٍ وحينئذٍ تقايضا فأعطى المسيح صليبهُ للغلام وأعطاهُ هو التاج اما الاميرة التقية فطلبت تفسير هذا الحلم فتراءى لها وقتئذٍ القديس هوغو وقال الغلام الذي لاتعرفينهُ هو ابنكِ الذي سيبدل زنابق فرنسا بصليب المسيح ويأخذ وإيَّاكِ من مشقَّاتهِ بنصيبٍ لتذهبا كلاكما معًا الى السيد المصلوب فجعل الغلام الصليب قطعتين فأعطى والدتهُ إحداها وادَّخر الأُخرى لنفسهِ

فاستيقظت الاميرة عند ذلك واعتبرت هذه الرؤيا كأضغاث أحلام وان كانت الحوادث قد بيَّنت لها فيما بعد انها نبوَّة الهية وعما قليل وُلِد القديس فيلكس وكان ذلك في اليوم التاسع من نيسان سنة سبعٍ وعشرين ومائةٍ وألف وسُمّي في كتاب المعمودية هوغو اكرامًا للقديس هوغو وتذكارًا لجدّهِ هوغو من فرنسا. وحدث في ذلك الزمان غلاء أضنك البلاد فازدحم الفقراء بقصر كونت والوا فأجرى عليهم الصدقات الجزيلة ولما أوشك الخبز ان ينفد خطر لمرضعة الطفل ان ترسم بيدها علامة الصليب على القليل الذي بقي عندها منهُ فكثر الخبز حتى كفى ان يُوزَّع منهُ على كل من حضر من الفقراء وهكذا باركت الحقول فللحال نشأ السحاب وسقى الارض فأمرعت وأخصبت فزال الغلاء

لما قدم البابا اينوشنسيوس الثاني فرنسا بسبب شقاق انكليتوس البابا الدخيل نزل في مدينة شرتري في قصر الملك تيبوت الرابع الملقب بالصالح وهو شقيق قرينة كونت والوا وبادرت هذه الى القصر بابنها لترجو الحبر الاعظم ان يباركهُ فباركهُ من صميم فؤادهِ وباركهُ ايضًا القديس برنردوس وقدَّمهُ على يديهِ الى البتول ولما كان مقيمًا بشرتري اشتهى عمُّهُ ان يُوزّع الصدقات على يدهِ ليعوّدهُ المحبة ولذلك تخلَّى هذا الشابُّ الطوباويُّ عن كل مالهِ ليصطنع بهِ الى الفقراء فرفع الأطعمة عن مائدتهِ وأعطاهم حتى أثمن ثيابهِ. ولم يكن عمُّهُ أقل منهُ احسانًا وحبًّا للبائسين وبينما كان يتنزَّه ذات يومٍ مع ابن أُختهِ في البرّيَّة اذ خرج من غابةٍ هناك فقيرٌ عريانٌ يرتجفُ من البرد وسألهما صدقةً فقال لهُ كونت شمبانيا ماذا تُريد أن أُعطيك. قال الفقير رداءك. فقال الكونت بفرحٍ هاكَ ردائي أوَ تُريد شيئًا آخر ولما أن رأى الفقير ما رأى من سخائهِ طلب خاتمهُ وطوقهُ والقُفَّازين (القفاز ما تُغطى بهِ اليد من البرد) فوهبهُ الامير كل ذلك عن تمام رضاهُ فلم يكتفِ بل طلب برنيطتهُ فقال لهُ تيبوت متبسّمًا كذبتك نفسك هذه لا أُعطيك اياها لانهُ اذا رآني الناس مكشوف الرأس وانا أُصلع هزأوا بي. اما الفقير فغاب من ساعتهِ عن الالحاظ مخلّيًا الثياب التي أُتهبها على الارض فعرف الامير انهُ كان مَلَك الرب بل الرب عينهُ الذي اراد ان يختبر محبّتهما فنذرا على أنفسهما ان لا يمنعا الصدقة على سائلٍ كائنًا من كان ابتغاء وجه الله

وفيما كانا منطلقين يومًا الى كليرفو لقيهما أبرص على الطريق فنزل القديس فيلكس عن حصانهِ ليعانقهُ ويسلّيهِ بالكلام العذب واما تيبوت فلم يحتمل ان يكون دون ابن أخيهِ فنزل عن فرسهِ ايضًا وحملاهُ كلاهما الى بيتٍ قريبٍ وارسلا لهُ الى هناك كل يوم رزقًا كافيًا وكانا كلَّما خرجا من المدينة او دخلا اليها يزورانهِ ويسلّيانهِ وكان القديس فيلكس يبعث اليهِ من اطعمة مائدتهِ ويذهب أكثر الاوقات لمشاهدتهِ ويحب محادثتهُ

ومات الابرص المشار اليهِ وتيبوت غائب غير انهُ عند رجوعهِ دخل ذلك البيت كعادتهِ فاذا بالابرص على الباب بريئًا من البرَص سليم الجسم بهيّ المنظر غير ان الامير تحيّر فسألهُ أأنت الأبرص الذي فارقتهُ في هذا البيت لأن صورة وجهك لم تتغير ولكن حالة صحتك اختلفت كثيرًا. فقال الابرص انا هو الذي تطلبهُ ولكني قد أُطلِقت من شقاء الدنيا الغرور وهاءنذا الان في النعيم الابدي وقد أتيت لاشكركم على

ما قلدتموني بهِ من دُرَر المعروف فانتم نزلتم عن الخيل لاجلي وانا لاجلكم انزل من السماء انتم ساعدتموني بصدقاتكم وانا اساعدكم بصلواتي قال هذا وتوارى عن العيون فقصَّ تيبوت هذه القصَّة على فيلكس فزاد ذلك حبها للصدقة اضطرامًا

كان كثيرون من الأُمراء والشرفاء يبعثون بأَولادهم الى كليرفو ليتهذبوا هناك بارشاد القديس برنردوس حتى ان القديس فيلكس ذهب اليها ايضًا ليستفيد من تعزياتهِ وقدوتهِ الصالحة ويتعلَّم منهُ ممارسة جميع الفضائل ومن ثمَّ عرف الامير هنريقوس بن لويس السادس الذي صار فيما بعد رئيس اساقفة ريمس وارتبط معهُ بمودةٍ مقدسةٍ وتسابقا في الكمال

وفيما كان سائرًا مع القديس برنردوس هو وعمهُ في مدينة شرتري اذ صادفا على طريق تلك المدينة خاطئًا مشهورًا منقودًا الى العذاب فسأَل الفتى القديس عَمَّهُ العفو عنهُ فأَنكر عليهِ طلبتهُ وقال ان مثل هذا العفو يهبط باهل الصلاح جميعًا الى هاوية الهلاك. فقال القديس فيلكس لست ادري ما الآثام التي اقترفها هذا الرجل حتى ولا اعرف مَن هو غير اني موقنٌ بانك اذا عفوت عنهُ واستبقيتهُ فسيكون خادمًا كبيرًا لله تعالى فصفح تيبوت عنهُ بوساطة ابن أَخيهِ واما هو فترهَّب في دير كليرفو وعاش ومات هناك برائحة القداسة. ونقل الأَثبات انهُ تصدَّق مرةً بقميصهِ على مسكين ولما كان المساء دخل غرفتهُ فاذا بالقميص نفسهِ على الوسادة ينشر رائحةً سماوية

وكانت والدتهُ يومئذٍ تقاسي آلامًا شتَّى فطلب ابنها الى كاهنٍ ان يقدّم من اجلها الذبيحة المقدَّسة على مذبح البتول وبينما هو هناك والدموع تسيل من عينيهِ تراءت لهُ سلطانة الملئكة ومسحت عبراتهِ بيدها ووعدتهُ ان ستزول المحن عن امهِ عما قليل هذا وبعد ايام اصاب الاميرة مرضٌ فسأَل القديس الرب ان يشفيها فقال لهُ خيرٌ لوالدتك ان تخلص من مشاقّ هذه الحياة الفانية وتتمتَّع بالمجد الذي ينتظرها في دار البقاء

فكان فيلكس في حال الجاه العالي ولم يحب شيئًا ما في العالم فبعد ان قضى ايام شبيبتهِ في ممارسة الفضائل عزم على الانفراد لكي يناجي الله وحدهُ ويتجرَّد للاهتمام بنمائهِ الروحي فقط فاعتزل اولًا الى جبال أَلب حيث قطن تحت ارشاد ناسك قديس وهناك لُقِب بفيلكس وبمشورة مرشدهِ ارتسم كاهنًا وبعد موت مرشدهِ الموما اليهِ رجع الى فرنسا وتنحى في غابةٍ من ابرشية ملدسيه في مكانٍ سُمّي فيما بعد سيرفروا وبدأَ يعيش هناك عيش الملئكة بتغاضيهِ عن الامور الدنيوية وارتفاع افكارهِ الى الله وأَشواقهِ السماوية وبعد ان عاش مدةً من الزمن هكذا أَتاهُ عالمٌ لاهوتيٌّ من مدينة باريز ليعيش معهُ وتحت ارشادهِ وهو القديس يوحنا دي متى فاتفق يومًا انهُ قصَّ على القديس فيلكس رؤْيا رآها حينما قدَّس اوَّل مرةٍ انهُ أَبصر ملَكًا بهيئة شابٍّ بهي الطلعة حسن المنظر وكان مرسومًا على لباسهِ صليبٌ ملوَّن بأَحمر وأَزرق وعن يمينهِ وشمالهِ أَسيران موثقان يطلبان من يُعتقهما وفيما كان القديس يوحنا دي متى يصف هذه الرؤْيا التي كانت اضرمت فيهِ غيرةً شديدةً لتخليص الأَسرى المؤمنين تقدَّم اليهما أَيل وكان فيما بين قرنيهِ صليبٌ نظير ذلك الذي ظهر للقديس يوحنا في الرؤْيا وفي الحال عزم الاثنان على السعي في نجاة المسيحيين من الأَسر وحينئذٍ أَتاهما خلق كثير ليتتلمذوا لهما. فلما وجدا ان تلاميذهما قد كثروا وتمرنوا في رياضات الفضيلة سافرا وذهبا الى رومية ليطلبا اذنًا من الكرسي الرسولي في انشاء رهبانية يكون الغرض منها مجرَّد الجدّ في انقاذ المؤمنين من الأَسر

وكان القديس فيلكس قد بلغ من العمر وقتئذٍ ستين عامًا فلما وصلا الى رومية قدَّما للبابا اينوشنسيوس الثالث رسالة أُسقف باريز فقبلها الحبر الاعظم وكان قبل بلوغها الى رومية قد رأَى في رؤْيا ملَكًا متشحًا ثيابًا بيضاء وعلى صدرهِ صليب احمر وازرق ويداهُ على راس اسيرَين وبعد استشارة الكرادلة أَثبت رهبانيتهما فرجع القديس فيلكس الى فرنسا وبنى ديرًا وبينما كان القديس دي متى مترددًا ببلاد البرابرة والجزائر وتونس الغرب لانقاذ المؤمنين الاسرى كان القديس فيلكس مهتمًّا بتدريب الرهبان المتبادرين اليهِ من كل الجهات وهناك أَفاضت عليهِ ملكة السماء نعمةً جليلة لانهُ في بيرامون عيد ميلادها حين كان هذا القديس ساهرًا في الكنيسة تراءَت لهُ البتول الكلية الغبطة بثوبٍ مرسومٍ عليهِ صليبٌ ملوَّن باحمر وأَزرق وكان في معيَّتها جمٌّ غفيرٌ من الارواح السماوية باثوابٍ مزيَّنة برسم الصليب كثوب البتول ثم شرعت هذه الجماعة السماوية يُرنّمون الفرض الكنائسي اي صلاة نصف الليل ومعهم صلَّى ايضًا المغبوط فيلكس ثم أَنبأَهُ ملَكٌ ان اقترب موتهُ الذي كان سنة اثنتي عشرة

ومائتين والف في اليوم الرابع من شهر تشرين الثاني الّا ان الكنيسة نقلت عيدهُ الى اليوم العشرين

اليوم الحادي والعشرون

وفيهِ تذكار دخول السيدة الى الهيكل

ان الكنيسة المقدسة تعيد اليوم الذي فيهِ دخلت العذراء الجليلة الهيكل وقدّمت لله تعالى نفسها وجسدها تقدمةً كليةً مشتهرةً ولا خلاف انهُ الى هذا الزمن لم يُشاهد مثل هذه الذبيحة على الارض من حيث انهُ لم يُرَ خليقةٌ نظيرها في القداسة لأنها كانت منذ الدقيقة الأُولى من حياتها أبرّ واقدس وأطهر من جميع القديسين عند آخر دقيقة من أعمارهم كما قال جمهور الآباء

اعلم ان التقادم في العهد القديم كانت على نوعين أوّلها كان مأمورًا لان الناموس الموسوي كان بوصي المرأة التي ولدت ذكرًا بأن تقدّمهُ لله في الهيكل من بعد اربعين يومًا من مولدهِ وان ولدت انثى تقدمها بعد ثمانين يومًا وان تقدّم من أجل ثمرة بطنها ان كانت غنيّةً حملاً وحمامةً أو يمامةً وان كانت فقيرةً اما حمامتين واما يمامتين وكان يُطلق على هذه الطريقة اسمان احدهما تقدمة المولود والآخر التطهير والاسم الثاني بالنظر الى الأم لانها كانت تطهر من نجاستها. وثانيهما كان اختياريًّا لانهُ في ابتداء الناموس الموسوي كانت قد جرت بين العبرانيين العادة الحميدة ان يخصّصوا لهُ تعالى أنفسهم او أبناءهم تخصيصًا مطلقًا أبديًا اوشرطيًا اي بشرط انهم يقدرون ان يأخذوا أولادهم ويفتدوهم بتقريب التقادم لله أو الذبائح. ومن ثمَّ كان يوجد حول الهيكل منازل للرجال ومنازل أُخر للنساء وكذلك للصبيان وللبنات وكلهم متفرغون لخدمة الهيكل في اشياء مختلفة وهكذا حنة امرأة هلقانا نذرت لله تعالى صموئيل ابنها وقد ذُكِر في سفر المكابيين الثاني انَّ جماعةً من العذارى كنَّ يسكنَّ في الهيكل ويتربّينَ هناك ويذكر لوقا البشير ان حنة النبيّة ابنة فنوائيل لم تخرج من الهيكل منذ يوم إرمالها

وقد عرفنا بتقليدٍ قديم ان القديس يواكيم والقديسة حنة لما كانا قد طعنا في ايامها ولم يكن لها ابن نذرا انهما اذا رزقهما الله ولدًا يخصّصانهِ لخدمتهِ تعالى في هيكلهِ. فاستجاب الله طلبتها ووهبها الابنة المغبوطة المسمّاة الصبحاء التي سبقت إشراق الشمس الأزلي الذي كان قاصدًا ان ينقذنا من ظلام الخطية. فلما بلغت الابنة الجليلة السنة الثالثة من عمرها نهض والداها واتيا بها الى الهيكل ليقدماها لله. وقد أخبرنا ايسيدوروس التسالونيكي انهُ اذ قدماها للهيكل وقدمت الابنة نفسها لله حضر بوحي الهي وبحركة سماوية جميع اقربائها وجميع شرفاء أُورشليم. اما اعظم الكهنة الذي قبل هذه التقدمة فكان القديس زكريا على ما زعم القديس جرمانوس بطريرك القسطنطينية وجاورجيوس أُسقف نيقوميديا

ومن ذا يصف لنا باية عبادة وهيبةٍ ومحبةٍ قدمت العذراء ذاتها لله. ليت شعري ما اكثر ما سُرَّ الله تعالى بهذه التقدمة فحينئذٍ تلك التي هي مجد العذارى وكنز البتولية والعفة كما قال القديسان امبروسيوس ويوحنا الدمشقيّ جدّدت نذرها نذر العفّة الدائم الذي كانت قد ابرزتهُ منذ الحبل بها. فاذًا كما قال الآباء تعيد الكنيسة ذلك اليوم الذي فيهِ دخلت البتول الجيدة ملكة أنقياء الاجساد والقلوب الهيكل ونذرت فيهِ بتوليتها نذرًا مشتهرًا ولهذا قال القديس انسلموس في مناجاتهِ ابن الله ما نصّهُ. انك نزلت من منبرك الملكي منبر مجدك السامي الغير المتناهي الى مستودَع فتاةٍ حقيرة متضعة خُتم بنذر البتولية ومن أجل هذا الختم قد دُعي في الكتاب المقدّس بستانًا مغلقًا وعينًا مختومةً (انشاد ٤: ١٢) وقال القديس اغستينوس انهُ لو لم تكن مريم النقية نذرت بتوليتها قبلاً وقدّمت نفسها لله تعالى بنذر العفاف لم تقل للملَك كيف يكون هذا وانا لست اعرف رجلاً (لوقا ١: ٣٤)

فيا ما احسن خطواتكِ يا بنت الملك (انشاد ٧: ١) ما اكثر ما سرّ عروسكِ الالهي بفعلكِ هذا اي تخصيصكِ ذاتكِ لهُ تعالى. ان الملئكة كما يقول القديس امبروسيوس لما عاينوا هذه الفتاة داخلةً الهيكل ونظروا تمام احتشامها وحرارة تعبُّدها أخذ منهم التعجب كل مأخذٍ. ان هذا اليوم يوم دخول سيدة العالم الى الهيكل وتقدمتها جسدها ونفسها ذبيحةً لله الى الأبد لأشرف جدًّا وأكثر قبولاً لديهِ عز وجل من ذلك اليوم الذي فيهِ كُرّس الهيكل وامتلأ من المجد الالهي وقُدّمت لله ذبائح لا يُحصى لها عدد

ثم بعد ان اكملت تلك الفتاة المباركة تقدمتها دخلت المنزل القريب من الهيكل لتسكن هناك وقد كانت مثل الزيتونة المثمرة في بيت الله مزهرةً في ديار إلهنا وقد ظهرت

فيما بين البنات العائشات هناك ككوكب كان يبهرهنَّ بضياء الفضائل ومن اجل قداستها التي لم يُرَ قبلاً مثلها على الارض . ولعمري انهُ لما تامل هذا الامر الملك داود هتف بروح النبوّة قائلاً يأتي الى الملك العذارى في اثرها (مزمور ٤٤ : ١٥) لانهُ كم من الناس اقتدوا بآثار العذراء المجيدة وتعبدوا للملك السماوي بنذر البتولية وكم من الناس الذين هجروا العالم واختلوا في الاديرة ليسيروا في اثر هذه البتول النقيّة . فهذا العيد اذًا هو على نوع خاصّ عيدٌ لجميع الذين كرّسوا ذواتهم لله ومن ثمَّ ينبغي ان يُعيّدوهُ بأشدّ ما يكون من التعبُّد

اليوم الثاني والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة سيسيليا البتول الشهيدة

وُلدت القديسة سيسيليا برومية من اصل شريف نحو ابتداء القرن الثالث ومنذ صغر سنها التهب قلبها بمحبة عظيمة نحو سيدنا يسوع المسيح ولم تزل حاملة كتاب الانجيل على صدرها وتتأمَّل قولهُ تعالى وحياتهُ ونذرت لهُ بتوليتها ولاجل حفظها وحبًّا بعروسها الالهي كانت تلبس المسح وتلازم الصوم وتواظب على الاختلاء وكان ابواها يحبّانها جدًّا لاجل صفاتها الحميدة المحبوبة ولأنها كانت متصفة بجمالٍ رائع وعقل ثاقب ارادا ان يزوّجاها بفاليريانوس شابٍّ وثنيٍّ جزيل الاعتبار لكرم اصلهِ وكثرة اموالهِ وحسن خلالهِ واعدّا كل شيءٍ لتتميم ذلك

فلما عرفت البتول ما كان وان يوم عرسها قد دنا ولم يبقَ لهُ الَّا ثلثة ايامٍ صرفت في الصوم والصلاة كل تلك المدة وهي لابسةٌ المسح وقائلةٌ للسيد المسيح انك قد علمت يا الهي اني قدَّمت لك نفسي وجسدي بنذر العفة لاكون لك بكليتي فاحفظ اذًا ما قد استودعتك ايَّاهُ . انهُ لامر سهل لديك يا الهي ان تفعل بفاليريانوس ما قد صنعت فيَّ نعمتك فاجعلهُ يارب مسيحيًا واعطف قلبهُ نحو محبة العفة . فظهر لها ملاكها الحارس ووعدها انهُ سيحفظ بتوليتها دائمًا وان فاليريانوس خطّيبها يقتدي بها . فلما سمعت البتول هذا الوعد السماوي زال عنها كل حزنٍ وهمٍّ وطلبت ان يسرعوا في تكميل العرس

فلما تم العرس واختلت سيسيليا بفاليريانوس عروسها التفتت اليهِ وقالت لهُ ان لي سرًّا عظيمًا لا أُكاشف بهِ غيرك فاعلم اني انا مسيحية متعبدة منذ طفوليتي لله الحق الوحيد خالق السماء والارض وقد نذرت لهُ بتوليتي ولهذا ارسل اليَّ ملكًا من السماء واوصاهُ بحفظ طهارتي وهو الآن واقف من عن يميني فاياك ان تغدر بعفتي فيحلّ عليك انتقام الله . فقال لها فاليريانوس ان جعلتِني اعاين ذلك الملك فاعلمي يقينًا اني ساكون لعفتكِ حارسًا آخر أمينًا وانتصّر . فقالت لهُ العروس النقية انهُ ينبغي ان تعتمد لتعاين مثلي ملكي السماوي فان ارتضيت بخطابي هذا فاذهب الى البابا اوربانوس وادفع لهُ الرسالة التي اعطيكها فهو يعلمك ويعمدك وحينئذٍ تنظر حقيقة كلامي . فانطلق فاليريانوس وسلَّم الى الحبر الاعظم رسالة قرينتهِ يدًا بيدٍ وألحَّ عليهِ في طلب المعمودية . فلما قرأ البابا القديس الرسالة خرَّ على الارض ساجدًا وقال مبارك الرب يسوع الاله الذي استجاب لصلاة سيسيليا أَمتهِ وحبًّا لها حوَّل قلب خطّيبها حتى تنصَّر فتمّم فيهِ يارب ما ابتدأتهُ . وفيما كان يصلّي هكذا تراءى لفاليريانوس شيخ ذو احترام بلباس ابيض متلألئًا بنورٍ يبهر النواظر وأراهُ كتابًا وقال لهُ اقرأ ما سُطر هنا وكان مكتوبًا فيهِ ما نصهُ ان الله واحدٌ هو والايمان واحد والمعمودية واحدة فاعتقد هذا واعتمد قال هذا وغاب عنهُ فاخذ القديس اوربانوس يعلم فاليريانوس ثم عمّدهُ وأطلق سبيلهُ

فلما رجع الى بيتهِ ودخل منزل سيسيليا وجدها مواظبةً على الصلاة ورأى من عن يمينها ملكًا بصورة شابٍّ جميل المنظر متلألئًا بنورٍ افضل من كواكب السماء وكان ممسكًا اكليلين من زنبقٍ ووردٍ تفوح منها رائحةٌ ذكية فجثا فاليريانوس عند رجليهِ وحينئذٍ وضع على رأسهِ اكليلاً وعلى راس قرينتهِ كذلك وقال لها اقبلا هذا هديةً من عروس العذارى . وما مرَّ الَّا قليل حتى دخل منزلهما تيبورسيوس اخو فاليريانوس ولما استنشق عرف الورد والزنبق مع كون الزمن زمن الشتاء قال لاخيهِ متعجبًا من أين لك هذهِ الأزهار اللذيذة العَرف فشرع فاليريانوس يشرح لهُ ما جرى وما رأى من العجائب التي من اجلها آمن بالسيد المسيح واعتمد فآمن تيبورسيوس ايضًا وذهب حالاً الى القديس اوربانوس وبعد ان تعلَّم منهُ حقائق الايمان اعتمد ومن ذلك اليوم ظهر الاخوان في رومية قدوةً في القداسة

فلما شعر الماكيوس الحاكم بانهما تنصَّرا قبض عليهما وقال لهما كيف وانتما اشرف اهل رومية اهنتما اصلكما بقبولكما ديانة المسيحيين . اجاب تيبورسيوس اننا بايماننا بالمسيح قد حصلنا

على اسمى الشرف والعظمة فنشكر الله تعالى الذي قبلنا في خاصّتهِ وأحصانا في شعبهِ الذي لانظير لهُ في الحكمة لان المسيحي الحقيقيّ يزدري بما يستعظمهُ العالم الجاهل مع كونهِ ليس بشيء . فقال لهُ الحاكم وما الذي يستعظمهُ الناس الجهال وهو غير جدير بالاستعظام . اجاب تيبورسيوس ذلك العالم العابر كالظلّ وكرامات هذه الحياة الزائلة ولذاتها الخادعة . على انهُ ليس مجد حقيقي ولانعيم ثابت الاّ ما كان ابديًا وكل ما يزول فلا يستحقّ اعتبارًا وجاهل من يعتبرهُ ويحبهُ .فضحك منهُ الحاكم قال لهُ دع عنك هذه الخرافات . فهتف حينئذٍ فاليريانوس وقال انّ أخي لم ينطق الاّ بالحقّ ولوكنت تعقل جيدًا وتعرف الحق من الباطل لعددت عبادة الاوثان اقبح خرافةٍ واكبر ضلالةٍ . فأغضب كلامهُ الحاكم ايّ غضب وامر بضربهما فضُربا بقساوةٍ مفرطةٍ حتى كادا يموتان تحت الضرب

ثم أُخذا الى الحبس ولم يستمرّا فيهِ زمانًا طويلاً لان الحاكم خاف من انهُ اذا تركهما يحسنان بأموالها على الفقراء سرّيعًا فامر كاتبهُ مكسيموس بان يخرجهما من الحبس ليقتلا . فذهب مكسيموس واخرج الأخوين من السجن وأخبرهما بانهُ قد حُكم عليهما بالموت . ففرحا فرحًا عظيمًا اندهش منهُ مكسيموس وسألهما عن سببهِ فقالا لهُ كيف لانبتهج ونهتزّ طربًا وقد بشّرتنا بانّ وقت منفانا قد فرغ وأشرفنا ان نبلغ الى الجنّة حيث نفوز بحياةٍ وسعادة لا مثل ولا حدّ لها . فقال مكسيموس أيمكن ان اشترك معكم في هذه الحياة والسعادة أجابهُ الاخوان ادخلنا في بيتك ونقضي مرامك . فلما وصلا الى بيتهِ شرعا يعلمانهِ قواعد النصرانية فآمن هو واهل بيتهِ فاعتمدوا ثم اتت القديسة سيسيليا ليلاً وهنّأتهما على ما سينالانهِ من الحظّ الأكبر وقطع الجنود رأس فاليريانوس وتيبورسيوس صبيحة الغد وفي الحين رأى مكسيموس نفسيهما صاعدتين الى السماء على ايدي الملئكة وهما في نور أبهى من كل نور ارضي فصاح يا ما اسعد حظكما اني مسيحي مثلكما ليشركني الله في مجدكما فمن اجل شهادتهِ هذه آمن كثيرون من الوثنيين فبلغ هذا الخبر الى الحاكم فامسكهُ وامر بهِ فضُرب حتى مات

اما سيسيليا فلما عرفت بموت زوجها وان الحاكم قد عزم على غصب تركتهِ فرّقتها هي للحال على المساكين مع كل مالها وتهيّأت للموت ايضًا فارسل الماكيوس وأمسكها وفيما هي ماضية مع الشُرَط باحتشام وسرور توجّعت قلوبهم عليها وقالوا لها لماذا لا تجحدين ديانةً تصدكِ عن التمتّع بما في العالم من الكرامات واللذات. اجابت سيسيليا لوعلمتم ما أعدّ السيد المسيح لعبيدهِ من المجد والتنعّم في ملكوت السماء لما كنتم حينئذٍ تحزنون عليَّ بل كنتم تحسدونني على عظم سعادتي ولكنتم ترغبون ان تبذلوا ارواحكم نظيري لاني بقبولي الموت ابدل الزبل بالذهب وحياةً زائلة شقية بحياةٍ باقيةٍ سعيدةٍ فهذا ما نربحهُ نحن المسيحيين اذ نُقتل من اجل ايماننا بالسيد المسيح .وفيما كانت البتول تخاطب الشُرَط بهذا الكلام كانت تُصغي اليها آذان خلقٍ كثيرٍ واذ فرغت من خطابها قالت للمحضر اما تؤمنون بما أوردتهُ لكم من قِبل الله . فهتف الحاضرون كلهم وسبحان الذي يغيّر القلوب قائلين اننا نؤمن بالسيد المسيح ولهُ معكِ نتعبّد ونمجد لاننا تحققنا ان الديانة التي تصير الناس قدّيسين هي ديانة حقيقية مقدّسة فقولي لنا ما الذي يجب علينا ان نفعلهُ لنصير مسيحيين وذهب بعضهم وطلبوا من الحاكم ان يؤخر احضار سيسيليا امامهُ الى الغد فظن الحاكم ان سيسيليا طلبت هذه المهلة لخوفها من الموت وانها مستعدة للكفر بالايمان فأذن لها في ذلك . حينئذٍ اتاهم القديس اوربانوس وبعد ما علمهم عمدهم وكان عددهم اربعمائةٍ بين رجالٍ ونساءٍ واكثرهم نالوا اكليل الاستشهاد

ولما وقفت القديسة امام الماكيوس وكان قد شعر بالذين آمنوا لاجل كلامها فقال لها ألا تعرفين ان حياتكِ وموتكِ في سلطاني . اجابت البتول الحكيمة اي نعم ان لك قدرة على ان تقتلنا كما ان وحوش البر لها قدرة على ان تفترسنا أما السلطان على حياة النفس فأنت بل كل ملوك الأرض دون ان تحصلوا عليهِ فان السلطان على الحياة والموت خُصّ بالله تعالى وحدهُ. فانت تعدمنا حياة وقتية شقية والسيد المسيح الهنا ورب الكل يعوّضنا منها حياة أبديّةً سعيدةً وهذا هو الذي يشوّق المسيحيين الى كاس الموت . فقال لها الماكيوس ولِمَ لاتطيعين امر الملك ولا تتبعين الديانة التي تدينت بها المعمورة كلها واتبعها الملوك شرقًا وغربًا ومرّ عليها قرونٌ واجيالٌ من السنين . فقالت الشهيدة ان عبادة الاصنام هي وباء فشا في المسكونة كلها منذ عصورٍ متعددة قد امر الله تعالى بازالتهِ على ايدي المسيحيين فهل هم في هذا مذنبون لأنهم يطيعون أمرًا الاهيًا مضادًا امر

ملك ارضي مجتهد في ابقاء الوباء المميت البشر موتًا ابديًّا. فتعجب الحاكم والمحفل من حكمة البتول فارجعها الى السجن ثم حكم بان توضع في حمام بيتها المحمى كأتون وتترك فيهِ حتى تموت من شدة السخونة غير ان الشهيدة لم يمسها ضررٌ من شدة حرارة الحمام فارسل حينئذٍ جنديًّا ليقطع هامتها فضربها الجندي بسيف ثلاث مرات ولم يقدر ان يقطعها بالكلية ولان الشريعة الرومانية كانت تمنع الضرب بالسيف اكثر من ثلث مرات تركها هكذا ومضى ثم اجتمع المؤمنون وجمعوا دمها وحفظوهُ اما الشهيدة فما برحت تعزّيهم وتثبتهم في الايمان حتى رقدت بالرب في اليوم الثالث وهو اليوم الثاني والعشرون من تشرين الثاني سنة ثلثين ومائتين

هذا والقديس اوربانوس البابا الذي كان حاضرًا حين وفاتها أمر بدفن جسدها الطاهر مع ثيابها واللفائف التي مسحوا بها دمها في مقبرة كلّيتوس على طريق ابيا قرب مدافن الشهيدين فاليريانوس وتيبورسيوس وكرّس بيتها ليكون كنيسةً. وفي السنة الحادية والعشرين بعد القرن الثامن جدَّد بناءها البابا بسكال الاول ونقل اليها جسد القديسة مع جسدي خِطّيبها واخيهِ وكانت القديسة قد اعلمتهُ في رؤيا بمكان قبرها فوجد جسدها كما كان وقت دفنها مع الثياب واللفائف

اليوم الثالث والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس اكليمنضوس البابا الشهيد

قد امتاز القديس اكليمنضوس بشرف عشيرتهِ فكانت الملوك الرومانيون يصاهرونهُ وقد استجمع كل دواعي العظمة من كرم نسب واهلية شخص وتحلٍّ بالفضائل وتفقُّهٍ بالعلوم وكان ابوهُ من أعضاء مجلس الأعيان واسمهُ فستينوس وكانت دارهُ على جبل سيليوس ولم يمرَّ الّا برهة قصيرةٌ حتى حصّل اكليمنضوس الامتياز في العلوم الادبية خاصةً في علم اللغة اليونانية الّا انهُ كان محتاجًا الى ان يطلع على حقائق النصرانية ولما كان كبير الحظّ قدم رومية الرسولان المعظَّمان بطرس وبولس فتتلمذ لهما وعنهما أخذ علم الدين المسيحيّ وبرع في معرفة مبادئهِ حتى صار فريد عصرهِ فسمّاهُ الرسول بولس مساعدهُ في التبشير بالانجيل ورجلاً من الذين اختارهم الله ورُقم اسمهم في سفر الحياة (فليبي ٤ : ٣)

ذهب بعض العلماء الى ان القديس اكليمنضوس خلف الرسول بطرس في الكرسي الروماني على التعاقب. وذهب الاكثرون الى ان القديسين لينوس وكليتيوس سبقاهُ في رعاية بيعة الله فجلس على الكرسي الروماني في اواخر القرن الاول وكان يكرز بكلام الله باشدّ غيرةٍ واوفر فطنة حتى آمن كثيرٌ من الوثنيين الذين لم يكتفِ بعضهم أن يحفظوا وصايا يسوع المسيح بل وَلِعوا بالكمال واتباع المشورات الانجيلية وعاشوا بالعفاف وكان القديس اكليمنضوس تبتّل لله طول عمرهِ وأحبَّ أهل العفاف وأعظم هذه الفضيلة السماويّة وخصّص لله فلافية دومينيلا ابنة اخي السلطان دوميتيانوس وهي بنت اخي التنصل فلافيوس اكليمنضوس عم القديس وكانت مخطوبةً لأوريليان احد الشرفاء وقد باشر ذلك وهو يعلم يقينًا ان دونهُ عناءً جسيمًا (١)

وآمنت على يدهِ ايضًا تاودورا قرينة سيزينيوس أحد مقدّمي رومية واذ كان بعلها المذكور يشتاق ان يطلع على ما يجري في معابد النصارى لتحققهِ ان امرأتهُ كانت تذهب اليها دخل إحدى تلك المعابد خفيةً فعمي باذن الله تعالى فصلّى القديس اكليمنضوس الى الله فانفتحت عينا الأعمى فبُهت من هذه المعجزة فتعلّم حقائق النصرانية وعُمّد وآمن اقتداءً بهِ جماعةٌ كثيرون

ذلك ووقع في أيّامهِ اختلاف مكدّر بين مسيحيّي كورنتس وكانت هذه الكنيسة كالروضة الناضرة زاهرةً بالفضائل وبالنظام منذ أنشأها الرسول بيد انها اذ زاغت عن ذلك السبيل رأت التحاسد قد عبث باطمئنانها فتحوّل اضطرابًا ومزّق حشاها الشقاق. وبينما مسيحيّو كورنتس مغتمّون لهذه الرزية لم يستجيروا ببقيّة الكنائس لقطع ما بينهم من النزاع بل رفعوا الأمر رأسًا الى كنيسة رومية مركز الوحدة وكانت وقتئذٍ موقع البلاء والشدائد وعلى الاثر بعث القديس اكليمنضوس الى اهل كورنتس منشورًا جليلاً عجيبًا مدحهُ الآباء القدماء وتعجّبوا منهُ كثيرًا وهو من أثمن الآثار القديمة لرئاسة الكرسي الروماني على جميع الكنائس قد جمع فيهِ الحبر القديس بين الشدة واللين فيصلح الشرّ ويُغري بتناول الدواء ورأى الناس فيهِ شمس الحكمة وماء اللطف والمحبة الرسولية

(١) حاشية. راجع ما اوردنا في هذا المعنى في ذكر استشهاد القديسة دومينيلا في اليوم الثاني عشر من ايار

وعبارتهُ سهلةٌ جلية لا تكلُّف فيها خاليةٌ من الصناعات البديعية وكفى بها مدحًا كلام القديس ايريناوس حيث يقول ان البابا آكليمنضوس قرَّر بهذا المنشور الايمان والمحبة بين اخوة كورنتس (٢)

وبينما كان قد استفرغ مجهودهُ ليجلب الخلاص لقطيعهِ بهمة توافق كونهُ اوَّل راعٍ نشأ عليهِ اضطهاد شديد هائل بما انهُ رئيس المسيحيين وجُبر على الحضور امام مَميرتينوس رئيس المجلس فأشار عليهِ ان لا يُهين شرف مقامهِ وعظمة اسمهِ ويقدّم البخور الآلهة تهدئةً لغضب الشعب عنهُ . فكان جوابهُ البابا القديس موافقًا لمعتقدهِ ولحسبما يُنتظر من الذي تأسس على صلابة الكرسي الرسولي وأما مَميرتينوس فأعلم تراجانيوس الملك بما كان من تصلُّب الحبر الاعظم فامر تراجانيوس بنفيهِ

وبذل الحاكم آخر جهدهِ ليميل الحبر القديس الى مرادهِ فذهب كل جهدهِ ضياعًا فان ذلك الشهم الباسل المعترف بيسوع المسيح اجاب متصلّبًا ان لا المنفى ولا الموت يجعلانهِ يسجد لآلهة الملك وبذل هو اقصى امكانهِ ليجذب اليهِ الحاكم فلم يظفر بتمام مبتغاهُ ولكن غرس في قلبهِ عواطف الرفق بالمسيحيين فنفى القديس الى بلاد كيرسونز توريك (يومئذٍ قرْم) وماعمل ذلك الاّ بمعظم الأسف ولذلك اذ استأذنهُ رقَّ لحالهِ وبكى قائلاً لهُ ارجو ان الله الذي تعبدهُ لا يهملك في بليَّتك وانهُ سيكون لك تعزيةً وعونًا في المنفى الذي انت ذاهب لتكابد شدَّتهُ لاجل مجدهِ . وقِيد آكليمنضوس الى جزيرة كيرسونز وحُكم عليهِ ان يشتغل بحفر المعادن

فيا للعجب ان حبرًا موقرًا لاجل كرم نَسبهِ معتبرًا نظرًا الى درجتهِ العالية ومشهورًا باهليتهِ واستحقاقهِ ومحترمًا لاجل شيخوختهِ بل بالاولى لقداسة سيرتهِ نزل الى سراديب هائلة وأُجبر على ان يحفر الارض كمجرم ويبلُّها بعرق جبينهِ ويباشر هذا العمل في الوقت المعيَّن لرعاية بيعة الله

فآل امر البابا القديس الى آخرةٍ صعبةٍ شقيةٍ غير انهُ لم يتظلَّم من معاملةٍ جائرةٍ جدًّا لكونهُ عرف يقينًا ان سعادة المسيحيّ تقوم بالاحتمال وعدَّ نفسهُ سعيدًا اذ حصل على قسمٍ من تعاذيب المؤمنين التي تُدعى في العرف الانجيليّ اكاليل لانها في الحقيقة تأتي بتجارةٍ كريمة تتألف منها الاكاليل الغير البالية التي يتلألأ بها الطوبا ويُّون في السماء . ومن العجب اللهمَّ ان اميال قدّيسيك مختلفةٌ عن اميالنا متى مسستهم بالضراء وبعثتَ عليهم الويل قبّلوا اليد التي ضربتهم وليس في افواههم الاّ كلمة ولا في قلوبهم الاّ صوت يضطرّان الى القول فلتكن مباركًا واما نحن فمتى مسستنا بتجربةٍ يخرج من افواهنا كلام جزعٍ وتظلُّم مرٌّ بلا انقطاع فان باصرة ايماننا سيئة النظر حيث لا ننظر النكبات الدنيوية كنعمٍ من يدك مع ان الاله الذي يضرب هو الالهُ المحبّ

فوجد القديس آكليمنضوس في مكان منفاهُ أكثر من الفي مسيحيّ محكومٍ عليهم وعليهِ بقطع الرخام يزيد ضنكهم حرارة ظماء لا تُحتمل لان المكان كان قاحلاً مجدبًا فلم يكتشفوا بين تلك الصخور التي اغناها الله رخامًا عين ماءٍ شحيحةٍ بل ما جنوا الاّ تعبًا شاقًا على أنفسهم لما اقتضت الحال ان يذهبوا في التفتيش عن ينبوع ماءٍ الى مسافةٍ بعيدةٍ فرقّ القديس لبكاء وأتعاب أُولئك المنفيين فصلّى الى المسيح وتوسَّل اليهِ ان يحنو على عبادهِ الأُمناء فاستُجيبت صلاتهُ وتراآى لهُ المسيح بصورة حملٍ دلَّهُ بقدمهِ على عين ماء . فالماء الذي تفجَّر من الصخر جعلهُ معتبرًا كموسى آخر فبادر الناس من جميع الجهات ليشاهدوا المعجزة وآمن الكفرة بواسطة هذه الأُعجوبة . ولما نمى هذا الخبر الى تراجانوس الملك الروماني بعث وزيرهُ أُوسيديوس ليردَّ الى عبادة الاوثان الذين تنصروا بمشاهدة الأُعجوبة المارّ ذكرها غير ان جميعهم كانوا راسخين في الدين فسفحوا دماءهم وحفظوا ايمانهم وضحّى وزير الملك كثيرًا من هولاء القديسين ولكن لما رأى ان كلاًّ منهم قد اقتحم الموت بطيبة خاطرٍ عزم ان يستبقي جمًّا غفيرًا وان لا يُرغب الأرئيسهم فخاطب القديس آكليمنضوس وألحَّ عليهِ ان يذبح للآلهة ولاطفهُ وهدَّدهُ لكي يقنعهُ . وماذا عسى يعمل التملّق والتهديد مع حبرٍ كُتب على قلبهِ حبُّ يسوع المسيح

فلما رأى أُوسيديوس ان الملاينة لم تنجع فيهِ عاملهُ بالقساوة وحكم عليهِ بازهاق الروح وامر ان يُربط عنقهُ بمرساةٍ ويُلقى في البحر حتى لا يبقى المؤمنين شيءٌ من آثارهِ يتعزون بهِ لظنهِ انهم ينسون امرًا لم يبقَ عندهم شيءٌ يذكرهم اياهُ حتى كأنَّ

(٢) حاشية . قد كُشف سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة والف على رسالتين في البتولية للقديس آكليمنضوس بنسخة سريانية يتضح من مضمونها انهُ في عهد القديس آكليمنضوس كما في ايامنا هذه كان المتبتّلون قسمين خدَمة الدين وجماعةٌ من الرجال والنساء تتبعوا المشورات الانجيلية فيحثّ كليهما البابا القديس على حفظ البتولية وفي هاتين الرسالتين برذل كل ما اخترع الاراطقة المحدِّثون على البتولية

معجزة الماء المتحجر من الصخر لم تكن أثرًا باقيًا من آثار قدرته على مرّ الايام والليالي ولذلك طُرح في اليمّ على اعين ابنائهِ الاعزاء وكان ذلك في اليوم الثالث والعشرين من كانون الاول في السنة المائة للمسيح

وكان في المسيحيين اثنان من تلاميذ القديس كورنيليوس وفايبوس فقالا للبقية بعد موتهِ يا أيها الاخوة لنصلّ الى الله ويُظهر لنا ذخائر هذا القديس الشهيد فصلّوا فانزجر البحر مسافةً بعيدةً حتى خاضوهُ بالاقدام فوجدوا بهِ معبدًا مصنوعًا بأيدي الملئكة وداخل ذلك المعبد صندوق حجر كان فيهِ جسد القديس اكليمنضوس وازاءهُ المرساة التي رُبط بها عُنُقهُ يوم رُمي في البحر

واعلم انّ هذه المعجزة لم تحدث فقط عام أغرق فيهِ البابا المنوَّه بهِ بل كان البحر في جميع ما وليهُ من الاعوام ينزجر مسافةً مدة أسبوعٍ كامل اي يوم استشهادهِ وستة أيام بعدهُ

وتجدُّد هذه الآية كان يهيّج الزائرين لان يأتوا من جميع الجوانب ويزوروا قبر القديس والماء كاشفٌ عنهُ فذهبت اليهِ امرأةٌ بابنها وعند دخولها المعبد الذي كان مدفونًا فيهِ عليهِ السلام نام ابنها ولما تمّ الأسبوع رجع البحر بالمدّ الى حدودهِ المعتادة والزوّار كلهم رجعوا ونسيت تلك الأم ابنها نائمًا في المعبد (لانّ الله أراد بهذه الواسطة ان يكرم القديس اكليمنضوس ويظهر قوّة شفاعتهِ المقدّسة) واذ كانت خارج المعبد رأت البحر طغى على الكنيسة وغطّاها وعامت كل ما يمكن ان يخطر للبال في مثل هذه الحالة التعيسة وظنّت ان ابنها قد عام على وجه الماء فطافت كل شاطىء البحر في تلك الجهة لعلها تجد جسدهُ فتدفنهُ فلم تجدهُ فرجعت كئيبةً ومرَّ عليها سنةٌ على هذا الضجر ولما اتت السنة الثانية زارت بتلك العبادة ذلك القبر مع ما خسرت في العام الماضي فدخلت المعبد وصلّت على قبر القديس ثم وجهّت نظرها الى حيث كان ابنها فرأتهُ نائمًا كما تركتهُ فبادرت اليهِ تعانقهُ وكادت تطير من الفرح فقبّلتهُ ودموع المسرّة تسيل من آماقها وسألتهُ عما حدث لهُ كل تلك السنة فأجابها الغلام قدكنت نائمًا وما دريت كم مرّ عليّ من الزمن. وذكر هذه المعجزة القديس افرهم الشهيد أسقف كيرسونز والقديس غريغوربوس اسقف طور

واما جسدهُ فوُجد ثانيةً ونُقل الى رومية المكرّمة على عهد البابا نيقولاوس الاول ووُضع باكرام في كنيسة مبنية على بيتهِ وقد كشفت آثارها سنة ١٨٥٨ وكُرّس مذبحها سنة ١٨٦٧

اليوم الرابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس كريزوغنوس الشهيد

ان الكنيسة اللاتينية تذكر في كل قدّاس اسم هذا القديس المعظّم واسم تلميذتهِ القديسة انستاسيا. أمّا كيفية استشهادهِ فجرت هكذا انهُ وُشي عليهِ الى ديوكليسيانوس بانهُ يبذل كل جهدهِ ليلاً ونهارًا في انتشار الايمان المسيحي فامر الملك ان يُقبَض عليهِ ويُسجن فلما شعرت انستاسيا تلميذتهُ بذلك سارعت الى السجن وقدّمت لهُ كل ما كان يحتاج اليهِ من ضروريّات العيش ولم تقتصر على ذلك بل كانت تهديهِ ما بهِ حاجة سائر المحابيس معهُ. فمكث هناك القديس معزّيًا المؤمنين ومجتذبًا الوثنيين الى الايمان

فعلم زوج انستاسيا الوثنيّ بما كانت تفعلهُ قرينتهُ من الحسنات مع المسيحيين فامسكها في بيتهِ ولم يدعها تخرج منهُ فشقّ هذا على القديسة جدًّا لأنها لم تعُد تقدر ان تخدم الشهداء فكتبت الى مرشدها رسالةً تقول فيها ما مضمونهُ: لا يخفى عليك يا أيها القديس الشهيد انني ابنة رجلٍ وثنيّ الاّ ان والدتي كانت مسيحيةً مزيَّنةً بزنبق العفاف وقد ربّتني من عهد الفطام على مقتضى الديانة المسيحية وأدّبتني بآدابها فبعد موتها تزوّج بي رجل وثني ولكني بنعمة الله تعالى لم اشترك معهُ في كفرهِ لاازال مجتهدة في اقتفاء آثار سيدنا يسوع المسيح. فهذا الرجل القاسي الذي بدّد مالي مع الوثنيين يعاملني الآن كانني ساحرة وقد سجنني في بيتهِ وانا معتقدةٌ انهُ سيقتلني ولكني مسرورة بهذا الحال سرورًا عظيمًا لأن أجلّ ما اشتاقهُ هو أن أموت من أجل يسوع غير أني أحزن على شيء واحد وهو انهُ بعملهِ هذا يبدّد بالإثم أموالاً كنت قد خصصتها بخدمة الله تعالى. فلذلك أرغب اليك يا عبد الله ان تطلب منهُ تعالى ان يحفظ حياتهُ ان كان سيتوب واما ان كان لا بدّ ان يثبت على وثنيّتهِ واثمهِ فلينقلهُ من الدنيا فخير لهُ ان يخرج منها الآن من ان يمكث فيها مجدفًا على ابن الله ومضطهدًا المؤمنين باسمهِ القدوس. قد علم السيد المسيح اني اذا ما نجوت من اضطهادهِ لي ارجع حالاً الى افتقاد المؤمنين المطروحين في السجون لاعترافهم بالايمان ولا أدعهم يحتاجون الى شيء.

فلما قرأ القديس في سجنهِ رسالة تلميذتهِ وصلى من أجلها

هو وبقية المؤمنين الذين معهُ في السجن كتب اليها الرسالة الآتية : لاجرم يا أمة يسوع الأمينة انهُ جلّت رحمتهُ يسرع الى إعانتكِ ويسكّن أمواج حياتكِ الهائجة وانهُ سياتي على المياه ويأمر الرياح فتهدأ وتسكن فثقي اذًا وتشدّدي بالقوة وانتظري بجميل الصبر وقويّ الاتكال على عون مخلصكِ . قولي مع المرتل لماذا انتِ حزينة يا نفسي ولمَ تقلقيني اني على الرب اتكل وأرجو منهُ الخلاص لأني عارفة جودتهُ وكثرة احساناتهِ اليّ فاعلمي انهُ تعالى ينعم عليكِ بصنفين من الحسنات لانهُ سيردُّ لكِ اموالكِ الارضية ويمنحكِ الخيرات الابدية . انكِ تحبين التقوى والآن فانكِ حاصلة على التجربة التي بها يُريد الله ان يمتحنكِ فلا تبني اتكالكِ على الانسان لانهُ قد قيل ملعون الانسان الذي يتكل على البشر وطوبى لمن يتكل على الرب . تحذّري من كل خطية ولا تبتغي تعزيةً الاّ ممن تحفظين أوامرهُ . فبعد ضنك الشتاء تاتي راحة الصحو ورغد الربيع فتعبر التجربة وتفوزين بالراحة وعن قريب تُردّ لكِ اموالكِ التي بها تقدرين على ان تسدّي بها حاجة الذين يضطهدونكِ من أجل المسيح وهكذا برحمةٍ زمنيةٍ ارضيةٍ تنالين أجرًا سماويًا ابديًا

فتعزّت انستاسيا بتلك الرسالة وتنطّقت بقوّةٍ شديدةٍ على احتمال التجربة الاّ ان بوبليوس بعلها ازداد قسوةً عليها حتى ظنت انها تموت تحت مضايقتهِ لها فكتبت الى القديس كريزوغُنوس رسالةً اخرى تقول فيها هكذا : اني قد وصلت الى أقصى مراتب الشقاء لانهُ قد حرمني القوت بالتمام فلا يعطيني شيئًا لآكل ولهذا اتضرع اليك الاّ تنساني في صلواتك بل ضاعفها من اجلي كي يقبل الرب نفسي عند انفصالها من جسدي والمرأة التي تسلمك رسالتي يدًا بيدٍ هي تخبرك بتفاصيل أحوالي

فلما عرف القديس من المرأة فرط قساوة بوبليوس على انستاسيا امرأتهِ واجتهادهُ الوحشي في قتلها ليختلس اموالها كتب اليها ما نصّهُ

لا تتعجبين من تدبير الله هذا معكِ لان الظلام من عادتهِ ان يتقدم النور والموت الزمني تعقبهُ حياة أبدية وفي حين الموت تنتهي جميع الضيقات ويزول البؤس وقد رتّب الله تعالى الأمور هكذا بحكمة ورحمة في هذه الحياة كي نتعزى في زمن الشدة برجاء النجاة ولا ندع انفسنا في زمن النجاح تنجذب وراء غرور الدنيا متذكّرين ان التجربة ستزول سريعًا . انّ هذا العالم هو بحر هائج على الدوام وفوقهُ نسير طالما نحن في هذه الحياة . فما أسعد السفينة الجيدة التي تقاوم الامواج حينما تغرق السفن الرديئة في حال الهدوّ . باركي الرب على تدبير عنايتهِ بكِ لانهُ يعاملكِ معاملة اخصّ احبائهِ . اني قد اخبرتكِ بان البحر الهائج عليكِ سيهدأ الاّ انهُ يجب عليكِ ان تحتملي بشجاعة ومحبّةٍ هذا الصليب الثقيل لانهُ هو صليب السيد المسيح الذي لا يُريد ان تحمليهِ وحدكِ بل انهُ تعالى سيحملهُ معكِ لانكِ تحملين صليبهُ حبًا بهِ بل يسوغ لكِ ان تتأهبي لحمل صليبٍ أثقل من ذلك

فهذه الرسالة صيّرت التلميذة تعدُّ قساوة زوجها عليها احسانًا من الله تعالى اليها عظيمًا وقد تمّ كلام القديس لان الملك أرسل بعلها سفيرًا الى بلاد العجم فمات في الطريق فنجت انستاسيا من اضطهادهِ وملكت كل اموال البيت وانفقتها في اشياء مقدّسة واستحقّت بعد ذلك ان تموت شهيدةً وقد جعلت الكنيسة تذكارها في اليوم الخامس والعشرين من كانون الاوّل

ولما أتي على القديس كريزوغنوس عامان وهو في الحبس حيث كان يثبت المؤمنين في الايمان ويجتذب اليهِ كثيرين من الوثنيين ظن ديوكليسيانوس الملك انهُ اذا اجتذبهُ الى عبادة الاوثان يزعزع في رومية شجاعة المسيحيين فأخذ يلاينهُ ويلاطفهُ ويعِدهُ بكل انواع الكرامات والخيرات العالمية كان يعدهُ بل انهُ عرض عليهِ منصب مديرية رومية العظمى ولما رذل القديس هذا كلهُ شرع حينئذٍ يتوعدهُ باشد العذاب ولما لم يبالِ بها حكم عليهِ بالموت وقطع رأسهُ في اليوم الرابع والعشرين من تشرين الثاني في السنة الرابعة بعد الثلث مائة للمسيح

اليوم الخامس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة كاثرينا البتول الشهيدة

كان ميلاد هذه القديسة بالاسكندرية من والدين وثنيين شريفي الاصل نحو انتهاء القرن الثالث وكانت ثاقبة الفطنة حاذقة العقل مع انها لم تكن قد بلغت من العمر سوى ثماني عشرة سنةً ذلك فضلاً عن جمالها وحسَبها . ولما كانت بارعةً في علم الفلسفة ومتحلّيةً بفهم العلوم المتعارفة ذلك

العصر تبيّن لها بطلان عبادة الاوثان . وحينئذٍ رأت في الحلم الجليلة مريم العذراء حاملةً على يديها ابنها يسوع وطلبت منهُ تعالى ان يقبل كاترينا أمةً لهُ اما يسوع الطفل فكان يصرف نظرهُ عنها مستشنعًا اياها لانها لم تكن قد اعتمدت بعد . فاذ انتبهت من نومها طلبت العماد وبعد قبولها هذا السر تراءى لها سيدنا يسوع المسيح مع والدتهِ المجيدة واتخذها عروسًا لهُ بوضع خاتم في إصبعها . قلت ليت شعري من ذا الذي يستطيع ان يصف شدَّة فرح كاترينا وقد وجدت بعد الرؤيا في اصبعها ذلك الخاتم الالهي . فانها من ذلك الحين احبَّت السيد المسيح اي حبّ ولم تزل تفتكر فيهِ وتتكلم عنهُ وتغار لتمجيد اسمهِ وانتشار ايمانهِ

وفي اثناء ذلك اي نحو السنة السابعة بعد الثالث مائة وصل الى الاسكندرية الملك مكسيمينوس الثاني من اقرباء مكسيميوس فاليروس والمشترك في الملك مع قُسطنطين وليسينيوس ولكونهِ من الدّ اعداء المسيحيين اصدر امرًا مصرّحًا فيهِ بقتل كلّ من لا يُضحي للاوثان ثم حضر ذبيحةً في المدينة وأوصى الجميع بان يحضروها . فبينما كان يهيّئ كل شيء لهذا العيد الشيطاني كانت البتول مجتهدةً في كفّ المؤمنين عن هذا الإثم ولم تقف غيرتها عند هذه الحدود بل تقدّمت بجراءةٍ الى الملك مكسيمينوس في هيكل آلهتهِ ووبختهُ على عماهُ في تقديم ذبائح الى آلهة كاذبة لم تكن الّا عمل ايدي البشر وتماثيل اناسٍ اشرار فبمثالهِ هذا يجذب الى الضلال الشعب الجاهل وانهُ كان من اخصّ واجباتهِ ان يعترف بالاله الواحد الذي اعطاهُ السلطان الملكي . فاندهش الملك من جراءة البتول ومن فصاحتها ومن جمالها وامرها بالحضور امامهُ في البلاط الملكي وليتمتع بسهولة الانتصار عليها استدعى في بلاطهِ اكابر فلاسفة المدينة كي يجادلوها امام عزّتهِ في امر الديانة

فحضر منهم خمسون فيلسوفًا ولما اصطفوا امام الملك فتح احدهم فاهُ وقال للبتول . من المستغرب بل ضرب من الوقاحة نزولكِ معنا الى ميدان الجدال وكفركِ بآلهة آمن بها وشهد بفضلها جميع الشعراء والفلاسفة . اما البتول فلم تضطرب من كلامهِ بل اخذت تتكلم بظرفٍ واحتشام بلا خوف وأظهرت ضعف البراهين المستندة اليها الوثنية ثم أخذت تبيّن لهم بالاقيسة البرهانية عدم امكان وجود آلهة كثيرين . فلما تأمل البعض من اكابر الفلاسفة المشار اليهم هذه البراهين رذلوا عبادة الاوثان والاعتقاد بآلهةٍ كثيرين . ثم اوضحت بالدلائل الراهنة الجلية المثبتة الديانة المسيحية وارتهم جزيل قداسة التعليم الانجيليّ واخيرًا سألت الفلاسفة هل لهم ما ينقضون بهِ كلامها . اما الفلاسفة الذين كان يكلمهم الله تعالى باطنًا وينوّرهم حينما كانت البتول تخاطبهم خارجًا فأجابوا كلّهم قد كنا حتى الان لا نعرف الحق وقد لاح لنا اليوم وقبلناهُ فرذلنا عبادة الاوثان ولذلك نعترف بالاله الواحد الذي يعبدهُ المسيحيون ومعهم نقدم لهُ السجود

فشاع في المدينة كلها خبر انتصار التعليم المسيحي على فلاسفة أفاضل علماء الوثنيين فتآمرت حينئذٍ كهنة الاوثان وقالوا للملك انهُ بأيَّام وجيزة تتنصَّر المدينة كلها ان كنت لا تعذب هؤلاء الخمسين فيلسوفًا والفتاة الاسكندرية أيضًا .

فأمر مكسيمينوس الفلاسفة بانكار ما اعترفوا بهِ وحتم عليهم ان يسجدوا للاوثان فأبوا فقتلهم جميعهم ثم القى القديسة كاترينا في السجن لعلهُ بذلك يلزمها ان ترضى بان تكون لهُ زوجةً لأن جمالها كان شغف قلبهُ عشقًا شديدًا ثم أرسل اليها واحدًا من قوّادهِ أظهر لها مراد الملك فرذلت طلبتهُ باستكراهٍ فاستحال عشقهُ غضبًا شديدًا ثم اوعز الى الشُرَط بان يعروا البتول النقية ويعلقوها بيديها ورجليها ففعلوا كما امرهم ثم ضربوها ومزّقوها بمخالب حديديَّة الى ان امتلأ البلاط من دمها واتصلت الجراح بعضها ببعضٍ حتى صارت جرحًا واحدًا وارجعوها على هذه الحال الى السجن وقد أوصى الملك احد قوّادهِ وكان اسمهُ بُرفيريوس بان يحفظها وسافر ليزور مدن مصر

وكانت فوستينا الملكة قد سمعت ما جرى من الجدال بين البتول والفلاسفة وبلغها خبر فصاحتها وجمالها فعزمت على ان تزور كاترينا في سجنها وبعد عزمها هذا رأتها في الحلم متلألئة وحاملةً اكليلاً ذهبيًا وتروم ان تضعهُ على رأسها قائلةً لها أي للملكة ان السيد المسيح عروسي الالهي يهبكِ هذا الاكاليل فزادها ذلك شوقًا الى مشاهدة البتول فمضت ودخلت السجن مع بُرفيريوس وقد تحيَّرا لما وجدا القديسة في حال كمال الصحة كانها لم تتعذَّب . فلما رأتها كاترينا خاضت معها في المذاكرة في الايمان المسيحيّ فقبلاهُ واعتمدا بعد ذلك بايامٍ قليلةٍ

فرجع الملك مكسيمينوس ولما عرف ان كاترينا لا تزال ثابتةً على عزمها بحفظ الايمان المسيحي والبتولية اعدَّ لتعذيب البتول الاتي مربعة لم يُسمع بمثل عذابها وهي دواليب مركَّبة بسيوفٍ بارزةٍ وتحتها شكل صندوق ووضعوا فيهِ القديسة كاترينا وشرعوا يديرون الدواليب عليها امام محفل عظيم الاَّ انهُ حينما ابتدأُوا يديرون هذه الدواليب تكسرت حالاً وطارت القطعات وقتلت كثيرين من الوثنيين . فصرخ المحفل قائلاً حقًّا ان اله المسيحيين هو وحدهُ اله حق ثم أتت فوسنينا الملكة وقالت لمكسيمينوس أ ليس في هذه العجائب كفاية لتكفَّ عن اضطهاد عبيد الله . كيف لا تعرف انت وكل الذين شاهدوها معك ان الديانة المسيحية هي ديانةٌ الهية وكذا قال ايضًا بُرفيريوس القائد . فتغيَّظ عليهما الملك والتهب قلبهُ رجزًا فقطع رأسهما حالاً . ثم حكم على القديسة بقطع الرأس ايضًا فتضرعت حينئذٍ الى الله تعالى وسأَلتهُ شيئين الاول ان ينقذ الكنيسة من الاضطهادات التي كانت تصدمها منذ ثلاثة قرون والثاني الاَّ يدع احدًا يبصر جسدها بعد موتها ولما فرغت من صلاتها قدَّمت هامتها للجلاد فقطعها وكان ذلك في السنة التاسعة عشرة من عمرها وقد استجاب الرب لصلاتها لانهُ بعد موتها بزمان قليل مات المغتصب أشنع ميتة بعد ان انتصر عليهِ ليسينيوس والزمهُ بالهرب الى طرسوس فزال الاضطهاد ولما كانت السنة الثالثة عشرة بعد القرن الثالث جلس على عرش السلطنة قسطنطين الكبير اول الملوك المسيحيين ثم ان الملئكة نقلوا جسد الشهيدة الى طورسيناء حيث كشف عليهِ في اواخر الجيل الثامن ووُضِع في دير بنتهُ هنالك القديسة هيلانة الملكة بنفقتها . وكان الملك يُستينيانُس في السنة ٥٦٢ قد كبَّرهُ وجعلهُ بهيئة قلعة كما يرى الآن ليدفع عن المسيحيين غارات السراكسة

اليوم السادس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس بطرس البطريرك
الاسكندريّ الشهيد

انهُ بعد موت تاوناس البطريرك الاسكندري السادس عشر أُقيم على الكرسي القديس بطرس وذلك في المائة الثالثة للمسيح وكان هناك معتبرًا من الجميع لاجل قداسة سيرتهِ وجزيل علمهِ ونشاط غيرتهِ لانتشار الايمان المقدس وفي السنة الثالثة بعد القرن الثالث أفرغ ديوكليسيانوس ومكسيميانوس الملكان جهدهما في اضطهاد الكنيسة في الشرق . فلما رأى البطريرك القديس رعيَّتهُ على خطر عظيم طاف ابرشيَّتهُ كلها ليشجع الضعفاء في الايمان ويعزّي المعترفين في السجون ويسعفهم ويرجع الى الحظيرة الخراف الضالَّة اي الذين كانوا تركوا الايمان الصحيح خوفَ العذاب ومن جملة الذين كانوا كفروا بالايمان ملاتيوس اسقف ليكوبوليس وقد افرغ القديس جهدهُ كلهُ في ان يردَّ هذا الأُسقف الى التوبة فلم ينتصح ولم يتُب بل ازداد شرًّا وابدع في ابرشيتهِ انشقاقًا وطفق يشنّع على القديس ويرميهِ بتهمٍ باطلةٍ واجتذب آريوس الى انشقاقهِ

وفي السنة الرابعة من هذا الاضطهاد الشديد لما قرب عيد الفصح تقدَّم الى البطريرك أُولئك الذين كانوا قد جحدوا الايمان وكانوا قد ندموا ومارسوا لاجل سقطتهم توبةً مستطيلةً وطلبوا بدموعٍ والحاحٍ ان يحلّهم ويقبلهم في الكنيسة فرسم القديس لاجل توبتهم القوانين الآتية

القانون الاول ان الذين لم يتقدَّموا بذواتهم للكفر بل أُخذوا قهرًا وقُدّموا اغتصابًا للحاكم الوثني وسقطوا بعد احتمالهم ضروبًا شديدةً من العذاب مدة مديدة فليكن قانونهم الصوم اربعين يومًا مع المواظبة على الصلاة . القانون الثاني انَّ الذين احتملوا نتانة السجون وبقية صعوباتها وسقطوا دون احتمال عذاب فليمارسوا التوبة المتقدم ذكرها سنةً كاملةً. القانون الثالث . اما الذين لم يكابدوا شيئًا لاجل السيد المسيح بل ذهبوا باختيارهم لعبادة الاوثان فينبغي ان يُضرب لهم مَثل التينة اليابسة ولكن ان كانوا قد ابتدأُوا ان يثمروا اثمارًا للتوبة فليوضع عليهم القانون الثاني . القانون الرابع أما الذين لا يمارسون افعال التوبة ولا يبين فيهم تغييرٌ ما فليقُل لهم ما قال السيد المسيح عن التينة الملعونة لا ياكل منكِ احد ثمرةً الى الابد . القانون الخامس والذين ما جحدوا الايمان صريحًا لكنهم استعملوا التباسًا وحيلةً وذلك بطلب سندات تتضمن شهادة كاذبة بانهم كفروا بالايمان او بارسالهم وثنيين يكفرون نيابةً عنهم بالسيد المسيح فهؤلاء لكونهم ابوا تقدمة البخور للاوثان وقد تحقق ايضًا ان الذي فعلوهُ انما هو عن جهلٍ يكفي ان يستمرُّوا ستة اشهر على ممارسة افعال التوبة . القانون السادس اما ارباب البيوت الذين ارسلوا

عبيدهم ليجحدوا الايمان نيابةً عنهم فليستمروا على حال التوبة ثلث سنين لانهم استعملوا التباساً وارسلوا عبيدهم ليكفروا بالايمان . القانون التاسع والذين كفروا بالايمان بأمر اربابهم اضطراباً فينبغي ان يستمرّوا على التوبة سنة واحدة فقط . فهذه هي القوانين التي مدحتها الكنيسة وادّعى ملاتيوس انها ذات ارتخاء واتخذ ذلك حجةً لينفصل عن الاشتراك مع القديس بطرس

ولما كانت السنة الحادية عشرة بعد القرن الثالث اتى الاسكندرية مكسيمينوس قيصر فارسل وقبض على البطريرك القديس وامر بقطع راسهِ إن ابى السجود للاصنام الاّ انهُ لم يسألهُ احد عن ذلك لعلم الجميع انهُ يختار ان يموت الف مرة افضل من ان يجحد السيد المسيح . فلما شاع خبر مسكهِ اجتمع كل المؤمنين على باب السجن فلما رأى هذا ذاك القائد المرسَل من قيصر ليقتل القديس خشي ان يحدث قلقٌ وتعصُّبٌ فابقى الامر الى الغد املاً في ان المسيحيين يعودون الى منازلهم في الليل غير انهم استمرّوا جميعهم

وحينئذٍ تقدم آريوس الخبيث وطلب من بعض الوجوه ان يصالحوهُ مع البطريرك قبل موتهِ قصدَ أن يرتقي بعدهُ الى الكرسيّ الاسكندري فتضرّعوا الى أُسقفهم القديس في شانهِ اما القديس فاخذ ناحيةً اكيلاس واسكندر افضل كهنة المدينة وقال لهما اني مع كوني خاطيًا سأموت بنعمة الله شهيدًا وستجلسان بعدي على كرسيّ حسبما انبأني بذلك سيدي يسوع المسيح فاقصُّ عليكما رؤيا انعم بها عليّ في هذه الليلة حين كنت أُصلّي لانهُ ظهر لي رب المجد بشكل غلام لهُ من العمر اثنتا عشرة سنة وكان متصفًا ببهاء عجيب لابسًا ثوبًا ابيض ممزّقًا من طوقهِ الى أسفل فسألت سيدي قائلاً من ذا الذي مزّق ثوبك يارب فاجابني قائلاً آريوس هو الذي مزّق ثوبي ثم امرني بالّا اقبلهُ في الاشتراك الكنائسي وأوصاني بان اقول لكما هذا الّا تقبلا آريوس ابدًا . فخرج الكاهنان الى الشعب الملتئم تجاه باب المنزل حيث كان القديس مسجونًا

اما القائد فلم يجسر ان يخرج القديس خارجًا مخافة أنّ الشعب المسيحيّ يختطفهُ من يدهِ . فأشار عليهِ القديس ان ينقض قليلاً من حائط السجن من الجهة التي لم يكن المسيحيون بازائها وهكذا يسهل عليهِ الذهاب الى المقتل المعين من الملك من غير ان يدري بهِ الشعب المسيحيّ . ولا جرم ان هذا القول العجيب الذي لم يُسمع بمثلهِ قط ادهش عقل القائد ففعل كل ما اشار عليهِ القديس فخرج من السجن واذ وصل الى المقتل اخذ يصلّي ويطلب من الله ازالة الاضطهاد . قيل ان وقت صلاتهِ سمعت احدى العذارى هاتفًا من السماء قائلاً بطرس اول الرسل وبطرس اخر شهداء الاسكندرية وقد تم هذا الكلام بانهُ بعد وفاة القديس لم يستشهد غيره من اساقفة الاسكندرية قتلاً بايدي الوثنيين . فبعد صلاتهِ تقدم القديس الى السيّافين بشجاعةٍ وغيرةٍ مقدّسة حتى انهُ لم يجسر أحدٌ أن يضرب عنقهُ غير ان القائد دفع أخيرًا لاحدهم خمس قطع من ذهبٍ فتقدّم وقطع هامة القديس في اليوم السادس والعشرين من تشرين الثاني في السنة الحادية عشرة من القرن الرابع . فاخذوا المسيحيون جسد القديس وقبل ان يدفنوهُ حملوهُ باحتفالٍ الى الكنيسة ووضعوهُ لابسًا ثيابهُ الحبرية على كرسي القديس مرقس ولما كان حيًّا ما رضي ان يجلس عليهِ بل كان يجلس على درجات الكرسي السفلية تواضعًا واكرامًا لسالفهِ الاول منشىء هذا الكرسي العظيم

اليوم السابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس يعقوب المقطّع

نشأ القديس يعقوب بمدينة بيت لابيتا ببلاد فارس واشتهر صيتهُ في الآفاق لانهُ كان حسيبًا غنيًّا محمود الشمائل وأُقيم على مناصب مختلفة ورُزق حُظوةً في عيني الملك غير أن كل هذه الأحوال كانت عليهِ تجربةً ذات خطرٍ وغلبت عليهِ ولا ريب فانهُ حين نادى الملك بمحاربة المسيحيين تراخى حتى فضّل ارضاء مولاهُ على الاعتصام بالدين الحقيقي الذي كان معتقدًا بهِ الى ذلك العهد (١)

(١) مات سابور الثاني عام ثمانين وثلاثمائة فزال الاضطهاد الكبير من بلاد العجم الذي بقي أربعين سنةً ورتعت الكنيسة في ظلال الراحة والاطمئنان على عهد ارتكزركسا الثاني وسابور الثالث وفارانس الرابع وازدجردوس الأوّل فملك الأوّل اربع سنين والثاني خمسًا والثالث إحدى عشرة سنةً والرابع إحدى وعشرين سنةً

وازدجيردوس الذي ظهر انهُ أعطف من غيرهِ على المسيحيين انقاد مرارًا في سياسة مملكتهِ لمشورة القديس ماروتاس من بلاد ما بين النهرين وعبداس مطران العاصمة . لكن غيرة عبداس غيّرت هذا الملك في آخر عهدهِ لان الأُسقف وضع نارًا في هيكلٍ للوثنيين فامرهُ الملك المذكور ان يُقيمهُ على نفقة المسيحيين فعصى عبداس الأمر لان اعادتهُ بناء

اما امُّهُ وقرينتهُ فاصابهما اشدّ الكدر على سقطتهِ وطلبتا اهتداءهُ بغاية الالحاح فكتبتا اليهِ بعد موت الملك ازدجيردوس الذي كفر على عهدهِ ما نصهُ قد عرفنا منذ زمان طويل انك رفضت محبة الاله الذي لا يموت اكرامًا للملك وحبًّا بحُطام الدنيا وكراماتها لكن ماذا حلَّ بمن اعتبرتهُ اعتبارًا عظيمًا. فاجأهُ الموت واصبح رمادًا فلم يبقَ لك وجهٌ للرجاء بهِ ولا يقدر ان يخلّصك من العذاب الأبدي واعلم انك اذا بقيت في اثمك يقضي عليك العدل الالهي بهذا العذاب كما قضى على حبيبك الملك ونظرًا الينا فلم نعُد نريد ان يكون بيننا وبينك اقل علاقةٍ

فلما اطلع يعقوب على الرسالة المشار اليها تأثر اشدّ تأثر وأمعن النظر في جسامة زلّتهِ وراعهُ الفكر في القضاء الذي لابدّ ان يتوقّعهُ من قِبَل القاضي العظيم فخرج من بلاط الملك وابتعد عن كل مَن ربما يغويهِ ويغرّهُ ورفض رفضًا مؤبدًا الفوائد التي كانت قد سبّبت هلاكهُ. ولما رُفع الى الملك امر تغيّرهِ استدعاهُ فاعترف يعقوب بشجاعةٍ انهُ مسيحيٌّ فغضب فارانس الملك وأذكرهُ جميع ما قلّدهُ بهِ والدهُ من الأيادي البيضاء ووبّخهُ على جحدهِ للمعروف وعند ذكر اسم ابي الملك قال المعترف باطمئنان اين ذلك الملك الآن وماذا حلَّ بهِ فزاد كلامهُ الملك غضبًا فهدّدهُ انهُ يحكم عليهِ بموتٍ شنيع طويل المدة. قال يعقوب كل انواع الموت ما هي الّا نعاس ومن لي ان أموت موت الأبرار. قال فارانس ليس الموت نعاسًا بل هو هولٌ للعظماء والملوك. فقال يعقوب نعم لا ريب في ذلك فهو يخيف الملوك وكل الذين يحتقرون الالوهية لان رجاء الاشرار يبيد. فظنَّ فارانس انهُ هو المراد بذلك التلميح فقال لماذا دعوتنا أشرارًا ايها الشقيُّ وانت لا تسجد للشمس ولا القمر ولا النار ولا الماء وهي أشهر ما تولّد عن الآلهة. قال يعقوب لم أُرِد ان اهينك لكن اقول انك اعطيت للمخلوقات الاسم المختص بالله عزّ وجلّ

اما الملك فلم يعد يملك من الغضب فاستدعى الوزراء والقضاة ليستشيرهم في نوع العذاب الذي يوقعهُ برجلٍ أسخط آلهة البلاد مثل هذا السخط وقال في احتدام رجزهِ اذا لم يجحد هذا المدعي المجرم النصرانية فمدّوهُ على آلة العذاب وقطّعوهُ عضوًا عضوًا. واعلم انهُ لم يُبرز الحكم عليهِ حتى بادرت المدينة كلها لترى مقتلة الغريب. اما المسيحيون فصلوا الى الله صلواتٍ حارّةً ليجود على خادمهِ بنعمة الثبات. ولما بلغ يعقوب مكان العذاب طلب مهلة بعض دقائق فأعطوهُ فالتفت صوب المشرق وجثا على ركبتيهِ وصلّى بعبادةٍ حارّةٍ وعيناهُ مرتفعتان الى السماء ثم اقترب اليهِ السيافون وسحبوا امام عينيهِ الآلات التي أُعدّت للعذاب فامسكوا يدهُ ومدّوا ذراعيهِ بشدّةٍ غير انهم قبل ان يضربوهُ أغروهُ بطاعة الملك لينجو من العذاب الهائل الذي أوشك ان يكابدهُ. اما المتفرجون فسالت مدامعهم واذ اعتبروا شرف نسبهِ وعظمة المناصب التي تقلّدها ورأوا نضارة صباهُ وبهاءَ مرآهُ وهيبة منظرهِ ألحّوا عليهِ نهاية الالحاح ان يُبطِن دينهُ الآن ويعترف بهِ فيما بعد. فقال جنديُّ المسيح ليس هذا الموت الذي يظهر لكم في هذه الهيئة الهائلة الّا شيئًا لا يُعبأ بهِ باعتبار انهُ يجلب حياة ابدية ثم التفت نحو السيافين وقال لهم ما بالكم في كسلٍ لماذا لا تشرعون في إنفاذ الامر الذي أُوصيتم باجرائهِ فقطعوا إبهام يدهِ اليمنى فصلّى عند ذلك قال يا مخلّص المسيحيين تقبّل هذا الغصن من الشجرة ومن المحقّق ان هذه الشجرة قد فسدت لكن سترتدُّ اليها خضرتها ونضارتها واعلم يقينًا انها ستكلّل بالمجد. ذلك والقاضي الذي عيّنهُ الملك ليشهد مقتلهُ لم يملك ان يكفكف دموعهُ فجعل يصرخ نحو الشهيد هو وباقي المحضر قائلين قد تعذبت من اجل دينك عذابًا كافيًا فلا تتسبّب في قطع جسدٍ لطيفٍ كجسدك انت مكثرٌ فاحسن بجزءٍ من مالك الى الفقراء لاجل خلاص نفسك ولا تمُت مثل هذه الميتة. اجاب القديس ان الكرم في حال الموت شتاءً ولكن متى اتى الربيع يحيا من جديدٍ فكيف لا تتجدّد الحياة لجسد امرىءٍ بعد ان يتقطّع

ولما قطع السيّافون سبّابتهُ هتف قائلاً ابتهج قلبي

الهيكل محض مساعدةٍ للعبادة الوثنيّة فتغيّظ الملك من جرائهِ فحكم عليهِ بالموت وأوقد نار اضطهادٍ شديدٍ بقي من سنة ٤٢١ الى سنة ٤٢٧ وفي تلك السنة انغلب فارانس الخامس ابنهُ وخليفتهُ من عساكر الملك تاودوسيوس الحديث السنّ فكفَّ عن اضطهاد كنيسة بلاد فارس اضطرارًا كما اخبرنا ابن العبريّ المعروف بابي الفرج وغيرهُ من المؤلفين السريان وهذه الرواية منطبقة على رواية تاودوريتوس وكيرلّس كاتب ترجمة القديس اوثيميوس ومَن عاصرهم من مؤرخي اليونان او الذين عاشوا قرب بلاد العجم. قال استفانس السماني رأيت في الشرق اعمال كثيرين من الشهداء الذين كابدوا العذاب في اضطهاد فارانس الخامس غير انهُ لم يُوجد مثل عذاب القديسين مهارسابور ويعقوب المقطَّع

بالرب وفرحت نفسي بالخلاص الذي قدّمهُ لي . اقبل يارب هذا الغصن الآخر . ولمح الناس حينئذٍ ما وقع في قلبهِ من السرور الذي لاحت علاماتهُ على وجههِ وكان كلما قُطع اصبعٌ من اصابعهِ يشكر الله ولما فرغ السيّافون من يدهِ اليمنى انتقلوا الى اليسرى واستحلفهُ القضاة ان يرؤف بحالهِ وينقذ نفسهُ من الموت فقال لهم القديس بكلامٍ حلوٍ انتم اذن لا تعلمون فان هذا غير مقبول عند الله ان الذي يضع يدهُ على المحراث يلتفت الى ما وراءَهُ . فقطع السيّافون على التعاقب اصابع رجليهِ وشكر الرب عند قطع كل اصبعٍ وابدى فرحًا جديدًا اذ رأى انهُ لم يبقَ لهُ ولا اصبع في يديهِ ولا في رجليهِ وقال للسيّافين باطمئنان ها قد سقطت جميع الفروع والاغصان فاقطعوا الجذر ولا تشفقوا عليَّ لان قلبي يتمتع بالرب ونفسي ترتفع نحو الذي احبَّ الصغار والمتواضعين . ثم قطعوا رجليهِ ويديهِ وذراعيهِ وفخذيهِ واحرقوها كلها ولم يزل بعد قطع الاعضاء المذكورة حيًّا يبارك الرب وآخر الامر قطع احد الحراس رأسهُ وكان ذلك نهاية استشهادهِ وانما لُقّب بالمقطَّع لانهُ عُذّب بتقطيع الاعضاء كما رأيت

وكان استشهادهُ في اليوم السابع والعشرين من تشرين الثاني سنة احدى وعشرين واربعمائة للمسيح في تملك فارانس الخامس وقدم المسيحيون كميّة وافرة من المال ليكون لهم حرية ان يأخذوا ذخائرهُ فأُنكرت عليهم فاغتنموا الفرصة واخذوها سرًّا وجمعوا أعضاءهُ المتفرّقة في صندوقٍ او في جرّةٍ . قال كاتب اعمالهِ وكان معاينًا كل ما جرى لهُ قد التمسنا جميعنا حماية الطوباوي يعقوب ودفن المؤمنون هذا الشهيد في موضع لا يعرفهُ الوثنيون وشاع اسمهُ عند الفرس والسريان والقبط واليونان واللاتين (مترجم عن غودسكار)

وفيهِ أيضًا ترجمة القديسين برلام ويواصف (1)

قال كاتب ترجمتهما ان ملكًا هنديًّا وثنيًّا يُدعى ابنوركان يضطهد المسيحيين بكل قوة غضبهِ لاسيما الرهبان ومع انهُ انتصر على كل الملوك الذين حولهُ واذلّهم واخضعهم لهُ وارتقى الى ارفع درجات السعادة الدنيويّة لم يعدّ هذا شيئًا بل كان يحتسب حظهُ شقيًّا لانهُ لم يكن لهُ ابن غير ان الله تعالى رزقهُ اخيرًا ابنًا فسمّاهُ يواصف وقد أحبّهُ والدهُ محبّةً عظيمةً لانهُ أضحى منذ صبائهِ متصفًا بجمالٍ عظيمٍ وأخلاقٍ محمودةٍ محبوبةٍ فرام الملك ان يعرف ماذا يكون من أمر ابنهِ فجمع أمهر العلماء المنجّمين وسألهم عن ذلك فاجابهُ احدهم ولكن لا بنور هذا العلم الباطل بل بروح النبوّة مع انهُ كان رجلاً وثنيًّا شرّيرًا قال ان يواصف يكون عظيم القدر سعيد الحال ولكن على نوع مختلف جدًّا عن عظمة ابيهِ وسعادتهِ لانهُ سيكون مسيحيًّا وعاضد الديانة المسيحية

فاعلم انهُ حذرًا من ان تتمّ هذه النبوّة أفرغ الملك كل جهدهِ في ان لا يدنو من ابنهِ مسيحيٌّ على الاطلاق ولا يخبرهُ أحدٌ بديانتهم فربّاهُ في بلاطٍ معظَّمٍ وامر الذين يخدمونهُ بالا يسمحوا ان ابنهُ يكلم رجلاً مسيحيًّا او يبصرهُ ولا يذكروا على مسمعٍ منهُ شيئًا مما يحزن او يخيف كالموت والامراض وبلايا هذه الدنيا بل يلهونهُ بكل ما يبهج ويفرح . ولكن من المحقّق انهُ لا حكمة ولا فطنة ولا قدرة تستطيع ان تقاوم تدبير الله وعنايتهُ فانّ يواصف لما ترعرع وتأمّل حالهُ التي هي حال ابن محبوبٍ من ابيهِ جدًّا ومع هذا هو مسجون في بلاط النعيم ولا اذن لهُ في التنزه خارجًا استغرب هذا التدبير الابويّ وتحيّر منهُ وسأل حاشيتهُ عن ذلك فما أجابوهُ الا بكلماتٍ ملتبسة يهربون بها عن اظهار الحق لهُ فاتفق يومًا أنهُ ألحّ على احدهم في السؤال عن ذلك وهذا الرجل اللبيب العارف بحذاقة يواصف وثقوب فطنتهِ وشدة معرفتهِ الصدق من الكذب قال لهُ اني أكشف لك ما لا يريد ابوك ان تدري بهِ وأوصانا ان نخفيهُ عنك ولكن احذر من ان يعرف من اخبرك بما قصدهُ بك . فاعلم ان المنجّمين تنبأوا عليك انك تصير نصرانيًّا وبحيث ان اباك يخاف ان تتمّ هذه النبوّة عوّل ان يودعك ضمن هذا القصر خشيةَ أن ترى احدًا من النصارى او يخبرك أحد بدينهم

فهاج هذا الكلام في قلب ابن الملك شوقًا متزايدًا للخروج من السجن لاجل تعرّف النصارى والوقوف على عقائدهم . فلما افتقدهُ ابوهُ عبس يواصف وتظاهر انهُ مفكرٌ في قضايا محزنةٍ فسألهُ عن سبب ذلك فاجابهُ يواصف ان نفسي قد ضجرت من سكناي هنا ولقد حسبت ذاتي محبوسًا وخدامي أسعد مني

(1) حاشية . قد استحسنّا ذكر مختصر ترجمة هذين القديسين المنسوبة الى القديس يوحنا الدمشقي لكننا ننبّه المطالع ان كثيرين من العلماء والمؤرخين شكّوا ووقع عندهم ريبٌ في صحة بعض تفاصيل وظروف هذه الترجمة وانكر بعضهم كون القديس يوحنا مؤلف هذه الترجمة ولو كانت معزوّة اليهِ

لان لهم اذناً للخروج من البلاط وهاءنذا عادم هذه الحرية . ففكر الملك كيف يدبّر أمرهُ اي كيف يرضي ابنهُ العزيز ويصدهُ عن معرفة المذهب المسيحي فاذن له في الخروج من البلاط لكي يتنزّه واوصى الذين معهُ وصية مشدّدة بالاّ يدعوا ابنهُ يشاهد نصرانيًّا اويسمع شيئًا ما يتعلّق بالنصرانية . فخرج يواصف من البلاط وفيما كان سائرًا في المدينة وجد في الشوارع رجلاً شيخًا هرمًا وآخر مخلّعًا فانذهل الشاب من هذا المنظر لانهُ لم يكن يعرف بعد شيئًا ما في هذه الحياة من الامراض والبلايا فسأل لماذا ابيضت لحية ذاك وانحنى ظهرهُ ومن اين لهذا هذا المنظر الشنيع فبمثل هذه المسائل حصل على معرفة شقاء حال هذه الحياة وزوالها فكان يسأل تارةً كيف ومتى يموت الانسان وهل بعد الموت يفوز بحياةٍ أُخرى لعل الملوك ينجون من الموت اومن الامراض . الاّ ان معرفة النصرانية هي التي كانت محطّ رغبتهِ واسنى مقاصدهِ وكان قد بلغ من العمر وقتئذٍ نحو خمس عشرة سنةً

وكان في ذلك العصر منفردًا في برية سنّار رجل سائحٌ قديس يُدعى برلام فهذا امرهُ الله تعالى بان يهجر خلوتهُ ويذهب الى بلاط يواصف ويعلمهُ عقائد النصرانية فخرج القديس برلام وتنكّر ولبس ثوب انسان تاجر ولما وصل الى البلاط قال انهُ يريد ان يقدم لابن الملك درةً كثيرة الثمن فادخلوهُ الى يواصف ولما رأى هذا التاجر الغريب اراد ان يخاطبهُ على انفرادٍ فصرف الحاضرين ثم شرع يسألهُ عن وطنهِ وعن سبب تغرّبهِ فاجابهُ القديس برلام وقال له اعلم ايها الملك ان الله تعالى ارسلني لأن اهبك من قِبلهِ تعالى ماهو أثمن من كنوز العالم كلها وهو الايمان المسيحي الذي بدونهِ يهلك الانسان هلاكًا ابديًّا وبهِ يستطيع ان يملك السعادة الابدية حيث لامرض ولا شقاء ولا موت بل توجد هناك جميع الخيور الثابتة الخالدة . فلما قال هذا امتلأ قلب يواصف فرحًا فاستبشر قائلاً مبارك الرب الاله الذي أرسلك ليهبني بك ما تشتهيهِ نفسي بكل قواها فطفق القديس وقتئذٍ يورد لهُ أخصّ حقائق الايمان المسيحيّ واهمها وكان يواصف يقبل كلامهُ قبول الاعمى نورًا مبهجًا . ومكث القديس أيامًا كثيرةً هناك يؤهّب ابن الملك لقبول سر العماد واخيرًا اعتمد وغدا حينئذٍ انسانًا جديدًا بوفور ما وهبهُ الله من النعم في هذا السرّ الالهي

فلما تأمل احد أتباعهِ المسمى دردان تغيير سيرة يواصف وقداستهُ وانهُ شرع يهزأ بعبادة الأوثان استناق على ما كان واخبر حالاً الملك بان ابنهُ قد تنصّر على يد تاجرٍ غريبٍ جرت بينهُ وبينهُ مفاوضات كثيرة فوغر من ذلك صدر الملك فقتل للحال كل من وجد من الرهبان الاّ ان حبّهُ المفرط نحو ابنهِ لم يدعهُ يعذّبهُ غيرانهُ اجتهد اجتهادًا كليًّا بطريق الملاطفة والمحبة ان يردهُ الى عبادة الأصنام فلم يبلغ اربهُ ومن اجل ذلك استحوذ عليهِ حزن شديد فأشار عليهِ احد الخدام اراشيز بان يجمع في البلاط اعظم الفلاسفة الوثنيين مع شخصٍ يشبه برلام التاجر منظرًا ويقول عن نفسهِ انهُ برلام فيجادلهُ الفلاسفة على الايمان المسيحي امام ابنهِ يواصف ويقر برلام الدجّال بان الفلاسفة انتصروا عليهِ وان كل ما قالهُ لابن الملك هو كذب محضٌ وان عبادة الأوثان حق لايعلق بهِ شكٌ. فقبل الملك مشورتهُ واختار شيخًا ساحرًا يسمى ناكور ويشابه برلام هيئةً فظهر هذا في المحفل بهيئة القديس برلام واصطفّ مع الفلاسفة تجاه الملك وابنهِ جمٌ غفيرٌ من البلاط وكان احدهم مسيحيًّا اسمهُ بركياس وكان يواصف صرف الليل في الصلاة طالبًا من السيد المسيح الاّ يدع الكذب ينتصر على الحق فكاشفهُ السيد المسيح بحقيقة الحيلة . فلما عاين ذاك الدجال المتظاهر بانهُ برلام شرع يواصف يورد حقائق الانجيل المقدس وبعد ان اثبتها بأدلّة واضحة حيّر بها عقول الحاضرين التفت الى برلام الدجال وقال لهُ تكلم الآن بما تشاء فان قلت انك خدعتني فاعلم اني لا ادع خباثتك بغير انتقام قال هذا وللوقت غيّر الله قلب ناكور عدو المسيحيين لأن الذي تزيًّا بزيّ القديس برلام أثبت كلّ ما قالهُ ابن الملك وأوسع في مدح النصرانية وأوضح بطلان عبادة الاوثان وخرافاتها

فبهت من ذلك الفلاسفة والمحفل كلّهُ وحينئذٍ تقدم باركياس المسيحيُّ المارُّ ذكرهُ وتكلّم واجاد في حقيقة الدين الصحيح وقداسة أوامرهِ ولما رأى الكهنة الوثنيين الملك مغتاظًا من عجزهم عن المحاماة عن ديانتهم ارسلوا اليهِ رجلاً ساحرًا اسمهُ تاوداس هذا أشار على الملك بان يجذب ابنهُ الى حب النساء لانهُ اذا أفسد العشق قلبهُ يرتد والعياذ بالله عن الايمان بالمسيح . فأدخل الملك الى بلاط ابنهِ يواصف أجمل الغيد وأحسنهنّ وجعلهنّ شركًا لاغواء ابنهِ وكان فيهنّ غادةٌ ابهى جمالاً من الجميع كان ملك غريب استأسرها فوعدها

الملك بأنهُ يزوّجها بابنهِ اذا اجتذبتهُ اليها فأفرغت الفتاة كل جهدها في ذلك وجعلت نفسها تشتهي ان تتنصر وبهذهِ الواسطة كان ابتداءُ كلامها يؤثر في قلب يواصف الاَّ ان الله تعالى لشدة عنايتهِ بحفظ خاصّتهِ نبههُ على الخطر برؤيا رآها في الحلم اما الرؤيا فهي انهُ رأى نفسهُ على حافة هاوية عميقةٍ وكانت الفتاة المشار اليها تجتهد ان تزجّهُ فيها . ولما استيقظ الشاب النقيُّ تبيّن لهُ الخطر فحاد عنهُ ولم يعُد يخاطب تلك الفتاة الخبيثة ولا غيرها حتى ولا اراد ان يعاينهنَّ ولفرط ما ندم على جهلهِ اعترتهُ الحمى ولما عادهُ ابوهُ قال لهُ بحزنٍ واحترام اعتقد يا ابي ان معاملتك لي على هذا الوجه اوقعتني في هذا المرض ولعلهُ يحدرني عما قليلٍ الى القبر فان اردت ان تطول حياتي دعني أذهب وأعيش في البريَّة مع من أدخلني في طريق الخلاص الابدي . فاحتار ابوهُ في امرهِ وارسل لابنهِ ناوداس ليخرج من عقلهِ هذا الفكر ويبعد من قلبهِ هذا العزم غيران الله جلَّ جلالهُ صيَّر لسان يواصف فصيحًا التي في فمهِ كلامًا موثرًا وبهِ اجتذب الفيلسوف الى الايمان المسيحي وبعد نعمُّدهِ مع ناكور المتقدم ذكرهُ انفرد في البرية وتتلمذ لرجل قديس وقضيا هناك اجلهما براتحة البرارة

فهذه كلها زادت الملك انذهالاً وتحيُّرًا واستشار عقلاء مملكتهِ في ما يجب عليهِ فعلهُ فاشاروا عليهِ بان يسلم جزءًا من مملكتهِ لابنهِ ويقيمهُ ملكًا لعلهُ اذا ما رأى نفسهُ في العظمة يميل الى اللذات المحبية التي تصيرهُ ينكر الديانة المسيحية فاعجبتهُ هذه المشورة جدًّا فأقام ابنهُ ملكًا على جزءٍ من مملكتهِ فقبلهُ يواصف بسرور لرجائهِ انهُ يُخضع للسيد المسيح اصل مملكتهِ فاذ دخلها هدم اول كل شيءٍ هياكل الاوثان وشرع يُبشر الشعب كرسول وحينما شاع خبرغيرتهِ خرج من الجبال والكهوف أُولئك الكهنة والاساقفة المضطهدون وبهم وبغيرة الملك الحديث انتشر الايمان المقدَّس في كل المملكة وفاح فيها عطر القداسة وليس هذا فقط بل ان الله تعالى بارك على مملكتهِ بغنًى جزيلٍ وخيراتٍ جعلتها اسعد كل الممالك وأغناها ولذا كان الغرباء يفارقون أوطانهم ليستوطنوها . فلما تأمل الملك كل هذه العجائب كتب الى ابنهِ ليأتيهُ ويعلّمهُ قواعد الايمان ليتنصَّر فاتى ابنهُ مسرعًا مبتهجًا شاكرًا الله تعالى على رحمتهِ وبعد ان علَّم اباهُ واعتمد طلب اكثرعظاء البلاد وشعبها ان يتعمدوا اقتداءً بهِ وعاش الملك ابنور بعد ذلك

اربع سنين متروضًا بمباشرة أفعال البرّ

ولما مات قبض على صولجان الملك وليُّ عهدهِ يواصف الاَّ انهُ عزم حالاً على تركهِ ليذهب الى البرية ويعيش مع القديس برلام مرشدهِ فجمع كلَّ عظاء المدينة وقال لهم اني منذ يوم اشرق عليَّ نور الحق فآمنت بالمسيح عزمت على الزهد في الدنيا لاتفرّغ للاهتمام بخلاص نفسي فقط في البراريّ والآن بعد موت ابي لم يبقَ شيءٌ يعوقني عن اتمام عزمي فاختاروا لكم ملكًا بدلاً عني . أما العظاء فلم يرضوا بذلك حتى ان الشعب ايضًا لما عرفوا عزم الملك اجتمعوا على باب البلاط باكين وقالوا ما دام ملكهم حيًّا لايقبلون غيرهُ ملكًا عليهم . فعزَّاهم الملك بكلام لطيف واطلقهم الاَّ انهُ بعد ذلك اسرَّ الى باركياس المسيحيّ الفاضل المذكور وطلب منهُ بابلغ ما يكون من الالحاح ان يقبل الاستيلاء على مملكتهِ اما باركياس فلم يقبل بل قال للملك : ان كان المُلك جيدًا فلماذا تزذلهُ وان كان شيئًا مخطرًا فلماذا تريدهُ لي . حينئذٍ دخل الملك غرفتهُ وكتب الى رعيتهِ رسالة بها كان يحثهم جدًّا على الثبات في الايمان المسيحي ويخبرهم بتركهِ البلاد ليعبد الله في خلاء البادية ويشير عليهم بان يقيموا باركياس ملكًا . ثم ترك هذه الرسالة في غرفتهِ وخرج سرًّا من بلاطهِ وفرَّ هاربًا من المملكة ولكن لما درى الشعب بهربهِ ركضوا في اثرهِ فادركوهُ في غابةٍ جاثيًا يصلّي فأرجعوهُ . فلما وقف امام الشعب الملتئم حولهُ امسك باركياس بيدهِ وقدّمهُ للشعب قائلاً هذا ملككم منذ الآن فصاعدًا اقبلوهُ هديَّةً مني وعربونًا على محبتي لكم ثم البسهُ الثياب الملكية ووضع على هامتهِ اكليلاً واجلسهُ على المنبر ثم خاطب الشعب بفصاحة انتصرت على قلوبهم فاقتنعوا وودّعهم وخرج ثانيةً لينفرد في البوادي

فسافر يواصف مسرورًا الى ان وصل الى برية سنّار وهناك وجد القديس برلام فلما رآهُ وعرف منهُ كل ما جرى بعد تنصُّرهِ امتلأ قلبهُ سرورًا وعاشا جملة سنين معًا وباشرا رياضات الفضيلة بنشاطٍ لامزيد عليهِ ثم تُوفي القديس برلام وبعد يوم واحدٍ لوفاتهِ تراءى للقديس يواصف ملتحفًا بنورٍ عجيب وأنباهُ بان الله تعالى اعدَّ لهُ مجدًا مثل هذا المجد . اما يواصف فبقي سالكًا بنشاطٍ طريقَ النسك الى ان بلغ من العمر ستين سنةً صرف منها في البرية خمسًا وثلاثين سنةً ثم رقد وأُوحي حينئذٍ من الله لسائحٍ ما ان يأتي ويدفنهُ ثم أمرهُ

الله تعالى ايضاً بان يذهب ويخبر باركياس الملك بوفاة القديس فمضى واخبره فلما سمع الملك ذهب بعظماء المملكة ونقلوا جسده المكرّم وجسد القديس برلام الى مدينتهِ ووضعوهما في الكنيسة التي بناها حينما كان ملكاً وقد شرّف تعالى قبريهما بعجائب متعددة

اليوم الثامن والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس استفانُس السائح الشهيد الملقّب بالصغير

كان مولد هذا القديس بالقسطنطينية نحو السنة الرابعة عشرة من القرن الثامن في عهد الملك انستاس الثاني وقد خصّصهُ والداهُ في يوم ميلادهِ لعبادة الله وخدمتهِ وهو منذ صغر سنهِ احب الفضيلة ودرس العلوم لاسيما الكتاب المقدس وكتب الذهبيّ الفم. وكانت ذاكرتهُ نهايةً في القوّة لانهُ لم يكن ينسى شيئاً مما كان يتعلم

وكان قد بلغ من العمر نحو اربع عشرة سنة لما عزم لاون الملك الايصوري على ازالة اكرام الصور المقدّسة وصمّم على كسرها ولما ابتدأ هذا الملك ان يظهر شرهُ عزل اولاً القديس جرمانوس البطريرك القسطنطيني عن كرسيهِ. فلما عزلهُ هرب كثيرون من المدينة ومنهم والدا القديس استفانُس فانهما انطلقا الى خلكيدونية وادخلا ابنهما في دير قربَ تلك المدينة فقبلهُ الرئيس الفاضل بسرورٍ عظيم وألبسهُ الاسكيم الرهباني مع انهُ لم يكن تمّ السنة السادسة عشرة من عمرهِ وقد سلك في طريق النسك وباشر الرياضات الرهبانية كأنهُ تعوّدها وتمرّن عليها منذ سنين كثيرة. فلما مات والدهُ ذهب بامر رئيسهِ الى القسطنطينية فوجد اختاً لهُ كانت قد ترهّبت ثم باع كل املاكهِ وأعطى ثمنها للمساكين ورجع بأمّهِ وأختهِ الثانية الى بلاد بيثينية وادخلهما في دير وعاد الى ديرهِ ومن اجل قداستهِ وحكمتهِ اختارهُ الرهبان رئيساً بعد وفاة المغبوط يوحنا الرئيس

اما هذا الدير فكان متألفاً من قلالي مبنيّةٍ على جبلٍ مبتعدة بعضها عن بعض فاختار لسكناهُ القلاية التي على قمّة الجبل ومن هناك كان يرقب بقية السيّاح ويجمعهم حيناً فحيناً للمخاطبة في أمورٍ روحيّةٍ مفيدةٍ للنموّ بالفضيلة واما الزمان الذي كان يبقى لهُ بعد رياضات الصلاة فكان يصرفهُ في عمل الايدي لانهُ كان يعمل شباكاً للصيد وينسخ كتباً روحية وبهذا كان يحصّل ما هو ضروريٌّ لقيام حياتهِ ويحسن بهِ الى الفقراء. ولم يقف على حدّ عيشتهِ القشفة بل انهُ عزم على عيشةٍ اشدّ تقشفاً فسلّم الرئاسة الى راهبٍ يقال لهُ مارين وانفرد في قلايةٍ كان طولها ذراعين وعرضها نصف ذراع ولفرط ما كانت منخفضةً اضطرّ ان يحنو راسهُ على الدوام ولم تكن كلها مسقوفة بل نصفها. هذا وكان ثوبهُ جلداً وزنارهُ سلسلةً من حديد. فاذ رآهُ الرهبان على هذه الحال رثوا لهُ وبكوا عليهِ وقالوا لهُ لماذا يا أبانا تقتل نفسك بهذه التقشفات غير المحتملة فاجابهم الاب القديس قائلاً ألا تعلمون يا أولادي ان الطريق المؤدي الى السماء ضيق جدًّا فرام الرهبان ان يسقفوا قلايتهُ فنهاهم عن ذلك قال لاحاجة الآن فالسماء تغني لديّ عن السقف

ففي السنة الرابعة والثلاثين بعد السبع مائة عقد قسطنطين كبرونيموس مبغض صُورِ اولياء الله مجمعاً حفل بمن تعصّب من الاساقفة لضلالهِ وجاروهُ على غوايتهِ وغرورهِ واخذ يضطهد الكاثوليكيين بشدة القساوة لاسيما الرهبان ولما عرف ان لا امل لهُ في ان يجرّب اليهِ القديس استفانس ارسل قائداً مع جنودٍ أتوا بهِ الى دير في اسفل الجبل لكون القديس لم يستطع ان ينتقل الى غير مكان لشدة ضعفهِ

اما الملك فاذ كان يطلب سبيلاً الى اهلاك القديس كلّف واحداً من أحزابهِ اسمهُ جاورجيوس سينكلي ان ينصب للقديس فخًّا يصطادهُ بهِ. وكان قد نهى عن قبول المبتدئين في الاديرة فاتخذ هذا النهي حجّةً. فأتى جاورجيوس الى الجبل المتقدم ذكرهُ وخرّ على قدمي القديس استفانس واستحلفهُ ان يلبسهُ الثوب الرهباني غير ان القديس علم انهُ كان من اهل البلاط بقرينة انهُ كان حليق اللحية لان الملك كان قد نهى حاشيتهُ والمتصلين بهِ ان يطلقوا لحاهم فابى ان يقبلهُ واحتجّ بالنهي الصادر من الملك للأديار في هذا الشان اما المخادع فما ملّ بل ألحّ في الطلب متظاهرًا انهُ كرجلٍ مُضطهَدٍ تعلّق خلاصهُ بخطرٍ كبيرٍ مبين وأخيرًا أُجيب الى ما طلب ولكنهُ عقيب قبولهِ بقليل فرّ الى البلاط بثوبهِ الرهبانيّ فامرهُ الملك ان يُقابِل بالثوب الرهباني الشعب الذي حفل في الملعب وهيّج الملك بنفسهِ سفلة الشعب بالشتائم على القديس استفانس وعلى الطريقة الرهبانية فنزعوا عن جاورجيوس

ثوبهُ فمزَّقوهُ قِطعًا وداسوهُ باقدامهم وصدر الامر وقتيئذٍ الى فرقةٍ من الجند ان يذهبوا الى دير القديس ويطردوا منهُ الرهبان ويحرقوا الدير ويهدموا الكنيسة وخرج استفانس من السجن فاقتيد الى شاطي البحر وعومل باشد القساوة البربرية وأُوسع فوق ذلك شتمًا . ثم انزلوهُ في مينا خلكيدونية وذهبوا بهِ الى دير كريزوبولي مدينة صغيرة قرب القسطنطينية فارسل اساقفة اراطقة ليجادلوهُ على اكرام صور الاولياء الاَّ ان القديس افحمهم جميعًا بقوَّة ادلتهِ ثم رفع عينيهِ ويديهِ الى السماء وتنهد متأسفًا وقال بصوتٍ عالٍ من لايكرم ايقونة سيدنا يسوع يكن محرومًا ويُعدَّ في الذين صرخوا عليهِ تعالى اصلبهُ اصلبهُ . فرجع الاساقفة بخجلٍ ولما سألهم الملك المنافق كيف انتهى بهم الجدال قال القائد ان الراهب استفانس انتصر علينا وهو في الحقيقة رجلٌ بارعٌ في العلوم وجزيل الشجاعة ولا يبالي بالعذاب ولا الموت فامر الملك بتعذيب القديس ونفاهُ اولاً الى احدي الجزائر وهناك صنع عجائب كثيرة

ثم امر الملك برجوعهِ الى القسطنطينية واحضرهُ امام منبرهِ واهانهُ بكل نوع من الشتائم فهذا جميعهُ لم يبلبل من اطمئنان قلبهِ السليم بل اخذ يبرهن امام الملك ومحفل بلاطهِ على وجوب احترام صور اولياء الله وخلاّنهِ المقرَّبين ثم اخرج دنانير كانت صورة الملك مرسومةً عليها . ثم قال كما قال السيد المسيح لليهود لمن هذه الصورة والكتابة فاجاب كوبرونيموس اما ترى ان الصورة هي صورتي قال القديس حينئذٍ لو تجرَّأ احد ان يهين هذه الصورة هل كان يستوجب عقابًا فاجاب المحفل لا ريب في ذلك . فاذ سمع القديس هذا الجواب تنهَّد حزنًا وهتف بصوتٍ اسيف قائلاً يا لعظم هذه الغباوة فان كنتم تحكمون بالعذاب على من يهين صورة انسان مائت فبأي عذاب تحكمون على اولئك الذين يكسرون صور ابن الله ووالدتهِ الكريمة . وفيما كان يقول هذا القى صورة الملك على الارض وداسها برجليهِ امام الجميع

امَّا اهل المحضر فتذمَّروا وارادوا ان يلقوا القديس في البحر الاَّ ان الملك كظم غيظهُ بصبرٍ مصنَّعٍ خبيث وامر بالقاء القديس في السجن وهناك وجد ثلثمائة واربعين راهبًا مضطهدين لاجل اكرام تماثيل قديسي الله عليهم السلام فملأهم سرورًا بمخاطباتهِ وقدوتهِ الصالحة وجعل السجن ديرًا ومكث هناك شهورًا عديدة . ثم اخرجوهُ ليقتلوهُ فعلقوا احدى رجليهِ بحبلةٍ وجروهُ على الارض في شوارع القسطنطينية فلما وصل تجاه كنيسة القديس تاودوروس الشهيد استند الى يديهِ ليجثو اكرامًا للقديس فعند ذلك ضربهُ على هامتهِ احد الجنود بخشبةٍ فقتلهُ وكانت وفاتهُ في اليوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة ست وستين وسبع مائة

اليوم التاسع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس ساتورنينوس الأُسقف الشهيد

قد زعم بعض المؤرخين ان هذا القديس وُلد باليهودية وانهُ كان تلميذ القديس يوحنا المعمدان وان الرسل الاطهار قبلوهُ في الخدمة الانجيلية وان القديس بطرس نفسهُ ارسلهُ ليبشر بالانجيل اولاً في المدن الخمس من بلاد فلسطين واخيرًا في بلاد الغرب الى غاليا مع القديس تروفيموس وخمسة آخرين الاَّ ان غيرهم من المؤرخين يزعمون ان القديس اكليمنضوس تلميذ الرسل هو الذي في انتهاء المائة الأُولى ارسل هذا القديس مع القديس ديونيسيوس الى مملكة فرنسا ليرد الشعب عن عبادة الأَوثان اما القديس غريغوريوس اسقف طور (وقد تبع رايهُ السنكسار الروماني) فقد ذهب الى ان القديس ساتورنينوس اتى الى فرنسا نحو سنة مائتين واربعين بأمر القديس فابيانوس البابا على زمن الملك داسيوس(١) . فاذ وصل الى مدينة ارلي شرع يبشر بالانجيل المقدس وانتشر الايمان على يدهِ في مدن كثيرة لانهُ كان يؤيد تعليمهُ بالايات واذ كان يكرز في مدينة نيم آمن على يدهِ كثيرون منهم القديس أُونستوس وهذا كان فتى فقيرًا يرعى الثيران لكنهُ من قومٍ صالحين فقال لهُ القديس ساتورنينوس اتبعني فأطاعهُ من ساعتهِ وتهذب عليهِ وتعلم منهُ اركان حقائق النصرانية ثم تعمَّد فذهب بالقديس ساتورنينوس الى بيت ابويهِ شكرًا على صنيعهِ الجميل

حاشية . اننا قد تبعنا هذا الراي الثالث في ترجمة القديس فرمينوس المذكورة في اليوم الخامس والعشرين من ايلول . فمن اراد الاطلاع على ما يُسنَد بهِ الراي الاول المتقدم ذكرهُ فليراجع ما كتبهُ العلامة فابلون عن زمان اساقفة فرنسا الاولين في المجلد الثاني وجه ٢٤٦ – ٢٨٤ من تاليفهِ في رسالة القديسة مريم المجدلية والقديس لعازر في جنوب فرنسا

فاستقبلاهُ بما استطاعاهُ من الاكرام وأذِنا لابنهما في اتّباعهِ فلما رأى القديس ساتورنينوس اورنستوس انهُ تلميذ جيّد كان يسوع برغبةٍ تعاليمهُ المقدسة رسمهُ كاهنًا لكي يسهل عليهِ ان يعاونهُ في نجاح الانجيل المقدس . هذا ولم يكن القديس اورِنستوس من نيم حقيقةً بل من جوارها

ولما اجتاز القديس ساتورنينوس بقية بلاد لانكيدوك تقدَّم نحو كركاسونا بصحبة القديسين بابول واورِنستوس تلميذهِ غير انهم لدى وصولهم واشتهار امرهم طُرحوا في حفرةٍ عميقة في موضعٍ لم يزل موجودًا الى يومنا هذا وكان قديمًا قلعةً وفيهِ الان مذبح كبير لكنيسة القديس ساتورنينوس الخورنية لكن الله لم يأذن ان يلبثوا هناك طويلاً فأطلق سبيلهم وذهبوا ثلاثتهم الى مدينة تولوزا ولما بلغوا اليها اذا بالشياطين الذين كانوا يتكلمون اضحوا خرسًا فبُهت الوثنيون وتحيروا كثيرًا من صنمهم ولم يعرفوا ما السبب في ذلك حتى عرفهم الله بالسبب بآيةٍ صنعها على يد القديس ساتورنينوس

وكانت هناك امرأة شريفة اسمها سيرياكا واسم رجلها اغاتون وهذه المرأة كانت مضروبةً بالبرص فاتفق انهُ اذ كان القديس ساتورنينوس على بابها بهيئة مستعطٍ شرع يكلمها على قدرة السيد الذي يخدمهُ وبما انهُ كان بشوشًا وقورًا احاط بهِ كثيرون ليسمعوا كلامهُ وكانت سيرياكا واحدة منهم فطفق حينئذٍ يعلمهم قواعد الايمان وقد اجاد في ذلك حتى ان المرأة المشار اليها طلبت المعمودية بالهام الروح القدس فتعمدت ونالت فائدة كبيرةً لانها برئت من برصها الروحي والجسدي . واندهل اهل المدينة من هذه المعجزة اكثر مما اندهلوا من الأولى وتعجبوا من اله المسيحيين الذي باسمهِ وقوتهِ صُنعت الآيتان الأولى والثانية ولم يدخل في النصرانية اهل بيت هذه المرأة فقط بل نصف مدينة تولوزا تنصَّروا كيف لا وانهُ بعد ان اوضح للشعب بطلان عبادتهم لآلهة كَذَبة وبيَّن سموّ الديانة المسيحية كان يؤيد حقائق الايمان المسيحي بعجائب عديدة فكثر المؤمنون واقاموا لهم كنيسةً . فلما رأى الايمان ناميًا هناك يومًا فيومًا سلّم الرعية الى القديس بابول وذهب الى بامبيلونا مدينة باسبانيا مع تلميذهِ اورِنستوس كما ذكرنا في ترجمة القديس فِرْمِينوس في اليوم الخامس والعشرين من ايلول . وعند ما بلغا الى مكان قرب المدينة كان فيهِ صنمٌ لديانا إلهة الصيد عند الوثنيين جلس ساتورنينوس الى ظل بُطْمة فرأى الصنم وقد احاط بهِ بعض الوثنيين ليقدموا لهُ ضحيةً فحزنهُ ذلك المشهد واغضبهُ ولما اعتبر ما هم عليهِ من عَمَى البصيرة صلى الى الله تعالى يسألهُ ان يضيء عليهم بمصباح الروح القدس ليجذبهم من ظلمات الوثنية الى نور النصرانية فألهم ان صلاتهُ قد استُجيبت فاقبل على الذين احدقوا بالصنم واخذ يبين لهم انهم في غرورٍ وضلالٍ وهناك اجتذب الى الايمان المقدّس اربعين الف نفس وكذلك افاد كثيرًا في مدينة توليدا ثم رجع الى فرنسا وبشر في اقليم غَسكونيا واخضع شعوبها ايضًا لنير الانجيل المقدّس

وحينئذٍ اتاهُ خبرٌ بان تلميذهُ العزيز القديس بابول مات شهيدًا في مدينة تولوزا فذهب الى اعانة الرعية المضطهدة . روى صاحب ترجمتهِ القديمة انهُ جمع رعيتهُ في كنيسة صغيرة وان هيكل المشتري اعظم هياكل الأصنام كان على الطريق المؤدي من مستقرهِ الى كنيستهِ وكان ذلك الهيكل عندهم مَهبط وَحْي الآلهة ولما حضر القديس خرست الشياطين وايقن الكهنة ان آلهتهم لم يصمتوا الاّ لهذا السبب فتوقعوا الوقت الذي يخرج فيهِ ساتورنينوس فقبضوا عليهِ واقتادوهُ الى الهيكل وقالوا لهُ لا مناص لك من امرين اما ان تقدّم ضحيةً لاصلاح كفرك الموهوم واما ان تتضرّج بدمك . قال القديس بجراءةٍ وتمام الحرية ماذا تريدون مني . انا اسجد لالهٍ واحدٍ وانا مستعد ان اقدّم لهُ ذبيحة الشكر . واما آلهتكم فان هم الاّ ابالسة يفضلون ذبائح نفوسكم على ما تقرّبونهُ لهم من الضحايا فكيف اخاف منهم وقد جعلتهم يضطربون امام رجلٍ مسيحي . فاوقد جوابهُ جمر رجزٍ في صدور عَبَدة الاوثان فعذبوهُ واهانوهُ بقدر ما ساعدتهم على ذلك غيرة وثنية عمياء وآخر الامر شدّوا رجليهِ الى ثورٍ اقتيد ذبيحةً وضربوهُ فجعل يجرّ الشهيد بكل عزمهِ بحيث ما لبثوا ان رأوا دماغهُ قد خرج من راسهِ وامعاءهُ انقذفت من جوفهِ غير ان نفسهُ حُلّت من رُبطها وتطايرت الى جنة السلام والمجد واما الثور فلم يبرح يسحبهُ فتخلعت اعضاؤهُ وتصبّغت الشوارع بدمهِ . ولما انقطع الحبل بقي جسم القديس في سهلٍ خارج المدينة وان اثنتين من نساء النصارى جمعتا ما وجدناه من جسدهِ ثم القتاه ضمن نعش ووضعتا النعش في وهدةٍ عميقة لتأمنا عليهِ من اهانة الوثنيين ولم تزل ذخائر القديس ساتورنينوس على هذه الحال حتى تملك قسطنطين الكبير

وكان هيلاريوس يومئذٍ مطران تولوزا فبنى معبدًا صغيرًا فوق جسد سالفهِ القديس . وفي اواخر القرن الرابع وضع سيلفيوس مطران هذهِ المدينة اساس كنيسة كبيرة لهذا القديس الشهيد واتمّ بناءها خليفتهُ اكزوباريوس وكرَّسها ونقل اليها ذخائر رسول تولوزا القديس حيث لا تزال مكرَّمةً الى ايامنا هذهِ . وقد كانت وفاتهُ في اليوم التاسع عشر من تشرين الثاني نحو سنة ستٍّ وخمسين ومائتين للمسيح

اليوم الثلثون

وفيهِ ترجمة القديس اندراوس الرسول

ان هذا القديس الملقب في الكنيسة الشرقية باللغة اليونانية بروتوكليتوس اي اوّل مدعوٍ الى السيد المسيح هو ابن يونا وُلد ببيت صيدا وهي مدينة صغيرة بالجليل قد لعنها تعالى قال الويل لكِ يا كورزين الويل لكِ يا بيت صيدا لو صُنع في صور وصيدا ما صُنع فيكما من القوات لتابتا من قديمٍ بالمسوح والرماد (متى ١١: ٢١) وهذهِ المدينة كانت على شاطئ بحيرة جنّاسر المساة ايضًا بحيرة طبرية زعم القديس ابيفانيوس ان القديس اندراوس كان اخًا بكرًا للقديس بطرس الرسول الاَّ ان اغلب الآباء قد زعموا انهُ وُلد بعد هامة الرسل نعم انهما كانا وُلدا ببيت صيدا الاَّ انهُ كان لهما بيت في كفرناحوم حيث كان السيد المسيح ساكنًا فلما ظهر القديس يوحنا مبشرًا بمعمودية التوبة تبعهُ القديس اندراوس وتتلمذ لهُ لا كانهُ ترك كل شيءٍ بل كان يفتقدهُ احيانًا ويسمر معهُ زمانًا ثم يعود الى الصيد

وفيما كان يومًا مع معلمهِ اجتاز من هناك السيد المسيح فقال فيهِ القديس يوحنا هذا حمل الله الذي انبأ الأَنبياء انهُ يرفع خطايا العالم ولما تكلم بهذا شعر القديس اندراوس كانهُ بالهام ان رب المجد يدعوهُ اليهِ فذهب حالاً في اثر يسوع مع تلميذٍ آخر لا يذكر اسمهُ في السفر الالهي . فالتفت تعالى وقال لهما ماذا تريدان فقالا يا معلم أَين تسكن فقال تعاليا وانظرا واقاما معهُ يومها . وعنهُ هتف القديس اغسطينوس قائلاً يا لهُ من يوم سعيد مَن يخبرنا بما خرج حينئذٍ من فمهِ العزيز وكم استعذبا خطابهُ الالهي . اما القديس اندراوس فبعد مشاهدتهِ يسوع واستماع تعليمهِ اعتقد يقينًا ان يسوع هو المسيح وفي الحين ذهب مسرعًا الى سمعان اخيهِ وقال لهُ اننا قد وجدنا المسيح وبقولهِ هذا اضرم في قلب اخيهِ شوقًا عظيمًا الى معاينة يسوع فرجع بهِ اليهِ جلَّ ثناؤهُ فلما رآهُ رب المجد كلمهُ بروح النبوَّة قائلاً انت الان ابن يونا الاَّ انك ستُدعى فيما بعد الصفا اي بطرس فتتلمذ الاخوان للسيد المسيح لا تلمذًا كليًّا لانهما بعد المكث معهُ كانا يرجعان احيانًا الى الصيد . ثم اظهر لهما يسوع لاهوتهُ في عرس قانا الجليل حيث حوَّل الماء خمرًا وفي غضون ذلك مضى يسوع الى اورشليم لاجل عيد الفصح فلما رجع الى الجليل وجد ذينك الاخوين يلقيان شباكهما للصيد فقال لهما اتبعاني واجعلكما صيادَي الناس اما هما فللوقت تركا شباكهما وتبعاهُ ولم ينفصلا عنهُ ابدًا

فبعد حلول الروح القدس على الرسل وبعد ان بشر اندراوس بالانجيل المقدس في اليهودية مع بقية الرسل وانشأ هناك الايمان معهم ذهب الى بلد تراسيا في شمالي القسطنطينية التي كانت تُدعى حينئذٍ بيزنتية والكائية التي هي الان مورا وبلاد كبدوكية وغلاطية وبيثينية الى اقصى حدود البحر الاسود

وكانت كرازتهُ عليهِ السلام مصحوبةً بكثيرٍ من المعجزات الباهرة فاهتدى على يدهِ جماعةٌ كثيرون الى النصرانية وانار بنورٍ سماوي الذين في الظلمات وظلال الموت

ذكر بعض المؤرخين انهُ فيما كان بكورنتس اتاهُ شيخٌ اسمهُ نيقولاوس واخبرهُ بانهُ قطع اربعة وستين عامًا منهمكًا في المحارم وصنوف الملاذ ولما كان بعد قليل في بيت من بيوت الريبة ومعهُ الانجيل أعرضت عنهُ احدى العواهر مرتعدةً وطلبت اليهِ ان لا يقترب منها ولا من المكان الذي كانت فيهِ لانها توسمت فيهِ اموراً عجيبة غامضة فترجى نيقولاوس القديس اندراوس ان يعطيهُ دواء لهذا الميل الردي وهذهِ العادة الأثيمة المتعتّقة فصلّى القديس وصام خمسة ايامٍ راجيًا الرب ان يغفر لهذا الشيخ الشقي وينعم عليهِ بموهبة العفاف . ولما كان الرسول القديس يصلّي على نهاية البرهة المعينة سمع هاتفًا من السماء يقول لهُ سأعطيك ما طلبتهُ من اجل الشيخ غير اني أُريد ان يصوم كما صمتَ من اجلهِ ويقهر جسدهُ ان اراد الخلاص . فاوصى الرسول حينئذٍ نيقولاوس ان يصوم واوصى المسيحيين ان يصلّوا من اجلهِ فاستجاب الله صلواتهما لان نيقولاوس رجع الى بيتهِ واحسن بجميع مالهِ الى الفقراء وشدَّد في قهر جسدهِ وصام على الخبز والماء نصف سنة وتوفي عقيب هذهِ التوبة واوحى الله الى القديس اندراوس

انهُ فاز بالنعيم الباقي . ومن هنا نعلم انهُ لايجوز لنا ان نيأس من خلاص احدٍ من الخطأة كائنًا من كان اذا صلّى الى الله جلّت رافتهُ ونعلم ايضًا ان صلوات اولياء الله فعّالة في نيل المغفرة منهُ جلّت رحمتهُ واما نحن فاذا اردنا انها تفيدنا فلا بد من ان نصوم ونصلّي

وروى المؤرخون ايضًا ان شابًا يقال لهُ سُستراتوس اتى القديس اندراوس وكاشفهُ بان والدتهُ حركتهُ الى ارتكاب فعل قبيح فلم يطاوعها على ذلك فشكتهُ امهُ الى الحاكم فعزم ان لا يدافع ولا يبرّي نفسهُ ولو بكلمة واحبّ ان يقاسي كل صنفٍ من العذاب على ان يلطخ عرض والدتهِ وطلب الى الرسول ان يصلي الى الله لينقذهُ من يد الحاكم ويقيهُ من الموت لاجل ذنبٍ هو بريءٌ منهُ . اما الرسول فبذل كل جهدهِ من اجل ذلك الشاب لكن حُكِم عليهِ باغراء تلك الأم الشريرة بان يُدخَل في كيس ويُخيَّط عليهِ . وأُلقي القديس في السجن لانهُ كان يحامي عنهُ فأخذ يصلي حينئذٍ فبدأت الارض تهتزّ ورعدت السماء وومَضت فيها البروق وانقضّت منها الصواعق فسقط الحاكم عن كرسيهِ وهلع الشعب وانطرحوا على الارض وتلك الام المكروهة الشريرة التي بسببها حُكم على ابنها بحيث لم يُرِد ان يُسخِط الله حرقتها الصاعقة وهكذا ثبتت طهارة الشاب بواسطة استحقاق الرسول القديس الذي صلّى ايضًا فسكن السيد لهُ المجد عند ذلك العاصفة واقام الساقطين فآمن بالمسيح بسبب ذلك خلقٌ كثير

فبعد ان غرس الايمان المسيحي في كل هذه الاماكن رجع الى بلد آكائية ودخل مدينة باتراس وطفق يكرز بالانجيل مضادًا عبادة الاوثان فلما شعر اجيا حاكم البلاد اتى مسرعًا الى باتراس واخذ يضطهد المسيحيين فتقدم اليهِ الرسول وقال لهُ انهُ لقد كان يجب عليك يا اجيا حاكم البشر ان تعرف خالق الكون وتتعبد لعزة لاهوتهِ وترذل عبادة آلهة كاذبة . اجابهُ الحاكم انت اندراوس الذي يهدم هياكل آلهتنا ويجتذب الناس الى ديانة مرذولة من القياصرة فشرع الرسول يشرح للحاكم سرّ خلاص البشر السر الغير المدرك الذي بهِ احبّ ابن الله ان يتجسد ويموت مصلوبًا لاجلنا وفيما هو يورد لهُ عظائم هذا السر العجيب قال لهُ اجيا دع هذا الخطاب وطع امر الملك واسجد لآلهتنا والّا تمت معلقًا على الصليب مثل الذي تمدحهُ . فاجابهُ القديس اني اقدم في كل يوم لله الوحيد الضابط الكل الحق والصالح وحدهُ لادخان البخور ولحم الثيران ولا دم التيوس بل ذبيحة الهية وهي الخروف البري من كل عيب الذي بعد ان يتناول المؤمنون جسدهُ ويشربوا دمهُ يبقى صحيحًا كما كان قبلًا

اما الحاكم فحبس القديس في ذلك الوقت ثم انهُ في الغد باكرًا احضرهُ امام منبرهِ وقال لهُ هل احسنت رايك في هذه الليلة وعزمت على الطاعة لامر الملك والتعبد لالهتهِ لكي تنجو من موت فظيع وتقضي حياتك بالراحة والتنعم . اجابهُ الرسول من المستحيل ان يجد الحياة والنعيم من لا يؤمن بالسيد المسيح كما علّمت الذين في بلدتك . فقال اجيا اني اريد منك ان تقدم ذبيحة للاوثان لكي يرتدّ بمثالك الى مذهبهم القديم اولئك الذين خدعتهم بتعليمك لاني ارى اكثر هياكلنا مهدومة بتعاليمك او مهجورة ولكونك قد اضللتهم ينبغي ان تردّهم الى ما كانوا عليهِ . والّا فاعلم اني اعذبك اشد عذاب واميتك افظع موت . حينئذٍ هتف القديس بشجاعة رسولية امام المحفل وقال لهُ اسمع يا ابن الموت يا ايها العود الذي يُلقى عن قريب وقودًا للنار لقد خاطبتك بلطافةٍ حتى الان لعلك تعقل الامر فترفض عبادة مضادة للنور الطبيعي ولكن بما انك رذلت الحق الواضح واخترت ان تكون في ضلال بعنادك فاعلم يقينًا انك لا تستطيع ان ترهبني بالوعيد ولا ان تنتصر عليَّ بالعذاب . فهاءنذا فافعل بي كل ما تشاء انهُ بمقدار ما تزيدني عذابًا بمقدار ذلك يزيدني السيد المسيح ثوابًا ويزيدك الشيطان تعذيبًا في جهنم . فاحتدم الحاكم غيظًا وامر بضرب الرسول فضربوهُ بالسياط الى ان جرى من جسدهِ الدم من كل جهة ثم حُكم عليهِ بان يمات مصلوبًا

وفيما كان الرسول ماضيًا ليصلَب صرخ الشعب قائلين ماذا صنع هذا البارّ صديق الله حتى يُصلَب اما الرسول فطلب منهم الّا يصدّوهُ عن امتلاك اكليل الاستشهاد وحينما رأى من بعيد الصليب المهيا لهُ قال متهللًا السلام عليك ايها الصليب الكريم الذي تقدّس باعضاء يسوع الهي حين عُلّق عليهِ لقد كنت قبل ان يُعلّق عليك ابن الله منظرًا مكروهًا مخيفًا اما الان فبعد ان توفي رب المجد عليك صرت منظرًا مبهجًا فهاءنذا اقبل اليك بقلبٍ مسرور فاقبلني بالرضا ايها الصليب البهي الشهي اني اطلبك من زمنٍ مديد وقد وجدتك الان فاقبلني وقدّمني لربي لكي يقبلني بك في ملكوتهِ

ذاك الذي خلّصني بواسطتك. ثم عُلّق على الصليب بحبال وبقي على تلك الحال يومين ولم يزل شاكرًا الله تعالى ومثبتًا الشعب في الايمان. وكان عدد الحاضرين عشرين الفًا فصرخوا كلهم نحو المغتصب قائلين لماذا تدع هذا الرجل القديس يموت فخاف اجيا من انهم يتعصبون عليهِ فأمر بانزال الرسول من على الصليب. غير ان الجنود لما تقدموا وارادوا ان يحلوهُ من رُبُطهِ يبست وشلّت ايديهم فابتهل القديس حينئذٍ الى الله قائلاً بصوت عالٍ لا تسمح يا رب لعبدك المعلّق على الصليب حبًّا بك ان يخدرعنهُ. ان نفسي من زمن مستطيل تتوق اليك فدعني انطلق لاحظى بك واملك معك. فلما قال هذا احاطهُ نورٌ من السماء حتى بهر اعين الناظرين واستقام ملتحفًا بهِ نصف ساعة ثم توفي الرسول واضمحل النور حالاً وقد كان موتهُ في اليوم الثلثين من تشرين الثاني في السنة الثانية والستين للمسيح

اما جسم الرسول فاخذتهُ مكسيميلة امرأة تقية وسيدة غنية وحنّطتهُ ودفنتهُ في قبر فدرى بذلك اجيا حالاً غير انهُ لم يجترئ ان يقدح فيها لانها كانت كريمة الاصل ولانهُ رأى الشعب مضطربًا بسبب موت القديس. وربما انهُ كان قاصدًا ان يسلمها الى الملك ولما كان يبحث عن سيرتها في وسط المجمع اعتراهُ الشيطان وصرخ صراخًا هائلاً وللحال مات. غير ان موتهُ على هذا الوجه الغريب أدخل كثيرين في النصرانيَّة

قال القديس غريغوريوس اسقف طور سال من قبر القديس اندراوس يوم استشهادهِ منٌّ لذيذ الطعم غير انهُ كان في بعض السنين كثيرًا وفي غيرها قليلاً وكان عدم خروجهِ دليلاً على القحط وغزارتهُ علامةً للخصب وهو شيء طيّب الرائحة كان يلتذّ من يستنشقهُ كما يلتذّ من اشتمّ معجونًا مركبًا من أذكى العطريّات جميعها. وكثيرون من المرضى نالوا الشفاء بالدهن بهذا الزيت او بالشرب منهُ. وقال القديس المشار اليهِ ايضًا ان الله صنع آياتٍ عظيمة في آكائية بشفاعة رسولهِ المجيد

ونُقل جسد الرسول فيما بعد الى القسطنطينية ويورد ذلك السنكسار الروماني في اليوم التاسع من شهر ايار حيث يضيفهُ الى نقل جسد القديس لوقا الانجيلي الذي أُخذ من آكائية ايضًا والى نقل جسم القديس تيموتاوس تلميذ الرسول بولس الذي حُمل من أفسس متتلهِ الى القسطنطينية. وقال الكردينال بارونيوس ان هذا النقل جرى على عهد كُنستَنس ابن الملك قسطنطين وقال القديس ايرونيموس ان الشياطين كانت تعوي امام ذخائرهِ عليهِ السلام فدلّ عُواؤهم على قوة ذخائرهِ. وقد بقي هذا الكنز الثمين طويلاً في القسطنطينية غير انهُ مذ ذاك الوقت نُقل الى مدينة أمالفي من أعمال نابولي ولم يزل المؤمنون يقدّمون لهُ مزيد الاكرام الى يومنا هذا

وكان البابا بيلاجيوس قد ارسل القديس غريغوريوس الكبير الى القسطنطينية الى الملك طيباريوس ليسألهُ شيئًا من الذخائر فاعطاهُ يد الرسول اندراوس ويد القديس لوقا فرجع بهما الى رومية ولما كانت السنة الثانية لحبرية القديس غريغوريوس كرّس كنيسة القديس اندراوس التي لم تزل يدهُ محفوظةً فيها الى هذا اليوم. ورأسهُ نُقل الى رومية ووُضع في كنيسة القديس بطرس على عهد البابا بيوس الثاني الذي خرج لملاقاتهِ الى خارج المدينة وهناك خرَّ امامهُ على الارض وكرّمهُ وعظّمهُ بخطبةٍ أخذت من البلاغة بأوفى نصيب



شهر كانون الاول

اليوم الاول

وفيهِ ترجمة القديس إلوَا أُسقف نويون

ان القديس إلوَا (وباللاتينية اليجيوس) هو من اجلّ الناس الذين تزيَّنت بهم كنيسة فرنسا وكان مولدهُ بقرية كاديلاك من اقليم ليموزان نحو السنة الثامنة والثمانين من القرن السادس وهو ابن رجل وجيهٍ يقال لهُ أُوكاريوس كان بسبب توسطهِ في الغنى يعيش بكرامةٍ واشتهر عند الخاصّ والعامّ بصلاحهِ واما امهُ تريجية فاشتهرت بالتقوى والتعقل مثل أبيهِ لا أقلّ منهُ . وفيما كانت حاملاً بهِ لُقنت في حلم ان حملها لا بدّ ان سيكون لهُ شانٌ عظيم في الدنيا فخيّل لها أنها رأت نسرًا انقضَّ عليها من السماء ثلاث مرات ثم رفرف حول مرقدها رفرفة مُجِلٍّ . فقصَّت رؤياها على كاهنٍ من الصالحين فأنبأها ان ستلد ابنًا يكون عظيمًا امام الله والناس بسمو قداستهِ ولهذا سمّتهُ إلوَا اشارةً الى انهُ انتُخب من الله قبل ولودهِ

واما العناية التي صُرفت الى تربيتهِ على خوف الله فجاءَت طبق المقصود من هذه النبوَّة وتهذَّب من ايام حداثتهِ على رياضات التقوى ولاجرم ان عقلهُ وقلبهُ الخاضعين لتاثير نعمة الله وخلاقة الحسن لم تحوجهُ الاَّ الى قليلٍ من التهذيب ومَن راقب افعالهُ ظهر لهُ انهُ لم يُخلَق الاَّ لمجرَّد الفضيلة لان عبادتهُ كانت منذ الطفولية محلاً للتعجب والاندهاش . هذا وبعد ان هذَّبهُ والدهُ باصول العلوم الدينيَّة والدنيويَّة ورآهُ حاذقًا طبعًا في كل ما كان يتعاطاهُ ولحظ ان فيهِ ميلاً قويًّا للصنائع وضعهُ عند صائغ من مدينة ليموج . فاطَّلع ذلك الصائغ الحاذق على ما عند تلميذهِ من النباهة الرائعة والذكاء النادر الوجود بحيث لم يكن يحتاج الى كثيرٍ من الزمان ليتعلم منهُ جميع دقائق الصناعة . فما لبث إلوَا ان صار اعرف من معلمهِ ولكن الذي جعلهُ اكثر اعتبارًا انما هو طيب اخلاقهِ ورقة شمائلهِ وكونهُ صاحب معروف وتقواهُ الصادقة فكان الناس يرونهُ مواظبًا على الكنيسة ومخصِّصًا ايام الآحاد والأعياد للصلاة والفروض الالهية وأعمال المحبة حتى كانوا يدعونهُ الراهب العالميّ لانهُ كان ديِّنًا يباشر جميع واجبات الكمال المسيحي وهذا الفتى الماهر في صناعتهِ كان أشدَّ معرفةً في ممارسة الفضائل .

ولما بلغ حدَّ الثلثين ساقتهُ العناية الربانيَّة الى باريز عاصمة مملكة فرنسا فما لبث ان عُرف واشتهر هناك بحذاقتهِ وفضائلهِ وعرف بوبون وكيل الخزينة الملكية فتعجب هذا الوكيل من مهارتهِ وأمرهُ ان يصوغ لهُ اشياءَ ثمينة ولما اختبر ما كان من حذقهِ فرح جدًّا لحصولهِ على فرصة تمكنهُ من اشتهار براعتهِ . فاشتهى الملك كلوتير الثاني ان يُصنع لهُ كرسيٌّ من ذهب وحجارة كريمةٍ بحسب الرسم الذي عجز عنهُ صاغة باريز كلهم أجمعون فبوبون الذي عرف ذكاء إلوا ومهارتهُ كلمَّ قال الملك قد وجدتُ من رجال فرنسا من يحسن العمل اكثر من جميع اهل صناعتهِ . فأخرج الملك من خزينتهِ مبلغًا وافرًا من العسجد والحجارة الكريمة وسلمها الى إلوا وأوصاهُ ان يشرع في عملهِ . فاشتغل على المثال الذي رُسم لهُ فصنع من الذهب الذي قُدّم لهُ كرسيين أحسن من المثال الذي صوَّرهُ لهُ الملك غير انهُ لم يقدم لجلالتهِ بادئ الامر الاَّ كرسيًّا فاخذت الملك الحيرة من همة هذا الصائغ وجودة عملهِ ولكن تحيُّرهُ ازداد جدًّا عندما قدم لهُ الكرسي الآخر الذي لم يكن منتظرًا اياهُ . والحاصل انهُ بهذه الحادثة تعرَّف إلوا في البلاط الملكيّ ولما كان الملك قد انسبي عقلهُ لا من حذاقة إلوا فقط بل من ايمانهِ وحكمتهِ قلَّدهُ نظارة المسكوكات (١) وطلب اليهِ بانعطافٍ ان يقيم على منادمتهِ فما فاوضهُ مرَّتين او ثلثًا حتى

(١) حاشية ولهذا يُرى اسمهُ على دراهم مسكوكة بباريز في عهد الملكين داغوبرت الاول وكلوفيس الثاني

صار يثق بهِ تمام الثقة فأضحى عليهِ السلام نديمًا للملك بَيْدَ انهُ لم يغترَّ بهذه النعمة ومن ثمَّ فلم يُرَ أقلَّ اتضاعًا ولا رصانةً ولا تعبدًا وان طهارة ذيلهِ وخلوص عبادتهِ وثباتهُ على استقامة السيرة كانت تجعلهُ كل يوم أجلَّ قدرًا وأشدَّ اعتبارًا ولم يفتأ الملك يُثني عليهِ بحضرة ندمائهِ وان فضيلتهُ جعلتهُ على الدوام آمنًا من الحسد وعيَّن لهُ الملك محلاً في البلاط لانهُ كان يلتذ برؤيتهِ مشتغلاً في محادثتهِ وبقدر ما كان يراهُ بالقرب منهُ كان يطَّلع على فضيلتهِ وتعقلهِ

ولما سلب عقل الملك بحسن اخلاقهِ ورقَّة شمائلهِ اراد ان يقيدهُ بخدمتهِ بحبلٍ متين لا يُؤذن لهُ في نقضهِ وذات يومٍ استدعاهُ وطلب منهُ ان يحلف لهُ بالامانة على الذخائر غير ان مجرد ذكر الحلف أرعش ضمير القديس واذ تذكر ان المسيح منع تلاميذهُ من كل قسم لم يتجرَّأ ان يضع يدهُ على صندوق الذخائر ولا سيما على الحلف وقال للملك ياسيدي الملك قد نهاني الله عن القسم غير انهُ امرني ان اكون امينًا لك وذلك يكفيني لان اكون امينًا في حقك وتثق جلالتك اني ساكون امينًا لك حتى الموت واذ كان يقول ذلك لم يقدر ان يكفَّ دمعهُ فأثَّر ذلك في الملك ولم يُرد ان يلحَّ عليهِ. ان القديس وأن الذي كان وقتئذٍ ابن ثلث عشرة او اربع عشرة سنة كان حاضرًا فسُلب عقلهُ من احتشام القديس إلوا وتقواهُ وعزم انهُ لا يقتصر على مصادقتهِ فقط بل تتلمذ لهُ ولا جرم ان هذه المحبة الشديدة الصافية ثبتت ولم تتغيَّر

ولما كانت حالة البلاط ابعد من ان تفسد طهارة إلوا كانت عبادتهُ تصير كل يومٍ أنقى وألمع وبطلان زخارف الدنيا كان ينفرهُ منها دائمًا مزيد التنفير فعزم ان يعيش على طريقةٍ اكمل فاعترف اعترافًا عامًّا عن كل حياتهِ التي مع كونها طاهرةً سببت لهُ تأسفًا ولذع ضميرٍ شديدين. فاستسلم الى اصعب افعال التوبة والتقشف لان صومهُ أضحى متواصلاً وكان يقضي قسمًا من الليل في الصلاة والتأمل في اعظم حقائق الديانة المخيفة وكان يهدد جسدهُ بكثيرٍ من انواع القساوة الطاهرة. غير ان جميع افعال التوبة المشار اليها لم تسكّن قلق ضميرهِ ولم تلطِّف توجعهُ على خطاياهُ ولم تجفِّف دموعهُ وكان خوفهُ يزداد ولم يزل يستغيث بالرحمة الالهية فألقى الله في قلبهِ أخيرًا تعزيةً كبيرةً لا يُستطاع وصفها وهدأً بلباله

ولما مات الملك كلوتير خلفهُ ابنهُ داغوبرت واعتبر القديس واحبهُ نظير والدهِ المتوفَّى وشرَّفهُ بثقتهِ بهِ اما القديس إلوا فاذ اكتسب هذا الالتفات ألقى في قلب الملك عواطف الديانة وجذبهُ عن كثيرٍ من انواع الفساد وجعلهُ ينهج منهجًا مسيحيًّا حقًّا وبما ان حظوة القديس عند الملك كانت تتمكن كل يوم تغيَّظ الندماء من فضيلتهِ السامية فافرغوا في السعاية بهِ عند الملك كل الجهد لكن جميع ما اتهموهُ بهِ لم يكن الا لأن يجعل سيرتهُ اكمل وأبهى ولم يبقَ لهم لدى الملك شفيع غيرهُ واما هو فداوم صناعة الصياغة على عهد داغوبرت لكن كان يطيب نفسًا بانهُ لا يشتغل الا لمجد القديسين والكنيسة

ولما غمرهُ الملك بالنعم أحسن بها الى الفقراء وكان ينفق كل دخلهِ على اعالة البائسين وفداء الأسرى وانشاء اماكن التقوى فمن اول الاديار التي انشأها دير سولينياك المشهور في الارض التي وهبهُ اياها الملك قرب ليموج واغناهُ بما وقفهُ عليهِ واخضعهُ لقانون القديس كولومبان وزها هذا الدير بالفضائل حتى أضحى قدوةً وينبوعًا لكثيرٍ من الأديار. وانشأ ايضًا اديارًا كثيرةً في اقليم ليموزان ووهبهُ الملك بيتًا جميلاً بباريز فجعلهُ ديرًا للراهبات تحت ارشاد القديسة أورا التي يُذكر اسمها في السنكسار الروماني في اليوم الرابع من تشرين الاول وقد بلغ عدد الراهبات في هذا الدير الى ثلثمائة راهبة. واذ كان محتاجًا لاجل هذا الدير الكبير الى موضعٍ صغيرٍ من متاع الملك استوهبهُ اياهُ بحسب الرسم الذي قد قدَّمهُ لجلالتهِ لكنهُ بعد البناء عرف انهُ وقع في قياس الارض زيادة قدمٍ فاغتمَّ من ذلك جدًّا حتى خرَّ على قدمي الملك وقدَّم نفسهُ للموت تكفيرًا عن زلَّتهِ. فتعجب اهل البلاط من سلامة ضميرهِ حتى صار الملك وجه لان يقول ان امانة الذين هم ليسوع المسيح تحكم على خيانة أهل الدنيا. وبنى عليهِ السلام ايضًا كثيرًا من الاماكن المختصة بافعال الخير غير ما ذُكر واقام بباريز كنيسة القديس بولس التي اصبحت من احسن خورنيات تلك المدينة

وكثيرًا ما كان يعتبر السيرة الرهبانية ويصبو اليها ولذا كان بيتهُ منزلاً لرهبان غرباء كانوا يجدون فيهِ قدوةً كاملةً في التقشف وقانونية السيرة وكان للملك بفضيلتهِ وحذاقتهِ ثقةٌ شديدة فارسلهُ سفيرًا الى كونت بريطانيا لقطع نزاع قام

بينهما فللّه دره فاضلاً فان سفره كلهُ لم يكن الاَّ سلسلة صدقاتٍ وأعمال صالحةٍ واما سفارتهُ فبلغت من النجاح نهاية المراد وتمام المرام غير ان ما تلقَّاهُ من حسن القبول زادهُ كرهًا ونفورًا من المغوبات الدنيويَّة فزاد على ما يمارسهُ من افعال التوبة والوَرَع لانهُ لبس مسحًا غليظًا خشنًا ولم ينزعهُ البتة وكان يقضي الوقت كلهُ في الصلاة والقراءة ومباشرة الاعمال الصالحة ومن ثمَّ فكان يُدعى راهب البلاط . فقد كان يجني الفوائد الروحية في وسط العالم كانهُ في اخوف برية لكن الله كان قد اعدَّهُ لأن يكون من ابهى واجل الذين ارتقوا الى المقام الاسقفي بعد ان كان اهل البلاط يتعجبون منهُ

ولما انتقل الى رحمة الله اكاريوس مطران نويون وتورني اتفق الاكليروس والشعب قاطبةً ان يطلبوا إلوا أسقفًا عليهم وكان داغوبرت الملك ميتًا وقتئذٍ وابنهُ كلوفيس الثاني لم يُرد ان يحرم نفسهُ من رجل كان في حاجةٍ الى آرائهِ السديدة ومشوراتهِ الحسنة ومع ذلك فقد غلب في قلبهِ احتياج الكنيسة على احتياج المملكة غير انهُ لما كان العائق الأقوى هو اتضاع القديس الزمهُ اخيرًا ان يرتضي بارتفاعهِ الى الدرجات الكهنوتية غير مبالٍ بما ابداهُ من الإلحاح والحجج ولا بما سجم من الدمع للتملّص من المقام الاسقفي . ثم ذهب الى مدينة روان مع صديقهِ العزيز القديس وآن وهناك ارتسم اسقفًا سنة اربعين وستمائة وصديقهُ ايضًا بيومٍ واحدٍ وعاد إلوا الى البلاط الملكي لكي يودّعهُ وداعًا لا يُنتظر بعدهُ رجوع . وانطلق الى مدينة نويون فهشَّت لقدومهِ واستقبلتهُ بمثل الفرح الذي يلقيهِ في القلوب اعتقاد الناس القداسة في شخصٍ ولم يزل في الاسقفية على ما عُهد بهِ من التواضع وروح الصلاة والتقشف . هذا وان دارهُ كانت منزلاً للبائسين ولم ينفق دخالهُ الاَّ في سبيل المحبة وظهر بادئ الامر اهتمامهُ الرعائي عجيبًا بما ابداهُ من الغيرة والسهر على حفظ وانماء القطيع الذي استؤمن عليهِ

وفي السنة الأولى لاسقفيتهِ زار ابرشية نويون وفِرمَندوا وانمى هناك التقوى والتهذيب الكنائسي وابتدأ في السنة الثانية بالمساعي الرسولية في بلاد تورناي وفلندرة واوصلهُ غيرتهُ حتى الى زيلندا وأطراف برابَنت حيث كان يظهر ان الوثنية قد تحصنت فتغلَّب عليها حتى في امنع حصونها وأقوى معاقلها وفتح في كل موضعٍ فتوحاتٍ جديدةٍ ليسوع المسيح رافعًا راية الصليب فوق خرابات عبادة الاصنام . وأما اراضي كورتري وكَند فكانت النصرانية غير معروفة فيها فجعلها القديس إلوا كرمًا مخصبًا ليسوع المسيح تبارك اسمهُ

ثم تقويةً للفتوحات النصرانية التي تمَّت بانذارهِ واعمالهِ الرسولية انشأ كثيرًا من المساجد والأديار في كل البلاد التي اكتسبها للمسيح هذا ولا سبيل الى ذكر كل ما كابدهُ في كل هذه المساعي وكثرة الاخطار التي تعرَّض لها ولكن غيرتهُ تحملت كل محنةٍ وخطرٍ

ووعظ يوم عيد القديس بطرس في قريةٍ قرب نويون واوسع المذمَّة في الرقص وبقيَّة الالعاب التي هي منابع مساوئ فظيعة فضلاً عن كونها وثنيةً محضًا واما غيرتهُ الرعائيَّة فلم تكن بدون تأثير ولا مفعولٍ فتآمر عليهِ كل من كان خليع العذار وهيجوا عليهِ جانبًا من الشعب لكن القديس لم يهلع من ذلك لانهُ كرَّر الوعظ باشدّ غيرةٍ في ترك الخلاعة والانهماك في المحرَّمات غير انهُ لما رأى الناس يزدادون تغيُّظًا منهُ ظن ان من الواجب ان يطلب الى الله ان يقتصَّ من هؤلاء العصاة معاقبًا جسومهم ليخلّص نفوسهم فاستجاب الله سبحانهُ طلبتهُ فدخل الروح النجس نحو خمسين شخصًا من الاشدّ عنادًا وبقوا حولاً كلهُ على هذا الحال المخجل المذل ولما انقضى الحول بتمامهِ قدموا الطاعة لهُ في مثل اليوم الذي اعتراهم فيهِ الشيطان وخضع الآخرون ايضًا كلهم فاخرج منهم الروح النجس

فصنع عليهِ السلام كثيرًا من الآيات في مدة أسقفيتهِ ولما آتاهُ الله موهبة النبوَّة تنبأ على جملة من العظماء بالموت وعلى الملك كلوفيس الثاني ايضًا وحضر مجمعًا التأم في شالون مدينة على شاطي نهر صون سنة اربع واربعين وستمائة ومات اخيرًا وهو مملوء من الاستحقاق وممارس اعمال التوبة موت اولياء الله في اليوم الاول من كانون الثاني في السنة التاسعة والخمسين والستمائة وهي السبعون من عمرهِ والسابعة عشرة من اسقفيتهِ وشيّع جنازتهُ خلق كثيرٌ واشتهرت عبادتهُ منذ حينئذٍ في فرنسا كلها وكتب ترجمةَ القديس وآن صديقهُ في السنة الثالثة عشرة بعد وفاتهِ وقد نقلنا هنا مختصرها

اليوم الثاني

وفيهِ ترجمة القديسة بيبيانة البتول الشهيدة

ان هذه القديسة وُلدت نحو نصف القرن الرابع وكان ابوها فلابيانوس حاكمًا على مدينة رومية ولاجل ايمانهِ بالسيد

المسيح سقط عن منصبهِ وخسر كل اموالهِ ونُفي كعبدٍ حقيرٍ من بعدان وُسمت جبهتهُ بالحديد المحمى أُرسل الى مكان يُسمى مياه الثور واخيرًا مات هناك في المنفى من شدة الشقاء وقد أُحصي في عداد الشهداء القديسين ويُذكر اسمهُ في السنكسار الروماني في اليوم الثاني والعشرين من كانون الاول . اما قرينتهُ القديسة دافروزا فسجنت في بيتها مع بنتيها بيبيانة وديمتربة ثم قُطعت هامتها بأمر الحاكم ويذكر اسمها وموتها في السنكسار الروماني في اليوم الرابع من كانون الثاني

اما الحاكم ابرونيانوس الذي كان قد أقامهُ الملك يوليانوس الكافر حاكمًا على رومية بدلاً عن القديس فلابيانوس وكان ازداد غيظًا على المسيحيين لانهُ فقد احدى عينيهِ في سفرهِ الى رومية ونسب ذلك الى بغض المسيحيين لهُ وجهد في اضطهادهم فبعد موت هذا القديس وامرأتهِ أمر القديسة بيبيانة واختها بالسجود للاصنام فاجابت بيبيانة قائلةً اني لست اسجد الّا لالهٍ واحد خالق السماء والارض وانا مستعدة مع اختي ديمتربة ان نسفك دمنا حبًّا بالسيد المسيح واكرامًا لانجيلهِ المقدس . فنهب وقتئذٍ الحاكم كل أموالهما ثم حجر عليهما في سجنٍ وامر ان يُقطع عنهما الضروريّ حتى الغذاء وكان كل يوم يرسل يتوعدهما بأرهب انواع العذاب ان لم ترتدّا عن الايمان بالمسيح الّا أنهما استمرّتا عليهِ ثابتين وفيما كان المغتصب يهيئ كل شيء لتعذيبهما وهما تناديان بان لا ضيق ولا سيف ولا عذاب يقدر ان يفصلهما عن عبادة السيد المسيح ومحبّتهِ اسلمت القديسة ديمتربة روحها بغتةً أمام الحاكم وقد رُقم اسمها في سفر القديسين في اليوم الحادي والعشرين من شهر حزيران

فوُضعت القديسة بيبيانة بامر الحاكم في بيت امرأةٍ خبيثةٍ فاسقةٍ تُدعى روفينا فأفرغت هذه الحيّة الجهنميّة كل جهدها في ردّ القديسة عن ديانتها لانها نصبت لها اوّل الامر فخّ الفساد بالفسق والفلسفة الشيطانية ذاكرةً لها ما ستحصل عليهِ من اللذات والكرامات من اجل رائع جمالها اذا أطاعت أمر ابرونيانوس ولكن هاتيك الحية الجهنمية لما لم تبلغ اربها بهذه الحِيَل اخذت حينئذٍ تضربها بقساوةٍ ضرب الوحوش بسياطٍ ذات مهاميز حديديّة ولما ان رأتها تحتمل ايضًا كل هذا بهدوءٍ وسرورٍ وتزداد في الايمان ثباتًا اخبرت الحاكم بانهُ لا يمكن ان ينتصر على بيبيانة ولذلك لا طمع في ردّها عن النصرانية

فارتج ابرونيانوس وقتئذٍ من افراط غيظهِ وامر بان تُربط البتول الى عمود وتُضرب حتى تموت فطفق الجنود يجلدونها بحبالٍ مغشّاة بالرصاص وحينما كانوا يضربونها بافراط القساوة كانت هي تحتمل الضرب بهدوءٍ وبشاشة . فبعد ان مزّقوا جسدها خارت قُواها بالكلية وصعدت الى السماء متوجة باكليل العفاف والاستشهاد وكان ذلك في السنة الثالثة والستين بعد الثلث مائة للمسيح واما جسدها فطُرح على مزبلةٍ لتأكلهُ الحيوانات غير انهُ بقي يومين معرَّضًا لها ولم يجسر احد منها ان يقرب منهُ فرفعهُ عن المزبلة كاهن من الصالحين اسمهُ يوحنا ودفنهُ بجانب امها القديسة دافروزا وأُختها القديسة ديمتربة . وأضحى ذلك المكان مكرَّمًا عند المؤمنين منذ ذلك الحين وأقاموا فيهِ على عهد السلاطين المسيحيين معبدًا للقديسة بيبيانة ولم يبرح ذلك المعبد الى حين بنى البابا سمبليسيوس القديس كنيسةً هناك على اسمها وجُدّد بناء هذه الكنيسة نحو السنة الثمانين بعد المائة الرابعة ونحو السابعة عشرة بعد المائة لوفاتهِ وزينها أُربانوس الثامن زينةً حسنةً سنة ثماني وعشرين وستمائة والف للمسيح ونقل اليها أجسام هولاء الثلث القديسات التي كانت قد وجدت منذ قليل ودفنها تحت المذبح الكبير في قبرٍ من رُخام واقام فوق القبر تمثالاً للقديسة بيبيانة من رخامٍ قيل انهُ من أجمل ما بايطاليا من المنقوشات

اليوم الثالث

وفيهِ ترجمة القديس فرنسيس كسافاريوس رسول الهند

١ . من درسهِ العلوم الى وصولهِ الى بلاد الهند

ان هذا القديس هو من اشراف مدينة نافارة وكانت ولادتهُ بها في السنة السادسة من القرن السادس عشر وبما ان الله تعالى كان اختارهُ ليجدد في القرون المتاخرة كل عجائب الرسل آتاهُ كل الصفات الطبيعية الملائمة للمناصب الرسولية وهي قوة الجسم وحرارة الطبع وذكاء العقل وشجاعة القلب وبهاء المنظر وبشاشة الوجه وميل حميد لاستعباد قلوب الناس بالكلام والفعل واعلم ان هذه الصفات كانت مقترنةً ببغضٍ طبيعيٍ لكلّ ما يفسد العقل والعفة او يثلمها وبميلٍ غريزي الى تعلّم العلوم ومن أجل ذلك أرسلهُ ابوهُ الى مدينة باريز

وفيما كان يدرس هناك العلوم بمزيد الاجتهاد وتمام

الرغبة عزم ابوهُ على ارجاعهِ الى بيتهِ وكفهِ عن طلب العلم وكتب في هذا الى ابنةٍ لهُ تُدعى مجدليَّة كانت قد ترهبت فحصلت على قداسةٍ عظيمةٍ وحلَّ عليها روح النبوة . أما تلك الفتاة فأجابتهُ برسالةٍ منطوقها اياك يا أبتِ ان ترجع أخي من باريز وتمنعهُ من طلب العلم لانهُ إناء مختارٌ فقد اصطفاهُ الله ليكون رسولاً في بلاد الهند فاقتنع ابوها من هذا الجواب وترك اخاها يكمل درسهُ

فمكث القديس في باريز وهناك اضحى عالمًا بارعًا وأُحصي اسمهُ بين العلماء وأُقيم على تعليم الفلسفة في مدرسةٍ بتلك المدينة فهذه هي الحال التي كان عليها لما قدم القديس اغناطيوس باريز ليتعلم ولما تعرَّف بكسافاريوس أُلهم ان الله عزاسمهُ اختارهُ ليظهر فيهِ عظائم قدرتهِ فشرع ببذل الجهد في استمالة قلبهِ ومحبتهِ وكان يمدح ما خولهُ الله تعالى من الصفات الجليلة النادرة الوجود ويقدِّم أُناسًا الى مدرستهِ ليتعلموا منهُ ولما نفد ما كان لهُ من المرتَّب وهبهُ القديس مبلغًا من المال . وفي اثناء ذلك اتى الى باريز جماعةٌ من أشياع لوتير وكانوا يزرعون خفيةً زوان ارطقتهم ولما وجدوا كسافاريوس طفقوا يجذبونهُ الى فخاخهم وقد شهد القديس انهُ اولا نصائح القديس اغناطيوس لكان أُخذ بتلك الفخاخ

غير ان كسافاريوس كان يحب مجد الدنيا ويوجه كل عقلهِ ومرغوبات قلبهِ الى الجاه العالي ومن ثم كان القديس اغناطيوس يجتهد في ان يشفيهُ من هذا الداء العضال ولما وجدهُ يومًا مصغيًا لنصائحهِ كرَّر عليهِ مرارًا هذه الآية الشريفة : ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كلهُ وخسر نفسهُ : ثم قال لهُ ان من وهبهُ الله تعالى قلبًا منصبًّا الى ما هو اعظم واسمى كقلبك لا يسوغ لهُ بل امرٌ فظيع لدى الله ان ينعطف برغبةٍ الى الجاه الزائل والكرامات الأرضية وان الصواب والعقل النطقي يقتضيان منَّا ان نفضّل ما يدوم الى الابد على ما يمرُّ ويزول كالظلّ والدخان . فانتبه حينئذٍ فرنسيس على جهل الذين يبتغون العظمة الدنيويَّة وشعر في قلبهِ برغبةٍ في الأشياء السماوية الا ان تاثيرات النعمة هذه لم تبلغ في الحال مفعولها ثم انهُ ردَّد في فكرهِ كلام اغناطيوس كثيرًا وتأملهُ تأملاً حسنًا وحينئذٍ شعر بحرب باطنية شديدة فعزم آخر الامر على تقويم سيرتهِ بحسب التعليم الانجيلي واقتفاء آثار من نبههُ على ضلالهِ . ثم اختلى وتروَّض بحسب طريقة القديس اغناطيوس بمزيد النشاط

واستمرَّ اربعة أيام لا اكلاً ولا شربًا وخرج من خلوتهِ انسانًا جديدًا راغبًا في اهانة الصليب افضل من رغبتهِ القديمة في المجد العالي وعازمًا بقصدٍ متين ان يصرف بقيَّة حياتهِ في تخليص النفوس

وبعد ذلك اي في اليوم الخامس عشر من آب سنة اربع وثلثين من القرن السادس عشر نذر في باريز مع القديس اغناطيوس ورفقتهِ انهم يزهدون في الدنيا ويزورون الأماكن المقدسة في بلاد فلسطين وان لم يمكنهم ذلك يقدموا انفسهم للحبر الاعظم ليخدموا الكنيسة حيثما يشاء وفي شهر كانون الاول من سنة ست وثلثين من القرن السادس عشر بعد ان فرغوا من درس اللاهوت ذهبوا الى مدينة البندقية لينزلوا من هناك في البحر فلم يجدوا سفينةً مستعدةً للسفر فتفرقوا في المدينة ليخدموا المرضى في المستشفيات وكان في المرضى رجلٌ مجروحٌ جراحةً منتنة كريهة المنظر حتى كان كل من يراهُ يحوّل نظرهُ عنهُ وينفر منهُ فشعر القديس كسافاريوس باشمئزاز من ذلك المريض واستكراهٍ عظيم فتذكر حينئذٍ قول القديس اغناطيوس لهُ انك لا ترتقي في الفضيلة الاَّ بمقدار انتصارك على نفسك ومن وجد فرصةً لممارسة فضيلة عظيمة فقد وجد فرصةً سعيدةً يجب على كل احدٍ ان ينتهزها حالاً فمن ثمَّ تقدَّم الى المريض واحتضنهُ ووجه فاهُ الى الجرح ولحس كل القيح السائل منهُ وبعد هذا الانتصار العظيم على نفسهِ لم يعد يشعر ابدًا بصعوبة في ممارسة الفضيلة

ولما ارتسم كاهنًا في البندقية في اليوم الرابع والعشرين من حزيران سنة سبع وثلثين من القرن السادس عشر خرج من المدينة وانفرد في البرية في منزل مهدوم ليستعدَّ لاقامة قداسهِ الاوَّل وقضى اربعين يومًا ممارسًا الصلاة العقلية واشد التقشفات وبعد ذلك قدّس قداسهُ الاول بعبادةٍ أثرت في قلوب كل الحاضرين وشرع حينئذٍ يمارس افعال الغيرة والمحبة في مدينة بولونيا

ثم من بعد ان البابا بولس الثالث اثبت الرهبانية اليسوعية سنة اربعين وخمسمائة والف ارسل ملك البرتوغال وطلب من الحبر الاعظم اثنين منهم لانتشار الايمان في بلاد الهند وبامر البابا اختار القديس اغناطيوس لهذه البعثة الاب سمعان رُدريكوس والاب بوباديلا ولكن لما حان وقت السفر مرض بوباديلا فالتجأ حينئذٍ القديس اغناطيوس الى الصلاة وطلب

من الله تعالى ان يُريهُ من يختارهُ لهذه الرسالة وباشعّة روحيّة سماويّة عرف ان الله جلّت حكمتهُ اختار كسافاريوس لهذه الرسالة فاستدعاهُ في الحال وقال لهُ اني كنت قد اخترت بوباديلا لأُرسلهُ الى بلاد الهند الّا ان الله سبحانهُ يرسلك الآن بدلاً عنهُ فاذهب اذًا يا أخي الى حيث يدعوك مجد الله وأضرم الارض كلها بنار غيرتك . فامتلأ قلب الرسول فرحًا وقصّ حينئذٍ على أبيهِ الروحي رؤيا كان بها قد عرف ان الله سبحانهُ يشاء ان يرسلهُ الى الهند لأنهُ كثيرًا ما كان يرى في الحلم رجلاً هنديًا راكبًا على منكبيهِ وفي يوم آخر وقع عليهِ جذبٌ فرأى نفسهُ مسافرًا على بحرٍ هائج ممتلئ بالصخور وجزائر تسكنها البرابرة واكتنفهُ الجوع والعطش والعُري واضطهاداتٌ واخطار عظيمة فصرخ قائلاً زِد يارب زِد على هذه كلها قدر ما تشاء

فخرج القديس كسافاريوس من رومية ولم يتخذ معهُ شيئًا غير كتاب الصلاة الفرضيّة اي المفروضة من الكنيسة على الكهنة وذهب الى بلاد البرتوغال ولما حان وقت السفر في البحر سلمهُ الملك منشورًا من قِبل البابا وبهِ كان الحبر الاعظم أقام القديس قاصدهُ في المشرق كلهِ . ثم سافر سنة إحدى واربعين وخمسمائة والف وكان لهُ من العمر اثنتان وثلثون سنة

وكان سفرهُ طويلاً جدًّا ولهذا بدأ يباشر اعمال بعثتهِ الرسولية وكان معهُ في السفينة اكثر من تسعمائة رجل فربحهم جميعهم للمسيح ومن ذلك الحين منع اللعب والمشاجرات والمشاحنات والألفاظ القبيحة والأقسام وكل المحرّمات التي تنشأ عن الفراغ عادةً فالضبّاط والجنود البحرية أقبلوا على تهذيبات هذا الرجل الرسولي الخلاصيّة . وكان يعظ عدّة مرار في كل يوم ويُعرّف المرضى ويُعزيهم ويخدمهم صائرًا كلاً للكل ليربح الكل ليسوع المسيح واراد نائب الملك الدون الفونسوس دي صولا ان يكون غذاء القديس على مائدتهِ فأبى الآن يعيش على الصدقة طول السفر

ومع ذلك فان برد الراس الأخضر القارس ووَمد بلدة غونية والماء واللحم اللذين تفسدها حرارة خط الاستواء أحدثت في المركب أدواء شديدة لم تمرّ عليها برهةٌ حتى استوبأت واشتهرت حينئذٍ محبة القديس وشجاعتهُ لانهُ كان يمسح عرق المرضى ويُنظف جراحهم وينزع عنهم الاثواب ويؤازرهم في ادنى الخدم كلها غير انهُ كان يهتم اكثر من ذلك بضمائرهم ولذا كان جلّ شغلهِ مصروفًا الى تأهيبهم لميتةٍ مسيحيةٍ . وكان يباشر كل هذه الاعمال وهو متوعّك بالقيء المتوالي فامر نائب السلطان تخفيفًا عنهُ ان يجعل لهُ غرفةً اكبر وأوسع لكنهُ أحبّ ان ينام دائمًا على سطح السفينة ولا وسادة لهُ الّا حبالها فتلقّب بكثرة صنائعهِ مذ ذاك بالاب القديس ولم يُنسخ عنهُ هذا اللقب حتى ولا عند عبَدة الاوثان والمسلمين

ولما كانت سفائن نائب الملك مضطرّةً الى ان تشتو بمينا موزنبيق أخرجت جميع ما بها من المرضى فنُقلوا الى المستشفى اما كسافاريوس فلحق بهم هو ورفيقاهُ وجعل يخدمهم كلهم وكانوا اكثر من ثماني مائة مريض وبينما كان متألمًا اكثر من أغلب الذين كان يخدمهم كان عند اشتداد الحمى يجول في القيعان ويجلس عند المرضى والمحتضرين فجعل الناس في كل مكان يتعجبون من عجائب غيرتهِ . وبعد ان أقام على خدمتهم ستة اشهر سافر الى ميلندا على شاطئ افريقية ولما رأى المسلمين على شفاء رقّ لهم على شدة تمسكهم بعروة الاسلام وعزم ان يقيم عندهم قدر ما يستطيع على قصد الاهتمام بتخليص نفوسهم ولكن طرأت دواعٍ دعتهُ الى الرحيل عنهم فرحل ولم تمرّ ايام قليلة حتى وصل الى بلدة غوا وكان ذلك في الشهر الثالث عشر لسفرهِ من ليزبونا

٢ . في ما صنع القديس كسافاريوس في غوا وبلاد بَرافاس

وعند وصول هذا القديس الى غوا ومعهُ اثنان من الرهبانية اليسوعية تذكرت سكان تلك المدينة نبوة راهب قديس كان قد مات شهيدًا في بلاد الهند سنة سبع وتسعين واربعمائة والف لان هذا الشهيد حينما كان يسفك دمهُ قال انهُ بعد سنين قليلة تظهر في كنيسة الله رهبانية جديدة وتتخذ اسم يسوع وواحدٌ من اوّل آبائها مسترشد من الروح القدس يصل الى اقصى اقاليم الهند الشرقي فيتنصّر على يدهِ اكثر سكانها ويدخلون في الدين الصحيح بواسطة تعليم هذا الواعظ الانجيلي . وبعد وصول القديس كسافاريوس الى غوا التي كانت تحت سلطة ملك البرتوغال لم يرد ان يسكن عند نائب الملك الذي كان يطلب ذلك منهُ بلجاجة بل جعل سكناهُ في مستشفىً ولم يُرد ان يشرع في اعمال رسالتهِ قبل ان يستأذن الاسقف اجلالاً لسلطتهِ وكان اسم ذلك الاسقف يوحنا دالبوقرك وهو من رهبانية القديس فرنسيس ومن أجلّ احبار الكنيسة فضلاً وبرًّا . فذكر لهُ الدواعي التي حملت الحبر الاعظم وملك

برتوغال على ارسالهِ الى بلاد الهند وقدّم لهُ براءات قداستهِ وصرّح لسيادتهِ انهُ لا يطلب انفاذها الأّعن رضاهُ . ثم خرّ على قدميهِ وسألهُ البركة ولم يُرد ان ينهض حتى باركهُ . ذلك واعلم ان احتشام هذا القديس واتضاعهُ سلبا عقل الاسقف فقبّل مناشير البابا وارجعها الى الأب المذكور وقال لهُ ان القاصد الرسولي بما ان نائب المسيح ارسلهُ هو بنفسهِ فما بهِ حاجة الى ان يأخذ رسالةً من آخر فلذا استعمل بحرّية السلطة التي قلّدك اياها الكرسيُّ الرسوليُّ وتاكدنَّ انهُ اذا كنتَ في حاجة الى السلطة الاسقفية لمباشرة خدمتك فلا انكر المساعدة عليك

وان الذين مضوا وكشفوا الهند الشرقية أثبتوا النصرانية في مواضع منها وكاد لا يبقى لها اصل لان الوثنية والاسلام تملكا في كل موضع حتى ان النصارى البرتوغاليين الذين هاجروا اليها كانت تغلبت الوثنية على سيرتهم وعوائدهم فالخلاعة أقبلت بالهنود على الوثنية وصيرتهم كلهم عبدة أصنام. فعلى هذه الحال كانت البلاد الجديدة لما اتى اليها الأب كسافاربوس ولكن من الغريب انهُ ما ظهر هذا الرسول الجديد في تلك البلاد حتى اضحى ذلك الكرم البائر أنضر حدائق الكنيسة وهناك كان يقضي في الصلاة وخدمة المرضى اكثر الليل لانهُ لم يكن يرقد الأّ ثلث ساعات او اربعًا وبعد تقدمة ذبيحة القداس صباحًا كان يعود بقية المرضى في المدينة ويخدمهم ويعطيهم ما كان يجمعهُ من الإحسان لأجلهم وهكذا كان يعامل المحابيس . ثم كان يطوف الشوارع قارعًا الناقوس وطالبًا بصوت عالٍ ان يرسلوا الى الكنيسة اولادهم وعبيدهم على ان القديس لما رأى اهل المدينة على شرورٍ يُرثى لها ظنّ انهُ اذا علّم الصغار ونهج لهم سبيل الفضيلة تصطلح المدينة سريعًا وكان كما تأمل وترجى. لان الصغار الليّني الطبع قبلوا التعليم برغبةٍ وسلكوا في سبل العبادة واصبحوا في منازلهم واعظين وذلك بمثال تهذيبهم ونقاوة سيرتهم وايراد ما كانوا يسمعونهُ من التعليم فابتدأ الكبار يتنبهون الى خلاص انفسهم ولما رأى الاسقف هذا التغيُّر قال انها لاعجوبة صنعتها يد الله الضابط الكل جلّت قدرتهُ

وبلغهُ في غضون ذلك ان في بلاد برافاس (اي الصيادين) الساكنين بشاطئ كومورين قومًا من الذين يغوصون الى عمق البحر لاستخراج اللؤلؤ كانوا تعمدوا جديدًا لاجل مساعدة البرتوغاليين على اعدائهم البرابرة ولكن لم يحصلوا من النصرانية الأّ على المعمودية والاسم المسيحي وان السبب في بقائهم على الغباوة هو عدم وجود من يمزّق البرقع عن بصائرهم ويوقد امامهم مصابيح التعليم المسيحي فيستنيرون لان احدًا من الغربيين لم يرد ان يقطن تلك البلاد من شدة الحر وضيق العيش. فلما سمع ذلك هذا الرسول سافر وكان ذلك سنة اثنتين واربعين وخمسمائة والف ولما وصل الى بلاد كومورين وجد اولاً قرية وثنية فاخذ يكرز فيها وفيما كان يعلم ولم يوثر كلامهُ عرف ان هناك امرأة مشرفة على الموت من شدة اوجاع المخاض التي اخذتها منذ ثلثة ايام فذهب اليها وعرض عليها النصرانية ثم قال لها أتؤمنين بالسيد المسيح فقالت اي نعم وطلبت المعمودية وحينئذٍ قرأ القديس عليها فصلاً من الانجيل المقدس ثم عمدها فشُفيت المرأة شفاء تامًا . فلما رأى ذلك اهل المنزل اخذهم الذهول وجثوا على قدمي القديس وطلبوا المعمودية فعمدهم جميعهم فشاع خبر هذه الاعجوبة في القرية كلها فاجتمعوا حول القديس ليسمعوا تعليمهُ الأّ انهم لم يتجاسروا ان يتنصروا بدون رضاء اميرهم . فلما كانوا على هذه الحال اتى في ذلك اليوم نفسهِ الى تلك القرية رجل شريف من قِبل الامير ليجبي الخراج فذكر لهُ القديس قواعد دين المسيح . فلما سمعها ذلك المرسل قال ان هذا الدين حسن وأذن لأهل القرية ان يقبلوهُ فتعمدوا وقتئذٍ جميعهم

ثم خرج القديس ليعلّم في بقيّة قرى الاقليم التي كان عددها ثلثين قريةً وكان سكانها نصفهم مسيحيين ونصفهم وثنيين وكان في كل مكان يجمع الصغار ويعلمهم قانون الايمان والوصايا والصلاة الربية وسلام الملك جبرائيل وهم كانوا في بيوتهم يعلمون والديهم واقرباءهم وفي ايام الاحاد والاعياد كان يجمع في الكنيسة الرجال والنساء والشبان والشابات وكان حينئذٍ يفعل ما سنوردهُ الآن وقد أوردهُ القديس نفسهُ في رسالةٍ من رسائلهِ قال اني كنت اعترف اولاً ان الله تعالى هو واحدٌ بالجوهر ومثلَّث بالاقانيم ثم كنت اقرا قانون الايمان شيئًا فشيئًا بتأنٍ وهكذا كنت اقرأ الصلاة الربية وبشارة الملك والناس جميعهم كانوا يقرأون معي ومثلي وعلى كل قضية كنت اسألهم بصوت عالٍ هل يعتقدون ذلك اعتقادًا لا يخامرهُ شك وهم كانوا يجيبونني نعم . وكنت

اقول لهم عند انتهاء التعليم من اعتمد واعتقد فذلك هو مسيحي ثم اني كنت اقرأُ معهم الوصايا وبعد قراءتها كنت اقول لهم ان من لايحفظها كلها فهو مسيحيٌ شريرٌ يهلك الى الابد ومن يحفظها فهذا يحيا الى الابد في ملكوت السماء. وبعد قراءة كل قاعدة من قانون الايمان كنت اقول والجميع كانوا يقولون معي يايسوع ابن الله الحي أنعم علينا ان نعتقد اعتقادًا من غير شك. فعلى هذه النية نقدم لك الصلاة التي علمتناها وبعد ذلك كنا نقول يامريم يا والدة الله استميحي لنا من ابنك الحبيب نعمةً لان نؤمن بهذا ايمانًا ثابتًا. وكنت انطق اخيرًا وهم كانوا ينطقون معي بالوصايا واحدةً فواحدةً ونقول في آخرها يا يسوع ابن الله الحيّ أنعم علينا ان نحفظ هذه الوصية يا مريم يا ام يسوع الاله اسألي لنا ابنكِ الحبيب نعمةً لنحفظ أوامرهُ. انتهى

فبعد ان علم القديس كسافاريوس هكذا في احدى القرى مدة شهر كان يجمع أعلم من فيها ويسلم لهم كل ما ذكرناهُ محررًا ليفعلوا مثلهُ في الكنيسة في كل يوم أحدٍ وعيدٍ. ومن المستحيل ان نصف اثمار غيرة القديس في بلاد برافاس وكثرة الذين عمدهم وقد ذكر القديس انهُ من زيادة تعبهِ في تعميد الجموع الذين دخلوا في النصرانية كانت تخور قوة يديهِ. وبتدبير العناية الالهية كثرت الامراض في تلك البلاد فكانت سببًا في التشكر لكون المرضى كانوا يلتجئون الى القديس ولانهُ لم يكن يقدران يعودهم كلهم كان يرسل اليهم غلمانًا من النصارى وأولئك كانوا يستصحبون شيئًا ما للقديس كالمسبحة او ايقونة ابن الله ويذهبون الى المرضى ويتلون عليهم قانون الايمان والوصايا وكل ما كانوا عرفوهُ من التعليم ثم يسألونهم أتؤمنون بسيدنا يسوع المسيح أتريدون ان تعتمدوا وحينما كانوا يجيبون نعم كانوا يمسون المرضى بمسبحة القديس او إيقونتهِ فيبرأون للحال. وقد اتفق يومًا انهُ بينما كان القديس يعلم جمعًا غفيرًا اذ جاء رسولٌ وطلب منهُ ان يأتي ويشفي رجلاً شريفًا كان قد دخلهُ الشيطان فأرسل القديس بعضًا من غلمانهِ وأعطاهم صليبًا كان يحملهُ على صدرهِ وقال لهم امضوا واخرجوا الشيطان فذهب الغلمان وتلوا على المجنون صلواتهم ووضعوا على فيهِ الصليب المقدس وللوقت خرج الشيطان فبرئ المجنون ورأى هذا كثيرون من الوثنيين فآمنوا

وقد بقي القديس في بلاد برافاس اكثر من سنة قليلاً ولما ان رأى كرم الرب مثمرًا ولم يكن من يخدمهُ رجع الى مدينة غوا ليرسل اليهِ فعلة وعند وصولهِ اليها بجملة غلمان من بلد كومورين بعث من فورهِ بجماعةٍ لينشئوا هناك الايمان. ثم اقام في المدينة مدرسة ودعاها مدرسة الايمان وهناك ادخل غلمان البرابرة ولم يُقم بمدينة غوا الأيسيرًا حتى رجع الى كومورين براهب يسوعي وثلثة كهنة بلديين وزار وإياهم كل قرى البلاد وعلمهم كيف يجب عليهم ان يجتذبوا الناس الى الايمان وعيّن لكل منهم جزءًا من البلاد ثم تركهم ودخل بلدًا غير معروفٍ بعدُ ولم يكن ايضًا يعرف لغتهم وهناك عمد اطفالاً كثيرين قبل موتهم الاّ انهُ بعد زمن قليل عرف ان جماعةً من البرابرة يقال لهم بداجيين أعداء المسيحيين خرجوا على بلد كومورين فهرب المؤمنون باهل منازلهم في القوارب الى جزيرةٍ قريبةٍ لم يجدوا فيها شيئًا يأكلونهُ فالتجأ حينئذٍ القديس الى التجار البرتوغاليين وطلب منهم اسعافًا فأوسق اولئك التجار عشرين مركبًا من المواكيل واتى بها القديس الى المساكين واعادهم الى بلدهم سالمين

٣. في ما جرى على يد القديس في مملكة ترافنكور وجزيرة منار وفي جزائر الملوك

وانتقل من برافاس الى مملكة ترافنكور وبواسطة التجار البرتوغاليين نال من الملك الاذن في ان يعلم الشعب قواعد الديانة المسيحية فطاف في المملكة كلها مبشرًا بالانجيل المقدس على نحو ما كان بشر بهِ في كومورين وفي أمدٍ يسيرٍ أذاع الايمان في كل مكان وبنى خمسًا واربعين كنيسة وقد كتب هو انهُ في مدة شهر واحد عمّد بيدهِ عشرة الآف من الوثنيين وانهُ كثيرًا ما عمّد في يوم واحد سكان قرية كبيرة. وقد آتى الله تعالى رسولهُ موهبة معرفة الالسنة لانهُ لما كان الوثنيون يجتمعون أحيانًا مقدار خمسة الآف ولم يكن موضع يسعهم كان يصعد على شجرةٍ فيجعل يعلمهم بلغتهم التي لم يكن عارفًا بها قبلاً

ولما رأى الشيطان ما رآهُ من انتصار الايمان المسيحيّ على عبادة الاوثان اضطرب امرهُ فهيج البداجيين المومأ اليهم فمن ثم دخلوا مملكة ترافنكور ليفتكوا باهلها. فنهض الملك مع عسكرهِ ليقاومهم وقد سبق القديس ولما رأى عسكر البداجيين مستعدّين للمعركة جثا على الارض وصلّى قال اذكر يارب انك اله الرحمة وعاضد المؤمنين بك فلا تسلّم الى ايدي

هولاء الذئاب الخاطفة الرعية الذين ائتمنتني عليهم ولا تسمح بان المسيحيين الحديثي الايمان والضعفاء بعدُ يضجرون من قبول انجيلك ولاتدع اعداءك اللهمَّ يفتخرون بانتصارهم على شعبك. قال هذا وتنطَّق بقوة وشجاعة من العلاء وذهب بجماعة من اشدّاء المسيحيين الى مقابلة عسكر البرابرة ولما وقف امامهم رفع بيدهِ إيقونة الصليب المقدس وقال بصوت منتهرٍ اني آمركم باسم الله الحي ان ترجعوا حالاً الى بلادكم متقهقرين . فهرب البدجيون من فورهم اما المسيحيون الذين معهُ فاندهلوا من هذه الاعجوبة ورجعوا الى القرى القريبة واخبروا الجميع والملك ايضًا بما كان. فلما رجع القديس احتضنهُ الملك وشكر فضلهُ وأمر بانهُ لا يُدعى منذ ذلك الحين فصاعدًا الاَّ بالأب المعظَّم ونادى في كل مملكتهِ ان كل من أَراد فليتنصَّر غير انهُ هو لم يدخل في دين الله عزَّ وجلَّ والذي حال بينهُ وبين الايمان هو ما ائتلف عليهِ من الكبرياء واللذات اللحمية التي كثيرًا ما تصدُّ عظماء العالم عن التوبة

وبواسطة اذن الملك فُتح باب الايمان لاناس لا يحصى لهم عدد وفضلاً عن كثرة المرضى الذين شفاهم هناك فقد اقام من الموت اربعة اشخاص وأقام أحدهم على هذا الاسلوب وهو انهُ فيما كان يعلّم يومًا في مدينة كولان ورأى الاكثرين لا يُذعنون للتبشير رفع عينيهِ الى السماء والتهب وجههُ وصلَّى قائلاً اللهمَّ ان جميع القلوب في يدك وانك لقادرٌ ان تميلها الى حيثما تشاء وتحوّل قساوتها لينًا فافعل هذا الان اكرامًا لاسم ابنك القدوس ودمهِ الكريم. فأُلهم ان الله قد استجاب لهُ فقال للوثنيين ماذا تريدون من المعجزات شهادةً على حقيقة النصرانية ها انكم امس دفنتم رجلاً ميتًا فأخرجوهُ اليوم من قلب الارض وانظروا هل مات حقًا . فذهب حالاً الوثنيون وأخرجوا الميت فوجدوهُ منتنًا واتوا بهِ فوضعوهُ امام القديس فجثا الرسول وصلَّى سرًّا ثم نهض وقال للميت اني آمرك باسم الله الحيّ ان تقوم حيًّا شهادةً على حقيقة دين المسيح الذي أُبشّر بهِ فقام الميت من ساعتهِ متعافيًا كأنهُ لم يمرض. فيالهُ امرًا عجيبًا جعل الجميع يهتفون ان اله المسيحيين هو الاله القادر على كل شيءٍ لا اله غيرهُ والدين الذي دعانا اليهِ الأب المعظَّم هو الدين الحق ثم خرّوا امامهُ وطلبوا المعمودية فعمَّدهم جميعهم وبهذه العجيبة انتشرت النصرانية في كل مملكة ترافنكور في أشهرٍ قليلة

فلما شاع خبر عجائب الرسول قصدهُ وَفدٌ من جزيرة مانار التي على شمال جزيرة سيلان وطلبوا اليهِ ان يأتي ويعلمهم فلم يقدر حينئذٍ ان يفارق رعيتهُ الجديدة فأرسل اليهم كاهنًا وهذا قد اجتذب كل الجزيرة الى الايمان في قليل من الزمن واصبحوا كلهم متورعين حتى ان كثيرين منهم سفكوا دماءهم لاجل السيد المسيح اذ قتلهم ملك وثني من جزيرة سيلان بغضًا للايمان المسيحي . فخرج الرسول من بلاد ترافنكور ومضى الى مدينة مليابور حيث تُوفي القديس توما الرسول وفي هذه المدينة ردَّ كثيرين الى سبيل التوبة . روى ان تاجرًا من مدينة مليابور وهو يهمُّ بالسفر بحرًا الى مَلقا سألهُ تذكرة مودة فاعطاهُ كسافاريوس مسبحتهُ وقال لهُ ان هذه تنفعك بشرط ان يكون لك مزيد ثقة بمريم البتول عليها السلام وحالما نُشر الشراع هبّت زوبعةٌ هائلةٌ وصدمت السفينة على صخرٍ فسحقتها واما التاجر فلشدة ثقتهِ بالبتول اذ كان حاملاً بيدهِ مسبحة كسافاريوس انتقل بغتةً الى شاطئ نيغاپتام وهي على ساعاتٍ من موضع الغرق . وذهب الرسول القديس الى مَلقا ليجتاز منها الى ماكاسار فوعظ هناك وعرَّف فتاب على يدهِ من اشرار النصارى خلقٌ كثير وعمَّد جانبًا كبيرًا من اليهود وعَبَدة الاصنام والمسلمين وكان من اهتدى من اليهود حاخام مشهورٌ انكر اليهودية علانيةً ولم يصنع القديس في غير مَلَقا من المعجزات اكثر مما صنع فيها فكان المرضى يبرأُون بمجرد مس ثوبهِ وتقبيل يدهِ وبركتهِ من كل من انواع الادواء . وكان في نواحي مَلَقا فتاة عمّدت ثم ماتت فاشتمل أُمها غمٌ فذهبت تطلب القديس فخرّت على قدميهِ وعيناها تندفقان بالدموع وقالت لهُ يا خادم الله ابنتي ماتت لكن اذا شئت ان تصلّي عليها مستغيثًا باسم يسوع المسيح فتعود اليها الحياة حالاً أَما كسافاريوس فأوى لهذه المرأة وتوجَّع لبلواها وسأل الحق سبحانهُ وهو صامت برهةً ثم التفت الى المرأة وقال لها اذهبي ابنتكِ حيَّة فقالت المرأة قد مضى على دفنها ثلاثة ايام فقال كسافاريوس لا بأس في ذلك فاذهبي وافتحي رمسها تجديها حيَّة فركضت الى الكنيسة ورفعت الحجر عن القبر فاذا بابنتها على كمال العافية كما قال لها القديس

ولله درهُ رسولاً لم يكلّ فسار الى جزيرة امبوانة وبشر عبدة الأصنام بدين المسيح فتنصّرت الجزيرة الاَّ قليلاً وبينما كان مجتازًا ذات يوم من جزيرة الى أُخرى اذا بزوبعة

ألقت الرعب الشديد على الركاب فأخرج عليهِ السلام من صدرهِ مثال مصلوب صغيرًا كان يحمله دائمًا واراد ان يغطسهُ في البحر ليسكن الأمواج فأفلت من يدهِ فحزن لهذه الخسارة ولكن اي حزنٍ . وبلغ بعد اربع وعشرين ساعةً الى جزيرة بارانورة فرأى واذا بسرطانٍ بحريٍّ ضخمٍ بين مخالبهِ مثال ذلك المصلوب بعينهِ. هذا واجتاز من بارانورة الى جزيرة أولات فكان الملك محصورًا في العاصمة ومستعدًّا ان يسلّم للعدو من قلة الماء فدخل كسافاريوس اليهِ واستأذنهُ في ان يركز الصليب في العاصمة وعرض عليهِ ان يوجد له ماء غزيرًا اذا وعدهُ ان يدخل في دين المسيح هو ورعيتهُ كلهم فوعدهُ الملك بذلك كلهِ فما رُكِز الصليب حتى انهلَّ مطرٌ غزيرٌ سدَّ حاجة الجيوش واكره العدو على رفع الحصار. فتعمد حينئذٍ الملك ورعيتهُ كلهم بيد هذا الرسول الذي هدى الى صراط الدين الصحيح ممالك أُخر مجاورةً لتلك المملكة ثم سار الى الجزائر المدعوة مولوك وطاف بسرعة في ترنت وتيدور وتيمور وماشيان وباشيان وبشّر وهدى وكسب للايمان المسيحي خلقًا كثيرًا في كل الاماكن التي لم تطأها اقدام رسولٍ قط

٤ . في اعمالهِ الرسولية بجزيرة المور وبمدينة مَلَقا

ثم عزم على الذهاب الى جزيرة مور الّا ان اصحابهُ شرعوا يمانعونهُ في ذلك ويقولون له ان اهل هذه الجزيرة هم اشرس اخلاقًا واشد قساوةً من جميع البرابرة لانهم لا يكتفون بقتل الغرباء متى وجدوهم ليقتاتوا بلحومهم بل انهم هكذا يصنعون بعضهم ببعض. ولما رأوا ان كلامهم لا يؤثر في قلب الرسول ذهبوا الى حاكم مدينة مَلَقا وسألوهُ ان يكفهُ عن المضي الى هذه الجزيرة. فأمر الحاكم تحت العذاب الشديد جميع الملاحين بالّا ينقلوا القديس الى هناك فحصل للرسول بحدَّة غيرةٍ حزن شديد وقال لو ان في جزيرة مور معادن فضةٍ وذهبٍ لكان قد ذهب الى هناك التجار ولم يبالوا بمخاطر الموت ولكن من حيث ان ليس هناك سوى ربح النفوس فيستخفّون بهِ أفلا يخجلون من ان يجعلوا حبهم للقريب اضعف كثيرًا من حب الاموال وأرباح الدنيا فوقع هذا الكلام في قلوبهم وقعًا حسنًا وجرَّدها عما كانت مطويةً عليهِ فرضي الحاكم بذهاب القديس الى جزيرة مور وأراد كثيرون ان يرافقوهُ وفيما هو مسافرٌ بحرًا اتفق يومًا ان قال وهو يصلي آه يا يسوع على هؤلاء المساكين الذين تقتلهم البرابرة. فوصلوا الى الجزيرة واذا على شط البحر ثمانية اشخاص من البرتوغاليين مقتولين فلما رأى اولئك البرابرة الملاحين فرّوا الى بعيد ظانين انهم اتوا لينتقموا منهم . غير ان القديس جدَّ ركضًا وراءهم فأدركهم في غابةٍ فأخذ يكلمهم ببشاشةٍ وليانةٍ واورد لهم سبب مجيئهِ اليهم وأرجعهم الى قريتهم مرتلاً التعليم المسيحي كما فعل في بلاد برافاس وطاف هكذا في كل القرى في مدينة تولو التي كان يسكنها من الناس خمسة وعشرون الفًا ولم يخرج من الجزيرة حتى تنصَّرت كلها واستمرَّ هناك ثلثة اشهرٍ

ثم رجع الى مدينة مَلَقا فوجد عشرة رهبان يسوعيين اتوا بامر القديس اغناطيوس فمكث معهم شهرًا واحدًا ليعلمهم ثم ارسلهم الى اماكن مختلفة للتبشير بالانجيل ولما كانت سنة سبعٍ وأربعين وخمسمائة وألف وصل عسكر الاشنيين اعداء الدين المسيحي في ستين مركبًا كبارًا اتوا بها من جزيرتهم المدعوة سوماترا وكادوا ان يفتحوا المدينة الّا انهم أحرقوا كل سفن البرتوغاليين التي في مينا المدينة ثم توجهوا الى بلدتهم فاتى القديس الى الحاكم وقال له ان محبة الله والغيرة لرفع شان النصرانية يوجبان عليك ان تنتقم من الاشنيين وترسل سريعًا مراكبك وجنودك في أثرهم يحاربونهم فقال له الحاكم كيف يمكن هذا وها ان جميع المراكب التي كانت في المينا لم يبقَ الان منها سوى أربعة صغار مكسَّرة بنصفها حتى انها ولو أُصلحت فلا تُغني عنا شيئًا في جنب مراكب الاعداء الكثيرة . فاجابهُ الرسول قائلاً اننا لأقوى منهم واعزُّ وان كانت سفائنهم اكثر من ذلك لان الله تعالى معنا فكيف لا نظفر بهم ونحن محاربون لتمجيد اسمهِ القدوس . فلم يجسر احدٌ ان يقاوم كلام الرسول بل امر الحاكم بان يسرعوا في اصلاح ما هنالك من السفن القديمة والصغار فلما أرادوا ان ينفذوا امر الملك لم يجدوا الّا سبع سفنٍ صغار متروكة هناك للحريق فاقام القديس سبعة قوّاد من اهل الخبرة بصناعة السفن ليصلح كلٌّ منهم مركبًا واحدًا والوقت اجتمع لاصلاح كل مركب مائة رجل فتمَّ العمل بخمسة ايام ثم نزل في كل مركب نحو ثلاثين جنديًا ورام القديس كسافاريوس ان يمضي معهم الّا ان اهل المدينة لم يرضوا بذلك . فبارك الرسول عليهم وأمرهم ان يتذكروا وهم في معترك الوغى جراحات السيد المسيح ولا يُبالوا بالخطر

فسافرت السفن السبع في بكرة الغد وكان الرسول وقتئذٍ يقدم ذبيحة القداس وبعد زمن يسير انكسرت إحدى

السفن وغرقت فصغرت نفوس اهل المدينة الذين شاهدوا ذلك واتى منهم واحد مسرعًا ليخبر القديس من قبل الحاكم ورام ان يخبرهُ في وقت قداسهِ بما كان اما هو فاومأ اليهِ بيدهِ ألَّا يكلمهُ وبعد الفروغ من القداس قبل ان يقول لهُ المرسل شيئًا قال لهُ امضِ وقل للحاكم من قِبلي ان غرق احدى السفن ليس هو سببًا كافيًا في ترك المقصود الحميد ثم خلع حلة الكهنوت وصلَّى امام ايقونة والدة الله قال يا يسوع محبوب قلبي انظر اليَّ بعين الرضا والحظ جراحاتك المقدسة وتذكر أن لنا ان نطلب منك باستحقاقاتها كل ما نشاء. ايتها العذراء الحليمة كوني شفيعتنا عند ابنكِ الحبيب. فبعد صلاتهِ مضى الى الحاكم الذي زعم هو وعظماء المدينة ان سفر ستة مراكب صغار على ستين سفينة جهلٌ فظيع اما قواد السفن الست وجنودهم فقالوا الموت ولا الخيانة بوعدنا للسيد المسيح ولا ريب ان ست سفنٍ تكفينا مع العون الالهي وصلاة الاب كسافاريوس . حينئذٍ خاطبهم القديس بروح النبوة قائلًا تقووا ولا تضطربوا لانهُ قبل غروب الشمس تأتيكم مراكب عوضًا عن الذي غرق واني أُخبركم بهذا من قِبل الله تعالى

وقد تمَّت نبوتهُ بما انهُ قد جاء لنجدتهم مركبان وذهبا مع الستة الأُخر على الاشنيين واستمروا سائرين على البحر مدة شهر ولما وجدوا سفن الاعداء حاربوهم بكل شجاعةٍ وانتصروا عليهم انتصارًا مبينًا وكسروا من سفنهم ثماني وعشرين سفينةً وغنموا اثنتين واربعين وأماتوا بالغرق الاشنيين سوى ستة وعشرين رجلًا وكان القديس كسافاريوس وقت المعترك يعظ في مدينة مَلَقا وحينئذٍ وقع عليهِ جذب فصمت وتغيرت كل ظواهرهِ ثم أَخبر بالواقعة التي حدثت بكلامٍ رمزيٍ فظن بهِ الحاضرون انهُ تاه عن موضوع عظتهِ لضعف ذاكرتهِ ولم يزل القديس يتكلم كنبيٍ يرى رؤيا . ثم شخص نظرهُ الى ايقونة ابن الله وكانت عيناهُ تذرفان الدموع وقال يا يسوع يا اله قلبي يا أَبا الرحمات اسألك باستحقاقات الامك المقدسة ألَّا تهمل جنودك ثم حنا رأسهُ واستند الى المنبر كانسان قد أَعيا من التعب وصمت وبقي هكذا مدة من الزمن ثم نهض بحركة الابتهاج وقال للمحفل اني أُخبركم يا اخوتي بان سيدنا يسوع المسيح انتصر لنا والآن في هذه الساعة جنودهُ تعالى ظفروا باعدائنا وقتلوا منهم كثيرين وفي يوم الجمعة الآتي سيأتي من قبلهم مركب يبشر بالظفر وقد تمَّت نبوتهُ حرفًا بحرف

٥ . في ما صنعهُ قبل ذهابهِ الى اليابون ونصائحهِ لمرسليهِ

ولما كان سكان المدينة يكرمونهُ جدًا لاجل هذي العجائب خرج وانطلق الى مدينة غوا ووصل اليها في اليوم العشرين من شهر اذار سنة ثماني واربعين وخمسمائة والف للمسيح وهناك عزم على الذهاب الى مملكة اليابون وذلك بعناية الله من اجل هذا الامر الذي نوردهُ وهو انهُ لما كان في مدينة مَلَقا اذا رجلٌ يابونيٌ يقال لهُ انجير كان مضطربًا معذبًا من ضميرهِ من اجل خطايا شبيبتهِ وكان قد انضمَّ الى رهبان البلد الوثنيين المعروفين باسم بونويين ولم يحصل على راحة الضمير ولما وجد تاجرًا برتوغاليًا أَخبرهُ بشقاءِ حالهِ فقال لهُ التاجر ان في مدينة مَلَقا رجلًا قديسًا يقال لهُ فرنسيس كسافاريوس وهو ملجأ الخطأة وتعزية الحزانى وانهُ يريح نفسك لا محالة . فسافر انجير في طلب القديس فلما رآهُ الرسول عرف بروح النبوة ان هذا الرجل يكون اول مسيحيي اليابون فمن ثم احتضنهُ بمحبة ولم ينتظر حتى يخبرهُ بسوء حالهِ بل اكد لهُ انهُ سيجد الراحة التي جاء في طلبها من موضع شاسع ولكن اذ كان لا بد قبل كل شيءٍ من ان يعرف شريعة الاله الحق ويجري بمقتضاها بعث بهِ الى مدرسة غوا الاكليريكية ليتأهب هو وكل قومهِ للاستحمام بماءِ المعمودية . فاتبعهُ الأب كسافاريوس ولما فرغ من هداية من كان باقيًا من عبدة الاوثان الذين على ساحل برَفاس ومالابار وفي راس كومورين وجزيرة سيلان وصل الى غوا فوجد هناك تلميذهُ الجديد ولما رآهُ قد بلغ من العلم الغاية عمدهُ وسماهُ بولس سَنت فوا وجعلهُ اشدَّ غيرةً ما بين معلمي التعليم المسيحي . فلما اطَّلع منهُ الرسول على ما يخص مملكة اليابون اعدَّ نفسهُ للذهاب اليها وصرف زمنًا ما في الرياضات الروحية ومناجاة الله في الخلوة وبما انهُ كان مستعدًا ان يغيب طويلًا اقام الاب غسبار برزي على كل المرسلين اليسوعيين رئيسًا عامًا نيابةً عنهُ وارسل بعضهم الى اقاليم مختلفة الرسالة وسلمهم نصائح مفيدة جدًا ومن جملة ما كتبهُ الى الرئيس الجديد ما نصهُ

اني اسالك بحق محبتك نحو سيدنا يسوع المسيح وبحق حبك لابينا اغناطيوس ورهبانيتنا ان تعامل كل الاباء والاخوة الذين في الهند بجزيل الوداعة فلا تأمرهم بشيءٍ قبل ان تكون قد فحصت عنهُ فحصًا دقيقًا . ثم اورد أمرك بالفاظٍ مقرونة باللطف منزهةٍ عن شوائب الكبرياء عامةً ثم احذر من

ان تكتب في رسائلك الى رهباننا المرسلين المحتملين ثقل النهار وحرَّهُ الفاظ جفاء وخشونةٍ بل احرص على ان تظهر خلوص المحبة في كل كلمة وسطرٍ واعطِهم بسخاء وسرعةٍ كل ما يطلبونهُ من كسوةٍ وقوتٍ وغير ذلك من لوازم العيش والعافية

هذا واما في شان تعليم المرسلين فقد كتب اليو ما مضمونهُ . انهُ يجب عليك ان تعلم الاطفال والجهال التعليم المسيحي والصلوات الضروريَّة . وان تعود المرضى المساكين وتحثَّ الجميع على الاعتراف وتناول القربان المقدس مبيّنًا لهم ان سرَّ الاعتراف هو دواء للخطايا السالفة وان سرَّ القربان المقدس صيانةٌ للنفس من العود اليها . وان هذين السرين يبيدان علة شقائهم وبلاياهم الزمنية لأنها ناشئةٌ عن خطاياهم . وحثهم ايضًا كثيرًا على ان يعترفوا اعترافًا عامًّا لان اكثرهم يحتاجون الى ذلك احتياجًا كليًّا

واما تصرفك مع اصدقائك من العوام فليكن كتصرفك مع من تعتقد انهُ سيكون عدوَّك ومن ثم تلتزم بان تحذر من ان تفعل او تقول امامهم ما ربما تندم عليهِ او يمكن ان توبَّخ من اجلهِ . وبالنتيجة ان هذا الاحتراس ما لابدَّ منهُ مع اهل هذا الزمان الفاسد تجاه الذين يترقبون ابناء النور بعين خبيثة شريرة . ثم ابذل المجهود في انك تنمي كل يوم في الفضائل لاسيا في فضيلة احتقار الذات ومناجاة الله تعالى واتقان افعالك واقوالك بفطنةٍ مسيحية . ومارس كل يوم فحص الضمير الخاص مرتين او اقل ما يكون مرة واحدة حسب عادة رهبانيتنا

وأكثر من وعظ الشعب لان الوعظ هو خير عمومي وهو العمل الانجيلي الذي منهُ يُرجى اكثر نفعٍ ولكن احذر من ان تورد شيئًا مشكوكًا فيهِ او ما يتجادل عليهِ العلماء الكاثوليكيون بل اجعل موضوع تعليمك حقائق راهنة واضحة تنتهي بمن يتاملها الى اصلاح السيرة . فاذكر سماجة الخطية واظهر عظمة الله الذي افترى عليهِ الانسان بالخطية واقصد بكلامك ان تخيف الناس من قضاء غضب الله على الاشرار في يوم الدينونة . صوِّر باحسن ما استطعت عذاب جهنم وتوعَّد بالموت اي موت الفجاة كل الذين يتغاضون عن خلاصهم والذين مع كونهم متورطين في أوحال الآثام يعيشون مستريحين كأن لاخطر عليهم . ولتكن كل هذه الاعتبارات مقرونةً بما يختص بصليب المسيح والآمهِ المقدسة وذلك على وجه يلين القلوب ويعطفها الى الندامة على الخطايا . ومتى أخذت في التونيب على الخطايا فاياك ان تعيِّن اصحابها ولا سيما ذوي الشرف والسلطة بل أسرَّ اليهم النصح او قدم لهم النصائح عند الاعتراف مظهرًا المودة والاكرام

واما من جهة استماع اعترافات الناس في المشرق حيث ارتخى العنان للشرور وقلَّة التوبة فاحسن ما يكون ان تأمر من يطلب اليك ان تعرِّفهُ اذا كان ممن تمادى في الاثم ولم يعترف منذ زمان طويل ان يحسن فحص ضميرهِ يومين او ثلاثة وان يرقم خطاياهُ مساعدةً لذاكرتهِ وليس من اللازم ان تحلَّهُ حالاً بعد سماع اعترافهِ بل كثيرًا ما يحسن ان تمنعهُ من مباشرة الامور الدنيويَّة يومين او ثلاثة ليحسن ندامتهُ بحيث يضحي الحل السري اشد نفعًا . ولاجرم انهُ في هذا الاختلاء يحصل لهُ العلم بكيفية ممارسة الصلاة العقلية واجعلهُ يتأمل في الحقائق الدينية المودعة ضمن بعض الرياضات الروحية التي تختصُّ بالاسبوع الاوَّل وحرِّضهُ على استعمال بعض تقشفات فان كانت ذمتهُ مشغولةً بمال الغير فألزمهُ ان يردَّهُ الى صاحبهِ فهو حرام عليهِ لا يطيب لهُ التصرُّف فيهِ ولا تبرأُ ذمتهُ الاَّ بالردّ وان كان قد اعتدى على احدٍ وقدح فيهِ وشنَّع عليهِ فلا بدَّ من ان يكذّب نفسهُ عند كل من اغتابهُ امامهم وذلك بان يثني عليهِ ويطنب في مدحهِ ليخرج من القلوب ما زرعهُ فيها من الاستهوان والازدراء بذمة وسوِّد صيتهُ . واذا كان من اهل الخلاعة والدنس فاوجب عليهِ ان يقطع رباط الدنس بمجانبة ما يؤدِّي اليهِ من الاسباب اذ لا وقت أنسب من ذلك لان تكلف الخطأة الفروض الضرورية والصعبة واذا تراخيت حتى تبرد فيهم حرارة الندامة فلا تحصل على طائل بل ربما يتهوَّرون في الاثم ثانيةً

ثم احذر عند استماع اعترافات الناس من ان تظهر شدةً في ابتداء كشفهم جراحات نفوسهم بل مهما كانت خطاياهم قبيحة فاصغِ لهم لا بصبر فقط بل بوداعةٍ ايضًا وباظهار الحلم والشفقة . ولا يظهر عليك انك متحيِّر من اقبح ما يوردهُ المعترف لئلا ييأس من المغفرة بل اشرح لهُ عظمة الرحمة الالهية واذا رأيت فيهِ علامات قلقٍ عند كشفهِ اثمًا من آثامهِ فانصح لهُ على الفور قل لهُ ان هذه الخطيئة ليست بكبيرة كما تظنّها فيوجد اكبر منها وانك بنعمتهِ تعالى تستطيع ان تبرئ

اشد جراحه خطرًا وأبعدها شفاء ومن ثمَّ يتهيأ له ان يذكر كل شيء مما خالف بهِ الشريعة . واذا وجدت اناسًا يكفّهم عن كشف الزلّات الفظيعة الضعف وجهل العمر ثمَّ اطلعت ان الخجل قد استحوذ عليهم فبادر الى مساعدتهم قائلاً قد ركب مثل هذه الزلّات كثيرون قبلكم بل تلطخوا بما هو اكبر منها وانسب سقطاتهم الى فساد الطبيعة واحتداد التجربة

اما الذين يتقدمون للاعتراف بعد فحص ضمائرهم فبعد ان يقرّوا بكل اثامهم فلا تظن انك قد صرت غير ملتزم بشيء نحو المعترف فقد بقي عليك ان تخوض في الاستعلام عن ذنوبهِ والبحث عمَّا في ضميرهِ مما لا علم له انهُ يوجد فيهِ فاسألهُ عن احوال تجارتهِ ان كان تاجرًا وعن المبادي التي تدور عليها كل تصرُّفاتهِ وسترى ان اكثر التجار يعطون اموالهم بالرباء وان الذين لا تلذعهم ضمائرهم هم الذين اكتسبوا معظم اموالهم من ابواب محرَّمة فيا لها مصيبة كبيرة واعتقد ان الارباح الدنيويَّة قد صلَّبت قلوب كثيرين حتى انهم بعد اختلاسهم مال الغير لا يشعرون بلدغ الضمير اصلاً او يشعرون بهِ قليلاً

ومن جهة سلوكك مع الناس فاظهر في كل حين البشاشة ولا يظهر فيك ادنى ما يكون من النزاقة والحزن اذ بدون هذا تفرّ منك الناس ولا يكشفون لك قلوبهم وليكن كلامك مقرونًا بلطف واستعمل النزاهة في التوبيخ ايضًا بان تأتي بالفاظ تؤدي الى المقصود ولا تؤذي السامعين لكي يتحقق ان الذي تبغضهُ هو آثامهم لا أشخاصهم

واعلم انك سترى في سر الاعتراف اناسًا قد استعبدتهم شهوة البغاء او محبة الفضة بحيث لا يؤثر فيهم حبُّ الله ولا ذكر الموت ولا الخوف من جهنم فمثل هؤلاء ينبغي ان تتوعَّدهم بما يرهبونهُ من كوارث الدهر فانذرهم صريحًا قل لهم انهُ ان لم يسكنوا رجز الله وحدَّة غضبهِ فلا بدَّ ان يدركهم عن قريب ما يخافون منهُ كغرق بضاعتهم في البحر وخسارة اموالهم عند حاكم ظالم وتصيبهم امراض مؤلمة واخيرًا يسقطون في حال شقاء فلا يرحمهم احد . وقل لهم ايضًا ان الله لا يهزأ بهِ باطلاً وانهُ بمقدار طول اناتهِ على شرورهم يكون انتقامهُ شديدًا

ولا تقبل من احد شيئًا غير الذي عيَّنهُ الملك لمعاشك لان حرّية الخادم الانجيلي تقتضي ان لا يأخذ معاشهُ من الذين يرشدهم في طريق الخلاص ويلتزم بردّهم الى التوبة اذا حادوا عنها ولنا ان نقول عن هذه العطايا ان من يأخذها يُؤخذ هو بها ويُصاد ومن ثم نرى الذين يلتزمون بتوبيخ من نصدّق عليهم يتضيقون جدًّا ولا يدرون كيف يصوغون لهُ النصيحة ثم ان الذي يتصدق على مرشدهِ الروحي يتخذ عليهِ باطنًا شيئًا من السلطة فتمسي عطاياهُ سببًا لان يستخفَّ بكلام مرشدهِ واخصُّ بهذا المستغرقين في الرذيلة فمثل هؤلاء فاذا اضطررت فلا تقبل منهم الا هدايا قليلة الثمن وقل لهم حينئذٍ انك تقبل منهم تلك الهدايا بشرط انهم يقبلون نصائحك بالرضا ايضًا

فبعد ان كتب الرسول الى المرسل المار ذكرهُ هكذا كتب ايضًا رسالة الى القديس اغناطيوس رئيسهِ العام والى الرهبان اليسوعيين الذين في رومية وفي تلك الرسالة يقول لهم ان الله تعالى قد أراني مزيد احتياجي الى صلواتكم . ان نسيتكِ يا رهبانية يسوع تنساني يميني

٦ . في سفرهِ الى اليابون وأعمالهِ الرسولية فيها

ثم ترك غوا سنة تسع واربعين وخمسمائة بعد الالف وصحب اثنين من رهبانهِ واليابونيين الثلثة المار ذكرهم واذ وصل في سفينةٍ الى مدينة مَلَقا قيل لهُ ان احد ملوك اليابون أرسل وطلب مرسلين ليبشّروا شعبهُ بالانجيل وذلك من أجل حادثة عجيبة وقعت في بلدتهِ وهي انهُ لما وصل تجار البرتوغال الى مملكتهِ انزلهم الملك في منزل مهجور لان الارواح الخبيثة تتردَّد اليهِ واخبرهُ اولئك التجار حقيقة الامر لانهم في الليل سمعوا اصواتًا هائلة وبعد ان رقدوا على فُرُشهم ضُربوا بيدٍ غير منظورة فانهم لم يعاينوا أحدًا غير انهم بعد ذلك رأوا شبحًا هائلاً كانت صورتهُ صورة شيطان فنصبوا وقتئذٍ في المنزل صلبانًا فلم يعد يسمع شيء ولم يُرَ شيء فتعجب اليابونيون والملك من هذه الاعجوبة وأمر بنصب الصليب المقدس في بلاطهِ وكل طرق بلدتهِ . ثم اراد ان يعرف من اين للصليب هذه القوة على اخراج الشياطين وطردهم ومن أجل ذلك أرسل وطلب مرسلين يعلمونهُ

فسافر اليهِ القديس كسافاريوس بأرفاقهِ ووصلوا في اليوم الخامس عشر من شهر آب عام تسعة واربعين وخمسمائة والف الى مدينة باليابون يقال لها كانغوكسيما مدينة الخبير المتقدم ذكرهُ وبعد مدة توجه الى ملك سكسومة فاستقبلهم باكرام واذن لهُ ان يُبشّر بالانجيل المقدس وان يقبلهُ كل من يريد في مملكتهِ فشرع القديس يدرس لغة البلد لان موهبة الالسن

الممنوحة له كانت عابرة غير مستقرة ولم يكن يمتنع بها الاَّ حيناً فحيناً . الاَّ انهُ تعالى كان يمهِّد له الطريق لانتشار الايمان لانهُ في ذات يوم وجد صيادين لم يصيدوا شيئاً بعد تعب شديد فاوعز اليهم ان يلقوا شباكهم مرةً أخرى فلما القوها امتلأت سمكاً . ثم شفى بعضاً من المرضى بمجرد كلامهِ وأقام فتاةً ميتة من القبر ومرةً شتمهُ رجل وثني جهراً فاجابهُ القديس قائلاً ليحفظ الله لسانك فحالاً ضُرب الوثني في لسانهِ وشرع يتزل منهُ قيحٌ ودود وحينئذٍ آمن بالانجيل المقدس نحو مائة رجل الاَّ ان الملك ألغى سريعاً الاذن في الانذار بالانجيل وبسبب ذلك ذهب القديس الى حيث كان يرجو ثماراً وافرةً

فسافر منتقلاً الى مملكة فيرَندو فوجد في الطريق قلعة فأنذر سكانها فآمن منهم سبعة عشر شخصاً فأضحوا مسيحيين نشيطين ولما سئل احدهم بعد بماذا يجيب الملك اذا أمرهُ بجحود النصرانية فقال اقول لهُ إن كنت تريد ان اكون في خدمتك متيناً مستعداً لسفك دمي وبذل حياتي دونك فدعني اكون على الايمان المسيحي ثابتاً لانهُ يأمرني بذلك . فوصل القديس براهبين يسوعيين الى مدينة فيرَندو وباذن الملك بشر الشعب بالايمان فقبلهُ كثيرون ولما رأى الشعب مستعداً لقبول النور ترك هناك راهباً يسوعياً وذهب الى مدينة أمَنغوشي رغبةً في انهُ يمضي بعد من هناك الى مدينة مياكو حيث كان يسكن اعظم ملوك اليابون . فكرز في شوارع أمَنغوشي اياماً ولكن لم يفتح احدٌ عين بصيرتهِ ليبصر النور بل الجميع ضحكوا منهُ قائلين ما هذا الرجل الساهي العقل الذي لا يريد ان يكون لنا سوى إلهٍ واحد وامرأةٍ واحدة

فخرج الرسول من هناك برفيقهِ اليسوعي ورجلين من نصارى اليابون. واعلم انهُ ليس بين امنغوشي ومياكو الاَّ مسافة خمسة عشر يوماً اذا كان الجوّ معتدلاً واما هؤلاء المسافرون الأربعة فقضوا شهرين على الطريق تارةً يخوضون السيول وأخرى يقطعون الصحاري والغاب التي غطّتها الثلوج ويتسلّقون طوراً على الصخور وينحدرون حيناً الى الوديان . فاصاب الأب كسافاريوس في الشهر الاوّل بسبب هذا العناء الشديد حمَّى ألجأتهُ ان يرتاح قليلاً في ساكاي غير انهُ أبى ان يستعمل علاجاً او يتناول دواءً وما لبث ان استأنف المسير في طريقهِ

واكبر دواعي تكدُّرهِ هو ان برنردوس دليلهم كان يُضلُّهم الطريق دائماً وفيما كانوا تائهين في غابةٍ ما ولا يدرون ايَّ طريقٍ يسلكونهُ اذ بخيَّالٍ كان متوجهاً الى مياكو فاتبعهُ كسافاريوس وعرض عليهِ ان يحمل لهُ صندوقهُ على ان يتعهد لهم بان يخرجهم من تلك الغابة ويقطعوا بسلام اشدَّ الاماكن خطراً فاجابهُ الخيال الى ما ترجى ولكنهُ سار بجوادهِ خبباً بحيث اضطرَّ القديس ان يركض على اثرهِ وبقي هكذا النهار كلَّهُ . واما أرفاقهُ فكانوا يتبعونهُ من بعدٍ ولما ادركوهُ حيث تركهُ الخيال كان قد انهكهُ السير حتى كاد لا يستطيع ان ينتصب قائماً لان قدميهِ تجرَّحتا مما داستاهُ من الحصى والاشواك واما فخذاهُ فأخذ فيهما الورم كل مأخذ حتى تشققتا من مواضع وكل هذه الاتعاب والاوجاع لم تعقهُ عن المسير لانهُ كان يتقوَّى بمناجاتهِ الله . ووصلوا الى مياكو في شباط سنة إحدى وخمسين وخمسمائة والف فوجدوها مشوَّشة بسبب الحروب وبشَّروا فيها بالانجيل فلم تقع البشارة في قلبهم موقعاً حسناً

فرجعوا الى أمَنغوشي وهناك انتشر الايمان جداً وكان القديس يعظ كل يوم مرتين اعني قبل الظهر على التجار الصينيين وبعد الظهر على اليابونيين وقد كان يتعجَّب الجميع من انهُ كان يحسن النطق باللغة الصينية مع انهُ لم يكن تعلم منها ولا حرفاً . واعجب من ذلك انهُ اتفق بعد ان كانت الناس تلقي عليهِ سؤالات مختلفة المعاني كان هو بجوابٍ واحد يحل كل مشكلاتها ويقنعهم كلهم وهاتان الاعجوبتان صيرتا الايمان المسيحي محبباً لدى الجميع . ومثلهُ كان يكرز رفيقهُ اليسوعي في شوارع المدينة امام جمعٍ كثير وكان البعض يضحكون منهُ ثم دنا احدهم نحوهُ كأنهُ يريد ان يكلمهُ وحينئذٍ استخرج من صدفهِ تفلةً كريهة جسيمة ورماها على وجههِ اما الواعظ فلم يضطرب من ذلك البتة بل اخرج منديلهُ ومسح بهِ وجههُ وعاد يعظ كما كان من ذي قبل كأنهُ لم يحدث لهُ شيءٌ فالذين كانوا يضحكون منهُ تعجبوا جداً ولا سيما معلم الناموس في مدينة أمَنغوشي . فهذا تفلسف في نفسهِ قائلاً ان الديانة التي تصير الانسان يحتمل بالصبر مثل هذه الاهانة هي ديانة قد أتت من السماء والواعظ الذي يقبل هذا الافتراء بسكينة من المحال انهُ يغش ومن الممتنع ان القوَّة الطبيعية تجعل الانسان هادئاً في حال الاهانة ولا شك في ان هذا الصبر في هذا الاتفاق يكون

ممن في يدهِ قلب الانسان ويشدّدهُ بقوة فائقة الطبيعة . ولا ريب في ان هولاء الواعظين معتقدون صحة تعليمهم ولهم رجاء وطيد ان ينالوا الاجر المشار اليهِ في ناموسهم وان كان تعليمهم حقًّا فلا بد من اني اهلك الى الابد ان كنت لا اعتقدهُ حتى انهُ لو لم تكن حياة غير هذه لكان خيرًا لي ان أتخذ ديانةً تصير الانسان مترئسًا على نفسهِ وذا سكينة باطنة متصلة من أن استمرَّ في ديانة تربّي نقائص الطبيعة . وفيما كان يردد هذا في عقلهِ كانت النعمة الالهية تؤثر في قلبهِ باطنًا فبعد نهاية الوعظ اتى الى الواعظ وطلب منهُ العماد فعمّدهُ جهرًا واقتداءً بهِ آمن كثيرون

فلما رأى الرسول الايمان متأسسًا في مملكة اليابون عزم على الرجوع الى غوا ليختار اناسًا رسوليين ليخدموا هذا الكرم الجديد وقصد ان يمضي بعد ذلك الى الصين ليفتح هناك بابًا للانجيل المقدس . فترك في مدينة أمنغوشي الراهبين اليسوعيين رفيقيهِ وذهب الى مدينة فوشيو عاصمة مملكة بونغو فاذ وصل الى هناك استقبلهُ الملك باكرام جزيل . ثم رام احد علماء الوثنيين ان يُجادل القديس امام أهل المدينة فاذ اجتمعوا افتتح الرسول الخطاب بايراد الايمان الانجيلي وقداسة اوامرهِ وقد اسهب في شرح ذلك فتنور الوثني وامن لا باطنًا فقط بل ظاهرًا ايضًا لانهُ جثا امام الجميع عند رجلي القديس ثم رفع يديهِ الى السماء وقال بعين دامعةٍ يا يسوع المسيح ابن الله الحقيقي الوحيد اني لاعترف مصدّقًا انك الهٌ واحدٌ قادر على كل شي واطلب من الحاضرين ان يغفروا لي ما خدعتهم بهِ بتعليمي المضل المهلك . فلما سمع الجميع هذا استنار منهم خمسمائة رجل وطلبوا المعمودية غير ان القديس لم يرد ان يعمدهم عاجلاً بل أعدَّهم لقبول هذا السر باصلاح سيرتهم وهكذا فعل مع ملك بونغو الذي لم يعتمد الاَّ بعد رجوع القديس الى الهند

٧ . في رجوع القديس الى مَلَقا وغوا وما صنعهُ فيهما

وفي غضون ذلك أتتهُ رسالة من اليسوعيين الذين في غوا يخبرونهُ بها بانهم في حاجةٍ الى حضورهِ اليهم فسافر وكان ذلك في اليوم العشرين من تشرين الثاني سنة احدى وخمسين من القرن السادس عشر وكانت مدة سكناهُ في اليابون سنتين واربعة اشهر وبينما هو مسافر اذ هبت ريحٌ عاصفةٌ من شدتها انقطع الحبل الذي يتعلّق بهِ القارب بالسفينة الكبيرة السائر وراءَها وكان فيهِ ابن اخي رئيس المركب واربعة غيرهُ فساقت الريح القارب الى بعيدٍ فظن الجميع انهُ قد غرق وفيما كان الربّان يبكي بكاءً مرًّا قال لهُ القديس لا تحزن يا اخي لانهُ قبل ان تمرَّ ثلثة ايام يرجع الابن الى أمهِ وأشار الرسول بهذا الكلام الى ان القارب يلحق سفينتهُ ففي اليوم الثالث باكرًا صعد الرئيس الى الصاري فلم يرَ شيئًا وانقطع رجاء الجميع فانفرد القديس ليصلّي فاطال الصلاة . ثم رفع عينيهِ الى السماء وهتف بدموعٍ قائلاً يا يسوع الصالح ربي والهي اني اسألك بحق آلامك المقدّسة ان ترحم هؤلاء المساكين الآتين الينا بين امواجٍ هائلة . فلما فرغ من الكلام اذا بالقارب آتٍ فهتفوا جميعهم أعجوبة ثم جثوا على قدمي الرسول مستغفرين منهُ على عدم ايمانهم بنبوّتهِ فهرب القديس منهم واختفى . فلما وصل القارب وابتدأ الذين في السفينة يسألون الذين كانوا فيهِ عمّا جرى لهم في هذه الايام الثلثة قالوا انهم ساروا على البحر الهائج من دون خوف لان كسافاربوس صاحبهم واعتنى بالقارب ولكون الذين في القارب اثبتوا كلامهم هذا وهو ان القديس كسافاربوس كان معهم طول المدة استحوذ عليهم الذهول وتحقق ان القديس كان في هذه الثلثة الايام موجودًا في مكانين متباعدين ولاجل هذه الاعجوبة المذهلة آمن شخصان من أهل الكفر واعتمدا

ولما بلغ مدينة مَلَقا قابلهُ اهلها باكبر لوائح الفرح واما هو فكان لا يزال يفتكر في رسالة الصين غير انهُ لم يعرف كيف يسافر الى تلك المملكة لان الصينيين ما كانوا يحبون البرتوغاليين . فضلاً عن صعوبة مشروعهِ وكان الغرباء ممنوعين من دخول تلك البلاد تحت عقاب الموت او السجن المؤبد ومن ثم فالتجار البرتوغاليون الذين دخلوها سرًّا بقصد التجارة عُرفوا فقُتل بعضهم واستُبقي البعض مكبلين باغلالٍ من حديد ومعذّبين الى ان يماتوا في السجن . فاذ خاطب كسافاربوس السيد بدرو دي سيلفا حاكم مَلَقا القديم والسيد الفارس دي أتيدا الذي خلفهُ وقع الاجماع على ان يبعثوا بسفير من قِبل ملك البرتوغال الى الصين ليستأذن في تعاطي التجارة في تلك المملكة لانهُ اذا كان ذلك زالت من امام المبشّرين الانجيليين هذه المصاعب ولكن بقيت الامور عند هذا الاعتقاد وفي غضون ذلك ركب القديس سفينةً ليذهب الى غوا وكان بلوغهُ الى كوشين في اليوم الرابع والعشرين من كانون الثاني

سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وألف ووجد هنالك ملك ملديف الذي الجانهُ رعيتهُ المتمردة عليهِ الى الفرار والاستجارة بالبرتوغاليين فعمدهُ وكان هذّبهُ وعلمهُ الاب هيريدا ولما يئس هذا الملك من تحصيل مملكتهِ تزوّج امرأةً برتوغالية وعاش معتزلاً حتى مات وكان متمتعاً بتمام السعادة لانهُ اعتاض عن التاج الملكي بموهبة الايمان ونعمة المعمودية

وبلغ كسافاريوس الى غوا في غرّة شباط فزار المستشفيات ثم توجه الى مدرسة القديس بولس حيث شفى مريضاً قد أخذ في النزع واجتمع ثمَّة باكثر المرسلين الذين بعثهم الى بلاد الهند قبل مسيرهِ الى اليابون والذين كانوا قد اناروا بضياء الايمان شعوباً شتى . وكان الاب كسبار برزي قد هدى الى المذهب الحق جزيرة أُرموز وعاصمتها والنصرانية زاهية في ساحل بيشري وامتدَّت كثيراً في كوشين وكولان و بازان وميليابور وجزائر مولوك وجزيرة مور وغير ذلك من الاماكن المجاورة . ان ملك تانور الذي كانت مملكتهُ في ساحل مالابار اعتمد واعتمد ايضاً ملك تريشينامالو وهو احد ملوك جزيرة سيلان

ان كسافاريوس سُرَّ كثيراً بانتشار الانجيل غير انهُ تكدَّر من تصرُّف الاب انطون غوميز رئيس مدرسة غوا فهذا كان رجلاً عالماً وخطيباً مصقعاً لكنهُ كان فريداً في التشبُّث بارائهِ فكان يتصرَّف على خلاف الطريقة المعوَّل عليها في الرهبانية ويُدخل كثيراً من الامور المغايرة القانون حتى ان القديس لم يجد بدّاً من طردهِ من الرهبانية واقام بدلاً منهُ الاب كسبار برزي الذي جعلهُ ايضاً نائب الرئيس الاقليمي . وبعث وقتئذٍ بوعّاظٍ الى جميع الرسائل التي في الهند الشرقية واخذ من نائب الملك الفونس دي نورونيا توصيةً مضمونها ان يكون يعقوب بيربريا سفيراً في الصين . هذا ولما فرغ من ترتيب الامور كلها ودّع اخوتهُ وأعطاهم التدابير التي حكم انهم اشدّ احتياجاً اليها من غيرها وخرج من غوا في اليوم الخامس عشر من نيسان سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وألف وسافر الى ملَقا في أحد المراكب الملكية فوجد مجالاً واسعاً لفضيلة المحبة بحيث كان قد استوبأ في المدينة داءٌ أمات اكثر أهلها وكان متنبئاً عليهِ قبل حدوثهِ . فانهُ حالما وطئت قدمهُ اليابسة ذهب في طلب المرضى فكان يذهب هو ورفقاؤهُ من سكةٍ الى سكة ليجمع البائسين المنطرحين على البلاط في الشوارع وما لهم من معين وكان ينقلهم الى المستشفيات والى مدرسة الرهبانية وبنى على ساحل البحر اكواخاً ليأوي بقية هؤلاء المساكين ثم جلب لهم الأدوية والأغذية الضرورية . وأقام في ذلك الوقت شاباً يُعرف باسم فرنسيس سيافو الذي لبس ثوب الرهبانية مذ أقامهُ من الموت ولما أوشك الوباء ان يزول تفاوض مع حاكم ملَقا على سفارة الصين لان السيد الفونس دي نورونيا كان قد فوّض اليهِ قضاء هذه المسألة

وحكم هذه المدينة ألفاريوس دي أتيدا غاما من بعد بدرو دي سيلفا غاما فهذا لم يكن راضياً عن بيربريا فقاوم مقصد السفارة فذكَّرهُ كسافاريوس بسلطة الملك وأمر نائبهِ ولكن لم يستفد شيئاً فان ألفاريوس تغيظ منهُ وأوسعهُ اهانةً وامتهاناً واما القديس فداوم الالحاح شهراً ولكن أخفق مسعاهُ وخاب أملهُ وآخر الأمر هدَّد الحاكم بالحرم ان كان لا يزال مقاوماً انتشار الانجيل وابرز براءات البابا بولس الثالث التي كانت تثبتهُ قاصداً رسولياً ولم يخبر بها لتواضعهِ احداً منذ قدم الهند . واما الحاكم فسخر بهذا الوعيد بحيث ان نائب الأسقف رشقهُ بالحرم ولما رأى كسافاريوس ان المقصد من السفارة لا سبيل الى اتمامهِ ازمع ان يركب سفينةً برتوغاليةً كانت مسافرةً الى جزيرة سَنسيان قرب ماكو على ساحل الصين غير ان الحاكم عُزِل وقتئذٍ لسلبهِ اموال الناس ولذنوبٍ أُخر واقتيد مصفَّداً بقيودٍ من حديد الى غوا بأمر الملك

٨ . في سفرهِ الى جزيرة سَنسيان ووفاتهِ فيها

ثم أعدَّ كل شيءٍ للذهاب الى الصين وسافر واذ كانوا في الطريق نفد كل ما عندهم من الماء حتى ان الاكثرين من شدَّة العطش مرضوا فصلّى القديس وعلى أثر صلاتهِ نزل من السفينة في القارب مع غلامٍ واتخذ من ماء البحر وقدَّمهُ لهُ قائلاً ذُق واخبرني أهو ملحٌ ام حلوٌ فذاق الغلام الماءَ وقال لهُ ملحٌ فأمرهُ القديس ان يذوقهُ ثانيةً وذاقهُ فوجدهُ حلواً فشرع النواتي يملأون الأوعية منهُ لانهم وجدوهُ حسناً جدّاً فلما رأى الكفار الذين في السفينة هذه الآية آمنوا واعتمدوا وحفظ النواتي جرّاً من هذا الماء وبهِ كانت تشفى المرضى

فبعد هذه الآية سقط في البحر غلام لرجلٍ مسلمٍ كان رأى الاعجوبة الاولى ولم يقبل الايمان فشرع يبكي على موت ابنهِ وبقي ثلثة أيام باكياً لا يخاطب احداً ولما رجع الى القوم وهو

لا يزال باكيًا قال لهُ القديس حينئذٍ ان كان الله تعالى يرد لك ابنك حيًّا فهل تؤمن بسيدنا يسوع المسيح فوعدهُ الرجل بذلك وبعد ان مرّت ثلثة ايام وُجد الطفل واقفًا في المركب ولم يعرف هو ماذا جرى بعد سقوطهِ في البحر وكيف عاد الى المركب فآمن ابوهُ وامرأتهُ وابنهُ وخادمهُ بالمسيح واعتمدوا كلهم

فلما وصل المركب الى جزيرةٍ قرب الصين تُدعى سَنسيان وجد هناك تاجرًا غنيًّا يقال لهُ بطرس فيليو وكان القديس رجع معهُ من اليابون وهذا الرجل التاجر كان ذا وجهٍ بشوش محبًّا للهو ورَغد العيش وكان القديس يشتهي خلاصهُ ويحثهُ على التقشف اما التاجر فلم ينجع فيهِ النصح غير انهُ كان يتصدَّق بالمال الكثير عوض التقشف

فاتفق يومًا ان الرسول طلب منهُ مالاً ليزوّج فتاةً فقيرةً عرضةً للخطر بسبب جمالها وكان التاجر ملتهيًا باللعب مع تاجر آخر فقال للقديس كانهُ مغتاظٌ منهُ كيف تطلب مالاً من انسان يخسر دراهمهُ باللعب فما هذا بموافق فعليك ان تجيئني في زمانٍ اكثر مناسبةً . أجابهُ القديس أليس كل زمانٍ مناسبًا لعمل الخير خصوصًا مَنْ المال تحت يدهِ . فتظاهر التاجر حينئذٍ كانهُ مغتاظ وسلمهُ مفتاح صندوقهِ وقال لهُ ان شئت فخذ كل ما فيهِ وأرحني منك وقد كان في الصندوق خمسة وأربعون الف قرش ذهبًا . فمضى القديس ولم يأخذ منهُ سوى ثلثمائة قرش لزواج اليتيمة . فلما رجع التاجر وفتح الصندوق لم يجدهُ ناقصًا شيئًا فمضى وعاتب القديس على عدم اخذهِ من المال شيئًا . اما القديس فاجابهُ قائلاً اني اخذت من صندوقك ثلثمائة قرش فحلف لهُ التاجر وقال انهُ لم ينقص شيءٌ مما كان في الصندوق قبلاً وقد كنت اظن انك تأخذ نصف ما فيهِ وتترك لي النصف الآخر لانهُ كان هذا قصدي في تسليمك مفتاح الصندوق . فأجابهُ الرسول بروح النبوة قائلاً اعلم يا بطرس ان الله تعالى يأجرك على هذه النية الصالحة مائة ضعف ثم اني اخبرك من قبل الله ان خيور الدنيا لا تعوزك ابدًا واذا ألمت بك رزيّة يساعدك اصدقاؤك وحينما تجد الخمر مرًّا فاعلم انك تموت قبل ان يمرَّ يوم واحد . وقد تمت هذه النبوَّة بالتدقيق وفي زمن شيخوختهِ اذ كان يومًا جالسًا مع احبائهِ على المائدة طلب خمرًا فلما شربها وجدها مرَّةً جدًّا فتذكَّر للحال نبوَّة القديس وشعر باطنًا بالخوف لا سيما بعد ان جرب الخمر مرارًا وكان الجميع يجدونها لذيذةً وهو وحدهُ كان يجدها مرَّةً في الغاية . فتحقَّق للوقت ان المنية قد دنت فخضع باطنًا لحكم الله تعالى ثم اورد للحاضرين نبوَّة القديس كسافاريوس وقام عن المائدة وقسم امواله بين اولادهِ والمساكين ثم ودع كل اصدقائهِ فظن بهِ انهُ لاجل شيخوختهِ قد خرف الّا انهم رافقوهُ الى الكنيسة فاعترف وتناول القربان المقدس امام كل الشعب الذين التأموا ليروا انتهاء هذا الامر الغريب ثم اتوا بالنعش فجلس التاجر عليهِ فاقيم القداس وصُلّي على التاجر صلاة المجنوز وكان التاجر يترنم معهم في النعش وعند انتهاء هذا كلهِ تقدَّم التجار ليقيموهُ ويأخذوهُ الى بيتهِ فوجدوهُ قد مات . وقد شاهد هذه الحادثة الجميع وعادوا الى بيوتهم شاكرين الله تعالى على رحمتهِ نحو هذا التاجر الجزيل الرحمة على المساكين

هذا ما تنبأ بهِ الرسول على هذا التاجر بعد وصولهِ الى جزيرة سَنسيان . ثم مرض هو وقال انهُ سيموت بمرضهِ هذا وهكذا تم الامر لانهُ مات بذلك المرض عينهِ وكان موتهُ السعيد في اليوم الثاني من كانون الاول في السنة الثانية والخمسين بعد الخمس مائة والالف للمسيح وكان قد أدخل في رعية السيد المسيح ما ينيف على سبعمائة الف نفس وأُدخل القبر في الاحد التالي ووُضع جسدهُ في تابوتٍ كبير على عادة الصينيين وكان مملوءًا جصًّا جديدًا لكي يبلى لحمهُ وتنقل عظامهُ الى غوا ولما كان سابع عشر شباط سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة والف فُتح التابوت ليُرى هل ابلي لحمهُ ام لا فرفعوا الجصَّ عن وجههِ فاذا هو غضٌ احمر كوجه من نام مرتاحًا وكان جسدهُ كاملاً ولا علامة فيهِ على الفساد غير انهم ليزدادوا تحقيقًا قطعوا قطعةً من لحمهِ قرب الركبة فسال الدم واما الحلّة الكهنوتية التي دُفن بها فلم يلحقها ضررٌ من الجصّ . وكان جسد هذا الرسول القديس ينشر رائحةً اطيب من جميع روائح النباتات العطرية فوُضع في السفينة ونُقل الى مَلَقا وكان بلوغ تلك السفينة اليها في الثاني والعشرين من اذار فتلقَّاهُ اهل ملقا بأشدّ الاكرام وكان الطاعون قد اشتدَّ أذاهُ منذ اسابيع فزال في الحين ودُفن هذا الرسول في المقبرة العامة ولما كان لم يزل غضًّا وكاملاً نُقل في شهر آب من تلك السنة الى غوا وأُودع في كنيسة مدرسة القديس بولس في اليوم الخامس عشر من اذار سنة

اربع وخمسين وخمسمائة والف وشفى في هذه الفرصة كثيرًا من اسقام مختلفة على وجهٍ عجيب

هذا وامر يوحنا الثالث ملك البرتوغال ان تُسطَّر سيرة خادم الله هذا وما جرى على يدهِ من المعجزات لا في غوا فقط لكن في سائر جهات الهند وكان قد كتب تقرير سيرتهِ جماعة من العارفين الحذَّاق المعروفين بالاستقامة والصدق واعلم ان الآيات التي صنعها الله بشفاعتهِ في الهند واوربا كان لها في القلوب وقع حسن وتاثير شديد حتى ان كثيرًا من البروتسطانت لم يجدوا سبيلاً الى ان ينكروها . ولما تكلم فيهِ نافرنير شبَّههُ بالقديس بولس ولقَّبهُ برسول الهند الحقيقي

وقد اثبتهُ طوباويًا البابا بولس الخامس عام تسعة عشر وستمائة والف واثبتهُ قديسًا البابا غريغوريوس الخامس عشر سنة احدى وعشرين وستمائة والف

ولما كانت السنة الرابعة والاربعون من القرن الثامن عشر أمر يوحنا الخامس ملك البرتوغال رئيس اساقفة غوا ان يزور ذخائر هذا الرسول عليهِ السلام فذهب وبمعيَّتهِ المركيز كستيل نيوفو نائب ملك الهند فوجد جسدهُ سالمًا لم يدركهُ الفساد لا يبعث رائحةً خبيثةً ويظهر انهُ محاطٌ بضياء خارق العادة وليس على وجههِ ويديهِ وصدرهِ ورجليهِ أقلُّ دلالةٍ على الفساد ولما كانت سنة سبع واربعين وسبعمائة والفٍ نال هذا الملك نفسهُ من البابا مبارك الرابع عشر براءةً مضمونها ان خادم الله سيكون مكرَّمًا كشفيع ومحامٍ عن جميع اصقاع الهند الشرقية

ويسوغ لنا ان نقول في سيرة هذا القديس المعظم انها هي شهادة جليلة مقنعة على حقيقة الانجيل المقدس ولا ريب ان من يدقق في البحث على ما صنع الله سبحانهُ على يد هذا الرسول يعترف يقينًا ان الكنيسة الكاثوليكية الرومانية انما هي كنيسة المسيح الحقيقية

اليوم الرابع

وفيهِ ترجمة القديسة بربارة

ان هذه القديسة عليها السلام لها كبير اكرام في بيعة الله شرقًا وغربًا وقد اتى القديس يوحنا الدمشقي بمختصر ترجمتها في عظةٍ لهُ وانما كان الغرض من ايراده مجرد التكريم (١) وكانت ولادتها في اوائل العصر الثالث وابوها وثني يُدعى ديوسكروس (٢) وكان يحبها جدًّا لجمالها وحسن اخلاقها ورقَّة شمائلها فربَّاها في حصن لهُ منفردٍ ولم يدع احدًا من الرجال يبصرها لئلَّا تتزوج بمن لا يريدهُ اما هي فشرعت من اعلى برجها ترفع طَرْفها الى السماء وحينما تأمَّلت بهاء السماء والشمس والقمر والكواكب استنتجت من ذلك وجود الله تعالى الصانع العجائب وان آلهة ابيها الذين خُلقوا في العالم بعد تكوينهِ هم آلهة كَذَبة . روى بعض المؤرخين انهُ حينما بلغها ان في هليوبليس علامةً مسيحيًا يقال لهُ اوريجانوس اشتهت ان تكلمهُ سرًّا فأتى العلامة المسيحي وعلَّمها حقائق النصرانية فآمنت بل ارادت ان تسير حالاً في طريق المشورات الانجيلية فنذرت لله عفتها

ثم عزم ابوها على تزويجها فقدَّم لها واحدًا من امراء البلد فاعتذرت لهُ وقالت لوالدها لا أُريد ان اتزوج لانك قد شخت فدعني اخدمك الى آخر حياتك فسرَّ ابوها من جوابها وتركها على عزمها وسافر متأملاً انهُ بعد رجوعهِ يغير قصدها ويقنعها بأمر الزواج فطلبت البتول ان يبني لها حمَّامًا في بيتهِ فأمر الفعلَة بذلك وقال لهم افتحوا فيهِ كوَّتين لتكثير الضوء الّا ان البتول بعد ذهاب ابيها قد صيرت هذا الحمام بيت صلاة وكنيسة وفتحت لهُ ثلث كوَّات على اسم الثالوث الاقدس . وحيث لم يكن فيهِ ايقونة مقدسة رسمت باصبعها علامة الصليب المقدَّس على عمود من رخامٍ فاثر في الرخام كانهُ شمعٌ مذاب وقد بقيت العلامة فيهِ . وكل ما كانت ترى في دار ابيها تماثيل آلهتهِ كانت تتفل عليها قائلة شبيهكم يكون صانعوكم وجميع المتكلين عليكم . هذا وروى بعض المؤرخين انها في ذات يوم اذ كانت ممتلئةً من غيرة الايمان لم تكتفِ بالتفل على تلك الأصنام بل اخذت تكسرها وترمي كِسرها خارجًا . فلما رجع ابوها من السفر عرف ما جرى وسمع من فم ابنتهِ انها مسيحية حقًّا وانها تستهزئ بآلهتهِ غضب

(١) حاشية . راجع تاليفهُ المطبوع بهمة العلامة ميخائيل لوقيان مجلد ٦ وجه ٥٩٥ الخ

(٢) حاشية . لم يتفق المورخون على موقع استشهاد القديسة بربارة ولا على مولدها . رجح بارونيوس راي من يقول بوفاتها على عهد مكسيميوس الاول اي في الاضطهاد السادس الذي وقع في سنة ٢٣٥ اما السمعاني فذهب مع مؤرخين آخرين الى انها استشهدت في مدينة هليوبوليس ببلاد مصر في عهد غالاروس نحو سنة ٣٠٩ راجع المجلد ١ وجه ٦٣ من تاليفهِ المسمى بالمكتبة الشرقية

عليها ولا غضب الشيطان وقام ليفتك بها بسيفهِ فهربت من باب الحصن وفيما هي هاربةٌ وابوها يركض وراءها وجدت في الطريق صخرةً فانشقت الصخرة شطرين تجاه القديسة فجازت في وسطها وبعد ان عبرَت ارتدت الصخرة الى حالها الاولى ولما رأى ديوسكروس هذه الأُعجوبة لم يَلِن قلبهُ الأشدُّ صلابةً من الصخرة بل دار حول الصخرة فوجد ابنتهُ مختبئةً في مغارة فوثب عليها كالذئب على الخروف وضربها بشديد قساوةٍ ثم امسكها بشعر رأسها ورجع بها الى بيتهِ

فجرَّها الى الحاكم ولم يجرأْ ان يقتلها هو خوفًا منهُ فلما رآها مرسيانوس الحاكم أَحبها ونَّب أباها على ما عمل بها بغضب فاخذ يلاطفها بالكلام ويعدها بكثيرٍ من كرامات الدنيا على شرط ان تطيع أمر الملك وتسجد للأوثان فتكلمت القديسة بربارة حينئذٍ بتمام الحريَّة والجرأَة مبينة عظم حماقة الذين يعبدون الأوثان . فعند ذلك امر المغتصب بتعذيبها فجلدوا جسدها الطاهر حتى امتلأَ جراحاتٍ من كل جهة . ثم البسوها مِسحًا خشنًا والقوها هكذا في السجن المظلم فتراءَى لها سيدنا يسوع المسيح وعزَّاها وشفى جراحها وفي الغد قُدمت للحاكم ثانيةً فامر بها فمزقت بأمشاطٍ حديدية . ثم احرقوا خواصرها بشموعٍ متقدة وقطعوا اخيرًا ثدئيها . وفيما كانوا يعذبونها هكذا كانت ترفع قلبها وعينيها الى السماء مناجيةً عروسها الالهي قائلةً انك لعالم يا حبيب قلبي خفيَّات نفسي واني عليك وحدك جعلت اتكالي فلا تهملني يا رحيم لاني بدونك لا اقدر ان افعل شيئًا وبك انا قادرة على كل شيءٍ فيا الهي لا تصرف وجهك عني وروحك القدوس لا تنتزعهُ مني

فأمر المغتصب بان تساق عريانةً في شوارع المدينة وان لا يبرح الجلادون يضربونها بالسياط قصدًا الى ان يخيف الفَتَيات المسيحيات فابتهلت البتول النقيّة الى الله تعالى وقالت يا رب يا اله قلبي يا من تحجب السماء بالحواجب وتخفي الارض بظلام الليل لا تدع احدًا يبصر جسدي وفي انتهاء طلبتها البسها الله ثوبًا نورانيًا فلم يقدر احدٌ ان يعاين جسدها. وكان ابوها حاضرًا كثير فرحٍ بالفريسة فيالهُ من ابٍ قاسٍ فانهُ لما حكم مرسيانوس بقطع رأسها طلب اذنًا ليقطع رأسها بيدهِ . فرضي المغتصب بهذه الطلبة فأَخذ هذا الاب ابنتهُ وسار بها الى الجبل القريب وهناك سلّ سيفهُ وقطع هامتها .

وحدث ذلك في اليوم الرابع من كانون الاول

غير ان الله تعالى انتقم من ذلك الوالد القاسي لانهُ بعد قتلهِ ابنتهُ حينما كان راجعًا الى بيتهِ بثيابٍ مصبوغة بدم البتول رعدت السماء بغتةً وانقضَّت عليهِ صاعقةٌ فمات وهكذا ضُرب ايضًا مرسيانوس بعد ذلك بايام قليلة ولاجل هذا يلتجيء المؤمنون الى القديسة بربارة كيلا يموتوا بغتةً قبل تناول القربان المقدَّس واظهر الله تعالى مرارًا عديدةً عظم فائدة شفاعتها للذين يلتجئون اليها كما ذكرنا في ترجمة القديس استانيسلاوس كُستكا

وقد ذكر ايضًا انهُ سنة ثماني واربعين واربعمائة والف كان بمدينة غوركوم من بلاد هولاندا رجلٌ اسمهُ هنريكس متعبد للقديسة بربارة وكان يطلب منها كل يوم الا يموت الَّا مزودًا بالقربان المقدَّس فاتفق يومًا فيما كان في منزلهِ ان احاطت بهِ نارٌ من كل جهة فالتجأَ وقتئذٍ الى شفيعتهِ فظهرت لهُ القديسة بربارة وقد صار على آخر رَمَقٍ وسترتهُ بردائها ولم تدع اللهيب يمسهُ وبقي حيًّا الى ان اتاهُ كاهن سمع اعترافهُ وناولهُ القربان المقدس ودهنهُ بزيت المسحة ثم توفي بسلام

اليوم الخامس

وفيهِ ترجمة القديس سابا

كان ميلاد هذا القديس في السنة التاسعة والثلثين من القرن الخامس بقرية قريبة من مدينة قيسارية من بلاد كبادوكيا . وكان اسم امهِ صوفيا وكان والدهُ يوحنا رجلًا معتبرًا في الجيش فلما كان عمر هذا الولد خمس سنين وقع شغب في الاسكندرية فأَرسل ابوهُ الى هناك فاضطرت امهُ أن تتبع بعلها فتركت سابا ابنها في بيت اخيها هيرمياس . فبقي عند خالهِ ثلث سنين حتى كرهتهُ امرأَة خالهِ فخرج وانطلق الى بيت عمهِ وكان اسمهُ غريغوريوس وهذا الامر سبب فتنةً بين عمهِ وخالهِ فبادر الى الخروج من منزل عمهِ قطعًا للنزاع وذهب سرًّا الى دير قريب ولم يكن لهُ من العمر وقتئذٍ سوى سبع سنين فقبلهُ الرهبان بسرور وفي زمن يسير تعوَّد الرياضات الرهبانية وتروَّض بها بتمام النشاط فاراد عمهُ وخالهُ ان يخرجاهُ من الدير ليزوّجاهُ الَّا انهُ لم يرتد عن عزمهِ المقدَّس بل قال لهما اني افضل الرهبانية على كل ما سواها

ومع انهُ كان حديثًا في الدير لم يكن راهبٌ افضل منهُ باعتبار النشاط والتدقيق في حفظ القوانين وقد اتفق يومًا

انهُ اجتنى من شجرة الدير ثمرةً لياكلها دون اذن فلما انتبه على زلتهِ رمى بالثمرة على الارض ولم يكتفِ بالامتناع عن اكلها فقط بل امتنع كل حياتهِ عن اكل كل ثمرة من شجرٍ قصاصًا لزلتهِ هذه. وكان يقضي الليل والنهار وقتًا في الصلاة وحينًا بالشغل ولم يجدهُ احدٌ بطالاً ابدًا. ولما بلغ من العمر ثماني عشرة سنة وكانت سنة سبعٍ وخمسين بعد المائة الرابعة للمسيح استأذن رئيسهُ في الذهاب الى اورشليم بنية ان يتبرك بزيارة الاماكن المقدسة ويتخذ قدوةً صالحةً من المتوحدين. فاقام مدة الشتاء بدير باساريون وكان برئسهُ وقتئذٍ القديس اليدوس فأراد الاخوة جميعهم ان يبقوهُ عندهم لما رأوا من فضيلتهِ اماهو فلما عندهُ من حبِّ الصمت والاختلاء فضَّل طريقة القديس افتيميوس فذهب اليهِ وخرَّ على قدميهِ وناشدهُ الله وهو باكٍ ان يضمهُ الى تلاميذهِ غير ان افتيميوس رآهُ لحداثتهِ أضعف من ان ينفرد في صومعةٍ فان ذلك ما لا يقدر عليهِ الاَّ الكاملون وحيث ذلك اشار عليهِ ان يدخل ديرًا على سفح الجبل برئسهُ تاوكتيستوس وكان الدير المشار اليهِ دير التجربة لمن كانوا يرجون الاعتزال في الصوامع التي هي على ساعةٍ منهُ واربع او خمس ساعات من اورشليم

وقد كان رهبان ذلك الدير يسيرون طريق النسك بكمال النشاط وهناك تسامى في القداسة جدًّا ففاق الجميع في الصلاة والعمل. وما كان احسن سيرتهُ مع الرهبان لانهُ كان من الاتضاع على جانب كبير مقدمًا نفسهُ لخدمة الجميع ومباشرًا كل الخدم بعاطفة الحب والابتهاج فلقَّبهُ الرهبان بالشاب الشيخ لثقوب فطنتهِ في اقوالهِ وافعالهِ وحسن سياستهِ

فأرسلهُ الرئيس الى الاسكندرية وراهبًا آخر وهناك عرفهُ والداهُ وافرغا المجهود ليمسكاهُ فقال لابيهِ انهُ لا يخفى يا أبتِ انهُ يحكم بالموت على الجندي الذي يباين الجندية من دون ارادة القائد واذا كان ذلك فماذا عسى يكون عذابي ان هجرت الجندية الالهية وباينتها. فلما سمع والداهُ تركاهُ وطلبا منهُ ان يصلّي لاجلهما

ثم رجع القديس سابا الى الدير واستمر فيهِ الى ما بعد وفاة القديس تاوكتيستوس وحينئذٍ خرج باذن القديس افتيميوس وانفرد في مغارة وهناك كان يصوم خمسة ايام من كل اسبوع صارفًا زمانهُ ما بين صلاةٍ وشغلٍ فكان يصنع كل يوم عشر قففٍ وفي يوم السبت باكرًا كان يأتي الى الدير بخمسين قفةً ويقضي يوم الاحد مع اخوتهِ الرهبان وبعد خمس سنين اختارهُ القديس افتيميوس لمصاحبتهِ في الرياضة التي كان يذهب يعملها كل سنة وبمعيتهِ واحدٌ من تلاميذهِ يقال لهُ دوميسيانوس في برية روبان التي صام فيها المسيح اربعين يومًا وكانا يدخلان هذه البرية في اليوم الرابع عشر من كانون الثاني ويلبثان فيها الى احد الشعانين واصاب سابا في احدى هذه الاعتزالات عطش قامحٌ أورثهُ ضعفًا ونحولاً فأوشك ان يشارفهُ الحِمام اما افتيميوس فأخذ يصلّي ثم ضرب الارض بعصاهُ فأخرجت ماء فشرب سابا فعادت اليهِ قوتهُ واحس بالشفاء التام

فبعد وفاة القديس افتيميوس التي كانت سنة ثلث وسبعين واربعمائة للمسيح (١) تراخت عزائم الرهبان في العبادة فانتقل القديس الى دير القديس جراسيموس بناحية الشرق فكان حينئذٍ ابن خمسٍ وثلاثين سنة وهناك حاربتهُ الشياطين وأفرغت في مقاتلتهِ صنوف الحِيَل على انهُ لم يبالِ بهم ولاهالتهُ الاشباح المخيفة التي زارتهُ في المنام بل مكث اربع سنين وحينئذٍ اختار م. ر. سري اهول من الأولى لانها كانت على قمة جبل عالٍ على سفحهِ وادي قدرون ولكثرة ما كان الطريق مستصعبًا علَّق حبلاً برأس الجبل وبهِ كان ينزل ويذهب ليستقي ماء ويأخذ شيئًا من البقول الضرورة عيشهِ. فعرف الناس بالحبلة وشرعوا يزورون القديس وتتلمذ لهُ كثيرون وبنوا قلالي وكنيسة حول الصخرة

وكان يأتيهم حينًا فحينًا كاهنٌ من قريةٍ قريبة ويقدّس لهم لان القديس كان يستعظم درجة الكهنوت كل الاستعظام ويعتقد انها تقتضي ممَّن يقبلها قداسةً ساميةً جدًّا ومن ثم لم يرد هو ان يرتسم كاهنًا ولا اجاز ذلك لأحد من رهبانهِ. وتشكوا منهُ الى البطريرك سالوستيوس وطلبوا اليهِ ان يقيم عليهم رئيسًا آخر لكون رئيسهم انسانًا جاهلاً موسوسًا. اما البطريرك اللبيب العارف بفضيلة القديس سابا فتظاهر كأنهُ سمع لتشكيهم فأرسل وامر القديس بان يأتيهُ بجميع رهبانهِ فلما اتى اخذهُ البطريرك ورسمهُ كاهنًا. ثم قال للرهبان هذا

(١) حاشية. مَن اراد الاطلاع على مقابلة ازمنة اعمال القديس افتيميوس وتلميذهِ القديس سابا وتاوكتيستوس ومعاصريهم بطاركة اورشليم فعليهِ بمراجعة المجلد ٢ لشهر كانون الثاني من مصنف البلانديستيين وجه ٦٦٤

رئيسكم ولست انا الذي اقيمهُ عليكم بل الله هو الذي اقامهُ عليكم مدبرًا . فرجع القديس الى ديرهِ برهبانهِ كافةً وزاد بعد ذلك عددهم جدًّا حتى ان صوفيا ام القديس اتتهُ وفوَّضت اليهِ امرها وقضت اجلها في قلاية قرب ابنها ومن مالها بنى ديرًا جديدًا ومستشفيين . ثم ان البطريرك سالوستيوس جعلهُ رئيسًا عامًّا على كل الرهبان المتوحدين من ابرشيتهِ على ما كان اقامهُ ايضًا تاودوريتوس رئيسًا على الذين في الاديار الا انهُ بعد موت البطريرك اي بعد سنة ثلثٍ وتسعين واربعمائة قام عليهِ اخوتهُ الكذبة والقوا عنهم نير الطاعة فهرب القديس واختلى بعيدًا في برية سيتوبليس ودخل مغارة ليسكن هناك وطرق المغارة في الليل اسدٌ كان في ذلك المكان منذ ازمان فوجدهُ نائمًا في مغارتهِ فلم يضرهُ اصلاً بل انما سحب ذيل ثوبهِ قائلاً لهُ بلسان الحال ان يخرج من مأواهُ . فانتبه القديس ولم يضطرب بل اخذ يصلّي صلاة نصف الليل فخرج الاسد من المغارة واذ فرغ القديس من صلاتهِ دخل الاسد ثانيةً وشرع يسحب القديس بثوبهِ ليخرجهُ من عرينهِ . فقال لهُ الاب بهدوء لماذا تخرجني من هنا ايها الاسد فان المغارة واسعة فان اردت فنستطيع ان نسكن فيها معًا بسلام وان لم تُرِد ان تسكن معي فمن الصواب ان تخرج وابقى هنا بحيث اني اجلّ منك قدرًا فانت من مخلوقات الله ولكن لست على مثالهِ واما انا فمن مخلوقاتهِ وعلى صورتهِ ومثالهِ تبارك اسمهُ فلما سمع الاسد هذا الكلام خرج من المغارة وتركها للقديس . وفي ذلك من الغرابة ما لا يخفى فسبحان الله الذي يصرّف الامور كيفما يشاء

ودخل عليهِ لصوص وهو في المغارة فاخذ يخاطبهم فاصطادهم بعذوبة خطابهِ فتابوا وساروا سيرةً صالحةً وتقاطر اليهِ خلق كثير على ان يخدموا الله تحت ارشادهِ غير أن تواتر قدوم الزوّار عليهِ وتشتّت بالهِ بارشاد تلاميذهِ الحديثين بعثاهُ على مفارقة هذا المكان الذي تحوّل ديرًا

وبعد ان ذاق ما ذاق من لذة الانفراد وحلاوتهِ لم يستطع ان يقاوم حركات المحبة التي كانت تهيج فيهِ مقاومة رهبان مناسكهِ فازمع ان يذهب اليهم ولم يرهم احسن حالاً واقوم منهجًا بل رأى ان انواع العصيان قد كثرت فحزنهُ وآلمهُ كثيرًا ما هم فيهِ من عمى البصيرة التي تركض بهم الى الهلاك فاتخذ جميع الوسائط التي شانها ان تمسّ القلوب وتغريها الى الخير . فلم تتأثر من ذلك تلك القلوب القاسية فتركهم ثانيةً واستودعهم ابا المراحم

واعتزل قرب نيقوبوليس وعاش زمانًا تحت شجرة ولا غطاء لهُ الا اوراقها ولا غذاء لهُ الا اثمارها غير ان صاحب الحقل الذي كانت فيهِ الشجرة بنى لهُ قلاَّية وامدَّهُ بالزاد ولم يمرَّ الا قليل من الزمان حتى تحوَّل ذلك المكان ديرًا جديدًا

الا ان البطريرك ايليا الزمهُ ان يقيم رئيسًا على هذا الدير ويرجع الى جبلهِ وحينئذٍ تركهُ الرهبان المتمردون واذ لم يدعهم احد يسكنون في ديرهِ التزموا بان يسكنوا في دير متروك كان اخربهُ فيضان نهر طِقوى . فذهب القديس الى معونتهم فاصلح لهم ابنية الدير وبنى لهم كنيسة وبهذا الصنيع ربح محبتهم وقبلوا منهُ من اراد ان يقيمهُ رئيسًا عليهم

وكانت كنائس الشرق وقتئذٍ على ما عظم من البلبال والاضطراب لان الملك انستاسيوس كان قد قرَّب اشياع اوطيخا وابعد جملةً من الاساقفة الكاثوليكيين وبعث اليهِ البطريرك ايليا بوفدٍ من الرؤساء المشهورين في جملتهم سابا ليوقفوا حدَّة الاضطهاد ان استطاعوا وكان سابا يوم أتى القسطنطينية في سن السبعين وقد اهانهُ خفراء القصر لرثاثة هيئتهِ ومنعوهُ من الدخول مع سائر الوفد اما هو فلم يقل حلوةً ولا مرةً ولكن انفرد الى زاويةٍ ليصلّي واما الملك فلما قرأ رسالة البطريرك وعرف ما تضمّنتهُ من الاطناب في مدح سابا سال اين هو وأرسل يطلبهُ فوجدهُ المرسلون في زاوية يتلو المزامير وقال الملك للآباء سلوا ما تريدون من النعَم فقدَّم كلٌّ منهم معروضًا بما يُريد الا سابا فانهُ لما ألحَّ عليهِ الملك ليبين لهُ ما يرغب اقتصر على ان يرجو ردَّ السلام الى الكنيسة وان يكفَّ عن اضطهاد خدامها ابدًا . فحباهُ الملك بالف دينار لينفقها في اعمال المحبة . فشتا سابا بالقسطنطينية وكان يكثر من المثول بين يدي الملك بقصد ان يسألهُ اخصَّ ما يقصد من السفارة وكان قد جمع الملك في صيدا جماعة خطَّأوا فيها مجمع خلكيدونية العام وحكموا بنفي من لم يُوقّع على هذه التخطيئة من الاساقفة الا ان الملك استثنى بطريرك اورشليم بسبب ما بيَّنهُ سابا مكرَّرًا فأرسل الرئيس القديس بعد ان اعطاهُ دلائل الاعتبار والاحترام فآب سابا الى خلوتهِ

ومات انستاسيوس وخلفهُ يوستينوس وقرَّب الكاثوليك وأعاد الى الكنيسة الاطمئنان فاغتنم سابا هذه الفرصة وذهب

الى قيسارية وسيتوبوليس واماكن أُخر وعلّم من استسلم الى الغي من الرهبان والمؤمنين فكثيرون منهم رفضوا البدعة

ثم أجدبت فلسطين خمسة أعوام لاحتباس السماء عن المطر فتبع ذلك مجاعةٌ في البلاد كلها فالتجأ سابا الى الصلاة وكان له ما يسد حاجة اديارهِ واستجاب الله صلاتهُ فانهلّ من السماء غيثٌ مُغدِق أفرح فلسطين بأسرها

وكان ابن احدى وتسعين سنةً لما سافر ثاني مرةٍ الى القسطنطينية بطلب بطرس بطريرك اورشليم وكان الغرض من ذهابهِ تبرئة نصارى فلسطين مما قرفهم بهِ اهل البلاط الملكي . وكان يومئذٍ على العرش الملكي يوستينيانوس فهذا اكرم استقبالهُ وأعطاهُ كل ما سأل وعيّن لهُ رواتب سنوية لنفقة اديارهِ فشكرهُ على ما أولاهُ وعرض بين يديهِ ان رهبانهُ ما كانوا ليحتاجوا الى هذه الرواتب طالما يخدمون الله غير انهُ سألهُ ان يرفع الخراج الى زمنٍ عن أهل فلسطين لان السامريين نهبوهم واخربوا بلادهم وان يبني بيمارستانًا باورشليم للزوّار وحصنًا يحتمي بهِ المتوحدون والرهبان من غزوات البرابرة وان يتبرّع بشيء لتزيين الكنيسة التي أُنشئت حديثًا على اسم سيدتنا مريم البتول وأخيرًا ان يبسط ظلّ حمايتهِ على الكاثوليك فأعطاهُ الملك كل ما طلب لم يُنكر عليهِ شيئًا

هذا وفيما كان يوستينيانوس يتكلم امام القديس في امورٍ تتعلّق بهِ اذ أتت الساعة الثالثة فتركهُ سابا وذهب يصلّي الفرض فقال لهُ رفيقهُ إرميا قد اجحفت بحضرة الملك وان نصرفك قد خرق احترام العظمة الملكية فقال يا بُنيَّ ان السلطان وفي فرضهُ ونحن فيجب علينا ان نفي فرضنا فكفى بهذا الجواب دليلاً على شدة امانتهِ في اتمام فروضهِ

ثم رجع سابا الى فلسطين بأوامر من الملك اطلع عليها ولاة اورشليم وسيتوبوليس وقيسارية فأنفذتها الحكومة في كل موضعٍ لم تترك منها حرفًا وعن امدٍ يسيرٍ لرجوعهِ الى مناسكهِ أصابهُ مرضٌ فأشار عليهِ البطريرك ان ينتقل الى كنيسة بالقرب منهُ فيخدمهُ بنفسهِ وكان عليهِ السلام يقاسي اشدّ الاوجاع بالصبر والتسليم لله تعالى ولما درى ان قد دنت آخر ساعة من عمرهِ رجع الى مناسكهِ وعيّن ميليتاس من مدينة بيروت خليفة لهُ وأعطاهُ نصائح وتعليمات حسنة وعاش اربعة ايام لم يرَ فيها احدًا ولم يخاطب الّا الله سبحانهُ من الهٍ لا يموت ورقد في اليوم الخامس من كانون الاول عام اثنين وثلثين وخمسمائة وعمرهُ اربع وتسعون سنة وتذكرهُ التقاويم اليونانية واللاتينية في مثل اليوم المشار اليهِ

اليوم السادس

وفيهِ ترجمة القديس نيقولاوس

ان مولد هذا القديس كان بباتَر مدينة من اعمال اسيا الصغرى وهو من قبيلةٍ معروفة بالثروة والوجاهة واما ابواهُ فكانا من التقوى والرأفة بالبائسين على جانب عظيم . وقد استمرَّا زمنًا طويلاً حتى رزقهما الله تعالى هذا الابن القديس جزاء ما صلّيا وتصدّقا . ومنذ بدأ بالرضاعة قيّد نفسهُ بسنَّة الصوم فكان يومي الاربعاء والجمعة لا يرضع الا مرةً فقط بعد غروب الشمس ولما كبر دخل المدرسة وكان للكل مثل الفضائل ولا سيما فضيلة الطهارة لانهُ لم يكن يطيق التكلم مع النساء ولا النظر اليهنَّ اصالةً وكان حريصًا على حفظ هذه الفضيلة ملازمًا الصوم ولبس المسح

وكان خالهُ اسقف ميرا قديسًا عالمًا فهذا لما دخل الكنيسة ليشكر الله على ميلاد هذا الولد في عائلتهِ قال للشعب بروح النبوة اني اعاين في هذا الاكليريكي شمسًا جديدةً تبهج العالم فيالسعادة الرعية التي يتولّى رعايتها فانهُ سيرد الضالين ويهديهم الى سبيل الحق والعبادة ويعزي الحزان ويشفي المرضى ويريح المتعبين وقد تمّت نبوتهُ هذه فيما بعد كما سترى . ومن ذلك اليوم ازداد القديس اجتهادًا في تحصيل الكمال وفي اثناء ذلك توفي والداهُ بداء الطاعون وكان لم يبلغ سنّ الشبيبة وورث عن والديهِ اموالاً وافرة فانفقها كلها في سبيل الله صدقةً على المساكين وفيما كان يفتش عن المساكين ليسعفهم قيل لهُ سرًّا ان رجلاً شريفًا اصابهُ فقرٌ شديد فتعذر عليهِ ان يعيش بحسب شرف نفسهِ وعلو شانهِ وان يزوج بناتهِ الثلث بامثالهنَّ من اهل الشرف ومن ثم عزم على تسليمهنَّ للبغاء ليعيش من اعدامهِ اياهنَّ البكارة على هذا الوجه القبيح المحرَّم اما بناتهُ الثلث فلما عرفنَ هذا حصل لهنَّ حزنٌ شديد . اما القديس نيقولاوس فذهب ليلاً ورمى في بيت ذلك الرجل كيسًا ملآن دراهم فاذ وجدهُ صاحب البيت جثا على الارض قائلاً يا لسعة رحمة الله ومزيد رأفتهِ بي فها قد أحسن اليَّ فيما كنت انا أُسيء اليهِ . فمنذ الان

فصاعدًا اختار ان أموت الف مرّة على ان اغيظهُ بخطيئة واحدة فزوّج بتلك الدراهم ابنتهُ الاولى ثم ان القديس أتى سرًّا مرّةً ثانية والقى في بيت الرجل المشار اليهِ كيسًا آخر فزوّج ابنتهُ الثانية وحصل عندهُ رجاء ان الله تعالى يهتم بزواج ابنتهِ الثالثة ايضًا. غير انهُ اشتهى ان يعرف من ذا الذي ارسلهُ الله ليصنع معهُ هذه الرحمة فسهر مختفيًا منتظرًا المحسن اليهِ فأتى القديس ثالثةً والقى المال كما كان فعل من ذي قبل فأمسكهُ الرجل وشكرهُ على فضلهِ وقال لهُ مباركٌ الذي ينهض المسكين من الارض والبائس من المزبلة ومبارك انت يا نيقولاوس الذي برحمتك أنقذت بناتي من البغاء ونفسي من جهنم. اما القديس فخجل وأوصاهُ بالاّ يشعر بذلك احدًا الآن الرجل لم يحفظ وصيتهُ بل انهُ بقصد الشكر وتمجيد اسم الله تعالى شهر في المدينة كلها صنيعة القديس التي ازالت عنهُ خطر الهُلك المؤبد

ثم خرج من المدينة ومضى الى خالهِ الاسقف الذي لما تأمل قداسة ابن اختهِ رسمهُ كاهنًا وجعلهُ رئيسًا على دير كان بناهُ قرب المدينة الاسقفية وبعد ان رأى حكمة تصرُّفهِ وسياستهِ لهذا الدير فوّض اليهِ سياسة ابرشيتهِ ومضى فزار الاماكن المقدسة. وكان نيقولاوس يرتاح الى الانفراد في البرية فاذ رجع خالهُ سافر هو الى اورشليم ليزور اولاً قبر المسيح فركب سفينةً وسار ولما ابعد عن الارض رأى شيطانًا داخلاً السفينة بوجهٍ مرعب فقال القديس للنواتي استعدوا لانهُ الان يحدث هيجان عظيمٌ في البحر والساعة هبت ريحٌ عاصفة وهاج البحر وتعالت الامواج فاشرفت السفينة على خطر الغرق. فطلب الملاحون من النبي القديس ان يصلّي لاجلهم فصلّى وللحين سكنت الريح وهدأ البحر وليس هذا فقط بل انهُ لما رأى احد الملاحين قد وقع من على الصاري ومات صلّى ايضًا من اجلهِ فاقامهُ من الموت

فبعد ان زار الاراضي المقدسة انفرد في مغارة ليقضي هناك حياتهُ متوحدًا الاّ ان الله تعالى امرهُ بالرجوع الى مدينة ميرا ولما وصل اليها كان خالهُ قد مات وخلفهُ آخر يُدعى يوحنا فدخل ديرهُ وقبلهُ الرهبان بكل سرور وفيما كان يمارس هناك رياضات النسك سمع هاتفًا من السماء قائلاً اخرج من ههنا وعاشر الناس لكي اتمجد بك. فخرج وذهب الى مدينة ميرا فاذ وصل الى هناك كان الاسقف يوحنا قد مات وكان الاساقفة مجتمعين لينتخبوا أسقفًا جديدًا وفيما هم يصلّون طالبين من الله تعالى ان يُريهم من قد انتخبهُ لهذه المرتبة الرسولية أُوحي الى احدهم ان يقيموا اسقفًا نيقولاوس رجلاً يدخل الكنيسة في الغد باكرًا وقضوا الليل في الصلاة ولما كان الصبح وقف احدهم على الباب منتظرًا الشخص المنتخب من الله تعالى. فقام القديس نيقولاوس باكرًا كجاري عادتهِ وأتى الى الكنيسة ولم يعرف ما كان فلما دخل الكنيسة سألهُ الاسقف عن اسمهِ فاجابهُ القديس اني رجلٌ خاطئٌ اسمي نيقولاوس فلما رمقهُ الاساقفة ورأوا سيماء القداسة متلألئةً على وجههِ رسموهُ اسقفًا وسلموهُ سياسة كنيسة ميرا وفي انتهاء ارتسامهِ أتتهُ امرأة بابنٍ لها كان قد مات حريقًا فعمل القديس عليهِ علامة الصليب المقدس فقام الطفل حيًّا

فلما تامل الاسقف الجديد قداسة درجتهِ السامية وكم يجب عليهِ ان يهتم بخلاص رعيتهِ عزم اولاً على ان يجعل سيرتهُ مثال القداسة فخاطب نفسهُ هكذا اعلم يا نيقولاوس ان الاسقفية تقتضي فضيلةً سامية وانك حتى الان لم تكن تتكرّس الاّ بما يخصك اما الان فعليك ان تهتم ايضًا بما للغير وان اردت ان يكون كلامك مؤثرًا في النفوس فلتكن افعالك صالحةً. ومن ثم زاد القديس على ضنك عيشهِ الامتناع عن اكل اللحوم والاكل مرّة في كل يوم وحين اكلهِ كان احد الحاضرين يقرأ لهُ كتابًا روحيًّا ولم يكن يرقد الاّ على الحضيض ويقوم بالليل يوقظ الاكليريكيين ليصلّوا معهُ ثم كان يرافقهم الى الكنيسة للصلاة والتقدّس وكان يصرف بقية النهار في تدبير الرعية. وأقام على تعليم الشعب وارشادهم كهنةً علماء صالحين وبعد اهتمامهِ بخير الانفس كان يسعى في مساعدة المساكين ويجزل عنايتهُ الابوية بهم انقطع الفقر الاّ من منزلهِ فانهُ لم يكن لهُ شيءٌ حتى ولا الكتب التي كان يستعملها للقراءة فانها كانت عاريةً

ومع انهُ كان عالمًا حكيمًا لم يكن يعتمد على علمهِ وفطنتهِ بل اختار كاهنين عالمين فاضلين وهما بولس الرودسي وتاودوروس الاسكالوني ولم يكن يفعل شيئًا الاّ بعد المفاوضة معهما

وكان كل سنة يجمع جميع كهنة ابرشيتهِ للمداولة في ما يفيد خلاص الرعية ومع هذا كلهِ كان يخاف جدًّا من الحساب الالهي الاخير ويسأل الله تعالى ان يرفع عن منكبيهِ هذا الحمل الثقيل وبينما كان يصلّي يومًا هكذا بقلبٍ حزين اذ بهاتف من السماء يقول لهُ لاتجزع يا نيقولاوس اني لا أهملك ما دمت

امينًا في مباشرة واجبات مرتبتك

وفي ذلك الحين كان ليسينيوس ملكًا فأرسل بجماعة الى مدينة ميرا ليضطهد المسيحيين فقبضوا على القديس نيقولاوس واوثقوهُ وانفوهُ ولما كان في المنفى كانوا يضربونهُ كل يوم بالسياط الا انهُ بعد زمن يسير انتصر قسطنطين الكبير على ليسينيوس فرجع القديس الى كرسيهِ وزار جميع اماكن ابرشيتهِ وأزال منها عبادة الاصنام وأخرب هياكلها وقاوم الخوارج الاريوسيين في المجمع النيقاوي الاول حيث تلألأ ضياء قداستهِ

وحيث من الممتنع ان نورد كل عجائب هذا القديس المعظم نكتفي بذكر بعضها فنقول . روى القديس بونا ونتورا ان هذا القديس أقام من الموت غلامين كان قد قتلهما صاحب فندق ليقتات بلحمهما وثلثة غلمان أُخر كانوا قد ذُبحوا وقطعوا إربًا إربًا ووُضعوا في برميل كلحمٍ مملح . واتفق يومًا ان حاكم المدينة اوستاكيوس ارتشى من الناس فحكم بالموت على ثلثة انفار جورًا وكان القديس وقتيئذٍ مع ثلاثة من عظماء جيش الملك قسطنطين أرسلهم الملك ليسكنوا فتنةً في تلك الجهات وهم نيبوسيانوس واورسوس وايربليانوس فنهض القديس وكلفهم أن يذهبوا معهُ . فلما وصل الى المقتل كان السياف سلَّ سيفهُ ليقطع روُس الثلثة الانفار المتهومين كذبًا . فتقدم القديس بشجاعةٍ ذات هيبةٍ ووقار وخطف السيف من يد السياف ثم قطع وُثُق أُولئك وخلَّى سبيلهم ولم يجسر احد ان يكلمهُ او يمانعهُ . فتعجب الجميع من ذلك لاسيما الثلثة الانفار المرسلين من قبل قسطنطين وبعد رجوعهم الى القسطنطينية تُهموا هم ايضًا كذبًا عند الملك وحُكم عليهم بالموت بمشورة ابلافيوس وزيرهِ الذي كان ارتشى من طالبي قتلهم فاذ رأوا ذواتهم على هذه الحال تذكروا ما شاهدوا في مدينة ميرا من غيرة القديس نيقولاوس وما سمعوا هنالك من عجائبهِ وفي ليلة ذلك اليوم ظهر القديس للملك قسطنطين ووزيرهِ واخبرهما باسمهِ ووبخهما توبيخًا شديدًا على انهما حكما ظلمًا على نيبوسيانوس واورسوس وايربليانوس وتوعَّدهما بالانتقام الالهي ان كانا لا يطلقانهم باكرام . فاذ انتبه الملك استدعى ابلافيوس الوزير وقصَّ عليهِ حلمهُ وابلافيوس اخبر ايضًا الملك بانهُ رأى مثلهُ في الحلم وفي الحين اخرجا الثلثة النفر وأرسلاهم الى مدينة ميرا ليؤدوا شكرًا للأسقف القديس الذي برَّأهم وخلصهم وان يقدّموا لهُ هدايا من قبلهما وهي كتاب الانجيل المقدس مكتوب بالذهب ومرصَّع بجواهر كريمةٍ ومبخرةٍ ثمينةٍ وشمعدان ذهبٍ

فشاع خبر هذه الأعجوبة في كل المملكة ومن ثم شرع الناس عند الضرورة يلتجئون اليهِ فينجون من ضيقهم ووصل قوم من الملاحين الى خطر الغرق فاستغاثوا بالقديس واستعانوا بهِ فظهر لهم حالاً قائلاً هاءنذا جئت لإعانتكم ثقوا لا تخافوا ثم امسك دفَّة المركب ودبَّرهُ الى ان هدأ البحر . فرجع الملاحون الى ميرا وشكروا فضلهُ فقال لهم اشكروا فضل الله عليكم يا ابنائي لا فضلي لاني رجلٌ خاطئٌ وعبدٌ عاجزٌ بطال . ثم اخبرهم انهُ لم يُلِمَّ بهم هذا الخطر الا على بعض خطايا خفيفة لم يكن في امكانهِ ان يعرفها الا بروح النبوة

فأُوحي اليهِ اخيرًا ان موتهُ قد دنا وانبأ بذلك شعبهُ بعد تقدمة القداس ثم اختلى في ديرٍ ومرض وبعد تناول الاسرار الالهية ظهرت لهُ الملئكة وبين يديهم أسلم روحهُ بسلام في اليوم السادس من كانون الاول في سنة اثنتين واربعين وثلث مائة للمسيح

ودُفن في كنيسة الدير ضمن قبرٍ من رخام وخرج من دمهِ منذ ذلك الوقت ماء عجيبٌ كان يشفي كل نوع من الامراض . وبنى الملك يوستينيانوس على اسمهِ كنيسة ورمَّمها باسيليوس وحسَّنها وسنة سبع وثمانين والف خرَّب الاتراك بلاد ليسية ونُقل جسم هذا القديس الى باري من اعمال ايطاليا وحُفظ باحترام كبير في كنيسة جميلة المنظر حيث كان رمسهُ يزداد كل يوم اشتهارًا لكثرة ما يصنع الله على يدهِ من الآيات

وهاك كيفية انتقال ذخائرهِ الى ايطاليا ان تجار مدينة باري ميناء مملكة نابولي وهي على خليج بحر أدرياتيك ركبوا ثلث سفنٍ وساروا الى شاطئ ليسية وعند وصولهم اليها اهتموا باتخاذ الوسائط اللازمة لنقل جسد القديس اسقف ميرا فاغتنموا الفرصة على حين كان المسلمون بعيدين وانطلقوا الى الكنيسة التي كان فيها هذا الكنز الثمين . وكانت تلك الكنيسة بمكانٍ قفرٍ على نحو ساعةٍ من البحر ولم يكن فيها الاَّ عددٌ قليلٌ من الرهبان لاجل خدمتها اما التجار الطليان فكسروا رُخام القبر الذي كانت مستريحةً فيهِ عظام القديس وألقوا العظام في مراكبهم . واما أهل ذلك المكان فأخذهم الرُعب وجدُّوا في اثرهم بضجيج عظيم ولكن ما قدروا ان يدركوهم

ولما بلغوا الى الشاطي كان التجار قد ذهبوا ورست مراكبهم في باري في تاسع ايار سنة سبع وثمانين والف وأخذ رئيس الاساقفة الذخائر المقدسة وأودعها كنيسة القديس استفانس فشُفي في اول يوم لوضعها هناك ثلثون مريضاً مصابين باسقام مختلفة بشفاعة القديس نيقولاوس واضحى رمسهُ مشتهرًا منذ حينئذٍ لازدحام المؤمنين الذين جاؤوا لزيارة باري

اعلم ان لهذا النقل تاريخًا صحيحًا كتبهُ يوحنا الذى كان حينئذٍ رئيس شمامسة باري بامر اسقفهِ وشهرهُ سواريوس ورواية يوحنا المشار اليهِ مؤيدة مثبتة بتاريخ آخر لهذا النقل ألفهُ نيكوفور من باري نحو ذلك الزمان بأمر ولاة المدينة وذكرهُ بارونيوس ايضًا

اليوم السابع

وفيهِ ترجمة القديس امبروسيوس

كان مولد هذا القديس الجليل عام اربعين وثلثمائة للمسيح من رجل معتبر عند الملك جدًا وكان يُدعى امبروسيوس اما والدتهُ فكانت ايضًا معتبرة بفضائلها فضلاً عن شرف اصلها وقد وُلد لهما ابنةٌ وذكران فالابنة هي القديسة مرسلينا البتول التي البسها ثوب الرهبانية البابا ليباريوس. ويذكر اسمها في السنكسار الروماني في اليوم السابع عشر من تموز والابن البكر هو القديس ساتيروس الذي يُذكر اسمهُ بين المعترفين في اليوم السابع عشر من ايلول والابن الآخر هو القديس امبروسيوس الذي نورد الان سيرتهُ

روى القديس بولينوس معاصرهُ انهُ اذ كان طفلاً ملقًى على سريرهِ اتت نحلٌ ووقفت على فمهِ ودخلت ثم خرجت منهُ وطارت الى الجو وكان ذاك بحضرة والدهِ فلما رأى هذه الأعجوبة قال ان ابنهُ سيكون رجلاً عظيم الشان في الدنيا ولما نشأ امبروسيوس يسيرًا ورأى المؤمنين يقبّلون ايدي الاساقفة شرع يقدّم يدهُ للناس ليقبّلوها كأنهُ يتنبأ بلسان الحال انهُ سيكون اسقفًا ولما كان لهُ من العمر اربع سنين او خمس مات والدهُ واتت امهُ بهِ الى رومية حيث اعتنت بتربية اولادها الثلثة

وقد صرف ولدها امبروسيوس مدة صبائهِ وشبيبتهِ في درس العلوم وممارسة الفضائل ولا سيما العفة والاحتشام ولاتساع علمهِ وفصاحة لسانهِ وحسن سيرتهِ صار صاحب مكانةٍ عند الملك فالنتينيانوس الاول ووزيرهِ بروبوس وأقامهُ واليًا على مدينة ميلان وعلى كل مدن هذا الاقليم. فقال لهُ بروبوس عند ما ارسلهُ اذهب وتولَّ تدبير الامور لا كحاكم بل كأسقفٍ وأشار بذلك الى ان يسوس الشعب كأبٍ لا كحاكمٍ اي بودادٍ وحنوٍ لا بشدةٍ وقساوةٍ

وبلغ الى ميلان فوجد المدينة على اضطرابٍ وتشويش والسبب في ذلك الخوارج الاريوسيون الذين كانوا قد تكاثروا هناك بواسطة اوكسانسيوس اسقفهم المنافق ولكن بعد حلول القديس بتلك المدينة بنحو سنتين اى في السنة الرابعة والسبعين بعد القرن الثالث مات هذا الاسقف فاجتمع الشعب في الكنيسة ليختاروا اسقفًا فوقع بينهم اختلاف كبيرٌ بما ان الخوارج كانوا يطلبون رجلاً اريوسيًا والكاثوليكيون كانوا يطلبون رجلاً كاثوليكيًا. فلما نمى خبر ذلك الى حاكم المدينة اي القديس امبروسيوس بادر الى الكنيسة ليهدّي القلوب ويصلح الامور وتكلم كثيرًا في حفظ السلام. وفيما كان يتكلم هكذا بفصاحةٍ فصاحةٍ أحلى من العسل ردّت الشعب الى ما كانوا عليهِ من السكون هتف طفلٌ على ساعدي والدتهِ قائلاً امبروسيوس اسقف فاذ سمع الشعب هذا الصوت العجيب اتحد الاريوسيون مع الكاثوليكيين واختاروا حالاً امبروسيوس اسقفًا

اما القديس فأخذ يفرغ كل قوتهِ وفصاحتهِ ليصرف انتخاب الشعب عنهُ ولما رأى ان ذلك لا يفيدهُ سوى ازدياد الشعب شوقًا الى ارتسامهِ اسقفًا انصرف وانفرد في منزلهِ مفتكرًا كيف يغيّر ظن الناس فيهِ فدخل المحكمة وامر بان يحضروا بعض أثمةٍ كانوا قد طُرحوا في السجن ثم امر بتعذيبهم امام الشعب بشدة العدل على قصد ان ينفر الشعب منهُ ويبغضهُ لهذا السبب. غير انهُ لم يبلغ اربهُ بهذه الحيلة فاستعمل حيلةً اخرى وهي انهُ ارسل واستدعى الى منزلهِ بعض عواهر وخرج بهنَّ يسير في وسط الشوارع ليشكك الناس غير ان الجميع لاعتقادهم ما هو عليهِ من نقاوة سيرتهِ حسبوا فعلهُ هذا حيلةً فلم يرجعوا عن قصد اقامتهِ اسقفًا. فهرب وقتئذٍ من المدينة ليلاً واستمرَّ راكضًا حتى الصباح وظن بانهُ قد قرب الى مدينة بافيا غير انهُ تاه وبعد هذا التعب كلهِ وجد نفسهُ على باب مدينة ميلان التي خرج منها هاربًا فأمسكهُ الشعب حينئذٍ لئلا يهرب ثانيةً وأرسلوا يستأذنون الملك ليكون امبروسيوس

أسقفًا عليهم بحيث انهُ لا يجوز شرعًا ان يترك المنصب الذي جعلهُ فيهِ الملك الأَّ باذنهِ . ففرح الملك جدًّا اذ رأى المسيحيين قد اختاروا أُسقفًا من اقامهُ عليهم حاكمًا الأَّ ان القديس هرب ثانية سرًّا واختفى في البرية في منزل صديق لهُ اسمهُ لاونسيوس اما هذا فاذ عرف ان الملك رضي بما فعلهُ الشعب سلّم امبروسيوس الى طالبيهِ فارتقى الى العرش الاسقفي بعد ان اجتهد في الفرار منهُ بمقدار ما يجتهد في اكتسابهِ المتكبرون وكان بلغ من العمر حينئذٍ خمسًا وثلاثين سنةً

واذ جلس على كرسي الاسقفية وزّع امواله على الكنائس والمساكين والزم نفسهُ بثلثة امور وحفظها كل ايام عمرهِ وهي هذه تقديم ذبيحة القداس الالهي كل يوم وتفسير الانجيل المقدس للناس كل أحد وبذل المجهود في استئصال البِدَع ونشر الايمان الكاثوليكي وقيام حسن العبادة بين المؤمنين . وكتب بعد ارتسامهِ الى فالنتينيانوس يشكو اليهِ على القضاة والحكام وكانت عبارة رسالتهِ مشدَّدة فأجابهُ الملك بما نصهُ قد عرفتُ منذ قديم ما تستعمل من الحرية في كلامك ومع ذلك رضيت بارتسامك فواظب على معالجة خطايانا بالادوية التي عيَّنتها شريعة الله . وبلغ القديس ذلك الوقت رسالةٌ من القديس باسيليوس يهنئهُ فيها او بالاحرى يهنيء الكنيسة بتقليدهِ زمامها ويحثهُ على ان يقاوم أشياع آريوس المبتدع بكل شدةٍ وان يتسلح على اضاليلهم بغيرةٍ ذات جراءة وشجاعة لا يغلبها خوفٌ

فشرع يجد في مطالعة كتاب الله العزيز وكتب الآباء القديسين ولاسيما تصانيف القديس باسيليوس ولكن تحقّق عند العلماء ان القديس امبروسيوس تسامى علمًا بهبةٍ مفاضة عليهِ من الله تعالى بواسطة صلواتهِ المتواترة . وعلى صلواتهِ كان يزيد صومًا متصلاً لانهُ لم يكن يأكل مدة حياتهِ كلها سوى مرَّةٍ واحدة مساءً ما خلا الآحاد والاعياد المعظمة وكان في عظاتهِ يحث العذارى على التبتُّل وألَّف في ذلك كتابًا شريفًا ولما ظهر هذا الكتاب في المدن البعيدة شرقًا وغربًا بادرت البنات وتجندت تحت راية ملكة العذارى في اديارٍ بناها القديس لهنَّ قرب مدينة ميلان والامر العجيب هو ان كلامهُ وكتابهُ اللذين كانا يؤثران في قلوب الغرباء لم يؤثرا في قلوب اهل ميلان . ومن ثم قال لهم هكذا يحتمل ان يسألني احد لماذا تعظ دائمًا في شرف العذارى في مدينة ميلان مع ان كلامك لا يؤثر في قلوبهم اصلاً فأُجيبهُ قائلاً ان سبب عدم الاثمار ليس من قبلي لانَّ عذارى كثيرات قد اتينَ من بعيدٍ ودخلنَ اديارى واثّر كلامي فيهنَّ ولكن كلامي لكم وانا حاضرٌ لا يفيد شيئًا بل يستفيد منهُ الذين في المدن الغريبة فان كان الامر هكذا فالاجدر بي والانفع لكم ان اعظ بعيدًا منكم لكي يؤثر كلامي فيكم وانتم مبتعدون مني لان الذين لا يسمعون صوتي يقبلون تعاليمي والذين يسمعون لا يبالون

وجعل الملك فالنتينيانوس الاول اقامتهُ بتريفي تارةً وبميلان أُخرى وتوفي بداء السكتة في بانونيا في السابع عشر من تشرين الثاني سنة خمس وسبعين وثلثمائة وعمرهُ خمس وخمسون سنةً وكان قد شرك في الملك ابنهُ غراتيانوس من سيفيرة قرينتهِ الأُولى ولما كان هذا ابن ست عشرة سنة كان بمدينة تريفي واما فالنتينيانوس أخوهُ فكان مع والدتهِ يوستينا على تخوم بانونيا وكان عسكر ابيهِ يسمونهُ ملكًا مع انهُ لم يكن الاَّ ابن أربعة أعوام فاثبتهُ غراتيانوس في الوظيفة ووعدهُ ان يقوم لهُ مقام ابيهِ واكتفى بالاقاليم التي على شمالي جبل ألب وسلمهُ ايطاليا وافريقية وايليرية لكنهُ ابقى لنفسهِ الحكم العام الى ان بلغ فالنتينيانوس وصار اهلاً ان يتولّى الزمام بنفسهِ وجعل اقامتهُ في مدينة تريفي أو في مدينة ماغُنسا

ولما غار فريتجيرن ملك الغوثيين على أرض الرومان في ترا سيا وبانونيا أراد غراتيانوس ان يذهب الى الشرق في جيش انجادًا لوالنس عمهِ على انهُ قصد ان يتحرَّز من فخاخ الاريوسيين الذين كان والنس محاميًا عنهم ومن اجل هذه الغاية طلب من القديس امبروسيوس الذي كان يحترمهُ احترامًا ممتازًا ان يكتب لهُ براهين في تزييف بدعة آريوس . اما هو عليهِ السلام فتقويةً لهذه العزائم التقوية ألّف سنة سبع وسبعين وثلثمائة رسالةً في الايمان الى غراتيانوس وهي في الثالوث الاقدس وهذا التأليف ينطوي على خمسة كتب لم يكتب الثلاثة الاخيرة منها الاَّ سنة تسع وسبعين وثلثمائة فلله درهُ دحضًا للبدعة المشار اليها وقرَّر المؤلف فيهِ الاعتقاد بفطنةٍ وقوةٍ وثباتٍ وأورد على اعتراضات المبتدعين احسن ما يكون من الاجوبة وألّف القديس امبروسيوس ايضًا كتابًا في التجسد ردًّا على بعض اعتراضات الآريوسيين وارسلهُ الى اثنين من ضباط قصر غراتيانوس

هذا وكسر والنس سنة ثماني وسبعين وثلثمائة الغوثيون الذين حاربهم قرب ادرنة واحترق هو نفسهُ في كوخٍ أوى اليهِ في هربهِ لمداواة جروحهِ وعُدَّ موتهُ عقابًا عادلاً على

الاضطهاد الذي اثارهُ على الكاثوليكيين ولاسيما ما اعتادهُ من القسوة على مدينة انطاكية اذ غطى شوارع هذه المدينة بالدم الطاهر وأحرق بالمشاعيل بيوتًا كثيرة وهذا هو الذي جعل الناس يقولون انهُ كان مستحقًّا ان يُحرَق . ومات كما عاش مكروهًا

وسنة تسع وسبعين وثلثمائة فقد القديس أخاهُ ساتيروس الذي كان موكلاً بجميع علاقاتهِ وأعمالهِ الدنيوية واما فقدهُ فكان هكذا بينما كان مسافرًا الى افريقية في تحصيل بعض اموال كانت محبوسة ظلمًا عن رئيس اساقفة ميلان غرقت السفينة ولم يكن ساتيروس وقتئذٍ الاّ موعوظًا فترجى المؤمنين الذين كانوا يحملون معهم القربان المقدس بحسب عادة اهل تلك الأعصار وطلب ان يسلموهُ هذا السرّ المسجود لهُ ووضعهُ في لفافةٍ بيضاء كان الرومانيون قد اعتادوا ان يلفوها على اعناقهم فادَّخر هذه الوديعة المقدسة وألقى بنفسهِ في اليمّ ولم ينتظر لوحةً ليقف عليها . وعام ووصل الى البرّ اوّل الجميع ويُظنّ انهُ كان بجزيرة صردينية . هذا وشكرًا لله على احسانهِ اليهِ ذهب يسأل عن اسقف الابرشية ليعمدهُ لكنهُ قبل ان يعتمد سأل الاسقف أهو متحد بالشركة مع الاساقفة الكاثوليكيين اي مع الكنيسة الرومانية ولما علم ان الاسقف المشار اليهِ هو من بدعة لوسيفاروس ركب البحر وفضّل ان يؤجّل معموديتهُ على ان يعتمد بيد رجل مشاق ولما وصل الى بلادٍ كاثوليكية تعمّد وحرص باقصى جهدهِ على ان يحفظ النعمة التي استفادها من المعمودية . فعلى اثر رجوعهِ الى مدينة ميلان مات بين يدي امبروسيوس ومرسلّينا ولم يوصِ وترك امواله لاخيهِ واختهِ واوصى اليهما ان يتصرفا بها بما يريانهِ مناسبًا . فوزّعها امبروسيوس ومرسلّينا على البائسين وظنا انهما قد أنفذا مقصد أخيهما ودُفن باحتفال وألقى القديس امبروسيوس قُبيل دفنهِ تأبينًا بليغًا لم يزل عندنا الى الان وعنهُ اخذنا التفاصيل التي ذكرناها . وبعد سبعة ايام ذهب الناس الى قبر ساتيروس ليكرروا الصلاة عليهِ بحسب العادة التي كانت جارية في تلك الازمان هناك وأبّن القديس امبروسيوس اخاهُ تأبينًا ثانيًا وحينئذٍ اسهب الكلام في سعادة الميتة المسيحية وفي قيامة الاموات وهذا التأبين هو المعروف بخطبتهِ في البعث والنشور

وبعد ان رعى القديس امبروسيوس كنيستهُ بضع سنين سافر الى رومية ليحضر مجمعًا عقدهُ البابا داماسوس وعرض لهُ في اثناء الطريق امر غريب يُذكرهُ بارونيوس وهو انهُ ليلة نزولهِ بفندق كان صاحبهُ عائشًا في التنعم غير مبالٍ بامور الآخرة ولا شاكرٍ لله على ما نالهُ منهُ من الخيرات أخذ القديس يسألهُ عما حدث لهُ من الكوارث في زمن حياتهِ فقال لهُ صاحب البيت انهُ منذ ميلادهِ لم يشعر بمرض ولا بحزنٍ ما أصالةً بل كان كل شيء يجري بحسب مرامهِ . فلما سمع القديس هذا الكلام منهُ ذكر كلام أيوب البار القائل يصرفون ايامهم بالتنعم وبعد دقيقة من الزمان يهبطون بغتةً الى الجحيم ثم التفت الى رفقتهِ وقال لهم قوموا بنا نذهب من ههنا سريعًا لئلاّ يدركنا الغضب الالهي الذي يحلّ على هذا المنزل وأهلهِ . فخرجوا من فورهم وعما قليل شقت الارض وابتلعت ذلك البيت بمن كان فيهِ

فلما رجع القديس الى ميلان في السنة الثالثة والثمانين بعد القرن الثالث تُوفي الملك غراتيانوس وكانت يوستينا والدة فالنتينيانوس الثاني آريوسية وتقوّي الاراطقة فازداد القديس شجاعةً في محاربتهم وفيما كان يعظ يومًا على منبرٍ عالٍ صعدت اليهِ فتاةٌ آريوسية وقحة تجاسرت امام الجميع ان تسحب الاسقف بثوبهِ ليسقط من على المنبر فقال لها القديس برصانةٍ لا يجوز لكِ ولا لواحدة من جنسكِ ان تمد يدها اليّ ولو كنت غير اهل للكهنوت الا تخافين من احكام الله أوَلا تخشين ان يدركَكِ انتقامهُ الالهي قال هذا وللوقت خرّت الفتاة الآريوسية الوقحة الى الارض ميتةً

وبعد ذلك أمر فالنتينيانوس الصغير بمشورة أمهِ الآريوسية ان القديس يجادل بين يديهِ اسقفًا آريوسيًّا اما القديس فردّ لهُ الجواب في رسالةٍ قال ان اباك الجزيل الاحترام أبرز أمرًا بهِ حكم ان لا يجوز للملوك ان يحكموا على الاساقفة في ما يتعلق بامور الايمان ورعاية الكنيسة بل ان الاساقفة هم الذين يحق لهم السلطان على الملوك في هذه الامور وانهُ لا يجوز لاحدٍ من العوام ان يمد يدهُ الى المجمع . ثم ان يوستينا ام الملك الآريوسية ارسلت اليهِ في السنة الخامسة والثمانين والثلث مائة مدبر بلاط الملك وطلب من قِبلها كنيسةً للآريوسيين بمدينة ميلان . فأبى القديس تسليمها اليهم فقال لهُ بغضبٍ كيف تجسر على ان ترذل طلبة ام الملك فاعلم اني سأقطع رقبتك . فقال القديس ليُنعم الله عليّ بما تتوعدني بهِ

لاني اذ أموت من أجل رعية المسيح أفعل ما يليق باسقفٍ ان بفعلهُ اما انت فما تصنع الاَّ ما يقتضيهِ شرُّ قلبك الخبيث واعلم ان توعُّدك لا يؤثر فيَّ لانك اذا قتلت جسدي فلا تستطيع ان تقتل نفسي فلك ان تنزع عني حياتي لا استحقاقاتي واذا نزعت عني هذه الحياة فتكون قد احسنت اليَّ وبلغتني الى الحياة الابدية . اني اسأل الله تعالى ان يسمح لجميع اعداء الكنيسة ان يقوموا عليَّ ويغرسوا في جسدي كل سهام بغضهم ويرووا ظمأهم بشرب دمي وتبقى الكنيسة صانها الله في اتم الاطمئنان. انتهى كلام القديس . روى المؤرخون ان هذا القائد حُكم عليهِ بعد مدةٍ بقطع الرأس بسبب اثمٍ كان ارتكبهُ

فلما فهمت يوستينا مقال القديس عزمت على الانتقام منهُ بيدَ انها لم تقدر ان تقبض عليهِ لتعلّق القلوب بهِ وتوجُّه الامبال اليهِ حتى قام الناس على حراستهِ ليلاً ونهارًا ومن ثم ارسلت افتيميوس احد عظماء بلاطها بمركبةٍ ليمسك القديس بحيلةٍ وينفيهُ فلبث افتيميوس سنةً واحدةً منتظرًا الفرصة المشتهاة ولم يحصل عليها فحلَّ عليهِ غضب الله فانهُ لكثرة قبائحهِ وكبائرهِ نُفي هو في المركبة المذكورة عينها كما ان هامان عُلِّق على الصليب الذي كان أعدَّهُ لمردكاي . فاتاهُ القديس بكل ما كان محتاجًا اليهِ للسفر

وفي غضون ذلك دخل الشيطان أحد الاريوسيين فجعل يصرخ قائلاً سيتعذب معي من الشيطان كل من ينكر وجود الله في ثلثة اقانيم حسب تعليم امبروسيوس فقبض عليهِ الخوارج وغرقوهُ في نهرٍ الاَّ ان احدهم كان لهُ في العلم باع فلما حضر وعظ القديس ورأى من عن يمينهِ ملكًا آمن جهارًا فاشتدَّ بغض الاريوسيين على القديس وارسلوا واحدًا ليقتلهُ في منزلهِ الاَّ انهُ لما رفع ذاك يدهُ ليضرب بالسيف شلّت من ساعتها وعدمت الحركة بالمرَّة فارتعب المرسل وجثا على قدمي القديس فغفر لهُ وخلَّى سبيلهُ لا بغيظٍ . غير ان هذه الأعجوبة لم تليّن قلوب الخوارج الاريوسيين ولم تُنِر عقولهم بل ازدادوا قساوةً ورغبةً في قتل القديس حتى انهم التجأوا الى ساحرٍ خبيرٍ بفعل السحر يقال لهُ اينوسينوس ليصرف عنهُ الناس وينزع حبهُ من قلوبهم كي يقووا عليهِ وبعد ذلك يميتوهُ . الاَّ ان هذا الساحر الشقي افرغ فيما بعد انهُ افرغ كل ما عندهُ من حِيَل السحر ولم يبلغ اربهُ بما ان الملئكة لم يزالوا يحرسونهُ عليهِ السلام

يا ليت شعري لاي خطر يتعرض المرء اذ يقاوم ربَّهُ ومن أين لهُ الصبر على مَضَض بلاياهُ فان يوستينا الاريوسية بينما كانت تحارب الكنيسة باسم ابنها الملك فالنتينيانوس أقام الله تعالى على ابنها رجلاً مظفرًا يقال لهُ مكسيموس كان احتال على غراتيانوس وقتلهُ واخذ ملكهُ جورًا سنة ثلث وثمانين وثلثمائة وبعد تمتين سلطنتهِ في بلاد غاليا وبريتانيا واسبانيا نادى بالحرب على فالنتينيانوس الصغير سنة ثلثمائة وسبعٍ وثمانين محتجًا بانهُ يريد ان ينتقم بهِ لانهُ يعضد الخوارج الاريوسيين هو ويوستينا والدتهُ . اما فالنتينيانوس ففرَّ هاربًا مع والدتهِ والتجأ الى تاودوسيوس الكبير الذي وبخهُ على مراعاتهِ الاريوسيين وابان لهُ مكرهم وضلالهم فارتدَّ الى الايمان الحقيقي . فدخل مكسيموس بلاد ايطاليا وغزا المدن والقرى فعزم اهل مدينة ميلان على الهرب فمنعهم القديس امبروسيوس قال لهم لماذا تهربون من وطنكم خوفًا من مكسيموس فرُّوا من الخطيئة واندموا عليها فتظفروا بالعدو . فكف مكسيموس عن سفك الدم ونهب البلد وأخذ يلاطف الشعب قائلاً لهم انهُ أتى من أجل حفظ الايمان الكاثوليكي سائرًا بهذا الكلام إثمهُ ومعتذرًا عنهُ باطلاً بحجة التقوى . غير ان تاودوسيوس الكبير حاربهُ وغلبهُ وقطع هامتهُ سنة ثماني وثمانين من القرن الرابع وماتت حينئذٍ يوستينا الملكة الاريوسية ورجع ابنها الى ملكهِ واتخذ القديس امبروسيوس مشيرًا وابًا الى يوم توفاهُ الله فاستراح القديس امبروسيوس من قِبَل الخوارج الاريوسيين

الاَّ انهُ ظهر حينئذٍ رجل مبتدع يُدعى جوفينيانوس كان ترهب في ميلان ثم خرج من الدير وطفق يعلم بعدم بتولية العذراء والدة الله وبترك الامتناع عن اكل اللحوم الى غير ذلك من الاضاليل . اما القديس فلم يزل يحاربهُ الى ان الشقي نُفي بأمر تاودوسيوس الملك . وفي اثناء ذلك بينما كان احد اساقفة ما بين النهرين حرك رعيتهُ على هدم مجمع اليهود لكونهم كانوا استهزأوا بهم وبديانتهم حكم الملك على هذا الاسقف ورعيتهِ بان يعيدوا بناء المجمع من نفقتهم فاذ شعر القديس امبروسيوس بذلك كتب الى الملك رسالةً وطلب اليهِ ان يبطل حكمهُ . ومما كتبهُ فيها هذا : اني اسألك ان تصغى الى طلبتي لانهُ ان كنت انا غير اهل لان تصغي اليَّ فاظن ايضًا بنفسي اني غير أهل لان اقدّم لله ذبيحة وصلواتي من اجلك . أ يمكن ان لا تصغي

الى من تشتهي ان يُصغي اليهِ حينما يضرع لاجالك . أَيمكن ان ترفض طلبتي فيما يخصني بعد ان استجبتَ لي بكل ما تشفعتُ لديك من أَجل غيري فان حسبتني غير اهل لان تستجيب لي فقد حكمت لهذا اني لست اهلاً لان يستجيب لي الله تعالى عند ما أُصلي من اجالك . اما تاودوسيوس فبعد ان اصرَّ مدَّةً على عزمهِ وعدم الاستجابة الحَّ عليهِ القديس في نفس الكنيسة قبل ابتداء القداس فأصغى اليهِ اخيرًا الملك وابطل أَمرهُ احترامًا للقديس امبروسيوس

غير ان شجاعتهُ ظهرت على وجهٍ عجيب بما فعلهُ مع هذا الملك المعظم فانهُ سنة تسعين وثلثمائة تعصب الشعب في مدينة تسالونيكي وقتلوا النائب قائد جيش الملك تاودوسيوس لانهُ لم يرتضِ بان يُطلق من السجن واحدًا من اهل الملعب حُبس لاجل إِثمٍ . فأرسل الملك جنودًا وفتكوا بالشعب وقتلوا نحو سبعة آلاف من المدينة ما بين مجرمٍ وبريٍّ فاذ شعر بذلك القديس امبروسيوس كتب الى الملك وبيَّن لهُ جسامة إِثمهِ وأَغراهُ بالتوبة وفي غضون ذلك اتى الملك الى مدينة ميلان ولما أَراد ان يدخل الكنيسة منعهُ الاسقف عن الدخول وأَمرهُ ان يمارس التوبة جهارًا عن خطيئتهِ قبل ان يدخل بيت الله وامرهُ بذلك امام جمٍّ غفيرٍ من حاشيتهِ بسلطةٍ مقدسةٍ ذات هيبةٍ سماوية . فلما اراد الملك ان يعتذر باحتشام قائلاً اني اعترف بخطيئتي وارجو من الجود الالهي العفو والمغفرة لان الملك داود بعد ارتكابهِ خطيئتي الزنى والقتل اتكل على رحمة الله فلم يخب رجاؤُهُ . فقال لهُ القديس قد اقتديت بهذا الملك في خطيئة القتل فماثلهُ ايضًا في توبتهِ . فصمت الملك تاودوسيوس ورجع الى بلاطهِ متواضعًا واستمرَّ فيهِ مواظبًا على افعال التوبة ثمانية اشهر بنشاطٍ ودموعٍ غزيرة . واذ سأَلهُ روفينوس صديقهُ عن سبب هذه الدموع قال لهُ لو تعلم مثلي جسامة إِثمي لبكيت أَنت معي ايضًا على سوء حظي لانهُ ها هوذا المساكين يدخلون الكنيسة كلما ارادوا ان يصلوا فيها قدر ما يشاؤُون اما انا فقد أُغلق دوني باب الكنيسة وباب السماء لان السيد المسيح قد قال للكهنة كل ما ربطتموهُ على الارض يكون مربوطًا في السماوات . فقال لهُ روفينوس اسمح لي ان اكلم الاسقف فيحلك فأجابهُ الملك انك باطلاً تطلب هذا منهُ لانهُ حكم عليَّ بالعدل ومن المستحيل ان يتعدّى ناموس الله احترامًا للسلطان الملكي

فبعد ان قضى ثمانية اشهر بالتوبة وكان قد قرب عيد الميلاد الالهي خرج من بلاطهِ وتقدَّم الى باب الكنيسة فلما عرف القديس بخروج الملك من بلاطهِ واتيانهِ الى الكنيسة ولم يعرف انهُ اتى ليطلب الغفران والحلَّ بكَّتهُ على مجيئهِ الى الكنيسة قبل ان يرتفع عنهُ الحرم الكنائسي . حينئذٍ قال لهُ الملك باتضاع حاشاي ان اخالف شرائع الكنيسة اغتصابًا بل اني قد اتيتك بعد تتميم افعال التوبة كي اطلب منك ان تحلني حبًّا بسيدنا يسوع المسيح الذي فتح باب الكنيسة والسماء للذين ندموا على خطاياهم . فاجابهُ القديس قائلاً ما هو الدواء الذي نضعهُ على جرحك البعيد عن البرء وما القانون الذي يجب ان نفرضهُ عليك اجاب الملك ضع عليَّ ايَّ قانونٍ اردت وانا اكملهُ حسبما ترسم ففرض القديس على الملك قانونًا . ثم حلَّهُ وأَدخلهُ الكنيسة وعند دخولهِ جثا على الارض وطفق يبكي ويضرب صدرهُ قائلاً بصوت اسيف وقلبٍ متخشع لصقت بالتراب نفسي فأحيني يا رب بكلمتك وبحسب وعدك

روى المؤَرخون أَمرًا آخر حريًا بالاعتبار يدلُّ على ما كان عليهِ هذا الملك العظيم من التواضع والطاعة للكنيسة المقدسة وهو ان الملك دخل يومًا الخورس ليقدم للكنيسة هديتهُ وبعد تقدمتهِ اياها وقف في الخورس مع الاكليريكيين بحسب العادة الجارية في القسطنطينية ليسمع بقية القداس . فأرسل القديس امبروسيوس من كرسيهِ حيث كان جالسًا وقال لهُ ان هذا المكان مختص بالاكليريكيين لا يجلس فيهِ غيرهم وان البرفير والتاج اللذين صيراك ملكًا لم يجعلاك اكليريكيًا فخرج الملك حالاً من الخورس . ولما رجع الى القسطنطينية كلفهُ البطريرك نكتاريوس الوقوف في الخورس فلم يُرد ان يقف فيهِ بل قال لهُ متنهدًا انهُ قبل ان يعلمني الاسقف امبروسيوس لم اكن اعرف ان اميز الملك من الاسقف اني وجدت في شخصهِ معلم الحق ولست اعرف احدًا غيرهُ يستحق اسم الاسقفية

وكان يتدرب بمشورتهِ في امورٍ كثيرة وهكذا فعل الملك فالنتينيانوس بعد موت يوسنينا والدتهِ ولكن قتلهُ اغتيالاً بمدينة وينا من اعمال غاليا اربوغاستوس قائد جيشهِ وأَقام اوجاونيوس خلفًا لهُ بشرط ان يأذن في عبادة الاوثان . فحاربهما تاودوسيوس وظفر بهما في السنة الرابعة والتسعين

والثلث مائة للمسيح ومن ثم صار ملكاً على الشرق والغرب ولعلمهِ انهُ لم ينتصر بقوة عسكرهِ بل بصلوات القديس امبروسيوس كتب اليهِ طالباً منهُ ان يقدّم لله تعالى الشكر الواجب لعزتهِ الالهية على ما احسن بهِ اليهِ والى جماعة المسيحيين بهذا الانتصار المبين فاجابهُ القديس برسالة هكذا : اني قد اكملت ما طلبتهُ مني ولما تقدّمت الى المذبح وضعت عليهِ رسالتك ولما حان وقت تقدمة الذبيحة الالهية اخذت بيدي رسالتك لكي يتكلم ايمانك بفيّ وتمارس برسالتك على نوعٍ ماوظيفة الكاهن . وفي الحقيقة ان السيد المسيح أحسن الى المملكة الرومانية احساناً عظيماً لما اقامك ملكاً عليها فماذا اطلب من الله لاجلك بعد ان اعطاك كل شيءٍ لانهُ جلّ اسمهُ صيرك ملكاً شرقاً وغرباً ووهبك قلباً نقياً رؤوفاً صالحاً غير اني اروم ان تنمو في التقوى يومياً انتهى. ثم اتى الملك تاودوسيوس الى ميلان واعتراهُ هناك مرض عضال وبعد تناولهِ القربان المقدس قدّم للقديس ابنيهِ وهما اركاديوس واونوريوس وطلب منهُ ان يكون لهما اباً وأوصاهما بان يحترماهُ ويُطيعاهُ طاعة الابناء اباءهم وأقام احدهما ملكاً على الشرق والآخر على الغرب وتُوفي بمدينة ميلان سنة خمس وتسعين وثلثمائة . وفي هذه السنة عينها كُشف على ذخائر القديسين نازاسيوس وسيلسوس كما اوردنا ذلك في اليوم الثامن والعشرين من شهر تموز

وبعد سنة واحدة لذلك بعثت ملكة بوهيما رسلاً الى القديس امبروسيوس ليسطّر لها كل ما ينبغي ان تعتقدهُ لنيل الخلاص فكتب اليها القديس كتاب التعليم المسيحي ولما بلغها قرأتهُ وقبلتهُ وطبعت سيرتها عليهِ ثم أتت مدينة ميلان لترتشد بشورتهِ الا انها لما وصلت وجدتهُ قد تُوفي . وقبل موتهِ كان قد ظهر لهُ السيد المسيح وبعد تناول الاسرار الالهية انتقل الى رحمة الله صبيحة عيد الفصح في اليوم الرابع من نيسان سنة سبع وتسعين من المائة الرابعة للمسيح الا ان الكنيسة نقلت عيدهُ الى اليوم السابع من كانون الاول بحيث انهُ في مثل ذلك اليوم ارتسم اسقفاً

اليوم الثامن

وفيهِ تذكار الحبل بمريم العذراء البري من دنس الخطيئة الاصلية

انهُ اذ تكلم النبي والملك داود مع روساء شعب اسرائيل وحرّضهم على ابتناء هيكل مفتخر للرب قال انهُ ينبغي ان يكون البنيان عظيماً لانهُ ليس لإنسان بل لرب المجد ولنا ان نقول مثل هذا في كل عيد من اعياد العذراء الجليلة ولا سيما في عيد الحبل بها النقي والبري من كل عيوب الخطيئة لانهُ هو ابتداء كل اعيادها من حيث انهُ في ذلك اليوم بعد انتخابها الأزلي وضع اسّ هذا الهيكل الالهي وشرعت الحكمة بالذات تعدُّ المنزل حيث كان سيسكن الله . انهُ لقد كان هذا العمل عظيماً جدًّا ومن ثم قالت البتول عن نفسها ان الله صنع فيها العظائم (لوقا ١ : ٤٩) وأخبرنا صاحب الرؤيا ان سور اورشليم السماوية مزيّن بكل الجواهر الثمينة فكم بالحري يكون سور المقدس الالهي واسّهُ اعني الحبل بالعذراء موشحاً بافخر النعم ومملوءًا اسرارًا وعظائم سماوية لانها هي مدينة الله التي قيلت فيها عجائب (مزمور ٨٦ : ٣)

ولا بدّ لنا في هذا المقام اطلاعاً للناس على حقيقة هذا الامر ان نفسّر هنا ما قد علمتناهُ الكنيسة في الخطيئة الاصلية التي نجت العذراء منها حين الحبل بها في اول دقيقة من حياتها خلافاً لبقية بني آدم الذين من حين الحبل بهم يتدنّسون جميعهم بهذه الخطيئة

نقول ان الله تعالى الغنيّ والسعيد بذاتهِ والغير المحتاج الى احد اراد بحركة جودهِ الغير المتناهي ان يخلق الانسان على صورتهِ ويشركهُ في مجدهِ وسعادتهِ ولما كانت غاية الانسان هذه السامية فائقةً قوتهُ الطبيعية خولهُ الله تعالى نعماً فائقة بها كان يقدر ان يبلغ غايتهُ وسعادتهُ وهذه الهبات كانت قائمة في شيئين وهما النعمة الملكية والبر الاصلي . فبالهبة الأولى غدا الانسان مقبولاً عند الله وصديقاً بل ابناً لهُ تعالى ذا حقٍّ على نيل مجد السماء وهذه النعمة الملكية كانت مقترنة ببقية مواهب الروح القدس ليستطيع بها ان يمارس بسهولة وعذوبة افعالاً تستحق المجد المؤبد فيربح بطريق العدل ما قد كان انتخبهُ الله اليهِ مجاناً . والهبة الثانية كانت البر الاصلي المتوقف على انتظامٍ بهِ كان الانسان في حال السلام نظرًا اليهِ تعالى وكان يتسلط على اهوائهِ الطبيعية يخضع فيهِ الجزء الادنى الحيواني للجزء الناطق الاعلى وكان مع ذلك متسلطاً على كل الحيوانات بل على كل الامراض حتى الموت ايضاً . غير انهُ تقدست اسماؤهُ لما وهب هذه كلها لآدم وحواء ووعدهما بان يستمرّا على هذه الحالة السعيدة هما وذريتهما قال لهما انهما

يسقطان عن هذه السعادة مع ذرّيتهما حالما يخالفان امرهُ ويأكلان من اثمار شجرة معرفة الخير والشر

وقد اغوى الشيطان حوّاء فاكلت من الثمرة المنهية وأغوت بعلها فاكل وكلاهما خالفا وصية الله تعالى وفقدا وقتئذٍ النعمة الملكية والبر الاصلي وبقية المواهب الممنوحة لهما واصبحا عريانين يتقلبان في الفقر والشقاء واضحيا عرضةً لجميع الاسواء والبلايا والموت . وقد ولدانا على هذه الحال الشقية التي سقطا اليها ومن ثم لما اخطأ آدم لم يضرّ نفسهُ فقط بل انهُ ضرّنا جميعًا نفسًا وجسدًا . اما نظرًا الى الجسد فاننا خضعنا للموت والفساد وسائر الشرور واما نظرًا الى النفس فان كل من وُلد من آدم ولودًا طبيعيًّا يلحق نفسهُ عيب الخطيئة الاصلية وهي موت النفس وعدم البرّ الاصلي الذي كان بقي لهُ لو استمرّ على حفظ وصية الله تعالى . والحال انهُ من المحال ان تمحى الخطيئة الاصلية بغير استحقاق دم السيد المسيح المنسوب لنا في سرّ العماد الذي بهِ يردُّ الله لنا نعمتهُ ويغفر لنا الخطيئة الاصلية ولا يبقى منها شيء اصلاً في النفس بجعلة تعالى يبغضنا بسببهِ . وقد ضرنا آدم ايضًا في النفس من حيث قد تمردت فيهِ الشهوة التي كانت منظمةً في حال البر الاصلي وخاضعة للعقل النطقي وهذا الوحش الشرس اعني الشهوة ليس لهُ بين كل الوحوش الضائرة نظير في الشراسة بحيث ان تمرد الشهوة وميلها الغريزي هو مصدر جميع خطايا العالم . نعم ان هذه الشهوة لا تضرُّ الذين بعد المعمودية لا يتبعون حركاتها بل يقاومونها ويتخذونها وسيلةً لاكتساب الفضيلة . وفي الحق انها اصل الخطايا كافةً

ومن هذا التعليم المأخوذ عن المجمع التريدنتيني المقدس ينتج ان الذين يموتون وهم متلوّثون بالخطيئة الاصلية لا يشاهدون الله تعالى ابدًا وان كل طفل حين مولدهِ وقبل اعتمادهِ هو في حال الخطيئة حقًّا وانهُ عدوّ الله وابن الغضب وتحت راية الشيطان وسلطتهِ واسرهِ واناء الهلاك مملوءٌ فسادًا وانهُ قد محي اسمهُ من سفر الحياة لان هذه هي نتائج الخطيئة الاصلية

هذا وخلاصة ما تلاحظهُ الكنيسة في عيد الحبل بمريم العذراء المباركة انها قد تبرّأت من الخطيئة الاصلية ولو كانت ابنة آدم ولو حُبل بها على الطريقة الطبيعية لان ابن الله الذي كان قد اختارها منذ الازل لتكون والدتهُ سبق ونجاها من هذا العيب والشقاء المحكوم بهِ على الجميع وذلك لان عظمة الابن وشرف الأم كانا يقتضيان ان يكون كذا . ومن ثم حين خلق الله تعالى هذه النفس المباركة واتحدت بالجسد نزّهها منذ اول دقيقة من حياتها بنعمتهِ وصانها من الخطيئة الاصلية وصيّرها بهيّةً مقبولةً تجاه عزتهِ أتمّ القبول حتى انهُ لم يستطع الشيطان ان يجد فيها شيئًا ما لهُ أخزاهُ الله ولا ان يفتخر بانهُ رآها دقيقة واحدة من الزمن تحت سلطانهِ وفي أسرهِ فهذا ما تعيّد لهُ الكنيسة في هذا اليوم وهي عقيدةٌ أثبتتها الكنيسة المقدسة والآباء القديسون والعقل النطقي

على انهُ بعد سقوط والدينا الاولين في الخطيئة لم يحكم الله تعالى عليهما حالاً بل لعن قبلاً الحيَّة التي اغوت حواء قال لها اذ صنعتِ هذا فأنتِ ملعونةٌ من بين جميع البهائم وجميع وحش البرية على صدركِ تسلكين وترابًا تأكلين كل ايام حياتك واجعل عداوةً بينكِ وبين المرأة وبين نسلكِ ونسلها فهي تسحق رأسكِ وانتِ ترصدين عقبها (تك ٣: ١٤و١٥) اي انك تنصبين فخاخًا في جميع طرقها فهذا ما حكم الله بهِ على الشيطان قبل ان يحكم بهِ على الخطأة . فقد فهم الآباء القديسون ان المراد بالمرأة هنا العذراء المجيدة التي سحقت رأس الحيَّة بواسطة السيد المسيح ابنها وبهِ تعالى محت سلطتهُ وأنقذت الانسان من أسرهِ وردتهُ الى حال النعمة . فكما ان الشيطان كان قد ظفر بالعالم بواسطة ضعف امرأة هكذا ينتصر عليهِ العالم بواسطة امرأة . وقد جعل الله سبحانهُ حينئذٍ هذه المرأة المباركة ملكتنا قبل ان يحكم على آدم وحواء اشارةً الى انهُ استثنى من هذا الحكم وهذه الدينونة تلك المرأة الجليلة التي اختارها وأقامها لازالة الخطيئة التي كان عتيدًا ان يحكم عليها حكمًا شديدًا ومن اجل اختيار الله اياها وانتخابها الازلي لهذه المهمَّة السامية تدعوها الكنيسة بكر سائر الخلائق لانها هي المرموز اليها في سفر الامثال (٨: ٢٢) الرب اقتناني في بدء طرقهِ . وقال فيها المرتل ان الله يُعينها من الغداة صبحًا (مز ٤٥: ٦) وانهُ لبيت الرب ينبغي التقديس (مز ٩٢: ٥) بل ان الروح القدس عروسها قال فيها كسوسن بين الاشواك قريبتي بين البنات (انشاد ٢: ٢) لانهنَّ كلهنَّ بالنسبة اليها اشواك لاجل الخطيئة الاصلية التي لحقتهنَّ من آدم . اما البتول الطوباوية فانها بهية كالسوسن ومن ثم يقول عنها جميلة بكليتها ولا عيب فيها (انشاد ٤: ٧) حمامتي هي واحدة كاملة منتخبة (انشاد ٦: ٨) لانها وحدها برية من الخطيئة الاصلية والكتاب

المقدس يدعوها ايضًا بستانًا مُغلقًا (انشاد ٤ : ١٢) لان الحيّة ما قدرت ان تلجها وتسمّ نباتها النقي

فمن اجل هذه الشهادات الالهية اعتقد الاباء القديسون ان العذراء الجليلة لم تتدنس بالخطيئة الاصلية بل انها من حين الحبل بها ومنذ اول دقيقة من حياتها حازت النعمة . هذا ما يشير اليهِ المجمع السابع العمومي المقدس . وهذا ما أثبتهُ القديس اغسطينوس بقولهِ كلما أتكلم في الخطيئة استثني العذراء مريم التي ظفرت بالخطيئة لكونها والدة من قد ظفر بالخطيئة كل الظفر . وفي كتابهِ ضد بوليانوس الناكر حقيقة الخطيئة يتفلسف هكذا أمّا التي بعد مولدها ومن بلوغها المعرفة لم ترتكب خطيئة فعلية فهي لم تتدنّس بالخطيئة الاصلية حقًّا والحال ان الكنيسة تعلمنا ان العذراء الجليلة لم ترتكب خطيئة ما فعلية حتى ولا عرضية فاذًا لم تتدنس بالخطيئة الاصلية . ومن ثم قال القديس فينسنسيوس فراريوس لا يظنّ أحد بان الحبل بسيدتنا مريم العذراء كالحبل بنا مدنّس بالخطيئة كلا بل انهُ ساعة تكوّن جسدها وخُلقت نفسها حينئذٍ حازت نعمة التقديس ولهذا قد عيدت الملئكة في السماء للحبل بها . والقديس امبروسيوس يدعو العذراء المجيدة القضيب السريّ الرمزي الذي لا توجد فيهِ عقدة الخطيئة الاصلية ولا قشر الخطيئة الفعلية . وقال الدمشقي ان الطبيعة في امر الحبل بالعذراء لم تستوفِ فعلها بل انتظرت قليلاً الى ان تصدر النعمة فيها . وأوضح ذلك جليًّا القديس بوناونتورا بقولهِ ان الروح القدس نجاها في ابتداء الحبل بها من الخطيئة الاصلية لا من التي كانت فيها بل من التي كانت ستعتريها لو لم يسبق تعالى ويحفظها منها بنعمة خصوصية . فبالصواب اذًا تعيّد الكنيسة شرقًا وغربًا للحبل بالعذراء بغير دنس الخطيئة الاصلية

وهذا الاعتقاد المثبت بشهادات الكنيسة المقدسة والاباء القديسين يعتمد ايضًا على الادلّة العقلية الساطعة على ان عزّة اقنوم ابن العذراء وسمو شرف رتبتها وشأن الملئكة والبشر كل ذلك اقتضى ان تكون عليها السلام بريّةً من وضر الخطيئة الاصلية . فلانهُ ليس على الارض من ولد كريم الطباع حسن الاخلاق لا يكرم والدتهُ فان كان في امكانهِ ان يختار لذاتهِ أمًّا اكمل النساء وافضلهنّ لاختارها بلا ريب بحيث ان كرامة الأم وشرفها يرجعان الى ابنها والحال انهُ قد كان في قدرة ابن الله ان يختار لنفسهِ والدة كاملة منزهة عن كل خطيئة اصلية

او فعلية . قال الرسول بولس انهُ قد لاق ان يكون لنا حبر قدّوس ذكي بري من كل دنس مفروز عن الخطأة فياليت شعري كيف يُفرز عن الخطأة لو كانت والدتهُ التي اتّخذ منها جسدهُ مدنسةً بالخطيئة . ثم انهُ من أكبر واجبات الابن ان يكرم امهُ وان يفعل بها كل ما يقدر عليهِ من هذا القبيل ومن حيث انهُ تعالى هو مخلص الجميع وقادرٌ ان يخلّص على انواع مختلفة فلاق بهِ والحالة هذه ان يخلّص والدتهُ بأحسن نوع واشرفهِ اي انهُ لم يدعها تسقط ليقيمها بل سبق وحفظها من السقوط فان الطبيب الذي يسبق ويحفظ الانسان من ان يصيبهُ الداء لأفضل كثيرًا ممّن يشفي احدًا من مرض قد أصابهُ والذي يحفظ شخصًا من السقوط في الاسر هو افضل من الذي يُطلقهُ من بعد اسرهِ

هذا واذا اعتبرتَ شرف كونها والدة الله وعرفتَ سمو هذا الوصف عرفتَ انهُ متضمن جميع ما يمكن ان ينالهُ المخلوق من النعم والامتيازات وخلاصة المقال ان هذا هو القياس الذي ينبغي ان تجري عليهِ كلما تكلمنا في حق هذه البتول المباركة لانهُ كما قال القديس بوناونتورا يستطيع الله تعالى ان يكوّن سماء وارضًا اوسع وابهى من العالم الموجود وان يخلق انواعًا من الخلائق افضل كمالاً من هذه التي خلقها الّا ان القادر على كل شيء لا يقدر ان يصنع أمًّا أعظم وأشرف من ام الله . كيف لا ومن الممتنع ان توجد أمٌ يكون لها ابن اعظم من ابن الله ولهذا قال القديس توما اللاهوتي ان شرف الوالدية الالهية هو على نوعٍ ما لا حدّ لهُ وفي هذا شيء جزيل الاعتبار وهو ان الابن ملتزم بوالدتهِ نعم انهُ لم يكن ممكنًا ان تستحق العذراء ان تكون والدة الله بل انهُ تعالى رفعها لهذا الشرف السامي مجانًا وبنعمتهِ المحضة ولكن بعد ان اختارها أمًّا لهُ أصبح ملتزمًا لها نظير بقية البنين بل اكثر منهم ايضًا لانهُ لم يكن للسيد المسيح ابٌ على الارض ومن المحال ان يكون لغيرهِ امٌ نظير هذه . ولهذا قال القديس ميتوديوس البطريرك القسطنطيني افرحي ايتها العذراء لان الذي يعطي الكل ولا يأخذ من احدٍ والذي الجميع ملتزمون لهُ هو ملتزم لكِ لانهُ تعالى قد اتخذ من العذراء جوهر جسدهِ المجبول من الروح القدس واغتذى بلبنها ولحمهُ سبحانهُ كما قال القديس اغسطينوس هو لحمها . ومن ثم قال فيلون الفيلسوف ان الوالدين هما مبدأ حياة الأولاد الثاني وانهُ لا يمكن للاولاد ان يكافئوا والديهم بحسبما اتخذوهُ منهم

ولذلك اوصانا الله تعالى باكرام والدينا . فهل تظنّ بالذي وضع الناموس انهُ لا يحفظهُ بالكمال ولم يكرم والدتهُ بحفظهِ اياها من كل دنس وعيب بافاضتهِ عليها كل النعم والمواهب لان الاكرام الذي يلتزم بهِ الابن نحو والدتهِ لا يتوقف على مجرد الكلام بل انهُ هو قائمٌ في ان يحسن اليها بكل ما يمكنهُ من الخير

ان كل نِعَم العذراء وامتيازاتها مبنية على مبدأ بن قدرة ابنها الغير المتناهية وشرف الوالدية الالهية الغير المتناهي على نوع ما ولهذا قال القديس انسلموس انهُ لواجب ان تكون ذات نقاوة لا يمكن ان يكون افضل منها خارجًا عن الله تعالى . والحال لو لم تكن العذراء حُفظت من الخطيئة الاصلية لامكن ان نتصوَّر نقاوة أفضل من نقاوتها لانهُ من المحقق ان نقاوة من حُفظ من الخطيئة الاصلية هي اعظم من نقاوة من يتبرأ منها بعد ان تدنس بها . وينتج من كل ما ذكرناهُ كان من الواجب ان يَن الله تعالى على والدتهِ بكل ما تفضل بهِ على كل خليقة حذرًا من ان تكون والدتهُ أدنى من عبيدهِ في شيءٍ ما والملكة دون المرؤسين والحال ان آدم وحواء قد خُلقا في حال البر الاصلي وهكذا خُلق الملئكة فلماذا يُمسك هذا الشرف عن ملكة البشر والملئكة . ان القديس اغستينوس قد رفض زعم القائلين بان الفساد قد عبث بجسم العذراء من بعد موتها وبنى ذلك على ان جسدها هو جسد ابن الله جلَّ شانهُ فكيف يُظن والحالة هذه ان قد لحق بنفسها فساد الخطيئة الاصلية

ثم ان الجنس البشري يحصل على كل شرف عظيم من حيث ان فتاةً من نسل آدم وُلدت كسائر الناس ارتفعت راقيةً الى هذه الدرجة السامية من النعمة حتى انها لم تتدنَّس بالخطيئة الاصلية والفعلية البتة وانما منذ اول دقيقة من حياتها الطبيعية أخذت تحيا حياةً سماوية الهيئة . وما اكثر ما يتعزَّى الخطاة من ان لهم شفيعةً قد ظفرت بالخطيئة كل مدة عمرها وانها لم تخضع اصلاً للعدوّ العامّ الذي يستشفعونها في الانقاذ من أسرهِ

فيا ايتها العذراء المجيدة التي تمدحها السماء والارض بسبب هذه النعمة العظيمة التي نالتها من كرم ابنها الحبيب وبها شرف الجنس البشري وعزاؤهُ . انكِ انتِ هي الارض البكر الغير المفلوحة بيد البشر التي منها جُبل آدم الثاني عنصر حياتنا . اي نعم انكِ انتِ هذه الارض المباركة التي لم يلعنها الله . انتِ هي جنة النعيم المغروسة تجاه مشرق الشمس الازلية اي السيد المسيح الذي اضاء لكِ بنور نعمتهِ منذ ابتداء وجودكِ انتِ هي الارض الكهنوتية التي نجت من الجِزْية التي كانت تعطيها كل الاسباط اعني بها الخطيئة الاصلية . انتِ هي المرأة العبرانية امُّ موسى الكليم التي مع انها كانت في ارض مصر لم تكن تحت أَسر فرعون بل فازت بالحرية بابنها الذي ارضعتهُ واجتازت معهُ البحر الاحمر . انتِ هي العليقة العجيبة التي احاطت بها النار نار الخطيئة الاصلية ولم تؤذها البتة . انتِ التابوت المصنوع من خشب غير قابل الفساد كي تحفظي لا المنّ البائد بل الخبز الحيّ السماويّ . انتِ هي السحابة الخفيفة النيرة التي جلس عليها الرب ليهبط الى مصر . انتِ هي عرش سليمان المجيد . أنتِ هي زينة السماء وفرح الارض . واعلم ان العذراء فضلاً عن انها لم تتدنس بالخطيئة الاصلية حازت كل النعم وتزيّنت بجميع الفضائل الأدبية وابتدأت من مشرق حياتها تصعد مرتقيةً من فضيلةٍ الى فضيلةٍ كما سبقت الاشارة الى ذلك

هذا ولما كان اليوم الثامن من شهر كانون الاول سنة اربع وخمسين وثمانمائة والف جاء الوقت المعين من الرب لهُ المجد لكي تُدرج في قانون الايمان المسيحي هذه الحقيقة المتقدم ذكرها فنادى الحبر الاعظم بيوس التاسع باحتفالٍ حضرهُ كثيرون من اساقفة المسكونة كلها في كنيسة القديس بطرس واعلن انها من الحقائق الدينية الموحى بها من الله في الكتب المقدسة والتي لا بد من الاعتقاد بها للخلاص الابدي وقد فرح جميع الشعوب الكاثوليكيين في الدنيا على هذا التصريح والاحتفال

ثم اعلم ايها المؤمن ان الله تعالى يحسن بنعمٍ جزيلة الى الذين يكرمون الحبل بالعذراء البري من دنس الخطيئة الاصلية وقد شهد الاب افيلا ان اناسًا كثيرين استفادوا جدًّا من هذه العبادة تجاه تجارب اللحم وبتلاوتهم حين التجربة وقبلاً صلاةً ما اكرامًا لهذه البتول خصوصًا هذه الصلاة : ايتها العذراء النقية الطاهرة اسألكِ بحق الحبل بكِ البريءِ من دنس الخطيئة الاصلية وبتوليتكِ وحبلكِ النقي بابن الله ان تنقي قلبي وتطهري جسدي باسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد آمين

وتعيِّد الكنيسة الغربية هذا العيد في اليوم الثامن من كانون الاوّل والكنيسة الشرقية تذكرهُ في اليوم التاسع من

الشهر المذكور

اليوم التاسع

وفيهِ ترجمة الشهداء هيبركس وفيلوتاوس ويعقوب وباراغُرس وعُبيد وورومانس ولوليانس الذين استشهدوا بمدينة سُميساط

وهي مأخوذة عما كتبهُ احد المشاهدين

لما رجع الملك مكسيميانس منتصرًا على العجم سنة سبعٍ وتسعين ومائتين أمر باقامة الالعاب للسنة الخامسة لملكهِ بمدينة سُميساط عاصمة سورية العالية وهي مدينة على حاشية نهر الفرات فأمر كل من فيها ان يجتمعوا في هيكل وسط المدينة يُعرف بهيكل السعادة وان يحضروا الضحايا الاحتفالية التي كان مزمعًا ان يقرّبها للآلهة وعُزِف بالابواق تبشيرًا بالعيد وكان يُشمُّ من كل جهةٍ رائحة البخور وروائح المحرَقات

وكان هيبركس وفيلوتاوس المعتبران لما ها عليهِ من المعارف قد تنصَّرا منذ قليلٍ فازمعا ان يقضيا العيد في حجرةٍ بدار هيبركس وعلّقا صليبًا على الحائط الشرقي وكانا يصليان امامهُ سبع مرّات في النهار ويسجدان ليسوع المسيح تبارك اسمهُ . وزارها اصدقاؤُها الخمسة وكلهم اصغر منهما سنًّا وهم يعقوب وباراغُرس وعُبيد وورومانس ولوليانس في الساعة التاسعة من النهار فوجدوها منزويين بحجرة يُصليان أمام الصليب فسألوها مالكما حزينين ولِمَ انتما منزويان وقد أمر الملك بنقل جميع الآلهة من المدينة الى هيكل السعادة وامر أهل المدينة ان يلتئموا هنا لك لاقامة الصلاة . فاجاباهم نحن نسجد لخالق الدنيا قال يعقوب وقد أخذهُ الذهول أتتخذان هذا الصليب خالق الدنيا فاني رأيت انك تسجد لهُ فقال هيبركس نحن نسجد لمن عُلق عليهِ ونعترف انهُ الهٌ وابن الله وهو مولودٌ غير مخلوق من جوهر الاب نفسهِ وبقدرتهِ خلق العالم وبرءاهُ وقد اغتسلنا منذ ثلثة أعوام بماء المعمودية باسم الآب والابن والروح القدس وذلك بيد يعقوب كاهن الدين الحق وواظب منذ حينئذٍ على ان يناولنا من برهةٍ الى أُخرى جسد المسيح ودمهُ وبناء على ذلك نظن انهُ لا إِذن لنا ان نخرج في هذه الايام الثلثة ونحن نكره روائح الضحايا التي ملأَت المدينة نتانةً وافسدتها هواءً

قال الاحداث الخمسة بعد مثل هذه المفاوضات انهم يشتهون ان يتعمدوا ولكن كانوا يهابون شدة الشرائع الوثنية على من يتنصَّر . ثم قالوا لعلَّ هذا الخوف لا يوقف هيبركس وفيلوتاوس بحيث كان يدافع عنهما شرف النَسب وعلوّ المنصب اجابهم هيبركس وفيلوتاوس انهُ لم يكن الاناء الخزفي الاَّ طينًا قبل ان يُكوَّن ويُشوى بالنار وكلَّماهم على الاستشهاد واحتقار الدنيا اللذين هما نتيجة الايمان كلامًا وقع عندهم موقعًا حسنًا حتى انهم طلبوا ان يُعمَّدوا ويُوسموا بسمة المسيح وقالوا انهم لما رأوا صاحبيهم يصليان قدام الصليب شعروا ان نارًا باطنةً تلتهب فيهم . واشار عليهم هيبركس وفيلوتاوس ان يؤجلوا امر تعمُّدهم الى حين غير انهما اذ رأيا ما رأيا من حسن استعدادهم كتبا الى الكاهن يعقوب المشار اليهِ رسالةً موسومةً هذا منطوقها

نرجو ان تأتي الينا حالما تستطيع وان تصحب معك ماء وقربانًا وزيت الميرون لانَّ نعاجًا حديثة قد انضمَّت الى قطيعنا مشتاقة كثيرًا الى حضورك وهي مشتهية ان تكون موسومةً بسمة الرب لهُ المجد

فجاء الكاهن وتحت ردائهِ كل ما طلبوا ولما وصل رأى الاحداث الخمسة وهيبركس وفيلوتاوس جاثين يصلون فقال لهم السلام عليكم يا عبيد يسوع المسيح الذي صُلب تخليصًا لخليقتهِ فنهضوا جميعًا من ساعتهم . غير ان يعقوب وباراغُرس وعبيد ورومانس ولوليانس جثوا على ركبهم ثانيةً وقالوا لهُ أشفق علينا وسِمنا بسمة المسيح الذي نسجد لهُ . فسألهم أمستعدُّون انتم ان تذوقوا المحن وتكابدوا العذاب من اجل المسيح الذي عُذِّب من اجلكم اولاً فاجابوهُ كلهم معًا لا شيء يفصلنا عن محبة الله الذي هو في المسيح يسوع . فقال لهم صلوا معي فصلوا معهُ ساعةً ثم قام الكاهن وحياهم بالسلام قائلاً نعمة ربنا يسوع المسيح لتكن مع جميعكم وأمرهم ان اعترفوا بايمانكم وارذلوا الوثنية ففعلوا فعمدهم وناولهم جسد المسيح ودمهُ . ثم اعتزل في محلهِ خوف ان الوثنيين يرونهم معًا وكان الكاهن المذكور شيخًا متنكرًا بثوب فقر

ولما كان ثالث ايام العيد سأل الملك هل من حاكم استهان بالآلهة وهل الجميع ذبحوا لهم فقيل لهُ ان هيبركس وفيلوتاوس لم يحضرا منذ ثلث سنين عند ما نقدّم العبادة علانيةً للآلهة فأمر من ساعتهِ ان يُقادا الى هيكل السعادة ويُكرها على التضحية فذهب الجنود المكلفون انفاذ الامر الى

دار هيبركس فاذا هو وستة من المسيحيين هناك فقبضوا اول الامر على هيبركس وفيلوتاوس فقط واقتادوهما الى هيكل السعادة . فسألهما الملك كيف تجرّأتما ان تعصيا الملك وتستهينا بالآلهة الخالدة فاجابهُ هيبركس قائلاً قد تجلت عنك ايها الملك اذ سمعتك تطلق اسم الله على الخشب والحجارة فأمر الملك ان يُسجن في سجنٍ مظلم ويُضرب على ظهرهِ خمسين ضربة بسياطٍ مرصّصة . ثم حضر فيلوتاوس فشدَّد عليهِ الملك ان يذبح للآلهة ووعدهُ ان يجعلهُ حاكماً ويغمرهُ بالنعم اذا أطاع فأجاب فيلوتاوس اني ألبس ثوب العار ان قبلت الشرف على هذا الشرط ويظهر لي ان لا شيء يعادل المجد الذي يستفاد من العذاب لاجل المسيح . وتكلم في خلقة العالم بكمال البلاغة . فقطع الملك الكلام عليهِ وقال لهُ قد رأيتك ذا علمٍ فأمسك عن تعذيبك رجاء انك تنتبه بقوة ذكائك على انك في ضلال غير انهُ غُلل بالقيد واقتيد الى حبسٍ منفصلٍ عن حبس هيبركس . وامر الجند ساعتئذٍ ان يقبضوا على المسيحيين الخمسة الذين كانوا مع هيبركس وفيلوتاوس ففعلوا وأحضروهم لدى الملك فقال لهم انتم في ريعان الصبا وعنفوان الشباب فلا تحتقروا الحياة فقالوا لهُ ان الايمان بالمسيح لأفضل من الحياة كثيراً ولا شيء يجعلنا نرفض محبة الهنا فيا لها فائدة كبيرةً ثمينةً ان نحمل فينا جسد المسيح ودمهُ فأجسادنا تخصصت للملامسة جسد الرب جلَّ جلالهُ فأضحت مقدَّسةً فلا يجوز ان ندنسها وبالنتيجة فاننا لانضحي للآلهة لان ذلك اهانةٌ للمقام الذي ارتقينا اليهِ . فألحَّ عليهم الملك ايضاً ان يشفقوا على صباهم ولا يعرّضوا بأنفسهم الى الهلاك وأقسم بآلهتهِ انهم يهلكون تحت العذاب اذا اصرّوا على العصيان وأوعدهم بالصلب كما صُلب سيدهم فقالوا لهُ لانخشى العذاب فأمر ان يقيدوهم بالسلاسل ويسجنوهم في سجونٍ مظلمةٍ منفصلٍ بعضها عن بعض والاّ يسقوهم ولا يطعموهم الى ما بعد العيد

ولما انتهى احتفال العيد امر الملك ان ينصبوا لهُ كرسيّاً خارج المدينة بروضةٍ على ضفَّة الفرات فنصبوا الكرسي واحاطوهُ بنمارق تكوّن منها أنواع من الخيام ولما جلس الملك على ذلك الكرسي استحضر المعترفين فمثل لديهِ اول الجميع هيبركس وفيلوتاوس والسلاسل في عنقهما وتبعهما الخمسة مكتوفين واذ رفضوا ان يضحوا للأوثان مُدّوا على آلة العذاب وجُلد كلٌّ منهم عشرين جلدة على كتفيهِ ثم ضربوهم بسيور على الصدر والبطن حتى اذا فرغوا من ذلك العذاب اعادوهم الى السجن ومنعهم الملك ان ينظروا احداً وازمع أن لا يعطيهم من القوت الا قدر ما يُمسك الرَمَق فاستمرّوا على هذه الحال من خامس عشر نيسان الى الحادي والعشرين من حزيران

واستُنطقوا ثانيةً فقال الملك اذا ارادوا ان يطيعوا أمري امرت ان يُحلَق لهم ويُقادوا الى الحمام حتى يؤخذوا من هنالك الى القصر الملكي ويرجعوا الى مناصبهم فترجوهُ كلهم ان يتركهم في الطريق الذي أشرعهُ لهم المسيح . فأوغر هذا الكلام صدر الملك عليهم فقال ايها الاشرار انتم تلتمسون الموت وأوشك أن يحصل لكم ذلك الملتمس وبهذا ينقطع القذف بآلهتنا وأمر ان يُربطوا بالحبال ويُصلبوا وأُدخلت الحبال في افواههم حتى لم يقدر أحد بعد ان يسمع كلامهم . وكانوا يحمدون الرب ويرغبون بعضهم بعضاً فرحين بانهم قد أوشكوا ان ينتقلوا من هذه الحياة الشقية ليتحدوا بالله والمسيح والروح القدس وجرّوا الى قرب المدينة وتبعهم جمهورٌ غفيرٌ اكثرهُ من اقاربهم واصدقائهم وخدامهم فكان الفضاء يرنُّ من نواحهم . وجاء جماعةٌ من رجال حكومة المدينة جملةً الى الملك وعرضوا بين يديهِ ان كثيراً من أهل المدينة تبعوا المسجونين وكانت دموعهم الغزيرة تشهد بالكدر الذي حصل لهم عندما رأوا سبعةً من وجوه البلاد معدّين لموتٍ شديدٍ ذي عارٍ وخزيٍ وقال رجال الحكومة المشار اليهم ان هيبركس وفيلوتاوس كانا رفيقهم في المنصب وبناء على هذا ينبغي ان يقدّما حساباً عن الاعمال والمهام التي كانت مفوّضةً الى عهدتهما وان الخمسة الباقين كانوا من اهل مجلس الاعيان فينبغي ان تُعطى لهم أقل ما يكون الحرية ليوصوا . فأعطاهم الملك مهلةً فذهب بهم أهل مجلس الاعيان الى دهليز ملعب الوحوش فأخرجوا الحبال من افواههم وقالوا لهم سرّاً قد نلنا لكم هذه الحرّية بحجة ان نتكلم معكم في مهام مدَنية وعمومية ولكن المقصد الحقيقي هو ان نرجوكم ان تشفعوا فينا لدى الله الذي لاجلهِ تموتون في ان يسقي المدينة وايانا غيث نعمهِ . فبارکهم الشهداء والقوا خطبةً على الجمع الذي كان محدقاً بهم . ولما عرف الملك بما كان ارسل يؤنب الاعيان الذين أذنوا للسبعة المسيحيين ان يخاطبوا الجمع فاعتذروا انهم مافعلوا ذلك الاّ رفعاً للضجيج والضوضاء . هذا وجلس الملك على كرسيهِ وأحبَّ ان يرى الشهداء مرةً ثانيةً واذ رآهم مصرّين على عزمهم أمر ان يُنصب سبعة

صلبان قبالة باب المدينة واقبل على هيبركس بحنق ايضًا على ان يطيع ولكن هذا الشيخ الجليل قال لهُ ويدهُ على رأسهِ الأصلع كما يستحيل بحسب جاري العادة الطبيعية ان رأسي يتغطّى بالشعر ثانية يستحيل بأشدّ من ذلك ان أحول عن عزمي واطيعك. فوضع الملك على رأسهِ جلد معز وشدَّهُ بمسامير وقال لهُ هذا رأسك الأصلع مُغطّى بالشعر فاذبح اذًا لانك وعدت بذلك على هذا الشرط. ولما صُلِب الشهداء جاء من المدينة جملةٌ من النساء الشريفات واستأجرنَ حراسًا ونلنَ اذنًا في ان يمسحنَ وجوه جنود المسيح ويجمعنَ دماءهم بالاسفنج وقطع الكتان. ومات هيبركس على الصليب بعد قليل من الزمان واما يعقوب وورومانس ولوليانس فبقوا أحياء الى الغد فضربهم السيافون بالخناجر على صلبانهم واما فيلوتاوس وعُبيد وباراغرُس فأُنزلوا عن الصلبان أحياء فأمر الملك ان تُغرس المسامير في اروسهم فغُرست بشدَّة حتى تخلّلت ادمغتهم على اوجههم فغطاها كلها وامر مكسميانوس ايضًا ان يُلقَوا في الفرات غير ان نصرانيًّا غنيًّا اسمهُ باسوس عاهد الحراس سرًّا على ان يعطيهم سبعمائة دينار ويسلموهُ اياهم فتسلمهم وألحدهم ليلاً بأرض لهُ في البادية وكان صاحب ترجمتهم حاضرًا عند ما باركوا أهل وطنهم (غودسكار)

اليوم العاشر

وفيهِ تذكار انتقال بيت العذراء من الناصرة
الى دلماسيا ثم الى ايطاليا

ليس في الارض مكان اجلّ اعتبارًا واسمى احترامًا من المكان الذي تنازل الله عزَّ شانهُ ان يتجسد فيهِ لافتدائنا فهناك الانسان أخذ في حياة جديدة وهناك انفتحت ابواب السماء لذُرّيَّة آدم وهناك تسامت العذراء الى اسمى الشرف اذ اضحت والدة الله واستحقت التاج الذي حُكم لها بهِ فيما بعدُ على العالم كلهِ

ولاجرم ان بيت الناصرة هذا المقدَّس الذي تجسد فيهِ ابن الله هو في الحقيقة مهد النصرانية وعدن الجديدة التي ينال فيها اولاد الله الحياة بالايمان والخضوع لأُمهم

ومن ثم تدري اي احترام كان عند المسيحيين القدماء لهذا المكان المكرم الذي سكنتهُ طويلاً العذراء القديسة فهو شاهد صلواتها ودموعها ومخاطباتها مع الرب لهُ المجد والملئكة الذين كانوا يزورونهُ وكفى بهِ مدحًا ما جاء في براءة للبابا يوليوس الثاني يقول فيها انهُ اضحى قدس الاقداس لان هامة الرسل كرَّسهُ وقدَّس فيهِ اول قداس لهُ وأدخلتهُ الملئكة القديسة هيلانة ضمن كنيسة حسنة جميلة المنظر وأودعتهُ هذه الكتابة منقوشةً على المرمر وهي: هنا قدس الاقداس حيث وضع الاساس الاول لخلاص البشر. وكان الزوار المسيحيون من كل طائفة يقدّمون لهُ النذور وفيهِ قضى القديس لويس ملك فرنسا فروض عبادتهِ يوم عيد البشارة سنة اثنتين وخمسين من القرن الثالث عشر وكان يُرى ايضًا في صورة قديمة على الجدار الغربي للبيت المقدس هذا الملك القديس منتصبًا امام البتول الحاملة على ركبتيها الطفل يسوع وعلى كتفها رداء أُرجوانيٌّ وفي يد الملك اليمنى قيدٌ يدل على الاسر الذي كابدهُ في مصر بسبب الايمان. وكانت تلك الصورة من الزوار المتأخرين الذين زاروا هذا المقدس في فلسطين لان تلك النواحي ما لبثت الى ان صارت في يد المسلمين

وحدثت عند ذلك المعجزة الكبيرة الباهرة التي تذكرها الكنيسة في هذا اليوم وهي ان السيد لهُ المجد لم يأذن ان اعداء الايمان المسيحي يُدنّسون محل أُمهِ الجزيلة الطهارة بعد هدمهم الكنيسة الكبيرة الموجود فيها هذا البيت المقدس فأمر الملئكة ان ينقلوهُ الى مركز النصرانية وليس احد في الذين يعرفون بحنوِّ الله ورأفتهِ يندهل من ان ابنًا برًّا يجعل هذا الشرف لبيت والدتهِ المقدَّس ويُعطي هذه التعزية لأولادها وهناك حوادث عجيبة كثيرة تُروَى عن ذلك

انهُ على عهد البابا نيقولاوس الرابع في عاشر ايار سنة احدى وتسعين من القرن الثالث عشر وُضعت حجرة الكلمة المتأنس على شطوط بحر الادرياتيك بين ترساتز وفيوم ببلاد دلماسيا واما ترساتز الآن فهي بلدةٌ وفيوم مدينة اقاليم الايليريان المختصَّة بالنمسا وبينهما مسافة نحو ساعتين غير ان البيت المقدَّس حلّ بموضع يسمى راينزا وهي اقرب الى المكان الاول وبادر اليهِ جميع السكان بضجيج عجيب فتعجبوا وفحصوا البيت السريّ الذي وُضع على الحضيض من دون اساس ودخلوهُ فاذا فيهِ معبد بهيكلهِ عليهِ تمثال العذراء حاملة على يدها ابنها الالهي. لكن الشعب اخذهم العجب العجاب اذ رأوا اسقفهم اسكندر دي مودر بزا الذي كان على اخر نَفَس مسارعًا الى ذلك المعبد معافًى فرحًا وكانت

العذراء الجليلة قد ظهرت لهُ وشفتهُ وامرتهُ ان يذهب يبشّر ان هذه الكنيسة هي حجرة الناصرة التي فيها لبس ابن الله شعار الناسوت . فيالهُ انتقالاً عجيبًا اثار في قلوب الجماهير حماسةً يسهل تصوّرها اكثر من وصفها

ولما بلغ الخبر نيقولاوس فرنجيباني حاكم الاقليم ترك عسكر الملك رودُلف وازمع عقب ان فحص البيت المقدس ان يرسل معتمدين الى الناصرة وانتخب الى هذه المهمّة جماعةً من الاجلاء الافاضل وحُفظت اسماؤُهم وسُطرت في كتاب وذكر هؤلاء عند معادهم كل ما رأوا ولمسوا وهذا نصّ مقالهم: ان بيت مريم العذراء غير موجود بالناصرة بعد ولم يبقَ منهُ الاّ الأُسُس التي كانت حجارتها كحجارة البيت المنتقل الى دلماسيا وطولهُ وعرضهُ كطول البيت المنتقل وعرضهِ . فكُتِبت هذه الشهادة وأُمضيت وأُثبتت بقسَمٍ من اقدس الاقسام الاحتفالية التي كانت عند اهل ذلك العصر

هذا و بعد مدة اكثر من ثلاث سنين ونصف سنة بادرت جميع القبائل المجاورة الى مكان البيت المقدس لما اختفى فجأةً في عاشر كانون الاول سنة اربع وتسعين من المائة الثالثة عشرة منتقلاً الى ارض أُخرى في الجهة الثانية من بحر الادرياتيك وحدث هذا الانتقال الثاني على عهد سالستينوس الخامس

لانهُ لما كان يوم السبت عاشر كانون الاول وقف البيت المقدس في مكان كان وقتئذٍ تابعًا لريكاناتي في وسط غابة غار وقيل انهُ من هنا اتى اسم لورتّا وتراكض عند ذلك الرعاة حين ابصروا النور الخارق العادة كما تراكضوا عند ميلاد المخلص ثم وصل اهل ريكاناتي ونادى القديس نيقولاوس من تولنتينو الذي كان ساكنًا بمدينة فرمو ان هذه هي حُجرة والدة الله وظهرت لهُ العذراء لكي تخبرهُ بذلك . ويوجد برومية في ساحة عمود ترجانوس كنيسة سيدة لورتّا وهناك صورة جميلة المنظر تمثل القديس نيقولاوس مشاهدًا انتقال البيت

وكان المؤمنون يأتون من كل جهةٍ يقدّمون للعذراء المدائح التقوية . ونقل المؤرخون كل شواهد الفرح ومعرفة الجميل التي اشتهرت في كل موضع بذلك العصر . واما اللصوص فاذ جعلوا يسلبون الزوار ويذبحونهم ايضًا فارق البيت المقدس الغابة في آخر الشهر الثامن واستقرّ على تلٍ لأخوين فاختلفا اختلافًا كبيرًا على امتلاك المعبد المكرّم فاختفى البيت عقيب اربعة اشهر واستقرّ اخيرًا على الطريق العام من ريكاناتي الى انكونا فكان على ساعةٍ من البحر

ولاجرم ان تكرُّر هذا الانتقال كان برهانًا على صحة هذه الآية الباهرة اذ بتكررهِ تعدّدت الشهود فان تأسّف اهل دلماسيا الذي مرّت عليهِ السنون والاجيال ولم يزل الى الآن تذكرهُ التسابيح المؤثرة هو شاهدٌ مزكّىٍ على ان البيت المقدّس انتقل من رانيزا الى ريكاناتي ثم الى لورتّا فكيف لا نعتقد ان الملئكة يمكن ان تنقلهُ من الناصرة الى دلماسيا

هذا وبأمر البابا بونيفاسيوس الثامن أرسل اسقف ريكاناتي في سنة ستٍ وتسعين ومائتين وألف جماعةً الى الناصرة وارسل آخرين الى ترساتز فاتفقت تقاريرهم ووافقت ايضًا ما قرّرهُ القدماء في هذا الشان ورُقمت هذه التقارير الشفاهية على رقٍّ ووُقّع عليها بختم المدينة ورآها المؤلفون الذين نقلوا هذه الحوادث العجيبة

اعلم ان كل فحصٍ جرى في امر انتقال بيت العذراء المقدس على ايدي العلماء ابان بيانًا جليًّا حقيقة هذا الانتقال العجيب . قال ريارا في تاريخ لورتّا من الواضح ان البيت المقدس لم يُبنَ كما ظنّ جماعةٌ بطوبٍ بل بُني بحجارةٍ حيّةٍ ومهندمةٍ خفيفةٍ حمراء ذات منافذ وعليها علامات قِدمية ظاهرة

روى تورسليان ان البابا اكليمنضوس السابع سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وألف بعث بثلثةٍ من كتمَة أسرارهِ الاشدّ خلوصًا لينظروا الأُسس الباقية في الناصرة فنقل واحدٌ منهم يقال لهُ يوحنا من سيانا اثباتًا لمشابهة البيت المقدس حجرين من الحجارة المبنية بها بيوت الناصرة وهذا الحجر شبيهٌ بالآجُرّ من حيث الصورة وهو ذو عروق لامعة تضرب الى الحمرة . ومشابهة هذه الحجارة الشرقية لمواد بيت لورتّا كانت نتيجة لاثبات تمام المشابهة وكونها من جنس واحدٍ وقد تفقّدوا مقالع اقليم ماركا انكونا كلها فلم يكتشفوا مثل هذه الحجارة ولم يجدوا منها في أبنية تلك البلاد

ولما كانت سنة عشرين وستمائة والف بعد جيل لذلك اراد توما النوفاري ملاحظ الاماكن المقدسة قبل ان يتم معبدًا في المحل المعروف بسنتا كازا ان يثبت من جديد ويحقق المساحة وقال في صكٍ شرعي: قد وجدنا بتمام الفرح من كل وجهٍ ان مكان بيت لورتّا يوافق تمام الموافقة المكان

الذي كان فيهِ البيت بالناصرة فالمقدسين مساحةً واحدةً

وفي سنة خمس وخمسين وثمانمائة والف تفقَّد السيد برتوليني الاماكن ثم قابل المواد فوجد نوعين من الحجارة في الجبال المحيطة بالناصرة احدهما ابيض طري يُتخذ لبناء القبب والابنية الموقتة والاخر قاس يضرب الى الحمرة يُتخذ لبناء جدران البيوت فأتى السيد برتوليني المذكور من الناصرة بمثال للنوعين المشار اليهما. ثم اذ كان مأذونًا مفوَّضًا اخذ من مجموع الذخائر المقدسة شيئًا من الحجر الاحمر المبني بهِ البيت المقدس واخذ وكسر بيدهِ قطعةً من حجر طريّ ابيض وجدهُ في الخزانة التي على جانب سنتا كازا الشرقي وعند رجوعهِ الى رومية عرض هذه القطع على علّامةٍ كيماويٍ استاذٍ بالمدرسة الرومانية لم يعرف بسفرهِ ولا بأصل هذه الحجارة. فقابل الاستاذ الموما اليهِ كلاً من الصنفين بالاخر فعرف من ذلك اوصافها الطبيعية ثم فحص المثالين فحصًا مدققًا كيماويًا فقال في ختام تقريرهِ اوصلني هذا الفحص الى هذه النتيجة وهي ان كل هذه الحجارة من صنف واحد مركَّب من كربونات الكلس وكربونات المغنيسيا والخزف الحديدي وان كان شيءٌ من الاختلاف بين المثالين في المناسبة المختصة بالعناصر التي تركبا منها فذلك لا يغير الجنس اصلاً فانهُ متعلق بشيءٍ من الاعراض

هذا ولما كان السيد برتوليني راغبًا في ان يتمادى في ملحوظاتهِ الى آخر حدٍّ جلب قطعًا من الطين القديم المأخوذ من داخل مغارة الناصرة وبعث بها الى الاستاذ المشار اليهِ مع الطين المأخوذ من جدران البيت المقدس ليجري الفحص عليها جميعها ونتج عن هذا الفحص ان هذه القطع مركبة من تلك العناصر بعينها اي من ملح الكلس المعجون مع كربونٍ نباتي مسحوق وتحقق انهُ الطين الذي استعملهُ المشارقة منذ زمنٍ قديم ويستعملونهُ الان وانهُ مغاير على الاطلاق للطين الذي يستعملهُ الطليان لان السيد برتوليني قال اذ انجز عملهُ قد سألت عن ذلك كل من لهُ أدنى المام هل يُستعمل في ايطاليا طين مركَّب من جصّ ورماد او من فحم مسحوق مع ان تربتها مملوَّة بالجواهر البركانية المناسبة لتركيب احسن طين الدنيا

وبلا خفاء ان شهادة هذه الحجارة وهذه المواد الغريبة في ايطاليا تُثبت ايضًا بالاكتشاف على الاخشاب الداخلة في البناء المكرَّم فسقفهُ القديم لم يعُد موجودًا ووُضع مكان قرميدهِ من البلاط الموجود غير ان قطعةً من الخشب الاصلي على قياس البلاط تطأُها دائمًا اقدام الوف من الزوار لم تتغير البتة بل استمرَّت على حالها فيما ان رُكَب الزوار قد حفرت في الرخام اكثر من طول ابهامين وكذلك قطعةٌ تمتدُّ من جهة المعبد الى أُخرى عليها سبعون مصباحًا من فضةٍ وفضةٍ مموَّهةٍ بالذهب تتوقَّد امام البتول كبرج كواكب دائم ورؤوس قطع أُخرى كان السقف يُسند عليها قديمًا منشورة على مساواة الحائط والحال ان جميع هذه القطع هي من خشب الأَرز وهو غريب لا نظير لهُ في ايطاليا وكثير الوجود في فلسطين وفضلاً عن ذلك فقد سلمت هذه الاخشاب مع تمادي الزمان عليها حتى من الخدش فكانت كأنَّها قد قُطعت حديثًا ووُضعت

وليس طبيعة هذه المواد فقط لكن وجود هذه الجدران ايضًا هو برهان قاطع على صحة هذه الآية واما الذين هم كتوما الرسول لا يؤمنون ما لم يروا (وذلك امرٌ يُضحك منهُ) فأقول لهم اذهبوا وانظروا. اذهبوا الى بيت لورتّا وانظروهُ قائمًا بلا اساس ولا شيء يستند اليهِ بخلاف قوانين الموازنة وبحسب الشروط التي اقرَّ بها احذق البنائين ينبغي ان يسقط وانتم بالخيار فان لم تؤمنوا بأعجوبة مضت اضطررتم ان تتعجبوا من الاعجوبة الدائمة وهي وجود هذا البناء المستغرب

وأُثبتت معجزة حفظ البيت اول مرَّةٍ في حياة البابا اكليمنضوس السابع عند حفر الأُسس المردومة بالرخام فأَمر نيرونتشي رئيس البنائين ان يُضرب الحائط القديم الذي كان بوجه عجيب مبتعدًا عن جدران سنتا كازا واستمر البيت المقدَّس اياما معرَّضًا لألحاظ العابدين واشنياقهم وهكذا تأكد كل احدٍ انهُ كان قائمًا من دون اساس على ارضٍ متحدّرة غير مستويةٍ فكان يُرى تحت جدرانها ارضٌ كأرض طريقٍ مطروقٍ وشوهد هناك عُلَيقةٌ كانت تحت الحمل الذي ألقتهُ الملئكة. هذا وفي الجملة ان كل ما هناك يدل على ان المحلّ الذي وُضع فيهِ البيت كان طريقًا عامًا حسب شهادة التقليد

وهاك الان ما حدث في عهد البابا مبارك الرابع عشر عند اصلاح بلاط المعبد المقدَّس فكان سنة احدى وخمسين وسبعمائة والف بوحنا باتيستا ستلاّ البولوني حاكم البلد فاستصوب هذا قبل ان تباشر الفعلة بالعمل ان يجمع شهودًا من أجلّ الناس واقومهم فترجَّى السيد اسكندر بورجيا ان يأتي ويشاهد ذلك ودعا ايضًا اربعة احبار آخرين وهم

اساقفة جيزي واسكولي وماسيرانا ولورنّا واستحضر رئيس بنائين واربعة بنائين الذين دعت الحال الى ان ينضمّ اليهم ثلثة رؤساء بنائين غرباء اتوا الى المدينة تكريمًا للبيت المقدس

ولما تهيأ كل شيء أخذوا في الحفر فما لبثوا ان وصلوا الى قاعدة الجدران المقدسة حتى لم يعُد بين البلاط وبينها الاّ قدر ابهام فنزل اولاً رؤساء البنائين والبناؤون في الحفرة واخرجوا منها ترابًا كالتراب الذي على سطح الارض ناشفًا مختلطًا بحصى مكسَّرة تشبه الحصى التي توجد على الطرق المسلوكة والطرق العامّة . واقترب حينئذٍ رئيس الاساقفة والاساقفة الحاضرون ليروا هذا الامر العجيب فنظروا وفحصوا فرأوا مندهلين الجدران مائلة قليلاً نحو الغرب وادخلوا ايديهم بين الجدران والتراب فلحظوا عدم استواء الارض كما لُحِظ ذلك على عهد البابا اكليمنضوس السابع وكما ثبت بالتقليد القديم فتناول أسقف حُفنة ترابٍ وقشر حلزونة وجوزةً تامةً غير انها يابسة . ولا جرم ان ذلك شهادة قويةٌ ساذجة فأراد ان يحفظها في قصرهِ كذكرى وبرهان لصحة انهُ البيت المقدَّس المكرَّم . ومع ذلك فأراد احد رؤساء البنائين ان يتعمّق في الحفر ليرى في اي عمقٍ يجد الصخر او الارض البكر التي عليها يضع الناس الأُسس عادةً ليكونوا على ثقة من ثباتها فحفر كثيرًا تحت احد الجوانب حتى اختفى في الحفرة عن العيان فجعل الحارس كسافاريوس مونتي يرتجف مرتعدًا وقال ان جدار البيت المقدَّس رقيقٌ واهنٌ فان لم يسقط فعلى الاقل ينشقّ واما رئيس البنائين فما التفت الى انذاره ولا عبأ بتحذيره فداوم البحث حتى اذا وصل الحفارون الى عمق ثماني او تسع أقدام سمعهم يقولون عند ذلك . الارض البكر . الارض البكر . فأخذ حُفنةً منها وخرج فرحًا فأراها جميع الحاضرين فباركوا الله الذي اثبت بيدهِ بيت والدةِ القديسة منذ اجيالٍ كثيرة خلافًا لقوانين البناء ورغمًا عن تحريك الزلازل المتواترة في ايطاليا

وهذا الان وصف البيت المقدس الذي اثبتهُ كالبو في التاريخ الذي كتبهُ لهذا البيت قال هو حجرةٌ مربعةٌ طويلةٌ عليها قبةٌ جرس صغيرة مسقَّفة بخشب مصبوغ بلون ازرق نُثرت عليهِ نجومٌ مذهَّبة . وجدرانها مبنية من دون قاعدة ولا اعتدال ولا تقوم بالضبط على خطٍ عمودي وكلها مغشاةٌ بدهان كان مرسومًا عليهِ اخص اسرار هذا المكان المكرَّم وكان على طرفها باب واسع بالكفاءة وعلى الجانب الايمن شباك ضيق قبالة مذبحٌ مبنيٌ بحجارٍ ضخامٍ مربعة . وكان عليهِ صليبٌ يونانيٌ قديمٌ . وكان قرب المذبح خزانة صغيرة في غاية البساطة توضع فيها ادوات هذا البيت وكانت تتضمن ايضًا بعض آنية صغيرة كالآنية التي يأكل فيها الاولاد الصغار وكان في شمالي الحجرة مدخنة صغيرة من فوقها كوّة عليها تمثال البتول حاملة على ذراعها ابنها يسوع وذلك التمثال من خشب الارز وقد اسودَّ من كرور الايام . وكان على راس والدة الله تاجٌ لؤلؤيٌ وكانت متشحةً برداءين احدهما ذهبي اللون والآخر ازرق . وكل ذلك من خشب الارز وكان الطفل يسوع رافعًا الاصابع الاولى من كفهِ اليمنى كأنهُ يبارك وفي يدهِ الشمال كُرة تشير الى تسلطهِ على العالم . وعند وصول هذا البيت المقدس الى لورنّا كانت صورة العذراء متشحة ايضًا بثوب صوف أحمر وهو باقٍ الى عهدنا لم يمسهُ تغيُّر . هذا وطول البيت المقدس ٢٩ قدمًا و٨ أباهم وعرضهُ ١٢ قدمًا و٨ أباهم وارتفاعهُ ١٣ قدمًا و٣ أباهم

فقد حفظت لنا جودة الله هذا البيت المقدس . ومن يُحصي النعم التي توزَّعت على الدنيا بهِ والايات التي صُنعت فيهِ فقد اغناهُ الاحبار الاعظمون باثمن انواع الغفران الكامل وارفع الامتيازات وامروا ان يُزيَّن على احسن نظام عُرِف في ايامهم واكثر الملوك المسيحيين قدَّموا لهُ تقادم ثمينة اشعارًا بما نالوا من النعم بواسطتهِ وزارهُ كثيرٌ من الابرار القديسين وجثوا عند جدرانهِ المباركة كالقديستين بريجيتا وكاترينا السودية والقديسين توما الاكويني وفرنسيس سالس وكرلوس برّوماوس وكميلوس دي ليلي وكثيرون غيرهم كان آخرهم القديس الفونسيوس ليغوري . ناشدتك الله ألبس هناك مع العجائب التي يصنعها الله كل يوم في البيت المقدس شهادة قاطعة على صحة هذا الانتقال

وفيهِ ايضًا ترجمة القديسة أولاليا البتول الشهيدة (١)

كان مولد هذه البتول الشهيدة العجيبة الشجاعة على انها

(١) حاشية . وهذه هي غير القديسة المعروفة ايضًا باسم اولاليا التي ولدت بمدينة برشيلونا واستُشهدت فيها ويذكر السنكسار الروماني استشهادها في اليوم الثاني عشر من شباط

القرن الثالث بمريدة مدينة ببلاد اسبانيا وهي من قوم مسيحيين اجلاء افاضل وأضرم الروح القدس في قلبها على حين كانت صغيرة محبة شديدة للسيد المسيح فنذرت له بتوليتها ولم تبرح مرتاحة الى سفك دمها حبًّا بعروسها الالهي فلما اتى داسيوس الى مدينة مريدة ونادى باضطهاد المسيحيين تبعًا لأمر ديوكليسيانوس الملك عدوهم الأزرق فرحت اولاليا رجاء انهُ قد حان اليوم السعيد الذي طالما توقعتهُ رغبةً ان تذوق فيهِ الموت من اجل الايمان

فلما درى والداها بما بها من الشوق الشديد الى الاستشهاد ذهبا بها الى منزلٍ خفي قرب المدينة الآن البتول هربت منهُ سرًّا ورجعت الى مدينة مريدة لتقدم نفسها للموت مع ابنة بتول تُدعى بوليا رفيقة لها في اعمال التقوى ولإفراط رغبتها في سفك دمها لاجل السيد المسيح كانت تركض متطايرةً في الطريق ولم تقدر رفيقتها ان تلحقها فقالت لها بروح النبوة انكِ باطلاً تتعبين راكضةً يا اولاليا لاني سأتقدمكِ في الموت لاجل الايمان فدخلت اولاليا المدينة فذهبت الى الحاكم وشرعت توبخهُ على عبادتهِ للاوثان واضطهادهِ المسيحيين فلاطفها اول الامر وتودَّد اليها وأظهر لها المضرَّة التي تجلبها على نفسها والغم الذي تسببهُ لوالديها اذا أصرَّت على العصيان

فلم ينجع فيها ذلك النصح فهدَّدها وأراها بعينها ما أُعد لتعذيبها من ادوات النكال ثم قال لها أنا ارفع عنكِ كل عذاب اذا تناولتِ بطرف اصبعكِ شيئًا من الملح والبخور فقالت اولاليا عليها السلام ما كنت لاغترَّ وأُخدع ثم قلبت الصنم وداست برجليها الحلوى المعدة للقربان . فوغر من ذلك صدر الحاكم فأمر ان تعذَّب عذابًا في غاية القساوة فاصطف حولها الجلادون وضربوها اولاً بالسياط ثم بحبالٍ مغشَّاة بالرصاص . ثم سكبوا عليها زيتًا مُغلى وبغضون ذلك علَّقوها بيديها ورجليها بحبال واحرقوها بوضع صفائح محماةٍ عليها

اما البتول فكانت تحتمل هذا كلهُ بسرور ولما رأت كثرة جراحاتها رفعت نحو السماء عينيها وقالت اشكرك يا الهي ومخلصي يسوع لانك رسمت على جسدي صورة الآمك المقدسة . وقالت للحاكم بجراءةٍ مذهلة افتح عينيك يا ايها الحاكم انظر وجهي واعرفني خير معرفةٍ حتى تقدر ان تعرفني يوم الموقف الهائل فكلانا نحضر امام المسيح سيدنا العام اما انا فلأُثاب على ما قاسيتهُ من العذاب واما انت فلتُعاقب على قساوتك على المسيحيين . فيالهُ من كلام جراءةٍ وشهامةٍ وثق اكثر الذين سمعوهُ بصحة ديننا فكرهوا الوثنية ونبذوها . واما السيافون فركموا فوقها جمر نار ليقطعوا حديثها الثابت الذي لا يُردُّ عليهِ وينفذوا فيها آخر عذاب ما قُضي عليها فيتموا قتلها ففتحت حينئذٍ فاها كانما لتبتلع اللهيب ورأى الناس ساعتئذٍ روحها خارجة بهيئة حمامة طارت الى السماء

اما الظالم فأمر ان يُترك جسدها ثلثة ايام معرَّضًا لاهانة عبدَة الاوثان لكن الله غطاهُ للحال بثلج منع عنهُ اهانة الوثنيين ثم دفنهُ النصارى باكرام في مدينة مريدة وبنوا فوق مدفنهِ كنيسة جميلةً ووضعوا ذخائرهُ على المذبح وبقيت هناك الى القرن الرابع ولما نظم برودنسيوس تسبحةً لاكرام القديسة أُولاليا أكد ان الناس تقاطروا لزيارتها من كل فجّ وانها لكونها في السماء قرب عرش الله عرفت الذين يستشفعونها فكثرت مفاعيل حمايتها ونفوذ شفاعتها

هذا وكثيرًا ما يأتي هذا الشاعر الشهير الجزيل التقوى والعلم بذكر ما جرى في عصرهِ من مفاعيل شفاعة اولياء الله القديسين قال ان الغرباء يأتون الى هنا لانهُ شاع الخبر ان شفعاء العالم هنا وهم الذين يُطلب عونهم بالصلاة وما من احدٍ حضر وقدم صلواتٍ نقية وذهب خائبًا بل كل من جاء يتوسل الى الله بهم شعر ان جميع ما طلبهُ من الامور الموافقة قد مُنح لهُ فمسح دموعهُ ورجع مملوءًا حبورًا . فلا جرم ان لهؤلاء الشهداء كبير عناية بان يشفعوا فينا ولا يأذنون ان تذهب استغاثتنا بهم باطلاً فهم يسمعوننا جهرنا الصوت بالاستغاثة اوهمسناهُ فيرفعونهُ الى آذان الملك الأزلي

اما القديسة يوليا فلم تصل الى المدينة الا حينما كانت أُولاليا تحت العذاب فلما عرف الحاكم انها مسيحية حكم عليها بقطع الراس وهكذا تمت نبوتها ونالت اكليل المجد قبل رفيقتها

اليوم الحادي عشر

وفيهِ ترجمة القديس دَماسوس البابا

قد اتفق اباء الشرق والغرب على امتداح القديس دَماسوس لانهُ قد شهد العلامة تاودوريتوس انهُ كان يُدعى في الشرق رجلاً عجيبًا متصفًا بكل الفضائل والقديس

ايرونيموس كاتبهُ وصديقهُ يدعوهُ بتولاً بريًّا من كل عيب وحبرًا حقيقيًّا والقديس امبروسيوس يقول انهُ أُقيم على الكرسي الرسولي بحكم الهي وفي المجمع السادس المقدس دعتهُ الآباء برج الايمان. وكان مولدهُ ببلاد اسبانيا سنة اربع وثلثمائة (١) وكان لهُ اخت اسمها إيريني فرحل والدها عن اسبانيا الى رومية ثم أُرمل وحينئذٍ ارتسم كاهنًا لما كان عليهِ من مزيد الفضل وجزيل العلم وكان اسمهُ انطونيوس فربَّى ابنهُ بأدبٍ وبحسن ارشادهِ ومثال فضائلهِ اصبح دَماسوس معتبرًا في رومية لنقاوة سيرتهِ وكثرة معارفهِ فدخل بين الاكليريكيين وكان شماسًا انجيليًّا لما نُفي البابا ليباريوس لاجل الايمان ومساعدتهِ القديس اثناسيوس على المبتدعين الاريوسيين سنة خمس وخمسين وثلثمائة ومع انهُ نُفي بأمر الملك كونستانسيوس وكان الخوارج قد تقوَّوا مع ذلك تقدَّم القديس دَماسوس وعاهد الله تعالى جهارًا امام الشعب انهُ ما دام ليباريوس حيًّا لا يطيع آخر يجلس على كرسيهِ قال هذا ورافق الحبر الاعظم الى منفاهُ في بيريا مدينة بمكدونية وبقي معهُ مُعزيًا لهُ مدَّةً ورجع الى رومية بأمر البابا لمهامّ الكنيسة ومناصبة للخوارج الاريوسيين

وانتقل البابا ليباريوس الى دار النعيم سنة ستٍّ وستين وثلثمائة ولم يكن اذ ذاك أجدر من دَماسوس بالجلوس على كرسي رومية فانتخبهُ اكثر الاكليروس الروماني واجلُّهم وكان عمرهُ اثنتين وستين سنةً فرُسم رغمًا عن مقاومتهِ احتفاليًّا في كنيسة لوسينا كما كانت تُلقَّب يومئذٍ واظهر الناس كلهم علائم المسرَّة وشكروا الله لانهُ اقام عليهم راعيًا مفضالاً وموافقًا ببرهِ وعلمهِ لكبح اعداء الكنيسة. الاَّ ان جماعةً من العوام والاكليريكيين قبيحي السيرة محبي العالم رفضوا هذا الانتخاب ومنهم اورسينوس احد شمامسة الكنيسة الرومانية فهذا اذ كانت مطامعهُ قد تجاوزت الحدَّ لم يسعهُ ان يكون دَماسوس مفضَّلاً عليهِ فجمع في الكنيسة الليبريانة زمرةً من أهل الفتن وارشى بولس اسقف تيفولي وهو غرٌّ خشنٌ فالزمهُ ان يرسمهُ اسقفًا على رومية ففعل فيا لها من رسامةٍ باطلةٍ مرفوضةٍ. اما البابا الكاذب فما لبث ان جعل لهُ حزبًا وأحدث فتنةً وقُتل في تلك الثورة ١٣٧ شخصًا ولم يكن للبابا القديس ادنى مشاركة في ذلك بما انهُ طلب من صميم فؤادهِ الاستعفاء من الحبرية تسكينًا لما هنالك من الاضطراب غير ان حاكم المدينة جوفنسيوس نفى اورسينوس والشماسين آمنيسيوس ولبوس وهما اخصُّ أعوانهِ وأقوى أنصارهِ. فاطمأَن البابا القديس على كرسيهِ غير ان السلام لم يستمرَّ طويلاً بما ان أحزاب البابا الكاذب لم يزالوا يزعجون الملك فالنتينيانوس لينالوا منهُ اعادة هذا الشقاق ولما كان ليِّن الطبع ارتضى بذلك غير ان اورسينوس ما بلغ رومية حتى بدأ يحرِّش على التشويش فاضطرَّ الملك ان ينفيهُ وعصابتهُ ثانيةً الى بلاد غاليا مدة شهرين فبنفاهم رجع السلام الى المملكة والكنيسة

ومع ان هذا الشقاق كان نجم من شدة التاديب الكنائسي الذي كان البابا قد جعلهُ مرعيَّ الاجراء في بيعة الله فان البابا لم يتراخَ في تصليبهِ العادل ولا سيا في ما يخص المنع الذي حرَّم بهِ على الاكليريكيين ان يذهبوا الى بيوت الارامل والبنات اليتامى ومنعهم ان يقبلوا أيَّة هدية كانت من النساء اللواتي كنَّ يعترفنَ لديهم وأجاز الملك هذا المنع ببراءةٍ منهُ وكان البابا ساهرًا على اجرائهِ وحفظهِ

وعقد القديس دماسوس نحوًا من ذلك الزمان اي سنة ثماني وستين وثلثمائة مجمعًا برومية التأم فيهِ كثيرون من الاساقفة وكان جلُّ المراد منهُ ان يتداولوا في هداية الذين ذهبوا وراء ضلال آريوس شرقًا وغربًا فحرموا ارزاسيوس وفالنس اسقفي ايليرة وكلاهما مبتدعان مشهوران وكتب البابا في ذلك الى القديس اثناسيوس مِقمعة الآريوسيين. اما البطريرك المشار اليهِ فعقد مجمعًا بالاسكندرية مؤلفًا من تسعين اسقفًا وشكر للبابا القديس باسم الجميع على غيرتهِ وعنايتهِ الرعائية مظهرًا لهُ انهم كانوا يتأملون انهُ يعامل اوكزنص وهو اسقف آريوسي دخيل على كرسي ميلان كما كان قد عامل فالنس وارزاسيوس. وفي الواقع انهُ حقَّق آمالهم لان البابا دَماسوس عقد في رومية مجمعًا ثانيًا حضرهُ ثلثة وتسعون اسقفًا من بلادٍ مختلفةٍ وكان ذلك سنة سبعين وثلثمائة وقُضي تلك السنة على اوكزنص وجميع احزابهِ وحُرموا وأُثبت قانون الايمان المعروف بالنيقاوي وأُلغي كل ما جرى في جمعية ريميني

وانتقل القديس اثناسيوس الى رحمة الله عام ثلثة وسبعين وثلثمائة وخلفهُ بطرس فطردهُ الخوارج الآريوسيون فالتجا

(١) حاشية. ظنَّ بعض العلماء المحدثين انهُ ولد برومية التي كان والدهُ انتقل اليها قبل ميلادهِ. والله اعلم

الى رومية وعاذ بالبابا واقام عندهُ مدة خمس سنين ولما مات الملك فالنتينيانوس الاول جدَّد احزاب البابا الكاذب الاضطراب وأحيوا البلبال وكذا اللوسيفاريون وهم مبتدعون آخرون طردهم الملك المرحوم من رومية فهؤلاء لم يكفوا عن احداث البلابل ففتحوا للقديس مع تيقظهِ سبيلاً لممارسة اعمال الغيرة. وكان للدوناتيستيين حزب في رومية على ان القديس دَماسوس الذي كان مضطلعاً بأعباء مرتبتهِ أحبط اعمال اعداء المسيح اولي الكنيسة اطمئناناً فأخفق مسعاهم ونشر في ذلك الحين القديس أبتاتوس مطران ميليفا كتاباً ضخماً يقاوم بهِ هؤلاء المبتدعين كلهم ويثبت وحدة الكنيسة بسلسلة الخلافة الرومانية المتصلة التي هي مركز تلك الوحدة وعمل قائمة في اسماء الاحبار الاعظمين فبدأ بالقديس بطرس وختم بالبابا دماسوس قائلاً وهو اليوم اخونا الذي اشترك معهُ جميع الناس نظيرنا بالمراسلات

ولما كانت سنة اربع وسبعين وثلثمائة عقد برومية مجمعاً ثالثاً وقضي فيهِ على ابوليناريس المبتدع وتلميذهِ تيموتاوس الذي كان قد جعل نفسهُ كأسقف اسكندرية وعزلها فكان هذا المبتدع المشار اليهِ لذلك العهد يفتخر كذباً انهُ مشترك مع البابا دَماسوس اذ لم يكن احد من خوارج ذلك الزمان الا وهو يدعي الاتحاد مع الكرسي الرسولي

ولكن الحبر الاعظم أعلن للجميع بفصل كل اولئك المبتدعين عن شركتهِ حذر أن يخدعوا سذَّج المؤمنين بدعواهم الاشتراك معهُ (١)

هذا واما ما كان من اتحاد القديس ايرونيموس مع هذا البابا القديس وما كتبهُ لهُ في شان الانشقاق الذي حدث وقتئذٍ في انطاكية واتكال البابا على هذا القديس في ترجمة الكتب المقدسة من الاصل العبراني وفي مهام اخرى فقد ذكرناهُ في ترجمة القديس ايرونيموس في اليوم الثلثين من شهر ايلول

وامر البابا دَماسوس بتجديد او على الاقل بترميم بناء كنيسة القديس لورنسيوس وهي بجوار ملعب بمبي وكان قد خدمها من بعد ابيهِ ولا تزال الى يومنا هذا تنتسب الى القديس المذكور في دامازو وجمَّلها وزينها بالصور التي تمثل اكثر حوادث التاريخ المقدس وقد مرَّت عليها اربعة قرون وبقيت حسنة وأغناها بهدايا شتى كالصينيات والكؤوس والقناديل والشاعدين وكلها فضيَّةٌ محكمة الصناعة ووقف عليها ايضاً ضياعاً ودياراً وقطع ينابيع الواتيكان التي كانت تمرُّ مياهها على جُثث الموتى المدفونة في هذا المكان وزخرف قبور جمٍّ غفير من الشهداء في مقابر مختلفة وزينها بتواريخ شعرية ولم يزل عندنا ديوان من هذه التواريخ ولكن بعضها ليس من نظم القديس دماسوس وتبيَّن من التواريخ المنسوبة اليهِ علو

(١) حاشية. اعلم ان ابوليناريوس قد علَّم الغراماطيق في بيروت ثم في لاودكية من اعمال سورية وتزوَّج في هذه المدينة واعطاهُ الله غلاماً سماهُ باسمهِ فصرف الى تهذيبهِ وتربيتهِ كامل العناية حتى جعلهُ استاذاً للبيان في المدينة نفسها وكلاهما انتظما في سلك الاكليروس وخدما وقتئذٍ في كنيسة لاودكية اما الاب فبمنزلة كاهن واما الابن فبمنزلة قارئ وانتخب الثاني اسقفاً على لاودكية عام اثنين وستين وثلثمائة ولما منع يوليانوس الجاحد المسيحيين من قراءة الكتب المدرسية نظم الابوليناريوسان تسابيح على كل بحر من الشعر في التاريخ المقدس وفي سائر المواضع التقوية بيد انهُ لم يبقَ عندنا من دواوينهما الا تفسير المزامير ذلك وكان في تلك القصائد أضاليل فبيَّنها وفنَّدها القديس اثناسيوس في مجمع حفل بامرهِ في الاسكندرية سنة ستين وثلثمائة ولكنهُ لم يتكلم على الشاعر شيئاً لانهُ لم يكن معروفاً وقتئذٍ وكتب القديس اثناسيوس في تفنيد هذه الاضاليل نفسها عام اثنين وستين وثلثمائة وهذه المرة ايضاً لم يذكر اسم صاحبها. وجرى هذا المجرى مجمعٌ التأم برومية بامر البابا دَماسوس سنة اربع وسبعين وثلثمائة غير انهُ لما اصرَّ ابوليناريوس الاسقف على ضلالهِ لم يعودوا يتحاشون إهانتهُ مع التصريح باسمهِ فضربهُ البابا دماسوس بالحرم. وكبر هذا المبتدع حتى صار شيخاً فانياً ومات على طغيانهِ. وهذا اخصُّ اضاليلهِ قال ان المسيح تبارك اسمهُ لم يتخذ نفساً بشريةً بل اتخذ اللحم فقط اي الجسد مع روح حيوية وان الاقنوم الالهي كان يقوم مقام النفس البشرية وكان يدعي اثبات ذلك بهذا الكلام: الكلمة صار جسدًا: وان النفس البشرية حيثما صارت سبب الخطيئة فلا يمكن ان يقال ان يسوع المسيح اتخذها ونتيجة ذلك ان المسيح لم يتأنس بما انهُ لم يتخذ الا الجسد وهو جزء الانسانية الادنى. وعلَّم ابوليناريوس ايضاً ان جسد المسيح اتى من السماء غير قابل الآلام ونزل في حشى العذراء مريم فلم يكن مولودًا منها ولم يتألم ولم يمت الا بحسب الظاهر وجدَّد بدعة الالفيين وتجاوز ايضاً الى أضاليل أُخر في الثالوث. وانتُخب اثنان من تلاميذهِ فيتاليوس وتيموتاوس ليكونا اسقفين على هذه البدعة احدهما في انطاكية والآخر في اسكندرية. ذلك وان المجامع التي التأمت في تينك المدينتين سلمت بأحكام دَماسوس على ابوليناريوس وسلَّم بها ايضاً المجمع القسطنطيني العام المنعقد سنة احدى وثمانين وثلثمائة (غودسكار)

نظمهِ وانسجامهُ ولا جرم ان هذا يؤيد ما قالهُ القديس ايرونيموس في جودة قريحتهِ. ذلك وفي بعض ما وصل الينا من رسائلهِ وطُبع في اعمال الجامع كثيرٌ من النكات واللطائف الادبية

اليوم الثاني عشر

وفيهِ ترجمة القديس فاليري

وُلد هذا القديس باقليم الفيرنيا بفرنسا في خلال القرن السادس ورعى في صباهُ مواشي ابيهِ ولما تعلم القراءة والكتابة صار يتغنى بتسابيح الهية ما بين الحقول وهكذا استظهر كتاب المزامير وكان في صغرهِ يذهب الى المعابد والكنائس يسمع ترنيم المزامير فيمتلئ قلبهُ تعزيةً وسلوانًا

ولما كان لهُ اخٌ من امهِ ترهب في دير انتومون رغب في ان يخصص نفسهُ لله تعالى فذهب الى ديرهِ فامتحنهُ الرئيس بان تركهُ اياما بدون غذاء ومن الغريب ان هذا الشاب احتمل مثل ذلك الامساك الشديد بكل جراءَة بحيث لم يكن للرئيس سبيل ان يمنعهُ من الترهب رغمًا عن ترجيات وتهديدات والدهِ الذي كان يحبُّ ان يبقيهُ عندهُ في مدة حياتهِ هذا ومنذ ابتدائهِ كان قدوةً في حفظ القانون ونموذجًا في الفضيلة وجعلتهُ حسان اخلاقهِ حبيبًا الى جميع الرهبان على وجهٍ ممتازٍ

ولما كانت سنة تسعين وخمسمائة أُذن لهُ في الانتقال الى دير القديس جرمانوس دوسر الذي كان يسوسهُ القديس اوناريوس اسقف هذه المدينة واقام هناك خمس سنين واكتسب لله رجالاً من الاغنياء الشرفاء وذهب بهِ في سنة خمس وتسعين وخمسمائة الى دير لوكسول وفوّضا امرها الى القديس كولمبان على ان هذا الراهب القديس لم يكن ينقاد الى ذلك من حبّ التغيير بل من شوقٍ لهُ الى ان يعيش عيشةً اشدَّ ضنكًا وتقشفًا وان يغتنم فرصة الاقتداء بهذا البطريرك الجليل القديس كولمبان الذي أحيا التورع في فرنسا

واذ أحبَّ البطريرك المنوَّه بهِ ان يختبر تواضع هذين المبتدئين فوّض اليهما العناية ببستان الدير. وفيما كان البطريرك متعجبًا ذات يوم من مزيد نضارة البقول التي كانا يقومان بامرها ومن اختفاء الهوام التي كانت تؤذيها عادةً نسب القديس فاليري ذلك الى رفقائهِ وهؤلاء أعزوهُ الى قداستهِ. ولحظ القديس كولمبان مرةً اخرى ان تلميذهُ تفوح منهُ رائحة برٍّ بحيث درى كم كان حبيبًا الى الله تعالى فاقامهُ نائبًا عنهُ في تدبير الدير

وكان في لوكسول وقتئذٍ والدولين راهبٌ صالحٌ اشتاق الى ان يبشر بالانجيل عبدة الأوثان في شمالي فرنسا فطلب القديس فاليري رفيقًا لهُ ولكن اذ كان القديس كولمبان يومئذٍ قد نفاهُ تياري ملك بورغنديا ورهبان لوكسول تفرقوا واصبح الدير في يد رعاة البلد الذين اقاموا بهِ رجع اليهِ القديسان والدولين وفاليري ووضعا يديهما على ذلك الدير رغمًا عن جنود تياري الذين ارادوا ان يطردوهما عنهُ ولما نمى خبر ذلك الى القديس كولمبان بعث اليهم على الفور بالقديس اوستاز وأقامهُ رئيسًا على الدير المشار اليهِ

قد هلك الملك تياري بشقاء غب ان قتل اخاهُ تيوديبرت وعند وفاتهِ استولى على ممالكهِ كلوتر الثاني فصار سلطانًا على فرنسا كلها. ولما اضاف بلاد نُستري الى بلاد أُسترازيا وبرغُنديا تذكر كلوتر حينئذٍ ان القديس كولمبان كان قد تنبأ لهُ بسعة مملكتهِ وامتداد سلطتهِ ونوى ان يرجعهُ من المنفى فأمر القديس اوستاز ان يذهب يسأل عنهُ في ايطاليا حيث كان ملتجئًا فاناب عنهُ بمدة سفرهِ في القيام بامر الدير القديس فاليري وكان ذلك سنة اربع عشرة وستمائة الّا ان القديس كولمبان أبى ان يترك ايطاليا فرجع القديس فاليري مع القديس والدولين وذهبا يبشران بالانجيل الناحية الشمالية من فرنسا وتمّ ذلك على رضًا من القديس اوستاز

ومن ثمّ سافرا الى بيكاردي وفيما كانا مجتازين ببلاد أميان اذا برجلٍ مسكين كان قد شُنق بامر الكونت سيغوبارد فمات فأوى لهُ القديس فاليري فقطع الحبل الذي كان معلقًا بهِ رغمًا عن الحراس وانطرح على جثتهِ وصلّى عليهِ فقام باذن الله وسأل عند ذلك النعمة للكونت لكن هذا غضب فأمر بشنقهِ ثاني مرة فقال القديس اودّ ان اموت معهُ وبكى فرقّ الكونت لبكائهِ ورثى لدموعهِ فعفا عن الرجل

ولما كان الملك كلوتر أقطع هذين الرسولين أرض ليغونية التي على مصب نهر سوم ببلاد بونطيو أذن لهما الطوباوي بيرارد اسقف اميان ان يبنيا هناك معبدًا وحُجَرًا يعتزلان بها ومن

ثمَّ بشَّرا البلاد كلها بالانجيل الشريف فهديا الوثنيين بالكلام وحسن السيرة وصنيع المعجزات وكان القديس فاليري يشفي كل من قُدّم لهُ من ذوي الاسقام وكان لهُ كبير سلطة على الشياطين كافة حتى انهُ لما كان يُؤتى اليهِ بالمعتَرين كانوا يتشكون ويصرخون صراخًا هائلاً وكانوا يقولون ان لا قِبَل لهم على مقاومة صلواتهِ وانهُ كان يُذيقهم شديد العذاب بأصوامهِ وصلواتهِ

نُقل انهُ أُتي اليهِ يومًا بشابٍ دلفينيٍّ اسمهُ بليتمندكان قد اضنكهُ الشيطان حتى اصبح لا يقدر ان ينتصب على قدميهِ فوضع القديس يدهُ عليهِ فرجعت اليهِ قوتهُ واشتدَّ وبرئ ولم يكتفِ ان قد ارجع اليهِ عافيتهُ بل استمالهُ بكلامهِ حتى تلمذ لهُ وخلفهُ فيما بعد في رئاسة الدير

وكانت لهُ موهبة النبوَّة ومعرفة خفايا القلوب فكثيرًا ما كان يلوم تلاميذهُ على زلاّتٍ لهم خفيَّةٍ او ينذرهم بحوادث لا بدَّ من وقوعها وكان يستخدمهم لصنيع المعجزات فمرَّ ذات يوم قرب جذع شجرة كان الوثنيون يعبدونها واوصى راهبًا شابًّا ان يقلبها فدفعها هذا من غير توقُّفٍ فسقطت للحال تلك الشجرة التي لم يقدر جماعة كثيرون يهزُّونها وتكسَّرت قطعةً قطعةً فتغيظ عبدَة الاصنام وذهبوا وراء القديس بالعصيّ لينتقموا لوثنهم على ما الحق بهِ من فرط الاهانة اما هو وعليهِ السلام فقال لهم ان لم يأذن الله لكم فما فيكم أحدٌ يستطيع مقاومتهُ وفي الحق لم يقدروا ان يتخطَّوا اليهِ ثم رجعوا ولم يصلوا الى مقصودهم

وقد ألجأتهُ الضرورة في شتاء شديدٍ ان يتضيَّف دارًا كان فيها رجل شريف وقاضي البلد فأراد هذان ان يسخرا بهِ فأخذا في أحاديث مخلّة بالآداب حتى ظنَّ انهُ من الواجب ان يلومها عليها فذكَّرهما بمناقشة الحساب وان سيدنا يسوع المسيح عزَّ وجلَّ سوف يحاسبنا على كل ما نقولهُ يوم الدين فلم يعبأا بهِ بل تماديا في تلك المخاطبة القبيحة فخرج القديس من الدار حتى لا يسمع كلامهما واذ كان لم يكد يصل الى الخارج ضُرب الرجل الشريف بالعمى وأُصاب القاضي داءٌ معيب بخجل منهُ فندما ساعتئذٍ ورغبا الى القديس ان يرجع فرفض. ولا ريب ان ذلك كان باذن الله تعالى الذي أراد ان يقتصَّ منهما بحيث استمرَّ احدهما أعمى ومات الآخر بعد ان ذاق العذاب الأليم

ولم يكن في قلب القديس فاليري ضغينةٌ على رهبانهِ فكان يوبخهم بلينٍ ونزاهةٍ ومن ثم كان كلامهُ العذب أفعل من أشدّ العقاب ولا غرو فان الطير قد شعرت بوداعتهِ وحلمهِ حتى انها كانت تطير اليهِ بلا خوفٍ وتأكل على يدهِ واما على نفسهُ فكان قاسيًا يعامل جسدهُ كأنهُ لهُ عدوٌّ أزرق وكان لا ينام الا قليلاً ولا يرقد الاَّ على الحضيض ولا يشرب الا الماء صرفًا ويبقى بعض مرات أُسبوعًا طاويًا لا يتناول طعامًا. واما محبتهُ للفقراء فكانت غاية العجب لانهُ كان يعطيهم كل شيءٍ حتى ثيابهُ ومؤونة الدير ولهذا تذمَّر الرهبان مرارًا فقال لهم اعلموا انكم ان لم تنكروا على الفقراء فلا يُنكر عليكم المسيح شيئًا

هذا وكان يحب العزلة ومعتادًا ان يصعد الى قمة جبلٍ ويجلس الى ظلّ شجرةٍ كبيرةٍ محاطةٍ بالاشواك ومن هناك كان يحدق بنظرهِ الى السماء وأحبَّ ان يُدفن تحت تلك الشجرة ولما علم ان قد حانت منيتهُ أنبأ بذلك تلاميذهُ ودلّهم على الموضع الذي احبَّ ان يُقبر فيهِ وتوفَّاهُ الله الى رحمتهِ يوم الاحد على عهد الملك كلوتر (١) ودُفنت جثتهُ تحت الشجرة كما أراد وبُني هنالك معبدٌ اكثر الجّارون من التردّد اليهِ لانهم كانوا يذهبون اليهِ يشكرون الله تعالى على ما اولاهم من النعم عند حدوث الزوابع .

اليوم الثالث عشر

وفيهِ ترجمة القديسة لوسيا البتول الشهيدة

ان هذه القديسة وُلدت بسيراكوزا مدينة بصقلية نحو انتهاء القرن الثالث وابواها مسيحيان من الانقياء والاغنياء وقد أُغرمت بمحبة يسوع المسيح فخصصت لهُ جلَّ ثناؤهُ نفسها وجسدها بنذر العفة فكل من كان يرى ما هي عليهِ من الاحتشام وحرارة العبادة لابن الله كان يعتقد يقينًا انهُ تعالى اتخذها حقًّا عروسًا لذاتهِ . هذا ومات والدها ولم تكن قد بلغت من العمر الا ست سنين اما امها أُوتيكيا فلما رأتها قد كبرت اختارت لها عروسًا شابًّا شريفًا ذا اخلاقٍ حميدة لتعقد لها

(١) حاشية . لم يتفق المؤرخون على تعيين يوم وفاتهِ فقال البلانديستيون (في المجلد الاول لشهر نيسان صفحة ١٥) انهُ مات في الاحد الواقع في اول نيسان سنة ٦١٩ او في الاحد الواقع في ١٢ كانون الاول سنة ٦٢٢ لكن السنكسار الروماني يذكر اسم هذا القديس في اول نيسان ويُعيَّد لهُ في بيكارديا في ١٢ كانون الاول

عليهِ غير انهُ كان وثنيًا وقد ظنت انهُ لا يلبث ان يتنصّر متى عاشر لوسيا ورأى ما هي عليهِ من النزاهة والفضل وحسن السيرة. فلما شعرت البتول بما كان من نية امها طالبت منها ان تؤخر الامر وتدعها تخدمها ايضًا بضع سنين فأثر هذا الكلام في قلب امها أُوتيكيا ومن ثم لم ترد ان تسلم ابنتها للشاب المشار اليهِ وبما انهُ كان مُلحًّا في طلبها شرعت لوسيا تطلب من السيد المسيح ليلاً ونهارًا ان ينقذها من هذه التجربة

فبعد زمن اصاب والدتها نزيف دمٍ وبقيت على هذه الحال اربع سنين وفي ذلك العصر شاع خبر عجائب حادثة على قبر القديسة اغاثا في مدينة كاتانا فكان المسيحيون بل الوثنيون ايضًا يلتجئون اليها وينالون الشفاء عند قبرها فترجت لوسيا ان والدتها تنال هناك الشفاء واشارت عليها بزيارة قبر القديسة اغاثا فسافرتا ولما وصلتا الى القبر خرّتا وصلّتا ولان لوسيا كانت قد اعيت من تعب الطريق اخذها النعاس فرقدت قرب القبر وللوقت ظهرت لها في الحلم القديسة اغاثا مصحبة زمرة من الملئكة وقالت لها يا لوسيا اختي العزيزة لماذا تطلبين مني ما يمكن ان تناليهِ من عروسكِ وعروسي الالهي فها انهُ تعالى يستجيب لصلاتكِ وقد شفيت امكِ من مرضها فاستيقظت البتول من سباتها وقالت لأُمها اشكري الله لانكِ قد نلتِ البرء من السقام وكان كذلك

فبعد ان قدما الشكر الواجب للسيد المسيح وللقديسة اغاثا جثت لوسيا على قدمي والدتها وقالت لها اني ارغب اليكِ باسم الرب يسوع الذي شفاكِ وانا خصصت لهُ بتوليتي ان تدعيني اعبدهُ تعالى وحدهُ واخدمكِ بقية ايام حياتي فاجابتها الى ذلك امها وشكرتها على فعلها. هذا فوقتئذٍ قالت ايضًا لوالدتها انهُ اذ قد ارتضيتِ يا والدتي باتخاذي يسوع عروسًا لي فاسألكِ ايضًا ان تهبيني ما كنتِ قد اعددتِهِ لزواجي بالشاب الوثني لكي انفقهُ كلهُ في سبيل الخير واتصدق بهِ على المساكين حبًّا بالمسيح عروسي فأجابت الام قائلةً ان أموال بيتي كلها لكِ الا انهُ لا يجب ان تغني الفقراء وتصيريني فقيرةً. فلنحسن اذًا الى البائسين بما يفضل عنا وبعد موتنا نجعل المساكين وارثي كل اموالنا. فقالت البتول ما هذا الكلام يا امي العزيزة ما الفضل الذي يكون لنا عند السيد المسيح اذا وهبناهُ حين الموت ما لا يكون في طاقتنا ان نحفظهُ. انهُ لاجدر بنا ان نسبق الموت ونهب الله ما قد اتخذناهُ من كرمهِ ونبني اتكالنا على عنايتهِ الالهية. فلا ريب انهُ يهتمّ بنا ويرعانا بعين عنايتهِ فارتضت أُوتيكيا بذلك ولما رجعتا الى سيراكوزا أخذتا تبيعان املاكها وحِلاها لكي تتصدقا باثمانها على اهل الفاقة

فلما سمع بذلك خطيب لوسيا الوثني استخبر سرًّا مرضعها عن سبب ذلك فقالت لهُ ان قصد أُوتيكيا من بيع كل مالها هو أن تأخذ ملكًا جزيل الثمن فلم يفهم الشاب معنى هذا الكلام بل ظن باوتيكيا انها تبيع حقولها لتشتري غيرها. على انهُ بتمادي الزمان استفاق على حقيقة الامر وعرف جيدًا ان لوسيا برضا امها تنفق كل ما لها على الفقراء فمضى حالاً واشتكى عليها الى الحاكم بسكاسيوس فأرسل الحاكم حالاً وقبض على البتول فلما حضرت بكّتها على تبذير أموالها وامرها بعبادة الاوثان. فقالت لهُ البتول اني لم ازل منذ ثلث سنين بمساعدة الفقراء وقد وهبتهم كل اموالي ولم يبقَ لي سوى جسدي وها انا اقدمهُ الآن هبةً وذبيحةً لسيدي يسوع المسيح. فقال لها الحاكم لماذا لا تطيعين امر الملك بل ترفضين ديانتهُ القديمة. فقالت مجرأةً وقد اضطرمت بالغيرة ها هوذا انت تحفظ امر الملك وانا اطيع امر الله ملك الملوك الذي لهُ سلطان ان يميت الانفس والاجساد هو اله السماء والارض فلا يقعنَّ في قلبك انك قادرٌ أن تفصلني عن عبادة يسوع رب المجد وعن محبتهِ. قال لها الحاكم ستغيّرين هذا الخطاب وانتِ تحت العذاب. قالت القديسة متى عُذّبت سأتكلم بما يلهمني الله لانهُ قال عزّ من قائل اذا أَسلموكم فلا تهتموا كيف وبماذا تجيبون فانكم ستُعطون في تلك الساعة ما تتكلمون بهِ لانكم لستم انتم المتكلمين بل الروح القدس هو الذي يتكلم فيكم. فقال الحاكم فاذًا الروح القدس فيكِ. قالت البتول اني اعرف انهُ تعالى يسكن في الانفس النقية الطاهرة. قال المغتصب اني اسلمك الى اناس يفعلون فيكِ افظع المنكرات فيخرج منكِ الروح القدس. اجابتهُ القديسة وقالت ان الذي خصصت لهُ عفتي واستودعهُ اياها هو قادرٌ ان يحفظها ويكفّ عنها اهل الفسق

حينئذٍ امر المغتصب بأخذ البتول الى بيت الريبة وكانت البتول رافعةً يديها الى السماء مستغيثةً بالمسيح فللحال اظهر الله تعالى قدرتهُ الضابطة الكل وكبير عنايتهِ بحفظ النفوس الطاهرة بان أرسخ لوسيا في مكانها كصخرةٍ صماء حتى عجز

الشرَط ان يزحزحوها من مكانها فربطوها بحبال واستعانوا بالثيران على سحبها فذهب كل اجتهادهم عَبَثًا اذ لم يقدَروا ان يزحزحوها عن مكانها. أما بسكاسيوس فاز بد من شدة غضبهِ وامر بان يحرقوها في مكانها بالنار. فلما احدق اللهيب بالبتول قالت اني سألت سيدي المسيح ألا تمسني النار وان يطول عذابي لكي يخزى الوثنيون عند نظرهم انهم اعجز من ان يمسّوا المسيحيين بضرٍّ ولكي يثبت المؤمنون في الايمان . كان لهيب النار المحيط بها كثوبٍ مضيءٍ يزينها فتنبأت وقتئذٍ القديسة قالت انهُ عن امدٍ يسير يستريح المؤمنون من الاضطهادات وشرعت تسبح الله وتحمدهُ وتحث الجميع على تمجيدهِ وعبادتهِ . اما الحاضرون فطفقوا يشتمون الحاكم على قساوة قلبهِ في تعذيب هذه البتول ولهذا اشتدَّ رجز بسكاسيوس فأمر جنديًا ان يضربها بالسيف ففعل وتركها هكذا فلم تمت القديسة حالاً بل نقلها المؤمنون الى بيت قريب وهناك تناولت القربان المقدس ثم رقدت بسلام في اليوم الثالث عشر من شهر كانون الاول في سنة اربعٍ وثلثمائة

اليوم الرابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس سبيريدون

ان منشأ القديس سبيريدون جزيرة قبرص وكانت ولادتهُ بها في نحو نصف القرن الثالث وكان والداهُ معروفين بالرأفة على الغرباء . وقد صرف مدة صبائهِ وايام شبابهِ في رعاية الغنم في البراريّ وهناك ارضعهُ الله عزَّ اسمهُ لبن العبادة فلم يزل يناجيهِ تعالى . هذا وأحب ابواهُ ان يزوجاهُ فاطاعهما بذلك غير انهُ في هذه الحالة لم يغير شيئًا من رياضاتهِ الروحية ولم ينقص منها شيئًا بل اراد ان يستمر راعي غنم لانهُ بذلك كان يحصل على الانفراد ويسدّ حاجة بيتهِ ويستطيع مساعدة المساكين

وروى سوزومينوس المؤرخ الواقعة الآتية . قال كان القديس سبيريدون معتادًا ان يصوم الصوم الكبير هو واهل البيت كلهم بل ويمسك اياماً متتابعة لا يتناول قوتًا البتة فتضيفهُ سائحٌ قد اضنكهُ التعب فتلقاهُ بالاكرام وتمام الاعزاز ولكن لم يكن عندهُ وقتئذٍ خبزٌ ولا طحين بل كان عندهُ قليلٌ من شحم الخنزير ولما رأى ما رأى من لغوب السائح وشدة حاجتهِ صلّى الى الله وسألهُ الاعفاء من التأديب الكنائسي وقال لابنتهِ أصلحي شحم الخنزير فلما اصلحتهُ طعامًا أجلس الضيف معهُ فأبى هذا ان يأكل معتذرًا عن تناول الطعام بانهُ نصرانيٌّ (١) فقال لهُ سبيريدون ليجعلهُ على اطمئنان لا شيءَ من الأطعمة نجسٌ في ذاتهِ وان الضرورة تجيز ذلك وتُعفي من وصية الصوم

وبينما كان على هذه الحال وصل مكسيمينوس غاليروس الى قبرس وبدأ يضطهد المؤمنين وقبض على القديس سبيريدون ولما وجدهُ راسخ القدم في النصرانية قلع عينهُ اليمنى وقطع رجلهُ اليسرى ونفاهُ وبقي في المنفى الى ان جلس قسطنطين الملك على عرش القياصرة فاستراح وقتئذٍ المؤمنون من اضطهادات الملوك الوثنيين وكان ذلك سنة ثلث عشرة وثلثمائة فرجع القديس سبيريدون الى قبرص وعاد الى صناعتهِ الاولى وأخذ الله تعالى منذ حينئذٍ يظهر قداسة عبدهِ بالعجائب والمعجزات

وقد اخبرنا ايضًا سوزومينوس انهُ دخل لصوص في حظيرة هذا القديس ليسرقوا واذا بيدٍ غير منظورة امسكتهم وأوثقتهم فلبثوا في الوثاق الى ان اتى القديس ليخرج الغنم الى المراعي فوجد اللصوص وايديهم مربوطةٌ فوق رؤوسهم اما هو فتعجب وأما هم فخجلوا فلما عرف منهم ما جرى بهم صلّى لاجلهم فانحلت رُبُطهم الغير المنظورة ثم وهبهم خروفًا قائلاً خذوا هذا جزاء حراستكم

(١) ان كلفينوس وكيمنيتيُس حكما على هذه القضية الدينية اي قضية الصوم بحسبما ما ارادا وأنتجا من ذلك ان الصوم ولو كان عامًا فليس هو بواجب فيا لها من نتيجة كاذبة فان كان الامر كما قالا فلماذا حرص المؤرخ على ذكر ما وقع لهذا الضيف من الشك اذ دُعي لاكل شحم الخنزير وكذلك على ما أخذه القديس سبيريدون من الاهتمام بان يستغفر الله لهُ عما ارتكبهُ بحكم الضرورة من اكل اللحم في الصوم . وكان سبيريدون يضيق على نفسهِ بالصوم لكنهُ كان يعرف ما تفرضهُ علينا المحبة والضيافة وعليهِ ظنَّ انهُ غير ملتزم ان يحفظ وصية الكنيسة في مثل هذه الاحوال الخصوصية . هذا وقلما كان الناس في الاعصار الاولى يستعفون من اكل اللحوم وماشابهها في مدة الصوم

فلله در القديس سبيريدون حيث قال ان كل شيء طاهر للطاهرين والمراد بهذا ان وصية الكنيسة لا تلزم في كل حالٍ وانما هي تامرنا ان نمتنع عن بعض الاغذية بعلة الامانة وكانت عند اليهود وعند النصارى اصوامٌ احتفالية ولكن من باطل الاعتقاد ان نتحامى تلك الاغذية لانها نجسةٌ في ذاتها كالمانيين وغيرهم من المبتدعين

وسهركم الليل كلهُ على غني ثم نصحهم وابان لهم شرَّ السرقة الذي يسوقهم الى الهلاك الابدي وقال لهم متى اصابتكم الحاجة فتعالوا اليَّ فأَسدَّ عَوزكم

وقد كان القديس يعطي المحتاجين او يقرضهم كل ما طلبوهُ حتى انهُ لم يكن ينظر ما يأخذونهُ منهُ ولاما يردونهُ لهُ بل كان من عادتهِ ان يقول لهم امضوا وخذوا ما تشاؤون وحينما كانوا يأتونهُ ليردوا ما اقترضوهُ كان يقول لهم ضعوهُ حيث اخذتموهُ . فاتفق ان احدهم لما قال لهُ هذا لم يضع القرض في مكانهِ بل اخذهُ وذهب بهِ ثم اتى ثانيةً الى القديس يطلب منهُ دراهم على سبيل القرض فقال لهُ القديس افتح الصندوق وخذ حاجتك فلم يجد فيهِ شيئًا فأخبر القديس بذلك فقال لهُ القديس لو وضعت هناك ما استقرضتهُ مني قبلاً لوجدتهُ الان وما فعلتهُ فقد رجع ضرهُ عليك لا عليَّ . ورُوي ان تاجرًا اشترى منهُ مائة شاة غير انهُ لم يدفع لهُ سوى ثمن تسع وتسعين شاة فاذ اتى الى بيتهِ بالمائة شاة هربت واحدة منها ورجعت نحو القديس وفيما كان ذاك يسوقها اغتصابًا كانت الشاة تثغو وتمانع بقرنيها فقال لهُ القديس انظر يا صاح لعلَّ سبب نفور هذه الشاة انك لم تفِ ثمنها حينما اشتريتها فاقرَّ التاجر بذنبهِ ودفع ثمنها وللحين تبعتهُ الشاة الى بيتهِ فشاع خبر قداستهِ في الجزيرة كلها

وبعد موت اسقف تريميتونت مدينة على شاطي البحر قرب سالامينا ارتسم اسقفًا ولم يترك مع ذلك رعاية الغنم وكان في ذلك الوقت قد ارمل واستبان في زمن رئاستهِ ان سذاجة المسيحيين كانت مقترنةً بانوارٍ فائقة لا سيما فيما يتعلق بالامور الدينية الخلاصية

روى بارونيوس في كتابهِ تاريخ الكنيسة سنة ٣٢٥ عدد ٤٥ ـ ٤٨ نقلاً عن روفينوس وسوزومينوس امرين اولهما يدل على ما كان لهذا القديس من الاحترام لكلام الله المدرج في الاسفار الالهية اما الثاني فيبين تاثير اقوال هذا الاسقف في اهتداء الضالين الى صراط الايمان المستقيم

قال انهُ في بعض اجتماعات الاساقفة بجزيرة قبرس خطب بهم تريفيلس اسقف لادرة الذي كان قد درس القانون المدني في بيروت واصبح شهيرًا بفصاحتهِ . وما انطوى عليهِ خطابهُ قول السيد المسيح للمخلع قم احمل سريرك وامضِ (متى ٢ : ١) فبدل الخطيب قول الانجيلي من هذه الآية κράββατον (سرير) بقولهِ σκιμπόδιον (مرقد او وسادة) ذهابًا الى ان هذه اللفظة افصح من تلك فلما سمع ذلك القديس سبيريدون لم يتمالك ان نهض في وسط المحفل وتصدى للخطيب وقال لهُ ألعلك اعلم من الانجيلي في اختيار الالفاظ ومعرفة فصيحها وخرج من المحفل لساعتهِ . فأثر توبيخهُ هذا في الخطيب تأثيرًا حسنًا حتى تتلمذ لهُ تريفيلس ليتعلم منهُ فضائل القديسين وفي مدرستهِ اصبح قديسًا ويُذكر اسمهُ في السنكسار الروماني في اليوم الثالث عشر من حزيران

اما الامر الثاني فشاهدهُ اباء المجمع النيقاوي المقدس حيث كان القديس حاضرًا وانهُ بعد ان حرم الاباء آريوس الملحد المنافق تقدم اوسابيوس احد الفلاسفة الوثنيين وجادلهم في الايمان وكان الاباء الذين خاضوا معهُ في ميدان الجدال من العلم والفصاحة بمكان فكانوا يحلون ما يلقيهِ عليهم ذلك الفيلسوف الوثني من المشاكل والمعضلات بأدلة ساطعة مقنعة غير انهُ لم يقتنع بها ولم يذعن للحق وحينئذٍ تقدم القديس سبيريدون وخاطب الفيلسوف قائلاً لهُ هكذا : يا ايها الفيلسوف انصت واصغِ لكلماتي وتعلم جيدًا باسم السيد المسيح فاعلم ان الله تعالى هو واحد الذي خلق السماء والارض وكلما يرى وما لا يرى وانهُ صنع كل شيء بقوة كلمتهِ واثبت كل شيء بقداسة روحهِ فالكلمة الذي هو ابن الله ترأف على البشر ورثى لشقائهم واحب ان يتجسد ويولد من عذراء فصار انسانًا وتردد مع الناس ومات من اجلهم وقام من الموت لكي ينهج لهم الطريق بحياةٍ ابديةٍ وسياتي ثانيةً في انقضاء الايام ليدين الاحياء والاموات ويجزي كلاً بحسبما صنع فهذا ما نؤمن بهِ من غير بحثٍ وتنقيب مخضعين عقولنا لشهادة الله فلا نتعب عقلك باطلاً بالفحص عن هذه الحقائق والان فاسأَلك هل تعتقد ما اوردتهُ لك . فأجابهُ الفيلسوف قائلاً اي نعم انني اعتقد كل ما قلتهُ لي واقبلهُ بكل خضوع . فانذهل الفلاسفة الحضور واتباعهم كلهم من هذا الاذعان فقال لهم الفيلسوف أعيروني سمعًا يا معشر العلماء وافهموا سبب اذعاني العجيب . انهُ اذ جادلني العلماء بالاقيسة الفلسفية والبراهين العقلية قاومتهم بهذه الاسلحة المنطقية ولم ارَ فيهم من انتصر عليَّ غير انهُ لما قاومني هذا القديس بقوة الهية حينئذٍ خارت كل قوة فلسفتي البشرية جعلكم الله تشعرون مثلي بهذه القوة الالهية حتى تعتقدوا نظيري كل ما قالهُ هذا

القديس لان السيد المسيح الهٌ حق قد تكلم هو بفيهِ . ونجع هذا الكلام في قلب احد الاساقفة الآريوسيين فاهتدى الى الايمان الكاثوليكي

اما المعجزات التي صنعها الرب على يد القديس سبيريدون فاذ لا يُحصى عددها نقتصر على ايراد ما سيأتي ذكرهُ

روى سوكراتوس وسوزومينوس المؤرخان انهُ كان لهذا القديس فتاة اسمها ايريني كانت قد نذرت بتوليتها لله فماتت موتاً مقدساً حين حضورهِ المجمع النيقاوي ثم اتت احدى المسيحيات وطلبت من ابيها وديعة كانت قد استودعتها اياها ففتش القديس عن الوديعة فلم يجدها فذهب بصاحبتها الى قبر ابنتهِ وصحبهما كثيرٌ من المؤمنين وصرخ قائلاً يا ايريني اين وضعتِ الوديعة التي استُودعتها فاجابتهُ الابنة من داخل قبرها اني وضعت ذلك في المكان الفلاني حينئذٍ قال لها ارقدي يا ابنتي بسلام الى ان يقيمكِ الرب من الموت فوجدت الوديعة في المكان المعيّن

وقد اتفق يوماً انهُ خرج ليذهب الى الكنيسة فوجد في الطريق امرأةً وضعت امامهُ على الارض ابنها الميت ولم تنطق بكلمة وذلك اما لشدة حزنها واما لانها لم تعرف لغتهُ من حيث كانت غريبة فصلّى القديس فقام الطفل حيًّا ولفرط ما فرحت امهُ من قيام ابنها سقطت للحال ميتة فصلّى ايضاً لاجلها القديس فأقامها من الموت

وبينما كان يرعى كنيستهُ بالاطمئنان مست الحاجة ان يغادرها لمقابلة الملك قونستنس الذي خلف والدهُ قسطنطين سنة سبع وثلثين وثلثمائة لان الملك المشار اليهِ اصابهُ داء فحكم عليهِ الاطباء بمقتضى صناعتهم انهُ داء عياء لا يبرأُ منهُ فالتجأ الى الله وصلّى اليهِ واستغاث بهِ بمعظم الحرارة فحلم في تلك الليلة ان ملكاً اراهُ جملة اساقفة ودلهُ على اثنين بينهم يمكنهُ ان يرجو منهما شفاءهُ ولم يعلمهُ شيئاً باسم ذينك الحبرين ولا بابرشيتهما فاستدعى الملك الى انطاكية حيث كان وقتئذٍ اشهر الاساقفة من حيث القداسة ودعا ايضاً سبيريدون كرجل من اشهر الصالحين فأتى باب القصر بزيّ خادم فقير جدًّا فمنعهُ الحجّاب من الدخول وبلغ احدهم الى ان ضرب خدّهُ بالكف على ان سبيريدون لم يضطرب لهذه الاهانة بل تذكر للحال مشورة الانجيل فقدّم خدّهُ الأيسر الى الذي ضرب خدّهُ الأيمن. ولما رأى ذلك الحاجب ما رأى من صبرهِ النادر المثال أخذهُ العجب العجاب حتى ظنّ ان مَلَكاً قد تستّر بذلك الثوب الرثّ اذ لم ينظر عليهِ ولا علامة غيظٍ بشريّ من ذلك العار الذي هو اشنع ما يمكن ان يُلحق بالمرء فأخذ يسأل عنهُ من هو ولما اخبر انهُ أُسقف خرّ على قدميهِ وسألهُ المغفرة فغفر لهُ بلا تعصب ولكن هذا التساهل كان لهُ من جهةٍ عقاباً على زلتهِ جسديًّا وكان اخفّ عليهِ ان يذوق عقاباً شديداً من ان يصبر على الخجل الذي لبسهُ كالثوب لتحقيرهِ رجلاً جديرًا بالاعتبار. واما الملك فحالما رأى سبيريدون تذكر انهُ هو الذي اراهُ اياهُ الملَك في الحلم في هذه الهيئة الرثّة فقام عن كرسيهِ وذهب متشحاً بارجوانهِ اللامع ومثل امامهُ بمزيد التواضع وابان بذلك ما الفرق بين ملِك لا تبقى لهُ العظمة ولا يستمرّ على عرش الملك الاّ برهةً من الدهر وبين قديس لا يزال كريماً لدى ملك الملوك ثم بكى على قدميهِ واستحلفهُ ان يحنو عليهِ ويرق وحنى رأسهُ ليلمسهُ الاسقف بيدهِ فوضع سبيريدون يدهُ على رأسهِ وحينئذٍ تعافى الملك ففرح اهل القصر كلهم وصفقوا لما رأوا هذه الآية الباهرة ولم يعودوا يتحادثون الاّ عن سبيريدون فكانوا يتنافسون في مدح فضيلتهِ وفي التمتع بمسامرتهِ

ولكن سبيريدون لم يكتفِ بان شفى جسم الملك ولهذا لم يذخر شيئاً من الجهد في شفاء نفسهِ ولما كان عارفاً بانهُ يحب الاوصابين المدافعين عن اضاليل آريوس قال لهُ ايها الملك يجب عليك مكافأةً للنعمة التي اولاكها الله على يدي ان تظهر كثيرًا من الغيرة محافظةً على سلامة الايمان والاّ تأذن ابدًا ان يجري شيء يخلّ بشرف الكنيسة وحرّضهُ ايضاً ان يأخذ الرعية بالرفق والشفقة واللين والمحبة معتبرًا نفسهُ كوصيٍّ عليهم وكأبٍ لهم. اما الملك قونستنس فقدّم لهُ مبالغ ذهب وافرة فقال ايها الملك لا ينبغي ان تجازيني هكذا وأذن لي ان أقول لك انك تحب ان تجازيني شرًّا بدل ما صنعت من الغيرة في خدمتك فقد فارقت بيتي وخضت البحر وصبرت حينئذٍ على شتاء شديدٍ وعصف رياحٍ أَلكي تجازيني على كل ذلك العناء الجسيم الذي كابدتهُ لاجلك من تلقاء نفسي بالذهب الذي هو جرثومة كل الشرور ومعدنٌ كافٍ لان يهلك افضل الابرار كلاّ فان فعلتُ هذه الزلّة الكبيرة حكمتُ على نفسي. غير ان الملك لم يرجع عمّا أراد بل زاد الحاحاً عليهِ حتى

اذا رأى سبيريدون ان الاصرار على إباء قبول تلك الهدية يكدّر الملك اشد التكدير قبلها لكنهُ لم يخرج من القصر حتى فرّق كل ذلك المبلغ الوافر مبينًا بهذا التصرف الحسن ان الأسقف لابدّ لهُ ان يجانب حرصًا على حريتهِ قبول الهدايا وامتلاك الثروات ولما رُفع خبر ذلك الى الملك صاح لا يذهلني هذا الرجل الذي شدّ ما استهان بحطام الدنيا فقد صنع آيات باهرة ومع ذلك فقد اخذ كلام القديس بقلبهِ حتى اصطنع الفقراء بالصدقات الكثيرة وغدا غياث الارامل واليتامى غير انهُ لم يبقَ على هذه شعائر الكريمة لانهُ ركن الى الخوارج الآريوسيين فافسدوهُ فصار مضطهد الكنيسة والاساقفة المستقيمي الايمان قاطبةً

هذا وحضر القديس سبيريدون المجمع الصرديقي الملتئم سنة سبع واربعين وثلثمائة للمسيح وحامى فيهِ عن القديس اثناسيوس وبعد مدة يسيرة مات بالرب في اليوم الثاني عشر من كانون الثاني وهو اليوم الذي تعيد لهُ فيهِ الكنيسة الشرقية

اليوم الخامس عشر

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا الصليبي

كانت ولادة هذا القديس ببلاد اسبانيا سنة اثنتين واربعين وخمسمائة وألف وكان والدهُ شريف الاصل ولكن فقير الحال فمسّت الضرورة الى انهُ يتعلم صناعة الحياكة ليكتسب ما يقوم بقوت عيالهِ الاَّ انهُ لما رأى ان ابنهُ يوحنا ذو عقل ثاقب وطباع كريمة مهذبة ادخلهُ احدى المدارس وبعد ان تعلم الفلسفة عزم على أن يعلمهُ احدى الصنائع الاَّ ان العناية الالهية حركت أهل الدولة فتبرّعوا لهُ بالنفقة الضرورية ليتمّ بها درس العلوم وذلك لانهم رأوهُ شابًا صالحًا مهذّبًا . فبعد ان درس العلوم في مدرسة الاباء اليسوعيين دخل في رهبانية الكرمليين ومنذ الابتداء ظهر راهبًا كاملاً فبعد سنة التجربة الرهبانية اختار سيرةً نهايةً في التقشف حتى ان الرهبان جميعهم كانوا يتحيرون منها لانهُ ما عدا ان صومهُ كان متصلاً ونومهُ قليلاً جعل سكنهُ في قبوٍ ضيّقٍ حرجٍ كان مبنيًا لتُلقى فيهِ كناسة الدير وكان سريرهُ خشبةً كبيرةً منقورةً وكان مِسحهُ مملوءًا أشواكًا والآلة التي كان يكثر بها من جلد جسدهِ كانت هائلة المنظر

واعلم ان هذه الامانة كانت مقترنةً بحب الانفراد والمناجاة المتواترة لله تعالى بصلوات عقلية على ان ضنك عيشتهِ وحبهُ الاعتزال لم يصيراهُ على الغير جافيًا خشنًا بل كان انيسًا لطيفًا حسن المجالسة ومن الغريب العجيب هو انهُ كان لا يجد في نفسهِ الاَّ الرذائل وفي اخوتهِ الاَّ فضائل . ولما ارتسم كاهنًا حينئذٍ ارتاحت نفسهُ الى كمال الاعتزال وعزم على الدخول في رهبانية الكرتوسيين وبينما هو يفتكر في ذلك اذ وصلت القديسة تراز يا الى مدينة دال كمبو حيث كان ترهّب وكان قصدها ان تبني لرهبانيتها ديرًا جديدًا لرهبان الكرمل ولما خاطبتهُ أيقنت وقتيئذٍ انهُ هو الذي اختارهُ الله تعالى ليتم على يدهِ ما حركها اليهِ من اصلاح رهبانية الكرمليين واعادتها الى رونقها الاول بعد اصلاحها قوانين الراهبات الكرمليات ولأنها كانت قد اخذت من الحبر الروماني اذنًا في ذلك كاشفتهُ بقصدها ومنعتهُ عن ترك رهبانية الكرمليين والانضمام الى الكرتوسيين واوضحت لهُ بانهُ اذا ما رجعت رهبانية الكرمليين الى كمال رونقها القديم يجد حينئذٍ فيها ما كان يطلبهُ في رهبانية الكرتوسيين . فاستصوب يوحنا مشورة القديسة وبقي في رهبانيتهِ وعند ذلك ذهبت بهِ الى مدينة دُرفيلا وسلمت لهُ منزلاً ليبتدئ فيهِ باصلاح الرهبانية . فسكن هناك متوحدًا برهةً من الدهر مرخيًا لنشاطهِ العنان معاملاً جسدهُ بقساوةٍ شديدة الافراط حتى ظنّ الناس انهُ يموت بسببها سريعًا . اما القديسة ترازيا فأرسلت اليهِ أناسًا يعاضدونهُ على اصلاح الرهبانية وبعد وصولهم قضى الليل كلهُ في الصلاة وفي الغد باكرًا قدّم ذبيحة القداس الالهي وبعد الفروغ منهُ نذر مع رفقتهِ حفظ قوانين رهبانية الكرمليين الاولى وكان ذلك في اليوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة ثماني وستين وخمسمائة وألف . ثم سلك ورفقتهُ مسلك الكمال الذي تقتضيهِ دعوتهم بنشاط بليغ غير ان القديسة ترازيا لما رأت ما رأت من افراط تقشفاتهم جعلت لهم حدودًا ثم بنت لهم ثلثة اديرة أُخر وجمعت فيها رهبانًا وأقامت القديس يوحنا رئيسًا عامًا عليهم ثم ارسلتهُ ليعظ الراهبات الكرمليات فذهب وجذب كثيرات الى حفظ كمال رهبانيتهنّ القديم

غير ان الشيطان عدو الخير هاج عليهِ جماعةً من اخوتهِ الرهبان فاضطهدوهُ كأنهُ متمرّد على روءسائهِ القدماء واكرهوهُ على الخروج من ديرهِ الجديد وأرجعوهُ بواسطة جنود واستاقوهُ وحبسوهُ في دير توليدو وبقي في سجن مظلم

تسعة اشهر الّا ان الباري تعالى عزّى عبدهُ بتسليات جزيلة حتى ان ملكة السماء تراءت لهُ ايضاً وخرج اخيراً وأُقيم رئيساً على دير المجلة بالبريّة وفي السنة التاسعة والسبعين بعد الجيل الخامس عشر أنشأ ديراً آخر بنابايزا وبعد سنتين تسلم ادارة دير غرناطة ولما كانت سنة خمس وثمانين وخمسمائة وألف اختير مساعداً لرئيس اقليم الأندلس ولما ارتفع سنة ثمان وثمانين بعد القرن الخامس عشر الى اعلى مناصب الرهبانية أنشأ دير سيغوفيا

وفي جميع هذه المناصب المختلفة لم يترك شيئاً من تقشفاتهِ وكان من عادتهِ ان يقول ان الشيطان ينصب لرؤساء الاديرة ثلثة انواع من الفخاخ اولها فخ الكبرياء وبهِ ينفخ قلوبهم ويُصيرهم يستعظمون انفسهم والثاني اعفاؤهم انفسهم من الواجبات الرهبانية العامة والثالث هو التشبث بالامور الخارجية فنجا هذا القديس من الفخ الاول بتواضعٍ بعثهُ على حب الاهانات وجعلهُ عند نفسهِ آخر الاخوة ونجا من الفخ الثاني لتقدُّمهِ الجميع في مباشرة كل وظائف الدير ولا سيما أتعبها واكرهها ونجا من الفخ الثالث بتربية روح الاختلاء الباطن في قلبهِ. وما عدا ما قلناهُ في سيرتهِ القشفة كان يتزنر على اللحم بزنار من حديد مؤلم جدًّا ولا ينام سوى ساعتين فقط وبقية الليل فكان يصرفها مصليًا ونفسهُ لم تزل مرتاحةً الى التألم حبًّا للسيد المسيح حتى كان يجوز لهُ ان يقول مع الرسول اني مصلوب مع المسيح ومن أجل رغبتهِ هذه في التشبُّه بهِ تعالى تراءى لهُ رب المجد حينما كان يصلّي أمام صليبهِ المقدس وقال لهُ ماذا تريد يا يوحنا مني عمّا تكابدهُ من العناء حبًّا لي فقال القديس اني اطلب من جودك شيئاً فقط أن أُهان وأتألم من اجلك

وفي مجمع الرهبانية الملتئم سنة احدى وتسعين من المائة السادسة عشرة هاج عليهِ ثانيةً بعض الرهبان بما انهُ لامهم على تراخيهم في حفظ القوانين وعلى قصدهم ان يدخلوا فيها تخفيفاً فعزلوهُ عن مناصبهِ ونفوهُ الى برية ثم عزموا ايضاً ان ينقلوهُ الى بلاد الهند ولم يكتفوا بهذا بل أرادوا ان يخرجوهُ من الرهبانية كرجل محروم وكان عليهِ السلام يحتمل هذا كلهُ بصبرٍ وسرور ولم تخرج من فيهِ كلمة شكوى بل كان يبرّئ اخوتهُ بقولهِ انهُ مستحق اكثر من ذلك ولما أمروهُ بالمضي الى الهند تهيأ للسفر من غير بطء الّا ان الله تعالى منعهُ عن ذلك بمرضٍ عضال اعتراهُ بغتةً. وقد استمرَّ مضطهداً الى ان اجتمع رؤساء الرهبانية وبعد الفحص عما اتهموهُ بهِ برَّأوهُ واخرجوهُ من منفاهُ وأذنوا لهُ ان يتخير لسكناهُ الدير الذي يريدهُ فاختار الدير الذي كان رئيسهُ اكبر مضطهديهِ وهناك ضُرب كايوب البار في جسدهِ بقروحٍ كثيرة ومع انهُ كان على شقاء يُرثى لهُ وكان الرئيس يأخذهُ بالقساوة لم يقلّ صبرهُ وسرورهُ واطمئنان قلبهِ. فشعر بذلك الرئيس الأقليمي وأتى الدير مسرعاً ووبّخ الرئيس على قساوتهِ توبيخاً مرًّا غير ان القديس اخذ ببرّئهُ بكل ما أمكنهُ من الحجج التي من عادة الصديق ان يخترعها لتبرئة صديقهِ فانتبه الرئيس اخيرًا على قساوة نفسهِ واستغفر من القديس ثم شرع يأخذهُ باللين والرفق كما ينبغي

غير ان يوحنا الصليبي لم يزل مصلوبًا متألمًا بحسب حبهِ ليسوع المصلوب وذلك في نفسهِ باتعاب لا يجرب الله بها الّا عبادهُ الراسخين في محبتهِ ولم يكن يجد تعزيةً الّا في تأمل يسوع المصلوب وقد تُوفي على هذا الحال بعد تناولهِ القربان المقدس مقبّلاً الصليب المقدس وناطقاً باسم يسوع ومريم العذراء وفي حين موتهِ تكلل رأسهُ بنورٍ سماوي يبهر الناظر وفاحت من جسدهِ رائحة ذكية تعطر منها الدير كلهُ ولم يزل الله تعالى يظهر قداسة عبدهِ بالعجائب وكانت وفاتهُ في اليوم الرابع عشر من كانون الاول سنة احدى وتسعين وخمسمائة وألف وعمرهُ تسع واربعون سنة والكنيسة تعيد لهُ في اليوم الرابع والعشرين من تشرين الثاني

اليوم السادس عشر

وفيهِ ترجمة القديس اوسابيوس أسقف فرسلّي

كان مولدهُ ببلاد سردينيا على رأس القرن الرابع أيام كان الملك ديوكليتيانوس يضطهد المسيحيين بكل جهدهِ وكان أبواهُ نصرانيين. رُوي لنا ان والد هذا القديس تُوفي في السجن من أجل الديانة المسيحية ورحلت امهُ الى رومية وبعد ذلك بأمدٍ يسير جلس الملك قسطنطين على تخت الملك الروماني فاستراح المؤمنون من اضطهاد الوثنيين اما هو فنشأ في العلم والفضيلة وادخلهُ القديس سلفسترس البابا ما بين الاكليريكيين في رومية ورسمهُ كاهناً البابا مرقس القديس ثم اقامهُ اسقفاً القديس يوليوس على مدينة فرسلّي من

أعمال سافويا وانتخب حينئذٍ اكليريكيين ومرَّنهم بتعليمهِ ومثال قداستهِ على سيرةٍ حسنة تشبه سيرة الرهبان وقال فيهم القديس امبروسيوس انهم كانوا جماعةً سماويين لا يملُّون من ترنيم التسابيح الالهية وباستقامة سيرتهم وقدوتهم الصالحة قد قوّوا السيرة الفاضلة في الامة المسيحية وجذبوهم الى الاقتداء بفضائلهم

وكان الخوارج الآريوسيون تقووا في ذلك الحين جدًّا بواسطة قسطنسيوس المتعصب لهم ونفوا القديس اثناسيوس وعن ذلك كتب البابا ليباريوس سنة خمس وخمسين وثلثمائة الى القديس اوسابيوس ما نصهُ . اعلم يا اخي ان غيرتك لحفظ الايمان المستقيم تعزيني جدًّا في احزاني وقد بلغك ان فينسيسوس نائبنا الخائن انعصب مع الآريوسيين وارتضى بنفي أخينا اثناسيوس عاضد الايمان الشجاع والآن أرغب اليك في ان تمضي الى مدينة ميلان حيث عقد الملك مجمعًا لمحاربة هناك عن الايمان الكاثوليكي وتنقذ أخانا اثناسيوس من ايدي مبغضيهِ اعداء الوهية السيد المسيح . فذهب ولما دخل المجمع مع نواب الحبر الاعظم طلب منهُ الاساقفة الآريوسيين ان يختم قضاء النفي على القديس اثناسيوس فقال لهم القديس اوسابيوس انهُ قبل كل شيء ينبغي ان يختم الاساقفة الحاضرون قانون الايمان النيقاوي ليكون هذا القانون قاعدةً لكل ما سيجري في المجمع . فلما قال هذا قام القديس ديونيسيوس أسقف ميلان لختم القانون المتقدم ذكرهُ غير ان والنس اسقف مورسيا وهو من أشد الآريوسيين تعصبًا لبدعتهم اختطف القلم من يدهِ ولم يدعهُ يختم. فاغتاظ المسيحيون المجتمعون في الكنيسة وناضلوا عن القديس اوسابيوس ولهذا نقل الآريوسيون المجمع من الكنيسة الى بلاط الملك قسطنسيوس الذي استدعى القديسين اوسابيوس وديونيسيوس واسقفًا آخر نائب البابا وأمرهم بختم قضاء النفي على القديس اثناسيوس فلم يذعنوا لأمر الملك فتشدّد الاساقفة الآريوسيون ووعدوهم بختم قانون الايمان النيقاوي اذا امضوا هم قضاء النفي على القديس اثناسيوس وهذا الوعد الممتزج بالخبث كاد يخدع القديس ديونيسيوس لزعمهِ انهُ يجوز اهمال تبرئة القديس اثناسيوس حبًّا باطمئنان الكنيسة الجامعة الَّا انهُ لما نبَّههُ القديس اوسابيوس على مكر الآريوسيين رفض في الحال طلبهم واذ كان الملك يُلحُّ عليهم ان يوقعوا على قضاء نفي القديس اثناسيوس اجابوهُ انهُ بريءٌ مما يتهم بهِ وعلى كل حال لا يجوز الحكم عليهِ قبل الاستماع منهُ قال الملك اني انا المشتكي عليهِ وعليكم ان تصدّقوني فقالوا ان الدعوى كنائسية ودينية فلا مدخل فيها لرأي الملك . قال بل وارادتي هي القاعدة في ذلك فلا بد لكم اذًا من الطاعة او النفي . فقالوا لهُ انك ستُحاسب على ذلك امام منبر الديان الازلي . ومن أجل هذا نفاهم الملك وتوعدهم بعذاب اشدّ من ذلك ان كانوا لا يطيعون امرهُ

فنفى نائب البابا الى بلاد سورية والقديس ديونيسيوس الى كبادوكيا والقديس اوسابيوس الى بلاد فلسطين في مدينة سيتوبولي وكان اسقفها آريوسيًّا بل من أشدّ أعداء الكاثوليكيين الَّا ان الله جلّت حكمتهُ جعل نفيهم نافعًا جدًّا للايمان لانهم ردُّوا عن الضلال خلقًا لا يُحصى عددهم وقد افتقد القديس ابيفانيوس القديس اوسابيوس في منفاهُ واتى هذا القديس من قبل رعيتهِ سيريوس الشماس وعزّاهُ جدًّا قال لهُ ان الجميع في ابرشيتهِ ثابتون على الايمان النيقاوي وهذا الخبر زاد الآريوسيين غيظًا فلما خرج سيريوس ليزور الاماكن المقدسة في اورشليم اخرجوا القديس اوسابيوس من المنزل الذي كان محبوسًا فيهِ وجرّوهُ على الارض في الشوارع ثم ألقوهُ في منزلٍ منتنٍ وتركوهُ هكذا بغير اكلٍ اربعة أيام وكانوا كل يوم يجرّونهُ بحبلةٍ مربوطةٍ برجليهِ . اما هو فكان صامتًا ولم يتلفظ بكلمة شكوى وبعد اربعة ايام قدّم لهُ الخوارج مأكلًا فلم يُرِد القديس ان يشترك معهم في الاكل ثم كتب رسالةً اشتهرت للحال في المدينة ذكر فيها ما فعل بهِ الآريوسيون ثم قال انهُ لا يأكل ولا يشرب الا ما يُقدَّم لهُ من الكاثوليكيين وانهُ ان كان الاريوسيون لا يسمحون للكاثوليكيين ان يزوروهُ ويطعموهُ فيكونوا هم سبب موتهِ . فخاف المبتدعون وأرجعوا القديس الى منزلهِ الاول وحينئذٍ زارهُ الشعب واظهروا لهُ ما انطووا عليهِ من الاكرام والسرور بعودهِ وأوقدوا حول منزلهِ شموعًا في الليل وقدموا لهُ مع المآكل هدايا أُخر كثيرة

وبعد خمسة وعشرين يومًا لذلك وثب عليهِ جمٌّ غفير من الخوارج الاريوسيين الأئمة وضربوهُ هو والذي معهُ ونهبوا كل ما كان عندهُ ثم جرّوهُ وبعض كهنة كاثوليكيين الى سجنٍ آخر واقاموا حرّاسًا على الباب لئلا يأتيهم أحد الكاثوليكيين

بطعام ومن ثم يلتزمون بان يتناولوا الاكل من أهل البدع ويؤاكلوهم ايضاً فاستمرَّ القديس على عزمهِ الاوَّل ثابتاً ولم يُرِد ان يشترك مع الاراطقة في الاكل واستمرَّ لا آكلاً ولا شرباً ستة ايام غير ان الشعب طفق يستعد للتعصب فخاف الآريوسيون وتركوا احد الكاثوليكيين يدخل الى القديس ويقدّم له طعاماً . فتحيَّر الاراطقة من شجاعة القديس وثباتهِ على الايمان فنفوهُ الى بلاد كبادوكيا ومن هناك الى الصعيد وما برح في هذا المنفى الى ان خطفت المنية روح قسطنسيوس الآريوسي اي الى سنة احدى وستين وثلثمائة وجلس مكانهُ يوليانوس الملحد وأرجع كل الاساقفة المنفيين الى كراسيهم

فخرج القديس أسابيوس من منفاهُ وأتى الى الاسكندرية حيث تفاوض مع القديس اثناسيوس في ما ينبغي ان يُعمل لاستئصال الشرور الناجمة من البدعة وحضر المجمع الملتئم في تلك المدينة سنة اثنتين وستين وثلثمائة وقبل مرجعهِ الى كرسيهِ تفقَّد كل اقاليم كنيسة الشرق ليثبت الشعب في الايمان ثم رجع الى كرسيهِ كعاضد منتصر واعتصب مع القديس ايلاريوس على محاربة الاراطقة الآريوسيين وكانت وفاتهُ في اليوم الاول من آب والكنيسة تعيد له كشهيدٍ في اليوم السادس عشر من شهر كانون الاول والسنكسار الروماني يذكر ايضاً اسمهُ في الخامس عشر منهُ وهو اليوم الذي ارتسم فيهِ

اليوم السابع عشر

وفيهِ ترجمة القديس لعازر اسقف مرسيليا

ان هذا التلميذ المحبوب من السيد المسيح وُلد ببيت عنيا وهي قرية قريبة من اورشليم وقد قال القديس انطونينوس ان اباهُ كان يُدعى سيروس وامهُ اوكاريا وقد ذكرنا في ترجمة اختهِ القديسة مريم المجدلية ان ميراث القديس لعازر كان باراضي بيت عنيا وان ميراث مريم المجدلية كان باراضي المجدل وقد ذكر الانجيل ان السيد المسيح كان يحبهُ ومن ثم كان يكثر من التردد الى بيتهِ وذلك لما كان عليهِ من حسن السيرة وطيب السريرة كما انهُ تعالى أحبَّ يوحنا الانجيلي محبةً خصوصية لاجل طهارة قلبهِ

ذكر في انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس يوحنا في (فصل ١١) انهُ لما مرض لعازر * ارسلت أختاهُ اليهِ تقولان يارب ها ان الذي تحبهُ مريضٌ . * فلما سمع يسوع قال ليس هذا المرض الموت بل لاجل مجد الله لكي يمجَّد ابن الله بهِ . * وكان يسوع يُحب مرتا واختها مريم ولعازر . * فلما سمع انهُ مريضٌ لبث في الموضع الذي كان فيهِ يومين * وبعد ذلكَ قال لتلاميذهِ لنذهب الى اليهودية ايضاً . * فقال لهُ التلاميذ يامعلّم الآن اليهود يطلبون رجمك وأنت تمضي الى هناك . * أجاب يسوع أليس النهار اثنتي عشرة ساعة فان مشى أحدٌ في النهار لم يعثر لأنهُ يبصر نور هذا العالم . * وان مشى في الليل عثر لان النور ليس فيهِ . * قال هذا ثم قال لهم ان لعازر حبيبنا قد رقد لكني أنطلق لاوقظهُ . * قال لهُ تلاميذهُ يا رب ان كان راقداً فانهُ يخلص . * وانما قال يسوع عن موتهِ فظنوا انهُ يقول عن رقاد النوم . حينئذٍ قال لهم صريحاً ان لعازر قد مات * وانا من أجلكم افرح اني لم اكون هناك لتؤمنوا . لنذهب اليهِ . * فقال توما الذي يسمَّى التوأم للتلاميذ لنذهب نحن ايضاً لنموت معهُ . * فلما وافى يسوع وجد انَّ لهُ في القبر اربعة ايام . * وكانت بيت عنيا قريبةً من أُورشليم نحو خمس عشرة غلوة . * وكان كثيرٌ من اليهود قد جاءُوا الى مرتا ومريم ليعزّوهما عن اخيهما . * فلما سمعت مرتا بقدوم يسوع استقبلتهُ وكانت مريم قاعدة في البيت . * فقالت مرتا ليسوع يا رب لو كنت ههنا لم يمت اخي * ولكنني الآن ايضاً اعلم انك مهما تسأل الله فالله يعطيك . * فقال لها يسوع سيقوم اخوكِ . * فقالت لهُ مرتا انا اعلم انهُ سيقوم في القيامة في اليوم الاخير . * فقال لها يسوع انا القيامة والحياة . من آمن بي وان مات فسيحيا * وكل من كان حيًّا وآمن بي لا يموت الى الابد . أتؤمنين بهذا . * قالت نعم يا رب انا مؤمنةٌ انك المسيح ابن الله الآتي الى هذا العالم . * ولما قالت هذا مضت ودعت مريم أختها سرًّا قائلةً المعلّم حاضرٌ يدعوكِ . * فلما سمعت نهضت مُسرعةً وجاءت اليهِ . * ولم يكن يسوع قد بلغ الى القرية ولكنهُ كان في المكان الذي استقبلتهُ فيهِ مرتا . * فاليهود الذين كانوا معها في البيت يُعزّونها لما رأوا مريم قد قامت مُسرعةً وخرجت تبعوها قائلين انها ذاهبةٌ الى القبر لتبكي هناك . * فلما انتهت مريم الى حيث كان يسوع ورأتهُ خرَّت على قدميهِ وقالت لهُ يا رب لو كنت ههنا لم يمت أخي . * ولما رآها يسوع تبكي ورأى اليهود الذين جاءُوا معها يبكون ارتعش بالروح وحرَّك نفسهُ * وقال أين وضعتموهُ . فقالوا لهُ يا رب تعالَ وانظر . * فدمع يسوع . * فقال اليهود انظروا كيف كان يحبهُ . * وقال بعضهم اما كان يقدر هذا

الذي فتح عيني الأعمى ان يجعل هذا ايضًا لا يموت . * فارتعش يسوع ثانيةً في نفسهِ وجاء الى القبر وكان مغارةً وقد وُضع عليهِ حجرٌ . * فقال يسوع ارفعوا الحجر . فقالت مرثا أُخت الميت يا رب قد أنتن لان لهُ اربعة ايام . * فقال لها يسوع ألم أَقُل لكِ انكِ ان آمنتِ فسترين مجد الله . * فرفعوا الحجر . فرفع يسوع عينيهِ الى فوق وقال يا أَبتِ اشكرك لانك سمعت لي * وقد علمت انك تسمع لي في كل حينٍ لكن قلت هذا لاجل الجمع الواقف حولي ليؤمنوا انك انت ارسلتني . * ولما قال هذا صرخ بصوتٍ عظيم يا لعازر هلمَّ خارجًا . * فخرج الميت ويداهُ ورجلاهُ مربوطاتٌ بلفائف ووجههُ ملفوفٌ بمنديل . فقال لهم يسوع حلّوهُ ودعوهُ يذهب *

ولما رأى اليهود هذه الأعجوبة الباهرة آمن كثيرون منهم الاَّ ان الفريسيين لما تحقَّقوا قيامة لعازر بقوة كلام يسوع وعرفوا يقينًا انهُ لاجلها وبمشاهدة الناس لعازر حيًّا بعد الموت يزداد يومًا فيومًا عدد تلاميذ السيد المسيح عزموا على قتل لعازر وهذا ما قالهُ فيهِ الانجيل المقدس (يوحنا ١٢ : ١٠ و ١١)

فبعد قيامة السيد المسيح من الموت لما اخذ الرسل يبشّرون بالانجيل وكان قد انتشر الايمان جدًّا في اليهودية حدث اضطهاد عظيم على المؤمنين فهرب كثيرون بحسب مشورة يسوع ومنهم القديس لعازر واختاهُ وسكنوا يافا الاَّ ان لعازر كان لدى كل من يراهُ شهادةً لالوهية السيد المسيح ولهذا فكر الفريسيون في ازالتها فلم يتجاسروا على ان يقتلوهُ لانهُ كان من اصلٍ شريف ومن جهة أُخرى كان رجلاً قديسًا معتبرًا من الكل لاجل فضائلهِ فخافوا من ان يتخذ الناس من قتلهِ حجة لاثبات خبث الذين طلبوا قتل يسوع فيصبح الفريسيون مُبغَضين من الشعب لاجل قتلهم رجلاً بارًّا . فعزموا على ابعاد لعازر عن نظر اليهود بالنفي فادخلوهُ واختيهِ (١) في مركب قديم مكسر لا شراع لهُ ولا صاري ولا دفة لتدبير المركب وساقوهم هكذا سرًّا في البحر ثم تركوهم ليغرقوا الاَّ ان الله تعالى دبَّر المركب فوصل سالمًا الى مرسيليا وهذه الأعجوبة اعني اعجوبة وصولهم الى هناك ادهشت اهل المدينة فقبلوهم باكرام ومحبة .

ولان لعازر كان قد ارتسم أُسقفًا من الرسل فعند وصولهِ الى مرسيليا اخذ يبشّر بالانجيل المقدس فآمن كثيرون وعن سنين قليلة انتشر الايمان في المدينة والمدن القريبة وقد بقي القديس اسقفًا في مرسيليا ثلاثين سنة . فلما رأى كهنة الاوثان ان جل الناس قد هجروا هياكلهم وقد تناقص دخلهم جدًّا تآمروا على القديس لعازر واشتكوا عليهِ الى الحاكم فأمرهُ الحاكم بعبادة الاوثان وجحود الايمان بالسيد المسيح . فأجاب القديس قائلاً حاشاي ان اعبد اعمال ايدي البشر واجحد من خولني الحياة مرتين وبذل حياتهُ حبًّا بي . فحكم المغتصب بتعذيب القديس حتى الموت فجلدوهُ بحبال عُلّق عليها اشواك حديد ومزقوا بها جسدهُ ثم سحبوهُ في شوارع المدينة والقوهُ في سجنٍ مظلم عميق حيث ظهر السيد المسيح معزيًا ومشجعًا لهُ وبعد ثلاثة ايام أُخرج من السجن واخيرًا قطعوا رأسهُ وكان ذلك في عهد الملك وستباسيانس او دوميتيانس (١)

---

(١) حاشية . ارتأى بعض العلماء ان القديس لعازر لم يذهب وقتئذٍ الى مرسيليا مع اختيهِ لكنهُ ذهب اولاً الى قبرس مع من يقال عنهم في اعمال الرسل (١١ : ١٩) وكان من الذين تبددوا من اجل الضيق الذي حصل بسبب استفانس واجتازوا الى فينيقية وقبرس وانطاكية وهم لا يكلمون احدًا الاَّ اليهود . وانهُ بعد سكناهُ بقبرس ذهب هو ايضًا الى مرسيليا (راجع كتاب العلامة فيليون في مبشري جنوب غاليا الاولين مجلد الاول وجه ١١٠ ــ ١٢٣)

(١) ان ارسالية القديس لعازر الى الاقليم التي امست اكذوبة في الجيل الاخير لم يعد فيها الان محلٌ للريب من قبل البراهين القاطعة التي اقامها عليها العلامة فيليون وها نحن نلخص أفيد ماتتضمنهُ تاليفهُ مما يتعلق بهذا الاسقف القديس فنقول

قيل في قصة استشهاد القديس اسكندر البريشي انهُ على عهد كلوديوس (الذي تولى من سنة ٤١ الى ٥٤) انطلق اسكندر الى مرسيليا الى الطوباوي لعازر اسقف هذه المدينة ومنها الى اكس الى الطوباوي الاسقف مكسيميان وفي الحق انهُ من وجهٍ آخر (اثبت ذلك العلامة فيليون) قبل تخريب السراكنة وغيرهم من البرابرة الذين نهبوا مرسيليا واخذوا ما كان بها من الآثار المعتبرة والصكوك المكتوبة والذخائر كان جسد لعازر الذي أقامهُ يسوع المسيح ثم استُشهد ملحودًا بمرسيليا في كنيسة القديس منصور وذكر اسم هذه الكنيسة في تاريخ الجيل الرابع واما الديماس فقد بُنيت مرارًا ولكن المتبرة على ما يظهر هي اقدم من البقية واصلها متقدم على عهد انطونينوس (الذي امتدَّ من سنة ١٣٨ ــ ١٦١) . فهناك اختبأ ايام الاضطهاد القديس لعازر مع الذين اهتدوا على يدهِ ليمارسوا رياضات الديانة وكان شماليَّ المذبح كرسي حجرٍ منحوت في الصخر يكرَّم لان القديس لعازر كان يجلس عليهِ عند توزيع الاسرار وهو شبيه بالكراسي التي في قبور رومية . وفوق ذلك كانت مرسومةً صورة ضخمة يظهر انها من القرن السادس وهي تمثّل القديس لعازر ومعهُ سعف الاستشهاد والعصا الرعائية . وكان في ذلك الديماس ايضًا صورة الحرفين اليونانيين α وω كما توجدان في

وفيهِ ايضًا ترجمة القديسة أُوليمبيادا الأَرملة

ان أُوليمبيادا مجد أَرامل الكنيسة الشرقية ذات الاصل الكريم والغنى الجزيل وُلِدت نحو السنة الثامنة والستين بعد القرن الثالث ويتمت ولم تبلغ بعد الرُّشد فأُقيم وصيًّا على املاكها بروكوبيوس الذي يظهر انهُ كان عمها وعني بتربيتها وتهذيبها توادوسيا أُخت القديس امفيلوكس وكانت امرأَةً فاضلةً ولقبها القديس غريغوريوس النازينزي بقدوة التقوى الكاملة. اما اوليمبيادا فلما رأتها تمارس جميع الفضائل المسيحية تعوَّدت رويدًا رويدًا ان تتابعها في ذلك ولما كانت غنية كريمة النسب ذكية العقل وقلَّما يُرى لها نظيرٌ في الجمال أَحبها الناس وأَجلُّوها معًا وكانت في رَيْعان عمرها لما تزوَّجها نيبريديوس ناظر الاملاك المختصة بتاودوسيوس الكبير والذي تولّى حكم القسطنطينية وقتًا غير انهُ مات بعد سنة وثمانية اشهر لزواجهِ. فطلبها كثيرٌ من الوجهاء حتى ان تاودوسيوس نفسهُ أَلحَّ عليها ان تقترن بالبيديوس أحد أَقاربهِ الأَدنين فقالت لهُ بحشمةٍ قد نويت ان اقضي بقية عمري ارملةً فزاد الملك الحاحًا بيدَ انهُ لم يصل الى مرغوبهِ. ولما رأَى آخر الامر ان لاسبيل الى ان يغير عزمها امر حاكم القسطنطينية ان يكون ناظرًا على املاكها حتى تبلغ الثلثين عامًا فعاملها الحاكم المشار اليهِ معاملةً خشنةً مساعدةً لمقاصد البيديوس ومنعها مقابلة الاساقفة وكذلك الذهاب الى الكنيسة رجاءَ ان ذلك يبعثها على ان ترضى بالزواج ثانيةً. واما أُوليمبيادا فلما كانت أَبعد من ان تشكى شكرت للملك على انهُ أَراحها من حملٍ ثقيل بما رفع عنها من تدبير املاكها وقالت لهُ تتمُّ هذهِ النعمة التي قلدتنيها اذا امرت ان تباع املاكي ويحسن باثمانها الى الفقراء ونقدّم للكنيسة فأَخذت هذه الفضيلة الشجاعية بقلب تاودوسيوس ولم يعُد يزعجها في العيش بطريقتها وأَمرسنة احدى وتسعين وثلثمائة ان يُردَّ اليها التصرُّف باملاكها

ولم تتخذ التصرُّف في املاكها الّا لأَن تُنفذ المقصد الذي الفاهُ التورُّع في فؤَادها فازمعت بحسب كونها ارملةً ان تمارس فضائل الارامل التي اوعز اليهنَّ بها الرسول فكانت تظن انها معفاةٌ من بعض ما يلزمها مقامها بهِ وكانت تلذُّ بانها تعيش عيشةً ساذجةً معتبرةً حتى في عيون الناس. فأُولعت برياضة الصلاة والتقشف فكانت أَصوامها شديدةً متصلةً وحرَّمت على نفسها تناول اللحوم وكل ما كان فيهِ حياةٌ مما يُؤكل وقد جعلت العادة السهر طبعًا من طباعها ومنعت نفسها من الحمَّام الذي يخفف ثقل الحرّ في البلاد الحارة وكان ضروريًّا على وجهٍ ما قبل ان يُلبس قمصان من القطن او الكتان. وحكم الناس لما رأَوا من حلمها وتواضعها انهُ لم تبقَ لها ارادة ولا ميل خصوصيان وان الكبرياء لم تأْخذ نصيبًا في شيءٍ من اعمالها. فللهِ درُّها من امرأَةٍ كانت الحشمة وسلامة الضمير والسذاجة متلأْلئة في كل سيرتها وتبيَّن السبب الذي كانت تقود بهِ أَميالها وأَهواءَها. فكانت تنفر من كل زينةٍ باطلة ولهذا كان فرش منزلها دنيئًا وصلاتها متواترة ذات حرارة ومحبتها لايحصرها حدٌّ. وشبَّه يوحنا الذهبي فمهُ

مقابر رومية. ولا جرم ان مدفن هذا الرسول في ذلك الديماس صيَّر ذلك المكان مكرَّمًا عند اهل مرسيليا وأُنشئ هناك منذ ذلك الحين أسراب لتُدفن فيها الموتى كما جرى في رومية وفي كثير من سائر المدن واما عادة دفن الموتى حذاء الشهداء فلاستجلاب رضاهم على الموتى كما قال القديس اغستينوس

وهذا أَثرٌ آخر كبير الاعتبار ايضًا على مجموع الأَبنية التي تأَلف منها دير القديس لعازر القديم وهو في ساحة لينش في موقعٍ سفليٍّ بالنسبة الى الموضع الذي هو على مساواة الشوارع السفلى وفي جهة الميناء أَقبيةٌ سماها المؤلفون القدماء أَقبية المخلص القديس وهي تشتمل على سبع غُرَف متساوية متوازية يحدق بها من الجهات الثلث إيوان مستدير وكل هذا البناء بحجارة كبيرة. واجماع البنائين على انها سجون عامَّة ومعها مخفر للجنود الذين كانوا يحرسون المحابيس وشرقيَّ الإيوان في الزاوية الشمالية الشرقية وفي خارج الحيطان حجرة صغيرة مربعة معروفة بسجن القديس لعازر. فهذا تقليدٌ قديمٌ مؤيدٌ بادلةٍ كثيرة فان لعازر لما أَبى ان يُضحي للاوثان ضُرِب بالعصيّ حتى سال دمهُ ثم جُرِّر في ازقة المدينة وشوارعها ثم سُجن في هذا الديماس العظيم فتكريمًا لهذا المكان أُنشئ ديرٌ للراهبات الكاسيانيات كما فوّض امر قبرهِ ومدفنهِ الى رهبان تلك الطريقة عينها. ولما سُلم هذا السجن الى الراهبات كان قد اصبح مصلىً وكفى بهذا اثباتًا لصحة وقِدَم التقليد الذي شهد بسجن القديس لعازر في هذا المكان ذلك فضلًا عن ان هذا المصلَّى كان يقال لهُ معبد القديس لعازر

وقُطع راس القديس لعازر في ذلك السجن نفسهِ او في ساحة لينش القريبة منهُ كما يقتضيهِ التقليد المشار اليهِ ولهذا السبب يقفون في الزيَّاح الاحتفالي الذي يحملون فيهِ ذخائر هذا القديس في ذلك المكان قرب زاوية سكة رادو ويترنمون هناك بمديحٍ تكريمًا لهذا الاسقف القديس وتهنئةً لهُ على انهُ ظفر في هذا المحل بنخل الاستشهاد (راجع كتاب العلَّامة فيليون في مبشري جنوب غاليا الأَولين مجلد ١ وجه ٥٢٢ ـ ٥٧١)

صدقاتها بنهرٍ مباحٍ للجميع يجري الى اطراف الارض وكأن البحر المحيط يزداد بغزارة مائهِ. فلاجرم ان ابعد المدن والجزائر والبوادي قد شهدت بمفاعيل سخائها والكنائس المهجورة في كل موضعٍ اصابها نصيب من اموالها. اما غناها فكان وافرًا وقد بعثتها امانة سيرتها على ان تخصصهُ للرب كلهُ الا القليل. فكثيرًا ما حثها القديس يوحنا فم الذهب على ان تقلل صدقاتها او بالحري تنظر من هم الذين يستحقونها حتى تخصَّ بها اشدَّ الناس احتياجًا ولاجرم ان هذه المشورة قد بعثت كثيرين على ان يعادوا القديس يوحنا فم الذهب

ولما كانت هذه القديسة مزيَّنة بجمٍّ من المحامد والفضائل لم تشتغل بحالٍ من الاحوال الَّا في ما يلزم الانسان حقيقةً وبناء على ذلك فكانت عند تفريقها الصدقات ترشد من تتصدق عليهم وكانت تبكي مع التائبين وتردُّ الى طريق الفضيلة الخطأة الضالين وتفرغ الجهد في ان تهذّب وتعلّم النساء المسيحيات المتزوجات برجال وثنيين

وأذن الله تعالى امتحانًا وتكميلاً لفضيلتها ان تعرض لها محن وتجارب شتى وبينما كانت المضادات والمقاومات تزيد في حلمها وتواضعها وصبرها جعلتها جديرةً بتاجٍ اشد تلألؤًا ولما اصابتها الامراض العضالة وكثر القذف بها والتشنيع عليها ووقعت فريسةً للاضطهاد الجائر قال لها الذهبي فمهُ في احدى رسائلهِ أندرين اي ثوابٍ واية فوائد للصبر على مَضَض البلوى وقد غدوتِ اهلاً لان تلذّي بالظفر منذ الصبا على حوادث الدهر وبالنتيجة ان تسلكي طريق الانتصار فانتِ التي قد ضايقتها الادواء والعاهات الجسدية مضايقة يهون بجنبها الموت أُلوف مرارٍ وانتِ التي غدت هدفًا لصنوف المظالم والهوان والقذف وانتِ التي لم تخلُ يومًا من بلوى جديدة وانتِ التي لم تبرح مقلتاها تسحّان دمعًا غزيرًا فحسبكِ ان واحدة من رزاياكِ تكفي ان تغني نفسكِ الغنى الروحي. انتهى

ولا يخفى ان بيعة الله بكاملها قد انذهلت من فضيلة هذه القديسة ولم يكن اشهر اساقفة ذلك العصر يذكرونها الا باحترامٍ وكان القديسون امفيلوكس وابيفانيوس وبطرس السبِسْتي وغيرهم يراسلونها وما كان موضوع المكاتبة الَّا مجد الله وخلاص النفوس

وكان لهذه الارملة القديسة عند نيكتاريُس رئيس اساقفة القسطنطينية كبير اعتبارٍ ولذا جعلها شماسة كنيستهِ واعلم ان وظيفة الشماسات كانت قائمةً بتهيئة أغطية المذبح وبقضاء ما شابه ذلك من خِدَم الكنيسة وكانت الشماسات تنذر العفة الدائمة. وهكذا كان اعتبارها عند القديس الذهبي فمهُ خليفة نيكتاريوس لا اقلَّ من ذلك واتخذتهُ لها مرشدًا روحيًا كانت تعترف لديهِ باثامها غير انهُ لم يُرِد ان يأخذ على ذاتهِ توزيع صدقاتها خلافًا لما كان قد عمل سالفهُ الموما اليهِ. وهي آخر من فارقوا هذا العلّامة القديس لما سافر الى منفاهُ سنة اربع واربعمائة وكانت وقتئذٍ في الكنيسة الكبيرة حيث كانت تقيم عادةً واضطروا حينئذٍ ان يسحبوها عن رجلي رئيس الاساقفة القديس. وبعد سفر الذهبي الفم اضطهد اصحابهُ شديدًا ومن السهل ان نحكم ان أُوليمبيادا لم تُستثنَ من هذا الاضطهاد وابانت في ذلك الوقت نفسهِ للحاكم ان لا سبيل الى اشتراكها مع ارساسيُس الدخيل على كرسي الذهبي الفم. فغلَّاها زمانًا ومنيت عند ذلك بمرضٍ بقي عليها الشتاء كلهُ واول ما دخل الربيع أُمرت ان تخرج من المدينة فضلّت طويلاً في جهات مختلفة لا تدري اين تستقر. وفي نصف صيف سنة خمس واربعمائة رجعت الى القسطنطينية وحضرت امام الحاكم ثانيةً فقضى عليها بغرامةٍ وافرةٍ لإبائها الاشتراك مع ارساسيُس وكثيرًا ما جُرّت الى المحكمة وقد استوقح عليها الجنود حتى مزّقوا ثيابها وأُمر ببيع املاكها علانيةً ونهب أراذل القوم العقار الذي لها بيد الناس على وجه المساقاة ومن اغرب ما يكون ان خدامها الذين غمرتهم بنعمها تجرأُوا على اهانتها وشتمها هذا وفي ذلك الحين كتب اليها الذهبي فمهُ رسالة أُخرى ضمنها خير تسليةٍ وأفضل تعزيةٍ

وكثيرًا ما كان الذهبي الفم يكتب الى القديسة أُوليمبيادا بقصد التسلية ولامها مرارًا لانها استسلمت لغمٍّ زائد غير انها من وجهٍ كانت معذورةً في حزنها بما انها كانت تأسف لانها حُرمت اصلح المرشدين وكذلك لما نزل بالكنيسة من الشر بمنفاهُ الجائر. على انها لم تيأس بل خضعت لارادة الله الذي لا يُهمل ابدًا من اتكل عليهِ واستغاث بهِ من صميم قلبهِ. واما القديس فم الذهب فكان يحرّضها على ان تعد تعاذيبها نجاحًا ثمينة كأيوب ولعازر وكانت تبعث لهُ بما يحتاج اليهِ لنفقتهِ وافتكاك الاسرى ومساعدة فقراء النواحي التي كان قاطنًا فيها

هذا وماتت القديسة أُوليمبيادا نحو سنة عشر واربعمائة

لما كان بالادبوس يكتب محاورتهُ على سيرة فم الذهب. قال بلايبوس آخر في تاريخهِ اللوزياكي المولف سنة عشرين واربعمائة انها ماتت من شدة العذاب واستحقت ثواب المعترفين وحظيت بمجد السماء ما بين اولياء الله. وتعيد لها الكنيسة اليونانية في الخامس والعشرين من تموز واما في السنكسار الروماني فتُذكر في اليوم السابع عشر من كانون الاول

اليوم الثامن عشر

وفيهِ عيد انتظار ولادة والدة الله المباركة

قد تعين هذا اليوم لهذا العيد في المجمع العاشر الملتئم بتوليدو عام اربعة وخمسين وستمائة على عهد القديس أوجانيوس الثالث مطران هذه الكرسي والغرض من ذلك العيد هو تكريم بشارة سيدتنا البتول وسرّ تجسُّد الكلمة المتأنس لان اليوم الخامس والعشرين من اذار الذي فيهِ يحتفل بهذين السرين يأتي عادةً في الصوم او في الفصح

واذ ذاك يكون الناس في احتفال العيد فلا يمكنهم والحالة هذه ان يقوموا بما يجب لهذين العيدين من الاحتفال الكبير كما تكلم على ذلك هذا المجمع في قانون من قوانينهِ وأثبت هذا التقرير القديس ايلدفنس خليفة اوجانيوس وامر ان يُسمى هذا العيد بعيد انتظار ولادة سيدتنا لانهُ كان لا بدَّ ان يكون ثمانية ايام قبل ولادتها. فاشتهر هذا العيد في كل كنائس اسبانيا وسُمي ايضًا سيدة الاستغاثة بما انهُ في هذا النهار عند صلوات الغروب الاولى تبتدي تلك الترانيم المشهورة المعروفة بترانيم الاستغاثة استدعاء للحكمة الابدية لتنزل الى الارض وتفتدي الجنس البشري الذي اهلكتهُ الخطيئة

وفضلاً عن ذلك يمكن ان يقال ان ميلاد الكلمة الالهي هو عيد لجميع الاجيال وهو قديم كخطيئة الانسان الاول لانهُ حالما اخطأ قال الله للحيَّة على سماعهِ: سأضع عداوةً بينكِ وبين المرأة وبين نسلكِ ونسلها فهو يسحق رأسكِ وانتِ ترصدين عقبهُ: واذ خرج هذا الكلام من فم الذي هو الحق والامانة كان اول ضمانة لمصالحتنا مع الله سبحانهُ ولم يكن الاباء والقديسون منذ ذلك الحين الا انتظارًا ورجاء وطلبًا وتنبوءًا بمجيء المخلص الذي يجلب لنا نعمةً كبيرةً. هذا واسفار العهد العتيق ملآنة كلامًا في هذا المعنى ولهذا يُدعى المسيح تارةً مُشتهى جميع القبائل وتارةً مشتهى التلال الابدية. ومن ثم قال المسيح لتلاميذهِ في الفصل العاشر من انجيل القديس لوقا طوبى للعيون التي تنظر ما انتم تنظرون فاني اقول لكم ان كثيرين من الانبياء والملوك ودُّوا ان يروا ما انتم راؤُون ولم يروا. وأثبت لليهود من وجهٍ آخر ان ابرهيم كان يشتاق ان يرى يوم مجيئي ورآهُ بعين الايمان وفرح جدًّا

وعلى هذا الانتظار السعيد والرجاء الشريف بارك يعقوب أبناءهُ وتنبأ قال لا يزول القضيب من سبط يهوذا ولا المدبر من شعبهِ حتى يأتي حقًّا الذي ينبغي ان يُرسل ثم قال كنتُ يارب انتظر خلاصك. ولما اراد الله لهذا الغرض عينهِ ان يبعث بموسى لينقذ الشعب الاسرائيلي ويعطيهم الشريعة قال ذلك المشترع المتواضع ارجوك ربّي ان أرسل مَن انت باعثهُ. وقال داود الملك بمثل هذه الغيرة اظهر قدرتك لتخلصنا وأرنا وجهك ونخلص. كالإيّل الظمآن يشتاق الى ينابيع المياه تشتاق اليك نفسي يا الله. واذ قال سليمان ابنهُ بالحكمة الابدية التي كانت مزمعة ان تعطي ذاتها في هذا السرّ فرض على رعيتهِ هذه الصلاة للآب وصورتها: اتوسل اليك ربّي ان ترسل الحكمة من سماواتك التي فيها أُولئك القديسون وكرسي عظمتك حتى تستقر عليّ وتساعدني. ولما كان طوبيا القديم على فراش المنية هبط اليهِ الوحي فأخذ يوصي ابنهُ وصايا نبويَّة فهتف بحنوٍ عجيب قائلاً لتبارك نفسي الرب لان الرب الهنا انقذ اورشليم مدينتهُ من كل الشدائد. ياليت شعري كم أكون سعيدًا اذا بقي واحدٌ من ذريّتي ليعاين مجد اورشليم

وان الذين ندعوهم بالانبياء لم يبدوا من الغيرة ما هو اقل من ذلك قال النبي اشعيا أرني هذا الخروف الذي سيتسلط على الارض كلها انزلي اينها السماوات نداك من فوق ولتمطر السحاب عدلاً ولتنفتح الارض وتخرج مخلصًا اللهمَّ لماذا لا تشقُّ السماوات وتنزل حالاً ولماذا لاتذوب الجبال امامك. وعلى هذا كان النبي ارميا فقال مِلكٌ سيسود ويكون مملوءًا حكمةً ويجري الحكم والعدل على الارض ويُسمي الرب حاكمنا هو نصيبي وميراثي ولهذا انتظره. وبقية الانبياء هم على مثل هذه الشعائر الانجذابية خصوصًا النبي دانيال الذي استحق لذلك ان يُدعى رجل الرغبة

ومن الظاهر ان امر النبوة بعد سبي بابل كان قد زال من بين اليهود غير ان اهل الخير لم يفتأوا يتلهفون الى المسيح

ويشهد بذلك الفتية المكابيون وأمهم القديسة وسمعان البار الذي كان يتوقع خلاص اسرائيل وحنة النبية التي لازمت الهيكل ليلاً ونهارًا صائمةً مصليةً والقديسان يواكيم وحنة أبوا العذراء المجيدة وزكريا واليصابات والدا يوحنا المعمدان

فاذا كان قديسو العهد العتيق قاطبةً قد هاجت بهم لواعج الغيرة والشوق الى مولد المخلص له المجد فكم بالحري الفتاة التي اصطفاها لتكون له امًّا والتي كانت أعرف الناس باحتياج الجنس البشري اليهِ وبعظمة اقنومهِ الغير المتناهية وبالفوائد المنقطعة النظير التي يؤْتي الارض اياها. الفتاة التي ايمانها ومحبتها يفوقان بلا قياس ايمان ومحبة ابرهيم وموسى وداود واشعيا وارميا وباقي الانبياء والحق ان شوقها الى ميلاد المخلص كان شديدًا جدًّا حتى لا نجد كلامًا يعبّر عن استحقاقهِ. هذا ومن المستحيل ان نعرف اي فرح خالط قلبها وقد رأَت ان امانيَّها وأماني الملائكة والناس كافةً قد تمت وتمت فيها وبها لانها ولدت مُرتجى جميع الامم الذي اعتبرتهُ السماءُ والارض مخلصها

فهذه العظائم هي موضوع عيد هذا اليوم وقد تكلمنا فيها بما هو كافٍ لان يهيج غيرة المسيحيين في هذا العيد ويلزمهم ان يشاركوا الكنيسة في مقاصدها عندما ترنم بمزيد الاجلال ترانيم صلاة المساء وهي بحسب كونها سهامًا نارية واشواقًا متقدة تُرمى نحو السماء لتجلب الحياة والنور الأزلي (جيري)

اليوم التاسع عشر

وفيهِ ترجمة القديسين الشهيدين نيموتاوس وقرينتهِ مورا

لما كان اريانوس حاكم بلاد الصعيد من قِبل ديوكليتسيانوس سنة ستٍ وثمانين ومائتين للمسيح يضطهد المسيحيين بقساوة لا مثيل لها (١) وكان في قرية من الصعيد يقال لها برابي رجلٌ مسيحيٌّ اسمهُ نيموتاوس قارئٌ في الكنيسة ولهُ امرأَة مسيحية كان قد اقترن بها منذ عشرين يومًا فقط وهي حديثة السن ابنة سبع عشرة سنة ذات اخلاق حميدة الا انها كانت لا تزال ضعيفة في العبادة. فلما نزل اريانوس الحاكم الى القرية أرسل وأمسك القديس نيموتاوس ولما حضر أراهُ الآتٍ هائلةً لتعذيبهِ وامرهُ بان يدفع اليهِ الاسفار المقدسة ويجحد والعياذ بالله الايمان المسيحي. فقال الشهيد اني أُعاين ما قد أعددتهُ من الآلات لتعذيبي وأُشاهد ايضًا الملائكة المحدقين بي والمستعدّين لاعانتي اما الكتب المقدسة فلا اسلمك اياها لانها عندي في مقام البنين واني اختار الموت الف مرة قبل ان ارتدّ عن الدين المسيحي. فلما قال هذا تقدم الشُرط لتعذيبهِ فأدخلوا في أُذنيهِ سيخًا محمًى فعمي واذ رأَوهُ قد عمي قالوا لهُ هوذا قد عميت لانك أبيت ان تضحي لآلهة الملكة. اجابهم اي نعم تعمى هذه العيون التي دأبها النظر الى الاباطيل اما نفسي فيضيئها عينا المسيح ثم علّقوهُ برجليهِ على خشبٍ وعلقوا حجرًا ثقيلاً بعنقهِ وتركوهُ هكذا. اما الشهيد فلم يضعف صبرهُ وقال ان الله في السماء سينجيني من هذه البلية ايضًا

فقال الشرط للحاكم ان لهذا المسيحي زوجة شابة اقترن بها حديثًا لعلك تقدر عليهِ بواسطتها فلما سمع ذلك الحاكم ورأى انهُ لا سبيل الى ان ينتصر عليهِ بالعذاب استدعى امرأتهُ وقال متلطفًا لها اني يَشقُّ عليَّ جدًّا ان أراكِ أرملةً وأنتِ في نضارة الشباب وريعان الصبا ارحمي بعلكِ ايضًا وابذلي كل مجهودكِ في ان يعبد آلهتنا والّا فانهُ يموت تحت العذاب الغليظ. فرجعت المرأَة وتحلت بكل ما لها من الجواهر الكريمة ونفائس الحلى وتخلّت باحسن اثوابها وادّهنت بالطيوب والذرائر ودخلت هكذا الى حيث كان القديس زوجها معلقًا على خشبةٍ وشرعت حينئذٍ تخاطبهُ بما يلين القلب بل يذيبهُ لتجتذبهُ الى عبادة الاصنام. الا انهُ تمّ وقتئذٍ ما قال الرسول من ان الرجل المؤمن يقدس امرأتهُ الغير المؤْمنة لان القديس لما رأى امرأتهُ في هذه الحال وسمع كلامها أوعز الى خوري القرية الذي كان حاضرًا أن يبرقع وجههُ بمنديل حتى لا يشعر بالنتانة الخارجة من امرأتهِ التي دابها امالة قلوب البشر الى الهلاك واذ اخذت مورا تشكو من معاملتهِ هذه بعد ايام قليلة لزواجها اذ لم يعرف بعد اخلاقها قالت اني في غاية الحزن لكوني أراك في هذا العذاب مزمعًا ان تتركني أرملة وانا

(١) حاشية . اعلم ان هذا الحاكم المشتهر بقساوتهِ في تراجم الشهداء لم يلبث على ما كان عليهِ من الضلال والفساد لكن اذ كان في سنة سبعٍ وثمانين ومائتين يعذب احد الشهداء المدعو أبلونيوس انجرح بسهمٍ كان امر الجلادين ان يرموا بهِ الشهيد فارتدع عليهِ وانغرس في عينهِ وبعد موت الشهيد نال الشفاء بازاء قبرهِ بوضع شيءٍ من تراب القبر على عينهِ واعترف بيسوع المسيح ومات شهيدًا فيذكر اسمهُ في السنكسار الروماني في اليوم الثامن من اذار (راجع البلانديستيين في شهر اذار مجلد ١ وجه ٧٥٣ و٧٥٤)

شابة غضَّة. فالتفت القديس وقال لها بلطافةٍ ومحبةٍ واحتشام يا مورا من انتِ التي تكلمني هكذا أ أنتِ مسيحيةٌ أم وثنيةٌ ابن ايمانكِ الذي ارتضعتهِ مع اللبن زمن طفوليتكِ لا جرم انهُ قد كان عليكِ ان تشجعيني على احتمال العذاب لاجل السيد المسيح لأفوز بالمجد الابدي فما بالكِ الان تحثّيني على ما يخسرني السعادة الابدية ويزّجني في أتون النار السرمدية. ما هذه المحبة التي بها تريدين ان تهلكيني الى الابد انكِ قرينتي ومسيحية مثلي فكوني امينة معي لكي تشركيني في التتوج بتاج المجد الابدي ولا يفارق بعضنا بعضاً

فانتبهت مورا لخطيئتها وجثت على الارض باكيةً تستغفر المسيح ثم قالت لزوجها جزاك الله خيرًا على توبيخك اياي وتنبيهي لضلالي فمرني الان بما تريد ان افعلهُ لإصلاح خطاءي والتكفير عن اثمي. فقال تيموثاوس اذهبي وقولي للحاكم قد طلبتَ مني ان احثَّ زوجي على رفض الايمان المسيحي وان اجذبهُ الى عبادة آلهتك. حاشا لي ان افعل هذا بل اني لمستعدة لان اكابد معهُ اشدَّ العذاب بل الموت ايضاً لاجل الانجيل المقدس. فقالت مورا وهي مضطربة اني اخاف من ان لا تكون لي قوة لاحتمال شدة العذاب بسبب صغر سني وضعف الطبيعة. قال لها الشهيد لاتخافي لان سيدنا يسوع المسيح يقوّيكِ ويظفركِ وشرع يصلّي واياها الى السيد المسيح ليؤتيهما القوة فينتصرا على عدوّ خلاصهما

فذهبت مورا وكلّمت الحاكم بما اوصاها بهِ زوجها. وحالاً امر الاعوان ان يُقصَّ شعر رأسها ونقطع أصابعها فشكرت لله على هذا كلهِ قائلة انهُ تعالى قد قبل شعرها واصابعها وفاء عن الخطيئة التي ارتكبتها بتزيين رأسها لتجذب زوجها الى الكفر بالايمان وانها مستعدة لاكثر من ذلك. ثم زجُّوها في خِلقين مملوءٍ زفتاً مُغلىً الاَّ ان الله تعالى صير هذا العذاب حاماً لها فاخرجوها وقتئذٍ من الخِلقين وشرعوا يحرقونها بزفت وكبريت وكانت الشهيدة تستهزئ بالعذاب قائلة للحاكم اني اشكر فضلك لاعدادك لي حمام زيت لتغسيل نفسي وجسدي من جميع الادران التي تلطخت بها في ما مضى الاَّ ان الحمام كان باردًا اما نار زفتك وكبريتك فكنسيم مفرّج فعليك بالطلب من ابي النجار حطباً كثيرًا فتوقد بهِ أتونًا ترميني فيهِ فترى اني احتمل نارهُ ايضاً لاني عبدة مَن لا يتركني لكونهِ دعاني للمبارزة بوساطة زوجي. فأمر اريانوس بان تُصلب مع زوجها وجُعل صليبها تجاه صليبهِ لكي ينظرا بعضهما بعضاً فيشتدّ حزنهما وعذابهما

وفيما كانت ماضية استقبلتها امها في الطريق واعتنقتها بصراخٍ هائل. اما مورا فلم تظهر حزنًا بل فرّت من بين يدي والدتها وجدّت مُسرعةً الى حيث كان صليبها فلما صُلبت مع زوجها رأت منبرين مجيدين احدهما اعلى من الآخر ثم قيل لها ان المنبر الواحد هو الذي اعدّهُ الله في ملكوت السماء لها ولكن زوجها يجلس على المنبر الاعلى لانهُ بصلواتهِ ونصائحهِ ومثال شجاعتهِ غدا لها سبباً لان تربح اكليل الاستشهاد وكانت وفاتهما في اليوم التاسع عشر من كانون الاول (١) في السنة السادسة والثمانين بعد المائتين للمسيح ويُعيد لاستشهادهما في اليوم الثالث من ايار

اليوم العشرون

وفيهِ ترجمة الطوباوي كانيسيوس اليسوعي

ان السيد المسيح الذي تنبأ ان ابواب الجحيم لن تقوى على كنيستهِ لم يسمح بان قوماً أشرارًا يقومون عليها كي يزعزعوها ويبلبلوها الاَّ اختار على الفور جماعةً من الصالحين عليهم سلاح الفضائل ليقهروا الذين اقتحموا بيعتهُ بالاعتداء والافتراء. لعمري لقد ظهرت هذه العناية الالهية اتمَّ الظهور في ايام لوثاروس الشقية حين اتصل هذا الرجل المنافق المتشامخ الى ان يرفع راية العصيان وطفق ينثر اضاليل غير محصاة فاخذ بذلك في افساد الايمان الصحيح اهلاكاً للانفس. لاجرم انهُ كان عن عناية الله انهُ في هذه السنة عينها التي فيها اغناطيوس دي لويولا منشئ الرهبانية اليسوعية كان يحامي عن قلعة مدينة بمبلونا المحاصرة من العساكر الفرنسوية وسقط مجروحاً جرحاً خلاصياً قد اشرق نورٌ على عبد الله المكرَّم الابا بطرس كانيسيوس الذي كان عتيدًا ان يحارب يوماً بشجاعةٍ وبسالةٍ في معسكر الكنيسة تحت لواء اغناطيوس مجاهدًا في سبيل الله قمعاً للنيف هؤلاء الاعداء المحدَثين

فهذا الرجل الفاضل وُلد من اصل شريف بمدينة نيمينغا

(١) حاشية. كتب المؤلف نقلاً عن كروزيت الاَّ انهُ في الترجمة الماخوذة من الاصل اليوناني التي ادرجها البلانديستيون في اليوم الثالث من شهر ايار لا يُذكر يوم استشهادهما

من مملكة بجيكاسنة احدى وعشرين وخمسمائة والف واندهل الناس مما رأوا فيهِ منذ طفوليتهِ من سلامة الضمير والطبع المحب الحشمة الملائكية واللب الثاقب والفؤاد الذكي الميال طبعًا الى عظائم الامور

فأرسل الى كلية كولونيا ودرس على اساتيذها البيان والفقه واللاهوت فما ابطأ ان اشتهر فيها واستمال اليهِ انظار الجميع بما كان فيهِ من الاهلية التي ظهر انهم عدُّوها اعجوبة. واعلم ان الدرس لم يمسّ رياضاتهِ التقوية من حيث كان كثيرًا ما ينقي قلبهُ بماء سرّ التوبة ويقضي كل يوم وقتًا معينًا في الصلاة وقراءة الكتب الروحية خاصةً في تراجم اولياء الله بما انهُ كان يقول الامثلة هي قوّةٌ تدعو الى الفضيلة . ومن الغريب العجيب انهُ اذ علا الى فلك المعارف اللاهوتية تعمق اكثر في علم تواضع الصليب . فمن اقوالهِ ان مَن جهل كل شيء لكن عرف المسيح اتمّ المعرفة واما الباقي فهو بأجمعهِ غشٌ وباطل فهذه كانت طريقتهُ وقد اتخذها دستورًا في درس العلوم

ولما دعاهُ الله الى طريقة الزهد دخل في الرهبانية اليسوعية ولم يعقهُ شيء عن تحصيل مأربهِ لا امل الغنى ولا فوائد الزواج ببنت فاضلة قُدمت لهُ. واكتسب من رياضات القديس اغناطيوس العاطفة التي تولد الرسولية فدخل رهبانيتهُ وما كان اسرع تقدُّمهُ في طريق الكمال فانهُ ما انتهت مدة ابتدائهِ بكولونيا تحت ارشاد الاب الطوباوي فابر حتى حُكم بانهُ اهل لدرجة الكهنوت ودُعي لان يخلف الاب المذكور في منصب الرئاسة. ولما ارتقى الى مرتبة الكهنوت انقد فؤادهُ شوقًا الى النضال عن كنيسة الله ومن ثم فلم يدّخر شيئًا من العناء في سبيل خدمة الكنيسة على كل جهةٍ

ورأى حينئذٍ ان قد اقتدر على اصلاح الخرائب الكثيرة التي احدثتها البدعة وتدارك كل ما تفتقر اليهِ النفوس . ومما لا شك فيهِ ان الله امدّ القديس اغناطيوس لويولا بمساعدين اهلٍ لان يعاونوهُ ولاجرم ان الناس كانوا يتعجبون من سعة علم لاينس وسلمرون وطول باعها وما لفابر من موهبة ردّ الخطاة الى الله ومن خبرة لوجي في رعاية النفوس العجيبة وما لغيرهم من الاقتدار على توفيق الاهواء وادارة الاعمال لكن جميع هذه المنح الربانية المتفرقة بين كثيرين قد اجتمعت في كانيسيوس وبعبارة أُخرى فقد كان يعادل كل اخوتهِ فلذا كلما نُقرأُ قصة اعمالهِ ونجاحهِ كلٌّ يسأل نفسهُ بالتعجب أنّى لرجلٍ واحد ان يعمل ما لا يُستطاع الاَّ في اجيال

لاجرم انهُ يشقّ عدُّ المراتب التي تقلّب فيها والرسائل المهمة التي باشرها والاسفار الرسولية التي عاناها والآفاق التي بشرها بالانجيل والمدن والاقاليم التي وقاها من آكلة البدعة او التي ارجع اليها الدين الحقّ . فكان يتقلد مناصب مختلفة امامًا مناوبةً او في آنٍ واحد. كان معلمًا فاعاد العلوم اللاهوتية الى سالف شرفها ورقَّاها الى المرتبة العليا ومنشئًا فكشف بتآليف واضحة قضايا الدين وانتصف لها من كلّ من فنّدوها وخطيبًا مِصقعًا حرك بمواعظهِ وخطبهِ الشعوب كافةً واستاقهم الى القيام بفروض الدين وجدليًا فأفحم المبتدعين وأخجلهم بقوّة براهينهِ التي لا تُرد ولم يترك لهم الا القذف والغضب. وكان لا يزال متأهبًا كمقاتل باسل يقتحم ما كان من معارك الهيجاء من دون محاذرة ولا مبالاة . وتأتى لهُ ان يكون كلاًّ للكل لانهُ تارةً كان واعظ الملوك وأُخرى معلم الصغار التعليم المسيحي وقد انابهُ الملوك في جمعيات ذلك العصر المقلق واستمال الامراء الى ان يعاضدوا الكنيسة وينتصروا لها وانتخبهُ الاحبار الاعظمون نائبًا رسوليًا ووجهوا اليهِ عدة نيابات واقيم رئيسًا على اخوتهِ بالمانيا وانشأ سبع مدارس وثلثة اقاليم (رهبانية) وتعرَّض لجميع المهامّ الرهبانية في عصرهِ فكان بتعليمهِ وصلاحهِ وحكمتهِ كفوءًا لمقاومة البدعة البروتسطانتية الهائجة وردّ غاراتها

واختارهُ الله ليقاوم جميع مبتدعي بلاد الشمال كأنهُ قال لهُ كما قال قبلاً لنبيهِ ها اني اضع كلامي بين شفتيك واجعلك على الشعوب والممالك لكي تقلع وتهدم وتغرس وتبني فلاتخف من الاعداء لاني اكون نصيرك وقوتك

واما كانيسيوس فلم يقتصر في اعباء وظيفتهِ ولو كانت ثقيلة وشاقة لان جرأتهُ كانت فوق ما يعترض بينهُ وبينها من المشاكل والمتاعب . وجال في اماكن كثيرة جولان رسولٍ وبارك الله على مفاعيل غيرتهِ فحيثما مرَّ كان يقلع من العقول الضلال ويثبت الكاثوليكيين في الايمان ويهدي كثيرين الى الحق المبين ويهذّب ويعزي وينشر بتقواهُ الحسنة طيب عرف يسوع المسيح واذ جاء بهذه الاثمار الخلاصية بشّر بالانجيل اهل وستفاليا وبافاريا وسكسونيا وبوهيميا والنمسا وفرنكونيا

وسوايبا ومورافيا وتيرول والسويس وبلاد االلاه جميع اقاليم المانيا من مصابّ نهر الرين الى مخرجه بجبال ألب وضفتي الدانوب وشواطئ نهري فيستول ومايين . فهذا بيان مختصر اعمالهِ التي لا نكاد نُصدِّق في مدة اربع وخمسين سنة

لاجرم ان تخوم هذا البيان الموجز لا تأذن لنا ان نتعرض لتفصيل كثيرٍ من اعمالهِ المذهلة ولهذا نكتفي ان نأخذ من سيرتهِ الكاملة بعض قضايا فهي برهان على سامي برّهِ وثقة الناس بهِ فنذكر اولاً وفاة ابيهِ وما حدث وقتئذٍ فنقول . انهُ لما كان كانيسيوس في مدينة لوفانيا يذوق فيها في صحبة اخوتهِ الرهبان كما قال النبي ما احسنٍ وما اجمل ان يسكن الاخوة جميعًا (مزمور ١٣٢ : ١) اذا بأبيهِ قد اصابهُ في تلك الفترة داء عضال فبلغ غاية الضعف وخاف من غائلة المرض وبلغ ابنهُ بعض رسائل مظهرًا لهُ اشتياقهُ الى مشاهدتهِ قبل ان يتوفاهُ الرب المسيح الى رحمتهِ فما استصعب كانيسيوس لما قد خصّهُ الله بهِ من الشفق بابيهِ ولم يُرد ان يُنكر عليهِ مثل هذه التسلية وتوجه الى نيمنغا . قال الاطباء ان المرضى تعالجهم غالبًا شدة الفرح اذا فاجأهم لكن وقع الامر بعكس ذلك في ابي كانيسيوس فانهُ اذ سمع بقدوم ابنهِ الذي كان يحبهُ محبةً بليغة اهتزّ طربًا وطار عقلهُ من شدة السرور وعند دخول بطرس في حجرتهِ مات من وقتهِ حتى ان ابنهُ ما قبّل الاَّ جثةً . فشق على الطوباوي كانيسيوس امر موت والدهِ واغتمّ غمًّا شديدًا وافزعهُ هجوم المنية عليهِ بغتةً والتبس عليهِ امر خلاص نفس ابيهِ مع انهُ كان تقيًّا مشهودًا لهُ بالاستقامة والصلاح بل صفوة العباد في عصرهِ ففي تلك الحال المحزنة علم ان الله التواب الرحيم يقدر وحدهُ على ان يعزّيه ويكشف اغتمامهُ . وبينما كان في خلوتهِ مغلقًا عليهِ بابها ما زال بعد ان جنّ الليل الى ان لاح الصباح مصليًا متأسفًا متنهدًا والدموع سائلة من عينيهِ وكان يمرغ وجههُ في التراب ويهتف قائلاً يا رب لا تنزلن غضبك الهائل على والدي ايها الاله الرؤوف ارحم ابي وسلّني واستجب لي في الصلوات التي تأمرني باقامتها لاجل راحة نفس والدي . فسقاهُ الله من ماء نعيمهِ وكرمهِ وأُوحي اليهِ في هذه الليلة عينها ان اباهُ وامهُ ايضًا قد تخلصا من العذاب الخالد فسرّ الطوباوي بطرس وشكر الله وحمدهُ على النعمة التي انعم بها على أبويهِ وازداد غيرةً واجتهادًا في خدمتهِ تعالى

ثم وزَّع كل الاموال التي ورثها من ابيهِ على الفقراء طاعةً لسيدنا يسوع المسيح القائل ان اردت ان تكون كاملاً فاذهب بع املاكك واعطِ الفقراء فيكون لك كنزٌ في السماء (متى ١٩ : ٢١) ففي الحال استحوز الحرَد على اقارب كانيسيوس واستشاطوا غضبًا وغيظًا من ذلك الامر لان املاك ابي كانيسيوس كانت كثيرةً . اما الطوباوي بطرس فما اخافتهُ سهام اللوم وما ذُعِرَ من سخط اهلهِ ولا من شدة بطشهم بل نظير بطلٍ غشمشمٍ صمم عزمهُ على صرف مال ابيهِ في سبيل الخير دون ان يبقي شيئًا لآلهِ او لذاتهِ

وكانت اختٌ للطوباوي كانيسيوس تعجبت من فقر اخيها وقدمت لهُ مبلغًا كبيرًا سنويًّا والحّت عليهِ في ان يقبلهُ لكنهُ رفض قائلاً ان الله حسبي ونعم الوكيل . ثم عاد الى مدينة كولونيا . وبينما كان في الطريق اذ بثلثة شبان رافقوهُ فحادثهم في وجوب خدمة الله تعالى وزوال العالم واباطيلهِ حتى ترهبوا جميعًا عند وصولهم الى كولونيا

ولما كان لا يكاد يكون ابن ستٍ وعشرين سنةً كان لهُ عند سكان كولونيا كبير اعتبار من جهة كفاية وفضيلتهِ ففوّضوا اليهِ امرًا مهمًّا . لما غشّ المبتدعون رئيس اساقفتهم فاعترف علانيةً بالتعاليم المحدثة كان يخشى من ان خيانة الراعي لا تلبث ان تجرّ تبدُّد القطيع كلهِ ووجّه الاكليروس وأركان المدرسة الكلية في هذا الخطر المبين الحاظهم الى كانيسيوس اذ كان اقدر على ان يزيل هذا الخطر الكبير عن قطيع الرب . وبرضًا عمومي ارسلوهُ الى رئيس اساقفة لياج والى الملك كرلوس الخامس ليرجوهما مساعدة كاثوليكيي كولونيا . اما كانيسيوس فحقّق أملهم وجاءت سفارتهُ بما يُرام من النجاح وعما قليلٍ حرم الحبر الاعظم هرمان رئيس الاساقفة الدخيل وعزلهُ عن كرسيهِ واستبدلهُ براعٍ حسب قلب الرب

واخذ صيت هذا الراهب الشاب يطير في الافاق وتتسامع بهِ الأقطار فدعاهُ جملةٌ من الأساقفة ليعاونهم في رعاية خرافهم ولكن اسقف أُكسبورج الكردينال استخدمهُ اكثر من غيرهِ فلما راى كانيسيوس لديهِ عرف ما هو عليهِ من علو المعرفة والغيرة الرسولية والحِذق في المناظرة والجدال والخبرة بحالة المانيا فدعاهُ الى ترنتو سنة سبع واربعين وخمسمائة وألف ليحضر المجمع بمنزلة لاهوتيٍّ لهُ مع انهُ لم يكن وقتئذٍ الاَّ ابن ستٍ وعشرين سنة فرأى ان لا بدَّ لهُ

ان يجالس آباء هذا المجمع المشهور ويشترك في ما يقع هناك من المناظرات

واذ امر الحبر الاعظم بتأخير المجمع الى سنة خمسين وخمسمائة وألف اغتنم القديس اغناطيوس الفرصة واستدعى كانيسيوس الى رومية . ولاجرم ان هذا الاستدعاء قد عجل تحقيق آمالهِ فانهُ كان منذ امدٍ مديدٍ قد وجَّه ناظريهِ الى مركز الديانة الكاثوليكية ليفي ما نذرهُ من زيارة قبر الرسولين وينعم بمخاطبة منشيء الرهبانية القديس الذي لم يكن قد رآهُ قط غير انهُ لبث الى ان زال الصيف وذهب بحرّهِ فاقام ثلاثة اشهر بمدينة فيرَنسا مع الاب لاينس وكانا كلاهما في المستشفى وباشرا خدمة الكهنوت ولم يبلغا رومية الأ في شهر ايلول . هذا ومع ان القديس اغناطيوس كان عارفًا بفضيلة هذا الراهب الشاب عاملهُ معاملة جميع الذين يزورون رومية من رهبانيتهِ أول مرَّة وبعد ان استقبلهُ كما يستقبل الاب ابنهُ وضعهُ ما بين المبتدئين وجعلهُ على احقر الوظائف الخدمية . فطاب نفسًا وارتاح بالاًبما انهُ كان يريد ان يقطع كل ايامهِ ملتذًّا بحلاوة التأمل . غير ان هذا لم يكن مقصد اغناطيوس ولما اكتفى بهذا الامتحان الذي كشف عن فضيلة عزيزة المثال أدناهُ اليهِ ليعلّمهُ ويشركهُ في روح الغيرة الذي كان مستغرقًا قلبهُ فيهِ

هذا وان كانيسيوس مع كل ما سمعهُ من المدح في اغناطيوس من الاباء فابر ولاينس وسلميرون رآهُ حينئذٍ فوق ما وصفوهُ واعلى مما مدحوهُ فكان يراهُ ويسمع كلامهُ ولا يشبع من مخاطبتهِ ورؤيتهِ . فاشعر في مدرسة هذا المعلم ان غيرة جديدة قد هاجتهُ لان يجري على غاية قانون الرهبانية الشريف وكان يكفيهِ في كل حياتهِ لان يزداد غيرةً ان يتذكر هذا المنشي القديس واقوالهُ

ولما تبرك بزيارة الآثار الدينية الوافرة العدد التي في رومية وذخائر الاولياء الشهداء هاجهُ شوقٌ جديدٌ وجعل يترقّب الفرص ليعترف بالايمان ويهريق دمهُ اذا مست الحاجة توسيعًا لملكوت الله ومناضلةً عن الكنيسة المقدسة

وما ابطأ ان وجد فرصةً لاماتة ذاتهِ لان نائب ملك صقلية الدون يوحنا دي فيغا طلب اناسًا من الآباء اليسوعيين لينشئوا مدرسةً بمسينا حتى ترتب على اغناطيوس ان يبعث بجماعةٍ من رهبانهِ . فجمع كل من في الدير الكبير من الرهبان واخبرهم بطلب نائب الملك الموما اليهِ وضرورة انتخاب عشرة رهبان لهذه الرسالة . ثم عرض عليهم اربعة شروط واوجب عليهم ان يمتحنوا بها انفسهم امام الله ثلثة ايام ثم يجاوبوهُ كتابةً . ففعلوا وجاءت اجوبتهم متفقةً في نفس الامر اي انها دلّت كلها على تسليم انفسهم تمامًا الى الرؤساء وان ينفذوا مقاصدهم في كل ما يستحسنون اجراءهُ

وكان في جملة المنتخبين العشرة لانشاء مدرسة مسينا بطرس كانيسيوس وقبل سفرهم مثلوا اتمامًا لارادة اغناطيوس بين يدي البابا بولس الثالث . فقام كانيسيوس بالنيابة عن الجميع وخطب خطبةً باللغة اللاتينية فشكرهم الحبر الاعظم في جوابهِ عليها وجرَّأهم وسأل الله ان يطوّقهم باكبر مِننهِ ومنحهم اكثر البركات الرسولية

ولما كان ثامن عشر اذار قدّس الكهنة سحرًا وتناول الاخوة ثم ذهبوا جميعهم ليطلبوا بركة ابيهم المحبوب فقبّلهم اغناطيوس مع كونهِ في فراش المرض قبلة الوداع

ولما كان لهم خمسة ايام في الطريق وصلوا الى نابولي واقاموا بها اسبوعًا واصابهم في البحر زوبعةٌ شديدةٌ فخرجوا من المركب وأووا الى باولا واخيرًا في ثامن نيسان عاودوا السفر بحرًا الى مسينا . فاكرم نائب الملك استقبالهم وانزلهم بالقصر الملكي أيامًا . وفيما كان يترقب انتهاء بناء المدرسة جعل الرهبان يدرّسون على جانب الابرشية فكان كانيسيوس يعلّم البيان فلم يزل الاّ قليل حتى اجتمع عندهم جمٌّ غفير من التلاميذ فاقتضت الحال تقسيم بعض المدارس . اما كانيسيوس فاذ كان مقيدًا بوظيفة التدريس اكمل تقييد كتب في مزيد الاتضاع الذي يجهل المرء بنفسهِ ما معناهُ : حيث كنت غير اهلٍ للخدمة الروحية جُعِلت على التدريس وما لي بهِ لذة ولكن الطاعة هي التي جعلت لي فيهِ فكاهةً وحاصل الكلام اني أُعلّم البيان ولي اليهِ مَيلٌ قليلٌ ولكني ابذل مجهودي في تعليم هؤلاء الفتيان وتخريجهم في الادب وانا حاضرٌ لان اعمل بنعمة الله كل ما أُومر بهِ على سبيل الطاعة

وكان فوق الاشتغال بالتدريس يُعنى بأنفس تلامذتهِ واذ اخذ يحسن التكلم باللغة الايطاليانية بدأ يشرح التعليم المسيحي للصغار ثم يعظ في الكنائس ويصعد الى منبر كنيسة المدرسة كل يوم احد ويعظ . ولاريب ان زيادة اتعابهِ هذه قد جهدتهُ واستفرغت قوّتهُ ولكنهُ على ضعفهِ ومرضهِ لم يترك

الوعظ وقد اهتدى كثيرٌ من الناس على يدهِ وكان ذلك جزاء غيرتهِ وقد انقذ بتحريضاتهِ وترغيباتهِ من غرور الدنيا جماعةً كثيرين من الكرام الذين عكفوا على خدمة الله ففي اشهر قليلة طلب عشرةٌ من الشبان ان يدخلوا في الرهبانية ولما كثر عديدهم مسّت الحاجة الى اقامة دير ابتداء

ولم يكن انصرم عليهِ سنتان حين استدعاهُ اغناطيوس الى رومية وارسل حينئذٍ تسليةً لاهل مسينا ذخيرتين كبيرتين وهما رأسا بتولين شهيدتين رفيقتي القديسة أرسولا وكان قد اتى بهما كانيسيوس من كولونيا الى رومية ولم يزل ذكرهُ حلوًا عزيزًا عند الصقالبة . هذا وما بلغ رومية حتى وُعد بالنذور الاحتفالية الاربعة في رابع ايلول سنة تسع واربعين من القرن السادس عشر

وبعد ابرازهِ النذور الاحتفالية الاربعة دعاهُ الى بافيرا الدوك غيليوم وجعلهُ رئيسًا على كلية إينغُلستاد وكان التقهقر يومئذٍ قد ذهب بنضارتها القديمة فصرف الاب كانيسيوس جهدهُ الى انعاش الدروس وابعاد كتب البدَع والأضاليل وصيانة التعليم وجدَّ في اعادة التقوى بين الطلبة الى قديم زهوها . ومن ثمَّ فعن برهةٍ يسيرةٍ سرى الاصلاح في تلك المدرسة الكلية فحصل لها النجاح والنمو وفي تواريخها السنوية ما يحمل على التعجب من الرجل المنقطع النظير الذي عُني بتدبير امورها . قال المؤرخ فلله درُّهُ من رجل الهي وماهرٍ فائقٍ وفيلسوفٍ سامٍ ولاهوتيٍّ متبحّرٍ وخطيب مصقع وكاهن ممتزج بالرزانة والحلم والحكمة واذ عاونهُ رفقاؤهُ أعاد الشرف والفضل الى مجلسنا العلمي الذي كان قد زال مجدهُ بخروج جماعةٍ من اعضائهِ . اه . وقد عمل هذا الطوباوي مثل ذلك بمدينة وينّا وبراغا وترناف ومُونكو وديلنغ

غير ان رجل الله هذا لم يقصر غيرتهُ على اصلاح التربية العامَّة بل كان يشتغل بدون تراخٍ كل يومٍ مع اتعابهِ الاصلاحية بان يهذّب الايمان والاخلاق في المدن والدساكر واعمالهُ في هذا الباب كثيرة العدد وقد امتدَّت الى كثير من الاقاليم حتى يتعذَّر علينا ان نذكر لها قصةً كاملة . وغاية ما نستطيعهُ من هذه الحيثيَّة ان نتتبَّعها بالاختصار فنقول

انهُ سكن بمدينة وينّا من عام اثنين وخمسين الى عام اربعة وخمسين بعد الجيل الخامس عشر وكان لا بد لهُ من كلام رسول نفّاذ لاصلاح ما أورثت البدعة من الشرّ والفساد في تلك المدينة الكبيرة وبذل كانيسيوس في ذلك غاية ما في وسعهِ من الاسعاف فقد تواترت معجزاتهُ وتبع كلاًّ منها اهتداء جمٍّ غفير وكان يتصدَّى لمجادلة علماء المبتدعين ولما انتصر عليهم احتدموا غيظًا عليهِ واحتالوا على قتلهِ ولكن رجل الله داوم ما هو فيهِ من الاصلاح بلا خوفٍ من وعيدهم ولا من قصدهم قتلهُ . وجُعل مدير المدرسة الكلية فطهَّر العلوم من نجاسة الضلال وذلك بان حصَّل امرًا ملكيًا مضمونهُ ان كل من يطلب وظيفةً في تلك المدرسة الكلية او ان يكون استاذًا ينبغي ان يدخل تحت الامتحان المدقّق ويقدّم البراهين الصحيحة على استقامة معتقدهِ والنهي عن بيع كتب المبتدعين وعن قراءتها ولما رأى جملة صناديق مملوءةً بهذه الكتب البدعية أمر بحرقها علانيةً. ولم يكن ذلك كافيًا فأوجب عليهِ الابتداء بالاصلاح بتربية الشبان لان الطلبة المتواردين الى مدينة وينّا تاركين انفسهم لأهوائهم خرجوا عن استقامة النظام واصبحوا قومًا فسّاقًا فظنَّ انهُ يستطيع ان يتخذ معاونةً جديدةً على تلافي ذلك . فاستشار اغناطيوس الذي استصوب مرامًا كان على شدة الموافقة لآرائهِ فكان يقول من البيّن الذي لا ريب فيهِ انهُ فوق امكاننا ان نحفظ الاحداث في الايمان والتقوى بمساعدة التعليم وحدهُ لان فسادًا عظيمًا فشا واستولى على الاجتماع الانساني فان الذين يزورونهم متواترًا من أهلهم واحبائهم ورفقائهم لم يعودوا يقدمون لهم ما يضمن لنا بلوغ هذا المرام . فاهتمَّ ان ينشئ مدرسةً داخليةً فوفّقهُ الله الى ذلك ثم انتخب خمسين فتىً من أهل الشرف واليسار قادرين ان يقوموا بنفقة المعاش فخصَّ بهم جانبًا من المدرسة وجعل عليهم رئيسًا فنبهًا لهم والحالة هذه ان يكونوا دائمًا في جوّ العلم والتورُّع وان يتأملوا في حقائق النصرانية . هذا ولا حاجة الى القول ان الملك التقي فردينندُس قد اعانهُ على هذه المبرَّة بما بذلهُ لهُ من المال حسب مألوف عادتهِ

وهكذا كان ابتداء مدرسة الشرفاء التي جمعت فيها بعد نخبة اشراف النمسا وهنغاريا وبوهيميا وبولونيا وكان ما بين صفوف تلامذتها الشاب استانِسلاوس كُستكا . وكان القديس اغناطيوس منذ العام الماضي قد انشأ برومية المدرسة الجرمانية وهي من أعظم أعمال غيرتهِ وهذه المدرسة الكبيرة الفائدة للديانة والمحبة الكرسي الرسولي قد أخرجت منذ اكثر من ثلاثة اجيال

في الجهات الشمالية فعلة أشدّاء أثبتوا الايمان وهذّبوا الاخلاق ووسعوا مملكة يسوع المسيح باتعابهم واعراقهم ودمائهم . ويا لهُ من مشروع انجذبت اليهِ جميع اميال هذا الطوباوي وأعان رئيسهُ العام على اتمام بغيتهِ بأن بعث اليهِ بفتيان منتخبين معدّين للمدرسة الجرمانية

واعلم ان هذه الاعمال الظاهرة ظهور الشمس والكبيرة الفائدة للكنيسة جلبت على صانعها غضب الحزب البروتسطانتي ولم تزل مواعظ اليسوعي تحمل ضرباتٍ مميتةً الى هذا الحزب فازداد ازدراء الناس بهم يومًا فيومًا . ولما لم يسع اثنين من المحامين عن الاصلاح الكاذب احتمال ما جرَّ عليهم من الخجل نجاحُ الديانة الكاثوليكية اقتحما طالب خصمهما لميدان المناظرة فارتضى كانيسيوس ووقع الاتفاق على ان يكون الجدال بحضرة جمٍّ غفير . اما المحاميان عن الضلال فتكلما معاقبةً بكل ما ارادا حتى اذا اصابت النوبة العلّامة الكاثوليكي أخذ مع اطمئنان لبّهِ الثاقب براهينهما وجعل يفنّدها برهانًا فبرهانًا ويبيّن وهنها وضعفها وفروغها من المعنى حتى افحم خصميهِ عن ردّ الجواب والجأهما الى ان يقرّا على انفسهما بالانغلاب . فعوّل احدهما سترًا لعار الانكسار ان يفارق المدينة غير ان الآخر فتح عينيهِ الى ضياء الحق وبالنتيجة ان شيخ الضلال تحوّل تلميذًا ليسوع المسيح وبعد اقل من شهر أعطى الدلائل الاكيدة على ثباتهِ ودخل في الرهبانية وعاش فيها ومات قديسًا . ولاجرم ان هذا النموذج الصالح قد مسَّ قلوب كثير من اهل البدع الذين اهتدوا الى الصراط المستقيم لكن الاكثر استمرّوا في عنادهم ولما أيسوا من ان يغلبوا كانيسيوس بالفصاحة والعلم جعلوا يطعنون في صيتهِ ويشنّعون عليهِ

ولم يحصر غيرتهُ في ضمن المدينة بل صحب كثيرًا من اخوتهِ وجال كرسولٍ ثلاثمائة قرية يكاد سكانها لا يُعرَفون انهم مسيحيون لكثرة ما احدثت البدعة من المضارّ فيما بينهم غير انهُ برغم العناء والمشقة وفّق بينهم وبين الكنيسة وارجعهم الى ممارسة الفروض التي اوجبتها عليهم . وبعد تطويبهِ طلبت مملكة النمسا الى الكرسي الرسولي ان تُعيد لهُ على الدوام في جميع كنائس ابرشية ويننّا فأذن لها

ولما كانت سنة ست وخمسين وخمسمائة وألف عقد ملك الرومانيين مؤتمرًا بمدينة راتيسبونا املاً في الاتحاد على الاتراك الذين كانوا قد استعدّوا ليغيروا على هنكاريا ويغزوها . واما اهل البدعة فاغتنموا الفرصة فانكروا عليهِ كل نجدة من مال ورجالٍ ما لم يأذن في مجادلة جهاريةٍ تقوم بين الكاثوليكيين والبروتسطانت ليتصلوا بها الى التوفيق بين المذهبين وكانت هذه مكيدةً مألوفة عندهم لكي يكتسبوا وقتًا ويخضعوا لحكم العوام قضايا الايمان . فجعل الملك فرديناندس امر طلبهم تحت رأي اثنين من الاساقفة وخمسة من اللاهوتيين في مقدّمتهم كانيسيوس . فهذا الطوباوي طرح جانبًا كل احترامٍ بشري وحيث لم يقصد الا المحاماة عن حقوق الحبر الاعظم وسلطة الكنيسة فما ابطأ ان طعن في طلب المبتدعين وابان صريحًا ان هذا ليس هو الطريق المفضي الى المصالحة . وقال لا بد في المحاورات الدينية من اعتمادٍ على احكام الكنيسة التي خصّها الله بان تبتّ احكام الدين وتقطع بقضاياهُ بدون معارضة ومن لا يسمع لها ولا يخضع لاوامرها واحكامها يجب ان يعتبر حسب قول السيد المسيح كوثني وعشار . هذا وقد اعلمتني التجربة وانبأتني الايام ان المجادلة قليلة الفائدة فضلاً عن انها مضرّة بالايمان فيُضاع فيها كثير من الزمان وتتكدر الخواطر وتزيدهم المشاجرة واختلاف الآراء تباعدًا وافتراقًا . كيف لا والارطقة اخصّ اوصافهم العناد والمكابرة والعجرفة ارادتهم ان يغلبوا في الجدال واذ عجزوا عن ذلك بالبرهان اجتهدوا ان يتوصّلوا اليهِ بالشتائم فيرمون بالفسق ويصيحون بالفتنة والثورة . وزد على ذلك انهُ مهما كان عاقبة الجدال فيدعون انتصارهم وينادون بهِ ويفرغون على الايمان المستقيم كل صنف من اصناف الجلبة والمشاغبة ولا سيما ما يشكك المؤمنين وبالنتيجة فالذي أراهُ ان عظمتك لا تستطيع ان تأذن في هذه الاجتماعات الا عن اذن الحبر الاعظم ورضاهُ

فهذا مقال كانيسيوس غير انهُ لم يكتفِ بالكلام بل كتب في هذا المعنى واستمال الى رأيهِ اكثرية الاساقفة لكن الرأي المخالف تقوى عليهِ وارتضى الملك والامراء المسيحيون ان يتخذوا هذه الواسطة سبيلاً الى الصلح في مثل هذه الاحوال ولم يفهموا تعليم الايمان السامي الذي خاطبهم بهِ الطوباوي قائلاً لا سبيل الى ان تُرجى المصالحة من الذين انقسموا على انفسهم في حقائق الايمان وكان الاجدر بنا الآن نستمطر بركات الله لجنود المسيحيين ان نأمر باحترام سلطة الكنيسة واذا كان ذلك فعلينا ان لا نسلم لخصمائنا في امر من الامور بل ان

تتكل على الله . ولكن هذه البراهين لم تقع عندهم موقع القبول فان الامراء وقّعوا على قرار المؤتمر الذي اذن في مناظرةٍ بين الكاثوليك والبروتسطانت بمدينة ورمس وعيّن كانيسيوس ليكون في عداد اللاهوتيين . واذ علم ذلك اعلم جليًّا انهُ لا يرضى بهِ ما لم يُكرَه عليهِ من قِبَل الرؤساء وترجّى كردينال أُكسبورج ان يعلن للملك مقصدهُ

وكثيرًا ما كان يهمّ الملك فرديننندس ان يحصل على مثل هذا الحامي للمذهب الكاثوليكي فلم يفُتهُ شيء من كل ما يقتضيهِ تحصيل هذا المرام فكتب الى لاينس الذي كان وقتئذٍ رئيسًا عامًّا يرجوهُ ان يأمر الابوين كانيسيوس وغودان بان يُعيناهُ في هذه المحاورة . اما الطوباوي فكاشف الاب لاينس بأسباب إبائهِ وأعلمهُ مع ذلك انهُ من الواجب اخضاع الامر الى حكم الحبر الاعظم . فرفع لاينس الامر الى البابا بولس الرابع فهذا الحبر الجليل حكم بحسب مشورة كردينال أكسبورج ان اللاهوتيين اليسوعيّين يحضرانها ويبذلان كل ما في وسعهما لاثبات حقوق الكنيسة . فتعين على كانيسيوس بحسب ما قدمنا ذكرهُ من جواب الحبر الاعظم ان يبقى بمدينة راتيسبون ويتأهب للانطلاق الى ورمس المكان المعين للمناظرة

وانفضّ المؤتمر نحو اواسط اذار فرجع الطوباوي الى رومية ليحضر جمعية رهبانيتهِ العامة ولكن لما كانت قد تأخرت بما حدث من الخلاف بين البابا وملك اسبانيا استأذن كانيسيوس الحبر الاعظم وعاد الى المانيا . واذ مرّ بمونيخ وجد الدوك البرتُس فرحًا بما نشأ من النجاح عن تعليم الآباء اليسوعيين في مدينة اينغلستاد حتى اشتهى ان ينشئ مدرسةً بعاصمة بافاريا ولم يكن كانيسيوس اقل منهُ ميلاً الى انشاء هذه المدرسة لانهُ كان مدّ نظرهُ الى المستقبل فرأى الاثمار الخلاصية الكثيرة العتيدة ان تخرجها مثل تلك المدرسة

وفيما كان بمدينة اينغلستاد تأمل بفرحٍ زهو مدرستها التي لم تمرّ عليها سنة واحدة حتى زهت واشتهرت في الآفاق البعيدة . وسار من هناك قاصدًا ورمس

هذا ولا نريد ان نصف جميع وجوه هذه المحاورة المشهورة المختلفة فقد جاءت على خلاف الآمال البشرية وشرفت الدين الكاثوليكي وأخجلت البدعة واعان على حصول هذه النتيجة توسلات وتضرُّعات الطوباوي الذي كان لا يزال يسأل اخوتهُ المحبين ذوي الغيرة ان يصلوا لحصول هذا الفوز العظيم

وحضر بمدينة ورمس رؤساء البروتسطانية كلهم مجتمعين فطلب الكاثوليكيون في الجلسة الاولى اولاً ان يكون مرجع الجدال الاسفار الالهية المقبولة من الكنيسة منذ الف سنة . وثانيًا انهُ متى اشتدّ الريب في معنى آية من آيات كتاب الله وجب الرجوع الى تفسير الآباء والى التقليد فاعترضهم البروتسطانت في الحال واحتجوا انهم يأبون الحيد عن المعنى الظاهر الحرفي وفضلاً عن ذلك ارادوا ان يستثنوا بعضًا من الاسفار القانونية ولكن اذ سدّت عليهم حجج الكاثوليكيين وسلطة نواب القضاء المهرب والمفرّ تعهدوا كرهًا بقبول ذينك الشرطين والجري عليهما في المناظرة

واشتدت المباحثة في الأيام التالية على الحرّية المطلقة والخطيئة الاصلية وسائر القضايا الباقية تحت الجدال وكان الكاثوليكيون يتصرّفون بالوقار والاحتشام ومع ذلك فكانوا يضيّقون على خصومهم ويزنقونهم بالبراهين المسكتة بخلاف البروتسطانت فكانوا يتخذون جميع الوسائل ليحيدوا عن قوة البراهين فكانوا يخرجون عن موضوع البحث ويندفعون في احاديث طويلة لا فائدة فيها وكانوا يتظاهرون انهم لم يحضروا للمدافعة عن عقائدهم بل ليظهروا للناس ما هم عليهِ من البلاغة وحسن سرد الحديث . والخلاصة ان منهاج كلامهم الملطوخ بالكبرياء كان مستهجنًا في الغالب بل مضحكًا

ولم يطل الزمان على المناظرة لان كانيسيوس منذ ابتداء الامر لحظ ان خصماءهُ اختلفوا رأيًا وتمزقوا اعتقادًا في اجلّ قضايا تعليمهم ولما علم انهُ قد حصل الاتفاق على ان ينحصر الجدال بينهُ وبين الآخذين بقرار أُكسبورج فقط طلب رفعًا لكل اشتباه ان الذين يخالفون هذا القرار رأيًا ينفردون عن البقية . ولا جرم ان هذه القضية اورثت بلبالاً لا يوصف في صفوف اهل البدع وكان هذا احسن ما القاهُ الله على خادمهِ الغيور خذلاً لأعداء الدين وابطالاً لدسائسهم فجعلوا يعيرون بعضهم بعضًا بانهم اخلُّوا بقرار جمعية أُكسبورج وتلطخوا ببدعٍ مكروهةٍ . فخطَّأ الاسراريون ناكري عماد الاطفال وهولاء خطأوا اولئك وكلاهما حرّم ميلانكتون الذي صار على الخصوص هدفًا لسهام طعنهم الجنوني ولم يكن ثمَّ الاّ النزاع والتفريع والذمّ

والغضب حتى كان يُخشَى ان ذلك يُفضي بهم الى المضاربة . وكان الفوز لاشدهم اعتساقًا وحدّة وطردوا من بينهم من كانوا لايزالون متمسكين بقرار جمعية أُكسبورج ففارق هؤلاء المنفيون مدينة ورمس بقلوب مقروحة انطوت على حقدٍ اظهرتهُ كتاباتهم المغضبة المشككة لحزبهم . اما الكاثوليكيون فلما ان رأوا خصماءهم اخلّوا باول شرطٍ من الشروط التي تقتضيها المناظرة امتنعوا ان يداوموا الجلسات ورفعوا الامر الى ملك الرومانيين

فأمر الملك فرديننديُس بفضّ المجمع واما اهل البدع فأبوا الاّ مداومة الجدال كيف كان الامر ولكن سلموا اخيرًا برغم انوفهم وتفرقوا واذ ناجتهم انفسهم انهم قد اضرُّوا كثيرًا بدعواهم بما عملوهُ من الفتن ذهبوا وقلوبهم مضطربةٌ لانطوائها على الحقد والغضب. والخلاصة ان الله اخزى المتكبر المتجعرف وأذن ان يلاقي الذل والهوان من حيث كان يرجو الفوز والانتصار وهكذا كانت عاقبة مجادلة ورمس التي ثبت فيها عند الكاثوليكيين والبروتسطانت ان كانيسيوس فاق الجميع كتابةً وتكلمًا وعملاً مدافعةً عن الايمان المستقيم وكتب ما صورتهُ : ينبغي ان نؤدي الشكر لله بفرحٍ لانهُ سحق فخ الشيطان فتأتى لنا النجاة منهُ وقد خلفنا الاضطراب والخزي في معسكر العدوّ فضلاً عن انهُ لم يلحق دياناتنا الكاثوليكية شيءٌ من المضرَّة

قد وجدنا كانيسيوس بمدينة أُكسبورج من السنة التاسعة والخمسين الى الستين من القرن السادس عشر وكان اشياع لوثر قد افسدوا فيها مدة خمس عشرة سنة حتى اضحت مركزًا للبدعة المشار اليها فموت الاداب كان تابعًا لموت الايمان حتى كان الفسق يحصل في عزّ النهار عند كل صنف من الناس واما رياضات التقوى المسيحية فكانت على غاية الاحتقار وكان الكهنة قليلين لا يقدرون ان يقوموا بحق خدمة المذابح وبالنتيجة انهُ كان لايكاد يوجد هناك كاثوليكي واحدٌ قبالة عشرة . غير ان كانيسيوس عند هذا الاصلاح العسر في الغاية لم يفقد الشجاعة فالتجأ اول الامر الى الصلاة والتوبة على جاري عادتهِ ثم باشر في امر الاصلاح فكان هو وحدهُ يقاوم اثني عشر خادمًا بروتسطانتيًا وما كان عليهِ من بأسٍ لان الغيرة والحق تغلبا على الرذيلة والضلال

واوشك ان يلمّ بهِ في هذه المدينة اضطهادات جديدة لان الاراطقة منذ حين انغلبوا في ورمس لم يستطيعوا ان يسمعوا باسم هذا الرجل الذي كان بكلامهِ ورسائلهِ قد أذاق حزبهم الوبال وعرَّفهم ميزان قدرهم وحصل فيما بينهم مواطأةٌ سرية واتفاق عام على ان يحتقروا سلطتهُ ويلاشوها بان يغتابوهُ ويقدحوا في عرضهِ ويلطخوهُ بالفحشاء . فخادم غوبنج نشر رسالة قذفٍ عدّد فيها البدع المختلفة وقال ان شرَّ البدع وأخبثها بدعة الكانيسيين او اليسوعيين فتلك بدعةٌ مؤذيةٌ تبذل الجهد كلهُ في المحاماة عن السلطان البابوي وتعزيزهِ وتوسيعهِ ثم ذكر قواعدها ونظامها وطرائقها واصول تعليمها وركم فيها أوحش الاضاليل وأقبحها . فهذه الرسالة التي اخذ منها الخطأ والخطل كل مأخذ قد اضحكت الطوباوي ولم يزل مثابرًا على الاهتمام بخلاص هؤلاء المساكين. وكانت التهمة في غاية الوضوح وقد عرف الناس صريحًا من هذا التأليف الفاضح رداءة اعتقاد مؤلفهِ حتى ان استفانس اغريكولا المبتدع المشهور لما اطلع على التأليف المنوّه بهِ لم يجد لهُ مفرًّا من الخجل اذ رأى أنّ اصدقاءهُ قد استعاذوا بتصرُّفٍ في غاية السفالة والحطة وأن دعوى تقتضي الالتجاء لمثل هذا المكر والحيلة لتأييدها انما هي دعوى باطلة رديئة فقال كفى بي اغترارًا وفتح عينيهِ الى ضياء الحق واسلم امرهُ لكانيسيوس لكي يهذبهُ في اصول الدين الكاثوليكي وجحد الضلال علانيةً وردّ على الرسالة القذفية واظهر لابناء وطنهِ شقاء الحياة بالانفصال عن الكنيسة الرومانية وشرَّف ثباتهُ هذا حياةً تزينت كلها بالفضائل والمناقب

واما أُكسبورج فعمَّا قليلٍ تغير وجهها وحصَّل فيها الصليب المكرم وصُوَر الاولياء والذبيحة الالهية ما يحقّ لها من الاجلال والإعظام فصار يُحمل القربان المقدس في شوارع المدينة بمزيد التوقير ورُجع بالعبادة الى الهياكل التي تدنست وأُخربت وازداد عدد الكاثوليكيين واعترفوا بديانتهم بلا خوفٍ وشرَّفوها بصالح تصرُّفهم وقداسة سيرتهم واشتهر المهتدون الجدد بفضيلتهم . ولم يرَ مثل ذلك قط في اكسبورج وبلغ الكردينال أُتان الى رومية اسرّ الاخبار واشدَّها تعزيةً وهو انهُ اذا طال عمر كانيسيوس أتى بما يفوق الوصف ولما علم البابا بيوس الرابع بفرط نجاحهِ كتب اليهِ رسالةً تتضمَّن الثناء عليهِ والتهنئة والتشجيع لهُ

هذا وان الذي شبّع نار الغضب في قلوب اهل الشيع وزادها ضرامًا انما هو كثرة اهتداء اصحابهم وابناء دينهم الى الدين الكاثوليكي ولم يكونوا من العوامّ فقط بل ان بعضهم كانوا من الخواصّ المعروفين بالعلم والشرف وعلو المرتبة في الهيئة الاجتماعية. فان الرسائل القذفية والشتائم والتهكمات لم تكن كفوءًا لتصرفهم عن المرجع الى حضن الكنيسة الرومانية واعلم ان الطنطنة الكبيرة كانت لاهتداء اثنتين من نساء الاشراف

فكانت الاولى من عشيرةٍ شريفةٍ كاثوليكيةٍ تُعرف بعشيرة فوجير الذين عظم شانهم بما آتاهم الله من الثروة والسطوة جزاء تقواهم النادرة وتعلقهم الشديد بالايمان الكاثوليكي وكان الامير جاورجيوس من هذه العشيرة قد تزوج ارسولا من عائلة ليشتنستان التي انجرت الى الضلالة البروتسطانية من اول عمرها ولكن اذ ائتمرت بمشورة بعلها بدأت تسمع خطب الاب كانيسيوس ولما كانت نيتها صالحةً وسادجةً ما لبثت ان عرفت الحق واعتنقتهُ بكل قلبها

والثانية سبيلا اربستان قرينة الامير مرقس فوجير ولكن هذه قاومت اكثر من الاولى لانها كانت قد شربت مع الحليب سمّ البدعة وكان يأذن لها عقلها وتهذيبها وطباعها ان تجادل في اصعب المسائل اللاهوتية. واما آل زوجها فاغتمّوا لان فيهم شخصًا منفصلاً عن الكنيسة المقدسة ولذا اتخذوا جميع الوسائل ليسانفوها الى الحقيقة فذهبت سدًى لانها كانت مصرَّةً على الضلال متمكنةً فيهِ حتى صارت تنفر من سماع الاحاديث الدينية وما كان احد ليتجرأ ان يذكر على مسمعها اسم اليسوعيين لشدة ما كانت تمقتهم وكانت تأبى ان تحضر وتسمع كلام الواعظ الكاثوليكي والحاصل ان الحيلة قد اعيتهم فلم يبقَ لهم في مثل هذه الحال الاَّ مجرد الصلاة فصلّوا وتقبّل الله منهم. فاذ كانت سبيلا نائمةً ذات ليلة كأنها رأت رجلاً منظرانيًا جليلاً قال لها بكلام رزانةٍ ومودةٍ الى متى تعاندين في مقاومة الله عزّ وجلّ اعلمي ان لا خلاص خارج الكنيسة الكاثوليكية فعودي الى دين اجدادكِ. فأفاقت وتنبهت واقتنعت عن يقين متين ان ذلك تنبيهٌ من قِبَل الله تعالى وقصّت ما جرى لها على قرينها فدعا للحال الاب كانيسيوس لحضر. وفيما كان الامير يخاطبهُ تقدم رفيقهُ الاب هيلدبرن الى الاميرة فقالت ليس هذا الذي رأيتهُ في الحلم ولكن حالما دخل عليها كانيسيوس هتفت هوذا الذي حثّني واغراني بان اصير كاثوليكية. ثم اقبلت على الاب المذكور وقالت له افوّض اليك امري فعليك ان تكمل ما بدأتَ عملهُ معي. وضادّت بشدة المبتدعين الذين بذلوا الجهد في ان يبقوها على الضلال وجحدت البدعة جحدًا احتفاليًا واضحت كاثوليكية فاضلة. والخلاصة ان هاتين الشريفتين أصبحتا قدوة التقوى والفضيلة حتى لم يخشَ الطوباوي ان يلقبهما في رسائلهِ بالقديستين وبخادمتي المسيح الامينتين المتوقدتين غيرةً على خلاص القريب الزاهدتين في زخارف الدنيا وأُمَّي الفقراء ومحسنتي بلادهما

وفي غضون ذلك اضُطر ان يحضر ثانيةً المجمع التريدنتيني وينضم الى عداد اللاهوتيين ولكن لا يلبث طويلاً لان اهل أُكسبورج الحّوا على البابا في رجوعهِ فاذن له وبعد عودتهِ اهتدى كثيرون على يدهِ منهم رجل مشهور من بدعة منكري عماد الاطفال كان له كبير اعتبار وصيت حسن فاستعان بذلك على بثّ بدعتهِ وحيث كان يعقد جمعياتٍ سرية في منزلهِ أُلقي في السجن فتوارد لزيارتهِ الكاثوليكيون والبروتسطانت وبما ان المسألة كانت دينية قال هذا الرجل الشريف انهُ يريد ان يتفاوض مع الاب كانيسيوس لا مع غيرهِ. فقصدهُ الطوباوي الى الحبس وجعل يحادثهُ على سبيل المودة فاستمالهُ برقة كلامهِ وفرط محبتهِ حتى اقتنع بصحة العقائد الكاثوليكية ورفض هذا المسجون المغبوط بدعتهُ وكتب صورة رفضهِ بصكٍّ وامضاهُ بيدهِ وقال في مجلس الاعيان والدمع يسيل من عينيهِ انهُ قد حكم بالخطاء على ضلالهِ واقسم انهُ لم يعُد يعتقد ولا يعلم بهِ عازمًا على ان يعيش ويموت كابنٍ خاضعٍ للكنيسة الرومانية واقتدى بهِ خلق كثير ورجعوا الى الايمان الكاثوليكي وكان عدد الكاثوليكيين يزداد كل يومٍ ولا جرم ان هذا كان اكبر جزاء لاتعاب هذا الرسول القديس

وذهب الى سافرنا وبشّر هناك بالانجيل وعلّم الصغار التعليم المسيحي وقوّى في مدينة ستراسبورج بممارسة افعال الرياضة جملة جمعيات دينية اجلّ غايتها مقاومة لخاخ الاراطقة ووعيدهم مقاومةَ انتصار وزار مناوبةً بريساك وشليستاد وكلمار وروفاش منعشًا في النفوس شهامة الواجبات الدينية وحمية المعتقد وعاد الى مدينة نيميغ مسقط رأسهِ واقام بها ثمانية ايام اقامةَ مرسل ولم يقبل دعوةً من

اقاربهِ مع شدة ما الحوا عليهِ في ذالك الاَّ ان تكون المائدة في المارستان حيث كانت اقامتهُ فارتضوا بذلك ولما كان اليوم المعين اخذ الطوباوي يعظ المرضى ويسمع اعترافاتهم ويفرّق عليهم القربان المقدس ووقتئذٍ استدعى اقاربهُ لان يساعدوهُ في خدمة المرضى ففعلوا بمزيد المحبة . ورآهم كثيرون من المدينة فتعجبوا ورقّت قلوبهم ثم اجلس انسباءهُ على مائدةٍ فقريةٍ ولم يزل يخاطبهم في امور روحية وحرَّضهم آخر الامر ان يربّوا اولادهم على التقوى وحفظ ايمان الاباء . ووقفوا حينئذٍ جميعهم ورفعوا ايديهم وأقسموا بالله ان يحفظوا الديانة الكاثوليكية دائمًا سالمةً من كل شائبة ولو الجأهم ذلك الى سفك الدم وكان عدد انسبائهِ فوق المائة

ودعاهُ كونت هلفستين الى سوابيا ووجد بين يديهِ البدعة اللوثرانية وفي شهر فقط أصلح مدينة ايلونجان واصلح ايضًا في مدن ورزبورج وايسبروك ومونيخ وستراسبورج ما فسد من قواعد الايمان . ومن بواعث العجب ان اصوات التبريك كانت ترتفع من جميع اطراف المانيا تكريمًا لاسمهِ فيما بين شتائم المبتدعين الجنونية ولم يدعوهُ الاَّ رسول المانيا ومطرقة اهل البدع وعمود الدين الصحيح

وأُرسل الى ستراسبورج في سفارةٍ ثم زار مدارس اقليمهِ التي كانت زاهية من كل وجهٍ من جهة عدد تلامذتها وحسن صفاتهم ومن جهة كثرة ثمار الخدمة الروحية ولا سيما مدينة ديلنجان التي اجمعت فيها مدرسة عالية ومدرسة كلية ومدرسة الشرفاء فقد كانت تقدم تعزيةً جليلةً حسنةً ومع ذلك فقد أذن الله لابليس ان يغربل هذه الانفس النقية التي تنمو في العلم والتقوى جميعًا . فغدر بالديانة والكنيسة في آنٍ واحد شابَّان من الرهبان احدهما انكليزي والآخر الماني وانحازا الى اشياع لوتر فاستقبلوهما بفرحٍ واكرام وعظموا هذا الكفر المضاعف مدعين بذلك الانتصار على الكنيسة وعلى الرهبانية اليسوعية . فشق ذلك على كانيسيوس وحصلت لهُ فرصة لان يزيد الانتباه والعناية باصلاح سيرة الشبان لتكون مصونةً من ممارسة التعاليم الرديئة المؤذية

ولكن الله جعل لهُ تعزيةً بان أُعطي حينئذٍ الرهبانية شابًّا جديدًا مستعدًّا ان يشرفها وقدّم لهُ هذا الكنز بمدينة ديلنجان نفسها التي خرج منها ذانك الكافران . ففيما كان كانيسيوس مجتازًا الى اينغلستاد نحو أواخر نيسان رأى شابًّا ابن سبع عشرة سنة مقبلاً عليهِ بثياب متكففٍ وهيئة حاجٍّ من وينّا ماشيًا مستعطيًا وجاء اليهِ وخرَّ على قدميهِ وسألهُ ان يضمهُ الى رهبانهِ قائلاً قد تركتُ أبويَّ وداومت المسير لكي اظفر برغوبي واحظى بهذه النعمة . والشاب المشار اليهِ هو القديس استانيسلاوس كُستكا الذي أُوعزت اليهِ البتول ان يدخل في رهبانية ابنها وارشدتهُ بعجائب كثيرة . ولما قرأ الطوباوي رسالة التوصية التي كانت مع هذا الشاب من الاب فرنسيس انطونيوس من وينّا عرفهُ في الحال واعتبر فضيلتهُ فتلطف في قبولهِ واكرم مقامهُ ووعدهُ ان يرسلهُ عما قليلٍ الى رومية حيث يكون ابعد عن عشيرتهِ واكثر حريةً لاتباع دعوتهِ ووضعهُ على سبيل الامتحان مدة شهر في مدرسة الشرفاء بمدينة ديلنجان فحبّب اليهِ بحسن سيرتهِ كل من فيها

واستدعى البابا غريغوريوس الثالث عشر كانيسيوس الى رومية سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وألف وجرى بينهُ وبين قداستهِ مخاطبات كثيرة طويلة وكان لا يأنف البابا ان يخاطبهُ في شان الوسائل التي تشفي جروح كنيسة المانيا وتوقف نمو البدع . وبعد احدى هذه المخاطبات امر البابا الرهبان اليسوعيين بتدبير المدرسة الجرمانية وباعداد محل لمائة طالب جديد وأُذيع المنشور البابوي الذي عيّن لهذه المدرسة راتبًا كافيًا . ثم أُنشئت مدارس أُخر للالمان واهل بلاد اللاه بديلنجان وفولدا وبراغا وأُلموتز وبرُنسبرج وويلنا وكانت غيرة كانيسيوس اشارت على الرؤساء بهذه الوسيلة الكلية الفائدة لصيانة روح الديانة وقد اتمها غيرة الحبر الروماني وسخاؤهُ العظيم

هذا وبينما كان عليهِ السلام منهمكًا في هذه المسائل الكبيرة انتقل الى رحمة الله القديس فرنسيس بورجيا فصدر الامر بانعقاد مجمع الرهبان الثالث العام برومية فذهب كانيسيوس الى تلك المدينة المكرمة ونال فيها بامر خصوصي من الآباء مزيد الاكرام لما قدّمهُ من الخدمة للكنيسة وللرهبانية . ولكنهُ لم يُقم هناك الا اربعة اشهر وزار بعواطف عبادة حية جميع ما هنالك من المواضع المشهورة بتذكر تقوية او ذخائر ثمينة وكان يصلّي هناك بعواطف تقوى غريبة . وقد اكثر من زيارة الكنائس السبع واستفاد كثيرًا اذ رأى ما رأى من آيات المحبة والاتضاع التي كان يصنعها اهل البلاط وشرفاء الرومانيين قدوةً لمن يقتدي ولكن كانت كلُّ لذتهِ في ان

يتفاوض بألفةٍ مع رجال الله الحقيقيين فكان من جملة سنين مؤالفًا القديس فيلبس نيري منشئ جمعية المصلَّى . وكثيرًا ما كان يذهب الى دير كيازا نوفا ليجالس صديقهُ بارونيوس العالم المشهور

وكان كانيسيوس ما بين هذه الافراح والتعزيات الروحية يرتقب انتهاء الاعمال التي كان يتعاطاها مع الحبر الاعظم وفيما كان في هذا الانتظار اذا بهِ قد انسلَّ من رومية سرًّا فرجَّح الناس كون ذلك هربًا سريعًا على كونهِ سفرًا معتادًا وتساءلوا عن داعية هذا السفر الفجائي وظنوا ان سببهُ خوف الترقية الى مقام الكردينالية . وفي الحقيقة بعد وفاة البابا القديس بيوس الخامس وُجد اسمهُ في قائمة الذين كان قصدهُ ان يرفعهم الى مقام الكردينالية ووقعت هذه القائمة الى غريغوريوس الثالث عشر فعوَّل على انفاذ المقصد الذي تُشير اليهِ ويُظن ان كانيسيوس استُدعي الى رومية من اجلهِ ولهذا لما عرف الكردينال اوثون نيَّة الحبر الاعظم لم يزل يحثُّ البابا على ان يلبس هذا الفاضل الثوب الارجواني . فيُظن انهُ لما بلغهُ هذا الامر حملهُ التواضع على الفرار من رومية اجتنابًا لهذه الدرجة اذ لم يجد سبيلًا لهذا الّا الفرار

هذا واعلم ان الطوباوي قرن رسالة الوعظ برسالة الكتابة ولم يكد الناس يعرفون كيف استطاع ان يحسن القيام بهما كما فعلهُ . ولاجرم ان تفنيد ضلال الغاوين وانعاش تقوى المؤمنين كان مجرَّد غرضهِ وكل مقصدهِ من تاليفهِ ومواعظهِ . والذي جعل لهُ اكبر شهرةٍ كتابٌ مختصرٌ في حقائق النصرانية وكان هذا الكتاب يُعدُّ كعلم اللاهوت للناس قاطبةً وأجلى تفسير لعقائد المسيحية وأسرارها وكان انتشارهُ نهاية الغرابة وحدَّ العجب كيف لا وطُبع في قرنٍ واحدٍ اربعمائة طبعة وتُرجم الى جميع لغات اوربا والى لغة التامول واليابونيين والحبشة وغيرها من لغات البرابرة التي قلما تُعرف وهكذا أصبح كانيسيوس معلّم وعلّامة جميع الأمم حتى انهُ لو لم يكن لهُ الّا هذا المؤلف لكان مقدّمًا اشرف خدمة لكنيسة الله

ولا بأس قبل ختم الكلام في هذه الترجمة ان نشير بالايجاز الى داعية جميع اعمالهِ العجيبة التي قد ذكرنا طرفًا منها فنقول لاريب في ان الله قد آتاهُ فطرةً وقّادةً ولكنهُ لو لم يقوّها ويزدها خصبًا بمبدا داخلي لذهبت بلا فائدة . فكان رجل الله في اول امرهِ قديسًا وأحبُّ الاعمال اليهِ الصلاة وكان سالكًا برضاة الله كل ايام حياتهِ بحيث ان اسفارهُ واشغالهُ واعمالهُ أضحت صلاةً متصلةً . فكثيرًا ما كان يسهر ليالي بتمامها ساجدًا امام الحق سبحانهُ غريقًا بعبراتهِ ومستغرقًا في التامل وغائبًا عن الحس . وكان في هذه المخاطبات السريَّة يرتاح من اتعابهِ ويتخذ قوًى جديدةً وكان يعُد الصلاة كقناة النعم الربانية وبناءً عليهِ كان جلُّ عنايتهِ عند المصائب الكثيرة ان يصلّي ويطلب الصلاة من الغير حتى سأل منشئ الرهبانية ان يفرض صلوات من أجل اهتداء بروتسطانت المانيا فنشأت عن ذلك عادة مخشعة رسولية حُفظت بتقوى في الرهبانية اليسوعية فكل شهر يُعلن في كل دير بالموعظة المعبر عنها بهذا الكلام : يجب على كل كاهن ان يقدم قداسًا وعلى كل راهب غير كاهن ان يصلّي مسبحةً من اجل شعوب الشمال واهتداء اهل البِدَع

هذا وكان اتحادهُ بالله يجعلهُ مهيبًا على الشياطين ودونك هذا المثال ان فتاةً شريفةً دخل فيها سبعة شياطين وأُعتقت من ستة منهم الّا ان الشيطان السابع عاند وبقي رغمًا عن قوة التعزيم فتراءت العذراء الى تلك الفتاة وأمرتها ان اذهبي الى هيكلي بأُوتنج وهناك تفوزي بالنجاة التامة . فامتثلت الفتاة امر السيدة وذهبت وما بلغت الى مدخل المعبد الّا وقد أخذ الشيطان يلوي اعضاءها على وجهٍ هائل ويحملها ان تشتم العذراء وتسبها وعذَّبها عذابًا اليمًا وصرعها على الارض ما بين حيةٍ وميتةٍ . واما المشاهدون فضاعفوا الصلاة وسألوا الله ان يخرج الروح النجس من الفتاة وكان كانيسيوس عند ذلك المعبد فقام شديدَ الثقة بالله وبشفاعة البتول وهاجم ابليس بقوةٍ وبأسٍ فأوسعهُ الشيطان شتمًا بفم المعتراة غير ان القديس لم يضطرب ولا انزعج من تلك الشتائم ولكن جبرهُ بقوة اسم يسوع لهُ المجد ان يرجع عن مثل تلك التجاديف واعجز الشيطان بقوة لا تُقاوم حتى سلم اخيرًا بقوة التعزيم وخرج من جسد الفتاة

واعلم ان هذه المعجزة اوقعت جمهور المشاهدين في الحيرة فاغتنم القديس هذه الفرصة ووعظ مفصحًا عن الحق وبحث عن الاسباب التي من اجلها يأذن الله احيانًا لأرواح الهاوية ان تعذب الاجسام وتكلم على خسارةٍ اعظم ايضًا يلحقونها بالنفوس التي يتولَّون عليها بالخطيئة . ثم أغرى السامعين

ان يتأملوا ويمتحنوا ضمائرهم وينقوها حتى لا يعطوا الشيطان اليها سبيلاً . ونشأ عن هذا الخطاب نتيجة كبيرة لانهُ هدى والد الفتاة التي أُخرجت منها الأبالسة وكان من أتباع لوتر وحمل الكونت مرقس فوجير رأس قبيلة شريفة على ان يسير سيرةً أفضل وأكمل وهيج في القلوب كافةً عواطف توبةٍ نصوح وزيادة الشوق الى خدمة الله

ولا ريب ان خلوص اتحاد كانيسيوس بالله تعالى كان ناشئاً عن عميق تواضعهِ واعلم ان التواضع فضيلةٌ جميلةٌ على الاطلاق ولكن لا تكون اجمل الا متى حُفِظت وتكمّلت ايضاً بين جميع ما يظهر انهُ يبيدها . ففضلاً عن صفات عقلهِ وقلبهِ الشريفة التي صيرتهُ مناظرًا حاذقًا وخطيبًا مفصحًا ومنشئًا مشهورًا كان يرى انهُ محفوف بالاكرام والاحترام العام لان الامراء والسلاطين والاساقفة والكرادلة والباباوات بيوس الرابع وبولس الرابع والقديس بيوس الخامس وغريغوريوس الثالث عشر أجلّوهُ باعتبارهم اياهُ وثقتهم بهِ وكان الجميع يحسبونهُ حافظ الايمان في بلاد كبيرة واسعة ويعدونهُ علاّمةً ورسولاً ورجل العناية الالهية المدعو للمحاماة عن الكنيسة في تلك الازمنة التعيسة . أما هو فكان عند نفسهِ حقيرًا لا يبصر في ذاتهِ الا شقاهُ ونقصهُ وكان يعتبر نفسهُ آخر الجميع حقًّا وكفى بهذه الواقعة بيانًا لذلك واثباتًا لهُ

ذُكر ان كانيسيوس مرَّ بمدينة لوريتو في احد اسفارهِ الى ايطاليا وقرع باب مدرسة اليسوعيين طالبًا ان يضيفوهُ فيها وكان بواب المدرسة رجلاً ساذجًا فاستخبرهُ بطريقة خشنة . قال لهُ أمعك ورقة طاعة (المراد بورقة الطاعة تذكرة الجواز التي يمضيها الرؤساء توصيةً بالرهبان المسافرين) فاجابهُ القديس محتشمًا قال لا بما اني رئيس اقليم المانيا . قال لهُ الاخ بدون ورقة الطاعة انت لا تدخل الدير واغلق الباب في وجههِ . فلم يتكدر ولم يضطرب قلب الطوباوي من هذه المعاملة الخشنة بل ذهب بدون ان يقول شيئًا وجلس على بنكٍ مقابل الباب ليرتاح قليلاً من تعب السفر وبقي هناك نحو ساعة . فرآهُ احد الاباء وهو راجع من كنيسة العذراء المجيدة فعرفهُ واستغرب كيف وجدهُ على الباب فسألهُ قال لماذا انت باقٍ خارج الدير . فقال مبتسمًا لم يأذن لي البواب في الدخول . ثم عرف الرئيس بقدومهِ فنزل وجميع من في الدير لاستقبالهِ . ولما رآهُ كانيسيوس قد اخذ في الاعتذار جعل هو يحامي عن البواب فتبارك الله الذي خصهُ بهذه الاخلاق الكريمة

وكانت تجلة شهادة اعتبارهِ وعلامة شرفهِ . ولما رآهُ كردينال أكسبورج راجعًا من رسالةٍ مثمرة جدًّا تذكر كلام اشعيا النبي حيث يقول : ما اجمل اقدام المبشرين بانجيل السلام : وخرَّ على قدمي خادم الله واكد انهُ لا يقوم ما لم يغسل رجليهِ . وهيهات ان يوصف خجل كانيسيوس واجتهادهُ في منع الكردينال التقي عن غسل قدميهِ . فان ذلك كلهُ ما اجداهُ نفعًا فقال لهُ اخيرًا بما انك تريد ذلك يا سيدي يجب عليَّ اقتداءً بالقديس بطرس شفيعي ان اخضع لامر من يمثّل لي بنفسهِ شخص يسوع المسيح ولكن اعلم يقينًا انك اذا انتصرت عليَّ بالتواضع امام الله وامام الناس فتكون لي منفعة الخجل والخزي . ولما عُرضت عليهِ مرتبة كنائسية شعر بخوفٍ نقويٍّ وقال ياليت السيد المصلوب من اجل خلاصنا يخلص عبيدهُ المساكين من مثل هذه المراتب . وأحبَّ الملك فرديننَدُس ان يقيمهُ اسقفًا على وينّا وعرض عليهِ ذلك ثلاث مرّات فأبى لشدة تواضعهِ وكل ما استطاعوا ان ينالوهُ منهُ انهُ ارتضى ان يسوس اكليروس تلك الابرشية سنةً واحدةً لكن بشرط ان لا يمسَّ شيئًا من دخل الاسقفية الوافر

ومن هذا التواضع العميق تولدت في قلب كانيسيوس طاعة ليست اقل منهُ كمالاً واذ عاش بالطاعة والخضوع كان بذلك مغبوطًا وقال عليهِ السلام قد تعهدت بنذر صريح ان افوض بطيب خاطري وتمام خضوع عقلي وارادتي الى الرئيس امر نفسي وجسدي واني أُقدّم لهُ كلي واثقًا اني قد أُلقيت نفسي بين يدي الرب يسوع . ولم ينقض هذا العهد قط ولا نكيرَ فقد كان متأهبًا على الدوام اما للاقامة واما للرحيل ولترك الخدم التي كان قد بدأ بها ليباشر اعمالاً أُخرى ولو أدّى الامر الى زوال عافيتهِ وفناء حياتهِ

ولما كان في نضارة الشباب ظهرت لهُ البتولية بكل بهاء حشمتها الذي يسبي العقول كما رآها يومًا غريغوريوس النزينزي فراعهُ جمالها ومن فورهِ نذر من تلقاء نفسهِ التبتُّل لله تعالى وعاهدهُ انهُ يفي هذا النذر وأضاف الى هذا العهد الذي حفظهُ دائمًا الكفر الدائم بذاتهِ وتقشفًا شديدًا حتى كثيرًا ما جبرهُ رؤساؤهُ ان يخفف عليهِ من هذا الضنك المقدس

ولما كان رجل الله غنيًّا بالفضائل والاستحقاقات الكثيرة

اوشك ان ينتهي من عمله الطويل الشاق وقد عيّن الله حدًّا لحياته في مدينة فريبُرج ببلاد سويسرا . ولان بلاد سويسرا جميعها كانت قد فسدت وتبلبلت مثل المانيا بكلام المحدثين المتعصبين خشي غريغوريوس الثالث عشر ان الاماكن التي لم تزل مؤمنة تصير الى ان تبدأ بالخروج عن الايمان فقصد ان يرسل اليهم من يساعدهم ويدرأ عنهم الخطر وخطر له ان انشاء مدرسة هناك يكون اقوى مانع لمقاومة الشرّ

فاختير لهذه المهمة كانيسيوس فانطلق الى فريبُرج سنة ثمانين وخمسمائة وألف فذهب به لدى قضاتها نائب الكرسي الرسولي وخاطبهم بما صورتهُ : اقدم لكم الرجل الذي عليكم ان تعتبروهُ وتحتفظوا بهِ كما يُحتفظ بالذخائر المقدسة . واعلموا يقينًا انهُ يكون لكم فيهِ رسول وعلاّمة وابٌ رؤوف بأنفسكم : فجاء كلام النائب البابوي مصدقًا للرسالة التي بيدهِ . هذا وقد خصّص كانيسيوس السبع عشرة سنةً التي عاشها ايضًا كلها لخلاص اولادهِ الجُدد . فكان رئيس المدرسة وواعظ المدينة ومرسل القرايا ومعزّي كل محزونٍ ومصابٍ ولم يكن يعطي لذاتهِ دقيقة راحةٍ مع شيخوختهِ وضعف قُواهُ . واما اهل فريبُرج فكان اعتبارهم اياهُ وتعلقهم بهِ شديدين في الغاية حتى انهم لم يرتضوا قط ان يبتعد عنهم ولو وقتًا قليلاً ويُروى انهم كانوا يقولون الاب كانيسيوس هو كنزنا وحبيبنا وأبونا . فوا عجبا كيف يرومون ان يسلبونا اياهُ والله قد منحناهُ هبةً خصوصيةً فالناس لا يستطيعون ان يأخذوهُ منا . فأُبقي عندهم واظهروا شدة طاعتهم لكلامهِ واستفادوا كثيرًا من خدمتهِ حتى اقسموا على انفسهم احتفاليًا انهم يحفظون دائمًا في بلادهم الايمان الكاثوليكي الرسولي الروماني سالمًا من كل عيب وبلادهم تحتوي على ثمانين خورنية ولم تمسّ البدعة واحدة منها بل بقيت كلها على الايمان الكاثوليكي الى ايامنا هذه

وانتهى مجال اعمال رجل الله بين هذا الشعب الصالح العزيز على قلبهِ الجدير برأفتهِ واسلم روحهُ بيد خالقها في الحادي والعشرين من شهر كانون الاول سنة سبع وتسعين وخمسمائة والف وعمرهُ سبعٌ وسبعون سنةً . وغصت الارض بالناس يوم دفنهِ وأسفوا لموتهِ كأنهُ بلية عامة غير انهم قرنوا الغم بعواطف أمانةٍ قويةٍ اذ قام في خواطرهم ان خادم الله هذا يحامي من السماء عن الذين كان يحبهم وهو في هذه الدنيا . وفي الواقع انهم لم يكذبوا انفسهم فقد تفضل عليهم بنعمٍ كثيرة وصنع الله على قبرهِ في مدة اكثر من جيلين شيئًا كثيرًا من الآيات والمعجزات حتى اشتهر في اطراف المانيا كلها . ولما أُثبتت لهُ اربع من معجزاتهِ أمر البابا بيوس التاسع في الرابع والعشرين من حزيران سنة اربع وستين وثمانمائة والف ان يقدم لهُ اكرام الطوباويين بما انهُ محامٍ عن الايمان المستقيم وناشر الديانة الكاثوليكية

هذا وان جملة حوادث في ترجمتهِ تدلُّ على ان الله سبحانهُ كان ينبئهُ بالمستقبل ويكاشفهُ باسرار القلوب فنذكر نبوتهُ الخارقة العادة التي انبأ بها اخاهُ الاب تاودوريك . ان تاودوريك هذا جاء مدينة فريبُرج ليزور اخاهُ الشيخ القديس آخر زيارةٍ فاستقبلهُ بفرحٍ أخوي ومخاطبة سماوية وعند الوداع عانقهُ القديس وقال لهُ ان امراضي لا تأذن لي ان اعيش طويلاً لكن احذر مما سيجلبهُ عليك خبر وفاتي من الاسف فانتبه لكلامي هذا واجتهد ان تستفيد منهُ . ولما رجع تاودوريك الى مدرسة لوصِرنا روى لأحد أصدقائهِ آخر ما قال لهُ اخوهُ وضم اليهِ ما معناهُ ان موتهُ منتظر من يوم الى يوم فلا تفاجئهُ المنية . ولما نلمح سرًّا في ما ذكرناهُ من كلام أخيهِ استعدَّ لملاقاة كل خطب اذا كان يرضي الله . ومات كانيسيوس بمدينة فريبُرج وبلغ خبر موتهِ مدينة لوصِرنا فعلم بهِ تاودوريك فاصابهُ داء السكتة واورثهُ داء الفالج وخرس وفقد الذاكرة حتى انهُ نسي اسمهُ

وبقي على هذه الحال سبعة أعوام أشقى من طفل لكن الذين كانوا يذكرون مناقب هذا الراهب وعظيم استحقاقهِ وقد استطاع بمساعدة توسلات أخيهِ القديس ان ينطق دائمًا باسمي يسوع ومريم واظهر علائم صبرهِ التام وظهرانهُ تعافى عند اقترابهِ لتناول القربان المقدس لشدة ما كان يبديهِ في هذا التناول من الايمان والخشوع والتقوى . وعند ساعة موتهِ تلفظ باسمي يسوع ومريم باوضح ما كان يلفظها قبلاً ولما بذل جهدهُ ليرفع يديهِ الى السماء هتف قائلاً لا بد ان اذهب الى هنالك الى هنالك ـ الى السماء الى السماء . ولما فرغ من كلامهِ هذا مات وأُلقب بالملك للطف أخلاقهِ وطهارتها

اليوم الحادي والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس توما(١) الرسول

وُلد هذا الرسول بالجليل وهو فقير الاصل كسائر الذين اختارهم السيد المسيح للرسالة لان الله تقدَّس اسمهُ رام ان يظهر جلال حكمتهِ وقدرتهِ الغير المتناهية بتأسيس ناموسهِ وقيام كنيستهِ على ايدي أُناسٍ عاجزين تمام العجز عن هذا العمل العجيب ومن ثم قد سمّى الذهبي الفم الاثني عشر رسولاً اثني عشر مانعًا للانجيل المقدس فاختار الله تعالى ما هو جاهل في أهل الدنيا ليخزي الأقوياء واختار الله ما كان دنيًّا ومهانًا ليبطل فخر ما في العالم ويُخضعهُ للانجيل المقدس

وقد ذكر ميتافرستس ان الله تعالى وهب القديس توما نفسًا صالحةً وقلبًا نقيًّا مائلاً نحو الفضيلة ومن صِغَرسنهِ كان راغبًا في قراءة الكتب المقدسة ولهذا استعدَّ لمعرفة السيد المسيح لانهُ لما شاهد عجائبهُ تعالى وسمع تعليمهُ اعتقد انهُ هو المسيح المنتظر فتبعهُ . ولما اراد يسوع ان يمضي الى بيت عنيا ليقيم لعازر من الموت وقال لهُ التلاميذ الآن كان اليهود يطلبون رجمك وأنت تريد المضيَّ الى هناك فقال لهم القديس توما لنمضِ نحن ايضًا لكي نموت معهُ وقد قال هذا بعاطفة محبة حارةٍ ومن اجلها اظهر لهُ يسوع محبةً جزيلةً ولا سيما بعد قيامتهِ وذلك بعد ان شكَّ هذا الرسول بحقيقة قيامتهِ من الموت

ولا جرم ان الثقة التي اتخذ بها الرسول حريةً في الاستعلام عن المخلص هي برهان على سلامة طويتهِ وصدق ميلهِ الى معلمهِ الالهي . ولما عمل يسوع العشاء السريَّ مع تلاميذهِ ذكر امورًا مختلفة ليعزّيهم ويشدّدهم على ما يدفعهم اليهِ من الاضطراب والحزن وانبأهم انهُ سيكون لهم جميعهم شكٌّ وقال لهم لا تضطربوا انكم تؤمنون بالله فآمنوا بي . في بيت ابي منازل كثيرة وانا ماضٍ لأُعدَّ لكم مكانًا وسأرجع واذهب بكم الى هناك فأنتم تعرفون الى أين امضي وتعرفون الطريق . فقال لهُ توما حينئذٍ نحن لا نعرف اين تذهب وكيف نعرف الطريق فقال لهُ يسوع انا هو الطريق والحق والحياة وليس احدٌ يأتي الى الآب الَّا بي

فذكر الانجيل المقدس ان سيدنا يسوع المسيح ظهر لتلاميذهِ عشية يوم قيامتهِ وأراهم جراحات يديهِ ورجليهِ وحينئذٍ لم يكن القديس توما حاضرًا فلما حضر قال لهُ الرسل اننا قد رأينا الرب فاجابهم قال ان لم أُبصر في يديهِ ثقب المسامير واجعل اصبعي في جنبهِ فلستُ أُومن . فتراءى لهُ السيد المسيح بعد ثمانية أيامٍ حينما كان مع الرسل في العلية وقال لهُ انظر الى يدي ورجلي وهات اصبعك وضعها في ثقب المسامير . انظر الى جنبي واجعل يدك في جرحي ولا تكن غير مؤمن بل مؤمنًا . فلما شاهد الرسول ربهُ وتحقق انهُ هو حقًّا خرَّ ساجدًا وقال انت ربي والهي . فلما تأمل القديس غريغوريوس هذه الجملة قال اتظنون انهُ قد وقع باتفاق ان توما الرسول لم يكن حاضرًا لما ظهر يسوع لتلاميذهِ وانهُ لم يصدّق بقيامتهِ تعالى بعد شهادة الرسل بها بل رام ان يرى هو ايضًا جراحاتهِ تعالى ويلمسها قبل ان يؤمن كلاَّ لم يقع ذلك اتفاقًا بل انما حدث عن حكمة الله ورسمها وانهُ تعالى سمح ان رسولهُ يشك في قيامتهِ ويلمس جراحاتهِ لكي يشفي فينا جرح عدم الايمان لان شكَّ توما نفعنا لايقاظ الايمان اكثر مما نفعنا ايمان سائر الرسل اذ انهُ لما ارتدَّ عن شكهِ بعد لمس السيد المسيح وآمن بقيامتهِ وطَّد في قلوبنا هذا الايمان واثبتهُ ونجانا من كل شكٍّ

وقد جاء في الانجيل ايضًا ذكرٌ للقديس توما وذلك في حديث صيد السمك لما ذهب بطرس ليصطاد واستصحب الرسل وكان فيهم توما فألقوا الشباك الليل كلهُ ولم يصطادوا شيئًا ولما كان الصباح تجلّى لهم يسوع وأوصاهم على شاطئ البحر ان يُلقوا الشباك عن يمين القارب ففعلوا فامتلأت شباكهم سمكًا فذهبوا الى حيث كان يسوع ينتظرهم وهنا قلَّد بطرس منصب الرئاسة على الكنيسة كلها وهذا كل ما وجدناهُ في الكتاب المقدس عن الرسول توما واما الباقي فنأخذهُ عن أفاضل المؤلفين

وبعد حلول الروح القدس على التلاميذ ببضع سنين تفرق الرسل في العالم كلهِ ليبشّروا كل الخلق بالانجيل المقدس حسب أمر معلمهم الالهي فذهب القديس توما الى الشرق ووجد المجوس الذين كانوا أتوا الى بيت لحم ليسجدوا للمسيح الطفل فاخبرهم بكل ما صنع مخلصنا في زمن حياتهِ وبعد قيامتهِ من الموت فعمَّدهم واشركهم في خدمة الانجيل . روى

حاشية . (١) اسم هذا القديس عبراني ومعناهُ عند العرب توأم ويقال لهُ باليونانية ديديموس

اوسابيوس المؤرخ في المجلد الاول في الفصل الثالث عشر من تاريخ الكنيسة نقلاً عن مكتبة كنيسة أُرفا ان هذا الرسول القديس أرسل أحد التلاميذ السبعين المدعو تاداوس الى مدينة أُرفا ليشفي الملك ابغروس و يعلمهُ قواعد النصرانية ثم انطلق من هناك الى الحبشة والبرطين والماديين والعجميين والبركانيين و بلاد الهند حتى بلاد الصين وغرس في كل هذه البلدان الناموس الانجيلي وهذا التقليد القديم يُثبت بشهادة مسيحيي مليابور مدينة بالهند لان الاب كيركس اليسوعي العلامة الشهير يذكر في تاليفهِ على الصين ان البرتوغاليين عند مرورهم بمسيحيي تلك المدينة وجدوهم يقولون في كتاب صلواتهم باللغة السريانية ما ترجمتهُ ان القديس توما اجتذب الى الايمان المسيحي الحبشة والصين والعجم. وفي سنة خمس وعشرين وستمائة والف وُجِد في بلاد الصين صليبٌ من حديد وتاريخهُ سنة تسع وثلاثين ومائتين للمسيح وهذا دليل على ان النصرانية دخلت الهند منذ ابتداءها

نُقل انهُ لما كان عليهِ السلام ببلاد الهند بمدينة مليابور استأذن الملك في بناء كنيسة فلم يأذن لهُ. ثم اتفق في تلك الغضون ان امواج البحر ساقت الى المينا خشبة طويلة ثقيلة جدًّا فرام ان يأخذها الملك لبناء بلاطهِ فلم يقدر خدامهُ ان ينقلوها. حينئذٍ قال القديس للملك هبني هذه الخشبة لبناء كنيسةٍ وانا احملها وحدي. فوهبهُ اياها الملك أمام جمٍّ غفيرٍ وحينئذٍ علّق القديس منطقتهُ بالخشبة وعمل عليها علامة الصليب المقدس وشرع يسحبها كأنهُ يجر تبنة ومن أجل هذه الاعجوبة آمن الملك وكل اهل قصرهِ وبنى القديس الكنيسة ونصب صليبًا على حجرٍ كبيرٍ وتنبأ قائلاً انهُ متى اقترب البحر من هذا الصليب وقد كان وقتئذٍ بعيدًا منهُ جدًّا حينئذٍ يأتي اناس رسوليون من بلاد الغرب يبشرونكم ايضًا بالنصرانية. وقد تمت نبوتهُ لانهُ لما دنا البحر من الصليب المذكور وصل القديس فرنشيس كسافاريوس برفقتهِ اليسوعيين و بشَّروا بالدين المسيحي. اما عبَدَة الاوثان فلما رأوا الاكثرين تنصروا وثبوا على الرسول توما وأماتوهُ بطعن الحراب وذكر الشرقيون وفاتهُ في اليوم السادس من تشرين الاول

هذا واما على راي المؤرخين البرتوغاليين فالملك يوحنا الثالث صاحب البرتوغال امر بالتفتيش عن جسد الرسول توما في خرابة معبد قديم كان مبنيًّا على قبرهِ خارج اسوار مليابور. فحُفر في الارض سنة ثلث وعشرين وخمسمائة والف فكشفوا عن عقدٍ على شكل معبدٍ فاذا فيهِ عظام القديس مع جزء من الحربة التي أُميت بها وقنينة مخضبة بدمهِ فوضعت في اناء ثمين غالي الزينة ووُضع في اناء آخر اقل منهُ ثمنًا عظام الملك الذي عمَّدهُ الرسول توما وعظام آخرين من تلاميذهِ التي كُشفت هناك. واقام البرتوغاليون قرب ذلك الموضع مدينة جديدةً وسموها سان توما

اما مسيحيو مليابور وسان توما فبعد وقوعهم اولاً في ضلال نسطور واوتيخا. وثانيًا في انشقاق اساقفة غوا أخذوا يرجعون شيئًا فشيئًا الى حضن الكنيسة الكاثوليكية على يد نوّاب رومية والمرسلين الكاثوليكيين

اليوم الثاني والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس فلابيانُس الشهيد

قلما توجد عشيرة أشرف من عشيرة القديس فلابيانُس الممتاز بشرف اصلهِ وعلو مناصبهِ وهو ابو البتولين الشهيدتين المشهورتين ببيبانا وديمتريا. وان زوجتهُ القديسة دفروزا بذلت حياتها دون الايمان وانهُ فاز بشرف الحصول على اكليل الاستشهاد

ولا يعرف شيءٌ مما يتعلق باجدادهِ ولا مما يختصّ بطفوليتهِ وغاية ما علم عنهُ انهُ ابن عشيرة قديمة في رومية معروفة بالشرف الرفيع وتبوء مناصب القضاء العليا على انها اكثر اشتهارًا واوفر وجاهةً لتعلقها الغير المنفك بالنصرانية من زمان قديمٍ فان هذا البيت قد اعترف بالايمان علانيةً وقد تربّى القديس على قواعد النصرانية وتأدب بادابها وتهذّب بمباديها. وكان لهُ مع تقواهُ اشتهار في اتم الاستقامة وفي حكمةٍ عزيزة النظير وعرفهُ واجلَّهُ السلاطين المسيحيون وأوجب عليهم ذلك التودُّد اليهِ ودعاهم الى ان يرفعوهُ الى اعلى مناصب المملكة فولوهُ رومية فقام بما يجب عليهِ مع رضا الملوك واهل المدينة

ووفَّى ذلك المنصب العالي كل حقوقهِ بيدَ انهُ لم يتغاضَ عن ايفاء فروض دينهِ وكفى بقداسة زوجتهِ وبناتهِ مدحًا لهُ على حسن التربية التي ربَّاهم اياها وبرهانًا على قدوتهِ الصالحة الكثيرة الفاعلية التي قدمها لعائلتهِ. فكانت غيرتهُ على الدين تبعثهُ على ان يغتنم كل ما يسمح لهُ من الفُرَص

لكي يجعل الاسم المسيحي اكثر اشتهارًا . وعدّهُ الناس لشدة حبهِ للمساكين أبا الفقراء فكان الاكثرون يلتجئون اليهِ عند الاحتياج وكان يكشف الكرب والضيم عن الجميع ويمكن ان يقال ان طيب اخلاقهِ وصلاح سيرتهِ قد شرّفا ديانتهُ فانهُ كان في كل فرصة يظهر غيرةً لمجد يسوع المسيح وكان اجلّ امانيهِ ان يعرفهُ الناس كلهم ويمجدوا لهُ تبارك وتعالى

ولما صار الملك قسطنسيوس بن قسطنطين الكبير ملك الشرق انحاز لبدعة آريوس لكثرة ما أُلحّت عليهِ في ذلك قرينتهُ أُوسابيا فأوقد غضبهُ على الكنيسة نار اضطهادٍ حامية فنفى اكثر الاساقفة المستقيمي الرأي وخصوصًا القديس اثناسيوس الكبير وحكم الشرق والغرب بعد ان ذبح ماكسنس الظالم اخاهُ سنة خمسين وثلثمائةٍ . ولما رأى انهُ سلطان المملكتين لم يعُد يقف عند حدٍّ فنوى (اجارنا الله) ان يجعل رعاياهُ كلهم آريوسيين وبلغ حدّ الافراط في اضطهاد اهل الدين الكاثوليكي وكان القديس فلابيانُس مشهورًا ومعروفًا بالغيرة على الديانة الكاثوليكية بحيث لم يغفل عنهُ الملك المشار اليهِ فلم يدَّخر شيئًا من الحيلة لاستمالتهِ واغوائهِ . فالوعد والتملق والوعيد كل ذلك اتخذهُ ليزعزع ايمانهُ فلم يكن شيء من ذلك ليجبرهُ في امرهِ ويُلقي عليهِ الاضطراب . وما لبث هذا المناضل عن الوهية يسوع المسيح ان أضحى مبشرًا ورسولًا واشتغل بغاية الحمية في تثبيت المؤمنين على الايمان غير خاشٍ من وعيد السلطان وغدا بجرأتهِ ومتانة عزمهِ مبغضًا عند حاشية الملك فخلعوهُ عن منصبهِ ولشدّ ما فرح اذ رأى انهُ مضطرٌ لاجل يسوع المسيح ان يعيش عيشة الافراد من الناس

واعلم انهُ لم يُترك هذا الاعتراف المقرون بالشهامة بدون ثواب زمانًا طويلًا فانهُ لما مات الملك الآريوسي بمدينة موبسويست من اعمال كيليكية سنة احدى وستين وثلثمائة تبوَّأ المنصب القيصري يوليانوس الكافر الملقب بالجاحد واطلق جلَّ همتهِ وعنايتهِ الى اعلان حرب على يسوع المسيح واتخذ التدابير ليلاشي النصرانية من اطراف مملكتهِ كلها ان استطاع وقد بعثتهُ غيرتهُ الوثنية على ان يجدّد جميع اضطهادات السلاطين الوثنيين حتى لم يكن يُسمع في كل موضعٍ الّا بالمناداة بأوامر كالصواعق في مقاومة النصرانية ولم يكن يرى في كل مكان الّا المشانق وادوات العذاب وكانت هياكل الاصنام كلها مفتوحة الابواب وقرّر لهم تقديم الضحايا الكفرية فيما كان المسيحيون محرومين ان يعبدوا الله تعالى ومن كل رياضةٍ مسيحيةٍ وقد اعلن عبدة الاوثان الحرب على المؤمنين في جميع آفاق المعمورة اذ انهضهم من الخمول هذا الملك الجاحد .

واعلم ان القساوة قد بلغت في هذا الاضطهاد أقصى حدودها وكان المصاب عامًّا الّا انهُ لم يُحدث خرابًا في موضع كما احدث في رومية حيث اشتدّ على ذوي المآثر والمفاخر بنوعٍ خصوصي . فكنت ترى الاغنياء في غاية الذلّ من اجل الايمان وكذا الاكابر اهل المقامات العالية فاصابهم اتمّ الاحتقار وغاية الهوان

واما القديس فلابيانُس فعلم انهُ لا يكون في امان من عاصفة . لكن في اول الامر سواء احترموا صيتهُ او سنهُ راعوهُ نظرًا لخدمتهِ فظهر ان الاضطهاد الاول تجاوزهُ فاتخذ حريتهُ ليخفّف عن الذين اصابهم الاضطهاد ويساعدهم . فكان يطوف المنازل ويذهب يعزّي المؤمنين حتى في الدياميس التي كان يضمّهم فيها الخوف فكان يدخل السجون ويحرّض المعترفين الشهام ويصعد ايضًا الى سُلَّم المشانق ليقوّيهم ويشددهم على الاستشهاد . وفي الجملة فلم يَنِت غيرتهُ ومحبتهُ المسيحية احدٌ فعزّى بعضًا وقوّى بعضًا وأحسن الى الجميع

واعلم ان المضطهدين لم يصبروا طويلًا على ما ابداهُ من الغيرة المفرطة والمحبة الشديدة . فاعلموا الملك ان فلابيانُس الحاكم القديم يعضد النصرانية خلافًا للاوامر الملكية وأبطل الوثنيين . فسخط عليهِ الملك وأمر ابرونيانُس الذي خلفهُ في منصب الولاية ان لا يلتفت الى مناقبهِ ولا الى سنهِ ولا الى الخدم التي قدمها للمملكة فأمر بان يُقبض عليهِ ويُكره على جحد ديانتهِ والّا فيموت تحت العذاب

أما ابرونيانُس فلما كان رجلًا قاسيًا بربريًّا أنفذ للحال امر الملك فأُمسك القديس فلابيانُس وقُيِّد بالحديد وأُلقي في سجنٍ مظلمٍ . ثم استنطق هذا الرجل المحترم نظرًا للمناصب التي تقلدها واعتبارًا لجدرانهِ بالفضل . فاجاب القاضي بما اعلن لهُ ان ايمانهُ صحيحٌ مختبرٌ وانهُ نصرانيٌّ وان هذه الصفة الوحيدة التي يفتخر بها وانهُ مستعدٌّ لان يبذل كل اموالهِ ويجود بنفسهِ ايضًا من اجل ديانتهِ فما احظهُ وما اسعدهُ اذا قبل الله منهُ هذه الضحية . واما ابرونيانُس فألحّ عليهِ وحرّكهُ بالوعد والوعيد ان يمتثل امر الملك اما القديس فلم يتزعزع . ولما

اراد هذا القاضي ان يُرضي الملك امر ان ينزع عن فلابيا نُس لقب الشرف ويُعامَل كأحقر العبيد

وقد حُكم على القديس فلابيانُس بالعذاب الاشدّ هوانًا اذ رُسم على جبهتهِ بحديدٍ محمَّى كأنهُ شريرٌ مفضوح فاحتملهُ بفرحٍ هذا الرجل الكريم الذات والسامي المقام ورضي بهذا العار كأنهُ اعظم شرفٍ حصل عليهِ في حياتهِ . غيران ابرونيا نُس لم يلبث هناك واشتهى ان يقطع رأسهُ بحدّ آلة الموت لكنهُ اذ علم انهُ كان حبيبًا الى الجميع ومعتبرًا في رومية خاف ان يورثهُ ذلك فتنةً فاكتفى ان يأمر بنفيهِ نفيًا دائمًا وبضبط كل اموالهِ من دون ان يُبقي لهُ ما يعيش بهِ فنُفي الى المكان المعروف بمياه الثور ويقال لهُ اليوم اكوَبندَنتي وامر الحراس ان يسيئوا اليهِ جهدهم حتى يهلكوهُ ضنكًا وشقاء

ولاجرم انهُ فرح اتمّ الفرح بنفيهِ من اجل المسيح ولما ترجح عندهُ انهُ يتوصل بذلك الى مجد الاستشهاد غادر امرأةً لامساعد لها وفتاتين معرّضات لاضطهاد قاضٍ كافرٍ لكنهُ تركهنَّ بشجاعةٍ لعناية الله تعالى ولم يخالج قلبهُ شكٌّ من ان الرب يُنزل لهنَّ من الله كل ما هو ضروري من المساعدة والبركة ليبقينَ ثابتات على الايمان حتى ان الواقع برهن لهُ انهُ كان مصيبًا لان الله جلّت حكمتهُ جعل أُولئك النساء الثلاث ثلث شهيدات مشهورات

ولم تطُل إقامتهُ بمنفاهُ لكن كانت مقدسة فاحتمل كل ما توصلت قساوة القاضي وتشدُّد الوثنيين الى اختراعهِ ليجعلوا منفاهُ شاقًّا مكروهًا . هذا وكان جل اهتمامهِ مصروفًا الى الصلاة فقط وخصص لها الليل والنهار واثابهُ الله على هذه التقوى وتوجه بتاج الاستشهاد المجيد ومات مما كابد من الضنك في منفاهُ ولذلك تعتبرهُ الكنيسة كشهيد ماجدٍ ليسوع المسيح كما ان كثيرين لم يموتوا لابالسلاح ولا بالنار وهم مع ذلك لا يزالون متمتّعين بهذا الشرف

اليوم الثالث والعشرون

وفيهِ ترجمة القديسة نصرة الشهيدة

اطلب اليوم التاسع من شهر تموز حيث ادرجنا ترجمة هذه القديسة في ترجمة اختها القديسة اناتوليا الشهيدة

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس عُبيد الله

اورد لنا القديس غريغوريوس البابا المعظم ترجمة القديس عُبيد الله في كتاب محاورتهِ الرابع في الفصل الرابع عشر وفي مقالتهِ الخامسة عشرة على الانجيل المقدس على سبيل التعزية للذين يمتحنهم الله تعالى بامراض مزمنة موءلمة فقال في مقالتهِ المذكورة

انا نرى كثيرين من الانقياء يمارسون الخير ويمتحنهم ثقل البلايا يفرّون من شهوات الدنيا جميعها لكنهم يتعبون بضربات كثيرة . فانهم حسب قول الرب يحفظون كلمة الله في ارض قلوبهم الجيدة ويثمرون بالصبر فيصير الصبر الارض الجيدة خصبةً لان الخير الذي نصنعهُ لا يُفيدنا إن لم نحتمل الشر صابرين . ومن المحقق انهُ على مقدار ما يتقدم الانسان في الفضيلة يمتحنهُ الله عزّ اسمهُ بالبلية لكي يأتي بأثمار متزايدة فيزداد الله تعالى مجدًا وللانسان أجرًا . ونرى الناس يعصرون العنب والزيتون ليستخرجوا خمرًا وزيتًا ويدرسون السنبل لكي يأخذوا قمحًا . فمن رام اذًا ان ينتصر على رذائلهِ ويربح الفضائل فليحتمل البلوى صابرًا فانهُ سبحانهُ لا يضر بنا الآلكي يُطهرنا ويُزيل عنا صدأ رذائلنا ونقائصنا

قد راينا في رواق كنيسة القديس اكليمنضوس رجلاً مدعوًّا عُبيدًا رآهُ ايضًا جميع سكان رومية (١) كان مسكينًا ليس لهُ شيء من اموال هذه الدنيا لكنهُ غنيٌّ جدًّا باستحقاقاتهِ اصابهُ مرضٌ ثقيل عضال فما زال بهِ حتى جعلهُ في حال يُرثى لهُ هذا واعلم انهُ وُلد مخلّعًا ولم يكن يقدر ان يقوم من سريرهِ بل ولا ان يرفع يدهُ الى فيهِ ولا ان ينقلب من جانبٍ الى آخر واستمرّ على هذا الحال زمانًا وكان لهُ ام واخ يسعفانهِ والذي كان يفضل عندهُ مما كانت تتصدق بهِ الناس عليهِ فكان يُوزعهُ على المحتاجين . وكان أُميًّا لا يعرف القراءة لكنهُ يشتري الكتب المقدسة وكان يكلف زائرهِ ان يتلوها عليهِ فبهذا عرف مضمونها وكان يقضي ليلهُ ونهارهُ في تقدمة الشكر لله تعالى وتمجيدهُ مترنمًا غالب الاحيان بالتسابيح الالهية

فلما جاء الزمان الذي كان الرب يريد ان يجازي صبرهُ اشتدَّت اوجاعهُ وامتدت الى الاعضاء الرئيسة استدل بذلك على اقتراب موتهِ فاستدعى اخوتهُ الفقراء لينشدوا معهُ بترنيم المزامير وكان يترنَّم معهم وهو مشرف على الموت

(١) حاشية . كل من زار في هذا العصر كنائس رومية المكرَّمة راى في الرواق نفسهُ المكان الذي كان القديس عبيد الله ساكنًا فيهِ وبالقرب منهُ كتابةً على جدران الكنيسة يذكر فيها مختصر سيرتهِ المقدسة

وفيما كان على تلك الحال منتظرًا لقاء ربهِ حينئذٍ سمع ترنيمًا سماويًا فقال للحاضرين انصتوا ودعوني اسمع اصوات الملئكة وفيما هو صاغٍ لها مات بين ايدي الملئكة . وكان احد رهباننا حاضرًا فشهد انهُ بعد وفاة هذا القديس عبق المنزل برائحة ذكية طيبة ما زال الجمع ينشقونها الى ان دفنوهُ فهكذا يموت من يصبر على الفقر والمرض . ان الارض الجيدة اثمرت ثمرًا جيدًا بحسب قول الرب وحقَّ لها لانها اذ كانت مفلوحةً بسكة التجربة وصلت الى حصاد الجزاء . اما انتم يا اخوتي فاقول لكم : ليت شعري بماذا نعتذر ونتبرأ في يوم الدينونة نحن الذين قد اتخذنا من الله تعالى أيديًا وارجلاً ونتقاعد عن العمل وتكميل ما امرنا الله بهِ وها هوذا رجلٌ مخلع معدوم الحركة تمم خدمة الله بنشاط وامانةٍ . وبماذا نعتذر امام الرب ان خالفنا ناموسهُ . فان اراد ان يحكم علينا فلا يفتقر الى استحضار الرسل الذين ببشارتهم ادخلوا نفوسًا عديدة الى السماء او الشهداء الذين سفكوا دماءهم حبًا للآخرة بل يكفيهِ استحضار المسكين الذي لم يزل يعمل الخير مع انهُ لا قدرة لهُ في ان يحرك يديهِ ورجليهِ فليحث مثالهُ كلاًّ منكم على ممارسة الفضيلة والاشتغال الدائم بعمل خلاصكم الابدي لكي تقتدوا بنشاط القديسين فتشاركوهم في اجرهم

اليوم الرابع والعشرون

وفيهِ ترجمتا القديستين تراسيلا واميليانا

كانت هاتان القديستان أُختي والد القديس غريغوريوس الكبير الذي ذكر ترجمتهما في كتاب محاوراتهِ الرابع في الفصل السادس عشر وفي المقالة الثامنة والثلثين على الانجيل الطاهر

قال كان لابي ثلث اخوات خصَّصنَ عذريتهنَّ للسيد لهُ المجد فكان اسم احداهنَّ تراسيلا والثانية كورديانا والثالثة اميليانا فزهدنَ في الدنيا وأعرضنَ عن زخارفها بتمام الحرارة وادخلنَ بعد ان نذرنَ التبتُّل لله تعالى في بيتهنَّ عيشةً قانونيةً ونجحنَ نجاحًا غريبًا في الفضيلة بالقدوة الصالحة التي كنَّ يعطينها بعضهنَّ بعضًا . غير انهُ ظهر بعد جملة اعوام ان بينهنَّ تفاوتًا واختلافًا فان تراسيلا واميليانا كانت تشتد فيهما يومًا فيومًا محبة الله حتى صح القول انهُ لم يكن لهما على الارض الاَّ الجسد وان روحيهما كانتا قد ارتفعتا الى نعيم الابدية اما كورديانا فتراخت وبردت حرارة حبها الصافي الذي كان قلبها مضطرمًا بها اولاً فألمَّ بها الفتور واخذ حبُّ الدنيا يشتدُّ عندها رُويدًا رُويدًا

واعلم ان التغير المومأ اليهِ عرفت بهِ تراسيلا فجعلت تقول لاميليانا أرى ان اختنا لم تبقَ في شركتنا فقد رغبت عنها ولم يعُد لها عناية بان تبقى على ما وطّنت نفسها عليهِ من المقاصد الصالحة وكانتاها لامتاها لومًا أُفرغ بقالب اللطف وأعلمتاها ان خفنها كانت غير لائقة بالنذر الذي ارتبطت بهِ . فاظهرت كورديانا حنيقةً محبتها ان تنتصح بهذهِ النصائح الحية ولما قيل لها في أن تحسن سيرتها وتقوّم منهاجها كانت هيئة محياها تشير الى الوقار اللائق بالفتاة العذراء بيد ان هذا الاحتشام كان يفارقها عند انتهاء النصيحة فتستأنف الرجوع الى ما كانت عليهِ من الحرية في الحديث وتمام الطيش فتذهب في طلب رفيقةٍ من الشوابِّ العالميات وما كان يسعها الحال ان تخالط اللاتي لا يعشن على مقتضى حال الدنيا

واما تراسيلا فلما كانت اكثر مثابرةً على الصلاة واشدَّ عنايةً بامر التقشف وضنك العيش تذليلاً لجسدها وعنيفةً على ذاتها في القطاعة والاحتشام ارتفعت عمَّا قليل الى درجةٍ عاليةٍ في القداسة وقصَّت عليَّ انها رأت رؤيا ذات يوم وفي تلك الرؤيا ظهر لها ابو جدّي الطوباوي فيلكس اسقف الكنيسة الرومانية وأراها مكانًا متوقدًا بالضياء على نوع غريب وقال لها هلمي فانزلك في موضع النور هذا . ولما كان الغد اصابتها حمَّى اقتادتها عمَّا قليل الى القبر . واجتمع هناك بحسب ما اعتادهُ اهل ذلك الموضع من الالتئام في بيت من اشرف على الموت من الشرفاء تعزيةً لاقاربهِ خلقٌ كثيرٌ من رجال ونساء وكانت فيهم والدتي فاخذت المريضة في النزع وكلهم قد احدقوا بسريرها وكانت تصرخ حينئذٍ اذهبوا وخلوا المكان فاني ارى يسوع آتيًا اليَّ وفيما هي تحدق نظرها بالذي كانت تراهُ اذ حُلَّت روحها الطاهرة من رُبط الجسد

واعلم ان الرائحة الذكية التي كانت الغرفة فائحةً بها دلت خير دلالة على ان مبدع هذا الذكاء قد شرفها بحضورهِ ولما كشف عن جسدها ليغسل بحسب العادة اذا برفقتيها وركبتيها ثفناتٌ كركب الجمال وما اقواها شهادةً بانها كانت تطيل الصلاة طول عمرها . وجرت هذه العجائب قبل

عيد الميلاد واما بعد العيد فتراءت لاميليانا وقالت لها تعالي يا شقيقتي لم أُعيِّد معكِ عيد الميلاد ولكنّنا نُعيِّد معًا عيد الظهور. فقالت اميليانا أَدعوتِني وحدي فماذا يكون من امر اختنا ومَن يهتم بأمرها . فاجابتها القديسة وقد قطّبت وجهها انا لكِ اقول تعالي فان غُرديانا عزمت ان تكون من أهل الدنيا . وعقيب هذه الرؤيا مرضت اميليانا فماتت قبل عيد الظهور كما كانت اختها تنبأت عنهُ (اي في اليوم الخامس من كانون الثاني كما روى السنكسار الروماني)

واما غرديانا فلما رأَت انها قد اصبحت منفردةً تمادت في التراخي وقد فقدت مخافة الله وانكرت الحشمة والادب ونسيت كل النسيان انها قد نذرت لله بتوليتها فتزوجت بوكيلها . هذا وزاد القديس غريغوريوس ما مضمونهُ . قد رأيتم ثلث اخوات تبتّلنَ لله تعالى في زمن واحد بحرارةٍ متساوية لكن لم يثبت الّا اثنتان منهنَّ لانهُ حسب قول السيد المسيح المدعوّون كثيرون والمنتخبون قليلون فلذا على الذين يمارسون الفضيلة ان لا يتصرّفوا بقواهم بل يكونوا على الدوام حذرين من انفسهم خشيةَ ان يفقدوا في الغد ما قد حصلوهُ حتى الان بالجهد الجاهد (انتهى)

اعلم ان القديس غريغوريوس الذي روى ما تقدم ذكرهُ مخاطبًا الشعب الروماني في كنيسة القديس اكليمنضوس اذ رأى الحاضرين مضطربين من ما سمعوا من غرديانا قال ويمَ اضطربتم خائفين مما ذكرتهُ فسأورد الآن من اعمال الرحمة الالهية ما يُعزّي قلوبكم وهو انهُ قبل سنتين دخل رجل في ديري الذي هو بالقرب من كنيسة القديسَين الشهيدَين يوحنا وبولس ومات فيهِ بعد حفظهِ القوانين بتدقيق في امانةٍ وكان لهُ اخٌ دخل معهُ في الدير لا حبًّا للكمال بل حبًّا لاخيهِ وكان من جاء حبًّا للفضيلة يرضي جميع الاخوة اما الآخر فبالعكس لان سيرتهُ مباينة لسيرة اخيهِ ومنافية لها كانهُ في الدير اضطرارًا لا اختيارًا ومع انهُ شرير احتملهُ الاخوة جميعهم مراعاةً لاخيهِ . فكان مهذارًا كثير الكلام رديّ العمل محب التفاخر عادم التهذّب لايحتمل من ينبههُ ويحثهُ على حسن السيرة وبالجملة فكان تصرفهُ هذا ثقيلاً جدًّا على الاخوة غيرانهم كانوا كما اسلفنا يحتملونهُ حبًّا لاخيهِ وزد على ذلك انهُ كان يستهزئ بمن ينبههُ لانهُ لم يقتصر على عدم ممارسة الفضيلة بل كان لا يريد ان يُؤتى بذكرها فيغضب ويحلف انهُ لاينقاد اليها . ولما كان على تلك الحال اصابهُ في بطنهِ الوباء الذي سرى حديثًا في المدينة فاشرف على الموت ولما كان في النزع اجتمع الاخوة ليساعدوهُ مصلين عند وفاتهِ واذ بردت اطراف جسدهِ ولم تبقَ حرارة الّا في اطراف صدرهِ وكان جميع الاخوة يزدادون تضرُّعًا بازدياد شدة النزع واقتراب وقت وفاتهِ اذا بالمريض يجهد في ان يقطع صلواتهم بصراخ قائلاً ابتعدوا ابتعدوا هاءنذا أُعطيت للتنين ليفترسني ولا يقدر عليَّ وانتم حاضرون فهو اخذني برأسي فان حُكم عليَّ بذلك فلماذا يبطئ الامر لاجلكم . فأخذ الاخوة يقولون لهُ ما هذا القول يا اخانا اعمل علامة الصليب على ذاتك . اجاب بحسب الامكان قائلاً اني اريد ذلك ولكنهُ لا قدرة لي عليهِ لكون التنين يقهرني . فزاد الاخوة في التضرُّع جثيًا على الارض يذرفون الدموع لاجل خلاصهِ . وبعد مدةٍ اخذ المريض يرفع صوت متهلل قائلاً الحمد لله هوذا التنين قد هرب ولم يقدر عليَّ بواسطة صلواتكم فتضرَّعوا اذًا في مغفرة خطاياي لاني أُريد التوبة وترك سيرتي العالمية تمام الترك

وقال القديس غريغوريوس ان رجلاً لم تكن الحياة في اطراف جسدهِ دُعي الى الحياة وتاب قلبًا الى الله ولم يزل يُمتحن بضربات كثيرة ومات حديثًا بعد التأديب الشديد . انهُ كان مشرفًا على الموت ولم يتسلط عليهِ التنين لانهُ غلبهُ بتغيير قلبهِ . قد وقعت غرديانا المتقدم ذكرها من اعلى السيرة الروحية الى اسفل ورجع هذا من الموت الى الحياة فلا علم اذًا لاحد بما يأتي لهُ من الاحكام الالهية لان المدعوين كثيرون اما المختارون فقليلون فمن حيث ليس لاحدٍ علم اكيد بخلاصهِ فعلى الجميع الخوف من اعمالهم والاتكال على رحمة الرب لا على قوتهم الذاتية

اليوم الخامس والعشرون

وفيهِ ميلاد سيدنا يسوع المسيح

روى السنكسار الروماني في أمر هذا العيد الشريف ما فحواهُ انهُ لما كانت سنة تسع وتسعين ومائة وخمسة الآف لتكوين العالم وهي السنة السابعة والخمسون والتسع مائة والفان للطوفان والسنة الخامسة عشرة والفان لميلاد ابرهيم أبي الاباء والسنة العاشرة والخمس مائة والالف لخروج الشعب الاسرائلي من مصر والسنة الاثنتان والثلثون والالف

لمسح داود النبي ملكاً وفي الاسبوع الخامس والستين الذي عينهُ دانيال النبي والسنة اليونانية الاربع والتسعون والمائة والسنة الثانية والخمسون والسبع مائة لبناء رومية والسنة الثانية والاربعون لملك أكتافيانوس اغسطس. وحينما كان العالم على امان وسلام رام يسوع المسيح الاله وابن الله الازلي ان يقدّس العالم بمجيئهِ فبعد ان حُبل بهِ بقوة الروح القدس وعبرت تسعة اشهر الحبل بهِ تعالى وُلد ببيت لحم بمدينة يهوذا من مريم العذراء المجيدة. اه

لاجرم انهُ يجب علينا ان نتأمل في هذا السرّ العجيب الجزيل التعزية ونبحث اولاً في السبب الذي لاجلهِ رام هذا الاله الضابط الكل ان يتردّى بناسوتنا واختار ان يُولد في اقصى غاية المسكنة والاتضاع في مذود البقر. وثانياً ان نعتبر بتأنٍ القصة الانجيلية وكيفية ميلاد هذا الرب وما الذي علمنا بنموذج فضائلهِ اما السبب الذي احب رب المجد من اجلهِ ان يهبط من السماء ويتردّد على الارض فقد اوردناهُ في الكلام على عيد البشارة

فلنبحث الان عن الاسباب التي لاجلها لم يُرد تعالى ان يُولد في حال العزّ والتنعم وقد كان ذلك في طاقتهِ فضلاً عن انهُ يستبين ان هذا كان لائقاً بالوهيتهِ تعالى ولكن حيث انهُ شاء ان يُولد في حال الفقر والهوان لاق بهِ تبعاً لمشيئتهِ ان يُولد بهذه الحال فنقول ان ميلادهُ هذا الذي ادهش الملئكة يقدّم لله اعظم المجد ويجدينا ابلغ النفع. نعم قد كان يقتضي مجد الله الاعظم ان ابنهُ تعالى عند مولدهِ الزمني يرذل كل فخر دنيوي وتنعم ارضي ويختار الفقر والذل على اننا لا نقدر ان نقيس عزّة الهنا الغير المتناهية على مقياس حكمة البشر المحدودة ولهذا قال على لسان اشعيا نبيهِ ان افكاري ليست كافكاركم ولا طرقي كطرقكم لانهُ كما تعالت السماوات فوق الارض هكذا تعالت طرقي فوق طرقكم وافكاري فوق افكاركم. (اشعيا ٥٥: ٨) ان الله تعالى نزل في ميدان الحرب مع اركون العالم فلكي ينتصر على هذا الملك الدخيل المختلس ظلماً السلطة الملكية ويُذلّهُ لم يُرد ان يُحارب هذا الجبار المتشبه بجليات المتكبر ويغلبهُ باسلحة شاول الذهبية أعني بها الفخر والتنعم العالمي بل اختار الفقر والذل وبهذا المقلاع الداودي ظفر بهِ وقطع هامتهُ. واعلم ان شان الانتصار ان يزداد عظمةً على قدر ازدياد ضعف أسلحة الظفر. لاننا اذا لاحظنا اقتدار ملوك الارض خير ملاحظةٍ رأينا ذلك الاقتدار وحكمنا عليهِ صواباً انهُ هو عين الضعف والعجز فكيف وهم اذا نووا ان يفتحوا مدينة أو ان يظفروا بمملكة فانهم يحتاجون الى جنود كثيرين فضلاً عن كثرة المدافع والاسلحة والخيول ووفور النفقة ومن دون هذه كلها لا يقدرون ان يضبطوا الشعوب المتمردة ولا يعتزّوا على اعدائهم ولا يحفظوا ممالكهم في العدل والسلام. اما السيد المسيح فلما رام ان يظفر بالعالم وينتصر على قوات الجحيم فلم يحتج الى احد اصلاً لانهُ وحدهُ بمجرد ذاتهِ قادر على اجراء كل ما يشاؤهُ. فلننظر الى هذا الطفل الالهي الموضوع في مذود البقر المدرج باللفائف كطفلٍ ضعيفٍ عاجز فنراهُ في مذودٍ يظهر جلال قدرتهِ لانهُ بقوة كلمتهِ وامرهِ هبطت الملئكة من السماء وسجدت لاسمهِ واجتذب المجوس فخرّوا لعزتهِ سجداً واقول على الاطلاق انهُ يظهر في الفقر غنيًّا وفي الضعف مقتدراً وفي الطفولية الهاً وهذا ما ارادهُ آباء المجمع الافسسي المقدس قائلين عن ابن الله انهُ اختار ما كان في العالم فقراً وذلاً واهانةً ليعلم البشر بذلك انهُ اصلح العالم بلاهوتهِ. فهذا هو السبب الذي من اجلهِ اختار والدةً مسكينةً ووطناً حقيراً لانهُ كان فقيراً فلم يملك مالاً وقد شهد بهذا مذودهُ شهادةً قاطعةً

والسبب الثاني لميلاد ابن الله على النمط المذكور انما هو نفعنا لانهُ جلت رحمتهُ قد اتى لاجلنا اي لكي يشفي الانسان من الداء الذي فشا واستوبأ في اطراف البرية كلها وهو داء حب الذات الذي امات في نفوسنا محبة الله وهذا الحب الذاتي الرديء يلد ثلثة بنين أشراراً مثلهُ وهو حبٌ مفرطٌ لحطام الدنيا والكرامات العالمية واللذات الحسية الشهوانية فهذه الاغصان الخارجة من هذه الشجرة السامّة تنمو فينا وتأتي بأثمار الموت بكل ما يفسد حياتنا. على ان اكثر الناس يجعلون كرامتهم لا في الفضيلة وحدها بل يضعونها في اشياء باطلة فانهم من اجل الحصول عليها يزجّون انفسهم في لجج خطايا وبلايا كثيرة ويهملون ما يحتاجون اليهِ في خلاص نفوسهم لانهم يرونهُ مضاداً لما يحبونهُ من الكرامات الوهمية. وماذا اقول في افراط ارتياح الناس للغنى الذي قال فيهِ الرسول انهُ اصل كل الشرور وانهُ لاجلهِ كفر كثيرون بالايمان واخيراً فالشهوة المائلة بالانسان الى اللذات اللحمية هي نبع شرور أُخر متعدّدة لانها تصيرهُ يرذل لذّة الضمير

الصالح التي قد شبهها الحكيم بلذة وليمةٍ دائمة (امثال ١٥ : ١٥) ويلتمس بانهماكٍ ملاذ المآكل والمشارب والمنام والملابس الفاخرة و يرتطم في أوحال اللذات اللحمية البهيمية . وقد اشار الى هذا الانجيلي قال ان كل ما في العالم انما هو شهوة الجسد وشهوة العين وفخر العمر (رسالة يوحنا الاولى ٢ : ١٦)

فلما رآنا ابن الله على هذه الحال الشقية موثقين بهذه السلاسل الثقيلة أسرى أعداء قساةٍ معذَّبين بكل ما يكدر علينا الحياة ويهلك انفسنا ويحملنا مرارًا كثيرة على ان نجعل بطوننا آلهتنا فمن ثم بما انهُ طبيب وقد نزل من السماء لكي يشفينا من هذا الداء رأى انهُ يجب عليهِ ان يعمل ما تقتضيهِ صناعة الطب اي ان يداوي داءنا بالضد ومن اجل هذا السبب داوى كبرياءنا بالاتضاع ومحبة الغنى بالفقر ولان المثال هو اقوى تاثيرًا من المشورة شرع هذا الطبيب الماهر والمعلم الحكيم منذ حين دخولهِ العالم يعلمنا بالفعل ما كان مريدًا ان يعلمناهُ في كل زمن حياتهِ وموتهِ . فأقام في الاصطبل الذي وُلد فيهِ منبرًا للحكمة السماوية المضادة الفلسفة البشرية الباطلة وأرانا في ذاتهِ غاية الاتضاع والفقر لكي نطلع على شفاء حالنا . ومن الغريب انهُ مع كونهِ طبيبًا وغير محتاج الى هذا الدواء تناولهُ قبلنا حتى لا نتكرَّه من تناولهِ نحن المحتاجين اليهِ . نعم انهُ اذ قد نزل من السماء ليشفي امراضنا كان لا بدَّ لهُ من ان ينحدر على مثل هذا الوجه والاَّ فكيف تُرى أيليق بالذي جاء ليبرئنا من داء التجبُّر ان يظهر بالعزّ والفخر أو يحسن بمن آتى ليستأصل من القلوب محبة الغنى ان يقدم علينا بثروةٍ واسعةٍ بل ماذا تُرى يليق بالذي اراد ان يرذل شهوة التنعم غير اختيار الضنك عليها . ومن المقرر عند الاطباء ان الداء يُداوى بضدهِ ولهذا تعين عندهُ جلت حكمتهُ ان يعالجنا بهذا الدواء المركب من الفضائل المضادَّة هذه الرذائل . وكيف كان يمكن ان يُقبَل تعليمهُ لو رأيناهُ يضادّهُ بمثالهِ ويا ليت شعري كيف كان يمكنا ان نخلع الانسان العتيق ونلبس الجديد كما قال الرسول لو رأيناهُ تعالى متردّيًا بلباس الانسان القديم . فوجب والحالة هذه ان يظهر تعالى على الحال التي شاء ان نحيا وان مثال سيرتهِ يكون مطابقًا تعليمهُ لانهُ لو ظهر على نوعٍ آخر لضادَّ ذاتهُ بذاتهِ ودحض بالفعل ما اثبتهُ بالقول ومن ثم فلا يكون قد أظهر حكمة الاب الازلي . لانهُ لم يكن على الاسلوب الواجب مظهرًا لنا بالفعل طريق القداسة والسعادة مزيلاً بمثالهِ ضلال اهل العالم الذي يبعثهم على استعظام حطام الدنيا الزائلة وعلى الظن باشواك الغنى والجاه وملاذّ الزمان انها وردٌ يجعلهم يعدُّون المرارة عسلاً والتعب والحزن راحةً وسرورًا . فاذا تقرَّر ذلك كلهُ فنقول انهُ من حيث ان ابن الله كان قد اتى لكي يكون هامة القديسين ومرشدهم وقائدهم ونموذج كل الفضائل التي يجب عليهم ان يحبُّوها فقد ساغ لهُ تعالى ان يأتي الى العالم على المنوال المتقدم ذكرهُ

ولهذا قال القديس برنردوس في موعظتهِ على ميلاد السيد المسيح ما اضطرَّ رب المجد الى ان يتضع ويتذلَّل ويتصاغر هكذا غير ان يحثَّنا على الاقتداء بهِ تعالى . انهُ الان بمثالهِ يسبق ويقول من مذودهِ ما سيقولهُ بفمهِ العزيز تعلَّموا مني اني وديعٌ ومتواضع القلب . ولا جرم انهُ نهاية الفظاعة أن يتسامى الانسان على الارض وهو ناظر الى الاله قد صار طفلاً بل انهُ وقاحةٌ غير محتملة ان يتباهى الدود مفتخرًا حيث رب العزَّة بعينها قد اتضع متذللاً . فالذي لا يُشفى داء تكبرهِ وبخلهِ بهذا المثال الالهي فليت شعري أين يجد دواء شافيًا . فهذا هو المثال الالهي الذي اقتدى بهِ الوفٌ وربواتٌ من الانام الذين زهدوا في الدنيا ورغبوا عن حطامها ومن كونهم اغنياء مقتدرين متنعمين اختاروا ان يكونوا مساكين مهانين متضعين وجعلوا سرورهم في التعب ومجدهم في الذلّ وحياتهم في الموت

اعتبر الآن متأنيًا ما يقولهُ ماري لوقا الانجيلي في ولادة الجزيلة الغبطة مريم البكر وفي ميلاد ابنها الالهي ولكن قبل ان نذكر هذا الخبر المبهج ونلاحظ هذا المنظر العجيب المذهل عقول الملئكة نستدعيك لتتذكر ان هذا الرب لم يُولد خاضعًا للآن والأين كسائر الخلائق لكون الجنين كما قال القديس برنردوس لا يقدر ان يخرج من حشى والدتهِ ويلج هذه الحياة متى اراد وحيثما يشاء اما مخلص العالم رب الازمنة والاماكن فلهُ ان يختار المكان والزمان اللذين يجب أن يُولد فيهما وان يستخدم كل شيءٍ لتكميل أحكام عناية الله التي من جهةٍ تبلغ غاياتها بوسائط لا يحول دونها مانع ومن أخرى تنظم الامور وترتبها على أحسن وجهٍ حتى يبين احيانًا أنها اتت من ذاتها وكأن العناية الالهية لا تسعى في تدبيرها . وهذا الاعتبار جزيل النفع والتأثير لذوي الانفس التقيَّة الراغبة في مجد الله

تعالى حين ورود بعض اشياء مستغربة كأن الله تقدس اسمهُ لم يهتمَّ بها أو كأنها لم تكن خاضعةً لسلطانهِ وعنايتهِ. لانهُ حينئذٍ يفعل ما يفعلهُ قائد سفينةٍ يمسك الدفَّة وبها يوصلها الى الميناء سالمةً فيما بين امواج البحر الهائجة ولهذا قال بلسان نبيهِ اشعيا إنَّ مشورتي تثبت وكل إرادتي تتمُّ (اشعيا ٤٦ : ١٠)

فهذه العناية الالهية عينت مكانًا وزمانًا ليولد فيهما ابن الله وابن مريم العذراء الوحيد واستخدمت لاتمام مقصودها ملك الرومانيين وكل الخلائق. فاختارت اولاً نظرًا للزمان ان تمرَّ اجيال كثيرة بعد خطيئة آدم ليعقل الانسان جيدًا شدَّة مرضهِ وغاية احتياجهِ الى العون ويعلم يقينًا أنَّ القوَّة البشرية عاجزة عن مداواتهِ فيشتهي و يطلب بأشدّ الرغبة هذا الطبيب السماوي و يقبلهُ بأعظم اكرام. ثم ان ابن الله الملك السليم ومحب السلام الوسيط بين الله والناس اختار لميلادهِ زمن الصلح لانهُ رام ان اغسطس الملك بعد الانتصار على اعدائهِ يحظى بسلامٍ تامٍ. ولما كان تعالى آتيًا ليكون لنا معلمًا كما تقدمنا فقلنا ابتدأ عند ظهورهِ ان يعلمنا شَظَف العيش واماتة الجسد ولذلك اختار شهر كانون الاول أعني زمن البرد القارس. ولكي يري نفسهُ انهُ ابن داود الذي كان قد وعدهُ بان يُولد من ذريتهِ اختار بيت لحم وهي قرية صغيرة قريبة من اورشليم لكي يكون مثال الاتضاع لبني آدم المفتخرين بشرف مكان ميلادهم ولكي يتمَّ المراسيم الالهية وما قالهُ تعالى بلسان ميخا النبي وانتِ يا بيت لحم ارض يهوذا لستِ بصغيرة في أرض يهوذا لانهُ منكِ يخرج المدبر الذي يرعى شعبي اسرائيل (ميخا ٥ : ٢). فدبَّر الله عزَّ اسمهُ الأمور هكذا وهو ان اغسطس الملك أبرز أمرًا بهِ كان يُوصي كل أحد من رعاياهُ ان يكتب اسمهُ في دفتر المدينة حيث وُلد رأس قبيلتهِ وكان قصد الملك بهذا ان يعرف عدد الذين في ملكهِ ليضع عليهم جزية وبها يزداد غناهُ. وهذا الامر الاتفاقيُّ كان بتدبير عناية الله جلت حكمتهُ وقد اتخذهُ سببًا لتكميل مقاصدهِ لان الجليلة مريم البتول سافرت مع خطيبها العفيف القديس يوسف وذهبا الى بيت لحم لانهما كانا من ذرية الملك داود الذي وُلد ببيت لحم وكانت العذراء قاربت الولادة

فلما وصلا الى القرية وجداها مملوَّة بالناس الذين قد اتوا من كل ناحية ليكتتبوا ومن أجل هذا السبب ولفقرهما لم يُؤوهما احد فدخلا اصطبلاً في خارج القرية حيث كان الرعاة المتغربون يبيتون متى مسَّت الحاجة فالى هناك دخلت ملكة السماء لتلد ربَّ العالمين خالقها وخالق الكل. فلما حان الزمان المتعلق بهِ خلاص البشر والظفر بالشيطان والخطيئة والموت انفردت البتول وخاضت بحر التأمل في ميلاد ابن الله فالتهب فيها شوق عظيم الى مشاهدة ابنها الالهي ورفعت يديها الى السماء على ما ذكرت القديسة بريجيتا في كتاب رؤياها وهتفت قائلة ايها الاب الازلي وهبتني ابنك الوحيد ووضعت في مُستودعي هذا الكنز العظيم واخفيت هذه الدرَّة السماوية تحت سجف أحشائي اسأل جودك ان تري العالم صورتك التامَّة اعني ابنك المسجود لهُ لكي يعرفك الناس بهِ فليخرج ابن الله من خدرهِ لينظر البشر خالقهم والملائكة ملكهم اللابس ثوب ناسوتنا ليرى الخاطئ مخلّصهُ والاعمى نورهُ والمريض طبيبهُ ولتبصر أمتك ابنها الوحيد .

فحينئذٍ تمَّ ما قال الحكيم بروح النبوَّة فانهُ لما انتصفت تلك الليلة وحينما كانت البرية اجمع على تمام السكوت ظهر من السماء الكلمة الازلي القادر على كل شيء وقطرت السموات عسلاً وولدت البتول ابنها من غير وجعٍ ولا تعبٍ ومن دون فساد بتوليتها كما انها حبلت بهِ ولم تمسَّ عذريتها. وشاهدت تجاهها نورها بل نور العالم كلهِ أشدَّ بهاء من الشمس. ولاجرم ان اللسان يعجز عن ان يصف والعقل عن ان يدرك عظم فرحها وتعجبها حينما رأت ابنها الالهي اللابس شعار الناسوت فسجدت لهُ ملاشية نفسها امام عزتهِ تعالى قائلةً مبارك الرب الهي وابني. ثم قبلت يديهِ ورجليهِ كأَمةٍ وقبلت فاه العزيز ايضًا لانها أُمهُ ثم اعتنقتهُ وضمتهُ الى صدرها بمحبةٍ لا نظير لها ثم لفّتهُ بلفائف وارضعتهُ واخر الامر وضعتهُ في مذود البقر. ولله درُّ القديس كبريانس قائلاً في مناجاة الله ما اعجب اسمك في كل الارض فحقًا انك الصانع العجائب وحدك الّا ان الشيء الذي يدهش عقلي منهُ أكثر الدهش ليس هو الارض ولا السماء ولا كل ما خُلق فيهما بل ان الشيء الذي يشملني تحيرًا هو اني اعاين الهًا في مستودع بتولٍ والقادر على كل شيء موضوعًا على سرير وأرى الهًا متحدًا بناسوت وابصر الغير المنظور مترديًا جسدًا. فيالهُ من سرٍّ عظيم. في الامكان ان نتأملهُ وليس في الامكان ان نصفهُ. فياليت شعري من ذا الذي لا يتعجب من كون هذا الرب المتعالي

الذي تمدحه كواكب الصبح الجالس على اجنحة الكاروبيم الحامل بيده كُرَة الارض أحبَّ ان يُولد في هذه الحال . وقال القديس يوحنا الذهبي فمهُ ان الله تعالى أحبَّ ان يُولد هكذا لانهُ أراد ان يُحبَّ

ثم ان الانجيل المقدس يذكر انهُ في تلك الكورة كان رعاةٌ يسهرون على حراسة الليل في مراعيهم واذا بملاك الرب وقف بهم ونور السماء أشرق عليهم . وبحيث انهم هلعوا قال لهم الملَك لا تخافوا هاءنذا أُبشركم بفرح عظيم لانهُ وُلد لكم وللجميع مخلّص هو المسيح الرب في مدينة داود وهذه علامة لكم انكم تجدون طفلاً ملفوفاً موضوعاً في مِذودٍ . فتراءى للوقت بغتةً مع الملَك جوقةٌ من الملئكة يسبحون الله ويقولون المجد لله في العلاء وعلى الارض السلام الذين بهم المسرَّة . فذهب الرعاة الى المغارة ووجدوا ما حقَّق لهم القول وآمنوا ورجعوا مجّدين الله تعالى على ما سمعوهُ وعاينوهُ

فلنتقدَّمن نحن ايضاً ولننظر بأعين الايمان هذا السرَّ العظيم مصغين لما يعلمنا هذا الطفل الالهي بلسان الحال . لاريب انهُ متى وُلد للملكِ ارضيٍّ ابن بكر يُظهر الشعب فرحهُ في كل المملكة . فماذا يجب علينا فعلهُ عند مولد هذا الطفل الالهي الذي كُتب على فخذهِ ملك الملوك وربّ الارباب . الذي قد أتى لا لكي يزيد الجِزية على الشعب بل لكي يريحهم ويرفع عنهم أحمالهم وهو الذي سيدبّر شعبهُ لا بشدة السلطة بل برفق المحبة وكثرة الحسنات . فان كان الملئكة يفرحون بميلادهِ مع انهُ تعالى لم يأتِ لاجل خلاصهم فكم بالحري يجب علينا ان نبتهج متهللين اذ قد وُلد لنا مخلّص . فلو ان مِلكاً تزوَّج بفتاةٍ من رَعاع الرعية ايَّ فرح كان يخالط قلوب ذوي قرابتها . فهكذا يجب ان نفرح نحن ولا سيا بعد ان اتحد تعالى بطبيعتنا وصيَّرنا اخوتهُ وورَثة ملكهِ . ولقد اجاد القديس لاون حيث قال انظر ايها المؤمن واعقل جيداً اعظم سمو شرف رتبتك فاذ قد اشتركت الآن في الطبع الالهي فلا تعُد الآن الى دناءة حالك الاولى وحقارة سلوكك الماضي . تأمّل عزّة رأس الجسد الذي أنت عضوٌ من اعضائهِ . تذكر ان ثمن فداك دم سيدنا يسوع المسيح الذي سيدينك بعدلهِ كما انهُ افتداك برحمتهِ

واعلم ان الشيء الذي ينبغي ان نعتبرهُ الاعتبار الخاصَّ هو تعليم هذا المعلّم السماوي من منبر مذودهِ فانهُ حقيقةً يعلمنا أشياء سامية مفيدة جداً للخلاص حيث بالحال الذي اختارهُ يعلمنا ان حال الفقر ليست هي حالاً شقية مرذولة كما يظنها الناس وان الاتضاع هو سُلَّم السماء وعلى هذا المعنى قال القديس برنردوس ان طفولية السيد المسيح لا تعزّي اصحاب العالم ودموعهُ ليست قدوةً لاهل اللهو ولفائفهُ لاتعجب المستكبرين والاصطبل والمذود لا يبهجان المتعظمين . ثم يقول متسائلاً إمَّا ان المسيح ضالٌّ وإمَّا ان العالم هو الضالّ والحال ان السيد المسيح لا يكون ضالاً وهو الحكمة عينها وبمشورة الحكمة اختار لذاتهِ الفقر والذل والتعب ومنذ ساعة مولدهِ الى حين موتهِ لم يزل سالكاً هذه الطريقة . فاذاً لاريب في انهُ تعالى اختار الافضل والاصوب وبالتالي لاشك في اننا ضالُّون نحن المرتاحين بفرط العشق الى ما رذلتهُ الحكمة الالهية . فلنعتقد اذاً يقيناً ان الطريق الذي اختارهُ ابن الله عزَّ اسمهُ وأراد ان نسلكهُ هو طريق الازدراء بغنى الدنيا وكرامتها ولذّتها

حتى اذا فرغتَ من تأمل الطفل الالهي في المذود تلاحظ والدتهُ المثلَّثة الطوبى وتهنّئها على جلال سعادتها . ليت شعري من لهُ ان يصف فرح هذه البتول الجالسة على قمة الشرف والسعادة . ما ذا الذي كان يخطر ببالها وهي ناظرة وحاملة على يديها من لا تسع سماء السماء عزّتهُ الغير المحدودة . وماذا كانت عواطفها عند تأملها كمالات ابنها الالهية والانسانية مع افراط حبهِ لها . ثم فلنبتهل اليها بما انها قد ولدت لنا ولاجل خلاصنا ابنها ان تستميح لنا منهُ نعمةً لكيلا نخسر بذنبنا ما قد اكتسبهُ لنا باستحقاقهِ

اليوم السادس والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس استفانُس اوَّل الشهداء

روى القديس لوقا الانجيلي حديث استشهادهِ في سفر اعمال الرسل (فصل ٦ و٧) قال لما كثر عدد المؤمنين في اورشليم جداً وكانوا يقدمون للرسل اموالهم ليوزّعوها على المساكين حدث تذمُّر ما بين اليهود الغرباء واليهود المولودين في اورشليم بما ان الصدقات لم تُعطَ لارامِلهم بالسوية . فاجتمع الرسل لكي يزيلوا هذا الشغب سريعاً واستدعوا الشعب وقالوا لهم انهُ مع كون توزيع الصدقات على المساكين هو من المبرّات فليس يحسن ان نترك التبشير والتعليم لكي نهتمَّ بخدمة موائدهم ولا ان نتغاضى عمّا يفوت النفس لكي نعتني بما

يقوت الجسد فانظروا اذًا ايها الاخوة سبعة رجال منكم تشهد لهم الناس بالامانة فضلاء صالحين ممتلئين من الروح القدس فنوكلهم في هذا الامر واما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الانجيل المقدس. وقد استحسن الشعب هذه المشورة فاختاروا استفانُس وفيلبس وبروكروس ونيقانور وطيموس وهرميناس ونيقولاوس رجلاً غريبًا انطاكيًا. و يقول البشير ان القديس استفانُس كان ممتلئًا ايمانًا وروح القدس فلما وقفوا امام الرسل صلّوا ووضعوا عليهم أيديهم ورسموهم شمامسةً

فشرع القديس استفانُس يباشر وظيفتهُ بأمانة ونشاط موزعًا الصدقات باهتمام جزيل واحتشام بليغ لانهُ كان يخاطب الارامل والنساء ويعاشرهنّ لاجل ضرورتهم كأنهُ ملكٌ في جسم انسان وبعد اهتمامهِ هذا باحتياجات البائسين كان يبشّر بالايمان وقد صيّرهُ حبهُ للسيد المسيح وغيرتهُ على تمجيد اسمهِ وانتشار ايمانهِ مساويًا للرسل كما قال القديس اكليمنضوس. وكان حينئذٍ في اورشليم خمس مدارس وكانت تتقاطر اليها الطلبة من كل الاقاليم ليدرسوا الناموس الموسوي وكان القديس استفانُس في مدرسة غمالائيل فخرج من هذه المدارس ناسٌ كثيرون ليجادلوا القديس الّا انهم لم يثبتوا مقابلَ الحكمة والروح الذي كان ينطق بفيهِ فانهُ كان يفحمهم بأدلّةٍ مقنعة مسكتةٍ ذات حكمة فائقة فتواروا خجلاً وأزمعوا قتلهُ

فأرسلوا أُناسًا وعلّموهم ان يشتكوا عليهِ يقولوا اننا سمعناهُ مفتريًا على النبيّ موسى وعلى الله تعالى ايضًا فتنوا الشعب والمشايخ والكهنة واجتمعوا وخطفوهُ وأتوا بهِ الى المجمع واقاموا شهودًا كذبةً شهدوا ان هذا الرجل لا يبرح يطعن في الهيكل المقدس ويبدل الناموس الموسوي ويبطلهُ. فبعد ايرادهم هذه الشكوى الملتوية نظر الجميع الى القديس فاذا وجههُ كوجه ملكٍ لان الروح القدس المستقرّ فيهِ جعل وجههُ متلألئًا كما ان النور الموضوع في آنيةٍ زجاجيةٍ نقيةٍ يجعلها متلألئةً وهكذا وجه موسى النبيّ التحف بنورٍ حين كان حاملاً الواح الناموس القديم ومثلهُ التحف وجه هذا القديس بنورٍ باهر حينما وقف ليورد الناموس الجديد ويثبتهُ فسألهُ رئيس الكهنة هل كان الامر كما شهد الشهود

فطفق يتكلم في المحفل وهو لا يخشى لومة لائمٍ ولا سطوة ظلومٍ. وقد ذكر ما حدث لابرهيم وسائر الآباء وأسهب الكلام في مدح موسى ثم ذكّرهم ان هذا هو النبيّ العظيم الذي سبق واخبر بمجيءِ آخر أعظم منهُ اي المسيح وانهُ ينبغي ان يقبل تعليمهُ ويُطاع ناموسهُ وان آباءهم أبوا الانقياد لكلام موسى دفعوهُ وارتدوا الى مصر بقلوبهم وطلبوا من هارو[ن] ان يصنع آلهة تسير امامهم. وبما ان المجمع كان يرذل هذا انتقد القديس بغيرةٍ عجيبةٍ وتجاسر ان يبكّت [...] قائلاً * ياقساة الرقاب وغير المختونين في قلوبكم انكم في كل حين تقاومون الروح القدس كما كان [...] كذلك انتم. اي نبيّ من الانبياء لم يضطهده آباؤ[كم] قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء الصدّيق الذي اسـ[...] وقتلتموهُ. فلما سمعوا ذلك استشاطوا في قلوبهم و[...] باسنانهم وهو اذ كان ممتلئًا من الروح القدس تفرس [في] السماء فرأى مجد الله ويسوع قائمًا عن يمين الله فقال ها انذا أرى السماوات مفتوحةً وابن البشر قائمًا عن يمين الله

فصرخوا بصوت عظيم وسدّوا آذانهم وهجموا عليهِ بعزم واحد واخرجوهُ خارج المدينة ورجموهُ ووضع الشهود ثيابهم لدى قدمي شابٍ يُسمى شاول وكان موافقًا على قتلهِ * وهو الذي صار فيما بعد رسولاً ودُعي بولس وكان يحفظ ثياب الراجمين لكي يرجم على ايديهم جميعهم كما قال القديس اغسطينوس. وفيما كانوا يرجمونهُ جثا القديس على ركبتيهِ وصلّى لاجل راجميهِ وأعدائهِ قال يا رب لا تقم عليهم هذه الخطيئة. فهذه الصلاة التي لولاها كما قال القديس امبروسيوس لم يكن شاول صار رسولاً بل كان هلك هلاكًا ابديًا

فلما صلّى هكذا لاجل اعدائهِ هجع بالرب اي انهُ توفي وفاةً تشبه موت السيد المسيح لانهُ كما ان اليهود اشتكوا عليهِ تعالى وقتلوهُ لانهُ قال لهم عن نفسهِ انهُ المسيح ابن الله وسيرونهُ جالسًا من عن يمين قوّة الله هكذا حكموا على القديس استفانُس بالموت لانهُ قال لهم إنهُ رأى السموات مفتوحةً والسيد المسيح جالسًا من عن يمين قوّة الله. ثم ان اليهود اقاموا شهودًا كذبةً واماتوهُ كما فعلوا بالسيد المسيح وكلاهما أُخرجا من المدينة ليقتلوهما وكلاهما ايضًا صلّيا لاجل اعدائهما. اخيرًا لما كان الرب في بستان الزيتون مشرفًا على الموت من شدة الحزن تراءى لهُ ملكٌ من السماء يشدّدهُ فعلى هذا المنوال اذ كان القديس استفانُس مشرفًا على الموت من شدة بغض


W J LINTON SC

مضطهديهِ ظهر لهُ السيد المسيح نفسهُ وشجَّعهُ. وكان موتهُ في أواخر السنة التي فيها صُلب السيد ومات من اجل خلاصنا

اخبر القديس لوقا في اعمال الرسل (٨: ١ و٢) انهُ في ذلك اليوم حدث اضطهادٌ شديد على الكنيسة التي باورشليم فتبدَّد الجميع في بلاد اليهودية والسامرة ما عدا الرسل وحمل استفانُس رجالٌ اتقياء وعملوا لهُ مناحةً عظيمةً. هذا وقُبر جسد القديس استفانُس في مكانٍ بعيد عن اورشليم سبع ساعات بارض تُدعى كفرمجلا وكُشف عنهُ بعد اجيال برؤيا اوردناها في اليوم الثالث من آب

اليوم السابع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس يوحنا الانجيلي

اعلم ان هذا الرسول البشير البتول الشهيد التلميذ الحبيب كان جليليًّا مولودًا ببيت صيدا وهو اخو القديس يعقوب الكبير وابواهما زبدى ومريم صالومي كانا مع ابيهما صيَّادين. فلما دعاهما سيدنا يسوع المسيح حينما كانا يصلحان شباكهما تركا الشباك وأباهما وتبعاهُ (متى ٤: ٢١) وقد سمَّاهما السيد المسيح بوانرجس اي ابني الرعد لفرط حبهما لهُ تعالى وغيرتهما الجديةِ ومن ثم لما رأيا سكان السامرة لا يقبلونهُ تعالى احتدَّا وقالا لهُ أتُريد يارب ان نقول فتنزل من السماء نار وتحرقهم. فلم يوافقهما يسوع على ذلك بل انهُ أخمد لهيب حبهما لهُ وقال لهما ان روحهما هذا ليس هو روح الناموس الجديد وانما هو روح ايليا والناموس العتيق وانهُ اتى لكي يحيي النفوس لا لكي يُهلك الاجساد. ومرة اخرى لما أبصر يوحنا رجلاً غريبًا غير متتلمذ للسيد المسيح يخرج الشياطين باسمهِ عزَّ وجلَّ منعهُ عن ذلك بحركة غيرتهِ الزائغة عن منهج الصواب فوبَّخهُ يسوع على ذلك ايضًا. قال لا تمنعوهُ لانهُ ليس احد يصنع قوَّةً باسمي ويقدر للحال ان يقول عليَّ سوءًا. لانهُ مَن لم يكن عليكم فهو معكم

قد منح السيد لهُ المجد القديسين يعقوب ويوحنا نعمًا جليلةً حتى اتخذت من ذلك امهما صالومي ومن النسابة التي كانت تضمُّها اليهِ جرأةً وسألتهُ ان يجعلهما المقدمين في ملكوتهِ بان يجلس احدهما عن يمينهِ والآخر عن يسارهِ. فاعلم ان هذا سواءٌ كان من قِبَل ابنيها اللذين ظنَّا انها لكونها امرأةً يسهل عليها ان تنال ذلك ولا يكون لسائر الرسل سبيل للتشكي منهما او كانت فعلتهُ من عند نفسها من دون تواطوءٍ معهما على ما ارتأَتهُ جماعةٌ من العلماء. فان الرب عزَّ شانهُ التفت الى الرسولين اللذين توسلت لهما والدتهما في ذلك وقال ما تدريان ما تطلبان. لانهُ ان كان عندهما ان مملكتهُ زمنيةٌ أرضيةٌ فاشتهيا ان يكون لهما المقام الاول فقد ضلاَّ لان مملكتهُ كانت روحيةً سموية وان ظنَّا ان مملكتهُ من العالم الآتي كان طلبهما التقدم بوسيلة النسابة بلا داعٍ كطلبهما الانتصار قبل القتال والنعمة التي لا تُعطى الا بالاستحقاق.

وبناءً على ما مرَّ سألهما الرب أتأهَّبتما لتشربا كأس الآلام التي سأشربها. فقالا نعم. فاقتصر المسيح على ان يقول لهما اما الكأس فتشربانها واما جلوسكما عن يميني او يساري فليس لي ان أُعطيهُ الاَّ للذين أُعِدَّ لهم من قِبَل ابي

يُذكر ايضًا في الانجيل المقدس ان الرب اختار القديس يوحنا مع يعقوب اخيهِ وسمعان بطرس ليشاهد معهما مجدهُ في جبل التجلي وحزنهُ في بستان الزيتون وليحضر قيامة ابنة يائير القائد وانهُ ارسلهُ مع بطرس ليعدَّا ما كان لازمًا للعشاء الاخير

الآن يسوع كان يحب هذا التلميذ على وجه الخصوص وذلك لانهُ كان بتولاً لما تتلمذ لهُ ولم يزل دائمًا ونرى انهُ جلَّ وعلا قد تفضَّل عليهِ بما لم يُحسن بهِ الى بقية الرسل من انهُ اتكأ على صدرهِ الاقدس في العشاء السريّ وقد اذن لهُ الرب في ذلك كالاب مع أعزّ بنيهِ. ولما كان متكئًا هكذا على صدر معلمهِ قال لهُ السجود لتلاميذهِ ان واحدًا منكم سيسلمني واذ كان التلاميذ مضطربين متحيرين من هذا الكلام اومأ سمعان بطرس الى يوحنا وقال لهُ سَل من الذي يقول عنهُ فاستند القديس يوحنا الى صدر يسوع وقال لهُ ربِّ مَن هو. فاجاب يسوع هو الذي اغمس لقمةً واناولهُ وغمس لقمة وناولها ليهوذا بن سمعان الاسخريوطي

ومما يدل اقوى دلالة على تفضيل الرب هذا التلميذ الحبيب على سائر الرسل هو انهُ لما كان مصلوبًا ورأى تحت صليبهِ والدتهُ الجليلة وتلميذهُ هذا الحبيب رام ان يظهر لهُ محبتهُ باحسان لا نظير لهُ لانهُ جعل والدتهُ لهُ امًّا وصيَّرهُ ابنًا لها بقولهِ لوالدتهِ هذا ابنكِ وبقولهِ الى التلميذ هذه هي امك وبالتالي اتخذهُ تعالى أخًا لهُ. نعم ان السيد المسيح اتخذ جميع الابرار إخوةً لهُ بالذخيرة وصيَّرهم ابناء لوالدتهِ بالذخيرة ايضًا الاَّ ان القديس يوحنا الرسول هو الاخ والابن البكر

فيا لحسن سعادة هذا الرسول ويا ما احلى هذا الكلام الالهي: يا يوحنا ها هي امك فلا تتخذها سيدة لك او ملكة بل لتكن لك امًّا عزيزة تلك التي هي والدة الله وملكة السماء والارض ومقر الثالوث الاقدس. فهذه هي امك ايها الابن البتول لأم بتول لاتحتاج الى أمٍّ سواها. فها قد اظهرت لك شديد محبتي لك وجازيتك الجزاء الحسن على ما ابديت لي من المحبة حتى هذا الوقت. فلنتأمل ان يتذوق عذوبة هذا الخطاب الالهي وكم اثر في قلب التلميذ الحبيب وكم اضطرم بنار المحبة نحو هذا السيد العزيز الذي حينما كان مصلوبًا مستغرقًا في بحر الاوجاع نظر اليهِ بعين المحبة متغاضيًا عن الامهِ متفكرًا في تعزيتهِ وشرفهِ مشركًا اياهُ في بنوّتهِ لوالدتهِ. فمن تلك الساعة أحبها محبة الابن لامهِ وأحبّتهُ ملكة السماء محبة الام لابنها فسكنت معهُ بقية أيام حياتها. وخدمها القديس يوحنا بعظم الاكرام مدة ثلثٍ وعشرين سنة. ليت شعري ما كان احلى عيشة هذا الابن النقي مع هذه الام الطاهرة وما كان اقدس مذاكراتهما. وفي هذا كفاية فلنرجع الى تتمة ترجمة القديس عليهِ السلام. فنقول ان هذا التلميذ الحبيب كان بالقرب من صليب يسوع لما جاء احد الجنود ففتح جنبهُ بحربة فخرج للوقت دم وماء وعاين ذلك القديس يوحنا وتأملهُ وشهد عليهِ ولا شك انهُ لم يفارق معلمهُ المصلوب حتى أنزلوهُ من على الصليب ودفنوهُ

فيذكر الانجيل المقدس انهُ في اليوم الثالث لموت الرب جاءت مريم المجدلية الى القبر في الغداة والظلام باقٍ فرأت الحجر مدحرجًا عن القبر. فاسرعت وجاءت الى سمعان بطرس والى التلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبهُ وقالت لهما قد اخذوا الرب من القبر ولا نعلم اين وضعوهُ. فخرج بطرس والتلميذ الآخر واقبلا الى القبر. وكانا مسرعين معًا فسبق التلميذ الآخر بطرس وجاء الى القبر اولاً وانحنى ورأى الاكفان موضوعةً والمنديل الذي كان على رأسهِ غير موضوع مع الاكفان بل ملفوفًا في موضعٍ على حدتهِ فحينئذٍ دخل التلميذ الآخر الذي جاء اولاً الى القبر فرأى وآمن

وبعد قيامة السيد المسيح ذهب يوحنا مع التلاميذ للصيد فلم يصيدوا شيئًا في تلك الليلة فلما اصبحوا وقف يسوع على الشط ولم يعلم الرسل انهُ هو فسألهم قال هل عندكم ما يُؤكل فاجابوهُ لا. فقال لهم ألقوا شبكتكم من جانب السفينة الايمن فتجدوا فألقوها فلم يقدروا ان يجذبوها من كثرة الحيتان. فقال التلميذ الحبيب لبطرس هو الرب. وما احسن ما قال القديس ايرونيموس في هذا المقام حيث صرح ان التلميذ البتول وحدهُ عرف البتول الذي سبق وقال طوبى للنقية قلوبهم لانهم يرون الله. وفي ذلك اليوم نفسهِ بعد ان اقام السيد المسيح بطرس الرسول رئيسًا عامًّا على كنيستهِ وتنبأ عليهِ انهُ يموت شهيدًا أراد الرسول ان يعرف كيف يكون موت التلميذ الحبيب فقال لهُ رب المجد ان شئتُ ان يبقى هذا الى ان آتي فماذا يعنيك. هذا وقد كان تعالى يعني بذلك ان القديس يوحنا لا يموت بأيدي اعداء الايمان الّا ان الناس أنتجوا بالغلط من كلامهِ تعالى ان يوحنا لا يموت وتحقَّق ان هذا الرسول مات في افسس كما شهد بذلك القديسون امبروسيوس وايرونيموس واغسطينوس والذهبي فمهُ واخرون (١) ·

وذكر القديس لوقا في سفر اعمال الرسل فضلاً عن ذلك انهُ بعد صعود الفادي لهُ المجد اجتمع بطرس ويوحنا وأندراوس مع سائر الرسل في غُرفة صهيون وجعل يوحنا ثاني بطرس. وقال ايضًا ان القديسَين بطرس ويوحنا انطلقا الى الهيكل في الساعة الثالثة من بعد الظهيرة فوجدا على باب الهيكل رجلاً فقيرًا ابن أربعين سنة أعرج من بطن أمهِ وسألهما صدقةً فتصدّق عليهِ القديس بطرس بما فوق آمالهِ وأبرأهُ وانهضهُ بيدهِ فجعل يثب ابتهاجًا ودخل الهيكل معهما. اما الناس فدهشوا كثيرًا وضجّت المدينة بهذه الآية الباهرة ولكن الكهنة والقضاة تداركًا لما سيلحق بهم من جراها من الضرّ قبضوا على القديسين المنوَّه بهما وسجنوهما على انهم اطلقوهما غبَّ التهديد وأوصوهما ان لا يتحدثا فيما بعد في امر المسيح والّا فيؤخذان بالعقاب الشديد. لكنهما اختارا طاعة الله على طاعة البشر وبشّرا الناس بالمسيح يسوع وشهدا انهما رأياهُ وشافهاهُ وأُمسك حينئذٍ الاثنا عشر رسولاً وكان فيهم يوحنا وجُلِدوا بالسياط على عصيانهم وصايا اليهود

هذا وان الشماس فيلبُّس القديس بشَّر في السامرة وهدى الله بآيات صنعها على يدهِ كثيرًا من الناس الى النصرانية واغتنم الرسل هذه الفرصة لنشر الانجيل وعقدوا الرأي على

(١) حاشية. راجع برونيوس الذي يثبت في كتاب تاريخ الكنيسة للسنة ١٠١ للمسيح والتاسعة لحبرية القديس اكليمنضوس البابا بشهادات كثيرة حقيقة موت القديس يوحنا ودفنهِ بمدينة افسس

ان يذهب القديسان بطرس و يوحنا الى السامرة ليثبتا المهتدين الحديثين ويضعا الايدي عليهم فيحلّ الروح القدس عليهم (لانهم لم يكونوا قبلوهُ بعدُ) وليهدوا البقية فنزلا الى السامرة بطرس إمام الرسل ويوحنا أحد اركانهم المعادل للبقية في المقام والسلطة الرسولية ولما بلغا اليها صلّيا لهداية السامريين فهؤلاء حلّ عليهم الروح القدس ظاهرًا بوضع الايدي. ثم رجع ذانك الرسولان الى اورشليم و بشّرا في اكثر قرى السامرة وصنعا أمورًا عجيبةً

وقال القديس بولس لما كتب الى اهل غلاطية اني حين قدمت اورشليم بالهام الله تعالى عاهدت بطرس و يوحنا ويعقوب الصغير أسقف اورشليم الذين كانوا أعمدة الكنيسة ووقع الاتفاق فيما بينهم على انهم يُبشّرون اليهود واما بولس وبرنابا فيبشّران الوثنيين

من المظنون ان القديس يوحنا أقام بأورشليم طويلاً غيران ذلك لم يعقهُ احيانًا عن الإبعاد عنها للتبشير بالانجيل والمقول ان بلاد برطية كانت المجال الخاصّ لأعمالهِ الرسولية وذكر القديس اغستينوس رسالتهُ الأولى مرارًا باسم رسالة البرطيين فيحكم بحسب هذا الاسم المصدَّرة بهِ الرسالة في بعض نسخ انها كُتبت الى اليهود المتفرّقين في أقاليم مملكة البرطيين. واعلم ان أخبار المرسلين الذين ذهبوا في هذه الاعصار المتأخرة الى الهند الشرقية تُفيد ان مدينة باسورة التي على مصبّ نهري الدجلة والفرات تعتقد بموجب تقليدٍ قديم ان القديس يوحنا هو الذي نشر الايمان في بلادهم

وكان في السنة الثانية والستين بأورشليم مع سائر الرسل المجتمعين لإقامة خليفةٍ للقديس يعقوب الصغير الذي كان قد استُشهد منذ قليل فانتخبوا القديس سمعان. واجمع المؤرخون على ان القديس يوحنا لم يزُر كنائس آسيا الصغرى الاّ بعد وفاة العذراء المباركة (١)

وبذل جلّ عنايتهِ في هذه الكنائس وجعل مقامهُ عادةً بأفسس عاصمة البلاد ولما اقام الرسول بولس تيموتاوس أسقفًا عليها سنة اربع وستين للمسيح لم يكن هو بها فهو على رأي القديس ايريناوس لم يقُم بها في حياة القديسين بطرس وبولس. والقديس تيموتاوس رعى كنيسة أفسس حتى استُشهد سنة سبع وتسعين للمسيح لكن اقرّ بأن للقديس يوحنا سلطةً عاليةً وعامّةً وكلا هذين الجليلين المعتبرَين من حيث تواضعهما ومحبتهما لم يختلفا قط على الولاية و بشّر القديس يوحنا في مواضع أُخر وكان لهُ النظر العام على كل كنائس آسيا. وهذا هو الذي هيأ للقديس ايرونيموس وجه القول انهُ هو منشيء تلك الكنائس وهو الذي رعاها وزاد على ذلك ترتولياناوس ما معناهُ ان القديس هو الذي اقرّ اساقفةً في تلك البلاد اي انهُ اثبت الذين انتخبهم الرسولان بطرس وبولس وولاهم على ما أقامهُ من الكنائس الجديدة. ومن الممكن انهُ اذ عاش دهرًا طويلاً اقام أساقفةً لجميع كنائس آسيا فان الرسل وهم في هذه الدنيا كانوا ينتخبون بانفسهم رعاةً للمؤمنين بالهام الروح القدس وبقوة الوكالة التي وُجّهت اليهم لتقرير النصرانية. واما القديس يوحنا فواظب على تفقُّد كنائس آسيا حتى في شيخوختهِ الفانية. وكان يأخذ احيانًا في أسفارٍ متعبةٍ مُضنيةٍ لكي يرقّي الى درجة الكهنوت مَن عيَّنهم الروح القدس. اخبرنا ابولونيّس انهُ أقام ميتًا بأفسس ولما ثبت عندهُ ان احد كهنة آسيا نشر خبرًا كاذبًا عن أسفار القديسين بولس ونقلا خلعهُ القديس يوحنا من مرتبتهِ شهادةً لاحترامهِ هذا الرسول الجليل. واعلم ان القديس ايفانيوس أثبت ان يوحنا الانجيلي قدم الى آسيا بارشاد الروح القدس لمقاومة بدعتي ابيون وسيرنتوس

ولما تسعّرت نار الاضطهاد الثاني سنة خمس وتسعين قُبض على القديس يوحنا بأمر والي آسيا وأُرسل الى رومية وطُرح في خلقين زيتٍ مغلًى ومن دواعي العجب انهُ بقي حيًّا كما روى ترتوليانوس والقديسان اغُستينوس وايرونيموس. ولذا لقّبهُ الاباء بالشهيد وأضافوا الى ذلك ما معناهُ ان ما أنذرهُ بهِ المخلّص من انهُ يشرب بكأسهِ تمّ في هذه الفرصة. واعلم ان آية خروجهِ حيًّا من الخلقين المذكور لم تؤثر في عبدة الاصنام بل قالوا انها ناشئةٌ عن السحر ونفى دومتيا نُس القديس يوحنا الى بطمس جزيرةٍ من جزائر الارخبيل الرومي

ولما كان في قفر تلك الجزيرة تنزّل عليهِ الوحي فقيّدهُ في سفر يُعرَف بسفر الرؤيا وكان ذلك يوم الاحد عام

(١) حاشية . بل ارتأى كثير من المؤرخين ان القديس يوحنا سكن مدةً بافسس مع الجليلة مريم ويسندون رايهم هذا الى ما ذكرهُ آباء المجمع الافسسي في رسالتهم الى اكليروس القسطنطينية (راجع تاريخ الكنيسة لبارونيوس في السنة ٤٤ عدد ٢٩)

سنة وتسعين للمسيح فثلثة فصولهِ الأُولى تتضمن نبوَّة إنذارٍ لكنائس آسيا الصغرى السبع وللاساقفة الذين يرعونها وثلثة فصولهِ الاخيرة موضوعها اذاعة انتصار المسيح والدينونة الاخيرة وجزاء القديسين والفصول التي في خلال ذلك اختلف المفسرون الكاثوليكيون في استخراج مضامينها وتفسير معانيها. فذهب قوم الى انها تشير الى ماسوف يتقدَّم يوم الدين من دون مهلةٍ. وقال جماعةٌ انها تشير الى الزمان الذي ابتداؤُهُ من المسيح وانتهاؤُهُ عند انقضاء العالم وقال آخرون انها تدل على الاضطهادات العشرة العامّة وعلى احوال مملكة الرومانيين الى انتصار يسوع المسيح بواسطة استظهار قسطنطين على ليسينوس. ومهما يكن من الخلاف فمن المؤكد على الاقل ان الله جلّت عنايتهُ قد كاشف بهذه الرؤيا القديس يوحنا بحالة مستقبل الكنيسة

غير ان القديس لم يستمرَّ بهذه الجزيرة سوى سنة ونصف لانهُ بعد موت دوميسيا نُس الذي حدث سنة ستٍّ وتسعين للمسيح جلس الملك نيرفا وأرجع كلَّ المؤمنين. يذكر اوسابيوس المؤرخ في الفصل ٢٣ من الكتاب ٣ في تاريخ الكنيسة ما يدل على عظمة محبة الرسول القديس ويعلمنا بفعل غيرة الراعي الصالح وهو انهُ لما عاد القديس الى آسيا زار أحد الاساقفة لانهُ كان استودعهُ شابًّا كان لهُ تلميذًا فسألهُ عنهُ فتنهَّد الاسقف وقال ان الشاب صار قائد لصوص فقال لهُ الرسول أهكذا اعتنيت بحفظ نفس أخي. قال هذا وركب من ساعتهِ جوادًا وذهب في طلب تلميذهِ مسرعًا فلما قرب من الموضع الذي كان فيهِ خرج اللصوص وأمسكوهُ وأتوا بهِ الى قائدهم الّا انهُ لما ميزهُ هذا جيدًا وعرفهُ اعتراهُ الخجل والخوف ففرَّ وجدَّ في الهرب. فركض الرسول وراءهُ صارخًا وقائلاً لماذا تهرب يا ابني من أمام وجه أبيك الذي ليس في يدهِ سيف ولا عصًا تعالَ لا تخف انا اردُّ جوابًا عنك لسيدنا يسوع المسيح واشتهي ان أموت لاجلك كما انهُ تعالى مات لاجلي وأبذل نفسي عنك. فأخذ هذا الكلام العذب بقلب التلميذ الشرير والابن الشاطر فالتفت ورجع الى ابيهِ الحنون وخرَّ على رجليهِ. اما الرسول فأقامهُ من على الارض واعتنقهُ ووعدهُ بانهُ يستمنح لهُ مغفرة خطاياهُ من السيد المسيح. فصام القديس وصلى من أجلهِ كثيرًا وقد أحسن التلميذ سيرتهُ فزها بقداستهِ

واعلم ان هذا الرسول الوافر الحنوّ كان شديدًا على الأراطقة فقد روى اوسابيوس المؤرخ عنهُ انهُ دخل يومًا الحمّام ليستحم. فلما رأى فيهِ كيرنتيوس الأرطوقي قال لرفقائهِ لا ندخل حيث يكون عدوُّ المسيح لئلاَّ يهبط الحمّام على رؤوسنا من أجلهِ مشيرًا بهذا لرعيتهِ انهُ يجب على الكاثوليك ان يفرّوا من معاشرة اهل البِدَع والاشتراك معهم. وما عدا كيرينتوس هذا فكان أبيون ونيقولاوس يفسدان الكنيسة بتعاليمهما الفاسدة وحيث لم يبقَ من الرسل على الارض غير القديس يوحنا طلب اليهِ المؤمنون شرقًا وغربًا بمزيد الالحاح ان يُفنّد اقوالهم ويكشف تجديفهم على الهوية سيدنا يسوع المسيح. وحينئذٍ بأمر الروح القدس كما قال القديس ايفانيوس أخذ عليهِ السلام يكتب الانجيل المقدس لان الثلثة الانجيليين الآخرين كانوا قد أوردوا كلَّ ما يتعلّق بناسوت السيد المسيح وكان جلُّ غرضهِ من كتابة انجيلهِ ان يُثبت لاهوتهُ. وقد روى القديس يوحنا فم الذهب وغيرهُ من الاباء ان الرسول قبل ابتداء هذا العمل صلّى وصام مع المؤمنين كثيرًا وبعد انتباههِ من سُباتٍ روحيٍّ ورؤيا عظيمةٍ ابتدأ انجيلهُ قائلاً: في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله: وقد اعتبر المؤمنون هذا السفر الانجيلي اعتبارًا خاصًّا وشبَّه الآباء كاتبهُ بالنسر الذي يرتقي بطيرانهِ الى علو السماء وذلك نظرًا الى ايراد هذا الرسول لاهوت السيد المسيح وما خلا هذا السفر فقد كتب ايضًا ثلث رسائل أُدرجت في الرسائل الكاثوليكية

فشاخ هذا الرسول جدًّا. روى القديس ايرونيموس انهُ لاجل ضعفهِ وهرمهِ لم يعُد يقدر ان يمشي فكان المؤمنون يحملونهُ على أيديهم الى الكنيسة وكانت عظتهُ هذه الكلمات فقط يا ابنائي حبُّوا بعضكم بعضًا. فضجر المؤمنون من تكرار ذلك دائمًا وقالوا لهُ يا أبانا لماذا لا تخاطبنا بشيءٍ آخر. فأجاب كما قال القديس ايرونيموس جوابًا يليق بالتلميذ الحبيب قال ان هذه هي وصية الرب وهذه وحدها اذا فعلناها تكفينا

وقد تُوفي بأفسس في السنة المائة للمسيح وكان لهُ من العمر على رأي القديس ايفانيوس اربع وتسعون وكانت ذخيرة جسدهِ في أفسس على زمن المجمع المقدس اي سنة إحدى وثلاثين واربعمائة. ويُعيَّد لهُ في الكنيسة الشرقية في اليوم السادس والعشرين من ايلول

اليوم الثامن والعشرون

وفيهِ عيد الاطفال القديسين

من المسلَّم انهُ لا وحش اشرس ولا اضرَّ من الانسان المتسلّط اذا ملكت قلبهُ الضغائن واستطاع على ان يصنع كل مايهوى. وهذا نفسهُ قد تمَّ في هيرودس الملك الملقب بالعسقلاني بعد ان اشترى قضيب يهوذا من القوّاد الرومانيين وتسلط على اليهود جورًا واغتصابًا زجّتهُ كبرياؤهُ ومحبة العظمة في لجّة الاثام لانهُ بعد ان التمس ونال من الرومانيين قتل انتيغاوس احد ورثة المكابيين غرّق في الماء اخا امرأتهِ اريستوبولس عظيم الكهنة ثم قتل هيركان الثاني جدَّ امرأتهِ وآخر من تملك على اليهود من اصل المكابيين. ثم قتل مريم حنة امرأتهُ الثانية واسكندر واريستوبولس ابنيها وانتيباتير ابنهُ البكر الذي وُلد لهُ من امرأتهِ الأولى وأعزَّ اصدقائهِ بخوفهِ الباطل من انهم يمكرون بهِ فيسقط عن كرسيهِ. وكان اليهود يُبغضونهُ اشدَّ البغض وينتظرون في زمانهِ ملكًا ومسيحًا ينقذهم من الأسر لا الأسر الروحي كما كانت الانبياء قد تنبأت بل الاسر الزمني حسب غلاظة فهمهم وميلهم الى خيور الدنيا

فلما وُلد ابن الله مخلص العالم في بيت لحم وافى مجوس من المشرق الى اورشليم واستخبروا ابن ملك اليهود المولود جديدًا. فمتى سمع هيرودس هذا الخبر عزم على قتلهِ وجمع الكتبة والفريسيين وعلماء الناموس فسألهم اين يُولد المسيح. فحينما عرف منهم ان مكان ميلادهِ هو بيت لحم استدعى المجوس سرًّا وتحقق منهم زمان ظهور النجم ثم أرسلهم الى بيت لحم ليفتشوا عن هذا الطفل وطلب منهم قائلاً اذا ما وجدتموهُ فعودوا الى اورشليم وأخبروني لكي اذهب انا ايضًا واسجد لهُ. هذا ما قالهُ بنيةٍ خبيثة. فذهب المجوس ووجدوا الطفل الالهي وسجدوا وقدموا لهُ هدايا وحينما كانوا مستعدّين للرجوع الى اورشليم امرهم ملكٌ من السماء بان يعودوا الى بلدهم بطريقٍ أخرى ولما انصرفوا اذا بملاك الرب تراءى ليوسف في الحلم قائلاً قم فخذ الصبي وامهُ واهرب الى مصر وكن هناك حتى اقول لك فان هيرودس مزمع ان يطلب الصبي ليهلكهُ. فقام واخذ الصبي وأمهُ وانصرف الى مصر

فبعد ايام لما رأى هيرودس ان المجوس لم يظهروا بل رجعوا الى بلادهم بغير طريق. زعم ان المجوس قد سخروا بهِ فاخذهُ بغضبٍ عظيمٍ واستولى عليهِ خوفٌ جسيم من انهُ يسقط عن عرشهِ وأطلق العنان لشراسة اخلاقهِ فعزم على قتل هذا الطفل المنتظر من كل الشعوب ولظنهِ انهُ مختبئٌ في بيت لحم او في تخومها اخترع حيلةً رجاء ان يبلغ مأربهُ وهو انهُ أرسل قائدًا مع جنود وأمر في بيت لحم وتخومها ان يحضروا كل الاطفال من ابن سنتين فما دون لكي يكتتبوا فاتى الجميع بأطفالهم وحينئذٍ وثب جنود هيرودس وقتلوهم جميعًا. حينئذٍ تمَّ المقول بارميا النبي القائل صوتٌ سُمع بالرامة بكاء وعويل كثير. راحيل تبكي على بنيها وقد أبت ان تعزّى لانهم ليسوا بموجودين. لان الرامة مدينة من مدن سبط بنيامين والاطفال الذين قُتلوا في بيت لحم وتخومها كان عددٌ منهم من أطفال بنيامين الذي هو ابن راحيل فهي تبكي عليهم لانهم من ذريتها وبنوها قد قُتلوا في جوار مدفنها الواقع بالقرب من بيت لحم. وقيل ان عدد الاطفال القتلى اربعة عشر الفًا وقد حسبتهم الكنيسة شرقًا وغربًا شهداء قديسين

وان قيل لماذا سمح الله تعالى لرجلٍ اثيم ان يقتل كل هؤلاء الأبرار وكيف السيد المسيح الذي دخل العالم ليمنحنا الحياة ارتضى بان يكون دخولهُ سببًا في موتهم. فالجواب انهُ اذا أحسنَّا النظر في الأمر وجدنا في ذلك ما يظهر لنا عذوبة الجود الالهي نحو خاصتهِ ونتعجب من الوسائط التي يستعملها لكي يكلّل الأبرار ويعذّب الخطأة. فكما ان لصاحب الكرم ان يقطف ثمر كرمهِ متى أراد قبل النضج ليأكلهُ حصرمًا أو بعد النضج ليصنعهُ خمرًا وفي يد البستاني ان يجني زهور بستانهِ ليزيّن بها بيتهُ ويُعطرهُ او يدعها تصير أثمارًا. فلله تعالى ان يتصرَّف في هذا العالم كلهِ الذي هو بمنزلة البستان تصرُّف الكرّام والبستاني. ومن ثم في سلطانهِ ان ينقل منهُ الذين هم بعدُ في شرخ الشباب وذلك ليضعهم في منزلهِ السماوي ويُزيّن بهم الجنة. ونظرًا الى هذا الأمر فلا حاجة للوالدين ان يتذمروا كما قال القديس اغسطينوس لان ابناءهم هم وديعة الله عندهم حتى يشاء ان يستردَّها لا هديّة مسلمة اليهم

فلنعتبرنَّ الآن الأسباب التي من أجلها سمح الله عزَّ اسمهُ بقتل هؤلاء الأطفال القديسين ولننظر كيف تجدي الله مجدًا وتجرُّ الى الأطفال انفسهم ووالديهم والكنيسة كلّها نفعًا وخيرًا وتزيد قاتلهم عذابًا. فاما انها تجدي الله مجدًا فذلك

اولاً باعترافنا بهِ تعالى انهُ رب الكل وان لهُ سلطانًا وحقًّا على ان يتصرَّف كما يشاء بكل ما في السماء وعلى الارض وتحت الارض. وثانيًا لانهُ ايما بوق ولو مهما كان قوي الصوت يمكن ان يستخدمهُ الله ليخبر بهِ العالم كلهُ بميلاد ملك اليهود المخلّص وانهُ قد نزل من السماء أفضل من إشاعة هذا الخبر في كل اقطار المسكونة وهو ان الملك هيرودس لخوفهِ من أن هذا الطفل المولود جديدًا يخطف مملكتهُ قتل بقساوةٍ لانظير لها جميع أُولئك الاطفال. وقد اتصل خبر هذا العمل الوحشي الى رومية سريعًا ومن ثمَّ قال اغُسطس الملك ان حال خنزير هيرودس افضل من حال ابنهِ الانسان قال هذا لان هيرودس اذ كان متمسكًا بطرائق اليهود لم يكن يأكل ولا يذبح خنزيرًا وكان قد قتل ابنهُ ايضًا كما مرَّ بك

فياليت شعري ايما ابٍ قد استطاع ان يحسن الى هؤلاء الاطفال بحبهِ كما فعل هيرودس ببغضهِ لكونهِ نجاهم من خطر السقوط في الخطايا وعدم الخلاص الابدي وبلّغهم تلك الحياة المستحقة اسم حياةٍ التي من اجل امتلاكها يجب علينا ان نخسر كل شيء ونحتمل اصعب الاتعاب وأشدَّ الأعذبة. وأيُّما خير قد كان يمكن ان ينالوهُ من السيد المسيح اعظم من الذي حازوهُ من كرمهِ بموتهم لاجلهِ في مكان مولدهِ ونيل اكليل المجد الابدي وصيرورتهم اوائل الشهداء. ولهذا قال القديس اغسطينوس يا لحسن سعادة هؤلاء الأطفال الذين أُهّلوا لان يُهريقوا دماءهم لاجل سيدنا يسوع المسيح قبل ان يستطيعوا ان ينطقوا باسمهِ القدوس وما أسعد ميلادهم لكونهم عند دخولهم هذه الحياة قبلوا الحياة المؤبدة. نعم ان حياتهم قد انتهت في حين ابتدائها الَّا انهُ بانتهاء هذه الحياة الشقية الزائلة ابتدأُوا في حياةٍ سعيدة خالدة ومن ايدي امهاتهم انتقلوا على ايدي الملئكة الى حضن ابرهيم ابي الآباء ليشتركوا في سعادتهِ فيا لكبر حظهم

ثم ان آباء الاطفال القديسين حصل لهم مجدٌ وخيرٌ عظيم جدًّا لانهُ ايُّما مجدٍ أعظم من كون الانسان ابًا لشهيدٍ وهذا المجد كان مقترنًا بنفعٍ جزيلٍ لانهم بدموعهم على موت بنيهم اغتسلوا وتطهروا من خطاياهم ووفوا عنها محتملين بالصبر ما اصابهم من الشقاء باذن الله تعالى من قبل قساوة هيرودس. وما اكثر ما تمجدت الكنيسة الكاثوليكية من قبل هؤلاء الأطفال الذين من صغر سنهم وقبل ان يكونوا قابلين للحرب البشرية انتصروا على الموت والشيطان والجحيم وكم من فرح حصل للقديسين الذين في اليمبوس عند وصول هؤلاء الجوقة المظفرين اليهم الذين بشَّروهم بمجيء مخلّص العالم واقتراب ملكوت السموات

واما هيرودس الأثيم فقد انتقم الله تعالى منهُ على نوعٍ مريع وقد اخبر بذلك يوسيفوس المؤرخ اليهودي في الكتاب السابع والعشرين في القديمات في الفصلين السادس والسابع انهُ اعتراهُ داء الاعضال والافضل ان نقول فجأَةً امراض. فكان يشعر باطنًا بنار آكلة وامتلأَت أمعاؤُهُ قملاً كان يأكلهُ وهو حيٌّ ومن جسدهِ كانت تفوح نتانةٌ غير محتملة. فكره ذاتهُ أشدَّ الكره حتى طلب سيفًا ليقتل نفسهُ فمنعهُ أحد انسبائهِ ولولا ذلك لاهلك نفسهُ وقبل موتهِ بخمسة ايام قُتل بأمرهِ انتيباس ابنهُ ولمعرفتهِ بشدة بغضاء اليهود لهُ وانهم سيفرحون جدًّا حين موتهِ اخترع واسطة شيطانية قصدها الَّا يُسمع في كل اليهودية عند موتهِ سوى ولولة وانتحاب فجمع في بلاطهِ كل عظماء المدينة وأوصى أُختهُ بقتلهم بايدي الجنود واخيرًا مات موتًا هائلاً وفرَّت نفسهُ في الجحيم ولم تفعل أُختهُ ما أُمرت بهِ بل أطلقت كلَّ العظماء سالمين

فقابل الآن موت هيرودس بموت الأطفال القديسين وحال هذا بحال اولئك فمن الذي لا يفضل الموت من أجل السيد المسيح على ان يهلك مع هيرودس

وفيهِ ايضًا ترجمة القديس تاودورُس

ان القديس تاودورُس الذي ذكرنا في ترجمة القديس باخوميوس تتلمذهُ لهُ وترهب امهِ وابواهُ مسيحيان غنيان كانت ولادتهُ نحو سنة اربع عشرة وثلثمائة ببلاد الصعيد ومن صغر سنهِ استفاق على اباطيل العالم واحتقرها ومال الى الفضيلة كل الميل. فكان على أبويهِ في غاية المعزَّة وكانا يعدّانهِ قديسًا واتفق أنهما في عيد الظهور الالهي صنعا وليمة ودعَوَا أصدقاءهما وفيما كانا يُعدّان كل شيء للأكل والطرب شرع تاودورُس يتفرَّس ذلك بعين الايمان وهو يحدّث نفسهُ قائلاً: ماذا يكون انتهاء هذا اللهو العالمي ماذا تفيد هذه النفقة الوافرة في اشياء من شأنها ان تزج الانسان في خطر الخطيئة وتحزنهُ ساعة الموت ماذا ينفعني ان اكون عظيمًا في الدنيا اذا خسرت النعم في الآخرة بحبي لذات هذه الحياة وعظمتها. ان الانجيل المقدس

لايعطي الطوبى للذين يفرحون الآن ويضحكون بل انهُ يعطيهم الويل ويتنبأُ عليهم بالبكاء وصريف الاسنان مدى الابد. ثم انفرد في حجرة دارهِ وجثا امام ايقونة السيد المسيح ذارفًا الدموع وكان لهُ من العمر اثنتا عشرة سنة فقط. وقال في مناجاة ربهِ اني ارذل يا الهي هذه الافراح واللّذات الباطلة ولا أُمسك قلبي ان يميل اليها بل اني اقصر سروري على حب ما يصيّرني محبوبًا لديك فاهدِني يا رب الى طرق القداسة وامنحني روحك الكلي قدسهُ ليرشدني فيها

وفيما كان تاودورُس على هذه الاميال وهو معتزلٌ جلس الناس على المائدة لياكلوا وطفقوا يلتهون ويفرحون ولما رأت أُمهُ ان ابنها ليس معهم دخلت حجرتهُ واذا بهِ غارقٌ في التأمل فسألتهُ عن سبب الحزن الظاهر على وجههِ. ثم طلبت منهُ ان يأتي ويفرح مع ابيهِ وأصدقائهِ فاجابها قائلاً ان حزني هذا أَلذُّ لديَّ من جميع افراح العالم فدعيني في عُزْلتي متأملاً وفي تأملي متنعمًا فتركتهُ أُمهُ ومكث يناجي ربهُ. فاشرق في قلبهِ وقتئذٍ من عند الله نورٌ ساطعٌ صيّرهُ يكره كل ما تحبهُ اصحاب العالم وتشتهيهِ وارتاحت نفسهُ الى البراري ليقضي هناك كل حياتهِ الّا انهُ لم يقدر ان يتمم مرادهُ وقتئذٍ من أَجل صغر سنهِ فلبث في بيت ابيهِ سنتين أُخريين ممارسًا رياضات الصلاة والامانة

فلما بلغ السنة الرابعة عشرة من عمرهِ عزم على ترك العالم فاستأذن أَبويهِ في التغرب قليلاً على سبيل التنزه فذهب ودخل احدى البراري حيث كان كثيرون من السياح يعيشون بالقداسة وطلب ان يعيش معهم وتحت ارشادهم فرضي الاباء بعد الفحص عن دعوتهِ وحسن نيَّتهِ وسلك معهم في طريق النسك. وفيما كان ذات يوم يسمع مذاكرات السيَّاح وقد أَفاضوا في سيرة القديس باخوميوس وذكروا انهُ رئيس كثيرين من الرهبان الساكنين معًا فتاق تاودورُس الى العيش تحت طاعتهِ وفضّل هذه الدعوة على دعوة السياح. وطلب إِذنًا ليمضي الى هذا الدير ثم انهُ في غضون ذلك وصل الى تلك البرية راهبٌ من دير القديس باخوميوس فاخبرهُ السياح بنية تاودورُس وسلموهُ اليهِ ليمضي بهِ الى الدير وعند وصولهِ استقبلهُ القديس باخوميوس بسرورٍ عظيم ومرّنهُ على اسمى الفضائل وعن زمنٍ يسير اضحى تاودورُس مثال القداسة ولاسيما باتضاعهِ وطاعتهِ وتقشفاتهِ

اما والدتهُ فقضت ثلثة اعوام في طلبهِ حتى عرفت اخيرًا انهُ ترهب في دير القديس باخوميوس وكانت قد أَرملت فذهبت حالاً في طلبهِ ووصلت الى دير راهبات كان قريبًا من دير القديس باخوميوس وكان هذا القديس قد اقام أُختهُ رئيسةً على ذلك الدير ومن هناك بعثت والدتهُ اليهِ برسالةٍ من بعض الاساقفة يسألون بها القديس باخوميوس ان يسمح لها ان تواجه ابنها وتكلمهُ. فلما قرأَ القديس هذه الرسالة استدعى تلميذهُ وقال لهُ انهُ من اللائق ان ترضي والدتك بالتكلم معها خصوصًا من اجل ان الطالبين مني هم اساقفة. فاجابهُ تاودورُس اني يا ابي نظرًا لامر الطاعة مستعد لاتمام كلامك غير اني ارغب اليك في ان نتأمل هل يُسرُّ السيد المسيح برجوعي الى اهل بيتي وقد زهدت في الدنيا وسلكت طريق الكمال المسيحي وماذا يقول اخوتي الرهبان الذين يفرّون من ذكر والديهم اذا رأوني متكلمًا مع امي. فقال له رئيسهُ نعم الرأي يا بنيَّ وكلامي لك ليس على سبيل الامر فاصنع ما تُريد بعد طلب المشورة من الله تعالى. فأَبى التلميذ مشاهدة أُمهِ ومخاطبتها ومن اجل هذا عزمت والدتهُ على الزهد والاقتداء بفضائل ابنها فترهبت هي ايضًا في دير الراهبات المتقدم ذكرهُ وقضت هناك حياتها في ممارسة الفضائل

وكان تاودورُس ابن خمسٍ وعشرين سنةً حين استصحبهُ القديس باخوميوس في زيارة اديرتهِ وامرهُ بعد خمسة اعوام ان يستعدَّ للارتقاء الى مرتبة الكهنوت ثم رأَّسهُ على دير تابين وانطلق لينسك في دير بابو. اما تاودورُس فكان يذهب الى هناك كلَّ عشيَّةٍ قصدًا الى استماع ما كان يُلقيهِ القديس المشار اليهِ على رهبانهِ من التعاليم ويرجع فيكرّرهُ على رهبان دير تابين على ان ذلك لم يكن يعوقهُ عن ان يعلمهم ويهذبهم في مخاطباتهِ الخصوصية

ولما كان ذات يوم ذاهبًا بمصاحبة أَبيهِ الطوباوي الى دير قرب بانوبولي بمصر السفلى اذا بفيلسوفٍ من تلك المدينة طلب مخاطبة القديس باخوميوس فظنَّ القديس ان من الواجب ان يرسل اليهِ تاودورُس فطارحهُ الفيلسوف مسائل مختلفةً فأَجابهُ تاودورُس عليها اجوبةً صحيحة مسكتة ثم اخذ يحثّهُ على ترك ما عندهُ من الاوهام الباطلة العقيمة قصدَ ان لا يشتغل فيما بعد الّا بعلم الخلاص. ولما كان

تاودورُس يأخذهُ احيانًا وجع الاسنان الشديد كان القديس باخوميوس يعزّيهُ قائلاً ان الآلام الكرهية هي اجزل فائدة للخلاص من القطاعة الاختيارية والصلوات الطويلة اذا احتملت بالصبر

واما القديس باخوميوس فابتُلي بالمرض في دير بابو قبل وفاتهِ بسنتين وألحّ رهبان دير تابين على تاودورُس ان يعدهم بقبول الرئاسة العامة على الرهبانية كلها من بعد وفاة باخوميوس غير ان القديس المشار اليهِ لم يعدهُ الا على رغم منهُ وعقيب مقاومةٍ طويلةٍ ومع ذلك فقد ونبهُ القديس باخوميوس توبيخًا عنيفًا وعزلهُ عن رئاسة دير تابين . وخضع تاودورُس برضًا معترفًا انهُ قد صار اثيمًا بعجرفتهِ والاستبداد برأيهِ . فكان مدة عامين آخرَ الرهبان كافةً بل دون المبتدئين وقد احتمل هذه المذلّة صامتًا وعاش أضنكَ العيش وأضيقهُ . فلمعت فضيلتهُ ببهاء جديد فكان ما لحقهُ من الهوان انفع لهُ من العزّ والرفعة كما قال القديس باخوميوس مرارًا لسائر الرهبان

ومات القديس باخوميوس سنة ثماني واربعين وثلثمائة للمسيح واقام الرهبان خليفةً لهُ بترون الذي عيّنهُ هو ولكن هذا تُوفي بعد شهر لموتهِ عليهِ السلام . فانتخبوا القديس أرسيسيُس بيدَ ان هذا اذ رأى انهُ اضعف من ان يوفي الرئاسة حقًّا وعلم ان في الرهبان اضطرابًا حملهم على انتخاب تاودورُس وأكّد لهم انهُ يتبع بهذا ما امر بهِ باخوميوس قُبيل وفاتهِ . فجمع تاودورُس الرهبان وأغراهم بمحبة السلام وامرهم ان يستأصلوا أسباب الانقسام والحاصل ان صلواتهِ وأحاديثهُ ونموذجهُ ردّت الاديار كلها الى الألفة والمحبة . وكان أرسيسيُس معاونًا لهُ وكان بينهما اتحاد الراي كاملاً عجيبًا لانهما كانا قد اقتلعا من قلوبهما كل اميال الكبرياء والحسد وكانا يتسابقان في المعروف والاتضاع . واما تاودورُس فلم يباشر امرًا الاّ بعد ان يستشير أرسيسيُس وكانا يزوران الأديار ديرًا فديرًا

ثم ان تاودورُس كان يهذّب كلاًّ من رهبانهِ على انفرادٍ ويعزّيهم في اتعابهم ويشجعهم ليسلكوا سبل التوبة وما كان احلى توبيخهُ لهم على الزلّات وأشدَّهُ استمالةً للقلوب ولذا كان الجميع يكاشفونهُ بالافكار الخفية . وكان يلجأُ الى الصلاة والصوم ليردّ الزائغين عن الطريق المستقيم اليهِ . واعلم ان هذه الوسيلة قارنها النجاح دائمًا وقد آتاهُ الله موهبةَ النبوّة وصنيع المعجزات

واذ كان يومًا على نهر النيل مع القديس اثناسيوس قال لهُ ان يوليانوس الجاحد مات في مثل هذا الوقت وان خليفتهُ سيعيد السلام الى الكنيسة وتحقّق ذلك بالفعل بعد قليل. وأنبأ رهبان نيتري عام ثلثةٍ وخمسين وثلثمائة ان كبرياء الآريوسيين لا تلبث ان يعروها الخزي . وتلك النبوّة مسطّرة في رسالةٍ هي بايدينا حتى الآن (١) وعندنا رسالةٌ ثانية لهُ يبحث بها على تعييد الفصح بالتعبُّد واخبر جناديوس عن ثلث رسائل أُخر أنشأها تاودورُس لتعليم رهبانهِ غير انها لم تصل الينا

وجاء في كتاب القديس نيلُس وفي غيرهِ من كتب القدماء النبذة الآتية وهي : فيما كان تاودورُس يرشد رهبانهُ وقت الشغل اذ التفّت على رجليهِ أفعيان لكنهُ لم يتحرّك خشيةَ ان يشتّت أفكار المحضر الذين كانوا يصغون الى مقالهِ حتى اذا فرغ من الكلام أذِن في قتل الأفعيَين اللتين لم تلسعاهُ

وأُعلم في أحد آحاد سنة سبعٍ وستين وثلثمائة ان احد رهبانهِ قد اشرف على المنون وكان وقتئذٍ يُصلّي الفرض فترك الصلاة وذهب اليهِ ليعينهُ عند آخر أنفاسهِ وقال للآخرين ستعقب وفاة هذا الراهب وفاة آخر فلما نُنتظر. فسهر الرهبان الليل كلهُ حوالي جثة أخيهم ودفنوهُ يوم عيد الفصح مرنّمين عليهِ المزامير . وبعد ثمانية ايام العيد القى تاودورُس على رهبانهِ خطابًا قد أخذ بهم كل مأخذ وكانوا وقتئذٍ مجتمعين في فرصة العيد واعادهم الى اديارهم . وما لبث ان اصابهُ مرضٌ ثم أوصى أرسيسيُس بتدبير الرهبانية وتأهب خير التأهب للانتقال الى الدار الباقية واستأثرت بهِ رحمة الله في السابع والعشرين من نيسان سنة سبعٍ وستين وثلثمائة وعمرهُ ثلثةٌ وخمسون عامًا ونُقلت جثتهُ الى قمة الجبل ودُفنت في مقبرة الرهبان على ترنيم المزامير ووُضع عمّا قليل في قبر القديس باخوميوس . وكتب القديس اثناسيوس الى رهبان دير تابين تعزيةً لهم عن الخسارة التي اصابتهم ولكي يمثّلوا نُصب عيونهم المجد الذي يتمتع بهِ ابوهم الطوباوي. هلمّ

(١) حاشية . راجع البلاّنديستيين ١٤ ايار في ملحق لترجمة القديس باخوميوس وجه ٣٥٥

واعلم ان الكنيسة اليونانية تعيّد للقديس تاودورُس في خامس عشر ايار واما اللاتينية ففي هذا اليوم

اليوم التاسع والعشرون

وفيهِ ترجمة القديس توما الأُسقف الشهيد

كانت ولادتهُ بمدينة لوندرا سنة سبع عشرة ومائة والف للمسيح وكان ابوهُ جيلبرتوس من شرفاء بلاد الانكليز غير انهُ حين كان يزور الأماكن المقدَّسة وقع في ايدي السراكسة فاستاسروهُ واصبح خادمًا عند أحد الأمراء وكان لذلك الامير ابنة فلما سمعت بالنصرانية وتأمَّلت سيرة جيلبرتوس الاسير أحبت ديانتهُ وشخصهُ ايضًا. ثم تيسر لهُ ان يهرب فتبعتهُ ابنة الامير ولحقتهُ الى بلاد الانكليز وطلبت المعمودية فعمدها الاسقف بعد التعليم الواجب وسماها ماتيلدا ثم زوَّجها بجيلبرتوس ورزقهُ الله منها ولد هذا القديس الذي منذ طفوليتهِ رغَّبتهُ والدتهُ في العبادة لسيدة العالم فنما الغلام على أخلاقٍ حميدة وسيرةٍ صالحةٍ وتضلَّع من العلوم ولما كان في سن العشرين تُوفي والدهُ

على انهُ لم يزل ممارسًا لرياضات العبادة مكبًّا على درس العلوم في مدارس لوندرا وأُكسفُرد وباريز وبعد رجوعهِ الى لوندرا سكن مدةً خارج المدينة عند أحد الشرفاء الذي كان مولعًا بالصيد. فشاركهُ توما في الصيد وفي حبهِ لهُ حتى كاد يعجل اليهِ الموت لولم يحفظهُ الله تعالى باعجوبة وذلك انهُ اتفق مرةً ان باشقهُ هجم على بطّةٍ فغطست في الماء هربًا من الباشق فانقضَّ الطائر الى الماء ايضًا فدخل توما في النهر ليخلّص باشقهُ فسحبهُ الماء الى عَنَفة طاحونة (وهي المعروفة عند العامة بالفراش) واعلم انهُ لولم يوقف الله جلت مراحمهُ العَنَفة لنجيهِ من الخطر لكان تطحن تحتها. ومن ذلك اليوم حرَّم على نفسهِ التنزهات الباطلة ونقدَّم لاسقف مدينة كنتوربري الذي كان صديقًا لأبيهِ فجعلهُ الاسقف مساعدًا لهُ وقد استخدمهُ الاسقف المذكور في اعظم الامور فوجدهُ رجلاً ماهرًا امينًا وفي كل سلوكهِ مستقيمًا فاضلاً. فرسمهُ شماسًا لانهُ كان اكليريكيًا من مدةٍ ثم جعلهُ رئيس شمامسة وكان هذا منصبًا من أعلى المناصب الكنائسية في انكلترة لصاحبهِ حق الجلوس في مجلس اللورد بعد الاساقفة ورؤساء الاديار

فطار في الآفاق حينئذٍ خبر علمهِ وفطنتهِ في تدبير أهم الامور فصيَّرهُ الملك هنريقوس الثاني هامة قضاة محكمتهِ فأحسن القيام بهذه المرتبة السامية وارضى الملك والشعب وفضلاً عن ذلك فلم يهمل شيئًا من واجبات درجتهِ. فانهُ في النهار كان يدبّر امور المملكة ويصرف اكثر الليل بالصلاة وكان في بلاط الملك عائشًا عيشة أفضل الرهبان نشاطًا لانهُ كان لا يرقد الا على الارض وفي كل ليلةٍ كان يمارس صنفًا من التقشفات الشديدة المتعبة. واما سخاؤهُ على المساكين فكان غزيرًا وقد اقامهُ الملك على تربية ابنهِ هنريقوس. وفي غضون ذلك توفي اسقف كنتوربري التي هي اول كراسي هذه المملكة فطلب الجميع ان يكون القديس توما خليفةً لهُ ورضي بهِ الملك بل أَلزم القديس قبول هذه المرتبة فقال لهُ القديس اني اسأل عزَّتك الاَّ تجعلني أُسقفًا واما ذلك فأولاً لاني غير اهل لهذه الدرجة السامية وثانيًا لاني اذا صرت اسقفًا فربما يقتضي الحال ان اقاوم مقاصدك فيما تطالبهُ مما يضرُّ بحقوق الكنيسة. فلم يُبالِ الملك بهذا الاعتذار والزمهُ قبول هذه الدرجة بواسطة النائب الرسولي. وحاصل الامر انهُ ارتسم أُسقفًا في بيرامون عيد العنصرة سنة اثنتين وستين من المائة الثانية عشرة للمسيح

وكان ابن اربع واربعين سنة عند ارتقائهِ الى ذلك المنصب العالي وجرى من ساعتهِ على الطريقة الرهبانية ولبس من تحت الثوب الاسقفي اسكيم راهب قانوني وزاد على تقشفاتهِ الاكثار من الصوم ولبس المسح دائمًا وكان في كل يوم يغسل ارجل ثلثة عشر فقيرًا ويعود المرضى ويزور المساكين في بيوتهم ويباكر الى تقديم ذبيحة القداس ويحضر كل يوم الصلاة في الكنيسة. وبتعليمهِ وقدوتهِ كان كسراج مضيءٍ موضوع على المنارة. فبعد جلوسهِ على الكرسي دُعي الى مجمع طور الملتئم بفرنسا سنة ثلثٍ وستين ومائة والفٍ وكان البابا اسكندر الثالث مترئسًا عليهِ بنفسهِ وحكم الآباء بالحرم على الذين يغصبون أَموال الكنائس وعلى الاساقفة والرهبان الذين لا يقاومونهم

فلما رجع القديس توما الى اسقفيتهِ حرم أَحد الحكام لانهُ كان قد غصب أَموال الكنيسة ونادى بأنهُ من امتيازات الكنيسة التي اثبتها الملوك المسيحيون ان الحاكم العالي لا يحكم على الاكليريكيين. وكان يضاد الملك نفسهُ على تاخيرهِ انتخاب الاساقفة وسائر اصحاب المناصب الكنائسية ليُحرز

لنفسهِ حاصلات أوقافها وهذا كلهُ قد اضرم نار الغيظ والبغضة في قلب الملك وقال للقديس انهُ يخصّ الملك ان يُعذّب كل الائمة الذين تحت سلطتهِ وان يضع على الشعب القوانين التي يُريد وضعها . فقال القديس أقابل جميع أوامرك بالطاعة الاَّ ما ضادَّ منها شريعة الله تعالى . فلما سمع الملك هذا الكلام تلهّب قلبهُ غيظاً وخرج من المحفل منتهرًا القديس فمال الاساقفة جميعهم الى طاعة اوامر الملك وانقادوا لغرضهِ وبقي القديس وحدهُ ينتصر لحقوق الكنيسة فحدث شغبٌ عظيم وقال لهُ اصدقاؤهُ انهُ يسبّب شرورًا إن كان لا يرجع عن رأيهِ فعاهدهم أنهُ يدع الأمور تجري على عادتها وفي جمعية التامت بكلارندون سنة اربع وستين ومائةٍ وألفٍ أمضى ثلثة عشر من مراسيم الملك . ثم نبّههُ أحد الاكليريكيين بقولهِ لهُ انهُ بفعلهِ هذا أهمل حقوق الكنيسة وهذا الكلام فعل في قلب القديس كما قال برونيوس ما فعلهُ صياح الديك في قلب بطرس الرسول لانهُ ندم حالاً على زلتهِ وامتنع من تقديم الذبيحة الالهية الى ان استشار الحبر الاعظم الذي كان عند ذلك بمدينة سانس واتاهُ الحلّ من قبلهِ . ثم اتفق ان الملك وجّه اليهِ رسالةً كان يأمر بها اولاً ألاَّ يرفع احدٌ من رعيتهِ دعوى الى الكرسي الرسولي من دون إذن الملك . ثانيًا الا يذهب احدٌ من الأساقفة الى رومية بغير اذن الملك ولو ان البابا أمر بالمضيّ اليهِ . ثالثًا الاَّ يحرم الأسقف أحدًا من الذين يخدمون الملك قبل ان يخاطب الملك في ذلك . رابعًا ألاَّ يُعاقب الاسقف من يحنث بقسمهِ وينكث بعهدهِ . خامسًا ان قضاة الملك يحكمون على دعاوي الاكليريكيين ويُعاقبونهم عند الاستحقاق . ولا خلاف في ان الملك بهذا كان يبطل حقوق الكنيسة المثبتة بشرائع جميع الملوك المسيحيين منذ عهد الرسل . ومن ثم أبى القديس توما قبول شروط الملك ورذل رسالتهُ

اما الملك فجمع الاساقفة وعظماء المملكة فاضطرّ القديس ان يحضر بينهم كرجل اثيم وحكموا عليهِ بأخذ كلّ اموالهِ ثم عزلوهُ عن كرسيهِ ولما رأى نفسهُ في خطر الموت هرب سرًّا الى فرنسا وانفرد في دير من أديار رهبانية سيتو . وحينئذٍ أتاهُ جميع اقربائهِ واصدقائهِ واخبروهُ بانّ الملك غصب اموالهم ونفاهم لاجل مخالفتهِ امرهُ . اما لويس السابع ملك فرنسا فاكرم استقبالهم حبًّا بالقديس ووهبهم في مملكتهِ ما قد كانوا خسروهُ في بلادهم . ولما عرف الملك المغتصب ان القديس يسكن ديرًا لرهبانية سيتو كتب الى الرئيس يقول لهُ انهُ يهدم كل اديار رهبانيتهِ التي في بلاد الانكليز ان كان لا يخرج القديس من ديرهِ . فلما سمع القديس هذا قال حاشا لي ان ارتضي بان يُضطهد القديسون من اجلي وخرج من الدير وحينئذٍ استدعاهُ ملك فرنسا واسكنهُ عندهُ وفيما كان يصلّي يومًا سمع هاتفًا من السماء يقول انك يا توما ستشرف الكنيسة بسفك دمك . فقال القديس من أنت يا رب اجابهُ تعالى اني انا يسوع المسيح فقال القديس مبتهجًا ليكن يا رب ليكن وليتمّ فيّ قولك الالهي وان كنتُ لا استحقّ ذلك الإكليل

فبعد ان اخرج الملك هنريقوس القديس من دير سيتو رام ان يخرجهُ من بلاط ملك فرنسا فارسل اليوايي الى الملك وفدًا شاكيًا منهُ لانهُ قبل عدوّهُ باكرام في مملكتهِ . فقال لهم ملك فرنسا قولوا من قبلي لسيّدكم اني انا ملك نظيرهُ واني مع هذا لم اتجاسر قط ان اعزل اصغر الاكليريكيين عن وظيفتهِ واني لمتعجب منهُ كيف تجرّأ ان يفتري على الكنيسة الكاثوليكية بعزلهِ أسقفًا محترمًا قديسًا عن اعظم كراسي اساقفتهِ . غير ان الملك هنريقوس ارتضى اخيرًا بعود القديس الى كرسيهِ

فرجع القديس الى كرسي اسقفيتهِ بعد سبع سنين لخروجهِ منها ولما كان في الطريق صادفهُ كاهن قديس فقال بروح النبوّة ان الكنيسة لا تحصل على حال السلام والنجاح الاَّ باستحقاق الدم الذي سيهريقهُ شهيدًا . فلما وصل الى كانتوربري تلقّاهُ الشعب والرهبان والاكليريكيون بفرح عظيم وكان دخولهُ المدينة كدخول السيد المسيح الى اورشليم قبل الامهِ بايام قليلة . على انهُ بعد قليل لوصولهِ الى كرسيهِ أرسل اليهِ الملك ثلثة اساقفة وامرهم ان يطلبوا منهُ ان يحلّ كل الاساقفة المحرومين فامتنع القديس من ان يحلّهم الاَّ بشروط واجبة فشرع الاساقفة يضطهدونهُ عند ذلك بقولهم الكاذب لهُ ان القديس لا يبرح يذمهُ ويلوم تصرفهُ وعوائد مملكتهِ فوغر لذلك صدر الملك وقال ما هذا ان قسًّا واحدًا يتعبني اكثر ما تتعبني اهل المملكة كلها ليلعن الله الذين يأكلون خبزي ولا ينتقمون لي منهُ . فلما سمع هذا الذين حول الملك عزم منهم اربعة على قتل القديس وذهبوا معًا لينفذوا نيتهم السيئة . واما القديس فلكونهِ أُلهم ان ساعة موتهِ قد دنت ذهب الى الكنيسة في عيد ميلاد سيدنا يسوع المسيح و بعد تقديم الذبيحة

الالهية أخبر رعيتهُ باقتراب موتهِ واقام هناك اربعة ايام منتظرًا الساعة المشتهاة فوصل الرجال الاربعة الأثمة ودخلوا الكنيسة حيث كان القديس مع الاكليريكيين وصرخوا قائلين أين توما أين الاسقف المتمرّد على الملك . فتقدَّم القديس امامهم وقال انا توما كاهن الله المستعد لسفك دمي حبًّا لمن هراق دمهُ الالهي لاجلي وانا آمركم بكل السلطان المعطى لي من الله بالاَّ تضرُّوا احدًا من الذين معي . ثم التفت الى المذبح وأستودع نفسهُ وكنيستهُ الله تعالى ووالدتهُ المجيدة وحينئذٍ وثب عليهِ القتلة بسيوفهم فمزَّقوا جسدهُ وشقُّوا رأسهُ حتى وقع دماغهُ على الارض مع دمهِ النقي . وحين شاع في المدينة خبر قتل القديس اجتمع الشعب كلهم ينوحون على فقدهِ متذمّرين من قاتليهِ وقد شُفي اعمى وضع من دم القديس على عينيهِ وكان قتل الاسقف الشهيد في اليوم التاسع والعشرين من كانون الاول سنة سبعين ومائة والف وكثرت عند قبرهِ وبشفاعتهِ العجائب من شفاء المرضى وقيامة الموتى فادرج البابا اسكندر الثالث اسمهُ فيما بين القديسين الشهداء سنة ثلث وسبعين ومائة والف للمسيح

فلما عرف الملك هنريقوس ما كان حصل لهُ حزنٌ عظيم واستمرَّ اياماً كثيرةً صائمًا باكيًا مانعًا نفسهُ من كل تنزهٍ وارسل حالاً وفدًا الى البابا وشهد لهُ انهُ لم يقصد قتل الاسقف القديس وانما تسبب لهُ فيهِ بكلمة فرطت منهُ وانهُ مستعد لتكميل ما يأمرهُ بهِ تكفيرًا عن خطيئتهِ . فأتى من قبل الحبر الاعظم نائبان فوجداهُ على استعدادٍ حسنٍ لتوبةٍ نصوحٍ وأقسم لهما انهُ قد همَّ بان ينسخ العادات الرديئة وكذا التعديات التي هيجت غيرة القديس وان يردَّ للكنيسة ما غصبهُ من العقار والحاصلات وأُمر تكفيرًا عن إثمهِ ان يُنفق سنةً على مائتي جندي من جنود الحرب الصليبية في الاراضي المقدسة ونسب الناس توبة الملك الى صلوات هذا الشهيد ودمهِ المسفوح

ومن آياتهِ البيّنة الكثيرة التي ذكرها مؤرخوا مملكة انكلترة في هذا الفحص ما يُروى من ان فيلبّس الملقّب بالمعظّم نجل لويس السابع ملك فرنسا أصابهُ داءٌ عُضال حتى يئس الاطباء من شفائهِ فشمل اباهُ غمٌّ لا مزيد عليهِ فلم يفتأ يسجم الدمع ليلاً ونهارًا . ثم عزم بالهام الله ان يزور قبر القديس توما بمدينة كانتوربري فسافر غير مبالٍ بنصائح عظماء دولتهِ وسار هنريقوس الثاني لملاقتهِ وهداهُ الى قبر القديس المذكور وحين وصولهِ الى القبر صلّى ثم قدم لكنيسة كانتوربري كأسًا من ذهب وأتحف الرهبان بعدَّة تحف وقرَّر لهم امتيازات كبيرة . ولما عاد الى فرنسا اذا بهِ قد رأى ابنهُ صحيحًا معافًى فلم يخامرهُ شك في ان ذلك لم يكن الاَّ بشفاعة القديس توما عليهِ السلام وكان ذلك عام تسعة وسبعين ومائة والف للمسيح

وعامل الله هنريقوس الثاني كما عامل داود لان ابن هذا الملك عصى اباهُ لكونهِ اراد ان يبقي لذاتهِ جزءًا من املاكهِ وعاضدهُ في هذه الثورة ملك اسكوسيا الذي اظهر قساوةً لم يُسمع لها بمثل في شمالي المملكة . واما هنريقوس المذكور فلما رأى ان الرعية معرضةٌ عنهُ زار قبر القديس توما ومشى حافيًا مسافة ثلاثة اميال حتى دخل المدينة والدم يسيل من كلتا رجليهِ وسجد عند قبر القديس ولم يصرح بأهواء قلبهِ الاَّ بالمدامع والزفرات وبقي هناك يومًا كاملاً ولم يتناول قوتًا وأحبَّ ان يقبل قصاص التأديب من الاساقفة والكهنة والخوارنة ثم قدَّم هدايا نفيسةً لكنيسة كنتوربري

وبينما كان صباحَ الغد يحضر القداس قربَ رمس القديس اذ أُسر ملكُ اسكوسيا جماعةٌ من جنودهِ ثم ما لبث ان جاء ابنهُ وخرَّ على قدميهِ وسألهُ المغفرة الاَّ انهُ بعد ذلك رجع الى عصيانهِ الاول لكن اعتراهُ مرض عضال فنال بشفاعة القديس توما ان يموت تائبًا فاعترف اعترافًا عامًّا ولبس مسحًا وجعل حبلاً في عُنقهِ وانطرح على الرماد ليتناول القربان المقدس

واما قتلة القديس فأصبحوا مكروهين في انكلترة واقاموا في بيت منفردين ولم يكن احدٌ يريد ان يدنو منهم ولما اشتدَّ عليهم وخز الضمير انطلقوا الى ايطاليا في طلب المغفرة عن إثمهم فأمرهم الحبر الاعظم ان يزوروا الأراضي المقدسة ففعل ذلك ثلاثةٌ منهم وبعد وصولهم الى القدس الشريف دخلوا في موضعٍ يقال لهُ الجبل الأسود وحبسوا انفسهم فيهِ ليفوا القانون المفروض عليهم وما زالوا ثمَّةَ حتى ماتوا وقد تابوا الى الله توبةً صادقة ودُفنوا امام باب كنيسة اورشليم وكتب على قبورهم هذا التاريخ: هذا قبر الاشقياء الذين قتلوا القديس توما رئيس اساقفة كنتوربري : واما الرابع فحيث انهُ تأخر عن التوبة زمانًا أصابهُ داءٌ ثقيل بكوزنزا مدينة بالكالابريا ولم يبرح الى آخر انفاسهِ يتوسل بالقديس توما كما شهد بذلك اسقف

تلك المدينة الذي سمع اعترافهُ . روى اصحاب السير من كاتبي ترجمة القديس ان قاتلي القديس ماتوا في السنين الثلث التي عقبت انتقالهُ الى دار النعيم

اليوم الثلثون

وفيهِ ترجمة القديس سابينوس

ولما كان اول الاضطهاد العظيم الديني الذي اشعل نارهُ ديوكليتيانوس و مكسيميانوس هيركليس سنة ثلث وثلثمائة كان المؤمنون في شدة ثقيلة واذ قصد ان يكشف عليهم ويبيدهم نهى الناس قاطبةً عن مبايعتهم ومُشاراتهم حتى وعن ان يطحنوا الحنطة ويستقوا الماء ما لم يُبخّروا الأصنام الصغيرة التي كانت منصوبةً في الاسواق والشوارع لهذه الغاية . ولما كانت هذه الشدائد الهائلة كفوءة لان تزعزع أرسخ المسيحيين ايمانًا واشدّهم متانةً في النصرانية مسّت الحاجة الى رجال يشبهون الرسل مشابهةً قويّةً لكي يثبتوهم على دينهم فقام بهذه المهمّة في اكثر مدن أمبريا واتروريا سابينوس اسقف مدينة أسيزيا ولا نعرف بلد هذا الاسقف ولامنشاهُ المجيد . ولما بلغ خبرهُ الى فينوسنيانوس حاكم توسكانا وقف هذا النجاح السعيد لانهُ اذ صادف القديس بمدينة اسيزيا يبشّر بالانجيل ألقاهُ في السجن هو وشماسيهِ مرسيلّس واكزوبيرنس وجماعةً من اكليروسهِ ثم امر ان يمثلوا لديهِ ففعلوا وأراد ان يكرههم على السجود لتمثال صغيرٍ من تماثيل المشتري مصنوعٍ من المرجان كان في بيتهِ وعليهِ ثوب ذهبي . فاخذ سابينوس التمثال بيديهِ ورمى بهِ الى الارض بجرأةٍ فتكسّر قطعًا فأوغر ذلك صدر فينوسنيانوس فأمر بقطع يدي الحبر القديس وبان يُمدّ شماساهُ على دولاب العذاب ليتكسّرا بضرب العصا ويُمزّقا بأظافير حديد ويُحرقا بمشاعل متقدة فأُنفذ الامر فماتا من شدة العذاب

واما سابينوس الذي كان يشدّدهم عند الاستشهاد فأُرجع الى السجن حيث افتقدتهُ عقيب ستة ايام سيرينا ارملةٌ كريمة الاصل شريفة النسب كانت تُنفق اموالها في سبيل محبة القريب وقدّمت لهُ خدمةً وصرفت مذ ذاك جانب العناية الى اعانتهِ وبذل ما يحتاج اليهِ من لوازم العيش . واعلم ان نقواها لم تبقَ بدون ثوابٍ فكان لها ابن أخٍ اعمى يقال لهُ بريسليان جاءت بهِ الى القديس سابينوس فعاد بصيرًا واهتدى بسبب هذه المعجزة الباهرة خمسة عشر مسجونًا رأوها باعينهم . وكان فينوسنيانوس قد غضّ النظر عن القديس سابينوس على اثر مرضٍ اصابهُ في عينيهِ فاوجعهُ اثنين وثلثين يومًا ولما علم بآية شفاء بريسليان ذهب الى الاسقف القديس بامرأتهِ وابنيهِ آملاً انهُ يخفف عنهُ ما يُقاسي من العذاب الشديد . فقال لهُ سابينوس اذا آمنتَ بالمسيح واعتمدت انت وحليلتك برئتَ في الحال فقبل ذلك الشرط ورمى في النهر قطع التمثال المرجاني الذي مرّ الكلام عليهِ وتعلم اسرار النصرانية وتعمّد وشاركهُ في هذا الحظ امرأتهُ وابناهُ وما لبثوا ان قُطعت هامهم بامر لوسيوس الذي ارسلهُ مكسيميانوس ليقضي عليهم

واما القديس سابينوس فاقتادهُ هذا الحاكم الجديد الى سبوليتو وهناك قُضي عليهِ بان يُضرَب بحبال مغشّاةٍ بالرصاص فانفذ الجلادون هذا الحكم بعظم الشدة والقساوة حتى مات بين ايديهم وكان ذلك في سابع كانون الاول سنة ثلثٍ وثلثمائة غير ان السنكسار الروماني لا يذكرهُ الّا في اليوم الثلثين فتبعناهُ في تأخير ترجمتهِ الى هذا اليوم

واعلم ان سيرينا التي تشرفت ايضًا بتاج الاستشهاد رفعت جسدهُ ودفنتهُ باكرام على مسافة ميل من المدينة مع يديهِ اللتين كانت قد اشترتهما وحنّطتهما وحفظتهما في اناءٍ من زجاج . وأُقيمت لهُ منذ ذاك كنيسة عظيمة ومعبدٌ سفلي واما ذخائرهُ فنُقلت الى مدينة فاينزا . وهذا الذي حمل بعض المورّخين على ان يقولوا بانهُ كان اسقفًا عليها وتوزّعت عظامهُ في اكثر مدن ايطاليا ولا يزال مكرّم الذكر هناك وقد بُني على اسمهِ أديار كثيرة . روى القديس غريغوريوس المعظم في بعض رسائلهِ الشريفة انهُ كان قرب فيرمو معبدٌ على اسم القديس وضع فيهِ جزءٌ من عظامهِ كان اخذهُ من كريسانتوس اسقف سبوليتو

اليوم الحادي والثلثون

وفيهِ ترجمة القديس سلفستروس البابا

وُلد القديس سلفستروس برومية المكرّمة ومات ابوهُ روفينوس ولم يبلغ اشدّهُ فعُنيت بتربيتهِ أمّهُ جيوستا المرأة المعروفة بكرم الاخلاق وسموّ الفضائل وأقامت على تعليمهِ الفلسفة وقواعد الايمان كارينوس كاهنًا من افاضل العلماء

المتورّعين فبرع في العلوم ورقي في الفضائل حتى انتُخب على صغر سنهِ اكليريكيًا في كنيسة رومية ثم رسمهُ البابا مرشياالينوس كاهنًا ولما كانت سنة ثلثٍ وثلثمائة للمسيح اوقد نار الاضطهاد على المسيحيين الملكان ديوكلينيانوس ومكسيميانوس فاستُشهد البابا مرشياالينوس المذكور واما سلفستروس فذاق في ذلك الاضطهاد عذابًا ولكنهُ ناضل عن النصرانية نضال الجنود البُسلاء وقد قذفهُ الخوارج الدوناتيون مع غيرهِ من الكهنة الفضلاء بانهم سلموا الاسفار المقدسة الى المغتصبين ولقّبوهم بالخائنين ويُستدل من كلام القديس اغستينوس ان الخوارج المذكورين كانوا يقذفون الكاثوليكيين وبالأولى رعاتهم بهذه التهمة الناشئة عن شياطين الخبث ابتغاء ان يكون ذلك وسيلةً لتأصيل ضلالهم. وكانت سيرة القديس سلفستروس المستقيمة تنشر نفحات فضلهِ وتقواهُ حتى تأصل لها في قلوب الناس حبٌّ شديد ولذلك على اثر انتقال القديس ملكياده الى رحمة الله وقع الاتفاق العامُّ على انتخابهِ للخلافة البابوية فارتسم اسقفًا في غاية كانون الثاني سنة اربع عشرة وثلثمائة

وكان اول ما عُني باجرائهِ ان يضمّ الدوناتيستيين المشار اليهم الى كنيسة الله وبما انهم كانوا منذ ثماني سنين قد احدثوا في بلاد افريقية البدعة الشنيعة ورذلهم البابا ملكياده في مجمعٍ عقدهُ برومية ثم ادعوا ان الاساقفة الذين اجتمعوا كانوا قليلاً وان براهينهم لم تقع تحت الفحص والتدقيق فارتضى البابا سلفستروس ازالةً لكل مانع ودفعًا لهذه الدعوى ان يُعقَد مجمع بارلي مدينةٍ بفرنسا ويلتئم اليهِ اساقفة بلاد المغرب كلهم ليُنظر ثانيةً في دعوى الدوناتيستيين ويُحكَم عليها حكمًا باتًّا. فأرسل من قبلهِ اربعةً كلاوديانوس وفتيوس وهما كاهنان واوجانيوس وكيرياكوس وهما شماسان فترأسوا على المجمع بالنيابة عنهُ وكان انعقادهُ في شهر آب عام اربعة عشر وثلثمائة للمسيح وفيهِ حكم على الدوناتيستيين ثانيةً ورُذِلوا كمشاقين ولكن اوصى بأن يُعامل بالرفق واللين الراجعين منهم الى الكنيسة وقد جرى ذلك مع كثيرٍ منهم نبذوا الشقاق وأصدر ذلك المجمع قوانين ملائمة لسلامة تهذيب الكنيسة ولحفظ العوائد الصالحة

وحصلت للقديس سلفستروس تعزيةٌ كبيرة لانهُ رأى في مدة جلوسهِ على عرش الخلافة البابوية احدى وعشرين سنةً وأحد عشر شهرًا انتساخ عبادة الاصنام من جميع اطراف المملكة الرومانية وانتصار النصرانية في جميع آفاق الدنيا على يد قسطنطين الكبير الذي أمتع الكنيسة الجامعة بالسلام والامان لان الاضطهاد المذكور الذي أثارهُ ديوكلينيانوس ومكسيميانوس قد اطفأ نارهُ الملك قسطنطين الذي هداهُ الله الى الصراط المستقيم على هذا الوجه

لما جلس مكسنسيوس على عرش الملوك الرومانيين اختلاسًا واستولى على ايطاليا وافريقية خرج عليهِ قسطنطين بجنودهِ فلما دنا من رومية ظهر لهُ صليبٌ في الجوّ ملتحفٌ بنورٍ اشرق من ضياء الشمس وبازائهِ هذه العبارة: انك بهذه العلامة تغلب: فافعمهُ ذلك دهشًا وخوفًا وتراءى لقسطنطين في الليلة القابلة يسوع المسيح نفسهُ وأمرهُ ان يضع العلامة التي راءها في الجوّ على أعلام عساكرهِ فيفوز بالظفر والنصر المبين. فامتثل قسطنطين هذا الامر ورسم تلك العلامة (١) على رايات جيشهِ واسم يسوع الغالب عوض علامة الاوثان التي كان يستعملها هو واسلافهُ الكفرة فانتصر على مكسنسيوس وبقية اعدائهِ انتصارًا مبينًا وذلك سنة اثنتي عشرة وثلثمائة فآمن بالمسيح وتفضّل على خدام مذابح الرب بمنح جمّةٍ وجعل لهم امتيازات كثيرة واغرى رعاياهُ كلهم ان يقتفوا اثرهُ في رفض الوثنية ويدخلوا في النصرانية التي لا ديانة حق سواها وعقب ان ابرز بمدينة ميلان سنة ثلاث عشرة من القرن الرابع منشورًا يُعلن بهِ ان النصرانية هي ديانة المملكة كلها افرغ امكانهُ في ابطال عبادة الاوثان وهدم مذابحها وامر ببناء كنائس للمسيحيين في كل موضع ولاسيما في رومية عاصمة المملكة فانهُ اقام فيها على كل قبرٍ من قبري الرسولين المعظمين بطرس وبولس كنيسةً اي كنيسة القديس بطرس الواتيكانية وكنيسة القديس بولس التي على طريق أستيا ثم بنى كنيسة القديس يوحنا اللاترانية المعروفة بالكنيسة الملكية القسطنطينية

وبينما كان القديس سلفستروس يتقلّب في افراحهِ مبتهجًا بانتشار النصرانية وانتساخ الوثنية واخماد الاضطهادات التي آلم الكنيسة سعيرُها ثلثة قرون خالط قلبهُ الكدر وامتزج سرورهُ

(١) حاشية. راجع اليوم الحادي والعشرين من شهر اب في ترجمة القديس بونوس ومكسيميانوس وجه ٤٧٦ حيث رسمنا صورة بيرق الملك قسطنطين

بالغمّ بسبب ما احدثهُ آريوس مما وسوس اليهِ الشيطان اخزاهُ الله من البدعة الشنيعة التي قامت بسببها حرب بين المسيحيين انفسهم أوقعتهم في اشدّ الضيم وأضرّت بأنفسهم . لان آريوس الكاهن الاسكندري أخذ عام تسعة عشر وثلثمائة ينكر ألوهية المسيح له المجد وقد تحيل وألقى زوان هذه البدعة الخبيثة في آفاق المشرق كلها بحيث لم يمرّ زمن قصير الاّ سرت عدوى هذا الوباء الى جماعة من الاساقفة في مقدمتهم اوسابيوس النيكوميدي ومن اشدّ بواعث الاستغراب سريان هذه البدعة وكثرة المناضلين عنها مع تحريمها اول ما اشتهرت من القديس اسكندر بطريرك الاسكندرية ثم من مجمع حفل فيهِ مائة اسقف من القطر المصري وقد رُشق فيهِ بالحرم المبتدع وأشياعهُ كلهم

ثم سنة خمس وعشرين وثلثمائة للمسيح دفعاً لهذا الوباء امر البابا سلفسترس بان يُعقد مجمعٌ عام بمدينة نيقية من اعمال البنتي فاجتمع بها اساقفة كنيسة الله من جميع اقطار المعمورة بيدَ ان الحبر الاعظم المنوَّه بهِ عجز لكِبَرهِ ان يحضرهُ فاناب عنهُ اوسيوس الكبير اسقف قرطبة وفيتوس وفينسنسيوس وكلاهما من كهنة كنيسة رومية فترأسوا على المجمع بالنيابة عنهُ وبلغ عدد الاساقفة الذين حفلت بهم نيقية ثمانية عشر وثلثمائة اسقف وكلهم من العلماء الكاملين المعروفين بالفضل وكان فيهم كثير من المعترفين الذين ذاقوا ايام الاضطهاد عذاباً غليظاً من اجل الايمان بالمسيح . والحاصل ان هذا المجمع حرم آريوس الملحد وبدعتهُ وجميع اشياعهِ وقرَّر التعليم بألوهية المسيح المساوي للآب في الجوهر والف قانون الايمان المعروف بالنيقوي واوجب على المسيحيين تعييد الفصح سنويّاً في معمور الارض كلهِ ووضع عشرين قانوناً في ما يتعلّق بالتهذيب الكنائسي

وبقي القديس سلفسترس عشرة اعوام بعد المجمع النيقوي يرعى كنيسة الله بما عُهد بهِ من الغيرة الرسولية والسهر الرعاءي ولو كان التاريخ لم يروِ لنا شيئاً عن اعمالهِ في تلك البرهة . ورقد في الرب كما عاش وذلك سنة خمس وثلثين وثلثمائة في غاية كانون الاول

وفيهِ ايضاً ترجمة القديسة ميلانيا الفتاة

ان ميلانيا القديمة هي من عشيرة اسبانيولية مشهورة اصلها روماني وكانت من انسباء القديس بولينوس اسقف نولا ولم تكن دون احد من حيث الشرف والثروة باكويتانيا او في اسبانيا . فتزوَّجت وهي غضَّة الصبا وأرملت وهي ابنة ثلث وعشرين سنة وقالت من بعد وفاة بعلها ما نصَّهُ : اللهم قد صار في يدي الان ان اخصص نفسي بخدمتك تخصيصاً كاملاً من دون طيش او تشتيت بال . وسلمت بوبليكولا ابنها الى كفلاء عقلاء صالحين وركبت البحر هي وروفينوس الى بلاد مصر سنة احدى وسبعين وثلثمائة وقضت هناك نصف عام تزور رهبان تلك البلاد . ثم نسكت بفلسطين ولما كانت متنكرة باورشليم أراب الحاكم مواجهتها بعض المحابيس فأمر بها فسجنت ولما اظهرت نفسها خلّى سبيلها ولاحظها بما هي اهلهُ من الاكرام والاعزاز . ثم ما لبثت ان بنت ديراً بتلك المدينة المكرمة وما كانت تلبس الاّ دنيء الثياب ولا تنام الاّ على مسح مبسوط على ظاهر الحضيض وثابرت على هذه الحال سبعاً وعشرين سنة منقطعةً الى اقامة الصلاة وتأمل شريعة الرب له المجد

وصار بوبليكولا ابنها معتبراً بما اجتمع فيهِ من اجود المزايا وأحمد الخصال وسعة الذكر وتزوج ألبينا التي رُزق منها ولدان ابنٌ وبنتٌ والابنة فهي ميلانيا الفتاة التي نأخذ الان في ترجمتها فهذه تزوجها في الثالثة عشرة من عمرها بينيانوس بن سيفيروس حاكم رومية ورزقهما الله اولاداً ماتوا صغاراً فازمعت ميلانيا ان تتجرد لله تعالى وكاشفت رجلها بذلك الامر فصوَّب رأيها فنذرا كلاهما ان يعيشا في العفاف الى ان يتوفاهما الله الى رحمتهِ

ولما نمى هذا الخبر الى ميلانيا القديمة غادرت الشرق وقفلت راجعةً الى رومية فخرج لاستقبالها اشراف المدينة الى نابولي ولكن عظمة ذلك الموكب وبهاؤهُ لم يقللا من تواضعها وسارت امام ذلك الموكب الكبير راكبةً جواداً ولابسةً أبسط الاثواب وادناها . ولما كانت مقيمة برومية صرفت جانب العناية الى تحذير بينيانوس وحفيدتهُ من سمّ البِدَع الذي كان فاشياً وقتئذٍ . واقامت اربعة اعوام ببلاد المغرب ورحلت في تلك الغضون الى افريقية حيث بلغها خبر وفاة بوبليكولا ابنها وفي ايابها الى رومية أشارت على بينيانوس وحفيدتها ان يصطنعا باموالهما الى الفقراء ويتخيرا لسكناهما بادية بعيدةً . فقبلا مشورتها وقفى ألبينا على اثر بينيانوس وميلانيا الفتاة . ولم تفرغ ميلانيا القديمة من هذا العمل

العظيم حتى بادرت راجعةً الى منسكها لانها لا تستطيع ان تحمل ضجيج رومية واعتبرت نفسها فيها كأنها في منفى بل في سجن . فسافرت الى صقلية وثمَّة مات رفيقها روفينوس وانتهى بها السفر الى اورشليم فأحسنت بما بقي معها من المال الى البائسين ودخلت ديرًا قضت نحبها فيهِ بعد اربعين يومًا لدخولها سنة عشر واربعمائة للمسيح وعمرها ثماني وستون سنة . وعيب عليها ما ابدتهُ وقتًا من شدة الغيرة على دعوى اوريجانوس الذي كان روفينوس ينتصر لهُ غير ان ما تمدَّحها بهِ القديسان اغستينوس وبولينوس لا يبقي محلاً للريب في فضائلها وصحة معتقدها

وباع ألبينا وميلانيا الفتاة وبنيانوس ما كان لهم من العقار والضياع باسبانيا وغاليا ولم يبقوا الاَّ املاكهم بايطاليا وصقلية وأفريقية وأعتقوا ثمانية الاف رقيق كانوا لهم وأعطوا اخا ميلانيا العبيد الذين أبوا ان يتحرَّروا . وقدَّموا افضل ما كان لديهم لخدمة الكنيسة والمذابح . واراد الشيطان ان يبلبل افكارهم ويضع موانع لما أزمعوهُ من المقاصد الحسنة فهاج على بينيانوس سيفيروس أخاهُ ليعذبهُ فأفقدهُ انفس أموالهِ باقامة شهود زور وبواسطة جماعة من خدامهِ كانوا يقولون سرًّا ان هذه العقارات انما هي لسيفيروس لا لبينيانوس على ان ازدراء سيفيروس بهِ لم يكدر فؤاد بينيانوس الرجل المسيحي الذي لم يتغير اصلاً ولم يزل مداومًا ما كان قد بدأ بهِ واكلاً امرهُ الى الرب سبحانهُ وواثقًا انهُ سيدافع عن حقهِ بمنزلة ابي الفقراء الذي ما كان يشتهي ان يحافظ عليهِ الا من اجلهم . ومدَّ السيد لهُ المجد يدهُ الى هذه الواقعة بواسطة الملكة فانها لما سمعت بقداسة ميلانيا تشوقت الى مرآها فاستدعتها وعلمت منها ان سيفيروس مُبطلٌ في دعواهُ فردَّت الاموال كلها الى صاحبها ولو لم تشفع ميلانيا بذلك الغاصب لأجرت عليهِ العقوبة

واقاموا برهةً باحدى براري ايطاليا وانقضَّت تلك البرهة كلها في اقامة الصلاة وتلاوة الكتاب المقدس وزيارة الفقراء وعيادة المرضى وباعوا ما كان لهم بتلك المملكة من العقارات والضياع المغلَّة ليصطنعوا باثمانها الى البائسين ثم ذهبوا الى افريقية واقاموا قليلاً بقرطاجنة ثم شخصوا الى مدينة تاغست ليعيشوا تحت ارشاد القديس اليبيوس اسقف تلك المدينة وفي رحلتهم الى هيبونا لمشاهدة القديس اغستينوس امسك الشعب بينيانوس ورغبوا اليهِ ان يرتسم كاهنًا . فلم يستطع بينيانوس ان يتخلَّص منهم الاَّ بان وعدهم انهُ ان رضي بذلك يومًا فسيتقيد بخدمة كنيسة هيبونا

وعاشوا بمدينة تاغست سبعة اعوام أضنك عيشٍ وتعوَّدت ميلانيا الصوم حتى الفِتةُ فانها في الاغلب لم تكن تأكل في الاسبوع سوى مرَّةٍ واحدة وما كان غذاؤها العادي غير الخبز والماء وانما في الاعياد كانت تضيف الى ذلك شيئًا من الزيت ولم يكن يشغلهم غير المطالعة ونسخ الكتب على ان بينيانوس كان يزيد على ذلك حراثة البستان . وكانت ميلانيا تكثر من النسخ وتقضي جانبًا من النهار في ذلك وفي قراءة الاسفار وكانت تخيط ثياب ذوي الفاقة كانما تلبس المسيح وكانت شديدة الولوع بتلاوة الكتاب الكريم ويحصل في قلبها لذلك نورٌ من عند الله وكانت ضليعةً ماهرة في اللغة اليونانية كريمة الشمائل لينة الجانب طليقة الوجه حسنة المحاضرة بيد انها كانت لاهل الشيع ولمن أرادوا ان يُحدِثوا مقالات في الدين ويحيدوا بها عن تعليم الكنيسة المقدسة العام عدوَّةً زرقاء . وانفردت في صومعة خشب حرجة ضيقة حتى لم تتمكن بها ان تتحرَّك على مرادها وأبت الخروج منها وان تخاطب احدًا الاَّ من خلال خادعةٍ صغيرة وكانت امها ألبينا متى جاءت لزيارتها ورأتها مصلِّيةً تناجي الله تعالى لا تقطع عليها الصلاة بل تلبث مترقبةً اتمامها

وفارقوا افريقية عام سبعة عشر واربعمائة رجوعًا الى اورشليم حيث ثابروا على طريقتهم التي سبقت الاشارة اليها . وكانت حرارة تعبدهم شديدة حتى لم يظنُّوا ان ذلك الفعل كافٍ لتحقيق امر خلاصهم وتوفيت ألبينا عام ثلاثة وثلاثين بعد القرن الرابع ولحقها بينيانوس بعد سنتين . واما ميلانيا فبقيت بعد هذا اربعة أعوام واعتزلت الى دير كانت قد ابتنتهُ واضطرَّت فيهِ ان تتقلد زمام الرئاسة وبينما كانت تتمتع في قلايتها بلذات الانفراد اضطُرَّت الى ان غادرتها ذاهبةً الى القسطنطينية وكانت العلَّة الغائية لهذا السفر محاولة هداية عمها فولوزيانوس الوثني الذي راسلهُ القديس اغستينوس ليهديهُ فلم يقدر ولكن لما أُرسِل سفيرًا الى القسطنطينية ومرض هناك فكتب الى ميلانيا يدعوها اليهِ فذهبت ولم يذهب سعيها سدًى فانها ربحت عمها للدين الحق . ولما رأت انهُ قد تطهَّر بماء المعمودية وانتقل الى دار النعيم باشدّ عواطف التقوى

ملأ قلبها العزاء والسرور وحيث لم يبقَ اقتضاء لبقائها ثمَّة قفلت راجعةً الى اورشليم وذهبت منها الى بيت لحم لتعيد عيد الميلاد ولما كانت غداة ثاني العيد عادت الى ديرها. ولما عراها السقام انبأت من كانوا حواليها ان قد حلَّ الاجل وانتهى العمر. فاقبل جماعةٌ من الرهبان والصالحين يعودونها وحيث كانت الدموع تسيل من عيونهم أخذت تعزّيهم وتُغريهم بالتقوى وحسن العبادة وانتقلت الى جنة النعيم في مثل هذا اليوم عام تسعة وثلثين من المائة الخامسة للمسيح وعمرها سبع وخمسون سنةً وروى السنكسار الروماني ترجمتها في ذلك اليوم عينهِ

قد انتهى بحولهِ تعالى كتاب مروج الاخيار في تراجم الابرار بعد ان افرغنا غاية الجدّ في ضبط روايتهِ وتصحيح ما اختلَّ من عبارتهِ لنهديهُ الى الناس مصححًا بالمقابلة بما اثبتهُ البلانديسنيون وغيرهم من العلماء المحدثين بعد ان اطالوا النظر في الامور وعرفوا غثَّها من سمينها بما بذلوا عليهِ الجهد الجاهد في التنقيب عن مسانيد الروايات والاخبار ونحفهم بهِ مكمَّلاً بما اضفنا اليهِ من التراجم الجديدة التي اخذنا جميعها عن موارد صافية تتمَّةً لما نواهُ المؤلف اجزل الله ثوابهُ من افادة المسيحيين بان يتحفهم بكتاب يرون فيهِ في كل يوم من ايام السنة ترجمة واحدٍ او اثنين من اولياء الله فجاء والحمد لله روضةً تنشر نفحات فضائل اصفيائهِ تعالى وخلانهِ عزَّ شانهُ. وقد آثرنا توسعةً للفائدة ان نُعقبهُ بملحقٍ اكثرهُ للمؤلف نفسهِ في الاعياد المتنقلة لما بينهما من الملاءمة والتناسب

م



ملحق

في الاعياد المنتقلة

في الصوم الاربعيني

الفصل الاول

في وجوبهِ

لا شك ان الرسل قد فرضوا الصوم الفصحي في الايام التي تسبق الفصح تذكرةً لموت المخلّص لان الآثار القديمة برمّتها تدل على ذلك وتؤيّدهُ بل لا محلّ للريب ايضاً في ان الرسل رتّبوا الصوم الاربعيني على حسب صيام المسيح لهُ المجد ومهما يكن من ذلك فالغرض الأهم ان الصوم المذكور الذي لم تزل الكنيسة جاريةً عليهِ لعهدنا هو من عهد الرسل الاطهار او خلفائهم الأُوَل . ولنا في اثبات ذلك شهادات الآباء القديسين الذين تكلموا في الصوم الاربعيني على انهُ فريضةٌ رسولية وهم القديس ايرونيموس حيث يقول ان الصوم الاربعيني تقليدٌ رسوليٌ تحفظ الاحد وعيدَي الفصح والعنصرة. والقديس لاون الذي في مواعظهِ على الصوم اكثر من تسمية الصوم الاربعيني فريضةً رسوليةً . والقديس بطرس الذهبي النُطق صرَّح في هذا الشان في الموعظة ٢ و١٢٢ قال ليس ذلك من وضع الناس ولكنهُ فريضةٌ مقرَّرةٌ بقوَّةٍ الهيةٍ . وقال تاوفيلوس الاسكندري في رسائلهِ الثلث الفصحية ان الصوم فرضٌ أوماً اليهِ الانجيل وقد اخذناهُ عن الرسل . والقديس كيرلُس الاسكندري خليفتهُ قد انتصر لهذا الراي في مقالاتهِ . والقديس ايسيدوروس الاشبلي ذكر ان الصوم يُحفظ في الدنيا كلها بقوَّة ترتيب الرسل الكرام . وقال اخيراً القديس دوروتاوس الذي يعتبر الصوم الاربعيني بمنزلة فريضة العشر السنويّ ان الرسل قد اعتقدوا وجوبهُ تكفيراً عن الآثام

فلا حاجة لنا بعد ما اوردناهُ من البيّنات القاطعة الى الاستعانة بالمبدإِ الذي يذكرهُ القديس اغستينوس في رسالتهِ الى جانواريوس ونصهُ ان جميع الاعياد التي يحفظها اهل النصرانية كلهم لا بقوَّة وصيةٍ مكتوبةٍ لا بد ان يفترض انها مقرَّرةٌ إما من الرسل الاطهار أو من مجمعٍ عامٍ كالاحتفال بالآم المخلّص وقيامتهِ وصعودهِ وحلول الروح القدس وبالجملة فذلك يتمشى على كل طرائق الكنيسة المنتشرة في جميع الآفاق المشتركة معها في الايمان . وقرَّر ذلك المبدا نفسهُ في كتابهِ على العماد بعبارةٍ اجلى لاختصاصها بالصوم عينهِ ونصها كلُّ ما جرت عليهِ الكنيسة جميعها فان لم يكن بتقرير مجمعٍ عامٍ فلا بدَّ على وجه الأولويّة ان يُعتبر انهُ مأخوذ عن الرسل الكرام . ولنا في القوانين الرسولية كلامٌ واضحٌ في وجوب الصوم الاربعيني . واعلم ان الناس المدعوّين ثيرابوتين اي خدام الله والمتأملين حسبما روى اوسابيوس والقديس ايرونيموس وغيرهما كانوا تلاميذ القديس مرقس بمدينة مصر وكان عددهم كثيرًا في الزمن المتصل بزمن الرسل حتى وفي حياة بعضهم وقد اخبرنا فيلون في كتابهِ على السيرة المتأملة انهم كانوا يصومون سبعة اسابيع قبل عيد الفصح ولم يكونوا يغتذون كل تلك المدة الّا بالخبز والملح والزوفى

واعلم انهُ نظرًا لهذه الادلّة الكثيرة التي لا تُعدّ اضطرَّ البروتسطانت ان يقرُّوا بان الصوم فريضةٌ قديمةٌ غير انهم تبرئةً لنفوسهم لا يألون جهدًا في ان يقيموا البرهان على انهُ لم يكن وصيةً منذ ابتداء الكنيسة ولذا نأخذ الآن في ابطال دعواهم فنقول انهُ يتضح مما سبق ان كتب الاباء القديسين والمجامع كافيةٌ لردّ ما زعموهُ وفي امكاننا ان نأتي بروايات أُخر إثباتًا لهذه القضية التي كابر على انكارها محدَثوا المبتدعين . فمن

ذلك ما قال القديس ايرونيموس ضدّ المونتانستيين في رسالتهِ السابعة والعشرين وهذا نص كلامهِ ليس الصوم في كل مدة السنة ما عدا زمن الفصح ذنبًا على الحقيقة ولكن بين الامانة المفروضة والاختيارية التي يتكلّفها المرء من تلقاء نفسهِ فرقٌ كبير . وصرّح القديس باسيليوس في موعظتهِ الثانية على الصوم قال يجب على كل مسيحي ان يجري على هذه الوصية ومن خالفها فيُحاكم لدى الديّان العالي الذي وضع هذه الوصية . وقال القديس سيزاريوس الأرليُّ كل صوم غير الصوم الاربعيني فهو دواء لضعفنا واما ترك الصوم الاربعيني فهو إثمٌ . وعلّم تاوفيلوس والقديس كيرلُّس بطريركا الاسكندرية والقديس لاون وغيرهم من الآباء ان الصوم المذكور وصية واجبة الحفظ على كل مسيحي بحسب التقليد الرسولي . وقد الحّوا اشدَّ الحاحٍ على وجوب حفظ تلك الوصية

وقد كتب القديس غريغوريوس النزينزي الى سيلوزيوس القاضي يوبخهُ على مخالفتهِ وصية الصوم الاربعيني بما أنها خطيئةٌ كبيرة . وقال لهُ ايها القاضي المائت لقد خالفت وصية الصوم المقدسة فما عساك تفعل لتحفظ الشريعة البشرية اذا احتقرتَ وخالفتَ الشرائع الالهية . وللقديس امبروسيوس سبع مواعظ على الصوم المار ذكرهُ قد وضعها رهبان القديس مبارك في ملحق اضافوهُ الى مجموع تاليفهِ حيث ظهر لهم انها على الراجح ليست لهُ بل للقديس مكسيموس الطوريني الذي مات نحو سنة خمس وستين واربعمائة فكثيرًا ما قاوم هذا الاب القديم الذين يخالفون وصية الصوم الاربعيني وقال ليست من الصغائر مخالفة الصوم المأمور بهِ وسماها في موضع آخر عصيانًا ونفاقًا

فلنستنتج مما تقدّم ان كل مسيحي يستطيع ان يصوم الصوم المفروض من الكنيسة المقدسة ولا يصوم احتقارًا لسلطة الكنيسة وعادتها العامّة كان عاصيًا عليها وعلى مَن قال الذي لا يسمع منكم لا يسمع مني

الفصل الثاني

في فوائد الصوم

لا ريبَ ان الناس قاطبةً قد التطخوا بالإثم فالتزموا كافةً ان يغتسلوا بالتوبة من تلك الادران التي تدنسوا بها وترتّب عليهم من ثمَّ ان يصوموا. فان الصيام يقتضي تعليم العهدين العتيق والجديد وبحسب تعليم كل الآباء القديسين وبدلالة تقليد الكنيسة المسلّم ينبغي ان يكون جزءًا من التوبة حيث ان الجسد الذي كثيرًا ما يعرّضنا لركوب الآثام يجب ان نذلّلهُ بالصوم وشَظَف العيش

فاعلم ان الصوم ليس هو علاجًا لما تقدّم من الذنوب فقط بل وقايةً من معاودتها لانهُ اذ يُضعف الجسم يُخمد نار الشهوات ويردُّ للروح السلطة التي ينبغي ان تتصرّف بها مع الحواس . وبناء على ذلك فهو ذبيحة حقيقية نقدّم بها لله انفسنا نظير قرابين حيَّة ذبيحةٌ تميتنا عن الدنيا وعن انفسنا فنتطهّر ونتأهب لنسير سيرةً باطنةً روحيةً . وما أحسن ما قال القديس باسيليوس في موعظتهِ الاولى على الصوم: صوموا فأنتم خطأة وصوموا حتى لا تخطأوا: فان الشرهَ اذ ضُمَّ الى الكِبْر اهلك الناس . والشرَه الذي احتقر الهاوية لذُرّية آدم الشقية التي هبطت اليها منذ ستة آلاف سنة . فتجسّد ابن الله وصالح السماء والارض وأنقذ بالآمهِ وموتهِ الناس من سلاطين النار وفى للعدل الالهي وفاءً تامًّا بايدًا ان استحقاقات الكلمة المتأنس مع كثرتها لا تخلّص مَن لا يريد ان يخلص. فقد فجّر الله للانسان برحمتهِ التي لا تُوصَف ينبوع النعم فعلى الانسان ان يأتي ويغترف منهُ .قد غرس المسيح شجرة الخلاص فعلى الانسان ان يجتني أثمارها . فاذا اراد ان يخصّص بنفسهِ استحقاقات آلام المسيح فليحمل صليبهُ ويقفو آثار المخلّص ابـ فليكابد شيئًا من العناء استغفارًا لآثامهِ نظير سيدهِ الذي قُضي عليهِ بان يُصلب على خشبةٍ تكفيرًا عن خطايا الارض كلها

وفي الحق ان الخطيئة لا بُدَّ ان يُقتص عنها إما في الدنيا هذه بالعقوبة الطوعية وإمَّا في الآخرة بالعذاب السرمَد. فان النعمة تكون وقتئذٍ قد زالت زوالاً مؤبدًا وزمان الرحمة قد فات ولن يعود . فياليت شعري كيف يتردّد الانسان في تخيير احدى العقوبتين . فبأي نقشف لا يعاقب العاقل نفسهُ في الدنيا فرارًا من العذاب الدائم واعلم انهُ لو كان الانسان يواظب على التوبة طول عمرهِ لما كانت مغفرة خطاياهُ بعد ذلك كلهِ الَّا هبةً مجانيةً من جود الله تعالى. فان اعمال الانسان ولو في غاية الصلاح بل واعمال البشر كلهم معًا هي أقلّ من أن تمحو بقوتها خطيئة واحدة بمعزل عن استحقاقات ذبيحة

المسيح التي لا حدَّ لها. واما محاولة تحصيل المغفرة بطرقٍ أُخرى فهي من باب طلب المستحيل كما قال القديس اغسطينوس لما في ذلك من المضادة لاحكام العدل الالهي التي لا تُنقض

فان الاثيم متى ارتدَّ عن اثمهِ وتاب توبةً نصوحًا عن كثرة خيانتهِ وجسامتها ترتَّب عليهِ ان يتسلح على نفسهِ بالغضب المقدس ويُعاقب جسدهُ عقوبةً شديدةً ويعرف على كل حالٍ انها من بعض ما استوجبهُ من شديد العذاب فلهُ والحالة هذه ان يرجو مساعدة الله لهُ فان الاسفار المقدسة تعطينا براهين كثيرة على شدَّة افعال التقشف ولا سيما الصوم فهو وسيلة لتسكين غضب الله

ان مدينة نينوى اذ تركت الله لكثرة ما ارتكبت من الإثم ارتفعت عليها يد الله بالانتقام. وصار خرابها وهلاك اهلها امرًا محتومًا ولكنها لما تابت بانذار يونان النبي توبةً مخلصةً وصاموا كلهم صيامًا عنيفًا هدأ بذلك عدل الله ورضي عنهم بهذه الندامة ونسي سخطهُ على القوم الأثمة فنجوا كلهم

فيا لهُ من كلام كان الانبياء يخاطبون بهِ الناس من قِبل الرب: كانوا يقولون لهم توبوا اليَّ من صميم قلوبكم بالصوم والصلاة والبكاء على آثامكم. فان لم يكن في الصوم والصلاة ملجأ من انتقام الله فليت شعري ابن يكون أو ليس أنَّ داود النبي وكثيرًا غيرهُ من آباء العهد القديم لم يستغيثوا برحمة الله الا بهذه الوسائل نفسها وهل اعطى يوحنا السابق رسول التوبة وقدوة الندامة غير مثال صوم صعبٍ ودائمٍ

ولو فرضنا اننا كلنا ليس علينا كبائر فنكفر عنها لايزال فضيةً صادقةً التزامنا بالصوم الذي امرنا بهِ المسيح وكنيستهُ لكوننا تحت خطر كل آنٍ أن نرتكب الكبائر. ولا شك انهُ لما عصى آدم ربَّهُ تمرَّد الجسم على الروح وسقطت النفس عن مزايا البرّ الاصلي واصبحت في عبودية الشهوات فمن ثم صدرت تلك الاهواء الرديئة التي تستعر فينا بلا انقطاع واضطرمت نار حرب كبيرةٍ بين نفس الانسان وجسدهِ ونشأ الميل الى الشرّ وقد سمَّاهُ الرسول بولس ناموس الجسد. فمن ثم ايضًا نشأت تلك الحقيقة التي شرحها الرسول يعقوب اذ قال: كل انسان تكون تجربتهُ باجتذاب شهوتهِ وتملُّقها لهُ ثم ان الشهوة تحبل وتلد الخطيئة: ونمو قوَّة هذه الشهوات على مقدار خضوع المرءِ لها وتتأصَّل فيهِ وتتمكن حتى يفتقر في مقاومتها الى ان يصلب جسدهُ مع شهواتهِ كما قال بولس الرسول (غلاطية ٥ : ١٦). ولما كان هذا الاختلال في الانسان هو عن عدم القناعة كانت الفضيلة التي تضادُّ هذه الرذيلة مفروضةً علينا كدواءٍ لازمٍ لشنائنا وكمنبع نعمٍ ضرورية للظفر بعدوّنا

ان القناعة هي وسيلة الخلاص الذي نرومهُ وبناءً عليهِ فاكبر فائدة ان لانجاري اميالنا الفاسدة شيئًا ولا بدَّ لنا ايضًا لنكون على ثقةٍ بنجاح اعمالنا ان نحسن العمل بان نقهر احيانًا أطهر أهوائنا مخافة انها تتسلط علينا تسلطًا قويًّا. ومن ثم يسهل علينا ان نفهم لماذا الكتاب المقدس أوصانا كثيرًا بالقناعة وقدَّمها لنا كقطعة من هذا السلاح الذي لا نفتح السماء الَّا بهِ

ان القديس بولس الرسول يذكر في هذا المعنى في رسالتهِ الاولى الى اهل كورنتس في الفصل التاسع ما كان اهل المصارعة عند اليونان يستعملونهُ من شدة الزهادة استعدادًا للمسابقة في الميدان ولنيل السبق الذي لم يكن سوى اكليلٍ يفنى. ليت شعري اية ضحيَّة تظهر لنا كبيرةً نحن الذين دُعينا الى السباق في ميدان الفضائل المسيحية والى اكتساب الاكليل الذي لا يفنى. فلم يكن الرسول عليهِ السلام يظنُّ ان اعمال الرسالة الطويلة الشاقَّة تُعفيهِ من الامانة المتواصلة. قال في الفصل المذكور ٢٦ و٢٧ فأسابق انا لا على الارتياب وأُلاكم لا كمن يُقارع الجوَّ بل اقمع جسدي وأستعبدهُ حِذارَ أن اكون انا نفسي مرذولاً بعد ما وعظت غيري. فهذا ما كان يظنهُ رسولٌ ووليٌّ كبيرٌ ثابت في سبيل الفضيلة مُضنى من تراكم الاعمال ومقاساة العذاب آتاهُ الله سوابغ النعم ومع ذلك لم يجرأ ان يرجو خلاصهُ الَّا بان يقاوم أعداءهُ الغير المنظورين بالامساك والزهادة

ألسنا نحن معرَّضين نظيرهُ لغارات أُولئك الاعداء أعينهم أو يعطوننا ساعة هدنةٍ او نستطيع أن نترك السلاح ونرتاح منهم. اذا تناوموا أحيانًا فما ذلك الَّا لمباغتتنا بالبلاء ولمهاجمتنا بأشد قوَّة على حين تجعلنا السكينة في غفلةٍ وغرورٍ. فمن الحكمة والحالة هذه ان نكون متدجّجين للدفاع عن انفسنا وايضًا ان لم نُرد ان نجعل هزيمتنا محقَّقة فعلينا فوق هذا كلهِ ان لا نُغذّي في احشائنا اهول الأعداء. فانهُ كما قال الروح القدس من يعامل جسدهُ بالرفق فسيراهُ متمرّدًا عليهِ (امثال ٢٩ : ٢١) وقال في موضعٍ آخر اذا أعطيت نفسك مشتهاها الزائغ عن الشريعة خانتك وجعلتك أُلعوبةً في أيدي أعدائك

(ابن سيراخ ١٨: ٢١)

يتشكى الخطأة من شهواتهم وعجزهم عن ان يغلبوها لكن ألا يرون ان ما يحسبونهُ بلاء ما هو الا نتيجة فسادهم ولا يمكن ان يُعزى ذلك الا لهم وحدهم. فقالوا ان هذه البلايا لا حيلة فيها لكن ما الوسائل التي اتخذوها لدفعها وما العزائم التي عقدوا قلوبهم عليها لإذلال شهواتهم. هل استفادوا من كلام المسيح في الفصل ٩ من انجيل مرقس والعدد ٢٨ حيث قال لهم ان هذا الجنس لا يُخرَج بشيء الا بالصلاة والصوم. وهل اقتفوا سيرة هذا المقتدى الالهي فان مخلص العالم مع كونهِ منزهاً عن القدح والطعن استعدَّ للقتال اربعين يوماً بالصوم والصلاة المتوالية قبل ان يبارز المجرِّب. فهذا هو الدرس المفيد الخلاصي الذي يعلمنا كيف يمكن منع أذى الاهواء وهذا هو التعليم الذي لا بدَّ ان يحكم يوماً على الذين أبوا ان يجروا بمقتضاهُ

ذلك واعلم ان برء النفس ليس هو كل فائدة الصوم لانهُ يُطهر ايضاً اجسامنا ويخصِّصها بالرب كما ان انفسنا تمدحهُ بالصلاة

لسنا من دون الله شيئاً فكل ما لنا بل وجودنا كلهُ انما هو من مجرَّد جودهِ فمن اقتضاء العدل ان نعترف بسلطانهِ العامّ المطلق علينا وان لا يكون فينا عضوٌ لا يؤدّي جزية الشكر لعظمتهِ. ولذا حرَّضنا الرسول تحريضاً حسناً قال فأسألكم ايها الاخوة بمراحم الله ان تقرّبوا اجسادكم ذبيحةً حيَّةً مقدسةً مرضيةً عند الله عبادةً منكم عقلية (رومية ١٢: ١) فسمى هذه الضحية عبادةً عقلية ليرينا كم تفضُل ذبائح البهائم التي كانت تُقرَّب لله في هيكل اليهود

ومن المسلَّم ان اجسامنا قد اضحت بسرّ التجسُّد اعضاء المسيح (اكورنتس ٦: ١٥) وهيكل الروح القدس (عدد ١٩) وليت شعري أيَّة عناية لم يلزمنا مذ ذاك اتخاذها لنُطهِّر أعضاءنا ونزيِّنها بالفضائل كافةً. واذا اتخذناها لشقائنا الآت اثم فلنقدِّم لله نظير ذبائح ما قد اختلسناهُ منهُ كالموتى الذين قاموا متأهبين لان يجدوهُ على الارض بسيرة مقدسة مبرَّأة من كل ملام حتى نستطيع ان نمجِّدهُ في ملكوتهِ الابدي. فعلينا بموجب تعليم السيد لهُ المجد ان نغسل انفسنا بدموع التوبة وان نصلب الانسان القديم ونقتلع الاثم من قلوبنا ونُميت اعضاءنا التي هي على الارض ونُميتها طالما نحن معرضون للسقوط ثانيةً تحت سلطة الجسد. فلا جرم انهُ بمجرَّد هذه الواسطة تصبح اجسادنا اهلاً لأن تُقدَّم لله عزَّ وجلَّ ومع ضعفها في هذه الدنيا تضحى اهلاً لان تستحيل يوماً ما اجساماً مجيدة غير قابلة الفساد

فقبل ان تدخل الخطيئة الى الدنيا أُمر ابوانا الاوَّلان وهما في حال البرّ من قِبل الله تعالى ان يُقدِّما لهُ بالقناعة ذبيحة جسديهما. فيالهُ امراً جليلاً ويا لها وصيةً وحيدةً وُضعت عليهما ايام كانا في الفردوس الارضي وهي ان لا يأكلا من ثمر شجرةٍ. فقد استعان القديسون امبروسيوس وباسيليوس وايرونيموس ويوحنا فم الذهب وغيرهم من آباء الكنيسة بهذه الواقعة لتبيان استحقاق القناعة وفضيلتها واستدلُّوا بذلك على انها اول شريعةٍ وضعها الله على خلقهِ

أفلا يجب علينا الآن وقد أفسدت الخطيئة الدنيا ان نخضع لشرائع القناعة فان الله قد جعلها دواء لشرورنا. وشان الصوم بحسب وعدهِ ان يبرىء جراحاتنا ويقوّي ضعفنا بل شانهُ ان يُكسبنا مساعدة النعمة وسعادة الخلاص. قال السيد لهُ المجد اذا صمتم سرًّا فأبوكم الذي يرى في الخفية يجازيكم (متى ٦: ١٨). ان شمشون وصموئيل نالا الحياة بأصوام أُميهما وسارة اعتقت من اسر الشيطان لانها صامت. ويا لها من عجائب صنعها الصوم في دانيال ويهوديت وأستير ومنذ تقرير النصرانية في كثير من الصالحين الناسكين الذين أضحوا هولاً على اهل الجحيم وفرحاً للملئكة ولذةً للعليّ

فاعلم ان من اخصّ نتائج الصوم تحرير قلوبنا من عبودية الدنيا وحلنا من وُثُق المخلوقات. فان الشراهة اذ تضنك النفس تقيّدها بما يعوقها عن النجاح في الصلاح وتجعلها كالوحش وبعبارة أُخرى هيولية محضةً. واما الصوم فبعكس ذلك لانهُ يرفع عنها كل ما يثقلها ويعطيها جناحين لتطير عن اباطيل الدنيا وحطامها ويُعدَّها بوجهٍ غريب لقبول موهبة الصلاة والتأمل. وناهيك ان موسى وايليا تأهبا لمخاطبة الحق سبحانهُ بالصوم اربعين يوماً وان دانيال صام ثلثة اسابيع فأوحى اليهِ الروح القدس معرفة أغمض الاسرار

وهناك امثلةٌ كثيرة على فوائد الصوم لا نستطيع سبيلاً الى ذكرها فان الرخابيين اذ تشرفوا لطهارة اخلاقهم بحراسة أبواب الهيكل وترنيم التسابيح الالهية تحت نظر اللاويين كفُّوا عن شرب الخمر (ارميا ٣٥: ٨) واهل الناصرة نذروا ان

لا يشربوا مُسكرًا بعضهم الى حينٍ وبعضهم على مدى العمر (عدد ٦ : ٢٠ و٢١) ولما انهزم اليهود امام الفلسطينيين بسبب ما ارتكبوا من الاثم أمرهم صموئيل فصاموا لتسكين رجز الرب (١ ملوك ٧ : ٥) وقال داود اذ تكلم على النصاص الذي اقتصَّ بهِ من نفسهِ في مرض ابنهِ: أذلُّ بالصوم نفسي (مزمور ٣٤ : ١٣) وقال في موضعٍ آخر: ابكيت بالصوم نفسي .... وجعلت لباسي مسحًا (مزمور ٦٨ : ١١ و١٢) وان الملك يوشافاط القديس التجأ زمن الخطر الى الصوم والصلاة (٢ ايام ٢٠ : ٣) وتوسّل عزرا في ايام التوبة بهذه الوسائل نفسها لتبريد غضب الله (عزرا ٨ : ٢١) وبالصوم والصلاة استحقَّ الملك أحاب الكافران يُستبقى (٣ ملوك ٢١ : ٢٧) وان نحميا اتخذ الصوم ذريعةً بينهُ وبين الله تعالى فنال من لدنهُ سرعة رجوع اليهود بعد السبي (نحميا ١ : ٤) وان يهوديت ويهود بيت إيل استرضوا الله بالصوم واستعانوهُ على جيش أليفانا (يهوديت ٤ : ٨) واستير حين خافت على خلاص شعب الله لجأت الى الصيام (استير ١٤ : ٢) وظفر طوبيا بأصوامهِ وصلواتهِ وصدقاتهِ بعون من قِبل الله غريبٍ ولذا قال الملك رافائيل: صالحةٌ الصلاة مع الصوم والصدقة خيرٌ من ادّخار كنوز الذهب (طوبيا ١٢ : ٨)

وفوق ذلك كلهِ فقد اوصانا الله في العهد العتيق بألسنة انبيائهِ وفي العهد الجديد بألسنة رُسلهِ حتى وبكلام ابنهِ وقدوتهِ بوجه الالحاح برياضة الصوم كانهُ إفعل وسيلةٍ للتطهير. وحيث كان النصارى الاولين يذعنون لتعاليم المسيح معلمهم الالهي فرضوا على انفسهم اقتفاء آثارهِ لهُ المجد ولا بدَّ لنا ان نذكر من هؤلاء القديسين مكاريوس وانطونيوس وباخوميوس الذين ظفروا بواسطة الصوم بروح الصلاة وخلوص التعلّق بالله حتى اضحوا كملئكة أرضيين. وماذا عسى أقول في كثير من اصفياء الله الذين تكرمهم الكنيسة ممن بالغوا في التقشف وعانوا اشدَّهُ حتى كان يلوح ان حياتهم أعجوبةٌ دائمة. والحق يقال ان تقشفهم لم يكن لهُ غير حدودٍ عيّنها ضرورةٌ ماسةٌ ولم يفطنوا انهم بشر الا حينما تكون الطبيعة قريبة للموت. واعلم ان فرط ما أبدوهُ من الجرأة والبسالة يُنسب اليوم الى التغفل وعدم النظر في العواقب مع ان حكمة الروح القدس هي التي كانت مع ذلك تدبر غيرتهم

يجب اذًا على اكثر المسيحيين ان يخجلوا لرخاوةِ سيرتهم وبرودتهم اذ يتأملون حرارة القديسين ولا يتذمرون من الاماتات الخفيفة التي امرت بها الكنيسة متأملين في كثير من الانقياء الذين لم تكن حياتهم على نوعٍ ما الّا نزعًا طويلاً. ففي مدرسة هؤلاء الابطال يتعلمون انهُ بمقتضى قوانين الحكمة الابدية من يباشر في أمر الخلاص غير جارٍ على قاعدة التواضع والكفر بالذات يهلك. فكما ان الحبَّة التي تُلقى في الارض تموت قبل ان تنبت كذلك ينبغي من باب الضرورة ان نموت في انفسنا اذا أردنا ان نحمل أثمار الفضائل الحقيقية. ومن ثمَّ يجب ان نلتجئ الى الصوم مع محض الرغبة في الخلاص لكي نتعلَّم الانتصار على الطبيعة والاستيلاء على اهوائها وان نحفظ ونزيد استحقاق الاعمال الصالحة

الفصل الثالث

في الدواعي التي بعثت الكنيسة على سَنّ الصيام الأربعينيّ

ليس في الفرائض التي وضعتها الكنيسة على اهل النصرانية فريضةٌ اقلّ حفظًا من فريضة الصوم لان كثيرين يستسهلون تحرير انفسهم من اقلّ صومٍ وأدنى تقشُّفٍ فيتقيَّدون بأشدّ ميل الى الشرَه والتبذير ويُغمضون أبصارهم عمّا يتبع ذلك من سوء العاقبة

فائدة الصوم الاربعيني تُعتبر من وجهين اولهما كونها عملاً صالحًا والثاني كونهُ حَمْيَةً ضروريةً لصحة الجسد ولا ريب ان الاول هو الاقوى والامتن فسبيلنا ان نجدَّ لاقتفاء أثر السيد المسيح في الصوم حيث بهِ نصير اهلاً للاشتراك في ما كسبهُ لنا من الخيرات بصومهِ وتقشفهِ وبما كابدهُ من الضنك. كيف لا وهو الذي أعطانا مثال الصوم اذ صام أربعين يومًا في البرية فهذا المقدار من الايام قد عيَّنهُ وكرَّمهُ على ما قال القديس اغسطينوس موسى وايليا والمسيح. فاذا تقرر ذلك كلهُ كان طريقةً مقدسةً الاقتداء بسيرة معلمنا الالهي ولو عن بعدٍ. فاعلم ان اتفاق ناشر الشريعة العتيقة ومشترع الجديدة واتفاق أجلّ الأنبياء مع الذي أنبأ بمجيئهِ الانبياء عامةً ومخلّص العبرانيين ومخلّص العالم في الصوم ومقدار مدّتهِ يُولد في العقل كثيرًا من التأملات في هذا النوع الغريب الذي اتمَّ بهِ الرب لهُ المجد مقاصدهُ

ان موسى لما أراد التأهب للمثول أمام الله سبحانهُ على جبل سيناء ليأخذ الشريعة صام أربعين يومًا وهكذا صنع ايليا قبل أن تراءى لهُ الرب على جبل حوريب والمسيح قبل ان يرفع البناء الذي لم يكن الانبياء الاَّ متنبئين بهِ ومتأهبين لهُ قدَّم على ذبيحتهِ الدموية صيام اربعين يومًا . وبناء عليهِ فقد تقدَّس ناموس الطبيعة بصوم موسى وشريعة موسى بصوم ايليا وعهد النعمة بصوم المسيح لكي تعطينا ديانة الاله الحق في احوالها الثلث مصادقةً متفقةً على وسيلة الخلاص هذه ولكي نقبل بها في كل حال اثباتها وتقريرها

اذا كان صيام موسى وايليا يشهد للعهد الجديد مع انهُ كان قبلهُ بزمان طويل فصوم المسيح ينبغي ان يعلمنا ضرورة الاماتة وقوتها وان نقدّس أصوامنا ونخفف ثقلها ونهوّن صعوبتها بقدوةٍ عظيمةٍ . ولا جرم ان مثل ابن الله المميت جسدهُ بالصوم حبًّا لنا لا يجرّئنا فقط على استعمالهِ لكن يدعونا ايضًا لان نباشرهُ بابتهاج . فلا ريب ان هذا المثال الالهي يُعلمنا الواسطة التي ينبغي لنا بعون النعمة ان نقتلع بها الخطيئة ونضارب التجربة سواء زجرنا الحواس او تشدَّدنا على الجسد العاصي

واذا كان الصوم الخاص يأتي بمثل هذه الفوائد الجليلة حين لا يكون عن الكبرياء ولا عن اعتقاد باطل فالصوم العامّ هو اكثر افادةً واشدُّ فاعليةً وهكذا الامر في الصلاة فان الصلاة العامة انفع من الخاصة . ومن ثم تدعو الكنيسة ابناءها قاطبةً الى ان يتحدوا ويصطفوا تحت راية يسوع المسيح رئيسنا الغير المنظور لكي نتابعهُ على امكاننا في الصوم الذي صامهُ هو نفسهُ بأشدّ ما يكون من الصرامة . واعلم ان الثمرة التي نجنيها من حرصنا على قضاء هذا الفرض الواجب انما هي التوصل باسهل سهولةٍ الى ردع نقائصنا والتراقي في الفضائل بشرط ان نكون مع ذلك قد حصلنا على روح الخشوع والندامة الصادقة وان نقضي فرض الصوم الاربعيني المقدس طاعةً لاوامر الكنيسة ونضمَّ اليهِ القراءة الروحية وصلاةً متواترةً

قال القديس لاون الكبير ما فحواهُ . يستحيل على القلوب ولو غايةً في الطهارة والتعبد ان لا تتغبَّر بشيء من غبار الدنيا الثابت العدوى : ويُستنتج من ذلك ان كل الذين يتزوَّدون بالتقوى يكونون عرضةً لان يطيعوا في بعض الاحيان تحريضات الدنيا . فكان لا بدَّ لهؤلاء ان يجدّدوا باطنًا في بعض اوقات ليصلحوا بشدة الحرارة الخسائر التي لم تبرح أنفسهم معرَّضةً لها . فانتخبت الكنيسة للتوصل الى ذلك المرام اياماً مختلفةً من السنة وخصوصًا ايام الصوم الاربعيني لكي تحمل المؤمنين على مباشرة رياضات التقوى والاماتة التي اسلفنا الكلام في بيان فوائدها الروحية . فلا غرو اننا بفضل هذه الرسوم المقدسة المعيَّنة بمزيد الحكمة يسهل علينا ان نحفظ انفسنا في المقاصد الخلاصية بل ان ننميها بمفاعيل التوبة النصوح التي تخلف الهفوات عادةً في النفوس التقية . لكن اذ لا يناسب ضعف طبيعتنا ان نحفظ بجلَدٍ دائم وفي جميع الفصول الفرائض التي أوجبتها علينا ديانتنا المقدسة ترقُّ لنا الكنيسة المقدسة وتعطينا وسائل نقوم مقامها على الاقل في بعض فصول السنة وتعيدنا الى الاهتمام بأمر انفسنا وخلاصنا على حسبما يمكنها ويمكن ضعفنا

فان رُخّص لنا بعد ما قررناهُ من هذه الاعتبارات الشريفة ان نعظم ما ينجم لصحة جسدنا من الفوائد بواسطة الصوم والقناعة تهيأ لنا ان نذكر كثيرًا من الامثال ولا نخشى ان نقول ما لا تستحقر الكنيسة نفسها ذكرهُ في الاسباب التي أوجبت عليها ان تضع الصوم . وحسبنا ان نعرف ان اكثر الشرور الجسدية التي تضر بالانسانية انما هي مسبَّبةٌ عن الافراط في المآكل وكثرة النهم وكلاهما يُضرَّان بممارسة القوى الادبية بل الطبيعية ايضًا اما من قِبل الفساد الذي يداخل الدم واما من سوء الهضم وغير ذلك من الاضرار التي سببها عدم القناعة . ولا ريب ان الافراط في المآكل اللذيذة وشرب المسكرات مع اضرارها للادب اصبحا مبدأً لاكثر تلك الامراض الجديدة التي لا يكاد يُعرف لها دواء فتهدم بسرعةٍ صحة من كان من الاقوياء وتبعث بهِ الى القبر قبل حلول الأجل

وانفع الادوية في مثل هذا الداء انما هو القناعة في حال الصحة والانقطاع في حال المرض . ومن كان ثابتًا شجاعًا في استعمالها فلا ريب انهُ يفوز بحسن الصحة وطول العمر ويشهد على ذلك اباء البرية القديسون الذين نراهم اصحّاء اقوياء وهم في اخر العمر . كيف لا وكان عمر القديس بولس اول الحبساء جيلاً وثلث عشرة سنة وعمر القديس ارسانيوس مائة وعشرين سنة وعاش القديس يوحنا الصامت مائة واربع سنين والانبا تاودورُس مائة وخمس سنين . اما القديسون مكاريوس

وبنغوسيوس وسابا وغيرهم كثيرون فبلغت حياة كل منهم جيلاً كاملاً

فاذ تقرَّر ذلك كلهُ علمتَ ان البيعة اعزَّ الله اركانها قد عاملتنا بما فرض علينا من الصوم والقطاعة معاملة الطبيب الحاذق لان في ذلك اعانة على دفع ما يعرو الجسم من الامراض

هذا واما الزمان الذي عينتهُ الكنيسة للصوم الاربعيني فلا ريب انهُ انسب من سائر الازمنة واشدّ عونًا على التوصل الى ما ارادتهُ وذلك لامرين احدها وقوعهُ في الفصل السنوي الذي تذكر فيهِ الآم المخلّص لهُ المجد فينبغي ان يكون زمان استعدادٍ لعيد الفصح المجيد نقضيهِ كلهُ أجمع بالسهر كما قال القديسان لاون وغريغوربوس . والثاني ان فصل الربيع هو احسن من سائر فصول السنة لاعادة ما فقد الجسد من القوَّة حيث ان المواد تكون فيهِ شديدة الحرارة والنبات كثير المائية فيكون للاجسام غذاء كافيًا بل كثير التقوية . ولهذا نرى الكنيسة اللاتينية في السبت الاول من الصوم الاربعيني تتضرع الى الرب قائلةً اعطِنا يا رب نعمة لنقضي بعبادةٍ هذا الصوم الاحتفالي الذي انما وُضع شفاء لاجسادنا وانفوسنا

الفصل الرابع

في افتتاح الصوم الاربعيني

لا مراء في ان اليوم الاول من الصوم الاربعيني قد امتاز في كل الاعصار بما يليق بهِ من الاحتفال والعبادة الخاصة . فكان في اوائل الكنيسة هو اليوم الذي فيهِ ياتي التائبون الى باب الكنيسة باثواب الحداد وعلى رؤُوسهم الرماد وعن هذه العادة القديمة أُخذت طريقة تبريك الرماد الذي يجري في هذا اليوم

قد اعتاد القدماء ان يُشيروا الى شدة الحزن بتمزيق الاثواب والتمرُّغ في التراب . نقل الرواة ان رجلاً تبدَّى للناس وقد حثا الرماد على شعرهِ ووجههِ وجسدهِ أشار بذلك الى انهُ كان في الحزن والحداد . وفي العهدين القديم والجديد أمثلةٌ كثيرةٌ على هذا الامر لانهُ كثيرًا ما كان يستعمل خدام الله هذهِ العلامة دلالةً على فرط اغتمامهم لارتكاب الاثم او على اخماد سخط الله في الرزايا الخاصة والعامة . فلما كان ايوب البارُّ يبتهل امام الله سبحانهُ ويسترضيهِ لافتخارهِ بطهارتهِ اظهر ندامتهُ كما اظهر شدة غمّهِ في بلواهُ . قال : انكر مقالتي واندم في التراب والرماد (ايوب ٤٢ : ٦) وقال داود انهُ اكل الرماد مثل الخبز (المزمور ١٠١ : ١٠) ومآل الآية انهُ كان قليل العناية بأمر قوتهِ بحيث لم يكن يكلف نفسهُ رفع الرَّماد عن الخبز . وكان ذلك عند اليهود علامة قويةً على الحزن لانهم كانوا يخبزون الخبز تحت الرماد . وكثيرًا ما نرى في الكتاب المقدس الانبياء يحثُّون شعب الله ليبكوا بكاءً مرًّا على آثامهم في التراب والرماد . وكانوا يجعلون انفسهم قدوةً لهم في ذلك . فكان الملوك وروساءُ بني اسرائيل حتى النساء يستعملون طريقة التوبة هذه مثل يشوع وداود ويهوديت وأستير ومردكاي ويهوذا المكابي من أهل العهد العتيق . ولما ونّب المسيح أهل كورزين وبيت صيداء على عصيانهم وقساوة قلوبهم قال لهم لو أنَّ الآيات التي صُنعت عندكم تُصنع في صور وصيدون لتابتا بالمسوح والرماد . وكان ترتوليانوس يدل على التائبين باسم اللابسي المسح والمغطَّين بالرَّماد

فليس وضع الرماد خرافةً باطلةً ولا طريقةً لا طائل تحتها فانهُ اذ يُوضع على جباهنا نُوسم بعلامة التوبة . فلا بُدَّ لنا ان نطبّق استعدادنا على ما تتضمَّنهُ هذه الطريقة الروحية من الامور الجليلة العديدة . فان الوسم بالرماد مع تشتُّت البال واشتغال القلب بحب الدنيا هو بعيدٌ نازحٌ عن روح الكنيسة وانما هو لُعبةٌ دينيةٌ وبالنتيجة انه عمل مجنونٍ مذنبٍ يضحك ويمزح والقضاء بموتهِ يُتلى عليهِ

فان الكنيسة قد امرت ان يقال عند الوسم بالرَّماد هذا الكلام ونصُّهُ : تذكَّر يا ايها الانسان انك تراب والى التراب تعود . وذلك لكي تجعل هذا الدرس الذي اعطتهُ لابنائها اكثر هيبةً ولكي تذكّرهم ضعف الحياة . فهذا كلام لعنةٍ في المعنى الذي تفوَّه بهِ المولى عزَّ وعلا مخاطبًا الانسان الاول وهو كلام نعمةٍ وخلاص في الغاية التي تقصد الكنيسة ان تفهمنا اياهُ . ولا جرم انهُ للاثيم كلام مفزع لانهُ يبيّن لهُ القضاء بموتهِ على وجهٍ لا يقبل النقض وللتائب كلامٌ حلوٌ لانهُ يعلمهُ طريق اهتدائهِ والسبيل الذي يجب ان يسلكهُ ليصالح الله . وقد عرَّف القديس باسيليوس الحياة المسيحية قال : هي تأمُّل في الموت متواصل . فعلى الحقيقة اننا بالتأمل الشديد في أمر الموت المؤكد وفي زمانهِ الغير المؤكد وفي الاحوال والنتائج التي تنشأُ عن هذا الانتقال الهائل من دار الفناء الى دار

البقاء ننقطع عن أباطيل الدنيا الى الاشتغال بحرارةٍ في أمر الخلاص. فحيث ان هذه الحياة قصيرةٌ وسريعة الزوال لا تدعنا نشتغل بأمر الابدية الا قليلاً فلا بدَّ ان نستخدمها على وجهٍ نافعٍ وعلى الخصوص ان نستخدم لتطهيرنا ايام النعمة التي نوفرها لنا رحمة الله بعض الاحيان

والايام المشار اليها تبتدىء من هذا اليوم وهي ايام ميدان التوبة التي ينبغي ان يتوب فيها الخاطئ ويتنقَّى البارّ ويُجلَب الى الجميع الخلاص والسلام. فان الكنيسة ترفع اكثر فاكثر صوتها لتوقظ كثيرًا من المسيحيين المتوغلين في سُبات الآثام. فان بوق صهيون يسمع صوتهُ من كل الجهات ليعلم الناس بايام البركة. والكهنة يبكون بين الهيكل والمذبح والمؤمنون الحقيقيون كلهم متحدون قلبًا وعقلاً يرفعون الى الله صلاتهم ونوحهم وملائكة الارض وهم بعداء عن هذه الدنيا يكفّرون عن خطاياهم وخطايا اخوتهم الضالين ويضاعفون في هذا النهار الغيرة والحرارة لكي يوجهوا اليهم والى سائر البشر عين رحمة الله تعالى

ايها الخطأة الذين ازدروا حتى الآن جودة الهِ يحتملكم لانهُ ازليٌّ اسمعوا ضجيج رجزهِ الذي يقصف فوق رؤوسكم كالرعد اسمعوا ذلك الصوت المخيف الذي يخاطبكم بكلام الوعيد والتهديد: بعد اربعين يومًا تُخسف نينوى (يونان ٣: ٤). كفى ذلك الانذار قديمًا لان يردَّ اليهِ تعالى اهل نينوى الخطأة كلهم. فيا ايها الغبي الأثيم مَن ضمن لك ان الله يستبقيك هنا طويلاً بعدُ. أليست حياتك بين يديهِ ام ليس في يدهِ الآن ان يقتصَّ منك عمَّا في اصرارك على الخطيئة من الكبرياء والعناد بأبدية العذاب والبكاء والشدة واليأس. فاعلم يقينًا انهُ بعد اربعين يومًا لاساءتك في حق النعمة واحتقارك كلام الله عقب اربعين يومًا لعصيانك وجحدك نعم الله واثمك سيخرب هيكل جسدك هذا المتلطخ بدنس الآثام ونفسك التي خصصتها للذة مخجلةٍ لرغيبةٍ وقتيةٍ سينالها قضاء الرذل المؤبد

فيا ايها الذين يسمعون اليوم صوت الرب لا تقسّوا قلوبكم فمهما كانت خطاياكم كبيرة تُغفر لكم ان كرهتموها كراهيةً صادقةً واعترفتم بها لدى الكاهن وجعلتم انفسكم بمنزلة محرقةٍ مرضيةٍ. فيا ايها العميان لا تركضوا الى هلاككم وحيث ارتعتم وارتعشتم من منظر العذاب المعد للخاطئ المصرّ

فأصيخوا الى صوت الحكم القهّار الذي لم يبرح يقدّم لكم الخلاص قائلاً: يا شعبي عودوا عودوا الى الرب الحكم فانقذكم من نير الاسر المخجل الذي تئنّون وتتأوهون تحتهُ. فانا افديكم واغسل لتأمكم بدمي واكون ضحيّتكم وفاديكم. تعالوا اليَّ تعالوا اليَّ يا بني البشر ولو كنتم ضعفاء نظير بطرس ارفعوا عيونكم اليَّ فنظرةٌ واحدةٌ مني تُلقي في قلوبكم الندامة والخلاص. وان كنتم متثقلين بالكبائر كاللص الذي صُلب الى جانبي فناجوني من صميم افئدتكم بكلام التلهف والرجاء وكما فتحت بيت ابي لذلك الأثيم التائب افتحهُ لكم. وان كنتم على شكٍّ كتوما فهلموا المسوا جراحي وجسّوا جرح جنبي فتعرفوا ربكم والحكم الذي انعم عليكم باستحقاقهِ وبدمهِ

كان المسيحيون قديمًا يعترفون في اول اسبوع من الصوم الاربعيني فاذا كان فيهم جماعةٌ استأهلوا قصاصًا قانونيًّا لمخالفتهم بعض القوانين الكنائسية كانوا يأتون بتواضع في اليوم الاول من الصوم ويأخذون من الاسقف القانون الذي استحقّوهُ بيد انهُ قبل وفاء القانون الاحتفالي كان الذين يرتابون في وجوب الالتجاء الى شدّة هذا العلاج الخلاصي يكشفون على انفرادٍ جراحات انفسهم الى الاسقف او الى المعرّف. واعلم ان هذه الوظيفة كانت في اوائل الكنيسة دون غيرها مختصة بالاسقف ثم تقلّدها فيما بعد جماعة من افاضل الكهنة المتازين بعلومهم وخبرتهم حتى اذا سمعوا اعتراف الناس حكموا في هل يجب عليهم ان يلتجئوا الى الاسقف فيفرض عليهم عقوبةً او يُثبت ما فُرض لهم من قِبل الكاهن المذكور

ينتج مما تقدَّم انهُ مع ان فرض العقوبة القانونية كان مختصًّا عادةً بالاسقف او بالمعرّف المتقدّم ذكرهُ. فقد كان جماعةٌ من الكهنة مفوّضين في استماع الاعترافات السرية ومن ثم صرّح اوريجانس أعلم أساتيذ المدرسة المسيحية التي انشأها بالاسكندرية القديس مرقس قال في عظتهِ الثانية على المزمور السابع والثلثين ما نصهُ: اطلبوا بجهدكم رجل الله الذي تعترفون لهُ باثامكم. أحسنوا انتخاب الطبيب الذي تظهرونهُ على جراحات نفوسكم والذي يأخذكم بالرحمة والحنوّ واتبعوا ما ينصح لكم بهِ من النصائح الحسان. ولا جرم ان هذا التعليم هو تعليم جميع اباء الكنيسة الذين تعاقبوا قرنًا فقرنًا

وكانت الايام الثالثة المتقدمة الصيام الاربعيني في القرون

الاولى عند المسيحيين افضل زمان للاعتراف السريّ. وبناء على ذلك لم يسمِ مسيحيو انكلترا هذه الايام الثلثة الّا بكلمةٍ معناها في العربية زمان الاعتراف

ومما يستحق فرط الاسف ان جُلّ نصارى أيامنا تركوا هذه العادة الخلاصية فأيُّ استحقاق يمكن أن تجتنيهِ النفس المثقَّلة بالكبائر من الصوم والقناعة وبأية عواطف تُمارَس الاماتات بجميع أنواعها التي فرضتها الديانة في مدة الصوم وأية ثمرةٍ يُرجى جناها منهُ لانهُ بحصول المحبة في القلب ثمرة سِرّ التوبة المقرون بالندامة الصادقة على جميع الخطايا تصير أصوامنا وأعمالنا الصالحة مقبولةً لدى الرب. لانهُ على ما قال الرسول بولس ان الايمان القويّ حتى ينقل الجبال لا يُعدّ شيئًا بدون المحبة. وبحسب ما قال المسيح نفسهُ الاغصان التي لا تنبت في الكرمة يجب ان تُلقى في النار. فياليت شعري أية وسيلة توصل المرء الى هذه المحبة الشديدة اللزوم اذا لم يعترف باثامهِ اعتراف متواضعٍ ويطهّر قلبهُ بتوبةٍ نصوحٍ (غودسكار)

احد الشعانين

لا يخفى ان الكنيسة تكرّم في هذا اليوم تذكار دخول المسيح بانتصار الى مدينة اورشليم قبل موتهِ بخمسة ايام فاذا لاحظنا ان ذلك هو اول مرة حيّا فيهِ الشعب كلهم بالتسابيح وهتاف الفرح السيد تبارك اسمهُ كأنهُ المسيح المبعوث من الله وان ذلك انما هو ايضًا اول انتصار للنصرانية الديانة التي لا بدّ ان تنتصر على العالم كلهِ واذا لاحظنا من حيثيةٍ أخرى ان المسيح لما دخل اورشليم كان ينبغي لهُ ان يتمم هناك الرسالة التي اعطاهُ اياها ابوهُ وانهُ كان لا بدّ ان يسلم نفسهُ الى اعدائهِ المتجرفين حسّاد مجدهِ فيكسر ببذل نفسهِ سلاسل الخطيئة ويسحق اغلال الموت ويحقق لنا النجاة الدائمة فلا نعجب ولا نتحير من الكنيسة كيف اكرمت تذكار هذا الدخول المجيد بالزياحات الاحتفالية

اعلم ان وضع هذا العيد المسمّى بعيد السَّعف او الاغصان هو قديم العهد جدًا وقال الناس انهُ من المائة الرابعة للنصرانية ويُظنّ انهُ ابتدأ في فلسطين ومنها انتشر في سائر الاصقاع الشرقية. ولكن ليس لنا براهين قاطعة على انهُ كان في الكنيسة الغربية قبل المائة السادسة الّا ان كتاب الاسرار لمار غريغوريوس الذي كان عائشًا في ذلك العصر يتضمن في فرض هذا اليوم صلاةً يسأل بها الكاهن الله قائلاً: كما كان المؤمنون حاضرين لديهِ تعالى في مثل هذا اليوم بسَعف النخل وغيرها من الاغصان ليرتضِ ان يقبلهم بعد الموت حاملين سَعف ظفرهم وأثمار اعمالهم الصالحة

قد كان يُحتفل بعيد الشعانين عند ابتدائهِ بأوفر جلال وابهى زينة مما يُحتفل بهِ في زماننا بما ان الكنيسة حصرت كل ذلك الاحتفال في تبريك الاغصان والزياح الذي يمثل دخول المسيح الانتصاري الى مدينة اورشليم وذلك لكي تخصص سائر فروضها بأسرار آلام المسيح

واما الاغصان التي جرت العادة في حملها في هذا الزياح فهي من النخل والزيتون والصنصاف والبقس وغيرها من أفضل الاشجار يضمون اليها زهورًا كما يأذن لهم الزمان ويجري الزياح خارج الكنيسة التي أبوابها تبقى مُغلقةً في غياب المزيحين حتى اذا عادوا يقرع الشماس الرسالي باب الكنيسة بقضيب الصليب وذلك اشارة الى ان السماء كانت مغلقةً على البشر وان المسيح فتحها لنا باستحقاق موتهِ على الصليب وعند ذلك يترنمون بالتسبحة هوشعنا لابن داود مبارك الآتي باسم الرب هوشعنا في الاعالي والباقي

ثم يفتح باب الكنيسة والشعب كلهم حاملون الاغصان او الباقات المحنية يقولون هوشعنا وغير ذلك من التسبحة حتى يصل الكهنة الى المذبح

فاعلم انهُ عن هذه الطرائق الاحتفالية تنشأ الاسماء المختلفة التي أُطلقت على الاحد الذي يتقدم الفصح فدُعي احد الاغصان وأحد السعف ويوم هوشعنا والفصح الزاهر ولهُ عند اللاتينيين اسماء أُخر لانهم سموهُ بأحد الغفران حيث يُصالَح فيهِ ضمن الكنيسة التائبون المشهورون واحد الطالبين حيث كان يُقبل فيهِ للعماد طالبوهُ المحصلون ما ينبغي من معرفة التعليم

فانظر كيف قصّ الانجيليون خبر دخول ابن الله الانتصاري الى مدينة اورشليم. فان المسيح تبارك اسمهُ لما تعشّى في بيت عنيا قبل الفصح بستة ايام عند سمعان الابرص حيث كان لعازر الذي اقامهُ حديثًا من القبر واختهُ مريم التي سكبت على قدميهِ طيبًا ذكيًا ولما كان الغد خرج وذهب الى اورشليم لكي يُصلب. ولما قرب من بيت فاجي التي

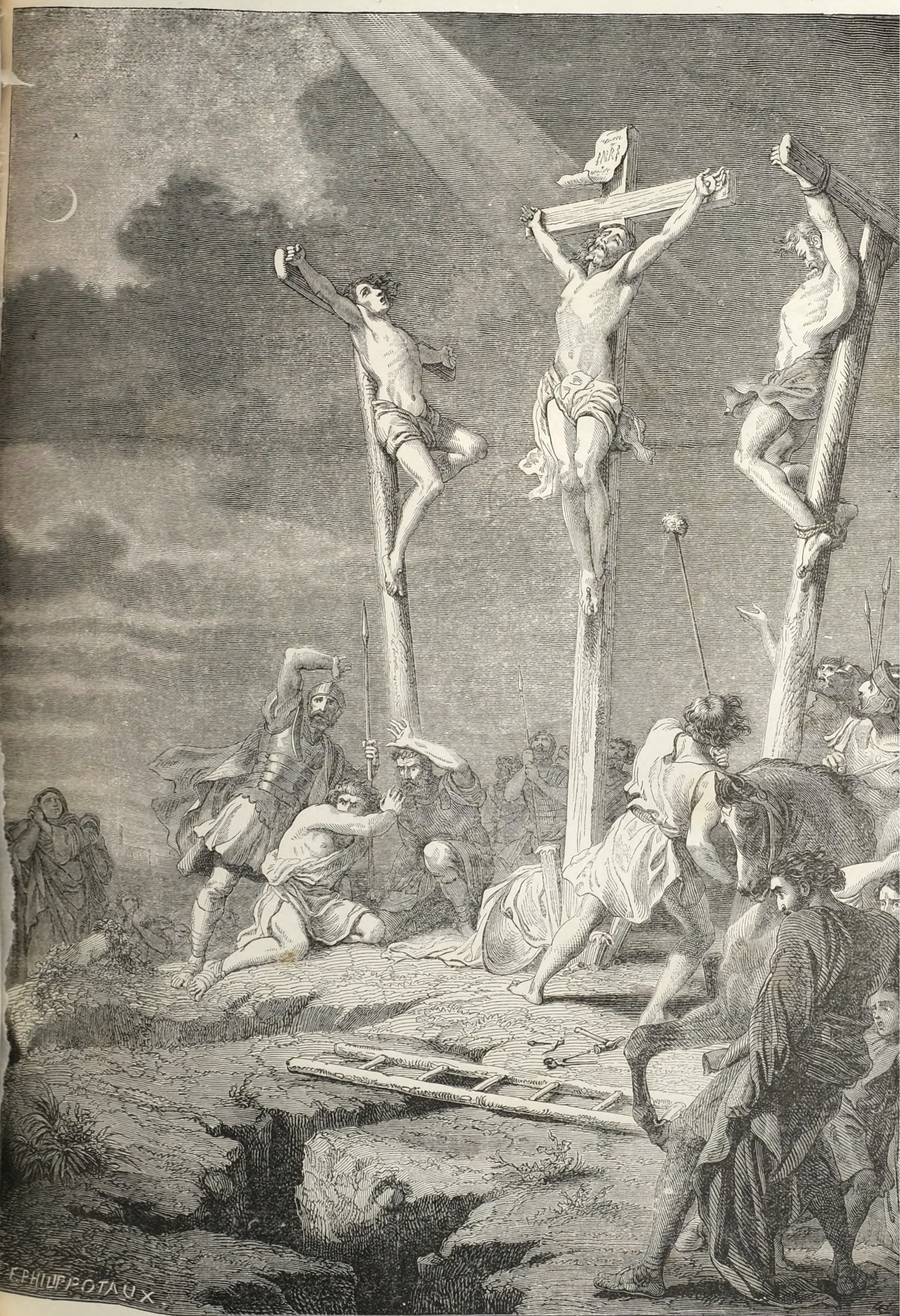
كانت بلحف جبل الزيتون على نصف ساعة من المدينة أمر اثنين من تلاميذهِ ان يذهبا الى تلك القرية ويقودا اليهِ أتاناً بجدانها مربوطةً على بابٍ وجحشها معها واذا اعترضهما احدٌ فليقولا لهُ ان الرب محتاج اليهِ فيتركهُ للحال. هذا كلهُ كان ليتمَّ ما قيل بالنبي القائل: قولوا لابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك وديعاً راكباً على اتانٍ وجحش ابن اتان. فذهب التلميذان وصنعا كما أمرهما يسوع وأتيا بالأتان والجحش ووضعا ثيابهما عليهما وأركباهُ (متى ٢١). يالهُ من تواضعٍ ابداهُ مخلّص العالم حيث انهُ اراد قبل تقديم ذاتهِ ذبيحةً وفاء عن خطايا البشر ان يُعترَف ويُنادى بهِ ملكاً على الخليقة كلها وبين انهُ ابن العلي واراد ان يدخل بانتصار في عاصمة ملكهِ لكنهُ اعلى كثيراً من جميع الغزاة الذين لا بدَّ لهم لاظهار مجدهم من اتخاذ عظمة الموكب وذلك من حيث انهُ يجتذب اليهِ الاحترام والاكرام بمجرَّد ذاتهِ من غير حاجة الى زينةٍ البتة وهو اذ يركب دابةً دنية يفوق كثيراً على الغزاة الراكبين الجياد المزينة بالذهب. ان كرامات هذا العالم الفاني وخيراتهِ الزائلة دأبها ان تعظم الكبرياء وتزيدها اما المسيح الذي لهُ وحدهُ العظمة الحقيقية فانهُ لا يظهر حتى في عزّ مجدهِ الّا تواضعاً ووداعةً. ولما درى اليهود بقدوم يسوع المسيح الى اورشليم هرعوا لملاقاتهِ أفواجاً فمنهم من فرشوا ثيابهم تحت قدميهِ ومنهم من فرشوا الطريق باغصان الاشجار وكلهم رافقوهُ وهم يترنمون بالتسابيح ويمجدون الله وكانوا يعظمون ماشيحا المنتظر منذ عهدٍ طويل واذ عرفوهُ بشخص يسوع كانوا يتغايرون في تسميتهِ بالمسيح ومخلّص اسرائيل ويكرّرون كلما خطوا خطوةً بامارات الفرح وعلامات الابتهاج هذا الكلام هوشعنا لابن داود مبارك الآتي باسم الرب هوشعنا في الأعالي

ودخل يسوع الى اورشليم بين هذه التهاليل محفوفاً بجماهير لا تكاد تُعدّ وجلهم ما بين فقراء وأولاد. وأكثر الفريسيين اذ اجتذبوا من الخبر الذي شاع باعجوبة احياء لعازر الجديدة لم يتمالكوا ان يضبطوا كبرياءهم وحسدهم فقالوا لهُ يا معلم أسكت تلاميذك. وحيث علم يسوع ما انطوت عليهِ قلوبهم قال اذا سكت هؤلاء نطقت الحجارة (لوقا ٩:٤٠) ولما بلغ ابواب اورشليم سالت عبراتهُ بكاءً على ما سيلمّ بتلك المدينة الشقية من البلاء لانها لم تعرف زمان افتقادها وجرّت على نفسها من خيرها شراً ووبالاً

من المسلّم ان المسيح قد افهمنا اذ اختار الفقراء والاولاد ليترنموا بتسبيحهِ ان سذاجة القلب المملوء حبًّا هي افضل صفة تجعل تسبيحنا مقبولاً لديهِ. فياليت شعري من ذا الذي عساهُ ان لا يبالي ولا يتأثر فيقاوم ما سبقنا المخلّص بهِ من الملاينة والانعطاف. أهو أمرٌ جسيمٌ باهظ استئصال كبرياء جنونية وتحقيق نعمهِ واحسانهِ. فواعجبا اذا كان الشعب كلهم قد اعترفوا انهُ المسيح وأدّوا لعزّتهِ الالهية ما ينبغي من الاجلال وتلاميذهُ عرفوهُ كمرسلٍ من الله تعالى كمن قد انبأت بهِ الانبياء بل الله نفسهُ أفتبقى ألسنتنا باردةً جامدةً كألسنة الفريسيين. فهل عمى بصائرنا وكِبْرنا يعوقاننا عن تمييز الحق ونُذعن لهُ ويمنعاننا عن ان نعلم قيمة الايمان فنتركها للمتواضعين الذين اذ سلكوا في الاستقامة والسذاجة فتحوا اجفان بصائرهم الى النور السماوي وقلوبهم الى اغراء النعمة. آه فما أحرانا ان نخشى انتقام الله عزّت قدرتهُ فلنرفع البرقع الذي يحجب عنا النور واذ نشعر بما يقع في قلوبنا من الشكر والمحبة لالهٍ ضحى بنفسهُ تكفيراً عن خطايانا يجب ان ننضمّ الى اهل اورشليم ونسلّم معهم قلوبنا الى اكبر الافراح المقدسة ونطلق ألسنتنا بتسابيح الشكر والحمد

وقد حزن المسيح كثيراً الافتكار في ما سيلقاهُ من جحود جُلّ الذين رافقوهُ وهم يترنمون بمدحهِ حيث لم يكن خافياً عليهِ ان روساء امة اليهود سيُغرونهم عن ايام قليلة بمعاداة المخلّص جلّ وعلا فيحوّل تسبيحهم تجديفاً ويستبدلون ترنمهم بكلمة هوشعنا بقولهم اصلبوهُ اصلبوهُ. فلا بدع ان انصراف قلوب اليهود الجفاة عن السيد لهُ المجد بعد ان علمت ما علمت من شدة تعلقهم بهِ يعلمنا عدم الثقة بالتفات اهل الدنيا فهو ذو وصفين شنيعين الزوال والخيانة. وانما الله لا سواهُ هو الحري بان نعتصم بحبلهِ المتين أفليس هو الذي يمدنا بمجدٍ قوي لا يتزعزع في الرخاء والشدة. ذلك ولنا اعتبارٌ آخر في ما اصاب اورشليم من ضعف الثقة والتحوّل عن المسيح وهوان نلتزم باساءة الظنّ بأنفسنا اكثر من اساءتهِ بالغير والمخافة من خفّة القلب وعدم أمانتهِ وان لا نطلب التعزّز الّا من الله وحدهُ عزّ وجلّ وان نبتهل اليهِ الّا يتباعد عنا ونسألهُ ان يزيدنا ويحفظنا في محبتهِ تعالى

لا خفاء ان زياح احد الشعانين انما وُضع ليكون تحريضاً لنا واغراءً بان نتبع بالروح ونكرّم المسيح اذ نمثّلهُ داخلاً


E. PHILIPPOTAUX.

اورشليم بانتصارٍ وعزّ . الا نرى ان الكنيسة لا تكلّفنا فقط [وفا]ء فروض هذا اليوم بغيرةٍ لكنها تبين لنا العواطف التي يجب ان نكون عليها وقتئذٍ . فسبيلنا ان نتحد معها لكي نتفق بالمدح على تعظيم مجد ابن الله وانتصارهِ ونسأل المخلّص ان يكون ملك قلوبنا وان يخضع شهواتنا وأهواءنا وعواطفنا لسلطانهِ وان ينزّه نفوسنا عن كل ميل الى عصيان شريعتهِ المقدسة وبالجملة ان يستولي على جميع عواطفنا وان يُعدّ فيما لذاته عزّ وجلّ انتصارًا دائمًا ثابتًا

اعلم ان سَعَف النخل الذي نحملهُ في الزياح ليس هو فقط علامة ودلالة على اشتراكنا في استقبال المسيح بالمجد والاكرام بل هو بحسب الكلام الذي تستعملهُ الكنيسة لتبريكهِ اشارةٌ الى الانتصار الذي ننتصرهُ على اعداء خلاصنا واعداء التاج الذي نستحقُّ ان نتوّج بهِ من يد المجازي عزّ شانهُ . غير ان ذلك التاج لايكتسب الاّ بالجهاد ولاسبيل الى الانتصار فيهِ الاّ بالصلاة والتقشف والندامة واتيان الاعمال الصالحة . فاذا كان ذلك فلا بدّ لنا من مباشرتها كل يومٍ ومما ينبغي ان لا نقاتل الاّ وعلينا دروع المسيح اي متدججين بسلاح نعمتهِ المقدسة وان لانجبن ولانخاف بل نطلب بحرارة الانتصار على معايبنا ونقائصنا وأهوائنا الرديئة ونقدّم للسيد المسيح تبارك اسمهُ السَعَف الذي هو وحدهُ جعلنا نقطعهُ (غودسكار)

في اسبوع الآلام

من حيث ان الكنيسة المقدسة تذكر في هذا الاسبوع آلام سيدنا يسوع المسيح وتحثّ المؤمنين على تأمل هذا السرّ الالهي بحسن عبادةٍ قصدنا ان نقدّم لهم موعظة شريفة في هذا المعنى من مواعظ الخطيب المصقَع الاب بوردالو اليسوعي الملقّب بواعظ الملوك وملك الوعّاظ

موعظة في آلام المسيح

ايها الاحباء: هتف الرسول مبشرًا بابن الله المتجسد قال لان اليهود يسألون الآيات واليونانيين يبتغون الحكمة اما نحن فاننا نكرز بالمسيح مصلوبًا شكًّا لليهود وجهالةً للامم [اما] للمدعوين من اليهود واليونانيين فالمسيح قوّة الله وحكمة الله (١ كورنتس ١ : ٢٢ ـ ٢٥) فاعلموا انهُ لو ساغ للواعظين المسيحيين ان يستحيوا خجلاً من وظيفتهم لكان انسب الاوقات لذلك اليوم الذي فيهِ يورد للمؤمنين ما كابد المخلص سبحانهُ من الهوان والاوجاع والموت معلقًا على صليب بيدَ اني مع كل هذا لا اخجل ابدًا من انجيل مخلصي لانهُ هو قوّة الله لكل مؤمن على ما قال الرسول بولس (رومية ١ : ١٦) فان الرسول فضلاً عن انهُ لايخزى بذلك بل انهُ يفتخر بهِ اكبر افتخارٍ أوَ لا ترون انهُ هو الذي يهتف قائلاً حاشى لي ان افتخر الاّ بصليب ربنا تبارك اسمهُ (غلاطية ٦ : ١٤) . فكانهُ يقول لماذا اخجل بصليب ابن الله بل كيف لا افتخر بهِ اذ ليس في الاسرار الانجيلية سرٌّ اعظم ولا اعجب من سرّ الصليب لمن يتأملهُ ببصيرة صافية . فها هوذا اليهود الغير المؤمنين يطلبون آياتٍ واليونانيون المتكبرون يلتمسون الحكمة . وكلا الفريقين لا يتنصّرون الاّ بهذين الشرطين . قال الرسول واما انا فلكي اخزي أُولئك وهؤلاء فكفاني ان أُبشرهم بسيدنا يسوع المسيح مصلوبًا حيث ان هذا السرّ هو اعظم ايات قوّة الله وأعجب افعال حكمتهِ ....

القسم الاول

ان الله سبحانهُ قد اظهر حقًّا عظمة قدرتهِ ومجد الوهيتهِ وجلال سلطانِ ربوبيتهِ المطلَقة حينما خلق بكلمة واحدة السماء والارض . وأبرز عجائب أُخر نرينا قدرتهُ الغير المتناهية التي لاطاقة للبرية ان تقاومها الاان ما اشرنا اليهِ من خلق العالم وبديع اتقانهِ ليس هو بأعجب أفعال الله وأعظمها والسبب في ذلك انهُ من الافعال المختصة بقدرة غير محدودة وبالنتيجة فهو طبيعي لهُ تعالى فلا يقتضي عندنا مزيد تعجب . اما أنّ الله عزّ وجلّ يتألم حتى يموت من شدّة الآلام وان الذي كما قال الرسول هو وحدهُ غير قابل الموت يذوق الموت (ا تيموتاوس ٦ : ١٦) . فذلك فوق مدارك البشر بل اعلى من افهام الملئكة وهو الذي يبيح لي ان اهتف هنا مع النبي قائلاً . تعجبي ايتها السماوات متحيرةً فها اننا نسمع ما يفوق كل افهامنا (ارميا ٢ : ١٢) . وما يستدعي كل وثاقة ايماننا ألا انهُ في هذا السر قد انتصر ايماننا على العالم . نعم قد تألم السيد ومات ولكن لي جرأة ان اقول انهُ تألم ومات تألمًا وموتًا الهيًّا اي على نوعٍ لم يكن ممكنًا ان يتألم ويموت بهِ سوى الله فقط . لانهُ النوع الذي لايشارك الخالق فيهِ احدٌ من خلقهِ ولهذا تجرأ الرسول فخاطب اليهود والامم قال اعلموا ان الذي نبشركم بصلبهِ وموتهِ هو عين الذي رأيتموهُ على جبل الجلجلة مضروبًا من الله وميتًا تحت العذاب الاليم وهو قوّة الله

نفسهُ. فما تستحقرونهُ فيهِ فانما هو الذي نجلّهُ نحن ساجدين وكفى بموتهِ اثباتًا لالوهيتهِ فذلك برهان قاطع لا يُحتاج بعدهُ الى دليل او برهان آخر. فهذا فحوى قول الرسول وحيث يخالج قلبي ريبٌ انكم الى الان لم تفهموهُ كما يجب ان يُفهم فازمعت ان أُوردهُ لكم الان وأُفسرهُ فاقول لابد لنا ان نخوض في تفحص هذه الآية الشريفة: المسيح المصلوب هو قوة الله: حتى ننتج من ذلك ما يفيدنا للخلاص

اني قد اسلفت ان سيدنا يسوع المسيح مات موتًا لم يكن ممكنًا ان يموتهُ غير مَن هو انسان واله حقًّا ولاثبات ذلك اقول ان الذي يموت من بعد ان ينبئ بأعراض موتهِ انباءً جليًّا صريحًا. والذي عند مماتهِ يصنع ابهر العجائب ليعلم الناس ان موتهُ انما هو امرٌ فائق الطبيعة والذي موتهُ هو اعظم المعجزات من حيث انهُ لا يموت بالضعف كسائر الانام بل بفعل قوةٍ غير متناهية وفضلاً عن ذلك يُحصّل باهانة موتهِ المجد الاعظم وحين موتهِ على الصليب ينتصر بواسطة موتهِ على اركون العالم ويرفع راية الصليب فوق أخربة هياكل الاوثان فمن الحقائق التي لا يدانيها ريب انهُ يموت موتًا لا يمكن ان يموتهُ غير مَن هو انسان واله معًا

فهذا هو السبب في اني اقول مع الرسول ان الذي مات على الصليب هكذا هو قوة الاله المتجسد فعلينا بملاحظة هذه الادلة الاربعة وان لا نفرق بعضها من بعض فاننا نُقنع بها بلا شكٍ كل عاقل مهما كان عنيدًا

لا خلاف في ان معرفة المستقبلات من الامور التي ترفّع بها الله على خلقهِ وانحصرت فيهِ لا يشاركهُ فيها احد فهو الذي لهُ ان يقول بحقٍ. هكذا سيكون ولو كان ذلك امرًا متعلقًا بجملة من العلل الاختيارية لان الله على ما ذكرنا هو الذي يعلم بذاتهِ اخفى ما اسرّتهُ القلوب ويعلم ما هو كائن وما سيكون في قلب الانسان من الافكار والاهواء وان علمهُ بذلك اقوى واجلى من معرفة الانسان بهِ عند وقوعهِ. وانت ترى ان ذلك الامر بعينهِ قد فعلهُ السيد المسيح فيما يتعلق بآلامهِ وموتهِ. ولا بدع اننا اذا امعنا النظر في ما قالهُ تعالى عن الآمهِ وتبصّرنا في ذكر جميع ما اكتنفها وصاحبها من الاحوال والاعراض قبل تألمهِ بزمنٍ مديدٍ اي قبل ان اليهود يريدون بهِ شرًّا لاستبان لنا انهُ انبأ بما لم يقع كأنهُ قد وقع. واذا ما تبصرنا في ما قاساهُ يوم الآمهِ من الاعذبة الاليمة والاهانة المتنوعة ظهر لنا ان معذبيهِ انما أتمّوا نبواتهِ اكثر من ان انفذوا حكم الموت المسجل عليهِ. وهذا بكلامهُ لهُ المجد حين كان يوّهب رسلهُ لهذا السر الاليم قائلاً: ها نحن صاعدون الى اورشليم. وابن الانسان يُسلم الى رؤساء الكهنة والى الكتبة ويحكمون عليهِ بالموت ويسلمونهُ الى الامم ليهزأوا بهِ ويجلدونهُ ويصلبونهُ ويقوم في اليوم الثالث (متى ٢٠: ١٨) ففي ذلك يقول الذهبي الفم متفلسفًا هكذا ان الله جلّت حكمتهُ اذ تقدم فعرف ان العالم يشك باطلاً باهاناتٍ موتهِ. وان هذا الشك الباطل يكون اقوى سبب يصد الناس عن الايمان بهِ تعالى من اجل ذلك بتدبير عنايتهِ أراد ان يسبق الانبياء فيتنبأوا بموت السيد المسيح الذي مع ما يلحقهُ بذلك من الاهانة يمحو عنا الخطيئة ويخلصنا. وانما المراد بالنبوّة التي هي شهادة الهية ان يكون ما لحق المسيح من الذل والهوان بهذا الموت جديرًا بالاجلال بل بالسجود والعبادة ومن ثم فلا يشك الناس بالمسيح بل يحققون أن ليس في آلام المخلص شيءٌ لا يسمو على المدارك البشرية. فلهذا السبب القى الله تعالى على قلب اشعيا نبيهِ في العهد القديم ان يصف أعراض آلام ابن الله وصفًا صريحًا مفصّلاً كما وصفهُ الانجيليون في العهد الجديد. ولا جرم ان هذه النبوّة قد صارت اعظم قوّة واشدّ تاثيرًا لما كلم المسيح بها تلاميذهُ قبل آلامهِ بزمان يسير قائلاً هكذا: انني انا انسان الاوجاع الذي وصف اشعيا النبي آلامهُ. انا الذي اكمل بالتدقيق كل ما كتبهُ النبي في حقي. فقد أتت الساعة التي ينبغي ان يحدث فيها ذلك كلهُ واياهُ تشاهدون فقد مسّت الحاجة ان اعلمكم بذلك قبل حدوثهِ لئلا يكون في قلوبكم عند وقوعهِ محلٌّ للاضطراب والشك

ان جميع ما كان ذكرهُ السيد المخلص لهم عن موسى والانبياء ما ابطأ ان وقع وتمّ برمّتهِ وقد حدث عند آلامهِ وموتهِ عزّ وجلّ. واعلم انهُ من اجل ما اشرنا اليهِ من النبوات الالهية الملائمة المسيح لم يحكم عليهِ اليهود بحسب سُنّتهم اذ انهُ كان بحسب الجسم يهوديًّا بل سلموهُ الى بيلاطس الرجل الامي ليحكم هو عليهِ. ومن اجل هذه النبوّات فعل الجنود بهِ ما فعلوا مما كانت تنهى عنهُ الشريعة وذلك انهم زادوا على ما حكم بهِ على يسوع اللطم والتفل في وجههِ. واما ما كان الانبياء قد سبقوا فوصفوهُ

وينوه من الاحوال المصاحبة للآمهِ كالثمن الذي كان سيُباع بهِ وما سيُبتاع بذلك الثمن وتوزيع ثيابهِ والاقتراع عليها والمرارة التي قُدّمت لهُ شرابًا فقد اتخذهُ اعداؤُهُ بأجمعهِ قاعدةً وجروا عليهِ في كل ما فعلوهُ بهِ تبارك اسمهُ من الاهانة والعذاب. كأنهُ جلّ ثناؤُهُ لم يتألم الأ لكي تتحقق تلك النبوّات القديمة فان هذا يتضمن برهانًا جليًا غايةً في المتانة وانهُ بمجرّد هذا البرهان آمن بالوهية السيد الخَصي قيّم جميع خزائن مملكة الحبشة المذكورة في سفر اعمال الرسل. على انهُ لما اورد لهُ القديس فيلبس الشماس ما قد اوردنهُ لكم وتأمل ان جميع هذه النبوات مع نبوات أُخر كثيرة قد كملت اتمّ الكمال في الآلام سيدنا يسوع المسيح اضطرّ ان يؤْمن بهِ. أَوَ يمكن اذًا ان الذي اقنع رجلاً أُميًا غير متنوّر بنور الانجيل لا يزيدنا ثباتًا في الايمان

وعلى هذا الاسلوب ابان سيدنا يسوع المسيح في زمان الامهِ معرفتهُ باخفى اسرار القلوب والمستقبل لانهُ قال على سبيل النبوّة ان أَحد تلاميذهِ يسلمهُ وكان يهوذا الاسخريوطي ينازعهُ فكرهُ الى ذلك وازمع عليهِ. وقال ايضًا لبطرس انهُ سينكرهُ فأنكرهُ بطرس. ثم انهُ عزّ وجلّ قال ان ايمان بطرس لا ينقص فلم ينقص. وقد سبق تعالى ايضًا وقال لهُ انهُ بعد توبتهِ يثبت إخوتهُ فتاب بطرس وثبّت إِخوتهُ بتوبتهِ. وكذلك تنبأ للمجدلية انهُ سيُبشّر في العالم كلهِ بما فعلت لما سكبت على هامتهِ طيبًا ثمينًا وها ان العالم كلهُ يذكر الآن فعلها هذا. ثم ان السيد المسيح تنبأ على اورشليم وهو يبكي عليها انها ستهدم الى الارض وكان كذلك. افما كان هذا العلم اليقين الجلي بالمستقبل وبأخفى سرائر القلوب علم من هو الهٌ لان لله وحدهُ الاقتدار على ان يعرف بنفسهِ خفايا القلوب كما ذكرنا ذلك سابقًا. واذا ثبت ذلك كلهُ افلا يكون الانسان الذي يموت هكذا مخبرًا عمَّا لا يقدر ان يعرفهُ احد سوى الله وحدهُ والذي يموت متنبئًا بما ليس في وسع احد ان يعرفهُ ما خلا الله وحدهُ متصفًا بسلطان الله وقوتهِ على ما قال الرسول: المسيح المصلوب هو قوة الله

على ان الذي نذكرهُ الآن شأنهُ ان يؤثر فيكم أشدّ تأثير وهو موت ذلك الانسان والاله معًا باعجوبةٍ وصنيعة المعجزات عند موتهِ فانهُ قبل موتهِ بقليل زلزل الارض زلزالاً وفتح القبور وأقام الاموات ومزّق ستر الهيكل وكسف الشمس. فهذه العجائب المذهلة العقول وهذه الآيات التي لم يُسمع لها بمثيل صنعها تبارك اسمهُ وقد شارفهُ الموت ومن اجل عظمتها تاب الجنود وآمنوا لانهم حين شعروا بالزلزلة قالوا ان هذا هو ابن الله حقًا (متى ٢٧: ٥٤). وماذا أقول في اللص الذي صُلب معهُ فانهُ لما رأى هذه كلها آمن بالوهية السيد لهُ المجد واعترف بهِ من فورهِ علانيةً. نعم ان الفريسيين الذين عاينوا المعجزات لم يتوبوا ولم يؤْمنوا بيد انهُ يُستدلُّ بذلك لا بل تتحقق الوهية السيد المسيح. على انهم لما أَبوا ان يؤْمنوا بهِ وصارت قلوبهم على نهاية القساوة حتى انهم انكروا الحق الظاهر فابتدأ حينئذٍ رذل الله لهم. والحال ان في هذا كما قال الذهبي فمهُ تظهر قوة الله الضابطة الكل. لان الذبيحه عند موتهِ يخلّص بعضًا ويرذل بعضًا. ينير العميان الذين هم في ظلام الضلال ويُعمي الذين لم يتخذوا النور لقبول الحق. فيردّ أُولئك الى التوبة راحمًا ويرذل هؤُلاء تاركًا بعدلهِ. اما انهُ يظهر بذلك عند موتهِ اجلّ صفات الله وأخصها

وقد بقي هناك آيةٌ لم يُرد يسوع ان يفعلها عند آلامهِ وهي ان يخلّص نفسهُ كما طلب اليهود قائلين ان كان هو ملك اسرائيل المنتظر فلينزل عن الصليب فنؤمن بهِ. واعلم ان إباء المخلص لهُ المجد من ان يصنع المعجزة المومأ اليها انما هو لان هذه الآية تبطل سائر آياتهِ وتبطل ايضًا ما اتجهت اليهِ المشيئة الالهية من فداء البشر الذي كان ينبغي ان يتمّ على الصليب كما علّل ذلك القديس اغسطينوس. ومع صرف النظر عن ذلك نقول لو انهُ عزّ اسمهُ يصنع هذه الآية كان ايضًا حسدهم وبغضهم يصدّانهم عن الايمان بالمسيح لاجلها كما ان ذلك كان قد صدهم عن الايمان بهِ سبحانهُ عند معاينتهم آية اقامة لعازر من القبر بعد ان كان قد انتن وهاتيك الآية التي الجأتهم الى ان يصدقوا بقيامة لعازر الذي كان قد اتى عليهِ اربعة ايام في القبر لم تكفِ لان تنتهي بهم الى الايمان بالسيد المسيح. بل انهم من اجلها اي من اجل تلك الآية المحققة عندهم عزموا على قتلهِ لانهم كانوا حينئذٍ ينقادون لا للصواب بل لاهواءٍ رديئة فكيف يؤْمنون بهِ جلّ ذكرهُ لو نزل من على الصليب

غير اني اقول ان إباء ابن الله انقاذ نفسهِ من الموت مع كونهِ قادرًا على ذلك هو أُعجوبة اكبر واجلُّ من أُعجوبة تخليص نفسهِ من الموت. تأملوا اذًا رب المجد بأينما وداعة

يدع الجنود يمسكونهُ من بعد ان ألقاهم على الارض بمجرَّد اقترابهِ اليهم وبقولهِ لهم انا هو. وكيف يوبخ القديس بطرس على غيرتهِ الغير المرتبة اذ سلَّ سيفهُ وضرب بهِ خادم عظيم الكهنة موردًا لهُ انهُ لو يطلب من ابيهِ لارسل لهُ ملئكتهُ يحاربون عنهُ ولئلا يشك بحقيقة قولهِ هذا شفى حالاً باعجوبةٍ ذلك الذي كان جرحهُ رسولهُ. فتأملوا اذًا صمتهُ العجيب امام بيلاطس الذي كان عارفًا ببرهِ ولم يسألهُ الا لكي يجد طريقةً لاطلاقهِ وامام هيرودس الذي لو اراد السيد المسيح لكان بكلامهِ أمالهُ بسهولة الى المحاماة عنهُ. ولاحظوا تسليمهُ تعالى دعواهُ وبالنتيجة حياتهُ بين ايدي القضاة بل لاحظوا ايضًا تمام وقارهِ وسكينتهِ فيما بين أفظع الاهانات واحتمالهُ كل شيءٍ من غيرما شكوى ولا مخاصمة. انظروا جودتهُ العجيبة التي صيرتهُ يعتذر عند موتهِ عن صالبيهِ. لعمري ان كل هذه الآيات اي عجائب الصبر في انسانٍ متصفٍ بحكمة وسيرة كاملة هي اعجب جدًّا من تخليصهِ تعالى نفسهُ من بين أيدي معذّبيهِ

فصح اذًا ما قال الرسول من ان المسيح المصلوب هو قوَّة الله فلم يمُت اذًا يسوع الاَّ لانهُ اراد بل انهُ لم يمُت الاَّ على النوع الذي رسمهُ منذ القِدَم وهكذا كما قال القديس اغستينوس انما هو شيءٌ لا يخص سوى من هو انسان واله معًا. ومن اجل ذلك قد سبقتُ وقلتُ ان موت سيدنا يسوع هو بنفسهِ أعجوبة باهرة لكونهِ تعالى عوضًا عن ان يموت بعجز القوَّة او باكراهٍ او باضطرابٍ واضطرارٍ مات لا باختيارهِ فقط بل بفعل صادر من سلطانهِ المطلق. وأقول علاوةً على ذلك انهُ نظرًا الى كونهِ ابن الله وكونهِ الهًا لم يفعل قط بسلطانهِ المطلق فعلاً اعظم من ارتضائهِ ان نفسهُ الطوباوية تنفصل من جسدهِ. وفي هذا المعنى يورد علماء اللاهوت حججين حيث يقولون. اولاً ان سيدنا لهُ المجد لاجل كونهِ بريًا من كل خطيئة وغير قابل لان يخطأ قد كان طبعًا غير خاضع للموت. وينتج من ذلك ان انفصال نفسهِ من جسدهِ المتحدين باللاهوت اتحادًا اقنوميًّا لم يكن الاَّ باعجوبة فلزم اذًا لاتمام هذا الانفصال ان يستعمل السيد المسيح كل السلطان المعطى لهُ من الله لفعل ما يقاوم رسوم عنايتهِ العاديَّة ولهدم هذه الحياة العجيبة التي مع كونها حياةً انسانية كانت حياة الله. ويقولون ثانيًا انهُ من حيث ان سيدنا يسوع المسيح كان في العهد الجديد الحبر الاعظم لم يكن يقدر آخر سواهُ ان يقدم لله تعالى ذبيحة فداء العالم. والحال ان ذبيحة فداء العالم كانت جسدهُ الاقدس فمن ثم لا يجوز لاحدٍ سواهُ ان يميت جسدهُ ولم يكن لآخر غيرهِ تعالى سلطان كافٍ لذلك. فاذًا الذين عذَّبوهُ وصلبوهُ كانوا خدام العدل الالهي لا الكهنة الذين ينوط بهم ان يقدّموا هذه الذبيحة. بل ان هذه التقدمة كانت تقتضي حصرًا يكون قدوسًا بارًّا متميزًا عن الخطأة متصفًا بوسم خصوصيّ. والحال ان مثل هذا الوسم لم يكن ممكنًا ان يناسب سوى سيدنا لهُ المجد. ومن ذلك ينتج القديس اغستينوس ان سيدنا يسوع المسيح كان بآيةٍ تتحير عندها العقول هو الذبيحة والكاهن مقدّمها معًا

فاذًا هو تعالى الذي ذبح ذاتهُ بذاتهِ وباشر بأقنومهِ وظيفة الكاهن والحبر العظيم. وهو هو الذي ضحى الى زمنٍ هذا المجموع المسجود لهُ اعني هذا المجموع المركب من جسدٍ متالم ونفسٍ ممتعةٍ بالغبطة السماوية. فليس اذًا الجنود هم الذين نزعوا حياتهُ بل انهُ هو عزَّ وجلَّ الذي فارقها باختيارهِ كما قال: ليس احدٌ ياخذ نفسي مني لكني اضعها بارادتي (يوحنا ١٠: ١٨). نعم انهُ مات على الصليب الاَّ انهُ على حصر المعنى لم يمُت بعذاب الصليب كما قال القديس اغستينوس. وحيث تحقق بشهادة اليهود انفسهم ان عذاب الصليب اي العذاب الذي كان يموت بهِ المحكوم عليهم بالصلب لم يكن مجرَّد تعليقهم على الصليب بل كان كسر سوقهم على الصليب وهم احياء. والحال انهُ بحسب ما تُنبئ عنهُ كان قد اسلم روحهُ لما تقدم الجنود ليكسروا ساقيهِ. ولهذا تعجب بيلاطس من ان يسوع كان قد مات قبل ان تكسر عظامهُ. والدليل على انهُ لم يمُت بعجز الطبيعة هو انهُ لما اسلم روحهُ صرخ بصوتٍ عالٍ. فتعجب قائد المائة الذي كان واقفًا بالقرب منهُ لما رآهُ صرخ هكذا ومات حالاً فقال ان هذا هو ابن الله حقًّا. فقد تحقق اذًا قول الرسول ان المسيح المصلوب هو قوَّة الله

نعم ان مخلصنا شعر عند موتهِ بالضعف الاَّ ان ذلك الضعف الذي شعر بهِ لم يكن ضعفهُ كما قال اشعيا النبي (٥٣: ٤) بل انما هو ضعفنا ومرضنا ولا خلاف في ان احتمال المسيح كل امراض البشر وضعفهم هو امرٌ في نهاية الغرابة والعجب. ولربما يجد اهل العالم الضعيفو الايمان هذا الجواب رفيعًا جدًّا مع انهُ سديد صائب.

فأجيب ثانيًا مع الذهبي الفم فاقول ان مخلصنا في آلامهِ وعند موتهِ شعر بالضعف والعجز غير ان العجب العجاب هو ان ضعفهُ وعجزهُ كان أعجوبة لانهُ اذ عرق عند صلاتهِ في بستان الزيتون كانا عرقهُ دمويًا غزيرًا اصطبغت الارض بهِ. ولما طعن الجندي جنبهُ بحربة جرى منهُ دمٌ وماء. فكأنهُ تعالى لا يتألم ولا يموت الا لكي يظهر في ذاتهِ قوَّة الله

ولا بدَّ لنا ان نختم كلامنا هذا بدليل آخر متأملين في هذا الانسان الذي بواسطة اهانة موتهِ ارتفع الى اعلى مجدٍ يستطيع الله ان يطلبهُ لذاتهِ. حتى انهُ لاسمهِ ولصليبهِ يخرّ اكبر الملوك ساجدين كما قال الرسول: وضع نفسهُ وصار يطيع حتى الموت موت الصليب فلذلك رفعهُ الله وأعطاهُ اسمًا يفوق كل اسم لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة مما في السماوات وعلى الارض وتحت الارض (فيلبي ٢ : ٨ـ ١٠) وهذا قد كاشف الله بهِ بولس الرسول حينما كان يتبين ان كل شيء مضادٌّ لهذه النبوَّة وعند ما كان يجب على مقتضى العقل البشري ان تحسب نبوَّة كاذبة لا صحة لها البتة وحينما كان اسم يسوع مبغضًا الى آخر درجة. فمع هذا كلهِ فالذي قالهُ الرسول قد صحَّ وكمل بالتمام والذي كان لدى المؤمنين الاولين موضوعًا للايمان بطل الآن على نوع ما ان يكون موضوعًا نظرًا الينا نحن المشاهدين حقيقة الامر. ولا نحتاج في تصديق ذلك الى سبي عقولنا لاننا نرى أرباب الارض وأعظم روسائها وملوكها يجثون الآن لاسم يسوع فهذا هو الذي كان قد تقدم واخبر عنهُ الرسول بروح النبوَّة. هذا هو الذي قد كنا احتسبناهُ في زمن الرسول هذيانًا وكذبًا. هذا هو الذي نعاينه الآن ولا يمكننا ان نشك في حقيقتهِ. ولا جرم ان الانسان الذي صليبهُ ينتقل من مكان العذاب الى هام الملوك الانسان الذي بمجرَّد صليبهِ انتصر على الوثنية وظفر بالعالم كلهِ الانسان الذي في حياتهِ كان تنبأ بهذا كلهِ بقولهِ وانا إن ارتفعت عن الارض جذبت اليَّ كل شيء وانما قال هذا ليشير الى اية ميتة يموت (يوحنا ١٢ : ٣٢). أوَ ليس هذا الانسان نفسهُ هو أكثر من انسان أوَليس هو في الحق انسانًا والهًا معًا. فيا ما أعظم قوَّة الصليب الذي اجتذب الأمم الى عبادتهِ. ما اكثر الذين بشَّروا بانجيلهِ واقتدوا بفضائلهِ وسفكوا دماءهم من اجلهِ بل ما اكثر الأمم والقبائل من الشعوب والممالك الذين أدخلهم في النصرانية بقوَّة هذا الصليب المقدس وما ذاك الا لان المسيح المصلوب هو قوَّة الله

يا إخوتي ألا يصنع فيكم أعجوبة أخرى الذي بقوَّة صليبهِ صنع كل هذه العجائب ولماذا لا يجتذب قلوبنا الى التوبة الذي اجتذب لعبادتهِ وحبهِ القبائل والممالك بقوَّة صليبهِ. انهُ قد شقق الصخور وفتح القبور ومزَّق ستر الهيكل فلتتشقق اذًا قلوبنا الصخرية عند مشاهدتنا الصليب ولتنفتح ضمائرنا المغلقة حتى الآن كقبورٍ وليمزَّق جسدنا هذا جسد الخطيئة بتقشفات التوبة. لانهُ كيف لا يجتذبنا اليهِ يسوع المصلوب بعد ان اجتذب الى التوبة اعداءهُ حتى صالبيهِ. اي نعم هذا هو الذي ينبغي لكم ايها الخطأة ان تتعزوا بهِ لانكم بالخطيئة قد صرتم أعداء المسيح ومضطهديهِ وصالبيهِ حسب قول الرسول لكن تذكروا ما قالهُ القديس الشهير اغسطينوس ونصهُ ان دم سيدنا يسوع المسيح قد استطاع ان يمحو ويغفر تلك الخطيئة التي سُفك بها وبهذا ظهرت قوَّة فادينا الالهية. بهذا اظهر المسيح انهُ مخلص لانهُ صير اعداءهُ مختارين وجعل اعداءهُ قديسين. فاذًا مع كونكم خطأة فلكم حقٌّ على رجاء مراحمهِ فتقدموا اذًا الى منبر صليبهِ بقلوبٍ منسحقة متواضعة لتقبلوا من المخلص نعمة الغفران والخلاص بتطهير أنفسكم من فساد العالم. لان الأعجوبة التي يُريد ان يفعلها فيكم بقوَّة صليبهِ المقدس انما هي ان تتوبوا اليهِ توبةً صحيحةً بعد انصرافكم عنهُ زمانًا مديدًا وتوبةً مشتهرة بعد تمرغكم المشتهر في الخطايا. بهذا تظهرون للعالم ان السيد المسيح المصلوب هو قوَّة الله. فها قد تقرَّر الآن ان المسيح المصلوب هو قوَّة الله فليشك اليهود اذًا شكًا باطلاً وبقي علينا ان نثبت للامم ان المسيح هو حكمة الله

القسم الثاني

انهُ وان كان الله في احكامهِ وتدابيرهِ عادلاً قدوسًا حكيمًا فليس بعجيبٍ ان نرى الانسان بحركة جهلهِ وتكبرهِ قد تجاسر ولام اعمال الله سبحانهُ واتخذ منها سببًا باطلاً للشك. لانهُ منذ دخول الخطيئة في العالم قد صار كما قيل في الكتب المقدسة بين افكار الله وافكار الانسان تباعدٌ عظيمٌ ومن ثم كان ذلك الشك كنتيجةٍ ضروريةٍ. الآن الشيء الذي يجب ان يُقضى منهُ العجب العجاب انما هو شك الانسان في الله من اجل جلائل نعمهِ عزَّ وجلَّ ووفور مراحمهِ. ومن ثم يتنفَّس القديس غريغوريوس الصعداء قائلاً في مقالتهِ السادسة على الانجيل المقدس كيف اتخذ الانسان سببًا لان يشك في

مخلصهِ ممَّا قد كان ينبغي لهُ ان يصيرهُ اشدَّ معروفًا وحبًّا لهُ عزَّ وجلَّ . وهذا هو الضلال الذي تورَّط فيهِ ماركيون المبتدع لما غار غيرةً كاذبة لابن الله وانكر انهُ تعالى تألَّم حقًّا على الصليب او مات حقًّا. كأنَّ هذا كان امرًا غير لائق بعزة الله وقداستهِ مطلقًا. هذا ما قالهُ ماركيون مع الامم اما الرسول الالهي فينادي مع سيدنا يسوع المسيح المصلوب انهُ هو حكمة الله . فلننظرنَّ الان أ سرَّ صليب ابن الله المرتفع فوق افهام عقولنا يتضمن ما يضادُّ نور عقولنا ام لا

ان الله جلَّت آلاؤهُ كان يقصد في هذا السرّ العظيم اي سرّ الامهِ وموتهِ امرين في نهاية الصعوبة والضرورة على ما قال القديس لاون احدها الوفاء لله ابيهِ عما كان الانسان اساء اليهِ تعالى بالخطيئة والثاني اصلاح الانسان الذي أفسدهُ الضلال فانما من اجل ذلك أُرسل ابن الله . اعلم ان الله لم يكن في امكانهِ ان يتوصل الى هذا المرام بوسيلة اقوى وأفعل من الصليب ولا يستطيع العقل البشري ان يخترع واسطةً اكثر مناسبة للغاية الالهية. فلنمض اذًا الى جبل الجلجلة وننظر ما يقع فيهِ متأملين هناك دياناتنا . كان ينبغي ان يُقدَّم لله تعالى وفاءٌ واجبٌ والحال انهُ لم يقدر ان يفي ما لله سوى انسان هو الله . ولاجرم ان العقل يضطر ان يسلم بهِ . فما الذي فعلهُ هذا الانسان الاله بل ما الذي لم يفعلهُ ليفي كل ديوننا لان الذي كانت قائمة فيهِ خطيئة الانسان الى الله انما هو ان الانسان رام ان يكون شبيهًا بالله كما قال المجرب تصيران كآلهة فقال الانسان الاله اما انا الذي لستُ شبيهًا بالله فقط بل مساويًا لهُ في جوهرهِ ايضًا فستنازل عما يحقُّ لي بل أصير أحقر الناس وأرذلهم وكدودة الارض حسبما كان سبق وقال على لسان داود نبيهِ انا دودةٌ ولستُ انسانًا (مزمور ۲۱ : ۷). أفيمكن والحالة هذه ان يكون وفاءٌ أفضل وأكمل وأعظم من ذلك

ثم ان الانسان بتمردهِ على باريهِ كان قد ألقى عنهُ نير الطاعة الواجبة لربهِ فقال الانسان الاله انني مع كوني غير خاضع لاحدٍ اخضع أصعب الخضوع لاني أطيع حتى الموت موت الصليب (فيلبي ۲) . فلست أطيع الله وحدهُ بل اني أضع نفسي للناس حتى لاشدهم إثمًا ونفاقًا اي لمبغضيَّ وصالبيَّ . اني اخضع لا لاحكام الله العادلة فقط بل لاحكام الناس الجائرة القاسية . اني اطيع لا الذين ليس لهم عليَّ سلطان فقط بل الذين من دون سلطان واجب يقومون عليَّ متعصبين . وبخضوعي هذا الاختياري سأمحو خطيئة الانسان الذي عصى ربهُ وخلع نير الطاعة لشريعة خالقهِ . ومن اجل هذا كما لاحظ القديس برنردوس لم يشأ السيد المسيح ان ينزل من على الصليب فيشفي عمى اليهود بأعجوبة مفعولة منهُ لا بطاعتهِ بل بارادتهِ واختيارهِ

ان الانسان بأكلهِ الثمرة المنهي عنها كان تمتع بلذة محرمةٍ . فقال ابن الله اما انا ولو كان جائزًا لي التمتع بكل لذات العالم فمع ذلك هاءنذا اقدم الى ابي كانسان الاوجاع وكذبيحة الاستغفار عن الخطايا وبمنزلة حمل للذبح . ولاجرم ان هذا هو الذي فعلهُ في آلامهِ بروح الغيرة لمجد ابيهِ فقال ذبيحةً وقربانًا لم تشأ لكنك البستني جسدًا ولم تُسرَّ بالمحرقات المقدمة لاجل الخطايا حينئذٍ قلت هاءنذا آتي (عبرانيين ۱۰ : ۵) فكأنهُ يقول باطنًا لابيهِ حين صلبهِ انك قد رذلت كل قربان وكل ذبيحة الا انك جبلت لي جسدًا فها أنا آتي لأُقدّم لك ناسوتي قربانًا وذبيحةً فهناك اي في الصليب أُبطل قرابين الناموس وذلك بتقدمة ذبيحة الناموس الجديد على الصليب حيث كأنهُ على المذبح قدَّم لله لا دم الثيران والحملان بل دمهُ الاقدس الكريم . هناك اي على الصليب وفى ما لله لا بتقدمة شيءٍ خارج عنهُ بل بتقدمة ذاتهِ بذاتهِ . وهذا هو الذي دعوتهُ عمل حكمة الله

غير ان ابن الله لم يكتفِ بذلك بل انهُ تعالى علمنا بما كان يفوق ادراك افهامنا وما قد كنا بدونهِ سبحانهُ جهلناهُ الى الابد . وهذا انما هو ماهية الله وماهية الخطيئة وماهية الخلاص اعني بها الثلثة الاشياء التي يجب ان تتجه اليها كل حكمة الانسان وقد كانت معرفتنا هذه الاشياء الثلثة متعلقة بسرّ يسوع المتألم والمصلوب . فأي شيءٍ اذًا هو الله . انهُ تعالى هو الذي قد وجب ان يتضع لاجل مجدهِ انسانٌ هو الالهُ ويلاشي ذاتهُ على الصليب . فهكذا أتصوَّر الآن الله وكل ما عداهُ من تصوُّر العزة الالهية ولو مهما كان عظيمًا فانني بهِ لستُ اعرف الله بالكفاية . وكل ما افهمهُ عنهُ تعالى ما أراهُ في الخلائق ومما اقرأهُ في كتب علم اللاهوت او في الكتب المقدسة وكل ما سافهمهُ بنور المجد السماوي فان هذا كلهُ ليس هو سوى ظلٍّ محض . اما في جبل الجلجلة فهناك الايمان بنورهِ العظيم يُريني الله بكل عظمتهِ . لاني اعاين هناك انسانًا الهًا يقدّم نفسهُ ذبيحةً لتمجيدهِ وأجسر ان أقول ان اعظم تصور

الله عَظَمة لاهوتِهِ هو تصورهُ ذاتهُ اهلاً لان يُمجد بصلب انسان يكون الهًا

وما هي الخطيئة ايضًا فانها ولاشكَّ شرٌّ عظيمٌ جدًّا حتى انهُ من المستحيل ان يفي عنها سوى انسان يكون الهًا. فهذا هو الذي تعلمتهُ في سرّ الصليب على اني قبلاً لم اكن افهم كيف يمكن ان الخطيئة تجرُّ علينا عذابًا يندهل العقل عند ذكر شدتهِ وعند تحيري هذا كنت أسأل واقول لماذا أعدَّ الله للهلكى عذابًا أبديًا في جهنم. الاَّ اني الان قد عرفت سبب جهلي وهو اني لم أحسن التأمل في سرّ ابن الله المصلوب لان رسم الله ان موت الهٍ كواسطةٍ ضرورية لمحو الخطيئة يُريني ويُفهمني المناسبة ما بين الخطيئة التي هي اساءة الى الله وبين ابدية عذاب الخليقة ومن تحقُّقي الاول أتحقَّق الاخر وأفهمهُ بسهولة لاني اقول مقتنعًا متفلسفًا مع السيد المسيح ان كانوا يفعلون هذا بالعود الرَّطْب فماذا يكون باليابس (لوقا ٢٣: ٣١) ان كان البريء يتعذَّب هكذا فليت شعري كيف يتعذَّب الاثيم. اني لا اتعجب الآن من قساوة احكام الله وشدة عذابهِ بل اني اتعجَّب من تعجبي

تأمَّلوا الان ما هو خلاص الانسان فانهُ خيرٌ بذل الله تعالى عليهِ حياتهُ ولم يظنَّ الانسان الاله انهُ أعطى زيادةً حين قدَّم نفسهُ من أجلهِ. فهذا ما أتعلمهُ الان من معلمنا الالهي المصلوب. نعم اني كنت اتهاون في خلاصي حتى اني كنت أُلقيهِ في الخطر طمعًا في ربحٍ أرضي ومجدٍ زمني وتنعمٍ وقتي رديء بل كنت ارتضي بخسرانهِ لاجل ذلك اما الان فان السيد المسيح يُعلمني من على صليبهِ مزيلاً عني بآلامهِ حجاب الضلالة. لانهُ يخاطبني بلسان الحال هكذا تأمَّل فيَّ حسنًا فانك ستعلم نفاسة ثمن نفسك. قس عظمة ثمنها على عَظَمة ذاتي لاني انا ثمن نفسك. فمن ذا لا يقول الان مع الرسول ان سرَّ الصليب هو سرُّ حكمة الله على ان السرَّ الذي يظهر لي عظمة الله ويُصيّرني ابغض الخطيئة اكثر من كل شيء وأُفضل خلاص نفسي على كل خيرٍ سواهُ فهو لديَّ سرُّ حكمة الله كما قال الذهبي الفم. لانهُ لا يمكن ان يكون مصدر هذه الافكار السامية المطابقة الصواب تمام المطابقة مصدرًا كاذبًا مضلاً. ولا يمكن انهُ يأتيني الاَّ من قِبل الحكمة التي هي عين حكمة الله. ومن ثم كان الرسول العارف بعظائم هذا السرّ نادى علانيةً انهُ يُريد ان يجهل كل امرٍ الاَّ سرَّ المسيح المصلوب لانهُ يقول فاني لم أحسب اني اعرف شيئًا بينكم الاَّ يسوع المسيح وإياهُ مصلوبًا (١ كورنتس ٢: ٢) لانهُ في يسوع المصلوب كان يجد على نوعٍ سامٍ جدًّا مختصرَ كل ما كان يجب عليهِ ان يعرفهُ اعني العلم بالله علمًا ساميًا ومعرفة ذاتهِ الخلاصية ولقد كان بالصواب يقنع بهاتين المعرفتين

فعلينا والحالة هذه ان نحسن تأمل هذه الحقيقة ونمعن النظر فيها ولنوردنَّ السبب الثاني لرسالة سيدنا يسوع المسيح ووظيفتهِ التي هي وظيفة مخلص العالم. فنقول بعد ان قدَّم ربُّ المجد لله وفاءً تامًّا وافرًا كان ينبغي ان يصلح الانسان الذي كان قد تلطخ بالاثم بل هبط في هاوية الشر من قبل ثلثة أمور قد ذكرها التلميذ الحبيب وهي شهوة العين وشهوة الجسد وفخر الحياة (١ يوحنا ٢: ١٦). اعني رغبةً مفرطة غير قابلة الشبع لاكتساب الخيرات الزمنية وكرامات العالم ولذات الحواس. فهذه هي الامراض الثلثة العضالة التي كان ينبغي لابن الله ان يداويها انهُ تعالى يقدّم لنا في آلامهِ الادوية اللازمة الشافية وهي التجرد عن كل شيء ضدَّ شهوة العين والرغبة في اكتساب خيرات الارض. ثم انهُ تعالى يُقدّم لنا ما لحقهُ من الاهانة بازاء تكبرنا. اخيرًا يقدّم لنا تقشفات جسدهِ النقي البتولي الممزَّق بالضربات وذلك معالجةً لشهوة اللذات اللحمية. وان هذه الادوية فعَّالة شافية قد اظهر الطبيب الالهي فيها كل حكمةٍ. فلنحكمنَّ الآن حكمًا عادلاً ولنبررنَّ عناية الله وحكمة تدبيرهِ انهُ لمن المحقق ان سرَّ الصليب يضادُّ ذاتًا هذه الثلث الشهوات التي هي مصدر كل شرور حياتنا أوَلا ينتج من ذلك اذًا انهُ هو سرُّ حكمة الله لان الشيء الذي ينظم شهواتنا ويضبطها ويُخزي كبرياءنا ويستأصل من قلوبنا محبة الذات. وعلى الجملة يصلح كل شرورنا ويردُّنا الى النظام أليس هو شيئًا صادرًا من حكمة الله مصدر كل نظام. قال احد العلماء المسيحيين ما كان احرى بالجميع لو يعيشون على مقتضى المثال والتعاليم الذين قدَّمها ابن الله في حين الامهِ. وما أعظم ما كان سموُّ كمال سيرتهم لو يلاحظون يسوع المصلوب ويقتدون بفضائلهِ وحقًّا كان الاصاغر يخضعون بسرور ولا يتذمَّرون شاكين من فقرهم وضنكهم وكان الاكابر والعظماء يتضعون ويحبون الاصاغر ويسعفونهم ولم يكن يُرى في الناس ما يُرى من البغض والحسد والقتل والخيانة والطمع وما شاكل ذلك من الرذائل المتعددة

وان قلتم لماذا المسيح اختبر بنفسهِ أدوية شرورنا مع كونهِ ناجيًا منها وغير ملتزم بها فنجيب مع القديس اغستينوس من حيث ان هذه الادوية كانت شديدة المرارة فمن ثم لاق برحمتهِ وحنوهِ ان يختبرها بنفسهِ ليسهل لدينا هكذا تناولها لانهُ لولا ذلك لما كان فينا من يقبلها . وايضاحًا لذلك نفترض ان السيد المسيح في امر خلاصنا لم يختر الصليب بل اختار تنعم العيش . أفما كان الانسان يتخذ من هذا المثال الالهي سببًا ليتمكن في محبة الذات التي هي مصدر كل الشرور . وهل كان يمكنني ان احتكم على امانة الحواسّ وصلب شهوات الجسد والكفر بالذات والاتضاع وهل كنتم تصغون لي وانتم تعلمون ان الحكم قد اختار لنفسهِ في هذا العالم الكرامات واللذات . اما الان فبعد ان رأيناهُ تعالى قد اختار لنفسهِ الصليب فقد تهيأ لي ان احتكم على الاتضاع والكفر بالذات بسلطانٍ وشجاعةٍ والحال انهُ ضربٌ من حكمة الله انهُ تعالى بآلامهِ أعطى الواعظين خدام انجيلهِ ما يقدرون ان يفحموكم بهِ متى اوردوا لكم اصعب فرائض النصرانية

هذا ولعلكم تقولون ما الحاجة ايضًا الى مداواة شرورنا بادوية متجاوزة الحد . فاقول ان الله عزَّ اسمهُ بحكمةٍ عظيمة صنع هكذا حيث انهُ لولا هذا الداء الشديد لما كانت شُفيت أمراضنا اذ لم يكن ممكنًا ان تُطفأ في الانسان نار البخل والكبرياء والزناء لولم يجعل ابن الله الانسان يحب الفقر والهوان واماتة الجسد . لانهُ لم يكن كافيًا للسيد المسيح في تخليصنا تخليصًا كاملًا ان يقول لنا ان هذه الثلث الشهوات تهلكنا بل وجب ان يأتي بحالٍ يصيّرنا نقاومها ونستأصلها من قلوبنا . ان هذه الشهوات قد كانت تهلكنا لانها كانت تطفي نور بصائرنا وتفسد قلوبنا فلولم يحثّنا ابن الله بمثالهِ على ان نكرهها ولا نعتبرها لكان قد خلصنا خلاصًا ناقصًا فوجب اذًا ان تصير لدينا تلك الفضائل المضادّة هذه الشهوات المهلكة لا محتملة فقط بل عزيزةً ومحبوبةً ومستعظمةً ايضًا . ولا ريب انهُ تعالى لبلوغ هذه الغاية اختار بحكمتهِ واسطةً عجيبةً وتلك الواسطة انهُ بمثالهِ قدّس في ذاتهِ هذه الفضائل وذلك لكي يجد اتضاع الانسان في اتضاع الله سبحانهُ مايسندهُ ويثبتهُ حين تنهض عليهِ الكبرياء على ما علّلهُ القديس اغستينوس

فاعلم ان ما قلناهُ الى الان هو كافٍ لاقتناع عقل الانسان وهذا هو الذي سيحزيننا بهِ ابن الله يوم الدينونة وقد ابتدأ في يوم آلامهِ ان يدين الانسان ومنبرهُ الاول هو الصليب ومن هناك يحكم على البشر في الخلاص والهلاك وليس كلامي هذا عبارة تعبُّد فقط بل هو قاعدة من قواعد الايمان . اذ انهُ تعالى قال بفمهِ العزيز قد حضرت دينونة هذا العالم (يوحنا ١٢ : ٣١) وفي انقضاء الدهور ستظهر راية ابن الانسان وابن الله معًا (متى ٢٤ : ٣٠) وعلى مقتضى هذه الراية يخرج القضاء الالهي . فيا ما أرهب هذا القول وما اثقلهُ على اذن الخاطئ وهو القول ان صليب رب المجد يدينني . هذا الصليب عدو شهواتي هذا الصليب الذى اكرمهُ الان بظاهري الباطل لا بحقيقة فعلي سوف يقابل الله حياتي بهِ . أوّه يا سيدي أيمكن ان أدان وأُرذل باعظم احسانك والذي قد اختارتهُ رحمتك لخلاص نفسي فهل يصيّرني تجاه منبر عدلك أشدَّ اثمًا واحق الناس بالهلاك . وبخلاف ذلك ما احلى وأشهى ما يكون لدى المؤمن الامين الصالح هذا الفكر المعزّي ان صليب سيدي والهي هو الذي سيديني . هذا الصليب هو الذي قوّاني الى الان ويقوّيني دائمًا . هذا الصليب هو الذي اسجد له وأُريد ان اقتدي بهِ . فيا ايها الاله المصلوب من اجلي اقبل تعبدي لك وثبّت مقاصدي وليكن صليبك مثال حياتي وموضوع حبي ومركز اتكالي ومصدر سعادتي الابدية . آمين

في عيد قيامة سيدنا يسوع المسيح

لا بدَّ لنا في هذا السرّ المجيد اي سرّ قيامة سيدنا يسوع المسيح ان نعتبر ثلثة امور. الاول العلل الداعية لقيامتهِ من الموت في اليوم الثالث. والثاني كيفية قيامتهِ وما الذي تعلمناهُ الكنيسة المقدسة عن هذا السرّ الاقدس. والثالث ما الذي ينبغي لنا ان نماثلهُ في قيامتهِ تعالى كي نتمتع بها ونجتني أثمار آلامهِ وموتهِ المقدس

فاعتبر اولاً انهُ قد لاق وحسن ان يقوم سيدنا يسوع المسيح من الموت قبل القيامة العامّة ووجه استحسان قيامتهِ في اليوم الثالث لموتهِ هو مراعاة الرسم الالهي والنبوات وملاحظة ما كان يحق لهذا السيد جلّ جلالهُ مع الالتفات الى ما يجدينا أوفر نفع. والسبب في ذلك هو ان حياة سيدنا يسوع المسيح الاله والانسان معاً كانت افضل كثيرًا من كل ما قد خُلق وبناء على ذلك فاذ بذل السيد المسيح حياةً ذاتَ ثمنٍ غير متناهٍ من اجل خلاص البشر الذي هو امرٌ متناهي الثمن. قد جاد بما لا يُحدُّ ثمنهُ ولو كان ذلك مقرونًا بنية استعادة تلك الحياة بأبهى المجد على اثر موتهِ. ومن ثم قال القديس لاون قد لاق بجسد المسيح المدفون في القبر ان يُسارع الى الارتباط ثانيةً بنفسهِ ويحيا حتى يكون ذلك الموت كالرقاد. وذلك لان اتحاد هذا الجسد وهذه النفس باقنومٍ الهي كان يقتضي اصطلاح هذه الحياة الغير المتناهي ثمنها وتجديدها سريعًا لانهُ ان مات سيدنا يسوع المسيح فقد مات من اجل ان الله تعالى كان قد رسم هكذا من اجل خلاص البشر فحيث قضي هذا الامر وخلص البشر بموتهِ تعالى لاق ان يقوم سريعًا وانما أخّر قيامتهُ الى اليوم الثالث اثباتًا لصحة موتهِ وتحقيقًا للنبوات

من المسلَّم ان كلّ شيءٍ يميل الى ان يكون في مركزهِ. وما دام خارجًا عنهُ يكون ولا محالة في حال الاغتصاب والحال ان جسد المسيح المتحد باقنومٍ الهي لم يكن في مكانهِ حين كان مدفونًا في القبر كما هو معلومٌ وانهُ لم يكن واجبًا ان يأكلهُ الدود ولان يعود الى التراب هذا الجسد الاقدس الذي جبلهُ الروح القدس في مستودَع البتول المنزّه عن ان يتدنّس ولو بشبه الخطيئة خصوصًا ان الموت انما هو تبعة الخطيئة ذلك فضلاً عن ان اتضاع السيد المسيح كان يستحق مجد القيامة من الموت فانهُ اتضع لتمجيد ابيهِ اتضاعًا لا حدَّ لهُ حين كابد اوجاع الموت واحتمل الهوان وحيث ذلك لاق بالعدل الالهي ان يمجد هذا الرب ويرفعهُ بمقدار ما كان اتضع حبًّا بهِ. وان يمنحهُ ما استحقهُ على كل وجه ويمجد هذا الجسد الذي ذاق الألم لاجل مجدهِ ولا يُهملهُ في قلب الارض بل يقيمهُ ويكلّلهُ بالمجد الواجب. وهذا فحوى نص الرسول القائل ان السيد المسيح وضع نفسهُ وأطاع حتى الموت موت الصليب ولذلك رفعهُ الله تعالى وأعطاهُ اسمًا أفضل من الاسماء كلها (فيلبي ٢ : ٨) والمسيح أشار الى انهُ باتعابهِ وموتهِ استحق مجد جسدهِ حيث قال اما كان ينبغي للمسيح ان يتألم هذه الآلام ثم يدخل الى مجدهِ (لوقا ٢٤ : ٢٦)

ثم ان قيامة السيد المسيح من الموت كانت ضرورية لاثبات لاهوتهِ على ان أقطع دليل وأقوى حجة لاثبات لاهوت سيدنا يسوع المسيح انما هو صدق قيامتهِ من بين الاموات. ولهذا قال الرسول انهُ قد ظهر لاهوت المسيح وتحقّق ذلك من كونهِ بقوتهِ قام من الموت (رومية ١ : ٤). على انهُ يخص الله وحدهُ ان يقيم الانسان من الموت ويخرجهُ من العدم ومن ثم لما تكلم النبي داود على قيامة سيدنا يسوع المسيح وصوّرهُ راكبًا الموت ومنتصرًا عليهِ بقيامتهِ أثبت كلامهُ بهذا الدليل قائلاً ان الرب اسمهُ (مزمور ٦٧ : ٥). فالمسيح اذًا بقيامتهِ أثبت وأكّد ان أفعالهُ كانت أفعال الله من حيث ان الله تعالى وحدهُ يستطيع ان يُقيم من الموت ولذلك لما طلب اليهود من السيد المسيح ان يثبت بالآيات حقيقة لاهوتهِ قدّم لهم قيامتهُ من الموت كدليل مقنعٍ حيث قال انقضوا هذا الهيكل وأنا اقيمهُ بعد ثلثة ايام (يوحنا ٢ : ١٩) وقد شهد يوحنا انهُ تعالى أراد بذلك هيكل جسدهِ. وقال في موضع آخر كما كان يونان في بطن الحوت ثلثة ايام وثلث ليالٍ كذلك يكون ابن الانسان في قلب الارض ثلثة ايام وثلث ليالٍ (متى ١٢ : ٣٩ : ٤٠)

لا جرم ان قيامتهُ تعالى كانت ضرورية لنا ايضًا من حيث انّ ايماننا ورجاءنا هما مبنيان عليها لان هذا هو غاية كل أفعال السيد المسيح وأتعابهِ هذه هي غاية كل أفعالنا

وأتعابنا . انهُ مع كون الله تعالى قد رفع وأزال كل هوان موتهِ بمجد قيامتهِ وعزّتها فمع ذلك يقي أُناسٌ لا يحصى عددهم من الامم لا يعتقدون الوهية السيد المسيح بزعمهم ان الموت لا يليق بمن هو الهٌ فليت شعري ما الذي كانوا يقولونهُ لو لم يقم من الموت فأظنُّ انهم كانوا ازدادوا بضلالهم تشبثًا بل انهُ كان لهم في ضلالهم هذا اعتذارٌ ما لأن الموت امرٌ مختص بالانسان والقيامة امرٌ يختص بالله وحدهُ . ومن ثمَّ قال القديس اغسطينوس انهُ لا يكفي الايمان بان المسيح مات لان هذا تعتقدهُ اليهود والامم بل الايمان المختص بالمسيحي انما هو الايمان بقيامتهِ تعالى تبارك اسمهُ

ثم ان رجاءنا انما يُبنى على قيامتهِ سبحانهُ من الموت ولهذا قال الرسول بولس ان كان المسيح لم يقُم فتبشيرنا بالانجيل هو باطل وباطل ايماننا ونحن أشقى الناس أجمعين (١ كورنتس ١٥ : ١٤ و١٩) . لانهُ ان كان المسيح لم يقُم فليس لنا ان نرجو القيامة من الموت . لكون رجائنا هذا يستند الى قيامتهِ وان زال هذا الرجاء تقوّض الايمان من أصلهِ وأبى الانسان ان يعمل الفضائل وينزّه نفسهُ عن تنعم الدنيا ليتفرّغ للاهتمام باكتساب حياة الابد وأضحى المتورّع الفاضل أشقى الناس حسب قول الرسول وذلك حيث لا يشترك مع الاشرار في ملاذّ هذه الدنيا وليس بعد هذه الدار دارٌ يفوز فيها بسعادة البقاء أَوَما ان الذي جذب الجمَّ الغفير بين رجال ونساء وشبّان وشوابّ ودعاهم الى الزهد في زخارف الدنيا وازدراء كرامتها واقتادهم الى البوادي والاديار حيث يعيشون خاملي الذكر مهانين محاربين شهوات اللحم بالتقشفات هو رجاءهم الوطيد انهم اذا تألموا مع السيد المسيح يُمجّدون معهُ الى الابد وانهم اذا زرعوا بالهوان فيقومون بالمجد وان الجسد القابل فساد الموت يلبس عدم الموت . وماذا نقول في الشهداء الذين أسلموا اجسادهم الى الجوع والعطش والبرد والنار والسيف وسائر ادوات العذاب والموت كيف كان يمكنهم ان يكابدوا عذابًا هائلاً لو لم يقوّهم رجاء القيامة المجيدة والحال انهم لم يكونوا يرجون ذلك لو لم يقُم المسيح من الموت

اما الآن اذ قد قام تعالى من الموت فقد تحقّقنا اننا سنقوم ايضًا وانهُ يحدث للاعضاء ما حدث للرأس . من المسلّم ان شان الجنود ان يتبعوا قائدهم وحيثما يكون الملك فهناك تكون عبيدهُ وجيوشهُ . والحال ان السيد المسيح لبس جسمنا وهو اخونا البكر وأول الذين قاموا من الموت فلا جرم اذًا اننا سنقوم ايضًا من الموت وسنصعد اليهِ في جنة مجدهِ ومن ثمَّ لما ذكر ايوب الذي يُضرَب بصبرهِ المثل قيامة السيد لهُ المجد أنتج منها حقيقة قيامتهِ المستقبلة قال اني اعلم ان مخلصي حيٌّ (ايوب ١٩ : ٢٥ و) . اني اعلم يقينًا انهُ سيقوم من الموت ولذلك استيقن اني ساقوم نظيرهُ من الموت وفي اليوم الاخير أتردّى ثانيةً هذا اللحم ورجاءي هذا في حضني كما فسّر توما اللاهوتي . وقال ايضًا في هذا الشان القديس كيرلس الاورشليمي ما نصهُ ان رجاء القيامة هو اصل كل فعل صالح لان توقع الاجر والمجازاة ينهض الروح ويحثهُ على العمل والذي يعتقد ان جسدهُ سيقوم فانهُ يعتقدهُ كأنهُ ثوب الحفت بهِ نفسهُ ومن ثم يبذل الجهد في ان يحفظهُ نقيًا غير ملطوخ بعيب

واعلم ان قيامة سيدنا يسوع المسيح لا تقتصر على ان تُحيي ايماننا وتقوّي رجاءنا فقط بل ان تأملنا اياهُ يضرم فينا المحبة وينمّي جميع الفضائل ايضًا وهو السبب في ان السيد المسيح اثبت حقيقة قيامتهِ بأدلة عديدة وظهر لأناس كثيرين . ومن اجل ذلك اهتمَّ الرسولان بطرس وبولس جزيل الاهتمام بتاكيد هذه الحقيقة والكنيسة المقدسة لا تزال تنبهنا عليها ويثبتها الآباء القديسون ويصفونها بأدلة وتشابيه مختلفة . وذلك بما ان هذه الحقيقة كما اسلفنا هي رأس ايماننا وداعية كل الاعمال الصالحة فاذ قد عرفنا أننا سوف نقوم من الموت وان لنا راحةً وسعادةً مؤبدةً معدّةً لنا من الله . فلا جرم اننا سنقوم بها وان الجسد الذي يتعب الآن ويتألم سيحظى بمجد دائم وغبطة لا انقياس لها ولا منتهى فلا يفشل اذًا قلبنا بين بلايا هذه الحياة

وكيف قام المسيح من الموت فنقول على وجه الاختصار انهُ لما انتهت حرب الآمهِ المقدسة وكان التنين الجهنمي يظنُّ انهُ قد انتصر على الخروف الالهي ابتدأت حينئذٍ قوة لاهوت السيد المسيح تتلألأُ في نفسهِ لانهُ بها اهبط الاسد الرمزي الشديد البأس الى الجحيم وهناك قبض على المتسلح القوي وأخذ غنائمهُ على انهُ تعالى اراد ان يتمم أمر خلاصنا بالكمال فلم يزل عاملاً حتى نزل الى اسفل العالم اي الى الجحيم ليحارب عدونا وينتصر عليهِ وقد هبط الى هناك ايضًا لينقذ عبادهُ من الاسر ويمنحهم حياةً جديدةً . نعم انهُ تعالى لم ينزل الى الجحيم نزول خاطىءٍ بل بهيئة ملك مظفّر الاّ انهُ تقدس اسمهُ انفع

على نوع عجيب حينًا هبط بنفسهِ الى ذلك المكان الموحش لينقذ منهُ انفس اصفيائهِ الاباء القديسين ليعلمنا بذلك ان الذي أمرنا بهِ الله تعالى ولو كان في غاية الحقارة يجب علينا ان نفعلهُ ونحسن تكميلهُ فهبطت اذًا نفسهُ الى دركات الجحيم المدلهمة اعني اليمبوس وأفعمتهُ بغتةً من نور مجدها وقلبت ذلك المكان الحالك فردوسًا منيرًا ولكن من لي بأن يصف ما خالط انفس الابرار الموثقين هناك من السرور ولا سيما الذين كانوا ينتظرونهُ منذ الوف من الاعوام اذ رأوا بغتةً سجنهم قد استحال فردوسًا لانهم هناك في حال ظهور نفس السيد المسيح لهم فازوا بغبطة مشاهدة اللاهوت التي هي قوام سعادة سكان السماء وماذا نقول في فرح السيد المسيح اذ رأى انهُ قد انتصر على الموت وابتدأ ان يجني اثمار آلامهِ وموتهِ . لعمري ان وصف فرحهِ يعجز ألسنة البشر ويعلو مدارك الملئكة

غير ان نزول السيد المسيح الى الجحيم زاد الشياطين والهلكى حزنًا أما الابالسة فلانهم رأوا انهُ بقوَّة الصليب المقدس قد حرَّر الذين كانوا عبيدًا لهم وأما الهلكى فلأنهم رأوا انهم بذنبهم قد خسروا اثمار الخلاص

واستمرَّت نفس مخلصنا في اليمبوس من الساعة السادسة من يوم الجمعة التي رقد فيها على الصليب الى صباح يوم الاحد كما أقرَّهُ جمهور الاباء القديسين وحينئذٍ أتت هذه النفس القدوسة مصحوبة بالآباء القديسين والملئكة الى القبر حيث كان جسدها فدخلتهُ وأحيتهُ وكستهُ على الفور نورًا لا نظير لهُ وجعلتهُ ابهى من كل ما قد براهُ الله وزيَّنتهُ باربع مواهب جليلة الضياء والخفة وعدم قابلية الالم ولا الموت والقوَّة النافذة كل الاجساد الهيولية . ومن ثم خرج من القبر ونفذ الحجر الموضوع عليهِ كخروجه من بطن أمهِ الكلية الطهارة وفي ساعة خروجهِ تزلزلت الارض وانفتح القبر وظهر الملئكة وأخبروا بقيامة المخلص التي عاينوها فخرج يسوع من القبر كخروج يوسف الصديق من السجن اي مترديًا ثوب الخلود لا لكي يكون مخلص مصر بل مخلص العالم كلهِ . وقد خرج تعالى ايضًا نظير مردكاي منتصرًا على الموت وعلَّق هامان عدوهُ على الخشبة التي هيأها لمردكاي وخرج كيونان من بطن الحوت سالمًا لم تمسَّهُ انياب هذا الوحش ولا ابتلعتهُ مياه البحر وخرج كخروج دانيال من جبِّ الاسود التي افترست أعداءهُ ولم تمسَّهُ هو وخرج كشمشون الذي نهض في نصف الليل وحطَّم ابواب مدينة غزَّة مستهينًا بمقاصد أعدائهِ وخرج كموسى من وسط الماء ومن سريرهِ ليفني كل قوَّة فرعون ويحطم مراكبهُ

وحينئذٍ اي بعد قيامتهِ وخروجهِ من القبر افتقد والدتهُ العزيزة ليبهج بنورهِ هذه السماء المبرقعة بسحاب الحزن ويجفف دموعها التي لم تزل تسحُّ منذ ابتداء آلامهِ . على انهُ كان من الواجب ان الذين تألموا مع سيدنا يسوع المسيح يتمجَّدون معهُ كما قال الرسول . اولاً ينبغي ان التي تقدَّمت الجميع في هذا التألم وكانت اكثر الناس شعورًا باوجاعهِ تعالى واهاناتهِ تتقدَّم ايضًا في التعزية وتشعر قبل الجميع بسرور قيامة ابنها الوحيد . انهُ لمن المحتمل ان تكون الجليلة مريم مختلية وغارقةً في تأمل ابنها الالهي لما ظهر لها عزَّ اسمهُ بغتةً بوجهٍ باش وبنور وبهاء لا يوصف ولكن ايُّ ألسنة البشر يقدر ان يفهم مقدار ما فرحت البتول الجليلة لما رأت جسد ابنها ملتحفًا بنور ومجد لا يدرك وحدَّقت نظرها في الجراحات التي طعنت قلبها بوجعٍ أمرَّ من الموت فرأتها قد استحالت الى ينابيع المحبة وشاهدتهُ لا معلقًا بين لصين بل مرافقًا من جمٍّ غفير من الملئكة والقديسين باحتفال عظيم . فلا شك انها لو لم يُعنها الله تعالى باعجوبة خصوصية لكانت قد ماتت من مزيد سرورها فلنتأمل المؤمن ما خاطب بهِ يسوع والدتهُ وما قالتهُ لهُ في تلك المخاطبة اللذيذة

وحيث انهُ كان لا بدَّ من قيامتهِ التي وقعت سرًّا ان تشتهر وتُعرَف ليشهد لها كثيرون تراءى في ذلك اليوم نفسهِ اي يوم الاحد لمريم المجدلية وهي جالسة على القبر وحدها تبكي وظهر لها ثانيةً وهي مع النساء العابدات . ثم انهُ تعالى تراءى لاثنين من تلاميذهِ وهما ذاهبان الى عمواص وتراءى الى بطرس وآخر الامر دخل العلية حيث كان الرسل قد حفلوا والابواب مغلقة فوقف في وسطهم وخاطبهم وحقق لهم أمر قيامتهِ . ذلك واعلم انهُ علاوةً على ظهور السيد المسيح لمن ذكرناهم ولكثيرين غيرهم في مدة اربعين يومًا ارسل ايضًا ملئكة وقديسين كثيرين دخلوا اورشليم وظهروا لكثيرين وأخبروا بقيامتهِ المجيدة

أما الامر الثالث الذي ينبغي ان نتأملهُ ونجتهد في ممارستهِ فهو الاقتداء بقيامة الرب لانهُ تعالى كما مات ليستأصل بموتهِ

موتنا بالخطيئة هكذا قام من الموت لكي نقوم نحن ايضًا اولاً نفسًا بحقيقة التوبة وعيشةٍ جديدة وثانيًا جسدًا باحياء اجسادنا في القيامة الاخيرة حسب قول بولس الرسول: إنا اذا كنا قد غُرسنا معهُ على شبه موتهِ فنكون على شبه قيامتهِ ايضًا (رومية ٦: ٥) ولذا يحثُّنا الرسول على ان نعيش كعيشة أناس ماتوا وقاموا من بين الاموات بل كعيشة الرب بعد قيامتهِ قائلاً: إذ نعلم ان المسيح من بعد ان قام من بين الاموات لايموت ايضًا ولا يسود عليهِ الموت من بعد لانهُ من حيث انهُ مات فقد مات للخطيئة مرةً واما من حيث انهُ يحيا فيحيا لله وكذلك انتم ايضًا احسبوا أنفسكم امواتًا للخطيئة احياء لله ربنا يسوع المسيح. اذًا لا تملك الخطيئة في اجسادكم المائتة حتى تطيعوا شهواتهِ وتجعلوا اعضاءكم سلاح اثم للخطيئة بل اجعلوا انفسكم لله كالذين هم احياء من بين الاموات واعضاءكم سلاح برّ لله (رومية ٦: ٩-١٣) ويسهب الكلام في ذلك ويذكرنا المعمودية التي بها متنا للخطيئة قال: نحن الذين مُتنا عن الخطيئة كيف نعيش فيها بعد. أتجهلون ان كل من اصطبغ منَّا في يسوع المسيح اصطبغ في موتهِ. فدُفنَّا معهُ في الموت حتى اننا كما أُقيم المسيح من بين الاموات بمجد الآب كذلك نسلك نحن ايضًا في جِدّة الحياة (رومية ٦: ٢-٤)

لا مراء في ان هذه الحياة الجديدة يجب ان تكون فينا حقيقيةً. قد لاحظ مفسروا الانجيل المقدس ان الرب له السجود أسهب في بيان حقيقة قيامتهِ لرسلهِ الكرام ليزيل الاضطراب الذي كانوا عليهِ لما تراءى لهم ظانين انهم يرون روحًا وقال انظروا يدي ورجليَّ اني انا هو. جسوني وانظروا فان الروح لا لحم لهُ ولا عظام كما ترون لي وعند قولهِ ذلك أراهم يديهِ ورجليهِ. واذ كانوا غير مصدقين بعدُ من الفرح ومتعجبين قال أعندكم هنا طعام. فأعطوهُ قطعةً من سمك مشوي وشهد عسل فأخذ واكل أمامهم (لوقا ٢٤: ٣٩-٤٣). سأل الذهبي الفم ما هو الداعي لعناية الرب بان يُعلن حقيقة قيامتهِ المجيدة فأجاب ان لذلك دواعي مختلفة منها معرفة الرب باننا ملتزمون بالقيامة لحياة جديدة على مثل قيامتهِ تعالى لاننا كما أُقيم المسيح من بين الاموات بمجد الاب كذلك نسلك نحن ايضًا في جدّة الحياة (رومية ٦: ٤) فخوفًا من ان تكون قيامتنا الروحية وحياتنا الجديدة في الظاهر فقط لا في الحقيقة لم يترك رب المجد شيئًا من الوسائل ليقنع تلاميذهُ بحقيقة قيامتهِ لتكون قيامتهُ الحقيقية مثالاً لقيامتنا

قال القديس بولس الرسول في رسالتهِ الاولى الى أهل كورنتس ها اني اكشف لكم سرًّا أنَّا سنقوم كلنا ولن نتغير كلنا (١٥: ٥١) يعني بذلك ان الهالكين في آخر الازمنة ولو قاموا لا يتغيرون على شبه قيامة الرب للحياة الابدية لعدم تشبههم بهِ في القيامة الاولى التي انما هي التوبة عن الخطيئة والحياة الجديدة التي نحن في بيانها

اما المختارون فحيث انهم ماتوا مع المسيح وحيوا لله على مثال قيامتهِ فسيشاركونهُ في مجدهِ ولذا قال الرسول الحبيب في الرؤيا سعيدٌ ومقدس مَن لهُ نصيب في القيامة الاولى انَّ هولاء لا يكون عليهم للموت الثاني سلطان بل يكونون كهنةً لله وللمسيح ويملكون معهُ (رؤيا ٢٠: ٦)

وان سأل سائل بماذا نقوم جدّة الحياة التي نلتزم بها نجيب انهُ كما ان جسد الرب في قيامتهِ اصبح بالصفات التي اتخذها روحانيًا سماويًا ونفسهُ المجيدة لم تكن لها علاقة مع العالم مع اتيانها في العالم فعلى هذا الاسلوب ينبغي اولاً ان تكون عيشتنا روحانية لا جسدية وسماوية لا أرضية اي ان لا تعيشوا بحسب الجسد لكن بحسب الروح لاننا كما قال القديس بولس ان عشنا بحسب الجسد نموت واما ان أمتنا بالروح اعمال الجسد فنحيا (رومية ٨: ١٣) وعلى قول هذا الرسول اعمال الجسد التي يجب اجتنابها هي الزنى والنجاسة والعهر وعبادة الاوثان والسحر والعداوات والخصام والغيرة والمغاضبات والمنازعات والمشاقات والبدع والمحاسدات. والقتل والسكر والقصوف وما يشبه ذلك واليها يشير حيث يقول ان الذين يصنعون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله. اما ثمر الروح الذي يجب ان نثمرهُ فهو المحبة والفرح والسلام والأناة واللطف والصلاح والايمان والوداعة والعفاف (غلاطية ٥: ١٩-٢٣)

ثانيًا ينبغي ان تكون أنفسنا مفترقةً عن العالم وان نعيش في العالم على شبه حال المسيح بعد القيامة ولذا يخاطبنا الرسول قائلاً ان الزمان قصير فبقي ان يكون الذين لهم نساء كأنهم لا نساء لهم والباكون كأنهم لا يبكون والفرحون كأنهم لا يفرحون والمشترون كأنهم لا يملكون والمستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونهُ (١ كورنتس ٧: ٢٩-٣١). فهذه الحياة الجديدة التي نحن ملتزمون ان نحياها بقيامة الرب متوقفة على ان نثمر ما ذكرناهُ من اثمار الروح القدس مع تجنب اعمال الجسد المتقدم

ذكرها ان هذه هي جدّة الحياة التي لابدّ منها لكل من يريد الاشتراك في قيامة الرب فلنختم هذا كلهُ بما قال الرسول لاهل كولسي: اذن ان كنتم قد قمتم مع المسيح فابتغوا ما هو فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله افطنوا لما فوق لا لما هو على الارض فانكم قد مُتم وحياتكم مستترةٌ مع المسيح في الله ومتى ظهر المسيح الذي هو حياتنا فانتم ايضًا تظهرون حينئذٍ معهُ في المجد (كولسي ٣: ١-٤)

في صعود السيد المسيح الى السماء

اعلم ايها المؤمن انهُ بعد ان قام سيدنا يسوع المسيح من الموت وتردّى جسدًا مجيدًا غير قابل التألم ولا الموت اقام بالارض اربعين يومًا ثم صعد الى السماء. وقد ذكر لوقا البشير في سفر اعمال الرسل (١: ٣) انهُ تعالى ظهر لتلاميذهِ بعد آلامهِ حيًّا مثبتًا لهم قيامتهُ بآيات كثيرة مخاطبًا اياهم من اجل ملكوت الله غير انهُ تعالى لم يكن على الدوام معهم في مدة الزمن المتقدّم ذكرهُ ولم يكن يظهر لهم كل وقت وذلك اولاً لكي يثبتوا في الاعتقاد بقيامتهِ عندما يرونهُ حيًّا يتكلم ويأكل ويتردّد معهم وثانيًا كي يعتادوا رُوَيدًا رُوَيدًا فقد حضورهِ الجسمي فيخف عليهم ما سيأخذهم من ألم الفراق حين انتقالهِ عنهم وصعودهِ المجيد الى السماء

ثم ان البشير يذكر ان السيد لهُ المجد كان في هذه الاربعين يومًا يتكلم من اجل ملكوت الله على انهُ وان كان جميع ما قالهُ تعالى في زمن حياتهِ يلاحظ ملكوت الله ويبين لهم ماهيتهُ والطريق الموصل اليهِ الاَّ انهُ جلَّ ذكرهُ كان بعد قيامتهِ يتكلم على ذلك باجلى بيان وذلك اولاً انهُ كان على شرف مفارقتهم بعد ايام قليلة ليصعد الى السماء وثانيًا لان التلاميذ كانوا حينئذٍ اشدَّ قابليةً واستعدادًا لفهم هذا التعليم الالهي السامي المرتفع على ادراك اعقل البشر

فبعد ان اورد معلمنا الالهي عجائب ملكوتهِ لتلاميذهِ وثبتهم على الايمان بقيامتهِ عزم على الصعود الى السماء بنفسهِ وجسدهِ والدخول في مدينتهِ السماوية بالأسرى الذين افتداهم بدمهِ كقائد جيش منتصر حيث كان هذا مناسبًا لمجدهِ ولنفعنا

أما انهُ مناسب لمجدهِ فلانهُ بعد قيامتهِ تعالى من حياة خاضعة للآلام والموت لم يكن من اللائق ان يبقى جسدهُ المجيد على الارض التي هي مقرُّ الفساد بل وجب ان يستوطن السماء حيث لا فساد وقد لاق اذًا بعزتهِ تعالى انهُ بعد ما اتضع الى هذا الحدّ حتى قال في حق نفسهِ انا دودةٌ ولست انسانًا عار ورذالة في الشعب (مزمور ٢١: ٧) يرتفع مجدًا فوق جميع الناس والملئكة ويجلس من عن يمين الآب ولاق بجودهِ ان يظهر لنا بصعودهِ الى السماء ان ملكوتهُ ليس على الارض كما زعم اليهود وتوهم الرسل زمانًا بل انهُ هو في السماء وانهُ ليس قائمًا من خيرات هذه الحياة الزائلة بل في خيرات روحية ابدية وقد وجب ايضًا ان يعلمنا بصعودهِ الى السماء ان هذا العالم ليس هو وطننا بل منفانا وانهُ يجب على المسيحيين الذين لم يزالوا في ظلام الارض ان يصعدوا بافكارهم واشواقهم الى حيث يكون كل خيرهم

ثم ان السيد المسيح بصعودهِ الى السماء كان يلاحظ ويقصد نفعنا على انهُ تعالى في جميع افعالهِ كان يقرن مجدهُ بخيرنا كما يتضح في صعودهِ المجيد لانهُ تعالى بصعودهِ زاد اولاً ايماننا كمالاً لان الايمان يقتضي ضرورةً ان الذي نؤمن بهِ لا يُرى، ومن ثم كان يجب ان يكون السيد المسيح رب المجد الذي هو موضوع ايماننا الاخص محجوبًا عن الحاظنا ليكون ايماننا مختلفًا عن ايمان توما الرسول الذي قال فيهِ يسوع (يوحنا ٢٠: ٢٩) لانك رأيتني يا توما آمنت طوبى للذين لم يروا وآمنوا.

فايماننا اذًا الذي لا يتوقف على اننا نرى بأعيننا ونلمس بأيدينا الجسدية زاد كمالاً بصعود سيدنا يسوع المسيح ولهذا قال القديس لاون ان قوة الايمان بما لا يُرى والصلاة بالشوق الى حيث لا ينتهي النظر انما هي من خواصّ المؤمنين الحقيقيين

وزاد ثانيًا السيد المسيح بصعودهِ الى السماء رجاءنا تمكينًا وكمالاً لانهُ تبارك اسمهُ قال انهُ يصعد الى السماء ليعد لنا هناك مكانًا (يوحنا ١٤: ٢) فلم يصعد من أجل نفسهِ فقط بل من أجلنا ايضًا فدخل السماء وملك هذا المجد كهامتنا. ومن أجل أعضائهِ كسر أقفال ابواب السماء التي كانت قد أغلقت دوننا بخطيئة آدم ومهد لنا الطريق الموصلة الى السعادة السماوية وأدخل فيها أنفس اولئك الاباء القديسين الذين انقذهم من اليمبوس لانهُ تعالى قال في مناجاتهِ أباهُ الازلي يا أبتِ ان الذي أعطيتني أريد ان يكونوا معي حيث انا (يوحنا ١٧: ٢٤). ولذلك قال القديس لاون المعظَّم ان صعود السيد المسيح الى السماء يفيدنا جدًّا لانهُ حيث سبق

فكان الرأس يرجو ان يكون الجسد هناك ايضاً . فلم يفتح لنا مخلصنا باب السماء فقط بل أولجنا فيهِ ايضاً وأصعدنا الى أعلى السماوات . فالمسيح اذًا كان بالامهِ اكتسب لنا ملك السماء اما بصعودهِ ففتح لنا السبيل الموصل اليهِ وأرانا انهُ امتلكهُ لنا باسمهِ

اعتبر ثالثًا ان صعودهُ تبارك اسمهُ قد اضرم في افئدتنا سعير المحبة بناء على ما هو مقرَّر من ان قلب الانسان حيث يكون كنزهُ والحال ان كنزنا انما هو سيدنا يسوع المسيح فيجب اذًا ان يكون قلبنا حيث هو عزَّ وجلَّ وحيث ان كل كنزنا هو في السماء فمن ثمَّ لا يجوز ان يكون قلبنا على الارض بل يجب ان يكون رجاؤنا وتوقنا كلهُ في السماء بحيث هي مركز خيرنا باجمعهِ كما علمت وزد على ذلك ان السيد المسيح لما رأى تلاميذهُ والكآبة ملأت قلوبهم عندما اخبرهم بانطلاقهِ الى الآب قال لهم اني اقول لكم الحق ان في انطلاقي خيرًا لكم لاني ان لم انطلق لا يأتيكم المعزّي ولكن اذا مضيت ارسلهُ اليكم (يوحنا ١٦ : ٧) واذ قد علمت ذلك نقول قد افادنا ايضاً صعود الرب الى السماء وفي انطلاقهِ خيرٌ لنا لانهُ بعد انطلاقهِ وصعودهِ الى السماء ارسل الينا المعزّي ولا يزال يرسل لنا ذاك المعزّي الحالّ فينا والذي بهِ أُفيضت المحبة في قلوبنا (رومية ٥:٥)

واعتبر رابعًا ان صعود السيد المسيح أفادنا شفاعتهُ فينا بحيث انهُ كما باشر على الارض عمل الفداء اراد ان يباشر في السماء الشفاعة في عبادهِ وقد أثبت ذلك التلميذ الحبيب حيث قال ايها الابناء اني اكتب اليكم بهذه لئلا تخطأوا وان خطئ أحدكم فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البارّ (١ يوحنا ٢ : ١) . وليس انهُ شفيعنا فقط بل انهُ تعالى يرعى كنيستهُ ويعضدها ايضاً ويستمرُّ معها حسب قولهِ العزيز كل الايام حتى انقضاء العالم . وذلك لا في سرّ الاوخارستيا فقط حيث هو موجود حقًّا ليكون دواءنا وتعزيتنا بل لا يزال موجودًا في كنيستهِ ايضاً مدبرًا اياها بعنايتهِ العجيبة بما ان كل المواهب والنعم التي تنحدر من السماء على الكنيسة وعلى كل المؤمنين فانها انما تأتي من هذا الرب ينبوع كل البركات . ولهذا قال الرسول ان لكل واحدٍ منا أُعطيت النعمة على مقدار موهبة المسيح (افسس ٤ : ٧) فلقد اتضح اذًا ان صعودهُ تعالى الى السماء اكسبهُ مجدًا وجرَّ لنا فائدةً كبيرةً

واذا تقرَّر ذلك كلهُ ترتَّب علينا ان نذكر كيف كمل هذا السرّ وما هو السرور الذي حصل للمجدلية مريم وللتلاميذ الابرار حين رأوهُ جلت قدرتهُ صاعدًا الى السماء وجلال مجد دخولهِ في بلاطهِ الابوي وجلوسهِ المجيد عن يمين الآب فوق جميع الخلائق

قال القديس مرقس الانجيلي ان سيدنا يسوع المسيح في ظهورهِ الاخير للرسل يوم كانوا جالسين على الطعام بكتهم على انهم قبلاً استصعبوا الايمان بقيامتهِ وقد كرَّر عليهم هذا التوبيخ لانهُ على يدهم وبانذارهم كان ينبغي للعالم كلهِ ان يعتقد قيامتهُ المجيدة من الموت ثم خاطبهم بما نصهُ انكم ستنالون قوَّة الروح القدس الذي يحل عليكم فتكونون لي شهودًا في اورشليم وجميع اليهودية وفي السامرة والى اقصى الارض (اعمال ١ : ٧) فكأنهُ يقول تعالى انكم انتم ابنائي وخراف رعيتي وشهود حياتي فقد سمعتم تعليمي ورأيتم افعالي وعجائبي واضطهاداتي واتعابي وأوجاع الامي واهانات الموت الذي ذقتهُ لاجل خلاص العالم ثم انكم شاهدتم قيامتي من الموت وستعاينون صعودي الى السماء . وفي اثناء ذلك تقبلون الروح القدس ليكون دائمًا معكم ومع كل الذين يؤمنون بي . فطوفوا اذًا العالم كلهُ وبشروا بانجيلي كل الخليقة وعلموا الجميع اني مع كوني ابن الله بالطبع صرت انسانًا كي أُصيّر الناس ابناء الله وورثة ملكهِ السماوي واني مُتُّ كي أُميت الموت وقمت من بين الاموات لكي امنحهم حياةً سعيدةً مؤبدةً وأصعد الآن الى السماء كي أُعدّ لهم هناك منزلاً ومجدًا ابديًا . ها انذا أُرسلكم كما أرسلني ابي فعلموا العالم حقائق تعليمي حلّوا الخطايا واشركوا الجميع في استحقاقي وأرشدوهم الى اجتناب الباطل ولا يبتغوا الغنى الارضي والتنعم الفاني وان يخافوا الله متذكرين حقيقة الدينونة الآتية والحياة الباقية ووجود الفردوس المعدّ للابرار وجهنم المهيأة للاشرار وان الله سبحانهُ هو المشاهد جميع أعمالهم وديّانهم . فبعد ان تكلم السيد لهُ المجد بذلك مع تلاميذهِ مضى بهم الى جبل الزيتون ولما وصل الى هناك ودَّع اولاً والدتهُ المجيدة بالفاظ تقطر منها المحبة لا استطاعة لنا على وصف عذوبتها . لا جرم ان الحزن المقدس لزق بقلبها عند مفارقة من كان لديها أعزّ من حياتها الا انها طبقت ارادتها على ارادة ابنها الالهي ومن لي بان يوضح فرط حزن التلاميذ حين ودَّعهم يسوع . ثم انهم فيما كانوا يشكون اليهِ حزنهم وكان يعزيهم هو تقدس اسمهُ حان وقت


LINTON

صعوده المجيد فطفق الملئكة يترنّمون بهذه الآية قم يا رب الى راحتك أنت وتابوت قدسك (مزمور ١٣١ : ٨) هذا التابوت الحاوي كل كنوز الله تابوت ناسوتك الكلي قدسهُ الذي بهِ تقدس الانسان وتصالح مع الله

فابتداً يرتفع هذا التابوت الاقدس بقوّة اللاهوت وحركة النفس وشرع هذا الجسد المجيد يصعد نحو السماء بخفّتهِ الذاتية وكان التلاميذ يعاينون هذه الأعجوبة بفرح القلب وذهول العقل قائلين اصعد اللهمّ يا حبيب القلوب النقية اصعد لا الى جبل الجلجلة لتُصلب بين لصّين بل اصعد الى جبل صهيون السماوية بعد انتصارك على الموت والخطيئة . اصعد الى السماء لتمجد الآب الازلي بحضورك وترسل الروح المعزّي لكنيستك وتجلس على الكرسي المهيإ لقدرتك وتفرح بحضورك كل الارواح السماوية . اصعد يا رب الى السماء بالذين أنقذتهم من أيدي أركون الظلام كي تفيض على الناس مواهبك حسب قول نبيك اصعد يا رب الى اعلى السماء (مزمور ٥٦ : ٦) . واجتذب اليك قلوبنا وجردها من محبة الدنيا والميل الى زخارفها أتمّ التجريد

فصعد اذاً رب المجد بصحبة جميع الاسارى الذين أنقذهم من اليمبوس . وجمٌّ غفير من الملئكة نزلوا من السماء للقائهِ وقبل افتراقهِ عن احبائهِ جعل يرفع يديهِ ويباركهم وهو مرتفع الى السماء كما بارك يعقوب بنيهِ . وفيما كان السيد المسيح صاعداً الى العلى نشأت سحابة حجبتهُ عن ابصار التلاميذ غير انهم لم يبرحوا ينظرون الى السماء ولكن من له ان يصف لنا بأيّما سرور واكرام استقبل الملئكة مولاهم المنتصر على الخطيئة والموت بسفك دمهِ الكريم . فكيف ترى بعضهم يسأل بعضاً قائلين من هذا الآتي من آدوم وثيابهُ مصبوغة من بصرة هذا المجمل برداء ناسوتهِ السائر بكثرة جبروتهِ (اشعيا ٦٣ : ١)

واما في جلال مجد صعودهِ الى السماء فقال النبي داود صعد الله بتهليل الرب بصوت البوق (مزمور ٤٦ : ٦) . صفقوا يا جميع الامم بالايادي هللوا بصوت الابتهاج يا ممالك الارض سبحوا الله ورنموا للرب الصاعد فوق سماء السماء نحو المشرق (مزمور ٦٧ : ٣٣) . ثم يخبر النبي بان الملئكة الذين خرجوا للقائهِ هتفوا نحو الملئكة الذين كانوا في الفردوس كحرّاس على الابواب وقالوا ارفعوا ايها الرؤساء ابوابكم ارتفعي ايتها الابواب الدهرية ليدخل ملك المجد (مزمور ٢٣ : ٧) فاجابهم الملئكة الذين داخل السماء من هذا ملك المجد فقال حينئذٍ الآخرون هو الرب القوي المقتدر الجبار المظفَّر في الحروب (٨ و٩) فدخل على هذا الحال رب المجد وجلس على اعلى كراسي السماء من عن يمين الاب الازلي وتلك الطبيعة التي قيل لها انت تراب والى التراب ستعودين ارتفعت من الحضيض الى أعلى السماوات . والذي أُغلق دونهُ باب الفردوس وكان الملك يصدُّهُ بسيف ملتهب عن الدخول اليهِ طار فوق جميع الملئكة على أجنحة الرياح . فتبيّن من هذا عظم ما أُلمّ بالانسان من الشقاء بسبب الخطيئة والمجد الذي ارتفع اليهِ بنعمة سيدنا يسوع المسيح

اما التلاميذ فلكونهم لم يبرحوا ناظرين الى العلى من بعد انهُ تبارك وتعالى غاب عن انظارهم أُرسل اليهم ملكين بلباس ابيض فقالا لهم ايها الرجال الجليليون ما بالكم قياماً تحدقون الى السماء وهذا يسوع الذي ارتفع عنكم الى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموهُ منطلقاً الى السماء . (أعمال ١ : ١١) . حينئذٍ عاد التلاميذ الى اورشليم ليصلّوا وينتظروا حلول روح القدس الذي كان السيد وعدهم بهِ

أما نحن المتأملين هذا السرّ فلنستبشرنّ بقول القديس لاون شاكرين الله ورافعين عقولنا وقلوبنا الى ذلك المكان السامي حيث يملك السيد المسيح ولنحذرنّ ان يأخذ حبّ الدنيا بقلوبنا التي دُعيت الى السماء وان الذين اختيروا ليمتلكوا الخيرات الابدية يرتاحون الى الخيرات الزائلة والذين أضاء لهم نور الحق يبتغون لذات كاذبة بالامور الزمنية كانسان متغرب منفي في وادي الشقاء والبكاء

ان الرب جلّ وعلا جعل جبل الزيتون شهيراً بحيث صعد منهُ الى السماء وابقى عليهِ ذكرى لسرّ صعوده السامي تعزيةً وتقويةً للمؤمنين وذلك بان ترك على الحجر الذي وطئهُ آخر وطأةٍ وارتقى منهُ الى العرش السماوي أثر قدميهِ المقدستين وقد بقي ذلك الاثر الكريم الى يومنا هذا ظاهراً تراهُ كل عين ومع ان المؤمنين ما برحوا ينحتونهُ تورعاً وطمعاً في أخذ النحاتة مع ذلك لم يزل الاثر باقياً كما كان حتى كأنّ ذلك النحت كان حفراً كما روى ذلك القديس ايرونيموس الذي أقام بتلك الاماكن المكرّمة وكذا ابتا نُس الميليفيتاني والقديس بلينس اسقف نولا وسافريوس سلوبيس واضاف الى ذلك

القديس بُلينس ما معناهُ ان المؤمنين اذ أرادوا تذكاراً لتلك الآية الجليلة ان يبلّطوا ذلك المكان بالرخام والحجارة الناعمة لم يستطيعوا من حيث انهم حين أزمعوا على ان يجمعوا الحجارة ردّهم الموضع المقدس باثار المسيح وأبعدهم عنهُ بشدّةٍ

وصنع الرب هناك آيةً اخرى وذلك عند ما اراد جماعةٌ ان يبتنوا في ذلك المكان عينهِ كنيسةً معقودةً . ولما اتوا ليقفلوا العقد اذا هم لا يقدرون فالجاهم العجز أن يتركوهُ مفتوحاً بحيث يمكن ان تُرى من هنالك السماء منتوحةً على ما قرّرهُ القديس ايرونيموس في حياتهِ

وخلاصة المقال انهُ حسن في عيني الرب لهُ المجد ان يبقى ذلك المكان المكرّس لتذكار دائم بسرٍّ يمجد الله و ينفع الناس على حالهِ الى هذا الزمان وعليهِ آثار قدمي المخلص وذلك عندي آيةٌ اخرى جديدة حيث ان هذه الاماكن المكرّمة أصارتها آثامنا الى اعداء النصرانية قال يوسيفوس المؤرخ الحريّ بالثقة ان تيطس يوم حاصر اورشليم نصب خيمتهُ الملكية على جبل الزيتون وأعدّ جنودهُ للقتال وطالت اقامتهُ هناك فاكثر من التخريب في المدينة ومن اكبر الغرائب انهم اخربوا كل ذلك الجبل والعلائم التي فيهِ حتى لم يبقَ لها هناك من أثر لكن ربنا حفظها حينئذٍ وخلصها من أيدي الرومانيين كما صانها الآن من الغير المؤمنين وذلك لنعرف قدرتهُ الغير المتناهية ونعرف ايضاً انهُ لما صعد الى السماء لم يُهمل كنيستهُ التي على الارض والتي لا يزال يساعدها و يرعاها بحكمتهِ ويقتاد المنتخبين الى دار السعادة التي صعد هو كرئيس ليمتلكها

في عيد العنصرة

اعلم ان اليهود كانوا يعيدون اليوم الخمسين بعد الفصح وكان يسمى هذا العيد بالبنديكستس ومعناهُ الخمسون اليوم الذي فيهِ أنزل الله الشريعة عليهم على يد موسى وكان لهم في تعييدهِ غرضان احدهما تذكار اليوم الذي فيهِ انزل الله الشريعة عليهم على يد موسى في جبل سينا . والثاني شكر الله على غلّات السنة الجديدة وكان يجب عليهم ان يقدّموا لله في ذلك اليوم بواكير الاثمار اعني رغيفين وهذا كان رمزاً الى عيد بنديكستس المسيحيين الذي فيهِ قد نادى الرسول بطرس بالناموس الالهي الجديد وكذا اعلن سائر الرسل بهذا الناموس وقدّموا لله بواكير الايمان اعني الثلثة الآف يهودي الذين تنصّروا

ففي اليوم الخمسين للفصح ولقيامة سيدنا لهُ المجد من بين الاموات حل الروح القدس على الرسل الاطهار المجتمعين في علّية صهيون المقدسة ليرسم في قلوبهم ناموس المحبة الانجيلية وصعد الانسان الى السماء ونزل الله الى الارض وقال الذهبي فمهُ مشيراً الى هذا اليوم الشريف ان الارض اليوم استحالت لنا سماء لالأن النجوم انقضّت من السماء على الارض بل لأن الرسل تصاعدوا من الارض الى السماء . وذلك لان الروح القدس افاض اليوم نِعمهُ الوافرة على الارض وأحالها فردوساً . فالروح القدس وجد العشار وصيرهُ انجيلياً وجد من كان للانجيل مضطهداً وجعلهُ رسولاً غيوراً . وجد الخاطئة وصيّرها مساوية العذارى . استأصل الرذيلة وغرس الفضيلة . أباد الاسر وأحيا الحرية . وفي الديون وأغنى بالمواهب الالهية . ولذا قلت واقول ان الارض استحالت اليوم سماء

واذ علمت ذلك ساغ ان نذكر الان شرف هذا اليوم وعظمتهُ متأملين من هو ذاك الرب الذي ينزل اليوم من السماء الى الارض وكيف ينحدر وما هي مفاعيل نزولهِ وكيف يجب علينا ان نتأهب لقبولهِ تعالى في قلوبنا

فاعلم يقيناً وآمن واثقاً ان الذي حلّ اليوم على الرسل الأطهار هو الروح القدس الاقنوم الثالث من الثالوث الاقدس الذي ينبثق من الآب والابن كأنهُ من مصدر واحد وهو مساوٍ لهما في الجوهر والازلية وفي باقي كمالاتهما الالهية . الهٌ تام نظيرهما ولذلك كان الملك النبي داود يطلب من الله الّا ينزع عنهُ روحهُ القدوس (مزمور ٥٠ : ١٢) وقال ابنهُ الحكيم من يقدر يا رب ان يعرف أسرارك إن لم تكن قد آتيتهُ حكمةً من قبلك وارسل من اعلى السماوات روحك القدوس (حكمة ٩ : ١٧)

وقد اوضح الانجيل المقدس هذه الحقيقة باجلى بيان حيث قال ان الجليلة مريم حملت بالكلمة الازلي بقوة الروح القدس وان السيد المسيح أوصى رسلهُ ان يعمّدوا باسم الآب والابن والروح القدس وقال التلميذ الحبيب ان الشهود في السماء ثلثة اي الآب والكلمة والروح القدس (١ يوحنا ٥ : ٧) . ثم

ان الكنيسة لتاكيد هذه الحقيقة تقول في آخر كل مزمور المجد للآب والابن والروح القدس . ومن اجل هذا السبب نرى ان الكتاب المقدس يخصص للروح القدس كل الاشياء المختصة بالله كالتقديس والعلم باسرار الله تعالى الغامضة والتكلم بافواه الانبياء والوجود في كل مكان ومنح الحياة وما يضاهي ذلك . وما هذا الاَّ لكي نعلم ان مَن هو متصف بالصفات الالهية هو الهٌ حق . وقد اثبت ذلك الرسول قائلاً نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس معكم أجمعين (٢ كورنتس ١٣ : ١٣) . وبهذا الكلام لا يوضح الروح القدس فقط بل يعني ايضاً انهُ هو أقنوم مختلف عن الآب والابن

فهذا هو الروح القدس روح يسوع الروح المعزّي هو الذي ينحدر اليوم من السماء الى الارض ليصير قلوبنا الارضية سماوية ويتبين جلال هذه العطية الالهية مما سبق وفعل ابن الله ليُعدَّنا لقبولها على ان جميع ما فعلهُ واحتملهُ في كل زمان حياتهِ المقدسة كان يهيئ بهِ انفسنا ويُعدُّها كي تكون للروح القدس هيكلاً ومنزلاً واجباً فكان في كل اعمالهِ يقصد هذا فقط وهو ان يضرم في قلوبنا نار الروح القدس . ولذلك قال اني جئت لأُلقي ناراً على الارض ولا أُريد الا اضطرامها (لوقا ١٢ : ٤٩) . ولما كان يتكلم على آلامهِ قال لتلاميذهِ اني ان لم انطلق لم يأتكم المعزّي ولكن اذا مضيت أُرسلهُ اليكم (يوحنا ١٦ : ٧) . فلم تكفِ اذًا حياة السيد المسيح وموتهُ لهذا بل وجب ايضاً ان يقوم من الموت ويصعد الى السماء لكي يرسل الينا من هناك هذه النار الالهية ولتستعد قلوبنا لقبول لهيب نار محبتهِ . ومن ثم يقول يوحنا الانجيلي اذ لم يكن الروح قد أُعطي بعدُ لان يسوع لم يكن مُجّد بعد (يوحنا ٧ : ٣٩)

فما اعظم العطية الممنوحة في هذا اليوم لانهُ وجب لنوالها ان يأتي سيدنا يسوع المسيح اولاً الى العالم ثم يموت ويقوم ويصعد الى السماء وذلك لان جميع مواهب السيد المسيح واستحقاقاتهِ كلها مع كونها ذات ثمن غير متناهٍ لم تكن تفيدنا شيئاً دون هذه الهبة على انهُ من الواضح ان المرء الذي ينفق مالهُ ليشتري دواءً شافياً ثم يأبى ان يتناولهُ يصبح ذلك الدواء الثمين الشافي غير نافع لهُ وعلى هذا المثال نقول ان آلام المخلص وان كانت دواءً شافياً محيياً فانها لا تنفع من لا يتناولها والحال

انهُ لا يقدر احدٌ ان يتناولها بدون نعمة الروح القدس لانهُ كيف كان يمكن ان يؤمن العالم بالسيد المسيح ويخضع لانجيلهِ ويترك الرذائل التي كان يتمرَّغ فيها لو لم يسمع صوت الرسل المنذرين بحقائقهِ . بل كيف كان يمكن ان يبشروا بهذه الاسرار السامية ويقاوموا حكمة الفلاسفة وقوة المغتصبين وشهوات العالم الحيوانية لو لم يتمنطقوا بقوة الروح القدس المظفرة

قال الرسول لوقا في هذا السرّ . ان السيد المسيح امر تلاميذهُ قبل صعودهِ ان يتلبَّثوا باورشليم حتى يتدرَّعوا بقوة الروح القدس (لوقا ٢٤ : ٤٩) فرجع التلاميذ من جبل الزيتون ودخلوا العلية فكانوا نحو مائة وعشرين رجلاً مواظبين على الصلاة بنفس واحدة مع نسوة ومع مريم ام يسوع (اعمال ١ : ١٢ - ١٥) طالبين من السيد ان يرسل لهم الروح المعزّي الذي كان قد وعدهم بهِ . وفيما هم يصلون بنشاطٍ انحدر الروح بعد صعود السيد المسيح بعشرة ايام وقد حل بصورة ريحٍ شديدةٍ وألسنةٍ نارية واستقرَّت على راس كل واحدٍ منهم وحينما امتلأ الرسل من الروح القدس خرجوا حالاً من العلية ونادوا امام الشعب بعجائب الله ناطقين بألسنةٍ مختلفة

من الواجب ان نطيل النظر في تأمل هذا السرّ وان نعتبر اغراضهُ التي ذكرها لوقا البشير حيث قال لما كان الرسل مجتمعين ومتحدين كأنهم نفس واحدة لان روح الاتحاد والمحبة هو الشيء الخاصّ الذي يجذب الروح القدس الذي هو بذات جوهرهِ المحبة الغير المتناهية . اذا بريحٍ شديدةٍ هبت بحفيفٍ عظيم على العلية التي كانوا قد حلّوا بها . فهبوب الريح بغتةً دليل على ان الروح القدس لم يحل عليهم من اجل استحقاقهم بل انما كان هبةً الهيةً محضة . ثم ان هذه الريح كانت شديدةً كما انهُ حينما اعطى الناموس القديم امتلأ طور سينا بروقاً ورعوداً وظهر كأنهُ كلهُ نار وذلك دلالةٌ على ان الله كان حاضراً هناك ليستعدُّوا لقبولهِ تعالى باحترامٍ وتهيُّب ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ على لسان نبيهِ . الى من انظر الاَّ الى المسكين والمنسحق والخاشي لكلامي (اشعيا ٦٦ : ٢) ثم ان الروح القدس حلَّ بريحٍ عاصفةٍ لكي يجمع الناس بهذا الصوت القوي الى حيث كانت الرسل فيشاهدوا العجائب ويؤمنوا . واعلم انهُ حلَّ الروح القدس بصورة ريح اشارةً الى انهُ كما ان الانسان لا يقدر ان يحيا حياةً طبيعية من دون هواءٍ نفس كذلك لا يستطيع ان يحيا حياةً روحية الهية الاَّ بهذا الروح الالهي .

لان هذا الروح هو للانسان بمنزلة نفسٍ وحياةٍ روحية . كما ان الله نفخ في وجه آدم وبذلك وهبهُ نسمة الحياة فكما ان النفس حياة الجسد كذلك الله سبحانهُ هو حياة النفس

على انهُ يذكر ثانيًا الكتاب المقدس انهُ ظهرت السنة نارية استقرَّت على هام الرسل وانما حل الروح القدس بصورة السن لان اللسان لا يختلف بالطبع عن بقية الاعضاء وقد جعلهُ الله لوصف افهام النفس دلالةً على افكارهم الباطنة وهكذا الروح القدس ليس يختلف عن الآب والابن ويأتي من السماء ليصف لنا أسرار الله تعالى ويوضح ما لم يكشفهُ الكلمة الازلي حسب قول السيد المسيح اما المعزّي الروح القدس الذي سيرسلهُ الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم كل ما قلتهُ لكم (يوحنا ١٤ : ٢٦) . ومن ثم قال الرسول لا يستطيع احد ان يقول يسوع ربٌّ الا بالروح القدس (١ كورنتس ١٢ : ٣) لكون الروح القدس هذا اللسان الالهي متحدًا بالابن والحكمة اتحادًا شديدًا حتى انهُ لا يستطيع احد ان ينطق باسم يسوع نطقًا مفيدًا للنفس الاَّ بنعمة هذا الروح الكلي قدسهُ

ثم انهُ من شان اللسان ان يميز بالذوق الحلو من المرّ والطيّب من الخبيث وهكذا بالروح القدس نعرف الاشياء الزمنية الزائلة من الاشياء الباقية الالهية كي نرذل تلك ونستعذب هذه وبدون هذا اللسان الالهي الذي هو الروح القدس لا يقدر الانسان الحيواني ان يفهم الاشياء الالهية (١ كورنتس ٢ : ١٤) وفي هذا المعنى قال الانجيلي هم من العالم ولذلك كلامهم من العالم والعالم يسمع لهم (١ يوحنا ٤ : ٥) . ثم ان اللسان يفيد جدًّا لهضم الاطعمة وهكذا الروح القدس يعيننا جدًّا على تأمل أسرار الله وحسناتهِ التي هي اطعمة النفس

وقد قال الحكيم الموت والحياة في يد اللسان (امثال ١٨ : ٢١) . وقال القديس يعقوب الرسول واما اللسان فلا يستطيع احدٌ من الناس ان يقمعهُ هو شرٌّ لا ينضبط مملوءٌ سمًّا مميتًا (يعقوب ٣ : ٨) وقال الحكيم ان للانسان ان يُعدَّ نفسهُ وللرب ان يدبر اللسان (امثال ١٦ : ١) . ولكي نعلم انهُ يجب على الانسان الروحي المرتاح الى قبول الروح القدس وحفظهِ ان يكون ضابطًا لسانهُ فيحلّ الروح القدس عليهِ بهيئة لسان على انهُ من المسلَّم ان هذين الشيئين الانسان الروحي والمكثار يضادُّ احدهما الآخر ولهذا بما ان الرسل كانوا مرتاحين الى قبول الروح القدس اختلوا في علية قصدَ ان يتأهبوا بالصمت والصلاة . فحلَّ عليهم وصيَّرهم يتكلمون كأُناس روحانيين وقال القديس لوقا انهم كانوا يتكلمون كما كان الروح القدس يُؤْتيهم النطق لان الحياة الروحية تتوقف على ان نفعل كثيرًا بنشاطٍ ومحبةٍ ونتكلم قليلاً باحترام واحتشام

وقد حلَّ الروح القدس على الرسل على شكل ألسنةٍ ناريةٍ مشيرًا بذلك الى انهُ حلَّ عليهم ليصيرهم كمصابيح ليضيئوا العالم ويضرموهُ . وقد كان يجب ان تكون السنتهم نارية مضطرمة بلهيب المحبة الالهية لكي يشعلوا هذه النار في قلوب الناس . ثم يذكر الكتاب المقدس ان هذه الالسنة استقرَّت على روُس التلاميذ دليلاً على ان النعمة التي نالوها كانت نعمة مستقرَّة لا نعمةً تذهب فتعود وانهم يثبتون فيها . فلما امتلأ التلاميذ من الروح القدس خرجوا من العلية لكي يدعوا الناس الى المسيح وشرعوا يتكلمون بكل الالسن وقد كان حينئذٍ في اورشليم خلقٌ من كل امةٍ تحت السماء . فلما سمعوا الرسل يتكلمون بامور سامية وان كل احد من السامعين يفهم لغتهُ وقالوا ان هؤُلاء جميعهم جليليون فكيف يسمع كل منا لغة قومهِ الذين وُلد فيهم ومنهم من قالوا ان الرسل امتلأُوا سُلافةً . اما بطرس فلكونهِ هامة الرسل وقف ورفع صوتهُ ووعظ ذلك الشعب الكثير فآمن منهم ثلثة آلاف نفس

ثالثًا اما نِعَم الروح القدس على الرسل الكرام فهي انهُ آتاهم نورًا الهيًّا بهِ عرفوا جليًّا الله الغير المتناهي وافاض فيهم حكمةً سماوية ليفهموا الاسرار الانجيلية وكتب في قلوبهم عهد النعمة وأضرم فيهم سعة حبهِ حتى انهُ لو لم يُسطر ناموسهُ في اسفار العهد الجديد لقد كان الذي رسمهُ في قلوبهم كافيًا لان يكونوا في حال الكمال على ان اخصَّ نِعمهِ انما هو الهاب نار محبة الله في قلوبهم الهابًا لا مزيد عليهِ حتى انهم كانوا يشتهون ان يموتوا من اجلهِ الف مرة . ومن هذه المحبة كانت تتلد غيرة متقدة لتمجيد الله وخلاص الانفس فكان كلٌّ منهم يحب ان يكون محرومًا لاجل خلاص القريب . والذين كانوا قبل حلول الروح القدس قد فرُّوا هاربين وبانوا مبددهم لزيادة خوفهم من الناس خرجوا حالًا بعد حلول الروح

الكلي قدسهُ عليهم ووقفوا مطمئنين أمام اعدائهم غير مبالين بالخطر تائقين الى الموت مفتخرين بان الله تعالى أهلهم لان يهانوا ويُضرَبوا من اجلهِ . وهؤلاء الاثنا عشر صيادًا المهانون في قُراهم المجردون عن العلم والفصاحة والفطنة البشرية والسطوة والعاجزون كل العجز عزموا بعد قبولهم الروح القدس على محاربة كل القوّات العالمية والجهنمية. وقد انتصروا عليها وغيروا قلوب القبائل وصيّروا اعظم الملوك والخر الفلاسفة يؤمنون بالوهية من مات مصلوبًا ويحبونهُ ويخضعون لنير شريعتهِ ويخسروا من اجلهِ كل خيرات العالم وحياتهم ايضًا . فلا شبهة في ان يد الله هي التي صنعت هذه القوّة العجيبة صنيعًا صنعهُ الروح القدس

فهذا الروح الالهي الذي حلَّ على التلاميذ لا يزال مستقرًا في الكنيسة الكاثوليكية كقول الرب لهُ السجود انا اسأل الآب فيعطيكم معزّيًا اخر ليقوم معكم الى الابد (يوحنا ١٤ : ١٦) ووجودهُ فيها كوجود النفس في الجسد فتحيي الجسد وكل اعضائهِ بل ويحل في النفس ويقدسها ويستقرّ فيها لانهُ اذا أحسنّا النظر فالروح القدس قد حلَّ في ذلك اليوم حلولَين احدهما ظاهرٌ والآخر خفيٌّ اما الاول فكان مع الريح العاصفة والألسنة النارية والمعجزات ولم تكن تلك الآيات ضروريةً للرسل كما كانت ضروريةً لنا نحن الذين ينبغي لنا ان نؤمن على ايديهم ولذا قال الطوباوي القديس برنردوس : لماذا أنطق الله الرسل بألسنة الامم انما كان ذلك لمجرَّد هداية الناس واما الثاني الدخول الخفي فهو ان زادهم من مواهبهِ وآلائهِ ورسم في قلوبهم الفضائل التي اسلفنا ذكرها لانهم وان كانوا قبلوا الروح القدس حين قال لهم المخلص اقبلوا الروح القدس فلم يكن بفيضان عظيم ولا مثل المفاعيل التي ابرزها اليوم

واعلم انهُ رافق حلول الروح القدس الاول هذه المرة كثيرٌ من العلامات والمعجزات التي انقطعت بحيث لم يبقَ اليها احتياج بعد ان توطدت الكنيسة واما الحلول الخفي فيستمرُّ دائمًا وهو اكمل وأفيد من الحلول الظاهر الذي حصل لاجل النعم التي قيل انها أُعطيت مجّانًا وبها الله يدبر كنيستهُ عند افتقارها بحيث ان هذا الحلول اكثر اعتبارًا وهو الذي اشار اليهِ السيد لهُ المجد حيث قال من احبني يحفظ وصاياي وأبي يحبهُ واليهِ نأتي وعندهُ نتخذ منزلاً ولا جرم ان المكان الذي ياتيهِ الآب والابن يأتيهِ الروح القدس ايضًا واذ يُغني النفس التي يحلُّ عليها لا بمواهبهِ فقط بل بحضورهِ الالهي حيث انهُ اذ يحلُّ في تلك النفس يجعلها هيكلاً لهُ ويطهرها ويقدّسها ويزيّنها بمواهبهِ حتى يجعلها جديرةً بمثل هذا السمو فهو في نفس البار كشمسٍ تضيء وكملكٍ يأمر وكربٍّ بيت يدبّر وكمعلم يعلّم وكبستاني يغرس ويسقي وهذا الروح الالهي يُنير العقل ويحرّك الارادة وينبه القوّة الذاكرة ويمكّن رجاءنا ويوطدهُ ويسكّن خوفنا ويداوي امراضنا ويصلح ذوقنا ويجعلنا نحب ما كنا نكرههُ قبلاً . هذا الروح الكلي قدسهُ هو الذي كقول الذهبي الفم يصلح صورتنا وحالنا ويكمل عقلنا ويُزين نفسنا وتدعوهُ الكنيسة المقدسة في ترانيمها أبا المساكين وموزّع المواهب ونور القلوب ومعزّيها

ومن ثم يجب على المؤمنين ان يتأهبوا لقبول الروح القدس مماثلين الرسل بالمواظبة على الصلاة والشوق الشديد الى قبولهِ لانهُ جلَّ ذكرهُ يحب ان يأتي من يشتهيهِ ويلحُّ في دعوتهِ معترفًا بعجزهِ وشقائهِ وموطدًا رجاءهُ على جود الله الغير المحدود

في عيد الثالوث الاقدس

انَّ من جملة عظائم الديانة المسيحية أنها تخضع عقل الانسان لنور الايمان وتجعلهُ يعتقد ما لا يراهُ بأعين الجسد ولا يفهمهُ بنور العقل النطقي. ولعمري ان أسرار الديانة المسيحية هي غايةٌ في السمو فهي فوق ابصار البشر وأرفع من ان تصل اليها مداركهم بل مدارك الملئكة وذلك لاجل عظمة العزة الالهية وضعف فهمنا . ولهذا قال النبي داود ان الله جعل الظلمة حول مظلّتهِ والسارافيم الذين رآهم اشعيا النبي قيامًا بازاء الله تعالى ومبشرين بعظائمهِ كانوا يسترون باجنحتهم وجوههم وأرجلهم إشارةً الى انهم عاجزون عن ادراك هذه العزّة الغير المحدودة وفي هذا المعنى قال القديس اغستينوس ما نصهُ انما انت وحدك تُدعى في الكتب المقدسة بالاله الضابط الكل المرتفع على كل عزّة مخلوقةٍ على نوع غير موصوف ولا مدرك وذلك لأن لاهوتك الفائق كل عقل هو كنور يبهر ناظرهُ ولا عجب في كون الانسان العاجز عن ادراك ذاتهِ يكون عاجزًا عن ادراك الكون الالهي الغير المسوح

والغير المتناهي . ومن مقتضى العقل النطقي ان نظن بالله انهُ متسامٍ على أجلّ ما نتصوَّرهُ من العظائم على انهُ لو استطعنا ان ندركهُ لزال كون الله الهًا فعجزنا اذًا عن ادراك اسرار ايماننا الغامضة هو دليل على انها اسرارٌ الهية عالية علوًّا لا غاية وراءهُ

فمن الضرورة اذًا ان تكون في ديانة الهية اسرار سامية جدًّا وفائقة ادراك العقل النطقي الآن اسماها الذي يعجز عنهُ كل وصف ويقصر عنهُ كل ادراك اكثر من كل ما سواهُ هو سر الثالوث الاقدس لانهُ هو بحرٌ لا حدَّ لعمقهِ. ولذا قال القديس اغسطينوس يا ايها الثالوث الالهي انك وحدك تفهم كونك ثالوثًا الهًا وانت فوق ادراك الناس والملئكة . وقد رُوي ان هذا القديس الجليل لما كان يؤلف كتابًا في الثالوث الاقدس خرج الى ساحل البحر ليفتكر في هذا المعنى وفيما كان يجهد نفسهُ في الكشف عن هذا السرّ رأى على الشاطئ طفلاً ينقل ماء البحر بصَدَفةٍ الى حفرة صغيرة فقال لهُ القديس ما مرادك في هذا العمل الباطل فاجابهُ الطفل السماوي اعني الملَك المتخذ صورة طفل اني اريد ان انزح البحر وانقلهُ كلهُ الى هذه الحفرة . فضحك القديس من كلامهِ وقال لهُ ان هذه الحفرة لا تسع مياه البحر . فقال لهُ الطفل ان وضع مياه هذا البحر كلها في هذه الحفرة لأسهل لديَّ كثيرًا من ان تدرك حقيقة ما تتأملهُ وبعد قولهِ هذا غاب عن عينيهِ . فاستنتج من ذلك انهُ ينبغي لمن يتأمل سر الثالوث الاقدس ان يستضيء بنور الايمان لا بالعقل البشري والأَ غرق في لجّ هذا البحر العظيم

نعم ان العقل الانساني يبرهن جليًّا وجود الله تعالى ووحدانيتهُ وعدم امكان وجود آلهة كثيرين وقد فعل ذلك خلقٌ كثيرٌ من الفلاسفة . اما كون الله سبحانهُ ذا ثلثة اقانيم آبٍ وابنٍ وروحٍ قدسٍ متحدة في الجوهر وذات طبيعة واحدة وان الاقانيم الثلثة الهٌ واحدٌ كما يُعلم من الايمان فذلك سرٌّ محجوبٌ عن ادراك عقول جميع العلماء والحكماء وهو كشمسٍ تعمي من يحدّق نظرهُ في اشعتها . ومن المستحيل ان نفهمهُ من دون ان يكشفهُ الله ولهذا قال سيدنا لهُ المجد ليس احدٌ يعرف الابن الّا الآب ولا احدٌ يعرف الآب الّا الابن ومن يريد الابن ان يكشف لهُ (متى ١١:٢٧) . وقال يوحنا البشير الله لم يرهُ احدٌ قط الّا الابن الوحيد الذي في حضن أبيهِ هو أخبر (يوحنا ١:١٨)

اما الذي نعرفهُ بالايمان عن هذا السر العظيم فهو كما ذكرنا آنفًا ان الله تعالى واحد في الجوهر ومثلث الاقانيم وهم الآب والابن وروح القدس الذين مع ان كلًّا منهم الهٌ ليسوا بثلثة آلهة بل انما هم الهٌ واحدٌ فقط . ثم ان ايماننا يعلمنا ان الآب الاقنوم الاول لما تأمل ذاتهُ في ازليتهِ وفهم جوهرهُ فهمًا تامًّا ولد أو أصدر مفهومًا لا مفهومًا عرضيًّا بل جوهريًّا وذلك هو الذي يُدعى ابن الله الوحيد والكلمة الازلي وضياء مجد الله وصورة جوهرهِ والمساوي في جوهرهِ للآب الذي ولدهُ ويُدعى الهًا نظيرهُ . قد عرفنا فوق ذلك ايضًا من الايمان ان هذين الاقنومين الالهيين الآب والابن بملاحظتهما احدهما الآخر منذ الازل وبسرورهما احدهما بالآخر سرورًا غير متناهٍ تبادل بينهما حبٌّ غير متناهٍ وعن ذلك صدر حبٌّ متبادل وذلك الحبُّ ليس هو عرضيًّا بل هو جوهرٌ وهو مصدر من الآب والابن كأنهُ من مصدر واحد وندعوهُ روح قدس وهو في الثالوث الاقدس الاقنوم الثالث وهؤلاء الثلثة الاقانيم متساوون في كل شيء لان جوهرهم واحد فالآب هو مصدر الابن وهو اي الآب لا يصدر من احد والابن يُولد من الآب فقط والآب والابن يُصدِران الروح القدس

وحيث ان الانسان حقًّا كثيف العقل وضعيف الفهم لا يدرك غالبًا سوى ما يقع تحت الحسّ يجب لذلك على المسيحي ان يكون حذرًا عند ما يسمع ان في الثالوث الاقدس آبًا وابنًا وايلادًا وولودًا . ثم ينبغي لهُ حينئذٍ ان يرتفع بفكرهِ فوق الاشياء المحسوسة كافةً ويوجه عقلهُ الى الاشياء الروحية الالهية حيث ليس في الثالوث ايلادٌ وولادةٌ جسديان بل لا بدَّ لهُ ان يعقل جيدًا ويعتقد يقينًا ان ليس في هذا الايلاد الازلي ما يحدث في الايلاد الزمني الذي يعبر وينتهي لكون الايلاد الازلي الذي بهِ ولد الآب ابنهُ لم يزل ولم ينتهِ . بل انهُ يلدهُ الان وسيلدهُ على الدوام . وعليهِ فلا يقع في ضنك ان الاقنوم الاول متقدّم في الزمان على الابن كما يتقدّم الاب في المخلوقات على ابنهِ ويوجد قبلهُ وذلك بما انهُ ليس في الثالوث الاقدس اول ولا آخر بل ان الثلثة الاقانيم الالهية هم متساوون في الازلية

فهذا مختصر ما يعلمناهُ ايماننا عن هذا السرّ العجيب هذا هو النور الذي اتانا بهِ من السماء معلمنا الصادق شمس العدل يسوع المسيح على انهُ مع ان الله سبحانهُ كان قد سبق وتكلم على هذا السر في الكتاب المقدس وأشار اليهِ ببعض رموز وعبارات

الاّ ان تلك الرموز والعبارات كانت محجوبة بظلام لم يدع الاّ القليلين من الانبياء والقديسين يفهمون معناها وذلك لان الشعب اليهودي كان كثيف العقل منصبًّا على عبادة الاوثان ولهذا لم يحسن ان يُورد لهم سرّ الثالوث الاقدس ايرادًا واضحًا وذلك حذرًا من ان يتخذوا من ذلك سببًا لان يعتقدوا وجود ثلثة آلهة في الثالوث الالهي فيسجدوا لآلهة كثيرين . فمن اجل هذا السبب كان يعظهم على الدوام بأفواه انبيائهِ موردًا لهم هذا التعليم وهو ان الله تعالى واحد خالق الجميع ومدبر الكل ولهُ وحدهُ يحقّ السجود

فالسيد المسيح اذًا هو الذي علمنا هذا السر جليًّا وقد كان يجب ان يوضحهُ لنا لانهُ بعد صيرورتهِ انسانًا لاجل خلاصنا كان ينبغي لنا ان نعرفهُ ونعتقد انهُ انسانٌ والهٌ والحال انهُ لم يمكننا ان نعرفهُ اذ لم نعلم اولاً انهُ هو ابن الله الوحيد الاقنوم الثاني من الثالوث الاقدس الذي تجسَّد من اجل خلاصنا ولقد ذكر مرارًا كثيرة الثلثة الاقانيم الالهية بقولهِ واما المعزّي الروح القدس الذي يرسلهُ الاب باسمي (يوحنا ١٤ : ٢٤) وقولهِ الآخر ومتى جاء المعزّي الذي ارسلهُ اليكم من عند الاب روح الحق (يوحنا ١٥ : ٢٦) . لان الاب الذي منهُ يرسل الروح القدس هو اقنوم والابن الذي يُرسلهُ هو اقنوم آخر والروح القدس الذي يُرسَل هو اقنوم آخر ايضًا . وقد طابق الرسول هذا التعليم حيث قال أَرسل الله روح ابنهِ الى قلوبكم (غلاطية ٤:٦) وبقولهِ الآخر ان كان روح الذي اقام يسوع من بين الاموات حالاً فيكم (رومية ٨ : ١١) وقد اوضح ذلك يسوع أجلى ايضاح حينما ارسل تلاميذهُ ليكرزوا في كل العالم فأمرهم تعالى ان يعمّدوا جميع الامم باسم الاب والابن والروح القدس (متى ٢٨ : ١٩) ولم يقل باسماء الاب والابن والروح القدس على انهُ وان كانوا ثلثة اقانيم اسمهم واحدٌ اعني ان لهم قوّةً واحدة وعزّةً واحدة . ثم ان القديس يوحنا قال لان الشهود في السماء ثلثة الاب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلثة هم واحدٌ (١ يوحنا ٥:٧) وقال الرسول ان كل شيء هو منهُ وبهِ واليهِ فلهُ المجد مدى الدهور (رومية ١١:٣٦) واوّل هذه الاية القديس اغسطينوس قال منهُ يعني الاب لكونهِ اصل كل خير ومصدرهُ وبقولهِ بهِ الابن لكونهِ الكلمة وبهِ كوّن الكل (يوحنا ١ : ٣) وقولهُ اليهِ او فيهِ يشير الى الروح القدس لكون الروح القدس هو المحبة بالذات وبالمحبة نبلغ الى الله ونسكن فيهِ . اخيرًا قولهُ لهُ المجد مدى الدهور يُفيد جليًّا ان هؤلاء الثلثة الاقانيم هم الهٌ واحدٌ وجوهرٌ واحدٌ

وفي مواضع أُخر من الكتاب المقدس يُذكر لاهوت سيدنا يسوع المسيح لان الرسول يوحنا يقول ما نصهُ لنعرف الاله الحقيقي ونحن في الاله الحقيقي في ابنهِ يسوع المسيح هذا هو الاله الحقيقي والحياة الابدية (١ يوحنا ٥ : ٢٠) وقال بولس الرسول وان نعمة الله المخلصة قد تجلّت لجميع الناس (تيطس ٢ : ١١) وفي موضع آخر يقول عن السيد المسيح الذي اذ هو في صورة الله انهُ لم يكن يعتدّ مساواتهُ لله اختلاسًا (فيلبي ٢ :٦) وقال ايضًا لمن من الملئكة قال قط انت ابني وانا اليوم ولدتك (عبرانيين ١ :٥) اما السيد المسيح فقد نادى بهذه الحقيقة واضحًا بقولهِ انا والاب واحدٌ (يوحنا ١٠ : ٣٠) وقد ذكر الرسول يوحنا انهُ من اجل انهُ تعالى كان يساوي نفسهُ بالله كان اليهود يطلبون رجمهُ (يوحنا ٥ : ١٨)

اما لاهوت الروح القدس فقد شهد لهُ القديس بطرس حيث قال لحنانيا وسفيرة ما بالكما اتفقتما ان تجربا الروح القدس فانكما لم تكذبا على الناس بل على الله (اعمال ٥:٤و٩) ويثبت هذا الرسول بقولهِ ان للمواهب انواعًا لكن الروح واحدٌ (١ كورنتس ١٢:٤وعب ٦ : ١٢)

فبالصواب اذًا يؤمن المسيحيون بسر الثالوث الاقدس ويعتقدون هذه الحقيقة المثبتة بشهادات الكتب الالهية وبشهادات الوف الوف وربوات ربوات من القديسين الذين أيَّدوا هذه الحقيقة بسفك دمائهم وهذا هو الذي ينبغي ان نعتقدهُ كما اعتقدهُ جميع آباء الكنيسة بايمان متين مؤسسين اعتقادنا على كلام الله تعالى و تعليم امنا الكنيسة المقدسة التي علمتنا هذا السرّ الالهي منذ صبائنا فيسوغ لنا حينئذٍ ان نستعمل بعض عبارات وتشابيه لايضاح هذا السرّ الغير الموصوف ونقرن العقل بالايمان لا لأنّ العقل البشري هو كافٍ لهذا كلا بل كي يزداد ايماننا تمكينًا

وهكذا فعل الاباء القديسون فقالوا متفلسفين ان الايلاد في الخلائق كمالٌ والعُقم نقصٌ فلماذا اذًا نجعل الله عقيمًا ولم لانخصهُ تعالى ايلادًا افضل من ايلاد الخلائق بما لا يُحدّ ولهذا قال الله نفسهُ ألعلي انا الذي أولد الغير لا ألد وانا المعطي التوليد اكون عقيمًا (اشعيا ٦٦ : ٩) . انهُ لو كان الله تعالى في الوهيتهِ اقنومًا واحدًا لكانت حالهُ حينئذٍ مع وجودهِ مع

الملئكة والبشر كحال آدم وحدهُ مع الحيوانات قبل تكوين حواء. بل ان الفرق فيما بين الله والملئكة والبشر أعظم من الفرق الذي بين آدم والحيوانات . ثم انهُ من شان الجود ان يُشرك ذاتهُ طبعًا وبمقدار ما يكون الجود اعظم بمقدار ذلك يكون اشراكهُ ذاتهُ اكثر كمالاً والحال ان جود الله تعالى هو غير متناهٍ فالنتيجة يجب ان يُشرك ذاتهُ على نوع غير متناهٍ والحال ان اشراك جوده على نوعٍ غير متناهٍ لا يوجد في الخلائق التي يكون جودها متناهيًا ولو كان غايةً في الكمال بل ان اعظم جودها بالنسبة الى جود الله تعالى يُعدُّ كالعدم ومن ثم يجب ان يهب ذاتهُ وجوهرهُ ليكون الاشتراك عينهُ كاملاً كمالاً غير متناهٍ. فان كان الله سبحانهُ ما اشرك ذاتهُ على هذا النمط فيكون السبب اما أنهُ لم يُرد واما لانهُ لم يقدر على حسب ما تفلسف القديسان اغستينوس وامبروسيوس فان كان السبب في ذلك هو عدم ارادتهِ ان يُشرك ذاتهُ اشتراكًا كاملاً فيكون تنزّه الله عن ذلك شحيحًا حسودًا وان كان لم يقدر على ذلك لزم ان يكون الله سبحانهُ وقتئذٍ عاجزًا ضعيفًا لانهُ لم يقدر ان يصنع ما أرادهُ وفضلاً عن ذلك يستحق الله تعالى لاجل صلاحهِ الغير المتناهي ان يُحب محبةً غير محدودةٍ لا يمكن ان يحبهُ اياها سوى من يكون الهًا نظيرهُ فوجب اذًا ان يكون في الله اقانيم يحبونهُ محبةً غير متناهية لكي يُحبَّ جود الله المحبة التي يستحقها

ثم نقول كما ان محبة الله تعالى من حيث انها غير متناهية لا يمكن ان تزداد عظمةً كذلك من الممتنع ان تزداد كمالاً والحال ان المحبة السميا كمالاً هي التي بها يُريد المحب انَّ محبوبهُ يُحب نظيرهُ على قدر ما يُحبَّ هو . هذا ولا جرم ان من لا يطيق ان يشترك احدٌ في المحبة ولا يشتهي ان يُحب آخر خلافًا لمقتضي المحبة يعطي دليلاً بذلك على نقص عظيم فيقتضي الصواب اذًا ان يكون للآب والابن اقنوم آخر يُحب معهما وهو اقنوم الروح القدس الذي هو محبة الاب والابن الجوهرية المنبثقة منهما كأنها من مصدر واحد . لان الله تعالى لا يزال متلألئًا جوهرهُ وجودهُ الغير المتناهي (اذ قال اريسطوطاليس الفيلسوف ان الفهم الالهي ليس لهُ موضوع مناسب غير مجد جوهرهِ وألوهيتهِ) وبهذا التأمل والمشاهدة العقلية لا يزال مصدرًا الابن . وحيث لا يزالان احدهما يحب الآخر ينفخان وينفثان على الدوام الروح القدس الذي هو المحبة الازلية الغير المحدودة المساوية الآب والابن في جوهرهما

ثم اعتبر بعض تشابيه جليلةٍ معينةٍ على وصف سر الثالوث الاقدس . اولها هو نفس الانسان فهذه النفس لها ثلث قوى الذاكرة والفهم والارادة ومن اجل ذلك قال الكتاب المقدس ان الانسان خُلق على صورة الله تعالى. والثاني هو الشمس لانهُ يوجد فيها الجرم والشعاع الصادر منها ثم الحرارة الخارجة منها ومن الشعاع ايضًا. والثالث هو الشجرة لانها الجذر والاغصان والثمرة الناتجة منها. والرابع هو آدم وحواء وهابيل الذين مع انهم بالطبيعة متساوون مع ذلك لم يتخذوها على نوع واحد لان آدم لم يتخذ جوهرهُ من انسان آخر واما حواء فقد اتخذت جوهرها في آدم فقط واما هابيل فاتخذ جوهرهُ من كليهما وكذا الامر في الثالوث الاقدس فان الاقانيم الالهية متساوون في الطبيعة غير ان الاب يتخذها من ذاتهِ والابن يتخذها من الاب بطريق الفهم والروح القدس يتخذها من الآب والابن كليهما بطريق المحبة. والتشبيه الخامس يقوم بان نفرض وجود ثلثة اشخاص غير قابلي الموت ومتساوين في الحكمة فمن المحقق ان ثلثتهم لم يكونوا يعيشون اكثر من واحدٍ منهم ولم يكونوا ثلثتهم يعرفون اكثر من واحد منهم فكذا الثلثة الاقانيم الالهية فهم على اختلافهم في الاقنومية متساوون في كل شيء لان حكمتهم وقدرتهم وسائر صفاتهم هي شيءٌ واحدٌ

غير ان هذه التشابيه كلها ناقصة لا يمكن ان يتضح بها سرّ الثالوث الاقدس اتضاحًا كافيًا وليس لنا واسطة اخرى لفهمهِ سوى الايمان والاذعان العقلي لنور الاعلان الالهي مع الاعتراف بذلنا وعجزنا وبعظمة عزّة الله تعالى الذي اثبت هذه الحقيقة بمعجزاتٍ كثيرةٍ عزّى بها المؤمنين واخزى المنافقين كما ترى في الاخبار الاتية

الخبر الاول روى القديس غريغوريوس نيصص ابن القديس باسيليوس عن القديس غريغوريوس العجيبي اسقف مدينة قيسارية الجديدة ان والدة الله والقديس يوحنا الانجيلي تراءيا لهُ وان سيدتنا امرت القديس المشار اليهِ ان يدفع لهُ قانون الايمان فدفعهُ الى هذا القديس العجيبي وامرهُ ان ينذر بهِ وكان ذلك القانون يتضمن سرّ الثالوث الاقدس على وجه التدقيق

والخبر الثاني قال القديس اثناسيوس في ترجمة القديس انطونيوس المعظم ان الله سبحانهُ انبأهُ بدعة آريوس الذي كان مزمعاً ان ينكر الوهية المسيح تبارك اسمهُ وانهُ من اجل ذلك كان القديس يُبغض مشاهدتهم اشدَّ البغضاء حتى انهُ لم يكن يدعهم يقفون امامهُ ولا يدنون من ديرهِ

قال القديس بيدا ان سيدنا يسوع المسيح ظهر للقديس بطرس الشهيد بطريرك الاسكندرية بحلَّةٍ ممزَّقةٍ من اعلاها الى اسفلها ولما سألهُ القديس عن سبب ذلك أجابهُ يسوع ان آريوس هكذا مزَّق كنيستي

الخبر الرابع قد جاء في سيرة القديس باسيليوس انهُ وقعت مشاجرة عظيمة بين الكاثوليك والاريوسيين الجاحدين ألوهية السيد المسيح على كنيسةٍ كان المبتدعون يريدون ان يأخذوها فقال لهم القديس باسيليوس أغلقوا أبواب الكنيسة واقفلوها والذين بمجرَّد صلواتهم تنفتح لهم الابواب فتكون الكنيسة لهم. فرضي الفريقان بهذا الشرط لكن صلَّى المبتدعون فلم تنفتح الابواب ثم صلَّى الكاثوليكيون وأمروا الابواب بصوتٍ عالٍ باسم الثالوث الاقدس ان تنفتح فانفتحت لهم الابواب في الحال

الخبر الخامس قال القديس غريغوريوس الكبير انهُ حينما كان يكرَّس كنيسة كان الآريوسيون وضعوا يدهم عليها برهةً من الدهر خرج منها الشيطان بصورة خنزير هائل المنظر

قال القديس برنردوس اذا سُئلتَ كيف يمكن ان يكون الايمان الكاثوليكي بهذا السرّ صحيحًا فاكتفِ بان تقول ان هذا السرَّ تُعرَف صحتهُ من حيث يتضح العقل بل من حيث ان المنزَّه عن الخطاءِ يعلم ان هذا سرٌّ عظيم يجب ان نحترمهُ لاان نفحص عنهُ . فنحن نعتقد وجود التثليث . والفحص عن كيفية ذلك ضرب من الجسارة والمكابرة. والحاصل ان الايمان بهذا السرّ هو فعل التقوى والمعرفة بهِ هي الحياة والغبطة

في سرّ القربان الاقدس

ان الكنيسة الكاثوليكية تعيّد هذا العيد يوم الخميس الواقع عقب ثمانية ايام لعيد العنصرة وان كان الرب عزَّ وعلا وضعهُ يوم خميس العشاء السري حين اشرف ان يموت و يسفك دمهُ الثمين فدًى للعالمين ليبين لنا في منتهى حياتهِ فرط حبهِ لنا الذي كان مضطرمًا في قلبهِ الاقدس لكن الكنيسة بحيث تكون ذلك الوقت مشغولةً بتكريم آلام المسيح والبكاء عليها استصوبت تأجيل تذكار احسان هذا الرسم الالهي الى زمان أكثر مناسبةً لكي يكرَّم بما يليق بهِ من الفرح والاجلال وبناءً عليهِ اختارت الخميس الواقع بعد ثمانية ايام لعيد حلول الروح القدس الذي انار بصائر المؤمنين وابان لهم سمو هذا السرّ العظيم اذ حثهم على ان يتناولوهُ كلَّ يوم

هذا ومن حيث ان هذا السرَّ هو اعظم جميع الاسرار يجب على المؤمنين ان يكرموهُ اعظم التكريم ففي سائر الاسرار تعطى النعمة اما في سر القربان المقدس فنجد ينبوع جميع النعم وننالها باعظم وفور و بقية الاسرار هي مواهب الله اما هذا السرّ فيحوي مصدرها . تلك هي وسائط تهدينا الى الله تعالى الذي هو غايتنا . اما هذا السرّ فهو الغاية عينها لان كل القداسة الواصلة لنا من سائر الاسرار هي استعدادٌ لتناول الاوخاريستيا بكمال النقاوة . ولذا سمَّاهُ القديس ديونيسيوس مكمّل سائر الاسرار

اعلم ان الكنيسة الكاثوليكية تعتقد أولاً انهُ بقوَّة كلام التقديس الذي ينطق بهِ خادم هذا السرّ وهو الكلام الذي نطق بهِ السيد المسيح في العشاء السري وهذا نصهُ

هذا هو جسدي وهذا هو دمي

في ذلك الحين نفسهِ يستحيل الخبز الذي يجب ان يكون من حنطةٍ الى جسد السيد المسيح حقًّا وكذلك الخمر يستحيل الى دمهِ الزكي ولان جسد سيدنا يسوع المسيح متضمن دمًا ونفسًا ومتحدٌ باللاهوت والدم ليس هو مفترقًا عن جسدهِ تعالى فمن لازم الضرورة ان يوجد السيد المسيح بكليتهِ انسانًا والهًا في البرشانة تحت شكل الخبز . وكذلك يوجد انسانًا بكليتهِ والهًا في الكأس تحت اعراض الخمر بعد التقديس و بالنتيجة ان من يتناول جسدهُ تعالى فانهُ يتناول دمهُ ايضًا والمؤمن الذي يتناول هذا السر الالهي تحت شكل الخبز فقط فانهُ لا يتناول اقلَّ ممن يتناول هذا السر تحت شكلي الخبز والخمر معًا

ثم ان الكنيسة تؤمن ثانيًا انهُ باستحالة جوهر الخبز الى

جسد المسيح وجوهر الخمر الى دمهِ الكريم لايبقى شيء من جوهر الخبز والخمر كليًّا وانما تقع هذه الاستحالة الجوهرية بقوّة الله الذي خلق من العدم السماء والارض وكل ما فيها ومن ثم يقدر باولى حجة ان يحيل جوهرًا الى جوهر آخر لان اخراج الله سبحانهُ جوهرًا من العدم الى الوجود هو اعظم من إحالتهِ جوهرًا الى جوهر آخر

وثالثًا ان الكنيسة الكاثوليكية تعلمنا انهُ في هذا السرّ بعد استحالة الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمهِ الاطهرين تبقى اعراض الخبز والخمر من دون مسند والمراد باعراض الخبز والخمر اللون والطعم وغير ذلك التي مع انها اعراض مجردة من كل جوهر تستمرُّ موجودةً بأُعجوبة وباعجوبةٍ اخرى تقوت من يتناولها كالخبز والخمر والاعجوبة الثالثة هي ان سيدنا يسوع المسيح يوجد كلهُ في كل برشانة وفي كل جزء منها كما ان النفس هي كلها في الجسد كلهِ وفي كل جزء من اجزائهِ والاعجوبة الرابعة هي انهُ حينما تنكسر البرشانة أو تنقسم فلا يُكسر جسد المسيح ولا ينقسم ولا يتالم . والأُعجوبة الخامسة هي ان سيدنا يسوع المسيح يكون في السماء وعلى الارض معًا وانهُ بغير انتقال يكون موجودًا في اماكن لا يُحصى لها عدد. والأُعجوبة السادسة هي وقوع هذه الاستحالة متى نطق الكاهن بكلام التقديس الذي سماهُ القديس امبروسيوس الكلام الفاعل لانهُ يفعل ما يعنيهِ . واعلم انهُ كما ان الله تعالى يخلق النفوس ويدخلها في الاجساد حينما تكمل جبلة الجسد في مستودَع المرأة في اي اقليمٍ كان من اقاليم المسكونة كلها و بالنتيجة يخلق في كل يوم وفي كل ساعة الوفًا من النفوس هكذا السيد لهُ المجد في كل مكان وفي كل وقتٍ يحصل فيهِ قداس يحيل هناك الخبز الى جسدهِ والخمر الى دمهِ حالما ينطق الكاهن بالكلام الجوهري

اعتبر الان جيدًا وآمن موقنًا ان هذا السر الالهي المدعو خبز الحياة يُحيي في الحقيقة الذين يتناولونهُ باستحقاق ولكنهُ يُميت الذين يتناولونهُ بلا استحقاقٍ فمثلهُ مثل الشمس تبهج بنورها النواظر الصحيحة وتضرُّ ضعاف البصر وتُعميهم . وهو ايضًا كالمعدة فان كانت سالمةً قوية هضمت الطعام وانتفعت منهُ ولكن اذا كانت ضعيفةً تضرَّرت من الطعام الجيد وهذا السرّ ايضًا كالدواء الجيد يشفي بعضًا ويُميت بعضًا حسب اختلاف استعدادهم فمن تناولهُ بما يجب لهُ من الاستعداد اكتسب النعمة التي تقوّيهِ وتحييهِ لكن من يتناولهُ وهو متلطخ بالاثام فانهُ يتناول دينونةً وموتًا

فهذه المعجزات كلها تقتضي منا ايمانًا قويًّا جدًا وتلزمنا ان نخضع عقولنا الضعيفة لاعمال الله الفائقة الطبيعة متأملين ذلنا وعظمة الهنا نابذين كل فحص باطل ولا سيما في سرّ الافخارستيا المدعو لاجل عظمتهِ سر الايمان لان الايمان هو النور السماوي الذي بهِ ينبغي لنا ان نتبصَّر هذا السر المحجوب عن كل نور طبيعي وبدون هذا النور الالهي كما قال الذهبي فمهُ لا يستطيع الانسان ان يرى الطريق الموصلة الى الحق والخلاص . فلننقل مع القديس اغستينوس ان الله جلّت قدرتهُ يستطيع ان يفعل ما لا يقدر الانسان ان يدركهُ لان قدرتهُ الضابطة كل شيء ليست بمحدودةٍ نظير فهمنا. ها هوذا الانسان حسبما يقول الحكيم يجهل طريق السفينة في البحر وسبيل الطير في الهواء (حكمة ٥ : ١٠ و١٢) . ولا يدري ايضًا كما قال القديس ايرونيموس كيف يتكوَّن من مادةٍ واحدةٍ جزءٌ صغيرٌ فيصير في مستودَع المرأة الحبلى عظمًا أو عرقًا وجزءٌ يصير لبنًا ولحمًا وكيف تتركب العروق والعظام وتنتظر فكيف يمكن ان يُفهم ويُدرك صانع هذه العجائب ولذلك يقول الحكيم ان كان يعسر علينا اذًا ان نفهم الاشياء الارضية ويتعبنا ادراك ما هو بازاء اعيننا فمن ذا الذي يفهم الاشياء السماوية ويدركها (حكمة ٩ : ١٦) . ويشير الحكيم بهذا الى انهُ يجب ان نحترم الاشياء الالهية ولا نفحص عنها بروح التفتيش ولا سيما في هذا السر السامي

ثم اعلم ان هذا السر العجيب ليس هو سرًّا فقط بل هو ذبيحة ايضًا لان سيدنا يسوع المسيح هو الكاهن الى الدهر على طريقة ملكيصادق (مزمور ١٠٩ : ٤) المقدِّم خبزًا وخمرًا لله تعالى قربانًا وقد فعل هذا في العشاء السري حينما رسم ذبيحة جسدهِ ودمهِ الاقدسين تحت اعراض الخبز والخمر ثم قدم على الصليب ذاتهُ ذبيحةً على نوع اتم وبهذه الذبيحة السماوية سكَّن غضب ابيهِ علينا وصالحنا معهُ تقدس اسمهُ. الا انهُ من حيث ان سيدنا يسوع المسيح هو كاهن الى الدهر والى انقضاء العالم ولم يكن مزمعًا ان يموت مرةً ثانيةً لان موتهُ الواحد بل ادنى نقطةٍ من دمهِ الزكي كان كافيًا لفداء ربوات من العوالم فرام الله سبحانهُ ان تكون في الكنيسة ذبيحة دائمة ولن تكون تلك التي قدمها على الصليب وأمر في العشاء السري

بان نُقدَّم على ايدي الكهنة في القداس على نوعٍ عجيب مع هذا الفرق فقط وهو ان الذبيحة الأولى التي قُدّمت على الصليب كانت دموية اما هذه التي نُقدّم في القداس فهي غير دموية . فالسيد المسيح هو في هاتين الذبيحتين الشيء المقدَّم والكاهن هو المقدِّم ذلك الشيء لان الكاهن ليس في القداس الأخادمًا وبهِ السيد المسيح يقدّم الذبيحة ومن اجل هذا السبب حين يلفظ الكاهن كلام التقديس فهو لا يلفظهُ بشخصهِ بل بشخص المسيح

هذه هي الذبيحة التي سبق الله سبحانهُ واخبرعنها على لسان ملاخيا النبي قائلاً : ليس لي ارادة فيكم وقربانًا لا اقبل من ايديكم من اجل انهُ من مشرق الشمس الى مغربها عظيم اسمي في الامم وفي كل مكان يُذبَح ويُقرَّب لاسمي قربانٌ مطهرٌ (ملاخيا ١ : ١١)

فيالهُ من جودٍ وياله من صلاحٍ عجيبين يُذهلان العقول قد صيَّرا ربَّ المجد ذبيحتنا ومأكلنا ومشربنا وان سألتَ ما هو الذي حرَّض سيدنا يسوع المسيح على رسم هذا السرّ الالهي وهذه الذبيحة الالهية . فأُجيب ان الذي حركهُ تعالى على ذلك انما هو مجدهُ تعالى ومنفعتنا فقد أظهر ابن الله مجدهُ في هذا السرّ لانهُ أظهر فيهِ جودهُ الغير المتناهي وذلك لكونهِ معلمنا الصالح ومحبنا الصدوق لم يكتفِ بان يتردّى جسمنا ويكون قدوتنا ومرشدنا ومعلمنا وفادينا ومخلصنا ومقدسنا ومحب انفسنا فقط بل احب ان يكون مأكلنا وقوّتنا ولم يكتفِ تعالى من محبتهِ ان يكون معنا بل رام ان يوجد في وسط قلوبنا . وهذا فحوى قولهِ العزيز من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وانا فيهِ (يوحنا ٦ : ٥٧) . هذا وحيث ان المحب لا يطيق مفارقة حبيبهِ وكان ينبغي ليسوع ان ينطلق ولم يمكن ان ترافقهُ عروسهُ فاخترع واسطةً عجيبةً بها بقي معها وهو منطلقٌ عنها

تأمل الآن ما اعظم النفع الواصل الينا من قِبل هذا السرّ الالهي فاعلم ان هذا الطعام السماوي يفعل في انفسنا على نوعٍ سريٍّ ما يفعلهُ المأكل الطبيعي في اجسادنا وهوانهُ يعوض ما يفنى كل يوم من جوهرنا بالحرارة الطبيعية التي لا تزال تنقص من اجسادنا شيئًا فتضعفها ومثل اجسامنا كمثل السراج الذي ينبغي ان يُتعهَّد بوضع الزيت حينًا فحينًا حتى لا ينطفئ فان اجسامنا تفتقر كذلك الى تناول الغذاء للاستعاضة عما نقصها بواسطة التحليل كما لا يخفى والحال ان النفس تحتاج الى هذا الاصطلاح اكثر مما يحتاج اليهِ الجسد من اجل ان فيها نارًا شهوانية تذيب قوّة الفضائل وتزجّ النفس في ضعفٍ روحي مميتٍ ان كانت لا تتقوّى بتناول هذا السرّ الالهي

ثم انهُ من شأن المأكل الهيولي الأ يقتصر على تقوية الجسد بل يلذّ متناولهُ وذلك بمقدار جودة الطعام واستعداد الفم وحسن الذوق ولكن من ذا الذي تراهُ يستطيع ان يصف شدّة حلاوة هذا المأكل الالهي الذي هو ينبوع كل عذوبة بل العذوبة بعينها فبما انهُ لا مناسبة بين النفس والجسد البتة كذلك لا مناسبة بين لذات النفس ولذات الجسد وحيث ان النفس هي أشرف من الجسد تكون لذتها ولا ريب أحلى من لذتهِ . وبالنتيجة نقول ان كان الله نفسهُ هو المأكل الذي نتناولهُ في هذا السرّ الاقدس فلا يستطيع لسانٌ ملاكيٌ ان يصف ما يفيض من العذوبة في القلب النقي اذ من المحقق ان الله تعالى لا يقدر ان يهبنا على الارض او في السماء شيئًا أثمن من الذي يحظى بهِ القديسون في السماء

اخيرًا كما ان الطعام الارضي يشبع الجسد كذلك الطعام السماوي الذي نتناولهُ في سرّ القربان الاقدس يشبع النفس ايضًا ويُنقذها من الجوع الروحي هذا هو الامر الذي لا يستطيع ان يفعلهُ احد سوى الله تعالى فقط فلا تزال النفس جائعة الى ان يأتي بها الله لانهُ وحدهُ قادرٌ ان يشبعها من اجل انهُ عزَّ وجلَّ وحدهُ هو غايتها ومركز سعادتها ويفعل الله سبحانهُ ذلك بواسطة هذا السرّ الذي بهِ ينال الانسان نورًا يُريهِ بطلان الاشياء الزائلة وزوالها وجلال الخيرات الروحية الابدية فتستخفُّ حينئذٍ النفس بتلك وترذلها وترتاح الى هذه بنشاطٍ وتبتغيها بكل اجتهادها . وقد اعتاد السيد المسيح ان يفعل ذلك بواسطة القربان المقدس في الذين يكثرون من تناولهِ بحسن استعدادٍ فتجد النفس حينئذٍ عذوبةً وتعزيةً في غربتها وقوّةً في اتعابها وعونًا في مخاطرها وتمتلئ من أشواقٍ مقدسةٍ وتزدري بأباطيل هذا العالم . فلتصمت اذًا جميع أعمال الطبيعة حيث ان هذا العمل الالهي يفوقها كلها سموًّا وعظمةً

فيا ايها السرّ العجيب ماذا اقول وكيف اصف عظائمك وانعمتها انك انت على الحقيقة حياة انفسنا ودواءٌ شافٍ لجراحاتنا وتعزيةٌ لاحزاننا وعربون محبة ابن الله للبشر انت

الاتون المضرم فينا محبة الله والواسطة لنيل نعمهِ . انت عربون سعادتنا المؤبدة وكنز النفس المسيحية

لكن اعلم انهُ لابدَّ لنا ان نحسن استعدادنا لتناول هذا السرّ كي نجتني من تناولهِ كل هذه الاثمار والفوائد لانهُ كما ان النفس التي تحلّ بالجسد وتحييهِ لاتحيي العضو المنقطع منهُ بل انما تحيي الاعضاء المتحدة بهِ كذلك الروح الالهي الذي هو حياة انفسنا لا تحيي نفوس الذين هم منفصلون عن جسد الكنيسة بالبدعة والشقاق او الذين هم على خطيئةٍ مميتة . ولكن كما ان الشمس والمطر ينميان النبات والاشجار الحية المغروسة في الارض وبعكس ذلك يضرّان النبات المستأصل من الارض كذلك السرّ الالهي هو للابرار حياةٌ وللاشرار دينونةٌ . ان الدواء والمآكل الجسديين لايفيدان الميت البتة . وكذلك سرّ القربان المقدس فانهُ لاينفع شيئًا من تكون نفسهُ ميتةً بالخطيئة ولهذا يُدعى خبز الحياة وذلك لا من اجل انهُ يمنح الحياة وينميها بالنعمة فقط بل لانهُ يقتضي من متناولهِ ان تكون نفسهُ حيةً بالنعمة ايضًا ولذلك قال الجمع التريدنتيني المقدس . ان كل من يريد ان يتناول سرّ الاوخاريستيا ينبغي لهُ ان يفحص ضميرهُ جيدًا فاذا وجد نفسهُ بعد هذا الفحص في حال الخطيئة المميتة فيلزمهُ الاعتراف بها قبل تناول السرّ لان الذي يجسر على الاتكاء على هذه المائدة الالهية من دون ان يكون لابسًا ثوب العرس فانهُ يُخرَج الى الظلمة الجهنمية

في عيد قلب يسوع الاقدس

الفصل الاول

في ابتداء عبادة قلب المخلص

اعلم اننا في هذا العيد المبارك مقابلةً لما ابان المخلص لأَمتهِ الجليلة مريم مرغاريتا الاكوك من اشتياق قلبهِ الاقدس نعتبر اولاً بداءة عبادة قلبهِ الاقدس وثانيًا موضوعها وغايتها وثالثًا النعم الموعودة لمن تعبَّد لذلك القلب . ان عبادة قلب يسوع تبارك اسمهُ قد ابتدأت يوم طُعن قلبهُ بالحربة وأضحى ملاذ المؤمنين كافةً فهي لذلك تشابه الكنيسة في القِدَم . ولاجرم ان قدماء المؤمنين والشهداء الكرام لما كانوا يقبلّون جراحات يسوع المصلوب بحبّ وايمان كسروا بهما شوكة العذاب والموت قد غاصوا بلثمهم جنب الفادي في تأمل الآمهِ المبرِّحة وحب قلبهِ الذي هو مصدر الحب الغير المتناهي الذي تسعَّر لهيبهُ من حيث بدأ وهذا هو الذي حمل قديسي تلك الاجيال الاجلاء كالقديسين اغسطينوس وبرنردوس وبوناونتورا والقديسات جيرترودة ومانيلدة وكاترينا دي سيناحتى توغلوا في اسرار هذه العبادة الجليلة قبل ان اوحاها الله بطريقة خصوصية شرَّفت الاعصار المتأخرة بحيث رأينا قلب الفادي قد اصبح وتكريم الناس الخاصّ متجهٌ اليهِ . فسقيًا لفرنسا التي نشأت فيها هذه العبادة . وقد اوحى الله تعالى ذلك الى راهبةٍ متورّعة من راهبات الزيارة امتازت على سائر الراهبات بالفضل وخلوص الحب وصحة التقوى . وكان المخلص لهُ المجد قد خصها بنعمٍ ومواهب . قيل انهُ تراءى لها يومًا فقال قد امتلأ قلبي حبًّا للبشر فلم يُطق ان يحوي في ذاتهِ لهيب حبهِ المضطرم فاقتضت الحال إفاضتهُ بما يمكن من الوسائل والطرق واظهارهُ لهم حتى يغتنوا بما يتضمنهُ من الكنوز واما تلك الكنوز فهي نعمة التقديس والخلاص التي لا بدَّ منها لاخراجهم من لجة الهلاك

واعلم ان مقاصد المخلص تبارك اسمهُ قد كشفت لمارغاريتا الجليلة بعد برهةٍ على اجلى وجهٍ فقالت حين كنت جاثية امام القربان المقدس في احد الايام الثمانية التالية عيدهُ الشريف حزت من لدن الهي نعمة حبهِ الفياض فحدثتني نفسي ان اكافئ حبهُ بالحبّ فقال لن يسعك أن تبذلي لي حبًّا عظيمًا الاَّ بان تباشري ما قد سألتكِ اياهُ مرارًا وحينئذٍ كشف لي قلبهُ الاقدس وقال هاكِ قلبًا قد أحبَّ البشر حتى أفنى ذاتهُ اظهارًا لحبهِ ولكن من المستغرَب اني لم اكافأ على ذلك الحب الاَّ بالاستهوان والنفاق وذلك في سرّ محبتي العجيب واعلم ان الذي زاد في حزني انما هو صدور ذلك من قلوب تخصَّصت لي وحيث ذلك اردت ان يُخصَّص لي يوم الجمعة الواقع بعد ثمانية ايامٍ لعيد القربان الاقدس فيكون عيدًا مختصًا لتكريم قلبي فيتقدّم الابرار من مائدتي المقدسة بتمام الورَع والقداسة ليفوا قلبي عما الِمَ بهِ من الهوان وهو معرَّض على المذابح واني لواعد ان قلبي يتدفّق بآثار الحب الالهي على من يكرمونهُ مثل هذا الاكرام او يسعون لهُ في مثلهِ

فعندها أجابت تلك الراهبة الوديعة ربي والهي مَن خاطبت هل انا الاَّ فتاةٌ حقيرةٌ خاطئة فان دناءتي تكون

.انعاً لاجراء مقاصدك الجليلة ذلك فضلاً عن ان كثيرين هم اهلٌ لانفاذ مشيئتك

فقال لها الرب أَوَلا تعلمين اني اختار الضعفاء لأُخزي الاقوياء ومن عادتي ان اظهر قدرتي على يد المستحقرين والأُميين اتمّ اظهار حتى لا يعزوا شيئاً من ذلك الى انفسهم . فقالت ربي اجعل لي وسيلةً الى انفاذ ما امرت فقال اذهبي الى عبدي (وكنى بذلك عن الاب دي كولومبير اليسوعي) وقولي له يبذل جهدهُ في انشاء هذه العبادة فيسرّ بها قلبي فلا يأخذنّهُ الفشل مما يحول دونهُ من المصاعب والعوائق والمشاق اذ لا بدّ دون انشاء تلك العبادة من المشاقّ والعوائق ولكن فليعلم يقيناً ان مَن لا يعوّل على نفسهِ في المهمات فليتكل عليّ فأُذلل لهُ كل صعب اما الاب دي كولومبير المنوَّه بهِ فاذ كان شديد الثقة بفضل تلك الراهبة وثبتت عندهُ صحة مناجاة الله تعالى لها لم يجد بُدّاً من المبادرة الى انشاء تلك العبادة التي هي شريفة جليلة كيفما اعتبرت فابتدأ بنفسهِ واراد ان يكون اول تلميذ لقلب يسوع الاقدس واول متعبد لمحبتهِ فخصص لذلك القلب يوم الجمعة الواقع بعد الايام الثمانية التالية عيد القربان المقدس وهو اليوم الحادي والعشرون من حزيران من اشهر سنة خمس وسبعين وستمائة والف للمسيح

ومذ ذلك اليوم انتشأت تلك العبادة الشريفة التي قام خلق كثيرٌ لابطالها ولا غرو فهذا شان العبادات الكريمة ولكنها نمت ونجحت على رغم انوف المقاومين ولا سيما عقب ان اثبتتها الكنيسة المقدسة وعلى هذه الصورة قد تركت الثقة التي أنطقت القديسة مرغاريتا بما نصهُ اذا رأيت جُلّ الناس قد قاوموا هذه العبادة فلا أفشل بل أُومل ان اراها شائعة . كيف لا وقد اكّد لي صحة ذلك فاديَّ العزيز بكلام فمهِ الطاهر (اخذنا ذلك عن ترجمة القديسة مرغاريتا للسيد لانغوبت)

الفصل الثاني

في كونها رياضة دينية موضوعها قلب المخلص

ان عبادة قلب يسوع ما هي غير رياضة دينية موضوعها قلب الفادي المتوقّد حبّاً للبشر الذين اهانوهُ بجحود النعم وما لا ريب فيهِ ان التعبّد لقلب المخلص لا يقوم بالاقتصار على محبة وإكرام لحمان قلبهِ الذي هو جزء جسدهِ الطاهر بل بتذكر شدة محبة الفادي للناس لانهُ اذ اعوزنا في عبادتنا بل في الرياضات الروحية أشياء حسية تحيي بنا ذكر ما قد اتجهت اليهِ افكارنا وتسهّل علينا ممارسة الرياضة أقام المخلص لنا قلبهُ موضوعاً فعالاً يُذكرنا ذلك الحب الذي حملهُ على ان يُصلب لافتدائنا وان يلبث معنا الى انقضاء الدهر في سرّ محبتهِ وفي الحق ان قلب الانسان هو مصدر الحب ومركزهُ على وجهٍ ما ومن ثمّ فقد اصاب من نسب اليهِ عواطف النفس . وحيث ذلك نقول ان قلب المسيح قد استحقّ علينا أفضل اكرام واتمّ عبادة

واعلم ان الغرض من عبادة قلب الفادي امران جليلان احدهما ان نعرف فرط حبهِ لنا ولا سيما في سرّ القربان المقدس حيث قلّ ما عرفهُ الناس بل قلّ ما احبهُ من عرفوهُ وان نكرمهُ على مقدار استطاعتنا وذلك بسجودنا المتواتر وحبنا التام وشكرنا الصادق وتعلقنا الشديد والامر الثاني ان نجعل ذلك جبراً لما لحقهُ من الاهانة وتعويضاً عما اصاب حبهُ من الاستحقار ايام حياتهِ على الارض وعما لم يزل يلحقهُ كل يوم في سرّ محبتهِ الالهي والحاصل من ذلك كلهِ ان موضوع هذه العبادة الجليلة انما هو قلب المخلص المستعر حبّاً للناس وان غايتنا انما هي التعويض عن احتقار مسّ هذا الحبَّ الفريد ولا سيما في سر محبتهِ الاقدس واما ثمرة تلك العبادة وجزاؤُها فما هما غير استمرار توقُّد الحب للمخلص ونمو تزيد على العدّ

واعلم ان عبادة قلب الفادي هي غير العبادة المخصَّصة لجسدهِ الطاهر في سرّ القربان المقدس فان الاولى متجهةٌ الى قلب يسوع مع قطع النظر عن جسدهِ الطاهر واما الثانية فمتجهةٌ الى كل جسد المسيح المحجب تحت الاعراض السرية بدون ملاحظةٍ خصوصية لقلبهِ الاقدس . اما السبب في عبادة القربان المقدس فانما هو تكريم جسد المسيح المتحد بلاهوتهِ والذي قد استحقّ بهذا الاتحاد سجود الملئكة والبشر واما السبب الخاص في عبادة قلب المخلص فانما هو مجرد اكرام قلبهِ الالهي متحداً باللاهوت خصوصاً ان نعرف فرط حبهِ للناس وان نعوّضهُ تكريماً عما الَمَّ بهِ من الاهانة وما لم يبرح يكابدهُ كل يوم في سرّ محبتهِ من الناس ولا جرم انهُ اغرب شيء صدر من ذلك القلب الالهي

وحيث تقرّر ذلك كلهُ فقد وضح ان عبادة قلب الفادي وعبادة سرّ القربان المقدس قد اختلفتا من حيث الموضوع لكنهما مع ذلك قد اتفقتا من حيث الغاية كما لا يخفى

هذا وبناء على ما علمت فعبادة قلب الفادي لا تنسخ عبادة سر محبته الالهي ولاتنقصها البتة بل تزينها وتكملها اذ قد اشتركت كلتاهما في التكريم. وهل قلب يسوع الا كنز سر النعمة الاقدس فان كنا لانستفيد من ذلك الكنز فذلك كله لاننا لم نحسن استعماله

الفصل الثالث

في كثرة النعم الموعودة لمن تعبّد لقلب الفادي

ان كثرة النعم الموعودة لمن تعبّد لقلب الفادي ذكرها السيد له المجد لأمتهِ مرغاريتا قال لاتخصّي نفسك بهذه النعم فهي مشتركة واني اروم ان اتخذ قلبك مجرًى أصبّ بهِ من تلك الآلاء في النفوس على وِفق ما أشاء ثم اعلمها بانهُ لشدة رأفتهِ بالناس اراد ان يظهر لهم كنوز قلبهِ بان يُلقي في افئدتهم هذه العبادة الجليلة التي من خواصها ان تولد حبًّا للفادي حتى في القلوب القاسية وتجعل بارد الحب يستعر بنار الغرام الالهي فقال لها انشري في كل مكان هذه العبادة الكريمة لديَّ. فانها أصدق وسيلةٍ وأسهل طريقة لمن نوى ان يظفر من لدني بمحبة الله الحقيقية وهي اقوى واسطةٍ يتوصل بها الكهنة والرهبان الى الكمال وغيرهم ممن انقطع لخدمة الله وهي لسائر المؤمنين عبادةٌ تعطيهم النصر على الشهوات القوية وتلقي السلام بين العيال وتغريهم ان يتطهروا من الآثام وان يزيلوا النقائص المتعتقة فيهم ليحصلوا على حبٍّ شديد لي ويبلغوا بطريقةٍ هينةٍ في برهةٍ قليلةٍ اعلى طبقات الكمال. وحيث علمت ذلك نقول هل من حجة أوثق من هذه تجعلنا نعكف على هذه العبادة بعد ان وعدنا السيد له المجد بمثل ما مرَّ بك من المواعد

قالت القديسة مرغاريتا الجليلة أمينة أسرار الفادي في احدى كتاباتها من أين لي ان اقصَّ عليكم كل ما اعرفهُ عن هذه العبادة الجليلة وان أُعلن لسكان الارض اجمع كنوز النِعَم المنطوي عليها قلب المخلص وقد اراد ان يفيضها على جميع الذين يقيمون هذه العبادة

لاجرم ان المخلص اراد ان يُحيي بهذه كثيرًا ممن اغرقتهم الآثام في لجة الهلاك وان يستأصل ولاية الشيطان أخزاهُ الله ويقيم في مكانهِ ملكوت محبتهِ الذي لايسمح في هلاك كل من خصّص ذاتهُ لعبادة قلبهِ الاقدس واني لواثقة بانهُ لوعلم الناس فرط ارتضاء الفادي بالعبادة المشار اليها لما بقي في الارض مسيحيٌّ لا يقيمها ويمارسها ولوكان قليل الحبّ في الغاية وبناء على ذلك أسعى في ان يعتنقها الكهنة والرهبان لانهم ينالون منها مساعدات كثيرة بحيث لا تقتضي الحال طريقة أُخرى لقيام الغيرة الأُولى والتدقيق الكامل حتى في أقل الرهبانيات انتظامًا فهي ترقي من كان في اخفض مراتب الكمال الى أرفعها فقد قال لي المخلص جلَّ وعلا ان الذين يبذلون الجهد في تخليص النفوس اذا كانوا صادقين في العبادة لقلب الفادي ينالون نعمةً يجتذبون بها اشدَّ القلوب قساوةً فيقترن مسعاهم بالفلاح

قال احد الصالحين اني اذا سمعت الغرائب عن قلب الفادي فلا يقع عندي شيء من العجب والانذهال اذ نحن قادرون على كل مانريد وعلى ان نحيا حياةً نسكيةً وضيعةً وان كنّا بين ملاهي هذه الدنيا وغواياتها فان قلب المخلص يشفع فينا لدى الاب الازلي ويُثير في افئدتنا الاشواق المقدسة ويسارع الى اغاثتنا اذا احدقت بنا الاخطار ويستأصل من قلوبنا كل ما يعوق مجد الله ويمهد لنا ما كنا نستصعبهُ ويخرج من قلوبنا الميل الى الدنيا ويبيّن لنا خداعها ويكشف لنا الحجاب عن مكرها واحتيالها ومباديها الكاذبة

وحيث قد نلنا كل خيرٍ بذلك القلب الاقدس فليكن كلاً في كل شيء ولنقدمنَّ له كل وجودنا حتى لايبقى بنا شيء الاّ أفنياهُ بحبهِ الى يوم ينقل النفس الى ابديتهِ ويضعها في أتون ذلك الحب فتلتهب بلهيب تلك النار الالهية

في عيد تكريس الكنيسة

اعلم ان كنائسنا هي رمزٌ الى أمنا الكنيسة المقدسة التي هي هيكل الله على الارض وأُورشليم السماوية ومن حيث اننا دخلنا في بنائها واصبحنا حجارة من جدرانها لخضوع عقولنا للايمان الحقيقي وقبولنا المعمودية فينبغي لنا كذلك ان تثبت فيها بالاتحاد بها نفسًا وقلبًا وبالطاعة لاوامرها فيليق بنا اذًا في عيد تكريس كنائسنا ان نتأمل صفات أمنا الكنيسة المقدسة ولا سيما في وجوب الطاعة لها. لعمري ان الموضوع جزيل الاعتبار لايمكن ان نخاطب المؤمنين بشيء اهمَّ منهُ لان الكنيسة هي عروس سيدنا يسوع المسيح ويريد عروسها الالهي ان

يستمع لها جميع المؤمنين به ويطيعوها ويستشيروها ويعدّوها معلمة الحق لانها هي صهيون التي منها يخرج الناموس واورشليم التي فيها يُنادى بكلام الله تعالى

فاعتبر ايها المؤمن ان الكنيسة تباشر نحو المؤمنين وظيفتين التعليم والتدبير. فتعلمهم بتقديمها لهم الحقائق الالهية للتصديق وتدبرهم بوضعها الشرائع عليهم لان السيد المسيح قد أعطاها سلطتين فبالسلطة الأُولى تعلمنا من قبلهِ تعالى وتقول لنا اعتقدوا كذا وكذا وبالسلطة الثانية تأمر بان نفعل هذا ونمتنع عن ذلك فهاتان السلطتان المختصتان بالكنيسة تقتضيان منا نوعين من الطاعة وهما طاعة العقل وطاعة القلب اما الأُولى فلأَنها تقدم لنا حقائق الايمان فينبغي لنا ان نخضع لها عقولنا وهذا هو الذي نذكرهُ في القسم الاول من هذه العظة. واما الثانية فلانها تضع علينا شرائع واوامر فلا بدَّ لنا ان نقدم لها الطاعة وهذا نوضحهُ في القسم الثاني. فياليت الجميع يجرون على مقتضى هذا القياس الالهي لان الكمال المسيحي قائم في اننا نخضع عقولنا وقلوبنا لما تعلمناهُ وتأمرنا بهِ الكنيسة

القسم الاول

لا جرم ان الصواب يقتضي ان يكون تقديم حقائق الايمان لنا من الأُمور المختصة بالكنيسة وعلينا ان نقبلها ونصدّقها كما قرَّر نظام العناية الالهية واما سبب التزامنا بان نطيع الكنيسة فهو ما اوردهُ القديس كبريانس من ان الله تعالى أقام الكنيسة حافظة للحقائق التي تعلنها وتنادي بها وتفسرها فمن يعتقد ان الكنيسة متصفة بهذه الثلث الصفات ويخضع عقلهُ لكل ما تكلفنا الايمان بهِ كأنهُ أمرٌ من عند الله فهذا يطيع الكنيسة طاعةً عقليةً حقًّا. اني اعترف مع جمهور المعلمين ان كلام الكنيسة ليس هو بكلام الله تعالى على حصر المعنى بيدَ اني اقول ان الكنيسة يخصها ان تقدم لنا هذه الوديعة الالهية ويخصها ان تعيّن لنا معنى الكلام الالهي لان كلام الله سبحانهُ او الوحي الالهي لا يوجد الاَّ في الكتاب المقدس والتقليد فاقول انهُ يخص الكنيسة اولاً ان تكفل لنا حقيقة هذا الكتاب وتفسرهُ . وثانيًا ان تشهد للتقليد وتحققهُ. واقول الآن ان سيدنا يسوع المسيح منح الكنيسة سلطانًا على هذا الامر وان هذا السلطان لم يُمنح لغيرها. ومن الثابت ان الله تعالى لما اعطاها هذا السلطان الزم كل المؤمنين بالطاعة لها في ذلك فما علينا ان نخضع في ذلك الاَّ

لها اي متى وقع جدال في امرٍ من الامور الايمانية او شككنا في قاعدة من قواعد الدين ففي هذه الحوادث ينبغي ان تكون الكنيسة قياسنا المطلق وان نقنع في كلامها على الاطلاق وذلك كما قال الرسول لانها هي عمود الحق وثباتهُ فهذا هو المبدأ العظيم الذي ينبغي ان يعتمد ويجرى عليهِ حسب قول القديس ايرونيموس كل انسان حكيم يجب ان يكون في ايمانهِ ثابتًا فطنًا . وعلى هذا جرى اعظم علماء الكنيسة القديسين

قال القديس اغستينوس اني لم اعتقد ان الانجيل هو كلام الله لو لم تشهد لهُ الكنيسة . فلله درهُ من كلام يخجل المبتدعين وقد اخرج كثيرًا من تحت ظلمات الضلال. واعلم ان القديس المذكور لم يقل ذلك الكلام استخفافًا بالانجيل المقدس فانهُ يُجلُّ عن ذلك ولكن قال ذلك اعلامًا بانهُ ليس لنا انجيل صحيح غير الذي تقدمهُ الكنيسة وتكفل صحتهُ . فبالصواب تكلم اذ من اين نعرف دون شهادة الكنيسة ان هذا الكتاب الذي ندعوهُ انجيلاً هو انجيل السيد المسيح حقًّا وان النسخة اللاتينية المشتهرة تطابق الاصل خصوصًا اننا قد عرفنا من التواريخ الكنائسية ان كثيرين الفوا أناجيل كاذبة حتى في ابتداء الكنيسة ايضًا . وكثيرين ترجموهُ ترجمة محرفةً. ذلك وان في الكتاب الكريم كثيرًا من الايات المغلقة الصعبة الادراك فمن اين نعرف المراد منها وكيف نقطع بهِ انهُ كذا وكذا ولا سيما بعد ان صرفها الناس الى معانٍ ملتويةٍ وان كثيرين من المبتدعين افسدوا هذا الكتاب حتى جعلوهُ لانفسهم وللناس علةً للهلاك المؤبد فقد ثبت ان كل البدع تولدت من فساد ترجمة هذا الكتاب الكريم او من فساد تفسيرهِ. فماذا افعل انا الذي ارتبك عليَّ كلام الله جلَّ وعلا فهل اعتمد على نور عقلي واقنع بانظار فهي الآن العلماء واسماهم فهمًا القديس اغستينوس لم يجسر ان يعتمد على عقلهِ في ذلك ورأى هذا ضربًا من الجهل . ام هل اعتمد على من هو ارفع عقلاً مني . ولكن لا بد ان يكون ذاك ارفع ذكاءً وأعلى فكرًا من القديس اغستينوس. ومن اين اجد مثل من ليس لهُ نظير في ذلك . لعمري انهُ لا سبيل للنجاة من هذه الأشراك أشراك الضلال والهلاك الاَّ بالالتجاء الى الكنيسة التي تسلمت من السيد المسيح كنز الانجيل المقدس وصلّى تعالى من اجلها لئلا ينقص ايمانها . فاليها ينبغي ان التجئَ

مع القديس اغسطينوس ويجب ان لا أسمع الأ لها لان روح القدس يلقنها تلقينًا خصوصيًا وصيرها الله غير قابلة الغلط في اعتقادها ولا تعليمها

والحال ان التزامنا بالالتجاء الى الكنيسة والاستماع منها دليل واضح على اننا ملتزمون بالطاعة لها والخضوع لتعليمها . اذ لا يمكن من دون هذه الطاعة ان يحفظ في كنيسة الله السلام والنظام ولا وحدة التعليم وتواضع الروح . انما قلت اولاً بدون هذه الطاعة لا يمكن ان يحفظ في كنيسة الله السلام بحيث تثور المجادلات وتشتد المناظرات على الكتاب المقدس وتأويل آياتهِ وذلك ما لا ينتهي اذ ليس من سلطان يأمرنا ان نخضع لهُ ولا حاكم حرامٌ علينا ان نرذل حكمهُ . وانما قلت ثانيًا بدون الطاعة للكنيسة لا يمكن أن تحفظ وحدة الايمان بما انهُ متى جاز للانسان ان يفسر آيات هذا الكتاب بحسب رأيهِ وهواهُ تولّد بسبب ذلك بِدَعٌ مختلفة لا تكاد تعدُّ ولا سبيل الى ابطال تلك البدع الناشئة من تفسير كل احد لكتاب الله على مقتضى عقلهِ وموافقة اهوائهِ الاَّ بالرجوع الى القياس الوحيد الذي بهِ تُحفظ في كنيسة الله وحدة الاعتقاد اي تفسير الكنيسة لهذا الكتاب الكريم . وقلت ثالثًا لا يمكن ان يحفظ تواضع الروح من دون هذه الطاعة الكنائسية لانهُ يجوز حينئذٍ لكل مسيحيٍّ عالمًا كان او جاهلاً ان يفضل تفسيرهُ الكتاب المقدس على تفسير الكنيسة لذلك الكتاب عينهِ . وقد اقرَّ بذلك اعظم العلماء الكلوينيين . وقلت رابعًا من الممتنع ان يحفظ في كنيسة الله النظام من دون هذه الطاعة الكنائسية لان وديعة الكتاب المقدس لا تكون حينئذٍ في ايدي الرعاة ولا يلتزم المؤمنون بما قالهُ الروح القدس اي انهم يلتمسون معرفة الناموس من رعاة الكنيسة ويجوز لكل واحد في هذا الامر ان يكون حاكمًا وهكذا تكون الكنيسة كمدينة بابل اعني جماعة مشوَّشة باختلاف الاعتقادات

واما حجة المبتدعين الذين منهم الكلفينيون العاصون على كنيسة الله فهي قولهم من الممكن ان تعثرَّ الكنيسة وتقع في الخطإِ والحال انهم بهذا يعترفون بأمرين اولهما كون الكنيسة الكلفينية قابلة الغلط والضلال . والثاني ان كنيستهم ليست هي الكنيسة التي قال فيها القديس اغسطينوس لو لم تشهد الكنيسة للانجيل المقدس لما آمنت بهِ لان كل كنيسة تعترف انهُ من الممكن ان تُخدَع وتخدع ليست بالكنيسة التي اشار اليها الكتاب المقدس لان الكنيسة التي تُعتقد أنهُ من الممكن ان تكون سندًا للضلال لا تكون هي الكنيسة التي قال فيها الرسول انها عمود الحق وثباتهُ فمن اجل ذلك قال القديس غريغوريوس المعظم عن الاربعة المجامع الكنائسية الأُولى انهُ يقبلها ويحترمها كالاناجيل الاربعة التي يحترمها ويجلُّها

فمن الواجب علينا اذًا ان نخضع لتعليم الكنيسة خضوعًا عقليًا كاملاً واقول في هذا الخضوع العقلي للكنيسة اربعة أُمور جزيلة الاعتبار من شأنها ان تؤثر في كل من يريد الايمان الحقيقي

فالامر الاول هو ان اخضاع العقل لما تقطع بهِ الكنيسة من الاحكام الاعتقادية يجعلنا نتَّحد بها ويصيرنا أعضاء جسدها ويحيينا بروحها ويجعلنا ابناءها كما أيد ذلك المعلم الملتكي حيث قال من المسلم اننا لا نصير اعضاء الكنيسة الا بواسطة الايمان والحال انهُ لا يمكن ان يكون الايمان دون ما اشرنا اليهِ من الخضوع لاحكام بيعة الله . على انهُ كي يؤمن الانسان ينبغي لهُ ان يخضع لا لكلام الله تعالى والهامهِ فقط بل لا بدَّ لهُ ايضًا ان يخضع للقياس الذي يأتينا بهِ هذا الكلام والاعتلان الالهي ومن هو الذي يقدمهُ لنا فهو بلا شك الكنيسة . فاذا ابينا الطاعة للكنيسة في امور الايمان فنكون عليها متمردين وعنها منفصلين وما هي بامّ لنا ولا نحن ببنين لها ومن لا يُطيعها في قواعد الايمان ولو كان غاية في العلم والبرّ ونظير الانبياء والملئكة فهو عضوٌ منفصل مقطوع من الكنيسة . وهذا الذي جعل الاباء القديسين يَرثُون لبعض اناس جليلي العلم كبيري الاستحقاق وفي هذا الصدد قال القديس ايرونيموس مخاطبًا انك على الاطلاق تستشهد علينا بكلام ترتوليانوس المضاد رأية تعليمنا وايماننا لانهُ في نفس اليوم الذي أبى فيهِ الطاعة للكنيسة والخضوع لتعليمها انفصل عنها فهو منفصل عن بيعة الله تعالى وهذه اللائمة في غاية الفظاعة فهذا النصيب الرديءُ هو نصيب من جعالة الكبرياء يعصي الكنيسة ويتشامخ عليها وينبذ تعاليمها نسأل الله ان يُنقذنا برحمتهِ من الكبرياء بتواضع الايمان

واقول ثانيًا انهُ لا يكفي لخلاصنا ان يكون اشتراكنا في الكنيسة بحسب الظاهر اي بدون ان يكون فينا روح الطاعة لان الشيء الذي بهِ نتحد بالكنيسة ويصيرنا

ابناؤها ليس هو العبادة الظاهرة بل انما هو الخضوع الباطن الروحي لتعليمها. وبناءً عليهِ لا يستفيد الانسان ان يفعل بحسب الظاهر اي من دون الطاعة الباطنة جميع ما يفعلهُ ابناء هذه الكنيسة من حضور القداس والاعتراف وتناول القربان المقدس وممارسة كل الامور التقوية ولا غرو فان الطاعة المشار اليها هي اخص خيرات الدين المسيحي فمن كان من ابناء الكنيسة في ظاهرهِ لا في باطنهِ فهو عند الله سبحانهُ منفصل عن الكنيسة ولا ايمان لهُ. وقد لاحظ هذا الامر القديس اغسطينوس في قوم من المبدعين الدوناتيين الملتبسين الذين مع كونهم مشاقين في قلوبهم كانوا لاغراضٍ دنيوية يتظاهرون بالكثلكة فقال الاب الجليل اعلموا يا إخوتي ان هؤلاء واولئك هم مسيحيون كذبة ومسحاء دجالون

واقول ثالثًا ان هذا الخضوع للكنيسة هو اخص علامة يُعرف بها المؤمن الحقيقي لان هذا هو معنى الكلام العجيب الذي تفوَّه بهِ الرسول متى حيث يقول انهُ لا بد من ان تكون الشكوك (١٨: ٧) وذلك بحسب تفسير القديس ايرونيموس لكي يُعرَف اولئك الذين هم متعبدون حقًّا لله كما انهُ متى تمردت الشعوب على الملك تُعرَف العبيد الامناء فعلى هذا المنوال ينبغي ان يكون الشقاق ليظهر المختارون. ولقائلٍ ان يقول أمَا كان يكفي ان يكون المؤمنون الحقيقيون معروفين من الله تعالى فقط فنجيب كلاَّ لان الله تعالى لا يكتفي في ان يكون ايمانك معروفًا عندهُ بل يريد ان يكون عند الكنيسة محقَّقًا ايضًا والحال ان ايماننا لا يتضح للكنيسة اتمَّ وضوح الاَّ حين نرذل جهرًا ضلال المتمردين عليها ونخضع لتعليمها

فمن اجل ذلك نرى القديسين المعظمين الذين نسميهم آباء الكنيسة الذين ما جرى عليهم هذا اللقب الشريف الاَّ لانهم طاعوا الكنيسة كبنيها فانهم عند كل شقاق وبدعة نادوا جهارًا بالخضوع للكنيسة واعتقدوا ان اظهار طاعتهم لها امرٌ واجبٌ على كل مؤمن وحيث انهم يعلمون ان الكنيسة الرومانية هي رأس كنائس العالم ومركزها الوحيد فكانوا يحترمونها احترامًا بليغًا ويطيعونها اكمل طاعةٍ ولما رأى القديس ايرونيموس كنائس المشرق مشوَّشةً بالبدعة والشقاق بعد المجمع النيقاوي وان اولئك المشاقين المختلفين يجتهدون في اجتذابهِ الى اعتقادهم صاح قائلاً من كان معتصمًا بكرسي بطرس وطائعًا لهُ فذلك معي لاني ساكون على الدوام معتصمًا بكرسي الحبر الروماني الذي هو كرسي بطرس الرسول وذلك لعلمي بانهُ هو الصخرة التي بُنيت عليها كنيسة الله. فمن لا يجمع معهُ فانهُ يُبدّد ومن ليس هو من خاصة الحبر الروماني فليس هو من خاصة المسيح. فهذا ما تكلم بهِ القديس ايرونيموس وهذا هو الذي يجب ان يقولهُ كل مؤمن من ابناء الكنيسة

الاَّ انهُ يكفينا ان نقول هكذا بل اقول ايضًا انهُ لا بدَّ ان تكون افعالنا مطابقةً لهذا الكلام وربما ان الذين ينفصلون عن الكنيسة كما لحظ القديس برنردوس ويتمردون عليها يخالون انهم ينتصرون للعدل على وجهٍ ما كما ان الذين يتعصبون على الملك يقع في ظنهم ان نيتهم حسنة وانهم محامون عن العدل الاَّ انهم ضالُّون لانهُ كيف يمكن ان يكون ابنًا للكنيسة من يقوم عليها حاكمًا ويلوم تدبيرها ويرذل حكمها ويمدح ما تلومهُ ويقبل ما ترذلهُ ويقرأُ ما تنهى عن قراءتهِ

فليتذكر كلٌّ منا ان دينونتنا المخيفة سيبدأُ بها بالفحص عن طاعتنا للكنيسة في ما يخص الايمان وان وجدنا في ذلك ناقصين فيحكم علينا حالاً بالهلاك المؤبد وحينئذٍ باطلاً نورد لله ما مارسناهُ باسمهِ من افعال التقوى والمحبة والعدل والرحمة والرأفة بالمساكين لان كثيرين سيقولون حينئذٍ يا رب يا رب ألم نكن باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا الشياطين وباسمك صنعنا قوّاتٍ كثيرة. اما الديان الالهي فيقول لهم اني لم اعرفكم قطُّ فاذهبوا عني يا فاعلي الاثم (متى ٧: ٢٢) لانهُ قد كان يجب ان تبنتوا كل هذه الافعال الحميدة على اساس الكنيسة ها انتم قد بنيتم على اساس الشقاق فقد زرعتم كثيرًا ولا تحصدون شيئًا وكما انهُ لا خلاص في الخارج عن الكنيسة كذلك ليس ثمَّ افعال صالحة مفيدة للخلاص. ولذلك لما عزم النبي الملك داود على تمجيد الله تعالى ومدحهِ انما أراد ان يمجدهُ تعالى ويمدحهُ في الكنيسة لعلمهِ بانهُ عزَّ وجلَّ لا يقبل مدائح اسمهِ القدوس المترنم بها في خارج الكنيسة. فقال ذلك النبي اعترف لك في البيعة العظيمة (مزمور ٣٤: ١٨) وقد بشرت بعدلك في بيعتك العظيمة (مزمور ٣٩: ١٠). وكل ما لي من الاستحقاق فاني رجحتهُ في الكنيسة ومدحتي عندك في الكنيسة العظيمة (مزمور ٢١: ٢١) ثم اعتبر مع القديس اغسطينوس ان المرتل لم

يقل في البيعة فقط بل قال في البيعة العظيمة التي هي الكنيسة الكاثوليكية الجامعة الوحيدة التي فيها يقبل الله عزَّ وجلَّ عبادتنا

فهذا هو الامر الذي يجب ان نلاحظهُ أولاً فينا ونجهد انفسنا في الفحص عنهُ لان خلاصنا وهلاكنا متعلقان بذلك . فيا ما اكثر الذين يضلون في عبادتهم وهم الذين يدحون كثيرًا طريق الانجيل الضيقة في ما يخص السيرة المسيحية ومع ذلك نراهم سالكين في الطريق الواسع نظرًا الى ما يخص الايمان . والحال انهُ كما قال القديس لاون المعظم ينبغي ان تكون اول خطوة نخطوها في الطريق الانجيلي الضيق اخضاع العقل لاحكام الكنيسة واضطرارهُ الى ترك آرائهِ المضادة الاحكام . ولاجرم ان من كان على هذا الحال فقد دخل في طريق المسيح الضيق وليس الطريق الضيق قائمًا بهذا فقط بل لانهُ بهذا ندخل فيهِ ولا يفيدنا بدون هذا سلوك الطريق الضيق نظير اصوام الموتانيين المشاقين الكثيرة الطويلة . آه ما اكثر الذين قد هلكوا وسيهلكون لاجل عدم طاعتهم للكنيسة . اني اعرف ما يحتجُّ بهِ اولئك المتمردون على الكنيسة ومن قولهم ان رؤساء الكنيسة ومدبريها هم بشر كسائر الناس قابلو الزلل والغلط مثلهم ولكن هذه الحجة باطلة لا سند لها ولا اعتبار لانهُ ينبغي لنا ان نعتبر الكنيسة ملهمةً من الروح القدس ومتنوّرةً منهُ في كل تعاليمها ونتذكر ما قالهُ السيد المسيح من ان ابواب الجحيم لن تقوى عليها . فمثلنا نحن المخضعين عقولنا للكنيسة كمثل الذين يسافرون في سفينة بطرس التي ما دمنا فيها لا يدركنا الغرق لان الذي يدبر سفينة بطرس هو الذي يأمر الرياح بالسكون والامواج بالهدوء فتسكن وتهدأ . فلنتكل على هذا المرشد الالهي الامين في وعدهِ ولنستمرّ طائعين لهذه الكنيسة التي يجبها لا بمجرد اخضاع العقل لتعليمها بل باخضاع القلب ايضًا لاوامرها

القسم الثاني

انهُ لكي يتضح جليًّا وجوب طاعة القلب للكنيسة اعني خضوع القلب لأوامرها اقول اولاً . انهُ يكفي ان تكون الكنيسة امنا لينتج من ذلك ان لها سلطانًا ان تأمرنا واقول ثانيًا . انهُ يكفي ان نكون ابناءها لينتج من ذلك ان اجراء اوامرها امرٌ واجبٌ علينا ذمةً واقول ثالثًا . انهُ لا يمكن ان نخالف امرًا من اوامر الكنيسة من دون ان نخالف معًا وصية الله تعالى واقول رابعًا . ان تجاسرنا على مخالفة اوامر الكنيسة امنا ينشأ عن استعداد قلب كافر خالٍ من روح الديانة

اي نعم ايها المباركون ان الكنيسة بحسب كونها امنا لها علينا سلطان الامر والنهي واعلم ان هذه النتيجة المبنية على الشريعة الطبيعية غنيةٌ عن الاثبات ولما كان الكاثوليكيون يجادلون مشاقي الاعصار القديمة ويقولون ان الكنيسة هي ملكة لانها عروس ابن الله . ولاجل كونها ملكةً لها سلطان على وضع شرائع ينبغي للمؤمنين ان يطيعوها اشمأزَّ اولئك المشاقون من هذا الرأي ورذلوهُ . وكانوا يقبلون كنيسةً ولكن الكنيسة التي كانوا يقبلونها كانوا يريدون ان تكون كنيسةً خاضعةً خاليةً من سلطان ضعيفةً عاجزةً . ولم يطيقوا ان يسمعوا بكنيسة ذات سلطة روحية مطلقة . ومن ثم قال لوتاروس ومبتدعون آخرون ليس للكنيسة ان تضع شرائع على المؤمنين وان اتخذت ما اتخذت من السلطة على وجه الظلم والاعتداء . وبهذا أظهروا انهم خلفاء اولئك المبتدعين الذين يرذلون كل ربوبية مجدّفين ولا يطيقون السلطة الواجبة . ولكن لما شرع الكاثوليكيون يثبتون لهم ان الكنيسة هي ام جميع المسيحيين . وان الام لها سلطان على اولادها . وانهُ من حيث هي مكلّفةٌ ان تدبرهم يحقُّ لها ان تأمرهم وتنهاهم ولما عجز المبتدعون عن انكار المقدمة تضايقوا من قبل نتيجتها . وابتدأوا يشنعون رؤساء الكنيسة بانهم تجاوزوا حدود سلطانهم . ولعمري ان هذا المهرب واضح لا يضعف اعتقاد الكاثوليكيين لانهُ وان سلّمنا بما افتروهُ على خدام الكنيسة او رعاتها من انهم جاوزوا حدود الصواب كيف ينتج من ذلك ان الكنيسة عدمت سلطانها الذي اعطاها اياهُ السيد المسيح ألا ترى ان السيد لهُ المجد لما كان في هذه الدنيا بناسوتهِ أيد سلطة الكتبة . والفريسيين الذين كانوا اشرارًا حيث قال . فمهما قالوا لكم فاحفظوهُ واعملوا بهِ واما مثل اعمالهم فلا تعملوا (متى ٢٣ : ٢) . ولكنَّ قومًا من الكاثوليكيين الفاترين المتراخين يقترون ايضًا على سلطان الكنيسة المذكور فلا ينكرون سلطانها الروحي على المؤمنين ولا يتجاسرون ان يقولوا في اوامرها انها مخالفة العدل والصواب . ولكنهم في اعمالهم يتصرفون كأنهم غير خاضعين لسلطانها او كأنَّ شرائعها لا تلزمهم . والآن فانا أسأل من فا

الذي يفتري على الكنيسة اعظم افتراء . هل المبتدع الذي ينكر سلطان الكنيسة على المؤمنين ام الذي يقر بسلطانها عليهِ ويخالف اوامرها . فقد تحقق اذًا ان الكنيسة لها سلطان ان تضع شرائع على المؤمنين . واقول الآن اننا مكلفون ان نحفظ شرائعها . فقد انكر هذا كلفينوس المبتدع وقال لا ادري كيف يمكن ان مخالفة قوانين بشرية تؤثم الانسان لدى الله . ولكني أقول له ان كنت تفهم جيدًا كيف تؤثم الابن امام الله مخالفتهُ لوصية أبيهِ فمن العجب انك لا تفهم ان مخالفة المؤمن وصيةَ الكنيسة امهُ تجعلهُ عند الله مذنبًا . وياليت شعري لماذا لا يكون للكنيسة التي ولدتنا ولادةً روحيةً سلطة روحية علينا كسلطة الذين ولدونا ولادةً جسديَّة لان الوجود والحياة والتربية التي اتخذناها من الكنيسة هي أشرف من التي اتخذناها من أبوينا الجسديين . فليكن اذًا قاعدةً وثيقةً عند المؤمنين ان شرائع الكنيسة هي لحافظيها ينابيع النعم . وهي لمخالفيها ينابيع اللعنة والهلاك لان السيد المسيح قد جعل نصيبهم مع نصيب الوثنيين والعشارين حيث قال وان لم يسمع من البيعة فليكن عندكم كوثنيٍّ وعشار (متى ١٨ : ١٧) لان الذي يفضي بنا الى ان يحسبنا المؤمنون كوثنيين فهو على الاقل خطيئة مميتة فاصغوا تمام الاصغاء كما قال القديس الجليل اغستينوس في هذا الصدد . على ان ذلك العلامة المفضال لما تكلم في الصوم الذي امرت بهِ وعينتهُ الكنيسة لم يسمّهِ فضيلةً يمارسها الصديقون بروح التعبُّد . او رياضة توبةٍ اختيارية يمارسها الخطأة . ولكن سماها شريعةً كنائسية يلتزم بحفظها الخطأة والابرار . قال ان الصوم في سائر ازمنة السنة فعلٌ ممدوحٌ وفعل صلاح وتعبد . كذلك عدم الصوم في الازمنة التي عينتها الكنيسة هو خطيئة مهلكة . فاذًا من يصوم حينما لا تلزمهُ الكنيسة بذلك فان صومهُ يكون اما دواءً روحيًا واما فعل فضيلة . واما الذي لا يصوم في الزمان المعين من الكنيسة فانهُ يأثم . وتعليم القديس هذا يتأسس على هذه القاعدة وهي ان الكنيسة أمٌّ المؤمنين ومن لا يطيعها فيما تامرنا بهِ من اعمال العبادة الواجبة فانهُ ابنٌ متمرد على أُمهِ ومرذولٌ من الله تعالى وياليت شعري ما الذي تامرنا بهِ الكنيسة . لعمري اننا اذا تبصرنا في ذلك بفكرٍ صافٍ وقلبٍ لم يستأسرهُ هوى المخالفة فلا جرم اننا نجدهُ موافقًا الصواب لان الكنيسة تأمرنا أن نحضر تقدمة الذبيحة الالهية . وان نتناول في كل سنةٍ السر

الذي ارتسم ليكون قوت نفوسنا وعربون خلاصنا . وتامرنا بقطائع واصوام نكفّر بها عن آثامنا . فهل يوجد في هذه كلها شيءٌ تجاوزت بهِ الكنيسة حدود العبادة التي سماها الرسول عبادةً لائقة موافقة الصواب . هل لنا ان نقول على الكنيسة انها في اوامرها لم تلاحظ ضعفنا ولم تبال باحتياجنا ونفعنا او انها لم تفعل ما يليق بأُم ذات فطنةٍ وغيرة وبأُم مرشدة متنورة من الروح القدس . فلو لم تضع علينا هذه الاوامر لكان ينبغي لنا ان نضعها على أنفسنا

وان قال معترض ان هذه الاوامر لم يضعها الله تعالى بل انما وضعتها الكنيسة فقط . اجيب نعم الاَّ اني قد سبقت وقلت انهُ من الممتنع ان نخالف مثل هذه الوصايا الكنائسية ما لم نخالف معًا وصيةً من اعظم الوصايا الالهية لان كل وصية كنائسية هي مقترنة بوصية الهية تؤيدها وتثبتها . اعلم ان هذا الامر لا يختصُّ ببعض الوصايا الكنائسية التي كما قال القديس توما اللاهوتي هي كنائسية والهية ايضًا كالوصية بتناول القربان المقدَّس . لانهُ من المحقق الواضح ان سيدنا يسوع المسيح قد جعل تناول هذا السر كواسطة ضرورية لحفظ حياة النعمة فينا ضرورةً جوهريةً . ولهذا قال بفمهِ العزيز ان لم تاكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمهُ فلا حياة لكم في انفسكم . (يوحنا ٦ : ٥٤) فاذًا حينما اتناول القربان المقدس في عيد الفصح أفعل ما وجب عليَّ من قِبَل وصيتين . الوصية الاولى هي كنائسية والاخرى هي سيدية وضعها الرب يسوع . هذا وفضلاً عن تلك الوصايا الكنائسية التي ليست هي كنائسية الاَّ نظرًا الى تعيين الزمن فقد قلت آنفًا وأقول الآن ايضًا . ان مخالفة وصايا الكنيسة هي غير منفكَّة عن مخالفة شريعة الله تعالى . مثال ذلك انهُ متى اوصتنا الكنيسة وصية خصوصية بان نصوم فحينئذٍ يأمرنا الله سبحانهُ بشريعة عامة ان نطيع الكنيسة ولا يمكن ان نتعدَّى الاولى ما لم نتعدَّ الثانية ايضًا لان الوصية الثانية تؤيد الاولى وتثبتها . كما قال الانبا جرسون فهذا ما استنتجهُ العلماء اللاهوتيون مما خاطب بهِ السيد المسيح رسلهُ حيث قال : من سمع منكم فقد سمع مني ومن احتقركم فقد احتقرني (لوقا ١٠ : ١٦)

ولهذا قلت رابعًا ان الاجتراء على مخالفة أوامر الكنيسة أمنا ينشأُ عن استعداد قلبٍ كافرٍ خالٍ من روح الديانة ولا ريب ان هذا يجعل اثم المخالفة اشدَّ واثقل . واما من جهة

الوصايا الالهية فانها تخالف من وجوهٍ أُخر كثيرة يجوز لنا ان نسميها تجاريب بشرية لانها قد تخالف قبلاً من جهة احتداد الشهوة واشتداد الألم . او من اجل حادثةٍ تدهم الشخص بغتةً . واما الوصايا الكنائسية التي اكثرها ليست بعسرةٍ . ويمكننا ان نحفظها من دون ان نقاوم الاماً شديدة. فما يحثنا على تعدّيها سوى روح التمرّد والازدراء بواجبات الديانة ولاجرم ان مثل هذا الاستعداد هو أشدّ خطرًا من الخطايا الناشئة عنهُ . وهو يزيد الخطيئة شرًّا وكلامي هذا يساق اليكم ايها الاخوة الكاثوليكيون فمجدوا اذًا السيد المسيح بطاعتكم عروسهُ المجيدة اي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . احفظوا القطائع والاصوام وسائر ما اثبتتهُ من الرسوم الكنائسية ولا تجعلوا سببًا للمبتدعين حتى يهينوا الكنيسة الكاثوليكية بقولهم فيكم انتم قد انفصلتم عن جماعتهم من اجل كثرة اصوامهم وطولها . ولا تسدّوا دونهم باب الرجوع عن ضلالهم ولا تبطلوا بروح التمرد وحركة التجبر عوائد حميدة اثبتتها البيعة ونائب السيد المسيح بل قولوا مع الرسول ان كان الطعام يشككك أخي فلا آكل اللحم الى الابد لئلا اشكك اخي (١ كورنثس ٨ : ١٣) . هذا واعلموا ان خلاصكم الأبدي متعلق بحفظ أوامر الكنيسة . اننا نلتجئ اليك يا ايها القديس بطرس يا من استودعهُ السيد المسيح مفاتيح بيعتهِ وصيرهُ حجرًا اصليًا ثابتًا بعدهُ . واقامهُ على الرسل رئيسًا وجعلهُ للكنيسة كلها رأسًا فساعدها الآن في السماء بشفاعتك كما رعيتها وانت على الارض فيما سلف بسلطانك . واستمح لنا من سيدنا يسوع المسيح نعمًا نقدس أبناء الكنيسة وتهدي الضالين الى بيعتك . وتبلغ بنا الى ان نمجد الله تعالى الى ابد الدهر في دار النعيم آمين

قال متمّم هذا الكتاب وضابط روايتهِ أحد الاباء اليسوعيين قد حصلنا على اصلهِ القديم على يد المتورع الفاضل الشماس ميخائيل بصال الحلبي السرياني الكاثوليكي الذي تبتّل لله تعالى وقضى جلّ حياتهِ في تلاوة الاسفار الروحية ولا سيما هذا السفر الخطير الذي جمع فأوعى من تراجم اولياء الله المقرَّبين وآثار اصفيائهِ المكرَّمين حتى صار جديرًا بهِ ان يقال في مثلهِ فليتنافس المؤمنون وكثيرًا ما كان رحمهُ الله شديد العناية قويَّ الحرص على صيانة الكتاب المشار اليهِ وبقائهِ وتكثير فوائدهِ حتى انهُ عانى نسخهُ بيدهِ مرارًا لانهُ كان لم يزل في مدافن الخط حتى اخذنا في طبعهِ بعد تهذيبهِ وتتميمهِ كما اسلفنا . واعلم انهُ قد كفى بذلك كلهِ شهادةً على صدق تقواهُ ولاسيما في مثل هذا العصر الذي سرى فيهِ روح الكفر وأخذ بعض المؤمنين تراخٍ في اقامة شعائر الدين ولا سيما في حفظ سِيَر الابرار ورغبوا عنها الى قراءة قصص لا تجتني منها النفس نفعًا بل ربما تخلّ بالآداب فضلاً عن الدين وما مرَّ بك تعلم انهُ كان عريقًا في التقوى مقتفيًا آثار القديسين في ممارسة الفضائل حتى توفَّاهُ الله الى رحمتهِ في اواخر كانون الاول ختام سنة ١٨٧٨ ليمتعهُ بحسن جزائهِ وجميل ثوابهِ كما دلّت على ذلك سيرتهُ المومأ اليها واقوالهُ التقوية وافعالهُ التعبُّدية التي منها انهُ لم يُرد ان يلبس على راسهِ وهو محتضرٌ في النزع فقيل لهُ في ذلك فقال لا يليق ان اموت مغطَّى الراس وقد مات سيد القديسين مكشوف الراس هذا وقد ذكرنا ما ذكرناهُ من مناقب الرجل اشعارًا بمنتهِ ونشرًا لاريج فضلهِ رحمهُ الله رحمةً واسعةً

وكان الفراغ من تنقيحهِ وطبعهِ في اليوم الثلاثين
من تشرين الاول سنة ١٨٨٠ للمسيح
والحمد لله على حسن
الختام

ملحقٌ للمصحح

يشتمل على بعض ما تركهُ الاب الجليل بطرس فرماج من تراجم القديسين المكرمين واضفناهُ الى الطبعة الثانية

اليوم التاسع عشر من تموز

وفيهِ ترجمة القديس منصور دي بول منشئ الجمعية العازارية واخوية راهبات المحبة

هو بطل المحبة والكاهن الفاضل البارّ الذي احيا في راس المائة السابعة عشرة غيرة اكليروس فرنسا بمواعظهِ ورياضتهِ الكنائسية وبشّر بالانجيل مدننا وقُرانا بنفسهِ وعلى يد ابنائهِ وأصار ضياء الايمان الى افريقيا وآسيا. هو ابو الفقراء واليتامى المحسن على الوف الوف من الناس . هو القائم عدة سنين بنفقة اهل لورينا وكمبانية وبيكردية في معظم اضرار الحرب الاهلية. هو منتذ كثير من الاولاد المتروكين والمعرضين للموت منذ ولادتهم . هو واضع الطريقة العجيبة طريقة راهبات المحبة اللواتي يعزّين جمّا غفيرًا من المرضى ويعلّمن او يساعدنَ كثيرًا من الشيوخ والفقراء ويربّينَ على الايمان عددًا وافرًا من الاولاد ويعتنينَ بجيوشنا في محاربتهم البعيدة كأنهنّ في قلب الوطن . هو صديق كل خدام الله العظماء وجميع اكابر عصرهِ. هذا وكانت ولادتهُ بدسكرة من رعية بوي باقليم غسكونيا على لحف جبل بيرينية

لما كان اول يوم ثلاثاء بعد عيد الفصح الواقع في ٢٤ من نيسان سنة ست وسبعين وخمس مائة والف على عهد هنريكس الثالث رزق الله فرنسا وهي في اشدّ المحنة الولد الذي يُدمِل جراحها ويرمّم اخربتها ويفضل الجميع في إعداد مجدٍ لجبلها الكبير . وابواهُ غيليوم دي بول وبرترند موراس كانا فقيرين . ورعى هذا القديس في صباهُ مواشي ابيهِ نظير داود النبي ولم يكن يخجل من دناءة نسبهِ ولما امرهُ يومًا برنس دي كوندي ان يجلس بين يديهِ حملهُ التواضع على الاعتذار فقال لقد شرّفتني ايها البرنس حيث اذنت لي ان امثل بين يديك أما تدري باني ابن قروي فقير . اجابهُ ذلك البرنس دي كوندي الذي كان عاقلاً شجاعًا . الاخلاق المهذّبة والسيرة الصالحة هي الشرف الحقيقي للانسان

وان هذا القديس منذ حداثتهِ اظهر عواطف المحبة التي صار عليها مدار سيرتهِ كلها وقد كان وقتئذٍ يُحسن بخبزهِ وثيابهِ الى الفقراء وجمع يومًا من فرط الاقتصاد شيئًا من الدراهم واهدى ذلك الكنز القليل الى فقير مهمل. ولا ريب ان هذه الضحية قُيدت لهُ في سجل الله ولربما انهُ استحقّ بسببها نِعم الله التي ارتقى بها الى مقام الاولياء

ولما كان ابن اثنتي عشرة سنةً بعث بهِ ابوهُ الى مدينة اكس ليدرس على الاباء الكردالبين ولم يمر قليل من الزمن حتى امتاز بذكائهِ وحبهِ للدرس وحسن سيرتهِ. ومن فرط تقواهُ اشتهى معلموهُ ان يكون اكليريكيًا ونصحوا لهُ بذلك فاتبع نصيحتهم كانها امرٌ من عند الله فقص شعرهُ وترقى في الدرجات الصغار في ٢٠ من كانون الاول سنة خمس وتسعين وخمس مائة والف ثم درس علم اللاهوت بسراغسا ثم بتولوزا . وكان يعلم في تلك البرهة احداثًا من شرفاء الناحية الجنوبية وكان في جملة اولئك الاحداث ابنا حفيدين لاخي يوحنا دي لافاليت السيد العظيم والبطل المشهور الذي حامى عن جزيرة مالطة بازاء جنود السلطان العثماني. وعاش ذلك الشاب القديس عيشًا ضيقًا قشفًا وثابر على ذلك الى ان توفاهُ الله وكان يقوم باكرًا ولا ينام الا بعد سهر طويل ليحصل على الزمان الكافي لتقديس نفسهِ وتعلمهِ وتعليم تلاميذهِ وصرف على درس علم اللاهوت سبع سنين وارتقى في اثناء تلك المدة اي في ٢٩ ايلول سنة ثمان وتسعين وخمس مائة والف الى درجة الشماس الرسالي وبعد ثلاثة

اشهر الى درجة الشماس الانجيلي وبعد سنة ارتسم كاهنًا وكان عمره اربعًا وعشرين سنة

الا انهُ مع قضائهِ سبعة اعوام في تعلم اللاهوت وشدة ذكائهِ وقوة ذاكرتهِ وملازمتهِ للعمل لم يظهر انهُ ارتقى الى مرتبة الا الى مرتبة الدرجة الاولى طالما كانت المدارس الكلية تشرف العلم وتثمنهُ ثمنًا عاليًا . وكان مع ذلك مشهورًا بحذاقة عقلهِ وبهذا الاجلال استحق ان يُقام كاهنًا على بلد تيت غير انهُ ابى ذلك من تلقاء نفسهِ لانهُ كان قد أُقيم اخر على ذلك البلد من قبل الحبر الاعظم وكان القديس شديد الطاعة للبابا

وفي ذلك الوقت بعد ان ترك لهُ احد اصدقائهِ شيئًا من المال سافر الى مرسيليا ليستوفي دينًا حصل لهُ من ذلك الترك فوهب للغريم اكثر من ثلثهِ لمجرد محبة القريب . ولما رجع بحرًا الى نربونا هجم على السفينة لصوص تونسيون فأخذوها واصاب القديس في القتال سهم فتألم منهُ طويلاً وبيع لصيادٍ ثم لطبيبٍ وهذا اقامهُ وقَّادًا لنار عشرة او احد عشر كورًا لاجل الاستحضارات الكيميائية وبيع اخيرًا لجاحدٍ من بلد نيص فذهب بهِ ذلك الجاحد الى مصيفٍ لهُ ببرية وتبين لهُ ان رجاءهُ في ان ينال الحرية قد خاب الا ان لله مقاصد عجيبة . ولما رأت امرأة ذلك الكافر صبر عبدها وطيب اخلاقهِ تعجبت فسألتهُ بالتفصيل عن ديانتهِ وعن طرائق عبادتهِ وأعيادها وقالت لهُ يومًا رنم لي بعض التسابيح التي تترنمون بها في بلادكم

فتذكر عند ذلك الكلام المؤثر الذي نشأ عن حزن اسرى بابل الذين انتفوا عن بلادهم ولما اخذ يترنم لتلك المرأة بالايات الاولى من المزمور الذي اولهُ على انهار بابل جلسنا وعند ذلك جرت الدموع على وجههِ الشاحب

ثم رنم السلام الملاكي ابتغاء ان تستخدم البتول في انقاذ هذه المرأة المسكينة واذ طربت من تلك الترانيم وأثر فيها ما علمتهُ من حقائق النصرانية اظهرت لقرينها بسذاجة قلبٍ انها مستغربة تركهُ دينًا في غاية الحسن . فخجل ولم يتكلم الا انهُ لم يستطع ان يُسكت ضميرهُ فكاشف عبدهُ بذلك وبعد عشرة أشهر هربا في زورقٍ ضعيف بحفظ الله والبتول واقتادتهما نجمة البحر الى أبك مورت فصعدا الى البر في ٢٨ من حزيران سنة ستٍّ وستمائة والف

وانطلقا من أبك مورت الى مدينة افنيون وهنالك صالح الجاحدَ والكنيسةَ وكيلُ النائب البابوي اما سالفهُ الذي رجع الى رومية فاستصحب القديس منصور الذي كان قد عرف اهليتهُ وابقاهُ ثمة زهاء سنتين وانزلهُ في قصره واطعمهُ على مائدتهِ . ولما كان القديس منصور في سن الشيخوخة لم يتأتَّ لهُ ان يتكلم بدون ان يثني على هذه الاعوام السعيدة التي زار فيها قدس الاقداس بالمدينة المقدسة ونزل الى دماميس الشهداء وصلى هنالك حيث كان قد صلى قبلهُ كثيرٌ من أصفياء الله الكرام

واشتهرت في رومية كما في تولوزا وافنيون مناقب هذا القديس على رغم احتشامهِ . فوثق بهِ كل الثقة وزراء فرنسا لدي الكرسي الرسولي حتى انهم اوصوهُ وصية ذات أهمية للملك هنريكس الرابع فعاد الى فرنسا ووصل افتتاح سنة تسع وستمائة والف فقابل هنريكس المذكور وللحال عرفهُ ولو لم يفرَّ من البلاط لكان من غير شكٍّ رقَّاهُ الى مقامٍ شريفٍ ومع ذلك سعى احد اصدقائهِ في تسميتهِ كاهنًا للملكة مرغريتا ثم اعطاهُ لويس الثالث عشر دير القديس ليونار دي شولوم على ان ذلك لم يكن عن طلبٍ منهُ بتةً

وتعرف على اول ما اقام بباريز بالسيد دي بيرول منشئ اخوية المصلى الفرنسوية الذي صار فيما بعد كردينالاً وهذان الرجلان الممتلئان حبًّا لله وشوقًا الى تحصيل مجدهِ اعتنصا عما قليل بمحبةٍ مقدسةٍ والسيد دي بيرول اضحى ايضًا مرشد القديس منصور دي بول وانبأهُ انهُ سينشئ جمعية كهنة يخدمون الكنيسة المقدسة احسن خدمة

ولما كان القديس كاهن الملكة مرغريتا كان عندها اكليركي اصابتهُ تجربة شك وتجديف في غاية الاشتداد حتى اوصلتهُ الى ان ييأس والقتهُ على حافة الكفر . ورأى معاركهُ القديس منصور دي بول فتوسل الى الرب بمحبتهِ ان يُنقذ هذا الكاهن الصالح من هذه الوثبة الشيطانية الغضبية ويوقعها عليهِ واذا بذلك الكاهن قد فاز بالاطمئنان مع لذة التقوى فيما ان القديس استشعر ان بلاياهُ قد دخلت في قلبهِ . لكن نفسهُ كانت تنشط الى المبارزة فأخذ بشجاعة لا تنغلب يخالف كل وساوس ابليس وحاربهُ اربع سنين غير آسفٍ على ما فقد من الطمانينة بل انهُ بعكس الامر قد وطَّن نفسهُ على ان يضحي ذاتهُ دائمًا وعقد نيتهُ على ان يخص كل حياتهِ

بخدمة الحزاني. وهذا هو الذي كان يريدهُ الله منهُ واما الشيطان فلم يستطع ان يبقى الى هذه الضربة الاخيرة ففرَّ من حومة القتال شاهدًا على نفسهِ بالانكسار والهزيمة. ونجا القديس من تلك التجربة نجاةً دائمةً

وكان قد اعتزل في ذلك الزمان عند السيد دي بيرول الذي سعى في اقامتهِ كاهنًا لبلد يقال لهُ كليشي قرب باريز. فاصلح حال ذلك البلد بمواعظهِ وصلاح سيرتهِ وانشأ ثمةَ اخوية الوردية وجدَّد بناء الكنيسة التي كانت قد خربت وكانت الرعية تستفيد كثيرًا من عنايتهِ الانجيلية. قال احد المعاصرين كانوا يعيشون معًا كملائكة الله ولم يزل ذكرهُ جاريًا على السنتهم ويتذكرونهُ كذلك بشجرةٍ غرسها هنالك

ان فيلبس دي كندي قائد بوارج فرنسا وابن القائد ريتز وشقيق رئيس اساقفة باريز طلب الى السيد دي بيرول معلمًا صالحًا فاضلاً ليربي اولادهُ على التقوى ولما كان مقامهم يؤهلهم لاسمى مناصب المملكة وانهُ نافع للديانة ان يكونوا في تلك المراتب قدوةً حسنةً لم يظن السيد دي بيرول ان القديس منصور قاصرٌ عن القيام بهذا العمل ولذلك جعلهُ في ذلك البيت على تعليم الاولاد حيث دعتهُ العناية الربانية لتكاشفهُ بمقاصد رحمتها

وفي ارض فيلبس دي كندي شرع القديس في رسالاتهِ التي احيت الورع في قرى فرنسا لان الحروب البروتسطانية الطويلة كانت قد اخلَّت بتهذيب الاخلاق وفي رجوع السلام صار اعتناء جسيم في تبشير المدن بالانجيل اما القرى فكانت كأنها مهملة. قيل ان القديس كان يومًا فيما بين عيلة كندي في قصر فُلينيل فجاء اناسٌ يدعونهُ الى محتضرٍ أحبَّ ان يعترف لهُ وقال انهُ اذا نال هذه الرغيبة يقضي اجلهُ بسرور وذلك بما ان محبة هذا القديس المؤدب وجودتهُ وفضائلهُ كانت مشهورة عند الفلاَّحين القاطنين بجوار القصر. فما ابطأ ان ذهب اليهِ وكان الناس يثنون على سيرة هذا الرجل المشرف على الموت لكن قال كاتب سيرتهِ. ان الله الذي يرى القلوب لايحكم عليها كالبشر الذين لا يرون الاَّ الظواهر. وكان ضمير ذلك الفلاَّح مثقلاً بكثيرٍ من الخطايا المميتة الاَّ ان الخجل الرديء كان يعوقهُ عن ان يُقرَّ بها. فلما اخذ القديس يسمع اعترافهُ خطر لهُ ان يأمرهُ ان يعترف اعترافًا عامًّا ولا ريب ان هذا الفكر كان من عند الله. فتشجع المريض بالملاطفة التي عاملهُ بها مرشدهُ الجديد فاجتهد واوضح الخطايا السرية التي لم يكن يُقرُّ بها لاحدٍ وهذا الاعتراف الذي كان بغاية اللزوم لرجل اشرف ان يقف بين يدي القاضي العادل اتبع بتعزيةٍ يعسر وصفها ورأى ذلك الرجل انهُ قد ارتاح من ثقلٍ عظيم كان ملقًى عليهِ منذ عدة اعوام واعلن ذلك قدام اناسٍ كثيرين

وبحسب طلب قرينة فيلبس دي كندي خطب القديس باهل فُلينيل خطبةً وجيزةً في فائدة الاعترافات العامة وكان ذلك في ٢٥ من كانون الثاني سنة ١٦١٧ يوم اهتداء الرسول بولس فاعتبر هذا التاريخ الذي كان يحتفل بهِ كل عام نظير اصل اخوية الرسالات. وبارك الله على كلامهِ لان خلقًا كثيرًا اقبلوا اليهِ ليريحوا ضمائرهم باعترافٍ حسنٍ عامٍّ حتى انهُ اضطرَّ ان يستدعي الى مساعدتهِ كاهنين من مدينة اميان. وبشروا بالانجيل من بعد رسالة فُلينيل باقي قرايا تلك الناحية وقارن تبشيرهم مثل ذلك النجاح عينهِ

الاَّ ان الاجلال الذي صادفهُ في بيت فيلبس دي كندي اقلق تواضع الرجل القديس لان اهل ذلك البيت كانوا يُغالون في اكرامهِ حتى كان يخاف ان يغلبهُ المجد الباطل فانفرد واما صديقهُ السيد دي بيرول فلو عرف اسبابهُ الحقيقية لمنعهُ عن ذلك وعرض عليهِ ان يكون كاهن شاتيلون لسدومب ببلاد البريس. وكانت البدعة قد عبثت بتلك الرعية وأفسدتها فاذهبت الايمان والآداب تبعًا لهُ الاَّ انهُ اعاد اليها النظام في قليل من الزمن. واهتدى من البروتسطان خلق كثير وكان في جملتهم صاحب الدار الذي نزل بها حيث لم يكن هنالك منزل لكاهن الرعية. ويذكر بين غزواتهِ الروحية هدايتهُ الكونت روجيمون الذي كان بالحقيقة كاثوليكيًّا ولكن بالاسم لاغير وكانت معايبهُ قد بثَّت الهول في البلاد فهذا باع عقارهُ لكي يساعد البائسين وحوَّل قصرهُ بيمارستانًا وجعل هو بنفسهِ يعتني بالمرضى ويخدم من كان هنالك من الشيوخ ولولم يصدوهُ لكان تعرَّى تمامًا واقل ما ارادهُ هو الموت بهيئة الفقر ولبس في آخر ايامهِ ثوب الاتضاع المنسوب للقديس فرنسيس .

اعلم ان اهتداء امرأتين من شاتيلون اوجد جمعية الرحمة لخدمة الفقراء ومساعدتهم وانتشرت هذه الجمعية المدعوة جمعية

سيدات الرحمة (١) بين نساء فرنسا ولم تزل في جميع مدننا الى هذا اليوم ووضع القديس منصور دي بول قانونًا وجرى العمل بمقتضاهُ في كل موضع وُجد فيهِ مثل تلك الشركات واما الخير الذي نشأ عن هذا العمل العجيب منذ جيلين فامرٌ لا يعلمهُ الاَّ الله تعالى

ويلوح ان الله لم يكن لهُ في ارسال خادمهِ الى شاتيلون الاَّ المقصد المشار اليهِ لانهُ من بعد انشاء تلك الجمعية رجعت بهِ الى باريز الحاجات بيت كندي الذين كانوا قد بكوا لفراقهِ وكذلك مشورات العقلاء الذين لهُ بهم اتمّ الثقة ففارق رعيتهُ بفرط الاغتمام وغادرهم يذرفون الدموع على رحيلهِ. فان الله كان يريد بهِ تخفيف بلايا ذلك القرن الجسيمة واظهر كل ما يمكن ان تظهرهُ المحبة من العجائب

وكان اول ضيم ازالهُ ضيم المسجونين فان هؤلاء المساكين كانوا بعد ان يُقضى عليهم وقبل ان يرسلوا الى مرسيليا يُدخلون الى مغاور السجون يأكلهم فيها القمل ويأخذهم الهزال مهملين كل الاهمال من جهة الجسم والنفس فزارهم القديس وشجعهم وعزّاهم وحنن عليهم قلب السيد دي كندي المار ذكرهُ ممثلاً لهُ اياهم بصورة هائلة المنظر. فاشترى لهم منزلاً ونقلهم اليهِ وبذل القديس جهدهُ في مساعدتهم في كل ما كانوا مفتقرين اليهِ نفسًا وجسمًا فتاب كثيرون منهم توبةً نصوحًا وابدى الباقون استعدادات حسنة

واثر هذا التغيير في اهل البلاط كثيرًا وعلموا ان الديانة قادرة على تليين القلوب الوحشية بمساعدة المحبة ورفع فيلبس دي كندي ذلك الى الملك الذي اراد ان يُشرك العمارة البحرية بالخير الذي صنعهُ القديس بباريز وقلدهُ رتبة الكاهن العام على اهل السفن كلها وكتب في ذلك براءة بتاريخ ١٨ شباط سنة ١٦١٩

وسافر القديس الى مرسيليا ليبحث عن حالة المسجونين والادوية التي يستطيع ان يأتيهم بها واكمل في هذه الرحلة عمل المحبة البطلية وقد رجع على ما يظهر الى اسعد ايام الكنيسة وانظر كيف روى كاتب ترجمتهِ هذا الامر الذي يظهر كانهُ مأخوذ من سيرة القديس بولينوس (٢) قال

لم يُرد القديس منصور ان يُعرف عند قدومهِ مرسيليا ومن ثمَّ جانب كرامة وظيفة الكاهن العام على السفن واستعان باوثق الوسائل ليقف على حالة الامور وهكذا كان لهُ اسباب لكي يبقى متنكرًا وكذا كان للعناية الالهية قصدٌ في ذلك. وبينما كان ينطلق الى السجون من جهة الى اخرى ليعرف كيف تجري الامور رأى مسجونًا قد يئس لان غيابهُ افضى بزوجتهِ واولادهِ الى شدة لا غاية بعدها وذُعر القديس من الخطر الذي لحق هذا الرجل الرازح تحت وقر بلواءُ وحاول مدة بعض دقائق ان يخفف ضيمهُ ان استطاع واستخدم لذلك عقلهُ الذكي المولّد فلم يخطر لهُ شيء بحجة فاخذتهُ حركة محبة حارَّة واستخلف الخفير الذي كان يسهر على تلك الجهة ان يرتضي بالاقامة عوض هذا المنفي. والله الذي متى اراد ان يظهر فضيلة قديسيهِ قادر ان يدبر وسائط النجاح اذن ان تُتبل هذه المقايضة ولم يمرَّ الاَّ بعض اسابيع حتى عُرف القديس منصور. ولولم تحير زوجة البرنس دي كندي من عدم الوقوف على اخبارهِ وتبحث عنهُ بحثًا يعسر معهُ ان يبقى متنكرًا لما كان عُرف بعد قليل. وأُجري ذكر هذه الحادثة ايضًا بمرسيليا على حين استقرَّ بها كهنة الرسالة وذلك عقب ما ينيف على عشرين عامًا

وصرف معظم زمانهِ وهو مقيمٌ بمرسيليا في زيارة رفقائهِ القدماء المسجونين وكان يخاطبهم بحنو اب ويقبل قيودهم ويبلها بعبراتهِ ويوزّع عليهم الصدقات التي كان يجمعها لهم واستحلف الحرّاس ان يرفقوا بهم وأن لا يضيفوا على بلاياهم قساوةً في غير أوانها. وصرف معظم همهِ الى المرضى الذين لم يكن لهم بيمارستان يُعاملون فيهِ على وجهٍ مناسب فظفر من الكردينال ر يشاليون ان يبني لهم مستشفى واسعًا جدًا وفاز فيما بعد من الملك لويس الرابع عشر بموارد مالية كافية للقيام بها

وعلى اثر ايابهِ الى باريز اقامهُ القديس فرنسيس سالس مرشدًا لراهبات الزيارة اللواتي في تلك المدينة. وبين هذين القديسين مودةٌ صافية وقابل القديس منصور شهادة الاعتبار المشار اليها بمضاعفة الغيرة والقسوة على جسمهِ

(١) اعلم ان بين جمعية سيدات الرحمة وجمعية اخوات الرحمة فرقًا لان هذه نوع من الرهبانية انشاها القديس كما سياتي بعد انشائهِ جمعية السيدات المؤلفة من النساء

(٢) راجع ما ذكر عن هذا القديس في ترجمة القديس بولينوس وجه ٢٤٣

فكان يلبس المسح وسلاسل حديد ويكثر من الصوم وينام دائمًا على القش وانما اراد بهذا التقشف ان يصير اهلاً للمقامات التي أُمن عليها فارشد في آخر عمره راهبات القديس فرنسيس سالس والقديسة شنتال بمزيد الحكمة وخدمهن خدمًا مهمة . وحظي مرةً بمشاهدة القديسة المومأ اليها في دير شارع القديس انطونيوس فاقرّت تلك المرأة الصالحة بانها قد استضاءت بانوار ثمينة من مخاطبانه فالظاهر ان الله اراد انها تتاهب بهذا الارشاد للانتقال الى دار البقاء لانها ماتت بعد خمسة اسابيع بمدينة موابن وهي راجعة من مدينة انيسي . وتراءى الله لخادمه واعلمهُ بوفاتها ومجدها

واستأنف هذا الكاهن القديس اعمال رسالتهِ في ارض بيت كندي فبشر بالانجيل اولاً في بلدةٍ يقال لها فيلبرو وانشأ فيها جمعية سيدات الرحمة ثم بشر في بلدةٍ اسمها منتميريل واخرى اسمها جواني وكل مكان مرَّ بهِ كان على وجهٍ ما يأخذ هيئةً جديدةً والنجاح السعيد الذي رافق اعمالهُ قد القى في عقل البرنس دي كندي وقرينتهِ ان يؤكدا لقراهما الحصول على رسالة كل خمسة اعوام وذلك بواسطة وقف كبير قد وقفاهُ واذ ما من رهبانية ارادت ان تقوم بهذا الفرض اجرى القديس منصور عند ذلك ما كان قد قصدهُ منذ زمان طويل من انشاء جمعية مرسلين واستصوب قصدهُ هذا رئيس اساقفة باريز واعطاهُ ايضًا المدرسة المعروفة بمدرسة الابناء الصالحين بمنزلة اول مقام . ولما ماتت بعد قليل امرأة كندي برائحة البرّ والبرنس دي كندي اعتزل عند كهنة المصلَّى تأتّى للقديس منصور اذ ذاك ان يستولي على مدرستهِ مع انطون بُرتال الذي كان تلميذهُ منذ خمس عشرة سنة وانضم اليها فيما بعد كهنة صالحون وهكذا انتشأت جمعية العازاريين وأثبتها البابا أُربانس الثامن سنة ١٦٣٢ في ١٢ من كانون الثاني ولقب اعضاءها بكهنة الرسالة وتسارع انتشارها في فرنسا وايطاليا وبولونيا منعشة الايمان عند اهل القرى وموقظة في قلوب الاكليريكيين الغيرة لخلاص النفوس

وكان للقديس منصور صاحب اسمهُ بُردويز وهو رجل فاضل من خدام الله وكانا في اغلب الاحيان يتكلمان على شدة لزوم تأهيب الاكليروس للارتقاء الى الدرجات المقدسة بواسطة رياضة حسنة فاستدعى بُردويز اسقف بوفي الذي كان قبلاً السيد دي جنروا الى ان يدخل هذا الاصلاح في ابرشيتهِ حيث صادف اتمّ النجاح . فاتخذ هذا الاصلاح عند ذلك رئيس اساقفة باريز وكلّف القديس ان يقبل في مدرستهِ الاكليريكيين المرسومين ويلقي عليهم خطبًا روحية واذ عجز وحدهُ عن توفية هذا العمل حقهُ دعا من كان في باريز من الاحبار والكهنة المعروفين بالفضل وكلفهم مباشرة هذه المواعظ وكانت مواضيعها العادية وسائل التقدُّس وتقديس الشعب . قال المؤرخ واراد ان تكون تلك المواعظ ذات تفاصيل وان تكون التفاصيل ساذجةً غير منمقةٍ فلم يكن يطيق المواعظ المزخرفة التي يلوح انها لم تُصنع الاَّ لمجرَّد ان تأخذ بالمسامع . فكل خطبة لا يصدر عنها الا ثناء على صاحبها كانت عندهُ لا غير مفيدةٍ فقط بل مضرَّة

ورياضة المترشحين للكهنوت انتشرت عاجلاً في كل ابرشيات فرنسا وأُنشئت هذه الرياضة عينها في رومية وجنوا وبرغام وأورثت في كل تلك الاماكن تغييرًا حسنًا في احوال الاكليروس وجرَّأ هذا النجاح القديس منصور على ان يجمع في كل أُسبوع اكليروس باريز ليسمعوا خطبًا في مواضيع ادبية ونقوية وكانت محافل الخطب تُعقد عادةً كل يوم ثلاثاء وكان يلتئم فيها اكثر الممتازين من احبار هذا القرن الكبير وكهنته وكان بوصويت يحضرها وقد اثنى على القديس منصور ثناء وهو انهُ ليس كلام اشبه بكلام الرب من كلامهِ . وقد امتنت كنيسة فرنسا كثيرًا لهذه الطريقة التي انعشت فيها الغيرة على خلاص النفوس وتهذب هناك كهنة فضلاء صالحون . امتنت فرنسا بسببهم لانشاء مدارسها الاكليريكية وريشا ليو الذي كان خبيرًا باعمال الحكومة هنَّأ القديس منصور على ذلك ورام ان يخاطبهُ فرآهُ فوق ما سمع من صيتهِ واستفاد كثيرًا منهُ في معرفة امر الاكليريكيين الذين كان يتهيأ لهُ ان يجعلهم على رئاسة ابرشيات فرنسا . الاَّ ان القديس لم يدع الناس يشكون في تأثير نصائحهِ في الوزير وكان يخشى ان يندسَّ الطمع حيثما ينبغي ان لا يظهر الا الورع وحدهُ

وفرغ من عمل الاصلاح بواسطة الرياضات الدائمة التي انجحت الاكليروس في الفضيلة . وكان منزلهُ مفتوحًا دائمًا لمن اراد من الكهنة والشعب ان يقضي مدةً على انفرادٍ واستولى القديس وقتئذٍ على دير القديس لعازر الواسع لاعن تمام

رضاهُ لكن بمشورة مرشدهِ الاب اندراوس دوفال بل بامرهِ ودخل ذلك الدير اكثر من عشرين الف شخص لعمل الرياضة الروحية ينزلون بهِ على اتمّ الاكرام ولم يكن يفرق فيهِ بين السيد الكبير والكاهن والمدني والقروي بل كان يُرحب بالجميع بمحبة متوازية . وما كان الناس يخرجون منهُ الاّ ليجلبوا لمنازلهم نفحة طيب السيد لهُ المجد . وهكذا رجل واحد اذ تقوّى بروح الله جدّد على وجهٍ ما هيئة عصرهِ

وفي ذلك الزمان بعث الله اليهِ امرأةً بارةً لتساعدهُ في احسن انشاء اي انشاء اخوية راهبات الرحمة . فالسيدة لغراس اتخذت القديس منصور بمنزلة مرشدٍ لها وعلى ارشادهِ ترقت في سلّم الفضائل عاجلاً حتى عزمت ان تكرّس نفسها لخدمة الفقراء فزارت اولاً كل اخويات الرحمة المقامة على مثال اخويات شاتيلون مقوّيةً وموازرةً ومصلحةً على حسب الاحتياج وعلمت بهذه الرحلة ان اهتمام الدنيا لا يأذن للنساء المسيحيات ان يعتنينَ بالفقراء كما تمسّ اليهِ حاجتهم . فخطر للقديس منصور حينئذٍ ان ينشيء جمعية عذارى يتفرّغنَ للتخفيف عن اعضاء يسوع المسيح المتألمة . فأخذ من القرى ثلاث عذارى او اربعًا وجعلهنّ تحت ارشاد السيدة لغراس وهكذا نشأت هذه الاخوية المتواضعة العجيبة التي دخل فيها منذ ذلك الوقت جمٌّ غفير من العذارى الشريفات المغبوطات بان يبدلنَ كرامات العالم بلقب خادمات الفقراء وامتنّت فرنسا للقديس منصور على هذا الاحسان وهذا المجد وافتخرت بهذا العمل الذي تحسدها عليهِ اوربا كلها

بقي من رسائل القديس منصور مخاطبات تتضمّن تحريضًا لتلك الراهبات وانباءً بمستقبلهن وقال انهنّ سيخدمنَ الفقراء يومًا ما في بلاد الشرق والهند والان نراهنّ في الاستانة وازمير والاسكندرية وبيروت وفي بلاد الصين

وعقد ايضًا بباريز مجمعًا عامًا لكل سيدات الرحمة فالتأم فيهِ اشرف النساء اللواتي ساعدنَ بسخاء مشروعاتهِ الكبيرة ولم تكن بلايا تلك الايام تقتضي الاّ مثل ذلك الاسعاف . فمن هنا اخذت اقاليم اللورين وشمبانيا وبيكرديا قوتها اعوامًا عديدة ولا يمكن ان يُتصوّر اليوم الى ايما درجة بلغت بهم الشدة بعد الحرب والمجاعة والطاعون فاقليم اللورين على الخصوص قد ذاق من البلاء ما لا يمكن ان يُوجد لهُ مثال في التاريخ الاّ اهوال محاصرة اورشليم . فقد أُهلك الجوع هنالك الوفًا من الفقراء فقد صودف منهم جماعات بين اربعمائة وخمسمائة اخذ منهم التشويه حتى صاروا كهياكل العظام واحاط بمدينة منز مرةً اكثر من اربعة الاف فقير كان احتياجهم شديدًا هائلاً

ولما علم القديس بتلك الاخبار الهائلة المفجعة تمزّق فؤادهُ غمًّا وجمع لوقتهِ كل ما لهُ من الوسائل وارسل كهنتهُ ورهبانهُ لمساعدة اولئك المساكين بالصدقات من قمح وثياب وادوية للمرضى وجمع شيئًا كثيرًا من الدراهم وارسلهُ مع واحد من اتباعهِ فحفظهُ الله تعالى في كل اسفارهِ لان الاعداء الذين كانوا يرصدون في البرية ويسلبون كل من مرّ بها لم يستطيعوا ان يسلبوا ما كان معهُ من الصدقة المعتبرة . وعلى هذا الاسلوب وزّع القديس منصور عدة ملايين كان قد جمعها لهُ شرفاء فرنسا . وجمع بباريز الكهنة والراهبات وشرفاء اللورين الذين طردهم البلاء من بلادهم وشرفاء ايرلاندا الذين كان يضطهدهم عند ذلك كرُمويل وشملت محبتهُ الجميع . وساعدهُ السيد دي رَنتي في عمل الرحمة طالما كان حيًّا . هذا ولم يسعنا ان نذكر اسماء جميع النساء الكرام اللواتي تجرّدن ليأتينَ الى مساعدة اخوتهنّ ولا ريب ان اسماءهنّ مكتوبة في سفر الحياة الذي نقرأُها فيهِ يومًا ما

ولما كانت الحرب اخص اسباب هذه المصائب ذهب القديس منصور الذي لم يكن يخيفهُ شيء عند ما يتكلم على فعل الخير وخرّ على قدمي ريشاليو ليستميلهُ الى تقرير السلم . الاّ ان هذا الوزير انكر عليهِ ذلك مع انهُ اعتبر هذا الكاهن القديس اعتبارًا عظيمًا كما شهد لهُ بذلك عند موتهِ . ومات على اثرهِ لويس الثالث عشر واراد هذا الملك التقي ان يموت بين يدي القديس منصور . ولما استدعاهُ الملك قال لهُ يا سيدي الملك من يخشى الرب تكون عاقبتهُ سعيدة . وقال كاتب سيرتهِ . ان هذا الكلام لم يذهل الملك المتعود منذ زمان طويل على ارتضاع اصفى تعاليم الكتاب المقدس فأجابهُ الملك بتتمّة الآية ويكون مباركًا يوم وفاتهِ

ان الملكة حنة النمسوية رامت ان القديس منصور دي بول يشاركها في الراي الذي في تنصيب الاساقفة وترتيب الوظائف الكنائسية وكانت تستشيرهُ ايضًا في سائر اشغال مملكتها وندمت احيانًا على عدم اذعانها لآرائهِ .

واما هو فاخفى بحسبما استطاع هذه العلامات الدالة على اعزاز

الملكة وقاسى كثيراً احين كانت فتن فرند التي استمرّ فيها امينًا بحق ملكهِ

ولم تعقهُ هذه التجارب عن انشاء بيمارستان سالبتر ير ولا عن ان يعيد النظام الى مستشفى باريز ويأتي بالمساعدة من يلتقطونهُ من الاولاد وقد علم في اية حالةٍ تُرك هؤلاء الاشقياء في ازقة باريز معرّضين لان تسحقهم العربات مباعين بابخس الاثمان الى المتكففين او تجمعهم فعلة فيهملونهم حتى يفضي بهم الاهمال الى موت بطيء لكنهُ مؤكد. فساعد القديس منصور اولاً بعضًا منهم غير ان عددهم كان يزداد كل يوم فملّت المحبة من ذلك وحينئذٍ خاطب السيدات المحسنات بهذا الخطاب الذي لم يجاوبنَ عليهِ الاَّ بالنحيب

ان المحبة والرافة جعلتاكنَّ تتبنين هؤلاء الصغار فانتنَّ أُمهاتهم بحسب النعمة منذ تركتهم امهاتهم بحسب الطبيعة . فانظرنَ الآن هل تردنَ ان تتركنهم هكذا . هل يزول كونكنَّ أُمهاتهم حتى تصرنَ قضاتهم . بين ايديكنَّ حياتهم وموتهم . وقد هممتُ ان آخذ الاصوات لذلك فيوجد وقتٌ تنطقن بحكمهم واعرف اذا لم تردنَ بعد ان تكنَّ رحيمات عليهم فانهم يحيون ان اعتنيتنَّ بهم اعتناء حبيًا و يهلكون ان تركتنهم والاختبار يؤكد لكنَّ ذلك

فعاش هؤلاء الصغار ممتنين لاجل حياتهم الجديدة وشاكرين لفضل القديس منصور فقد انشأ لهم في المزرعة المسماة القديس انطونيوس محلاً فسيحًا كانت تبلغ حينئذٍ نفقتهُ السنوية مائة وخمسين الف ليرة وهي تساوي اليوم مليونًا

في هذه الاثناء طلب مجمع انتشار الايمان من القديس منصور مرسَلين الى جزيرة مداكسكر فارسل منهم كثيرين بذلوا اقصى الجهد حتى اصبحوا كلهم ضحية الغيرة غير ان ذلك لم يقلّل من محبة القديس ولم ينقص من شجاعتهِ بل قال ان الله تعالى اسس كنيستهُ بموت ابنهِ الوحيد وجهاد الرسل واعزّها بالاضطهادات وجعل دم الشهداء بذر المسيحيين ومن عادة الرب ان يمتحن اولياءَهُ تتميمًا لمقاصدهِ. فهم ان يؤدبهم ايضًا و يمنح في الاضطهاد من النجاح ما ليس يعطيهِ في السعي والاتعاب ... هذا ومن اجل موضوع اهتمامهِ بامر العبيد في افريقية الذين كان هو في جملتهم كما ذكر اراد ان يقيم فيها بينهم احد مرسليهِ واذكان في تونس قنصل فرنسوي لهُ الحق على وجود كاهن كاثوليكي عندهُ ارسل لهُ القديس اولاً الاب لويس كارن وثانيًا الاب يوحنا لويشير اما الاول فمات في خدمة المصابين بالطاعون واما الثاني فانهُ بعد ان تعب مدة ثلاث وثلاثين سنة في خلاص العبيد والاتراك ايضًا في تونس والجزائر حصل على الحظ ان يُربط في فم مدفع وسفك دمهُ ومات شهيدًا. وتبعهما كثيرون من ابطال جمعية الرسالة ترى تراجمهم واخبار اتعابهم في مكتبة الجمعية المذكورة بباريز

ان اهتمام القديس منصور في محاربة بدعة اليانسيين لم يكن اقل من اهتمامهِ في محاربة الجوع والحال انهُ اضحى واسطة قوية استعملها الرب لازالة هذه البدع الخبيثة ويتضح ذلك من كثرة الرسائل التي كتبها في مقاومة هذه البدعة وحرك بها الملك والملكة والاساقفة الى ازالة هذا السم السري ولا غروَ ان كان ذلك من مقاصد الرب اذ جعلهُ مستشار البلاط ومرشد الملكة ليكون ملاكًا حارسًا لكل المملكة وواقيًا من فساد البدعة

ونقتصر على هذا من اعمال هذا الرجل الجليل اذ لو أُريد رواية كل عجائب محبتهِ لاقتضي لها مجلد براسهِ . ولم يكن قلبٌ ارأف بالفقراء من قلبهِ فاقول اكرامًا لهُ ما كان يقولهُ فم الذهب في الرسول بولس ونصهُ : قلبهُ كان قلب المسيح بعينهِ. ولم يزل على شدة هذه الرأفة حتى نهاية عمرهِ الطويل ولما كانت امراضهُ تكرههُ على ان يجول راكبًا عربةً كان جلُّ مسرّتهِ ان يركب معهُ من يلاقيهِ من الفقراء ويذهب بهم الى حيث هو منطلق

ولما بلغ الخامسة والثمانين من عمرهِ اخذهُ نعاسٌ في ٢٥ من ايلول سنة ١٦٦٠ نحو الظهر وكان ذلك بسبب أسهارهِ قال كاتب ترجمتهِ وكان نومهُ هذا اعمق من النوم المعتاد. ولما كان اليوم التالي يومَ احد سمع القداس رغمًا عن ذلك النعاس وتناول القربان المقدّس كما كان يتناول كل يوم منذ حين عجز عن تقدمة الذبيحة الالهية ولما كان في محلهِ اخذهُ النوم وأُوقظ غير مرةٍ ولم يزل على حالة واحدة وكان يجاوب بوجهٍ متبسمٍ طلقٍ الاَّ ان لسانهُ أُمسك بعد قليل ان يعبر عن حركات قلبهِ اللينة واعتُقل بعد ان نطق قليلاً . فاراد الطبيب بسبب هذه الاعراض المحزنة ان يُدهن بزيت المسحة وحينئذٍ ثبت عند اولادهِ انهم لامحالة قد اشرفوا ان

يفقدوا احسن الاباء كافةً فتبادروا الى ان يغتنموا مشاهدتهُ قُبَيل وفاتهِ فطلب واحدٌ منهم بركتهُ بالنيابة عن الجميع فرفع راسهُ بعد عناء شديد والقى على ذلك المرسل نظر صلاح وحنوّ وبدأ يباركهُ بصوتٍ عالٍ الاّ انهُ اكمل الكلام بصوت منهمس حتى كادوا لا يسمعونهُ

فقضى الليل براحة وبتسليم دائم لله ولما كان ينام فوق ما يريد كان يكفي لايقاظهِ ان يخاطبوهُ في شان مولاهُ ولم يكن يلذُّ لهُ غير هذا الحديث ويظهر انهُ يلتذُّ على الخصوص من هذا الكلام الملائم لحالة امرىءٍ محتضَر وهو. اللهمَّ اسرع اليَّ ومدَّ يدك الى مساعدتي

ولما كانت الساعة الرابعة والربع من الصباح علم اكليريكي من جمعية الثلاثاء وكان وقتئذٍ يتروض الرياضة السنوية في الدير ان القديس تنقص قواهُ بسرعة وسألهُ ان يبارك كبركة اخيرة إخوتهُ حتى لا يعبث الفساد بجماعتهم فاكتفى القديس منصور ان يجاوبهُ على مألوف اتضاعه بهذا الكلام ان الذي ابتدأ فيكم العمل الصالح يتمّمهُ ثم انطفأ كالسراج الذي فرغ زيتهُ ومن دون حس ومن دون عناء قدَّم لله نفسًا من أبرّ ما خلق

وكان القديس متوسط القامة متناسب الاعضاء كبير الراس أجلحهُ قليلاً واسعَ الجبهة متوقد العينين وكانت لطافتهُ تجعلهُ رزينًا وقورًا بشوشًا وكانت الفضيلة تساعدهُ على ذلك اكثر من الطبيعة وكانت البساطة متملكة في تصرفهِ وهيئتهِ ودالةً على اطمئنان قلبهِ وصفاء سريرتهِ

ولما كانت سنة ١٧١٢ امر الكردينال دي نوايل ان يُفتح قبرهُ ففتح واذا بجسدهِ سالم لم يمسّهُ ادنى فسادٍ. ذلك ولا نقدر ان نذكر كل الآيات التي صُنعت بشفاعة خادم الله وخادم الفقراء. وطوَّبهُ البابا مبارك الثالث عشر في ٢١ من آب سنة ١٧٢٩ واثبت قداستهُ بعد ثماني سنين البابا اكليمنضوس الثاني عشر

اليوم الثاني
من آب
وفيهِ ترجمة القديس الفونسيوس ليكوري اسقف مدينة القديسة اغاثا دي غوتي ومنشىء رهبانية الفادي

ان بيت ليكوري من اقدم بيوت مملكة نابولي واشرفها وكان ابو هذا القديس الجليل يتقلد مناصب عالية واخص ما أشاع صيتهُ حذاقتهُ بالامور الجندية وكان رُبّانًا على قوارب الملك المختصة وقتئذٍ بمملكة نابولي وكان يُعرف بيوسف وكانت امرأتهُ حنة من بلد يقال لهُ بريند وهي شقيقة اسقف تروجا الذي مات برائحة القداسة. وكان ايمان هذين الزوجين حيًّا وعاشا بالتقشف وهما في سعة الدنيا وغناها وكان الدون يوسف ليكوري يواظب على تأمل اسرار الالام وكانت قرينتهُ حنة تقيم الصلاة في الساعات المعينة في الفرض الكنائسي وثابرت ان تصوم اصوام الكنيسة حتى ادركت السنة التسعين من عمرها. وبارك الله جل شانهُ على اقتران خادميهِ الامينين ورزقهما ابنًا كانت ولادتهُ بضاحية من ضواحي نابولي تدعى مريانلاً في ٢٧ من ايلول سنة ١٦٩٦ في ايام البابا اينوشنسيوس الثاني عشر واصطبغ بماء المعمودية بعد يومين لمولدهِ وسُمي الفونسيوس

كان بنابولي رجل من الصالحين فرفعتهُ الكنيسة الى مقام الاصفياء القديسين وهو الاب فرنسيس ايرونيموس اليسوعي الذي ادرجنا ترجمتهُ في اليوم العاشر من ايار. ولما زار الاب المذكور الدون يوسف ليكوري ارتهُ قرينتهُ حنة ولدها المشار اليهِ فباركهُ وقال لامهِ على سبيل النبوة ان هذا الغلام سيشيخ ولا يتوفاهُ الله قبل ان يدرك التسعين عامًا وسوف يكون اسقفًا ويعمل عظائم من اجل المسيح تبارك اسمهُ. واما الولد فنما وسلمهُ ابوهُ الى الاب توما باكانو من جمعية المصلّين التي انشأها القديس فيلبس نيري من انسبائها فرباهُ الاب المشار اليهِ على احرّ عواطف التقوى وكان الفونسيوس يسمع القداس كل يوم ويتناول القربان المقدس في كل أسبوع ويثابر على حضور رياضة اخوية الشبان الشرفاء التي كان من اعضائها

فاباء جمعية المصلّين مدبرو الاخويَّة المار ذكرها كانوا

يذهبون أحيانًا بهؤلاء الشبان الى المدن القريبة من هناك لأجل التنزه وخرجوا بهم يومًا الى مصيف البرنس دي لاريسيا فعرض على الفونسيوس رفقاؤه ان يلعبوا لعبة الكرة (وفي لغة العامة لعبة الطابة) وهو قلّ ما كان يلعب غير انهُ لم يُرد ان يقاوم الحاحهم الحبي فرضي ولعب فغلبهم. الاَّ ان واحدًا من اولئك الشبان المغلوبين غضب من انغلابهِ واخذ يظهر غضبهُ بالفاظٍ سمجة مستقبحة. فاغتم الدون الفونسيوس كثيرًا لانهُ كان سببًا في ما لحق بالله من الاهانة وقال لهُ انت تجرأ ان تغيظ العظمة الالهية على خسارة دنيئة فرمى اليهِ بالدراهم وقال لهُ دونك فضتك فحاشا لي ان اكسبها بمثل هذا الوجه المكدر

وهرب لساعتهِ من دهاليز الحديقة وبقي رفقاؤهُ اول الامر في سكون وخجل الاَّ ان طيش الشبيبة انساهم عما قليل ذلك الحادث فعادوا الى اللعب حتى اذا كان المساء تطلَّبوا الدون الفونسيوس فلم يجدوهُ فقال المذنب وقد ندم على بوادر حدَّتهِ فلنطلبهُ وانا اريد ان اعتذر لهُ فوجدوهُ على جذر شجرة غار قديمة جاثيًا امام صورة البتول عليها السلام. الاَّ انهُ لا سمعهم ولا رآهم لانهُ كان مستغرقًا في الصلاة فصاح خصمهُ. ماذا ارتكبت. قد أهنت قديسًا. فلما سمع الدون الفونسيوس هذا الكلام رجع اليهِ حسهُ ورأى ان رفقاءهُ محدقون بهِ فقام واصطف فيما بينهم بحسب رتبتهِ الاَّ ان ما شملهم من الحيرة والتعجب منعهم ان ينتبهوا لحيائهِ ورجعوا سكوتًا وقصُّوا على اقاربهم كل ما رأوا

واعلم ان هذه الادلة الاولى على قداسة الدون الفونسيوس قد قويت مع عمرهِ وكان يحب مساعدة الفقراء والعناية بالمرضى حتى كان ينطلق الى البيمارستانات ويخدمهم فتعلم من ذلك الصبر والاماتة وامتهان الغنى ورغد العيش. وعند رجوعهِ من البيمارستانات الى قصر ابيهِ كان يستعفي من طلب الشرف الذي كان متقلبًا فيهِ ويحس بان قد رسخ في قلبهِ حب الفقر ومكابدة الالام التي بها يستطيع المسيحي ان يشابه السيد المسيح

واعلم ان هذه الخدمة الاختيارية التي اتجهت الى المرضى كانت تنمي فيهِ كل يوم ما عندهُ من الميل الى معلمهِ الالهي الذي كان يخدمهُ باشخاص المرضى وكان كل سعادتهِ ان يذهب الى نابولي و يسجد فيها للقربان المقدس المعرَّض على مذابحها أربعين ساعة وفيما كان جاثيًا هنالك امام السيد لهُ المجد كانت نفسهُ الحارة كانها على ما يظهر منفصلةٌ عن جسدها ومتصلةٌ بحبيبها. وان ثلاثة من الاكليريكيين الصالحين صادفوهُ مرارًا على هذه الحال فاذهلهم احتشامهُ واختطافهُ والفرح الذي كان موسومًا على وجههِ فأحبوا ان يتعرفوا بهِ الاَّ ان الله سبحانهُ لم ياذن لهم ان يعرفوهُ حينئذٍ لانهُ كان مستعدًا ان يربطهم معًا بمحبة سماوية كما كانوا مرتبطين بالصلاة متى اتى يومهُ

هذا ولم يعقهُ عن النجاح في علم البيان ودرس الشريعة ما كان يصرفهُ من الوقت في العبادة والعناية بالمرضى. وجعل والدهُ على تعليمهِ امهر المدرسين واغتنم هو شروحهم واستفاد منها حتى اذا ادرك السنة السادسة عشرة من عمرهِ أُقيم استاذًا في الحق القانوني والحق المدني وسبب ذلك سرورًا عامًا في الشعب وذهل الخاص لما رأوا من اتساع علمهِ في اول شبابهِ ولما أُلبس حُلَّة علاَّمة راى الناس انها طويلة عليهِ حتى وصلت الى ما تحت قدميهِ وقلّ ما رأوا علاَّمة اصغر. وكان يحب ان يتذكر هذه الحالة متى حدثوهُ عن نجاحهِ الاول وكان يقول ضاحكًا قد أُلبست عباءة طويلة تجر على الارض

ان الدون يوسف ليكوري غبط نفسهُ على ذكاء ابنهِ وازمع ان يخصصهُ للقضاء لان ما رزقهُ من النعمة لدى الملك كرلوس السادس كان يعدهُ بتقدم سريع فدرَّسهُ على كثيرين من مشاهير وكلاء الدعاوي وكان شروع الدون الفونسيوس في وكالة الدعاوي حسنًا معتبرًا. وتعجب الناس مما في كلامهِ من السهولة والطلاوة ومن نزاهة مجادلاتهِ ومن الحمية التي كان يؤيد بها حقوق موكليهِ. وكان حبيبًا الى القضاة خصوصًا رئيس المجلس الدون عبد الاحد كرافيتا الذي كان يسهر عندهُ كل ليلة ما بين العلماء والادباء. وفرح الشرفاء بنجاحهِ لأنهُ منهم وطاب لهم ان يجعلوهُ مصالحهم وكان البرنس بريزيني من بيت ليكوري قد اعد ابنتهُ زوجةً للفونسيوس وكان صداقها لا بد ان يزيد ما كان مذخرًا عندهُ من الاموال الوافرة لانهُ بكر بيتهِ وكانت تلك الفتاة تقيةً بارعةً في الجمال محبةً لخطيبها. قد يظنّ القاري ان الفتى الصالح ارتضى وانثنى لهذا الحظ الحسن وانجذب بجواذب الدنيا التي كانت تقدم لهُ السعد والتوفيق بما انهُ نال من الله عز شانهُ المواهب التي تروق

الناس اكثر مما سواها وكان على ذكائهِ وحسن مناقبهِ محتشماً ظريف الطبع حسن المواجهة بارعاً في علم الموسيقى حتى كان يخلب ويفتن كل من سمع انغامهُ . الَّا ان السيد لهُ المجد لما رأى سلامة طويتهِ وامانة قلبهِ في زيارتهِ بسر محبتهِ اراد ان يخصهُ بهِ وكان كريماً لديهِ فخطفهُ من الدنيا بطريقةٍ من الطرائق التي تستتر فيها العناية الربانية تحت ما يقع في هذا الدهر من الامور الاتفاقية وجرى الامر كما سياتي ذكرهُ

توكل الفونسيوس المنوَّه بهِ بدعوى كبيرة لامير من امراء نابولي فامعن نظرهُ فيها وبذل عنايتهُ الى تفهمها ولما فرغ من تقريرها امال المجلس اليهِ بقوة براهينهِ وبلاغة عبارتهِ حتى تبين انهُ مستعدٌّ لان يحكم لهُ . الَّا ان وكيل الخصم قام ولم ينتقد ادلتهُ ولكن تبسم تبسم خائن وسألهُ اعادة النظر على اقسام الدعوى فقرأها الفونسيوس ثانيةً وكان واثقاً ان لاشيء فيها منافٍ لمصلحة موكلهِ والحال انهُ وجد فيها عبارة نافيةً لم يتنبه لها اول مرة وهي تنقض برهانهُ من اصلهِ فتشوش ضميرهُ وعدم كل راحة بالهِ اذ ظن ان الناس يتهمونهُ بالموالسة . فحاول رئيس المجلس الدون عبد الاحد صديقهُ ان يطمئن بالهُ من هذا القبيل فبين لهُ انهُ ليس باول من خُدع غفلةً وتهور في مثل هذا الخطاءِ واعلمهُ ان استقامتهُ معروفة اتمَّ معرفة حتى لا يمكن ان يتوجه اليها شك . واما الدون الفونسيوس فتلجلج لسانهُ وقال خُدعت واخطأت فارثوا لحالي وقام وخرج من الغرفة وقال وهو منحدر على الدرج ايها العالم انت ملآن مكرًا وخيانةً فقد عرفتك الآن فلستَ لي فيما بعد

ودخل بيت ابيهِ والخجل والغمّ ملء قلبهِ وبقي ثلاثة ايام لا يعمل سوى البكاء امام صورة المصلوب ولم يُرد ان يقابل احدًا من اهل بيتهِ . فتركهُ الرب يبالغ هكذا في شقائهِ لكي ينفصل عن الدنيا فصلاً تامًا وفي الاحد التابع وهو منطلق حسب عادتهِ الى ان يخدم المرضى في بيمارستان المصابين بداء عقام ظهر لهُ انهُ يرى الغرفة التي كان فيها قد خربت وسمع هاتفًا يقول ماذا تعمل حتى الان في الدنيا . ففي اول الامر ظنَّ ذلك لعب مخيلتهِ غيرانهُ فيما كان ذاهبًا رأى ثانيةً البيمارستان كانهُ يتهدم وسمع ذلك الهاتف بعينهِ يعيد عليهِ هذا الكلام ماذا تعمل حتى الان في العالم . فقال حق يا رب فهاءنذا فافعل بي ما تُريد . ولمَّا مرَّ بقرب كنيسة سيدة دي لامرسي دخل البيعة وجثا امام المذبح ووضع عليهِ سيفهُ دلالةً على احترام المكان ومذ ذلك اليوم ودع موكليهِ وكره الوكالة واستنصح مرشدهُ الاب باكانو وقبل نصيحتهُ ثم علم اباهُ بانهُ قد نوى الدخول في جماعة الاكليريكيين

فكان ذلك على ابيهِ كضربة الصاعقة وكان من نيتهِ ان يعتمد على ابنهِ في جميع آمال بيتهِ واذ رأى ان آمالهُ خابت في دقيقة واحدة واعتناءهُ بحسب الظاهر قد ضاع عارض ابنهُ في اول الامر وابدى لهُ القسوة والمعاملات الرديئة ثم البكاء وكان يقول وهو يبكي بُنيَّ لا تتركني . ووسط بينهُ وبينهُ اشخاصًا فلم تجدِ الوساطة نفعًا لان النعمة اعانت الفونسيوس على هجمات حنوٍّ ضالّ . الَّا ان السيد كافاليري حامي عنهُ لانهُ لما رام الدون يوسف ان يميل بهِ اليهِ اجابهُ السيد المذكور يا اخي انا قد زهدت في الدنيا وتركت حق البكرية لكي اخلص نفسي فاظن باني اكون مجرمًا ان اشرت على ابنك بعكس ذلك . فاستنار ابوهُ بهذا الكلام فاذن لابنهِ ان يصير كاهنًا بشرط ان لا ينتظم في سلك المصلين . الَّا انهُ لما جاء الوقت لاجراء ما اذن فيهِ كفَّ ابوهُ عن إلباسهِ الثوب الاكليريكي قائلاً لهُ ان لم يكن في البيت دراهم فيشتري لهُ الاثواب الضرورية . واما ابنهُ فعلم هذه المكيدة الابوية المستضعفة فجلب ثوبًا ولبسهُ وظهر بهِ امام والدهِ . فاما الدون يوسف فاضطرب حالما رآه وصرخ صراخ كآبةٍ وانطرح على فراش وستر وجههُ وحبس زفراتهِ وبقي عامًا كلهُ لا يشاء ان يخاطب ابنهُ وكان يساكنهُ عبوسًا اخرس بل كميتٍ بالنظر اليهِ وهو الابن الذي ابدى لهُ فرط التفضيل ونهاية الاستحباب

وبهذا الثمن باع الدون الفونسيوس نفسهُ للسيد المسيح رافضًا نعم الدنيا وثروة بيتهِ وميل والدهِ وانعطاف خطيبتهِ واما خطيبتهُ المذكورة فاقتدت بهِ واتبعت طريقهُ ودخلت دير القربان المقدس حيث عاشت فيهِ وماتت برائحة القداسة . وكتبت ترجمتها القديس الفونسيوس الذي عاش بعدها طويلاً واراد ان تُحفَظ فضائلها تذكارًا ثمينًا

ولما كان اليوم ٢٣ من تشرين الاول عام ١٧٢٣ اذن الكردينال بينياتلي رئيس اساقفة نابولي الفونسيوس ان يلبس الثوب الاكليريكي فلبسهُ وشرَّفهُ اكثر من نصف جيل . وكان يومئذٍ ابن سبع وعشرين سنةً ومارس اولاً

وظائف الاكليريكية في احدى كنائس نابولي وكان زمانهُ مقسومًا بين الصلاة ومطالعات لاهوتية وتلاوة الكتاب المقدس والاعتناء بالمرضى وزيارة القربان المقدس في كنيسة الاربعين ساعةً . وحينئذٍ وجد اولئك الاكليريكيين الثلاثة الذين كثيرًا ما صادفوهُ ساجدًا للقربان المقدس فتعجبوا من رويتهِ متوشحًا بثوبهم المقدس فواجهوهُ وارتبطوا معهُ برباط المحبة الذي كان مرتبطًا بهِ مع المسيح . ولما كانت السنة الثانية قص شعرهُ ورقي الى الدرجات الصغار وطلب ان يكتتب في اخوية التائبين البيض التي كان الغرض منها مرافقة المذنبين الى المقتل لكي يشدّدوهم بصلواتهم ويشجعوهم بتعزياتهم . وارتسم شماسًا رساليًا في ٢٢ من ايلول سنة ١٧٢٥ ودخل نظير مبتدىءٍ عند المرسلين المختصين بكنيسة نابولي الميتروبوليتية وتابعهم في غزواتهم الرسولية جامعًا المؤمنين ومعلمًا اولادهم التعليم المسيحي ومفيدًا الشعب بتواضعهِ وصلاحهِ

ولما كان شماسًا انجيليًا اجاز لهُ الكردينال بينياتلي ان يعظ فتزاحم الناس لاستماع مواعظهِ ولم يدعوهُ يرتاح ولهذا اصابهُ داءٌ شديد خطِرٌ حتى لزم ان يُعطى الاسرار . فجيءَ اليهِ بتلك الليلة عينها بتمثال سيدة الشكر الذي كان وضع سيفهُ على قدميهِ فعند مشاهدة صورة تلك الام القديسة اخذهُ فرح سماوي وظهر لهُ انهُ يعود الى الحياة واعادت لهُ السيدة العافية حقًا وما لبث ان استرد كل قواهُ وعاد الى سياق مواعظهِ

وفي ٢١ من كانون الاول سنة ١٧٢٦ ارتسم كاهنًا وعمرهُ ثلاثون سنة ومن يستطيع ان يصف فرح هذا الشخص الشبيه بالملائكة عند ما اخذ بيديهِ السيد المسيح الذي طالما سجد لهُ في هياكلهِ عن بعد فما اسعد من ذاق هذه السعادة ومن تذكرها . وكانت غيرتهُ تنمو على مقدار محبتهِ ووعظ في ابرشيات نابولي ورد الخطأة وقوى الضعفاء وانعش حرارة الاقوياء ولم تضجر الشعوب من سامعهِ وكانوا يتبعونهُ في كل مكان . فمر ابوهُ ذات يوم امام كنيسة الروح القدس فتحير اذ رأى الناس يسرعون اليها فدخل مع اولئك ورأى فاذا ابنهُ هو الذي يعظ فأخذت بلاغتهُ بمجامع قلبهِ وخلب لبهُ من الانوار التي فاضت على نفسهِ فلم يمكنهُ ان يمتنع عن القول وهو خارج : ان ابني هو الذي عرفني الله حقًا فصالحهُ شاكرًا لله على جميع الخيرات التي نالها على يد خادمهِ

وكان الدون الفونسيوس يتمم في كرسي التوبة الغزوات الروحية التي ابتدأها على منبر الوعظ وكان يواظب على ذلك النهار وجانبًا من الليل . وكانت عنايتهُ مذخرة على الخصوص لاسافل الناس وكان يفضلهم بالمحبة بما انهم هم عادةً اكثر اهمالاً في قطيع المسيح وكان يجمعهم مساءً في منزل من المنازل او في معبدٍ لكي يعلمهم ويعزيهم ويشجعهم على الخير. واما احباؤُهُ الثلثة الانقياء الذين مرَّ ذكرهم فساعدوهُ في هذه المبرَّة وترأسوا معهُ في الاجتماعات وتكلموا مناوبة . وهكذا ابتدأ عمل المعابد الذي اتخذ اسمهُ من الموضع المعتاد للاجتماعات فاظهر الكردينال استصوابهُ لذلك ولم يزل هذا الصنيع الغزير الفائدة للناس مثابرًا عليهِ الى يومنا هذا وقرَّرهُ وباشرهُ رهبان الفادي على ما أظنُّ في قسمٍ من أوربا ولاسيا في بلاد البلجيك ومنها أُخذ الى فرنسا التي عُرفت فيها زمانًا باسم العيلة المقدَّسة . وهكذا خصَّت الكنيسة بنفسها مقصد القديسين والذي أُستخدم لتقديس مدينة واحدة أضحى وسيلة خلاصٍ للعالم بأسرهِ

لا نتمكَّن من ان نذكر كلامًا مفصَّلاً على جميع ما انشأ القديس الفونسيوس في عصرهِ من الرسالات ولذا نقتصر على ايراد ما حدث لهُ في عاصمة بوبل وكان في تلك المدينة المعروفة باسم فوجيا صورة قديمة للبتول عليها السلام كان كرُّ الزمان قد محا رسومها فغُطّيت بصفيحةٍ فضيةٍ ولم يترك الاَّ موضع الوجه الذي كان مسدولاً عليهِ عدة براقع فسماها الناس من أجل ذلك سيدة البراقع السبعة . حدثت يومًا زلزلةٌ وخرَّبت كثيرًا من مُدُن بُوبل وأُدثرت فوجيا ولما كان الناس مجتمعين في كنيسة الكبوشيين يسألون السيدة الاغاثة بالصراخ والبكاء الحال تمزَّقت براقع هذي الصورة فاذا هم يرون في ضمن الإطار الفضي صورة البتول السماوية الرحيمة . ولما تكرَّرت هذه المعجزة مرارًا وراتها المدينة كلها رام أُسقف فوجيا ان القديس الفونسيوس الذي كان مباشرًا اعمال الرسالة وقتئذٍ ينشئ تساعيةً شكرًا لفضل البتول . وفيما كان يعظ ليلة التساعية تراءت ايضًا صورة البتول مريم واذا بشعاعٍ من النور السماوي الذي اشرق على وجهها امتدَّ الى القديس الفونسيوس وأُخذ الناس عند مشاهدة الأعجوبة اضطرابٌ خارق العادة فمنهم من كانوا يصرخون أُعجوبةٌ أُعجوبةٌ ومنهم مَن كانوا يخبون والخطأة

كانوا يضربون صدورهم اظهارًا لتوبتهم . فالزم اسقف المدينة القديس الفونسيوس بان يعطي شهادةً مكتوبةً على هذه الاعجوبة وأمر بان يُعيَّد في المدينة عيدٌ سنوي للبتول تذكارًا لها

وقد امرض الدون الفونسيوس ما كابدهُ من عناء الرسالة غير ان الله سبحانهُ جعل مرضهُ وسيلةً لإعلامهِ بالعمل الخاص الذي أعدَّهُ لهُ فأُرسل الى ابرشية سكالا لاستعادة قواهُ فأقام هنالك وجماعة من رفقائهِ بصومعةٍ قرب المدينة . وكان مع توعُّك جسمهِ يعتني بالفقراء من اهل القُرى ولما رآهم غلاظ الطباع يجهلون الحقائق الالهية خطر لهُ ان يتفرَّغ لتهذيبهم وخلاصهم فطلب اليهِ أُسقف سكالا ان يعظ في الكنيسة الاسقفية في الثمانية الايام المتقدّمة عيد الربّ ولما علمت بذلك راهبات المخلص اشتهينَ ان يسمعنَ وعظهُ فسمعنَهُ ونجع فيهنَّ كلامهُ فسألنَ الاسقف المومأ اليهِ ان يتكرَّم عليهنَّ ان يتروَّضنَ على إرشادهِ ويعترفنَ لديهِ

وكان في ذلك الدير راهبةٌ صالحةٌ يُقال لها الأُخت مريم السماوية كستارُوزا التي أُصلحت كثيرًا من الاديار وماتت برائحة القداسة فهذه حين اعترفت لديهِ وخاطبتهُ في أَعمال التقوى قالت لهُ يا الفونسيوس ان الله لا يريد ان تكون بنابولي فدعاك الى انشاء أخوية المرسلين وجلُّ المراد منها بذل العناية الروحية بالانفس المهملة. فلامها القديس على جراءتها ولكنها لم تزل تُثبت بتواضعٍ ان هذا هو ارادة الله حتى خرج مضطربًا من منبر الاعتراف عند الظهيرة ولم يذهب الى المائدة بل انفرد في غرفتهِ حتى يصلي ويبكي بسبب الحِمل الجديد الذي ظهر ان الله أراد أن يلقيهُ على كاهلهِ . ولما لم يرَهُ على المائدة أحد رفقائهِ يوحنا مزّيني المولع بحبهِ ذهب الى غرفتهِ فوجدهُ يسحّ دمعًا ومن فرط الالحاح عرف ما كانت قد قالتهُ الراهبة لهُ من قِبل الله . وقال لهُ الفونسيوس ايضًا ماذا أصنع . من جهةٍ عليَّ أشغالٌ كثيرة ومن جهةٍ أخرى لا أُريد مقاومة ارادة الله . فقال لهُ صديقهُ لا تجبن باعزيزي ألفونسيوس فلعلَّ هذه هي ارادة الله فلا بدَّ من ان تمعن النظر في ذلك . فقال القديس أين أجد الرفقاء فقال لهُ إن اقتضت الحال فاكون اوَّل رفيقٍ فهلمَّ كُل قليلًا ولندع الباقي لعناية الله وفي الواقع كان لهُ اول رفيقٍ فاستصوب اسقف سكالا وكستلامار مقصد الرهبانية

الجديدة واما في نابولي فعارضهُ الكردينال وجماعة من اصحابهِ ولكن الاب فيورلّي الدومينيكاني المحترم الذي انبأهُ الله بمقاصدهِ أراح ضمائرهم من هذا القبيل فارتضوا بان يتركوهُ يشرع في هذا المشروع العظيم . وهاجمهُ أبوهُ وقتئذٍ باقصى جهدهِ ليردَّهُ عن ذلك وهذا الشيخ الصالح تحرك حنوهُ فاخذهُ في ذراعيهِ زمانًا وهو يبلُّهُ بدمعهِ ويسالهُ بالبكاء ان لا يفارقهُ وهذه اكبر محنةٍ كابدها الفونسيوس . وكان ذلك الاب الصالح جاثيًا امام ابنهِ والدموع تسيل من عينيهِ مع انهُ كان جنديًا قديمًا وحضر المعارك الكثيرة ولم تُبكهِ أهوالها وكان الشيب ينذر بقلة أيامهِ وكل ذلك كان يُضعِف ابنهُ ويزيد حنوَّه ومع ذلك قاوم ولم يتزعزع لكنهُ اقرَّ ان نعمة الله انما هي التي كسبت هذا الانتصار ولم يكن لهُ فيهِ يدٌ . ولا خلاف ان الطبيعة غُلبت حين النعمة انتصرت وأصابهُ اضطرابٌ شديدٌ يشابه التشنج . ولما خرج الفونسيوس من هذه المعركة ذهب يطلب بركة الكردينال وسافر للحال من نابولي الى مدينة سكالا التي فيها انشأ رهبانيتهُ في تشرين الثاني سنة ١٧٣٢ وعمرهُ سبعٌ وثلاثون سنة

فرفقاؤهُ الاولون الاثنا عشر رجلًا كانوا متحدين مع الفونسيوس وعاشوا معهُ في بيت سكالا الصغير عيشة آباء البرية الاولين صائمين مصلين قامعين أجسامهم عاكفين على اشدّ تقشفات التوبة . الاَّ ان إبليس قدر ان ينتصر على هذه الغيرة الاولى فانهُ حين اقتُضي ان يوضع الغرض الاخصّ للقانون اختلفت الآراء فأراد بعضهم أن يضمّ الاعتناء بالتهذيب الى رسالات القرى وطلب الاخرون تشديدًا في حفظ الفقر الرهباني . اما القديس الفونسيوس فبقي ثابتًا لانهُ كان قد أُرسل يُبشر بالانجيل الانفس المتروكة وأبان صريحًا ان هذا انما هو الغرض من رهبانهم فتركهُ عند ذلك اصدقاؤهُ وبقي وحدهُ ليس معهُ سوى أخوين عاملين

ولم يستولِ عليهِ الفتور بل ثابر على الرسالات حاملًا الحِمل كلهُ منتظرًا ان العناية الربانية تبعث اليهِ برفقاء وأوَّل من أُرسلت اليهِ هو يوحنا مزّيني الذي ذكرناهُ آنفًا وهذا هو اوَّل كاتم لسرّهِ ولا ريب انهُ كان شجاعًا وصدّيقًا حتى أقبل على مساعدتهِ قبل الجميع . ثم اتَّبعهُ كثيرون وكان الاساقفة في كل مكانٍ يطلبون الرسالات . وأنشأ أديارًا كثيرةً لهذه الرهبانية الجديدة بابرشيات مختلفةٍ من المملكة

وفي صقلية ايضاً . واما أبو ألفونسيوس فرجع عن ظنهِ واراد ان يموت لابساً ثوب رهبانية الفادي الاّ ان ابنهُ لم يأذن لهُ في ذلك. وحدث في نابولي تغيُّرٌ في الآراء كما وقع لوالدهِ المشار اليهِ لان سكت حينئذٍ كل المضادّين لعملهِ

وكان ابتداء الرهبانية سنة ١٧٣٢ وأثبتها البابا مبارك الرابع عشر سنة ١٧٤٩ وأُثبت في ذلك الوقت تسمية القديس رئيساً دائماً عليها

ولا يمكن إيضاح كل ما نشأ من الخير عن هذه الرهبانية الجديدة فان الرسالات التي عملتها أنعشت الايمان بين الشعوب وكانت تبقى عادةً من خمسة عشر يوماً الى عشرين وأحياناً شهرًا كاملاً وكان يرافق القديس اثنا عشر راهباً او اكثر على حسب كثرة السكان وكان يستهلُّ مواعظهُ بالتخويف من الخطيئة ومن جهنم وبغضاء الشك ولم يكن يستبق شيئاً حتى يمسَّ قلوب سامعيهِ وحتى يفهمهم جليًّا ضرورة التوبة كان معتادًا ان يضرب جسدهُ بحبل ضخم على اثر مواعظهِ الكبيرة وقلَّ ما كان يفوت هذا المشهد ان يليّن أقسى النفوس الوحشية . وكان الناس ينظرون الخطاة المصرّين يبكون ويسمعونهم يصرخون وينحبون قائلين كيف نقاوم هذا الرجل القديس الذي بكى ومزّق جسدهُ من أجل آثامنا

ولما كان يرى القديس ان الناس راجعين الى الله لتأثرهم من الخوف الخلاصيّ كان يثبتهم على هذه الاستعدادات الجيدة بما كان يلقيهِ عليهم من مواعظ الحياة التعبدية وكان يُريهم ضرورة الصلاة ويعلمهم الصلاة والتأمل خصوصاً في الآم السيد لهُ المجد فان تذكُّرها جزيل الفائدة للخلاص. وكان يستمرُّ ذلك ثلاثة أيام أو أربعة وفي آخرها كان يأمر بأن تُنصب على تلةٍ او ربوةٍ خمسة صلبان وكان رفقاؤُه يحملون هذه الصلبان على اكتافهم حتى يصلوا المكان الذي تُنصب فيهِ متبعين المخلص منطلقاً الى موضع العذاب وكانت تلك الصلبان أحياناً ثقيلةً جدًّا حتى تمزّق منها كتفا القديس عليهِ السلام

ثم انهُ كان يؤهب الناس للتناول العامّ وكان الأولاد من ١٢ سنة الى ١٤ يتناولون معاً ثم الفتيات والارامل ثم المتزوّجات واخيرًا الرجال وكانت كل فئة تُهذَّب بحسبما يوافق حالتها

وكان يجري الوعظ عادةً مرتين في النهار صباحاً ومساء وكانت موعظة المساء اكثر أهميةً واما في بحر النهار فكان يجري التعليم المسيحي للاولاد وللبالغين ايضاً وكان الاباء من بعد التأمل صباحاً يجلسون على كراسي الاعتراف ويستمرون هناك سبع ساعاتٍ واحياناً اكثر وكانوا ياكلون عند الظهر لوناً واحدًا وفواكه على حسب الفصول . واما القديس فكثيرًا ما كان يؤخر ذلك حتى المساء لكي يستمع اعتراف كل من جاء الى كرسيهِ . واضطرب مضيفهُ يوماً من حيث لم يرَهُ آتياً فذهب يطلبهُ في الكنيسة . فقال لهُ القديس باسماً ايها الدون فرديناند ايها الدون فرديناند لم نأتِ هذا المكان للاكل وانما جئنا الى هنا ابتغاء تخليص النفوس واستمالتها الى الله جلَّ ذكرهُ. ولم يقبل قط شيئاً مما كان يُقدَّم لهُ لغذاء المرسلين وكانوا يكتفون بحسنة القداس وكانت عيشتهم بسيطةً تقشفيّةً وكانوا يفضّلون الاقامة باحقر منازل البلاد وكان القديس يختار لنفسهِ أردأ حجرةٍ في ذلك المنزل واعلم ان هذا التقشف وذاك الزهد قد أثرا في قلوب الناس وجعلاهم يثقون بهِ

وكان القديس الفونسيوس من بعد ان يتناول طعام الظهيرة ويزور القربان المقدس يسمع في حجرتهِ اعتراف الرجال حتى يأتي وقت الوعظ مساء . وهو الذي كان يعظ عادةً وحدث مرارًا ان الرجال وهم خارجون من كرسي الاعتراف ومنطلقون الى الكنيسة لاجل التأمل يجدونهُ آخذاً في الوعظ وآتاهُ الله موهبة تكثير ذاتهِ على وجهٍ ما بحيث كان يعرّف ويعظ معاً في آنٍ واحدٍ . وقد لُوحظت هذه الاية على وجه الخصوص بمدينة امالفي حيث تأتّى لعدةٍ من الشهود ان يحققوها ولا إشكال ان هذه الاعجوبة اي تضعيف الشخص الانسانيّ من اعظم عجائب القدرة الالهية

وليست هذه الاعجوبة مختصة بالقديس الفونسيوس ولها نظائر في تراجم أولياء الله فلا نسارع اذن الى رفض ما يفوق عقولنا الضعيفة القاصرة فاننا لا نعرف حدود قدرة الله بل نعرف ان ليس لها حدٌّ ولقد جعلتنا النصرانية شهودًا على آيةٍ باهرةٍ خارقة للعادة وهي منذ تسعة عشر قرناً . والاية المشار اليها انما هي حضور جسد المسيح حقيقةً تحت اعراض الخبز والخمر بوقتٍ واحدٍ في اماكن كثيرة أو ليس كلٌّ منا يتناولهُ كاملاً في زمنٍ واحدٍ . فان استطاع السيد لهُ المجد ان يعطي هذه المزية لجسدهِ المقدّس من دون سلب جوهرهِ فلمَ

لا يتأتّى له ان يمنّ بذلك على خدامهِ ولاسيما الى درجةٍ محدودةٍ مثل هذه

نُقِل ايضًا عن هذا القديس انهُ سافر الى نابولي وجاءت في غيبتهِ امرأةٌ فقيرةٌ وطلبتهُ من بواب دير القديس ميخائيل دي باغاني فقال لها البواب هو بنابولي . وكانت تلك المرأة تأخذ منهُ كل شهرٍ صدقةً تعيش بها الشهر بكاملهِ فغمّها خبر سفرهِ فدخلت الكنيسة لتفوّض امرها الى الله . وفيما هي مارّة امام كرسيهِ سمعتهُ يدعوها فعرفت صوتهُ وتناولت من يدهِ صدقتهُ المألوفة وخرجت من ساعتها لتلوم البواب على انهُ غشها اذ قال لها ان القديس بنابولي وقد كان في الكنيسة . فتعجب البواب لكن لم يسعهُ سوى ان يثبت ما كان قد قالهُ لها اولاً من ان الفونسيوس كان غائبًا في ذلك الوقت وكلاهما عرفا وقتئذٍ الاعجوبة التي اراد الله سبحانهُ ان يرضي بها خادمهُ المحبّ

وحصل للقديس بواسطة هذه العجائب سلطةٌ عظيمة على الشعب فلما كان يعظ يومًا بمدينة امالفي على عبادة البتول حرّكتهُ المحبة فصاح آه ما أبردكم في التوسل لهذه الام الصالحة فانا اروم أن أرجوها من اجلكم فضم يديهِ ورفع عينيهِ الى السماء وللحال التهب وجههُ وعلا جسدهُ عن الارض مقدار قدمين ومال نحو تمثال العذراء الذي كان على مسافةٍ منهُ ووقع عليهِ جذبٌ . وفي الوقت عينهِ تلألأ وجه تمثال البتول وانبعث عنهُ شعاع ضياء فانار وجه المرسل القديس وجعل الشعب يصرخون عند ذلك المنظر : الرحمة : وبقي عليهِ السلام صامتًا خمس دقائق او ستّ في تلك الصلاة الجذبية التي من بعدها رجع اليهِ حسهُ وقال للشعب بعظة كأنها إلهية ثقوا يا اولادي ان البتول قد نالت لكم النعمة

واكثر سكان امالفي تابوا الى الله ولم يبقَ الاّ الخطأة المصرّون فهؤلاء انفردوا في مقاومة دعوة القديس ولكنهُ انبأهم قبل ان يبارح المدينة قال ان اصراركم سيجلب على المدينة غدًا بعد ان يسافر المرسلون زلزلةً هائلةً . ولما كان الغد سافر المرسلون وحدث إثر ذلك زلزلةٌ مخيفة تزعزعت منها جميع المنازل فوقع الرعب في قلوب الناس فركضوا افواجًا الى الكنيسة الاسقفية وهناك ذكّرهم رئيس الاساقفة نبوّة القديس . ثم حدثت زلزلةٌ ثانيةٌ اشد من الاولى واكملت الاضطراب والخوف في ضمائر الاثمة وتاب جميع أُولئك الذين كانوا استمرّوا طرشًا لم يسمعوا لصوت الله . والحاصل ان هذه المدينة الكبيرة تابت الى الله كلها كما تابت قديمًا نينوى. ومرّ بها بعد خمسة اعوام مرسلون من اخوية اخرى واعلنوا انها امتن ايمانًا واشد تهذيبًا واوفر نقاوةً من كل المدن

ولما كان القديس بمدينة امالفي شفى ابن رجلٍ من الشرفاء كان مصابًا بداء النقطة وابرأهُ من علتهِ صانعًا على جبهتهِ علامة الصليب وانبأ والدهُ ان سيكون كاهنًا والمستقبل حقّق ذلك

وفضلاً عن تلك الايات والنبوّات كان نقشفهُ ملائمًا لان يأخذ بألباب الناس فكانت ملابسهُ من اردإ ما يكون بالية وكلها مرفوّة ولم يكن طعامهُ الا يسيرًا من الشوربة والخبز مع قليل من الفاكهة ولكن لا دائمًا . وكان ينام على الواح من خشبٍ ويلبس مسحًا ويمزق جسمهُ باسواطٍ جافية حتى ان جدران حجرتهِ كانت اغلب الاحيان ملطخةً بالدم . واما في الصيف فكان يتقشف حتى يكاد يمنع نفسهُ من كل شرابٍ صابرًا على ظمإ شديد إكرامًا لعطش المسيح واعتاد ان يضع في الشوربة حشائش مرة نظير الحشيشة المعروفة بصبر ايوب وذلك بحجة ان معدتهُ ضعيفة وهكذا كان طعامهُ اماتةً جديدةً

وكان مع كونهِ رئيسًا يرضى لنفسهِ بمباشرة ادنى الخدم كخدمة المائدة وكناسة المشى ومساعدة الطباخ وتنظيم أَسرّة المرضى . وكان يجد وقتًا لكل شيء لفروض مقامهِ وصلاتهِ وتأملهِ وكتاباتهِ وانطلاقهِ في اعمال الرسالة ولاعمال الرحمة وكان قد نذر ان لا يكون فارغًا متعطلاً ووفى ذلك النذر ادقّ وفاء . ولما رأى الناس كثرة مصنفاتهِ ومهمتها لم يدروا كيف استطاع ان يقوم مع ذلك بكل ما تقتضيهِ تدابير رتبتهِ الكبيرة من الامور المختلفة وبانشاء جانب كبير من الأديار واتعاب رسالاتهِ . هذا ولم تصرفهُ العناية بتآليفهِ عن فروض مقامهِ واعلم الرهبان صريحًا أنهُ لهم بجملتهِ وبالنتيجة لم يكونوا يخافون من ان يكاتبوهُ او يزوروهُ . فكان يقول لست رئيسًا لنشر الكتب بل لكي اسمع للجميع واعطي النصائح او التعزيات وبالاختصار لاجابة كل طالبٍ

وبذل مزيد عنايتهِ حتى فقّه الاحداث من رهبانهِ بالوعظ فاراد ان تكون مواعظهم ساذجةً من دون ادّعاء

ولا تأنق في المعاني ولا بلاغة في التراكيب طالبين خلاص النفوس لا استحسان الناس لكلامهم وكان يقول قصدت في جميع مواعظي ان أجهل امرأة في السامعين تفهم عظتي . واعلم ان هذه البساطة لا تنافي درس علم الخطابة وكان يرى العكس اي ان البساطة هي كمال العلم المشار اليهِ . قال ان آباء اليونان واللاتينيين اساتذة هذه الصناعة ولهذا تهيأ لهم ان يأتوا بالكلام موافقًا لكل عقلٍ . اقول ان الخطاب من دون استعدادٍ ولا درس لا يكون الاّ على اسلوبٍ باردٍ مشوش ينفرّ الناس عوض ان يحركهم

وانتشر صيت القديس الفونسيوس في جميع آفاق ايطاليا وفي قسمٍ من اوربا وتُرجمت تصانيفهُ الى كل اللغات فرام كرلوس الثالث ملك اسبانيا وكانت وقتئذٍ نابولي وصقلية تابعتين لملكتهِ ان يعطيهُ رئاسة اساقفة بالارما وقال الملك المذكور اذا كان البابا يقيم اساقفةً صالحين فانا أُريد ان أُقيم منهم مَن هم احسن واصلح . على ان القديس اذ علم بمقصد الملك ارتعش وكتب الى اصدقائهِ كافةً في ان يحوّلوا ذلك عنهُ لانهُ كان يعدّهُ اكبر الشوم وعرض للملك المذكور ان رهبانيتهُ وعمل الرسالات الزماهُ ان ينذر بان لا يقبل وظيفةً من غير وظائف رهبانيتهِ . فسلم معهُ الملك ولو بعد عناءٍ جزيل ولكن عما قليل خلا كرسي اسقفية مدينة القديسة اغاثا دي كوتي . فاقامهُ البابا اكليمنضوس الثالث عشر من تلقاء نفسهِ أُسقفًا على تلك المدينة

وحيث كان عمر القديس الفونسيوس حينئذٍ اي في اذار سنة ١٧٦٢ اكثر من خمس وستين سنةً كتب الى البابا يرجوهُ ان يشفق على شيخوختهِ ولا يرفعهُ الى ذلك المقام الذي يفوق طاقتهُ . فبلغت رسالتهُ الى الحبر المذكور في ١٤ من اذار فقرأها مساءً بحضرة الكردينال نيغروني واحسَّ بانهُ قد تأثر منها حتى قال للكردينال احبُّ ان اعزّي هذا الشيخ المسكين وارفع عنهُ الاسقفية . ولما كان الغد استدعى الكردينال لكتابة الجواب فقال لهُ الحبر الاعظم اكتب اليهِ اني اريد ان يكون اسقفًا وانا اعفيهِ من نذرهِ ان لا يقبل وظيفةً الّا من وظائف رهبانيتهِ . فقال لهُ الكردينال قلتَ لي في الامس ايها الاب الاقدس انك اردت ان تعزّيهُ . قال البابا نعم لا ريب في ذلك لكن روح القدس غيَّر هذه الليلة مقاصدي فاكتب اليهِ اذن اني أُلقي على كاهلهِ هذه الوظيفة بقوَّة الطاعة ولا اقبل اعذارًا أُخر

ولما انتهت اليهِ رسالة البابا قال اللهمَّ سكتُّ لان هذا عملك فلك المجد في كل حالٍ . ثم التفت نحو الحاضرين وقال وهو يبكي طردني الله من الرهبانية بسبب آثامي فلا تنسوني وقد اوشكنا ان نفترق بعد ان كنا اصحابًا ثلاثين سنةً . وعند ذلك وضع الرسالة على رأسهِ احترامًا واجلالاً وقال مرارًا بانقيادٍ واذعانٍ ان الله اراد ان اكون اسقفًا فاكون اسقفًا . فاشار عليهِ امرئٌ ان يلح على البابا إلحاحًا جديدًا في ان يُعفيهُ . فقال لهُ فات الوقت فان الحبر الاعظم امر بقوة الطاعة فعليَّ ان اطيع

فتأثر من خضوعهِ تأثرًا شديدًا فاصابهُ تشنج طويل المدة وحمى محرقة حتى يئس الناس من حياتهِ في لحظةٍ . فلما علم البابا بمرضهِ اغتم شديدًا الّا انهُ لم يجزم بان يرفع عنهُ وظيفتهُ بل قال إن مات اعطيناهُ بركتنا الرسولية وان عاش نحبُّ ان نراهُ برومية . فبرئ وانطلق الى رومية وحيث كان البابا المار ذكرهُ وقتئذٍ في كستل غندولفو ذهب الى لورتّا ليكرم بيت سيدتنا مريم البتول واستمر خمسة عشر يومًا حتى علم برجوع البابا الى رومية . فمثل بين يديهِ وحاز عندهُ مزيد الاكرام ورام البابا ان يراهُ مرارًا وكان يحب انهُ يشير عليهِ في اعمال الكنيسة وقال لحاشيتهِ بعد سفرهِ متى مات المطران الفونسيوس ليكوري سيكون لنا قديسٌ جديد في كنيسة الله

وارتسم اسقفًا في ٢٠ من حزيران وفارق رومية وقد جلب عليها الاسف لان الكرادلة والامراء والاحبار كانوا يزورونهُ ويندهلون من سذاجتهِ الانجيلية والفقراء عرفوهُ واحبوهُ وكانوا يحدقون بهِ ويزدحمون عليهِ عند خروجهِ وياخذون من يدهِ الصدقات الوافرة . ودخل مدينتهُ بالثوب الرهباني ولم يخطر لهُ ان يشتري برنيطةً تليق بمقامهِ فمست الحاجة الى ان ياخذ برنيطةً عن قبر سالفهِ . وكان يلبس الصوف دائمًا . وقدَّمت لهُ خزنة الكنيسة الاسقفية التاج والعكاز وأُعطي خاتمًا وكهنتهُ أثثوا دارهُ الاسقفية . وبعث اليهِ اخوهُ بمركبةٍ ولولا ذلك لاضطُرَّ ان يتجوّل ماشيًا على قدميهِ . واختار في دارهِ حجرتين حقيرتين الواحدة للصيف والثانية للشتاء وهي اضيق واصغر ولم يكن يشعل هنالك نارًا وكل زينة محلهِ كانت حصيرة دنية وخوانًا وبعض كراسي وصور

من ورق معلّقة على الجدران

وكان عندهُ نائبٌ عام وكاتم اسرار واخ من رهبانيتهِ وخادم يعمل ايضاً عمل الطبخ . وكان طعامهُ غاية في التقشف . وكل دخلهِ يُصرَف الى الفقراء ولم يحسب نفسهُ الّا موفرًا لهم حتى ظنّ انهُ يُلحق بهم ضررًا بما ينفقهُ على نفسهِ . وانباهُ الله بعد سنةٍ لاسقفيتهِ ان سيصيب البلاد جدبٌ فاذخر موءُنةً وافرةً ووزعها بسخاء ايام المجاعة ولما نفدت باع مركبتهُ وخيلهُ وادوات مائدتهِ وخاتمهُ واراد ان يستدين على دخلهِ فلم يقرضهُ احدٌ على المستقبل لاجل كونهِ شيخًا فانيًا مريضًا . وكان الفقراء مع ذلك يملأون دارهُ فقال لهم والدمع على خديهِ احبائي قد بعتُ كل ما لي ولم يبقَ لي شيء ولم يُرد احد ان يُدينني . وان هذا الضيق فتّت قلبهُ ونوى ان يرهن ما تزينت بهِ الكنيسة الاسقفية من الآنية والامتعة فعارضهُ المجمع

وعصى الشعب مرارًا ايام المخمصة فلم ينجُ وكيل مدينة القديسة اغاثا من الغضب العام الّا بتوسلات الاسقف القديس ودموعهِ وكذلك وكيل مدينةٍ بجوارها على ما يأتي ايرادهُ . لما كان القديس يرتب ذات ليلةٍ سجلّات الاسقفية وبمعيتهِ كاهن كان قد استدعاهُ من تلك المدينة قال لهُ دع الشغل وعُد على الفور الى بلدك فرجع الكاهن للحال . ولما كان الغد حدثت الثورة فعرف عند ذلك الخوري لايما سبب كان ارجعهُ القديس وللحال استدعى الوكيل فخباهُ في دير ارهبان عبد الاحد وانقذهُ من القتل

وحين بلغ القديس الفونسيوس مدينة القديسة اغاثا ابتدأ رسالةً جاءت بافضل فائدةٍ فكان يعظ مرتين في الاسبوع . يوم السبت يكرز على مجد مريم ويوم الاحد على انجيل النهار . وكان يجلس من لدن الصبح الى المساء على كرسي الاعتراف ليسمع الاعترافات . وكان في زياراتهِ الرعائية يعظ ويسمع الاعتراف ويخدم المرضى قائمًا في كل موضع بفرض الراعي الصالح . وفيما كان يومًا يثبت فتىً مريضًا قال لهُ فلنذهب ياولدي تشجع فبعد ثلاثة ايام تكون في الفردوس فاذكرني بصلاتك ومات الشاب بعد ثلاثة ايام

وبينما كان يعظ مرةً اخرى في احدى كنائس ابرشيتهِ على شفاعة البتول اذ وقع عليهِ جذب وتلألأ وجههُ واضاءت الكنيسة بنورٍ عظيم وقال حالاً للشعب هوذا البتول انت تفرّق علينا النعم الالهية فلنسألها وهي تنال لنا كل شيء

وبينما كان يعظ موعظةً غيرها اذ امسك عن الكلام لكي يصلي لاجل اسقف كازرتا الذي كان قد اوشك ان يموت وعُلم انهُ كان في تلك الساعة على آخر رمقٍ . فهذا الاسقف الذي كان صديقهُ سألهُ لما وآكلهُ يومًا كم في ابرشيتك من السكان فقال لهُ القديس ثلاثون الفًا فقال الاسقف المنوه بهِ ذلك نفس المقدار الذي تحويهِ ابرشيتي . فقال عند ذلك القديس الفونسيوس : ربي حمل ثقيلٌ جدًّا على كتفي انسانٍ حمل ثلاثين الف رجل فياويلنا اذا تركنا واحدةً من تلك النفوس الكثيرة تهلك

ومن ثم كان شديد العناية بانتخاب الرعاة الذين يؤمنهم على جزء صغير من قطيعهِ فكان عادةً يمتحن ويفحص الكهنة بالمسابقة حتى يستخدم منهم الاقدر علمًا والافضل . فلما كان رئيس مدرستهِ الاكليريكية يتقدم في الصفوف بالمسابقة حتى يبلغ مرتبة إمامة المجمع طلب الى القديس الفحاص الذين كانوا تلاميذهُ ان يعفيَ معلمهم القديم من الفحص فانكر عليهم ذلك وحيث لم يريدوا ان يفحصوهُ اقام فحاصًا غيرهم . واجاب يومًا احد الشرفاء جوابًا سديدًا لانهُ كان يوصيهِ منذ ساعةٍ باكليريكي كان يعدهُ القديس قليل الاهلية وهذا نصّ الجواب أَ لك شيء تقولهُ لي فاسمعك بملء خاطري لكنني اعلمك انك كلمتَ ميتًا وبما ان الموتى لا يجاوبون فلا اجيبك فيما بعد

واصابهُ سنة ١٧٦٩ وجع المفاصل والنقرس فحرماهُ استخدام اعضائهِ فتشوّه جسدهُ وانحنى رأسهُ الى صدرهِ واستمرّ احدب وعلى نوعٍ ما مكسورًا قطعتين . فلما رأى انه غير قادر ان يزور ابرشيتهُ استأذن الحبر الاعظم في الاستعفاء من رعاية الاسقفية فانكر عليهِ الاذن وكان يومئذٍ البابا اكليمنضوس الثالث عشر . ثم استأنف الطلب على عهد البابا اكليمنضوس الرابع عشر فانكر عليهِ نظير سالفهِ فقال حينئذٍ فلنأخذ بالصبر وننتظر من يخلفهُ

فاضحك بهذا الكلام جميع السامعين لان البابا كان شابًا قويًا والقديس شيخًا عليلاً . وبعد ذلك بقليل وفيما كان جالسًا على كرسيهِ في ٢١ من ايلول ظهر انهُ نائم وبقي على تلك الحال الشبيهة بالنعاس الى منتصف الغد ولم يتجرأ خدامهُ ان يوقظوهُ ولما افاق سألوهُ بقلق ضمير ماذا

اصابك فقال لهم خرجتُ اساعد البابا الذي اوشك ان يموت . واتى الخبر الصحيح بوفاة البابا في هذا النهار والوقت اعينهما

اعلم ان ما احزن هذا الحبر القديس اكثر حزنٍ وكدّر خاطره اشدّ كدرٍ انما هو ان الكنيسة المقدسة كانت حينئذٍ هدفًا لمقاومات اغلب اصحاب الامر في الممالك المتسلط عليها اهل الكفر الفلسفي اعني بهم فولتير وروسو وقد جدَّ اولئك جميعهم في ان يقرضوا الرهبانية اليسوعية اذ كان القديس الفونسيوس يعتبر هذه الرهبانية اعتبارًا جزيلاً ويحب ابناءها حبًّا عظيمًا . ومن اقواله في هذا الشان ان ابناء الرهبانية اليسوعية ما عدا ما يعاونهُ من الخير في الخدمة المقدسة يلزم اعتبارهم اعتبارًا جزيلاً لما لهم من المزية واليد الطولى في اغراس الايمان والتقوى بقلوب الاحداث الذين بعد ان نموا بتربيتهم يُثمرون في العالم اثمارًا تفرح منها الكنيسة وتنجح الممالك ولاجل ذلك نرى اشياع جميع الكافرين والاراطقة واليانسينيين يبغضونهم و يجدّون في ابادتهم . فلو تلاشت تلك الرهبانية الجزيلة تخلص الكافرون من اشد مقاوميهم لكون ابناء الرهبانية اليسوعية مستعدين دائمًا لمقاومة اعداء الكنيسة وهم يحسبون ذلك مجدًا عظيمًا . . . . ان الكنيسة المقدسة تُدعى كرم الرب فان طُرد منهُ اشد الفعلة فلا بد من خروج اشواكٍ تختبأ فيها الافاعي التي تسعى في خراب المذبح والكرسي الملكي ". انتهى

ولم يكتفِ القديس بالقول بل اخذ يقاوم اعداء الكنيسة لا بالوعظ فقط لكن بالكتابة ايضًا فألف مقاومةً للكافرين كتابًا في تأييد الايمان وصنّف مناصبةً للاراطقة كتاب تاريخ البدع . ولما قام البابا اكليمنضوس الثالث عشر وابان بغض اعداء اليسوعيين وثبت رهبانيتهم ببراءة رسولية كاتب القديس هذا الحبر الجليل شاكرًا له لما عمل ببراءتهِ مديحًا وتثبيتًا للرهبانية المذكورة وقال انهُ بصنيعهِ هذا قد ملأ قلوب جميع الصالحين فرحًا

وبعد وفاة الحبر المذكور وتولى خليفتهِ اكليمنضوس الرابع عشر لما رأى اعداء الكنيسة يزدادون سعيًا وجهدًا في مقاومة الرهبانية اليسوعية ولا يزالون يلحون على الحبر الاعظم ليبيدها بسلطتهِ الرسولية قال ان قصد الكافرين واليانسينيين في ملاشاة هذه الرهبانية انما هو ان يجعلوا الكنيسة في اسوإ حال ولا ريب في انهُ إن تمّ سعيهم هذا فسوف يعقبهُ تبلبل في الكنيسة وخراب في الممالك

هذا ولما تم سعي اولئك الاعداء حزن القديس حزنًا يفوق الحزن الذي اصابهُ حين رأى اخويتهُ هدفًا لبغضهم ايضًا . واذ عرف انهم لا يزالون مضيقين على الحبر الروماني حيث اصابهُ من ثمَّ اضطرابٌ وحزنٌ شديد واستثقال الحياة لم يزل يرثي لهُ ويصلي لاجلهِ الى ان أُعطي من الله ان يساعدهُ وقت وفاتهِ باعجوبة سبق القول عنها وقد ذكرت في الفحص القانوني الذي جرى لوضع القديس الفونسيوس في صفوف الطوباويين

وكان البابا المشار اليهِ قضى نحبهُ في ٢٢ من ايلول وخلفهُ بيوس السادس وهذا رقَّ لامراض القديس واذن لهُ ان يرجع الى رهبانيتهِ وحفظ لهُ لاجل نفقتهِ ثمانمائة ريال من اسقفيتهِ . وعاد فرحًا الى ما بين اخوتهِ وكان يظهر انهُ اذ ترك الاسقفية استراح من ثقلٍ عظيم كان على عاتقهِ وخصص بقية عمرهِ للصلاة والعناية بالرهبان والتأهب للموت

واباح الرب لابليس ان يضيق عليهِ بتجارب شديدة وذلك لاجل توفير استحقاقهِ فهجم عليهِ الشيطان هجماتٍ مريعةً وثب على ايمانهِ بالشكوك فانتصر عليها بالاذعان لنصائح مرشدهِ . قد ذكرت هذه الواقعة تعزيةً للنفوس المتورعة التي يعذبها الشيطان احيانًا بمثل هذه الشكوك . فاذا كان هذا الشيخ القديس الذي انشأ مصنفاتٍ عجيبةً لتقرير الحق والمدافعة عنهُ والذي آتاهُ الله كثيرًا من النعم الفائقة الطبيعة والذي صنع معجزاتٍ جمة امكن ان يثب عليهِ الشيطان في امر غير مرجّح جانب الانتصار فيهِ كما يظهر افيسوغ والحالة هذه ان نتعجب من ان الشيطان يجدّ في اعماء اضعف البصائر واضلال اقل القلوب ثباتًا. فلا ريب ان هذه الشكوك هي اكثر التجارب كدرًا وحزنًا لكن ليست باكثرها خطرًا لان الطاعة تستظهر دائمًا . فهذه فرصة ثمينة للاستحقاق اذ نعترف باتضاعٍ بضعف بصائرنا . فان القديس الفونسيوس لم يزل مجرَّبًا بمثل هذه التجارب حتى عشية اليوم الذي مات فيهِ واعاد لهُ المسيح فيهِ راحة الضمير مع نورٍ كاملٍ

قال لأحد أصدقائهِ في ١٢ من ايلول سنة ١٧٨٦

وكان هذا يزوره كل عام في مثل ذلك الوقت . ايها الاب يوسف لا تراني في العام القابل ولا ينظر احدنا الآخر في هذه الدنيا فيما بعد فصلٌ من اجلي الى الله والى أمّ الأحزان السبعة . وبعد يومين او ثلاثة لمرضو قال لأخ كان يخدمه قد أوشكت ايها الاخ ان اعمل عملاً كبيرًا واصابه في ١٨ من تموز سنة ١٧٨٧ حمى حادّة مصحوبة بزحار وعلةٍ اخرى شديدة الايلام فقال من ساعتهِ ان هذا يدلُّ على قرب وفاتي. ودُهِن بالزيت المقدّس وتناول زاد الراحلين الى الابدية في ٣٢ من تموز ولكن بفرح وورع ابكيا جميع المشاهدين وبارك ابناءهُ وهم جاثون من حول سريرهِ . وفي اول آب دخل في النزع فوضع الصليب على صدرهِ ووجّه نظرهُ الى صورة أمّ الاحزان السبعة واجتاز احسن اجتياز من دار الفناء الى دار البقاء وعمرهُ تسعون سنةً وعشرة اشهرٍ وخمسة أيّام.

هذا ودُفن جسدهُ في كنيسة رهبانيتهِ بمدينة نوصيرا وشيّع جنازتهُ خلقٌ كثيرٌ وكان يرنُّ في كل موضعٍ صراخ عامٌّ: القديس مات . وكان الناس يتعجبون من بهاء وجههِ المكرّم وخفّة جسمهِ الذي كان قبلاً متعاصيًا على كل الحركات. نُقل ان ولدًا يُئِس من شفائهِ شُفي بمجرّد مسّ جسمهِ واذن له الله سبحانهُ ان يرى القديس ممجدًا حتى كان يهتف : القديس الفونسيوس في السماء القديس هو في السماء. وتكاثرت العجائب التي صنعها الله على يدهِ فضمّهُ البابا بيوس السادس الى جماعة المكرّمين سنة ١٧٩٦ بعد تسع سنين لوفاتهِ ونظمهُ في سلك الطوباويين البابا بيوس السابع بعد عشرين عامًا لموتهِ وأمضى البابا بيوس الثامن براءة ليثبت قداستهُ سنة ١٨٣٠ وأكمل ذلك البابا غريغوريوس السادس عشر

اليوم العاشر
من آب
وفيهِ ترجمة القديسة فيلومينا الشهيدة

كُشف في شهر ايار عام ١٨٠٢ في ديماس لقديسة برسِلاً على حجرٍ قبريٍّ جدير بالاعتبار وكان ذلك الحجر من قرميدٍ وعليهِ علائم تُشير الى الاستشهاد وهي مرساة وثلاث نِبال وسوط وجريدة نخلٍ وزنبقةٌ وكتابةٌ منطوقها يا فيلومينا السلام عليكِ. ففتح الرمس فاذا بعظام الشهيدة ودمها في اناء مجففٌ ونُقلت تلك الذخائر الى قرية موتيانو وهي على مقربةٍ من نابولي وجرى ثمَّ بواسطتها عجائب كثيرة باهرة فسمى الناس القديسة فيلومينا عجيبيّة القرن التاسع عشر

ليت شعري ماذا كانت قصة تلك القديسة المشهورة فكانت الرموز تدلُّ دلالةً واضحةً على عذراء شهيدة لا غير. ولكن من بعد ان اقيمت صلوات جمةٌ ألهم الله ثلاثة أشخاص لا يعرف احدهم الآخر بتةً وكان كل منهم يسكن بناحيةٍ من بلاد ايطاليا ألهمهم الهامًا متّفقًا كل الاتفاق اثبت صحتهُ جمهورٌ من الاساقفة . والاشخاص المشار اليهم صانعٌ وكاهنٌ وراهبةٌ وكلهم كانوا يكرمون الشهيدة مزيد الاكرام وهذه خلاصة تلك الالهامات

ان فيلومينا ابنة برنس يوناني امها من سلالةٍ ملكية وكان هذان القرينان حزينين اذ لم يكن لهما ولدٌ وكانا وهما في الوثنية بعدُ لا ينفكان يضحيان لآلهتهما لكي يرزقوهما غلامًا. وكان في قصر ذلك البرنس طبيبٌ مسيحيٌّ من رومية فهذا اذ رأى كآبتهما ورثى لغباوتهما طفق عن الهام روح القدس يحدثهما في أمر النصرانية وتمادى معهما في الكلام حتى ادّى بهِ الحديث الى ان وعدهما ان يظفرا برغبتهما اذا آمنا واعتمدا. فانارت النعمة لبّيهما وملكت خاطرها فاهتديا وتنصرا وانجز لهما الوعد فرزقهما الله ابنةً وسمّياها فيلومينا

وكانت هذه الابنة مكتنفة بحنوّ أبويها فاشركاها في التقوى وربّياها تربيةً جديرةً بمقامها ولما رأى ابوها انهُ مضطرٌّ الى ان يرحل الى رومية لاجل دعوى كان أحدثها عليهِ ديوكلتيانوس المتشامخ لكي يستولي على امارتهِ لم يستطع ان يفارق ابنتهُ زمنًا طويلاً كما كانت تقتضيهِ مثل تلك الرحلة واما امها فكانت في هذا الامر نظير ابيها ولذلك ذهبوا كلهم وكانت فيلومينا ابنة ثلاث عشرة سنةً

وبلغوا الى عاصمة الدنيا وذهبوا الى قصر الملك وحضروا امامهُ واما الملك ديوكلتيانوس فعلى ما ظهر انهُ لم يكن لهُ عينان وقتئذٍ الّا ليتفرّس في الفتاة الاميرة ولما اخذ البرنس يقيم دعواهُ كان الملك يبين انهُ مشتغل جدًّا كل ذلك الوقت حتى اذا فرغ من الكلام قال لهُ الملك لا يهمك امرٌ منذ الآن فصاعدًا واطرد كل مخافةٍ ولا تفتكر

الآن تحيا سعيدًا . ولا جرم ان محاسن الفتاة كانت عنده افصح من كلام والدها وهام الملك بها أيّ هيام فخطبها الى ابيها . فذُهل عند ذلك ابوها من شرفٍ كان بعيدًا ان يتوقعهُ ورضي ان يزوجهُ بها وكذلك امها بذلت كل جهدها لتنيل بابنتها الى ان تنقاد لطلب ملك الارض القدير

اما فيلومينا فكانت على رضا والديها قدّمت عفتها لله منذ عامين وصارت زخارف الدنيا عندها عدمًا قبالة الثواب السماوي . فقالت أفانكما تروماني حبًّا برجلٍ ان أخاف وعدي لالهي. بتوليتي مقدَّمةٌ لهُ ولم يبقَ في يدي أن أتصرَّف بها . فقال لها ابوها نعم غير انكِ يا ابنتي كنتِ اصغر من ان تعقدي عهدًا كهذا ولما رأى ان ابنتهُ لم تزل راسخةً في عزيمتها أبلغها أمرًا صريحًا واضاف اليهِ أهول أصناف الوعيد . وجعل الله قلب تلك الشابة العذراء غير مغلوب وأخذ أبوها الذي كان لها في قلبهِ مزيد حبٍّ يتوسَّل لاجلها الى الملك لكن خاب أملهُ فامر ديوكلتيانوس بان فيلومينا تمثل بين يديهِ

وحاول ابواها قبل ان تُقتاد الى الملك ان يصرفاها عما عزمت فتوسلا الى إغوائها بالوعد والوعيد والدموع والرجاء وآخر الامر جثوا كلاهما على قدميها وصاحا حائرين من الخوف والحبّ والغضب والحنوّ . ابنتي رقي لحال ابيكِ وامكِ ووطنكِ وشعبنا . فقالت تلك الفتاة الباسلة الله خيرٌ من الجميع ولقد نذرت لهُ عفتي ولن انكث بعهدي وملكتي هي السماء

واقتاداها الى ما بين يدي الملك فبذل جميع الوسائل لاستمالتها ولم ترجع عن عزمها فسخط حينئذٍ سخطًا شديدًا وقد هاجهُ الشيطان فألقاها في سجن قصرهِ مغطَّاةً بالسلاسل وكان يذهب الى المحبس كل يوم ويرقب اميالها ويحاول ان يغويها مستخدمًا لذلك كل وسيلةٍ . وكان ملجأ تلك الشابة المسجونة الصلاة فلم تكن تنفك عن ان تكل أمرها الى المسيح والى امهِ المباركة . وأتى عليها في الاسر سبعة وثلاثون يومًا ثم ظهرت لها البتول في قلب نور سماويّ حاملةً على ذراعيها ابنها الالهي وقالت لها تشجعي يا ابنتي ثلاثة أيام ايضًا تخرجي بعدها من هذا السجن . فكمل بهذا الخبر فرح قلبها الّا انها شعرت بضعفٍ من الخوف والغم عند ما قالت لها سلطانة الملائكة ستقاتلين مقاتلةً أشدَّ تحت العذاب . ولما رأتها العذراء المجيدة على هذه الحال من القلق أردفت ذلك بقولها ألا تعلمين يا ابنتي حبي الكِ فلا تهلعي فانا أُعينكِ . الطبيعة تخاف والنعمة ساعة القتال تعيركِ قوَّتها وملاككِ يجدكِ . فجرَّأها هذا الكلام وشدَّد عزيمتها وتوارت عنها ملكة السماء تاركةً السجن عابقًا برائحةٍ طيبةٍ سماويّةٍ

والنبوة ما ابطأت ان تحقق . لانهُ لما يئس ديوكلتيانوس من ان يعطف تلك الشابة الاميرة الى ما يهوى صمم ان يعذبها علانيةً وأوَّل عذابٍ ذاقتهُ كان عذاب الجلد ثم قال بما انها تفضّل عليَّ مصلوبًا شقيًّا لابدَّ ان اعاملها نظيرهُ . فأمر بالعذراء العفيفة فعرّيت من ملابسها ورُبطت الى عمودٍ وضُربت ضربًا عنيفًا ومُزق جسمها وتجرَّح كلهُ وخشي ذلك الطاغي ان يراها تموت امام عينيهِ فالقاها في السجن . فهبط عليها ملكان يتلألأن ضياءً وسكبا على جراحها بلسمًا خلاصيًّا واعادا اليها ما كان لها من القوَّة والعافية

واستعلم عنها الملك في الغد وامر ان تمثل ما بين يديهِ فشاهدها متحيرًا وحاول ان يقنعها ان شفاءها انما هو من المشتري العظيم الذي كان يجد لهُ وأراد انها تكون زوجة لهُ . فالمسيح الذي كان قد اعطاها التجلد ملأها حينئذٍ من روحهِ فطفقت تدافع عن ديانتها بفصاحة لم يستطع احد ان يجاوبها . فزاد ذلك ديوكلتيانوس سخطًا وامر ان تُغرَّق الاميرة العاصية على اوامرهِ والحبل على عنقها في نهر تيبر . فطُرحت وقتئذ في ذلك النهر فاخذها ملكان على ذراعيهما ورميا المرساة في المياه وحملاها علانيةً الى الشاطي على مرأى الجم الغفير . فاهتدى كثير منهم الى النصرانية بهذه الآية الباهرة واما الملك فرأى الآية ووقع عندهُ انها سحرٌ . فامر ان تُجرَّ الشابة الشهيدة في الازقة وتُرشق بالنبال ففعلوا ذلك وسال دمها ورُدَّت الى السجن المظلم وهي في حالة النزع . فشرَّفها الله هناك بقوَّة جديدةٍ واخذها نعاسٌ لذيذ ولما افاقت اذا هي في تمام البرء . فلما عرف الملك انها بريئةٌ أمر بان تُحمى النبال وترشق عليها ثانيةً ففعلوا غير ان النبال كانت ترجع الى رُماتها وتجرحهم حتى ان الشعب اخذوا يصرخون ويمجدون قدرة الاله الذي انقذها من العذاب والموت

اما الملك الطاغي فعوض ان يستنير خشي ان رعيتهُ تُغوَى بهذه العجائب فاراد اخيرًا ان يتخلص من هذه الضحية

الملبكة وابتدر ان يُقطع خيط عمرها فامر بقطع رأسها. وهكذا طارت نفسها الزكية نحو عروسها السماوي الذي ضحّت لهُ مملكةً برمتها ووضع في يدها زنبق العفاف ونخل الاستشهاد. هذا وكان دخولها في المجد اليوم العاشر من شهر آب في الساعة الثالثة بعد الظهيرة

اعلم ان جسد القديسة فيلومينا بقي في رومية من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٠٥ كأنهُ غير معروف وفي السنة ١٨٠٥ جاء الى رومية الدون فرنسيس دي لوسيا احد المرسلين وطلب من الكرسي الرسولي عظام القديسة فيلومينا لينقلها الى مدينة مونيانو فأُذن لهُ ونقلها وجرت في السفر عجائب عديدة نُعرض عن ذكرها تخلّصًا من الاسهاب فنقول. ان التمثال الذي ادخلوا فيهِ عظام الشهيدة ووُضع باحتفال عظيم في كنيسة سيدة النعمة بمدينة مونيانو كان على صورة ابنة ممتدة على فراش مرتفعة الركبتين ولكن كان موضوعًا في صندوق ضيق فبقي على هذه الحال سنين عديدة. ولما أُريد سنة ١٨١٤ تزيين المعبد باحسن زينة وجد التمثال على صورة ابنة جالسة بوجه محكم الصناعة احسن ماقبل ولما كان الشعب يتقاطر ويزدحم ليبصر هذا التغيير العجيب اذا بولدٍ كان اعماهُ الجدري شفي بغتةً امام شهود كثيرين. وبعد ذلك بزمان قليل وُجد تمثال الشهيدة قد تغير تغيرًا آخر عجيبًا اذ شخص الشهيدة المتصورة بهِ قد زادت قامةً وكثر شعرها ودعت الضرورة الى ان يوضع تمثالها في صندوق اكبر وجرى هذا الامر العجيب اربع مرات فجرى في جسد القديسة كما قال اشعيا النبي ان عظامكم تنمو كالعشب فتعرف يد الرب لدى عبيدهِ (اشعيا ٦٦: ١٤)

قد كثرت العجائب التي جرت على قبر هذه القديسة وعند نقل ذخائرها والتي جرت بشفاعتها. لكن ضيق المقام يلزمنا ان نكتفي بذكر ما يأتي (١)

وفي ١٠ آب سنة ١٨٢٣ لما حُمل تمثال الشهيدة المصنوع من خشب في ازقة مونيانو وُجد أثقل مما كان قبلًا ولزم ان يجتمع كثيرون ليرجعوهُ الى الكنيسة. وفي الغد وُجد عرق كثير يجري من وجه التمثال المذكور على شكل المن

وانتشر في لوصيرا اكرام القديسة فيلومينا بآيات كثيرة فان كاهنًا كان اشفى على الموت بداء في صدرهِ فلما وضع صورتها على موضع الألم نال الشفاء واهتدى بواسطة هذه العجائب جماعة من الجاحدين الذين كانوا يهزأون منها. فان رجلًا من عيلةٍ شديدة الثقة بالقديسة المذكورة وتُكرم صورتها في معبد صغير كان كثيرًا ما يخطر لهُ ان اعتقاد مثل هذه الامور العبثية علامة على قلة العقل. فتراءى لهُ ذات يوم وهو نائمٌ انهُ في الكنيسة وابصر هنالك الشهيدة محاطةً بخلق كثير وكلهم سألوها نعمةً فأعطتهم ورجعوا على تمام الفرح ولما اشتهى هو ان ينال شيئًا طالما كان يتوق اليهِ اقترب منها وطلب اليها. فقالت لهُ على الفور متغيظةً ابعد من هنا ابعد من هنا ألم تعُد ذلك الرجل الذي لم يؤمن بما صنعتُ من الآيات. ويحك كيف تجرأ ان تسألني النعم. واعلم ان هذا الكلام ملفوظًا بصوت قاس اخذ بقلبهِ كل مأخذ فصحا من غفلتهِ وتغير طباعًا بحيث لم يبقَ ذلك الرجل نفسهُ من حيث المعتقد وحكم منذ تلك الدقيقة في عجائبها حكمًا منافيًا للاول ولم يفتأ يبكي لضلالهِ وقد أظهر خلوص اكرامهِ للقديسة العجيبة بنعمٍ كثيرة

وكثيرًا ما كان زيت قناديل القديسة فيلومينا يزداد زيادةً عجيبةً وكذلك الصور التي كانت تمثلها والكتب المتضمنة قصتها وعجائبها

ان هذه القديسة حصل لها نظير عروسها الالهيّ مزيد انعطاف نحو الاولاد. رُوي ان امرأةً فقيرةً اوصتها بابنها وكان قد مات رغمًا عن طلباتها فاخذها الحزن ولكنهُ لم يخمد حرارة ايمانها بل زادها استعارًا فرعت الى صورة القديسة المعلقة على جدارٍ واخذتها والقتها على جثة ابنها الميت وطلبت بصراخٍ عالٍ ودمعٍ غزير ان يُردَّ ابنها الى الحياة فقام للوقت كأنهُ قد هبَّ من نومهِ وقام من الفراش ورأتهُ العينان اللتان بكتاهُ لا مبعوثًا من الموت فقط لكن ليس عليهِ اقلُّ علامة تدلُّ على المرض. وليس اقلّ غرابةً من هذا ما جرى ببلدة مونتيفورتي فان ابنة ليليوجيزوالدو وانطونية فالنتينو وهي ابنة سنة افلتت من يدي حاملتها وسقطت الى الشارع ومبلغ العلوّ كان اربعةً وعشرين شبرًا وكان وقوعها سريعًا لان رأسها وقع

(١) ان مختصرا لعجائب الاتي ذكرها ماخوذ من كتاب سيرة وعجائب القديسة فيلومينا عجيبةِ القرن التاسع عشر وقد ترجمهُ من اللغة الايطاليانية الاب الجليل يوسف باربل من الرهبانية اليسوعية وطبع بلوسانا سنة ١٨٣٤

على انبوب من قرميد فكسّره كسرًا ومن هناك هوت على حصى البلاط . واما والدتها فاذ رأت هذا الامر المفجع صاحت من على سطح منزلها ايتها القديسة فيلومينا اعطيك هذه الابنة اذا انقذتها . واما ابو هذه الابنة المدعوة سعيدة فكان حينئذٍ في الشارع وصاح ذلك الصياح نفسهُ واقبل نحو ابنتهِ التي كانت ممتدة على الارض وامسكها ونظرها فلم يرَ في جسدها جراحةً ولا رضّةً ولم يكن على جسمها كلهِ علامةٌ على سقوطها سوى انكسار طوق فضي كان على عنقها

واعلنت القديسة انها على الخصوص ام البنات اللواتي يتسمّين اسمها . ولما كانت سنة ١٨٣٠ فقأت فيلومينا تدسكو عينها بمقراض وحكم الاطباء ان ذلك لا يمكن شفاؤهُ الّا ان الابنة المذكورة شُفيت حالما غسلت عينها بزيت من قنديل القديسة فيلومينا ولحظ الجميع انهُ كان في العين المشار اليها شيءٌ احدُّ واضوأُ مما في العين الاخرى . ورُوي ايضًا ان امراةً فقيرةً يُقال لها تريزيا بوفيني فوّضت امرها الى القديسة واعلمتها ان ليس لها شيء من الخِرَق حتى تلفّ بهِ الحمل الذي اوشكت ان تخرجه الى نور الدنيا وقبل ان تستجاب صلاتها لم تعرف بماذا تغطيه وتلبسهُ فامرت اخيرًا ان يُفتش في صندوق كانت تظن تلك المرأة ان لا بد ان يكون فيهِ شيءٌ من الثياب البالية او الممزقة بعض التمزيق . ولكن التي فتحت الصندوق اخذها عجب لا يُوصف لانها وجدت فيهِ كسوة طفل لا تنقص شيئًا من جهة الموافقة ولا من جهة الترتيب حتى ولا من جهة الظرافة وفاحت من ذلك الصندوق رائحةٌ طيبة تعطّر منها الهواء . واخذت المرأة ذلك الكنز وقبّلتهُ ونظيرها فعلت الام بتمام الفرح ولم تدرِ كيف تظهر حمدها لتلك المحسنة السماوية . وبناءً على ذلك لُفَّت الطفلة بلفائف حسنة وحُملت الى الكنيسة لتُعمَّد وانتشر خبر هذه الاعجوبة وتوارد الناس من كل جهةٍ يرون الاثواب العجيبة ويلثمونها ويستنشقون رائحةً سماويةً تنبعث منها . اما القديسة فلم تستمر هناك فانهُ في الليل التالي افاقت تريزيا على صراخ ابنتها وجعلت بنور المصباح الصغير تفتش عن ابنتها لانها لم تجدها حيث وضعتها وتحوّلت بخوفٍ وحيرة الى جهة اخرى فرأت واذا بعذراء لابسة البياض وذات جمال سماويّ جالسةً على كرسي والبنت على ذراعيها تلاطفها بضرب كتفيها . فيا لها من تعزية لتلك الام المسكينة فبُهتت بين احترامٍ وسرور وخجلٍ وشكرٍ فلم تستطع حينئذٍ الّا ان تصرخ ايتها القديسة فيلومينا . ايتها القديسة فيلومينا . ووقفت القديسة من على الكرسي الذي كانت جالسةً عليهِ وقبّلت الابنة واعادتها الى موضعها وتوارت واما تريزيا فوقع عليها ضربٌ من الجذب جملة ايام

لا خلاف ان ابهر الآيات التي صنعها الله على يد هذه الشهيدة انما هي آية انتشار اكرامها بسرعة شبيهة بسرعة النور فانهُ في دقائق قليلة يقطع مسافة ما بين السماء والارض فان شهرتها ولاسيما في سنة ١٨٢٣ حين ظهر عَرَقٌ على احد تماثيلها المنصوبة في كنيسة مونيانو قد بلغت الى اطراف الارض . واما كتب عجائبها والصور التي تمثلها باوصافها فقد نقلها اهل الغيرة من المرسلين الى الصين واليابون وكثير من مقامات الكاثوليكيين في اميركا واسيا واكرامها يزداد انتشارًا كل يوم في بلاد اوروبا غير مقتصر على المزارع والقرى بل متجاوزًا الى اشهر المدن واكبرها . فقد اجمع على اكرامها الاصاغر والاكابر والرعية والرعاة وفي مقدّمهم الكرادلة ورؤساء الاساقفة والاساقفة ورؤساء الرهبانيات والاكليريكيون الاجلاء بحسب مقاماتهم ومعارفهم وفضائلهم . واعلن بمدحها من فوق المنابر المسيحية افصح الخطباء . واعلم ان جميع المؤمنين الذين عرفوها ولاسيما في مملكة نابولي والبلاد المجاورة لها المأهولة بالوف الوف من السكان اتفقوا على تلقيبها بصانعة العجائب

ولهذه القديسة في مملكة فرنسا اكرام عظيم ولها في اكثر الكنائس تمثالٌ او صورة وقلّ ما يطلب المؤمنون بعد ايقونات الحبل بمريم البري من الدنس باوفر سرعة الّا ايقونات الشهيدة فيلومينا

اليوم الحادي والعشرون
من آب
وفيهِ ترجمة القديسة حنة فرنسيسكا فريموت دي شنتال

ان هذه القديسة كريمة الاصل شريفة النسب من جهة ابيها وامها وكانت ولادتها بمدينة ديجون من اقليم بروغونيا في ٢٣ من كانون الثاني سنة ١٥٧٢ وكان والدها بنيغنوس فريموت رئيسًا ثانيًا في مجلس ذلك البلد وكانت والدتها

مرغريتا من بيت بُريبزي الشريف الذي كان قد تقلّد منذ ثلثة اجيال مناصب الاقليم الاولى سواء كانت الجندية او القضائية . وكان لها ولدان آخران الاول مرغريتا التي تزوجها البارون دي أفران من بيت نُشيز وهي البكر والثاني اندراوس فريبوت الذي صار رئيس اساقفة بُرج وبطريرك اكويتانيا

وخطفت المنية والدتها وهي ابنة عام ونصف الآن والدها عُني بتربيتها وحيث كان مهذبًا اكمل تهذيب في فروض النصرانية واشرف اصول الآداب لم يذهل عن شيء مما كان يحكم انهُ ضروري لكمال ابنتهِ

وأُشرب قلبها منذ الصغر شديد النفار من المبتدعين حتى انها لم تكن تطيق انهم يمسّونها ولم يكن عمرها يومئذٍ الّا خمسة اعوام ولما كانت يومًا في غرفةٍ وابوها يفاوض رجلاً من الشرفاء ينكر الاستحالة أفلتت من حاضنتها وذهبت الى ذلك الرجل وقالت لهُ سيدي ينبغي ان نؤمن ان المسيح هو موجود في القربان المقدس على المذبح لانهُ قال ذلك فاذا لم تصدقوا كلامهُ جعلتموهُ كاذبًا

فكلام هذه الابنة اذهل الرجل ونجع فيهِ واعطاها ما كان في جيبهِ من الملبّس غير انها بادرت والقت الملبس في النار وقالت لهُ انظر يا سيدي كيف الاراطقة يحترقون في جهنم لانهم يكذّبون بما قال المسيح . وقالت ايضًا اذا كذّبت الملك في امرٍ اماتك ابي وها قد كذبت الان الرب في امور شتى فهذان الزعيمان بطرس وبولس اللذان تراها في هذه الصورة يقتلانك

واسكنها ابوها عندهُ في ديجون وطلب اكثر الوجوه من شبان ذلك الاقليم ان يقترنوا بها وفي جملتهم خريستوفوروس دي رابوتين بارون دي شنتال وبُربيلي ومنتولون وهو شاب شريف من اعضاء مجلس الملك وقائد فرقة المشاة واذ كان قد جمع بين شرفٍ اكسبتهُ اياهُ اعمالهُ في مدة الحرب الذي جرى بفرنسا مدافعةً عن الديانة الكاثوليكية وحسن صيتهِ هان على ابي تلك الفتاة ان يرضى بهِ ويفضلهُ على غيرهِ من طلاب ابنتهِ . ولما عُقد لهُ عليها وانتهى احتفال العرس ذهب بها الى قصرهِ ببُربيلي وهو منزلهُ العادي ولم يكن عمرها يومئذٍ الّا عشرين عامًا غير انها لم تعط صباءها وحديث اقترانها شيئًا مما يطلبانهِ من فاخر الحلي ونفيس الملابس وعاملتها بالضد حيث لم تلبس الّا الدون من الثياب ولم يخطر لها الآن تهذّب طباعها وكل اهل بيتها

وامرت اول كل شيء ان يقام كل يوم قداس تأسيس الحبل (الذي كان الغاهُ الاهال) وارادت ان حشمها يشاركونها في استماعهِ . واما في الاعياد والآحاد فكانت تذهب الى كنيسة الرعية ولا تبالي بعوائق قرينها الذي كان يروم ان يكفيها عناء الطريق وذلك لانها تريد ان تعطي مثالاً صالحًا لرعيتها وعلى الاقل في هذه الايام وكانت تقول : لي تعزيةٌ خاصة بان اسجد لله في هيكلهِ مع المسيحيين قاطبةً

واظهرت من الرأفة بالفقير ومحبتهِ ايام المجاعة الطويلة ما يقصر عنهُ الوصف فكانت تعطي هي بنفسها كل يوم الخبز والطعام جمًّا غفيرًا من البائسين الذين كانوا يأتونها من مسافة نحو خمس ساعاتٍ وكانت تتصدّق دائمًا على من افتقروا بعد غنى وتعطيهم ما يسدّ احتياجهم . وحدث ان فقيرًا اخذ من الصدقة سهمين فهي بدلاً من ان تلومهُ على ذلك قالت اللهمّ اني اتكفف على باب رحمتك هل اريد ان أُردّ في المرة الثانية او الثالثة وانت تحتمل لجاجتي الف مرة فلماذا لا اصبر انا على لجاجة خليقتك

ولم يمر قليل من الزمن حتى اصبح كل مؤونتها من الحنطة برميل طحين وقليلاً من الجذوار . ولما رأى خدامها ان ذلك يكثر كثرةً عجيبةً وانطلق الجميع يرون هذه الآية اعزنها الى صلاة وفضيلة خادمة لها . وكانت على جانب عظيم من الرافة والحلم حتى انها كانت تُخرج من السجن سرًّا الذين حبسهم رجلها احيانًا لكي تنيمهم ليلاً على الفُرُش وترجعهم صباحًا الى السجن وترجو تخلية سبيلهم

قد لوحظ انها في مدة زواجها سنين عديدة وفي مدة ارمالها ٩ اعوام لم تغير خدامها . ولما كان رجلها يذهب الى القصر الملكي كانت تعتزل وتعطي بذلك قدوةً صالحةً . ولما ترك البارون دي شنتال القصر الملكي سنة ١٦٠١ لزهدهِ في الدنيا وتأثر قلبهِ من قداسة قرينتهِ رجع الى منزلهِ ومرض ستة اشهر وقضى هذه المدة مع زوجتهِ في التأملات الدائمة المقدسة الادبية . ولما كان يومًا في الصيد انطلقت بندقية صديق لهُ غفلةً واصابت فخذهُ فكسرتها فمات بعد تسعة ايام لهذه الحادثة وغفر عن سلامة طوية لصديقهِ الذي عرف انهُ اشقى من اثيم

ولما فارق هذه الدنيا كانت امرأته ابنة ثماني وعشرين سنة وله منها ولد وثلاث بنات بقية الستة الذين ولدتهم له وبعد ان صُلّي عليهِ ودُفن بالاكرام اللائق لتذكاره المرافق بطوفان الدموع اسرعت من ساعتها الى مذبح الرب واعتبرت انها كقربان او كضحية ينبغي ان يُخصّص لله وخصصت له نفسها تخصيصاً كاملاً واعطته جسدها بنذر العفة وقلبها وعقلها بتفويض امرها كلهِ الى عناية الله

واستشعرت في خلوتها شوقاً شديداً الى الحصول على مرشد. ولما كان فكرها لا يزال متجهاً الى ذلك اراها الله رويا في وسط الحقول عرفت بواسطتها الطوباوي فرنسيس سالس اسقف جينيفا لابساً ثوباً اسود وسمعت وقتئذٍ هاتفاً يقول لها هو ذا الرجل المحبوب عند الله والناس الذي بين يديهِ برتاج ضميركِ. ومن جهة أُخرى اظهر الله في ذلك الحين عينهِ للقديس فرنسيس سالس اخص رسوم رهبانية الزيارة وانبأهُ بالروح بالراهبة التي انتخبها لان تكون اول حجرٍ في اساس هذه الرهبانية

ولما انتهى العام الاول لحدادها ذهبت تشاهد اباها رئيس المجلس في ديجون وكانت كل لذتها هنالك ان تزور الفقراء وتعود السقام وتكثر من زيارة الكنائس ولكنها رجعت بسبب اشغالها الى بُربيلي. وحينئذٍ استحضرها حموها البارون دي شنتال الى منتولون حيث كان وهو سيد مسن عمره ٧٥ سنة حزيناً الى الغاية. فعاشت هناك بتعب شديد لانه كان قد سلّم ادارة منزلهِ الى خادمة وهذه بشراسة طباعها ازعجت القديسة كثيراً. وكانت القديسة تتنازل غالباً حتى الى ان تسرّح شعور اولاد تلك الخادمة وتنظفهم وكانت من فرط الاتضاع تقابل في كل وقت شتائمها بالاحسان والمعروف وكان عندها ادوية ومراهم لمرضى البلاد الذين كانوا يبادرون اليها من كل ناحية وكان شغلها الاصلي ان تقابلهم

وفي سنة ١٦٠٤ طلب اعضاء مجلس البلدية في ديجون الى الطوباوي فرنسيس سالس ان يعظ في ذلك البلد كل مدّة الصوم الاربعيني. ولما رأته السيدة دي شنتال عرفت للحال انهُ هو الرجل الذي اراها اياهُ الله في الرؤيا. وكذا الاسقف القديس عرف انها هي المرأة التي رآها في الرؤيا فخاطبتهُ مراراً في دار رئيس اساقفة بُرج وباحت له بما في قلبها وهذا رغبها كثيراً ان تتبع ارشادهُ بعد ما ذهب عنها الشك الذي ابقاهُ عندها حصولها على اول مرشد. الاّ ان شكوكها تجددت بعد مفارقة السيد فرنسيس سالس ومع ان الاب فيليار اليسوعي ثم ابًا كبوشيًّا اثبتا لها ان الله يريد لها ارشاد الاسقف المذكور كتبت اليهِ فاجابها ان وحدة الاب الروحي لا تنفي الثقة بآخر

وفيما بعد تعاهدا ان يلتقيا في موضع يقال له سنت كلود سنة ١٦٠٤ وبعد ان صرف هنالك عدة ليالٍ في الصلاة قال لها الاب الطوباوي انا سهرت واشتغلت الليل كلهُ في شغلكِ واعتقد ان ذلك هو ما يُريدهُ الله الذي كلفني ارشادكِ وكلفكِ اتباع نصائحي. ثم كتب لها دستوراً في ترتيب اعمالها اليومية واعطاها عدة ممارسات اماتية كالاحتمال والسذاجة والشفقة على الفقراء والمرضى والرافة بالخطأة ووداعة القلب والصبر ومحبة الاستحقار

وفي رجوعها الى ديجون زارت سيدة البحيرة وهناك نذرت العفة والطاعة للسيد فرنسيس سالس وتوسلت عند ذلك الى العذراء ان تكون محاميةً عن نذرها. وارسلت صك نذورها الى مطران جينيفا الذي بيّن لها جميع رياضاتها الروحية مع عمل كل ساعة من ساعات النهار ورجعت بعد يومين الى منزل حميها وباشرت هنالك بعناية كل ما أُمرت بهِ. فكانت تهبُّ من النوم في فصل الشتاء كلهِ في الساعة الخامسة بعد نصف الليل بلا نار ولا مساعدة وتهبّ قبلاً في فصل الصيف وبعد هبوبها كانت تصلي ثم تسمع القداس ثم تقرا القوانين ثم تعلم اولادها اصول الديانة المسيحية مع خدام حميها وكل عيالهِ

وكانت كل عشية تجمع اهل منزلها للصلاة ومتى انصرف الناس تعود الى الصلاة ايضاً وعلى هذه الحالة كانت تنهي نهارها جارية في كل ساعة على مقتضى اوامر مرشدها. ولم تكن تطيق أن احدًا يرتّب سريرها ولا يعتني بغرفتها بل هي كانت تباشر ذلك. وقصت شعرها وكانت في ملابسها اكثر احتشاماً من ذي قبل ولم تكن تكتسي الاّ من الصوف الدون الاسود. وكانت متعودة ان تصوم كل يوم جمعة وسبت ولم تكن تأكل الاّ اللحم الدون الذي تكرههُ وكانت تعذّب جسمها وتلبس المسح

وكانت شديدة الميل الى الفقراء حتى انها نذرت ان لا تنكر عليهم الصدقة ابدًا منذ اخذتها دهشة مقدسة بعد ان

تصدقت على ثلاثة من الفقراء الذين اعطتهم خاتم رجلها اذ لم يكن عندها غيرهُ لانها لما خرّت على اقدامهم تقبلها ذهبوا عنها ولم تستطع ان تلمح الجهة التي غابوا منها. وكانت تضمد جراح من اصابتهم الاكلة والبرص والمبتلين بالجذام وتذهب كل يوم الى القرية وترتب سُرُرهم وترفع أقذارهم. وتغسل الموتى وتكفنهم وتساعد الذين في النزع ومتى مات احدهم وهي غائبة نعوها حالاً . فان الناس كانوا يقولون ان هذا الحق قد اذخرتهُ السيدة لنفسها

وكانت تغسل أخلاق الفقراء وترفأها وتهيئ لهم اثوابهم وكانت في اثناء ذلك ترقع ثيابهم. وكان في جملة الذين تخدمهم ابرص فقير فحملتهُ الى منزلها وقصت شعر راسهِ الملآن قملاً وما زالت تخدمهُ زمانًا طويلاً حتى توفاهُ الله

وفي سنة ١٦٠٦ اصابها داء عضال بمدينة بُربيلي ولما ظنّت انها تموت علمت برؤيا انهُ ينبغي لها ان تنذر نذرًا من اجل شفائها ولما كان الغد اذا بها سالمة متعافية ورجعت ترعى حماها مع اولادها في منتولون . وبعد سنة اشتاقت كثيرًا الى ان تدخل في الرهبانية وكتبت في ذلك الى السيد فرنسيس سالس ووعدتهُ ان تلتقي بهِ في انيسي لكي تتفاوض معهُ في الامر المشار اليهِ

فاجتمعا في المكان المشار اليهِ واراد القديس اولاً ان يمتحن خضوعها فذكر لها كثيرًا من الرهبانيات فاذا بها مستعدة للجميع طاعة لمرشدها الا انهُ آخر الامر عرض عليها الاخوية التي انشأها منذ ذلك الحين فقبلتها برضاً تام لا يكاد يوصف . فجدّدت من ثم نذورها ثم رجعت الى ديجون وهناك اضطهدها كثيرًا اقاربها واولادها باشغال منزلهم ولاسيما بشأن الزواج سواء كان من جهتها او من جهتهم

ولما القى عليها الشيطان تجارب شديدة حملتها حرارة حبها يوماً ان تأخذ حديدًا حامياً وترسم بهِ اسم يسوع الاقدس على جهة قلبها . وقد ايد واثبت عملها هذا نبوة الكردينال دي بيرول الذي ناولها القربان في ديجون ثم سأل من هي وقال ما نصهُ : قلب هذه السيدة يحوي نار حبٍّ الهي لا تخمد وتتقد بشدة فلا تقتصر على افناء الذبيحة بل تتعدى الى المذبح نفسهِ وتفنيهِ

وذهبت اخيرًا الى منتولون لتنيل باقاربها الى ان يستصوبوا مرادها وزوجت ابنتها البكر بالسيد دي تورنس سنة ١٦٠٩ وفوّضت امر العناية بابنها البارون الحدث السن والنظر في اموال باقي الاولاد الى ابيها رئيس المجلس . ولما تمت على هذه الصفة كل هذه الامور فارقت عيلتها وخدامها والفقراء كلهم يذرفون الدموع ولما كان اليوم التاسع من اذار سنة ١٦١٠ اجتمع في منزل ابيها رئيس المجلس كل اقاربها فعانقتهم جميعًا فبكوا. واما ابنها البارون المذكور فانطرح على اسكفّة الباب وقال لها اتدوسيني يا امي برجليك لكي تفارقيني لكن كل ما استطاع ان يتوصل اليهِ بهذا الصنيع انما هو حملها على البكاء فجازت فوق جسم ابنها باكية فرآها اكليركي وهي ذرفوفة فقال احذري ان تعطفي عليهِ فقالت هي كلاً ولكن كيف العمل . انا امٌّ

ولما كانت قد ناهزت انفاذ مقاصدها وصلت الى مدينة انيسي وفرح بقدومها الجميع فرحًا عظيمًا والتزم السيد دي جنيفا ان يساعفها على مشترى دير وقارن هذا الامر التوفيق رغمًا عن العوائق الكثيرة التي ابداها الشيطان والعالم وبعد محاربات شديدة كانت تشعر بها في نفسها. ولما كان اليوم السادس من حزيران سنة ١٦١٠ دخلت اخوات الزيارة الأُوَل ديرهنّ وقرأت عليهنّ الام دي شنتال التي انتخبت رئيسةً القوانينَ التي وضعها السيد دي جنيفا لرهبانيتهنّ

وليس في وسع كاتبٍ ان يعبر عن فرط استحلائهنّ لمرارة الصبر. وعند دخولهنّ أُعطينَ برميل زيت فاستمر ثمانية اشهر وكنّ جميعهنّ خمس عشرة راهبة ياخذنَ منهُ. وهذا هو الامر الذي حمل الام الرئيسة على ان تقول لولا حصلنا على آخر برميل لبقي هذا دائماً . والامهات اللاءِي دخلنَ مع السيدة دي شنتال نذرنَ نذورها الاحتفالية بعد ان انتهى زمان ابتدائهنّ في حزيران ١٦١١ واخذت الام الرئيسة بتجديد نذورها

هذا ومات فريميوت ابوها رئيس المجلس نحو ذلك الزمان فاغتنم ابليس فرصة وفاتهِ لكي يجربها فلامها على مفارقتهِ بحجة انهُ كان يعيش اكثر لو لم تفارقهُ . واوجب عليها موت والدها ان تذهب الى بيت حميها غير انها نذرت الفقر قبل السفر ولما كانت على اهبة الرحيل وقع عليها جذب وقت القداس فخرجت عن حسها ولم تعد تقدر ان تأكل

ولما رجعت الى ديرها اعدّت كلما يلزم لمباشرة اعمال الرحمة وارادت ان الراهبات يعتنينَ بفقراء المدينة ويأتينهم بكل ما

لا بد منهُ لقوام العيشة وعاهدت طبيبًا ان يداويهم لكن ليس امر أعجب من تجرُّءِها على ان تغسل بيدها راس المساكين واثوابهم

واصابها في ابتداء رهبانيتها امراض شديدة خارقة العادة حتى ان الاطباء نسبوا امراضها الى محبة الله غير انها انقادت لهم واطاعتهم في كل امر بحيث قيل انها فقدت الارادة . وكانت قدوةً صالحةً في كل ما تأمر بهِ غيرها فقد باشرت احقر وظائف الدير

وكثر عدد الراهبات فدخلنَ ديرًا اكبر وافسح عشية عيد العنصرة عام ١٦١٢ وفي ذلك الزمان عينهِ مات حموها فعادت الى منتولون ورتبت هنالك جميع الامور واحسنت ايَّ احسان الى الخادمة التي اساءت اليها ايَّ اساءةٍ حتى اطعمتها على مائدتها

ان الكردينال دي مركيمون رئيس اساقفة ليون بعد ان طلب الى السيد دي جينيفا انشأ دير الزيارة بليون وذلك مراعاةً لتقوى السيدة دي اوكسار التي امست منشئتهُ ذهبت الى هنالك الام دي شنتال وفي صحبتها اربع راهبات ورئيس الاساقفة قام باحتفال تكريس الدير . واتفق ان الراهبات اردنَ استخدام براءات ملكية قديمة في انشاء دير يعرف بدير التقدمة وخرب ذلك الدير بعد بنائهِ ولما شئنَ ان يبدلنَ كلمة التقدمة بكلمة الزيارة اذا بهذه الكلمة مكتوبة بنوعٍ عجيب

وماتت في ذلك الوقت بنتٌ لها كانت ارملة مع ابن صغير ولم يقع ذلك بدون ان تلك الابنة التقية تتناول القربان المقدس وترهبت بتقوى بين يدي امها الصالحة واصاب هذه الام عند ذلك داء قتالٌ . فنذر معرِّفها من ساعتهِ نذرًا للقديس كرلس بُروماوس واعطاها ذخائرهُ فقالت ما نصهُ : قد برئت . ولا ريب انها شُفيت بعد قليل من الزمن

اعلم ان هذه الام الفاضلة اقامت كثيرًا من الاديار ثم ذهبت الى باريز عن امر مرشدها ونزلت بها هناك نوائب كثيرة وذاقت اشدَّ الفقر وبصرف النظر عن ذكر الجوع والبرد نقول انهُ لم يكن للراهبات شيء من الاثاث وكثير من راهباتها كنَّ يئننَ في الاهراء لقلة المساكن وكانت فرشهنَّ من حُزَم حطب كانت في الصباح مغطاةً بالثلج . ولما رجعت الى ليون لقيت بها السيد دي جينيفا فقالت لهُ اول الامر اني محتاجة الى مشاهدتك فقال لماذا بقيت لك ارادة وشهوات فانقادت حينئذٍ وقبلت تلك الامانة باتم ما استطاعت من القداسة

وبينما هي في مدينة كرينبل تصلي من اجل مرشدها اذ سمعت هاتفًا يقول لها لا يبقى بعد . فبلغها خبر وفاتهِ فتألمت من ذلك كثيرًا الاَّ انها صبرت الصبر العجيب وحُمل جسم هذا الحبر الصالح الفاضل الى كنيسة راهباتهِ بانيسي وصُلّي عليهِ ودُفن في تلك الكنيسة

ولما عقدت الراهبات مجمعًا ابت القديسة ان ترضى بان تكون رئيسة دائمة ورضيت ان تكون مدة رئاستها ثلثة اعوام . واوحظ انها ارادت ان تترك التناول اليومي وكانت قد تمتعت بهذه العادة منذ خمس عشرة سنة . لان السيد دي جينيفا كان يقول لو كنت راهبًا غير كاهن لما تناولت القربان الاَّ مع الرهبان . اما خليفتهُ فلم يأذن لها في ذلك مفضلاً ارضاء محبتها على ارضاء تواضعها . والفت كتابًا جامعًا لكل اقوال السيد دي جينيفا وضعتهُ على قبرهِ قصدًا الى ان تطلب منهُ استصواب هذا التاليف

واراد الله جلَّ وعلا ان يقهرها بوفاة ابنها البارون دي شنتال الذي ذُبح بجزيرة ريتز حيث كان يجاهد هناك في سبيل الايمان وكان هذا الخبر عليها كضربة صاعقة غير انها قرنت اغتمامها بغاية التسليم لاحكام الله . وكانت قبل ذلك بمدة تقول للسيد دي جينيفا اشعر ان ضميري يلحُّ عليَّ ان اسأل الله ان يتفضل عليَّ بان ابني يموت في خدمتهِ لا في المعارك الخصوصية التي كانت تتواتر في ذلك الوقت

وكان السيد دي غرانيو في ذلك الوقت متألمًا من صداع دائم فذهب يعودها فاعانتهُ في مرضهِ فشفي . وبصلوات تلك الام الرئيسة انطفأت النار التي كانت قد حلت بمنزل احدى السيدات وفيما كان الناس يهتفون بالاعجوبة نسبتها تلك الام المتواضعة الى السيد دي جينيفا . وابرأت بمدينة اورليان راهبةً مصابةً بذات الجنب وكان داؤها قد عزَّ شفاؤهُ . وتوسلت بتواتر ان لا يُجرى حديث ذلك . واعلم ان الوفد الذين أُرسلوا ليزوروا رمس القديس سالس وصلوا اليهِ ورأوا فاذا بجسدهِ على كمالهِ فطلبت اليهم الام الرئيسة ان يأذنوا لها في ان تمسهُ هي وجماعتها فوضعت يد ذلك

القديس على راسها وشعرت للحال انهُ ضايقها ورأت ذلك الراهبات وشهدنَ بهِ . ثم أُرسلت الشهادات الى رومية وفيما كانت تبتهل الى الله يوماً اذ سمعت هاتفاً يقول لها سلمي الى الله يفعل ما يشاء

ولما مرت ذات يوم بابنة تولونجون زوج احدى ابنتيها وجدت حفيدها في خطر الموت فصلت الى الله من اجلهِ فاتاهُ الله البرء في الحال . واذ مرت يوماً بامرأة دعتها لتناول الطعام عندها قالت لها تلك المرأة انتِ اعطيتني العافية . وفي رجوعها الى باريز شفت راهبةً من الفالج وكان قد شوَّه وجهها فأعادت محيَّاها كما كان . وشفت ايضاً امرأةً مريضةً وذلك حالما صافحت يدها

وأصابها آخر الأمر التهابٌ في الرئة فماتت يوم الجمعة ثالث عشر كانون الثاني في الساعة السابعة مساء سنة ١٦٤١ وعمرها ٧٠ سنةً وكانت قد قضت في الرهبانية ٣٢ عاماً . وساعدها وقت وفاتها الاب كلوديوس ليجندس اليسوعي ولم يتغير وجهها قبل الموت ولا بعدهُ. ونكتفي من مدح هذه الطوباوية بما في هذا المختصر البسيط ويكفي ان أقول ان جميع مقامات رهبانية الزيارة وأديارها انما انتشأت بعنايتها وتلك المقامات والاديار تدل على ما غمرها الله بهِ من البركات. هذا وقد أثبت قداستها البابا اكليمنضوس الثالث عشر سنة ١٧٦٧ وأمر البابا اكليمنضوس الرابع عشر ان يُعيد لها في ٢١ من آب

اليوم العشرون
من تشرين الاول

وفيهِ ترجمة القديس ارتيموس المعروف عند اكثر السوريين بمار شليطا

قد اعلمنا خطبة القديس يوحنا الدمشقي التي نشرها حديثاً الكردينال ماي ان يوليانوس الجاحد قتل ثلاثةً من الشهداء ايام اقامتهِ بانطاكية وهم اوجانيوس ومكاريوس الكاهنين وارتيموس مشير مصر القديم (١) قال يوليانوس

حاشية . اعلم انهُ لما كان عمل مصر اغنى اعمال المملكة كانت رومية تاخذ منهُ قسماً كبيراً مما تحتاج اليهِ من القمح لم يرد اغسطوس الملك ان يولي عليهِ احداً من اعضاء مجلس الاعيان كما جرت العادة في سائر الايالات باسم نائب قنصل بل ولَّى عليهِ احد الفرسان الرومانيين وسلم تدبير الجندية الى ضابط دعي دوكا او قائداً فتقلد ارتيموس هذه الرتبة العالية في عهد قسطنسيوس

للاولين من انتما وما صناعتكما . فقال اوجانيوس نحن نصرانيان وراعيا قطيع المسيح. قال يوليانوس اين رعية المسيح التي ترعيانها . قال اوجانيوس هي المعمورة كلها وجميع من عليها من البشر . فصاح يوليانوس قال على ماذا تملك اذن ان كان المسيح يسود الارض كلها بما انها رعيتهُ . قال الشهيد انت تملك على القطيع الذي نحن نرعاهُ فانما بهِ تملك الملوك وتتسلط الولاة وهو الذي اعطاك اليوم الملك وهو الذي ان بدوت كنوداً لفضل محسنك يحوّلهُ عنك في الغد الى آخر . فما انت الأرجل يوم وعلى رجال اليوم تتسلط واما المسيح فلهُ مملكة ابدية لا منتهى لها. فقال يوليانوس كيف هذا لقد كفرتَ فان المسيح وُلد على عهد أغسطوس وانت جعلتهُ ملكاً ابدياً. قال الشهيد نعم بحسب ناسوتهِ وُلد في ايام أغسطوس واما ميلادهُ الالهي فانهُ متقدِّم على الزمان فليس قبلهُ زمنٌ . وكان الجاحد بحسب الشهيد رجلاً أميّاً ولذا جعل يهزأ بهِ قائلاً فمسيحك على هذا وُلد مرتين وليس في ذلك شيء نتمجد بهِ فعند اليونان رجالٌ حكماء ومتناهون في التعقل وُلدوا لا مرتين بل ثلاثاً كعطارد وتريسمجيست وفيثاغورس . فقال الشهيد بصوت شديد التزمت ان اجاوب هكذا لا من اجلك ايها الكافر بل من اجل المحضر فان اكثرهُ من النصارى ومن اجل خلاصهم أُضيف الى ما قلتهُ هذا المقال . لقد بشر بالمسيح الانبياء من قبل مجيئهِ باجيال كثيرة وهتَّاف الغيب عندكم وعرَّافاتكم شهدوا باتيانهِ . والغرض من تجسدهِ افتداء الناس . فظهر في الارض وشفى المرضى واقام الموتى وصُلب لخلاص العالم وانبعث من الرمس في اليوم الثالث على أعين الجند الذين كانوا يحرسون القبر وظهر لخمسمائة شاهد وخاطب تلاميذهُ اربعين يوماً وصعد الى السماء امامهم وبعث اليهم الروح القدس مع موهبة النطق بالألسنة الغريبة والتنبوء بالحوادث الآتية . وهم انام أُميون بائسون صيادون وبشروا بالمسيح في كل موضعٍ ولم يستعينوا على ذلك بسلاحٍ خلا قدرتهِ الغير المنظورة . واخضعوا لهُ كل البرية واقاموا الموتى وطهروا البرص واخرجوا الشياطين . لكن الحكماء واللاهوتيون الذين ادَّعيتَ مقاومتهم للمسيح فلو حسبنا ما يُروى من احاديث الحماقة والخطإ حقائق راهنة فبايّ فائدة جاء العالم هؤلاء الرجال المولودون مرتين او ثلاثاً او اربعاً لا اريد العالم كلهُ بل جزءاً صغيراً . فهل

كُتُب هرميس أوفيثاغورس أقامت الموتى وطهرت البرص وطردت الشياطين التي تعبدونها . فما هرميس الذي تقولون لهُ تريسمجيست الاَّ رجل مصريٌّ تزوج امرأةً ورُزق منها اولاداً اكبرهم تاتٌ وعليهِ مدار كلام هرميس في محاوراتهِ . اما انهُ هو الذي اختصر علمهُ اللاهوتي بهذهِ العبارة ونصها . ان معرفة الله من المشكلات التي لاسبيل الى حلها لانهُ ذو ثلاثة اقانيم وطبيعتهُ لايمكن وصفها . وليس لها بين الناس نظير . (١٥)

ولما حوَّل الشهيد ما كان يرام اخذهُ من هرميس وفيثاغوروس براهين على صحة النصرانية قال يوليانوس للوثنيين الحدقين بهِ تأملوا أيها فائدة استخرج هذا الشقي من علومنا وحاربنا بها . فاقسم بالشمس منيرتنا اني لا آذن ابداً ان ذرية النصارى الملعونة تتأدب باداب اليونان . وسلَّم الشهيد عند ذلك الى الجلادين ليضربوهُ بالعصا خمسمائة ضربةٍ وكان منادٍ ينادي عند انفاذ الامر تمَّ مراد الملك انبذ حماقتك فيرجع عن التنكيل بك . اما الشهيد فتجلد وصبر على كل ما ذاقهُ من العذاب ولم يقل كلمةً واحدة

ثم استُنطق مكاريوس الكاهن فاعترف بألوهية المسيح التي كان يوليانوس ينكرها وهنأ نفسهُ على ذلك . فقال لهُ الجاحد انت تطلب ان تموت سريعاً ولهذا انت تهيجني لكن لايكون كما تظن . اجبني أولاً بأي حق تطوف في كل مكان وليس اذن لاحدٍ من الملك كائناً من كان وتقدح في عبادة آلهتنا العظام وتعلّم الناس انها ليست بآلهة ولا مخلصة العالم . فقال الشهيد انما نفعل ذلك لان المسيح اوصانا ان نفعلهُ لرد الناس عن عبادة الاوثان الكاذبة واقتيادهم الى الاله الحي خالق السماء والارض لان آلهتكم الآلهة التي تسجدون لها انما هي خرافة من اختراع الشيطان وقال فيها الكتاب المقدس بادت الآلهة التي لم تخلق السماء والارض . ولنا فضلاً عن ذلك شريعة قسطنطين نسيبك الذي الغى عبادة الاصنام . فصاح يوليانوس ان قسطنطين كان مبتدعاً وأمر فأُلقي الشهيد تحت العذاب

وفيما كان اوجانيوس ومكاريوس الكاهنان يُعذَّبان قام ضابط بين يدي الملك وقال لهُ على مَ تعذّب بمثل هذه القساوة رجلين فاضلين رجلين مخصصين لله فلا تنسَ انك انت انسان وقابل لهذا البلاء عينهِ . فان كان الله اقامك ملكاً وان كنت قد اخذت من الله السلطة فاحذر ان الشيطان الذي طلب ان يجرّب ايوب فأُذن لهُ يطلب ان يقيمك عدوًّا لنا حتى تغربل حنطة المسيح وبزرع فوقها زواناً . ولكن سيحبط عملهُ فلم تعد لهُ القدرة التي كانت قبلاً . فمذ جاء المسيح وارتفع على الصليب سقطت كبرياء الشياطين ووُطئت سطوتهم بالأرجل . فلا تغترَّ ايها الملك ولا تضطهد حبًّا بالشياطين المسيحيين الذين الله يحامي عنهم . فقدرة المسيح لا تُغاب وانت قد تحققت ذلك بنفسك بفم ابولون الهاتف في دلفوس الذي اتاك بهِ الطبيب اوريناز وهذا فحواهُ قولوا للملك ان الهيكل العجيب يسقط ولم يبقَ لاله الشمس مغارةٌ ولا غارٌ يستطلع بهِ القدر ولا ينبوع ولا ماء يتكلم

ولما سمع يوليانوس هذا الكلام صاح غائبًا عنهُ الصواب مَن هذا الكافر الذي تجرّأ ان يُسمعنا مثل هذا الكلام ونحن على كرسي ملكنا . فقال لهُ قائد سيدي انهُ دوك اسكندرية مصر لان ارتيموس كان على الحقيقة من اعوام عديدة مشير مصر وسورية ايضاً وجاء الى انطاكية ليقود الى يوليانوس عساكر هذين الاقليمين لمحاربة الفرس . فاجاب يوليانوس من ساعتهِ تبًّا لهذا الشرير ارتيموس فهو الذي سبَّب قتل اخي المريع فليخلَع من منصبهِ ولتُنزَع ثيابهُ وليُعاقب اولاً لاجل ما نطق بهِ من الكلام ولما كان الغد عاقبناهُ على قتل شقيقي . وكان عقابهُ على هذه الصورة عُرّي وشدَّ الجلادون يديهِ ورجليهِ بحبال ومدّوهُ على الجهات الاربع وضربوهُ على بطنهِ وظهرهِ بأعصاب الثيران طويلاً حتى تناوبوا الضرب اربع مرَّات وارتيموس على ذلك كلهِ لا زفر زفرةً ولا تغير لون وجههِ فقيل هوليس المعذَّب بل هو شخص غيرهُ واخذت الحيرة المحضر كلهُ ويوليانوس عينهُ لم يُفق من تحيرهِ . واقتيد الشهداء الثلاثة الى السجن وهم يحمدون الله جلَّت حكمتهُ . فقال ارتيموس لنفسهِ ها جراح المسيح مطبوعة في جسدك ولا ينقصك الاَّ ان تعطي نفسك وحياتك مع بقية دمك

ولما كان الغد نفى يوليانوس الجاحد اوجانيوس ومكاريوس الى ناحية قاحلة رديئة المناخ ببلاد العرب واصحبهما بامر فحواهُ قطع رأسيهما . فضربت عُنقاهما بعد وصولهما باربعة ايام في اليوم العشرين من كانون الاول ونبط في

موضع استشهادها نبع ماءٍ حيٍّ يبري من كل داءٍ وبقي جاريًا الى عصر القديس يوحنا الدمشقي ومعروفًا باسم ذينك القديسين

واما ارتيموس فجدَّ بوليانوس في استمالتهِ بكلام مسهب وباحسن موعدٍ قال لهُ اذا خصصتَ نفسك بالالهة ولاسيما بابولون الدلفي فاصفح لك عن دم اخي واعليك الى اسنى مقامٍ لم تكن ارتقيت اليهِ واقيمك رئيسًا على الحكمة وحبر الالهة العظام وادعوك ابي واجعلك ثانيَّ في الملك وتكون نديمي مدى العمر. فقال ارتيموس اما اخوك غالوس فلم أوذهِ البتة لا فعلاً ولا قولاً حتى ولا فكرًا لاني عرفتهُ مسيحيًا أمينًا ومضطرمًا بالعبادة واستشهد الله ومسيحهُ اني بريءٌ من دمهِ فقد قتلهُ جماعة من الاشرار وبرهان ذلك اني لم اكن في ذلك العهد مع قسطنسيوس ولكن قطنت مصر من ذلك الحين الى هذه السنة. واما جحد المسيح واعتناق العبادة الوثنية فاجاوبك كما جاوب الفتية الثلاثة لبختنصر: اعلم ايها الملك اننا لانكرّم آلهتكم ولا نسجد لتمثال ابولونك الذهبي. فقسطنطين الذي تبدي لهُ مزيد ازدراءٍ التفت الى المسيح وقد دعاهُ من علو السماء لما أراهُ في حرب مكسنسيوس الشديدة راية الصليب نصف النهار لامعةً فوق الشمس وبشرهُ بالنصر وعليها كتابة رومانية تبشر بالنصر. فنحن شهدنا تلك الحرب وابصرنا تلك العلامة وقرأنا تلك الكتابة وابصر كل ذلك ايضًا الجنود وفي جيشك كثيرٌ من شاهدوهُ فاذا شئت فتسألهم. فلا ضرورة في اسهاب الكلام لان المسيح قد تنبأ الانبياء على مجيئهِ قبل ظهورهِ باجيالٍ كثيرة كما هو معلوم لديك حتى في عرافاتكم وشرائعكم ووحي آلهتكم يوجد من يشهد بذلك. فأجيءُ بهذه البراهين لا من اجلي بل من اجلك ولخلاصك فأخجل ان اراك تؤله الشمس والقمر والنجوم. فان أنكزاغورس الاستاذ الذي درست عليهِ الحكمة ألم يقل في الشمس انها جرم مضيءٌ والكواكب اجرام تجر الكذَّان وكلها خالية من الروح عديمة الاحساس. فكيف تسميها آلهة والحالة هذه وتجعل الشمس نظير الهٍ لك كبير في كل احاديثك وجميع رسائلك. فلماذا أطيل معك الخطاب لا اجحد المسيح ولا ادخل في كفر اليونان الممقوت واثبت على ما تعلمته واحافظ التقليدات الابوية التي لا يغيرها جيلٌ ولو ادعى انهُ مخترع الحكمة كما قال شاعركم اوريبيدس

هكذا تكلم ارتيموس واذ اخذت مهارتهُ وفصاحتهُ يوليانوس كل مأخذ تحير ولم يُجب. ثم قال الشهيد ايها الملك اترك دين اليونان المميت لانهُ أنتن من أزمانٍ وارجع الى المسيح لانهُ صبور ورحيم فيقبل توبتك

واما يوليانوس فلم يجاوب بل امر بان تنزع اثوابهُ وتثقب اضالعهُ بمخارز محماة ويثقب ظهرهُ بالمسامير ثم يجرّ على ظهرهِ وبقي هذا العذاب عدّة ساعات. وكان ارتيموس عند ذلك كانهُ متفرّج على عذابهِ احرى من ان يكون ضحيةً لهُ ولذلك تأذى يوليانوس وصفق بيديهِ ونهض عن كرسيهِ وامر بان يطرحوهُ في السجن ولا يقدموا لهُ طعامًا ثم انطلق الى الغابة المساة دفني

وفيما كان الشهيد يصلي نحو منتصف الليل ظهر لهُ المسيح وقال لهُ تشجع يا ارتيموس ولا تخف من الملك الطاغي لاني معك وانقذك من كل تجربة ومن آلام العذاب واكلّلك في دار النعيم واعترف بك امام ابي في السماء لانك اعترفت بي على الارض أمام الناس فثق وافرح فانك ستكون معي في الفردوس. وعندها تشجع القديس وقضى بقية الليل مباركًا الله وشُفي من جراحاتهِ ولم يتبقَّ لها في جسمهِ اثر واستمرَّ على تلك الحال خمسة ايامٍ لم يتناول غذاءً ولكنهُ تقوَّى بنعمة روح القدس

ونُقلت في اثناء ذلك الى غابة دفني ذخائر القديس بابيلاس فاشتعل هيكل ابولون وتمثالهُ فسخط يوليانوس الجاحد على المسيحيين واتهمهم بهذه المحنة. فاستحضر يوليانوس ارتيموس ثانيةً وقال لهُ انت متحقق عدوان المسيحيين الملاعين بيد انهم لا يتمتعون بذلك طويلاً فاني سأعاقبهم سبعين مرةً في سبع مرات على ما قال كتابكم. فقال الشهيد اني سمعت ان نار السماء قد احرقت الهكم وهيكلهُ فلو كان الهًا حقًا لكان خلص نفسهُ من الحريق. فجعل يوليانوس يجتهد في ان يجتذب ارتيموس الى مرامهِ. فاجابهُ الشهيد. حماقةٌ عظيمة ان تضيع زمانك في احاديث لا طائل تحتها أتنسى تمرد البرابرة وحرب الفرس اللذين من اجلها زعزعت المعمورة وتتشاغل بي انا خادم الله. فاقضِ عليَّ بما تشاءُ فاني لا اسجد لآلهتك ولا أطيع أوامرك ولكنني اقدم لله كل يوم ضحية الحمد والثناء

فأمر يوليانوس بكومة أحجار كبيرة فقسمت شطرين

وأُلقي الشهيد تحت الشطر الاول ثم أُسقط عليهِ الثاني بعد ان علّق بالحبال فسمعت فرقعة عظامهِ التي انسحقت وتخلعت. وامر يوليانوس بعد اربعة وعشرين ساعةً ان تُفرّق الحجارتان اعتقاداً ان الشهيد قد مات. فلما رُفعت الحجارة الفوقانية قام القديس وجعل يمشي ويتكلم وعيناهُ في خارج وَقبيها. فحاول يوليانوس ان يغويهُ فما غوى فأمر بنقف عُنقهِ. وفيما كان مقتاداً الى المقتل الحَّ على الجنود فأذنوا لهُ ان يصلي لله

فشكر الله متذللاً على ما آتاه من نعمة التعذيب لمجد اسمهِ وابتهل اليهِ ان يرأف بكنيستهِ التي كان يوليانوس يتوعدها بان يصب عليها اشدَّ المحن وقال: ها هوذا مذابحك مخربة وقدسك مدنس ودم عهدك مهدورٌ بسبب آثامنا وبسبب ما قذفهُ اريوس من التجديف عليك ايها الابن الوحيد وعلى روحك القدوس. فاصلاً اياك عن جوهر الآب وجاعلاً اياك غريباً عن طبيعتهِ وداعياً اياك خليقةً وانت صانع الخلائق كافةً ومخضعاً إياك للزمان وانت خالق الاجيال قائلاً مرَّ وقت ولم يكن الابن مسمّياً اياك ابن الارادة. وحاصل هذا المقال ان أرتيموس لم يتلطخ ببدعة آريوس كما شكَّ فيهِ بعض العلماء

وجثا الشهيد ثلاثاً وسجد متحولاً جهة الشرق ثم صلى ثانيةً قال الهٌ من الهٍ. واحد من واحدٍ. ملك من ملكٍ انت جالس في السماء على يمين الآب الذي ولدك وانت اتيت الى الارض لخلاصنا كافّةً وانت اكليل المحاربين من اجل التقوى فاستجب لخادمك الذليل الحقير واقبل نفسي بسلام. فاذا بهاتف يقول لهُ من السماء استجيبت صلاتك وفضلاً عن ذلك ان الملك سيهلك ببلاد الفرس ويخلفهُ ملك مسيحي حرٌّ والوثنية تسقط ولا تعود. فلما سمع الشهيد هذا المقال امتلأ قلبهُ فرحاً وقدّم رأسهُ للجند فقطعوهُ وحدث ذلك يوم الجمعة في عشرين من تشرين الاول. وطلبت جسدهُ اريستا امرأة مسيحية وشماسة كنيسة انطاكية فاعطيتهُ فحنطتهُ وارسلتهُ ضمن صندوق الى القسطنطينية. ويكرمهُ اليونان في عداد من يدعونهم الشهداء الكبار. انتهت رواية اعمالهِ كما نقل ذلك القديس يوحنا الدمشقي بما نصهُ: جرى كل ذلك بانطاكية عاصمة سورية في ايام الملك يوليانوس الملقب بالجاحد وكان دوليسيتيوس قنصلاً وسالوستيوس رئيس الحكمة في غابة دفني والمسيح ربنا والهنا ومخلصنا يحكم علينا

اليوم الرابع والعشرون

من تشرين الاول

وفيهِ ترجمة القديس الحارث ملك اليمن

ورفقائهِ الشهداء (١)

كان بين عرب اليمن المعروفين عند المشارقة ببنيَّ حِميَر وعند اليونان بالحِميريّين خلق كثير من النصارى على راس المائة السادسة للمسيح الّا ان اليهودية كان لها ثمة المقام الاعلى وكان ديميون ملك الحِميريين يهودياً وامر انتصافاً لدينهِ المردود من المملكة الرومانية بقتل قافلة التجار الرومانيين الذين كانوا يجتازون مملكتهُ بحسب العادة في ذهابهم للاتجار في الحبشة وهذا الصنيع البربري كان سبباً في ابطال التجارة. فأوغر ذلك صدر ملك الحبشة الملقب باليسبآن وهو لقب حبشي معناهُ مبارك وهو على ما حقق يوحنا اسقف آسيا كان وثنياً فهيجهُ الملك يوستينوس فقاد جيشاً وخاض بحر القلزم وذهب في طلب ديميون ونحرهُ في وقعةٍ ونهب بلادهُ وجعل على عرشهِ ملكاً نصرانياً. وكان قد عاهد الله قبل القتال انهُ يتنصَّر اذا انتصر فأرسل وفاءً بالوعد الى يوستينوس اثنين من اخص اشراف الحبشة في طلب اسقف وجماعةٍ من الاكليريكيين. وبهذا الامر تبيّن ان السلسلة الاكليريكية لم تكن باقية من ايام القديس فرومنتيوس بقاءً غير منقطع. وعلم يوستينوس ذلك من رسائل ليسينيوس حاكم مصر فاباح لذينك الرجلين ان ينتخبا مَن يريانهم ملائمين فاقبلا على بطريرك الاسكندرية الكاثوليكي وكان اسمهُ استيريوس. فرسم البطريرك المشار اليهِ يوحنا اسقفاً على عاصمة الحبشة. واعتمد اليسبآن على يد هذا الحبر هو وشرفاء دولتهِ وهذَّب رعاياهُ وبنى كنائس كثيرة ورجعت النصرانية عما قليل الى آفاق المملكة كلها

اما ملك الحِميريين الجديد فلم يعش طويلاً ولذا استعاد اليهود ما كان لهم من التقدم والوجاهة واغتنموا فصل الشتاء من سنة ٥٢٣ الى سنة ٥٢٤ الذي عاق الحبشة عن ركوب البحر فلم يتمكنوا ان يأتوا وينصبوا ملكاً مسيحيّاً

(١) نُقل من المكتبة الشرقية للعلامة السمعاني مجلد ١ وجه ٣٥٩ — ٣٨٤

آخر. وملك اليهود دونآن رجلاً يهوديًّا وتسلطوا على تلك الناحية كلها واوقعوا بالمسيحيين وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وحوّلوا الكنائس مجامع لهم. ثم قتل دونآن مائتين وثمانين كاهنًا وذبح جميع من بقي من الحبشة بالبلاد

وكان بشمالي اليمن مدينة نصرانية كبيرة عزيزة يُقال لها نجران وكان الحارث صاحبها يؤدي الجزية للملك الحِميريين فذهب دونآن في مائة وعشرين الف رجل يحاصر نجران فهاجها اياما ولم يظفر بالغلبة فعاهد اهلها ان لا يمسهم بضرّ ان فتحوا الابواب. ففتحوا وما دخلها حتى سلب كل ما فيها من الثروة وآثارها واحرق الكنيسة والكهنة ومن كان فيها من المهاجرين واخرج عظام القديس بولس الاسقف الذي قد مات منذ عامين والقاها في المحترق ليسلبها من المؤمنين الانقياء وكل من لم يُرد ان يرتد عن النصرانية أُريقت دماؤهم مع نسائهم واولادهم وامر ان يُرمى بهم الى وهاد نار ملتهبة فلقبهُ العرب برب الحُفر. وكان الملك الحارث يومئذٍ في الخامسة والتسعين من عمره فعُذّب هو وامرأتهُ رحمة وبناتهُ وثلثمائة واربعون من شرفاء نجران وصبروا على العذاب وسفكوا دماءهم شهادةً للنصرانية

وهذا الملك المضطهد نفسهُ أعلمنا بهذه الحوادث بالرسالة التي كتبها الى ملك من ملوك العرب امالة لهُ الى ان يعامل نصارى مملكتهِ مثل هذه المعاملة القبيحة. وقد آثرنا ان نوردها بجملتها بحيث انها شهادة تجرّ للشهداء العرب مجدًا لا مجد وراءهُ. وهذا نص رسالة ملك اليهود الى الملك المنذر

اعلم يا اخي الملك المنذر ان قد مات الملك الذي نصبهُ الحبشة على بلادنا وحيث كان الشتاء قد قرب عجز الحبشة ان يمرّوا ببلادنا ليقيموا ملكًا نصرانيًا على عادتهم فتوليت انا على مملكة الحِميريين كلها. وقبضت اول كل شيء على المسيحيين وهدّدتهم بالقتل ان لم يتهودوا نظيرنا وأمتُّ كل من وجدت منهم والمائتين والثمانين كاهنًا. وقتلتُ معهم الحبشة الذين كانوا على خدمة الكنيسة وحولت بِيَعهم مجامع لنا

ثم خرجت الى نجران عاصمة مملكتهم في مائة وعشرين الف رجل وخيمت امامها وحاصرتها اياما ولم تسلم فوعدتهم بقسمٍ ان لا اقتلهم ولكن بنية ان لا اتم وعدًا وعدتهُ اعدائي. ولما فتحوا المدينة امرتُ ان يأتوا بما عندهم من الذهب والفضة وكل آثار الغنى فجاءوا بهِ فاستحوذت عليهِ. ثم سألت عن بولس اسقفهم فاخبروني واكدوا انهُ توفي على اني ما صدقتهم حتى اروني ضريحهُ فأخرجتُ منهُ العظام وأحرقتها. واما كنائسهم وكهنتهم ومن عندهم من المهاجرين فقد جعلتهم طعام النار. والباقون فاكرهتهم ان يكفروا بالمسيح والصليب ولكنهم ابوا معترفين بان المسيح هو الله وابن الله المبارك قائلين ان الموت المحتمل لاجل ذلك افضل من الحياة. ولاسيما ملكهم فانهُ اسهب في المقال ولم يهب ان يقذفني بالشتائم. فامرت بكل اولئك العظماء فاقتيدوا الى العذاب

واما النساء فاغريناهنّ ان يعتبرنَ بسوء نصيب ازواجهنّ ويقبلنَ ديانتنا إن اردنَ النجاة باولادهنّ. لكنهنّ اعرضنَ عن حثنا وتكدرنَ عكس المظنون اذ علمنَ بذلك من العذارى اللواتي قضينا عليهنّ بالموت ووثبنَ الى ما بينهنّ اسيفات على فرقة رجالهنّ

ولما هلكنَ بالعذاب الاخير ظننا ان من الواجب ان نرسل رحمة قرينة الملك المنوّه بهِ لنرى أهي منعطفة شفقة على بناتها فترتدّ عن النصرانية لتتهوّد ونستعوض بناتها واموالها وكل ما عندها من آثار الثروة والحظ. لكنها مذ خرجت من بيننا ازاحت البرقع عن راسها وكشفت وجهها وتقدمت علانيةً امام الناس فأخذهم الذهول لان احدًا لم يكن ابصر محيّاها مكشوفًا منذ شبت وطفقت تركض في الازقة وساحات المدينة وتهتف بما نصهُ

يا نساء نجران صواحبي مسيحيات ويهوديات ووثنيات أصخنَ اليّ تدرين انني نصرانية وتعرفنَ عشيرتي واسلافي وان عندي مقدارًا وافرًا من الذهب والفضة وميراثًا كثيرًا وجماعةً من العبيد وان زوجي مات من اجل المسيح. فاذا اردتُ ان أتزوج بآخر فانا قادرة فضلاً عن الثروة التي اخذتها من مهرٍ مبلغهُ اربعون الف دينارًا مع كميَّة تكاد لاتحصى من الجواهر واللآلئ والثياب الثمينة. وانتنّ على يقينٍ ان ذلك ليس تكثرًا كاذبًا ولا يخفى عليكنّ ايضًا ان اسعد أيام المرأة يوم الزفاف ثم تأتيها اتعاب الولادة وآلامها وغموم لفقد الاولاد التي لاتقبل السلوى. فازمعت ان اتخلص من كل ذلك فقد عشت في زواجي الاول اهنأ عيشة وبمثل ما اشرت اليوم من السرور اخطب واخصص بناتي الخمس ليسوع المسيح

فانظرنَ يا حبائبي والحظنَ صاحبتكنَ تتقدم الى الزواج مرةً ثانيةً اما في المرة الاولى فرأيتنَّ الاحتفال الزاهر وشاهدتنَّ الافراح كلها يوم دخلت منزل رجلي الاول . وانا مبادرةٌ هذا اليوم نفسهِ ان اصل الى المسيح ربي وعروسي وكذا بناتي لان المسيح نفسهُ نزل من السماء حبًّا بنا ومات من اجل خلاصنا . فاقتدينَ بي ولا تضللنَ لجمال زائل . فما انا بأقلَّ منكنَّ جمالاً ولكن هذا الجمال بعينهِ أُقدّمهُ للمسيح بجملتهِ منزهًا عن خيانة اليهودية حتى ان جمال هذا المحيَّا يبرهن لربي انهُ عجز عن ان يجرَّ لي الكفر . هذا ومن وجهٍ آخر انَّ الذهب والفضة وكل انواع الثروة تبرهن ان لاشيء اعزّ منهُ تعالى . لان هذا الملك عدوي وعدني بالحياة والطمانينة ان كفرتُ بالمسيح فوقاني الله من ذلك . نعم ان الله صانني من ان اكفر الان بالمسيح وقد آمنت بهِ يوم اعتمدتُ وكذا بناتي باسم الثالوث الاقدس فعزمنا معًا ان نسجد لصليب المسيح ونذوق الموت من اجلهِ لانهُ هو نفسهُ ذاق من اجلنا العذاب وموت الجسد . وهذا هو السبب في ان هذه الاشياء الزائلة ولو انها الى حين تفتن النظر وتملق الاجسام لكن آخرتها الهلاك فاتركها كلها من تلقاء نفسي لآخذ من الرب الثروة الباقية الابدية . واهًا لكنَّ اذا انقدتنَّ لكلامي واطعتنَّ الحق واحببتنَّ المسيح الذي انا وبناتي نجود بنفوسنا حبًّا بهِ فاذا فعلتنَّ ذلك اضحيتنَّ سعيدات يا صواحبي العزيزات .

والحاصل ان غاية مسوءولي الان السلام وايام طمانينة لشعب الله . ياليت دم اخوتي واخواني الذي أُريق من اجل المسيح في هذه المدينة يكون لها نظير ترس اذا تعلَّقت بالمسيح تعلقًا دائمًا . واني ساخرج بثقةٍ من تلك المدينة التي استمررنا فيها كأننا في خانٍ وقتيٍّ لكن انا وبناتي افتكرنا بالمدينة الابدية التي وجدنا بها العروس الذي تكرّسنا لهُ . فصلّين لاجلي ياصواحبي العزيزات لكي يقبلني المسيح ويغفر لي ذنب بقاءي ثلاثة ايام بعد بعلي

هكذا قالت رحمة واضطربنا من الصراخ الذي انتشر في المدينة فسألنا رُسل الاستكشاف ما داعية هذا النحيب الغريب . فقالوا ان رحمة التي صرخت ذلك الصراخ هيجت خلقًا كثيرًا ولم تجرأ تلك المرأة كل هذه الجرأة الاَّ من تغاضي الحرَس وخطر لنا ان نميتهم لو لم تمل بنا وساطة بعض الانام الى العفو عنهم

ثم رجعت تلك المرأة من المدينة نظير امرأةٍ غضوبٍ مكشوفة الراس مصاحبةً بناتها متزينات بالحِلى كزينة العرس ووصلت الينا بوقاحةٍ وحلَّت عند ذلك شعورهنَّ وامسكتها بيدها وقدَّمت عُنقها عاطلاً وهي تصرخ نحن نصرانيات نحن نموت من اجل المسيح فاقطعوا روءسنا وابعثونا بسرعةٍ الى اخوتنا واخواتنا وزوجي . قال الملك فانا بعد الغضب بذلت جهدي لاقنعها ان تكفر بالمسيح او على الأقل ان تكف عن القول بانهُ الله لكن ما بلغت الأرب وبضدّ الامل كانت الثانية من بناتها تشتمنا على ما نلقنهنَّ من مثل هذه الامور . حتى اذا ثبت عندي ان لا سبيل الى جرّ تلك المرأة الى جحد المسيح أمرتُ ترويعًا لسائر النصارى ان يُطرَحنَ على الارض وللحال قتلت البنات ثم امهنَّ بحيث انهُ كلما قطع راس واحدةٍ ينبع دمهُ في فمها ثم شربت هي تلك الكاس . فاقسم بالله أدوناءي انهُ حصل لي من ذلك غمةٌ لاتوصف باعتبار فرط جمالها وجمال بناتها

ولما ظهر لكهنتنا ولي ان من الظلم عقاب الاولاد الابرياء مع والديهم المجرمين لان شرائعنا تمنع ذلك امرت بان الغير البالغين يتتلمذون لعساكرنا حتى يصلوا الى تمام البلوغ فان تهوّدوا فنعمّا وان فضّلوا النصرانية اهلكناهم

فظننت ايها الملك ان من واجباتي ان اكتب اليك في هذه الامور لامالتك ان لاتترك نصرانيًا في مملكتك ما لم يرتد عن دينهِ ويتهوَّد . واما اليهود اخوتي فاستمرَّ على مساعدتهم بما تعوَّدوا من التفاتك

وسُلمت رسالة ملك اليهود الى الملك المنذر امام سفير الملك يوستينوس ابرهيم الكاهن الذي كان قد وصل الى معسكر ملك العرب يستعطفهُ حتى يعقد عهد سلام مع المسلمين الذين يوءدون الجزية للمملكة ووقع ذلك عام ٥٢٤ . وكان في صحبة السفير سمعان أُسقف بيت ارسام ببلاد العجم وهذا هدى كثيرًا من المجوس وكتب بغيرة في تخطئة اقوال النساطرة .

وكلما كانا يدنوان من معسكر المنذر كان الوثنيون العرب يقولون لهما ماذا عساكما ان تصنعوا بعد ان مسيحكما طُرد من بلاد الرومانيين والفرس والحميريين فظهرت على ابرهيم وسمعان لوائح الاغتمام من ذلك التوبيخ وزِد على ذلك ان رسول اليهودي ملك الحِميريين كان قد وصل برسالتهِ

فالمنذر الموماُ اليهِ لم يكن ملكًا مسيحيًا ولهذا ارسل اليهِ دوناآن اليهودي خبر الملحمة التي اوقعها بالمسيحيين ودعاهُ

الى ان يتقي على أثره . فلما كان المنذر مستعدًا لذلك جمع جنوده وأمر ان نُقرأ عليهم علانيةً رسالة الملك اليهودي التي اثبتها السفير كلها مشافهةً واضاف عليها كثيرًا من احوال مذبحة المسيحيين وفرارهم من البلاد . فالتفت الملك المنذر حينئذٍ الى النصارى وكان كثيرون منهم متجندين تحت رايته وقال لهم قد سمعتم ما جرى وحُكم على رجال من بدعتكم فكيف لا تكفرون بالمسيح حالاً فلستُ باحسن من اولئك الملوك الذين اصابوا بالقضاء على المسيحيين بالطرد . فعلى الفور قال له بجرأة جنديٌّ نصرانيٌّ من عسكره وهو محترق بنار الغيرة ما تنصّرنا تحت سلطانك ايها الملك حتى نلتزم ان نكفر بالمسيح . فسخط الملك المنذر وقال له كيف تجرأ ان تنطق بمثل هذا امامي . فقال الجندي متى مسّت الحاجة الى ان اتكلم من اجل التقوى فانا معتاد الاّ اهاب احدًا فلم يسكتني اليوم عن هذه الدعوى خوفٌ من الناس فما سيفي باقصر من سيف غيري وانا مستعدٌّ لكل وبال . فصمت المنذر خائفًا من عشيرة ذلك الشرطي لانها كانت شريفةً نبيهة بين كبراء مملكتهِ ومتميزة بالبسالة

هذا ما علمناهُ من الخبر الذي كتب بهِ الاسقف سمعان وهو في معسكر المنذر الى سمعان آخر رئيس دير غابول يخبرهُ باستشهاد النصارى الحميريين وزاد على الخبر ما يأتي

وارتحلنا من هنالك وبلغنا ارض النعمان اول سبت من الصوم الكبير ولقينا بها سفير ملك الحميريين المتوفى واخبرناهُ بالمذبحة التي اجراها الطاغي اليهودي فارسل على الفور رجلاً نعمانيًّا الى مدينة نجران ليخبر بجهد العناية كل ما وقع ثمة . ولم تمرَّ الاّ بضعة ايام حتى اخبر الرسول ذلك السفير ما كنّا قصصناه عليهِ آنفًا وزاد على ذلك ان ثلثمائة واربعين من اجلّ الاعيان قُتلوا في تلك الاثناء . هذا فضلاً عن ان الطاغي اليهودي شتم ملكهم الحارث بن غالب وزوج رحمة بما منطوقهُ

ارأيت الى اين قادك ايمانك بالمسيح مريدًا ان تحاربني أفق من ضلالك واجحد المسيح وافتكر في شيخوختك مخافة ان ينالك من العقاب ما نال رفقاءك . فاجاب الحارث اني أتشكى تشكيًا محقًّا حيث لم يسمعوا لنصائحي فقد اوصيتهم ان لا يثقوا بكلامك البتة بل يلبثوا بالمدينة ويعوّلوا على المحاربة بالسلاح لا بالكلام فان المسيح سينهي عن هذا الحرب بالاوجه الذي نتمناهُ وان تلك المدينة لا تُغلب ابدًا ولاسيما مع كثرة ما فيها من كل شيء . لكنهم جزموا بوجه آخر واغترّوا بحِيَلك ولذا احكم انك غير جدير ان تُسمى ملكًا واطلق عليك بالاولى اسم مكار . فان الملوك وقد رأيت جماعةً منهم يحفظون العهود ويرعون الذمم ويكرهون الخديعة والمكر . هذا وعلى كل شيء فانا لا ارتد عن النصرانية ولن اكون يومًا يهوديًّا كافرًا بالمسيح نظيرك . واعلم يقينًا ان في يدي ان اعيش وافرّ من الموت ولكنني قد حييت حياةً كافية فاترك كثيرًا من الاولاد والحفدة وسائر الانسباء وحصّلت اشتهارًا عظيمًا في حالتي السلم والحرب . واما في المستقبل فلي رجاء غير مشكوك لكن محقق فكما ان الكرمة اذ يقلّم ما زاد من اغصانها تأتي بعنب كثيرٍ كذلك شعبنا المسيحي يكثر عددًا في هذه المدينة وستُبنى الكنيسة التي احرقتها ولكن باظرف مما كانت وتنمو فيها النصرانية وتحكم وتتسلط على الملوك فيما ان بدعة اليهود تستتر تحت الظلام ومُلكك يبيد وسلطانك يزول . فدع عنك التخيل ولا تظننّ انك صنعتَ امرًا كبيرًا . فبينما يظهر لك انك مشرق في اسمى مجدك اذا بالكسوف يمحو اشراق مجدك بغتةً

وهذا ما نطق بهِ الشيخ الكبير الجليل الحارث وهو ابن خمس وتسعين سنة . ثم التفت نحو النصارى المحدقين به وخاطبهم هكذا قال . أسمعتم يا اخوتي ما قلت لهذا اليهودي قالوا نعم يا ابانا . قال أحقٌّ ذلك ام لا . قالوا حقٌّ لا ريب فيهِ . قال ان كان فيكم من يحملهُ الخوف على انكار المسيح فليبتعد حالاً . فصاحوا كلهم وقانا الله من الخوف يا ابانا وكلنا عازمون ان نموت معك من اجل المسيح ومصممون ان لا ننفصل عنك . فالتفت عند ذلك الى الجم الغفير المحيط بهِ من نصارى ويهود وعبدة أصنام وقال لهم . اسمعوا يا جميع الحاضرين هنا انهُ اذا احدٌ من عيلتي او من عشيرتي انفصل عن المسيح ليتصل بهذا اليهودي فانكر قرابتهُ لي واحرمهُ من ميراثي واريد ان اموالي تُنفق في بناء الكنيسة ولكن ان احد من اقاربي ثبت على الايمان بالمسيح وعاش من بعدي فاقيمهُ خلفًا لي على اموالي واجعلهُ وريثي واما الكنيسة فتتخير ما تريد من الحقول الثلاثة التي ورثتها عن ابي

وبعد ان فرغ من كلامهِ هذا التفت الى الملك قائلاً . انت وانتم جميع الذين كفروا بالمسيح انكركم وانبذكم . وها نحن

مستسلمون لقدرتك . فتحرك باقي المسيحيين من كلام الحارث وقالوا ها ان ابرهيم ملك الاباء ينتظرك وايانا وهو مستعدٌّ لان يقبلنا معك فكل مَن تركك وجحد المسيح كفرنا بهِ اجمعون

وتلهب ذلك الطاغي سخطًا وقضى عليهم جميعًا بالموت وأمر بهم فاقتيدوا الى موضع العذاب وضُربت اعناقهم على جانب سيل وطُرحت جثثهم في الامواج الآن الحارث رفع يديهِ الى السماء وصلى قائلاً ايها المسيح الهي اعنّا وثبتنا واقبل نفوسنا واقبل دم خدامك المهراق من اجلك واهلنا لان نراك واعترف بنا امام ابيك كما وعدتنا وأذن في بناء هذه الكنيسة وان يخلف خادمك الذي احرقت النار عظامهُ اسقف آخر. وبعد ان قبَّلوا بعضهم بعضًا قبلة السلام وباركهم الحارث بعلامة الصليب اتلع عُنقهُ الى السياف فقطعهُ وعلى الفور بادر رفقاؤُهُ مسرعين حتى مشى بعضهم فوق بعض وتلطخوا بدم الحارث الذي كان لم يزل ينبع وكلهم تكللوا باكليل الاستشهاد

وكان ولد صغير ابن ثلاث سنين او اربع تقودهُ امهُ بيدها وهي منطلقة الى المقتل ولما لمح الولد الملك جالسًا على عرشهِ متوشحًا بحلتهِ الملكية ذهب من جنب أُمهِ وركض اليهِ وقبَّل ركبتيهِ فسبى الولد بسذاجتهِ عقل الملك فجعل يقبلهُ وقال لهُ اخيرًا ايها الولد حبيبي اي الامرين تختار الموت مع امك ام الحياة معي . فقال الولد والمسيح ربنا اني اختار الموت مع والدتي ولهذا صاحبتها لانها قالت لي هلمَّ يا بنيَّ نمت حبًا بالمسيح فارجوك ان تخلّيني اركض الى امي مخافة ان لا أَراها تموت فقد اعلمتني ان ملك اليهود امر بإبادة جميع الذين يأبون الكفر بالمسيح فانا لا أُريد ان اكفر بالمسيح . قال الملك من اين عرفت المسيح . قال الولد كنت اذهب مع امي الى الكنيسة كل يوم وأَراهُ هناك . قال الملك من تحب أَإياي ام أُمك . قال الولد امي . قال الملك من تحب أَإياي ام المسيح . قال احب المسيح اكثر منك . قال الملك لماذا ركضت الى هنا منذ قليل ولثمت ركبتي . قال الولد كنت اظنك الملك النصراني الذي رأَيتهُ في الكنيسة ولم اكن اعرف الى الان انك يهودي . قال الملك ساعطيك جوزًا وتينًا. قال الولد والمسيح ربنا لن آكل جوز اليهود لكن خلّني اذهب الى امي . قال الملك الاولى بك ان تلبث معي وتكون ابني . فصاح الولد كلاَّ والمسيح ربنا لست البث معك لان رائحتك خبيثة وليست كرائحة امي طيبة

فقال الملك للحاضرين أَرأَيتم هذه الذريَّة الرديئة التي خدعها المسيح من الصغر ليهلكهم . فقال مع ذلك للولد واحدٌ من الاكابر هلمَّ معي فاذهب بك الى الملكة لتكون لها ابنًا. قال الولد ما أَجدر فاك باللطم ماذا تقول عن الملكة فانا أُحبُّ عليها امي التي تذهب بي الى الكنيسة . ولما احسَّ الولد آخر الامر ان الملك يمسكهُ رغمًا عنهُ جعل يعضُّ فخذهُ صارخًا ايها اليهودي الشرير دعني اذهب الى امي واموت معها . فسلمهُ الملك اخيرًا الى واحدٍ من العظماء وامرهُ ان يعتني بتربيتهِ حتى اذا بلغ اما ان يكفر بالمسيح لينجو من العذاب او يحكم بقتلهِ اذا استمرَّ على الايمان بهِ . وفيما كان الخادم يقتادهُ كان يضربهُ بكل قوتهِ ويدعو امهُ صارخًا يا امي ساعديني خذيني واذهبي بي الى الكنيسة . فقالت امهُ اذهب الآن يا ابني واعلم ان امرك مفوَّض الى المسيح ولا تبكِ لكن انتظرني لدى المسيح في الكنيسة فاني قادمة عليك . ولما نطقت بذلك مدَّت عُنقها الى السياف فقطعهُ بالسيف

ولما عُرفت هذه الامور بالرسائل والاخبار الشائعة كما روى الاسقف سمعان اغتمَّ من جرى ذلك نصارى تلك البلاد كافة . فظننا نحن ان لا بدَّ لنا من ان نكاتبكم فيها حتى ان الصلحاء والاحبار المؤْمنين حين يبلغهم ما وقع من الظلم في بلاد الحِميريين يقيمون ذكرًا الشهداء . وانا نناشدكم الله بما بيننا من المحبة ان تبلغوا كل ذلك باقرب ما يمكن الى روءساء الاديار والاساقفة خصوصًا بطريرك اسكندرية كي يحرّض ملك الحبشة ان يجيء الى اغاثة الحِميريين. وابذلوا الجهد على الزام مَن بطبرية من أَحبار اليهود ان يكاتبوا ذلك الملك اليهودي في ان يكف عن محاربة الحِميريين واضطهادهم

لما علم الملك يوستينوس بذبحة المسيحيين ببلاد الحِميريين كتب من ساعتهِ الى استيريوس بطريرك اسكندرية ان يحرّض ملك الحبشة ان يقدم لمساعدتهم . ولما كان الربيع خرج اليسبان ملك الحبشة امام جيش غفير واجتاز البحر رغمًا عن مصاب سفرهِ الصعب ومشى الى ملاقاة ذونوآس وبدَّد اليهود ومزَّق شملهم وكانوا ثلاثين الف مقاتل متدججين بكل أَنواع الاسلحة يمنعونهُ من دخول

بلادهم وسار رأساً الى نافار عاصمة البلاد وكان اسمها عند العرب قديماً زافار وسوفر في سفر التكوين . وغنم كل ما بها من المال وآثار الثروة واسر الملكة وابقى في تلك المدينة فرقة من الجيش وخرج على دوناآن وكسر جنوده في معركة شديدة طويلة المدة ونحره وكل ذوي قرابته . وعاد من بعد هذا الانتصار الى مدينة نافار وقضى فيها بالموت على كل من لقيهم بالقصر الملكي وعلى الذين كانوا يحامون عن الملك اليهودي الاثيم . وبنى هناك كنيسة ووضع بيده أسسها . ثم كتب الى استيريوس بطريرك الاسكندرية يخبره بما آتاه الله من النصر المبين وهذا رفع ذلك الخبر من ساعته الى الملك يوستينوس وبعث الى بلاد الحميريين باسقف لكي يؤيد النصرانية التي عادت اليها من قليل احمد عودة . واما ذلك الاسقف فهو القديس غريجنتيوس فهذا كرّس الكنيسة التي اسسها الملك وعمد جميع الحميريين من اهل المدينة والقرى ورسم كهنة وشمامسة واثبت ما كان بالبلاد من الكنائس

ثم انطلق اليسبان الى مدينة الشهداء وبنى هنالك بيعة وجمع اليها عظام من ماتوا في سبيل الايمان وجعل لها حق المأوى وعيّن لنفقته دخل خمس قرايا من الارض الملكية وضمّ الى ذلك جزءاً من أموال الحارث الشهيد الذي كان ابنه متولياً عليها بسلطان ابيه . ثم رجع الى العاصمة واشتغل بترتيب حالة الحميريين وولى عليهم رجلاً مسيحياً منهم واسم ذلك الرجل ازيميفي وضرب عليه جزية سنوية وابقى عنده للمحافظة فرقة مؤلفة من عشرة الآف جندي من نصارى بلاد الحبشة واغترّ كثيرون من الحبشة بجودة البلاد فاستوطنوا بين الحميريين (١)

(١) حاشية . ارتأى بعض المؤرخين انه لما رجع الملك اليسبان الى مملكته اعتزل عن الملك والراجح عند جمهور المؤرخين انه ملك في عاصمة الحبشة اعواماً بعد الحرب التي مرّ ذكرها وزهد اخيراً هذا الملك الصالح في الدنيا وترك الحكم لابنه الذي ورث غيرة ابيه وتقواه . وارسل تاجه الى اورشليم ثم تنكر وخرج من المدينة ليلاً وانطلق الى دير على جبل قفر ولم يستصحب الا كأساً ليشرب وحصيرة للرقاد . ولم يعد يأكل مذ ذاك الحين الا الخبز وكان يضمّ اليه من وقت الى آخر بعض اعشاب نيئة واقتصر عن شرب الماء الصرف واراد ان يعامل كسائر الاخوة الرهبان وكان دائماً الاول في الرياضات المختلفة وجفا كل اهل الدنيا لكي ينقطع للصلاة والتامل . و يذكر السنكسار الروماني اسمه في اليوم السابع والعشرين من هذا الشهر

اما ذلك الولد الصغير الذي قاوم بشجاعة ملك الحميريين اليهودي فقد اعلمنا بعاقبة تاريخه البطريرك يعقوب دينيوسيوس من معاصريه . قال : لما ذبح الحبشة ملك اليهود افلت الولد من القتل الذي كان موعوداً به وبما ان خبره كان قد نمى الى الملك النصراني الذي جلس على العرش استدعاه الى قصره وربّاه حتى بلغ مبلغ الرجال واحتضنه حينئذٍ كشهيد المسيح وجعله رئيس الشرفاء واراد ان يشركه في مشوراته السرية . وكان الولد دعا نفسه يزار ثم بعث به الملك سفيراً له لدى الملك يوستينيانوس وكان لنا معه علاقة من زمان طويل واخصّ ما تعجبنا منه صلاح نيته وحلمه وتواضعه وسلامة سريرته وكل هذه الاوصاف كانت تظهر حتى على وجهه . ذلك فضلاً عن تقواه الدائمة وارتفاع عقله المتصل الى الله لانه من لدن الصبح الى المساء كان يزور كنائس العاصمة مصلّياً ومتصدقاً على الفقراء بما كان يعطيه اياه الملك . وكان يصوم كل يوم حتى المساء واخيراً حيث ان الناس طرّاً تعجبوا من استقامة هذا الرجل وقالوا فيه تارة شيئاً وتارة آخر اتصلوا الى ان عرفوا انه هو ذلك الطفل الذي قاوم الملك اليهودي وكفر بمذهبه وشتمه وعضّ فخذه ـ واما هو فقد شقّ عليه اشتهار هذه الامور ولا يزال مجتهداً في الفرار من المدح

ان السنكسار الروماني يذكر اولئك الشهداء في اليوم الرابع والعشرين من تشرين الاول واضاف اليهم امرأة مع طفلها الذي كان له من العمر خمس سنين لا غير وكان يعترف بالمسيح بحسب ما استطاع من الكلام وبالفعل ايضاً اذ طرح نفسه مع والدته في لهيب النار المضطرمة ولم يقوَ احدٌ ان يمنعه عن ذلك

فهرس الكتاب

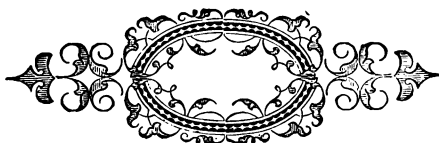
شهر اذار

شهر نيسان

شهر ايار

شهر حزيران

شهر تموز

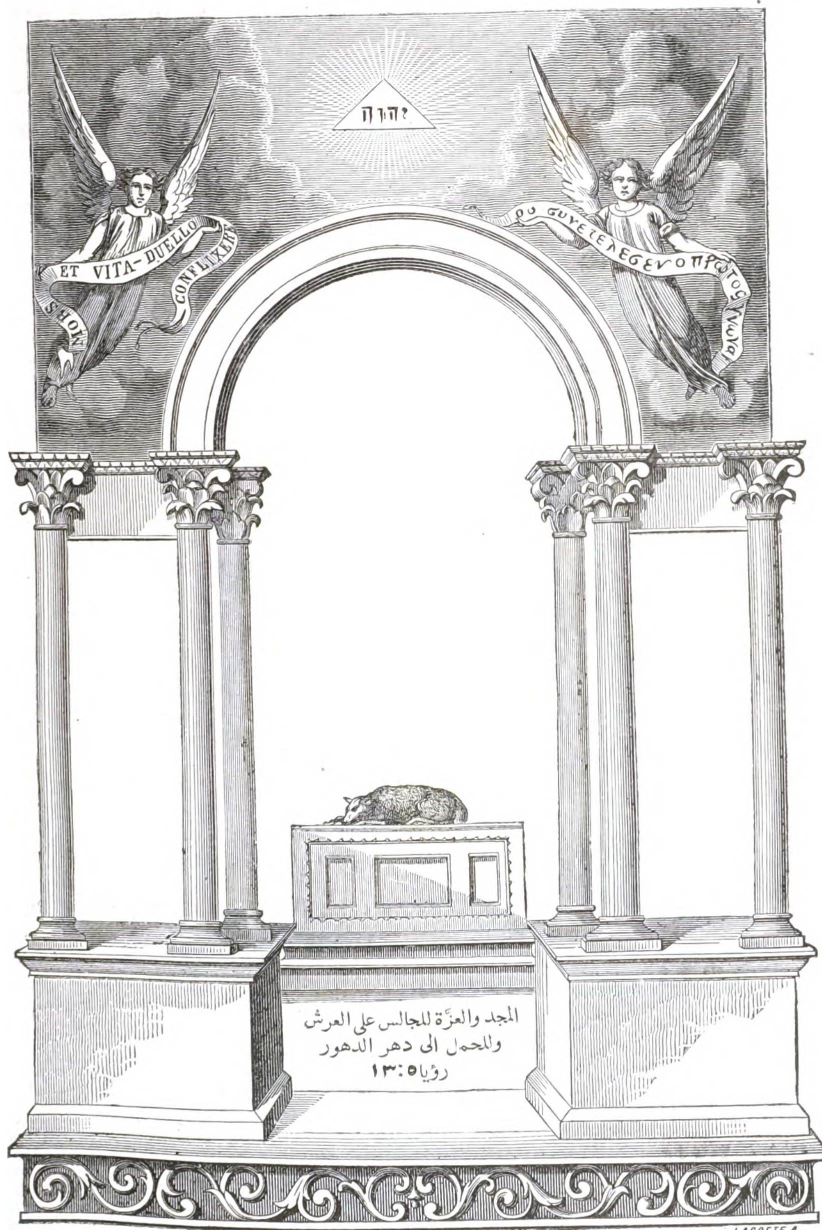


فهرس الكتاب بحسب حروف الهجاء

حرف الالف

حرف الباء

فهرس الملحق


יהוה
MORS ET VITA DUELLO CONFLIXERE
المجد والعزّة للجالس على العرش
وللحمل الى دهر الدهور
رؤيا ٥:١٣
J. LACOSTE. A.

